فهـــرس الـعـــدد

دراســات تاريخيــة

الحياة الفكرية والحضارية

المراحِل والأدوار التاريخية

لدولة بني عبدالواد الزيانية

1236 - 1554م

الاستاذ يحيى بوعزيز

أ) ـ نشأة مدينة تلمسان وتطورها التاريخي :

ان لمدينة تلمسان ماضيا تاريخيا هاما اكتسبته من موقعها الجغرافي الممتاز ، ومن كونها كانت عاصمة للمغرب الاوسط (الجزائر) اكثر من ثلاثة قرون ، ازدهر خلالها الفكر ، واخصبت الحضارة ، وتطور العمران ، واستهوت العديد من رجالات الفكر والسياسة والثقافة ، مما جعلها في الاخير مدينة الفن والثقافة والتاريخ ٠

ويتالف اسمها من كلمتين بربريتين هما : « تلم » ومعناها تجمع ، و « سان » ومعناها اثنان ، ومعناهما معا : « تجمع اثنين » ، وهما البر والبحر ، بمعنى انها تجمع بين طبيعة البر والبحر ، لوقوعها في مكان ملائم لذلك ٠ فهي تقع في سفح جبل طرارة ، وتشرف على ساحل بحري يجثم تحت أقدامها وغير بعيد عنها حيث ميناء الغزوات الشهير ٠

ونواة هذه المدينة القديمة قرية « أقــادير » التى اختطها بنو يفرن الزناتيون فى عصور قديمة • وكانت هى والمناطق المجاورة ، منطقة التوطن لقبيلة زناتة الكبيرة ذات الفروع المتعددة ، وثانى القبائل القوية بالمغرب العربى بعد صنهاجة ، وتليها كتامة •

ونظرا لاهمية أقادير هذه ، وجمال موقعها ، نسج السكان حولها أساطير كثـيرة يحكونها عبر التاريخ من ضمنها الاسطورة التى تدعى بأن القرية أزلية الوجود ، وأن الجدار الذى ورد ذكره فى القرآن حول قصة الخضر مع موسى عليهما السلام ، فى قوله تعالى : « **وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة** » ، يوجد بقرب هذه القرية أقادير • وقد أورد ابن خلدون هذه الاسطورة واستبعدها باستهجان مؤكدا أن موسى لم يغادر المشرق الى المغرب وأن بنى اسرائيل لم يصل نفوذهم الى افريقيا (تونس) ، فضلا الى ما وراءها من الاقاليم البعيدة • وانما ذلك ، كما ذكر ابن خلدون ، من قبيل التشيع الذى جبل عليه الناس فى تفضيل وتقديس اوطانهم وبلدانهم •

وكما تعتبر هذه الاسطورة خيالية ، فكذلك لا يصدق القول بأن مؤسسى اقادير هم الرومان لانها اقدم منهم بكثير • والمؤسسون الحقيقيون لها هم بنو يفرن الزناتيون • وقد تحدث عنها ابن الرقيق فى تاريخه مرتين : مرة عند الحديث عن حملة أبى المهاجر دينار الذى ذكر عنه بأنه توغل فى ديار المغرب حتى وصل الى تلمسان وحفر بالقرب منها عيونا اصبحت تدعى باسمه : عيون أبى المهاجر • ومرة أخرى عندما تحدث عن نشاط ابراهيم بن الاغلب والى الزاب ضد الخوارج ، وقال عنه بأنه وصل الى تلمسان ونزل بها •

وهى نفس الحادثة التى تحدث عنها الطبرى عندما استعرض أحـــداث أبى قـــرة اليفرينى الخارجى زعيم بنى يفرن مع أبى حاتم والخوارج • وأبو قرة هذا خارجى المذهب تزعم قومه الذين بايعوه بالخلافة فى منتصف القرن الثانى الهجرى (148 هـ ـ 765 م) ، وشارك فى حصار مدينة طبنة بجبال الحضنة على رأس حوالى اربعين ألفا من الصفرية ضد الوالى عمر بن حفص بن أبى صفرة ، ثم تتبعه الى القيروان ، وحسب رواية ابـن خلدون فانه حاصرها بجيش يتألف من 350 ألف رجل بينهم 85 ألف فارس • وبعـد هذه الحوادث عاد أبو قرة الى اقادير واستقر بها صحبة قومه الذين كانوا اشـد بأسا

وقوة من المغيليين ، وأقل حماسا للمذهب الخارجي باعتبارهم صفرية معتدلين · ويمتد موطن بني يفرن ما بين أقادير وتاهرت ، كما ذكر ابن خلدون ·

وعندما استقر ادريس الاكبر بالمغرب الاقصى اتجه الى اقليم تلمسان ، واستمال اليه الامير محمد بن خزر بن صولات الزناتي ، الذى حمل مغراوة وبنى يفرن على طاعة ادريس ، ومكنه من السيطرة على أقادير ، فاقام بها أشهرا واختط مسجدا ومنبرا · وبعد رحيله استخلف على أقادير واقليمها أخاه سليمان بن عبد الله الذى قدم من المشرق·

وفى خلال ولاية ادريس الثانى الاصغر ، زار أقادير عام (179 هـ ــ 795 م) وأقام بها ثلاث سنوات ، اخضع خلالها قبائل زناتة ، وأصلح مسجد القريـــة ، ومنبرها · وبعد رحيله استخلف عليها ابن عمه محمد بن سليمان ·

وبعد وفاة ادريس الثانى قسمت مملكته بين ابنائه وبنى عمه بوصية من أمـــه كنزة ، وكانت مدينة أقادير من نصيب عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان ، بينما كانت ضواحيها وأحوازها من نصيب محمد بن سليمان الادريسى ·

وعندما انقرضت دولة الادارسة بالمغرب الاقصى ظهر موسى بن أبى العافية الشيعى ، وغزا أقادير عام 219 هـ (834 م) وتغلب على أميرها الحسن الادريسى الذى اضطـــر الى الفرار الى مليلية وتحصن بها مدة · وقاوم ابن أبى العافية وأمراء الشيعة ، أعقــاب الادارسة فى أقادير ومنطقتها ، فمالوا الى الامويين وشايعوهم ، وتغلب يعلى بن محمد ابن صالح اليفرينى ، على بلاد زناتة والمغرب الاوسط · وعقد له الخليفة الامـــوى عبد الرحمن الناصر فاغتنم هذه الفرصة ووسع نفوذه حتى شمل وهران وتاهرت · وأصبح يمتد بين تاهرت وطانجة حوالى عام 340 هـ (854 م) ·

ولم يزل سلطان يعلى وبنوه يقوى ويتوسع حتى قامت الدولة الفاطمية ، فغـــزت أقادير والمغرب ، وقضت عليهم وقتل جوهر الصقلى ، يعلى فورا ، ولكن الابناء استطاعوا أن يبعثوا امارة اجدادهم من جديد بفاس ، ثم بسلا بالمغرب الاقصى · وقد تحارب أمير أقادير محمد بن الخير بن محمد بن خزر ، داعية المستنصر ، مدة طويلة مع أمراء صنهاجة ورثاء الفاطميين الذين انتقلوا الى مصر ، الى ان قتل · فدخلت أقـــادير تحت حكـــم

الصنهاجيين مدة من الزمن ، الى أن ظهر زيرى بن عطية الصنهاجى بالمغرب الاقصى ، فاستبد بها على اثر انقسام دولة صنهاجة · وغزاها المنصور بن بلكين بن زيرى ، وأولى عليها ابنه يعلى بن زيرى من آل خزر اليفرنيين · وعاشت أقادير عهدا من الاضطرابات نتيجة لهذه الحروب بين الحماديين الصنهاجيين وأمراء المدينة اليفرينيين ·

وقد مدت الدولة المرابطية سلطتها الى أقادير واقليمها ، وعين الامير يوسف بن تاشفين على أقادير محمد بن تينعمر المسوفى ، ثم أخاه تاشفين من بعده ، وواجهت أقادير خلال عهدهما حروبا واضطرابات بين أمرائها، وأمراء قلعة بنى حماد، خاصة المنصور بن الناصر الحمادى مما ادى الى انقراض امارة مغراوة من أقادير ·

وخلال حكم محمد بن تينعمر المسوفى على أقادير ، أسس قرية « تاكرارت » بالمكان الذى عسكر فيه ، ومعناها : المحلة ، أو المعسكر ، وكانت فى بداية الامر هذه « المحلة » مفصولة بسور عن أقادير ، ثم بعد مدة من الزمن أزيل هذا السور ، وضمت تاكرارت الى أقادير ، وتكونت منهما مدينة واحدة هى مدينة تلمسان الحالية ·

بقيت تلمسان تحت حكم المرابطين حتى قامت دولة الموحدين على انقاضها ، وقـــام عبد المؤمن بن على بغزو مدينة تلمسان عام 540 هـ (1145م) بعد ان سيطر على وهران ، وقضى على الامير المرابطى بها تاشفين بن على ، وقد احدث عبد المؤمن بتلمسان تخريبا فى عمرانها ، وتقتيلا فى سكانها الذين رفضوا فى البداية الخضوع له وتسليم المدينة اليه · وبعد مدة شعر عبد المؤمن بالجرم الذى ارتكبه نحوها فعمل على استصلاح مـا خربـــه ، واستجلب البنائين من الاماكن البعيدة فاحيوا ما اندثر منها وتخرب من العمران ، ورمموا أسوارها ، ثم عين عبد المؤمن عليها سليمان بن وانودين من مشايخ هنتاته وأخايـــير الموحدين · ومن بعده أبنه أبا حفص ومن جاء فى عقبه ·

وشهدت تلمسان خلال عهد الموحدين تطورا هائلا فى الحضارة والعمران ، وبـــرز فيها من الزناتيين بنو عبد الواد ، وبنو توجين ، وبنو راشد الذين تغلبوا عـلى ضواحيها والمغرب الاوسط ، وملكوها ، وتقلبوا فى بسائطها واحتازوا بأقطاع الدولة ، كما قـال ابن خلدون ، الكثير من أرضها والطيب من بلادها ، والوافر للجباية من قبائلها · فاذا

خرجوا الى مشاتيهم بالصحراء خلفوا اتباعهم وحاشيتهم بالتلول لاعتمار أرضهم وازدراع قوتهم وجباية الخراج من رعاياهم • وكان بنو عبد الواد من ذلك فيها بين البطحاء وملوية ساحله ، وريغة وصحراوة • وصرف ولاة الموحدين السادة نظرهم واهتماماتهم بشأنها الى تحصينها وتشييد أسوارها ، وحشد الناس الى عمرانها والتناغي فى عمرانها واتخاذ الصروح والقصور بها والاحتفال فى مقاصد الملك واتساع خطة الدور •

وقد شيد بها الامير أبو عمران موسى بن يوسف بن تاشفين عندما تولى امارتها عام 556هـ (1261م) عددا من الابنية ، ووسع عمرانها وأحاط اسوارها بسياج متين ، وعلى غراره فعل أبو الحسن بن ابى حفص بن عبد المؤمن خاصة بعد أن ظهر الثائر الميورقى يحيى بن غانية عام 581هـ (1185م) واكتسح المغرب الاوسط ابتداء من بجاية ، وهدد عدة مرات تلمسان واحدث بها تخريبات كثيرة ، هو ومن معه من عرب بنى هلال •

ومن أجل ذلك اهتم ابو الحسن بتحصينها حتى اصبحت كما قال ابن خلدون من أعز معاقل المغرب ، وأحصن أمصاره ، وأصبح الناس يفدون عليها من كل جهة للاحتماء بها والتمتع بالتطور التاريخى والحضارى الذى تنعم به خاصة بعد أن خرب ابن غانية مدينة تاهرت الداخلية ، ومدينة ارشكول الساحلية ، فاصبحت هى قبلة الجميع ، ومهد ذلك لبنى عبد الواد ليتخذوها عاصمة لهم ودار ملك منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى •

وقد وصفها ابن خلدون خلال عهدهم فقال : « فاختطوا (بنو زيان) بها القصور المونقة والمنازل الجميلة ، واغترسوا الرياض والبساتين ، وأجروا خلالها المياه ، فاصبحت أعظم امصار المغرب ، ورحل اليها الناس من القاصية ، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع فنشأ بها العلماء ، واشتهر بها الاعلام ، وظاهت امصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية •

وقال عنها البكرى : هى مدينة المغرب الاوسط ، ودار ملك زناتة ، ومتوسطة قبائل البربر ، ومقصد تجار الآفاق ، بها أسواق ومساجد ، ومسجد جامع ، وأشجار وأنهار ، وكان الاول قد جلبوا اليها ماء من عيون تسمى اللوريط بينها وبين المدينة ستة أميال ،

ولها خمسة أبواب : فى القبلة باب الحمام ، وباب وهب ، وباب الحـوخة • وفى الشرق باب العقبة ، وفى الغرب باب أبى قرة ، وفيها للاول آثار قديمة وأكثر ما يوجد الركاز بتلك الآثـار •

أما محمد العبدرى فقد وصفها فى رحلته قائلا : « تلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية ، جميلة المنظر ، مقسومة باثنين بينهما سور ، ولها جامع عجيب مليح متسع ، وبها أسواق قائمة ، وأهلها ذوو ليانة • والدائر بالبلد كله مغروس بالكرم ، وأنواع الثمار ، وسوره من أوثق الاسوار وأصحها • وبها حمامات نظيفة اشهرها حمام العالية قل ان يرى لــه نظير وبالجملة هى ذات منظر ومخبر ، وانظار متسعة ، ومبانيها مرتفعة •

وهكذا ذكر لها أيضا يحيى ابن خلدون خمسة أبواب هى : قبلة : باب الجياد ، وشرقا باب العقبة ، وشمالا باب الحلوى ، وباب القرمدين ، وغربا باب كشوط • وهى مؤلفـة من مدينتين ضمهما سور واحد احداهما أقادير والاخرى تاكرارت ، وهى الآن أكبر واشهر من الاولى • والجامع الاعظم وقصور الملك ، ونفيس العقار بها والناس اليها أميل وبهـا أشد عناية •

وبالغ أبو الفداء فذكر لها ثلاثة عشر بابا ، واطنب لسان الدين بن الخطيب فى وصفها قائلا : « تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت فى موضع شريف كانها ملك على رأسه تاجه ، وحواليه من الدوحات حشمه ، وأعلاجه عبادها يدها ، وكهفهـا كفها ، وزينتها زيانها ، وعينها أعيانها ، هواها المقصور بها فريد ، وهواؤها المـمدود صحيح عتيد • وماؤها برود صريد حجبتها أيدى القدرة عن الجنوب ، فلا نحــول بهــا ولا شحوب ، خزانة زرع ومرج ضرع ، فواكهها عديدة الانواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع، وبرانسها رقاق رقاع ••• » •

ومن شعر شاعرها التلمساني الفحل ، محمد بن خميس قوله :

تلمسان لو أن الزمان بهـا يسخـو منى النفس لا دار السـلام ولا الكرخ

ب) ـ آثار مدينة تلمسان التاريخية :

تزخر مدينة تلمسان بآثار تاريخية هائلة ما تزال حتى اليوم تحكى عن عظمة هـذه المدينة الفكرية والحضارية والعمرانية • ومن أهمها :

ـ قلعة المشور التى قاومت صروف الدهر قرونا ، وتتوسط المدينة كالطود الشامخ ، أنشأها الموحدون بعد سيطرتهم على المدينة فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وبداخلهـا دور للسكنى ، ومسجد جامع جميل •

ـ والمسجد الاعظم الذى أمر ببنائه الامير المرابطى على بن يوسف بن تاشفين ، وشيد منارته فيما بعد الامير ياغمراسن مؤسس الدولة الزيانية فى القرن الثالث عشر الميلادى•

ـ ومسجد أبى الحسـن بن يخلف التنسى الذى كان يـدرس بتلمسان أيـام أبى سعيد سنة 1279 ، وهو اليوم متحف للفن الاسلامى للمدينة والمنطقة •

ـ ومسجد سيدى الحلوى أبى عبد الله الشوذى قاضى اشبيلية سابقا ، الذى لقب بالحلوى عندما استقر بتلمسان • وقد شيد هذا المسجد ابو عنان فارس المرينى عـام 754هـ (1353م) •

ـ ومسجد ومدرسة الشيخ شعيب أبى مدين الغوث بحيى العباد الاثرى الذى تبدو منارته من بعيد لكل زائر لمدينة تلمسان ، وقد شيدت المدرسة عام 1374 ، وتمثـل هى والمسجد طرازا جميلا للعمران العربى الاسلامى بالمدينة •

خـرائب مدينـة المنصـورة :

على ان أهم آثار تلمسان التاريخية بروزا ، هى خرائب مدينة المنصورة التى أسسها السلطان المرينى يوسف بن يعقوب كمعسكر لقواته التى فرضت الحصار على مدينـة تلمسان أكثر من ثمانى سنوات • وقصة المنصورة هذه ذات شبه كبير بقصة حصـار طروادة الاغريقية الشهير الذى دام عشر سنوات ، وهذا ما يستلزم الوقوف عندها قليلا، والتعرض لكيفية انشائها •

لقد كان السلطان المرينى السابق شديد الطمع فى السيطرة على تلمسان واقليمها ، وذلك بسبب الخصومة الشديدة التى كانت بين العرش المرينى ، والعرش الزيانى ، ولكى

يحقق يوسف المرينى اطماعه أبرم صلحا مع بعض ملوك النصارى بالاندلس ، ومع امراء بنى الاحمر بغرناطة ، وتنازل لهم عن بعض الثغور الاندلسية التى كان يسيطر عليها هناك . ثم التفت الى منازلة تلمسان الزيانية ، وشن عليها وعلى الاقليم كله ، أربع غارات وحروب فى سنوات : 689هـ (1290م) و 695هـ (1296م) و 696هـ (1297م) و 697هـ (1298م) ، واحدث بها تخريبا فى العمران ، والمزارع ، واتلافا فى المحصولات، والحيوانات ، ولكنه لم يستطع ان يتوصل الى بغيته فى احتلال تلمسان ، لان عثمان بن ياغمراسن كان فى كل مرة يبذل الجهد والنفيس مع السكان ، فى مواجهة هذا الغزو المرينى . ولم يفد المرينيين احتلالهم لندرومة ، وتعاون بعض السكان معهم كالمطغريين ، وبنى سلامة .

ونتيجة لصمود تلمسان وتصديها للمقاومة والاستبسال ، فكر يوسف بن يعقوب المرينى فى فرض حصار طويل عليها حتى ترضخ وتستسلم ، ولكى يسهل هذا الحصار ، وياتى بنتيجة فكر فى انشاء معسكر كبير لقواته تستقر به خلال الحصار وتجد كل ما تحتاجه من المؤن ، ولا تضطر للعودة الى المغرب ، وفى شعبان عام 698هـ (1299م) أرسل السلطان المرينى يوسف جيشا جرارا ضد تلمسان ، عسكر بالقرب منها وشدد عليها الحصار ، وشرع فى نفس الوقت فى بناء مدينة سماها « المنصورة » تيمنا بتحقيق الانتصار ، ولكن لم يحقق ذلك ، وأصبح اسم « المقهورة » أولى وأجدر بها كما سنرى .

ومما ذكر ابن خلدون عن هذه المدينة قوله : « واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارها ، واتسعت خطة مدينة المنصورة المشيدة عليها ، ورحل اليها التجار بالبضائع من الآفاق ، واستبحرت فى العمران ، بما لم تبلغه مدينة ، وخطب الملوك سلمه ووده ، ووفدت عليه رسل الموحدين وهواياهم من تونس وبجاية وكذلك رسل صاحب مصر والشام هديته واعتزازه ، واعتز اعتزازا لا كفاء له كما ياتى فى اخباره » .

ولقد دام حصار المرينيين لتلمسان من المنصورة ثمانية سنين، وثلاثة أشهر، وصمدت كالطود ، واصبحت بحق طروادة الجزائر التى لا تقهر على عكس طروادة الاغريق التى قهرت بعد عشر سنوات من الحصار . ان طروادة تلمسان قاومت الغزو ثمانى سنين وخرجت منتصرة مظفرة .

ولنفتح المجال لابن خلدون ليحدثنا عما عاناه سكان تلمسان خلال هذا الحصار الطويل ، فقد قال : « واستمر حصارهم (بنو مرين) اياهم (بنى عبد الواد) الى ثمانية سنين وثلاثة أشهر من يوم نزوله ، نالهم فيها من الجهد ما لم ينله أمة من الامم ، واضطروا الى أكل الجيف والقطوط والفئران ، حتى انهم زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس ، وخربوا السقف للوقود، وغلت اسعار الاقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد وعجز وجدهم عنه . فكان ثمن مكيال القمح الذى يسمونه البر شالة ، ويتبايعون به ، مقداره اثنا عشر رطلا ونصف مثقالين ونصف من الذهب العين . وثمن الشخص الواحد من البقر ستين مثقالا ، ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصفا ، واثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال ، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكتهم تكون عشر المثقال، والرطل من الجلد البقرى ميتة أو مذكى بثلاثين درهما ، والهر الداجن بمثقال ونصف ، والكلب بمثله ، والفأر بعشرة دراهم والحية بمثله والدجاجة بثلاثين درهما ، والبيض واحدة بستة دراهم ، والعصافير كذلك ، والاوقية من الزيت باثنى عشر درهما ، ومن السمن بمثلها ، ومن الشحم بعشرين ، ومن الفول بمثلها ، ومن الملح بعشرة ، ومن الحطب كذلك . والاصل الواحد من الكرنب بثلاثة اثمان المثقال ، ومن الخس بعشرين درهما ومن اللفت بخمسة عشر درهما والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهما ، والخيار بثلاثة اثمان الدينار ، والبطيخ بثلاثين درهما ، والحبة من التين والاجاص بدرهمين ، واستهلك الناس أموالهم وموجوداتهم ، وضاقت أحوالهم . وهلك الجند من حامية ياغمراسن وقبيلتهم ، وأشرفوا على الهلاك فاعتزموا على الالقاء باليد والخروج بهم لاستماتته فكيف الله لهم الصنيع الغريب ، ونفس على مخنقهم بهلك السلطان يوسف بن يعقوب على يد خصى من العبيد فأسخطته بعض النزعات الملوكية ، فاعتمده فى كسر بيته ومخدع نومه وطعنه بخنجر قطع امعاءه ، وأدرك فسيق الى وزرائه فمزقوه اشلاء ولم يبق شيء من بقايا عهدهم ، واذهب الله العناء عن آل زيان وقومهم وساكنى مدينتهم كانما نشروا من أجداث وكتبوا لها فى سكتهم : (ما أقرب فرج الله) استغرابا لحادثتها » .

هذه هى قصة انشاء مدينة المنصورة التى لم يبق منها الا الخرائب ، ولكن مدينة تلمسان تقف شامخة بامجادها وعصاميتها ، وبطولات أجيالها ، وأصالة حضارتها الفنية والفكرية والتاريخية ·

ج) ـ المراحل والادوار التاريخية للدولة الزيانية :

عمرت الدولة الزيانية أكثر من ثلاثة قرون (1236 ـ 1554) ، ولكن حياتها كلها كانت صراعا مستميتا ، وطويلا ، ضد عدة قوى متصارعة متطاحنة عليها ، تتمثل فى الامور التالية :

1 ـ صراع الامراء فيما بينهم على العرش والسلطة ·

2 ـ تدخل الدولة المرينية من المغرب الاقصى والدولة الحفصية من الشرق بتونس فى شؤون الدولة الزيانية الداخلية فى محاولة للسيطرة عليها وازالتها من الوجود ·

3 ـ تدخل الاسبان تبعا لذلك ، ولنفس الهدف ، بعد أن ضعف شأن هذه الامارات الثلاثة جميعا بالمغرب العربى كله ·

4 ـ تدخل الاتراك فى النهاية ، انقاذا لوجودهم بالجزائر ، ولقطع خط الرجعة على الاسبان ، وتصفية وجودهم بسواحل المغرب العربى · وهم الذين وضعوا نهاية لدولة بنى عبد الواد ، ولاطماع الاسبان فى السيطرة على الجزائر والشمال الافريقى الغربى · كما وضعوا نهاية ايضا لدولة بنى حفص بتونس ·

وكانت هذه الدولة فى بداية عهدها يطلق عليها اسم : « دولة بنى عبد الواد » ، ثم لما تولى أمرها السلطان ابو حمو موسى الاخير عام 1359 ، واحياها بعد اندثارها ، أطلق عليها اسم « الدولة الزيانية » · وتاريخ هذه الدولة شائك ومشحون بالحوادث والاضطرابات ، ولكن يمكن تحديده فى ستة أدوار رئيسية حسبما نوضحه فيما يلى :

أولا : دور النشاة والتبعية للحفصيين :

اصل بنى عبد الواد :

ان بنى عبد الواد فرع من فروع الطبقة الثانية من قبيلة زناتة الكبيرة ، استقروا منذ أزمنة طويلة بالمنطقة الغربية للجزائر ، وتمتد مواطنهم من تاهرت الى نهر ملوية · وهم

من ولد باديس بن محمد اخوة بنى توجين ، ومصاب ، وزردال ، وبنى راشد ، ويرتبط المرينيون معهم بالمصاهرة • وهناك من حاول أن يربط نسب المرينيين بالادارسة العلويين وينفى نسبهم البربرى،ولكن ذلك زعما لا مستند له كما ذكر ابن خلدون•وحتى ياغمراسن نفسه عندما أبلغ له هذا الامر ، لم يستسغه وكان جوابه : « ان كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله ، وأما الدنيا فانما نلناها بسيوفنا » • ومنذ القدم كان لبنى عبد الواد مشاكل وصراعات مع القبائل الاخرى مثل بنى مرين ، ولذلك متنوا صلاتهم ببنى يلومى ، وبنى واماتو ، بوادى مينه وحوض غيليزان •

وينقسم بنو عبد الواد الى عدة بطون ذكر منها ابن خلدون ستة هى : بنو ياتكين ، وبنو أولو ، وبنو ورهطف ، ونصوحة ، وبنو تومرت ، وبنو القاسم ، والفرع الاخير هو الذى كانت اليه الرئاسة خلال عهد الموحدين ، وهو الذى حاول البعض ان يرفع نسبه الى الادارسة العلويين ، ويتألف من عدة بطون مثل : بنى يكمثين ، وعبد الحق بن منغفاد ، وبنى مطهر ، وبنى على •

وقد أخلص هذا الفرع الطاعة للموحدين عندما قامت دولتهم، فاقطعوهم بلاد بنى واماتو، وحصلت بينهم مشاكل وحروب داخلية أدت الى فرار بعض الفروع الى تونس على عهد أبى زكرياء الحفصى • وفى عام 1230 (627هـ) ، برز جابر بن يوسف بن محمد ، كزعيم لبنى عبد الواد ، فى حين بدأ نجم الدولة الموحدية ينهار ، وأخذ الثائر الميورقى يحيى ابن غانية يطرق أبواب حواضر المغرب الكبرى بعد أن سيطر على طرابلس وقابس ، وأحدث فيها تدميرا وتخريبا من أجل احياء دولة المرابطين المنقرضة ، كما تسبب بحركته فى تشويش الرأى العام بربوع المغرب العربى كله • واستهوته مدينة تلمسان واقليمها فزحف عليها بجموعه ، ولكن جابر بن يوسف تصدى له بجموعه ، وانتصر عليه وشتت شمله ، فأعجب به الخليفة الموحدى ، المامون وكتب له البيعة على تلمسان وسائر قبائل زناتة تكريما له • فاضطلع بالامر ، وكان ذلك بداية لقيام دولة بنى عبد الواد التى تسلم قيادتها بعده الامير الشاب ياغمراسن •

من ولد باديس بن محمد اخوة بنى توجين ، ومصاب ، وزردال ، وبنى راشد ، ويرتبط المرينيون معهم بالمصاهرة · وهناك من حاول أن يربط نسب المرينيين بالادارسة العلويين وينفى نسبهم البربرى،ولكن ذلك زعما لا مستند له كما ذكر ابن خلدون·وحتى ياغمراسن نفسه عندما أبلغ له هذا الامر ، لم يستسغه وكان جوابه : « ان كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله ، وأما الدنيا فانما نلناها بسيوفنا » · ومنذ القدم كان لبنى عبد الواد مشاكل وصراعات مع القبائل الاخرى مثل بنى مرين ، ولذلك متنوا صلاتهم ببنى يلومى ، وبنى واماتو ، بوادى مينه وحوض غيليزان ·

وينقسم بنو عبد الواد الى عدة بطون ذكر منها ابن خلدون ستة هى : بنو ياتكين ، وبنو أولو ، وبنو ورهطف ، ونصوحة ، وبنو تومرت ، وبنو القاسم ، والفرع الاخير هو الذى كانت اليه الرئاسة خلال عهد الموحدين ، وهو الذى حاول البعض ان يرفع نسبه الى الادارسة العلويين ، ويتألف من عدة بطون مثل : بنى يكمثين ، وعبد الحق بن منغفاد ، وبنى مطهر ، وبنى على ·

وقد أخلص هذا الفرع الطاعة للموحدين عندما قامت دولتهم، فأقطعوهم بلاد بنى واماتو، وحصلت بينهم مشاكل وحروب داخلية أدت الى فرار بعض الفروع الى تونس على عهد أبى زكرياء الحفصى · وفى عام 1230 (627هـ) ، برز جابر بن يوسف بن محمد ، كزعيم لبنى عبد الواد ، فى حين بدأ نجم الدولة الموحدية ينهار ، وأخذ الثائر الميورقى يحيى ابن غانية يطرق أبواب حواضر المغرب الكبرى بعد أن سيطر على طرابلس وقابس ، وأحدث فيها تدميرا وتخريبا من أجل احياء دولة المرابطين المنقرضة ، كما تسبب بحركته فى تشويش الرأى العام بربوع المغرب العربى كله · واستهوته مدينة تلمسان واقليمها فزحف عليها بجموعه ، ولكن جابر بن يوسف تصدى له بجموعه ، وانتصر عليه وشتت شمله ، فأعجب به الخليفة الموحدى ، المأمون وكتب له البيعة على تلمسان وسائر قبائل زناتة تكريما له · فاضطلع بالامر ، وكان ذلك بداية لقيام دولة بنى عبد الواد التى تسلم قيادتها بعده الامير الشاب ياغمراسن ·

ظهور ياغمراسن وقيام دولة بنى عبد الواد :

فى عام 1236 عهد الخليفة الموحدى الرشيد ، بولاية العهد على تلمسان واقليمها ، الى الامير الشاب ياغمراسن، فكان ذلك، كما قال ابن خلدون، سلما الى الملك الذى أورثه الى بنيه سائر الايام • وكان ياغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد ، من أشد بنى عبد الواد بأسا وأعظمهم فى النفوس مهابة واجلالا ، وأعرفهم بمصالح قومه ، واقواهم • أشتهر بحصافة الرأى ، وسداد التدبير ، وقوة العزيمة • **معظما** عند الخاصة والعامة ، يرجعون اليه فى كل الامور عندما تداهمهم النوازل والنوائب ، والعوادى •

وكان ما يزال يافعا شابا عندما بويع بالامارة عام 1236 ، بعد مقتل أخيه ابى عزه زكرار بن زيان بن ثابت • فاضطلع بالامر فى عزم وقوة، واخضع الى سلطته كل الذين كانوا قد خرجوا عن طاعة أخيه • واحسن السيرة فى الناس تدبيرا وسياسة ، واعتنى بتنظيم قواته العسكرية ، وتوفير الاسلحة والذخيرة لها حتى تستطيع القيام بواجبها الدفاعى على البلاد • واستحدث مجلسا وزاريا ، وكتبة ليساعدوه على تسيير شؤون الامارة • وأتخذ لنفسه مظاهر الملك ، وألغى سيطرة الموحدين الفعلية ولم يبق لهم سوى عادة الدعوة للخليفة الحسن السعيد المعتصم ، على المنابر أيام الجمع والاعياد •

ومما يدل على مكانة ياغمراسن ، وفود عدد من رجالات الاندلس المشهورين الى بلاطه بتلمسان ، للاستقرار بها وعلى رأسهم الكاتب والشاعر البليغ أبو بكر بن خطاب الذى أصبح كاتبا لياغمراسن يتولى تحرير رسائله الى كل الجهات خاصة تونس والمغرب والاندلس • وذكر عنه ابن خلدون بان رسائله ذات شهرة فى بلاطات الامارات الاسلامية •

هكذا بدأ ياغمراسن عهده ، وقد شق الطريق لدولته وسط الاشواك والحفر ، ولم يكن الامر سهلا وبسيطا كما كان يظن ويتوقع • لان أوضاع المغرب العربى آنذاك كانت معقدة • ذلك أن دولة الموحدين دخلت فى طور الانهيار والزوال ، واصبح سقوطها مسألة وقت فقط ، وفى نفس الوقت برزت زعامة بنى حفص بتونس ، وزعامة بنى مرين بالمغرب الاقصى ، والكل يدعى لنفسه أحقية وراثة الموحدين • ووجد ياغمراسن الزيانى نفسه وامارته بين شقى الرحا • فماذا يفعل وكيف يتصرف ؟ أخذ يعد العدة للطوارى ،

وكان الحفصيون أول الاخطار التى واجهها · فقد سعى الخليفة الموحدى لتوثيق الصلة بياغمراسن ، حتى يساعده ضد بنى مرين الثائرين عليه ، فاستشعر الامير الحفصى أبو زكرياء يحيى الاول خطورة هذه الصلة على امارته بتونس ، فقام بغزو تلمسان عام 1242 ليؤدب ياغمراسن ، الذى اضطر ان يعترف بالسيادة الحفصية حتى يحول دون انهيار امارته ، ورضيى أن يدفع لتونس مبالغ مالية سنوية · ومن هنا بدأت السيادة الحفصية على تلمسان وبنى عبد الواد ·

وعندما حاول الموحدون مواجهة هذا الوضع الجديد فشلوا ، وانهزم جيشهم الذى قاده الخليفة الحسن السعيد فى معركة تامزردكت قرب وجدة عام 1247 ، وفى العام الموالى قتل الحسن السعيد نفسه على يد بنى عبد الواد الذين استولوا على كل اسلابه وذخائره ومن هذا التاريخ أصبح الخلاف شديدا بين بنى مرين وبنى زيان الذين يعتبرون تابعين للامارة الحفصية ببجاية · وقد ذكر ابن خلدون فى هذا الصدد قوله : « كانت الدعوة الحفصية بافريقيا (يعنى تونس) قد انقسمت بين أعياصهم فى تونس وبجاية وأعمالها · وكان التخم بينهما بلد عجيسة ووشتاتة · وكان الخليفة بتونس الامير أبو حفص بن زكرياء الاول ومنهم · وله الشفوف على صاحب بجاية والثغور الغربية بالحضرة · وفى عهده بايع بنو زيان وأصبحوا يدعون له على منابرهم باسمه · وكانت لهم مع الامير أبى زكرياء الاوسط صاحب بجاية وصلة لمكان الصهر بينهم وبينه · ويعنى بذلك المصاهرة التى تمت بين الامير عثمان بن ياغمراسن ، والامير الحفصى صاحب بجاية الذى أعطى بنته الى الاول على عهد ياغمراسن ·

ورغم الوحشة التى حصلت عندما حاول الامير عثمان أن يغزو بجاية ، الا أنه سرعان ما عادت المياه الى مجاريها ، واستمر بنو زيان تابعين للحفصيين الى أن غزا السلطان المرينى يوسف بن يعقوب تلمسان عام 1299 ، وفرض عليها ذلك الحصار الطويل المشهور، وأسس مدينة المنصورة كمعسكر للجيش ، فاستعان عندئذ عثمان بن ياغمراسن بأمير بجاية الحفصى الذى قدم نجدة كبيرة لبنى عبد الواد التقت بالقوات المرينية فى جبل الزاب وأوقعت بها هزيمة كبيرة فى « معركة مرسى الرؤوس » لكثرة ما تساقط خلالها من رؤوس العباد ·

وهذه الحادثة زادت فى استحكام الخلاف والمنافسة بين يوسف المرينى ، وصاحب بجاية الحفصى أبى زكريا الاوسط الذى كان على خلاف مع صاحب عرش تونس الحفصى · ولذلك استغل أبو عصيدة بن الواثق الحفصى سلطان تونس الفرصة ، وحاول أن يحكم صلاته بالسلطان المرينى ويتعاون معه على اسقاط عرش تلمسان ، فرد على ذلك الامير عثمان بن ياغمراسن باسقاط الدعوة الحفصية من منابر تلمسان ، وقطع حبل التبعية التى تربط عرش تلمسان بعرش تونس الحفصى · وبذلك ينتهى الدور الاول من تاريخ هذه الدولة ، ويتلوه عهد السيطرة المرينية على تلمسان ·

ثانيا : دور الاستقلال عن الحفصيين والخضوع للمرينيين :

تتمثل أحداث هذا الدور فى محاولة بنى مرين اخضاع تلمسان اليهم ، وسعى وحرص أمراء بنى عبد الواد على المحافظة على استقلالهم · ولقد كان قطع الدعوة الحفصية على منابر تلمسان خطوة أخرى فى سبيل ابراز كيان دولة بنى عبد الواد التى جاهد ياغمراسن طويلا من أجل تحقيقه · وجاء الامير أبو حمو موسى بن عثمان (1308 ــ 1318) ، ليدعم هذا الكيان وهذه الشخصية المستقلة للامارة بما أوتيه من شخصية ، وعزيمة ، وارادة قوية حددها ابن خلدون بقوله عنه : « وكان صارما ، يقظا ، حازما ، داهية ، قوى الشكيمة ، صعب العريكة ، شرس الاخلاق ، مفرط الدهاء والحدة ، وهو أول ملوك زناتة الذى رتب مراسم الملك ، وهذب قواعده ، وأرهف فى ذلك لاهل ملكه حده ، وقلب لهم مجن بأسه حتى ذلوا لعز ملكه وتأدبوا بآداب السلطان » ·

أفتح أبو حمو عهده بابرام الصلح وتحقيق السلم مع أمراء بنى مرين تأمينا لظهره · فأوفد كبراء وزرائه الى السلطان أبى ثابت حيث أمضوا معا صلحا حسبما كان يريد ، ثم اتجه الى النواحى الشرقية من تلمسان ، فأخضع بنى توجين ومغراوة الثائرين ، وقلم أظافر زعمائهم الذين كانوا على رأس هذه الحركات ، أمثال محمد بن عطية الاصم فى نواحى الونشريس ، وراشد بن محمد فى الشلف ، وغزا بلاد الونشريس ، وعين من قبله هناك ولاة أمثال مسامح ، ويوسف بن حيون الهوارى ، ومد سيطرته بعد ذلك الى متيجة ، ومدينة الجزائر نفسها التى سلمها له أميرها ابن علان عام 1372 بعد أن استبد بها حوالى

أربعة عشر عاما • فأخذه الى تلمسان حتى توفى ، ثم سيطر على مدينة دللس ، وأسس مدينة أزفون على الساحل ، ومد نفوذه الى اقليم الزاب بالصحراء الشرقية • وبذلــك تقلص نفوذ الحفصيين على كثير من جهات الجزائر الشرقية ، فى حين توسع نفوذ بنى عبد الـــواد •

وفى الوقت الذى كان امراء بنى عبد الواد يركزون نفوذهم ، ويوسعون سيطرتهـم الى هذه الجهات ، كان سلطان المغرب الاقصى ابو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحـــق ، يبيت الشر ويتأهب للعدوان ضد تلمسان ، وفعلا قاد حملة عسكرية اليها عبر ممـــر تازة ووجدة • ونزل فى ضواحيها ولكنه فشل فى اقتحامها ، واضطر الى الانسحاب ، **فاهتبل** أبو حمو هذه الفرصة وأخذ يصفى نفوذ المرينيين بالمغرب الاوسط، فقضى على امارة الثعالبة بمتيجة المشايعة لهم وطارد امراءها الى جهات كثيرة فى حوض الشلف وقام ببناء قصره المعروف باسم : قصر عمى موسى ، الذى تحول الى قرية بهذا الاسم جنوب شرق واد رهيو • ولم يكتف بهذا فلاحق الثائر المغراوى راشد بن محمد الى بلاد القبائل ، وقام بتشييد قرية آقبو على الضفة اليسرى لواد الصومام والساحل ، بين تازمالت وبجايـــة على السفوح الشرقية بجبل اكفادو بجرجرة •

على ان ابا حمو سرعان ما تآمر عليه المقربون منه وعلى رأسهم ابنه ابو تاشفين بسبب صرامته وشدة بأسه ، فقتلوه فى جوان 1318 م • وخلفه ابنه أبو تاشفين ، وكان ذلك بداية للانقراض الاول لدولة بنى عبد الواد • فقد عقد ابو تاشفين معاهدة صلح مـــع السلطان المرينى أبى سعيد ، ولكن سرعان ما استوحش الامر بينهما ، وغزا أبو تاشفين تازة،واكتسح مزارعها وحقولها ورد عليه السلطان المرينى أبو الحسن بغزو موانى تلمسان الساحلية باسطوله ، والسيطرة على عدد من المدن مثل ندرومة ، وهنين ، ووهـــران ، وجبال تسالة ، وتنس ، والجزائر الشرقية • ثم عاد الى المنصورة عـــام 1335 ، وحاصر تلمسان واحتلها فى ابريل عام 1337 ، وقتل الامير ابا تاشفين وعدد من بنى عبد الواد ، وقضى على دولتهم ، واخضع تلمسان للمرينيين بالمغرب الاقصى •

وكان من ضمن اسباب هذا الغزو المرينى هذه المرة ، قيام أبى حمو بغـزو مدينـة قسنطينة ، والسيطرة على بجاية عام 1328 ، ورفض أبو تاشفين رجاء الحفصيين الـذين

وسطوا بنى مرين فى ذلك ، وفى اخلاء ما احتلوه بالجزائر الشرقية وخاصة بجاية ٠ على ان بنى مرين فى الحقيقة والواقع كانوا لا يضيعون أية فرصة تسنح لهم ، للتدخل فى شؤون تلمسان حتى يجدوا مبررا لاحتلالها تمشيا مع اطماعهم القديمة فى هذه المنطقة ٠ وبهذا الغزو اختفت دولة بنى عبد الواد فترة من الزمن ، وهو الاختفاء الاول الذى ستتلوه اختفاءات أخرى ٠

ثالثا : دور البعث الثانى للدولة ، والتدخل المرينى ضدها :

يتمثل هذا الدور الثالث فى احياء دولة بنى عبد الواد من جديد بعد اندثارها ، وفى تكرار التدخل المرينى ضدها ٠ فلقد بقى المرينيون يسيطرون على تلمسان منذ أن احتلوها عام 1337 م ٠ الى ان نكب سلطانهم ابو الحسن قرب القيروان على يد عرب بنى هلال وبنى سليم عام 1348 ٠ بعد ان تخلى عنه معظم جيشه الذى حاول به ان يغزو تونس ٠ فاغتنم بنو عبد الواد الفرصة وسعوا لاحياء دولتهم وبعثها من جديد ، فبايعوا ابا سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن ياغمراسن ، وتصالحوا مع المغراويين وبنى توجين ٠ ثم أسرعوا فى السير الى مدينة تلمسان واقتحموها فى سبتمبر 1348 ، وسلم لهم عامل المرينيين ابو فرار ٠ وعين ابو سعيد عثمان ، أخاه ابا ثابت مسؤولا على الشؤون العسكرية وأمور الحرب ٠ ثم نهض لمقاومة الخصوم والمنشقين ، واعاد سيطرة بنى عبد الواد على ندرومة ووهران ، ومازونة ، وتنس ، والمدية ، وعاصمة المغراويين مليانة ، وبرشك، وشرشال، والجزائر ودللس، وجرت معارك طاحنة فى حوض الشلف والونشريس ضد المغراويين الثائرين ٠

وقد استطاع أبو ثابت ان يلحق الهزيمة بالسلطان المرينى ابى الحسن فى مدينة الجزائر ، بينما كان عائدا من تونس ، وأرغمه على الانسحاب مخذولا الى المغرب الاقصى ليواجه هناك صراعا وحربا ضد ابنه ابى عنان الطموح الى الملك ، والذى ثار عليه فى غيابه واستحوذ على السلطة ٠ وقد انتهى الامر بقتله وسيطرة ابنه أبى عنان على العرش ٠

وكان ابو عنان هذا صاحب اطماع مثل ابيه فى اقليم تلمسان ، فأخذ يستعد لغزوها ولكن الامير أبا سعيد استعد للامر وسبق الحوادث فخرج بقواته الى وجدة لملاقاة قوات

بنى مرين على أرض المغرب ، وخاض الطرفان معركة « واد القصب » الكبيرة بسهل أنجاد فى شهر جوان 1352 م ، وكانت الغلبة فيها لبنى مرين الذين تمكنوا من أسر أمير تلمسان وقتله ، **واحتلال** عاصمة بنى عبد الواد ، وتتبع فلول الهاربين منهم الى مختلف المناطق · ولم يكتفوا بها فنقلوا ميدان الحرب والصراع الى حوض الشلف وسهول متيجة · وعندما عجز ابو ثابت على مواجهتهم ، انسحب الى الوراء شرقا ، وذهب متنكـــرا الى مدينــــة الجزائر بصحبة عدد من أفراد بنى عبد الواد على رأسهم ابن أخيه ، أبـــو زيان محمـــد بن أبى سعيد ، وموسى بن يوسف ، ووزيرهم يحيى بن داود ·

ومن الجزائر اتجهوا الى بجاية ، فاعترضهم فى الطريق بعض النـــاس ، وسلبوا ما عندهم من أمتعة وزاد ، ثم وقعوا فى أيدى أنصار بنى مرين الذين اقتادوهم الى بجايـــة وسلموهم الى الامير المرينى ابى عنان الذى كان يوجد هناك آنذاك ، فاصطحبهم معه الى تلمسان ، ونفذ القتل فى أبى ثابت على غرار أخيه ، وبذلك اندثرت دولة بنى عبد الواد للمرة الثانية وعادت اليها سلطة بنى مرين مدة من الزمن ، حتى اعاد الكرة ابو حمـــو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن ، وأحياها من جديد ·

رابعــا : دور البعث الثالث لدولة بنى عبد الواد الزيانية :

يتمثل هذا الدور الرابع لدولة بنى عبد الواد ، فى محاولة طرد السيطرة المرينيـــة وبعث الدولة من جديد ، وقد دامت السيطرة المرينية على تلمسان سبع سنوات ، الى ان تمكن أبو حمو موسى الاخير (الثانى) من طردها عام 1359 م · وكان والد أبى حمو هذا كما يقول ابن خلدون : متكاسلا عن طلب الظهور ،ومتجافيا عن التهالك فى طلب العز ، جانحا الى السكون ومذاهب أهل الخير ، حتى اذا عصفت بدولتهم رياح بنى مرين وتغلب السلطان أبو عنان عليهم **وابتزهم** ما كان بيدهم من الملك ، وخلص ابنه ابو حمو موسى مع عمه أبى ثابت الى الشرق ، وقذفت النوى ، بيوسف مع اشراف قومه الى المغـــرب ، فاستقر به ، ولما تقبض على أبى ثابت على وطن بجاية أغفل أمر أبى حمو من بينهم ، ونبت عنه العيون فنجا الى تونس ، ونزل بها على الحاجب أبى محمد تافراكين ، فاكرم نزلـــه وأجله بمكان أعياض الملك من مجلس سلطانه ، ووفر جرايته ، وتظلم معه آخرين من جل

قومه، وأوعز السلطان أبو عنان اليه ليسلمهم له فأبى ذلك ورفض اخلافوعده وحمايته، وكان ذلك من الحوافز التى دفعت أبا عنان المرينى للقيام بغزو تونس ، ومنابذة العرب من رياح وسليم لعهده ٠

وقد اجتمع عرب الذواودة من رياح عام 1359 ، وطلبوا من الحاجب ابن تافراكين ان يساعد أبا حمو موسى على استعادة عرش آبائه بتلمسان ، ووعدوه بأن يكون معه عرب زغبة فى زحفه ويؤازروه ويظاهروه ليستعيد تلمسان ، ويشغل أبا عنان عن محاولة غزو تونس ٠ فصادف هذا العرض هوى لدى أمير زغبة ، الصغير بن عامر ، وجند نفسه وقومه ، وسار مع أبى حمو عدد كبير من الانصار والاحلاف عبر جبال عياض ، والمسيلة ، وزغبة ، والزاب ، وواد يسر ، ومضيق وهران ٠

وفى الطريق علمت هذه الجموع بموت ابى عنان ، فزادهم ذلك تحفزا وشدة عزم ، فاغذوا السير نحو تلمسان واقتحموها فى يوم 7 فيفرى 1359 ، وأعاد أبو حمو تجديد دولة اجداده وآبائه للمرة الثالثة على انقاض السلطة المرينية الراحلة ، وأطلق عليها اسم « الدولة الزيانية » بعد أن كانت تسمى بامارة بنى عبد الواد ٠ وحاول أن يعيد لها شبابها وحيويتها ، كما كانت فى عهد ياغمراسن ، ويمتاز هو بحبه للعلم والعلماء ، وقول الشعر ، وتاليف الكتب مثل كتاب : واسطة السلوك فى سياسة الملوك ٠

ومن شعره القصيدة الطويلة التى انشدها بعد عودته الى تلمسان يحكى فيها ما عاناه من حياة التشرد ، وما قاساه فى سبيل استعادة عاصمة أجداده ، واحياء دولتهم ، ومطلعها :

جرت أدمعى بين الرسوم الطواسم ... لما شطحتها من هبوب الرواكم

وقفت بها مستفهما بخطابها ... وأى خطاب للصلاد الصلادم

ومنها:

* * *

وجبت الفيافى بلدة بعد بلدة ... وطوعت فيها كل باغ وباغم

وجئت لارض الزاب تذرف أدمعى ... لتذكار أطلال الربوع الطواسم

أهتم أبو حمو بتدعيم سلطته وامارته ، وبالقضاء على نفوذ بنى مرين فى كل انحاء المغرب الاوسط ، فافتك وهران منهم عام 1361 ، ومدينة الجزائر فى العام الموالى ، وبلاد القبائل فى العام الذى تلاه ٠

على ان بنى مرين ما انفكوا يثيرون القلاقل ضده وضد امارته الزيانية فدفعوا أبا زيان ابن أبى سعيد عثمان للثورة ضد أبى حمو ، فاتجه من المغرب الى تلمسان ، وتسبب فى اثارة حروب ومعارك طاحنة كانت السبب فى اضعاف الامارة وارهاق السكان فى مشاكل، واثارة حروب أهلية بين الاميرين وانصارهما ، اتخذهما القراصنة النصارى فرصة وذريعة للاغارة على موانى البلاد الساحلية ، واعتراض السفن الجزائرية والصديقة لها ، ومن ضمنها سفينة اندلسية قادمة الى تلمسان بهدايا وتحف أمير بنى الاحمر ، التى اعترضوها واستولوا عليها عام 1366 م ٠

ولم تنته هذه الحوادث حتى جدد بنو مرين زحفهم على تلمسان مرة أخرى عام 1370 بزعامة السلطان أبى فارس عبد العزيز ، واحتلوها فاضطر أبو حمو ان يغادرها لمدة عامين مشردا الى أن توفى ابو فارس فى اكتوبر 1372 فعاد من جديد الى عرشه ، ولكن المرينيين أثاروا ضده ابنه أبا تاشفين الذى اعتقله وسجنه بوهران ، ثم فر منها وحاول العودة الى عرشه وخاض حربا ضد ابنه ذهب هو ضحيتها فى معركة « بنى ورنيد » قرب جبل بنى راشد فى نوفمبر 1389 ، ولم يستقل أبو تاشفين بالامر حتى نازعه أخوه أبو زيان حاكم مدينة الجزائر ، ودارت رحى الحرب بينهما طويلا حول تلمسان ، وفى اعماق الصحراء ، انتهت بمقتل أبى تاشفين وقيام المنتصر المرينى باحتلال تلمسان والمناطق الشرقية لها عام 1393 ، فأزال الدولة الزيانية للمرة الثالثة ، وعادت لعنة المرينيين من جديد على تلمسان وبنى زيان ٠

خامسا : دور التدخل الحفصى الثانى :

يتمثل هذا الدور الخامس من تاريخ الدولة الزيانية فى بداية مرحلة الضعف ، وعودة الحفصيين مرة أخرى الى التدخل فى شؤونها الداخلية بعد ضعف الامارة المرينية ، وتداعى الاوضاع الداخلية للامارة الزيانية نفسها ٠ فلقد أشرنا الى ان الدولة المرينية

بعد ان اسقطت الامارة الزيانية للمرة الثالثة عام 1393 ، أخذت تتلاعب بعرش تلمسان ، وصارت تعزل ذا لتولى ذاك حسبما تمليها عليها مصلحتها ، وتغزو أحيانا مركز الامارة بجيوشها كما حدث عام 1401، لتنصب ابن خولة أبا عبد الله محمد مكان أخيه أبى محمد، وكما حدث عام 1411 م ٠ لتساعد أبا مالك عبد الواحد ضد أخيه السعيد ٠

ومما تجدر ملاحظته فى هذه الفترة ، هو تهالك أمراء بنى زيان فى الخلافات والخصومات والصراعات ، بل والحروب ، فيما بينهم أحيانا مما ساعد القوى الخارجية على الحاق الهزائم بهم وبامارتهم ، واضعاف شأنهم وشأنها ٠

وفى الوقت الذى أخذت اخطار بنى مرين تضعف وتقل على بنى زيان من الغرب ، برزت من جديد اخطار الحفصيين من الشرق الذين تجددت أطماعهم ضد تلمسان وامارتها، واصبحوا يتحفزون للفوز بالسيطرة عليها وضمها الى مملكتهم الحفصية بالشرق ، فبعد أن انتصب الامير أبو مالك الزيانى على عرش تلمسان فى أكتوبر 1411 ، اتبع سياسة الشدة والحزم فاصلح أوضاع امارته الداخلية والتفت الى الجيران واظهر نحوهم حزما أكثر فاستعاد من الحفصيين كل المناطق التى استولوا عليها بشرق البلاد ، وتوسع غربا وقضى على نفوذ المرينيين ، وتدخل فى عرشهم ، وسيطر على فاس نفسها ، ونصب على عرشها سلطانا جديدا مواليا له ٠ وكان عمله هذا بمثابة ضربة مطرقة شديدة التأثير وضعت حدا نهائيا لتدخل المرينيين فى شؤون تلمسان ٠

وكانت جهود ابى مالك الحازمة هذه تجاه بنى مرين بمثابة انذار للحفصيين شرقا الذين توجسوا خيفة من تفوق أمراء تلمسان عليهم ، ولذلك أعد الملك الحفصى أبو فارس عزوز جيشا ضخما من خمسين ألف محارب اتجه بهم الى تلمسان ، وعجز أبو مالك عن مواجهتهم لضخامة عددهم وعدتهم ، وتمكن الامير الحفصى من احتلال تلمسان عام 1424م، ونصب على عرشها مهد بن الحمرة الموالى له ليضمن حماية مؤخرته، ثم اتجه الى فاس واخضع اليه الامير المرينى قبل ان يصل اليها ، وبعد ذلك عاد الى تونس حيث وافته الى هناك بيعة صاحب الاندلس ، فاصبح بذلك يمتد نفوذه من تونس الى الاندلس ٠ أما ابو مالك فبعد مدة ، أعلن خضوعه واستسلامه له فاعاده الى عرشه بعد أن نكث محمد بن الحمرة عهده ٠

وبهذه الاحداث بدأ الحفصيون يتدخلون فى شؤون تلمسان الداخلية مستغلين فرصة تناحر أمراء بنى زيان فيما بينهم ، وذلك بقصد الحاق هذه الامارة بالعرش الحفصى التونسى • ففى شهر جويلية 1463 غزا السلطان الحفصى أبو عمر عثمان تلمسان ، وفرض سيطرته على كل المناطق التى مر بها ، ولكن الامير الزيانى راسله قبل وصوله ، وابرم معه صلحا جنب الامارة اهوال الحرب ، وعاد الامير الحفصى من الطريق الى تونس عبر بجاية •

وعندما حاول الامير الزيانى ابو ثابت محمد الرابع ان يقاوم تسلط الحفصيين واعلن قطع الدعوة لهم على منابر تلمسان ، قاوموه وارغموه على الخضوع والاستسلام ، لان الامارة الزيانية كانت فى حالة ضعف شديد لا تقوى على مواجهتهم •

النكبة بالكاتب يحيى بن خلدون :

ومن جملة الاحداث المؤلمة التى حصلت فى هذه الفترة قيام الامير الزيانى أبى تاشفين بنكبة كاتب أبيه يحيى بن خلدون شقيق المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون ، وقتله بصورة بشعة لا تفسير لها الا جهل هذا الامير بقيمة رجال الفكر والثقافة ، لقد كان يحيى ابن خلدون كاتبا للامير ابى حمو • وعندما قسم دولته بين ابنائه طلب منه ابنه أبو تاشفين ان يعينه على وهران التى كان يليها ابنه الآخر أبو زيان ، فتظاهر له بالقبول، وطلب من كاتبه يحيى بن خلدون ، أن يتلكأ فى كتابة العهد له ، وكان موسى بن يخلف يغار من يحيى بن خلدون ويحقد عليه حضوته من الامير ، فاوعز الى ابى تاشفين بأنه هو الذى امتنع عن كتابة ولاية العهد له على ولاية وهران ، وذلك خدمة لابى زيان والى وهران الفعلى ، فوجد أبو تاشفين على يحيى لذلك ، وترصد له مع بعض سفلة القوم ليلا عند ما كان راجعا من القصر الى منزله بعد صلاة التراويح فى شهر رمضان عام 780هـ وطعنوه بالخناجر حتى سقط على دابته ميتا ، وفى صبيحة اليوم الموالى وصل الخبر الى السلطان فاخذ يبحث على الجناة ، وعندما علم بمشاركة ابنه أبى تاشفين فى الجريمة سكت عن الحادث ، وأجاب على طلب أبى تاشفين وعينه واليا على وهران ، ونقل ابنه الآخر أبا زيان الى بلاد حصين والمرية ، وهى فعلة شنيعة تعتبر من سيآت هذا الدور •

سادسا : دور التدخل الاسبانى وانقراض الدولة الزيانية :

ان الدور السادس والاخير من تاريخ الدولة الزيانية يتمثل فى كثرة التدخلات الاسبانية فى شؤونها الداخلية ، والتلاعب باقدارها ومصيرها ، ومحاولة الاحاطة بها من كل جانب تمهيدا لاحتوائها . كما يتمثل فى بروز قوة الاتراك كطرف رابع فى الصراع عليها الى جانب بنى حفص ، وبنى مرين والسعديين ، والاسبان .

وكان الاسبان بعد ان قضوا على الحكم الاسلامى بالاندلس عام 1492 ، قد وجهوا نشاطهم لغزو بلدان المغرب العربى،مبالغة فى النكاية بالمسلمين،ومنع اللاجئين الاندلسيين من التفكير فى العودة الى وطنهم السليب ، تماما كما تفعل اليوم اسرائيل ضد الفلسطينيين، ومحاولة منهم أيضا لاستعمار بلدان المغرب العربى من أجل استغلال امكانياته الاقتصادية ، وموانيه الاستراتيجية من الناحية العسكرية . وقد واتتهم الفرص بسبب ضعف دول المغرب العربى ، وتطاحنها فيما بينها من جهة ، وفيما بين الامراء الطموحين من جهة أخرى ، حتى فى داخل البلد الواحد . تماما كما حصل فى المنطقة العربية بعد ظهور دويلة اسرائيل .

وكانت الدولة الزيانية فى هذه الفترة قد وصلت الى أقصى درجة من الضعف والانحلال ، فاخذ الاسبان يحتلون موانيها وأطرافها تمهيدا لاحتوائها فى النهاية وفق مخطط استعمارى مدروس . فبعد أن وصل الى تلمسان آخر امراء بنى الاحمر بغرناطة أبو عبد الله محمد بن سعد الزغل ، عبر وهران ، بدأت التهديدات الاسبانية تظهر فى الافق ضد تلمسان ، واضطر الامير الزيانى محمد السابع أن يذهب بنفسه الى اسبانيا ليطمئن فرديناند الخامس ، ويقدم له الهدايا استرضاء له .

وابتداء من عام 1503 أصبح الخطر الاسبانى على الجزائر حقيقة واقعة . فقد تنافس على عرش تلمسان الاخوان : أبو زيان الثالث المسعود ، وأبو حمو الثالث بوقلمون ، وتغلب الثانى عن الاول وادخله الى السجن فاغتنم الاسبان فرصة هذه الاضطرابات بتلمسان وأقدموا على احتلال المرسى الكبير عام 1505 ، ثم تدخلوا فى مشاكل عرش تنس وأيدوا الامير يحيى بن الثابتى شقيق السلطان أبى زيان المخلوع والسجين ، على الاستقلال

بمدينة تنس وأحوازها عام 1506 تحت حمايتهم ، وبتوجيه من سياستهم حتى لا تقوم وحدة وطنية ضدهم • وقد تسبب التدخل الاسبانى فى مشاكل تنس ، فى حدوث حروب طاحنة بين عرش تنس وعرش تلمسان ، سالت فيها الدماء ، وقتل الجانى المذنب والبرىء، ولم يستفد من ذلك سوى الاسبان الذين ثبتوا أقدامهم فى بعض أطراف الامارة ، واحتلوا وهران عام 1509 ، ثم بجاية عا م1510 ، والجزيرة المواجهة لمدينة الجزائر ، ومستغانم عام 1511 ، ودللس ، وعنابة ، وهنين عام 1531 • وأصبحت تلمسان بين فكى كماشة يحيط بها خطر الاسبان من كل جهة ، وليس هناك نصير أو معين لها ، فى حين لا تملك هى القوة والعدة الكافية التى تساعدها على مواجهة هذه الاوضاع الخطيرة •

ولقد كان من المفروض فى مثل هذه الظروف الصعبة ، ان تتوحد القوى الداخلية للامارة ، وتتكتل ، وتتناسى الاحقاد والاحن ، والنزعات الشخصية ، ولكن الذى حصل هو العكس ، فحدثت بتلمسان اضطرابات ضد أبى حمو الثالث ، وتحزب ضده أنصار أخيه المسجون أبى زيان ، واستنجدوا بعروج فى الجزائر العاصمة الذى كان آنذاك فى تنس يقوم بتصفية الحساب مع يحيى الثابتى الموالى للاسبان • فلبى رغبتهم حتى يفوت على الاسبان فرصة الانقضاض على تلمسان ، واتجه اليها عام 1517 ، واطلق سراح أبى زيان وأعاده الى عرشه فى حين فر أبو حمو الى فاس ومنها الى وهران حيث أمده الاسبان بقوات كبيرة ، فاعاد الكرة على تلمسان واستردها من عروج عام 1518 بمعاونة الاسبان الذين تمكنوا من قتل عروج وقتل أخيه اسحاق الذى كان يرابط فى قلعة بنى راشد •

على أن ابا حمو هذا لم ينعم طويلا بعرشه الذى استرده بالخيانة ، اذ توفى فى نفس العام ، وخلفه أبو محمد عبد الله الثانى ، وسار على منوال سياسة سلفه فى موالاة الاسبان ، فثار عليه أخوه الامير أبو سرحان المسعود بتاييد من خير الدين بالجزائر ، وسيطر على تلمسان عام 1519 • ولكن أبا محمد سرعان ما استرد عرشه بتاييد من خير الدين أيضا بعد ان اعلن توبته من غيه وخيانته السابقة ، ودفع ذلك أبا سرحان لمالأة الاسبان ، غير أنه سرعان ما عاد الى خيانته التى جبل عليها ، ولكن خير الدين كان بالمرصاد له حتى توفى عام 1524 ، فخلفه على عرش تلمسان محمد السابع ، ولكنه انحاز

الى الاسبان ضد الاتراك بالجزائر ، فثار السكان ضده وهزموه ، ففر الى وهران ليستنجد بالاسبان الذين كانوا ينتظرون مثل هذه الفرص لدفع الاخوان الاشقاء الى التقاتل فيما بينهم لصالح توسعهم الصليبي . فاعدوا له حملة اسبانية من وهران احتلت تلمسان وفرضت عليه معاهدة اذلال تحتم عليه أن يدفع للاسبان ضريبة سنوية ، ويساعد القوات الاسبانية على التوسع في موانى الجزائر بدعوى مقاومة الاتراك .

وقد أثارت هذه المعاهدة المذلة مشاعر شعب تلمسان خاصة وأن محمد السابع كان يتعاون مع بعض اليهود الذين جعلهم وسطاء بينه وبين الاسبان فى وهران ولذلك ثاروا ضده وبرز أخوه أبو زيان أحمد الثانى وافتك منه العرش عام 1542 بتأييد ومساعدة من قوات البايلر باى حسن باشا ابن خير الدين الذى كان يرقب الامور عن كثب . وهرب محمد السابع المعزول الى وهران كعادته ليستنجد بالاسبان .

وقد أمدوه فعلا بقوات كبيرة اصطدم بها مع قوات أخيه فى شعبة اللحم قرب عين تيموشنت في جانفى 1543 ، ولكنه انهزم وانهزمت القوات الاسبانية الحليفة معه ، وقتل كثير من جنودها ، ولم ينج الباقى الا بصعوبة وانسحب الى وهران . وفى العام الموالى جدد الكرة مع القوات الاسبانية التى كانت تستهدف الانتقام من هزيمتها السابقة ، وتمكن فى هذه المرة من احتلال تلمسان عام 1544 ، فعاثت القوات الاسبانية فيها فسادا، واحدثت فى مقدساتها وحرماتها نكرا وفجورا .

على ان سكان تلمسان لم يصبروا على هذا الامتهان فثاروا ضد الامير الخائن وأرغموه على الفرار بتأييد ومساعدة قوات حسن باشا ابن خير الدين ، فى معركة الزيتون ، وأغلقوا تلمسان فى وجهه عندما حاول أن يعود اليها ، ثم ظفروا به وقتلوه فى احدى المعارك قرب مدينة وجدة ، وتخلصوا من خياناته المتكررة ، وعاد أبو زيان أحمد الى عرشه ولكنه أظهر للاسبان ميله ، ونتيجة لذلك **عزله** سكان المدينة وبايعوا أخاه الحسن الزيانى ، فهرب هو الى وهران التى اصبحت قبلة لكل المعزولين والغاضبين من أسرة بنى زيان .

ولم يتقاعس الاسبان عن نجدته لان الصراع كان على أشده بينهم وبين سلطة الاتراك بالجزائر على الفوز بالسيطرة على عرش تلمسان فأمدوه بقوات اسبانية استرجع بها

عرشه المتهالك المتداعى عام 1547 ، واعترف بتبعيته للاسبان الذين تعرضوا لهزيمة كبيرة امام اسوار مستغانم فى أوت من نفس العام عندما حاولوا احتلالها ٠

ومما زاد الامور تعقيدا وسوءا ، ظهور الدولة السعدية بالمغرب الاقصى ومحاولتها هى الاخرى التدخل فى شؤون تلمسان بغية احتلالها ، فارسل الشريف محمد المهدى السعدى قوات عسكرية حاصرت تلمسان تسعة شهور كاملة اقتحمتها واحتلتها يوم 5 جوان 1550 ، واحتلت مستغانم بعدها وأخذت تتقدم فى اتجاه الجزائر العاصمة مما أكد نوايا السعديين العدوانية ضد السلطة التركية بالجزائر ، ولذلك فان **البا يلر باى** حسن باشا ابن خير الدين الذى كان يستعد لمواجهة الاسبان بوهران،وجه قواته بزعامة حسان **قورصو** الى الجيش المغربى ، الحق به الهزيمة فى حوض الشلف ، وأرغمه على الانسحاب الى المغرب الاقصى ، وبعد ذلك اتجه حسان باشا الى تلمسان وعزل عن عرشها أبا زيان أحمد ، وعوضه بالامير الحسن بن عبد الله الزيانى تحت اشراف الضابط التركى سفطه ، وبقى فى منصبه الى ان عزله نهائيا ، البا يلر باى صالح رايس عام 1554 بسبب ميوله الى الاسبان ، والحق تلمسان بالجزائر العاصمة مباشرة ، وكان ذلك نهاية النهاية للدولة الزيانية التى عمرت ثلاثة قرون وثمانية عشر عاما ٠

وكان لا بد من هذه النهاية لان بقاء الدولة الزيانية كان يمثل مشكلة ، وفى صالح التوسع الاسبانى ٠ والاتراك بالجزائر كانوا يسعون لتوحيد المغرب الاوسط كله تحت سلطة واحدة مركزية ، حتى يستطيعوا مواجهة التوسع الاسبانى الصليبى ، الذى استدعوا منذ البداية من أجل وضع حد له ورده ، وهو ما قاموا به خلال القرون التالية ٠

ولعل أهم نتيجة نستخلصها من تاريخ دولة بنى عبد الواد الزيانية ، هو أن الدول التى تهمل الاهتمام بتقوية وتدعيم جبهاتها الداخلية ، تكون مصائرها دائما الى الانهيار والزوال ، وتصبح مهازل تاريخية واضحوكات للعصر ، وللاجيال اللاحقة ٠ وهذه الظاهرة ما تزال حتى اليوم تتجدد فى كثير من القارات خاصة فيما يسمى بالعالم الثالث ، ولقد اتعضت الجزائر الجديدة بتجارب تاريخها القاسية والمريرة ، وأصبح أهتمامها بالبناء الداخلى ، والتشييد الحضارى فى أوسع معانيه ، يمثل « نموذجا فريدا » ، وصفحة

مشرقة أبهرت وتبهر العالم كله، لكونها تسعى بجد وارادة صامدة لخلق مجتمع متطور وحضارة راقية ، ثقافية ، وزراعية ، وصناعية ، تواكب عصر التطور السريع ، وهي اليوم ، وفي عام 1975 ، مفخرة العالم الجديد ، علم الحرية والاستقلال السياسي والاقتصادي ، في جو من اليقظة والتحفز ، والسير بثقة الى مستقبل زاهر سعيد ·

بعض المراجع المعتمدة في هذا البحث

ـ بوعزيز (يحيى) : الموجز في تاريخ الجزائر · (الجزائر · المطبوعات الوطنية 1965) ج 1 ـ 220 ص ـ

ـ الجيلالي (عبد الرحمن بن محمد) : تاريخ الجـــزائر العـــام · (الجزائر ـ 1955) ج 2 ـ 413 ص ـ

ـ الحفناوي (أبو القاسم محمد) : تعريف الخلف برجال السلف · (الجزائر ـ 1906) 207 ص ـ

ـ ابن خلدون (عبد الرحمن) : كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العـــرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر · (القاهرة · مطبعـــة بـــولاق 1284هـ ـ 1870) · ج 7 ـ 464 ص ـ

ـ ابن خلدون (يحيى) : بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد · (الجزائر 1322هـ)·

ـ ابن ابي دينار (أبو عبد الله محمد بن ابي القاسم) : المؤنس في أخبار افريقيـــا وتونس · تحقيق وتعليق شمام (محمد) · (تونس ـ 1387) · ط · ثالثة · 366 ص ·

ـ الزركشي (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية · تحقيق وتعليق ماضور (محمد) · (تونس ـ 1966) · 189 ص ·

ـ عبد الوهاب (حسن حسني) : خلاصة تاريخ تونس · ط 3 (تـــونس 1373 هـ) · 188 ص ·

ـ الغبريني (ابو العباس احمد بن أحمد بن عبد الله) : عنوان الدراية فيمن عـــرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية · (الجزائر 1328 ـ 1910) · 236 ص ·

ـ ابن القنفد (أبو العباس أحمد بن حسين بن على بن الخطيب) : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية • تحقيق وتقديم النيفر (محمد الشاذلى) والتريكى (عبـد المجيـد) • (الدار التونسية للنشر 1968) • 355 ص •

ـ كتاب الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة الحفصية • تحقيق ابن شنب (محمـد) • (الجزائر ـ 1920) •

ـ ابن مريم (ابو عبد الله محمد بن أحمد) : البستان فى ذكر الاوليـاء والعلمـاء بتلمسان • (الجزائر ـ 1326هـ ـ 1908) • 315 ص •

ـ المدنى (أحمد توفيق) : كتاب الجزائـر • ط 2 (القاهـرة ـ 1962) 382 ص • حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492 ـ 1792 • (الجزائر ـ بدون تاريخ) 533 ص•

ـ الميلى (مبارك بن محمد الهلالى الميلى) : تاريخ الجزائر فى القديـم والحديـث • (الجزائر ـ 1963 ـ 1964) • ج 2 و 3 ـ 403 ـ 333 ص •

— Bouliff (S. A) : *Le Djudjura à travers l'histoire*. Depuis l'antiquité jusqu'à 1830. (Alger 1925) p. 419.

— Garrot (Henri) : *Histoire générale de l'Algérie*. (Alger 1910), p. 1189.

— Grammont (H. D. De) : *Histoire d'Alger sous la domination Turque 1515-1830*. (Paris 1887) p. 420.

— Lacost (Yver), Nouschi (A.) et Prenant (A.) : *L'Algérie passé et présent*. (Paris 1960) p. 426.

نهاية دولة بني زيان

د· مولاي بالحميسي
جامعة الجزائر

تاسست هذه الدولة في النصف الاول من القرن الثالث عشر وامتدت ارجاؤها واتسعت حدودها من نهر الملوية غربا الى افريقية شرقا ومن مصب الملوية الى جيجل شمالا الى الصحراء جنوبا بحيث انقسمت المملكة الى مقاطعات ادارية عديدة مثل مقاطعات تلمسان وتنس والجزائر وبجاية · وكانت للمملكة امصار ساحلية مثل هنين ووهران ومستغانم وشرشال يدر على الدولة بارباح التجارة مع مختلف الاجناس كما كانت لها في الداخل شعوب وقبائل تعزز مكانتها بين جيرانها ·

وكانت تلمسان قاعدة المغرب الاوسط أسواقها مكتضة بالبضائع ومساجدها عامرة وقصورها عجيبة حتى صارت مقصدا لتجار الآفاق ودارا لطلب العلم وحلما للشعراء والادباء وقبلة للمسافرين ومهدا للحضارة ، يوم كانت اقطار عديدة تعيش عيشة بدائية ، فجلب موقع تلمسان الممتاز وجمالها الفتان وفنونها وخيراتها جلب كل هذا حسد الحساد وطمع الغزاة والمغيرين ··· ولكن كما قيل : لكل شيء اذا ما تم

نقصان ... وقيل أيضا ما أبعد ما فات وما أقرب ما يأتى ! فما انتهى القرن الخامس عشر وأقبل السادس عشر حتى تبدلت الاحوال وانهزم الرجال ودب فى الدولة الضعف والهرم وسار أصحابها فى طريق الزوال والعدم ·

ولهذه التقلبات أسباب وعلل نحاول فى هذا العرض القصير تتبع سيرها وتحليل تطورها وتفاقمها وابراز أهم عواملها ·

كان القرن السادس عشر بالنسبة لاروبا عصر النهضة والاكتشافات وبسط النفوذ وكان بالنسبة لدول المغرب فترة الاحتضار والصراع بين عنصرين أجنبيين : الاسبان والاتراك ، ثم التفكك والضعف المستمر المؤدى الى النهاية الحتمية · والاسباب فى ذلك نوعان : داخلية ، خاصة بحالة بنى زيان وخارجية لم يستطيعوا ابعادها ·

1) ملوك بنى زيان فى آخر عهدهم :

نشب الخلاف بينهم حول العرش فانقسموا الى طامع فى الملك ومعارض له ونتيجة ذلك الوضع لا تخفى فاشتغل القادة لا بسياسة الدولة بل انهمكوا فى الدسائس ونصب الفخاخ وربط المؤامرات فأكل القوى الضعيف وثار العم على ابن أخيه والابن على أبيه فأصبحت الحكومة المركزية بدون سلطة وبدون صلـــة مع الجهات النائية وقامت فى المملكة امارات شبه مستقلة تارة فى الجبال وتارة فى السهول وها هي وهران تفلـت من قبضة تلمسان وتكون شبه جمهورية وهذه مستغانم وهذه تنـس وغيرهما تقتدى بوهران وتخضع كل منها لشيخ محلى ، وهذه واحات الجنوب تصبح فى يد زعمـــاء هلاليين ، واغتنمت كل جهة تناحر بنى زيان وتقاتلهم وضعفهم لتحكم نفسها بنفسها ، فتقلصت مملكة تلمسان الى ان أصبحت لا تتعدى العاصمة ونواحيها · وقد استولى الثعالبة على مدينة الجزائر بقيادة سالم التومى واستولى المحال على وادى شلـــف الخصب وخرج معظم قبائل الونشريس والظهرة وكونت مدن مازونة والمدية ومليانـة امارات مستقلة ... فقل بذلك كله الرجال المدافعون عن الملـــك والدخل الضرورى للخزينة وتدهور الوضع بسبب الفوضى المنتشرة فتوقفت التجـــارة وفترت الفـلاحة وافتقرت الدولة ... وخلت من أهلها الدار ·

2) الاحتـــلال الاسبـــانى :

كانت الغارات على تلمسان ـ قبل بداية القرن السادس عشر ـ تشن من الغرب أو من الشرق وقد احتلها بنو مرين وبنو حفص مرارا عديدة تحقيقا لاحلامهم التوسعية

الا ان هاتين الدولتين ضعفتا فى نهاية الخامس عشر واصبحتا عاجزتين حتى على رد عدوهما فى الداخل وجاء الخطر هذه المرة من نصارى اسبانيا وهم سكارى بانتصارهم على مسلمى الاندلس · فاحتلوا المرسى الكبير سنة 1505 ووهران سنة 1509 وبجاية سنة 1510 واخضعوا تنس ومستغانم واحتلوا فى ما بعد هنين فخنقوا مملكة بنى زيان وهددوها · فزادت وحدة الدولة تصدعا وزاد عقدها تناثرا فزادت المملكة رسوبا وما كانت سنواتها الاخيرة ـ من 1509 الى 1552 سوى سلسلة من الفتن والاضطرابات اضرمها الاسبان وقد ضعف بنو زيان على مقاومتهم ولجأوا الى سياسة التقرب والخضوع والمسالمة · وانتهز العدو الظروف السانحة للتوغل داخل البلاد والتدخل فيها مستعملا ومستخدما المنافسة القائمة آنذاك بين القبائل وتقاتلهم وحقدهم المتبادل وسخطهم على الحاكمين فى تلمسان فوجد فيما بقى من الدولة جواسيس وعيونا واعوانا وصل بهم الى تلمسان ··· فالتفت نحوه كل مترشح للملك أو كل متعطش للقيادة ·

وبعد ان كانت سيطرة الاسبان لا تتعدى وهران وضواحيها القريبة من راس « فالكون » غربا الى كريشتل شرقا الى السبخة جنوبا امتدت الى أبعد من ذلك لا بقوة السلاح بل بانقسام المسلمين وتفرقهم وعدم وعيهم وشعورهم بالخطر وبتركهم أمر بنى زيان لاسباب تافهة كالامتناع من دفع الضرائب ·

3) قدوم الاتراك الى الجزائر :

لا يتسع الحديث هنا لدخول الاتراك الى الجزائر فى القرن السادس عشر ويكفى ان نذكر ان عروجا بعد محاولات فاشلة فى بجاية استقر بالجزائر التى أصبحت عاصمته سنة 1516 ومنها راح يوسع ملكه غربا فاستولي على تنس والمدية والمتيجة ، وأشتد الصراع والتنافس بينه وبين الاسبان ـ وكل يحلم باحتلال تلمسان ··· لما آلت اليه أحوالها بصفة خاصة وأحوال المغرب بصفة عامة · الم يكتب الشيخ أبو العباس أحمد ابن القاضى الى عروج قائلا له : ان بلادنا بقيت لك ولاخيك أو للذئب ! ·

وقد استغاث أهل تلمسان ـ أو البعض منهم ـ بالاتراك عندما فشا الظلم وعم السخط والحالة تسير من سيء الى أسوأ : فالبلد لا ينتج ما يكفى الناس ، والدخل قليل بسبب فقدان المدن الساحلية التى كانت تعود على الدولة بعائدات الجمرك مما أجبر صاحب تلمسان ـ حوالى 1510 ـ على فرض اتاوات ورسوم على مدينة تلمسان التى

كانت معفاة منها ، فسعى كل من مسه القرار فى تحطيم صرح المملكة ، واشتعلت نار العصيان ولم تخمد الا احيانا ٠ وخاف كل ملك على عرشه وراح يبحث عن مؤيدين بين القبائل وعرض التبعية للقوى من الطرفين : الاسبان أو حكام آل عثمان ٠

وبابرام معاهدة مع الملك فردناند اتسع الخرق بين الرعية التى انكرت الخضوع لعدو الاسلام وبين الحكام وانتشر الاضطراب فى كامل انحاء المملكة وأصبحت القبائل تفرض ارادتها وتبيع تأييدها لامراء بنى زيان المتكالبين على العرش ويتلقى شيوخها الهدايا والاموال بعد أن كانوا يقدمونها ـ واشتدت شوكة اعراب الجنوب حتى أصبحوا لا يبالون بمن يحكم بتلمسان وخير حليف لهم القيافى يتوغلون فيها عند الخطر فكان صاحب المملكة يهادنهم بالمال أو بالمصاهرة أو بغير ذلك وكيف العمل ومعظم الرعايا بدو وبقية البلاد فى يد زناتة وهوارة وصنهاجة يعيشون فى الارض لعدم الزجر يقومون بشن الغارات وقطع الطرقات وربما يتساءل السائل عن مصير جيش تلمسان وعن دوره فى هذه الازمة ٠ والواقع انه كان قليل العدد لا يتعدى ألف رجل راكب على حد قول الاسد الافريقى ومهمته حراسة العاهل ٠ وكان اذا ما قامت حرب ينادى فى القبائل فترسل فرقا يوم كانت خاضعة للسلطة المركزية ٠٠٠

4) دور القبائل فى القضاء على بنى زيان :

من القبائل التى لعبت دورا فى حوادث النصف الاول من القرن 16 م ، وأسرعت بزوال بنى زيان وساهمت فى تمركز الاسبان بوهران : 1) بنو عامر بن زغبة ٠٠٠ بن هلال بن عامر بن صعصعة ٠٠٠ قدموا من الشرق وسكنوا القفار ثم الى ضواحى تلمسان ثم الى تسالة واخيرا ملاتة فكانوا يتعاونون مع نصارى وهران واستولوا على السهول المجاورة لهم ٠ وكان زعيمهم عبد الرحمن بن رضوان ـ فى هاته الفترة ـ يعمل لاضعاف بنى زيان وحملهم على الدخول تحت حماية الاسبان ٠ 2) ومن بين القبائل المنحازة للدخلاء كريشتل من زناتة من مغراوة أصل مساكنهم مصب شلف ثم انتقلوا لمزغران ثم سيرات ثم شرقى وهران وكان شانهم ـ على حد قول المشرفى ـ جلب الاخبار للاسبان وتغطيس الناس حتى سموا بالمغاطيس ٠ 3) بنو راشد من بادين مساكنهم بين القلعة والمعسكر والبطحاء ووادى مينا وكان نفوذهم يمتد الى تلمسان ولذا لعبوا دورا هاما فى الفترة التى تعنينا لخصب اراضيهم وكثرة عددهم وحسن موقعهم وكان

لقائدهم ، المنصور بن بغنى ، باع طويل وجاه مرموق بفضل مصاهرته لاحد ملوك بنى زيان حتى كان يتصرف فى شؤون الدولة ويتفاوض باسمها ويناصر حزبا على آخر ويعين ويعزل ٠

فلا غرابة اذا أصبح رؤساء القبائل أقوى من الملوك ولا غرابة اذا تحالف الاتراك أو النصارى مباشرة معهم للوصول الى بسط نفوذهم وتعزيز جانبهم ٠

5) ملوك بنى زيان فى آخر مرحلة عهدهم :

لا نجد فى هذا الصنف الاخير ما يذكرنا بمن سبقوهم واشتهروا قبلهم امثال يغمراسن (1238 ـ 1282) وأبى حمو موسى (1307 ـ 1318) وأبى تاشفين الاول (1318 1386) والواثق بالله أبى عبد الله (1384 ـ 1387) الذين كانوا من اكبر ملوك المغرب وكانوا من الشخصيات البارزة حاربوا وشيدوا وأحبوا القتال كما أحبوا الفنون فلعبوا ادوارا خلدت ذكرهم ـ اما خلفهم أو قل خلف حلفهم فى القرن 16 م ٠ فهم العوبة فى يد غيرهم ، تخاذلوا فانصبت عليهم الويلات ضعف ايمانهم وقلت شجاعتهم وطغى عليهم طمعهم فى الناس وطمع الناس فيهم لجأوا الى أعدائهم فاطلع هؤلاء على نقاط ضعفهم للاقدام على اذلالهم ٠

بادر أبو عبد الله محمد الخامس (910 ـ 923 هـ ـ 1504 ـ 1507) الى الاعتراف بالوجود الاسبانى وبالدخول تحت حمايته سنة 1512 ٠ وجاء بعده أبو زيان أحمد فكان معدوم الارادة عاجزا على سياسة الملك فادخله عمه السجن ٠ وقام أبو حمو الثالث مرة أولى (1516 ـ 1517) فخلعه عروج وعوضه بابن اخيه أبى زيان واستنجد أبو حمو بالاسبان لان القبائل امتنعت من تأييده ، ونظم حملة مشتركة مع الاسبان واخرج من تلمسان عروجا واتباعه بعد حصار دام نصف عام وبعد أن عانى أهل تلمسان ما عانوه من الشدائد ٠

وعاد أبو حمو الى عرشه لكن ٠٠٠ مكبلا بمعاهدة ابرمت سنة 1518 يدفع بموجبها سنويا غرامة مهينة جعلت البركان ـ بركان الثورة عليه ـ يتفجر من حين لآخر ٠ وجاء دور أبى محمد بن عبد الله (1528 ـ 1540) فاستمر فى خضوعه لحاكم وهران الى سنة 1529 ٠ وفى تلك السنة انتصر خير الدين باشا على بنيون الجزائر فتغير موقف صاحب تلمسان تحت ضغط الاهالى ونفوذ علماء البلد الذين كانوا يستنكرون جهارا التعاون مع من اضطهد مسلمى الاندلس واحتل ثغور المغرب ٠

وكان لابد لكل من يحلم بالملك ان يعتمد اما على اتراك الجزائر لما كان لهم من قوة عسكرية واما على الاسبان الذين كانوا يخشون سقوط تلمسان فى يد الاتراك فيزداد بذلك خنق وهران المحاصرة ·

وفى سنة 1534 عين على وهران حاكم مشهـــور وهو الكونت دالكوديتى كلفته حكومته قبل كل شيء بايقاف النفوذ التركى بغرب الجزائر ثم محاولة الاستيلاء عـلى الساحل حتى يكون الحوض الغربى من البحر الابيض منطقة اسبانية · وكانت شؤون تلمسان تدخل حتما فى هذا المخطط · فاغتنم حاكم وهران قيام الحـــرب الاهلية فى تلمسان (بين انصار مولاي محمد المسعود يعززهم الاتراك وبين اتباع مولاي عبد الله يؤيدهم اسبان وهران) لفرض ما يراه فى صالح بلاده · وفى بعض رسائل صاحـب مؤرخة فى 15 ـ 1 ـ 1530 يستعطف أبو محمد عبد الله شارلكان ويطلب منه بالحاح ان تلمسان الى ملك اسبانيا ما يعبر على الانحطاط المادى والمعنوى للدولة ففى رســالة مؤرخة فى 15 ـ 1 ـ 1530 يستعطف أبو محمد عبد الله شارلكان ويطلب منه بالحاح ان يعيد اليه جمرك تلمسان (وقد كان يتقاضاه جنويزى ويهودى لحساب الامبراطور) ، لان صاحب تلمسان لم يبق لديه ما يدفع به حاجته وما يجعله يقوم بواجباته نحــــو اسبانيا ··· ويتعهد ان لا يقع نصارى فى الاسر داخل المملكة وان يقتل من يقاتــل النصارى وان لا تهاجم وهران ما دام هو على العرش ···

واقام حاكم وهران أسابيع بتلمسان يحارب القبائل وينهب ارزاقهم ويأسر اطفالهم وكان النصر تارة لفريق وتارة لآخر والنتيجة واحدة : لم يبق لبنى زيان امر ينفذ ولا مستقبل مضمون وان قضية نهايتهم قضية أعوام فقط ريثما يستعد اتراك الجزائر ·

وبقي الاسبان يصولون ويغيرون المرة تلو الاخرى لا يرضون بغير مطيع ذليـــل على رأس تلمسان وأمر بنى زيان يتقلص يوما بعد يوم ، والناس فى شغل عنهم وقـــد هاجر بعض الاعيان الى فاس وخاصة بعد ان فرضت الدولة السعدية وجودها ·

وما انتصف القرن السادس عشر حتى وحد مولاي محمد الشيخ المغرب الاقصى ثم وجه كل جهوده نحو الجهات الشرقية وهاجم ندرومة ثم تلمسان التى احتلها مرة أولى سنة 1550 · مغتنما ضعف صاحبها متوقعا استيلاء الاتراك عليها · فقام حسن باش بن خير الدين لمحاربة السعدى وصده أولا من غرب الجزائر ثم أخرجه من تلمسان وتقدم جيش حسن قرصو السفاح وعلى ساردو الى نهر الملوية ·

وكانت هذه الحوادث تجرى والحسن بن عبد الله الزيانى متفرج داخل قصره وقد تركه هذه المرة حماته الاسبان ـ فبقي مدة رهينا ثم أعلن صالح رايس عن الحاق تلمسان بايالة الجزائر ·

وعن نهاية هاته الدولة تعددت الروايات وتضاربت فى أمر التاريخ وأمر الظروف ·

قال الناصرى نقلا عن الونشريسى « قدم حسن بن خير الدين التركى فاستولى على تلمسان فى اواسط شعبان سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وأخرج منها الامير أحمد بن الامير عبد الله ووزيره منصور بن أبى غانم ولحقا بدبدو مع من انضاف اليهما من امراء تلمسان وكبرائهم فغدر بهم عمر بن أبى يحيى الوطاسى صاحب دبدو وأخذ أموالهم واعتقلهم وسرح منصورا فى محرم من سنة ثلاث وخمسين وتسمائة واستمرت تلمسان فى يد الترك ··· (الاستقصاء ج 4 ص 161 ···) ويقول بارجيس ان مولاي الحسن ـ أخا الامير أحمد ـ عزله صالح رايس بموافقة علماء الحضرة سنة 1554 ثم أعلن الحاق تلمسان بايالة الجزائر سنة 1555 ·

ويقول پول روف ان مولاي الحسن وهو آخر بنى زيان التجأ الى وهران وتوفى هناك بالطاعون سنة 1556 وان ابنه اعتنق النصرانية وكان يسمى كارلوس وانه اقام مدة باسبانيا الى ان توفى فى عهد الملك فيليب الثانى ·

وكان الاتراك يرون أن امر المغرب الاوسط لا يصفو لهم مع وجود بنى زيان ولذا اغتنموا الحرب مع بنى سعد ليضموا تلمسان بدون صعوبة ·

فكانت حكومة الجزائر قوية ومسلحة وكان هدف البايلاربات آنذاك هو الاستيلاء على جميع المغرب أوسطه وأقصاه وأدناه ولهذا تم صراعهم مع نصارى وهران بالفوز كما آلت محاولات السعديين والعلويين بعدهم لاخراجهم من تلمسان بالفشل ·

وحل محل آل زيان حاكم عسكرى تركى · وتساءل اكثر من مؤرخ انه اذا كان فى امكان ملوك بنى زيان ـ فى القرن 16 م · ـ تدارك الوضع والتغلب على الخطر والقفزة المنقذة التى تطيل بقاءهم وتفرض وجودهم · غير ان تحليل الوضع وتطور الحوادث فيما بعد نحو الانحطاط الشامل ووجود جميع عوامل الاضمحلال فى وقت واحد يبين كل ذلك ان الدولة لا محالة تزول على يد أقوى المتنافسين وكان اقواهم الاتراك الذين كانوا يتتبعون الانهيار السياسى والاقتصادى والعسكرى للمملكة فوثبوا عليها فى الوقت المناسب ·

تلمسان

بين الزيانيين والعثمانيين

1530 - 1554 م

احمد توفيق المدني
وزير مفوض فى وزارة الخارجية

هذه ملحمة من أغرب ملاحم السنوات الاولى من العصر الحديث ، وابعدها اثرا ، واكثرها شراسة • التحم خلالها اعظم جيشين فى العالم يومئذ : الجيش العثمانى • وكان يمثل الخلافة الاسلامية الشرعية ؛ والجيش الاسبانى وكان يمثل آمال المسيحية ، بعد ان حطم سلطان المسلمين بالاندلس ، سنة 1492 م • وبعد ان اعلن بابا روما ان من مات فى صفوفه من المسيحيين مات شهيدا • والى جانب كل من الجيشين العظيمين وقفت جموع أخرى تكون تارة مؤيدة ، وتكون تارة أخرى مترددة ، تغلب الدنيا على الدين ، وتغلب المصلحة الخاصة على الصالح العام ، حسب رأى افل ونظر حسير •

ان ذلك الالتحام الشرس الذى تشابك فيه خصمان شديدان قاسيان ، قد آل بهما الى حرب عنيفة ضروس ، فى الشمال الافريقى ، منذ مطلع سنة 1505 ، امتدت نيرانها

الى داخل البلاد ؛ والتقت عند النقطة الاستراتيجية الهامة ؛ عند تلمسان العظيمة ، ذات المدنية الشامخة ، والامجاد ، التى سجلها التاريخ بأحرف من نور ؛ فالاسبانى يرى فى تلمسان معقلا يجب ان يحد من سلطة الجزائر العثمانية ، ويقف فى طريق تقدمها نحو الغرب ، حيث تكون مهددة لاسبانيا ولبلاد الاندلس بالذات ، وكانت حديثة عهد بالانهيار ولا تزال نيرانها ملتهبة تحت طبقة خفيفة من الرماد ، ذلك بينما كان العثمانى ، سواء كان تركيا أو جزائريا ، يرى ان تلمسان يجب ان تبقى اسلامية ، حرة ، وضاءة ساطعة النور ، ويجب ان تكون محورا للحركات الاسلامية الجديدة ، التنظيمية التى تستعد للوثبة الكبرى ، واستعادة الامجاد ·

انه لا تكفينا مقالة ؛ ولا تكفينا رسالة ؛ وربما لا يكفى مجلد كامل ، لذكر تفاصيل تلك الملحمة العظمى ، والاحاطة بكل جزئياتها ، فهى تشمل كامل البحر المتوسط ؛ وهى تسلك خطا ممتدا من استامبول الى قرطبة ، مارا بالجزائر العاصمة ، وبجاية ، ووهران ، ملتفا التفافا وثيقا حول تلمسان ·

انه يجب علينا ، ونحن نحاول جمع وحشر أكثر ما يمكن من المعلومات حول هذه الملحمة ، فى أقل ما يمكن من الصفحات · أن ندرس فى ايجاز كل أركان هذا المعترك الحاسم الرهيب · فأقول :

الركن الاول : اسبانيا : وحدت اسبانيا دولتها ، وأرهفت حد شوكتها ، وأصبحت منذ سنة 1520 ، تشمل كامل بلاد اسبانيا ، والنمسا ، وبلجيكا ، وهولاندا ، وجزءا كبيرا من المانيا ومن ايطاليا · وقد بارك البابا جهادها ضد الاسلام ؛ وأعانها بفرض ضريبة على المسيحيين دعاها « ضريبة الصليبية » واستمدت جزءا كبيرا من قواها ، مما نهبته من خيرات وأرزاق وذهب القارة الاميركية التى اكتشفت حديثا ، (سنة 1492) أى نفس السنة التى انهارت فيها غرناطة · ثم هى أرادت ، من باب « الهجوم أحسن وسائل الدفاع » أن تغتنم فرصة الانحلال الرهيب الذى خيم على بلاد المغرب العربى ، من جراء ملوكه وأمرائه ، لا من جراء شعوبه ، وانغماسهم فى سلسلة من الحروب الداخلية الفتاكة ، بصفة هوجاء ، منكرة ، لا تكاد تدرك لها غاية · ولم يكتف أهل هذا القطر

المغربى ، لسوء حظهم ، بمحاربات دولة لدولة ، أو ملك لملك . انما داخل كل دولة ، وحول كل ملك ، كانت الدسائس ، والفتن ، والمؤامرات ، والقتل ، وما يتخلل ذلك من هـــول ومن فظائـــع ، هى القاسم المشترك الاعظم ، الذى أردى البلاد ، وحطم قواها ، وجعلهـا فريسة لكل مفترس : انحلال فى تونس ؛ واختلال فى بجاية ، وفوضى فى شتى انحـاء الوسط ، وثورات لا تعرف أولا ولا آخرا فى تلمسان ؛ وانهيار دول وقيام دول بالمغرب الاقصى ، ترى من واجبها محاربة الجـار ، قبل الاستعداد لتلقى ضربة العدو . مثـــل ذلك أن أبا سعيد عثمان، ملك المغرب،ارتمى بقضه وقضيضه على تلمسان الزاهرة الغنية، فاحتلها،سنة 1400 ؛ بينما كان الاسبان قد أنزلوا تلك السنة من أسطولهم،جندا ضخما، احتل مدينة تيطوان واستقر بها منذ نفس تلك السنة . وبقى بها ، ولســـــوء الحظ ، خمسمائة وخمســـين عاما .

وكان أمر التدخل الاسبانى متوقعا فى بلادنا . وأى عدو لا يغتنم فرصة ذلك الانحلال الشنيع ، وتلك الفتن والمجازر من أجل عروش واهية ، وحكومات لا تكاد تحكم القصور ، فضلا عـــن حكم الامم ، وجاء النذير ، بصوت مدو ، فظيع ، سنة 1505 ، يحمل اسطولا اسبانيا ضخما ، وجيشا اسبانيا مسيحيا عنيفا ، حط اثقاله عن بلدة « المرسى الكبير » التى بناها بطلنا العملاق عبد المؤمن بن على ، لتكون مقرا لاسطوله العظيم ؛ فاحتلوهـا بعد مقاومة عنيفة ؛ كان الشعب يقاتل فيها ويستبسل ، بمنأى عن القادة النائمين فى تلمسان ، وارتكبوا ما كانوا يعتقدون انه يقربهم من الله ، من ذبح المسلمين ، وفضـــح نسائهم ، وتحطيم ديارهم ، والاستيلاء على خيراتهم .

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة   ونام عنها ، تولى رعيها الاســـد

وما هى الا برهة من الوقت قصيرة ، واذا باسبانيا تنفذ الخطة الثانية من منهاجهـا الكبير : الاستيلاء على كامل المدن الساحلية بالمغرب الاوسط ؛ ثم التسرب منه للداخل ؛ ثم الانقضاض منه على الجناحين : مملكة تونس ، ومملكة المغرب الاقصى ، فنراها تفترس كأسد جائع مدينة وهران الزاهرة ، وما اغنت عن المدينة مقاومة أهلها ؛ واستبسالهـم البطولى فى الدفاع ، فالتهمتها سنة 1509 ، وذبحت ، واحرقت ، وانتهكت الحرمات ،

ونهبت ، الى درجة ان الوحش خيميليس ، الذى يعتقد انه يمثل المسيح عليه السلام ، والذى تولى كبر تلك المذبحة الرهيبة ، قد ذرف الدموع عندما رأى بعينه ما جنته يداه ·

وتوالت النكبات ، وتكررت الجرائم : سنة 1510 احتلت اسبانيا، على الساحل الشرقى الجزائرى ، مدينة بجاية ، عاصمة الحفصيين ، وقد نخر سوس الشقاق والخلاف عظامها حتى لم يبق فيها من رمق للحياة بينما شعبها الواعى كان مدركا وكان عالما وكان شجاعا ؛ فحارب ودافع واستبسل ، وبذل الروح والدماء ؛ وكان مآله الانهيار ؛ فرأى بعين اليأس والحزن تكرار ما وقع من فظائع ومنكرات بالمرسى الكبير ؛ وبوهران ، وتحطمت المدينة ، وخسر الاسلام حاضرة علمية نافست فى يوم من الايام ، فاس ، وتونس ، وغرناطة ·

واستمرت الموجة العاتية على طغيانها : احتلت اسبانيا : عنابة ـ جيجل ـ تنس ـ شرشال ـ مستغانم · فيما بين سنتى 1510 ـ 1511 ؛ وأرغمت عاصمة الجزائر ، جزائر بنى مزغنة ، على الرضوخ والاعتراف بالتبعية ؛ وأسست على بعد بعض مآت من الامتار منها ، برجا عسكريا ضخما ، لا يزال الى يومنا قائم الاركان بعد تجديده ، هو ما يدعى « البنيون » أو صخرة الجزائر · ونسميه اليوم برج المنار ·

الركن الثانى : الدولة العثمانية : فى سنة 1300 ، أسس الغازى عثمان الاول ، وهو زعيم عصبة تركية متينة ، دولة آل عثمان ، فى آسيا الصغرى ، فابتلعت دولة الاتراك السلجوقيين ، وتوسعت ، وتضخمت خلال مائة سنة ، فاذا بها تتجه بانظارها شطر أوروبا ، شمالا وشرقا ، مبتدئة ببلاد البلقان : بلغاريا ، وسربيا ، وورومانيا ، واليونان ، ثم توجه انظارها ، وتوجه جهودها ، نحو بلاد المجر فى قلب ؛ أوروبا ، والمسيحية حائرة ، مشدوهة لا تدرى كيف تجابه ذلك الخطر ، ولقد كانت الدولة على أبواب بودابست وعلى أرباض القسطنطينية ، عندما نزل بها قضاء الله ، متخذا شكل الاعرج تيمور لنك، فينقض بجموعه الوحشية، سنة 1403 على قلب السلطنة، ويفتك فى مدينة انقرة بالسلطان بايزيد فيأسره ويذله ؛ وتنطلق فى أوروبا ، وفى القسطنطينية ، اصوات الفرح والابتهاج ، ويبادر ملوكها ، ويبادر البابا ، بارسال التهانى لتيمورلنك · انه منقذ أوروبا قاطبة ، من حيث يدرى ولا يدرى ·

لقد تأخر سير السلطنة العثمانية نصف قرن بعد ذلك ، نصف قرن كانت تستطيع خلاله الوصول الى تخوم اسبانيا ؛ واذن لتغير مجرى التاريخ ، انما الدولة استعادت ، وكانت نابضة بالحياة ، استعادت شوكتها ، ووحدتها ، ونظامها ، فاذا بها ، وبعد خمسين سنة من الاندحار ، تقدم سلطانها محمد الفاتح الابر ، يدك حصون القسطنطينية، ويفتتحها ويدعوها ، اسلام بول ، وتصيح أوروبا صيحة الفزع والجزع ، ويستأنف العثمانيون زحفهم نحو الغرب الاوروبى ، وكانت أوروبا قد استفاقت من دهشتها ونظرت الخطر الرهيب المحدق بها ، فاخذت تنظم صفوف المقاومة ، على قواعد أخرى ·

كانت الدولة العثمانية تقسم قواها قسمين : قسم يوالى الضربات المدهشة فى أوروبا ، وقسم يحارب الخصم الالد ، الفارسى ، على التخوم الغربية ، وكانت الحرب بين العثمانى والفارسى ، هذا شيعى متعصب لمذهبه ، وذلك سنى متعصب لمذهبه ، كانت قاسية شنيعة ، واذا بالدولة ترى وجوب فتح معركة ثالثة ، على الجنوب ضد سلطان المماليك بمصر وسوريا والحجاز ، السلطان قانصوه الغورى ، الذى رأى ، خوفا على ملكه ، أن يتحزب للفارسيين ؛ فعاجله المعركة السلطان سليم ، القاطع ، ودحره ، ودمر جيشه ، ثم دخل بجيوشه مصر ، وتسلم من آخر خلفاء العباسيين لقب الخلافة مع مفاتيح الحرمين الشريفين ، وذلك سنة 1517 ، ثم تقدم الى ليبيا ، فى مسيرة دافقة نحو الشرق ، فوصل حدود مملكة الحفصيين جنوبا ·

أخذ الخصمان ، يقتربان من بعضهما البعض ، وكأنهما على موعد مع التاريخ ·

الركن الثالث : عروج وخير الدين : بطلان تركيان من أبطال الاسلام ، ومجاهدان مؤمنان ، قلما عرف تاريخ الجهاد فى العصر الحديث ، مثلهما، كانا على رأس أسطول قرصنة عثمانى ، يجاهدان فى سبيل الله ضد العدو المسيحى ، وقادهما الجهاد الاسلامى الى ناحية الغرب ، عندما كان المنكوبون من مسلمى الاندلس يفرون خفافا وثقالا ، بدينهم وبقية دنياهم ، الى العدوة السفلى ببلاد المغرب العربى ، فتعترض سفن اللصوص من اسبان وبرتغال لهم ، وتمعن فيهم نهبا وقتلا وأسرا · فخف اليهم بدافع الايمان والنجدة الاسلامية،عروج،وخيرالدين،ومن معهما،فحموهم،ودافعوا عنهم،ونقلوا منهم حسبما يروى

التاريخ ، بين السبعة آلاف وعشرة آلاف نسمة واشتهر أمرهم وذاع ببلاد المغـــرب العربى ، وأحبهم الناس ، بل قدسوهم ، وذهب وفد من مسلمى بجاية الشهيدة ، وكانا بتونس ، يطلب منهما النجدة والانقاذ • وما هى ان حلت سنة 1512 ، حتى كان البطلان التركيان يقفان وراء أسوار بجاية ، وينضم لهما الابطال المغاوير من أهل البلاد ، فتلك سنة ربطت بـين الجانبين ، العثمانى والجزائرى ، رباطا اسلاميا مقدسا ، حول رايـــة التوحيد ، وفى ميادين الجهاد ، لمدة ثلاثمائة وعشرين سنة من التاريخ ، والتقى الاسبانيون بالعثمانيـين ، وجها لوجه على الارض الافريقية ؛ فما افترقوا ، بعد حروب بذل فيهـــا الفريقان أقصى الجهود ، الا بعد ثلاثمائة سنة ، أى بعد خروج الاسبان مـن وهـران ، وتطهير الارض الجزائرية كلها من أدران الاستعباد الاسبانى •

استمد الجزائريون العون من السلطان سليم ، وهو بمصر ، سنة 1517 ؛ واعلنوا بين يديه انهم يكونون ضمن دول وشعوب الخلافة العثمانية ، فتأسست بذلك ، بعـد انقاذ مدينة الجزائر ، الدولة الجزائرية العثمانية ، التى نمت وترعرعت ، واشتد بأسها ، فأذاقت الامبراطور شرلكان ، واذاقت المسيحية معه ، شر انكسار وانهيار عرفوه الى ذلك الوقت ، سنة 1541 ، تحت أسوار مدينة الجزائر ، حيث تركوا سلاحهم ، وذخيرتهم ، ومتاعهـم ، وانقلبوا خاســئين •

هكذا ؛ وبواسطة عروج وخير الدين ؛ تمكن العثمانيون من أرض الجزائر ، وجعلوها قاعدة من أكبر قواعدهم ، بل كانت أكبر قواعدهم فعلا بالغرب ، ضد المسيحيين كافة •

والتقى الخصمان ، العثمانى والاسبانى ، فوق أرض الجزائر ، فكان لقـاء بطوليـــا ـ والتاريخ لا يظلم أحدا ـ وكانت نتيجة هذا اللقاء حوادث تلمسان الرهيبـة ، الى ان وقع القضاء على دولة ـ أو دويلة ـ بنى زيان ، فى آخر عهدها • وما كان ليقضى عليها ، حسبما اعتقد ، لولا تناحر زعمائها ، وتقاتل ملوكها ، وعدوان جيرانها ، وتشتت شمل شعبها •

تلمسان خلال خمسين سنة :

خلال سنة 1517 ، وقد انقذ العثمانيون الجزائريون مدينة تنس ، من الاسبان ، ومن الدعى الزيانى بها حميد العبيد ، الذى ملك تحت حماية ورعاية الاسبانيين ؛ جاء المدينة

وفد عظيم فى عدده ، وفى قيمة رجاله ، من مدينة تلمسان ، يطلب من العثمانيين مددا ضخما ، لانقاذ عاصمة بنى زيان من حكم السلطان أبى حمو الثالث ، الذى رضخ ـ وربما رضخ مرغما ـ لاحكام الاسبان ، وأعطاهم عهودا ومواثيق ، وساءت حالة البلاد تحت حكمه سوء مبينا ، وطلبوا ارجاع الملك الشرعى أبى زيان ٠

هب عروج على رأس رجاله الى تلمسان ، فتقبلهم أهلها ، على ما اتفق عليه المؤرخون، بجذل وبحبور ، ففر ابو حمو الثالث ، الى وهران يطلب اعانة اسبانيا ؛ بينما ارجـــع عروج الملك أبا زيان ، الى عرشه الذى أقصى عنه ٠

انما تغير الحال سريعا ٠ فعروج اراد الاستقرار بالمدينة ، وترك حامية بها ، من أجل ضمان النظام ؛ بينما ابو زيان ، وقد تعصب له جمع عظيم من التلمسانيـــين ؛ ارادوا رحيله ، بعد أن حقق الامل ٠ وأبعد السلطان الخاضع ، ووقعت قلاقل استثمرها الاسبان، ولقى فيها البطل عروج ، بعد انسحابه من تلمسان ، مصرعه ، بصفة بطولية ٠

ثم انقلبت الحالة فى السنة الموالية ٠ فالملك ابو سرحان المنصور ، قد خلع سلطة ابى زيان ، ونصب نفسه ملكا على ذلك العرش الذى كان من ذهب ، فاصبح من قصب ، وتعهد بالانضواء تحت راية الجهاد العثمانى ٠ ثم خان العهد ، وقلب ظهر المجن للعثمانيين٠

لكن شقيقه عبد الله الثانى ، ثار عليه ، وطلب النجدة من العثمانيين بالجزائر ، فأمدوه ونصروه ، وبقى بتلمسان ملكا ، مواليا للجامعة الاسلامية ، مؤيدا للجزائر ولحكمهـــا ، الى ان توفاه الله ٠

انما كان الملك محمد السابع ، مذبذبا بعد ذلك ، اتبع الاسبان حينما ، تاثر بعهودهم ووعودهم ، ثم أدار وجهه شطر الجزائر ، وتاب وأناب ؛ فاصبح مرتابا من الجانبين ، الى ان مال نهائيا للاسبان ، فحاربه الجزائريون ، واطردوه من تلمسان ، فالتجأ الى وهران مستجيرا ، ورجع الى تلمسان ، مع رجال اسبانيا ، وخيلها ، واعتلى من جديد ، ذلـــك الكرسى المحطم ٠

انما كان للانتصار العظيم الذى أحرزه العثمانيون على الاسبان ، وتحطيمهم شوكتهم برا وبحرا ، سنة 1541 ، رنة فرح وحبور بكامل العالم الاسلامى ، قرعت آذان تلمسان،

وهبت لها قلوبهم المليئة بالايمان ، فثاروا على حكم محمد السابع ، واطردوه · وذهب ـ كما ذهب من قبله ـ الى وهران ، يطلب من الاسبان النجدة والاعانة ، بينما تولى أمر تلمسان ، الملك ابا زيان أحمد ·

أعاد الكرة محمد السابع ، يريد الانتقام من التلمسانيين ومن العثمانيين معا · وجاء على رأس جيش مؤلف من اسبان ، ومن متعاونين عرب ، وما اغنى عن العثمانيين وانصارهم ، انتصارهم فى معركة شعبة اللحم ، سنة 1543 ؛ فالاسبان ، والملك الخسيس محمد السابع ، اغتنموا فرصة نادرة ، ووثبوا على تلمسان ، فاحتلوها ، واستباحوا حماها الرفيع ، وفضحوا حريمها ، ونهبوا خيراتها ، وقتلوا من أهلها جمعا غفيرا ، وانسحب ابو زيان أحمد الثانى ، مع من معه من عثمانيين وتلمسانيين ·

انما حضرة تلمسان الشريفة ، الغنية برجالها ، وبعلمائها ، وبثروتها الادبية الطائلة ، ثارت على الملك الخسيس عندما خرج لمحاربة أخيه ، وارجعوا اخاه الملك أبا زيان أحمد ، الذى كان محتميا بالعثمانيين ·

لكن اسبانيا كانت لها قبل امريكا الحديثة هياة (C.I.A) أى هيأة استعلامات وجوسسة على المستوى الرفيع ، فلعبت اخيرا بعقل ابى زيان ، واستمالته ، وما ان ادرك شعب تلمسان ، اليقظ ، الحازم ، ان ملكه قد خان ، وانقلب ، ثار عليه ، وأبعده ، وبايع خلفا عنه ، أحد أخوته ، الملك الحسن ، الذى كان مواليا للعثمانيين ·

لكن خطرا جديدا كان ينتظر المملكة،وينتظر الملك· فالسلطان الشريف محمد المهدى، مؤسس دولة الاشراف السعديين ، بالمغرب الاقصى ، رأى من اختلال الملك وتمزق الشمل بتلمسان ما اطمعه فيها ؛ وأراد تحقيق الامنية العزيزة الغابرة ، التى خامرت ملوك المغرب الاسبقين، باحتلال تلمسان ، وضمها الى المملكة الناشئة ؛ فهاجم المدينة بقوة وعنف ، وتمكن منها ، واحتل بعد ذلك مدينة مستغانم ، ولربما كان يريد التقدم الى ما وراءها ؛ لولا أن العثمانيين وأنصارهم قد أعادوا الكرة ، ودحروا جيش الشريف ومزقوه شذر مذر ، واسترجعوا تلمسان المثخنة الجراح ، وأعادوا الكرسى ، لكن لآخر مرة ؛ للسلطان الحسن ابن عبد الله الثانى ·

فهذا الملك ، وكان تحت حماية العثمانيين ، قد التجأ ، كما التجأ قبله غيره من الملوك المتأخرين ، لشيء من الاستهتار ، وسلك سيرة قبيحة ، أنكرها عليه أهل تلمسان عموما ؛ فجمعوا مجمعا من علمائهم الكبار ؛ وأعلنوا سنة 1554 ، خلع الملك الحسن ، كما أعلنوا نهاية دولة بنى زيان ، المؤسسة سنة 1236 ؛ والتى سمت فى أول عهدها سموا عظيما وبذلك أصبحت تلمسان ، والى الابد ، درة لامعة فى تاج الوحدة الجزائرية ، وبدرا ساطعا ، يشرق بعلمه ، وفضله ، وعمله ، على كل الآفاق ، بهذه الديار ، التى تطهرت نهائيا من كل استعمار .

الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين

محمد الطالبي
استاذ بقسم التاريخ
جامعة تونس

ريح الهجرة

لا شك أن الهجرة الاندلسية أثرت تاثيرا بليغا فى المجتمع الافريقى • ولقد بقى هذا التأثير بارزا الى يومنا هذا فى الفن المعمارى ، والفلاحة ، والصناعات ، وحتى فى بعض العادات والتقاليد ، زيادة عن اسماء بعض العائلات التى تذكرنا بأصلها الاندلسى ، وبمكان مقرها الاول الذى منه نزحت نحو افريقية • ونحن نعتقد ان هذه الهجرة ، لاهميتها فى تاريخ افريقية ، فى حاجة الى دراسة مستقلة وعميقة ، تستوعب كل النصوص والمصادر ، وتبرز لنا بصفة واضحة الدور الذى لعبته الجالية الاندلسية فى حياتنا القومية بمختلف مظاهرها السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية • ان هذه الدراسة ممكنة وأكيدة ، ولعل المصادر ، بالنسبة اليها ، أوفر مما هى بالنسبة لنواحى اخرى من تاريخنا • ثم ان الهجرة الاندلسية فى حاجة الى أن تدرس ككل •

ولقد ظهرت الى يومنا هذا دراسات جزئية ، تعرضت خاصة الى الهجرة الاخيرة التى بدأت أيام عثمان داى سنة 1608 ، وأهمها دراسة لاثام (1) (John Derek LATHAM) لكن الهجرة الاندلسية بدأت قبل ذلك بقرون • بدأت من أول عهد الحفصيين ، وأخذت من ذلك الحين تغير وجه البلد تغييرا بليغا فى كل الميادين • ولم تفرد الهجرة الاندلسية أيام الحفصيين ، فى القرن 13/7 ، الا بدراسة واحدة مستقلة تعرض فيها الحبيب ابن الخوجة (2) الى ذكر جملة من الوافدين على افريقية فى ذلك العضر من علماء الاندلس وأدبائها • ونحن نريد هنا ان نضيف الى هذه الجهود المبذولة بعض الملاحظات والتقييدات الجديدة ، لعلنا نشجع بذلك بعض الباحثين على اختيار الهجرة الاندلسية ، كظاهرة كلية ، موضوعا لدراستهم •

ان القلق أخذ يساور صدور مسلمى الاندلس من يوم عقبت الحيبات المتتالية والفتن المتتابعة انتصارات المنصور بن ابى عامر الباهرة • فاضمحلت الخلافة ، وحل ملوك الطوائف مكانها ، وأخذ النصارى يسلكون سياسة منسقة لاسترجاع البلاد من يد المسلمين • وكان المسلمون منقسمين أشد الانقسام ، لا يخرجون من العكوف على اللذات الا لبث عقارب السعاية والفتن بينهم مما يتيح الفرص للنصارى للتدخل فى شؤونهم وتسديد الضربات القاسية نحوهم • وكانت أول ضربة حاسمة أصابتهم فى الصميم سقوط مدينة طليطلة ، عاصمة امارة ذى النون ، بين يدى الاذفونش السادس فى منتصف محرم سنة 478/منتصف ماى 1085 • أخذها الاذفونش (Alphonse) هذا من يد صاحبها القادر بالله بن المامون يحيى بن ذى النون بعد حصار دام بضع سنوات • ولعله يحسن أن نذكر ، على سبيل المثال أنآخر ملوك طليطلة من المسلمين كان مولعا ببناء القصور

(1) John Derek LATHAM, *Towards a study of Andalusian Immigration and its place in Tunisian History,* dans *Cahiers de Tunisie,* 19-20, 1957, 203-252 ;

انظر أيضا ، فيما يخص الدراسات الاخرى فى هذا الصدد :

Miguel de EPALZA, ***Recherches récentes sur les émigrations des "Moriscos" en Tunisie,*** dans *Cahiers de **Tunisie,*** 69-70, 1970, 139-147 ; et ***Moriscos y Andalusies en Tunez durante el siglo*** XVII, dans *Al-Andalus,* XXXIV (1969), 247-327.

(2) محمد الحبيب ابن الخوجة ، الهجرة الاندلسية الى افريقية فى القرن 13/7 ، فى : *Cahiers de Tunisie,* 69-70, 1970, 129-136

بينما كان الخطر يقرع عليه الابواب . فقد حكى ابن بـــدرون (توفى بعد 1211/608) ما نصـــه : (1)

« ان المأمون يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة بنى بها قصرا تأنق فى بنائه ، وانفق فيه مالا كثيرا ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة ، وسيق الماء الى رأس القبـــة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطا بها متصـــلا بعضه ببعض . فكانت القبة فى غلالة من ماء سكب لا يفتر ، والمامــون بن ذى النـــون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل . فبينما هو فيها اذ سمع منشدا ينشد :

أتبنى بنـــاء الخالدين ، وانما بقاؤك فيها ، لو علمت ، قليل .

لقد كان فى ظـــل الاراك كفاية لمن كل يـوم يعتريه رحيـــل .

فلم يلبث بعد هذا الا يسيرا حتى قضى نحبه » .

قضى المأمون نحبه . وخرجت طليطلة من يد ولده خروجا بلا رجعة ، نتيجة للانفاق فى اللذات عوض اعداد العدة للطوارىء . ولم تكن وقعة الزلاقة Sagrajas 22رجب 2/479 نوفمبر 1086) التى انتصرت فيها جيوش الملثمين على الاذفونش ـ وقد هبت من المغـرب الى نجدة الاندلس بقيادة يوسف بن تاشفين ـ الا صرخة فى وادى ، أخرت ساعة القضاء من دون ان تحسم الداء ، اذ «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (2) ، ولـم يغير مسلمو الاندلس مما بأنفسهم شيئا ، ولم يرجع اليهم انتصار الزلاقة طليطلة . ولم يتركوا الانهماك فى اللذات والسعاية والفتن ، ليسلكوا سبيل التكتل والجد أمام الخطر السافر الذى يهددهم ، بل نقلوا أمراضهم الاجتماعية لمن هبوا لنجدتهم . وهكذا استولت على مسلمى الاندلس عقلية انهزامية يصورها لنا أحسن تصوير الشاعر الاندلسى عبد الله ابن فرج اليحصبى المشهور بابن العسال ، حيث يقول :

(1) عبد الملك بن عبد الله بن بدرون ، كمامة الزهر وصدفة الدر ، شرح قصيدة ابـن عبدون ، ط القاهرة 1921/1340 ، ص 271 . وقد أورد هذا النص المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، بيروت 1968 ، ج 4 ص 353 .

(2) الرعـد ، 13 : 11 .

يا أهل اندلس حثوا مطيكم فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات فى سفط

قال ابن العسال هذه الابيات عند ضياع طليطلة (1) ، وهى ترشح كلها بتلك العقلية الانهزامية التى تحدثنا عنها ، والتى كانت السبب العميق والحقيقى الذى تولدت عنه الاحداث ، تلك الاحداث التى لم تزد على ان تحقق ـ على مراحل ـ النتائج الحتمية لعقلية الانهزام وما يتبعها من انغماس فى زائل اللذات،والتهام الفرص قبل دق الجرس٠ والامر الثانى الذى يتجلى أيضا بكل وضوح من هذه الابيات ، والذى ينبغى التاكيد عليه لادراك كل أبعاد الهجرة الاندلسية الاجتماعية والنفسية ، هو أن مسلمى الاندلس ـ وهم فى أغلبيتهم الساحقة من ابناء البلاد الاصيلين ـ كانوا يشعرون أنهم أجانب ، وانهم بأرض ليست بارضهم ، حان وقت حث المطايا لمفارقتها ، كأن الاسلام كان بالنسبة اليهم بتا وغرابة ، وكأن انتسابهم الى اللغة العربية اجتث العروق التى تربطهم بتربتهم وولد فيهم شعور الغرباء الدخلاء ، وكل ما ينشأ عن ذاك الشعور من تصرفات ٠ ومما يصور احسن تصوير هذه العقلية ، قول شاعر مجهول يورده المقرى (2) هكذا :

يا أهل اندلس ردوا المعار فما فى العرف عارية الا مردات

هكذا كان القوم يشعرون انهم استعاروا الى اجل ارضا غير ارضهم ، أو انهم منحوا عارية (3) لا بد ان ترد الى اصحابها الشرعيين ، بعد استيفاء ما منحوا من غلتها ٠ ولم يكونوا فى الحقيقة بالغرباء ولا الدخلاء ، اذا ما استثنينا نفرا قليلا من الوافدين من المغرب والمشرق ، قد امتزجت دماؤهم منذ قرون بدماء أهل البلد الاصيلين ٠

---

(1) المقرى ، نفح الطيب ، ج 4 ص 352 ٠

(2) نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، بيرو ت1968 ، ج 4 ص 352 ٠

(3) انظر فيما يخص حكم العارية مدونة سحنون ، ط بيروت بغير تاريخ ، ج 15 ص 162 ـ 173 ٠ انظر أيضا دائرة المعارف الاسلامية فى مادة : Cariyya ٠ ولعل فى هذا دلالة على أن صاحب الشعر كان من الفقهاء ٠

وهكذا كان النصارى يحفزهم داعى استرجاع الوطن المغصوب ، بينما كان المسلمون يحدوهم حنين اللجوء الى وطن الاسلام · تظافرت هذه العقلية وتلك على فتح باب الهزائم والهجرة · غير انه ان لبى دعوة ابن العسال بعض سراة القوم ، فان سيل الهجـــرة لم يبدأ بعد فى التدفق · فلقد اظهر النصارى فى أول امرهم بعض تسامح مع المسلمين الذين رضوا بالبقاء بديارهم تحت حكمهم ، مما شجع الكثير منهم على التشبث بتربـــة اجدادهم · لكن هذا التسامح لم يعمر طويلا · فسرعان ما أخذ النصارى يفرضون سياسة التمسيح ، ويحولون المساجد الى كنائس · ففى ربيع الاول من سنة (1) 498 نوفمبـــر ديسمبر 1104 حول مسجد طليطلة الجامع الى كنيسة ، ويصف لنا ابن بسام ، فى عبارة مؤثرة ، كيف ودع « الشيخ الاستاذ المغامى » هذا الجامع وكان « آخر من صدر عنه » بعد ما « سجد به واقترب ، وبكى عليه مليا وانتحب ، والنصارى يعظمون شأنه ، ويهابون مكانه ، لم تمتد اليه يد ، ولا عرض له بمكروه احد » · (2)

عندها بلا شك بدأ النزوح عن دار الكفر بصفة ملحوظة · غير ان امواج النازحين لم تعبر هذه المرة البحر ، ولقد وجد النازحون ، فيما بقى من أرض الاندلس بيد المسلمين ، ملجأ يمكنهم فى آن واحد من الفرار بدينهم والاحتفاظ بعوائدهم ·

ثم ارجع الموحدون شيئا ما الاطمئنان الى النفوس · غير انه لم يلبث ان تبدد الحلـم ، وهتك الستر المقام دون الحقيقة المرة هتكا لم يصلحه بعد رتق أبدا · فلقد ذهبت كارثة العقاب Las Navas de Tolosa (1212/609) بنشوة الارك (Alarcos : (1195/591) واعاد ابراهيم بن الدباغ الاشبيلى صرخة ابن العسال :

وقائلة : أراك تطيـــل فكـــرا	كانك قد وقفت لدى الحســـاب
فقلت لها : أفكـــر فى عقـــاب	غـدا سببا لمعركـة العقـــاب
فمـا فى ارض انـدلس مقـــام	وقـد دخل البلا من كل باب ( )

(1) المقرى ، نفح الطيب ، ج 4 ص 447 ؛ وص 483 — 486 فى رثاء طليطلة ·

(2) ابن بسام ، الذخيرة ، القاهرة 1945 ، ج 4 ص 132 · انظـر أيضا نفـح الطيب ، ج 4 ص 447 ·

(3) المقرى ، نفح الطيب ، ج 4 ص 464 ، والعقاب ، ج عقبة ، اسم للمكان الذى دارت به المعركة ، وكان كثير العقاب ، مما عاق الخيل فى حركاتها وكان من اسباب الكارثة ·

ونجد فى صرخته هذه تلك العقلية الانهزامية التى تحدثنا عنها ، وتلك الدعوة الى مغادرة السفينة قبل الغرق • فهو لم يدع أهل بلده الى التكتل امام الخطر ، والى تغيير ما بنفوسهم من اسباب الانقسام والانهزام، حتى يغيروا الوضع• كل ما اسفرت عنه محاسبة النفس ، والتفكير فى العقاب ، هو انه : « فما فى أرض اندلس مقام » •

ففى هذه العقلية ، وفى هذه الدعوات المتكررة الى ترك « الدار تنعى من بناها » ، يجب ان نبحث عن العوامل العميقة التى آلت الى خروج الاندلس من يد ابنائها من المسلمين ، وخروجهم عنها ، أولا فرارا واختيارا ، وآخرا قهرا واضطرارا • واما تلك السلسلة المتواصلة من الانهزامات المتتالية فما هى ، بالنسبة لهذه العوامل العميقة ، الا كتلك الامواج المزبدة التى تعلو سطح البحار وتجلب الانتباه بجلبتها ، فى حين انها ليست سوى عروض سطحية ، اسبابها تكمن فى التيارات الخفية التى تخترق اعماق المياه ، أى اعماق النفوس • فالهجرة ، أى مغادرة السفينة الاندلسية وشأنها ، قد هيأت لها اذن عقلية انهزامية انتهازية استولت على النفوس منذ قرون• فكان امراء الاندلس وكبراؤها يحتسون الكأس حتى الثمالة ، قبل ان يفوزوا بانفسهم وبما استطاعوا من أموالهم • فاول من غادر الاندلس من المسلمين هم سراتها ونخبتها •

منطقة ضغط منخفض

لماذا قصدوا افريقية خاصة ؟ كان ذلك لاسباب عديدة ، منها ان الاسرة الحفصية ـ التى كان مؤسسها ابو محمد عبد الواحد (604 ـ 1207/618 ـ 1221) احد ابطال انتصار الارك ـ قد استقرت بالاندلس (1) قبل انتقالها الى افريقية • فكان الحفصيون يميلون لاهل الاندلس ويقدرون مواهبهم لخدمة دولتهم وسياستهم ، فيحسنون لذلك وفادتهم • وكانت خاصة افريقية تشكو انهيارا دمغرافيا تواصل من منتصف القرن الرابع عشر ، وجعل منها منطقة ضغط خفيف ، أى قطب جلب بشرى لا دفع • فكان الوافدون من الاندلس يجدون مجالا واسعا لاستثمار مواهبهم فى قطاعى التجارة والصناعة على الخصوص ، زيادة عن الحقل الثقافى والادارة والبلاط • وكانت افريقية تمثل فى نظرهم

(1) انظر ابن خلدون، العبر، ج 6 ص 579 ، 580 ، 581 ، 595 ، 611 — 614 ، 615 — 616 •

ـ فى ذلك الحين ـ الملاذ الاخير لما كانت تتمتع به من استقرار ومناعة نسبية • فاليهـــا اتجهت انظار ابن مردنيش عندما دقت ساعة الحق ، وكبسته ببلنسيه جيوش آرغـــون (Aragon) فى رمضان سنة 635/ابريل ـ ماى 1238 ، فأوفد كاتبه ابن الابار الى أبى زكرياء مستصرخا ، فأدى له البيعة ، وأنشده فى حفل مشهود سينيته الشهيرة : (1)

أدرك بخيلك ، خيل الله ، أندلســا   ان السبيــل الى منجـاتها درســا

وكان السبيل حقا قد درس • فلم يستطع الاسطول الذى ارسل به أبو زكـــرياء مشحونا بالطعام والاسلحة فك الحصار على بلنسية ، فاستفرغ المدد بدانية ، وسقطـت عاصمة ابن مردنيش •

ذلك ان المملكة الحفصية كانت أضعف من أن تستطيع نجدة الاندلس • لقد كانـت مجبورة على مسالمة نصارى اسبانيا وصقلية واشتراء صداقتهم بالمال وبأنواع التنازلات• فبينما كان النصارى يفتكون عواصم الاندلس الاسلامية الواحدة تلو الاخرى ، كان ملوك بنى حفص يهادونهم ، ويفسحون المجال لفنادق تجارهم وقناصلهم ، ويسمحون لرهبانهم بفتح مدارس (Studium arabicum) يريدون أن يجعلوا منها مراكز تبشير بالمسيحية ، وربما لجأ بعضهم ، كابن اللحيانى (711 ـ 1311/717 ـ 1317) ، الى الايهام بانه يرغب فى التنصر (2) • وكانوا يعترفون لملوك نصارى اسبانيا ، فى رسائل تطفح بالـــود ،

(1) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 601 — 604 •

(2) Ch. - E. Dufourcq, L'Espagne et le Maghrib aux XIII^e et XIV^e siècles, Paris 1966, p. 106-110 ; 488-494.

يحسن أن نذكر ـ كى نضع القضية فى احداثياتها ـ أن حركة التبشير عرفت نشاطـا كبيرا وغذاها حماس قوى ابتداء من القرن 13/6 • فأخذ الرهبان يتعلمون العربية بحماس ويحدثون لذلك المدارس : وأخذ الاساقفة ـ بطليطلة خاصة ـ يشجعون ترجمة نفـــائس الكتب العربية • وترجموا فيما ترجموا القـــرآن الى اللاتينية • ففى سنـــة 1236 أوصى « الاخوان المبشرون » (Les Frères Prêcheurs) المجتمعون بباريس بفتح مدارس عربيــة (Studia Arabica) فى كل المناطق التى يتجاور فيها المسلمون والنصارى • ففى سنة 1250 نجد بمرسية ديرا يحذق رهبانه حذقا جيدا معرفة العربية والقرآن • وفى نفس الـوقت كان المستنصر الحفصى سمح ـ بطلب من جاقمو الغازى (Jacques 1er le Conquérant 1213-1276) ملك أرغون ـ بفتح مدرسة عربية (Studium arabicum) أسسها الدمينكيون (Dominicains) =

بسيادتهم على ما تغلبوا عليه من ديار الاسلام • ولعل من أحسن النماذج فى هذا الصدد رسالتان لابن اللحيانى نورد نصهما فى ذيل هذا المقال • فان كانت استولت اذن على الاندلس عقلية انهزامية ، فان المملكة الحفصية كانت تشكو فى كل المستويات انخفاضا خطيرا فى الضغط الحيوى والوعى السياسى ، ففى هذه الظروف بدأت جموع الاندلس تفد عليها •

جالية شرق الاندلس

ان سقوط طليطلة لم يؤد الى هجرة تذكر نحو المغرب وافريقية ، وكذلك وقعة العقاب• انما الهجرة بدأت بعد بضع أحقاب، بعد خروج مدن الاندلس الكبرى من يدى المسلمين• سقطت قرطبة سنة 633/1236 ، وتلتها بلنسية بعد ثلاث سنوات (636/1238) ، وأتى دور مرسية سنة 666/1268 على يدى الفونص العاشر ملك قشتالة • واشتدت النكبة على المسلمين فى دينهم • فانهم كانوا ـ بالرغم من بعض مظاهر التسامح ـ محل ضغوط عديدة تجبرهم على التنصر أو مفارقة البلاد • وقد تنصر منهم الكثير من عامتهم ، ومن امرائهم وقادتهم (1) • وكانت الاراضى تنزع ممن احتفظ بالاسلام ، وتوزع على

= وكان من أبرز شخصيتها رامون مارتى (Ramon Marti 1230-1286) « خنجر الايمان المسلول على المسلمين واليهود » (*Pugio Fidei adversus Mauros et Judaeos*) •

وكان رامون مارتى من المتضلعين باللغة العربية ، وينسب له معجم عربى ـ لاتينى • وكذلك نجد « مدرسة عربية » باشبيلية سنة 1256 • وأسس رامون لول (Ramon Lulle) ـ وهو أبرز شخصية فى عصره فى ميدان الاستشراق والتبشير ـ سنة 1276 ، مدرسة ميرامار الشهيرة بميورقة • وألف رامون لول كتبا عديدة فى اللغة العربية وقضى كامل حياته يسعى سعيا حثيثا للتبشير بلسانه وقلمه • وتحت تأثيره فتحت مدارس عربية عديدة ، ابتداء من سنة 1311 ، بأكسفورد ، وباريس ، وسلمكة ، وروما وغيرها •

فهل من حاجة الى التذكير بان المسلمين لم يقوموا بأدنى نشاط من هذا القبيل ؟

(1) فلنذكر على سبيل المثال أنه قد تنصر طوعا ، وعن طيب خاطر ، حفيد لعبد المؤمن ابن على ، مؤسس الاسرة الموحدية ، وهو أبو يزيد بن ابى عبد الله بن ابى حفص بن عبد المؤمن• لقد كان أميرا على بلنسية ، فتركها ، ودخل بلاد النصارى ، واعتنق النصرانية انظر ابن خلدون ، العبر ج 6 ص 653 •

عائلات مسيحية تستقدم من الشمال كي تحل محل المسلمين · ولقد ثار مسلمو بلنسية ثورة عظيمة دامت ثلاث سنوات (1254 ـ 1257) ، وأدت الى ردود فعل عنيفة واتخاذ قرارات طرد ضدهم (1) · فاضطر هكذا مسلمو شرقي الاندلس الى اللجوء الى غرناطة ، والمغرب ، وافريقية خاصة ، حيث كونوا جالية هامة متميزة عن غيرها · ان قرارات الطرد لم تنفذ في هذه المرة بالصرامة التي اصطبغت بها سنة 1609 · غير أن جاقمو الغازي كان يشجع مسلمي شرق الاندلس على مغادرة البلاد والانتقال الى المغرب ، لا سيما وأن ثوراتهم قد تكررت سنة 1258 وسنتي 1275 ـ 1276 · كل هذه العوامل أدت الى هجرة لا شك انها كانت هامة وكثيفة ، وان لم تكتس شكل نزوح كلي كما كان الشأن بالنسبة لسنة 1609 ·

غير أن المصادر كعادتها لا تعتني الا بالحوادث والوقائع ودسائس البلاط ، وتهمل النواحي الاجتماعية والاقتصادية والحضارية عامة·فهي اذن لا تزيح لنا الستار عن هجرة شرقي الاندلس الا عرضا ، وبصفة مجملة غير مفصلة ، عندما تقص علينا نكبات بعض أعيانها ممن ارتقى قمة المراتب البلاطية · فابن خلدون ، عندما يقص علينا « خبر نكبة ابن ابي الحسين » ، الذي كان رئيس الدولة أيام المستنصر (647 ـ 1249/675 ـ 1277) ، يروى لنا ان ذلك كان في أول أيام الواثق (675 ـ 1277/678 ـ 1279) بسعاية من أبيالحسن يحيى بن عبد الملك الغافقي المعروف بابن الحببر ، ويضيف أن هذا كان « اندلسيا من أعمال مرسية ، وفد مع الجالية من شرق الاندلس أيام استيلاء العدو » · (2) ويذكر لنا عند حديثه عن حجابة ابي عبد الرحمن بن غمر ما يلي : « كان جده محمد فيما حدثني أهل بيتهم قاضيا بشاطبة، وخرج مع الجالية أيام العدو الى تونس، ونزل بالربض الجوفي ايام سلطان ابي عصيدة » (3) (694 ـ 1295/708 ـ 1309) ·

(1) قد ظهرت في هذا الصدد دراسات عديدة وقع تحليلها في بحث بيبليوغرافي في المجلة التاريخية الفرنسية · انظر :

Ch. - E. Dufourcq et J. Gautier - Dalché, *Histoire de l'Espagne au Moyen-Age (Publications des années* 1948-1969), dans **Revue Historique,** n° 498, Avril-Juin, p. 469-473. Voir aussi, Ch. - E. Dufourcq, *L'Espagne* **Catalane,** p. 186-189.

(2) العبر ، ج 6 ، ص 677 ·

(3) نفس المصدر ، ص 724 ·

وكذلك عندما يقص علينا كيف أنزل أبو يحيى أبو بكـر الثـانى (718 ـ 1318/747 ـ 1346) ابنيهعزوز وخالد بسوسة ، يقول : « وأنزل معهما محمد بن طاهر من صنائع الدولة ومن بيوت أهل الاندلس القادمـين فى الجالية ، ورئاسة سلفهم بمرسية معروفة فى أخبـار الطـوائف » • (1)

ويلاحظ أن ابن خلدون يستعمل فى كل الحالات كلمة « جالية » • لم يكن القـدوم اذن فرديا ، بل كان جماعيا ، وهذا ما ينبغى أن نؤكده • وهذه الهجرة الجماعية تواصلت وتجددت بتجدد النكبات • لقد بدأت الهجرة من شرقى الاندلس بعد ضياع بلنسيـة (1238/636) ، وتواصلت فيما بعد الى أيام ابى عصيدة ، وبعده بدون شـك ، عـلى نسق تمليه الضغوط وما يتبعها من ثورات، وضروب القمع وما تخلف من ويلات تحمل على هجر الديار عندما يستنفد الصبر ، وتغتصب الارض ، وتسد أبواب الارتزاق ، مـا لـم يشتـر المـرء دنيـاه بدينـه •

جاليـة غـرب الانـدلس

وهناك مجموعة أخرى من اللاجئين الاندلسيين الذين استقروا بافريقية ، يتحدث عنها ابن خلدون كمجموعة متميزة عن مجموعة شرق الاندلس ، وهى جالية غرب الاندلس التى أم أفرادها المملكة الحفصية بعد ضياع اشبيلية (1249/646) • ويذكر لنا ابن خلدون أن هذه الجالية كانت مقربة أكثـر من الاولى من طرف أبى زكرياء ، مـؤسس الدولة الحفصية ، ومن طرف أبنائه من بعده • فهو يروى لنا أنه « كانت لأهل اشبيلية خصوصا من بينالاندلس وصلة بالامير أبىزكرياء بن عبد الواحد بن أبىحفص وبنيه،منذ ولايته غرب الاندلس » (2) وعندما يقص علينا كيف ارتقى ابن الدباغ الى الحجـابة ، يضيف : « وكان من خبر ابن الدباغ هذا ان ابراهيم أباه وفد على تونس فى جاليـة اشبيلية سنة ستة واربعين (وستمائة) ، فولد هو بتونس ونشأ بها » • (3)

(1) العبر ، ج 6 ص 787 •
(2) العبر ، ج 6 ص 683 •
(3) العبر ، ج 6 ص 711 •

وفى هذه المرة أيضا يستعمل ابن خلدون كلمة « جالية » ، مما يؤكد مرة أخرى ما بيناه من أن النزوح من الاندلس اكتسى صبغة جماعية ٠

عدد اللاجئين الى افريقية

غير ان المصادر القديمة تجهل الاحصائيات والارقام٠لذا فانه يستحيل علينا ضبط عدد الوافدين على افريقية من الاندلس ضبطا مرقما ٠ لكن الامر الذى لامراء فيه هو أن هذا العدد كان هاما ومرتفعا ، لان جموع النازحين عن الاندلس أمت خاصة افريقية ٠ فهذا ابن خلدون يروى لنا أنه « لما تكالب الطاغية على العدوة ، والتهم ثغورها واكتسح بسائطها ، وأسف الى قواعدها وامصارها ، أجاز الاعلام وأهل البيوت الى أرض المغربين وافريقية ، وكان قصدهم الى تونس اكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها » ٠ (1)

ولم يجز الى افريقية « الاعلام وأهل البيوت » فقط ، بل انتقل اليها أيضا أقوام بأجمعهم ، فى بعض الاحيان بعد ما فشلوا فى الاستقرار بالمغرب الاقصى الذى كان أشد اضطرابا من افريقية ٠ وهذا ما وقع لابى الغنم وقومه ٠ فلقد حاولوا أولا الاستقرار بطنجة ، لكنهم غادروها سنة 661/1263 ، بعد ما قتل غدرا بنو مرين أميرها يوسف ابن‌محمد بن عبدالله بن أحمد الهمدانى‌المعروف‌بابن‌الامين٠فعندها ــ يقول ابن‌خلدون ــ (2) « انتقل بنوه الى تونس ، ومعهم صهرهم القاضى ابو الغنم عبد الرحمن بن يعقوب من جالية شاطبة ، انتقل هو وقومه الى طنجة أيام الجلاء ، فنزلوا بها ، وأصهر اليهم بنو الامين ، وارتحلوا معهم الى تونس » ٠

فلقد كان اذن هناك « جلاء » عن الاندلس شمل أقواما بأجمعهم بعد كل نكبة ٠ فلم يغادر البلاد بعض أفراد فقط من ذوى الجاه واليسر ، بل غادرتها جموع غفيرة من عامة وخاصة ٠ وكانت هذه الجموع التى استقرت بافريقية من الكثرة بحيث استطاعت أن تفرض نفوذها فى البلاط والادارة ، وأن تغير وجه البلاد ، فى بعض الاحيان بصفة حاسمة ، فى عدة ميادين ٠ فانه اذن ليس من المغالات أن نقدر عدد أفرادها ببعض عشرات آلاف ٠

(1) العبر ، ج 6 ص 683 — 684 ٠

(2) العبر ، ج 6 ص 625 ، حيث قد حرف اسم ابن الامين الى ابن الامير ٠ انظر أيضا العبر ، ج 6 ص 726 — 729 ؛ و ج 7 ص 382 — 384 ٠

تأثير أهل الاندلس فى البلاط والادارة والجيش

كان من بين أهل الاندلس عدد وافر من المثقفين والكتاب البارعين · فأراد أبو زكرياء الاول (625 ـ 647/1228 ـ 1249) أن يغتنم فرصة قدومهم كى يدعم بهم أركان الدولة التى كان بصدد انشائها ، ويجعل منهم أداة توازن يخفف بها من ضغط شيوخ الموحدين · فاصطنعهم ، واستكثر منهم فى بلاطه وادارته وجيشه ، واسند لبعضهم اسمى الوظائف · فلقد كان الاندلسى الرئيس أبو عبد الله محمد بن أبى الحسين المسير لشؤون دولته ، وكان أسند لابن الابار ، الذى وفد عليه من بلنسية مستنجدا ، كتابة علامته · ولقد بلغ عدد الاندلسيين ونفوذهم بالادارة والجيش مبلغا جعل شيوخ الموحدين يضيقون بهم ذرعا · ذلك أن أبا زكرياء حسب عبارة ابن خلدون ، كان قد « اصطنع منهم رجالا ، ورتب جندا كثروا الموحدين وزاحموهم فى مراكزهم من الدولة » · (1)

فلما ولى المستنصر (647 ـ 675/1249 ـ 1277) أراد أن يقدم بعض تنازلات للحزب الموحدى ، فابعد ابن أبى الحسين ، وأسند وزارته الى شخصية موحدية مرموقة ، فعين لذلك محمد بن ابى مهدى الهنتاتى · لكن الحزب الموحدى لم يعتبر ذلك كافيا ، فدبر ابن أبى مهدى ، بمساعدة « مشيخة الموحدين » عملية انقلاب آلت فى النهاية الى الفشل ، والى تدعيم نفوذ الاندلسيين · فأعاد المستنصر ابن أبى الحسين الى مكانه واعتمد عليه فى تسيير شؤون الدولة (2) ، واصبح مثلا يحتذى لمن بعده · (3)

واستفحل هكذا النفوذ الاندلسى فى البلاط ، وان بقيت المعارضة قوية · (4) فأصبح الاندلسيون من « اهل الشورى » (5) على قدم المساواة مع الموحدين · فانا نراهم يقومون بهذا الدور عندما توالت أساطيل الصليبيين بمرسى قرطاج (668/1270) ، كما نجدهم

---

(1) العبر ، ج 6 ص 627 ·

(2) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 627 ـ 628 ·

(3) العبر ، ج 6 ص 704 ·

(4) فأبن خلدون يذكر لنا مثلا انه مما كان « يسخط به السلطان تفضيل الاندلس وولايتها عليه » (العبر ، ج 6 ص 654) ·

(5) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 667 ·

أيضا بنفس المناسبة فى صفوف الجيش · فابن خلدون يروى انه قد ملئت عندهـــا « سواحل رادس بالمرابطة ، (و) بجند الاندلس ، والمطوعة ، زهاء أربعة آلاف فارس ، لنظر محمد بن (ابى) الحســين » · (1)

وبقي دور الاندلسيين هاما ، بل حاسما أحيانا فى المستوى السياسى ، بعد المستنصر ونحن نكتفى بضرب بعض الامثلة على ذلك من دون استقصاء ، لانه ليس مـــن غرضنا ان نستوفى تاريخ الجالية الاندلسية أيامالحفصيين ، بل كل ما نريد هو لفت النظـــر الى أنها لم تكن تقل خطرا عن جالية سنة 1609 ·

خلف المستنصر الواثق (675 ـ 1277/678 ـ 1279) · وعندها تالق فى سمـــاء الدولة نجم اندلسى آخر أصله من اعمال مرسية ، وهو يحيى بن عبد الملك الغافـــقى المعروف بابن الحببر · فتغلب على الدولة وأذل مشائخ الموحدين ، ويصف ابن خلدون ذلك فيكتب : « واستبد ابو الحسن (بن) الحببر على الدولة والسلطان ، وبعث أخـــاه أبا العـــلى واليـــا عـــلى بجايـــة وأسف المشيخة والبطانـــة بعتـوه واستبداده ، وما يتجشمونه فى مباكرة بابه » · (2) وعندما افتك أبو اسحاق (678 ـ 1279/682 ـ 1283) العرش الحفصى ، اعتمد هو أيضا على الاندلسيين فى تسيير شؤن دولتـــه ، فاسند خطة الاشغال ـ « ولم يكـــن يليهـــا الا الموحـــدون » (3) عـــادة ـ الى أبى بكـــر ابن خلدون (4) ، الجد الاعلى لصاحب العبر ، وهو من جالية اشبيلية · وعندما عـــين أبو اسحاق ابنه أبا فارس (5) واليا على بجاية أرسل معه كحاجب جد المؤرخ ، محمـــد بن محمد بن أبى بكر بن خلدون · وهكذا نجد فى بلاطى العاصمتين ، تونس وبجاية ، دائما الاندلسيين فى الوظائف السامية ·

---

(1) العبر ، ج 6 ص 668 ·

(2) العبر ، ج 6 ص 678 ·

(3) العبر ، ج 6 ص 681 ·

(4) العبر ، ج 6 ص 681 ·

(5) العبر ، ج 6 ص 685 ·

ولعله ليس أدل على ما بلغه الاندلسيون من رفعة فى المملكة الحفصية مما تهيأ لابى الحسين بن سيد الناس . كان أبوه أبو بكر بن سيد الناس « من بيوت اشبيلية ، حافظا للحديث ، راوية له ، ظاهريا فى فقهه على مذهب داود واصحابه . » (1) فقدم الى تونس عند الجلاء ، واسند اليه التدريس بمدرسة جامع الهواء ، واتصل ابناه أحمد وأبو الحسين بأبى فارس بن ابى اسحاق . فاما احمد فقد قتل بسبب ما كان يحاك من الدسائس . وأما أبو الحسين فقد انقطع الى أبى فارس ، ثم بعد مقتل هذا الاخير فى حرب الدعى ابن أبى عمارة ، التحق بأبى زكرياء بن أبى اسحاق ، وأعانه على اغتصاب بجاية سنة 1285/684 واقامة مملكة مستقلة بها . ولعله يحسن أن نورد النص الكامل الذى خصه به ابن خلدون :

« قد قدمنا سلف هذا الرجل وأوليته ، وانه لحق بالامير أبى زكرياء بتلمسان وأبلى فى خدمته . فلما استولى الامير أبو زكرياء على الثغر الغربى ، واقتطعه عن اعمال الحضرة، ونزل بجاية وضاهى بها تونس ، عقد لابى الحسين بن سيد الناس على حجابته . وفوض اليه فيما وراء بابه ، وأجراه فى رئاسته على سنن ابن أبى الحسين ، الرئيس قبله فى دولة المستنصر ، الذى كانوا يتلقنون طرقه ، وينزعون الى مراميه . بل كانت رئاسة هذا فى حجابته أبلغ من رئاسة ابن أبى الحسين ، لخلاء جو الدولة ببجاية من مشيخة الموحدين الذين يزاحمونه كما كان ابن أبى الحسين مزاحما بهم .

فاستولى أبو الحسين بن سيد الناس على الدولة ببجاية ، وقام بأمر مخدومه أحسن قيام ، وصار الى الحل والعقد ، وانصرفت اليه الوجوه ، وتمكن فى يده الزمام ، الى أن هلك سنة 690 أعظم ما كان رئاسة ، وأقرب من صاحبه مكانا وسرا » . (2)

وخلف ببجاية أبا الحسين أندلسى آخر ، هو أبو القاسم بن أبى جبى الذى تمتع بنفس النفوذ ، ودخل فى سعايات ومغامرات عديدة . (3) وترك أبو الحسين بن سيد الناس ولدا ، وهو محمد ابن أبى الحسين بن سيد الناس ، الذى لعب دورا هاما فى سياسة

---

(1) العبر ، ج 6 ص 683 – 684 .
(2) العبر ، ج 6 ص 704 – 705 .
(3) العبر ، ج 6 ص 705 ، 719 – 724 .

عصره وولى أيضا الحجابة • (1) ومن أشهر الاندلسيين الذين بلغوا قمة الرتب يجب أن نذكر أيضا أبا عبد الرحمن يعقوب بن أبى بكر بن محمد بن غمر السلمى ، الــذى قدم جده محمد من شاطبة مع الجالية • وولى ابو عبد الرحمن بن غمر الحجابة ببجاية ، واستبد بها سنة 1315/715 ، « مقتصرا على ذكر السلطان فى الخطبة واسمه فى السكة » ، (2) الى أن توفى على فراشه فى شوال سنة 719/ نوفمبر ـ ديسمبر 1319 •

ان فيما أوردنا دلالة كافية على الدور النشيط والحاسم أحيانا الذى لعبته الجالية الاندلسية على الركح السياسى الافريقى أيام الحفصيين • وكانت تمثل على هذا الركح فواجع كثيرة ، أليمة وقاسية ، كان أيضا للجالية الاندلسية فيها الحظ الاوفر •

ان السعايات والدسائس لم تكن مقصورة فى عصرنا على بلاط دون بلاط ، لكن لامراء فى أن بلاطات العواصم الاندلسية قد فازت فيها بقصب السبق ، وكانت أجود المدارس للتخرج فيها • فلا عجب اذن اذا ما شهدنا الاندلسيين يحتلون المرتبة الاولى فى الدس والسعاية على ركح افريقية • ذلك أن المزاحمة على مناصب الدولة كانت بينهم شديدة ، وكان البلاط مرتعا لها • لقد كان يحضر مجلس المستنصر أعيان « أهل الاندلس وأهل تونس » ، (3) فتشتد المنافسات •

ولا شك ايضا ان اهل الاندلس كانوا يحتقرون اهل تونس ، ويزدرون بلاطهم خاصة اذا ما قاسوه ببلاطات الاندلس وما كان يسودها من اناقة ورشاقة وترف وظرف• فاذا ما اعتبرنا هذا ادركنا انه ليس من الغريب ان يكون ابن الابار ـ الذى ـ « كان علامة فى الحديث ولسان العرب ، وبليغا فى الترسيل والشعر ، وكتب عن السيد ابى عبد الله ابن ابى حفص بن عبد المؤمن ببلنسية ، ثم عن ابنه السيد ابى زيد (4) ـ ترك من حين الى آخر النقاب يسقط ، وسمح لقلمه ان يروح عما بقلبه ، ويخط :

---

(1) العبر ، ج 6 ص 758 ، 770 ، 780 — 782 •

(2) العبر ، ج 6 ص 756 • انظر أيضا ص 724 ، 746 ، 755 — 757 •

(3) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 654 •

(4) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 653 •

طـــغى بتــونـــس جلـــف   سمـــوه ظلمـــا خليفـــة (1)

فهذا البيت يعكس بلا ريب تماما آراء ظرفاء الاندلس فى الافارقة وخلفائهم ·

كان هكذا البلاط الحفصى ميدانا يلتحم فيه الاندلسيون ، وشيوخ الموحدين ،والافارقة عامة ، ويساعد لاسباب عديدة تتشابك فيها خيوط المنافسة ، والازدراء ، والخيانة ، والحقد الاثيل والجديد ، على نمو عقارب السعاية وامتلاء شوكاتها بكل سم ناقع · فسالت فيه دماء كثيرة ، بريئة وغير بريئة ، دماء الشيوخ والكهول والصبيان ، وساد فيه جـــو الاحتراز ، والاتهام والظنون ، وانطلقت منه الاوامر بالمصادرات وأفانين التعذيب · ولم يرتو هذا البلاط بدماء الاندلسيـــين أقل مما ارتوى بغيرها · ونحن نكتفى ببعض الامثلة التى تنقل لنا صورا ناطقة عن الفواجع القاسية التى كان يمثل أدوارها أبطال الاندلس ·

فهذا ابن الابار ينزل ببنزرت قادما مستصرخا من بلنسية ، فيستـخف بالرئيـــس أبى عبد الله محمد بن أبى الحســين · فيكن له هذا حقدا لا يبلى مع الزمن ، ويسعى به فيمن سعى ؛ ويهفو ابن الابار هفوات يكشف بها لاعدائه عن مقاتله ، فيأمر المستنـصر « بامتحانه، ثم بقتله قعصا بالرماح » (2) وسط محرم 658/آخر ديسمبر 1259)، ويحرق شلوه كما أحرقت كتبه · ذلك ان ابن الابار كان يتهم فيما اتهم به بأنه كان يريد الكيد للاسرة الحفصية فى شخص الواثق بن المستنصر عن طريق السحر والتنجيم · هكـذا كان جو البلاط ، جو تؤثر فيه نجوم السماء وبروجها عن طريق الاوهام المهيمنة عـــلى العقليات ولو فى أعلى مستوى وتدور عجلة الزمان دورتها ، ويسعى ابن الحببر بسعيد ، صاحب الاشغال ، وابن عم الرئيس ابن أبى الحســين ، وكلاهما اندلسيان ، فيأمر الواثق بالقبض عليه وامتحانه ومصادرته : « ولم يزل يستخرج منه حتى ادعى الاملاق، واستحلف فحلف · ثم ضرب ، فادعى مؤتمنا من ماله عند قوم استكشفوا عنـه فأدوه · ثـــم دل بعض مواليه على ذخيرة بداره دفينة ، (3) فاستخـرج منهـا زهـاء ستمائـة ألف مـن

(1) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 655 ·

(2) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 655 ·

(3) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 678 ·

الدنانير . فلم يقبل بعدها مقاله ، وبسط عليه العذاب الى أن هلك فى ذى الحجة من سنة 676/أبريل ـ ماى 1278) (1) . لقد أثرى سعيد بن يوسف بن أبى الحسن ثراء كما نرى عظيما ، وليس من شك فى أن ذلك كان عن طريق اختلاس أموال الدولة . وكان الاختلاس سنة ، تقابلها سنة المصادرة والتعذيب . كل ذلك طبعا بدون محاكمة ، وانما الحكم حكم الوشاية ونزوات السلطان . هكذا كان جو البلاط الحفصى ، وكان الاندلسيون من احذق الناس فيه سباحة الى حين . ولقد حان حين ابن الحبير بدوره يوم انخلع الواثق عن العرش وخلفه عمه ابو اسحاق . « فتقبض على ابن الحبير ، وأمر باعتقاله ودفعه الى موسى بن محمد بن ياسين للمصادرة والامتحان . ووجد مكان التمائم عليه طوابع وطلسمات مختلفة الاشكال والصور ، يسحر بها فيما زعموا مخدومه ، فحاق به وبالها . وكان شأنه فى الامتحان والاستحلاف ، والهلاك بالعذاب ، شأن سعيد (بن يوسف) ابن ابى الحسن ، منكوبه ايام دولته ، الى ان هلك شهر جمادى الاولى من سنة (678) ، والله لا يظلم مثقال ذرة » . (2) لكن أهل البلاط ـ والاندلسيون فى مقدمتهم ـ كانوا انفسهم والدولة يظلمون بشتى ألوان الكيد ، وتلويث الايدى ، والاحتماء بأوهام الطلسمات التى تعشش فى العقول وتشلها . ترك أبو اسحاق العرش مغلوبا وأخذ

(1) كثيرا ما نجد فى العبر ، لعدم تحقيق الكتاب تحقيقا علميا ، خلطا كبيرا بين الرئيس أبى عبد الله محمد بن أبى الحسين ، وابن عمه سعيد بن يوسف بن أبى الحسن ، صاحب الاشغال . وهما من عائلة ابن سعيد ، وهى عائلة اندلسية مجيدة أصلها من القلعة قرب غرناطة . وهذه شجرة ابنى العمين :

سعيد
الحسن
أبو الحسين سعيد

أبو الحسين	يوسف
أبو عبد الله محمد (توفى 671)	سعيد (قتل 676)
سعيد	

أنظر فيما يخص هذه العائلة :

G. Potiron, *Eléments de biographie et de généalogie des Banū Sa'īd,* dans *Arabica,* Leiden 1965, XII, 78-92.

(2) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 681 ـ 682 .

يتسلل نحو بجاية « يصانع القبائل فى طريقه ببذل ماله » ، (1) وخلفه الدعى ابن أبى عمارة ، فتقبض على صاحب الاشغال أبى بكر بن الحسن بن خلدون فاستصفاه وصادره على مال امتحنه عليه، ثم قتله خنقا» . (2) ولنختم هذه السلسلة من مقاتل الاندلسيين بعد ارتقائهم قمة المجد بقصة محمد بن أبى الحسين بن سيد الناس . فلقد كان رضيع أبى يحيى أبى بكر (718 ـ 1318/747 ـ 1346) وولى له الحجابة ، واستبد بشؤون الدولة فاغرى به البطانة السلطان ، فتقبض عليه « فى ربيع سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة)/ديسمبر 1332) واعتقله . ثم امتحنه بأنواع العذاب لاستخراج المال منه ، فلم ينبس بقطرة . فما زال يستغيث ويتوسل بسوابقه من الرضاع والمربى ، وسوابق أبيه عند سلفه ، حتى لذعه العذاب ، فافحش ونال من السلطان واقذع ، قتل شدخا بالعصى ، وجر شلوه فاحرق خارج الحضرة ، وعفا رسمه كأن لم يكن » . (3) ان فيما تقدم دلالة كافية على مدى انهيار سلم القيم وفقدان كل شعور بالمسؤولية . فاذا ما استثنينا أبا عبد الله محمد بن أبى الحسين ، فانه لم يرتفع أى اندلسى ممن خدم الحفصيين الى مستوى رجل دولة بأتم معنى الكلمة . فاننا مهما أطلنا مطالعة المصادر والحجنا فى استنطاقها ، فاننا لا نلمس أدنى وعى بالمسؤولية نحو الامة والدولة . فكأنما هذا المتصور ، متصور أمة الدولة اطارها ، كان مفقودا تماما . وكذلك مفهوم الاخلاص ، فاننا لم نكد نعثر له على أثر يذكر . فالاخلاص ، اذا ما توفر ، فانما يكون اخلاصا لشخص أو لعائلة ، وهو عندها ، مهما يكن الامر ، لا يحول دون الاختلاس ، وايداع دفائن الذهب فى بطن الارض احتياطا للطوارى ، ولا يثبت بحال أمام الدسائس والسعايات ، ولا يمنع من قلب ظهر المجن عند الحاجة .

كل هذا يكشف عن شعور قوى بعدم الامن ، تولدت عنه عقلية انتهازية قصيرة الرؤية، كنا قد لاحظناها بالاندلس . ولقد كان الامن حقا مفقودا فى كل المستويات ، فى مستوى

---

(1) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 681 ـ 682 .
(2) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 692 .
(3) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 782 . انظر ايضا ص 683 ـ 684 .

الارياف ـ حيث انتشار الظعن جعل من يزرع لا يأمن أبدا على حصاد ما زرع ـ وفى مستوى البلاط ، حيث سوء الظن ، والخيانة ، والسعاية ، والتعذيب ، والقتل ، وحرق الاشلاء • فتكونت عقلية نسجتها العنكبوب بخيوط التنجيم والطلسمات •

لقد قدم الاندلسيون لاجئين بعد ما أضاعوا بلادهم وخرجوا منكوبين من وطنهم • ولقد شاهدوا كيف انتصر عليهم المسيحيون بفضل سياسة واعية متواصلة حافزها ومحورها استرجاع الوطن السليب • كل هذا كان من شأنه ـ مبدئيا ـ أن يوقض فيهم الضمائر ، ويدعوهم الى التفكير ، والى حفز الهمم ، والاعراض عن الدسائس والسفاسف، ويجعل منهم حزب يقضة واصلاح ، بل ـ لم لا ؟ ـ حزب اعداد العدة لاستعادة ما اغتصب منهم بالقوة • ونحن لا يسعنا الا أن نسجل أنه لم يكن شيء من هذا • لقد كان فقدان الوعي كاملا • وكل ما فكرت فيه نخبة القوم وأصحاب الاقلام منهم هو أن يعوضوا ثديا بثدى ـ وان كان أقل نعومة ـ وأن يحتلبوا من بلاطى تونس وبجاية ما تعودوا احتلابه من بلاطات الاندلس احتلابا قضى على الحسناء • لقد حمل الاندلسيون فى حقائبهم المرض الذى منه ماتت الاندلس ، فزادوا افريقية ـ فى المستوى السياسى ـ مرضا على مرضها • كان ذلك فى الوقت الذى عرفت فيه أروبا انفجارا دمغرافيا عظيما، ومدا اقتصاديا عارما، وانطلاقة نهضة عمت جميع الميادين ؛ وفى الوقت الذى كان فيه ملوك اسبانيا يضعون الخطط لاعادة المغرب أيضا الى حضيرة النصرانية • سياسة واعية (1) ـ وان لم تحقق كل أهدافها ـ من ناحية ؛ وفقدان كلى للوعى فى الناحية المقابلة • وأقل ما يمكن أن يقال فى شأن الجالية الاندلسية فى هذا الصدد هو أنها لم تكن عاملا اجابيا •

التـأثـير الثقـافى

وكان تأثير الجالية الاندلسية هاما أيضا فى الميدان الثقافى ، بل كان فى هذا المستوى أهم وأشمل مما كان عليه على الصعيد السياسى • فان المثقفين الاندلسيين كانوا من الكثرة ومن الفاعلية بحيث غيروا وجه البلاد الثقافى •

ان اللاجئين لم يكونوا كلهم من البيوتات الثرية ، أو من أصحاب الجاه وكبار العلماء ، الذين تفتح أمامهم ـ لتراثهم او لجاههم ، او لعلمهم ـ الابواب على مصراعيها • لقد رأينا

(1) انظر فيما يخص هذه السياسة مؤلف :
Ch. - E. Dufourcq, L'Espagne Catalane et le Maghrib aux XIII^{e} et XIV^{e} siècles, Paris 1966.

ان الكثير منهم ، وكانوا يعدون بالآلاف ، لجأوا الى الانخراط فى الجيش ، وكونوا كتيبة مستقلة لعبت دورا هاما فى مواجهة الصليبيين • ولا شك أن الحاجة ، حاجة العيش ، هى التى ألجأتهم الى ذلك ، لا الهوية والميل •

وكذلك الحاجة ألجأت الكثير من اللاجئين الاندلسيين الى الارتزاق عن طريق التعليم • لا التعليم العالى فقط ـ كان ذلك مقصورا على مشاهير العلماء ـ بل خاصة التعليم الابتدائى الذى يستهدف الصبيان فى الكتاتيب •ولا شك أن الاندلسيين ، لتفوقهم الثقافى وانتشار المعرفة فى صفوفهم ، كانوا مهيئين لذلك بصفة خاصة ، فوجدوا فى افريقية سوقا مستعدة لاستيعاب بضاعتهم ورواجها • فكان الاقبال ، بل التهافت عليهم عظيما الى حد جعلهم يحتكرون مهنة التعليم ، لما كان لاساليبهم التى قدموا بها من جاذبية ، ولما قوبلت به من رضى واستحسان • فنشروها فى البلاد وعمموها ، وغيروا هكذا تماما البداغوجية الافريقية • فابن خلدون ، وكان شاهد عيان ، يروى لنا كيف وقع هذا التحول على يد الاندلسيين ، فيكتب :

« واما اهل افريقيا فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب،ومدارسة قوانين العلوم ، وتلقين بعض مسائلها • الا ان عنايتهم بالقرآن ، واستظهار الولدان اياه، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته ، اكثر مما سواه • وعنايتهم بالخط تبع لذلك وبالجملة ، فطريقتهم فى تعليم القرآن اقرب الى طريقة اهل الاندلس ، لان سند طريقتهم فى ذلك متصل بمشيخة الاندلس الذين اجازوا عند تغلب النصارى على شرق الاندلس، واستقروا بتونس ، وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك • (1)

ولا شك أن طريقة افريقية فى التعليم كانت من قبل كطريقة أهل المغرب ، الذين كان « مذهبهم فى الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط » • (2) فانه يمكن اذن أن نعد التأثير الاندلسى فى ميدان التعليم اجابيا ، اذ هو أفضى بدون منازع الى تجديد بداغوجى مفيد ، والى تقدم •

---

(1) ابن خلدون ، المقدمة ، ط بيروت 1956 ، ص 1012 • ويحسن التنبيه الى ان النص مبتور بطبعة المقدمة التى نشرت بمطبعة مصطفى محمد بالقاهرة بغير تاريخ ، ص 538 •

(2) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 1012 •

ولقد أدى استحواذ اللاجئين الاندلسيين على اطار التعليم والتحكم فيه دون غيرهم ، الى اضمحلال الخط الافريقي وتعويضه بالخط الاندلسي · فابن خلدون يروى أيضا ما يلي :

« واما اهل الاندلس فافترقوا في الاقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر ، وتغلبت عليهم أمم النصرانية ، فانتشروا في عدوة المغرب وافريقية ، من لدن الدولة اللمتونية الى هذا العهد · وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع ، وتعلقوا بأذيال الدولة ، فغلب خطهم على الخط الافريقي وعفى عليه · ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما ، وصارت خطوط أهل افريقية كلها على الرسم الاندلسي بتونس وما اليها ، لتوفر أهل الاندلس بها عند الجالية من شرق الاندلس · وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الاندلس ولا تمرسوا بجوارهم · وانما كانوا يفدون على دار الملك بتونس ، فصار خط أهل افريقية من أحسن خطوط أهل الاندلس » · (1)

لقد كان هكذا التأثير الاندلسي بليغا وعميقا اذ هو انطلق من القاعدة فشمل كل التعليم الابتدائي ، وعم كامل البلاد ما سوى بعض النواحي النائية ، كبلاد الجريد ، التي لم يكن مناخها الصحراوي يستهوي القادمين من سواحل بلنسية ومرسية ، وضفاف الوادي الكبير ·

ولقد كان هذا التأثير بليغا أيضا في مستوى التعليم العالي ، وان كانت المزاحمة شديدة بين اللاجئين وبين أهل البلاد · كان يقام بهذا التعليم في المساجد والزوايا بصفة حرة حسب الطريقة التقليدية ؛ كما كان أيضا قد نظم ذلك في المدارس الدولية بصفة رسمية · وكان عندها يعين المدرس من طرف السلطة ، ويتقاضى مرتبا · ولا شك أن السلطة الحفصية كانت تميل الى تعيين مدرسي المدارس الرسمية من بين مشاهير العلماء الوافدين من الاندلس · وهذا ما وقع مثلا لابي بكر محمد بن احمد بن عبد الله ابن سيد الناس الذي كان ظاهري المذهب وعلما من أعلام الحديث· فلما قدم الى تونس في جالية اشبيلية ، بعد ما مكث زمنا ببجاية ، استقبله المستنصر أحسن استقبال « وجعل

(1) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 760 ·

اليه تدريس العلم بالمدرسة ، عند جامع الهواء ، التى أسستها أم الخلائف » • (1) وليس من شك فى ان ابن سيد الناس هذا لم يكن ، من بين علماء الاندلس ، الوحيد الذى نال هذه الحظوة وارتقى الى هذه الوظيفة • فاننا نعلم مثلا أنه قد انتظم فى سلك المدرسين اندلسى آخر ، هو « الفقيه الحافظ المتقن التاريخى المدرس المحدث ابو العباس احمد بن محمد القرشى الغرناطى » ، الذى بعد ما نزل بجاية ، « وانفصل الى المغرب » ، « رجع الى حاضرة افريقية ولم يزل عاكفا على التدريس والتذكير ، مشتغلا بعلم الرواية والتفسير ، الى أن مات ـ رحمه الله » • (2)

لكن مهما كان شان المدارس الحفصية التى أحدثت بطرابلس ، وتونس ، وقسنطينة خاصة ، فان اشعاعها لم يبلغ ما بلغه اشعاع هذه المؤسسات بالشرق وبالمغرب فى دولة بنى مرين • ولعل اقبال الطلبة عليها كان أيضا محدودا، بالرغم مما كان يبذل اليهم من منح أحيانا لجلبهم اليها • (3) فان كل ما نطالعه فى رحلات العبدرى ، والبلوى ، وابن رشيد ، وفى كتب الطبقات ، يحملنا على الاعتقاد أن التعليم العالى بقى فى معظمه حرا ، وأن حلقاته كانت تعقد فى المساجد والزوايا وسقائف دور كبار العلماء • على هذه الحلقات كان التهافت كبيرا ، وكان يزيد ويقل حسب ما للمتصدر للتدريس بها من اشعاع • وليس من شك فى ان اشعاع مشائخ الاندلس كان كبيرا • وكان أيضا عددهم مرتفعا • فلقد أحصى محمد الحبيب ابن الخوجة ، بالاعتماد خاصة على رحلة ابن رشيد ، ما لا يقل عن 35 عالما اندلسيا ، (4) كلهم دخلوا افريقية فى القرن 13/7 • ولقد أحصينا فى عنوان

---

(1) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 684 • وقد ورد بالنص المطبوع « حمام الهواء » وهو فى اعتقادنا خطأ ناتج عن سوء قراءة • أنظر أيضا الغبرينى ، عنوان الدراية ، ط الجزائر 1910/1328 ، ص 175 •

(2) الغبرينى ، عنوان الدراية ، ص 212 — 213 •

(3) هذا ما فعله مثلا الامير ابو زكرياء بن السلطان ابى اسحاق (1279 — 1283) عندما أسس بتونس ، فى ولاية أبيه ، المدرسة المعرضية • أنظر الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ط • تونس 1289هـ ، ص 40 — 41 •

(4) الهجرة الاندلسية الى افريقية فى القرن 13/7 ، فى :
Les Cahiers de Tunisie, XVIII, n° 69-70 (1970), p. 129-136.

الدراية للغبريني (توفى 1304/704) ، في نفس الفترة الزمنية ، 33 من مشائخ الاندلس ممن مر ببجاية او استقر بها نهائيا. كل هؤلاء، وغيرهم ممن لم تسجل مآثرهم، قد درسوا، وبثوا حولهم علومهم ، وأسمعوا زملاءهم حسب طريقة الاجازة المألوفة (1) ، وسمعوا منهم .

وكانت الرواية والنقل عن الشيوخ أساس التعليم . ولعله يحسن ، كي نوضح هذا الاسلوب ، أن ننقل وصف الغبريني لطريقة أبي بكر ابن سيد الناس في التدريس ، عندما كان مقيما ببجاية ويلقي دروسه بجامعها الذي كان له أيضا اماما :

« كان راوية ، حافظا بالحديث ، عارفا برجاله وباسمائهم ، وبتاريخ وفاتهم ومبلغ اعمارهم . وكان يقوم على البخاري قياما حسنا . وكان اذا قرأ الحديث يسنده الى أن ينتهي الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ! ثم اذا انتهى الاسناد رجع الى ذكر رجاله . فيبدأ من الصحابي ـ رضي الله عنهم ! ـ فيذكر اسمه ونسبه ، وصفته وتاريخ ولادته ووفاته ، وحكايته ، ان عرفت له . ثم يتلوه بالتابعي كذلك . ولا يزال يتبعهم واحدا فواحدا ، الى أن ينتهي الى شيخه ، فيقول : « أما فلان ـ شيخنا ـ فيقول ... » ويذكر ما ذكر فيمن تقدم ، ويزيد على ذلك بانه لقيه ، وقرأ عليه كذا ... وسمع منه كذا ... وبعد الفراغ من ذلك يذكر لغة الحديث وعربيته ، ويتعرض لما فيه من الفقه ، والخلاف العالي ، ولدقائقه ورقائقه والمستفادات منه . كل ذلك بفصاحة لسان ، وجودة بيان » . (2)

ولقد نبه بافريقية شأن مشايخ الاندلس، واحتلوا في كثير من الميادين مكان الصدارة. ففي النحو بـرع اندلسيان وهما أبو الحسن علي بن موسى الحضرمي ، المعروف بابن عصفور (597 ـ 1201/669 ـ 1270) (3) ، صاحب المغرب والممتع في الاشتقاق والمقـرب في

(1) أنظر مثلا كيف يروي الرحالة العبدري قصة سماعه من الدباغ بالقيروان في طريقه الى الحج سنة 1290/689 . الرحلة المغربية ، تحقيق محمـد الفـاسي ، الربـاط . 1968 ، ص 66 ـ 72 . وكيف روى عن ابن الغماز بتونس ، ص 240 ـ 243 .

(2) الغبريني ، عنوان الدراية ، ص 175 .

(3) الغبريني ، عنوان الدراية ، ص 188 ـ 190 ؛ والحبيب ابن الخوجة ، المقال المذكـور ، ص 134 .

النحو ؛ وأبو جعفر أحمد بن يوسف الفهرى اللبلى (613 ـ 1216/691 ـ 1292) (1) ، صاحب وشى الحلل ، ولم يكن بافريقية من النحاة الحقيقيين غيرهما · وكان ابو العباس أحمد بن محمد ابن الحسن ابن الغماز (609 ـ 1212/693 ـ 1294) (2)،البلنسى النشأة من أعظم فقهاء تونس شأنا وأشهر قضاتها ، أخذ عنه أبو الحسن التيجانى ، والغبرينى ، والعبدرى وغيرهم ·

لكن التأثير الاندلسى ظهر خاصة فى الميدان الادبى · فلقد انتقل الى افريقيا جمع من مشاهير الادباء وامجاد الشعراء نخص بالذكر منهم أبا الحسن على بن سعيد (610 ـ 685 ـ 1213 ـ 1286) (3) ، صاحب القدح ، والمغرب فى حلى المغرب ، والغصون اليانعة فى شعراء المائة السابعة ؛ وأبا الحجاج يوسف بن محمد البياسى (توفى بتونس 653 هـ ـ 1255 م) (4) ، الذى صنف بتونس سنة 1248/646 كتاب الحماسة ؛ والكاتب ، الاديب الشاعر،ابن الابار (5) الذى قد مر ذكره ؛ وابا المطرف احمد بن عميرة (580 ـ 658 ـ 1184 ـ 1260) (6) ؛ وأبا الحسن حازم القرطاجنى (608 ـ 1211/684 ـ 1285) ، صاحب المقصورة المهداة الى المستنصر · ثم قد نبغ بتونس،فى القرن 15/9 ، شاعران أندلسيان ، وهما محمد الخير ، الذى قدم من مالقة سنة 1459/864 ـ 1560 ؛ ومنافسه أحمد بن محمد الحلوف (توفى 1494/899) ·(7)

غير انه ينبغى ان نؤكد ان هؤلاء الادباء والشعراء ، على نبوغهم فى زمانهم ،

(1) الغبرينى ، عنوان الدراية ، ص 211 ـ 212 ؛ العبدرى ، رحلة ، ص 43 ـ 44 ؛ ومحمد الحبيب ابن الخوجة ، المقال المذكور ، ص 134 ·

(2) الغبرينى ، عنوان الدراية ، ص 70 ـ 72 ·

(3) أنظر دائرة المعارف الاسلامية ·

(4) محمد الحبيب ابن الخوجة المقال المذكور ، ص 135 ·

(5) أنظر دائرة المعارف الاسلامية ·

(6) أنظر دائرة المعارف الاسلامية ·

(7) عبد الباسط ، الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم ، ص 20 ـ 22 طبعة :
R. Brunschvig, Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XVe siècle, 'Abdalbasit, B. Halil et Adorne, Paris 1936.

وحذقهم في محسنات البديع ، لم يقدموا في الحقيقة بجديد . ولم يحدثوا في البلاد نهضة ادبية . ذلك ان الحضارة الاسلامية ـ العربية قد انزلقت في منحدر الانحطاط في كامل الاصقاع ، وفقدت روح الابتكار ، وغادرها الالهام ، وسلبت القوة . فأصبح القوم يتبارون في تأليف باقات لطيفة من أزهار يقطفونها من حدائق الاقدمين ، ويصوغون تحفا أنيقة رشيقة من مختار الالفاظ ، غير أنها تحف ترن بالفراغ، وزاهية بالاملاق ، لا لب وراءها ولا طائل . كان الادب في الرسائل المنمقة ، وما يتخللها من أشعار تذوب رقة ولطفا، أدب انحطاط باتم معنى الكلمة، فيه عذوبة الاحلام، وتعاريج الاوهام ، وجنة المخدرات . أدب خاصة ترفل في دمقس الالفاظ وحريرها ، أو برجوازية أنيقة بأسلوب حياتها هزيلة بنشاطها ، تعيش في جميع الميادين ـ الاقتصادية منها والفكرية ـ على رصيد الماضي ، فلا تخلق ، ولا تبتكر ، ولا تغامر ، ولا تغزو أسواقا جديدة لبضاعة تلبي الرغبات الحيوية ، وتغذي النشاط ، وتفرض نفسها كما وكيفا . كان الادب مرآة صادقة يعكس عقلية برجوازية انزوت في دفء تراثها فلا تنشط الا بمقدار .

ولم يكن الامر في الميدان العلمي بأمثل منه في الميدان الادبي . لقد انتفعت افريقية بدون شك بهروب الادمغة اليها من الاندلس . فلقد قدم اليها واستقر بها من الاطباء أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد المعروف بابن اندراس (توفي 674/1372 ـ 1373) (1) قدم من مرسية ، واقام ببجاية زمنا ، قبل ان يتخذه المستنصر طبيبا خاصا . وانجب ابن اندراس ابنا ، هو أبو يعقوب يوسف (توفي بتونس 729/1329) ، برع أيضا في الطب . واستقر ببجاية أبو العباس أحمد بن خالد (2) (توفي حول 660/1262) ، وبها قرأ عليه الغبريني ، وكان قدم من مالقة . واستقر بتونس ، من الاطباء الواردين من الاندلس ، أبو عبد الله محمد الخزرجي الشاطبي (3) (توفي بتونس 691 ـ 1252)، فولي القضاء بها بعد ما ولي نفس الوظيفة ببجاية عند مروره بها .

(1) الغبريني ، عنوان الدراية ، ص 45 — 47 .
(2) الغبريني ، عنوان الدراية ، ص 43 — 45 .
(3) الغبريني ، عنوان الدراية ، ص 67 — 69 .

ويمكن أن نذكر أيضا محمد بن عيشون ، طبيب ابن اللحيانى ، وأبا الحجاج يوسف ، وكلاهما اندلسيان • لكن كل هؤلاء الاطباء على حذقهم فى صناعتهم ، لم يتقدموا بعلم الطب ، ولم يحدثوا مدرسة شبيهة بمدرسة القيروان التى ذاع صيتها فى القرنين 9/3 و 10/4 • ولعل حظ علم النبات كان أفضل ، اذ برع فيه أندلسيان ، كلاهما أقاما بافريقية ، وهما ابن الرومية (1) ، الذى عاد الى اشبيلية وبها توفى سنة 1239/637 ، وابن البيطار (2) الذى ترك لنا مؤلفات عديدة ، وتابع طريقه نحو الشرق فتوفى بدمشق سنة 1248/646 • وأما الرياضيات فأهم من انتقل من الاندلس الى افريقية من أصحابها هو القلصادى (3)، توفى بباجة سنة 1486/891)، الذى كان آخر من تقدم بهذا العلم بالغرب الاسلامى فى العصر الوسيط •

ولعل أعمق تأثير وأخلده هو الذى حدث فى الميدان الموسيقى • لقد كانت العناية بالموسيقى شديدة بالاندلس ، وكان الشغف بها قويا فى كل المستويات ، وفى جميع الاوساط من قمة السلم الاجتماعى الى اسفله • فالاشعار ، وخاصة الموشحات والازجال منها ، كانت تلحن وتغنى • ولم تكن الموسيقى فنا فحسب ، بل كانت أيضا علما متمما للفلسفة والطب • ولعل أشهر من اعتنى بهذا العلم بالاندلس هو الفيلسوف أبو بكر محمد ابن باجة (4) (توفى 1139/533) ، الذى لحن وألف فى الموسيقى الى جانب تآليفه فى الفلسفة • وكان ممن اعتنى بهذا العلم أيضا من نبغاء معاصريه ، أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الاشبيلى (5) (460 _ 1067/529 _ 1134) • كان أبو الصلت مؤرخا

(1) محمد الحبيب ابن الخوجة . المقال المذكور ص 135 •

(2) أنظر دائرة المعارف الاسلامية •

(3) محمد السويسى . عالم رياضى اندلسى تونسى . فى حوليات الجامعة التونسية . العدد التاسع (1972) . ص 33 — 49 •

(4) أنظر فى شأنه دائرة المعارف الاسلامية • ومعلوم أن أشهر من ألف فى الموسيقى بالشرق هو الفارابى (توفى 950/339) . صاحب كتاب الموسيقى الكبير (تحقيق غطاس عبد الملك و د• محمود احمد الحفنى.دار الكتاب العربى . القاهرة بدون تاريخ ص 2100) •

(5) أنظر فى شأنه دائرة المعارف الاسلامية حيث لم يقع التعرض الا لمؤلفاته فى الفلسفة والعلوم •

شهيرا (1) ، وشاعرا موهوبا (2) ، وعرف خاصة ببراعته فى الفلسفة ، والرياضيات ، والطب ، والموسيقى • فقد ترجم كتابـــه فى « الادوية المفردة » الى اللاتينية والعبرية ، وترجمت رسالته فى الموسيقى الى العبرية أيضا ، فبقيت الترجمة (3) وضاع الاصـــل العربى • وكان أبو الصلت هذا أول من أدخل الموسيقى الاندلسية الى افريقية • ذلك أنه هاجر اشبيلية حوالى سنة 489/1096 ، أى بعد سقوط طليطلة وقيام ريح الانهزام ، وحث مطيته أولا نحو الاسكندرية ، قبل أن يستقر بالمهدية ، حيث لقى فى البـــلاط الزيرى أحسن قبول ، وبث الالحان الاندلسية • يروى لنا ذلك المقرى فيكتب :

وكان « أمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين ، وله فى ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته • وكان يكنى بالاديب الحكيم ، وهو الذى لحن الاغانى الافريقية • قال ابن سعيد : واليه تنسب الى الآن » (4) •

وكان أبو الصلت أديبا ظريفا ، يحب مجالس الانس والشراب والتغنى بكل شادن مليح • فلعب بافريقية دورا شبيها بذاك الذى لعبه من قبل زرياب بالاندلس ، ولنا الى ذلك عود • فغزت على يديه أمواج الالحان الاندلسية افريقية قبل أن تغزوها أمـــواج اللاجئين • وعندما قدمت أمواج اللاجئين هيأت لهذه الالحان قاعدة أوســـع للانتشار ،

---

(1) ألف أبو الصلت كتابا فى تاريخ الزيريين ذيل به كتاب الرقيق ، يذكره التجـــانى ، وابن عذارى ، وابن الخطيب ، وابن خلدون • أنظر :

H. R. Idris, *La Berbérie Orientale sous les Zirides,* Paris 1962, I, XVII-XVIII.

(2) لأبى الصلت ديوان مرتب على الحروف ، لم يصلنا • غير أن العماد الاصفهانى أطلع عليه بدمشق وأورد منه مختارات طويلة فى الخريدة ، قسم شعراء المغرب ، ط تونس 1966 ، ص 189 284 •

(3) توجد هذه الترجمة فى المخطوط رقم 1036 بالمكتبة الوطنية بباريس • أنظر دائـــرة المعارف الاسلامية تحت عبارة « أبو الصلت » •

(4) نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، بيروت 1968 ، ج 2 ص 105 — 106 • وابن سعيد ، الذى يذكر لنا انتشار الالحان الاندلسية التى أدخلها أبو الصلت الى افريقيـــة ، ولـــد سنة 610/1213 وتوفى سنة 685/1286 • أنظر أيضا حسن حسنى عبد الوهاب ، الورقـــات ، تونس 66 و 1 ، القسم الثانى ، ص 227 — 231 •

فخرجت بها من البلاط الى بيوتات الخواص والى الطبقات البرجوازية عامـــة • ذلك أن الطبقات البرجوازية الافريقية كانت شديدة الاعجاب بالحضارة الاندلسية ، فكانت تقلدها فى الادب والشعر ، فزادت الى ذلك الموسيقى لما تهيأت لها الفرص على أوسع نطاق •

وشاع الفن الموسيقى الاندلسى خاصة فى المدن التى استقر بها الاندلسيون استقرارا كثيفا ، وجل تلك المدن على السواحل • ومن جملة هذه المدن بجاية التى كانت المرحلة الاولى التى ينزل بها الاندلسيون اللاجئون الى افريقية، وكثير منهم ألقى بها عصا الترحال واستوطنها نهائيا ، كما يتضح ذلك بصفة جلية من خلال تصفح عنوان الدراية للغبرينى• ونحن لا نشك فى أن استيطان الاندلسيين الكثيف ببجاية هو الذى جعل منها مدينـة تشبه اشبيلية فى شغفها بالموسيقى وانصرافها الى الطرب• فان يحنى الاسد الغرناطى (1) (Jean-Léon l'Africain) ، الذى زار افريقية فى الربع الاول من القرن السادس عشر ، يصف أهلها هكذا : « ان أهل بجاية أناس ظرفاء • وهم يحبون صرف أوقاتهم فى الطرب • فكل منهم يتعاطى الموسيقى ويقيم حفلات رقص ، خاصة الاعيان الذين لم يشهروا الحرب على أحد قط » • ويقول فى أهل تدلس : « انهم يمتازون بدماثة الاخلاق ، ويقضون حياة مرحة • فيكاد كل منهم يحسن العزف على العود والقانون » (2) • فكل هذه الصفات تناسب تماما الاندلسيين ومن تأثر بعاداتهم وأذواقهم من أهل المغرب •

ان هذه الموسيقى التى طرقت باب افريقية على يد أبى الصلت (توفى 529/1134) ، وذاعت فى أيام ابن سعيد (610 ـ 685/1213 ـ 1286) ، وعمت شيئا فشيئا المـــدن لما وفر لها اللاجئون الاندلسيون من أسباب الانتشار ، هى ما نسميه اليوم بالمالوف •

(1) هكذا يدعو نفسه الحسن بن محمد الوزان الزياتى الذى ولد بغرناطة ، واسر فى البحر . فنقل الى ايطاليا حيث انقلب الى المسيحية واطلق عليه اسم Jean Léon l'Africain وقد ترجم كتابه الذى ألفه فى وصف افريقية من الايطالية الى الفرنسية • أنظر :
Jean-Léon l'Africain, *Description de l'Afrique*, trad. A. Epaulard, Paris 1956, II, 361.

(2) نفس المصدر ، ج 2 ص 352 • لقد ترجمنا كلمة Harpe فى النص الفرنسى بكلمة قانون • فالقانون كان معروفا فى زمن ابن خلدون الذى يصفه فى المقدمة (ص 766) بـين آلات الاوتار • ولا شك أن يحنى الاسد الغرناطى عبر بكلمة Harpe على القانون لما يوجد من تشابه بـين الآلتـين •

ان المالوف لم يأت به الى المغرب وافريقية الموريسك الذين طردوا من اسبانيا سنة 1609 ٠ وذلك لسبب بسيط ، وهو أن هؤلاء الموريسك كانوا يجهلون العربية (1) ٠ ولعل جهلهم العربية كان من الدواعي الاساسية لعدم امتزاجهم باهل البلاد ، وتجمعهم فى قرى خاصة بهم (2) ٠ فان تأثير الموريسك فى الميدان الثقافى كا نمنعدما تماما ٠

ان المالوف المجلوب من الاندلس أخذ اذن يغزو افريقية من بداية القرن 12/6 ، وكان شأنه شأن الخط الاندلسى الذى غلب « على الخط الافريقى وعفى عليه » كما بينا اعتمادا على شهادة ابن خلدون (3) ٠ ولقد ذاع حتى دخل المجتمعات الصوفية ٠ وليس أدل على ذلك من أن طبوع المالوف الموسيقية المتعارفة اليوم بيننا ـ من رهاوى ، وذيل ، ورمل ، واصبهان ، وصيكة ، ومحير ، ومزموم ، وعراق ، وحسين ، ونوى ، ورصد ، ومايـــة ، واصبعين ـ نجدها فى قصيدة يتشوق فيها الصوفى الصالح أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الظريف (4) (توفى 1385/787) الى زيارة قبر الرسول ٠ ولا شك أنه ليس من بــاب الاتفاق أن تكون هذه القصيدة ـ التى هى فى مدح النبى ـ خلد ذكرها الى اليوم تحت اسم « ناعورة الطبوع » (5) ٠

وكان المالوف ـ وما زال ـ فنا حضريا يتبع الحضــارة وازدهار العمران ٠ ذلك أنه اكتمل بين خمائل الاندلس ونى مقاصيرها المخرمة حيث يعبق البخور ، وتسكب الخمور ،

(1) أنظر فيما يخص المريسك :

M. de Epalza et R. Petit (éditeurs), *Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie*, Madrid 1973.

ويستخلص من هذه الدراسات أن كثيرا من المريسك لم يحافظوا فقط على اللغة الاسبانية، بل تابعوا التأليف فيها بتونس ٠

(2) ابن أبى دينار ، المؤنس ، ط ٠ تونس 1967 ، ص 204 ٠

(3) المقدمة ص 760 ٠ أنظر ما سبق ص 15 ٠

(4) هو المعروف اليوم بسيدى الظريف ، وضريحه بناحية سيدى أبى سعيد لم يزل محـل زيارة ٠ قد ترجم له ـ بالاعتماد على الوزير السراج ـ محمد البهلى النيال فى مؤلفه الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامى ، ط ٠ تونس 1965 ، ص 268 ـ 272 ٠

(5) نشرها الشيخ محمد النيفر فى مؤلفه عنوان الآريب ، ط ٠ تونس 1932/1351 ، ج 1 ص 103 ـ 105 ٠

وتقطف أزهار الحدود ، وتخلع العذار ، وترن الاوتار ، فتحمل على رناتها تعاريج الاصوات التى تئن وتلين ، وتهتز فرحا وتضطرم ، شجية تارة ، زاهية أخرى ، ناعمة أبدا • فلا شك اذن أن هذا الفن لم يدخل الى دور الاوساط الشعبية التى يحب افرادها النزول الى الساحات العمومية ، فيرقصون على قرع الطبول وزمير المزاود ، كما يصف لنا ذلك الرحالة آدورن (Adorne) (1) الذى زار افريقية حوالى 1470 • ولا شك أيضا ، من بـــاب أولى وأحرى ، أنه بقى مجهولا تماما من مجتمعات الرحل •

وهكذا يمكن أن نعتبر أن تاثير المالوف الاندلسى كان فى نفس الوقـــت ـ لاسباب عمرانية واضحة ـ بليغا ومحدودا • ولهذا المالوف قصة غريبة لا بد أن نوردها ، اتماما للفائدة ، انطلاقا من عبر ابن خلدون الذى يلخصها هكذا ، متحدثا عن صناعة الغناء :

« وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق ، وانتشر منها الى غـيرها • وكان للموصليـين غلام اسمه زرياب ، أخذ عنهم الغناء فأجاد ، فصرفوه الى المغرب غيرة منه • فلحق بالحكم ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الاندلس ، فبالغ فى تكرمته ، وركب للقائـه ، وأسنى له الجوائز والاقطاعات والجرايات ، وأحله من دولته وندمائه بمكان • فأورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى أزمان الطوائف ، وطما منها باشبيلية بحـــر زاخر • وتناقل منها ، بعد ذهاب غضارتها ، الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب ، وانقسم على أمصارها ، وبها الآن منها صبابة ، على تراجع عمرانها وتناقص دولها • » (2)

ان تاريخ المالوف يبدأ بزرياب • فمن الرجل ؟ هو أبوالحسن على بن نافع (173 ـ 238 789 ـ 852) ، نشأ بالعراق وانتقل الى الاندلس • وكان أبو الحسن هذا مـولى المهدى (158 ـ 169/775 ـ 785) ، « وزرياب لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه ، مع فصاحة لسانه ، وحـــلاوة شمائله ، شبه بطائر أســـود غرد عندهم ، وكان شــاعرا

(1) Voir R. Brunschvig, *Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XV^e siècle, 'Abdalbâsit b. Halil et Adorne*, Paris 1936, p. 188.

(2) ابن خلدون . المقدمة ، ص 773 •

مطبوعا • » (1) يستخلص من هذا أن زرياب كان من السود ، فهو اذن افريقى الاصل • ولا شك أن أباه كان من عبيد قصر الخلافة ، فاعتقه المهدى • فولد زرياب حرا ، لكنـــه بقى هو وأسرته مرتبطا بالولاء للمهدى وذريته • وبعد ما توفى المهدى ، ثم ابنه الهادى (786/170) ، انتقل ولاء زرياب للرشيد (170 ـ 786/193 ـ 809) كما يبين ذلـــك المقرى (2) • ونحن نعتقد أن بقاء زرياب فى فلك البلاط بحكم جاذبية الولاء ، هو الذى هيأ له أسباب دخول مدرسة اسحاق الموصلى (3) (150 ـ 767/235 ـ 850) الذى سطع نجمه وتالق أيام الرشيد ، ولم يدركه الافول حتى النهاية ، بالرغم من مزاحمة المحدثين فى الغناء الذين كان على رأسهم ابراهيـم بن المهـدى (4) (162 ـ 779/224 ـ 839) ، شقيق الخليفة •

وكانت مدرسة اسحاق الموصلى امتدادا لمدرسة الحجاز فى الغناء • ذلك أن اسحاق أخذ الموسيقى عن أبيه ابراهيم (5) (125 742/188 ـ 804) • وابراهيم هذا فارسى ، نشأ فى الكوفة وأقام زمنا بالرى قبل أن يلتحق ببلاط الخلفاء ببغداد • جمـع ابراهيم بين الحان الفرس وموسيقى الحجاز ، غير انه كان ينتمى الى هذه المدرسة الاخيرة ـ التى كانت تعتبر كلاسيكية ـ وعنها كان يدافع ضد المحدثين • وخلف اسحاق أباه فى فنـه ونضاله ، وكون فى مدرسته جمعا من الملحنين والجوارى المغنيات ، وبلغت شهرته مبلغا لم يبلغه أحد قبله •

---

(1) المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، بيروت 1968 ، ج 3 ص 122 ، نقلا عن مقتبس ابن حيان (377 – 987/469 – 1076) • مع الملاحظة ان ترجمة زرياب قد سقطـت من نص المقتبس الذى بلغنا ، ولم يرد الحديث عنه فى هذا التأليف الا عرضا : تحقيـــق محمود على مكى ، بيروت 1973 ، ص 13 ، 87 ، 90 ، 219 • وقد ترجم محمود على مكى فى آخر الكتاب لزرياب وأحال على المراجع (ص 435 – 436) •

(2) نفح الطيب ، ج 3 ص 122 •

(3) أنظر فى شأنه دائرة المعارف الاسلامية •

(4) أنظر فى شأنه دائرة المعارف الاسلامية •

(5) أنظر فى شأنه دائرة المعارف الاسلامية •

ومن أشهر تلاميذ اسحاق الموصلي زرياب • وكان زرياب هذا ، فيما يروى المقرى ، تلقف من أغاني استاذه « استراقا ، وهدى من فهم الصناعة وصدق العقل ، مع طيب الصوت وصورة الطبع ، الى ما فاق به اسحاق ، واسحاق لا يشعر بما فتح عليه • » (1) وشاءت ظروف البلاط ، وتطلع الخليفة الى اكتشاف مواهب جديدة ، أن قدم اسحاق تلميذه زرياب للرشيد ، فغنى بين يديه ، وأظهر من الحذق ما بهر به الجميع • فخشيه اسحاق ، وعمل على خروجه من العراق • ولا شك ان خروجه هذا كان فى أواخر خلافة الرشيد ، وهو لم يبلغ بعد العشرين سنة من عمره •

واتجه زرياب نحو المغرب ، وأقام زمنا بالقيروان ، ثم اتجه نحو الاندلس بدعوة من أميرها الحكم الاول (180 ـ 206/796 ـ 822) • ووافاه الخبر ، بعد عبوره مضيق الزقاق ونزوله بالجزيرة الخضراء ، بوفاة الامير الذى وجه اليه الدعوة • فهم بالرجوع ، فثناه عن ذلك منصور اليهودى المغنى الذى ارسل لاستقباله • وجاءه كتاب عبد الرحمن الثانى (206 ـ 238/822 ـ 852) يستحثه للقدوم عليه ، ويبسط له الوعود •

غادر زرياب بغداد دون العشرين من عمره ، ودخل قرطبة وله ثلاث وثلاثون سنة ، ونحن لا نعلم شيئا مفصلا عن حياته بين الفترتين • لاشك أنه عاش حياة المغنين ، وأتقن فنه ، وتحرر من تأثير أستاذه اسحاق الموصلى ومدرسته الحجازية ، فنشأ عن ذلك المالوف الذى عفا عما قبله من الحان الاندلس قبل أن يغزو المغرب • ذلك أن زرياب كان مجددا بفطرته • فلقد جود فى الميدان التقنى ، فادخل تحسينات على العود عندما كان ببغداد (2) • واخترع بالاندلس وترا خامسا لهذه الآلة (3) ، واتخذ لها مضرابا من قوادم النسر عوض الخشب ، وغير زرياب أسلوب الحياة فى كل الميادين ، فى المآكل ، والملابس ، ومجالس السماع والشراب ، فطبعها بطابع الاناقة فى كل شيء • فأتى المالوف منسجما معها وأحسن معبر عنها • فهو فن خاصة وترف كما يبين ذلك ابن خلدون ، لا يزدهر الا حيث يزدهر العمران •

(1) نفح الطيب ، ج 3 ص 122 •
(2) المقرى ، نفح الطيب ، ج 3 ص 123 •
(3) المقرى ، نفح الطيب ، ج 3 ص 126 •

ان نشوء المالوف يوجد اذن فى مفترق الطرق بين الحان الحجاز وفارس والموصل وما بلغته هذه الالحان من اكتمال على يد اسحاق الموصـــلى ، وبـين سجايا افريقية السوداء وغرائزها التى بعسر أن تقيم ، ومواهب زرياب الشخصية واختراعاته التى طورت الآلات والتلحين ، ووحى مناخ الاندلس وبلاطها • ثم انه لاشك أيضا أن افريقية وسائر المغرب لعبا فيما بعد دورا هاما فى المحافظة على المالوف وتطويره ، لما لجأ اليهما هذا الفـــن واستقر بهما استقرارا كثيفا هواته • واخترق المالوف القرون ، ولاشك أن مما أعـــان على بقائه محافظة الاوساط الاندلسية خاصة عليه • وهو لم يزل حيا بيننا ، ولم يزل أيضا حيا بجنوب اسبانيا تحت اسم «الفلامينكو» (flamenco) الذى تطور تطورا خاصا يتفق والمجرى الجديد للتاريخ • ان المالوف والفلامينكو أخوان يتفقان فى النسب ، ويزيد ويقل بينهما التشابه فى السمات •

التـــأثـــير الاجتمـــاعى

الى أى حد أثرت هذه الجـــالية الاندلسية الاولى فى المجتمع الافريقى ؟ يعسر ضبط ذلك • لكن الشىء الذى لاشك فيه هو أن هذه الجالية لم تكـــن ميالة الى الانصهار فى الوسط الافريقى • ذلك أن افرادها كانوا يشعرون باللحمة التى تربط بينهم ، لحمـــة الاقليات المنبتة والمنتقلة الى أرض غير أرضها • فهم ـ وان تزاحموا أحيانا فيما بينهم بضراوة على المناصب ـ احتفظوا بتقاليد وعادات تكون بينهم نسبا ، وتجعلهم لا يختلطون كثيرا بغيرهم • ولعل من أهم العوامل التى عاقت دون الاختلاط والامتزاج وانصهـــار الفوارق الحضارية التى كانت تكون حاجزا يزيد ويقل عمقا واتساعا باختلاف الطبقات ، والثروات ، والاذواق وأساليب التربية • وكان الاندلسيون يعتبرون أنفسهم أرقـــى حضارة ، والطف أخلاقا ، وأدمث طباعا من أهـل البـــلاد التى انتقلوا اليها اضطرارا لا اختيارا • بل لقد رأينا (1) أن ظنهم كان سيئا فى الافارقة ، حتى فى بلاطهم وخلفائهم • كل هذه العوامل عملت دون التزاوج والتصاهر بينهم وبين أهل البلاد •

وهكذا احتفظ الاندلسيون ، بعد عشرات السنين من هجرتهم ، بـل بعد قـــرون ، بذاتيتهم وسماتهم وخصائصهم • فبقوا على مر السنين اندلسيين فى كل شىء ، لا فى

(1) انظر ص 11 من هذا المقال •

اسمائهم فقط التى استمرت تذكر ـ أحيانا الى يومنا هذا ـ بمسقط رأس اجدادهم من بلاد الاندلس • اننا نجد دليلا على ذلك فى مشاهدات عبد الباسط بن خليل الملطى التى ضمنها كتابه الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم (1) • لقد نزل هذا الرحالة المصرى بتونس فى 22 ذو القعدة 866/18 أوت 1462 ، أى بعد ما يزيد عن قرنين من قدوم جالية شرق الاندلس ثم غربيها ، وقبل هجرة جالية غرناطة التى لم تسقط بعد • وبالرغم من مرور هذه الفترة الطويلة من الزمن ، التى تعاقبت خلالها ثمانية أجيال ، فانه قد اتيحت لعبد الباسط الفرصة كى يلاحظ أن العنصر الاندلسى قد احتفظ بذاتيته وكل مميزاته بافريقية ، وسجل لنا تلك الملاحظات فى الروض الباسم • أتيحت له هذه الفرصة بمناسبة حفل أقامه ، يوم الاحد 27 ربيع الاول 867/20 ديسمبر 1462 ، « التاجر المعظم ، الخواجا المكرم ، الحاج أبو القاسم البنيولى الغرناطى الاندلسى ، نزيل تونس وكبير التجار بها » (2) • ولاشك ـ كما يفهم من السياق وتاريخ الحفل ـ أن هذا التاجر أقام « الضيافة » بمناسبة رجوع الحجيج من مكة ، وأنه كان له بينهم عدد كبير من الاصدقاء • ولا شك أيضا أنه كان ذاثروة طائلة ، ومنزلة اجتماعية رفيعة ، اذ قد أقام حفله بحدائق « رأس الطابية من منتزهات ملوك تونس وأمكنة فرحهم » (3) •

(1) لقد طبع روبار برانشفيك(C. Brunschvig) من هذا الكتاب القسم الخاص بالمغرب ، وترجمه الى الفرنسية ، فى مؤلف عنوانه :
Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XV[e] *siècle*, Paris 1936.

(2) المصدر المذكور ، ص 20 •

(3) المصدر المذكور ، ص 20 • فيما يخص حدائق رأس الطابية ـ والمكان ما زال يعرف الى اليوم بهذا الاسم بضاحية باردو ـ •
انظر : ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ص 629 ، الزركشى ، تاريخ الدولتين ، تونس 6966 ، ص 33، 71، 83 ؛ العبدرى رحلة ، تحقيق محمد الفاسى ، الرباط 1968 ، ص 40 • والذى أنشأ قصر رأس الطابية وحدائقه ، وجلب اليه مياه زغوان عن طريق الحنايا التى ما زالت الى اليوم آثارها ماثلة ، هو المستنصر (647 ـ 1249/675 ـ 1277) • ولقد ربط المستنصر قصبة تونس بحدائق رأس الطابية عن طريق ممر بين جدارين ، واستأثر بكامل مياه زغوان ، الا القليل منها الذى حول نحو جامع الزيتونة • وفى ذلك يكتب العبدرى : « وأما الساقية المجلوبة من ناحية زغوان فقد استأثر بها قصر السلطان وجنانه الا رشحا يسيرا سرب الى ساقية جامع الزيتونة يرتشف منها فى أنابيب من رصاص ويستقى منها الغرباء ومن ليس فى داره ماء ويكثر عليها الازدحام » •

ولا حاجة الى التأكيد على أن مثل هذا لا يتأتى الا لاخص الخواص، مما فيه دلالة أخرى على المكانة التى استطاعت أن تحرز عليها الجالية الاندلسية فى المجتمع الافريقى • ولقد استدعى الحاج أبو القاسم البنيولى الى حفله الذى أقامه بمنتزه الحفصيين ـ بينما كان السلطان المتوكل على الله عثمان (839 ـ 893/1435 ـ 1488) قد أشرف على العودة الى تونس قادما من حرب تلمسان ـ « جماعة من اعيان التجار من أصحابه ، والحجاج منهم ، **من أهل الاندلس وغيرهم** » (1) • كان اذن هناك « أهل الاندلس » ، معروفون بسماهم ، متميزون بشمائلهم وأنسابهم ، وهناك غيرهم • ولقد استدعى الحاج أبو القاسم البنيولى « أهل الاندلس » أولا وخاصة ، وأضاف اليهم غيرهم ، ومن بين هؤلاء الاخيرين عبد الباسط الذى أعجب بالحفل ووصفه لنا •

ولقد أعجب عبد الباسط خاصة بأهل الاندلس ، أعجب بظرفهم وذكائهم ، مما دعاه أن يعد اليوم الذى قضاه معهم « يوما معدودا من الاعمار ، سالما من الاغيار ، اجتمع فيه عدة من ظرفاء أهل الاندلس وأعيانها ، من طلبة علم وتجار ، كلهم أهل ذكاء » (2) • ويفهم من عبارة عبد الباسط هذه أن أهل الاندلس كانوا يمثلون أغلبية المدعوين الى الحفل ، مما يؤكد ما قدمناه من أن الجالية الاندلسية بقيت ، بعد تعاقب ثمانية أجيال ، عائلة كبرى لم تعرف صلات الرحم التى تربط بين أفرادها الفتور • ونحن نعتقد أن ما رواه لنا عبد الباسط انما هو نموذج ، ونموذج فقط ، من المناسبات التى كانت تجمع من حين الى حين شمل أفراد هذه العائلة فى الافراح ، كما كانت تجمعها أيضا بدون شك فى الاتراح • ولم تكن هذه الاجتماعات أقل العوامل فاعلية فى المحافظة على ذاتية الاسرى، وأخذ الخلف مشعل التقاليد الاندلسية والاعتزاز بالنسب من يد السلف • فتعاقبت هكذا الاجيال فى ضياء مشعل الوفاء الى حضارة الوطن السليب والبقاء على عهده •

ويظهر هذا الوفاء جليا فى أسلوب الحفل الذى أقامه الحاج أبو القاسم البنيولى الى أصدقائه • ذلك أن هذا الحفل كان قلبا وقالبا أندلسيا • كان أندلسيا فى اختيار

---

(1) المصدر المذكور ، ص 20 •

(2) المصدر المذكور ، ص 21 •

حديقة ، « يجول فيها الماء جولانا غريبا » ، لاقامته بالرغم من أن الفصل كان فصل شتاء • ونحن نعلم مدى شغف أهل الاندلس بالطبيعة ، وبالمياه الجارية ، وبموسيقى النسيم بالخمائل الغناء (1) • ان هذه النفسية ، وما يتبعها من رقة شعور ، لم تتغير بالرغم من اختلاف المناخ ، ولم يعترها الفتور وان ناء الزمان بكلكله ، وعفت رياح الاحقاب ذكريات منتزهات بلنسية ، واشبيلية ، وضفاف الوادى الكبير • فلقد أورثها الاجداد الاحفاد ، وامتصها الاطفال من نهود الامهات • ان الروح الاندلسية بقيت حية تخفق بين ضلوع الجيل الثامن بعد بدء الهجرة • وما بقيت الروح بقيت الذاتية •

وكان الحفل اندلسيا أيضا فى المآكل التى قدمت للمدعوين • فعبد الباسط يروى انهم « هيأوا من جملة هذه الضيافة مأكولا يقال له المجبنة من مآكل الاندلس • وصفته جبن طرى يدعك بالايدى حتى يصير كالعجين ، ثم يعجن السميذ عجنا محكما ، مملوكا جيدا ، حتى يصير فى قوام عجين الزلابية بهذه البلاد أو أغلظ قواما منه بيسير ، ثم يؤخذ منه قطعة تبسط بالكف بلطافة وشباقة ، ثم يجعل عليها قطعة من الجبن المدعوك ويجمع حتى يصير الجبن حشوا لها ، ثم يبسط قليلا ، ثم يلقى فى الطاجن وهو على النار بالدهن ، فيقلى ، ثم يرفع ويرش عليه السكر المدقوق ناعما ومعه اليسير من الكمون • وعمل ذلك بين يدى الحاضرين ، وتولى عمله بعض من الجماعة من ظرفائهم » • وحيث كان القوم ظرفاء اذكياء ، فلم يخل حفلهم من انشاد للشعر ، لا سيما وقد حضره شاعران أندلسيان ، وهما محمد الخير المالقى وأحمد الخلوف •

لقد كشف لنا بحثنا هذا أن الهجرة الاندلسية الاولى التى بدأت مع قيام الدولة الحفصية كانت هامة جدا عددا وتأثيرا • فهى لم تكن أقل خطرا بأى حال من الاحوال عن الهجرة الثانية التى تلت قرار الطرد النهائى وكادت تستأثر بمفردها باهتمام الباحثين الى اليوم • بل لعل الهجرة الاولى كانت أعمق تأثيرا بكثير فى بعض الميادين التى يجب أن نخص بالذكر منها السياسة والثقافة •

(1) لم يكن طبعا الشعور بجمال الطبيعة مقصورا على أهل الاندلس وان عرفوا به أكثر من غيرهم • فلقد كان يشاركهم فيه من الافارقة خاصة من تأثر بالحضارة الاندلسية ، كأبى الفضل التيجانى • انظر التيجانى ، الرحلة ، ص 88 — 89 •

ونحن نعتقد أيضا أن الهجرة الاندلسية الاولى قد أثرت تأثيرا بليغا في الميدان الاقتصادى • غير أن القاعدة الوثائقية تعوزنا تماما فى هذا الميدان • فنحن نتوجس هذا التأثير من دون أن نستطيع أن نلمس لمسا حسيا ومفصلا مقداره ووزنه ، أو نحدد بدقة مواطنه • ان النازحين من الاندلس نحو افريقية قد سددوا بدون شك والى حد ما عجزا دمغرافيا عضالا ومتواصلا ، وبهذا فهم قد ساهموا يقينا فى تنشيط اقتصاد البلاد • ذلك أنه من البديهى أنهم لم يبحثوا كلهم عن الارتزاق بالانخراط فى الجيش ، أو بالتسلل الى معابر البلاط ، أو بتسويق بضاعتهم الثقافية فقط • ونحن نعلم أيضا أنهم كانوا ذوى خبرات راقية ومتعددة فى ميادين الزراعة ، والتجارة ، والصناعة • فهل من المجازفة ـ وان أعوزتنا القاعدة الاخبارية المفصلة ـ أن نستقرى من كل هذا أنهم استغلوا خبراتهم وصرفوها فى وجوهها قصد الارتزاق ؟ اننا نرىأننا فى أمن من كلخطأ اذا ما اعتبرنا ـ وان فقدنا الدليل ـ أن الكثير منهم قد استقروا بالمناطق الشمالية الآمنة وقرب السواحل ومجارى المياه قصد استغلال الارض بفضل خبراتهم فى الزراعة والرى وتنويع الانتاج • ونعتقد أن عددا أوفر قد استقر بالمدن الكبرى ـ ببجاية وتونس على الخصوص ـ قصد الارتزاق بفضل حذقهم فى مختلف الصناعات • لكن القطاع الذى استهواهم بدون منازع أكثر من غيره هو قطاع التجارة الداخلية وخاصة الخارجية • ذلك أنه ان كانت الفلاحة ، حسب تعبير ابن خلدون «من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو» (1) ، فان التجارة كانت أكثر الحرف عودا على أصحابها بالارباح الطائلة • فلا عجب اذن اذا ما طرق الاندلسيون هذا الباب أكثر مما طرقوا غيره ، لا سيما أن صفاتهم ، وخبرتهم بالبلاد المسيحية التى تجرى معها المبادلات ، تؤهلهم الى ذلك أكثر من غيرهم • ويمكن أن نعتبر أن فى الثروة الطائلة التى أحرز عليها الحاج أبو القاسم البنيولى ، وفى ارتفاعه الى رتبة « كبير التجار » بتونس ، دلالة على أن قطاع التجارة هيمن عليه الاندلسيون • ولعلنا ، اذا ما اعتمدنا اشارة وردت فى عنوان الدراية للغبرينى ، مفادها أن أبا بكر محمد بن محرز (توفى 1257/655) « كان رأس الجماعة الاندلسية ببجاية » (2) ،

(1) المقدمة ص 711 ـ انظر أيضا ص 734 و 889 ـ 890 •

(2) الغبرينى ـ عنوان الدراية ، ص 171 •

واستقرينا من ذلك أن المجموعة الاندلسية كانت منظمة ، وعممنا نتيجة هذا الاستقراء ، صح لنا أن نعتبر أن نجاح هذه المجموعة فى القطاع التجارى خاصة وفى القطاعات الاخرى عموما ، يدين بالشىء الكثير الى نظامها ، والتحام شملها الذى سبق الحديث عنه ٠

ان معلوماتنا عن الجالية الاندلسية الاولى التى قدمت الى افريقية أيام الحفصيين ليست مفصلة بحيث تمكننا من التعرف بدقة عن عدد اللاجئين ، وضبط نقط استقرارهم ، واستيعاب كامل اختصاصاتهم وانواع أنشطتهم ، واستجلاء جميع جزئيات حياتهم ، والاحاطة بدورهم ٠ ذلك أن مثل هذه المعلومات الدقيقة والمفصلة لا تصدر الا عن وثائق الخزينة ٠ وهذه الوثائق مفقودة تماما بالنسبة الينا ٠ لكننا نعتقد أننا وفقنا الى اقامة الدليل على أن الهجرة الاندلسية الاولى كانت هامة جدا حتى أنها غيرت وجه البلاد فى بعض الميادين، وأن وزنها كان دائما عظيما فى السياسة، والثقافة، والعمران، والاقتصاد ٠ وهذه نتائج لها قيمتها بالنسبة للمجتمع الافريقى فى فترة هامة من تاريخه ، فترة استرسل خلالها تدفق الرحل من الجنوب ، وبدأ فيها ، فى موانى الشمال ، نزول أفواج حاملى حضارة الاندلس ٠ أسلوب حياة القفر ، وغضارة الحان المالوف ٠ اسلوبان بينهما برزخ لا يلتقيان ٠ فلم يكن التلاقح ، وانما كان الاجهاض ٠

تونس 6 جمادى الثانية 1395هـ/16 يونيو 1975م ٠



بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

الحمد لله والشكر لله

هذه الرسالة من تحرير ابى الفضل محمد بن ابى الحسيني بن ابراهيم التيجاني

3 – 4 – 1316/9 – 1 – 716

رسالة من أبى يحيى زكرياء بن اللحيانى
الى جاقمو ملـك ارغـون (1)
بتاريخ 9 ــ 1 ــ 716 / 3 ــ 4 ــ 1316

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

الحمد لله والشكر لله ·

من عبد الله زكرياء أمير المؤمنين ــ أيده الله بنصره وامده بمعونته ! ــ الى السلطان الحسيب الكبير ، الشهير الرفيع ، الاثير الخطير ، جاقمو مـلك أرغـون وبلنسية وميورقة ومرسية ، وقمط برجلونة ، وقبطان جنرال عـــن الكنائس وعن الباب ، ابن السلطـان الحسيب الكبير ، الشهير الرفيع ، الاثير الخطير ، بطرو ، ملك أرغون وبلنسية وميورقة ، قمط برجلونة ــ وفق الله قصده !

اما بعد ، فكتابنا هذا اليكم من منزلنا المبارك بطرابلس ــ يمنه الله ! ــ ونعـم الله سبحانه قبلنا مستمرة ، وآلاءه بدوام الشكر ثابتة مستقرة · والحمد لله حمـــدا يؤذن بالمزيد ، ويشعر بالجديد من نعمه فالجديد · والى هذا ــ أرشدكم الله ! ــ فانه وصل الينا القسيس الحسيب الكبير، الثقة الامين ، بير د من ملن(5) · فتحدثنا معه فيما بيننا وبينكم من الود الصميم ، والاعتقاد الخالص السليم ( ) · وشافهناه بما يلقيه اليكم فى ذلك ·

---

(1) أصل هذه الرسالة ، التى نعطى صورة منها ، يوجد بمحفوظات تاج أرغون ببرشلونة·
(Cartas arabes, caja 3, pliego 135)

وقد نشرها وترجمها الى الاسبانية :
M. Alarcon Santon et R. Garcìa de Linares, dans *Los documentos arabes dìplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon,* Madrid - Grenade 1940, p. 299 - 301.
ونصنا هذا منقول عن الاصل مباشرة ·

(2) Jacques II, roi d'Aragon (1291-1327).
(3) Comte de Barcelone.
(4) Pierre III le Grand, roi d'Aragon (1276-1285).
(5) هو (Père de Montmelo) مستشار فدريك ملك صقلية · وكان يحرض على الضغط على تونس بالقوة · انظر فيما يخص الدور الذى لعبه :
Ch. - E. Dufourcq, ***L'Espagne Catalane** et **le Maghrib***, p. 491-492.
(6) هذا « الاعتقاد الخالص السليم » الذى يشير اليه ابن اللحيانى هو الدين المسيحى=

فالذى يلقيه لكم نحن أمرناه بالقائه ، وهو يبلغه لكم على أكمل انحائه ، لعلمنا بصدقه وأمانته وحسن أدائه ، ولما نتحققه من انقطاعه اليكم ، والى الاخ الاعز علينا ، السلطان الحسيب الكبير ، الشهير الرفيع ، الأثير الخطير ، فدريك (1) ملك صقلية ، أسعده الله تعالى !

وقد أكدنا عليه فى أن يبالغ فيما يلقيه لكم من تقرير المحبة والصداقة على نحو ما كان بين أسلافنا وأسلافكم ، وعلى ما يكون بين عقبنا وعقبكم ان شاء الله تعالى !

وبعثنا معه كتبا لملك المغرب ـ أعزه الله تعالى ! ـ فى شأن ما لحقنا من أذية أهل سبتة بوصول قطعهم الى جهتنا، وافسادهم لمراسنا، وأخذهم أجفانا للنصارى الذين هم منا والينا • فان من صالحناه من النصارى حكمه حكمنا ، وصون دمه وماله واجب علينا ، كما نصون دماءنا وأموالنا • وملك المغرب ـ أعزه الله ! ـ عند وصول كتابنا اليه يقطع عنا هذا الضرر بأن يأمر أهل سبتة أن لا يقربوا بلادنا ، ولا يصلوا الى جهتنا بوجه من الوجوه • فان احتاج القسيس ، الحسيب الكبير بيرد من ملن ، الى التدبير معكم فى وصول الكتاب المذكور اليه ، فأعينوه على ذلك • والله يعين الجميع على ما يصلح الأحوال ، وهو سبحانه ولى التوفيق •

كتب فى التاسع لشهر محرم عام ستة عشر وسبعمائة ، وهو الموافق لليوم الثالث من أبريل (سنة 1316) •

=الذى كان يوهم ملك صقلية وملك أرغون أنه يعتقده سرا ، وأنه يرجو أن يعلنه يوما عندما تسمح الظروف • والى ذلك يشير أيضا فى رسالته السابقة بتاريخ 29 رمضان سنة 712 (28 – 1 – 1313) • وكان ابن اللحيانى ، الذى اغتصب العرش الحفصى بمساعدة ملكى صقلية وأرغون ، يلمح دائما باعتقاده المسيحية فى رسائله اليهما فى دون تصريح واضح، ويكلف من يسلمهم هذه الرسائل بايضاح ذلك • والدلائل على ذلك كثيرة أوردها ديفور فى مؤلفه : *L'Espagne Catalane et le Maghrib*, p. 488-494. غير أن ابن اللحيانى لما أزيح عن العرش (717 – 1317) لجأ الى مصر ، ولم يحاول الفرار الى بلاد مسيحية ، مما يدل على أن « مسيحيته » كانت مناورة سياسة أملاها الضعف •

(1) Frédéric II d'Aragon, roi de Sicile (1296-1337) et frère de Jacques II.



هذه الرسالة من تحرير ابى الفضل محمد بن ابى الحسينى بن ابراهيم التيجانى
28 _ 1 _ 1313/29 _ 9 _ 712

رسالة من أبى يحيى زكرياء بن اللحيانى
الى جاقمو ملـك ارغـون (1)
بتاريخ 29 ـ 9 ـ 712 / 28 ـ 1 ـ 1313

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

الحمد لله والشكر لله ٠

من عبد الله زكرياء أمير المؤمنـين ـ أيده الله بنصره وأمده بمعونته ! ـ الى السلطان الحسيب الكبـير ، الشهير الرفيع ، الأثـير الخطير ، جاقمو ملك أرغون وبلسنية وميورقة ومرسية ، وقمط برجلونة ، وقبطان جنرال عن الكنائس وعن الباب ، ابن السلطـان الحسيب الكبير ، الشهـير الرفيع ، الأثـير الخطير ، بطرو ، ملك أرغون وبلنسية وميورقة، وقمط برجلونة ـ وفق الله قصده وأجمل رشده !

أما بعد ، فكتابنا هذا اليكم من حضرتنا تونس ـ حرسها الله ! ـ ونعم الله سبحانه قبلنا مستمرة ، وآلاءه بدوام الشكر ثابتة مستقرة ٠ (والحمد لله) ( ) حمدا يـؤذن بالمزيد ، ويشعر بالجديد من نعمه فالجديد ٠ والى هذا ـ أرشدكم الله ! ـ فانا كتبناه اليكم مقررين ، لصفاء ودادنا وخلوص محبتنا واعتقادنا ، ما أردنا أن يكون معلوما عندكم ،

(1) أصل هذه الرسالة يوجد بمحفوظات تاج أرغون ببرشلونة

(Cartas arabes, caja 3, pliego 127)

وقد نشرها وترجمها الى الاسبانية :

Alarcon Santon et Garcia de Linares dans *Los documentos arabes diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon,* Madrid - Grenade 1940, p. 282-284.

ونصنا هذا منقول عن الاصل مباشرة ٠

(2) محى ما بين المعقفين ٠ وما أثبتناه فمن الرسالة الثانية ، وكلاهما يتفقان فى الصدر والخط ٠ فهما من انشاء كاتب واحد ، وهذا الكاتب هو أبو الفضل محمد بن أبى الحسين على بن ابراهيم التيجانى (658 ـ 618/1260 ـ 1318) الذى أسند اليه ابن اللحيانى العلامة الكبرى والانشاء ، وأضاف اليه بعد وفاة ابن الخباز العلامة الصغرى ٠ وهو من عائلـة التيجانى التى اشتهر منها أيضا عبد الله ، صاحب الرحلة ، الذى كان منقطع أيضا الى ابن اللحيانى وفى صحبته قام برحلته سنة 706/1306 ـ 1307 ٠ =

(مقدمين) (1) ومعرفين أن ابن عمكم الملك الحسيب الكبير ، الشهير الخطير ، (2) صاحب ميورقة ، وجه الينا رسولا من قبله فى شأن الصلح • فعقدناه معه وأبرمناه ، لعلمنا أن الحال منه ومنكم واحدة ، وأن نيتكم له فى جميع ما يفعله مساعدة • وطلب منا فى صلحه أن يكون لمن يصل من ميورقة فندق لسكناهم ، وقنصل يحكم بينهم • فأجبناه لذلك بعد أن ذكر لنا رسوله أنه تحدث معكم فى هذا ، فوافق رضاكم • ونحن لا نعمل الا ما يكون باختياركم ، ويجيء بوفق مرادكم ، لما بيننا من المحبة المتصلة قبل جلوسنا هذا الموضع وبعده • (3) وذلك متوارث عن الآباء ، متصل فيما بعد بين الابناء ـ ان شاء الله تعالى !

والصلح الذى كنتم عقدتموه قبل هذا على يدنا مع ابن عمنا ، وجددتموه بعد ذلك ، جدير (4) منكم أن تثبتوه وتمكنوه ، وتزيدوا على ما عقدتم فيه ، لاننا باقون عليه •

وقد اتصل بنا أن النداء شاع ببلادكم بأن من أحب القطع (5) على بلاد المسلمين ـ ما عدى بلاد الاندلس ـ فليخرج • فعجبنا من كونكم لم تستثنوا بلادنا مع ما بيننا من الصلح المعقود ، وبقاء مدة من أمده المحدود • بل نعتقد أن المدة لو فرغت لكنتم من

= انظر : التيجانى ، الرحلة ، تونس 1958 ، ص 10 من المقدمة بقلم ح ح عبد الوهاب ؛ الحبيب بن الخوجة ، أبو الفضل التيجانى كما يصوره ابن رشيد فى رحلته ، النشرة العلمية للكلية الزيتونية ، العدد الاول ، 1971 ، ص 258 — 294 • وفيما يخص تقسيم العلامة الى كبرى وصغرى انظر الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص 34 • انظر أيضا :

R. Brunschvig, *La Berbérie Orientale*, Paris 1947, I, 129 et II, 63.

(1) ما بين المعقفين محى من الاصل ، وبالطبعة المذكورة وضع مكان ذلك نقط متتابعة •

(2) بالطبعة المذكورة : الخاطر •

(3) اشارة الى المساعدة التى قدمها له ملك أرغون ، وأخوه ملك صقلية ، عندما اغتصب ابن اللحيانى الحكم بالقوة • انظر :

Ch. - E. Dufourcq, *L'Espagne Catalane...*, p. 488

(4) بالطبعة المذكورة : نريد •

(5) القطع فى البحر هو القرصنة •

يجدده ، ويمنع بلادنا من القطع بكل سبب يجده · هذا هو ظننا (1) فيكم ، واعتقادنا فى مودتكم (وتصافيكم) · (2)

وقد (أ) مرنا عبدنا وقائدنا برنـــاط دفنس (3) أن يشرح لكم ما لم نشرحـــه فى (كتابنا هذا) · فصدقوه بحول الله فيما يكتبه ، واسمعوا منه ما يقوله (4) · والواصل اليكم بكتابنا هذا ، د رنس د بركه (5)، كاتب النصارى لدينا، توجه ليصل بجوابكم(6)، ويعود الينا بكتابكم ، بما نعتقده فيكم ، ان شاء الله ، وهو سبحانه يرشدكم ·

كتب فى التاسع والعشرين لشهر رمضان المعظم من عام اثنى عشر وسبعمائة ·

---

(1) بالطبعة المذكورة : ظاننا ·

(2) ما بين المعقفين محى بالاصل ، ما سوى نكتتى التاء والحركتين ·

(3) Bernat de Fons. Voir Ch. - E. Dufourcq, *L'Espagne Catalane...*, p. 489.
كان القائد المساعد للحرس الحفصى المكون من جنود مسيحيين ·

(4) اشارة الى ما كان يوهم به ابن اللحيانى سرا ملك أرغون وملك صقلية من أنه مسيحى فى الباطن · انظر تعليقنا على الرسالة الثانية ·

(5) Lorenz de Berga, Voir Ch. - E. Dufourcq, ***L'Espagne Catalane...***, p. 489.
كان كاتب الحرس المسيحى ·

(6) هذه العبارة مستعملة هنا فى معناها العامى اليوم بتونس · والمقصود بها الرسالة الموجهة الى ملك أرغــون ·

زناتة والأشراف الحسنيون في مجال تلمسان والمغرب الأوسط

د· لقبال موسى
رئيس قسم التاريخ
ـ جامعة الجزائر ـ

اذا كان اختيار بجاية كمقر لعقد ملتقى الفكر الاسلامى السابق ، يعنى توجيها للدراسة التاريخية ، نحو القاء الاضواء على تاريخ فرع البرانس ودورهم فى الفكر العربى الاسلامى ، وفى البنيان السياسى والحضارى لتاريخ المغرب الاوسط فى عصور ازدهار الحضارة الاسلامية فى بلاد المغرب العربى ، فان اختيار تلمسان هذه المرة لعقد ملتقى الفكر الاسلامى ، يعنى تكملة للموضوع أي بتوجيه الدراسة التاريخية لتوضيح دور فرع البتر واسهاماتهم فى الفكر العربى وفى الحياة السياسية ، وبذلك تكون الدراسة لها طابع الشمول والتكامل ·

ـ ان تلمسان ، وبجاية ، وهما من حواضر المغرب الاوسط السياسية والفكرية تمثل كلتاهما ، فى نظر الجغرافيين المسلمين ، طرفا لهذا المغرب الذى نتفيأ ظلاله وننعم بخيراته الوفيرة فى ظل السيادة والعدالة الاجتماعية ، وتكافؤ الفرص ·

فبجاية تمثل البداية ، وتلمسان تمثـــل النهاية أو القفل على حـــد تعبير بعض الجغرافيين المسلمين ٠

ـ وأهمية تلمسان تبدو أيضا ، فى ظهور فكرة المذهبية المستقلة على أساس النحلة الصفرية ، ثم الشيعية العلوية أيضا ، ولا تماثلها فى هذه الناحية الا تاهرت الرستمية ، وفاس الادريسية وكلا العهدين : الصفرى فى تلمسان ، ويمثله أبو قرة اليفرنى (الامام) والعهد الاباضى فى تاهرت ويمثله الامام عبد الرحمن بن رستم سبـق فى ظهوره وفى معاناته للخلافة ، نظام الحماديين فى القلعة وفى بجاية ٠ ومعنى ذلك أن زناتة بأحلافها استطاعت فى فترة مبكرة نسبيا أي منذ بداية القرن الثانى للهجرة (8 م) أن تبنـــى كيانا سياسيا ومذهبيا مستقلا عن الخلافة وعن ممثليها فى القيروان ٠

وعندما ظهر أن الصفرية وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وانزوت بعض طوائفهم فى نفزاوة ثم فى اقليم سجلماسة (منذ 140 هـ) ونهض الخطابية رأس الاباضية فى طرابلس وجبل نفوسة ، واستقر الامر لهم بعد سلسلة مـن المشاكل ، باختيار تاهـرت مركزا جديدا مستقلا مذهبيا وسياسيا عن نظام الخلافة العباسية ، أصبحت تلمســان وآفاقها مركزا للنفوذ السياسى والروحى لآل البيت ، وهم الاشراف العلويون الحسنيون من بنى ادريس بن عبد الله ، وأخويه محمد (النفس الزكية) وسليمان ، فهؤلاء وبنوهم اختاروا بعد النكبات التى حلت بهم ، وبآل البيت فى المشرق ـ بيئـــة المغرب ومنطقة تلمسان واجزاء أخرى من بلادنا فحنت عليهم ، ووفرت لهم جـــو الامن والراحـــة والاستقرار يحرسهم استعداد نفسى من السكان لتقبلهم كعنصر مجاور ، لماضى جدهم على بن أبى طالب ، ولصلتهم برسول الله (ص) ٠ واقبال سكان بلادنا وسائر سكان بلاد المغرب الاسلامى على آل البيت أهل الشرف والنبالة ، أفصح عنه المؤرخ التونسى أحمد أبى الضياف بقوله « وأهل افريقية يدينون بحب على وآله يستوى فى ذلك عالمهم وجاهلهم جبلة فى طباعهم » (1) ، ويهمنا فى هذا المجال أن نتساءل عن أهـــم المراكز العلوية ؟ وعن مدى اندماج العلويين بالسكان ؟ وعن بعض الآثار التى تقوم برهانا على سالف مجدهم ؟ وعن حقيقة دورهم السياسى والحضارى والمذهبى ؟

ويلاحظ فى البدء أن مجد العلويين من آل الحسن بن على ، تدل عليه فى بيئة المغرب الاوسط منذ القرن الثانى للهجرة (8 م) مجموعة من الحصون ، والقرى ، والمـدن ،

---

(1) اتحاف أهل الزمان 1 ، 121 ٠

تنتسب اما الى بنى محمد أو بنى سليمان ، أو الى ابناء ادريس ، وهم أبناء عبد الله بن حسن البكري (2) ·

وتبدأ هذه المراكز عند نهاية حد اقليم الزاب وتمتد حتى المغرب الاقصى (3) ·

وقد أشار أقدم رحالة وجغرافى شرقى زار المنطقة فى القرن الثالث للهجرة ، وهو ابن واضح اليعقوبى ، الى بعض هذه المراكز ومنها :

ـ امارة هاز (قرب المسيلة) وتقع غرب منطقة الزاب ، وسميت باسم كبريات المدن فيها وهي هاز (مندثره الآن) · وكان يشرف على شؤونها من العلويين الحسن بن سليمان بن الحسين بن على وتشتمل على قرى ومنازل لبنى يرنيان من بتر زناتة ، وأخرى لعناصر من زواوة وصنهاجة من فرع البرانس المستقرين الذين وصفوا فى عصر هذا الرحالة بأنهم « أصحاب عمارة وزرع وضرع » · كما لاحظ هذا الرحالة أن السلام وحسن الجوار كانا سائدين بينهم ، وبين بنى برزال وبنى دمر الاباضية على ما كان يوجد بينهم من خلاف مذهبى ، واجتماعى لان هؤلاء الشراة كانوا مثل فروع زناتة الاخرى بدوا ورحالة · كذلك كانت العلاقة حسنة بين سكان امارة هاز العلوية ، وسكان الحصون المجاورة لها من أهل السنة ومن أهمها حصن ابن كرام (4) ·

ـ وتلى امارة هاز عبر طريق طويل كله حصون لفروع من زناتة منطقة متيجة ، وعرفت بذلك نسبة لاهم مدن المنطقة التى اندثرت الآن ، وكانت تعرف أيضا بفزرونة ، وهذه الجهة كانت خاضعة لنفوذ بنى محمد بن جعفر الحسنى ، ـ ويعتبر حوض شلف الذى يشقه نهر شلف أطول أنهار الجزائر ، من بين المناطق التى تلقت تاثيرات علوية بسبب جملة من المراكز والقرى العلوية ومنها مدينة مذكرة ، التى يعتقد انها بجوار مليانة الآن ، ثم مدينة الخضراء وهي منفذ مدينة تنس على البحر ، وكان سكانها فى عصر البكرى خليطا من مطغرة وبنى دمر ومديونة وبنى واريفن ·

ومدينة الخضراء هذه ـ تفصل مدينة تنس عن مدينة اغزر العلوية ، وهذه الاخيرة فى مجال منطقة متيجة · وبجانب هاتين المدينتين : الخضراء واغزر ، عدة مراكز وحصون علوية متصلة كانت تحت نفوذ بنى محمد بن سليمان ·

(2) البكرى : (المغرب فى وصف بلاد افريقية والمغرب 122 ، ابن عذارى : البيان المغرب 1 ، 298) ·

(3) اليعقوبى : (البلدان 103 وما بعدها) ·

(4) البكرى : (المصدر السابق 60 ـ 61) ·

ولقد اندمج بنو محمد بن سليمان بسكان هذه المنطقة ، عن طريق المصاهرة ، لذلك كثر عددهم ، ووضح تاثيرهم بسبب قرابتهم من الرسول (ص) حتى أصبحت الناحية تعرف باسمهم وتنسب اليهم « وكل رجل منهم مقيم متحصن فى مدينة وناحية (5) ٠

ـ ومدينة سوق ابراهيم على طريق تاهرت من بين المراكز الهامة للعلويين وقد أشرف عليها ابراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله وبعد وفاته آلت الى ابنه عيسى (6) ٠

ـ أما الطريق الذى يؤدى من تاهرت الى تلمسان ومن هذه الى ساحل المغرب الاقصى فتنتشر حواليه مدن وقرى علوية فى مجالات البتر ، ثم فى مجالات البرانس أيضاً ٠ ومن أهمها :

امارة تمطلاس ـ فى مضارب مطماطة وغيرها من البتر ، وكانت مركزا كبيرا يتجمع فيه بنو محمد بن سليمان الحسنيون ، كما يوجدون فى المدينتين المجاورتين لهذه الامارة وهما : ـ ايزرج ـ من مضارب مطماطة ٠ وقد أشرف عليها فى رواية ابن خردا ذبه وفى عصره ابراهيم بن محمد البرابرى المعتزلى ، ويعنى هذا الوصف اندماج العلويين مع السكان ، وصلتهم بالاعتزال ٠

ـ أما المدينة الثانية فتسمى المدينة الحسنة ، وكان حاكمها كما لاحظ اليعقوبى ، هو عبيد الله من فرع بنى محمد بن سليمان ٠

ـ وبجوار المدينة الحسنة ، مدينة تلمسان « دار مملكة زناتة » وكانت هي وناحيتها منطقة نفوذ للعلويين من بنى سليمان وقد استبد بها منهم : محمد بن القاسم بن محمد ابن سليمان ومن نسله عيسى أبو العيش الذى ينسب اليه بناء مدينة جراوة بقرب البحر حوالى سنة (257 هـ ـ 870 م) ٠

ـ وفى مجال تلمسان وعلى مسافة يسيرة منها توجد مدينة العلويين ، وقد وقعت تحت تاثير بنى محمد بن سليمان لفترة ، ثم استبد باموها احد امراء زناتة ، وهو على ابن حامدين مرحوم ، وتعرف بصبرة فيما يبدو ٠

ـ وبقرب مدينة العلويين ، مدينة نمالته (مغنية) التى أشرف عليها من بنى سليمان الحسنيين محمد بن على بن محمد ٠ وتقع بقرب حدود مملكة الادارسة اقرباء بن سليمان

(5) اليعقوبى المصدر السابق 104 ٠
(6) ابن حوقل صورة الارض 89 ٠

العلويين ، وتمثل مدينة فالوسن (فلاوسن) الحد الذى تنتهى عنده مراكز العلويين فى مجال المغرب الاوسط ، بحيث لا تليها الا امارة نكور (المزمة) ، وكانت تحت نفوذ بنى سعيد بن صالح الحميريين ، وهؤلاء كانت تربطهم مع العلويين علاقات الصهارة ، وحسن الجوار (7) ·

– ويحتضن ساحل تلمسان وحده عدة مدن علوية منها :

أرشقول وكانت فى اطار نفوذ بنى محمد بن سليمان توالى عليها منهم أبو العيش عيسى بن محمد (ت 295 هـ/907) وابنه ابراهيم الذى لقب بالارشقولى ، ثم حفيده يحيى بن ابراهيم الذى نكب فى عهد عبيد الله المهدى جد الخلفاء الفاطميين ·

– وتقابل مدينة ارشقول جزيرة صخرية قريبة منها تعرف بنفس الاسم (جزيرة ارشقول) وكانت تتمتع بالحصانة ، ولذلك اتخذها بعض العلويين ملجأ عندما ضيق عليهم بعض قادة الخلافة الفاطمية (8) ·

– وبازاء مدينة ندرومة ، التى هي من مضارب كومية ، كانت توجد مدينة ترنانة وهي من مجالات نفوذ بنى محمد بن سليمان ايضا ، وسكانها يعرفون ببنى يلول من قبيلة دمر ، وقد عرف من بين حكامها العلويين عبد الله بن ادريس بن محمد بن سليمان، ولاندماجه مع السكان واخذه بطبائعهم ، وبطول اقامته فى المنطقة عرف بلقب الترنانى

وفى غير مجال تلمسان ، كان يوجد لبنى محمد بن سليمان ، فى مجال المغرب الاوسط ، مدينة حمزة (البويرة الآن) وقد سميت باسم اول من نزلها من بنى سليمان وهو حمزة بن الحسين بن سليمان ، وتعرف ايضا بسوق حمزة ، وتقع بجوار مرسى الدجاج وهو من مجالات كتامة واحلافها (9) ·

أما مدينة تنس فوقعت تحت تاثير ابراهيم بن محمد ، الذى سميت باسمه مدينة فى حوض الشلف وهي سوق ابراهيم (10) ·

هذه اذا بعض مراكز العلويين فى نطاق تلمسان والمغرب الاوسط · أما ما يلاحظ حولها فنجمله فى النقاط التالية واولها :

---

(7) البكرى : المصدر السابق 94 ···
(8) البكرى المصدر السابق 78 ، ابن عذارى البيان المغرب 1 ، 274) ·
(9) ابن خلكان وفيات الاعيان 1 ، 16 يذكران قرية حمزة تقع بين القلعة وبجاية ·
(10) البكرى : المصدر السابق 61 ·

1) ــ ان أغلب هذه المراكز كانت توجد فى غرب ووسط البلاد ، أي فى اقليم تلمسان وفى حوض الشلف وفى سهل متيجة واقلها موزع هنا وهناك ٠

2) ــ لم يقتصر العلويون فى مد نفوذهم السياسى والروحى على المناطق الساحلية فقط ، بل توغلوا حتى فى المناطق الداخلية أيضا ٠

3) ــ كذلك يلاحظ ان هذه المراكز فى عمومها ، لم تقتصر على مجالات فرع البتر ، بل كانت أيضا بين مضارب فرع البرانس ، ولو أن معظم العلويين ، كان متداخلا مع فروع زناتة ، التى لاحظنا فيما بعد كيدها للفاطميين ، وعداءها الشديد لهم لاسباب منها : موقفهم من الادارسة وأبناء عمومتهم العلويين ، ذلك لان وجهة نظر مسلمى المغرب الاوسط ، وزناتة خاصة هي أن الفاطميين الحقيقيين انما هم الادارسة الحسنيون الذين لاخلاف فى نسبهم العلوى ، على عكس الفاطميين المشهورين الذى يكتنف نسبهم الحسينى الغموض ، الى درجة ظهور اتجاهات الطعن فى صحة انتسابهم الى آل البيت ٠

وفيما ذكره بعض الجغرافيين والرحالة المسلمين ، اشارة الى بعض وجهات النظر والمواقف المحلية ونص قوله بصدد مدينة فاس التى لم تفتح على يد عبيد الله المهدى « والمدينة العظمى : أي القصبة ، وهي فاس التى بها يحيى الفاطمى (من الادارسة) لم يفتحها عبيد الله المهدى الخارج بالمغرب الى حين تصنيف هذا الكتاب » (11) ٠

ــ ويبدو أن المقاومة العنيدة التى واجهها قادة الخلفاء الفاطميين فى المغرب الاوسط وفى المغرب الاقصى كانت دفاعا عن قضية الادارسة وسائر العلويين ، وقد تبنى قضية الدفاع قبيلة زناتة بفرعيها الكبيرين (مغراوة ، وبنى يفرن) ، واستعانت فى سبيل الانتصار ، او اقلاق راحة الفاطميين بأعدائهم الامويين فى الاندلس ، ولاشك أن العامل السياسى ، والخلاف المذهبى فضلا عن حب السكان للعلويين ، كانت لفائدة الادارسة واقربائهم على حساب الفاطميين ٠

ــ والشيء الذى ميز الادارسة العلويين عن الفاطميين ، أن الادارسة لم يفرضوا على السكان عقيدة معينة أو مذهبا خاصا ، على عكس الفاطميين الاسماعيلية ولذلك تعايش الادارسة مع الصفرية والاباضية ومع أهل السنة كذلك بينما لم يرض الفاطميون من السكان بغير اعتناق المذهب الاسماعيلى ، والولاء للخليفة الفاطمى المعصوم ٠

---

(11) الاصطخرى : مسالك الممالك 39 ٠

ـ كذلك لم تشر المصادر الى حركات طرد أو اغتيال لاي علوى ، كما لم تشر الى حركات ثورة أو عصيان ضد الامراء العلويين فى المغرب الاوسط مما يشعر بظاهرة التوافق بينهم وبين زناتة ، وهو الامر الذى سهل لهم الاقامة الطويلة فى جو الرضا التام

ـ ان ظاهرة التوافق وانصهار العلويين فى البيئة المغربية ، وقوة تاثيرهم الروحى فى سكانها تدل عليه امور كثيرة فى مقدمتها :

أ) ـ اتخاذ بعض الامراء العلويين كما أشرنا ـ القابا محلية تشير الى الجهة التى ارتبطوا بها مثل البربرى ، والارشقولى ، والترنانى ٠

ب) ـ ابقاء بعض المدن فى بلادنا تحتفظ بأسماء بعض العلويين ، مثل ســـــوق ابراهيم وسوق حمزة ، ومدينة العلويين وهي أدل من غيرها على مجد العلويين وماضيهم فى بيئة المغرب الاوسط الاسلامية ٠

ج) ـ ان حب السكان للعلويين وللادارسة منهم بنوع خاص ، وقدمهم فى المنطقة ، لم تخفيا على الخلفاء الفاطميين الذين سلكوا سياسة مرنة تجاه العلويين ، واكتفوا بمجرد ولاء أمير فاس العلوى يحيى بن ادريس ولم يعزلوه ٠

ولم يترك خلفاء الفاطميين خاصة المعز لدين الله ، فرصة دون تذكـــير العلويين بالقرابة الجامعة ، وبضرورة التعاون لاعلاء مجد العلويين سواء كانوا حسنيين أو حسينيين ٠

ولقد اثمرت جهود هؤلاء الفاطميين ، فى ضمان ولاء بعض الامراء الادارسة الذين استعانوا بهم ضد الامويين فى الاندلس ٠

ولو كان موقف الادارسة تجاه الفاطميين هو التأييد الواضح والمساندة الكاملة لما واجهوا الصعوبات التى واجهوها فعلا فى حكم بلاد المغرب الاسلامى وهي الصعوبات التى صيرت بقاءهم متعذرا ، ولذلك نقلوا مركزهم الى مصر ٠

ـ ورغم نقاط الضعف فى حكم الادارسة والعلويين عموما ، وأهمها نشر الروح الاقطاعية فى البلاد بتقسيمها الى امارات صغيرة متنابذة فان أهميتهم تبدو فى كونهم

١ ـ ساعدوا على خلق رصيد قوى لآل البيت ، فى بيئة المغرب الاسلامى ، وما زال تاثيرهم مستمرا هنا وهناك ٠ نلحظه فى رفع بعض الاسر نسبها الى الاشراف الحسنيين يستوى فى ذلك سكان السهول ، وسكان المرتفعات ٠

ب ـ وبسبب اندماجهم مع السكان ، عن طريق المصاهرة ، مهدوا لظهور عنصر جديد من المولدين ما زالت آثاره فى بيئتنا المغربية ٠

ج ـ والادارسة والعلويون عموما هم المبشرون الاوائل ، والدعاة الاقدمون لآل البيت ، أو قل هم أصحاب البذرة الاولى التى أثمرت فى خلق ظاهرة التشوف لمبادىء جديدة يقوم بها ويرعاها امام مهدى من آل البيت ٠ وعملهم فى هذه الناحية فى قيمته واهميته وايجابيته لا يختلف عما قام به بعد ذلك أقدم دعاة الاسماعيلية مثل الحلوانى ، وأبى سفيان والداعى الشيعى ، أي منذ فجر الدعوة الى ظهور عبيد الله فى مدينة رقادة مهديا علويا وفاطميا جديدا ٠

العلاقات التجارية بين المغرب والسودان

عبر الصحراء من القرن 6 إلى القرن 8 هـ

ودور تلمسان في هذا الميدان

دهينة عطاء الله
كلية الآداب – جامعة الجزائر

ان النصوص التالية التى نجمعها هنا فى نظام متسلسل تاريخيا تهدف الى القاء الضوء على تلك العلاقات التى كانت تربط بين المغرب والسودان خلال العصور الوسطى •

وحتى القرن السادس الهجرى يبدو ان تجار الشمال الذين كانوا من مسلمى المغرب هم الوحيدون الذين سلكوا الطرق الصحراوية لبلوغ السودان وبيع الملح مقابل الذهب •

يقول أبو حامد الغرناطى الذى توفى بدمشق فى سنة 565/1169 م • (1) « يحمل التجار اليهم حجارة الملح على الجمال من الملح المعدنى فيخرجون من بلدة يقال لها سجلماسة

---

(1) أبو حامد الاندلسى الغرناطى ، تحفة الالباب ونخبة الاعجاب • قام بنشر النص العربى وترجمة فرنسية جزئية FERRAND بالمجلة الآسيوية سنة 1925 م •

آخر بلاد المغرب الاعلى فيمشون فى رمال كالبحار ويكون معهم الادلاء يهتدون بالنجـوم وبالجبال فى القفار ويحملون معهم الزاد لستة شهور فاذا وصلوا الى غانة (2) باعوا الملـح وزنا بوزن الذهب وربما باعوه وزنا بوزنين أو أكثر على قدر كثرة التجار وقلتهم » ٠

ولكنه خلال القرن السادس الهجرى تاسست ممالك بافريقية الغربية (3) تمكنت مـن اقامة نظام قوى ومزدهر لحـث السودانيين أنفسهم على عبور الصحراء للتوجه الى المغرب وللقيام بنشاطات تجارية ٠

وهناك فقرة من الغرابة بمكان موجودة فى رحلة ابن حموية السرخسى (4) تعطينـا فكرة واضحة عن العلاقات التى قامت بين حاكم سلجماسة الموحدى وملـك السودان فى أواخر القرن السادس الهجرى ٠

ومن الجدير بالذكر أن السرخسى الذى كان من أصل مغربى عن طريق أمه غادر المشرق فى سنة 593هـ/1197م ٠ للقيام برحلة الى المغرب ٠ وقد أمضى فى مدينة مراكش أكثـر من ست سنوات : من سنة 594 الى سنة 600هـ/1197 ـ 1203م ٠ فى حاشية الخليفتين

---

(2) تدل الروايات التى اعتمد عليها المؤرخون العرب والافارقة على ان 44 ملكا تولوا حكم مملكة غانة حتى عام 770 م ٠ ودخل اليها الاسلام أول مرة فى القرنين (9 و 10 م) عن طريق التجارة والفتوح وبواسطة الملوك ولقد بلغت هذه المملكة أوج حضارتها ما بين القرنين (9 و 11 م) ٠

ان كلمة (غانة) كانت تعنى باللغة المحلية الساراكولة أى القيادة العسكرية ، ثم تحول الاسم الى العاصمة ، مركز القيادة ، ثم اطلق على المملكة (انظر المؤرخ الغينى جبريل نيان فى كتابه : مملكة غانة) ٠

(3) الممالك التى تأسست فى افريقية الغربية خلال القرن السادس هـ ٠ هى مملكـة صوصو الوثنية بزعامة سومانغورو كانتيه ومملكة ديارا ، وغلام ، ومالى ، وكانت هذه الممالك عبارة عن امارات كانت تابعة لمملكة غانة ٠

(4) ازداد السرخسى سنة 572 هـ 1176 م ٠ وتوفى سنة 653هـ/1255م ٠ ومضى أغلـب حياته بدمشق والقاهرة (انظر المقرى ، نفح الطيب ، ج 2 ، ص 68 — 76) ٠

يعقوب المنصور ومحمد الناصر . (5) وعند رجوعه الى المشرق كتب قصة رحلته . ولكن هذه القصة قد ضاعت للاسف بالنسبة للنص الكامل منها ؛ الا أن بعض الفقرات منها قد نشرها المقرى التلمساني في كتابه « نفح الطيب » . (6) أما بشأن حاكم سلجماسة أبو الربيع سليمان وهو حفيد أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي الذى كان يحمل بفضل انتسابه المباشر الى الموحدين لقب السيد فيروى السرخسي عنه ما يلي :

« اجتمعت به حين قدم الى مراكش بعد وفاة المنصور يعقوب لمبايعة ولده محمد فرأيته شيخا بهي المنظر حسن المخبر فصيح العبارة باللغتين العربية والبربرية ومن كلامه في جواب رسالة الى ملك السودان بغانة ينكر عليه تعويق التجار قوله : نحن نتجاور بالاحسان ، وان تخالفنا في الاديان ، ونتفق على السيرة المرضية ، ونتالف على الرفق بالرعية ، ومعلوم ان العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة ، والجور لا تعانيه الا النفوس الشريرة الجاهلة ، ولقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده وتردد الجلابة الى البلد مفيد لسكانها ، ومعين على التمكن من استيطانها ، ولو شئنا لاحتبسنا من في جهاتنا من أهل تلك الناحية لكنا لا نستصوب فعله ولا ينبغي لنا ان ننهى عن خلق ونأتي مثله والسلام » . (7)

ولم يكن لحاكم سجلماسة الذى كان يسعى للمحافظة على علاقات حسن الجوار مع ملوك السودان الا مثل هذه الاحداث التي يترتب عليه حلها لضمان ازدهار اقليمه ؛ فقد كان هناك أعداء أكثر خطورة يرغمونه على ان يلتزم باليقظة في كل حين . وهؤلاء الاعداء هم لصوص القوافل الصحراوية وربما هم الطوارق أو الشعانبة الذين كانوا يطوفون هم كذلك في الصحراء بحثا عن مكاسب أو مغانم .

(5) اعتلى العرش يعقوب المنصور من سنة 580 الى 595 هـ/1184 — 1199 م — ومحمد الناصر من سنة 595 الى 611 هـ/1199 — 1214 م) .

(6) المتوان التام لهذا الكتاب الذى ألفه العلامة أبو العباس أحمد بن محمد المقرى هو كما يلي : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب . طبع بالقاهرة سنة 1302 هـ . في 4 أجزاء .

(7) انظر :
DOZY : *Analectes sur l'histoire et la littérature des Arabes d'Espagne,* par al-Makkari, 1re partie, Leyde et E. J. Brill, 1858, pp. 72-73.

ويروى نفس الرحالة الذى ذكرناه وهو السرخسى حول هذا الموضوع شهادة قصيرة ولكنها طريفة للغاية اذ يقول : « قال لى الفقيه أبو عبد الله محمد القسطلانى (8)، دخلت الى السيد أبى الربيع بقصر سجلماسة وبين يديه انطاع عليها رؤوس الخوارج الذيـــن قطعوا الطريق على السفار بين سجلماسة وغانة وهو ينكت الارض بقضيب من الابنوس ويتمثل :

لا غـرو ان كانت رؤوس عـــداته   جوابا اذا كان السيوف رسائله (9)

وعندما اندثرت الامبراطورية الموحدية خلال القرنين 7 و 8 هـ ، حلت محل السلطـة الرسمية المبادرة الخاصة للدفاع عن التجارة التى تواصلت ممارستها عبر الصحـــراء كما كان الحال فى الماضى ورغم المشاكل المتنوعة التى كانت تلاقيها (10) • فقد تأسست شركات حقيقية وأشهرها هى تلك التى شكلها الاخوة المقرى وهم اجداد مؤلف « نفـح الطيب » • وان المعلومات التى وافانا بها المقرى التلمسانى فى هذا الموضوع تستحق ان تلفت انتباهنا وذلك لاهميتها • ومع ان هذه المعلومات ليست جديدة كلها (11) الا انه يجدر تسجيلها فى هذه الدراسة لانها ستشكل خاتمة طريفة للعرض القصير الذى قدمناه حول العلاقات التجارية بين المغرب والسودان عبر الصحراء •

يقول المقرى : « ثم اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة فمهدوا طـــريق الصحراء بحفر الآبار وتامين التجار واتخذوا طبلا للرحل وراية تقدم عند المسير وكان

---

(8) لم نجد معلومات عن هذا الفقيه الذى ليست له علاقة بالفقيه القسطلانى الـــذى علق عن صحيح البخارى والذى توفى سنة 923 هـ/1517 م •

(9) انظـــر :
DOZY : *Analectes sur l'histoire et la littérature des Arabes d'Espagne*, tome II, p. 74.

(10) انظـــر :
COUDRAY : *Relations commerciales de Tlemcen avec le Soudan*, in *Bulletin de la Société de Géographie d'Alger*, 2e année, 1897, pp. 229-253.

(11) لقد نشر وترجم الى الفرنسية هذا النص بارجيس فى كتابه المسمى :
Mémoire sur les relations commerciales de Tlemcen avec le Soudan sous le règne des Beni Zeiyan, in *Revue de l'Orient*, Juin, 1853, pp. 5-7.

ولد يحيى الذين احدهم أبو بكر خمسة رجال فعقدوا الشركة بينهم فى جميع ما ملكـوه أو يملكونه على السواء بينهم والاعتدال فكان ابو بكر ومحمد وهما أرومتا نسبى من جميع جهات امي وابى بتلمسان وعبد الرحمن وهو شقيقهما الاكبر بسجلماسة وعبد الواحـد وعلى وهما شقيقاهم الصغيران بايولاتن فأتخذوا بهذه الاقطار الحوائط والديار وتزوجـوا النساء واستولدوا الامآء وكان التلمسانى يبعث الى الصحراوى بما يرسم له من السلع ويبعث اليه الصحراوى بالجلد والعاج والجوزة والتبر والسجلماسى كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ويكاتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان حتى اتسعت أموالهـم وارتفعت فى الضخامة أحوالهم ولما افتتح التكرور كورة ايولاتن واعمالهم أصيبـت اموالهم فيما اصيبت من أموالهم بعد ان جمع من كان بها منهم الى نفسه الرجال ونصـب دونها ودون مالهم القتال ثم اتصل بملكهم فأكرم مثواه ومكنه من التجارة بجميع بلاده وخاطبه بالصديق الاحب والخلاصة الاقرب ثم صار يكاتب من بتلمسان ويستقضى منهم ماربه فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة وعندى من كتبه وكتب ملوك المغرب ما ينبىء عـن ذلك فلما استوثقوا من الملوك تذللت لهم الارض للسلوك فخرجت اموالهم عن الحد وكادت تفوت الحصر والعد لان بلاد الصحراء قبل ان يدخلها أهل مصر كانت يجلب اليها مـن المغرب ما لا بال له من السلع فتعاوض عنه بما له بال من الثمـن أى مدير دنيا ضـم جنب أبى حمو وشمل ثوباه كان يقول لولا الشناعة لم انزل بلادى تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذى كل أمر الدنيا له تبع ومـن سواهم يحمل منها الذهب ويأتى اليها بما يضمحل عن قريب ويذهب ومنه ما يغير مـن العـوائد ويجر السفهاء الى المفاسد ولما درج هؤلاء الاشياخ جعل ابناؤهم ينفقون مما تركوا لهم ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم وصادفوا توالى الفتن ولم يسلموا مـن جور السلاطين فلم يزل حالهم فى نقصان الى هذا الزمن فها أنا ذا لم ادرك من ذلك الا أثـر نعمة اتخذنا فضوله عيشا وأصوله حرمة ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب وأسباب كثيرة تعين على الطلب فتفرغت بحول الله عز وجل للقراءة فاستوعبت أهل البلد لقـاء وأخذت عن بعضهم عرضا والقاء سوا المقيم القاطن والوارد الظاعن » (12) .

(12) المقرى ، نفح الطيب ، طبع بالقاهرة ، 1302 هـ ، ج 3 ، ص 110 — 111 .

تلمسان والقدس الشريف

عبد الرحمن الجيلالى

انا لا اكاد ارتاح لذكر مدينة بلد الجدار تلمسان الا بذكر اسمها مقرونا باسم مدينة القدس المباركة من تلك الارض المقدسة ارض فلسطين ؛ بل ولا اجد فى نفسى اطمئنانا ولا أشعر برضى من التاريخ ـ وانا اكتب كلمتى المختصرة هذه عن تلمسان والحرب اليوم قائمة ما بين العرب عرب فلسطين واسرائيل فلا يطيب لى ذلك ما لم اذكر بالروابط التاريخية العديدة التى تربط بين تلمسان والقدس فهى تمتد الى زمن بعيدضاربة فى اعماق التاريخ القديموالحديث أيضا وهى تزيد على رابطة الجنس والدين واللغة بما تاصلهناكمن روابط وصلات اخرى أدبية واجتماعية وسياسية وما الى ذلك من اعمال كثيرة هى من قبيل البر والخير والاحسان .

ان تضامن الجزائر مع فلسطين ليس هو وليد الساعة ، ولا هو بنتيجة ظروف خاصة وانما هو متاصل فى القدم له جذوره العميقة فى الازل يجمعه بها شعور انسانى عام فوق

ما هنالك مما يجتمعان عليه من لحمة الدم واللغة والتاريخ ، ومنها تلك الروابط الوثيقة التى كان ان ربطها بين البلدين رواد المغرب العربى ونزلوا خير منزل بتلك الديار المقدسة أرض فلسطين العربية الشهيدة ! ...

ففى أرض فلسطين وفى بلد القدس الشريف ، بل وفى جزء من أرض الحرم المقدس المجاور للمسجد الاقصى (الذى باركنا حوله) نجد هناك حارة المغاربة متصلة بحائط البراق وهو الجدار الذى يحوط الحرم القدسى من الناحية الغربية ، وبأعلا الحارة هذه نجد كذلك زاوية المغاربة التى أنشأها من ماله الخاص الشيخ عمر بن عبد الله المغربى المصمودى المعروف بالمجرد ، وأوقفها على الفقراء والمساكين ثالث ربيع الثانى سنة 703هـ/1303م وبجنوب باب السلسلة من الحرم المقدس نجد باب المغاربة وحائط المبكى نفسه ومعه الرصيف الكائن أمام هذا الحائط كل ذلك هو وقف اسلامى تلمسانى محض يرجع الى أوقاف الشيخ شعيب بن الحسين الشهير بسيدى أبى مدين الغوث دفين تربة العباد بتلمسان 594هـ/1198م ، أنشىء هذا الوقف زمن صلاح الدين الايوبى لمنفعة جماعة من المغاربة المسلمين .

وبمراجعتنا للتاريخ نجد منصب قضاء المالكية بالقدس الشريف فى سنة 858هـ/1454م كان مسندا الى القاضى برهان الدين أبى اسحاق ابراهيم بن زين الدين أبى المعالى منصور المالكى التلمسانى ، وفى سنة 867هـ/1462م كانت خطة قاضى القضاة ــ أو قاضى الجماعة ــ بالديار المقدسية مسندة الى الشيخ شهاب الدين أبى العباس أحمد التلمسانى ؛ وبعد وفاة القاضى البساطى المالكى قاضى القدس ، أسند هذا المنصب الى قاضى القضاة شرف الدين أبى الروح عيسى بن شمس الدين محمد المغربى الشحينى المالكى (847هـ/1443م) ، ترجم له صاحب الانس الجليل ج 2 ص 585 ط مصر 1283هـ فقال : انه باشر منصبه هذا بعفة وشهامة ولم يل منصب القضاء مثله فى العفة والتقوى والعلم ، وكان له هيبة زائدة ووقع فى القلوب ، وكان من قضاة العدل والعالمين العاملين لا يحابى أحدا فى الحكم ولا يخاف فى الله لومة لائم ، ومما وقع له أن نائب القدس مبارك شاه حين ولى النيابة ودخل القدس ركب القضاة للقائه على العادة وألبس خلعة السلطان ، وكان

قد امسك جماعة من الفلاحين فلما وصل بهم الى باب الخليل قصد شنقهم أو شنق واحد منهم ، فأمر بذلك ، فتقدم اليه القاضي (المغربي) شرف الدين عيسى المالكي وقال لـه : ما الذي تريد تفعل بحضورنا ؟.. فقال له الشاه : أشنق هؤلاء ، قال بأى طريق ؟ .. قال لصوص قاتلون للنفس، فقال له القاضي : هل ثبت عليهم هذا بالطريق الشرعي ؟ ... قال النائب : نحن لا نحتاج الى ثبوت ، فقال له القاضي : تقتل مسلما عمدا بحضوري بغير حق هذا لا سبيل اليه ، ولكن تدخل المدينة وتنظر في أمرهم ، فان ثبت عليهم ما يقضي قتلهم قتلناهم والا فلا سبيل الى قتلهم ، فشدد النائب في أمرهم وقال : لابد من قتلهم ، فقال له القاضي : والله لو قتلتهم بحضوري لكنت أقتلك بيدي وأعلقك الى جانبهم كما انت بخلعة السلطان ؛ فلم يقدر النائب على مراجعته لهيبته ، ودخل الى المدينة ولم يستطع قتلهم ؛ وله مثل ذلك أخبار كثيرة عفا الله عنه ، واستمر على القضاء بالقدس الى أن توفي سنة 854هـ/1450م ، والشيخ محمد بن على المطغري المغربي المشهور بالفلاح باشر الحكم بالقدس نيابة على القاضي المغراوي وتوفي سنة 876/1472م .

ومنهم قاضي قضاة القدس والشام الشيخ أمين الدين سالم بن ابراهيم المغربي الصنهاجي المالكي قدم الى القدس من المغرب فقيها عالما فاضلا ؛ ووقع في أسر الكفار سنة 834هـ/1431م وناظر الاساقفة ببلادهم فأفحمهم وأقام عندهم مدة ثم انجاه الله وقدم الى دمشق فتولى قضاءها ثم ولي قضاء القدس سنة 845هـ/1442م . ثم أعيد الى قضاء الشام فسار سيرة حسنة بحرمة وعفة ونزاهة ، وكان يحفظ الشفاء على ظهر غيب ، توفي سنة 873هـ/1469م ، وقاضي القضاة محمد بن سعيد المغراوي (873هـ/1469م) الخ ...

وكذلك قل في منصب امامة المالكية بالمسجد الاقصى فكثيرا ما تولاها مغاربة ، كان منهم في الربع الاول من القرن التاسع الهجري المقرىء الشاعر الاديب الشيخ شمس الدين عبد الواحد بن جبارة المغربي ، وكان السبب في ترتيبها هو الشيخ موسى المغربي المالكي المتوفي في حدود الثمانمائة والمدفون بزاوية المغاربة ، وكانت مشيخة المغاربة وامامة المسجد الاقصى للشيخ خليفة بن مسعود المغربي الجابري (833هـ/1430م) .

وهكذا حيثما توجهت وطفت بأرض فلسطين المقدسة وسبحت في اجوائها العطرة أو جلت في انحاء بقاعها الفسيحة الا ووجدت هنالك للمغاربة ـ تلمسانيين أو غيرهم ـ أثرا

ظاهرا يذكر فيشكر ؛ وألفيت معه جوبيت المقدس على الاخص يعبق بعبير شذا مفخرة تلمسان خصوصا والمغرب العربى قاطبة عموما العلامة أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ٠

زار هذا الرجل العظيم القدس مرتين (1029هـ/1620م) وله فيه أحبـاء وأصدقاء وتلامذة ومريدون تركهم كلهم يهتفون باسمه ويتشرفون بالانتماء اليـــه والانتساب الى حضرته فأثره الروحى خالد هناك ، وأعماله المبرورة بتلك الديار ماثلة للعيان ٠

فلقد حدثنا العياشى فى رحلته عن نفسه عندما ازمع على الرحيل من أرض الحجـــاز وتهيا للخروج بمفارقة أرض العقبة قال بأنه استصحب معه كتابا من صديقه الشيـــخ اسماعيل النابلسى الحنبلى كتبه الى الشيخ عبد القادر بن الغصين يوصيه فيــــه بشأن العياشى ويعرفه بمنزلته فى العلم ٠٠٠ وبعد اتصال العياشى بأرض فلسطين ودخـــوله غزة تلك البلدة المجاهدة التى هى تعانى اليوم فى كفاحها ضد الصهيونية ما تعانى !!٠٠٠ ونزل بجامعها الكبير وسلم لوقته الرسالة الى صاحبها عبد القادر بن الغصين ، قـــال : ولما كان الغد من يوم وصولنا دخلت على الشيخ عبد القادر فى مدرسته فسلمت عليــه ، وقال لى أين الرجل الموصى عليه فى الكتاب الذى ناولنى أمس أين نزل فانى لم أجد من يدلنى عليه ؟ ٠٠ ؛ وكان لا يظننى اياه لما راى من رثاثة هيئتى !٠٠ فقلت أنا هو ، فأعاد السلام ورحب واعتذر عما صدر منه من التغافل وبعث فى الحين من أتى بامتعتنا وأصحابنا من المسجد وانزلنا فى مكان واسع مهيأ المرافق من مدرسته وأحسن غايــــة الاحسان ؛ ومدرسته هذه فى قبلة المسجد الاعظم ليس بينه وبين المسجد الا الطريق ، وغالب جلوسه فيه ويأوى اليه أصحابه فيه ويقرأون خمسة أحزاب من القرآن كل يوم قبل طلـــوع الشمس مناوبة ، وفيه خزانة كتب وتقرأ فيه كتب علمية ٠ واخبرنى رضى الله عنه ان أمير البلد هو الذى بنى هذا الرباط وأوقفه عليه وجعل له أوقافا ؛ وأخبرنى ان الشيخ ابا العباس (أحمد المقرى التلمسانى) رضى الله عنه هو السبب فى ذلك ، وانه لما جاء من مصر الى الشام وكان منزله عند والد الشيخ الغصين وكانت للشيخ المقرى مكانـــة عند الامير قال وكانت دارنا بعيدة من المسجد فأتى الى المسجـد اقـــرأ فيه وأقـــرى فسألته ان يطلب لى الاذن من الامير فى بناء بيت ببعض رحـــاب المسجد واستقل فيـــه بالمطالعة والقراءة ، فقال لى لابد من حضورك معى عند الدخول على الامير ، قال فلما دخلنا

عليه قدم له الشيخ مقدمات فى فضل بناء المساجد والمدارس ثم اثنى على الشيخ عبد القادر وقال له : انه من أهل العلم وليس ببلدكم مثله وأراد أن تأذنوا له فى بناء بيت فى المسجد يقرأ فيه ويقرى ، فقال الباشا : مثلك لا يليق له البناء فى المسجد ولكن هنا موضع نحبسه عليك ، وهو موضع المدرسة الآن ، وكان يسكنه أقوام لا خلاق لهم من اعوان الدولة ، فقال له الشيخ المقرى لما هممت بهذا فامضه الآن ولا تؤخر ، فلم يبرح من المحل حتى دعا القاضي وكتب وشهد الشهود وأخرج من كان فى ذلك المحل وحبس على المحل أوقافا يتحصل منه نحو خمس قطع فى كل يوم ، ولم يزل المحل بعد ذلك عامرا بالذكر والقراءة ولله الحمد ، قال فما نحن فيه كله من بركة الشيخ المقرى ؛ قال ومن قوة تواضع الشيخ المقرى رضيى الله عنه انه لما أتى من مصر جاء بكتاب من عند الشيخ النجار فيه وصاية الى والدى به فأنزله والدى عندنا وأكرمه غاية ، فلما أنس بنا وتداخل معنا قال له والدى يوما ما يا سيدى أحمد انا نشتهى الطعام المسمى عند المغاربة (الكسكس) فهل فى أصحابكم من يحسن صنعته ؟ ... فقال له فيهم والله ! لا يصنعه لكم أحد غيرى، قال فأتيناه بشاة لحم ودقيق وسمن وما يحتاج اليه ، فصنع لنا بيده طعاما من أجود ما يكون من ذلك النوع ... (الرحلة ج 2 ـ ص 305 ط ، فاس 1316 هـ) .

وجرى الشيخ العياشى على ما كانت عليه تقاليد العلماء تجرى بينهم عند اللقاء من استدعاء الاجازة توطيدا للرابطة العلمية ومحافظة منهم على سند الرواية المتسلسل الذى اختصت به هذه الامة فى تلقيها عن العلماء وامعانا فى الضبط ؛ قال ولقد استجزته فاجازنى ... وقرأت عليه بلفظى منظومة شيخه المقرى (التلمسانى) فى العقائد المسماة (اضاءة الدجنة ، بعقائد أهل السنة) كلها واخبرنى بها عنه وقال لى : أنا ممن كان السبب للشيخ (المقرى) فى نظمها ، فانى كنت أقرأ عليه صغرى الشيخ السنوسى بمصر فسألنا منه نظما فى العقائد ، فكان كلما قرأ درسا نظمه فيقراه غدا كذلك الى ان ختمها ؛ قال وعند الشيخ الغصين نسخة من هذه المنظومة عليها خط الشيخ (المقرى) فى أماكن ، عليها اجازة لمالكها الشيخ عبد القادر ، ولنذكر بعض ما رأيته مكتوبا فى هوامشها بخط المؤلف تبركا به وزيادة فى الافادة ؛ ... وهنا أورد العياشى فى رحلته

طائفة من المسائل التى خطها المقرى بيده على هوامش منظومته اضاءة الدجنة ... قال : وكتب ـ المقرى ـ فى آخرها ما نصه :

« يقول مؤلف هذه العقيدة العبد الفقير أحمد المقرى المالكى جبره الله ، أننى صححت هذه النسخة جهد استطاعتى وأصلحت فيها ما عثرت عليه ، وقد كتب من هذه العقيدة فيما علمت بمصر المحروسة والشام والحجاز والمغرب ما ينيف على ألف نسخة ولله الحمد وكتبت خطى على نحو المائتين منها وقد كتبها غالب طلبة مكة لما قرأتها هنالك وأهل بيت المقدس لما قرأتها به أيضا وأهل دمشق حين درستها بها وأخذ منها أصحابنا الى المغرب والصعيد نسخا ، وكتب لى بعض اصحابنا بالصعيد انه كتب منه هناك ما ينيف على مائة نسخة ، وكذلك برشيد والاسكندرية جعلها الله خالصة لوجهه الكريم ؛ وكتب لشوال سنة 1207هـ/ماى 1793م .

وهذه العقيدة مطبوعة فى مصر بشرحها للشيخ المختار بن الاعمش (1306هـ/1889م) .

هذا فى الماضى القريب والبعيد، ولا يفوتنا هنا أن نذكر بموقف حزب الشعب الجزائرى فى سنة 1937 م ، حيث وقف الى جانب فلسطين وحمل حملته المشكورة ضد الاستعمار والمستعمرين ، وقد تعقبت الحكومة الاستعمارية هذه الحملة وبطشت بالعشرات من المناضلين وحاكمتهم بمختلف العقوبات وبقيت تتصيد على المال لمنعه من الوصول الى محله بفلسطين ولكنه رغم ذلك كله وصل المال الى محله عن طريق الشباب الذى كان يتزعم قضية فلسطين وعن طرق أخرى كذلك، وهناك يومئذ نخبة من أهل تلمسان جمعت من المال مبلغا لا بأس به وبعثت به الى فلسطين عن طريق (مجلة الرسالة) وهناك آخرون فى أنحاء القطر الجزائرى قاموا بنفس العمل .

وفى سنة 1952 م ، نهض القاضى الشيخ شعيب الطالب التلمسانى بتكوين لجنة لحماية (وقف سيدى أبى مدين) بالقدس من يد العابثين وللحفاظ عليه من يد البلا والخراب وانه لما حج السيد محفوظ الونيسى الاستاذ بثانوية سطيف سنة 1955 م ، عرج على الديار المقدسية واطلع على حال الوقف واتصل بالمتولى عليه ولما عاد الى الجزائر أخبر بانه شاهد بنفسه الزاوية الموقوفة على سيدى أبى مدين ،وما اتصل بها من الدار الكبيرة

المعدة لنزول قاصدى القدس من أهل شمال افريقية وانهما فى غاية الصيانة كما أفاد عن القائم بشؤون هذا الوقف وانه كان وقتئذ مهتما بانشاء مستوصف طبى ودار للايتـــام بالاضافة الى ما كان ينوى من اقامة معهد ثقافى مزدوج اللغة ، فكل ذلك يدلنا على عناية أهل الجزائر ـ وبالاخص منهم أهل تلمسان ـ بالتراث الذى يربطنا بهذه البقاع المقدسة منزل الوحى ومصدر الانبياء والمرسلين ومهبط الملائكة ومصعد النور مـــن الفرش الى العرش ، وآية ذلك ما تقوم به الجزائر اليوم فيما تعتقده واجبا مفروضا عليها من نصرة القضية الفلسطينية العادلة وتدعيمها بشتى اشكال الدعائم فى جميع الميادين ، ولا يخفى موقف الوفد الجزائرى فى مؤتمر القمة الاسلامى المنعقد بالرباط اثر ارتكاب الصهاينـــة لجريمة احراق المسجد الاقصى (1969/8/21م) من تصميمه فى التأكيد على ان لا تاخـذ قضية الاحراق هذه وحدها أهمية مناقشة المؤتمر، بل يجبان تناقش المشكلة الفلسطينية من جميع جوانبها حتى لا يبقى فى القوس منزع ٠

هذا وقد شاع فى هذا العصر العمل على زيادة المبالغة فى نشر السلم وتمتين أواصر الود والايخاء بين الامم والشعوب فابتكر ذوو الخبرة السياسية فكرة التوأمة Jummlage بين البلاد امعانا منهم فى ربط صلة التآخى والمؤخاة بين الناس جميعا ٠ فتراهم ربطوا بهذه الطريقة عاصمة الجزائر ببراق عاصمة تشيكوسلوفاكيا ، كما ربطوا مدينة صوفيا عاصمة بولغاريا بمدينة الجزائر أيضا ، وأنا اقترح اليوم ربط مدينة تلمسان بمدينـــة القدس الشريف تثبيتا وثيقا لما بينهما من علاقة الصداقة والود والاحسان حتى تستمر هذه العلاقة متصلة فتضل منتظمة لا تنفصم ولا تزول بحول الله ٠

دولة بني يفرن الإباضية بتلمسان

الشيخ داود بن يوسف سليمان

يقول ابن خلدون : بنو يفرن هؤلاء من شعوب زناتة وأوسع بطونهم وهم عند نسابة زناتة بنو يفرن بن يصلتين بن مسر بن زاكيا بن ورسك بن الديرت ابن جانا وأخوته مغراوة وبنو يرنيان وبنو واسين (1) والكل بنو يصلتين وهذا هو الصحيح نلقاه عن أبى محمد ابن حزم وأما شعوبهم فكثيرة وكان بنو يفرن هؤلاء لعهد الفتح أكبر قبائل زناتة وأشدها شوكة وكان منهم بافريقيا وجبل أوراس والمغرب الاوسط بطون وشعوب فلما كان

الفتح غشى افريقيا ومن فيها من البربر جنود الله المسلمون من العرب حتى ضرب الدين بجرانه وحسن اسلامهم ولما فشا مذهب الخوارج بالمشرق قدموا لافريقيا يبثون بها دينهم فى البربر فتلقفه رؤساؤهم على اختلاف مذاهبهم من اباضية وصفرية ففشى فى البربر

(1) بنو واسين من ذريتهم بنو زيان ملوك تلمسان .

وضرب بنو يفرن هؤلاء بسهم وانتحلوه وقاتلوا عليه وكان من أول من جمع لذلك منهم أبو مرة من المغرب الاوسط (2) ، بقي علينا أن نعرف ما الداعى لهؤلاء للثورة ضد نظام الحكم وتأسيس دول مختلفة وما السبب فى انتشار الخارجية بالمغرب ولا بأس أن نورد بسطة فى الموضوع توضح القضية وتزيل الاشكال يزعم البعض ان الخارجية انتشرت بين البربر للعصبية البربرية للتخلص من سلطة العرب هذا زعم باطل فان الخارجية فى خير القرون الاولى للاسلام منتشرة كانت فى العالم الاسلامى كله وقد استولوا على كثير من الاقطار الاسلامية وكانت لهم دول متعددة فان قطرى بن الفجاءة كان يسلم عليه بالخلافة أكثر من عشرين عاما وان الاباضية استولوا على مكة والمدينة والامام مالك رحمه الله معجب بخطبهم الجمعية ، وقد تأثر بأفكارهم وآرائهم حتى انه كان يرى رأى الخوارج كما رواه الكثير ولا يتسع الموضوع لاكثر من هذا والا لأتيت بتفاصيل مدققة فى القضية على انه لم ينتشر فى القرن الاول والثانى الا مذهب الخوارج والشيعة ولنرجع الى أصل القضية وهى كيف قامت الثورات وتأسست دول متعددة فى المغرب ضد الحكومة المركزية سواء منها الاموية والعباسية وانفصلت عنها وذلك انه من برقة شرقا الى المحيط الاطلسى غربا اباضية وصفرية اباضية فى سجلماسة والخوارج من مبادئهم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والكفاح ضد الظلم والجبروت والطغيان وصادفت هذه المبادىء هوى فى نفوس البربر فهم لا يرضون بالذل والهوان ولما سامتهم الولاة الخسف وحكموهم بالعسف مثل عمر بن عبيد المرادى أساء السيرة وتعدى فى الصدقات والقسم وأراد أن يخمس البربر وزعم انه فىء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله وانما كان الولاة يخمسون من لم يؤمن بهم ولم يجب الى الاسلام وجاء بعده كلثوم بن عياض فسار سيرته وتذمرت منه الرعية وكان يعاملهم معاملة الرعاية الملزمين بأداء الجزية على الرغم من كونهم مسلمين قائمين بجميع الواجبات وقد اقتدى فى ذلك بسابقه يزيد بن أبى مسلم وهو نفسه عمل الحجاج بأهل العراق (3) ، هناك قرر المغرب القيام بثورة كيف لاوهم حملة العلم عن

---

(2) ابن خلدون الجزء السابع صفحة 23 ·

(3) تاريخ افريقيا والمغرب للرقيق القيروانى ط · تونس صفحة 108 — 109 ·

التابعين بالمدينة المنورة والبصرة علماء التفسير عكرمة مولى بن عباس وأبى الشعثاء جابر بن زيد وغيرهم فثار مسيرة المدغرى الصفرى بطنجة وبايعوه خليفة سنة 122هـ 740م • فأسس دولة بالمغرب توارثها بعض زعمائهم بعده وثار بطرابلس عبد الجبار والحارث وهما من الاباضية وثار أبو حاتم الاباضى فهجم على القيروان بمائة وثلاثين ألفا واستولى على القيروان وثار صالح بن نصير النفزى الاباضى واستولى على الجنوب التونسى •

وثار عبد الملك بن أبى الجعد ويزيد بن سكوم من كبار الاباضية بعده بتونس واستولوا على القيروان وقد ثار قبلهم عبد الواحد بن يزيد مع عكاشة الفزارى وهما من الاباضية واستولى على برقة وطرابلس وثار من بعدهم يحى بن فوناس منهم واجتمع اليه كثير من قومه فى طرابلس ونواحيها وثار عروة بن الوليد الصفرى بتونس وثار عبد الرزاق الخارجى وكان على رأى الصفرية واستولى على فاس ونواحيها هذه هى الاسباب التى أدت الى قيام أبى قرة بالثورة وتاسيس دولة تلمسان • (4)

* * *

أبو قرة بن فرناس وما كان لقومه من الملك بتلمسان

كان لبنى يفرن بالمغرب الاوسط بطون كثيرة بنواحى تلمسان الى جبل بنى راشد وهم الذين اختطوا تلمسان وكان رئيسهم لعهد انتقال الخلافة من بنى أمية الى بنى العباس أبو قرة هذا (5) وتلمسان قاعدة المغرب الاوسط ودار مملكته زناتة من قديم الزمان ومقصد التجار • (6)

كيف توصل أبو قرة بن دوناس الى الحكم

لما انتفض البرابرة بالمغرب الاقصى كما تقدم وبايعوا بالخلافة مسيرة المذغرى وقومه بدعوة الخارجية وقدموا بعده خالد بن حميد الزناتى فكان من حروبه مع كلثوم بن عياض

(4) ابن خلدون ج 6 ص7 •
(5) ابن خلدون ج 7 ص 24 •
(6) ابن عذارى ج 1 ص 73 مطبعة صادر •

وعبد الرحمن الجيلالى يقول فى تاريخ الجزائر انه بويع بالخلافة سنة 140هـ 757م ، وقتله اياه ما هو معروف وراس على زناتة من بعده أبو قرة ولما ضعفت دولة بنى أمية ونجحت الثورات الخارجية فى البربر وملك ورفجومة القيروان وهوارة وزناتة طرابلس ومكناسة سلجماسة وابن رستم تاهرت وقدم ابن الاشعث افريقيا من قبل ابى جعفر المنصور وخافه البربر فسكنوا ريثما تحن الفرصة ثم انتفض بنو يفرن بتلمسان ودعوا للخارجية وبايعوا أبا قرة كبيرهم بالخلافة سنة ثمان وأربعين ومائة ، وقيل انه بويع بالخلافة سنة 140 هـ 757 م .

وسرح اليهم ابن الاشعث الاغلب بن سود التميمى فانتهى الى الزاب وفر أبو قرة الى المغرب الاقصى ثم راجع موطنه بعد رجوع الاغلب (7) ولما انتفض البربر على عمر بن حفص ابن أبى صفرة عام خمسين ومائة وحاصروه بطنجة كان فيمن حاصره أبو قرة بن دوناس اليفرنى فى أربعين ألفا من قومه وغيرهم ومع عبد الرحمن بن رستم خمسة عشر ألفا وعاصم السدراتى (8) ستة آلاف ومع مسعود الزناتى عشرة آلاف فارس وغيرهم من الاتباع كثير وبعد مفاوضات انفض البربر عن طبنة ثم حاصروه بالقيروان وأبو قرة معهم بثلاثمائة وخمسين ألفا الخيالة منهم خمسة وثمانون ألفا وهلك عمر بن حفص فى ذلك الحصار وقد بلغت وقائعهم نحو ثلاثمائة وخمسين وقعة فى مدة لا تتجاوز خمسة وثلاثين عاما (9) وكان هذا عاملا قويا فى استقلال بعض القبائل الجزائرية تحت امارات أباضية فمنها امارة بنى مسرة وهم فخذ من زناتة وعاصمتهم (أوزكا) بنواحى سعيدة بعمالة وهران ، ورئيسهم عبد الرحمن بن أود موت بن سنان ثم تنقلت الرئاسة فى بنيه من بعده وامارة بنى دمر بنواحى قصر البخارى من عمالة الجزائر وعاصمتهم (تيمطلاس) ورئيسهم مصادف بن جرتيل كان بين حصنه ومتيجة مسيرة ثلاثة أيام مما يلى البحر وامارة هوارة بنواحى واد شلف حوالى نهر مينا شرقا ومدينة سيق غربا من عمالة وهران

---

(7) ابن خلدون ج 7 ص 24 أبو العباس الناصرى .

(8) عاصم السدراتى أحد حملة العلم تخرج على أبى عبيدة مسلم بالبصرة مع عبد الرحمن بن رستم .

(9) ابن خلدون ج 7 ص 35 ، عبد الرحمن الجيلالى ج 2 ص 206 .

وعاصمتها قلعة مغيلة دلل)، وكانت رئاسة هؤلاء جميعا لرجل يقال له ابن مصالة الاباضى (10) ، ولما قدم يزيد بن خاتم واليا على افريقيا وفظ جموعهم وفرق كلمتهم وقتل أبا حاتم الاباضى رأس الخوارج المستولى على القيروان لحق أبو قرة بن دوناس بنى يفرن أصحابه بمواطنهم بتلمسان وبعض المؤرخين ينسبون ابا قرة هذا الى مغيلة يقول ابن خلدون لم أظفر بصحيح فى ذلك والطريق متساوية فى الجانبين فان نواحى تلمسان وان كانت موطنا لبنى يفرن فهى أيضا موطن الى مغيلة ، القبيلتان متجاورتان لكن بنى يفرن كانوا أشد قوة وأكثر جمعا ومغلية كانوا أشد عصبية للخوارج (11)، وقد غلب بنو يفرن على تلمسان الى سنة مائة وأربعة وسبعين .

دولة الادارسة بتلمسان :

عندما قدم ادريس الاكبر بن عبد الله بن الحسن الى المغرب الاقصى قامت دولة الادارسة يقول الدكتور أحمد مختار العبادى والاستاذ محمد ابراهيم الكتانى ما نصه : نزل ادريس على رجل يسمى عبد الحميد الاوربى المعتزلى ويضيف البكرى (118) ان المولى تابعه على مذهبه فى الاعتزال (12) ، ولا يخفى ان واصل بن عطأ بعث عبد الله بن الحارث الى المغرب فأجابه خلق كثير وفى ذلك يقول صفوان الانصارى يمدح واصلا :

له خلف شعب الصين فى كل ثغرة ... الى سوسها الاقصى وخلف البرابر

رجال دعاة لا يفل عزيمهم ... تهكم جبار ولا كيد ماكر (13)

يقول ابن خلدون ولى عبد الوهاب الرستمى وكان يسلم عليه بالخلافة وكان رأس الاباضية والصفرية والواصلية وكان أتباعه من الواصلية وجدهم ثلاثين ألفا ولم يزل الملك بتاهرت فى بنى رستم (14) ، فأقول أما كونه رأس الاباضية والصفرية فهو كذلك

---

(10) عبد الرحمن الجيلالى ج 2 ص 207 .

(11) ابن خلدون ج 7 ص 25 .

(12) ابن الخطيب 190 .

(13) عبد الرحمن الجيلالى ج 2 ص 202 .

(14) ابن خلدون ج 6 ص 248 .

لانهما مذهب واحد وأما الواصلية فاحسانه لجميع المذاهب الاسلامية على ان المعتزلة مذهبهم قريب جدا من الاباضية والاختلاف بينهما فى مسالتين هما خلق الافعال والمنزلة بين المنزلتين فقط ·

قلنا لما قدم المغرب الاقصى وأستولى عليه نهض الى المغرب الاوسط فتلقاه محمد بن خزر بن صولات ، أمير زناتة وتلمسان فدخل فى طاعته وحمل عليها مغراوة وبنى يفرن وأمكنه من تلمسان وأختط مسجدها وصنع منبره ونقش على صفح منبره هذه العبارة « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به الامام أدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن على رضى الله عنهم وذلك فى صفر 174 هـ » ولم يبق أى أثر لهذا المسجد اليوم الا أطلال من مأذنته باكادير تلمسان القديمة ثم عاد بعد سبعة أشهر الى المغرب فبقيت تلمسان اسما للادارسة وكان ممثلهم فيها محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل ولهم الاحترام والتقدير والسلطة لمغراوة وبنى يفرن حتى كانت سنة مائة وتسعة وتسعون زحف ، اليها ادريس الثانى ومكث بها ثلاث سنوات رسم فيها حدود مملكته وعقد فيها اتفاقية مع جيرانه الاغالبة على أن يكون الحد الفاصل بين المملكتين نهر شلف وتعاهدوا على السلم والموادعة وأمر ادريس يومئذ بترميم ما يلى من المسجد الجامع الذى اشاده والده وأصلح منبره وجدد العهد لابن عمه محمد على ولاية تلمسان ثم عاد الى فاس وبقى محمد هذا على ولايته مقيما بعين الحوت الى وفاته فخلفه ابناؤه وحفدته ·

يقول ابن الخطيب كان سلطان الادارسة اذا قوى امتد الى تلمسان واذا ضعف انقبض على معتصمهم بسبتة (15) ، فبقيت تلمسان مركزا للولاية بعد ان كانت عاصمة ·

وقد كان ادريس الثانى سجل بولاية تلمسان لابن عمه محمد بن سليمان فكانت ولاية تلمسان وأمصارها فى عقبه واقتسم أولاده ولاية ثغورها الساحلية فكانت تلمسان لولده ادريس بن محمد بن سليمان واشركولولد عيسى بن محمد وتنس لولد ابراهيم بن محمد

(15) ابن خلدون ج 7 ص 25 ·

(16) ابن خلدون وابن الرقيق والمليلى وعبد الرحمن الجيلالى وابن عذارى والناصرى وابن الخطيب ·

ابن محمد وساير الضواحى من أعمال تلمسان لبنى يفرن ومغراوة (17) ولم يزل الملك بضواحى المغرب الاوسط لمحمد بن حزر من مغراوة الى أن كانت دولة الشيعة واستوثق لهم ملك أفريقية سرح عبيد الله الى المغرب عروبة بن يوسف الكتامى ففى عساكر كتامة سنة ثمان وتسعين ومائتين فدوخ المغرب الادنى ثم سرح بعده مصالة بن حوس الى المغرب فى عساكر كتامة فاستولى على أعمال الادارسة وكان آخرهم يحيى بن ادريس بن عمر فلم تلبث زناتة حتى انتقضت على العبيديين تحت قيادة عمر بن حزر المغراوى وحمل زناتة وأهل المغرب الاوسط على الشيعة فسرح اليهم عبيد الله الشيعى مصالة قايد المغرب فى عساكر كتامة سنة تسع وثلاثمائة ولقيه محمد بن حزر فى جموع مغراوة وساير زناتة ففل عساكر مصالة وخلص اليه فقتله وسرح عبيد الله الشيعى ابنه أبا القاسم فى العساكر الى المغرب سنة عشر وثلاثمائة وأتبع آثارهم الى ملوية فلحقوا بسجلماسة وعطف أبو القاسم على المغرب فدوخ أقطاره وجال فى نواحيه فرجع ولم يلق كيدا ٠

ثم ان الناصر صاحب قرطبة خاطب الادارسة وزناتة فبادر محمد بن حزر الى ، اجابته وقام بدعوته ادريس بن ابراهيم بن عيسى بن محمد بن سليمان صاحب أرشكول وذلك سنة ستة عشر وثلاثمائة وفى سنة أحد وعشرين زحف اليهم حميد بن يصل فى عساكر كتامة (18) ٠

فأجفلت أمامه ظواعن زناتة ودوج المغرب ثم انتقضوا عليهم سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة وامتنعت عليهم ثم شغل الشيعة بثورة أبى يزيد العارمة فعظمت آثار محمد ابن خزر وقومه من مغراوة وزناتة وزحف الى تهارت وزحف معه الخير بن محمد وأخوه حمزة وعمه عبد الله بن خزر من مغراوة ومعهم يعلى بن محمد فى قومه من بنى يفرن وأخذوا تهارت عنوة وأسروا قائدها ميسور الخصى وزحفوا على بسكرة واستولوا عليها ولم يزل محمد بن خزر وابنه الخير متغلبا على المغرب الاوسط ومقاسما فيها ليعلى بن محمد اليفرنى ولم تزل مغراوة وبنو يفرن فى مد وجزر تارة بأنفسهم وتارة بمساعدة الامويين ملوك قرطبة لم يستسلموا لحكم العبيديين ولا لمؤيديهم من صنهاجة أبدا حتى كانت

(17) ابن خلدون ج 7 ص 52 ٠

(18) ابن خلدون ج 7 ص 53 — 54 ٠

ثلاث وتسعين وثلاثمائة ونشات فتنة بين آل بلقين وآل باديس من صنهاجة قويت زناتة فأسست دولة جديدة بتلمسان •

* * *

دولة بني يعلى من بني يفرن ملوك تلمسان

ذكر المؤرخون أن محمد بن الخير الذى قتل نفسه عندما أحيط به فى معركة زناتة مع بلقين بن زيرى كان من ولده الخير ويعلى وانهم الذين ثأروا منهم بأبيه زيرى فقتلوه وأتبعهم بلقين من بعد ذلك وأجلاهم الى المغرب الاقصى حتى قتل محمد منهم صبرا عام ستين وثلاثمائة بنواحى سلجماسة وقام بأمر زناتة بعد الخير ابنه محمد وعمه يعلى ابن محمد وكانت بين زناتة وصنهاجة معارك عنيفة حتى وقع الخلاف بين آل زيرى وآل باديس من صنهاجة فاشتغلت صنهاجة بالفتن التى بينها فوجدت زناتة الفرصة سانحة لها فاستولى زعيمها اذ ذاك يعلى بن محمد من آل خزر على تلمسان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة فكانت خالصة له وبقى ملكها وساير ضواحيها فى عقبه فاستوثق ملك بنى يعلى خلال ذلك بتلمسان واختلفت أيامهم مع آل حماد سلما وحربا ولما دخل العرب الهلاليون افريقيا وغلبوا المعز وقومه على افريقية واقتسموا سائر أعمالها ثم تخطوا الى أعمال بنى حماد فاحجروهم بالقلعة وغلبوهم على الضواحى لكن بنو حماد استمالوا اليهم الاثبج وزغبة فأستظهروا بهم على زناتة المغرب الاوسط وأنزلوهم بالزاب واقطعوهم الكثير من أعماله فكانت بينهم وبين بنى يعلى أمراء تلمسان حروب ووقائع وكان أمير تلمسان لعهدهم بختى من ولد يعلى وكان وزيره وقائد حروبه أبو سعدى بن خليفة اليفرنى فكان كثيرا ما يخرج بالعساكر من تلمسان لقتال عرب الاثبج وزغبة ويحتشد اليهم من زناتة أهل المغرب الاوسط مثل مغراوة وبنى يلومى وبنى عبد الواد وبنى توجين وبنى مرين وهلك فى بعض تلك الملاحم هذا الوزير أبو سعدى عام خمسين وأربعمائة •

وبقيت تلمسان قاعدة زناتة تحت سلطة ملوك آل خزر من بنى يعلى حتى ملك المرابطون أعمال المغرب الاقصى فسرح يوسف بن تاشفين قائده مزدلى فى عساكر لمتونة لحرب من بقى بتلمسان من مغراوة وكان ذلك فى ولاية العباس بن بختى فبرز لمدافعتهم

ابنه يعلى بن العباس بن بختى فهزمه قائد المرابطين وقتله وانكفأ راجعا الى المغرب بدون أن يستولى على تلمسان ثم نهض يوسف بن تاشفين بنفسه فى جموع المرابطين سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة فدخل تلمسان واستلحم بنى يعلى ومن كان بها من مغراوة وقتل أميرها العباس بن بختى آخر أمراء بنى يعلى ومحا أثر مغراوة من المغرب الاوسط ٠

وأنزل محمد بن تينعمر المسوفى فى عسكر من المرابطين بتلمسان واختط مدينة (تاكرارت) وهى التى صارت اليوم مع تلمسان وتلمسان القديمة أقادير بلفظ واحد وانقرض أمر مغراوة من جميع المغرب الاوسط كأن لم يكن والبقاء لله وحده سبحانه وكانت مدة دولتهم الاخيرة هذه ثمانون سنة وبقيت تلمسان مركز ولاية فى عهد المرابطين والموحدين بعدهم حتى جاء بنو عبد الواد فأسسوا بها دولتهم العظيمة فصارت تلمسان عاصمة للمغرب الاوسط (الجزائر الحالية) ٠٠٠

تلمسان
ونشأة الدولة الموحّدة

عثمان الكعاك
تونس

الكوميون والدولة الموحدية • الكوميون (بالقاف المعقودة g قبيلة بربرية مشهورة ضاربة مواطنها بين البحر الغربى الجزائرى واحواز تلمسان • وهى أصل عبد المؤمن بن على الكومى وقد قامت الدولة الموحدية على اشخاص ثلاثة :

1 ـ المهدى بن تومرت وهو متولى العقائدية الموحدية التى تعتمد على عقائدية الغزالى نفسه شيخ المهدى بن تومرت ، وأهم هذه العقائدية مسؤولية الفرد عن الجماعة بمعنى ان تضامن المسلمين هو أصل وحدتهم وسلامتهم الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، فلا مسلم بدون مسلمين ولا مسلمين بدون مسلم • فالفرد والجماعة متضامنون فى المسؤولية الاسلامية ، ويعتمد ذلك فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فالمسلم لا يسكت عما يرتكبه المسلمون من المناكر ، والمسلمون لا يسكتون عما يرتكبه الفرد • والذى نشر الكتاب ـ كتاب احياء علوم الدين ـ الذى هو دستور الموحدين ، كما ان كتاب

دعائم الاسلام هو دستور الفاطميين ـ الذى نشر ذلك الكتاب وشرحه ولقنه للناس هـو ابن اللحرى التوزرى دفين قلعة بنى حماد •

2 ـ اما الشخص الثانى ، لا فى الاهمية ولكن فى الترتيب فهو عبد المؤمن بن عـلى الكومى مطبق دستور دولته ومؤسس دعائمها والقائم باعمالها ومحقق احلامها ووارث السلطان فيها بعد وفاة المهدى •

ولد عبد المؤمن ببلدة تاجرة (ومعناها بالبربرية الحوض والجفنة) cuvette بالاصطلاح الجغرافى وهى تقع فى صميم الجبال فى منتصف الطريق بين هنين المرسى الذى على البحر والمرسى الحربى لعبد المؤمن ومدينة ندرومة القاعدة العملية لعبد المؤمن • وتاجرة تقـــع وسط دائرة من الجبال العالية وهى فى القعر بحيث يتعذر اكتشافها لما يكتنفها مـــن الغابات والنزول اليها والصعود منها ، وهذا ما عرفه الفرنسيون أنفسهم وعلى حسابهـم خلال حرب التحرير المباركة • هنالك ولد عبد المؤمن •

فى ملالة ـ ملالة قرية صغيرة عظيمة الاهمية تبعد نحو 7 كم فى جنوب بجاية وهناك التقى عبد المؤمن بن على والونشريسى وتعاهدوا على بناء دولة •

فى هنين ـ عبد المؤمن رجل عملى لا يترك عمل اليوم الى غد ولا يدع شيئا للصدفة ورجل دولة باوسع معنى للكلمة ، فالدولة عمل جد لا حديث خرافة ولا جلـوس عـــلى الكراسى بين الخمر والزمر والقمر وترك الامر • فهب من ساعته الى الساحل ، وبقى مرسى تافزوت على اليمين وهو المرسى التجارى والتموينى الكفيل بتمويل الدولة وضمان زادها وعتادهـا •

ثم مضى الى الغرب قليلا وأسس مرسى هنينوهو المرسى الحربى الذى يستطيع ان يجابه الاندلس المقابلة على قاب قوسين أو أدنى • وبين هاذين الثغرين جبل قليل الارتفاع لكنه يستشرف سواحل اسبانيا جعل عليه رباط سيدى ابراسيم الذى لا يزال موجودا وكل ذلك باد للعيان ، وبنى مدينة هنين كمدينة محصنة عسكرية حربية مستعدة للطـوارى وعظيم الاعمال وهى قاعدة مستعدة للقيام بجميل الاعمال العسكرية • وسورها بسور

وابراج وجعلها بشكل منحرف يصعد من الساحل الى قمة الجبل • وجعل خارجها وامام الرباط وما بين الثغرين معسكر جنوده الذى لا تزال معالمه باقية •

وبين الساحل وندرومة التى هى فى الجبال فى نهاية الافق يوجد جبل فلاوسن الذى له رباط كبير مشرف على كامل الجهات •

وبين هذا الجبل والبحر ، أى هنين توجد سلاسل جبال متعاقبة كلهــا اربطة فهى اسوار واحزمة دفاعية وهجومية لا يخطر ببال احد ان يخترقها ، ثم اعاد بناء ندرومــة التى هى القاعدة العملياتية La base opérationnelle ومركز الادارة المدبــرة ودواوين التصرف واعداد الخطط •

قلنا اعاد بناءها • لانها كانت قاعدة للحماديين فأبواب سورها ــ كما شاهدناه بقايا من الطراز المحمدى الحصونى المتعلق بباب البحر أو باب الديوان كما لا يزال ذلك باديا فى بجاية وعلى الخصوص فى تنس • فتنس بيدها مفتاح تفسير المعلق من تحصين أبواب البحر أو أبواب الديوان أو الثغور •

فما نجده فى تنس نجده فى ندرومة • ولعلنا ــ بالبحث ــ وانطــلاقا من المعلــوم الى المجهول ، نكتشفه فى أماكن أخرى • على أن الشبه بين تنس وهنين وندرومة أكيد جدا نفس سلاسل الجبال المتعاقبة التى تعلوها الاربطة ونفس الاسوار والقلاع • ونجد نفس النظام فى الجيجل رباط على البحر وسلاسل أربطة فى جبال زلديوة المتعاقبة ••• نفس النظام فى وهران ومستغانم ولست أتحدث الا عما أعرف وقد شاهدته ووقفت عليــه ودرسته وطالعت ما كتب عنه وامعنت النظر فى تخطيطه وفلسفته وبدايته ونهايتــه • فقضيت العجب • وزدت اعجابا لا يحد لعبد المؤمن بن على وبنبوغ الاسلام المغربى الذى يصاول أوروبا ويتغلــب عليها •

فبربك قــل لى « ما كــان الامر فى الاول » ثــلاثة رجال يجتمعون فى قرية لا يعرفها أحد ويقررون بناء امبراطورية ، ثــم يبنون تلك الامبراطورية انطلاقا من لا شيء الا مــن ايمانهم وهو كل شيء ومن نبوغهم وهو أعظم ومن اخلاصهم وهو أساس كل شيء ومــن تفانيهم وهو ضمان كل شيء •

قل لى يا قارئى العزيز ألست ستتروح من كل هذا شيئا عظيما مثله قام عليه نفسه أساسه بعد ثمانية قرون وانطلق من قرية من جبال أوراق كما كان هو انطلق من قرية جبال بجاية ؟ سبحان الله العظيم ان التاريخ يعيد نفسه !

فمن المثلث ندرومة تافزوت هنين ومن الثالوث بن تومرت ، عبد المؤمن بن عـــلى الونشريسى ، تكونت الدولة الموحدية التى صرعت الدولة المرابطة ، واسترجعت الاندلس ووحدت المغرب والبلاد السوداء وصقلت الحضارة الاسلامية وجعلت أوروبا تعيد النظر فى مصيرها ونشر العلوم والآداب والفنون والتقنيات وذهبت طغراء الاسلامى تذهيبا غـــير بهرج واقامت معمارا بهيجا عجيبا ساحرا شيقا ريقـــا فاتنا مدهشا وفلسفة دعائمها ابن رشد وابن باجة وابن خلدون وابن طملوس ورياضيات دعائمها القلصادى وابن البنا وابن ياسمين وابن بدر ، فكانت امبراطورية العلوم والآداب والفنون والتقنيات ودولـة البحار والبرارى والصحارى ٠

فلله در مثلث وثالوث لميسر ليس فيه الى الاتحاد والتوحيد الاسلامى ٠

أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ

ونبذ مجهولة من تاريخ حياة بعض أعلامها

المهدى البوعبدلى
عضو المجلس الاسلامى الاعلى
- الجزائر -

تعاقب على تلمسان فى عهدها الاسلامى أمراء وملوك منهم أمراء قبيلة بنى يفرن مؤسسو مدينة تلمسان قبل الفتح، وأمراء مغراوة ، ثم ملوك الادارسة فالفاطميين ثم المرابطين فالموحدين ، وبعد انحلال دولة الموحدين المركزية ، تنازع حكمها ملوك بنى زيان من جهة ، وملوك مرين (المغرب) مع بنى حفص ملوك تونس من جهة اخرى ، وبحكم الجوار ، كان النزاع بين بنى زيان وبنى مرين هو الذى خلف آثاره ، اما الخلاف مع بنى حفص
فكان اخف وطأة على بنى زيان ، الذين حكموا البلاد ازيد من ثلاثة قرون امكنهم فيها رغم كل ما ذكرناه ، ورغم الخلافات بين أمراء الاسرة الزيانية المتطلعين للحكم ، الذين كانوا يتمردون المرة بعد المرة على السلطة المركزية ، مستعينين برؤساء الامارات الداخلية أو القبائل العربية والبربرية ، فقد تمكن ملوك بنى زيان من جعل تلمسان عاصمة علمية ممتازة ، ضاهوا بها عواصم العلم المشهورة اذ ذاك ، كمصر ، وغرناطة ، وتونس وفاس

وبجاية ، وذلك انهم فتحوا باب الهجرة للعلماء على مصراعيه ، فجلبوا النخبة منهم ، سواء من مختلف بلاد القطر ، أو من الاندلس والمغرب الاقصى ٠

ان الغرض من هذه الدراسة استعراض أهم الاحداث الفكرية ، واستعراض نبذ مجهولة من تاريخ حياة بعض علماء تلمسان عبر تاريخها الزاهر ، فى الميدان الفكرى ، كما يدل على ذلك عنوان هذه الدراسة ، فالجوانب المجهولة من تاريخ حياة هؤلاء العلماء ، منها ما كان معروفا ، ولكنه بقى مغمورا فى كتب التراجم ، ومنها ما كان مجهولا ولم يكشف عنه الغطاء الا فى زماننا هذا عندما اكتشفت بعض المصادر القيمة النادرة واننى سأكتفى فى هذه الدراسة بسرد القسم الاول من الموضوع أى أهم الاحداث الفكرية ، وأجنب القارىء ، الدخول فى التفاصيل ، حيث يمكنه مراجعتها فى مظانها من التآليف المخصصة لها ، أما فيما يخص القسم الثانى من الموضوع ، وهو الجوانب المجهولة من تاريخ حياة بعض علمائها ، فاننى اقتصرت فيه ـ لضيق مجال هذه الدراسة ـ على حياة عالمين لهما شهرة عالمية ، ولا زالا محل عناية الكتاب والباحثين الى زماننا هذا ، وهما أبو عبد الله ابن خميس (650 ـ 708هـ) ٠ وأحمد المقرى (986 ـ 1041هـ) ٠

ان الجوانب المجهولة من ترجمتيهما ـ خصوصا ابن خميس ـ تركت الباحثين الذين حاولوا اماطة اللثام عن شخصيته الغامضة فى متاهات التناقض والاضطراب والالتجاء الى التكهنات كل ذلك بسبب فقد المراجع واحتياج الموجود منها الى البيان والتوضيح ٠

أما أحمد المقرى ، وان كان قريب عهد نسبيا ، وكان معاصروه ومن بعدهم ، أكثر اهتماما به وبآثاره ، فبقيت جوانب كثيرة تتعلق به وبأسرته مجهولة ، ولم يكشف عنها القناع الا فى عهدنا هذا ٠ ثم ان الفرق بين الشخصيتين كبير فأحمد المقرى ينتمى الى أسرة توارث أفرادها العلم والمجد ما يزيد على الخمسة قرون بتلمسان ثم انتقل فى آخر حياته الى فاس ومصر ودمشق فلقى التجلة والتقدير وانتصب فيها للتدريس والتاليف ، فلفت الانظار ، والتف حوله الطلاب ، فافاد واستفاد ، بخلاف ابن خميس المجهول الاصل والفصل ، الذى عاش منزويا فى مسقط رأسه ، ولولا الرحالة العبدرى الذى مر على تلمسان فى طريق رحلته الى المشرق سنة 688هـ ٠ ولقيه بها ، فنوه بشأنه ،

لما لفت أنظار مواطنيه ولنرجع الى الحديث عن القسم الاول من الموضوع ، وهـو أهـم الاحداث الفكرية التى اجتاحت تلمسان عبر تاريخها ، فكان أولها ، تسرب مذهب الصفرية الخارجي فى منتصف القرن الثانى من الهجرة ، وقد تزعم هذه الحركة أبو قرة الزناتى ، الى أن قضى عليها والى افريقية : ابن الاشعث ، فى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، وبعد استيلاء الادارسة على تلمسان أواخر القرن الثانى الهجرى ، كان المذهب السائد ، هو المذهب المالكى ، الذى انتشر اذ ذاك فى كامل بلاد المغرب العربى والاندلس ، ثـم ظهرت الدولة الفاطمية ، فانتشر بانتشارها المذهب الشيعى بتلمسان ، عندما استولى عليها بلقين بن زيرى بن مناد حوالى سنة 361 هـ · ونقل جـل سكانها الى (عاصمة دولته الثانية) أشير ، وفى أواخر القرن الرابع حل بتلمسان الفقيـه أحمـد بن نصر الداودى ، أحد دعاة المذهب المالكى الذى سبقت له المشاركة فى الحملة العنيفة التى قام بها فقهاء المذهب المالكى بالقيروان على المذهب الشيعى ، وكان يتزعمها الفقيه محمـد ابن أبى زيد القيروانى ، أمام أحمد بن نصر الداودى بتلمسان على سنن علماء عهده ، ونال شهرة ، وحظوة ، بدليل أن ضريحه بقى من معـالم ومزارات تلمسان ، الى عهدنا هذا كما بقيت أسرته تتوارث التقدير والاجلال وقد توفى الداودى فى بداية القرن الخامس ، قبل احداث المدينة الحالية (فى عهد الملك يوسف بن تاشفين) ولهذا دفـن خارج سور المدينة القديمة ، وهى ربض أقادير الحالى · ثـم شاهدت تلمسان فى الميدان الفكـرى الحرب الطاحنة بـين الفقهاء المالكيين ودولة الموحدين بعد استيلائهم عليها فى أوائل القرن السادس ، واشتهر من الفريقين أعـلام لا يسع مجال هذه الدراسة اطـالة الوقـوف عندهم ، اذ الخلاف العقائدى بين دولة الموحدين وفقهاء المذهب المالكى معروف ، وقـد خصصت له التآليف العديدة ، وبعد معركة الموحدين · شاهدت تلمسان معركة دامـت ما يزيد على القرنين ، بين السلفيين والمتصوفة ، وكانت بدايتها أوائل القرن الثامـن الهجرى ، وكثـيرا ما اشتبهت سلفية تلمسان بسلفية المشرق التى تزعمها العالم المصلح أحمد بن تيمية الحنبلى ، والحقيقة أن سلفية تلمسان اذ ذاك تسربت اليها من المغرب الاقصى وبالضبط من مدينة فاس ، وكان الداعى لها هو الفقيه على بن محمد بن عبد الحق الزرويلى المشهور بأبى الحسن الصغـير الذى تولى قضاء مدينة فاس وتوفى بها سنة 719هـ · وقد

امتازت سلفية الزرويلي هذا عن سلفية معاصره بالمشرق : الامام أحمد بن تيمية الحنبلي ، بانها كانت تقتصر على محاربة البدع بجميع انواعها فى اطار المذهب المالكى ، اذ كـــان الزرويلي من أشهر فقهاء زمانه ، وكان داعية لنشر امهات كتب المذهب المالكى ، كالمدونة ، وتهذيبها للبراذعى ، التى كانت تواجه من ناحية أخرى ، حملة عنيفة ، شنها عليهـــا بعض فقهاء المذهب المالكى انفسهم ، وقد خصص لها العالم المرحوم محمـــد الفاضـــل ابن عاشور مفتى الجمهورية التونسية دراسة قيمة نشرتها مجلة المجمع العلمى العربى ، بدمشق بعد وفاته بشهور ، وسمى هذه المعركة بثورة ثقافية تسربت مـــن المشرق الى المغرب بواسطة الامام ناصر الدين المشدالى البجائى ، ومن بجاية الى تلمسان ، فالمغـــرب الاقصى ، بواسطة عمران ابى موسى المشدالى (670 ـ 705هـ) الذى كان يدير المدرســـة التاشفينية بتلمسان ونال شهرة ، اذ هو شيخ مشائخ ابن خلدون ، امتدت المعركة بين السلفية والمتصوفة بتلمسان ما يربو على القرنين ، الا انها كانـــت لا تجـــاوز صفوف الاوساط العلمية ، كان يتزعم السلفية امام تلمسان فى عصره الحافظ محمد بن مرزوق الحفيد دفين تلمسان ، ويرأس انصار المتصوفين قاضى قضاة تلمسان قاسم العقبانى ، ولكل منهما مكانة شخصية وعائلية ، فأسرة ابن مرزوق كانت من الاسر التى توارثـــت العلم قرونا ، وكذلك أسرة العقبانى ، والفارق بينهما ان أسرة ابن مرزوق أسرة تلمسانية وأسرة العقبانى أسرة اندلسية الاصل ، وقد احتفظ لنا التاريخ بتأليف الحافظ ابن مرزوق فى الموضوع سماه « النصح الخالص فى الرد على مدعى رتبة الكامل للناقص » ٠

وأيد ابن مرزوق كثير من علماء الاندلس والقيروان وفاس ، وكان لهذه المعركة امتداد الى عهد الامام محمد بن يوسف السنوسى المشهور بتآليفه فى علم التوحيـــد والمتوفى بتلمسان سنة 895 هـ ٠ الذى انتصر لقاسم العقبانى وشيعته ، وألـــف كتابه المسمى « نصرة الفقير فى الرد على ابى الحسن الصغير » وانتصر للسنوسى شيخاه عبد الرحمن الثعالبى دفين الجزائر والحسن أبركان الراشدى دفين تلمسان ، ولم تفارق المعـــارك العقائدية تلمسان حيث فى وقت اشتغال السنوسى ومعاصريه بالمعركة بين السلفيـــة والمتصوفة ظهرت معركة أخرى هزت الاوساط العلمية هزة عنيفة ، وهى المعروفة «بقضية يهود توات» أثارها الفقيه المشهور ابو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلى عند ما أمر

مواطنيه بهدم بيعة اليهود التى احدثوها بقصور توات ، وعارضه فى ذلـــك معـــاصره أبو محمد عبد الله بن ابى بكر العصنونى ، فانقسم العلماء المعاصرون بتلمسان وفاس الى قسمين ، قسم أيد المغيلى ، والقسم الآخر أيد العصنونى ، ومن المؤيدين للمغيلى محمـــد ابن عبد الجليل التنسى والامام السنوسى وقد استفدنا مما ذيل به السنوسى فتواه الفقهية، الصبغة السياسية التى اكتستها هذه القضية ، التى كان ولاة البلاد يؤيدون فيها اليهود وتذييل السنوسى هذا نصه « ... فقد بلغنا أيها السيد ـ يعنى الفقيه المغيلى ـ ما حملتكم عليه الغيرة الايمانية والشجاعة العلمية من تغيير أحداث اليهود أذلهم الله تعالى وأخمـد كفرهم للكنيسة فى بلاد المسلمين ، وانكم حرضتم أهل تمنطيط على هدم الكنائس التى لليهود ببلادهم فتوقفوا من جهة من عارضكم فى ذلك من أهل الاهواء ، فبعثتم لاجل ذلك الى بلدنا اسئلة ومكتوبات تستنهضون بها همم أهل العلم لينظروا فى المسئلة نظر أهل العدل والانصاف ، ويبينوا الحق فيها بيانا شافيا قاطعا لكل تخليط وتشغيب يرد مـن أهل الهوى والانحراف ، فاعلم أخى أنى لم أر من وقف لاجابة هذا المقصد ، وبذل وسعه فى تحقيق الحق وشفا غليل أهل الايمان فى هذه المسئلة ولم يلتفت لاجل قوة ايمانه ، ونصوع ايقانه ، الى ما يشير به الوهم الشيطانى ، من مداهنة بعض من تتقى شوكته ، ويخشى ان يقع على يده اضرار ، أو حط من المنزلة ... الخ » . وقد نشر أحداث هـذه القضية أحمد بن يحيى الونشريسى فى « المعيار » بمزيد من التفصيل .

ولنواصل بحثنا فيما يتعلق بالقسم الثانى من الموضوع وهو « نبذ مجهولـة مـــن تاريخ حياة بعض اعلام تلمسان » الذى اقتصرنا فيه على حياة العالمين ابى عبد الله محمد ابن خميس ومواطنه أحمد المقرى .

كان أبو عبد الله محمد بن خميس من مواليد تلمسان ، حيث ولد بها حوالى منتصف القرن السابع ، وان جل مترجميه لم يتعرضوا لنشأته أو مشيخته على وفرة عددهـم ، وهم الرحالة العبدرى ، ولسان الدين بن الخطيب السلمانى ، وعبد الرحمن بن خلدون ، وأخوه يحيى ، وأحمد المقرى ، وابن القاضى فى « درة الحجال » وأحمد بن القاضى المشهور بابن قنفذ القسنطينى ، والسيوطى فى بغيـــة الوعاة ، وابن مريـم فى « البستان » ، والشريف الغرناطى فى تاليفه « رفع الحجـــب المستورة فى محاسن المقصورة » ومـن

المتأخرين المعاصرين ، الاستاذ عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة المغربية ، والاستاذ عبد السلام بن مزيان التلمساني في دراسته (بالفرنسية) التي قدمها بمؤتمر المستشرقين المنعقد في تلمسان سنة 1936 ·

وقد كانت دراسة الاستاذ عبد الوهاب بن منصور المسماة « المنتخب النفيس من شعر ابن خميس » جمع فيها صاحبها ما تفرق في غيرها من تراجم القدامى وحاول شرح رسالة ابن خميس التي نشرها لسان الدين بن الخطيب في تأليفه « الاحاطة في أخبار غرناطة » ولكن غفل لسان الدين عن التعريف بالرسالة عمدا أو نسيانا ، فلم يذكر عنها شيئا ، بل غفل حتى عن ذكر من وجهت اليه ، وكان نفس الموقف لاحمد المقرى الذي أشار لهذه الرسالة المنشورة في الاحاطة ولهذا كانت محاولات من أرادوا شرح الرسالة المذكورة لم تجاوز حل وشرح الفاظها اللغوية ، وان وجدنا الاستاذ ابن منصور يعترف بعجزه حيث ارتطم بالغموض الذي كان يكتنف الرسالة ، ويقدم الاعتذار فالاستاذ عبد السلام مزيان رجع الى التكهن والخيال فارتكب اغلاطا فادحة تأباها النزاهة العلمية كان هذا هو الوضع بالنسبة الى ابن خميس أى بقى الغموض على أصله الى سنة 1365هـ · عندما نشر الاستاذ ابن منصور « المنتخب النفيس من شعر ابن خميس » بالمطبعة الخلدونية في تلمسان سنة 1365 هـ ·

ومنذ خمس سنوات اكتشف اثر من أهم آثار ابن خميس ، وهذا الاثر هو رسالة ثانية ـ الرسالة الاولى هي التي نشرها لسان الدين في الاحاطة وعبد الوهاب بن منصور في المنتخب النفيس ـ كتبها ابن خميس بخطه سنة 682 هـ · أى قبل وفاته بنحو 26 سنة وموضوعها نفس موضوع الرسالة الاولى ، وكتبتا في وقت واحد ، الا ان الاولى ولو لم يعرفها لسان الدين ولا من بعده كأحمد المقرى الا انها حظيت بشرح قيم لمعاصر ابن خميس قاضي قضاة تلمسان الامام ابن هدية القرشي ، وقد ذكر هذا الشرح المسمى « العلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس » أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي في ترجمة ابن هدية القرشي في تأليفه الذي سماه « كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » الذي حققه ونشره المستشرق ليفي بروفنسال استاذ اللغة

والحضارة العربية بالسوربون ومدير معهد الدراسات الاسـلامية بجامعة باريس (طبع دار الكاتب المصرى القاهرة سنة 1948) ·

وترجمة النباهي لم توضح موضوع الرسالة ، اذ اقتصر فيها على وصف ابن هدية بقوله « ··· انه ذو حظ وافر من علم العربية واللغة والتاريخ ، شرح رسالة محمد ابن عمر بن خميس الحجرى الذى استفتح أولها بقوله :

عجبا لها ايـذوق طعـم وصالها	من ليس يأمـل ان يمـر ببالها
وأنا الفقيـد الى تعلـة ساعـة	منهـا وتمنعـنى زكـاة جمالهـا

الى آخر الرسالة من نظم ونثر شرحا حسنا اتى فيه بفنون العلم وضروب الادب بما دل على براعته الخ » اهـ ·

كان هذا الشرح فى حكم المفقود ، اذ لم يذكره ما وصلنا من مترجمى ابن خميس ، ونفس مترجمى ابن هدية الا النباهي المذكور ، وقد اكتشف باحدى خزائن بيوتات العلم بنواحى بجاية كما اكتشفت نسخة ـ أظنها الاصل اذ هى مبتورة تنقص منها الصفحات الناقصة من النسخة البجائية ـ ببقايا خزانة علمية شهيرة بمدينة قسنطينة ، وان هـذا الشرح المبتور « العلق النفيس فى شرح رسالة ابن خميس » لابن هدية القرشي والرسالة الثانية التى اكتشفت منذ خمس سنوات وقد كتبها ابن خميس بخطه سنة 682 هـ · أى قبل وفاته بست وعشرين سنة ، أزالتا الغموض الذى اكتنف حياة ابن خميس قرونا ، ولهذا سنحاول فى هذه الدراسة ان نوضح بعض الجوانب من حياته بايجاز اذ مجال هذه الدراسة محدود ، كان ابن خميس عندما لقيه الرحالة العبدرى تحت مراقبة شديدة من خصومه الاقوياء، الذيـن كان فى طليعتهم قاضى قضاة تلمسان ورئيس وزرائها ابن هدية القرشي الذى كان بحكم مناصبه فى البلاط الزيانى حاكما بأمره يقول النباهي فى ترجمته « كان أثيرا لدى سلطانه ، قلده مع قضائه كتابة سره ، وانزله من خواصه فوق منزلة وزرائه ، فصار يشاوره فى تدبير ملكه ، فقلما كان يجرى شيئا من أمور السلطة الا عن مشورته ، وبعد استطاع نظره، الخ » ·

وزيادة على مكانة ابن هدية عند الملك فقد كان يتمتع بنفوذ ادبى ، مرجعه الى انه سليل الفاتح الشهير عقبة بن نافع الفهرى ، وقد اتهم بن خميس بالكفر والزندقة حيث مثل امام محكمة خاصة بمدينة فاس ، وأصدرت حكمها عليه ولم ينجه من تنفيذ حكم الاعدام عليه الا فراره من مدينة فاس ، وهذا جانب من الغموض الذى كان يكتنف شخصيته بتلمسان ، ولم يفارقه الى ان فارق تلمسان الى سبتة ثم الى غرناطة حيث قتل ـ قيل لاسباب سياسية ـ سنة 708هـ .

اتهم ابن خميس « انه يتفلسف ويحيد عن التشرع علما وعملا وينحرف » وهذه التهمة سجلها عليه ابن هدية القرشى ، والفلسفة عند ابن هدية القرشى كفر صريح وفى ذلك يقول « ... والفلسفة عند أهل السنة وكافة الاشعرية عبارة عن الزندقة البحتة والضلالة المحضة والكفر الواضح ، الناشىء عن مطلق الخلاف الواضح ... الى ان يقول بعد ما بين مذاهبها واساطينها « ... فوجب تكفيرهم وتكفير شعثهم من المتفلسفة الاسلاميين كابن سينا والفارابى وغيرهما من المهتدين بهديهم المقتدين برأيهم عليهم لعنة الله أجمعين الخ » .

وقد صادفت محاكمة ابن خميس بمدينة فاس وجود ابن هدية القرشى بمدينة فاس ، دعته شؤونه الخاصة وفى هذه المحاكمة قال بن هدية « ... فاتفق ان اجتمع فى بعض محافلها الحافلة ومجالسها العامرة بأهل الفضل الآهلة بطائفة من حذاق الاشعرية وجماعة من الفقهاء المالكية كالشريف أبى البركات وغيره من فقهاء ذلك القطر ففتحوا باب المذاكرة ، وسلكوا سبيل المناظرة ، وتفننوا فى الكلام الى أن أخذوا فى علم الكلام ، استدراجا لابن خميس ، واستخراجا لخبء مذهبه الفلسفى الخسيس ـ الخ » وقد وقف ابن خميس موقف الابطال حيث دافع عن آرائه وافحم خصومه بحجج قاطعة حتى لم يبق فى المناظرة الا خصمه الذى نصب له الكمين بحكم مركزه السياسى وفى ذلك قال ابن هدية « فلم يلبث ان فاوضهم فيما عنده ، وكشف لهم معتقده ، فانبرى له الشريف ابو البركات معارضا ، ولمذهبه السىء مناقضا ، وكثر القول منهما ، وتخلى القوم عنهما (يعنى بالقوم حذاق الاشعرية وجماعة من الفقهاء المالكية الذين حضروا للمناظرة) ... فامتد مجال الجدال بينهما فلم يكن بأسرع من ان خاس ابن خميس ، وخاست الفلسفة وسكت مدحوض

الحجة ، فلم ينطق ببنت شفة ، ثم نظر فى القول الصادر منه وما ينشأ من **الحكم الشرعى عنه وخاف بوادر الحكام** فادرع جلباب الظلام ، وفر فرار الآبق ، ولم يلو على مرافق ولا موافق ، ولم يلق عصا تسياره الا بتلمسان داره ٠٠٠ » اهـ ٠

فتبين ان سكوت ابن خميس لم يتسبب عن افحام خصومه أو انه « سكت مدحوض الحجة » ، بل فطن للكمين الذى نصب له ، وان خصومه وعلى رأسهم الشريف ابى البركات كان يستدرجه لتسجيله فى دفتر الزنادقة الذين تهدر دماؤهم لخبر يطول ، وعند رجوعه الى تلمسان كتب الرسالتين الاولى لمشرف مدينة فاس ابى الفضل محمد بن يحيى بن عتيق العبدرى ، وهذه هى الرسالة التى نشرها لسان الدين بن الخطيب فى « الاحاطة » ونقلها الاستاذ عبد الوهاب بن منصور فى دراسته « المنتخب النفيس من شعر ابن خميس » وحاول شرحها وارتطم باللغز الذى ذكرناه ، وهى التى جظيت بشرح ابن هدية القرشى الذى لم يخف فى مقدمة شرحه ، انه أجبر على هذا الشرح من ملكه ، ولهذا اقتصر على شرحه اللغوى عن مضض كان يظهره طول شرحه ، ولم يمنعه تعهده والتزامه بالاقتصار على الناحية اللغوية ، من نبز ابن خميس واظهار سخطه عليه ، واحتقاره واهانته ، من ذلك ان الداعى الى انشاء رسالته الدعاية لمبادئه الضالة وفى ذلك يقول : « ٠٠٠ فانت ترى ما فى كلام ابن خميس هذا من القحة والجرأة على معاطاة الرفعة التى ناطته بمناط الخمول والضعة ٠٠٠ الى ان قال ٠٠٠ ليت شعرى بم يهيمن ، وبحقوق من اعتصم ، حين صرح بخبث خلقه ، ونطق بسجية خرقه ، فلقد أمر أمره ، وطال وعرض فخره ، فواعجبا كيف ركب ذلك اللكع الهلباجة فى تلك الاساليب هجاجه ، ماشيا فيها روديا ، آمنا من ان يصادف فى مضلات سباسبها كيدا ، مع ما يعرف من انه فى معاناة معانى معارف الزندقة قطع السن ، وان اديمه فى هجير الهجرا استشن ، انا لله عز وجل الوازع ، وقل الجازع ، على ان ما تقدم له من السقط ، ما يعد من هذا النمط، اذ كل ما **أسس من رسالته وبنى** ، فانما هذا المعنى ـ ان تأملته ـ عنى ، اللهم الا انه خبط خبط عشواء ، اذ ركب عمياء » الخ ٠ اهـ

نقتصر على هذه الفقرات واللقطات التى بينا فيها ما جد واكتشف من جوانب حياة شخصية علمية لفتت الانظار ، وأهتم بها الباحثون القدامى والمتاخرون ، رغم ما كان

يكتنفها من غموض ، وتعد الرسالة الثانية التى لا شك انها كتبت فى وقت واحد مع الرسالة الاولى أى بعد رجوع ابن خميس من محاكمة فاس وقبل اتصاله وتعرفه بالعبدرى الذى لا شك انه كان يجهل عقيدته ، وان عرفت الرسالة الاولى ، فان الثانية كانت مجهولة ، وبقيت كذلك ، اذ هى تختلف عن الاولى ، فقد أرسلها الى صديقه قاضى فاس اذ ذاك ابو غالب المغيلى ـ الذى خلفه بعد عزله من قضاء مدينة فاس الفقيه المشهور ابو الحسن الزرويلى المتحدث عنه فى أول هذه الدراسة ـ وأبو غالب المغيلى ـ على ما يظهر ـ كان صديق فكرة لابن خميس ، الا انه كان اكثر منه احتياطا وكتمانا لآرائه الفلسفية ، وهذا من الاسباب التى جعلته يحتفظ برسالة ابن خميس بخزانته ، ولم يبدها لاحد ، اللهم الا ما وجدناه من تعليق ولده عليها ، من ان ابن خميس أرسلها الى والده بعد رجوعه من فاس الى تلمسان سنة 682هـ • ونفس ابن هدية القرشى عندما ذكر المناظرة التى حضرها ابن خميس بفاس لم يتحقق تاريخ وقوعها بالضبط حيث نجده يقول فى شرحه « وبسببه وقعت مخاطبة أبى عبد الله بن خميس أبا الفضل بن عتيق بهذه الرسالة اذ كان ابو البركات هذا هو متولى مناظرته حال حلوله بمدينة فاس واجتيازه بها واحسب ذلك فى سنى ما بين الثمانين والتسعين وستمائة أو قبلها بيسير الله أعلم بمدينة فاس كنت أنا قاطنا اذ ذاك مع والدى رحمه الله تعالى لسبب أوجب مفارقة الوطن يطول ذكره الخ » اهـ •

هذه الخطوط العريضة التى استفدناها من شرح ابن هدية القرشى « العلق النفيس فى شرح رسالة ابن خميس » والرسالة الثانية المكتوبة بخط ابن خميس ، ولم يشر اليها احد حتى ابن هدية المعاصر والمتتبع لحركات وسكنات عدوه اللدود ، وهى تلقى اضواء على حياة ابن خميس وتزيل التناقض الموجود عند مترجميه الذين كان بعضهم يصفه بالضعة والخمول والشعوذة والسحر وما الى ذلك ، وبعضهم الآخر وهم الاكثرية يصفونه بالعبقرية وسعة المعارف وسمو الهمة مع اتفاق جميعهم على ان نشأته وحياته فى بلاده كانت حياة خمول ومسكنة وانزواء وفى ذلك يقول صاحب « المنتخب النفيس » « ويغلب على الظن ان أسرة ابن خميس أسرة خاملة غير نابهة، وانه نشأ فى وسط فقير بئيس لا يمت الى العلم والمال بسبب وما ظنك ببيئة رجل كان يأوى الى الفنادق وينام على

سلائم الضأن ، وأجمع من كتبوا عنه على وصفه بالتقلل والانزواء والتجرد والعزلة ... الخ » اهـ

فلنكتفي بهذا الموجز من بيان ما انبهم من حياة مترجمنا الذى غادر تلمسان كما غادر قبلها فاس خائفا يترقب الى ان ختم به المطاف بمدينة غرناطة حيث توفرت لديه امكانيات حياة البذخ والترف والقصور ولم تنسه حياته هذه تلمسان فكان يتشوق اليها ولهذا نختم ترجمته باحدى قصائده بث فيها نجواه وذكر معالمها واحدا واحدا وهى هذه :

تلمسان جادتك السحاب الدوالح ... وارست بواديك الرياح اللواقح

وسح على ساحات باب جيادها ... ملث يصافى تربها ويصافح

يطير فؤادى كلما لاح لامع ... وينهل دمعى كلما ناح صادح

ففى كل شفر من جفونى مائح ... وفى كل شطر من فؤادى قادح

فما الماء الا ما تسح مدامعى ... وما النار الا ما تجن الجوانح

خليلى لاطيف لعلوة طارق ... بليل ولا وجه لصحبى لائح

نظرت فلا نور من الصبح ظاهر ... لعينى ولا نجم الى الغرب جانح

لساقية الرومى عندى مزية ... وان رغمت تلك الروابى الرواشح

فكم لى عليها من غدو وروحة ... تساعدنى فيها المنى والمنائح

فطرفى على تلك البساتين سارح ... وطرفى على تلك الميادين جامح

تحاربها الاذهان وهى ثواقب ... وتهفو بها الافكار وهى رواجح

ظباء مغانيها عواط عواطف ... وطير مجانيها شواد صوادح

وتقتلهم فيها عيون نواظر ... وتبكيهم منها عيون نواضخ

على قرية العباد منى تحية ... كما فاح من مسك اللطيفة فائح

وجاد ثرى تاج المعارف ديمة ... تغص بها تلك الربى والاباطح

اليك شعيب بن الحسين قلوبنا ... نوازع لكن الجسوم نوازح

سعيت فما قصرت عن نيل غاية فسعيك مشكور وتجرك رابح
وان انس لا أنس الوريط ووقفة أنافح فيها روضة وأناوح
مطلا على ذاك الغدير وقد بدت لانسان عينى من صفاه صفائح
اماؤك أم عينى عشية صدقت علية فينا ما يقول المكاشح
لئن كنت ملآنا بدمعى طافحا فانى سكران بحبك طافح
وان كان مهرى فى تلاعك سائحا فذاك غزالى فى عبابك سابح
فراح غدا ينصب من فوق شاهق بمثل حلاه تستحث القرائح
ارق من الشوق الذى أنا كاتم وأصفى الدمع الذى أنا سافح
اما وهوى من لا أسميه اننى لعرضى كما قال النصيح لناصح
أبعد صيامى واعتكافى وخلوتى يقال فلان ضيق الصدر بائح
لبعت رشادى فيه بالغبن ضلة وكم صالح مثلى غدا وهو طالح
وأى مقام ليس لى فيه حاسد وأى مقام ليس لى فيه قادح
ألا قل لفرسان البلاغة اسرجوا فقد جاءكم منى المكافى المكافح
أيخمل ذكرى عندهم وهو نابه ويغمط شجوى عندهم وهو شائع
يدور اذا جن الظلام كوامل وأسدا اذا لاح الصباح كوالح
تركتك سوق البز لا عن تهاون وكيف وظبيى سائح فيك سارح
وانى وقلبى فى ولائك طامع وناظر وهمى فى سماطك طامح
أيا أهل ودى والمشير مؤمن أتقضى ديونى أم غريمى فالح
وهل ذلك الظبى التصاحى للذى يقطع من قلبى بعينيه ناصح
كنيت بها عنه حياء وحشمة ووجه اعتذارى فى القضية واضح

هذا واننى لم انجز ما وعدت به من الحاق ترجمة أحمد المقرى فى هذه الدراسة فسأخصصها بدراسة أخرى ولربما أضيف اليها شخصية علمية أخرى لا وجود لذكرها فى كتب التراجم وهى شخصية محمد بن للو الاندلسى الاصلى التلمسانى الولادة والنشأة كان من علماء القرن الثانى عشر الهجرى •

الحياة الفكرية بتلمسان

في عهد بني زيان

د. عبد الحميد حاجيات
كليـة الآداب ـ جامعة الجزائر

ليس الغرض من مقالنا هذا أن نقدم حـول هذا الموضوع عرضا مفصلا وشاملا ، وانما هدفنا هو القاء نظرة عامة حول الحياة الفكرية بتلمسان أيام الدولـة الزيانية ، ورسم الخطوط العريضة لتطورها ، مـع الاشارة ، بالقدر الذى يسمح به مقامنا هذا ، الى أشهر العلماء والى انتاجهم الفكرى ، علنا نلمس مدى أهمية الدور الذى لعبته عاصمة بنى زيان فى ازدهار العلوم والآداب .

وتلمسان من المـدن التى تغـذت بالثقافة الاسلامية منذ عصر الفتوح ، فتأثرت بمختلف التيارات الفكرية التى طبعت المجتمع الاسلامى بطابعها ، ونما فى أهلهـا التشبث بالاسلام وتعاليمه واحترام العلماء وتبجيلهم . وقد ظهر فيها كثير من رجـال العلم والصلاح ، من أشهرهم أبو جعفر أحمد بن نصر الداودى ، المتوفى سنة 402 هـ ، وأبو الحسن على بن أبى قنون ، المتوفى سنة 557 هـ ، وأبو على بن الاشيرى ، المتوفى بعد سنة 569 هـ ، والولى أبو مدين شعيب بن الحسين ، المتوفى سنة 594 هـ ، وأبـو

عبد الله بن عبد الرحمن التجيبى ، المتوفى سنة 610 هـ ، وأبو عبد الله بن عبد الحــق ابن سليمان اليعفرى التلمسانى ، المتوفى سنة 625 هـ ·

ويمكن اضافة عشرات الاعلام الى هؤلاء ، ممن حفظت لنا كتب التاريخ والتراجم أسماءهم ، وعاشوا قبل تأسيس الدولة الزيانية · ويجدر بنا ، فى هذا الصـــدد ، أن نكتفى بالاشارة الى ميزة الحياة الفكرية بتلمسان اثناء ذلك ·

وأول ما يلاحظ فى هذا المجال هو انصراف أغلب العلماء ، فى هذه الفترة ، الى العلوم الدينية ، فليس من بينهم من نبغ فى الرياضيات والتنجيم والطب وغير ذلك من العلوم الطبيعية ، وحتى العلوم اللسانية ، من لغة وأدب ، والعلوم الاجتماعية ، فلــم يشتهر فيها الا قليل من العلماء ، امثال ابن الاشيرى وأبى عبد الله التجيبى ·

ثم أن اتجاه العلماء فى دراسة العلوم الدينية تأثر الى حد بعيد بالاصلاح الدينى الذى دعا اليه الموحدون ، والذى كان يؤكد ضرورة الرجوع الى الاصول من كتـــاب وسنة ، وترك الفروع · فأغلب علماء هذه الفترة يولون علوم القرآن والحديث أهمية كبرى ، ويخصصون لها معظم انتاجهم ·

أضف الى ذلك أن منطقة تلمسان كانت آنذاك ولاية خاضعة لسلطة الموحدين ، الامر الذى أدى مثلا الى استدعاء كثير من علمائها من طرف الخلفاء الموحدين ، واستعمالهم فى مختلف الوظائف الادارية أو القضائية بمراكش ، عاصمة الدولة ، أو بغيرها من مدن المغرب والاندلس · وكان من شأن هذا الوضع ، بطبيعة الحال ، أن يقيد تطور الحياة الفكرية بتلمسان فى عصر الموحدين ، ويحد من ازدهارها ، ويجعلها تابعة الى حـــد بعيد للحياة الثقافية السائدة بمراكش ، وسائرة فى خطاها ·

ولا يفوتنا ، فى هذا الصدد ، أن نشير الى دور حــركة هجرة علماء الاندلس فى تطور الحركة الفكرية بتلمسان ، الا أن هذه الحركة كانت أيام الموحدين لا تـــزال فى مرحلتها الاولى ، ولم تبلغ أهمية كبرى الا أيام الدولة الزيانية ·

* * *

التعليــم والمؤسســات العلميــة :

والحديث عن الحياة الفكرية بتلمسان أيام بنى زيـــان يقتضى أولا التعرض الى مراحل التعليم ومناهجه ، آنذاك ، والى ذكر أهم المؤسسات العلمية والمراكز الثقافية

مما له علاقة ماسة ، بالاطار الذى كان يقع فيه تكوين الطالب ، والبيئة الفكرية التى كانت تحيط بــــه ٠

لقد كان التعليم منتشرا فى شتى مدن الدولة الزيانية ومعظم قراها ٠ وكان ينحصر ، فى مرحلة أولى ، فى تعلم الكتابة والقراءة ، وحفظ القرآن ، وذلك فى الكتاتيب والمساجد ثم فى مرحلة ثانية كان الطلبة يقبلون على دراسة النحو واللغة والادب والفقه ، فينالون بضاعة وافرة تمكنهم من بلوغ مستوى ثقافى لائق ، ومن معرفة دينهم ، والالمام بالعلوم اللسانية ٠ ثم كان الذين يريدون مواصلة دراستهم والتخصص فى العلوم ، ينتقلون الى المرحلة الاخيرة ، فيدرسون العلوم الدينية من قراءات وتفسير وحديث وفقه وتوحيد ، والعلوم العقلية والاجتماعية والادب ، وغيرها ، بمزيد من التعمق والتفصيل ، وذلك فى المسجد الاعظم الذى كان شبه جامعة على النمط القديم ، مثل القرويين بفـــاس ، والزيتونة بتونس ، والازهر بالقاهرة ٠

وفى عهد بنى زيان أسست مدارس تلمسان الخمس ، فكانت معاهد عليا للتعليم ولتكوين الاطارات السامية فى شتى المجالات ، على غرار المدارس النظامية التى أنشئت فى المشرق ، وما تم تشييده بعدها فى سائر أنحاء العالم الاسلامى ٠

وأول مدرسة أسست بتلمسان هي التى أمر ببنائها أبو حمو موسى الاول (707 – 718 هـ) فى أول عهده ، وعين للتدريس فيها الاخوين ابنى الامام ٠ ثم بنى ابنه أبـــو تاشفين الاول (718 – 737 هـ) المدرسة التاشفينية ، بجانب الجامع الاعظم ، فكانت تحفة فنية رائعة ، ولم تزل أفخم مدرسة فى المغرب الأوسط الى عهد الاحتلال الفرنسى للقطر الجزائرى ، وقد قررت السلطات الاستعمارية ، منذ قرن ، هدمها ٠ وبناء البلدية مكـــانها ٠

ثم شيدت ، أيام استيلاء المرينيين على المغـــرب الاوسط ، مدرسة بقرية العباد ، خارج تلمسان ، أمر ببنائها السلطان أبو الحسن المرينى سنة 748 هـ ، كما أنشأ ابنـــه أبو عنان مدرسة أخرى بجانب ضريح ومسجد الولى الصالح أبى عبد الله الشـــوذى الاشبيلى الملقب بالحلوى ، سنة 754 هـ ٠

أما المدرسة الخامسة ، فهي المدرسة اليعقوبية ، أسسها أبو حمو موسى الثـــانى (760 – 791 هـ) ، سنة 765 هـ ، بجانب الضريح الذى أقيم على قبور أبيه ، أبى يعقوب يوسف ، وعميه ، أبى سعيد عثمان وأبى ثابت ، والذى دفن فيه بعد ذلك العالم الصالح

ابراهيم المصمودى ، المتوفى سنة 804 أو 805 هـ · ومن ســـوء الحظ فقد اندثرت هذه المدرسة ، كما لم يبق اثر لغيرها من المدارس ، ما عدا مدرسة العباد ، التى لا تـزال قائمة ، تشهد على روعة الفن الاسلامى ، وعلى ازدهار العلوم والآداب فى ذلك العصر ·

وكان أولو الامر يولون هذه المدارس عناية خاصة ، ويجرون الارزاق والمنـــح للاساتذة والطلبة والموظفين بها ، ويعهدون بالتدريس فيها لاشهر العلماء ·

أما طريقة التعليم الجارى بها العمل آنذاك ، فكانت طريقة الالقاء والشرح ، يقوم أحد الطلبة النجباء بقراءة نص من كتاب مشهور فى المادة المدروسة ، ويتولى الاستاذ شرحه فقرة بعد فقرة ، حسب ما يتيسر له من غزارة حفظه وسعة اطلاعه ، والطلبـة يقيدون فى كراريسهم ما يسترعي انتباههم من شرح الاستاذ وأجوبته على أسئلة الطلبة·

وامتازت طريقـــة التعليم بتلمسان باعتمادها ، بالدرجة الاولى ، على البحـث والتفكير ، وعدم الاكتفاء بالحفظ ، فكان لذلك اثر محمود فى تشحيذ الاذهان وتكوين أجيال صالحة من كبار العلماء ، الذين ساهموا مساهمة كبرى فى تقدم الحركة العلمية الاسلامية فى عصرهم ، فى شتى المجالات ·

العلـــوم الدينيـــة :

لاشك أن الاصلاح الدينى ، الذى حاول الموحدون تطبيقه فى المغرب ، قد ترك آثارا هامة فى تطور الحياة الدينية · ومن أبرز نتائجه ذيوع كتب الغزالى فى سائر أقطـار المغرب ، وكتب غيره من الاشاعرة ، كأبى بكر الباقلانى ، وامـام الحرمين الجوينى ، واقبال الناس على دراستها اقبالا عظيما · وبهذا خرجت العلوم الدينية ، فى المغرب ، من طور منابذة الرأي والعقل ، وانتقلت الى طور عقائدى أكثر توازنا واعتدالا ·

أما العلماء الذين نبغوا فى هذه العلوم ، وذاع صيتهم ، فكثيرون ، وسنقتصر ، فيما يلى ، على ذكر أشهرهم وأهمهم انتاجا ·

1 ـ **أبو اسحاق ابراهيم بن يخلف التنسى :** نشأ بتنس ، وتوجه الى بجاية لطلب العلم ، ثم رحل الى المشرق ، فأخذ المنطق والجدل والكلام وغير ذلك من العلوم ، عـن كثير من العلماء الجلة ، أمثال القرافى ، وابن دقيق العيد ، وشمس الدين الاصبهانى ، ثم عاد الى مسقط رأسه · ولما استولى يغمراسن بن زيـان على تنس ، استقدمه الى تلمسان ، وطلب منه أن يقيم فيها لتدريس العلوم الدينية · فأخذ عنه كثيرون ، ومـن تلاميذه أبو عبد اللّه بن مرزوق ، جد الجد ، وأبو عبد الله بن الحاج العبدرى ، صاحب

المدخل · وأشهر تآليفه شرح كتاب **تلقين المبتدا وتذكرة المنتهى** لابى محمد عبد الوهاب المالكى ، فى الفروع ، فى عشرة أجزاء ، وقد ضاع هذا التأليف اثناء الحصار الطويل · وتوفى أبو اسحاق التنسى بتلمسان سنة 680 هـ ·

2 ـ **أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن مرزوق التلمسانى** : أخذ عن أبى زكرياء ابن عصفور وأبى اسحاق التنسى وغيرهما · ومال الى الزهد والتبتل ، فاشتهر بين العباد الصالحين · وعندما توفى ، فى أوائل رجب 681 هـ ، دفن بدار الراحة من الجامع الاعظم ، بتلمسان ، ثم لما توفى الامير يغمراسن بن زيان ، دفن بازائه ، تبركا بجواره ·

3 ـ **أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن خلف التلمسانى** : ولد بتلمسان سنة 609 هـ ، ونشأ بها ، ودرس على علمائها ، ثم رحل لطلب العلم ، واستقر بسبتة ، وبها توفى سنة 690 هـ · وأبو اسحاق هذا هو العالم الفرضى المشهور **بأرجوزته فى الفرائض** ، التى ألفها سنة 630 هـ وعمره لا يتجاوز 21 سنة ·

4 ـ **أبو الحسن التنسى** : أخو أبى اسحاق · قام بالتدريس بعد وفاة أخيه ، ونال حظوة عند يغمراسن بن زيان ، ثم عند أبى سعيد الاول ، بعده · ومن تلاميذه أبو عبد الله الآبلى · ولما حاصر أبو يعقوب المرينى تلمسان ، خرج اليه أبو الحسن التنسى والتحق به ، فاستقبله السلطان المرينى بحفاوة واكرام ، ومكث فى بلاطه الى أن توفي قبيل انتهاء الحصار ، سنة 706 هـ ، وشهد السلطان أبو يعقوب جنازته بضريح الولى أبى مدين شعيب ، ولم يشهد جنازة أحد قبله ·

5 ـ **أبو عبد الله محمد السلاوى** : ورد تلمسان قارا من بنى مرين ، ولم يكن لــه حظ كبير من العلم ، فانكب على الدرس ، وأخذ بها عن عمران المشدالى وغيره ، ثـم عين للتدريس بالمدرسة التاشفينية ، فى عهد أبى تاشفين الاول ، وروى عنه المقــرى الكبير وغيره · وتوفى سنة 737 هـ ، قتله المرينيون عند فتحهم لتلمسان ·

6 ـ **أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الامام** : أكبر الاخوين ابنى الامام، وأصلهما من برشك ، رحلا الى تونس لطلب العلم حوالى سنة 700 هـ ، فدرسا العلــوم الدينية على تلامذة ابن زيتون ، وأبى عبد الله بن شعيب الدكالى ، ثم عادا الى المغرب الاوسط ، وانتحلا مهنة التدريس بالجزائر ، ثم بمليانة ، حيث اتصلا بأحد عمال بنى مرين عليها ، يدعى الكنانى ، وذلك أيام الحصار الطويل · ثم ، عند انصراف بنى مرين الى بلادهم ، عقب مقتل السلطان أبى يعقوب ، قدما الى تلمسان مع الكنانى ، فقدمهما الى أبى حمو الاول ، وأثنى عليهما ، فبنى لهمـــا المدرسة المعروفة باسمهما ، وأقاما

يدرسان بها ، الى أن استولى أبو الحسن المرينى على تلمسان ، سنة 737 هـ ، فصحباه ، وحضرا معه معركة طريف ، بالاندلس ، ثم عادا معه الى تلمسان ، وتوفي أبو زيد بها ، بعد ذلك بقليل ، سنة 743 هـ ٠

وكان لابى زيد بن الامام منزلة سامية عند أمراء تلمسان ، وعند أبى الحسن المرينى وحظي برئاسة العلماء فى مجلسهم ، وأخذ عنه كثير من العلماء المشهورين ، أمثـــال الآبلى ، والمقرى الكبير ، وأبى عبد الله الشريف ، وسعيد العقبانى ، وابن مرزوق الجد وغيرهم ٠ ومن تآليفه **شرح على مختصر ابن الحاجب** ، فى الفروع ٠

7 ـ **أبو موسى عمران بن موسى المشدالى** : أصله من زواوة بجاية ، أخذ على أبى على ناصر الدين المشدالى ببجاية ، وقدم تلمسان أيــام أبى تاشفين الاول ، فاشتهر بغزارة علمه ، وبخاصة علم الفروع ، وأخذ عنـــه أبو عبد الله الســـلاوى ، وسعيد العقبانى وأبو عبد الله الشريف ٠ وتوفى سنة 745 هـ ، حين عودته من مراكش ، أيـــام امارة أبى الحسن المرينى ٠

8 ـ **أبو عبد الله محمد بن أحمد بن على بن أبى عمرو التميمى** : ينتمى الى أسرة عريقة من أسر تونس ، وكان جده القاضى أبو الحسن على قد شغل منصب العــلامة والانشاء فى امارة المستنصر الحفصى ٠ أخذ أبو عبد الله التميمى بتونس عن أبـــى الطاهر بن سرور وغيره ، ثم قدم تلمسان ، وعين بها قاضيا ، ودرس العلوم الدينية ، وروى عنه أبو عبد الله الشريف ، والمقرى الكبير ، وغيرهما ٠ ومن تآليفه**ترتيب كتاب اللخمى على المدونة** ، فى الفروع ٠ وتوفى سنة 745 هـ ٠

9 ـ **أبو موسى عيسى بن الامام** : وقد تقدم ذكـــر نشأته واستقراره بتلمسان ، والتحاقه ببلاط أبى الحسن المرينى ٠ وبعد وفاة أخيه أبى زيد ، كانت له الصدارة بين العلماء فى مجلس السلطان ، وصحبه الى تونس ، وأذن له أبو الحسن فى الروجـــوع الى تلمسان حين انتشار الطاعون بافريقية ، ولكنه توفى بعد عودته بقليل ، سنة 749 هـ ، وكان يميل الى الاشتغال بالتعاليم ، أي العلوم العقلية والطبيعية ، وتخرج عنه كثير من العلماء ، أشهرهم الآبلى ٠

10 ـ **أبو عبد الله محمد بن محمد المقرى** : ولد بتلمسان فى عهد أبى حمو الاول ، ونشأ بها ، ودرس على علمائها ، أمثال الاخوين ابنى الامام ، وأبى موسى عمـــران المشدالى ، والقاضى ابن عبد النور ، وأبى محمد المجاصى ، وأبى عبد الله منصـــور

ابن هدية ، وأبى عبد الله التميمى ، وابن النجار · ولما احتـــل أبــو الحسن المرينى تلمسان ، سنة 737 هـ ، قدم معه علماء فاس ، فدرس عليهم المقرى ، واستفاد من عبد المهيمن الحضرمى فى الحديث والعربية ، ومن السطي ، فى الفقه والفرائض ، ومــن الآبلى ، فى التعاليم ، وغيرهم · ثم رحل الى بجاية وتونس ، وأخذ عن كثير من علماء افريقية · ثم عاد الى تلمسان ، وما لبث أن غادرها مرة أخرى ، فى اتجاه فاس ، فدرس على كثيرمن علمائها ·

ثم عاد الى تلمسان وأقام بها مدة · ثم توجه الى المشرق ، فلقي بمصر أبا حيان النحوى ، وشمس الدين الاصبهانى ، وشمس الدين بن عدلان ، والشيخ الصوفى أبا محمد المنوفى · ثم قام بفريضة الحج سنة 744 هـ ، ولقي بمكة أبا عبد الله بن عبد الرحمن التوزرى ، وبالمدينة أبا محمد عبد الوهاب الجبرتى ، ثم رحل الى الشام ، فلقي بدمشق شمس الدين بن قيم الجوزية ، وصدر الدين الغمارى المالكى ، وببيت المقدس أبا عبد الله بن مثبت ، وشمس الدين بن سالم ·

وأخيرا رجع قافلا الى المغرب ، فنزل بسجلماسة ودرعة ، ثم أجاز الى الاندلس ، فأقام مدة بغرناطة ، ثم عاد الى تلمسان ، وصحب أبا عنان سنة 749 هـ الى فـــاس ، فولى القضاء بها ، ودرس بها الى ان توفى فيها سنة 759 هـ، فحمل الى تلمسان ودفن بها ·

ومن أشهر تلامذته لسان الدين بن الخطيب ، وعبد الرحمن بن خلدون ، والشاطبى ، وابن زمرك ، وغيرهم · وله بعض التآليف ، منها **كتاب الحقائق والرقائق** ، فى التصوف **وكتاب المحاضرات ، وكتاب عمل من طب لمن حب ، وكتاب القواعد** ·

11 ــ **أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسنى :** أخذ عن الاخوين ابنى الامام ، وعن أبى موسى عمران المشدالى ، وأبى محمد عبد الله المجاصى ، والقاضى ابن عبد النور ، وأبى عبد الله بن هدية ، فظهرت نجابته فى مختلف العلوم من معقول ومنقول ، ودرس التنجيم والرياضيات على أبى عبد الله بن النجار ، ثم رحل الى فـــاس ولازم الآبلى ، وأخذ عنه علوما جمة ، وخصوصا فى التعاليم ، ثم عاد الى تلمسان ، وانتصب للتعليم ·

وفى سنة 740 هـ ، ارتحل الى تونس لطلب العلم ، فلازم أبا عبد الله بن عبد السلام الهوارى ، ثم رجع الى تلمسان ، واستأنف التدريس بها · ولما استولى أبو عنان المرينى على تلمسان ، سنة 753 هـ ، استخلص أبا عبد الله الشريف ، والحقه بمجلسه العلمى ،

ثم أخذه معه الى فاس ، ولكن أبا عبد الله الشريف سئـــم المقام بالعاصمة المرينية ، واشتاق الى ذويه وموطنه ، وناله بعض الاذى من السلطان أبى عنان ، فى أول سنة 756 هـ ، من أجل وديعة تركها السلطان أبو سعيد الزيانى عند بعض وجهاء تلمسان ، فنكبه لانه لم يخبره بشأنها ، ولكن سرعان ما صفح عنه وأعاده الى مجلسه ، ومكث بفاس الى أن توفي أبو عنان ·

ولما تملك أبو حمو موسى الثانى عرش أجداده بتلمسان ، استدعى أبا عبد اللـــه الشريف ، فى أول امارته ، « وأصهر له فى ابنته فزوجها اياه ، وبنى له مدرسة جعل فى بعض جوانبها مدفن أبيه وعميه » · وأقام الشريف بتلمسان يبث العلم ، فختـــم تفسير القرآن مرتين ، ودرس علوما كثيرة ، الى أن توفي فى ذى القعدة سنة 771 هـ ، فأمر أبو حمو أن يدفن عند قبر والده أبى يعقوب ، تبركا بجواره ·

وقد تخرج عليه كثير من مشاهير العلماء ، مثل ولده أبى محمد عبد الله ، والولى الصالح ابراهيم المصمودى ، وأبى اسحاق الشاطبى ، وابن زمرك ، وابن عتاب ، وابن السكاك ، وعبد الرحمن بن خلدون ، وأخيه يحيى ، وغيرهم · ومن تـــآليفه كتـــاب **مفتاح الوصول فى علم الاصول** ·

12 ـ **أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الخطيب :** نشأ بتلمسان ، وأخذ عن الآبلى ، وعن ابى محمد المجاصى · وارتحل معه والده الى المشرق سنة 718 هـ فأخذ ببجاية عن ناصر الدين المشدالى ، وأقام مدة مع أبيه بالحرمين ، ثم توجـــه الى القاهرة ، ولازم بها برهان الدين الصفاقسى · وفى سنة 733 هـ ، قفل راجعا الى وطنه فوجد السلطان أبا الحسن المرينى محاصرا تلمسان ، فاتصل به وساهم مع عمـــه فى الاشراف على بناء مسجد أبى مدين بالعباد ، ثم ولاه أبو الحسن الخطابة بذلك المسجد ، بعد وفاة عمه ، وحظى عند السلطان المرينى فأعلى رتبته فى مجلسه · وفى تلك الاثناء كان يحضر مجالس الاخوين ابنى الامام العلمية ·

ثم رافق أبا الحسن المرينى الى الاندلس ، وحضر معه معركة طريف · وفى سنة 748 هـ أرسله سفيرا الى ملك قشتالة للتفاوض معه فى الصلح ، وفى طريق عودته الى افريقية ، حدثت هزيمة أبى الحسن بالقيروان ، فورد خبرها وابن مرزوق فى قسنطينة ، فثار أهلها على بنى مرين ، وأعلنوا البيعة لاحد الامراء الحفصيين فرجع ابن مرزوق الى تلمسان رفقة أم الامير أبى عنان ، وقام بخدمتها الى أن بلغت مدينة فاس ، ثم عاد الى تلمسان وأقام بقرية العباد ، والامارة بها آنذاك للاميرين أبى سعيد وأبى ثابت ·

ولما قدم أبو الحسن الى الجزائر ، وأخذ يعمل للزحف الى ناحية شلف ، أرسل السلطان أبو سعيد سفيرا اليه قصد التفاوض معه فى شأن الصلح بدون مشاورة أخيه أبى ثابت ، وكان ذلك السفير الخطيب ابن مرزوق · فلما اطلع أبو ثابت على الخبر أنكره على أخيه ، وبعث من تقبض على ابن مرزوق فى طريقه ، ثم أجازه البحر الى الاندلس (أواسط سنة 752 هـ) ·

واستقر بغرناطة حيث أسندت اليه الخطابة فى جامع الحمراء ، الى سنة 754 هـ ، ثم عاد الى مسقط رأسه ، وكان أبو عنان المرينى قد قضى على امارة أبى سعيد وأبى ثابت ، فألحق ابن مرزوق بمجلسه العلمى ، ولما احتل تونس ، سنة 758 هـ ، أرسله اليها ليخطب له ابنة السلطان أبى يحيى الحفصى ، فامتنعت عن ذلك ، واختفت بتونس ، ووشي الى السلطان أبى عنان أنه كان مطلعا على مكانها ، فسخطه لذلك ، وأمر بسجنه ، ثم اطلقه قبل وفاته ·

وفى أيام أبى سالم المرينى عظم نفوذ ابن مرزوق الخطيب ، وأصبح زمام الامر ، فى الدولة المرينية ، بيده ، مما أحقد عليه كثيرا من رجال الدولة · ولما ثار الوزير عمر ابن عبد الله ضد أبى سالم ، وأطاح بملكه وقتله ، أمر بسجن ابن مرزوق ، آخر سنة 762 هـ ، وسعى حساده من كبار الدولة فى قتله فلم يسعفهم عمر بن عبد الله فى ذلك ، وأطلق سراحه ·

وانتقل ابن مرزوق ، بعد ذلك ، الى تونس ، فاستقر بها سنة 766 هـ ، وأكرم السلطان أبو اسحاق الحفصى مثواه ، وولاه الخطابة بجامع الموحدين ، والتدريس ببعض المدارس ، وأقام هناك إلى عهد الامير أبى العباس الحفصى (سنة 772 هـ) ، وكانت بينه وبين ابن مرزوق وحشة يرجع سببها الى اقبال هذا الاخير ، فى عهد أبى سالم ، على منافسه أبى عبد الله الحفصى ، وتفضيله عليه ، فأقصاه عن بلاطه ·

وفى تلك الاثناء ، فكر ابن مرزوق فى اللحاق ببلاط السلطان عبد العزيز المرينى ، الذى كان قد استولى آنذاك على المغرب الاوسط ، فألف له ، فى شعبان 772 هـ كتاب **المسند الصحيح الحسن فى أخبار المولى أبى الحسن** ، الا أنه لم يتمكن فى تحقيق مشروعه هذا · وأخيرا ، سمح له أبو العباس الحفصى بالرحلة الى المشرق ، فحل بالاسكندرية ، ثم قدم القاهرة ، واتصل بالسلطان الاشرف ، فأكرم مثواه وألحقه بمجلسه ، وولاه التدريس وقضاء المالكية ، وأقام ابن مرزوق بالقاهرة عزيز الجانب ، عالى القدر ، الى أن توفى بها فى ربيع الاول سنة 781 هـ ·

ومن أشهر تلاميذه ابن قنفذ القسنطيني ، وأبو اسحاق الشاطبي ، وغيرهما . واشتهر من مؤلفاته كتاب **المسند** ، الذي يشتمل على عرض مفصل لحياة أبي الحسن المريني ، ولما وقع في عهده من حوادث هامة ، وانجازات عمرانية ، وعلى ذكر ما ازدان به عصره من عناية بالعلم والعلماء ، وغير ذلك . وله أيضا **شرح البردة** ، وشرح على ابن الحاجب الفرعي ، عنوانه **ازالة الحاجب على فروع ابن الحاجب ، وشرح على الاحكام الصغرى** لابن عبد الحق الاشبيلي **وشرح على عمدة الاحكام** ، في خمسة أجزاء .

13 ـ **الشيخ ابراهيم بن موسى المصمودي التلمساني :** أصله من صنهاجة المغرب قرب مكناسة . أخذ العلم بفاس عن العبدوسي ، والآبلي ، وغيرهما ، ثم نزل تلمسان ولازم فيها أبا عبد الله الشريف بالمدرسة اليعقوبية . وبعد وفاته ، أخذ عن سعيد العقباني بالمدرسة التاشفينية ، ثم انقطع للعبادة والتدريس . فأخذ عنه أبو عبد الله ابن جميل ، وابن مرزوق الحفيد ، وغيرهما . وتوفي سنة 804 أو 805 هـ ، ودفن بضريح الامراء الزيانيين بجانب المدرسة اليعقوبية ، واشتهر صلاحه عند الناس ، فنال احترامهم وتقديرهم . وقد سمي المسجد المحاذي للضريح باسمه (سيدي ابراهيم) .

14 ـ **أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد العقباني :** ولد بتلمسان سنة 720 هـ ، وأخذ فيها عن الاخوين ابني الامام ، ثم درس على الآبلي الاصول والعلوم العقلية ، وعلى الحافظ السطي الفرائض ، وعلى غيرهما من العلماء ، فحذق علوما جمة ، من تفسير ، وأصول ، وفقه ، وتصوف ، ومنطق ، وحساب ، وهندسة ، وغيرها . وولي القضاء ببجاية أيام أبي عنان المريني ، ثم نقل الى قضاء مراكش وسلا . ثم عاد الى المغرب الاوسط ، فولي قضاء وهران وهنين وتلمسان ومكث في القضاء ما ينيف على أربعين سنة . وأخذ عنه ابن مرزوق الحفيد ، وأبو يحيى بن أبي عبد الله الشريف ، والشيخ ابراهيم المصمودي ، وأبو الفضل بن الامام ، وأبو العباس بن زاغو ، وكذلك ابنه قاسم العقباني .

ومن تآليف سعيد العقباني **تفسير سورتي الفتح والانعام** ، وكتاب **الوسيلة بذات الله وصفاته الى حاجب خليقته في مخلوقاته ، وشرح العقيدة البرهانية ، ولباب اللباب في مناظرة القباب ، وشرح قصيدة ابن الياسمين ، وشرح على ابن الحاجب الاصلي ، وشرح البردة ، وشرح على الحوفي** ، في الفرائض .

وتوفي سعيد العقباني سنة 811 هـ .

15 ـ **ابن مرزوق الحفيد** ، أبو الفضل محمد بن أحمد بن محمد : ولد بتلمسان سنة 766 هـ ، ونشأ بها ، وأخذ العلم عن جماعة من علمائها ، منهم والده ، وأبو محمد عبد الله بن أبى عبد الله الشريف ، وسعيد العقبانى ، وابراهيم المصمودى ، وغيرهم . ورحل الى مختلف الاقطار العربية ، فأخذ عن كبار علماء عصره ، فدرس النحو والعربية على ابن حياتى الغرناطى بفاس ، والفقه على ابن عرفة بتونس ، وحج رفقته سنة 790 هـ ، فسمع بمكة من بهاء الدين الدمامينى ، ونور الدين العقيلى ، وقرأ بها صحيح البخارى على بن صديق ، وأخذ بمصر عن جماعة من كبار العلماء أمثال سراج الدين البلقينى ، وأبى الفضل العراقى ، وابن الملقن ، والفيرو زبادى صاحب القاموس ، ونور الدين النويرى ، وعبد الرحمن بن خلدون ، ولازم محب الدين بن هشام فى العربية ، فانتفع بهم كثيرا ، واتسعت معارفه فى شتى العلوم . ثم عاد الى بلده ، فذاع صيته ، ونبه ذكره . وحج مرة أخرى سنة 819 هـ ، فلقي بمكة رضوان الزينى ، وبمصر ، الفقيه ابن حجر .

والحفيد ابن مرزوق من نوابع علماء المغرب ، الذين امتازوا بتضلعهم فى سائر العلوم النقلية والعقلية ، مما خوله مرتبة الاجتهاد ، فى زمان كان الكثير من الفقهاء يرى ان باب الاجتهاد قد أغلق . وجعله يحظى باقبال الطلبة من الآفاق النائية ، فرحل اليه كثير ممن حلق فى سماء المعرفة ، كعبد الرحمن الثعالبى ، والقاضى عمر القلشانى وشهاب الدين بن كحيل التجانى ، وأحمد بن يونس القسنطينى كما أخذ عنه كثير ممن نشأ فى تلمسان أو نزلها ، ومن بينهم ابنه محمد بن مرزوق الكفيف ، والحافظ التنسى ، صاحب **نظم الدر والعقيان** وابن زكرى ، وأبو الحسن القلصادى ، وغيرهم .

أما تآليفه فى العلوم الدينية ، فهي عديدة ، منها ، فى التفسير ، **تفسير سورة الاخلاص** ، وفى الرسم **أرجوزة** فى محاذاة **حرز الامانى** للشاطبى ، وفى الحديث ، **أنوار الدرارى فى مكررات البخارى ، وارجوزة الروضة** ، وكذلك **شرح صحيح البخارى** (غير تام) ، وفى الفقه ، **المنزع النبيل فى شرح مختصر خليل** (غير تام) ، وبعض الفتاوى فى مسائل فقهية سئل عنها ، مثل **اسماع الصم فى اثبات الشرف من قبل الام** ، وفى الاعتقاد ، **عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمات التقليد** (غير تام) ، **والنصح الخالص فى الرد على مدعى رتبة الكامل الناقص** ، الخ ..

وتوفى الحفيد ابن مرزوق سنة 842 هـ بتلمسان ، فحضر جنازته السلطان والوجهاء وعدد غفير من الناس ، ودفن بالجامع الاعظم .

16 ـ أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن زاغو المغراوى التلمسانى : أخذ عن سعيد العقبانى ، وأبى يحيى عبد الرحمن بن أبى عبد الله الشريف ، وغيرهما · ودرس بالمدرسة اليعقوبية ، فكان يعلم التفسير والحديث والفقه فى الشتاء ، والاصول والفرائض والعربية والبيان والحساب والهندسة فى الصيف · ومن أشهر تلاميذه أبو زكرياء يحيى بن ادريس المازونى ، صاحب النوازل ، وأبو الحسن القلصادى ، والحافظ التنسى ، وابن زكرى ·

ومن آثار ابن زاغو **تفسير الفاتحة ، وشرح التلمسانية** ، فى الفرائض ، وفتاوى كثيرة ورد ذكرها فى **المعيار** للونشريسى ، وفى **نوازل المازونى** · وتوفى ابن زاغو فى الوباء سنة 845 هـ ·

17 ـ قاسم بن سعيد العقبانى : أخذ عن والده وغيره من العلماء ، فحذق العلوم الدينية ، وولى القضاء بتلمسان ، وحج سنة 830 هـ ، فلقي بمصر ابن حجر ، والبساطى وأخذ عنهما · واخذ عنه حفيده محمد بن أحمد العقبانى ، وأبو عبد الله بن العباس التلمسانى ، وأبو زكرياء يحيى المازونى ، وأبو العباس الونشريسى ، والحافظ التنسى وأبو الحسن القلصادى ، وابن زكرى ، وغيرهم ·

وألف قاسم العقبانى **تعليقا على مختصر ابن الحاجب الفرعى** ، وله أيضا **أرجوزة فى التصوف** · وتوفى سنة 854 هـ ، ودفن بضريح الشيخ ابن مرزوق ·

18 ـ محمد بن أحمد بن قاسم العقبانى : أخذ عن جده قاسم ، وغيره · وكان فقيها ، عارفا بالنوازل ، وولى قضاء الجماعة بتلمسان · ومن أهم ما ألف كتاب **تحفة الناظر وغنية الذاكر** ، فى الحسبة ، ومن تلاميذه أبو العباس الونشريسى ، وتوفى سنة 871 هـ ·

19 ـ أبو عبد الله محمد بن العباس التلمسانى : كان متفننا فى علوم شتى ، كالاصول ، والمنطق ، والحديث ، وغيرها · وقد أخذ عنه كثير من مشاهير العلماء كابى زكرياء المازونى ، والحافظ التنسى ، وابن مرزوق الكفيف ، وأبى العباس الونشريسى ، والشيخ السنوسى ، وابن زكرى ، وابن صعد ، وغيرهم · وله تآليف عديدة ، **من بينها العروة الوثقى فى تنزيه الانبياء عن فرية الالقاء** ، كما نقل المازونى ، والونشريسى كثيرا من الفتاوى الصادرة عنه · وتوفى بالطاعون سنة 871 هـ ·

20 ـ **الامام محمد بن يوسف السنوسى :** من أكابر علماء عصره · أخذ العلـوم الدينية عن والده ، وعن نصر الزواوى ، وأبى الحجـاج يوسف بن احمد بن محمد الشريف ، وأبى عبد الله محمد بن أحمد المغيلى الجلاب ، وأبى عبد الله محمد بـن العباس ، وأبى القاسم الكنباشى ، وعبد الرحمن الثعالبى ، والولى الصالح ابراهيم التازى ، وغيرهم · فبرع فيها وخصوصا فى التوحيد · فألف فيه كتبا كثيرة اشتهرت فى مختلف الاقطار الاسلامية ، وتناولها بعده العلماء بالشرح والتعليق · ومن أشهر من أخذ عنه أبو عبد الله الملالى ، وابن صعد التلمسانى ، وأحمد بن الحاج اليبدرى ، وابن العباس الصغير · ومن أشهرها **عقيدة التوحيد الكبرى ، وشرحها ، والعقيـدة الوسطى ، وشرحها ، والعقيدة الصغرى ، وشرحها ، والمقدمات المبينة للعقيدة الصغرى وشرح عقيدة الحوضى ·**

وتوفى الشيخ السنوسى فى جمادى الثانية من سنة 895 هـ ·

21 ـ **أبو العباس أحمد بن محمد بن زكرى التلمسانى :** أخذ عن أبى العبـاس أحمد بن زاغو ، ثم عن أبى عبد الله محمد بن العباس ، فأتقن العلوم الدينية · وانتصب للتدريس ، فأخذ عنه كثير من طلبة العلم ، منهم أحمد زروق الفاسى ، وأحمد بن الحاج البيدرى ، ومحمد بن مرزوق ، حقيد الحفيد · ومن تآليفه ، **بغية الطالب فى شرح عقيدة ابن الحاجب ، وارجوزة فى علم الكلام** ، فى أكثر من ألف وخمسمائة بيت ، **وغـاية المرام فى شرح مقدمة الامام** ، وهو شرح **الورقات** لامام الحرمين الجوينى ، فى الاصول وكانت وفاته سنة 900 هـ ، فدفن بروضة الشيخ السنوسى ·

22 ـ **أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلى التلمسانى :** نشأ بتلمسان ، وأخـذ عن علمائها ، ثم غادرها لطلب العلم ، وأخذ عن عبد الرحمن الثعالبى ، وغيره · ثم انتقل الى الصحراء ، فاستقر مدة بناحية توات ، وبها أفتى فتواه الشهيرة ، القـائلة بوجوب القضاء على ما كان يمتاز به اليهود آنذاك ، من منزلة سامية لدى الحكـام وحرية بناء البيع · وفعلا ، قام المغيلى ، مع جمع غفير من الاتباع ، بالتوجه الى بيع اليهود · وتدميرها ، وتطبيق الجزية والغيار عليهم · وقد تعرض المغيلى الى مخالفة قاضى توات فى هذا الرأي · فكتب الى علماء فاس وتلمسان فى شأن هذا الموضوع ، وكانت معظم الاجوبة موافقة لفتواه ·

وللمغيلى تآليف عديدة ، منها **تفسير الفاتحة ، والبدر المنـير فى علوم التفسير ، ومفتاح النظر** ، فى علم الحديث ، **ومغنى النبيل فى شرح مختصر خليل ، وتنبيه الغافلين**

عن مكر الملبسين ، وغيرها · أما رسالته حول يهود توات ، التى تحمل عنوان **مصباح الارواح فى أصول الفلاح** ، فقد نشرت أخيرا بالجزائر بتقديم وتحقيق المرحوم رابح بونـــار ·

وتوفى المغيلى سنة 909 هـ ، بناحية توات ، بعد أن ساهم مساهمة كبرى فى نشـر الاسلام ببلاد السودان ·

23 ـ **أحمد بن الحاج البيدرى** ، كان تلميذا لابن زكرى ، وللحافظ التنسى ، وللشيخ السنوسى · واشتغل بالتدريس والتاليف · وله **نظم عقيدة السنوسى الصغرى ، وشرح لسينية ابن باديس ، وشرح البردة** ، وغيرها ، وتوفى حوالى سنة 930 هـ ·

والجدير بالملاحظة أن ازدهار العلوم الدينية بتلمسان ، أيام بنى زيان ، الذى يشهد عليه كثرة العلماء الذين نبغوا فيها ، ووفرة انتاجهم الفكرى ، كان مصحوبا بانتشار التصوف وتغلغله فى وسط العلماء والصلحاء · فاشتهر الكثير منهم بالتبتل والزهد ، ونالوا احترام الجماهير وتقديرها العميق · ومن أشهر الاولياء ، فى هذه الفترة ، أبو عبد الله بن مرزوق ، جد الجد (المتوفى سنة 681 هـ) ، وأبو اسحاق الطيار (المتوفى حوالى سنة 700 هـ) ، وأبو محمد عبد الله المجاصى البكّـاء ، وابراهيم المصمودى ، وأحمد بن الحسن الغمارى (المتوفى سنة 874 هـ) وغيرهم · وقد جمع أخبار معظـم أولياء تلمسان ، وغيرهم من صلحاء المغرب والمشرق ، ابن صعد التلمسانى فى كتاب **النجم الثاقب فيما لاولياء الله من مفاخر المناقب** · ولم يمنع انتشار التصوف هذا من تقدم العلوم اللسانية والاجتماعية والطبيعية ·

* * *

العلـــوم اللسانية والاجتمـاعية :

كانت العلوم اللسانية تحظى باقبال كبير ، وخاصة من طرف الكتاب والشعـراء · واهتم علماء الدين أيضا باللغة ، لما لها من اتصال وثيق بعلمى القرآن والحديث · وقد برع فى هذه العلوم كثير من الشعراء والكتاب ، نخص بالذكر أبرزهم ·

24 ـ **أبو عبد الله محمد بن عمر بن خميس التلمسانى** : ولد بتلمسان سنة 650 هـ ، فدرس على علمائها ، ثم أشرف مدة على ديوان الانشاء ، أيام السلطان أبى سعيد الاول ثم غادر تلمسان أثناء الحصار الطويل ، ونزل سبتة ، ثم رحل الى غرناطة ، وذلك فى أواخر سنة 703 هـ ، فأقام بها فى خدمة الوزير ابن حكيم · وتوفى بها سنة 708 هـ ،

يوم عيد الفطر ، وذلك عندما ثار بعض رجال الدولة على ابن حكيم ، فقتلوه ، وكـان ابن خميس فى دار الوزير ، فأصابه أحد الثوار بطعنة رمحه ، فأرداه قتيلا ٠

وابن خميس شاعر مطبوع ، فاق شعراء عصره ، ونبه ذكره فى الآفاق ، وقـد اثنى عليه العبدرى فى رحلته ، وذكر بعض قصائده ، وكذلك يحيى بن خلدون فى بغية الرواد ٠ ومما يؤسف له أن ديوانه فقدا غير أن ما ورد من نظمه فى كتب الادب والتاريخ يشكل مادة لا تخلو من أهمية ، وقد نشر الكثير من ذلك تحت عنوان **المنتخب النفيس من شعر أبى عبد الله بن خميس** ٠

25 ـ **أبو عبد اللـه محمد بن منصـور بن على بن هديـة القرشى التلمسانى :** من نسل عقبة بن نافع الفهرى ٠ كان فقيها أديبا كاتبا ، ذا بصر بالوثائق ، انشأ ديوان الرسائل بتلمسان ، فى عهد أبى حمو الاول ٠ وألف كتبا قيمة فى الادب والتاريخ ، منها **شرح على قصيدة لابن خميس ، وتاريخ تلمسان** ٠ وعين قاضيا بتلمسان ٠ ومن تلاميذه المقرى الكبير وأبو البقاء البلوى وتوفى سنة 735 هـ ٠

26 ـ **أبو عبد الله محمد بن البناء التلمسانى :** كان فقيها ، أديبا ، شاعرا ، ظريفا ، ذكر له يحيى بن خلدون موشحة مطلعها :

من أطلع فـوق مائس الريحان	بـدر الافـق
يهتـز منعمـا على كثبـان	تحت الغسـق

وتاريخ وفاته مجهول ٠

27 ـ **أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسى الثغرى :** ولد ونشأ بتلمسان ، ودرس على أبى عبد الله الشريف ٠ ونبغ فى فنون الادب ، فنظم القصائد الغراء ، كان يلقيها فى الحفلات الدينية التى كان يقيمها أبو حمو موسى الثانى فى قصره للاحتفال بالمولد الشريف ، وفى غير ذلك من المناسبات ٠ وكان من جملة كتاب الدولة ، يشغل منصب شاهد فى بيت المال ٠ فأكثر من مدح السلطان أبى حمو ، والاشادة بكرمه ونبله وعلمه ، ثم ابنيه أبى تاشفين (791 ـ 795 هـ) ، وأبى زيان (796 هـ ـ 801 هـ) ٠ ولعله تـوفى فى أوائل القرن التاسع الهجرى ٠

28 ـ **أبو عبد الله محمد بن أبى جمعة بن على التلالسى :** من أهل تلمسان ٠ كان طبيب السلطان أبى حمو الثانى ، وشاعرا بارزا من شعراء بلاطه ٠ نظم قصائد كثيرة فى مدح السلطان ٠ وكان يجيد التوشيح ، فمن نظمه موشحة مطلعها :

يا ويــح صب بان عنـه الشباب	وأودع
لهـــيب وجــد عنـــدما	ودعـوا

وموشحة أخرى مطلعها :

لـى مدمـــع هتـــان	ينهـــل مثـل الــدرر
قــد صيـــر الاجفـــان	مــا ان لهـــا مــن أثـــر

29 ـ **أبو زكرياء يحيى بن خلدون :** أخو عبد الرحمن بن خلدون · ولد بتونس سنة 734 هـ ، ونشأ بها وتلقى العلم على علمائها ، واستفاد كثيرا من علماء مجلس أبـي الحسن المريني ، عندما أحتل تونس ، سنة 748 هـ ، مثل عبد المهيمن الحضرمي ، والآبلي والسطي ، وغيرهم · وفي عهد السلطان أبي عنان المريني انصرف الى خدمة الدولة المرينية بفاس · وفي آخر سنة 761 هـ ، رافق الامير أبا عبد الله الحفصي ، الذي توجه نحو بجاية قصد انتزاعها من عمه السلطان أبي اسحاق ، بمساعدة قبيلة رياح · فلم يحقق هذا الهدف الا بعد أربع سنوات ، ولما استولى أبو عبد الله الحفصي على بجاية ، سنة 765 هـ عين يحيى بن خلدون في منصب الحجابة ثم تركها لاخيه عبد الرحمـــن ، الذي قدم من الاندلس في جمادى الاخيرة سنة 766 هـ ، ومكث يحيى بن خلدون في بجاية الى أن استولى عليها أمير قسنطينة ، أبو العباس الحفصي ، في شعبان 767 هـ ·

ثم سجن يحيى بن خلدون بعنابة ، بأمر من الامير أبي العباس ، وذلك بعد أن غادر أخوه عبد الرحمن بجاية ، متجها الى الجنوب ، وملتجئا عند ابن مزني ، بناحية بسكرة وبعد أشهر ، فر يحيى من سجنه ، ولحق بأخيه ·

وفي رجب 769 هـ ، التحق يحيى بن خلدون ببلاط أبي حمو الثاني ، حيث عين كاتبا للسلطان الزياني ، وشغل ذلك المنصب الى أن ساءت الاوضاع بين الامـارة الزيانية والدولة المرينية ، واحتل السلطان عبد العزيز المريني تلمسان وسائر بلاد المغـــرب الاوسط ، سنة 772 هـ ، فمكث يحيى بن خلدون مدة بتلمسان ، في بلاط عبد العزيز ، ثم رحل الى فاس ، رفقة أخيه عبد الرحمن ولسان الدين بن الخطيب ·

وفي أول سنة 776 هـ عاد يحيى بن خلدون الى تلمسان ، فأرجعه أبو حمو الثـاني في منصب الكتابة ، وألف له يحيى كتاب **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد** · ومكث في بلاط تلمسان ، الى أن قتل بها في رمضان سنة 780 هـ ، بتدبير من الامير أبي تاشفين بن السلطان أبي حمو ·

ويحيى بن خلدون من طبقة الكتاب المبرزين ، يمتاز بثقافة أدبية واسعة ، وأسلوب يزخر بالمحسنات البديعية والسجع المستظرف ، مما كان يعجب به أدباء عصـــره ، بالاضافة الى نبوغه فى الشعر ، واهتمامه بالتاريخ ٠

30 ـ **أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسى التلمسانى :** الحافظ المؤرخ ، صاحب كتاب **نظم الدر والعقيان فى دولة آل زيان** ، ضمنه تاريخ الدولة الزيانية الى عصره ٠ وتوفى سنة 899 هـ ٠

العلـــوم الطبيعيـــة :

وتشمل التنجيم والرياضيات والطب والكيمياء ، وغيرها ٠ وقد عرفت بعض هذه العلوم ازدهارا كبيرا ، فى هذه الفترة ٠ ولا شك أن أهم عوامل هذه الازدهار ما حققته الدولة الزيانية من تقدم فى المجال الاقتصادى ، بالاضافة الى ما حدث من وفود كثير من العلماء والصناع الاندلسيين الى تلمسان ، واستقرارهم بها ، وما كان قائما بين أقطار المغرب الاسلامى من صلات وثيقة ، مما شجع حركة الرحلات العلمية فى سائر أنحائه ٠ وممن اشتهر فى التعاليم والعلوم الطبيعية :

31 ـ **أبو عبد الله محمد بن على بن النجار التلمسانى :** مراكشى الاصل ، ولد ونشأ بتلمسان ، وأخذ عن الآبلى ، ثم رحل الى المغرب الاقصى ، فدرس على أبى عبد اللــه محمد بن هلال ، شارح **المجسطى** ، بسبتة ، ثم أخذ بمراكش عن أبى العباس بن البناء ، فنبغ فى العلوم العقلية والتعاليم ٠ وعاد الى تلمسان ، فدرس بها ٠ ثم التحق ببلاط أبى الحسن المرينى ، أيام احتلاله للمغرب الاوسط ، وصحبه الى افريقية ، وتـــوفى بتونس سنة 749 هـ ، بالطاعون ٠ ومن تلامذته أبو عبد الله الشريف ، والمقرى الكبير ، وأبو الحسن بن الفحام ، صاحب المنجانة ٠

32 ـ **أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلى التلمسانى :** أصل أجداده من مدينـة آبلة بالاندلس ٠ ولد بتلمسان سنة 681 هـ ، ونشأ بها فى كفالة جده القاضى ابن غلبون ، فشب على حب العلم ، ودرس على أبى الحسن التنسى ، فحذق التعاليم ، ثم كان الحصار الطويل ، فغادر المدينة أثناء ذلك ، قاصدا المشرق ، حيث أدى فريضة الحج ، ولقـــى كثيرا من العلماء الجلة ، ثم عاد الى بلاده ، وأخذ عن أبى موسى بن الامام علما غزيرا ، ثم استعمله أبو حمو الاول فى ضبط الجباية ، ولم يستطب الآبلى هذه الوظيفة ، فغادر تلمسان ، ورحل الى المغرب الاقصى ، واتصل بأبى العباس بن البناء ، بمراكش ، وأخذ

عنه ، ثم التحق بشيخ قبيلة هسكورة ، على بن محمد بن ترومیت ، وأقام عنده مدة ثم استقر معه بفاس ، واتصل بأبى الحسن المرينى ، فألحقه بمجلس العلماء ببلاطه . ثم صحبه مع غيره من العلماء ، فى حركته الى الاندلس ، وحضر معركة طريف ، ثم انتقل معه الى افريقية ، سنة 748 هـ ، ومكث بتونس الى أن استدعاه أبو عنان ، بعد استيلائه على المغرب الاوسط ، سنة 753 هـ ، فغادر الآبلى تونس ، وحل مدة شهر ببجاية ، ثم وفد على أبى عنان بتلمسان ،ونال عنده حظوة كبرى ، ثم سار معه الى المغرب الاقصى ، وتابع التدريس بفاس الى أن توفى بها ، سنة 757 هـ .

ويعد الآبلى من أنبغ رجال عصره فى التعاليم ، وقد ساهم مساهمة كبرى فى تكوين جيل من العلماء الكبار فى المغرب ، فممن تتلمذ له عبد الرحمن بن خلدون ، وأخوه يحيى ، والمقرى الكبير ، وأبو عبد الله الشريف ، وابن مرزوق الجد ، وسعيد العقبانى ، وابن الصباغ المكناسى ، وغيرهم .

33 ـ **أبو الحسن على بن أحمد المعروف بابن الفحام :** أخذ عن أبى عبد الله بن النجار ، واشتهر بصنع المنجانة التى ازدان بها قصر أبى حمو الثانى ، وأشاد بذكرها شعراء بلاطه ، وقد وصف يحيى بن خلدون هذه المنجانة بقوله : « وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ، ويخاتله فيهما أرقم خارج من كوة بجذر الايكة صعدا ، وبصدرها أبواب موجفه ، عدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان موجفان أطول من الاولى وأعرض ، فوق جميعا ودوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط استواء سير نظيره فى الفلك ، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينتقض من البابين الكبيرين عقابان ، بفي كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضى بها الى داخل الخزانة ، فيرن ، وينهش الارقم أحد الفرخين فيصفر له أبوه ، فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة ، وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء ، بيمناها اذ بارة فيها اسم ساعتها منظوما ، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لامير المؤمنين ... »

وقد ضاعت هذه الخزانة ، ولم يصل الينا منها الا وصفها هذا .

34 ـ **أبو عبد الله محمد بن أحمد الحباك :** اشهر من ألف فى علم التنجيم بتلمسان ، وكان أيضا فرضيا ، عدديا . ومن تلاميذه فى هذه العلوم الشيخ السنوسى . وقد ألف

ارجوزة **بغية الطلاب فى علم الاسطرلاب** ، **وشرح تلخيص ابن البناء** ، **وشرح التلمسانية** فى الفرائض ، وغيرها ٠ وتوفى سنة 867 هـ ٠

35 ـ **أبو الحسن على بن محمد القرشى البسطى القلصادى :** نزيل تلمسان ، نبغ فى الفرائض والرياضيات وغيرها من العلوم ٠ وكان أصله من الاندلس ٠ غادر موطنه فتجول فى معظم أنحاء المغرب والمشرق ، واستقر أخيرا بتلمسان ، حيث أخذ عن كثير من طلبتها ، كأبى عبد الله السنوسى ، وأبى عبد الله الملالى ، وغيرهما ٠ وألف كثيرا فى الحساب والفرائض ، من ذلك كتاب **كشف الحجاب عن قانون الحساب** ، وكتـاب **كشف الاستار عن علم حروف الغبار** ، **وشرح تلخيص ابن البناء** ، **وشرح ابن ياسمين فى الجبر والمقابلة** ، **ومختصره** ، **وشــرح فرائض مختصر خلـيل** ، **وشرحان على التلمسانية** ، الاكبر والاصغر ، **والغنية** ، فى الفرائض ، **وشرح الحوفى** ٠ كما ألـف ، فى التنجيم ، **شرحا على رجز أبى مقرع** ، **وعلى رجز أبى اسحاق بن فتوح** ، وفى المنطق **شرح ايساغوجى** ، الخ ، مما يشهد بنبوغه وازدهار العلوم الطبيعية فى عصره ٠ وتوفى سنة 891 هـ ٠

كما نبغ فى هذه العلوم كثير من العلماء الذين ذكروا سابقا من بين من اشتهـر فى العلوم الدينية والاجتماعية ، مثل :

ـ **أبى عبد الله الشريف** ، الذى قال عنه ابن مريم ، فى **البستان :** انه كان « اماما فى العلوم العقلية كلها ، منطقا وحسابا وتنجيما وهندسة وموسيقى وطبا وتشريحا وفلاحة ، وكثيرا من العلوم القديمة والحديثة » ٠

ـ **سعيد العقبانى :** الذى خلف أبا عبد الله الشريف فى تدريس التعاليم ، وكـان أستاذا بالمدرسة التاشفينية ، فاستفاد منه كثيرون فى هذه العلوم ، والف **شرحا عـلى جمل الخونجى** ، فى المنطق ، **وشرحا على تلخيص ابن البناء** ، فى الحساب ٠

ـ **ابن مرزوق الحفيد** ، الذى الف ، فى المنطق ، **شرح جمل الخونجى** ، ونظمه فى **أرجوزة** ، كما نظم ، فى الحساب ، **تلخيص ابن البناء** ٠

ـ **الامام السنوسى :** ومن بين تآليفه : شرح ايساغوجى ، فى المنطق ، ومختصر جمل الخونجى ، وشرحه ، وفى التنجيم ، شرح أرجوزة بغية الطلاب فى علم الاسطرلاب للحبـاك ٠

وللسنوسي أيضا شرح على أرجوزة ابن سينا ، في الطب كل هذا يدل على أن ازدهار العلوم في هذا العصر كان شاملا عاما ، ومتوازنا · ولم يكن في اتجاه ديني محض ، على حساب العلوم العقلية · فكان كل من أبي عبد الله الشريف ، وسعيد العقباني ، وابن مرزوق الحفيد ، والسنوسي ، وأبي الحسن القلصادي ، نموذجا للعالم الكامل المتزن ، المالك لناصية العلوم والمعارف أدركتها الانسانية في ذلك الزمان ·

وكانت الحياة الفكرية تلمسان ، وخصوصا في القرن التاسع الهجري ، قد بلغت درجة لم تبلغها قط من قبل ، وأصبحت تضيء رحاب المغرب الاوسط بنور المعرفة ، فلعبت تلمسان دورا حاسما في تقدم الحضارة المغربية الاسلامية ، وكانت مركز اشعاع فكري وعلمي ، يحق بنا أن نفتخر به وبما حققه من رقي وازدهار ·

المراجع

1 ـ أزهار الرياض ، للمقري ، 3 ج ، القاهرة ، 1939 م ·

2 ـ الاستقصا ، للناصري ، 9 ج ، الدار البيضاء ، 1954 ـ 1956 م ·

3 ـ البسان ، في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ، لابن مريم ، تحقيق محمد بن أبي شنب ، الجزائر ، 1908 م ·

4 ـ بغية الرواد، ليحيى بن خلدون، تحقيق الفردبيل جزآن ، الجزائر ، 1903 ـ 1910 م

5 ـ تاريخ الادب الجزائري ، لمحمد الطمار ، الجزائر ، 1969 م ·

6 ـ التشوف الى رجال التصوف ، للتادلي ، الرباط ، 1958 م ·

7 ـ تعريف الخلف برجال السلف ، للحفناوي ، جزآن ، الجزائر ، 1909 م ·

8 ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، لابن حجر العسقلاني ، 4 ج ، حيدر آباد 1349 ـ 1350 هـ ·

9 ـ الديباج المذهب ، لابن فرحون ، القاهرة ، 1351 هـ ·

10 ـ الرحلة المغربية ، للعبدري ، الجزائر ، 1964 م ·

11 ـ ريحانة الكتاب لابن الخطيب ، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، رقم 2010

12 ـ الضوء اللامع ، للسخاوي ، 12 ج ، القاهرة ، 1354 ـ 1355 هـ ·

13 ـ كتاب العبر، لعبد الرحمن بن خلدون ، 7 ج ، بيروت ، 1959 م ٠

14 ـ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ، تحقيق رابح بونار ، الجزائر ، 1971 م ٠

15 ـ الفارسية ، لابن قنفذ القسنطينى ، تونس ، 1968 م ٠

16 ـ مستودع العلامة ، لابن الاحمر ، تطوان ، 1964 م ٠

17 ـ المسند ، لابن مرزوق الخطيب ، مخطوط الخزانة العامة ، الرباط ، رقم ق 111 ٠

18 ـ المعجب ، لعبد الواحد المراكشى ، القاهرة ، 1949 م ٠

19 ـ مفتاح الوصول فى علم الاصول ، لابى عبد الله الشريف ، الدار البيضاء ، بدون تاريخ ٠

20 ـ المنتخب النفيس من شعر أبى عبد الله بن خميس ، تقديم وتحقيق عبد الوهاب بن منصور ، تلمسان ، 1365 هـ ٠

21 ـ مظاهر الثقافة المغربية ، لمحمد بن شقرون ، الرباط ، 1970 م ٠

22 ـ المعيار ، للونشريسى ، 12 ج ، فاس ، 1314 ـ 1315 هـ ٠

23 ـ النجم الثاقب ، لابن صعد التلمسانى ، مخطوط الخزانة العامة الرباط ، رقم د 1910

24 ـ نحلة اللبيب ، لابن عمار ، الجزائر ، 1904 م ٠

25 ـ نظم الدر و العقيان ، للتنسى ، مخطوط المكتبة الوطنية ، باريس ، رقم 1875 (قسم عربى) ٠

26 ـ نفاضة الجراب ، لابن الخطيب ، تحقيق العبادى ، القاهرة بدون تاريخ ٠

27 ـ نفح الطيب ، للمقرى ، 10 ج ، بيروت ، 1949 م ٠

28 ـ نيل الابتهاج ، لاحمد بابا التنبكتى ، طبع على هامش الديباج المذهب ، لابن فرحون القاهرة ، 1351 هـ ٠

29 ـ الوفيات ، لابن قنفذ القسنطينى ، تحقيق عادل نويهض ، بيروت ، 1971 م ٠

30 ـ وفيات الاعيان ، لابن خلكان ، 6 ج ، القاهرة ، 1948 م ٠

31 ـ معجم أعلام الجزائر ، لعادل نويهض ، بيروت ، 1971 م ٠

منشـــورات

وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيــة

صدر أخــيرا:



ونظن ان هذا الكتيب سيساعد الى حد كبير على تعميم هذا التعليم وادائه الدور المنتظر منه في تربية الذوق ، وشحذ الحس ، بل والخلق أيضا .

وذلك ان هذه الموسيقى ، اذ تمتع العقل والروح معا ، ترهف الحس ، وتربى الذوق ، بل وتعالج الجسم أيضا ، حيث اصبحت اليوم تستعمل أكثر فأكثر في مستشفيات وعيادات البلدان المتقدمة لا في العلاج النفساني فحسب ، بل وفي العلاج الجسماني أيضا ، طبقا للنظرية الطبية القائلة بأن كثيرا من الامراض التي كان يظن حتى الآن (1) انها جسمانية بحتة هي في الواقع ذات طابع مزدوج ، نفساني ـ جسماني (psychosomatique)، تعالج ككل بهذه الموسيقى في عدة بلدان أوروبية ، منها على الخصوص جمهورية ألمانيا الاتحادية ، والنمسا ، والجمهورية الديمقراطية الالمانية . (2)

ثم ان هذه الموسيقى ليست من ذلك النوع المخدر للاعصاب والنفوس ، أو المهيج لها ، ولا من ذلك النوع الذي يبعث على الانحلال الخلقي ، كتلك الدندنة التي تتغنى بالخمر ، والغلمان ، وتذهب في غلامياتها الى وصف « قده » ، و « خده » و « ثغره » ، الخ .. الخ .. من كلام أقذع من هذا بكثير وأفظع ، من تلك السخافات التي عجلت بفقدان الاندلس ، وتمييع الاوساط التي تسمى بـ « العليا » في نظر بعض السذج والقوم التبع !

فالموسيقى الكلاسيكية العالمية في أغلبها ولدى أساطينها هي موسيقى تهذيب النفس ، والسمو بالروح والعقل ، وترسيخ القيم الخلقية العليا على كل من المستويين الفردي والوطني ، بل والعالمي .

ويكفي أن نذكر بعض الامثلة في هذا المجال .

ففي أسود لحظات مقاومة الروس في ستالينغراد للحصار الخانق الذي أحاطت به الجيوش الالمانية المدينة ، كانت الفرقة الفيلهارمونيكية الروسية في هذه المدينة تعزف السيمفونية التاسعة لبيتهوفن الالماني ... التي يتغنى فيها العبقري الخالد بقدرة الانسان على الخروج من أضيق المسالك ، ويشيد فيها بانسانية الانسان !

واذا ما تذكرنا ان الموسيقار الخالد كتب في مذكراته ، وهو يؤلف سيمفونيته الخالدة هذه بتأثير صديقه الشاعر الثوري المعروف شيللر ، ما يلي : « **آه ، يا لها من**

---

(1) وان كان ابن سينا والرازي خاصة قد نبها الى هذه الطبيعة المزدوجة للمرض منذ أكثر من ألف سنة !

(2) W.J. Revers, G. Harrer, W.C.M. Simon : « Neue Wege der Musiktherapie. Grundzuege einer alten und neuen Heilmethode ».

تعاسة ! انى لاتضور جوعا , ولم اذق طعم الخبز منذ ستة ايام ! » ادركنا القمة الروحية التى كان عليها , وهو ينظر من أعلى بكل سخرية واحتقار الى المتاعب المادية العارضة التى لا ينبغى أن تجر الى منزلقاتها وحضيضها النفس الابية الشماء , **المتعالية على** المادة العمياء الصماء !

اليس هو الذى كتب مرة يقول : « **ان الموسيقى هى وحى أعلى من كل فلسفة , واعمق من كل حكمة ! والذى تنفتح له موسيقاى يتحرر من كل المحن التى تثقل كواهل الآخرين !** » ؟ (1) .

وهو نفس بيتهوفن الذى ظل يردد تلك العبارة المشهورة لاستاذه الروحى الفيلسوف كنط : « **هناك شيئان هما أعظم ما فى الوجود : السماء المتلئلئة بنجومها فوقى , والقانون الاخلاقى فى ضميرى !** « der bestirnte Himmel ueber mir und das moralische Gesetz in mir ! ».

وهو نفس بيتهوفن الثورى الذى قال فى سياق من السياقات التاريخية عن نابليون الذى كان جاثما على مسقط رأسه , بون : « **انما أنت دكتاتور مثل الآخرين , تدوس حريات الشعوب !** » وترك لنا بهذه المناسبة رائعة من الروائع الخالدة فى تمجيد الحرية سماها البطلة : « Eroica » , وهى زمجرة ضد الاحتلال , ونداء الى الكفاح التحريرى , بعد أن كان يود اهداءها الى نابوليون !

وهو الذى رفض وظائف عديدة عرضها عليه جيروم بونابرت , اخو الامبراطور وملك كاسل , وملك بروسيا , وامبراطور النمسا , وآخرون , وهو فى صميم الفقر والبؤس , مرددا عنهم جميعا : «أمراء , وملوك, وأباطرة, وقياصرة ... وجدوا, يوجدون, وسيوجدون , أما بيتهوفن فليس هناك الا واحد ! » .

وكان يردد فى هذا السياق شعاره المعروف : « **أحبب الحرية فوق كل شىء , ولا تنكر الحقيقة حتى امام التيجان !** »

وهو نفس بيتهوفن الاخلاقى الذى رفض أن يساير تيار عصره ويؤلف فى أسلوب الأوبرا السائد اذ ذاك , ولم يؤلف الا واحدا فى هذا القطاع وفى موضوع هام جدا

(1) « Musik ist hoekere Offenbarung als alle Weisheit und Philosophie ; Wem meine Musik sich verstaendlich macht, der muss frei werden von allem Elend, womit sich die Andern schleppen ».

a) Kurt Pahlen : "Musikgeschichte der Welt".
b) Romain Rolland : Beethoven.
c) Beethovenfest : Bonn - 1927.

فى نظره ، وهو الوفاء الزوجى ، وسماه « فيديليو » « Fidelio » فى عصر فشت فيه أوبرات تبث الانحلال والاختلال ، وطغت فيه موسيقى خفيفة مسفة تدعو الى اللهـو ، والمجون ، والاستهانة بقيم الانسان ، فى موجة عارمة شملت أوروبا ، وخاصة فيينـا التى بدأت تسودها موسيقى جميلة حقا ، ولكن فى غاية الخفة والاسفاف فى نظر بيتهوفن الجدى الصارم ، من نـوع موسيقى عائلـة شتراوس (ومعنـاه بالالمانية النعامـة !) ولانر (Lanner) وخاصة روسينى ، (رأس البومة ، كما سماه بيتهوفن !) .

لقد كانت موسيقى بيتهوفن فى خدمة القيم الاخلاقية العليا للانسان ، فى الدفاع عن حرية الانسان ، وكرامة الشعوب ، وضد الدكتاتورية ، والاستعباد • وقل كثيرا من ذلك عن موسيقى اعلام آخرين مثل **موسورغسكى فى روسيـا ، وسميتانا ودفورجاك** Dvořak **فى تشيكوسلوفاكيا ، وخوبين** Chopin **فى بولونيا ، وزلطان كودال فى المجر ، وغريغ** Grieg **فى النرويج ، وسيبيلوس فى فنلنـدا ، وفيـلا لوبوس** Villa-Lobos **فى البرازيل ، وجورج يونسكو** Jonesco **فى رومـانيا ، وآخـرين كثيرين** ، ممن عبروا **بموسيقاهم عن كفاح شعوبهم من أجـل الحـرية والكرامة ، وعن روحها ، وشخصيتها ، وانيتها ، واصالتها ، على أساس موسيقاهم الشعبية ، وباستلهام تاريخهم ، من افراح واتراح ، وكان تعبيرهم فى نفس الوقت روائع من الفن العالمى الخالد الذى اصبح تراثا مشتركا للانسانية كلها** •

فلندرس هذه الموسيقى اذن بعناية وجد ، وليتخرج من شبابنا مـن يعزفونهـا ويؤلفون فيها آثارا تكون لوحـات عن كفـاح وآلام هذا الشعب ، وآماله ومطامحه ! وليشمل ذلك الامة الاسلامية كلها ، بل والانسانية جمعاء • ولتكـن تلك اللوحات فى نفس الوقت روائع فنية للتمتع والامتاع ! وليصوغوا لنا ألحانا ملائكية تعبر عن الخلـق والمبدأ ، وعن جمال البـلاد وجلالها ، ألحـانا تختلف عن الدندنة والدربكة الخليعتـين والسائدتين حاليا عندنا فيما نسميه بالموسيقى الكلاسيكية (الاندلسية) ، التى نحب ألحانها حقا ، ولكن نسخط على كلماتها ! •

وليأخذ شبابنا من كنوزنا الفنية الشعبية ، وليعطوا ألحاننا الشعبية هذه ذلك الطابع الفنى العالمى الرائع ، كما فعل الخمسة الروس (١) فى القرن الماضى ، وكما فعل بعض الذين ذكرنا فى هذه المقدمة ، وآخرون كثيرون ، وكما أخذ يفعل عندنا العصفور النادر الوحيد ، المرحوم محمد ايقربوشن ، وبدأ يواصل على دربه الدكتور حكيم ابن عطية ، مشيدين بأممهم ، وأوطانهم ، وتاريخها ، وقيمها ، وآلامها ، وآمالها ، وممتعين فى نفس الوقت للانسانية كلها !

لقد أطلت فى هذه المقدمة ، وكم كنت أود أن أطيل أكثر ، خاصة فيما يتصل ببيتهوفن الخالد ، عن قصد ، ومدفوعا فى نفس الوقت برغبة جامحة .

ولأختم ندائى هذا لشبابنا فى المدارس باعادة تلك الكلمة المأثورة التى سجلها وطبقها بيتهوفن الخالد : « ان الموسيقى هى وحى أعلى من كل فلسفة ، وأعمق من كل حكمة ! والذى تنفتح له موسيقاى يتحرر من كل بؤس يثقل كواهل الآخرين ! » .

---

(١) ريمسكى كورساكوف ، موسورغسكى ، بوردين ، قيصر كوى (Caesar Cui) وميل بلاكيريف (Mili Balakirev) ، مؤسس الجماعة .

النشاط العقلى والتقدم الحضارى بالجزائر
فى عهد الزيانيين

مفــدى زكريــاء

مما لا يدعو الى الشك والارتياب أن الجزائر بلغت القمة فى الحضارة ، وكانت آثار هذه الحضارة بارزة فى قوة الملك ونظام الدولة والنهضة الاقتصادية ، والنبوغ العلمى والتقدم الأدبى ، وأصبح الجزائريون أمة متحضرة ساهمت بقسط وافر فى بناية صرح التمدن الاسلامى ، وليس من السهل أن نحدد مدى القسط الذى ساهمت به فى هذه الحضارة وان تميز المادة الخام التى اختصت بها وقدمتها كنتيجة لمجهودها الفردى الجبار .

ظهرت آيات هذه الحضارة فى الفنون الجميلة كالموسيقى التى بلغت درجة ممتازة بفضل التفاعل الواقع بتأثير الموسيقى الاندلسية ، حيث كانت تلمسان نقطة انطلاقها الى سائر أنحاء القطر الجزائرى . والذى تقدم بصفة خاصة هو الفن المعمـــارى . فان البنايـــة الجزائرية قد ادركت شأوا لم تدركه فيما تقدم من عصورها .

وقد عنى الملوك بتشييد القصور والمعالـــم ، وانشاء البنايات والمجامـــع والمدارس والاسوار واحداث المدن والقرى ، وأعظم قصر بتلمسان ، قصر « المشور » وهو بـــلاط الملوك من بنى زيان كان من أجمل القصور الاسلامية وأروعها ، وكان جديرا بدولة عظمى كدولة الزيانيين ، وقد اعتنى الملوك بتوسيعه وتنميقه ، ومن مبانى النزهة « البـركة » العظيمة التى كانت قرب تلمسان فى بستان بديع كان من أجمل منتزهات تلمســـان ، ومنها (الملعب الكبير) الذى كانت تتسابق فيه الخيول فى محافل مشهودة وفيه يقول محمد القيسى :

وبملعـب الخيــل الفسيـح مجاله أجلى النواظر فى عتــاق المحفــل

فبحلبـة الأفراس كــل عشيــة لعب بذاك الملعــب المستسهــل

فتـرى المجــلى والمصــلى خلفــه وكلاهمــا فى جريـه لا يأتـــلى

هـــذا يكـــر وذا يفـــر فتنثـــنى عطفـا عـــلى الثـانى عنـان الاول

من كل طرف كــل طرف يستبى قيـــد النواظـر فتنـــة المتأمـــل

ومن منتزهاتها وادى (صفصيف) الذى كانت البساتين تحف بضفتيه و (كديـــة العشاق) و (غدير الجورة) و (ساقية الرومى) وتسمى اليوم بساقية النصرانى ، وجبل (لالا ستى) و (جنات الوريط) وشلالاتها الساحرة وفيها يقول ابن خميس :

وان أنس لا أنسى الوريط ووقفـة اصـــافح فيهـــا روضـــة وانافح

ويقـول :

لساقية الـرومى عنـــدى مزيـــة وان رغمت تلـك الروابى الرواشح

ويقول القيسى :

وبربـوة العشــاق سلـــوة عاشق قتلتـــه الحـــاظ الغـــزال الأكحل

بنواســم وبواســم مـــن زهرهـــا تهديك انفاســـا كعـرف المنــدل

وكانت المعالم التلمسانية ذات صبغة محلية فى معمارها ولو كانت مقتبسه فى الغالب من المعمار الشرقى والمعمار الاندلسى ، وقد فصل ذلك تفصيلا (جان مارسى) فى كتابه (معالم تلمسان العربية) ·

اما الحركة العلمية فان التعليم بتلمسان كان ينقسم الى قسمين ، قسم يزاول بالمساجد وقسم يعطى بالمدارس ، وكانت كل المساجد فى القرى والمداشر والمدن تعنى بحفظ القرآن والحديث كمادة أولى اساسية ثم يدرس النحو واللغة والفقه والادب · أما المساجد الجامعة فانها شبه كليات تدرس بها العلوم الاسلامية كالفقه وأصوله ، والحديث ومصطلحه والقرآن وتفسيره ، واللغة والنحو والادب على غرار ما كان يجرى به العمل بالجامع الاعظم بتونس ، وما لا يزال يجرى به العمل بجامع القرويين بحاضرة فاس ، اما المدارس فانها تقرب من الجوامع فى المنحى والاسلوب وتزيد عليها بتدريس العلوم الرياضية والعقلية ، وقد أسسها ، اما الزيانيون أو بنو مرين ، فالتى أسسها الزيانيون هى :

1 ـ **مدرسة (ابنى الامام)** : وهما ابو يزيد عبد الرحمان وابو موسى عيسى من أهل (برشك) أخذا العلم بتونس ثم ذهبا الى المشرق ، فزارا الشام والحجاز ومصر وأخذا العلم عن اقطابها ثم رجعا ، فأسس لهما ابو حمو بن زيان مدرسة عرفت بهما يدرسان بها علوم الكلام وعلوم اللسان ···

2 ـ **المدرسة الجديدة أو (التاشفينية)** : أسسها ابو تاشفين ابن ابى حمو الاول ، وقد تفنن فى تشييدها وزخرفها حتى اصبحت قصرا من اعظم قصور الملوك ، وكانت تشتمل على عدة بنايات ورواقات ، وقد حضر فى حفلة افتتاحها علامة عصره ، (ابو موسى عمران المشدالى) وهو من اقطاب عصره فى الفقه المالكى ·

3 ـ **المدرسة (اليعقوبية)** : أسسها ابو حمو موسى الثانى ، بناها للعلامة ابىعبدالله محمد بن أحمد الشريف · وقد تأنق فى تزيينها وبهرجتها وانتهى من بنائها يوم 5 صفر 765 · وحضر الخليفة ابو حمو موسى الثانى حلقة الدرس الافتتاحى الذى قام به الشريف أبو عبد الله ·

واما المدارس التى أسسها بنو مرين فهى :

1 ــ **مدرسة العباد** : نسبة الى قرية العباد ، وقد أسس هذه المدرسة ابو الحسن المرينى .

2 ــ **مدرسة الجزائر** : أسسها ابو الحسن المرينى بمدينة (جزائر بنى مزغنة) وكان هذا النوع من التأسيس حديث العهد بالمغرب .

والمدرسة عبارة عن مسكن للطلبة يتخذونه مثابة ومستقرا ياكلون فيه ويشربون وهناك يتعلمون عن الاساتذة مختلف الفنون ، وقد بقى أغلب هذه المدارس وعلى الاخص مدرسة العباد التى تعرف اليوم بمدرسة (سيدى ابى مدين) . وما من شك فى ان لهذه المساجد والجوامع اثر عميق فى الازدهار العقلى والتطور الفكرى الذى شاع بالجزائر ما بين القرن الثامن والعاشر . وأسلوب التعليم بتلمسان لا يختلف عن الطريقة العربية المالوفة من الالقاء والشرح ، وكان محور التدريس يدور حول الكتب الآتية :

1 ــ **فى التفسير** : لامية الشاطبى ، وتفسير بن عطية ، والثعالبى والكشاف للزمخشرى ، وأنوار التنزيل للبيضاوى ، والتهذيب للبيهقى والاستذكار للدارمى .

2 ــ **فى الحديث** : الصحاح الست وعمدة سيرة النبى (صلعم) لمحمد بن اسحاق والروضة للكبارى ، وأرجوزة الحديقة .

3 ــ **فى الفقه المالكى** : الموطا للامام مالك ، والتمهيد لابن عبد البر ، والمدونة للامام سحنون ، والتمهيد للبرادعى .

4 ــ **فى النحو واللغة** : كتاب الاعراب عن شواهد الاعراب لابن هشام ، ومغنى اللبيب عن كتب الاعاريب لابن هشام أيضا ، والايضاح للفارسى وكتاب النحو لسيبويه ، والالفية والتسهيل لابن مالك ، والكافية لابن الحاجب .

5 ــ **فى الأدب** : كتاب الايضاح للقزوينى ، ودلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى ، والانموذج للزمخشرى ، والمصباح والمغرب للمطرزى ، والحماسة لابى تمام ، والمعلقات السبع وديوان المتنبى وكتاب الاغانى لابى الفرج الاصفهانى والعمدة لابن رشيق القيروانى وزهر الآداب للحصرى ، وقد تخرج من مدارس تلمسان طائفة ممتازة من العلماء على اختلاف فنونهم ومناحيهم .

1 ـ علماء الدين : ومنهم الفقيه ابراهيم بن يخلف بن عبد السلام ، ومحمد بن مرزوق بن الحاج التلمساني ، والشيخ ابن على الحياط والفقيه أبو موسى المشدالى ، وأبو محمد عبد الحق المسناوى وأبو يعقوب النفرسى ، والعلامة أبو عبد الله محمد بن مرزوق والشيخ محمد القرشى التلمسانى ، والشيخ ابراهيم بن محمد المحمودى ، والفقيه العلامة سعيد بن محمد العقبانى ، وأحمد بن يحيى الوانشريسى ، وأبو عباس أحمد الجزائرى ، والفقيه محمد بن عبد الرحمان الكفيف ، وأبو على بن عمر بن العباس الصنهاجى الحباك والفقيه المشهور ابو الربيع سليمان بن عبد الرحمان بن المعز الصنهاجى ، والفقيه أبو عبد الله محمد عبد الحق بن سليمان اليعفرى ومحمد بن موسى الوجويجى ، وقد أشتهر من بين هؤلاء كلهم أحمد بن محمد بن زكرى ومحمد السنوسى ومحمد بن عبد الكريم المغربلى ، وابن مرزوق الحفيد ، وزخر هذا العهد الزيانى بالعلماء والفقهاء فمن شاء أن يتعرف عليهم فليراجع (بغية الرواد) ليحيى بن خلدون والبستان لابن مريم ، والدر والعقيان للتنسى ونيل الابتهاج لاحمد بابا ·

2 ـ المفسرون : وأشهرهم الشيخ عبد الرحمان الثعالبى المولود بمدينة الجزائر سنة 786 والمتوفى 875 · هاجر الى تونس ثم الى المشرق لاخذ العلم فنبغ فى الفقه والحديث وقد أشتهر على الخصوص بتفسيره للقرآن الكريم وله عدة تآليف أخرى غير ذلك،وضريحه لا يزال مثابة للصالحين والصالحات يحج اليه الجزائريون من جميع انحاء الجزائر · ومنهم أيضا الشيخ محمد المغيلى له تآليف عدة ، منها ، البدر المنير فى علوم التفسير ، ومنهم محمد السنوسى الذى شرع فى تفسير كبير ، لكنه وقف عند قوله تعالى (**أولئك هم المفلحون**) · ومنهم العقبانى وابن زاغو وقد فسر معظم آيات القرآن ·

3 ـ علماء التاريخ : أشهرهم ، يحيى بن خلدون أخو المؤرخ المشهور مؤلف كتاب (بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد) · ومنهم محمد بن عبد الله التنسى مؤلف كتاب (نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان) ومنهم أبو العباس أحمد قاضى قسنطينة مؤلف كتاب ، (الفارسية فى مبادى الدولة الحفصية) ·

واما اصحاب الطبقات فقد أشتهر منهم ، أحمد الغبرينى (644 ـ 714) مؤلف عنوان الدراية فى من عرف من علماء المائة السابعة ببجاية ، ومنهم ابن قنفذ السالف الذكر له

وفيات تنسب اليه ، ومنهم أحمد يحيى مؤلف كتاب التراجم المعروف ، بوفايات الوانشريسى ·

4 ـ **علما الرياضيات والحساب** : أشتهر منهم الرياضى الكبير محمد النجار ثم على ابن أحمد المشهور بابن الفحام ، كان عالما بالحساب والهندسة والميكانيكا · وله عدة تآليف وقد ابتكر أنواعا كثيرة من الآلات ، وهو الذى أخترع ساعة المنجانة المشهورة بالمغرب كله والتى سبق ان قال عنها يحيى بن خلدون : (وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع باعلاها ايكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه وبصدرها أبواب مجوفة عدد ساعات الليل الزمنية يصاحب طرفيها بابان مجوفان يبرز فوق جميعها نجم أكمل يسير على خط استواء سير نظيره فى الفلك ، ويسائر أول كل ساعة بابها المرتج فينقض من البابين الكبيرين عقابان بفم كل منهما صنجة صفراء يلقيها الى طست من الذهب الاصفر مجوف بوسطة ثقب يفضى به الى داخل الخزانة فيرن ، وينهش الارقم أحد الفرخين فيصفر له أبوه وهناك يفتح باب الساعة الراهنة ، وتبرز منه جارية كاظرف ما انت راء بيمناها اضبارة فيها اسم ساعتها منظوما ، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لامير المؤمنين) · وقد أجرى الملوك لابن الفحام هبة سنوية تقدر بألف دينار على اختراعه لهذه المنجانة المسحورة · وهذه الساعة تشبه الساعة التى أهداها هارون الرشيد لشرلومان(Charlemagne)ملك فرنسا الا انها أحسن وأروع ، وقد اندهشت أوروبا للساعة الشبيهة بالمنجانة والتى يدعى ابتكارها (كان راد ازيبودوس) وقد صنعها بمدينة ستراسبورغ STRASBOURG بعد مائتى سنة من وفاة ابن الفحام وهذا فخر للجزائر لا يشاركها فيه أحد ·

ومن علماء الحسابيات : ابن قنفذ مؤلف كتاب (حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب) وقد شرح أيضا (تلخيص ابن البنا) وله أيضا (بغية القارض فى الحساب والفرائض)، ومنهم العلامة القنصادى المشهور مؤلف الكتب الاتية : (كشف الجلباب عن علم الحساب) ، (كشف الانوار وكشف الاسرار عن علم الغبار) (قانون الحساب) ، (شرح ابن ياسمين فى الجبر والمقابلة) وله فيه مختصر مشهور · وقد أشتهر القنصادى بطريقة خاصة فى الحساب

ابتكرها · ومنهم سعيد العقباني له شرح على قصيدة ابن ياسمين في الجبر والمقابلة ، وقد عثرنا على شرح آخر لمقدمات الجبر والمقابلة منسوب للعلامة محمد السنوسي ومن هذا كله نتبين مدى اتساع الحركة العلمية الرياضية ومدى تضلع الجزائريين في الحساب والجبر والمقابلة والهندسة والميكانيكا ·

5 ـ **علماء الفلك** : وقد اشتهر منهم محمد الحباك له شرح قيم لارجوزة (السنوسي) المعروفة (ببغية الطلاب في علم الاسترلاب) ·

وله رسالة أخرى بهذا الاسم وقد نظم رسالة السفار في علم الفلك ، توفي سنة 867 · وللقنصادي شرح على رجز ابن الفتوح في علم النجوم ، ومن تآليف ابن قنفذ (سراج الثقات في علم الميقات وكتاب تيسير المطالب في علم الكواكب) ونحن لا نستطيع تقدير قيمة هذه الكتب ولا تحديد منزلتها العلمية حيث انها الى الآن لا تزال خاما لم تدرس دراسة فنية مضبوطة ، هذه مظاهر العظمة في دولة شامخة عمرت زهاء أربعة قرون ثم انهارت على يد الحسن آخر بني زيان الذي جلس فوق الفوضى العامة والاضطراب الشامل وتحالف الاعداء ضد الزيانيين ومما زاد الطين بلة ظهور دولة جديدة هي دولة (بني الوطاس) بالمغرب الاقصى ، لم تكد تظهر حتى اشرأبت للاستيلاء على دولة بني زيان · ومن أكبر اسباب انهيار الممالك ظهور العسف والجوز وقد أظهر الحسن آخر بني زيان من ظلم الرعية والجور والاعتساف ما أدى بالرعية الى الانتقاض عليه وما دفع مجلس العلماء للافتاء بخلعه وهكذا ذهب الحسن مع عائلته الى وهران ، ثم خرج منها الى الاندلس واعتنق دين المسيحية وهكذا تم ملك بني زيان بأكبر فظيعة ارتكبها ملوكها بدأت باستمالة النصارى وانتهت بالدخول في دينهم ·

والذي جنى عليها بصفة خاصة هو الطمع الاشعبي الذي كان داب افراد العائلة المالكة ، فأخذوا يتواثبون على بعضهم بعضا ، ويستنجدون الاعداء على أبناء الوطن وذوي القربى ، ولم يرو التاريخ ان دولة اسلامية نالها من جراء هذا الخور العقلي والانحراف السياسي ما نال بني زيان ولولا ذلك لعمرت طويلا ولكانت أكبر دولة اسلامية في دنيا العرب ويلوح لنا اذا نحن تعمقنا في التحليل ان أسباب سقوط الدولة الزيانية ترجع

الى أسباب عنصرية وأسباب سياسية · فأما العنصرية فهى الحرب ما بـين مختلف القبائل البربرية من جهة وتقاتل البربر والعرب من جهة أخرى ، أولئك الاعراب الذين ما انفكوا ينخرون عظام الدولة فى طفولتها وشبابها وشيخوختها ·

واما الاسباب السياسية فهى سوء تبصر أفراد الاسرة وتقاتلهم ثم سطو بنى مرين تارة وبنى حفص تارة أخرى حتى ضعفت كل من الدول الثلاث وتغلغل الاسبان فى أجزاء الدولة المغربية فاستولى على الجزائر وافريقية ومن غـير شك ان من أهم الاسباب التى أدت بسرعة الى تقويض البناء الشامخ الذى شيده ياغمراسن الاول هو موالاة الزيانيـين للاسبان وظهور الدولة التركية التى وان اكتسحت الدولة الزيانية الا انها حمت الهلال من تعصب الصليب ، اذ كانت أوروبا فى أشد أزمات الهستيريا من التعصب الاعـمى ضد المسلمين ، فكانت تتوثب عـلى الممالك وتجهـز عليها بحملاتها الصليبية الهوجاء ، الم تكن حرب (الكونت والكوديتى) الا حربا صليبية من الطراز الاول ، نعم تقلص ظل الدولة بعد أن بلغت اسمى درجات الحضارة ، ولكنها تركت معالم حضارية وعلمية وأدبية وفنية لن تمحوها أيدى الحدثان ولن تزال الجزائر تفتخر بهذه الامجاد مدى السنـين والاحقـاب ·

وهكذا كانت النهاية المحزنة للدولة الزيانية نتيجة حتمية للذين يكفرون بنعم الله ويبغونها عوجا وفسادا · (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ·

جولة عبر
مساجد تلمسان

د . رشيد بورويبة

تمتاز تلمسان بالعدد الكبير من المساجد الرائعة الجمال التى بنيت فى عهد الادارسة والمرابطين والزيانيين والمرينيين .

واقدم مسجد ما زالت له أثار بتلمسان هو مسجد أقادير الذى يرجع عهده الى ادريس الاول . والدليل على ذلك هو ان ابن ابى زرع الفاسى صاحب « روض القرطاس » يذكر ان فى منتصف شهر رجب 173/9 ديسمبر 789 غزا ادريس الاول تلمسان وبنى مسجدا بها بمنبر كتب عليه « بسم الله الرحمن الرحيم هذا مما أمر ببنائه الامير ادريس بن عبد الله ابن حسن بن الحسن بن على بن على بن ابى طالب رضى الله عنهم اجمعين ، وذلك فى شهر صفر 174 (يونيو - يوليو 790) » .

واضاف ابن ابى زرع الى ذلك ان ادريس الثانى اعاد بناء مسجد أقادير وأمر بصنع منبر آخر جاء فيه : « هذا مما أمر به الامام ادريس بن ادريس بن حسن بن الحسن بن على رضى الله عنهم اجمعين فى شهر محرم 199 (أوت ـ سبتمبر 814) » ·

وايد ابن خلدون ما كتبه صاحب « روض القرطاس » حيث قال ان ادريس الثانى أعاد بناء المسجد وصنع المنبر ·

فقام الاثرى الفريد بل Alfred Bel بحفريات فى موقع مسجد أقادير اثناء السنتين 1910 ـ 1911 وعثر على بناء شكل مربع غير منتظم يتراوح طول جدرانه بين 39 م و 45 م ·

وقامت ادارة الآثار التابعة لوزارة الاعلام والثقافة باعادة الحفريات فى موقع مسجد أقادير تحت اشراف السيدين خليفة ودحمانى بمشاركة آثاريين من بولونيا · وما زالت الاعمال تتواصل فى هذا الموقع الى ايامنا هذه ·

ولجامع أقادير مئذنة يرجع تاريخ قاعدتها الى عهد الادارسة واعلاها الى العهد الزيانى ·

وبعد الادارسة جاء المرابطون وشيدوا بتلمسان الجامع الكبير الذى يعتبر من روائع الفن الاسلامى ·

كان تأسيس هذا المسجد فى عهد على بن يوسف بن تاشفين كما تدل عليه كتابة تجرى على قاعدة القبة الموجودة امام المحراب فجاء فى هذه الكتابة :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم · هذا مما أمر بعمله الامير الاجل ··· ايده الله واعز نصره وادام دولته وكان اتمامه على يد الفقيه الاجل القاضى الاوصل ابى الحسن على بن عبد الرحمن بن على ادام الله عزهم فتم فى شهر جمادى الاخيرة عام ثلاثين وخمسمائة » ·

ومع ان اسم المؤسس محى من طرف الموحدين يدل التاريخ المذكور (530/1136) على ان الجامع الكبير شيد فى عهد الامير المرابطى على بن يوسف ·

فيمتاز هذا المسجد بدعائمه وسواريه واقواسه ومحرابه وقبتيه ومئذنته ·

للمسجد الكبير التلمسانى دعائم مستطيلة أو ذات زاويتين قائمتين أو صليبية الشكل وسوارى تعلوها تيجان ذات صفين من أوزاق الاكنتس تشابه تيجان مسجد قرطبة ·

وعلى الدعائم والسوارى ترتكز اقواس مختلفة الشكل : اقواس مكسورة واقواس مفصصة تشابه اقواس جامع قرطبة غير ان اقواس هذا المسجد الاخير تحتوى كلها علـى خمسة فصوص بينما نجد بالجامع الكبير التلمسانى اقواسا ذات خمسة فصوص أو سبعة فصوص أو تسعة فصوص أو أحد عشر فصا ٠

ان محراب الجامع الكبير التلمسانى أول محراب له مشكاة سداسية الاضلاع ٠ وهذه المشكاة مكللة من داخلها بقبيبة مزينة باخاديد حولها طنف ثمانى الاضلاع ٠ وتحـت الطنف نجد خمس لوح مستطيلة ثلاثة منها مؤثثة بنافذة من الجص المخرم ٠ ثم نـرى كتابة تجرى على جدران المشكاة هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ٠ اذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون، واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن مـن الغافلين،ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ٠»

هذا فيما يخص داخل المحراب اما فيما يتعلق باطاره فانه يدل عـلى البراعة التى بلغ اليها الفنانون المرابطيون ٠

فيمتاز هذا الاطار بفقراته المؤثثة بغصون ملتوية وأوراق منحوتة بدقة عجيبة وأربع زوايا حيث نرى قفلة على شكل جذع هرم مزينة بعناصر نباتية موضوعة وسط بسـاط من أوراق مختلفة الشكل ، كما يمتاز بحافتيه المستطيلتين احداهما مزينة بكتابة بالخط الكوفى والاخرى بعناصر هندسية ونباتية وبافريز من أوراق الاكنتس موضوعة بـين الحافتين المستطيلتين ٠ ثم نرى أفريز من أقواس ثلاثية الفصوص فى وسطه نافذة مزينة بعناصر هندسية ٠

هذا فيما يتعلق بالقسم العلوى لاطار محراب الجامع الكبير ، أما قسمه السفلى فهـو مزين بلوحتين مستطيلتين موجودتين على يمين المحراب وعلى يساره ، ومؤثثتين بعناصر نباتية وكتابية وهندسية ٠

لمسجد تلمسان قبتان احداهما موضوعة أمام المحراب والاخرى فى البلاطة الرابعة للاسكوب الرئيسى ٠

ان القبة الاولى يرجع عهدها الى الدولة المرابطية كما تدل عليه الكتابة التى سبق ذكرها . ان هذه القبة أول قبة مزينة بتعاريق شيدت فى المغرب وتمتاز بمشكواتها المؤثثة بالمقرنصات وتعاريقها التى تكون مضلعات مختلفة الشكل مزخرفة بالجص المخرم وقبيبة مزخرفة بالمقرنصات .

أما القبة الثانية فيرجع تاريخها الى العهد الزيانى وهى مثل الاولى مزينة بالاخاديد ولكنها لا تساويها فى الجمال والاناقة .

وقبل أن نغادر الجامع الكبير فلا بد أن نقول كلمة عن سقفه ومئذنته .

ان سقفه مصنوع من الخشب ومزين بحاملات على شكل جسم متوازى السطوح مؤثث بغصون ملتوية وأوراق وثمر الصنوبر .

أما المئذنة ، فيرجع عهدها الى يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية .

ان هذه المئذنة تحتوى على برجين على شكل جسم متوازى السطوح : البرج الاسفل وهو البرج الرئيسى له قاعدة مربعة ضلعها 30 ، 6م ، ويبلغ ارتفاعه 26 م ، وعدد درجاته 130 وتشتمل زخرفته على لوحة كبيرة مزينة بشبكة من المعينات تعلوها لوحة أفقية مؤثثة بخمس أقواس سباعية الفصوص .

أما البرج العلوى فهو أصغر من البرج السفلى ، فله قاعدة مربعة يبلغ ضلعها 90 ، 2م وارتفاعه 70 ، 4 م وتحتوى زخرفته على قوس تساعية الفصوص يعلوها معين مفصص فى قسمه الاعلى . ونجد فى هذا البرج حجرة يستريح فيها المؤذن .

فلنغادر الآن الجامع الكبير لنزور جامع سيدى أبى الحسن الموجود قربه والذى شيد فى عهد الدولة الزيانية .

ان مسجد سيدى أبى الحسن أسس فى سنة 1296/696 كما تدل عليه كتابتان احداهما مرسومة على يمين وعلى يسار المحراب والاخرى تجرى على لوحة من الرخام مرصعة فى الجدار الغربى . فجاء فى هاتين الكتابتين :

« بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما . بنى هذا المسجد الامير أبو عامر ابراهيم ابن السلطان أبى يحيى يغمراسن بن زيان فى سنة ست وتسعين وستمائة من بعد وفاته رحمه الله » .

ومن الجدير بالذكر هو أن هذا المسجد لم يحمل اسم مؤسسه ولكنه أخذ اسم عالـم عاش فى عهد الامير أبى سعيد عثمان وهذا العالم هو أبو الحسن بن يخلف التنسى ·

وبعد الاحتلال الفرنسى حول المسجد الى مخزن ثم الى المدرسة وأخيرا الى متحف ·

ان مسجد سيدى أبى الحسن صغير جدا بالنسبة الى الجامع الكبير ولا يحتوى الا عـلى بيت صلاة طوله 20 ، 10 م وعرضه 70 ، 9 م ذى ثلاثة أساكيب عمودية لجدار المحراب وثلاث بلاطات متوازية لجدار المحراب ·

ويمتاز هذا المسجد بسواريه وتيجانه ومحرابه وسقفه ومئذنته ·

ان سواريه منحوتة فى نوع من الرخام شبه شفاف يستخرجونه من منجم عين تاقبات الواقع قرب تلمسان · ويعلو هذه السوارى تيجان رائعة الجمال تحتوى على قسم سفلى أسطوانى الشكل مزين بتعرجات ·

وعلى قسم علوى شكل جسم متوازى السطوح مؤثث بأوراق مختلفة الشكل وثمـر الصنوبر محيطة بعصابة أو سعيفة ·

وفوق التاجين اللذين يعلوان ساريتى المحراب تجرى كتابة تدعو المؤمنين الى الصلاة ·

فجاء فى الكتابة الموضوعة على اليمـين :

« وحافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتـين » ·

وجاء فى الكتابة الموضوعة على يسار المحراب :

« وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات » ·

ويعتبر محرابجامع سيدى أبى الحسن أجمل محراب فى العالم الاسلامى كلـه · لهذا المحراب مشكاة سداسية الاضلاع مكللة بقبيبة مزينة بالمقرنصات تنافس فى الاناقة قبيبة محرابى تينمل والكتيبة بمراكش · ويحيط طنف مؤثث بآيات قرآنية مكتوبة بالخط اللين بهذه القبيبة · ونرى تحت الطنف لوح مستطيلة مزخرفة بأقواس مفصصة ترتكز على سوارى من الجص موضوعة على طنف خماسى الاضلاع مزين بآيات قرآنية ·

هذا فيما يخص داخل المحراب أما فيما يتعلق باطاره فيمتاز بحنيته الجميلة حيث الفقرات المؤثثة بالعناصر النباتية تتناوب مع العناصر الكتابية كما يمتاز بحناياه المفصصة المزينة بآيات قرآنية مكتوبة بالخط اللين وبحافته المستطيلة المزخرفة بآيات قرآنية مكتوبة بالخط الكوفي . واشتهر هذا المسجد أيضا بسقفه الخشبي المنحوت وزخرفة جدرانه التي تتنظم حول ثلاث أقواس مفصصة تناسب الاساكيب والبلاطات . فتندرج هذه الاقواس في حافة مستطيلة مزينة بعناصر كتابية فوقها ثلاث نوافذ من الجص المنقوشة وعصابة مؤثثة بعناصر هندسية .

وبالقرب من مسجد سيدي أبي الحسن نجد مسجدين يرجع عهدهما الى الدولة الزيانية : مسجد أولاد الامام ومسجد سيدي ابراهيم .

ان مسجد اولاد الامام أسس 14 سنة بعد مسجد سيدي أبي الحسن من طرف الامير أبي حمو ليكون تابعا للمدرسة القديمة حيث عالمان كانا ولدي امام من مدينة برشك ، قرب تنس ، كانا يلقيان دروسهما .

ففقد هذا المسجد معظم زينته الزيانية . ولكننا ما زلنا نشاهد فيه القبيبة المزينة بالمقرنصات التي تكلل مشكاة المحراب ومئذنتها الجميلة . كما نشاهد بمتحف تلمسان قطع من الجص المنقوش كانت تزين محرابه . فهي مزخرفة بحنية مفصصة وحافتين مستطيلتين احداهما مؤثثة بعناصر هندسية والاخرى بكتابة وعناصر نباتية أنيقة الى الغاية .

وأما مسجد سيدي ابراهيم فانه شيد في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني بجانب قبة وزاوية ومدرسة وكانت هذه المجموعة من المباني تحمل اسم « المدرسة اليعقوبية » . فاندثرت الزاوية والمدرسة وبقي المسجد والقبة .

ان مسجد سيدي ابراهيم له أبواب نيئة تشابه أبواب مسجد تينمل في المغرب الاقصى ومئذنة مربعة القاعدة وقبة مزينة بالاخاديد موضوعة أمام المحراب تشابه قبة حمام الصباغين بتلمسان التي يرجع عهدها الى المرابطين غير أن عدد الاخاديد أصبح 24 في مسجد سيدي ابراهيم بينما كان 16 في حمام الصباغين .

فلنترك الآن المساجد الزيانية لنقوم بجولة عبر المساجد المرينية : جامع المنصورة وجامع سيدى أبى مدين وجامع سيدى الحلوى ·

لا يبقى من جامع المنصورة الا القسم السفلى من جدرانه ومئذنته التى تعتبر أعلى مئذنة شيدت فى وطننا من حيث أن ارتفاعها يبلغ 38م ·

ان هذه المئذنة مبنية بالحجر ولها نواة مركزية مكونة من قاعات موضوعة احدى فوق الاخرى يدور حولها منحدر ما زالت تظهر آثاره الآن بينما لا يبقى شيئا من القاعات ·

ومن مميزات هذه المئذنة التى تشابه مآذن الكتبية بمراكش وخيرالدة باشبيلية وجامع حسان بالرباط ، هو انها بنيت فوق الباب الرئيسى للجامع وانها مزينة بزخرفة تعتبر من روائع فن النحت الحجرى الاسلامى ·

وتحتوى زخرفة الواجهة الرئيسية لهذه المئذنة على باب على شكل قوس حدوية فى حافة مستطيلة حيث تجرى كتابة كادت تمحى جاء فيها :

« الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين أمر ببناء هذا الجامع المبارك أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين المقدس المرحوم أبو يعقوب بن عبد الحق رحمه الله » ·

ونرى حول قوس الباب ثلاث حنايا مزينة بأقواس ثلاثية الفصوص وأقواس مشبكة وأقواس ذات فصوص نصف دائرية تتناوب مع فصوص مكسورة · وفوق ذلك ترى مقرنصات بارزة ترتكز على ساريتين جميلتين ما بقيت الا واحدة منهما هى مكانها ·

أما المئذنة فى ذاتها فانها مؤثثة بزخرفة تنقسم الى ثلاث طبقات مستطيلة : الاولى مزينة بقوس سباعية الفصوص والثانية بشبكة من المعينات تعتمد على قوسين مفصصين والاخيرة بخمسة أقواس سباعية الفصوص تندرج فيها أقواس ثلاثية الفصوص وترتكز على سوارى وتيجان ·

وفوق الطبقة الثالثة كنا نجد الشرفات التى كانت تكلل عادة البرج الرئيسى · فاندثرت هذه الشرفات كما اندثر البرج العلوى للمئذنة ·

ومن المنصورة فلنتجه نحو قرية العباد لنزور معا جامع سيدى أبى مدين ، ثانى مسجد مرينى تلمسانى ·

ان مسجد سيدى أبى مدين شيد من طرف السلطان المرينى أبى الحسن ولكنه أخذ اسم الشيخ أبى مدين الذى دفن بالقرب منه ٠

ويمتاز مسجد العباد بمدخله وبابه البرونزى ومحرابه وقبته وسقفه وزخرفة جدرانه وصحنه ومئذنته وميضائه وحمامه ٠

وما يجلب أنظار الزائر عند وصوله الى مسجد سيدى أبى مدين هو مدخلـه الانيـــق المزين بزخرفة مرتبة حول قوس مكسورة قليلا يبلغ ارتفاعها 7م تحيط بها ثلاث أقواس مفصصة من الآجر مندرجة فى حافة مستطيلة مؤثثة بمشبكات مستقيمة منحنية ٠

وفوق ذلك نجد لوحتين أفقيتين وظلة ٠

ان اللوحة الاولى مزينة بكتابة بالخط اللين جاء فيها :

« الحمد لله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان عبد الله عـلى بن مولانا السلطان أبى سعيد عثمان بن مولانا السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق أيده الله ونصره عام تسعة وثلاثين وسبعمائة نفعهم الله » ٠

واللوحة الافقية الثانية مزينة بخمس ورود ثمانية الفروع فى وسطها مزبع ثمـانى الاسنان مندرج فى نجم ثمانى الاسنان ٠

أما الظلة التى تكلل المدخل فانها ترتكز على احدى وعشرين حاملة مزدوجة محاطة بأربع حاملات أبسط من الاولى وبارزة شيئا ما بالنسبة اليها ٠

وبعد صعود احدى عشرة درجة نصل الى السقيفة ويتعجب الزائر من الزخرفـــة الانيقة التى تزين الجدران والسقف ٠

ان الجدران مغطاة بالجص المنحوت حيث العناصر النباتية والمعمارية والهندسيـــة تتناوب مع كتابات مختلفة مثـــل :

« الحمد لله على نعمه » ٠

« يا ثقتى يا أملى أنت الرجاء أنت الولى أختم بخير عملى » ٠

« ما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليـــه أنيـــب » ٠

« نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » ·

« انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله » ·

أما السقف فهو مزين بقبة مزخرفة بالمقرنصات تعد من أجمل قباب العالم الاسلامى ·

ان هذه السقيفة الجميلة مفصولة عن الصحن بباب مغطى بالبرونز · وقيل أن هذا الباب أهدى للسلطان أبى الحسن لفداء أسير مسيحى · مهما كان الحال فلا نجد فى العالم الاسلامى بابا يساويه فى دقة النقش وانجسام الزخرفة التى تحتوى على ثمانى ورود ذات ستة عشر فرعا فى وسط كل وردة نجم ذو ست عشرة سنة ومضلعات مختلفة الشكل مؤثثة بغصون ملتوية وأوراق كما يمتاز هذا الباب بمطرقة على شكل دائرة مفصصة مزينة بعناصر هندسية ونباتية ·

فلنفتح هذا الباب الانيق ونتوجه نحو بيت الصلاة حيث مفاجآت لذيذة تنتظرنا ·

نرى المحراب الذى يشابه محراب جامع سيدى أبى الحسن بمشكاته المكللة بقبيبة مزينة بالمقرنصات وطنفها الثمانى الاضلاع المؤثث بآيات قرآنية مكتوبة بالخط اللين ولوحها المستطيلة المزخرفة بأقواس على شكل صدفة مرتكزة على سوارى وتيجان من الجص ·

ولكن أجمل ما نشاهده فى هذا المحراب هو التاجان الموجودان على يمين ويسار مشكاته واللذان يعتبران أجمل تيجان من الرخام صنعت فى العالم الاسلامى · فيمتازان بالزخرفة الانيقة التى تغطى قرصى كل تاج وسطحيته وكتفه بالكتابات التى تجرى على عصابته ·

فجاء فى التاج الايسر : هذا ما أمر بعمله مولانا أمير المسلمين أبو الحسن ابن مولانا أمير المسلمين ·

وفى التاج الايمن :

ابتغا وجه الله العظيم

وزجا ثوابه الجسيم كتب الثنا

له به أنفع الحسنات وأرفع الدرجـــات

وأمام المحراب نرى ، ان رفعنا أنظارنا قبة تستحق هي الاخرى اهتمامنا • فلهـــا قاعدةمستديرة مزينة بزجاج ملون يرسم عناصر هندسية ترتكز عليهــا القبــة نفسهــا المؤثثة بزخارف نباتية •

ومن القبة فلنحول انظارنا نحو السقف التي لا نجد مثلها في المغرب الاسلامي كلـه ، فهي مزينة بنقوش جميلة تحتوي على ورود ونجوم ومضلعات يختلف شكلها وترتيبها من سقف الى آخر •••

وان نظرنا بعد ذلك الى جدران بيت الصلاة فيزداد تعجبنا ، فنرى لوحة يبلغ ارتفاعها 3 م تجرى على الجدران وهي مزينة بعناصر متكررة منقوشة في الجص • فوق هذه اللوحة ، عصابة حيث تتكرر العبارتان : « الملك الدائم لله » و « العز القائم لله » يعلوها افريز مؤثث بعناصر هندسية •

اما اقواس بيت الصلاة فهي الاخرى مغطاة بزخرفة من الجص المنقوش يتغير نوعهـــا وشكلها من قوس الى أخرى • فتحتوي على حنية مزينة بغصون ملتوية وأوراق وزهـــور وحافة مستطيلة حيث نجد نفس الكتابات التي تزين الجدران وافريز من العناصر الهندسية يشابه هو الآخر الافريز الذي يؤثث الجدران •

وبعد زيارتنا لبيت الصلاة فلنقف دقيقة في الصحن •

ان هذا الصحن مربع الشكل ، مفرش بالزليج ومزين بفسقية جميلة على شكل صدفة •

وفي زاوية من الصحن نرى المئذنة المكونة من برج رئيسي مؤثث بشبكة من المعينات في قسمه السفلي وبورود كبيرة مرسومة على الزليج في قسمه العلـوي فـــوق البـــرج الرئيسي برج اصغر منه مزين هو الآخر بالزليج ومكلل بقبيبة نصف كروية يعلوهـــا الجامور المكون من سفود وثلاث كرات من البرونز •

وقرب مسجد سيدي ابن مدين نرى الميضاء الذي يحتوي على غرفة مربعة الشكـــل يبلغ ضلعها 4،20 م مسقفة بقبة تشتمل على جذع هرم ذي قاعدة على شكل مضلـــع

سداسى الاضلع وهرم مزين بورود وثقب ثمانية الاضلاع · ونجد فى الميضاء حوضين مستطيلين يشغلان جانبا من القاعة بينما الجوانب الاخرى تشغلها المراحيض ·

اما حمام سيدى ابى مدين فهو ما زال يستعمل الى أيامنا هذه ، فيحتوى على سقيفة على شكل زاوية قائمة وقاعة مستطيلة يبلغ طولها 8 م وعرضها 6 م مكللة بقبة ثمانية القاعدة ، وأخيرا ثلاث غرف متزاوية مسقفة بسقف نصف اسطوانى ·

وبعد زيارة جامع سيدى أبى مدين فلنغادر العباد ونرجع الى المدينة لنزور أخيرا مسجد مبرمج فى جولتنا هذه ألا وهو : جامع سيدى الحلوى :

ان مسجد سيدى الحلوى يشابه كثيرا مسجد سيدى أبى مدين · فله مثله بيت صلاة مكون من خمسة أساكيب عمودية لجدار المحراب وصحن مربع ومئذنة موضوعة فى الزاوية الشمالية الغربية للصحن · ولكنه يختلف عن مسجد العباد من بعض الجوانب ·

فنلاحظ مثلا ان أقواس جامع سيدى الحلوى ترتكز على سوارى بينما كانت أقواس جامع سيدى أبى مدين موضوعة على دعائم · وهذه السوارى والتيجان التى تعلوها جلبت من المنصورة والدليل الاول على ذلك هو اننا نجد على احدى السوارى تاريخ 747 بينما الكتابة التى تزين المدخل تذكر ان مسجد سيدى الحلوى شيد فى سنة 754 من طرف السلطان المرينى أبى عنان · والدليل الثانى هو أن نفس السارية مزينة بساعة شمسية وهى موضوعة فى مكان لا تصل الشمس اليه أبدا · والدليل الثالث هو ان التيجان التى تعلوها سوارى بيت الصلاة تشابه التيجان التى وجدت بالمنصورة وتختلف عن التاجين اللذين نراهما على يمين ويسار المحراب · وهذان التاجان الاخيران مزينان بكتابة تجرى على عصابتهما وتدل على انهما معاصرا للمسجد ·

فجاء فى كتابة التاج الايمن :

« أمر ببناء هذا الجامع

المبارك عبد الله المتوكل على الله فارس

أمير المؤمنين »

وجاء فى كتابة التاج الايسر :

« جامع ضريح

الشيخ الولى الرضى الحلوى

رحمة الله عليه »

والفرق الثانى بين المسجدين هو أن سقف جامع سيدى الحلوى مصنوعة من الخشب بينما ذكرنا أن سقف جامع سيدى أبى مدين مصنوعة من الجص ·

والفرق الاخير بين المسجدين هو اننا لا نجد قبة أمام محراب جامع سيدى الحلوى ·

الصلات الفكرية بين
تلمسان والمغرب

د . ابراهيم حركات
جامعة محمد الخامس - الرباط

ليس من السهل تقديم توقيت زمنى لمختلف المظاهر الفكرية التى وطدت العلاقة التاريخية بين تلمسان والمغرب ... هل ترجع هذه الصلات الى زمن الفتح الاول ؟ ... الى عهد الثورات الخارجية التى كانت فيها تلمسان مجرد معبر للمثقفين من برغواطة المغرب الى تاهرت الجزائر وبالعكس ؟ أم الى عهد ادريس الاول الذى فتح تلمسان وبنى بها مسجدا لا مراء فى أن الفقهاء خدموا فيه الشريعة ووجهوا المؤمنين فى اطار الفكر الدينى ؟

كيفما كان الحال فان أول حدث فكرى بارز فى تاريخ هذه الصلات طبع ببصماته سجل التطورات الاجتماعية والدينية فى تاريخ المغرب الاسلامى جملة انما كان بطله بمحض الصدفة ، شخصا لم يعش بتلمسان ، وانما توفى بها أو حولها ، الا وهو أبو مدين الغوث ، دفين رابطة العباد سنة 594/1197 .

وعندما نذكر ابا مدين الغوث فنحن نترك الجانب الروحى الصرف من حياة الرجـــل لنذكر قبـل كـل شيء ، بثقـافته العميقة الواسعة ، ثـم لنشير الى ما سيكون لبعـــض تلاميذه من دور ، فأبومدين ، شعيب الانصارى ، اندلسى من أشبيلية ، انتقل الى المغرب حيث تابع دراسته بعدة مدن كسبتة وفاس ومراكش ، ثم استكملها بالمشرق حيث التقى بالشيخ عبد القادر الجيلالى ، ومن ابرز اساتذته بالمغرب أبو الحسن الشاوى وابن حرزهم الذى لقنه تعاليم الغزالى ، واستقر ابو مدين أخيرا ببجاية ليشتغل ببث تعاليمه ·

وعلى يد أبى مدين درس عبد السلام بن مشيش ، أستاذ الشاذلى الذى هو بحق رائد الطرق الصوفية بالمغرب الاسلامى وافريقيا الغربية ·

اما الجانب العملى من حياة ابى مدين فقد فتح صفحة جديدة فى تاريخ الالتزام الفكرى على صعيد المغرب الاسلامى فى اطار التصوف ، فقبل أبى مدين ابتعد صوفية المغـــرب الاسلامى عن كل نشاط سياسى بالرغم من أن هذا النشاط لم يتبلور الا بعد أزيد مـــن قرنين اثر وفاة أبى مدين ، وهكذا فان حركة ابى مدين ، بقدر ما هى تجرد للعمل الاخروى تهدف الى تحقيق الكرامة الانسانية دون حرمان الصالحين من حقهم فى الاحترام والتقدير· يقول أبو مدين :

« بفساد العامة تظهر ولاة الجور ، وبفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين المفتاتون » ·
وهنا يشير أبو مدين الى الفقهاء الذين لم تكن حركة أبى مدين فى بعض جوانبها ســوى رد على تدجيل بعضهم باسم الدين والشريعة ، على الرغم من أن نفوذهم تقهقر كثيرا فى ظل الحكم الموحدى الذى عاصره أبو مدين ·

ويبدو ان كثيرا من الفقهاء تكتلوا ضد ابى مدين الذى نسبوا اليه ما لم يفعل وأغروا المنصور الموحدى بمعاقبته تجنبا فى زعمهم لما قد يصير اليه من شأن بعد أن كثر أتباعه فى كل بلد · وعندما أمعن المنصور النظر رأى من الحكمة ان يتريث فى أمره حتى يختبره ، ثم أمر باشخاصه اليه تتوفى بضواحى تلمسان بعد مرض ودفن برابطة العباد حسبمـا تقـــدم ·

لكن التصوف فى المغرب الاسلامى سياخذ بعده عددا من الاتجاهات ، انطلاقا من انشاء الطرق ، ثم التصدى للاعمال الاجتماعية والقيام مقام الدولة فى فترات تقهقرها السياسى فى نشر المعرفة وتهذيب الاخلاق والسهر على الفضيلة ، بالرغم من وجود مجتمع آخر من الفقهاء يهتم بالتوفيق بين التعاليم الشرعية ووجهة النظر الحكومية ، من غير أن يحظى دائما بتحبيذ المجتمع الصوفى ، ومجمل القول أن حركة أبى مدين وما بعدها تطوير شامل للعمل الصامت والمتجرد الذى عرفناه عن رباط المنستير ورباطات أخرى بالمغرب الاسلامى ·

أما فى لجة الصراع المرينى العبد الوادى الذى أخذ من الطرفين جهدا طويلا مضنيا وغير مجد فى وقت بدأ الخطر المسيحى على السواحل المغربية ينذر بوخيم العواقب ، كان رجال الفكر من تلمسان يجتازون مرحلة اثبات الذات عن جدارة فى التاريخ المغربى جملة·

ولئن نالت تلمسان مكانة ستراتيجية فى ظل الحكم الموحدى الذى عنى بتحصينها « حتى صيرها أمنع معاقل المغرب (1) وأحصن أمصاره » فقد بلغت أوج عظمتها فى عهد بنى عبد الواد حيث يقول ابن خلدون (2) : « نزلها آل زيان ، واتخذوها دارا لملكهم وكرسيا لسلطانهم ، فاختطوا بها القصور المونقة ، والمنازل الحافلة ، واغترسوا الرياض والبساتين ، وأجروا خلالها المياه ، فاصبحت أعظم أمصار المغرب ، ورحل اليها الناس من القاصية ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع ، فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الاعلام ، وضاهت أمصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية » ·

غير أن استيلاء بنى مرين على تلمسان لفترة تناهز ربع قرن خلال أيام أبى الحسن وأبى عنان لم يكن ليوقف ركب التقدم الفكرى فى هذا المركز الثقافى ذى الاشعاع النافذ · فقد استمر النشاط الدينى والتعليمى حافلا مثلما كان فى عهد بنى عبد الواد ، علما بأن التقهقر الفكرى لا يرتبط حتما بالتدهور السياسى ، وكل من بنى عبد الواد وبنى مرين بعد هذا من نفس الارومة ، ولمجتمعهما نفس الخصائص ، بقدر ما لهما نفس المثالب والمحاسن ·

وهكذا فتعزيزا لعناية بنى مرين بتلمسان قام ابو الحسن سنة 1339/740 ببناء مسجد العباد قربها ، ثم شاد بعد ثمانى سنوات ، المدرسة الملحقة به ، وبهـــا زاول التدريس ابن مرزوق ، وربما ابن خلدون أيضا ، وللمسجد والمدرسة مبرتان من الاوقاف ، احداهما لتعليم الاميين ، والثانية لارواء الظامئين ، وقد استوفى الكلام على هذا المسجد « جورج مارسى » فى كتابه « تلمسان » • (3)

أما ضريح أبى مدين فقد بناه ابو عنان الذى نراه يهتم بالتبرك بالصلحاء شأن ملوك مسلمين أخرين •

ولقد توثقت صلات تلمسان الثقافية فى عهد أبى الحسن وابى عنان ، بالمغـرب عـن طريق المحاضرات والمناقشات العلمية التى قام بها شخصيات من تلمسان ، كما توثقت عن طريق استكمال عدد من طلبة تلمسان لدراستهم بالمعاهد المغربية فضلا عن أن البلاط المرينى احتضن العديد من الشخصيات الفكرية التلمسانية التى لبعضها قوة تأثير لمـــا لها من ثقافة موسوعية أو تخصص فى شعب معينة من المعرفة ، ومن بينها على سبيـــل المثـــال :

1 ـ محمد بن ابراهيم الآبلى ، وهو من أصل أندلسى ، درس بتلمسان وفاس ومراكش ، وتضلع فى الفلسفة والعلوم العقلية على يد أبى موسى بن الامام وخلوف المغيلى وأبى العباس ابن البناء ، ثم استقر مدة بفاس فبرزت شخصيته فى العلوم العقلية ، ولمـا كان معاصرا لبنى مرين فقد وجد لديهم ترحابا وتكريما ، فضمه أبو الحسن الى مجلسه ضمن العديد من الشخصيات الفكرية التى تنقلت معه فيما بين طريف والمغربين الاوسط والادنى • (4)

2 ـ أبو عبد الله محمد بن النجار (5) ، درس على الآبلى بتلمسان وتابع دراسته بسبتة على يد عالم الهيئة محمد بن هلال ، ثم بمراكش على يد ابن البناء •

3 ـ محمد بن أحمد بن مرزوق (ت• 782/1380)، وقد ترجم له معاصره ابن خلدون فى التعريف (6) • وهو أيضا ذو ثقافة موسوعية ، وتضلع فى الفقه خاصة ، ويكون مـــع ابن خلدون وابن الخطيب ثالوثا جمع بين سعة الثقافة وحب المغامرة والطموح السياسى،وهو الى ابن خلدون فى تقلباته أقرب من ابن الخطيب • ونال حظوة كبيرة لدى أبى الحســـن

ثم لدى أبى عنان ، وكان له نشاط حافل فى بث المعرفة ، بقدر ما كان له نشاط ديبلوماسى فى أقطار المغرب الاسلامى ، وهذا ميدان يعرض صاحبه للسعاية والتقولات · ولذلك لم يعش ابن مرزوق طويلا فى كنف أبى عنان الذى شك فى اخلاصه ، فلجأ كرجل فكر حر الى المشرق ، والانسان العربى والمسلم لم يكن يجد كبير عناء فى خدمة المعرفة حيثما حل بالارض العربية أو الاسلامية ، وهكذا اتيح لابن مرزوق أن يشتغل بالتدريس والقضاء فى مصر الى أن توفى بها سنة 1379/781 ·

وكتب ابن مرزوق بعض المؤلفات نذكر منها على الخصوص : « المسند الصحيح الحسن فى مآثر أبى الحسن » ، وهو يسجل صفحات طيبة من التقدم العمرانى والفكرى والحضارى بالمغرب الاسلامى ، وقد نشر هذا الكتاب جزئيا فى « هسبريس » منذ عدة سنوات ·

4 ـ محمد بن محمد المقرى، من الشخصيات التى ضمها المجلس العلمى فى عهد أبى‌عنان، بعد ان تلقى معظم دراسته بتلمسان حيث اشتغل بالتدريس أيضا ، وكان أكبر قضاة البلاد فى أيام أبى عنان (7) · ويمتاز المقرى هذا بالدعوة الى نبذ تقليد أهل قرطبة فيما يسمى بالعمل (أو ما جرى به العمل) ، ونظرا لاهمية هذه النقطة التى تبرز التاثير العميق للمقرى فى حمل فقهاء المغرب على الاجتهاد فى اطار المذهب المالكى ومع مراعاة الاوضاع المحلية ، لا بأس أن ننقل فيما يلى بعض كلام هذا الفقيه الكبير فى انتقاد عمل قرطبة حيث يقول (8) :

« ··· يا لله وللمسلمين ! ذهبت قرطبة وأهلها ، ولم يبرح من الناس جهلها ، ما ذاك الا لان الشيطان يسعى فى محو الحق فينسيه ، والباطل لا يزال يلقنه ويلقيه ، ألا ترى خصال الجاهلية كالنياحة والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والحظ والتشاؤم وما أشبه ذلك ، وأسماؤها كالعتمه ويثرب ، وكذا التنابز بالالقاب وغيره مما نهى عنه وحذر منه ، كيف لم تزل من أهلها ، وانتقلت الى غيرهم مع تيسر أمرها ، حتى كانهم لا يرفعون بالدين رأسا ، بل يجعلون العادات القديمة أسا ، وكذا محبة الشعر والتلحين والنسب ، وما انخرط فى هذا السلك ، ثابتة الموقع من القلوب، والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع وستين سنة ، لا نحفظه الا قولا ، ولا نحمله الا كلا ! » ·

وأول ما استعمل مصطلح « العمل » ، أو « ما جرى به العمل » فى الفقه ، على يد الامام مالك وتلاميذه • ومعناه ، ما تناوله فقهاء المدينة من تقاليد ، اما بتناقل أقوال وأفعال الرسول بشأنها ، واما بقرار يتخذه المدنيون بالاجماع فى نطاق الفقه المالكى •

وأثار عمل أهل المدينة خلافات ، بل انتقادات من فقهاء المذاهب الاخرى • وقد أورد عياض فى « المدارك » جملة من آراء هذه المذاهب حول قيمة عمل أهل المدينة بالنسبة لغيرهم من أهل المراكز الاسلامية الاخرى ، مع العلم بأن مبدأ « العمل » نفسه ، انما هو من مميزات الفقه المالكى الذى يرى رائده مالك أن عمل أهل المدينة ينبغى أن تجرى عليه سائر البلاد الاسلامية فى حالة عدم وجود نص قرآنى أو حديث نبوى حول النوازل التى وقعت بعد الرسول • ومن أمثلة عمل أهل المدينة : الأذان للصلاة من مكان مرتفع ، وتحديد مكان المنبر من المسجد ، ومكاييل الحبوب كما عرفت فى عهد الرسول (ص) •

غير أن عمل أهل المدينة لم يثر انتقاد غير المالكية فحسب ، بل هجره المالكية فى المراكز البعيدة أيضا • وهكذا فان أهل قرطبة أحدثوا عملهم الخاص منذ العصر الاموى ، وكان على جميع قضاة وفقهاء الاندلس أن يلتزموا عمل زملائهم بقرطبة الى أن أثار ذلك انتقاد المقرى كما أشرنا اليه ، فى كتابه « القواعد » • وعلى الرغم من أن المقرى لقى معارضة شديدة من فقهاء المغرب ، ثم موقفا سلبيا اثر ذلك ، فاننا نجد دعوته تجد فى النهاية آذانا صاغية فى العهد الوطاسى ، حيث أصبح لفاس عملها الخاص ، فضلا عن لجوء القضاة الى الاعراف المحلية عند الاقتضاء • (9)

وما دمنا قد أشرنا الى العهد الوطاسى الذى يعاصر الفترة الاخيرة من الحكم الزيانى لتلمسان فان الجغرافى الغرناطى المغربى ، الحسن الوزان قد خصص فى « وصف افريقيا » عدة صفحات للمملكة الزيانية(10) بما فيها تلمسان التى زارها سنة923/1517 • وحيث ان الوزان من عادته أن يذكر سكان المدن والقرى، فقد قدر عدد سكان تلمسان بـ 13000 نار (أو موقد)أى بما يناهز 60 ألف نسمة ، ونوه بالعناية بالمساجد ، كما ذكر أن بها خمس مدارس ذات بناء جميل ، وعددا من الفنادق ، منها اثنان يستقبلان تجار جنوة والبندقية • ويشمل الحى اليهودى حوالى 500 نسمة يحملون على رأسهم عمامة صفراء •

وقد ذكر الوزان تفاصيل مفيدة عن حصانة تلمسان وقصور بنى عبد الواد ، كما أشار الى وجود دور صيفية خارج تلمسان وهى ذات بناء جميل ومحاطة ببساتين تحتوى على فواكه غزيرة . ويبدو أن التعليم ظل مزدهرا الى نهاية دولة بنى عبد الواد على الرغم من التطورات السياسية . وهكذا كان يوجد بمدارس تلمسان فقهاء ومدرسون فى العلوم الطبيعية (11) ، ولهم جرايات قارة .

وقسم الوزان طبقات المجتمع التلمسانى الى أربع : الصناع ، والتجار، والطلبة ، والجيش ، ثم نوه بالنشاط التجارى لتجار تلمسان الذين يتوجهون ببضائعهم الى الاقطار الافريقية ، واذا كان الجنود يتقاضون أجورا سخية والصناع يعيشون عيشة راضية فالطلبة أفقر طبقات المجتمع ، ولكنهم بعد تخرجهم يحصلون على الوظائف بسهولة ، أما عن الازياء فالجنود أردأ الطبقات لباسا على الرغم من أن لهم زيا موحدا .

ثم يصور الوزان النظام الحكومى الذى يلعب فيه « المزوار » أو الحاجب دور الوزير الاول كما كان الشأن عند بنى مرين وحتى عند الحفصيين ، وقبل ذلك عند الامويين بالاندلس ، وأخيرا يشرح الوضعية المالية للدولة الزيانية ويذكر مواردها وبعض مصارفها لينتقل بعد ذلك الى وصف المدن والمراكز التابعة لتلمسان والتى تدخل فى الاطار الجغرافى لدولة بنى زيان .

ولما كان الفكر الانسانى فى جملته لا يعرف حدودا جغرافية ولا سياسية فان الصلة الفكرية بين تلمسان والمغرب لم تنقطع بنهاية دولة بنى عبد الواد ، بل ازدادت تماسكا . ذلك أن دولة السعديين المغربية ، والتي حكمت ابتداء من 915/1510 لم تكن طيلة ستين عاما تقريبا على وفاق مع الاتراك حكام الجزائر الجدد فتعددت محاولات الهجوم على التراب الداخلى لكل من الجزائر والمغرب من طرف هؤلاء وأولئك،الى ان استولى عبد الله الغالب (السعدى) على تلمسان لفترة قصيرة سنة 968/1560 ، ثم غادرها فى هجوم مضاد للاتراك، ورافقه الى المغرب عدد من الفقهاء والمثقفين الذين ساندوا تدخله بتلمسان . وحقا ، لقد نال هؤلاء المثقفون حظوة كبيرة وتقديرا خاصا سواء على الصعيد الرسمى أو الشعبى بالمغرب (12) ، ومن المؤكد أنهم استحقوا هذه الرعاية لا كرمز لهدف سياسى

فحسب ، بل ربما أكثر من ذلك ، لانهم اثبتوا جدارتهم لهذا التقدير ، بفضل تضلعهم فى العلوم الدينية ، وهذا شىء كان لا يزال يحسب له حسابه فى بلد يزن فيه المجتمع الحضرى حياته اليومية بتعاليم الشريعة وتوجيهات ذوى الورع والفكر الدينى ، شأن سائر أقطار المغرب الاسلامى ، وينبغى أن نتذكر هنا أن أكابر الزعماء الثوريين فى العالم الاوروبى فى هذا العصر بالذات هم رجال دين قبل كل شىء،كلوثر ، وكالفن ، وجون كنوكس ٠

على أن رجالات الفكر من تلمسان تقاطروا على المغرب من أوائل أيام الدولة السعدية فمارسوا مهام القضاء والتدريس وشغلوا مكانا ممتازا فى اطار الفقه المالكى وفى الاشعاع الثقافى بوجه عام ٠ ومن ابرزهم :

1 ـ ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن جلال (13) ، والذى تولى القضاء بتلمسان ثم بفاس حيث تولى منصب الافتاء أيضا ، وكان معروفا بنزاهته واستقامته وهو ممن استقدمهم محمد المهدى الشيخ الى سوس قبل ان يستقر بفاس التى قضى نحبه بها سنة 1573/981 ٠

2 ـ أبو عبد الرحمن بن جلال (14) معاصر المنصور الذهبى وتلميذ أحمد بابا وعدد من الاساتذة بالمغرب والحجاز ومصر والشام ٠

3 ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن الوقاد (15) ، شغل منصب القضاء بكل من تارودانت وسجلماسة ومكناس ، ثم عاد الى تارودانت ليشتغل بالتدريس ، وقد لقى هناك تقديرا من الاوساط الشعبية والطبقات المثقفة ٠

وابن الوقاد تلميذ ابن هبة الله شقرون الزناتي وغيره من اساتذة المغرب الاوسط ، وكانت وفاته بتارودانت سنة 1592/1001 حيث دفن بشرقى الجامع الاكبر ٠

وأهم شخصية علمية من تلمسان تركت أثرا عميقا فى الحركة الفكرية تجاوز مداه المغرب ، هى شخصية المقرى مؤلف نفح الطيب ، وهو أحمد بن محمد المقرى الذى تلقى دراسته بتلمسان قبل ان يحل بفاس لاول مرة سنة 1009 ، ووجد ترحابا وتكريما من المغاربة الذين اعجبوا بغزارة معارفه وواسع اطلاعه فى العلوم الدينية والادبية ٠ وعاد

اليها سنة 1013 ، وتردد فيما بينها وبين مراكش الى أن قر رأيه على مغادرة المغرب سنة 1617/1027 فى وقت كانت السلطة السياسية قد تقاسمتها مجموعة من الاطراف الشعبية والمخزنية واصبحت مزاولة العمل الفكرى شاقة على عالم كالمقرى ينشد الظروف المواتية لكسب عيشه وتحقيق طموحه الفكرى ، ومن ثم غادر المغرب فى هذه السنة نهائيا الى المشرق حيث اتحفنا بأحد الكتابين اللذين يعتبران أروع عمل أدبى انجز عن الفكر الاندلسى بصفة خاصة ، فى العصور الماضية ، وهما : نفح الطيب ، والذخيرة · والثانى من تاليف على بن بسام ·

ولسنا نتابع الحديث عما لقيه المقرى بالمشرق من اقبال ومبادرة الى الاستفادة من معارفه ، فضلا عن الرعاية التى حظى بها على جميع المستويات ، وانما يهمنا ونحن نعالج الصلات الفكرية بين المغرب وتلمسان أن نشير الى أن المقرى شق عليه فراق المغرب الذى اعتبره وطنا له ، والمغاربة لم يكن فيهم من يميز بين مغربى من الاندلس وآخر من تونس، فهم جميعا أهل المغرب الذى يقابل المشرق ، فكيف اذا ، يميز المقرى بين تلمسان والمغرب الاقصى ؟

يقول المقرى فى مقدمة « النفح » (16) :

« انه لما قضى الملك الذى ليس لعبيده فى أحكامه تعقب أو رد ، ولا محيد عما شاء ، سواء كره ذلك المرء أورد ، برحلتى من بلادى ، ونقلتى عن محل طارفى وتلادى ، بقطر المغرب الاقصى الذى تمت محاسنه ، لولا ان سماسرة الفتن ، سامت بضائع أمنه نقصا ، وطما به بحر الاهوال فاستعملت شعراء العيث فى كامل رونقه من الزخارف اضمارا وقطعا ووقصا :

قطر كان نسيمه نفحات كافور ومسك
وكان زهر رياضه در هوى من نظم سلك

وبعد أن يردد المؤلف فى مقدمة كتابه المذكور اشعارا كثيرة يخللها بجمل نثرية يتدرج بها من معنى عاطفى أو وصفى الى معنى آخر ، ويلح على جمال البلاد التى غادرها آسفا ، يعبر عن شديد شوقه الى العودة قائلا (17) :

« وأضرع اليه سبحانه فى تيسير العودة الى أوطانى ، ومعهدى الذى مطايا العز أوطانى، وأن يلحقنى بذلك الافق الذى خيره موفور وحق من فيه معروف لا منكر ولا منكور » ·

والواقع ان نفح الطيب الذى خصص مبدئيا للتعريف بابن الخطيب وتراثه الفكرى ، انما يمثل زبدة التراث الادبى الاندلسى ، بقدر ما اتحفنا بالكثير من روائع الادب المغربى بوجه عام ، فضلا عن كثير من المعلومات عن حضارة الاندلس والاقطار المغربية ، وبعض التفاصيل عن ادباء لم يذكرهم غير المقرى ·

وقد ألف المقرى عدة كتب أخرى ، منها على الخصوص :

1 ـ أزهار الرياض فى اخبار القاضى عياض ، وهو ترجمة مفصلة لهذه الشخصية الواسعة الافق ، والتى أغنت الفكر المغربى القديم بانتاج تجاوز اشعاعه أقطار المغرب الى غيرها من أقطار الاسلام ·

2 ـ روضة الآس العاطرة الانفاس · وهو يتناول تراجم عدد من الشخصيات الادبية والفقهية والعلمية فى كل من مراكش وفاس ، وبعضها انفرد وحده بترجمته أو كاد ·

والحقيقة ان حياة المقرى وآثاره واشعاعه بحاجة الى دراسات واسعة ترد له بعض الدين الذى أداه الى المعرفة العربية فى عصر اصطلح اخواننا المشارقة على أن يسموه عصر الانحطاط العربى والاسلامى وما هو بذلك فى الكثير من وجوهه ومظاهره ·

واذا ابتعدنا بما يناهز قرنا وثلاثة أرباع قرن من عصر المقرى الذى كانت وفاته سنة 1631/1041 نجد مؤرخا وموظفا رسميا فى الدولة المغربية يحل بتلمسان ويسجل ارتسامات خاطفة عنها فى وقت دخل اليها لاجئا بعد أن عين عاملا بوجدة من قبل السلطان سليمان العلوى ، فنهب الاعراب موكبه قبل أن يتاح له الاستقرار بوجدة ، وأهم هذه الارتسامات التى ضمنها كتابه « الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمور برا وبحرا » (18) عثوره على عدد من مصادر التاريخ المغربى التى رجع اليها ابن خلدون وغيره ، ونقله عنها بعض المعلومات ، وقد وجد هذه المصادر برابطة العباد ، ومنها : تاريخ سليمان المطماطى ، وتاريخ كهلان بن لؤى الاوربى وتاريخ العقبانى فى دولة بنى زيان وتاريخ هانى بن يصدور القوصى ، كما اطلع على كتب أخرى ذكرها ·

وحيث ان الزياني لم يستقر طويلا بتلمسان فانه لم يسجل شيئا عن اتصالاته الفكرية بها ، مكتفيا بما ذكره عن نشاط مسجد العباد ، مع أن تلمسان كانت تتوفر على حركة ثقافية نشيطة بالرغم من تضعضع السلطة التركية .

وعندما استولى الفرنسيون على تلمسان هاجرتها عائلات كثيرة (19) كالقيسيين والزغاريين والنجاريين وغيرهم من الاسر التي عرفت بنشاطها الثقافي .

وباجمال فقد احتفظت تلمسان بحكم قربها من التراب المغربي وارتباط بعض أحداثها بتاريخ المغرب ، بعلاقات فكرية لم تقتصر على عصر دون عصر ، وان كانت هجرات الاسر التلمسانية قد توزعت في الغالب بين فاس ومراكش ثم كادت تقتصر على فاس في القرون الثلاثة الاخيرة الى حين اقرار الحماية الفرنسية بالمغرب ، ومن المؤكد ان وجود العنصر الزياني والاندلسي بكل من فاس وتلمسان ساعد بالدرجة الاولى على اقرار تشابه في انماط التفكير والحياة وبالتالي على تركيز مظاهر حضارية وثقافية مشتركة .

تعـاليـق :

1 — كتاب العبر ، لابن خلدون . ط . دار الكتاب ، لبنان . ج . 7 ، 160 .

2 — ن . م . ص ، 161 .

3 — G. Marçais, Tlemcen, p. 7

4 — ابن خلدون ، التعريف (ملحق بالجزء 7 من التاريخ) ، ص ، 828 — 831 .

5 — ن . م . ص ، 840 .

6 — ن . م . ص ، 842 .

7 — ن . م . ص ، 853 .

8 — المقري ، نفح الطيب ، ط ، القاهرة 1367/1949 ، ج ، 2 ، 92 — 93 .

9 — من دراسة مطولة للكاتب ، عن العصر السعدي بالمغرب .

10 — Léon l'Africain, description de l'Afrique, pp. 323-356

11 — ن . م . ص ، 334 .

12 – أبو زيد عبد الرحمن الفاسي (ت ، 1096/1685) : لمحة في تاريخ دولة الشرقاء ، خزانةعامة ، د 56 – الرباط – ص ، 252 .

13 – عبد الرحمن التمنارتي ، الفوائد الجمة (نص فرنسي ، نشره جوستينار) ص ، 32 (ط . باريز 1953) .

14 – ن . م . ص ، 54 .

15 – ن . م . ص ، 26 – 28 .

16 – المقرى ، نفح الطيب ، 1 ، 28 .

17 – ن . م . ص ، 44 .

81 – الزياني ، الترجمانة الكبرى ، ط . الرباط ، 1387/1967 ، ص ، 144 .

19 – السليماني ، اللسان المعرب ، ط . الرباط ، 1972 . ص ، 29 – 32 .

الفكر الاسلامى والانسان المعاصر

فى رأى عبد الله المنصورى التلمسانى 1895 - 1972 م

د . الشيخ ابو عمران
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

تساءل الطبيب عبد الله المنصورى (1) مدة طويلة عن الوسائل التى تساعد الانسان المعاصر على ازالة الأزمة التى اصبح يتخبط فيها على الرغم من تقدم العلوم والتكنولوجيا . وقد ولد هذا المفكر سنة 1895 بمدينة تلمسان (2) وتعلم بالمدرسة الرسمية التى تلقى فيها الثقافتين العربية والفرنسية وبعد تحصيله على شهادة الباكالوريا بمدينة الجزائر غادر الوطن الى مدينة ليون بفرنسا الى أن تخرج من كليتها الطبية . وبدأ يزاول

(1) الطبيب عبد الله المنصورى : «الفكر الاسلامى فى انقاذ الانسان المعاصر» ، نشر بفاس سنة 1972 على نفقة وزارة التعليم الاصلى بمساعدة رابطة الجامعات الاسلامية .

(2) اتصلنا بابن المؤلف الطبيب الاستاذ رشيد المنصورى (من مستشفى مصطفى باشا) الذى قدم لنا بعض المعلومات حول حياة والده . فنشكره على مساعدته لنا .

مـــهنته فى مستشفى مدينة فاس بالمغرب حوالى سنة 1928 وأثناء اقامته هنالك الى غاية 1948 عاش فترة من السياسة الاستعمارية فى المغرب الشقيق ·

فاغتنم الطبيب **هذه الفرصة واهتم** بالحركة الاصلاحية والفكر الاسلامى وأطلع عـــلى «**تفسير المنار**» وعلى كتب أخرى · وفكر كثـيرا فى أحسن طريقة يمكن أن تضمن للانسان التقدم والسعادة ·

وحوالى 1967 قرر أن يؤلف كتابا فى هذا الموضوع وشرع فى اعداده وانتهى منه بعد سنوات · وصدر الكتاب سنة 1972 وكان صاحبه قد توفى بمدينة تلمسان قبل ذلـــك ببضعة أشهر · فلم يتيسر له أن يراه مطبوعا · فتوزع عدد من النســخ بمناسبة ملتـقى الفكر الاسلامى الذى انعقد بمدينة تيزى وزو سنة 1973 (3) ولكنه لم يعرض للبيع ولم يطلع عليه الا القليل من الناس · ولهذا رأينا من المفيد أن نقدمه للقراء الذين لم يتمكنوا من التعرف عليه ·

انطلق المؤلف من نظرية الامام محمد عبده الذى رأى سعادة الانسان فى التوفيق بـين العلم والدين وفى مقدمته الوجيزة لخـص ما يمتاز به النصف الثانى من القرن العشرين فى ظاهرتـين : تقدم العلم وأزمة الشباب ! فاهتم كل الاهتمام بالصراع القائم بين الثقافة العلمية والثقافة الروحية فى العالم المعاصر الذى تغلبت عليه الآلة ؛ وأراد أن يبـين أن هذا الصراع لا وجود له فى الفكر الاسلامى ولهذا يمكنه أن يساعد على انقاذ الانسانيـــة فى عصرنا الصناعى ·

وينقسم الكتاب الى ثمانية أجزاء : الاول يعرف بالانســان البيولوجى والانســـان الآدمى ؛ والثانى يحدد تطلعات الانسان ؛ والثالث يعالــج الاخلاق والتربية ؛ والخامـــس يبحث عن أصول الداء وطبيعة الدواء ؛ والســادس يرى النجاة فى الفكر الاســـلامى ؛ والسابع ينظر فى العلاقات بين الاســـلام والغرب ؛ والثامن والاخير يوجه نـــداء الى الشباب المسلمـين ليجمعوا ما بـين العلم والايمان ·

---

(3) وتم ذلك بفضل الاستاذ محمد الفاسى والاستاذ بالبشـير ·

ـ تطور العلم ونتائجـــه

ان تطور العلم الحديث أدى شيئا فشيئا الى تمزيق الانسان واستعباده · وعلم الاحياء (البيولوجيا) لا يرى فيه الا الجانب الحيوانى ويرفض وراثة العوامل الخلقية والروحية (ص 3) · وفى نظر العلماء الماديـين يقتصر الانسان على سلوكه النفسى ويتكون جسمه من عناصر كيمياوية فقط (ص 4) والنفس ليست سـوى ظاهرة الحياة ولا وجود للروح (ص 23) · ان فكرة التطور سيطرت على العلم الذى لا يتعدى التحليل الموضوعى للأشياء (ص 19) ؛ وأصبح العلم هو كل شىء فى العالم (ص 19) ·

ويبذل الانســـــان نشــاطا كبيرا غير أنه لا يشتغل الا بالحياة العملية ، ولا يهتـــم بالآخرة (ص 62) · وصار المال من المعبودات (ص 56) ·

وأعطى الغرب الأولوية المطلقة للعلم والتكنولوجيا واتخذ المادية مذهبا له (ص 58) · فاستعبدت الآلة الانسان وسخرته لأغراضها (ص 60) · وأخضعته الى الانتاجية والسرعة، وظل يفكر ؛ وفى النهاية دفع المجتمع الاستهلاكى الشباب الى التمرد كما وقع ذلك فى أميريكا وأوروبا وأقطار أخرى ·

ـ هل يؤدى العلم حتما الى الســـعادة ؟

وانتشر الاعتقاد بأن العلم يستطيع أن يفعل كل شىء وأنه يضمن الرفاهية والسعادة للانسان ؛ حقا ان العلم ضرورى ولا أحد ينكر ذلك ، ولكنه لا يكفى وحده (ص 5) · لانه لا يتمكن من الاجابة عن جميع الاسئلة التى تطرح علينا ؛ وقد اعترف أوغست كونت بأن العلم يحدد بعض العلاقات الدائمة بين الأشياء ولكنه لا يكشف الأسباب الخفية (ص12) · ودروين هو الآخر قال : « ان سر البداية فى جميع الامور لا يمكننا معرفته » (ص 9) ·

والواقع ان موضوع العلم محدود والمنهج التجريبى الذى يعتمد عليه لا ينطبق فى سائر المجالات (ص 19) ؛ ويضاف الى ذلك ان التقدم التقنى والقوة المادية لا يواكبـــان حتما التقدم الاخلاقى كما تدل على ذلك تصرفات أتيلا وهيتلر (ص 59) · ان العلم يغرس فى النفس مركب القدرة المطلقة (ص 35) · وقد يؤدى الى الهلاك كما فعلت القنبلة الذرية بهيروشيمة (ص 39) · ولا يجدى العلم فى وضع حد لفساد الاخلاق وتفشى الجريمـــة ونشوب الحرب (ص 63) ·

ـ أزمة المجتمع المعاصر

ان تقديس العلم تسبب فى أزمة المجتمع المعاصر وتتجلى هذه الازمة فى أكثر من مظهر من مظاهر الحياة . فالاسرة قد تفككت من جراء عمل المرأة لانها لا تستطيع أن تقوم بتربية أطفالها على أحسن وجه (ص 49) . وتحولت التربية الى عملية تطبع (ص 48) . والاطفال الذين حرموا من محبة الاسرة أصبحوا عرضة لانحرافات لا تتحكم فيها التربية الخلقية ولا المجتمع (ص 52) .

وقد انتشر فساد الاخلاق تقريبا فى كل الاوساط الاوروبية (ص 62) . وتسبب فى تفشى المادية (ص 119) .ولم يتغلب عليها الدين المسيحى الذى حاد عن أصوله الشرقية ؛ وعم شرب الكحول (ص 67) . وساعد الآداب والفنون ووسائل الترفيه على التدهور الخلقى (ص 68) . وتمزقت شخصية الانسان بانغماسه فى الماديات وفقدت التوازن الضرورى بين تطلعات الفرد الطبيعية ومتطلبات المجتمع (ص 123) .

ـ ضرورة الايمان

ويبدو للمؤلف أن النجاة تكون فى هذا التوازن ولهذا يجب أن يتخذ الايمان مكانته فى حياة الانسان ، لان حاجته الى العقيدة تفوق حاجته الى العلم (ص 20) . وشخصيته تتآلف من الجانب البيولوجى والجانب الدينى (ص 4) . ان الجانبين متكاملان . وفى الطب مثلا لا يكفى العلم وحده وانما يساعده كل من عقيدة المريض واحسان الطبيب (ص 16) . ويلاحظ أن الشخص لا يكفيه الاعتماد على الحياة والادراك الحسى فحسب بل انه يفكر فى مصدر الحياة والموت (ص 17) . وليس هو مجرد جسم وانما له روح والعلم وحده لا يستطيع أن يفديها (ص 11) .

ان الانسان صاحب أخلاق وروح والحيوان لا يتمتع بذلك (ص 8) . وليس من المجدى أن نبحث عن هذه الميزة فى الطبيعة أو فى الحيوانات (ص 2) . واذا استطاع العلم أن يفسر السلوك النفسى فهو عاجز عن تفسير الحياة الروحية (ص 23) . ويمكن للعالم أن يكتشف ما فى الطبيعة وأن يستخرج قوانين الكون ، ولا يخالفه المؤمن فى هذه الاكتشافات ولكن هذا الاخير يعتقد أن هناك قوة مبدعة للكون (ص 28) . ويقين المؤمن يتفوق على يقين العالم (ص 27) .

ـ العلم والدين متكامـــلان

ان العلم والدين لا يتعارضان فى شىء بل هما متكاملان ؛ ويعتمد المؤلف هنا على رأى الامام عبده الذى يقول ليس فى التوحيد ولا فى الاخلاق ما يخالف تطبيق العلوم فى سائر المجالات مثـل الطب والميكانيكا والسكن والتغذية والحياة العائلية والنظام الاجتماعى والسياسى ، غير أنه يتعـين على الانســان تجنب كل ما يــضر بصحتــه البدنيــة والخلقية (ص 44) • ان للدين مجاله الخاص به ولذلك فهو لا يعرقل العلم ؛ ان موضوع الاول الحياة الداخلية وموضوع الثـانى الحياة الخارجية (ص 38) • والـثورة التكنولوجية والصناعية هى الاخرى لا تعرقل ايمان الانسان حيث لا يستطيع العلم اثبات العقيـدة ولا نفيهـــا (ص 19) •

وفى الواقع أن كلا من الدين والعلم يرمى الى نفس الهدف وهو تكوين انسان اجتماعى متوازن (ص 34) • ان الانســـــان كل لا يتجزأ ومعنى ذلك انه عالـم ومؤمـــن فى آن واحد (ص 22) والعنصران اللذان يتألف منهما متضامنان : الجسم ينتمى الى العلم والروح الى الايمان (ص 25) • ولهذا فانه فى حاجة الى العلم كما هو فى حاجة الى الدين (ص 33) •

والاخلاق بلا دين لا يمكن تصورها (ص 40) • والمحاولة التى تهدف الى استبدالهـا بأخلاق عقلية ليس فى امكانها القضاء على الاخلاق الدينية (ص 111) • لان التربيـــة الدينية ضرورية للفرد كما أن تكوينه العلم ضرورى (ص 119) • ان الدين هو الـــذى يعلمه كيف يميز ما بـــين الخير والـشر غير أن الانسان حر فى اختياره ومســـؤول عنهذا الاختيار (ص 42) • وهو قادر على احداث الحضـــارة لانه مســـؤول (ص 13) •

ـ العلـــم والاســـلام

وفى نظر المسلمين ليس هناك تعارض بين العلم والدين (ص 86) • اذ الاسلام يحث كثيرا على دراســـة العلوم (ص 118) • ويفســح المجال للعقل وهذا واضح فى أكثـــر من آية ؛ والقرآن يحرض على النظر فى الكون ، والحديث يأمر بالبحث عـــن العلـــم : « أطلبوا العلم ولو بالصــين » ؛ ويفضــل مداد العلماء على دم الشهداء ؛ فالعالم اذن حر فى أعماله الا أنه يتعين عليه أن يجعلها تحت رعاية الله (ص 89) • كما يجب عليـــه أن يكون متواضعا (ص 87) •

ان الاسلام دين وفلسفة عمل ؛ انه يحدد سلوك الانسان ويضع أسسا للحضارة (ص 92) · وفيما يتعلق بالاصول الخالدة فهو لا يحتاج الى ثورة (ص 91) · وانما يرضى بالتطور فى جميع الميادين الاخرى ؛ انه يعارض الفردية بأخلاق اجتماعية مبنية على التضامن بين الاقارب وأفراد الامة (ص 96) · ولا يقبل نظام الطبقات (ص97) · ولا استغلال الانسان ؛ وليس من الايمان أن يشبع المرء وأخوه يتألم من الجوع (ص97) · ويحرم الاسلام الكحول ليحافظ على صحة الانسان (ص 94) · ويسمح بالملكية الفردية ويفرض عليها بعض الشروط ويبيح الملكية الجماعية فى الصالح العام (ص 98) ·

ان الاسلام يجمع بين المادية والروحية وبين تطلعات الفرد المشروعة ومتطلبات المجتمع (ص 93 و ص 98) · فيحث الانسان على أخذ نصيبه من الدنيا (ص 101) · ويضمن له احترام شخصيته وكرامته (ص 98) · ويرفض العنصرية (ص101) · ولا يحمل الشخص شيئا فوق طاقته : « ولا يكلف الله نفسا الا وسعها » (سورة البقرة الآية 236) · وبنشر التربية والثقافة العامة يستهدف الاسلام تكوين انسان متمدن بالمعنى الصحيح (ص 104) · ويربط بين أفعاله وايمانه (ص 102) ·

ـ تخلف مجتمعنا ونهضته

ولهذه الاسباب كلها قد أسس الاسلام حضارة مزدهرة جعلت الافراد يستطيعون أن يحققوا ما كانوا يتطلعون اليه فى مختلف المجالات (ص 93 و ص 110) · ومن ناحية أخرى ساهم الاسلام فى تطوير أوروبا ونقل اليها العلوم فى الوقت الذى كانت هذه القارة تعيش فى الجهل والهمجية (ص 110 و 111) · غير أن الغرب تقدم فيما بعد وأخذ مجتمعنا يتدهور وبقى منحطا مدة طويلة وانما ليس الاسلام هو السبب فى تخلفنا التكنولوجى (ص 120) · الذى كانت له أسباب أخرى مختلفة ، اكتفى المؤلف بالاشارة الى البعض منها ·

لقد أهملنا دراسة الطبيعة (ص 90) · وعانينا الكثير من الاستعمار والاحتلال ؛ وظهر التصوف نتيجة انزوائنا على انفسنا وانتشرت بيننا عدة انحرافات

وخرافات (ص 111) • وعقد بعض المفسرين مفهوم الاســـلام تعقيدا غريبا مع أنه يسير الفهم (ص 81) • وجاءتنا الحضارة الغربية بالتقدم العلمى وفلسفتها المادية (ص 119) • فتأثر بها مجتمعنا ؛ واليوم يجب علينا أن نحترز من هذه الحضارة وخاصة شـــبابنا ؛ فينبغى أن يرفضوا الفكرة الفاسدة والدخيلة التى تقوم بتعارض العلم والدين تعارضـا مطلقا (ص 116) • وهنا يوجه المؤلف نداء الى الشـــبيبة المسلمة لتجمع ما بين هذين العنصرين الاساســـيين حسب مبادىء الاســـلام (ص 114) • واذا كان من الواجب عليها التفتح على العلوم مهما كان منبعها فهى ليســت فى حاجة الى الدعاية الاجنبيـــة التى تحاول فصلها عن دينها ؛ فعليها أن تقاوم هذه الدعاية (ص 116) •

ان النهضة الحديثة جعلت الشعوب الاســـلامية تسترجع استقلالها ، وكان ايمانها من أهم عوامل تحررها (ص 111) • فعلى هذه الشعوب أن تتمســـك بدينها وأن تنشر العلوم (ص 122) • ذلك هو الشرط الاســـاسى لتطورها ؛ وليـــس من الضرورى أن يستســـلم الدين لسـيطرة العلم (ص 113) • وهنا يلاحظ صاحب الكتاب أن التقدم الحقيقى ليس فى التفـــوق المادى وحده (4) ، اذ تطور العلم من أجـل العلم قد يـولد فى النفس الانانية والشعور بالقدرة المطلقة (ص 124) • فالدين هو الذى يســـــتطيع أن يعالـج هذه الوضعية لانه يجعل حدا لحب المـال والربـح ويقـاوم ما يســـفر عـــن اســـتبداد الآلة (ص 45) •

ـ الفكر الاســـلامى وانقاذ الانســـان المعاصر

ان الفكر الاســلامى قويم ولا يزال قويا رغم العداوة التى تعرض اليها (ص 106) • وسر قوته أنه جعل الانســـان يجمع بين تطلعاته الفردية والمصلحة العامة (ص 123) • والأمر الذى أحدث هذا التوازن هو التضافر بين العلم والدين ومن هنا يحصـل الازدهار، لان الاســـلام يغلب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة (ص 124) • فوجد الحلـــول

(4) ويعزز هذا الرأى ما ذهب اليه جان فوراستيه فى كتاب (الآلية والرفاهية) قائـلا : ينبغى أن يفهم جيـدا ان ميدان المعـارف الانسانية لا يقتصر فقط عـلى المنهج التجريبى « واذن فهو لا يضمن التقدم العلمى والتكنولوجيا الرقى الانســـانى حتمـــا (أعنى رقى الانسان الشامل) •

الملائمة لمشاكل الانســان المعاصر ؛ ومن ناحية أخرى تفتح الاســلام عــلى الثقافـات والاديان الاخرى • ولهذا يمكن للغرب أن يقتبــس من الاســلام عدة فوائد •

وبهذا الصدد يستشـــهد المؤلف برأى الاستاذ أوليفيه لاكومب : « لعل أوروبــا التى انسلخت عن المسيحية قد تأملت الموضوع الذى هو فى صـميم حياة الاســلام وتعلمت من جديد حقيقة كان عليها ألا تتجاهلها أبدا ••• » (5) • وقد أكد الاســلام رسالة الاديان الســماوية الســابقة (ص 85) : « ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بــين يديه ••• » • (سورة يوســف الآية 111) •

وأشـــار الامام عبده الى هذا المعنى عندما رأى أن التوراة والانجيل والقرآن ثلاثة كتــب متكاملـة (ص 125) • وتلتــقى المســيحية خاصــة مع الاســلام فى أمــور كثيرة (ص 113) • والحوار معها ممكن اذا عادت الى أصولها الشرقية وقاومت الماديــة ؛ وقد ذكر الفارابى أن الحق واحد وليــس هناك تناقض بين الاديان وانما توجد اختلافات فى الطرق التى تؤدى اليهــا (ص 80) •

تلك هى الافكار الاساسية التى يحتوى عليها الكتاب ويمكن أن تناقش جوانب منها وأن يعترض على البعض الآخر وصاحبها لا يفرضها وانما يجتهد أن يبرهن على آرائــه معتمدا على التفكير والتجربة ولهذا تجنب التعقيد والتزم المنهج الواضــح والاســلوب الســـهل وجرده من الزخرفة الادبية ، وقد اعتمد على الحركة الاصلاحية وخاصة عــلى الامام عبــده ومدرســـته من جهة وعلى الكــتب العلميـــة وبالخصـــوص عـــلى كتـاب اليكسيس كاريل (6) وأشــار الى مواقف تيار دى شاردان (7) الذى جمع بين الدين والعلم ، من جهة أخرى ويمتـاز الكتاب بطرح القضايا التى تتعلق بمصير الانســـان فى القرن العشرين ويقدم الحلول التى يراها الكاتب صالحـة ونرجو أن يعاد نشر هـــذا الكتاب فى الجزائر ليكون فى متناول القراء المثقفين باللغة الفرنســية وقد وضعه صاحبه من أجلهم ؛ ويمكن فيما بعد نقله الى العربية لتعميم الفائــدة •

---

(5) أوليفيه لاكومب : «الحكمة المسيحية وحكمة الشرق » ؛ ويوجد هذا النص فى كتاب الاستاذ لويس غرديه : « الاسلام دين وأمة » ؛ باريس سنة 1967 ، ص 425 •

(6) اليكسيس كاريل : « الانسان ذلك المجهول » •

(7) تياردى شاردان : عالم مسيحى توفى سنة 1955 وله عدة مؤلفات علمية •

التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي

بعض آثاره وأعماله في الجنوب الجزائري وبلاد السودان

د · عبد القادر زبادية
كلية الآداب ــ جامعة الجزائر

1 ــ أهم المراجع الاساسية عن المغيلي (1)

في أواخر القرن السادس عشر تغرب أحمد بابا التمبكتي الى مراكش ، فقضى بها عدة سنوات ثم عاد الى تمبكتو · وقبله بقرن تقريبا كان المغيلي قد تغرب الى السودان ، والفرق بين تنقل الرجلين بهذا الشكل ان الاول كان مكرها في حين كان الثاني مختارا على ما يبدو ·

وقد كان أحمد بابا أول من أرخ للمغيلي فيما نعلم ، وجاء بعده ابن مريم فنقل عن احمد بابا تقريبا ولم يزد شيئا ذا بال فيما كتبه عن المغيلي ؛ ثم كتب ابن مصباح عن حادثة توات واختلاف الفقهاء في خصوصها بشيء من التفصيل · وحديثا كتب الاستاذ حسن

(1) لعل من أهم المصادر الثانوية عن المغيلي من حيث الدقة :
الزركلي ــ الاعلام ، ط 2 ، 1956 ، ج 7 ، ص 84 ·

غوارزو من جامعة كانوا مقدمة لا بأس بها عن حياة المغيلى ، وذلك فى أطروحته الـــتى حقق فيها مخطوطــين من تآليف المغيلى ، كان قد عثر عليهما فى احدى زوايا السنوسية بليبيا · وحقق الاستاذ المرحوم رابــح بونار رسالة المغيلى حول اليهــود ، ونشرها فى سنة 1968 · ثــم حقق كاتب هذه الاسطر أسئلة الامــير أسقيا محمد الكبــير (1493 ـ 1528) التى كان قد وجهها الى المغيلى وأجوبة هذا الاخــير عليها ، وقد نشرتها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع فى سنة 1973 ·

وللمغيلى ثلاثة عشر تأليفا عدا ما ذكرناه ، لا تزال مخطوطات لم تنشر بعد ، ومعظمها توجد حاليا ببعض المكتبات الخاصة والعامة فى بلاد الحوصا بالدرجة الاولى ، حيث لا يزال الدارسون هناك يقبلون عليها ويمجدون طريقة مؤلفها فى العلم والفهم والتعلم ، ويلقبونه بـ (الامام) حتى اليـــوم ·

ومن خلال مجموع هذه التآليف يمكن للدارس أن يطلع على شخصية المغيلى العلمية ويعرف عن كثب آثــاره وجهوده فى العلم والدعوة الى اصلاح أحوال المسلمــين ، اللتين أنفق الجزء الاكبر من حياته عاملا مخلصا من أجلهما (2) ·

2 ـ الســـودان فى الاصطلاح والمدلول

كلمة السودان كانت تعنى عند المؤرخــين المسلمين الى عهد قريب بلدان افريقيـــا الغربية جنوب الصحراء ، فى حــين كانت مناطق الشرق الافريقى تعرف ببلاد الزنـــج · أما اطلاق هذا الاسم وتحديد مدلوله على جمهورية السودان الحديثة ، انما ترجع بداياته الى القرن الثامن عشر على أبعد تقدير ؛ وقبل هذ التاريخ كان لهذا البلد اطلاقات أخرى ، وذلك بالنظر لنواحيه الواسعة ، مثــل بلاد سنار وبلاد الفونــج ، وما اليها · وفى بداية القرن التاسع عشر اتسع هذا المدلول على كل بلاد السودان الحالية ، وخاصة منذ حملة محمد على، على الاقسام الشمالية من البلاد، فكان يطلق فى كتابات ذلك العهد فى مصر بصورة خاصة اسم (بلاد السودان) ليدل على مناطق أعالى النيل برمتها ، ثــم اتسع هذا الاسم

(2) بروكلمان ، ج · 2 ، ص 363 · (ولكن كلا منهما شديد الاختصار)·

بعد ذلك ليشمل كل اقاليم السودان وتثبت عرفيا أثناء العهد الانكليزى اللاحق لياخذ شكله الثابت على هذا النحو منذ بداية القرن العشرين · (3)

أما فى الكتابات السابقة وخاصة السودانية منها حتى آخر القرن الثامن عشر فلا يكاد الباحث يجد لهذا المصطلح مدلولا آخر جغرافيا غير ما يعرف الآن ببلدان غرب أفريقيا ، واذا أطلق أحيانا ليشمل شرق افريقيا جنوب الصحراء ، فان ذلك فى غير المدلول الجغرافى · (4) وحسب المعنى التاريخى الاول يستعمل اصطلاح السودان هنا ، ليتناسب مع الفترة التاريخية التى نحن بصددها ·

3 ـ المغيلى وظروف عصره فى المغرب الاوسط

أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلى ، ينتسب الى قبيلة مغيلة القاطنة فى نواحى تلمسان ، والموجودة حتى أيامنا هذه · وقد عاش محمد بن عبد الكريم فى وقت كانت فيه ظروف المغرب الاوسط ليست على ما يرام ، من الناحية السياسية بالخصوص ·

فقد عاش المغيلى وعمل خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى ، وأدرك بدايات القرن السادس عشر ، ولا نملك أية تفصيلات عن نشأته الاولى وان كنا نعرف عددا من أساتذته الذين قرأ عليهم ، ومن أشهرهم الامام الشيخ عبد الرحمن الثعالبى والشيخ يحيى بن يدير وغيرهما · (5)

---

(3) أنظر كتابنا ـ مملكة سنغاى فى عهد الاسيقيين ـ نشر ش · و · ن · ت · ، 1971 ، ص 15 ؛

«Zindj» in Encyclopaedia of Islam ; Marcel Devic, Le pays des Zindjs, Paris 1883, p. 1155

(4) قارن بصورة خاصة ـ تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان (لمؤلف مجهول) ، تحقيق هوداس ، باريس 1901 (القرن 17 وبداية 18) ؛ عبد الرحمن السعدى ، تاريخ السودان ، باريس 1964 (القرنان 16 و 17) ؛ مكى شبيكة ، مملكة الفونج الاسلامية ، القاهرة 1964 ؛ محمد عوض ، السودان الشمالى سكانه وقبائله ، القاهرة 1965 ·

(5) أنظر ـ ابن مريم ، البستان ··· (تحقيق ابن أبى شنب) ، الجزائر 1908 ، ص 256 ·

وحينما اشتد ساعد أبى عبد الله نراه يتضايق من وضعية عصره ، وينكر على الحكام المسلمين خاصة خروجهم على التقاليد الاسلامية فى حكم رعاياهم · ويظهر أن هذا هو السبب الرئيسى فى خروجه من تلمسان واتخاذه طريق الهجرة الى السودان فيما بعد · ومن المعروف أن ضغط الاسبان على المسلمين بالاندلس بدأ يشتد خلال القرن الخامس عشر ، ثم انتهى فى سنة 1492 الى القضاء نهائيا على آخر مملكة اسلامية بالاندلس، وهى مملكة بنى الاحمر أمراء غرناطة · وفى هذا الوقت هاجر كثير من مسلمى الاندلس واليهود الى بلدان المغرب ، وكان حظ المغرب الاوسط منهم ليس بالقليل ، ثم ذهب الاسبان فى طموحهم الى محاولة احتلال بلدان المغرب أيضا وخاصة المناطق الساحلية الخصبة ، وهذا لكى يضمنوا عدم محاولة المغاربة والاندلسيين العودة الى الاندلس من جهة ، ولكى يستعمروا فى شمال افريقيا وينشروا المسيحية بها ان أمكن · (6)

وكان المغرب الاوسط مع بداية القرن السادس عشر على حالة من الضعف والانقسام الشديدين ؛ ففى تلمسان كانت دولة بنى زيان قد اقتصر نفوذها على مناطق جد ضيقة فى الغرب الجزائرى ، وانهكتها بصورة خاصة هجومات وتآمر كل من المرينيين ، أمراء فاس والحفصيين ، أمراء تونس المتوالية وسعى كل منهما لتنصيب الموالين فى الحكم · وقد استطاعت الدولة الزيانية أن ترد الهجومات المباشرة للمرينيين عليها ، ولكن توالى الاضطرابات والمؤامرات فى مملكتها وبلاطها حصر جهود أمرائها المتأخرين فى مجرد المحافظة على وجودهم · وعندما ظهر الاسبانيون كعامل سياسى وعسكرى آخر بالشمال الافريقى لم تستطع مملكة تلمسان أن تقوم بأكثر من مهادنتهم ؛ فعندما وصل أبو عبد الله آخر أمراء غرناطة مثلا مع جمع كبير من أعيان الاندلس الى وهران ، رحب به السلطان الزيانى آنذاك محمد الثانى وأكرم وفادته ، فكان لهذا العمل أثره السيىء فى أعين الساسة الاسبان · وبما أن محمد الثانى كان عاجزا أمامهم ، فقد اضطر كعلاج

---

(6) راجع حول واقع السياسة الاسبانية تجاه شمال افريقيا فى تلك الفترة ؛ بصورة خاصة كتاب :

G. Maura, La question du Maroc au point de vue Espagnole, Paris 1911, p. 155.

للموقف أن يسافر الى اسبانيا وهو يحمل معه هدايا ثمينة الى ملك اسبانيا ، ويقال انه استطاع بهذا السلوك أن يخفف فعلا من غضبه • (7)

اما فى الشرق الجزائرى فقد كان أمـير قسنطينة يدين آنذاك بالولاء للحفصيـــين ، غير أنه كان فى شبه استقلال بمنطقته ، وكانت تخضع له بصورة خاصة المنطقة الممتدة بـين القالة والقل بما فيها عنابة • وفى غير ذلك فقد تنفذ أمراء محليون فى جهات عديدة من البلاد ، وكونوا لانفسهم امارات عائلية • ولعل من أشهرهم : رئيس بنى عباس فى جبال البيبان ، وأمـير آيت يحيى المعروف بـ (كوكو) فى بلاد القبائـل الكـبـرى • وحكم فى كل من فقيق والونشريس رجال الطرق الصوفية ، كما سيطرت فى واحات الجنوب عائلة الذواودة وأحلافها ، وأصبحت المدن الساحلية تدار بواسطة مجالس أعيان خاصة بكل منها • (8)

وأمام هذه الوضعية استطاع الاسبان أن يجدوا لجيوشهم بسرعة مواطىء قدم فى معظم المدن الساحلية بالمغرب الاوسط ؛ فقد احتلوا المرسى الكبير فى سنة 1505 ثم وهران سنة 1509 واستولوا على بجاية سنة 1510 بعد أن هدموا العديد من معالمها الكبـــيرة مثل منار قصر اللؤلؤ وقصر الكوكب والمسجد الاعظم ، وذلك أثناء المقاومة العنيفـــة التى جابههم بها السكان • ويظهر أنه تفاديا لما وقع فى بجاية ذهب وفد عن أعيان الجزائـــر المدينة فى السنة التالية ليعرضوا على القائد الاسبانى فى بجاية تعهدهم بالخضوع للنفوذ الاسبـانى •

---

(7) أنظر ــ عبد الرحمن الجيلالى ــ تاريخ الجزائر العام ، 1965 ، ج 2 ص 196 •

(8) راجع بصورة خاصة ــ محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث •• ، دمشق 1969 ، ص • 15 فما بعـــد •

كانت هذه الظروف هى التى مهدت لبداية العهد التركى بالجزائر ، والذى ابتدأ فى سنة 1518 واستمر حتى سنة 1830 كما هو معروف (9) ، وقد كان مجىء الاخوة عروج وخير الدين واسحاق الى الجزائر فى البداية منقذين ، وكان ممن تواطأ مع الاسبان ضدهم سلطان تلمسان أبو حمو ٠ وقد امتعض خير الدين شديد الامتعاض من موقف أبو حمو هذا بصورة خاصة ؛ فقرر الخروج من المغرب الاوسط بعد مقتل أخويه بابا عروج واسحاق فى نواحى تلمسان ، الا أن عددا من أعيان مدينة الجزائر آنذاك ألحوا عليه أن لا يترك بلدهم المسلم يستولى عليه الاسبان ، فكان من جوابه لهم حسبما حفظه لنا ابن أبى الضياف قوله : (٠٠٠ وقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بنى زيان واستعانته علينا بغير أهل ملتنا حتى كفانا الله أمره ، وصاحب تونس الحفصية لا رأى له فى نصرنا واعانتنا ، وأسلمنا للعدو بمنع البارود لولا لطف الله ٠٠٠) ٠ (10)

وقد قبل أعيان مدينة الجزائر ما اقترحه خير الدين عليهم بمبايعة السلطان سليم خان والحاق الجزائر بالدولة العثمانية ، وهذا ما جعل هذا الاخير يزود خير الدين بجيش من الانكشارية قوامه حوالى الالفى جندى ، ويسمح له بتوظيف المتطوعين من بلاد الاناضول ، وبذلك استطاع خير الدين أن يعود للجزائر ويستقر بها ٠ كما أن اسبانيا فى هذا

---

(9) كان قدوم الاخوة عروج واسحاق وخير الدين الى بجاية وجيجل فى سنة 1516 ثم توفى الأولان فى معركة تلمسان ضد الاسبان وحلفائهم من بنى زيان ، وقرر خير الدين على اثرها مغادرة الجزائر نهائيا ، ولكن أعيان مدينة الجزائر ألحوا عليه أن لا يترك البلاد نهبا للنصارى الاسبانيين ، ووافقوه على الحاق الجزائر بالدولة العثمانية ٠ وقد استقر خير الدين بالجزائر سنة 1518 وذلك بعد عودته من الاستانة ، ولذلك يعتبر هذا التاريخ البداية الحقيقية للعهد التركى بالجزائر ٠ (راجع ـ أحمد بن أبى الضياف ـ اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان ـ ج ٠ 1 ص ٠ 15 فما بعد ، تونس 1963 ؛ محمد خير فارس ، 1969 ، ص ٠ 23 فما بعد) ٠

(10) ابن أبى الضياف ، 1963 ، ج 1 ، ص 11 ٠

الوقت بدأت تنشغل بمشاكل مستعمراتها فى أميركا الجنوبية فخفت وطأتها نسبيا على المغرب الاوسط ٠ كل ذلك مما سمح لخير الدين أن ينجح فى مجابهة الاسبان بحزم ٠ (11)

وفى تلك الظروف التى كانت أوضاع المغرب الاوسط خلالها على غاية من الضعف والانقسام ، وهذا قبل مجيء الاتراك بفترة ربما زادت على الثلاثين سنة ، كان المغيلى قد انتقل الى الجنوب وبلاد السودان ٠

4 ـ المغيلى فى توات وقضية ثورته على تنفذ اليهود بها

لا تعرف بالضبط السنة التى انتقل فيها المغيلى الى توات غير أن تسعينات القـــرن الخامس عشر أدركته بها دون شك وقد كانت واحـــات منطقـة توات خـــلال القـــرن الخامس عشر من اكثر المناطق نشاطا فى تسيير القوافل التجارية بين السودان وبلدان الشمال الافريقى ؛ فقد زارها فى سنة 1447 الرحالة الجنوى مالفانت Malfante ، ويبدو أنه كان أول أوروبى يصلها فى العصور الحديثة ، وكان هدفه الوصـــول الى السودان الغربى ليعرف على حد قوله بلاد الذهب التى يجنى منها التجار المغاربة أرباحا كثيرة ٠ وربما يكون قد ذهب اليها عن طريق تلمسان ، فقد كان بمرفاحنين فى ذلك الوقت نشاط كبير للتبادل التجارى بين أوروبا ومملكة تلمسان ، ومنه كانت تنقل كثير من البضائـع التى تأخذ طريقها الى بلدان السودان الغربى ٠ وكان التواتيون يشكلون منذ ما قبـل هذه الفترة جالية كبيرة تعمل فى التجارة بمنطقة النيجر الاعلى وتتولى استقبال القوافل القادمة من الشمال وتوزيع بضائعها على مختلف المدن فى السودان ٠ (12)

وقد كانت توجد منذ عهد بعيد فى مختلف الواحات بمنطقة توات شبــــه اتحادات تجارية مستقلة ويتولى رؤساؤها حكم واحاتهم بالمنطقة ، ويبدو أن السكان كانوا راضين عن وضعيتهم تلك ، وكان لحكوماتهم المحلية بهذا الشكل قدرة اقتصادية وبشرية عـــلى

---

(11) راجع ـ محمد خير فارس ، 1969 ، ص 28 فما بعد ؛
Maura, 1911, p. 18 SS.

(12) راجــــع بصورة خاصة ـ عبد الرحمن السعدى ـ تاريخ السودان ـ باريس 1964 ص 128 فما بعد ؛
Charles De la Roncière - L adécouverte de l'Afrique au Moyen-Age, T. 1, p. 152 SS.

المقاومة استطاعت أن تكلف جيوش المنصور الذهبى حينما داهمتها فى سنة 989 للهجرة التى لم يدركها المغيلى ، خسائر كبيرة (13) ٠

وعن نشاط كبار التجار فى القرن السادس عشر بين تلمسان وولاتا نجد فى أحدى استطرادات المقرى هذا الوصف : (٠٠٠ وكان التلمسانى يبعث الى الصحراوى بما يرسم له من السلع ، ويبعث اليه الصحراوى بالجلد والعاج والجوزة والتبر ، والسجلماسى كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ويكاتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان ٠٠٠ ثم صار (أميرا لتكرور) يكاتب من بتلمسان ويستقصى منهم مأربه ٠٠٠ كان أبو حمو (سلطان تلمسان) يقول : لولا الشناعة لم أنزل بلادى تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذى كل أمر الدنيا له تبع ٠٠٠) ٠ (14)

لقد كان الطريق التجارى بين تلمسان ، عبر توات ، ومناطق نهر النيجر الاعلى على الخصوص ، أحد الطرق الهامة للقوافل التجارية على أيام المغيلى ، ولكن لا يبدو أنه اشتغل بالتجارة أبدا ، وانما اشتغل بالاصلاح على طريقته الخاصة به ، كعالم سلفى متحمس ٠ (15)

ويبدو من آثار المغيلى انه كان ثاقب النظر وذكيا ، فقد وصفه ابن مريم بـ (القدوة الصالح الحبر ، أحد أذكياء العالم وأفراد العلماء الذين أوتوا بسطة فى العلم والتقدم) ٠ (16)

(13) أنظر ــ اليفرنى ، نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى ، طبعة فاس الحجرية دون تاريخ ، ص 73 فما بعد ٠

(14) المقرى ــ نفح الطيب ، بيروت 1956 ، ج ٠ 1 ، ص 180 ٠

(15) لمزيد من التفاصيل حول طريق توات التجارى ، راجع بصورة خاصة ــ

E. Bovill, Golden Trade of the Moorsh, London 1968 ; R. Mauny, tableau géographique de l'Oeust Africain, Dakar, 1961 ; W. Fage, Introduction to the history of West Africa, Cambridge, 1955.

(16) ابن مريم ، 1908 ، ص 253 ٠

ووصفه معاصره العلامة محمد السنوسى بـ (القائم بما اندرس فى فاسد الزمان من فريضة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، التى يكون القيام بها ، لا سيما فى هذا الوقت، علم على الاتسام بالذكورة العلمية والغيرة الاسلامية وعمارة القلب بشرف الايمان) · (17)

ويبدو أن المغيلى قد اتخذ من توات مقاما دائما له وذلك منذ انتقاله اليها فقد سافر بعد حادثة يهود توات مباشرة الى فاس ثم عاد الى توات ، ولما قام برحلته الطويلة بعد ذلك الى السودان عاد الى توات أيضا ، وذلك حينما بلغه الخبر وهو فى غاو أن اليهود قتلوا ابنه عبد الجبار ، فعاد أبو عبد الله على الفور الى توات وبقى بها حتى وافته المنية سنة 909هـ/1502/3م · (18)

وقد أثيرت قضية موقف المغيلى من يهود توات مرات عديدة ولدواع مختلفة لدى الدارسين المعاصرين ، ومن المهم أن نشير هنا الى أن آراء البعض فى تفسير موقف أبى عبد الله من تلك القضية لم يرافقها التثبت الكافى على ما يبدو · (19)

والواقع أن المغيلى كان قد قام فى يهود توات كمصلح سلفى لا غير ، وملخص رأيه أن على اليهود أن يحترموا وضعيتهم القانونية فى بلاد المسلمين · وقد وجد المغيلى فى توات حينما انتقل اليها جالية يهودية غنية وكبيرة ، درت عليها التجارة مع السودان أموالا طائلة وربما استغلت تلك الجالية قوتها المالية فى التنفذ السياسى أيضا ، فقبل وصول المغيلى الى توات بحوالى نصف قرن كتب مالفانت عن يهودها ما يلى :

(··· يتكاثر اليهود هنا (فى تمنطيط) وتسير حياتهم فى سلم تحت ظل الرؤساء الذين يدافع كل منهم عن أتباعه ، ولهذا يتمتع اليهود بحياة سهلة ، وتسير التجارة بواسطتهم ، وهناك الكثيرون هنا يضعون ثقتهم فيهم ···) · (20)

---

(17) نفس المصدر ·

(18) قارن أحمد بابا ، نيل الابتهاج ·· ، طبعة فاس 1898 ، ص 370 ؛ الزركلى ، الاعلام ، ج 7 ، ص 84 ·

(19) أنظر مثلا: A. Martin, Les oasis Saharienne, Alger 1908, p. 122 ; Soleillet, Voyage à Ségou 1878-1879, Paris 1870, p. 253.

(20) أنظر : Malfante in La Roncière, T. 1, p. 152 S.

وربما كان لموقف بعض رؤساء السياسة فى تمنطيط أثره فى تشجيع يهودها على بناء بيعة كبيرة لهم تجاوزت فى ضخامتها تلك الحدود التى قد يمكن للمسلمين أن يسمحوا لهم بها فى نظر المغيلى ؛ فرفع عقيرته مستنكرا على اليهود عملهم هذا ، وقد لقى معارضة أدبية فى الحال من قبل قاضى توات آنذاك (أبو عبد الله العصنونى) ، مما اضطره الى مكاتبة عدد من مشاهير الفقهاء فى الشمال ، ولما وافته فتاوى بعضهم بالثناء على موقفه ، قام مع أتباعه فى توات بتهديم تلك البيعة ، وألزم اليهود بالذل والهوان على حد تعبير ابن مريم ٠

ولم تكن كل فتاوى الفقهاء التى وردت عليه لتؤيد موقفه هذا ، بل كان هناك من أيد موقف قاضى توات وعارض المغيلى فيما ذهب اليه ٠ وكان ذلك مما حمل أبا عبد الله على السفر الى فاس ليتناقش مع فقهائها ، وجلهم عارض موقفه فى الفتاوى التى أدلوا بها ، فى هذه القضية بالذات ٠

ولما التقى فى فاس بأولئك المعارضين ، اتهموه صراحة بالطموح الى أكثر من مجرد القضايا الشرعية ، وهذا بعد أن أحالهم ليتناقشوا فى هذه المسألة مع جمع من تلاميذه السودانيين الذين كانوا يرافقونه فى رحلته هذه ٠ وكان المغيلى فى البداية قد خص فى فاس باستقبال حافل من طرف علمائها بما فيهم أولئك الذين كانوا يقفون ضد آرائه نحو اليهود ، ثم استقبله سلطان فاس بحضور أولئك العلماء بعد ذلك وجرت مناقشة بحضرة السلطان انتهت باتهام هذا الاخير للمغيلى بالطموح الى الملك ٠ وكان السلطان فى هذا الموقف مدفوعا من قبل بعض العلماء الذين أوحوا له مسبقا بوجود مثل هذا الطموح لدى المغيلى فى كل ماكان يذهب اليه ٠ وقد رفض المغيلى ذلك بشدة أمام السلطان وعاد الى توات حيث يقال انه آلى على نفسه أن لا يلاقى سلطانا بعد ذلك أبدا (21) ٠ ومن توات انتقل المغيلى الى السودان ، ولا نجد فى آثاره ما يشير الى عودته الى الشمال بعد ذلك أبدا ٠

(21) راجع ــ المغيلى ، مصباح الارواح فى أصول الفلاح (وهى الرسالة التى كتبها فى قضية اليهود) ، تحقيق رابح بونار ، الجزائر 1968 ؛ محمد بن مصباح ، دوحة الناشر ، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 2136 ؛ H. Gwarzo, Al-Maghili..., unpublished thesis, London 1973.

5 ـ اعمال المغيلي وآثاره في السودان

يبدو أنه حينما سافر المغيلي الى السودان كانت شهرته كعالم من علمـــاء زمانـــه اللامعين ، قد سبقته الى السودان ؛ فقد عرف الامراء السودانيون عالمين كبيرين فى ذلك الوقت ، هما : العلامة السيوطى ثم المغيلي ، أما السيوطى فقد كان من بين العلماء الذين قرر الاسقيا محمد الكبير (1493 ـ 1528) الالتقاء بهم واستشارتهم حين سافر الى الحج عند أخريات القرن الخامس عشر · وكان السيوطى قد اختلف معه المغيلي فى مسألة المنطق اليونانى ، ووقعت بين الرجلـين مراسلات فى هذا الشأن ؛ رفض فيها السيوطى المنطق اليونانى وأنكر عليه المغيلي ذهابه هذا المذهب · وكان السيوطى قد أرسل هـو الآخـر رسالة الى أمراء بلاد الحوصا ينصحهم بالتزام الشرع فى حكمهم لرعاياهم ·

وبعد عودة الاسقيا محمد من الحج فى حدود 1499/1500م · وجد أمراء جيشه قـد ألحقوا بمملكة سنغاى التى كان يرأسها بلاد الكبى الواقعة الى شرقى النيجر ، فقـــرر تجنيد عدد من العلماء للعمل فى تلك الناحية · (22) وفى تلك الاثناء سافر المغيلي الى بلاد الكبى ، ولا يستبعد أن يكون انتقاله الى تلك المنطقة داخلا فى هذا التنظيم ·

ولا تذكر المصادر أن المغيلي مر وهو فى طريقه الى بلاد الحوصا بتمبكتو أوغاو (23) · ولذا يعتقد أنه أخذ طريق الأهـير مارا بتدمكت التى كانت لا تزال فى أيامه على ازدهار ملحوظ ، ومنها انتقل الى كشن (Catsina) وكانو · ولا تعرف المدة التى قضاها المغيلي معلما ومرشدا فى بلاد الحوصا ، ولكن يبدو أنها ربما زادت عـلى السنتين ، لان المغيلي حينما غادرها ، كان قد ترك وراءه عددا هاما من التلاميذ ، وتوجد فى كانو حتى اليوم جماعة ينسبون أنفسهم كأحفاد للمغيلي الامام ·

وأثناء وجود المغيلي فى بـلاد الحوصا سأله أمـيرها أبو عبد الله محمد بن يعقـوب أن يكتب له (جملة مختصرة فيما يجوز للحكام فى ردع الناس عن الحرام) · وقد أجابه المغيلي برسالة أثبت فيها اطلاعه الكامل على أحوال بلاد السودان وسلوك أمرائها وعادات

(22) أنظر : Boubou Hama, Histoire du Gobir et de Sokoto, P. A., 1967, p. 11

(23) قد يكون لذلك علاقة بقرار أبى عبد الله أن لا يتقابل مع الامراء كما سبق ذكره ·

سكانها ، كما أثبت فيها حرصه الشديد على أن يحكم المسلمون بحزم ،وذلك وفق قواعد الشريعة الحكيمـــة • (24)

ومن بلاد الحوصا انتقل المغيلي الى مملكة سنغاى ، وساله أميرها أسقيا الحاج محمـد الكبير ان يكتب له رسالة أخرى ، ينصحه فيها حول سبع مسائل ذكرهـــا الاسقيـــا بتفصيل ، ويريد أن يعرف حكم الشرع فيها • وقد جاء جواب المغيلي مفصـــلا ودقيقا فى آن واحد ؛ حيث أفرد لكل مسألة فى أجوبته بابا خاصا •

وقد ظهر من مجموع أجوبة المغيلي الى الاسقيا محمد معرفة أبى عبد الله بأحـــوال المسلمين فى بلاد سنغاى وفى عموم بلدان السودان الغربى معرفة واسعة ، كما أن نظريته فى الخلافة وفيمن يصح له حكم المسلمين بدت واضحة من مجموع تلك الاجوبة ، فكان يرى أن متطلبات الخلافة بالنسبة لمن يتولى حكم المسلمين يجب أن يتمثـــل فى الوعى الكامل بواجباته تجاه مجتمع المسلمين ككل وتجاه رعاياه المباشرين بصورة خاصة • وفى جواب المغيلي عن قضية العلماء المزيفين ، وهم أولئك الذين يدعون أكثـــر مما يعرفـــون ويحاولون تبوأ أمكنة العلماء الاكفاء فى المجتمع عن طريق التضليل ووسائل الخـــداع المختلفة ، ذهب أبو عبد الله الى ان الضرب على ايديهم بالشدة اللازمة هو أحد واجبات الامير المسلم دون جدال كما ان الضرب على أيدى جميع المخالفين فى المملكة الاسلامية يراه المغيلي واجبا أكيدا على الامير المسلم شريطة ان يكون هذا الاخير مستقيما ومخلصا •

وبالمقابل فان واجب المسلمين فى تنحية الامير الذى لا يقوم بواجباته تجاه المسلمين أيضا كان يراه المغيلي أحد الامور الضرورية واللازمة فى آن واحد • (25)

---

(24) أنظر نص هذه الرسالة فى كتاب ــ آدم عبد الله الالورى ، موجز تاريخ نيجريـــا ، بيروت 1965 ، ص 134 فما بعـــد •

(25) المزيد من التفاصيل حول آراء المغيلي فى مختلف المسائل الاجتماعية والسياسية التى طرحها عليه أمير سنغاى ، راجع ــ محمد بن عبد الكريم المغيلي ــ أسئلة الاسقيا محمد وأجوبة المغيلي ، تقديم وتحقيق عبد القادر زبادية ، نشر الشركة الوطنيـــة للنشر والتوزيـــع ، الجزائـــر 1973 •

ومن ناحية أخرى فان رسالة المغيلي هذه الى الاسقيا محمد وثيقة هامة بالنسبة للمؤرخ ، ذلك انها احتوت معلومات قيمة عن الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في بلاد سنغاى على أيام الاسقيا محمد الكبير ، وذلك في كل المسائل التي تطرقت اليها • ولعله من الهام أن نشير هنا الى أن رسالة المغيلي هذه الى الاسقيا محمد قد تعتبر نادرة المثال من الناحية التاريخية على الاقل ، وذلك من بين ما عرف حتى الآن عن وثائق فترة الاسيقيين في سنغاى (26) •

لقد كان المغيلي أحد علماء زمانه اللامعين دون شك ، وما امتداد جهوده الى السودان الغربى الا دليل عملي آخر على المكانة الحضارية المرموقة التي تمتعت بها تلك المنطقة قبل العهد الاوروبى ، في علاقاتها الاخوية المتينة مع بلدان المغرب بشكل خاص وبقية البلدان الاسلامية بشكل عام •

---

(26) قد تضاهي هذه الوثيقة من حيث المعلومات التاريخية عن المجتمع السوداني في ذلك الوقت ، الرسالة التي كتبها أحمد بابا بعد ذلك بحوالى قرن من الزمان حول العبيد ، الا أن هذه الاخيرة على أهميتها القصوى أيضا محدودة المحتوى بموضوع واحد ، في حين تشتمل الوثيقة التي كتبها المغيلي على معلومات تتعلق بعدد من المواضيع الاجتماعية كما سلفت الاشارة أعلاه •

المقـــرى التلمسانى

د. الطاهر احمد مكــى
استاذ سابق بجامعة الجزائر

سوف اتحدث اليكم الليلة (1) عن مؤرخ جزائرى جليل ، جاء الى الحياة قريبا من نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، وفارقها مع نهاية الثلث الاول من القرن الذى يليه ، حياة قصيرة كما ترون ، لكن صاحبها عرف كيف يثريها بالعلم النافع ، فارتفع بنفسه عن النسيان ، واقتحم بها عالم الخلود من أوسع الابواب .

شهرته المقرى ، أو المقرى ، على ما سنعرف فيما بعد ، ولقبه شهاب الدين ، وكنيته أبو العباس ، واسمه كاملا : احمد بن محمد بن احمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن ابى العين بن محمد .

وقبل أن أعرض لحياته وعلمه ، أود أن استرجع معكم شيئا من أحداث العصر التى سبقته ، ومن الحوادث التى رافقته ، فالمرء ابن بيئته مهما تفرد ونتاج عصره سلبا أو ايجابا ، مهما سبقه مفكرا أو قوم من اعوجاجه مصلحا .

جاء المقرى مع نهاية القرن السادس عشر ، وهي فترة درج المؤرخون على تسميتها بفترة الاحتضار ، ولقد جاء فى قمتها ، اذا كان من الممكن أن يكون للاحتضار قمة ،

(1) محاضرة القاها بمركز الاعلام العربى بالجزائر فى 31 مايو 1971 .

اما بدايتها ، فقد سبقته بسنين عديدة ، يمكن ان نقدرها بثلاثة قرون من الزمان ، وهي مرحلة تميزت بنضوب الابداع العربى فى مجال الفكر والخلق والادب بمفهومه التقليدى لكن الابداع الشعبى لم يتوقف ابدا كان كاي عمل شعبى يخلط بين الـدر والصدف ، ويجمع الغث الى السمين ولكنه أصيل دائما ، ومتوهج ابدا ، وصادق فى كل الحالات ، بلى ، فى هذه الفترة أعطت القاهرة آخر صورة لكتاب الف ليلة وليلة ، أحد روائـع الادب ، العالمى دون جدال ، ووضع المصرى ابن دنيال المتوفى عام 1310 م أسس المسرح العربى الحديث ، حين جعل خيال الظل ، وهو فن ذو أصل صينى يدخـــل القصور ، ويرتفع الى مستوى اللهو الجليل ، ويصبح قالبا يصب فيه الادباء افكارهم · وبدأ أدب الملاحم والسير والحكايات الشعبية ، يأخذ طريقة الى التدوين ، فى أحجـــام ضخمة تتجاوز آلاف الصفحات ، فدونت ألف ليلة وليلة وسيرة عنترة ، وقصة الظاهر بيبرس ، وسيرة الهلالية ، وحكايات أخرى كثيرة ·

فى الجانب السياسى سبق مجىء المقرى الى الحياة بقرن سقوط غرناطة فى يـــد الملك فرناندو والملكة ايزابيل المسيحيين ، ومعها سقطت دولة الاسلام فى الاندلس ، ورأى المقرى وهو فى العشرين من عمره ، أو قريبا منها جموع الاندلسيين المسلمين تتدفـق نحو المغرب العربى على امتداده ، بعد أن أصدر فيليب الثالث ملك اسبانيا قراره النهائى عام 1613 بطرد المسلمين نهائيا ، حتى ولو كانوا قد استجابوا لاوامر محاكم التفتيش واعتنقوا الكاثوليكية هربا من التعذيب الشديد ، وفى نفس القرن حصل تحول سياسى هام ، لقد انتقل مركز الخلافة من القاهرة الى اسطنبول ، وتحول ميزان الثقل السياسى من مصر الى تركيا ، واكتسحت دولة العثمانيين الفتية العالم الاسلامى فى ســـرعة خاطفة ، واصبحت امبراطوريتها تمتد من تلمسان حتى فارس ، وان تدفع بحدودهـا شمالا حتى أواسط أوروبا ، وأن تمتد جنوبا حتى قلب افريقية ، وأن تملك من جـــزر البحر الابيض رودس وقبرص · وكانت تقوم داخل هذه الامبراطورية الواسعة وخارجها وحدات ادارية متعددة ، ذات استقلال ذاتى يتسع او يضيق لكن الثقافة العربية ظلت ، رغم تعدد الوحدات الادارية والسياسية ، واحدة لم تتوزع ، متماسكة لم تتفتت ، فكان العلماء والطـــلاب يستطيعون ان ينتقلوا من بلد الى بلد ، وان يلتحقوا بجامعة أو بأخرى ، دون أية عوائق مادية أو ادبية ، وكان الكتاب العربى يملك من حرية الحركة حدا لا قيود عليه ، ولم يكن الطالب أو العالم او الكتاب حين ينتقل من وحدة الى أخرى يطالب بجواز سفر ، أو بعقد عمل أو بتصريح دخول ، وهكذا ظلت الروافد الثقـافية

التى يستقى منها الناس واحدة ، ايان عاشوا من الوطن العربى ، فجاء ابداعهم متقاربا وتولد بينهم احساس بالاخاء عميقا ، وايمان عفوى بوحدة المصير ·

على امتداد هذا العالم الاسلامى الواسع ، وفى أشد لحظاته تخلفا قدر للقاهرة ان تكون واسطة العقد ، وان تصبح حلقة الوصل بين شرقى العالم العربى ومغربه ، فمنذ أشرقت شمس الاسلام على هذا الجانب من الارض ، وبدأ المسلمون فى المغـرب يتجهون شرقا لاداء فريضة الحج ، أو التماسا للثقافة فى مصادرها الاولى ، خـلال القرن الاول لدولة الاسلام ، أو ارضاء لفضول علمى لا يقنع أصحابه بما يعرفون بعد أن ازدهرت المراكز الثقافية فى فاس وتلمسان وبجاية وقسنطينة والقيروان ، أو تجارة ، أو رغبة فى اذاعة علمهم هناك بين الناس · أو طلبا لذلك كله · وهكذا أصبحت القاهرة محطا للذاهبين الى مكة ، قدموا برا أو عن طريق البحر ، يتوقف بعضهم بها اياما ثم يرحل حاجا ، ليعود اليها من جديد عابرا أو مقيما · وكان لازدهار المذهب المالكى فى مصر ، ووجود خيرة تلاميذ الامام مالك هناك ، وعالمية الازهر فيما بعد ان صـح هذا التعبير ، وخزائن الفاطميين من الكتب ، عامل اغراء لا يقاوم · وكان الأزهر بما يملك من بيوت للطلاب ، قائمة حتى أيامنا هذه ، تعرف بالاروقة ، وتؤدى الى صحنه مباشرة ، حيث تعقد حلقات للدرس لا تنفض كل النهـار ، وطرفا من الليل · كان الازهر يهيىء السكن المجانى للاستاذ والتلميذ ، ويفتح ابوابه لطالب الدرس وللقادر على التدريس دون أي قيد من سن أو جنسية ، ويسخو فى العطاء فيجرى عليهم من الرزق رواتب متصلة ، وفى كل رواق مكتبة عامرة · كانت هناك أروقة : السودان والمغاربة والشام والاتراك واليمن والمدينة المنورة والصعايدة ، أي سكان جنوب مصر ورواق آخر خاص بالمكفوفين الى أي بلد انتموا · وشهر رواق المغاربة بأن مكتبته تضم قدرا لا بأس به من المخطوطات النادرة ، وبخاصة لعلماء من المغرب اقاموا هناك أساتذة فى اواخـر حياتهم ، أو طلابا فى سن الشباب ، وما تزال هذه الاروقة قائمة فى معظمها ، ولو ان العصر تخطاها ، فقد انشئت مدينة البعوث الاسلامية لتتسع لعدد من الطلاب الوافدين يبلغ العشرين ألفا ، فيما أقيم من منشآتها ، أو ما سيقام فى قابل الاعوام ·

جاء الى القاهرة من المغرب العلامة ابن خلدون ، فشغل كرسى التاريخ فى الجامع الازهر ، وأصبح قاضى المالكية ، وسفير السلطان برقـوق الى تيمورلنك ، ليفاوضه فى فك الحصار الذى ضربته جحافل جيش المغول على مدينة دمشق ، وبقي فيها عالما جليل القدر الى أن لقى اللـه ·

وجاءها أبو الفضل محمد المشدالى ، المتوفى عام 864 هـ ـ 1460 م من نوابغ علماء بجاية فى القرن الخامس عشر ، فشغل كرسى الفقه المالكى فى الجامع الازهر ، وعرض عليه أن يصبح قاضى القضاة فأبى ، وملأ الدنيا علما وأثار من الاعجاب والتقدير بقدر ما اثار من النقاش والحسد .

وجاءها آخرون كثيرون قبلهما ومن بعد ، جاءها الرحالة الشهير ابن جبير ، وآثر الاسكندرية مقرا ، ودفن فيها جثمانا ، ولا تزال احـــدى محاط الاسكندرية الحديدية تحمل اسمه « محطة سيدى جابر » ، واختارها معه المؤرخ العظيم أبو بكر الطرطوشى ، وأبو العباس المرسى ، والامام الشاطبى وترك هؤلاء آثارا لا تمحى ، فأضرحتهم معروفة وتحمل معالم المدينة اسماءهم ، وليس من قبيل الصدفة أن أهل الاسكندرية ينطقون كلمة « سيدى » على الطريقة المغربية فيقولون « سيدى » وان شوارعها تحمل اسم « زنقة » على طريقة المغرب أيضا ، وهو امر تميزت به من بين سائر المدن المصرية .

وجاءها أيضا ابن سعيد المغربى ، الشاعر والمؤرخ ، وصاحب كتاب « المغرب فى حلى المغرب » ، وخصها بستة أجزاء من تاريخه الذى يضم خمسة عشر جزءا ، وبقى فيها الفيلسوف الطبيب أبو الصلت امية بن أبى‌الصلت عشرين عاما ، محبوسا فى خزانة كتب ، وسمى واحدا من مؤلفاته « الرسالة المصرية » ، وعاد الى تونس بعلم وفير ، فبلغ حظا عاليا من الذيوع والشهرة والتقدير .

وكان المقرى موضوع حديثنا اليوم آخر الكبار الذين جاءوها عشية صحوة العالم العربى الحديث .

ينتسب المقرى الى مقرة ، وهي قرية من اعمال مقاطعة قسنطينة قريبا من قلعـة بنى حماد ، وقد ضبطت على وجهين ، احدهما بفتح الميم وسكون القاف فتنطق مقـرة ، وهو اتجاه نجد له سندا عند ابن مرزوق العالم التلمسانى ، فقد ألف كتابا فى التعريف بجد مؤرخنا اسماه : « النور البدرى فى التعريف بالفقيه المقرى » والوجه الثانى بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة فتنطق مقرة ، وهو اتجاه يدعمه صاحب اللقب نفسـه ، فقد كان يردده فى احاديثه ، ونقله عنه اصحابه وتلاميذه ، وهو نفسه ، اذا لم نعتبـر هذا ضرورة شعرية ، جاء فى مقدمة كتابه : « ازهار الرياض » بأبيات شعرية مطلعها :

فيقـــول احمـــد القصـــــور ، المقـــرى اذا انتســـــــب

ولا يمكن ان تقرأ كلمة « المقرى » هنا الا مشددة القاف ، والا اضطربت موسيقى البيت . ويبدو ان اسم المدينة كان ينطق على الوجهين ، فلا ضـــرر ولا ضرار فى ان ينسب المرء الى ايهما .

كان المقرى ينسب الى مقرة ، ولكنه لم يرها ولم يعش فيها ، فقد هجرتها اسـرته الى تلمسان من زمن بعيد ، فى ظروف لا نعرف عنها شيئا ، الا ان تتصور ان الجـــو الثقافى المزدهر فى تلمسان شدهم اليها ، فقد كان المهاجر اليها جد جد عالمنا ، يقـول المقرى عن تلمسان : « بها ولدت أنا وأبى وجدى وجد جدى » .

فى تلمسان غرباء مهاجرون ، اوقف بنو المقرى جهدهم على العلم ، ضربوا فيـه بسهم وافر ، واحتلوا بين رجاله مكانا مرموقا ، فالجد الاعلى ابو عبد الله محمد كان قاضى الجماعة فى مدينة فاس على أيام السلطان أبى عنان ، وفيها تتلمذ عليه لسـان الدين بن الخطيب اديب الاندلس ومؤرخها الكبير ، وألف كتابى « القوانين » و « اقامة المريدين » . وتوفى فى منصبه هذا فى ذى الحجة عام سبعمائة وخمسة وثمانين للهجرة (785 هـ) الموافق عام ثلاثمائة وثلاثة وستين بعد الالف للميلاد (1363 م) ، ونقـــل رفاته الى تلمسان ، وظل أبو عثمان سعيد بن أحمد المقرى ، عم المقرى موضع حديثنا ، مفتيا لتلمسان على امتداد ستين عاما كاملة .

لم يشر المقرى الى تاريخ مولده ، ولم يذكره أحد ممن ارخوا له ، ولكن المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال افترض فى المقال الذى كتبه عنه فى دائرة المعارف الاسلامية ان يكون هذا التاريخ حول عام ألف للهجرة ، أو ما يوافق عام ألف وخمسمائة واثنين وتسعين للميلاد (1592 م) ، وهو افتراض ينقضه قول المقرى نفسه انه « نشأ بتلمسان ، ورحل عنها فى زمن الشبيبة الى مدينة فاس سنة تسع وألف للهجرة 1009 هـ » ، فاذا ارتضينا افتراض البحاثة الفرنسى كان ذلك يعنى ان المقرى رحل الى فاس وله مـن العمر تسع سنوات فحسب ، وهي مرحلة لا تدخل فى اطـــار الشبيبة أولا ، ولا يأتى لصاحبها أن يغترب ثانيا ولا يرتضى له أهله ذلك حتى لو أراد . انما الاقرب الى التصور ان تكون الرحلة قد تمت وله من العمر ستة عشر عاما مثـــلا ، لانها السـن التى يتـأتى لصاحبها ان يسافر ، ويطلق على من بلغها اسم شاب ، وفيها جرت العادة ان يفـارق الشبان اسرهم طلبا للعلم ، ولم يكن ذلك حتى مع هذه السن امرا هينا ، فى زمن كان تماسك الاسرة فيه لما يزل قويا ، ووسائل المواصلات غير مأمونة الجانب ولا مذللـة الصعاب . واذا ارتضينا الامر على هذا النحو ، جاز لنا ان نفترض ان المقرى جاء الى

الحياة قريبا من عام ثلاثة وتسعين وتسعمائة (993 هـ) ، الموافق عام خمسة وثمانين وخمسمائة بعد الالف (1585 م) ، قبلها أو بعدها بعام ، أمر ليس بذى خطر كبير ، فى حياة أديب سوف يتولى بنفسه قيد تواريخها فى سن مبكرة ، حين يقتحم باب الحيـاة العامة ويضع نفسه تحت الاضواء ٠

تعلم فى تلمسان ، حفظ القرآن ، ودرس الفقه المالكى ، وتذاكر آداب العرب ، وقرأ على عمه المفتى صحيح البخارى وكتب الحديث الستة وما من شك فى انه تتردد عـلى اساتذة كبار آخرين ، فقد كانت تلمسان حتى عصره من أهـم مراكز الدراسة الدينية بالمغرب ٠ لكن الفتى الطموح ما لبث أن استشرف آفاقا جديدة ، فرنا ببصره الى مدينة فاس ، اشهر المراكز العلمية قربا من مسقط رأسه ، ولا سرته بها صلة ، ومن قبل كان جده فيها كبيرا للقضاة والمدينة الى جانب هذا كانت عاصمة المغرب العلمية والدينية ، ففيها جامعة القرويين وبها لاذ جمع غفير من جلة علماء الاندلس المهاجرين ، منذ ثورة فقهاء الاندلس ضد الحكم الاول ، فيما يعرف تاريخيا « بفتنة الربض » وبها مكتبات عامرة ، وتتمتع بشهرة عالية مستفيضة ، ولابد أن ذلك كله شد اليها انتباه الفتـى الذكى ، فرحل اليها للمرة الاولى عام تسعة بعد الالف للهجرة (1009 هـ) ولم يبـق بها فى هذه المرة طويلا ، لم تتجاوز اقامته عاما وبعض العام ، وعاد اليها فى زيـارة خاطفة سنة احدى عشرة بعد الالف (1011 هـ) للهجرة ثم جاءها بعد عامين ، أي فى سنة ثلاث عشرة بعد الالف 1013 ليبقى فيها أربعة عشر عاما متوالية ، تدرج خـلالها من طالب علم نابه ، الى استاذ متمكن يتولى فى سن مبكرة الامامة والخطابة فى جامع القرويين الشهير ، مقر الجامعة واكبر مسجد فى المدينة ، ثم تنتهى اليه الفتوى ، فيتولى منصب الافتاء ، ويستمر فيه الى ان يترك المدينة عام سبعة وعشرين بعد الالف للهجرة 1027 هـ) ٠

فى اواخر شهر رمضان من هذا العام اعتزم الرحلة الى المشرق « تاركا المنصب والاهل والوطن والالف » ، فيما يقول ٠ ولم يفصح لنا عن الظروف التى دعته الى هذه الرحلة ، واكتفى بأن يشير اليها فى ايماءات ملمحة ، نفهم منها انه اضطر اليها كارها ، يقول : « لما قضى الملك الذى ليس لعبيده فى احكامه تعقب أو رد ، ولا محيد عما شاءه سواء كره ذلك المرء اورد ، برحلتى من بلادى ، ونقلتى عن محل طارفى وتلادى ، بقطر المغرب الاقصى الذى تمت محاسنه لولا ان سماسرة الفتن سامت بضائع امنه نقصا ، وطمابه بحر الاهوال فاستعملت شعراء العيث فى كامل رونقه من الزحاف اضمـارا

وقطعا ووقصا (2) • لقد تحاشى المقرى ان يتحدث عن الظروف التى ارغمته على الرحيل، وهي ظروف فيما يبدولى ، كانت تتصل بالواقع السياسى لملكة فاس يومئذ لقد تـولى مولاي زيدان الملك دون أخويه المأمون وأبى فارس ، عام اثنى عشر بعد الالف للهجـرة (1012 هـ) فنشبت بينهم حروب متوالية ، وتميز عهدهم بالاضطراب والفتن والدسائس ، وهي قاسية على العالم ، وعلى الغريب من العلماء أشد قسوة •

سلك المقرى طريق البحر الى مصر ، ولا يشير الى الثغر الذى اقلـع منه واكاد اتصور انه فى المغرب الاقصى أيضا ، ولربما كان طنجه ، اذا ليس فى اشاراته ما يلمح انه عاد الى تلمسان مرة أخرى ، وانما يقول : « ثم جد بنا السير فى البر أياما ، ونأينا عن الاوطان التى اطنبنا فى الحديث حبا لها وهياما ، وكنا عن تفاعيل فضلها نياما ، الى أن ركبنا البحر » •

وصل الى مصر فى أواخر عام سبعة وعشرين بعد الالف للهجرة (1027 هـ) أي بعد شهرين ، تنقص قليلا أو تزيد • وقد عانى المقرى كثيرا من أهوال البحر ومزعجاته ، ولم تكن امواجه الضارية وحدها مبعث الخوف ، وانما الاخطار المحتملة من هجـوم القراصنة ايضا • فقد كان البحر الابيض فى تلك المرحلة مسرحا لصـراع عنيف بين قرصانة من المسلمين والمسيحيين ، وخلف لنا وصفا أدبيا شيقا لما مر به يقول : « الى أن ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السحر والنحر وشاهدنا من أهواله ، وتنافى أحواله ، مالا يعبر عنه ، ولا يبلغ له كنه • فكم استقبلتنا امواجه بوجوه بواسر ، وطارت الينا من شراعه عقبان كواسر » • ويصف الموج بأنه : « يصفق لسماع اصـوات الرياح فيطرب بل ويضطرب ، فكأنه مـن كأس الجنون يشرب أو قد شرب ، فيبتعد ويقترب ، وفرقه تلتطم وتصطفق وتختلف ولا تكاد تتفق » •

ويشير الى الدور الذى كانت تلعبه مالطة فى هذا القرن كمركز لقراصنة المسيحيين ذلك ان الاسطول الاسبانى كان قد تحالف مـع فرسان القديس يوحنا ، فاستقروا فى مالطة ابتداء من عام ألف وخمسمائة وثلاثين للميلاد 1530 م واتخـذوا منها منطلقا لمهاجمة السفن الاسلامية وتدميرها ، فى محاولة للوقوف فى وجـه القوة الاسلامية الصاعدة اذ ذاك ، ممثلة فى الخلافة العثمانية يقول : « وقد نبت بنا من القلق امكنتنا ، وخرست من الفرق السنتنا ، وتوهمنا أنه ليس فى الوجود ، أغوار ولا نجود ، الا السماء

(2) نفح الطيب ، ج 1 ص 28 ، ط القاهرة 1949 •

والماء ، وذلك السفين ومن فى قبر جوفه دفين ، مع ترقب هجـوم العدو ، فى الرواح والغدو لاجتيازه على عدة من بلاد الحرب ، دمر الله سبحانه من فيها ، واذهب بفتحها عن المسلمين الكرب ، لاسيما مالطة الملعونة ، التى يتحقق من خلص من معرتها انه امد بتأييد الهى ومعونة ، فقد اعترضت فى لهوات البحر الشامى شجا ، وقل من ركبه فافلت من كيدها ونجا » (1) ٠

وبلغت الرحلة غايتها ، وأدع المقرى نفسه يصف لحظة الوصول آمنا مطمئنا ، بعد أن وصف لنا الرحلة خائفا مضطربا : « ثم وصلنا بعد خوض بحار ، يدهش فيها الفكر ويحار ، وجوب فياف مجاهل ، يضل فيها القطاعن المناهل ، الى مصر المحروسة فشفينا برؤيتها من الاوجاع ، وشاهدنا كثيرا من محاسنها التى تعجز عـن وصفها القوافى والاسجاع ، وتمثلنا فى بدائعها التى لا نستوفيها ، يقول ابن ناهض فيها :

شاطــىء مصـــر جنـــة	مـــا مثلهـــا فى بلـــد
لا سيمـــا مـــذ زخرفـــت	بنيلهـــا المطـــرد
وللـــريـــاح فوقـــه	ســـوابغ مـــن زرد

(الخ القصيدة(2)

بقى المقرى فى القاهرة قريبا من العام ، وذهل بما رأى ، رغم انه جاءها وهي على حال من العفاء والتدهور بالغة ، فقبل ذلك بقرن ، غداة الفتح العثمانى ، نقل السلطان سليم الاول ، وفى دفعة واحدة ، كل الحرفيين والمهنيين والفنانين ، ورجال العلـم والقانون ونفائس المخطوطات الى القسطنطينية ، ليجعل عاصمة الخلافة الجديدة فى مستوى القاهرة أولا ، وليأمن جانب المثقفين ثانيا ، فترك ذلك اثره فى حياة المدينـة لاعوام طويلة ٠ ومع ذلك اخذ المقرى بحركة المجتمع ، وبهرته محاسن المدينة ، واعجب ايما اعجاب بما يمكن ان نسميه « استمرار الحياة » ، رأى الناس رغم كل المصائـب يقبلون على عملهم فى جد ، ويباشرونه فى حب ، ويكملونه فى اتقان ، تضطرب الحياة من حولهم فيخبون فيها ويضعون ، ويأخذون من صخبها بحظ وافر لكن طاقتهم قادرة دائما على تمثل الخير ، وعزل الشر ، وتجريده من قواه ثم يعاودون سيرتهم من جديد ، فى هدوء منتظم ، وتدفق خلاق ، كأن شيئا لم يجر بالامس ٠

---

(1) نفح الطيب ، ج 1 ص 45 ٠
(2) نفح الطيب ، ج 1 ص 46 ٠

بعد ما يزيد على العام فى القاهرة تهيأ « للمهم الاعظم ، والمقصد الاكبر » وهـو رؤية الحرمين الشريفين ، فسافر الى الحجاز معتمرا ، وعن طريق البحر أيضا ، وكان تاثره بالمشاعر الدينية التى زارها عميقا بالغا ، وأكمل العمرة فى أوائل ذى القعدة من عام ثمانية وعشرين وألف من الهجرة ، ولبث هناك منتظرا حتى يحل موسم الحـج ، فأحرم به ، وحين أحل مما به احرم انتوى الاقامة هناك ، فحال من دون ذلك حائل لـم يفصح عنه ، ولا ألمح اليه ، ولعله أن يكون اقتصاديا بحتا ، فعاد الى مصر من جديد ، فى شهر محرم سنة تسع وعشرين بعد الالف للهجرة ، وبعد شهرين ارتحل الى زيـارة بيت المقدس المسجد الذى اسرى اليه بالرسول عليه السلام ، ثم رجع الى القاهرة من جديد ، وتزوج فى هذه المرة سيدة مصرية من سيدات الاسرة الوفائية ، وهي من أعرق اسر القاهرة معتدا ، بمقاييس ذلك العصر وكل عصر سليم ، فقد تميز البيت الوفائى بالكرم والعلم والتصوف ، ونقابة الاشراف فيهم ولهم طريقة صوفية تنسب اليهم ، وما زالت الطريقة قائمة ، وما زال بيتهم ممتدا ، وان اصاب كليهما ما أصاب الحياة فى مصر من تجدد وتطور ، وذلك يعنى ان المقرى احتل مكانة علمية رفيعة فى المجتمـع القاهرى فى زمن يسير ، مكانة تتيح له ان يصهر فى بيت من أمجد البيوت واعرقها ، وهو رجل غريب لا مال له ولا جاه ·

اتخذ المقرى من القاهرة منطلقا لما حولها ، فكرر الرحلة الى الحجاز وحج واعتمر مرات تبلغ الخمس ، وجاور فى مكة ، ودرس فى الحرم المكى ، وتوقف فى المدينة المنورة واملى فى الحرم النبوى بعض دروسه فى الحديث ، قريبا من مقام الرسول عليه السلام ، أو بمرأى منه ومسمع ، على حد تعبيره · ثم عاد الى القاهرة واتخذ مكانه فى الازهر استاذا مرموقا ، يقول : ثم أبت الى مصر مفوضا لله جميع الامور ، ملازما خـــدمة العلم الشريف بالازهر المعمور » ·

كان طموح المقرى العالم كبيرا ، فعاد الى بيت المقدس ثانية ، فى رجب من عـام سبعة وثلاثين بعد الالف (1037 ـ 1627) ، واقام فيه قريبا من خمسة وعشرين يوما ، القى خلالها عدة دروس بالمسجد الاقصى والصخرة وزار مقام الخليل ومهابط الانبياء ، ومن بيت المقدس فكر ان يزور دمشق « حيث المشاهد المكـــرمة ، والمعاهد المحترمة ، والغوطة الغناء والحديقة والمكارم التى يبارى فيها المرء شانئه وصديقه » ·

دخل المقرى دمشق فى اوائل شعبان فانزله المغاربة فى مكان لا يليق به ، على حد تعبير مؤلف كتاب « خلاصة الاثر ، فى أعيان القرن الحادى عشر ، فارسل اليه احمد

ابن شاهين مفتاح المدرسة الجقمقية فاستقر بها ، واتصل بكثير من ادبـــــاء المدينة واعيانها ، وربطته صلة ود بالشيخ عبد الرحمن عماد الدين مفتى المدينة وكان قـــد تعرف عليه بمكة ايام الحج ، وعلى اخص بالمولى احمد شاهين من الاعيان الادباء ، ووجد من الجميع احتراما واجلالا بالغين واقام فى دمشق دون الاربعين يوما ، تعرف خلالها الى ما حول المدينة ، واستهوته مناظرها الطبيعية ، فردته الى ما فى وطنـــه ، وذكرته بما كان عليه الاندلس واثارت فى نفسه ذكريات عزيزة واشجانا آسية ، فأطنب فى وصف ما رأى من حدائق ، واشاد بما طوقه الناس من جمائل ، وكان امتنانه العلمى فوق ذلك كله وابلغ منه ، ففى الجامع الاموى ، تحت قبة النسر ، اخذ يملـى صحيح البخارى بعد صلاة الصبح ، ولما كثر الناس بعد أيام خرج الى صحن الجامع وحضره غالب اعيان دمشق ، واما الطلبة فلم يتخلف منهم احد ، وكان يوم ختمه حافلا جـدا ، اجتمعت فيه الالوف من الناس ، وعلت الاصوات بالبكاء فنقلت حلقة الدرس الى وسط الصحن ، الى الباب الذى يوضع فيه العلم النبوى فى الجمعات من رجـــب وشعبان ورمضان ، وأتى له بكرسى الوعظ فصعد عليه وتكلم فى العقائد والحديث على نحـــو لم يسمع من غيره فيما قبل ، وأتى على ترجمة البخارى ، ثم نزل عن الكرسى ، فازدحم الناس على تقبيل يده ، وكان ذلك نهار الاربعاء سابع عشر شهر رمضان سنة سبـــع وثلاثين وألف (5) .

كان حديثه مع الناس عن الاندلس ، تاريخه ورجاله ، مأساته وضياعه ، مطنبـــا مستفيضا ، ومؤثرا مثيرا ، وكان كلامه عن آخر شعلة مضيئة فيه ، وزيره وشـــاعره ومؤرخه لسان الدين بن الخطيب ، متدفقا لا ينقطع طليا لا يسئم ، يسرد من شعــــره ونثره ما توحى به المناسبة وتقتضيه وتميل اليه الطباع السليمة وترتضيه ، فأراد أن يكتب لهم ما قص عنه وتحدث به ، واقترح عليه احمد الشاهينى أن يتصدى للتعريف بلسان الدين فى مصنف يعرب عن بعض احواله وانبائه ، وبدائعه وصنائعه ووقائعه ، مع ملوك عصره وعلمائه ، فأجاب تواضعا منه بأن الغرض غير سهل من جهات عديدة ، اولها – وأترك الكلام له – « قصورى عن تحمل تلك الاعباء الشديدة ، اذ لا يوفى بهذا الغرض الا الماهر بطرق المعارف السديدة ، وثانيها عدم تيسير الكتب المستعان بها على هذا المرام لانى خلفتها بالمغرب ، واكثرها فى المشرق كعنقاء مغرب ، وثالثها شغـل

---

(5) خلاصة الاثـر .

الخاطر بأشجان الغربة ، الجالبة للفكر غاية الكربة » لكن الناس شددوا عليه فى الطلب والح عليه المولى أحمد الشاهينى فى التنفيذ ، فوعدهم بالشروع فى المطلب عند الوصول الى القاهرة المعزية » ·

رحل المقرى عن دمشق فى الخامس من شوال عام سبعة وثلاثين بعد الالف وتوجه الى مصر وفى القاهرة عكف على ترتيب مادته ، وجمع شوارد افكاره ، ليفى بما وعد به أهل الشام من تاليف كتاب عن لسان الدين بن الخطيب ، لكن اموره لم تجر على نحو ما أحب ، فوقف به مركب العزم على اتمامه ، واختلفت عليه أحوال الدهر نفعا ودفعا ، ومنحا ومنعا ، فيما يقول هو عن نفسه ، وألمت بأفكاره ساهرا يكتب امور ما خطرت له على بال ، ولم يتحدث عن معوقاته فى هذه الفترة ، كما أن معلوماتنا عن حياته اليومية فى القاهرة تكاد تكون معدومة ، ولكنى فيما درست من حال الرجل أردها الى أمرين ، تحدث هو عن اولهما تلميحا وتصريحا ، واطبق على الاخر صامتا فلم يشر اليه من قريب أو بعيد · أما أول السببين ، فان المشابهة بين طبيعة الشام وبلده حركت فى نفسه حنينا جارفا الى وطنه ، فبدأ يستشعر الغربة بعنف ، ويراها ثقلا معوقا ، يقول وسط صفحات طوال حبرها عن جنان الشام ، واصفا ، وعن أهله ممتنا : « وليت شعرى علام يحسد من ابدل الاغتراب شارته ، وأضعف الاضطراب اشارته وانهل بالدموع انواءه ، وقلل اضواءه ، وكثر علله وادواءه ، وغير عند التامل رواءه ، وثنى عن المأمول عنانه ، وأرهف بالخمول سنانه » ·

وثانى الامرين أن الرجل لم يكن موفقا فى حياته الزوجية ، لكنه لم يرد وهو العالم الاديب ، ذو الخلق الاريب ، لا يكون العالم الا محمود الخلق ان يجعل من حياته الخاصة وهو احد وجهيها والوجه الاخر غيره ، مادة للقصص أو السمر ، فصانها عن المشاركة ، ونأى بها عن اللجج ، وطوى نفسه على صبر جميل ، امسك زوجــه بمعروف ، فلما استحالت معها الحياة سرحها باحسان ، ووضع الطلاق حدا لحياتهما المشتركة ، ومن كانت هذه حاله ، لا يهدأ له بال ! ·

غير ان الحاج صديقه أحمد شاهين لم يتوقف ، فكاتبه يستنجزه ما وعد فعــاد المقرى يتم ما بدأ ، ولعل ذلك كان منه بعد انفصاله عن زوجته واستطاع ان يتم كتابه عن ابن الخطيب فى صورته الاولى خلال بضعة شهور وسماه « عــرف الطيب ، فى التعريف بالوزير ابن الخطيب » تناول فيه حياة ابن الخطيب وصفاته وثقافته ومآثره ، وجانبا من نظمه ونثره · ثم عاد اليه مرة أخرى بعد أن خلص لنفسه ولعلمه ، فأراد ان

يضع له ما يكون كالمقدمة ، يأتى فيها على ذكر الاندلس ، تاريخه واحداثه ورجـاله ، ومدنه والوافدين اليه ، والراحلين عنه ، وما تميز به واثـر عنه ، واستغرقت كتابة المقدمة زمنا اطول ممـا استغرقه كتابه الاصـل ، اذ اتمها فى عام وبضعة أشهر ، فاستطالت حتى ضارعت الاصل نفسه ، حينئذ فكر فى ان يختار للكتاب عنوانا جديدا ، يكون مطابقا لمضمونه ، فكان ذلك الذى انتهى الينا وهو : « نفح الطيب ، من غصـن الاندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » ، وكان انتهاؤه منه ، كما تشير اليه خاتمة الكتاب فى آخر ذى الحجة عام تسعة وثلاثين بعد الالف للهجـرة ، (الموافق 1629 ـ 30 م) وكان المقرى يزمع ان يحمل مؤلفه عائدا به الى دمشق ، ليطلع اصدقاءه ، ومن رغبوه فى تأليفه عليه ، ولكن صحته اعتلت ، ومالبث ان وافاه الاجل المحتوم فى جمادى الآخرة عام واحد واربعين بعد الالف من الهجرة ، (يناير 1632) ، فدفن فى قرافة المجاورين ، قريبا من الجامع الازهر ، الى جوار صفوة ممتازة من علماء كل الارض ، جاءوا القاهرة زائرين أو دارسين رحالة أو مدرسين ، آخى بينهم العلم ، ووحد بينهم الدين .

أمضى المقرى فى القاهرة أربعة عشر عاما ، كان يبعد عنها خلالها أياما لا تتعدى الشهرين أو الثلاثة ، الى الحج ، او بيت المقدس ، كما رأينا ، ثم يعود اليها من جـديد ، وفيما يبدو كان يتردد على الاسكندرية من حين لاخر ، يزور مقامات صوفية الاندلس الذين اتخذوا منها بعد وفاتهم مثوى ، فعندما أورد ترجمة الصوفى الاندلسى أبـو العباس المرسى ، قال ان قبره بالاسكندرية مشهور باجابة الدعوات ، وقد زرته مرارا كثيرة ـ أي المقرى ـ ودعوت الله عنده مما ارجو قبوله . لكننا لا نملك اشارات أخرى الى انه زار مدنا غيرها ، ولو أن واقع الحال ينبىء انه زار مدينة طنطا ولو فى طريقه الى الاسكندرية ليزور أيضا مقام السيد البدوى ، وله فى عالم الصوفية ، وبين عـامة الناس ذكر مستفيض ، وجلال ملحوظ ، ولربما بلغ اعلا الصعيد ليزور فى قنا مقـام سيدى عبد الرحمن القنائى ، وهو صوفى اندلسى من مدينة سبتة ، اختار هذه المدينة القاصية من ارض مصر مقاما .

خلال اقامة المقرى فى القاهرة ألف معظم كتبه ، وسنشير اليها فيما بعد وليس لدينا أي دليل على انه كتب منها شيئا خلال اقامته فى مدينة فاس ، ونتصور انه اعد هناك جذاذات كثيرة ومذكرات حملها معه الى القاهرة الى جانب ما وعاه فى الذاكرة ، وكان حفاظا طيع التذكر ، وجاءت ثمر ذلك مؤلفات كثيرة وصلنا جلها ، وكلها ، الجليـل

منها والعادى ، تعكس ثقافة العصر وفكره وذوقه ، بعضها كتب فى التوحيد دفاعا عن عقائد أهل السنة مثل « اضاءة الدجنة فى عقائد أهل السنة » وبعضها كتب شرحا لمبادئه مثل كتابه « حاشية على شـــرح السنوسية فى التوحيد » وجانب منها كتبه اجـــلالا لمقام الرسول عليه السلام وتقربا منه مثل « فتح المتعال ، فى مـــدح النعال المستشعرة بخير الانام » ، « والدر الثمين فى اسماء الهادى الامين » ، وجانب منها كان وليـــد مالقى فى الشرق من لقاء حسن ، مثل « عرف النشق فى اخبار دمشق » ، او تصـــوفا مثل « حسن الثنافى العفو عمن جنى » ، أو عن علماء بلاده مثل : « روض الآس العاطر الانفاس فى ذكر من لقيته من اعلام مراكش وفاس » ، وطبع اخيرا فى الرباط تحقيق عبد الوهاب المنصور ، واخيرا الف كتابى نفح الطيب ، وأزهار الرياض ، ولنا معهما وقفة اطول » ٠

كان كتاب نفح الطيب آخر ما ألف المقرى من الكتب فيما ارى ، وعلى نحو ما اشرنا اليه من قبل ، فقد توفى بعد اتمامه بقليل ، والكتاب ينقسم الى قسمين كبيرين ، خـــص أولهما للتعريف عن الاندلس ، تاريخا وطبيعة وجغرافية ، بشرا وارضا ومدنا ، منذ أن وطأته قدم أول مسلم الى ان طويت عنه راية الاسلام بعد تسعة قرون من تاريخ مجيد ٠ وخص الثانى للتعريف بابن الخطيب ، موطنـــه واسرته ، صبـــاه وشبابه ، شيوخه واساتذته ، خطاه نحو المجد وتوهجه ، محنه وأحداثه ، حتى وفاته ، وأورد جانبـــا كبيرا من رسائله ونظمه وشعره ، واحصى مؤلفاته وتتبع تلاميذه ، وأولاده ووصاياه فجاء الكتاب موسوعة ضخمة ، شغلت بتقسيم المؤلف نفسه اربعة مجلدات ضخـــام يجرى فيها المقرى على قاعدة الاستطراد ، حسب ما تسوقه اليه شجون الكلام والرواية ينتقل من التاريخ الى الشعر ، ومن الرسائل الى الفقه ، ويترجم لطبيب بجوار محدث ، ولامير بجانب آخر من غمار الناس ، يعلق أحيانا ويوازن أحيانا أخرى ، وينثر ذكرياته دائما ، ولا يلتزم نهجا معينا فى النقل قد ياتى برسالة على كاملها مهما طالت ، كرسالة الشقندى فى مفاخرته بأهل الاندلس مثلا ، وقد يبترها حتى ولو كانت فى الاصل سطورا مختصرة ، وقد يكرر القصة والرواية فى اكثر من موضع ، فيضطرب به النقل ، وتتدافع الاخبار فيما بينها ، ذلك ان الرجل لم يكن فى الكتاب مؤرخا ولا ناقدا ولا محققا ، ولا زعم لنفسه ذلك ، فكان يورد الاخبار كما سمعها او قراها ، فاذا كان بوسعه أن يضيف اليها شيئا من ذاته أو علمه ، مقوما أو مصححا أو معلقا فعل ، والاجاء بها على عهدة اصحابها دون تمحيص ٠ ورغم ذلك فان شخصيته لم تختف من الكتاب ، وانما نجدها

وراء كل سطر فيه ، وتحس وانت تقرؤه بدفء الروح الذى يكتب به المقرى عن الاندلس معجبا بحضارته أو آسيا لفقده ، ودامع القلب دائما لما أصاب المسلمين فيه · كان المقرى فى كتاب النفح ناقلا ومصنفا ونحن ندين له اليوم بنصوص بالغة الاهمية ضاعت اصولها وبقى لنا منها ما دون هو فحسب ، ويضم النفح اشارات الى مئات من الكتب افـــاد منها المؤلف ونقل عنها ، ولا نعرف لها اليوم وجودا غير ما اورد لنــا ، ونستطيع ان نقدر اية كارثة اصابت الثقافة العربية بعامة ، والاندلسية بخاصة ، حينما نتصور ضياع هذا القدر الهائل من المؤلفات فى فترة من الزمن لا تتجاوز الثلاث مائة عام ·

والكتاب المهم الثانى وهو شبيه بالاول فى الدافع ، هو « ازهار الرياض فى اخبار القاضى عياض » ، وخصصه لترجمة الفقيه المالكى الكبير القاضى عياض بن موســى ابن عياض السبتى ، نسبة الى مدينة سبتة ، والمتوفى عام 544 هـ ، وكان فى مجال الفقه والتشريع والحديث صنو ابن الخطيب فى مجال الادب والشعــر والتاريخ ، وحتى حظهما من الاحداث والمحن كان متشابها ، وصنع فى الازهار صنيعه فى النفح ، فذهب به الحديث شجونا شتى ، واستطرد الى وقائع هامة ، واورد وثائق منقطعة النظير تتصل بايام المسلمين الاخيرة فى الاندلس حين اكرهوا على التكثلك ، وتتبعتهم محاكم التفتيش اعداما واحراقا ، وباللحظات الاخيرة للاسلام فى الاندلس عندما استسلمت مدينـــة غرناطة ، سمعها روايات من اناس رأوها راي العيــن ، أو وعوها قصصا يحكى فى الجانب الاخر من العدوة ، وأورد لنا شيئا من نصوص استغاثات هــــؤلاء المسلمين المغلوبين على امرهم الى بقية العالم الاسلامى يستحثونه العون ودفـــع الضر ، فلم يستجب لهم احد بغير الدعوات الطيبات وهي لا تدفع عدوانا ، ولا تخـــرج محتلا ، ولا تحرر وطنا ، ومعظم الوثائق التى اوردها المقرى فى هذا الكتاب ضاعت اصولها ، ومصادر البقية القليلة الباقية ما زالت مخطوطة أيضا ، محجوبة عن أعين الدارسين ·

اختار المقرى القاهرة مقاما ، وفيها لقى ربه وبين ترابها استقر جثمانه ما بقيت الارض ومن عليها ، وكانت القاهرة من جانبها حفية به ، فما أن بدأت ، نهضتها الحديثة ممثلة فى المطبعة والنشر ، حتى كان نفح الطيب من أوائل الكتب التى طبعت فى مطبعة بولاق الحكومية الشهيرة ، فجاء فى أربعة اجـــزاء كبيرة ، وصدر عن اثنين وستين وثمانمائة بعد الالف للميلاد ، اي منذ ما يزيد على عشرة اعوام ومائة · ثم طبع ثانية فى المطبعة الازهرية بعد اثنين وعشرين عاما من هذا التاريخ ، وفى الثلاثينيات اعتزمت دار المأمون ، وكان يشرف عليها الدكتور أحمد رفاعى ان تعيد طبعه محققا مشكولا ،

وعهدت بالتعليق عليه الى العالم الجليل الاستاذ أحمد يوسف نجاتى استاذ الادب العربى فى دار العلوم العليا ، على ما كانت تسمى اذ ذاك ، وكان مقدرا له ان يجيء فى اثنين واربعين جزءا ، غير ان الدار لم تستطع أن تصدر منه غير تسعة اجزاء ، فقد اختار الله لجواره صاحب الدار ، ومحقق الكتاب فتوقف العمل فيه · وفى عام 1949 قامت المكتبة التجارية بالقاهرة باصدار طبعة جديدة كاملة منه ، عهدت بتصحيحها الى الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، شيخ كلية اللغة العربية اذ ذاك ، ورغم انها خير ما عرفت فى السوق ، الا أن بينها وبين الكمال خطوات واسعة ، ثم توالت طبعات الكتاب بعد ذلك نقلا عن هذه الطبعة يصورونها احيانا وينقلون عنها أحيانا أخرى ، أوفياء للجهد الذى بذل فى تصحيحها فيحتفظون باسم المصحح والناشر ، أو تجارا فيحذفونهما دون حياء · كذلك قامت جماعة من المستشرقين باشراف المستشرق الهولندى رينهارت دوزى بنشر القسم الاول الخاص بتاريخ الاندلس ، فى ليدن بهولندا عام واحد وستين وثمانمائة بعد الالف للميلاد 1861 م ، وقد ترجم هذا القسم الى اللغة الانجليزية المستشرق الاسبانى Gayangos عام 1840 أربعين وثمانمائة وألف ، مقرونا بتعاليق وفهارس قيمة ·

وفى الاربعينات عهد بيت المغرب العربى فى القاهرة وكان المركز الذى يوجه منه زعماء المغرب حركات التحرير فى بلادهم ، سياسية وثقافية ، الى جماعة من المحققين المصريين بتحقيق كتاب ، « ازهار الرياض فى اخبار القاضى عياض » ، فقاموا بعملهم على نحو ممتاز ، وأصدروا منه الاجزاء الثلاثة الاولى التى كانت معروفة مخطوطاتها ، اذ ذاك ، اما الجزء الرابع فلم يصدر بعد ، وفيما سمعت يقوم على تحقيقه جماعة من علماء المغرب الاقصى الشقيق ، كذلك قام الاستاذ عبد الوهاب بن منصور اخيرا بتحقيق كتاب « روض الآس العاطر الانفاس ، فى ذكر من لقيته من اعلام مراكش وفاس » ، وقد صدر فى الرباط منذ اعوام خمسة فيما أتذكر ·

لا أعرف من الدراسات الحديثة ما اتجه الى المقرى بدرسه أو يحقق ما تبقى من مؤلفاته مخطوطا ، غير بحث كتبه الاستاذ محمد عبد الله عنان وضمه الى كتابه « تراجم اسلامية ، شرقية واندلسية » وصدر عن دار المعارف بالقاهرة عام 1947 م ، ثم كتاب كامل عن المقرى ، ألفه الاستاذ محمد عبد الغنى حسن ، وصدر فى سلسلة اعلام العرب التى تصدرها المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ، ولعل هناك آخرين ، كتبوا عنه باحثين ودارسين لا يحضرنى ذكرهم ، ولم اطلع على مؤلفاتهم ، وفوق كل ذى علم عليم ·
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ·

لسان الدين بن الخطيب وتراثه الفكري في تلمسان

د. محمد الشريف قـاهر
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن احمد السلماني اليمني الاصل ، اللوشي المولد ، الغرناطي المنشأ والتكوين الفاسي المدفن ، الشهير بلسان الدين بن الخطيب .

ولد في 25 رجب من عـــام 713 هـ ـ 16 نوفمبر 1313 م . بمدينة لوشة (Loja) البعيدة عن غرناطة (Granada) بـ 55 كلمترا ، والتي استقر بها جده الاعلى ـ سعيد ، الذى كان قاضيا بها ، وخطيبا بمسجدها الجامع ، والمعروف بالخطيب ، واليه نســبت الاسرة منذ ذلك الوقت ، وكانوا بقرطبة (Cordoba) يعرفون ببني وزير . (1)

(1) أنظر : المقرى ، نفح الطيب ، ج 7 ، ص : 4 ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان . بدون تاريخ . وانظر كذلك أزهار الرياض للمقرى ، ج 1 ، ص : 186 وما بعدها ، تحقيق : مصطفى السقـا ، وابراهيم الابياري ، وعبد الحفيظ شلبي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1358هـ . 1939م بالقاهرة .

نشأ ابن الخطيب بعاصمة بنى الاحمر ، غرناطة ، على حالة حسنة ، مكنوفا بالعناية ، اذ كان أبوه عبد الله أحد وزراء الدولة ، مكلفا بالتموين وخزائن الطعام ، فتلقى تعليمه على أعظم أساتذة العصر ، أمثال أبى عبد الله بن عبد المولى العواد ، الذى قرأ عليه القرآن الكريم رسما ، وحفظا ، ثم تجويدا ، وأستاذ الجماعة أبى الحسن القيجاطى ، الذى يعترف ابن الخطيب بأنه أول من انتفع به ، وشيخ النحاة فى زمانه الامام الالبيرى أبى عبد الله بن الفخار ، أخذ عنه علوم التفسير ، والفقه ، والعربية ، واختص بالامام أبى زكريا بن هذيل ، فأخذ عنه الفلسفة ، والطب ، وتأدب بالرئيس أبى الحسن على ابن الجياب ، ثم على آخرين كثيرين ممن كانت تزخر بهم عاصمة بنى الاحمر • وقد أطنب ابن الخطيب فى التنويه بأساتذته وشيوخه فى الفصل الذى عقده للتعريف بنفسه ، فى آخر كتابه ، القيم « الاحاطة فى أخبار غرناطة » ، تحت عنوان « المشيخة » كما أورد شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى التلمسانى فى موسوعته الجامعة ، نفح الطيب ، من غصن الاندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، ترجمة وافية لشيوخه استغرقت ما يزيد عن أربعمائة صفحة • (2)

ابن الخطيب السياسى

كان ابن الخطيب يطمح منذ نعومة أظفاره فى الوصول الى منصب سياسى مرموق فى دولة كان أبوه أحد وزرائها ، وكان لابد لكل من يرغب فى الوصول الى مكانة عالية فى الدولة آن ذاك أن تتوفر فيه صفات أهمها : الحسب والنسب والعلم والادب ، أما النسب فليس للانسان فيه خيارا ومن حسن حظ صاحبنا ان كان منتسبا الى عائلة عربية يمنية صريحة ، عزيزة الجانب ، قوية الشكيمة ، قدمت الى الاندلس منذ أيام الفتوح الاولى ، فاستوطنت أول أمرها قرطبة ، ثم نزحت منها الى طليطلة (Toledo) ومن هذه الاخيرة هاجرت الى جنوب الاندلس ، فاتخذت مدينة لوشة مستقرا لها ، ومنها انتقلت الى غرناطة • وأما العلم والادب ، فمن مكتسبات الشخص بعد الجد والكد ، والمثابرة

(2) أنظر : المقرى ، نفح الطيب ، ج 7 ، من ص : 116 الى ص : 408 وج 8 من ص : 4 الى ص : 116 •

والجلد ، الى أن هذا الاكتساب يختلف بين شخص وآخر ، فهذا يجد لديه الطرق ممهدة ، والاسباب متوفرة ، وذاك يبدأ من الصفر ، فلا مال ، ولا جاه ، ولا معين ، فينطلق الاثنان من مركزين مختلفين ، ويشرعان من نقطتين غير متوازيتين ، فيصل هذا باقل صعوبة ، ويتوقف ذاك أو يكاد لعدم توفر الفرص له ٠

فابن الخطيب من النوع الاول ، وجد السبل ممهدة ، والشروط متكاملة ، فبدأ فى الطلب بنهم ، وأخذ نجمه فى الافق يعلو رويدا رويدا حتى اكتملت ثقافته ، وتعددت معارفه ، فأصبح كاتبا مرموقا ، وشاعرا مشهورا ، ومؤلفا كبيرا ، ومشاركا فى جميع ما كان معروفا بين علماء زمانه ، ان لم يكن متفوقا عليهم ، بفضل ذكائه الحاد ، وجده المتواصل ، وتواضعه المحبوب ، وتهافته على اكتساب المعارف ، فأكسب بذلك اعجاب أساتذته ومربيه ، واحترام أنداده وزملائه ، فبدأ فى الصعود درجة فدرجة ، فانخرط أول أمره فى سلك كتاب ديوان الانشاء تحت رئاسة أستاذه أبى الحسن على بن الجياب ، امام البلاغة والكتابة على أيامه ، يعمل مساعدا له ، وأمينا لسره ، حتى اذا جاء عام 749هـ ٠ توفى أستاذه بمرض الطاعون الذى عم الاندلس والمغرب العربى ، وذهب ضحيته جلة من العلماء والادباء ، تولى ابن الخطيب منصب أستاذه فى الوزارة الذى رشحه اليه قبل وفاته ، وأوصى به اليه لدى سلطانه أبى الحجاج يوسف النصرى ، سابع ملوك بنى الاحمر ٠

وابتداء من هذا التاريخ (749هـ) ألقت الدولة النصرية بمقاليدها على كاهل ابن الخطيب ، وهو دون الاربعين من عمره ، فتحملها بصبر وثبات ، فكان الوزير ، والسفير والمؤلف ، والكاتب ، والشاعر ، فلا تكاد تمر عليه سنة الا ويخرج للنور عددا من القصائد والمؤلفات ، فى التاريخ ، والادب، والاصول ، والطب ، والموسيقى ٠

وفى عام 755 هـ ٠ قتل السلطان أبو الحجاج يوم عيد الفطر أثناء صلاة العيد ، وبويع على اثر هذا الحدث ابنه « محمد الخامس » الملقب بالغنى بالله ــ ثامن ملوك بنى الاحمر ــ وعمره لا يتجاوز خمسة عشر ربيعا ، تولى ابن الخطيب أمر البيعة ، فكان للغنى بالله الاسم والشكل ، ولابن الخطيب التنفيذ والسلطة ، فاصبح له كما كان لابيه الوزير ، والامين ، والسفير ٠

ابن الخطيب بالمغرب العربى

جاء ابن الخطيب الى المغرب العربى أربع مرات : مرتين سفيرا ورئيس وفد ، ومرتين لاجئا سياسيا ٠

أ ـ ففى عام 752 هـ على اثر وفاة السلطان ابى الحسن المرينى ، الذى كانت له مواقف مشرفة فى نصرة الاندلس واعانتها ، وتولية ابنه الثائر عليه أبى عنان ، امارة فاس ، بعث أبو الحجاج يوسف النصرى ، وفد تعزية وتهنئة الى المغرب ، برئاسة وزيره ، وأمين سره ، لسان الدين ابن الخطيب ٠

ب ـ وفى عام 755 هـ ، على اثر مقتل السلطان ابى الحجاج ، وتولية ابنه محمد الغنى بالله ، أرسل السلطان الجديد وفدا الى المغرب طلبا للنجدة والمساعدة ، وتجديدا لعهد الصداقة والمودة بين العدوتين : الاندلس والمغرب ، وكانت رئاسة الوفد لابن الخطيب أيضا ٠

جـ ـ وفى اليوم السادس من محرم عام 761 هـ ٠ عاد ابن الخطيب الى المغرب من جديد ، ولكنه فى هذه المرة ليس سفيرا ولا رئيس وفد ، وانما جاء لاجئا سياسيا ، صحبة سلطانه محمد الغنى بالله ، الذى قامت ضد حكمه ثورة أدت الى التجائه الى وادى آش والى سجن وزيره ابن الخطيب ، ومصادرة أملاكه ، وحرق كتبه ، والفضل فى نجاتهما ، يعود الى أبى سالم ابراهيم المرينى ، الذى بعث بشفاعته فيهما الى الحكام الجدد بغرناطة ، الذين أستجابوا لشفاعته أملا فى استمرار المساعدة المغربية للاندلس ، وتوطيدا للصداقة القديمة بين البلاطين ، غرناطة ، وفاس ٠

فاستقر الغنى بالله بعاصمة المرينيين ـ فاس ـ ، تحت رعاية بالغة من سلطانها ، أما ابن الخطيب فقد فضل الاستقرار بمدينة « سلا » التى تقع قرب رباط الفتح ، العاصمة المغربية اليوم ، وهناك ألف ابن الخطيب عددا كبيرا من مؤلفاته ، التاريخية منها والادبية ٠

« ثم ترجح لدى السكون الى العافية ، والتمتع بالبقية ، فجنحت الى السكنى بمدينة سلا ، حيث طنبت الحرمة رواقها ، وأقامت الحسنة بسبب الضريح المقدس أسواقها (3) ،

(3) يشير الى مقبرة « شالة » حيث دفن السلطان الكبير أبو الحسن المرينى ٠

تجرى على النعم ، ويظللنى المجد والكرم ، فلا أعد من عمرى الا أيام مقامى بها ، وسكناى فيها ، تفرغا الى ما أريده من دنيا وآخرة ، وعافية شاملة ، وجنة عاجلة » · (4)

ابن الخطيب يهنىء أبا سالم بفتح تلمسان :

لم تمض على اقامة ابن الخطيب بسلا عدة أشهر حتى وصلت اليـــه أخبـــار استيلاء أبى سالم المرينى على عاصمة الزيانيين ، تلمسان ، هذه المدينة التى تعرضـــت للغزو والســـلب والنهب ثلاث مرات فى حوالى ثلث قرن من الزمن ، فقد احتلهـا لاول مـرة أبو الحسن المرينى بعد معارك طاحنة ، ومحاصرة قاسية ، عام 737هـ · ثم اســـتردها أبو حمو موسى الزيانى على اثر وفاة أبى عنان فى 27 من ذى الحجة عام 759هـ · فدخل تلمسان فى أوائل ربيع الاول عام 760هـ · وبعد سبعة عشر شهرا نرى أبا سالم يجهز الجيوش لغزو تلمسان من جديد ، وفى اليوم السادس من شعبان عام 761هـ · تم لـه الاستيلاء على عاصمة الزيانيين ، فكانت له كما كانت لابيه وأخيه من قبل ، ولكنها لمدة قصيرة جدا · وعلى اثر هذا الحدث بعث ابن الخطيب رسالة تهنئة ، وأتبع الرسالة بقصيدة نونية رائعة ، بدأهما مهنئا بالفتح ، وطالبا العون على استرجاع الملك المغصوب بغرناطة ، ومستشفعا بأبى سالم لدى الثائرين بالاندلس لاعادة أملاكه المصادرة ، منوها بمكانـة تلمسان الاستراتيجية ، وما قاسى أبوه من الاهوال ، ودفع من الاموال والرجال ، مـن أجل احتلالها ، وافتكاكها من بنى عبد الوادى :

« مولاى فتاح الاقطار والامصار ، فائدة الزمان والاعصار ، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار ، قدوة أولى الايدى والابصار ، ناصر الحق عند قصـود الانصـار ، مستصرخ الملك الغريب من وراء البحار ···

فتح تلمسان الذىقلد المنابر عقود الابتهاج،ووهبالاسلام منيحة النصرغنية عنالهياج، وألحف الخلق ظلا ممدودا ، وفتح باب الحج وكان مسدودا ، وأقر عيون أولياء الله الذين

(4) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام فى من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، المنشور تحت عنوان « تـاريخ اسبانيا الاسلامية » ص : 313 ، تحقيق ــ ا ــ ليفى بروفنسال ، دار المكشوف ، ط ، بيروت ، 1956 ·

يذكرون الله قياما وقعودا ، وأضرع بسيف الحق جباها أبية وخدودا ، وملككم حــق أبيكم الذى أهان عليه الاموال ، وخاطر من دونه الاهوال » ٠

وفيها يتعرض ابن الخطيب الى اعتصامه بقبر والده أبى الحسن ، يطلب له الرحمــة والمغفرة ويتوسل به لدى نجله أبى سالم ليشفع له فى رد أملاكه المغصوبة ظلمــا ٠

« وضمن لى حسن العقبى التزاما واشتراطا ، وقد عقد البصر بطريق رحمتكم المنتظرة المرتقبة ، ومد اليد الى لطائف شفاعتكم التى تتكفل بعتق المال كما تكلفت بعتق الرقبة »٠

فالرسالة كما نرى سياسية ، اتخذ ابن الخطيب فتح تلمسان مناسبة لعرض مطالبه ، وسلما لقضايا مآربه ٠

وأما القصيدة فهى تقع فى مائة وخمسة أبيات ، استهلها بالتهنئة ثم انتقل الى وصف تلمسان ، وما تحتله من مكانة مرموقة بين الاقطار والبلدان :

أطاع لسانى فى مدحيك احســانى	وقد لهجت نفسى بفتح تلمســان
فاطلعتها تفتر عن شنب المنى (5)	وتسفر عن وجه من السعد حسانى
كما أبتسم النوار عن أدمــع الحيا	وحف بخد الــورد عارض نيسان
كما صفقت ريح الشمــال شمولهــا	فبان ارتياح السكر فى غصن البان
تهنئــك بالفتــح الذى معجزاتــه	خوارق لم تذخـر سواك لانســان

* * *

ولـلـه عينـا مــن رآهـا محلــة	هى الحشر لا تحصى بعــد وحسبان
وتنــور عــزم فار فى اثر دعوة	فعــم الاقــاصى والادانى بطوفــان
عجائب أقطــار ومـألف شــارد	وأقــلاد آفــاق وموعــد ركبــان
اذا ما سرحت اللحظ فى عرصاتها	تبلد منك الذهن فى العالم الثانى
جناحان والنصر العزيــز اهتصاره	اذا انتظمت بالقلب منهــا جناحان

(5) يقال ثغر شنيب : اذا كان ذا أسنان حسنة بيضاء ، رائحتها طيبة ، والمشانــب : الافواه الطيبة الجميلة ٠

فمن سحب لاحت بها شهب القنا ... ومن كثب بيض بدت فوق كثبان
مضارب فى البطحاء بيض قبابها ... كما قلبت للعين أزهان سوسان
وما ان رأى الراؤون فى الدهر قبلها ... قرارة عز فى مدينة كتان
تفوت التفات الطرف حال انتقالها ... كأنك قد سخرت جن سليمان
فقد أطرقت من خوفها كل بيعة ... وطأطأ من اجلالها كل ايوان

وبعد المدح ، ووصف الجيش وسلاحه ، ينتقل الى استعراض أيادى أبى سالم عليه ، وما جناه عليه الدهر ، ثم حنينه الى وطنه ، ومهد أحبابه :

أمولاى حبى فى علاك وسيلتى ... ولطفك بى دأبا بحمدك أغرانى
فلا جحد ما خولتنى من سجيتى ... ولا كفر نعماك العميمة من شانى
ومهما تعجلت الحقوق لاهلها ... فانك مولاى الحقيق وسلطانى
وركنى الذى لما نبابى منزلى ... أجاب ندائى بالقبول وآوانى
وعالج أيامى وكانت مريضة ... بحكمة من لم ينتظر يوم بحران (6)
فأمننى الدهر الذى قد أخاننى ... وجددنى السعد الذى كان أبلانى
فأمننى الدهر الذى قد أخافنى ... يقبل أردانى ، ومن بعد أردانى (7)
وأزعجنى عن منشىء ومبوىء ... ومعهد أحبابى ومألف جيرانى
بلادى التى فيها عقدت تمائمى ... وجم بها وفرى وجل بها شانى
تحدثنى عنها الشمال فتنثنى ... وقد عرفت منى شمائل نشوان
وآمل أن لا أستفيق من الكرى ... اذا الحلم أوطانى بها ترب أوطانى
تداركت منى بالشفاعة منعما ... وقدفت ما ألفيت من يتلافانى
فلولاك بعد الله يا ملك العلا ... بريا رماه الدهر فى موقف الجانى (8)

---

(6) البحران : التغير الذى يحدث للعليل فجأة فى الامراض الحمية الحادة ، ويصحبه عرق غزير ، وانخفاض سريع فى الحرارة • المعجم الوسط ، مادة : بحر •

(7) أردانى الاولى بمعنى ثيابى ، والثانية بمعنى قتلنى ، وفى البيت جناس تام •

(8) أنظر الرسالة والقصيدة فى « نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » ، لابن الخطيب ص : 91 — 101 ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1968 •

العـــودة الى الاندلس

لم ينعم ابن الخطيب طويلا بتلك الجنة العاجلة ، والعافية الشاملة ، التى كان يحياها بمدينة سلا ، فقد وصلت اليه أخبار من سلطانه « محمد الغنى بالله » بالاندلس ، يعلمه فيها باستعادة ملكه ، والقضاء على خصومه ، ويطلب منه الاسراع فى الالتحاق به ، ليتسلم مهام وزارته من جديد ، فما على ابن الخطيب الا أن يقلع عن الهدوء والراحة ، ويلتحـــق بعاصمة حكومته ، وتسند اليه رئاسة الوزارة ، ويلقب لاول مرة بذى الوزارتين : وزارة السيف والقلم ، ويصبح الرجل الاول فى الدولة لحوالى عشرة أعوام ·

« وخلا لابن الخطيب الجو ، وغلب على هوى السلطان ، ودفع اليه تدبير الدولـــة ، وخلط بنيه بندمائه ، وأهل خلوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ··· وانصرفت اليه الوجوه ، وعلقت عليه الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطـان وحاشيته ، فتفننوا فى السعايات فيه وقد صم السلطان عن قبولها · ونمى الخبر بذلك الى ابن الخطيب ، فشمر عن ساعده فى التقويض عنهم » (9) ·

* * *

وهكذا كثر حساد ابن الخطيب ، وكل ذى نعمة محسود ، فشعر بهذه العيون التى ترمقه بحقد دفين ، وبغض كمين ، وأدرك ما يحاك ضده فى الخفاء من دسائس ومؤامرات فأظلمت فى عينيه الدنيا ، وضاقت عليه الارض مع رحبها ، ولعلنا لا نجد عبارات تصف لنا هذه الفترة من حياته الحرجة أحسن مما سطرته يداه ، وأملاه فكره ، ودبجه يراعه ·

« وصرت انظر الى الوجوه ؛ فألمح الشر فى نظراتها ، وأعتبـــر الكلمات ، فأتبـــين الحسائف فى لغاتها ، والصبغة فى كل يوم تستحكم ، والشر يتضاعف ، ونعمة الولـــد تطلق لسان الحسود ، وشبع الكلاب المطيفة فى تهيج حسائف النمور الجائعة والاســود ، والاصحاب الذين تجمعهم المائدة كل يوم وليلة يفتنون فى الاطراء والمديح ، وتحسين ،

(9) ابن خلدون ، عبد الرحمن ، « كتاب العبر ، وديوان المبتدا والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر » ، م 7 ، ص : 694 — منشــورات دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ، بيروت ، 1968 ·

القبيح ، والمحالات فى الغى ، والتقرب بالسعى ، أنظر اليهم يتناقلون الاشارات بالعيون، والمغامزة بالجفون ، والمخاطبة باللغوز ، فاذا أنصرفوا صرف الله قلوبهم ، فقلبوا الامـور ، ونقلوا العيوب ، وأفسدوا القلوب ، وتعللوا بالاحلام ، وقواطع الاحكام » . (10)

ابن الخطيـب بتلمســان

فى مثل هذا الجو المشحون بالدسائس والمؤامرات ، قرر ابن الخطيب مغادرة الاندلس والالتجاء الى المغرب العربى ، حيث الهدوء والامن على النفس ، والمال ، والولد . فطلب من سلطانه السماح له باداء فريضة الحج ، وزيارة الديار المقدسة ، حسبما اشترط عليـــه يوم قدومه من المغرب ، ولكن الغنى بالله ، يماطله مرة ، ويمانعه أخرى ، والشر يتضاعف كل يوم ، والاحقاد تزداد ، وأخذ يرى الاخطار محدقة به من كل جانب ، فذهبت ثقته فى الاصحاب والطلاب ، وصار يسهر الليل ، ويتوقع الشر بين لحظة وأخرى .

تلون اخوانى عـــلى وقـــد جنـت	عـلى خطوب جمـــة ذات ألــوان
وما كنت أدرى قبـــل أن يتنكـروا	بأن خـــوانى كان مجمـع خوانى
وكانت وقـد حـــم القضاء ضائعى	عـلى ، بمـا لا أرتضى شر ، أعـوانى

فقرر الخروج من هذه البلاد الظالم أهلها ، والالتجاء الى تلمسان ، حيث السلطـان المرينى أبو فارس عبد العزيز ينتظره بكل حفاوة وصدق وأمان ، ومن هناك يشد الرحال الى الديار المقدسة ، لاداء فريضة الحج ، وسنة الزيارة .

« وقلت أحج نفسى ، وأقضى فرضى ، وأشغل الناس بغيرى ، وأكون بعد ذلك محكما من أمرى » . (11)

وفعلا خرج ابن الخطيب من الاندلس لآخر مرة فى غرة جمادى الاخيرة من عام 772 هـ . والتحق بتلمسان ، حيث تلقاه أبو فارس بالترحاب والتكريم ، ثم التحق به أهلـــه ، بطلب من السلطان المرينى ، وتحت رعايته ، وبدأ أبن الخطيب يستعد للرحلة الى المشرق ،

---

(10) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص : 316 .

(11) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام السابق ، ص : 317 .

وفكر فى هدية يحملها معه الى اخوانه علماء المشرق وأدبائه فلم يجد أفضل من الادب ، وأعز من بنات القرائح ، وولائد الافكار ، فعكف على التاليف ، وشرع فى جمع المعلومات لكتابه القيم » ·

« الكتيبة الكامنة فى من لقيناه بالاندلس من شعراء المائا الثامنة » هذا الكتاب الذى يعد بحق تحفة أدبية رائعة ، ترجم فيه لثلاثة ومائة من الادباء ، قلما نجد لهم ترجمة فى الكتب الادبية الاخرى المعاصرة منها ، وغير المعاصرة ·

وقد قسم الكتاب الى أربع طبقات :

أ ـ طبقة الخطباء الفصحاء ، والصوفية الصلحاء (1 ـ 19) ·

ب ـ طبقة المقرئين والمدرسين ، والممهدين لقواعد المعارف والمؤسسين (20 ـ 30) ·

جـ ـ طبقة القضاة أولى الخلال المرتضاة (31 ـ 54) ·

د ـ طبقة من خدم أبواب الامراء من الكتاب والشعراء (55 ـ 103) ·

وفى مقدمة الكتاب، يشعرنا ابن الخطيب بأنه قد طلق الدنيا، ونفض يديه من أوطارها، ونبذ السياسة وأوزارها ، والمسؤولية وأعباءها ، حيث يقول :

« أما بعد فانني لما استوفيت أوطارى ، واسكملت أدوارى ، وتشوفت ظلمى الى مطالع أنوارى ، واستوعبت من صحبة المغرب حصتى ، وختمت بالدعاء قصتى ، ونزلت عن منصتى ، وابتلعت غصتى ، ومن بعد أن لبست دنياه فأخلقت ، وبنيت بمبانيه المشيدة وطلقت ··· واستعادتنى الدنيا فتجنيت وتعللت ، وأخبرتها أنى قد مللت وأمللت ··· » · (12)

وفى تلمسان ألف ابن الخطيب كتاب « المباخر الطبيعية فى المفاخر الخطيبية » قدمه للسلطان المرينى عبد العزيز ، ذكر فيه نباهة سلفه ، وما لهم من المجد التليد ، والمكانة المرموقة على مر التاريخ ، وكان قصده الرد على اعدائه بالاندلس ، المجاهرين له بالعدوان ، والقادحين فى فخر سلفه ، ونباهة أصله ونجاره (13) ·

(12) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص : 27 ، تحقيق الدكتور احسان عباس نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ·

(13) المقرى نفح الطيب ، ج 7 ، ص : 108 ·

كما ألف بتلمسان كتاباً آخر ، يعتبر طرفة أدبية نادرة ، أسماه ، خلع الرسن فى فى التعريف بأحوال أبن الحسن » جمع فيه نوادر وحكايات مضحكة ، عن القاضى النباهى، الذى أفتى بحرق كتبه ، ومصادرة أملاكه ، واتهمه بالزندقة والمروق من الدين والنيل من ذات الرسول الكريم • (14)

وقد ذكر الاستاذ الكريم الفقيد محمد بن أبى بكر التطوانى أن صديقا له بمراكش اعلمه باطلاعه على هذا ألكتاب ضمن مجموع يملكه القاضى السيد ابن الحسن • (15)

كما أن الكتاب قد اطلع عليه المقرى ، ونقل منه قول ابن الخطيب فى وصفه : « انه لا شىء فوقه فى الظرف والاستظراف ، يسلى الثكالى ، ونستغفر الله تعالى » • (16)

أما كتاب « المباخر الطبيعية » فلم يعثر له على أثر لحد الآن ، وهو لم يحرق بالتأكيد، لأنه ألف بتلمسان ، لا بالاندلس حيث نال انتاجه التلف والاحراق ، وقد ألفه ابن الخطيب قبل الكتيبة الكامنة ، لاننا نراه يورد لنا مقطوعات قالها أحد أصدقائه تقريظا للكتاب بعد اطلاعه عليه ، أو اهدائه اليه ، فقال عند الحديث عن القاضى عبد الله ابى محمد بن عبد الله بن خديم اللخمى الغرناطى ، وأنشدنى لما صنفت « المباخر الطيبية فى المفاخر الخطيبية » جملة مقطوعات منها قوله :

جميع المباخر محتاجة	سواى لتجديد نار وطيب
بجمر الذكاء وطيب الثناء	غنيت انتسابا الى ابن الخطيب

وقال فيها أيضا :

مباخر الطيب لها غاية	من بعدها تحتاج تجديد طيب
وهذه تعبق طيبا متى	تعزى الى منشئها ابن الخطيب (17)

---

(14) أبو الحسن النباهى ، (تاريخ قضاة الاندلس) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، ص : 202 • المكتب التجارى بيروت

(15) الفقيد التطوانى ، ابن الخطيب من خلال كتبه ، ج 2 ، ص : 47 ، دار الطباعة كريماديس تطوان 1909 •

(16) نفح الطيب ، ج 7 ، ص : 108 •

(17) الكتيبة الكامنة ، ص : 145 •

نهاية ابن الخطيب

لم يستقر ابن الخطيب طويلا بتلمسان ، بسبب وفاة السلطان عبد العزيز المرينى . وانتقال الوزير الوصى الى مدينة فاس ، التى اتخذها مقرا للدولة ، وصحب معه ابن الخطيب ، وحفظ له جميع امتيازاته ، وامتنع من تسليمه لحكام غرناطة ، الذين أعادوا الكرة تلو الاخرى فى اقامة الحد على ابن الخطيب أو تسليمه لينفذ فيه حكم الشرع والقانون ، هذا الامتناع أدى الى تشجيع المطالبين بعرش المرينيين من السلطان الغرناطى واشترط هذا الاخير من الثائرين على الوزير الوصى ، ابن غازى ، تسليم ابن الخطيب ، حالما يتم لهم النصر ، وفعلا ، انتهت بانتصار السلطان الجديد « ابى العباس » ودخوله العاصمة والقاء القبض على ابن الخطيب ، وتقديمه للمحاكمة ، بحضور ابن زمرك ، فوجهت الى السجين تهم ظاهرها ، الزندقة والمروق من الدين ، وباطنها ، السعى للقضاء على دولة بنى الاحمر ، واحلال المرينيين محلها ، فافتى بعض الفقهاء بقتله ، وفى الليل طرق عليه السجن جماعة من الاوغاد ، حضروا من الاندلس ، فقتلوه خنقا ، وأخرج شلوه من الغد ، فدفن بمقبرة باب المحروق ، « ثم أصبح من الغد على حافة قبره طريحا ، وجمعت له أعواد ، وأضرمت عليه نار ، فاحترق شعره ، واسود بشره ، فأعيد الى حفرته ، وكان فى ذلك انتهاء محنته » . (18)

أبو حمو الزيانى وابن الخطيب

ولد أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بغرناطة عام 722هـ أو 723هـ . على رأى يحيى بن خلدون (19) وبويع بتلمسان بعد صلاة الظهر من يوم الخميس فى شهر ربيع الاول 760هـ . وعمره آنذاك حوالى 38 سنة .

وكان أبو حمو أديبا ، يحب الادباء ، ويجيز الشعراء ، له مجالس خاصة يحضرها كبار العلماء ، وفحول الشعراء ، تناقش فيها قضايا العلم والادب ، فلا تكاد تعرض مسألة

(18) المقرى ، نفح الطيب ، ج 7 ، ص : 39 .

(19) بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، ج 2 ، ص : 15 الطبعة الاولى ، مطبعة فونتانة ، الجزائر ، 1903 — 1910م .

الا ولأبى حمو فيها رأى محمود ، ونقد بناء ، فقد وصفه المقرى بأنه « يقرض الشعــر ، ويحب أهله (20) ·

وكانت ليلة المولد النبوى الشريف من الليالىالمشهورة فى دولته، وكان أول ما يبدأ به الاحتفال انشاد قصيدة أبى حمو ، ثم يتلوه الشعراء الآخرون ، وقد نقل الينا المقرى ، فى أزهاره ، ونفحه ، صورة رائعة عن هذه الاحتفالات · (21)

ولابى حمو شعر يمثل عصره ، أغراضــا ، وأســـلوبا ، موزعا بين كتب الادب ، والتاريخ ، وقد جمع له الاستاذ عبد الحميد حاجيات ، عددا من قصائده ، فى السياسة ، والرثاء ، والدين · (22)

واهتمام الملوك والامراء والوزراء بالشعر ، من اختصاصات القرن الثامن الهجـرى ، فى المغرب والاندلس · ذكر أبو الوليد اسماعيل بن الاحمر عند الحديث عن أبى حمو موسى ، أن السلطان عبد العزيز المرينى ، لما دخل مدينة تلمسان عام 772هـ · وجــد فى حائط قصرها ثلاثة أبيات من شعر السلطان أبى حمو ·

ســـــكناها ليــــالى آمنينـــــا	وأيــامــا تســـــر الناظـرينـــا
بناهــا جدنــا الملــك المعـــلى	وكنــا نحــن بعــض الوارثينـــا
فلمـــا أن جلانــا الدهــر عنهـا	تركناهـــا لقـــوم آخرينــــا

فأمر السلطان عبد العزيز بتغييرها ، فقالوا فى التبديل :

ســكناهـا ليــالى خائفينـــــا	وأيامـــا تســـوء الناظرينـــا
بناهـــا جدنــا شيــــخ المعاصى	وكنـــا نحـــن شر الوارثينـــا
فلمـــا أن جلانــا الســـيفعنها	تركناهـــا لقـــوم عالبيـــنا (23)

(20) أزهار الرياض فى أخبار عياض ، ج 1 ، ص : 249 ·

(21) المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 243 ، ونفح الطيب ، ج 9 ، ص : 215 ·

(22) أبو حمــو موسى الزيانى ، حياتــه وآثاره ، الشركـــة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1394 هـ — 1974 م ·

(23) روضة النسرين فى دولة بنى مرين ، ص : 56 ، المطبعة الملكية ، بالرباط 1382 هـ — 1962 م ·

ومما تجدر ملاحظته هنا أن ابن الاحمر هذا ، قد تحامل كثيرا على سلاطين بنى عبد الوادى ، ووصفهم بأوصاف بعيدة عن الحقيقة والواقع ، نعتهم بالجبن والبخل ، وسوء التدبير ، ويبدو أنه وسمهم بذلك ، تقربا الى أسياده ملوك بنى مرين ، أعداء بنى عبد الوادى • ونظرة خاطفة الى ما كتبه عن هذه الاسرة الزيانية المؤرخان الكبيران لهذا العصر ، ابن خلدون ، وابن الخطيب • تعطينا صورة بارعة من البطولة ، والصفات الكريمة التى يتصف بها أغلب ملوكهم ، يقول ابن خلدون فى أول ملوك الاسرة الزيانية : « وكان يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد من أشد هذا الحى بأسا ، وأعظمهم فى النفوس مهابة وجلالة ، وأعرفهم بمصالح قبيله ، وأقواهم كاهلا على حمل الملك ، واضطلاعا بالتدبير والرياسة » • (24)

وقال فى أبى حمو موسى ، « وكان صارما يقظا ، حازما داهية ، قوى الشكيمة ، صعب العريكة ، شرس الاخلاق ، مفرط الذكاء والحدة » •

ويقول ابن الخطيب فى أرجوزته ، متحدثا عن أول أملاكهم : « يغمراسن » • (25)

أول أملاكهم يغمور	ليث الشرى والبطل المشهور
تثنى عليه حومة الميدان	ما لا مرىء ببأسه يدان
لاقى الجموع من بنى مرين	كالليث يحمى جانب العرين

ويعلق على أبياته هذه قائلا : ـ بعد التعريف بنسب أبى يحيى يغموراسن وكان •••• آية من الآيات فى جرءته ورجولته ، وجزالته ودهائه ، ومواقفه شهيرة ••• وسياسته عجيبة • (26)

وبعد أن استعرض أسماء من أتوا بعد أبى يحيى ، وأعمالهم ، ختم الحديث عنهم بأبى حمو الذى توفى ابن الخطيب ، وهو لا يزال على أريكة ملك بنى زيان بتلمسان :

(24) العبر ، ج 7 ، ص : 162 •

(25) المصدر السابق ، ج 7 ، ص : 203 •

(26) ابن الخطيب ، رقم الحلل فى نظم الدول ، ص : 70 ، المطبعة العمومية بحاضرة تونس ، 1316 هـ •

حتى اذا ما فارس زار الثرى واضطرب الملك لما بعد جرى
بادرها الندب الهمام موسى فاذهب الرحمن عنها البوسا
جدد فيها الملك لما خلقا وبعث السعد وكان قد لقا
ورتب الرتب والرسوما وأطلع الشموسا والنجوما
واختزن المال بها والعدة وهو بها باق لهذى المدة

ويعلق ابن الخطيب على أبياته ، شارحا ، وموضحا ، بقوله : « وأميرهم اليوم ـ يقصد أبا حمو ـ مجمع على حزمه ، متفق على اضطلاعه ، حزما ، وعزما ، وحربا ، وسلما ، ومحاولة واقتناء ، والله المسؤول فى اعانته ، واعانة من تولى أمرا من أمور المسلمين • (27)

وعلاقة ابن الخطيب بأبى حمو قديمة راسخة ، لعلها ابتدأت بغرناطة ، مسقط رأس أبى حمو ، ومنشأ ابن الخطيب ، ومقر وزارته وتكوينه ، وسكناه • وتوثقت فى المغرب العربى ، الذى تردد اليه ابن الخطيب عدة مرات •••

وكانت الرسائل بينهما متواصلة غير منقطعة ، سواء على الصعيد الرسمى ، بين الدولتين ، أو على الطريق الشخصى ، بين الصديقين ، ونرى ابن الخطيب ، رغم انحيازه الى بنى مرين ، أعداء بنى زيان ، لم ينفك عن اتصاله الوثيق بأبى حمو موسى ومراسلاته فى كثير من المناسبات ، ففى أواخر عام 774 هـ • على اثر استرداد أبى حمو لعاصمة ملكه وذلك بعد وفاة السلطان الشاب عبد العزيز المرينى بعث ابن الخطيب بقصيدة يهنئه فيها بهذه المناسبة ، وفى مطلعها نلمس أن احسان السلطان الزيانى يصل الى الشاعر باستمرار ، وأن مساعدته ترد عليه وهو بفاس :

وقف الهواء على ثناك لسانى رعيا لما أوليت من احسان
فكأنما شكرى لما أوليته شكر الرياض لعارض النسيان
أنا شيعة لك حيث كنت ، قضية لم يختلف فى حكمها نفسان
ولقد تشاجرت الرماح فكنت فى ميدان نصرك فارس الفرسان
ورويت غر مآثر اسديتها لعلاك بين صحائح وحسان

(27) المصدر السابق ، ص : 72 •

ولانـت أولى بالتشيـع شيمـة | لـم تتفـق لســواك مـن انسان
الشمس أنت قد انفردت وهل ترى | بـين الــورى فى مطلـع شمسان
جبرت بجبرك كـل نفس حـرة | ولقـد تشاجرت الرماح فكنـت فى
ميـدان نصرك فـارس الفرسـان | وشـدا بشكـر الله كل لسـان
وبدت سعـودك مستقيما سيرها | وعلـت ففـر أمامهـا النحسـان
فاستقبل السعـد المعاورد سافرا | عـن أى وجـه للـرضى حسـان
وابـغ المزيـد بشكـر ربك ولتثق | بمضـاعف الانعـام والاحسـان
فالشكر يقتـاد المزيـد ركائبـا | تنتاب بابـك منـه فى أرسـان
ثـم السلام عليـك يـزرى عـرفـه | طيبـا بعرف العـود والبلسان (28)

(والبلسان شجر له زهر أبيض صغير بهيئة العناقيد ، وهو من الفصيلة البخورية ، ويستخرج من بعض أنواعه دهن عطر الرائحة ـ المعجم الوسيط ، ج ، ص : 68) ٠

وفى ديوان ابن الخطيب مقطوعتان يشيد فيهما الشاعر بمساعدة أبى حمو للاندلس ، ووقوفه معها فى الدفاع على معاقل العروبة والاسلام بالفردوس المفقود :

لقـد زار الجزيـرة منـك بحـر | يمـد فليس نعـرف منـه جـزرا
أعـدت لهـا بعهـدك عهد موسى | سميـك فهى تتلـو منـه ذكـرا
أقمت جدارها وأفـدت كنـزا | «ولو شئت اتخذت عليه أجرا» (29)

ويقول فى الاخرى :

وقالـوا الجزيـرة قـد صوحت | فقلـت غمـام النـدى تنتظـر
اذا وكفـت كـف موسى بهـا | غماما يعـود الجنـاب الخضر (30)

---

(28) انظر القصيدة فى أ ـ بغية الرواد فى ذكـر الملوك من بنى عبد الواد ، ج 2 ، ص : 280 ـ ب : نفح الطيب ، ج 9 ، ص 203 ـ وبين المصدرين خلافات فى بعض الكلمات ، مثل كلمة الهواء التى وردت فى النفح الغرام ، من البيت الاول ٠٠٠

(29) ديوان : الصيب والجهام ، والماضى والكهام ، بتحقيقنا ، ص : 542 ط ، الشـركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1973 ، الجزائر ٠

(30) المصدر السابق : ص ، 539 ٠

ويبدو أن بنى زيان لم تتركهم ظروفهم الخاصة باعـانة الاندلس عسكريا ، ومدهـا بالاسلحة والجنود ، وانما ساعدوها بالاموال ، وانجدوها بالتموين ، وفى « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » عدة رسائل لابن الخطيب ، فيها شكر وثناء ، وامتنان واعتراف بالعرفان والجميل ، من بنى الاحمر ، لدولة بنى عبد الواد ، على ما أمدت بهـا بلادهم « مملكة غرناطة » من مساعدة وعون ، وتشجيع على مقارعة العدو المتكالب ، الذى لا يرحم الصغير ، ولا يشفق على الكبير ، وفى القصيـــدة ، التى وجهها ابن الخطيب الى أبى حمو أواخر عام 775 هـ · عند استشعاره المخافة من المرينيين . وتسليمه الى أعدائه بغرناطة ، اشارات واضحة الى مساعدة أبى حمو للاندلس ·

والقصيدة طويلة تقع فى مائة وأربعة عشر بيتا (114) بدأها بالغزل التقليدى ، ومنه انتقل الى مدح أبى حمو ، وتعداد صفاته العظيمة : من شجاعة ، ووقار ، وكرم ، وحلم ، وغزارة علم ، واحكام سياسة ، ثم انتقل الى الحديث على ما أمد به الاندلس العربية المسلمة من سبائك موسومة لا تعرف التدليس ، وما ملأ أيديها من نوال وعطاء ، ثم ختم القصيدة بالاشارة الى رغبته فى الالتحاق بتلمسان ، واستقراره فيها ، لينعم بالهدوء والاطمئنان ·

والقصيدة ، على وجه العموم ، رائعة ، اذا وضعت فى اطارها الزمنى ، بحيث ان الذى يريد ان يختار منها بعض الابيات ، أو يحذف منها بعضها ليجد صعوبة فى ذلـك ، فهى متسلسلة المعانى ، عذبة الالفاظ ، سهلة التعبير ، فلا تكاد تحتاج الى قاموس تستشيره فى شرح كلماتها تمثل عصرها احسن تمثيل فى استعمال المحسنات اللفظية والمعنوية من جناس ، واقتباس وتوريه ، وطباق ، وغيرها من أسلوب البديع ، الذى افتتن بـــه أدباء هذا القرن، فى المشرق والمغرب على حد سواء ، افتتانا كبيرا، حتى عد من لم يستعمله فى أسلوبه ، ناقص الثقافة ، قليل الاجادة والابداع :

أطلعن فى ســدف الفـــروع شمـــوسا ضحك الظـلام لهـا وكان عبـــوسا (31)
وعطفـــن قضبـــا للقـــدود نواعمـــا بـوئـــن أدواح النعيـــم غـروســـا
وعـدلـن عـــن جهـــر الســلام مخافـة الـوشى فجئـــن بلفظـــه مهمـــوسا
وسفـــرن مـــــن دهش الـــوداع وقـــومهن الى التـــرحل قـد أنا ضوا العيسا

(31) السدف : الظلام ، والفروع : شعرهن ، وأراد بالشموس ، وجوههن ·

قـــل للـــزمن اليك عن متـــذمم بضمان عـــز لم يكن ليخيسا (32)
واذا طغـــا فرعـــونه فانا الـــذى مـــن ضره وأذاه عـــذت بمـوسى
بحمـــى أبى حمـو حططت ركائبى لما اختبرت الليـث والعريسا (33)
أسد الهيـــاج اذا خطا قـدما سطا فيخلف الاســـــد الهزبر فـريسا
بدر الهـــدى يأبى الظـلال ضياؤه ابدا فيجلو الظلمـة الحنديسا (34)
جبل الوقار رســـا وأشرق واعتـلى وسيما فطأطأت الجبـــال رؤوسا
غيث النـــوال اذا الغمـام حلوبة مثلت بأيـــدى الحالبين بســـوسا
تلقـــاه يـــوم الانيس روضا ناعما وتـــراه بأسـا فى الهياج بئيسـا
كـم غمـرة جـلى ، وكم خطب كفى ان أوطـأ الجـــرد العتـــاق وطيسا
كـم حكمة أبـــدى وكم قصد هدى للسالكـين أبـان منه دريسا (35)
أعـــلى بنى زيـان والفـذ الـــذى لبس الكمـــال فـزين الملبـوسـا
جمع الندى والباس والشيم العلا والسـؤدد المتواتـر القدموسا (36)
والحلـم ليس يبايـــن الخلق الرضا والعلم ليس يعـــارض النامـوسـا

* * *

من انكر الفضل الـــذى أوتيتـــه جحـد العيـــان وانكـر المحسوسا
مـــن دان بالاخـلاص فيك فعقده لا يقبـــل التمـويـــه والتلبيسـا

* * *

أما سياستـك الـــتى أحكمتهـــا فرميـت بالتقصـــير أسطا ليسـا
فلو أن كسرى الفرس أبصر بعضها ما كان يطمـع أن يعـــد سؤوسا

---

(32) المتذمم : المستنكف . وخاس فلان العهد : نقضه وخانه . ويقال : خاس بالعهـد ، وخاس فيه .

(33) الغريس : الشجر الملتف يكون مأوى للاسود .

(34) الحنديس : الشديد الظلمة .

(35) الدريس : الطريق الخفى .

(36) القدموس : القديم .

لو سار عدلك فى السنى لما اشتكت	بخسا ولم يـك بعضهـن كبيسـا
ولو الجـــوارى الخنس انتسبت الى	أقوام عزك ما خنسن خنوسا (37)

* * *

قدت الصعاب فكل صعب سامـــح	لك بالقياد وكان قبـل شمـوسـا
تلقى الليوث وللقتـــام غمامـــة	قـــدح الصفيـح وميضها المقبوسا
وكأنها تحـت الـــــدروع أراقـــم	ينظرن من خلل المغافر شوسا (38)

* * *

ما لابن مامة فى القديـــم وحاتـــم	ضرب الزمان بجودهم ناقوسا (39)
من جاء منهـــم مثل جـــودك كلما	حسبوا المكـارم كسـوة أو كيسـا
أنــت الـذى افتك السفين وأهلـــه	اذا أوسعت سبـل الخلاص طموسا

انت الذى أمددت ثغــر الله بالصـــــدقات تبلس كـــرة ابليسـا (40)

وأعنــت أندلســا بكـل سبيكـة	موسومـة لا تعـــرف التدليســا
وشحنتــه بالبـــر فى سبل الرضا	والبـــر قارب قاعها القاموسا (41)
ان لـم تجـــر بها الخميس فطـــالما	جهـــزت فيهـا للنـــوال خميسـا
ومـلأت أيديهـا وقد كادت عـــلى	حكـم القضـــاء تشابه التفليسـا

* * *

وجبرت بعد الكسر قومك جاهـدا	تغنى العـــديم وتطلق المحبـــوسا
ونشرت رايـة عزهـم من بعـد ما	دال الزمـان فسامهـــا تنكيســـا
أحكمـت حيلـــة برئهـم بلطافـة	قـد أعجزت فى الطب جالينوسـا
وفللت مـــن حـــد الزمان وانـــه	أوحى وأمضى مـــن غـــرار الموسى
وشحذت حـدا كان قبـــل مثلمـا	ونعشـت جـدا كان قبـــل تعيسا

(37) الجوارى الخنس : عدة كواكب ، منها : زحل ، والمريخ ، والمشترى ، وعطارد ، والزهرة، وخنوسها : اختفاؤها (40) أبلس : سكت لحيرة أو انقطاع حجة • (41) القاموس : البحر العظيـــم •

(38) شوْسا : ناظرة بموْخر العين غضبا •

(39) ابن مامة • واسمه كعب، أحد أجواد العرب مثل حاتم •

ومن ارتضاه الله وفــق سعيــه	فرأى العظيـم مـن الحظوظ خسيسا
ما ازددت بالتمحـيص الا جـدة	ونضوت مـن خلـع الزمان لبيسا
ولطالما طـرق الخسـوف أهلـة	ولطالما اعترض الكسـوف شموسا
ثـم انجلت نسماتها عـن مشرق	للسعـد ليس بحـاذر تتعيسـا
خذها اليـك على النـوى سينية	ترضى الطباق وتشكـر التجنسـا
قصـدت سليمان الزمـان وقاربت	فى الخطـو تحسب نفسهـا بلقيسا
لى فيك ود لم أكن مـن بعـد ما	أعطيت صفقـة عهـده لأخيسـا
لا يستقـر قـرار أفكـارى الى	أن أستقـر لـدى عـلاك جليسا

وبعد هذه القصيدة أتبعها ابن الخطيب بنثر وصفه المقرى بالروعة والجمال يقع فى حوالى أربع صفحات فى الغرض نفسه · (42)

ولابن الخطيب قصيدة أخرى وجهها الى السلطان أبى حمو موسى فى أواخر أيامـه ، ويبدو انها آخر قصيدة طويلة جادت بها قريحة الشاعر ، يقـول أبـو زكريـاء يحيى ابن خلدون عند الحديث على حوادث سنة ست وسبعين وسبعمائة : ان أبا حمو وصلـه «من الفقيه الوزير المرحوم أبى عبد الله محمد بن الخطيب، برد الله ثراه،عندما اشتدت مخافته من بنى مرين ، وعيل أصطباره ، وقلبت له دنياه ظهر مجنها ، قصيدة غراء ميمية ، فى غرض الاستصراخ والاستشفاع بمولانا أمير المسلمـين أبى حمو عند مـولاه السلطان الغنى بالله أبى عبد الله محمد بن نصر ، أعزه الله ، ثم عاجله الحال ، ومات رحمه الله كيف قدر ، والى الله تصير الامور » · (43)

وبعد هذه المقدمة ، ذكر القصيدة التى لم أعثر لها على أثر فى أى مصدر ، من المصادر الاخرى ، المخطوطة منها والمطبوعة ، وهى أطول من القصيدة السابقة بثمانية أبيـات ،

(42) أنظر القصيدة والنثر فى : أ ــ بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، ج 6 ، ص : 287 ــ 296 ·
ب ــ أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ، ج 1 ، ص : 249 ــ 260 ·
ج ــ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، ج 8 ، ص : 303 ــ 310 ·
(43) بغية الرواد ، ج 2 ، ص : 299 ·

اذ الاولى تقع فى (114) بيتا أما هذه فعدد أبياتها مائة واثنان وعشرون (122) وكلاهما من البحر الكامل ·

استهلها الشاعر بمقدمة غزلية تقليدية يصف فيها الظروف القاسية المقلقة التى أصبح يعيشها ، فقد نفر عن عينيه النوم ، وأسلمه الصبر الجميل الى الجوى ، وألم به البؤس ، وأحاط به الشقاء من كل جانب ، وكساه السقم ، وينشر خلال القصيدة حكما ، وأمثالا ، اكتسبها من طول تجاربه ، وغزارة علمه واطلاعه ، وعمق تفكيره وذكائه · ثم يتخلص الى مدح السلطان ، وينعته بصفات حميدة جليلة ، من كرم يخجل الغيث السكوب ، وشجاعة نادرة ، وحسن سياسة ، واحكام تدبير ، ثم يلتفت الى قوم الامير وعشيرته ، فهم نجـــوم هدى ، وغيوث ، نوال ، وليوث حرب ونزال ، وبعـد هذه الالتفاتة القصـيرة يعـود الى أبى حمو من جديد ، فيصفه بصفات العظمة والكمال ، ويتأثر بشاعر الرسول عليـــه السلام حسان بن ثابت فى قوله مخاطبا ومادحا محمدا صلوات الله وسلامه عليه ·

خلقت مبــرأ مــن كــل عيــب كأنـك قــد خلقــت كما تشــاء

ويستمر فى تعداد مزاياه على قومه ، وكيف أنقذهم من التيه ، كما أنقذ موسى عليه السلام بنى اسرائيل من التشرد والظلم ، فهو رقيق برعيته ، شفوق بأمته ، شفقـــة الام على رضيعها ، همته عالية ، وكماله لا يعرف النقصان وسياسته الحكيمة ، أساسها الشجاعة والاقدام ، والرأى السديد والتقوى ، والعلم ، والذى زاده عظمة ومكانة انتسابه الى بيت النبوة ، فاذا اجتمعت هذه الصفات كلها فى حاكم فلا يمكن أن يكون هناك ظلم فى الوجود أو ظلام ·

ثم ينتقل الى تهنئة كل من أسعده الحظ ، واستقر قراره عند أبى حمو ، حيث النوال الغمر ، والكرم الجم ، والسلامة والسلم ، ويتخذ الشاعر ذلك سلما للوصول الى غرضه ، وابداء مقصوده ، فيرجو من السلطان أن يبلغه مأمنه ، ويفسح له مكانا رحبا فى مملكته ، حتى يبتعد عن بلاد نبت به ، وعن قوم أتى لهم بالصبح والضياء ، ولكنهم عموا عن رؤية نوره ، ونصحهم ولكنهم صموا آذانهم عن سماع نصحه ، ورغم كل ذلك فهو سيذكرهم حينما حل وان نسوه ، وينشر فضائلهم مهما استطاع وان ذموه ، ويلتمس منه مرة أخرى

فى أن يسعى فى انقاذه من هذه الاخطار المحدقة به ، ويسهل له الطريق الى أداء فريضة الحج ، وسنة الزيارة حتى يثبت له فى أهل السعادة سهم • ثم يختم القصيـــدة بالدعاء لابى حمو بدوام العز وطول البقاء •

أما لو علمنا أنـه ينطق الرســم — ولم يبق يوما مــن مسماه الا اسم
وأن ســؤال الربـع ينقـع غلــة — فيحصل من أبناء من ظعـن العلـم
لطال وقـوف واستهلـت مدامــع — وبـث غــرام طالمـا صـانه كتـم
ولكنـه جســم تحمــل روحــه — ومهما تـولى الروح لا يسـال الجسم
لها الله من نفس شعاع ومهجــة — هى الغرض المقصود يثبته السهم(44)
يصول على الشــوق صولة جائـر — اذا اغتاض لا عفو لـه ولا نظــم
وينفر عــن عينى المنـام كأنمـا — قطـاة صده عـن ورد مشرعه شهم
ويسلمنى الصبـر الجميل الى الجوى — فتعزونى البـؤسى ويكسونى السقم

* * *

فكن للمعالى والفضائـل عاشقــا — وان عسر المطلــوب أو ثقل العزم
خلال الندى والبأس تستلـزم الثنا — اذا ما تسنى لا مـــرئى منهما قسم
ولا يشهــر الانسان الا امتيــازه — بفضل ، فلولا الخمـر ما كرم الكرم
آعـار ضباب اللهو صفحة معرض — وعاف الهوى وردا وان عذب الطعم
حمى ساحـة الطبع العفيف كثل ما — حمى ساحة الملـك المنيف أبو حمـو
ويخجل سحب الغيث فالبرق خجلة — اذا ما همى فى كفه وابــل سجـم
وجاء به الدنيـا النـزور فأنجبـت — وأرحامها فى مثلــه شأنها العقـم
أجل ملوك الصيد ذاتا ومحتـــدا — فما فوقه مسمى لمن عن شاء أن يسمو
وفخر بنى زيان يحضر ان خطــوا — ويسرع ان أبطوا ويمضى اذا همـوا

* * *

وان بنى زيــان فى أفق العـــلا — لانجـــم هـــدى كلما أفـل النجم
غيوث اذا اعطوا ليوث اذا سطــوا — أهلة هالات البهـــاء اذا اعتمـــوا

---

(44) الشعاع : يقال ذهبت نفسه أو قبله شماعا : اذا تفرقتأراؤها فلا تتجه لامر جزم •

أعملها فى حومــــة الجـود غــــارة تازر فيها النصر واستبحـر الغنـم
وقادحها فى هضبــة الحرب جذوة رمت شررا يشفى بها العرب والعجم
تبارك معطيـــك الكمـــال كأنمـــا تصوت مختارا وكان لـك الحكـــم
ظهـرت وجـــودا واحتجبت لطافـــة كأنـك روح لا يصاحبـــه جســـم

* * *

أموسى لقد أمسى حديثك فى الورى صحائف تتـلى ما لشائعهـــا كتـم
على قدر قـــد جئت قومـك عندما تناهت بها البؤسى وأجهدها الازم (45)
طلعت لها فى الجنح شمسا منـيرة فأشرقت الارجاء وانفرج الغم (46)
وجددت فيها دولـــــة موسويـــة سجيتهـا عـــدل وشيمتها حلـــم

* * *

وبانت لرب الخلق فيـك عنايـــة وآيات لطف لا يخيلهـــا الحلـــم
فكم فت من خطب وجاوزت من ردى تذوب لمجراه الململـــة الصـم (47)
فما كنت الا درة المجـــد كلمـــا تردد فيها الوصف لم يعرف الوصم(48)

* * *

لموسى ابى حمـــو بن يوسف آيـــة وبرهان صدق لا يعانـده خصـــم
وربتما نال المسمى مـــن اسمـه نصيب على حكـم العناية أو قسم
أدال من البؤس ونجى من الردى فعمت به فى قومه النعـــم العـــم
وانقذهم من حـيرة التيـه بعـــد ما تقطعت الاسبـــاب وانتـثر النظـم
وهش على يم الشدائـــد بالعصـــا ووافق اذن الله فانفـــرق اليـــم

---

(45) الازم : يقال أزمت عليهم السنة اذا اشتد قحطها ، والازمة والازمة بسكون الزاى وفتحها : الضيق ، والشدة ، والقحط .

(46) الجنح : بكسر الجيم : ظلام اليل واختلاطه ، ويطلق على الناحية ــ ومن الليل : طائفة منه .

(47) الململة : يقال صخرة ململمة : مستديرة صلبة . (48) الوصم : العار ، العيب ، الصدع .

لك الله من مبنى على مشرق السنا … حرام على أركانه الهد والهدم
ومن جبل للحلم أشرف واعتلى … فدانت له بالعزة القلل الشم
لك الله من قلب له خلق الهدى … لك الله من كف لها خلق اللثم
لك الله من وجه وجيه يجل عن … شبيه فلافظ اللقاء ولا جهم
اذا زعمت شمس الظهيرة أنه … أخوها بلا شك فقد صدق الزعم
توالى من استرعيت أمنا ورأفة … ورفقا كما تحنو على المرضع الأم
وتبلغ اعنان السماء بهمة … بغير جميل الذكر ليس لها هم
وتصمى رمايا الغائبات بفكرة … يسددها التقوى وينجدها العلم
كمال بلا نقص ، ورشد ولا هوى … ومنح ولا منع ، وحمد ولا ذم
وما شئت من فضل ولطف سياسة … يطيع بها العاصى وتستنزل العصم

* * *

اذا اجتمع الاقدام والرأى والتقوى … وساعد سعد واستقل به عزم
ولاحت بآفاق السماح مخيلة … من الجود يتلو برفها العارض السجم(49)
وقام على التقوى بناء سياسة … يمهد من أساس أركانها علم
ورفت عليها نسبة طالبية … فليس ظلام فى الوجود ولا ظلم

* * *

هنيئا لضيف فى ذراك قراره … بحيث النوال الغمر والكرم الجم
جعلتك مرمى همتى ومؤملا … لنيل التى ما هام فى غيرها هم
وقوضت رحلى عن بلاد نبابها … مهادى الى حيث السلامة والسلم
وما كنت أخشى الجور فى حكم جيرة … أجرتهم فاعتد ذلك لى جرم
أتيتهم بالصبح لكنهم عموا … وآذنتهم بالنصح لكنهم صموا
سأذكرهم حيث احتللت وان نسوا … وأمدحهم مهما قدرت وان ذموا
وأنت لها من بغية مطلت بها … ظروف زمان نال انفى لها رغم
الى أن أقضى فى منى الفوز بالمنى … ويثبت فى أهل الشهادة لى سهم

(49) الرف : يقال رف البرق وغيره : تلألأ • ورف له واليه : هش واهتز وارتاح •

فلا زلت فى عــز منيـع جنابــه — مطل عــلى الايام منكبــه الضخم
لذكرك فى الاناف عـــرف مؤرج — كما انتشق الريحان والراح مشتم
أعدت على الايام رونـق بشرهـــا — ومنظرها بادى الكـآبـــة مغتــم
وصارت ليالى الدهر غرا وجوههـا — وناصعــة أوضاعهـا وهى الدهـم
فدم ما بدا صبح ، ودم ما دجى دجى — ودم ما همى غيث ، ودم ما بدا نجم

* * *

وقبل ان أنهى هذا البحث ، أرى من المفيد ، ونحن نتحدث عن ابن الخطيب وانتاجه الفكرى فى تلمسان ، أن أورد مقطوعة شعرية لطيفة يصف فيها لسان الدين هـــذه المدينة ، التى هام بحبها ، وتمنى أن يقضى بقية أيامه فيهـــا ، لو ساعدته الظـروف ، وسالمته المحن ، وأنجده سلطان بنى زيان ·

لؤلؤ مكنون ، وفضل عميم ، وعطاء مقيم ، ودين قويم متين ، وحياة شريفة كريمـة ، ونسيم عليل ، ومياه عذبة ، وحدائق تكاثفت فيها الازهار والاشجار ، مدينة هذه صفاتها، لم لا يهيم بها ابن الخطيب ؟ وهو الاديب المرهف الاحساس !

حيـا تلمســان الحيـــا فربوعهـــا — صدف يجود بدرها المكنـــون (50)
ما شئت من فضل عميـــم ان سقى — أروى ، ومـــن ليس بالممنون (51)
أو شئت من دين اذا قدح الهدى — أورى ، ودنيا لم تكن بالـــدون
ورد النسيم لهـــا بنشر حديقـــة — قد أزهـــرت أفنانهـــا بفنـــون
واذا حبيبـــة أم يحـــيى أنجبـت — فلها االشفوف على عيون العين (52)

ونقل الينا أديب تلمسان ، وعالمها ، المقرى ، قطعة منسوبة الى ابن الخطيب ، فيهـا جمال وروعة ، وحقائق للتاريخ والعبرة ، وفيها أدب ، وتاريخ ، وجغرافية ، وسياسة ، واقتصاد ! ! ! :

---

(50) الدر المكنون : اللؤلؤ العظيم المستور البعيد عن الاعين ·

(51) من ليس بالمنون : عطاء لا ينقطع ، ونوال لا منة فيه ولا تنغيص ·

(52) علق المقرى الذى أورد هذه المقطوعة فى نفحه ، ج 7 ، ص : 335 ، على حبيبـة أم يحيى بقوله : « عين ماء بتلمسان ، من أعذب المياه وأخفها » ·

« تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت في موضع شريف ، كأنها ملك على رأسه تاجه، وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه، عبادها يدها، وكهفها كفها وزينتها زيانها ، وعينها أعيانها ، هواها المقصود بها فريد ، وهواؤها الممدود صحيح عتيد، وماؤها برود صريد (53) حجبتها يد القدرة عن الجنوب ، فلا تحول فيها ولا شحـوب ، خزانة زرع ، ومسرح ضرع ، فواكهها عديدة الانواع ، ومتاجرها فريـدة الانتفـاع ، وبرانيسها رقاق رفاع ، الا انها بسبب حب الملوك ، مطمعة للملوك ، ومن أجل جمعها « الصيد في جوف الفرا » (54) مغلوبة للامراء ، أهلها ليست عندهم الراحة ، الا فيما قبضت عليه الراحة ، ولا فلاحة ، الا لمن أقام رسم الفلاحة ، ليس بها لسع العقـارب ، الا فيما بين الاقارب ، ولا شطارة ، الا فيمن ارتكب الخطارة » . (55)

رحمك الله يا ابن الخطيب، فقد أديت واجبك نحو أمتك العربية المسلمة أحسن أداء ، أحببت بلادك ، فنشرت فضائلها ، ووصفت مزاياها ، وهمت بوطنك ، فوهبته حياتك كلها ، لقد كنت مجاهدا مخلصا ، وسياسيا قديرا ، ومؤرخا منصفا ، وباحثـا دقيقا ، وأديبا بارعا ، وعالما نصوحا ، وطبيبا يداوي الاجسام والارواح ، والصور والاشباح .

لقد اخترت لنفسك أرض المغرب العربي ، لتكون لك مأوى كريما ، ومسكنا أبديا ، وهي جد فخورة بك وبأمثالك من أبنائها المخلصين العاملين ، والشهداء والمجاهدين .

---

(53) برود صرود : صرد : برد ، والصرد : البحث الخالص من كل شيء .

(54) هذه الجملة « الصيد في جوف الفرا » مثل معروف ، وأصله أن ثلاثة رجال خرجوا للاصطياد ، فاصطاد أحدهم أرنبا ، والآخر ظبيا ، والثالث حمـار وحش ، ففـرح الاولان وتطاولا على الثالث ، فقال : كل الصيد في جوف الفرا أي أنه أعظم الصيد فمن ظفر به أغناه

(55) المقري ، نفح الطيب ، ج 9 ، ص : 341 .

أهـــم مصادر البحث ومراجعـــه

ابن الاحمر : أبو الوليد اسماعيل بن يوسف بن محمد (ت : 807 هـ ـ 1404 م)

أ ـ روضة النسرين فى دولة بنى مرين .

المطبعة الملكية ، بالرباط ، 1382 هـ ـ 1962 م

ب ـ نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان .

دراسة وتحقيق : الدكتور محمد رضوان الداية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، 1967 م .

ابن الخطيب : أبو عبد الله محمد لسان الدين (ت 776 هـ ـ 1374 م) .

أ ـ أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام وما يجر ذلك مـــن شجون الكلام ، المنشور تحت عنوان : « تاريخ اسبانيا الاسلامية » .

تحقيق : المستشرق الفرنسى ا. ليفى بروفنسال (E. Lévi - Provençal)

الطبعة الثانية : دار المكشوف ، بيروت ، 1956 .

ب ـ ديوان الصيب والجهام ، والماضى والكهام .

دراسة وتحقيق : د. محمد الشريف قاهر ـ الطبعة الاولى ، الشركة الوطنية للنشـــر والتوزيع الجزائر ، 1393 هـ 1973 م

ج ـ رقم الحلل فى نظم الدول :

المطبعة العمومية ، تونس ، 1316 هـ .

د ـ الكتيبة الكامنة فى من لقيناه بالاندلس من شعراء المائة الثامنة .

تحقيق : الدكتور احساء عباس ، نشر دار الثقافة ، مطبعة عيتانى الجديدة ، بيروت ، 1963م

هـ ـ نفاضة الجراب في علالة الاغتراب :

تحقيق : الدكتور أحمد مختار العبادى ، ومراجعة الدكتور عبد العزيز الاهوانى ـ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1968 م .

ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن ، (ت : 808 هـ — 1406 م) .

أ ـ كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر

الطبعة الثانية ، فى سبعة مجلدات ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر بيروت ، 1956 هـ — 1961 م

ب ـ التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا .

تحقيق : الاستاذ محمد بن تاويت الطنجى ، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1375 هـ — 1951 م

ابن خلدون : أبو زكريا ، يحيى بن محمد (ت : 780 هـ — 1378 م)

بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، الطبعة الاولى ، مطبعة بيير فونتانة ، الجزائر الشرقية ، 1903 — 1910 م

المقرى : أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد التلمسانى (ت 1041 هـ — 1631 م)

أ ـ أزهار الرياض فى أخبار عياض .

طبع منه ثلاثة أجزاء ، بتحقيق الاساتذة : مصطفى السقا ، وابراهيم الابيارى ، وعبد الحفيظ شلبى ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1939 هـ — 1942 م

ب ـ نفح الطيب ، من غصن الاندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب عشرة أجزاء فى خمسة مجلدات ، تحقيق : الاستاذ محمد محى الدين عبد الحميد ، نشر دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان بلا تاريخ .

الناصرى : أبو العباس أحمد بن خالد السلاوى (ت : 1315 هـ — 1897 م)

الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى . تسعة أجزاء . تحقيق : ولدى المؤلف الاستاذين : جعفر ومحمد . مطبعة دار الكتاب بالدار البيضاء ، 1954 — 1956 م

النباهي : أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن (ت : 792 هـ — 1390 م)

تاريخ قضاة الاندلس ، أو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، المكتب التجاري ـ بيروت ـ لبنان .

التطواني : الفقيه محمد بن أبي بكر

ابن الخطيب من خلال كتبه : في جزأين ، الجزء الاول ، نشر دار الطباعة المغربية ، تطوان 1954 ، والجزء الثاني طبع دار الطباعة كريماديس ، تطوان ، 1959

حاجيات : عبد الحميد ، أستاذ التاريخ بكلية الآداب ، جامعة الجزائر .

أبو حمو موسى الزياني ، حياته وآثاره ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1394 هـ — 1974 م .

عنان : محمد عبد الله ، الاستاذ الباحث

لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكري ـ الطبعة الاولى ، نشر مكتبة الخانجي ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، بيروت 1388 هـ — 1968 م .

دائرة المعارف الاسلامية :

ترجمة الاساتذة : محمد ثابت الفندي ، أحمد الشنتناوي ، ابراهيم زكي خو رشيد ، عبد الحميد يونس .

الزركلي ، خير الدين :

الاعلام ، قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين . الطبعة الثالثة ، في ثلاثة عشر مجلدا ، بيروت ، 1389 هـ — 1969 م .

البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان وقيمته التوثيقية

محمود بوعياد
مدير المكتبة الوطنية

مـؤلف الكتـــاب :

« **الشيخ الامام العلامة القدوة الهمام أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مـــريم الشريف المليتي المديوني التلمساني** » ، **هكذا ذكر محمد بن أبي شنب ناشر الكتاب اسم مؤلف « البستان في ذكـــر الاولياء والعلماء بتلمسان » ونجد في بدايـــة الكتاب نفسه « المديوني نجـــارا والمليتي نسبا ، التلمساني منشا ومولدا ودارا »** .

ورغم الابحاث الطويلة في كتب التراجم المشرقية والمغربية لم نحظ بالعثور عـــلى ترجمة للمؤلف ، ولم يتعرض ابن أبي شنب لحياته في تصدير طبعته واكتفى الحفناوي في الصفحات المتوالية التي خصصها في كتابه لترجمة ابن مريم ، بنقل اسماء العلماء والصالحين المترجم لهم في « البستان » ، وقال انه « لم يقف على ترجمة ابن مريم » (1) كما ضرب صفحا عن حيـــاة المؤلف المستشرقون بما فيهم « بروقنزالي » ناقل الكتاب

(1) الحفناوي ، « تعريف الخلف » ، ج 1 ، ص 147 ــ 161 .

الى اللغة الفرنسية (2) ، ولهذا رجعنا الى « البستان » وهو كتاب ابن مريم الوحيد الذي بلغنا ، نسبر غوره علنا نجد فيه بعض المعلومات عن حياة المؤلف ٠

ان أول فائدة استخلصناها من مطالعة « البستان » هي ان المؤلف ذكر في ترجمته لوالده « سيدي محمد بن أحمد بن محمد الشريف المليتي » (3) ، أنه احترف التعليم ، وكان أول عهده بتعليم الصبيان يوم خلف أباه عندما مرض مرض الموت (4) ، وقد حثه والده على الاستمرار في هذه المهنة ، فقال : « فتماديت على ذلك ، فتخرج علي والحمد لله بدعاء والدي وبركاته ، أزيد من أربعين ولدا ، كلهم يحفظون القرآن ، وبعضهم علماء يدرسون العلم في كل فن من العلوم الظاهرة والباطنة ، والحمد لله ٠٠٠ » (5) ٠

والفائدة الثانية هي اننا تمكنا بالرجوع الى الكتاب ، من معرفة سنة انتهاء المؤلف من تأليف « البستان » ومكان تأليفه ، فقد قال في خاتمة الكتاب : « وفي سنة احدى عشرة وألف بمدينة تلمسان وضعناه » (6) ٠

أما الفائدة الثالثة التي حصلنا عليها هي ذكر المؤلف ، آثاره في آخر الكتاب أيضا (7) ٠ وعدد هذه المؤلفات اثنا عشر كتابا زيادة على «البستان» ، والموضوعات التي تناولتها هذه الكتب هي العقائد ، والاذكار والحديث النبوي و « حكايات الصالحين » مما يدل على ميل المؤلف الى الزهديات والايمان « بكرامات الاولياء ، وبركة الصالحين » وعنوان احد مؤلفاته وهو : « تحفة الابرار وشعار الاخيار في الوظائف والاذكار المستحبة في الليل والنهار » ، لا يترك مجالا للشك في نزعة المؤلف الى الزهد ، وفي ميله الى اجلال الصالحين وتقديسهم ٠ واذا استثنينا « البستان » فان تآليف ابن مريم كلها في حكم المفقودة اليوم ، اذ لم يطبع منها كتاب واحد ، كما اننا لم نعثر على اي أثر لها في فهارس المخطوطات العربية المعروفة ٠

أما « البستان » فقد نشره محمد بن أبي شنب كما ذكرنا في أول هذا البحث ٠ واعتمد الباحث لتحقيق الطبعة ، على عدة نسخ وأتبع المتن بعدة فهارس غير أن هذا

---

(2) F. Provanzali, El Bostan ou Jardin des biographies des saints et savants de Tlemcen

(3) « البستان » ، ص 267 ـ 270 ٠

(4) توفي والد المؤلف يوم الخميس 13 صفر 985 هـ ـ 1577 م (البستان ، ص 270) ٠

(5) المصدر نفسه ، ص 269 ٠

(6) المصدر نفسه ، ص 314 ٠

(7) المصدر نفسه ، ص 314 و 315 ٠

العالم المحقق الذى اتحف المكتبة العربية بعدة كتب من التراث ابرزها فى حلة علمية نادرة المثال فى عهده ، لم يصدر طبعته باية دراسة عن « البستان » ولا عن صاحبه حسبما اشرنا الى ذلك قبل قليل ، كما انه لم يصحب المتن الا بالنزر اليسير من التعاليق · مع ان هناك كثيرا من المعلومات كأسماء بعض الاشخاص ، واسماء بعض الامكنة ، وعناوين بعض الكتب كانت فى حاجة الى المزيد من الايضاحات حتى يسهل على الباحث استعمال هذا الكتاب ·

محتوى الكتاب :

ترجم ابن مريم فى « البستان » لاثنين وثمانين ومائة عالم وولي ولدوا بتلمسان أو عاشوا بها ، وأشار المؤلف فى أول الكتاب الى هدف تاليفه ، فقال انه يقصد « جمع أولياء تلمسان وفقهائها الاحياء منهم والاموات ، وجمع من كان بها وحوزها وعمالتها » (8) ، وذكر أن التقرب الى الله كان الدافع الحافز لتاليف الكتاب ، فقال : « ثبت ان المرء مع من أحب ، فكيف بمن زاد عن مجرد المحبة بموالاة أولياء الله تعالى وعلمائه وخدمتهم ظاهرا وباطنا بتسطير احوالهم ونشر محاسنهم فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم نشرا يبقى على مر الزمان ؟ » (9) · وفى الحقيقة لم يحصر ابن مريم سبب الخوض فى الترجمة للاولياء والعلماء فى الافادة الدينية وفى التقرب الى الله ، بل ذكر فى خاتمة الكتاب هدفا علميا للكتابة فى مثل هذا الموضوع ، فقال : « أعلم ان معرفة الكتب واسماء المؤلفين من الكمال ومعرفة الفقهاء من مهمات الطالب ، وكذلك ما ألفوه فى حصر المسائل » (10) ·

ورتب ابن مريم تراجمه حسب حروف الهجاء ، مبتدئا بمن اسمه أحمد ومنهيا تراجمه بمن اسمه يحيى ، وقد تفاوتت تراجمه فى الطول تفاوتا كبيرا ، فبعضها لا يزيد على سطر واحد بينما خصص ابن مريم لبعض العلماء عدة صفحات من كتابه ، نذكر منها على سبيل المثال ، ترجمة محمد بن يوسف السنوسى صاحب المؤلفات الشهيرة فى علم الكلام التى بلغت احدى عشرة صفحة (11) ، وترجمة ابن مرزوق الحفيد وقد

(8) المصدر نفسه ، ص 5 ·
(9) المصدر نفسه ، ص 6 ·
(10) المصدر نفسه ، ص 308 ·
(11) المصدر نفسه ، ص 237 ــ 248 ·

خصص لها ثلاث عشرة صفحة (12) · وبلغت احدى التراجم عشرين صفحة وهي ترجمة الحسن بن مخلوف الشهير بأبركان (13) ، ومما يجب التنبيه اليه ان ابن مريم ترجم لبعض الاعلام من فقهاء المالكية ممن لم تكن لهم علاقة مباشرة بتلمسان كخليل ابن اسحاق والامام ابن عرفة والبرزلي ·

ومثلما تفاوتت التراجم فى الطول ، تفاوتت أيضا أهمية المعلومات المذكورة بها · فلم تزد بعض التراجم على بضع كلمات لا طائل فيها ، كترجمة « محمد بن سليمان النجار » التى حصرها المؤلف فى الكلمات التالية : « من مديونة العالم الصالح » (14) ، بينما ذكر فى تراجم أخرى اسم المترجم له ، وأصله ، وتاريخ وفاته ، واسماء شيوخه ، واسماء تلامذته ، وعناوين الكتب التى ألفها وأحيانا الكتب التى درسها ، والبلدان التى زارها ، واسماء من اجازه من العلماء وهكذا ، ونادرا ما خلت ترجمة قصيرة كانت أو طويلة ، سوى التى لم تتجاوز بضع كلمات ، من ذكر كرامات ومناقب تنسب « للولي الصالح » صاحب الترجمة ، كما ضمن المؤلف اكثر التراجم أقوال المعاصرين من العلماء والمؤرخين فى المتحدث عنه ، ففى ترجمة محمد بن عبد الله التنسى مؤلف « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان وذكر ملوكهم الاعيان » التى تبلغ صفحة واحدة ، استشهد المؤلف بأقوال خمسة علماء فى صاحب الترجمة (15) ، ولم يكثر المؤلف من ايراد الشعر ، واكتفى فى بعض التراجم بأن روى ابياتا شعرية قالها المترجم له أو قيلت فيه ·

مصادر الكتاب :

افرد المؤلف نفسه قائمة لمصادر « البستان » فى خاتمة الكتاب (16) ، فذكر منها « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » لاحمد بابا التنبكتى ، وهو كتاب معروف فى تراجم

(12) المصدر نفسه ص 201 ـ 214 ·

(13) المصدر نفسه ، ص 74 ـ 94 ·

(14) المصدر نفسه ، ص 292 · واقتصرت هكذا الترجمة على الاشارة الى أن هذا العالم الصالح من قبيلة مديونة ·

(15) المصدر نفسه ، ص 248 ـ 249 ·

(16) المصدر نفسه ، ص 314 ·

علماء المالكية جعله صاحبه ذيلا « للديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب » لابن فرحـــون (17) ·

ـ و « بغية الرواد فى أخبار الملوك من بنى عبد الواد » ليحيى بـن خلدون الذى خصص عدة صفحات من كتابه لتراجم بعض العلمـــاء الذين ولـــدوا بتلمســان أو استوطنوها (18) ·

ـ « التقييد فى مناقب الاربعة » لمحمد السنوسى ، ولم نتوصـــل الى معرفة هذا الكتاب · ولم يذكره ابن مريم مع مؤلفات محمد بن يوسف السنوسى (19) ·

ـ « روضة النسرين فى مناقب الاربعة المتأخرين » لمحمد بن صعد التلمسانى (20) ويعنى صاحب الكتاب بالاربعة ، الهوارى ، وابراهيم التازى ، والحسن ابركان ، وأحمد ابن الحسن الغمارى · وهو كتاب مخطوط ·

ـ « النجم الثاقب فيما لاولياء الله من المناقب » ، لمحمد بن صعد التلمسانى السابق الذكر · وما زال هذا الكتاب مخطوطا أيضا ·

ـ « الكواكب الوقادة فيمن كان نسبته من العلماء والصالحين القادة » ، ولـــم نتوصل الى التحقق من اسم المؤلف ومن مضمون الكتاب ·

وانهى ابن مريم قائمة المصادر الستة السابقة بقوله : « ومن كتب عديدة » (21) ، مشيرا الى أن هناك كتبا أخرى رجـــع اليها وان لم يذكرها بين مصادره · وقـــد استخرجناها من ثنايا تراجمه ، ومن أهمها ·

---

(17) طبع « نيل الابتهاج » طبعا حجريا بفاس سنة 1317 هـ وطبع ثانيا بالقاهرة سنة 1329 هـ ، على هامش « الديباج » · ويقوم حاليا الاستاذ عادل نويهض مؤلف كتـــاب « اعلام الجزائر » (بيروت ، 1971) ومحقق « عنوان الدراية فيمن عـرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » لاحمد الغبرينى (بيروت ، 1971) بتحقيق « نيل الابتهاج » هذا المصدر الاساسى لتاريخ الحركة العلمية بالمغرب العربى · وسينشر الكتاب ضمن « اصدارات المكتبة الوطنية » ·

(18) راجع مقالنا « من آثارنا المغمورة ، بغية الرواد فى أخبار بنى عبد الواد » لابى زكريا يحيى بن خلدون فى « الاصالة » ، عدد 13 ، مارس ـ ابريـــل 1973 ، ص 213 · 222

(19) البستان ، ص 237 ـ 248 ·

(20) ترجم ابن مريم لمحمـــد بن أحمـــد بن صـــعد التلمسانى فى « البستان » ص 251 ـ 252 ·

(21) المصدر نفسه ، ص 314 ·

1 ـ « الاحاطة فى أخبار غرناطة » تاليف لسان الدين بن الخطيب ،

2 ـ و « كتاب العبر » لعبد الرحمن بن خلدون ،

3 ـ و « الوفيات » لابن الخطيب القسنطينى (22) ،

4 ـ و « المعيار المعرب والجامع المغـــرب عن فتاوى علمـــاء افريقية والاندلس والمغرب » لاحمد الونشريسى (23) ،

5 ـ و « الديباج المذهب فى معرفة اعيان المذهب » لبرهان الدين بن فرحون السابق الذكـــر ٠

واكثر ابن مريم من النقل من كل الكتب التى رجع اليها لتاليف كتابه ولم يفصــل بين النصوص المنقولة ، وبين ما كتبه هو لدرجة انه يصعب على القارىء التمييز بين ما هو منقول وبين ما هو من بنات افكار المؤلف ٠

قيمــة الكتــاب التوثيقية (24) :

ان الباحث يستخرج من « البستان » الذى وضع كما يدل عليه اسمه للترجمة لرجال العلم والصلاح ، فوائد عديدة ومتنوعة ، وهذا رغم ما ضمته اكثر التراجم من الخرافات والاساطير ، وهذه الفوائد يعثر عليها القارىء عرضا فى ثنايا تراجم الرجال اذ كان هدف المؤلف التحدث عن حياة العلمـــاء والاوليـــاء وتدوين « كراماتهم ومناقبهم » لا تصنيف كتاب فى التاريخ والادب ٠

ومن أنواع الفوائد التى يمكن استخراجها من كتاب ابن مريم ، المعلومات التاريخية ويحصل القارىء عليها كما قلنا سابقا عرضا فى اثناء حديث المؤلف عن شخص أو مكان أو كتاب وهكذا ٠ ونذكر بعضها فيما يلى على سبيل المثال ٠

يقول ابن مريم فى ترجمته لمحمد بن عبد الجبـــار بن ميمون بن هـــارون (25) ، « توفي سنة خمسين وتسعمائة فى عام أخذ النصارى تلمسان » ٠ واذا رجعنا الى كتب

---

(22) المعروف أيضا بابن قنفذ ، ويضم كتابه « الوفيات » تراجم قصيرة للعلمـــاء وعلى الخصوص المحدثين ٠ ونشر مرة فى القاهرة سنة 1940 ومرة ثانية فى بيـــروت سنة 1971 بتحقيق عادل نويهض ٠

(23) طبع « المعيار » بفاس سنة 1315 هـ طبعا حجريا فى 12 مجلدا ٠

(24) نعنى بقولنا « القيمة التوثيقية للكتاب » ، الفوائد المختلفة التى يستخرجها الباحث أو القارىء من هذا الكتاب ٠ وكلمة توثيقى اصطلاح جديد اشتق من كلمة وثيقة

(25) البستان ، ص 287 ـ 288 ٠

التاريخ لاحظنا ان الاسبانيين دخلوا تلمسان يوم الثلاثاء آخر ذى القعدة من سنة 949 هـ ـ 1543 م ورغم ان الفرق قليل فى التاريخ اذ أن المؤلف قد حدد دخول النصارى لتلمسان فى سنة 950 هـ بينما وقع الحادث حسب المصادر الاسبانية ، قبل شهر من نهاية سنة 949 هـ ، فان صاحب « البستان » يثبت الاخبار المذكورة فى الوثائق الاجنبية مصدرنا الفريد لمعرفة اكثر أحداث تلك الفترة الغامضة من تاريخ بنى زيان ملوك المغرب الاوسط (26) ·

والصق ابن مريم أحيانا ، بعض الخرافات بأحداث تاريخية كما فعل بالحادث السابق الخاص باستيلاء الاسبانيين على تلمسان ، فقد قال فى ترجمة « سيدى سعيد البجائى » (27) الذى التجأ الى يبدر وهو مكان قريب من عاصمة بنى عبد الواد ، « حين أخذت النصارى تلمسان دمرهم الله فذهبت (28) اليه مع أبى » ، وأخذنا منه الدعاء ، وقال لوالدى : « أهل تلمسان كلهم يرجعون لبلدتهم حتى محمد يرجع الا سعيد ما يرجع ، يعنى بمحمد السلطان » · وكان الاسبانيون قد تدخلوا عسكريا فى الشؤون الداخلية للدولة الزيانية المنهارة ، بسبب الخلاف الذى شب اثر ثورة أبى زيان الثائر على اخيه السلطان أبى عبد الله محمد الذى كان قد خلف أباه أبا حمو الثالث ، ورغم تحالف الاسبان مع السلطان وتعهدهم باحترام الاهالى فقد عاثت عساكرهم فسادا بعد دخولهم تلمسان سنة 949 هـ ، وقتلوا واسترقوا كل من سقط بين ايديهم من سكان المدينة (29) · وأعادوا الى عرش تلمسان حليفهم أبا عبد الله محمد ، وهذا يفسر الكلام السابق « حتى محمد يرجع » ·

ووجدنا فى ثنايا الكتاب فائدة تاريخية ذات اهمية كبرى لم نجدها الا عند ابن مريم ، وهي تلقى ضوءا جديدا على حادث مهم فى تاريخ تلمسان وهو الحصار الكبير الذى ضربه السلطان المرينى أبو يعقوب يوسف على عاصمة بنى زيان من سنة 698 ـ 1299 م الى سنة 706 هـ ـ 1307 م ، وقد اجمع المؤرخون على القول ، ان المدينة كانت مطوقة تطويقا كاملا ، وان التضييق بلغ بالمحاصرين اشده حتى ان الطيف كان لا يخلص

---

(26) بنو زيان أو بنو عبد الواد تربعوا على عرش تلمسان من سنة 633 هـ/1236 م · الى منتصف القرن العاشر ·

(27) « البستان » ، ص 103 ـ 104 ·

(28) المتكلم هو ابن مريم ·

(29) Marmol Caravajal, — Description générale de l'Afrique, t. 2, p. 346.

اليهم ،حسبما قال عبد الرحمن بن خلدون (30) ، وها نحن نعثر لاول مرة على مصدر تاريخى يفند هذا الكلام ، فيحكى ابن مريم عرضا عند ترجمته لاحمد بن مرزوق الحفيد (31) ان هذا العالم عذب وسجن لانه كان يبعث بانتظام بتموين ورسائل من قرية العباد قرب تلمسان حيث كان قاطنا ، الى اقاربه بالمدينة المحاصرة ٠

ولا تعود أهمية هذا الخبر الى تفنيد كلام المؤرخين الذين تحدثوا باسهاب عن حصار الملك المرينى لتلمسان الذى « ادار الاسوار سياجا على عمرانها كله ، ومن ورائها نطاق الحفير البعيد المهوى » (32) ، فحسب وانما تتعداها الى ايجاد تفسير مرض لقدرة أهل تلمسان على مواصلة المقاومة ، والصمود فى وجه العدو رغم انقطاع كل مورد للمؤونة والسلاح ، مدة ثمانى سنوات ، فهذا النص الصريح لابن مريم يغير موقفنا من هذا الحادث التاريخى الهام فى تاريخ بنى عبد الواد لان كلام ابن مريم ان صدقناه ولا داعى لعدم تصديقه ، يدلنا على أن تلمسان لم تكن مطوقة تطويقا كاملا يمنع « الطيف من الخلوص اليها » ، على حد تعبير عبد الرحمن بن خلدون بل كانت المؤونة والرسائل تتسرب الى أهلها مما يبدد حيرة القارىء ودهشته من صمود أهل تلمسان امام هذا الحصار الطويل ٠

ومن الفوائد التاريخية المتعلقة بالعمران ، ذكر اسماء بعض الامكنة الموجودة بتلمسان وضواحيها من مساجد ، ومدارس ، وابواب ، وأحياء ، ومقابر ، ومن امثلة ذلك ذكر المؤلف اسماء أبواب عاصمة بنى زيان ، وهذا عند ترجمته « لعبد الله بن منصور (33) أحد أولياء عين الحوت » ، وهي قرية قريبة من تلمسان ، وبعض تلك الاسماء ما زال معروفا الى يومنا الحاضر ٠

ويستخرج الباحث أيضا من « البستان » فوائد خاصة بالحياة العلمية والثقافية فى المغرب الاوسط فى العهد الزيانى اذ ذكر المؤلف اكثر العلماء والادباء الذين عاشوا فى ذلك العهد ، وأشار الى آثارهم الفكرية واورد فى أغلب الاحيان اسماء شيوخهم وتلاميذهم ، والكتب المتداولة فى زمنهم ٠ كما كان يروى بين الحين والاخر بعض الابيات التى قالها المترجم لهم أو قيلت فيهم ٠

---

(30) « العبر » ، ج 7 ، ص 458 ٠
(31) « البستان » ، ص 27 — 29 ٠
(32) « العبر » ، ج 7 ، ص 457 ٠
(33) « البستان » ، ص 135 — 139 ٠

وفى الكتاب أيضا فوائد اقتصادية واجتماعية · منها أن ابن مريم ذكر عــرضا كعادته عند حديثه عن العلماء والصالحين الذين ترجم لهم ، أحداثا ومعلومات تنير طريق الباحث فى تاريخ المملكة الزيانية وفى الحياة الاقتصادية والاجتماعية بها ، ومن امثلة هذه الفوائد الاجتماعية والاقتصادية ، ما ذكره المؤلف فى عدة مناسبات عــن فترات القحط والوباء التى كانت تمر بالبلد · والاطلاع على زمن وقوع الافات كثيرا ما يساعد الباحث على تفهم سير الاحداث الاجتماعية فى تلك الفترات · ومنها أيضا ما اورده فى ترجمة محمد القلعى (34) من اخبار العادات التى كانت متبعة بتلمسان ، بعضها اندثر وبعضها ما زال موجودا الى عهدنا ، كعادة شراء الناس لثور معلوف لتقديده ، وما يزال سكان عدة جهات من المغرب الكبير وعلى الخصوص فى المدن وفى السهول يجففون لحم البقر الى يومنا · وجاء فى الترجمة نفسها أن احد الاشخاص كان يملك رحى بضاحية من ضواحى المدينة ، خارج الاسوار · ونود أن ننبه الى ان هذه الضاحية ما زالت معروفة بالارحية الموجودة بها الى اليوم ويطلق الاهالى اســم « الرحى » (بالحاء المكسورة) أي الطواحين على ناحية من هذه الضاحية ، ومثل هذا الخبر قد يعين الباحث فى تاريخ المدينة أو تاريخ اقتصادها ·

وهذه الفوائد المتنوعة التى يتضمنها « البستان » تجعل من كتاب ابن مريم مصدرا هاما لتاريخ الدولة الزيانية ، وتاريخ المغرب الاوسط اذ هو متمــم للكتب التاريخية البحتة التى عنيت فقط بالاحداث السياسية والعسكرية ولم تات الا بالنزر اليسير مــن الاخبار الاقتصادية والاجتماعية وذلك على عادة المؤرخين القدامى ·

مصــادر البحــث :

1 ـ المصــادر والمــراجع العــربية

ـ ابن خلدون (عبد الرحمن) ، كتاب العبر ··· ، 7 ج ، بيروت ، 1956 ـ 1959 م ·

ـ ابن خلدون (يحيى) ، بغية الرواد وذكــر الملوك من بنى عبد الــواد ، 3 ج ، الجزائر ، 1321 ـ 1332 هـ/1903 ـ 1913 م ·

ـ أحمد بابا ، « نيل الابتهاج بتطوير الديباج » ، فاس ، 1317 هـ ·

ـ الحفناوى (محمد) ، « تعريف الخلف برجال السلف » ، الجزائر ، 1324 هـ 1906 م ·

(34) المصدر نفسه ، ص 271 ـ 272 ·

ـ نويهض (عادل) ، « اعلام الجزائر » ، بيروت ، 1971 ·

2 ـ المـــــراجع الاجنبـــية

J. - J.L. Bargés, Complément à l'histoire des Beni-Zeiyan, rois de Tlemcen. Paris, 1887
Marmol Carvajal, l'Afrique. Trad. française de Perrot d'Ablancourt, Paris, 1667.

F. Provenzali, El Bostan ou jardin des biographies des saints et savants de Tlemcen par Ibn Maryem ech-Chérif el-Melity. Alger, 1910.

أبو عبد الله

آخر ملوك غرناطة دفين تلمسان أم فاس؟

عبد الحميد بن أبي زيان بن شنهو
مدير الجريدة الرسمية

في سنة 1478م تزوجت الملكة الكاثوليكية ايزابيلا التي كانت ورثت من أبيها مملكة قشتالة بفرديناند الخامس ملك ارغون وكان لهذا الزواج تاثير عظيم في عالم الكنيسة ونتج عنه خطر لا مثيل له على العالم الاسلامي حيث أن المملكتين قد اجتمعتا بيد الزوجين الحازمين بعد ما كانت الحروب سائدة بين أسلافهما وقد وعدا نفسهما والكنيسة بالقضاء على الاسلام والعروبة بالاندلس واحتلال المغرب وصرف همتهما في انجاز هذا الوعد المبرور ازاء دينهما المسيحي وأخذا بكل ما لديهما من الجد والحزم والعزم في تجزيء المملكة الاسلامية وقرضها وصارا يقاتلان المسلمين تارة ويصطلحان معهم طورا ويتراوغان عليهم ويفتكان بهم ويحميانهم ويحرقان كتبهم الدينية والعلمية ويضطهدانهم تارة أخرى على حسب ما كانت تقتضيه سياستهما البليغة حتى شتتا كلمة الاسلام وفرقا شمله ورفعا راية الكنيسة ووسعا نطاق ملكهما مترامين على الديار الاسلامية .

وقد ساعدتهما الظروف على تحصيل مرامهما ومن حسن حظهما سوء تصرف ملوك بنى الاحمر المتأخرين الذين أصرفوا أيامهم فى الحروب المدنية وفى الزهو واللعب والفتك والغدر والبيعة والعزل بدون موجب والاشتغال بما كان يصدهم عن تدبير أمور الرعية ما أدى الى ضعف الملك مع انه لم يكن قويا من قبل بسبب ملوك الطوائف وآل الاحمر الى أن استولى على غرناطة أبو عبد الله محمد بن أبى الحسن بن سعد الذى شق العصى على أبيه وقد لعب هذا الملك المشؤوم دورا هاما فى سياسة الملك وكانت ايامه مملوءة بالغدر تارة بأبيه الذى كان يصرف أوقاته فى الزهو وملاطفة الجوارى المسيحيات وشرب الخمر وطورا على عمه أبى عبد الله محمد بن سعد وتارة أخرى على الملكين الكاثوليكيين ما أدانا الى القول انه كان ألعوبة بين يدى المسيحيين بصفة خاصة وبين يدى الكنيسة بصفة عامة وان لم يكن كذلك فقد ساعدهما على كل حال على الاستيلاء على الاندلس وادعائهما الامر على الملتين . وما زاد الطين بلة سوء تصرف أبيه أبى الحسن الذى ترك الحبل على الغارب .

ان الامير أبا عبد الله التعس الذى سماه المسلمون بالزغيبى والاسبان بالملك الصغير « El rey Chico » فقد ملكه شيئا فشيئا وترك بلاده مطرودا وقد ورث من أسلافه الغرباء حب الترف والانغماس فى الملذات المؤدية بالملك الى الخراب نهائيا والانحطاط الذى لحق بسببه بعد ذلك لا الاندلس فقط بل حتى البلاد الغربية والشرقية الاسلامية أجمع ولا ننسى أن بعد ظفر الكاثوليكيين كان ظهر على أطلال ملاحة العرب الماهرين كريستوف كولونب فجهزته ايزابيلا وزوجها ليسير الى الهند غربا على طريق المحيط حتى اكتشف أمريكا وكان قصد الملكين قطع دابر تجارة العرب والقضاء عليها وعلى الاسلام والعروبة .

وبعد خروج أبى عبد الله بن أبى الحسن على من الاندلس اجتاز البحر بأهله وماله سنة 1493م الى المغرب فنزل بمليلية ثم انتقل الى فاس حيث استقر ومات بعد أربعين سنة . أما عمه أبو عبد الله محمد بن سعد ذلك البطل العظيم الذى حارب الاسبان وبذل جهده فى سبيل استرجاع مجد بنى الاحمر ولم يفلح لاتساع الخرق على الرتق بعد ما طرد من الاندلس ، توجه الى وهران ثم الى تلمسان حيث توفى بعد مدة يسيرة ودفن بها عن قول كثير من المؤرخين وعن حجة بيدنا سنشرحها فيما بعد .

ان البحث الذى نقدمه يبين مدفن هذا الملك الشجاع فاتينا فيه باخبار لم تكن تعرف من ذى قبل لعلها توضح بعض الحوادث التاريخية التى لازالت فى غموض والله أعلم ٠

« حكم من الله لا مرد له وهل مرد لحكم منه منحتم »

ابو عبد الله الاحمر الحادى عشر

1 ـ ازدهار ملوك بنى الاحمر : (1)

من منا لم تحدثه المصادر التاريخية والدواوين عن غرناطة المخضرة الزاهرة وأناشيدها الغناء ومغانيها وطربها المخضلة وجناتها الغضة ونسيمها العليل ومائها العذب الزلال ٠

ومن منا لم يقرأ بعين العظمة والعبرة أخبار ملوك بنى الاحمر الخزرجيين الذين حموا بيضة الاسلام فى البلاد الاسبانية وذبوا عن عرين العروبة فى تلك الاصقاع الاعجمية بعد أن عصفت الرياح بدولة الامويين وأتى الزمان على سلطة المرابطين والموحدين والمرينيين ٠

ان أحاديث غرناطة لا تزال الى اليوم ترن فى الآذان رنين القيثارة والعود فى آذان أهلها المنقطعين وناسها الغابرين ولا يزال لانباء رفاهيتهم الباذخة وقصورهم الحافلة وبيوتهم المنعمة المزخرفة وحرفهم العجيبة وصنائعهم الباهرة لا يزال لكل ذلك صدى وطنين فى هذه الديار يبعثان الحسرة فى النفوس ويدعوان الى الاعتبار والاذكار وهى عبرة لمن اعتبر بل لا تزال بيننا عائلات غرناطية كريمة محتفظة بمفاتيح الدور ومغالق القصور وذخائر ثمينة من الكتب والقماش تعيد اليهم ذكرى الايام السعيدة والتعسة التى قضاها آباؤهم المترفون وأجدادهم المنعمون ٠ وتركوا الطرب الاندلسى الذى ملأ بأنغامه أجواء الشرق والغرب حتى الديار العثمانية ذلك الطرب الذى شاهدناه فى الايام الاخيرة

---

(1) سموا كذلك لانهم من حمير من قبيلة الخزرج الشهيرة التى خرجت من اليمن عند انفجار سد مأرب ، واستوطنت كما لا يخفى يثرب مدينة النبى (صلعم) فيما بعد وجرى لهذه القبيلة ما جرى مع الاوس وجد بنى الاحمر سعد وبنو سعد القبيلة التى ربى فيها النبى (صلعم) ٠

بالجزائر لهو تراث عظيم ونفيس لا زال محفوظا رغما عن امواج القلاقل والفتن والاحتلالات الاجنبية والعواصف التى مرت عليه مدة خمسة قرون ·

2 ـ سبب انحطاط المملكة :

الا أن المتاخرين من بنى الاحمر صاروا ينغمسون انغماسا الى الاذقان فى الموبقات واللذات وترك الدين واشتغلوا بما نهانا الله عن فعله وانحرفوا عن الطريق الجادة ليتبعوا اللهو والرفاهية منصرفين عن أمور الملك ومصلحة المسلمين والعدو لهم بمرصاد من ورائهم متربص متوثب يرقب الفرص تغريه الكنيسة التى عزمت منذ مدة مديدة على تحطيم المملكة الاسلامية ومحو الدين واجلاء المسلمين من الاندلس واحتلال افريقيا مما هو مبين فى وصية تركتها ايزابيلا وبعد ما تزوج الملكان الكاثوليكيان ووحدا أقطارهما الشمالية والوسطى اغارا على ملوك غرناطة وضرباهم الضربة القاضية وقد كان ملكهم يومئذ فى انحطاط ونجمهم فى افول ومؤسس عرشهم أبو عبد الله الاحمر (سنة 635هـ 1238م) كان شهما حازما ذا عزم وبطش ونجدة نزل على أطلال المملكة الاموية ولم يزل مستوليا على غرناطة مالئا البلاد عدلا وانصافا الى أن أدركته المنون بعد ما قام بالامر مدة خمسة وثلاثين سنة فسار سيرته من استولى على العرش من بعده مدة طويلة ·

3 ـ التفاقم بين الاب والابن :

فآل الامر فى الآخر الى أبى الحسن على بن سعد سنة 871هـ 1466م والد أبى عبد الله (2) آخر ملوك بنى الاحمر كان يسميه الاسبان « Mulahacen » يعنى مولاى الحسن

(2) المدعو عند الافرنج بوأبديل « Boabdil » وقد كتب عنه شاصو بريان الكاتب الفرنسى رواية لطيفة عنوانها آخر بنى السراج Le dernier des Abencerages قام بتعريبها المرحوم الامير شكيب ارسلان رحمه الله · وبو السراج اسرة عريقة فاخرة من انجاد · غرناطة عظم شانهم فى عهد أبى الحسن كانت لحقتهم نكبة منه ، فسجنهم وقتلهم الى آخرهم فى برج مشهور لا زال الى الآن قائما · وقد كان نصب لهم ولولده وزوجه عائشة كمينا قضى على بنى السراج فيه وفر ولده أبو عبد الله وامه ·

وابتدأ اذ ذاك تفاقم أمر المملكة فأخذت تتضعضع شيئا فشيئا ومما زادها تعرضا للخطر الغارة الشعواء التى شنها أبو الحسن على مدينة الزهراء بقرطبة وكانت يومئذ بيد الاسبان فانتقم هؤلاء من المسلمين شر انتقام فاستولوا على حصن الحامة ثم شق العصى أبو عبد الله على أبيه فحرضته أمه عائشة (3) على الثورة فخرج يحارب أباه أولا ثم بعد مناوشات انسفك فيها دم المسلمين . وذلك سببه انحراف أبيه عن طريق الجادة .

ثم وقع الصلح بين الاب والابن على أن يقتسما المملكة (887هـ 1482م) لكن ما لبث الولد الا قليلا حتى نقض العهد وثار على أبيه فتقاتلا مقاتلة الاعداء ثانية ثم ترك الاب ميدان الحرب والتجأ الى أخيه أبى عبد الله محمد بن سعد المدعو بالزغل « Zagal » والى مالقة .

4 ـ أبو عبد الله محمد بن سعد الزغل :
(وتشتيت المملكة)

كان بطاشا حازما يهابه النصارى بحيث سموه بتلك التسمية ومعناها بالاسبانية الباسل فاغار عليه ابن اخيه ثم انصرف عنه فشحنته أمه عائشة وحضته على محاربة النصارى فخرج غازيا فانهزمت جيوشه شر انهزام واسره العدو بينما كان مختفيا فى واد وذكر صاحب كتاب الاستقصا (4) ان العدو عمد لاسيره أبى عبد الله بن أبى الحسن فوعده ومناه وأظهر له من أكاذيبه وخدعه غاية مناه وبعثه للتشغيب على عمه طلبا لتفريق كلمة المسلمين ومعاكسة مرادهم وتوصلا الى ما بقى عليه من حصون المسلمين وبلادهم فاطلق فرديناند (5) سبيل أسيره واصحبه شرذمة من المحاربين ليدخلوه الى غرناطة لكن القوم خلعوا أباه وبايعوا لابى عبد الله الزغل لما رأوا فيه الصرامة فمات أبو الحسن رحمه الله .

---

(3) وذلك بسبب تنافس وعداوة شديدة كانا قائمين بينها وبين جارية أبى الحسن المدعوة ثريا المسيحية كان سباها فى حروبه . وكانت جميلة حذقة كثيرا ما كانت تحاول بذكائها تتدخل فى أمور الملك وافسدت الجو فى قصر الحمراء « Alhambra » وعكرته وكانت فى الحقيقة سبب انتقام أبى الحسن من عائشة وابنها اللذين سجنهما .

(4) ص 154 ج 2 .

(5) المدعو عند مؤرخى العرب بالادفنس « Alfonso » وهو اسم ملك قشتالة مطلقا .

سنة 889 هـ 1474م انتشبت الحروب بين أبى عبد الله بن أبى الحسن وعمه ، فاجتمعت بسببها كلمة الاسبان وكان شعارهم ان « تؤكل الرمانة حبة حبة « Grano a grano se a de comer la granada » وهناك استعارة ، فالرمانة وغرناطة باللغة الاسبانية لفظ واحد وهو كرنادة ودامت الحروب بين العم وابن الاخ استنجد فيها ابو عبد الله بن ابى الحسن بالاسبان على ان يترك لهم غرناطة عند الظفر بعمه فحارب ابو عبد الله الزغل كالبطل ولكن لما لم يبق فى قوسه منزع ترك الملك سنة 895هـ 1490م • وهاجر الى المغرب الاوسط وتوفى بتلمسان بعد ما ضحى حياته فى الكفاح والجهاد والدفاع عن الوطن والملك لله الواحد القهار •

5 ـ الضربة القاسية ـ حصار غرناطة :

اما أبو عبد الله بن أبى الحسن فحاول الغدر بالاسبان جهزوا جيشا مركبا من ستين ألف محارب وحاصروا غرناطة فى 22 جمادى الثانية عام 895 (29 مايو سنة 1490م) وجعلوا الحفير حول البلد وبنو مدينة وراء السور اسسوها من جديد وسموها صانطافى « Santafe » أى الايمان المقدس ودام الحصار سبعة أشهر على ما رواه صاحب الاستقصا (6) ولما أتى فصل الشتاء واشتد البرد وجاعت الناس والمحاربون وضيق عليهم العدو تفاوض أبو عبد الله مع مجلسه فاجمعوا على ان يطلبوا الصلح فابرموه مع الادفنش فى 15 صفر عام 896 موافق 25 جانفى عام 1491م • ومما التزم به أبو عبد الله من الشروط التخلى عن الملك وخروجه من غرناطة وذلك بعد أجل معين ان لم يجد من يمده لمحاربة عدوه فيقطعه اذ ذاك أراض فلاحية •

6 ـ استيلاء النصارى على غرناطة :

لما انصرم الاجل ولم تأته اغاثة طلب الصلح فاشترط عليه العدو وتعاهد المسلمون بالوفاء لفرديناند الكاثوليكى وخرج أبو عبد الله من الحمراء منكوبا فدخلها النصارى فى الثانى من ربيع الاول سنة 897هـ • الموافق للسادس يناير سنة 1492م • بعد ما استوثقوا

---

(6) ص 154 ج 2 •

من أهل غرناطة خمسمائة من الاعيان رهنا خوفا من الغدر . وكانت الشروط سبعة وستين لم يف بها الادفنش الا قليلا منها وذكر مؤرخو الاسبان (7) انه لما انحل الاجل المضروب بعث أبو عبد الله بن أبي الحسن لفرديناند صاحب قشتالة هدايا ثمينة من خيل واسلحة وغيرها وأخبره أنه مستعد للتخلي عن البلاد اذ كان ذلك أمر الله . فرد فرديناند واتفق على ان يدخل العاصمة فى التاريخ المعين فقدم الى البلد الكردينال مندوسا « Mendoza » مطران طليطلة ليستلم مفاتيحها واتفقوا على أن لا يمر أصحابه بازقة البلد خوفا من التشويش والفتنة فاختطوا طريقا من جديد تؤدى الى الحمراء ولما هيأوها جمع الكردينال جنده وتحرك الى أن وصل الى قرب البلد فتلقاه أبو عبد الله ماشيا على رجليه فتسارا معا، وأخذ الجند المسيحى يسير نحو المدينة رويدا رويدا فدخل الكردينال الحمراء (8) ، ثم ان الصليب الفضى والعلم اللذين كانا فى مقدم الجيش غرسهما الكردينال فى البرج المسمى بالجرس والملكان الكاثوليكيان فرديناند وايزابيلا ينظران من معسكرهما فاخذا يصليان ويشكران ربهما على هذه النعمة التى أتاهما بها، ثم بعد ذلك توجه فرديناند الى المدينة فتلقاه أبو عبد الله راكبا فأراد النزول فمنعه الكاثوليكى فسلم له مفاتيح الحمراء فولى الملك المسيحى الكونت تنديا « Tendilla » على البلاد وهو أول واليها بعد نزعها من أيدى المسلمين ، ثم توجه المسيحى الى الحمراء وقال صاحب الاستقصا « وصار الطاغية يختلف الى الحمراء نهارا ويبيت بمحلته (أى معسكره) ليلا الى أن اطمأن من خوف الغدر » . (9)

7 ـ اجلاء ابى عبد الله ـ البكاء :

أما أبو عبد الله فانه توجه الى أراضيه بالبشرات « Alpujarras » وذكر مؤرخو الاسبان أيضا انه لما وصل مع حاشيته الى فج يشرف على غرناطة وقف وأخذ يبكى فقالت له أمه :

(7) منهم مارمول وكوندى وميقيل سالڤا وغيرهم .

(8) كانت الحمراء حصنا جدده محمد بن الاحمر وزاد فيه البنايات الكثيرة واتخذ قصرا لبنى الاحمر وسمى على جدهم الاحمر أو الحميرى وكذا لاحمرار البناء .

(9) ص 153 ج 2 .

« الحق ان تبكى مثل المرأة على ما لم تستطع الدفاع عنه كرجل » فسمى هذا المحل « فـج الله اكبر » وسماه الاسبان (10)« el ultimo sospiro del rey moro » يعنى آخر تنهد الملـك العربى (11) ، وذكروا أنه طلب من الكاثوليكى أن يسد الباب الذى خرج منه من الحمراء فاجيب عن طلبه ، ثم احتال الطاغية فى نفيه ولم يمض عام واحد حتى عاف أبو عبد الله تلك الحياة الذليلة واضطر الى بيع املاكه للاسبانى بثمانين ألف دينار وانتقل سنة 1493م على ما هو محقق الى فاس حيث مات رحمه الله وعفا عنه سنة 940هـ 1534م· فى جـوار ملوك بنى وطاس الذين استجارهم واستغاثهم وكان يسميه أهل غرناطة بالزغيبى يعنى المشؤوم ·

وقد قال مؤرخو الافرنج انه غادر البلاد عن طيب نفس لانه لم يستطع المكـوث فى بلاد كان هو وأسلافه فيها ملوكا وأيد هذا القول ما ذكره هو قائلا « ولقد عرض علينـا صاحب قشتالة مواضع خير فيها واعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بايمانه ما يقنع النفوس ويكفيها فلم نر نحن من سلالة الاحمر مجاورة الصفر ولا يسوغ لنا الايمان الاقامة بـين ظهرانى الكفر ما وجدنا عن ذلك مندوحة ولو شاسعة وأمنا من المطالب المشاغب حمة شر لنا لا سعة » ·

ولما نزل بفاس استعذر وابرأ نفسه عما رمى به من التفريط والخيانة والزيغ ولكنه لا يخلو من المسؤولية أمام مسلمى الاندلس وافريقيا وأمام الله رغم دفاعه الذى قام به نحو سلطان فاس محمد الوطاسى وفى قصيدته الروض العاطر الانفس فى التوسل الى المولى الامام سلطان فاس ومطلعها :

مولى الملـوك العـرب والعجـم رعيـا لـما مثله من يـرعى الذمم

ورغما عما اعتذر به مما خصه الله بالشؤم وسوء الحظ فقد أقر بخطئه قائلا « بيد أنى أقول لكم ما أقوله لربى اجترائى عليه واجترامى اليه أكبر اللهم لا برىء فاعتـذر

(10) مرمول ص 440 وكوندى الذى حكى النازلة هكذا :
« razones quelleores como mujer pues no fueste para defender la como hombre »

(11) انظر الرواية اللطيفة الخيالية التى ورد بها المنغلوطى فى كتابه العبرات ص 81 مصر 1933 ·

حرق فى أبشع حالة ، لا تنسى الاجيال فضائع المحاكم التفتيشية التى كانت تحاكـــم الابرياء باسم الاله القدوس ، أجلى الكثير من أهل الاندلس سنة 1017هـ الى تطاويــن وسلا وفاس والرباط وتلمسان و وهران وتونس ومصر والشام واستنبول • (12)

9 ـ أفى تلمسان أم فــاس ؟

ذكر المقرى أن أبا عبد الله محمد بن سعد الزغل توجه الى تلمسان وتوفى بها وذكر أن أبا عبد الله محمد بن أبى الحسن بعد ما ترك ملكه توجه الىفاس وابتنى بها دارا (13) وتوفى سنة 940هـ • وذكر صاحب الاستقصا انه انصرف السلطان أبو عبد الله يعنى محمد بن أبى الحسن فى الحين بنص هذا الكتاب فركب البحر ونزل بمليلة (14) واستوطن فاسا كما ذكر جل مؤرخى الافرنج ان أبا عبد الله محمد بن أبى الحسن توجه الى فاس حيث توفى (15) الا أن هذا الخبر كذبه بروسلار فى بحثه المنشور فى الجريدة الاسيوية سنة 1876 (16) مخبرا فيه بما ملخصه : « وكان الخبر عن وفاة طريد غرناطة غير محقق والاقوال فيها مختلفــــة » •

10 ـ العثور على قبر عبد الله الزغل :

وقال بروسلار أيضا ما نصه « ونحو سنة 1857 بينما كانت الاشغال العموميـــــة الفرنسية عاملة بتلمسان لهدم بعض الدور بغية اختطاط طريق قرب جامع سيدى ابراهيم المصمودى اذ عثر على عتبة دار الرخام عليها نقوش وخطوط قد أكل الدهر عليها وشرب

---

(12) نفح الطيب للمقرى •

(13) توجد الى يومنا هذا واقعة يسرة الداخل لدرب السعود من حومة الجزيرة من عدوة الاندلس تدعى الآن دار اللبار على ما قال لى بعض اعيان فاس والله اعلم •

(14) مرسى المغرب الاقصى فى ساحل المتوسط يسمى الآن كذلك وهو من المدن المغربية التى لا زالت بيد الاسبانيين « Presidios »

(15) ذكر بعض المؤرخين انه توفى فى معركة وادى العبيد بين ملوك بنى وطاس والشرفاء السعديين وكان فى عمره ثمانون سنة على التقريب مما لا يقبله العقل والله اعلم •

(16) ثم طبع بالمطبعة الوطنتية سماه :
« Mémoire épigraphique et historique sur les tombeaux des émirs Beni Zian et de Boabdil, dernier roi de Grenade ».

وكان يحكها باب الدار عند حله وغلقه حتى امحيت من نقشه عدة كلمات كما ستـــرى فحملت اللوحة الرخامية الى النادى العسكرى الفرنسى بتلمسان وحاول المستعمرون ادراك معنى النقوش فلم يفلحوا الى سنة 1857 فحمل الحجر الى متحف أبى الحسن بتلمسان (17) بأمر الجنرال بوفور دوبول « de Beaufort d'Hautpoul » الحاكم الاعلى لجيوش عمالة وهران اذ ذاك وأخذ بروسلار الوالى على العمالة المذكورة وقتئذ يحل الكتابة المنقوشة فى الرخام وبعد جد وثبات ادرك معناها باعانة الفقيه الجليل المرحوم السيد حمو بن رسطان مفـتى الديار التلمسانية اذ ذاك حروفها من الخط الاندلسى قد أفسد الدهر تركيبـــها وما زاد تشعيبها فى حل القراءة نوع المرمر الردىء المخطط ما ادى العالمين الى استئناف اكتشافاتهما مرارا وتاخير علمهما وبعد مشاق ظهر لهما ان الرخامة شاهدة قبر ورغما عن ذلك لـــم يستفيا معنى النقش كله بل بقيت بعض السطور لم يقرأوها ونص النقش كما ساقـه بروسلار فى كتابه المذكور · (18)

بســم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

قبر سلطان قد مات فى حالة انجلائه	بتلمسان غريبــا مهمــلا بـين نسائه
بعد أن جاهد ومن أبا الاجهد اعتنائه	حكم الدهر عليه قهر احكـم قضائه
وأتاه الله صبرا عند انزال بلائـــه	فسقى اللــه قبره دائما غيث سمائه

(17) كان جامعا من احسن ما يكون من الرونق والنقش واللطافة صيرته الحكومة متحفا ولا زال الى الآن كذلك بعد ما كان مدرسة حكومية فرنسية عربية ومخزنا للعسكر ·

ومن المرغوب فيه ان يرد الى الصلوات انجازا لرغبات بناتـــه الاولين اذ بنى لتقام فيه الصلوات لا للتفسح والتسلية ·

(18) نقلته باغلاطه وتصحيفه وبياضه الذى لم يدرك المستشرق والمفتى معناه وقـــد بذلت جهدى فى الوقوف على الحجر ولم أقف له على أثر فسألت عنه كثيرا من الناس ولـــم يخبرنى به أحد اللهم الا المستشرق بيل مدير مدرسة الحكومة بتلمسان قديما أخبرنى انها سرقت من متحف جامع ابى الحسن بل اعتقد انها موضوعة فى احد متاحف باريس بعـــد ما انفض المعرض العالمى الباريسى لسنة 1878 وقـد كان حملت اليـــه بالقصر الجزائـــرى بالطروكاديرو حيث بقيت معروضة للمتفرجين مدة ستة أشهر ·

هذا قبر السلطان العادل الهمام الحافل المجاهد الكامل أمير المسلمـــين وخليفة رب العلمين مولانا أبى عبد الله الغالب بالله ابن مولانا أمير المسلمين ······· المقدس ابى الحسن ابن أمير المسلمين أبى الحجاج ابن أمير المسلمين أبا عبد الله أبن أمير المسلمـين أبى الحجاج ابن أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر الانصارى الخزرجى السعدى الاندلسى قدس الله تربته ورفع فى الجنة مرتبته جاهد فى وطنه الاندلسى فى نصرة الايمان وعمر أفواه بطاقة الرحمن وباشر بنفسه الكريمة فى مواطن عديدة بمواقف شديدة فى ملاقات جيوش متكاثرة من عبدة الصلبان بجماعة قليلة من الفرسان ولم يزل أيام امارته وخلافته جاهد فى الله حق الجهاد ويقابل بشرذمة قليلة من الجند زمن الاعاد ولم يكن لـــه مـــن . . . . هلكهم الله على معظم الوطن وكل ما قدر الله. . . . . والغربة والمحن فوصل مدينة تلمسان ولم يزل بها مقبول المقـــر متواصل الاحزان ، ثم كان ما قضاه من لا رد لامره ولا معقب لحكمه . . . . حتمه على العباد هو له كل نفس ذائقة الموت قد سابق علمة مفاته فى حال غربته عن وطنه ووطـن اجداده الملوك الكبار سلالة الانصار حماة المصطفى المختار . . . . ورفعه الله فى اعلام السعادة علما . . . . توفاه مولاه وتغمده برضاه بين العشائين من ليلة الاربعاء غرة شعبان عام تسعة وتسعين وثمانى مائة وله من العمر نحو من أربعين عـام .

. . . . بقـدر لـك عنـدما

بلـغ الكتـاب لحـــده المحـــدودى يا رب وأقبـــل لى جهـــادى أننى

أخشى يكـــون لديـك بالمـــردودى

منجـــد

الا الجهـــاد وســـيره المحـــدودى والقصـد عفـوك والنجـاة بغيـتى

فبجـاه أحمـــد لا تخيب قصـودى

11 ـ لماذا استعمل الحجر عتبة دار ؟

وبعد ما اعتقد بروسلار ان هذا الحجر لآخر ملوك بنى الاحمر أبى عبد الله الزغيبى تساءل عن سبب الاستهانة بضريح طريد غرناطة حتى استعمل رخامة عتبة دار تـوطأ

بالارجل وقال « نظن انه نصب الرخام فى عتبة دار للاستهزاء به انتقاما من الملك البائس التارك ملكه بسبب خطاياه وعدم حزمه والمتسبب لدخول الاسبان الى البلاد الافريقية » فليس هذا من شأن المسلمين وهم يوصون بان يذكروا امواتهم بالخير حشى ما عاذ الله ان ينحطوا الى هذه الدرجة من السقوط ويعلمون ان ذلك أمر من الله وكان أمر الله مقدورا بل يغلب على الظن ان الملك الذى كان مكرما مقبولا كما رأيت دفن بالمقبـــرة الملكيـــة لابى حمو موسى الزيانى صاحب تلمسان فى جانب جامع سيدى ابراهيم المصمودى قرب المحل الذى وجد فيه الرخام • (19)

وقد أكد سيبول فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ان بروسلار اعتقد خطئا انه عثر بتلمسان على قبر أبى عبد الله مع ان هذا توفى فى منفاه بفاس عام 940هـ 1533م • أو قبل ذلك فى 924هـ 1508م •

12 ـ فهى رخامة قبـر الزغل :

ثم فى سنة 1881 فى شهر ابريل نشر فى جريـــدة العلماء من ص 197 الى ص 240 مقالا رد فيه على بروسلار فيما يتعلق بعثوره على مدفن آخر ملوك بنى الاحمـر وذكـــر صاحب البحث انه طلب من بروسلار وكان نائبا اذ ذاك عن القسم الجزائرى فى المعرض العالمى الباريسى سنة 1878 ان يأتى بالرخام الى المعرض المذكور المنعقد فى السنة نفسها فنقل الرخام الى العاصمة حيث درس دراسة دقيقـــة ولوحظ فيه ان اسم أبى الهالك ممسوح ومما أدى بروسلار الى الخطأ هو أن للملكين الزغل والزغيبى كنية واحدة وهى أبو عبد الله ، فالمستشرقون الذين قرأوا من اللوحة الرخامية الفقرة التالية :

« هذا قبر السلطان العادل الهمام الحافل المجاهد أمير المسلمين وخليفة رب العلمين مولانا أبى عبد الله الغالب بالله ابن مولانا •••• (وهنا مسح الرخـــام) المقـــدس

(19) ومن العجب انه لما اختطت الطرق حيث وجدت الرخامة سميت زقـــاق خيمينيس باسم ذلك المضطهد الكبير الذى فوض اليه الملكان الكاثوليكيان الامر فى محاكمة المسلمـــين والقضاء عليهم والذى حاربهم المحاربة القاسية بدون شفقة ولا رؤف رغم مرتبته الدينية ووصاية دينه المسيحى بالحلم والانسانية •

أبي الحسن ابن أمير المسلمين أبي الحجاج .. الخ .. قد لاحظوا ان اســـم أبي الهالـك المسموح يليه لفظ المقدس ابى الحسن وهو جده ولم يشرف هذا بلقب أمير المسلمين والحال أن أبا عبد الله الزغيبى كان أبوه أبو الحسن على أميرا على غرناطة وجده أبو النصر سعد أيضا كان بويع له على المرية فلقبا باميرى المسلمين أما أبو جده الذى كان يسمى أيضا أبا الحسن على فلم يبايع له بالامارة ولذلك لم ينسب الى امارة المسلمين وانما قدس لا غير فى اللوحة الرخامية .

هذا ونظن غالبا ان الاسم المسوح هو « أبى النصر سعد ابن الخ .... فيكون القبر اذا لابى عبد الله محمد أبن أمير المسلمين أبى النصر سعد أبن المقدس أبى الحسن عـــلى ابن أمير المسلمين أبى الحجاج الخ ... وهو الملقب بمحمد الثانى عشر المدعو بالزغل وهذا ما يؤيد رواية مؤرخى العرب وجل مؤرخى الفرنج من انه توفى بتلمسان واما ابن أخيه المدعو محمد الحادى عشر فانه كما رأيناه دفن بفاس وتلك الايام نداولها بين‌الناس والدوام لله وهو وارث الارض ومن علبها وهو خير الوارثين .

أبومدين الغــوث

دفين تلمسان 520 - 594 هـ 1126 - 1197 م

عبـد القــادر الخـلادى
ـ المغرب ـ

لا يخفى على أحد انه قلما يذكر اسم حاضرة مـــن حواضر المغرب الكبير من غير ان يشفع بذكر اسم صالح مدفون فيها ، ويعتبره سكانها « سادنا لها وآذنـا » يزورون قبره ، ويقيمون حــوله ، سنويا ، المواسـم والافراح ، ويتوسلون به عند حلول الكوارث والازمات، وغالبا ما يسمون باسمه البكر مــن أولادهـم ويرون « الحلف » به من أحرج الايمان .

فأهل العاصمة الجزائرية يعظمون سيدى عبد الرحمن الثعالبى ، وسكان وهـــران يتبركون بسيدى الهوارى ، وأهل تلمسان يقيمون المولد النبوى بسيدى « بومدين » ، والفاسيون يقسمون بالمولى ادريس ، والمراكشيون يزورون أضرحة « السبعة رجال »... وقلما تجد بوجدة دارا ليس بها طفل يسمى يحيى ، كما انه قلما تدخل اسواق تـــازة من غير ان تسمع من ينادى « يا عزوز ! » .

ما هى أسباب هذا التقدير الذى يحظى به « سدنة الحواضر » ؟ من الحق ان نعترف ان الكثير منهم اشتهروا وسار بذكرهم الركبان وهم لا يزالون احياء يرزقون ، وذلــك اما لجهادهم فى سبيل الله وذودهم عن الاسلام ، واما لعلمهم ونبل مقاصدهم ؛ وقد يكــون

ذلك لما ظهر على ايديهم من كرامات شاع خبرها فى الاوساط الشعبية وسجلها الاتباع فى « الاشادات والافادات » ٠

لما طلب منى الاخ عثمان شبوب ، رئيس تحرير مجلة الاصالة الاسهام فى العدد الخاص المزمع اصداره بمناسبة انعقاد الملتقى التاسع للفكر الاسلامى بمدينة تلمسان رأيت ان أحاول الالمام باطوار حياة « مولى تلمسان » سيدى ابى مدين الغوث لاعرف ، من جهة ، مقومات شهرته ، ولاعود من جهة أخرى الى ذكريات عزيزة على ، تتسابق الى ذهنى كلما ترجع بى المخيلة الى أيام الشباب التى قضيتها بمدينة وجدة ، والى تلك الزيارات التى كنت أقوم بها لتلمسان للتجول فى مغانيها والتمتع بمباهجها ٠

قمت بجولة سريعة فى المراجع التى ترجم فيها لسيدى ابى مدين ومنها دائرة المعارف الاسلامية ، فلم ألبث ان ادركت انه ليس من السهل وصف مراحل حياته بضبط ودقة ، ولكنى أدركت كذلك انه من المفيد ان احاول ازاحة النقاب عن بعض ما تحلى به ذلك الشيخ من خصائص ثقافية وخصال تربوية كان لها اطيب الاثر فى الاوساط الاجتماعية سواء منها تلك التى تعلم فيها والتى قام فيها بدور المرشد الامين والمصلح الموفق ٠

هو ابو مدين شعيب بن حسين الانصارى ، أصله من قطنيانة (Cantillana) وهو حصن صغير فى الشمال الشرقى من أشبيلية (Séville)

غادر الاندلس فارا من اخوته الذين كانوا استغلوا يتمه ليجعلوا منه « راعيا لمواشيهم » ، وقصد العدوة طلبا للعلم لانه كان يؤلمه ان يرى الناس يصلون وهو لا يعرف كيف يصلى ، ويسمعهم يتلون القرآن وهو أمى ؛ ولا شك انه كان اذ ذاك فى منتصف العقد الثانى من عمره ٠

* * *

عبر الى طنجة ثم ذهب الى سبتة حيث عمل مدة يسيرة ، أجيرا لصيادين ، وذهب بعدها الى مراكش صحبة جماعة من أهل الاندلس الا ان هؤلاء أدخلوه معهم فى « جملة الاجناد وكانوا ياكلون عطاءه » ٠

بمراكش اشتد حرصه على طلب العلم فقيل له : ان رأيت ان تتفرغ لدينك فعليك بمدينة فاس » وكان ذلك مبتغاه يوم وصل الى جانب البحر ، فى العدوة الاندلسية وهو يخبرنا كيف تاقت نفسه الى ذلك الهدف حيث قال : « فسرت حتى وصلت البحر ووجدت خيمة فيها ناس فخرج الى منها شيخ ، فسالنى عن أمرى فأخبرته ، فجلست عنده ، فاذا جعت رمى بخيط فى طرفه مسمار فأخذ حوتا ويطعمه لى مشويا ، ثم قال لى : « انصرف الى الحاضرة حتى تتعلم العلم ، **فان الله تعالى لا يعبد الا بالعلم** » .

نرى اذن ان أبا مدين قصد فاسا لغاية واضحة، وهى الاكتراع من الحياض العلمية والسير الى الله على المحجة المرضية .

كانت فاس اذ ذاك كما قال لسان الدين بن الخطيب :

بلد أعارته الحمامة طوقها   وكساه ريش جناحه الطاووس

فكانما الانهار فيها مدامة   وكأن ساحات الديار كؤوس

وقال القاضى المزدغى :

يا فاس حيا الله أرضك من ثرى   وسقاك من صوب الغمام المسبل

* * *

وبجامع القرويين شرف ذكره   انس بذكراه يهيج تململ

وبصحنه زمن الصيف عجائب   فمع العشى الغرب فيه استقبل

* * *

وقال صاحب الانيس المطرب بروض القرطاس « بلغت مدينة فاس فى أيام المرابطين وأيام الموحدين من بعدهم من العمارة والغبطة والرفاهية والدعة ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب » .

قال أبو مدين عن أول أمره بفاس : « سرت اليها ولازمت جامعها ، ورغبت من علمنى أحكام الوضوء والصلاة ، ثم سألت عن مجالس العلماء ، فسرت اليها مجلسا بعد مجلس

وانا لا يثبت فى قلبى شىء مما اسمعه من المدرسين الى ان جلست الى شيخ كلما تكلـــم بكلام ثبت فى قلبى وحفظته » ٠

كان ذلك الشيخ هو أبا الحسن على بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم ؛ ولما ساله ابو مدين عن سبب تاثير كلامه فى قلبه قال له : « هم يتكلمون باطراف ألسنتهم فلا يتجاوز كلامهم الآذان ، وأنا قصدت الله بكلامى فخرج من القلب » ٠

لازم أبو مدين شيخه ابن حرزهم ـ (أو حرازم ، حسب نطق العامة) ـ مدة ، وكان يشتغل فى أوقات فراغه مع النساجين ليحصل عـــلى قوته ويقضى قسطا مـــن ليله فى المراجعـــة والعبادة ٠

كان الشيخ على بن حرزهم زاهدا فى الدنيا ، سالكا فى التصوف سبيل الملامتية ، ذا كرامات وفراسات ، تتلمذ على عمه ابى محمد صالح بن حرزهم ، الـــذى كان عرف الغزالى بالقدس ، وعلى ابى الفضل يوسف بن محمد الحمادى ابن النحوى الذى « عارض فقهاء العواصم الاقليمية من المغرب والاندلس عندما اشـــاروا عـــلى أمـــير المسلمـين على بن يوسف بن تاشفين باحراق كتاب « الاحياء » لما يحمل ، حسب قولهم ، من بـــدع المتكلمين وضلالاتهم ، ولما يحمل من تنقيص الفقهاء وشتمهم وتنفير الناس منهم ، وأفتوه أنه لا تجوز قراءته بحال » وقال الشيخ حرزهم ، بهذه المناسبة ، « وددت أنى لم أنظـر فى عمرى ، سواء كتاب الاحياء » ٠

ويجدر بنا ، فى هذا الصدد ، ان نقول انه « ما كادت تنتهى أيام عـلى بن يوسف ، وتطل دولة الموحدين بثورة المهدى بن تومرت ، حتى عاد الاحياء للظهور ، ودخل كـــل بيت ، فى جميع مدن العدوتين والى الآن لا يزال مثل مغربى يبين أهتمام المغاربة بـه ، وحرصهم على اقتنائه ، وذلك المثل يقول : بع اللحية وأشر الاحياء ! » ٠

ومما يؤكد ان الشيخ أبا الحسن كان على رأى عمه فى قضية احياء الغزالى هـــو ان ابا مدين قال : « سمعت رعاية المحاسبى عن ابى الحسن بن حرزهم » والمعروف ان الحارث المحاسبى كان ياخذ نفسه بالرياضة الشاقة وان كتابه « الرعاية لحقوق الله » يعتبر أول فتح فى التحليل النفسى ، ومرجع من أهم المراجع لجميع الصوفية من اعداء المال ، ومنهم

الغزالي الذى حمل حملة نكراء على الفقهاء والعلماء الذين لا يتورعون عن جمع المـــال ، « ومن المحقق ان الصوفية الصادقين لا يؤثرون الفقر الا فرارا من المال المشوب بالشبهات وان الخوف على النفس والقلب والضمير من ادناس الحرام هو خوف نبيل لا يستشعره غير صحاح القلوب » (كتاب التصوف الاسلامى ، لزكى مبارك) ٠

هذا ولا بأس ان نسجل هنا تلك الوقفة المشرفة التى وقفها ابـــو الحسن ، وهـــو بمراكش ، فى وجه الامير اللمتونى على بن يوسف ، عند ما أمر بقتل الفقيه الصـــوفى أبى الحكم عبد الرحمن بن برجان ، والقاء جثته فوق مزبلة ، اذ استنكر فعله على رؤوس الملأ وخطب فى الناس ليحتفلوا بجنازة القتيل ويواروه فى مقبرة المسلمين ٠

ويكفى دليلا على علو شأن الشيخ أبى الحسن حرزهم ان ضريحه لا يزال يحظى بكامل الاحترام ، قرب عين « سيدى حرازم » وان « سلطان الطلبة » لا يغفل عن زيارته فورا اثر انتخابه ، ليقف فى نفس الوقت ، على قبر المولى الرشيد الذى كان أول من أذن للطلبـة بانتخاب سلطانهم وبتنظيم ما يتبع ذلك الانتخاب ، كل سنة ، من حفلات وأفراح ، والذى كان « دفن بقصبة مراكش ، ثم نقل الى ضريح الشيخ أبى الحسن على بن حرزهم بفـاس لوصية منه بذلك » كما ورد فى كتاب الاستقصاء ٠ ومن شيـــوخ أبى مدين بفـــاس كذلك الفقيه المجاهد أبو الحسن بن غالب المتوفى سنة 592هـ (1166م) والموجود ضريحه حاليا بمدينة القصر الكبـير (قصر كتامة) قر بـمكان وقعة وادى المخازن الشهـــيرة ؛ وقد قرأ أبو مدين على هذا الشيخ كتاب السنن لابى عيسى الترمذى ٠

وكان لابى مدين أشياخ فى التصوف ، ومنهم الشيخ الصالح أبو عبد الله الدقاق السجلماسى الاصل ، الذى كان يتردد الى فاس وكان يصرح « بأنه وليى ويتكلم عن أشياء تنكر عليه » وكان يقول : « أنا أول من أخذ عنه الشيخ أبو مدين علم التصوف ! » ٠

ومما يدعو للاستغراب انه لما مات هذا الشيخ ودفن بمقبرة باب الجيسة ، وضع على قبره رخامة نقش عليها اسمه وانه « كان شيخ ابى مدين ٠٠٠ » فحـــدث فى القبـــر تصـــــدع ادى الى نقل تلك الرخامة واثباتها على جدار من جدران « مسجـــد سيدى أبى مدين » الذى بحى الرميلة بفاس والذى سنتكلم عنه فيما بعد ؛ وهناك شاهدها ،

سنة 1916 م ، الاستاذ الفريد بال Alfred Bel وهكذا نسى مع مر الزمان مكان قبـــر الدقاق و « بقى ذكر الاستاذ بفضل شهرة تلميذه » كما قال صاحب سلـــوة الانفاس (ج 3 ـ ص 104 ـ ط فاس) ٠

* * *

لاشك ان هذه التربية الصوفية هي التى حملت أبا مدين على زيارة أبى يعزى يلنور بن ميمون (572/438م) دفين جبل ايروجان قرب قرية تاغية والاخذ عنه ٠

لم يعرف عن ابى يعزى انه زار فاسا أو انه جلس فى حلقة من حلق علماء القرويين، وانما المشهور انه كان تلميذا للشيخ مولاى ابى شعيب السارية مؤسس رباط ازمـــور غير ان الشائع عن أبى يعزى انه لم يكن يتقن التكلم باللغة العربية ؛ ومع هذا فانه كان « اعجوبة فى الزمان وعدة للايمان ٠٠٠ بلغ من مقامات اليقين مبلغا لا يبلغه الا الافـراد من العارفين ، واشتهر عنه من الكرامات ما وقع موقع العيان » ٠

ترجم له عدة من المؤرخين واقدمهم صاحب كتاب « التشوف الى رجال التصـوف » أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التادلى المعروف بابن الـــزيات (627هـ 1230/1229م) ؛ وقد تكلم عما كان ، بعد موته ، لزاويته من اشعاع ، الرحالة الشهير الوزان الفاسى المدعو ليون الافريقى ، فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، ومرمول فى القرن التالى :

وقال فى حقه ابو مدين : « طالعت اخبار الصالحين من زمن أويس القرنى الى زماننا فما رأيت أعجب من ابى يعزى ؛ وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالاحياء للغزالى » ٠

زار ابو مدين الشيخ ابا يعزى عدة مرات ، وكان ، كل مرة ، يبقى بقربه بضعة أيام يشاهد ما كان يتم على يديه من كرامات وما كان يتجلى فى مجلسه من غريب الاحـوال والمقامات ٠

امتحن أبو يعزى المريد أبا مدين مرات ، تارة بالاعراض عنه ، وتارة باستبار صبره على الجوع ، وتارة بارساله الى أماكن بها أسد كاشرة عن انيابها أو لصوص متوثبون للسطو

والاجرام ، ··· « وكثيرا ما كان يثنى عليه ويخصه ، من بين أصحابه ، بالتعظيم والتبجيل » ·

* * *

قضى أبو مدين سنين بفاس ، وكان يحب العزلة ويوثر قضاء الليل فى خلوة ، خارج المدينة للعبادة والعمل بما يتعلمه فى النهار ، من قرآن أو حديث حتى اشتاقت نفسه لزيارة الاراضى المقدسة ، والتعرف على كبار رجال التصوف والمعرفة ! الذين اشتهروا فى زمانه · فزار شيخه أبا يعزى واستأذنه فى مغادرة المغرب قصد أداء فريضة الحج · ولما أذن له بالانصراف توجه نحو الشرق « وأنوار الولاية عليه ظاهرة ، فأخذ عن العلماء ، واستفاد من الزهاد والاولياء ، وتعرف فى عرفة بالقطب الربانى أبى صالح الشيخ عبد القادر الكيلانى (أو الجيلانى) ـ (المتوفى سنة 561 هـ 1166 م) · فقرأ عليه بالحرم الشريف كثيرا من الحديث ؛ فألبسه الخرقة وأودعه كثيرا من أسراره وحلاه بملابس أنواره ؛ فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ويعده أفضل مشايخه الاكابر » (عن شجرة النور الزاكية) ·

لا يخفى على أحد من المطلعين على ما تتسم به بعض كتب التراجم القديمة من قلة الضبط فى التواريخ ، انه من الصعب تحديد السنة التى غادر فيها أبو مدين مدينة فاس، وبالتالى السنة التى لقى فيها الشيخ عبد القادر الجيلالى ، ولكن يجوز لنا أن نقدر انه قد يكون اتصل به فيما بين 550 و 555 هـ اذ ان الشيخ عبد القادر لما أتم دراسته العلمية وأخذ الطريقة عن الشيخ أبى الخير حماد بن مسلم الدباس (المتوفى فى عام 525 هـ) وتصدر للتدريس ببغداد فى المدرسة المنسوبة اليه سنة 528 هـ ، وعندما تعرف عليه أبو مدين ، « كان جبلا فى الاستقامة على الشريعة ، وركنا ركينا للتدريس والفتوى والوعظ ، قد اتفقت الالسنة وشهادة المعاصرين على حسن خلقه ، وسعة علمه ، وعلو همته ، وتواضعه لله تعالى ، وسخائه وايثاره لغيره » (رجال الفكر والدعوة فى الاسلام ، لابى الحسن على الحسنى الندوى) ·

* * *

ويستفاد مما ذكره المقرى فى النفح ان أبا مدين كان اثر عودته من الشرق ، كان يوثـر العزلة للعبادة والتأمل ، ولكن لم يلبث أن رأى من الواجب عليه أن يجلس للتدريـس والارشاد ؛ وقد بـين هو نفسه السبب الذى حمله على اتخاذ ذلك القرار حيـث قال : ان بعض الاولياء قال لى : « رأيت فى النوم قائلا يقول ، قل لابن مدين بث العلم ولا تبال ترتع غدا معالعوالى ، فانك فى مقام آدم أبى الذرارى » فقلت له : « كنت عزمت عـلى الخروج للجبال والفيافى حتى أبعد عن العمران ، ورؤياك هذه تعدل بى عن هذا العـزم وتأمرنى بالجلوس ؛ فقولك « ترتع مع العوالى » اشارة لحديث « حلق الذكر مراتع أهـل الجنة » و « العوالى » « أصحاب عليين » ومعنى قوله « أبى الذرارى » ان آدم أعطى قـوة النكاح وأمر به ولم يجعل له قوة على كون ذريته مطيعين مؤمنين ، وكذا نحن أعطانا الله العلم وأمرنا ببثه وتعليمه ، ولا قدرة لنا على كون أتباعنا موفقين » ٠

ومن المرجح انه اتخذ ذلك القرار وهو بالمغرب الاوسط ، فاستوطن بجاية ؛ ولا شك انه كان قد نزل فيها من قبل ، فرأى انها : « معينة على طلب الحلال » ٠

* * *

وصف كثير من الكتاب والرحالة ما كانت عليه بجـاية ، عاصمة المغرب المتوسط ، فى القرن السادس عهد الامراء الموحدين ، من نشاط تجارى ، برى وبحرى ، ورفاهيـة وازدهار ، ومن نشاط ثقافى أساطينه علماء من المغرب الكبـير ، وأعلام وفدوا اليها مـن الاندلس ؛ بها « كان الناس على اجتهاد وكان الامراء لاهل العلم على ما يليق ويـراد » (عنوان الدراية ، ط ٠ الجزائر ص 85) ٠

متى دخل ابو مدين بجاية ؟ ان الجواب على هذا السؤال ليس بالامر الهين ؛ ولكـن بامكاننا أن نجزم انه قضى بها أكثر من خمسة عشر سنة ، لانه فيها تزوج بجارية حبشية وانجب ولدا ، حقق معه ، وهو فى السابعة من عمره ، حالة غريبة من « حالات الايحـاء التنويمى جعلته يرى من الشاطىء سفينة تسير من بعيد ، خارج مرمى البصر » وقد ذكر هذه الكرامة الصوفى الكبير ابن عربى الحاتمى دفين دمشق ، الذى يكون قد لقى ابا مدين ببجاية سنة 590هـ (1193م) وهو فى طريقه من الاندلس الى افريقية ، وأخذ عنه لانـه

يشير مرات عديدة الى أنه « شيخه » وقد ذكر ذلك فى « الفتوحـــات » وفى « محاضرات الابرار » ، وأورد رؤاه وكراماته ومناقبه » (ابن عربى : تاليف بلانثيوس ، تعـــريب عبد الرحمن بدوى ص 35) ٠

وقبل ذلك بنحو العشر سنوات كان نجم أبى مدين أخذ يتلألأ ببجاية ، ويؤكد ذلك ما ورد فى كتاب « انس الفقير » ـ (ص 92 ـ ط الرباط) ـ « ان الفقيه الصالح ابا عبد الله محمد بن حماد الصنهاجي القلعي قرأ عليه ، سنة 581 هـ ، كتاب المقصد الاسنى فى شرح اسماء الله الحسنى من فاتحته الى نهايته بداره ببجاية وقال : « وقيدت كلامه عليه من أول يوم من غير أن أعلم أحدا ٠ فلما كان فى اليوم الثانى قال لنا الشيخ : لا أريد ان تقيد عنى شيئا مما أقوله فى هذا الكتاب ٠٠٠ وكاشفنا بذلك » ٠

هذا ونجد فى « عنوان الدراية » (ص 73 وما بعدها) كلاما لابى بكر بن عربى مفاده « ان الشيخ الحافظ ، زين العلماء ، رأس المحدثين ، أبا عبد الحق عبد الرحمن الاشبيــلى كان آخى أبا مدين فى بجاية وأقر له بالسبق فى طريق الحق ، « وكان اذا دخل عليــه ويرى ما ايده الله تعالى به ظاهرا وباطنا ، كان يجد فى نفسه حالة سنية لم يكن يجدها قبل حضور ، مجلسه ، فيقول عند ذاك : « هذا وارث علم الحقيقة » ؛ وكان هذا الشيخ ارتحل الى بجاية بعد الخمسين وخمسمائة ، وقد توفى بها بعد محنة نالته من الولاة ، سنة 581 هـ ٠

وورد فى نفس الكتاب ، (بمناسبة ترجمة الشيخ المسيلى) « ان الشيخين أبا عــلى المسيلى (الملقب بأبى حامد الصغير) وأبا محمد عبد الحق الاشبيلى قصداه وهو جالس فى أحد مسجديه اللذين كان يجلس فيهما مع بعض خواصه ، فالفياه « يفيض فى أمـــور ويستخرج الدرر من قيعان البحور ٠٠٠ فتيقنا « بان لله مواهب لا تسعها المكاســب ، وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده » ٠

كان الشيخ ابو مدين يدرس بعض كتب التصوف ، ومنها ، كما ذكرنا ، الرسالـــة القشيرية للشيخ ابى القاسم عبد الكريم القشيرى المتوفى سنة 462 هـ ، والمقصد الاسنى فى شرح أسماء الله الحسنى لابى حامد الغـزالى ٠

وقال الشيخ ابو عبد الله محمد التلمساني في كتابه : « النجم الثاقب فيما لاولياء الله من المناقب» «كان الشيخ سيدي أبو مدين فردا من أفراد الرجال، وصدرا من صدور الاولياء الابدال ، جمع الله له الشريعة والحقيقة ، وأقامه ركن الوجود هاديا وداعيا للحق، قصد بالزيارة من جميع الاقطار (النفح ج 2 ص 348) .

وخلاصة القول فان الشيخ أبا مدين كان مدة اقامته ببجاية « مشغولا بالتربية والافادة ، والتعليم والعبادة ، والاقبال على الله في الظاهر والباطن » يدعو الله بكيانه كله ، بحديثه وبصمته ، وبسيره وبجلوسه ، وبعمله واشاراته ، أخذ عنه طائفة كبيرة من الفضلاء واستجاب لدعوته جماعة وافرة من الاخيار البررة ، واستفتاه الآلاف من الحائرين فارشدهم الى ما يطمئن قلوبهم ويثلج صدورهم .

فان لم يثبت انه كان شيخا لسيدي عبد السلام ابن مشيش شيخ الصوفي المجاهد العارف بالله ، ابي الحسن الشاذلي ، فان بثغر اسفي Safi قبر ورباط تلميذ تلميذه عبد الرزاق الجزولي دفين الاسكندرية ، وهو الشيخ أبو محمد صالح المتوفى سنة 631هـ . والذي كان له الاثر المحمود والمقام المشهود في تنظيم أول ركب حجازي ، وذلك «بان جعل أحد الشروط لصحبته ، حج بيت الله الحرام ؛ وبث اصحابه في المراكز من اسفي الى الحجاز ليعينوا الحجاج على سلوك طريق الديار المقدسة ، فكانت طائفته كجمعية تبشيرية منظمة ارقى تنظيم ، تحبب للمغاربة الحج وتيسر لهم هكذا الاتصال بأهالي الاقطار الاسلامية الاخرى » فتتفتح آفاقهم ، وتثرى معارفهم ، وتصقل عواطفهم وتعتدل آراؤهم » وقد « سار أولاده واحفاده وتلاميذه على منهجه ، خلفا عن سلف ، حتى تكون الركب الحجازي رسميا في المملكة المغربية .

* * *

« لما اشتهر ببجاية أمر أبي مدين ، وأخذت وفود ذوي الحاجات تتوارد عليه من الآفاق ، وشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور الموحدي (المتوفى سنة 595 هـ) وقال : « أنا نخاف منه على دولتكم ، فان له شبها بالامام المهدي ، واتباعه كثيرون في كل بلد » فوقع في قلبه وأهمه شأنه ، فبعث اليه للقدوم عليه ليختبره وكتب لصاحب

بجاية بالوصية والاعتناء بحمله خير محمل ؛ فشق ذلك على اصحابه فقال لهم : « ان منيتى قربت ، ولغير هذا المكان قدرت ، فبعث الله من يحملنى اليه برفق ، وأنا لا أرى السلطان ولا يرانى » ، فطابت نفوسهم وذهب بؤسهم ، فارتحلوا به الى ان وصلـــوا لضواحى « العباد » فقال لاصحابه : « ما أصلحه للرقاد ! » ومرض مرض موته ، وادركه أجله ، فتوفى هناك سنة 594 هـ ، وحمل الى « العباد » ودفن فيه ، رحمه الله ، برحمته الواسعة آمـــين ·

يستخلص من ترجمة أبى مدين أن طلب علم قصد حفظ الدين يقدم على « ارضـــاء ذوى الرحم » ، وان الشيخ الحقيقى هو الذى يربى تلامذته تربية اسلامية اساسها القرآن وعمادها السنة النبوية ، وأن التوكل لابد أن يبنى على السعى الملائم والعمل الصالح · ويستخلص من المنهج الذى سلكه انه صاحب لله ، ودعا لله بنفس تواقة نحو السمـــو والصفاء ، فاحبه واثنى عليه كل من عاشره بنية صالحة ، واستفاد منه وتمسك بمبادئه كل من أخذ عنه وقدره حق قدره ·

مرت على وفاته أكثر من سبعة قرون ، ولا يزال ضريحه وزاويته بالعباد محط الرعاية والاحترام كما لا يزال يذكر باقامته بفاس ، مسجد بحى الرميلة ، قرب قنطرة بين المدن، وبجانبه « عين سيدى بومدين » ، وهو مسجد كان الى عهد قريب يجتمع فيه المهاجرون التلمسانيون ليحيوا ليلة المولد النبوى ، أو للمذاكرة فيما بينهم كلما حزب بهم أمـــر ذو شأن ، ويوجد بمقصورته ، تجاه خلوة « سيدى بومدين » قبر سيدى أبى يعـــزى التلمسانى · ولا يزال كذلك بتونس جماعة زاوية « سيدى بومدين » وهى جماعة الشيخ الحاج المختار الكسراوى التونسى التى تجتمع للذكر وقراءة البردية والهمزية ودلائـــل الخيرات ·

* * *

فهذه صورة لما كان بالعالم الاسلامى على وجه العموم ، وبالمغرب الكبـير عـلى وجـه الخصوص ، فى القرن السادس الهجرى ، من نشاطات فكرية وعزمات روحية · ونرى من المفيد ختمها ببعض الكلمات والحكم النيرة المنسوبة للشيخ ابى مديـن عسى ان يخصص شبابنا قسطا وجيزا من وقتهم للتفكر فى فحواها واستخلاص مغزاها :

ـ من لم يجد فى قلبه زاجرا فهو خراب ٠

ـ من عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس عليه ٠

ـ مروءتك اغضاؤك عن تقصير غيرك ٠

ـ المروءة موافقة الاخوان فيما لا يحظره العلم عليك ٠

ـ من رأيته يدعى مع الله حالا لا يكون على ظاهره منه شاهد فاحذره

ـ احذر صحبة المبتدعة اتقاء على دينك واحذر صحبة النساء اتقاء على ايمان قلبك ٠

ـ من تعلق بدعوى الامانى لم يفارق التوانى ٠

ـ الزهد فريضة وفضيلة وقربة : فالفرض فى الحرام ، والفضـــل فى المتشابه ، والقربة فى الحلال ٠

ـ ابناء الدنيا يخدمهم العبيد والاماء ، وابناء الآخرة ، يخدمهم الاحرار والكرماء ٠

ـ بفساد العامة تظهر ولاة الجور ، وبفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين المفتاتون ٠

تلمسان

محمد بلقراد
كلية الآداب جامعة الجزائر

لتلمسان منزلة مرموقة فى تاريخ المغرب العربى ، وتمتاز فى ميادين شتى ٠

بجمالها الطبيعى الساحر المتمثل فى نجادها ووهادها وغاباتها وينابيعها وغير ذلك من المحاسن والمفاتن ٠

وبكثرة ما فيها من المبانى الفنية الرائعة الخالدة ، وبماضيها الفكرى والثقافى والسياسى المجيد ٠

فقد تضافرت جهود الطبيعة السخية الحسناء وجهود الانسان المبدع الخلاق لتكوين مدينة متفوقة راقية ممتعة للفكر والقلب والروح ٠ فقد بلغت أرفع مكانة فى الجمال والجلال والكمال واستحقت بفضل ذلك كله أن تدعى جوهرة المغرب وغرناطة الافريقية ومدينة الحسن والسحر والفتنة والعبقرية ٠

وتلمسان وحدها هى المدينة التى سلمت من الغرق فى محيط التلاشى واللاوجود واحتفظت عبر القرون والدهور المديدة بالحياة والنشاط وقوة الحيوية والازدهار فى

المغرب الاوسط وبقيت صامدة ثابتة عبر المخاطر والمحن ، ولم يقض عليها ما حل بها من كوارث وأهوال طمست كثيرا من المدن · أجل · قضى الزمان بالشلل والموت على كثير من المدن في المغرب الاوسط ولم يبق منها سوى أطلال وأنقاض دالة على الصراع الضارى الذى نشب بين الوجود والحياة والبقاء وبين الاضمحلال والموت والفناء ، فقد خربت أشير وقلعة بنى حماد وبجاية الحمادية والحفصية وتاهرت الرستمية وغيرها كما امحت واضمحلت مدن كثيرة ولم يبق منها غير اسمها كمتيجة ومرسى الدجاج وبلياس وبرشك وحمزة وغيرها ·

تلمسان على أرتفاع 830 م · على سطح البحر وهى واقعة فى سفح مرتفعات جبلية فى جنوبيها تكسوها غابة كثيفة من شجر الصنوبر الاخضر العطر الجميل · ويؤم الاهلون هذه الغابة فى الايام المشمسة الصاحية المعتدلة الهواء من أيام العطل والاجازات ليتنزهوا فى رحابها الفسيحة وينتشروا مناكبها المعشوشبة الخضراء ويستنشقوا هواءها العليل ويشربوا من الماء البارد العذب المتفجر من ينابيعها المختبئة بين الاحجار والاشجار ·

وفى شمال المدينة يمتد سهل الحناية الشاسع المتصل من ناحية الغرب بسهل مغنية·

وتبدو تلمسان على مسيرة ثلاثين كم من الشمال وفى الشمال الغربى يحتجب الافق وراء مرتفع ترارة حيث يلاحظ الرائى جبال فلاوسن وسفيان وغيرهما وفى الشمال الشرقى مرتفعات السبعة شيوخ وتاسالة · وأجمل ما يكون منظر تلمسان البديع الجذاب اذا رأيناه من منارة الجامع الاعظم أو من مشارف جبل طرنى الرابض فى جنوبى المدينة ·

ومجد عاصمة بنى زيان كامن بصفة خاصة فى تاريخها الحافل بالامجاد ومبانيها الفاخرة العتيقة وجمالها الطبيعى الذى يأخذ بمجامع القلوب ، وهى المدينة الوحيدة فى المغرب الاوسط التى تمتاز بأبنية يرجع تاريخ بنائها الى العصر الاسبانى المغربى · وهذه المبانى هى ذات أهمية فنية رفيعة جديرة بتشبيهها بمبانى المغرب الاقصى واسبانيا·

وقد ترك الادارسة والمرابطون والموحدون وأمراء بنى زيان وبنى مرين آثارا فنية ذات ميسم بديع أخاذ وحظ كبير من الروعة والجمال على مبانى تلمسان المتمثلة بصفة خاصة فى الجامع الاعظم ومسجد سيدى أبى مدين وأطلال جامع المنصورة ·

تقوم تلمسان على الجانب الشمالى لاحدى قمم جبال المدينة المواجهة للبحر ·

وتكوين تلمسان الجيولوجى صالح جدا لحفظ مياه الامطار والثلوج فى أحواض شاسعة فى باطن الارض · لذلك تعد جبال تلمسان بمثابة خزان طبيعى كبير تتوزع منه المياه بواسطة ينابيع جمة لا تغيض مياهها الغزيرة التى تجعل أقليم تلمسان الممتد على بضعة أميال حول المدينة ثريا بحدائقه الغناء وبساتينه الشجراء · وهى عماد ثروة الاقليم ·

والى هذه المياه الدافقة يعود الفضل فى تكاثر الغابات الجميلة التى تتحلى بها تلمسان وأحوازها · ويجرى على منحدرات جبال تلمسان عدة أنهار كنهر تافنة ونهر المفروش ونهر الشولى ونهر اسر ونهر الصفصيف وبها مساقط للمياه وتكسو منحدرات جبال تلمسان غابات بديعة كغابة طرنى فى جنوب المدينة فيها أنواع شتى من الاشجار كشجر الصنوبر وشجر البلوط وغير ذلك · ويعيش فى هذه الغابات أنواع مختلفة من الحيوان كالضباع والثعالب والذئاب وغيرها من صغار السباع · وبها أنواع من الطير لا حصر لها·

وفى أقليم تلمسان مغاور كثيرة ممتدة فى باطن الجبال · وبها كهوف وجحور مليئة بالحمام وغيره يلجأ اليها الطير والحيوان حينا ويتخذ منها الاهلون بيوتا حينا آخر ·

وتتمتع تلمسان بمناخ صحى منعش معتدل فى أغلب فصول السنة · وقد تشتد فيها وطأة البرد فى بعض السنين وقد تسقط فيها ثلوج وتتراكم على قمم جبالها · ويحتفظ طقسها عادة ببرودته فى أكثر شهور الشتاء ويمتاز صيفها بالجفاف وسماؤها فيه دائمة الزرقة فى النهار صافية الاديم مرصعة بالكواكب المتلألئة فى ظلام الليل · وأنهار تلمسان المنحدرة من جبالها تسقى بها الاجنة والبساتين فتكثر فيها الخيرات والغلال · وأرياف تلمسان جميلة فاتنة وتبقى مكتسية بأعشابها الخضراء ، وبالوان ازهارها الزاهية فى الربيع والصيف وتكثر فى بساتينها أشجار الفواكه ، وأشجار الزيتون ، والكرز فيها أكثر من الكثير والزيت متوفرة فى موسم عصر ثمر الزيتون · ومعاصر الزيت كثيرة فى تلمسان ·

وكرز لوريط ممتاز لشدة حلاوته وعذوبة طعمه ·

فمدينة تلمسان بموقعها المشرف وأبنيتها الاثرية وشوارعها الواسعة الجميلة النابضة بالحياة والنشاط وأرباضها الفاتنة تعد من أروع المدن وأكثرها حسنا وسحرا وفتنة فى المغرب الاوسط ·

واسم تلمسان بربرى هو تحريف صيغة جمع وهو تلمسان أو تلمسين بكسر فسكون فكسر ومفرده تلماس ومعناه جيب ماء أو ينبوع ، فيكون معنى اسم تلمسان مدينة الينابيع وهذا المعنى يتلاءم تماما مع اقليم تلمسان لكثرة مائها البارد العذب المتفجر من كل مكان المنساب فى كل اتجاه ·

والمدينة القديمة على مسافة بضع مائات من الامتار فى الشمال الشرقى من المدينة الحديثة ، وكانت تعرف هذه المدينة باسم تلمسان أو أجادير ، وهو اسمها الفينيقى القديم ، دخل هذا الاسم فى لغة البربر ، ومعنى أجادير بجيم مصرية الجرف أو الهضبة · ويتفق هذا وموقع المدينة لانها تقوم على هضبة قليلة الانحدار وتنهض فجأة من السهل وتشرف عليه من ناحيتى الشمال والشرق ·

ولعل اسم اجادير هو أصل القصة العربية التى تطلق على هذه المدينة اسم تلمسان الجدار أو مدينة الجدار ·

وليس من ريب فى أن الانسان قد استقر فى موقع تلمسان قبل اختطاطها بزمن طويل لانه موقع صالح للاقامة ملائم لسكنى الانسان فيه منذ أقدم العصور والدليل على أن الناس عمروا هذا المكان منذ فجر التاريخ أو بالحرى منذ فجر الحضارة الاولى للانسان هو أنه عثر فى هذا المكان على آثار انسان ما قبل التاريخ ، ولعل المستقبل كفيل بالكشف عن آثار أخرى كثيرة بفضل ما عسى أن ينجز من حفريات · أما ما قد عثر عليه منها الى الآن فانه ما زال بعد أقل من القليل ·

ولتلمسان أسماء شتى أطلقت عليها عبر القرون والدهور · ومعروف أن الرومان استعمروا الشمال الافريقى واختطوا قبل اجادير فى موضع تلمسان القديمة مدينة دعوها بوماريا Pomaria ، ومعنى هذا الاسم البساتين · وكانت بوماريا فى أول نشأتها معسكرا رومانيا صار فى زمان لاحق مدينة بمقوماتها العادية عاشت فى ظل السلطة العسكرية الرومانية · وقد بنى الرومان قناة لحمل الماء العذب من لوريط الى

بوماريا ، وما زال الناس الى الآن يسمون هذه القناة ساقية النصرانى ، وقد ذكرها ابن خميس فى قوله :

لساقية الرومى عنـــدى مـزيـــة   وان رغمت تلـك الرواسى الرواشح

وكلما تهدمت وجنى عليها القدم تعهدها الناس بالترميم والاصلاح ، وقـد ذكـــر أبو عبيد البكرى هذه القناة فقال : وكان الاول قد جلبوا اليها (تلمسان) ماء عيـــون تسمى لوريط بينها وبين المدينة ستة أميال ٠

ومعلوماتنا عن بوماريا قليلة جدا وان كانت أخبارها فى الوثائق التاريخية الاوروبية القديمة لا تحصى كثرة ٠

وقد أطلق على تلمسان أيضا اسم تاقرارت ، وهى كلمة بربرية مؤنثة معناها معسكر، وقد أطلق هذا الاسم فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) غزاة المرابطين ، وهم الذين أنشأوا مدينة تلمسان الحديثة ومسجدها الجامع أثناء حصارهم لتلمســـان القديمة وهى مدينة أجادير ٠

وقد أطلق عليها كذلك اسم المنصورة أو المحلة المنصورة أو تلمسان الجديدة ، بناها المرينيون من أهل فاس على بعد ميل منها فى ناحية الغرب وشيدوا بها مسجدا جامعـــا وقصرا وحصنا مسورا وذلك عند نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامـــن للهجـــرة ابان حصارهم الكبير لمدينة تلمسان ٠

وقد كانت تلمسان تتألف من هذه المدن الثلاث المتعاقبة أجادير فى الشرق، وتاقرارت فى الوسط ، والمنصورة أو المحلة المنصورة أو تلمسان الجديدة فى الغرب ، ولم يبق من هذه المدن سوى المدينة الوسطى تاقرارت ، وقد احتفظت باسم تلمسان وهو اسم أطلق عليها منذ القرون الاولى للاسلام ٠

والذى بنى تاقرارت وهى تلمسان الحالية هو يوسف بن تاشفين (410 ـ 500هـ) المصالى الصنهاجى اللمتونى الحميرى أبو يعقوب ملك الملثمين سلطان المغرب الاقصى وبانى مدينة مراكش وأمير المسلمين ٠ بنى تاقرارت فى موضع المعسكر الذى أقامه لحصار أجادير حوالى سنة 473هـ (1069 ـ 1070 م) ٠

وأول مسجد جامع بنى فى أجادير هو الذى بناه ادريس الاول مؤسس دولة الادارسة سنة 174 هـ · نزل فى وليلى وجمع البربر على القيام بدعوته وخلع طاعة بنى العباس فتم له الامر يوم الجمعة 4 رمضان سنة 172 هـ · ثم خرج بجيش كثيف وغزا بلاد تادلة وفتح معاقلها ثم غزا تلمسان فبايع له صاحبها وعظم أمر ادريس فاستمر الى ان توفى فى وليلى سنة 177 هـ ·

خرج ادريس الاول برسم غزو مدينة تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة وبنى يفرن ، فوصل مدينة تلمسان ونزل بخارجها فأتاه أميرها محمد بن خزر بن صـــولات المغراوى الخزرى ، فطلب منه الامان · فأمنه ادريس وبايعه محمد بن خزر وجميع من معه بتلمسان من قبائل زناتة ، فدخل ادريس المدينة صلحا وأمن أهلها وبنى مسجدها ووضع فيـه منبرا وكتب عليه « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أمر بـــه ادريس بن عبـد اللـه ابن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم · وذلك فى شهر صفر سنـة أربع وسبعين ومائة (19 جوان 790 م) ·

واعيد بناء مسجد أجادير من جديد ورمم ادريس الثانى منبره فى السنين الثلاث التى قضاها فى تلمسان من سنة 199 الى سنة 201 للهجرة ، وبعد فراغ ادريس بن ادريس من بناء مدينة فاس خرج الى غـزو نفيس وبــلاد المصامدة ورجع الى فاس فاقام بهـــا الى شهر المحرم من سنة تسع وتسعين ومائة ، فخرج منها برسم غزو قبائل نفزة ، فسار حتى غلب عليهم ودخل مدينة تلمسان فنظر فى أحوالها وأصلح أسوارها وجامعها وصنع فيه منبرا · قال أبو مروان عبد الملك الوراق : « دخلت مسجد تلمسان فى سنة خمس وخمسين ومائتين فرأيت فى رأس منبرها لوحا من بقية منبر قديم قد سمر عليه هناك مكتوب عليه : هذا ما أمر به الامام ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحســن ابن على رضى الله عنهم فى شهر المحرم سنة تسع وتسعين ومائة (أغسطس ـ سبتمبر 814 م) ·

فاقام ادريس بمدينة تلمسان وأحوازها ثلاث سنين · ومن الاد ارسة محمد بن سليمان ابن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب الذى من ولده الامير عيسى بن ادريس بن محمد

ابن سليمان بن عبد الله المقتول بفخ سنة 169هـ · وجد السليمانيين أصحاب الدولـــة فى تلمسان ·

ولد عيسى ونشأ فى تلمسان وبنى مدينة جراوة وتولى امارتها وتوفى بها نحو سنة 330هـ (942م) · ومن أحفاد عيسى هذا أسرة ابن سليمان التلمسانية المشهورة وهى من الاشراف الحسنيين يرتفع نسبها الى الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ·

وقد ذكر ابن‌مريم ترجمة امام من أئمة جامع أجادير وهو على بن يحيى‌السلكسيني‌الجادرى · وقد وصفه بالصلاح والاستقامة والتحقيق فى العلوم والحساب والفرائـض وأحكـــام القرآن والاعراب والحرص على تدريس العلم والخروج الى عرصة له فى وادى الصفصيف لخدمتها بالفاس بنفسه · وكان الطلاب يرافقونه ويدرس معهم العلم فى ذهابه ورجوعه فى الطريق · فاذا وصل الى عرصته ينزل عن دابته ويفرغ الزبل ويزيل البردعة عنها ويربطها بيده ويأخذ الفأس ويخدم به فى العرصة والقارىء يقرأ وهو يفسر الى الزوال ويركب على دابته والقارىء عـن يمينه أو يســـــاره · وكان ذلك دأبـه الى أن تـوفى فى 22 رجب 972هـ ·

ان مسجد أجادير تهدم وانطمس ولم يسلم من الاندثـار الا منارته العتيقة الجميلـة التى ما زالت قائمة · وربما تكون قد بنيت حوالى منتصف القرن السابع للهجرة · وضعت قاعدتها على صخور منحوتة من صنع الرومان · ولا تزال على كثير من تلك الصخور كتابات منقوشة اكتشفت فى أجادير ويصعد عهدها الى العصور المسيحية وأحدثها مـــن القرن السابع للميلاد · وبالقرب من المنارة انقاض سور متهدم هى أطلال باب العقبة · يقـول أبو عبيد البكرى : تلمسان هى مدينة مسورة فى سفح جبل شجره الجوز · ولها خمسة أبواب ثلاثة منها فى القبلة (الجنوب) باب الحمام وباب وهب وباب الخوخة · وفى الشرق باب العقبة وفى الغرب باب أبى قرة ا هـ ·

وأجادير فى الجهة الشرقية من المدينة ·

وفى الناحية السفلى من المنارة يقوم مشهد سيدى الداودى بن ناصر وهو مزار مشهور فى مكان تكثر فيه أشجار الزيتون · ومن محطة القطار القريبة من حى أجادير يـــؤدى

طريق الى ضريح سـيدى يعقوب ومن أسباب عظمة تلمسان فى العصر الحاضر القيم الفنية التى احتفظت بها الى الآن وهى المبانى العتيقة الخالدة التى أضفى عليها القـدم وتعاقب الاحقاب والدهور سربالا من الجمال والجلال تباهى بها عواصم الدنيا ٠ وأغلب هذه المبانى مساجد ومشاهد ٠ وهى تحف فى منتهى الحسـن والروعة ٠ خلفتها الازمان الغابرة والقرون البائدة ٠ وقد أسهم فى تشييدها بناؤون ومهندسون بارعون أسهموا فى بناء حمراء غرناطة وقصور اشبيلية وفاس وغيرها من الامصار الاسلامية ٠ وتعـد هذه الآثار اليوم من كنوز الفن الاسلامى التى تراكمت داخل الاسوار العتيقة المحيطة بمدينة تلمسـان ٠

وأجمل مبانى تلمسان شيدت فى القرنـين السابع والثامن للهجرة حين كانت هذه المدينة عاصمة المغرب الاوسط ومنافسة لمدينة فاس المرينية ، وأهم هذه الآثار هى من بناء أمراء تلمسان ٠

ومن أشهر مبانى تلمسان الجامع الاعظم القائـم فى وسـط المدينة فقد أنجـز بناؤه فى فترات متعاقبة فى القرنين السادس والسـابع للهجـرة وكان جورج مارسى مقتنعا بأن أول من شرع فى بنائه هو يوسف بن تاشفين (410 ـ 500هـ ٠) حوالى 1082م ٠ وأن يغمراسن الزيانى وسعه وأضاف اليه فناء آخر ووسع قاعة الصلاة ، ويغمراسـن هو الذى بنى منارة الجامع بالآجر فى الركن الشمالى على قاعدة ذات شكل مستطيـل وبلغ علوها 35م ٠

ومما أشيع أن يغمراسن (603 ـ 681هـ) العبد الوادى دفن فى الجامـع الاعظـم قرب المحراب ٠ وفى الركن الجنوبى الغربى من الجامع الاعظم ضريح سيدى مرزوق وفى الركن الجنوبى الشرقى منه ضريح سيدى أحمد بن الحسن الغمارى المتوفى سنة 874هـ ٠ بتلمسـان ٠

ومـن أشهرها أيضا المسـجد الجميل الصغـير مسـجد سيدى بلحسـن أطلـق عليه اسم ابى الحسن بن يخلف التنسى الذى كان فقيـه حضرة أبى يعقـوب يوسـف (638 ـ 706هـ ٠) فى المنصورة التى اختطها مدة حصاره الكبير لتلمسان ، وصـار

هذا المسجد متحفا للآثار . والتنسى هذا هو غير أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسى مؤلف نظم الدر والعقيان فى دولة آل زيان المتوفى سنة 899هـ . ومن مزارات تلمسان قرية العباد على ثلاثة أميال من المدينة ـ وكان العباد مدفن الاولياء والصالحين والعلماء ـ وفى العباد مسجد أبى مدين شعيب بن الحسين الاندلسى التلمسانى وهو من مشاهير الصوفية ، سكن بجاية وتوفى بتلمسان سنة 594هـ .

ومسجد أبى مدين تحفة فنية بناه ـ كما تدل على ذلك كتابة منقوشة على ساريتى المحراب ـ أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المنصور المرينى (697 ـ 752هـ .) سنة 740هـ . (1339م .) المعروف بالسلطان الاكحل لسمرة لونه . استولى على تلمسان سنة 735هـ . وجدد بناء المنصورة التى اختطها عمه أبو يعقوب يوسف وخربها بنو زيان . وهو الذى بنى المدرسة المحاذية لمسجد أبى مدين سنة 748هـ . (1347م .) والتى تعلم فيها العلم عبد الرحمن بن خلدون .

ووراء المسجد دار متهدمة هى دار السلطان فيها عشر حجرات وثلاثة أفنية .

ولابى الحسن المرينى هذا من آثار العمران مدارس فى مراكش وسلا ومكناسة الزيتون وتلمسان ، وحذاء المسجد ضريح أبى مدين شعيب وهو مزار يتقاطر اليه الزوار والسياح من كل حدب وصوب وحذاءه قبر سيدى عبد السلام التونسى الذى دفن الشيخ سيدى أبو مدين بجواره فى روضته . كان سيدى عبد السلام عالما زاهدا يلبس الصوف ويأكل الشعير من حرث يده والسلاحف البرية .

ودفن فى مقبرة أبى مدين المعتضد بالله المؤمنى على بن ادريس المأمون بن يعقوب المنصور أبو الحسن السعيد من خلفاء الموحدين بنى عبد المؤمن بمراكش المتوفى سنة 646هـ . جاء الى تلمسان لمحاربة يغمراسن الزيانى فاعتصم هذا بقلعة تامزردكت قرب تلمسان وحاصره أبو الحسن السعيد بها ثلاثة أيام . وفى اليوم الرابع خرج السعيد فى وقت القيلولة على حين غفلة من الناس فعرفه رجال يغمراسن فانقضوا عليه وقتلوه وبادر يغمراسن الى السعيد فنزل اليه وهو صريع على الارض فحياه وفداه وأقسم له على البراءة من دمه والسعيد واجم بمصرعه يجود بنفسه .

ولما سكنت الفتنة نظر يغمراسن فى شأن موارات الخليفة فجهزه ورفعه على أعواده فدفنه بالعباد بمقبرة الشيخ أبى مدين ثم نظر فى شأن حرمه وأخته تاعزونت الشهيرة الذكر بعد أن جاءها واعتذر اليها مما وقع وأصحبهن جملة من مشيخة بنى عبد الواد الى مامنهن فالحقوهن بدرعة من تخوم طاعتهم فكان ليغمراسن بذلك حديث جميل فى الابقاء على الحرم ورعى حقوق الملك ، واستولى يغمراسن على فسطاط السلطان فكان له خالصة دون قومه وعلى الذخيرة التى كانت فيه منها مصحف عثمان الذى يزعمون أنه أحد المصاحف التى انتسخت لعهد خلافته وأنه كان فى خزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمن الداخل . ثم صار الى خزائن الموحدين .

ومن الذخائر التى صارت الى يغمراسن من فسطاط السعيد العقد المنتظم من حرزات الياقوت الفاخر والدر النفيس وكان يسمى بالثعبان .

ومن أجمل الاطلال فى تلمسان أطلال المنصورة (بداية القرن الثامنهـ .) وأهمها منارة الجامع الاعظم بالمنصورة وهى عالية جدا وبنيت بالصخور المنحوتة وليس مثلها الا المآذن الموحدية فى رباط الفتح (برج حسن) وفى مراكش (الكتبية) وفى اشبيلية (الخيرالدة أو الخالدة) . وهذه المئذنة هى مئذنة الجامع الاعظم الذى بناه أبو يعقوب يوسف الناصر المرينى (638 ـ 706هـ) .

ضرب أبو يعقوب على تلمسان الحصار الكبير الذى دام مائة شهر من شهر رجب سنة 698 حتى مقتل السلطان أبى يعقوب فى ذى القعدة سنة 706 هـ .

احدقت بتلمسان محلات أبى يعقوب وجيوشه وقاتلها قتالا شديدا الى أن دخل فصل الشتاء فأمر السلطان ببناء تلمسان الجديدة . فبدأ أمير المسلمين ببناء قصره فبناه فى موضع نزوله حيث ضرب قبابه . ثم بنى جامعا كبيرا بازاء قصره وأقام فيه الخطبة وأمر الناس بالبناء فانتشروا فى البنيان بالمحلة يمينا وشمالا فأدار السور على قصره وعلى الجامع الذى بازائه ، وفى سنة 702 هـ . أمر أمير المسلمين أبو يعقوب ببناء السور الاعظم على تلمسان الجديدة ، فابتدأ ببنائه فى 5 شوال 702 هـ وان بقايا من هذا السور وابراجا

منه باقية الى يوم الناس هذا كما بقى الشق الغربى من المئذنة الذى بنى باب المسجد فى أسفلها كما يراه الناس اليوم • أما الشق الشرقى الذى يلى المحراب فقد سقط •

ولقد كان حصار السلطان أبى يعقوب المرينى لمدينة تلمسان من أفضع وأشد ما عرفه التاريخ فى حصار مدينة • لقد مات فيها نحو عشرين ومائة ألف شخص وأكل الناس يومئذ الجيف والكلاب والقطاط والفيران وأشلاء الموتى وبلغ ثمن الفأر عشرة دراهم وفى تلك الاثناء شرع السلطان أبو يعقوب المرينى فى اقامة بناء وانشاء حاضرة المنصورة جعلها السلطان معتصما لجنده المعسكر والمحاصر لعاصمة بنى زيان • ومن بين ما كان فيها حول القصر سور يفصله عن سكنى الرعية وحول ذلك السور ابتنيت المنازل والقصور الانيقة والحمامات العمومية والفنادق والاسواق وأجريت المياه بالبساتين وانشئت بها دور الاسعاف وغير ذلك من مرافق الحضارة • فاصبحت المنصورة بعد ذلك من أعمر الامصار الجزائرية وابدعها جمالا •

قال ابن مرزوق الخطيب : « منصورة تلمسان التى لم ير الراؤون مثلها ولا وصف الواصفون مثل وصفها • وأما قصرها ومسكن الامام بها فقد رأيت كثيرا ممن دخله من المتجولين ممن رأى مبانى العراق ومبانى مصر والشام والمبانى القديمة فى الاندلس ومراكش أجمعوا كلهم على أن الذى اجتمع فيه لم يجتمع فى غيره وبحق ما قالوه لحا الله من خربها » • اهـ • وهو يعنى بذلك بنى عبد الواد حينما خربوها وحطموا قصورها ودمروها سنة 707هـ/1307 م • انتقاما لانفسهم من بنى مرين وطمسا لمعالم الهوان بأرضهم ، وكان فى تلمسان فى عهد بنى زيان مدارس شتى منها مدرسة العباد • ومنها المدرسة التاشفينية التى أقيمت دار البلدية فى تلمسان فى موقعها وكانت المدرسة تشغل موقع دار البلدية وقسما كبيرا من ميدان الامير عبد القادر • اختطها أبو تاشفين الاول فى بداية القرن الثامن الهجرى وكان فيها عدة حجرات للدرس وحجرة للصلاة وغرف لسكنى الطلاب • ولعل الحفريات كفيلة باكتشاف وثائق تطلعنا على تاريخ هذه المدرسة •

ولما أوصل منديل الكنانى صاحب مليانة أولاد الامام عبد الرحمن وعيسى الى أبى حمو الاول وأثنى عليهما وعرفه بمقامهما فى العلم اغتبط بهما أبو حمو واختط لهما المدرسة

التى دعيت مدرسة أولاد الامام وابتنى لهما دارين على جانبيها وجعـل لهما التدريس فيها فى ايوانـين معدين لذلك ـ يقول عبد الرحمن بن خلدون ان هذه المدرسة كانـت بناحية المطهر من المدينة ويقول ابن مريم انها كانت فى باب كشـوط ومـن مزارات تلمسان مسجد سيدى الحلوى خارج سور المدينة من ناحية الشمال ٠

وفوق حنية باب المسجد كتابة منقوشة على الحائط فيها تاريخ بنـاء المسجـد وهـو 734هـ ٠ (1353م ٠) وفيها اسم الامير الذى اختط المسجد وهو أبو عنان فارس المرينى (729 ـ 759هـ ٠) ولاه أبوه عـلى بن عثمان أبو الحسـن المنصـور بالله المريـنى (697 ـ 752هـ ٠) امارة تلمسان ثم ثار على أبيه وبويع فى حياته ولما مات أبوه (752هـ) استتب أمره فبدأ باخضاع بنى عبد الواد فقاتلوه فظفر بهم ودخل تلمسان وانتظم لـه أمر المغرب الاوسـط ٠ ويشرف ضريح سـيدى الحلوى على المسجد ٠

ومن اشهر مبانى تلمسان القديمة التاريخية المشور وهو عند منتهى شارع الاستقلال (شـارع فرنسـا سـابقا) الذى يشق تلمسان فى وسطها من الشمال الى الجنـوب وينتهى الى ساحة المقدم فرج التى ندخل منها الى بناية المشور ، وقد بنى المشـور سنة 650هـ ٠ (1145م ٠) فى الموقع الذى أقام فيه يوسف بن تاشفين (410 ـ 500هـ ٠) فسطاطه عندما كان محاصرا لتلمسان العتيقة أو أجادير ٠ وقد اتخذ أمراء الدولة الموحدية والدولة الزيانية بعدهم المشور مقرا ومسكنا لهم ٠

ولفظ المشور مشتق من الشورى وهو لفظ مغربى ومعناه الحقيقى المكان الذى كان يعقد فيه أمراء تلمسان مجالسهم للتفاوض مع وزرائهم ورجال دولتهم حول الشـؤون العامة السياسـة وغيرها ٠ والمشور مكان الندوات والمداولات وهـو مجلس لاقامـة العدل وقد يتناول فيه الامير وجبات اليوم مع رجال بطانته وقد يؤدى فيه الصلـوات ـ وقد تطلق كلمة المشور على جناح مستقل من أجنحة القصر ، وقد يؤدى معنى معقـل وقلعة ٠ وصاحب المشور هو أمين الدولة وكاتب السر وولى المشور هـو المشـرف على الندوات والمحافل الرسـمية ٠

ومن المبانى التاريخية مسجد سيد ىابراهيم وهو فى نهج ابن خميس ٠ وخارج المسجد ضريـح سيدى ابراهيم ٠

والمسجد والضريح هما كل ما بقى من مجموعة المبانى التى أقامها أبو حمو موسى الثانى مؤسس دولة بنى زيان الثانية ـ وكانت المجموعة تشمل أيضا مدرسة ومقبـرة لامراء بنى زيان ـ وأبو حمو هذا هو الذى خلص المغرب الاوسط من تبعيته للدولتـين الحفصية والمرينية فى النصف الثانى من القرن الثامن هـ ٠ ومن ميدان محمد خميستى ندخـــل نهـج معركة فلاوسن (نهج هايدو سابقا) الذى يؤدينا الى باب فاس وهو باب كشوط قديما ويمر النهج على مسجد أولاد الامام الذى بنى فى بداية القرن الثامن للهجرة وأولاد الامام هذان هما العالمان الجليلان عبد الرحمن وعيسى اللذان ولدا فى برشك وأقاما فى تلمسان وبنى لهما أبو حمو الاول مدرسة اثر مقدمهما من مليانة بعد انتهاء الحصـــار الكبير على تلمسان وقد نوه بشأنهما وعلو كعبهما فى العلم عبد الرحمن بن خلدون فى التعريف بابن خلدون ٠

واذا واصلنا السير فى نهج معركة فلاوسن انتهينا الى ساحة المجاهدين حيث نـرى بناية ضخمة جميلة ذات باب كبير بحنية كبيرة مزخرفة ٠ تلك مدرسة تلمسان الشهيرة التى كانت ملتحقة هى وأختاها مدرسة قسنطينة والمدرسة الثعالبية بالتعليم العالى ٠ فهذه المدارس الثلاث ساهمن مساهمة طيبة فى نشر العلم واللغة العربية والادب العربى والفقه الاسلامى طوال عقود متطاولة من الزمان وتخرج منهن كوكبة متنورة من ابنـــاء الجزائر الابرار الذين أسهموا ويسهمون الآن فى نشر الثقافة العربية الاسلامية وخدمـة العلم وأهله فى صمت وتواضع وكثير منهم لا يزالون يواصلون السعى لمحاربة التخلف الثقافى وبناء الجزائر فى مختلف الميادين حتى تتمكن البلاد شيئا فشيئا مـــن الالتحاق بالامم الراقية المتقدمة ومواكبة ركب الحضارة فى المعمور ٠

واختطت بنايات ذات طابع مغربى جميل فى بداية هذا القرن منها مدرسة تلمســان التى بنيت سنة 1905 والمدرسة الثعالبية ودار البريد الكبرى بالجزائر العاصمة وكلتاهما بنيتا حوالى 1903 ٠

وحذاء مدرسة تلمسان ضريح سيدى معمر بن عالية ، ثم ننتهى الى صهريج كبير يدعى صهريج بن بده وهو واقع خارج سور المدينة وبين باب فاس وباب وهران • وقد بناه أبو تاشفين الذى ولى الحكم بين 1318 و 1337 م • ولعل هذا الصهريج أعد خزانا لماء رى البساتين • ويقال ان عروجا لما استولى على تلمسان سنة 1518 أغرق فيه اثنين وعشرين أميرا من أمراء دولة بنى زيان •

وازاء الصهريج ثانوية بن زيرجب التى دعيت بذلك اكراما للدكتور بن زيرجب التلمسانى الذى استشهد رحمه الله فى حرب تحرير الجزائر ، واذا جاوزنا الصهريج وهبطنا قليلا رأينا كومة من الانقاض والاطلال هى بقايا من باب فى السور القديم للمدينة هو باب **القرمدين** •

ومن اشهر مشاهد تلمسان ومزاراتها ضريح سيدى السنوسى الذى يتوسط مقبرة المدينة •

وهو محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسى الحسينى أبو عبد الله عالم تلمسان فى عصره وصالحها له تصانيف كثيرة أكثرها فى علم التوحيد والعقائد عاش فى القرن التاسع للهجرة (832 ـ 895 هـ) وقد خصه ابن مريم بترجمة ضافية فى بستانه •

وتكثر زيارة الاهلين لضريح لالا ستى لا سيما النساء التلمسانيات اللائى يختلفن اليه زرافات ومنفردات ، والضريح على قمة الجبل فى غرب مدينة تلمسان •

المراجع العربية

1 ـ البكرى أبو عبيد ـ المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب ـ تحقيق دى سلان الجزائر 1857 •

2 ـ الجيلالى عبد الرحمن تاريخ الجزائر العام الجزء الثانى الجزائر 1955 •

3 ـ حاجيات عبد الحميد ـ أبو حمو موسى الزيانى حياته وآثاره ـ الجزائر 1974 •

4 ـ ابن أبى زرع أبو الحسن بن محمد بن أحمد بن عمر القاسى الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس •

طبعة حجرية بلا تاريخ •

5 — الزركلي خير الدين الاعلام القاهرة 1954 — 1959 .

6 — طمار محمد ـ تاريخ الادب الجزائرى ـ الجزائر بلا تاريخ .

7 — عبد الرحمن بن خلدون التعريف بابن خلدون ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى القاهرة 1951 .

8 — الغبرينى أحمد بن أحمد بن عبد الله ـ عنوان الدراية ـ تحقيق عادل نويهض بيروت 1970 .

9 — ابن مريم ـ البستان تحقيق محمد بن أبى شنب ـ الجزائر 1908 .

10 — الناصرى السلاوى ـ الاستقصا ـ المطبعة المصرية 1304هـ . الجزء الاول .

المراجع باللغة الفرنسية

(11) Bulletin de la société : les Amis du Vieux Tlemcen — Tlemcen d'Hier et d'Aujourd'hui 1953-1954.

(12) R. Dozy, «Supplément aux Dictionnaires Arabes», Leyde, E. J. Brill. 1881.

(13) Encyclopédie de l'Islam - 1ère éd. - Leyde 1908-38.

(14) Les Guides Bleus - Algérie. — Guide établi par Jean Modot - Hachette, Paris 1974.

(15) Tlemcen et sa région — Livret-guide publié par le Syndicat d'Initiative de Tlemcen, 1921.

حركة الشعر المولدى فى تلمسان
على عهد أبى حمو الثانى

د. عبد الملك مرتاض
جامعة وهران

ترجع عادة الاحتفال بالمولد النبوى الى القرن الرابع للهجرة . ويبدو أن الفاطميين توسعوا فى احياء هذه الحفلات أكثر ممن سبقهم وأضفوا عليها مظاهر الجلال والعظمة (1) ثم اتخذت هذه الاحتفالات « صورا شتى فى مختلف البلاد الاسلامية وعلى مر التاريخ » (2) .

وقد تطورت الاحتفالات بالمولد النبوى فى تلمسان تطورا بلغ غايته من الزينة والفرح والبهجة على عهد موسى أبى حمو الثانى الذى كان يشرف على هذه الاحتفالات بنفسه ، ويقيم لها بقصره عرسا من الزينة والجمال ، فقد كان يدعو أهل الرأى والعلم والفضل من سكان تلمسان فى كل مولد يصادفه بعروس الجزائر الخضراء . وكان يبدى لهم من مظاهر الترحاب والاحتفاء ، ويقدم اليهم من المآكل والمشارب ما يعجز عن وصفه القلم ، « فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ، ومشامع كأنها الاسطوانات القائمة على مراكز الصفر المموهة » (3) .

---

1) الموسوعة العربية ـ (مولد) ص 1786 ـ القاهرة 1965 .
2) المصدر السابق .
3) بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ليحيى بن خلدون : 2/40 .

وكان أبو حمو الثانى يتصدر المجلس الذى كان يقام بقصر المشور ، جالسا على سرير الملك · وكان الاشراف وعلية القوم يتخذون لهم مقاعد خاصة بهم فى هذا المجلس الكبير لا يعدونها · وكنت لا تبصر فى تلك الاحتفالات الأ جمالا ، ولا تسمع الا حديثا هامسا (4) وكان المحتفلون « يطوف عليهم ولدان أشعروا أقبية الخز الملون ، وبأيديهم مباخر ومرشات » (5) يرشون بها الجالسين ·

وكان من أروع وأبهى ما فى هذه الاحتفالات المولدية ، بالاضافة الى بعض ما ذكر ، تلك الساعة العجيبة التى أطلقوا عليها اسم « المنجانة » (6) · ينضاف الى كل ذلك أصوات المسمعين التى كانت تصدح شجية ندية بالالحان العذبة التى كانت تقطيعًا وانشادا للقصائد التى كانت تنشأ بمناسبة المولد النبوى الشريف ·

وكان المحتفلون يقضون الليل كله فى ترديد الاوراد والاذكار الخاصة بمدح النبي

ويجاء اليهم فى آخر الليل بما لذ من الطعام والشراب ، وتملأ الخوانات بألوان الاطعمة الشهية ، والاشربة اللذيذة ، ثم يؤتى اليهم بالفواكه والحلواء (7) ·

ولا يزالون كذلك الى أن يصلوا صلاة الصبح مع الخليفة الزيانى (8) ·

وقد تطورت هذه العادة فى الجزائر كلها تطورا كبيرا حتى أصبح الاحتفال بالمولد النبوى من الاعياد الاسلامية الكبرى فى وطننا ، ولا سيما فى عهد الاحتلال الفرنسى حيث كان الجزائريون حراصا أشد الحرص على التمسك بالقيم الروحية النابعة من الاسلام تمسكا عجيبا جعلهم يقاومون كل التيارات الحضارية والمادية التى كانت تهب عليهم من الغرب الذى كان يمثله الاستعمار الفرنسى بعلمه وحضارته ، وبثقافته وقوته ، ويخرجون منتصرين آخر الامر من هذه المعمعة ·

---

4) المصدر السابق ·
5) المصدر السابق ·
6) تجد وصفا دقيقا ومفصلا لها فى بغية الرواد : 40/2 ــ 41 · وأنظر أيضا مقالة كتبها عبد الوهاب بن منصور ونشرها بالبصائر : ع 149 الصادر فى 1951/4/2 ص 2 ــ 8 ·
7) بغية الرواد : 49/2 · وأنظر أيضا العبر لابن خلدون : 881/7 ·
8) المصدر السابق ·

فكان الناس يقضون ليلة المولد كلها ساهرين ذاكرين الله ، مصلين على نبيــه ٠ وكانت الكتاتيب القرآنية تتعطل أربع مرات رئيسية فى السنة ، فى عيد الفطر ، وعيد النحر ، وعاشوراء ، وعيد المولد ٠ وكانت عطلة المولد تدوم عشرين يـــوما كعطلتى العيـــدين ٠

ويدل هذا على الاحتفاء الذى كان الجزائريون يحيون به هذه الذكرى العظيمة التى ورثوا كثيرا من مظاهرها الاجتماعية والدينية والادبية من العهد الزيانى ، ولا سيمــا عهد أبى حمو الذى كان يخصها بعناية فردية من نوعها فى التاريخ ٠

وحين بزغت شمس النهضة الثقافية والوطنية فى الجزائر خلال هذا القرن ، كان العلماء على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية فى الجزائر يخصون هذه الذكــرى بالمقالات والقصائد الكثيرة التى كانت تضيق الصحف عن نشرها (9) ٠ كمـــا كانت المدارس العربية تقدم مسرحيات دينية كثيرة بهذه المناسبة الكريمة ٠٠٠

وقد اتخذ هذا الاحتفال شكلا خاصا ، واكتسى صبغة فريدة فى تاريخ الجــزائر خلال سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة بقسنطينة حيث ألفينا « جمعية التربية والتعليم الاسلامية » بقسنطينة تقيم حفلا يحييه النساء القسنطينيات فقط بالجامـــع الاخضر ٠ وقد جاوز عددهن ألف امرأة ، ولم يحضر من الرجال الا زهاء عشرين كان لامناص من حضورهم لتنظيم الحفل ٠ كما حضرها الشيخ ابن باديس وألقى كلمة بهذه المناسبة (10) ٠

ولو حاولنا تقصى هذه المظاهر لمضينا فى هذا الحديث الى غير طـريق ٠ ولعلنا سنخصص بحثا مستقلا حول هذا الموضوع فى مناسبة أخرى ان شاء الله ٠

2) المولديات على عهد أبى حمو فى تلمسان :

صادفتنا مادة ضخمة ثرية لا ينقطع مدادها ، ولا تنتهى أبعادها ، فقد كان الشعراء الزيانيون كلفين أشد الكلف بالقصائد المولدية يقرضونها فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم كلما تجددت ذكريات مولده مع السنين ٠

والذى يعود الى كتاب « بغية الرواد » ليحيى بن خلدون يقتنع بأن هذا العصــر الشعرى كان عصر مولديات ٠ ولم يك قيل الشعر فى ذلك العهد وقفا على الشعـــراء

9) البصائر : ع 165 الصدر فى 1939/5/12 ص 6 ٠
10) محمد الصالح رمضان : البصائر : ع 167 الصادر فى 1939/5/26 ص 3 ٠

من عرض الناس ، أو الشعراء الشعبيين ، وانما كان الملوك والوزراء والامراء والاطباء وعلية القوم من رجالات الدولة يعالجونه فيستقيم لهم ، ويطـول نفس قصائدهم حتى تبلغ المائة بيت أو أكثر ·

وسنقف فى هذا البحث لدى أشعـــار أبى حمو ، وبعض من كان يتصـــل به من مساعديه ، لغزارتها وطول نفسها ، وجودة نسجها ·

فمن قصائد أبى حمو المولدية ، قصيدة ميمية مطلعها :

نـــام الاحبـــاب ولـم تنــم	عينــى ، بمصـــارعـة النـــدم
والـــدمع تحـــدر كالـــديم	جـرح الخدين فـــوا ألم ! (II)
وزجـــرت النفس فمـــا ازدجرت	ونهيـــت القلـــب فلــم يـــدم

وتمضى هذه القصيدة التى ألقاها أبو حمو فى سنة ستين وسبعمائة للهجرة ـ على دأبه فى جميع الذكريات المولدية ـ هكذا رقيقة خفيفة ، نابضة بالحياة ، معبرة عمـــا كان يلتعج فى تلك النفس الكبيرة · فالشاعر يألم أشد الالم حين يوافيه نذير الشيب الذى هو عنوان على الهرم ، والهرم عنوان على قرب الاجل ، وذهاب العمر ، وتولى اللذات ، وادبار المسرات ·

ونـــذير الشـــيب لقـد وافـــى	وحلـــول الشيـب مـن الهـــرم
والعمـــر تـــولى منصـــرمـا	آه للعمـــــر المنصـــــــرم

وقد أطال الشاعر فى مقدمة القصيدة التى خصصها للتعبير عن ذاتية حـــزينة تعج بالندم ، وتعتلج بالحسرات ·

ولم يخلص الى مدح النبي صلى الله عليه وسلم والتعبير عن أشواقه لزيـــارة الحرمين الا بعد أن مضى من القصيدة معظمها · ويدل هذا ، فى رأينا ، على أن الشاعر أبا حمو كان منكبا على نفسه الممزقة يلتمس لها العزاء والسلوة فى هذه الابيات التى كانت تصدر عن الشاعر حزينة شاحبة فيها كثير من الحيرة والالم ·

II) ورواية « واسطة السلوك ، فى سياسة الملوك » : فيما آلى ، ورواية الواسطـة أولى ، بكثرة الاخطاء فى الطبعة الاولى لبغية الرواد · أنظر الواسطة : ص IO ط· تونـــس ·

وبالرغم من أن هذه القصيدة لا تعتبر أجود شعره ، ولا أجمل مولدياته ، فاننـــا اختصصناها بالذكر فى هذا المقام ، لان الشاعر نفسه يذكر هذه القصيدة بالذات (I2) فى معرض حديثه عن توصية ابنه برعاية الحجاج ومساعدتهم ، حتى يدعو الله لــــه « فان الدعاء هنالك مجاب ، وليس بينه وبين الله حجاب » (I3) ، ويقرر بانــه نظمها شوقا « الى ذلك المقام الشريف ، والمحل الانور المنيف » (I4) · وقد أرسل الشاعر هذه القصيدة الميمية مع بعض الحجاج الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم « مع رسالة رجاء للثواب ، وتيسيرا للاسباب » (I5) ·

ولعل الذى ضاعف من أشواق أبى حمو الى زيارة الحرمين ، وأداء فريضة الحج ، صعوبة المواصلات فى تلك الحقبة ، وبعد الشقة بين الجزائر والحجاز ، والتزامات الخليفة التى كانت تستدعي بقاءه فى تلمسان باستمرار ، لعدم استقرار الاوضــــاع السياسية الداخلية ، وللتهديدات الخارجية التى كانت تـــلازم الدولـــة الزيانية من المرينيين من فاس ، فكان مستحيلا عليه أن يغادر تلمسان ليتغيب شهورا طويلة جـــدا يؤدى فيها فريضة الحج · فكان يعرف هذا ويدركه ، فيحز فى نفسه ، ويشق على قلبه ، فتفيض شاعريته الرقيقة شكوى من النفس ، وهي فى الحقيقة شكاية من صروف الزمان التى كانت تسود فى معظم الاطوار ، فما أكثر ما قامت على أبى حمو الفتن ، وما أكثر ما خف لها ليطفىء نارها ، ويخمد أوارها ·

أرأيت أن أبا حمو نفسه لم يجد طريق الخلافة ممهدا ، ولا سبيلها مفروشا بالورود والرياحين ، وانما كان ملتجئا فى تونس خائفا على نفسه ، يترقب مخاطر المرينيين فى كل حين ، ثم قرر لطموح فى نفسه ، ولعزة فى شرفه ، أن يطالب بملك آبائه المغصوب فى تلمسان ، فهب من نحو الشرق الجزائرى يدك المدن والقرى الى أن بلغ تلمسان ، وحاصرها ثلاثا ، ثم دخلها ظافرا منتصرا (I6) ·

I2) واسطة السلوك فى سياسة الملوك لموسى بن يوسف المعروف بأبى حمو الثانى : ط· تونس ، ص I0 ·

I3) المصـــدر السابـــق ·

I4) المصـــدر الســـــابق

I5) المصـــدر السابـــق ·

I6) راجع تاريخ الجزائر العام للشيخ عبد الرحمن الجيلالى : 2/ ص I54 وما بعدها ·

وقد ابتلى أبو حمو فى حياته السياسية بثلاثة خطوب رئيسية :

أولها : وجود خصوم ألداءهم جيرانه من بنى مرين الذين لم يكن ألذ عندهم ولا أشهى لديهم من اجتثاث ملك الزيانيين والكيد لملوكهم ، وتدبير الشر لدولتهم · فكان لا يكاد يتخلص من كيد يكيدونه له ، حتى يقع فى ثان ·

وثانيها : ابتلاؤه بعصيان ابنه أبى تاشفين الذى تجشم تأليف كتاب « واسطة السلوك ، فى سياسة الملوك » له ، وأوصاه فيه بعمل كل خير ، ونبذ كل شر · وقد أودى هذا العقوق الفظيع بقتل الاب بعد أن كبا به جواده وهو يحاول استرجاع العرش من ابنه الغاصب (17) ·

وكان هذا التمرد الذى جاء من أعز ولده ، بايعاز من المرينيين فيما يبدو (18) ·

وثالثها : تعرض الجزائر كلها لريح صرصر عاتية اجتثت الاشجار ، وهدمت الديار ، وأفسدت الحرث ، وأهلكت النسل ، ولم تبق فى المغرب الاوسط لا أخضر ولا يابس ، فتعرض السكان لمجاعة رهيبة لم يعرفوا لها مثيلا ، حتى زعم المؤرخون أن الناس كانوا يأكلون بعضهم بعضا (19) فخف أبو حمو الى افراغ خزائن الدولة لانفاقها على الشعب ، وأقام المآوى ، وأطلق يده فى أمواله الخاصة يهبها للفقراء والمحتاجين الذين تضرروا بفعل تلك العاصفة الهوجاء التى هبت على الجزائر يومئذ ·

فلو أن عاملا واحدا من هذه العوامل صادف رجلا عاديا لافقده وعيه ، ولاصابه بالحيرة الخرساء ، فكيف حين اجتمعت ثلاثتها وتعاضدت وأخذت تضرب هذا الرجل الوطنى المناضل الذى تلقاها بصدر رحب ، وطبع سمح ، وصبر جميل ، فلم يستسلم ، ولم يذعن للامر الواقع ···

فكان من المنتظر أن تنعكس كل هذه الآثار السيئة على أشعار أبى حمو الذى كان عصره عصر ثورات وانقلابات وكوارث وعقوق وتمرد ، فلم تك هناك تقاليد ديمقراطية يحترمها الطامحون الى الحكم ، كما لم تك هناك أخلاق سياسية تجعل الابن يعف عن ملك أبيه ما دام حيا ، بل كانوا يستعجلون الامور فينقضون على العروش فيستولون عليها كلما سنحت الفرصة لهم · فكانت الخلافة يومئذ شرا لا يشوبه خير ، ومحنة مستمرة لاولئك الناس الذين كانت الاوضاع تفرض عليهم هذه المناصب السياسية الكبرى·

---

17) المصدر السابق : 2/162 ـ 163 ·
18) المصدر السابق : 2/162 ·
19) المصدر السابق : 2/162 ·

فكانت هذه البراكين من العواطف والانفعالات تضطرم فى نفس ابى حمو الذى كان شاعرا ، والشاعر رقيقة نفسه ، جامعة عواطفه ، فتجعله يتألم لتلك الاوضاع السياسية الفاسدة ، فيترجم ذلك كله في شكايات يبثها ، وآهات يزفرها فى تلك القصائد المولدية التى كان يخاطب بها النبي صلى الله عليه وسلم ويشكو له ذلك الزمان ، ويلتمس منه العون والبركة ٠

واذا كانت قصائد أبى حمو المولدية لم تكن تبلغ قمة البيان ، ولا ذروة الفن والجمال ، فليس يعود ذلك الى نضوب فى شاعريته ، ولكن لانشغاله عن قيل الشعر ، بتدبير شؤون الدولة ٠

ولقد نعلم أن الانشاء الجيد ، والشعر الشاعر ، لا يمكن أن يستقيما الا لمن وقف حياته كلها عليهما ٠ ولذلك نجد القصائد المولدية الاخرى تبلغ مستوى فنيا رفيعا ، وتفوق قصائد أبى حمو فى كل شيء ٠

ومن هذه النماذج المولدية الرائعة التى كان المنشدون يتغنون بها فى ذكريات المولد بتلمسان أمام أبى حمو ، هذه القصيدة التى قالها محمد بن يوسف القيسى التلمسانى ، والتى يقول فى مطلعها :

ذكر الحمى فتضاعفت أشجانه	شوقا ، وضاق بسره كتمانه
دنف تذكر من عهود وداده	ما لم يكن من شأنه نسيانه
يهفو لبرق الابرقين تعللا (20)	والقلب منه دائم حفقانه
ويسائل الركبان عن ذاك الحمى	فتثير كامن وجده ، ركبانه
ويروم سلوان الهوى فيجيبه	ان المحب محرم سلوانه (21)

فهذه القصيدة تختلف كل الاختلاف عن القصيدة التى قالها أبو حمو ، والتى جئنا بمطلع منها ، من حيث المستوى الفنى الذى ارتفع وتسامى فى هذه ، وأسف وتواضع فى تلك ، حتى ان الباحث ليلحظ هذا الفرق الواضح فى القصيدتين من حيث اختيار الوزن الموسيقى ، أو البحر الشعرى كما كان يحلو للقدماء أن يعبروا ، ومن حيث رصانة الالفاظ وجزالتها وفخامتها هنا ، ثم من حيث تدفق العواطف ، وغليان الشاعر ، وعمق التجربة ، وصدق اللهجة ، وحرارة العبارة ٠

20) راجع معجم البلدان لياقوت : 1/75 مادة « الابرقان »
21) بغية الرواد : 2/44 ـ 47 ٠

فكانت هذه البراكين من العواطف والانفعالات تضطرم فى نفس أبى حمو الذى كان شاعرا ، والشاعر رقيقة نفسه ، جامعة عواطفه ، فتجعله يتالم لتلك الاوضاع السياسية الفاسدة ، فيترجم ذلك كله فى شكايات يبثها ، وآهات يزفرها فى تلك القصائد المولدية التى كان يخاطب بها النبي صلى الله عليه وسلم ويشكو له ذلك الزمان ، ويلتمس منه العـون والبـركة ٠

واذا كانت قصائد أبى حمو المولدية لم تكن تبلغ قمـة البيان ، ولا ذروة الفـن والجمال ، فليس يعود ذلك الى نضوب فى شاعريته ، ولكن لانشغاله عن قيل الشعر ، بتدبير شؤون الدولة ٠

ولقد نعلم أن الانشاء الجيد ، والشعر الشاعر ، لا يمكن أن يستقيما الا لمن وقـف حياته كلها عليهما ٠ ولذلك نجد القصائد المولدية الاخرى تبلغ مستوى فنيـا رفيعا ، وتفوق قصائد أبى حمو فى كل شيء ٠

ومن هذه النماذج المولدية الرائعة التى كان المنشدون يتغنون بها فى ذكريات المولد بتلمسان امام أبى حمو ، هذه القصيدة التى قالها محمد بن يوسف القيسى التلمسانى ، والتى يقول فى مطلعها :

ذكـر الحمى فتضاعفت اشجانه	شـوقا ، وضـاق بسره كتمانه
دنـف تذكـر من عهـود وداده	ما لـم يكـن من شـانه نسيانـه
يهفو لبـرق الابرقين تعللا (20)	والقلـب منـه دائـم خفقـانه
ويسـائل الركبان عن ذاك الحمى	فتثير كامـن وجـده ، ركبـانه
ويـروم سلـوان الهوى فيجيبـه	ان المحـب محـرم سلـوانه (21)

فهذه القصيدة تختلف كل الاختلاف عن القصيدة التى قالها ابو حمو ، والتى جئنا بمطلع منها ، من حيث المستوى الفنى الذى ارتفع وتسامى فى هذه ، واسف وتواضـع فى تلك ، حتى ان الباحث ليلحظ هذا الفرق الواضح فى القصيدتين من حيث اختيـار الوزن الموسيقى ، أو البحر الشعرى كما كان يحلو للقدماء أن يعبروا ، ومن حيث رصانة الالفاظ وجزالتها وفخامتها هنا ، ثم من حيث تدفق العواطف ، وغليان الشاعر ، وعمق التجربة ، وصدق اللهجة ، وحرارة العبارة ٠

---

20) راجع معجم البلدان لياقوت : 1/75 مادة « الابرقان »
21) بغية الرواد : 2/44 – 47 ٠

فالشاعر ضاقت عليه الارض بما رحبت ، فتضاعفت أحزانه ، واشتدت أشجانه ، وتدفق شوقه وحنانه ، وضاق بسره كتمانه ، فاصبح دنفا حرضا ، يشكو تباريح هذا الحب الذى أصابه برسيسه فأمض جسمه ، وأرق ليله ٠ فقد ذكر عهدا من الهوى لم يكن من اليسير عليه نسيانه ، وماضيا من الزمان يستحيل عليه سلوانه ، فاصبح قلب الشاعر دائم الخفقان وهو يسائل الركب المخبين أن كيف تركتم ذلك الحمى العظيم ، والمقام الكريم الذى يضم قبر النبي محمد عليه السلام ، فيثير الركب بأجوبتهم فى نفسه ما كان كامنا ، وينبشون بأحاديثهم ما كان ساكنا ، فيتضاعف الوجد ، وتشتد الصبابة ، ولا يجد سبيلا الى اطفائهما ، لان أهل الهوى محرم عليهم الصحو من سكرة الغرام ٠٠٠

انه لعذاب ما أمسى فيه الشاعر من هذا الحب النبوى العظيم ، فلا هذا الحب يعزف عنه ، ولا هو يوجه وجهته الى غير شطره ، فيثوب اليه شيء من هدوء النفس ، وراحة الجسم ، واستقرار العاطفة ، فقد كان الشاعر يزيد فى أشواقه هذا النسيم العليل الندى الطرى ، الذى كان يهب عليه من نحو طيبة اذا أصبح واذا أمسى ، فيحرك منه ما يحرك :

ويشوقه مر النسيم اذا سرى   من نحو طيبة طيبا أردانه

وهنا يعزف الشاعر عن الغيبة الى التكلم ، ويؤثر التصريح على التلميح ، فبعد ان كان يحكى عن غائب ، أصبح يتحدث عن نفسه صراحة ، فنراه يتساءل فى عنف وألم وشوق وحنان وحب جميعا :

أترى أرى وادى العقيق ورامة   ويلوح لي رند الحجاز وبانه ؟

وأعاين الحرم الشريف وينجلى   عن قلب صب مدنف ، أشجانه

فهل للشاعر فى زورة كريمة يشاهد فيها وادى العقيق ، وما يجاور ذلك العقيق من المقام السعيد ، كما يشاهد الحجاز وبانه ، وعراره وأشجاره ، فيطفىء غلته من رسيس هذا الحب النبوى الذى عصف بقلبه فأصبح مدنفا حرضا ٠

وتمضى هذه القصيدة المولدية رائعة فى تصويرها ، رقيقة فى ألفاظها ، دافئة فى تعابيرها ، كأنها قطع من الشهد ، أو قطرات من الندى العذب ٠

ويدل هذا على أن مستوى الشعر كان فى الجزائر ، خلال القرن الثامن الهجرى ، مستوى رفيعا ، وأن دولة الادب كانت فى تلمسان بخير كثير ٠ ولا عجب فى ذلك ، فقد عرفت تلمسان نفرا من الادباء والمفكرين خلال هذا القرن ، كانوا زينة للفكر الجزائرى ،

وتاجا للغرب الاسلامى كله · فقد عرفت فى هذا القـــرن أبا عبد اللـــه بن احمد بن مرزوق (22) ، وأبا عبد الله محمد بن النجار (23) ، وأبا عبد الله محمد بن عبد اللـه ابن عبد النور الندرومى (24) ، ومحمد بن ابراهيم الآبلى (25) ، وأبا عبد الله محمد ابن احمد الشريف الحسنى (26) ، وأبا عبد الله بن خميس ، ويحيى بن خلدون صاحب « بغية الرواد ، فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » وأخاه العلامة الشهير عبد الرحمن ابن خلدون الذى ما كتب المقدمة الا بعد تأملات وقعت له وهو بالعباد فى تلمسان (27) ، التى غادرها شبه مغاضب لابى حمو الذى أراد أن يستعمله فأبى لما كان يؤثر من التخلى عن السياسة والانقطاع للعلم (28) ، فاضطر الى التوجه الى قلعة أبن سلامة ، حيث انقطع هنالك أربع سنوات قضاها فى كتابة مقدمته التى تعتبر فلتة رائعة من فلسفـــة الفكر العربى فى عمقه وأصالته ، ورقيه وكماله ·

وقد وجدنا ابن خلدون نفسه يقرض قصائد كثيرة حول المولد النبوى منها قصيدة بائية القاها بفاس « ليلة المولد النبوى من سنة اثنتين وستين وسبعمائة » (29) يقـول فى مطلعهـــا :

أسرفن فى هجـــرى وفى تعذيبى	وأطلن مـوقف عبـــرتى ونحيبى
وأبين يوم البيــن وقفـــة ساعــة	لــوداع مشغـوف الفـؤاد كئيب
للـــه عهـــد الظـاعنين وغـادروا	قلبى رهيــن صبــابة ووجـــيب
غربت ركائبهـــم ودمعى سافـــح	فشـــرقت بعدهـم بمـاء غـروب
ياناقعـــا بالعتب غلـــة شـوقهم	رحمـاك فى عـذلى وفى تأنيبى !

وهذه القطعة التى اثبتناها فى هذا المقام تدل على شاعرية ممتازة ، ولا التفـات الى ما ذهب اليه ابن خلدون فى نفسه ، فقد زعم بأنه حين أخذ نفسه بالشعر انثالت

22) العبر لابن خلدون : 7/842 ـ 848 ·
23) المصدر السابق : 7/840 ·
24) المصدر السابق : 7/838 ـ 840 ·
25) المصدر السابق : 7/825 و 826 و 854 ·
26) المصدر السابق : 7/856 ـ 858 ·
27) المصـــدر الســـابق : 7/1038 ـ 1039 ·
28) المصـــدر الســـابق : 7/1039 ·
29) المصدر السابق : 7/864 ·

عليه « منه بحور ، توسطت بين الاجادة والقصور » (30) ، فهو تواضع العلماء ، كما يقال . بيد أن ابن خلدون لم يعرف بالشعر ، وانما عرف بالنثر ، ولم يعرف بخصب الخيال ، وانما عرف بعمق التفكير وعبقريته ، فلم يلتفت الناس الى شعره كثيرا ، لان نثره طغى على هذا الشعر القليل الذى لا نكاد نجد منه الا نتفا ذكرها المؤلف حين تحدث عن نفسه .

وانما جئنا بهذه القطعة لابن خلدون ، لانه عايش السلطان ابا حمو ، وقطن تلمسان زمنا ، وعايش أهلها وخالطهم ، ولابد أن تكون هذه المدينة قد تركت آثارها فى تفكير هذا العلامة الكبير . ثم جئنا بها لنستدل على أن قرض القصائد المولدية كان ظاهرة شائعة فى ذلك العصر بحيث كانت ليالى المولد النبوى تمر ساهرة سعيدة صاخبة بالاشعار والمدائح والاذكار ، ومدارسة السيرة النبوية . وقد انتقلت هذه الظاهرة من المغرب العربى الى الاندلس كما يصرح بذلك ابن خلدون (31) .

وقد عدنا الى الجزء الثانى من كتاب « بغية الرواد ... »

فبدا لنا أن العناية بالمولديات كانت عناية فائقة ، وأن اهتمام الشعراء كان مصبوبا على هذه الليالى بكثرة ظاهرة فى تلمسان بوجه خاص ، وفى عصر أبى حمو الثانى بوجه أخص ، حيث أجمعت المصادر التاريخية على أنه كان شديد الاحتفاء بذكريات المولد . وكان يحلو له أن يعمل قصائد ليتغنى بها المنشدون وهو حاضر . كما كان يحب القاء هذه القصائد بنفسه . فكان الشعراء يتبارون فى ابداء مالديهم من قدرة على قرض الشعر وزخرف القول حول هذه الليلة الكريمة التى كان القول ينصب فيها على مدح النبى واظهار الشوق الى زيارة قبره والتبرك بتلك البقاع المقدسة ، والاماكن المعظمة المشرفة .

ولما جئنا نبحث فى أمر هذه المولديات وقعنا فى البغية وحدها ، على ما لا يقل عن خمس وعشرين قصيدة ، وكل قصيدة بلغت من الطول مبلغا كبيرا .

الخصائص الفنية للمولديات

حافظت القصائد المولدية على خصائص الشعر العربى القديم ، أو ما كان يسمى بـ « عمود الشعر » لدى القدماء من وجهة ، كما حافظت على الخصائص الفنية العامة التى كانت تطبع القصيدة العربية خلال القرن الثامن للهجرة من وجهة أخرى .

30) العبر : 864/7 .
31) أنظر العبر : 881/7 .

1) المطـــالع الغـــزلية :

حافظت القصيدة المولدية على هذه الخاصية وراعتها ، وحرصت عليها ، وتعلقت بها دون أن تحيد عنها · خذ لذلك مثلا مولدية محمد بـن يوسف القيسى التى عرضنا لمطلعها فى بعض هذا البحث ، تجد الشاعر احترم هذه السيرة الشعرية التى لازمـت الشعر العربى من لدن امرىء القيس الى احمد شوقى · فقد سلك مطلـع قصيدته فى نظام غزلى مستوحى من تقاليد القصيدة العربية الرسمية ·

وخذ لذلك مثلا ايضا قصيدة أبى حمو المولدية التى يفتتحها بقوله :

قفـــا بين أرجاء القبــاب وبالحي وحي ديـــارا للحبيب بهـــا ، حي
وعرج على نجد وسلــــع ورامــة وسائل ، فدتك النفس ، فى الحي عن مي
وبـث لهم وجــــدى وفرط صبابتى وأرو حديثى فهو أغــرب مــــروي
يعذبنى شـــوقى ، ويضعفنى الهوى وقلبى على جمر من الشوق محمي

فالشاعر هنا فى هذا المطلع يبتدىء قصيدته بما ابتدأ به امرؤ (32) القيس معلقته :

قفا نبك من ذكـــرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحـومل

فهو يامر صاحبيه بالوقوف لدى أرجاء هذه القباب المنصوبة الممتدة فى السمـــاء من أصل مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ·

ولكن الشاعر سلك ذلك فى صورة غزلية خالصة ، واكد تلك الصورة الغـــزلية باحسن منها وأجمل فى البيت الثانى :

وعرج على نجـــــد وسلع ورامة وسائل فدتك النفس ، فى الحي عن مي ·

فهذا المطلع كله غزل كما رأينا ، وقد كان باستطاعة الشاعر أن يهجم على قصده من قرض القصيدة لو كان قادرا على التخلص من ربقة التقاليد الشعرية الموروثة منذ العهود الاولى من حياة الشعر العربى ·

ونمضى الى مولدية أخرى لابى حمو فلا نجد مطلعها يشذ عن هذه القاعدة (33) · بل ان أبا حمو كان ينحو فى قصائده منحى القدماء فى البكاء على الاطلاع ، وتأمـــل

32) بغية الرواد : 65/2 ·
33) أنظر بغية الرواد : 48/2 ·

معالمها الدوارس ، وربوعها الطواسم · كقصيدته التى ربما كانت أجمل شعـــر هذا الملك الشاعر :

تذكرت اطـــلال الربوع الطواسم	وماقد مضى من عهـــدها المتقادم
وقفت بها من بعـد بعـد انيسهـا	بصبر مناف ، او بشـــوق مـلازم
اهيم بمغناهم ، وانــدب ربعهـــم	واي فؤاد بعدهم غير هائم ؟ (34)

ومثل ذلك يقال فى قصيدة أخرى له ميمية ، وهي شبيهة بهذه ، وقد وصفها ابــو حمو نفسه فزعم انها « سارت بذكرها الركبان » (35) ، وفى مطلعها يقول الشاعر :

جرت ادمعى بين الرسوم الطواسم	لما شحطتها من هبـــوب الرواكم
وقفـــت بها مستفهما بخطابهـا	واي خطاب للصلاد الصلادم (36)

ونجد ابا حمو يفتتح احدى مولدياته بابيات غزلية بلغت منزلة رفيعة من الجمـــال الفنى ، والتصوير الشعرى ، فيقول :

مشوق تـــزيا بالغـــرام وشاحا	متى ما جرى ذكـر الاحبة صاحا
تعذبــه اشجـــانه وهو صـــابر	ويبدى اشتياقا زفـــرة ونواحـا
محب مشـــوق قيدته يـــد الهوى	اسـير لديكم لا يريد ســـــراحا
رميـــتم باكبادى سهام نـــواكم	واودعتم قلبى اسى وجراحا (37)

ولعل هذه النماذج التى استشهدنا بها أن تكون قد أعطتنا صورة ان لم تك كبيرة ، فلا اقل من ان تكون واضحة على نحو ما · فقد كان الشعراء الجزائريون خلال القرن الثامن بوجه عام ، وشعراء المولديات بوجه خاص ، يحلـــو لهم أن يفتتحوا قصائدهم بالنسيب التقليدى الذى واكب القصيدة العربية ودارجها من عهد امرىء القيس · وقد كان منتظرا أن يظل النسيب عالقا بمطالع المولديات لبعد أولئك الشعراء عن التجديد الفنى ، والجنوح الى المحافظة الشديدة على المالوف الذى تعـــارف النـــاس عليه ، واجتمعوا حواليــه ·

---

34) المصدر السابق : 93/2 ·
35) واسطة الملوك فى سياسة الملوك : 15 ·
36) واسطة السلوك : 15 ·
37) بغية الرواد : 97/2 ·

2) النـــزعة الرمزيـــة :

يلاحظ الباحث أن شعراء المولديات كانوا يميلون ميلا واضحا إلى التلميح دون التصريح ، والى الرمز دون الذكر ، والى الاشارة دون العبارة · فالمولديات لا يفهمها القارىء الا اذا كانت معرفته الادبية معرفة كافية ، وهو لا يفهم القصد منها الا بعـــد تامل واعمال فكر ، فقد كانوا يمزجون بين الغـــزل الخالص ، والحب النبـــوى ، فى معارض صوفية ، واشارات رمزية، وصور شعرية ايحائية ، لا تفصيلية ولا تصريحية · كقول الشاعر الملك ابى حمو الثانى :

قفـا بين أرجـــاء القباب وبالحي	وحـــي ديارا للحبيب بها ء حـــي
وعرج على نجـــد وسلع ورامـــة	وسائل ، فدتك النفس ، فى الحي ، عن مي

فالشاعر يرمز هنا بالقباب الى مآذن مسجد الرسول صلى اللـــه عليه وسلـــم ، وبالحي الى طيبة ، وبالحبيب الى النبي عليه السلام · وكانه يرمز بنجد وسلع ورامـــة الى مكة وما يجاورها ·

ويعود الى مطالبة رسوله بالمساءلة عن مي التى رمز بها أيضا الى النبي الكريم ·

وينطبق هذا الحكـــم على كثير من مولديات الشاعر التلمسانى محمد بن يوسف القيسى ، كما يتمثل ذلك فى رائعته التى عرضنا لمطالعها فى بعض هذا البحث والتى يقـــول فيها :

ذكـــر الحمى فتضاعفت أشجانه	شـــوقا ، وضـــاق بسره كتمانه
دنـــف تذكر من عهـــود وداده	ما لم يكـــن من شانـــه نسيانـــه
يهفـــو لبـــرق الابرقـــين تعللا	والقلـــب منـــه دائـــم خفقـــانه
ويسائل الركبان عـــن ذاك الحمى	فتثير كامن وجـــده رُكبَانه (39)

فالحمى هنا رمز الى مكان لعله المدينة المنورة ، أو لعله مكة المكرمة ، أو هو رمز الى شخص ما ، ونميل الى انه النبي عليه الصلاة والسلام · وأنظر كيف رمز الشاعر الى أرض الحجاز كلها ، ببرق الابرقين · فقد ثبت أن هناك بعض الامكنة بالحجاز كانت تسمى بهذا الاسم · وقد قال يا قوت :

---

39) المصدر السابق . 44/2 ·

« هو تثنية الابرق ··· واذا جاءوا بالابرقين فى شعرهم هكذا مثنى فاكثر ما يريدون به أبرقى حجر اليمامة · وهو منزل على طريق مكة من البصرة بعد رميلة اللوى للقاصد مكة ··· » (40) ·

فالابرقان هنا رمز الى شيء أو الى مكان أو اليهما جميعا ، دون أن يكون الشاعر أراد هذا المنزل الذى ذكر ياقوت لذاته ، فالسياق العام يبعد ذلك الاحتمال ·

ويعود القيسى التلمسانى على دأبه فى الرمز الى استخدام لفظ « الحمى » تارة أخرى ، وهو انما يريد به معانى مختلفة متشابكة مترابطة ، فقد يكون الحمى عند القيسى قبر النبي عليه السلام ، وقد يكون مسجده ، وقد يكون مدينته ، وقد يكون هو نفسه · كما قد يكون البيت العتيق وما جاوره من أماكن مقدسة ·

ونجد أبا حمو يوغل فى هذه الرمزية الصوفية فى مولديته التى أشرنا اليها فى بعض هذا البحث ، والتى مطلعها :

مشوق تزيا بالغرام وشاحا	متى ما جرى ذكر الاحبة صاحا
تعذبه أشجانه وهو صابر	ويبدى اشتياقا زفرة ونواحا
محب مشوق قيدته يد الهوى	أسير لديكم لا يريد سراحا (41)

فالوشاح هنا رمز الى شيء ، لا الى هذا الكساء المعروف بذاته · والغرام لا يريد به الحب التقليدى الذى ينتاب العواطف الانسانية فيحرقها بالصدود والبين ، ويورقها بالرضا والوصل · والاحبة ليسوا أحبة أحياء ، ولا أحبة نساء ، وانما هم أحبة يتشخصون جميعا فى شخص واحد عظيم كريم هو النبي محمد عليه الصلاة والسلام · وتأمل هذه العبارة : « قيدته يد الهوى » ، فانها رمز الى معان كثيرة · فيد الهوى ما كان لها لتقيد أحدا ، ثم ان الهوى فى معناه الحقيقى ما كان له ليكتسب يدا قوية فيقيد بها ، ثم ان الشاعر الملك لم يثبت انه قيد ، على الحقيقة ، بهذه اليد التى لا تعدو أن تكون رمزا الى قوة هذا الحب النبوى الذى ملأ قلب الشاعر وملك عليه نفسه وروحه ، فاذا هو يتمثل فى صورة المقيد المكبول·فالقيد رمز الى معان استيحائية كثيرة من العسير ذكرها جميعا ، وانما يمكن للذى يتأمل هذه الصورة الشعرية الجميلة أن يدركها بشعوره وروحه · دون أن يكون قادرا قدرة حقيقية على ترجمة ذلك الوجدان الشعرى

40) معجم البلدان : 75/1 ·
41) بغية الرواد : 97/2 ·

الفياض · ولعل من معانيه هنا أن الشاعر كـــان حبيسا بحكـم ملكه ومسؤوليته فى الدولة ، لا يستطيع أن يذهب الى زيارة البقاع المقدسة ، فـرمز الى الملك أو المسؤولية بالقيد ، وهو رمز شعرى رائـع ·

وقد أشار الى هذا المعنى فى بعض مولدياته فقال :

لئـــن أخرتنى عن زيـــارة أحمد	قلائد أمـــر قيدتنى عن السعـــي
فـــربى أرجـــو أن يمن بقـــربه	قريبا وشوقى لا يقابل بالنأي (42)

أما « يد الهوى » فانها من الفلتات الشعرية التى لا تستقيم الا لخيـال خـــلاق ، ووجدان فياض ، وفكر صاف ، وقريحة منتاق · والعبارة رمز الى قوة روحية عاتيـة طاغية اكتسحت عواطف الشاعر من جميع اقطارها فأصارتها عجينة لينة تعجنها كيف تشاء ، أو قبضة من رماد تذروها أنى تشاء ·

3) اصطنـــاع البـــديع :

وهذه الخاصية لازمة من لوازم القصيدة المولدية خـلال القرن الثامن الهجرى ، بل هي خاصية عامة تصدق على الادب العربى خلال هذا القرن ، شعره ونثره · وهي امتداد لما كان أصاب الادب العربى من قيود أثقلته حتى وقفته عن المسير ، وعقلته حتى لم يعد قادرا على التطور والتبنك فى حدائق من الخلق الخـــلاق ، والخيال المبدع · وبالرغم من أن ألوان البديع كانت مبتدأ ظهورها فى الادب العربى مقبولة بل لطيفـــة خفيفة ، ترش الشعر والنثر بقطرات من العطر ، فتجعلهما يضوعان بألوان من الشذى ، فان هذا البديع لم يلبث أن أمسى قيدا ثقيلا رتيبا لا يقدم الى الصور الآدبية ـ شعرية كانت أم نثرية ـ غناء يذكر ·

وقد عدنا الى المولديات التى قيلت فى عهد أبى حمـــو وما قار به فألفيناها تعنى بظاهرتى الجناس والطباق بوجه خاص · ويبدو ذلك جليا فى معظم النماذج الشعرية التى استشهدنا بها فى بعض هذا البحث ·

فمحمد بن يوسف القيسى نجده يطابق فى احدى مولدياته الرائعة بين الـــذكر والنسيان ، فى قولـــه :

دنـف تـــذكر من عهـــود وداده	ما لم يكن من شـــانه نسيانه (43)

42) بغية الرواد : 67/2 ·
43) بغية الرواد : 44/2 ·

وبين المقدم والاخير فى قوله :

هو خاتم الرسـل المكـين مكانه وهو المقدم والاخير زمـانه (44)

وبين السماء والارض والانس والجان فى قوله :

لولاه ما وجـد الوجـود سماؤه أوارضـه أو انسـه أو جـانه (45)

ولم تخل مولديات أبى حمو من بعض الطباق حيث نجده يطابق بين يموت ويحيا ، والميت والحي فى قوله :

وقل ذلك المضنى المعـذب بالهوى يموت ويحيا فارث للميت الحي (46)

وبين القرب والنأى ، أو الشوق الذى هو مطية لطلب القرب ، والنأى ، فى قوله :

فـربى أرجـو أن يمـن بقـربه قريبا ، وشوقى لا يقابل بالنأى (47)

ونجد ابن خلدون يطابق ايضا فى كثير من أبيات مولدياته ، كقوله :

يا سائـق الاظعان يعتسف الفلا ويواصـل الاسـآد بالتـأويـب

تتجاذب النفحـات فضـل ردائه فى ملتقاها مـن صبـا وجنـوب

ان هام من ظمـإ الصبابة صحبه نهلوا بمورد دمعـه المسكوب (48)

ففى هذه الابيات مطابقة واضحة بين الاسآد والتأويب ، والصبا والجنوب ، والظما والمورد ، أو الظما والنهل ٠

بيد أن ظاهرة الطباق لم تشع فى هذه المولديات شيوعا يجعلها تبلغ مبلغ وجودها فى أشعار أبى تمام مثلا ، وانما الظاهرة البديعية التى استأثرت باهتمام اصحـاب المولديات خلال تلك الحقبة من تاريخ أدبنا ، هي الجناس الذى طغا على هذه الاشعار بصورة واضحة ، حتى انك لا تكاد تقرأ البيت الواحد دون أن تجده خاليا منه ، خـذ لذلك مثلا مولدية من مولديات ابن خلدون ، تجده يطعم أبياته بالجناس تطعيما مستمرا ، كما يلاحظ الباحث ذلك فى قوله :

---

44) المصدر السابق : 44/2 ٠
45) المصدر السابق : 45/2 ٠
46) المصدر السابق : 65/2 ٠
47) المصدر السابق : 67/2 ٠
48) العبـر : 866/7 ٠

وأبين يوم البين وقفـــة ســـاعة　　لوداع مشغـــوف الفـــؤاد كئيب

غـــربت ركائبهم ودمعى سافـــح　　فشـــرقت بعدهم بمـــاء غـــروب

يا ناقعـــا بالعتب غلـــة شوقهم　　رحمـــاك فى عـــذلى وفى تـــأنيبى

تبلى معـــاهدها وان عهـــودها　　ليجدها وصفى، وحسن نسيبى (49)

فقد جنس الشاعر بين « أبين » و « يوم البين » كما جنس بين « غـــربت » و « شرقت » بالرغم من ان المعنى يأبى ذلك ، لان المراد باللفظ هنا الشرق - على وزن الفـــرح - لا الشروق : شروق الشمس ٠

كما حاول الشاعر أن يجانس بين العتب والتأنيب لان معنيهما متقاربان ٠ ومـــا حمل الشاعر على العدول عن رد العجز على الصدر ردا تاما الا ضرورة القافية فى قـــــوله :

يا ناقعا بالعتب غلـــة شـــوقهم　　رحمـــاك فى عـــذلى وفى تانيبى

لان القافية ارادت أن يكون لفظ الروي هو « تانيبى » بالرغم من أن الشاعر كان يطلب « العتـــب » ٠

ونجد أبا حمو يلح فى طلب الجناس ليحلى به شعره ، وكانه كان يؤمن بقـــول الحريرى على لسان بطل مقاماته : « انى مولع من أنواع البـــلاغة بالتجنيس ، واراه لها كالرئيس » (50) ٠ خذ لذلك مثلا قصيدته اليائية تجد معظم ابياتها مشتملة عـــلى شيء منـــه :

قفـــا بين أرجـــاء القباب وبالحي　　وحـــي ديارا للحبيب بها ، حـــي

وعـــرج على نجد وسلع ورامـــة　　وسائل ، فدتك النفس ، فى الحي عن مي

تحليت فى أهـــل الهـــوى بهواهم　　فمالى سوى زى المحبـــة من زى

فيا أهل نجد أنجدونى على الهوى　　فانى فى بحر من الشوق لجي (51)

وبالرغم من ان هذه الابيات التى استشهدنا بها فى هذا المقام ، لم نأخذها مرتبة حسب ورودها فى القصيدة ، فاننا نستطيع أن نثبت بأن كثيرا من أبياتها اشتملت على

---

49) العبـــر : 865/7 ٠

50) المقامة الشعرية للحريرى : 220 ، وأنظر أيضا فن المقامات فى الادب العربى من تاليفنا ص 357 (مخطوط) ٠

الوان من الجناس مختلفة · وهذا يؤكد لنا أن ذلك لم يكن يرد عفوا ، ولا يفيض على القريحة اتفاقا ، وانما كان الشاعر يعتسفه اعتسافا ، ويكرهه اكراها ·

أما محمد بن يوسف القيسى فقد وجدناه مؤثرا للجناس ، حفيا به ، باحثا عنه ، كقوله فى مولديته التى التزم فيها لزوم ما لا يلزم :

يهفو لبرق الابرقين تعللا	والقلب منه دائم خفقانه
ويسائل الركبان عن ذاك الحمى	فتثير كامن وجده ركبانه
ويشوقه مر النسيم اذا سرى	من نحو طيبة طيبا أردانه
أترى أرى وادى العقيق ورامة	ويلوح لى رند الحجاز وبانه
هو خاتم الرسل المكين مكانه	وهو المقدم والاخير زمانه
فجميع ما فى الكون كان لاجله	شرف الوجود بان فيه كيانه
عجز النظام عن الوفاء بمدحه	اذ لا يصح لناظم امكانه
فاعد على المشتاق ذكر محمد	يزدد به ايمانه وأمانه

الى أن يقول رابطا مدح النبي صلى الله عليه وسلم بمدح موسى بن يوسف الثانى :

موسى بن يوسف لا نظير لمجده	مجد يزين حسنه احسانه
من آل زيان الالى زانوا العلى	فالملك ارثهم وهم تيجانه
لا زال مولانا أبو حمو حمى	للملك ، دام مؤيدا سلطانه (52)

فبالقاء نظرة على هذه الابيات نجدها مشتملة على الوان كثيرة من الجناس · ولعل وضوحها يشفع لنا فى عدم التدليل عليها ، والاسهاب فى ذكرها · فهي ظاهرة فى كل بيت · خذ لذلك مثلا الابيات الثلاثة الاخيرة ، تجد الشاعر جانس بين الحسن والاحسان ،وزيان وزانوا ، وحمو وحمى ·

ولعل فى هذه الامثلة التى جئنا بها ما يدفعنا الى أن نقرر بأن ظاهرة البديع كانت شائعة فى القصائد المولديات ذائعة ، وأن الطباق كان مما يطلبه الشعراء فلا يظفرون به الا لماما لصعوبة المقابلة بين الاضداد فى كل حال · على حين أن الجناس

51) بغية الرواد : 2/65 ـ 66 ·
52) بغية الرواد : 2/44 ـ 47 ·

كان ييسر عليهم أن يكثروا منه فى أشعارهم لغنى اللغة العربية بالاجراس الموسيقية ، ولكثرة الالفاظ المتشابهة الحروف ، المتقاربة المخارج · ولم يفتهم اثناء ذلك اصطناع ألوان أخرى من البديع كالمقابلة ، ورد العجز على الصدر كقول محمد بن يوسف القيسي :

ويسائل الركبان عن ذاك الحمى	فتثير كامن وجده ، ركبانه
ويروم سلوان الهوى فيجيبه	ان المحب محرم سلوانه
عنوان طرس الانبياء ختامه	والطرس يكمل حسنه عنوانه

فقد رد الشاعر هنا أعجاز الابيات على صدورها · أي أنه ربط بين صدور المصاريع الاولى ، وأعجازها · وهذا من البديع الخالص ·

4) **جمـــال الصيـــاغة :**

تدل جزالة اللفظ فى الكلام ، من حيث هو ، على التمكن من مفردات اللغة ، والتضلع فى ألفاظها · وتدل العناية بانتقاء الالفاظ واختيارها على جمال الذوق ورقته ولطافته وسلامته · والشعر خاصة اذا جزلت ألفاظه ، وفحلت معانيه ، ورقت عباراته ، كـان آية فى الجمال ·

وقد عدنا الى طائفة من هذه الاشعار التى قيلت على عهد أبى حمو فى تلمسان ، وما يتصل بها من مدن المغرب الاسلامى ، فوجدناها مشتملة على مارق من الالفاظ ، وجزل من المفـــردات ·

خذ لذلك مثلا أبياتا لابن خلدون افتتح بها قصيدة مولدية :

أسرفن فى هجرى وفى تعذيبى	وأطلن موقف عبرتى ونحيبى
لله عهد الظاعنين وغادروا	قلبى رهين صبابة ووجيب
غربت ركائبهم ودمعى سافح	فشرقت بعدهم بماء غروب
يا ناقعا بالعتب غلة شوقهم	رحماك فى عذلى وفى تانيبى
ما هاجنى طرب ولا اعتاد الجوى	لولا تذكر منزل وحبيب (53)

فهذه الالفاظ التى اصطنعها ابن خلدون فى هذه القصيدة بلغت فى الرقة مبلغــا كبيرا · انها تذكرنا ببعض الالفاظ التى كانت تستخدم لدى كبار الشعراء الغزليين فى

(53) العبـــر : 865/7 ·

القرن الاول الهجرى حيث ازدهر هذا الفن وبلغ اقصى غايته فى الادب العربى على أيدى العرجى ، وابن أبى ربيعة ، وجميل ، وكثير ، وبعض هؤلاء الذين كان يقال لهم المجانين .

فالهجر والتعذيب ، والعبرة والنحيب ، والصبابة والوجيب ، والدمع السافح ، والماء الغروب ، ونقع غلّة الشوق بالعتب ، وطلب الرحمى فى العذل والتأنيب ، والجوى والمنزل ، والحبيب ... من الالفاظ الرقيقة التى ما وقعت فى شعر الا جملت صياغته ، وحسنت ديباجته ، وجعلته كالماء الرقراق الذى يتفجر من ينبوع صخرى ، أو كالشذى العابق الذى يضوع من الزهر الناضر ، أو الورد الفاخر .

ولدى الوقوف على قصيدة محمد بن يوسف القيسى وقفة تأمل ، يتبين للباحث أن الشاعر كان ينتقى ألفاظه ، وكان يلتمس الرقة المذابة فى هذا الانتقاء :

ذكر الحمى فتضاعفت اشجانه	شوقا وضاق بسره كتمانه
دنف تذكر من عهود وداده	ما لم يكن من شانه نسيانه
يهفو لبرق الابرقين تعللا	والقلب منه دائم خفقانه
ويروم سلوان الهوى فيجيبه	ان المحب محرم سلوانه
ويشوقه مر النسيم اذا سرى	من نحو طيبة طيبا أردانه (54)

فالحمى ، والاشجان ، والشوق ، والسر ، وتذكر العهود ، والوداد ، والنسيان ، والبرق ، والتعلل ، والقلب ، وديمومة خفقانه ، وسلوان الهوى ، ومر النسيم حين يسرى ، والاردان ... ألفاظ تعتبر فى حد ذاتها شعرا قائما بنفسه قبل أن تركب ، لان كل لفظ منها له أبعاد من المعانى الرقيقة ، وظلال من المدلولات الانيقة التى تطرب وتعجب ، وتثير فى النفس ألوانا من المعانى والذكريات .

ونلاحظ أن شعراء هذه الفترة كانوا يميلون أيضا الى الجزالة والفخامة ، وهى ظاهرة فنية لازمت الشعر العربى فى المغرب زمنا طويلا من لدن ابن زيدون ، وابن هانىء ، الى ابن خميس ، وابن حمديس ، الى الشعراء الآخرين الذين لم يبلغوا شهرة هؤلاء ، ولكن كانت لهم مشاركة كبيرة فى اخصاب الحركة الشعرية فى المغرب الاسلامى

---

54) بغية الرواد : 44/2 .

طوال عهود الازدهار الادبى فيه · ويمتد هذا الازدهار ، فى رأينا ، الى أواخر القـرن الثامن للهجــرة ·

ولو تقصينا باقى الاشعار المولدية ، وغير المولدية التى قيلت على عهد أبى حمــو وما قاربه من عهود ، لوجدناها لا تختلف اختلافا كبيرا فى هذه الخاصية الفنية · لان الشعراء كانوا حراصا على أن يكون شعرهم ذا ديباجية ورواء ·

والذى يلاحظ أثناء ذلك أن معظــم المعانى الشعرية نجـدها مكررة معروفة ، أو مبتذلة متداولة منذ القدم · لان دولة الشعر العربى كان الهدم قد بدأ يدب اليها ليقوض أركانها ، ويهدم بنيانها ·

وقد بدأ لنا خلال هذه الرحلة الجميلة التى قمنا بها بين رياض القصائد المولدية ، أنها كانت طويلة النفس · فما من قصيدة رسمية كانت تقال الا ونجد أبياتها تجـاوز الاربعين ، وربما الخمسين أو الستين بيتا · أما القصائد التى كانت تقال فى المـديح أو الاستصراخ فانها كانت تبلغ المائة بيت ، وتجاوز هذا العدد فى كثير من الاطـوار كقصيدة ابن الخطيب التى انشأها حين استشعر الخوف من المرينيين ، والتى مطلعها :

أطلعن فى سدف الظــلام شموسا ضحك الظــلام لها وكان عبـوسا

فانها بلغت زهاء عشرة أبيات ومائة (55) · أما قصيدته الميمية التى استصرخ فيهـا موسى أبا حمو الثانى فانها بلغت ثلاثة وعشرين بيتا ومائة (56) · وهي من عيـون قصائد ابن الخطيب ·

كما بدا لنا أن الشعراء كانوا حريصين على اصطناع البحور الطويلة : كالكامل ، والوافر ، والبسيط ، والطويل ، والمديد · بيد أن ورود الطويل كان أكثر ·

نخرج من كل هذا البحث المتواضع أن الشعر العربى فى تلمسان ، عرف تطـورا وازدهارا على عهد أبى حمو الثانى ، وأن المولديات بوجه خاص ازدهرت وأصبـح لها شعراء معروفون · وقد كانت هذه المولديات فى مستوى الشعر الراقى الجميـل لفظا ومعنى · ويدل هذا على أن الجزائر لعبت فى القرن الثامن الهجرى دورا خطيرا فى مجالى الفكر والادب ، حيث عرفت أكبر المفكرين والادباء فى تاريخ المغرب الاسلامى ورعتهم وظاهرتهم على تفتيق عبقرياتهم ، واخصاب قرائحهم ·

---

55) بغية الرواد : 2/287 ــ 293 · وقد خاطب بهذه القصيدة أبا حمو الثانى ·
56) المصدر السابق : 2/300 ــ 307 ·

اهـــم مصـادر البحـث ومــراجعه

1) تحفة الزائر ، فى تاريخ الجزائر والامير عبد القادر
لمحمد بن عبد القادر الجزائرى ـ دار اليقظة العربية 1964 ط 2 .

2) تاريخ الجزائر فى القديم والحديث
للشيخ مبارك الميلى : ط 2 ـ مكتبة النهضة الجزائرية ـ الجزائر .

3) كتاب العبـر ، وديوان المبتدأ والخبـــر ...
لعبد الرحمن بن خلدون ـ دار الكتاب اللبنانى 1968 .

4) بغية الرواد ، فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد .
لابى زكرياء يحيى بن خلدون ـ مطبعة فونتانة ـ الجزائر 1911 .

5) البستان ، فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان
لابن مريم محمد المليتى التلمسانى ـ المطبعة الثعالبية ـ الجزائر 1908 .

6) الديباج المذهب ، فى معرفة أعيان علماء المذهب
لبرهان الدين ابراهيم بن على بن فرحون اليعمرى ـ مصر 1351 .

7) تاريخ الجزائر العام لمحمد عبد الرحمن الجيلالى
المطبعة العربية ـ الجزائر 1955 .

8) واسطة السلوك ، فى وعظ الملوك
لموسى أبى حمو الثانى ـ تونس 1279 هـ .

9) نيل الابتهاج ، بتطريز الديبـــاج
لاحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت التنبكتى ـ (طبع على هــامش « الديباج المذهب » مصر 1351 هـ) .

10) الاحاطة ، فى اخبار غرناطة
للسان الدين بن الخطيب ـ دار المعارف بمصر 1955 .

11) المنتخب النفيس ، من شعر أبى عبد الله بن خميس
لعبد الوهاب بن منصور ـ مطبعة ابن خلدون بتلمسان 1965 .

12) جريدة البصائر ـ أعداد من السلسلتين الاولى والثانية) .

13) الموسوعة العربية : القاهرة 1965 .

العروبة في شعر العفيف التلمساني

د . عمـر موسى باشـا
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

عرفت تلمسان الخالدة ، والتقيت عبر الزمن بـروح العفيف التلمسانى ، ابنها البر قبل أن أزور تلمسان فشاهدت البلد والشاعر ببصيرتى قبل أن تكتمل عيناى برؤيتها .

كنت فى المشرق أقرأ شعره فى ديوانـــه المخطوط الذى آثر أن يبقى الى جانب قبر صاحبه وفاء له وصونا لذكره ، وكنت من خلال ذلك أشيم بروق المغرب الحبيب عن بعد من آفاق المشرق ، وأتطلع لامتـع ناظرى بمـا شاهده العفيف فى مسقط رأسه من طبيعة جميلة تأخذ بالالباب فى (روضـة العبـاد) روضة العشق الالهى فى هذه الاكمة المقدسة ، فتلفت اليها خاشعا ومتبتلا ، وطالما أسمع صوتا قديسا أن أخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى فى تلمسان، وهناك الاكمة المطّلة ، على هذه الرياض التى عرفها الشاعر ، وأحبها وبقى ذكرها نديا فى شعره خاصة حينما فارقها وعرف انه قد لا يعود اليها .

كان الزمن يتوالى فى بصيرتى وتحت سمعى ، وكنت أقرأ وأسمع قصة تلمسان الخالدة فى أمسها الباهر ، وحاضرها الزاهر ، ومستقبلها المشرق ، وكانما كانت تتطلع من خلال تراثها الاصيل الى الحضارة الغربية التى بدأت تؤتى أكلها ثمارا بالغة ، أصلها راسخ فى الارض ، روتها دماء الشهداء الاحرار ، الذين صبغوا ترابها بدمائهم ، وفرعها شامخ فى السماء ، يبشر بأن هذا البلد الامين كان وسيبقى شمسا مشرقة لا فى المغرب العربى كله ، وانما فى سماء الادب العربى قاطبة من أدنى مشرقه الى أقصى مغربه ·

اسمه وكنيته ولقبه :

هو عفيف الدين ، أبو الربيع ، سليمان بن على بن عبد الله بن يس ، العابدى ، الكومى ، التلمسانى ، المعروف عند القدماء باسم (العفيف التلمسانى) لا نعرف عن العابدى ما يوضح لنا هذه ، ولعلها نسبة الى روضة العباد فى تلمسان حيث يثوى فيها العلم الفرد شعيب أبو مدين ، والكومى نسبة الى كومية ، وهى قبيلة صغيرة منازلها فى ساحل البحر من تلمسان كما فى المعجب ·

ولد العفيف سنة 610هـ (1213م) فى تلمسان ، ثم قدم القاهرة بعد أن تقدمت به السن ونزل بخانقاه سعيد السعداء ، وأقام عند صاحبها شمس الدين الابلى ، وقد ولد له ولده الشاعر المشهور شمس الدين محمد المعروف بالشاب الظريف ، وكان اذ ذاك فى العقد الخامس من عمره ·

وانتقل الشاعر الى بلاد الروم وعمل فيها أربعين خلوة صوفية تدوم كل واحدة أربعين يوما يخرج من واحدة ويدخل فى أخرى ·

وهكذا استمر فى تطوافه وسلوكه الصوفى حتى ألقى عصا الترحال فى دمشق، فاعرض فيها عن حياة التصوف ، وازمع أمره على التمتع بحياة السعى ليكسب الرزق ، ولا سيما أنه كان يتمتع بمؤهلات شخصية وثقافية تجعله فى عداد الذين يعتمد عليهم فى بعض أمور الدولة ، ولا غرابة ان رأيناه يصبح مباشر استيفاء الخزانة بدمشق ، وهذا من أكبر المناصب وأهمها فى عصر سلاطين المماليك ·

أقام الشاعر فى هذا المنصب طوال حياته ، وعاش سعيدا فى قصر صنف يقع فى رياض الصالحية فى سفوح جبل قاسيون حتى وفاته سنة 690 هـ (1291م) ·

آثاره الادبيــة :

صنف العفيف آثارا كثيرة فى الشعر والتصوف وغيرهما ، حتى ان الجزرى قـــال فى تاريخه « له فى كل العلم تصنيف (1) » ولا نعـرف مصـــير هـذه التصانيف ولا موضوعاتها ·

أما شعره فهو مجموع فى ديوان مستقل ، أشار اليه ابن تفرى بردى بقوله : « وله ديوان شعر كبير (2) » ولا زال مخطوطا ، ويقوم الدكتور عمار الطالبى بتحقيقه ، وسوف ينشر فى وقت قريب ·

أما آثاه المعرُوفة عندنا فمقصورة على شروح صنفها المؤلف ، منها (شرح كتـــاب المواقف للنفرى) و (شرح كتاب الفصوص لابن عربى) · يضاف الى ذلك كتـاب فى (فن الروض) لا يزال مخطوطا أيضا ·

الرمـز فى شعـــره :

يلاحظ فى دراسة شعر العفيف أنه لم يتطرق من قريب أو بعيد تصريحا كان ذلك أو تلميحا لاى من أبناء عصره سواء أكانوا من السلاطين أم مـن غيرهم الذين عاصرهم ، ولم أعثر فى الديوان كله الا على ذكر اثنين هما على الامدى ، وقد تكرر ذكره مرتـين ، وابن الزبير فى وصف الطبيعة فى التلميح الى بخله · يضاف الى ذلك اننا لا نجد أى ذكر لاخوانه من فقراء المتصوفة الذين ارتبط بهم عقيدة ومذهبا وسلوكا ·

ان كل ما نطالعه من شعره لا يتعلق الا بالمجتمع على اختلاف صوره وألوانه ، وانما هو مقصور أصلا على المجتمع الذهنى فى اطار من التصور الداخلى والانفعـــال النفسى والسلوك الصوفى ·

هو عالم خاص فى رؤى الشاعر وتواجده وحواصبه ، لا يحده مغـــرب ولا مشرق ، المغرب الذى اخرجه وأنشأه والمشرق الذى أحبه واحتضنه · هذا العالم الباطنى يمثـل

---

(1) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج 8 ص 28 ·

(2) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج 8 ص 28 ·

تجربة شعرية عميقة فى الشعر الدينى ، سلك سبيلها كثير من الشعراء المتصوفة المؤمنين بوحدة الوجود ، والذين يتعشقون الحقيقة المطلقة ويتطلعون للكمال المطلق المتمثـــل فى الله الحـــق .

تحدث عن هذه الحقيقة ، فتمثلها فى كل شىء ، رآها فى هذا الكون ، وشهدهـــا فى هذا الانسان الذى هبطت اليه النفس من المحل الارفع ، وشخصها فى الطبيعة على اختلاف صورها وألوانها،وتمثلها فى المرأة فى الجمال المطلق،والحسن المبدع،وقد لعبت الخمرة الرمز أكبر دور فى هذا المجال لان اتخذ من نعت قدمها وسلطان جبروتها على العقل البشرى سبيلا يوضح له الحقيقة المطلقة التى كانت شغله فى كل غرض من أغراض شعره المذكورة .

وقف أمام هذه الطبيعة يجلو محاسنها ، ويستجلى مكنوناتها لينفذ منها الى عالم آخر حجبته عنا سجف مسدلة صفيقة ، ومنعته عن أبصارنا أدران الدنيـا وآثـام النفس الانسانية ، والى طبيعة أخرى ، لا قبل لنا ، لاننا عاجزون عن رؤيتها وادراكها ، ولكن الشاعر الملهم هو القادر على استجلاء الغيب والافصاح عن مكنون الكون من خلال مواجده الصوفية .

تحدث الشاعر عن الخمر من خلال الحديث عن المرأة ، وأغرق فى أوصافهما ، ومن يقرأ شعره يخيل اليه أنه رب الحانة الرمزية ، وما كان أبرعه حين يجمع بينهما فى الرمز معا .

ولا أبالغ ان قلت ان الشاعر كان يجارى الخيام ان لم يتفوق عليه ، لان الاوصاف التى جاء بها ترفعه الى منزلة عليا ، ويعرب الشاعر عن بعض ما فى خلده حـين يرى أن هذه الخمرة معصورة من دمه ، وعاصرها ذاته نفسها ، وحببها بعض أدمعه (3) ، وليس من باب المصادفة أن يقف فى مكان آخر عند الحلاج نفسه ليشير الى قتله بقوله: (4)

منها أنا والســـاقى يناول كاسها　　　فاشرب صرفا أو يغنـــى فاطـــرب

فان لام فيها الشيـــخ طفل غرامها　　　على شربها فالشيـــخ كالطفل يلعـب

---

(3) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 1 ظ .
(4) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 2 و ظ .

تذكرنى الحلاج والكأس يجتلى ولكنه عنه تصان وتحجب

ولو لم يكن رواوقها كصليبه لما عذروا حلاجها حين يصلب

ذلك هو الطريق الذى التزم فيه الشاعر ذكر حقائق التصوف رامزا وملمحا من خلال الطبيعة والخمر والمرأة ، ومشيرا من خلال الطبيعة الى فلسفة الكون والخليقة والخلق ٠ وكان فى بعض الاحيان يعرض عن أسلوب الرمز ليطلق الكلمة الصريحة دون تعريض أو تلميح ٠

العروبة فى شعره :

تلك هى مقدمة ابتغى منها توضيح سبيل البحث الذى أتناول فيه ظاهرة بارزة هامة من خلال شعره ، وهى العروبة التى تكررت الاشارة اليها عشرات المرات فى معرض النسيب والغزل ٠

لقد استرعت انتباهى هذه الظاهرة خلال دراستى ديوان شعره المخطوط ، ورأيت أنه كان عربيا فى أغزاله كلها ، واتخذ من الغزل سبيلا لذكر العرب فى هذا العصر الذى كان الحكم فيه لسلاطين المماليك ، والتزم ذلك فى سائر الاوصاف التى عرضها ، وكان بذلك حقا ثورة شعرية عربية فى عصر ساد فيه حكام أعاجم ٠ ولا أظن شاعرا تحدث عن هذا الامر ، والتزم فيه هذا الالتزام ، من كان مثله ٠

أحب الشاعر العرب كل الحب ، فهو لم يختر فى أغزاله غير المرأة العربية ذكر (**ليلى العامرية**) واحدا وثلاثين مرة ، وذكر (**علوة**) سبع مرات ، وذكر (**سلمى وسليمى**) سبع مرات أيضا ، وذكر (**نعما**) أربع مرات ، وذكر كلا من (**سعاد**) و (**سعدى**) و (**اسماء**) و (**هند**) ثلاث مرات ، وأورد ذكر كل من (**أروى**) و (**عزة**) و (**رقية**) و (**لبنى**) و (**مى**) مرة واحدة ٠

هذه الظاهرة على جانب كبير من الاهمية ، وهو أنه تغنى بالمرأة العربية فى الوقت الذى كان الشعراء يوغلون فى الوصف المرأة غير العربية ٠

ولم يقتصر الامر على ذكر المرأة ، وانما وصف الشاعر لنا حياة العرب وارتحالهم وخيامهم ونيرانهم فى هذا العصر الذى تناسى فيه الشعراء العرب والعروبة ، ولكن الشاعر

العربى التلمسانى أعلنها ثورة عربية على الشعر والشعراء فى عصره ، وتغنى بذكرهم ، وما أكثر ما وقف عند ذكر نجد ، وما أكثر ما كرره من اسماء الكثبـــان والوديان فى الجزيرة العربية ٠

لقد ثار الشاعر على التيارات الاعجمية فى شعره ، وأعلنها ثورة عــلى المجتمعـــات والمفاهيم من خلال شعره ، فليس من المصادفة أن لا نرى فى شعره كله أى ذكر لاى سلطان أو ملك و أمير أو أى فرد آخر من أبناء عصره ٠

لقد كان الشاعر ملتزما ذلك ان صح لنا أن نطلق لفظ الالتزام فى هذا المضمــار ، وسوف أقتصر على بحث العروبة من خلال أربعة ألفاظ مشتقة من أصل واحــد ، وهى (العرب) بفتح الراء ، و (العرب) بتسكين الراء ، و (العرب) بضم الراء ، و (العريب) بالتصغير تحببا واجلالا للعرب ٠

أما (**العرب**) فقد تكرر ذكرهم فى خمسة مواضع ، فهو تارة يخاطبهم كما فى قوله من قصيدة مطلعها : (5)

أحـــن الى المنـــازل والربـــوع　　　وأنتم بـــين أحشـــاء الضلـــوع

ويستطرد بعد ذلك مخاطبا عرب الخيام : (6)

أيا عرب الخيـــام كـذا أصنعتـــم　　　نزيـــلا فى جنابكـــم المنيـــع

ويا ظبى الصريـــم أخـذت قلبى　　　فليتـك لو اضفـــت لـه جميـعى

سكنـت بمهجـــتى والجـــار يرعى　　　فمـالك لا تـرق عـــلى خضـــوعى

ويخاطب عرب الجرعاء (7) بعد عرب الخيام ، وقد ارتحلت عيس المحبوب عن سفح نعمان ، وما أجمل الصورة التى شخصها لنا الشاعر حين نزلت خيامه فى حى قلبه :

لئن رحلت عن سفـح نعمان عيسه　　　فقد نزلت فى حى قلـــبى خيامـــه

(5) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 26 و ، ظ ٠

(6) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 26 و ، ظ ٠

(7) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 43 ظ ٠

أبا عرب الجرعاء ما أورق الفضا بدمع ولا غيث بفيض غمامه
ولكن حللتم سفحه فتزينت بحسنكم ساحاته وأكامه
فقد صفت عذرانه وتراقصت عضون النقا فيها وغنى حمامه

وما دمنا نازلين فى خيام عرب الجرعاء ، فالمستحسن أن نبقى مع الشاعر فى (أجرع الحمى) لنرى أمير الهوى العربى : (8)

وفى العرب الغادين من أجر ع الحمى أمير هوى قلبى لديه نزيل
ببيض مواضيه وسمر رماحه جرى الماء خوفا والنسيم عليل

ويتحدث الشاعر عن قرى هؤلاء العرب فى مكان آخر ، ويذكر لنا كعادته أنه نزيل خيامهم وعليهم أن يكرموه لانه ضيف ، له عليهم حقوق ، فالمعروف عنهم أنه لا يؤذى لهم جار ، وانما يسعد كل من جاورهم ، أو حل ساحتهم أو نزل حيهم ، ذلك لانهم سيدافعون ليحموه بكل اسمر شاجر ٠

خاطب الشاعر نفسه مشخصا ، ولكن خطابه جاء بصورة الامر فى معرض الاستعطاف والتوسل حين يقول فى قصيدة مطلعها : (9)

هذا المصلى وهذه الكثب لمثل هذا يهزنا الطرب

ويستطرد ليقول بعد ذلك :

انخ مطاياك دون ربعهم كيلا تطال الرحال والنجب
وأرج قراهم اذا نزلت بهم فانت ضيف لهم وهم عرب
واسع الرأس خاضعا فعسى يشفع فيك الخضوع والادب
واسجد لهم واقترب فعاشقهم يسجد شوقا لهم ويقترب
عندى لكم يا أهيل كاظمة أسرار وجد حديثها عجب
ارى بكم خاطرى يلاحظنى من أين هذا الاخاء والتسب ٠٠٠

(8) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 43 ظ ٠
(9) مصورة الديوان المخطوط ، اللوحة 3 و ٠

ويستمر الشاعر الضيف بعد حديثه عن هؤلاء العرب الى ذكر كتب غرامه ، وشربه الراح الصرف حين يقـول :

وأشرب الــراح حـين اشربهـــا	صرفــا وأصحـــو بهـا فما السبب
خمرتهـــا مـــن دمى وعاصرهـــا	ذاتى ومـــن أدمعى لهــاالحبــب
ان كنت أصحـو بشربهـــا فلقـــد	عربـــد قـــوم بهـا وما شربـــوا
هى النعيـــم المقيـــم فى خلـــدى	وان غـــدت فى الكـؤوس تلتهـب
ففـــن لى ان سقيــــت يا أمـــلى	باسـم الـتى بى عـــلى تحتجـب

تلك هى قصة (العرب) عند هذا الشاعر ، وقد تعمدت أن أضم الشاهد الاخـير بما أختم حديث العرب ، وذلك بذكر الخمرة الصوفية ، خمرتها من دمه ، وعاصرها من ذاته ، وحببها من أدمعه ومواجده ٠

كما تحدث الشاعر عن (العرب) ، فى سبعة مواضيع من شعره ، فهو يتحدث عـــن العرب حديثا عاما وحديثا خاصا ٠

نبدأ بحديثه عن (عرب نجد) الذين قتلوا فريقا ، وأسروا آخر ، وأنهم أضاعـــوا للمحبـين ذمة النزلاء ، ويتحسر على أيامهم ، ويتمنى أن تعود هذه الايام بما مضى مـــن عيشهم السالف ٠

تحدثنا فى العرب أمير الهوى ، ونتحدث فى العرب عن أمير الملاح فى نجد : (10)

يا أمــيرا عـــلى الملاح وقلـــبى	أبـــدا خافـــق لـــك كاللـــــواء
وبنجـد عرب نـــزول أضـاعـــوا	للمحبـــين ذمـــة النـــــزلاء
ضربـــــوا خيمـة المليحـة فى الرو	ض وأجـروا أنهارهـا مـــن بكائى
ودعوا للعقيـــــق دمعى ومـــن أيـ	ــن لدمعى العقيـــق لولا دمـــائى

---

(10) مصورة الديوان المخطوط اللوحة ١ و ٠

ويستطرد الشاعر فى حديثه عن العرب فى موضع ثان ، فيخاطبهم متحسرا على ما فات من أيام ، ويتساءل متمنيا أن تعود كما كانت مملوءة بالحب والسعادة (11) فتكون بردا وسلاما على قلبه :

لو لاح أدنى بارق من حسنه   للكون رنحه جوى وغرام
يا عرب نجد ما مضى من عيشنا   أترى تعود لنا به الايام
صب يرى نار الصبابة انها   فى حبكم برد له وسلام

ويلقى أداة النداء ليخاطب عرب نجد مباشرة ، لقربهم من قلبه ، فيقول مشيرا الى التى شهرت سيوف جفونها على عشاقها : (12)

ان تكن هذه التى قتلتنا   يحمى حماه بكل أسمر شاجر
عرب نجد هاقد قتلتم فريقا   وفريقا مازلتم تاسرونا

ننتقل مع الشاعر فى حديثه عن العرب فى غير نجد ، النازلين على الحمى ، والذين يحمونه بكل اسمر شاجر ، والطريف عنده أنه يرى فى قدود نسائهم العوامل ، وفى أجفانهن الاسنة ، (13) ومن خلال ذلك تستوقفه ظبية عامر :

وعلى الحمى عرب نزيل بيوتهم   يحمى حماه بطل أسمر شاجر
لا يشرعون سوى القدود عواملا   ومن الاسنة غير جفن فاتر
يحمون جارهم وتنهب لبه   بين البيوت جفون ظبية عامر

ويوالى الشاعر فى موضع آخر ذكر الحمى ، عن (يمنة الجزع) ، فيقول : (14)

عن يمنة الجزع بالحمى حلل   لعربها من جمالهم حلل
كل احاديث صبهم صلف   وكل اخبار حسنهم غزل

---

(11) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 39 و .
(12) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 50 ظ .
(13) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 21 و .
(14) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 35 ظ .

ويبقى علينا أن نتحدث عن العرب فى الوصف العام ، حيث يذكر القباب بالجرعاء ، فيقول (15) واصفا الحسناء المحجوبة والممنوعة صونا لها :

ومحجوبة بالصـــون عن كـل ناظر   دنا منك مغناهـا وشط مزارهـــا
اذا قلت بالجـرعاء حلـــت قبابهـــا   تغـار قلوب فى حشاهن دارهـــا
من العـــرب أما الدمع فهو مياهها   وأما هـــوى عشاقهـا فهـــو نارهـا
اذا ابتسم البرق اليمانى حسبتهـا   تالق ألماهـــا وحـــل ازارهـــا

ويختم الشاعر حديثه عنهم ، وقد أناخوا معاطفهم فى القلوب فقال : (16)

عـــرب أناخوا فى القلـوب معاطفا   ونواظـــرا كعوامـــل وعـــوال
وتوشحوا برد النعيـــم فموجوا   غدران مـاء فى نسيـــم شمـــال

يبقى علينا أن نذكر (العرب) بتحريك الراء ، وقد عرض لذكرها الشاعر مرة واحدة استهل بها قصيدة بائية فى معرض ذكر حمى الاحبة وظبائه ، من العرب الابكار ، عربيات المجتد والنجار (17) ٠

لولا الحـمى وظبـــاء بالحمى عـــرب   ما كان فى البارق النجدى لى أرب
حلت عقود اصطبارى دونه حلـــل   حقوقها كارتياحاتى لهـــــا تجـب

نقف أخيرا عند (العريب) هذا التصغير المحبب الى الشاعر كثيرا ، فلا عجب ان رأيناه يتحدث عن ذلك فى سبعة مواضيع من شعره ٠

كان حبه كبيرا جدا لهم ، ونراه يؤكد المرة تلو المرة هذا الحب (18) العظيم فقد ذكر نجدا وليلى العامرية ، وختم حديثه عن ذلك بقوله :

---

(15) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 18 و ٠
(16) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 39 و ٠
(17) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 5 و ٠
(18) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 12 و ٠

عريب لهم عندى رعاية عهدهم   وما عندهم لى نقض عهد ولا عقد

اذا زمزم الحادى بألحان حبهم   يسابقة ركب من الدمع فى خدى

صبغت بمحمر من الدمع بعدهم   من الرمل مبيضا لارعى لهم عهدى

لاحظنا اكتمال الوصف عند الشاعر للعريب بذكر الحادى المزمزم بألحان الحب ، ولاحظنا ركب الدمع من ركب الرحل ، ولكن الطريف هذه الصورة المبتكرة التى لم أعرفها لشاعر قبله ، وهى هذه الصبغة الحمراء للرمل من الدمع المحمر ٠

ثم يتعجب الشاعر من دنو الدار ، ويذكر أن « العريب النازلين هم » (19) أنفسهم ٠

عجبا والدار دانية   والعريب النازلون هم

وما دمنا فى ذكر الحادى الذى يزمزم ، فلنذكر فى هذه المناسبة مخاطبة العريب بذكر حرف النداء أو باسقاطه :

ففى ذكره يخاطب الشاعر هؤلاء ، ويعتذر اليهم تجنبه أرضهم ، لا مللا وانما حرصا على سمعته من عدو يسىء فيه مقاله : (20)

يا عريب الحمى اعذرونى فانى   ما تجنبت أرضكم عن ملاله

حاش لله غير انى أخشى   من عدو يسىء فينا مقاله

فتاخرت عنكم قانعا من   طيفكم فى المنام يهدى خياله

وهكذا قنع من طيف الحبيب أن يهدى خياله ، وبالطبع فنحن نعرف خياله وطيفه ، انها رموز تخفى وراءها أكثر مما يخطر فى ذهن السامع ٠

ويخاطب العريب باسقاط أداة النداء تقربا وتوددا ، فيقول فى ختام قصيدة له : (21)

عريب الحمى ان لم أنل طيب وصلكم   فحسبى أن أرجو لقاكم وأطمع

اذا كنتم سكان قلبى فما الذى   يدافعنى عنه الحسود ويمنع

---

(19) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 40 ظ ٠

(20) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 37 ظ ٠

(21) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 25 و ٠

وفى هذه الاشارات الخفية عن العدو فى الشاهد الاول والحسود فى الشاهد الثانى ما يوضح لنا الاثر الكبير الذى خلفه الشاعر فى حياته ، لاننا نعرف أنه نفر من هـؤلاء الاعداء والحساد ، يضاف الى ذلك ما كان يتمتع به من منزلة ومكانة عند هؤلاء المماليك ٠

ونبقى مع الشاعر فى مخاطبة الغريب ، لنراه يشير الى غربته ، والى بعده عن مغربه ، وهو الصب العاشق للذات الالهية يذوب وجدا فى نجد : (22)

عريب الحمى فـــلى فى حماكـــم نزيـــل فى خيامكـــم غـريـــب

عجبت لناركـــم بربـــا المصـــلى ومنهـــا الصب فى نجـد يـــذوب

ونشركـــم عـــلى قـرب وبعـــد الى المشتـــاق تحملـــه الجنـــوب

هكذا نلاحظ أن الشاعر يمتزج بالطبيعة كما وردت عرضا فى هذه الشواهد ، وهى غرض رئيسى هام فى شعره ، ليس موطن بحثه الآن هنا ٠

ولم يكن ليكتفى بذلك ، فكان فى بعض الاحيان يخاطب البرق يطلب منه أن يلقى عريبا دون كاظمة ، ويصور قلبه كجبل رضوى ، ولنترك الشاعر نفسه ، يحدثنا عن هذا الجبل الذى كان يذوب حين يحدو حاديهم : (23)

يا بـرق لاق عـريبـا دون كاظمـة بناظـرى باسطـا للعـين أجفـانى

لو كان قلبى رضوى ذاب حين حـدا حاديهـــم فى رياضـــات وسبحان

نختتم حديث الشاعر عن العريب بعد العرب ، والعرب ، والعرب ، بما استهل بـه قصيدته التى خاطب فيها السائق الذى يبغى دار مى وأشار الى عريب النازلة دون ذلك اللوى : (24)

أيهـــا السـائـق يبـغى دار مى وعريبـــا دون ذيـــاك اللـــوى

---

(22) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 1 و ٠

(23) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 52 و ٠

(24) مصورة الديوان المخطوط اللوحة 59 و ٠

تلك هى قصة الشاعر الثائر الذى عاش فى المغرب والمشرق على السواء فكان ثـــورة على سلاطين المماليك حين تغنى بالعرب لفظا ومعنى وصورا · ولقد لاحظنا هذا الحـــب العظيم الذى خص به الشاعر العرب فى كل زمان ومكان ·

وكان ثورة على الشعراء أنفسهم حين خالفهم ليعود بهم الى أصالتهم فى هذا التراث العربى الاصيـــل ·

هكذا كانت ثورة الشاعر التلمسانى الكومى فى القرن السابع الهجرى ، فعليه الرحمة فى هذا اليوم الذى يجتمع فيه الناس من كل حوب وصوب فى بلد المجد الاصيـــل فى تلمسان الخالدة من جزائرنا الحبيبة ·

تلمسان فى الأدب العربي

د . رشيد مصطفاى

كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

تلمسان من المدن التى حظيت بعناية الشعراء والكتاب فقالوا فيها قصائد رائعة وحبروا فيها رسائل بليغة لان جمال طبيعتها الفتان يجعل الاديب لا يتمالك اذا علقت عيناه به أن ينشر محاسنها فى أبيات ينظمها أو رسالة يحبرها كما فعل لسان الدين بن الخطيب الاديب الاندلسى الكبير صاحب « الاحاطة » اذ قال يصفها :

« تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ووضعت فى موضع شريف كأنها ملك على رأسه تاجه وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه ؛ عبادها يدها وكهفها كفها وزينتها زيانها وعينها أعيانها ؛ هواها المقصور بها فريد وهواؤها الممدود صحيح عتيد وماؤها برود صريد ؛ حجبتها ايدى القدرة عن الجنوب فلا تحول فيها ولا شحوب ، خزانة زرع ومسرح ضرع ، فواكهها عديدة الانواع ومتاجرها فريدة الانتفاع وبرانسها رقاق رفاع الا انها بسبب حب الملوك مطمعة للملوك ومن أجل جمعها الصيد فى جوف الفرا

مغلوبة للامرا أهلها ليست عندهم الراحة الا فيما قبضت عليه الراحة ولا فلاحة الا لمن أقام رسم الفلاحة ليس بها لسع العقارب الا فيما بين الاقارب ولا شطارة الا فيمن ارتكب الخطارة ! »

يشير ابن الخطيب عندما يشبهها بملك على رأسه تاجه الى ابهتها وفخامتها فى عهد ملك بنى زيان اذ رفع شانها ابو حمو موسى الثانى (760 ـ 791) بازدهـــار صناعتها وفلاحتها حتى خطب ودها ملوك غرناطة وما أحوجهم اليه وقد اشتد عليهم ضغط الاسبان ولكن الجزائر الزيانية لم تكن لتبخل بمعونتها واسعافها بالمـــال والمؤونـــة قال يحيى ابن خلدون : « وفى هذه السنة (763 هـ) وصل الى الباب العلى الفقيه الكاتب ابراهيم ابن الحاج رسولا من الاندلس يطلب من أمير المسلمين ايده الله ارفاد المسلمين بالاندلس واعانتهم على محاورة عدو الله ورسوله حسبما جرت عادته بذلك فوجه معه اليهم خمسين الف قدح من الزرع وثلاثة آلاف دينار من ذهب للكراء عليه فى البحر وكان ممن وصل معه الفقيه ابو محمد عبد العزيز بن على بن يشت فرفع لمولانا أمير المسلمين أيـــده الله قصيدتين غراوين ··· » ·

يقول فى احداهما :

فمن كموسى ابى حمو بن يوسف ام	من قد يجاريه فى العلياء يبغيها
ومن كموسى اذاً تتـــل مناقبـــه	قـد حاز مجدا عـــلى الايـام تاليها

* * *

لـم تلهه لـذة مـــن دون مطلبـه	ولا تنعـــم بالدنيـا ومـا فيهـــا
حتى تنسم فى الامـــلاك منزلـــة	وحـل مـن رتب العليـا اعاليهـــا
وشـــاد ملـك بنى زيان ثانيـــة	وردها دولـــة غـــرا لاهليهـــا

(1) نفح الطيب 9/341 ·

وهكذا يواصل مدحه لابى حمو الثانى ويشيد بعظمة دولته ثم يذكر الغرض من وفادته عليه قائلا :

فليغض مولاى عن تقصير مادحه	**فالنفس رهن صبابات تقاسيها**
والقلب مشتعل والفكر مشتغل	**لاجل أندلس ضاقت مناحيها**
جئناك والفتنة العمياء تخبط فى	**أرجائها وعدو الله راجيها**
ضاقت مسالكها مما الم بها	**فالدين من حزن قد ضل يبكيها**
ما بين بحر خضم واعتداء عدى	**وفتنة أعضلت سحقا لبانيها**
وقد تطاول اعناق العداة لها	**يبغونها لأذى تبا لباغيها**
تبكى لها اعين الاسلام حين ترى	**ماحل بالدين فيها من اعاديها**

وبعد استرسال الشاعر فى وصف الحالة السيئة التى كان عليها أهل الاندلس من المسلمين يختم ابياته بطلب الاعانة التى هى بيت القصيد قائلا :

ان كنت قصرت فى مدحى فعذرى قد	**شرحته لك تفصيلا وتمويها**
اقبل عليها وقابلها بفضلكم	**فقد حوت بك تشريفا وتنويها**
لا زلت فى افق العلياء مرتقيا	**تمضى الاوامر فى الدنيا وتجريها (2)**

وفى معرض الكلام عن الاندلس نلاحظ أن أبا حمو الثانى قد ولد بغرناطة سنة 723هـ وان اباه أبا يعقوب يوسف قد شهد مع المسلمين بالاندلس « وقائع جهادية أحسن فيها وأجاد جهاد الكفرة ما شاء فارتفعت لذاك درجة اعظامه وتضاعفت أقسام بره » . (3)

لا شك ان اسراع الجزائريين الى نجدة أخوانهم بالاندلس جعلت ملوكها كلما أحسوا بالخطر الداهم يلجأون الى ملوكهم من الزيانيين متيقنين ان دعوتهم لن تضيع عندهم لما عرفوا به من الاريحية الى النجدة والاغاثة هذا الجانب الجدى هو الذى كان يشغل بال الاندلسيين عندما أخذ ظل ملكهم يتقلص وهذا الذى جعل لسان الدين بن الخطيب

---

(2) بغية الرواد 2/116 — 118 .
(3) ن — م 2/15 .

ينظر الى تلمسان من ناحية قوتها وعظمتها فى عهد ملكها الحازم المقدام أبى حمو الثانى الذى اشتهر فى شعره بميله الى تفضيل جانب المعالى والفضائل على تعاطى اللذات والانغماس فيها يقول فى احدى قصائده :

فلا تندب الاطلال واسال(4) عن الهوى — ولا تغل فى تذكار تلك المعالم
فان الهوى لا يستفز ذوى النهى — ولا يستبى الا ضعيف العزائم
وكل فتى اعطى الغرام قياده — وبات على ضيم فليس بحازم
وما فاز بالعليا سوى كل ماجد — مشمر ساق العز ماضى العزائم
صبور على البلوى طهور من الهوى — قريب من التقوى بعيد المآثم

وكانه فى هذا البيت الاخير ينظر من طرف خفى الى قوله تعالى « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » . (5)

ثم يبين غرضه من تجنب مغازلة النساء قائلا :

ولائمة لما ركبنا الى العلى — بحار الردى فى لجها المتلاطم
تقول باشفاق أتنسى هوى الدمى — وتنثر درا من دموع سواجم
اليك فانا لا ترد اعتزامنا — مقالة باك أو ملامة لائم
ألم تدر ان اللوم لؤم واننا — لنجتنب اللؤم اجتناب المحارم
فما يسوى العلياء همنا جلالة — اذا هام قوم بالحسان النواعم
بروق السيوف المشرفيات والقنا — أحب الينا من بروق المباسم
وأحسن من قد الفتاة وخدها — قدود العوالى أو خدود الصوارم

وما ذلك الا انه جعل لذته الكبرى فى قيادة الجيوش الى الحرب لتوطيد أركان ملك بنى زيان فلنسمعه يقول :

نقود الى الهيجاء كل مضمر — ونقدم اقدام الاسود الضراغم
وما كل من قاد الجيوش الى العدى — يعود الى أوطانه بالغنائم
وتنصر مظلوما وتمنع ظالما — اذا شيك مظلوم بشوكة ظالم

---

(4) هكذا فى « بغية الرواد » ونعتقد انها واسل من السلوان لا من السؤال ليستقيم المعنى مع ما بعده من المعانى .

(5) س ص — الآية 26 .

ان وقوفه بجانب المظلوم وانتصاره للحق يجعلانه يبذل كل جهده فى نظم شتيت ملكه وتوطيد أركانه ولذلك يحتم قائلا :

بهمتنا العليا سمونا الى العلى	**وكم دون ادراك العلى من ملاحم**
نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه	**وكم بات نهبا شمله دون ناظم**
شددنا له أزرا وشدنا بناءه	**باوثق أركان واقوى دعائم (6)**

لا شك اننا اذا درسنا حياة ابى حمو الثانى السياسية وجدناها مطابقة لما يقوله فى شعره اذ كان يوافق بين القول والعمل فكانت حياته حافلة بجلائل الاعمال ·

ولابى حمو الثانى ابيات فى تلمسان تدل على افتتانه بعاصمته فهو يتغزل بها كأنها حسناء حسب بعض الدارسين لحياة أبى حمو :

كتمت حبى فافشى الدمع كتمانى	**وزاد شوقى على قيس وغيلان**
انى فتنت بذات الخال يا خولى	**وعذبت بجفاها العاشق العانى**
قالت وحق هواك اليوم ما نظرت	**عيناك عينى الا ذبت من شانى**
الحب من شيمتى والوجد معرفتى	**والصبر نافلتى يا آل زيان**
انى وحق حياة الحب ما اكتحلت	**والله بعدكم بالنوم اجفانى**
ولا شغفت بحسن غير حسنكم	**ولا اخلت عليكم فى الهوى ثان (7)**

ان صحت هذه الابيات فى تلمسان فنحن امام رمز عام يشرحه الاحساس الغامر على من يطالع جمالها فان هذا الاحساس شبيه بما يشعر به المرء امام غادة بارعة الجمال وهذا الشعور عام عند كل الشعراء الذين وصفوا قاعدة ملك بنى زيان ·

وأبيات ابى حمو تذكرنا بقصيدة قالها الامير عبد القادر فى تلمسان لما فتحها واخرج منها الفرنساويين سنة 1854 م · وهو فى هذه القصيدة يتغزل بتلمسان كأنها حسناء فيقول :

---

(6) بغية الرواد 2/93 — 95 ·

(7) انظر « ابو حمو موسى الزيانى » للاستاذ حاجيات ص 214 — 215 ·

الى الصون مدت تلمسان يداهـــا	ولبت فهـــذا حسن صوت نداهـــا
وقـــد رفعت عنها الازار فلـج به	وبرد فـؤادا مـــن زلال نداهـــا
وذا روض خديهـــا تفتـــق نوره	فلا ترض من زاهى الرياض عداها
ويا طالما صانـت نقـــاب جمالها	عـــداة وهـم بـين الانام عـداها
وكـم رائـم رام الجمال الذى ترى	فأرداه منهـا لحظهـــا ومنـــاهـــا
وحاول لثـم الخـال مـن ورد خدها	فضنت بما يبغى وشـــط مداهـــا
وكم خاطب لـم يدع كفئا لها ولم	يشم طرفا مـــن وشى ذيل رداهـــا
وآخـــــر لم يعقد عليهـــا بعصمة	وما مسها مســا ابـان رضـــاهـــا
ولم تسمح العـذرا اليـــه بعطفـة	ولم يتمكـن مــن جميل سناهـــا

ويسترسل عـلى هـذا المنوال الى ان يختم قصيدته بقوله :

فكنت لهـــا بعـلا وكانت حليلـتى	وعـرسى وملـــكى ناشرا للـــواها
ووشحتهـا ثـوبا مـن العز رافلا	فقامت باعجـــاب تجـــر رداهـــا
ونادت أعبـد القـادر المنقـذ الذى	اغثت أناســا مـــن بحـــور هواها
لانك أعطيـت المفـاتيـح عنـــوة	فـزدنى ايا عـــز الجزائر جـاهـــا
ووهـران والمرساة كلا يمن حـوت	غدت حائزات مـن حماك مناها (8)

نلاحظ ان الدكتور ممدوح حقى الذى شرح وحقق ديوان الامير يرى ان الامير لما وصل الى قوله :

وآخر لــم يعقـد عليها بعصمـــة	وما مسهـا مســا أبـان رضـاهـــا

« شغل عن اتمام القصيدة فكلف كاتبه ان يجيزها ويكمل معناها » ٠

اما كاتبه فهو السيد قدور بن محمد بن رويله ٠ (9)

(8)

(9) الديوان ص 17 — 19 ٠

وقد قال صاحب « تحفة الزائر » فى هذا الفتح : « وما ورد البشير حتى انتشرت راية الاسلام فى معاهدها وشهد الله بالوحدانية فى مشاهدها واقيمت الصلوات الخمس فى مساجدها فلله الحمد على هذه المنة العظيمة والمنحة الجسيمة نسأل الله ان يتم مسرات المسلمين بفتح وهران والجزائر ويجعلها فى صحائف المجاهدين من الذخائر ويخلص الجميع من يد عصابة انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير » . (10)

اما المستعمرون من بعد فقد فتنوا بها فسموها « جوهرة المغرب » وقديما قال صاحب « نفح الطيب » : « وهى من أحسن مدائن المغرب ماء وهواء حسب قول ابن مرزوق :

« يكفيك منها ماؤها وهواؤها » . (11)

ومدحها لسان الدين شعرا فقال :

حيا تلمسان الحيا فربوعها	صدف يجود بدرها المكنون
ما شئت من فضل عميم ان سقى	أروى ومن ليس بالممنون
أو شئت من دين اذا قدم الهدى	أو رى ودنيا لم تكن بالدون
ورد النسيم لها بنشر حديقة	قد أزهرت أفنانها بفنون
واذا حبيبة أم يحيى أنجبت	فلها الشفوف على عيون العين

« وحبيبة أم يحيى » عين ماء بتلمسان من أعذب المياه واخفها وكانت جارية بالقصور السلطانية ولم تزل الى وقت صاحب نفح الطيب منها بقية آثار ورسوم . (12)

وقول ابن الخطيب « ودنيا لم تكن بالدون » يعبر عن طيب الحياة فيها وهذا الجانب المتاعى قد أفاض فيه الشعراء وأطنبوا سنذكر شيئا من شعرهم الدال على رغد العيش فيها ووفرة اللذات حتى جعلت ابن خميس الشاعر الصوفى التلمسانى يصيح اعجابا بها :

تلمسان لو ان الزمان بها يسخو	منى النفس لادار السلام ولا الكرخ

---

(10) تحفة الزائر ص 286 .

(11) نفح الطيب 340/9 .

(12) نفح الطيب 335/9 — 336 .

ثم ان شاعرنا لخير دليل على ما تحتوى تلمسان من اماكن جميلة يقصدها أهلها للتنزه والترويح عن النفس فها هو يذكرها فى قصيدة مطلعها :

تلمسان جادتك السحاب الروائح — وارست بواديك الرياح اللواقح
وسح على ساحات باب جيادها — ملث يصافى تربها ويصافح

وباب الجياد احد أبواب تلمسان ثم بعد أبيات يواصل قوله ليصف محاسن متنزهاتها :

لساقية الرومى عندى مزية — وان رغمت تلك الرواسى الرواشح
فكم لى عليها من غدو وروحة — تساعدنى فيها المنى والمنائح
فطرف على تلك البساتين سارح — وطرف الى تلك الميادين جامح
تحاربها الاذهان وهى ثواقب — وتهفو بها الاحلام وهى بوارح
ظباء مغانيها عواط عواطف — وطير مجانيها شواد صوادح
تقتلهم فيها عيون نواظر — وتبكيهم منهم عيون نواضح
على قرية العباد منى تحية — كما فاح من مسك اللطيمة فائح
وجاد ثرى تاج المعارف ديمة — تغص بها تلك الربى والاباطح
اليك شعيب بن الحسين قلوبنا — نوازع لكن الجسوم نوازح
سعيت فما قصرت عن نيل غاية — فسعيك مشكور وتجرك رابح
نسيت وما انسى الوريط ووقفة — أنافح فيها روضه وافاوح
مطلا على ذاك الغدير وقد بدت — لانسان عينى من صفاه صفائح
أماؤك أم دمعى عشية صدقت — علية فينا ما يقول الكاشح
لان كنت ملآنا بدمعى طافحا — فانى سكران بحبك طافح
وان كان مهرى فى تلاعك سائحا — فذاك غزالى فى عبابك سابح
قرام أتى ينصب من رأس شاهق — بمثل حلاه تستحث القرائح
أرق من الشوق الذى انا كاتم — واصفى من الدمع الذى انا سافح

وبعد هذا الوصف الشيق الجميل للوريط المشهور بغدرانه التى ينصب بعضها فى بعض وحدائقها الناضرة ورياضه المزهرة ينبهنا الشاعر الى ان لذاته ليست حسية بهيمية تدنس عرض صاحبها فيقول :

اما وهوى مـــن لا اسميـــه اننى	لعـــرضى كما قـال النصيح لناصح
أبعـد صيـامى واعتكـافى وخلوتى	يقال فـلان ضيـق الصدر بائـح
لبعت رشـــادى فيه بالغبن ضلـة	وكم صالح مثل غدا وهو طالح (13)

اما فى عهد ابى حمو الثانى فقد اشتهر من الادباء أبو عبد الله محمـــد بن يوسف القيسى الثغرى وأبو عبد الله بن أبى جمعة بن عـــلى التلاليسى وأبو زكريـــاء يحيى ابن خلدون .

وكان الثغرى كاتب السلطان وقد أشاد بمحاسن تلمسان فى قصائده التى مـــدح بها أبا حمو الثانى يقول فى احداها :

أيها الحافظـــون عهـــد الـــوداد	جـــددوا انسنـا بيـاب الجيـــاد
وصـلوهـا اصـائـــلا بليـــال	عـــلآل نظمـن فى الاجيـــاد
فى ريـــاض منضـــدات المجـــانى	بـين تلـك الربا وتلـك الوهـاد
وبـــروج مشيـــدات المبـــانى	باديـــات السـنى كشهـب بـواد

ثم بعد أبيات عذبة رقيقة يبدى اعجابه بجمال تلمسان فيراه فوق كل جمال فيقول :

كل حســـن عـلى تلمسان وقـف	وخصـوصا عـــلى ربى العبـــاد
ضحـــك النـــور فى رباها واربى	كهف ضحاكهـا عـــلى كـل نـاد
وسمـــا تاجهـا عـلى كـل تـاج	ونمـا وهـــدهـا عـــلى كـــل واد
يدعى غـيرهـــا الجمـــال فيقـضى	حسنهـــا ان تلـــك دعـــوى زياد
وبشعـــرى فهمت معنى عـلاهـا	من حـــلاها فهمت فى كـــل واد
حضرة زانهـــا الخليفـــة مـوسى	زينـــة الحلى عاطـــل الاجيـــاد

(13) نفح الطيب 9/338 – 339 .

ويقول فى قصيدة أخرى متعرضا فيها لمتنزهاتها الفاتنة فى أوقات من النهار مختلفة :

تاهت تلمسان بدولته على	كل البلاد بحسن منظرها الجلى
راقت محاسنها ورق نسيمها	فحلا بها شعرى وطاب تغزلى
عرج بمنعرجات باب جيادها	وافتح بها باب الرجاء المقفل
ولتغد للعباد منها غدوة	تصبح هموم النفس عنك بمعزل
وضريح تاج العارفين شعيبها	زره هناك فحبذا ذاك الولى
فمزاره للدين والدنيا معا	تمحى ذنوبك أو كروبك تنجلى
وبكهفها الضحاك قف متنزها	تسرح نفوسك فى الجمال الاجمل
وتمش فى جناتها ورياضها	واجنح الى ذاك الجناح المخضل
تسليك فى دوحاتها وتلاعها	نغم البلابل واطراد الجدول
وبربوة العشاق سلوة عاشق	فتنت والحاظ الغزال الاكحل
بنواسم وبواسم من زهرها	تهديك انفاسا كعرف المندل
فلوآ مرؤ القيس بن حجر راءها	قد ما تسل عن معاهد ماسل
لو حام حول فنائها وظبائها	ما كان محتفلا بحومة حومل
فاذكر لها كلفى بسقط لوائها	فهواى عنها الدهر ليس بمنسل
كم جاد لى فيها الزمان بمطلب	جادته اخلاق الغمام المسبل
واعمد الى الصفصيف يوما ثانيا	وبه تسل وعنه دابا فاسال
واد تراه من الازاهر حاليا	احسن به عطلا وغير معطل
ينساب كالايم انسيابا دائما	او كالحسام جلاه كف الصيقل
فزلاله فى كل قلب قد حلا	وجماله فى كل عين قد حلى
واقصد بيوم ثالث فوارة	وبعذب منهلها المبارك فانهل
تجرى على در لجينا سائلا	احلى واعذب من رحيق سلسل
واشرف على الشرف الذى بازائها	لترى تلمسان العلية من عل
تاج عليه من المحاسن بهجة	احسن بتاج بالبهاء مكلل

واذا العشــية شمسـها مالت فمل نحـو المعـل ميلـة المتمهـل
وبملعب الخيل الفسـيح مجالـه اجل النواظر فى العتـاق الحفـل

ثم يصف خيل الحلبة كانه ينظر من طرف خفى الى قصيدة للبحترى بنفس الـروى والوزن يصف فيها أنواعا من الخيل ·

ثم يعود الثغرى الى وصف تلمسان فيقول :

فاذا دنت شمس الاصيـل لغربهـا فالى تلمسـان الاصيلـة فادخل
من باب ملعبهـا لبـاب حديدهـا متنزهـا فى كـل نـاد احفـل
وتان من بعـد الدخـول هنيهـة واعدل الى قـصر الامام الاعدل (14)

ثم يختم قصيدته بمدح أبى حمو الثانى الذى يشبهه بالخلفاء العباسيـين فى قوله :

بالعـادل المستنصر المنصـور والمامـون والمهـدى والمتوكـل

وهكذا نلاحظ فى هذه القصيدة الرائعة كيف كان الشاعر أحسن دليل فى اكتشاف متنزهات تلمسان فى الصباح وعند الغروب وكيف ينصحنا ان نقيم يوما كاملا بوادى الصفصيف ومثله بفوارتها ولا شك ان هذين المتنزهين من أحسن منازل الاحباب ·

واما ابو عبد الله محمد بن ابى جمعة الشهير بالتلاليسى الذى كان طبيبا يبدى مثـل الثغرى اعجابه الشديد بمحاسن تلمسان فيقول فى قصيدة يمدح فيها ابا حمو الثانى :

سقى الله من صوب الحيا هاطلا وبلا ربوع تلمسان التى قدرها استـعل
ربوع بها كان الشـباب مصاحـبى جررت الى اللذات فى دارها الذيـلا
فكم نلت فيها من امـان قصيـة وكم منح الدهر الضنين بها النيـلا
وكم غازلتنى الغيد فيهـا تلاعبـا وكل عذول لا اطيـع لـه قـولا
وكـم ليلة بتنـا عـلى رغم حاسـد ندير كؤوس الوصل اذ بالصفا تملا
وكم ليلة بتنا بصفصيفهـا الـذى تسـامى عل الانهـار اذ علم المثلا
وكدية عشـاق لها الحسـن ينتهى يعود المسـن الشيخ من حسنها طفلا

---

(14) نفح الطيب 9/332 – 334 ·

نعم وغدير الجوزة الســـالب الحجا   نعمت بها طفـلا وهمـت بها كهـــلا
ومنه ومن عـين اميحيى شرابنـــا   لانهما فى الطيب كالنيـــل بل احلى
وعبادهــا ما القلـب ناس ذمامـــه   به روضة للخـير قد جعلـــت حـلا
به شـيخنا المذكور فى الارض ذكره   أبو مدين أهـلا به دائمـا اهـــلا
لها بهجة تزرى عـلى كـــل بلـدة   بتاج عليهـا كالعـروس اذا تجـــلى
فيا جنـة الدنيـا التى راق حسنها   فحازت على كل البلاد بـــه الفضلا
ولا عجب ان كنت فى الحسن هكذا   وموسى الامام المرتضى فيك قد حلا (15)

نلاحظ تنويهه بالامكنة الطيبة التى ذكرها الثغرى ككدية العشاق والغدير والعباد وغيرها ، بل ينوه بحسن هذه الاماكن كل من وصف تلمسان من الشعراء ٠

واشتهر التلاليسى بموشحاته الحسان لانتشار الموشح فى عهده ولم يغفل عن ذكـــر تلمسان فيها وقد قال فى احداها :

بـــه تلمســـــان ذات الحســـــن   فيهـــا اشتهـت من منى وامـــن

بغداد شوقا لها تغنى :

اجـزت لنا مـــن ديـــار الخـــل   ريـح الصبا عافرات الذيـــل (16)

أجل ان أزهى عصر كان لتلمسان هو الذى تولى فيه زمام الحكم أبو حمو الثـــانى وقول الشاعر : « فيما اشتهت من منى وأمن » ٠ يشير لا محالة الى ان عهد هذا السلطان حظى بشىء من العز وازدهار اقتصادى ساعدا على نشر الحضارة فى ربوعها ٠

ونختم هذا المطاف بما أورده صاحب نفح الطيب نقلا عن بغية الرواد ليحيى بن خلدون فى وصف تلمسان بعد كلام على البربر يقول صاحب البغية : « ودار ملكهم وسط بـين الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسن كلمة مركبة من « تلم » ومعناه تجمع و «سن» ومعناه اثنان : أى الصحراء والتل فيما ذكره شيخنا العلامة أبو عبد الله الابلى رحمه الله

---

(15) نفح الطيب 336/9 ٠
(16) بغية الرواد 100/2 ٠

تعالىوكان حافظا بلسان القوم ويقال « تلمشان » وأيضا مركب من « تلم » ومعناه لها و « شان » أى لها شان وهى مدينة عريقة فى التمدن لدنة الهواء عذبة الماء كريمة المنبت اقتعدت بسفح جبل ودوين رأسه بسيط أطول من شرق الى غرب عروسا فوق منصة والشماريخ مشرفة عليها اشراف التاج على الجبين ويطل منها على فحص أفيح معد للفلاحة تشق ظهوره الاسلحة عن مثل اسنمة المهارى وتبقر فى بطونه عند تدميث الغمائم عن مثل بطون العذارى وبها للملك قصور زاهرات استملت على المصانع الفائقة والصروح الشاهقة والبساتين الرائقة مما زخرفت عروشه ونمقت غروسه ووسبت اطواله وعروضه فازرى بالخورنق وأخجل الرصافة وعبث بالسدير وتنصب اليها من عل أنهار من ماء غير آسن وتتجاذبه أيدى المذانب والاسراب المكفورة خلالها ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات بالقصور وعلية الدور والحمامات فيفعم الصهاريج وينهق الحياض ويسقى ريعه خارجها مغارس الشجر ومنابت الحب فهى التى سحرت الالباب رواء وأصبت النهى جمالا ووجد المادحون فيها المقال فأطالوا وأطابوا الى ان قال : فانا انشد ساكنها قول ابن خفاجة لاستحقاقها اياه عندى :

ما جنة الخلد الا فى منازلكم وهذه كنت لو خيرت اختار
لا تتقوا بعدها ان تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار (17)

والبيتان يعبران عن منتهى الافتتان الشديد بمحاسن تلمسان كما افتتن ابن خفاجة بالاندلس .

لم يغفل صاحب بغية الرواد عن اسباب هذا الازدهار الذى جعل من تلمسان جنة اذ قال بعد ما تقدم :

« وتوسطت قطرا ذا كور عديدة تعمرها امشاج البربر والعرب مريعة الجنبات منجبة للحيوان والنبات كريمة الفلاحة زاكية الاصابة فربما انتهت فى الروح الواحد منها الى

---

(17) وفى الديوان :

« ما جنة الخلد الا فى دياركم ولو تخيرت هذا كنت اختار
لا تختشوا بعد ذا ان تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار »

اربعمائة مد كبير » . (18)

هكذا نرى ان ازدهار الفلاحة بفضل حذق أهلها لها وحسن تصرفهم فيها يسر سبل الحضارة التى تظهر فى تانقهم فى تشييد القصـور والمصانـع والصروح حتى « أزرت بالخورنق وأخجلت الرصافة وعبثت بالسدير » ثم نلاحظ حذق صناعهم فى ايصال المياه الى المساجد والمدارس والسقايات بالقصور وعلية الدور والحمامات بالمذائب والاسراب المكفورة خلالها ثم استعمال هذه المياه فى سقى مغارس الشجر ومنابت الحب حتى سحرت الالباب وأصبت النهى جمالا .

والى نجاحهم فى الفلاحة وتربية المواشى نضيف ازدهار صناعاتهم اذ برزت عبقرية صناعها مثل ابن الفحام (19) الذى صنع ساعة عجيبة تدعى المنجانة وقد وصفها يحيى ابن خلدون فقال :

« وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه باعلاها ايكـة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويخاتله فيهما أرقم خارج من كوة بجذر الايكة صعدا وبصدرها أبواب مجوفة عدد ساعات الليل الزمانية يحاقب طرفيها بابان مجوفان أطول من الاولى واعرض فوق جميعها ودوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط استواء سير نظيره فى الفلك ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج فينقض من البابين الكبيرين عقابان بفى كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضى بها الى داخل الخزانة فيرن وينهش الارقم احد الفرخين فيصفر له ابوه فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة وتبرز منه جارية محتزمة كاظرف ما انت راء بيمناها اذبارة فيها اسم ساعتها منظوما ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لامير المؤمنين أيده اللـه » ثم يختم هذا الوصف بقوله : « حيل احكمت يد الهندسة وضعها وراض تدبير الخلافـة أعلى الله مقامه شماسها » . (20)

ان استتباب الامن وازدهار الفلاحة والصناعة رفعا شان حضارة تلمسـان التى هى

(18) نفح الطيب 9/340 – 341 .
(19) انظر « ابو حمو موسى الزيانى » للاستاذ حاجيات ص 181 .
(20) بغية الرواد 2/0 – 41 .

عريقة فى التمدن فزاداها رونقا وجعل الحياة فيها مستطابة حتى ينشد فيها صاحب « البغية » بيتى ابن خفاجة السالفى الذكر .

قيمة هذا الشعر :

كل هذه القطع التى أوردناها فى هذه العجالة تبين اتفاق اصحابها على الاعجاب بمحاسن تلمسان والافتتان بها وهذا الاتفاق يدل على اصالة حسنها وعمق تأثيره فى النفوس واعان على الاعتناء بالفنون الجميلة كالغناء والشعر والتأنق فى الملبس والمآكل لان أهلها متحضرون وحضارتهم عريقة فى القدم غير اننا نلمس فى عهد ابن حمو الثانى أثر المشرق والاندلس فى حضارتهم وهذا الاثر يبدو قويا فى الشعر الذى ابدى فيه اصحابه براعة وصنعة ومهارة فنية تجعل هذا الشعر لا يقل قيمة عما كان ينظم فى كل الاقطار الاسلامية فى الشرق والغرب ونلاحظ اهتماما واحدا بالصناعة اللفظية والمحسنات البديعية مع الميل الى الغلو والافراط فى المعانى وكثيرا ما يبدو ذلك فى مدح الملوك .

وهذه طريقة شائعة فى المحدثين شرقا وغربا وأدباء الجزائر سواء فى العهد الحمادى أو الزيانى متتبعون لحركة التطور فى الادب فى المشرق والاندلس حتى نستطيع أن نتحدث عن وحدة أدبية فى كل الاقطار العربية الاسلامية رغم انقسامها سياسيا اذ تنتهج انتهاجا واحدا فى الصناعة اللفظية والمحسنات البديعية التى افرط فيها أهل زمانهم .

اما الشعراء الذين لا يزالون يسيطرون على كل القرائح فهم أبو تمام والبحترى والمتنبى فان يكن فى عهد الحماديين يميل شعراؤه الى ابى تمام والمتنبى اذ الناس كانوا يفضلونهما على البحترى فى دراستهم الادبية فان شعراء العهد الزيانى قد ضموا اليهما البحترى فحظى عندهم بعناية كبيرة .

وهكذا يتخذ الشعراء ابا تمام والمتنبى مثالين ينسجون على منوالهما كلما أرادوا التعبير عن معانى القوة والحزم وضبط الامور وسلوك الجد فى الحياة كما فعل أبو حمو الثانى فى شعره واذا جنحوا الى اللذة وأخذ حظهم من متع الحياة استوحوا شعرهم من شعر البحترى كما صنع الثغرى فى وصفه لمحاسن تلمسان .

وهكذا لاحظنا هذين الاتجاهين عندما قدمنا تلك القطع التى نظمها اصحابها فى تلمسان فكان شعر المتاعيين عذبا رقيقا وكان شعر أهل الحزم والجد فخما متينا .

تلمسان
موطن السحر والشعر

جلول بدوى
استاذ

مر على هذه المدينة التاريخية زمان ازدهرت فيه الحياة الأدبية والعلمية ازدهارا جعلها تتربع على عرش القلوب ففاضت ألسنة الشعراء والبلغاء بالبديع من القول فى وصفها ، وفى الاشادة بما حوته من خصائص وامتيازات انفردت ببعضها وشاركت غيرها فيما بقى من المحاسن • وهو أمر لا يكابر فيه مدرك ، ولا يستطيع أن يمارى فيه من شأنه المماراة ، سواء سمع عنها ، أو قرأ ما أثبته التاريخ فى شأنها أو رآها رأى العين •

وبذلك استطاعت تلمسان أن تنال حظا وافرا من الاهتمام والاعتناء ، فاحتفى بها الشعر ، وأشاد بمجدها النثر ، سواء كان ذلك من نسيج أهلها ، او من صنع أمثالهم ممن أدرك ما لها من سحر ، وما لأبنائها من أثر ومكانة فى العمران والسياسة أو فى مسالك العرفان • وما من شك فى أن الكاتب الذى يريد أن يتحدث عنها لا مناص له من أن يقف

حائرا مترددا فى اختيار الجانب الذى يخوض فيه ، اذ تلمسان هى تلمسان شواهـــد مدونة ، وتاريخ ناطق ·

واذا كان لى أن أسهم فى الكتابة عنها فالموضوع ما تميل اليه الرغبة وينجذب نحـــوه الطبع · وليس ثمة الاالمحيط الذى منظره ياسر القلوب ، ويدغدغ الوجدان ، وأعنى به محيط الشعر · فعنده نقف لنجمع باقات طالما عم أريجها الفواح أرجاء مدينة الجدار (1) فى عصور كان للشعر فيها مقام ، وما هذه الباقات الا نمادج من وحيها جرت على ألسنة شعراء فحول ·

ونحن الآن مع رجل طاع له الشعر ، وحلق فى سمائه ، فتصرف فيه كما أراد · شهد له لسان الدين ابن الخطيب ـ وناهيك ـ فقال عنه : « طبقة الوقت فى الشعر » · (2) وهو أبو عبد الله محمد بن عمر بن خميس الشاعر العالم الفيلسوف الحكيم التلمسانى(3) الذى بلغ منزلة بـين أقرانه كادت ترشحه لامتلاك صولجان الشعر لولا هيامه باقتناص الالفاظ التى تثقل على السمع وينبو عن استساغتها الذوق نظرا لوجوده فى بيئة صقلتها الحضارة وجلتها مفاتن الطبيعة الخلوب وطرزت حواشيها الرقة واللطف والظرف ·

ولعل عذر شاعرنا فى أنه أراد أن يتخذ ذلك الاسلوب ليتعب أقرانه فى اقتفاء أثره ، وينفرد وحده بالتحليق فوق أجوائهم ، ولا يخفى أن المعاصرة لها دخلها فى حياة الناس ، ولعل المحصول الوافر الذى كان يملكه من المفردات المانوسة والوحشية هو الذى جـره الى انتهاج ذلك المنهج · وما لنا نورد هذه الظنون وقد كفانا هو نفسه أمر التخمين والحيرة حـين يقول فى بعض قصائـده :

مـا ذاق طعــــم بـــلاغـــة   من ليس (للوحشى) ماضـــغ !

---

(1) يذهب بعض الناس الى أن الجدار المذكور فى سورة الكهف فى قصة نبى الله موسى مع الخضر هو فى تلمسان ؟ ! !

(2) كتاب عائد الصلة ·

(3) هو أبو عبد الله محمد بن عمر ·· بن خميس الحميرى الحجرى الرعينى التلمسانى ولد بتلمسان سنة (650هـ) وتوفى ضحوة يوم عيد الفطر قتيلا بغرناطة سنة (708) ·

وهذه ظاهرة ملحوظة عند من حرص على جمع الحجج ليثبت صحة ما يدعيه ، فقد كان ابن‌خميس يذهب فى نسبته الى شعب حمير باليمن · والانتساب الى قوم ما يحتاج بديهة الى وثيقة يدلى بها المنتسب ليثبت صحة مدعاه · وما ثمة الا اتخاذ الاغراب وسيلة لذلك عند صاحبنا فهو عندما يريد التعبير عن أصله ونسبته يمعن فى استعمال الغريب فى تعابيره وخاصة فى القوافى ·

وأيا ما كان الامر فهو شاعر عظيم « يجرى ولا يجرى معه » فى سمو المعنى ، واحكام المبنى ، وجمال التعبير ، ومن حقه أن يدرس شعره دراسة تكشف عن أسراره ، وتهدى الى مواطن الجمال فيه ، وفى النية أن أفعل شيئا من ذلك ان يسر الله · لأنى هنا معنى بعرض ازهار من الشعر الذى أوحاه محيط تلمسان ، وجادت به قرائح بعض شعرائها بمناسبة انعقاد الملتقى الاسلامى التاسع بها · ومن أحق بالصدارة فى هذا العرض غير روائع شاعرنا الكبير ابن خميس ·

قال رحمه الله يتشوق الى مدينته تلمسان ويحن الى رؤياها فى دار غربته · والقصيدة طويلة نقتصر على ما أخترناه منها :

سل الريح ان لم تسعد السفن أنواء	فعند صباها من تلمسان أنباء
وفى خفقان البرق منها اشارة	اليك بما تنمى اليك وايماء
وانى لأصبو للصبا كلما سرت	وللنجم مهما كان للنجم اصباء
واهدى اليها كل يوم تحية	وفى رد اهداء التحية اهداء
وكم قائل تفنى غراما بحبها	وقد أخلقت منها ملاء وأملاء
لعشرة أعوام عليها تجرمت	اذا ما مضى قيظ بها جاء اهراء (4)

ثم يمضى فى التحسر على ما نالها من حصار بنى مرين طيلة تلك المدة الى أن يقول :

فيا منزلا نال الردى منه ما اشتهى	ترى هل لعمر الأنس بعدك انساء ؟
وهل لى زمان أرتجى فيه عودة	اليك ووجه البشر أزهر وضاء

(4) الشتاء البارد ·

فواحربا لى ان هلكت ولــم أقــل لصحبى بها الغر الكرام ألاهاوًا (5)

ويا دارى الأولى بدرب حـــلاوة وقد جد عيث فى بلاها وارداء (6)

أحن لها ما أطـــت النيب حولهــا وما عاقها عن مورد الماء اظماء (7)

وهو دائم الحنــين الى مدينته يذكرها ويهتم ببعض المغانى بها · وهذه مختارات مـــن قصيدة أخرى أودع فيها شؤنه وشجونه فى مهارة واقتدار فقد قال :

تلمسان جادتك السحاب الدوالــح وأرست بواديك الرياح اللواقح(×)

وسح عــلى ساحـــات باب جيادها ملــث يصافى تربهاويصافـــح (8)

لساقية الــرومى عنـــدى مزيـــة وان رغمت تلــك الروابى الرواشح

فكم لى عليها مـــــن غدو وروحـــة تساعدنى فيهـــا المنى والمنـــائح (9)

فطرفى على تلــك البساتين سارح وطرفى على تلك الميادين جامح (10)

تحاربهـــا الأذهــــان وهى ثـــواقب وتهفـــو بهـــا الأفكار وهى رواجـــح

وتقتلهم فيهـــا عيــــون نـــواظـــر وتبكيهـــم منهـــا عيـــون نواضـــح

وفيها يقول متعرضا لوصف شلال الوريط الشهير :

وان أنس لا أنس (الوريط) ووقفة أنافــح فيها روضه وأنـــاوح (11)

(5) راجع المنتخب النفيس لعبد الوهاب بن منصور ، ص : 62 · وهاؤوا معناها خذوا ·

(6) درب حلاوة أحد دروب تلمسان ·

(7) النيب النياق المسنة · وأطت حنت ·

(8) هذا الباب باق الى يوم الناس هذا ·

(9) لعله يزيد هنا النياق ·

(10) الطرف الاول معروف · والثانى الفرس ، وهو بكسر الطاء ·

(11) الوريط شلال أو شلالات ، وهو منتزه أهل تلمسان ، والكلمة قديمة لعلها مـــن الدخيـــل ·

(*) المنتخب ، ص : 85 ·

مطلا على ذاك الغديـــر وقــد بدت	لانسان عينى مـــن صفــاه صفائح
لئن كنــت مــلآنا بدمعى طافحــا	فانى سكــران بحبــك طــافــح
أماؤك أم عينى عشيـــة صـــدقت	عليـــة فينا ما يقــول المكاشــح ؟
وان كان مهـرى فى تلاعـك سانحا	فذاك غـــزالى فى عبابك سابـــح !
فراح غدا ينصب من فوق شــاهق	بمثـــل حــلاه تستحث القـــرائح
أرق من الشــوق الــذى أنا كاتـــم	وأصفى من الدمع الذى أنا سافح (12)

ومن مستجاد شعره أبيات خمسة عاد فيها يشكو ويتشوق ، وقد اخترناها من قصيدة له قال رحمه اللـــه :

أخــى وسمى أصـــخ مسمعـــا	لشجــو حزيــن اليـــك استراحا
فقـــد جب ظهرى عـــلى ضعفـــه	كداما وأدهى شــــواتى نطـاحـا
وطـــوح بى عـــن تلمســان ما	ظننــت فــراقى لهــا أن يتـــاحـا
واعجـــل ســيرى عنهـــا فلـــم	يـــدعنى أودع تلــك البطـاحـا
نـــأى بصـــديقــك عـــن ربعـــه	فكان له النـأى موتا صراحـا (13)

أما عن ولعه بالافتخار بنسبه والاشادة بقومه فانت واجده شائعا فى مواطن من نظمه وهو الذى يقول :

انا بنى قحطان لـــم نخلــق لغيــ	ـــر غيــاث ملهـــوف ومنعــة لاجى
بسيوفنا البيــض اليمانيــة التـــى	طبعــت لحـــز غــلاصـــم ووداج
·· وكفى بحجتنا اقامـــة حجـــة	وبــركننا مــن كعبــة الحجاج (14)
ولنا مفاخــر فى القديــم شهـــيرة	كالصبــح فى وضـــح وفى ابــلاج
منــا التبابعـــة الذيـــن بباهـــم	كانــت تنيــخ جبــاه كــل خــراج

(12) المنتخب ص : 87 ·

(13) الكتاب المذكور ص: 93 ·

(14) يعنى الركن اليمانى من الكعبة المشرفة ·

.. من يقتدح زندا فان زنادهم   فى الجود وارية بلا اخراج
أبوابهم مفتوحة لضيوفهم   أبدا بلا قفل ولا مزلاج (15)

ويبدو أن الشاعر كانت له وقفات غرامية عند شلالات الوريط الساحرة نستشفها من لمح اللواعج التى كانت تتاجج فى صدره فينفثها شعرا يجرى على هذا النحو :

اما وهوى من لا أسميه اننى   لعرضى كما قال النصيح المناصح
أبعد صيامى واعتكافى وخلوتى   يقال فلان ضيق الصدر بائح
لبعت رشادى فيه بالغى ضلة   وكم صالح مثلى غدا وهو طالح (16)

هذه بعض عينات من شعر ابن خميس نقف عندها لنتجاوزه الى شاعر تلمسانى آخر ليس من نمط صاحبنا الذى عرفناه فى قوته وجزالته فقد اتخذ هذا أسلوبا طبع على السلاسة والاشراق ، يستعذبه قارىء شعره وينساق معه فى طرب وانتشاء الى النهاية ، هذا الشاعر هو محمد بن يوسف الثغرى التلمسانى (12) الذى حوى من العلوم والفنون ما حوى ، ثم استطاع أن يرتقى فى القريض الى درجة كان فيها من أنبه شعراء وقته ، وفى آثاره التى سمح الزمان بها شاهد على ذلك .

فلننظر الى ما يقول فى قصيدة شائقة وصف فيها بلاده الحبيب وصفا يأتى على مجامع القلوب ، وأودعها عبارات راقصة جاءت على طراز منمنم أخاذ . وقد استهلها بهذا المطلع :

أيها الحافظون عهد الوداد   جددوا عهدنا بباب الجياد (18)

ومضى يقول :

وصلوها أصائلا بليال   كلآل نظمن فى الأجياد
فى رياض منضدات المجانى   بين تلك الربى وتلك الوهاد

(15) المنتخب ص : 84 .

(16) القصيدة بكاملها فى المنتخب ص : 85 .

(17) أحد علماء تلمسان وكتابها وشعراؤها فى القرن الثامن الهجرى . انقطع الى خدمة أبى حمو الثانى ، ويجهل تاريخ ولادته ووفاته !

(18) أحد الابواب الباقية الى الآن من سور المدينة .

٠٠رق فيها النسيم مثل نسيبي | وصفا النهر مثل صفو ودادي
وزها الزهر والغصون تثنت | وتغنت عليه ورق سوادي
وانبرى كل جدول كحسام | عاري الغمد ، سندسي النجاد
وظلال الغصون تكتب فيه | أحرفا سطرت بغير مداد
تذكر الوشم في معاصم خود | قضب فوقه ذوات امتداد
٠٠ واصفرار الأصيل فيها مدام | وصفير الطيور نغمة شادي
رقت الشمس في عشاياه حتى | أحدثت منه رقة في الجماد

ويمضي هكذا مبدعا الى أن يقف وقفة يتحول فيها الى بث شجونه وتباريحه متوجها بالخطاب الى سائل المزن الذي لا يكاد يقلع عن تلك الربوع وكأنه الام الرؤوم حين يدعوها الأمر الى تفقد طفلها الفينة بعد الفينة انسياقا مع داعي الحنان والعطف ، فيقول :

يا حيا المزن حيها من بلاد | غرس الحب غرسها في فؤادي
وتعاهد معاهد الأنس منها | وعهود الصبا بصوب العهاد
حيث مغنى الهوى وملهى الغواني | ومراد المنى ، ونيل المراد

ولا تزال به شدة الاعجاب بمدينته فيدعي أنها انفردت وحدها بروائع الجمال وبدائع الحسن ، ولم تشأ أن تترك شيئا من ذلك لغيرها فلنستمع الى ما يقول :

كل حسن على تلمسان وقف | (وهو زاه) (19) على ربى العباد
ضحك النور في رباها وأربى | كهف ضحاكها على كل نادي
٠٠ يدعي غيرها الجمال فيقضي | حسنها أن تلك دعوى (زياد) (20)

---

(19) كان محل هذه العبارة في الاصل : (وخصوصا) ، وهي ليست من التعابير الشعرية، اذ هي داخلة في تعابير الفقهاء فحولناها الى ما ترى ٠

(20) يشير الى زياد ابن أبيه الذي الحقه معاوية الخليفة بنسبه ، وجعله أخا له من أبيه أبي سفيان ، ومن ثم أصبح يدعى زياد بن أبي سفيان لغرض سياسي دعت اليه الحاجة ، وقد فضحته كلمه عمر بن الخطاب حين قال : لو كان هذا الغلام من قريش لساق الناس بعصاه ٠ لانه كان أحد دهاة العرب ٠

ويحلو للثغرى ألا ينسى فى هذا الجو المراح ملكه الزيانى أبا حمو موسى الثانى فيبدى التفاتة يمدحه فيها ويذكر أياديه :

...حضرة زانها الخليفة موسى (21)	زينـــة الحـــلى عاطـــر الأجيـــاد
ملك جـاوز المـــدى فى المعـــالى	فالنهايـــات عنـــده كالمبـــادى
.. كلما ضنـت السحائـب أغنـت	راحتـــاه عـــن السحاب الغوادى !
.. يا امام الهـــدى وشمـس المعالى	وغمـام الندى وبـــدر النـــوادى
لـــك بـــين الملـــوك سر خـــفى	ليـس معناه للعقـول ببـادى ...

وليت شعرى ما هو هذا السر الذى لا تدركه العقول ؟ !

على أن افتتان الثغرى بحب تلمسان جعله يهيم بذكرها ويتفنن فى وصفها ، فقد قال من قصيدة أخرى :

تاهت تلمســـان بحسن شبابهـا	وبـدا طـــراز الحســن فى جلبابها
فالبشر يبـــدو مـن حبـاب ثغورها	متبسمـا ، او مـــن ثغور حبابهـا
قد قابلـت زهر النجـوم بزهرهـا	وبروجها ببروجها وقبابهـا ..(22)

وهنا نجد أنفسنا الى توديع شاعرنا الثغرى ، فان لنا شأنا مع شاعر غيره كان لـــه مثل صاحبه ولوع بمدينته ، وأنتج ما أنتج من الشعر فيها ، واسمه : أبو زكرياء يحيى بن خلدون (23) ، صنو المؤرخ عبد الرحمن ، نختار له أبياتا من قصيدة حافلة ألقاهـــا بين يدى مخدومه السلطان أبى حمو ، بمناسبة ذكرى المولد النبوى ، وكم كان لهـــذه الذكرى من شأن فى ذلك البلاط ، فقد كان صاحبه يقيم الحفلات الرائعة فى كل سنـــة حبا وتمجيدا لرسول (ص) . وأول القصيدة :

---

(21) يأتى التعريف به .

(22) راجع (نحلة اللبيب) ، وانظر (أزهار الرياض) ج : 2 ص : 329 و 333 .

(23) كاتب أديب وشاعر بارع ، تولى الكتابة لابى حمو ، ومن أجله ألف كتاب (بغيـة الرواد فى ذكر ملوك بنى عبد الواد) . توفى قتيلا اثر خروجه من (المشور) فى ليلة مـن ليالى رمضان سنة (780) هـ .

ما عـــلى الصب فى الهوى من جناح	أن يرى خلـف عبـرة وافتضـــاح
واذا ما المحـب عيـل اصطبـــارا	كيف يصـغى الى نصيحـة لا حى ؟
.. عاده بالطلـــول للشـوق عيد	من حمـــام بدوحهـــن صــداح
وليـــال قضيـــت للهــو فيـــها	وطـرا والشبـــاب ضـافى الجناح
(كيف أصحو وذى تلمسان تسبى	مـــن أتاهـــا بحسنها اللمـــاح ،
(قد زهتَ بالعظيـــم مـن آل زيا	ن وتاهت على المغانى الصباح ، (24)
مفخـر الملـــك مستقـــر المـزايـا	مظهر اللطف ذى التقى والصلاح ...

وليحيى هذا نتف شعرية لطيفة نظمها برغبة من السلطان ، وذلك عندما قدمت لـــه الساعة العجيبة أو (المنجانة) التى اخترعها وأحكم صنعها المهندس التلمسانى عـــلى ابن الفحام فيها أبواب على عدد ساعات الليل (25) كل باب يختص باحدى الســـاعات وينفتح عند انقضائها وتبرز منه جارية تحمل فى يدها رقعة الشعر الذى ينص على تعيين

(24) البيتان من عندنا زدناهما فى محل المحو الذى لم نتبينه ، وراعنا فيهما النســق .

(25) ذكرها المقرى فى (أزهار الرياض) فقال : أخترع أحد عباقرة تلمسان وهـــو على بن الفحام آلة لضبط الوقت على نمط مدهشر سنة (760هـ) وعرفت بالمنجانة ، قـال واصفها : « وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه ـ أبى حمـو ـ بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ، ويخاتله فيها أرقم خارج من كوة بجـــذر الأيكة صعدا ، وبصدرها أبواب مرتجة بعدد الساعات الزمانية ، يصاقب طرفيها بابـــان مجرفان . وفوق جميعها دوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظـيره من الفلك ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عقابان ، بفى كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من صفر مجوف ، بوسطه ثقب يفضى بها الى داخل الخزانة فيرن ، ويريد الارقم أن ينهش أحد الفرخين فيصفر له أبوه ، فهناك يفتح باب الساعة الذاهبية وتبرز منه جارية محتزمة كاظرف ما أنت راء . بيمناها اضبارة فيها اسم ساعتهـا منظوما ، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة ، فتضعها بين يدى السلطان بلطافة . حيل أحكمت يد الهندسة وضعها .

عن أزهار الرياض بتصرف ج 1 ص : 238 ــ 239 نقلا عــن كتاب (الــدر والعقيــان) للتنسى .

الساعة المنقضية ، وتتقدم بها لتضعها بين يدى أبى حمو ، ثم تختفى وهكذا ٠٠ قال عن الساعة الاولى :

أمولى الملوك واعلى الأمم ومن جوده العالم الكل عم
مضت (ساعة) ليت لو تنثنى فان الحياة بكم تغتنم

وعن الثانية :

أخليفة الرحمن والملك الذى تعنو لعز علاه أملاك البشر
٠٠ الليل منه (ساعتان) قد انقضت تثنى عليك ثنا الرياض على المطر

وعن الثالثة :

امولاى يابن الملوك الأولى لهم فى المعالى سنى الرتب
توالت (ثلاث) من الليل أبقت لك الفخر فى عجمها والعرب

وعن الرابعة :

يا واحدا فى المعالى ومالك الفضل أجمع
مولاى دمت عليا مضت لليلك (أربع)

وعن الخامسة :

يا أمير المسلمينا وجمال العالمينا
قد مضت لليل (خمس) حسنها راق العيونا
وانقضى النصف فآه هكذا تمضى السنونا

وعن السادسة :

يا ماجدا وهو فرد تخاله فى عساكر
(ست) من الليل ولت ما ان لها من نظائر

وعن السابعة :

يا من له الفخر طبع والفضل فيه سجيه
مرت من الليل (سبع) ما ان لها مثنويه

وعن الثامنة وقد بالغ :

يا أكـــرم الخلـــق ذاتـــا	وأشرف النـــاس أســـره
مـــرت (ثمـــان) وأبقـــت	فى القلـــب مـــنى حســـره

وعن التاسعة وفيها افراط :

يا أوحد الناس فى مجـــد وفى شرف	وأفضـــل الخلق فى باس وفى كـــرم
مولاى (تاسعة) الساعات قد ذهبت	والليل من بعدها قـــد عاد ذا هـــرم

وعن العاشرة :

.. هذا الصباح وقد لاحت بشائـــره	والليـــل ودعنـــا توديـــع مرتحـــل
لله (عشر) مـــن الساعات باهـــرة	مضـــين لا عـــن قـــلى منـــا ولا ملـــل

وكذلك كان يحيى ابن خلدون مع ولى نعمته الذى يجب أن ننظمه فى سلك من ذكر من الشعراء ، اذ هو لا يقل عنهم شأنا ولا نباهة فى ميدانهم الرحب . فالســـلطان أبو حمو موسى الثاني (26) زاحمهم فى هذه الصناعة ولم تصرفه مشاغل الملك عن مجاراتهم ، فهو

(26) لا يفوتنا أن نذكر عن هذا الملك الهمام أنه كان يعين أهل الاندلس فى حروبهم مع الاسبان بالسفن المشحونة بالطعام واللحم ويغدق عليهم المبالغ الضخمة من الذهب والفضة . وهو صنيع أطلق السنة الشعراء بالثناء على أريحته ونجدته ، كان فى طليعتهم وزيرهـــم لسان الدين بن الخطيب الذى مدحه بقصيدة سينية أطال فيها النفس طالعها :

أطلعن فى ســـدف الفروع شموســـا	ضحك الظلام لهـــا وكان عبوســـا

وفيها يقـــول :

قل للزمان اليـــك مـــن متذمـــم	بضمان عـــز لـــم يكن بتخيســـا
واذا طـــغى فرعونـــه فأنا الـــذى	مـــن ضره وأذاه عـــذت (بموسى)
بحمى (أبى حمو) حططت ركائبى	لمـــا اختبـــرت الليث والعـــريســـا
أعـــلى بنى زيان والفـــذ الـــذى	لبس الكمـــال فـــزين الملبوســـا
.. خذها عـــلى النـــوى سينيـــة	ترضى الطبـــاق ، وتذكـــر التجنيسا
قصـــدت سلميان الزمان وقاربـــت	فى الخطو تحسب نفسهـــا بلقيســـا

(أزهار الرياض ج 1 ص : 244)

شاعر مطبوع يجرى القريض على لسانه متى أراد ، لكننا نلاحظ على ما وصل الينا من انتاجه خلوه من التغنى بجمال عاصمة سلطانه ، فما عثرنا له على أثر واحد وصف فيه جمال تلمسان وجلالها . ونستبعد أن يخلو شعره من ذلك والمدينة كما قلنا « موطن الشعر والسحر » . نعجب لهذا ونرجو أن يكشف الزمان عما عسى أن يكون طواه ، فقد عودنا بالسماح بعد الجماح ، ومعنا الآن قصيدة القاها ليلة الاحتفال بالمولد النبوى نختار منها هذه الأبيات :

قفا بين ارجاء القباب وبالحى	وحى ديارا للحبيب بها ، حى
وبث لهم وجدى وفرط صبابتى	ورو حديثى فهو أغرب مروى
يعذبنى شوقى ويضعفنى الهوى	وقد صبغت فى حبهم لون عودى (؟)
احبة قلبى ما أمر فراقكم	على قلب صب لا يطيق على شى
حياتى وموتى فى هواكم واننى	أعلل نفسى فيكم بالأمانى
..فيا اهل نجد انجدونى على الهوى	فانى فى بحر من الشوق لجى
مقيم بأقصى الغرب(27) أشكو به الجوى	وحالى على حكم النوى غير مخفى

ولا يزال مستمرا على هذا النحو الى ان يقول فى الأخير :

وما أرتجى الا شفاعة خير من	اتى بالهدى يهدى لدين حنيفى
به يرتجى العاصون غفران ذنبهم	وما عملوا فى الدهن من عمل سى
.. عليه سلام الله ما حن شيق	الى قبره يطوى الفلا أيما طى (28)

اما وقد قدمنا للقارىء عدة ألوان من الأدب التلمسانى نريد أن نختم مقالنا بلون آخر كانت له سوق رائجة فى عهد من عهود الدولة الزيانية أيام أبى حمو الثانى . ويتجلى

(27) أقصى الغرب عنده تلمسان وقد أفصح عن اسمها فى قوله من قصيدة :
(جسمى بتلمسان دنف والقلب رهين بالحرم)

(28) تراجع صفحة : 345 ، من كتاب (أبو حمو موسى الزيانى) لصديقنا الاستاذ عبد الحميد حاجيات .

هذا اللون فى أحد الموشحات التى جارى فيها التلمسانيون وشاحى الاندلس الذين كان لهم فضل السبق ـ فيما يرجع ـ الى هذا الفن الجديد الذى نهض بالغناء العربى ، وكان له عميق الأثر فى تطوير طرائق النغم فى المغرب والمشرق ، لخفتها على السمع ، واستحواذها على الألباب • ومن بين الذين تعاطوها فى عاصمة بنى زيان أبو عبد الله محمد بن أبى جمعة الشهير بالتلاليسى (29) فقد تقدم الى بلاط أبى حمو بموشح ألقاه فى مهرجان ليلة المولد سنة (767) للهجرة ، وهو هذا :

لى مدمع هتان	ينهل مثل الدرر
قد صير الأجفان	ما ان لها من أثر
حق له يجرى	دما على طول الدوام
مذ جد فى السير	ناس (30) الى خير الأنام
وعاقنى وزرى	يا صاح عن ذاك المقام
وسارت الأضعان	يحدى بها فى السحر
فاستبشر الركبان	بقرب نيل الوطر
يا حادى الركب	بالله ان جئت البقيع
تحية الصب	بلغ الى الهادى الشفيع
غربت (بالغرب)	عن ذلك المغنى الرفيع
وليس لى امكان	ينهضنى للسفر
الا من السلطان	الملك المظفر
من لم يزل يسمو	الى المعالى كل حين

(29) لم نعثر له فيما لدينا من المصادر على ترجمة بعد أن أنفقنا جهدا فى التنقيب عن ذلك ، ويغلب على الظن أنه بقى حيا بعد سنة (767هـ) •

(30) متوجه فى مضاء •

ذاك أبــو حمـــو	المـــولى أمـــير المسلمـــين
طــاعتـــه غنـــم	نلنـــا بهـــا دنيـــا وديـــن

الى أن يقول :

تاهـت (تلمســان)	بملكـــه عـــلى البـــلاد
صـــار لهـــا شـــان	وسعـــدهـــا حلـــف ازديـــاد
قـــد ظـــل انســـان	قـــال (31) بها يشكـــو السهـــاد
ليـــل الهـــوى يقظـــان	والحب تـــرب السهـــر
والصبـــر لى خـــوان	والنوم عن عينى برى (32)

وبعد : فان الحديث عن تلمسان التاريخية ، وعن سوق الشعر فيها لا يكفى فيه هذا العرض السريع ، ونحن لم نتناول جميع العصور التى مر فيها ، وانما اتجهنا الى عصر معين ذكرنا فيه بعض شعرائه البارزين ، كما يلاحظه القارىء الكريم ، ونحسب أننـا هنا جلونا صفحة من كتاب كاد يمحوها القدم ، وقديما قيـــل : يكفى من القلادة ما أحاط بالعنق ، وتحيتنا العطرة تفادى ربوع تلمسان وتراوحها ٠

(31) من القيلولة فى نصف النهار ٠

(32) توجد هذه الموشحة بكاملها فى (أزهار الرياض) ج : 1 ص : 242 — 243 ٠

المصـــادر

ـ المنتخب النفيس ، لعبد الوهاب بن منصـــور ٠

ـ نحلة اللبيب ، لابن عمار الجزائرى ٠

ـ ازهار الرياض للمقرى ٠

ـ أبو حمو موسى الثانى الزيانى ، للاستاذ عبد الحميد حاجيات ٠

POUR UN VERITABLE ENSEIGNEMENT DE LA MUSIQUE CLASSIQUE UNIVERSELLE EN ALGERIE

Préface de M. Mouloud-Kassim NAIT BELKACEM,
Ministre de l'Enseignement Originel
et des Affaires Religieuses

Nous sommes heureux de présenter aujourd'hui à nos lecteurs, et plus spécialement aux étudiants, ce petit livre sur l'enseignement des notions fondamentales de la musique classique universelle, dû à la plume du Dr Hakim BENATIA, Directeur du Conservatoire Municipal d'Alger. Bilingue - arabe et français - , cet ouvrage constitue, à notre connaissance, le premier essai dans ce domaine en Algérie.

Il est temps, en effet, d'enseigner cette musique à notre jeunesse, dans les écoles et dans la langue qui lui est propre. C'est ce que nous avons entrepris effectivement dans certains lycées d'Enseignement Originel, et la généralisation de la programmation de cette matière dans l'ensemble de ces établissements est fonction uniquement de la disponibilité de professeurs qualifiés et en nombre suffisant.

Nous pensons que cet ouvrage, qui vient à son heure, contribuera dans une large mesure à vulgariser cette discipline et qu'il lui permettra de remplir le rôle que nous en attendons, à savoir éduquer le goût, affiner la sensibilité et assainir les mœurs.

Car, tout en réjouissant l'âme et l'esprit, cette musique développe la sensibilité, forme le goût et peut même devenir une thérapeutique médicale d'une efficacité éprouvée.

C'est ainsi que des hôpitaux et des cliniques dans certains pays avancés y ont de plus en plus recours dans le traitement d'un certain nombre d'affections aussi bien physiques que psychiques, en vertu des données les plus récentes de la médecine,

selon lesquelles des troubles que l'on croyait jusqu'ici d'ordre exclusivement physiologique relèvent en réalité du domaine psycho-somatique et sont susceptibles d'être résorbés grâce à une thérapie musicale appropriée. Cette méthode est notamment appliquée, en ce qui concerne l'Europe, dans des établissements de soins en Autriche, en République Fédérale d'Allemagne et en République Démocratique Allemande (1).

Il ne s'agit pas, au reste, de cette musique dissolvante ni excitante, ni de cet autre genre favorisant le relâchement moral, telles les rengaines qui chantent le vin et les plaisirs et vont même parfois jusqu'à faire l'apologie de penchants morbides et anormaux plus graves, tels l'éloge et la description de mignons, (taille, hanches, bouche, joues...) en utilisant un vocabulaire du même niveau, c'est-à-dire écœurant et cynique. Témoins ces fadeurs ridicules qui ont précipité la perte de l'Andalousie et engendré la dissolution des mœurs dans certains milieux prétendus "élevés", du moins au regard des naifs et des imitateurs.

Pour ses initiés, la musique classique universelle est, dans sa majeure partie, une musique éducative pour les facultés mentales. Elle élève l'âme et l'esprit et renforce les vertus morales supérieures, aux niveaux individuel et national, voire universel.

Quelques exemples suffiront à nous en convaincre : dans les moments les plus sombres de la résistance russe dans Stalingrad assiégée par les armées allemandes, lors de la dernière guerre mondiale, l'orchestre philharmonique de cette cité jouait... la 9ème Symphonie de l'allemand Beethoven, cette œuvre du compositeur génial qui illustre la capacité de l'être humain à surmonter les pires difficultés, et exalte pour ainsi dire l' "humanité" de l'homme !

Si nous voulons bien avoir à l'esprit ce que Beethoven a noté dans ses mémoires pendant qu'il composait sa symphonie immortelle, sous les encouragements de son ami le célèbre poète révolutionnaire Schiller : «Ah, quelle misère ! Je meurs de faim et je n'ai pas goûté la saveur du pain depuis six jours !», nous comprendrons mieux dans quels sommets spirituels il évoluait alors, contemplant de haut, avec un suprême détachement, les souffrances matérielles et contingentes dont les pentes glissantes ne sauraient attirer vers les abîmes l'âme hautaine qui aspire à transcender la matière sourde et aveugle !

---

(1) W. J. Revers, G. Harrer, W. C. M. Simon : "Neue Wege der Musiktherapie. Grundzuege einer alten und neuen Heilmethode". Il conviendrait de rappeler ici que cette méthode n'est nullement d'aujourd'hui, mais qu'un certain Errazi (Rasès) l'avait bien inventée et appliquée il y a un peu plus d'un millénaire.

N'est-ce pas Beethoven qui a écrit : "La musique est une inspiration plus élevée que toute philosophie, et plus profonde que toute sagesse. Celui à qui s'ouvre ma musique se libère de toutes les misères qui accablent les autres" ? (1).

C'est le même Beethoven qui répétait souvent ces paroles de son maître spirituel, le philosophe Kant :

"Il y a deux choses qui sont ce qu'il y a de plus grand dans la création : le ciel scintillant de ses étoiles au-dessus de moi, et le code moral en moi !" "der bestirnte Himmel ueber mir und das moralische Gesetz in mir !". C'est Beethoven le révolutionnaire qui a dit dans un contexte historique, à l'adresse de l'Empereur Napoléon occupant alors sa ville natale, Bonn : "Vous n'êtes qu'un dictateur comme les autres, foulant aux pieds la liberté d'autrui".

Et ce fut pour Beethoven l'occasion de nous donner une des œuvres les plus admirables à la gloire de la liberté, qu'il a intitulée "Eroïca", l'héroïque : cri de guerre contre l'occupant et appel à la lutte libératrice, alors que le compositeur avait eu pour premier dessein de l'offrir à Napoléon lui-même. C'est également Beethoven qui, déclinant de nombreuses situations offertes par Jérôme Bonaparte, frère de l'Empereur et roi de Westphalie ; par le roi de Prusse ; l'Empereur d'Autriche et d'autres, alors qu'il était dans la misère, se contentait de dire invariablement : "Des princes, des rois, des patriciens et des césars... ont existé, existent et existeront. Quant à Beethoven, il n'y en a qu'un seul !".

Il réitérait à tout propos sa devise connue : "O, être humain, aime la liberté par dessus tout, et ne nie jamais la vérité, même pas devant des têtes couronnées".

C'est aussi Beethoven, l'homme moral, qui se refusait à suivre le courant de son époque en sacrifiant à la mode des opéras alors en vogue. Il n'a composé qu'une seule œuvre dans ce genre, sur un thème qui lui tenait à cœur — la fidélité conjugale — et dont le titre évocateur était "Fidelio". Ceci à une époque où faisait fureur ce nouveau genre propre à susciter le relâchement des mœurs et le déséquilibre moral de la société et où prédominait en général une musique légère et frivole invitant aux plaisirs, au libertinage et au non-conformisme. C'était en vérité une vague irresistible qui eut tôt fait de submerger l'ensemble de

---

(1) "Musik ist hoehere Offenbarung als alle Weisheit und Philosophie; wem meine Musik sich verstaendlich macht, der muss frei werden von allem Elend, womit sich die Andern schleppen".

V. a) Kurt Pahlen : Musikgeschichte der Welt
b) Beethovenfest - Bonn 1927
c) Romain Rolland : Beethoven.

l'Europe, et en particulier la ville de Vienne où prévalait une musique, certes très belle, mais extrêmement légère et licencieuse au regard de Beethoven, inflexible sur la morale et les bons principes. C'était le genre où excellaient la famille Strauss (qui veut dire en allemand autruche !), Lanner et surtout Rossini (la tête de hibou, comme l'appelait Beethoven !).

La musique de Beethoven était, au contraire, au service des valeurs morales supérieures. Elle défendait la liberté de l'homme et la dignité des peuples, contre la dictature et l'esclavage. Il en fut et est de même pour d'autres maîtres, tels Moussorgski en Russie, Smetana et Dvorak en Tchécoslovaquie, Chopin en Pologne, Zoltan Kodaly en Hongrie, Jonesco en Roumanie, Grieg en Norvège, Sibelius en Finlande, Villa-Lobos au Brésil, et d'autres compositeurs célèbres qui ont exprimé dans leur musique le combat de leurs peuples pour la liberté et la dignité, pour la sauvegarde de leur âme propre, de leur personnalité, de leur identité et de leur authenticité, en se basant sur la musique populaire de leur pays et en s'inspirant de son histoire, de ses joies et de ses peines. Leurs compositions n'en étaient pas moins des chefs-d'œuvre de l'art universel et impérissable qui est aujourd'hui un héritage commun de l'humanité entière.

Pour quelle raison resterions-nous, pour notre part, en retrait dans ce domaine, où nos ancêtres ont pourtant joué un si grand rôle ? Il nous suffira de citer Al Kindi, Al Farabi, Ibnou Sina qui ont été les premiers — alors que les Grecs n'y avaient pas pensé — à donner à la musique ses lettres de noblesse en codifiant pour la première fois ses règles, ce que reconnaissent au demeurant beaucoup de grands musicologues en Europe et en Amérique.

Etudions donc cette musique avec toute l'attention et tout le sérieux qu'elle mérite, et que se révèlent parmi notre jeunesse des talents qui l'interprêteront et qui composeront selon ses normes des œuvres immortalisant la lutte et les souffrances de notre peuple, ses espoirs et ses ambitions. Puisse aussi cet attrait que nous appelons de nos vœux embrasser la nation islamique dans son ensemble et qu'il suscite d'admirables fresques musicales pour notre enchantement et pour celui de l'humanité tout entière. Puissent nos jeunes nous donner des mélodies divines exprimant les valeurs morales, les nobles idéaux, la beauté et la grandeur de notre pays. Des mélodies qui nous changeront par leur style revigorisant et leur thématique sérieuse des rengaines endormantes et dissolvantes et des paroles licencieuses en honneur actuellement chez nous et que nous appelons improprement "la musique classique algérienne". Nous aimons, certes, certains airs de cette musique, mais nous sommes loin d'apprécier ses paroles qui ne sont trop souvent que condamnables !

Que notre jeunesse s'inspire de notre patrimoine et qu'elle donne à nos airs populaires le cachet de l'universalité, à l'instar de ce qu'ont réalisé les "Cinq en Russie" (1) au siècle passé et certains des auteurs déjà cités ici. Qu'elle suive le chemin tracé par notre oiseau rare, le regretté Mohamed Iguerbouchène, dont l'œuvre réussie est désormais reprise par le Dr Hakim Benatia (2). Que son effort et ses recherches soient, comme ceux de ses illustres devanciers et aînés, axés sur l'exaltation des vertus et des charmes de la nation et du pays ; qu'ils portent témoignage de l'histoire de notre peuple, de ses valeurs, de ses souffrances et de ses espoirs, mais qu'ils fassent en même temps la délectation de l'univers !

Il convient maintenant de conclure, car mes modestes propos ont sans doute débordé le cadre de cette préface. Mais ce n'est pas faute de désirer les prolonger davantage, bien au contraire, car j'aurais tant aimé m'étendre plus longuement — à dessein et pour répondre à une motivation impérieuse — particulièrement en ce qui concerne l'œuvre et le message de l'immortel Beethoven. Je terminerai donc cet appel à notre jeunesse en citant une nouvelle fois le mot que Beethoven nous a laissé en héritage et dont il avait fait sa devise :

"La musique est une inspiration plus élevée que toute philosophie, plus profonde que toute sagesse. Celui à qui s'ouvre ma musique se libère de toutes les misères qui accablent les autres !"

---

(1) Rimski - Korsakov, Moussorgski, Borodine, Caesar Cui et Mili Balakirev, le fondateur du groupe.

(2) Le T. N. A. a vécu tout récemment la première exécution de sa merveilleuse 1ère Symphonie intitulée "Le Millénaire d'Alger".

(No271

فهـــرس الـعـــــدد



جلسة الافتتاح :

الرئيس هوارى بومدين رئيس مجلس الثورة والحكومة يحضر جلسة الافتتاح مع عدد من أعضاء مجلس الثورة والحكومة ومستشاريه والسلطات المحلية ·

ويرى فى الصورة من اليمين الى اليسار السادة :

مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، محمد بن أحمد عبد الغانى عضو مجلس الثورة ووزير الداخلية ، والعقيد الشاذلى عضو مجلس الثورة وقائد الناحية العسكرية الثانية ·

أماتــزال بَــراقش.؟(1)

مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية



حضرات الاساتذة الافاضـــل

حضرات الســادة والسيدات

اخوتى الطلبــة والطالبات

اود أن أبدأ هذه الكلمة بما ختمنا به الملتقى الثامن فى بجاية ، وأرحب بالاساتذة الافاضل فى مدينة الورود والشقائق ، والجنان والحدائق ، مظنة الهواء والعيـــون ، ايغمراسن بن زيان ، فى تلمسان !

(1) كلمة افتتاح الملتقى التاسع للفكر الاسلامى المنعقد بتلمسان يوم 1 رجب 1395 هـ الموافق 10 يوليو 1975 م .

حضرات السـادة ،

نجتمع اليوم لنتدارس نقاطا ستا ، الاوليان فى صميم تاريخنا ، وتاريخ العـالم الاسلامى عموما ٠

1) احداهما مساهمة تلمسان الزيانية فى الحضارة والفكـر الاسلاميين والعالميين ـ أسباب ازدهارها وعوامل انهيارها ٠

2) وثانيهما موقف اسطنبول وباقى العالم الاسلامى من سقوط الاندلس وآخـر مسلميها وأمام الغزو الاوروبى للعالم الاسلامى عموما ٠

وواضح من عنوان النقطة الاولى اننا نود ان نستعرض ما ساهمت بـه عاصمـة ايغمراسن فى مجال الفكر والحضارة لا على صعيد الجزائر فحسب ، ولا المغرب الكبـير ، ولا حتى العالم الاسلامى على سعته ، ولكن أيضا على مستوى الحضارة والفكر العالميين ٠

فيكفينا ان نذكر ان احد اساطين الفكر على مستوى العالم الاسلامى ، والمؤسس الاول لعلم الاجتماع البشرى ، كما يقول هو نفسه بحق ، عبد الرحمن بـن خلدون ، درس يافعا فى هذه المدينة حسبما يذكره ويفصله هو فى حياته التى كتبها بنفسـه ، وكانت منهله الاول الذى أصبح به فيما بعد ما اصبح ، حتى أسس قواعد علم الاجتماع البشرى قبل آوغست كونت Auguste Comte ، وويستر مارك Westermarck ، وليفى برول Lévi-Brühl ، ودور كايم Durkheim ، وغورفيتش Gurvitch ، ويانكيليفيتش Jankélévitch ، وغيرهم من الهايمات والفيتشات !

وبالنقطة الثانية نريد أن نلقى نظرة على « موقف الدولة العثمانية وباقى العـالم الاسلامى من سقوط الاندلس ومن آخر مسلميها ، وأمام الغـزو الاوروبى للعالـم الاسلامى عموما » ، لنعرف فيما اذا كانت الدولة العلية على مراحل نشأتها ، ونموها ، ثم هرمها ، قامت بواجبها نحو أهل الاندلس الذين كانوا فى غمة ، ثم نحو باقى العالم الاسلامى الذى كان يلاقى ضربات الغزو الاوروبى الشرس ، أم بقيت سلبية ، تتفرج ، وتنتظر المصير المحتوم لمن كان يلوذ بها ، ويرى فيها المنقذ الوحيد الى جانب الدفـاع الـذاتى ؟

هناك من يقول ان اسطنبول لم تحرك ساكنا ، أو لم تسكن متحركا ، وآخـــرون يقولون انها فعلت كل ما تستطيع ، أو انها ما كانت تستطيع فعل شيء !

3) وبالنقطة الثالثة اردنا أن نتأكد من صحة أو ضعف دعوى من يقول أن الشعر في الاندلس بسخفه ، واسفافه ، ودعوته الى التحلل من كل شيء ، ثم الى الانحلال ، الذى يعقبه الاختلال ثم الاحتلال ، وقد أعقبه فعلا كما نعلم جميعا ، كان السبب فيما حدث ، أم أنه كان له مجرد مرآة وانعكاس ، وان الشعر وصف لشيء موجود مستقل عنه ، غير متوقف عليه ، وغير كامن فيه ؟

4) وبالنقطة الرابعة قصدنا أن نوسع من سابقتها ، ونشمـــل الآداب والفنون عموما ، ونمـد بصرنا فى تتبع فعلها لنشمـل بنظرتنا العـــالم اجمــع ، لننظر فى « دور الآداب والفنون عموما ، والشعر والموسيقى خصوصا ، فى تعزيز اخلاق أمــة أو انحلالها ، وفى شحذ عزائمها أو قتل روحها » .

فهناك بلدان استعملت هذه الآداب والفنون ، ورعتها ، وغذتها ، ونمتها ، ووجهتها لتعزيز وحدتها ، وتقوية بنيانها ، وتماســك مجتمعها ، وتحقيق اهدافها ، وابـــراز شخصيتها . وأخرى تركتها تنمو هكذا فوضويا تبث فيها الانحلال والفوضى ، وتخرب بها بيوتها بايديها ، وتجنى بها كبراقش على نفسها .

5) وبالنقطة الخامسة وددنا أن تطرق فى ملتقاكم هـذا نقطة فى صميم حيـــاة الامة الاسلامية ، وتتصل وثيق الصلة بدعوة الاسلام ، وبها تنفر شبابها من الاسلام أو تجذبه، اليه وهو المتعرض لمختلف الهزات والزوابع، والدعايات الكاذبة والاغراءات، وهو التساؤل الملح عن « العدالة الاقتصادية والاجتماعية فى الاسلام وواقع الامـــة الاسلامية اليـــوم » .

ونحن نعرف ان الاسلام الذى تدعو جميع أركانه الى التعاضد والتعـــاون ، والى الاخوة الحقة والتضامن ، ويستنكر جميع اصناف الاستغلال واللامبالاة ، الى أن جعل امام مثل ابن حزم دية الميت جوعا على الامة كلها ، واعتبر كل فرد فيها مسؤولا عـن الجائع والعريان ، وفصل ذلك كله فى باب ما سوى الزكاة ، اذ لم يتوقف فى فهمه

للاسلام عند تادية ركن الزكاة ، بل قال ان للدولة ان تاخذ اكثر من الزكاة عند الضرورة ، والزكاة ، ان سمحتم بالمقارنة ، تماثل ضرائب اليوم فى غير بلاد الاسلام ، أى أن للدولة أن تاخذ أكثر من الضرائب لاسعاف الفقير والمحتاج ، ولصالح الامة ٠

ثم لنذكر ان الرسول صلى الله عليه وسلم أول من أعلن وطبق فيما نعلم ذلك التساوى فى العناصر الحيوية للامة ، وهى الماء ، والكلأ وما فى حكمه (وهى الارض) ، والنار وما فى حكمها (وهى الطاقة) !

6) وبالنقطة السادسة ارتاينا ان ندرس « مقصد الشريعة من الحج والطريقة التى يؤدى بها اليوم » ، وننظر فيما اذا كانت هذه الطريقة توافق مقصد الشريعة ، وفيما اذا لم تكن بعض انواع السلوك أثناء الحج متنافية مع هذا القصد ، وفيما اذا لم تكن بعض تلك المظاهر تضر بالاسلام، عوض ان تفيده ، وفيما اذا لم تكن منه منفرة، بل أن تكون به مبشرة ، وندرس هذا كله على ضوء مقصد الشريعة الذى هو صالح هذه الامة وعزة دينها ٠

هذه هى النقاط الست ، التى نود ان نتدارسها معا بكل صراحة واخوة ، لصالح الامة فى مجموعها ٠

واذ اشكركم على روح الاستعداد الطيب ، ارحب بكم مرة أخرى فى تلمسان ، وأتمنى لكم مقاما طيبا فيها ، ولأعمالنا مطلق النجاح ٠

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

● النقطـة الاولى من جدول أعمال الملتقى

النظرية السياسية
للسلطان أبى حمو الزيانى الثانى
ومكانها بين النظريات السياسية المعاصرة لها

الدكتورة وداد القـاضى
الجامعـة الاميركية
ـ بـيروت ـ



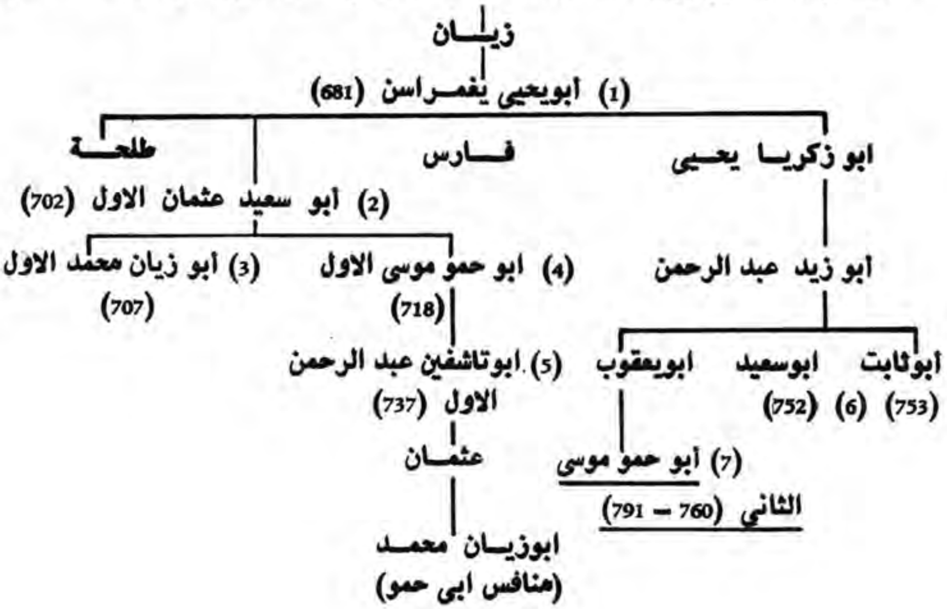
يهدف هذا البحث الى اكتشاف النظرية السياسية للسلطان أبى حمو موسى بـن يوسف الزيانى الثانى (760 ـ 791) ومدى علاقتها بالتجربة السياسية لابى حمـو نفسه ، ثم مكان هذه النظرية بين النظريات السياسية فى المغرب فى القرن الثـامن للهجرة . وهو ينقسم الى ثلاثـة اقســام رئيسية هى ـ بعد التقديم ـ (1) التجربة السياسية لابى حمو ، (2) فالنظرية السياسية لابى حمو ، ثم (3) مقارنة نظرية أبـى حمو بنظريات كل من لسان الدين بن الخطيب وأبى القاسم بن رضوان وعبد الرحمن ابن خلــدون .

تقــــــديم :

يحتل السلطان أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن الزيانى مكانة خاصة فى تاريخ دولة بنى زيان ، لانه كان أول من تولى السلطنة فيها بعد فترة من الاحتــــلال المرينى لقاعدتها تلمسان من بيت أبيه ، ولم تخرج تلك السلطنة من بيته بعده قط حتى انقضاء دولة الزيانيين بأسرها ، فكان بذلك مؤسس الفرع الثانى من بنى عبــد الواد ، ذلك الفرع الذى استمر فى الحكم بتلمسان وغيرها من بلاد المغرب الاوسط مدة قرنين من الزمان ، من 760 الى 962 .

ويتصل نسب السلطان أبى حمو بالسلطان أبى يحيى يغمراسن بن زيان مؤسس الفرع الاول من بنى عبد الواد الذى حكم بتلمسان وضواحيها مدة قرن وربع من الزمان (من 637 ــ 753) اتصالا مباشرا اذ ان يغمراسن (637 ــ 681) هو جــده الثالث ، وكان من الممكن أن يورث يغمراسن السلطنة الى ابنه أبى زكريا يحيى ــ جد أبى حمو الثانى ــ لولا ان أبا زكريا هذا توفى فى حياة أبيه (سنة 660) فأعطى يغمراسن ولاية عهده لابنه الآخر أبى سعيد عثمان (681 ــ 703) فابقاها هذا فى أسرته .

اولا فى ولديه أبى زيان محمد (703 ــ 707) وأبى حمو موسى الاول (707 ــ 718)



ثم في ولد ابنه موسى ، أبى تاشفين عبـــد الرحمن (الاول) (718 ـ 737) وبذلك انحجبت امكانات الولاية أمام بنى أبى زكريا يحيى بن يغمراسن ·

وزاد هذا الانحجاب تمكنا سعى جاد واع من جانب أبى سعيد عثمان بن يغمراسن فى ابعاد ولد هذا الفرع عن التطلع الى نيل السلطان ، تمثل فى اخراجه ابن أخيـــه أبا زيد عبد الرحمن بن أبى زكريا يحيى بولده مـن تلمسان الى الاندلس سنة 694 ، فأقام بها (1) ·

وحاول ملك المغرب أبو سعيد عثمان المرينى استغلال الجفوة بين فرعى بنى زيان ، فاستدعى الى جنابه من الاندلس سنة 712 أبا زيد عبد الرحمن ابن يحيى ، فقـــدم عليه ، وأقام عنده أياما قلائل · ثم دفع تغير الظروف ملك المغرب الى صرفه عن قطره (3) فلحق بتلمسان فى السنة نفسها الا أن صاحب تلمسان آنذاك أبا حمو موسى بن أبى سعيد عثمان أوجس خيفة منه على ملكه ، فأخرجه ـ فعل أبيه به من قبل ـ الى الاندلس سنة 713 ، فاستقر بغرناطة ، منها لدى أصحابها بنى نصر (4) ، وظل فيها ، يشترك فى جهاد الروم ، الى أن قتل فى وقعة وادى قرطونة سنة 716 (5) ، فمات تاركا أولادا ثلاثة هم : أبو يعقوب يوسف ، وأبو سعيد ، وأبو ثابت ·

وبقى أولاد أبى زيد عبد الرحمن هؤلاء فى الاندلس حتى سنة 723 ، عندما استدعاهم للرجوع الى تلمسان سلطانها أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبى حمو موسى بن أبى سعيد

---

1) بغية الرواد 2 ، 14 ·

2) البغية 2 ، 14 ·

3) فى نص البغية 2 ، 14 أن ملك المغرب صرف عبد الرحمن بن أبى زكريا يحيى لانه كان ينقل الى ابن عمه سلطان تلمسان وعدو ملك المغرب اخبار المغرب ، لما كان عليه من محبة أصيلة لقبيلته · الا ان احدى نسخ مخطوط البغية أوردت سببا مغايرا ، وهو أن ملك المغرب أصطلح مع الزيانى صاحب تلمسان ، فكأنه لم يعد هناك من مسوغ لابقاء «منافس» لسلطان تلمسان لديه (انظر : البغية ، 2 ، 14 ، الحاشية رقم 6)

4) البغية 2 ، 14 ·

5) المصدر نفسه : 14 ـ 15 ·

عثمان (6) ، فرجعوا اليها وأقاموا فيها مكرمين ، وشهدوا سائر أيام أبى تاشفين ، وما تلاها بين سنتى 737 و 749 من احتلال تلمسان من قبل بنى مرين • وما لبثت الدولة أن دالت لابى سعيد وأبى ثابت منهم ، فتولياها مشتركين من سنة 749 الى سنة 753 ، عندما انهى الاحتلال المرينى لتلمسان مرة أخرى دولتهما ، منهيا عهدهما بقتل أبى سعيد وهرب أبى ثابت فى فل من بنى عبد الواد (7) وكان أخوهما أبو يعقوب يوسف فى اثناء ذلك منقطعا الى العبادة بندرومة (8) فيما كان ابنه أبو حمو موسى ، المولود سنة 723 بالاندلس ، يسكن تلمسان ، ويظهر ميلا الى الاشتراك فى الحياة السياسية بها •

ولا تحدثنا المصادر بشىء عن النشاط السياسى المبكر لابى حمو ، وأول مرة يتعرض احدها لذكره فى هذا المجال عندما يذكر أنه كان فى صحبة عمه السلطان أبى ثـابت فى احد احواز بجاية سنة 753 فارين من المرينيين على اثر هـزيمة السلطان وأخيه أمامهم ، وتحدثنا الرواية ها هنا ، ان اعوان المرينيين قبضوا على الرجلين وهما متنكران، وأرادا معرفة السلطان منهما ، فتقدم أبو حمو وادعى أنه هو السلطان رغبة منه فى الدفاع عن عمه ، الا أن بعض الناس تعرف على السلطان الحقيقى ، فأخذه ، ولما سئـل عن هوية صاحبه ادعى أنه أحد اتباع دولته ، ورجاهم أن يسرحوه ، فخلوا سبيله (9) وفيما كان العم يساق الى مقتله (10) ، كان أبو حمو يسرع فى الهرب مع جماعة مـن أصحابه ، حتى استقر به المقام فى تونس لدى صاحبها السلطان أبى اسحاق ابراهيم ابن أبى يحيى الحفصى ووزيره ابن تفراجين ، فأقام لديهما معززا مكرما مجرى عليه (11) لمدة خمس سنوات •

---

6) المصدر نفسه : 16 •

7) العبر 7 ، 121 •

8) البغية 2 ، 16 •

9) انظر البغية 2 ، 17 — 18 والعبر 7 ، 121 — 122 •

10) انظر العبر 7 : 121 وتاريخ الدولتين : 94 •

11) انظر البغية 2 : 18 — 20 والعبر 7 : 122 •

وأوعز السلطان أبو عنان المرينى الى صاحب افريقية الحفصى باخراج أبى حمو وقومه من بلادهم ، فرفض صاحب افريقية طلبه ، فأغرى ذلك أبا عنان بالحملة ضده (12) ، فنهض مشرقا سنة 758 وملك قسطنطينة وبلد العناب وأرسل أسطوله وجيشه فحاصر تونس وملكها ، فارتحل السلطان أبو اسحاق الحفصى باتجاه الجريد ومعه أبو حمو وأصحابه ، وحدثت احداث اضطرت أبا عنان الى الرجوع الى المغرب ، والى سحب جيشه وأسطوله من تونس ، فغادر بلاد المغرب الاوسط ، فلحقه جيش الحفصى ، الا أنه عاد الى حضرته بتونس دون أن تتم أية مواجهة بينه وبين المرينى (13) . ومن هناك أخذ أبو حمو وقومه يعدون العدة للاتجاه نحو تلمسان .

وتفصيل ذلك أن بعض العرب من زغبة كانوا خارجين على سلطان أبى عنان ، وقد اضطروا الى ترك ديارهم فى صحراء المغرب ولحقوا بافريقية ، فلما علموا بانصراف أبى عنان الى فاس ، داخلتهم الرغبة فى العودة الى بلادهم ، فدعوا أبا حمو الى مرافقتهم على ان يحالفوه فى الاجلاب على تلمسان وينصبوه للامر . فوافقهم على عزمهم (14) . وصادف هذا العزم قبولا من جانب السلطان الحفصى ووزيره ابن تفراجين لما فى ذلك من ازعاج لعدوهم المرينى وشغل له عنهم ، فقاما باصلاح شأن أبى حمو بما قدرا عليه من آلة السلطان ، وذلك فى سنة 759 (15) ، فسار بمجموعة متجها الى تلمسان .

---

12) هذا هو السبب الذى ذكره ابن خلدون فى العبر 7 : 122 ، وقد لا يكون السبب الوحيد لقيام أبى عنان بحملته (انظر مثلا تاريخ الدولتين 96 والاستقصاء 3 : 201 — 202) .

13) انظر فى حملة سنة 758 البغية 2 : 20 والعبر 7 : 297 وتاريخ الدولتين 96 — 98 والاستقصاء 3 : 201 — 202 .

14) انظر الاستقصاء : 4 ، 4 .

15) انظر العبر 7 : 122 و 301 ومن الطريف ان نلاحظ هنا أن أبا حمو لم يذكر أى شىء عن الحركات الحقيقية لتوجهه نحو تلمسان ، وانما نسب الفضل كله لنفسه و (حميته) لتحصيل ملكه ورد دولته الى نصابها (انظر واسطة السلوك 13) ، كذلك يلاحظ أن يحيى ابن خلدون (فى البغية 2 : 20) لم يذكر أى شىء عن دور صاحب افريقية الحفصى فى تجهيز قوات أبى حمو الى تلمسان .

ولم تكن الرحلة الى تلمسان سهلة على أبى حمو وأصحابه ، فقد حفلت بالعديد من المواجهات العسكرية مع نواب المرينيين واعوانهم فى المغرب الاوسط ، كما لم تخل من المد والجزر عن ولاءات القبائل العربية لصاحبها (16) . ولاشك أن هذا كله قد عـــوق سيرها ، فاستغرقت ما ينيف على الستة اشهر . الا ان وصول خبر وفاة السلطان أبى عنان أول سنة 760 رفع من معنويات رجالها (17) ، فشدوا عزائمهم وحملوا على تلمسان

وكان خبر أبى حمو وأصحابه قد بلغ الوزير المتآمر على ، ملـك المغرب السعيـد ابن أبى عنان ، فجهز المدد الى تلمسان من الحامية والاموال (18) ووصـــل أبو حمو بانصاره الى تلمسان ، فنازلوها ثلاثة أيام ، وافتتحوها عنوة فى اليوم الرابع (18) ، فدخلها أبو حمو ظافرا لليال خلون من ربيع الاول سنة 760 وبايع له الناس بالخلافة (19) فأمر بالنداء على بنى مرين بالخروج غير منظرين ، وصفح عنهم ، ولم يتعرض لهـــم بأذى (19) ، وكان فيمن خرج منهم متولى تلمسان من قبل المرينيين ابن السلطان أبى عنان (20) ، وبذلك انتهى عهد تلمسان بالاحتلال المرينى الثانى ، وابتدأ عهد الزيانيين بها تحت سلطان أبى حمو الثانى مرة أخرى ، فكانت أيامه فيها تمثل تجربة سياسية حافلة بالوان النشاط العسكرى والمالى والادارى والعمرانى .

* * *

وليس من الصعب على الدارس اكتشاف ابعاد التجربة السياسية لابى حمو نظرا لان المصادر التاريخية عنيت بالعديد من اخبار أبى حمو ، ومن بينها مصدر شـديد الاهمية هو « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » لابى زكريا يحيى بن أبى بكر محمد بن خلدون ، أخى المؤرخ ابن خلدون ، وترجع أهمية هذا الكتاب الى أن مؤلفه كان معاصرا لابى حمو ، مشتركا فى الحياة السياسية فى المغرب ، وقد تنقل فى العديد

16) تجد افضل وصف لهذه الرحلة وأكثره تفصيلا ، فى البغية 2 : 21 — 23 والواسطة 23 .

17) انظر البغية 2 : 24 والعبر 7 : 122 .

18) انظر العبر 7 : 122 .

19) انظر البغية 2 : 27 والعبر 7 : 123 .

20) انظر العبر 7 : 122 — 123 .

من المناصب الكتابية في الدول المختلفة التى كانت ذات استقلال فى المغرب آنذاك ، وكان أحد هذه المناصب منصب كتابة السرلدى أبى حمـــو نفسه بـين سنتى 766 و 772 (21) ثم بين سنتى 776 و 780 (22) سنة مقتله (23) ، فالرجل عاش مقربا الى أبى حمو فترة غير قصيرة من سنى حكمه ، وكان مطلعا على دقائق الاحداث التى كانت تجرى فى مملكته ، ثم كان ـ وهذا هو الاهم ـ شديد الولاء له ولآله • وقد حمله هذا الولاء لابى حمو ، فضلا عن استقراره لديه حتى آخر أيامه ، على أن يكتب تاريخا مفصلا لدولته ودولة من سبقه من قبيله ـ بنى عبد الواد ـ فكانت نتيجة ذلك كتابة « بغيـة الرواد » • وقد قسم أبو زكريا ابن خلدون كتابه هذا الى جزئين ، الاول ، وهو الاصغر فى اخبار من سبق أبا حمو من بنى زيان الى الملك ، والثانى ، وهو الاكبر ، فى اخبار أبى حمو وحده ، فجاء هذا الجزء محتويا على تفصيلات مبينة دقيقة ، مكتوبة بثقـــة العارف ، واتساع المطلع ، واهتمام المولى ، وكل هذه صفات تعين الدارس على تصور عصر سيادة أبى حمو تصورا جيدا • غير أن فى كتـاب أبى زكـــريا نقطتى ضعف رئيسيتين يعوقان الدارس عن الافادة منه ، وهما توقفه سنة 777 ، واسرافه فى الثناء على أبى حمو فى بعض الاماكن ، بحيث يستغلق على الدارس ما اذا كان ما يقوله احيانا تقريرا للواقع أو مدحا للملك • ويمكن للدارس أن يضيف هنا « ضعفا » ثانويا آخـر فى كتاب أبى زكريا وهو اعتماده على السجع والترادف المكثفين ، وهذا ما يجعل المعنى المقصود بيانه مبهما غير واضح ، على أن الدارس لا تعييه هذه النقائص ، اذ يسدها الى حد كبير تاريخ أبى عبد الرحمن الكبير « العبر » فهو ـ رغم اختصاره ـ مقارنة بكتاب « البغية » شديد الدقة ، واضح المؤدى ، ويستمر حتى بعد مقتل أبى حمو سنة 791 ، كما أن حديثه عن أبى حمو جاء فى مكانين رئيسيين منفصلين ، احدهما فى تاريخ بنى عبد الواد ، وثانيهما فى تاريخ بنى مرين ، وفى كل مرة من المرتين ينظر المؤرخ الى الاحداث من منظور مختلف ، فيمكن الدارس من رؤية الامور من زاوتى الولاء والعداء ، هذا ومن

(21) انظر التعريف بابن خلدون : 102 والبغية 2 : 238 •

(22) انظر البغية 2 : 307 والعبر 7 : 140 •

(23) انظر العبر 7 : 140 •

المهم أن نذكر أن مقتل أبي زكريا ابن خلدون على يد ولد أبي حمو (24) ، لم يجعل المؤرخ عبدالرحمن أخاه يتعصب ضد أبي حمو ، وكذلك لم يدفعه الى التعصب قيام أبي حمو بالتآمر ضده شخصيا ـ كما سيأتي بيانه من بعد ـ (25) ، ولو كان يريد أن يعلن عداءه لابي حمو وآله لفعل ذلك بسبب من ولائه فترة غير قصيرة لبني مرين .

هذان هما المصدران الكبيران للدارس وربما وجب أن يلحق بهما كتاب « نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان » لابي عبد الله التنسي الا اني لم استطع الحصول عليه بعد ، وبعد هذه الكتب يأتي في مرتبة ادنى تواريخ الدول المعاصرة لدولة أبي حمو ، مثل كتاب « اللمحة البدرية في الدولة النصرية » للسان الدين بن الخطيب (776) وكتابي « الفارسية » (810) وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، للزركشي ابي عبد الله محمد بن ابراهيم (894) وحديثهم جميعا عن أبي حمو شديد الايجاز ثم كتاب « روضة النسرين في دولة بني مرين » لابن الاحمر (807) وحديثه عن أبي حمو أطول ، الا انه واضح التعصب عليه ميال الى الثلب له ، ويخالفه في هذا منهج الناصري صاحب « الاستقصا في اخبار دول المغرب الاقصى » فانه لا يتحامل على أبي حمو ، ولكنه بالمقابل لا يوليه عناية كبيرة لانه يقع خارج دائرة اهتمامه الا فيما ندر ، عندما تصبح مقدرات أبي حمو في يد من يعنى بهم الناصري .

ويأتي بعد ذلك بعض الاخبار المتفرقة عن أبي حمو في المصادر واقيمها ما جمعه لسان الدين بن الخطيب عنه في ترجمته له في كتاب «الاحاطة بالتعريف بعلماء غرناطة» فانها تحتوي على مادة شديدة الدلالة على صورة أبي حمو في نفوس مفكري عصره وسياسييه ، وادنى منها مرتبة اخباره المتفرقة في كتابي أبي العباس المقري (1041) « نفح الطيب » ، و « ازهار الرياض » . الى جانب نتف منثورة هنا وهناك في المصادر .

بقي هنالك المصدر « الشعري » ـ اذا صحت التسمية ـ واعني به هذا العدد الكبير من المدائح التي قالها الشعراء في أبي حمو ، أو التي قالها أبو حمو نفسه في الفخر ،

---

24) انظر العبر 7 : 140 .

25) انظر التعريف بابن خلدون : 217 ، وانظر ما يلي ص 14 .

وهي ذات قيمة ثانوية جدا للدارس المؤرخ نظرا لاحتوائها على احكام قد تكون قيلت في موضع المدح لا موضع التقرير ، وبها يلحق ما أورده أبو زكريا بن خلدون من مقدمات تطريزية ، لكتابه « بغية الرواد » ·

* * *

تعلمنا المصادر أن أبا حمو شرع فور تسلمه زمام السلطة ينظر في تمهيد قواعد ملكه ، ويجدد رسوم دولته (26) ، ولكن ما أن مضى عليه اكثر من شهر وبعض شهر وهو في سدة الخلافة ، حتى وجد نفسه ــ رغم كل جهوده لتوطيد دعائم مملكته بخاصة ــ غير قادر على فصل نفسه ــ ودولته ــ عن الصراعات السياسية الدائرة في ارجاء المغرب ، ورأى أنه ــ شاء أم أبى ــ مضطر أن يقوم بدوره زيانيا ــ في هذه الصراعات ، وبذلك كانت خلافته ، التي استمرت ما ينيف على ثلاثين سنة (760 ــ 791) معرضا لالوان تلك الصراعات ، وخاصة لان موقع بلاده كان يقع في مكان متوسط بين القوتين الكبيرتين المتنافستين في المغرب آنذاك ، المرينيين في المغرب والحفصيين في الشرق ·

أما المرينيون فقد كانوا اشد اعداء أبي حمو ، والى مناوأتهم ــ أو مصالحتهم احيانا ــ انصرف الجزء الاكبر من مجهوداته السياسية والعسكرية · ولم يكن ذلك بالامر الغريب ، فقد كان المرينيون اعداء لبني عبد الواد ــ رغم اشتراكهم معهم في الانتساب الى زناتة ــ منذ أواخر أيام الموحدين ، وقبل أن يقيم بنو عبد الواد دولة خاصة بهم ، اذ كان بنو عبد الواد يعتبرون اولياء الموحدين وانصارهم ، فيما كان المرينيون يحاولون انتزاع السلطان منهم (27) · وقد جرت بين الفريقين منذ ذلك الوقت حروب عديدة (28) انتهت في النصف الاول من القرن السابع باستيلاء بني عبد الواد على تلمسان وضواحيها ، واستيلاء بني مرين على المغرب والجزء الاكبر من دولة الموحدين بالمغرب ، فيما كانت فلول الموحدين من الحفصيين تمكن لنفسها دولة خاصة في افريقية وشرق المغرب الاوسط · وقد كان المرينيون يرون في انفسهم الورثة الطبيعيين لدولة الموحدين ، ·فكانت آمالهم كثيرا ما تتجه الى ضم المغرب كله مع افريقية تحت لوائهم

26) انظر البغية 2 : 38 ·
27) انظر البغية 1 : 104 ·
28) انظر البغية 1 : 104 ــ 105 ·

لذلك حفل تاريخهم بمحاولات القضاء على الدويلات الاخرى الناشئة فى ارض المغرب ، وفى مقدمتها ــ بطبيعة الحال ــ دولة بنى عبد الواد فى تلمسان . من هنا شهدت هذه الدولة ــ منذ نشأتها سنة 631 ــ سلسلة من المجابهات مع المرينيين ، كانت كثيرا ما تمثل فيها الجانب الاضعف ، وقد انتهت هذه المجابهات مرتين باحتلال مرينى لتلمسان فى القرن الثامن كما سبق ذكره (29) ، ولما كان مجيء أبى حمو العبد الوادى الى تلمسان فى ربيع الاول سنة 760 يمثل انتهاء الاحتلال المرينى الثانى ويشير الى عودة الحياة الى بنى عبد الواد ، فقد كان أبو حمو فى نظر المرينيين عدوا يجب أن يتخلص منه . لذلك ما ان مضى على استقراره فى عاصمة ملكه أكثر من شهر ونصف حتى ارسل المرينيون فى آخر شهر ربيع الثانى من سنة 760 جيشا عظيما اضطره الى الخروج من عاصمته نفسها الى الصحراء (30) .

ومنذ ذلك الوقت خاض أبو حمو معارك كثيرة مع المرينيين ، انتصر فى بعضها وانهزم فى غيرها ، واضطر اربع مرات ان يترك قاعدته تلمسان فى ايدى المحتلين المرينيين لمدد متفاوتة فى الزمن ، الاولى سنة 760 المذكورة قبل ، وقد ترك منها تلمسان مدة 48 يوما (31) والثانية فى السنة التالية (761) وقد غادر فيها تلمسان يوم 29 رجب ، مفسحا المجال أمام السلطان أبى سالم المرينى ليدخلها يوم 6 شعبان ، ثم عاد اليها بعد ان افرج السلطان أبو سالم عنها يوم 12 شعبان ، فدخلها يوم 8 رمضان ، فكانت غيبته عنها مدة 40 يوما (32) ، والثالثة بين شهر محرم من سنة 772 وشهر ربيع الثانى من سنة 774 أيام السلطان عبد العزيز المرينى ، فكانت مدة الاحتلال

---

29) انظر ما سبق ، ص 3 .

30) انظر فى خبر هذه الحملة البغية 2 : 5 والعبر 7 : 302 303 ، وروضة النسرين : 55 والاستقصاء 4 : 5

31) انظر البغية 2 : 52 .

32) انظر البغية 2 : 75 ــ 78 والعبر 7 : 124 ــ 125 و 311 ــ 312 وروضة النسرين : 56 والاستقصاء 4 : 33 ــ 34 .

المريني اكثر من سنتين ، وكانت اسوأ خرجات أبي حمو على الاطلاق (33) ، وأما المرة الاخيرة فكانت في شهر صفر من عام 784 حتى عام 786 ، وكان اشد خرجات أبي حمو على عمران المدينة ، اذ هدم المرينيون خلالها القصور الجميلة التي كان بناها بنو عبد الواد بمعونة الاندلسيين (34) . وفي كل مرة من هذه المرات كان أبو حمو يتحمل المشاق العديدة في المنفى بشجاعة وعزم وصبر ورباطة جأش ، وحتى عندما يبلغ به اليأس مبلغه لا يتوانى عن السعي في الرجوع بقوة السلاح الى سلطانه لدى أول بادرة تشير الى أن الرجوع اليه ممكن . وهذا كان حاله بخاصة في خرجة سنة 772 ـ 774 اذ انه قاسى فيها التشرد في الحواضر والبوادي والقفار ، وعانى من الثلج والعرى والجوع والعطش والغارة والنهب والهزيمة والخيانة وفقدان الحليف والاشراف على الهلاك ، وحلول اليأس ـ وغير ذلك مما دفع أبا زكريا ابن خلدون أن يسمي الخرجة كلها ، بـ « التمصيص الاكبر والابتلاء الاشهر ، بما لم يعرف لملك من ملوك الاسلام نظيره ، ولا عد في مثلات العجم الخالية شبهه » (35) ، الا ان عزم أبي حمو كان يقابله اصرار مقابل من بني مرين للقضاء عليه ، وقد لاحت الفرصة الكبرى أمامهم عندما لجأ اليهم ابن السلطان أبي حمو ، واسمه أبو تاشفين عبد الرحمن ، وطلب منهم أن يعينوه على التخلص من والده لكي يستطيع أن يستقل بالسلطة وحده ، بعد ان اخفق في ان يصل الى غرضه ذاك مستقلا بين سنتي 788 و 790 ، فأعانوه بجيش عظيم ، فدخل تلمسان برجال بني مرين سنة 791 ، وكانت نهاية أبي حمو في المعركة قتلا على يد حليف ابنه المريني (36) . وهكذا نجح المرينيون في اخضاع أبي حمو نهائيا في آخر المطاف بعد

---

33) انظر البغية 2 : 236 ـ 270 والعبر 7 : 132 ـ 135 و 329 ـ 330 و 336 ـ 337 وروضة النسرين : 56 والاستقصاء 4 : 57 .

34) انظر العبر 7 : 141 ـ 143 و 324 ـ 325 وروضة النسرين : 57 (وجعل بداية الاحتلال سنة 786) .

35) البغية 2 : 237 ، ووصف المصاعب هذه تجده في البغية 2 : 237 ـ 269 ، وانظر أيضا : العبر 7 : 330 ـ 334 .

36) انظر العبر 7 : 143 ـ 148 و 361 وروضة النسرين : 58 والاستقصاء : 4 ، 76 .

ثلاثين سنة من المحاولات المتكررة لذلك . الا ان ثمن اخضاعه هذا كان غاليا على تلمسان اذ أنها تحولت الى ايالة من ايالات السلطان المرينى ، يخطب له على منابرها ، ويبعث اليه بالضريبة كل سنة ، وصار ملكها ـ أبو تاشفين ـ عاملا لبنى مرين ليس أكثر (37) .

أما الحفصيون ـ الى الشرق من تلمسان ، فى المغرب الاوسط وافريقية ، فقد كانت علاقات أبى حمو بهم مختلفة عن علاقاته بالمرينيين ، اذ كان الحفصيون يشتركون معه فى عدائه للمرينيين ، وكانت حملات المرينيين المتكررة عليهم واحتلالهم للبلاد المختلفة الواقعة تحت سلطانهم (38) مما يزيدهم قربا منه . وقد ظهر تعاطفهم معه فى وقت مبكر ، من قبل أن يستولى على السلطة فى تلمسان ، اذ احتضنوه وحموه واجروا عليه على اثر مقتل عميه أبى سعيد وأبى ثابت على يد المرينيين سنة 753 كما مر ذكره (39) ، وانما تجهز أبى حمو واستعد لنيل ملكه بمساندة الحفصيين المعنوية والمادية (40) غير ان الامور لم تكن صافية خالصة بين أبى حمو والحفصيين جميعهم ، لان الحفصيين أنفسهم كانوا منقسمين فيما بينهم ، ولان بلاده كانت تتاخم بلادهم ، فكانت اطماعه تسول له الاستيلاء على بعض بلادهم ، فينزل له على رغبته بعض الحفصيين (مثل أبى عبد الله محمد بن يحيى الحفصى صاحب بجاية) (41) ويرفض الخضوع له غيره من الحفصيين (مثل أبى العباس أحمد بن محمد الحفصى) (42) فيجد أبو حمو نفسه طرفا فى صراعاتهم الداخلية ، فضلا عن كونه عدوا طامعا فيهم ، فتقع المعارك بين الفئات المختلفة ، وتتراوح البلاد في المغرب الاوسط فى التبعية السياسية ، حينا لاحد الحفصيين وحينا لابى حمو الزيانى (43) ، وتضطرب الاحوال ، ولا ينتصر أبو حمو فى معركة الا ليخسر غيرها ، وتقع معركة كبيرة سنة 767 قرب بجاية فتدور الدائرة عليه ،

---

37) انظر العبر 7 : 147 — 148 و 362 والاستقصاء 4 : 76 .
38) انظر مثلا : العبر 7 : 301 وتاريخ الدولتين : 81 — 88 و 96 — 99 .
39) انظر ما سبق ، ص : 4 .
40) انظر ما سبق ، ص : 4 — 5 .
41) انظر البغية 2 : 151 — 160 والعبر 7 : 128 والتعريف بابن خلدون : 98 — 99 .
42) انظر البغية 2 : 182 والعبر 7 : 129 .
43) انظر مثلا حال تدلس فى البغية 2 : 103 و 151 والعبر 7 : 128 .

لانه لم يحسب حسابه امتناع بجاية ، واغفل الحزم فيما دونها والاستعداد ، ولانــه انخدع بوعود سماسرة الفتنة ، ولم يشعر بمدى مرض قلوب اصحابـه مـن جهتـه ، فينتابه الغضب ويخرج الى عدوه مخالفا لمشورة اهل الرأى ، فينهزم هزيمة نكراء ، ويتركه الناس فيسلم عياله وامواله وحظاياه وينجو بنفسه ، وينزل له وزيره عن ركوبه حتى يستطيع أن يصل الى تلمسان (44) . وقد كان من الممكن أن يظل مجال المواجهة بين أبى حمو والحفصيين محدودا لولا عاملان اثنان ساعدا على اذكاء الصراع فى المغرب الاوسط واطالة زمانه ـ غير انقسام الحفصيين واطماع أبى حمو ـ وعملا على ان يكون اشتراك أبى حمو فى ذلك الصراع أمرا ضروريا ، ان لم يكــن حتميا ، وذانك هما ، ظهور منافس لابى حمو على سلطان تلمسان من بنى عبد الواد ، هو أبو زيان بن عثمان ابن أبى تاشفين الاول ، ثم المد والجزر فى ولاء القبائل العربية فى المغـرب الاوسط بخاصة لابى حمو ، وانما ذكرت هذين العاملين المجتمعين ، لانهما ارتبطا معا فى تاريخ أبى حمو ، فكان اشتداد حركة أبى زيان ضد أبى حمو أكثر ما يقترن بالحصار المد فى ولاء القبائل العربية لابى حمو ، وفى ما كان همود أبى زيان وانهزامه وتقهقره أكثر ما ينتج عن اقبال هذه القبائل على أبى حمو ومنحه القدر العظيم من ولائها . لذلك كان أبو حمو حريصا على ابقاء صلاته بمختلف القبائل العربية حسنة للغاية ، فلا يهتـم بشتى اشكال الملاينة (45) ، واغراهم بالمال والاقطاعات والثياب الرفيعة ووجوه الحرير الملون والذراريع والعمائم (46) ، وراسل قوادهم ووجوههم (47) وعفا عمن اساء اليه منهم (48) رغبة فى اصطناعهم ، وتطلبا لخدمتهم . واذا كان قد اخفق فى مساعيه لضمهم الى صفوفه غير مرة ، فذلك كان ـ فى معظم الاحوال ـ لان منافسه أبا زيان كان هـو

---

44) انظر فى خبر هذه الوقعة البغية 2 : 182 ـ 183 والعبر 6 : 379 ـ 380 و 7 : 129 و 130 والتعريف بابن خلدون : 100 .

45) انظر امثلة من ذلك البغية 2 : 113 و 205 و 209 والعبر 7 : 125 .

46) انظر امثلة من ذلك فى البغية 2 : 195 و 201 و 205 و 206 والعبر 7 : 131 .

47) انظر مثلا فى ذلك البغية 2 : 198 والعبر 7 : 131 .

48) انظر مثلا البغية 2 : 150 ـ 151 و 206 .

الاخر يحاول جهده حشد القبائل العربية الى جانبه ، أو لان مصالح القبائل العربية كانت تتضارب فيما بينها بشدة ، فتميل فئة منها الى أبى زيان فيما تميل الاخرى الى أبى حمو . وأيا كان الامر ، فقد خاض أبو حمو سلسلة من المعارك مع جيوشه وعربه ضد أبى زيان واوليائه ، انتصر فى عدد منها (49) ، وانهزم فى بعضها (50) . غير ان هذا البعض نفسه كان حافلا بما يهدد سلامة أبى حمو نفسها وامكان استمرار سلطانه بتلمسان ، وخاصة لان اعداءه من المرينيين كانوا يحتضنون أبا زيان فى بعض الاحيان ومنه وقعة سنة 769 التى كادت تودى بحياة أبى حمو وتذهب بسلطانه ، لولا شدة احتماله وقوة عزيمته واصراره على الوصول الى سلطانه بأى ثمن . وقد شهد هذه الوقعة وما تلاها من هزيمة أبو زكريا ابن خلدون ، وكان فيمن فر مع أبى حمو حين لم يعد الموقف يحتمل سوى الفرار ، ووصف ما تعرض له أبو حمو ورفاقه من المخاطر على اثر الهزيمة فقال : « ... الى أن افرده الناس سوى شرذمة قليلة أنا منهم ... فاستركب الحرم وحمل الاموال واكفل بذلك الحصيان والنصارى المستخدمين ، وتقدمهم منتحيا خيام خلصائه الاوفياء ... وأضل الكفلاء بما معهم سبيله ، فقفوا آثار العسكر حيارى ، وبلغ هو مأمنه ، فسر خلصاؤه بسلامته ... ثم حملوا ذخائرهم ، ونبذوا الاهل والمال عرضة للنهب ، وساروا مع مولاهم ... ثم حملوا ذخائرهم ، ونبذوا خريت وتنكب من شر المنافقين سانحة وبارحة ، فركبنا وعور جبل ذى كهوف وشعاب واجمات ، ولم ننشب اذا توسطناه أن نبحتنا كلابه ، وتعاوت من كل أوب علينا ذئابه ، ثم أتوا برجل الدباء والجأونا الى مهواة تساقطنا من عند آخرنا بقعرها العميق . ولم نلف به نهجا ، فادهمنا منه لهبا اغين نرجو نجاة الانفس مستعينين فى صعوده ركبانا

---

49) انظر البغية 2 : 112 — 113 و 132 و 133 — 135 و 197 — 198 و 308 والعبر 7 : 125 — 126 و 131 و 135 .

50) انظر البغية 2 : 146 — 149 و 182 — 183 و 184 — 194 و 200 — 205 والعبر 7 : 126 — 127 و 129 — 131 والتعريف بابن خلدون : 102 — 103 والفارسية 185 — 187 .

51) انظر امثلة من ذلك من البغية 2 : 142 — 146 و 149 و 183 والعبر 7 : 125 و 126 — 127 و 129 والتعريف بابن خلدون : 100 — 102 والفارسية 185 — 187 .

بجذب شجره ومررنا نلهب المركض ، والذؤبان الانيسة تستك لعوائها الاسماع ، وربما اعترضنا ابعاضهم فنردهم على الاعقاب ، هكذا الى الاسفار ، فاذا نحن قد اصبحنا تيها قرب محلتنا بالامس ، فابتدأنا العمل من أوله ورملنا أثر العساكر ، فاذا طلائع المخالفين المبيتة للعساكر قد فجأتنا صادرة عنهم تتعقبنا ذات اليمين وذات الشمال فتصدت عربنا لاجابة سائلهم ··· فانقلبوا أولا عن آخر الينا ، فاحضرنا ··· الى عروض وعر تسنمناه الا من اعيا مركوبه · وفي فتنة ثابت الى عربنا حمياتهم ، فدعوا نزال ورجعوا في وجوه أولئك الطغام وانصبوا اليهم من عل بمنحط الصخر ، فانقلبوا صاغرين من نجد الشواهق الى غوره ، فمن صريع يجود بنفسه وثخين يتشحط في دمه ومغلول يقاد برسنه ··· (ثم) اجننا الليل ، فسرناه مدلجين غربا · وأصبحنا ··· فجددنا السير يومنا وخمسة بلياليها بعده ، لم نطعم فيها ولا جيلنا (اقرأ : خيلنا) قوتا سوى مرة شيئا منزورا ··· ولا ذقنا النوم فيها الا غرارا ، وبعد غروب الشمس من اليوم السابع ··· دخل أمير المسلمين ··· ملكه ·(52)

هذا وقد انتهى أمر الصراع بين أبي حمو ومنافسه أبي زيان بعد فترة تقارب العشرين سنة منذ 761 ، الا انه توقف في حدود سنة 781 عندما لم يعد أبو حمو زيان قادرا على تحريك الحرب ــ فضلا عن الانتصار فيها ــ ضد أبي حمو · (35)

اما القبائل العربية فانها ظلت عنصرا مؤرقا لابي حمو ــ بقدر ما كانت عنصرا مساعدا له ــ اذ كان ولاؤها يميل في أي وقت ولاي سبب الى أي عدو خارجي لابي حمو ــ بما في ذلك المرينيين (54) ولهذا وجد أبو حمو نفسه مضطرا أن يخوض الحرب ضد من يحاربون الى صف عدوه منها كما فعل بسويد واحلافهم سنة 760 (55) أو من

---

52) البغية 2 : 203 — 206 ·

53) انظر العبر 7 : 124 — 125 و 139 ·

54) انظر مثلا البغية 2 : 142 — 143 والعبر 7 : 126 ·

55) انظر مثلا حادثة سنة 760 في البغية 2 : 63 ·

ينشقون عنه بعد أن يعلنوا ولاءهم له ـ كما فعل بأبى الليل بن أبى موسى اليزيدى(56) أو من يقلقون عليه بايعاز من عدوه كما فعل بمغراوة سنة 763(57)، كما كان كثيرا ما يشن حملات انتقامية صرف ضد أى شخص ذى نفوذ ينضم الى عدوه دون أن يكون منهم ، كما فعل بعبد الرحمن ابن خلدون المؤرخ سنة 774 ، فانه لما عرف عنه ميله الى عدوه المرينى ابان خرجته الثالثة من تلمسان ، وتشجيعه اياه ضد أبى حمو ، اوعز الى بعض حلفائه من عرب المعقل أن يعترضوه ، ففعلوا وانزلوه عن فرسه ونهبوه وتركوه فى القفـــر . (58)

وهكذا تضافرت العوامل العديدة : من عداء المرينيين فى الغرب ، الى تنمر بعض الحفصيين فى الشرق ، الى قيام أبى زيان ابن عثمان ، الى عدم التوازن فى ولاء القبائل العربية لابى حمو ، الى خيانة لابن أبى تاشفين ـ تضافرت معا لتجعل من أبى حمـو قطبا من اقطاب الصراع السياسى والعسكرى فى المغرب ، ولتجعل النشاط الحربى ابرز ما فى السنين الاحدى والثلاثين من حكمه ، وقد دفع هذا أبا حمو الى التفنن فى اختراع الوسائل التى تضعف عدوه وتقوى مكانه ، فبث عيونه فى بلاد عدوه لاستطلاع احواله (59) ، وطالب من يوالونه اما باليمين الموثق (60) أو بالرهن (61) دلالـــة على ولائهم ؛ وحاول أن يختار الطقس المناسب للمعركة فى بعض المرات (62) ولـــم يقم بالهجوم على عدوه الا بعد مشورة اصحاب الرأى من اصحابه (63) (باستثناء حادثة

---

56) انظر مثلا حادثة حرب أبى الليل بن ابى موسى اليزيدى سنة 764 فى البغية 2 : 133 — 135 والعبر 7 : 126 .

57) انظر مثلا حادثة أبى حمو مع مغراوة فى البغية 2 : 112 والعبر 7 : 126 .

58) انظر الحادثة بتفصيلها فى التعريف بابن خلدون : 217 — 218 .

59) انظر مثلا البغية 2 : 51 .

60) انظر مثلا البغية 2 : 149 (سنة 769) .

61) انظر مثلا البغية 2 : 135 (سنة 764) .

62) انظر مثلا العبر 7 : 138 .

63) انظر مثلا البغية 2 : 51 و 197 .

سنة 767 التى انهزم فيها وقد مر ذكرها (64) ، ولم يتوان عن الهجوم السريع على عدوه عندما كانت الفرصة تسنح له وتفرض عليه انتهازها وتحقيق انتصار خاطف على ذلك العدو (65) كما لم يتوان عن اللحاق بعدوه ونهبه وقتل اكبر عدد من افراده اذا تم له الانتصار (66) فاذا احس بطلائع الانهزام ارسل جيوشه تعيث فى بلاد عدوه وتقتلع زروعها وتنسف قواتها وتخرب عمرانها ، وذلك كان من الخطط التى لجأ اليها كثيرا فى تاريخه ، وكانت كل مرة تنتهى بافراج عدوه عنه وانتصاره هو لا مباشرة عليه (67) ، كذلك لجأ أبو حمو الى التآمر ضد عدوه المرينى بالذات والكيد له ، وذلك عندما احتضن منافسين لسلطانين من سلاطينه فى فترتين متباعدتين اثناء حكمه ، الاول هو الامير عبد الحليم ابن أبى على المرينى ، وقد احتضنه أبو حمو سنة 762 مكايدة للسلطان أبى سالم المرينى ، فانه أمر بنى مرين الواصلين من الجزائر الى تلمسان ببيعته ، ولما دعى له بالمغرب كساه شارة الملك وسرحه فى شىء من الآلة والناس مكرما (68) ، والثانى محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الحق ، وقد جمع العرب من أصحابه على بيعته سنة 770 ، وكساه شارة الملك وأرسله مع العرب لحصار سلجماسة، مكايدة فى السلطان عبد العزيز المرينى (69) .

غير أن أبا حمو لم يكن يلجأ الى الحرب فى كل مواجهته مع العدو ، بل كان يحاول قدر الامكان الابقاء على السلم بينه وبين عدوه ، وكان يسخر لذلك الغرض أرساله وسفراءه (70) ، ويرسل معهم فى بعض الاحيان هدايا قيمة اذا كانت السفارة فى عقد

64) انظر ما سبق ، ص : 11 .

65) انظر البغية 2 : 97 (سنة 768) .

66) انظر امثلة من ذلك فى البغية 2 : 197 — 198 و 235 و 251 .

67) انظر فى ذلك حوادث السنوات : 761 و 764 و 766 و 771 و 772 (انظر البغية 2 : 76 و 135 و155 — 156 و 222 — 223 و245 والعبر 7 : 125 و 128 و131 328 والاستقصاء 4 : 33)

68) انظر البغية 2 : 90 — 91 و 95 والعبر 7 : 316 والاستقصاء 4 : 43 وانظر أيضا ص 74

69) انظر البغية 2 : 183 و 193 والعبر 7 : 129 .

70) انظر مثلا البغية 2 : 62 و 101 و 165 — 166 .

الصلح (71) وكان اعداؤه ـ وأولياؤه أيضا ـ يواجهونه بالمثل ، فيرسلون اليه سفراءهم ، فكان مجلسه محط رحال للعديدين من سفراء بنى مرين وبنى حفص ، كما شهد ذلك أبو زكريا ، بن خلدون بنفسه (72) ، وسفراء بنى نصر (73) ۰ غير ان حذر أبى حمو ويقظته كانت تجعله يقابل هؤلاء السفراء ، وخاصة سفراء الاعداء ـ بالطبع ـ بقدر غير قليل من سوء الظن ، فيتفرس فيهم ويحاول أن يعرف حقيقة معدنهم وخفايا نوايا سلطانهم من طريقتهم فى اداء رسالة مولاهم ، وهذا أمر فعله مع عمر بن عبد الله وزير سلطان المغرب أبى سالم المرينى (سنة 761) فانه ـ فيما يرويه هو عن نفسه ـ انزله في دار وزيره عبد الله بن مسلم ، وأمر وزيره باختباره فوجده رجلا يريد المكيدة عن طريق اعطاء المال لاهل وهران طلبا لولائهم للمرينيين من دون ابى حمو ، ويريد الخديعة على عبد الله بن مسلم حتى يجتذبه الى جانبه هو وسلطانه ، وذلك لما كان تقدم بينهما من المودة والصداقة ۰ فلما عرف ذلك أبو حمو ، أخذ يدخله على مجالسه الخاصة ، ويتحدث أمامه بما يوهمه انه من اسراره ، فزاد بذلك طمعه ، وابطا فى العودة الى سلطانه وأبو حمو يطيل بقاءه عمدا لديه ، والاخبار ترد على المرينى بمكانه لدى سلطان تلمسان ، فتزيد سوء الظن به سوءا ۰ ولما عرف ابو حمو تاكد الحقد بين الطرفين ، وانخداع الرسول بتقريب السلطان اليه ، اطلق سراحه ، فغادره ، معاهدا اياه ان يغدر بسلطانه ، فلما رجع الى بلاده وجد الدنيا مقلوبة عليه ، فثار على سلطانه وقتله (74) ۰ الا ان أبا حمو لم يكن دائما حكيما فى تصرفه مع الرسل ، ولقد حدث سنة 771 ان طلب منه السلطان عبد العزيز المرينى المهادنة ، فاشترط أبو حمو بعض الشروط التى لم يرضها المرينى ، ولما جاء رسول عبد العزيز بخبر رفض الشروط ، طرده ابو حمو ، فكان ذلك الطرد سببا من اسباب احتلال عبد العزيز المرينى لتلمسان فى السنة التالية ۰ (75)

71) انظر البغية 2 : 89 والعبر 7 : 125 ۰
72) انظر البغية 2 : 132 ۰
73) انظر البغية 2 : 114 و 166 ـ 178 ۰
74) انظر الواسطة : 158 ـ 160 ۰
75) انظر البغية 2 : 224 و 234 ـ 236 ۰

ولا شك فى ان الوضع المتوتر وامكانات الحرب الدائمة بين أبى حمو واعدائـه المختلفين قد جعلت أبا حمو يعتنى عناية خاصة بجيشه وفى هـذا المجـال يحدثنا أبو زكريا بن خلدون ان أبا حمو احتفل بجيشه احتفالا عظيما سنة 767 ، واقـام استعراضا له فى ابهة ما بعدها ابهة وحضر ابو حمو نفسه ذلك الاستعراض ووصفه ابن خلدون فقال : صدرت الاوامر العلية للقبيل الاعز وكافة القواد المذكورين بحشد العساكر الى الحضرة الكريمة لتعرض بين يدى خليفة الله ... وفى أول شوال اجتمعت المحلات كافة بالبسيط الافيح مـن ظاهر الحضرة ، فجلس أمير المسلمين ... لعرض جيوشه المظفرة فى خباء مطل من أعلى هضبة على بسيط مسلوب اصطفت به الكتائب، لا يحويها العد ولا تحيط باقطارها الابصار ، من كل شاكى السلاح ، منحدب على قناة المنا لا يعرف الا سيفه ولا يستشير غير عزمه ، فقد اخذوا زينتهم ، تحسبهم الحمائـل المزهرات من فوق الكثبان الهائلة ، وسط كل كتيبة فنين جلد الوشى وخلخل اللجين ، يخطمه بسلسلة من الفضة ، غلمان لبسوا اقبية الخز الملون وعليه هودج مغشى بأنواع الحلل ، قد برزت منه قينة يسبى جمالها وصقال منظرها الناظرين ، فامسكت بغشارة تغنى بشجارة زناتية مما يهيـج أريحيات الهمـم ، ويبعث حمايـات النفـوس ثـم زحفوا للسلام عليـه زوافا مـن ضحى اليوم الى غروب شمسه وحذاق الكتبـة بين يديه الكريمتين ، يحصون جموع القبائل والشعوب وينوعون الرامح منها والنابل ، فكانت فذلكة حساب الجميع اثنا عشر ألف فارس مرتزقة (76) ·

وكما عنى أبو حمو بجيشه لتأمين سلامته وسلامة سلطانه كذلك عنى بتحصيـل ما يستحقه من الاموال من جبايته ، حتى يبقى لدولته اتزانها الاقتصادى فى السلـم كما فى الحرب وانما يدلنا على مدى تشدده فى وجوب حصوله على المال الذى هو حق له ولدولته ، الحادثة التى حدثت سنة 777 ، عندما قام سالم بن ابراهيم كبير الثعالبة من العرب ووالى الجزائر من قبله بالاستبداد بعمله واضافة جبايته الى نفسه · فلما جاء وقت الجباية ، وأوعز أبو حمو الى عماله باستيفاء جبايتها ، استراب سالم من أمـره ،

---

76) البغية 2 : 181 — 182 ·

وظل يداهنه رجاء أن تشغله الفتنة الناشئة يومذاك ضده عن مطالبته · الا أن الامور دارت على غير ما اشتهاه سالم ، اذ انتصر أبو حمو على المفتتنين في بلده سنة 778 ، ولما رأى أبو حمو أن سالما لا يحرك ساكنا ، تقدم اليه بجيوشه وأوليائه ، فرأى سالم أن قد أحيط بأصحابه ، فلاذ بالطاعة لابي حمو وحمل عليها اصحابه ، وعقد لهم السلطان من ذلك على ما أرادوه وأخذ منهم أمواله (77) · ففي هذه الحادثة لم يتروع أبو حمو على الحرب في سبيل تحصيل أمواله ، وهذا يعني أنه كان حريصا جدا على نقل جبايات الاقاليم الى خزينته باستمرار ، وان ذلك أمر كان يحدث بقدر غير قليل من الانتظام ، هو الذي دفع لسان الدين بن الخطيب لان يقول في وصف سياسة أبو حمو المالية أنه كان « ··· جماعا للمال ··· حلب ضرع الجباية » (78) ، وبعث أبا زكريا بن خلدون ليقول ان من عناصر ازدهار حكم أبي حمو « مال يجبى فيخزن » (79) · وقد كانت نتيجة هذه السياسة الحكيمة ان أمرى بيت مال أبي حمو (80) ، ولم يعد بحاجة لان يمد يده طالبا المعونة المالية من غيره ، بل انه استطاع بماله أن يعين أهل الاندلس على جهادهم ضد الروم بالمال والذهب والفضة والزرع والخيل المسومة والمراكب المشحونة مرتين على الاقل ، سنة 763 وسنة 767 ، (81) واستطاع به أيضا أن يستألف الاعوان في الحروب ـ كما مر من قبل ـ (82) وأن يخزنه لحين الحاجة اليه في الظروف الطارئة ، وقد جاءت تلك الحاجة في تاريخ أبي حمو سنة 776 ، عندما نزلت بالبلاد مجاعة عظيمة شاهدها أبو زكرياء ابن خلدون ووصفها فقال : انها نتجت عن اعصار عظيم أهلك زرع صائفة تلمسان وحيوانها ، فأكل الناس بعضهم بعضا وافتقروا الى ما لدى السلطان ، فتصدق عليهم بنصف جبايته كل يوم على ضعفائها ، يجتمعون في الرحاب الفسيحة المعينة فيقسم حفظة الملك الارزاق عدلا بينهم ، كذلك

---

77) انظر العبر 7 : 138 ·
78) الاحاطة 10 (مخطوط الرباط) 115 ·
79) البغية 2 : 11 ·
80) انظر الاحاطة (مخطوط الرباط) 115 ·
81) انظر البغية 2 : 325 ـ 326 ·
82) البغية 2 : 11

قرر أبو حمو بمناسبة المجاعة أن يضم هؤلاء الضعفاء أجمعين فى بيمارستانات يأتيهم رزقهم فيها صباح مساء ، شتاء السنة وربيعها ، حتى دعاهم خصب البادية ودرور ضروع ماشيتها الى الاصحار اليها ، وفتح أهراء الزرع وأباح بيعه للناس ، وخفض سعره ، بحسب ما اقتضته المجاعة وأحكامها (83) فهذا التدبير الذى قام به أبو حمو كان ولا شك نتيجة لسياسة مالية حكيمة كان يتبعها فى السنوات السابقة على سنة المجاعة ، وذهب فيها الى خزن المال دون انفاقه كله تحسبا للطوارىء .

غير أن هذا الخزن لم يجعل أبا حمو ـ فيما يبدو يقصر فى حقوقه تجاه موظفى دولته وجيشه من ناحية أرزاقهم وعطاءاتهم ، وهذا أمر يستدل عليه من قول ابن خلدون عنه : ان من عناصر نجاحه « أرزاق تنفذ وتوزن » (84) .

والحديث عن السياسة المالية لابى حمو يقود الدارس الى البحث فى السياسة الداخلية له اذ ذاك يجد أول ما يجد اتجاه أبى حمو الى الحرص على انزال الناس فى مراتبهم الصحيحة دون تزيد ولا تنقص ، ولذلك رفع من مرتبة نفسه عن سائر الناس وأبدى غضبه ممن لا يقبل يده ولا يبايعه (85) والتزم بالوقار والهيبة ووضع الحجاب على بابه ، فلما دخل مجلسه أبو زكريا بن خلدون للمرة الاولى سنة 764 دهش لما رآه هنالك من مظاهر الرسميات ، وصور ذلك بعبارة بليغة قائلا : (وفتح الباب ، ورفع دونى الامن والاجلال والمهابة والاجلال ، فلم ارتب فى كسرى المدائن والايوان ، أو طور الحجى محتفا بنور الايمان) (86) . وكما طبق أبو حمو حفظ المرتبة على نفسه كذلك طبقها على أهل مجلسه من رجال دولته ومجالسيه (87) بل وعد الناس عامة ، كما نراه فى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، فان الضيوف

83) انظر فى ذلك قصة حدثت له مع أحد المرابطين الصوفية ، اذ غضب عليه أبو حمو لانه لم يبايعه ويقبل يده ثم عفا عنه لما علم مكانه من التصوف (انظر البستان : 174) .

84) البغية 1 : 142 .

85) انظر البغية 2 : 132 .

86) انظر البغية 2 : 114 و 174 .

87) انظر ما سبق ، ص 12 والحاشية رقم 2 .

فيه كانوا يجلسون « على مقاعد عينها الاختصاص ورتب بعضها فوق بعض المناصب » . (88)

والذى يستنتجه الناظر فى تاريخ أبى حمو أن أبا حمو كان يوجه جل اهتمامه الى الرجال الذين يعينونه فى تصريف أمور دولته ، من الوزراء والكتاب وأصحاب الاشغال والعمال والقضاة والقواد ، وأن هؤلاء كانوا اكثر من يتعامل معهم ويتصل بهم ويستأنس برأيهم، وقد كان أبو حمو حريصا منذ اليوم الذى بدأ فيه ملكه بتلمسان أن يختار كبار رجال دولته ، اذ يذكر أبو زكريا ابن خلدون ، انه فيه اختار وزيره وصاحب اشغاله وصاحب انشائه وتوقيعه وقاضيه (89) ، وكل هذا مما يضع الناظر فى حكم أبى حمو فى جو « بيروقراطى غير خاف » .

وقد اظهر أبو حمو بشهادة ابن خلدون ميلا الى «تحديد الحدود وترتيب الالقاب» (90) وهذا يعنى انه كان يختار لكل منصب من مناصب الدولة الرجل الذى يحمل من الكفايات ما يؤهله لملء المنصب المراد وضعه فيه . ولا يخبرنا تاريخ أبى حمو بشىء عن مدى تفرس أبى حمو فى الرجال الذين اختارهم لادارة دولته ، كما لا يخبرنا بالشىء الكثير عن العدد الكبير الذى لا بد كان متوليا لمناصب الدولة فى سنى ملك أبى حمو الاحدى والثلاثين ، ولكن مما نعرفه عن مجموعة صغيرة من رجال دولة أبى حمو ، نلاحظ أن أبا حمو لم يوفق فى اختيار معظم هؤلاء الرجال ، من الوزراء والعمال والقواد والسفراء والكتاب ، فانه اذا كان قد احسن اختيار عبد الله بن مسلم لوزارته، لما ظهر من اخلاص عبد الله له وشجاعته فى الدفاع عن بلده حتى الموت (91) ، فلقد اساء اختيار الحاج أبى عمران موسى بن على بن برغوث فى المنصب نفسه (92) لان هذا

88) البغية 2 : 40 .
89) انظر البغية 2 : 38 .
90) البغية 2 : 310 .
91) انظر العبر 7 : 123 — 127 .
92) انظر البغية 2 : 38 .

لـــم يظـــل عـــلى ولائـه له اثنا الاحتلال المرينى الثالث ، ولذلـــك فان أبا حمـو نفـــاه الى الاندلس عندمـا رجـــع الى تلمســـان (93) . قـــال ابن خلـــدون : « لاشعـــاره اياه لباس الوزارة ولـــم يعمـــل بمقتضاها » (94) واذا كان عامـــلا ابى حمو وولده المنتصر وأبو زيـان قـــد ظلا عـــلى طاعة والدهما أبى حمو (95) فان ابنه الآخر وعامله أيضا أبا تاشفين تآمر على كاتبه أبى زكريا بن خلدون وقتله (96) ، واستعان عليه هو نفسه بالعدو لاجل قتله (97) ، رغم انه كان أحب أولاده اليه وقـد اعطاه ولاية عهده ، وأطلق يده (سنة 776) على السيف والقلم والخراج والحكـــم فى دولته (98) . كذلك مر قبل كيف عصى سالم بن ابراهيم عامل أبى حمو على الجزائر أبا حمو وكاد يخرج عن طاعته (99) ، ولم يكن توفيق أبى حمو مع القواد احسن بكثير، فنحن نعلم أن أحدهم ــ وهو عثمان بن مسلم الزردانى ــ ابطن النفاق ضد أبى حمو وتسلم قيادة أحد جيوشه ثم انحاز الى عدوه (100) ، وان اثنين آخرين خاناه وتركاه الى عدوه أيضا وهما : وادقل (واتقل) بن عبو بن حمادن وسعيد بن تصاليت (101) فاضطر أبو حمو الى قتلهما بعد ان عاد من تشرده (102) ، وكذلك فعل بمحمد بن عمر البريطل (103) ، سفيره الى ملك المغرب وغيره أيضا (104) . أما يحيى بن خلـــدون كاتب أبى حمو الذى نعرف عنه قدرا أكبر من المعلومات ، الذى ارخ للسنوات الـتى

93) انظر البغية 2 : 274 .
94) البغية 2 : 274 .
95) انظر العبر 7 : 140 و 143 و 145 .
96) انظر العبر 7 : 14 .
97) انظر ما سبق : ص 10 .
98) انظر البغية 2 : 313 والعبر 7 : 139 .
99) انظر ما سبق ص : 18 ــ 19 .
100) انظر البغية 2 : 193 .
101) انظر البغية 2 : 161 و 240 و 254 و 269 .
102) انظر البغية 2 : 274 .
103) انظر البغية 2 : 274 .
104) انظر البغية 2 : 166 و 207 و 224 و 234 .

شهدها من ملك أبي حمو ، فانه انضم الى دولته معززا مكرما سنة 766 (105) . ولكن عندما حالت ظروف أبي حمو واستولى المرينيون على بلاده سنة 772 وهرب أبو حمو الى البادية ، لم يتمسك به ولم يعينه في محنته ، وانما فارقه « لخيالات سوداوية ونزعات شيطانية » (106) ، وعندما عادت أحوال أبي حمو فمالت الى الصعود ، رجع اليه يحيى سنة 776 ، وعبر عن ندمه على ما فعله معه في السابق « معترفا » بالذنب ، متبرئا من الاصرار ، مستقيلا العثار » (107) ، فغفر له أبو حمو زلته ، وعفا عنه ، واعاده الى خطته وسابق جرايته · (108)

فأبو حمو اذن لم يوفق في اختيار عدد غير قليل من رجال دولته ، وهذا لا شك أمر يعود الى قصور فراسته فيهم بالدرجة الاولى ، وان كان يمكن اعتبار تغير الاسياد ، والخوف الغالب من الاعداء والمصلحة المستحكم طلبها في النفوس ، اسبابا أخرى تنضاف الى قصور فراسة أبي حمو ، وتسهم في أن يكون عدد رجال دولته من غير اصحاب الكفاية لها · غير انه لا بد أن نلاحظ أن أبا حمو لم يكن رفيقا اجمالا فيمن يخون عهده ووظيفته ، وما فعله بوزيره أبي عمران وقواده هو أبلغ برهان على انه في نهاية المطاف كان يبقى مفاتيح أمور دولته بيده ·

هذا الدور الفعال لبيروقراطية الدولة ـ سلبا وايجابا ـ كان يقابله دور ساكن صامت لسائر الرعية في دولة أبي حمو · وكل ما نعرفه عنهم في هذا المجال ان أبا حمو كان يهتم بالرفق بهم واكرامهم والعطف عليهم في الازمات ، كما في حادثة المجاعة السابق ذكرها (109) ـ انه كان يقيم العدل فيهم : فيعقد لمظالمهم المجالس كل يوم بعد صلاة العصر ، وهذا مجلس وصفه أبو زكريا بن خلدون وصفا حيا فقال : « فاذا صلى العصر واقتعد سرير الخلافة ، فتحت الابواب ، واذن لهم فدخلوا لا يحويهم الكت

105) انظر التعريف بابن خلدون : 102 ـ 103 ، وانظر أيضا ازهار الرياض 1 : 238 .
106) البغية 2 : 238 ·
107) البغية 2 : 307 ·
108) انظر البغية 2 : 308 ·
109) انظر ما سبق ، ص : 19 ـ 20 ·

والحساب ، ثم اصطفوا شاخصة ابصارهم تجاهه ، يذكر مرآهم المعرض الاكبر ، فيقدمون اليه واحدا بعد واحد ، سواء في ذلك الشريف والمشروف ، والقوى والضعوف ، فينصب المظلوم ، ويعد المستجير ، ويهدى العائل ويرحم المسكين ، الى غروب الشمس ، سنة متصلة غير منفصلة ، وعادة مبتعدة لا تهمل » . (110)

اما فيما عدا ذلك فالرعية (باستثناء البيروقراطية الحاكمة) لا يكاد يكون لها وجود يرى أو صوت يسمع .

على ان أبا حمو خدم الرعية ـ في مجملها ـ عندما قام ببعض النشاط العمراني لاجلها الا ان الناظر في أنواع هذا النشاط يجده قليلا في مجمله ، كما يجده ـ في معظمه ـ متجها وجهة دينية نابعة من صلب اهتمام أبي حمو بالامور الدينية اجمالا واعراضه عن اللذات الدنيوية على اشكالها (111) . ولا يشكل استثناء عليها سوى تشييده لدار الصناعة السعيدة ـ ذات الفائدة الحربية ـ وهي دار جمع فيها الصناع على اختلاف صناعاتهم ، فكان العمل يقوم فيها على قدم وساق ، وتعرض منتجاتها مرتين في اليوم امام الخليفة ، وقد وصف الكاتب أبو زكريا ابن خلدون هذه الدار وصفا بليغا قال فيه :

« ... ان دار الصنعة السعيدة تموج بالفعلة على اختلاف اصنافهم وتباين لغاتهم وأديانهم ، فمن دراق ورماح وذراع ولحام ووشاء وصراج وخباء ونجار وحداد وصائغ ودباج وغير ذلك ، فتستك لاصواتهم وآلاتهم الاسماع ، وتحار في احكام صنائعهم الاذهان ، وتقف دون بحرهم الهائل الابصار . ثم تعرض قومتهم أصيلان كل يوم مصنوعاتهم فيه بين يدى الخليفة أيده الله ، ويخزن كل بحجار صنعه المعد له ، وينصف العاملين من ارزاقهم عدلا ، هكذا ابدا » . (112)

وكان مما اشتغل به أبو حمو من العمران الديني سنة 763 انشاء اكبر اثر بنياني تركه في تلمسان وهو المدرسة مع الزاوية التي بناها على قبر والده وقبري عميه

110) البغية 2 : 11 ـ 12 .
111) انظر الاحاطة 15 (مخطوط الرباط) 115 .
112) البغية 2 : 161 .

أبى سعيد وأبى ثابت . وقد عين أبو حمو الاوقاف والجرايات بها من العقار المنوع(113) وانفق عليها الاموال الكثيرة ، وضاعف بها عدد العمال ، واحضر لها احسن المغارس ، وأعلى بناءها ، ووسع ابنيتها ، واستجلب المياه ، ورسم فيها الخطط (114) . وعندما جهزت سنة 765 ، اصطفى لتدريس العلم بها الفقيه أبا عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسنى (771) (115) وكان افتتاح الاقراء بها فى 15 صفر سنة 765 ، فحضر أبو حمو الافتتاح ، وكان يوما مشهودا . (116)

والى نفس النوع من العمران الدينى ينتمى احتفال أبى حمو بالمولد النبوى احتفالا ليس له نظير . وقد احتفل به للمرة الاولى فى السنة الاولى من توليه سلطان تلمسان (سنة 760) ، فدعا اليه الخاصة والعامة من أهل تلمسان وحشد فيه الـوان الآلات الطريفة ، واسمع الكثير من الامداح النبوية ، وبعضها من تأليف السلطان نفسـه ، فتحدث الناس فيه (117) . وما لبث أن رتب السلطان لهذا الاحتفال كل سنة ، فصار من المناسبات التى يستعد التلمسانيون لها سنة بعد سنة ، ويتبارى الشعراء ومـن بينهم أبو حمو فى نظم القصائد والموشحات والمخمسات فى مـدح النبى بها (118) ،

113) البغية 2 : 104 .

114) البغية 2 : 136 .

115) انظر ترجمة الشريف الحسنى فى نيل الابتهاج : 255 والبستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان : 164 — 184 .

116) انظر البغية 2 : 136 .

117) انظر البغية 2 : 40 وما بعدها .

118) انظر امثلة من امـداح أبى حمو النبوية فى الواسطة : 167 — 174 والبغية 2 : 41 — 44 و 65 — 67 و 84 — 88 — 97 — 99 و 125 — 126 و 137 — 139 و 152 — 154 و 162 — 164 و 186 — 189 و 208 — 210 و 224 — 226 .

ومولديات أبى زكريا بن خلدون فى البغية 2 : 215 — 222 و 230 — 234 ونفح الطيب 6 : 510 — 513 و 515 — 517 .

ومولديات محمد بن يوسف الشغرى فى البغية 2 : 44 — 47 و 68 — 72 و 127 — 130 و 189 — 193 و 210 — 214 و 226 — 230 .

ومولديات الحاج أبى عبد الله بن أبى جمعة المعروف بالتلالى طبيب تلمسان فى البغية 2 : 47 — 49 و 72 — 75 و 100 — 101 و 139 — 142 و 154 — 155 و 164 — 166 .

وقد وصف أبو عبد الله التنسى هذا الاحتفال غير مرة ، فمما كتبه عنه فى كتابه « نظم الدر والعقيان فى شرف بنى زيان وذكر ملوكهم الاعيان » .

وكان السلطان أبو حمو يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم . ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم . يقيم مدعاة يحشر لها الاشراف والسوقة ، فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ، وشمع كالاصطوانات ، واعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان قد لبسوا اقبية الخز الملون وبايديهم مباخر ومرشات ينال كل منها بحظه ، وخزانة المنجانة ذات تماثيل لجين محكمة الصنعة ، باعلاها ايكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ، ويختله فيهما ارقم خارج من كوة بجذر الايكة صاعدا ، وبصدرها ابواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان كبيران ، وفوق جمعها دوين رأس الخزانة قمر اكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره فى الفلك ، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عقابان ، يفى كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر المجوف بوسطه ثقب يفضى بها الى داخل الخزانة فيرن وينهش الارقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبوه ، فهناك يفتح باب الساعة الذهبية ، وتبرز منه جارية محتزمة كاظرف ما انت راء ، بيمناها اضارة فيها اسم ساعتها منظوما ، ويسراها موضوعة على ما فيها كالمبايعة بالخلافة ، والمسمع قائم ينشد امداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دورا ، والرياض نورا ، وقد اشتملت من أنواع محاسن المطاعم على الوان تشتهيها الانفس وتستحسنها الاعين ، وتلذ بسماع اسمائها الاذان ، ويشره مبصرها للقرب منها والتناول ، وان كان ليس بغرثان . والسلطان لم يفارق مجلسه الذى ابتدأ جلوسه فيه وكل ذلك بمرأى منه ومسمع حتى يصلى هنالك صلاة الصبح . على هذا الاسلوب قضى ليلة المصطفى صلى الله عليه وسلم فى جميع أيام دولته ، وما من ليلة مولد مرت فى أيامه الا ونظم فيها

قصيدا فى مدبح مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أول ما يبتدىء المسمع فى ذلك الحفل العظيم بانشاده • ثم يتلوه انشاد من رفع الى مقامه العلى فى تلك الليلة نظما(119)

كذلك أقام السلطان أبو حمو احتفالا كبيرا سنة 770 لمناسبة ختم ولـده النـاصر لسورة البقرة (120) ، واحتفالا ثانيا مماثلا لمناسبة الختمة نفسها من قبل ولده الآخـر أبى زيان سنة 776 (121) ، دعا اليها ـ على حد تعبير أبى زكريا بن خلدون « الامـم عربها والعجم » (122) و « الاشراف والمشروف والرفيع والوضيع » (123) ، وحشـد فيهما أصناف المغنين وأرباب العزف والآلات الموسيقية بتلمسان، فاجتمع الناس بداره، وابتهجوا بالغناء على أنواعه ، وطعموا من ألوان الطعام العديدة المقدمة لهم عنده ، فكان هذان اليومان من الايام المشهودة • وهذان الاحتفالان أيضا مما يقع فى دائرة العمـران الـديـنى •

ومما يقع فى دائرة العمران الدينى أيضا قيام أبى حمو بالانعام على حجاج بيـت الله الحرام ، وتحميلهم قصائد الشوق الى النبى والى الحرم (124) • كما يقع فيه اتجاه أبى حمو الى العناية بمعالجة الموضوعات الدينية فى شعره الكثير ، حتى لم يكد يخرج هذا الشعر عن المولديات والتشوق الى النبى، وما الى ذلك (125) وقد فرض هذا الاتجاه

119) نقلا عن نفح الطيب 6 : 514 — 515 ، وقد اورد التنسى وصفا آخـر للاحتفال بالمولد النبوى فى تلمسان فى كتابه الآخر ، روح الارواح ، وقد نقله المقرى فى النفح 6: 513 — 514 •

120) انظر : البغية 2 : 223 •

121) البغية 2 : 313 •

122) البغية 2 :

123) البغية 2 : 310 •

124) انظر) الواسطة : 10 •

125) عرف لابى حمو غير اشعاره الدينية قصيدة فى رثاء والده (البغية 2 : 104 — 107) وقصيدة فى وصف مخاطرته حتى وصل الى تلمسان (الواسطة : 15 — 19) وأخـرى فى وصف مقاسياته فى المنفى بين سنتى 772 و 774 (البغيـة 2 : 264 — 268) وقصيدة فى مخاطبة وزير المغرب (البغية 2 : 156 — 159) وقصيدتان فى الفخر (الواسطة : 6 والبغية 93 — 95) •

فى الشعر نفسه على من اتصل بأبى حمو من شعراء عصره ، اذ نظم المولديات وما شابهها أشهرهم من أمثال محمد ابن قيس الثغرى كاتب أبى حمـــو ، وأبى زكريا يحـــيى ابن خلدون كاتبه الآخر ، ثم طبيب تلمسان ابن أبى جمعة المعروف بالتلالسى (126) وان لم يصرفهم هذا عن نظم الشعر فى مدح أبى حمو والاشادة بعمران تلمسان زمانه (127) وقد بلغت مجموع قصائد أبى حمو وقصائد الشعراء الذين مدحوه درجة من الكثـــرة تمكن معها أبو عبد الله التنسى من جمع كتاب كامل منها سماه (راح الارواح فيمـــا قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الامداح ، وما يوفـق ذلك عـــلى حسب الاقتراح) (128) وفى هذا دليل على نشاط الحركة الشعرية فى تلمسان زمن أبى حمو ٠

* * *

تلك كانت فصول التجربة السياسية لابى حمو ، ومنها يبدو لنا أبو حمو ملكـــا شجاعا مقداما شديد العزيمة يقظا صابرا عظيم المقدرة على الاحتمال ، رابط الجاش ، مقدما الكفاح فى سبيل البقاء فى سلطانه على كل شىء وهو أيضا ملك « موصـــوف برجاحة وسداد » (129) كما قال لســـان الدين بن الخطيب ، يعنى بجيشه فى سبيل الانتصار فى الحرب ، وبماله فى سبيل الاستقرار فى الملك والانتصار فى الحرب واعانة المجاهدين فى الاندلس معا ٠ كذلك هو رجل دولة من طراز رفيع ، لا يخلط بين مراتب الناس ، ولا يتصنع فيجعل نفسه كواحد منهم، بل يضل متسما بالوقار والهيبة ويعتنى باختيار يده اليمنى ـ رجال دولته فيخطىء ويصيب ولكنه لا يلقى بمفاتيح الدولـــة الى أحد غيره ٠ أما سائر الرعية فانه يحسن اليها ويعدل فيها ويرفق بها،ولكن لا يعيرها القدر الكبير من الاهتمام ، وان كان يحاول أن يخدمها ببعض العمران المتجه وجهة دينية أو حربية ، متعلقة بميوله الاصلية فى الاعراض عن الملذات الدنيوية ، والاهتمـــــام

---

126) انظر ما سبق ، ص 26 ، الحاشية رقم 1 ٠

127) انظر امثلة من هذه القصـــائد فى البغيـــة 2 : 10 — 19 و 45 — 49 و 96 — 97 100 — 101 — 107 — 109 و 114 — 122 — 125 و 143 — 145 و 287 — 296 و 296 — 299 و 311 و 313 و 315 — 325 و 329 ـ 333 ونفح الطيب 6 : 500 — 508 ٠

128) نفح الطيب 6 : 513 ٠

129) اللمحة البدرية : 107 ٠

بالاغراض الدينية • ولما أراد لسان الدين بن الخطيب أن يبين صفات أبى حمو قال فيـــه :

« هذا السلطان مجمع على حزمه وضمه لاطراف ملكه ، واضطلاعه بأعباء ملـــك وطنه ، وجره لدولة قومه ، وطلوعه بعادة قبيله ، عاقل حازم حصيف ثابت الجـــأش وقور مهيب ، جماع للمال ، مباشر للامور ، هاجر الملذات ، مشمر يقظ ••• ونبهت دولته ، وأتعب جيرته ، فهو ممن يشار اليه بالسداد » • (130)

وبعد : فان أبا حمو هذا كان أديبا مفكرا سياسيا ، وهو صاحب كتاب « واسطـة السلوك فى سياسة الملوك » الذى ضمنه نظرية السياسة فى الحكـم وهو موضـوع دراستنا فيما يـــلى : (2)

أما ان الكتاب لابى حمو ، فامر ليس فيه شك قط ، وأظن أن لسان الدين بن الخطيب عناه هو دون أن يسميه فى قصيدته السينية فى مدح صاحبه أبى حمو وذلك فى قوله :

أما سياستـك الـــتى أحكمتهـــا ورمـت بالتقصـــير رسطاليــــا
فلو أن كسرى الفرس أبصر بعضها ما كان يطمع أن يعدى سوسا(131)

كذلك ذكر الكتاب كل من يحيى بن خلدون (132) والمقرى (133) ، وكلاهما سمـاه « نظم السلوك فى سياسة الملوك » (134) ، وهو أمر مستغرب ، لان أبا حمو سماه ـ بنصه على ذلك « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » (135) ، وكذلك فعل لسان الـديـن

130) الاحاطة 15 (مخطوط الرباط) 115 ، ويذكر فى هذا المجال ان ابن الاحمر صاحب روضة النسرين وصف أبا حمو بالجبن والبخل ، (ص 17) ولكن هذا يحمل على محمـل التحامل لا غير (انظر صفحة 44 — 45 من الكتاب نفسه) .

131) البغية 2 : 290 والنفح 6 : 198 .

132) انظر البغية 2 : 8 .

133) انظر ازهار الرياض 1 : 249 .

134) انظر البغية 2 : 8 والازهار 1 : 249 ، واسقط ابن خلدون القسم الثانى من العنوان

135) الواسطة : 3 .

ابن الخطيب ، الذى شاهد الكتاب فى جملة هدية أبى حمو الى ابن الاحمر النصرى (136) مما يؤكد صحة اسمه كما وردت فى كتاب أبى حمو ٠

أما تاريخ كتابة الكتاب فلا نعرف سنة معينة له على وجه التدقيق ولكن الامــــر المؤكد انه كتب سنة 760 لان أبا حمو يتحدث فيه عن رحلته الى تلمسان واستقــراره ملكا بها تلك السنة (137) وقبل سنة 777 ، لان يحيى بن خلدون كان عارفا بوجـوده وهو يكتب تاريخه بغية الرواد » وهذا التاريخ ينتهى عن سنة 777 ٠ فاذا شاء الدارس أن يتلمس المزيد من التحديد لتاريخ كتابة هذا الكتاب ، فربما امكنه ان يحدد الفتـرة بين 771 و 777 ، لان واحدة من القصائد التى ذكرها أبو حمو بين قصائده فى كتابـه ذاك (138) انشدت فى الاحتفال بالمولد النبـــوى سنة 771 (139) ، وكان من عادات أبى حمو أن حمو ينظم قصيدة أو أكثر فى كل موسم (140) ، فاذا صح ان هذه القصيدة كانت مما نظمه خصيصا لذلك الموسم ، كان الافتراض بأن الكتاب ألف بعد سنة 771 (وقبل سنة 777) صحيحا ٠

وقد أوضح أبو حمو هدفه من كتابه هذا فى مقدمته عليه مبينا أنه كتبه ليتحف به ابنه وولى عهده ووارث مجده والخليفة ان شاء الله بعده ، ولاجل ذلك ضمنــــه « وصايا حكيمة وسياسة عملية علمية ، مما يختص به الملـوك وتنتظم بهـا أمورهــم انتظـام السلوك » (141) وهذا يعنى أن الفكر السياسى المسجل فى هذا الكتاب يحتوى عـــلى ما يمكن أن يكون ذا فائدة لابى تاشفين بن أبى حمو ، من بنى زيان ، يعيش فى القـــرن الثامن الهجرى ، ويتوقع يصير ملكا فى وقت من الاوقات ، فاذا توصـل بحـول اللـــه أن يصير ملكا ، كان الكتاب خير دليل له فى السياسة العملية والنظرية ٠ فهل نستطيع

---

136) انظر الاحاطة 15 (مخطوط الرباط) ، 115 ٠
137) انظر الواسطة : 13 — 14 ٠
138) انظر الواسطة : 172 ٠
139) انظر البغية 2 : 224 ٠
140) انظر النفح 6 : 515 نقلا عن نظم الدر والعقيان .
141) الواسطة : 3 ٠

أن نجد فى هذا ا لكتاب نظرية أصيلة لابى حمو تختلف عن نظريات المؤلفين الكثير فى السياسة من المسلمين ؟ أو بكلمات أخرى ٠ كم هو مقدار الاصالة فى نظرية أبى حمو السياسية ، اذا كانت هنالك لديه نظرية ؟

ان المدخل الاساسى للاجابة على هذا السؤال هو النظر فى المصادر التى استقى منها أبو حمو أقواله وفى مدى خطورة الاثر الذى تركته هذه المصادر ـ ان وجدت ـ فى أقواله ٠ وفى هذا المجال يطالعنا المقرى بنص اتهامى صريح يقول فيه ان أبا حمو بكتابه « لخص ٠٠٠ سلوان المطاع لابن ظفر ، وزاد عليه فوائد ، وأورد فيه جملة من نظمه ، وأمورا جرت له مع معاصريه من ملوك بنى مرين وغيرهم (142) فهذا القول يسلب أبا حمو الجزء ا لاكبر من « الاصالة » فى كتابة كتابه اذ يجعله الكتاب ـ فى جانبه الاعظم ـ تلخيصا لسلوان المطاع ٠ فهل كان الكتاب فعلا كذلك ؟

ان الناظر فى كتاب أبى حمو يلاحظ أن الرجل يميل الى عدم ذكر المصادر التى ينقل عنها فى كتابه ، ولكنه يلاحظ أيضا أنه ذكر ابن ظفر مرة عرضا ٠ وذكر كتاب سراج الملوك للطرطوشى مرة أخرى مصدرا صريحا له ٠ وهذا القولان يدلان على أن المؤلف لم يكن **يتعمد** اخفاء مصادره ، ولكنه لم يجد ضرورة لذكر هذه المصادر فى درج كلامه ٠ فاذا حاول الدارس أن يتتبع نقول أبى حمو نصا عن المصادر فى السياسة وما شابهها ـ **بقدر الامكان** ـ وجده ينقل عن أربع مصادر رئيسية ترتيبها بحسب كثر النقول عنها :

أ) كتاب سراج ا لملوك للطرطوشي (520) ونقل عنه فى 20 موضع على الاقل

	السراج	الواسطة
1) قصة الهرمزان وعمر	90	119
2) قصة معاوية وصعصعة بن صوحان وسؤال الاول عن عمر	98	120 ـ 119
3) قصة عمر والربيع بن زياد الحارثى	227 ـ 228	73

142) الازهار ١ : 249 ٠

	السراج	الواسطة
4) عمر بن عبد العزيز يتحدث عـــن الظلمـــة فى الاســـلام	263 ـ 264	121
5) عبيد الله بن مروان الحمار وملك النوبة	93 128	129
6) دوبان الحكيم والمامون	328 ـ 329	64 ـ 65
7) نظام الملك والصوفى أبى سعيد	217 ـ 218	164 ـ 166
8) المنصور بن أبى عامر والوزير المصحفى	303 ـ 304	117 ـ 118
9) المستعين بن هود وابن ردمير	302 ـ 303	116 ـ 117
10) قصة ملك بلدفور (بلد قوزانة)	211	125
11) قصة أحد الملوك وتفاضل المال والجيش	211	125
12) حديث قدسى عن العدل	255 ـ 256	119
13) حديث نبوى عن العدل	76	118 ـ 119
14) قول لوزياد فى المزارعين	208	78
15) قول لجعفر بن يحيى فى الخراج	208	78
16) فى أن العقل قسمان غريزى ومنتسب	113 ـ 114	22
17) حكمة للحكماء فى العدل	88	119
18) حكمة عن الاسد والثعلب والقيادة	299	78
19) تشبيه مكان الوزير بين الملك والرعية بالطبيب	120	34
20) تشبيه وزير السوء بالماء الصافى فيه تمســاح	120	34

ب) **كتاب العقد لابن عبد ربه** (328) ونقل عنه فى 7 مواضع :

	العقد	الواسطة
1) حديث عمر وأبى هريرة	46	74
2) عمر والحارث بن وهب	46	74
3) عمر وعمرو بن العاص	46 ـ 48	74 ـ 75
4) عمر ومعوية	48 ـ 49	75 ـ 76
5) عمر وأبو سفيان	49	76

6) خبر المامون والمرأة فى مجلس المظالم	28 ـ 29	85
7) حديث نبوى عن العدل	28	118

ج) **كتاب المنهج المسلوك فى سياسة الملوك** لعبد الرحمن بن عبد اللـه (القـرن السادس) ونقل عنه فى 7 مواضيع :

	المنهج المسلوك	الواسطة
1) خبر عمر مع والى حمص	118 ـ 119	76 ـ 77
2) القول فى الحسد وقصة خافان ملت الترك مع بهرام ملك الفرس	58 ـ 64	104 ـ 109
3) تشبيه الملك العظيم بثمانية اشياء	88 ـ 89	111 ـ 112
4) تشبيه المملكة بالبستان	89 ـ 90	112 ـ 113
5) الرعية والملـك	90 ـ 91	113 ـ 114
6) الملك والعـدو	91 ـ	114
7) نصائح عامة للملك (143)	91 ـ 92	114 ـ 115

د) **سلوان المطاع فى عدوان الاتباع** لمحمد بن ظفر المالكى ونقل عنه فى ثـلاث (3) مواضيـــع :

	السلوان	الواسطة
1) قصة الشيخ الفارسى والمامون	20 ـ 30	65 ـ 72
2) قصة وزير سابور	33 ـ 56	34 ـ 51
3) قصة حصن الاركن	61 ـ 80	89 ـ 103

143) كذلك أورد أبو حمو قصتى الشيخ الفارسى والمأمون ، وحصن الاركن ، وقـد وردتا فى المنهج : 81 – 85 و 76 – 81 على التوالى ، الا ان مؤلف المنهج نقلها عن ابن ظفر (انظر المنهج : 126) ، ولذلك يرجح ان أبا حمو نقلها من سلوان المطاع .

هذا بالاضافة الى مصادر أخرى ثانوية يصعب تحديدها بدقة ، ولا يفيد كثيرا الوقوف عليها ، لان النقل عنها جزئى فيما يتصور . (144)

والناظر فى نقول أبى حمو عن المصادر يلاحظ الملحوظتين التاليتين :

1 ـ ان كتاب ابن ظفر لا يشكل المصدر الرئيسى لكتاب أبى حمو من حيث عدد مرات النقل ، وان كان أبو حمو قد نقل عنه عددا كبيرا من الصفحات ، أكثر من أى كتاب آخر (28 صفحة من الواسطة) الا أن هذه الصفحات كلها لا تحتوى على غير قصص ثلاث ، وكلها مما نقله أبو حمو حرفيا عن السلوان ، وبذلك تكون دعوى المقرى أن كتاب الواسطة فى جانبه الاعظم تلخيص لكتاب السلوان دعوى باطلة .

2 ـ ان هذه النقول وغيرها مما لم احدد مصدره (145) لا تعدو أن تكون اما قصة تروى للتمثيل ، أو حكمة تذكر للاعتبار ، أو تشبيها يهدف الى تقريب القضية من الاذهان ، وأقل ما تكون بحثا فى مسائل مباشرة فى السياسة (مثل النقول الثلاثة الاخيرة عن المنهج المسلوك) ، وهذا يعنى أن أبا حمو لم يعتمد النقل عنها المصادر الا

---

144) من ذلك مثلا كتاب العقد الفريد للملك السعيد لابى سالم محمد بن طلحة القرشى النصيبى القاضى (ـ 602) فقد نقل عنه أبو حمو حديثا نبويا فى العدل (ص : 7 من العقد و 21 من الواسطة) . هذا فضلا عن ان بعض الاقوال التى فى كتاب أبى حمو يصعب تحديد مصدرها لشيوعها فى المصادر مثل القول (ص : 118) « فلا سلطان الا بجيش ، ولا جيش الا بمال ، ولا مال الا بجباية ، ولا جباية الا بعمارة ، ولا عمارة الا بالعدل » ، فقد وردت باشكال مختلفة ، منها بابدال كلمة « جيش » بكلمة « جند » فى سراج الملوك : 88 ـ 89 ، وباسقاط العبارة الرابعة فى الاقوال المنسوبة لاردشير (عهد اردشير : 16) وغير ذلك . هذا ومن المؤكد أن بعض النصوص الاخرى فى كتاب أبى حمو مأخوذة من المصادر مثل قصة خاتون أخت ملك الخزر (8 ـ 9) ، وقصة صاحب السحابة (24 ـ 25) وقصة المأمون مع ابن أبى حفصة (26) ، وقصة المنصور ومالك بن انس وابن أبى ذئب وابن سمعان (27 ـ 29) ، ولكن الاستدلال على المصادر التى اوردتها بنصوصها امر عسير ، ولا يؤثر فى أى استنتاج أساسى عن مصادر الكتاب .

145) انظر الحاشية السابعة .

فى نقاط جزئية جانبية ، وأن نقله ذاك لم يؤثر على بناء كتابه ، ولا على نظرية السياسة فى خطوطها العريضة ، بل كان عبارة تلمس لما فى المصادر وأخذ منها بمقدار ما يفيد هذا الاخذ فى تأكيد البناء الخاص والنظرية الخاصة ·

أما أن أبا حمو كان ذا تصور خاص لمبنى كتابه ، فأمر لا يرقى اليه الشك لانــه مبنى ذكره باقسامه الكبرى فى المقدمة بقــوله : « ورتبناه ترتيبا » وبوبناه تبويبا » ، وجعلناه على أربعة أبواب ···

الباب الاول : فى قواعد الملك والوصايا والآداب والحكم المرشدة الى طرق الصواب ·

الباب الثانى : فى قواعد الملك وأركانه وما يحتاج الملك اليه فى قوام سلطانه ·

الباب الثالث : فى الاوصاف التى هى نظام الملك وكماله وبهجته وجماله ·

الباب الرابع : فى الفراسة ، وهى خاتمة السياسة ، فهذه عدة الابواب (146) ·

عاد فحافظ عليه فى متن كتابه محافظة رقيقة جاعلا كل باب باستثناء الباب الاخـــير فى أربعة فصول :

فالباب الاول فيه أربع توصيات : الاولى الى الاتصاف بالعدل ، والثانية الى تغليب العقل على الهوى ، والثالثة الى حفظ المال ، والرابعة الى حفظ الجيوش والاجناد ·

والباب الثانى فيه أربع قواعد لحفظ الملك : قاعدة العقل ، قاعدة السياسة ، قاعدة العدل ، وقاعدة جمع المال والجيش ·

والباب الثالث فيه أربعة أوصاف محمودة للملك وهى الشجاعة والكرم والحلــم والعفو حتى اذا وجد أبوحمو أن هناك تداخلا فى الموضوعات بين فصل وفصل أو باب وباب أسرع الى الاشارة الى أن بعض هذا الموضوع أو ذاك قد مر من قبل ، كأن يقول (وقد ذكرنا لك ترتيب الجيش فى قاعة السياسة) (147) أو يقول « وقد قدمنا لك أنه لا ينبغى لك أن تخاطر بنفسك» (147)، أو يقول « كما أشرنا لذلك فى باب السياسة»(147) فهذا

146) الواسطة : 3 — 4 ·

147) الواسطة : 123 — 130 — 150 ·

وأمثاله (148) ، يدل على شدة وعي أبي حمو بالبناء الـذي اختاره لكتابه ورغبته في ألا يحتل ذلك البناء (149) ويؤكد أن أبا حمو بنى كتابه بناء على منهج تصور واضح في ذهنه ، فاذا أضفنا الى ذلك أن مبنى الكتاب لا يتفق مع أي مبنى لاي كتاب آخـــر وصلنا في السياسة ـ فيما وصل اليه اطلاعي ـ ادركنا اصالة الاطار العام لفكر أبو حمو السياسي واستقلاله من مؤثرات الخارجية التي كان يمكن أن تدخل على الكتاب من النقل عن المصادر ٠

وعندما يحاول الدارس أن يلتمس مـدى الاصالة في فكـر أبي حمو السياسي في تفصيلاته ، فانه لا يسعه الى أن يسجل النقاط التالية بالنسبة لكمية أخذه من المصادر وطبعتـــه :

1 ـ ان أبا حمو ينقل من أماكن متباعدة من المصدر الواحد ويدرجها في مكان واحد في كتابه (مثل ص : 78 ، فان فيها نقولا عن الطرطوشي ص : 208 و 299) ٠

2 ـ انه ينقل عن غير مصدر في مكان واحد من كتابه (مثل ص : 73 ـ 78 ، فان النقل فيها يتراوح بين الطرطوشي والعقد والمنهج المسلوك فالطرطوشي مرة ثانية) ٠

ـ انه ينقل قصة أو حكمة مذكورة في أحد المصادر تحت أحد الابواب فيضعها هو في باب آخر غير ذلك الباب (مثل قصة حصن الاركن ، فان صاحب المنهج المسلوك يوردها تحت باب المشورة ، فيما يوردها أبو حمو تحت باب الوزير) ٠

---

148) انظر مثلا الواسطة : 151 و 153 ٠

149) لقد استطاع أبو حمو على وجه الاجمال أن يحافظ على سلامة بناء كتابـه وعدم اصأبته في التكرار الكثير . ولكن وهناك نصا «طويلا» (ص 60 و 63) عاد فكرره حرفيا دون لزوم (ص 119 و 121) وهذا ـ فيما يبدو لي ـ ليس من عمل المؤلف وانما من اضطراب أوراق المخطوط الذي طبع عنه الكتاب . كذلك تكررت فقرات قصيرة عن دور الوزير وما هي الاشياء التي يشبه بها (ص 34) في ص 103 ، ولكن هذه لم تؤثر في بناء الكتاب . غير ان النص الوحيد الذي اصاب البناء بالخلل الحقيقي هو النص الطويل المذكور عن المنهج المسلوك (ص 111 و 115) . فهذا ادخل موضوعات منوعة غير ذات صيلة مباشرة بالموضوع الاصلي في النص .

4 ـ انه يعمل يد الانتقاء بشدة فيما يأخذه عن المصادر ، فيسقط منها أشياء كثيرة كان الدارس يتوقع أن يجدها لديه ، بسبب كثرة ورودها فى كتب السياسة المؤلفة قبل ، حتى لقد اصبحت « كلاسيكية » الورود هناك (ومن بينها مصادر أبى حمو نفسه) ، وذلك مثل الاستشهاد بالآيات القرآنية ، فان ورودها نادر جدا لدى أبى حمو بينما هو كثير جدا فى كتب السياسة الاخرى ، وكذلك الشان بالنسبة للحديث ـ وان كان أبو حمو يقوم بالاستشهاد به أكثر ، ومثل هذا طرق الموضوعات التى اصبحت «كلاسيكية» أيضا فى بعض الفصول المعينة من كتب السياسة ، مثل قسمة الوزارة الى وزارة تفويض ووزارة تنفيذ فان هذه لا وجود لها فى كتاب أبى حمو .

5 ـ وبالمقابل فان أبا حمو يعالج العديد من الموضوعات المطروقة كثيرا فى كتب السياسة معالجة جديدة ، مخالفة لمعالجة كتاب السياسة المسلمين وغيرهم لها ، وذلك بخاصة فى الابواب الاخلاقية ، فانها عنده لا تظل أبوابا أخلاقية وعظية صرفا وانما تلبس لباسا فلسفيا ، فالشجاعة تقسم الى اربعة اقسام : الشجاعة التى يصحبها الرأى والشجاعة التى لا يصحبها العقل ويصحبها الرأى ، والشجاعة المتوسطة والشجاعة التى لا يصحبها العقل ولا الرأى (ص : 129 ـ 135) ، والكرم يكون أيضا على اربعة انواع فى الملوك ، فمنهم من يكون كريما كرما متوسطا ، ومنهم من يكرم على رعيته دون نفسه وأهل بيته ومنهم من يكرم على نفسه وأهل بيته دون رعيته ومنهم من لا يكرم لا على رعيته ولا على أهل بيته (ص : 136 ـ 139) ، وكذلك الحال بالنسبة للحلم والعفو وغير ذلك أيضا .

6 ـ كذلك لا يكتفى أبو حمو بايراد الامثلة التى توردها المصادر على الافكار الرئيسية فى كتابه ، وانما يلجأ فى كثير من الاحيان الى ايراد أمثلة عليها من أحداث وقعت زمانه أو قبل زمانه بقليل ، ـ أحداث لم نجد أحدا غيره من كتاب السياسة يستفيد منها من حيث هو أنها تمثل عبرة يجب أن يعتبر السياسى أو الملك بها وذلك مثل حديثه عن لقاء أبى الحسن المرينى ، والطاغية الفنش وفى وقعة طريف (سنة 741) (ص : 132 ـ 133) وحديثه عن أبى تاشفين بن أبى حمو الاول الزيانى واخفاقه فى رد المرينى عن احتلال بلاده لانه فرط فى الجيش وعنى بجمع المال (ص : 125 ـ 126) وغير ذلك .

بل انه استشهد بما وقع له هو نفسه من احداث ، مثل تفرسه فى عبد الله بن عمر وزير ملك المغرب ورسوله اليه (سنة 761) مثلا على وجوب التفرس بالسفراء (ص : 158 ـ 160) ومثل رواية حكاية حاله عندما خاطر بنفسه من تونس الى تلمسان طلبا لسلطانه (ص : 13 ـ 15) مثلا على ضرورة المخاطرة فى سبيل السلطان . وهذا كله مما يدل على حسن استيعاب أبى حمو للمواقف والآراء التى يتحدث عنها ، بحيث ان التمثيل عليها من دون الرجوع الى المصادر ـ يجىء طبيعيا دقيقا معا .

فأبو حمو اذن نقل فى كتابه عن المصادر فى السياسة وغيرها عند العرب ، الا أن هذه المصادر لم تستعبده بل كان هو الذى يطوع مادتها بحسب حاجته اليها وتصوره لفائدتها ، فيأخذ منها ما يدخل ضمن اطار نظريته الخاصة فى السياسة بوعى شديد ليبرز به خطوط النظرية الخاصة ، فاذا عرفنا أن نسبة المنقول عن المصادر لا يزيد بكثير على خمس مادة الكتاب ، وأن سائر الكتاب من عمل أبى حمو نفسه بالضرورة ، أدركنا أن حظ نظرية أبى حمو السياسية من الاصالة كبير جدا ، وأن كتاب « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » خير ما يمثل أصالة هذه النظرية .

* * *

واذا شاء الدارس أن يتلمس السبب وراء هذا القدر الكبير من الاصالة فى نظرية أبى حمو السياسية ـ رغم توفر العديد من المصادر السياسية النظرية لديه وعدم تحرجه من النقل عن تلك المصادر حرفيا فى بعض الاحيان ـ فان عليه أن ينظر فى مدى العلاقة بين تجربة أبى حمو السياسية فى الواقع وحديثه النظرى عن السياسة فى ذلك كتابه . ذلك ان أبا حمو كان هو نفسه ملكا ، خلافا للغالبية العظمى ممن كتبوا فى السياسة قبله من المسلمين وغير المسلمين ، وكان قد شرع فى كتابه بعد انقضاء احدى عشرة سنة على توليه الملك ـ على الاقل ـ (760 ـ 771) ، فكانت قد توفرت له تجربة عريضة فى الحكم ، كان من الممكن أن تؤثر عليه وهو يصوغ نظريته عنه ، ومن خلال هذه التجربة ونجاح أبى حمو فى خوض غمراتها ، نشأ لديه شعور بالرضى عن الذات ، جعله يرى فى نفسه ما يمكن أن نسميه « الملك المثالى » فو يصرح فى أحد الاماكن من كتابه بعبارة ناصعة أنه الملك المثالى الذى يجب على الملك أن يقتدى به ،

وذلك فى قوله « فكذلك ينبغى لك أن تقتدى بكل أفعالنا ، ويؤل أمرك الى ما آل اليه مآلنا » (ص : 19) · وقد قام فى أماكن عديدة من كتابه بالنص على أن تصرفه هو التصرف السليم الذى على ابنه (أو على الملك) اتباعه ، فقال « وهذا يا بنى هو رأينا ··· فعلى هذا المنحى يكون سيرك ، فيرجى من الله خيرك » (ص : 5 و 7) وقال « نظمنا فى الشوق الى ··· المقـــام الشريف ··· قصيدة ··· فخذ يا بنى على هذا المثال ، وانسج على هذا المنوال » (ص : 10 و 11) ، وقال « واتبع آثارنا في القيام بليلة مولد النبى عليه السلام ··· » (ص : 167) ، كذلك استشهد غير مرة على القواعد السياسية الواجب على الملك اتباعها بما فعله هو من التصرفات الحميدة عندما كان فى السلطان ، فاستشهد بمخاطرته من تونس الى تلمسان على القاعدة القائلة ان المخاطرة فى سبيل السلطان هو الموقف الوحيد الذى تحمد فيه المخاطرة (ص : 13 ـ 19) ، واستدل على كيفية التفرس بالرسل من الملوك لاجل الاطلاع على خفايا النوايا لدى سلاطينهم بما فعلـه هـو ووزيره عبد الله بن مسلـم لـدى وصـــول عمـر بن عبـد الله وزيـــر المغرب اليها رسولا من قبل ملك أبى سالم المرينى (ـ 762) بل انه استغل كتابـــه مرات عديدة ليسجل فيه قصائد مـــن شعره فى مختلف الموضوعات الدينية وغـــير الدينية (ص : 5 ـ 7 و 10 ـ 11 و 15 ـ 19 و 167 ـ 174) ، مفتخرا بتلك القصائـد وحاضا ابنه على نظم مثلها اذا توفرت لديه الموهبة الشعرية (ص : 167) ، ومعتبرا أن القدرة على نظمها لمما يزيد الملك جمالا الى جمال وكمالا الى كمال (ص : 167) ·

والناظر فى تاريخ أبى حمو من ناحية وفى نظريته السياسية من ناحية أخرى يجد أن العلاقة بين تجربة أبى حمو السياسية فى الواقع ونظريته فى السياسة كما عرضها فى كتاب « الواسطة » علاقة وثيقة جدا ، تحددت فيها خيوط النظرية الى حـــد بعيد بمقدار ما كان الواقع يمدها به من أبعاد ، حتى ليكاد كتاب « الواسطة » أن يكون هو الوجه النظرى لما كان يطبقه أبو حمو فى الواقع ، أو لما كان يرغب أن يطبقه فى الواقع وأخفق فيه · ـ أقول « ليكاد » ، لان الكتاب يحمل دون شك أثرا آخـر ينضاف الى الواقع فى تكوين نظرية أبى حمو ، وهو الاثر الثقافى المستمد من الاطلاع ـ ولا أقول من المصادر التى نقل أبو حمو عنها ـ وقد ظهر هذا الاثر جليا فى مكان بارز من النظرية،

وذلك لدى اعتماد أبى حمو القاعدة الرباعية فى الحديث عن الناحية الخلقية للملك ، وفيما عدا ذلك ، فقد كان الواقع السياسى لابى حمو هو الذى يحرك نظريته فى كتابه ، فهذا الواقع هو الذى وجه بعض **تفصيلات تلك النظرية فى الكتاب** ، مثل اعتبار المخاطرة فى سبيل السلطان استثناء مرخصا منه للملك من بين سائر أنواع المخاطرة ، وهو الذى أثر فى **تركيب اقسام الكتاب** ، مثل غيبة المنظور البيروقراطى على أى منظور آخر لدى الحديث عن الرعية ، وهو الذى قرر **حجم الحديث عن الموضوعات المتعلقة بالنظرية** فى الكتاب ، مثل كبر حجم الاجزاء المخصصة للتحدث عن الجيش ودوره ضد العدو فى مقابل الحجم الصغير الذى يحتله الحديث عن العمران ، وذلك هو نفسه الذى حدد توزيع الموضوعات فى الكتاب ، بحيث اجتمع الحديث عن الجيش والمال فى فصل واحد غير مرة هناك ، ثم انه ، ـ وهذا هو الاهم ـ هو الذى قرر القاعدة الاساسية **التى ترتكز اليها نظرية أبى حمو السياسية** ، كما يجيء توضيح ذلك فيما يلى ·

* * *

وليس من السهل على قارىء كتاب «واسطة السلوك» أن يكتشف النظرية السياسية لابى حمو ، ذلك أن الكتاب ، وان كان واضح المبنى ، فانه متكلف التعبير ، متداخل الفقرات ، متشابك الموضوعات ، قد لا يدل عنوان الفصل منه على كل ما سيرد فيه ، بينما قد يرد فى العنوان ما يستأثر بجانب غير رئيسى مما قد يجيء تحته ، وقد يستغرق الحديث عن أفكار متعددة أسطرا معدودة ، بينما يستغرق التمثيل على فكرة واحدة صفحات عديدة ، ثم قد يتحدث فى المكان الواحد عن أمور عديدة بينما يتحدث عن الموضوع الواحد فى أماكن متفرقة ، هذا فضلا عن أن بعض الرقابة فى النغمة ، والتساوى فى المعالجة ، وكلاهما يجعل تمييز المهم من الاهم أمرا عسيرا · من أجل ذلك ، كان على الدارس الذى يريد أن يكتشف النظرية السياسية لابى حمو أن يتجاوز المبنى الذى أسس عليه كتاب « الواسطة » وأن يعيد بناءه بناء ذهنيا جديدا ذا بعد فكرى واضح المعالم · ولعل افضل ما يمكن للدارس أن يفعله فى هذا المجال ، أن يحاول تلمس المنطلق الفكرى الاساسى الذى ينطلق منه أبو حمو ، أعنى المنطلق الذى يدور حوله كل شيء آخر فى الكتاب ، فانه بهذه الطريقة يستطيع أن ينظم فرائد الكتاب

الموزعة فى عقد منتظم الفقرات ، ويخرج بالنظرية قائمة البنيان ، خالية من التداخل فى الافكار (150) ·

والمفتاح الاساسى الذى يمكن أن يقود الدارس الى اكتشاف منطلق أبى حمو الفكرى ، هو قوله فى مقدمته على كتابه أنه ضمن كتابه « وصايا حكمية وسياسية علمية عملية ، مما تختص به الملوك وتنتظم به أمورهم انتظام السلوك » (ص 3) · فالملك وانتظام أمره فى دولته هو هم أبى حمو الاكبر · فاذا انطلق الدارس من هذه النقطة ، وحاول أن يرى كتاب أبى حمو من خلالها ، فانه يخرج باستنتاج محدد يفيد أن نظرية أبى حمو السياسية ترتكز على قاعدة أساسية مؤادها أن الملك اذا وجد فى موضع الملك ، فان كل شىء حوله يمكن أن يؤثر فى مقدراته يجب أن يتحول لحمايته والمحافظة عليه واعزازه ونصره فى الداخل والخارج ، فى السلم والحرب · والشخص الوحيد الذى يجب عليه أن يدير دفة الاشياء بحيث تتجه فى صالح الملك هو الملك نفسه ، اذ هو المدار الذى تدور حوله كل الافلاك ، ومفتاح هذه الافلاك جميعها فى يده ، وما عليه الا أن يحسن ادارتها ووضعها فى مدارها الصحيح لكى تصير فى خدمة سلامته ودوام دولته ·

والناظر فى هذه القاعدة الاساسية لنظرية أبى حمو السياسية ، لا يسعه الا أن يلمح فيها أثر التجربة السياسية لابى حمو فى الواقع ظاهرا جليا · فان الصعوبة التى واجهها أبو حمو ابتداء فى الوصول الى السلطان ، وتعرض سلامته للتهديد غير مرة فى المعارك العديدة التى خاضها ، وطرده مرة بعد مرة عن سلطانه ، حتى لقد كان هذا السلطان يؤذن بالزوال ـ كل هذه العوامل كان لها أثر عظيم فى تظخيم اهمية سلامة الملك ودوام سلطانه لدى أبى حمو ، فكانت هى قبل أى شىء آخر الباعث الذى أملى

150) ترد معظم « عبارات » الكتب غير المنقولة من المصادر فى صيغة الخطاب ، وتبدأ بتعبير يا بنى ، والمقصود بهذا طبعا ولد ابى حمو الامير أبو « تاشفين » وقد رأيت أن استعمل فى الحديث عن الآراء المعبرة عنها بقالبها لفظ الملك لان المقصود بالمبادىء السياسية فى « الكتاب تربية ولى العهد الذى سيصبح ملكا ، ثم ان أبا حمو يستعمل لفظ الملك فى الخطاب احيانا لانه هو مدار تفكيره عامة » ·

على أبى حمو تصرفاته فى حياته السياسية ، كما كانت هاجسه الاكبر الذى فـــرض نفسه على نظريته السياسية ٠

وحيث كان الامر كذلك ، فقد أخذ أبو حمو على عاتقه أن يشرح للملك كيف يحافظ على نفسه وكيف يحرك الاشياء من حوله بحيث تساعده على البقاء فى ملكه ٠ فتعرض لجميع العناصر التى برهنت تجربته على أنها تؤثر فى مقدرات الملك ، وأوضح للملـك كيف يتصرف تجاه كل عنصر منها ، فتدوم له سلامته ويبقى سلطانه ٠ والناظر فيما تعرض له أبو حمو من هذه العناصر يجد أنها تقع فى خمس مجموعات رئيسية هى :

1 ـ خلق الملك ، وقاعدة النجاح فيها الالتزام بقواعد أخلاقية محدودة ٠

2 ـ رعية الملك ، والعنصر الفعال فيها يقوم على القاعدة البيروقراطية ٠

3 ـ ثم مال الملك ، ومن خلاله شرح أبو حمو القاعدة الاقتصادية للملك ٠

4 ـ ثم الجيش ـ العدو ، وكان أداء أبى حمو لتبيان القاعدة العسكرية للملك ٠

5 ـ ثم فراسه الملك الجارية فى جميع العناصر السابقة والمكونة القاعدة السيكولوجية للملـــك ٠

أما القاعدة المنسية فى كل هذا البناء ، فقد كانت القاعدة الحضارية المبنية عـلى العمران ، وتلك قاعدة لا يكاد يكون لها وجود فى سياسة أبى حمو النظرية ، نظـــرا لان تأثيرها المباشر على سلامة الملك ودوام سلطانه تأثير ضعيف جدا ، وهذا أمر ان دل على شيء يدل على أثر الواقع السياسى لابى حمو ـ مرة أخرى ـ فى تفكيره النظـــرى السياسى كما يؤكد ما ذهبنا اليه من تحـــديد للقاعدة الاساسية لنظرية أبى حمـــو السياسية ٠

* * *

1 ـ خلق الملك : القاعدة الرباعيـــة

يعتبر خلق الملك من القواعد الاساسية لنجاح الملك فى نظر أبى حمو ، وقـــد ورد فى كتابه العديد من الصفات التى يتطلب من الملك أن يتحلى بها ، منها ما هو دينى الصبغة مثل الديانة والتقوى وطاعة الله وذكره وحسن التسليم له وفعل الخير والعفة وعـــدم الاغترار بالدنيا أو الاستسلام للذاتها وشهواتها ، تلك الشهوات المفسدة للدين والعقل

(ص : 4 و 75 و 20 و 21 و 29) ـ ومنها ما هو أكثر عمومية مثل الصـدق والوفـاء بالوعد (ص : 19) ، ويتطلب أبو حمو من الملك أن يكون حييا ، وقورا ، مهيبا ، لا يكثر من الدخول الى الحمام ، ولا يسرف فى الضحك بل يكتفى بالابتسام ، ولا يكثر مـن الكلام وانما يؤثر عليه الصمت ، ولا يستخفه اللعب فى الميدان فيتزيد فيه ويخـرج بذلك عن الاتزان المطلوب منه (ص : 4 و 7 و 19 و 20) • وهو يحذره من أن يتصـف بالعجب وخبث السريرة والشكر لنفسه والمخالفة لنصحه ، اذ هذه صفات تؤديه مؤدى الهلاك (ص : 4 و 5 و 20 و 122) • ونظرا لان الملك يتولى منصبا سياسيا فان هنـاك صفات كبرى تتعلق بوظيفته لابد من توفرها فيه حتى ينجح فى المحافظة على ملكـه ، صفات على رأسها العقل والعدل الشجاعة والحلم والكرم والعفو ، بما ينضاف اليها من الحزم وحسن التدبر للامور والفكرة والروية والعشـورة واليقظـة وعـدم الغفلـة (ص : 4 و 5 و 7 و 21 و 23 و 129 و 139) •

وقد كان أبو حمو يتحدث عن هذه الصفات حديث العارف بقيمتها ، الا أن تجربته فى الواقع لم تكن وحدها هى التى جعلته يتحدث عنها ، وانما كان لثقافته فى الاخلاق يد فى التوقف عندها • وهذا أمر يجد الدارس دليلـه فى أمريـن الاول : فى تمييـز أبى حمو الضمنى بين فضائل ثانوية يستحسن أن يكون الملك متصفا بها وفضائـل كبرى من الضرورى أن يكون الملك متخلقا بها ، والثانى : فى كيفية معالجة أبى حمـو لهذه الفضائل الكبرى فى كتابه • أما التمييز بـين الثانوى والضرورى فهو واضـح فى عدم تخصيصه الحديث فى فصول مستقلة سوى لفضائل العقل والعدل والشجاعـة والكرم والحلم والعفو ، وأما كيفية معالجة لهذه الفضائل الكبرى فهو باقامتها على القاعدة الفلسفية الرباعية فى الاخلاق ، تلك القاعدة تنص على ارجاع أصول الاشياء الى ثلاثـة عناصر يجمعها كلها عنصر واحد ، فتكون النتيجة وجود أربعة عناصر أساسية لهـا • وهذه الفكرة مستمدة من نظرية أفلاطون فى الفضيلة • اذ يرى أفلاطـون أن هنـاك ثلاث فضائل كبرى تقابل القوى الثلاث للنفس الانسانية : هنالك الحكمـة والشجاعة والعفة ، وهذه كلها اذا اجتمعت معا حققت الفضيلة الرابعة وهى العدالة ، وقد استغل المفكرون المسلمون هذه النظرية فى ميادين مختلفة ، فأخذها قدامة بن جعفر (ـ 326)

وطبقها على النقد الادبى معتبرا أن الشعر يدور حول هذه الفضائل الكبرى ومتفرعاتها ان كان مدحا وحول نقيضاتها ان كان هجاء، وانه لذلك لا يتعدى القاعدة الاخلاقية (151) وجعل مسكوية (ـ 529) هذه الفكرة محورا لفلسفته الاخلاقية مازجا بينها وبين نظرية ارسطوطاليس فى اعتبار الفضيلة وسطا بين طرفين (152) • وترددت هذه الفكرة عند كثير من مفكرى المسلمين حتى كادت تصبح عامة •

وقد تناول أبو حمو هذه القاعدة وطبقها على علم السياسة فى نطاق الاخلاق (وكذلك كان غرض واضع هذه النظرية وهو أفلاطون ، أعنى تطبيقها قبل كل شىء على الصعيد السياسى) ، ولعله أول من استوحى ما جاء فى الوصية المنسوبة الى ارسطوطاليس يوصى بها الاسكندر ، كما سوف نرى وقد سيطرت هذه القاعدة الرباعية على أبى حمو بشكل ظهر واضحا فى كتابه كله ، وليس وحسب فى حديثه عن الفضائل الكبرى ، فبنى كتابه نفسه على أربعة أبواب ، وقسم كل باب ـ باستثناء الباب الاخير ـ الى أربعة فصول ، وعندما جاء ليتحدث عن كل فضيلة من الفضائل الكبرى جعلها تقع فى أربعة احتمالات ، وهذا بالذات هو الذى يهمنا فى هذا المقام •

وأولى الفضائل التى تحدث عنها أبو حمو فى فصل خاص وتطلب وجودها ضرورة فى الملك كانت فضيلة العقل ، وقد مدح فى مطلع الفصل العقل ، واستشهد على فضله بحديث قدسى وأحاديث نبوية وأقوال للصحابة والتابعين (ص : 23) ثم قرر انه بالعقل يكتسب الفضائل وتجتنب الرذائل « (ص : 23) وانه بالعقل » يجمع بين الدنيا والآخرة (ص : 23) • ومن ثم كان العقل ـ سواء كان غريزيا أم مكتسبا (ص : 22) ـ من الضرورات اللازمة للملك ، تجعل خاتم الملك فى يده دون غيره (ص : 23) •

وبعد ذلك قسم أبو حمو الملوك بحسب العقل الى أربعة اقسام : ملك له عقل يصلح به دنياه واخراه ، وملك له عقل يصلح به دنياه دون آخرته ، وملك له عقل يصلح به أخراه دون دنياه وملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا آخرته (ص : 23)

---

151) انظر الشعر : 29 ـ 31 •

152) انظر : تهذيب الاخلاق : 16 •

وعلامته أن يكون الملك فيما بينه وبين نفسه حسن السريرة وأن يكون مع رعيته حسن السيرة ، مؤثرا عقله على هواه ، محبا لرعيته ما يحبه لنفسه ، وهذا العقل اذا توفر فى الملك • يبقى ذكره بعد أن يموت ، ومثاله بين خلفاء المسلمين عمر بن عبد العزيز (ص : 23 ـ 24) • اما الملك الثانى فان عقله غير تام ، تصلح به دنياه دون آخرته ، وهذا يرشد الملك الى حسن السياسة مع الرعية فتحبه الرعية وتأنس به ، وتعمل على بقاء مملكته ، ومثاله ملوك الفرس من العجم وأبو جعفر المنصور من المسلمين (153)، فانهم أقاموا سياسات عظيمة ، لكنهم اضاعوا فى نهاية الامر اخراهم (ص : 26 ـ 29) اما الملك الثالث فانه ذو عقل ناقص يجعل الملك ينصرف الى العبادة والزهادة فيهمل أمر رعيته ودولته ، فتسود الفوضى فى دياره ، ولا يلبث أن يملك عليه عدوه بلاده فيكون قد تعجل هلاكه بيده ، أما الملك الرابع فانه يسيىء الى الدين والرعية وينصرف الى الملذات ، فلا يلبث الناس أن يزيلوه عن ملكه قهرا ، ومثاله بين خلفاء المسلمين الوليد بن يزيد والامين بن الرشيد (ص : 29 ـ 31) • وقد نصح أبو حمو الملك أن يكون فى عقله مثل الملك الاول ، حتى ينال الآخرة الى جانب الدنيا •

ويشكل « العدل » الفضيلة الكبرى فى فضائل الدنيا لدى أبى حمو ، ولذلك يورد عددا كبيرا من الاحاديث والحكم فى شأنه مؤداها جميعا ان العدل هو الضمان الاكبر لدوام المملكة ، بل انه يبدأ كتابه كله بقوله : « اعلم يا بنى ان العدل سراج الدولة فلا تطف سراج العدل بريح الظلم ، فان ريح الظلم اذا عصفت قصفت ، وريح العدل اذا هبت ربت ، ومن شروط الامارة العدل فى الاحكام » (ص : 4) ، فالعدل « أسس الدولة ••• ورأس السياسة ومدار الرئاسة » (ص : 119) • ثم يعود فيجعل العدل ضمانا لحياة الملك نفسها : « يا بنى من تدرع بدرع العدل وقى شر العدى ومن تلبس الجور سقى كأس الردى » (ص : 5) ، فالعدل خير من ماء الحياة ، وهو كنز الامير الذى لا يفنى (ص : 5) ، والاساس الذى يقول عليه الملك كله ، وقد قالت الحكماء « الملك بناء والعدل أساس ، فاذا قوى الاساس دام البناء ، وان ضعف الاساس انهار البناء ،

153) اعتبار أبى حمو أبا جعفر المنصور ممن نالوا الدنيا دون الاخرة أمر يستدعى التوقف ويحير القارىء اذ لا يكاد يجد له سببا مفهوما •

فلا سلطان الا بجيش ولا جيش الا بمال ، ولا مال الا بجبايا ، ولا جبايا الا بعمـــــارة ، ولا عمارة الا بالعدل » (ص 118) ٠

وعندما حكم أبو حمو القاعدة الرباعية في العدل قال ان الملك يكون بالنسبـة الى العدل مراعيا اما لنفسه وخاصته ورعيته ، أو مراعيا لخاصته وأقاربه دون رعيته ، أو مراعيا لرعيته بخاصة ، أو تاركا للعدل في جميع الاحـــوال (ص : 119 ــ 121) ٠ وأفضل الملوك من أقام العدل في نفسه وخاصته ورعيته ، ومثاله بين خلفاء المسلمـين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، وبهما يجب ان يقتـــدى الملـــك دائمـــا (ص : 119 ــ 120) ، اذ من العدل أيضا أن يقام العدل على جميع الناس دون استثناء ٠

ويختلف العدل عن العقل في انه لا يعالج هو وحده على أساس القاعدة الرباعيـة وحسب ، بل تعالج فضائل أربع أخرى هي : الشجاعة والكرم والحلم والعفو عـلى أساس صلتها بالعدل بطريقة أو بأخرى ، بعد ان تكون كل واحدة منها قد عولجـــت ببناء على القاعدة الرباعية ذاتها ٠ وانما كان ذلك كذلك الآن للعدل صلة أساسيـــة بالتوسط أو الاعتدال ، فضلا عن المساواة في المعاملة ، وكلا المعنيين ظهر في معالجـــة أبي حمو للفضائل الاربع المذكورة ٠

أما الشجاعة فان أبا حمو مدحها بشدة في مقدمة الفصل الذي خصصه لها قائـلا : « انهـا وصـف محمـود وبهـا يتفاخـر الوجـود » (ص : 129) وجعلهـا مقترنـــة بالكـــرم ، متجافيـــة عـــن البخـــل : « واعلـم بأن الشجاعة والكرم اخوان ، كما ان الجبن والبخل اخوان ، ودليلهما ان الشجـــاع يجـود بنفسه بنفسه فاحـــرى أن يجود بماله ، والبخيل يبخل بماله فكيف يجود بنفسه » (ص : 129) ٠ وقد جعل الشجاعة بحسب القاعدة الرباعية اما شجاعة يصحبها رأى وعقل (ص : 129 ــ 130) واما شجاعة لا يصحبها عقل ويصحبها رأى (ص : 134) واما شجاعة غـير مفرطـــة (ص : 135) واما شجاعة لا يصحبها رأى ولا عقل « فهي في الحقيقـــة هـــور » ، (ص : 135) ٠ وهذا التقسيم الرباعي غير متوازي الفقرات تماما ، وأبو حمو يـــرى أن الاقسام الثلاثة الاولى منه مفيدة للملك ، من دون القسم الاخير ، وهـذا يعني نفي التطرف والدعوة الى التوسط أو العـــدل ٠

وأوضح من فضيلة الشجاعة اقترانا بالعدل فضائل الكرم والحلم والعفو ، اذ ان أبا حمو - خلافا للمعتاد لدى كتاب السياسة من المسلمين - لا يرى أنها من الصفات الواجب توفرها - هكذا على الاطلاق - فى الملك وانما يرى اقامة العدل فى استعمالها شرط أساسى لكونها مستحبة أو مستهجنة لدى الملك . وهو يقسم كل واحدة من هذه الفضائل الى أربعة اقسام ، فيرفض ثلاثة منها ، ويستبقى واحدة ، مقررا أنها تمثل « المعادلة » التى يجب على الملك ان يحرص عليها عندما يتمتع بتلك الصفة .

أما بالنسبة الى الكرم فان الملوك تنقسم بالنسبة له الى أربعة اقسام هى نفسها الاقسام الاربعة - حرفيا تقريبا - التى وردت فى « الوصية الى الاسكندر » اذ كانت الوصية « الملوك الاربعة : ملك سخى على نفسه سخى على رعيته ، وملك سخى على نفسه لئيم على رعيته ، وملك لئيم على نفسه لئيم على رعيته ، وملك لئيم على نفسه سخى على رعيته » (154) فان هذا يوازى تماما ما قاله أبو حمو ان الملوك اما ملك كريم على نفسه ورعيته ، أو ملك كريم على رعيته دون نفسه وخاصته وأهل بيته ، أو ملك كريم على نفسه وأهله دون رعيته ، أو ملك لا يتكرم لا على نفسه أو على خاصته ولا رعيته (ص : 136 - 137) . وبذلك يكون الكرم احيانا فى موضع الذم وأحيانا فى موضع المدح ، ويكون أبو حمو متبعا لنظريته اليونانية فى الاخلاق معدلا فى الاتجاه العام لدى كتاب السياسة المسلمين فى تطلب الفضائل الكبيرة مطلقة دون قيد فى الملوك أو من نزل منازلهم . فصيح ان الكرم بالنسبة لابى حمو محمود والبخل مذموم (ص : 136) الا ان الملك الذى يكون كريما على رعيته دون نفسه وأهل بيته أيضا مذموم، كذلك الملك الذى يكرم على نفسه وأهل بيته دون رعيته (ص : 137)،ولا يحسن كرم الملك الا اذا كان الملك عادلا فى توزيعه بين نفسه وأهل بيته ورعيته ، متوسطا غير مسرف ولا مفرط فى الانفاق فى دربه (ص : 136) . اذ ذاك يكون الكرم وسيلة الملك الى قلوب الناس ، فتحبه النفوس وتميل اليه القلوب وتخضع الرؤوس ، قال أبو حمو « فى الحديث : جبلت القلوب على حب من أحسن اليها ، وبغض من أساء اليها ، والاحسان

---

154) كتاب السياسة فى تدبير الياسة المعروف بسر الاسرار ......
73/فى كتاب الاصول اليونانية للنظريات السياسية فى الاسلام) .

أملك شيء للانسان » (ص : 136) ٠ والملك اذا كان كريما ، عادلا فى كرمه ، يهـــرع الناس من جميع الافاق ، ويكثر أنصاره ، وتتوافر جنده ، ويعظم مجده ، ويقل معانده ٠ ويقهر حاسده ، وتتسع أوطانه (ص : 136) ٠

وموقف أبى حمو من الحلم يشبه موقفه من الكرم ، فهو يعترف بأنه مـــن الصفات الحميدة (ص : 137) الا أنه يرى أنه لا يكون صحيحا الا اذا طبقه الملك على رعيتـــه وخاصة ، « لان من العدل المساواة فى الاحكام بين الخاص والعام » (ص : 138) ، أما اذا اضطرب الحكم لدى الملك فانه يكون « من طبع المجانـين » (ص : 139)، وكذلك اذا اختل حلمه بـين حلم على الخاصة وحدها حينا، وحلم على العامة حينا آخر (ص : 138 ـ 139) ٠

والعفو أيضا فى نظر أبى حمو من الصفات المحمودة المطلوب توفرها لدى الملـــك فى معاملته للرعية (ص :139) ، الا أنه اذا كان موجها الى من لا يستحق العفو فهـــو مذموم (ص : 141) وكذلك اذا كان موجها الى من يستحق العفو ومـن لا يستحـــق العفو (ص : 140) ، واذا ظهر بشكل تخفيف عام للاحكام على الناس فيكون الملـــك لا تاركا للعقوبة ولا مفرطا فيها (ص : 140) وانما يجب على الملك أن يعفو عمن يستحق العفو ويعاقب من يستحق العقوبة (ص : 139) ، فيكون بذلك محققا للعدل فى العفـو قبل كل شيء ٠

هكذا كان موقف أبى حمو من الملك فى ناحية الخلق وما يلحق به ، نصح بالتحـــلى بالفضائل الدينية والدنيوية ، وتحضيض على الالتزام بفضيلتى الدين والدنيا ، العقـل والعدل ، وما يلحق بهما من فضائل هى الشجاعة والكرم والحلم والعفو ٠ فاذا اتبـــع الملك هذه الفضائل والصفات نجح سعيه ودام ملكـــه ٠

غير أن هناك صفة أخرى يمكن أن تلحق بخلق الملك ويتطلبها أبو حمو فيه لمكانـــه من الملك ، تلك هى صفة السياسة ٠ وانما نعلم أهميتها فى نظرية أبى حمـــو لانـــه افردها بفضل خاص مثل سائر الفضائل الخاصة بالدنيا من دون الآخرة ويقصد منها تلين قاعدة العدل بحيث تتميز بالمرونة الى جانب اصابة الحق ٠ والمرء يجد آثـار تقرير الالتزام بها فى حديث أبى حمو عن العفو نفسه ٠

فالعفو السليم في نظر أبي حمو لا ينحصر في فضيلة العدل ، بحيث يعاقب مستحق العقوبة ويعفو عن غير مستحقها ، ولكن يجريه الملك « على حساب الاوقات والاشخاص والطبقات » (ص : 139) ، ويكون ذلك بأن ينظر في الظروف المحيطة بالقضية المطروحة أمامه وفي الشخص المتعلقة به هذه القضية ، فيدرسها جميعا جدا ، ثم يقرر ما اذا كان يريد أن يعفو أو يعاقب ، بحسب المصلحة الدنيوية المتوخاة لا حسب الامور الاخروية ، فرب شخص يستحق العقوبة فيعفى عنه وآخر لا يترك ويستقص منه » (ص : 139) ، ويستدل على صحة هذا بقوله « فانا قد رأينا أصحاب الجرائم العظام ، التي لا يحب فيها الا الحمام يجلبهم العفو الى الاذعان · ويقودهم ما تعودوه من الامان ، فلو بذلت لهم الاموال ، وأعددت لهم الحماة والابطال لما قدرت عليهم ولا توصلت اليهم » (ص : 140) ·
من هنا ، فان أبا حمو ، بعد أن يقرر أن هناك ثلاث جرائم لا يسع الملك أن يعفو عنها وهي هتك الحرم وافشاء السر المكتم والقدح في الملك ، ويقول ان جزاءها القتل بلا خوف (ص : 129) لا يلبث أن يستدرك فيقول : « يا بني لا تبق على مثل هذا الا أن يكون في الابقاء عليه مصلحة عامة » (ص : 139) ·

ويبدو أن ماهية «المصلحة العامة» في نظر أبي حمو أمر يقرره الملك ، ونظرا ان هذه المصلحة تختلف من رجل الى رجل ومن ظرف الى ظرف ومن فئة من الرعية الى فئة غيرها منها ، فان على الملك أن يقرر في كل حال على حدة ما هو التصرف المناسب الذي يجب أن يتصرف على هديه ، فيكون « كالطبيب الماهر الذي يعرف الاعراض فيعطي الادوية على حسب الامراض » (ص : 86) · وذلك بحق هو أساس صفة السياسة التي يجب على الملك أن يعامل الرعية على أساسها فان تعريفها هو الجري مع الناس (155) « وفق زمانهم وأغراضهم وأوقاتهم وطبائعهم وطبقاتهم » (ص : 86) ، قال « ومن حسنت سياسته عظمت رياسته » (ص : 31) ·

155) اذا رجع الدارس الى تجربة أبي حمو السياسية ، محاولا ان يحدد من خلالها الدور الذي قامت به الرعية في التأثير على مقدرات أبي حمو ، فانه يجد هذا الدور معدوما أو شبه معدوم ، لا يظهر له أثر الا في الازمات الكبرى ، كما حدث في المجاعة الكبرى ·

2 ـ **رعية الملك : القاعدة البيروقراطية سنة 776 (156)** · كذلك اذا رجع الى تاريخ بى حمو وحاول أن يستكشف صلة أبى حمو برعيته ـ بالمعنى العام ـ فانـه واجـد الا صلة هناك بينه وبينهم الا فى مجالس المظالم (157) ، وهذه ـ على كثرة وقوعها بحسب قول أبى زكريا ابن خلدون ـ لا تعدو أن تمثل ظاهرة واحدة وحسب · فئة واحدة من الرعية كانت واضحة المعالم فى تاريخ أبى حمو ، وتلك هى الفئة التى كانت شديدة التأثير على مقادير الامور فى دولته ، أعنى بها فئة أصحاب الدولة · من الوزراء والكتاب وأصحاب الاشغال والعمال والسفراء والقواد (158) فان تعامل أبى حمو معهم كان دائما ، وظهورهم فى تاريخه مستمرا ·

هذا الوضع فى واقع التجربة السياسية لابى حمو انعكس على معالجة أبى حمو لموضوع الرعية فى نظريته ، اذ استأثرت « بيروقراطية الدولة » بالحديث ، فلم ينل سائر الناس منه سوى النزر اليسير ، اذ لم يتوقف الا قليلا عند العامة والدهماء من بين أفرادها لا لشىء الا ليصرح الا بسوء ظنه فى عقولهم وأغراضهم وطبائعهم الاصلية « المجبولة على الفساد وعلى اتباع الاهواء وقلة السداد » (ص : 87) ، ويذكر أن الغالب عليهم « الشرار والهرج والاضرار » (ص : 87) · وهذا التمييز فى الاهتمام يشير الى أن أبا حمو لا يعينه من الرعية ـ فى النظرية كما فى الواقع ـ غير الاشخاص الذين يؤثرون فى تسيير مقدرات الملك ، والذين للملك علاقة مباشرة بهم ، وواجبات معينة عليه مراعاتها لدى تعامله معهم ، وهذا أمر يزداد يقينا عندما نرى أن هناك تمييزا فى العناية بين أفراد الفئة الواحدة بحسب وثوق علاقتهم بالملك وكثافة تعاملهم معه ، اذ يستغرق الحديث عن الوزير أضعاف ما يستغرقه الحديث عن ا لقضاة ، والحديث عن الجلساء أضعاف الحديث عن العمال · كذلك يلاحظ أن أبا حمو لا يعنى بالحديث عن كل فئة من فئات الرعية الا من زاوية وجودها وصلة الملك بها ، وليس من زاوية صلتها هى بالملك ، ولذلك خلا كتابه من أى ارشادات لفئات الرعية عن كيفية

156) انظر ما سبق ، ص : 19 ·

157) انظر ما سبق ، ص 22 ·

158) انظر ما سبق ، ص : 20 ·

التصرف مع الملك (كما هو الحال فى بعض كتب السياسة لدى المسلمين) ، بل كـــان الامر دائما يدور حول الملك ، اذا وجدت لديه رعية : كيف يتصرف هو معها • وفى هذه الملاحظات كلها دليل أكيد على أن الرعية فى مفهوم أبى حمو النظرى ـ مثلها فى واقعه العملى ـ هى فلك يدور حول الملك ، وأن الاهتمام بها متأت من صلتها بالملك حتى لكأن وجودها نفسه متوقف على وجود الملك •

ولقد صرف أبو حمو القسط الاكبر من عنايته الى تحديد الرجال الذين يكونـــون بيروقراطية الدولة ، محددا معالم كل واحد منهم تحديدا واضحا ، وشارحا الدور الذى يلعبه فى الدولة ، ومن ثم مبينا الصفات المطلوب توفرها فيه لملء الوظيفة المنوطة بـــه ، وقد عددت من أعضاء هذه الفئة احدى عشرة جماعة هى : الوزراء والجلساء وكاتب السر وكاتب الاشغال وفقيه الدولة وقاضيها وعمالها وصاحب شرطتها وصاحب الحسبة بها ، ثم أعوان الملك • ورغم أن أبا حمو عد فى درج الحديث أيضا « القواد » فقد رأيت أن أضم الحديث عنهم الى الجيش ، حيث يرد ذكرهم لدى أبى حمو مرة ثانية • وهذه الفئات مـن البيروقراطية فى نظرية أبى حمو كانت ولا شك انعكاسا لفئات البيروقراطية فى واقعه عندما كان فى الحكم ، ولعل من المفيد هنا أن نذكر بما مر من أن أبا زكريا بن خلدون ابتدأ حديثه عن دولة أبى حمو بتحديد هويـة وزيره وكاتبـــه وصاحـب أشغالـــه وقاضيه (159) •

لنذهب الآن الى كتاب « الواسطة » ولنر ما هى الصفات التى يراها أبو حمو متطلبة فيمن يحتل كل منصب من تلك المناصب ، حتى تسلم الدولة ومعها يسلم الملك ويستمر سلطانه ، فان المسؤول عن اختيار رجال الدولة هو الملك وحده دون غـيره •

(1) أما **الوزير** فانه يحتل أعلى مراتب الدولة فى تصور أبى حمو ، وهو يمثل أكثر الناس تأثيرا فى قدر الملك ، ولذلك يشغل الحديث عنه أكبر قدر من المكان بين سائـــر موظفى الدولة (ص : 32 ـ 60) • ويرى أبو حمو أن على الملك أن يختار « وزيرا كبيرا خطيرا ، بالامور بصيرا » (ص : 32) ، يكون محتويا على ثمانية خصال (رباعية مزدوجة)

159) أنظر ما سبق ، ص : 21 ، والحاشية رقم 2 •

هى : أن يكون من خيار قومه وعشيرته ، فيتنزه على المعايب ، ويكون وافر العقل، ليحفظ سر الملك والدولة ، ويكون حاضر الدهن سريع الفهم ، فيفهم على الملك من أقل اشارة ، ويكون راجح الرأى حتى يصلح رأى الملك اذا احتاج الى اصلاح ، ويكون ناصحا ودودا صالحا ، فلا يغش الملك فى نصيحته اياه ، ويكون شجاعا فى المهمات لانه ينوب عن الملك فى المواجهات الكبيرة ، ويكون بليغ البيان والعبارة لانه جمال ملك الملك ، ثم يكون كثير المال غير ذى حاجة حتى يستغنى بثروته عن الطمع والرشوة (ص : 32 ـ 33) . ومن المهم أن يكون الوزير أحسن من الملك فطنة وسياسة لان الملك يسوس من تحته فقط بينما يسوس الوزير من فوقه ومن تحته أيضا (ص : 33 ـ 34) . وويلاحظ هنا ، فى هذه العبارة الاخيرة ، أن أبا حمو ناقض فى التطبيق العملى الموقف النظرى ، فانه اذا اجتمعت الشروط التى تطلبها فى الملك لم يعد الوزير خيرا منه .

والوزير أقرب الناس الى الملك ، ومعه يصرف قدرا كبيرا من وقته ليتعرف الى أحوال دولته ويصدر أوامره ـ عبر الوزير ـ بشأنها ، كما يخصه بجزء غير قليل من خلوته ، ويكون مسؤولا عن ترتيب الحراس فى قصره (ص : 81 ـ 84) . هذا وينبه أبو حمو الملك الى وجوب تعهد الوزير ، وعدم قتله اذا اقترف جريمة تستحق القتل ، الا لسبب ظاهر الوجود (ص : 140) وهذا أمر طبقه أبو حمو فى الواقع ، اذ اختار نفى وزيره الذى خان شارات وزارته على قتله . كما سبقت الاشارة اليه .

2) ويشترط فى **جلساء الملك** فى نظر أبى حمو أن يكونوا ذوى أفهام جيدة ، فصحاء اللسان ، ينصحون الملك نصيحة خالصة فى السر والاعلان ، ولا يخالطون الناس بكثرة ، ويعظمون الملك اذا أظهر لهم التبسط والتأنس (ص : 60) . وهم أفضل من يمكن أن يختار الملك منهم وزيره اذا حدث لوزيره مكروه (ص : 60) .

3) ويحتل **كاتب السر** منصبا من أهم مناصب الدولة ، ومرتبته تأتى ثانية بعد الوزير لذلك وجب أن يكون صحيح المذهب ، قائلا بالحق قليل الاخوة والاصحاب ، من ذوى البيوت والاحساب (ص : 146) وهو الرجل ا لذى تصله الكتب من أنحاء المملكة كلها، فيقرأها أولا ثم يعرضها على الملك متخيرا منها ما تجدر قراءته أمام الوزير وما تجدر قراءته على الملك فى الخلوة ثم يتلقى رد الملك عليها بعد أن يتفاوض معه بشأنها ، ويعود

فيكتبها بقلمه ويرسلها الى صاحبها أينما كان فى المملكة (ص : 81 ـ 82) من هنا كان على الملك أن يختار كاتب سره من وجوه أهل البلد « فصيح اللسان جرىء الجنان ، بليغ البيان ، عارفا بالآداب ، بارع الخط ، عالما بالحل والربط ، كاتما للاسرار ، وقورا ، ذا عقل وافر حاضر ... جميل الهيئة واللباس » (ص : 60 ـ 61) . وكل ذلك ، «لان الكاتب عنوان المملكة ... ومن كتابك يستدل على عقلك » (ص : 61) . فانما يجب أن يحرص الملك على اختيار كاتبه حرصا على صورته هو قبل أى شىء آخر متعلق بالكاتب نفسه أو بالدولة ذاتها .

4) أما **كاتب الاشغال** فيضبط أعمال الملك ، ولذلك يجب أن يكون مقتدرا فى الحسابات ، موثوقا مؤتمنا فى خلقه ، يجمع فى نفسه بين المعرفة بأنواع الخراج والجبايات والايراد والاصدار ، وبين العدل والحزم فى الحصول عليها من الناس . ويستحسن أن يكون رجلا موسرا فيستغنى عن استعمال الطرق الملتوية للحصول على بعض المال الذى يمر تحت يديه ، كما يرجى أن يكون محبا فى سلطانه ، فيتلقى أوامره يوميا بشأن الجبايات بصدر رحب وقبول تام (ص : 61 و 82 ـ 83) .

5) ويجب على الملك أن يختار لدولته **فقيها** عالما معروفا بالصلاح من ناحية وبالمعرفة بقضايا الحلال والحرام من ناحية أخرى، حتى اذا أشكل على الملك شىء، كان أحسن الناس لتبيان الحكم السليم فيها ، كما أن من مهمته أن يعظ الملك ويذكره بأمور الآخرة . (ص : 61) . ففائدته تكون عظيمة بقدر ما يستطيع هو أن يخدم ملكه ويساعده على سلوك الصراط المستقيم .

6) ولا يختلف وضع **قاضى البلد** كثيرا عن وضع فقيهها ، وانما يختار الملك القاضى من بين الفقهاء ، ويحتاك فى اختياره بأن يكون أفضل الفقهاء فى متانة الدين والرغبة فى مصالح المسلمين . ويشترط فيه أن يكون عادلا ، شجاعا فى قول الحق ، لا يرتشى ، ويساوى بين الشريف والدنىء ، والقوى والضعيف فى أحكامه (ص : 61 ـ 62) .

7) ويجب على الملك أن يختار لوظيفته **العامل** رجلا عارفا بجباية الخراج ، يجمع الكفاية والدربة والضبط والامانة والديانة ، وذلك حتى لا يضيع عى الملك أى حق من

حقوقه المخزنية،ولا تصاب الرعية أيضا بالظلم (ص : 72) والعامل هذا ـ فيما يبدو ـ هو نفسه من يسمى « الحاكم » فى لغة أبى حمو (ص : 152) ٠

8) وتعتبر خطة **صاحب الشرطة** خطة كبيرة لدى الملوك ، فعلى الملك أن يختار لها رجلا صاحب ديانة وهمة ومكانة وسياسة ورياسة ورأى وفراسة ويكون واجبه أن يطلع الملك يوميا على كل ما يحدث فى حاضرة ملكه ، فيعرف الناس ـ بذلك ـ أن الملك مطلع على كل صغيرة وكبيرة من أحوالهم ، فيخافونه أكثر فأكثر (ص : 83) ٠

9) وعلى الملك أن يختار **عونا** يقدمه على أعوانه فيتولى معهم الانتقام له ممن يريد من الناس ٠ ولذلك ينبغى ان يكون قائد الاعوان محبا فى ملكه ، مدربا تدريبا جيدا ، صاحب نجدة واستعداد مستمر لتلبية أوامر الملك ، متيقظا دائما ، عارفا بأخلاق الملك فى حال غضبه وارهاقه ، فلا ينفذ أوامره الصادرة تحت ضغط أحد هذين العاملين ، وانما ينتظر قليلا حتى يزول ما به ويرى ما يأمره به (ص : 63) ٠

10) أما **صاحب الحسبة** فوظيفته من جملة مناصب الدولة ، الا أن أبا حمو لا يتعرض لها بأى شرح مفصل (ص : 153) ٠

11) يبقى بعد ذلك **الارسال** (أو السفراء) المتوجهون من قبل الملك الى الملوك أمثاله ٠ وهؤلاء يجب أن يكونوا من وجوه قبيلة الملك وخيار عشيرته ، ممن يليق بالرسالة ، فيكون الواحد منهم قوى القلب ، صادق القول ، محافظا على دينه ، كاتما للاسرار والاخبار ، فصيح اللسان ، حسن العبارة ، مليح الهيئة ، محبا لسلطانه ، راغبا فى مصلحته ، قليل الطمع متنزها عما فى أيدى الناس (ص : 153 ـ 154) ٠

هؤلاء هم رجال البيروقراطية فى الدولة التى حكمها أبو حمو وفى الدولة التى رسم خطوطها فى نظريته ، وهى ترى مدى اهتمامه بهؤلاء الرجال من دون غيرهم من أفراد الرعية ٠ غير أنه يجب أن نعترف بأن أبا حمو أعطى بعض النصائح للملك فيما يتعلق بسائر أفراد الرعية ـ وان جاء ذلك فى صفحة أو بعض صفحة فقط ـ وكل ما قاله للملك تقريبا فى هذا المجال ـ كان صورة لتجربته الواقعية : فقوله ان الملك يجب الا يغفل عن واجبه تجاه الارامل والايتام المحتاجين والضعفاء والمساكين وأهل السجون كل

يوم جمعة ، فينظر فى أحوالهم ويستمع لمظالمهم ويصدر حكمه فيها ، ويرد من قضاياهم ما يتعلق بالشرع (ص : 84 ـ 85) هو صورة من مجلس المظالم الذى كان يعقده يوميا أيام حكمه (160) ، وكذلك حديثه عن الدهماء والعامة ، فقد قرر أبو حمو فى نظريته أن معاملتها خاضعة للتغير بتغير ظروف البلاد ، فاذا كان الزمن زمان رخاء وخير فان على الملك أن يسير بهم أحسن سيرة ، يعدل فيهم ، ويوصى الولاة بالتحفظ عليهم ، ويضبطهم غاية الانضباط من غير تفريط ولا افراط (ص : 87) • اما اذا كان الزمان زمان فتنة وثورة وفساد ، فيجب على الملك أن يظهر عليهم فضله حتى يستقيد بطاعتهم على الاقل ، حتى اذا خرج الامر من يده واضطر أن يدفعهم بجنده ، فعل (ص : 87) • وهذه المعاملة للعامة تختلف فى زمان القحط ، اذ يقدم الملك الرأفة على الشدة فى معاملته لها ، فيرفق بهم فى الجبايات ، ويحسن لضعفائهم المحتاجين ، ويؤثرهم بما ادخره لشدائدهم زمن الرخاء من فوائدهم (ص : 87 ـ 88) وانما يعتبر هنا بما فعله يوسف الصديق ، « فانه اختزن الطعام فى زمن الرخاء وأمر الناس بذلك ، فوجدوا ذلك فى زمن الشدة واللأواء ، وجعل ذلك سببا الى أن ملكه مصر ، فعاد ملكا بعد أن كان مملوكا » (ص : 88) • فان هذه النظرة تذكر الدارس بمجاعة سنة 776 (161) التى عامل فيها الرعية معاملة حسنة ميزتها عن عادته فى معاملتها ، فاستحقت بذلك أن تفرد بالذكر • أما قوله ان على الملك أن يكرم أهل التجارات وأصحاب الحرف والصناعات ويحترمهم لان الضرورة قد تدعوه للانتفاع بهم فى الشدائد ، فيقفون معه الموقف المرضى فى المصادر والموارد (ص : 87)

بقى أن نذكر أن النظرية « الطبقية » تحكمت فى نظرية أبى حمو السياسية كما كانت تحكمت فيه فى الواقع (163) ، اذ نص على وجوب أن يحفظ الملك مراتب الناس

160) انظر ما سبق ، ص : 22 ـ 23 •
161) انظر ما سبق ، ص : 19 •
163) انظر ما سبق ، ص : 19 ـ 20 •

بحسب حظهم من الشرف ، وهذا يظهر فى أشد صورة وضوحا فى ترتيب الدخول على الملك فى مجلسه اليومى ، اذ يدخل عليه على الترتيب : الوزير وكاتب السر ، فصاحب الاشغال ، فصاحب الشرطة ، فخاصة الملك وخلصانه ، ثم أشياخ القبائل المقربون اليه ، فقواد الاجناد (ص : 81 ــ 83) ، وبعد ذلك يأتى سائر الناس ، عندما يخصص لهم وقت للدخول على الملك ، مثل يوم الجمعة (ص : 84 ــ 85) أو غيره ، وحتى هؤلاء يكونون على درجات ، فأولهم الشرفاء ، ثم الفقهاء ، ثم أرباب الحرف والصناعات والتجارات ، ثم العامة والدهماء (ص : 86 ــ 87) ومن أدنى المراتب بينهم الارامل والايتام والضعفاء والمساكين وأهل السجون (ص : 84) . وهذا الترتيب هو صورة أخرى من صورة مجلس أبى حمو فى الواقع ، ويظهر فيه سيطرة « البيروقراطية » بشكل لافت للنظر .

3) مال الملك : القاعدة الاقتصادية

كان أبو حمو من رجال السياسة الذين يعرفون قيمة المال للملك ، ولذلك عنى بجمع ماله من جباياته وتدبر فى أمور انفاقه فأمرى بيت ماله ولم ينكسر تحت وطأة الحاجة الى المال قط (164) . وعندما يقرأ الدارس موقف أبى حمو النظرى من المال من حيث هو قوة اقتصادية فعالة تؤثر على سلامة الملك وحفظ دولته ، فانه يجد فيها الكثير من التفصيلات التى لم نعرفها فى سيرته ، ولكن هذا لا يعنى أن أبا حمو لم يكن يتحدث فى شؤون المال عن حذق المجرب ، فان كل ما قاله عنه يتفق فى منحاه العام مع منهج أبى حمو العام ، كما عرفناه فى تجربته ، بل مجرد حديثه عن امكانات « القحط » فى الدولة كما سوف نراه ، يعتبر صدى لتجربته فى مجاعة سنة 776 (165) ، كما أن قرنه للمال بالجيش فى غير مكان من كتابه تأكيد للدور الذى يقوم به المال فى جمع الرجال بغرض الحرب ، وذلك دور للمال كان أبو حمو قد عرف قيمته بتجربته الخاصة مرات عديدة (166) . ويحتل الحديث عن المال مكانا لا بأس به فى كتاب أبى حمو ، ومنه

164) انظر ما سبق ، ص : 18 ــ 19 .

165) انظر ما سبق ، ص : 19 ــ 20 .

166) انظر ما سبق ، ص : 19 والحاشية رقم 6 .

يستنتج أن المال فى نظره من الذخائر الفاخرة (ص : 10) التى يحفظ بها الملك قوته ، اذ هو الوسيلة التى بها يتوصل الملك الى أغراضه مع صديقه ومع عدوه ، زمن السلم وزمن الحرب ، فهو ـ بكلمات أبى حمو ـ العنصر الذى « به تدفع العدى ، ويتقى به من الردى ، به تدفع آلام الاعراض ، ويتوصل الى المقاصد والاغراض ، وبه تستفتح الصياصى ، وتسملك النواحى ، ويفاد العاصى ويستدنى القاصى » (ص : 9) ، قال : « وبالمال تستعبد الرجال ، وتبلغ الآمال ، وتذل به الرقاب ، وتستفتح به الابواب ، وتسهل الامور الصعاب ، وتنال به الرغائب ، وينجى به من كل المصائب » (ص : 9) ٠

غير أن المال بحد ذاته لا يشكل قوة فعالة للملك فى نظر أبى حمو ما لم يقترن بوجوده لدى الملك سياسة حكيمة تحرك وجوه تحصيله الاستفادة منه وانفاقه ٠ وفى هذا المجال ذكر أبو حمو عددا من القواعد التى يجب على الملك أن يحافظ عليها ليصير المال خادما له ولدولته ومصدر قوة حقيقية فاعلة له ٠

وأهم هذه القواعد أن يحاول الملك أن يحصل من المال أكثر مما تسمح به ايالته من البلاد والاقاليم (ص : 121) فيصبح جمع المال شغله الشاغل ، فينصرف بذلك اهتمامه عما يجب أن يتوفر عليه من مصادر قوته الاخرى (ص : 124) ٠ غير ان هذا لا يعنى أن للملك أن يفرط فى تجميع المال من ايالته ، لان هذا أيضا يضعف دولته (ص : 126) ، وانما عليه أن يحصل المال المشروع له عن طريق الرفق بالرعية فى مطالبتها ، لان الرعية « اذا عوملت بالرفق كثر فيها النماء والرزق » (ص : 9) ، ومن ثم كثر لديها المال ، بينما اذا عوملت بالجور هلكت « واذا هلكت الرعايا عدمت الجبايا » (ص : 9) ومن هنا كان على الملك ان يستعين على جمع ماله بالثقات من العمال ، واذا تسامح معهم فى أى شىء فلا يتسامح فى جورهم على الرعية قط (ص : 9) ٠

هذا بالنسبة لتحصيل المال ٠ اما بالنسبة لانفاقه ، فان أبا حمو ينصح الملك بان يراعى مبدأ « الفائدة » فى انفاق ماله ، لان « خير المال ما وقع به الانتفاع وشر المال ما تركته للضياع » (ص : 9) ٠ فلا يعطيه الا فيما يصلح عليه ، ويجلب المنفعة اليه (ص : 122) ٠ غير انه يجب ألا ينفعه الا فى حقه ، ولا يخرجه الا الى مستحقه ، وألا يسرف فى انفاقه على وجه الاجمال ، بل يسلك فى ذلك طريقا متوسطا بين الاسراف

والتقتير ، فلا يبالغ فى استغلاله ـ مثلا ـ لاجل لذات دنياه ، كالخروج عن الحد فى اللباس والزينة والبناء المفرط الخارج القياس ، « فان خير الامور أوسطها وأحسنها أوقتها وأضبطها » (122 وأيضا ص : 9) ، ومن شأن الاسراف فى الانفاق على اللذات والمبانى واللهو أن يودى بالملك الى التهلكة (ص : 127 ـ 129) • كذلك على الملك أن يراعى التوافق بين كمية المال الذى ينفقه وبين الغرض الذى لاجله ينفق ذلك المال ، فلا « يعطى ألفا لمن يستحق مائة ، ولا مائة لمن يستحق ألفا » (ص : 122) ، وانما نبه أبو حمو الملك الى ذلك لان الملك قد تستهويه لذة الشكر فيعطى من المال أكثر مما تستحقه مناسبة العطاء ، وهذا أمر لا يجوز لان الشكر لا يدوم بأكثر مما يدوم المال ، والاسراف فى العطاء يفضى الى الاقلال ، والاقلال يقطع الشكر فى نهاية المطاف (ص : 122) •

وفيما يحض أبو حمو الملك على الايثار مما أفاء الله عليه من الانعام ، وخاصة بعض فئات الرعية من ذوى الاغراض الدينية مثل حجاج بيت الله الحرام (ص : 10) ، نجده أميل الى أن يوصى الملك بالحرص على ماله وعدم التساهل فى اخراجه (ص : 9 و 122) ، مهما بدا له سهلا جمعه من خراجه • وعليه فى هذا المجال ألا يحتقر ما يجمعه من المال ، بغض النظر عما اذا كان هذا المال كثيرا أو قليلا (ص : 122) ، « ورب بحر تجمع من نقط ، ورب مستبحر نزح » (ص : 122) • ذلك أن المال خير معين للملك اذا نزل ببلاده كوارث مثل القحط أو الفتنة ، فاذا حل القحط بها استعان بماله على الرعية ، وقضى لهم ما عليه من الحقوق المرعية ، فلم يؤثر القحط فى مملكته (ص : 122) أما اذا حدثت فيها فتنة فانه يستعين بالجيش للقضاء على الفتنة (ص : 122) والجيش دون مال لا يقوم ، ومن ثمه لا يمكن القضاء على الفتنة من غير المال •

والحقيقة أن اقتران الجيش نفسه بالمال كان من أبرز الظواهر فى كتاب أبى حمو ، حتى انه عندما جاء ليتحدث عن قواعد الملك ، جمع المال والجيش فى قاعدة واحدة (ص : 121 ـ 129) ، وفسر قيامه بذلك بأن كلا منهما « متوقف على صاحبه ومطلوب بمطالبه ، فلا مال الا بجيش ولا جيش الا بمال » (ص : 121) •

جيش الملك العدو : القاعدة العسكرية :

كان الجيش اهم مؤسسة من مؤسسات الدولة فى أيام أبى حمو ، اذ كانت طبيعة الاحوال فى المغرب تفوض عليه أن يلجأ اليه باستمرار لحل مشكلاته مع اعدائه ، فكان الجيش من العناصر الاساسية التى أثرت فى مقدراته ، ولذلك عندما جاء ليكتب نظريته ى الملك خص الجيش بقسم كبير من كتابه عنها .

ولم يبن لنا تاريخ أبى حمو أقسام الجيش لديه ، بينما ورد ذكر لهذه الاقسام فى نظريته . ويمكننا ان نتأكد من ان الاقسام المذكورة فى النظرية فى كتاب «الواسطة» كانت هى نفسها بالفعل أقسام الجيش فى دولة أبى حمو لانه يذكر بينها فئة يسميها « مماليك الملك » ويحددها بـ « الاعلاج والنصارى والاغزاز والوصفان » (ص : 81) . فهذا حتما تصنيف ذو طابع محلى . من هنا يمكننا أن نفيد فائدة تارخية من كتاب الواسطة (نظرى) لانه يعرض فئات الجيش كما كانت زمن أبى حمو ، وهذا أبين دليل على مدى ارتباط نظريته أبى حمو بتجربته السياسية .

وقد أسهب أبو حمو فى حديثه عن الجيش اسهابه فى الحديث عن رجال دولة الملك وسمى اقسامه ، وحدد المطلوب من كل فئة فيه ، كما فعل فى البيروقراطية قبله ، فجاء تركيب الجيش على الشكل التالى :

يعتبر أبو حمو **قواد الجيش** من أهم المفاتيح للملك فى الجيش ، ويجب أن يكونوا من أفضل جنده كفاية وحزما وبسالة ومعرفة ودراية وممن لا يصلون الى الرعية بمضرة أو اذى ، ومن أهم صفاتهم أن يكونوا محبين للملك ، صادقين فى محبتهم له ، ويكون طوفانهم على الثغور ومنعهم اياها مدعاة لاطمئنان الملك (ص : 61 ـ 62) .

ويجعل أبو حمو القسم الاول من الجيش : **خاصة الملك** ، وهم يتألفون من وجوه القبائل ، الذين يستخلصهم الملك لنفسه معتمدا فى اختيارهم أن يكونوا بخاصة محبين له (ص : 79) .

والقسم الثانى : **قبيل الملك** : وعلى الملك أن يرضيهم لمكانهم من القرابة منه ، فيقدم الاشياخ على الجموع ، ويجعل على كل جماعة منهم شيخا من كبارهم وأعيانهم ، على أن يكون كل واحد من هؤلاء الاشياخ من بين أكثر قبيلة محبة له ورغبة فى خدمته ،

واستعدادا لتحريض جماعته على طاعته وأسلمهم ريبة ، وأبعدهم من النميمة والغيبة (ص : 79) ·

والقسم الثالث : **حماة الملك وأنصاره** ، وهؤلاء يظلون محيطين بالملك لا يفارقونه ليلا ولا نهارا ، ويكون ترتيبهم على ميمنة وميسرة ومقدمة وساقة ، ويجب على الملك أن يختارهم من أصحاب الثبات فى الشدائد ، ومن أكثر الناس موالاة له واستعدادا لنصرته فى حال الحاجة ، وقد يقع الاستنجاد بهم فى حال انقسام قبيل الملك نفسه على الملك ، فيرجى أن يكونوا على استعداد لضرب المخالف منهم فى أى وقت (ص 79 80) ·

والقسم الرابع والاخير : **مماليك الملك** ، ويتألفون من الاعلاج والنصارى والاغزاز والوصفان ودور هؤلاء « احتياطى » لقمع كل عصيان ، ويجب لذلك أن يكونوا شجعانا ذوى بأس ، كما يجب على الملك ألا يدعهم يفارقونه طرفة عين (ص : 81) ·

ويلاحظ هنا أن أبا حمو لم يتعرض فى أقسام الجيش الى « الاولياء » ، أى العرب الذين كان يتألفهم أبو حمو — وغيره من ملوك عصره — فيحاربون الى جانبه ، وذلك أمر مفهوم بالطبع ، لان هؤلاء لم يكونوا قسما نظاميا من الجيش · غير أنه من اللافت للنظر أن أبا حمو لا يتعرض لذكر العرب — الاولياء — قط فى كتابه ، رغم أنهم كانوا يمثلون قوة لا يستهان بها فى موازين القوى فى المغرب فى القرن الثامن ، ولا أجد تفسيرا لهذه الظاهرة لدى أبى حمو سوى التحرج من ذكر وسائل استئلافهم — من مال وغيره — وكثرة تنقيلهم لولائهم بين الملوك ، فان أبا حمو — كان ما يزال بحاجة لهم حين كتب كتابه ، ولا يريد أن « يكشف » وضعهم ·

ولا يخبرنا تاريخ أبى حمو الواقعى بالشىء الكثير عن عناية الملك بالجيش وان كان يحدثنا باستعراض أبى حمو له سنة 767 (167) ، وهذا يذكر الدارس بقوله أبى حمو فى نظريته ان الجيش « ابهة الخلافة » (ص : 12) · غير أن هذا لا يعنى أن أبا حمو عندما أخذ يبين نظريته فى كيفية معاملة الملك للناس فى كتابه كان يتكلم خارج تجربته فلا شك أنه استوحى هذه التجربة عندما تكلم عن معاملة الجيش ، كما كان استوحاها عندما تكلم عن معاملة الرعية ، وهذا أمر قد نجد برهانه فى تقريره وجوب دفع رواتب

مماليك الملك مشاهرة ـ كما سيأتى ـ فان ذلك تفصيل دقيق لابد أن أبا حمو كان يسير عليه ولذلك قرره على الملك ·

وينصح أبو حمو الملك بأن يجعل عدد الرجال فى جيشه متوافقا مع ما تسمح به ايالتة ودخله وعدد سكانه (ص : 121) وأن يقيم نوعا من التوازن فى الاهتمام بين الجيش والمال فلا يفرط فى الجيش مقابل الاشتغال بجمع المال (ص : 124) ، ولا يجمع المال مقابل التفريط فى الجيش (ص : 126) · أما اذا فرط الملك فى الجيش والمال معا فان ذلك يقوده الى التهلكة (ص : 127) ·

ويلح أبو حمو على وجوب تعهد الملك الجيش زمن الرخاء ، وأن يصطنع رجاله بالاحسان ، ولا يغلظ عليهم فيضمروا له البغض والشنان ، بل يسايسهم حتى يستألف قلوبهم ويردف ذلك بتأمين عطائهم والعدل فى أرزاقهم « على قدر بيتاتهم وشجاعتهم وسابقتهم للخدمة واصطناعاتهم ومحبتهم وانقيادهم وألفتهم واجتهادهم » (ص : 12 و 123) فيزدادون ولاء له · كذلك على الملك أن يحقر صغيرهم ، ولا يغضب كبيرهم ، بل ينوه بقوادهم وفضل أنجادهم ، ولا يضيع لاحد فعلته ، ولا ينسى له سبقيته (ص : 12) ويجب على الملك أيضا أن يحرص على ضم جيشه بعضه الى بعض ، ويحفظ سلامته من الاختلال والنقص (ص : 123) وذلك حتى يزيد فى منعته ، فلا يمكن لعدو أن يستميل أفراده الى حزبه ويردهم عن حزب الملك (ص : 132) ، وهذا أمر يمكن تقويته بأن ينظر الملك فى حال جيشه مرة فى كل سنة ، ويتدبر أمره ويتفقد عدده ويزيد عدده اذا أمكنه (ص : 12 و 89 و 124) ، وانما كان فساد أمر كثير من الدول مثل الامويين والعباسيين والعبيديين والموحدين لانهم أهملوا جيوشهم بالتفريط وسوء التدبير وركنوا الى اللذات والتبذير (ص : 124) ·

ويخص أبو حمو قبيل الملك ـ من بين سائر الاجناد باهتمام منفرد ، فيقرر أن على الملك أن يحافظ عليهم ويرفق بهم ويواسيهم ولا يحوجهم الى غيره ، ولا يمنع عنهم خيره (ص : 79) ويستألف قلوبهم ، ويشركهم فى قليله وكثيره (ص : 123) ويجرى

على أغراضهم ، ولا يستاء اذا وجدهم يعرضون عنه بعض الشيء في بعض الاحيان ، بل يعدهم بنيل مطلوبهم ، حتى تميل اليه قلوبهم ، فاذا رجع بعضهم الى هوى الملك وظل بعضهم الآخر مدبرا عنه ، فعلى الملك أن يسلط من أطاعه منهم على من عصاه ، فيدخل التباغض بينهم وتفترق جموعهم وتضعف قواهم (ص : 86) • وهذه سياسة يجب على الملك أن يتبعها مع أجناده على اختلاف رتبهم وفئاتهم (ص : 86) •

أما مماليك الملك فيرى أبو حمو فى معاملتهم رأيـا خاصا فيما يتعلق برواتبهم ، وذلك بان تدفع لهم مشاهرة من بيت المال بقدر ما يصلح اودهم وأهلهم وولدهم ، على قدر طبقاتهم (ص : 124) كما مرت الاشارة اليه •

ومقابل ندرة المعلومات فى تاريخ أبى حمو عن كيفية معاملته للجيش فى واقـــع الامر ، يجد الدارس قدرا كبيرا من المعلومات عن تحركاته قبيل الحرب مع عدوه ، وعددا أكبر من الاخبار عن الوسائل التى كان يتبعها فى الحرب مع ذلك العدو • وعندما يقرأ الدارس ما كتبه أبو حمو فى نظريته عن الطرق التى يجب على الملك أن يستعملها فى مواجهة عدوه فى مختلف الظروف ، يجد أن الكثير من هذه الطرق كان مستمدا دون ريب من تجربته ، وان غيرها كان أيضا استنتاجا ذا علاقة بتجربة أبى حمو العسكرية الطويلة بشكل أو بآخر وخاصة منها ما يتعلق بترتيب الجيش لدى الزحف ، فانه ذا لون محلى يوحى بأنه مؤسس على التجربة • ومما هو جزء من تجربته يقينا نصيحته للملك باستئلاف الاولياء بالمال وشتى أشكال الملاينة ، وبالشورى قبل الخروج الى الحرب الا فى حال انتهاز الفرص والمخاطرة فى سبيل السلطان ، واللحاق بالعدو بعد الانتصار عليه ، واللجوء الى الحرب التخريبية لاضعاف العدو ، والفرار الى المعقل فى حـــال الهزيمة (168) ، وكل هذا مما كان له صدى واضح فى نظرية أبى حمو فى كيفيـــة معاملة العـــدو •

ونظرا لان أبا حمو كان اكثر شيئا اهتماما بسلامة الملك ، فانه عرض فى كتابــه فى مجال الحرب الى ثلاثة موضوعات كبيرة ، تكون فى مجموعها « الاستراتيجية » التى

---

168) انظر ما سبق ، ص : 15 — 17 •

كان يفيء اليها ، الاول : التدابير الوقائية السابقة للحرب التى تمكن الملك من السلامة اذا اضطر ان يخوض حربا مع عدوه ، والثانى : التكتيكات العسكرية التى يجدر بالملك ان يتبعها اذا دخل الحرب ، والثالث : الوسائل الانقاذية التى يلجأ اليها الملك فى حال هزيمة فى الحرب ٠

أ) التدابير الوقائية :

1) أولها عناية الملك بالجيش ومحافظته على تماسكه وابقائه راضيا عليه مستعدا لحماية دولته ، وهذا أمر قد مر الحديث عنه من قبل (ص : 69) ، ثم أن يقيم الملك نوعا من التوازن بين جيشه وماله ، وتلك قضية قد مر ذكرها ذكرا عابرا (أنظر ص 66 و 69) وسوف نوضح هنا تأثيرها فى المجال العسكرى كما عرضه أبو حمو ٠ فالملك اذا فرط فى جميع جيشه وشغل نفسه بتجميع الاموال من دون الرجال ، فانه ينهزم فى المعركة فى حال هجوم عدوه عليه ، لا فرق فى ذلك بين أن يكون عدوه هذا أقوى منه أو أضعف منه (ص : 121) ٠ وقد يعمد الملك فى تلك الحالة الى محاولة انقاذ وضعه انقاذا سريعا فيحاول أن يجمع الرجال عن طريق بذل المال ، الا أن الناس يرفضون المال منه لانهم تعودوا منه قلة العطاء فى الشدة والرخاء ، وبذلك يخيب سعيه ولا يجد ما ينقذه من ورطته (ص : 124 ــ 125) ٠ ويقول أبو حمو ان مثل هذه الحادثة جرت للسلطان أبى تاشفين بن أبى حمو الاول الزيانى ــ ابن عم والد السلطان أبى حمو ــ ، فانه فرط فى جيشه عندما حصره بنو مرين ، وأمسك يده عن العطاء فى الحصار ، واستعد بالحصن وبالقليل من الانصار حتى كاد أن يدخل العدو عليه البلد ، اذ ذاك طلب لمن يعطى المال فلم يلتفت اليه أحد ، ولم يجد من يأخذ منه المال ، فانهزم هزيمة منكرة ودخل المرينى البلد عليه عنوة ، فذل بعد ما كان عليه من العز (ص : 125 ــ 126) كذلك لا يحسن حال الملك اذا فرط بالمال واشتغل بتجميع الرجال وتعظيم أعداد الاجناد ، لانه اذا دهمه عدوه وعرف ضعفه من جهة المال ، وكان أحسن منه مالا ، حاول أن يخدع جيشه ويصيرون الى عدوه ، ولو كانوا من اخوانه ، « ومثل هذا مثل من قوى عدوه عليه ، بالمال ويستميله اليه بالخداع ، وعند ذلك قد يقبل الجيش العرض منه ، فيتركون الملك وجب هلاكه اليه » (ص : 126) وهذا ما حدث لمصعب بن الزبير ، اذ استكثر من الرجال

ثم قتر عليهم فى المال ، فاستغل الوضع عبد الملك بن مروان ، وأرسل الكتب اليهم والاموال ، ومناهم الامانى ان غدروا بمصعب ، فما لبثو يوم المعركة مع عبد الملك أن تركوه (ص : 126 ـ 127) ٠

فالملك يجب أن يجمع من الرجال بقدر ما يسمح له به المال فى دولته (ص : 121) ، ويعنى بهما معا عناية متساوية ، اما اذا أهملها معا وانصرف الى لذاته فيكون ذلك سبب هلاكه وهلاك دولته (ص : 128) ، وذلك هو ما آل اليه أمر بنى أمية عندما انصرف ملوكهم الى اللذات والشهوات وتركوا أمر تدبير الجيش والمال (ص : 128 ـ 129) ٠

هذا وعلى الملك أن يتذكر أن عدد الاجناد فى الجيش يلعب دورا هاما فى النصر فى الحرب (ص : 78) ، الا أنه يجب ألا ينسى أن كثرة عدد الشجعان العظام المتوفرة فى الجيش الواحد أهم بكثير من كثرة عدد الاجناد فيه على الاطلاق (ص : 116) ٠ وهذا الطاغية ابن ردمير ملك النصارى ، عندما التقى مع أمير المسلمين على وشقة ، كان عسكراهما متكافيين ، كل واحد منهما يراهق عشرين ألف مقاتل بين خيل ورجال ، فلما دنا اللقاء سأل الطاغية من يثق بعقله وممارسته الحروب من رجاله ، استعلم من حضر فى عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم ويعرفوننا من منهم حضر ومن غاب ، فذهب ثم رجع وقال : فلان وفلان ، حتى عد سبعة رجال ٠ فقال له ابن ردمير : انظر الآن فى عسكرى من الرجال المعروفين بالشجاعة ، من غاب منهم من حضر ، فعدهم فوجدهم ثمانية ، فقام الطاغية مسرورا وتفاءل بالنصر وكذلك كان ، اذ انكسر المسلمون وتفرق شملهم وملك العدو مدينة وشقة (ص : 116 ـ 117) ٠

2) ومن التدابير التى يستحسن أن يلجأ لها الملك أن يدخل الدواخل بين أعدائه ، حتى يوقع الشتات فى قلوبهم ، فيصبح كل واحد منهم متحرزا من صاحبه ، يطلب له سقطة يوقعها فى جانبه ، فاذا تشاغل بعضهم ببعض ضعفت قوتهم وتمكن الملك من غلبتهم (ص : 123) ٠ بل ان شجارهم فيما بينهم قد يجعلهم يفشون أسرارهم الى الملك فيرجعون الى صداقته ، ويدخلون فى حزب أوليائه ، ويميلون الى جنابه ، وان لم يكونوا من أصحابه ، لان كلا منهم يحذر من صاحبه ويخشى منه سوء عاقبته (ص : 123) ٠

3) وقد يلجأ الملك الى صرف الاموال على أعدائه حتى يستميلهم الى جانبه ، وذلك مثل انفاقه المال على أرسال عدوه ، فانه فى كثير من الاحيان قد يستميلهم بذلك اليه ، ويجعلهم ينقلون ولاءهم من سلطانهم اليه ، بل ويفشون أسرار هذا السلطان عنـده ، فينكشف خبره ، وتظهر حقيقته ، وهذا يسهم فى مساعدة الملك على رسم خطط معه (ص : 161) ، وهذه وسلية لجأ اليها أبو حمو بحق فى واقعه ·

4 ـ 5) وهناك طريقان وقائيتان أخريان ذكرهما أبو حمو ـ ولكن عن كتاب المنهج المسلوك ـ نثبتها فى جملة آراء أبى حمو لانه ـ فيما يبدو لى ـ اكتفى بذكرهما منقولتين فلم يرد أن يكررهما رغم أنه يعتقدهما ، وذلك هو أن يتقدم الملك فى الحيلة للامر قبل نزوله ، فانه اذا نزل به ضاقت عنه الحيل « فهو فى المثل كالسكر الذى يسكر عـلى الارض التى يخاف غرقها ، فانه ان عمل قبل وصول الماء اليها ، فانه يثبت ويمنع الضرر عنها ، وان وصل الماء اليها فلا حيلة فيه بالسكر » (ص : 114) ·

6) كذلك على الملك أن يتفرس في عدوه ويلازم جانب الحـذر تجاه ما يصدر عنه ، فيلاحظ ما اذا كان يعاهده بالحسنى ويواليه ويقضى له جميع مآربه أو اذا كان يناضره فى كل الحالات ، وحتى اذا بعث اليه بالتهنئة أو الموالاة أو التعزية أو استجلاب المورة فانه يجب ألا يركن اليه ، ويسبق الظن فى ذهنه على أنه يريد فى الحقيقة اختباره ، ليعرف الصحيح من أخباره (ص : 153) · هذا وان كثيرا من نوايا العـدو الصحيحة يكتشفها الملك عن طريق التفرس فى أرساله كما مر ·

7) وينبغى للملك أن يعرف وجوه الكيد الذى به يكيد عدوه ، ان يمر فيحترس من مثلها ، ولا ينسى أنه ان اصاب برميته فهو مستهدف لرمية غيره ، فاذا احتال على عدوه بضروب الحيل ثم لم يحتفظ من كل ما يظن انه يبلغه من عدوه ، كان عمله غير نافع له فى العاقبة ، قال : « وقد كان يقال : احترس من تدبيرك على عدوك كاحتراسك مـن تدبيره عليك ، فرب هالك بما دبر ، وساقط فى البئر الذى حفر » (ص : 114) ·

8) فاذا كان الملك فى وضع يخاف عدوه منه على نفسه وسلطانه ، فيجب عليه أن يظهر بمظهر الرقة والوداعة ويحسن كلامه معه ويظل فى الوقت نفسه متيقظا محترسا ، يقوى حصونه وجيشه ، حتى اذا حانت لحظة اللقاء وثب عليه وغلبه على ملكه (ص : 115)

9) غير ان الضمانة الكبرى للملك فى سعيه للانتصار على عدوه هى أن يكـــون متحليا بصفة الشجاعة الحق ، وهى الشجاعة التى يصحبها الرأى (ص : 129 ـ 130) ، من دون الشجاعة التى لا يصحبها عقل ولا رأى ، والتى اسمها الحقيقى الهور والتهور (ص : 135) ، ومن دون الشجاعة التى تاتى على الملك فجأة عندما يرى عدوه أمامه ، اذ كان قبل أن يهاجمه العدو زاهدا عن الدنيا منصرفا الى شؤون الآخرة فكان يظن أنـه من زهده لا يضره احد الاعداء ولا تصله يد الاعداء ، فتلك شجاعة قاصرة عـن الرأى مذمومة بالنسبة للدنيا والآخرة (ص : 134 ـ 135) . أما الشجاعة الحق ، فانها تجعل الملك منصورا مطاعا ، يرهبه الاعداء ، ويطمئن به الاولياء (ص : 129) ، وأوضح مـا تظهر به فى مواقع الحروب . فكيف يسير الملك الشجاع الحرب اذا وقعت ؟

ب) ضروب التكتيك العسكرى المؤدى الى النصر :

1) دور الملـك فى المعـــركة :

ان أول ما يجب على الملك أن يدركه أنه ليس من الشجاعة فى شيء ان يخاطر بنفسه فى الحروب ، باستثناء واحد وهو مخاطرة الملك فى طلب الملك والسلطان (ص : 130) فان المخاطرة تكون محمودة فى هذا الشأن لان الملك اذا خاطر بنفسه فى طلب سلطانه ، واسترجاع بلاده وأوطانه حمدة مخاطرته فى سره واعلانه (ص : 12 ـ 13) . لانه اذا نجح فى سعيه نال غاية مطلبه ، واذا مات دون غرضه كان له فى موته اجمل العـذر (ص 13) وأوضح مثال على المخاطرة بالنفس فى سبيل السلطان كما يقول أبو حمو ، مخاطرة بنفسه لاجل استرداد تلمسان من حكم المرينيين سنة 760 وقد ساق حكايـة تلك المخاطرة بتفصيل غير قليل فى كتابته (ص : 13 ـ 15) وأردفها بقصيدة ميمية من نظمه تحكى حكاية المخاطرة ذاتها (ص : 15 ـ 19) .

2) خطة المبادرة متى تكون ضرورية :

وهناك موقف آخر يجدر بالملك ان يأخذ المبادرة بالهجوم على عدوه ، وذلك اذا كان العدو قريبا لبلاده ويكثر من الفساد فى بلاد الملك ومعاندته ، اذ ذلك يجب على الملك ان يسلط خيله على بلاد العدو ، ويسعا فى شتاته وفساده ، ويضعف بلاده غاية الضعف

ويرهق اهلها بالغارات والزحف · فاذا قدر الملك على اخذ ذلك العدو وحصاره ، وقهره في بلاده والتضييق عليه هنالك ، كان في ذلك الخير كل الخير له · اما اذا لم يستطع ان يهزمه بل رأى أن احواله تشتت ونكاية عدوه تعذرت ، فعليه ان يعود الى بلاده بمن معه من الرجال والعتاد فيزيد هنالك في جيشه ومدده ، ثم يسرع الى عدوه فيها جمه · فاذا استطاع ان يأخذه على غرة فان العدو يداخله الخوف والاضطراب لما يراه يراه من فساد بلاده وقلة جيشه واحشاده ، وتكون الهزيمة عليه كاملة · اما اذا لم يستطع ان يأخذه على غرة وكان بامكان عدوه ان يستنجد بجيشه قبل اللقاء معه ، فالمجابهة تكون اصعب الا ان هزيمة العدو تظل امرا مرجو ، وخاصة اذا تم اللقاء بين حدى بلاد الطرفين المتنازعين (ص : 115 ـ 116) ·

والموقف الآخر الذى يجب على الملك الا يتردد فيه عن الهجوم على عدوه ، هو عندما يكون الهجوم من باب انتهاز الفرصة السانحة (ص : 31) · اذ ذاك يجب عليه الا يعمد الى التأجيل قط (ص : 19) ، وتلك تجربة كان أبو حمو قد خبرها بنفسه ·

اما في سائل الاحوال ، فان على الملك الا يحجم على العدو الا بعد فكر وروية وتدبر وحذر ـ (ص : 31 و 122) ، اذ رأس الشجاعة الحذر والتوقى مثلما ان سياستها محاربة عند التلقى (ص : 129) ·

3) ترتيب الجيش في الميـدان :

فاذا عزم الملك على ملاقاة عدوه ، فعليه أن يرتب جيشه ترتيبا معينا يوم الحرب ، ارهابا لعدوه ، وانتظاما لمجموعه ، فيقسمه في أربعة أقسام ميمنة وميسرة وتقـدمة وساقة ، ويقدم على كل من الميمنة والميسرة قائدا مقداما ، أما التقدمة فيقدم منهم فرسانا من أنحاء القبائل الشجعان ، يكونون في نحر العدو اذا قصد اليه ، ويقدم عليهم أيضا قائدا من الابطال ، ويجعلهم في قسمين : قسم يلى الميمنة بين يديها ، وقسم يلى الميسرة بين يديها · أما الساقة ، وهى قلب الجيش ، فانها لا تقارن بالميمنة ولا الميسرة ، لانها « القلب الذى يوقف الجيش ويشده ويصد العدو ويرده » (ص : 131) ، فلا يكون فيها الا أهل الشجاعة وانجدة والشدة والكفاية ، وعلى الملك أن يرتبها ويجعل عليها قائدا

عن يمينها وقائدا عن يسارها ، من زعماء خاصته الانجاد ، يضبطانها ويحفظانها فى اقبالها وادبارها ، لتبقى موفورة بحيث لا يفل أحد منها ولا يتزحزح ولا يتحول وحتى لو انكسرت الميمنة والميسرة ، فان الساقة تثبت مع الملك على حالها (ص : 130 ـ 131) .

4) خطـــة الزحـــف

وعندما يتقدم الملك للهجوم على عدوه ، عليه أن يجعل راياته أمامه (ص : 130) ، ويتوكل على الله (ص : 131) وينهض الى عدوه زحفا لكى يرهبه خوفا ورجفا (ص 133) . وعليه أيضا أن يسير أمامه « كشافة » يسميهم أبو حمو « فرسان الاقتداء ورســـل الاهتداء » (ص : 132) ، تكون وظيفتهم أن يعلموا الملك بجهة عدوه ، لانه عند التقاء الجمعين وتزاحم الصفين ، تلتبس على الملك جهة العدو ، ولا يدرى الدنو من البعــد ، ولا سيما اذا اختلطت الرجال وارتفع الغبار وتلاقت الصفوف المتزاحمة (ص 131 132) .

فاذا كان العدو فى مواجهة الملك ، فعلى الملك أن يتقدم اليه بعد التأنى والتدبير (ص : 133) ، بصبر ظاهر ، وجأش ثابت ، فيشتد بثباته المقاتلون ، أما هو فانه يثبت نظره على ساقته ، التى هى قلب جيشه ولا يلتفت يمينا ولا يسارا ، وان انكسر أحد الجناحين فلا يهتم به ، ولا ينقل بصره اليه ، ولا ينفتل بسببه ، لانه انكسار أحـــد الجناحين مع ثبات القلب لا يضر ، ومن شان الملك اذا نقل بصره الى الجناح المنكسر أن يتشوش خاطره فيبادر اليه مع العساكر ، فيكون ذلك بدء الهزيمة عليه ، لان الجيش اذا رأى ملكه يميل الى أحد الجهتين يحسب أنه منهزم فيدب الرعب فى قلوب أصحابه ، وتقع الهزيمة الكاملة عليه (ص : 130) .

على أن الكشافة قد يخفقون فى تحديد الجهة التى منها يتقدم العدو ، وقد يحدث أن يجد الملك نفسه متقدما فى اتجاه معين فاذا بالعدو يقابله عن يمينه أو عن يساره (ص : 132) . اذ ذاك على الملك أن يمتنع عن الانفتال الى عدوه بسرعة ، لان فى هـذا الانهزام وفوت المطلوب (ص : 131) ، وانما عليه أن يسير باتجاهه سيرا رفيقا ، بين توقف وامهال ، فلا يشعر العدو بالملك فى الانتقال ، ويقل للقلب ثبـوته وتلاحمه ، وربما خدع هذا العدو فانتقل الى جيش الملك ، فكان فى انفتاله القضاء عليه (ص 135) . وقد حدث أن أبا الحسن المرينى التقى مع الطاغية ألفنش (سنة 741) بالجزيرة الخضراء ،

فلما التقى جيشا الطرفين هناك نظر أبو الحسن فرأى الطاغية متحيرا عن مواجهته ، يطلب جانبا من جوانبه يهاجمه منه ، فانتقل أبو الحسن اليه ، وكان انتقاله اليه بسرعة ، يريد الهجوم عليه دفعة واحدة ، فرأى المقاتلون من أصحابه أنـه قد انتقل بعلاماته وساقاته ، فظنوا انه انهزم ، فانكسرت الميمنة والميسرة ، ووقعت عليه الهزيمة النكراء (ص : 133) ·

5) المطـــاردة :

فاذا انتصر الملك فى حربه مع عدوه وفر عدوه من أمامه ، فعليه أن يلحق به عـــلى الفور بأثقاله وأسبابه وأمواله ، ويسير وراءه ليلة ونهاره ، فاذا بادره أخـــذ أمواله وأثقاله وقتل رجاله ، وربما كبا بالعدو نفسه جواده أو عثر أو دهش وتعثر ، فيظفر الملك به · فاذا استطاع العدو أن يصل الى بلده وحصنه فعلى الملك أن يلحقه الى هنالك لانه عند ذلك يكون فى أضعف أحواله ، ويكون القضاء عليه امرا لا يحتاج الى تطويل (ص : 133) ·

ج) التكتيك العسكرى فى حال الهزيمة :

وحيث أن الهزيمة يمكن أن تقع على الملك فى أى ملاقاة ، فعلى الملك أن يكون قد أخذ أهبة من قبل لاحتمالاتها ، ويكون قد أعد لنفسه أربعة أشياء تساعد على أن ينقذ نفسه ان لم يستطيع انقاذ ملكه وهذه الاشياء الاربعة هى :

1) حصن يلجأ اليه لدى الشدائد ويتحصن فيه من العدو ، وصفته أن يكون حصنا حصينا لايرام ، وقلعة قوية لا تطلب ، قد اشتمل على الماء ، والمختزنات وحفل بألوان ذخائر الملك وأمواله وأثاثه وأمتعته وأثقاله ، يسكن فيه اجرياء جند الملك وحماتـــه وقواده ، ويشحنه هو بالرجال والرماة الشجعان من ناحية ، وبأهل الصناعات وأرباب التجارات الذين يستطيعون أن يكفوا أهل الحصن حاجاتهم من ناحية أخرى ، ويستحسن ان يكون موقع هذا الحصن فى مكان الزرع فيه ممكن ، واذا كان على ذلك ساحل البحر فنعم الحصن هو ، وخاصة اذا كان بحره تحت حكم الملك نفســه (ص : 88 ـ 89) · وحصن الاركن الذى روى قصته ابن ظفر ونقلها أبو حمـــو ، والذى كان سببا فى

استعادة الملك الهندى المسمى بالاركن بلاده بعد احتلال كسرى انوشروان لها مـــدة طويلـــة من الزمان هو خـــير مثال على الكيفية التى يجب أن يكون عليها الحصـــن (ص : 89 : 103) ·

2) جواد من عتاق الخيل وخيارها وكرامها وسراعها ، يلجأ اليه الملــك فى حـــال انهزامه واضطراره الى الهرب (ص : 103) ·

3) ذخيرة ثمينة من الجواهر المختلفة ، يكون قد جمعها على مر الايام فتظهر فائدتها عندما يعترى الملك من أمور دنياه ، اذ يستطيع بها أن يجمع المال ويقيم أوده ، ويصلح أمره ، ويعيد الكرة على عدوه (ص : 103) ·

4) وزير يكون معينا له على شدته وأنيسا فى وحدته ، قد تمرن بالاسفار ، وجرب الامور والاخبار (ص : 103 ـ 104) ·

فاذا توفرت هذه الوسائل لدى الملك فمن شأنها أن تقليه من عثرته اثر هزيمته وتؤمله مرة أخرى فى أن يعود الى سابق عهده ·

هذا ما تحدث عنه أبو حمو بشأن ملاقاة العدو ، وهو كثير من حيث الكمية ، دقيق من حيث الدخول فى التفصيلات ، وهو يدل على مـدى افادة أبى حمـــو من تجربته العسكرية الطويلة من ناحية ، الا أنه يدل أيضا ـ من ناحية أخـــرى ـ على اهتمامه الشديد ـ ملكا ومفكرا وسياسيا ـ بالجيش ورسم الخطط له لمواجهة العدو ، وما ذلك الا لان الحياة السياسية فى المغرب فى القرن الثامن كانت مليئة بامكانات المواجهـــة العسكرية ، وذلك أمر خبره أبو حمو كما لم يخبره أى ملك عاصره ، نظرا لطول مدته فى السلطان ، وكثرة اعدائه من حوله ·

ولكن هناك ملاحظة على نظرية أبى حمو فى الجانب الاستراتيجى ، وهى أنها ـ على اتساعها ـ لم تشمل كل نواحى تجربة أبى حمـــو العسكرية ، وفيها بعض النقاط الشديدة الاهمية التى كان يجدر بأبى حمو أن يفيد مخاطبه الملك بها ، اذ كان قد خبرها قبل أن يكتب كتابه ، ومنها استعمال الجواسيس أو العيون لاستطلاع أمر العدو (172) ووجوب اخذ الرهن من الاولياء ضمانا لولائهم فى بعض الاحيان والاكتفاء بالـــوعد

الشفوى فى أحيان غيرها (172) · ثم ان تاريخ أبى حمو يدل على انه كان يرى محاربه المنافقين من اعوان الملك ، والمقلقين عليه ، والمنشقين عنه (172) ، وكل هذا مما لـــم يذكره فى نظريته » كما لم يذكر أن على الملك أن يحارب بلا هوادة من تسول له نفسه منافسته على السلطان ـ كما فعل هو نفسه مع ابن عم أبيه أبى زيان ـ ولعله لم يشأ أن يتعرض لهذا الموضوع لان حربه مع أبى زيان لم تكن قد انتهت بعد عندما كتـــب كتابه « الواسطة » · كذلك لجأ أبو حمو فى الواقع الى احتضان بعض منافسى بنى مرين على الخلافة (172) ، وتلك وسيلة مهمة لمكيدة الاعداء ، ولم يذكرها أبو حمو فى نظريته ، وربما كان ذلك لان بنى مرين احتضنوا منافسة هو أبا زيان فى وقت مـن الاوقات · وبعد ، فان تجربة أبى حمو العسكرية العريضة علمته أن اختيار الطقس المناسب من شأنه ان يكلل سعى المهاجم بالنصر (172) ، وان من شأن عوامل مثل سماسرة الفتنة ومرض القلوب والغدر والخيانة والرعب أن تؤدى الى هزيمة المهاجم ، كما حدث لـــه غير مر ةفى تاريخه (173) ، وهذه وأمثالها مما لا يظهر له أثر فى نظرية أبى حمو ·

على أن الحرب أو الاستعداد للحرب بطريق مباشر أو غير مباشر لم تكن اللغـــة الوحيدة التى تعامل بها أبو حمو مع أعدائه ، وانما كان فى زمن السلم يلجأ الى السفارة اليهم ، كما كانوا يلجأون هم أيضا الى السفارة اليه ، كما مر من قبل · ونحن نعلـــم من تاريخ أبى حمو انه كان يكرم السفراء القادمين عليه (174) ، كما نعرف مما أخبرنا به هو فى « الواسطة » أنه كان يتفرس فيـــهم وفى كتبهم ليعـــرف ما خفى مـــن أهدافهم (175) ، ولكن هذا يدخلنا فى موضوع جديد ·

170) انظر ما سبق ، ص : 15 ·
171) انظر ما سبق ، ص : 15 ـ 16 ·
172) انظر ما سبق ، ص : 15 ·
173) انظر ما سبق ، ص : 11 ·
174) انظر ما سبق ، ص : 16 ·
175) انظر ما سبق ، ص : 16 ـ 17 ·

5) فراسة الملك : القاعدة السيكولوجيه

هذه قاعدة بارزة فى كتاب أبى حمو ، ومن أجلها خصص بابا كاملا من كتابه واسطة السلوك معلنا بذلك دورها المنفرد ، كما جعل هذا الباب آخر باب فى كاتبه ، مشيرا بذلك الى فعاليتها فى كل ما سبق من موضوعات الكتاب ٠

والحقيقة أن أبا حمو يعد فريدا بين كتاب السياسة لدى المسلمين فى تخصيص الفراسة بهذه الاهمية ، وفى تفصيله فى الحديث عن كيفية تطبيقها ٠ وهذا أمر قد يرجع الى محصوله الثقافى ، لان الوصية الى الاسكندر تحتوى على فصل عن الفراسة ، ان كانت معالجتها هنالك تختلف تماما عن معالجة أبى حمو لها ــ الا أنه يعود أيضا الى تجربة أبى حمو فى الحكم ، فانه كان يعتقد نفسه ابانه أنه موهوب بالفراسة ، والى موهبته فيها نسب نجاحه خلاله فى الكشف عن النوايا الحقيقية لعمر بن عبد الله رسول ملك المغرب واحباطها نجاحا عظيما ، كما حدثنا به هو نفسه (176) ٠ الا أن أبا حمو أخفق اخفاقات عديدة فى تطبيق الفراسة لدى اختيار العديد من أصحاب المناصب فى دولته ، بدليل أن الدارس يلاحظ أن عديدين منهم غدروا به أو لم يعملوا بمقتضى الوظيفة الموكلة اليهم لديه ، فكان أن أضطر أبو حمو الى قتلهم أو نفيهم أو حربهم وما الى ذلك ٠ (177) ، ولو كان أبو حمو قد أحسن استعمال الفراسة فيهم لما وكل اليهم تلك المناصب ، اذ لابد أن يظهر عليهم ــ حسب رأيه ــ بعض الامارات التى يستدل بالفراسة على ما تبطنه نفوسهم من الغدر أو سواه ٠ ولعل أبا حمو كان مكتئبا لما ظهر فى دولته من الخلل فى هذه الناحية ، فحاول أن يستدركها باعطاء التفصيلات لولى عهده عن كيفية تطبيق الفراسة فى رجال الدولة والجيش ــ وفى العدو أيضا ــ فكانت النتيجة كتابة فصل من أجمل فصول كتاب « الواسطة » وأشدها حيوية ، وأكثرها ابرازا لمدى قدرة أبى حمو على فهم النفس الانسانية وتتبع حركاتها ، ورصد تغير هذه الحركات ، وتلونها ، وتقلبها وتحولها ، وتلك قدرة وضعها أبو حمو فى خدمة

---

176) انظر ما سبق ، ص : 14 ــ 15 ٠

177) انظر ما سبق ، ص : 20 ــ 21 ٠

الملك المرجوة نصيحته حتى يفيد منها فى بناء دولته ولا يقع فيما وقع فيه هو من سوء تطبيق الفراسة ، وبذلك تكون الفراسة الطاقة السيكولوجية التى بها يحمى نفسه ويضمن لملكه الاستقرار ·

والفراسة بتعريف أبى حمو « قوة نفسانية ربانية ، يؤيد الله بها النفوس حتى ينقلب بها المعدوم كالمحسوس ، ويطمع فى مراءاتها كل خفى ، حتى كأن الامر جلى » (ص : 141) · وهذا يعنى بكلام أوضح ، أنها الملكة التى يستطيع الملك بها أن ينفذ الى خبايا النفوس وخفاياها فيدرك حقيقة ما يعتمل فيها صافيا من دون كدر ، غير مكتف بما تنبئه به ظواهرها ، اذ هذه الظواهر كثيرا ما تكون براقة خادعة ، نصيبها من الصدق فى احيان عديدة غير كبير ، ورغم أن أبا حمو يصنف الفراسة بين القوى النفسية التى لا تكون لدى المرء الا اذا اخصه الله بها ، فانه لا يجد حرجا فى أن يجعلها ضمن ما ينصح الملك باكتسابه من الصفات ، وذلك ـ فيما يبدولى ـ لسببين :

الاول : ان الفراسة قائمة على الحذر واليقضة والوعى الشديد ، بل سوء الظن بغير نفس الفرد الى حد بعيد ، وتلك صفات يمكن للملك ـ كما يمكن للرجل اجمالا ـ أن يكتسبها ، وقد طالب أبو حمو الملك بأن تكون بين ما يجب ان يحرص على توفره فيه من الصفات ، كما مر ، حتى أنه طالبه بألا يؤمن الاحداث من النساء ولا من يميل من الاحداث منهن على طعامه وشرابه ، خوف أن يخلطن فيه ما يرين انه ينفعهن ولا يضره (ص : 20) · وحذره من أن يطلع أى أحد على قصره حتى لو كان أقرب أولاده اليه (ص : 21) · ونهاه عن أن يجعل لقصره بابين (ص : 20) وحضه على ألا يغفل عن تفقد هذا القصر فى ليله ونهاره ، مردفا القول « ولا تأمل عليه أحدا غيرك » (ص : 20) ·

والثانى : أن الفراسة ملكة يمكن تدريب المرء عليها عن طريق شرح الطرق التى يمكن أن تمارس بها ، وهذا هو الهدف الذى نصب أبو حمو نفسه لتحقيقه فى كتابه ، فكان باب الفراسة عنده عبارة عن مجموعة من المظاهر المفترضة التى يمكن أن يظهر بها مختلف رجال الملك ، يتلو كل واحد منها تبيان للحقيقة الكامنة وراء المظهر ـ فاذا قابل الملك واحد من هذه المظاهر ، ولم يعرف ما هى الحقيقة المختفية وراءه ، رجع الى

كتاب أبي حمو فوضع عليها يديه دون كبير جهد • وهذه الطريقة في معالجة احــدى قواعد الملك مختلفة كثيرا عن الطريقة التي عالج بها أبو حمو سائر قواعد الملك (ومن هنا افرادها في باب مستقل في نظري) وهي مليئة بالنظرات السيكولوجية الدقيقة •• وانما أملي الطريقةُ عليه ـ فيما يبدولي ـ أن الفراسة من الصفات التي قد تتوفر في الملك وقد لا تتوفر فيه بالخلقة الطبيعية والهبة الربانية ، وحيث أن أبا حمو يرى توفرها فيه ، فانه يود أن يفيد الملك ـ نصيحه ـ في كيفية تطبيقها على الاقل ـ على أن أبا حمو لا يضع الاشياء أمام الملك بشكل فج ، وانما بشكل لبق يتخذ قالب « الاختبار » مـن جانب الملك لمن يريد أن يمتحنه من أهل دولته ، كان يقول : « يا بني ، اذا أردت أن تتفرس في وزيرك هل هو كامل العقل أو ناقص العقل ، فاذا رأيت •• (ص : 143) ، أو يقول « يا بني وان أردت أن تعرف من جلسائك من هو محب فيك ، فأودعه ••• » (ص : 144) • أما الهدف من الفراسة ، والفائدة النهائية منها فامر لا يذكره أبو حمو ولكن يفهم من كلامه احمالا عنها أنه يريد أن يتمكن الملك بواسطتها من ابقاء الشخص المناسب في الوظيفة المناسبة في دولته وجيشه ، فلا يقع الخلل في أي منهما بسبب من الاختلال بين ما تتطلبه الوظيفة من الشخص (كما مر شرحه من قبل) وبين مؤهــلات الشخص نفسه الذي سيحتلها • وربما أن الاختلال في الدولة والجيش يلقي ظله عـلى الملك ، فتحتل أحواله بطبيعة الحال ، فان نصيحة الملك بالفراسة أمر ضروري لابي حمو من حيث حرصه دائما على سلامة الملك ودولته •

ويطول بنا المقام لو ذهبنا نستقصي جميع المواصفات الافتراضية التي تعرض لهـــا أبو حمو في باب الفراسة ، ولكن يمكننا أن نعدد الاشخاص الذين يجـــدر بالملك أن يختبرهم بالفراسة ، والامور التي يمكن أن يستدل على حقيقتهم منهــا ، ثــم نحــاول استقصا الطرائق التي يمكن للملك بها أن يطبق الفراسة • ونختم الحديث بأخذ مثـــل واحد ممن يطبق الملك عليهم الفراسة • فالملك ينبغي أن يفترس في وزيره فيعرف اذا كان كامل العقل أو ناقصه واذا كان ناصحا له ، صادقا معه ، مفضلا لخدمته على شكران ذاته والعمل لمصلحته (ص : 142 ـ 144 و 145 ـ 146) ، وفي جلسائـه ليعتبر من هو المحب في جنابه ، المسرع لقضاء آرائه ، الحافظ لسره ، أو من هو على غير ذلك ، وما اذا

كان جلساؤه متفقـين أم لا (ص : 144 ـ 145) ، وفى **كاتب سره** ليتأكد ما اذا كـان قائما بالحق ، حافظا للسر (ص : 146 ـ 148) ، وفى قضاته فيعلم مدى تكالبهـم عـلى القضاء وميلهم الى الذرية والفساد ، ومدى قبولهم للرشا وتسامحهم فى الاحكام ، وكذلك الحال بالنسبة **للمفتى** (ص : 147 ـ 249) • أما **القواد** فيجب على الملك أن يمتحنهـم ليرى ما اذا كانوا يقبلون الرشا (ص : 149 ـ150) ، وأما **الجيش** فيجب أن يتفرس فى اهتماماتهم أيام السلم ، هل فى الزينة واللهو واللعب والنساء ، أم بالتفاخر بالخيل والعدة وآلة الحرب والنجدة ، وأيام الحرب : هل ينشطون لدى الحرب أم يترددون ••• (ص : 150 ـ 51) • كذلك يجب على الملك أن يتفرس فى **صاحب أشغالـه** فيفحـص مآكله ومشربه وحاله وملبسه وعلاقته بسائر العمال والوزراء والاجنـاد (ص : 151) ويفعل شيئا مشابها مع **الولاة** وينظر بالاضافة الى ظلمهم للرعية ومدى قبولهم للرشـا (ص : 151 ـ 152) • وأحسن طريق لاختيار حقيقة **الحكام** مدى حب الاخيار لهم وبغض الاشرار لهم أو العكس (ص : 152 ـ 153) ، وكذلك الحـال مـع **صاحب الحسبـة** (ص : 153) • أما **السفراء** فان اعمال الفراسة فيهم من أهم الامور لسلامة مهمتهـم ، وأصلا فان أحدا منهم يحب ألا يرسل الا بعد أن ينجح فى الاختبـار (ص : 153) ، وعندما يرجع يتفرس فيه الملك ليدرك مدى ولائه له ، وحرصه عليه وليكشف ما اذا كان عدوه قد استماله اليه ، وأغراه بالمال والكسوة والجهاز أن يخون ملكه ويقضى بأحـواله اليه (ص : 154 ـ 157) •

وقد عرض أبو حمو طرائق عديدة يمكن للملك بواسطتها أن ينجح فى الوصـول الى حقيقة الرجل الذى يتفرس فيه ، أبرزها ست هى :

1) أن يتفرس فى كلام الرجل ومثل ذلك مثل التفرس فى الوزير عندما يتعـين للملك عند أحد الناس مال • فاذا تعرض الوزير للملك بتركه فى نفس الحال ، وألـح عليه فى الكلام عليه ، وأظهر له وجوها من الاعتذارات بضعف المطلوب واقلاله ورقـة حاله ، فليعلم الملك أن الوزير يريد منفعة نفسه ، واذ ذاك عليه أن يزجره عن مقالـه ويأمره أن لا يعود الى أمثاله • فاذا تمادى عليه بالحاح ، وجد فى ذلك ، فليعلم الملك أنه

قد رشى عن ماله ، وان كف بعد أن زجره ولم يعد الى سابق الذى عنه أخره ، فليعلم أن كلامه عن صحة من غير غرض ولا داعية تدعوه الى أخذ غرض (ص : 142) ٠

2) أن يتفرس فى **حركات** الرجل ، ومثل ذلك مثل القاضي يوليه الملك خطة القضاء ، قال أبو حمو : «فتفرس فيه أيضا فى حديثه وصمته، وفى مشيه وجلوسه وسمته، فان كان قبل القضاء يعرف بالصمت فى لسانه ، ثم بعدما قضيته ظهر لك منه انطلاق لسانه مما لم يكن من شأنه ، وأظهر البشاشة والشكر ، والثناء والذكر ، فتعلم أنه محب فى القضاء وانه متصنع فى الرياء وان كان طليق اللسان ثم التزم الصمت بعد القضاء ، وأظهر السكون فى جملة الاشياء ، فتعلم أنه متصنع وانه بالناموس متلفع ٠ ثم تختبره فى مشيته ، فان زاد على حاله المعتادة ، وحدث منه فيه شيء من نقص أو زيادة فتعرف أنه متصنع فى حاله ، متنمس فى أفعاله ٠ وان نظرت لتلك الزيادة ورأيتها خرجت عن العادة ، وهى بسرعة وبشاشة ، ومبادرة وهشاشة ، فتعرف أنه فرح بالقضاء واغتبط به ، ونال منه غاية مطلبه ، وتلك خدمة لاجل ولايتك اياه ، وتصرف بين يديك لترضاه ، وان نقص من ذلك فتعلم انه يتقعد عليك ، ويظهر الناموس اليك ، ويتزهد بين يديك ، لتستحسن حاله ولتغرك أحواله ، وتظنه على شيء فى أموره ، فلا تعتبره فى شيء ولا يغرك بغروره » (ص : 149) ٠

3) أن يتفرس فى **أسارير** الرجل ، ومثل ذلك مثل الجلساء يرد الملك وهم عنده خبر سار ، فمنهم من ينقبض وجهه فيعلم الملك أنه مبغض له ، ومنهم من تتهلل أساريره ويهش ، ويبش ، فيعلم الملك أنه محب له ، قال أبو حمو : « لان الانبساط والانقباض يفيضان من القلب على الوجه ، فيبدو ما فى الباطن على الظاهر وتطلع فى وجهه البشائر ، وتطلع انت عن ذلك على السراير » (ص : 145) بل ان المسرور من الخبر السار سرعان ما يحمر وجهه بينما الكاره له يصفر وجهه ، والسرور ، كما يقول أبو حمو : « يكسو الوجه لطافة وحمرة حتى يصير كانه جمرة ، والحسد يكسوه غبرة أو كدرة أو صفرة ٠٠٠ ولشدة تغيره وحقده لونه يسود ويربد » (ص : 145) ٠

4) أن يتفرس فى **تصرفات** الرجل ، كأن يرقب حال الجند ـ مثلا ـ فاذا رآهم الملك مشتغلين بالبناء والزينة واللهو واللعب والنساء فيعرف أنه لا يعول عليهم فى

الشدائد ، بينما اذا رآهم آخذين فى التفاخر بالخيل والعدة والتداريع وآلة الحرب بالنجدة ، يعلم انهم ممن يعول عليهم فى الشدائد (ص : 150) .

5) كذلك يستطيع الملك أن يستدل على حقائق عماله عن طريق النظر فى **علاقاتهم بعضهم ببعض** ، ومثل ذلك الحكام ، فاذا وجد الملك أن حاكمه تبغضه الاخيار وتحبه الاشرار ، فيعلم أنه غير ذى استقامة ، وأنه آخذ للرشا على انطلاقه ، قال : « وعلامة ذلك أن بغض الاخيار له انما هو لما أحدثه من المظالم ، وفعله من اباحة المحارم ، وما أتى به من الحوادث الفاسدة ، والمناكير البادية بالمشاهدة ، فهو يكرهم لعثورهم على منكره وهم يكرهونه على ما رأوا من مخبره . وأما محبة الاشرار له ومحبته اليهم فان فائدته منهم تحمله على المساواة عليهم ، فهم يحبونه لمساواته عليهم فى المفاسد ، ويحبهم لما ينال منهم من الفوائد ، فان الناس لا يؤلفون الا من وافق طباعهم وينافرون من نافرهم وطلب اقماعهم (ص : 152) .

6) وبعد فالملك يستطيع أن يصل الى حقائق الناس عن طريق **نصب الاشراك** لهم اختبارا ، وذلك أمر يجب أن يفعله لاوجه عديدة فيرسل بالرشا الى من يجب الا يرتشوا من عماله ، فاذا ارتشوا لرسوله فهم يرتشون من غيره (مثل القواد ص : 149 ـ 150) ، أو يطلب رخصة لا تجوز ممن بيده الحكم كالقاضى ، فاذا سلم له وتساهل معه ، فهذا يعنى انه يتساهل مع غيره (ص : 148 ـ 149) ، وهذه الوسيلة هى أنجح وسيلة اذا شاء الملك أن يختبره مدى كتمان كاتب سره لاسراره ، وقد وصف أبو حمو هذه الطريقة بتطويل ، ونصح الملك أن يسير بها هكذا : يتحدث مع كاتب سره فيما يسر أهل بلده الشرفاء والفقهاء والقضاة والاشياخ والوجوه، كل واحد منهم بما يخصه ويسره من احسان أو لاية أو ما أشبه ذلك ، فاذا كان كاتب السر مذيعا للاسرار ، فان الشراهية بالاستبشار تدعوه الى اذاعة السر ، فيبادر أهل البلد بالتبشير ، واذا كان كاتما للاسرار أبقاها عنده فى كتمان وبعد ذلك يرسل الملك من يسئل فى بلده على ما أودعه من ذلك ، فاذا وجده قد ظهر يعرف أن الكاتب لم يكتم السر ، والا عرف انه شخص مؤتمن .

هذه هى الطريق التى يمكن للملك أن يستدل بها على خفايا أهل دولته وجيشه، وعلى الملك أن يطبقها كل على عدوه وارسال عدوه ، فيعلن بذلك نواياهم بشأنه ولا يغتر بما

يظهرونه نحوه من المصانعة وسواها ، وقد عنى أبو حمو فى هذا المجال بكثير من التفصيل ، وسوف نعرض ما قاله فى هذا الشان متخذينه مثلا على فئة من الفئات التى يطبق عليها الملك فراسته .

وقد تعرض أبو حمو لذكر السفراء الذين يردون على الملك من الخارج ، فنصح الملك ـ بعد الاحسان اليهم ـ بالفرس فيهم لاستطلاع باطنهم واكتشاف نوايا صاحبهم ، وذلك بخاصة اذا كانوا اتين من قبل عدو الملك وليس من قبل وليه (ص : 157) . اذ ذاك يجب على الملك أن يسايسهم أحسن مسايسة ، ويخدعهم بالطف المخادعات ويصانعهم بوجوه مصانعات ، حتى يظهر له الحبيب والنصيح والباطل والصحيح ، فيعامل كل واحد بحسب ما يليق به ويتفق مع مذهبه (ص : 160) ، وينزله لدى مثيله فى المنصب فى دولته (ص : 160) .

أما كيف يكتشف الملك حقيقة نوايا عدوه عن طريق ارساله .

فذلك ما يشرحه أبو حمو للملك بقدر غير قليل من التفصيل . فاذا أقبل رسول عدوه اليه **طلق الوجه** ، مسرعا فى مشيه ، مظهرا للمسرة ، ثم تحدث أمام الملك وأظهر الادب بين يديه فى كلامه ، مقدما اياه فى الشكر على سلطانه ، فذلك يعنى أحد أمرين لا ثالث لهما : اما أن سلطانه ضعيف الملك أو انه ضعيف العقل ، فان كان ضعيف الملك ، فعلى الملك أن يتفرس فى الرسول بأحد وجهين : اما أن الرسول يطمع فيما يناله من الملك ، وذلك من خذلانه ، واما أنه يطمع فيما يدفع به المضرة عن سلطانه . فاذا كان الامر كذلك ، فعلى الملك أن يأذن له فى الجلوس فى مجلسه ، والاختلاط مع جلسائه ، فيستأنس بهم ، ويصبح ـ مع الزمن ـ مستعدا لان يفضى الى الملك بما أضمره من سره ، وبما جاء به من غير الامور وشره . اذ ذاك على الملك أن يعده بالفوائد الكبيرة ويمنيه الوعود الكبيرة . فاذا كتم ـ مع ذلك ـ أمر سلطانه ولم يطلع الملك على أحواله ، علم الملك أنه رسول ناصح لمولاه ، وانما أسرف فى الثناء على الملك لضعف سلطانه وقلة ذات يده وامكانه ، ودفعا لمضرة من جانب الملك يتقيها ومحافظة على محاسنة يبقيها . عند ذلك يطيع الملك الرسول على ما يريد من الشروط على سلطانه ، فاذا قبلها عن أول وهلة ، علم الملك أن عدوه شديد الضعف ، وأنه يمكنه اما أن يصالحه أو يسير اليه بجيشه ويحاربه حسب رغبته (ص : 157 ـ 158) . فاذا كان سلطان الرسول قويا

بالجيش والمال ، مع ما صدر من الرسول من البشاشة ، فيعلم الملك أن سلطانه **ضعيف العقل** ، وعلامة ذلك أن الرسول استباح لنفسه تأخيره فى الذكر وقدم الملك فى الثناء عليه • وهذا الرسول طامع بالمنافع التى هى عائدة على سلطانه بالمضار والبوار (ص : 158) • فاذا دخل رسول العدو الى الملك وهو **منقبض الوجه** ، بطىء المشى ، مظهرا الكراهية فى الزى والوجه ، فعلى الملك أن يتفرس فيه بأحد وجهين : اما أن يكون ذلك من قبل الرسول نفسه لخبث طباعه وسوء اصطناعه ، وعند ذلك ينزله الملك لدى قرينه فى المنصب فى دولته لاختيار حاله بعد أن يأخذ كتب عدوه منه ، ويدرسها درسا جيدا • فاذا كان فيها ما لا يرضى الملك ، فيعرف الملك أن الرسول من طبع المرسل والكتاب ، فيحضره بين يديه ويخلى له مجلسه حتى لا يطلع أحد عليه ، ولا يخفى كتابه ، ويعطيه الرد عليه • أما اذا كان فى الكتاب ما يسر ويرضى ، فتعلم أن الخباثة من طبع الرسول ، اذ لم يكن فى الكتاب الا الامن فينعم الملك عليه بالاحسان ويستميل قلبه بالامتنان نظرا لان حركاته كلها كانت من أجل الطمع المتوكد فى نفسه ، فاذا نال الاعطيات من الملك أفشى سر سلطانه اليه فيكون احسان الملك قد حمل الرسول على خيانة مولاه (ص : 160 ـ 161) •

والفراسة تطبق أيضا على الكتب الواردة الى الملك فى عدوه • وفى هذا المجال ، عليه أن يراعى نسبة قوة عدوه بالنسبة لقوته • فاذا **كان عدوه أقوى منه** وقدر أن يصده عنه ، ثم وردت منه كتب فيها ما يرضى الملك من الموالاة فذلك دليل انه ينصب للملك مكيدة • حتى لا يتحرز منه ، ولا يأخذ حذره فيما يصدر عنه ، فيأتيه على حين غفلة ، ويختله عندما يكون على غير أهبة (ص : 161) • أما اذا كان العدو **مساويا للملك** فى الجيش والمال والكفاية والدهاء والاحتيال ، فعلى الملك أن ينظر فى كتبه • فاذا كانت متفاوتة فيما يرضى وما يغيظ ، فهذا دليل على النقص فى عقله ، وللملك اذ ذاك الخيار فى استغلال الفرص تجاهه بالحرب أو بالمصانعة وأما اذا كانت ذات حظ مستو من الاتزان ، فهذا دليل على الوفور فى العقل ، وهذا يجب أن يخادعه الملك بضروب المخادعات ويصانعه بوجوه المصانعات (ص : 161 ـ 162) • واذا كان العدو **أضعف من الملك** فلينظر الملك فى كتبه ، فاذا كانت مليئة بما يرضى الملك ويسره ، فهذا دليل على حسن

عقله ، ويجب على الملك مداراته ، أما اذا وجده مع ضعفه يكتب للملك بما لا يرضيه ، فهذه اشارة الى ضعف عقله ، وعلى الملك أن ينتهز الفرصة المناسبة ليحاربه فيقضى عليه لا محالة (ص : 162) ٠

هكذا كان تعليم أبى حمو بشأن الفراسة ، ولا شك أن ما فيه من نفاذ سيكولوجى فى النفس الانسانية يثير الاعجاب فى أبى حمو ، كما يدل على رغبة أبى حمو فى استكمال جميع الوسائل الضرورية لسلامة الملك واستدامة سلطانه ٠

والحقيقية أن الحديث عن السلامة ودوام السلطان يوصلنا فى نهاية المطاف الى الحديث عن الناحية العمرانية المفقودة تقريبا فى كتاب أبى حمو النظرى ٠ فان الناظر فى هذا الكتاب لا يجد فيه سوى اشارة الى وجوب الاحتفال بالمولد النبوى (ص : 167) ووجوب نظم الشعر فى التشوق الى الرسول والى الحرم الشريف اذا أوتى الملك « الغريزة الشعرية » ، واعطاء الشعراء المال فى المناسبات الدينية (ص : 167) ٠ وكل هذه مما كان أبو حمو يفعله (178) ، فذكرها فى النظرية ليس أكثر من صدى لحدوثها فى واقع الحال ٠ أما فيما عدا ذلك ، فانه ليس للعمران ذكر فى كتاب « الواسطة » ٠ وقد يستغرب الدارس هذه الظاهرة للوهلة الاولى ، وخاصة لان اسهام أبى حمو فى الناحية العمرانية فى الواقع العملى كان أوسع مما ذكره فى كتابه النظرى ٠ ولكن اذا تذكرنا أن هذا العمران لدى أبى حمو لم يخرج عن نطاق العمران الدينى الا الى النطاق الحربى (دار الصناعة السعيدة (179) أدركنا أن فهم أبى حمو للعمران كان محدودا بمدى امكانات هذا العمران فى المحافظة على سلامة الملك ودوام ملكه فى الدنيا ، وعلى نجاته فى الآخرة ٠ ويبدو أنه فى حدود هذا الفهم لدور العمران فات أبو حمو أن العمران قد يكون وسيلة لتنمية المال فى الدولة ومن ثم وسيلة لاثراء ناحية من نواحى المحافظة على الملك ٠ فصحيح أن بناء المدارس والزوايا والانشاءات والقصور قد لا يؤدى الى زيادة مالية الدولة ، الا أن تنمية الزراعة وا لصناعة والتجارة ــ وكلها من وسائل العمران ــ ينعش الدولة اقتصاديا ، وذلك أمر لم يكن داخلا فى اعتبار أبى حمو الضيق

178) انظر ما سبق ، ص : 24 ــ 28 ٠
179) انظر ما سبق ، ص : 23 ٠

للعمران ، بل ظل المال بالنسبة له من الاشياء « الجاهزة التى تأتى الى حاضرة الملك من الايالات والاقاليم فيستعملها ويكتفى بها اذا وجدها وافية بأغراضه ٠

* * *

تلك كانت المعاليم الكبرى فى نظرية أبى حمو السياسية : نظرية تقوم على قاعدة أساسية مؤداها أن الملك ما دام قد وصل الى الملك فان الهدف الاسمى من أى سياسة ينتهجها هو توجيه الاشياء حوله الى حفظ سلامته ودوام سلطانه ، من هنا كانت الاشياء بحسب هذه القاعدة تتفاوت بين فئة تؤثر على سلامة الملك وادامة سلطانه وفئة لا تؤثر على سلامة الملك وادامة سلطانه ٠ أما العمران فان يقع ـ بحسب مفهوم أبى حمو الضيق ـ فى الفئة ا لثانية ولذلك لم يكن من المهم ذكره أو الاهتمام به الا فى الحقلين الحربى والدينى ، بينما يقع فى الفئة الاولى خلق الملك الذى يحفظ له آخرته مع ربه ودنياه مع رعيته ، ورجال دولة الملك (من دون سائر أفراد الرعية) الذين يسيرون له أمور دولته فى السلم بخاصة وفى ا لحرب فى بعض ا لا حيان ، ثم ا لمال ، الذى يحفظ للملك اتزانه الاقتصادى ورخاءه المادى ، ثم الجيش ا لذى يكفل له النصر على أعدائه على المستوى العسكرى ، ثم الفراسة التى تضمن له الفهم السيكولوجى فلا ينخدع بظواهر الناس وانما ينفذ الى بواطنهم ٠ وهذه الامور كلها كانت قد مرت بأبى حمو فى تجربته السياسية الطويلة ، فترك آثارها الايجابية على نظريته بما لا يحتمل الشك قط ٠

وقد كان لانطلاق أبى حمو من تجربته الذاتية فى نظريته السياسية أثر سلبى على تلك ا لنظرية ، كما قد كان لها أثر ايجابى عليها ، وأعنى بالاثر السلبى اصابتها بقدر غير قليل من المحدودية ٠ فهى نظرية باهرة مليئة بالنظرات الصائبة الثاقبة معا ، الا أن مجال الافادة منها كلا مجموعا ليس مفتوحا أمام كل ملك ـ مطلقا ـ وانما أكثر ملك يستطيع أن يفيد منها هو الملك الذى يعيش فى ظروف أبى حمو نفسها أو فى ظروف تشابهها ، وبكلمات أخرى : ان هذه النظرية اذا طبقت تطبيقا جيدا تكون أصلح نظرية لملك يعيش فى المغرب فى القرن الثامن للهجرة ، واذا كان زيانيا فان أحكامها تنطبق عليه أكثر ٠ غير أن هذا يجب ألا يعتبر مأخذا على أبى حمو فانه هو نفسه كتب نظريته لابنه وولى عهده أبى تاشفين من دون سائر الملوك وكان يتوقع ـ بحق ـ أن يعيش

ابنه فى ظروف مشابهة لظروفه ، فتكون الوصايا التى أوصاه بها مفيدة له ، وهذا ما كان يمكن أن يحدث فى واقع الحال ، لولا ن ابنه ألم يرد أن يفيد من هذه الوصايا، وقد ظهرت علامات ذلك منذ بداية حكمه ، عندما قتل والده ، وقبل أن يكون عاملا وحسب لمن كان أبو حمو يرى نفسه له ملكا ندا .

(3)

واذا شاء الدارس أن يحكم على مدى الشمول فى نظرية أبى حمو خارج اطار تجربة أبى حمو ولكن ضمن نطاق التجربة السياسية فى المغرب فى القرن الثامن الهجرى ، عليه أن يقارن نظرية أبى حمو بالنظريات السياسية لثلاثة من معاصريه الذين لعبوا أدوارا سياسية مختلفة فى تلك الفترة ، وهم لسان الدين بن الخطيب (ص ـ 776) ووزير بنى نصر بالاندلس وأبو القاسم ابن رضوان النجارى الخزرجى (ـ 782) وزير سلاطين بنى مرين منذ السلطان .بى عنان المرينى (ـ 759) حتى السلطان أبى العباس أحمد بن سالم (ـ 786) ثم المؤرخ عبد الرحمن بن خلدوه (ـ 808) .

أما ابن الخطيب ، فقد كتب رسالة صغيرة فى السياسة (نصها فى نفح الطيب 6 : 431 ـ 445) وضعها فى اطار « مسرحى» فقدم لها بصورة مجلس من مجالس الرشيد ، وقد تقدم الليل واستبد بالرشيد السهر ، فطلب من أحد جلسائه أن يخرج الى الطريق ويأتى بأى رجل يجده هناك ، فوجد رجلا « أعجمى الجنس عربى الفصل » (ص : 432) رحلته الاعتبار ونحلته الامر الكبار ، وفنه الحكمة (ص : 432) فسر الرشيد به ، وطلب منه أن يخبره بما عنده فى شأن الخلافة ، ذات الاعباء الثقيلة ، فقام الرجل بنصيحته ، نصيحة استغرقت الرسالة كلها باستثناء الخاتمة ، اذ جاءت لتكمل الوضع المسرحى المبدوء به : فالرجل يلاحظ أن الليل قد كاد ينتصف ، فيعتذر للرشيد بأن بحر السياسة زاخر ، ومجال الوصاية أكثر مما يصف ، ويستأذنه بأن يؤنسه بفن آخر من الأنس ، فيقبل الرشيد اقتراحه ، فيدعو بعود ويغنى أغنية شجية ، ينام عليها جميع الحاضرين ، فينصرف هو من بينهم دون أن يعى عليه أحد ، وعندما يستيقظ الرشيد في اليوم التالى يطلبه فلا يجده (ص : 444 ـ 445) .

ورغما عن أن ابن الخطيب جعل نصحيته فى السياسة داخل اطار حادثة جرت للرشيد ، فانه جعل مخاطبه فيها يعرف بـ «الملك» (ص : 432) ، مما يعنى أنه ظل يفكر

فى نطاق البنية السياسية للبلاد الاسلامية فى عصره من دون عصور الخلفاء السابقين ، وفى هذا كان يتفق مع أبى حمو ، كما يتفق معه فى أن صيغة الرسالة كانت صيغة الخطاب المباشر من الكاتب الى الملك المراد نصحه ·

ولعل اكثر ما يلفت نظر القارىء لرسالة ابن الخطيب حسن بنائها ووضوح أقسامها ، اذ هى تتألف من قسمين رئيسيين : الاول : أصناف الرعية ، ويدخل فيهم الرعية عامة (ص : 433 ـ 434) فالوزير (ص : 434 ـ 435) فالجند (ص : 435 ـ 436) فالعمال (ص : 436 ـ 437) فالولد (ص : 437 ـ 438) فالخدم (ص : 438 ـ 439) فالحرم (ص : 439 ـ 440) والثانى : نصائح مختلفة بشأن السيرة فى الرعية مثل العدل والروية وواجبات الملك تجاه الدولة التى بين يديه مثل المال والعمران (ص : 440 ـ 444) والقسمان مفصولان فى النص بعبارة مشيرة الى انتهاء الحديث الاول وابتداء الحديث الثانى هى « ثم لما بلغ الى هذا الحد حمى وطيس سحنفاره ، وختم حزبه باستغفاره ، ثم صمت مليا ، واستعاد كلامه أوليا (ص : 440) وهذا المبنى هو دون شك أشد وضوحا وأبسط من بناء أبى حمو لكتابه وربما ساعد قصر الرسالة ابن الخطيب على المزيد من الوضوح هنا ·

والناظر فى الموضوعات التى عالجها ابن الخطيب يلاحظ أنها فى احيان كثيرة تتفق مع الموضوعات التى عالجها أبو حمو · فالوزير والجند والعمال يحتلون فقرات خاصة بهم لدى كل من ابى حمو وابن الخطيب ، وكذلك عن كيفية السيرة بالرعية لدى ابن الخطيب فانها تقابل حديث أبى حمو عن الصفات التى يجب ان تتوفر فى الملك تجاه رعيته واساسها ثلاث : العدل والسياسة والفراسة ثم الكرم والحلم والعفو · وعندما يحاول الدارس أن يقارن بين جزئيات الموضوع الواحد لدى كل من ابى حمو وابن الخطيب فانه سيجد تشابها غير قليل : فالوزير لدى الرجلين شخص هام من اشخاص الدولة وعلاقته مباشرة بالرعية على عكس الملك ، ويشترط فيه أن يكون مخلصا للملك ، ناصحا له ، مؤثرا لمصلحته ، رفيع القدر ، كامل الآلة ، من بيت سرى وعلى الملك أن يكرمه ولكن لا يعفيه من الامتحان · والجند يجب أن يكونوا شجعان مقدامين ، ترتيبهم فى طبقات متدرجة فى الارتفاع بحسب شجاعتهم وكفايتهم ، وقوادهم يكونون أشدهم نكالا

على الاعداء ، وأكثرهم محبة للملك ، وعلى الملك أن يحسن اليهم ويعطيهم أرزاقهم في أوقاتها . أما العمال فيجب أن يكونوا من أهل العدل والانصاف ، مرتبين أيضا في طبقات بحسب منزلتهم من الكفاية والامانة ، وعلى الملك أن يتالفهم بالاحسان اليهم . كذلك عندما يتعرض ابن الخطيب للمال (ص : 440 ـ 441) يتفق مر أبى حمو على أهميته للملك ، ويشدد على الدور الذى يمكن أن يقوم به فى تسيير مقادير دولته ، ويذكر أهميته بالنسبة لاقامة الجند ، وينصح الملك بعدم الحرص عليه ، وعدم انفاقه فى الشهوات ، وعلى العكس من ذلك وجوب انفاقه فى الامور الشرعية . وحينما يجىء دور الصفات المطلوب توفرها فى الملك (ص : 440 ـ 444) يذكر كل من ابن الخطيب وأبي حمو صفات العدل والاناة والروية والحزم والمشورة وتغليب العقل على الهوى والغضب والتوكل على الله ، بأشكال مختلفة ، الا أن المنطلق هنا واحد وهو المنطلق الاخلاقى وكل هذا مما يدل على التشابه بين رسالتى ابن الخطيب وكتاب أبى حمو ، حتى أنه يبدو فى بعض الاحيان أن نص ابن الخطيب يستوحى نص أبى حمو عندما يصوغ عباراته بشكل شبيه جدا بشكل عبارات أبى حمو ، وذلك مثل قوله عن الوزير : « وليكن ... بعيد الهمة ، راعيا للازمة ، كامل الآلة ، محيطا بالايالة ، رحيب الصدر ، رفيع القدر ، معروف البيت ، نبيه الحى والميت ... » (ص : 434) ، فانه يمكن أن يقارن ـ من حيث صياغته ـ بقول أبى حمو فى الوزير ... أن يكون من خيار قومه وعترته ، وكبير عشيرته وبيته ، وأن يكون وافر العقل ، عاريا من الجهل ، حاضر الذهن، سريع الفهم ، راجح الرأى ، محمود السعى ، محبا ناصحا ، شجاعا فى المهمات ، وعند نزول الملمات ... (الواسطة : 32) . وقد يكون بعض التشابه ناتجا عن استعمال الترادف والسجع فى كلا الكتابين ، وبعضه قد يعود الى التشبع لمصدر واحد هو كتاب « سراج الملوك » للطرطوشى أبى بكر (180) اذ يقول فى وصف الوزير فيه : ... أن يكون الوزير صدوقا فى لسانه ، عادلا فى دينه ، مأمونا فى اخلاقه ، بصيرا بأمر الرعية ... (181)

(180) انظر مثلا الفصل عن الوزير والوزراء : 118 .

(181) سراج الملوك ، 120 .

غير أن المشابه ما بين رسالة ابن الخطيب وكتاب أبى حمو تصبح هامشية عارضة اذا ما قوبلت بالفروق التى بينهما • فالدارس يلاحظ ـ حتى لدى النظرة العجلى ـ أن ابن الخطيب عالج موضوعات لم يعالجها أبو حمو ، مثل موضوع الولد ، والخدم ، والحرم، والعمران فضلا عن موضوع الرعية ذى الاطار المحدد فى رسالة ابن الخطيب ، ولا يلبث عندما يدق فى نص الرسالة أكثر أن يعثر على أفكار كثيرة لم ترد لدى أبى حمو • وقد يبدو ـ للوهلة الاولى ـ أن هذه الفروق ـ الزيادات جانبية ، ثانوية الدلالة ، وأنها مجرد عنصر مقابل لعنصر المشابه بين رسالة ابن الخطيب وكتاب أبى حمو • الا أنه عندما يمعن النظر فى رسالة ابن الخطيب يجد أن الامر أخطر بكثير من ذلك ، اذ النظرة الاساسية الى الملك مختلفة لديه عما هى عليه لدى أبى حمو ، وبالتالى واجبه تجاه الملك الذى ينصحه أشمل بكثير مما لدى أبى حمو •

ذلك أن ابن الخطيب لا يرى الملك فى ناحية والرعية فى ناحية أخرى ، بل يرى الرعية والملك عاملين متعاونين لاجل مصلحة مشتركة ، يقود السير اليها الملك نفسه بحق ، ولكن الرعية تقوم بدور فعال فى طريق السير هذا اليها نفسه • كذلك لا تشكل سلامة الملك وحفظ دولته هاجسا دائم الحضور مروع الالحاح لدى ابن الخطيب ، كما هو الحال لدى أبى حمو ، ولذلك لا يغفل عن العوامل والظواهر التى تتعلق تعلقا شديدا بالملك دون أن تؤثر على سلامته وحفظ دولته تأثيرا مباشرا ، فيما تزل هذه العوامل والظواهر عن ذهن أبى حمو لاشتغاله بموضوعى السلامة والاستقرار فى الملك اشتغالا شبه تام • من هنا صورنا فيما مضى من هذا البحث (182) الملك بشكل القطب ، المدار الذى يدور حوله كل شىء يؤثر فى مقدراته (سلامته وحظه فى البقاء فى ملكه) ، وصورنا المؤثرات التى تؤثر عليه بشكل الافلاك حول الملك ، والتى يملك مفاتيحها لوضعها فى مدارها السليم الملك نفسه ، واذا حاولنا أن نصور نظرية ابن الخطيب الاساسية ، فاننا نصورها بشكل هرم ، قمته الملك وجسمه الرعية ، والملك هو الذى يملك مفتاح الرعية ويقودها كما يشاء • غير أن أى اخلال فى الرعية يشكل اختلالا فى الجسم فيسقط الجسم ومعه القمة ـ الملك ـ •

---

182) انظر ما سبق ، ص : 44 ـ 45 •

من هنا تحدث ابن الخطيب مطولا عن عدد من الفئات هى الولد والخدم والحرم ، رغم أنها لا تؤثر تأثيرا سياسيا مصيريا مباشرا على الملك ، فيما أهمل أبو حمو الحديث عنهم اهمالا تاما ، كذلك افرد ابن الخطيب الرعية بأكبر فقرة في رسالته ، وخصها فى اماكن متفرقة من الرسالة بأكبر قدر من اهتمامه ، وأشار فى مواطن عديدة الى ما يمكن أن تقوم به من أعمال يمكن أن تؤثر على مقدرات الملك نفسه : فالرعية يمكن أن « تتعدى طورها ، أو تخالف دورها ، أو تجاوز بأمر طاعتك فورها » (ص : 433) ويثور جرادها ويختلف فى طاعة الملك مرادها (ص : 434) ، وقد يكون فى الوزراء « من يرى فى نفسه الى الملك سبيلا ، أو يقوده عصيه للاستظهار عليك قبيلا » (ص : 434) كما قد يكون بين الجند والقواد « من كان عند نفسه أكبر من موقعه فى الانتفاع ، ولم يستحى من التزيد بأضعاف ما بذله من الدفاع ، وشكا البخس فيما تعذر عليه من فوائدك ، وقاس بين عوائد عدوك وعوائدك ، وتوعد بانتقاله عنك وارتحاله ، وأظهر الكراهية لحاله (ص : 436) . فهذه أشياء ربما كانت فى حساب أبى حمو الا أنه لم يصرح بها ، ولا يتوقع أن يصرح بها ، الا بشكل عابر ، فالملك هو الذى يحرك مقادير الرعية ، أما أن يحدث العكس فأمر وان ورد فى خاطر أبى حمو فانه لا يراه أهلا للتوقف عنده .

وبما أن الرعية على هذا القدر من الامكانات فقد شدد ابن الخطيب على صعوبة دور الملك فى قيادتها ، ولذلك وجد نفسه يلح على استعانة الملك بعناصر مساعدة له فى سياستها ، وأهم هذه العناصر اثنين أولهما : التوكل على الله والثقة به وطلب المعونة منه ، ولذلك قال فى مطلع حديثه عن الرعية : « رعيتك ودائع الله تعالى قبلك ... ولن تصل الى ضبطهم الا باعانة الله تعالى التى وهب لك » (ص : 433) ، ثم نصح الملك بذكر الله فى الصباح وفى المساء ، فى الترفع وفى الابتذال (ص : 442) وتقديم الثقة بالله على كل قواه ، قال : « ولتكن ثقتك بالله أكبر من ثقتك بقوة تجدها ، وكتيبة تجندها ، فان الاخلاص يمنحك قوى لا تكتسب ، ويمهد لك مع الاوقات نصرا لا يحتسب » (ص : 442) ، وثانيهما : الاستفادة من المجالس والمجالسين ، بحيث لا يمر على الملك مجلس الا وقد أحرز منه فضيلة زائدة (ص : 440) ، وخص ابن الخطيب من بين المجالسين العلماء بالاهتمام ، وبين انه يمكنهم أن يلعبوا دورا عظيما فى هداية

الملك وارشاده ، اذا تعدهم بالعناية : « واعلم أن مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاعل المتألقة ، والمصابيح المتعلقة ، وعلى قدر تعاهدها تبذل من الضياء ، وتجلو بنورها صور الاشياء ، وفرغها (اقرأ : ففرغها) لتجبير ما يزين مدتك ، ويحسن من بعد البلاء جدتك وبعناية الاواخر ذكرت الاول ، واذا محيت المفاخر خربت الدول (ص : 441) .

ولقد فرضت مكانة الرعية العظيمة لدى ابن الخطيب أن تكون معاملة الملك لها على غير الاساس الذى أقام عليه أبو حمو معاملته لها . صحيح أن الاثنين يتفقان على صفات الملك العامة (من العدل والاحسان ... الخ) تجاه الرعية الا ان ابن الخطيب يزيد الى ذلك أشياء كثيرة لا ترد لدى أبى حمو قطب . من ذلك مثلاتطلب ابن الخطيب من الملك أن يمنر أغنياء الرعية من « البطر والبطالة والنظر فى شبهات الدين بالتمشدق والاطالة » (ص : 433) وأن يمنعهم من فحش الحرص والشرة ويتعاهدهم بالمواعظ ويحملهم على الاجتهاد فى العمارة على أحسن المذاهب ، وينهاهم عن التحاسد (ص : 433) ، كذلك يجب أن يحض ذوى اليسار منهم على السخاء على الضعفاء وعلى اجتناب البخل ص : 433) . أما الشريعة فعليه أن يأخذهم بظاهرها ، وبمنعهم من تأويلها منعا قاهرا (ص : 433) كما يمنع المدرسين والمتعلمين والعلماء والمتكلمين بالابتعاد عن الشكوك فى الدين « فانه يفسر طباعهم ، ويغرى سباعهم ، ويمد فى مخالفة الملة باعهم » (ص : 442) . ومن باب قريب من هذا على الملك ألا يسمح باطلاق ألسنة الكاهنة والارجاف ، ومطاردة الآمال والخيالات فى دولته ، لانه يبعث على سوء القول (ص : 442) ، فهذه النصائح للملك يسديها ابن الخطيب اليه لان الرعية عنصر متعاون معه ، مصلحته من مصلحتها ، وكما يجب على الملك أن ينمى الصفات الحميدة فى نفسه كذلك عليه أن يراعى الصفات الحميدة فى رعيته . وفى هذا المقام لابد من أن نذكر أن حضوره « الصورة الشرعية » فى الملك وفى رعيته كان واضحا لدى ابن الخطيب بينما كاد يكون مختفيا لدى أبى حمو ـ وهذا أمر كان ابن الخطيب مهد له فى الفرشة المسرحية لرسالته (ص : 432) .

بل ان ابن الخطيب يذهب الى أبعد من هذا حين يعتبر الملك شبه خادم للرعية فى مصالحها بحيث يرضى « بالسهر لتنويمهم ، وحراسة كهلهم ورضيعهم ، والترفع عن تضييعهم » (ص : 433) . وهذا ما جعل جانب « الرفق » بالرعية والاحسان اليها وتوفير

وسائل العيش المريح لها أبرز بكثير من جانب « العدل » فيها « سياستها » ، وشواهد هذه الناحية كثيرة فى رسالة ابن الخطيب لكن أبرزها الفقرة عن أقوات الرعية ، قال : « وجمل المملكة بتأمين الفلوات ، وتسهيل الاقوات ، وتجديد ما يتعامل من الصرف فى البياعات ، واجراء العوائد مع الايام والساعات ، ولا تبخس عيار قيم البضاعات ، ولتكن يدك عن أموال الناس محجوزة ... (ص : 443) .

غير أن هذا لا يعنى أن ابن الخطيب نسى أن يتحدث عن الدور الاساسى الذى يقوم به الملك فى دولته ، وهو دوره السياسى ، بل انه أعطاه قسطا عظيما من اهتمامه ، ووجه للملك نصائح عديدة بشأنه ، بعضها تقليدى ، كأن يقول ان على الملك أن يحصن بلاده ويختبر أعوانه ويتشاغل أيام الهدنات (ص : 442) ، وهذه أمور يجد الدارس مقابلا لها لدى أبى حمو ، وبعضها ابتداعى دقيق يدل على وعى شديد وفطنة عظيمة من جانب ابن الخطيب ، فهو ينصح الملك بأن يصرف الجند عن الافتتان بأهليهم وديارهم (ص : 435) ، وأن يحول بين عماله وبين تضمنهم أموال أعمالهم ، وألا يجمع للعامل الواحد بين الاعمال ، ويحرص على أن يكون العامل غريبا فى ولايته ، منتقله من الملك قريب (ص : 437) . كذلك على الملك أن يحذر من خدامه من قويت شهواته ، لان الشهوات تنازع الملك فى استرقاقه (ص : 438) ، وأن يشرب قلوبهم أن الحق فى كل ما حاوله ، والباطل فى كل ما اعتزله (ص : 438) ، ويجب على الملك أن يبقى العمال بين الخوف والرجاء (ص : 436) وأن يدرك أن حالهم فى الغالب شديد الشبه بحاله هو (ص : 436) .

ومن مهام الملك أن يكفيهم من رزقهم فلا يتصدون لدنىء الموافق ، ويجتنب منهم كل من كان الغالب عليه التخرق فى الانفاق وعدم الاشفاق والتنافس فى الاكتساب (ص : 436) ، كما يجتنب الوزير الذى تتطاول همته الى الملك (ص : 434) ، والعامل الذى يظل ابدا ساخطا من قدره من العطاء (ص : 436) على ان الاهتمام بالدور السياسى الذى يلعبه الملك لا يجعل ابن الخطيب غافلا عن دوره العمرانى ، رغم ان هذا الدور لا يؤثر تأثيرا مباشرا عليه وفى نظر ابن الخطيب ان الغرض من العمران بقى الذكر وتخليد الآثار (ص : 141) وهذان مما يطلبهما الملك .

يستنتج من هذا كله ان اتساع المنطلق الاساسى للنظرية السياسية لابن الخطيب قد وسع مفهوماته من المطلوب من الملك ، فيما حدث العكس لدى أبا حمو ، لذلك جاءت رسالة ابن الخطيب اشمل بكثير ، وأوعى لموضوعات متنوعة اكثر من كتاب أبى حمو ، رغم أنها ــ من حيث الحجم ــ كانت لا تتجاوز الخمس عشرة مقابل كتاب أبى حمو الواقع فى 174 صفحة ٠ ولا شك أن القدر الاكبر من محدودية نظرية أبى حمو يعود الى انه هو نفسه كان ملكا ، فكان الملك بطبيعة الحال مدار اهتمامه الاكبر ، وكـان أيضا فى تجربته السياسية ــ ملكا يتهدد ملكه كل دقيقة اعداء اقوى منه ، فيخرجونه من ملكه ويضطرونه الى « المخاطرة فى سبيل السلطان » مرة اثر أخرى ، وهذا جعـــل قضية « سلامة الملك واستمراره فى ملكه » امرا غالبا عزيزا لو وجه كل شىء فى سبيل الابقاء عليه لما كان هذا بكثير ، وكل هذا اثر فى نظريته وجعل شمولها ــ فى بعض الاحيان ــ شمولا خاصا باوضاع أبى حمو نفسه ٠ اما ابن الخطيب فلم يكـــن ملكا ولذلك لم ير الامور من وجهة نظر الملك وحسب ، وان كان كبيرا فى الرعية ، ولذلك احتلت الرعية عنده مكانا عاليا مقاربا من مكان الملك فى الفعالة السياسية والعمرانية وعندما جـــاء ليكتب رسالة فى السياسة يشرح فيها القواعد العامة التى يجب ان تحكم تصرف الملك ، كان لديه تجربة عريضة وثقافة سياسية واسعة وتفكير مرتب واضح ، فاجتمعت كل هذه وانصهرت معا لتاتى برسالة صغيرة فى الحجم، كبيرة بما فيها من قضايا وتوجيهات ٠ ولو أتبع ابن الخطيب طريقة أبى حمو بالرجوع الى المصادر ونقل الامثلة والحكم وغير ذلك منها لجاء كتابه على أضعاف حجم كتاب أبى حمو ٠

ويمثل ابن رضوان النجارى الخزرجى ثانى كتاب السياسة فى عصر أبى حمو وقد كانت السياسة موضوع كتابه « الشهب اللامعة فى السياسة النافعة » ٠ وقد كتبـه بطلب من السلطان أبى سالم المرينى الذى تولى سلطان المغرب بين سنتى 760 و 762 ، ولذلك فالكتاب لابد أن يكون قد كتب فى تلك الفترة ٠ وقد درس هذا الكتاب مـن قبل الدكتور احسان عباس (183) ، فتحدث عن مصادره المتنوعة من كتب التاريخ مثل

---

183) انظر « ابن رضوان وكتابه فى السياسة » فى كتاب العيد ، الجامعة الاميركيـة فى بيروت ، 1967 ، ص : 99 — 154 ٠

تواريخ الهمذانى والصابى والمأمونى ، الى كتب الاخلاق مثل سلوان المطاع لابن ظفر ، الى المصادر العامة المعنية بالاخلاق والسياسة مثل عيون الاخبار والعقد ، فكتب الطوائف مثل الهفوات النادرة للصابى ، وكتب السياسة مثل سراج الملوك للطرطوشى ، وسياسة ابن حزم ، ثم بعض المصادر الثانوية (184) وخرج الى القول ان ابن رضوان اعتمد فى كتابه اعتمادا أساسيا « على الجمع » لا على التأليف أو القيام بابتداع نظرية سياسية خاصة به : فكأن ابن رضوان حين كلف بتأليف هذا الكتاب عاد الى مكتبته واختار منها المصادر التى رآها تعينه على تحقيق غايته ، ثم أفرغ ما فيها فى جذاذات ، ثم رسم لنفسه عدد الفصول وموضوعاتها ، وقسم جذاذاتها بحسبها ، وأدرج كل فئة منها تحت الفصل الملائم ، ولم يتدخل فى ما وراء ترتيب الفصول الا قليلا (185) • ولا يمكن أن يعزى اليه الا النزر اليسير من الافكار فى كتابه (186) • ولقد كان لهذا اثره الكبير فى كتاب ابن رضوان اذ افتقدت فيه « الصورة الموحدة لكل موضوع من موضوعات كتابه ، وجعلت من غير الممكن ايجاد نظرية متماسكة واضحة المعالم له • ومن ثم كانت مقارنته بكتاب أبى حمو غير جائزة • لقد كان أبو حمو يعرف العديد من المصادر التى استعملها ابن رضوان ـ وفى مقدمتها العقد لابن عبد ربه وسراج الملوك للطرطوشى وسلوان المطاع لابن ظفر ـ ولكن نظريته الخاصة كانت تحد من امكانات نقله عن المصادر وتوجهها توجيها خاصا ، ولما كان ذلك الامر مفتقدا عند ابن رضوان ، فقد جاء كتابه أشمل واوعى من كتاب أبى حمو ، وانما افتقدت فيه الروح المحركة التى كانت تسير أبا حمو •

وفيما كان أبو حمو معجبا بالمصادر السياسية ، مقيد الحركة فى الاخذ منها ، كان عبد الرحمن ابن خلدون رافضا لها ولاقرانها من الكتب التاريخية من الاساس ، راغبا فى معالجة موضوعها معالجة جديدة جذرية الاختلاف عن سابقاتها (187) • ولذلك فانه

---

184) ابن رضوان : 132 ــ 134 •

185) « ابن رضوان » : 132 •

186) انظر تفصيلها فى « ابن رضوان » : 136 •

187) المقدمة 4 ــ 6 ، وانظر : « ابن رضوان » 149 ــ 150 •

عندما جاء ليكتب مقدمته على تاريخه الكبير ، لم يصور ما يجب ان يكون عليه الملك المثالى ، وانما حاول أن يكشف العلة الفلسفية وراء **ما جرى عليه** الملوك فى تاريخهم البعيد والقريب والعلل الثانوية التى كانت تنتج عن هذه العلة فتحرك أقدار الدول والمماليك بالشكل الذى تحركت فيه . وقد تعرض ابن خلدون فى مقدمته لمختلف الموضوعات المتعلقة بالملك والدولة والادارة من ناحية تاريخية استعراضية أو من ناحية تفسيرية فلسفية ، ومن هذه الناحية كانت مقدمته على قدر كبير من الاختلاف عن كتاب أبى حمو ، بحيث أن اقامة المقارنة بينهما أمر لا يجوز . فاذا تذكرنا أن أبا حمو كان يمثل «تكريس الانقسام» فى المغرب ، وأن كتابه يرسخ فكريا ما رسخه أبو حمو نفسه فعليا بوصفه ملكا على تلمسان ، أدركنا مدى ابتعاده من حيث ما يمثله عن ابن خلدون المفكر ، المتطلع الى وحدة المغرب لا الى انقسامه (188) ، غير أن الحديث عن ابن خلدون ونظريته فى السياسة يتطلب تفصيلا منفردا ليس هذا موضعه .

مصادر البحث ومراجعه

ابن رضوان وكتابه فى السياسة لاحسان عباس فى « كتاب العيد » ، الجامعة الامريكية فى بيروت ، بيروت 1967 ، ص : 99 ـ 154 .

الاحاطة بالتعريف بعلماء غرناطة للسان الدين ابن الخطيب (ج 15) مخطوط الرباط ، رقم : ك 2704 .

أزهار الرياض فى أخبار عياض للمقرى التلمسانى شهاب الدين أحمد بن محمد (ج 1 ـ 2) . تحقيق السقا والابيارى وشلبى . القاهرة ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، 1939 ـ 1940 .

---

188) انظر « ابن رضوان » 144 — 145 و 154 .

الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى لابى العباس أحمد بن خالد الناصرى (ج 4) ٠ تحقيق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى الدار البيضاء : دار الكتاب ، 1955 ٠

البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم التلمسانى ٠ تحقيق محمد ابن أبى شنب ، الجزائر : المطبعة الثعالبية ، 1908 ٠

بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد لابى زكريا يحيى بن أبى بكر بن خلدون (ج 1 ــ 2) ٠ الجزائر : مطبعة فونطانة ، 1904 ــ 1910 ٠

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى أبى عبد الله محمد بن ابراهيم ٠ تحقيق محمد ماضور ٠ تونس : المكتبة العتيقة ، الطبعة الثانية ، 1966 ٠

التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا لعبد الرحمن بن خلدون ٠ تحقيق محمد ابن تاويت الطنجى ٠ القاهرة : لجنة التاليف والترجمة والنشر ، 1951 ٠

تهذيب الاخلاق لابى على أحمد بن محمد بن مسكويه ، تحقيق قسطنطين زريق ٠ بيروت : الجامعة الامريكية فى بيروت ، 1966 ٠

روضة النسرين فى دولة بنى مرين لاسماعيل بن الاحمر الرباط : المطبعة الملكية ، 1962 ٠

سراج الملوك للطرطوشى أبى بكر محمد بن الوليد ٠ الاسكندرية : المطبعة الوطنية ، 1289 ٠

سلوان المطاع فى عدوان الاتباع لمحمد بن ظفر الصقلى ٠ طبع حجر ، مصر ، 1278 ٠
كتاب السياسة فى تدبير الرياسة المعروف بسر الاسرار (ضمن كتاب الاصول اليونانية للنظريات السياسية فى الاسلام ، الجزء الاول) ٠ تحقيق عبد الرحمن بدوى ٠ القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ، 1954 ٠

كتاب العبر فى خبر من عبر لعبد الرحمان بن خلدون 4 ــ 1 ٠ 6 ٠ 7 بولاق 1284
كتاب العقد (الفريد) لابن عبد ربه (ج 1) تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الابيارى ٠ القاهرة : لجنة التاليف والترجمة والنشر ، 1965 ٠

العقد الفريد للملك السعيد لابى سالم محمد بن طلحة القرشى ٠ القاهرة : مطبعة الوطن ، 1311 ٠

عهد أردشير ، تحقيق احسان عباس ٠ بيروت : دار صادر ، 1967 ٠

الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية لابى العباس ابن القنفذ القسطنطينى ٠ تحقيق محمد الشاذلى النفير وعبد المجيد تركى ٠ تونس : الدار التونسية للنشر ، 1968 ٠

اللمحة البدرية فى الدولة النصرية للسان الدين ابن الخطيب ٠ تحقيق محب الدين الخطيب ٠ القاهرة : المطبعة السلفية ، 1347 ٠

المنهج المسلوك فى سياسة الملوك لعبد الرحمن بن عبد الله ٠ القاهرة : مطبعة الظاهر ، 1326 ٠

نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقرى شهاب الدين أحمد بن محمد (ج 6 و 7) ٠ تحقيق احسان عباس ٠ بيروت : دار صادر ، 1968 ٠

نقد الشعر لقدامة بن جعفر ٠ تحقيق بونيباكر ٠ ليدن : بريل ، 1956 ٠

واسطة السلوك فى سياسة الملوك لابى حمو موسى بن يوسف الزبانى ٠ تونس : مطبعة الدولة التونسية ، 1279 ٠

● النقطة الثانية من جدول أعمال الملتقى

موقف القسطنطينية وباقي العالم الإسلامي من

سقوط الأندلس وآخر مسلميها

وأمام الغزو الأوربي للعالم الإسلامي عموماً

محمد عبد الله عنان
مؤرخ ـ مصر



ان اخطر على مصير الاندلس والامة الاندلسية ، كان علة كامنة ، تجثم بين جوانبها ، وقد ظهرت طوالعه فى عصر مبكر من حياتها ، فانه ما كاد صرح الخلافة الاموية الشامخ يتحطم فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، ويختتم ثبت الزعماء الاقوياء بوفاة الحاجب المنصور ، وتنتشر الاندلس منذ أوائل القرن الخامس الى دول الطوائف العديدة، الضعيفة المتنافسة المتخاصمة، حتى لاحت لاسبانيا النصرانية فرصة العمل الجاد المثمر للقضاء على

هذه الدويلات المتنابذة ، التى يترامى ملوكها ، الواحد تلو الآخر على أعتاب بلاط قشتالة ويؤدى معظمهم له الجزية صاغرين ، وكان سقوط طليطلة عاصمة مملكة بنى ذى النون فى سنة 478 هـ ــ 1085 م ، وأول حاضرة أندلسية كبرى تسقط فى أيدى النصارى ، نذير الخطر الداهم على سائر ممالك الطوائف فكانت استغاثة الطوائف باخوانهم المسلمين وراء البحر ، بعاهل المغرب وزعيم المرابطين يوسف بن تاشفين ، وكان انسياب الجيوش المرابطية الى شبه الجزيرة ، وكانت موقعة الزلاقة التى سحقت فيها جيـــوش اسبانيا النصرانية فى رجب سنة 479 هـ ــ 1086 م ، وكان انقشاع خطر الفناء عن الاندلس ، لتعود اليها الحياة قرونا أخرى ٠

ثم كان استيلاء المرابطين على دول الطوائف ، وبسط سيادتهم على الاندلس لتغدو ايالة فى الامبراطورية المغربية الكبرى ، وليعقبهم بعد ذلك فى حكمها خصومهم الموحدون المتغلبون على ملكهم بالمغرب ٠ وهكذا استمرت الاندلس الكبرى زهاء قرن ونصف تحت حكم الدولتين المغربيتين العظيمتين ٠

ووقعت خلال هذه الفترة الطويلة فى شبه الجزيرة عقب الزلاقة عـدة مواقع حاسمة بين الجيوش المرابطية ثم الموحدية وبين الجيوش النصرانية ، كان منها موقعة اقليش التى وقعت فى شوال سنة 501 هـ ــ مايو 1108 م ، وموقعة افراغة التى وقعت فى رمضان سنة 528 هـ ــ يوليو 1134 م ، وموقعة الارك العظيمة التى وقعت فى شعبان سنة 591 هـ يوليو سنة 1194 م ، والتى سحقت فيها الجيوش الموحدية بقيادة الخليفة يعقوب المنصور ، جيوش اسبانيا النصرانية على مثل ما حدث من قبل فى موقعة الزلاقة على يد الجيـــوش المرابطية ٠ ثم كانت الحادثة العظمى بعد قليل فى موقعة العقاب المشؤومة التى سحقت فيها الجيوش الموحدية على يـــد الجيوش النصرانية المتحدة ، وذلك فى شهر صــــفر سنة 609 هـ الموافق يوليو سنة 1212 م ، والتى تعرف فى التواريخ الاسبانية بموقعة : ، وانهار على أثرها سلطان الموحدين بالاندلس ، وغدت الخلافة الموحدية مثار الجذب والتنافس بين بنى عبد المؤمن ٠ واضطرمت الاندلس ذاتها بالفتن ، ونشبت الثورات فى مختلف القواعد الاندلسية ضد الموحدين ، وأسفرت هذه الفتـن الغامرة عن تمزق الاندلس وعزلة قواعدها وتركها لمصيرها ، وانتهزت اسبانيا النصرانية

الفرصة السانحة ، فاستجمعت قواها ، وأخذت تنتزع القواعد الاندلسية الكبرى واحدة بعد الاخرى : قرطبة ـ بلنسية ـ شاطبة مرسية ـ جنان ـ اشبيلية ـ بطليوس وغيرها وغيرها • ولم يأت منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) حتى كانت ولايات الاندلس الشرقية والوسطى قد سقطت كلها فى يد اسبانيا النصرانية ، ولم يبق من تراث الدولة الاسلامية بالاندلس سوى بضع ولايات صغيرة فى طرف اسبانيا الجنوبى وأخذت الامة الاندلسية تواجه شبح الفناء النهائى مرة أخرى •

ولكن شاء القدر أن تخرج من هذه الاشلاء المتناثرة ، اشلاء الاندلس الكبرى مملكة غرناطة الصغيرة ، التى شاءت العناية الالهية أن تحمل تــراث الاسلام وتراث الامــة الاندلسية فى شبه الجزيرة قرنين آخرين • وكانت الحوادث قد تمخضت فى نفس الوقت فى الضفة الاخرى من البحر ، فى المغرب ، عن انهيار الدولة الموحدية ، وقيام دولة بنى مرين القوية • فالى تلك الدولة الجديدة الفتية ، كانت تتجه انظار تلك الاندلس الصغيرة ، كلما لاح لها شبح الخطر الداهم من عدوان اسبانيا النصرانية • وقد شاء القدر أن تلعب دولة بنى مرين ، وارثة المرابطين والموحدين فى حوادث الاندلس نفس الدور الذى لعبته الدولتان المغربيتان الكبيرتان ، مع فرق واحد فى منتهى الاهمية ، وهو أنه بينما كان انجاد المرابطين والموحدين للاندلس يتخذ صفة السيطرة والحكم المباشر ، اذا بانجاد دولة بنى سرين لمملكة غرناطة ، يقف عند الانجاد والتحالف الاخـوى ، والرغبة الخالصة فى الجهاد الاسلامى • وقد عبرت الجيوش المرينية الى شبه الجزيرة غير مرة تحمل شعار الجهاد وقبل كل شىء ، واستطاع عاهلهم الكبير السلطان أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصوران يوقع الجيوش القشتالية هزيمة ساحقة فى موقعة استجة فى شهر ربيع الاول سنة 674 هـ (سبتمبر سنة 1275 م) وكان نصرا عظيما أعاد الى الاذهان ذكريات الزلاقة والارك • وبالرغم مما كان يعتور علائق بنى نصر ملوك غرناطة ، وبنى مرين ، فى بعض الاحيان من القطيعة وسوء التفاهم ، فان هذه العلائق استقرت فى النهاية على قاعدة من التحالف الوثيق والاخوة الاسلامية ، واتخذ هذا التحالف أروع مثله فى جهاد السلطان الكبير أبى الحسن المرينى ، وعبوره الى الاندلس بجيوشه وحشده لاساطيله ، ومقاتلته للقشتاليين الى جانب القوات الاندلسية بقيادة السلطان يوسف ابى الحجاج فى معـــركة طريف

الشهيرة · وبالرغم مما لحق المسلمين فى هذه المعركة من هزيمة مؤلمة ، كاد أن يهلـــك فيها السلطان أبو الحسن ، فانه عاد وبعث جيوشه لانقاذ جبل طارق ، واستطاع المسلمون فى النهاية انقاذه ورد عدوان القشتاليين عنه · وقد أنتهى الامر بأن نزل ملوك غرناطة عن جبل طارق ورنده لبنى مرين لتكونا قاعدتين لنزول جيوشهما المنجدة ·

وهنا نقف قليلا لنلقى بعض الضوء على موقف المغرب ودوله الكبرى تجاه الاندلس ، وما كان يحيط بهذا الموقف من العوامل المثالية ، والواقعية · ان الـــرواية التاريخية تحدثنا عن عبور الجيوش المغربية الى شبه الجزيرة للجهاد فى سبيل الله ، ولانقاذ الامة الاندلسية من خطر العدوان النصرانى الداهم · وهذا صحيح لا ريب فيه ، وقد كان الصراع المستمر الذى يضطرم بين المسلمين والنصارى فى شبه الجزيرة يتخذ فى معظـم الاحيان الحرب الصليبية · بيد أنه كانت تجـــثم وراء هذه البواعث المعنوية والدينية عوامل مادية وسياسية فى منتهى الخطورة · ذلك أنه منذ عبور المرابطين الاول الى شبه الجزيرة لانجاد دول الطوائف ، أدرك الجندى الشيخ العبقرى يوسف ابن تاشفين ، بعد أن رأى تخاذل ملوك الطوائف ، وانهيار مثلهم الدينية والاخلاقية انه لو تركت مصاير الاندلس لمثل أولئك الزعماء الاصاغر المتهافتين على استجلاب مودة ملك قشتالة ورضائه ، لانتهت الى الفناء العاجل بلا ريب · وأدرك فى نفس الوقت أن الاندلس ، وهى تحتـل الحيز الجنوبى من شبه الجزيرة تمثل حاجزا هاما ، يحول دون انسياب القوات القشتالية الى البحر ، وتهديد أمن المغرب وسلامته · واذن فقـــد كانت الاندلس ، من النـاحية العسكرية ، هى جناح المغرب الدفاعى من الشمال الغربى ، ومهما كانت البواعث والمغانم الدنيوية التى دفعت بالمرابطين الى افتتاح الاندلس وامتلاكها ، بعد أن قدموا اليها اخوانا فى الدين مجاهدين ومجندين ، فأنه لم يكن ثمة شـك فى أن هذه الحقيقة العسكرية ، كانت وراء هذه البواعث الدنيوية · ولم يكن عبد المؤمن وخلفاؤه الموحدون أقل أيمانا بهذه الحقيقة ، فكان جهاد الجيوش الموحدية واشتباكها المستمر مع الجيوش النصرانية فى شبه الجزيرة فى معارك طاحنة يستهدف وقف زحف الجيوش النصرانية فى شبه الجزيرة نحو الجنـــوب ·

ولما انهارت قوى الموحدين العسكرية ، وانهار سلطانهم فى الاندلس ، وسقطـــت

القواعد الاندلسية الثالدة ، وقامت مملكة غرناطة الصغيرة فى الجنوب لم ينس بنو مرين منذ البداية، أن يعملوا على تدعيم هذا الحاجز الاخير القائم بينهم وبين اسبانيا النصرانية، فعبرت جيوشهم الى شبه الجزيرة مرارا ، واتخذوا أخيرا جبل طارق ورنده ، بموافقة غرناطة ، قواعد للعبور والمراقبة · وكانت غرناطة شعورا منها بهذه الحقيقة ، تتجه دائما ببصرها الى الضفة الاخرى من البحر كلما شعرت بخطر النصرانية الداهم على حياتها · وانا لتجد صدى هذا الصريخ يتردد بكثرة فى رسائل وزير الاندلس الكبير ابن الخطيب ، حيث يصف هذه الامة الاندلسية الصغيرة دائما بالامة الغريبة المنقطعة وراء البحـر ، ويستشف ببصره البعيد ، ما يهددها من خطر الفناء المحتوم ·

تلك هى البواعث القومية والدفاعية التى حملت الدول المغربية ، منذ عهد المرابطين ، أن تقف دائما بجيوشها وعتادها وأموالها وراء الاندلس والامة الاندلسية ، وهل أدل على صحة هذه النظرية الدفاعية مما حدث عقب سقوط غرناطة فى أيدى القشتاليين ، وانتهاء دولة الاسلام فى الاندلس ، من انسياب جيوش اسبانيا النصرانية وأساطيلها على الاثر ، الى الضفة الاخرى من البحر ، وغزو الشواطىء المغربية الشمالية ، والاستيلاء على معظم ثغورها فى حملات برية وبحرية صليبية متعددة ·

على أنه لم تأت أواخر القرن الثامن الهجرى ، حتى أنهارت تلك الخطة الدفاعيـــــة القديمة ، القائمة على تحالف المغرب والاندلس ، وكانت دولة بنى مرين القوية قد دخلت يومئذ فى دور انحلالها ولم تلبث أن أنهارت وثبات المتغلبين ، وغاضت عندئذ كل فكـرة فى العبور الى شبه الجزيرة · ومن جهة أخرى فقد كانت مملكة غرناطة الصغيرة فريسة لفتن ، ومنازعات داخلية مستمرة ، بيد أنها مع هذه المحن الداخلية لم تنس أن تبحث وراء العون الخارجى من اخوانها المسلمين · ولما كان سندها القديم ـ المغرب ، فى شغـل شاغل يومئذ بفتنه وانقلاباته الداخلية ، فقد اتجهت لاول مرة الى الشرق الاســـلامى ، وبعثت بصريخها الى مصر على يد سفارة أرسلها السلطان الايسر أبو عبد الله محمـــد بن يوسف الى سلطان مصر الظاهر حقمق فى سنة 844 هـ (1440 م) وقد اعتذر السلطان يومئذ بأنه عاجز عن تقديم أية معونة عسكرية الى الاندلس لبعد الشقة ، واقترح عـــلى سفراء غرناطة أن يتوجهوا بصريخهم الى ابن عثمان ، أعنى الى سلطان قسنطينية · وهكذا لم تسفر هذه المحاولة الاولى عن أية نتائج عملية ·

ولما انتهت مملكة غرناطة الى التمزق الاخير ، وغزتهـا جيوش فرناندو وايسابيلا لتضربها الضربة الحاسمة ، بعث مولاى الزغل ملك المنطقة الشرقيـة ، حينما حـاصر القشتاليون مالقة عاصمة مملكة بصريخه الى قسطنطينية والى سلطان مصر الملك الاشرف، على يد سفارة وصلت الى القاهرة فى أواخر سنة 892 هـ (1487 م) ، وكانت مصر ، فضلا عن الاخوة الاسلامية ، ترتبط منذ عصور مع ثغور الاندلس بعلائق تجارية وثيقة ، وكانت تتبع محنة الاندلس وحوادثها الاليمة بأسف بالغ ، وقد رأى البـلاط المصرى يومئذ أن يقوم لانجاد الاندلس بمحاولة دبلوماسية فطنة ، وقد كانت مصر تسيطر على بيت المقدس وما بها من البقاع النصرانية المقدسة ، وبين رعاياها ملايين من النصارى • وبعث سلطان مصر على يدى راهبين من رعاياه ، من بيت المقدس رسائـل الى الملكـين الكاثوليكيين والى البابا والى ملك نابل ، ينذر فيها بانه اذا لم يقف فرناندو وايسابيلا عدوانهما ضد مسلمى غرناطة ، فانه سوف يهدم القبر المقدس ، ويبطش بأكابر الاحبار النصارى ، ويمنع دخول النصارى الى بيت المقدس • ولكن هذه المحاولة الدبلوماسيـة الفطنة لم تحدث أثرها ، واستمر القشتاليون فى غزو مملكة غرناطة ، وانتزاع قواعدها ، حتى أنتهت بتسليم غرناطة ، وانقضاء دولة الاسلام فى الاندلس ، وذلك فى الثانى من ربيع الاول سنة 897هـ (2 يناير سنة 1492 م) •

ولسنا بحاجة لان نتحدث هنا عن العهود الوثيقة التى قطعها الملكان الكاثوليكيان للمسلمين بالمحافظة على امنهم وسلامتهم وعقائدهم وشرائعهم وتقاليدهم وأملاكهم وأموالهم — ولا عما حدث بعد ذلك من نقض صارخ لتلك العهود واكراه المسلمين على التنصير بأشنـع الوسائل وأفظعها ، وحرمانهم من التخاطب بالعربية ، والتسمى بالاسماء العربية ، ولبس الثياب العربية ، ومن سائر تقاليدهم القديمة ، ولا عما أصابهم من التعذيب والتحـريق ، ومختلف العقوبات المروعة على يد محاكم التحقيق الشهيرة ، التى انشئت للعمل عـلى ابادة بقايا الامة الاندلسية لا حاجة بنا الى الافاضة فى شىء من ذلك ، ويكفى أن نقول بايجاز أنه لم يمض على سقوط غرناطة زهاء خمسين عاما حتى استحالت بقايا الامـة الاندلسية الى طائفة الموريسكيين المتنصرة ، تشهد القداس فى الكنـائس وتتحـدث بالقشتالية ، وتعيش فى صفة رذلة رقابة الكنيسة الصارمة ، بيد أنه كانت تختفى تحت

هذه الظاهرة المحزنة ، لمحة من الدين القديم ، تتأجج بين الجوانح ، وشغف يضطرم بتقاليد الآباء والاجداد ، واستمساك حتى الموت بهذه الارومة القديمة ، وكل ما كان لها من طهارة العقيدة ، ومن ثم فقد اضطرم الموريسكيون بالثورة غير مرة ، يحاولون تحطيم هذا النير البغيض ، ولكن ثوراتهم أخمدت تباعا ، ولم يبق لهم الا الاستسلام والسكون ٠

ولكن الموريسكيين لم يستكينوا ولم ييأسوا ، فقد كانت تساورهم آمال غامضة ، وكانوا يبحثون عن العون فى ظلمات المجهول ٠ وكانت تلوح لهم عن بعد تلك القوة الاسلامية الجديدة ، قوة الترك العثمانيين ، وقد سبق ان اشرنا الى ما حاوله مولاى الزغل سلطان مالقة من الاتجاه بصريخه الى قسطنطينية ، قبيل سقوط غرناطة بقليل ، ولكن لم يكن لصريخه أى صدى ٠ ولما حلت النكبة وأكره المسلمون على التنصير ، وبالغت الكنيسة الاسبانية ومحاكم التحقيق فى اضطهادهم وتعذيبهم ، رأى الموريسكيون أن يتجهوا بصريخهم الى تلك القوة الاسلامية العظمى ٠ وبدأوا بذلك فى عصر مبكر ، عقب التنصير بأعوام قلائل ، حيث بعثوا بصريخهم الى السلطان بايزيد الثانى (1482 ـ 1512 م) ، فى رسالة محزنة يصف فيها كاتبها فى شعر ركيك ولكن مؤثر قوى التعبير ما تتركه اسبانيا النصرانية برعاياها الجدد ، وما يصيب المتنصرين من عسف ديوان التحقيق وروائع مطارداته وعقوباته ، واليك بعض أبيات هذه القصيدة ، بعد ما ورد فيها من ديباجة شعرية طويلة فى تحية السلطان بايزيد :

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم	بدأ غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهودا كان قد غرنا بها	ونصرنا كرها بعنف وسطرة
وكل كتاب كان فى أمر ديننا	ففى النار ألقوه بهزء وحقرة
ولم يتركوا فيها كتابا لمسلم	ولا مصحفا يخلى به للقراءة
ومن صام أو صلى ويعلم حاله	ففى النار يلقوه على كل حالة
وقد بدلت أسماءنا وتحولت	بغير رضا منا وغير ارادة
فآها على بتبديل دين محمد	بدين كلاب الروم شر البرية

وآها على تلك الصوامع علقت نواقيسهم بها نظير الشهادة

وآها على تلك البلاد وحسنها لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة

فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا اليه لجادت بالدموع الغزيرة

ومن المرجح أن هذه الرسالة وجهت الى السلطان بايزيد الثانى عقب ثورة البشرات وما تلاها من اجراءات القمع الذريع ضد الموريسكيين ، وذلك حوالى سنة 1505 م · ويبدو مما ورد من أبيات القصيدة بعد ذلك أن السلطان بايزيد كان قد بعث الى فرناندو الكاثوليكى رسالة بالكف عن مطاردة الموريسكيين ، كما يبدو أن الموريسكيين توجهوا فى نفس الوقت بصريخهم الى مصر ، وأن مصر بعثت برسالة مماثلة ، ولكن الملك النصرانى لم يقم أى وزن لهذه المساعى ، وهذا ما جاء فى القصيدة موضحا لذلك :

وقد بلغ المكتوب منكم اليهم فلم يعملوا منه جميعا بكلمة

وما زادهم اعتداء وجرأة علينا واقداما بكل مساءة

وقد بلغت ارسال مصر اليهم وما نالهم غدر وهتك حرمة

وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا رضينا بدين الكفر من غير قهرة

ومضت فترة أخرى ، ظهر فيها فى غربى البحر الابيض المتوسط عنصر جديد فى تطور الحوادث ، هو ظهور البحارة الترك ، وعلى رأسهم الاخوة الشهيران أوروج (عروج) وخير الدين · واستطاع أن يستولى على الجزائر فى سنة 1517 م · ولما قتل فى العام التالى ، فى معركة نشبت بينه وبين الاسبان استولى اخوه خير الدين على الجزائر ، ثم استولى على عدة ثغور أخرى ، وعينه السلطان سليم حاكما على تلك الانحاء ، وأمده بالسفن والجند · ثم تألق نجم خير الدين من ذلك الحين ، وأصبح اسمه يقرن بذكر أعظم أمراء البحر فى هذا العصر · والذى يهمنا من أعمال خير الدين ، هو غاراته الجريئة المتكررة على شواطىء اسبانيا الشرقية ، واتصاله بالموريسكيين فى بلنسية وغيرها ، واستطاعته أن ينقل منهم اعدادا كبيرة الى الثغور المغربية ، تقدر بنحو سبعين ألفا ، ولم تكن هذه الغارات محض جهاد فى سبيل الله ، ولكنها كانت تنظم فى نفس الوقت لتحقيق الربح والمغانم · وكان الموريسكيون من أغنى الطوائف فى أسبانيا · وفى تلك الآونة

التى لاح فيها للموريسكيين شط من الامل ، عادوا فبعثوا بصريخهم الى قسطنطينية فى رسالة موجهة الى السلطان سليم فى 948هـ ـ 1541م · وفيها يبثون الى السلطان آلامهم وما يلقون من الاضطهاد والتعذيب آناء الليل وأطراف النهار ويشيرون فيها الى خير الدين وعمله بأحوالهم لما كان بالجزائر ، وقيامه بنقل الكثير منهم الى أرض الاسلام ، ويلتمسون من السلطان أن يستجيب الى ندائهم بارساله لغوثهم ولا سيما بعد أن خذلهم جيرانهم واخوانهم فى المغرب ·

وليس لدينا ما يدل على أن السلطان سليمان قام بأية اجراءات عملية لاغاثة الموريسكيين · وكل ما هنالك هو أن البحارة الترك استأنفوا غاراتهم على الشواطىء الاسبانية الشرقية بقيادة أمير البحر طرغود الذى خلف خير الدين فى الرياسة ، يحملون فيها اعدادا من الموريسكيين الى شواطىء المغرب ·

وانه ليبدو أن سلاطين آل عثمان ـ وأمتهم ليست من الامم المنشئة للحضارة ـ لم تكن لديهم فكرة واضحة عن مدى العظمة القومية والحضارية التى كانت للامة الاندلسية ، ولامجادها الجهادية ، ولا مكانتها الرفيعة فى التاريخ بين الامم الاسلامية ، ولم يذكروا أنها هى الامة التى أخرجت عبد الرحمن الناصر والمنصور ، وأخرجت ابن حزم والزهراوى وابن باجة وابن زهر وابن رشد ، وابن الطفيل ، وبثت اشعاعها العلمى قويا الى نهضة أوروبا العلمية · أجل ، لم تكن لديهم أية فكرة واضحة عن ذلك كله ، ولم تكن لديهم للتأثر بصريخ الموريسكيين سوى الاخوة الاسلامية ، ولو أن بلاط قسطنطينية استجاب الى صريخ ملوك غرناطة الاواخر ، وحاول أن يمارس نوعا من الضغط على ملكى قشتالة فرناندو وايسابيلا ، وقد كان بوسعه أن يمارس هذا الضغط قويا ، لان القوات العثمانية البرية والبحرية كانت منذ أواخر عهد محمد الفاتح تحتل مقاطعة اترانتو جنوبى ايطاليا ، وعلى مقربة من جزيرة صقلية التى كانت يومئذ أملاك اسبانيا ـ لو أنه حاول شيئا من ذلك ، لكان من المرجح أن تتطور الحوادث فى الاندلس ، وأن تبقى مملكة غرناطة فى الوجود حقبة أخرى · ثم أنه فى الوقت الذى بلغ فيه اضطهاد الموريسكيين ذروته ، وبغلت بهم التعاسة والمحن اقصاها ، كانت الدولة العثمانية فى أوج قوتها ، وأوج مجدها العسكرى البرى والبحرى، ولو شاءت قسطنطينية أن تمد يدها لانجاد الموريسكيين لكانت

لديها الوسيلة الناجعة ، سيما وقد كانت قواها البحرية تسيطر يومئذ على مياه غربى البحر المتوسط كله ، ولو أبدت يومئذ ضد اسبانيا أية حركة جادة ، لتحقق للموريسكيين ما كانوا يرومونه من الخلاص والخروج من اسبانيا بأولادهم وأموالهم قبل مأساة النفى بزمن طويـــل ٠

ولكن سلاطين آل عثمان شغلوا عن بذل أية حركة نبيلة فى هذا السبيل ، بأمجادهم العسكرية الجديدة المتواصلة ، وبفتوحاتهم المخربة لمصر وبلاد المشرق العربى ، والسيطرة على أقدارها ، والقضاء على مقوماتها وتراثها الحضارى ، واستصفاء أموالها وثرواتها ، كما شغلوا بفتوحاتهم العقيمة فى أوروبا ، فى بودوليا واليوكرين ، وفى المجر وغيرها ، وهى الفتوح التى أثارت أوروبا النصرانية كلها على الاسلام ، ودفعتها الى التكتيل لمناوأتـه وكفاحه فى حملات صليبية جديدة ٠

والخلاصة أن موقف قسطنطينية ازاء مسلمى الاندلس أولا ، قبل سقوط غرناطـة ، ثم بعد سقوطها ، ازاء الامة الاندلسية الموريسكية ، لم يكن متسما بأية بادرة مشكورة أو موقف مشرف ، يستحق تسجيل التاريخ وتقديره ٠

ولنحاول الآن أن نلقى بعض الضياء على موقف الامم الاسلامية من الامة الموريسكية ومصايرها عقب النفى وخروجها النهائى من اسبانيا ٠

لقد اصدرت اسبانيا قرارها الشهير بنفى الموريسكيين من سائر الاراضى الاسبانية فى شهر سبتمبر سنة 1609 ، الموافق شهر رجب سنة 1018 هـ ، فخرجت جموع غفيرة منهم ، من ثغور بلنسية ودانية وثغور اسبانيا الجنوبية ٠ وسافرت جموع كبيرة منهـم على السفن الحكومية فى مناظر مبكية من البؤس والجوع والمهانة ٠ وسافر منهم ألوف من الاغنياء والموسرين على نفقتهم الخاصة ، وألقت السفن بمعظم المنفيين الى ثغور المغـــرب ومدنه المختلفة ، وهلكت منهم ألوف كثيرة خلال السفر من الجوع والمرض والاعتـداء ٠ وبالرغم مما اقترن بالنفى من المحن والآلام والمناظر المبكية ، فقد اعتبره معظم الموريسكيين نذير الخلاص،وتحقيقا لما كانوا يسعون اليه منذ بعيد،من مغادرة جحيم الكنيسة الاسبانية وديوان التحقيق الاسبانى ، وتقدر معظم الروايات الوثيقة عدد الموريسكيين المنفيين بنحو ستمائة ألف ، ويقدرهم دون لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق بمليون نسمة ، وقد عـــاد

سائر المنفيين الذين نزلوا بالبلاد الاسلامية الى الاسلام ، ودين الآباء والاجداد ولم تخمد مائة عام من التنصير المغصوب والاضطهاد المروع فى نفوسهم جذوة الاسلام ٠

ولقد كان لهذه الخاتمة المؤسية لبقايا الامة الاندلسية المجيدة ، أعمق وقع فى سائر انحاء العالم الاسلامى ، ولا سيما أقطار المغرب القريبة من مسرح المأساة ، وأبدت كلها مزيد الترحيب والعطف لاستقبالهم ، وتضميد جراحهم ، ويقول لنا المقرى وهو معاصر للمأساة فى وصفها ما يلى :

« الى أن كان اخراج النصارى أياهم (أى الموريسكيين أو العرب المتنصرين) بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشرة وألف ٠ فخرجت ألوف بفاس ، وألوف أخرى بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الاعراب ومن لا يخشى الله فى الطرقات ونهبوا أموالهم ٠ وأما الذين خرجوا بنواحى تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها ، وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر ٠ ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى منهم عسكرا جرارا ، وسكنوا سلا ، كان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور الآن ، وحصنوا سلا ، وبنوا بها القصور والحمامات والدور٠ وهم الآن بهذه الحال ٠ ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية العظمى والى مصر والشام ، وغيرها من بلاد الاسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصفت » ٠

هذا ، ولقد كان لتونس فيما يبدو ، أعظم الفضل فى استقبال الموريسكيين المنفيين ، واحاطتهم بعطفها ورعايتها ، ويقدر من نزل منهم بالاراضى التونسية وحدها بنحو ثمانين الفا ٠ واليك ما يقوله ابن دينار المؤرخ التونسى عن مقدمهم الى البلاد التونسية ، وقد كتب رواية بعد مأساة النفى بنحو سبعين عاما، وذلك فى حوادث سنة 1017هـ(1018هـ) :

« وفى هذه السنة والتى تليها جاءت جالية الاندلس من بلاد النصارى ، نفاهم صاحب اسبانيا ، وكونوا خلقا كثيرا ، فأوسع لهم عثمان داى البلاد ، وفرق ضعفاءهم على الناس، وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا ، فاشتروا الهناشير وبنوا فيها ، واتسعوا فى البلاد ، وعمرت بهم ، واستوطنوا عدة أماكن ٠

« ومن بلدانهم المشهورة سليمان وبلى ونبالو وقرنالية وتركى والجديدة وزغوان ، وقريش الواد ، وطبرية ، ومجاز الباب والصلوقية ، وتستور وهي من أعظم بلدانهم

واحضرها ، وغير ذلك بحيث تكون عدتها أزيد من عشرين بلدا ، فصار لهم مدن عظيمة ، وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ، ومهدوا الطرق بالكراريط ، وصاروا يعدون من أهل البلاد ٠

ويقول صاحب « الخلاصة النقية » ، وهو من الكتاب المتاخرين « وفي سنة ستة وعشرة والف قدمت الامم الجالية من جزيرة الاندلس ، فاوسع لهم صاحب تونس عثمان داي كنفه ، وأباح لهم بناء القرى في مملكته ، فبنوا منها نحو العشرين قرية ، واغتبط بهم أهل الحضرة ، وتعلموا حرفهم ، وقلدوا ترفهم » ٠

ولقد حظيت خلال زياراتي لتونس بالتجوال في هذه المنطقة الموريسكية ، ولا سيما حاضرتها الزاهرة « تتور » التي تشبه بخططها ، ودورها البيضاء ذات الافنية الاندلسية التي تضم أشجار النارنج مدينة استجة الاندلسية ، والتي ما زال كثير من أهلها يحتفظون بالقابهم الموريسكية القديمة ، مثل برفينو ، ومرتيلة ، وبلنسين ، وبلانكو ، وبومست ، وكامش ، ومركيكو ، ومدينة ، والكوندى ، فليبو وغيرها ٠

وكذلك لقى الموريسكيون في ثغور المغرب ومدنه الاخرى أعظم ترحيب وعون ، ولا سيما في تطوان وفاس وتلمسان والرباط وسلا ، وغيرها وما زالت الاسر التي نزلت بها وتنتمي الى أصول موريسكية تحتفظ بأسمائها القديمة ، ولا تبغي بها بديلا ، اعتزازا باروقتها الاندلسية النبيلة ، فنرى بها أسماء بركاش ، ونكيطو ، وملاط ، وبرميخو ، ومرشينة ، وموريتو ، وفرتون ، وقديرة ، وفلوريش ، وملينة ، ومدينة ، ومورازيش وغيرها ٠

ونزلت طوائف قليلة من الموريسكيين بمصر ، ولكن آثارهم قد غاضت منذ بعيد ومن الصعب أن نتتبع أصولها اليوم ٠

ونزلت طوائف منهم كذلك بقسطنطينية ٠ هذا ولدينا ما يدل على أن الموريسكيين حاولوا بعد قرار النفي وخروجهم من اسبانيا ن يحصلوا على معاونة السلطان لاخوانهم الذين لجاوا الى فرنسا عن طريق البرقية وأن أحد زعمائهم واسمه الاندلسي محمد أبو العباس الحنفي ، وكان قد وصل الى مدينة بلغراد ، وهنالك لقى مراد باشا وزير السلطان أحمد الاول بن محمد الثالث (1603 ـ 1617) فقص على الوزير ما حل بالموريسكيين في جنوب

فرنسا من المحن • فكتب السلطان أحمد الى ملكة فرنسا يومئذ مارى دى مديتشى الوصية على ولدها لويس الثالث عشر ، أن يخرج من كان بفرنسا من الموريسكيين ، ويوجهون اليه فى سفن من عندها ، وقد استجابت ملكة فرنسا الى رسالة السلطان ، وأمرت باخراج المسلمين ، وأن يركبوا من سواحلها فى السفن الفرنسية الى حيث شاءوا مـــن بـلاد المسلمـــين •

تلك هى قصة الاندلسيين الموريسكيين ، أو العرب المتنصرين ، بقايا الامة الاندلسية المجيدة • قصة مؤسية تفيض بألوان الاستشهاد المحزن ، ولكن تفيض فى نفس الوقت بصحف من الاباء والجلد ، تخلق بأعظم وأنبل الشعوب •

وقد لبثت السياسة البربرية التى أتبعتها اسبانيا النصرانية ، وأتبعها ديوان التحقيق الاسبانى ، ازاء العرب المتنصرين ، على كر العصور مثار الانكار والسخط يدفعها ا لمفكرون الغربيون وكثير من مفكرى الاسبان أنفسهم ، حتى يومنا ، بأقسى النعوت والاحكام •

ويرى النقد الحديث أن العمل على ا بادة الموريسكيين كان ضربة شديدة لعظمة اسبانيا ورخائها ، ولم تنهض اسبانيا من عواقب هذه السياسة الغاشمة ، بل انحدرت منـــذ نفى الموريسكيين وقد كانوا من أنشط وأذكى وأقدر عناصر سكانها ، وحرمت من الثروات العقلية والفنية والصناعية والزراعية ، التى كانت تتمتع بها بقايا الامـة الاندلسيـة ، نقول أن اسبانيا انحدرت من جراء نفى هذا العنصر القدير العامل الذكى من أوج عظمتها فى عصر شارلكان وفيليب الثانى الى عصر التدهور والانحلال التى مازالت تلازمها حتى عصرنـــا •

وبالعكس فان سائر الدول الاسلامية التى استقبلت طوائف الاندلسيين المنفيـين ، قد استفادت أعظم الفوائد من تقدمهم ، وحلولهم بين سكانها ، واقتبس أهلها الكثـــير من براعتهم فى الصناعة والزراعة ومختلف الفنون • وقد كان الاندلسيون أبرع أهـــل الارض فى الزراعة وغرس الحدائق ، واقامة المنشآت العمرانية ، كما اقتبسوا الكثـــير من مواهبهم الحضارية ، وعوايدهم المترفة ، وشمائلهم الرقيقة •

وقد وقعت مأساة الموريسكيين فى ظروف أخذت فيها الروح الصليبية الاوروبيـــة القديمة تقوى وتشتد ازاء الاسلام • وكان سقوط قسطنطينية ، وانتهاء الدولة الرومانية

الشرقية على يد الترك العثمانيين فى سنة 1453 (857هـ) ، حادثا جللا اهتزت لــه أوروبا من أقصاها الى أقصاها ، وكان عاملا جديدا فى اذكاء هذه الروح · بالرغم مــن أن افتتاح الترك لقسطنطينية كان يتسم بثوب المجد الحربى أكثر من أى لون آخــر ، فانه اعتبر ضربة شديدة للكنيسة وللنصرانية · فلما استولى القشتاليون على مملكــة غرناطة ، وانتهت بذلك دولة الاسلام فى الاندلس ، اعتبر ذلك تعويضا فى معنى مــن المعانى عن سقوط قسطنطينية فى يد الاسلام · ثم كانت الغورة الصليبية التى جاشــت بها اسبانيا عقب سقوط الاندلس ، والتى اتخذت سبيلها فى افتتاح عدد من قواعد المغرب وثغوره · وكان على رأس هذه الحملات الصليبية الجديدة رجلان يضطرم كلاهما بأشنع ضروب التعصب والبغض للاسلام ، هما فرناندو الكاثوليكى فاتح الاندلس ، والكردينال خمنيس سسنيروس، المسؤول عن تنصير بقايا الامة الاندلسية المغلوبة · ونحن نعرف أن الذى قاد الحملة البرية والبحرية الكبيرة التى قامت بافتتاح وهران سنة 1509م ، انمــا هو الكردينال خمنيس نفسه ، وأن هذا الفتح قد تم فى مناظر مروعة من السفك والتقتيل لاهلها المسلمين ·

ثم أن فتح قسطنطينية كان فاتحة لسلسلة طويلة من الفتوح والانتصارات العثمانية فى البر والبحر · ولم تات أواسط القرن السادس عشر ، حتى استطاع الترك أن يبسطوا سلطانهم على مناطق شاسعة فى أوروبا الوسطى مثل المجر وجنوبى بولونيا وأجزاء مــن شرقى النمسا ، وزحف الترك على مدينة فينا وحاصروها لاول مرة فى سنة 1529 ، ثــم حاصروها للمرة الثانية فى سنة 1683 ، وبالرغم من فشل الترك فى هذين الحصاريــن الشهيرين ، فان مجرد وصول الفتوح العثمانية الى قلب أوروبا النصرانية على هذا النحو ، كان مثار الروع فى سائر الامم الاوروبية ، وكان فى أحيان كثيرة عاملا فى جمع كلمــة العروش النصرانية واتحادها على مقاومة خطر الاسلام المشترك ، ورد الغزاة الى الجنوب والشرق · وكان ملوك أوروبا النصرانية يشعرون بأن الغزو التركى يهدد أوطانهــم ودينهم ، وينسون خصوماتهم كلما تجدد الخطر ، وكانت تحدوهم فى الاجتماع عــلى مقاومة نزعة صليبية لاشك فيها · وكان يهدىء من اضطرام هذه النزعة نوعا ما تميزت به

الفتوحات التركية من الصفة العابرة المؤقتة ، وعدم الاستقرار فى معظم الاقطار المفتوحة شمالى نهر الدانوب ٠

ومن المحقق أن هذا التكتل الصليبى ضد الجبهة الاسلامية التى كانت الدولة العثمانية تحمل لواءها ، قد استمر حتى أواخر القرن الثامن عشر ، حينما دخلت الدولة العثمانية فى دور انحلالها ، وانهارت قوى الانكشارية الغارية ، وأضحت بفتنتها المتوالية ، خطرا على الدولة العثمانية ذاتها ، وعندئذ تطور هذا التكتل الاوروبى الى تكتل سياسى استعمارى ، وأخذ سبيله الى تقسيم افريقية وأممها الاسلامية بين الدول العظمى ، كما أخذ سبيله الى تحقيق مثل هذه الغاية بالنسبة لعدد من الدول الآسيوية الاسلامية ، اما ببسط السيطرة الكاملة ، أو التقسيم الى مناطق النفوذ ٠ وكان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أشد الاحقاب الزمنية وطأة على الاسلام والامم الاسلامية ٠

ولكن قوى الاسلام الكامنة فى صدور أبنائه لبثت تعمل عملها ، الى جانب القوى القومية والوطنية فى صبر وجلد ٠ ولم تلبث الامم الاسلامية المهضومة الحق أن أبدت بجهادها الباسل، واضطرام روحها القوى الكامن، فى سبيل استرداد حرياتها وكرامتها، ما لم يكن يتصوره المستعمر المعتدى ٠ وهى اليوم تتمتع بسيادتها وحرياتها الكاملة ، وترفع راية الاسلام خفاقة عالية ٠

ثورة مسلمي غرناطة
عام 976 هـ أواخر عام 1568م
والدولة العثمانية

د . ليلى الصباغ
استاذة التاريخ بجامعة دمشق



كلما مرت الايام بطيئة ومتثاقلة على القضية الفلسطينية ، وكلما انطلقت جموع النازحين من مواطنيها على الارض الفلسطينية الشامية ، وكلما تفجرت أزمة بين هؤلاء النازحين وحكومات الارض العربية التى استقروا عليها بعد خروجهم من ديارهم ، تلح على ذهنى وذهنك على ما أعتقد ، قضية مسلمى اسبانيا بعد احتلال الاسبان النصارى لمدنهم . وسقوط آخر معاقلهم (غرناطة) عام 897 هـ ـ 1492 م ، على الرغم من كثير من نقاط التباين بين اصالة القضيتين . وما أخال طرحها فى جدول أعمال الملتقى ، الى جانب الهدف الاكبر له ، وهو العمل الحثيث للبحث عن الحقيقة التاريخية فى تاريخ الاسلام ، واستكمال صورته السليمة ، سوى تذكير بما مضى ، وعكس اضواء

الدرس المستفاد على واقع عالمنا العربي والاسلامى ، والتبصير بمواقع القدم فى الحاضر والمستقبـــل ٠

قد يعيب على المؤرخ العلمى الموضوعى المدقق استعمال كلمة « مسلمين » فى ثـورة غرناطة عام 976 هـ ــ 1568 م ، وذلك لامرين على ما أظن :

اولهما : أنه لم يكن هناك بالعرف الرسمى لدولة اسبانيا الحديثة مسلمون فيها بعد عام 1526 م ــ 933 هـ ٠

ثانيهما : تبدو التسمية وكأنها اقرار مباشر بان الاسباب التى دفعت للثورة هو عامل الدين فحسب ٠ ٠

أما حول النقطة الاولى ، فأنا أقر معه العيب ، ولكن مبدئيا فقط ٠ فالذين قامـــوا بالثورة فى المدينة التعسة (غرناطة) عام 976 هـ ــ 1568 م ، أى بعد ثلاثة أرباع القرن من وقوعها بيد الاسبان النصارى ، لم يكونوا مسلمين رسميا ٠ فالذين أشعلوا لهيبهـا هم من أطلق عليهم الاسبان اسم (الموريسكوس) ــ أى صغار المسلمين ــ ٠ وهى التسمية التى أعطيت للمسلمين المنصرين الذين بقوا فى الديار الاندلسية بعد سقوط غرناطة ، ومنذ 1501 فى قشتالة ، ومنذ 1526 فى البلدان التابعة لتاج الارغوان (1) ٠ فثـوار غرناطة عام 976 هـ ، 1568 م ، هم اذن احفاد أولئك المسلمين الذين بقوا على أرض غرناطة بعد سقوطها ، والذين كان الملكان الكاثوليكيان فرديناند وايزابيلا ، قد تعهدا عند استسلام المدينة لهما بأن يحافظا فى (56) بندا على أرواحهم ومعتقداتهم ، وأملاكهـــم فيها ، وان يطلقا لهم ، بالذات حرية ممارسة دينهم الاسلام ٠

الا أن الكنيسة الكاثوليكية الاسبانية ممثلة بالكاردينـــال (خمنيس تسيزنروس CISNEROS XIMENES) ألحت على ضرورة وحدة الدين لاسبانيا بعـــد وحـدة الارض ، واستصدرت أمرا حكوميا عام 905 هـ ــ 1499 م ، بتنصير المسلمين ، مخالفة بذلـــك رأى السلطات المحلية ، وخائنة لعهد الملكين ٠

---

1) أنظر فى محمد عبد الله عنان : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ٠ الطبعة الثانية 1378هـ/1958م ٠ ص 230 — 235 ٠

وقد سبق هذا القرار ، ورافقه ، وتلاه ، تظاهرات نصرانية عدة ، مسيئة لهـؤلاء المسلمين ومضطهدة لهم ، بل ومسيئة للانسانية برمتها • كتحويل المساجد الى كنائس ، وحرق العديد من كتب القرآن الكريم ، والوفير من المخطوطات العربية الثمينة ، وقتـل كثير من المسلمين الصامدين والتنكيل بهم ، ضربا وحرقا • ومهمـا وصف المؤرخـون المعاصرون أو القدامى مظاهر الاضطهاد التى طبقت بحق هؤلاء المسلمين ، معتمدين عـلى مختلف الوثائق الاسبانية والعربية ، فان هذا الوصف يبقى ذابلا أمام الصورة الـتى قدمها هؤلاء المضطهدون عن أحوالهم ، فى نداء الاستغاثة الشعرى الذى وجهوه الى الدولة العثمانية فى شخص سلطانها بيازيد الثانى (886 ـ 918 هـ / 1481 ـ 1512 م) حوالى 1505 م ، والذى طلبوا فيه عونه على مصابهم ليكف الاسبان النصارى عـن آذاهم ، ومحاربتهم فى دينهم • وقد حفظه لنا (المقرى) ـ الذى كان من أحفادهم ـ فى كتابـه (أزهار الرياض فى أخبار عياض) • (2) وقد ورد فيه ما يلى :

فلما دخلنا تحـت عقـد ذمامهـم	بدأ غدرهم فينا ينقض العزيمـة
وخان عهـودا كان قـد غرنا بها	ونصرنا كـرها بعنف وسطـوة
وأحرق ما كانت لنا مـن مصاحف	وخلطها بالزبـل أو بالنجاسـة
وكل كتاب كان فى أمـر ديننـا	ففى النـار ألقـوه بهـزء وحقرة
ولم يتركوا فيهـا كتابا لمسلـم	ولا مصحفـا يخـلى بـه للقـراءة
ومـن صام أو صلى ويعلـم حاله	ففى النـار يلقوه عـلى كل حالـة
ومن لم يجى منا لـموضع كفرهـم	يعاقبـه اللبـاط شر العقـوبـة
ويلطـم خديـه ويأخـذ مالـه	ويجعله فى السجـن فى سوء حالة
وفى رمضان يفسـدون صيـامنـا	باكـل وشرب مـرة بعـد مـرة
وقـد أمرونا أن نسـب نبينـا	ولا نذكرنـه فى رخـاء وشـدة
وقـد سمعوا قوما يغنـون باسمه	فأدركـم منهـم أليـم المضرة
وعاقبهـم حكامهـم وولاتهـم	بضرب ، وتغريـم ، وسجن ، وذلة
ومن جاءه المـوت ولم يحضر الـذى	يذكرهـم ، لـم يدفنوه بحيلـة

2) ازهار الرياض فى اخبار عياض ، القاهرة 1358 هـ ، 1939 م • ج 1 •

ويترك في زبــل طريحـا مجدلا   كمثــل حمــار ميت أو بهيمــة

وقد بـدلت اسمــاؤنا وتحـولت   بغـير رضـا منــا وغــير ارادة

وكانت نتيجة عملية التنصير القسرى هـذه أن اندلعت ثورة في حى (البيازين) ـ المدينة الاصيلة في غرناطة حيث يقــيم المسلمون ـ وفي (سيرا فرمجة) (الجبــال الحمراء قرب رنده) • وبعد اخماد هذه الشعل الثورية بصعوبة في عام 1502 ، كان على المسلمين أن يتنصروا أو يغادروا البلاد • فبدأت موجة هجرة كبيرة من أرض غرناطة الى بلاد المغرب ، وقلة منهم الى بلاد الشرق •

ومما لا شك فيه بان الملكين الكاثوليكيين كانا على اتفاق مع رئيس أساقفة طليطلة (شيزنروس) للقيام بمثل هذا الاجراء ، على الرغم من الادعاءات بأنهما قد فوجئا بعملية التنصير القسرى • (3)

فقد كان فردناندو يؤمن هو الآخر بأن وحدة العقيدة والروح هى الاساس الاول الذى يمكنه من توحيد اسبانيا المجزاة • كما أنه كان يخشى بأس المسلمين ، ويرى مع الكنيسة أن احتفاظهم بدينهم يقوى أواصر الصلة بينهم وبين اخوانهم في شبه الجزيرة الافريقيــة المجاورة ، وفي العالم الاسلامى ، ولا سيما مع الاتراك العثمانيين • ومن ثم فان تنصير المسلمين أو اخراجهم من البلاد هو الضمان الوحيد لسلامة اسبانيا وسلامها ، ووحدتها • فمهما قيل اذن حول الخلاف بين الكنيسة وفردناندو ، فان عمل (خمنيس تسيزنروس) يبقى من عمل الملكين الكاثوليكيين ، ومسؤولية من مسؤوليتهما •

ولقد كانت في الواقع مسؤولية خطيرة وثقيلة : فاخراج المسلمين عن اسلامهم غدا قسريا ، لا في غرناطة وحدها ، وانما في جميع أنحاء اسبانيا • فما اتخذ في غرناطــة الحديثة السقوط من اجراءات عمم على قشتالة كلها • وكانت مدنها قد استردت من المسلمين منذ زمن بعيد ، وكان مسلموها يعيشون بأمان وسلام ، متمتعين بحريتهم الدينية ، وسط مواطنيهم النصارى ، وعاملين بالعقود المعقودة بينهم وبين السلطات الحاكمة • وامتــدت عملية (التنصير القسرى) الى الاراغون أيضا ، وكتالونيا ، وبلنسية • ولم تكن هنا في بادىء

3) BRAUDEL (F) : La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II. p. 577. Paris 1949.

الامر بأمر الدولة ، وانما بجهود فئة من ا لاسبان « المسيحيين القدماء Cristianos Viejos المتزمتين الذين عملوا ما بين 1524 ـ 1526 على تعميد مواطنيهم المسلمين بالجملة ، حتى أن التعميدات الارغامية هذه أثارت فى الفكر المسيحى تساؤلات حقة عن مدى صحتهـــا · ولقد نوقش الامر طويلا، وفى روما نفسها، وكان لمبدأ التعايش السلمى واحلال التفاهم، أنصار فى عاصمة المسيحية أكثر مما كان له فى اسبانيا المتزمتة · وقد ثبت عمـــل « المسيحيين القدماء » هذا بمرسوم حكومى صدر فى (12 مارس) 1524 م ، يحتم تنصير كل مسلم بقى على دينه أو يخرج من البلاد · وكل من يأبى التنصير ، أو مغادرة البلاد فى المهلة الممنوحة يسترق مدى الحياة · ودعمت مرسومات التنصير واجراءاته بأعمـــال (ديوان التحقيق) ونشاطه · فقد كان أعضاؤه يتجسسون على هؤلاء المسلمين،ويلاحقونهم بشكوكهم وتحقيقاتهم العنيفة ، ومحاكماتهم الصورية ، وتعذيبهم ، وأخيرا بمواكـــب اعدامهم · وعندما تظلم المسلمون المنصرون إلى الامبراطور شارلكان ، الذى تلا فرديناندو وايزابيلا على عرش اسبانيا ــ وقد بدا لهم أكثر لينا وتسامحا من سابقيه ــ فانه لم يفعل سوى أنه أقر قرار الارغام على التنصير « ليكون سائرا على نهج ماتم فى غرناطة من ناحية وليكون عمله تعبيرا حقا عن شكره لله الذى نصره فى بافيا » (4) عـلى الملك الفـرنسى « فرانسوا الاول » · وانفجرت الثورة المسلمة عام 1526م ، أحواز سرقسطة ، ومنطقـة بلنسية ، ولا سيما فى ضاحية بنى وزير غربها ، فى جبـال سبيدانا الموحشة · الا أن الحكومة ضربت الثوار بالمدفعية ، فاضطروا للتسليم والخضوع · وعاد التنصير بالاكـراه الى خط سيره المتصــاعـــد ·

ولكن هل هذا التنصير الارغامى قد حول ا لمسلمين عن دينهم الاصـلى ، ومع مرور الزمن ؟ ان « التاميرا » المؤرخ الاسبانى (5) يعتقد بأن أغلبية منهم قد اعتنقت النصرانية نهائيا، وذابت فى الوسط المسيحى، ولكن (لابير) يجيبه بأن « فرضية التنصير الصامت، الناجم عن اليأس والتعب من المقاومة ، وضغط الوسط ، ومجىء أجيـال جديــدة ، لا تستبعد ··· ولا سيما أن الدراسات الحديثة فى علم الاجتماعى الدينى (6) قد دلت على

4) BRAUDEL. op. cit. p. 578.
5) Altamira y Crevea (Raphaël), Historia de Espana y la Civilizacion espanole. p. 360. Barcelone 1900-1911. Cité par Lapeyre, Géographie de l'Espagne Morisque p. 120.
6) G. LE BRAS. Etudes de Sociologie religieuse. t. 1. p. 222-223. Paris 1955.

أن الممارسة الفردية للدين ترتبط كثيرا بالمحيط الاجتماعي .. الا أن هذا التنصير لم يتم الا بالنسبة لبعض العناصر المنعزلة ، لان قوة مقاومة الجماعات الكبيرة لا تحتاج الى برهان ، ولا سيما بالنسبة لدين عنيد كالاسلام .

« (7) وفي الحقيقة أن العديد من الوثائق الاسبانية والعربية تثبت هذا القــول : فالموريسكوس » مسلمون ، ولكنهم في ظاهر عباداتهم في المجتمع الخارجي ليســوا كالمسلمين . فهم اذن طائفة اسلامية جديدة ـ اذا صح لنا هذا التعبير ـ كانت تعيش أزمة ضمير عنيفة ، وحياة صعبة ، بين معتقدات اسلامية سليمة راسخة في صدورها ، وحريصة عليها ، وبين مظاهر عبادة نصرانية فرضت عليها ، فيها طقوس وعادات مغايرة للدين الاسلامي ، بل ومعتقدات . وقد حاولت هذه الجماعة أن تخرج من أزمة الفكــر والضمير هذه . فاستفتت فقهاءها المسلمين ليفتوها في أمرها ، وفي مكانها من دينهــا الاسلام ، وهي في أوضاعها تلك . فأفتوا لها بصحة اسلامها ، مع بيان ما يجب أن تفعل عند ممارسة كل طقس من الطقوس المرغمة عليها . وان الفتوى التي وجهها اليها الفقيه (أبو جمعة الوهراني ذى الاصل المغراوى (من المغره في الاندلس) ، من الوثائع (8)

7) LAPEYRE (Henri). Géographie de l'Espagne Morisque. p. 120. S.E.V.P.E.N. 1959.

8) أنظر هذه الفتوى في عنان ـ المصدر السابق . ص 325 ـ 327 .

وقد عثر عليها المؤلف بالعربية خلال بحوثه في مكتبة الفاتيكان الوسولية بروما . وكانت ضمن مجموعة من المخطوطات البورجيانية . وقد وصف المخطوط الذى تضمنها في فهرس المكتبة (فهرس ديلا فيدا) بأنه المقدمة القرطبية ، وفي صفحة عنوانه بأنه كتاب « نزهة المستمعين » . وقد وجد المؤلف للفتوى المذكورة ترجمة قشتالية في كتاب (لونغاس)

Longas (P.). La Vida Religiosa de los Moriscos. p. 305-307. Madrid 1915.

وترجع الفتوى الى عام 910هـ/1504م . وكذلك وجد (كانتينو) لتلك الفتوى ترجمة مورينسكية (الخميادو) في مكتبــة (ميجان MEJANES) في (ايكس آن بروفنس) في فرنسا ضمن مخطوط يحمل الرقم 1223 . وقد كتب عليه « كتاب الصلوات الاسلاميــة » . ويتضمن مقتطفات من القرآن ، وصلوات وادعية بالعربية . وقد نشرها مع تعليــق في « المجلة الآسيوية » في عدد جانفي ـ مارس 1927 . واستخرجت في نشرة خاصة تحــت عنــوان :

Cantineau (J.) Lettre du Moufti d'Oran aux Musulmans d'Andalousie. Paris 1927.

كما ورد النص كذلك في كتاب :

L.P. Harvez, Crypto-Islam in sixteenth Centery Spain. (Primer Congreso de Estudios Arabes e Islamicos) Madrid 1964. p. 163-178.

التى تعطينا صورة صادقة عن أوضاع هؤلاء المسلمين المعذبين • ويخاطب المغراوى هؤلاء ويصفهم وصفا جميلا بقوله « اخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر وقد أوصاهم بالبقاء ملازمين لدينهم ، آمرين به من بلغ من أولادهم، وأن يحافظوا على معتقدهم فى عبادة الله الواحد بعيدين عن الصور والتشخيص ، وأن يقوموا بشعائرهم خفية ، وأن يتظاهروا بالنصرانية مع بقاء القلب مسلما الى الله • أى أنه أوصاهم بالتقية • ومع أن « التقية » مبدأ شيعى ، ولم يكن منتشرا فى الاندلس السنية المالكية ، الا انه لم يكن مجهولا تماما • كما انهم بتقيتهم هذه ما كانوا ليخالفوا الدين الحق ، بحسب عقيدة « المرجئة القائلة بان الايمان هو أيمان القلب ، ولا يضير المؤمن أن يتظاهر بأى معتقد آخر • فالمؤمن لا يفقد تلك المنحة المقدسة التى وهبه أياها الله ، وهى الايمان القلبى ، مهما أظهر من أمور مخالفة « فالله ـ كما قال المغراوى ـ لا ينظر الى صوركم ولكن الى قلوبكم » •

وبقى هذا « الاسلام الخفى » قائما على الارض الاسبانية ، يحمله جيل الى جيل ، على الرغم من جميع وسائل الملاحقة ، والارهاب ، حتى عام 1609م ، وهو تاريخ طرد أحفاد المسلمين المنصرين من اسبانيا نهائيا (ظلت قرارات الطرد تصدر تباعا حتى 1611م) • وهذا يعنى أن التنصير القسرى قد أخفق ، وبقيت النصرانية قشرة ظاهرية ، ولم تستطع أن تتغلغل الى الاعماق وتجتث الجذور الاسلامية • هذا علما أن الاجيال قد تتالت ، وعاشت عصرها ، ولم تتح لها الاجواء الاسلامية الصافية لتتغذى الغذاء الاصيل •

ومن الوثائق العربية الاولى التى تؤكد لنا تشبث الاندلسيين بدينهم ، نداء الاستغاثة الموجه الى السلطان بيازيد الثانى العثمانى ـ المشار اليه سابقا ـ حيث يقول أصحابه :

وقالوا(9)لتلك الرسل(10)عنا بأننا رضينا بدين الكفر من غير قهرة

---

9) وقالوا ، أى فرديناند وايزابيلا •

10) الرسل : قد يكونون رسل السلطان (قانصوه الغورى) سلطان مصر الذى بعث بهم الى البابا والبندقية لوضع حد لتعديات البرتغاليين على المسلمين فى المحيط الهندى ، فبعث البابا بدوره هذه الرسل أو بالاحرى الرسول (فرامورو دوسان برناردينو) الى ملك قشتالة والبرتغال محملا برسائل من قبله • وقد تكون المهمة التى كلف بها هذا الراهب من ديرسان كاترينا في سيناء مضاعفة أى لصالح مسلمى غرناطة وضد تعديات البرتغال •

وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم	ووالله ما نرضى بتلك الشهادة
لقد كذبوا فى قولهم وكلامهم	علينا بهذا القول أكبر فرية
ولكن خوف القتل والحرق ردنا	نقول ما قالوه بغير نية
ودين رسول الله ما زال عندنا	وتوحيدنا لله فى كل لحظة
ووالله ما نرضى بتبديل ديننا	ولا بالذى قالوا من أمر ثلاثة
وان زعموا انا رضينا بدينهم	بغير أذى منهم لنا ومساءة
فسل «وحرا» عن أهلها كيف أصبحوا	أسارى وقتلى تحت ذل ومهنة
وسل «بلفيقا» عن قضية أمرها	كذا فعلوا أيضا بأهل «البشرة»
واندرش « بالنار » أحرق أهلها	بجامعهم صاروا جميعا كفحمة

وقد يقال أن ما كتب هنا كان بداية المأساة ، والتنصر لم يبلغ مداه ، والضغط لم يقض بعد على قوى المقاومة الروحية · الا ان وثيقة الاستغاثة الثانية الموجهة الى السلطان سليمان القانونى عام 1541م ، أى بعد أربعين عاما تؤكد هى الاخرى ذاك الثبات الدينى · فقد ورد فيها : فلما سمع الكافر اللعين بذلك ، ولم يقدر على منعنا بالسياسة والاهانة ، والحرق بالنيران ، علم انا اخترنا المصيبة فى الاموال والابدان ، وآثرنا ديننا على سائر الاديان » · (11)

وكانت هذه السفارة عام 1504 — 1505 · أنظر

KAMMERER. La Mer Rouge, l'Abyssinie, Le Caire 1920. t. II. p. 142-144.

وقد يكون الرسل هم رسل فرديناند وايزابيلا نفسيهما ، اذ ارسل الملكان الى بلاط القاهرة وفدا برئاسة « بترومارتيرى دى انكلريا » فى أوت 1501 ، ليقنعوا سلطان مصر بما يلقاه مسلمو الاندلس من الرعاية والرفق · وقد قدمت السفارة للسلطان شهادات من بعض المتنصرين تثبت أن التنصر لم يكن قهريا ·

أنظر عنان ــ المصدر السابق · ص 208 ·

11) عبد الجليل التميمى : « من مسلمى غرناطة الى سليمان القانونى عام 1541 » · مجلة الاصالة (الجزائرية) · العدد 23 (جانفى ــ فيفرى ــ السنة الرابعة · محرم صفر 1395 هـ . « وقد عثر المؤرخ على تلك الوثيقة فى أرشيف (طوبى كابى) فى استانبول تحت رقم 3154 .T. K. A

اما الوثيقة العربية الثالثة التي تثبت اسلامية المنصرين قهرا ، فقد كتبها مسلم منصر هو (محمد بن عبد الرفيع الاندلسي) المتوفى عام 1052هـ ـ 1652م · وقد عاش في جيان قبل النفي الاكبر في 1609 م ، ثم هاجر الى تونس ، وكتب هذه الرسالة (12) دفاعا عن بني وطنه (الاندلس) المهاجرين ضد من يتهمهم بدينهم من المسلمين ، ويتهمهم بأيمانهم في دار الهجرة · وفيها يؤكد حسن معتقدهم ، وتمسكهم بأهداب الاسلام · ويستشهد بقرار النفي ذاته الذي أصدره (فيليب الثالث) ، والذي بين فيه « عدم رجوع المسلمين رجوعا صالحا من قلوبهم لدين النصرانية ··· واستمرارهم على دين المسلمين وعيشهم فيه خفية » · ثم يروي قصته هو مع الاسلام في ذلك الوسط المقهور على النصرانية · وقد تكون قصته هذه هي قصة كل واحد من أولئك الذين يسمونهم بالموريسك · فقد قال :

« لقد أطلعني الله تعالى على دين الاسلام بواسطة والدي رحمة الله عليه وأنا ابن ستة أعوام وأقل ، مع أنني كنت اذ ذاك أروح الى مكتب النصارى لاقراء دينهم ، ثم أرجع الى بيتي فيعلمني والدي دين الاسلام · فكنت أتعلم فيهما معا ··· وسني حين حملت الى مكتبهم أربعة أعوام ··· فأخذ والدي لوحا من عود الجوز فكتب لي فيه حروف الهجاء ، وهو يسألني حرفا حرفا عن حروف النصارى تدريبا وتقريبا ، فاذا سميت له حرفا اعجميا كتب لي حرفا عربيا ، فيقول حينئذ هكذا كانت حروفنا ، حتى أستوفي جميع حروف الهجاء في كرتين ··· وأمرني أن لا أخبر أحدا من الخلق ··· وكان يلقنني حينئذ ما كنت أقوله حين رؤيتي للأصنام ··· وكان أصدقاؤه يأتون الى بيتنا فيتحدثون في أمور الدين وأنا أسمع ، ثم عرفني بأصدقائه وأحبائه فاجتمعت بهم ··· وسافرت الاسفار لاجتمع بالمسلمين الاخيار من جيان الى غرناطة ، الى قرطبة ، الى اشبيلية وطليطلة » ·

---

12) أنظر عنان ـ المصدر السابق · ص 386 ـ 390 ·

وقد وردت هذه الرسالة في خاتمة كتاب للمهاجر الاندلسي يسمى (الانوار النبوية في أنباء خير البرية) · ونقل الرسالة من مخطوط الشاعر « أبو عبد الله محمد بوجندار » في كتابه « مقدمة الفتح في تاريخ رباط الفتح » الرباط 1345 هـ ·

ويأتى المؤرخ الاسبانى المعاصر لتلك الحقبة (مارمول دو كارفاجال ((1520 ـ 1600) ليدعم هذا القول أيضا • فقد أورد فى كتابه « ثورة موريسكى غرناطة » أن « المسلمين المنصرين كانوا يشعرون دائما بالحرج من الدين الجديد • فاذا ذهبوا الى القداس أيـــام الآحاد فذلك فقط من با بـمراعاة العرف والنظام ، وهم لم يقولوا الحقائق قط خــــلال الاعتراف • وفى يوم الجمعة يحتجبون ويعملون • واذا عمد أطفالهم عادوا فغسلوهم سرا بالماء الحار • ويسمون أولادهم أسماء عربية • وفى حفلات الزواج متى عادت العــروس من الكنيسة بعد تلقى البركة ، تنزع ثيابها النصرانية وترتدى الثياب العربية • ويقيمون حفلاتهم وفقا للتقاليد العربية • (13)

فعلى الرغم اذن مما أورده صاحب كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » المجهول الاسم ، بعد خمسين عاما تقريبا من سقوط غرناطة من « أنه قد انطفأ من الاندلس الاسلام والايمان فعــلى هذا فليبك الباكون ولينتحب المنتحبون » (14) ، فان المسلمين فى غرناطة وفى معظم أنحاء الاندلس قاوموا الغرق ، وظلت رؤوسهم فوق الماء ••• فهم اذن ليسوا موريسكوس أى « أصاغر المسلمين » كما أطلق عليهم الاسبـــان احتقـارا أو استخفافا (15) ، وانما كانوا من كبارهم •

فهم البقايا العنيدة الحية المجسدة لشخصية الحضارة العربية الاسلامية على الارض الاندلسية ، تلك الحضارة التى نمت عليها ايمانا اسلاميا « مخضوضرا » ، وابداعا انسانيا معطاء لثمانية قرون كاملة • فجذور الاسلام الحضارى كانت ممتدة بعيدا ، وعميقا فى الارض والنفس ومن العسير تقطيعها فما بالك باجتثاثها ؟؟ فالصراع بين المسلمين المنصرين والاسبان النصارى كان صراع حضارات ـ كما قال بروديل ـ ، ولذا استطال هـــذا الصراع • أو ليست عملية الطرد الاخيرة التى قام بها فيليب الثالث للمسلمين المنصرين دليلا على اخفاق الحضارة المسيحية الاوروبية آنذاك فى تمثل المسلمين وتنصيرهم ؟؟

---

13) Luis del Marmol Carvajel, Historia del Rebeliony Castigo de los Moriscos de Granada II Cop I.

تصدير • عنان ــ المصدر السابق • ص 325 •

14) ص 56 • تصدير • عنان ــ المصدر السابق • ص 304

15) عنان ــ المصدر السابق • ص 206 • هامش (3) •

ونعود فنقول للمؤرخ العلمي المدقق بالاغبار البتة على ما ورد في عنوان البحث ، اذ لابد من تسمية الامور باصالتها وهويتها العميقة ٠

ولابد من التنويه هنا أن هؤلاء المسلمين قد أطلقوا على أنفسهم اسم « الغرباء » وقد وردت هذه التسمية في فتوى (أبي جمعة الوهراني المغراوي) ، وكذلك في نداءالاستغاثة الموجه الى سليمان القانوني عام 1541م ٠ وفي الواقع ليس لدينا تعليل جازم لهذه التسمية ٠ فالغرباء بالعربية (16) تعني « الاباعد » وتعني « المنفيين » ، وتعني « الذين يشعرون بالغربة وسط محيط مغاير لهم » ٠ وكل هذه المعاني تنطبق على المسلمين المنصرين في الاندلس بعد سقوط غرناطة ٠ فهم « غرباء دينا وحضارة عن المجموع المسيحي الاغلب (17) ، وهم بحكم المنفيين لانهم غدوا محكومين بأهل دار الحرب ، أما شعورهم بالوحشة والغربة فقد أفصحوا عنه فيمطلع شكواهم الى السلطان بيازيد الثاني حين قالوا :

سلام عليكم من عبيد تخلفوا   بأندلس بالغرب في أرض غربة

الا أنني أرى أن تسميتهم لانفسهم بالغرباء ، هو تمثل منهم لحديث رسول الله (صلعم) ، عندما سئل عن الغرباء فقال : « الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي » ٠ وفي حديث آخر : « ان الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » أي أنه كان في ول أمره كالغريب الوحيد الذي لا أهل له عنده لقلة المسلمين يومئذ ، وسيعود غريبا كما كان ، أي يقل المسلمون فيصيرون كالغرباء ٠٠٠ فطوبى للغرباء أي الجنة لاولئك المسلمين الذين كانوا في أول الاسلام ويكونون في آخره ، وانما خصهم بها لصبرهم على اذى الكفار أولا وآخرا ، ولزومهم دين الاسلام (18) ويظهر

16) أنظر ٠ لفظة (غرب) في ابن منظور ــ لسان العرب ٠

17) DOMINIQUE Urvoy, Sur l'évolution de la notion de Gihad dans l'Espagne musulmane (Extrait de Mélanges de la Casa de Velasquez. Pablie avec le concours de C.N.R.S.T. IX 1973) p. 364.

18) ابن منظور ــ لسان العرب ٠ دار بيروت ٠ لفظة (غرب) ٠

هذا المعنى جليا فى فتـــوى أبى جمعة المغراوى ، عندما يقول « فطوبى للغـرباء الذين يصلحون اذا فسد الناس ٠٠٠» و «وارثوا سبيل السلف الصالح فى تحمل المشاق»(19)

أما حول **أسباب ثورة (الغرباء)** فى غرناطة عام 976 هـ / 1568 م بعد استكانـة نسبية وسلام لا تقلقه سوى بعض الخلافات المعتادة ، وذلك لمدة خمسة وستين عاما فان مما لاشك فيه أن عامل الصراع الدينى ، لا بمفهومه العقائدى فحسب وانمـا بمفهومه الحضارى ، كان هو المفجر الاكبر للثورة ٠ ولكن هذا لا يعنى أغفال العوامل الاخـــرى أو اهمالها ، وان كان بعضها يستوعبه مضمون الصراع الحضارى ٠

وأول هذه العوامل ، ازدياد شعور مسلمى غرناطة بالظلم الاسبانى لهم أو بنتائـج الاستعمار الاسبانى (20) ، لمملكتهم التى لم تعد مملكتهم ٠ فقد ضمت اسبانيا غرناطة الى قشتالة ، وأعطتها صوتا واحدا فى (الكورتيز) ، وجعلتها جزءا منها ، أى لم تتبـع حيالها ما أتبعته حيال (نافارا الاسبانية) عندما ضمتها اليها عام 1512 م ، أو حيـال البرتغال عندما الحقتها بها عام 1580 م (اذ تركتهما يتمتعان باستقلالهما الذاتى) ٠ لانها كانت حريصة على الاسراع فى دمج هذا المجتمع الاسلامى المتحضر فى كيانها ، واذابته الكاملة فى مجتمعها المسيحى المتخلف عنه آنذاك ٠ وكانت ترى أن بقاءه يتمتع بمظاهر حضارته بين ظهرانيها مشكلة خطيرة تنافى مفهومها القومى ، المتجسد فى وحدة الدين واللغة والحضارة ٠ ومن ثم فانها عملت قبل التنصير القسرى للمسلمين ، على تنصـــير اليهود بالاكراه ، أو مغادرة البلاد ٠ الا أن نقمتها على المسلمين كانت أشد وأنكى ، لان بقاء هؤلاء بمظاهر حضارتهم فيها ، يذكرها دائما وأبدا بعهود الحكم العربى الاســلامى السابق لها ، وقد يستطيعون على الرغم من قلـــة عددهم النسبية ، أن يديروا رؤوس مواطينها الاسبان النصارى أنفسهم ، فيدفعونهم الى تغيير دينهم وتحويل لغتهم وعاداتهم كما فعلوه فى الماضى ، حين تحول نصاراها أنفسهم ، أى الذين بقوا على دينهم تحـت الحكم العربى الاسلامى ، دون ضغط أو اكراه أو ملاحقة « مستعربين » ٠ أو ليس العديد

---

19) تصدير عنان ـ المصدر السابق ٠ ص 326 ٠

20) BRAUDEL, op. cit. p. 580.

من الاسر المسلمة فى غرناطة كانت فى ماضيها البعيد من نصارى البلاد الاصليين ؟؟ (21) ولا سيما أن هذا المجتمع الصغير كان مجتمعا حيا ، ونشيطا ، وعاملا ، أو بتعبير آخر متفوقا حضاريا ، ويقبض على خيوط الصناعة والتجارة : فقد قال عنه المؤرخ « مود يستولا فوينت» (22) «لقد عمل الموريسك بالزراعة وزراعة قصب السكر والقطن والحبوب التى كان لهم فى انتاجها التفوق الجم ، وذلك لنظامهم المدهش فى الرى بواسطة السواقى والقنوات وتوزيع المياه عبر هذه الشرايين توزيعا مناسبا كان له أثره في الانتاج العظيم الذى امتازت به حقول بلنسية وغرناطة • ثم تابعوا نسج الصوف والحرير ، وصنع الورق والجلود المدبوغة ، وهى صناعات برع فيها الموريسكيون أيما براعة ، وانتهوا بمزاولة الحرف الميكانيكية ، وهى حرف كان الاسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرونها ، ومن ثم فقد احتكرها الموريسكيون واختصوا بها ••• لقد استطاع هذا الجنس من البشر بعبقريته ومركزه الخاص فى البلاد ، ووفرة براعته وجلده أن يحقق ما يشبه قهر الطبيعة واستغلالها لسائر مبتكراته » •

وهكذا استطاعت الفئة المزارعة من مسلمى غرناطة أن تزرع أرض الاقليم حتى أعلى سفوح جباله ، وأن تحول أراضيه الى ما يشبه الواحات المدارية وسط أراضى نصف صحراوية • وقد جاء الاسبانى ليستولى على بعض هذه الاراضى ، وتوضع أسياد مسيحيون جدد فى الاراضى السهلية الغنية ، وبخاصة تلك التى هاجر أهلها أو طردوا منها أو انتزعت منهم • وقد تم انتزاع كثير من الاراضى الواسعة من أصحابها فى عام 1559 (23) • ويمكن القول أن فلاحى معظم أرض المملكة السابقة كانوا من المسلمين المتنصرين ويكونون بروليتاريا فقيرة بمجموعها ، ولا تنال الا ما يكفى أودها ومع ذلك فقد كانت تخدم أرضها بصبر واندفاع (24) ، ولذا دافع أسيادها النبلاء عنها لانها

---

21) «ويبدو ان الموريسك كلهم تقريبا أحفاد سكان البلاد الاصليين المسلمين » •
D. Urvoy. op. cit. p. 364

22) Modesto Lafuente, Historia General de Espagna. p. 211-214. Madrid 1862. t. VIII.
تصدير عنان ــ ص 402 •

23) BRAUDEL. op. cit. p. 588.

24) HAUSER (H.). La Prépondérance Espagnole (1559-1560). Paris 1940. p. 12.

تحقق مصلحتهم · من أمثال النبيل (هنريكس) ذى الاملاك الواسعة فى سهل غرناطة، الذى وقف مدافعا عن المسلمين قبيل ثورة 1568 وأثناءها ·

أما الفئة الثانية من المجتمع الغرناطى المسلم فكانت تلك العاملة فى الصناعة والتجارة وتكون بورجوازية غنية وخبيرة فى آن واحد بأمور مهنها ، وقد أجبرت منذ عام 1500 على الاقامة فى حيين خاصين MOREIRA أحدهما (حى البيازين) (25) ، ووضعت قريبا منها الحاميات الاسبانية وانتصبت الكنائس لتراقب الاولى حركاتها ، ولتسهـــر الثانية على أيمانها وضمائر أفرادها · وقد حملت هذه الفئة أكبر قسط من الضرائب ، ويذكر (محمد بن داوود) وهو أحد زعماء ثورة 1568 ، فى القصيدة التى ضبطت معه وتصف حال مواطنيه (26) · ما يفرض على أبناء دينـــه من الضرائب الفادحة ، وكيف كانت تؤدى على الحى والميت والكبير والصغير ، والغنى والفقير (27) ·

وقد وضع الاسبان بعد الاحتلال موظفين ورجال دين فى كل مكان من مملكة غرناطة السابقة · وقد كان هؤلاء غير مخلصين على الاغلب لعملهم ، فقد عملوا على التمتع بخيرات البلاد دون وازع أو ضمير وعلى حساب المسلمين فيها بخاصة · أما الكنيسة ورجـــال الدين وديوان التحقيق ، فحدث على اساءاتهم وقهرهم ولا حرج · ويلخص « بروديل » ما قام به الحكم الاسبانى فى غرناطة بقوله : ان كـــل ما يمكن أن يقال عن الاستعمار (الكولونياليسم) فى أى بلد وفى أى عصر كان صحيحا بالنسبة لتصرف الاسبان فى مملكة غرناطة (28) المحتلة · وحول هذا الموضوع تتحدث وثائقهم الرسمية ذاتها حديثا

25) LEA (Henry-Charles) The Moriscos of Spain, their conversion and expulsion-Philadelphia 1901. p. 151-152.

26) يبدو ان (محمد بن محمد بن داود) هو من أسرة بنى داود التى اشار (المقرى) فى (أزهار الرياض ··) (ج 1 ص · 71) أنها خرجت قبل سقوط غرناطة ، ونزلت بتلمسان · وقصيدته أرسلت الى البلاط الاسبانى بعد ترجمتها الى القشتالية · وقد أوردها (مارمول) فى كتابه السالف الذكر (III, Cap IX) وقدم (عنان) خلاصة لهـا ، وبعض فقرات منها مترجمة الى العربية (المصدر السالف · ص 345 — 346) ·

27) عنان ــ ص 346 · نقلا عن (مارمول) · Op. cit. III. Cap IX

28) BRAUDEL. op. cit. p. 580.

واضحا • فقد قال المحـــقق (هورتادوا) وكان يحـــقق فى « البشرات ALPUJARRA فى ربيع عام 1561 بأن الموريسكيين GENTA MORISCA هادئون ومسالمون ، هذا بينما لم يكن فى البلاد أية عدالة حقيقية منذ عشرين عاما ، وانما ابتزاز ورشوة وسوء استعمال السلطة، وسرقات لا حصر لها، وكلها على حساب هؤلاء الناس • ويضيف المحقق الى ذلك قوله بأنه « اذا كان المجرمون الحقيقيون الذين يجب الاخذ بخناقهم يرددون دائما حسدا بأن الموريسكيين خطرون ، أو أنهم يجمعون المواد الغذائية ، والطحين والقمح والاسلحة بهدف الانتفاض يوما ، فان هذا محاولة منهم فقط لتسويغ سلوكهم الذى لا عذر لهـــم فيه » (29) •

وأدلى سفير فيليب الثانى فى فرنسا ، وهو فرانسيس دى آلاف بتصريحات مماثلة فى رسالة مطولة بعث بها الى سكرتير الدولة « زياس CAYAS (30) ، وقد مضى على اندلاع ثورة مسلمى غرناطة ما يقرب العام • وفيها يبين أنه أقام خلال السنوات الاثنتى عشر الاخيرة سبع مرات أو ثمان فى مدينة غرناطة ، وقد عرف فيها السلطات المسؤولة المدنية والعسكرية والدينية ، وأنه يـــرى « أن الموريسكيين اليوم فى ثورة ، الا أن المسيحيين القدماء هم الذين دفعوهم اليها بعنجهيتهم ، وسرقاتهم والوقاحة التى كانوا يسطون بها على نسائهم •• ولم تـــكن معاملة رجـال الدين أفضــل ، فقــد اشتكت قرية موريسكية برمتها الى رئاسة الاساقفة ضد راعيها الدينى • وعندما حقق فى سبب الشكوى انفجر الاهالى قائلين : ليعزل عنا ، أو ليزوجوه ، لان جميع أولادنا يلدون بعين زرقاء كعيونه » • « ويتابع السفير حججه ذاكرا بأنه قام بنفسه بالتحقق من بعض الامور فلاحظ سرقات جميع الموظفين الصغار ، وحتى أولئك الذين هم من أصل موريسكى لم يكونوا أقل من غيرهم استثمارا لمن يديرونهم ••• ودخل فى يوم العيد الى الكنيسة ليرى كم كان رجال الدين لا يهتمون باحترام هيبة الكنيسة •• فقد رأى أثناء التكريس قسا يلتفت يمنة ويسرة ليراقب فيما اذا كانت رعيته كلها رجالا ونساء راكعة كما يجب ، وكان يدمدم بالسباب تجاههم » • » وهذا شيء مناقض لما تتطلبه خدمة الله » حتى أن

29) Le licencié Hurtado à S.M. las Alpujarras, 29 juin 1561, Sim E° 328 orig. (d'après Braudel, ibid).

30) F. de ALAVA à Çayas, Tours, 29 oct. 1569 A.N.K. 1512 (Çayas B 24, n° 138 b orig. dup. 138 a).

جسمه اقشعر كله . ويصف « محمد بن محمد بن داود » معاملة الاسبان المتسلطين لابناء طائفته بقوله « كل يوم نسام سوء العذاب ، ولا حيلة لنا سوى المصانعة حتى ينقذنا الموت مما هو شر وأدهى .. وقد حكموا فينا اليهود الذين لا عهد لهم ولا ذمام .. وفى كل يوم يبحثون عن ضلالات وأكاذيب وخدع ، وانتقامات جديدة .. ونرغم على مزاولة الشعائر النصرانية ، وعبادة الصور وهى مسخ للواحد القهار ... ومن عبد الله بلغته قضى عليه بالهلاك ... ويظلمنا القضاة ، وتهشم أوصال الفرائس ، ثم تحمل الى الميدان لتحرق . ويتلذذون جماعات بمشاهدتها (31) .

فيمكن اذا « اقامة دعوى اتهام على اسبانيا المسيحية ـ كما يقول بروديل ـ بسرقات ومظالم ، واغتيالات ، واعدامات جماعية » (32) . لقد كان كل هذا يجرى فى هذه البقعة الطافحة بالخيرات ، والمكتظة بالسكان . وقد كانت مفتوحة لكل باحث عن ربح أو كسب أو أرض أو عمل .. فحتى الفرنسيين والفلامانيين وفدوا اليها ، وعمل بعضهم فيها حرفيين (33) انها سنة التاريخ ـ كما يضيف بروديل ـ انها سنة الاقوى : الى جانب المدينة الاصلية نمت مدينة رسمية فى الحمراء حيث أقام القائد العام ، وفى المستشارية ، وفى الجامعة التى أسست عام 1537 ... فالاسبانى وجد نفسه فى غرناطة كما وجد الافرنسى نفسه فى العصر الحاضر فى الجزائر ، والهولاندى فى باتافيا ، والانكليزى فى كلكوتا ، أى فى قلب مغامرة استعمارية ، أو فى قلب عاصفة دوامة من الحضارات المتعارضة تأبى مياهها الهائجة أن تتمازج (34) .

وتجاه هذا « الاستعمار الاسبانى » وقف المجتمع الاصيل المسلم فى غرناطة ، قويا ومتحدا : على رأسه طبقة من القادة من « بورجوازية البيازين » الغنية ، الرافلة بالملابس الحريرية ، والحذرة والمتكتمة ، وفى قاعدته تقوم بروليتارية الفلاحين من زراعى الاشجار المثمرة ، ومربى دود القز ، ومن الخبراء فى فن توزيع قنوات الماء واحياء الارض ، وكلهم

31) Marmol. op. cit. III, cap. IX

تصدير عنان ـ المصدر السالف . ص 346 .

32) BRAUDEL. op. cit. p. 581.

33) A.H.N. Inquisition de Grenade, 2602, 20 mars, 28 mai, 17 juillet 1572. (cité par Braudel. p. 581).

34) BRAUDEL. p. 581.

فقراء يتجولون بثيابهم القطنية · لم يشغلهم صراع طبقي أمام المحنة المشتركة الهاصرة لوجودهم ، ولذا انضمت طبقة الفلاحين العاملة على الارض الى طبقة البورجوازية المتنعمة ، كما حدث فى معظم حركات التحرير الكبرى ، القومي والدستوري فى التاريخ المعاصر ، بل أنضم اليهم فى نقمتهم بعض الاسياد النبلاء المسيحيين المستوردين حديثا والذين توضعوا على الارض الخصبة التى كانت تخدمها سواعد هؤلاء الفلاحين الاصليين · وقد كان هؤلاء السادة أشبه بحكام مستقلين فى دولة صغيرة ، وقد أعطتهم السلطات حق الجاء الفارين من الاراضى الاقطاعية الاخرى وغيرها · ولكن الحكومة القشتالية لما رأت تعاضدهم مع الموريسكيين فانها ألغت هذا الحق ، وحددت حق اللجوء الى الكنائس ببضعة أيام فقط ، وذلك حتى تقطع دابر تنقل المسلمين المنصرين من أرض الى أخرى ، ومن مدينة الى ثانية ، وتقف فى وجه اتصال بعضهم ببعض وفى وجه تكتلهم · وأمام هذه الاجراءات اندفع كثير من الناقمين ، والملاحقين من السلطات الحاكمة وديوان التحقيق نحو الجبال القريبة لاجئين · وهنا لم يكن أمامهم من سبل للعيش سوى قطع الطرقات ، والاغارة على السهل ، وتنظيم حركات مقاومة مزعجة للسلطات · ومن هؤلاء تكونت احدى النوى فى ثورة غرناطة · ومن هذا يتبين ان السياسة الاسبانية الاستعمارية الفظة لمسلمي غرناطة ، فى الميدان الادارى ، والاقتصادى والاجتماعى والسياسى والعقائدى ، هى العامل الفعال فى تفجير ثورة 1568 ، ولا سيما أنها فى جزئياتها المسيئة والمثيرة قد تراكمت وتضخم حجمها يوما بعد يوم ، وسنة بعد أخرى حتى غدت النفوس أشبه ببرميل من البارود ينتظر شرارة صغيرة لينفجر ويدمر ·

ولكن هذا العامل الجوهرى البين قد يكون غطى أو حجب عوامل أخرى ، يلاحظ ان معظم المؤرخين لا يلتفتون اليها كثيرا ، وهى التطورات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية الجديدة التى كانت تعيشها اوربا فى القرن السادس عشر · وكأن المجتمع الغرناطى المسلم مجتمع مغلق على نفسه ، لا يدرى بما يجرى فى العالم الخارجى ولا يتحسس به · ففى الميدان الاقتصادى كانت اوربا تعيش ثورة ضخمة · فقد تغيرت طرق التجارة واكتشفت عوالم جديدة غدت مسرحا لنشاطها البشرى والاقتصادى · وشرع الذهب والفضة يتدفقان عليها ، وعلى اسبانيا بالذات ، صاحبة امبراطورية ما وراء البحار ومناجم

الفضة والذهب · وقد زاد هذا التطور الاقتصادى بالطبع من نماء الطبقة البورجوازية وغناها ، وفى اسبانيا البورجوازية المسلمة والنصرانية على الســـواء · فالبورجوازية المسيحية كانت قليلة العدد نسبيا فى مطلع القرن السادس عشر · اذ من المعروف بعامة ان الاسبان كانوا يتطلعون الى نمط حياة النبيل كمثل اعلى ، اى انهم كانوا يفضـــلون الجندية والحرب على التجارة والصناعة (35) ، ومن ثم لم يكن لمفهوم العمل الحرفى والتجارى لديهم ـ وبخاصة فى قشتالة ـ قيمة رفيعة (36) ·

الا ان التطور الاقتصادى الثورى فى اوربا منذ مطلع القرن السادس عشر قد غير هذا الاتجاه فانصرف كثير منهم الى التجارة والحرف ، وبذلك أزدادت البورجوازية المسيحية عددا وتحسسا بذاتها · وتصاعدت مع هذا النمو كراهيتها للبورجوازية المسلمة التى تقبض على العديد من الحرف الصناعية ، وتنافسها عملا وثراء ، كما اشتد صراعها مع طبقة النبلاء التى تقبض على الارض ، وعلى أمور الدولة · وأدى صراعها هذا بالتالى ـ الى جانب العامل الدينى والحضارى ـ الى تفاقم نقمتها على الفلاحين المسلمين لان هؤلاء عون كبير فى دعم القوة الاقتصادية لاولئك النبلاء · وانضم الى الطبقة البورجوازية النامية هذه فى حقدها على المسلمين المزارعون والرعاة ، الذين كانوا يشعرون بتفوق المسلمين

35) لقد ذكر « غيشاردان » المؤرخ الفلورنسى الذى زار اسبانيا فى عام 1513 م ، سفيرا لبلاده ، ان جميع صناع البلاط من الفرنسيين أو من أمة أخرى ··· والاسبان لا يعملون بالتجارة لانهم ينظرون اليها محطة لشأنهم ، ولانهم جميعا يتطلعون الى ما يتطلع اليـــه (الهيد الغو) (النبيل) فهم يفضلون أن يعملوا جندا مقابل أجر صغير ، أو فى خدمـة نبيل ، مع ما تتطلبه هذه الخدمة من تعب وشقاء ، أو فى قطع الطرقات بدلا من العمـــل فى التجارة أو ممارسة مهنة · على الرغم أنهم اليوم شرعوا فى بعض المدن يتلفتون الى الحرف كما فى بلنسية وطليطلة واشبيلية ، فهم يعملون فى نسج الاقمشة والاصواف ··· ان الامة بصورة عامة خصم لهم · أما العمال فيعملون عندما تضطرهم الحاجة ، ثم يدورون عاطلين حتى ينفقوا ما كسبوا · ولذا كانت المواد المصنوعة مرتفعة الاسعار · وكذلـــك يفعل مزارعو الارض لانهم لا يريدون أن يصرفوا جهدا الا عند الحاجة القصوى · ولـــذا فهم يزرعون الارض أقل مما يمكنهم أن يفعلوا ، وتلك التى يزرعونها سيئة الزراعة » ·

M. Gletea, François Guichardin (Paris 1926) p. 61

36) LAPEYRE (H.). op. cit. p. 132.

عليهم فى مضمار أعمالهم · وهذا ما دعا المؤرخ (هـــوزر) الى القول : « ان الطبقات الوسطى الاسبانية من حرفيين فى المدن وزراع ورعاة هى التى كانت ضـد المسلمين ، ولاسباب اقتصادية أكثر منها دينية (37) ·

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان تدفق الذهب والفضة على اسبانيا أوجـد اضطرابا فى الاسعار وارتفاعا كبيرا فيها (38) · وهذا الارتفاع فى الاسعار ــ ونحـن نعانى منه اليوم ونتحسس نتائجه يؤثر بخاصة على طبقة الفقراء وعلى الفلاحين منـهم فيزداد ضيقهم بالحياة ، وكذلك يؤثر على الحرفيين والتجار لضرورة رفع أجور العاملين لديهم من جهة،ولزيادة الضرائب المفروضة عليهم من جهة أخرى·فقد ارتفعت بعض الضرائب في قشتالة بين عامى 1561 و 1574 بنسبة 14 ٪ (39) ، بل ان مدينة (قادس) اشتكت عام 1563 بأن الضرائب التى وضعت على تجارتها منذ 1560 كانت سببا فى تحطيم حركة النقل التجارى فيها (40) · ولقد كانت الشكاوى عامة حتى أن الكورتيزات ذكرت فى عام 1571 (41) « أن الضرائب كهـذه ··· وارتفاعا كبيرا فى أسعار جميع الاشياء الضرورية لحياة الانسان جعل قلة من الناس قادرة على الحياة دون صعوبات » · فلا غرو اذن ، والاوضاع الاقتصادية على ما ذكر أن تتأثر حياة قشتالة ، وتتعرقل صناعتها ، ويرتفع مستوى الحياة فيها (42) ، وبالتالى لابد أن بورجوازية غرناطة وفلاحيها قـد تحسسوا هم الآخرون بهذه التطورات : فالبورجوازية المسلمة غدت بحاجة الى مجال حيوى أوسع من النطاق الذى حددت فيه حركاتها وسكناتها ، والفلاحون ازداد شعورهم بسوء أوضاعهم · فالتطورات الاقتصادية الجديدة اذن زادت من حـدة الصراع بـين المسلمين ومواطنيهم النصارى ، وقوت من احساس المسلمين بالاضطهاد والظلم : فهم عنصر فعال وأساسى فى النشاط الاقتصادى الا أنهم لا يملكون أية سلطة ، بل انهم يسامون سوء العذاب · وجاء ضعف مواسم الزراعة فى الحوض الغربى للبحر المتوسط

37) Renaudet P. Hauser (H.) ; Les Débuts de l'Age Moderne. Paris 1946. p. 23.
38) Earl J. Hamilton, The Decline of Spain. p. 42. The Economie History review VIII, 2 mai 1938.
39) Braudel. op. cit. p. 410.
40) La contaduria à Philippe II. Madrid, 13 Sept. 1563 Sim E° 143 f°• 59 et 60 (cité par Braudel. Ibiol.
41) Braudel. Ibiol.
42) Ibiol.

فى عامى 1567 ـ 1568 ، وحدوث مجاعة فى كاتالونيا (43) ، وفى الاراغون (44) · ليكون ضغثا على ابالة ، وليضخم جو التوتر السائد ·

ويضاف الى تلك التطورات الاقتصادية ، التطور الديموغرافى · فمن الثابت الآن من الدراسات التى أجريت ، أن سكان اسبانيا قد تزايدوا خلال القرن السادس عشر ، على الرغم من هجرة عديد من المسلمين الى الشرق والى المغرب العربى · وعلى الرغم من هجرة الاسبان أنفسهم الى أمريكا بعد كشفها واستعمارها · وقد حاول بعض البحاثة أن يعطى أرقاما عالية جـــدا عن هذه الزيادة من أمثال (كونراد هابلر C. HABLER و (البير جيرار A. GIRARD وغيرهما ، الا أن « توماس غونزاليز » كان أكثرهم اعتدالا · وبالنسبة لمدينة غرناطة فقد قدر الزيادة فيها بين 1541 و 1594 بـ (30،000) نسمة (من 41،800 الى 71،904) (45) · الا أن هذا الرقم لا يعطى فكرة عن مدى التزايد السكانى بين المسلمين والنصارى ، ولا سيما ان غرناطة مدينة ومملكة قد أخليت من سكانها المسلمين فى 1569 و 1570 · ويذكر (ايرل ج· هاملتون) ان الزيادة فى عدد سكان المدن القشتالية كانت بين 1530 ـ 1594 بمعدل الضعف ، بينما التصاعد العام فى عدد سكان اسبانيا وصل الى 15 ٪ فقط (46) ومن المؤكد ان لتوزيع سكان غرناطة فى قشتالة دوره الكبير فى ذلك الارتفاع · وقد أجمع المؤرخون أن الزيادة السكانية بين المسلمين كانت أعلى مما هى عليه بين الاسبان النصارى · وليس هناك دراسة خاصة بغرناطة توضح هذا الامر ، الا أن الدراسة التى أجراها (لابير) بالنسبة لبلنسية تبين أن عـــدد السكان المسلمين المنصرين فيها قد ارتفع من (18،683) نسمة فى 1563 الى 31،715 فى مطلع القرن السابع عشر ، أى بزيادة 69/7 ٪ بينما بقية عدد السكان ارتفع من (44،894) الى (65،016) ، أى بزيادة 44/7 ٪ فقط (47) · ويعلل ذلك بأن التوالد بين المسلمين كبير ، لتبكيرهم فى الزواج ، ولانهم كلهم يتزوجون ، ولا ينصرفون الى الحياة الكهنوتية العازبة كما كان الحال لدى الاسبان المسيحيين ، هذا بالاضافة الى أنهم

43) 3 mai 1566 Sim E° 336, (cité par Braudel. p. 879).
44) Fourquevaux, 13 février 1567, t. III. p. 36.
45) D'après Braudel. op. cit. p. 355.
46) Earl J. Hamilton. op. cit. p. 169.
47) Lapeyre (H.). op. cir. p. 30.

لا يذهبون الى الجيش والحرب • فهذه الزيادة السكانية للمسلمين كانت تثير حنق الاسبان المسيحيين حتى أنها كانت سببا من أسباب خرابهم (48) وتكبتهم فى عام 1609 • اذ رأى فيها الاسبان خطرا على أمن البلاد ، وتهديدا للدين المسيحى ، وما كانت لترضى سوى النبلاء لانها تعنى زيادة دخولهم (49) • كما أن الزيادة السكانية العامة ضاعفت من التوترات الاقتصادية فى البلاد ، حتى أن بروديل يتساءل فيما اذا كان طرد اليهود من البرتغال واسبانيا ، ثم طرد العرب ، لا يرجع الى التخمة السكانية النسبية التى كانت تعيشها شبه الجزيرة فى القرن السادس عشر ؟؟ (50) •

وفى خضم العوامل الاقتصادية والديموغرافية التى زادت من حـــدة الصراع بين الاسبان النصارى والمجتمع الغرناطى المسلم ، يجب الا ننسى الحركة الدينية البروتستنتية بكل أيديولوجيتها المتقشفة وبالانشقاق الدينى الذى أوجدته • فلا بد أنها كانت لمسلمى غرناطة بخاصة ، واسبانيا بعامة ، دعما وحفزا للثبات على العقيدة والمذهب ، ومشجعا للثورة • وبالمقابل كانت تصعيدا لتعصب المسيحيين القدماء وتزمتهم •

وأخيرا هل تكفى كل هذه العوامل لرفع تيار التوتر عاليا ، واحداث شرارة الثـورة اللاهبة والعنيفة التى عاشها مسلمو غرناطة لعامين ونيف ؟ يعتقد المؤرخ (بروديل) أن حدة « المسالة الموريسكية الغرناطية » المفاجئة لا تعود الى ارادة القشتاليين فى تمثـل سريع للموريسك وبأى ثمن بخس، ولا لسوء معاملة هؤلاء الموريسك ، أو لتزايد السكان، وانما قبل كل شيء الى تصاعد آمال مسلمى غرناطة نتيجة لتصاعد القوة الاسلامية فى العالم المتوسطى آنذاك • فقد رأى هؤلاء المسلمون ، أن المغـرب العربى الاسلامى الذى سيطر الايبريون على بعض المراكز على شواطئه ، قد نظم نفسه تنظيما قـــويا وفعالا : فالشرفاء السعديون فى المغرب الاقصى شرعوا بطرد البرتغاليين من شواطئهم ، والاتراك العثمانيون مدوا ظلهم فى المغرب الاوسط والادنى • ناهيك عن القوة الاسلامية العثمانية العملاقة فى المشرق التى كانت تقفز من نصر الى نصر على المسيحية الاوربية ، وتزحف تدريجيا اليهم حتى أنها لامست شواطئهم باسطولها ، ومدت لهم يد العون •

48) Ibiol. p. 32.
49) Ibiol. p. 32.
50) Braudel. op. cit. p. 357.

وفى الحقيقة ان المتتبع لتحرك الدولة العثمانية منذ سقوط القسطنطينية بيد محمد الثانى عام 1453 م / 858 هـ ، يلاحظ وكان هذه الدولة تسعى عبر خط هجومى ، سريع تارة ، ومتلكىء أخرى ، للوصول الى أقصى البحر المتوسط ، أو بتعبير آخر الى اسبانيا ذاتها • وكأنى بها تريد اعادة تكوين الدولة العربية الاسلامية فى أوج توسعها فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، انما موحدة تحت سلطة اسلامية واحدة هى سلطتها • أو على الاصح تريد ان تجمع تحت سلطتها عالم الامبراطورية الرومانية القديمة وعالم الامبراطورية الفارسية الساسانية • ولقد اتخذت فى خط هجومها هذا اربع طرق رئيسية : احدها شمالى غربى وبرى ، يخترق أوربا من شرقها ، وثانيهما بحرى وسيط يجتاز البحر المتوسط من شرقه الى غربه ، ويمسح جزره وأشباه جزره ، وثالثهما جنوبى وجنوبى غربى يجتاح بلاد الشام شرقى البحر المتوسط وشبه الجزيرة العربية كلها ، وينعطف فرع منه نحو الغرب يستوعب مصر وبلاد المغرب ، وتتعاون فى العمل فيه القوى البرية والبحرية • أما طريق الهجوم الرابع فيتجه شرقا الى بلاد ما وراء الفرات فى العراق وايران • وكانت هذه الطرق الاربع تعمل احيانا معا ، وأحيانا يتفوق عمل واحدها على الآخر • وقد عمل محمد الفاتح على وضع دعامة الخط البحرى باحتلاله الجزر الايونية عام 1479 ، واوترانت فى ايطاليا عام 1480 • وتبعه بيازيد الثانى ، الذى سقطت ايام حكمه غرناطة فى يد الاسبان النصارى ـ بتدعيم الاسطول فى البحر المتوسط • ذلك الاسطول الذى قام قبطانه « كمال ريس » بغزوات على شاطىء اسبانيا فى عام 896 هـ / 1490 م (51) أى قبل سقوط غرناطة ، نجدة لها • وهو نفسه الذى هزم البندقية عام 1499 وانتزع منها كورون ومودون على شاطىء المورة ، والاخيرة هى المفتاح الاول لتجارتها فى الشرق (52) • بل أن الفرسان العثمانيين وصلوا حتى الارض البندقية ذاتها • وجاء عهد السلطان سليم الاول لتتحرك القوة التركية على الخط الثالث فتضم فى عامى 1516 و 1517 بلاد الشام فمصر ، فالحجاز فاليمن مبدئيا • وفى عام 1519 الجزائر عبر خير الدين بربروس • وجاء عهد (سليمان القانونى) (1521 ـ 1566)

51) Encyclopédie de l'Islam, 1re édition, Art. (Kemal Reis)

وقد اشار حاجى خليفة الى هذه الغزوة فى كتابه (تقويم التواريخ) الا انه لا ينوه عنها فى كتابه (تحفة البحار) •

52) Fisher, The Foreign Relations of Turkey (1481-1512) p. 75. Urbana 1948.

لتعمل خطوط الهجوم الاربعة معا ، وخاصة الغربى والبحرى ، ولتحقق الدولة العثمانية أقصى امتداد لها ، ولتقلق أوروبا المسيحية على مصيرها ٠

فضمت فى 1523 جزيرة رودس ، بقايا حصون الصليبية المشرقية والمهددة لسوريا ومصر وخط اتصال الدولة البحرى بها ، وتم فى العام قبله (1521) فتح بلغراد ، وفى 1526 كانت معركة موهاغز واحتلال هنغارية ، وفى عام 1529 ضربت القوات العثمانية الحصار على فينا ٠ وفى العام نفسه تم استلاء خير الدين بربروس على بينون الجـــزائر وطرده اسبانيا منه ٠ وضم فى عام 1534 مدينة تونس وقوض الحكم الاسلامى الموالى فيها لاسبانيا ، وهدد منها مالطة وصقلية وجنوبى ايطاليا ، كما فعل الاغالبة فى القرن التاسع للميلاد ٠ وفى عام 1535 ـ 1536 تم تحالف الدولة العثمانية مع فرنسا ٠ وقد تكون هادفة من ورائه تطـــويق المسيحية ، والوصول الى اسبانيا فى أقصى البـــحر المتوسط ، اذ أن فرنسا قادرة على تقديم القواعد البحرية اللازمة لمثل هذه العملية ، وتلاقى بالفعل أسطولها والاسطول الفرنسى فى عـــام 1536 فى هجوم على الباليثار وشواطىء اسبانيا ٠ وفى 1538 أنتصر أسطولها انتصاره الساحق على البندقية سيدة البحر المتوسط الشرقى آنذاك فى معركة (بريفيزا) ٠ وفى عام 1541 أحبطت الهجوم الاسبانى على الجزائر ٠ وفى شتاء 1543 ـ 1544 استولى أسطولها مع الاسطول الفرنسى على نيس ، واستقر لعدة شهور فى (طولون) الميـنـــاء الفرنسى ضيفا ٠ وبين عـامى 1543 ـ 1558 سيطرت على غرب الجزائر وسادت تلمسان ومستغانم ، وشرعت تتدخل فى شؤون المغرب الاقصى ٠ واذا لم تنجح في تثبيت قدمها فى فاس الا أنها تمكنت بواسطة بيكلر باياتها فى الجـــزائر وأعمالهم البحرية أن تسيطر على بينون الفيليز (باديس) عام 1554 ٠ وبذلك أصبحت قاب قوسين أو أدنى من اسبانيا ٠ وفى عام 1553 اشترك أسطولها مع الاسطول الفرنسى فى الهجوم على كورسيكا وأســـهم فى انتزاعها من يد جنوه ٠ وكان قد تم ضمه لطرابلس الغرب فى عام 1551 ٠ وفى 1565 وصل التفوق البحرى العثمانى الى الاوج بحصار مالطة ، فى الوقت الذى أخذ يعمـــل فيه الاسطول فى المحيط الهندى كذلك ، بعد ضمه عدن والبصرة وشرع يقارع البرتغال ٠

ان هذا التفوق التركى الاسلامى فى البحر المتوسط ، وتحالفه مع فرنسا الدولة الخصم لاسبانيا ، واقتراب الاسطول العثمانى وربيبه اسطول الجزائر من شواطئها ، وغزوه الدائب لارض المسيحية الاوروبية ، أقلق اسبانيا · اذ هددها أولا فى مملكاتها فى صقلية والبوى ونابولى ، وهى مناطق تموينها الكبرى بالقمح ، وهى أشد ما تكون حاجة اليه والتزايد السكانى عندها آخـــذ فى التصاعد · هذا بالاضافة الى أنها اذا افتقدتها فانها تفتقد معها تجارة اعادة توزيع المنتجات الامريكية فى ايطاليا ، وكذلك ضرائب تلك الممتلكات والضمانات التى قدمتها لها للمولين الالمان والجنوبيين ، وهى دعامة مالية شارلكان وفيليب الثانى (53) · بل لو أن الاتراك ، بعد استيلائهم عـلى نيس وتوضعهم فى طولون ، قاموا بهجوم مركز وكاسح لسينا ونابولى ، واحتلوا هذه القواعد ، لقطعوا جميع الشرايين الحيوية لامبراطورية آل هابسبورغ ، كطريق القمح ، وطريق توزيع الفضة ، ونقل الجنود الاسبان ولتقوضت امبراطورية شارلكان (54) ·

ولم يقتصر الامر على تهديدها فى ممتلكاتها فى صقلية وايطاليا ، بل تجاوزه الى تهديدها فى عقر دارها · فكانت فى خوف دائم من ثورة اسلامية على أرضها الخاصة ، تدعم بهجوم عسكرى تركى لا يكتفى بغزو بحرى مؤقت ، وانما يعمل على انزال جنده فى أرضها ويعيد قصة الفتح الاسلامى العربى معها · ولا سيما أنها لا تملك من الرجال المسلحين ما يكفى بعد ان عمل كثير من جندها مرتزقة فى دول أوروبا المختلفة ، وازداد الطلب عليهم محاربين وموظفين فى امبراطوريتها الجديدة أمريكا (55) · ناهيك عن أن شعبها قد مل الحرب بعد حرب الاسترداد الطويلة · ولذلك سعت لانشاء ميليشيا خاصة لرد ما قد يأتيها من هجمات الاتراك والمغاربة ، كما شددت حراســة الموانىء (56) · وأخلت الشاطىء الجنوبى من جبل طارق الى المرية لمـدى فرسخين الى الداخل (57) حتى تمنع اتصال المسلمين بتلك الغزوات ·

53) R. Mousnier, Les XVI[e] et XVII[e] siècles. p. 494-495. Paris 1961 (collection Histoire des Civilisations).
54) Ibiol. p. 496.
55) Watt (M.), A History of Islamic Spain. p. 153 (Edinbaryh 1965).
56) Chaunu (P.), L'Espagne de Çharles Quint. p. 37. (Paris 1973).
57) عنان ــ ص · 268 ــ 269 ·

وفى الواقع كانت اسبانيا محقة فى تخوفها ، اذ أن آمال المسلمين فى غرناطة كانت تتألق وتزدهى مع أنباء النصر العثمانى ، فيزداد صبرهم على الاذى ، منتظرين ساعة الفرج ـ كما مناهم بذلك أبو جمعة الوهرانى ـ على يد هذه القوة الاسلامية ، ولم تكن أمانيهم مبنية فى الحقيقة على هواء من أنباء النصر ، وانما كان هناك اتصال فعلى وتجاوب منذ عهد السلطان محمد الفاتح • فقد تلقى هذا الاخير سفارة منهم فى استانبول فى عام 1477 م ، تطلب النجدة (58) • وتتالت نداءات الاستغاثة فى عهد بيازيد الثانى وسليمان القانونى وسليم الثانى ، التى لا بد أنها قد حملت هى الاخرى عن طريق سفارات •

وظهر تجاوب الدولة العثمانية مع هذه النداءات بأمرين واضحين :

أولهما : فتح أبواب بلادها لايواء المهاجرين من الاندلسيين الذين لم يطيقوا احتمال أزمة الضمير المفروضة والتعذيب والتنكيل • وازدادت هجرتهم اليها فى الشرق ، عندما منعتهم اسبانيا من الخروج من موانئها الشرقية والجنوبية ، وحولت طريق هجرتهم الى الشمال ، كى لا ينضموا الى صفوف المغاربة القريبين فيكونون قوة حاقدة على مشارفها ، وهكذا اتجهت جموعهم الى ممرات البيرنه وموانىء الشمال تنفذ منها الى فرنسا ، ومرسيليا ، وايطاليا ، فالبندقية ، وما وراءها الى الشرق ، وممتلكات الدولة العثمانية • ان هذه الطريق الطويلة ، والصعبة والشاقة ، كانت من أكبر طرق الهجرة الاندلسية • وهناك عديد من الوثائق حول هذا الموضوع ، أهمها ما بعث به السفير الاسبانى فى البندقية (غارسى هرنانديز) الى ملكه فيليب الثانى يعلمه فيها عن العدد الكبير من الموريسك الفارين الذين نجحوا فى عام 1560 بخاصة فى الوصول الى القسطنطينية عبر البندقية ، وقد استخدمتهم تركيا جنودا ومترجمين وجواسيس ويبدو أنهم فى هجرتهم كانوا يكونون أحيانا جماعات تنتظم تحت رئاسة واحد منهم • وعندما استجوب بعضهم حول علاقتهم مع الاتراك العثمانيين فانهم أجابوا « ليس هناك

58) Aziz Samih Ilter, Simali Afrikada Türkler. t. I. p. 52. (Istamboul 1937).

من موريسكى واحد لا يقدم نفسه طواعية للاتراك فى ظروف المعاملة السيئة التى تلاحق بها اسبانيا الموريسكيين » • (59)

الا أن هذا لا يعنى أبدا انقطاع دابر الهجرة الى المغرب • فطريق البحر من غرناطة وبلنسية ظلت عاملة سرا ، اذ لم تكن السفن الاسبانية قادرة على البقاء باستمرار قرب السواحل لمراقبتها • ومن ثم قامت (صناعة) خاصة على شواطىء المغرب لتسهيل سبل الهجرة لمن يريدها من الاندلسيين ، وكان أحد المراكز الكبرى لصناعة العبور هذه مدينة (شرشال) على الساحل الجزائرى ، التى ضمت العديد من النازحين • وكانوا هم أنفسهم يقومون بها ليحملوا ما تبقى من أهلهم وأصدقائهم (60) • وقد قدم خير الدين بربروسا مساعدات جمة للاندلسيين المهاجرين • فقد ذكر عنه أنه استطاع عبر سبع رحلات قام بها الى السواحل الاسبانية عام 1529 ، أن ينقل (70000) لاجىء الى الشواطىء المغربية • (61)

والمجال الثانى الذى أظهرت فيه الدولة العثمانية تجاوبها مع صرخات المسلمين المضطهدين هو الغزوات البحرية التى كان يقوم بها الاسطول العثمانى والجزائرى التابع له على السواحل الاسبانية نفسها • فبالاضافة الى غزوات بربروسا العديدة ، فان أحد قادته (غاكشيان الشيطان) ـ كما لقبوه ـ استطاع أن يظهر أمام بلنسية أثناء ثورتها، وأن يحطم أمام (فور منتيره) الاسطول الذى بعث به الامبراطور شارلكان بسرعه من

59) Garci Hernandez à S.M. Venise, 21 décembre 1559, Sim, E° 1323 f° 246.
du même au même, 26 décembre 1560, Sim, E° 1324 f° 50.
» » 2 février 1561, Sim, E° 1325 f° 85.
» » 7 janvier 1566, Sim, E° 1325. (d'après Braudel, p. 582, note 3).

60) لقد قام كثير من النازحين من غرناطة وبلنسية والاراغون فى « شرشال » • وقد كانوا يستخدمون الغابات خلفهم لبناء مراكب صغيرة تتسع لعشرة أشخاص ، ويبحرون فيها الى اسبانيا ، وهناك يخفونها عن الاعين فى خلجانها الصغيرة أو يدفنونها أحيانا فى رمال الشاطىء • ويحثون الخط نحو الداخل ليخلصوا أهلهم ويأسروا بعض النصارى ، الـذين يقومون ببيعهم فى الجزائر • وكان العبور يجرى عادة فى الربيع •

61) حاجى خليفة ـ تحفة الكبار فى أسفار البحار • ص 40 • استامبول 1911 •

جنوه (62) ۰ وفى عام 1540 قام الاسطول الجزائرى بغزو جبل طارق (63) ۰ وبين (1558 ـ 1562) استطاع (يحيى ريس) (64) و (طرغد) (65) أن يمزقا سواحل شبه الجزيرة الايبرية عدة مرات ، وذلك على اثر احتلال المسلمين حصن (الفيليز) عام 1554 ۰ وقد تم خلالها اسر (4000) نصرانى اسبانى ، ونقل ما يزيد على (2500) مهاجر ۰ لقد كانت هذه الغزوات نوعا من الجهاد المقدس ، وكان هدفها اضعاف القوة الاسبانية ، والحصول على الغنائم ولا سيما الاسرى ، وتفريج كربة المسلمين وتخليص من يريد منهم الهجرة من عذاب البقاء ، والتعرف على مدى القوى الدفاعية الاسبانية ، وعلى أخبار المسلمين (66) ۰ وكانت هذه الغزوات تتوغل أحيانا بعيدا فى البر الاسبانى حتى أن احدى هذه الغزوات الجزائرية تسللت حتى (أورجيبا) مفتاح غرناطة ، أى الى بعد خمسة أميال داخل الارض الاسبانية فى عام 1565 ۰ (67)

وعلى هذا يمكن القول أن الدولة العثمانية كانت على اتصال دائم مع مسلمى الاندلس عبر سلسلة من المحطات فى أوروبا وفى المغرب ، وعبر أولئك النازحين المشاة المتنقلين عن طريق أوروبا ، والذين لم يكن ليضنيهم السير الطويل على الاقدام ، وكذلك عبر عملاء اتصال خاصين ، وهكذا كان لمسلمى اسبانيا مراسلوهم والمدافعون عنهم فى المغرب والقسطنطينية (68) ۰ على السواء ۰ ومما لا شك فيه أن هذه الصلة وتلك الغزوات ، كانت دعما قويا للمسلمين الغرباء المضطهدين ، وتفتيحا لآمالهم ۰ الا أنها بالمقابل كانت مثيرا ملحا لقلق اسبانيا حكومة ، وشعبا ، وكنيسة ۰ وكان هذا القلق وتلك المخاوف تزيدهم نقمة على المسلمين المقيمين بينهم، فيعكسونها اضطهادا، وانتقاما وتشفيا ۰ فبعد كل نصر عثمانى كبير على المسيحية الاوروبية ، كانت اسبانيا تلتفت الى داخلها فترى فى المسلمين أعوانا سريين لهذا النصر ، ولا سيما عندما كانت تعلم

62) Hauser et Renaudet, Les Débuts de l'Age Moderne, p. 409-410.
63) Braudel, p. 634.
64) Julien (Ch. André), Histoire de l'Afrique du Nord, t. II, p. 268.
65) عنان المصدر السابق ـ ص 372 ۰
66) المصدر السابق ـ ص 369 ۰
67) Le Président de Grenade à Philippe II, Grenade, 28 août 1565, Sim, E° 145 (Braudel p. 583).
68) Braudel, op. cit. p. 893-94.

بنداءات الاستغاثة الموجهة • فتشتد اعتقادا بضرورة صيانة جبهتها الداخلية ، والقضاء على تلك العناصر الغريبة التى لا تظهر ارادة طيبة للانتماء الكامل لمجتمعها المسيحى • ومن ثم يلاحظ توافق واضح بين عمليات جورها على المسلمين وبين معارك النصر العثمانى : فبعد نصر العثمانيين البحرى الكاسح على البندقية عام 1499 قامت بالضغط التنصيرى الاول فى غرناطة • وكان تعميمها الارغام على التنصير وتشديدها فيه بين عامى 1521 ـ 1526 ، متمشيا مع فترات الانتصار التركى الاسلامى فى رودس وبلغراد والمجر • وفى عام 1541 وهو عام اخفاق الحملة الاسبانية على الجزائر ونجاح السعديين فى مهاجمة المراكز البرتغالية على شاطىء المحيط الاطلسى ، أصدرت قرارها بتحريم هجرة المسلمين المنصرين من الثغور الاسبانية ، وحظرت عليهم تغيير مساكنهم (69) • وبعد النجاح الاولى للاتراك العثمانيين فى حصار مالطة عام 1565 ، شرعت تعد مع كنيستها القلقة مشروع الاضطهاد الجديد الذى سيفجر ثورة 1568 • وكما كان هناك شبه توافق زمنى بين النصر العثمانىوتصاعد الاضطهاد الاسبانى، فقد كان هناك توافق مماثل بين ذلك الاضطهاد والتحركات الثورية المسلمة ، وبين غزوات الاسطول الجزائرى • ولا بد فى الواقع من القيام بمجموعة من التحريات فى مخازن الارشيف فى الاندلس والباليئار وبلنسية اذ أن معلوماتنا بهذا الشأن تشكو قصورا •

والسؤال الآن الذى يطرح نفسه بعد كل هذا ، هل الامانى المحتضنة من قبل المسلمين فى غرناطة بمساعدة الدولة العثمانية لهم فى ثورتهم اذا قاموا بها هى التى شجعتهم على الاندفاع فى أواخرعام 1568 ؟ أم أنهم وعدوا فعلا بتأييد مادى قوى يكونون هم فيه طليعة فتح اسلامى جديد لاسبانيا وتكون الدولة العثمانية بطلته ؟؟ وفى الحقيقة منذ أن استطاع الاسطول العثمانى أن يكون قوة فعالة فى البحر المتوسط ، ومنذ أن اتخذ الجزائر مركزا رئيسيا للعمل فى غربى هذا البحر وأظهر تفوقه ، ومنذ أن دعم موقفه بتحالفه مع فرنسا ، فان الاشاعات كانت تترى بأن الدولة العثمانية متآمرة مع المسلمين فى اسبانيا لغزو شبه الجزيرة • ولا سيما بعد أن تنامت غزوات الاسطول الجزائرى على سواحل اسبانيا عام 1558م • وقد تناقل سيرة هذه المؤامرات كثير من

69) عنان ـ المصدر السابق ـ ص 338 •

المؤرخين (70) . فهناك مؤامرة أنبىء بها فيليب الثانى من قبل سفير فرنسا حوالى 1559 ، ومؤامرة فى الاراغون عام 1560 (71) ، وهناك آمال فرنسية بتحركات منتظرة للمسلمين عام 1561 (72) ، بل ان السفير الفرنسى فى اسبانيا (فوركفو) ذكر فى مراسلاته « أن أحد الموريسكيين قد أعترف بوجود اتفاقات بين اخوانه فى الدين ، وبين الاتراك » . (73)

واذا كان من المستحسن الا تؤخذ هذه المؤامرات على حقيقتها اذ من الطبيعى أن يخلقها خيال الاسبانى المتخوف أكان دولة أو كنيسة، أو أصحاب المآرب السياسية المختلفة ، كما أنه من الطبيعى أن يعترف كثير من المحقق معهم من المسلمين ، تحت التعذيب والضغط بما كان يريح أولئك الاسبان المحققين ويصوره لهم خيالهم ، ليتخذوا من تلك الاعترافات ذرائع الاضطهادات وملاحقات جديدة لا تنتهى ، فانه من المؤكد أن الدولة العثمانية تلقت فى عام 1567 م ، سفارة فى استانبول من مسلمى الاندلس ، بعد تسلم السلطان سليم الثالث السلطة ، واستقبل علماء العاصمة العثمانية أولئك المبعوثين ، مما جعل المراقبين الدوليين يتكهنون بحرب جهادية جديدة لا بد للسلطان العثمانى أن يشنها على النصرانية الاوربية (74) . ولعله كان لهذه السفارة أثرها فى البلاط العثمانى ، ولا سيما بعد الحملة الاضطهادية الجديدة التى قادتها الكنيسة الاسبانية بقيادة (ديسا) ، وبدفع من (بيدرو.غيريرو) رئيس أساقفة غرناطة ، و (دييغود وسبينوزا) أحد الاساقفة ، وابتداءتها بالفعل منذ عام 1565 بنزع أطفال المسلمين من أهليهم ووضعهم بالقوة فى مدارس مسيحية (75) والتى وصلت الى ذروتها بالمرسوم الملكى الذى صدر فى يناير عام 1567 . اذ يذكر ان مشروعا تركيا للتدخل فى أقصى البحر المتوسط قد نوقش فى القسطنطينية ودرسته مدريد (76) . ولكن ليس لدينا ما يثبت أن الدولة العثمانية قد طلبت الى مسلمى غرناطة تفجير ثورتهم ، كما أنه

70) Lea, The Moriscos... p. 279-285.
71) Philippe II au duc de Segorde, 12 mai 1560, Sim, 327 (Braudel, p. 587).
72) 16 octobre 1561 A.N.K. 1495 N° 84.
73) Fourquevaux, 5 novembre 1565, t. I, p. 7, 8, 13.
74) Hauser, La Prépondérance Espagnole... p. 88.
75) Ibiol. .p. 12-13.
76) Braudel, op. cit. p. 587.

ليس هناك ما ينفي عدم تدخلها البتة • فكما انه في حزيران عام 1568 جاء قائد يوناني يعرض على دون خوان في برشلونة اثارة المورة (77) فأنه يمكن تصور لقاء كهذا قد تم بين الجزائر والمسلمين ، أو بين المبعوثين المسلمين والقسطنطينية •

ومهما يكون موقف الدولة العثمانية في فترة ما قبل الثورة ، فان جوا من الكـــره والشك والتحدى كان سائدا فى اسبانيا وفى غرناطة بالذات عام 1565 • وقد نسجت لحمته من تصاعد آمال المسلمين اثر حصار مالطة ، وسداه من مخاوف النصارى والكنيسة وشكوكهم • فقد عاد المسيحيون المتزمتون يشتكون بان المنصرين الجدد هم نصـــارى بالفم والمظهر فحسب ، أما قلوبهم فمع الاسلام • وقد وضع هؤلاء الاقفال على بيوتهـم وحماماتهم ، وهى ملاذات كافية للقيام بطقوس عباداتهم سرا • ولم يكونوا فى الواقــع مخطئين كما أظهرنا ذلك ، وكما أكد المحققون مرة بعد مرة • ولذا كان لابد من متابعة هؤلاء (المنافقين) ـ بحسب رأى الكنيسة الكاثوليكية الاسبانية •

وفى مطلع عام 1567 ، وفى الذكرى الخامسة والسبعين لسقوط غرناطة ، وفى هذا المناخ المفعم بالتوتر النفسى العالى من الطرفين ، أصدرت الحكومة الاسبانية قرارها الذى أعدته من نوفمبر عام 1566 • وينص على منع الموريسكيين من التكلم والقراءة باللغــة العربية ، ويفرض تعلم اللغة القشتالية ويحظر على النساء والرجال استخدام عاداتهـم وملابسهم ولا سيما الحجاب بالنسبة للمرأة ، ويحرم اغلاق المنازل واستخدام الحمامات العامة ، بل يوجب هدمها (78) وبتعبير آخر هو جملة اعتداءات صريحة على الحريـــة الشخصية للمسلم ، وعلى شخصيته الحضارية ، يراد بها تصفية تلك الشخصية •

وقد فرضت اسبانيا على المخالفين عقوبات صارمة تتراوح بـين السجـــن والنفى والاعدام • وأحاطت تنفيذه بالشدة والصرامة • ويتساءل المرء لماذا اختارت اسبانيـا هذا الوقت بالذات لاعلان قرارها ؟ الانقضاء المهلة التى كانت وعدت بها سابقا ومدتها أربعون عاما ؟ أم لوفاة السلطان سليمان القانونى ومعرفتها ان ابنه سليم الثالث لــن يكون فى مستواه أو فى مستوى المهمة الجهادية التى كانت لابيه ؟ أم لشعورها ان الوقت

77) Ibiol. p. 895.

78) انظر تفصيل أوسع • عنان ـ 342 ـ 343 •

ملائم ، لانشغال الدولة العثمانية آنذاك بقضايا الشرق ومن ثم كان صمت قعقعة السلاح في البحر المتوسط ؟ أم لخوفها من اتساع رقعة التهديد للدين المسيحي الكاثوليكي بعد ازدياد قوة البروتستان في أوروبا ، وثورتهم في الاراضي المنخفضة التابعة لها ، وامكان تعاونهم مع مسلمي اسبانيا ، أو تعاون هؤلاء مع فرنسا والدولة العثمانية ضدهـا ؟ أليس للموضوع علاقة بمؤتمر ترانت الكاثوليكي الذي كان دعما للكاثوليكية ؟ ألم يكن القرار يا ترى – الى جانب عوامل أخرى – اثباتا لجمعية اليسوعيين التي كان فيليب الثاني وكنيسته يغاران على سلطتهما منها ، بأنهما قادران بالقوة عـلى اجتثاث النفاق والمروق عن الدين ، والحفاظ على الكاثوليكية في اسبانيا دون دعاية وتعليم (79) • قد تكون جميع هذه العوامل متظافرة قد عملت على دفع اسبانيا لاصدار قرارها ضـد المسلمين في غرناطة في هـذا الوقت •

ويبدو أنها عندما أصدرته لم تكن تقدر أنه سيكون عاملا في اشعال لهيب الثورة • فمنذ عام 1502 في غرناطة ، ومنذ عام 1526 في الاراغون جرت أحداث كثيرة واضطرابات بين المسلمين المنصرين والاسبان الا أنها لم تكن ذات أهمية • ففي كل مرة كان الرجال المكلفون بالادارة والقضاء يحاولون حلها بمرونة وتكيف نسبيين • فحتى حادث الاستلاء على الاراضي عام 1559 ، وتجريد مسلمي بلنسية من أسلحتهم ، مرا بسـلام (80) • وظن أعيان البيازين كذلك أنه يمكن تدبير الامر مع السلطات – كما جرت العـادة – بشراء ايقاف تنفيذ هذا المرسوم أو تأجيله • ودخل أحد النبلاء الاسبان وهو (هنريكس) بمفاوضات طويلة مع السلطة لصالح المسلمين – وكان يعطف على قضيتهم – • وأسهم معه في هذه المفاوضات التي دامت سنة أحد أعيان المسلمين ، وهو (الحبقي) الـذي

79) Robert Ricard, Etudes et documents pour l'histoire missionnaire de l'Espagne et de Portugal. 3e partie, p. 209-232. 1930.

لقد ذكر أسقف مالاقا عام 1559 بأن « جولة من جولات التحقيق هي أفضل من أشهـر بل سنين الدعوة والتعليم » وكأنه يرد على اليسوعية التي تنادي بضرورة الدعوة الفكرية والتعليـم •

80) Braudel, op. cit. p. 588.

سينخرط فى الثورة فيما بعد ويكون أحد قادتها · الا أن المفاوضات لم تسفر عن أية نتيجة ، بل اشتطت اسبانيا فى تنفيذ مرسومها ·

ويقول المؤرخ (ستانلى لين بول) ـ « ان اجراءات التجريد الكامل من القومية كانت أقسى من أن يتحملها شعب ما ، فكيف بأحفاد المنصور ، وعبيد الرحمن الثلاثة ، وبنى سراج ؟؟ » · (81)

ويعلق بروديل على الوضع فيقول : « كيف يمكن للموريسكى ان يتحمل كونه مواطنا قاصرا ، بل ومسحوقا تحت ضغط التنصير ؟ ؟ » ونضيف ، كيف يمكنه ان يعيش صامتا ساكنا ، وهو يرى أن كل فرد من مواطنيه الاسبان كان يلاحقه ببغضاء لاهبة ؟؟ فكلهم كان ضد هذا الشعب العامل والصانع ، والمقتصد ، والذى يتوالد بكثرة ، ولم تستطع الحرب ولا الاضطهادات الدينية أن تقضى عليه · لقد كان بغضا دينيا اقتصاديا حاقدا على الصانع الماهر منه ، وصاحب الدكان الثرى ، بل وعلى بائع (الزنكل) (وهو عجين يقلى بالزيت ويغمس فى العسل أومعقود السكر) الذى يبدو أنه يحقق بعض الكسب ، وأخيرا على الفلاح المنتج للبيض والخضروات · (82)

الثـــــورة

وهكذا أطلق « غرباء غرناطة » اشارة الثورة ··· ولابد أنهم كانوا يعلمون أن اسبانيا منشغلة فى اخماد ثورة الاراضى المنخفضة ، وانها قد جندت العديد من سكانها لهذا الغرض · بل ان السواحل شبه مقفرة بسبب الحرب من جهة وبسبب الخوف من الغارات الاسلامية البحرية · أما الدولة العثمانية البعيدة فكانت هى الاخرى منصرفة الى حملتها ضد الروس لاسترداد قازان واسترخان منهم ، ناهيك عن ثورة اليمن ، وتهديد البرتغاليين لسواحل العالم العربى الاسلامى · وفرنسا الدولة الحليفة للدولة العثمانية كانت تخوض حربها الاهلية الدينية الثالثة · فثورة مسلمى غرناطة انفجرت اذن فى أواخر عام 1568 · فى عالم من العلاقات المتوترة وكان ايقاع الحرب والسلاح

81) Stanley Lane Pool, The Moors in Spain, p. 273. Beirut 1967.
82) Braudel, p. 587.

فيه يتسارع · وقد انفجرت بعنف ، وكان لها صدى مجلجل فى الخارج حيث أثارت العديد من الحسابات والآمال ، كما صعدت داخل اسبانيا أجيج الاهواء ·

وكان زعيم الثورة وموقد نارها (صباغ) من غرناطة يدعى (فرج بن فرج) وكان ينتمى الى بنى سراج · وكان ثائر النفس ، وناقما على الاوضاع التى يعيشها بنـــو قومه · ويبدو أن الثورة لم تكن بنت يومها ، بل أعد لها ، وخطط ضمن تنظيمـــات سرية لا نعرف عنها شيئا · ويبدو أن تلك التنظيمات قد احتوت مسلمين منصريـــن فى أنحاء المملكة الغرناطية، بدليل الكتب التى وجهت الى الانحاء المختلفة تطلب الاستعداد والتأهب · كما أعـــلم بها أمراء المغرب وطلب الى الاخـــوان فيها اعـــلام استامبول وقـــد كان معـــدا لها يوما سابقا ليـــوم انفجارها ، الا أن السلطـات الاسبانيـــة اكتشفت بعض خيوطها ، وقضت على بعض أفرادها ومنهم (ابن داود) الذى أشرنا اليه سابقا ، وشددت من قوة حامياتها · الا أن الثوار عادوا فلملموا صفوفهم وأطلقـــوا الشرارة ثانية · ويظهر أن نواة ا لثورة كانت ممركزة فى ضاحية البشرات حيـــث المنطقة مرتفعة وتصلح وكرا للثورة · وتضم الجبال القريبة منها كثيرا من الثائـــرين والعاملين فى قطع الطرقات على الاسبان النصارى كعمليات جهاد محدودة ·

وقد ابتدأت الحركة بمهاجمة بعض المسلمين بعض جبـاة الضرائب الساعـــين لنهبهم (83) ثم قتل بعض ا لفلاحين من المسلمين أيضا لجنود كانوا مقيمين فى أكواخهم · فجمع ابن فرج هؤلاء الناقمين وهبط فى الليلة التالية لليلة عيد الميلاد من عام 1568 الى المدينة ، حيث رفعوا أصواتهم متظاهرين ، ومنادين بأن عـلى أولئك الذين يريدون الدفاع عن دين محمد أن يتبعوهم (84) · لقد دخلوا وهم ستون فردا ، وخرجوا مـن غرناطة الى الجبال وهم ألف (85) · ولم تبد الهيئات الدبلوماسية تخوفا كبـيرا مـن الحادث فى بادىء الامر حتى أن سفير البابا أكد « أن الحادث لا أهمية كبيرة له كمـا قد سيقال » · وفى الواقع أن حى البيازين فى المدينة لم يحرك ساكنـــا ، فأبنـاؤه البرجوازيون الاغنياء الحريصون على مصالحهم الاقتصادية ، رأوا فى انضمامهم للحركة

أنظر عنان ـ المصدر السابق ـ ص 347 ·

83) Stanley Lane Poole, op. cit. p. 273
84) L. Serrano, Correspondia diplomatica entre Espana y la Santa Sede, III, p. 23-24 (Braudel, p. 893).
85) Sauli à la Seigneurie de Génes, 5 janvier 1569, A.D.S. Génes, lettere Ministri Spagna 4 2413 (Braudel, p. 893).

مغامرة خطيرة على وجودهم ، ولا سيما أنهم كانوا يعيشون وسط الاسبان الحاقديـــن وعلى مقربة من الحامية · ولكن هذا لا يعنى أنهم لم يكونوا فى باطنهم مؤيدين للثورة ، بل يمكن القول أن قلة عدد الثائرين جعلتهم ينكمشون ويخشون المخاطرة · « فلو لم يكن الثلج قد سد منافذ ا لجبل ، ولو تدفق على المدينة عدد أكبر ، فلا أحـدـ يمكنه عندها التكهن بما ستكون عليه أبعاد تلك الحركة ، وقد تحرق المدينة برمتها » · (86)

ولم تمض بضعة أيام حتى انضم الى ابن فرج مسلمون آخرون من البشرات ، ومن جميع أنحاء مملكة غرناطة · وقد قدر عـدد الثـوار فى مطلع الثـــورة بـ (4000) ثائر · ويذكر (صولى) ـ وهو عميل جنوه السياسى فى اسبانيا ـ لحكومته « أن بعض الناس يقول أنهم أكثر من ذلك بينما يؤكد آخرون أنهم أقل··وأن بينهم بعض الاتراك·· كما أنهم يحكمون ان (الحركة) أشبـه بنار القش لانهـا أتت فى غـير موسمهـا ، والاستعدادات ضدها كبيرة · وقد خرج عدد وفير من الفرسان والمشاة من قرطبـة وغيرها من الاماكن ·· » (87) واذا كان صولى لا يظهر قلقه من الحركة فان (فوركفو) سفير فرنسا كان أكثر تشاؤما · وكان محقا فى تشاؤمه هذا ، بحسب بروديل ، لان الثورة كانت حرب حضارات متعادية ، وحرب الحضارات المتصارعة تنتشر عـادة مـن نفسها ، ولا سيما اذا كانت الارض مهيأة مقدما لها ، والعالم الذى انفجرت فيه قـد طغى على انسانه البغض والبؤس · (88)

ويبدو أن الثورة لم تكن لمطلب آنى ، كرجوع الحكومة الاسبانية عن قرارها السابق، أو السعى لرفع ضروب الظلمات والتعسف عن مسلمى غرناطة ، أو الالحاح على معاملتهم مواطنين كاملى الحقوق كغيرهم ، وانما كانت ذات هدف ثورى ايجابى عميق وهو اعادة تكوين مملكة غرناطة دولة مستقلة · وهكذا أعلنوا استقلالهم (89) ، والتفـوا حول شاب من حى البيازين فى العشرين من عمره ، ينتسب الى سلالة بنى أمية التليدة يدعى (الدون فرناند ودو كوردو وفالور) · وكان من أعيان غرناطة ، ومستشارا فى بلديتها ·

86) Braudel, p. 893.
87) Sauli à la Seigneurie de Génes, 5 janvier 1569, A.D.S. Génes, lettere Ministri Spagna 4, 2413 (d'après Braudel, p. 893).
88) Braudel, op. cit. p. 894.
89) عنان ـ ص 348 · استنادا الى Marmol, op. cit. IV, cap. VII

وقد يكون لاختياره دلالات بعيدة المدى ، كاعادة الحكم فى اسبانيا كلها للمسلمين كما كان الامر فى عهد الخلافة الاموية الاندلسية واحتفل المسلمون بتتويجه ملكا عليهم فى احتفال دينى مهيب ، فى التاسع من رجب عام 976 هـ / 29 ديسمبر 1568 م ٠ وأعطى الاسم العربى (محمد بن أمية) ٠ وفرشت فى ذلك اليوم على أرض البشرات أعلام اسلامية ذات أهلة ، ووقف الثائرون صفوفا مصلين مع مليكهم ومتجهين نحو الكعبة ، والجبال ترجع صدى تكبيراتهم ٠ وأقسم الامير أن يجاهد حتى الموت فى سبيل عقيدته الاسلامية وأمته (90) ٠ وبعد تتويجه وضع نواة دولته ، فعين عمه قائدا عاما لجيشه ، وابن فرج كبيرا لوزرائه ، وكلفه بجمع المال للثورة ، من الكنائس ، ومن النصارى ، وغنائم غارات الغزو ٠ ويشير المؤرخ (ج ٠ كاروباجورا) الى أن ثورة غرناطة قد تميزت منذ بدايتها بمظهرها الدينى ، وبنزعة كبيرة لاستعادة جميع قيم الثقافة الاسلامية (91) ٠ فهناك العودة الى ممارسة الشعائر الدينية المنوعة ، وهجوم على التماثيل والصور ، والعودة الى الملابس المحرمة من السلطات ٠ (92)

واتخذ (محمد بن أمية) مقرا له آكام بوكيرا الوعرة ، وبعث رسله الى جميع الانحاء يدعو المسلمين المنصرين الى خلع طاعة النصارى ، والعودة الى دينهم القديم (93) ٠ ومنذ بداية الثورة حاصر الثوار (المرية) ، (94) وكانوا قد حصنوا (أورجيبا) ، مدينة الدوق دوسيسا الملاك الكبير فى غرناطة ، (95) وقد قدر هذا الاخير عدد الثوار فى فيفرى 1569 بـ (150ر000) ثائر ، منهم (45ر000) قادران على حمل السلاح ٠ (96) وفى مارس فاضت الثورة من الجبل على السهل (97) ٠ ويبدو أن نجدات من المتطوعة الجزائريين قد أخذت تصل اليهم ٠ (98)

90) المصدر السابق ٠ الصفحة نفسها ٠
91) Caro Bajora, Les Moriscos del reino de Granada, p. 175-178. Ensayo de Historia social. Madrid 1957. Cité par D. Urvoy, op. cit. p. 365-366.
92) Ibid, p. 366.
93) عنان ـ المصدر السابق ـ ص 348 ٠ (مع تصدير مارمول) ٠
94) Fourquevaux, 13 janvier 1569, t. II, p. 56.
95) Braudel, p. 893.
96) Fourquevaux, 28 février 1569, t. II, p. 56.
97) Ibiol. Avis d'Espagne, 20 mars 1569, t. II, p. 62.
98) Saulí à la Seigneurie de Génes, 14 avril 1569 A.D.S. Génes. Lettere Ministri, Spagna I 2413 (cité par Braudel, p. 894).

واذا كانت الهيئات الدبلوماسية لم تبد فى بادىء الامر ذعرها من هذا التحـــرك الثورى الا ان الحكومة الاسبانية نظرت اليه مباشرة على أنه تحرك خطير · ربما لانهـا كانت فى حرج من أمرها ، بسبب ثورة الاراضى المنخفضة ، وافتقادها الى الجند الكافين، وملل الاسبان من الحرب ، وأخيرا لانها لم تكن قد اتخذت أية احتياطات عسكرية سابقة ، اذ لم تحسب حساب اندلاع هذه الثورة · وقد كان أول اجراء قامت به هو ارسال المال الى القائد العام لغرناطة (المركيز دو مونديخار) للعمل على تجنيد الجنـد ، وكذلــك للمركيز (لوس فيليز) حاكم مرسي · وفى الوقت ذاته أخطرت السفن الاسبانيـــة لتحرس الشواطىء الاسبانية وتعزل الثوار عن شمال افريقيا ، وتمنع ما يمكن ان يأتيهم من نجدات منها (99) · وثالث الامور التى أبدت اهتماما بها هو العمل على ابقاء الثورة سرا (100) · الا ان النبأ كان قد وصل منذ مطلع ففريه الى جنوه وروما ، ومن المؤكد الى بلدان أخرى ، بل انه وصل الى القسطنطينية ، حيث أرسل الثوار يطلبون النجـــدة وارسال الاسطول اذ أن مناطق جبل طارق غـــير محروسة حراسة حسنة ، ومـــن السهــل فتحهــا » · (101)

وفى الحقيقة ، لقد سرى نبأ الثورة فى أوروبا كلها ، وفى أنحاء البحر المتوســـط كله ، مسرى النار فى الهشيم · ومنذ ذلك الوقت كان هناك حربان مختلفان جــــدا : الحرب الفعلية الواقعية التى كانت تجرى فى جبال شلير (سيرا نيفادا) ، وهى حـرب جبال صعبة ، ومملوءة بالمفاجاءت ، وبمظاهر القسوة الرهيبة والمروعة من الطرفـين ، وحرب أخرى وهى المسماة بـ (حرب غرناطة) وهى الحرب الدبلوماسية التى كانـت ترسمها الآراء المتناقضة ، هادفة من ذلك تحريك جميع الاهواء ، أهواء أوروبا وأهواء الشرق ، وكان يغذيها شبكة من العملاء والجاسوسية ·

ومهما كان الحجم الحقيقى لثورة غرناطة فى الخارج ، واستغلالاتها على المستـــوى الدولى ، فانها فى اسبانيا قد هزتها هزا عنيفا · فقد اثبتت لها مرة أخرى ان مراس المسلمين لا يزال شديدا ، وان قواهم الجهادية كانت ولا تزال فى عنفوانها · وفى الواقع ان اجراءات الرد العسكرى الاسبانى المجدى على هذه الثورة الرائعة واللاهبة تطلب وقتا،

99) Philippe II à Requesens, 15 janvier 1569, Sim. E° 910 (Ibiol. p. 895).
100) De Philippe II au vice-roi à Naples, Madrid, 20 janvier 1569, Sim. E° 1057, f° 105.
101) Ba Ferriro à la Sie de Génes, Constantinopli, 23 juillet 1569 A.D.S. Génes Constantinopli 2 -2-70.

ولم تكن حاسمة بين يوم وليلة . فالعمل السريع فى نطاق هذه الجبال القاسية والوعرة عسير ومنهك للقوى النظامية . وكانت فرق الجند معرضة للموت جوعا ، وكانت تموت فعلا لصعوبات التموين . ناهيك عن استخدام المسلمين فى حربهم طريقة «حرب الربط» و « الثغور » ، أى الكر والفر ، وكانوا يحيون بذلك مفهوم الجهاد الاسلامى القديم(102) . ومن ثم كانوا يثخنون بالاسبان ثم يفرون « كالوعول أمام البنادق الاسبانية دون أن يصابوا بأذى » . وبالاضافة الى حرب الجبال المحطمة لقوى الاسبان ، فان السفن الجزائرية لم تنفك عن تزويد الثوار بالرجال والذخائر والاسلحة والمواد الغذائية كالرز والقمح والطحين ، وكانوا يبادلون كل بندقية بأسير مسيحى (103) . ولم تكن اسبانيا قادرة – كما أشرنا سابقا – على مراقبة الشاطىء الطويل للبلاد الثائرة الذى كان البحارة الجزائريون – وبعضهم من أهل الاندلس المهاجرين – يعرفون خفاياه وخلجانه ومخابئه . هذا الى ان هذه الشواطىء كانت ملكا للنبلاء لا للملك ، وكانت عصابات اللصوص والتهريب والقرصنة قد وجدت مكانا لها فيها . فالثورة اذن استطاعت ان تثبت أقدامها ، وان تحرز نصرا أوليا على الرغم من أن الحرب كانت سجالا . ولم تتمكن اسپانيا ان تسيطر عليها على الرغم من أن (دو مونديخار) كان قائدا محنكا وبارزا . وقد رأى أخيرا ان مسالمة الثوار أفضل من الصدام المسلح واهراق الدماء ، فسعى الى مفاوضتهم ، وقبل (محمد بن أمية) الصلح الا ان المتطوعة المغاربة رفضوه . (104)

ومن الطبيعى ان الاخفاق فى اخماد الحريق يزيده اشتعالا . لقد كانت الثورة المنيرة والمحرقة تتسع يوما بعد يوم وتتقدم من نفسها ، وتشتد تماسكا ، ولا سيما بعد ان دفع لها بوقود جديد . والوقود هذه المرة هو ما قام به المركيز (لوس فيليز) عندما صد المسلمين عن (المريه) ، وقتل العديد من نساء المسلمين واسراهم وطفالهم . وما قام به كذلك المسؤولون فى مدينة غرناطة عندما ذبحوا (150) مسلما من أعيانها وهم فى

102) D. Urvoy, Sur l'évolution de la notion de Gihad... p. 365.
103) Braudel, op. cit. p. 896.

104) عنان – المصدر السابق – ص 350 .

السجن ، وكانوا قد أخذوا رهينة ، بحجة أن الثوار سيهاجمون غرناطة بمساعدة حى البيازين فيها · فذكت نار الثورة ، وزخرت قلوب المسلمين بالايمان والنضال والثورة·

ومع كل العنف والسعة اللذين اتصفت بهما هذه الثورة ، ومـــع أنبـاء الاخفاق الاسبانى فى اخمادها ، فان فيليب الثانى لم يظهر تشاؤمه · أو بتعبير أوضح « لـم يرد ان يجعل من هذه الثورة قضية » (105) فقد ادعى ان الاتراك لديهم مشاغل أخرى غير هذه الثورة ، وأن النجدة الجزائرية غير ممكنة لان حراسة السفن عـــلى الشواطىء الاسبانية شديدة ، وأنه يكفى لاعادة الامور الى نصابها ، ميليشيا الاندلس وحـــدها · الا ان عملاءه السياسيين فى الخارج لم يكونوا يشاطرونه هذا الرأى ، لان أخبـــــار حربه مع ثوار غرناطة واخفاقها كانت مدوية فى الخارج ، وقد ضخمتهـــا الاشاعـات المختلفة · حتى ان عميله فى لندن أعلمه بان الامر سيصل بالناس الى الاشاعة بان ممالك اسبانية أخرى قد ثارت ضد الملك (106) · وهذا بحسب رأيه انتقاص من هيبته ·

وفى الواقع لقد أقلقت هذه الثورة الاسبـــان والعروش الكاثوليكية فى أوروبا ، لانها جاءت وسط تحركات دينية ثورية بروتستنتية كانت تمزق أوروبا ، وهذا ما عبر عنه سفير فرنسا فى اسبانيا (فوركفو) عندما قال : « انها دليل آخر على ان هذه الازمنة هى أزمنة ثورات الرعايا ضد أمرائهم الشرعيين · فالبارحة كانت ضد شارل التاسع فى فرنسا ، وضد مارى ستيوارت فى اسكتلندا ، وضد الملك الكاثوليكى فى الفلاندر · فالعالم اليوم نازع الى الثورة ، والرعايا متجهون نحو التمرد فى المناطق المختلفة»(107)· وقد رد الملك شارل التاسع على سفيره قائلا : « اننى آمل ان يعاقب هـــؤلاء الثوار ، وكل أولئك الذين حملوا السلاح مثلهم بهدف بلبلة دولة ملكهم وسيدهم » · (108)

لم تستطع اسبانيا أن تهدىء الخواطر المضطربة ، والاشاعات المستفحلة ، بخبـــر نصر واحد تحدد فيه ميدان المعركة ، وعدد القتلى والاسرى كما جرت العادة · فالحرب حرب كر وفر · والعمليات العسكرية غير مترابطة ، والنتائج غير ملموسة ، وحـــرب

105) Fourquevaux, t. II, p. 56.
106) Guerau de Spes au Roi, Londres, 2 avril 1569, Codoin xc. p. 213 (Braudel p. 896).
107) Fourquevaux, t. II, p. 45.
108) Charles IX à Fourquevaux, Metz, 14 mars, t. II, p. 206.

الجبال هذه لم تصنع للبلاغات الرسمية · لقد استطال أمد الثورة ، وهى فى كل يوم تدخل أرضا جديدة ويزداد العاملون فيها عددا وتراصا ، وتكلف الدولة الاسبانية غاليا · ولذا رأى فيليب الثانى أن يضع على رأس القيادة العامة أخاه غير الشرعى وهو (دون خوان) وذلك فى شهر أبريل عام 1569م ، الا أن هذا لم يغير من الامر شيئا فى الاشهر الاولى · فقد كان عليه أن يعيد دراسة الاوضاع ، ويرتب الامور · وقد ثبت لدون خوان عدم امكانية الاعتماد على ميليشيا الاندلس وحدها ، ولابد من استدعاء جنود من ايطاليا ومن كاتالونيا · كما اتضح له أن الآمال التى عقدت على انتشار المجاعة بين الثوار واسكاتهم كانت خائبة ·

وجاء الصيف الحار على ثورة المسلمين بعد الشتاء القارص وثلوجه ، وارتفعت مع حرارته مخاوف اسبانيا وفيليب الثانى من تدخل عثمانى · فقد قال (فرانسيس دو آلافا) ــ سفير اسبانيا فى باريس ــ لسكرتير الدولة (زياس) فى رسالة متبادلة : « كل ما أرجوه أن يعاقب الله ثوار البشرات قبل أن يستطيع هذا الكلب ــ كذا ــ (أى السلطان العثمانى الذى علموا باستعداداته العسكرية) ــ أن يعبى قواته » (109) · بل خشيت اسبانيا كذلك أن تمتد الثورة الى خارج مملكة غرناطة وأن « يكشر مسلموا الاراغون المنصرون عن أنيابهم كما فعل الغرناطيون » (110) وفى هذه الحالة لن يكون عدد الثوار الذين يجب مجابهتهم (30٫000) ثائر انما (100٫000) ثائر · (110)

وجاء الخريف والوضع لصالح الثوار المسلمين : فالارض المنخفضة والمدن بيد الاسبان النصارى ، والجبال بكل تلافيفها وشعابها المعقدة ، وحصونها الطبيعية بيد الثوار (112) · وكان المسلمون المقيمون فى السهل ، والذين يبدو مسالمين وهادئين يمدون يد العون سرا لاخوانهم فى الجبال ، ويقدمون لهم ما يحتاجون من غذاء وسلاح ، بل يبدو أن المدينة ذاتها كانت تقوم بهذا العمل ، بدليل اصدار الملك أمرا بتخليتها من

109) A. Çayas, 2 août 1569, A.N.K. 1511, 424. N° 35 (Braudel, p. 897).
110) Fourquevaux, M. 6 août 1569, II, p. 101-102.
111) Fourquevaux, 19 août 1569, t. II, p. 109.
112) Ibiol. 17 septembre 1569, p. 117-118.

سكانها الموريسكيين (113) • وعلى الرغم من ان المسلمين كانوا قد افتقدوا مليكهم (محمد بن أمية) نتيجة حادث اغتيال دبره أحد قادته لاهواء شخصية ، واسهمت فيه فرقة الاتراك المرتزقة التى كانت تعمل مع الثوار (114) ، فانهم تداركوا الامر بسرعة ، وأحلوا محله قريبه (دييغولوبيث) الذى تلقب بمولاى (عبد الله محمد ابن عبو) وكان شجاعا ، وخبيرا بشؤون القتال ، وفطنا • فنظم المجاهدين عسكريا ، واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب • واستطاع بحزمه وكفايته ان ينال اعجاب الثائرين وتقديرهم ، فازدادوا تحلقا حوله • وابتدأ عمله باستيلائه على (أورجيبا) مفتاح غرناطة ، فانتشرت انباء شجاعته وبطولته فى كل مكان حتى مالقة • وأخذ الثوار بهذا الزخم الجديد يشددون غاراتهم على نقاط عديدة من المملكة الغرناطية ، حتى ان الناس فى غرناطة واشبيلية (لم يكونوا يجرؤون على اخراج أنوفهم خارج دورهم) (115) • كما وصلت الانباء الى الاراضى المنخفضة •

أما اسبانيا فقد ازداد وضعها حرجا : اذ تفاقمت حدة التهديد العثمانى ، مع تصاعد عمليات التعبئة البرية والبحرية التى كانت تقوم بها الدولة العثمانية آنذاك ومجابهة هذا التهديد يتطلب من فيليب الثانى ان يكون قد انتهى من ثورة غرناطة • الا ان العثمانيين لا يهددون الارض الاسبانية فقط ، وانما ايطاليا كذلك • فمنذ ان علم نائب الملك الاسبانى فى نابولى بخبر الاستعدادات العسكرية العثمانية ، فانه طالب الملك بدعم الجيش الاسبانى فى ايطاليا (116) • هذا علما ان ايطاليا كانت قد أخليت من الجند لصالح الاراضى المنخفضة وثورة غرناطة نفسها ، فكان لا بد من اعادة الجند اليها •

---

113) Braudel, op. cit. p. 899. Lapeyre, op. cit. p. 122.

ويذكر (بروديل) ان طرد المسلمين من المدينة كان فى ديسمبر ، بينما يشير (لابير) الى ان الملك أمر فى (23 يونيو 1569) بطرد موريسك المدينة الذين تتراوح أعمارهم بين 10 — 60 عاما • ويضيف ان عدد المطرودين لم يتجاوز (35000) وهو رقم ضعيف • وقد يكون الباقى قد التحق بالثوار •

114) انظر عنان — ص 352 •

115) Ferral à Charles IX, Bruxelles, 29 décembre 1569. B.N. Paris FR 16123 (cité par Braudel, p. 899).

116) Au Roi, Rome, 14 octobre 1569, Serrano III, p. 163.

كما أنه كان من الضرورى الحصول على المال ، وكانت حرب الفلاندر تمتص الكثير منه · وفى أكتوبر 1569 أعلم الملك سفير البابا بأنه اذا استمرت الثورة الموريسكية أثنـاء الشتاء أيضا ، واجتاحت بقية أقاليم الموريسكيين ، واذا ما تدخل الاتراك العثمانيون ، فان اسبانيا تكون مهددة مرة أخرى بالسقوط فى يد المسلمين · وقد كان سفير البابا يظن ان الملك يريد من وراء هذا الاعلام الحصول على مساعدة البابا ، كاعلان الحـــرب الصليبية وتوفير بعض المال · ومع هذا الظن ، فان مراسلة السفير مع سيده لم تكـــن لتخلو من قلق عظيم (117) · فقد كان معروفا تماما فى مدريد وروما مـــدى روابـط المسلمين المنصرين مع العالم الاسلامى · وازداد تأكدهم من ذلك خلال الخريف ، اذ علموا ان سفراء هؤلاء المسلمين الى القسطنطينية قد استقبلوا فى الجزائر اثناء عودتهم منهـا استقبالا حافلا ، ووعدوا بالآف البنادق (118) · حتى ان علج على قدر عدد الثـــوار بـ(600٫000 ـ 800٫000) ثائر (119) · وبالاضافة الى ذلك فان الاشاعات تتالت بان الانكليز سيساعدون الثوار (120) · واعلم الملك ان ثلاثة من اليهود الذين وفدوا من القسطنطينية الى البلاط الفرنسى لحل قضية الـــدين الفرنسى لليهودى الشهـــير (ميكاس) ، ممول السلطان العثمانى سليم الثانى ، قد صرحوا بأن الاسطول العثمانى قادم فى عام 1570 لمساعدة الثوار (121) · وان رسلا من الموريسك قد تقدمت بطلبات للنجدة هذه الى الاتراك ، كما تقدم بها كذلك ملوك مراكش وفاس وأمراء ثلاثة أو أربعة آخرون من شمال افريقيا (122) · وجاءت هذه الانباء منسجمة مع أنبـاء استعدادات عسكرية يقوم بها الشريف فى المغرب الاقصى للتخلص من المراكز الاسبانية على سواحله· فكل هذه الاخبار كانت تنذر بغزو اسلامى قريب لاسبانية · (123)

117) Madrid, 26 octobre 1569, Serrano, p. 180.
118) Fourquevaux, 31 octobre 1569, II, p. 128-129.
119) Relacion de Loque Yo Fco Gasparo Corso, Sim, E° 333 (1569) (cité par Braudel, p. 587).
120) Pereyra, Imperio espanol, p. 168 (d'après Braudel, p. 898).
121) F. de Alava au Roi, 9 décembre 1569 A.N.K. 1513, B 25, N° 138 (Braudel, p. 899).
122) Ibiol.
123) Avis d'Espagne, 19 décembre 1569, Fourquevaux. II, p. 165.

ففى شهر ديسمبر 1569 اذن ، أى بعد سنة من بدء الثورة ، كان كل واحـــد فى اسبانيا يعرف ان الامور تسير سيرا سيئا بالنسبة اليها · ولذا قرر الملك فيليب الثانى ان يعمل بسرعة ، وانتقل الى (قرطبة) ليكون أكثر قربا من الاحداث والثـورة ، وفى الوقت ذاته ليسهل مهمة البريد ومراسلاته مع قادته ، وليدفع وجوده القريب العاملين فى اخماد نيران الثورة ، على مضاعفة نشاطهم · ووضع تحت تصرف أخيه (دون خوان) جميع الوسائل التى يمكن ان تساعده على النصر · ومع ان اسبانيا تلقت سقوط تونس بيد (علج على) بكلر باى الجزائر ، بوجوم وخوف ، اذ كان قد اغتنم فرصة انشغالهـا بالثورة ليضرب ضربته الصائبة ـ فانها تمالكت ذاتها ، وتابعت تنظيم أمورها الداخلية بهدوء نسبى · واستطاع (دون خوان) ـ وهو لا يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، ان يحول الامور لصالح اسبانيا شيئا فشيئا ·

وكان أول اشتباك كبير له مع الثوار المسلمين فى مدينة (غليرا GALERA) حصن المسلمين الحصين · فقد كانت تقف منتصبة فى المرتفع كعش العقاب ، وكانت تصـب حممها على كل من يقترب منها من الجند · الا ان دون خوان ضرب عليها الحصار ، وكان يدافع عنها زهاء (3000) مسلم ومعهم فرقة تركية (124) · وقد ناضلت الحاميـــة الاسلامية نضالا يفوق طاقة البشر (125) بنسائها ورجالها · وكان على المهاجم العـدو بالمقابل ـ كما قال بروديل ـ ان يفتق هو الآخر طاقات تفوق طاقة البشر ليحتل المكان · وقد نجح أخيرا بعد مذبحة بشعة ومروعة ، فى ففريه عام 1570 · وبسقوط هـــذه المدينة ، فتح طريق الجبل أمام القوات الاسبانية ، ودخلت فيه الفرق المنتصرة · الا أنها ما لبثت أن وجدت نفسها تحت سيل منهمر من المسلمين ، تدفق شلالا هائجا ومزبدا ، من كل ركن من أركان مرتفعات (سيرا دون سيرون) ، وكان على رأسهم المجاهـــد (الحبقى) · واذا بقاهرى الامس يتراجعون مذعورين وتتمزق صفوفهـم ويتبعثـرون شذرا مذرا · (126)

124) عنان ـ 354 ·

125) Braudel, op. cit. p. 902.

126) Sauli à la Sie de Génes, Cordoue, 26 février 1570. A.D.S. Génes, L.M. Spana 4 2413 (cité par Braudel, p. 902).

وتحولت الحرب بعد هاتين المعركتين الى « حرب كمائن » • واتعب هذا النمط الجند الاسبان ، ففقدوا نظامهم ، وتشتتوا ، وساءت أخلاقهم ، وهرب بعضهم ، وأصيبوا بالخور واليأس ، والتفتوا الى النهب والسلب (127) ، واتخذت الحرب طابعا فرديا أو بتعبير آخر حرب مطاردة انسان لانسان ، وازداد عدد الاسرى من الطرفين ، وعملت اسبانيا على ترحيل المسلمين منهم الى ايطاليا لتبيعهم فيها • وتطاولت الثورة ، فالجبال لا تزال تحتوى فى أواخر مارس 1570 (25٫000) من الثوار منهم (4000) تركى أو مغربى (128) • ـ بتقدير الاسبان ـ ولديهم مؤن غذائية كافية ، والقمح يرسل اليهم من الجزائر (129) ، ويحتفظون بكميات وافية من العنب والتين المجفف • ووعد بيلرباى الجزائر بارسال المزيد من السفن الشراعية التموينية (130) • وكانت انباء التدخل التركى المحتمل والقريب تدعمهم وتقوى معنوياتهم (131) وتضاعف من شدة مراسهم وعنادهم •

وفى الحقيقة أن ايمان الثوار النضالى المتوهج من ناحية ، والمرتفعات التى ضمتهم حناياها كانا العاملين الاساسيين فى الابقاء على هذه الثورة ملتهبة، أمام التفوق العسكرى الذى كانت ترميهم به القيادة الاسبانية • وكانت الفرقتان الاسبانيتان اللتان توزعتا العمل وهما فرقة دون خوان وفرقة (دويسا VSSƎS)يتقدمان ببطء كبير • ان تتبع تفصيل العمليات العسكرية كما كان يفعل المبعوثون الدبلوماسيون فى مدريد وقرطبة عمل غير مجد ، لان أخبار النصر والهزيمة للطرفين كانت تختلط وتتتالى بشكل غريب ، حتى قال (نوبيلى) ـ ممثل طوسكانا لاميره ـ بما معناه : ان حرب المسلمين اشبه بنظام الدوش المتناوب الحار والبارد • (132)

127) Codoin, XXVIII, p. 49, 79, 83, 89

أنظر مراسلات (دون خوان) مع الملك فيليب الثانى

128) Braudel, op. cit. p. 903.

129) Avis d'Alger, 1er et 6 avril 1570, Sim. E° 487.

130) Dietrichstein à Maximilien II, Séville, 17 mai 1570, Herre ; (Weltgeschicht am Mittelmer, Leipzig 1930) p. 113, Note I (cité par Braudel, p. 903).

131) Nobili au Prince, Cordoue, 27 mars 1570. A.D.S. Florence, Mediceo 4899 f° S 59.

132) Ibiol. 16 mai 1570... f° 94 vo.

وفى أيار عام 1570 بالذات · والثورة لا تزال قوية وعنيدة فى المرتفعات ، والانباء بدأت تترى بتهديد الدولة العثمانية للبندقية فى قبرص ، اذا بنارها تندلع فى مناطق جديدة · فقد اندفع نحو (10ر000) من المسلمين المنصرين قرب اشبيلية ثائرين ، وكانوا من موالى دوق (ميدينا سيدوفيا) ودوق (اركوس) · اذ استغل الاسبان المسيحيون قرب مسرح الحرب منهم ، فانطلقوا نحوهم يريدون القبض عليهم وبيعهم رهائن ، والسطو على ممتلكاتهم ونسائهم · الا ان الملك كان حكيما هذه المرة اذ فوض الامر الى اسيادهم لتهدئتهم ، واستطاع هؤلاء أن يعيدوهم الى مساكنهم · (133)

وحادث مماثل ، كان قد جرى فى شهر مارس فى احدى قرى بلنسية اذ ثارت هى الاخرى ، الا أن الحركة أخمدت · وبقيت الثورة الكبرى فى البشرات « تحرق اسبانيا حرقا بطيئا » وتستنفذ قواها · (134)

وهنا رأى دون خوان أن يلجأ الى الدبلوماسية والمفاوضة كما فعل مونديخار فى السابق · وبدأت المفاوضات بينه وبين (الحبقى) قائد قوات الثوار · ويبدو أن الثورة قد انتظرت النجدة العثمانية طويلا ولما تصل · واتفق الطرفان ، وصدر أمـــر ملكى بالوعد بعفو تام عن جميع المسلمين الثائرين شريطة ان يقدموا أسلحتهم وخضوعهم فى ظرف عشرين يوما · وصرح لهم بارتداء ملابسهم الوطنية ، واتفق كذلك على السماح للمتطوعة من المغاربة والاتراك بالعودة دون ازعاج الى بلادهـم (135) · لقـد كانت اسبانيا فى صلحها هذا راغبة فى التخلص من الثورة الخطرة بأى ثمن ·

وبالفعل فان ثلاثين ألفا من الثوار وضعـــوا أسلحتهم فى (15 يونيـو 1570) ، وهيئت بعض السفن لنقل المغاربة الى مواطنهم (136) · ولكن هل الثورة انتهت ؟ بعد يومين فقط من تسليم بعض الثوار أسلحتهم أخذ المحققون يشتكون : فغرناطة عجت بالمسلمين التائبين ، الذين كانوا يتجولون بأسلحتهم وسط الجمهور ، ويقصون عـــلى

133) Ibiol. f° 95 vo.

134) Fourquevaux au Roi, Séville, 22 mai 1570, II, p. 222.

135) Nobili au Prince, Cordoue, 25 mai 1570. A.D.S. Florence 4899, f° 166 vo (Braudel p. 904. Note 2).

أنظر كذلك عنان ــ ص 356 ·

136) Avis de Grenade, 16 juin 1570, Fourquevaux, II, p. 227.

الملأ ، وبحرية اقاصيص بطولاتهم ، ويتفاخرون بعدد القتلى من النصارى الذين جندوا لهم ، وبما فعلوه لاهانة الدين المسيحى ــ هـــذا ما ورد فى كتابات المحققين ــ (137) ويضيف هؤلاء قائلين بأن عددهم كان كبيرا ، ولم يأت واحد منهـم ليعترف (138) ٠ وأخذ الاسبان يتساءلون أليس استسلام المسلمين خدعة ، أو مجرد خطة ستراتيجية لكسب الوقت ؟ ان الزوارق التموينية الصغيرة لا تزال تأتى الى سواحل اسبانيا سرا ومحملة بالاسلحة وأحيانا بالرز والقمح والطحين ، كتلك التى قبضت عليها السفـــن الاسبانية ؟؟ (139) وكل هذا كان يجرى ورحيل المغاربة عن البلاد يتأخـر (140) ، والجنود الاسبان الذين لم تدفع لهم أجورهم يتفرقون ويتشتتون ، ويضعفون هيبـــة القوة الاسبانية العسكرية فى نفوس المسلمين ٠ ومولاى عبد الله فى الجبال يعلن أنه يترك للمسلمين الثوار حرية التصرف ، « الا أنه يأبى الخضوع ما بقى فيه عرق ينبض ، وانه يؤثر الموت مسلما مخلصا لدينه ووطنه على أن يحصل عـــلى ملـك اسبانيـــا بأسرها » ٠ (141) وشرع يشن غزواته المتفرقة فى كل مكان ٠ وعادت الثورة مضطرمة حول (رنده) ، وفى البشرات ٠

وسير دون خوان ثلاث فرق من الجند، الى وادى آش، ورنده ٠ والبشرات ٠ واجتاحت فى طريقها كل شىء الارض ، والقرى ، والديار والبشر ٠ وأحرقت المحاصيل وأتلفت الكروم والاشجار المثمرة ، (142) وعض الجوع بنابه القاسيـة الثـوار فاستسلـــم بعضهم (143) وفر آخرون الى المغرب (144) الا أن الثورة ظلت عنيدة ، وكالنار المحرقة

137) Les inquisiteurs de Grenade au Conseil suprême de l'inquisition, 17 juin 1570. A.H.N. 1° 2604.

138) Ibiol. 9 juillet 1570 (Braudel, p. 904. Note 67).

139) Fourquevaux M. 29 juin 1570, II, p. 241, ibiol. 11 juillet.

140) Don J. d'Autriche à Philippe II. 2 juillet 1570, Codoin XXVIII, p. 110-111.

141) عنان ــ ص 356 ٠ ويشير بروديل Braudel, op. cit. p. 905 الى انه اعلن عدم استعداده للخضوع الا بشرط التصريح له ولجماعته من الثوار بالبقاء فى البشرات ، وهذا ما لم توافق عليه الحكومة الاسبانية ٠

142) عنان ــ ص 356 ــ 357 و Fourquevaux, M. 20 septembre 1570, II, p. 268.

143) Ibiol. p. 331.

144) عنان ــ المصدر السابق ــ ص 357 ٠

التى لا يتوصل أبدا الى اطفائها · ولم يعد الملك الصغير يجابه فى معارك حاسمة ، بل أخذ يتنقل من صخرة الى صخرة ، ويغزو · وعلى الرغم من جميع الحصون التى أقامها الاسبان فى الجبال ، والحاميات التى غصت بها ، فان الثوار المناضلين كانوا ينسلون كالارواح من خلال جميع الحواجز ونقاط المراقبة ، وينقضون على الاسبان النصارى (145)

وكان الخريف قد قدم ثانية والدولة العثمانية بدأت هجومها على قبرص ، وشرعت الكنيسة الكاثوليكية بزعامة البابا تسعى لحلف مقدس مع اسبانيا والبندقية ضد الخطر الاسلامى التركى · وشعرت الحكومة الاسبانية بضرورة وضع حد للخطر المسلم الذى يأتكل داخلها ، فقررت أخيرا ان تأخذ برأى دون خوان بالاسلام فى « مملكة غرناطة » الا بطرد المسلمين منها ، وتشتيتهم فى بقاع مختلفة من اسبانيا · وكانت قد أجرت عملية الاستئصال هذه فى العام الذى سلف بالنسبة لمدينة « غرناطة » · أو لم يكن القرار يا ترى مدفوعا بالرغبة فى أمتلاك العقار والارض الغنية أكثر مما هو مدفوع بالرغبة فى التخلص من التكتل ، وامكانات العودة الى الثورة فى تلك المنطقة المنيعة ، والابعاد عن الشواطىء الجنوبية المعروضة لاحتمالات الهجوم التركى والمغربى ؟ ؟ ؟ · وفى 28 أكتوبر عام 1570 ، وبعد مرور عامين تقريبا على الثورة ، صدر القرار بنفى المسلمين من مملكة غرناطة الى داخل البلاد ومصادرة أملاكهم العقارية ، مع السماح لهم بحمل الاموال المنقولة فحسب (146) · وعين دون خوان أول نوفمبر موعدا للتجمع فالتوزيع (147) · ونفذ القرار بشدة وصرامة بل بقسوة ووحشية · وكتب سفراء الدول الى حكوماتهم ان « حرب غرناطة قد انتهت » · وبالفعل فقد أعلن دون خوان استكانة مالقة ، وسيرا رنده (148) ·

وجرت عملية الترحيل · ويقدر (توماس غونزاليز) عدد المهجرين بمائة وخمسين ألفا (149) ، وان كان غيره ينقصه الى خمسين ألفا فقط (150) ، وهكذا كانت مأساة

145) Fourquevaux, II, p. 277.

146) عنان ـ المصدر نفسه والصفحة السابقة ذاتها ·

147) Lapeyre, op. cit. p. 122.

148) A Philippe II, 9 novembre 1570, Codoin XXVIII, p. 140 (Braudel, p. 906. Note 2).

149) T. Gonzalez, p. 88-90, 369. D'après Lapeyre, op. cit. p. 122.

150) Braudel, op. cit. p. 906.

(النفى الاصغر) لمسلمى غرناطة قبل مأساة النفى الاكبر لجميع مسلمى الاندلس بين عامى (1609 ـ 1611) · وأخرج المسلمون من أرضهم الخصيبة التى جبلت كل ذريرة من ترابها ، ولثمانية قرون ونصف على الاقل بعرقهم ، وجهودهم ، وابتكارات فكرهم ، وحياتهم كلها ، بل وبرفاتهم · أخليت الارض ليتسلمها من ثبت فى ذلك الوقت أنهم غير قادرين على استثمارها (151) ·

لقد كانت عملية التهجير القسرى الى قشتالة وجليقية(152)، بعد عملية «التنصيرالقسرى» السابقة ، لا تدل فى الواقع على نتاج صراع حضارتين ، وانما نتاج صراع التخلف والهمجية مع الحضارة العربية الاسلامية الرفيعة · فهل كما قيل كانت أوربا ، واسبانيا منها تعيش آنذاك ثورة فكرية انسانية ردت الى الانسان قيمته ؟ ؟ لقد كانت عملية التهجير بالاكراه وانتزاع الجذور من الارض مأساة مفزعة، حتى أن دون خوان نفسه الذى أشار بها ليمنع المناطق السهلية من مديد العون الى الجبل الثائر ، كتب الى صديق له يقول « انه أكبر حزن فى العالم ان تشاهد عملية ترحيل أناس عن أرضهم ··· لقد كانت الامطار والثلوج تتساقط بغزارة ، والرياح تعصف فى كل مكان ··· وهؤلاء التعساء يجرون أذيالهم ، وقد تعلق بعضهم ببعض ، وهم يئنون ويتاوهون لا يسع الانسان الانكار ان مشهد تهجير مملكة يثير فى النفوس أعظم شفقة يمكن تخيلها ·· » (153) ، وقد مات كثير من المهجرين وهم فى طريقهم الى مناطقهم الجديدة ويقدر (لابير) نسبتهم الى المجموع بـ 20/7 ٪ (154) ، وذلك نتيجة الجوع والبرد ، والمرض ، وفتك مواطنيهم النصارى بهم ·

ومع كل عملية التهجير القسرى هذه ، فان الستار لم يسدل على ثورة المدينة الباسلة · فالملك عبد الله بقى مع (2500) من اتباعه فى أعماق جبال البشرات ، يقومون بغزوات متفرقة حتى مارس 1571 · وكان حصاد موسم 1570 سيئا ، ونقص المواد الغذائية فى جنوب اسبانيا كبيرا ، وتفشت المجاعة بين الثوار ، واضطر بعضهم للاستسلام · الا أن

---

151) Lapeyre, op. cit. p. 122.

أنظر توزيعهم فى عنان ـ ص 358 وفى

152) Lapeyre, Géographie de l'Espagne Morisque, p. 122.
153) Don Juan à Ruy Gomez, 5 novembre 1570. Cité par Braudel p. 906.
154) Lapeyre, op. cit. p. 125.

الملك بقى صامدا فى موقفه ، ولم يجد الاسبان وسيلة للقضاء عليه سوى التآمر مـــع بعض جنده الناقمين ، لاغتياله • ورميت جثته من فوق الصخور ليراها الجميع ، ثم حملت الى غرناطة حيث عرضت بموكب رسمى ، وبملابسها الكاملة على الملأ وكأنها انسان حى • وسار من ورائها أفواج من المسلمين الذين سلموا أنفسهم بعد مصرع زعيمهم • وبعـد انتهاء الطواف بها فى أنحاء المدينة ، حملت الى النطع حيث نفذ فيها حــكم الاعدام ، وجزت الرأس ، ووضعت فى قفص من الحديد رفع فوق سارية فى ضاحية المدينة تجاه البشرات (155) وبقى هناك لثلاثين عاما (156) •

وكان دون خوان قد غادر غرناطة فى 30 من نوفمبر ليتسلم حربا صليبية كبرى ضد مسلمى الشرق العثمانيين ، بعد أن نجح فى قيادة صليبية صغيرة نسبيا ضــد مسلمى اسبانيا ، وانما لا على حساب شرف اسبانيا المسيحية وضياع مستقبلها « كما قال المؤرخ ستانلى لين بول » (157) •

مـوقف الدولـة العثمانية من الثـــورة

ويتساءل المرء ، وأحداث الثورة تترى ، مشتعلة لاهبة ، ومأساوية دامية لعامـين كاملين ، ما كان موقف الدولة العثمانية منها فى الطرف الثانى من البحر المتوسط ؟ ؟ وهى العملاق الاسلامى فى القرن السادس عشر / العاشر الهجرى ، والامل الاكبر فى نفوس مسلمى اسبانيا ، والغول الكبـــير الذى لا يخيف اسبانيا وحدها وانما أوربـا المسيحية كلها ؟ ؟

لقد أشير أثناء بحث اسباب الثـورة ومجرى أحداثها ، وفى عـــدة مناسبات ، الى السفارات التى أرسلها الثوار الى القسطنطينية يطلبون فيها النجدة ، كما أشـــير الى فرقة من الاتراك (158) ، كانت مع الثـــوار ، وان هذه الفرقة التركية كانت مسئولة

155) Marmol, op. cit. cap, VIII (تصدير عنان ــ ص 359)
156) Stanley Lane Pool, op. cit. p. 278.
157) Ibiol. p. 278.

158) ان المصادر العربية والتركية تعوزنا لتؤكد وجود هذه الفرقة أو عدمه • فالمصادر الاجنبية فى القرن السادس عشر تخلط بين (تركى) و (مسلم) أو بالاحرى لا تميـــز بينهما • ولذا يخشى ان تكون هذه الفرقة من المغاربة ، لا من الاتراك الانكشارية • وان كان فى بعض المواضع من كتاب (عنان) ، يشار الى (الاتراك المرتزقة) والى (المغاربة) كل على حده •

بشكل مباشر عن مقتل الملك الاول (محمد بن أمية) (159) . هذا بالاضافة الى التأكيد على ان الدولة العثمانية كانت تغذى بتفوقها العسكرى ، وحربها مع المسيحية الاوربية ، وبالنجدات التى يمكن ان تقدمها الثورة المستعرة . كما أشير الى ان استعدادات عسكرية كبيرة كانت تجرى فى استامبول ، والثورة قائمة ، وان اسبانيا كانت تخشى ان تكون موجهة ضدها ، ولدعم الثورة على أرضها . وكذلك تبين خلال العرض السابق ان الثورة كانت تمون من الجزائر بالرجال والسلاح والغذاء ، والجـزائر تحت التبعية العثمانية . ومع ان بعض المؤرخين يشيرون الى ان موقف بيكلرباى الجزائر (علج على) من الثورة كان فاترا (160) وأنه أظهر اهتماما بتحصين مدينته أكثر من اهتمامه بمساعدة ثـــوار غرناطة (161) ، وأنه أستغل الثورة ليحقق مطامح شخصية فى توسيع ولايته بفتـــح تونس (162) ، فانه لا ينكر أبدا بأن الجزائر قد قدمت عونا كبيرا لثوار غرناطة ان على المستوى الرسمى أو الشعبى . وقد يكون العون الرسمى غير كاف ، أو ليس كما هـو منتظر . أى ان « علج على » لم يتحمل مخاطرات كبيرة كالقيام بهجوم واسع على السواحل الاسبانية ، أو القيام بعملية انزال كبيرة . ولكن اذا ما أرد القيام بمثل هذه العمليات الضخمة ما الهدف الذى يريد أن يحققه ؟ ؟ هل هو احتلال اسبانيا واعادتها للمسلمين بمساعدة الثوار ؟ أم الضغط على الحكومة الاسبانية لتخفف من غلوائها وتسعى لمصالحة رعاياها ومعاملتهم المعاملة الانسانية اللائقة ؟ فاذا كان الهدف الاول هو المـــلاحق فان « علج على » ، بقواته البرية والبحرية غير قادر عليه وحده . ولا سيما ان عليه اختراق سور السفن الكبير الذى احاطت اسبانيا شواطئها به ، وهذا ما سيكلفه غاليا ، فلا بد له من استشارة القسطنطينية اذن فيه ، لا ليأخذ أمـــرا بذلك فحسب ، وانما لتحمى مؤخرته وتدعمه بالقوى اللازمة ، وتحمى الجزائر ذاتها اذا ما خلفها وراءه ، وتقوم بالمساعى الدبلوماسية الضرورية لتهيئة الجو السياسى العام لمثل هذا العمل الخطير . أما اذا كان الهدف مجرد الضغط على اسبانيا فان التموين المتواصل للثورة ، ورفدها بالمؤن والسلاح

159) انظر التفصيل فى عنان ــ ص 352 .
160) عنان ــ ص 351 .

161) Braudel, op. cit. p. 900.
162) Ibiol. p. 900.

واستطالة تلك الثورة قد يكون بحسب ظنه كافيا لمثل هذا الضغط ، ولا سيما أن الثورة قد أثمرت مرحلتين رئيسيتين من المفاوضات · ولكن كان لابد من دعم أقوى للمرحلة الثانية من المفاوضات وما بعدها · وفي الحقيقة لا يمكن في نطاق معطياتنا الوثائقية الحالية الحكم على موقف (علج على) ، ولا سيما انه ليس حرا تماما في تحركاته لانه مرتبط بالقسطنطينية · فتفسير (بروديل) تقصير (علج على) في دعم الثورة بأنه كان نتيجة تحرك العملاء الاسبان في الجزائر (163) أو رغبة منه في فك الحصار التجارى عن الجزائر ، اذ كانت اسبانيا قد منعت التجارة معها ، فامر مستبعد ، لان الجزائر قد تغنم من غزواتها على الشاطىء الاسبانى أكثر مما تربحه من التجارة معها ، ويمكن تعليل عدم غزو علج على للسواحل الاسبانية بأنه لم يكن قادرا على تحقيق أهداف بعيدة المرمى والاسطول الاسبانى مرابط الى شرقه في مسينا ، والى غربه وشماله الغربى على طول الشواطىء الاسبانية ، أو بتعبير آخر والاسطول الاسبانى مستعد لكل الطوارىء · كما ان مغامرة كبيرة مثل هذه لا يمكنه تحقيقها دون توجيه من استامبول · بل انه عندما احتل تونس ـ وقد يكون احتلاله لها ضمن خطة عامة مع الدولة العثمانية ـ فانه لم يستخدم أسطوله في عملية الاحتلال هذه ·

ولكن هل اقتصر موقف الدولة العثمانية على هذا التأييد الجزائرى المحدود ؟ من الصعب جدا رسم خط واضح وجلى لسياسة الدولة العثمانية من ثورة مسلمى غرناطة ، بل ومن مجموع قضية المسلمين المنصرين في اسبانيا ، من بدايتها الى نهايتها · فالدراسات حولها قليلة ، ولا بد من نبش الارشيفات للتعرف على جميع المراسلات الدبلوماسية لجميع الدول في المنطقة ، والرجوع الدقيق والممحص للارشيف التركى ، والاطلاع بخاصة على خفايا مفاوضاتها مع الدول الاوربية ، وموقع القضية الاسلامية الاندلسية منها ، اذا كان هناك لها موقع ··· ولا بد لهذا العمل ان يجرى ، للحقيقة التاريخية ولتقويم الاحداث · واننى لارى ان ملتقانا هذا قد فتح الكوة للدخول ·· ومن اللازم متابعة الامر لاستكمال الصورة الحقيقية ·

---

163) هناك وثيقة تتضمن تعليمات معطاة الى عميل اسبانى للقيام بالاتصال مع (علج على) ·

163) J.B. Gonguzza della castelle. Sim. E° 487. Cité (Braudel. p. 900).

ان كل ما يمكننا الجزم به بالنسبة لموقفها من ثورة غرناطة ، وكما هو واضح للجميع ان الدولة العثمانية لم تقدم مساعدة فعلية ما للثورة ، مع أنها استمرت عامين كاملين ٠ فلم تحرك خلال عام 1569 أسطولها فى البحر المتوسط ، ولم يقتـــرب من الشواطىء الاسبانية كما فعل عدة مرات فى عهد سليمان القانونى ٠ بل ان الهدوء كان مخيما على هذا البحر منذ عام 1567 ٠ وقد عزا المؤرخون هذا الجـــمود الى عوامل عديدة منها ان السلطان الجديد (سليم الثانى) ـ وهو أول الملوك الكسالى العثمانيين ـ كما أطلق عليه المؤرخ الالمانى رانكه ـ لم يكن جديرا بابيه سليمان الفاخر ، صاحب الفتوحات الضخمة ٠ فهو مسالم لا يريد الحرب ، ولا يبغى سوى العيش فى قصره بين حريمه وخمرته ، التى كان اليهودى (جوزيف ناسى) يقدم له اللذيذ منها ، ويمنيه ان فى جزيرة قبرص ما هو أشهى منها وأطيب (164) ٠ الا ان الواقع التاريخى يظهر ان الصدر الاعظم (محمد الصقلى) وهو من أبرز الشخصيات فى تاريخ الدولة العثمانية ومن أفاضلها ، كان هو المسيطر على الحكم فى عهـد السلطان سلـــيم الثانى حتى سمى « بالبادشاه المعنوى » (165) ، فضعف شخصية السلطان يبقى ذا أثر ضئيل فى مجريات الامور طالما ان المحرك للدولة عرف بصلاحه ، وحنكته ، ولا سيما أنه تدرب على يد السلطان السابق سليمان القانونى٠ ولذا لابد من البحث عن عوامل أخرى شلت تحرك الدولة العثمانية فى البحر المتوسط ٠ وفى الواقع لقد كانت استامبول منشغلة فى هذا الوقت بقضايا كبيرة وملحة : أولهـــا حربها ضد روسيا لاستخلاص مدينتى قازان واسترخان منها ٠ وكانت ترمى من وراء ذلك الى ربط البحر الاسود ببحر قزوين عبر قناة تصل الدون بالفولغا ، فتتوصل بذلك الى طرف آسيا الوسطى التجارية ، وتطوق بلاد فارس ، خصمها الاسلامى اللدود (166) ٠ كما أنها كانت منشغلة باخماد ثورة اليمن ، وبمقارعة البرتغاليين فى المحيط الهنـدى وصدهم عن العالم الاسلامى العربى والهندى على السواء ، وبالسعى لفتح قناة تصـــل بين البحر المتوسط والبحر الاحمر ٠

164) De La Janquière, Histoire de l'Empire Ottoman, T. I, p. 209, Paris 1914.
165) Encyclopédie de l'Islam. 1re édition, art. Sokolli Muhammad.
166) Cambridge Islamie History. Vol. I, pp. 335-36. Cambridge 1970, Braudel, op. cit. p. 891-892.

الا ان هذا الجمود فى البحر المتوسط الذى لوحظ اثنـاء عامى 1567 ـ 1568 شرع يـذوب فى أواخـر عـام 1569 ، أى بعـد مـرور عـام على ثورة غرناطة ، فقد تناقل سفراء الدول فى استامبول ان دار الصناعة البحرية فيها قد استيقظت من خمولها فجأة ، وان الدولة العثمانية تقـوم باستعدادات عسكرية واسعة ، ولكنهم لا يعرفون بالضبط هدفها ، فقد امرت ببناء (20) ماعونا (سفينة كبيرة) فى نيكوميديا ، وبصب (25) مدفعا ، واستدعاء (10،000) مجدف من الاناضول ، واعداد (250) سفينة حربية وأشيع أن هدف الحملة سيكون مالطة (167) أو حلق الوادى (168) (الغوليت) أو قبرص (169) • كما أشارت بعض الرسائل الى ان وجهة الاسطول التركى ستكون المياه الاسبانية نفسها (170) •

وفى الوقت ذاته ، تحركت على الصعيد الدبلوماسى • فعادت الى تدعيم تحالفها مع فرنسا ، وكان قد فتر نتيجة التقارب الفرنسى ــ الاسبانى عام 1567 ـ 1568 • وطلبت بشكل صريح وعلنى ميناء (طولون) ليكون مشتى لاسطولها (171) • وعندما عـاد مبعوث فرنسا (كلود دو بورغ) من العاصمة العثمانية حاملا تجديدا للامتيازات ، فانه كان يرافقه سفير تركى فوق العادة • وقد علم أنه جاء ليطلب من ملك فرنسا تهيئه مؤن على سواحل البروفنس واللانغدوق للاسطول التركى (172) • بل كانت هناك عروض لتوثيق عرى التحالف كأن يكون تاج بولونيا لدوق انجو وان يزوج امير ترانسلفانيا من مرغريت دوفالوا (173) •

وفى هذه الاثناء كان علج على يحتل تونس برا ، ويهدد المركز الاسبانى فى حـلق الوادى من الداخل •

فهل هذه الاستعدادات الحربية والسياسية كانت خطوات تمهيدية لهجوم مركز على اسبانيا ، لا لدعم ثورة المسلمين فيها فحسب ، وانما لتحقيق مطامح عديدة أخرى ؟ ان

167) Avis de Corfou arrivé le 10 janvier 1570. Sim. E° 1058. f° 13 (Braudel, p. 911. Note 3).
168) L'Evêque de Mans à Charles IX, Rome, février 1570, B.N. Paris FR/7989, f° 5, 145 vo. Braudel, p. 911. Note 3.
169) Thomas de Carnoça au Roi. Venise, 25 février 1570, Sim. E° 1327 (Ibiol.).
170) Castagna à Llessandrino, Cordoue, 11-12 mars 1570 (Ibiol.).
171) Granchamp de Grantrye à Catherine de Médicis, C. 16 octobre 1569, Charrière III, p. 94.
172) Fourquevaux. M. 10 mars 1570, II, p. 202.
173) Braudel, op. cit. p. 910.

المؤرخ (بول هير) (174) عند كلامه فى كتابه عن حرب قبرص ، وبعض المؤرخين الآخرين يعتقدون أن الدولة العثمانية كانت جادة فى مساعدة ثوار غرناطة ، وان الاستعدادات كانت من أجلهم • فقد عرف ان (محمد الصقلى) الصدر الاعظم كان يعمل حثيثا لهـذا الهدف • فقد اشتهر بايمانه الاسلامى العميق ، وبتأييده لسياسة التضامن الاسلامى فى كل البقاع • ولذا فانه سعى للابقاء على السلام مع فارس ، واستقبل سفارات أمراء الهند المسلمين بالترحاب عندما أتوا يطلبون العون ضد البرتغاليين المستعمرين ، وكذلك فعل مع سفـــارة ثوار غرناطة • لقد كان يعمل ما وسعه ذلك ، لمصلحة الدين وهيبة الاسلام • وقد أظهر اهتماما كبيرا بنشاط البرتغاليين قرب سواحل العالم الاسلامى • وقرر العمل على تحرير سفن الحجيج الآتية من الهند الى مكة من شرورهم ، وكذلك السفن المحملة بالتوابل والخزف الصينى المنطلقة من المحيط الهندى الى جدة (175) • ولـــذا فلا يستغرب البتة ان يفكر جديا بمديد العون الى مسلمى غرناطة على الرغم من بعد الشقة• وهذا العون قد يكون فتحا اسلاميا جديدا لاسبانيا ، بما حمله هذا الفتح من جهاد ومغنم اقتصادى واستراتيجى ومعنوى• ولم لا ؟ • وخط الهجوم العثمانى العام الذى أشرنا اليه سالفا هو بهذا الاتجاه ؟ أو ليس خط الدفاع الذى حاولت اسبانيا ان تنشئه على سواحل المغرب المتوسطية منذ سقوط غرناطة بيدها ، هو دليل على ترقبها مثل هـــذه الخطوة العثمانية ؟ بل انها ازدادت اقتناعا بهذا ، أثناء ثورة غرناطة واستعدادات الدولـــة العثمانية • حتى أنها سعت عبر دائرة من العملاء ، من بينهم (خوان باريلى) أحد فرسان مالطة ، لتفجير دار الصناعة البحرية فى القسطنطينية ، فى أواخر عام 1569 (176) ، أى فى الفترة التى عاودت نشاطها فيها استعدادا لحرب كبيرة قادمة ، أشير انها قد تكون السواحل الاسبانية • ويذكر (هير) ان العديد من الوثائق تثبت استعداد الدولـــة العثمانية لخوض هذه المغامرة الصعبة • ويقصد بها رسائل بيل البندقية فى القسطنطينية الى حكومته ، التى يذكر فيها محادثاته مع الصدر الاعظم محمد الصقلى بهذا الشـــأن ، وتصريحات هذا الاخير له بمشروعه الضخم ـ وقد كان الاثنان صديقين ـ • واذا صـــح

174) Paul Herre, Weltgeschichte am Mittelmeer. Leipzig, 1930 (cité par Braudel, p. 908).
175) Encyclopédie de l'Islam. Art. Sokolli Muhammad.
176) Braudel, op. cit. 985-986.

هذا ، ما الذى جعل الدولة العثمانيه اذن تغير رأيها ، وتحول استعداداتها الكبيرة ، لحرب قريبة منها وهى حرب قبرص ؟؟

يفسر (هير) ، و (دولا جونكيير) قبله ، ومؤرخون آخرون ، ان تنازل (محمد الصقلى) عن مشروعه ، كان بسبب الصراع الذى كان قائما بينه من ناحية ، وبين السلطان سليم الثانى وبطانته من ناحية أخرى من أمثال « مصطفى لالا باشا » مربيه ومعلمه ، و « بيالة باشا » أمير الاسطول الذى كان قد فقد حظوته عند السلطان وأخيرا اليهودى (جوزيف ناسى) • وكل هؤلاء كانوا يدعمون بكل قواهم ونفوذهم عند السلطان ، حرب قبرص ضد البندقية ، لاستخلاص هذه الجزيرة منها ، بدلا من مساعدة ثوار غرناطة ومهاجمة اسبانيا • فالنصر بالنسبة اليهم هو مؤكد هنا لقرب قبرص،وضعف تحصيناتها، وهم يرغبون فى نصر سريع ، يعيد الى بيالة باشا حظوة السلطان ويدعم مركزه أميرا للاسطول ، ويزيد من نفوذ مصطفى باشا الذى أعطى فعلا قيادة الحملة (177) ، ويحقق لليهودى الماكر ما يبغيه • ان شخصية هذا اليهودى شخصية تثير الاهتمام : فهو من أصل برتغالى هاجر الى القسطنطينية بعد طرد البرتغال لليهود من أراضيها ، وقد عمل فيها بالتجارة ، وربح أرباحا طائلة ، وتقرب من السلطان ، وكان يلقب باسم (دون ميغيز) • وكان له نفوذ عجيب على السلطان « سليم الثانى » حتى أنه منحه فى عام 1566 لقب (دوق ناكسوس) • وكان مموله الاكبر ، ويمده بالمال على نمط كان يفعله آل فوغر الممولين ، مع آل هابسبورغ فى القرن السادس عشر • وقد عمل جاسوسا ، ويقول عنه (بروديل) « أنه قد ولد جاسوسا » (178) ، فقد كان لـ (ميكاس) هذا أو لـ (ناسى) كما سمى كذلك صلات مع غراند وقية طوسكانا ، وجنوه ، واسبانيا ، وربما البرتغال نفسها • وفى الحقيقة كان يعمل فى كل المجالات ليحقق مصلحته الخاصة وربما كذلك مصلحة بنى قومه اليهود المطرودين من اسبانيا والبرتغال • ان فكرة وطن قومى لليهود كانت فى ذهنه منذ تلك الفترة ، ولذا كان يضغط بكل ثقله المادى ، وحيله النفسية واغراءاته على السلطان (السكير) لينفذ مشروع احتلال جزيرة قبرص ، وانتزع منه وعدا

177) Edward S. Crusy, History of the Ottoman Empire Beirut 1968, p. 217.

178) Braudel, op. cit. p. 909 (l'espionné).

بأن يكون ملكا عليها ، وتكون ملاذا لبنى قومه (179) . وقد عمل على ادانـة التجـار الفرنسيين العاملين فى الشرق بفوائد كبيرة ، وقد تراكمت هذه الديون حتى غدت شبه قضية سياسية وترت العلاقات الفرنسية فترة محدودة مع الدولة العثمانية (180) . ولكن هل كان ميكاس يلح على قبرص لتلك الاهداف المذكورة فحسب ، وهى بحد ذاتها ربح ضخم ؟؟ أم كان يعمل فى الوقت ذاته لصالح اسبانيا ؟ وقد تنـاول ثمـن ذلك ؟ ويقول (هير) ان أقل ما يقال عن شخصية ميكاس انها (شخصية غير نظيفـة) (181) وانها الى جانب الدوافع السابقة لتحركها ، كان هناك حقدها على البندقية التى صادرت قسما من أموال زوجته (182) . وبالفعل فان ناسى بدأ منذ 1569 يضع شعارات المملكة القبرصية فى رنوكه الخاصة . وقد نسب اليه حريق ترسانة البندقية فى (13 سبتمبر 1569) (183) الذى تسبب بخسائر ضخمة . وكان هدفه بالطبع اضعاف قواهـا البحرية لتنهار مقاومتها فى قبرص بسرعة .

وعلى الرغم من أنه من الخطر علميا النفاذ الى صفحة كبيرة من التاريخ العثمانى عبر سيرة الاشخاص ، وما حيك حولهم من القصص ، الا أنه يمكن التأكيد أنه كان لناسى دور خطير فى تحويل العملية العسكرية الى قبرص ، لتأثر السلطان الكبير به ، ولسيطرته على الناحية المالية فى الدولة ، ولدعم لالا مصطفى باشا وبياله باشا له . فصراع السلطة والحظوة والمصالح اليهودية كانت عاملا هاما فى الانحراف نحو قبرص ، والابتعاد عـن مساعدة ثوار غرناطة .

ولكن يجب ألا ننسى كذلك تجاوب فرنسا الضعيف مع طلبات السلطان أو بالاحرى مع طلبات محمد الصقلى . ففرنسا كانت قد مزقتها الحرب الاهلية الدينية الثالثة . وكان الملك شارل التاسع متأثرا جدا بفكرة التنكر للتحالف مع الاتراك اذ راح بعض رجال الدين الكاثوليك يعلنون ان ذاك التحالف كفر والحاد . واذا كان قد بعث بكلود دو بورغ لاعادة

179) Lettre de M. de Gantrie de Granchamp à Charles IX, Constantinople, 9 octobre 1569 Charrière. Les Négociations de la France au Levant, t. III, p. 87-88 et 90.

180) Charrière, op. cit. 67. Note p. 90.

181) Herre, op. cit. p. 13, cité par Braudel, op. cit. p. 909.

182) Charrière, op. cit. p. 87-88.

183) Julien Lopez au Roi. Venise, 15 septembre 1969. Sim. E° 1326, cité par Herre, p. 15 (Braudel, p. 909).

العلاقات نشيطة بين الطرفين ، فلانه أحس بضرورة هذا التحالف مع تكاثر أعدائـــه ، ومع رغبته فى تنشيط تجارة بلده فى الشرق (184) الا أنه مع ذلك كان من العسير عليه أن يقوم بعمل عسكرى واضح لصالح الاتراك ومسلمى غرناطـــة أمـام الرأى العـــام الكاثوليكى • ولذا فانه وافق على القبض على سفيره (كلود دو بورغ) فى البندقيـة ، أثناء عودته من القسطنطينية وعلى مرافقه التركى • وعندما سمح لهما بمغادرة البندقية فلكى يقبض عليهما ثانية فى (الميراندول) (185) • ومع ان فرنسا كانت قــد هدأت أحوالها ودخلت فى سياسة عداء صريحة ضد اسبانيا ، فانها لم تكن مستعدة للوقوف مع الاتراك ، فهى تريد ، كغيرها من الدول الاوروبية أن تكون فائدة التحالف لطـرف واحد هو فرنسا • ولذا فانها لم تظهر أى تجاوب لتعيد ما فعلـه فرانســـوا الاول عام 1543 عندما استضاف الاسطول العثمانى فى طولون • والدولة العثمانية بـدورها لا يمكنها دون تحالف قوى مع فرنسا القريبة من اسبانيا ، أن تغامر بالانتقال مــــن أقصى الشرق الى أقصى الغرب • ولا سيما القواعد الاسبانية على سواحل المغرب تهـدد قواعدها • هذا بالاضافة الى أن تدخلاتها فى المغرب الاقصى قد أخفقت ، ووقف هـــذا المغرب ـ وهو الخطوة القريبة من اسبانيا، والمعبر لها أثناء الفتح العربى الاسلامى الاول ـ موقفا معاديا ومتقاربا مع اسبانيا فى عهد خليفته (مولاى عبد الله بن الغالب بالله) (1557 ـ 1578) (186) •

وقد يكون كذلك من ضمن المثبطات لعزيمة الدولة العثمانية عن خوض غمار الحـرب البعيدة مع اسبانيا فى شتاء عام 1570م ، ان الاجواء فى البحر المتوسط فى ذلك العـام كانت من أسوء ما مر على هذا البحر من أجواء من سنين عدة ومن أقساها (187) • ولو أن هذا العامل ليس عاملا حاسما ، لان التحرك البحرى فى البحر المتوسط القريب والبعيد كان لا يجرى عادة قبل الربيع ، وكانت الثورة لا تزال قائمة •

---

184) اميل خورى ـ عادل اسماعيل : السياسة الدولية فى الشرق العربى • ج 1 بيروت 1959 • ص 16 ـ 17 •

184) Charrière, p. cit. t. II, p. 744-745. Note
185) Fourquevaux, M. 10 mars 1570, II, p. 202. Braudel, op. cit. p. 910.
186) Ch-André Julien, op. cit. p. 209.
187) V-Roi de Naples au Roi, N., 11 mars 1570, Sim. E° 1058, f° 34.

ويضيف (بروديل) الى تلك العوامل بعد المسافة ، حتى أنه ينفى تماما تفكير الدولة العثمانية بغزو اسبانيا ، ومساعدة ثوار غرناطة . ويتعلل بأن الامر كان غير ممكن تقنيا عبر تلك المسافة الطويلة ، ودون مكان قريب أمين يقضى الاسطول فيه شتاءه . بل انه يطعن فى امكانية كون رسائل بيل البندقية عن المشروع دليلا على رغبة محمد الصقلى فى انجاد تلك الثورة .. لانه قد تكون محادثات محمد الصقلى مع ذلك البيل ذرا للرماد فى العيون ، وتحقيقا لسياسة السلطان سليم الثانى والدولة العثمانية نفسها فى احتلال قبرص . ذلك المشروع الذى كان السلاطين قبل سليم الثانى يتوقون اليه لاسباب استراتيجية ودينية واقتصادية . فهو بحديثه مع البيل عن مساعدة ثوار غرناطة يصرف ذهن البندقية عن الخطر الذى يهددها عبر الاستعدادات العسكرية التى تهيأ ، ولا سيما ان محمد الصقلى قد ربى فى بلاط السلطان سليمان الفاخر على ضبط النفس والكتمان والتظاهر . وما اخفاؤه وفاه السلطان سليمان لاكثر من سبعة أسابيع (188) ريثما يصل ابنه ويتسلم العرش والحرب القائمة مع المجر آنذاك ، الا دليلا على ارادته تلك . فكيف يتحدث بهذا الانفتاح مع بيل البندقية ؟ بل كيف يتقدم بذلك الطلب الصريح الى فرنسا حول ميناء طولون ؟ ألم يكن بعمله هذا يحاول أن يبدد كل شك في ذهن البندقية بأن الاستعداد العسكرى موجه ضدها ؟ ويضغط فى الوقت ذاته على اسبانيا بطريق غير مباشر ؟ ثم هل كان قادرا بالفعل على مقاومة السلطان وحاشيته فى اطار مشروع قبرص دون أن يتعرض لنقمة السلطان عليه ؟ قد يكون كثيرا من تساؤلات (بورديل) المطروحة صحيحة ومنطقية ، وقد يكون محمد الصقلى قد اضطر أن يميل مع الكفة الراجحة فى الصراع ، أو قد يكون متبنيا مشروع مهاجمة قبرص منذ البدء ، ولكن لم لا تكون اسبانيا وغرناطة بعد قبرص ؟؟ وبذلك يرضى أهواء حاشية السلطان ، ويحقق للدولة العثمانية مشروعا عزيزا على نفسها منذ وقت طويل ، وفى الوقت ذاته يقدم العون الكبير لثوار غرناطة المسلمين ويصل الى مكاسب عديدة أخرى . ؟ ان قبرص فى الواقع ذات مركز ستراتيجى هام بالنسبة للامبراطورية العثمانية واحتلالها خطوة رئيسية هامة فى أى تحرك كبير تبغيه الدولة فى البحر المتوسط . ومن ثم فهو ضمان أساسى لمؤخرة الدولة اذا ما انتقلت قواتها من أقصى الشرق الى الغرب . ألم تفعل الدولة العربية

188) Creasy, op. cit. p. 196.

الاسلامية ذلك قبل انتقالها الواسع غربا ؟ فالدولة العثمانية ، على الرغم من سلامها مع البندقية لمدة ثلاثين عاما تقريبا ، وتمسح هذه الاخيرة الاقتصادى الدائم بها ، لصيانة مصالحها التجارية فى امبراطوريتها ، كانت تشك باحتمالات عودتها الى الحرب ومهاجمة المراكز التى انتزعتها الدولة العثمانية منها ، وباستنجادها بالقوى المسيحية وتحالفها معها كما حدث عام 1537 · واذا ما فعلت ذلك فانها تشغل القوى العثمانية فى الشرق ، فى وقت تكون فيه معظم هذه القوى بعيدة عن مسرح الاحداث ·

وفى الواقع هاجم العثمانيون قبرص فى يوليو 1570 ، بعد أن حاولت الدولة العثمانية الحصول عليها سلما (189) ، ولم تنجح ، منذ شهر ففريه · وكانت ثورة مسلمى غرناطة لا تزال فى أوجها ، ولا تنفع فيها قوى دون خوان ، ولا مفاوضات صلحه · وفى سبتمبر سقطت (نيقوسيا) ، وتبعتها بقية الجزيرة ، ولم يبق بيد البندقية سوى فماغوستا ·

ويبدو أن المسيحية الاوروبية كانت أكثر ادراكا منا الآن لابعاد المخطط التركى الاسلامى وبخطر احتلال الدولة العثمانية لقبرص ، الذى أختير له هذا الوقت بالذات الذى كان فيه فيليب الثانى منشغلا ، وبعنف بثورة المسلمين الكاسحة فى غرناطة من ناحية ، وثورة البروتستان الخطيرة فى الاراضى المنخفضة · أو بتعبير آخر ، فى وقت كان فيه الانقسام المسيحى الاوروبى والتهديد الاسلامى لاوروبا من الشرق والغرب والجنوب والتعاون البروتستنتى التركى الاسلامى ، تفاعل كلها لتنذر الكنيسة الكاثوليكية بخطر قد يكون ماحقا لوجودها · وجاءت البندقية تستجدى من البابوية عونها ، فهى تريد أن تحول حربها من حرب محلية محدودة الى حرب عامة · وقامت البابوية بدورها بالاتصال بفيليب الثانى ملك اسبانيا · وكان اللقاء مع مبعوث البابا فى قرطبة ، وثورة المسلمين تلعلع أصداؤها بالقرب منها ، والجو مشحون بالمخاطر المرتقبة ، وبحماسة دينية فائضة · وفى هذا الجو المتفجر بالروح الصليبية ، وضعت نواة صليبية جديدة ضد الاتراك العثمانيين المسلمين ، أى نواة التحالف الثلاثى بين البندقية، واسبانيا ، والبابا ، فاذا كانت ثورة غرناطة عاملا فى تحقيق احتلال قبرص ، فان موافقة فيليب الثانى على الانضمام الى الصليبية الجديدة كان تحت تأثير ثورة غرناطة المسلمة وضغط ما أثارته من مخاوف‌ماض قد يعود · أو ليس هدفه من الصليبية الجديدة

189) Granchamp au Roi de Constantinople, le 9 février 1570, Charrière III, pp. 101-104.

القضاء على كل ما يمكن أن تؤدى اليه ثورة المسلمين فى غرناطة من امتدادات وتشعبات ؟ ثم الانطلاق فى خط هجومى يستوعب العالم العربى الاسلامى فى المغرب على الاقل ؟ لقد حاول التجمع الاسبانى البابوى البندقى أن ينجد قبرص بأسطول مشترك بقيادة (دوريا) ، وشروط تكوين الحلف لما توقع بعد · الا أن الجزيرة كانت قد سقطت عند اقترابه من سواحل آسيا الصغرى ، ولكن التجمع لم يتفرق · أو ليس هذا دليلا على ادراك المسيحية الاوروبية آنذاك أن قبرص لن تكون نهاية المطاف فى المخطط العثمانى التركى ؟ ودعم ذاك التجمع بالتوقيع عليه فى 20 أيار 1571 · وكانت (العصبة) المكونة دفاعية ـ هجومية ، وموجهة ضد الاتراك ، والدول التابعة لهم فى المغرب (طرابلس ، وتونس ، والجزائر) (190) وأعطيت قيادة الاسطول المشترك الى (دون خوان) قاهر ثورة مسلمى غرناطة ·

وتواعد الحلفاء الثلاثة على التلاقى فى (أوترانتو) لانقاذ قبرص واسترجاعها · وفى هذه الاثناء كانت الدولة ا لعثمانية تضاعف من قوة أسطولها (191) وتعد قواتها ا لبرية باتجاه البانيا ودالماشيا ، بل ان الاسطول خرج بقيادة قبطانه وتوزع (نيغربون) وهى القاعدة التموينية ا لكبرى وبين قبرص ، وكانت جميع المراكز البحرية على شاطىء المورة تعد المؤن الغذائية · وهذا كله دليل على عمليات عسكرية مرتقبة فى الغرب (192) ومنذ شهر يونيو 1571 ، اتجه معظم الاسطول التركى مدعما بسفن علج على نحو جزيرة كريت ، وهاجم بعض موانئها الا أنه لم يبق فيها بل اتجه نحو الغرب ، واجتاح الجزر الدالماشية وشاطىء بحر الادرياتيك حتى وصل خليج البندقية · وسقطت (كورفو) ما عدا قلعتها · وامتد الاسطول من كورفو الى مودون · وفى الواقع لقد استنفذ الاسطول العثمانى قواه فى عمليات جانبية غير مثمرة · وفى السابع من أكتوبر عام 1571 لاقاه الاسطول الحليف فى مدخل خليج ليبانتو على ساحل المورة · ووجد الاسطولان نفسيهما وجها لوجه (230 سفينة تركية مقابل 208 مسيحية) ، ونجح الاسطول المسيحى فى تطويق الاسطول التركى وضربه بشدة · وكان النصر الاوروبى كاسحا ، اذ لم ينجح من الاسطول العثمانى سوى (30) سفينة فقط بقيادة علج على ·

190) Braudel, p. 931.
191) Corfou, 3 février 1571. Sim. E° 1059, f° 62 (Braudel, p. 935, note 1).
192) Braudel, p. 935.

واذا كانت (ليبانتو) هي نهاية مركب النقص الذى كانت تحسه أوروبا أمام القوة العثمانية العملاقة ، ونهاية للتفوق التركى البحرى ، وفتحا لباب المشروعات الاوروبية النصرانية الواسعة لابتلاع العالم العربى الاسلامى فى المشرق والمغرب ، مـــن أمثـال مشروعات التبشير للفرق المسيحية المختلفة ، ومشروعـات اقتســـام الامبراطوريـــة العثمانية (193) ، فان هذه المعركة فى واقعها لم تكن سوى حاجز أوقف سير أوروبا نحو مستقبل كان يبدو مظلما ، وبدد المخاوف الاسبانية القاتلة من غزو تركى اسلامى لارضها ، يبتلعها ، ويعيدها سيرتها السابقة · لقد كانت « معركة ليبانتو » فى الواقع انتقاما مسيحيا واسبانيا حارا من ثورة مسلمى غرناطة··· فهذه المعركـة هى الـــتى أسدلت الستار فى الواقع على هذه الثورة وانهتها · وقد يقول قائل وكيف ؟ وقد انتهت الثورة بمقتل مليكها مولاى عبد الله فى مارس 1571 ومعركة ليبانتو جرت فى السابـع من أكتوبر من العام نفسه أى بعد خمسة أشهر تقريبا من انطفاء شعلة الثورة ؟ صحيح ان الثورة أخمدت فى غرناطة بعملية الرحيل القسرى ، الا أن المسلمين الذين حملـوا تحت العذاب الى قشتالة، وزرعوا فيها، ألم يكونوا يحملون جرثومة تلك الثورة حية كامنة فى ذواتهم ؟ فلو نجح الاتراك العثمانيون فى معركة ليبانتو ، وتقدموا منتصرين نحـــو نابولى وصقلية ألم يكن سهلا اعادة اشغال الثورة ؟ وعلى نطاق أوســـع ؟ أفلـم ينتشر المسلمون المهجرون فى مدن قشتالة ، ويدعموا المسلمين السابقين فيها ؟ بل ألم يحملوا اليهم معهم تلك النطفة الحياتية الثورية ، وقد ازدادت نماء وانتعاشا بنقمة الترحيـــل والمنـــفى ؟ ·

لقد أسدلت ليبانتو الستار على ثورة مسلمى غرناطة ، الا أنها مع عملية التهجـــير القسرى لم تسدل الستار على قضية المسلمين المنصرين فى اسبانيا · اذ ستعاود هـــذه القضية اقلاقها اسبانيا ، وبشكل أكثر حدة فى أواخر القرن السادس عشر وحتى عملية النفى الاكبر ، واذا كان النفى الاكبر لمسلمى اسبانيا قد أغلـق بابهـا قضيــــة ، الا أن « الحضارة العربية الاسلامية » التى حوربت فى أشخاص ممثليها المسلمين عـــلى أرض اسبانيا ، « ما نفكت تلعب دورها وتؤثر فى حضارة شبه الجزيرة الايبرية » · (194)

193) أنظـــر Djuvara, Cent projets de partage de la Turquie, Paris 1914 Braudel, p. 940.

194) Braudel, op. cit. p. 594.

انهيار بلاد الاندلس وموقف دول الاسلام واسطنبول من ذلك

أحمد توفيق المدنى
مؤرخ ووزير سابق ـ الجزائر ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

رفقائى الكرام . ابنائى الميامين .

أعترف لكم قبل كل شىء بكل تواضع وبكل اخلاص، اننى أكاد أعترف بعجزى عن السباحة فى هذا البحر الخضم ، المتلاطم الامواج ، لجر المأساة الاندلسية الرهيبة، التى لا يزال المسلمون ، ولا يزال العرب منهم خاصة ، يذرفون حولها من الدموع ، ما لو بذلوا على مقداره من الدم ، لكانت حضارتنا العربية الاسلامية لا تزال الى يوم الناس هذا ، زاهية ، زاهرة ، بفردوس كان جنة من جنان الخلد ، وكان روضة فيحاء للادب ، وكان مصنعا ضخما ، يخرج جلة العلماء ، وكبار الفلاسفة ، وعباقرة الفن ، ذلك ما سلمه اجدادنا ، جهلا منهم وغرورا ، وانصياعا لعصبية جاهلية هوجاء ، لاعدائهم واعداء الانسانية والمدنية والنور . انى اصرخ بها كلمة حق وصدق ، تصدر بعد دراسة وامعان : ما أخذ أعداؤنا بلاد الاندلس قوة واقتدارا ؛ بل نحن سلمناها لهم ، بتفرق عصبتنا ، وبحروبنا الاهلية الاجرامية ،

وبدسائسنا الخسيسة ، وبمؤامراتنا الدنيئة ، وبارتكابنا كل ما نهى الله عنه من اثم ومن عدوان ٠

ان هذا الموضوع الثرى ، العميق ، لحرى بدراسة جدية مركزة ، مدققة ، تقتضى سنوات من العمل ، وتسويد عدد من المجلدات الضخمة ، فكيف بنا ونحن ضمن اطار جد ضيق ، وليس لنا من الوقت الا ثلاثة أرباع الساعة ، علينا ان نستوعب خلالها الحوادث واسبابها ، وان نطوف أثناءها بميادين الدسائس والفتن ، والقتال المرير ضد العدو وضد الشقيق فى نفس الوقت ، وان نلقى نظرة فاحصة علــى مختلف ارجاء العــالم الاسلامى الفسيح ، لنرى كيف كان يحيا ، وكيف كان يجاهد ، وكيف كان يحتضر ، وكيف كان يستسلم لموت بشع ، وهو يخال انه ينعم باطايب الحياة ، وانه يتقلب فوق بساط النعيم ٠

فلنقدم اذن على محاولة هى من الصعوبة بمكان ، ولندخل الموضوع من أوسع أبوابه، فنقول أول ما نقول : ان المأساة الجارحة التى تشغلنا اليوم ، ليست هى مأساة سقوط بلاد الاندلس ، بل ان حقيقة المأساة ، انما هى تلك العوامل التى أدت الى سقوط بـلاد الاندلس ، وانهيار مدينة شامخة الذرى ، كانت ساطعة النور ، فخلفت بعدها الظلام الدامس ، والفراغ الرهيب ٠

اننى أحصر هذه العوامل الاساسية ، مع محاولة الايجاز والاختصار فى أربـــع نقط ، ودون اضاعة لوقت هو حقا نفيس ، الج صميم الموضوع ، فأقول :

ان العامل الاول من عوامل انهيار بلاد الاندلس ، كان سلوك الاندلسيين انفسهم ٠ فالدولة الاسلامية الاخيرة ، وهى مملكة بنى الاحمر بغرناطة ، كانت ، حسبما يرويـه كل رجال التاريخ من عرب ومن أجانب ، قوية برجالها ، قوية بسلاحها ، زاخرة بمقاتلين من ابطال صناديد ، فيها من المدافع الضخمة ، ومن البارود ، ما كان يكفى لا للدفـاع فقط عن حدود البلاد وقلاعها ؛ بل كان يكفى لاسترجاع الكثير مما أخذه العدو منها ٠ لكن الله قد اصابها مع تلك القوة ، ومع ذلك الحول ، فى بصيرتها ، فانهـــا لا تعـــمى الابصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ٠

يقول احد كرام الباحثين من المغرب الاقصى ، هو الاستاذ عبد الكريم التواتي ، ما نصه : (فى الوقت الذى كانت فيه الارادة الاسبانية تتجـه نحو الوحـدة ، وتناسى الخلافات ، كانت الارادة العربية على العكس من ذلك ، وحتى فى هذه الاوقات الحاسمة ، لم يستطع اصحابها ان يتوحدوا ، ويجمعوا صفوفهم ، وتلك كانت عادتهم منذ العهود الاولى التى كان الدين الاسلامى صاحب الكلمة النافذة فى هذه البلاد ٠ وانما صاحبتهم عنصريتهم القبلية ، وما يتبع هذه العنصرية من تضارب فى المصالح الشخصية التى لم يستطع العرب ان ينسوها حتى فى احلك الظروف ٠ وقد رأينا ان العرب لم يتورعوا ، بعد ان قسموا الاندلس العربية الى امارات وممالك متناحرة متخاذلة ، تولى أمورهـا ملوك اقزام ، ان يثيروها حروبا شعواء ضد بعضهم البعض ، وان يستعينوا فى هـذه الحروب باعدائهم ٠ الى ان يقول : واستمرت هذه الحروب الاهلية التى كانت تصيب الوحدة العربية الاسلامية فى الصميم ، مخلفة جروحا عميقة ، وندوبا فظيعة فى كـل القلوب والنفوس ، حتى اصبحت مع مرور الايام حروبا انتقامية ، تدور رحاها سجالا بين مختلف الامراء والقادة ، والاسبان فى كل ذلك ، يذكون نار هذه الحروب ، ويؤججون لهيبها ، باغراء زعيم على زعيم ، ونصر فريق على فريق ، حتى اذا حفرت أخاديد سحيقة بين الاخوة والاشقاء ، أخذوا ينزلون ضرباتهم المدمرة على الكل ، وينالون من الجميع) ٠

هذا ما رأيت الادلاء به من كلام باحث خبير ، عن أولئك الذين كانوا من صناديد الابطال فآل بهم الخلاف والتطاحن الدموى الاخوى ، الى تسلم سيفهم لعدوهم ، بكف جبان رعديد ٠ لا والله لن يغفر لهم التاريخ ذنوبهم ، ولا يجد أى باحث منصف سبيلا للدفاع عن ذلك السلوك المعوج الاهوج ، الذى ادى الى ارتكاب تلك الجرائم المنكرة ٠

أنظروا وتأملوا ، رفقائى وابنائى :

بينما يوحد الاسبان صفوفهم ، ويجهزون جيوشهم ، وبينما يعلن الملك فرنانـد والملكة ايزابيلا ، عزمهما على محق آخر دولة اسلامية ببلاد الاندلس ، وبينما يعلن البابا فى رومة ان هذه الحرب ضد المسلمين انما هى حرب مقدسة ، وان من قتل فى معامعها مات شهيدا ؛ وبينما يفرض البابا على المسيحيين كافة ضريبة « الصليبية » من أجـل تحطيم المسلمين لا فى بلاد الاندلس فحسب ٠ بل فى عقر ديارهم بالمغرب العـربى ،

نرى العلامة المقرى الجزائرى يقول عن الاندلس يومئذ : (وكان السلطان ابو الحسن ، قد استرسل فى الملذات ، وركن الى الراحات ، واضاع الاجناد ، واسند الامــر الى بعض وزرائه ، واحتجب عن الناس ، ورفض الجهاد ، والنظر فى الملك ، وكثرت المظالــم والمغارم ، فانكر الخاصة والعامة منه ذلك ، وكان أيضا قد قتل كبار القواد) ٠

نعم ٠ قد ثار عليه اخوه محمد بن سعد ؛ الملقب بالزغل ، أى الفتى النبيل المقدام، وانتصب ملكا بمالقه ، وهكذا انقسمت مملكة غرناطة الى قسمين ، امام العدو ؛ وكانت تشمل يومئذ ثلاثين مصرا ، وثمانين مدينةصغيرة ، وعددا لا يحصى من الابراج والحصون والدساكر ، وكان عدد سكانها يقدر بأربعة ملايين نسمة ٠

لكن اقتسام ملكــين ، لمملكة صغيرة ، أمام عدو عظيم ؛ لم يكن كافيا ٠ فازدادت المصيبة هو لا بتدخل عنصر جديد فى الموضوع ، واقتسم ملوك ثلاثة ، يحـارب بعضهم بعضا ، تلك الرقعة التى كانت آخر أمل للمسلمين بديار الاندلس ٠

كان الملك أبو الحسن قد اصطفى لنفسه حظية اسبانية ، ورزق منها بأولاد ، الى جانب ولديه من زوجه الكريمة ، عائشة الحرة ، وهى ابنت عمه ٠ فكان كبير أولاده من زوجه « عائشة » هو أبو عبد الله محمد ٠ وكان كبير أولاده من الحظية الاسبانيـــة « ثريا » ، هو يحيى ٠ وتعلقت همة هذا السليطن باسناد ولاية العهد ، ليحيى ابـــن الاسبانية ، فانقسمت نفس مدينة غرناطة ، وهى تحت الخطر الشديد الى قسمـــين متعاديــين ، كل قسم منهما يؤيد أحــد الولدين ، وتفاقم الامر ، وادلهم الخطــب ٠ اذ بينما أبو الحسن والزغل يتقاتلان وهما اخوان ، تقع الفتنة الدهماء بين ابنتى الملـــك الحسن ، وتنقسم نفس المدينة العاصمة الى شقين متعاديين ، متقاتلين ٠

كان هناك بطل يسجل التاريخ اسمه فى كتاب الخالدين ، هو القائد « على العطار » لم تأخذه العزة بالاثم ، وكان يجمع بين المسلمين فى حروبهم ضد النصارى ، فيقذف فى قلوب هؤلاء الرعب ، ويثخن فيهم ، ويسمو على أن يجعل بطولته تحت امرة مـلك خاص ، أو أمير خاص ، فهو قائد أندلسى مسلم يقاتل دفاعا عن وطنه ، ويستعـد كل يوم للموت فداء دينه ٠ ولعلكم تعجبون اذا ما قلت لكم ان ذلك البطل ، الذى تقدسه مدينة غرناطة المسيحية الى اليوم ، وتنشىء المنشآت العامة باسمه ؛ ويحفظ سيفه ضمن

اطار من البلور فى المتحف الكبير ؛ كان قد ناهز التسعين من عمره ، وهو يصول فى ميادين القتال ويجول على رأس كماة المجاهدين ، الى أن استشهد ، والسيف بيمينه يقطر دما ، فى معركة حامية الاوار · كان يدعو الناس للجهاد ، ومصادمة العدو متحدين متضامنين · وكان له أقيال من أمثاله ، يعملون على شاكلته فمملكة غرناطة كانت مليئة بصناديد لا يهابون الموت ، الرجل منهم كمثل عشرة من أعدائه · لكن ماذا يكون مآل الجسم الصحيح ، اذا كانت تعلوه هامة قد سكنها الداء العياء ؟

تفاقم أمر الخلاف ، فاذا بغرناطة الابية تخلع سلطان الملك « أبى الحسن » وتبايع ابنه أبا عبد الله محمد ملكا · يفر الملك من وجه ابنه الى احدى المدن الساحلية ، فيعلن ان ابنه قد شق عصا الطاعة ، وانه هو ، هو الملك الشرعى ، الواجب الطاعة · ثم ما لبث أن عاد ع لى رأس جيش ، فانتصب ملكا بقسم من مدينة غرناطة ؛ بينما كان قسمها الآخر ، قسم العمال والطبقة الوسطى ، وهو البيازين ، محافظا على ولائه لابنه الذى بايعه · فأصبحت مملكة الاندلس الصغيرة ، وهى أمام خطر السقوط والتلاشى ، ذات ثلاثة ملوك ـ : الملك أبى الحسن ؛ وشقيقه الملك الزغل ، وابنه الملك أبى عبد الله محمد ·

يقول شكيب ارسلان ، فى كتابه عن تاريخ الاندلس : « ولما وصل أبو عبد الله الى الحاضرة ، أى ـ غرناطة ـ ثاربه والده وأصحاب والده من جهة ؛ انتصرت له أمه ومن اليها من جهة أخرى ، فكان هنالك فى ذلك الوقت الضيق ، مشهد الحماقة الاعظم ، وجرى من الامور المنكرة ما ليس فى كتاب ، وامتلات الاسواق بالمتقاتلين بعضهم ينادى باسم أبى عبد الله ، وبعضهم ينادى باسم والده أبى الحسن ، وكان أكثر ميل العامة الى أبى عبد الله ، فسالت الدماء ، وأصبحت حمراء غرناطة اسما على مسمى » ·

وصل الحال بهؤلاء المناكيد ، ان أبا عبد الله الزغل ، أصاب النصارى فى احدى غزواته بكارثة مؤلمة ، فى ناحية مما يليه من البلاد ، واثخن فيهم ، فاذا بالملك المشؤوم ، أبى عبد الله محمد يبعث برسالة الى ملك الاسبان · يعتذر فيها عما فعل عمه ، ويقول ما معناه : لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ! فى هاتيك الاثناء ، تألبت المسيحية كلها ضد المسلمين ، وهم كما رأينا ؛ وجند فرديناند وايزابيلا جيشا من اثنى عشر ألف فارس

وأربعين ألفا من المشاة ، وستة آلاف من ممهدى الطرق امام الجيش ، وكان على رأس المتطوعين الفرنسيين الذين معه القائد « كاسطون اليونى » وكان على رأس المتطوعين الانكليز « اللرود سكالس » وكان المتطوعون الالمانيون ، يشتغلون بالمدافع ويحسنون توجيه ضرباتها ٠

لقد كان الاندلسيون بما لديهم من سلاح وعتاد ، ومدافع ، ورجال ، يستطيعون الثبات ، لا النصر ، وكانت فيهم روح قتالية ، سجلها لهم التاريخ ، ربما لم تكن موجودة يومئذ فى غيرهم ، انما هم كانوا ، ولسوء الحظ ، يتقاتلون داخليا فيما بينهم ، أكثر مما كانوا يوجهون الضربات للعدو المهدد المشترك ٠ وكنت استطيع لولا ضيق الوقت ، ومرارة الحديث ، ان استمر الساعات الطويلة على ذكر هذه المأساة العنيفة الفظيعة ٠ افتعجبون ، سادتى ، وابنائى ، كيف سقطت مملكة غرناطة شهيدة بين أيدى جلاديها ، على ملك شقى مأفون ، بلغت به الخسة والنذالة انه بعث يهنىء الملك « فردناند » لاحتلال مدينة مالقة ، وتحويل مسجدها الاعظم الى كنيسة ؛ وما ذلك الا لان مدينة مالقة كانت معقلا لعمه وعدوه ابى عبد الله الزغل ٠

تالله لو وجد الاندلسيون رجلا قائدا ، من ذوى العزائم الصادقة ، يجمع كلمتهم ، ويلم شعثهم ، ويبعد عنهم ملوك السوء ، وما حولهم من بطانة موبوءة ، لما كان لهم ذلك المآل الحزين ٠

كان لها رجل واحد ؛ كان لها يوسف بن تاشفين ، لكنه كان رجلا قد جاء قبل زمانه، فلما جاء زمانه ، لم يجد برجل مثله ٠

هكذا سقطت مملكة غرناطة ، لانها كانت تحفر بيدها قبرها ، وتهيىء بنفسها أسباب سقوطها واذا كان بها جماعة غفيرة من المغاوير ، فقد كان بها أيضا جماعة اشربوا فى قلوبهم دعوة الهزيمة ونخرسوسهم عظامهم ٠ ألم يكن من الاندلسيين من يقول ، منذ الوهلة الاولى :

حثوا رواحلكم يا أهل اندلس	فما المقام بها الا من الغلط
العقد ينثر من اطرافه وارى	عقد الجزيرة منثورا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه	كيف الحياة مع الحيات فى سفط ؟

أو لم يقل فيها لسان الدين بن الخطيب ، على علمه وادبـــه وفضله ، فى وصيتـــه المحفوظة لابنائه : « ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد ؛ الذى لا يصلح لغـــير الجهاد ، فلا يستهلكه اجمع فى العقار ، فيصبح بذلك عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعيا لنفسه ، ان تغلب العدو على بلده فى الافتضاح والافتقار . ومعوقا عن الانتقال ، امام النوب الثقال » .

العامل الثانى من عوامل انهيار الاندلس ، ومأساة أهلها ، هو العامل المغربى ؛ هو سلوك اهل الشمال الافريقى نحو ذلك القطر العربى الاسلامى ، المنكوب بأهلـــه ، قبل ان يكون منكوبا باعدائه . فالذى نعلمه ، مما سجله التاريخ ، هو ان المغرب العربى ، والمغرب الاقصى بالذات ، كانت له اليد الطولى والقدح المعلى فى ادخال الاسلام وجيوش المسلمين الى الاندلس . فمنه اجتاز طارق بن زياد وموسى بن نصير المضيق ، الى جبـل طارق ، تلبية لدعوة الانقاذ التى تلقاها من الاسبانيين المستضعفين فى الارض ؛ والجند الاسلامى المغربى هو الجند الذى وطد مملكة الاسلام هنالك ، وجعلها تسود وتمتد طيلة ثمانمائة سنة ولقد كانت مملكة الاندلس تزداد قوة ، أو تزداد ضعفا ، على مقدار ما كانت عليه ممالك المسلمين ببلاد المغرب العربى من قوة ومنعة ؛ أو من ضعف وانهيار .

وشاء الله ان تمتد يد الخراب شيئا فشيئا الى بلاد الاندلس ، رغما عن علو كعبها فى العلوم ؛ ورقة شعرها ، وسمو فلسفتها ، بواسطة ما اخترعته ، ومنذ نشأتهـــا تقريبا ، من شقاق قبلى ، وتناحر سياسى ، وحروب وفتن أهلية فتاكة ، حول عروش واهية ، ودول هزيلة ؛ وكنا نرى القوم ـ على صفحات التاريخ ـ يبذلون فيها نفوسهم ويجودون فيها بنفيسهم ، ويزدادون فيما بينهم قسوة وشراسة ، حتى انـــه ليصدق عليهم قول شاعر صقلية الشهيدة ، الفحل ، عبد الجبار بن حمديس :

احين تغـانى أهلهـا طـوع فتنـة   يضرم فيهـا نـاره كـل حاطـب

ولم ترحم الارحـام منهـم أقـارب   تـروى سيوفا مـن دمـاء الاقارب

عندئذ كان الاسبان يغتنمون الفرص ، وهم أهل حزم ، وفطنة ، وصلابة ، وينهالون على البلاد ياكلونها من وسطها ومن اطرافها ، فتعلو أصوات الاستصراخ والدعوة للجهاد ،

من العدوة القصوى ، وما كان اسرع بلاد المغرب العربى ، والمغرب الاقصى بالذات ، بالنجدة الفعالة ، فى حماس واندفاع جرىء ، ومن ذا الذى ينسى جهاد أمير المرابطين « يوسف بن تاشفين » وجهاد تلك الجموع الفائرة الدافقة ، وكيف تمكنوا من اصابة الاعداء فى الصميم ·

وكسروهم شر كسرة فى واقعة الزلاقة الشهيرة ، سنة 481 هـ (1088 م) · ثم توالت امواج الجهاد منطلقة من المغرب نحو الاندلس ، فى ثلاث دفعات ، قضت فى نفس الوقت على آمال الاعداء ، وعلى ملوك طوائف تربعوا فوق العروش باسم الاسلام : فاذا بهـم ، وبواسطة تلك العروش ، يحاربون الله ورسوله ، عندما يحـزون رقاب المسلمين ، ويهرقون دماء عزيزة ، اشتراها الله من المسلمين لتكون وقاية لبلاد الاسلام ·

ثم من ذا الذى ينسى اسراع أمير المؤمنين ، الموحد ، عبد المؤمن بن عـلى ، ببسط سلطانه الرحيم العادل ، على بلاد الاندلس ، منذ سنة 551هـ ، الموافق 1156م، فكانت أيام الموحدين بتلك الاصقاع ، غررا فى جبين الدهر ، توجتها معركة الاراك سنة 591هـ الموافق 1194 م، وما زالوا يوحدون ويجمعون الكلمة ، الى أن انحلت عصبيتهم ، وذاقوا مرارة الهزيمة سنة 609 هـ الموافق 1212 م ، فى موقعة العقاب الشهيرة التى هلك فيها معظم الجيش الاسلامى : ولم يقم للمسلمين بعدها أمر يذكر · وانهارت دولة الموحدين الضخمة ، الجامعة ، فخلفتها بتونس « دولـة بنى حفص » ؛ وخلفتها بالمغرب الاوسط دولة بنى زيان ؛ وخلفتها بالمغرب الاقصى دولة بنى مرين ·

ثم أخذ منذ تلك الواقعة ، شأن الاسبان فى النمو ، والقـوة ، والاتحاد · وشـأن الاندلسيين فى الانهيار ، والضعف ، والخلاف النريع ، وذلك رغما عن وقائع باهرة ، وبعض انتصارات مشهودة ، واشتغلت دولة بنى مرين ـ على الاغلب ـ بمحاربة الجار المسلم ، فى مملكة بنى زيان ، عن امداد اخوانهم بالاندلس الا بالشىء اليسـير ، فى مناسبات عـدة ·

أما مملكة بنى حفص التونسية ، فقد أمدت أيضا بلاد الاندلس فى أول الامر ، انما دخلها داء الشقاق والانحلال هى أيضا ؛ فضعف الطالب والمطلوب · فنحن نرى مـن هذا ان الامور فى بلاد الاندلس قد انقلبت ظهرا على عقب ، بانحلال الدول فى المغـرب

العربى ، وباشتغال عروشها بمحاربات آثمة ، بل اجرامية ، فيما بينها ، واشتد بأس الاسبان خلال ذلك ، الى أن طغا ، ومحا ·

العامل الثالث ، فى انهيار دولة الاسلام بالاندلس ، الى جانب ما سلف ، هو ما يمكن أن نسميه بانهيار العالم الاسلامى ، فى ذلك الوقت بالذات فكيف كانت حالة العالم الاسلامى حول البحر المتوسط خلال تلك الايام الحالكة السواد ؟

لم يكن للعرب يومئذ حكم ، ولا دولة ، الا حكم تلك الدول الواهية بالمغرب العربى · كانت مصر ، وكانت الشام ، هما قلب العروبة النابض الخفاق ، كانتا خاضعتين لحكم دولة المماليك الاتراك الذين اشترى منهم صلاح الدين الايوبى فيما مضى ، أثنى عشر ألفا ، من أجل مقارعة الحملة الصليبية الطاغية ، فأسسوا بعد الايوبيين ملكا قويا وذاع صيتهم الى أن بلغت دولتهم الهرم ، فلم تستطع المحافظة على أقطارها ، فضلا عن امداد أقطار أخرى ، مهددة بالزوال والانقراض · اننى لا أنكر فضل وحزم وشهامة السلاطين المماليك ، الذين أطنب ابن خلدون فى ذكر محاسنهم ، ولا ما كان لهم من القدح المعلى فى انقاذ الاسلام وبلاد الاسلام بالشرق · كلنا يذكر باجلال واكبار الظاهر بيبرس ، وهو يفتت بين يديه الجبارتين معاقل الصليبيين على سواحل الشام · والسلطان قطز ، وهو يقهر الموجة المغولية المخربة سنة 658 هـ الموافق 1260 م ، بعين جالوت ، تحت صرخة : وا اسلاماه ! والسلطانة شجرة الدر ، وهى تقهر الصليبية الفرنسية على شاطىء النيل ، وتضع ملك فرنسا « سان لوى » أسيرا بدار ابن لقمان بمدينة المنصورة · الى أن تلك المملكة قد آلت فى آخر أمرها للسلطان قانصوه الغورى ، الذى كان يقاوم ويقارع عوامل الانحلال والتفكك ، ويمد يد الاعانة لملوك الهند المسلمين الذين كان الاستعمار البرتغالى يرديهم ، بواسطة أسطوله بالبحر الاحمر ، الى أن مات مقاتلا ، والدم يقطر من سيفه ، وهو فى الثمانين من عمره · فدولة المماليك كانت أعجز من أن تمد يد الاعانة الى مسلمى الاندلس ·

أما العراق ، فكان متغيبا عن الركب · كان محكوما بغير أهله منذ أمد بعيد · كان تحت حكم الفرس الذين يرون ان محاربة أهل السنة من المسلمين ، أوجب عليهم ، وهم شيعة متغالون ، من الاشتراك فى معركة اسلامية عامة ، وانقاذ بلاد الاسلام ، حيث

كان الاسلام ، فالعالم الاسلامى لم يكن يومئذ بصفة قتالية ، نضالية ، هو عالم الاسلام كما أراده الله، حين يقول للمسلمين : **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** • أو حين يقول : **واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم** •

أما العامل الرابع ، سادتى وأبنائى ، فهو بعد الدولة العثمانية يومئذ عن مواطن الكفاح فى بلاد الاندلس • فقد كانت الدولة العثمانية الناشئة سنة 1093م ، قد أخذت فى النمو والارتفاع ، وكانت تتجه فى فتوحاتها صوب الغرب الاروبى حتى تجعل من البحر المتوسط بحيرة اسلامية • انما هى كانت ذلك الوقت ، تحارب ، من الشرق ، الى الغرب : شاه ايران الشيعى ؛ وروسيا ، ودول البلقان ، والمجر والنمسا ؛ ولو انها غفلت طرفة عين من ثغرة واحدة من تلك الثغرات الممتدة على مسافة تزيد عن العشرين ألف كيلو متر لنفذ الاعداء من قبلها ، ولحطموها ؛ خاصة انها كانت تحاصر من قبلها مدينة القسطنطينية التى تهفو اليها قلوب النصرانية جمعاء •

على ان الدولة العثمانية ، وهى فى حالتها تلك ، قد بلغها صراخ واستنجاد أهل الاندلس ، وكانت على خلاف كبير مع دولة المماليك بمصر والشام ، الذين تعصبوا لايران • خوفا على ملكهم من ان ينهار ، تفاهمت مع السلطان فانصوه الغورى ، وعقدت معه هدنة ، كما يؤكد المؤرخ التركى الكبير ، الوزير ضيا باشا ، فى تاريخه عن بلاد الاندلس ، واستعدت تجهز جيشا واسطولا ، لامداد المسلمين • والعثمانيون كانوا ، حسب كلمة اخى وصديقى الكبير عثمان الكعاك ، جند رمة الاسلام ، لكن الاسبان ، وكانت المسيحية كلها الى جانبهم ، قد أخذوا حذرهم ، وتلافوا الامر قبل وقوعه ، فجهزوا اسطولا ضخما يعترضون به الاسطول العثمانى من جهة ، وبادروا باحتلال المدن الساحلية الاندلسية التى يمكن ان يصلها المدد العثمانى ، من جهة أخرى •

يومئذ عزم العثمانيون على سلوك خطة جديدة ذات شقين ، لانقاذ مسلمى الاندلس، ولارجاع مملكتهم لهم • وكان العثمانيون الذين تمكنوا من الاستقرار فى مدينة « استامبول » يقفون على سواحل بحر الادرياتيك الشرقية ، فالشق الاول من خطتهم ، كانت تقتضى الوصول باقرب سرعة الى حدود اسبانيا الشمالية ، وليس بينها وبينهم

من حائل الا البلاد الطليانية ، ومحاربة الاسبان فى الشمال ، قصد تخفيف الضغط على المسلمين فى الجنوب · وكانت فرنسا التى اردتها اسبانيا ، واذلتها ، واسرت ملكها تسهل على العثمانيين بلوغ ذلك الهدف ، وذلك بمهاجمة ايطاليا من ناحية الغرب ، بينما يهاجمها العثمانيون من الجنوب الشرقى · وفعــلا قد انزل خير الدين باشا جــنده بميناء أوترنتة الايطالى ، وأخذ ينتظر الهجوم الفرنسى ، لكى يخضع ايطاليا ويصــل الى الحدود الاسبانية ، فيتغير وجه التاريخ · لكن فرنسا احجمت عن ذلك العمــل فى آخر ساعة ، خوفا من ثورة الرأى العام المسيحى ·

اما الشق الثانى من الخطة العثمانية ، فهو اختراق كامل البلاد العربية ، والوصول جنوبا الى ميادين المعركة ضد الاسبان · وهكذا تمكن السلطان سليم القاطع ، من دحر المماليك ، والاستقرار ببلاد الشام وبمصر ، اجتاز طرابلس ، وبعث بأسطول من بحارته الاشداء ، تحت قيادة البطلين «عروج ، وخير الدين» لانقاذ مسلمى الاندلس ، والاتجاه بهم الى أرض المغرب العربى ، لا بصفتهم لاجئين ، انما ليكونوا هنالك مستعدين لخــوض معركة الانقاذ ·

وتطورت الحوادث بسرعة · وكان ما كان مما نعرفه جميعا ، من احتلال الاسبان لكامل الساحل الجزائرى ، من عنابة لمرسى هنين ، وكان استنجاد الجزائريــين بالاسطــول العثمانى ، ثم تحرير المدن الساحلية الجزائرية ، ثم اقامة دعائم الدولــة العثمانيــة الجزائرية ، وهكذا أصبحت دولة الخلافة تقف امام الاسبانيين وجها لوجه ، لا امــام قلعة وهران العظيمة فحسب ، بل امام الساحل الاسبانى الجنوبى ، بـلاد الاندلس ، حيث كان نحو المليونين من المسلمين ، يحتلون المعاقل والسهول بين جبال البشرات ، وينتظرون الانقاذ ، واستعادة الدولة والامجاد ·

تاسست الدولة الجزائرية واكتمل بناؤها وتم توحيدها بعد خمسين سنة ، ودمرت شر مدمر كل هجوم اسبانى عليها ، مما اكسبها سمعة عالية ومكانة رفيعة فى كــل بلاد العالم الاسلامى · وتولى امرها البطل المغوار « قلش على » فأخذ يأمر من السلطان ، كما يؤكد ضيا باشا الآنف الذكر ، يدبر طريقة لاغاثة ثــورة المسلمين بالبشرات ، واعادة ملكهم لهم ·

عين الاندلسيون ، باتفاق سرى مع قلش على باشا يوم غرة نوفمبر 1568 ، لاعـلان لثورة العارمة • وجهز الباشا الجزائرى جيشا ضخما ، قوامه 14000 من رماة البنادق يشد ازرهم ستون ألفا من المجاهدين الجزائريين ، مهمته استرجاع وهران ، والاندفاع بكل قواهم نحو الساحل الاسبانى • هذا فضلا عن أربعين سفينة جـزائرية عثمانية ، كانت تحمل الرجال والسلاح ، وقفت فى اليوم المعين ، يوم غرة نوفمبر ، أمام مرسى المرية ، حيث كانت تستعد لانزال ما فى جوفها من رجال واثقال • لكن ارادة الله حالت دون ذلك • فان احد رجال الثورة الاندلسية قد انكشف امره ، فعلم الاسبان سـر المؤآمرة ، واستعدوا لها ، ولم يجد الاسطول الجزائرى ، كما كان يرجو ، رجالا يتسلمون السلاح ، ويتقبلون القاتلين وهكذا خسر الجزائريون فرصة المبادأة • وفى شهر يناير من السنة الموالية 1569 ، اعلنت الثورة العامة ، فشملت كل جبال البشرات وكان اسطول جزائرى عثمانى ، يشمل ثمان وثلاثين سفينة حربية معمرة رجـالا وسلاحا ، يحـاول انزال قوته فى اماكن متفق عليها من قبل ، لكن الاسبانيين كانوا مستعدين فى كـل مكان على الساحل لصد تلك المحاولة الجريئة ، فاصبح الاسطول الضخم يتجول حول الساحل ، بغية ايجاد مكان صالح لانزال الرجال والسلاح • وفاجأته زوابع واعاصير فصل الشتاء الشهيرة ، فاهلكت منه ثلاثين سفينة ، ذهبت لقاع البحر بما عليها مـن رجال واثقال ، وما تمكنت من انزال ما عليها ، الا السفن الست الباقية ••

لكن عزيمة الجزائريين العثمانيين لم تهن امام هذه الكارثة ، ففى السنة الموالية وخلال شهر اكتوبر ، تمكن قلش على من انزال اربعة آلاف رجل من رماة البنادق المركزة من نوع : Arquibudes على الساحل الاندلسى ، مع عدد من ابطال الحرب المجربين لكى يتولوا القيادة • واستمرت الحرب قاسية شديدة بين الثائرين الاندلسيين والجزائريين من جهة ، وبين الجند المسيحى الاسبانى من جهة أخرى • وبعث قلش باشا فى العـام الموالى عددا آخر للثائرين ، واعلن عزمه على السفر بنفسه لتولى قيادة المعركة الاسلامية فى اسبانيا ، لكن اساطيل المسيحية كلها قد تجمعت فى البحر المتوسط يومئذ ، لمهاجمة الاسطول العثمانى ، وتدميره ، فاضطر قلش باشا ، تحت الحاح سلطان استامبول ، الى البقاء على رأس ولايته المجاهدة ، ليشارك فى المعمعة العظمى ! واستمرت المعارك قاسية ،

رهيبة ، تولى كبر المآسى فيها الدون يوحنا الاستيرى ، الابن الغير الشرعى للملك ، فكان سفاحا فظيعا ، يلتذ بذبح النساء والاطفال بين يديه ، ويحرق المزروعات ، ويهدم القرى حتى اصبحت البلاد خرابا وحطاما ، ثم قاد هذا السفاح نفسه ، سنة 1571 ، الاسطول المسيحى الصليبى ، الذى تمكنت اسبانيا والباباوية من جمعـــه ، وكان يشمل 300 سفينة ، يعلوها ثمانون ألفا من الرجال المقاتلين ، فالتقوا مع الاسطول العثمانى فى مياه ليبانت ، على سواحل اليونان ، وكان مؤلفا من 250 سفينة ، وبعد اعمال بطولية غريبة ، شارك فيها قلش على بنفسه ، على رأس عمارة جزائرية ، دارت الـــدائرة على العثمانيين ، فغرقت من سفنهم (94) سفينة ، من بينها 30 سفينة جزائرية ، وكانت خسائر المسلمين فادحة ، ومن جملة اسباب هذه المعركة البحرية الرهيبة ، اقـــدام العثمانيين على اعانة اهل الاندلس ، كما رأينا ٠

اخفقت الثورة فى الاندلس ، ومات زعيمها البطل محمد بن ابوه ، وتلاشت آمـــال المسلمين ، وضاعت ويا للاسف بلاد الاندلس نهائيا ، كما انتهت ، ويا للاسف أيضا ثلاثة أرباع الساعة المخصصة لكل حديث ٠ بعد ان أوجزنا ، واختصرنا ، فان لم يكن وابـــل فطـــل ٠

وشكـــرا على حسن الانتبـــاه ٠

والسلا مءليكم ورحمة الله ٠

هل كان الشعر في الأندلس سَبَبًا في انحلال أخلاقها ثم سُقوطها أوكان لهـا مجـرد مـرآة وانعـكاس ؟

د · احسـان عبـاس
أستاذ فى الجامعة الامريكية
ـ بـيروت ـ



منذ أفلاطون ـ وربما قبله ـ حتى تولستوى ومن بعده الى اليوم ظـل أصحاب الموقف الاخلاقى من المفكرين والنقاد ـ ازاء الفن ـ يوجهون الى الفن عامة والى الادب بخاصة تهمة خطيرة ، مفادها انه من خلال تأثيره فى النفس الانسانية قادر ، اذا هـو

خرج عن محوره الطبيعى ، ان يفسد الاذواق ، ويحطم القيم ، ويكون أداة تخريب فى بنية المجتمع الصالح ؛ ومن ثم ان يكون مسؤولا ـ ضمنيا ـ عن انحطاط الحضـــارة وانهيارها • وفى وصف الزبير بن بكار للشعر بأنه « يحل عقدة اللسان ، ويشجـــع قلب الجبان ، ويطلق يد البخيل ، ويحض على الخلق الجميل » (1) ، تصريح بقدرة الشعر على احداث التأثير الاخلاقى من الناحية الايجابية ؛ وفى قول معاوية لعبد الرحمن بن الحكم ـ وكان شاعرا ـ « ايـاك والتشبيب بالنساء ، فانك تعـــر الشريفة فى قومها والعفيفة فى نفسها ؛ والهجاء فانك لا تعدو أن تعادى به كريما أو تستثير به لئيما ، ولكن افخر بمآثر قومك ، وقل من الامثال ما توقر به نفسك وتؤدب به غيرك » (2) ، فى هذا القول اشارة الى الدورين اللذين يستطيع الادب أن يؤديهما سلبا وايجابا •

حتى الذين أرادوا الفصل بين الادب والاخلاق منحوا الادب قدرة فذة من حيث تأثيره فى النفس الانسانية ، فذهب ارسطوطاليس الى أن المأساة والملهاة ينقيان النفس عـن طريق التطهير وبذلك يعملان بعمق فى تكييف الذات وتوجيهها • ومع التقدم الـــذى أحرزته الدراسات النفسية فى العصر الحديث ، لا نزال بحاجة الى اختيارات دقيقة حول حقيقة تأثير الفن فى نفس الانسان ، ومدى ذلك التأثير فى سلوكه وتصرفاته ، اذ ما يزال جانب كبير من العلاقة بين الفن من حيث هو مؤثر وبين النفس الانسانية من حيث هى متأثرة خاضعا لقواعد تربوية عامة مستمدة فى أغلب الاحيان من التصور المحض أكثر من أن تكون مستمدة من التجربة :

هل حقيقة ان التوفر الكلى على الموسيقى ينزع بالنفس الى الليونة ، كما يقـــول افلاطون ؟ هل صحيح ان الشعر الذى يدور حول التبذل يفسد الذوق ويصبح بـذلك أداة لافساد الطبع السليم ومن ثم عاملا تخريبيا فى بناء الحضارة الرصينة ؟ وهل صحيح ان غياب الفن الصحيح المثرى للنفس يجعل الناس ـ كما يقول تولستوى ـ ميالـين الى أن يزدادوا وحشية وخشونة وأن يصبحوا أكثر جورا ؟ (3)

من دون الوقوف عند هذه الاوليات يستطيع الدارس أن يتقدم للحكـم على الادب الاندلسى من زاوية العلاقة بين ذلك الادب والمسؤولية الكبرى فى افساد الاخلاق ثـم فى انهيار الحضارة الاندلسية ، على أن يتذكر الدارس أن الادب الاندلسى لم يكن بدعا فى

الآداب ، لانه جزء من الادب العربى العام من جهة ، متأثر بالادب المشرقى تأثرا عميقا ، فما يقال عنه لا يعنى افراده بالمسؤولية ـ ان كان ثمة مسؤولية ـ اذ يمكن أن يقال ذلك عن الادب العربى كله ، دون تمييز كبير ؛ ولكن الاستقلال الجغرافى والسياسى ، وبعض الاستقلال الحضارى ، ومكانة الحضارة الاندلسية بخاصة ، هى الامور التى تجعلنا نفرده بالنظر ٠

2 ـ الادب الاندلسى يعيش ضمن ضوابط أخلاقية :

وأحب أن أسارع الى القول ـ رغم أن ذلك قد يبدو مناقضا للصورة المالوفة عن الادب الاندلسى ـ ان ذلك الادب لم يكن يعيش فى جو من الانطلاق اللا محدود ، وانما كان خاضعا لضروب مختلفة من الرقابة ، وفى هذه الرقابة كان للنظم والمواضعات والاخلاق والمقاييس النقدية الاخلاقية دور غير قليل فى توجيهه ، ومعنى ذلك أننى أقرر منذ البدء أنه لم يفقد صلته بالتوجيه الاخلاقى ، فى أية خطوة أو مرحلة ٠

أ ـ وأول ضروب هذه الرقابة ما يمكن أن نسميه : **الرقابة الذاتية** ، وهذه لا تتوقف عند حدود « المحصات » عند شاعر مثل ابن عبد ربه ، نقض كل ما قاله فى فترة الصبا من قصائد بقصائد أخرى فى الزهد والتوبة والتقوى محص بها الموقف الاول بموقف جديد مشمول بروح التدين ، ولا نقف عند حدود « الموشح المكفر » الذى ينظم للتفكير عن موشح آخر يتحدث فيه صاحبه عن مغامراته العاطفية على نحو ماجن ، وانما تمتد هذه الرقابة الى ايمان الشاعر نفسه بموقف أخلاقى أخلص له منذ البداية ، ولو قرأنا ديوان ابن دراج القسطلى وابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة والاعمى التطيلى والرصافى البلنسى وابن الزقاق وحازم القرطاجنى وابن الخطيب وآخرين غيرهم لم نجد فى دواوينهم هجاء ، أو وجدنا قسطا يسيرا منه ، وأنا أستبعد أن يكون ذلك ناشئا عن قصور فى الطبيعة او الملكة الفنية ، وارى فى هذه الظاهرة دلالة على رقابة اخلاقية ذاتية كانت ترى فى هذا اللون من الادب شيئا منافيا للقيم الخلقية ٠ ويتصل هذا التعفف عن هجر القول بقوة الوازع الدينى ايضا ، اذ لا مجال للشك فى ان الادب الاندلسى كان يتنفس فى جو مشبع بالثقافة الدينية التى لا يتمثل تاثيرها فى هذا الموقف من فن الهجاء وحسب ، بل هى تبدو فى كل مظاهرها ـ على نحو تطبيقى ـ فى اشعار الزهاد

الاتقياء امثال ابن ابى زمنـين وابى اسحاق الالبيرى وابى عمر الالبيـرى وابن العسال وعلى بن اسماعيل القرشى الملقب بطيطل وعشرات غيرهم ، كما تتجلى فى مواكبة الشعر لحركة الجهاد والتحريض على اليقظة ورد كيد العدو والقضاء على اسباب الفرقة والنزاع ، وهى رقابة شديدة الوضوح ايضا فى الاشعار التى تتحدث عن مشاعر الحنين الى الحجاز وفى المدائح النبوية وفى ادب الحكمة والادب المرصد للهجوم على التنجيم وعلى الفلسفة ، ومن امثلة هذه الاخيرة اشعار أبى الحسين بن جبير فى الغض من الفلسفة عامة وفى مهاجمة ابن رشد بخاصة . ففى هذه الفنون الشعرية جميعا كان الشعراء ينطلقون من مفهومات اخلاقيـة دينيـة .

2 ـ وثانى ضروب هذه الرقـابة : **الرقابة النقدية** ، وذلك أن النقـاد البارزين فى الاندلس ـ باستثناء أمثال ابن شهيد وابن سعيد ممن كان يحتكم الى بعض المبادىء الجمالية فى النقد ـ كانوا أخلاقيين فى نظرتهم الى الشعر ، وفى مقدمتهم ابن حزم ، فقد منح ابن حزم الشعر أقوى ما يمكن أن يمنحه مفكر من تأثير وقدرة فى الميدان الاخلاقى وعين لكل فن من فنونه أثره الخاص به ، فالاغزال والرقيق تدعو الى الفتنة وتحض على الفتوة وتصرف النفس الى الخلاعة واللذات وتسهل الانهماك فى الشطارة والفسـق ؛ واشعار الحرب وذكر التصعلك تهيج الطبيعة وتسهل على المرء موارد التلف فى غير حق وربما أدت بالمرء الى هلاك نفسه بعد أن تهون عليه الجنايات والشرة الى الظلم وسفـك الدماء ؛ واشعار التغرب وصفات المغاوز تسهل التحول والتغرب ، وشعر الهجـاء أشد ضروب الشعر افسادا لانه يهون على المرء كونه فى حالة أهل السفه المتكسبين بالخماسة وتمزيق الاعراض وانتهاك الحرمات وفى هذا حلول الدمار فى الدنيا والآخرة ؛ والمدح والرثاء مباحان مكروهان : مباحان اذا ذكرت فيهما الفضائل ، مكروهان اذا أسسا على الكذب ، ولا يتبقى من الشعر بعد ذلك مما يمكن أن يثير النفس الى الخير الا الشعر القائم على الحكمة الداعى الى الفضيلة (4) .

ومع أن ابن حيان مؤرخ لا ناقد أدبى ، فان بعض تعليقاته العابرة تدل على أنه كان ينظر الى الشعر بنفس الروح الاخلاقية الصارمة التى كان ينقد بها مجتمعه حينئذ ، ويقيس بها تصرفات الافراد ، من ذلك أنه أورد قصيدة لابن شهيد حض فيها المعـتد

المروانى على التنكيل ببعض أهل بلده ، فقال ابن حيان فى التعليق عليها : « وهى قصيدة ذميمة المعانى استهدف بها الى سفك دماء المسلمين ٠٠٠ ما أحسن فيها ولا أغرب ، بل أعرب عن سقم يقينه ورقة دينه (5) » ، وكأن ابن حيان فى تصريحه هذا يرى أن الذى حط من قيمة القصيدة هو مضمونها اللاأخلاقى مهما يكن حظها من جمال الشكل ٠

وقد كان هذا المقياس الاخلاقى فى أساس نظرة ابن بسام الى الشعر ، فانه عندما كتب كتابه « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » قرر أن يبرىء الكتاب من ايراد شعر الهجاء القائم على الهجر والسباب المقذع ، وكلما مر بشعر يستشف منه مس النواحى الخلقية والدينية ـ اضطرته ضرورة المثيل لايراده ـ علق عليه بشدة ، كذلك فانه وقف موقف الكاره لطغيان الافكار الفلسفية على بعض ضروب الشعر ، رغم اعجابه بالمتنبى والمعرى (6) ٠

ولا يختلف موقف الفيلسوف ابن رشد عن موقف هؤلاء النقاد من حيث نظرته الاخلاقية الى الشعر ، وهو فى ذلك متأثر على نحو مباشر بافلاطون ، فاذا تحدث عن كيان الجمهورية الفاضلة رأى أن تستبعد أشياء كثيرة من الشعر العربى وخاصة الشعر الذى يمجد أعمال الطغاة قال : « وقد رأيت كثيرا من الشعراء ممن نشأوا فى تلك الدول يؤثرون هذا النوع من الحكم (يعنى حكم الطغاة) يظنونه الهدف الاسمى ، وأن فى روح الطغيان تفوقا ، وهم ينصاعون لذلك الحكم » ٠ (7)

وحين يهاجم ابن خيرة المواعينى فى كتابه « الريحان والريعان » الفنون الزجلية ، يصدر فى ذلك عن موقف أخلاقى ، فهو يصف الزجل بالغثاثة وانه انما يعتمده « البطليون » بالفاظ عامية لافهام الجهال ٠ (8)

ومع أن الادب الاندلسى ـ كما هو متعارف ـ أسرف كما وكيفا فى التوجه الى الجانب الجمالى ، مما يعد ردا عمليا قويا على هذا الموقف النقدى الاخلاقى ، أقول : مع ذلك كله فقد كانت لهذا التيار النقدى آثار يجب ألا نغفلها ، منها : تعميق الاتجاه الى أدب الزهد والحكمة والادب التعليمى والدينى والمدائح النبوية ، وربما ساعد على تمهيد الجو للتصوف ورفض العلاقات الانسانية ٠ ولعله ـ مع عوامل أخرى ـ مسؤول عن خلق احساس مقاوم للشعر ، يبدو ذلك فى قول ابن بسام فى مقدمة كتاب الذخيرة « وانما أكثره (أى

الشعر) خـــدعة مختال ، جـــده تمويه وتخبـــيل ، وهزله تدليـــه وتضليـــل ، وحقائق العلوم ، أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم (9) ، كما يتضح فى قول القائل : « الشعر خطة خسف » (10) ورغم أن ابن خفاجة يقدر الشعر ويعده « من خلال الجلة ، وحلية النبلاء العلية » الا أن اليقظة الاخلاقية هى التى جعلته يهجره : « فأضربت عنـه برهة من الزمان طويلة اضراب راغب عنه زاهد فيه » (11) ويقول الرصافى ، رغـــم أنه من ابرز شعراء عصره (12) :

على أننى لا أرتضى الشعـر خطـة ولـو صيرت خضرا مسارحى الغبرا

كفى صنعة بالشعر أن لست جاليا الى بـه نفعـا ولا نافعـــا ضـــرا

ثم ان هذا التحرج الاخلاقى هو الذى حدا بعدد من المؤلفين الى اسقاط نماذج كثـيرة من الشعر الاندلسى وعدم ادراجها فى مؤلفاتهم ، لانها تنافى المقاييس الاخلاقية المعتمدة، وليس ابن بسام فى استبعاده شعر الهجاء المقذع الا مثلا واحدا من عدة أمثلة ، فقـد لاحظ الاستاذ محمد الفاسى أن ابن عبد الملك المراكشى صان كتابه « الذيل والتكملة » عن شعر المدح للملوك والامراء وأعتنى بقصائد الرثاء لانه يرى أنها تعبر عن عواطف صادقة (13) ، والامثلة على ذلك كثيرة . غير أننا يجب أن نذكر أن الرقابة النقديـــة ليست سلطوية ، أعنى أنها ليست لديها القدرة على أن تفرض ما تريـد أو ما تختص بالايثار ، وذلك لان فى النقد الجمالى بالاضافة الى العوامل الاخـرى قوة مضادة تضعف من تاثير التيار الاخلاقى أو تحد منه ؛ وحين نتذكر المدرسة الاخلاقية علينا أن نتذكـر ازاءها النقاد الجماليين أمثال ابن شهيد والشقندى وابن سعيد ، وأن نتذكر التيـــار الجمالى المتمثل فى مؤلفات كثيرة مثل كتب التشبيهات و « حديقة الارتياح الى وصـف الراح » لابى عامر ابن مسلمة و « الحدائق » لابن فرج الجيانى و « البديع فى وصـف الربيع » لابى الوليد اسماعيل بن عامر الحميرى ، وغيرها مما يجرى مجراها ؛ غير أن هذا لا يمنعنا من أن نقول : ان الرقابة النقدية حين تتضافر مع غيرها من أنواع الرقابة ، لا بد ان يكون لها أثرها فى توجيه الشعر .

3 ــ وثالث ضروب هذه الرقابة : **الرقابة الرسمية** ، وتختلف درجاتها ــ قـــوة وضعفا ــ بين عصر وآخر ، وتتدخل فى ابرازها أسباب مختلفة كذلك ، من أهمها العنصر

الاقتصادى ٠ واذا نحن استثنينا الادباء الذين ذهبوا ضحية الصراع السياسى ـ وقد تلبس كثير من أدباء الاندلس بالطموح الى المناصب والتنافس الحاد من أجلها ، مثل المصحفى وأبى مروان الجزيرى وابن عمار وأبى جعفر ابن سعيد وكثيرين غيرهم ـ اذا نحن استثنينا هؤلاء وأمثالهم وجدنا أن طبيعة الاوضاع فى الاندلس لم تكن ترحب بالدور الانتقادى الذى يستطيع أن يقوم به الشعر لسببين متداخلين : أولهما اعتبار النظام أيا كان لونه مصدر حماية للاندلسى الواقف على حافة الخطر ، فالانتقاد فى مثل هذه الحال من وجهة النظر الرسمية ـ مهما يكن بناء ـ يعد تنكرا للمؤسسة القائمة بالحماية ؛ وثانيهما : خشية المؤسسات من صوت النقد لانه يفتح عليها بابا من القلق الداخلى فيما هى مشغولة (حقا أو باطلا) بالاخطار الخارجية ؛ وهكذا بدلا من أن يصبح الادب أو الشعر مصدر توعية وكشف للاخطاء ومصارحة ونقد للفساد الاجتماعى والسياسى ، نجم عن هذه الرقابة الرسمية أمران خطيران أولهما : خفوت صوت النقد لنظام الدولة وسياستها ، وزاد من ذلك ارتباط الشاعر ـ من جراء الحاجة الاقتصادية بالفرد المتسلط أو بالنظام المهيمن ، وثانيهما : اندفاع الشعر بقوة أشد نحو منطقة المتعة والارتياح الى اللهو ، لان هذه المنطقة لا تبلغها ـ فى الغالب ـ سياط الحاكمين ، بل لعل كثيرين منهم يشجعون عليها ، لانها تريحهم من سماع صوت النقد ٠

وحين فقد الشاعر دوره فى التمرس بالمشكلات السياسية والاجتماعية ووجد أن رزقه متصل برضى أصحاب السلطان والنفوذ سلك بشعره مسالك تؤمن له شيئا من الرزق وتبعده عن نقمة السلطة فاتجه وجهة التسويغ « والتبرير » لكل ما يصدر عن أولئك السادة ، وحسبنا أن نذكر كيف أن المعتضد العبادى غرس من رؤوس أعدائه حديقة « جمة عدد الصفوف المسطورة » فما كان من صاعد البغدادى ، وهو مشرقى هاجر الى الاندلس ، الا أن يقول فى تصوير جمالها ٠ (14) :

جلاء العين مبهجة النفوس حدائق أطلعت ثمر الرؤوس

ولم يكتف الشاعر بأن يكذب من الزاوية الجمالية ، بل أخذ يكذب على الواقع والتاريخ ، فيصور الضعف بصورة قوة ، ويجعل من الهزيمة انتصارا ؛ وتعرض هنا أبيات قالها أبو بكر الدانى يسوغ فيها ما كان يدفعه المعتمد من ضريبة للاذفونش ، فيقول (15) :

في نصرة الدين لا أعدمت نصرته — تلقى النصارى بما تلقى فتنخدع
تنيلهم نعما في طيها نقم — سيستضر بها من كان ينتفع
لا تخبط الناس عشوا عند مشكلة — فانت أدرى بما تاتي وما تدع

مما أثار ابن بسام وجعله يعلق على هذه الابيات بقوله : « وهذا مدح غرور ، وشاهد زور ، وملق معتف سائل ، وخديعة طالب نائل ، وهيهات ! بل حلت الفاترة بعد بجماعتهم ، حين ايقن النصارى بضعف المنن ، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن ، واضطرمت في كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ، ومن أخطأه القتل منهم فانما هو بأيديهم سبايا ، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا ... » (16) وبفقدان هذا الدور الهام انبهمت الرؤية الصحيحة أمام عيني الشاعر ، فأصبح في حقيقة الامر ـ وخاصة في عصر ملوك الطوائف « يكرس » الانقسامات بدلا من أن يدعو الى وحدة . حتى غدا تامين مورد الرزق هو الغاية الكبرى لديه ، ولذا لا نعثر في ذلك الشعر على أي حنين لعهد « الجماعة » الا ما يقع من ذلك في تاريخ ابن حيان .

وعلى كل ذلك ، فان هذا الضرب من الرقابة الذي كانت آثاره السلبية أشمل بكثير من آثاره الايجابية ، فقد استطاع (بطريق رد الفعل) أن يلد موقفا أخلاقيا ثائرا ، ففي وسط ذلك الظلام نستطيع أن نرى أضواء متناثرة هنا وهناك ، تدل على أن الادب الاندلسي لم يفقد دوره الالتزامي فقدانا كليا ، لا نزال نسمع ابن حيان يقول في نقد ملوك الطوائف ومن حطب في حبالهم : « ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم ، هم كالملح فيهم : الامراء والفقهاء ... فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا هذين بما لا كفاية له ، ولا ملخص منه ، فالامراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدوف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم ، خائض في أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية في صدقهم (17) » كما لا نزال نسمع شاعرا مثل السميسر يقول (18) :

ناد الملوك وقل لهم — ما الذي أحدثتم
أسلمتم الاسلام في — أسر العدا وقعدتم

وجـب القيـام عليكـم اذ بـالنـصـارى قمتـم
لا تنكـروا شـق العصـا فعصـا النبـى شـققتـم

والى هذا الوضع نفسه يمكن أن يرد ذلك الصراع الذى ذر قرنه بين الشعراء والفقهاء، اذ كان الفقيه فى أغلب العصور التاريخية بالاندلس ، يمثل تلك الرقابة الرسمية ، مثلما يعد فى نظر الشاعر منافسا خطيرا ، قادرا على أن يأكل الدنيا باسم الدين ، ويسد أمام الشاعر أبواب الرزق . والى انهيار دولة الشعر وسيادة دولة الفقه يشير الاعمى التطيلى ـ من شعراء عصر المرابطين ـ بقوله : (19)

أيـا رحمـا للشعـر أقوت ربوعه عـلى انهـا للمكرمـات منـاسـك
وللشعراء اليوم ثلث عروشهـم فـلا الفخر مختال ولا العز تـامك
فيا دولـة الضيـم اجملى أو تجاملى فقد أصحبت تلك العـرى والعرائك
ويا « **قام زيد** » أعرضى أو تعارضى فقد حال من دون المنى « **قال مالك** »

واذا كان الاعمى التطيلى يتحدث بموجدة رفيقة نوعا ، فان أبا بكر الابيض من شعراء عصر المرابطين أيضا قد هاجم الفقهاء دون ترفق بقوله : (20)

قل للامام سنـا الائمـة مالـك نور العيون ونزهـة الاسمـاع
لله درك مـن همـام ما جـد قـد كنت راعينـا فنعـم الـراعى
فمضيت محمـود النقيبـة طاهرا وتركتنـا قنصـا لشر سبـاع
أكلوا بك الدنيـا وأنت بمعزل طاوى الحشـا متكفت الاضـلاع
تشكوك دنيـا لـم تزل بك برة ماذا رفعت بهـا مـن الاوضاع

وقال أيضا ، وتنسب لغيره : (21)

أهـل الرياء لبستـم ناموسكـم كالذئب يدلـج فى الظـلام العـاتم
فملكتـم الدنيا بمذهب مالـك وقسمتم الامـوال بابن القاسـم
وركبتـم شهب البغال بأشهـب وبأصبـغ صبغت لكـم فى العالم

2 ـ الادب الاندلسى فى اندفاعه نحو المتعة :

أقبل الادب الاندلسى على كثير من الموضوعات المتصلة بالمتعة ، سواء أكان التعبير عنها يمثل ممارسة عملية أو حلما غايته ابراز المقدرة الفنية، من ذلك الغزل بالمؤنث والمذكر والقول فى المجون ووصف الطبيعة ووصف القصور والتماثيل والبساتين والمتنزهات ومجالس اللهو ومجالس الخمر ووصف الخمر والساقى والساقية وحفلات الغناء والتفنن فى حوك الشعر والرسائل على ألسنة الازهار ، وازجاء المراسلات الاخوانية شعرا ونثرا ، فى دعوة أو شكر على هدية أو فى شفاعة (ولنترك جانبا رثاء الاشخاص والمدن والدول التى تزول) ، وفى هذه الموضوعات كان الاندلس يجد منطلقه الواسع ورضاه الذاتى . ولم تكن الرقابة الرسمية هى العامل الوحيد الذى قوى الاندفاع فى هذه الوجهة ، بل تضافرت على تشجيع ذلك عدة عوامل فى مقدمتها البيئة الاندلسية نفسها وبنية المجتمع الاندلسى ، فقد كان الاديب أو الشاعر يستلهم فى ما يكتبه طبيعة جميلة ذات أنهار كثيرة وتنزهات جميلة ، كما يخضع فى الهامه الى مستوى حضارى مدينى قد نأى عن البساطة واتجه تدريجيا نحو المواضعات المعقدة ، كما يستمد مادته من مجتمع يكثر فيه الرقيق الصقلبى وغير الصقلبى من الجنسين ، وتشيع فيه الخمرة ، وانواع الملهيات ، وتجرى فيه الاحتفالات الخاصة بمواسم العصير ، ويكثر التفنن فى الازياء والاطعمة ، وتمتلىء الحياة بالموسيقى والغناء والرقص ـ مظاهر اضطرت الفقيه أحيانا الى أن يقر بها أقراره بأمر واقع ، محاولا وحسب الحد من انتشار شرها ؛ فهذا ابن عبدون لا يوصى بمنع الشرب فى الاعراس وانما يقول : « يجب أن يؤخذ سلاح الشبان عند اقبالهم الى العرس قبل أن يشربوا ، واذا ظفر بالمعربد كتف واهبط الى صاحب المدينة يؤدبه ويسجنه » ؛ (22) ويقول أيضا فى النساء الخراجيات ـ وهى فئة لم تكن فوق الشبهات : « يجب أن ينهى نساء دور الخراج عن كشف رؤوسهن خارج الفندق » (23) وعن شدة شيوع الغناء اكتفى بايراد ما قاله أبو طاهر التجيبى : « كنت بمدينة مالقة من بلاد الاندلس سنة ست وأربعمائة ، فاعتللت بها مديدة انقطعت فيها عن التصرف ... وكنت اذا جننى الليل اشتد سهرى وخفقت حولى أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية ... لغلبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم » (24) .

ان كثيرا من الموضوعات التى انصرف اليها الشعر ليس مما يقف مباشرة على النقيض

من النزعة الاخلاقية ، بل ان بعضها موضوعات تتصل بالحياة الانسانية والطبيعة الانسانية اتصالا لا انفكاك له ، ولكن موطن الخطر - فيما هو لا أخلاقى منها وفيما هو لا يتعارض والمقاييس الاخلاقية - ان الاسراف فيها يحجب الرؤية الصحيحة لما قد يكون أهم منها فى ظرف دون آخر ، ومع الاقرار بأن الاديب الاندلسى كان عاجزا عن تجاوز واقعه ، فى أغلب الاحيان ، فان تجاوز ذلك الواقع كان يغدو ضروريا بل واجبا قوميا ٠ فقد يبتدىء قائل بقوله : ان الاندلس دار جهاد ، ولهذا كان من الضرورى أن تبقى فيها الروح الحربيةقوية ، ومثل هذا الاندفاع نحو الوان المتعة يقتل تلك الروح أو - على الاقل - يضعفها ؛ وهذا ابن بسام يقول فى حديثه عن معركة بطرنة : « فأناخت تلك القطعة يومئذ ببلنسية سنة ست وخمسين وأربعمائة وأهلها جاهل غر، أو مترف « مغتر، أو غفل » لا خير ولا شر ، قد أخلدوا الى شهواتهم ، وانخدعوا باغضاء الدهر عن عوراتهم لا عهد لهم بصريع الا من كأس شمول ، أو لحظات أعين كحيل» ٠٠٠(25) ؛ أى أن بن بسام يقول ان الذين اندفعوا الى معركة بطرنة ، كانوا رغم حماستهم يفتقرون الى روح المقاتل وحسن استعداده وأن ذلك راجع لانقيادهم الى حياة الترف التى أدت الى فقدان القدرة على القتال لديهم ٠ ولكن يجب أن نتوقف هنا قليلا لنسأل : هل تم ذلك بتأثير الادب الاندلسى أو نجم عن نوع الحياة الاجتماعية ؟

واذا كان للادب ضلع فى ذلك فما هو مدى مسؤوليته ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال ، لابد أن نحدد مدى انطلاق الادب الاندلسى ، فى الاتجاه اللا أخلاقى ولنختر لذلك شعر المجون (ولندع الغزل بالمذكر جانبا لانه موضوع شائك) ٠ ان الدراسة الدقيقة لهذا اللون من الشعر تؤكد أن ليس فيه اصرار على التبذل من أجل التبذل نفسه، ليس فيه اتخاذ المجون مذهب حياة الى جانب اتخاذه ألهية أدبية، وتوضيحا لذلك أقول ليس بين شعراء الاندلس شاعر من طراز ابن حجاج وابن سكرة وصريع الدلاء وغيرهم ممن لم يجدوا لمواهبهم متنفسا الا فى هذا اللون من الادب ؛ وهنا يجب أن نفىء الى قوة الانموذج والميل الى المحاكاة ، فقد غلب الانموذج المشرقى على الشاعر الاندلسى حتى ليصعب على الدارس أن يعرف ان كان الشاعر الاندلسى يعبر عن واقع محلى أو يحاكى نموذجا أدبيا مشرقيا محض محاكاة ٠ ان هناك من الاسباب ما يحمل على الاعتقاد بأن

ابن زيدون لم يكتب رسالته الهزلية الا محاكاة للتربيع والتدوير ، وأن ولادة لم ترهـا ، وأن ابن عبدون لم يتسلمها ، وهناك من الاسباب ما يسوغ لى أن أقول ان أبا جعفـر ابن الابار (26) حين يقول قصيدة فى المحب المتعفف والى جانبها قطعة أخرى فى الفتك والاباحية انما كان يحاول ابراز براعته الادبية وتفننه الشعرى ، وحين تقرأ قطعـة مجونية لابن حص الاشبيلى ثم نجده يقول فى آخرها : (27)

لم أنل من كل ما فهت به غير التمنى   انما الشعرفكاهاتوحسبىحسنظنى

ندرك أنه يتعابث ، ويجد فى العبث ملحة وطرافة ٠

ونحن نعلم كذلك أن الاندلسيين قد أخذوا عن المشارقة فكرة لعل الجاحظ كان أول من دعا اليها فى ميدان التأليف وهى الخروج من الجد الى الهزل والاخذ فى الاحماض ترويحا للنفس واجماما لها (28) ، ومثل هذا الاعتقاد يجعل شعر المجون ضرورة فى غذاء النفس الانسانية ، لانه عامل هام لا فى افساد الاخلاق بل فى التنشيط الى استئناف الجد وتحمل الاعباء الثقـال ٠

وعلى الرغم من تأثر شعر المجون بالمشارقة ، فان البحث المتعمق قد يؤدى الى اكتشاف سمات أندلسية خالصة فيه لا أعنى من حيث اختلاف طبيعة الفكاهة عند كل من المشارقة والاندلسيين ، بل من حيث اتخاذ هذا الفن مفهوما خاصا بالاندلس ٠ وخير من نحتكم اليه فى هذا المجال ناقد جمالى أندلسى ، هو ابن شهيد ، فانه حين زار ديار الجن فى رسالـة التوابع والزوابع وقابل جن أبى نواس طلب اليه هذا الجنى أن ينشده شيئا فى المجون ، فأنشده ابن شهيد القطعة التالية من شعره : (29)

ونـاظرة تحت طـى القنـاع   دعاهـا الى اللـه والخـير داعى
سعت باينهـا تبتـغى منـزلا   لوصـل التبتـل والانقطـاع
فجـاءت تهـادى كمثـل الـرؤم   تراعى غـزالا بأعـلى اليفـاع
أتتنـا تبختـر فى مشيهـا   فحلـت بـواد كثـير السبـاع
وريعت حـذارا عـلى طفلهـا   فناديت يـاهـذه لا تـراعى
غزالك تفـرق منـه الاسـود   وتهرب منـه كمـاة المصـاع

قــولت وللمســك مـــــن ذيلهـــا عــلى الارض خط كظهــر الشجـــاع

وحين نتأمل هذه القطعة لا نستطيع أن نقول أنها ليست مجونية ، فالمجون فيها يعتمد على المفارقة بين غاية المرأة وغاية أولئك الذين يرصدون خطواتها ، وهى تؤم مكانـــا للعبادة ، فى تلك المفارقة القائمة بين عدم خشية المرأة على نفسها ـ رغم جمالها ـ وخوفها على ابنها ، ثم فى تلك الحقيقة الهزلية وهى أن ذلك الذى تفرق منه الاسود لا يستطيع أن يحمى أمه فضلا عن أن يحمى نفسه ؛ غير أننا لا نجد فيها كلمة واحدة تخدش وجــه اللياقة ، ولعل اقدام ابن شهيد على ايرادها بمحضر أبى نواس انما كان تحديا منه لشاعر مشهور بالمجون ، وذلك ليثبت له أن المجون قد يكون فنا سليما دون أن يضطر الى التبذل فى الالفاظ والصور ·

ولست أزعم أن كل المجون فى الاندلس كان على هذه الشاكلة ، ولكن اختيار هــذه القطعة دون غيرها انما كان يدل على ذوق اندلسى خاص فى مواجهة الـــذوق المشرقى · وتتغير صورة المجون ـ فى الاندلس نفسها ـ حين يغطى الافحاش اللفظى على قيمة النكتة الجميلة والدعابة الذكية ، ثم تستحيل تلك الصورة الى نقيض ما صورته قطعة ابن شهيد حين تنضح بالفجاجة وانعدام التحرج والسوقية ، وذلك فى الادب الشعبى أو الازجال ، فهناك يصبح الغلو فى المجون هو الظاهرة المتميزة ·

ولكن أيا كان موقع الادب المجونى الاندلسى بين طرفى الاعتدال والغلو ، فان درجـة الاستهتار فيه كانت اجتماعية ، أعنى أنه كان يمثل روغانا من الحدود الدينية لا تحديـا لها ، وتفكهة بها لا ثورة غاضبة عليها ، وهذا قد يجرئنا على القول بأننا قلمـا نصادف فى الشعر المجونى الاندلسى قطعة (30) كهذه التى قالها أحمد بن محمد بن طلحة مـــن شعراء عصر الموحدين ، مجاهرا متحديا : (30)

يقــول أخــو الفضــول وقــد رآنا	عــلى الايمـــان يغلبنـا المجـــون
أتنتهكـــون شهـر الصـوم هـلا	حمـــاه منكـــم عقـــل وديـــن
فقلـت اصحب سوانا نحـن قــوم	زنادقـــة مذاهبنـــــا فنـــون
نديـن بكـــل ديـن غـــير ديـــن	الرعــــاع فما به أبـــدا نـديـن
فحيى عـــلى الصبوح الدهر ندعو	وابليس يقـــول لنـــا أمـــين
أيا شهـــر الصيـام اليـــك عنـا	اليــك ، ففيك أكفــر ما نكـون

واذا كان هذا الموقف نادرا أو غريبا على الشعر الاندلسى ، فان نتيجته لم تكن غريبة فى المجتمع الاندلسى نفسه ، ذلك لان سوط الرقابة لم يترك ابن طلحة لينجـو دون عقاب ، وكان عقابا صارما ، اذ أرسل اليه من هجم عليه : « واظهر ارضاء العامة بقتله » وقد يكون ارضاء العامة ستارا لمآرب شخصية أو قناعا لتصرف سياسى ، ولـــكن مهما يكن من شىء فان تلك « العامة » التى كانت تجد ارتياحا نفسيا الى أشد ألوان المجون تهتكا فيما تردده من ازجال ، كانت بطبيعتها تدرك الحد الفارق بـــين المتعة بالشعـــر والتخطى العملى للحــــدود والاعراف ، ويحدثنا ابن سعيد عن موقف العامة باشبيلية من الشاعر ابى بكر ابن العوام الاشبيلى بقوله : « وبلاه الله بحب المدام ، حتى خــــرج سكران فى شهر الصيام ، فكادت العامة تبيح دمه ... (و) رموه بالحجارة ، وطردوه من حارة الى حارة ، ... ولا أحصى كم لقيته فى طريق دير الروم وهو مطوى على حمار أو بغل ، يحمل كما يحمل الزبل ، لا يعقل سكرا ولا يبالى حمل ذما أو شكرا » . (31)

4 ـ مدى مسؤولية الادب الاندلسى فى افساد الاخلاق ثم فى الانهيار الحضارى :

الى هذا الحد حاولت أن أدرس الادب الاندلسى فى حالتى الانضباط الاخلاقى والاندفاع نحو المتعة الذاتية ، وقد تجلت من خلال هذه الدراسة أوليات لابد أن تظل فى الذاكرة عند الانطلاق الى صعيد آخر فى هذا البحث ، منها أن الادب الاندلسى لم يكن سائبـا سادرا دون ضوابط أخلاقية ، وأن أدب المتعة نفسه كان يقصد به أحيانا الى كشف جمال الكون (كوصف الطبيعة) وأن بعضه الآخر كان تقديرا للذكاء والمهارة الانسانيتين (كوصف القصور والتماثيل) وأن قسما ثالثا منه كان نقلا لمشاعر انسانية سليمـــة (كالغزل العفيف) وانه حتى فى بعض صوره الماجنة كان معوانا على الجد ، ومن ثمة استطعنا أن نقول انه لم يكن ـ فى الاغلب ـ يقصد التبذل من أجل التبذل فى ذاته ؛ وعلينا أن ننطلق من هذه المفهومات الاولية الى الاجابة عن سؤالين :

أولهما : الى أى درجة كان الادب الاندلسى فاعلا مؤثرا ؟

والثانى : من خلال ذلك التاثير : ما هو دوره فى الوضع الحضارى الاندلسى ؟

ولعل الاجابة على السؤال الاول واضحة مباشرة ، فان القصص التى تحكى عن تاثير الشعر فى المجتمع المشرقى والمغربى أكثر من أن تحصر ويكاد كل واحد يذكر كيف بكى علقمة بن علاثة حين سمع قول الاعشى فيه :

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

وكيف كاد معاوية يفر فى معركة صفين لولا أن تذكر قول عمرو بن الاطناية :

أبت لى همتى وأبى بلائى وأخذى الحمد بالثمن الربيح

واجشامى على المكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح

وفى الاندلس أخبار كثيرة عن الغضب الذى كان يجتاح نفس المهجو ، وعن اهتزاز النفوس اعجابا بقصيدة ، وعن مطارحات شعرية تستغرق اهتمام الجمهور وتملك عليه انتباهه ، وحين طغى ابن النغرالة وزير الصنهاجيين بغرناطة وحكم ا ليهود فى شؤون الجباية وغيرها نظم الشاعر الزاهد أبو اسحاق الالبيرى قصيدته ، ومطلعها (32) :

ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور الندى واسد العرين

وفيها يقول :

وانى احتللت بغرناطة فكنت أراهم بها عابثين

وقد قسموها واعمالها فمنهم بكل مكان لعين

وهم يقبضون جباياتها وهم يخضمون وهم يقضمون

وهم يلبسون رفيع الكسى وأنتم لأوضعها لابسون

فكان رد الفعل المباشر لهذه القصيدة ثورة شعبية عارمة ، خلصت الناس مما كان ينالهم من جور واضطهاد • ومن الممكن أن يستمر الدارس فى ايراد الامثلة للدلالة على مدى تاثير الادب فى المجتمع الاندلسى وفى تشكيل الاذواق وفى الحركة الحضارية عامة ، وقياسا على الامثلة السابقة من ردود الفعل يمكن أن يقال ان أى أدب يدعو الى الانحلال الخلقى ـ اندلسيا أو كان أندلسى يمكن أن تكون له ردود فعل مشابهة ؛ ولكن من خلال هذا التأثير ماذا كان دور الادب الاندلسى فى الوضع الحضارى ؟

يتحدد هذا الدور بثلاثة عوامل متداخلة هى منزلة الاديب فى المجتمع ، وطبيعة المجتمع الذى يتحدث اليه ذلك الاديب ، ومن لقاء هذين معا ، ينتج العامل الثالث هو : العرف القائم حول مفهوم مهمة الادب :

1) ـ اما عن منزلة الاديب فى المجتمع فلست أعنى به أن يكون الاديب ذا منصب سياسى أو وجود تسلطى (اقطاعى مثلا) أو جاه مستمد من شرف المحتد ، أو ما أشبه ذلك ، مما يستطيع الاديب ان يفرض به الادب الذى ينشئه أو يستحسنه على جمهور أوسع قاعدة ، واذا وجد ذلك فان وجوده آنى مؤقت وأثره مرهون بالزوال السريع ، ولكنى أعنى الى أى حد كان الاديب ذا شخصية متميزة تفرض وجودها عن طريق الايمان المتبادل بينه وبين مجتمعه : هو من حيث ايمانه بقيمة أدبه ، ومجتمعه من حيث شعوره بحاجته الشديدة الى ذلك الادب ؟ ومرة أخرى نصطدم بعقبة الفصل التحكمى بين الاديب والادب والمجتمع ، وهو أمر من العسير تصوره أو قبوله : أليست شخصية الاديب تعتمد أحيانا على مدى ثورته على مجتمعه أو اتساقه معه أو خضوعه لمتطلباته الآنية ؟

أليست تعتمد على مدى اكتفائه ، وان شئت قلت ـ متجوزا ـ على مدى « استقلاله » الاقتصادى ؟ ولعل فى ما قدمته من قول ما يجيب عن هذا التساؤل وخاصة عن ذلك الارتباط العبودى بين شخصية الاديب والقمع ، وبين شخصية الاديب والحاح متطلبات المعيشة ، وبين شخصية الاديب وغيره وبين شخصيات المجتمع التى تنتسب الى فئة المثقفين . ولست أود أن أكون مثاليا فاقول : ان الاديب الاندلسى لم يكن يملك القدر الضرورى من الحرية ، اذ أن هذا القدر لا يمكن تحديده ، ولن أقول انه كان عاجزا عن « تحقيق ذاته » ولهذا كان غير قادر أن يجعل شخصيته الادبية ذات فاعلية عميقة شمولية ، يكفى أن أقول ان كثيرا من العوامل قد تضافرت لتجعل الاثر النابع من شخصيته وموقفه ضعيفا ، ومن ثم أن يكون ذلك ذا أثر فى اضعاف الدور الحضارى المرجو للادب ، ومن خلال الامثلة المتنوعة للشخصية الادبية دعنا نستحضر بعض النماذج التى يمكن لاى واحد أن يقرر حقيقة تأثيرها فى المجتمع : كاتب الدولة المرتبط برجل الدولة ، الشاعر المتزهد فى صومعته ؛ الشاعر الماجن ؛ المداح المنتجع ؛ المداح الحيى

الذى يبعث بقصائده من موضـــع اقامته ليأخذ العطاء دون مواجهة ، الى غير ذلك من صور ، كلها يشير الى موطن الضعف فى التأثير ٠

2) ـ اما اذا أردنا أن نتحدث عن طبيعة المجتمع نفسه فيجب أن نتذكر أمـــورا كثيرة منها سعة الرقعة الاجتماعية التى يتوجه اليها الادب ، ودرجة الوعى الثقافى فى تلك الرقعة ، وطبيعة التقبل وردود الفعل ازاء الادب ، وليس من السهل أن نتبـــع طريق البحث المستفيض عن هذه النواحى فى هذا المقام ؛ وحسبنا أن يقـــال ـ ما دام الحديث عن الاندلس ـ ان المجتمع الاندلسى لم يكن يتميز بأمور حاسمة عن سائر اجزاء المجتمع ، فى بقية اجزاء العالم الاسلامى ، من حيث نسبة عدد المثقفين الى غير المثقفين ؛ وأغلب الظن ان هذه النسبة لم تكن كبيرة ، وان القطاع المثقف كان كثيرا ما يستعلى على الوسائل الادبية التى تخاطب القطاع غير المثقف ، وان ذلك كان يحد من مدى شيـــوع الادب الكلاسيكى ، ويجعل الادب الشعبى أكثر فعالية فى التوجيه والتأثير (وهـــو أدب ضاع معظمه ولم نعد نملك الشواهد التى نستمد منها الحكم على حقيقة دوره) ٠ واذا شئنا أن نعطى للقطاع المثقف سمة فارقة ـ ولو على التعميم ـ وجدناه ذا صبغـة دينية فقهية لغوية ، وان استجابته للادب الكلاسيكى كانت قوية ، ولكنها كانت استجابة محدودة أيضا ٠

3) ـ فاذا تناولنا العرف القائم حول مفهوم مهمة الادب رجعنا الى ما قررناه مـن قبل ، وهو ان الشعر كان فى أغلب الاحوال يمثل عند المنشىء والمتلقى ، عند الشاعـر والجمهور ، أداة من أدوات التلهى ، كان نوعا من النشاط المتفاعل المريح للفريقين ، ولم يقترن برسالة اصلاحية ، الا على نحو نظرى خالص فى أذهان بعض النقاد الاخلاقيين ؛ حتى هؤلاء النقاد الذين حددوا الجانب السلبى من تأثير ، لم يحددوا دوره الايجابى ولا رسموا له طريقا الى ذلك ؛ بل أنهم حين حددوا دوره السلبى نفسه اكتفوا بانطباعات عامة مرسلة ، مستمدة من تخوف الواعظ واشفاقه ٠ ولم يحاول أحد منهم أن يقول لنا على نحو واضح ان كان هنالك أدب يدعو عن وعى عامد الى الانحلال الخلقى ، ومن حقنا اذن أن نسالهم : فى مثل تلك البيئة ذات الصبغة الدينية : أليس يكون تأثير ذلـــك

النوع من الادب ـ ان وجد ـ عكسيا ، وذلك بان يخلق جوا أخلاقيا مضادا ، حريصا على سلامة القيم الاخلاقية ؟

وحين تنبهم الرؤية للدور الحقيقى للادب ، ويوجه نحو قطاع صغير فى مجتمع كبير يصبح دوره هامشيا ، واذا كانت فى الادب الاندلسى جوانب سلبية فلديه من الجوانب الايجابية ما يوازيها وربما يرجح بها ، فصوت الدعوة فيه الى الجمال والخير والحيوية قد يعلو على صوت الدعوة الى اليأس والتخاذل والاتكالية والرضى بالذل والاستكانة .

وعلى هذا قد يكون من الصواب الا نحمل الادب مسؤولية كبرى فى النهاية التى انتهت اليها الاندلس ، بل إن نرى فيه نشاطا انسانيا يتضافر مع سائر ضروب النشاط الانسانى من فكرية وتنظيمية واقتصادية وعسكرية ودينية ، وانه مرتبط متلاحم معها، يعكس الواقع ويقدم العون ، ويصاب بالمد أو بالجزر بحسب مد تلك النشاطات وانحسارها .

ان تغير نظرتنا اليوم الى مهمة الادب يدل على ادراكنا لخطورة دوره فى حركة الحضارة، ولكن هذه النظرة انما مهد لها التغير الاجتماعى والفكرى الذى مارسه مجتمعنا تحت تأثير التطور والتفاعل الحضاريين ، فأدبنا بكل صوره يتحدث الى مجتمعنا كما كان الادب الاندلسى يتحدث الى مجتمع اندلسى ؛ ومن قضايا الدور أن يقال : هل يتغير الادب بتغير المجتمع أو يكون الادب عاملا فى تغير المجتمع ؟ هما أمران مستمران فى التناوب والتفاعل ما دامت الظاهرة الواحدة تصلح أن تكون سببا ونتيجة فى آن معا .

مصادر الدراسة

1 ـ ابن رشيق : العمدة 1 : 30 (تحقيق محى الدين عبد الحميد ، بيروت 1972) .

2 ـ ابن عبد ربه : العقد : 281 (تحقيق أحمد أمين ورفيقيه ، القاهرة 1965) .

3) Tolstoy : What is Art p. 252 (Oxford University, Press, 1938)

4 ـ ابن حزم : رسائل ابن حزم الاندلسى : 65 ـ 67 (تحقيق احسان عباس ، القاهرة 195-) وانظر احسان عباس : تاريخ النقد الادبى : 487 ، بيروت 1972 .

5 ـ الذخيرة ، القسم الثالث : 521 ـ 522 ، تحقيق احسان عباس ، بيروت 1975 .

6 ـ تاريخ النقد الادبى : 501 ـ 507 .

7 ـ المصدر السابق : 528 ـ 529 .

8 ـ المصدر السابق نفسه : 518 ـ 519 .

9 ـ الذخيرة 1/1 : 7 القاهرة : 1939 .

10 ـ المقرى : نفح الطيب 3 : 397 تحقيق احسان عباس ، بيروت 1968 .

11 ـ ديوان ابن خفاجة : 6 ـ 7 تحقيق السيد مصطفى غازى ، الاسكندرية : 1960 .

12 ـ ابن الابار : المقتضب من تحفة القادم : 56 تحقيق ابراهيم الابارى ، القاهرة : 1956 ، وديوان الرصافى البلنسى : 76 تحقيق احسان عباس ، بيروت 1960 .

13 ـ ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة 6 : 2 تحقيق احسان عباس ، بيروت : 1973 .

14 ـ الذخيرة : القسم الثانى ، الورقة : 10 (مخطوطة الرباط رقم 1324) .

15 ـ المصدر السابق ، الورقة : 50/أ .

16 ـ المصدر نفسه .

17 ـ الذخيرة ، القسم الثالث : 181 ، بيروت 1975 .

18 ـ الذخيرة 1/2 : 274 ، القاهرة 1942 .

19 ـ ديوان الاعمى التطيلى : 90 ـ 91 ، تحقيق احسان عباس ، بيروت : 1963 .

20 ـ أبو البحر صفوان : زاد المسافر : 113 تحقيق عبد القادر محداد ، بيروت 1939 .

21 ـ زاد المسافر : 113 ونفح الطيب 3 : 448 وتنسب فى المعجب للمراكشى : 235 (ط . القاهرة) لابن الينى .

22 ـ ابن عبدون : رسالة فى القضاء والحسبة (ضمن ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب) : 54 تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة 1955 .

23 ـ رسالة ابن عبدون : 50 .

24 ـ أبو طاهر اسماعيل بن أحمد التجيبى : المختار من شعر بشار : 15 تحقيق محمد بدر الدين العلوى ، القاهرة : 1934 .

25 ـ الذخيرة ، القسم الثالث ، الورقة 233 (نسخة الخزانة الحمزية) .

26 ـ ترجمة أبى جعفر بن الابار فى الذخيرة ، القسم الثانى، الورقة : 26 وما بعدها ٠

27 ـ الذخيرة ، القسم الثانى ، الورقة : 33 ٠

28 ـ نفح الطيب 3 : 315 ٠

29 ـ ديوان ابن شهيد : 124 ، جمع يعقوب زكى ، القاهرة : 1966 ٠

30 ـ ابن سعيد : اختصار القدح المعلى : 117 تحقيق ابراهيم الابيارى ، القاهرة : 1959 ؛ ولسان الدين ابن الخطيب : الاحاطة 1 : 247 تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة : 1955 والقطعة شديدة التحريف فى الاحاطة ٠

31 ـ أنظر الحاشية رقم 30 ٠

32 ـ ديوان أبى اسحاق الالبيرى : 151 ـ 153 تحقيق غرسية غومس، مدريد ـ غرناطة 1944 ، ونفح الطيب 4 : 322 ٠

دور الشعر والفن
في تعزيز أخلاق أمة أو انحلالها

صالح جودت
شاعر ورئيس تحرير المصور
ونائب رئيس مجلس ادارة
دار الهلال (القاهرة)



من زانها باللمحات الحسان ... ومن كساها الخز والطيلسان
ومن غذاها بعبير الربى ... ومن سقاها من عيون الجنان
ومن جلاها من سلاف النهى ... وصبوة الروح وسحر البيان
من زف للتاريخ أحلى الرؤى ... فبارك الرحمن هذا القران
ومن بنى لبنات العلا ... امجادها حتى غدت تلمسان
وأصبحت في الغرب زين القرى ... ونافست بغداد والقيروان ؟

والله ، لا السيف على بأسه ولا جلال الملك والصولجان
فكل هذا عرض زائل والفن والشعر هما الباقيان

* * *

من ادعى أنهما فتنة من عبث الليل ولهو الدنان
من أنكر الخير بمحياهما ومن قضى أن يؤد التوأمان ؟
لا تظلموا الفن بهذا القلى أو تصموا الشعر بهذا الهوان
فما جمال العيش لولاهما وراحة الروح وأنس الجنان ؟
وجهان من اشراقة الخلد لم يأت بأحلى منهما الا صغران
لو اغتربنا عن مغانيهما تقتلنا بعدهما الغربتان
هاما بنور الله زلفى ، كما هام بنور القمر الفرقدان
وحببا فينا ، كما حببت فى جنبات الكعبة الصخرتان

* * *

الفن ؟ عاش الفن تعويذة تضفى علينا لمسات الحنان
وتطرح الهم وتجلو الاسى وتجمع الاحباب تحت الكنان
الفن ، نستقبل من لطفه وجه الربيع الطلق فى كل آن
لولاه لم تخطر بنا فرحة ولا زها عرس ولا مهرجان
وسوف يبقى الفن ملء الدنى ويلبث الفنان ملء العيان
ما هدهد القلب صداح المنى وغرد الطير على غصن بان
وأودع الله اللهاة الشجى وألهم الابداع طرف البنان
ما أجدب الايام اما خلت من نغمات الكرد والاصفهان
وبئس ليل ما به آهة من أم كلثوم ومن اسمهان
ويا هوى (المالوف) اما استوت أنغامه فوق ثغور القيان

ويا هنـاء الـروح اما انتشـت ... برنـة العـود وسحر الكمـان
بعدهما تحمـو الليـالى كمـا ... تحلو صـلاة الفجر بعد الأذان

* * *

والشعر ؟ عاش الشـعر ارثابه ... يهـز عطفيـه ضمـير الزمـان
أبقى عـلى الفصحى ترانيمهـا ... ورد عنهـا اللهجـات الهجـان
يارحـم اللـه عكـاظا ، أمـا ... كانت لفرسان القـوافى الرهـان
وكانت الحجـة فى عهـدهـم ... وكانت المجمـع والبرلمـان
يقضون فيها مـن خلافاتهـم ... بالشعـر ما تعجـز عنه السنان
ويسدنـون البيـت فى رفعهـم ... للملحمات الغـر حـول السدان

* * *

الشعر ، لا الشعر الجديد الذى ... يطـول أو يقصر كالأ فعـوان
أضحى ، وقـد قصوا تفاعليه ... وهنا كصوت العبد بعـد الختان
تراه مـن عجمـة ايقاعـه ... يكـاد يحتـاج الى ترجمـان
ويقـرع على السمـع بلا غنة ... ويرسـل الوقـع بغير اتـزان
فشطر بيـت كلـه كلمـة ... وآخـر عدتـه كلمتـان
وثالـث يجـرى عـلى أربـع ... كالكلب أو كالقـرد أو كالأتان
ويلبس الالـوان مجلوبـة ... من عالم الصفـرة والارجـوان
مصدورة الوجـدان مأجـورة ... ممسوخـة الاصبـاغ كالبهلوان
يا عرب الدنيـا ألا فانفـروا ... وأنكروا بالله هـذا الرطـان
فالشعـر ما خلـد دستـوره ... خليلنا البصـرى عبـر الزمان
فـلا أبـو الطيـب ازرى بـه ... ولا ارتضى شـوقى له أن يهـان

يا رادة الاســـلام عفـــوا اذا — أدرت كأس الشعر حول الحـوان
ملأتها حبـــا فأسكرتكـــم — من صفوها الحلو الحلال الزيـان
أيهما أدنى لكـــم ؟ هل عمر الخيـــام أم كسرى أنـــو شـــيروان ؟
والمقرى الفرد ، هـــل نفحه — أبقى لكم أم نفح « يغمورسان » ؟
من قال ان الشعــــر أزرى بنـا — وبدد الملك وهـــد الكيـــان ؟
والله ما ازرت بنـــا محنــــة — فى الدهر الا الشعب حين استكان
أسلـــم للبـــاغى مقاليــــده — وانفلت البغى طليـق العنـــان
لا تظلموا الشعــــر ، فيا طالما — كان عـلى الطاغوت حربا عـوان
وطالما أحيــا مـــوات المـنى — وأشعل السيف بكف الجبـــان
وطالمــا جلجـــل فى قـومـــه — يحمى ذمـار الحـــق كالديدبان
قـــد يرجـع الملك الى ربــــه — وتنـتهى الهالـــة والهيلمـــان
ويذهـــب الجاه ويـــذوى الغنى — وينضب المــاء وتخلو الجفـــان
ويسقط الظالـــم عـــن عرشه — وتخمـــد النار ويفـنى الدخان
ويلبـــث الشاعــــر فى قبــره — حيا ويبقى الشعــر فى العنفوان

* * *

الشعر ان فات يـــدى انتـهى — حظى من الدنيـــا فمالى يـــدان
والله ما لى غـــير ايقـــاعــه — وسيلـــة ترجى بهـــا الحسنيان
وهبتـــه للـــه أرجـــو بـــه — كرامة العفـو وظـــل الأمـــان
نظمته مـــن وسوسات الحـــلى — وصغتـــه مـــن حدقات الجمـان
وسقتـــه أنشـــودة للهـــدى — وصنتـــه مـــن عثرات اللســـان
فان تفجـــرت ففى غضبـــــة — يرضى عليهـا اللـه والقبلتـــان
وفى سبيل الوطـــن المفتـــدى — وحسبة للـه يـــوم الطعـــان
وان تذللـــت فعـــن توبـــة — للـــه أتلوهـا بقلـب مـــدان

لعلـــني فى نــــدمى أجتــــلى　　رحمتـــــه ان تـــوزن الكفتـان
وان تهللت فعــن فـــرحـــة　　بنعمـــة الله رضى وامتنـــــان
فهو الذى .كـم رد عنى الـــردى　　ومـدلى فى العيش هـذا الليـان
وان تغزلـت فـلا عـن هـــوى　　للناعسـات الناعمــات اللـدان
وانمـــا تسبيحـــــة للــــذى　　استودع الحســـن وجوه الحسان

* * *

الشعر ، ما أدنـاه مـن عـــروة　　تربطنا امـا نـأى المشرقـــان
الشعر ، ما أغــلاه مـــن دعوة　　اما دعانا للفـــدا المعمعـــان
الشعر ، ما أحـــلاه مـــن ندوة　　ان ضمنا فى اللـه هـذا المكـان
مهما افترقنـا فى الـدنى بعده　　تظل فى أعمـاقنـا تلمســـــان

الشعرُ

دوره في أخلاق المجتمع ـ رأي الشريعة فيه

د. جعفر شهيدى
استاذ الادب العربى
بجامعة طهران
ـ ايران ـ



« والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا الى الله لهم البشرى فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب » صدق الله العظيم ٠

انه لمن دواعى الفخر حقا ان وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينيه فى هذا البلد الاسلامى العزيز ، قد وجهت عنايتها الى موضوع غاية فى الاهمية والخطورة ، كان له الاثر

الاكبر فى تلون العصور وتبدل الاحوال على مدى التاريخ الاسلامى ، فسجلته فى قائمة الابحاث التى يركز عليها البحث فى هذا الملتقى الاسلامى المبارك ، وهو موضوع الشعر والادب ودوره فى أخلاق الامة ، وذلك حتى يناقش فيه ليحصحص الحق الذى لابد وان يتبع . والحقيقة ان الموضوع فى حد ذاته لا يخلو من الطرافة أيضا ، فما أحوجنا عمليا أيها السادة الكرام أن نعيش برهة من الزمان فى جو من الامتزاج الروحى والعاطفى . اذ أن الادب من طبيعته أنه يبهج الفكر ويطيب النفس « والنفس ان طابت تغنى » فهو مظهر من مظاهر العاطفة الانسانية ، طالما أشار الى الحقيقة وأفاء على مريديها ظلال المعرفة والوجود . وطالما خلق من أكوان الجمال عوالم الانسان ، اللهم الا أن ينقلب الوضـــع فيلقى الشياطين فيه أمانيهم .

ولما كان الشعر بطبيعته يتكون من عناصر يعتبر العاطفة والخيال أساسين مهمـــين فيها ، وكان الانسان بطبيعته عاطفيا ـ فالعاطفة لا تقل عن العقل فى التعامل مع الحياة ـ وكان الانسان مفتونا بالخيال وممالكه العجيبة . فقد مال الى الشعر من أقدم العصور حتى ان الحكم لم يصدر بعد قطعيا فى أسبقية أى الفنين على الآخر، الشعر على النثر أو العكس . والواقع ان الشعر قوة روحية قادرة على التحويل والتبديل . وقد قيل فى تعريفه « بأنه صناعة يؤلف بها الشاعر المقدمات التى تنشأ عن الوهم فيؤلف منها القياسات المنتجة يجعل المعنى الصغير كبيرا ومعنى الكبير صغيرا ويرد الحسن فى زى القبيـح ويجلـــو القبيح فى صورة الحسن ليثير بالايهام القوى الغضبية والشهوانية فيحدث للطبـــاع انقباض وانبساط وتنشأ فى العالم الامور العظام (1) .

فللشعر وللقياس الشعرى قوة لا توجد فى النثر ، بل ولا تعادلها فى القوة الخطابة وان نشأت هى أيضا عن مقدمات غير بديهية . وهذا هو الامر الذى جـــعل الشعراء يقتبسون أغراضهم من مقتضيات الحال وواقع الحياة . وليس هناك من دليل أسوقـــه على قيمة الشعر الا ما ورد من اختلاف العلماء فى الحكم عليه عبر التاريخ ، فقد بالغ قوم فى وصفه وحسن أثره ، حين نقم الآخرون عليه واعتبروه بدعة . (2)

---

1) وقال الآخر : الشعر هو الكلام الموزون المقفى ويغلب فيه الخيال المطلق على التفكير الصحيح (3) .

2) قال ابن قتيبة : « الشعر معدن علم العرب وسفر حكمتها وديوان اخبارها ومستودع ايامها والسور المضروب على مآثرها والخندق المحجوز على مفاخرها والشاهد العدل يـــوم النفـــار (4) .

وقد ضرب أمثلة فى قوة تأثير الشعر على النفس أضرب الصفح عنها حفظا للوقت ورعاية لتركيز البحث ولكن لا أرى مانعا من ذكر احدى هذه الطرائف · يقول النظامى العروضى :

« سئل أحمد بن عبد الله الخجستانى كيف ارتقيت الى عرش الامارة وكنت مكاريا · فقال قرأت يوما شعر حنظلة بادغيسى اذ يقول ما معناه لو أن العظمة بين أنياب الاسد تقحم وانتزعها من بين أنيابه فاما بلغت الشرف واما أن تموت ميتة الرجال (3) » ·

قال فأثر فى هذا الشعر فتركت شغلى والتحقت بآل ليث · ثم حدث ان تـدخل الرجل فى شؤون الملك وتقلبت به الاحوال حتى تولى الحكم على بعض البلاد الاسلامية الشرقية وكان السبب لهذا الانقلاب الروحى ذينك البيتين · والى جانب هذا كثيرا ما نرى جنايات الشعر على المجتمع والانسانية من النواحى الاخلاقية ·

والسؤال الذى يطرح نفسه فى المجال هو أنه هل لنا أن نضع الشعر فى قفص الاتهام فنخاصمه ونحكم عليه ونقول ان الشعر سبب لانحلال أخلاق الامة وقتل روحها وسوقها الى الهمجية الهدامة لشخصيتها ، وانه عامل سلبى فى سبيل نهوضها ؟ أو نحكم له ونقول ان الشعر علة قوية فى تعزيز أخلاق الانسان (4) وشحذ همته وارتقائه الى قمة المجد والشرف ، وعامل ايجابى فى نموها وازدهارها ·

اعتقد انه لمن التعسف ان نضع الشعر بل وكل ما له صلة بالعاطفة والروح ، على قلب هذا الميزان الذى يفصل بمؤشر حاد قائم بين نقيضين كاملين ، لان الشعر فى حد ذاته وسيلة للتعبير عن العاطفة ، فان كان هناك سؤال بعد ذلك فهو الواسطة بين الشعر ومجتمعه · فالشعر بجملته ومقاطيعه وألفاظه ومادته مرآة تتجلى فيها نفسانية الشاعر وسجل تاريخى عن المجتمع الذى نشأ وترعرع فيه ، ويحكى عن مبلغ رقى هذا المجتمع فى مدارج الشرف والتقوى والعفاف ، أو يرسم درجة انهماكه فى الشهوة والبهيمية · أو

---

3) مهترى كربكام شير درست — شو خطركن زكام شير بجوى
يا بزركى وعزو نعمت وجا — ياجو مردانت مرك روياروى

4) ويقرب هذا مما قاله الثعالبى :
فان جسيمات الامور منوطة — بمستودعات فى بطون الاوارد

بعبارة أخرى ينعكس فى الشعر سريرة الشاعر وسريرة أبناء جنسه • والشعر ليس الا تعبيرا عن الخلق الذى يسود على مجتمعه صلحت أم فسدت •

دعنا ننظر الشعر العربى خاصة وندرس البيئة التى نشأ فيها الشاعر وتاثيرها ، لنرى مرآة صادقة تلائم أخلاق هذه الامة • فالشعر الجاهلى مثلا ميزته الانفة وصدق اللهجة والبعد عن التكسب والتكدى والاعتزاز بالشخصية والعصبية ، بيد أن الشعر المخضرم يمتاز بنفحة دينية نفخه بها الاسلام بعد ظهوره ، فنلمس فيه روح الدين ونعيم الآخرة ومغفرة الرب ورعاية حقوق المسلم والتنزه عن الخلق السيء (7) » ومن يقرأ فى شعر المخضرمين متصفحا ما تضمنته كتب التاريخ والادب يجد جمهور الشعراء يصدرون فى جوانب من أشعارهم عن قيم الاسلام الروحية التى آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم ولشعراء المدينة القدح المعلى فى هذا الميدان فهم الذين وقفوا مع الرسول (ص) منذ نزوله بين ظهرانيهم يدافعون عن دعوته مصورين لهديه الكريم (8) (5) •

ولكن هناك عندما فتحت خزائن الارض على المسلمين ، وانقلبت الخلافة الى ملك وسلطان وتمركز الذهب والنقود تحت أريكة العرش وفتحت سوق المواهب استعبدت ملكات وتفتحت أبواب المشارق والمغارب على عالم لم يعد عربيا ، وانما عالم اسلامى جديد بما لديه من افكار وقيم ، فاذا بالمجتمع غير المجتمع • فكانت نتيجة ذلك ان الجرائيم

---

5) واليكم نماذج من شعر هذا العصر :

اعذنى رب من حصر وعى	ومن نفس اعالجها علاجا
ومن حاجات نفس فاعصمنى	فان لمضمرات النفس حاجا
وانت وليها فبرئت منها	اليك وما قضيت فلا خلاجا
	نمر بن تولب
انى وجدت الامر أرشده	تقوى الاله وشره الآثم
	نمر بن تولب
ان الذوائب من فهر واخوتهم	قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته	تقوى الاله وبالامر الذى شرعوا
ان كان فى الناس سباقون بعدهم	فكل سبق لادنى سبقهم تبع
اهدى لهم مدحى قلب يؤازره	فيما أراد لسان حائك صنع
	حسان بن ثابت (9)

الخبيثة تمكنت من نفوس المسلمين فشغلهم عن الحق بالباطل ،ان كثيرا من المسلمين اترفوا ترفا شديدا اذ احاطوا انفسهم بكل مظاهر النعيم من قصور باذخة ومطاعم وملابس انيقة وجوار ورقيق واذا غرقت الامم فى الترف يتورط كثير من ابنائها فى آثام مختلفة من اللهو والمجون (10) ·

وطائفة من الشعراء ـ وهم الذين يهيمون فى كل واد ـ لما رأوا ان سوق الفسق والمجون ووصف الخمر والاستهتار والعهر انفق الاسواق مالوا الى الجهر بالسوء من القول وبالغوا فى الاكثار فى هذا النوع من الشعر ، لان من يمتهن المدح لا يهمه الا السوق التى يبيع فيها سلعته فيقول ما يحب من يغليها ثمنا كائنا ما كان فخلعوا رداء الحياء ، ـ فكان شعرهم صورة لتلك البيئة المريضة الاخلاق · والعصور تحدثنا عن عمر بن أبى ربيعة وبشار بن برد ومعاوية بن ارطاة وعبد الرحمن بن الحكم وأمثالهم يقول الاصبهانى : « ذكر شعر الحارث بن خالد وشعر عمر بن أبى ربيعة عند ابن أبى عتيق » فقال ابن أبى عتيق : « لشعر عمر بن أبى ربيعة نوطة فى القلب وعلوق بالنفس ودرك للحاجة ليست لشعر وما عصى الله عز وجل بشعر أكثر مما عصى بشعر بن أبى ربيعة (11) ·

وقد أفرطوا فى الخلاعة والمجون وترك العفة والاستهتار الى حد لم يستطع الحاكم أن يحتمله ولم يربدا من كبحهم · فمنعهم من الاكثار من هذا النوع من الشعر · يقول أبو الفرج أيضا أخبرنى هاشم قال حدثنا أبو غسان دماذ قال سألت أبا عبيدة عن السبب الذى من أجله نهى المهدى بشارا عن ذكر النساء قال كان أول ذلك استهتار نساء البصرة وشبانها بشعره حتى قال سوار بن عبد الله الاكبر ومالك بن دينار : ما شىء ادعى لاهل هذه المدينة الى الفسق من اشعار هذا الاعمى ومازالا يعظانه · وكان واصل بن عطاء يقول ان من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الاعمى الملحد ··· (12) ، ولم تكن الحالة فى البلاد الغير العربية أحسن من البلاد العربية · فاذا مضينا الى أصبهان وخراسان وسجستان وجدنا كثيرين من الامراء والاكابر المترفين «واذا أراد الله أن يهلك قرية أمر مترفيها» كانوا يتورطون فى الفسق والمجون ويقربون من ينادمهم فى معاقرة الكؤوس وينفقون أغلى الاموال وأنفس الاشياء على الشاعر الذى يصف الخمر بادق توصيف أو يشبب بالنساء بأقبح صورة فشاعت الاغراض الشعرية الرديئة الخبيثة الدواعى بين الناس وشغلهم عن الحق بالباطل · اذا فمن المدين وعلى من يحكم فى

هذه المحكمة ومن المعتدى على المثل الاخلاقية والقيم الانسانية هل هو الشعر ، كلا أيها السادة • « ليس الشعر الا لغة الانسانية فى أتم ارهافها وشحذها وأتم دقتها وشحنها والشعراء ليسوا الا أقدر الناس على استعمال اللغة للتعبير عن تجاوبهم وعواطفهم التى يمارسونها مع الكون المحيط بهم والمجتمع الذى يعيشون فيه والحياة التى يحيونها والنفس الفردية التى يصارعها كل منهم وما يصاحب هذا من المشكلات والرغبات والمخاوف والآمال • أو قل بعبارة أخرى انهم أقدر الناس على التعبير عن انسانيتنا الكاملة » • (13)

انما المجرم هو المجتمع المريض والبيئة الفاسدة التى تفسح المجال لابن أبى ربيعة وبشار ، فى سالف الزمان ومن اقتدى بهما مدى التاريخ وتفتح أحضانها لاخلاقهم فى هذا العصر ، والتاريخ كما يقال يعيد نفسه • لا أيها السادة • « اذا وجدتم شعرا سخيفا يدعو الناس الى الفسق بدل التقوى ، والى الشهوة بدل العفة ، والى اليأس بدل الرجاء ، والى الذل والعبودية بدل العز والرفعة ، فلا تلوموا الشعر فقط ، بل لوموا أمة تبعت هواها وسخر الشيطان قلبها وقواها لوموا فئة صغرت همتها وتضاءلت عزائمها وفسدت أخلاقها • لوموا قوما اجتزأت بالقليل وقنعت من دهرها بالدون (14) لوموا أمة ركضت الى الدعة قبح الله الدعة » •

والآن ننتقل الى النقطة الثانية من البحث أعنى الشعر وأثره من وجهة نظر الاسلام أو موقف الشريعة الاسلامية من الشعر • وقد سبق منا ان القول بالشعر غريزى للانسان ولا يمكننا أن نمنعه عنه فاذا كان هذا صحيحا فلا يمكن ان تقول ان الاسلام حرم هذا الامر الغريزى على الانسان • اذ لم تكن الحركة الاسلامية متنكرة للحياة العاطفية ولا متجهمة لها ولم يكن من شأنها ان تهمل هذا الجانب من حياة الانسان محتقرة له أو مزدرية بشأنه وانما كان من همها دائما ان تستثير هذه الحياة العاطفية وان تجعل منها قوة دافعة نحو الخير العام والصلاح المشترك (15) • وان يحول الشعر من سلاح فى يد العصبية الحمقاء الى سلاح فى سبيل دعوة الحق : (6)

---

6) فكم من أبحاث راقية من علمى الكتاب والسنة ومن العبر والموعظة الحسنة والاخلاق يحتويها الشعر • أضف اليه ما فيه من فنون الادب والشعر ديوان العرب ومواد اللغة ومبانى التاريخ • فاذا كان الشعر حافلا لهذه النواحى فهو مأرب المجتمع • (16) •

ولولا سنـــة سنها الشعـــر ما درى بغاه الندى من أين تؤتى المــكارم
يرى حكمـــة ما فيه وهو فكاهـــة ونرضى بما يقضى بـــه وهو ظالـــم

وأنت تجد تاثير الشعر الرائق فى نفسك فوق أية دعاية وتبليغ · والحق ان هذا النوع من الشعر يوقظ الامة ويعزز أخلاقها ويبث فيها روح الحياة ويسدد خطاها للقفـز الى الامـــام ·

فأى رجل عربى بل وأى مسلم ذاك الذى يقرأ هذه القطعة ولا يثور لانتهـاك حرمة الانسان فى فلسطين العزيزة ولا يطمئن فى نفسه بأن جولة الباطل ستزهق وان دولـة الحق ستعود ويورث الله عز وجل أرضها عباده الصالحين ·

يا فاتح القدس خل السيف ناحية ليس الصليب حديدا كان بل خشبا
اذا نظرت الى أيـــن انتهت يـــده وكيف جاوز فى سلطانه القطبـــا
علمت ان وراء الضعف مقـــــدرة وان للحق لا للقـــوة الغلبـــا (18)

أو يمر على هذه القطعة لشاعر الارض المحتلة التى تقطر منها دم الشرف والكرامة ، والتى تزخر ببطولات الجرائم الآثمة ثم لا يجد نفسه فخورا لما قدم ابناء أمتـــه مـــن التضحية ليعلوا بها صرح العروبة والاسلام :

لا تدفنى موتاك
خليهم كأعمدة الضياء
خلى دمى المسفـوك
لافتة الطغاة الى المساء
خليه ندا اللجبال الخضر
فى صـــــدر الفضاء
لا تسألى الشعراء ان يرثوا زغاليل الجميلة
شرف البطولة انها
خطر على أمن القبيلة · (19)

ولقد كان الشعر فى العصر النبوى والخلفاء يذهب فى ميادين الحرب مـــع صوارم الشجعان جنبا الى جنب . وكان الرسول (ص) يحث الشعراء على هذه الناحية ويامرهم بالاحتفاظ بها وكان يراه نصرا للاسلام وجهادا دون الدين الحنيف ، وكان يصور للشاعر جهاده وينص به ويقول : « اهجوا بالشعر ان المؤمن يجاهد بنفسه وماله والذى نفس محمد بيده كأنما تنضحونهم بالنبل » وفى لفظ آخر : «فكان ما ترمونهم به نضح النبل» وفى رواية : « والذى نفس محمد بيده فكأنما تنضحونهم بالنبل فيما تقولون لهم مـن الشعر » (20) . وكان (ص) يرتاح لشعرهم كما أرتاح لشعر كعب بن زهير لما أنشـده فى مسجده الشريف لاميته التى مطلعها :

بانت سعادة فقلبى اليـوم مبتـول ‏ ‏ متيم اثـــرها لـم يفـــد مكبـــول

فكساه بردة اشتراها معاوية بعد ذلك بعشرين ألف درهم وهى التى يلبسها الخلفاء فى العيدين (21) ، ولما انشده النابغة الجعدى قوله :

ولا خير فى حلم اذا لـم يكن لـــه ‏ ‏ بوادر تحمى صفـــوه ان يكـــدرا

ولا خير فى جهل اذا لـم يكـن لـه ‏ ‏ حليـم اذا ما أورد الامـــر أصدرا

قال (ص) لا يفضض الله فاك (22) .

وهذه الطائفة من الشعراء هم المعنيون بقوله تعالى : « الا الذين آمنـــوا وعملـــوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا » (23) . وروى انه لما نزلـت الآية : « والشعراء يتبعهم الغاوون » (24) ، جاءت عدة من الشعراء الى رسول الله وهـم يبكون قائلين انا الشعراء والله أنزل هذه الآية فتلا النبى (ص) : « الا الذين آمنـــوا وعملوا الصالحات » ، قال أنتم . (وذكروا الله كثيرا) قال أنتم (وانتصروا من بعـد ما ظلموا) قال أنتم (25) وفى هذا النوع من الشعر قال (ص) ان من الشعر حكماء (26) وهكذا كان الشعر موضع اهتمام لدى الأئمة والعلماء يعدونه دعاية روحية ونصرة للدين وكانوا يعظمون الشعراء ونرى كثيرا من العلماء والفقهاء من شتى المذاهب الاسلاميـــة نظموا القريض ويرغبون طلابهم فيه ، اذا فمن الخطأ ان ننخدع فنأخذ بظاهر بعض الآيات الكريمة أو نعتمد على بعض الروايات التى وردت فى نوع خاص من الشعر كقوله (ص) : « لان يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من ان يمتلئ شعرا » (27) وذلك لان شـــعراء

مكة فى عصر النبى (ص) كانوا لسان مقاومة زعمائها أمام تعاليم الاسلام ، المقاومة التى لقيها الاسلام • وبعضهم كانوا دعاة للطرف واللهو والخمر والتشبيب بالنساء •

والآن أستسمحكم أيها السادة مع كل التواضع ان الخص ما ألقيت على مسامعكم الشريفة كل الاختصار •

أولا : قد رأينا ان للشعر اثرا قويا فى النفوس لا يعادله فى الغالب أى قول أو بعبارة أخرى أية صناعة منطقية غيره •

ثانيا : وظيفة الشعر كما يحكم به المنطق الصحيح وتقره الشرائع السماوية أن يكون فى خدمة المجتمع وان يستخدمه الشاعر لتعزيز أخلاق أمته •

ثالثا : لو رأينا ان الشعر عدل عما هو وظيفته أعنى صالح الحياة ليس لنا أن نلوم الشعر والشاعر فقط بل يجب ان نلوم أنفسنا لاننا ندع المجال لهؤلاء ونشجعهم على عملهم فالمقصر نحن أيضا فلا بد حينئذ من عمل جماعى مشترك للقضاء على كل ما له أثر فى انحراف الفكر عن الاصول الدينية الثابتة والقيم الاخلاقية الانسانية • وليست المسألة وقفا على الشعر أو الادب فقط ، بل هى تتناول كل ما من شأنه ان يستخدم الوجدان الانسانى لتوجيه الحياة فى ناحية خاصة •

واذا كانت المسألة فى مرحلتها الاخيرة هى تفاعل مشترك بين المجتمع والشاعر فالمجتمع يخلق الشاعر والشاعر يخلق المجتمع فمسألة قيمة الشعر بالنسبة للمجتمع مسألة نسبية تحكم فيها الظروف والاحوال فقد كان الشعر ولا يزال ذلك السلاح ذى الحدين الذى أينما وجهته قطعه

مصادر البحث

1 ـ القرآن الكريم آية 17 ـ 18 سورة 39 •

2 ـ مقالات أربع • عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب • مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة 1368 هـ ، ص 35 •

3 ـ أدباء العرب فى الجاهلية والاسلام • بطريق البستانى ج 1 ص 5 •

4 ـ عيون الاخبار • ابن قتيبة • طبع دار الكتب المصرية ، ج 2 ص 185 •

5 — انظر : مقالات أربع · ص 34 ·

6 — أنظر : فوات الوفيات · طبع مصر · ج 2 ، ص 139 ·

7 — أدباء العرب · ج 1 — ص 229 ·

8 — تاريخ الادب العربى · العصر الاسلامى — دكتور شوقى · ج 2 — ص 68 وانظر : شوقي · شعره الاسلامى الدكتور ماهر حسن فهمي · ص 23 — 32 ·

9 — نفس المصدر — ص 79 ·

10 — نفس المصدر — ص 376 ·

11 — الاغانى · طبع دار الثقافة · بيروت 1374 ، ج 1 ص 113 — 114 وانظر : تاريخ الشعر العربى نجيب محمد البهيبتى · دار الكتب ص 195 ·

12 — الاغانى ، ج 3 ص 176 ·

13 — وظيفة الادب · الدكتور محمد النويهى · طبع معهد البحوث ، ص 181 ·

14 — العربية وشاعرها أحمد شوقى ، اسعاف النشاشبى · مطبعة المعارف 1346 ص 14 ·

15 — تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام · الدكتور شكرى فيصل · مطبعة جامعة دمشق ، ص 172 ·

16 — الغدير عبد الحسين · أحمد أمينى ، طبع بيروت ، ج 2 ص 2 ·

17 — أبو تمام الطائى ·

18 — أدباء العرب ، ج 4 ص 194 ·

19 — دراسات فى شعر الارض المحتلة · الدكتور عبد الرحمن ياغى · ص 309 طبع 1969 ، ص 309 ·

20 — انظر : مسند أحمد · ج 3 ص 360 ، 456 ، ج 6 ص 376 ·

21 — الشعر والشعراء · ابن قتيبة · تصحيح مصطفى افندى مطبعة المعاهد · ص 62 الاصابة جزء 5 ص 302 ·

22 — الشعر والشعراء ، ص 96 ، وانظر : الاصابة جزء 6 ، ص 220 ·

23 — القرآن الكريم ، سورة 26 آية 227 ·

24 — القرآن الكريم ، سورة 26 آية 224 ·

25 — تفسير ابن كثير ج 3 ص 356 ·

26 — المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى · ج 3 ص 140 ·

27 — البخارى · أدب · ص 92 · وانظر : معجم المفهرس ج 3 ص 140 ·

طبيعة الشعر وصلتها بالأخلاق

د • زكى نجيب محمود
استاذ الفلسفة السابق
بكلية الآداب جامعة القاهرة

ـ 1 ـ



أستاذنكم فى أن أبدأ حديثى بما سوف أنتهى اليه ، وهو أن الفنون ـ والشعر أحدها ـ لم تخلق لتخدم الاخلاق ، الا ان يجىء ذلك بطريق غير مباشر ولا مقصود•

والنقطة الاولى ، التى أريد لها أن تكون الركيزة الاساسية فى حديثى هذا لانها لو ظفرت منا بالقبول ، جاءت نتائجها تترى فى جلاء ، هى الفوارق بين القيم العليا الثلاث : قيم الحق والخير والجمال ، فلئن جمع بينها انها معايير نلجا اليها طلبا للهدى ، فهى تعود فتتفرق ـ ليكون لكل منها مجال خاص، فأما قيمة الحق فمجالها العلوم، أو ما يجرى مجرى العلوم من شؤون الحياة العملية ، واما الخير فمجاله أفعال الانسان الارادية ، وأما الجمال فمجاله الفنـــون •

هى مجالات ثلاثة ، وعليها قيم ثلاث ، تلتقى كلها فى الانسان ، لكنها من الاختلاف فيما بينها ، بحيث اذا اختلط فى أذهاننا حابلها بنابلها ، خرجنا من الخليط بحياة مطموسة المعالم ، لا العلم فيها علم ، ولا الاخلاق اخلاق ، ولا الفن فن .

قيمة الحق تتميز من اختيها بأنه لا دخل للانسان فى اختيارها ، فأمامه حقيقة واقعة ، كالشجر والحجر والماء والافلاك ، ولقد امده الباحثون عن تلك الحقيقة الواقعة بأقوال يزعمون له أنها قوانين الاشياء ، فما عليه ـ ليعرف أين الحق فيها وأين الباطل ـ الا ان يقيس القول بالواقع ، فلا حيلة له فى الامر ، لانه مفروض عليه .

وأما الاختان الاخريان : قيمة الخير وقيمة الجمال ، فمختلفتان عن ذلك لانهما مأخوذتان لا من عالم الواقع كما يقع ـ بل هما مأخوذتان من عالم الامكان ، فمبادىء الاخلاق هى ما « يمكن » للفعل البشرى أن يصعد اليه ، وسواء استطاع ذلك بالفعل أم لم يستطع ، فالمبادىء هناك أقامها الانسان ـ أو أقيمت له ـ لتكون الهدف المنشود ، وبدائع الفنون هى ما « يمكن » أن يلوذ به الانسان من واقع كريه ، وكذلك هى ما يمكن أن يفسر لنا سلوك الانسان .

لكن هاتين القيمتين ، وان تشابهتا فى التعلق بالمثل الاعلى ، فهما تختلفان : فمهمة الاخلاق هى أن تقوم المعوج من سلوكنا ، ومهمة الفنون ـ ومنها الشعر ـ هى أن تفسر سلوكنا لا أن تقومه .

لنأخذ فكرة من الاخلاق ، وصورة من الشعر ، كى نتبين الفارق بينهما ، تقول لنا الاخلاق ـ مثلا ـ بوجوب التعاون بين الناس ، فيكون الهدف من قولها هذا هو أن نصلح حياتنا العملية ، بحيث ندخل فيها التعاون اذا لم يكن قائما ، ويعطينا الشعر صورة لرجل يطلق عليه اسم هاملت ، لا لكى نصحح شيئا فى حياتنا ، بل لنفهم تلك الحياة كلما صادفنا بين الناس رجلا شبيها بهاملت .

وعلى ضوء هذه التفرقة بين الاخلاق والشعر ، اذا سئلنا : هل يؤثر الشعر فى اخلاق الناس ؟ أجبنا فى ثقة : ليست هذه مهمته . فان جاء تأثير كهذا ، فانما يجىء بطريق غير مباشر ولا مقصود .

- 2 -

لفيلسوفنا أبى نصر الفارابى نظرية فى طبيعة الشعر ، يحق لنا ، بل يجب علينا - نحن الوارثين لهذا التراث العقلى العظيم - ان نفاخر بها أصحاب المذاهب النقدية المعاصرة فقبل أن نرطن ألسنتنا بما قاله فلان أو فلان من غير أهلنا ، ينبغى أولا ان نستمع الى ما قاله ذوونا فيما نريد الحديث فيه ثم نقارن به ، ونزيد عليه - مما قاله الآخرون ٠

للفارابى - كما قلت - نظرية فى طبيعة الشعر ، جديرة منا بالنظر الفاحص لانها تلقى شعاعا قويا من الضوء على علاقة الشعر بالاخلاق ، وملخصها هو ان للطريق بين الشعر فى طرف ، وسلوك الانسان فى طرف آخر ، ثلاث مراحل : فهنالك - أولا - صورة يرسمها الشاعر ، كما أن هناك - ثانيا - خبرة ماضية مخزونة فى الذاكرة ، فاذا ما طالعنا الصورة التى رسمها الشاعر ، استدعت من مخزون الذاكرة شيئا من الخبرة الماضية ، ذا علاقة بها ، من تشابه أو تباين ، وهنا تأتى المرحلة الثالثة ، وهى أن نبنى على تلك الخبرة المستدعاة من الذاكرة وقفة سلوكية ازاء العالم - وعلى ذلك فيمكن القول بان الصورة الشعرية كانت هى المحرك لنا فى توجيه سلوكنا ، وان يكن ذلك قد تم عرضا وبلا قصد صريح ٠

ويبدو لى أن هذه النظرية الفارابية فى طبيعة الشعر ، تحل الاشكال الذى ما انفك قائما بين النقاد ، وهو : هل يخضع الفن لمبادىء الاخلاق ؟

أو بعبارة أخرى تلوكها ألسنة نقادنا اليوم : أيكون الفن هادفا أم لا يكون ؟

فلو كان الفارابى بيننا اليوم لاجاب : كلا ، ليس الفن هادفا بطبيعته ، ولكن ذلك لا يمنع أن تاتى منه النتائج السلوكية التى نريدها ، وذلك شبيه بقولنا : ان الريح قد دفعت شراع السفينة فحركتها ، لكن الريح كانت لتظل هى الريح بكل مقوماتها ، ان كانت هنالك سفينة تتحرك أو لم تكن ٠

انه لا مناص لنا من التفرقة الفاصلة بين مجال الشعر من ناحية ، ومجال الاخلاق من ناحية أخرى ، فلكل من المجالين طبيعته ومعياره ، وان الشعر ليظل شعرا ، سواء

أرضيت عنه مبادىء الاخلاق أم لم ترض ، ما دام قد حقق لنا ما تقتضيه طبيعة فنــه فلا فرق عند الفن بين أن يصور الشاعر فضيلة أو أن يصور رذيلة ، طالما هو قد أجاد الفن في كلتا الحالتين ، ان دنيا الشعر ترحب بأبي نواس ترحيبها بزهير ، وان ملتـــن بفردوسه المفقود شاعر في الجانب الالهي من قصيدته كما هو شاعر في جانب تصويره للشيطـــان •

ومع ذلك فالنظرية الفارابية ـ كما أفهمها ـ تريحنا من العناء ، وتقف بنا موقفـــا وسطا ، لان مؤداها هو أن تصوير الشاعر يعقبه تغير في سلوك الانسان •

دون أن يكون ذلك التعاقب عن سببية حتمية فالشعر يظل شعرا بقيمته الفنية ، حتى لو لم يعقبه تغير في السلوك ، كمثل الريح وشراع السفينة الذى قدمناه ، فاذا قلنـــا ان الغاية الخلقية هي مدار البناء الفني ، وجب أن نضيف الى هذا القول ، بأن الشعـــر يبطل أن يكون شعرا ، اذا هو قدم لنا تلك الغاية الخلقية وعظا مباشرا ، اذ لا بد ـ في نظرية الفارابي ـ من بناء الصورة الخيالية أولا • وهي الصورة التي لا يراعى في بنائها الا معايير الفن الشعرى وحدها ، ثم يترك الامر لما توحيه الصورة المرسومة لمن يطالعها ، فاذا كانت صورة محببة الى نفسه ، تقمصها وسلك على هداها ، أو كانت صورة منفرة ، عافها وكف عن مزج نفسه بها ، وهكذا يحقق الفن الشعرى ما يراد له بأن يحققه في مجال الاخلاق بطريق غير مباشر ، ودون أن يفرط في شروط الفن الشعرى وما يقتضيه •

ان ألف باء العمل الفني ، هي أن يستقطر الفنان من مادة فنه كل قطرة فيها ، فلكل فن مادته الخامة ، للموسيقى الصوت ، وللتصوير الضوء أى اللون ، وللشعر اللفظ ، وللنحت الحجر ، ومهمة الفنان الاولى ازاء مادته الخامة أن يخرج منها عبقريتها الدفينة فيها ، فأول ما نطالب به الشاعر العربي ، هو أن يظهر لنا عبقرية اللغة العربية وان يخرج الى الآذان مكنون سرها ، وانه لهراء العابثين بمجدنا ذلك الذى نسمعه من بعض شعرائنا اليوم • من دعاة العامية ، أو من القائلين باستخدام الشعر وسيلة لغاية اسمى منه ، فاذا كنت شاعرا • فالاولوية هي للشعر ذاته ، ثم تأتي بقية الاغراض عـوارض طارئـة على الجوهر •

مادة الشعر ألفاظ مما تستخدمه أنت واستخدمه أنا فى قضاء شؤون حياتنا ، لكن لكل لفظة جانبين ، فلها الدلالة المنطقية التى نشير بها الى الاشياء ، ولها كذلك الغزارة النفسية وعلى هذا الجانب النفسى يرتكز الشعر · فليست كلمات اللغة بمقتصرة عـــن كونها رموزا كرموز الرياضة ، بل هى الى جانب هذا تشبه الكائنات الحية فى تطـورها كلما امتد بها زمن استعمالها اذ تظل اللفظة تزداد امتلاء بابعادها الوجدانية مع تنوع الظروف التى تتقلب فيها مع القلوب ، وليست كل الفاظ اللغة فى هذه الغزارة الوجدانية سواء ، بل منها ما لا يجرى مع تيار المشاعر الا بأقل القليل ، وعندئذ يكاد يقتصر عـلى دلالته المنطقية وحدها ، ولكن منها كذلك ما يعب عبا من تيار المشاعر حتى لتصبـــح اللفظة كنبضة القلب ، ومن هذا النوع الغزير باغواره الوجدانية ينسج الشاعر شعره ·

الشعر هنا على نقيض العبارة العلمية ، فلئن كان المثل الاعلى للعبارة العلمية هـو أن تكون واحدية المعنى ، لا يداخلها لبس ولا غموض ، ولا يتعدد تفسيرها عند القارئين ، فان المثل الاعلى للقول الشعرى ، هو أن يحمل من المعانى ما لا حصر له اذا استطـــاع الشاعر ذلك ، بحيث تتعدد زوايا الرؤية عند مختلف السامعين أو القارئين ، وذلـــك لان الشاعر اذ ينتقى لشعره اغزر الالفاظ قدرة على استثارة المشاعر ، فانما يسوق لنا فى قوله الشعرى ما يمكن أن تكون له استجابات مختلفة عند مختلف المنشدين ، ولذلك فسؤالنا الاول عند تقدير القيمة الشعرية ليس هو : ماذا قال الشاعر ؟ بل هو : كيف قال الشاعر ما قاله ؟ ولكى ترى الفارق البعيد فى الالفاظ بـــين دلالاتها المنطقيـــة ومضموناتها الوجدانية انظر الى هذه الكلمات ــ مثلا ــ ماء ، ظل ، وطن ، أم ··· انظر اليها من حيث هى اسماء تحدد معناها القواميس ثم انظر اليها مثيرات للوجد والحـب والالم والامل ، أنظر الى ما تثيره كلمة ماء عند الظامىء، وكلمة ظل عند التائه فى الصحراء وكلمة وطن عند المجاهدين فى سبيل الحرية لبلادهم ، وكلمة أم عند كل انسان ·

ان الدلالة المنطقية للفظة تجعل اللفظة رمزا رياضيا لا حياة فيه ، بل ان قوتها عندئذ هى فى ان تخلو من الحياة حتى لا يفسد المعنى ، وأما فى الدلالة النفسية فان اللفظـــة تكون كالمنجم الذى يعطيك من مكنونه بقدر ماتحفر حوفــه لتستخرج ما فيه ، وأقــول

ذلك لتزداد وضوحا بأن الشعر ـ كغيره من الفنون ـ يقف عند وسيلته لا يريد وراءها وراء ، فاذا رأينا وراء تلك الوسيلة هدفا فانما جاء ذلك هدفا غير مقصود ٠

ومن هذه النقطة ذاتها ، انبثقت مناقشات ، وما تزال تنبثق ، وأغلب الرأى هو أنها سوف تظل ، ما دامت فى الدنيا فنون ينتجها ناس ويتلقاها آخرون ، وهى مناقشات مدارها هذا السؤال : أئذا كانت وسيلة الفن هى فى الوقت نفسه هدفه الاول والاهم ، بحيث اذا وجدنا له هدفا آخر وراء تلك الوسيلة ، عددناه هدفا جانبيا لم يقصد لذاته ، أفيكون الفن ـ اذن ـ منحصرا فى ذاته وبغير معنى ؟ أيعزف الموسيقى لنفسه ، وينشد الشاعر الشعر لنفسه ؟ فاذا كانت الفنون موجهة الى الناس ، فماذا يراد لها أن تقول لهم ؟ هل يراد لها ـ مثلا ـ أن تحمل لهم رسالة فى السياسة أو فى الاخلاق أو فى حقيقة الكون والكائنات أو غير ذلك ؟ وجوابى عن هذا السؤال هو سؤال ذو خطر بالغ فيما يشيع بيننا اليوم من حديث عن الفن الهادف وغير الهادف ـ أقول ان جوابى عن هذا السؤال الهام ، قريب من وجهة النظر التى طرحها فيلسوفنا الفارابى عن الشعر ، والتى أسلفت ذكرها ، ولعلى لا أخطىء كثيرا اذا قلت انه كذلك جواب شبيه بما قاله الناقد المعاصر رتشاردز حين تعرض لطبيعة الشعر بصفة خاصة ، والفن كله عامة ، وهو أن الفن يعنى ما يعنيه بالايحاء لا بالتوجيه المباشر ، فقد توحى اليك قصيدة الشعر بما توحى ، فى الاخلاق وفى غير الاخلاق ، على أنها فى الوقت نفسه ، قد توحى لغيرك بمعنى آخر دون أن يكون احدكما حجة على الآخر ، ومن هنا يجىء للشعر ثراؤه فى تنوع التأويل ، واما اذا اردنا ان نعثر له على المعنى الواحد الوحيد الذى قصد اليه الشاعر والذى لا يختلف فى تحديده قارئان ، فذلك أمر عسير ، لسبب بسيط وهو أن ذلك المعنى الواحد الوحيد ـ ان وجد ـ فهو فى بطن الشاعر كما كانوا يقولون ٠ أعيد القول مرة أخرى : ان وسيلة الشعر ، والتى هى اللفظ ، هى فى الوقت نفسه هدفه الاول والاهم ، يقف الشاعر عند لفظه وقفة المصور عند ألوانه ، والموسيقى عند أنغامه والنحات عند قطعة المرمر أو الجرانيت يسأل نفسه : كيف أستخرج من جوف هذا اللفظ عبقريته فى جرس النغم وتلوين الصورة والقدرة على الايحاء ؟

ولنضرب هذا المثل توضيحا لتغلغل الشاعر فى حنايا لفظه ، على وجه غير مألوف لنا عند استعمال اللغة فى شؤون الحياة الجارية :

روى أن الخنساء سمعت حسانا بن ثابت ينشد فى عكاظ قوله :

لنا الجفنات الغــر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطـرن مـن نجدة دمـا

فقالت له الخنساء تنقده ، وهى الشاعرة الخبيرة باللغة وسرها :

ضعفت افتخارك وانزرته فى عدة مواضع ٠

قال : كيف ؟

قالت : قلت « لنا الجفنات » والجفنات ما دون العشر ، فقللت العــدد ، ولو قلت « الجفان » لكان أكثر ، وقلت « الغر » والغرة هى البياض فى الجبهة ، ولو قلت «البيض» لكان أكثر اتساعا ، وقلت « يلمعن » واللمع شيء يأتى بعد الشيء ولو قلت (يشرقن) لكان أكثر لان الاشراق أدوم من اللمعان ، وقلت « بالضحى » ولو قلت « بالعشية » لكان أبلغ فى المديح ، لان الضيف بالليل اكثر طروقا ، وقلت « اسيافنا » والاسياف دون العشر ، ولو قلت « سيوفنا » لكان اكثر ، وقلت « يقطرن » فدللت على قلة القتـال ، ولو قلت « يجرين » لكان أكثر لانصباب الدم ، وقلت « دما » و (الدماء) أكثر مـن الدم ٠٠٠ ومن نقد الخنساء الشاعرة لحسان بن ثابت ترى كيف يغوص الشاعر فى جوف اللفظة ، ولا يكتفى بظاهر دلالتها أو بمجرد كونها تشير الى مسميات بعينها وذلك لان الشاعر يريد لكل لفظة فى شعره أن تجيء مترعة بمعناها وفحواها انه يستخدم اللفظة على نحو فريد ، لا يشبهه أى ضرب من ضروب استخدامها الاخرى ، انه يريد من اللفظة أن توحى وان تستثير عند السامع حلو ذكرياته أو مرها ٠

لقد قيل كلام كثير عن المترادفات فى اللغة، ان اللفظتين المترادفتين فى المعنى ــ عند المتكلم من عامة الناس ــ تغنى احداهما عن الاخرى لانها تساويها ، فقل عن رجل انه أبى أو أنه والدى ، فالامر سيان ؟ أو قل عن حيوان انه الليث أو انه الاسد فقد دللت عليه بـأى اللفظتين ، لكن الامر مختلف عند الشاعر الذى يحس باللفظ احساسا آخر أغنى وأغزر

اذ اللفظتان المترادفتان عنده تتقاربان تقارب الشقيقتين فى أسرة واحـــدة لكنهمـــا لا تتطابقان فتراه ينتقى منهما ويختار ٠

تلك هى طبيعة الشعر أو قل انها طبيعة الفن على اطلاقه ، واعنى الاهتمام بوسيلة الاداء لانها الى جانب كونها وسيلة فهى فى الوقت نفسه الغاية الاولى فمن الاجحـــاف بالشعر أن نطالبه بالخروج عن نفسه وبالتنكر لطبيعته ، ليخدم شيئا آخر سواه ٠ أخلاقا أو غير اخلاق ، لكن لا خوف على هذا الشيء الاخر ، فسيخدم بما يحقق رغباتنا فى ذلك سيخدم بالطريقة التى ترضى الفن ، الا وهى طريقة الاثارة والايحاء ٠

ان الشاعر اذا سها عن فنه لحظة ـ وقد يسهو ـ فوقف منا موقف الواعظ المرشـد فانه فى هذه اللحظة عينها ، ينفى عن نفسه أن يكون شاعرا ، فأفضل ما يكون الشاعر معلما اخلاقيا حين لا يحاول أن يعلم ، ولقد يكون عند الشاعر شيء من حكمة الحياة يريد أن يعلمنا اياها ، بل هو أحق الناس بجمع الحكمة من تضاعيف الحياة ، لان رجلا أرهفت حواسه بمثل ما أرهفت حواس الشاعر تكون حكمة الحياة أقرب الى أطراف أنامله منها الى سواه ولكن مـــن أدراك أن الحكمـــة الـتى يستقطرها الشاعر مـــن حقائق الحياة يتحتم أن تجيء خادمـة للاخلاق كما نريدها ؟ أفلا يجوز أن تكون رؤية الشاعر للنفس البشرية ان الظلم شيمتها ، وانها اذا عفت عن الظلم فلعلة خافية ؟ أو أن تكون رؤيتـــه لطبائع الناس هى انهم منافقون يقولون لمن يلقى الخير ما يشتهي وان يكن قولهم كذبا ، ويديرون ظهورهم لمن أخطأ النجاح والتوفيق ؟

ومهما يكن من أمر فليكن واضحا أن تجميع الحكمة على هذا النحو ليس هو الشعر لانها ضرب من التعميم ، والتعميم فى الاحكام عمل عقلى ، لا شان للذوق الشعرى فيه اللهم الا ان يكون جانب الفن منه هو طريقة الصياغة ، الشعر فى أخص خصائصه يقف عند الجزئيات المفردة ، من سلوك أو مرئيات أو غير ذلك مما يجيء ادراكه محددا بحدود المكان والزمان ، فاذا رأيت أحكاما عامة ترد فى سياق الشعر ، فاعلم انها انما جـاءت لا لتكون شعرا بذاتها بل جاءت لتكمل صورة جزئية فردية فريدة أراد أن يصورهـــا الشاعر كأن تجيء ـ مثلا ـ على لسان احدى الشخصيات فى مسرحية شعرية أنك اذا كنت حكيما فلست بشاعر ، وان كنت شاعرا فلست بحكيم ، ولم تفت هذه التفرقـــة

بين الحكمة والشعر أسلافنا ، فقال بعض نقاد العرب الاقدمين : المتنبى والمعرى حكيمان ، والشاعر هو البحترى ·

- 4 -

أن من أعمق الكتب التى شهدها مجال النقد الفنى ، كتاب « لاكون » للشاعر الناقد الالمانى « لسنج » ، فلقد فصل القول فى بيان التفرقة بين الفنون موضحا كيف أن لكل فن مجاله الخاص لا تظهر عبقريته الا فيه فاذا كانت هذه التفرقة واجبة بين فن وفن ، مع ان الفنون أبناء أسرة واحدة ، فالتفرقة أوجب بين الفن من جهة وما ليس بفن من جهة أخرى ، فلو أراد فن الشعر أن يكون رسالة أخلاقية ضاع منا الفن والاخلاق معا ·

وعندما أراد « لسنج » أن يحدد مجال الشعر قال انه الفعل ، سواء كان ذلك الفعل فعلا لكائن حى أم كان فعلا لكائن من كائنات الطبيعة من غير الاحياء ولما كان الفعل فى طبيعته سيرة من أحداث تتعاقب على فترة من زمن ، كان الحدث الزمنى هو لب الشعر وصميمه فليس من مجال الشعر أن يصف شيئا ثابتا فى مكان لان ذلك من شأن التصوير وانما الحركة هى مجال الشعر وحركة الحياة بصفة خاصة ، ولذلك فلا عجب أنه اذا كان من شأن التصوير والنحت أن يمجدا موضوعاتهما لتسكن فيها الحركة عند لقطة ثابتة ، فان من شأن الشعر أن يحرك موضوعه حتى لو بدا فى ظاهره شيئا ساكنا ومن هنا ترى الشاعر يتحدث الى الاشياء وكأنها فى وجدانه كائنات حية يحدث الجبل والبحر والسحاب والهواء ، كما يحدث ناقته وجواده فضلا عن حديثه مع الاناسى من الموتى أو من الاحياء ، فالكون كله فى وجدان الشاعر مفعم بالحياة لانه متدفق بالحركة ولولا الشعر ـ كما يقول العقاد ـ لظلت الطبيعة خرساء كما تحب ان تراها النظرة العلمية ، يقول :

والشعر ألسنة ، تفضى الحياة بها ... الى الحياة ، بما يطويه كتمان
لولا القريض لكانت ـ وهى فاتنة ـ ... خرساء ليس لها بالقول تبيان
ما دام فى الكون ركن للحياة يرى ... ففى صحائفه للشعر ديوان

فلئن كانت النظرة العلمية تجعل الانسان جزءا من الطبيعة ، تجعله ظاهرة من ظواهرها ، فان الشعر يجعل الطبيعة جزءا من الانسان ، تحيا بحياته ، وتنشط بفاعليته ، ليس فيها عنده شىء موات ·

يقول لنا الشاعر بشعره : هذه هي الحياة وهذا هو نبضها كما أحسه ، وان لم يستطع ان يحسه معي سائر البشر أجمعين ، فماذا يقول الاخلاقي ؟ انه يقدم لنا المبادىء المطلقة الثابتة ليقول لنا : هذا هو ما ينبغي أن تكون عليه الحياة البشرية،والفرق بين ما هو كائن في تصور الشاعر ، وما ينبغي أن يكون ، هو الفرق بين الشعر والاخلاق ·

ـ 5 ـ

الاخلاق تأمر ، والشعر يفسر ، بماذا يأمرنا شعر المتنبي أو شعر أبي العلاء ، مع أنهما الشاعران اللذان وصفهما القدماء بأنهما حكيمان وبين الحكمة ومبادىء الاخلاق وشيجة قربى ، بماذا يأمرنا شعرهما ؟ انه لا يأمرنا بشيء ولكنه يزيدنا فهما لطبائع البشر · الشعر كاشف عما استتر من لواعج النفس وخلجاتها ، لا يفرق في ذلك بين خير وشر ، انه يكشف الغطاء عما لا تراه العين العابرة من طبائع الناس ، وانه لمن عجب ان هذا الانسان في وسعه أن يعلو الى أسمى مدارج الفضيلة ، كما في وسعه كذلك أن يسفل الى أحط مهاوي الرذيلة ، ومهمة الشعر أن يغوص الى الاعماق الخبيئة ليرى الرواسب على القاع ، فيخرجها من حالة اللا شعور المبهم الغامض ، الى حالة التصوير الواضح ، ليرى الانسان نفسه كما هي ، ان الشاعر اذ يصور لك فردا معينا ، أو حالة شعورية خاصة ، من حب أو كراهية أو غضب أو رضى فهو يقدم لك العام في الخاص ، وهذا هو موضوع الاعجاز في جيد الشعر ، اذ هو يقدم لك حالة مفردة ، ولكنها في الوقت نفسه تصلح ان تكون نموذجا تفسر به سائر الحالات ·

الاخلاق تنهانا عن الرذيلة وتحضنا على الفضيلة ، أما الشعر فيفتح أعيننا على منابع الرذيلة والفضيلة معا ، فاذا كان علمنا بهذه الينابيع يقوم سلوكنا من تلقاء نفسه بلا وعظ صريح ، كان ذلك هو الجانب الاخلاقي من الشعر ·

الشعر محايد ، يصور لك العبقري والابله على حد سواء ، فهو كالشمس تشرق على الكائنات بغير تمييز وانه لخطأ شائع بيننا ان يقال عن الشعر انه تعبير عن نفس صاحبه ، لكن هذا التعريف الضيق قد ينطبق على قلة قليلة من الشعر الغنائي ، أما الشعر من الضروب الاخرى فلا شأن له بنفس صاحبه ، لان نفس الشاعر من حيث هو فرد واحد ، ليس لها كل هذه الخطورة في حياة الناس ، وأقرب الى الصواب أن نقول ان الشاعر

بعبقرية الفن فى فطرته ، يعطينا من نفسه الحالة الخاصة ، فاذا هى تصوير للانسان من حيث هو نوع بشرى متجانس الافراد ٠

واذا كان الشاعر يعبر عن نفسه هو ، فكيف أمكن للشاعر المسرحى ـ مثلا ـ أن يسوق فى مسرحية واحدة حشدا من الانفس المتباينة ، فأى هذه الانفس تكون نفس الشاعر ؟ فى أى الاشخاص الذين صورهم شكسبير ، يعبر الشاعر عن ذاته ؟ أهو ترويلس العاطفى الساذج (فى مسرحية ترويلس و كرسيدا) أم هو هكتور الفارس النبيل ؟ أهو يوليسيز ذو الفكر الناصع ، أم هو كاسندرا التى ترى العالم قاسيا لا رحمة فيه ؟ ان الشاعر يقدم هؤلاء وغير هؤلاء لا يقول عن أحد منهم انه أخطأ أو أصاب وذلك لانه لم يكتب ليدعو الى شىء بعينه ، وانما كتب ليكون شاعرا ٠

هن أخوات ثلاث : العلوم والفنون ودنيا السلوك ، العلوم قانونها الحق ، والفنون قانونها الجمال ، ودنيا السلوك قانونها الخير ، وعلى رؤوسهن تقوم الحضارة ، كما يقوم المثلث على أضلعه الثلاثة تلتقى الاضلاع عند الرؤوس ، لكن واحدا منها لا يلغى واحدا ٠

أثر الفنون والآداب في حياة الأمّة

عمر فروخ

مؤرخ وعضو مجمع اللغة العربية
في القاهرة والمجمع العلمي
العربي في دمشق



في مجرى التاريخ عوامل كثيرة تؤثر في حياة الامة قوة وضعفا منها فروع الآداب كالشعر ومنها فروع الفنون كالغناء . وللشعر والغناء خاصة أثر في عواطف الناس ورسوخ في مناهج حياتهم : أثر حميد اذا نحن عالجنا الشعر والغناء معالجة حميدة قائمة على الجد وعلى ادراك للمثل العليا الثابتة أو أثر غير حميد اذا نحن ملنا بالشعر والغناء الى جانب الغريزة البهيمية والرغبات العارضة والى جانب اللعب واللهو .

ولا شك في أن الناس ليسوا ـ من حيث الاستعداد الفطري والتثقيف المكتسب ـ

طبقات بعضها فوق بعض . وكلما كان الفرد فى طبقة أدنى كان فهمه للالفاظ والصور الخيالية أقرب منه للمدارك وللمعانى الحقيقية . والغالب على الناس عامة انهم يفهمون الامور على ما يتهيأ لهم فى نفوسهم بحسب استعدادهم الفطرى وتثقيفهم المكتسب لاعلى ما هى تلك الامور فى نفسها . من أجل ذلك نجد الذين يبحثون فى الاذاعات المسموعة والمرئية وفى الصحف والمجلات عن الاغانى العاطفية والحلقات المسلية أكثر من الذين يهتمون بالاخبار العامة وبالاحاديث العلمية .

وينتقل هذا السوء أحيانا الى طبقات ليست فى أدنى سلم المجتمع ، ذلك لان الناس شركاء فى العاطفة يأخذون بالقريب من ظاهر الالفاظ وقلما أرادوا البحث عن المـــراد المقصود من المعنى ، لان هذا البحث يقتضى جهدا . فمن أمثلة هذا التأثر بظاهر اللفظ فى نطاق الغناء ما يغنيه ـ محمد عبد الوهاب ـ فى شعر شوقى :

وتأودت أعطاف بانـــك فى يـدى واحمر مـــــن خفريهما خـــــداك

ولكنه يغنى : « واحمر من خضريهما خداك » ! ويطرب الناس ، مع ان «خضريهما» لا تأتلف هنا والمعنى ولا تأتلف واللفظ .

وكذلك يغنى محمد عبد الوهاب فى شعر مهيار الديلمى :

أعجبت بى بـــــين نادى قومهـــــا أم سعـــــد فمضت تســـــأل بى .

غير انه يقول : أعجبت بى بين نادى قومها ذات حسن ...

هذا التبديل قد أتلف المعنى الذى قصده الشاعر . ان أم سعد « هنا كناية عـــن العـــرب .

والشاعر مهيار الديلمى فارسى . فهو يقول : ان أم سعد العربية أعجبها شأنى فى الفعل الحميد والخلق الكريم فاستغربت أن يصدر ذلك عن فارسى ، لان العمل الحميــد تابع ، عند العرب ، للاصل الشريف . عندئذ يعدد مهيار الفارسى فضائل قومه الفرس قبل الاسلام ثم يفتخر بأنه لما ظهر الاسلام فى العرب دخل هو وقومه فى الاســـلام . ويختم مهيار قطعته الجميلة بهذه اللفتة البارعة .

وجمعت المجــد مــــن أطرافـــه مـــوضع العفــة منــى بالعصـــا

فكيف يجوز أن تحل كلمة « ذات حسن » هناك محل كلمة « أم سعد » الا عند الذين تؤثر فيهم الكلمة الملفوظة أكثر مما يؤثر فيهم المعنى المقصود ٠

وغنت اسمهان مقطوعة مطلعها : « ليت للبراق عينا » جاء فى أبياتها :

٠٠٠ عـــذبـــونى ، ضربـــوا سـؤدد الفـرس وديـن العـرب !

ولكن اسمهان تغنى : « ضربوا جسمى الناحل منى بالعصا » ٠ ان هذا التبديل : « جسمى الناحل » مكان « موضع العفة » يفسد المعنى ويقطع الصلة بين هذه المقطوعة وبين الحادثة المشهورة المتصلة بها ٠

ويردد فريد الاطرش ، فى احدى أغنياته كلمة « بحبك » (أحبك) نحو عشريـــن مرة ، ثم نجد جماعات من الناس يموجون مع ترداده لهذه الكلمة موجا عميقا ٠

كل هذا يدل على ان لفظ الغناء ونغمه يؤثران فى السامعين تأثيرا شديدا ينسيهم فى كثير من الاحيان صحة المعنى ٠ ولقد عرف هذا الاثر البالغ للغناء منذ أقدم العصور ٠ من أجل ذلك نجد الغناء والموسيقى أساسيا فى الدين ، كما نرى فى جميع الاديان القديمة ، أو عنصرا عارضا فيه كما نرى فى الاسلام ـ فيما يتعلق بالتهليل والذكـر ٠ ويذكر اخوان الصفا أثر الموسيقى فى الناس فيقولون :

« ومن الدليل على ان لها تأثيرات فى النفوس استعمال الناس لها تارة عند الفرح والسرور فى الاعراس والولائم والدعوات ، وتارة عند الحزن والغم والمصائب وفى المآتم ، وتارة فى بيوت العبادات وفى الاعياد ، وتارة فى الاسواق والمنازل ، وفى الاسفار وفى الحضر ، وعند الراحة والتعب ، وفى مجالس الملوك ومنازل السوقة ٠ ويستعملها الرجال والنساء ، والصبيان والمشايخ ، والعلماء والجهال ، والصناع والتجار وجميع طبقـــات النـــاس ٠

فاذا كان أثر الغناء فى النفوس قويا الى هذا الحد ، فمن الواجب على العقلاء فى الاسرة وفى الدولة وفى المجتمع أن يجعلوا منه أداة لتهذيب نفوس الافراد وللحفاظ على المسلك القويم فى الجماعة ٠ وعرف الدين هذا الاثر ذا الحدين خيرا وشرا ، فثار الجدال بـــين

فقهاء المسلمين فى الغناء : أحلال هو أم حرام أم مكروه ؟ وقد أراد الامام الغزالى أن يضع هذا الامر فى نصابه المخصوص به فقال قولا مصيبا عاقلا هو :

« ويشترط فى اباحة السماع (الغناء) أن يكون السامع قد جاوز غرة الشباب أو تهذب تهذيبا نزعت به الشهوة من قلبه ·

ومكان الخطر فى الغناء انه قابل لان يصبح ادمانا ، فان لكل قوم ، كما يقول اخوان الصفا ، ألحانا يستلذونها لا يستلذ بها غيرهم ، وتجد فى الامة الواحدة قوما تلذ لهم الحان لا تلذ لغيرهم من أبناء أمتهم ، وقد تجد شخصا واحدا يلذ له فى بعض الاحيان لحن ثم لا يلذ له فى حين آخر ·

وأثر الادب عامة والشعر خاصة ، فى التنشئة والتهذيب ، ليس أقل من أثر الغناء ، فان احتكاك الناس بالادباء أكثر من احتكاكهم بالمغنين · ان الاديب يلقاك فى كل يوم وفى كل مكان : فى المدرسة التى تتعلم فيها ، وفى المجلة التى تقرأها ، وفى الكتاب الذى تطالعه ، وفى الاحاديث التى تسمعها · أما الغناء فله مناسباته · حتى فى الاذاعات المرئية والمسموعة ، فانك لا تجد حظ الادب ـ بجميع وجوهه من الانشاد والتحديث والتمثيل ـ أقل من حظ الغناء · والعادات تثبت بالاحتكاك والقدوة وتقوى بالمداومة · ويرى اخوان الصفا ، فى المثل على ذلك ، ان الصبيان اذا نشأوا مع الشجعان والفرسان تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم · وكذلك اذا نشأوا مع المخانيث والمعيوبين صاروا مثلهم ، ان لم يكن فى الخلق كله ففى بعضه ·

وللفيلسوف ابن سينا قو لكالمتمم لقول اخوان الصفا فى التنشئة والتربية · قال ابن سينا : « فاذا اشتدت مفاصل الصبى وتهيأ للتلقين أخذ يتعلم القرآن وصورت له حروف الهجاء ولقن معالم الدين · وينبغى أن يروى الصبى الرجز ثم القصيد ، فان رواية الرجز أسهل وحفظه أمكن لان بيوته أقصر ووزنه أخف · ويبدأ من الشعر بما قيل من فضل الادب ومدح العلم وذم الجهل ، وبما حث فيه على بر الوالدين واصطناع المعروف وقرى الضيف وغير ذلك من مكارم الاخلاق ·

ويتفق ان يحتاج نفر من الناس الى اشياء من وصف للحياة الجنسية ، كما يفعل فى كتب الطب · ولكن يجب أن يظل ذلك قاصرا على كتب الطب لا يصل اليه الا المتعلم

المدرك ، ولا يجوز أن ينقل ذلك الى الكتب النافقة والمجلات السيارة • وكذلك يتفق أن يرسم نفر من الفنانين عددا من الرسوم العارية أو ينحتون من التماثيل المجردة من الثياب ان هذا يجوز فى دراسة التشريح وفى تبيان التناسق فى الجسم البشرى • ولكن لا يجوز أن ينقل ذلك الى بطاقات تباع للجميع • وأبعد من ذلك من العذر أن تصدر باسم دولة عربية مسلمة طوابع بريدية تحمل صور النساء عاريات ثم تباع بثمن بخس لاطفالنا وأطفال غيرنا ـ لان الشر لا يتجزأ ولا يتفاوت •

ولقد اتفق فى تاريخ الآداب كلها ان كتب كاتبون ونظم ناظمون فى المجون بالفاظ مكنية أو صريحة ، مستورة أو مفضوحة • وربما كان فى بعض هذا المجون براعة فى التعبير أو دقة فى الوصف • ومع اننا نعبس فى وجه هذا النتاج ، فاننا نحفظه بالمعنيين : نبقيه ثم نحجزه عن الذين لا يدركون المقصد منه • وللبشر كلهم وجوه من حياة صحيحة مشروعة ، ولكن لا نفتح بابها لاحد الا اذا بلغ الطور الذى يجوز له فيه أن يدخل من ذلك الباب • وجميع العقلاء من افراد النوع الانسانى وجماعاته يفعلون مثل ذلك • لابى نواس قصائد فى المجون لا تطبع فى ديوانه ، ولكنها طبعت وحدها (فى بومباى ، سنة 1313 منذ ثمانين عاما فقط •

وفي الغرب العاقل مثل ما فى الشرق العاقل : فى عام 1936 كنت فى باريس وخطر لى الاعداد لطبعة ثانية من دراستى القصيرة فى أبى نواس مع موازنة موجزة بين شعر أبى نواس فى المجون وشعر الشعراء من غير العرب • كنت فى مكتبة جنفياف العامة ، فطلبت ديوان فيرلان ، وديوان بيرون • فسألنى المشرف عن وجه حاجتى الى الديوانين فاخبرته • وأراد الاستيثاق فأريته بطاقتى من جامعة برلين • فاتى الى بالديوانين ، ثم رغب الى فى أن أجلس فى جناح جانبى معزول عن قاعة المطالعة ـ لان هذين الديوانين وامثالهما لا يعاران للمطالعة ، الخارجية ولانى أنا أريد الكتابين لغرض علمى ، ولا حاجة الى أن اجلس بهما بين المطالعين الآخرين •

هذه العناية التى نراها عند العقلاء فى الشرق والغرب ، فى الاسلام وغير الاسلام ، امر صحيح محمود فى التربية لانه يجمع الامة على الخلق الكريم والسلوك السليم • والخلق فى الامة هو القانون الاختيارى الذى يأخذ الافراد به أنفسهم على الاحسان فى

السلوك الشخصى والسلوك الاجتماعى · والجماعة تظل متماسكة ما دامت على مسلك واحد فى الحياة · فاذا تشعبت بها المسالك تشتت قواها فضعف أمرها ثم هرمت وذابت فى الاقوياء أو فقدت القدرة على العيش الكريم ·

قال الله تعالى : وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ·

والجماعات اذا كانت لا تزال فتية قوية فانها تثبت فى وجه ما يتسرب الى افرادها من التساهل فى الاخلاق والتنازع فى المبادىء مدة من الزمن تطول أو تقصر ثم لا يظهر السوء عليها الا بعد زمن · اما اذا كانت الامة فى طور من أطوار ضعفها ، كحال أمتنا الاسلامية اليوم ، فان كل تساهل فى الخلق وتنازع فى المبادىء يضر بها ضررا بالغا ·

والنزاع بيننا وبين الغرب قديم جدا استخدمت فيه جميع انواع السلاح · وفى تاريخنا المعاصر نفذ الغرب الى صفوفنا من خلال التجديد · والتجديد سنة من سنن الحياة : فى الطبيعة وفى المجتمع وفى الثقافة أيضا · ولكن التجديد الذى جاء به الغرب الينا ، هو كره كل ما هو شرقى عربى مسلم ، وحب كل ما هو غربى أجنبى غير مسلم · فمن امثلة ذلك الهجوم على تراثنا بلا وازع من خُلق أو علم ما يلى :

ـ يقول ابو القاسم الشابى : ان أدب العرب مادى لا سمو فيه ولا الهام ولا نظر الى لباب الحقائق · (ثم لا نراه) ملائما لروحنا الحاضرة ورغائبنا فى الحياة · لقد اصبحنا نتطلب أدبا جديدا نضيرا · وهذا لا نجده فى الادب العربى لانه لم يخلق لنا نحن ابناء هذه القرون ، وانما خلق لقلوب اخرستها سكينة الموت · ولا ينبغى لنا ان ننظر الى الادب العربى كمثل اعلى للادب ، بل يجب أن نعده كادب من الآداب القديمة · ونقدة الاسلام الاولون كانوا لا يفهمون الادب على حقيقته ، بل فهموا منه أنه ألفاظ وتراكيب ليس وراءها روح ولا فكر · والطبقة الثانية من النقدة كان الادب فى رأيها وسيلة من وسائل اللهو ونوعا من أنواع الشحاذة وضربا من ضروب الاستجداء لا غير ·

ـ وقال أبو القاسم محمد كرو فى كتابه « كفاح الشابى » : كان الشعر العربى لا يحفل بالمجرى الانسانى الرفيع ثم لا يزيد على خواطر عابرة ··· وظل الشاعر العربى مهرجا كبيرا يحرز قصب السبق فى المبالغة والكذب ·

والذين يعنون بالتجديد هجر الخصائص العربية والتبدل بها خصائص اجنبية يفعلون ذلك لان التقيد بمنهج فى الحياة يفرض على المتقيد جهدا وجهادا ، وهم لا يريدون ان ينهضوا بهذه الامانة لانها عبء ثقيل • فاذا هم أخذوا بالخصائص العربية قالوا ما شاءوا من غير ان يفرضوا على انفسهم طريقا مخطوطا وتبعة مستمرة •

والتجديد فى الغناء كالتجديد فى الادب له وجوهه المشرقة ووجوهه الحالكة • بدأ التجديد عندنا بعد الحرب العالمية الاولى بهجوم الموسيقى الغربية وما يصحبها على بلادنا • وكانت حركة تطعيم الموسيقى العربية الحديثة بالموسيقى الغربية الحديثة • كحركة تطعيم الموسيقى العربية القديمة بالموسيقى الفارسية والرومية • والحضارات تتجاور ويستعير بعضها من بعض • ولكن الحركة الجديدة اتخذت من التجديد فى الموسيقى منفذا الى مقارعة اللغة العربية والحياة العربية • وكان الغناء القديم ، قبل الحرب العالمية الاولى ، يجرى فى اللفظ العفيف والمعنى الشريف والاشارة البعيدة حينما كان يقترب الغناء من العاطفة البشرية • أما بعد ذلك فقد انحدرت ألفاظه الى العامية وانحدرت معانيه الى المدارك الجنسية المكشوفة فغنت صباح فى لبنان ، مثلا ، « شب واستحلى » (شاب قد تاقت نفسه) • وفى مصر غنى محمد عبد الوهاب « ما احلى الرجوع اليه » ، كما غنت فى ذلك نجاة الصغيرة • ولكن تخيل رجلا يغنى معنى تتمناه النساء ! وغنى محمد عبد الوهاب أيضا « عينيك فى عينيه » مما لا يجوز تفسير كناياته•

كل هذا يؤثر فى الناشئين الذين لم يعرفوا بعد شيئا من الحياة الجنسية فتتمنى نفوسهم مثل ذلك • وقد يكون نفر من الناشئين قد عرفوا عددا من الاوجه المحرمة أو الشاذة ، فاذا سمعوا مثل هذه الاغانى هان عليهم ما كانوا قد صنعوه ثم جرؤوا على أكثر منه ومردوا عليه •

ولا عذر لاحد اذا قال : ان الناس يريدون ذلك ، كما قيل لى فى عدد من دور الاذاعات العربية • قد يكون فى ذلك شيئا من الواقع ، ولكن يجب على القادة ان يرفعوا الجمهور الى المستوى الكريم ما أمكن لا ان ينزلوا به الى ادنى مما كان فيه •

وللمجلات العامة والاسبوعية منها على الاخص أثر كبير فى التنشئة ، حتى انها لتطغى بأثرها على الكتاب • والمجلات التى يجوز للرجل ان يدخل بها الى بيته قليلة

ـ ولولا عدد من المجلات الرصينة السليمة كمجلة « العربى » التى تصدر فى الكويت وكعدد من المجلات التى تصدرها وزارات للثقافة فى البلاد العربية لكانت حال ناشئتنا اليوم أسوء مما هى كثيرا • واللغز الذى ليس غريبا هو ان وصول هذه المجلات الرصينة السليمة الى القراء العرب ـ مع ان معظم هذه المجلات تشرف عليها الحكومات وتغذيها ـ ليس بالسرعة واليسر اللذين يصل به غيرها من المجلات الى اطراف العالم العربى سرعة وانتظاما •

ويعترض معترض فيقول :

ولكن هذا الادب الذى تعبس فى وجهه وهذا الغناء الذى تنكره شيء موجود عند آخرين : فى أوروبة وأمريكة • فلماذا لا يخشى الناس منه هنالك على انفسهم وتراثهم كما تخشى انت منه هنا على انفسنا وتراثنا ؟

والجواب على ذلك ان الامم ، حينما تكون قوية ، لا تتأثر بالهزات كما تتأثر الامم الضعيفة • أو اننا نحن ـ على الاصح ـ لا نرى أثر الهزات فى الامم القوية واضحا • واذا كانت الولايات المتحدة الاميركية ، مثلا ، لم تسقط بعد ، برغم ما نرى اليوم فيها من عوامل الانحلال التى نخشاها نحن الآن على بلادنا ، فليس معنى ذلك ان الولايات المتحدة لن تسقط بأثر هذه العوامل وأمثالها فى المستقبل القريب أو البعيد ، فى عشر الثمانين المقبلة • تأمل الولايات المتحدة الامريكية اليوم أو انكلترة أو فرنسا أو ايطالية، ثم قارن حالها اليوم بما كانت عليه فى عام 1923 أو فى عام 1927 أو فى عام 1935 ، فهل تجد هذه الدول من القوة حيث كانت فى تلك الاعوام الماضية ؟

ونحن المسلمين اليوم فى حال من الضعف لا فى حال من القوة ـ ولكن ربما كنا اليوم فى بعض احوالنا احسن منا بالامس فى الثروة الاقتصادية وفى بعض جوانب العلم ثم في عدد من نواحي العمران التى تعم بلادنا ببعض ما تعم به بعض بلاد غيرنا ـ غير ان ضعفنا الحاضر لا يجيز لنا ان نتساهل فى تقبل عوامل تزيدنا ضعفا على ضعف • فنحن ، اذن ، أحق بأن نتمسك بما يجعل الامم أكثر قوة لا بما يدنيها من ضعف أشد •

هذا هو الموضوع موجزا • اما معالجة السوء الذى نعانيه فيحتاج الى بحث مستقل

يمكن ايجازه بالاشارة الى ضرورة قيام الدولة بمراقبة ما ينشر ، اذا كنا نريد ان يكون لنا فى المستقبل جيل سليم البنية سليم التفكير سليم الاتجاه ·

ولكن ربما اعترض بعضهم فقال : ولكن اين تكون الحرية حينئذ ؟

. وردى عليه موجز واضح ولكن فى سؤال جديد :

كيف تراقب الحكومات فى عالم النشر ما يمس سياستها الخاصة بها فتغلق صحيفة ذكرت رئيس دولة صديقة بسوء أو تطرد رجلا ألف رواية خيالية تتعرض لمدرك من المدارك النظرية فى السياسة أو الاقتصاد ، ثم لا تراقب كتبا ومجلات تتعرض لحقيقة الامة وتمس حاضرها ومستقبلها مسا شديدا ضائرا ؟

دور الشعراء الأتراك في

إيقاظ الوطنية في تركيا

فيما بين 1865 ـ 1923م

د · ارجمند كوران
استاذ التاريخ
بجامعة انقرة ـ تركيا ـ



يعتبر تأسيس الامبراطورية العثمانية بحق أهم حدث سجله الاتراك عبر التاريخ ، فقد استطاعت القبائل الوافدة من آسيا الوسطى أن تقيم فى الشرق الادنى دولة اسلامية بلغت أوج سلطانها فى القرن السادس عشر المسيحى ، ويرجع انتصار الاتراك العثمانيين الى روح الغزاة التى كانت تحدوهم كحماة وكدعاة للاسلام ، بيد ان توسع الامبراطورية العثمانية لقى حده غداة فتح جزيرة اقريطش سنة 1669 ، وأعقبه مباشرة عهد التقلص والافول ، حيث ان انسحاب الاتراك الذى بدأ بالتوقيع على معاهدة كارلوفتز سنة 1699 م · قد استمر طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكان مآله انهيار الامبراطورية على اثر الحرب العالمية الثانية ، ـ لكن الانحطاط الذى اعترى بعد

ذلك الدولة العثمانية المتعددة الجنسيات كان له تطور جدير بالملاحظة : ألا وهـــو أن الدولة التركية بدأت تشعر تدريجيا بوجودها ، وكان الفضل الواسع فى ايقاظ الوطنية التركية ، للمثقفين العثمانيين فى القـرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين ، ولا غرو ان مساهمة الشعراء فى التوعية الوطنية بتركيا كانت على جانب من الاهمية ، وذلك ما نحن بصدد معالجته فى هذا الابلاغ ٠

ـ نمك كمال : (1840 ـ 1888) صحافى وكاتب ورجل سياسى عثمانى يمتـــاز بصفته أول شاعر قومى ، ولا يزال ذكره حيا الى يومنا هذا ، وكان نمك كمـال مـن بين نخبة الاحرار العثمانيين « الذين أسسوا المنظمة السرية » « تركيا الفتاة » سنـــة 1865 م ٠ وذلك بسنتين قبل منفاهم الطوعى الى أوروبا لكى تتسنى لهم محاربة الوزير المستبد على باشا ٠

ـ لقد عمق شاعرنا اديولوجية عثمانية المبدا ، رامية الى تأليف أمة « عثمانيـة » نتيجة انصهار مختلف المجموعات العنصرية والدينية الماثلة آنذاك فى الامبراطورية ٠

وجاءت كتابته لمسرحية « الوطن أو سيلستريا » التى مثلت فى اسطنبول سنـــة 1873 م ، هادفة بالذات الى اذكاء جذوة القومية العثمانية ، وهى تشيـــد بالمقاومـــة الباسلة التى قام بها العثمانيون وهم محاصرون فى سيلستريا من قبل الروس اثنـاء حرب القرم ، وكان مقطع قصيدة « نشيد الوطن » الذى يتغنى به الجنود العثمانيون :

« نستبشر بالقتال مستعدين للاستشهاد　　اننا العثمانيون ، نضحى بالنفوس

لنغنـم صيتـا (1) »

كان هذا المقطع يبعث سامعيه على الحماس ، الشىء الذى ربما كان السبب فى منـع التمثيلية وفى نفى كاتبها الى جزيرة قبرص ٠

ـ وتكتسى وطنية نمك كمال ، الى جانب هذا ، ظاهرة دينية حيث ان الشاعر كان من الانصار الصرحاء لاتحاد الاسلام ، « وكانت روما نطيقيته » تدفع به الى اجلال الابطال

---

1) كمال ، **وطن ياهوت سيلستريا** ـ الطبعة السابعة ـ اسطنبول (1307 هـ ص 50) ٠

والبطولة لان التاريخ فى نظره ، انما هو تمجيد للرجال العظماء الذين كرسوا حياتهم فى خدمة الرسالة التى اختاروها لانفسهم ، وكم كان يعجب بالسلطانين العثمانيين محمد الغازى وسليم الاول ، مع تقديره واكباره لصلاح الدين العظيم وللامير نيروز ، داعية الاسلام فى المغول ، واعتبارهما كذلك بطلين من ابطال القومية العثمانية · (2)

ـ أثر نمك كمال على الاجيال التلى تلته خصوصا بقصيدة « الحرية » التى نظمها سنة 1867 م · والتى تم افشاؤها سريا أيام النظام الاستبدادى الذى كان يفرضه السلطان عبد الحميد الثانى ، واضرمت أبياتها مشاعر العديد من الثوريين الاتراك ، وأن أبياتها كهذه :

« فليقدم المصير بكل همومه »

فساكون جبانا اذا أنا انصرفت عن طريق « النجاة » الوطن (3)

كانت تحفظ وتنشد وسط تأثر وحماس منقطعى النظير ·

ـ على أن آراء نمك كمال التحررية حملته على أن يكون فى نفس الوقت نصيرا لفكرة النظام الدستورى ، ولذا فاننا نراه يبذل قصارى جهده لاحلال البرلمانية فى تركيا ومما لا شك فيه ان وطنيته المشتعلة قد كانت عنصر الهام للمثقفين الاتراك فى الفترة التالية ، ونحن نرى فيها كاتبا مثل سليمان نازف يقول عن جدارة : ان الله خلقنا ، لكن نمك كمال هو الذى كوننا ـ الشاعر محمد أمين (ايردكول) 1896 ـ 1944 : فتح عهدا جديدا فى حياة الادب العثمانى ، وقد نظم قصيدة بمناسبة الحرب التركية ـ اليونانية ـ سنة 1897م ، مطلعها :

« أنا تركى ، وأنتمى الى دين وأمة عظيمين » (5)

---

2) أحمد حمدى تيمار ، 19 : **أسير ترك ادبيات تاريخى** ، الطبعة الثانية ـ اسطنبول (1956) ص 398 وتوابعها ·

3) محمد كبلان ، **سيير تهليير** (اسطنبول 1954) ص 26 ·

4) محمد كبلان ، نمك كمال ، **حياة فى اسر ليرى** (اسطنبول ، 1948 ص 30 ـ 229) ·

5) محمد أمين ياردكول ، **سيير لير** ، طبعة فوزى عبد الله تنسال ـ انقرة (1969 ص 22) ·

آذنت هذه القصيدة بميلاد الشعر التركى النزعة ، وقوبل ديوانه الاول بارتياح من طرف المثقفين الاتراك ، مما جعل المستشرق الانقليزى ا ٠ ج ٠ و جيب يعبر له عن اعجابه بقوله : « لقد وجدت الامة التركية طريقها فى انتاجك الادبى ، ٠٠٠ بعد ما ضلت ستة قرون فى انتظارك (6) ، ومحمد أمين ، علاوة على هذا ، حريص على ربط وطنيته بالحب الذى يضمره للشعب ، خاصة لفلاحى الانضول الفقراء (7) ويعزى تعلقه هذا بشأن الطبقات المحرومة الى تأثير الشيخ جمال الدين الافغاني الذى كان الشاعر على اتصال شخصى به وكان يتشرف أن يذكر بين تلاملاته ، ومع أن قصائد محمد أمين لا تتصف بالطابع الفنى ، الا أن صدق وحيها وسهولة تعبيرها قد كسياها رونقا حببها للجميع ٠

ـ زيا قوهلب (1676 ـ 1924) ، كان أيضا شاعرا تركى النزعة ، لكنه انجذب قبل محمد أمين الى المبدأ « التورانى » الذى كان يحلم بالوحدة السياسية بين الاتراك ، داخل دولة موحدة، ويعرف قوهلب اليوم بمؤلفاته العلمية وبأن تأثره بنظريات دوركهايم الاجتماعية جعله أول من سبق من المفكرين الى اعطاء الشكل المنهجى لمبادىء الوطنية التركية ، ولتلقين آرائه للامة لجأ الشاعر قوهلب الى نظم القصائد التعليمية ، ويعترف هو نفسه بأن قصيدته التى عنوانها « توارن » كانت بمثابة الشرارة الاولى للمبدأ « التورانى » (8) وتنتهى هذه القصيدة التى ألفها سنة 1911 بالبيتين التاليين : « ليس وطن الاتراك تركيا ولا التركستان » ان الوطن اقليم واسع وخالد ، هو توران ٠ (9)

ـ ثم تطورت آراءقوهلب خلال السنوات التالية ، حتى أننا نراه فى قصيدته التى عنوانها « وطن » وقد نشرت سنة 1918 ، يصف وطنه كما يلى :

« بلاد يؤدى فيها الآذان باللغة التركية : (بحيث) يفهم الفلاح مغزى الصلاة وهو يصلى » ٠ (10)

---

6) اقسر وغلو يوسف ، « تركسيلوك » ، ضمن ترك يلى (1928) ص 383 ٠
7) أوريال هايد ، فنديشن أوف تركيش ناسيونالزم (لندن ، 1950) ص 108 ٠
8) زياقوهلب ، **تركسلوجيم اسسلارى** (انقرة ، 1339 هـ) ص 11 ٠
9) نفسه **سيرليرف هلك مسلارى** ، طبعة فوزى عبد الله تنسال (انقرة) 1952 ص 5 ٠
10) نفسه ، ص 113 ٠

عدل قوهلب اذن عن حمله بتحقيق الامة التورانية ، وولى وجهه نحو الشريعة الاسلامية، لا سيما بعد هزيمة سرقميس التى لحقت بأنور باشا أثناء حملته ضد الروس ٠

ـ محمد عاكف (أرسوى) 1876 ـ 1936 ، هو الشاعر التركى الذى يستوحى أفكاره كلها من الاسلام ، كان يؤمن ايمانا خالصا وينتقد الانحطاط الذى آل اليه العالم الاسلامى ، ويهجم فى ابياته على الآفات التى اعترت المجتمع الاسلامى مقترحا التسلح بالعلم والتكنولوجيا العصريين لمعالجة تلك الامراض ، وسجل لنا محمد عاكف ، بكل وفاء ـ فى مؤلفه الرئيسى « صفحات » الوارد فى سبعة أجزاء ، سجل تطور آرائه منذ السنوات الاخيرة لعهد السلطان عبد الحميد الثانى ، حتى حرب الاستقلال ٠

ـ كان محمد عاكف يميل بادىء ذى بدء الى العالمية الاسلامية ، ويستنكر كل وطنية لكونها مضرة بوحدة الامة ، غير أن ابتعاد المسلمين غير الاتراك عن الامبراطورية العثمانية ابان الحروب البلقانية قربه من الوطنية التركية ، حيث التحق بالحركة الوطنية التى تزعمها مصطفى كمال باشا ، منظما قصيدة « الاستقلال » التى اختارها مجلس النواب التركى فى 14 مارس 1924 نشيدا وطنيا ٠

ومما جاء فى هذه القصيدة :

« لا يعترينك خوف ، فالعلم الاحمر المرفرف فجرا سوف لا يضمحل » (فهو) آخر نار تدخن فى بلادى ، ولا ينتسب الا لوطنى » !

ـ كان لهذا النشيد وقع نشيد المارسييز بالنسبة للاتراك ، ولا يزال يتغنى به حتى اليوم فى تركيا ٠

ـ عبر محمد عاكف فى بعض قصائده عن شعور عميق مضاد للامبريالية ، وهكذا وبمناسبة تدخل الحلفاء فى الدردنيل سنة 1915 نظم الشاعر هذه الابيات الخالدة :

ما هذه الحرب بالدرد نيل ؟ وهل وجد مثلها فى العالم ؟
أربعة أو خمسة جيوش عرمرمة تهاجم

قطعة أرض حاصرتها الاساطيل
ياله من قرن عشرين هذا المخلوق النبيل !

انه بحق لئيـم لـؤم الشعوب المفضلـــة التى تؤلفه
شعوب أنتصبت أمام (الجندى) محمد وراحت تقىء طيلة الشهور ! (11)

بعد الوصف العنيف للقوات المعادية ، يتوجه الشاعر نحو (الشهيد) المســـلـم فيقـــول :

« يا للجندى الساقط على الارض (دفاعا) عن أراضيه
من الذى سيحفر القبر الذى يأويك ؟
اذا قلت : « تدفن فى التاريخ » ، فانك لا تستطيع ان تدخله
ولا يسعك الا الخلود » (12)

ـ لقد بلغ عاكف وهو يطرق مواضيع عزيزة عليه درجة من الحماس قل لها مثيل ·

ـ نتبين من هذا العرض ان الشعراء العثمانيين لعبوا دورا هاما فى ايقاظ الوطنية فى تركيا · ففى البداية أشاد نمك كمال بالروح القومية لصالح الايديولوجية العثمانية المشرب ، لكن عجز هذه الايديولوجية على صيانة وحدة الامبراطورية العثمانية ، اضطر الشاعرين : محمد أمين وزيا قوهلب الى اختيار النزعة التركية ، مدفوعـين أحيانا الى التورانية ، ثم سيطرت الوطنية التركية ذات الطابع الدينى على فترة حرب الاستقـلال ، وتغلبت الامة التركية تحت قيادة مصطفى كمال على العـدو ، فأسست سنــــة 1923 الجمهورية الوطنية العصرية ·

---

11) محمد عاكف ارسوى ـ **صفحات** ـ طبعة عمر رضى دغرول ـ **الطبعة** 7 ، اسطنبول 1966 ، ص 425 ·

12) نفسه ، ص 426 ·

● النقطـة الخامسة من جدول أعمال الملتقى

مصادر الثروة وتداولها
في شريعة الإسلام

د. محمد علي رفعت
استاذ الاقتصاد السياسي
جامعة الجزائر



مقـــدمـة :

تعرف الثروة بانها المال الكثير المتجمع في حوز ما ، انما المذاهب الاقتصادية المعاصرة ، وما تفرع عليها من مذهبيات شتى ، جميعها تعالج قضية الثروة كما لو كانت ظاهـرة مادية محض ، تخضع في تحليلها وفي تعليلها لمنهجيات العلوم الحسية الدقيقة ٠ لكن الاخذ بهذا الاسلوب في المعالجة يسقط عن الثـــروة ، وعن وظائفها الاجتماعية ، تلـك

الاعتبارات والعوامل الانسانية التى تطوعها لارادة الانسان ، والتى تسخرها فى خدمته، والتى تحول دون سيطرتها عليه ، ودون تحكمها فى تصرفاته ذلك بانه أسلوب يعتمد على فروض منهجية، تتجاهل، عن عمد أو عن عجز، جانبا هاما من علاقة الانسان بالثروة، وتهمل استقصاء العوامل النفسية والوجدانية التى تؤثر فى رؤية الانسان للثروة وتعامله معها ، من حيث جمعها ، والانتفاع بها ، وتداولها ٠

ساعدت هذه الفروض كثيرا على استبداد المادية بالفكر الاقتصادى المعاصر ، وبالـغ رجال الاقتصاد فى تقدير مؤثرات الثروة ، من جانبها المادى فقط ، على سلوك النـاس ومعاملاتهم ، حتى ظن أن تحصيل المال غاية فى ذاته بدلا من كونه غرضا تعلو به حيـاة الانسان الى تحقيق رسالته السامية التى تدعو اليها حكـــمة الله تعالى فى الكائنات ، وتنتهى بالانسان نفسه الى سعادة الدارين : الدنيا والآخرة ٠ تلك كانت ولا تزال حال القصور الذى تعانيه المذاهب الاقتصادية الوضعية ، منذ ان نادى بها واضعوها الاولون ٠ فذلك رائد علم الاقتصاد الحديث آدم سميث ينشر ، منذ قرنين ، الدراسة « الام فى علم الاقتصاد » تحت عنوان « ثروة الامم » ، فيرسم لمن خلفه معالم الطريق الذى كثيرا مـا يتجاهل سالكه ارادة الانسان وعقله ٠ وهكذا صارت مشاكل الثروة ، من حيث منشأها وتراكمها ، وتوزيعها ، وتداولها ، هى المدارات الكبرى التى يسبح فيها الفكر الاقتصادى المعاصـــر ٠

الا انه بقى فكرا يجنح فى سبحه الى اتجاهات شتى ، تقـود الناس الى الاضطراب والفرقة والصراع ـ كالذى نشاهده الآن !

فهو فكر ينطلق من التسليم بأن طيبات الارض محدودة ، تواجه مطالب لانسان غير محدودة ، وهو يؤسس على هذا التسليم مبدأ الندرة ٠ ثم هو يستند الى هذا المبدأ فى تحديد اصل المشكلة الاقتصادية ، وفى تحليله للنشاط الاقتصادى الذى تفرضه تلـك الندرة ، دون ان يكون لغيرها من العوامل المتعلقة بمقومات الفكر والوجدان أى شأن فى توجيه ذلك النشاط ٠

بيد ان الحال تختلف اختلافا جوهريا فيما يستلهمه الفكر الاقتصادى الاسلامى من أصول فى معالجته لقضية الثروة ، لا من وجه تحديد مصادرها فحسب بل أيضا من وجه تقييم وظائفها ، وتهذيب استخدامها ، وتنظيم تداولها ، ذلك بأن الفكر الاسلامى ينفـذ

الى ما وراء ما قد يشاهده الناس من ندرة فى الثروة الفطرية ، وما قـــد يلمسونه فى نفوسهم من تهافت تحصيل المال المقيم ٠

انه يستلهم ابتداء عقيدة التوحيد بأن الله جل جلاله واحد أحد وأنه تعالى خالق كل شىء ومدبره ٠

وتاسيسا على ذلك يرفض نظرية الندرة التى ينطلق منها الفــكر الاقتصادى غـير الاسلامى ، لا لانها تنطوى على اتهام آثم للخالق سبحانه بالبخل وبالشح فحسب ، بل أيضا لانها تستند الى نظرة سطحية تكذبها التجارب عــبر التاريخ ، ولا سيما تجارب العصر الحديث ٠ فضلا عن أنها السبب الرئيسى فى عقم هذا الفــكر ذاته ٠ ذلك بأن التسليم بحتمية الندرة استنفد تفكير القوم فى محاولات حلها عن طريق التركيز عـلى « زيادة الانتاج » ، فصرفهم عن النظر فى الاسباب الحقيقية ٠ لما يبدو فى ظاهره نـدرة وشحة٠ «أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » (الحج : 46) ٠

اليس الصواب فى النظر الى فطرة (طبيعة) الارض وما فيها من وديان وجبـــال وبحار وانهار ٠ وما يحيط بها ، وما يكـــمن فى باطنها من خـــيرات وثروات ظاهـرة وباطنة ٠٠٠ ونقول : أليس الصواب فى النظر الى طيبات الارض على بصيرة صادقة وعقل متفتح ، لنرى ونلمس فيها المنافع الظاهرة والمنافع الكامنة التى تتطلب مجهود الانسان لاظهارها والانتفاع بها ؟

والا فكيف نفسر ذلك الفيض العميم من المنافع التى صاحبت الكشوف العلميه عبر تاريخ البشر بعامة ، وفى عصر الذرة والتكنولوجيا الحالى بخاصة ٠ « وان تعدوا نعمـة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار » ابراهيم 34 ٠

الراهن ان الكشوف العلمية الحديثة تترى كاشفة عــن منافع كانت غير معــــروفة فاضافت جديدا ، كما ضاعفت ثمار نعمة كانت معروفة ، وما تاريخ استخراج البترول والغاز الطبيعى من باطن الارض منا ببعيد ! وها هى الصناعات البتروكيماوية تستخلص مآت المشتقات السلعية النافعة من البترول ، فلم يعد نفعه مقصورا على احراقه !

ومع ذلك ، فلا يزال العالم يعانى الامرين من الاسراف والتبذير فى استعمال طيبات الارض ، بل وتبديد ثرواتها وخيراتها فيما لا ينفع الناس ٠

لقد ايقظت الازمة الراهنة فى البلدان الصناعية بعض الضمائر ـ بل ربما الاصح بعض المصالح ـ فعلت أصـوات تتردد ان كثيرا من « المواد الاولية » كالورق وزيوت التشحيم والمعادن يمكن اعادة « استصناعها » لكى تصير صالحة للاستعمال مرات ومرات٠ هذا فضلا عن القصد فى مقادير ما يستخدم منها ٠

وفى الحـق ان الندرة ليست هى المشكلة الاقتصادية فى المجتمع الحـديث ٠ وانما عناصر المشكلة الحقيقية تتجمع فى الجهل بحقيقة الخلق وحكمته ، أو اهمال هذه الحقيقة ، وفى سوء التدبير فى استخدام المواد الاولية ، وفى الاسراف فى الاستهلاك والانغماس فى الترف والمجون ، وفى ظلم الانسان لاخيه الانسان ٠٠٠ لعل ظروف العالم المعاصر ، وما تقاسيه شعوبه من اختلال موازين القيم ، تهىء فرص اليقظة ، وتهدى القـوم الى سبيل الرشاد ، ان الله على كل شىء قدير ٠

الفصـــل الاول

ديـــن الاســـلام وشريعـــته

لدين الاسلام ذاتية مميزة ، تتجلى فى خصائص انفرد بها بين الرسالات السماوية وقد جمعت شريعته من الاصول والحدود والاحكام والضوابط ما لو استمسك الناس بها فى معاملاتهم لما اضطربت أمورهم ، ولنعموا بحياة راغدة كريمة ٠ من هذه الشريعة ينطلق الفكر الاقتصادى الاسلامى ، وعلى قواعدها يتأسس النظام الاقتصادي الاسلامى ٠

ولهذا يكون لزاما علينا ، فى مجال البحث عن الاحكام الخاصة بمصادر الثروة وتداولها ان نهتدى بأصول الشريعة ٠ فالقضية المعروضة للنظر ، لا تتعلق بتفسير ظاهرة مادية عن طريق المشاهدة والاستقراء ، ولا هى تنصرف الى تحليل موضوعى لواقع العلاقات التبادلية فى مجتمع معين ٠ بل هى قضية استخراج احكام ومبادىء عامة من أصـــول اساسية ـ تلك الاصول التى غاياتها دوما تحويل الواقع الاجتماعى المعتل ، اينما يكون ، الى بنية اجتماعية سليمة ، مع استمرار المحافظة عليها سليمة ٠ ألم يكن الاسلام أعظـم وأخلد ثورة فى تاريخ البشرية ؟ ثورة دكت معـاقل الانحراف والفساد ، واستبدلتها بدعائم الاصلاح والرشاد ؟ مقومات الاستدلال واضحة ومحققة ٠

بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، كانت لاربعة عشر قرنا خلت • نصوص التنزيل الحكيم باقية مصونة • لم تنل منها غوائل الدهر • لم تمسها عاديات الزمن • لم تمتد اليها ايدى التحريف والتصحيف • لم يتنازعها اختلاف الروايات ولا تعدد الرواة •

– « انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون » الواقعة 77 – 78 •

– « انما نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » الحجر 15 •

وصاحب الرسالة !

لقد امتازت سيرته عليه السلام ، على غيرها من سير اصحاب الرسالات السماوية الذين سبقوه ، بانها معروفة فى جميع مراحلها ، محققة فى كافة دقائقها • بينما الذى وصل الينا من اخبار الانبياء والرسل السابقين – فما عدا ما جاء عنهم فى الذكر الحكيم – لا يكاد يرتفع فوق الاقاصيص والروايات المبتورة غير المحققة التى فيها من الاساطير ومن نسيج الخيال الشىء الكثير •

– أما كتب السيرة المحمدية فانها تزخر بروايات شهود العيان من لا يرتقى الشك الى صدق رواياتهم •

– فيها سجل كامل لسلوك النبى صلى الله عليه وسلم •

– فيها تحليل واف لتصرفاته العامة •

– كل ذلك محقق تحقيقا لا نظير له •

– كذلك كان تحقيق احاديثه المروية •

وهكذا استقامت السنة التى يتأسى بها كافة المسلمين « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » الاحزاب 20 •

نعم ، انها أسوة بشر للبشر : ••• لقد ولد عليه السلام بشرا ••• وعاش بشرا ••• ومات بشرا •

– « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد » الكهف 110 •

– « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » آل عمران 144 •

ذلك بأن الاسوة لا تكون أسوة حقيقية الا اذا كان فى مقدور المتأسى أن يحذو حذوها•

ولهذا كانت الرسالة التى حملها محمد صلى الله عليه وسلم ، وامر بتبليغها للعالمين ، رسالة يتقبلها العقل السليم ، وتتفق وفطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تحـدها حدود زائغة ... ولا تشوبها فروض التجريد المنهجى الذى يضحى بالحقائق الثابتة فى سبيل التمسك بأسلوب منهجى معين لا يناسب تحليل تلك الحقائق . رسالة الاسـلام عنصران عقيدة وعبادة !

اما العقيدة فعقيدة التوحيد . جوهرها ايمان بالله وملائكته وكتبه ، ورسله واليوم الآخر ـ على تقوى الله من طاعة أو من خشية !

ـ « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما انزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » . البقرة 2 ـ 4 .

الايمان بالله هو الاصل والاساس لرسالة الاسلام فلا يجوز أن ينسب الى الاسلام رأى أو فكرة أو مذهب لا يقوم صراحة على الايمان بالله .

ولقد جاوز عدد الآيات القرآنية التى ذكر فيها لفظ آمن ومشتقاته 500 آية والايمان بالله معناه طاعته تعالى ، والخضوع لشرعه وحدوده .

اما مناط الايمان فدوما هو ضمير الفرد . ذلك بان الدعوة الاسلامية قد استحدثت المسؤولية الفردية التى لم تكن معروفة فى المجتمعات السالفة . كانت هذه المسؤوليـة شيئا جديدا لم يتطور مما تقدمه من فكر أو من نظام موضوع .

« كل امرىء بما كسب رهـين » ـ الطور 21 ـ

اما العبادة ، فهى فى دين الاسلام ، متفرعة على العقيدة ، ومن ثم فهى تكليف مناطه أيضا ضمير الفرد ، ودعامته اضطلاع الفرد بمسؤوليته .

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » الذاريات 56 .

وحيث يكون ضمير الفرد مناط العقيدة والعبادة سواء بسواء ، فهو الرقيب الدائـم على تصرفات الانسان المسلم فى حله وترحاله ، فى حركته وسكونه ، فى قيامه وقعوده فى عمله وفى تعامله مع نفسه ومع غيره . لكن التكليف لم يكن لان الله سبحانه وتعالى ليس فى حاجة اليه ...

« يا أيها الناس انتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد » فاطر 15 ٠

ولم يكـــن التكليف مقصورا على الحظر أو التحريم أو الحرمان بل انه ، فى الغالب الاعم ، حظ على العمل ، وحث على السعى ، وتزكية للاستمتاع المقدور ٠

« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » الجمعة 10 ٠

(يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحـب المسرفين ٠ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذيـن آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يــوم القيامة كذلك نفصّـل الآيات لقــوم يعلمون) ، الاعراف 31 ـ 32 ٠

ان الانسان الراشد ، بما حباه الله من ارادة وعقل ، فى حاجة متجددة الى مقومات الحياة الفاضلة ، تلك المقومات التى تنمى ملكاته ، وتغذى مطالبه الروحية ، وتستجيب لمتطلباته المعيشية بعامة ٠

ـ انها مقاصد لا تنال بغير مجهود ٠

ـ لابد من العمل المناسب ٠

ـ لابد من البذل المقدور ٠

ـ لابد من التمسك بالقيم السامية ٠

ـ لابد من الارتفاع فوق الغرائز البهيمية بالتحكم فيها ٠

وأخيرا لابد من التكافل بين العاملين حيث لا تكون طبقية ، ولا يكون صراع بـــين طبقـــات ٠٠٠

ـ « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعـوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ـ الحجرات 13 ٠

الا انها حكمة الخالق جل وعلا الحض على العمل وتمجيده ، وحاجة الانسان نفســه الى مقومات الحياة الفاضلة ، هى التى تلزمه بأن يؤمن بالله ويخضع لاحكامه ٠

أليست العبادة تنبيها دائما لضمير الانسان بوجوده الروحى ، وبأن هناك خالق باق الى جانب الزائل المحدود فى حياته ، أليست العبادة سياجا واقيا من الزيغ والانحراف اللذين قد يتعرض لهما الانسان فيما يمارسه من نشاط تستلزمه حياته المعيشية ؟ ٠

أليست العبادة كذلك تحث الانسان على الاعمال الصالحة وتزكيه بها ؟

خصائص الشريعـــة

دعوة الاسلام دعوة عالمية لم يختص بها شعب دون آخر ، ولا تقتصر على جيل معين انها ممتدة الى ما شاء الله ٠

فى تعاليم الدين الاسلامى نظام حياة كاملة ٠٠٠ انه نظام ليس بالجامد المنغلق ، ولا بالسائب المستباح ٠٠٠ انه نظام يندب الانسان للانفتاح الفكرى ، ويحثه على استعمال العقل ، وعلى التأمل فى كل ما صنع الله جلت قدرته ٠

انه نظام يستند الى شريعة مستخلصة من نصوص الكتاب الحكيم ومن سنة رسوله الامين ، وجامعة للقواعد والحدود التى تحكم حياة الناس ومعاملاتهم ٠ تلك هى شريعـة الاسلام ٠٠٠ انها تبرز مميزات مصادرها التى المعنا اليها فى فقرات سابقة ٠

ولقد اكتملت لهذه الشريعة خصائص وصفات ، مجملها ، جهد المستطاع ، فى الفطرة ـ والشمولية ـ والتكاملية ـ والواقعية ـ والانسانية ٠

ـ انها شريعة الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، لانها تتعامل مـــع الانســـان الحقيقى ـ كائنا ما كان زمانه ومكانه على الارض ٠٠٠

ـ وهى الشريعة الشاملة لانها تحيط بكل ما يتعلق بسلوك الفرد ، سواء فى تعامله مع نفسه أو مع الجماعة أو مع الله ٠٠٠ هذا فضلا عن أنها تفرض على كل مسلم مراقبة ذاتية مستمرة ٠ ذلك بأن فرائض العقيدة والعبادات هى أيضا بمثابة نقاط مراقبـــة تلزم المسلم ان يراجع نفسه عند كل منعرج ٠٠٠

ـ وهى الشريعة المتكاملة ، لان كل جزء من اجزائها ، وكل جانب من جوانبها يكمل الاجزاء والجوانب الاخرى ويكتمل بها ٠٠٠

ـ وهى شريعة الانسانية ، لانها تسوى بين الناس جميعا ، ولانها تنفذ على الـدوام الى ضمير المسلم وتنبهه الى مسؤوليته الشخصية فى كافة ما ياتى به ٠٠٠ له ما كسب وعليه ما اكتسب ٠٠٠ لا وساطة ولا محاباة ٠

ـ وهى شريعة الواقعية ، لان الذى اختاره الله تعالى لحمل الرسالة وابلاغها قــد نفذ فى حياته وعلى مرأى من الخاص والعام ، كل أمر كان يدعو اليه ، وكل تكليف جاء بــه ٠٠٠ كانت حياته عليه السلام ، وسلوكه ومعاملاته ، تجربة واقعية رائعة ، ماثلة للعيان ٠٠٠ محققة الاختيار لم ينكر عليه أحد من اصحابه أى ناحية منها ٠٠٠ هذه هى شريعة الاسلام التى توفر نظم الحياة الكاملة ٠٠٠ وما كان لنا ان ندعى الاحاطة بكافـة سننها واحكامها ٠٠٠ ولكن غايتنا ان نهتدى بها فى معالجة قضية الثروة من وجـــه مصدرها وتداولها ٠

ـ « **والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم** » (**يونس 25**) ويقول تعالى وقوله الحق : « **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** » الانعام 38 ٠

وفى حديث رواه مسلم يقول الرسول الامين :

(وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ان اعتصمتم به كتاب الله) ٠

الفصـــل الثـانى

الثـــروة ومصادرهـــا

نكرر ان الثروة مال كثير متجمع فى حوزة ما ٠

والمدلول الشائع للفظ المال انه كل شىء ذى قيمة تبادلية ، ومن ثم فهو قابل للحيازة وللتصرف فيه ٠ ولذلك ينسحب هذا المدلول على النقود التى هى ممثلة للمال الحقيقى ووسيلة لمداولته ٠

وفى الغالب الاعم يكون هذا المال شيئا نافعا ، بل ان شريعة الاسلام تشترط المنفعة فى المال المقيم ، وذلك تمشيا مع حكمة الحظر على تداول الاشياء الضارة ٠

على ان شرط القابلية للحيازة يخرج من محيط المال المقيم اشياء تنفع الناس ولا غنى لهم عنها ، مثل الماء والهواء ، وهذه الاشياء تسمى اصطلاحا الاموال الطليقة ٠

المال المقيم اذن يشتمل على طيبات الارض التى توجد على الفطرة والتى تكون فى حوزة افراد أو جماعات معينة ــ ولذلك يمكن تسميتها باموال الفطرة (أى الطبيعة أو الارض فى لغة رجال الاقتصاد) ٠

كما يشمل هذا المال المنافع الاضافية التى يستدرها الانسان أو ينميها أو يستصنعها بمجهوده من أموال الفطرة ، وكذلك الخدمات التى يؤديها الانسان لغيره ، حسب دربته ومهارته وملكاته ٠

وسواء أكان المال مال فطرة أو مالا اضافيا فان شريعة الاسلام واضحة كل الوضوح فى نسبة نشأته ٠

الله خالق كل شىء ومدبره ٠٠

ــ « الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور » الانعام 1 ٠

ــ « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » الفرقان 2 ٠

ــ « سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون (يس 36) ٠

ــ « الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم » الروم 40 ٠

ــ « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » البقرة 184 ٠

ــ « الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين » الاعراف 54 ٠

هذه الآيات البينات واضحة الدلالة على ان المصدر الحقيقى لما هو كائن فى الارض وفى السماء ، من انسان وحيوان ونبات وجماد ، انما هى ارادة الخالق جل شأنه ٠ انه سبحانه صاحب الامر كله ٠

ولقد ذكر لفظ الخلق ومشتقاته اكثر من مئتين وخمسين مرة فى القرآن الكريم ٠ فالله قد خلق أموال الفطرة التى تندرج فى مفهوم الثروة المادية ، كما انه قد خلق الانسان

وسواه ومكنه فى الارض ٠ فاذا الانسان بمجهوده يستخرج اموالا مضافة أو يكون وسيلة استدرار أموال مضافة ٠

وقد شاءت ارادته العلية أن يميز الانسان على غيره من المخلوقات فحباه بعقل وفكر ووجدان لم تحظ بها تلك المخلوقات ٠

كذلك اقتضت حكمته تعالى أن يكلف ذلك الانسان بالعبادة وأن يختصه بالاستخلاف فى الارض وبتسخير طيباتها لمنفعته ومتاعه ٠

ـ « واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم اجمعون ، الا ابليس أبى ان يكون من الساجدين » الحجر 28 ـ 31 ٠

ـ « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » الاسراء 70 ٠

ـ « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى اعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم » البقرة 30 ـ 32 ٠

لا جرم أن يكون الفكر الاقتصادى الاسلامى ، فى معالجته لقضية الثروة ، منطلقا من عقيدة الخلق ، وان تكون تدفقاته نابعة من سنن الشريعة واحكامها وضوابطها فأموال الفطرة ملك لخالقها لا مراء فى ذلك ، ولكنه قد استخلف الانسان فيها استخلافا مقدورا ، غير مطلق ، اذ لا يصح بداهة ان يكون الاستخلاف تنازلا مطلقا من كافة حقوق المالك الحقيقى ، لمن ٠٠٠ ؟ لكائن يدركه الموت ويفنى ٠

فى حديث رواه مسلم : « يقول ابن آدم مالى مالى ! وهل لك يابن آدم من مالك الا ما أكلت فافنيت ؟ ، أو لبست فابليت ، أو تصدقت فامضيت » ٠

لا بد أن تكون هناك شروط وأوضاع لانضباط ذلك الاستخلاف ولضمان حسن التدبير أو لتجنب سوء التصرف ، « **آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » الحديد 71 ٠

يقول الزمخشرى فى تفسيره لهذه الآية انها تعنى « ان الاموال التى فى ايديكم انما هى أموال الله بخلقه وانشائه لها ، انما مولكم اياها ، وخولكم الاستمتاع بها ، وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها ، فليست هى بأموالكم فى الحقيقة ، وما انتم فيها الا بمنزلة الوكلاء النواب » ٠

ويرى الامام ابن تيمية ان الاصل ان الله سبحانه وتعالى انما خلق الاموال اعانة على عبادته ، لانه انما خلق الناس لعبادته ٠

وهكذا تكون هذه الحقائق الكبرى التى تعرف على الفطرة ، والتى تؤكدها المشاهدة ويدركها المتأمل ـ حقيقة الخلق ، بمشيئة الله وبقدرته دون غيره ، وحقيقة الاستخلاف ، وحقيقة التسخير ـ هى المسلمات الاولى للفكر الاقتصادى الاسلامى فى معالجته لاموال الفطرة ٠

ونستنتج من ذلك أن الاستخلاف لا يعنى ملكية حقيقية للمستخلف ، بل هو تملك بالوكالة ، أو ملكية حيازة ٠

وكذلك نستنتج ان الاصل فى هذا الاستخلاف هو العمومية أى هو للجماعة التى يشترك افرادها فى مصالح روحية ومادية ٠ فاذا كانت هناك حيازة فردية فلا بد ان تكون خاضعة لتنظيم الجماعة ٠

وفى شريعة الاسلام ربط محكم ، متصل الحلقات ، بين مصالح المسلمين ، ربط سوى من الجماعة مجتمعا يخدم الفرد ويحميه ، واقام من الفرد عضوا عاملا واعيا يشيد المجتمع وينميه ٠

ويقول الامام ابو حامد الغزالى ، رحمه الله ، فى عبارة جامعة لمصالح المسلمين المرسلة : « ان مقصود الشرع فى الخلق خمسة : وهو ان يحفظ عليهم دينهم ، ونفسهم ، وعقلهم ، ونسلهم ، ومالهم ، : فكل ما يتضمن حفظ هذه الاصول فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الاصول فهو مفسدة ، ودفعها مصلحة » ٠

ويضاف الى ذلك قاعدة أخرى من القواعد المقررة فى الشريعة هى : مبدأ سد الذرائع ، ومقتضاه ان ما لم يتم الواجب الا به فهو واجب ·

والى جانب كل ذلك ، يشترط فى الاستخلاف بحيازة أموال الفطرة أو بتملكها بالوكالة ، ان يلتزم المستخلف فيها بواجبات عليه ان يقوم بتاديتها على ما يحقق حكمة الخالق فى الخلق · فاذا ما عجز الملتزم عن التادية أو أهمل فيها أو قصرت قدرته على تحملها ، سقط حقه فى الاستخلاف كله أو بعضه ، على قدر قصوره ·

وقد نجمل أركان هذا الالتزام ، جهد المستطاع ، فى احياء الارض وعمارتها وفى انماء أموال الفطرة بالطرق المشروعة ، وفى تنفيذ احكام الشرع فى الانفاق والبذل ، كاداء الزكاة بكافة انواعها ، واعطاء الصدقات ، وغير ذلك من أبواب البر والانفاق فى اصلاح أحوال المسلمين بعامة · ولا يحل للمستخلف الاسراف والتبذير وكذلك لا يحل له تمجيد استثمار الاموال أو تعطيل ذلك الاستثمار ·

يقول تعالى :

ـ « يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان لياكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » ـ التوبة 34 ـ 35 ·

فاذا كان هذا شان أموال الفطرة فى قضية الثروة ، فما حكم الاموال المضافة التى يكسبها الانسان بجهوده ؟

لا جدال فى ان شريعة الاسلام تولى سعى الانسان فى طلب الرزق أهمية كبرى تتساوى وأهمية العبادة ، ففيها ان عمل الانسان شامل لنوعيه الدينى والدنيوى ·

وهذا الشمول يوضح لنا ذلك المزج المثالى الذى تجريه الشريعة بين قيم الاشياء المادية ، وقيم الرياضة الروحية التى تصون الناس من الشطط والزلل ، وتحميهم من الفساد ·

اذا علمنا ان شريعة الاسلام تولى ذلك الاهتمام البالغ لعمل الانسان نفسه ، سواء كان القيام به وسيلة التقرب الى الله سبحانه وتعالى ، أو أداة لقضاء حاجاته المعيشية ، فليس لنا ان نعجب من ان نظرة التشريف والتمجيد التى تراعى بها الشريعة شخصية الانسان قد امتدت كذلك لما يصدر عنه من عمل ، طالما ظل ذلك العمل محققا لغاية مشروعة ·

لقد ورد فى القرآن الكريم 360 آية تتحدث عن العمل و 104 تتحدث عن الفعل ·

ـ « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » فصلت 33 ·

ـ « ليأكلوا من ثمره وما عملت أيديهم أفلا يشكرون » يس 35 ·

ـ « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » التوبة 105 ·

وفى الحديث :

« ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه »

واذا كان فى هذا الحديث حض على اتقان العمل ، وحث على الاخذ بارقى الاساليب العلمية والفنية فى ممارسة العمل ، فان فى القرآن الكريم حثا متكررا على التبدر فى معالم الكون ، وعلى التدبر فى آيات قدرة الخالق ، وهل يتدبر المرء أمرا وهو لا يتقن ما يعمل ؟

انما الذى ينبغى مراعاته فى شان العمل الدنيوى انه لا يقتصر على عمل الاجير ، بل انه فى شريعة الاسلام ليشتمل على النشاط المثمر فى كافة صوره وأوضاعه ·

فصاحب المصنع يعمل حين يدير مصنعه ، وصاحب المتجر يعمل حين يمارس تجارته وصاحب المزرعة يعمل حين يشرف على مزرعته · ولا يستثنى من ذلك العمل اليدوى ·

ـ « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لان يمشى أحدكم مع أخيه فى قضاء حاجته أفضل من أن يعتكف فى مسجدى هذا شهرين » ·

وقال عليه السلام أيضا :

« ان أشرف الكسب كسب الرجل من يده »

ولقد أطلقت شريعة الاسلام رخصة العمل للقادرين عليه ، ولم تنه عنه الا اذا كان يتولد عنه مفسدة أو ضرر ـ كالكسب الحرام ، والغش ، والظلم ، والقمار ، والربا والاحتكار ، والسرقة ، والرشوة ..

وهكذا يكون العمل المثمر نبعا تتدفق منه روافد الاموال الاضافية التى تتآلف منها ومن أموال الفطرة ثروات الافراد والجماعات .

واذا اختلفت الاموال الاضافية فى معاملتها عن أموال الفطرة ، فلانها تعتبر كسبا يرتب لصاحبه حقوقا تمتاز على ما يتمتع به حائز أموال الفطرة ، بالقدر الذى يحميه وينميه ولكنه يظل خاضعا لسنن الشريعة فى تحقيق المصالح المرسلة وفى التزام صاحبه بكافة الاحكام الخاصة باستعماله والتصرف فيه .

وأخيرا تجدر الملاحظة بأن احجام الثروات تتغير وتتبدل بسبب التصرف فيها أو بتداولها ، وهذا موضوع النظر فى الفصل التالى :

الفصل الثالث

تداول الثروة يعنى انتقال حيازتها ، سواء كان ذلك على سبيل التملك والارتفاق كما هى حال الاموال الفطرية ، أو على سبيل الكسب بالمجهود البشرى .

ويتم ذلك التداول ، اما على وجه المبادلة ـ مبادلة مال مقيم بآخر ـ أو على وجه الوفاء بالفروض والواجبات الشرعية ، أو على وجه الهبة ، أو الوصية ، أو التوريث ، أو غير ذلك من أوجه البر والتكافل .

وأيا ما يكون مدار التداول ، فالحال ان شريعة الاسلام قد عالجت قضية الثروة من حيث نشأتها فاطمأنت الى سلامة تحصيلها وصلاحية الحائز لها .

ـ « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قيما » النساء 5 .

فاذا كانت الثروة من أموال الفطرة ، فهى ، على الضرورة ، خاضعة لسنن الشريعة وأحكامها فى الانتفاع بها ، وكذلك هى خاضعة للجماعة فى تنظيم تداولها ومن هذه الاموال ما لا يجوز للافراد تملكه ٠

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار »

ويرى علماء الشريعة أن مقصود هذا الحديث هو تثبيت الملكية العامة للمواد الضرورية، منعا لتمكين المحتكرين لها من سوء استغلال حاجة الجماهير اليها ٠

واذا كانت الثروة من الاموال المضافة ـ من الاسترعاع والاستخراج والاستنصاع والمتجارة ـ فهى أيضا خاضعة لاحكام الشريعة من حيث سلامة المنشأ والانتفاع بها ، ولتنظيم الجماعة من حيث مراقبة تداولها ٠

ذلك بأن هذه الاموال انما هى ثمار تقابل جهود البشرية ، سواء أكان باذلوها افرادا أم جماعات ٠

فاذا كان الباذل فردا فله ثمرة مجهوده وعليه ان يوفى حق الجماعة فيها ٠ وان كان الباذلون جماعة ، فلكل من افرادها نصيب مقدور ـ يمتاز فيه من شارك منهم بثروة (رأس مال) الى جانب مجهوده ، أو من شارك بثروة من طريق المضاربة لان مثل هذه المشاركة لا تستقيم الا اذا تحمل الطرفان الغرم واقتسما الغنم ٠ ولقد حرمت شريعة الاسلام « الفائدة » التى تحصل كعائد لرأس المال الذى انفصل عن ادارة صاحبه ، أو عن مشاركته فى المضاربة ، لان ذلك العائد يصبح قرضا ربويا ٠

ولتداول الثروة صفة اجتماعية اصيلة ، تنشأ من علاقته بنشأة الثروة ومن اتصاله بطرائق الاستكثار منها ، ومن مجاراته اساليب توزيعها فى الجماعة ٠

ان صاحب الثروة لا يحل له ان يحتكرها ، ولا ان يجمدها بأن يحجبها عن الاستثمار أو يعطل ذلك الاستثمار ، فان فعل ذلك ، كان فعله توقيفا لوظائفها الاجتماعية التى هى من حق الجماعة عليه ، وعندئذ يحق لولى الامر ان يتخذ ما يراه مشروعا لضمان تأدية تلك الوظائف حتى لو اقتضى الامر الاستيلاء عليها أو تأميمها ، أو مصادرتها ٠

أما شروط التداول فتندرج فى فقه المعاملات ، وهى تكون تسعة اعشار الشريعة ، على ما يقول الفقهاء ، بل انهم يذكرون ان التفقه فى الدين واجب على من يمارس من ارباب التجارة والصناعات ، عمليات التداول المتصلة بالثروة ٠

يروى ان رجلا جاء الامام على بن ابى طالب كرم الله وجهه وقال : يا أمير المؤمنين انى اريد التجارة ، فادع الله لى فقال له أوفقهت فى دين الله ؟ قال : أو يكون بعض ذلك ؟ قال : ويحك الفقه ثم المتجر ان من باع واشترى ولم يسأل فى دين الله ارتطم فى الربا ثم ارتطم ٠

ويروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله : « لا يبيع فى سوقنا هذه الا من تفقه فى الدين » ٠

وفى الحديث : ان الربا ثلاثة وسبعون بابا ٠

واماتداول التوزيع للاموال المضافة أى ثمار العمليات الانتاجية أو مجمل الدخل القومى بلغة هذا العصر ، فلا بد ان تراعى فيه مقتضيات التكافل الاجتماعى ٠ وقد سنت شريعة الاسلام حد الكفاية (أو حد الاستغناء) لكل عضو من اعضاء المجتمع ، فضمنت له حاجاته الضرورية التى لا شك تتماشى مع أحوال ذلك المجتمع حسب الزمان والمكان ، فاذا عجز انسان لسبب خارج عن ارادته ، عن ان يوفر لنفسه ولمن يعولهم من أهله الحد المناسب لمعاشه ومعاشهم ، على نحو ما يجرى عليه العرف السائد ، تكفل بذلك بيت المال ، ولا يستثنى غير المسلمين من هذه المعاملة ، فان لهؤلاء نفس الحقوق التى يتمتع بها المسلمون ٠

- **« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » الاسراء 26 ٠**
- **« فى اموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » المعارج 24 ٠**
- وفى الحديث :

« من ترك كلا فليأتنى فانا مولاه » أى من ترك ذرية ضعيفة ، فانا كفيل به ٠ ويروى أبو يوسف فى كتاب الخراج ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أمر بكفلة العامل اذا أقعدته الشيخوخة أو العاهة عن العمل ٠ اذ أنه مر ذات يوم بشيخ كبير ضرير يسأل الناس فضرب عضده من خلفه ، وقال : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى ، قال :

فما الجأك الى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة ، والسن • فأخذ عمر بيده الى منزله فرضخ له بشيء ثم ارسل الى خازن بيت المال فقال : انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما انصفنا ان أكلنا شبيبته ثم نخذ له عند الهرم • انما الصدقات للفقراء والمساكين • والفقراء هم المسلمون ، وهذا مسكين من أهل الكتاب • ووضع عنه الجزية وعن ضربائه •

ومتى توافر حد الكفاية لكل عضو من أعضاء المجتمع يكون توزيع الاموال المضافة أى ما تبقى من الناتج القومى ، على المشاركين فى العمل حسب نتائجه • الا ان الشريعة لا تطلق لهؤلاء العنان فى الترف والاسراف فى اتلاف ما افاء الله عليهم ، أو ما عملته ايديهم • بل هى تنهى عن الاسراف والتبذير والترف وتحض على القصد والاعتدال، على عكس ما نشاهد فى المجتمعات الاستهلاكية الحديثة •

ولهذا يقول الفقهاء ان الاسلام لا يسمح بالثراء الشخصى الا بعد توفير حد الكفاية للمجتمع ، وان هذا السماح مشروط بشرطين :

أ ـ عدم التفاوت الكبير فى الغنى •

ـ **« لكى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » الحشر 7 •**

ب ـ وعدم الانغماس فى الترف •

ـ **« واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » الاسراء 16 •**

تداول الثروة فى ظل التكافل الاجتماعى

يتبين مما تقدم من الحديث ان هناك ارتباطا وثيقا بين تداول الثروة ونشأتها وتحصيلها وتوزيعها واستعمالاتها فى شريعة الاسلام • وقد رأينا كيف تعالج هذه الشريعة الجوانب الاساسية فى قضية الاموال ، ولا سيما فى اثباتها قاعدة ارتهان التحصيل والحيازة بالعمل النافع ، وفى اشتراط حد الكفاية قبل اجراء التوزيع وكذلك فى مطالبة القادرين على الانفاق أن يفعلوا ذلك على الدوام فى سبيل الله ووفاء لحقوقه فى أموالهم •

هكذا تقيم شريعة الاسلام بنية اجتماعية شاملة : بنية التكافل الاجتماعى ، رياضة للقادرين، وملاذا للمحتاجين ، وتوثيقا لعرى الاخوة وأواصر التعاون · وفى نفس الوقت تؤمن للثروة المكانة السليمة النافعة ، فتصونها من العبث والضياع وتمكنها من تادية وظائفها الاجتماعية على أحسن وجه وأكمل منوال ·

ولهذا تكون الشروط والاوضاع التى يتم فيها تداول الاموال فى ظل الشريعة كفيلة بتحقيق ما درجنا على تسميته ، فى مصطلحات هذا العصر ، بالعدالة الاجتماعية والعدالة الاقتصادية ـ وهما فى الواقع هدفان مرتبطان أشد ارتباط ، بما يتعذر معه التمييز بينهما وخاصة فى مجالات التطبيق ·

فالعدالة لغة تعنى المساواة أو الانصاف · وهل تكون هناك مساواة حقيقية لا يصاحبها انصاف ؟

وشريعة الاسلام تقرر المساواة بين الناس جميعا على اختلاف اجناسهم ، فهى تسوى بينهم ، أولا وقبل كل شىء وفوق كل شىء ، فى القيمة الانسانية المشتركة المستمدة من حقيقة الخلق ونشأة الانسان عن أب واحد ، فيمتنع لذلك أى تمييز على أساس الجنس أو السلالة أو العنصر ·

«يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم» الحجرات 13 ·

وفى خطبة الوداع يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : يا أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، وليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لاحمر على أبيض ، ولا لابيض على أحمر ، فضل الا بالتقوى » ·

ويروى انه عليه السلام سمع أبا ذر الغفارى يحقد على بلال رضى الله عنهما ويقول له يا ابن السوداء ، فغضب الرسول وانتهر أبا ذر وقال له : « انك امرؤ فيك جاهلية ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى أو عمل صالح » ، فوضع أبو ذر خده على الارض وأقسم على بلال أن يطأه بحذائه حتى يغفر الله له زلته هذه ·

كذلك تسوى الشريعة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وفى المسؤولية والجزاء ، وفى المثوبة والعقاب ، وفى فرص العمل والكسب المشروع والتعامل ، وبديهى ان مثل هذه المساواة مجالاتها واسعة ، وسبلها متشعبة ، الا ان سنن الشريعة شاملة لكافة مناحى الحياة البشرية ومنعطفاتها ـ فيها المعاملات وممارستها ، وفيها طلب العلم والسعى وراء الرزق ، وفيها الحماية من الجور والظلم ، وفيها منع الاعتداء والقصاص من المعتدين ··· لا تفرقة ولا تمييز فى المعاملة ·

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » المائدة 8 ·

وفى الحديث :

« لا تفلح أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى »

أما فى المجال الاقتصادى ، فالمساواة التى تسنها شريعة الاسلام تتمثل بالدرجة الاولى فى الاخذ بما يحقق تكافؤ الفرص بين الناس ، ومن ثم يصير النظام الاقتصادى المنشود وسيلة لهدف · فهو نظام صالح ومكين طالما ذلل مشاق الحصول على الارزاق ونال فيه كل مجتهد ثمار اجتهاده ، وحصيلة عمله ، وطالما حافظ على الاموال ونماها ، وحال دون تركيزها لدى فئة قليلة ، تسىء استخدامها ، أو تتخذها أداة استغلال وفساد ومجون ·

كل ذلك الى جانب مراعاة ضرورات التكافل الاجتماعى · هكذا نستبين مناط المساواة الاقتصادية فى شريعة الاسلام ، ونلتمس دعائمها الكبرى التى نجملها ، جهد المستطاع ، فى حماية الكسب المشروع ، وفى تأميم المشاركة الجماعية فى أموال الفطرة التى هى ضرورية لجميع الناس ، وفى توفير مستلزمات التكافل ·

وليس من المبالغة فى شىء القول بأنه يستحيل على العاقل المنصف أن يتصور وعاء من صنع البشر يتسامى الى ما استحدثته شريعة الاسلام من عدالة اقتصادية وما كفلته للناس من عدالة اجتماعية ـ كلتاهما ميسورة ومتيسرة بالايمان الصادق ·

وقد نختم هذا الحديث باستجلاء لبس لدى بعض المتشككين فى أمر المساواة الاسلامية · يتساءل هؤلاء كيف تكون مساواة فى الاسلام والقرآن يقول :

« ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات »

وصحة مدلول هذا النص تبين من استكمال الآية ومن نص الآية التى سبقتها فى سورة الزخرف 31 ـ 32 ، وهما :

« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم • أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون » •

فى هاتين الآيتين رد على اعتراض الكفار على اختيار الله لشخص أولاه كامل ثقته ووضع فيه سر رسالته كافة للناس • ولم يكن ذلك الشخص بصاحب مال أو جاه أو سلطان • بل كان المصطفى المختار رجلا فقيرا ، شديد التواضع ، لا يقرأ ولا يكتب • ومع ذلك فقد اختصه الله باعظم رسالة •

واذ تستنكر الآية الثانية اعتراض الكفار فانها تشير فى نفس الوقت ، الى ان اختلاف الناس وتفاوتهم فى العقول والملكات والقدرات انما كان لحكمة التعاون والتكافل وتبادل المعونات والخدمات ، فلا ينبغى للمعترضين أن يتطاولوا ولا ان يغتروا بما جمعوا من مال ومتاع ، فان رحمة الله خير مما يجمعون •

وعلى كل حال فان المساواة الاسلامية انما تتعلق بمعاملة الناس وتعاملهم وعدم التفرقة بينهم بسبب الجاه والمال والقوة • فاذا اختلفوا فى القدرات واذا تفاوتوا فى العقول واذا تباينوا فى الاتجاهات ، فحسبهم ان التعاون يوحدهم ، وان التكافل يجمع شملهم ، وان التراحم يسمو بهم الى العلا •

خاتمة

لقد توخينا القصد والتبسيط فيما عرضنا عن قضية الثروة أو الاموال المقيمة فى شريعة الاسلام ، ومع تعدد المصادر الفقهية الموثوق بها وغزارة مادتها ، فقد اعتمدنا أساسا على نصوص الكتاب والسنة ، وأوردنا بعضها فى سياق العرض ، على سبيل الاستشهاد بها ، ثم على رجاء أن يشاركنا السامع والقارىء التأمل فى حكمة الخلق ، وفى مناهج الحياة الاسلامية الكاملة واتصال تلك المناهج بقضية خطيرة كقضية الثروة ،

التى تتشقق الآراء حولها ، وتختلف النزعات فى شأنها ، ويحتدم التناحر من أجـــل امتلاكها ، ويشتد الصراع عند توزيعها وتداولها ــ لولا رحمـــة ربـــك بالمسلمين اذا استمسكوا باصول شريعتهم السمحة وسنتها الجامعة ٠

ومع ذلك ، فقد يكون من المفيد الآن أن نحاول ، على قدر المستطاع ، جمع شتـــات الموضوع المعروض فى نقاط رئيسية تيسر النقاش وتحدد أبعاده فنذكر :

1) ان شريعة الاسلام ــ شريعة التوحيد ــ تحيط أصولها بكافة المقومات الضرورية التى تتطلبها حياة الانسان الكاملة ٠ انها وحدة لا تتجزأ مقصودها تمكين الانسان من أن يحقق بعمله الصالح المتقن سعادته الحقيقية فى الدارين ولذلك ينتفى أن يكون فيها أى تكليف يحول دون العمل على تحقيق تلك السعادة ، بل ان الامر على الخلاف : الشريعـة كلها حض على العمل الصالح وتزكية له ٠

2) ان من أصول هذه الشريعة أنطلق الفكر الاقتصادى الاسلامى ، ومن أحكامهـــا الجامعة تغذى على مدى عصور ازدهار المسلمين ، انما المؤسف حقا ان هذه الثروة الفكرية الضخمة ، قد تجمدت فى عصور انحطاط المسلمين ، ودفن كثيرها أو ضاع ، فى أعقاب الغزو الفكرى الصليبى وتحت ظلاله ، وانتهى الامر الى أن جمهور الدارسين فى علـم الاقتصاد فى البلدان الاسلامية والعربية ظلوا ــ الى عهد قريب ــ لا يعلمون عن الفكر الاقتصادى الاسلامى الا النزر ، على الرغم مما كان لذلك الفكر من تاريخ حافل ، وما كان لاصحابه من أصالة وشهرة مرموقتين ، وما كان لعناصره من ذاتية فريدة ــ ذاتية لعل من أبرز آياتها تلك المعالجة الشاملة لقضية الاموال ، وهى القضية « الام » الـتى تتفرع عليها مباحث علم الاقتصاد الحديث ٠

3) نعم ، على هدى شريعة الاسلام عالج رجال الفكر المسلمون قضية الامـــوال معالجة أصيلة شاملة ، لا تقتصر على أسلوب المشاهدة التى يحدها زمان ومكان معلومان ، وهو أسلوب غير مناسب منهجيا لمعالجة هـــذه القضية بل تنفـــذ الى ما وراء ذلك ــ الى نشأة الاموال ذاتها ، سواء أكانت أموال فطرة، أم منافع أظهرها الانسان أو استدرها من تعامله مع أموال الفطرة بالاستزراع والاستصناع ، والمتاجرة ، وغير ذلك من أوجه النشاط الذى يمارسه فى سبيل استكثارها أو تنميتها ٠

4) ان الله خالق كل شيء ، ومالكه ، ومدبره ، ارادته سبحانه وتعالى هي المصدر الحقيقى للاموال ، وهو جل شأنه المالك الحقيقى لها ، وهو علت قدرته صاحب التدبير الاعلى فيما يخلق ويملك · لهذا يستنكر أهل الرأى فى الاقتصاد الاسلامى نظرية الندرة التى ابتدعها رواد علم الاقتصاد الحديث ، وجعلوها مشكلة المشاكل فى ذلك العلم ، ولذلك افترضوها أولى المسلمات فيما صاغوه « من القوانين » التى نسبوا اليها ما لا تحظى به من عمومية وشمول ·

5) اقتضت حكمته تعالى تفضيل الانسان على غيره من المخلوقات ، فاستخلفه فى الارض ، وسخر له ما فى السموات وما فى الارض ، واسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، لكن هذا التسخير وذلك الاستخلاف لا يعقل أن يترتب عليهما تنازل دائم عن الملكية الحقيقية · واذن فكل ما يحوزه ذلك المخلوق الفانى ، المحدود الاجل ليس ملكا حقيقيا ، بل هو تملك أو حيازة وارتفاق ·

6) أما مزايا التسخير فعدالة الخالق المالك المدبر ، جل جلاله ، يجعلها على الضرورة مزايا عمومية ، لا تتولد عنها حقوق خاصة دائمة يحظى بها أفراد مميزون أو تنعم بها فئات معينة ، دون قيد أو شرط · كلا : انها نعم ، هى فى الاصل للجماعة لكى يكون لكل عضو فيها نصيب مقدور · ومن ذلك كان الطابع الاجتماعى للاموال ، ومن ثم وظائفها الاجتماعية ·

7) تلك النعم ترتهن فى جميع الاحوال بعمل المستنفع بها ، أو المستفيد منها · اذ يأمره الله تعالى أن يعمل لكى يحوزها ، وأن يعمل لكى ينتفع بها ، وأن يعمل لكى يحافظ عليها ، وأن يعمل لكى يستكثرها ويربيها بما لا يجلبه أو لغيره مضرة أو اساءة ، ثم عليه أن يحسن استخدامها ، متجنبا بذلك الاسراف والتبذير والمجون ، ومستمسكا على كل حال بتقوى الله والخضوع لاحكامه ·

8) من أجل ذلك كان العمل الذى ندب الانسان لممارسته ، لا يقتصر على الرياضة الروحية ، بل ينسحب على السعى وراء الرزق من أبوابه المشروعة ، فلا هو بالروحى الخاص فقط ، ولا هو بالمادى المحض وحده · ولكنه شامل لهما معا ، على اتساق وتكامل جامعين ·

9) ثم ان تداول الاموال مشروط على الدوام بسلامة تحصيلها وحسن تدبيرها ، الوفاء بحق الله فيها على ما فصلته شريعة الله ٠

10) ولقد سنت الشريعة السمحة حد الكفاية (أو حد الاستغناء) فاكملت دعائم أسمى تكافل اجتماعى ـ حيث لا محل فيه لغير العدالتين : العدالة الاقتصادية الصحيحة ، والعدالة الاجتماعية الحقة ٠

« والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » ٠

(صدق الله العظيم)

والحمد لله رب العالمين

● النقطـة السادسة من جدول أعمال الملتقى

مَقصدُ الشريعَةِ مِنَ الحَجّ
والطريقة التي يؤدى بها اليـوم

الشيخ عبد الله ابراهيم الانصـارى
مدير الشؤون الدينية والقروية
الدوحة ــ قطـر



الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وامام ا لمتقين ٠
وقائد الغر الميامين ، وعلى آله وأصحابه الهداة ، الذين نشروا لواء الدين ، وسلم تسليما كثيرا ٠٠٠٠ وبعد :

قال تعـــالى :

(الحج اشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج

وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقــون يــا أولى الالبـــاب) .

وقال تعـــالى :

(وأذن فى الناس بالحج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر ياتين مـن كل فـج عميـق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) .

آيات بينات بين الله سبحانه وتعالى فيها كيفية الحج للمنفعة الخاصة بالناس وذلك قصد الاسلام من الحج وعلى سبيل التفصيل ، فالحج مؤتمر اسلامى نادى الله تعالى عباده للاجتماع فى تلك البقعة المعينة ، وفى ذلك الوقت المعين ، ليتفقد المسلمون أحوالهم وليتشاوروا فى حل مشكلاتهم ، وتحقيق مقاصدهم والا فليس لله تعالى مصلحة خاصة من هذا اللقاء ، وكما ذكر الله تعالى فى الهدى :

« لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .

ومن مقاصد الاسلام فى الحج ، تعظيم شعائر الله والانصياع لاوامره واجتنــاب نواهيه ، فبتعظيم تلك الشعائر ، تنطلق القلوب الى بارئها صافية نقية طاهرة فــان رجع العبد الى ربه جدير به ان ينال كل خير ، قال تعالى :

« ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » .

ولا شك ان المسلم انسان كسائر البشر ، ليس معصوما مــن الاخطـاء والذنوب وارتكاب المعاصى ، فهو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) وفى حديث آخر (لو لم تذنبوا وتستغفروا لذهب الله بكم ولأتى الله بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر الله لهم) .

لذلك فان الله قدر لعباده نفحات وهيأ لهم لاستجابة الدعاء أوقاتا ومن أجل هــذه الاوقات يوم عرفة بصفة خاصة وأيام الحج بصفة عامة ، ففيها يغفر الله الذنوب ويكشف الكروب ويستجيب الدعاء ، وينادى عباده انصرفوا فانى قد غفرت لكم ، وفى هذا اليوم

دحر للشيطان عدو الانسان اللدود فلم ير فى يوم اصغر ولا اذل ولا ادحر من يوم عرفة

لهذا فان من مقاصد الاسلام من الحج تمحيص الذنوب والسيئات ، ونقاء قلب العبد ورجوعه الى ربه وتنقيته من شوائب الشهوات ، وابعاد النفس عن ارتكاب المنكرات كى تختط لنفسها طريقا بعد ذلك فيه حماية لها وللمجتمع من المنكرات ٠

ومقاصد الاسلام فى الحج عظيمة وكثيرة من اهمها :

التوبة الى الله والرجوع اليه وهذه الخاصية من أهم الخواص فى الدين فلا يـأس بل باب التوبة مفتوح للعبد يلجه فى أى وقت يشاء خصوصا عقب الحج المبرور ٠ ومن مقاصد الحج تحقيق التوحيد بالتقرب الى الله مباشرة بدون واسطة فى الدعاء والاستعاذة والاستغاثة والذبح لله وحده ومن الله وحده وبالله وحده والتوحيد من اجل العبادات ومن الاسس القويمة لهذا الدين ، فلا يكون التقرب بشىء من تلك الصفات الا الى الله وحـــده ٠

ومن مقاصد الاسلام فى الحج اسداء المنفعة الى اهل الحرم استجابة لدعوة ابيـــنا ابراهيم عليه الســلام ٠

(ربنـا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهـــوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) ٠

والصدقة فى الحرم المكى تعادل فى الاجر مائة ألف صدقة وفى الحرم المدنى ألف صدقة ٠

ومن مقاصد الاسلام فى الحج تدريب العبد على الاخلاق الفاضلة والآداب الاسلامية السامية ، لان الرفث والفسوق والجدال يخالف تلك الخصال ، ولقد ادب الله تعالى عباده وعلمهم مكارم الاخلاق اثناء تأدية الفريضة ، فمن الجدير بالحاج ان يتدرب عـــلى هذه المكارم واجتناب الرذائل ويكون هذا سمته فى حياته بعد ذلك اذا رجع الى وطنه ٠

ولو استرسلنا فى تعداد مقاصد الشريعة السمحاء فى الحج لطال المدى فى الكـلام ولضاق الوقت عن ذلك ، ولننطلق الآن الى الشطر الثانى من الكلمة وهو الطريقة التى يؤدى الحج بها اليـــوم ٠

لقد مررت مع تجارب كثيرة فى مواسم الحج فى السنين الاخيرة ووجدت نفسى مضطرا لان اجعل منها موضوعا يطرح فى مجتمعنا هذا للبحث والتشاور لعلنا نخرج برأى مجمع عليه يخفف على الناس بعض المشقة والعناء ·

فالحج كما نعلم فريضة محكمة وركن قويم من اركان الاسلام افترضه الله تعالى على عباده سنة ست بعد الهجرة على ارجح الاقوال لدى جمهور العلماء · ومنذ فرضت هذه الفريضة والمسلمون يؤدونها فى كل عام · فتقبل وفـــود الحجيج ضيوفا على الرحمن يرجون رحتمه ، ويطلبون عفوه ومغفرته ·

واليوم ومع التقدم العلمى الذى شهدته البشرية فى السنين الاخيرة ، خصوصا فى مضمار المواصلات البرية والمائية والجوية تزيد اعداد وفود الحجيج عاما بعد عام حتى ان الحرم رغم التوسعات المشهودة التى لم تنقطع فيه منذ اكثر من عشرين عاما ، بدأ يضيق بوافديه ، واصبح الحجاج يجدون متاعب ومصاعب شتى فى اداء مناسكهم لكثرة الازدحام ولعدم التزام الحجاج بالنظام الاسلامى فى كل المراحل الامر الذى يجعل الناس فى حرج شديد قد تذهب معه حكمة الانصراف الوجدانى للعبادة ، والخلوص الروحى لها ، عندما يجد الناس انفسهم وقد ضاقت وأصبحوا يبحثون عن ملاذ يلوذون به من شدة الزحام حتى يمكنهم ان ينصرفوا بوجدانهم كليا للدعاء الى الله ·

اننى ـ ايها الاخوة ـ عندما اجعل من هذا لموضوع ميدانا للبحث لارجو ـ مـــع الاحتفاظ بالمبادىء الرئيسية فى اداء المناسك ـ ان نتذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم « ان هذا الدين يسر » ومن اولى الامور التى ينبغى ان نعمل لها الآن تيسير أمور حجاج بيت الله الحرام وهذا التيسير ينقسم الى قسمين ، اولهما ايجاد التسهيل اللازم فى المشاعر المقدسة وقد أعطى لهذا القسم حقا وافيا من الحكـــومة السعودية فما من صعوبة تشاهدها فى عامك الا وتجدها مسهلة فى العام القادم وهى تسير على الطريق لايجاد التسهيلات لوفود بيت الله الحرام بجد دائب ، نسأل الله ان يبارك فى جهـودها المتواصلة وان يتغمد عاملها الراحل بواسع رحمته ورضوانه ويأخذ بيـــد خلفائه الى كل خـــير ·

وحج البيت فى الزمن السابق لم يكن مشكلة أبدا ولم يكن كما نراه اليوم ، بل انه منذ عشرين سنة لم يكن كما نشاهده فى السنين الثلاث الاخيرة ، فالاعداد ـ والحمد لله ـ تتزايد ويضيق بها الحرم وسائر المشاعر الاخرى ٠

لذلك فاننى اعرض على بساط البحث امورا آمل دراستها دراسة وافـــية ، ولان يتقدم من يريد من الاخوة باقتراحات أخرى ويعدل فيها حسب ما يرى وليس لنا جميعا سوى هدف واحد هو البحث عن طريق سليم يوصلنا لحج مبرور هدفنا فيه التخفيف من ازعاج حجاج بيت الله الحرام « **ان اريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه انيب** » ٠

وقبل ان اقدم الاقتراحات كحلول للمشاكل التى تواجه الحجاج ، احب ان أوضح منذ البداية اننى ضد أى رأى لتقنين الحج أو تحديد عدد الحجاج من البــلاد الاسلامية المختلفة ، بل اننا اذا سلكنا طريقا علميا فى حل هذه المشاكل لن نكون بحاجة أبــدا لمثل هذا التحديد ان شاء الله ٠

اما الاقتراحات التى أتقدم بها اليكم فتتلخص فى النقاط التالية :

اولا :

برامج التعليم الدينى فى البلاد الاسلامية :

سرت فى المجتمعات الاسلامية فى السنين الاخيرة كلمات جوفاء عـن التطور مسرى النار فى الهشيم ، وأصبح مفهوم هذه الكلمة يعنى البعد السريع عن الدين لانه رمــز ـ فى نظرهم المريض ـ للتأخر ، فهل لى ان أوصى بتقوية البرامج الدينية واعادة النظر فيها فى البلاد الاسلامية بحيث تكون اركان الاسلام الخمسة تحت الدراسة والبحث فى مختلف المراحل التعليمية ٠

اننا لو نجحنا فى اقرار هذه التوصية فسنكون قد وضعنا لبنة قوية فى بناء الاجيال القادمة لامتنا ٠ وسيكون لمناسك الحج حظ وافر فى هذا الميدان كما يكون لباقى اركان الاســـلام ٠

ثـــانيــا :

الاعـلام الاسلامى قبل موسـم الحـــج :

أرى انه من الضرورة ان ينشط الاعلام الاسلامى فى الفترة التى تلى شهر رمضان المبارك مباشرة كاعداد لموسم الحج وذلك عن طريق وزارات الاوقاف والشؤون الاسلامية فى مختلف البلدان لتوجيه الذين يرغبون فى اداء فريضة الحج الوجهة الصحيحة عن طريق وسائل الاعلام المختلفة المقروءة والمسموعة والمرئية ويعرفونهم بالامور التى تيسر طريق الحاج وتحفظ له جهده من الضياع ومن أهمها :

1 ـ المحافظة على النظافة ، سواء منها البدن أو المكان أو المظهر العام ، فكثيرا مـا نرى العوام من الحجاج يقضون حاجاتهم فى الشـــوارع العامة ويلقون بالفضلات فى الطرقات عند الحرم علما بان الحكومة السعودية قد بنت وتكلفت كثيرا جدا فى عمـــل دورات مياه كافية بجوار الحرم ووضع أوعية للفضلات فعمل مثل هذا من عوام الحجاج يعطى مظهرا غير مناسب على المكان وقدسيته فى نفوس رواده من وفود الرحمن .

2 ـ ان يحرص الحاج على أداء نسكه كاملة ، وذلك بان يضع نصب عينيه دائماً قول الله تعالى : (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) وليحرص الاعـــلام الاسلامى باجهزته المختلفة على تذكيره بان يكون الحاج طيلة ايام اقامته فى المناسك بعيدا عن اللغو والجدل ، ذاكرا الله فى كل آونة محافظا على اداء نسكه على الوجه الاكمل قارئا للقرآن الكريم مذكرا اخوانه ممن يجهلون امور نسكهم محافظا على النظام وروعة المشهد وان لا يكون عاملا من عوامل الشغب وداعية للفتنة ، فان مثل هذه الايام المباركة ينبغى على كل مؤمن ان يقضيها فى العبادة والتوجه الى الله بكل جوارحه ، والانصراف عن هموم الدنيا ومشاغلها . متسما بالصفح والعفو عمن تجاوز الحد عليه ، وان يكون واسع الصدر رحب القلب ليستكمل ثواب حجه .

3 ـ الزحام : الزحام أمر لا بد منه عند أداء نسك الحج، سواء فى الطواف أو السعى و رمى الجمار .. الى غير ذلك من الافعال التى يؤديها الحاج ... وانما ينبغى ان ننبه الحجاج الى مراعاة مكارم الاخلاق واحسن الفضائل فى مثل هذا الموقف العظيم وقد ورد ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضى الله عنه وقد كان يزاحم على الحجر (يا أبا

حفص ، انك رجل قوى ، فلا تزاحم على الركن فانك تؤذى الضعيف ولكن ان وجـدت خلوة فاستلم ، والا فكبر وامض) ·

لمثل هذه المكارم والفضائل ينبغى ان ينبه ضيوف الرحمن ، خصوصا العوام منهم الذين يتقاتلون فى هذه المواقف ، فيضيع عملهم ويفسد حجهم ·

4 ـ المحافظة على الصحة العامة ، وذلك بتنبيه الحجاج الى ضرورة اتباع قواعد الصحة العامة منذ ان يعقدوا نيتهم على المضى لاداء الفريضة فيحصنوا انفسهم ضـد الامراض المعدية قبل ان يغادروا بلادهم بالوسائل المعروفة كما ينبغى ، وأن ينبهوا الى الحـذر دائما فى حلهم وترحالهم بالبعد عن مصادر الامراض وان يكونوا على صلة تامة ودائمة بالبعثات والهيئات الطبية فى الحرمين الشريفين فى كل ما يلم بهم من آلام وأمراض ·

5 ـ **الفتيا بشأن الحج والمناسك فى الحرمين** : كثيرا ما يقع الحجاج فى المحظور اثناء الحج أو العمرة فيلجأ العوام منهم الى استفتاء اقرب الناس اليهم وقد يكون هذا المسؤول مطوفا أو عاملا عند المطوف وكثيرا ما لا يردون سائلا خصوصا اذا كان الامر يتعلق بفدى فنجد الجواب فى كثير من الحالات غير مناسب للاصول الشرعية ، لذلك ينبغى ان تقام ندوات فى الاذاعة والتلفزيون فى البلاد الاسلامية ، ينبه فيها الحجاج دائما الى المحظورات التى كثيرا ما تقع واذا عن لهم سؤال اثناء الحج أو العمرة فليكن المسؤول عنه أحد الذين يتعرضون للفتيا داخل أحد الحرمين الشريفين وهم كثيرون ·

ثالثا : الاعلام الاسلامى على مدار السنة :

وهذه هى النقطة الهامة التى ارجو ان ألفت لها الانظار وتتلخص فى اننى أرى ان توجه انظار المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها ، وعوامهم وخواصهم ، الى حقيقة دينية ثابتة ألا وهى أن الحج يجب مرة واحدة فى العمر الا بنذر ينذره المسلم ، فيجب الوفاء بالنذر وما زاد عن ذلك فهو تطـــوع ·

فعن أبى هريرة قال : خطبنا رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : « يا ايها الناس ان الله كتب عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل ، أفى كل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ، ثم قال :

« ذرونى ما تركتكم ، فانما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم فاذا امرتكم بشىء فاتوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شىء فدعوه » ·

وفى حديث آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ايها الناس كتب عليكم الحج » فقال الاقرع بن حابس أفى كل عام يا رسول الله ؟ فقال « لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ، ولم تستطيعوا ، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع » · من هذا يتبين لنا انه لا يجوز للمسلم ان يحمل نفسه فوق طاقتها بتكرار الحج ، بل عليه ان يترك الفرصة لاخوانه الذين لم يؤدوا الفريضة لكى يؤدوها باطمئنان ويسر ·

كما أريد أن أنبه الى حقيقة مكملة للحقيقة الاولى الا وهى ان الحج واجب على الفور وقت الاستطاعة ولا مانع من تأخيره لمعذرة ، فيؤديه المسلم وقت ما يستطيع بعد ذلك ، ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، فقد أخر صلى الله عليه وسلم الحج الى السنة العاشرة من الهجرة ، مع ان وجوبه كان سنة ست ، فلو كان واجبا على الفور لما أخره النبى صلى الله عليه وسلم ، كما أنه يستحب تعجيله والمبادرة به متى استطاع المكلف أداءه فى أول فرصة ·

من هذا المنطلق ألفت الانظار الى المسلمين الذين يحجون كل عام وكأنما الحج فريضة سنوية عليهم أن يؤدوها ، لذلك أرى ان ينبه المسلمون الى حقائق الدين وأصوله وان كان هناك فضل من مال لدى هؤلاء فليكن صدقات تقدم لمن هم بحاجة اليها فى أوطانهم وهم كثيرون للاسف الشديد فى البلاد الاسلامية وان كان ولابد فلنلفت انظار هؤلاء الى فضل العمرة للتوجه اليها فى غير موسم الحج تخفيفا عن الناس فى الموسم ، وقد وردت فى العمرة احاديث شتى ·

فعن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « عمرة فى رمضان تعدل حجة » ·

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما » ·

وقد ورد فى الاثر ان العمرة كان يؤديها الصحابة اكثر من مرة فى العام ، فقد قال نافع : اعتمر عبد الله بن عمر رضى عنهما أعوانا فى عهد ابن الزبير، عمرتين فى كل عام ٠

وقال القاسم : ان عائشة رضى الله عنها اعتمرت فى سنة ثلاث مرات ٠

كما انه يجوز للمعتمر أن يعتمر فى أشهر الحج من غير أن يحج ، فقد اعتمر عمر رضى الله عنه فى شوال ، ورجع الى المدينة دون أن يحج ٠

وقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم اعتمر أربع عمر هى :

- عمرة الحديبية ٠
- وعمرة القضاء ٠
- والثالثة من الجعرانة ٠
- والرابعة مع حجته ٠

أيها الاخوة الافاضل :

من هذا المنطلق نريد ان ننبه المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها الى فضل العمرة وانها مرغوب فيها بعد حجة الاسلام ٠ وان نية المرء خير من عمله فكم من حاج يتكبد المشاق ولعله لا يستحضر الإخلاص فى عمله ويكون خيرا منه مسلم تخلف لعذر أو عسر من ان يدرك الحج ٠ ومن أحسن ما قيل :

يا راحلين الى البيت العتيق لقد سرتم جسوما وسرنا نحن أرواحا
انا أقمنا على عذر وقد رحلوا ومن أقام على عذر كمن راحا .

والقادمون الى البيت الحرام يزدادون لدرجة تهدد بالخطر ، فبدل ان ينصرف المرء الى ربه يدعوه وهو فى نسكه ، يكون همه الاول والاخير هو المحافظة على حياته من شدة الازدحام الذى تزهق فيه كثير من النفوس ٠

وديننا ولله الحمد دين الفطرة ، ودين اليسر ولا يمكن ابدا ان يحضنا على السكوت على هذه الحالة بل يوجب علينا ان نحافظ على سلامة أبداننا وان نبحث عن مخرج لما

يعترينا من امر وهذه حالة تستدعى ان نتضافر جميعا بالرأى وان نتداول الفـــكر لما فيه صالح الاسلام والمسلمين ، فأدعوكم جميعا ـ أيها الاخوة الاعزاء ـ لتخصيص ملتقى آخر للبحث فى الحج ، وليدل كل منكم بدلوه فى هــذا المضمار ٠ ولا اظننى قد اكملت البحث أو وفيته حقه ، بل من ضم آرائكم النيرة الى رأيى المتواضع ، وفى تداول الرأى والفكر الخير والبركة وفى الشورى المنهج السليم لمن اراد ان يسلك سبل الرشاد ٠

هذا وآمل أن أكون باقتراحى هذا قد فتحت بابا للخير فى توجيه الانظار الى فريضة الحج المحكمة حتى يفقهها الناس فقههم للصلاة والصيام وباقى الاركان الاخرى ٠

واكرر رجائى بأن تضعوا جهودكم القوية الى جهدى المحدود وعلمكم الغزير الى علمى المتواضع وأن تتضافر جهودنا وقوانا حتى نؤدى بعض ماعلينا تجاه النصيحة والتوجيه لاخـــواننا ٠

والله أسأل ان يبارك فى مجتمعنا هذا وان يجعل عملنا خالصا له ومتقبلا منه وان يثيبنا عليه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم ٠

وفى الختام أشكر الحكومة الجزائرية وعلى الاخص وزارة التعليم الاصـــلى والشؤون الدينية على اتاحة هذه الفرصة لنا فى هذا الملتقى ، واسأل الله ان يحقق لنا الآمال وأن يهدينا الى سبيل الرشاد ٠

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ٠

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

رأى الاستاذ أحمد محمد جمال
فى تعويض الهدي نقدا

اجرى مندوب وكالة الانباء الجزائرية حديثا مع الاستاذ أحمد محمد جمال الاستاذ بجامعة الملك عبد العزيز بجدة حول الطريق التى يؤدى بها الحج والتى كانت قد أغفلت من طرف المحاضرين وحاموا حولها دون أن يمسوا لب القضية ، وحول سؤال يتعلق بهذه النقطة ، أجاب الاستاذ احمد محمد جمال قائلا : بان المسلمين لا يؤدون فريضة الحج كما ينبغى أن تؤدى من حيث الانتفاع بها فى معاونة اخوانهم الحجاج والتعاون معهم على قضاء حاجاتهم وحل مشكلاتهم حتى يحققوا الاخوة الاسلامية التى فرضها الحج كوسيلة من وسائل تقوية هذه الاخوة وتعزيزها ٠

واجاب السيد أحمد محمد جمال عن سؤال يتعلق بمهمة المطوفين ، وهل يؤدونها كما ينبغى فى خدمة الحجاج ، فاوضح بأن كثيرا من المطوفين وهذا حق نعترف به لا يؤدون واجبهم كما ينبغى ، الى جانب ذلك هناك كثير من الحجاج لا يستفيدون بما ينصحون به فى هذا الشأن ، لهذا اقول بان على وزارات الشؤون الدينية فى العالم الاسلامى أن تقوم بتوعية حجاجها بكل ما يلزم لاداء الحج من وسائل وادوات ونفقات ، اما قضية الهدى والمشاكل الناتجة المختلفة على الآلاف المؤلفة من الانعام التى تذبح كل عام وتذهب سدى بدون فائدة ، فان هذه القضية ايضا لم يتطرق اليها المحاضرون رغم أنها من المشاكل التى كان من المفروض أن يركز عليها الملتقون ولو أنها لم تطرح فى المناقشة لاهملت تماما ٠

وحول سؤال يتعلق بهذه النقطة أكد الاستاذ احمد محمد جمال بانه من الملاحظ بان معظم ما يذبح من هدى فى (منى) يذهب سدى لا يستفيد منه الحاج نفسه والفقراء والمساكين وذلك خلافا للاهداف التى يرمى اليها الاسلام من الهدى حين شرعه فى الحج ولذلك طرحت افكار ونظريات ومقترحات كثيرة لعلاج هذا الوضع الشيء الذى يشوه سمعة الاسلام والمسلمين وكان أحسنها فى نظرى (يقول الاستاذ احمد محمد جمال) هو أن يسمح للحجاج بذبح هداياهم فى مكة قبل الصعود الى عرفات لياكلوا منها ويطعموا الجائع والفقير ، كما وجه لذلك القرآن الكريم يذبح فى ـ منى ـ القدر الذى يستفاد منه أكلا وطعما اذا كان هناك عدد من الهدى يزيد عن الحاجة فى أيام ـ منى ـ يؤجل الى ما بعدها ويذبح فى مكة المكرمة ايضا ٠

وبذلك تتوزع عملية الذبح من أول موسم الحج الى آخره ولا يكون ثمة ضياع لهذه الثروة من الهدى والآضحيات وبذلك نحقق فى الوقت نفسه الهدف الذى رمى اليه الشارع الحكيم ، ويقول الاستاذ احمد محمد جمال أنه فى حالة استكمال ذلك مع عدم وجود من يستفيد من هذه الذبائح فانه يمكن فى نظرنا أن يصدقه الحاج بثمن هديته أو ضحيته نقدا ٠

ومن هنا نرى أن الاستاذ أحمد محمد جمال يتفق مع الفتوى التى صدرت مؤخرا عن وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية الجزائرية والتى أجازت تعويض الهدى نقدا والاختلاف الشكلى الذى يشيره الاستاذ أحمد محمد جمال هو البدء بتطبيق رأيه السابق فان لم ينجح فلا مانع من تعويض الهدى نقدا٠

الحج
المؤتمر الإسلامى الكبير

أحمد محمد جمال
أستاذ الثقافة الاسلامية بجامعة
الملك عبد العزيز (جدة)



بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الاخوة الاحباء ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وأحمد الله اليكم ، وأصلى وأسلم معكم على نبينا سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

وبعد : فالحديث عن (الحج) بعده ركنا من اركان الاسلام الخمسة ، ولان المسلمين يفدون من أقطار الدنيا كل عام الى بيت الله الحرام « بمكة المكرمة » حجاجا وعمارا ٠٠ طاعة لله فيما فرض عليهم ، والتماسا لمثوبته وأجره ، وطمعا فى بركات هذه الفريضة العبادية ورحماتها ــ الحديث عن (الحج) على هذا الاعتبار : مهم وضرورى ، لان أكثر المسلمين ــ بما فى ذلك قادتهم وسادتهم ، وعلماؤهم وكبراؤهم ــ لا ينتفعون من أدائهم وأداء شعوبهم وأممهم واتباعهم لهـذه الفريضة العبادية السنوية : الانتفاع الاساسى الذى قصد اليه الشارع الحكيم من وراء الالزام بالحج ؟

ولابد ــ فى البداية ــ من تمهيد بحديث وجيز عن (الحج) كمؤتمر اسلامى سنوى ، مع الاعتراف المطلق بانه طاعة محضة ، وعبادة خالصة ، وذكـر لله تبارك وتعالى ، بكيفيات مخصوصة ، فى أيام معدودات ٠

هذا التمهيد نذكر فيه حوارا أو خلافا بـين بعض العلماء والمفكرين العصريين ٠٠ حول الانتفاع بفرصة (الحج) لتحقيق وحدة المسلمين ، وجمع كلمتهم ، وحل مشكلاتهم والتعاون فيما بينهم على الحق والخير والسلام ٠

كانت هناك ــ قبل خمسة أعوام تقريبا ــ ندوة تلفازية اجتمع فيهـا بعض العلماء والمفكرين ليتحدثوا عن (الحج) وحكمته ، أو فلسفته بالتعبير العصرى ٠

واساء فهم الحوار الدائر بين المتحدثين بعض الادباء الذين استمعوا الى النـدوة ، فكتب اعتراضا فى بعض الصحف يقول :

« ان الخلاف بين المتحاورين جذرى ٠٠ فاحدهم يرى ان (الحج) عبادة وليس مؤتمرا أى انه عبادة روحية وبدنية ، يشتغل الحاج فيها بالدعاء والتنقل بين المشاعر ، وذكـر الله ، وتلاوة القرآن ، والصلاة ، والطواف ، والسعى ، ورمى الجمار ــ الخ ٠٠٠

والآخر يرى ان (الحج) مؤتمر اسلامى بكل ما تحمله كلمة مؤتمر من المعانى ٠٠ انتهازا للوجود الاسلامى المتكاثر فى الحجاج على الايخل ذلك باعمال الحج ٠٠

ثم يعقب المعترض على وجهتى النظر المختلفتين ــ فى نظـره ــ بقوله : ولو أننـا تساهلنا فسمينا العبادات بغـير اسمائها الحقيقية ٠٠ بالمصطلحات التى تطلـق فى البيئات السياسية أو الأجتماعية لادى هذا التساهل الى ان تترسب هـذه المعـانى

الطائرة ، فتترسب معها على مر الزمن مقاصد أخرى تنزع عن العبادات روح القداسة الالهية ، وتنحرف بها الى أغراض أخرى ، والمسالة ليست كما فهمها صاحبنا المعترض· فالقول بان (الحج) عبادة محضة خطأ ـ كما ان الزعم بانه مؤتمر اسلامى محض خطأ أيضـــا ··

وانما القول الصائب : ان نفهم (الحــج) وسائر الفرائض الاخرى كالصـــلاة ، والصيام ، والزكاة على انها (عبادات) قصد الشارع من وراء الالزام بها الى (مصالح) اخلاقية واجتماعية واقتصادية وسياسية ·

وعامة المسلمين ـ مع هذا الفهم المطلوب من سادتهم وكبرائهم وعلمائهم ـ ملزومون بالخضوع والتسليم باداء هذه الفرائض ··· ولو لم يدركوا ما وراءها مـــن مقاصد ومصالح ، قد تتحقق لهم دون أن يريدوها أو دون أن يشعروا بها ·

والقول : بأن (الحج) مؤتمر اسلامى لا ينفى عنه انه عبادة وطاعة واعمال خاصة ·· تؤدى بخضوع وخشوع ، ورجاء فى رحمة الله وثوابه تماما كالصـــلاة ، والصـــوم والزكـــاة ··

وزيادة فى البيان نقول : ان للعبادات فى الاسلام ـ كما للمعاملات والعقوبات ـ مقاصد تهدف الى مصالح ، وتدعو الى مكرمات ، واذا كنا نذعن باداء (الحــج) كعبادة وطاعة وذكر لله بكيفية مخصوصة فى أيام معدودات ، يجب فى الوقت نفسه أن ننتفع بمقاصده ومصالحه ومكارمه والقرآن الكريم صريح فى التنبيه الى (الانتفاع) بفرصـــة (الحج) مع التعبد المفروض اساسا وابتداءا على المسلمين ·

يقول تبارك وتعالى ـ فى سورة الحج ـ : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ·· ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام » والمنـــافع ـ وان فسرها بعض المفسرين أو معظمهم بالاعمال التجارية ـ الا انها تتسع لمعان وأبعاد ومجالات متعددة ، فكل أمر أو عمل أو سلوك تتحقق به منفعة لجماعة المسلمين ·· دينية أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية ·· فذلك من (منافع) الحج لا ريب فيه · وليلاحظ صاحبنا المعترض ان كلمة (منافع) جاء بها القرآن الكريم نكرة وجمعا فى وقت واحد ·· لتكون عامـــة

شاملة لكل المصالح الاسلامية المحققة التى لا غبار على كونها منافع خالصة من كل الشوائب والاكدار ·

وعلى هذا الاساس من الفهم الصحيح لمعنى العبادة الزاما ومقصدا ـ قلنا ان على المسلمين وبخاصة قادتهم وسادتهم وكبراءهم وعلماءهم ، ان ينتهزوا فرصة (الحج) ليجعلوا منها بعد ان يفرغوا من اعماله العبادية : مؤتمرا اسلاميا يتعارفون خلاله ويتعاونون على حل مشكلاتهم ، وقضاء حاجاتهم والفصل بين المتخاصمين من حكوماتهم وشعوبهم ، وبذل المساعدات المادية والثقافية لمن يفتقر اليها منهم ·· حتى يكونوا كما وصف القرآن الكريم سلفهم الصالح : « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » · وكما قال عنهم فى آية أخرى أيضا : « كنتم خير امة أخرجت للناس ·· تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ·

وليس (الحج) وحده هو المؤتمر الاسلامى الوحيد الذى نبه اليه الشارع الحكيم ·· بل هناك مؤتمرات اسلامية أخرى ، ولكنها محدودة : بكل بلد اسلامى ، أو مدينة ، أو قرية أو حى ـ فصلاة الجماعة مؤتمر ، وصلاة الجمعة مؤتمر أكبر من الاول ، وصلاة العيدين مؤتمر أكبر من الثانى ـ و (الحج) أكبرها جميعا ـ وكلها مؤتمرات لصالح الجماعة الاسلامية ، وتحقيق منافعها ، والتعرف على مشكلاتها أو حاجاتها ، والتعاون على البر والتقوى فيما بين أفرادها وأسرها ·

فالاسلام ـ اذن ـ دين المقاصد والمصالح والمكارم التى يجب أن تتحقق لاتباعه ، وليس دين العبادات المجردة من الاهداف والغايات ولا هو ـ كذلك ـ دين الطقوس والشكوك والتراتيل ·

أما اعتراض صاحبنا ·· من حيث الاصطلاح اللغوى فى اطلاق لفظة (مؤتمر) على اجتماع المسلمين فى (الحج) ·· لانه لفظ مصطلح عليه فى البيئات السياسية والاجتماعية وغيرها ، ويخشى أن تترسب مع مرور الزمان مقاصد أخرى للمعنى العبادى (للحج) فى أذهان المسلمين نتيجة لاطلاق هذا المصطلح : (مؤتمر) ·· أما هذا الاعتراض ، فغير وارد ، لاننا لم نسم (الحج) مؤتمرا اسلاميا ، وانما وصفناه بانه « مؤتمر » ·· فهو اطلاق وصف لازم للحج ، كما نقول : الصلاة رياضة روحية ،

والصوم رياضة بدنية • أو نقول : ان المسجد مدرسة لما يكون فيه من وعاظ ومعلمين يعظون الناس ويعلمونهم أمور دينهم عقب الصلوات • أو نقول : ان المدرسة مسجد لان طلب العلم عبادة ، كما ثبت ذلك فى بعض الاحاديث والآثار •

فكل ذلك جائز لانها أوصاف لازمة • ولا يقصد بها اطـــلاق شعارات جديدة أو مستوردة على العبادات الاسلامية ، كما توهم صاحبنا المعترض •

لقد أطلق على الصلاة ـ فى بعض الاحاديث النبوية ـ بأنها : (عماد الدين ، وعـلى الصوم : بأنه (جنة) وعلى الجهاد : بأنه (رهبانية) الامة الاسلامية ، وعلى الحج : بانه (جهاد) لا شوكة فيه • ثم ان لفظة (مؤتمر) ليست شعارا غريبا مستوردا كما ظن أخونا المعترض • فهى عربية أصلا واصطلاحا ، وقد غلـب (الائتمار) فى الاصطـلاح السياسى على الاجتماع من تدبير الامر الطيب ، وغلب (التآمر) على الاجتماع من اجل تدبير امر خبيث •• مع أن القرآن الكريم أورد اللفظ الاول فى المعنى الاخير فى قوله عز وجل : « ان الملاء يأتمرون بك ليقتلوك » •

والاصطلاح اللغوى ـ على كل حال ـ يجيز التعبير باللفظتين معا عن تبادل الامر بين المجتمعين بالمعروف فنقول : تآمروا بالمعروف أو ائتمروا به ، ومثله تناهوا عن المنكر ••

ويلاحظ ان كلمة « مؤتمر » ليست شعارا دينويا كما توهم صاحبنا المعترض ولو أطلقت أحيانا على الاجتماعات غير الدينية ، فانها استعملت كذلك للاجتماعات الدينية أيضا •• اسلامية كانت أم مسيحية أم يهودية ••

فهى اسم قابل للاوصاف المتناقضة مثل « معركة ـ وميدان ـ ونادى ـ وسبيل ـ وندوة الخ » فنقول معركة خير أو شر ، وميدان سباق شريف او دنىء ، وسبيل الرحمن أو سبيل الشيطان • وورد فى القرآن الكريم قول لوط عليه السلام لقومه : (وتأتون فى ناديكم المنكر) وعرفت دار الندوة فى الجاهلية قبل بعثة الرسول صـلى الله عليه وسلم وبعدها بالتآمر عليه من أعداء الاسلام • واذا كان (النادى) جاء فى القرآن الكريم موصفا بأتيان المنكر فيه •• فهل نمنع استخدام اللفظ كاسم على التجمعات الرياضية والثقافية ؟ أم هل نمنع استعمال لفظة (الندوة) فى المحاورات الفكرية والادبية فى

الاذاعة أو التفاز أو المواسم الثقافية ٠٠ لان الندوة كانت أول اجتماع لاعداء الاسلام للتآمر عليه والكيد له ؟

ان الالفاظ والكلمات أوعية لما يراد بها من معان مع ما يضاف اليها من قرينة لفظية أو حالية والعبرة أولا بالمقاصد ثم بغلبة الاستعمال على مقصد دون آخر ٠

واذن ـ كما أسلفنا ـ يكون اطلاق (مؤتمر اسلامى) على الحج صحيحا دينيا ولغويا ٠

الحـــج كما يتحـدث عنـه القـــرآن الـــكريم

والآن نبدأ الكلام عن الحج : حكمته واسراره ، ومنافعه وآثاره ٠٠ كما يتحدث عنها القرآن الـــكريم ٠٠٠

الحج : هذا الركن الخامس من أركان الاسلام ـ ماذا يرى فى تشريعه الملاحدة ؟ وماذا يرى المؤمنون ؟ اما الملاحدة فانهم لا يرون فى الحج الا تجريدا للثياب ـ وهـو بزعمهم يناقض الحياء ـ والا سعيا بين الصفا والمروة ـ وهو بزعمهم يخالف الوقار ـ والا رميا للجمار لغير مرمى ـ وهو بزعمهم سخرية بالعقول ! ! ولو انهم فقهوا لافعال الحـــج حكمتها أو عرفوا ثمرتها لكان لهم ازاء فلسفة الحج ايمان واجلال ٠

ان فى طليعة ما يستهدفه الاسلام مما شرعه للناس من عبادات ، تاليف جماعتهم ، وتقويتها عن طريق هذا التأليف ، فصلاة الجماعة تتحطم فى روحيتها فوارق الحيـــاة الدنيا ، حيث تتساوى رؤوس المصلين ، وتتقارب مناكبهم ، وتتحد صفوفهم ، على ما بينهم من اغنياء وفقراء ، وسادة وعامة ، والامام فيهم كقائد جيش تلتزمون حركاته وسكناته ٠

وفى الحج ومناسكه مثل ذلك ، بل أكثر : فيه تقريب للابعاد ، وتاليف للاضداد ، من شتى البلاد ! وفيه درس ورياضة على الصبر واحتمال المشاق ! وفيه مغفرة وتوبة بعد ندم على الخطأ والزلل ! وفيه فوق ذلك كله فرصة للائتمار والشورى بين المسلمين فى مصالحهم ، وتوثيق روابطهم ، وجمع كلمتهم وجهودهم ، واحباط مكائد أعدائهم ! ٠

وهذه هى المنافع التى يشير اليها القرآن الكريم :

« وإذن فى الناس بالحج ٠٠ يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام ، فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق ٠ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ٠ » (الحج : 27 ـ 30) ٠

فى هذه الآية يتفضل الله سبحانه وتعالى باستيفاد عباده المؤمنين الى بيته ، الاول اقامة ووضعا ، والاول حرمة ، ومثابة وامنا ، ليحضروا منافع لهم ـ لا منافع له ـ فلن ينال الله سبحانه من هداياهم وضحاياهم لحوم ولا دماء ، ولا يناله من صدقاتهم ونفقاتهم غذاء ولا سقاء ، ولا تدركه تبارك وتعالى من طوافهم وسعيهم وجمراتهم ووقفاتهم وافاضاتهم فائدة ولا عائدة ! وانما ينالهم وحدهم ـ ان صدقوا النية واحسنوا التأدية ـ خير كثير ٠

وهذا الخير ـ فى رأيي ـ هو خلوص قلوبهم من علاقتهم بمادة الارض وحنينها عشية عرفات الى نفحات السماء ، وهو كذلك تعارفهم وتآلفهم ، خلال ما بقى من أيام المنسك ، وتفاهمهم على مصالحهم المشتركة ، وتآزرهم على تحقيق الجامعة الاسلامية ، بهداية القرآن وحماية السلطان ٠

ويقول القرآن الكريم :

«فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ٠٠» (البقرة 200)٠

فى هذه الآية توجيه رشيد الى (الجماعية) الدينية الشاملة ، حيث يكون ذكر الله وتدبر آياته وتتبع تشريعاته : أجمع لقلوب الحجاج وكلمتهم على أمر واحد ، فى سبيل واحدة ، الى غاية مشتركة ٠ ولا كذلك ذكر الآباء والاجداد ، كما كانت الجاهلية الاولى تفعل ـ تمدح عصبى ، وافتخار قبلى ينفثان سموم الكبرياء والبغضاء والتفريق ٠

ويقول القرآن الكريم :

« الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ٠٠ » (البقرة 197) ٠

فى هذه الآية توجيه خلقي الى ما للحج من قدسية ، ينبغى للحجاج أن يقدروها حق قدرها وأن يرعوها واجب رعايتها ، فيصدفوا عن نوازع الشهوة ، ودوافع الخصام ·· عسى أن يكون ثمرة ذلك محبة وألفة بين هؤلاء الاخوة المتساوين فى انسانيتهم والمتساوين فى دينونتهم لاله واحد أحد ، دعاهم جميعا دعوة واحدة ، الى موسم واحد ، ثم عسى أن يكون من بركات هذا الموسم الالهى توبة نصوح للخاطئين منهم ـ وكلهم خطاؤون ـ من ذنب فضوح أو غير فضوح ـ توبة تطيب بعدها الحياة وتصلح وتحمد بها العقبى وتفوز ·

ويقول القرآن الكريم :

« واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت : الا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود » (الحج 26) ·

فى هذه الآية تتعين الغاية الاولى من اقامة الكعبة قبلة واحدة للمسلمين فى هـد أوطانهم القصوى والدنيا ، وهى التوحيد والتنزيه : توحيد المعبود سبحانه من كل شرك ، وتنزيه العبادة من شبهات النفاق والدخل والتدجيل ·

وفى هذه الآية أيضا تتعين ضرورة طهارة الحال لطهارة المحل ، وفى ذلك دعوة صريحة للانسانية للخلاص من حمأتها والعودة الى فطرتها ، لتصفو أكدارها ، وتعلو أقدارها ، مصداقا لما أثبته القرآن الكريم لها من استعداد وامداد حين قال :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (الاسراء 70) ·

ويقول القرآن الكريم :

« ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ··· » (آل عمران 97) ·

فى هذه الآية نتبين رحمة الديانة الاسلامية باهلها ، فهى لا تكلفهم فوق ما يستطيعون ولا تحملهم ما لا يطيقون ، فالحج انما يجب على من استطاع اليه سبيلا ، من زاد وراحلة وصحة وأمان ، وما أغنى هؤلاء الذين يحجون **جياعا مشاة** ، يهلكون انفسهم ، ويتكففون الناس ، عن اعنات انفسهم وغيرهم ، فى غير موجب من قرآن ولا سلطان !

أما قول القرآن الكريم ـ فى هذه الاية نفسها : **(من كفر فان الله غنى عن العالمين)** فها هنا مفتاح فلسفة العبادات الاسلامية وفى مقدمتها الحج : فليس لله حاجة الى صلاة الناس وزكاتهم ، ولا الى صيامهم وحجهم ، وانما هم الفقراء اليه سبحانه ، وهو الغنى الحميد : **(ان تكفروا فان الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وان تشكروا يرضه لكم ... » (الزمر 7)** .

ثم مـاذا ؟

لقد تحدث القرآن الكريم فى سورة الحج عن بعض أفعاله ومقاصـده : ذكر أذان ابراهيم صلى الله عليه وسلم فى الناس وبالحج ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام ، يطعمون منها ويطعمون ، وذكر ما يجب عليهم من قضاء التفث ووفاء النذور ، والطواف بالبيت العتيق ، وذكر حرمات الله وشعائر الديـن ، وان تعظيمها دليل التقوى وبشير الخير ، وذكر الشرك وأن من يشرك بالله فكأنما خـر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، وذكر الوثنية وقــول الزور وأمر بأن يجتنبا ، وذكر الذبائح والضحايا ، وان الله سبحانه لا تهمه دماؤهـا المهراقة ولحومها المقسمة ، ولكن يرضيه تبارك وتعالى أن يصحبها اخلاص وتقوى .

بعد ذلك ذكر القرآن الكريم ثمرة من ثمرات الايمان المخلص الذى اشترطه فى أداء الحج آنفا ، وهى ان الله يدفع عن الذين آمنوا مكر كل خائن ، وعدوان كل كفور .

ثم قال القرآن الكريم :

« ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامـور ... » (الحـج 40) .

وهنا أريد ان يقف الحاج مليا يتأمل حديث القرآن الكريم عن الحج ، وما يجب لادائه من ايمان واخلاص ، وما يكون فى ادائه من مشقة وصبر ، وما ينتظر من ادائه مـن مثوبة وقبول ، حيث يكمل الله نعمته على حجاج بيته ، فيصبحوا أحرياء بدفاعه عنهم ونصره اياهم .

لنتأمل استرسال القرآن الكريم بعد عرضه لاعمال الحج وغايته ، فى الكلام عن الذين آمنوا ، ودفاع الله عنهم ، ووعده الناجز : «**ولينصرن الله من ينصره**» ، ووصفه الثابت لهؤلاء الناصرين المنصورين بأنهم : (**اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر**) ٠

ذلك ما أردته وقصدته ، حين أشرت فى بداية حديثى الى بركات الحج ، التى يظفر بها الحاج لنفسه وأهله وذريته وأسباب معيشته ، وحين قلت ان هناك بركات عامة يجب أن تشمل مجتمع الحاج مجتمعه الكبير من اخوانه وجيرانه وكافة مواطنيه ٠

أجل يجب أن تشمل بركات الحج مجتمع الحاج حين يعود اليه ــ يجب عليه ــ حين يقدم لاهله وأولاده وذوى قرباه الهدايا المادية التذكارية ــ أنيقدم لمواطنيه فى عين الوقت هدايا أخرى معنوية ، هدايا لا تكلفه أكثر من قلب ذكي ولسان طرى ، هدايا هى : دين ثابت ، وخلق كريم ومعاملة حسنة ، ونصح بالخير ، ودعوة الى البر ، وجهر بالحق، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وبذلمن ذات النفس ودا ، ومن ذات اليد رفدا ٠

هكذا يكون الحج واهب بركات ونفحات خاصة وعامة ، وكذلك يكون الحجاج بايمانهم واخلاصهم جديرين بدفاع الله عنهم ، ونصره اياهم ، حتى تنجلى حروبهم فيما بينهم ، وتيأس مطامع عدوهم فيهم ٠

ان الحج منسك جماعى ، فرض لصالح الجماعة الاسلامية ، لا لصالح كل حاج على انفراد ، اذ لو كان الامر كذلك لجاء إيجابه على كل فرد خلال أيام العام كله ، ولحج الناس البيت الحرام فرادى فى أى وقت شاؤوا ، ولكن الحج ــ تأكيدا لغاية الجماعية ــ قد فرض على المسلمين فى أشهر معلومات ٠٠ يتوافد خلالها الحجاج من كل فج عميق ، حتى يلتئم شملهم جميعا فى يوم واحد ــ يوم عرفة الذى هو خير الايام كما جاء فى حديث نبوى ــ فيتلاقون فى صعيد واحد ٠٠ يتعارف أبيضهم بأسودهم ، وغنيهم بفقيرهم وشرقيهم بغربيهم ــ على ما بين أقطارهم قبل أن يحجوا من أبعاد سحيقة ، واختلاف فى اللغة ونظام الحكم وتقاليد الاجتماع ٠

وبعد ٠٠ فاذا فرغ الحجاج من مناسك الحج وأعماله ، عليهم أن يتأملوا : هل فرغوا حقا من غاياته والتزاماته ، وهل حققوا فى أنفسهم هذه الغايات والالتزامات الــتى تحدثت عنها آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ ثــم ليسألوا الله الكريم الرحيم : أن تبقى معهم بركات الحج ونفحاته طوال عامهم ، بــل طوال عمرهم ، وأن يعيد لهم أيام الحج السعيدة مرددين مع القائل ـ :

« يــا حبــذا الموســم من موعــد وحبــذا الكعبــة مــن مشــهد »

حـــول تعـويض الذبـائح
فى الحـــج نقـــدا

قرأت فى العدد (25) من مجلة الاصالة (جمادى 1 ـ 2 ـ 1395 هـ = ماى ـ جوان 1975 م) : (... أن العلامة الشيخ محمد البشير الابراهيمي ـ رحمه الله ـ وهو مـــن علماء الاسلام قد أفتى فى البقاع المقدسة بجواز تعويض الذبائح بدفع أثمانها ...) الى آخر ما جاء فى المجلة .

وأريد أن أضيف هنا ، الى أننى كنت فى شهر أوت من سنة 1953 م ، أزور الشيـــخ محمد البشير الابراهيمى ـ رحمه الله ـ كل مساء فى النزل المصرى الذى يقوم به فى مكة المكرمة ، وكان يقيم فيه معه الشيخ محمد الغسيرى ـ رحمه الله ـ وكان ذهب حينذاك مع الكشافة الجزائرية الى مصر ومن هناك انتقل الى مكة ـ فكان الشيخ محمـــد البشـــير الابراهيمى ـ غير راض عن الحالة التى كانت تؤدى عليها الذبائح ، ويقول ما معنـــــاه : الاولى ، والانفع أن تجمع أثمان الذبائح ، وتصرف فى مشاريع خيرية نافعة ، أو تقـــوم الحكومة السعودية ببناء مستودعات لحفظ اللحوم بطرق علمية : حتى لا تضيع الفائـــدة التى قصدها الشارع من الذبائح ، وحتى لا تتسبب هذه اللحوم المتعفنة ، الملقاة هنـــا ، وهناك بمنى فى خلق أمراض معدية فتاكة » .

وكلفنى ـ رحمه الله ـ أن أجمع أثمان ذبائح الحجاج الذين كانـــوا معى ، فجمعت ثمن 35 ذبيحة ، فوزعها ـ رحمه الله ـ بين مستحقيها .

وفى سنة 1961 م ، أفتى الشيخ النعيمى ـ رحمه الله ـ ، والشيخ العباس ـ أطـــال الله حياته ـ بجواز دفع الثمن .

(موسى الاحمدى نويوات)
مديرية التعليم الاصلى
برج بوعريريج

مقصد الشريعة من الحج
والطريقة التي يؤدى بها اليوم

الاستاذ ابراهيم محمود جوب السنغالي
أمين الاتحاد الاسلامى الافريقى
ورئيس تحرير مجلة المسلم
الافريقى - السينغال



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

معالى الوزير .

أيها الاخوة والاخوات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحية وداد واخاء فى ذات الله لا أكاد اقوى على تاديتها لان جلال الموقف يكاد يعقل لسانى .

وكيف لا يتهيب مثلى ــ ومثلى هو القاصر الوانى ، ولكن تنكرى استحياء ــ كيف لا أتهيب مواجهة هذا المجمع الممتاز ، وفيه هذه الوجوه الكريمة التى زانها العلم فى أصالة والتزام ، وصانها التوفيق عن معوقات قرن التحديات : فما تلتقى الا فى سوح الجهاد فى سبيل الدعوة وعلى درب العمل الاسلامى الجاد ــ

وماذا عسانى أن أقدم اليكم من على هذا المنبر ؟

حقا لو ترك القط ليلا لنام •

بيد أنى أقدم بين هذا الحديث اعتذارا صادقا ليس من قبيل التواضع المتواضع على البداءة به فى مثل هذه المواقف محض تقليد لا تنفعل له أوتار القلوب ، اعتذارا عن كل ما قد يشوب حديثى من نقص وقصور •

واعتقد فى شبه يقين أن المقصود من تشريفى بهذا التكليف انما هو مجرد التشجيع ، باعتبارى أخا من صغار الدعاة الى الله ، فلعل فى لقاء الجهابذة لقاحا لفكرى وعقلى ، وشحذا لهمتى وارادتى ، ودفعا بى الى الامام لمواصلة السير على درب الصالحين العاملين فى حقل الدعوة الاسلامية ، لا سيما فى افريقيتنا الخضراء جنوب الصحراء حيث المجال واسع خصيب أمام الدعاة المسلمين ، وحيث السباق مسعور بين زعماء النجدين ، ودعاة الحضارتين •

ولقد تخيرت الموضوع السادس من جدول أبحاث ملتقانا فى هذا العام وهو : مقصد الشريعة من الحج ، والطريقة التى يؤدى بها اليوم • وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب •

ان الحج عبادة شرعها الله وفرضها على الناس « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » •

وفى الكتاب العزيز ، وفى السنة المطهرة فيض من الآيات والاحاديث لبيان هذه العبادة ، والترغيب فيها ، والحث عليها •

وحديث العبادة ــ فى الاسلام ــ لحسن أنيس ، موضوع بالغ الاهمية ، ولكنه مع ذلك لا يخلو من موجبات التهيب ، اذ العقل رغم مشيبه ووقاره ما زال فى الايام جد صغير ، وأحرى فى غيبة المشيب وانتفاء الوقار •

والشريعة الاسلامية التى نتلمس هنا بعض مقاصدها بحر لجى •

ولاسرار التشريع رجال لهم فى نهاره سبـــح طويل ، ولهم بذلك منابر من نــور التحقيق حدث عنها ولا حـــرج ٠

وأما وافد افريقيا السمراء فما أحجاه أن يعرف مقعده تحت هذه المنابر ، وبين أيدى هؤلاء الاكابر ، يتلقى ويترقى ريثما يثمر غرسه ، ويتأيد باذن الله ٠

وسوف أتحدث بايجاز عن الشريعة وميزتها ، ثم أقفى عليه بكلمة عن الحج كتابا وسنة بايجاز أيضا ، ثم اتطرق لغاية الحج التى هى فى نظرى تحقيق العبودية والاستجابة الصادقة لله ، ثم أشير فى النهاية الى حجيج اليوم وبعض ما يستدعى التأمل والاعتبار من شؤونهم بتركيز شديد وفقا لمنهاج الملتقى الكريم ٠

الاســـلام وشريعتـــه :

الاسلام دين الله الخالد ، فهو نور منه تعالى وهدى ورحمة ٠ ولن تجد فى تعاليمه جملة وتفصيلا الا الخير المحض ، والا دليل صدق النبى المصطفى الذى تلقى الوصى من عند الله « شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » ٠ .

وشريعة الاسلام تمثل قمة الكمال ــ ولا ريب ــ « فقد ولدت هذه الشريعة شابــة مكتملة ، ونزلت من عند الله شريعة كاملة شاملة جامعة مانعة ، لا ترى فيها عـــوجا ولا تشهد فيها نقصانا ٠ أنزلها الله تعالى من سمائه على قلب رسوله صلى الله عليه وسلم فى فترة قصيرة لا تجاوز المدة اللازمة لنزولها ، فترة بدأت ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، وانتهت يوم قال الله تعالى : «اليوم آكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » (المائدة : 3) ولم تات الشريعة لجماعة دون جماعة ، أو لقوم دون قوم ، أو لدولة دون دولة ، وانما جاءت للناس كافة من عرب وعجم ، شرقيــين وغربيين على اختلاف مشاربهم وتباين عاداتهم وتقاليدهم وتاريخهم ، فهى شريعة كل أسرة ، وشريعة كل قبيلة ، وشريعة كل جماعة ، وشريعة كل دولة ، بل هى الشريعة العالمية التى استطاع علماء القانــون الوضعى أن يتخيلوها ولكنهم لم يستطيعوا أن يوجدوها ٠

وشريعتنا الغراء رفيقة الانسان فى درب الحياة على طول البقاء ، فهى « لم تات لوقت دون وقت ، أو لعصر دون عصر ، أو لزمن دون زمن ، انما هى شريعة كل وقـــت ، وشريعة كل عصر ، وشريعة الزمن كله حتى يرث الله الارض ومن عليها » ٠

ولا غرو مطلقا فى بلوغ الشريعة الاسلامية قمة الكمال فصانعها الله ، وتتمثل فيها قدرة الخالق وكماله وعظمته واحاطته بما كان وما هو كائن ، ومن ثم صاغها العليم الخبير بحيث تحيط بكل شيء فى الحال والاستقبال ، حيث أحاط علمه ــ سبحانه ــ بكل شيء ٠ وامر جل شأنه ان لا تغير ولا تبدل حيث قال : « لا تبديل لكلمات الله » (يونس : 64) لانها ليست بحاجة للتغيير والتبديل مهما تغيرت الاوطان والازمان ، وتطور الانسان (1) ٠ « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا » ٠ والحمد لله الذى تأذن بحفظ الكتاب والمسلمون فى مراحل العشرة ٠ والحمد لله الذى ضمن قرآنه وبيانه وكتب له الخلود فى الوجود ٠ والحمد لله على توفر مصادر السنة ، وعلى تراثنا العلمى الضخم الاصيل ، والحمد لله على نعمة الحرية والاستقلال لمعظم بلاد المسلمين ، والحمد لله على هذه الحركة المباركة التى بدأت تسرى فى جسم الامة سريانا لم يعد يخفى على أحد ممن يهتمون بأمر المسلمين ٠ فهل حان لنا أن نهب ــ بعون الله ــ لحمل أعباء الدعوة ، ولنشر شريعتنا فى العالمين ، جهادا مقدسا تبرأ به الذمم ، وتسعد الامم ، وتزول العقد النفسية الخطرة التى عطلت وتعطل طاقات كثير من ابناء الامة الاسلامية اليوم حيث تأثروا بالغزو الفكرى المدمر ، الذى حرف مفاهيم التطور والتقدم والحرية ، حرف المفاهيم والكلم عن مواضعها ، حتى بات بعض المفتونين منا يتشككون فى قيمة تراثنا ، ويأتون الشعائر وهم كسالى ٠

ألا ان نشر هذه الحقائق واجب اكيد يتحتم علينا ان نستهين بكل التضحيات والعقبات فى سبيل تأديته ٠

وأنا ــ فى الواقع ــ لا يلهينى التغنى بأصالتنا عن واجب الاهتمام بحشد عوامل الفعالية ، اذ الاصالة بدون فعالية متجددة تعتبر قليلة الجدوى ، ورفع العقيرة بذكر الماء لا يبل الصدى ولا يروى الظمآن ٠

والمطلع على أحكام الشريعة الاسلامية المدرك لسموها وتميزها وكمالها لا يكاد يملك دمع العين وهو يرقب واقع البشرية فى سائر أرجاء الارض تقريبا ، حيث الجاهلية ممعنة فى تعميق الهوة بين انسان القرن العشرين ، وبين الاسلام ينبوع السعادة والخير والسلام ، السلام الحقيقى العميق ٠٠٠

1) راجع الجزء الاول من التشريع الجنائى الاسلامى للمرحوم عبد القادر عودة ٠

ان مسيرة الحضارة تتعثر ، وتعتاقها العقبات المادية واللا انسانية ، عقبات تتسم بالعلم ، ويغريها ضعف المناعة فى صفوفنا بالتبجح والتحدى .

وليس لتحدياتهم جواب الا قرآننا مفهوما مطبقا : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا كبيرا » .

انها لرسالة سامية وضرورية ، رسالة الهداية الحق هداية الناس الى صراط الله المستقيم الواصل ، ليعرفوه وليستقيموا عليه « **فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته** » (الظلال المجلد الاول) .

والمهتدى بنور الاسلام انسان قوى موفق فيجب ان يعرف قيمته فى هذا الوجود ، ويجب عليه أن يستعلن باسلاميته فى كل ناد وأمام كل انسان ، فلا يلبث الحق أن يتغلب وينتصر ، « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » .

وقد حدثنا الكاتب الفرنسى هنرى بسكو عن حادث حدث هنا فى الجزائر ذات يوم ، له دلالته البالغة ، واعنى بذلك يوم اعترف اندرى جيد بهزيمة الفكر الغربى امام جلال الحق ممثلا فى المسلم الفرنسى المشهور رينو جينو ، فقد تحدث جيد قائلا :

« اذا كان جينو على حق فانه من الواضح أن كل ارائى تصبح عديمة القيمة ، انها تنهار انهيارا تاما » .

فقال أحد الحاضرين : « ويرافقها فى الانهيار كثير من آراء أئمة الفكر ، آراء الفيلسوف مونتج مثلا » .

فيتابع جيد فى أسى قائلا : « اننى حقا لا أجد شيئا قط أعترض به على ما كتبه جينو أن ما كتبه لا يتطرق اليه النقض » .

والحق هو ما شهد به أندريه جيد يقينا وما كان رينو جينو بسيطا ساذجا خفيف الوزن ، وانما كان مفكرا عميق التفكير هداه الله الى الحق وشرح صدره للاسلام ، فأسلم له وجهه على خطوات السلف الصالح ، ودين الاسلام من ينابيعه ، وفقه لغة القرآن الكريم ، فكيف يتطرق الى انتاجه نقض ، انه كان يمثل تسورى العلم والايمان **ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** ...

ان حديثى هو كما أسلفت عن مقصد الشريعة ، مقصد هذه الشريعة الممتازة من الحج

فما هـو الحـــج ؟

الحج عبادة كما قلت ، وهو مؤتمر المسلمين السنوى العام ، يتلاقون فيه عند البيت الذى صدرت لهم الدعوة منه ، والذى بدأت منه الملة الحنيفية على يد أبيهم ابراهيم ، والذى جعله الله أول بيت فى الارض لعبادته خالصا ، فهو تجمع له مغزاه ، وله ذكرياته هذه التى تطوف كلها حول المعنى الكريم الذى يصــل الناس بخالقهم العظيم • معنى العقيدة استجابة الروح لله الذى من نفخة روحه صار الانسان انسانا ، وهو المعــنى الذى يليق بالاناسى أن يتجمعوا عليه وأن يتوافدوا كل عام الى المكان المقـدس الذى انبعث منه النداء للتجمع على هذا المعنى الكريم (فى ظلال القرآن م 2 ص 12) •

فالحج اذن قصد البيت العتيق بمكة المكرمة استجابة لله • وهو الركن الخامس من أركان الاسلام ، وقد فرضه الله على كل من يستطيع أداءه ، وفريضته مما علم مـــن الدين بالضرورة ، فانكار وجوبه يعتبر ردة عن الاسلام والعياذ بالله •

وقد فرض سنة ست من الهجرة على ما ذهب اليه الجمهور بنزول قـــوله تعالى : (وأتموا الحج والعمرة لله) • ويرى الامام ابن القيم انه فرض سنة تسع أو عشر من الهجرة وقد اسلفت أن فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة فيضامن الآيات والاحاديث لبيان هذه العبادة والترغيب فيها ، والحث عليها فلننصبت اذن الى الوحيين (القرآن ، والحديث) لانى واياكم لعلى يقين حازم ان خير الحديث كتاب الله وخير الهـدى هـدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الامور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النـــار •

ولسوف نرى عقب هذه الاستشهادات اننا فعلا أمام شعيرة عظيمة جديرة بكـــل اهتمام مليئة بالدروس والعبر والفوائد واللطائف •

قال تعالى فى سورة آل عمران : « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين » (97) •

وقال تعالى فى سورة البقرة : (وأتموا الحج والعمرة لله ، فان احصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدي محله ، فمن كان منكم مريضا أو بــه أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ، فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب ، الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه اللـــه ، وتزودوا،فان خير الزاد التقـوى واتقون يا أولى الالباب،ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ، فاذا أفضتم مـن عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمـــن الضالين ، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيـــم . فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ، فمن الناس مـــن يقول ربنا آتنا فى الدنيا ، وما له فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار،أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب،واذكروا الله فى أيام معدودات فمن تعجل فى يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا انكم اليه تحشرون) (196 ـ 202) .

وقال تعالى فى سورة الحج : « ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والبادى ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم ، واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطـــهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود،واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات عـلى ما رزقهم من بهيمة الانعام،فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير،ثم ليقضوا تفثهم،وليوفوا نذورهم،وليطوفوا بالبيت العتيق ، ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، وأحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم ، فاجتنبوا الرجس من الاوثان،واجتنبوا قـــول الزور،حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب

لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق ، ولكل أمـــة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام،فالهكم اله واحد فله اسلموا وبشـر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم،والصابرين على ما اصابهم،والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خـير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ، لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين » ٠

وقال : « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصــــلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ، واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم باللــــه واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير،واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم،ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك،وأرنا مناسكنا،وتب علينا،انك انـت التواب الرحيم،ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم ، ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه،ولقـد اصطفيناه فى الدنيا،وانه فى الآخرة لمن الصالحين،اذ قال له ربه اسلم،قال أسلمت لرب العالمين،وأوصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون » (البقرة 132) ٠

وقال فى سورة المائدة : « يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله ايديكم ورماحكم ، ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم ٠ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثـــل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منــه ، والله عزيز ذو انتقام أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذى اليه تحشرون ، جعل الله الكعبة البيت الحـــرام

قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الارض وأن الله بكل شىء عليم ، اعلموا ان الله شديد العقاب وان الله غفور رحيم • ما على الرسول الا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون»(94 ـ 99) •

أيها الاخـوة الاكارم :

تلكم آيات بينات من الذكر الحكيم تتضمن كثيرا من أحكام الحج فى سهولة ويسر تتخللها حكم وتوجيهات ربانية ، ارجو أن يعكف الشباب المسلم بوجه خاص على دراستها وتمليها ، وكل الصيد فى جوف الفرا •

فالكعبة المشرفة أول بيت وضع بأمر الله خصيصا لعبادة الله وحده ربا والها له والحمد فى الاولى والآخرة • لا شريك له مطلقا فى ذاته وصفاته وأفعاله جل جلاله •

وهو بيت مبارك ميمون وهو منارة هداية لسائر الاجيال فى سائر العصور : فيه آيات بينات مقام ابراهيم ••• وهو هذا الحجر الاثرى الذى كان أبو الانبياء ابراهيم عليه السلام يقف عليه وهو يبنى الكعبة المشرفة ، وكان لصيق البيت ـ فيما ذكره الازرقى ـ ثم أخر عنه تيسيرا للطائفين والحج ـ كما نطقت به الآيات حق ثابت لله على الناس بشرط الاسلام والبلوغ والعقل والحرية والاستطاعة وتتحقق الاستطاعة بصحة البدن وأمن الطريق والزاد المبلغ على التفصيل المعروف فى كتب الفقه الاسلامى

وتجدر الاشارة الى أن هذه الاستطاعة فى اطارها المادى الصرف أمرها فى الواقع الصحيح سهل ميسر فى زماننا الراهن ، فسبل المواصلات مريحة ، والامن مستتب ، والنفقات ليست من الكثرة بحيث تعجز ، انها عند العزم المصمم لا تلبث أن توجد فى يسر نسبى ، وانه اذن من المخداع الزائف ان يتعلق الانسان بالاستطاعة ، فان هذه الاستطاعة تتبع حرارة الايمان ارتفاعا وانخفاضا والناس فى الاغلب الاعم مستطيعون قادرون ، ولكن الامل فى امتداد العمر ، والانغماس فى غمرات المادة ، والاستغراق فى شؤون الدنيا يجعل الانسان ـ وهو مستطيع ـ يمهل ويهمل حتى تنتهى به الحياة • وفى مثل هذا يقول سعيد بن جبير ، ومجاهد وطاووس رضى الله عنهم « لو علمت رجلا غنيا وجب عليه الحج ثم مات قبل ان يحج ما صليت عليه » (عبد الحليم محمود : العبادة ص 144 ط ا) ومن كفر فان الله غنى عن العالمين •

والحج أشهر معلومات وهى شوال وذو القعدة وذو الحجة فمن اعتزم الحج فى هذه الاشهر الحرم فعليه أن يقدر الشعيرة العظيمة حق قدرها ، فيتوب ويخلص ، ويتطهر ويتزكى ، يتخلى عن السيئات والغفلات ، ويتحلى بالصالحات ومكارم الاخلاق ، فلا رفث ولا فسوق · ويكف حتى عن مجرد الجدال ، لان الامر جد ، والرقيب قريب ، والناقد بصير ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله · وليجعل تقوى الله زاده فى الحياة ، فالتقوى ملاك الامر « والتقوى زاد القلوب منه تقتات ، وبه تتقوى وترق وتشرق وعليه تستند فى الوصول والنجاة ، وأولوا الالباب هم أول من يدرك التوجيه الى التقوى وخير من ينتفع بهذا الزاد » (الظلال م أ ـ ص 119) وفضل الله واسع وأسباب الرزق الحلال كثيرة ، والمسلم مكلف بعمارة الارض ؛ فالعمل والانتاج والتجارة والصناعة كل أولئك عمل صالح ما دام المسلم ينطلق من قاعدة الايمان · فلا جناح ولا حرج مطلقا فى أن يزاول الحاج عملا منتجا نافعا أثناء حجه ما دامت نيته خالصة لله ·

والآيات فى أثناء ذلك كله قد أبرزت أهمية ، ذكر الله فى تلك الاماكن المقدسة مع شهود المنة لله ، والشعور بالتقصير دواما ·

والبيت الحرام مثابة للناس وهو أمن لهم ، وهو أيضا قيام لهم وأى قيام · وما أجمل قول من قال ابان ليل الاستعمار الطويل فى بلاد الاسلام « ان المسلمين فرقتهم السياسة وسوف تجمعهم الكعبة » ·

ولننتقل الآن الى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لنستمع فى مدرسة سيد الاولين والاخرين نتعرف فيها منه على مكانة هذه الفريضة ، وعلى بعض ما أعده الله للابرار بحج بيته العتيق : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الاعمال أفضل ؟ قال : ايمان بالله ورسوله · قيل ثم ماذا ؟ قال : ثم جهاد فى سبيل الله · قيل ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور ، ويعنى صلى الله عليه وسلم الحج الذى لا يخالطه اثم وارتكاب محظور ، والذى يؤثر فى سلوك الحاج بعد عودته من رحلة العمر ! وعن الحسن بن على رضى الله عنهما أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : انى جبان وانى ضعيف ، فقال هلم الى جهاد لا شوكة فيه : الحج (رواه عبد الرزاق والطبرانى ورواته ثقات) ·

وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : جهاد الكبير والضعيف والمرأة : الحج (رواه النسائى باسناد حسن) ٠

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت يا رسول الله : نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال : لكن أفضل الجهاد : حج مبرور (رواه البخارى ومسلم) ٠

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » (رواه البخارى ومسلم) ٠

وعن عمرو بن العاصى قال : لما جعل الله الاسلام فى قلبى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أبسط يدك فلأبايعك قال : فبسط فقبضت يدى ، فقال : ما لك يا عمرو ؟ قلت : اشترط ، قال تشترط ماذا ؟ قلت أن يغفر لى ٠ قال : أما علمت أن الاسلام يهدم ما قبله ، وأن الهجرة تهدم ما قبلها ، وأن الحج يهدم ما قبله (رواه مسلم) ٠ وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : الحجاج والعمار وفد الله ان دعوه أجابهم ، وان استغفروه غفر لهم (رواه النسائى وابن ماجه) ٠

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله وسلم العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزءا الا الجنة ٠

وروى ابن جريج ـ باسناد حسن ـ عن جابر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال : « هذا البيت دعامة الاسلام ، فمن خرج يوم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضمونا على الله ان قبضه ان يدخله الجنة ، وان رده رده بأجر وغنيمة ٠٠ » ٠

فالحج كما تعلمنا هذه النصوص هو من افضل الاعمال ، وهو جهاد مقدس وهو يمحو الذنوب كلها ، وثوابه الجنة ، والحجاج هم وفد الله وفى ضمانه أحياء وأمواتا ٠ لقد كثر خير الله وطاب على حد تعبير سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ٠

مقـــاصـــد الشـــريعـــة

يقول الامام الشاطبى رحمه الله فى موافقاته « ان وضع الشرائع انما هو لمصالح العباد فى العاجل والآجل » ولم يعتبر الامام معارضة الفخر الرازى فى موضوع علل الشريعة ، وانما انطلق من قناعته المبنية على استقراء نصوص القــرآن الــكريم ، واستدل على مذهبه بآيات بينات ، منها قوله فى بعثه الرسل وهو الاصل : رســـلا مبشرينَ ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وقوله : وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ، وقوله فى أصل الخلقة (وهو الذى خلق السماوات والارض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) ·

قال وأما التعاليل لتفاصيل الاحكام فى الكتاب والسنة فأكثر من أن تحصى كقوله بعد آية الوضوء (ما يريد الله ليجعل عليكم من حــرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) وقال فى الصيام (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب) ·

وفى التقرير على التوحيد (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين) (ص 3) ·

ورغم قوة الامام الشاطبى فى الاستدلال فقد جنح بعض علماء أصول الفقــه الى ضرورة التمييز الواضح بين العلة والسبب ، بين الدافع والغاية · ويرى أن مقاصد الشريعة هى مقاصدها ككل ، وليست هى مقاصد كل حكم بعينه ، ان الدليل الذى دل عليها واضح فيه أن الرحمة انما تنتج عن الشريعة ككل ، لا عن كل حكم بعينه اذ قال : وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ـ أى أن الرسالة رحمة · وقال : وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة · ومن هنا للبيان ـ أى ـ ننزل القرآن شفاء ورحمة ، وليس معناها ننزل بعض القرآن شفاء ورحمة ، وبعضه ليس كذلك ، ولذلك نجـــد الشارع فى الوقت الذى بين فيه مقاصد الشريعة من حيث هى ككل ، بين مقصده مــن شرع بعض أحكام بعينها (راجع الثقافة والثقافة الاسلامية لسميح الزين ص 250) ·

والحج من هذا القبيل فقد تبين المقصد منه بقوله تعالى : « واذن فى الناس بالحج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام » .

فالمقصود اذن هو شهود منافع لهم ولا يتأتى هذا الشهود فى صورتها المطلوبة الا بصدق العبودية وباسلام الوجه لله باحسان ويتمثل ذلك كله بنشيد الحجيج العظيم لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شرك لك .

وعن هذه المنافع التى شرع الحج من أجل شهودها يقول فخر الدين الرازى : « لما أمر بالحج فى قوله تعالى : (واذن فى الناس بالحج) ذكر حكمة ذلك الامر فى قوله : (ليشهدوا منافع لهم) . واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا وهى أن يتجروا فى أيام الحج ، وبعضهم حملها على منافع الآخرة وهى العفو والمغفرة ، عن محمد الباقر عليه السلام وبعضهم حملها على الامرين جميعا وهو الاولى ثم قال : انما نكر المنافع لانه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد فى غيرها من العبادات (التفسير الكبير ـ ج 6 ص 157 ط م) .

ويقول الالوسى : منافع عظيمة الخطر ، كثيرة العدد ، فتنكيرها وان لم يكن فيها تنوين للتعظيم والتكثير ، ويجوز أن يكون للتنويع ، أى نوعا من المنافع الدينية والدنوية وتعميم المنافع بحيث تشمل النوعين مما ذهب اليها جمع . وروى ذلك عن ابن عباس فقد أخرج ابن أبى حاتم عنه انه قال فى الآية : منافع فى الدنيا ومنافع فى الآخرة فأما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البدن فى ذلك اليوم والذبائح والتجارات . (راجع روح المعانى ـ ج 16 ص 145 ط 2) .

والواقع أن المنافع التى يشهدها الحجيج كثير فالحج موسم ومؤتمر . الحج موسم التجارة وموسم العبادة . والحج مؤتمر اجتماع وتعارف ، ومؤتمر تنسيق وتعاون ، وهو الفريضة التى تلتقى فيها الدنيا والآخرة ، كما تلتقى فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة .. أصحاب السلع والتجارة يجدون فى موسم الحج سوقا رائجة حيث تجبى الى البلد الحرام ثمرات كل شىء من أطراف الارض ويقدم الحجيج من كل فج ، ومن كل قطر ، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرق فى أرجاء الارض فى شتى المواسم يتجمع كله

فى البلد الحرام فى موسم واحد ، فهو موسم تجارة ومعرض نتاج ، وسوق عالمية تقام فى كل عام · وهو موسم عبادة تصفر فيه الارواح وهى تستشعر قربها من الله فى بيته الحرام ، وهى ترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التى تحوم عليه ، وترف كالاطياف من قريب ومن بعيد ·

طيف ابراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وهو يودع البيت فلـــذة كبده اسماعيل وأمه ، ويتوجه بقلبه الخافق الواجف الى ربه « ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غـير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » ·

وطيف هاجر ، وهى تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع فى تلك الحرة الملتهبة ، وهى تهرول بين الصفا والمروة ، وقد نهكها العطش وهدها الجهد وأضناها الاشفاق على الطفل ·· ثم ترجع فى الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بـين يدى الرضيع الوضىء واذا هى زمزم ينبوع الرحمة فى صحراء اليأس والجدب ·

وطيف ابراهيم عليه السلام ، هو يرى الرؤيا فلا يتردد فى التضحية بفلـــذة كبده ، ويمضى فى الطاعة المؤمنة الى ذلك الافق البعيد : « قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى » فتجيبه الطاعة الراضية فى اسماعيل عليه السلام « قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » واذا رحمة الله تتجلى فى الفداء : « وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم » ·

وطيف ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، يرفعان القواعد من البيت فى أنابـــة وخشوع : « ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ، ربنا اجعلنا مسلمين لك ومـــن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم » ·

وتظل هذه الاطياف وتلك الذكريات ترف وتتتابع حتى يلوح طيف عبد المطلب وهو ينذر دم ابنه العاشر ان رزقه الله عشرة ابناء · واذا هو عبد الله · واذا عبد المطلب حريصا على الوفاء بالنذر ·

واذا قوم من حوله يعرضون عليه فكرة الفداء ، واذا هو يدير القداح حول الكعبة ويضاعف الفداء ، والقدح يخرج فى كل مرة على عبد الله حتى يبلغ الفداء مائة ناقة بعد عشر هى الدية المعروفة ، فيقبل منه الفداء فينحر المائة وينجو عبد الله ، ينجو ليودع رحم آمنة أطهر نطفة وأكرم خلق الله على الله ـ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم • ثم يموت ، فكأنما انقذه الله من الذبح لهذا القصد الوحيد الكريم الكبير •

ثم تتواكب الاطياف والذكريات من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم • وهو يدرج طفولته وصباه فوق هذا الثرى ، حول هذا البيت •• وهو يرفع الحجر فيضعه موضعه وهو يطفىء الفتنة التى كادت تنشب بين القبائل •• وهو يصلى •• وهو يطوف •• وهو يخطب •• وهو يعتكف • وان خطواته ـ عليه الصلاة والسلام ـ لتنبض حية فى الخاطر ، وتتمثل شاخصة فى الضمير ، يكاد الحاج هناك يلمحها وهو مستغرق فى تلك الذكريات وخطوات الحشد من صحابته الكرام وأطيافهم ترف وتدق فوق هذا الثرى حول ذلك البيت ، تكاد تسمعها الاذن وتكاد تراها الابصار •

والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة ، مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب فى أعماق الزمن منذ أبيهم ابراهيم الخليل : « ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا » •• ويجدون محورهم الذى يشدهم جميعا اليه : هذه القبلة التى يتوجهون اليها جميعا ، ويلتقون عليها جميعا ويجدون رايتهم التى يفيئون اليها : راية العقيدة الواحدة التى تتوارى فى ظلها فوارق الاجناس والالوان والاوطان ويجدون قوتهم التى قد ينسونها حينا • قوة التجمع والتوحد والترابط الذى يضم الملايين ، الملايين التى لا يقف لها أحد لو فاءت الى رايتها الواحدة التى لا تتعدد : راية العقيدة والتوحيد •

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب وتنظيم ذلك العالم الاسلامى الواحد الكامل المتكامل مرة فى كل عام فى ظل الله ، بالقرب من بيت الله وفى ظلال الاطياف البعيدة والقريبة ، والذكريات الغائبة والحاضرة ، فى أنسب مكان وأنسب جو وأنسب زمان •

أجل ليشهدوا منافع لهم · كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته · وذلك بعض ما أراده الله بالحج يوم أن فرضه على المسلمين وأمر ابراهيم عليه السلام أن يؤذن به في الناس (راجع في ظلال القرآن · سورة الحج) أضف الى ذلك كله أن الالوف المؤلفة التى تؤم البيت الحرام كل عام هم من مختلف البلاد ، ومن مختلف الاجناس والالوان وفيهم من جميع المستويات ومنهم رجال العلم والدين ومنهم الكتاب والمفكرون ومنهم رجال التجارة والصناعة والاقتصاد ومنهم رجال الادارة والحكم ومنهم العمال والفلاحون ، ان مشاهد الحج نموذج للعالم الاسلامى فى كافة ، يقبلون جميعا وقد توحد مظهرهم بالاحرام ، واتحدت وجهتهم بالكعبة ، يطوفون بها قاصدين رب الكعبة فارين بدينهم من جميع ألوان الشرك والمعاصى ما ظهر منها وما بطن ، لا يريدون بأعمالهم ونسكهم الا وجه الله فلا يرجون غيره ، ولا يخافون سواه ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ·

هذه حالتهم في مكة المكرمة وفى منى ، وفى عرفات الله وفى المزدلفة فى روعة وجلال دونهما ما وصف الواصفون هذه هى الصورة المثالية للحج والحجاج، وتلك ايماءات مشرفة الى منافعه والى الآفاق الرحيبة التى ينتظر من الحج أن يفتحها للحجيج ضيوف الرحمان ·

والسؤال الآن هو هل تم لسائر الحجاج شهود تلك المنافع ؟

وهل هذه الشعيرة المقدسة تؤدى اليوم على مستوى التشريع الحكيم الذى ندينا اليها ، وفرضها علينا ؟

ما حاولت يوما معالجة هذا الموضوع المهم الا ووجدت أمامى من يثبط همتى ويحاول شل تفكيرى بقوله مهلا يا فلان · انها عبادة فنحن نؤديها تعبدا لله ، وليس فى الامكان أبدع مما كان والحج فعلا ـ كما أسلفت ـ عبادة · ولكن ما هى العبادة ؟ وما حدودها وآفاقها ؟

ان فترات الضعف والجفاف الفكرى التى مرت بالعالم الاسلامى ، والتى أختلفت شدة وطأتها فى بلد عنها فى آخر قد حرفت وقلبت كثيرا من المفاهيم ، ولا داعى للاسهاب فى تفصيل هذه الحقيقة ، فهى تكاد تكون معروفة لدى الجميع ، ومن تلك المفاهيم بالتأكيد

مفهوم العبادة فى الاسلام فقد مسخه بعض الناس الى أن أصبح مرادفا للسذاجة ، والخمول والاتكالية بل والجهل والسلبية ، وهذا منتهى التحريف وهو مفهوم يرفضه القرآن الكريم ويرفضه هدى رسول الله ، ويرفضه العقل المستنير واذا أردنا أن ندرك المعنى الكبير العميق الواسع للعبادة فلنستنطق كتاب الله القائل وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين فالآية صريحة فى أن الهدف الوحيد من خلق الجن والانس انما هو أن يعبدوا الله ، أى أن يؤمنوا به ، ويوحدوه ويستسلموا له ولارادته وشريعته على الدوام كما قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » فمفهوم العبادة اذن واسع فالكون كله محراب المؤمن وهو – بهذا المفهوم القرآنى الواسع – يقوم بشعائر الصلاة والصيام وغيرهما من أركان الاسلام ، ويذكر الله فى سائر الاحوال وفى جميع المواقف ، ويتفكر فى خلق السماوات والارض ، ولكنه فى نفس الوقت ذو مسؤولية كبيرة متعددة الجوانب يجب أن لا ينشغل بلذة الذكر والفكر والمناجاة عنها أبدا فالانسان مكلف بالخلافة فى الارض ، ومكلف بالمشى فى مناكب الارض طلبا للرزق الحلال ومكلف باقامة العدل ومناهضة الظلم ثم ان السماوات والارض مسخرات له فهل يسوغ له ان يجهلها مطلقا ويجهل ما فيها من طاقات ومنافع ، وهو مكلف بالتعلم والبحث والاعتبار والآيات القرآنية المحكمة وردت بكل ذلك وغيره ، وجاءت السنة المطهرة لتحثنا على العمل والانتاج والاتقان والتفوق فى جميع مجالات الخير ولنقرأ مرة أخرى هذه الآية التى جاءت معلمة مربية وسط آيات تتعلق بالحج وأحكامه : **فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب .**

وساداتنا العلماء رضوان الله عليهم لم يتركوا هذا الموضوع دون تبيان وجه الصواب والحكمة ، فالمحققون منهم جميعا على أنه لا يعبد الله تعالى بغير ما شرع وأن من العبادات ما يمكننا ادراك مقاصدها يقينا ، أو استنباط حكم وفوائد لها دون الجزم بأن تلك الفوائد هي الغرض المقصود ، كما أن هناك أمورا تعبدية لم نهتد بعد الى الحكمة فيها

كاستلام الحجر الاسود ، وكرمى الجمرات بمنى مثلا · ولكن ذلك لا يخل بشىء من منافع الحج التى ذكرنا بعضها ولا يمنعنا من الاهتمام باصلاح ما يحتاج الى الاصلاح من شؤوننا المتصلة بالحج خصوصا ·

ووضع الحجيج اليوم ـ بالتأكيد ـ لم يحقق الا جزءا يسيرا جدا من تلك المنافع لتى توخاها الشرع الشريف بهذه الشريعة ·

على أن رمى الجمرات ـ فى الواقع ـ وليس من الغموض بالدرجة التى يتصورها بعض المعاصرين ·

يقول الامام الغزالى رحمه الله (فى الاحياء) : وأما رمى الجمار فليقصد الرامى به الانقياد للامر واظهار للرق والعبودية ، وانتهاضا لمجرد الامتثال من غير حظ للنفس والعقل فى ذلك ثم ليقصد التشبه بابراهيم عليه السلام حيث عرض له ابليس ـ لعنة الله تعالى ـ فى ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة ، أو يفتنه بمعصية فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طردا له ، وقطعا لامله ·

فان خطر لك أن الشيطان له ، وشاهده فلذلك رماه ، وأما أنا فليس يعرض لى الشيطان فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان وأنه هو الذى القاه عليك ليفتر عزمك فى الرمى ، ويخيل اليك أنه لافائدة فيه وانه يضاهى اللعب فلم تشتغل به فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير والرمى ، فبذلك ترغم أنف الشيطان واعلم أنك فى الظاهر ترمى الحصى فى العقبة وفى الحقيقة ترمى وجه الشيطان ، وتقصم به ظهره اذ لا يحصل ارغام انفه الا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيما له بمجرد الامر من غير حظ للنفس فيه» ·

انها روح التلبية فى عمقها وايجابيتها · وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ·

وقبل حصر النقط التى اعتبرها مثار القلق والامتعاض ومدعاة التأمل الطويل من شؤون الحجيج أرى أن من الانصاف الاشادة بالجهود الكبيرة التى تبذلها حكومة المملكة العربية السعودية فى سبيل خدمة الحجاج ، فهى حقا جهود مشكورة ومتنوعة · ونلمس فى كل سنة تحسنا هو من ثمرات جهودهم الهائلة فى هذا الباب ·

ولكن المشكلة متشعبة معقدة وهذا عدد من المشاكل التى تتحتم معالجتها فورا ، وبكيفية حاسمة أولا وقبل كل شىء الفرد المسلم واعنى الحاج المسلم رجلا أو امرأة ·

فقد لاحظ كثير جدا من أهل الفكر والمعرفة بالحج وشؤونه أن اغلب الحجاج يصلون الى الاراضى المقدسة وهم يجهلون كل شيء عن الحج وآدابه فضلا عن اهدافه فمعظم الحجاج هم على مستوى منخفض جدا من العلم والثقافة ومعظم مشاكل الحج ناجمة من الجهل ٠ فما العمل لاعداد الحاج المسلم قبل توجهه الى مكة المكرمة لاداء فريضة الحج ؟

ثانيا ـ هناك استمرار ملحوظ فى تصاعد عدد الحجاج عاما بعد عام فقد بلغ عـدد الحجاج غير السعوديين فى الموسم الاخير حوالى سبعمائة ألف حاج من الجنسين بالاضافة الى السعوديين حتى سالت بهم الشوارع واكتظت الدور والمساجد ٠ ومكة المكرمة لا يمكن أن تستوعب فى ظل الامكانات الموجودة حاليا كل هذه الالوف فى ظروف ملائمة لائقة بضيوف الرحمان ٠

ثالثا ـ مهمة المطوف مهمة شاقة وضرورية فى الظروف الراهنة فيجب أن تخضـع لمزيد من الرقابة لان ثمة مشاكل جمة فى هذا المحيط لابد من حسمها بحكمة اذا ما توخينا فعلا راحة الحجاج ، أو سلامتهم على الاقل ٠

وهذا الوضع المجافى حكمة التشريع أنتج بطبيعة الحال :

ـ فوات كثير من المنافــــع

ـ بل وحصول كثير من المضـــــرة

رابعا ـ ثم تأتى مشكلة لحوم الهدى فى منى فان ألوفا مؤلفة من الخرفان وغـيرها تذبح وتترك للرياح والجراثيم وقليل هم أولئك الذين ياكلون من ذبائحهم أو يطعمون منها البائس الفقــير ٠

ولست أرى أن يستبدل الحاج بها النقود (لان الفقهاء جميعا يعتبرون التعبد فى هذه المسالة باراقة الدماء دون أن أرى فى كلام واحد منهم ما يشير ـ ولو من بعيد ـ الى استبدال النقود بها) (فتاوى شلتوت) ٠

وثمت عدة مقترحات لحل هذه المشاكل يتقدم بها هذا المفكر أو ذاك فى هذه المناسبة أو تلك غير أنى أرى أن الافضل والاقرب الى الكمال أن تتعاون الحكومات والمؤسسات الاسلامية معا وبكل جدية لدراسة هذه المسالة ٠

ورابطة العالم الاسلامى وهى فى حد ذاتها ثمرة مباركة من ثمار الحج وقد أصبحت مؤسسة لها وزنها وآثارها هذه الرابطة مهتمة بموضوع الحج والحجاج ، وعالجه مجلسها التأسيسى فى عدة دورات واتخذ حياله عدة توصيات تتعلق بالذبائح ومنى وماء زمزم ومدى امكانية تصديره بكيفية علمية سليمة والمطوفين والادلاء ...

وتلح هذه المقترحات على انشاء صناعة لتعليب تلك اللحوم ووضع مخطط اسلامى للاستفادة منها مما يحقق مصلحة البائس الفقير والقانع والمعتر ومن فى معناهم وفقا للسياسة الشرعية .

وأرى أن تشكل فى الدول الاسلامية أو بالاحرى فى بلاد المسلمين هيئات خاصة بالعناية بالحج وما يتصل به على مستوى أحسن من مستوى جمعيات الحجاج المعروفة حتى الآن ... فهذه الهيئات سوف تكون قادرة باذن الله على معاونة الحكومات والدوائر المسؤولة عن شؤون الحجاج فى العالم الاسلامى .

وقد علمت من مصدر موثوق جدا أن مؤسسة كبيرة فى ايران ــ وتضم مجموعة من المهندسين المسلمين قد قدمت ــ قبل الموسم الاخير ــ الى الملك الراحل فيصل بن عبد العزيز مشروعا كبيرا لحل جميع مشاكل منى الخاصة بالسكن والمواصلات والمسلخة (1) ولعل المستقبل القريب يبشرنا بما يشرح الصدور باذن الله .

ويمكن التعاون مع وزارات الخارجية فى بلاد المسلمين لمعرفة أهم الاطارات التى تنتوى اداء فريضة الحج قبل الموسم بوقت كاف لكى يتيسر تنظيم اللقاءات الهادفة بين هؤلاء الصفوة مما يساعد على قطف ثمار الحج لا سيما فى ميدان الشورى وتبادل الخبرات ورسم معالم طريق العمل المجدى فى سبيل خدمة المسلمين ونشر دين الحق ، وصون حرمات الله والميدان واسع .

والله الموفق للصواب ومنه نرجو الرعاية والتوفيق . وأؤكد فى ختام هذه المحاضرة أن كل ما يشكو منه الملاحظون والمفكرون من واقع مجاف لسمو الاسلام وكمال الشريعة الغراء فانما مرده الى نقص أو قصور أو تقصير فى التطبيق أو بعبارة أخرى العيب فى جهاز الاستقبال وليس فى جهاز الارسال يقينا .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

---

1) حدثنى بكل هذا المدير المسؤول عن المؤسسة ونحن فى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام عام 1395 هـ .

أتبقى الأمّة غمّة ؟ (1)

مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ـ الجزائر ـ

حضرات الاساتذة الافاضل ،

حضرات السادة والسيدات ،

اخوتى الطلبة والطالبات ،

تختتمون فى هذه اللحظة أعمال ملتقاكم بعد عشرة أيام من أعمال دائبة ، كثيرا ما تواصلت هنا فى هذه القاعة أو فى مقاركم بالثانويات الى ساعات متاخرة من الليل ، فهنيئا للجميع بهذا الجهد الذى استعصى على الضيق ، والعطش ، والحرارة ، والذى وان بلغ كل هذا

(1) كلمة اختتام الملتقى التاسع للفكر الاسلامى تلمسان 10 رجب 1395 هـ 19 يونيو 1975 م .

احيانا عتبة الصبر والتحمل فلم يعقب الضجر ، ولا الندم ، ولا المرارة !

عشرة أيام وليال فى محاضرات ومناقشات ، وفى صراع ومناوشات ، تخللها جو من المرح واستمرار البحث على الطبيعة وفى الحافلات ، بدون أن تنسى مع هذا كله الفروض والنافلات !

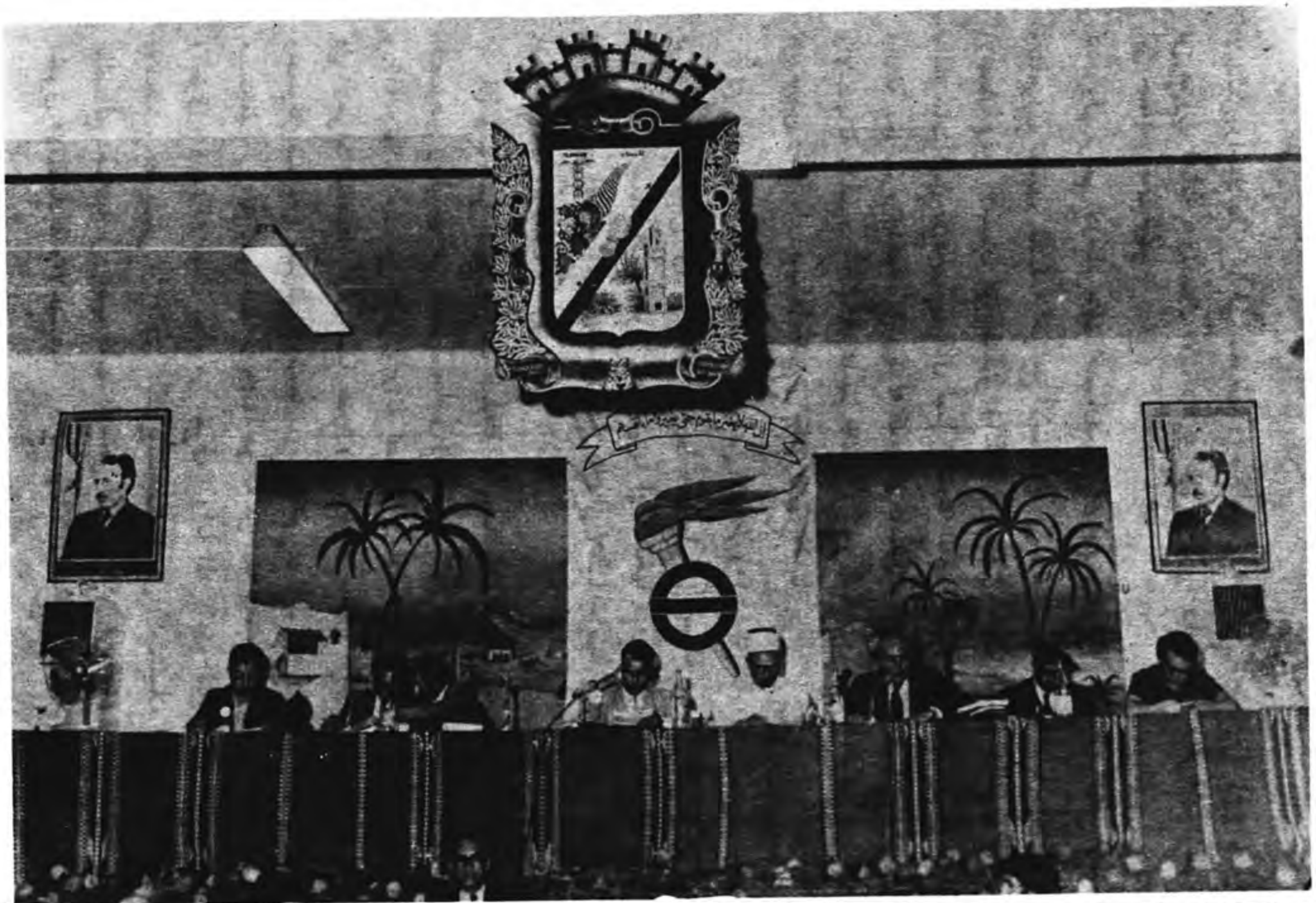
1) لقد اتضح لكم ان عاصمة بنى زيان قدمت للانسان فكرا وحضارة ، وكانت فى ذلك جوهرة ناصعة النضارة ، ولم تتوار الا بعد ان تخلت عن أصلها ومنطلقها ، وتحلت بغير زيها وانزوت عن منبثقها !

فشاعت فيها بين الاب والابن الفتن والاحن ، وانهالت عليها المصائب والمحن ، وانقض عليها الجيران الاشقاء ، واصبح رجالها الصلاب مخنثين ارقاء ، فذاع التحلل والانحلال ، اللذين يعقبهما دوما الاختلال والاحتلال !

2) والقيتم نظرة فاحصة على دور الدولة العثمانية ازاء الاندلس وباقى العالم الاسلامى ، وموقفها واجزاء هذا الباقى بعضها نحو الاخرى ، واتضح لكم ان شعب الاندلس الذى كان عليه الصليب ينقض ، والهلال فى أغلبه يتوارى وينفض ، كان هو المسؤول الاول فيما ألم به من نوائب، بما جنح اليه من استهتار وغيره من معائب ، وانه اذا صح الحديث الذى جاء فى محاضرة الاستاذ الانصارى من أن كل ابن آدم خطاء ، وحق اللوم والتسجيل على كل من هو الى انجاد المستغيث متردد بطاء ، فان لآل عثمان كغيرهم عيوبا ومزايا ، واخطاء وسجايا ، وأنهم وان قصروا فى الاخير تقصيرا فظيعا ، فلم يكن موقفهم دائما مخزيا ، خسيسا ، وضيعا .

وانصافا للامم والرجال ، مع مراعاة الحال والمجال ، ينبغى الاعتراف بالفضل لذويه، وعدم اغفال الاخطاء كما يقول ابن مسكويه ! وعندما لم يضربعضهم الآخر بالتآمر عليه مع العدو والتواطىء ، فعلى الاقل تصامم على ندائه أو قابله بالتباطىء ، وهكذا كان ما كان بالجزائر وغيرها ، بعد صراع ودفاع ، وتلتها شقيقاتها واحدة تلو الاخرى ، وتقاسمت أوروبا الامة ، التى أوقعت نفسها بغفلتها وتخاذلها فى هلاك وغمة !

3) وبحثتم فيما اذا كان الشعر فى الاندلس سببا فى انحلال اخلاقها ثم سقوطها ، أم كان لهما مجرد مرآة وانعكاس ، وانتهيتم الى أن الشعر كان له دوره فى انحلال



جلسة الاختتام ، ويرى من اليمين الى اليسار السادة :
عبد اللطيف عبادة ، محمد عبد الله عنان ، د · عبد الهادى التازى ، محمد محمود الصواف ، مولود قاسم نايت بلقاسم (وهو يتلو كلمة الاختتام) ، أحمد اسماعيل ، يوسف العظم ، د · محمد الشريف قاهر ·

الاندلس واختلالها ، ثم فى سقوطها واحتلالها ، وانه اذا كانت هناك أسباب أخـرى من حروب أهلية ، واقتتال الاب والابن على كراس ، وأميرات ، وطويفات ، الى حد ان ابن حمديس قال فيهم :

ولم ترحم الارحام منهم اقــارب ، تروى سيوفا من دماء الاقــارب !

ويتآمرون بعضهم ضــد الآخر مع الاسبان ، فى وقــت كانت فيه البابــوية تحـرض الاسبان وغير الاسبان على التكتل والتعاون ضدهم ، فان الشعر والتغنى بالخمريـات والغلاميات لدى الاندلسيين كان لهما لا شك الدور الفعال فى قتل الروح لديهــم ، واذابة نخوتهم ، واطفاء كل رجولة لديهم ، فاستكانوا وكان طابعهم التخنث والهمود ، والاستهانة والخمود ، فتهالك عليهم الاسبان لا من قلة ، ولكن بما تمكن من نفوسهــم من مرض وعلة ، وذهب ما كان من ملك ومن ملك !

4) ونقدتم النظرية القائلة بان الفن للفن ، ورأيتم ان الآداب والفنون ليست غاية فى ذاتها ، لاشباع نزوات الامة ولذاتها ، وانما هى وسيلة وسلاح ذو حدين ، للدفاع عن الامة أو سلخها ، ولابراز شخصيتها أو مسخها ، ولرفع معنوياتها أو اهباطهـا ، ولتعزيز جهودها أو احباطها ، وانه آن الاوان لامتنا خاصة ان تدرك هذا وتفيق ، قبل ان يلحق بها الانحلال ويحيق !

5) وتناولتم جميع جوانب العدالة الاقتصادية والاجتماعية فى الاسلام ، وقارنتـم النصوص وتطبيقها فى الماضى بحاضر الامة بين الامم ، واتضح جليا أن الاسلام ديــن ودولة ونظام اجتماعى كامل ، وانه نصوص ومقاصد ، يدركها ذوو البصيرة كما تنفذ الى الاجرام المراصد ، وان عميا بصرا وبصيرة قد سلموا الامة للطغـــاة فى اغـــلال ، وجعلوها ضحية استنزاف واستغلال ، وقلتم ان المال لله وان الانسان انما هو فيــه مستخلف ، وانه ليس ملكا له وانما هو له من الله مستلف ، فله ان يكتسبه بالجهــد والعرق ، ويصرفه بعدل نجاة من الغرق ، وانه اذا كانت الملكية الفردية مصونـــة فى الاسلام ، فلا ينبغى ان يؤدى ذلك بالمستضعفين الى الاستسلام ، وان الدولة مكلفــة بالمصالح الجماعية ، ويجب عليها التدخل لتضمن لكل فرد على قدر جهده قسطه مــن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية ، واعلنتم ان التضامن الاسلامى يفرض على الاغنيــاء



منظر آخر من جلسة الاختتام ، ويرى فيه من اليمين الى اليسار السادة :
عبد اللطيف عبادة ، محمد عبد الله عنان ، د · عبد الهادى التازى (جانبيا) ، محمد محمود الصواف ، مولود قاسم نايت بلقاسم ،
د · خير الله عصار (وهو يتلو نص مشروع البرقية الى الرئيس هـــوارى بومـــدين للشكـــر والتهنئة) ، يوسف العظـــم ،
د · محمد الشريف قاهر ، وخلفه أحمد اسماعيل ·

اسعاف الفقراء على مستوى الدول وليس فقط الافراد ، وان اعانة الشعوب الاسلامية بالمال والرجال وليس فقط بكتب الاذكار والاوراد ، وانه لو ارسل الفائض فقط من الكتب والسيارات ، والمواد الغذائية والاطارات ، لتغير وجه الامة وخدمنا ديننا ، ولاصبح التآخي الفعال مبدأها وديدنها ، ولتم العمل بتلك الآية التى حفظناها صغارا ، والحديث الذى لانفتأ نلوكه كبارا ، عن ان « انما المؤمنون اخوة » داخل الامة ، وعن البنيان المرصوص والسهر والحمى !

6) ودرستم موضوع الحج ، ومقاصد الشريعة منه للامة ، ومحصتم الطريقة التى يؤدى بها اليوم ، فاجمعتم والاجماع بينكم نادر ، والله على كل شىء قادر ، ان الطريقة التى يؤدى بها اليوم تنافى فى كثير من جوانبها المقاصد، وقلتم ان الدين يسر، لا عسر ولا خسر ، وان الاجدر بالامة أن تعطى عن هذا الركن من أركان الاسلام أجمل الصور وأبهاها ، وعن نفسها أنصع الصفحات وأزهاها .

حضرات الاساتذة الافاضل ،

حضرات السادة والسيدات ،

اخوتى الطلبة والطالبات ،

لم يبق بعد هذا الا أن نشكر كل واحد منكم على ما عمل وبذل ، ونطلب منكم أن يصفح بعضنا عن الآخر ان عاتب أو عذل ، خاصة حضرات الاساتذة الافاضل ، ونشكر ولاية تلمسان على ذلك الجو الاخوى الذى خففت به عن الجميع الانهاك والتعب !

وليصفح عنى الجميع عن كل ما بدر منى عن حسن نية نحو ملتقاكم ، وليطمئن الاخوة من الطالبات والطلبة اننا سنكون معهم فى المستقبل أصرم وأشد !

وداعا مدينة ابن خلدون وابن خميس والوريط ، التى هى على خريطة الحضارة العلامة والشريط، وداعا منشأ ابنى الامام والمقرى، ومعهد الدرس، والبحث، والتحرى !

والى اللقاء فى الملتقى العاشر فى العاصمة الصناعية مدينة الحجار ، التى قاومت بالامس البعيد الغزاة والفجار ، معترك دونات والدوناتيين ضد القديس والعصابة ، ومثوى ابى مروان للعلماء رئيس النقابة ، حقل العنب والعناب : عنابة !

والسلام عليكم ورحمة الله .

انطباعات عـــن الملـتقى



د · خـير الله عصار
استاذ بمدرسة ترشيح المعلمين
ـ الجـزائـر ـ

فلتستمر المسيرة ...

ـ فلتستمر المسيرة الى الامام ، مسـيرة الجزائر الثورة التى يضيئها نـور الاسلام وتظللها رأيته !

ـ فلتستمر المسيرة التى يقودها السيـد مولود قاسم ، وزير التعليم الاصـلى والشؤون الدينية ، بقلبه ، وعقله وفكـره · ان اشرافه وموضوعيته ، ورعايته ، وصرامته ، أعظم من ان استطيع وصفها بالكلمات أو التعبير عنها بالاشعار

ففى الجزائر الثورة ، التى خرجت من ثورتها المجيدة ، ثورة نوفمبر الخالدة ، والتى تعيش الآن فى حقل ثوراتها الثلاث : الزراعية والصناعية والثقافية ، ثورات البنـاء والتشييد والتعريب ، والعودة الى الاصالة ، استطعت أن اعرف من أنا ! أقول استطعت أن اعرف من أنا ، ان اعرف نفسى · فنفسى هذه معذبة لذكرى الاندلس ، مضطربـة نتيجة للتيارات المعاصرة المتعددة ، قلـقة لانها تبحث عن الخلاص ، عن الطـريق الى المستقبل ·

لقد قدم لى هذا المؤتمر نورا ، شمعة أضاءت ارجاء نفسى المعذبة ، المضطربـة ، القلقة ، فعرفت اخبار بنى الاحمر وأسباب سقوطهم ، وتعلمت شيئا عـن النظـام الاقتصادى فى الاسلام الذى أقول وبكل صراحة أنى كنت جاهلا به ، وعرفت وعرفت وعرفت الكثير من المفكرين المسلمين وتحدثت اليهم فعرفتهم وعرفونى ·

ان الملتقيات الاسلامية هذه اعظم وسيلة لتقريب المفكرين المسلمين من بعضهـم ، لاشاعة الوئام والتفاهم بينهم ، كيما ينظروا جميعا الى الامام ، فى اتجاه واحد بـدلا من ان ينظروا فى أعين بعضهم ·

انى اقترح ، بخصوص الملتقى العاشر ان تعالج :

1 ـ مشكلة الشباب فى عالم اليوم الاسلامى ، ازماته ، آلامه ، وطموحه وآماله ·

2 ـ دراسة الثورة الجزائرية ، أسباب قوتها وعوامل نجاحها حتى تستطيع الامم

الاسلامية ان تستفيد منها فى كفاحها ضد الاستعمار ، خاصة ضد الصهيونية ٠

3 ـ كيفية بناء الدولة الاسلامية الحديثة ، الوسائل والادوات ، والغايات القريبة والبعيـــدة ٠

وتحية كبرى الى الجزائر الثورة والى رئيسها ووزيرها وتحية الى شعب الجزائـــر العظيم والى اللقاء ٠٠٠

مــن ايجابيــات الملــتقى



يوسف الفطـم

نائب سابق وشاعر ـ الاردن

ظهرت فى هذا الملتقى الخير جوانب ايجابية مثمرة أهمها :

1 ـ الموضوعات الحساسة الهامة التى تقدم بها رجال الفكر بناء على تخطيط مسبق مـــن وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ٠

2ـ اللقاء الذى تم بين عدد من رجال الفكر بحيث تم بينهم التعارف وهى ميزة من أهـم ميزات الاسلام حيث يخاطبنا القرآن الكريم : **« وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم »** ٠

3 ـ هذا الحشد الخير المتفتح من الشباب والشابات فى قاعة الملتقى لينهلوا مـــن المعرفة الخالصة ويستنيروا بالفكر الاسلامى الرائع الذى يغنيهم عن استيراد مـــذاهب شتى مرقعة من الشرق أو الغرب ٠

4 ـ حيوية اجهزة وزارة التعليم الاصلى وأجهزة الاعلام وعلى رأس هذه الاجهزة جميعا العاملة بحيوية معالى الاخ مولود قاسم الذى كان يصل الليل بالنهار دون ملـل فى حيوية دافقة منقطعة النظير وهو يشرف وينظم حتى يصل الفكر الاسلامى الاصيل الى قلوب الشباب وعقولهم ٠

5 ـ الرحلات التى نظمتها الوزارة للملتقى ليتعرفوا على جزء هام من ديار الاسلام

فى رحاب تلمسان على أرض الجزائر أرضا وتاريخا وانسانا نرجو له تريدا من الوعى والخير والازدهار ٠

اما السلبيات فهى أمور لا بد منها اذ الكمال لله وحده ، وسأكتب لمعالى الوزير بذلك لعل شباب المسلمين فى كل بلد يتبادلون الخبرات ولسوف أكتب للاخ مولود رأيى مفصلا ناصحا لعل الله يجنبنا ما يمكن ان نقع فيه من اخطاء حتى تأتى المؤتمرات القادمة باذن الله خلوا مما وقع من بعض الاخطاء ، انه لملتقى رائع وذكرى كريمة عطر ٠ والله المستعان ٠



الملتقى دعوة الى استرجاع دور المسلمين

علي عيسى
الداعية المسلم
ـ بتايلاند ـ

كنت على البعد اهفو الى الجزائر الحبيبة وأتشوق لرؤيتها لما ضربته من أروع الصور وأعظم البطولات فلما قدر لى أن أحضر هذا الملتقى لاول مرة بدعوة من الوزير المجاهد السيد مولود قاسم الذى يمثل بروحه الاسلامية العالية وهمته الفائقة أمل دعاة الاسلام فى هذا العصر اذ يجدون فى شخصه الكريم انتفاضة اسلامية تنطلق من الجزائر الابية على مستوى المسؤولية التى يضطلع بها الحكام وهذا شىء جدير بالذكر والتنويه نسجله للتاريخ اعترافا بالفضل واحقاقا للحق ٠

أما عن انطباعى عن الملتقى التاسع فلا تتسع له السطور ولا تستوعبه الصفحات ولا يفصح عنه البيان وقد أكون فى موقف العجز ٠٠٠ والعجز عن درك الادراك ادراك ٠

وكفى بربى شاهدا ووكيلا أن الانطباع الذى وقر فى قلبى وسرى فى كيانى يجعلنى أغادر الجزائر وبين جوانحى يقين بان هذه الملتقيات التى سعت الى انعقادها القيادة

المخلصة الحكيمة لهذا البلد ما هي الا طلائع عودة المسلمين الى دورهم الطبيعي في الوجود واسترداد مكانتهم التي أرادها الله لهم وأشارت اليها الآية الكريمة :

« **كنتم خير أمة اخرجت للناس** » ·

لقد ادركت الجزائر بجهادها تحت راية الاسلام وباسم الاسلام معنى الجهاد فتحقق لها النصر وما النصر الا من عند الله ·

وان الجزائر التي اصبحت محل فخر المسلمين واعتزازهم لهي اليوم أمل كل مسلم في حمل راية الجهاد لاعلاء كلمة الله والدعوة الى دينه في مشارق الارض ومغاربها كما حملت راية الجهاد فنصرها الله على الطغاة والمستعمرين ·

فهلم يا شعب الجزائر ··· هلم الى طريق الله لتقود المسيرة الاسلامية نحو الغاية السامية التي أرادها الله وأوجد أنصع صورة لها محمد صلوات اللـه وسلامه عليه وأختم قولي بقول الشاعر الحكيم :

قد رشحوك لامـــر ان فطنت لـه فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمـل

ملـتقى الحـوار الحـــر



د · صبحي الصالح
نائب رئيس المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى وأستاذ في الجامعة اللبنانية
ـ بـيروت ـ

كل ملتقى للفكر مفيد ، فكيف به وهـــو ملتقى للفكر الاسلامي في أرض البطـولات ، أرض الجزائر المسلمة ، وفي تلمسان بالذات عاصمة الزيانيين ؟

ولقد امتـاز ملتقانا التاسع هذا بحيـــوية الحوار ، والحرية في تبادل الافكار ، فاغنى كلا منا بما عند أخيه ، وأخرجنا من عالم النظريات الى محاولات التطبيق ·

وما سجله الاساتذة المشاركون من رجال الفكر الاسلامي عن العدالة الاقتصاديـــة

في الاسلام يعتبر في نظرى محاولة رائدة لايجاد الصياغة « التنظمية العملية » لمجتمعنا الاسلامي الآخذ في التطور والارتقاء على أسس الدين والعلم ومكارم الاخلاق ٠



د٠ جعفر شهيدى
كلية الآداب جامعة طهران
ـ ايــران ـ

موضوعـات هـامــة

لملتقانا هذا ميزة على الملتقيات السابقـة لانه تناول مواضيع وسائل تعانى بها الامـة الاسلامية ومن جملتها الطريقة التى يؤدى بها اليوم الحج ومسالة دور الفنـون والآداب فى اخلاق الامـة ، وقد درس العلماء المحاضرون والمعلقون المسالتين الهامتين ووصلوا الى نتائج عملية رائعة ، كما ستأتى فى توصيات الملتقى٠

هذا ولكن يؤسفنى شيء لابد وان يعتنى به ويتخذ التدبير الـلازم بشأنه ، وهـو موضوع التعليق والمناقشة ، حيث رأيت ان الاساتذة ينتقلون منها الى القاء محاضرة أخرى ، وحتى فى كلمات الوفود فقد انقلب بعض الكلمات الى محاضرة طويلة وارجو ان تحدد هذه المواضيع فى الملتقيات القادمة وان يحدد التعليق أو المناقشة فى عشر دقائق وكلمات الوفود فى ثلاث دقائق على الاكثر لا يتجاوز عنها ٠



نحو تحديد مصالح النظرية الاسلامية

احمد سيد محمـد
أستاذ بالمعهد التربوى
ـ الجزائر ـ

يتناول حديثى حول ما جاء فى الملتقى الاسلامى التاسع ما يلى :

اولا : برنامج الملتقى :

ركز البرنامج على الناحية التاريخية وخاصة بعض جوانب من تاريخ (الجزائر ، وتركيا ـ والاندلس) ، وقد تناول نواحى أخرى لكنها كانت قليلة على الرغم من عظم اهميتها ، وشدة حاجتها الى حلول سريعة ٠

ثانيا : الادارة :

كانت الادارة منظمة حادة حازمة ، لكن تنظيم المناقشة يحتاج الى اعادة نظر ٠

ثالثا : المحاضرات والمناقشات

أ ـ اتسمت الدراسات التاريخية بالجد والجهد والطريقة العلمية المنهجية فى معظم المحاضرات ، ولم تكن المناقشات أقل ايجابية وموضوعية من المحاضرات مع انها لم تخل من بعض الاتجاهات الخاصة لكنها فى عمومها توصلنا الى نتائج يمكن الاستفادة منها فى اعادة النظر الى تاريخنا ٠

ب ـ كان نصيب المحاضرات التى تناولت الجانب الاقتصادى قليلا ، والمناقشة فى غالب الاحيان كانت سطحية ٠

جـ ـ المحاضرات التى دارت حول الفنون والآداب لم تشرح دورها فى تدعيم القيم والمبادىء الاسلامية فبعض المحاضرات دراسة تاريخية والاخرى دراسة فنية منعزلة عن قضايا واقعنا ولم تخط بنا خطوة الى الامام للاستفادة من مجالات هذه الفنون والآداب فى تحديد معالم فكر اسلامى ٠

د ـ المحاضرات حول قضية الحج

شرحت واقع سلوك الحجاج والاخطاء التى يقعون فيها ، كما أوضحت دور الحكومات وواجباتها فى توعية الحجاج ، ولم يتعرض « للشعائر » بصورة تساعد على الاجتهاد والحرية فى التأمل فى قضايا الفقه الاسلامى ٠

رابعا : الاقتراحات

بالاضافة الى دراسة جانب من التاريخ الاسلامى فى الجزائر أو غيرها من بلاد الاسلام نأمل أن يركز البرنامج القادم اهتماما بقضيتين أساسيتين هما :

1 ـ تحديد معالم النظرية الاسلامية تحديدا دقيقا خاليا من كل الشوائب، وبالصورة التى تتلائم ومتطلبات المسلم المعاصر ·

2 ـ دراسة مشكلات المسلمين فى مختلف بقاع الارض والتعريف بها ، ودراستها ومحاولة ايجاد حلول لها ، والله ولى ا لتوفيق ·



حتى يزداد الملتقى اشعاعا فى عالم الفكر

محمـد اركون
استاذ الفلسفة الاسلامية
بالسوربو ن ـ باريس،

أولا ، يطيب لى أن أقـدم الشكر وأعترف بالجميل لجميع المتكلفين بتنظيم الملتقى ثم بتسييره بقدر ملحوظ من التنبه والرعاية والكفاءة ·

ان من يهتم بالاسلام والمجتمعات الاسلامية لا كمسلم فحسب ، بل كدارس ومدرس للفكـر الاسـلامى ، لا يمكنه الا أن يشكـر ويحمـد لكثـرة الاستفادة مـن مثل هذا الملتقى · فانه عبارة عن عالم اسلامى صغير يدل دلالة صادقة واضحة عـلى المظاهر والخصائص الرئيسية للعالم الاسلامى المعاصر · فان الضيوف يختلفـون فى اتجاهاتهم الفكرية ومستواهم الثقافى والتزاماتهم الوجودية نفس الاختلاف الذى تتسم به المجتمعات الاسلامية الراهنة · وهذا مما لابد أن ينتبه اليه المنتبه ويتأمله حـتى يلقى عن وضع الاسلام الحديث كلاما سديدا واقعيا ، مستنبطا للمزايا والمفاسد ·

ثم ان التعرف المباشر على الشخصيات البارزة فى العالم الاسلامى لما يعين الاستاذ والطالب على تأكيد انطباعاتهما الاولى عند اطلاعهما على المؤلفات أو سمعهما حديثا عـن هؤلاء ، أو على تعديل حكمها الاول ·

أما بالنسبة الى الجزائر والمواطنين ، فالفوائد عديدة ، جمة ، بينة ، لا أرى حاجة الى تفصيلها اذ قد قام بذلك الصحافيون وسيقوم بذلك ، لا شك ، كثير من الاساتذة

والمحاضرين فى جميع البلد · وانى عازم على أن أساهم فى هذا العمل بمقالة ستنشر فى مجلة الاصالة وستتناول تحقيقا انتقاديا (بالمعنى الفلسفى عند كانت Kant لجميع المحاضرات التى ألقيت فى هذا الملتقى ·

وبما انى أهتم كل الاهتمام بنجاح العمل الذى تقوم به وزارة التعليم الاصلى ، استنسمح ذوى الامر بتقديم هذه المقترحات لتحضير الملتقى العاشر :

1 ــ تحديد عدد المشاركين الى 40 على الاكثر ·

2 ــ تحديد عدد المحاضرين حتى لا تلقى أكثر من 4 محاضرات كل يوم ·

3 ــ التحقيق ان المحاضرين تقيدوا بالموضوع ·

4 ــ توزيع نصوص المحاضرات فى اليوم الاول على المشاركين وتوفير يوم كامل (أو وقت كاف كل يوم) للاطلاع على النصوص حتى تكون المناقشة مبنية على دراسة وتثبت ، وحتى يكتفى المحاضر بتلخيص الخطوط الهامة من محاضرته فى 20 دقيقة ·

5 ــ تحديد وقت المعقب الى ربع ساعة ·

6 ــ لكل نقطة فى برنامج الملتقى ، يجب أن تكون :

ــ محاضرة عامة ممهدة لتعيين المنهاجية وكيفية طرح المشاكل Problématique

ــ أبحاث مفصلة لجوانب الموضوع العام ·

7 ــ توفير وقت أوسع ليتصل الطلبة بالاساتذة ·

8 ــ استفتاء الطلبة ليصرحوا باقتراحاتهم الخاصة ·

انما أقدم هذه الاقتراحات مراعاة لما اختبرته فى كثير من الملتقيات العلمية · وانى لا أنسى مع ذلك ان الملتقى للتعرف على الفكر الاسلامى متقيد بمقاصده العديدة الخاصة · ومهما كان ، أرجو كل الرجاء أن يزداد أهمية واشعاعا فى عالم الفكر واقناعا للايين من عقول مستهدية ·

الملتقى ليس كسبا للجزائر فقط
ولكن لسائر شعوب العالم الاسلامى



د • عبد الهادى التازى
سفير سابق ، مدير مركز البحث العلمى ـ بالرباط

كنت سعيدا حقا أن احظى بالمشاركة الفعلية فى هذا الملتقى ، وترجـــع أسباب شعـورى بالسعـــادة الى أننى وجــــدت نفسى فى بيئة استجابت لكل هوايا تى فى الدراسات التاريخية والادبية والاسلامية •••

واعترف اننى استفدت كثيرا فى شتى تلك النواحى ، ولذلك فانه لا يسعنى الا أن أنـوه بالجهود العظيمة المبذولة من أجل انجاح الملتقى الذى يعتبر فى نظرى كسبا ليس فقط للشعب الجزائرى الشقيق ولكن لسائر شعوب العالم الاسلامى المتطلع دوما الى ما يحقق رغباته فى المعرفة والاطلاع •••

وان فى ابرز التطبيقات العملية لمبادىء الاسلام ، مما شاهدته فى الملتقى ، هو حمل المشاركين فيه من أساتذة ومعقبين من طلبة وطوالب ، هو حملهم على ان يكونوا قـدوة حسنة فى مثابرتهم وفى دأبهم وفى تحملهم ، من أجل الصالح العام ، دون تـوان ولا فتور ولا تميع ، فقد كان الملتقى فعلا امتحانا لما يمكن أن تتحمله النفوس الكبيرة ، وان الامل فى أن تستمر مثل هذه اللقاءات وبمثل هذا الحزم والضبط وبمثل هذه الجدية والفعالية •

وتقديرى فى الاخير للمشرفين على هذا اللقاء الذى سيزود المكتبة الاسلامية بهـذه البحوث والمناقشات النيرة الهادفة ، وتحيتى لتلمسان التى فتحت قلوبها لضيوفهـــا فاحيت بذلك منقبة عرفت عن اسلافها وجدودها •

اللقاء النزيه المجرد لخدمة الاسلام



الشيخ الحبيب المستاوى
مدير مجلة جوهر الاسلام
– تونس –

الامة الجزائرية العربية المسلمة أمة المعجزات وبلاد البركة واليمن والخير ولقد كانت وما تزال رائدة قائدة مجاهدة · ولم تعرف الجزائر بالامس البعيد والقريب – كما لم تعرف اليوم – الا بوضوح المقصد وشرف الغاية والبعد عن التلونات والنفاق ·

ومن هذه المنظمات وعلى هذه الاسس تقوم الجزائر بما تقوم به من عمل فى شتى ميادين الحياة الداخلية والخارجية · والاجتماعية والسياسية والدينية – لا تهدف لشىء الا لارضاء الله وارضاء الضمير وتحقيق المصلحة العامة ، وانى اشارك فى الملتقى التاسع للفكر الاسلامى بتلمسان بعد ان كنت تشرفت بالمشاركة فى الملتقى السابع بتيزى وزو · وأقول بكل تجرد وصدق : ان هذا العمل العظيم الذى اصبح سنة حميدة سنتها الجزائر المجاهدة ووزارة التعليم الاصلى بصفة خاصة · يعتبر بحق من أجل ما يقدم للاسلام فى هذا العصر ويربط بين رجالات الفكر الاسلامى من كل فج عميق · فهو اللقاء البرىء النزيه للدراسة الهادفة الصادقة الصريحة الذى لا يتسنى للمهتمين بقضايا الاسلام ان يظفروا به فى غير بلد المليون ونصف شهيد ·

وسوف تلمس نتائجه الباهرة داخليا وخارجيا وخاصة فى نطاق الشباب الذى أتيحت له فرصة المشاركة فيه · وان المقارن بين كل ملتقى وما سبقه ليلمس التقدم المحسوس والتدرج الرصين الدائب الثابت · فحى الله جميع العاملين لقضايا الفكر الاسلامى فى كل مكان وأخذ بأيدينا جميعا لما فيه خير الاسلام والمسلمين انه سميع مجيب .

والسلام عليكم ورحمة الله ·

اقتـــراحـــات



د · عبد الحميد حاجيات
جامعة ـ الجزائر

لقد كان الملتقى التاسع للفكر الاســـلامى ، مثــل الملتقيات السابقة ، فرصة ثمينة لاقامة لقاء أخوى بين أساتذة ينتمون الى مختلـــف أقطار العالم الاسلامى ونخبة صالحة من الطلبة الجزائريين ، فى مدينة تلمسان، التى لعبت دورا هاما فى مجالات التاريخ والحضارة والثقافـــة الاسلامية · وكان من شان هذا اللقاء أن مكــن المشاركين من التعرف على بعضهم بعضا ، وعقد روابط الصداقة والاخـوة والتعـاون المثمر ، مما له أثر فعال فى رفع المعنويات وتقوية العزائم وتنسيق أعمال الباحثـين · وقد استفدت كثيرا من الاتصالات التى جمعت بينى وبين بعض رجال الفـــكر والادب من الاقطار الشقيقة ، أمثال الدكاترة والاساتذة الاخوة عبد الهادى التازى ، وابراهيم حركات ، واحسان عباس ، وعثمان الكعاك ، وأرجمند كوران ، وعبد الحليم عـــويس وغيرهم والاختين وداد القاضى وليلى الصباغ ·

ولا شك أن ما ألقى أثناء هذا الملتقى من محاضرات قيمة ، وما تبودل فيه من مناقشات وتعقيبات ، قد زود الحاضرين ، وخصوصا الطلبة ، بمعلومات جمـة ، ولفت انتباههم الى نقاط بالغة الاهمية حول الفكر الاسلامى وما يتصل به اتصالا وثيقا من تاريـــخ وأدب وحضارة · وكان اقبال المشاركين كبيرا رغم كثافة أعمال المؤتمر وتعدد المحاضرات وكثرة التعقيبات ومشاكل تنظيم الملتقى الناجمة عن وفرة عدد المشاركين ·

هذا وقد أعجبت بنشاط المسؤولين بوزارة التعليم الاصلى والشـؤون الدينيـة ، وسعيهم الحثيث فى تذليل الصعاب وحل المشاكل وبذل أقصى الجهود للقيام بالشؤون التنظيمية والسهر على توفير وسائل استقبال المشتركين والمدعوين ·

وعلى ضوء تجربة هذا الملتقى يمكن ابداء بعض الاقتراحات الرامية الى تحسين التنظيم وجلب المزيد من الفائدة والنفع • وأذكر على الخصوص ضرورة تحديد عدد المحاضرات ، فقد كان تعدد المحاضرات في الموضوع الواحد عاملا في ارهاق المشتركين • كما ينبغي توزيع نص مختلف المحاضرات قبل موعد القائها ، ليتمكن المشاركون من مناقشتها بصفة جدية ، والتقيد بما يتيحه مقر الملتقى من امكانيات ووسائل لتحديد عدد الطلبة المشاركين ، وذلك لتجنب الفوضى وضبط سائر الامور ضبطا محكما • وكذلك أقترح العمل على منع كل ما من شأنه أن يشغل بال الحاضرين ويصرفهم عن الانتباه الى ما يدور من أعمال ، وذلك مثل ما يقع باستمرار من كثرة التنقلات وضجيج المحادثات ، كما أرى انه من الاحسن أن يطلب من الحاضرين التزام الصمت والنظام ، وتجنب التصفيق ، وغير ذلك من عوامل التشويش •

ثم انني أعتقد أن السير الحسن والمنظم لاشغال الملتقى يقتضي احترام الاوقات والانضباط بما يصدر في برنامج الملتقى في هذا الشأن ، وعلى كل فاني أرى من المستحسن ايقاف الاعمال قبيل المغرب ، لئلا يرهق المشاركون ، وأيضا لتمكينهم من أداء صلاتي العصر والمغرب في وقتهما •



ابراهيم محمود جوب
الامين العام لمنظمة الاتحاد الاسلامي الافريقي • ورئيس تحرير مجلة «المسلم الافريقي» •

بحثنا وناقشنا
بروح علمية وبمنتهى الحرية

تحية اكبار وتقدير للملتقى التاسع للتعرف على الفكر الاسلامي ، ووِاها لمنظميه والمشرفين عليه، فقد بذلوا جهودا مضنية مخلصة، وسهروا ليالي طويلة كيما يهيؤا للملتقين ، أساتذة وطلبة الظروف الملائمة للقيام بمهمتهم الكبيرة •• واليوم وقد انتهت أيام الملتقى ، وصدرت التوصيات ، وأزف رحيل اخوة الايمان ، ودعاة

الحق ، وجنود المعرفة ـ الى بلادهم وأوطانهم ، فانى اسجل هنا ـ بكل اخلاص ـ ارتياحى الى نتائج أعمالنا ، وثمرات جهودنا فى هذه الايام المباركة • فقد بحثنا قضايا أساسية ، وبحثناها بروح علمية وبمنتهى الحرية • ولا شك أن أمامنا الكثير الكثير مما يجب على المفكر المسلم أن يطرقه ويبحثه ويحلله بعمق وأصالة ، ولكن المهم هو أن الركب انطلق بجد ، وسوف لن يرضى بما دون الغاية القصوى محطا لرحاله • « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** » •••• **والله الموفق** •

مـن أجل اتحـاد المسلمين



د • سليم حيدر
شاعر وسفير سابق ـ لبنان

هذا الملتقى التاسـع للفكر الاسـلامى ، المبارك بالفكرة التى دفعت اليه ، الناجـح ، بالجهـود التى بذلت مـن أجلـه ، العزيـز فى نفوسنا بالطاقات التى من شأنه أن يفجرها ، يترك فى نفسى انطباعين أساسيين :

الاول يتعلق بالماضى : شعلة الاسلام المتقدة، التى دفعت الحفاة العراة ، العزل الا من الايمان بالله ، الى بسط رواق الاسلام على نصف الدنيا ، هديا وحضارة ، فى فتوحات مجيدة قوضت قلاع الطغاة وبنت على أنقاضها مدنية روح وعقل وعمل صالح • وبقدر ما بدأت هذه الشعلة تخمد فى نفوس المؤمنين ، حكاما وشعبا ، بقدر ما بدأ الانحلال يدب فى جسم الامة ، حتى تقلص ظلها عن بقاع ظلت فيها مئات السنين (الاندلس الضائعة) ، وخبا وهجها فى البلاد الاخرى فوقعت هذه البلاد فى ربق الاستعمار • ثم شيئا فشيئا ، عادت الشعلة الى الاتقاد ، فاستيقظت الاسلامية الروح وايقظت شعـوبها فرفعوها عالية كاللواء ، وتحرروا من قيود الاستعمار بفضل ما عاد الى قلوبهم من الايمان بدينهم وعن الثقة بأنفسهـم •

والانطباع الثانى يتعلق بالمستقبل : هذا الملتقى التاسع ، المتكىء علـى الملتقيات السابقة كما يتكىء المدماك على المدماك ، يبشر باتحاد للمسلمين هو لا شك آت ، مهما حاول أعداء الاسلام الوقوف بوجهه ، اتحاد يكون من شأنه أن تحمل الشعوب الاسلامية حكامها ، طوعا أو كرها ، على التعاون الصادق فيما بين الدول الاسلامية ، تعاونا يكون سدا منيعا فى وجه المطامع الاستعمارية ، ووسيلة لشد أواصر الاخـوة الاسلامية فيما بين شعوب الامة الاسلامية ، وطريقا الى تحقيق أهداف الاسلام الحنيف ، والى جعـل كلمة الله هى العليا ·

وسيكون فى كل ذلك للجزائر المجاهدة فضل الدعوة وثواب القيادة · ان اللـه لا يضيع أجر المحسنيـن ·

موضوعات الملتقى تمس حياة المسلمين ماضيا وحاضرا ومستقبلا



صبرى أبو المجد
مدير تحرير مجلة المصور
ـ القاهرة ـ

هذا هو الملتقى الثالث الذى يسعـدنى المشاركة فيه وكنت قد شاركت من قبـل فى الملتقيين السابع والثامن وأقرر فى البداية أن الملتقيات الاسلامية التى تعقدها فى الجزائـر وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية باشراف وتوجيه ، وتضحيات المسلم الغيور الاخ مولود قاسم نايت بلقاسم هذه الملتقيات الاسلاميـة تزداد كل عام قوة ، وتأثيرا ونفوذا بحيث أصبحت جزءا حيا من حياة أمتنا الاسـلامية لا يمكن أبدا الاستغناء عنه · ان التقاء أكثر من ماتى عالم ، ومؤرخ وأستاذ وكاتب ، والتقاء هؤلاء بأكثر من ألفى طالب وطالبة لتبادل الرأى فى كل ما يتعلق بحاضر المسلمين

ومستقبلهم وماضيهم هذا الالتقاء في حد ذاته يمثل ـ وبحق ـ عيدا اسلاميا هاما لـه خطورته وما أحوجنا ونحن نجتاز هذه المرحلة الخطيرة من مراحل تاريخنا الى مثل تلك اللقاءات والملتقيات لنزداد قوة ولنتغلب على كل العقبات والصعوبات الـتى تعتـرض طريقنا ولنخطو الى الامام ـ بكل ايمان وصدق ـ خطوات ، وخطوات ولنحاول معا أن نبحث عن انجع الطرق وأسلمها للنهوض بالدول الاسلامية !

ان الملتقى التاسع للفكر الاسلامى ـ كما رأيت وسمعت ـ قد حقق أكثر ما كنا نامل ونبتغى ، وقد كان ذلك رأى جميع الذين شاركوا فى هذا الملتقى بدون استثناء ، لقد كان حوار هذا الملتقى أكثر حدة ولكنه كان أكثر نجاحا · كانت موضوعات هذا العام أكثر مساسا بحاضر المسلمين ، وماضيهم ومستقبلهم وكان البحث عن الطريق الســوى للنهوض بالمسلمين وبالدول الاسلامية بسرعة وانطلاق واذا كان لى من كلمة قصـيرة وسريعة فهى أن أتوجه الى الله ، العلى القدير أن يحقق للاسلام عزته ومكانته ، وأن يعيد له سابق مكانته وثوبه وأن يعين الجزائر الشقيقة على الانتصار السريع فى معركة التعريب وتثبيت قوة الاســلام بقيادة قائدها ورائدها الاخ هـــوارى بومدين ، وأن يمـد الله الاخ مولود قاسم نايت بلقاسم ـ بعون م نلدنه ، لتزداد تلك الملتقيات قوة وازدهـارا ، ولتتسع رقعة تلك الملتقيات لتشمل كل عام أضعاف ما تتسع له ، من علماء وكتـــاب وأساتذة وشباب لتشمل كل عام الالوف والالوف والله ولى التوفيق ·

مطبوعات الوزارة ثروة للباحثين



د. عمر فروخ
مؤرخ وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، والمجمع العلمي العربي في دمشق

كان الملتقى التاسع تأكيدا للاتجاه نحو فهم قضايا المسلمين في أقطارهم المختلفة، ذلك الفهم الضروري قبل مباشرة كل حل لهذه القضايا . ولقد شعرت أيضا أن التنظيم كان في الخط المتبع في الملتقيات منذ حضرت ملتقى العاصمة في عام 1972 ، أو هو أكثر احكاما . ومع أن في التنظيم الدقيق حجرا على شيء من الحرية الشخصية فانه أجدى وأحسن في تصريف الامور العامة المقصودة من الملتقيات .

ويسرني أن أقول ان المطبوعات التي وزعت علينا ـ الاجزاء الثلاثة الاولى للملتقى السابع ـ وكتاب « انية واصالة » والعديدين من « الاصالة » تؤلف بمجموعها شبه دائرة معارف للجزائر (وللمغرب كله الى حد) وتجمع ثروة للباحثين . فالملتقيات ستبقى ـ بفضل هذه المطبوعات ـ حية وستعين الباحثين الذين يعالجون شؤون المغرب في قروننا الوسطى اعانة جميلة جيدة مفيدة .

التوصيات

النقطة الاولى

الموضوع :

مساهمة تلمسان الزيانية فى الحضارة والفكر الاسلاميين والعالميين
ـ اسباب ازدهارها وعوامل انهيارها ـ

اللجنة الاولى

الرئيس : الدكتور عبد الهادى التازى	مؤرخ وأستاذ بجامعة محمد الخامس ـ الرباط
المقررة : الدكتورة وداد القاضى	أستاذة فى الجامعة الامريكية ـ بيروت
الاعضاء :	
الاستاذ عبد الحميد بن أبى زيان بن شنهو	مؤرخ ومدير الجريدة الرسمية ـ الجزائر
الشيخ سليمان داود بن يوسف	بحاثة فى التاريخ ـ الجزائر
الاستاذ يحيى بوعزيز	مؤرخ وأستاذ بالمعهد التكنولوجى وهران
السيد المهدى البوعبدلى	بحاثة فى التاريخ ومكلف بمهمة فى وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية الجزائر
الاستاذ عبد الحميد حاجيات	أستاذ بكلية الآداب ـ جامعة الجزائر
الآنسة عائشة طالبى	طالبة بكلية الآداب ـ جامعة الجزائر
السيد محمد بن يوسف	طالب بالجامعة التونسية ـ تونس

بســم الله الرحمن الرحيـم

التــوصيــات

تناولت اللجنة الاولى بالبحث والمناقشة النقطة الاولى من جدول أعمال الملتقى التاسع للفكر الاسلامى المنعقد بتلمسان من 01 ـ 10 رجب 1395 هـ الموافق لـ 10 ـ 19 يوليو 1975 ، وهى : « مساهمة تلمسان الزيانية فى الحضارة والفكر الاسلاميين والعالميين ـ أسباب ازدهارها وعوامل انهيارها » .

وعلى ضوء استعراض المحاضرات التى ألقيت فى الموضوع والمناقشات التى دارت حولها ،

وعلى ضوء التدخلات التى قام بها السيد مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ،

ونظرا لما يكتسيه تاريخ الجزائر على عهد بنى عبد الواد من أهمية بالغة ،

ونظرا لما تحظى به مدينة تلمسان من مركز مرموق فى المشرق الاسلامى بصفة عامة وفى المغرب الاسلامى بصفة خاصة ،

ونظرا للدور الهام الذى قامت به عاصمة بنى عبد الواد فى صد المد الصليبى الشرس الذى صمم على اقتسام شواطىء بلاد المغرب ،

ونظرا للفائدة العظيمة التى يجتنيها جيلنا الحاضر والقابل من مزيد دراسة لتاريخ هذه المنطقة ،

ونظرا لما يطمح اليه عالمنا الاسلامى من بناء مستقبل سعيد يجمع شتات الامة وأوصالها ،

ونظرا للواجب المقدس الذى يفرضه التاريخ بصدد ضرورة التعريف بمظاهر الحضارة ومعالم العمران التى كانت تتوفر عليها وما تزال مدينة تلمسان ،

ونظرا للموقع الجغرافى لهذه المدينة الذى يجعلها من أقرب النقاط صلة وصل بالمغرب والاندلس ، وما كان لهذا الوضع من أثر على التطور الحضارى المستمر للمنطقة كلها ،

ونظرا للثروة العلمية ، التى تتميز بها المدينة على غيرها ، اعتبارا للعدد العديد من رجال الفكر الذين ينتسبون اليها على اختلاف أصولهم ،

ونظرا لكون هذه الثروة هى ملك للعالم الاسلامى كله قبل أن تكون ثروة للمنطقة ذاتهـــا ،

فان اللجنة الاولى تتقدم بالتوصيات التالية :

1) الحث على السير قدما وبصفة مستمرة فى احياء معالم تلمسان التاريخية ، وخاصة فيما بعد الفتح الاسلامى على اختلاف المراحل ، كما توصى بانشاء جمعية على مستوى ولاية تلمسان تضم عددا من المؤرخين والمثقفين والاثريين والباحثين يكون هدفها المحافظة على المعالم التاريخية لتلمسان بمختلف الوسائل ·

2) الاهتمام كذلك باعداد جرد للمبانى والمواقع التاريخية التى تم تشييدها على عهد المرابطين وبنى عبد المؤمن ، وبخاصة أيام بنى عبد الواد وبنى مرين ·

3) توصى اللجنة باعداد مجسم (ماكيت) للساعة المائية العظيمة التى كانت تتوفر عليها مدينة تلمسان أيام أبى حمو الثانى ، وفى انتظار اعداد ذلك فان اللجنة تقتـرح اعداد لوحة رخامية منقوشة تتضمن وصفا للساعة المائية المذكورة ، على نحو ما ذكـره المؤرخون وتنصب تلك اللوحة على باب المشور بجانب الساعة الفرنجية التى نصبت أيام الاحتـــلال ·

4) توصى اللجنة بأن يجعل فى بناية المشور كلها متحف وطنى يحتوى على كل مظاهر الحضارة فى تلمسان ، كما يحتوى على خزانة تضـــم المخطوطات والوثائق والمصورات والافلام التى تمس تاريخ تلمسان ، وتشتمل فى جهة أخرى على جوانب تختص بعرض أدوات الجهاد التى كان يستعملها المناضلون القدامى ، كما يخصص جانب منه للملابس الوطنية والتحف والادوات المنزلية والحلى المستعمل للزينة ، ويخصص جانب منـــه للعملة والحرف التقليدية ، ونماذج للمقاييس والاوزان والمكاييل التى كانت مستعملة فى مدينة تلمسان على أن يزود المتحف أيضا بدليل مطوع بمختلف اللغات يشتمل على الخرائط من شأنه أن يعطى عن تلمسان فكرة مدققة عن هذه المدينة العظيمة ·

5) نظرا للثروة الضخمة التى تركها التنافس البناء بين علماء فاس وعلماء تلمسان ، ونظرا للرباط الوثيق الذى جمع بين المدينتين عبر التاريخ ، فان اللجنة تدعو الى التوأمة بين مدينتى تلمسان وفــاس على نحو ما هو معهود بين المــدن المتشابهة فى التاريخ والعادات ، وتهدف هذه التوأمة الى دعم أواصر التعاون الثقافى والعلمى بين المدينتين ٠

6) توصى اللجنة بتجميع وتدوين سائر الفتاوى الفقهية التى كانت محل نقاش بين علماء المدينتين ، نظرا لكون تلك الفتاوى تكون مظهرا من مظاهر الثراء الفكرى ، علاوة على ما تعكسه من صور جميلة تؤدى فكرة عن نــوع الحياة التى كانت تعيشها المدينتان التوأمتــان ٠

7) نظرا للفائدة الجلى التى لافادات الرحالة الذين مروا بتلمسان ، ســواء عن طريق البر أو عن طريق مرسى هنين وارشقول ، فان اللجنة توصى بتدوين جميع مـا ورد فى تلك الرحلات ، سواء منها رحلات الحج أو الرحلات التى كان يقوم بها سفــراء الاندلس والمغرب ، الى جانب تدوين جميع ما قيل عن المدينة من طرف الجغرافيين وأصحاب المعاجم ، على أن يكون فى هذه المجامع وفى هذه المدونات معجم يضبط سائر أسماء المدن والقرى والمواقع التى تشملها ولاية تلمسان ، ويشرح معانيها ، سواء أكانت تحمل أسماء مازيغية أو عــربية ٠

8) كما توصى اللجنة باعداد معجم للشخصيات التلمسانية التى كانت جسرا للمحبة وعمدة لنشر العلم والثقافة بالقارة الافريقية والتى كانت مثلا صادقا للمواطن الصالح ، الذى يستهدف بناء عالم اسلامى قوى مؤمن بالله ٠

9) نظرا للحرص الشديد على اعداد تاريخ سياسى كامل شامل لهذه المدينة التاريخية العتيقة ، ونظرا لما يجب أن يستهدفه هذا التاريخ من توحيد كلمــة المسلمين وتوطيد أواصر الاخوة بين أقطار المغرب العربى ، فان اللجنة توصى بان يعــمل المؤرخون فى الاقطار المغربية على ضرورة الاطلاع على سائر الوثائق الموجودة فى الدول الشقيقة والدول الاخرى بما فى ذلك ايران وتركيا واسبانيا وفرنسا وايطاليا ٠٠٠ الخ تلك الوثائق التى من شانها أن تلقى الضوء على بعض فترات ذلك التاريخ وتكشف عن ان سائر ما كان يجرى من مواجهات بين بلاد المغرب انما كان بتواطوء خبيث ، يقصد الى نسف وحــدة

هذه البلاد وتفتيت جهودها وتلاحمها حتى تصرفها عن تقديم مساعدتها للاندلس الجريحة التى استطاعت بفضل يوسف بن تاشفين والمنصور الموحدى وأبى الحســن المرينى أن تحتفظ بحياتها ، وتصرفها عن اجلاء الاجنبى الجاثم على الثغور ، سواء بتونس أو الجزائر أو المغرب ، ومن اجل ذلك ، فان اللجنة تؤكد على المؤرخين لبــلاد المغرب أن يتنبهوا لما كان يحاك لهم خارج بلادهم ، فيقدموا ـ نتيجة لذلك ـ تاريخا سليما من شأنه أن يترفع عن التعرض للحوادث الجانية ، كما يترفع عن اثارة النعرات الطائفية ، كما يترفع عن الاكتفاء بالسرد السطحى للوقائع ، ويحلل ذلك التاريخ بأسلوب ينشىء الجيل الصاعد على الشعور بالوحدة التى كانت تسود المنطقة فى العصور الزاهية ·

10) ونظرا لما توفر لدى اللجنة من معلومات جد مفيدة ، سواء عن طريق المحاضرات والبحوث المقدمة ، أو عن طريق الكتب ومختلف المطبوعات الموزعة عـلى أعضاء الملتقى ، فان اللجنة توصى بمتابعة التحقيقات الدقيقة الكاملة للمواقع التاريخية والمعالم الاثرية وبخاصة فى منطقة تاجرة قرب هنين ، مولد عبد المؤمن بن عـــلى ، وذلك بالرجوع الى المصادر الدفينة ، حتى نقدم لجيلنا تاريخا يرتكز على نتيجة البحث العلمى والدراسات الهـــادفة ·

11) وبالنظر لشعور اللجنة بواجبها نحو المشرفين على الملتقى التاسع ، فانها تتقدم بالاعراب عن التقدير الكامل لسائر السادة الذين عملوا بصدق نية ونبل هدف لكــى تتم أعمال الملتقى فى ظروف جد طيبة ، ويخصون بالشكر وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية على ما بذلته وتبذله من جهد لتزويد المكتبة الاسلامية بما ينــير طريق الباحثين فيها ، ولا تنسى اللجنة كذلك عائلات ولاية تلمسان التى فتحت بيوتها وقلوبها للملتقى ، فكانت بذلك تعكس كرم جدودها وأسلافها ·

النقطـــة الثانيـــة

المـــوضـــوع :

موقف اسطنبول وباقى العالم الاسلامى من سقـوط الاندلس وآخـر مسلميها وأمام الغـزو الاوروبى للعالم الاســلامى عموما

اللجنـــة الثـــانية

الرئيس : الاستاذ محمد عبد الله عنـان	مـؤرخ ـ مصـــر
المقـرر : الدكتور عبد الحليم عويس	باحث بمركز بحوث المناهج ـ الكويت
الاعضـــاء :	
السيد المهـدى البوعبدلى	بحاثة فى التاريخ ومكلف بمهمـــة فى وزارة التعليم الاصـلى والشؤون الدينية الجزائـــر
الاستاذ حســين جـوزو	عضو جمعية العلماء المسلمين ـ يوغسلافيا
السيد عمـران شتيـح	طالب بكلية الآداب ـ جامعة قسنطينـة الجزائـــر
الآنسة خديجة باعلى شريف	استاذة التاريخ بثانوية فرانـز فانـون الجزائـــر

التـــوصيــات

تناولت اللجنة الثانية بالبحث والمناقشة النقطة الثانية مـــن جدول أعمال الملتقى « موقف اسطنبول وباقى العالم الاسلامى من سقوط الاندلس وآخر مسلميها ، وامام الغزو الاوروبى للعالم الاسلامى عموما » ٠

وتبين من مجموع المحاضرات التاريخية والمناقشات التى دارت أنه لا الدولة العثمانية ـ أعظم دول الاسلام يومئذ ـ ولا مصر الاسلامية ، ولا امارات المغرب المختلفة ، قامت بمجهودات فعالة لانجاد آخر مسلمى مملكة غرناطة ولا بعد ذلك لانجاد الموريسكيين أو العرب المتنصرين بقية الامة الاندلسية المغلوبة ، ولئن قامت بعض الدول فى المغـرب الكبير بنقل الكثير من مسلمى الاندلس الى بلدانها وادماجهم فيها ، وانقاذهم من جحيم ديوان التفتيش ، فان ذلك لم يقهم من مصيرهم الذى هو الطرد من بلادهم والجلاء عنها نهائيـــا ٠

وفيما يتعلق بالدفاع عن العالم الاسلامى أمام الغزو الاوروبى لم تسمح الظـروف للدولة العثمانية ببذل المجهودات الفعالة اللازمة لانجاد العالم الاسلامى لاسباب كثـيرة تستحق الدراسة ٠

أما الدول الاسلامية الاخرى فقد اتسم موقفها غالبا ازاء بعضها أمام الغزو الاوروبى الاستعمارى لها بالتآمر ، أو على الاقـل بالتواطىء والموقف السلبى ازاء شقيقاتها التى كان ينقض عليها الاستعمار ، مما سهل مهمته ، وجعله يمتد الى الواحدة تلو الاخـرى حتى كاد يشمل الجميع ٠

ومن خلال ذلك يمكن للجنة أن توصى بما يلى :

1) أن تبذل جهود ودراسات جديدة وافية لالقاء أضواء جديدة على أحداث هاتـــين الحقبتين من التاريخ ، وهما مرحلة سقوط الاندلس ، ومرحلة الغزو الاوروبى ٠

2) العمل على اعادة النظر فى الكتب المدرسية فيما يتعلق بتاريخ الدولة العثمانية وموقفها على ضوء ما تكشفه الوثائق والبحوث الموضوعية ٠

النقطـــة الثـالثـة

المـــوضـــوع :

هل كان الشعر فى الاندلس سببا فى انحلال اخلاقها ثم سقوطها ، ام كان لهما مجرد مرآة وانعكـاس ؟

اللجنـــة الثـالثـة

الرئيس : الدكتور احســان عبـــاس	أستاذ فى الجامعة الامريكية ـ بـيروت
المقــرر : الدكتور عبد الحليم عــويس	باحث بمركز بحوث المناهج ـ الكويت
الاعضـــاء :	
الدكتور عبد السلام الهراس	أستاذ بكلية الآداب ، فاس ـ المغـرب
الدكتورة وداد القــاضى	استاذة فى الجامعة الامريكية ـ بـيروت
الاستاذ عبد الحميد حاجيات	أستاذ بكليــة الآداب ـ جامعــة الجزائــر
الدكتور رشيد مصطفاى	أستاذ بكليــة الآداب ـ جامعــة الجزائــر
الدكتور عمــار طــالبى	أستاذ بكليــة الآداب ـ جامعــة الجزائــر
الدكتور محمد شريف قاهــر	أستاذ بكليــة الآداب ـ جامعــة الجزائــر
الاستاذ محمد أركون ـ الجزائر	أستاذ بجامعــــة السربـــون ـ باريس
الآنسة خـيرة فاطمة هـــدام	طالبة بكلية الطب ـ جامعـــة وهــران الجزائـــر
السيد كمــال رقيــم	طالب بكلية الحقوق ، جامعــة الجزائــر

التـــوصيـــات

بعد الاستماع الى ما دار حول النقطة الثالثة « هل كان الشعر فى الاندلس سببا فى انحلال اخلاقها ثم سقوطها أم كان لهما مجرد مرآة وانعكاس » بين محاضرة ومناقشة من جانب الاساتذة والطلاب ، تبين للاعضاء ان انحراف بعض الادباء فى الاندلس عن طريق تمجيد أعمال الطغاة ، وتسويغ الاخطاء ، واقبالهم الشديد على متع الحياة ، خضوعا للروح الفردية المترفة ، التى كانت تضع مصلحة المجتمع جانبا ‥ الى غير ذلك من جوانب سلبية ـ ان هذا الانحراف وغيره كان له أثره فى اضعاف النفسية الاندلسية ۰ هذا دون أن ينسى الاعضاء ما كان لبعض الجوانب فى الشعر من ايجابية واضحة فى مواكبة حـركة الجهاد ، وفى التنبيه على ما يحيق بالاندلس من أخطار ‥ الى غـــير ذلك من النواحى الايجابية البناءة ۰

ان الشعر الاندلسى لم يكن مجرد انعكاس لحياة الاندلس وحسب ، كما لم يكن مسؤولا المسؤولية الكلية المباشرة عن انهيار الاخلاق والسقوط الحضارى فيها ، وانما كان ظاهرة حضارية شاركت مع غيرها من الظواهر الحضارية الاخرى فى ناحيتى الايجاب والسلب ، تتحمل نصيبها من المسؤولية بقدر حجمها فى حركة الحضارة الاندلسية ۰

وقد رأى المجتمعون أن يوصوا ـ فى ضوء ذلك كله ـ بما يلى :

1) تشجيع دراسة الشعر والادب الاندلسيين ، لكى تبرز القيم الفنية ، بالاضافة الى ما نقيده من الصورة الحضارية فى ظلال هذا الشعر ۰

2) دراسة الحضارة الاندلسية ، أدبا ، وتراثا ، وتاريخا ، وحضارة ، دراسة مخبرية من اجل استخلاص القوانين التى أسقطت هذه الحضارة

3) تنظيم بحث التراث الاندلسى بين العاملين فى هذا الميدان فى شتى البلاد العربية والاســـلامية ۰

4) جمع التراث الاندلسى (فى الجزائر والمغرب وتونس) ثم التراث المغربى ، وتوفير وسائل الاطلاع للدارسين ، وتشجيع هؤلاء الدارسين ومساعدتهم ۰

5) اقامة ندوات وملتقيات خاصة بالتراث الاندلسى والحضارة الاندلسية ٠

6) التعاون الوثيق وتنسيق الجهـــود بين الباحثين فى مختلف مجـــالات الحضارة الاندلسية ٠

7) ضرورة معرفة اللغة الاسبانية لكل دارس للادب الاندلسى ، وذلك للاطلاع عـلى الدراسات التى تكتب بتلك اللغة فيما يتعلق بالاندلس ٠

8) الدعوة الى ترجمة الابحاث والدراسات المتعلقة بالاندلس الى اللغة العربية ترجمة علمية نقـــدية ٠

9) وبهذا نتوجه الى القائمين على الشعر المعاصر ـ شعراء ونقادا ـ أن يفيدوا مـن التجربة الاندلسية ، وأن يتذكروا دائما مسؤوليتهم الحضارية تجاه أمتهم من خلال فنهم ٠

10) العناية باختيار النماذج الفنية الصالحة فى الادب الاندلسى وتدريسها للطلاب فى مختلف مراحل الدراسة ٠

11) استحداث مسابقات بجوائز تشجيعية للطلاب الذين يقدمون أبحاثا ذات وزن فى الدراسات الاندلسية ٠

12) تشجيع زيارة الاندلس والتعرف على الآثـار الاندلسية بالضرورة فى المدارس والجامعات العربية من خلال رحلات توجه الى هذه الاماكن ٠

13) مراعاة ما أصاب الاندلس من خلال سلبية كثير من الجوانب ، ومنها الشعر ، فى فنوننا الحديثة ، وذلك فى مجال توجيه الابناء وسائر المجالات التربوية ٠

النقطـــة الرابعـــة

المـــوضـــوع :

دور الآداب والفنون عموما ، والشعر والموسيقى خصوصا ،
فى تعزيز أخلاق أمة أو انحلالها ، وفى شحذ عزائمها أو قتل روحها

اللجنـــة الـــرابعة

الرئيس : الدكتور عمر فروخ ـ لبنـــان
مؤرخ وعضو مجمع اللغة العربيـــة فى القاهرة وعضو المجمع العلمى العربى فى دمشق وعضو مجمع البحوث الاسلامية فى بومبـــاى

المقـرر : الاستاذ عبد اللطيف عبـــادة
استـــاذ الفلسفة بثانويـــة عبد الحميـــد ابن باديس والمشرف عـــلى البرامـــج الثقافيـــة بمحطة قسنطينـــة الجهـــوية الجزائـــر

الاعضـــاء :

الدكتور زكى نجيب محمود
مفكر واستاذ سابق بكليـــة الآداب ، جامعة القاهرة

الدكتور جعفـــر شهيـــدى
أستاذ الادب والفقه الجعفـــرى وعميـــد كلية الآداب جامعة طهـــران ـ ايـــران

الدكتور ارجمند كـــوران	أستاذ التاريخ بجامعة أنقره ـ تـركيا
الدكتور عثمان أمـين ـ مصر	أستاذ شرفى للفلسفة بكليـة الآداب ، جامعة القاهرة وعضو مجمع اللغة العربية
الدكتور خير الله عصار ـ سوريا	أستاذ بمدرسة ترشيح المعلمين ـ الجزائر
الدكتور سليـم حيـدر	شاعر أديب ، وسفير سابق ـ لبنـــان
الاستاذ أحمد سيد ـ مصر	المعهـد الوطنى البيداغوجى ـ الجزائـر
الاستاذ عبد الرحمن شيبان	مفتش عـــام بوزارة التعليـم الابتدائى والثانوى ـ الجزائر
الاستاذة زهـور طالبى	استاذة بثانويـــة المقـرانى ـ الجزائـر
الاستاذ محمد أمقران دليل	مفتش التعليـــم الابتـدائى والمتوسط الجزائـــر
الآنسة فاطمـة معمـــرى	طالبة بالسنة السابعة ثانوى ـ الجزائر
السيد عبد الله حميد أوجانة	استاذ بمعهد الحياة الثانـــوى ـ الجزائر

التــوصيـــات

بعد الاستماع الى ما دار حول النقطة الرابعة « دور الآداب والفنون عموما والشعر والموسيقى خصوصا فى تعزيز اخلاق أمة أو انحلالها ، وفى شحذ عزائمها أو قتـــل روحها » بين محاضرات ومناقشات من طرف الاساتذة والطلاب ·

ــ ونظرا لما للآداب والفنون من أثر فى تقويم سلوك الجيل وتهذيب ذوقه أو فى افساده وحل عزائمه ·

ــ ونظرا للغزو الاجنبى الذى يقذف الينا بمجلاته وأفلامه ، واسطواناته من تلك التى تتسم بالخلاعة والابتذال ·

ــ ونظرا لان هذا كله خطر على كيان الامة وشخصية أبنائها ·

ــ ونظرا لما لهذا أيضا من صلة بالصراع الفكرى ، ورغبة فى تحرر البلاد الاسلامية من جميع هذه الآفات فى الثقافة والعقيدة ·

ــ ونظرا للمكانة التى ينبغى ان تحتلها الاخلاق فى الادب والفن حتى يتمكنا من أداء رسالتهما الاجتماعية ·

توصى اللجنـــة بما يلى :

1) اقامة المدارك الادبية والفنية على أسس لا تخالف التربية الاسلامية ·

2) ننتظر من الادباء والفنانين ــ على اختلاف ميادين نشاطهم ــ ان يجعلوا اتجاههم نحو النتاج الجدى ، واذا مالوا الى الفكاهة فلتكن سليمة بريئة ·

3) نهيب بالحكومات وبالمنظمات الثقافية ان تحرص على التزام الادباء والفنانـين بمراعاة القيم الاسلامية فى كل ما ينتجونه وعلى ان تكون وسائل الاعلام فى خدمـــة هذه القيـــم ·

4) ان يتجه الفن والادب الى شحذ العزائم وتعزيز الاخلاق وصقل الذوق الجمالى وتأييد القضايا العادلة فى العالم الاسلامى عموما وقضية فلسطين خاصة ·

5) ان يتجه أدباؤنا وفنانونا الى تاريخنا يستوحون منه صورا مشرقــة تزيــد أجيالنا اعتزازا بأمتهم ٠

6) تنظيم مسابقات لاعداد ما تحتاج اليه الطفولة من غذاء أدبى وفنى : كتب ، مجلات ، مسرحيات أناشيد ، اسطوانات ، افلام وغيرها فى اطار المبادىء الاسلامية ٠

7) وبما ان التجديد سنة من سنن الله وقانون من قوانين الاجتماع فاننا نهيب بالادباء وبالفنانين الى أن يكونوا واعين لرسالاتهم فى المجتمع الاسلامى وان يدخلــوا المفيد من الجديد على نتاجهم الادبى والفنى متجنبين كل ما من شأنه ان يشيع التبعية ، والميوعة ، والانحلال ٠

8) طبع النتاج الادبى والفنى الصالح وبيعه بأثمان زهيدة ليــكون فى متنــاول الجميــع ٠

9) تعليم اللغة العربية ونشرها فى العالم الاسلامى باعتبارها لغة القرآن الكريــم والسنــة ٠

10) نقل مختارات من الآداب الاسلامية من لغاتها الاصلية الى سائر لغات العــالم الاسلامى ٠

11) ان تهتم وزارات التعليم والثقافة فى العالم الاسلامى بجمع الشعر التربوى والاخلاقى الجيد وادراجه فى برامج التعليم ٠

12) ان تتولى الوزارات والجامعات تشجيع تبادل الزيارات الثقافية ٠

النقطــة الســادســة

المــوضــوع :

مقصد الشريعة من الحـج
والطريقة التى يؤدى بها اليـوم

اللجنــة الخامســة

الرئيس : الدكتور محمد على رفعت ـ مصر	استاذ الاقتصاد ـ بجامعــة الجزائــر
المقـرر : الاستاذ يوسف العظم	نائــب ســابــق وشــاعــر ـ الاردن
الاعضاء : د . محمد فاروق النبهان	استاذ بكلية الحقوق والشريعة ـ جامعة الكـويت
الدكتور صبحى الصــالح	نائب رئيس المجلس الشرعى الاســلامى الاعلى واستاذ فى الجامعــة اللبنانيــة بـيروت
الاستاذ محمد شاذلى حسن	عميد كلية الشريعة بالجامعة الاسلاميــة الحكوميــة جاكــرتا ـ اندونيسيــا
الشيخ عبد الله المجاهد الشماحى	شاعر ، ومؤرخ ، ووزير سابق ـ صنعاء
الدكتور سليم حيــدر	شاعر أديب ، وسفير سابق ـ لبنــان
الاستاذ الهادى خسروشاهى	مدير عام مجلة الهادى ـ قم ـ ايـران
الاستاذ بن يحيى البودالى	مكلف بالدروس فى الاحصاء والاحتمالات كليــة الاقتصــاد ـ جامعــة الجزائــر
الاستاذ عـلى عيسى	مديـر الدعــوة الاسلامية ـ بانكـوك تايلانــدا

الاستاذ صبرى أبو المجد	مديـــر تحرير مجلـــة المصـــور ـ مصر
الاستاذ أحمـد فـراج	مسؤول برنامج نور على نور باذاعـــة جمهورية مصر العربية
الاستاذ مصطفى عسلاوى	عضو المجلس الاعلى للقضاء ـ الجزائـر
الاستاذ سليم كلالشة	استاذ مساعد بكلية الآداب ـ جامعـــة الجزائـــر
السيد نذير بوزيانى	طالب بكلية الحقوق ـ جامعة قسنطينة الجزائـــر
الآنسة خـيرة ضرباني	طالبة بكلية الآداب ـ جامعة الجزائـــر

التـــوصيـــات

استمعت اللجنة الخامسة المنبثقة عن الملتقى التاسع للفكر الاسلامى الى المحاضرات والابحاث والمناقشات التى دارت حول النقطة الخامسة « العدالة الاقتصادية والاجتماعية فى الاسلام وأوضاع الامة الاسلامية اليوم » ، وترى اللجنة أن مثل هذه الابحـــاث المفيدة تعالج موضوعا خطيرا فى حياة الامة وجانبا هاما من جوانب عيشها ، ولذا فهى ترى أن الحاجة ماسة لمزيد من متابعة البحث والتعمق والتحديد والتقنين للوصول الى أسلم الحلول للمشكلات الاقتصادية التى تعانى منها الامة الاسلامية اليوم ٠

وقد تبين للجنة بعد الاستماع للمحاضرات جملة من الحقائق والقواعد الاقتصادية النابعة من الشريعة الاسلامية الغراء ٠

أما الحقائــق فاهمهــا :

اولا : ان القواعد الاقتصادية فى الشريعة الاسلامية تستند الى الاساس الاول فى العقيدة الاسلامية وهو الايمان بالله وحده الذى استخلف الانسان فى الارض ليعمرها بالعبادة والطاعة والعمل الصالح ٠

ثانيا : ان القواعد الاقتصادية فى الشريعة الاسلامية جاءت متكاملة شاملة تتناول جوانب الحياة الانسانية كافة وهى متميزة متفردة عن النظم الاقتصادية الوضعية ٠

ثالثا : ان القواعد الاقتصادية فى الشريعة الاسلامية صالحة لكى تكون أساســـا ومنبعا لنظام اقتصادى متميز يصلح للتطبيق فى واقع الحياة الانسانية ٠

وأما القواعد الاقتصادية فأبرزها :

اولا : ان الاسلام عنى عناية خاصة بالثروة وعدها وسيلة من وسائل استمــرار الحياة الكريمة الهادفة لعبادة الله واسعاد الخلق ، والمسلمون مدعوون الى مزيد مـــن فهم موقع الثروة وأهميتها فى الحياة اكتسابا وتداولا وتوزيعا واستثمارا ٠

ثانيا : ان الحقوق فى الاسلام مقيدة بمصالح الجماعة ولا يجوز للفرد أن يتعسف فى استعمال حقه المشروع بقصد الاضرار بغيره ٠

ثالثا : ان الملكية الفردية فى الاسلام مصونة وتقوم بوظيفة اجتماعية هامة ولا تنزع من صاحبها الا لمصلحة عامة معترف بها ·

رابعا : كل مال نمى عن طريق الظلم والاستغلال والاضرار بالمجتمع فهو مال باطل لا يحترمه الاسلام ولا يصونه ·

خامسا : الدولة مكلفة بحماية المصالح الجماعية ، ويجب عليها التدخل فى الحريات عندما تتعرض مصالح المجتمع لخطر الاستغلال ·

سادسا : يدعو الاسلام لوضع تشريعات اجتماعية للعمال الصناعيين والزراعيين وغيرهم لتأمين حقوقهم التى أقرها الاسلام لهم وصانها ·

ومن هذه المنطلقات يوصى الملتقى وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالجزائر باعتبارها منظمة لهذا الملتقى بما يلى :

1) توجيه دعوة الى أن تنظم الهيئات والمجامع والمؤسسات الاسلامية فى العالم الاسلامى مؤتمرا يخصص لدراسة أهم المشكلات التى تواجه الفكر الاقتصادى الاسلامى وأنواع المعاملات المصرفية وصور العقود والفوائد السائدة فى العالم الاسلامى والتى تخالف المبادىء المقررة فى التشريع الاسلامى وقواعده ونظمه فى مسائل الثروة واكتسابها وتداولها وتوزيعها واستثمارها على أن يكون من الاهداف الاساسية لمثل ذلك المؤتمر الخروج بصور واضحة للبديل الاسلامى فى تلك القضايا ·

2) دعوة المنظمات والهيئات الاسلامية فى العالم الاسلامى لوضع صيغ محددة وقوانين اقتصادية نابعة من القرآن والسنة والفقه الاسلامى مما يمكن معه وضعها موضع التطبيق العملى فى واقع الحياة لتكون للجيل هاديا ومنطلقا نحو آفاق من الوعى الاسلامى لحمل دعوة الله الى الناس كافة ·

3) الاتصال بالجامعات العلمية فى العالم الاسلامى أجمع لادخال مادة الاقتصاد الاسلامى جنبا الى جنب مع ما يدرس من أنظمة اقتصادية وضعية أخرى فى كليات الاقتصاد ليطلع أبناء هذه الامة على الفكر الاسلامى المستنير فى جوانبه الاقتصادية المتكاملة ·

9) ويلاحظ الملتقى ان من الاسباب التى جعلت الناس يطرحون لحوم الذبائح ولا ينتفعون بها ان كثيرا منها هزيل أو مريض لا يصلح للاضحية فمن الواجب ابعاد مثل ذلك عن اسواق الحجاج ومنع ذبحه كما هو معروف فى المسالخ العادية ، وافهام الحجاج ان كل ذلك لا يجزيهم عن نسكهم وان تراقب الحكومة ذلك مراقبة حازمة ٠

10) ويوصى الملتقى الحجاج من المسلمين بأن عليهم ان يجعلوا الحج ـ زيادة على أداء مناسكهم وذكرهم لربهم ـ مؤتمرا سنويا يحضره أولوا الرأى والتدبير منهم ، يتدارسون فيه مشاكلهم ، ويعالجون امراضهم ، ويطلبون وسائل رقيهم ويحققون فيه التعارف بين أممهم وشعوبهم ويمتنون الروابط المختلفة بينهم مما يعز دينهم ويسعدهم فى دنياهم زيادة عن أخراهم ٠

11) وان اللجنة لترى ان الملتقى التاسع للفكر الاسلامى اذ يتقدم بهذه التوصيات يكون قد أسهم بمقدار فى معالجة هذه المشكلة ريثما تحل جميع مشاكله نهائيا ، وحاول ان يعيد لهذه الشعيرة من أركان الدين اصالتها ويجعلها تحقق مقاصد الشريعة وتربط المسلم بحقائق دينه ومشاهد تاريخه المجيد وتجعله يحيا هذا الركن من أركان الاسلام عمليا مما يترك فيه آثارا باقية حتى بعد الحج لبقية حياته ٠

النقطـــة الخـامســـة

المــوضـــوع :

العدالة الاقتصادية والاجتماعية فى الاسلام

وأوضاع الامة الاسلامية اليوم

اللجنـــة السادســـة

الرئيس : السيد محمد محمود الصواف	مستشار وزارة المعارف ، وعضو المجلس التأسيسى لرابطة العالم الاسلامى ، مكة المكرمة
المقرر : الاستاذ أحمد حمانى	رئيس المجلس الاسلامى الاعلى ، واستاذ بجامعة الجزائر
الاعضاء : السيد ابراهيم محمود جوب	أمين الاتحاد الاسلامى الافريقى السينغال
الدكتور عبد الملك السيد ـ العراق	استاذ بجامعة الملك عبد العزيز ـ جدة
الدكتور صبحى الصالح	نائب رئيس المجلس الشيعى الاسلامى الاعلى واستاذ فى الجامعة اللبنانية بيروت
الاستاذ الهادى خسروشاهى	مدير عام مجلة الهادى ـ قم ـ ايران
الشيخ عبد الرحمن الجيلالى	مؤرخ ـ الجزائر
الاستاذ الحبيب المستاوى	استاذ بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين ورئيس تحرير مجلة جوهر الاسلام ـ تونس

الاستاذ محمد رشاد خضارو	أمين عام المجلس الاعلى الموريسى للشؤون الاسلامية ـ جزر موريس
الاستاذ علي مرحوم	مفتش سابق للتعليم الابتدائى والمتوسط الجزائر
الاستاذ بالحاج شريفى	استاذ مساعد بكلية الآداب ، جامعة الجزائر وعضو لجنة الافتاء المركزية
الآنسة حمامة داى	طالبة بكلية الآداب ـ جامعة الجزائر
السيد عبد الرحمن طورش	طالب بكلية الآداب ـ جامعة قسنطينة الجزائر

التـــوصيـــات

اجتمعت اللجنة السادسة المنبثقة عن الملتقى التاسع للفكر الاســـلامي المنعقـــد بمدينة تلمسان ، وتناولت بالبحث والمناقشة موضوع النقطة السادســة « مقصـــد الشريعة من الحج والطريقة التى يؤدى بها اليوم » ٠

وعلى ضوء المحاضرات المقدمة فى الموضوع التى ألقيت أو وزعت ، وبعد سمـــاع المناقشات التى جرت بين المحاضرين والمناقشين تبين لها : ان فى أداء ركن الحج توبــة المسلمين الى ربهم وانابة ، واستجابة لامره وتلبية ، وتطهيرا لقلوبهم ، وتزكية لنفوسهم بتعظيم شعائر الله وحرماته والاكثار من ذكر الله باللسان والقلب ، فى الركـــوع والسجود والطواف والسعى والوقوف بعرفة وعند المشعر الحرام ، وشكره على نعمــه ، وشهود منافع لهم روحية ومادية ، واجتماعهم ـ عمليا ـ كأمة واحدة على مستوى واحد وفى مظهر واحد لا يتميز احد منهم بشىء على أخيه ٠

ولقد تبين ان كثيرا من الحجاج اليوم قد خفيت عنهم مقاصد الحج وغفلوا عن معانيه السامية بسبب الجهل وطول الامد ، فنتج عن ذلك ما لا يرضى الله ورساله ، ولا يليق بقاصدى البيت الحرام كما هو مشاهد فى أقدس الاماكن ، وأثناء القيام بأعظم الشعائر فى الطواف والسعى والوقوف بعرفة ، ورمى الجمار ، وتقديم الذبائح ٠

واللجنة ترى ان يقدم الملتقى التاسع للفكر الاسلامى اسمى آيات الشكر والثنـاء للمملكة العربية السعودية على ما حققته لرفع بيت الله الحرام وتطهيره للركع السجود وما فعلوه لتوسعة مسجد رسول الله واعداده اعدادا حسنا ليتسع لاكبر عدد مـــن الحجاج الزائرين ، وعلى ما يبذلونه من مجهودات عظيمة وما ينفقونه من أموال طائلـة لتسهيل أداء مناسكهم ٠٠٠

كما ترى اللجنة انه يجب على المسلمين افرادا وجماعات ، هيئات وحكومـــات ان يعينوا على هذا التسهيل ، وان يعلموا جميعا لتؤدى هذه العبادة على أكمل وجوههـا وتحقق مقاصدها ، وتكون سببا فى رقى المسلمين وفوزهم العظيم روحيا وماديا ، دنيا ودينا ، وتجنب المسلمين ارتكاب ما يفسد عبادتهم أو يدنس اماكنهم المقدسة ، أو يلوث

سمعتهم وينفر الناس منهم ومن دينهم . ولذلك فان اللجنة ترجو من الملتقى أن يوصى بما يلي :

1) وجوب توعية الحجاج فى بلدانهم توعية اسلامية صحيحة من قبل العلماء والمسؤولين حتى يكونوا على بصيرة مما هم قادمون عليه ، ولا يرتكبوا ما ينافى العبادة ويبطلها ويؤدى المؤمنين ، وهذه التوعية تكون بالدروس فى المساجد وبكل وسائل الاعلام المقرؤة والمسموعة والمرئية

2) وجوب تنظيم الحجاج وقوافلهم تنظيما محكما ، لتسهل وقايتهم من الوقوع فى المكاره والاخطاء التى تؤذيهم أو تفسد عليهم عبادتهم ، وذلك بأن يصحب كل قافلة مرافق ومرشد من العلماء .

3) العمل الجدى لمنع ازدحام الحجاج ازدحاما مضرا بهم فى جدة وغيرها وذلك بسرعة نقلهم وحسن ايوائهم ، والتخفيف من الاجراءات الادراية حتى تسهل تحركاتهم ، وبقيام كل وسائل النقل من برية وبحرية وجوية داخلية وخارجية بواجباتها وتعهداتها فى أوقاتها ، كما يجب العمل لوجود بعثات طبية فى عين المكان بمطار جدة ـ باتفاق بين جمعيات الهلال الاحمر الاسلامية ـ تقدم فورا الاسعافات الضرورية للمصابين .

4) وجوب المحافظة التامة على النظافة الكاملة ، واجتناب القذارة فى كل مكان ، وخصوصا فى الاماكن المقدسة أو حولها ، أو حيث يتجمع المؤمنون بالمئات والآلاف ، اذ النظافة من الايمان والقذارة مهلكة للارواح والابدان . ولذلك يجب توفير دور المياه فى كل مكان ، وتوعية الحجاج بخطيئة من يدنس الاماكن المقدسة أو يتسبب فى ايذاء المسلمين وتعريضهم للاخطار .

5) تخفيفا لاخطار الزحام الشديد ترى اللجنة أيضا التوصية :

ـ بتوعية المسلمين عموما والحجاج خصوصا بأن الحج فرض مرة فى العمر أوجبه الله على المستطيع وأعفى منه المريض والعاجز فمن لا يستطيع أداء واجبات الحج كالطواف والسعى ، والرمى ، أو لا يستطيع السفر الا بأن يشق على غيره من المسلمين فى نقله لا يطلب منه الحج . ومن كان مستطيعا وأداه مرة واحدة كفته ، فان كان له فضل من

مال فليتصدق به ، وليعمل به عملا يعلى من شأن دينه وأمة الاسلام ، فان فى ذلك خيرا كثيرا، فان كان التكرار للحج مما تقتضيه ظروف بعض الحجاج فلا يكون الا بعد سنوات ٠

6) وجوب توعية الحجاج ـ فى الطواف ـ ان يكتفوا بالطواف الواجب أثناء أيام الزحام الشديد ، وان يتركوا المطاف لاخوانهم القادمين والمفيضين ، وان طواف الافاضة له وقت واسع ، وان استلام الحجر الاسود ليس بركن ولا واجب فى الحج فليتق اللـه من يزاحم عليه فيؤذى اخوانه المؤمنين والمؤمنات فيتسبب فى جراحهم أو موتهم ٠ وان ترك الطواف المندوب ايثارا لاخوانه أفضل من مزاحمتهم مزاحمة تـؤدى الى اذايتهم ٠

7) وان الملتقى يسجل باستحسان وتقدير لرجـال المجلس التأسيسى لرابطـة العالم الاسلامى موقفهم من مشكلة رمى الجمار ، وايجادهم حلا شرعيا يخفف كثيرا من وطأة الزحام على الرمى بافتائهم بجواز الرمى ليلا أخذا بمذاهب العلماء المجتهدين الذين يرون جواز ذلك ، ويود أن ينظروا فيما بقى من مشاكل ليجدوا لها حلولا شرعية توافق مقاصد الشريعة ، ولا تصادم روحها ٠

8) ويلاحظ الملتقى ما يلاقيه الحجاج من عنت شديد من جراء قيامهم بالهدى سواء أثناء ذهابهم أو ايابهم الى السوق ثم الى المسلخ أو أثناء الذبح ، أو بعد الذبح من ضياع اللحوم أو فسادها مما يعود بالضرر العظيم على صحتهم ٠ ومـن المعلـوم أن قتـل الحيوان وطرح لحمه دون انتفاع بها فساد لا تقره الشريعة كما جاء فى الآية الواردة اثر آيات الحج مباشرة : « **ومن الناس من يعجبك قـوله فى الحياة الدنيا** » الى قوله تعالى : « **ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد** » ، كما ان عدم الانتفاع بلحوم الاضاحى من فعل الجاهلية فالواجب التفكير فى معالجة هذا الفساد وذلك بايجـاد حـل شرعى للهدى أو حل عملى اجتماعى ، مثل وجوب تعدد المجاوز بمنى وبمكة وضواحيها وتوعية الحجاج بأن يقتصروا على الهدى الواجب كهدى التمتع أو القران أو جزاء الصيـد أو النذر ، أو الاحصار ، وان يوزعوا الذبح على الايام الثلاثة وان يأخذوا بقول من يجيز تقديم هدى التمتع والاخلال ببعض الواجبات على يوم النحر فلعل ذلك يخفف بعـض الاضرار الواقعة ريثما يجد المسلمون وعلماؤهم حلا نهائيا لهذه المشكلة عـلى مستـوى العالم الاسلامى كله ٠

9) ويلاحظ الملتقى ان من الاسباب التى جعلت الناس يطرحون لحوم الذبائح ولا ينتفعون بها ان كثيرا منها هزيل أو مريض لا يصلح للاضحية فمن الواجب ابعاد مثل ذلك عن اسواق الحجاج ومنع ذبحه كما هو معروف فى المسالخ العادية ، وافهام الحجاج ان كل ذلك لا يجزيهم عن نسكهم وان تراقب الحكومة ذلك مراقبة حازمة ٠

10) ويوصى الملتقى الحجاج من المسلمين بأن عليهم ان يجعلوا الحج ـ زيادة على أداء مناسكهم وذكرهم لربهم ـ مؤتمرا سنويا يحضره أولو الرأى والتدبير منهم ، يتدارسون فيه مشاكلهم ، ويعالجون امراضهم ، ويطلبون وسائل رقيهم ويحققون فيه التعارف بين أممهم وشعوبهم ويمتنون الروابط المختلفة بينهم مما يعز دينهم ويسعدهم فى دنياهم زيادة عن أخراهم ٠

11) وان اللجنة لترى ان الملتقى التاسع للفكر الاسلامى اذ يتقدم بهذه التوصيات يكون قد أسهم بمقدار فى معالجة هذه المشكلة ريثما تحل جميع مشاكله نهائيا ، وحاول ان يعيد لهذه الشعيرة من أركان الدين اصالتها ويجعلها تحقق مقاصد الشريعة وتربط المسلم بحقائق دينه ومشاهد تاريخه المجيد وتجعله يحيى هذا الركن من أركان الاسلام عمليا مما يترك فيه آثارا باقية حتى بعد الحج لبقية حياته ٠

فهـــرس العـــدد

هل يعيد التاريخ نفسه ؟
موقف الملوك ، وموقف الشعوب

عثمان شبوب

كان الكتاب الغربيون فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فيما يذكر ارنولد توينبى يضعون هذا السؤال لمجرد التدريب على البحث العلمى أو البحث النظرى .

أما نحن فى الجزائر ـ وأمام عدوان النظام الملكى المغربى على الشعب الصحراوى الذى يندرج ضمن مخطط واسع اعدته الامبريالية بتحالف مع الرجعية لمحاولة اجهاض التجربة الثورية فى المنطقة ممثلة فى الثورة الجزائرية ـ فنضع هذا السؤال

فى كثير من المرارة والاعتبار معا ، ونقول مع القائلين بان التاريخ يعيد نفســـه .

لقد كنا نعتقد اننا جميعا خاصة فى هذه المنطقة قد بلغنا سن الرشد العقلى والنضج السياسى والثقافى ، وانه لا يمكن أن نقع من جديد فى تلك الاخطاء والنكبات التى وقعت فى الماضى نتيجة ضيق الافق ، ونزعة التوسع ، وروح العدوان التى طبعت سياسة بعض قادة الانظمة المجاورة فى علاقتها مع الجزائر .

ولكن نظرة خاطفة الى تاريخ العلاقات بـين الجزائر وهذه الانظمة تبين ان التاريخ قد أعاد نفسه مرات عديدة ، وان هناك ما يدل عــلى وجود ما يشبه النموذج المتكرر فى هذه العلاقات .

وقد استلفتت نظرى بالصدفة خلال مطالعاتى التاريخية نماذج من موقف بعض الملوك فى كل من المغرب وتونس تجاه الجزائر الثائرة فى ذلك الحين . كما وجدت بالصدفة أيضا نماذج رائعة ، صارخة التعبير والدلالة ، لبعض شعراء مــن البلدين تعكس روح الاخـوة العميقة ، والوعى بالمصير المشترك .

وقلت ان هذه المواقف جديرة بذكرها والتذكير بها لعل فيها ما ينفع بعض المؤمنين من أولى الالباب :

1 ــ يذكر الاستاذ أحمد توفيق المدنى فى دراسة له نشرت فى مجلة « الأصالة » السنة الرابعة ، العــدد 26 رجب ــ شعبان 1395 هـ يوليو ــ أغسطس 1975 م ص 39 بعنوان : موقف اسطنبول من سقوط الاندلس : وبعد ان يستعرض الوضعية العامة فى المغرب العربى يقــول : « ... وانهيار دول وقيام دول بالمغرب ترى من واجبها محاربة الجار ، قــبل

الاستعداد لتلقى ضربة العدو ، مثل ذلك أن أبا سعيد عثمان ، ملــك المغرب ، ارتمى بقضه وقضيضه على تلمسان الزاهرة الغنية فاحتلها سنة 1400 . بينما كان الاسبان قد انزلوا تلك السنة من اسطولهم جنـدا ضخما ، احتل مدينة تيطوان واستقر بها منذ نفس تلك السنة ، وبقى بها ، ولسوء الحظ خمسمائة وخمسين عاما » .

وما أشبه الليلة بالبارحة . الملك المغربى اليوم يغزو الصحراء الغربية ويقتــل ابناءها ، ويردد شعارات توسعية رخيصة ، والاسبان يحتلون سبتة ومليلية المغربيتين !

ونفس النموذج تجده فى موقف الملك المغربى عبد الرحمن بن هشام من ثورة الامير عبد القادر ، قائــد المقاومة الجزائرية فى ذلك الحــين ، حيث اتفق مع الاستعمار الفرنسى على تضييق الخناق عليه وارغامه على الاستسلام بعد ان كان بينهما اتفاق تعاون . وهذا الموقف ناتج عـــن تخوف الملك المغربى من أبعاد ثورة الامير على مستقبل المنطقة . وسجل هذه الحادثة التى تمثل وصمة عار فى جبين الاسرة العلوية فى المغرب ، شاعران مغربيان كانا أبعد نظرا من الملك عبد الرحمن واشرف نفسا ، وانبل عاطفة ، واعمق شعورا بالاخوة .

وانقل للقراء فيما يــلى قصيدى الشاعرين المشــار اليهما أوردهما الدكتور عباس الجرارى الاستاذ فى كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط فى البحث الذى قدمه الى مؤتمر الادباء العرب العاشر بالجزائر من 25 ابريل الى 2 مايو 1975 مع تعليقه عليهما بنفسه :

« حين نبحث فى موقف الشعر من هذا الحادث فاننا نصادف شاعرين مدرسيين وشاعرا شعبيا . أما الشاعران المدرسيان ــ ونسجل انهما كانا

مسؤولين في الدولة ـ فاحدهما هو محمد غريط (1) وتعرف له قصيدة قالها اثر احتلال تلمسان بدأها باستنكار تباطؤ المغاربة وعدم تحركهم لمواجهة العدو ومذكرا بنواياه وبما كان له في الاندلس :

مالى أرى جفن اهل الغرب وسنانا   من بعد ما أخذ الرومى تلمسانا

كأنهم ما دروا مـاذا يـريد بهم   عـدو دينهم ، لا نـال امكانا

ولا عـلى فعله في دفـتر وقفوا   بأهـل اندلس يا بيس مـا كانا

وتساءل بعد ذلك عن وجود رجال المغرب الابطال :

أين الحمـاة الكماة ما لهم رقدوا   والكفر في أخذهم ما زال يقظانا ؟

أين الابـاة لمس الضيم مالهـم   اليه لم ينفروا رجـلا وركبانا ؟

ثم وجـه الخطاب لاستنهاض الهمم والتحذير من العـدو والدعوة للاسراع بنجدة الجزائريين ومساعدتهم على الخروج مما هم فيه ، وهـو موقف يحتمه الدين :

يا معشر المسلمين استيقظوا وخذوا   من العـدا حذركم سرا واعـلانا

فليس يومن غدرهم وان بعـدوا   فكيف اذ أصبحوا للحـد جـيرانا

☆ ☆ ☆

(1) المكناسى المتوفى سنة 1280 هـ ـ 1863 م ، كان كاتبا للودينى عامل فاس ثـم عينـه المولى عبد الرحمن بن هشام وزيرا بعد عزل العامل المذكور لفضيحة خلقية ولكنه لم يلبث ان اعفى من الوزارة ليبقى كاتبا للوزير الجديد محمد الصفار • كذلك استوزر لسيـدى محمد بن عبد الرحمن حين كان خليفة لوالده • أورد له صاحب فواصل الجمـان بعض شعره وقال انه كان بيده الكثير منه ولكنه ضاع حين سلمه لبعض اصدقائه • انظر ترجمته في : الاتحاف ج 4 ص 248 ـ فواصل الجمان ص 63 الاعلام لابن ابراهيم ج 5 ص 320 •

وتنقذوا أهلها من العدو فقد   أراهم من شنيع المكر ألوانا

والدين أوجب أن سعى لنصرتهم   بالنفس والمال أشياخا وشبانا

وختم بالحث على الجهاد والموت فيه فهو أفضل موت للمرء الحر الذى يرجو ثواب الله خاصة وان العمر لا يتأثر بمواجهة الخطر أو القعود عنه :

موتوا كراما فان الحر يأنف من   معيشة تدع الحليم حيرانا

لا موت أفضل من موت الجهاد لمن   يرجو من الله رحمات ورضوانا

كونوا صلابا على أهل الصليب فلا   دين لمن لعدو دينه لانا

☆ ☆ ☆

وشمروا وانهضوا وسارعوا وعلى   جلاده اخوة كونوا وأعوانا

ما قصر العمر اقدام على خطر   ولا أنال الخلود الجبن انسانا

والشاعر الثانى هو محمد بن ادريس الزمورى العمراوى الملقب بـ « السلطان الصغير » (2) وله ثلاث قصائد :

---

(2) الذى لقبه هو احد أولياء فاس كان يعتقد فيه ويخدمه ويعرف بمولاى عمر . كان كاتبا للمولى عبد الرحمن فى فترة خلافته للمولى سليمان بفاس ثم وزيرا له بعد توليته الملك . غير انه تعرض للعزل والسجن سنة 1247 هـ لاتهامه باثارة بعض الحوادث ثم أطلق سراحه ليسجن مرة ثانية . وبعد الافراج عنه كتب القصائد فى استعطاف السلطان وتوسط له بعض أصدقائه فأعاده الى الكتابة ثم الوزارة . ولعله بقى فى منصبه الى ان توفى سنة 1264 هـ 1847 م . وهو كما يبدو من الديوان صاحب موهبة وشاعرية نلمحهما حين تخف وطأة التصنيع والزخرف المسيطرين على شعره وهو القائل عن نفسه : « لقد غاص فكرى فانتقى دررا فنظمها نظام الجواهر » انظره فى : الجيش ج 2 ص 148 والسلوة ج 2 ص 362 وفواصل الجمان ص 40 والاتحاف ج 4 ص 189 والاعلام ج 5 ص 263 والسلطان الصغير لعبد الرحمن الفاسى (مجلة رسالة المغرب س 9 ع 47 — 49) ومحمد بن ادريس لناصر الفاسى ، (مجلة البحث العلمى س 1 ع 1) والحياة الادبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص 327 .

يقول في الاولى (3) حاثا على الجهاد ومنبها الى الخطر المحدق في أسلوب خطابي قوي يلح على صيغة التوكيد :

يا أهـل مغربنا حـق النفـير لكم	الى الجهاد فما في الحق من غـلط
فالشرك من جنبات الشرق جاوركم	من بعد ما سام أهل الدين بالشطط
فـلا يغـرنكم من لـين جانبـه	ما عاد قبل على الاسـلام بالسخط
فعنده من ضروب المكر مـا عجزت	عن دركه فكـرة الشبان والشمط
فراتح المكـر تبـدو من خواتمه	فعنده المكـر والمكروه في نمـط
وأنتـم القصد لا تبقن في دعـة	ان السكون الى الاعدا من السقط
من جـاور الشر لا يعـدم بوائقه	كيف الحياة مـع الحيات في سفط
قد يغبط الحـي في عـز يخلده	وليس حـي عـلى ذل بمغتبط

ويقول في الثانية (4) حاثا كذلك على الجهـاد باعتباره فـرضا على الجميع ومذكرا بفضائله وانه الوسيلة للنصر اذ به تم نشر الدين وفوز للرسول والمسلمين :

فرض على كل مسكـين وسلطـان	حمـل السـلاح على عبـاد اوثان
فحملـه شرف عـال ومفخـرة	خـص الالاه بهـا أعـز عبـدان
لا شيء أحسن من صوت السلاح على	الاعناق في طاعة المـولى ورضوان
فهـو الوسيلة في نصر الالاه لكـم	ونصرة المصطفى اجـل عـدنان

(3) انظرها في الديوان ص 402 والحلل البهية ص 211 والاستقصا ج 9 ص 50 .

(4) وهي قصيدة تشتمل على مائتين وعشرين بيتا وتسمى «سرية النصر لاهل هذا العصر» انظرها في الحلل البهية ص 211 .

وليس يجحد فضل حمله ملك   وليس يانف عنه كل خاقان

به نبيكم الالاه شرفه   بحملة لامتثال أمر رحمان

به أزيلت لهذا الدين غربته   وطار صيتا به بكل بلدان

والى نفس الفكرة يدعو فى القصيدة الثالثة (5) التى يستهلها بقوله ينبه المغاربة من الغفلة ويثير فيهم الحماس لمقاومة العدو الذى أصبح بين ظهرانيهم يتهيأ للانقضاض عليهم :

يا ساكنى الغرب الجهاد الجهاد   فالكفر قد شارككم فى البلاد

والشرك قد نصب أشراكه   مستعبدا بكيده للعباد

ويا حماة الدين ما صبركم   والمشركون يطلبون البداد

ما هذه الغفلة عن ضدكم   وأنتم فى الحرب أسد الجلاد

وهو فى دعوته للجهاد يعرض للوضع الذى غدت عليه الجزائر بعد الاحتلال ويتوسل بمثل مشهور لعل المغاربة يتخذون منه العبرة :

واسطة الغرب قد حازها   والامر جد والبلا فى ازدياد

حوى الجزائر ووهرانها   وراع حاضرا بذلك وباد

مصائب صبت على معشر   يبكى من الاشفاق منها الجماد

☆ ☆ ☆

اخوانكم ديننا وجيرانكم   أضحوا رعايا الشرك بين أعاد

ساموهم هونا وازروا بهم   فى الدين حتى ركنوا لارتداد

---

(5) انظرها فى الديوان ص 179 وفى تقديمها ورد ان السلطان « أمر ان تقرأ عقب الصلوات فى المساجد وكراسى الوعظ فى أدنى البلاد وأقصاها » .

وطمعـوا فيـكم فكـونوا يــدا   فـان تثـاقلـتم فانتـم مــراد
قد ملكـوا الاحـرار مـن غدرهم   وذللـــوا بالكره صعـب القيـاد
مـن حلقت لحيــة جـار لـــه   فلتكـونن لحيتــه فى اعتــداد

كذلك نجد للشاعر ابن ادريس قصيدة توسلية (6) قالها بعد هزيمة المغرب فى ايسلى أولها :

سلام يفوق الورد في الطيب والزهرا   ويفضل فى اشراقه الانجم الزهرا

ونقتطف منها هذه الابيات :

وانى قـد استرعيت منهم دعيـة   وحملت من اعبـاء أمرهم أصـرا
أروم لها التوفيق والرشد والهدى   وأرجو لها الاسعاد والحفظ واليسرا
وآمـل من جدواك كـل عنـاية   ونصرا عزيزا يهدم الشرك والكفرا

☆ ☆ ☆

فكن يا رسـول الله غـوثا لامـة   تمت الى علياك بالنسبة الكبـرى
فمـا أنـزلوا الا ببابك رحلهـم   ولا اتخذوا يوما سواك لهم ذخرا
ولا استنصروا الا بجاهك في الوغى   ولا قصدوا في الخلق زيدا ولا عمرا
ولا حصروا الا عليـك رجـاءهم   وما قصروا لو خلفوا النهى والامرا
وقد جاوروا من عصبة الكفر أمة   تـريد بنصب الماكرين لها الجـرا

☆ ☆ ☆

اجرنا فنعم الجـار انت لمن لجـا   ببابك واستكفى بهمتـك الاصرا
وغر يـا رسول الله عـزما لامـة   دعوك ولب صوتهم واحبهم جبرا
وأظهـر لها من عـز جاهك نصرة   ترد على الاعقاب من سامها ذعـرا

(6) انظرها فى الديوان ص 206 والاتحاف ج 5 ص 271 .

والنموذج الآخـــر مـــن تـــونس حيث نجـــد مـــوقف النظـــام البورقيبى مـــن الجـــزائر وثـورتها واطماعـــه الجنـونية التى عبـــر عنها فى المـدة الاخـيرة يـذكرنا بمـوقف وأطمـــاع بعض ملـــوك العائلة الحسينية فى تونس . وهذه فقرة أنقلها من دراسة هامة بعنوان : « مسألة الحاق طرابلس الغرب الى تونس سنة 1834 » للدكتور عبد الجليل التميمى المنشورة فى العدد الرابع من « المجلة التاريخية المغربية » التى تصـــدر بتونس ، فى معرض الحديث عـــن محاولات الخـلافة العثمانية استرجاع الجزائر تكشف عن هذا التماثل القائم بين الاطماع القديمة والاطْماع الجديدة ، ولله فى خلقه شـؤون ! واليكم الفقـــرة المعنية : « ... وقد تركز اهتمام الباب العالى فى العمل على ربط ولاية تونس بالمركز خشية تزايد تسرب النفوذ الفرنسى اليها والحيلولة دون سقوطها فى يـــد الفرنسيين . الا ان الباى ووزراءه اظهروا تصلبا فى موقفهم تجـاه الباب العالى وذهبـــوا حتى الى رفض تعاليم السلطان القـــاضية بمساعدة الجزائريين وخاصة باى قسنطينة الذى ما انفك يطالب بالنجدة من باى تونس ومن الباب العالى على حد سواء ، ذلك ان تغيير تـــــوازن القـــوى فى المنطقة جعلهم يتوددون الى الحكـــام العسكريين الفرنسيين بالجزائر ويذهبون حتى الى عقد اتفاقية سرية مع كلوزال ، حاكم الجزائر العام ، يقضى بتفويض أمـــر قسنطينة ووهران الى العائلة الحسينية ، سرعان ما تحول الى وعد بتفويض الجزائر كلها الى تونس (7) وقد نشط

(7) صرح فعلا كلوزال الى حسونة مورالى مبعوث الباى اثناء المداولات طالبا منه ان يعلم الباشا بأن دولة الفرنسيين ما صنعت هذا الامر مع دولة تونس ومكنتها من قسنطينة وعمالتها الا مرادها انها بعد تمكنها بجميع عمالة الجزائر وما احتوت عليه من البلدان بعد الاتفاق بينهم على ما يتراضوا (كذا) به واسمع منى يقينا وصدق به انه اثناء العامين من هـــذا الوقت ، لابد تكون جميع عمالة الجزائر فى قبضة ملك تونس لما بينهم وبين الفرنسيين من المودة ...) .
راجع هاته الوثيقة بارشيف الدولة التونسية ، رقم 411 مجموعة أ تقرير حسونة وردياني باشا بتاريخ 26 جمادى 1246/12 ديسمبر 1831 .

شاكير صاحب الطابع فى انجاز ذلك خصوصا وهو يطمح الى توسيع مملكة تونس وابعاد مصطفى وأحمد باى عن الحكم » .

وفى هذا الوقت الذى كان فيه باى تونس حسين باشا يتخذ هذا الموقف المخزى فى تاريخ الشعب التونسى والتاريخ المغربى عامة كان الشعب التونسى يذوب ألما وحسرة على احتلال الجزائر ، وسيلمس القارىء هذه المشاعر الدفاقة بالاخوة والوعى الحاد لابعاد الاحتلال فى هذا القصيد الذى نظمه الشاعر أحمد بن على القبيجى من قليبية بتونس بعنوان : « رثاء سقوط الجزائر 1830 » وقد ارسل الى هذا القصيد الاستاذ محمد الصادق عبد اللطيف من مدينة قليبية بتونس لينشر فى الأصالة ، وهو قصيد لم ينشر بعد ، كما ذكر لنا فى مراسلته ، وكنا عند حسن ظنه ، فأراد « للأصالة » ان يكون لها فضل السبق فى نشره ، فله منا جزيل الشكر .

رأيت من الافيد ان أنشر هذا القصيد فى هذه الظروف لدلالته العميقة الدامغة ، وهذا نص القصيد :

رثاء سقوط الجزائر 1830

للشاعر : أحمد بن على القبيجى (*)

عظم الله أجركم فى الجزائر وجزاكم برزئها أجر صابر

فهى والله فى البلاد لحق ان تعزى بها وتبكى الحرائر

(*) الشاعر أحمد القبيجى من مواليد قليبية ومن أهلها : هو أحمد بن على بن أحمد بن على ابن رمضان القبيجى ، وهذا الاخير الذى أتى ضمن اللفيف التركى الى قليبية ، الشاعر أحمد من شعراء القرن 13 هـ ، وقد عاش موظفا فى دولة القرمة منليين متنقلا بين طرابلس (ليبيا) وصفاقس ومالطة والاسكندرية اذ كان يحسن سياقة السفن التجارية له ديوان =

ويحق عليها لبس السواد بعد وقعتها وحلق العزائر
فليبك من يشاء البكاء فليس لعزيز علينا فقد النواظر
ولتكن مقلة الحزين عليها في انتباه فما النوم كساهر
هذه الروح أقبلت تتغالى وأرادت على الانام التظاهر
بدؤوا بالجزائر حيث كانت في نحورهم كنبلة واتر
وأعدوا لحربها ما استطاعوا من خيوط وعدة وعساكر
ورموها برمية فصموها وعموها وما رأوا غير دابر
القت الناس لهم كل سيف كان قبل الورود في الغمد صادر
دخلوها وملكوها خداعا ودنوا من أميرها دون زاجر
وتولوا خزانة لو حوتها يد قارون لم يزل يتفاخر
وأقاموا علامة الكفر فيها وأطاعتهم اناس فواجر
ومحوا حسنها كأن لم تكن فيها لله قبل ذاك شعاير
وكأن لم تكن تصول فيها ملوك عندهم نازل سواء وطائر
وكأن لم تقدم فيها رجال بحقوق الجهاد في كل فاجر
وكأن لم تدن ولاء وعزل لمجير من الانام وجابر

= مخطوط في حوزتي به 113 صفحة من القطع المتوسط قياس 22 × 16 الديوان من الفصيح يحتوى على 1260 بيتا ، له تشطير وتخميس لامية بن الوردى وقد ترك مجموعة من الرسائل تبادلها مع علماء عصره توجد حاليا في متحف دار الجلولي بصفاقس (أملك نسخة مصورة منها) له اتصالات بالشيخ الصوفي قاسم الشركي الاسكنداني ، كلفه باشا طرابلس يوسف القرملي باستخلاص الضرائب الموظعة على الزيت بتاجوراء ومسلاتة وقد حبسه حسين باى 1239 هـ ، باحدى ثكنات تونس العاصمة ومنعه من الذهاب الى طرابلس ووعد باطلاق سراحه في عاشوراء 1250 هـ — 1834 م .

وهذا القصيد كتبه الفقيه أحمد بن على القبيجى (1) القليبي يرثي الجزائر أعادها الله للاسلام وكان دخول النصراني لها دمره الله يوم الاربعاء ستة عشرة مضين من محرم الحرام عام 1248 م .

قـدر اللـه أن تعـود لنقص	بعـد هذا التمام واللـه قـادر
فهى هـذا علـوها فى الحضيض	وهى بعـد شبابها فى الغـوابر
اخذتها العـدى وماذا يفيـد	ان بكى منشـد وان نـاح شاعر
ان تعيشـوا بعـدها فستـروا	ما بـه تحسدون أهـل المقابر
ذلـة واهـانـة وعنـاء	وكفاهم بمسلم طـوع كـافر
وتقولون ان فشلتم ، سوف تأتى	اللـه عقـب ذاك بشـايـر
نعـم انى بلغتـم ما سألتـم	بعـد أن تبلـغ القلوب الحناجر
ما يكـون اعتذاركم بعـد أسر	لا تـرون لـه مفـاداة عـاذر
وبنيكم وأهلكـم طـوع من لم	يرض ان غضبوا بغير التشاجر
هذه المـوت والبـلاء العظيم	والمصاب الذى يضيق الخـواطر
فاعملـوا الحـزم ما استطعتم	ان هـذا الزمان بالناس غـادر
واستقيموا عـلى طريقة رفـق	واتفاق ، وانضمـوا كالجـواهر
انهـا نـار فتنـة وقـدوها	بيـدى نجس رسمـوه طاهـر
كافـر فاجـر ظلـوم خـؤون	عاضد لاولى الضـلال وناصر
جـاء من حضرة الخليفة يتـرى	باختـلاق أوامـر وبشـاير
أضحك الناس ساعة ثـم أبكـى	من لـه مقلـة بـدمع تحـاذر
واران الخـداع فى النـاس فهو	لم يـزل ناهيا بشـر وآمـر
فاسألوا اللـه بالنبـى عساهـا	ان تـدور بـه عليـه الدوايـر

والتاريخ يسجل للجزائر مواقف مشرفة ، ناصعة فى نصرة القضايا العادلة عكس ما تدعيه أبواق الرجعية فى المدة الاخيرة من اتهام الجزائر بالتوسع والتسلط والتحالف مع الاسبان بل وحتى محاولة تشويه تاريخ الجزائر . وهذا كله لان الجزائر اعانت الشعب الصحراوى فى كفاحه لنيل استقلاله والدفاع عن مبدا تقرير مصيره ، واختارت لنفسها منهجا متحررا فى البناء الاجتماعى والسياسى والثقافى والاقتصادى تراه هذه الانظمة خطرا على مصالحها .

ان مواقف الجزائر ازاء المضطهدين وقضايا التحرر فى العالم تكلل هام تاريخنا الوطنى ، ولا يسع نطاق هذه الكلمة للافاضة فيها . ويكفى كنموذج فقط ان انقل للقراء فقرات من رسالة بعث بها مسلمو غرناطة الى السلطان سليمان القانونى سنة 1541 . (راجع بحث الدكتور عبد الجليل التميمى : رسالة من مسلمى غرناطة الى السلطان سليمان القانونى سنة 1541 . الأصالة عدد 23) وفيها من الحقائق ما لا يحتاج الى تعليق عن موقف الجزائر من القضايا العادلة عبر التاريخ :

« ... قد تكالب العدو علينا ومدد السوء والضرر الينا ، واحاطت بنا الاعداء من كل جانب ، ورمونا عن قوس واحد بسهم صايب ، وطالت بنا الايام ، وعاثت فينا يد النكاية والايلام ، وخذلنا جيراننا واخواننا ببلاد المغرب من أهل الايمان ، وقد كان بجوارنا الوزير المكرم ، المجاهد فى سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين ، علم باحوالنا ، وما نجده من عظيم اهوالنا لما كان بالجزائر ، واجتمعت أهل الاسلام على اطاعة مولانا ومحبته بالخواطر والظماير (كذا) وانتظم العدل والشرع والامان فى البادى والحاضر ، فاستغثنا به فاغاثنا وكان سببا فى خلاص كثير من المسلمين ، من ايدى الكفرة المتمردين ، ونقلهم

الى أرض الاسلام ، وتحت ايالة طاعة مولانا السلطان ولعمارة مدينة برشك وشرشال ونواحى تلمسان ، فلما سمع الكافر اللعين بذلك ولم يقدر على منعنا بالسياسة والاهانة والحرق بالنيران ، علم انا اخترنا المصيبة فى الامـوال والابدان ، واثرنا ديننا على ساير الاديان ، فلما صدقت الضماير ، وبلغت القلوب الحناجر ، خاف من عصبتنا واجتماع كلمتنا وتركنا أموالنا وأوطاننا وهجرتنا وفرارنا الى بلاد الاسلام لسلامة ديننا ، تحاير فى أمره ، وجمع اليه أهل تدبيره وحزبه ، فدبروا ومكروا وهل يحيق المكـر السيء الا باهله ؟ واتفق رأيهم المعكوس ، وتدبيرهم المنكوس ، على قتال الجزائر ، ليلا يبقى ببلاد المغرب لاهل الاسلام ناصر ، فعاقبهم الله بعقاب اصحاب الفيل ، وجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم ريح عاصف وموج قاصف (كذا) ، فجعلهم بسواحل البحر ما بين اسير وقتيل ، ولا نجا منهم من الغرق قليل ، والآن اشتد غضبهم على أهل الاسلام ، وهم يتسولون بالرهبان والاصنام ، ونحن نتوسل بسيد الانام الى موجب الوجود ذو (كذا) الجلال والاكرام ، وهم عازمين (كذا) على الجزائر ، والله تعالى هلكهم وينصر دينه وهو نعم الناصر ، يا مولانا سلطان البرين نصركم الله ، المدد المدد لنصرة الجزائر لانها سياج لاهل الاسلام وعذاب وشغل لاهل الكفر والطغيان وهى موسومة باسمكم الشريف ، وتحت ايالة مقامكم المنيف ، وقد اصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة ، والرعية المؤتلفة بها مؤتلفة اليفة » .

كان هذا هو موقف الجزائر فى مديد العون والمساعدة للمضطهدين من مسلمى الاندلس . ويتجدد هذا الموقف اليوم مع كل المناضلين من أجل حريتهم وكرامتهم وفى مقدمتهم الشعب الصحراوى .

☆ ☆ ☆

والآن قد يتساءل معنا القارىء ، هل تسجيلنا لهذا النمط المتكرر من الاحداث التاريخية يفضى بنا الى اعتباره قدرا محتوما لا مناص لنا من الخضوع له ؟

ان الاجابة عن هذا السؤال هى بالنفى بكل تأكيد ، لاننا بكل بساطة ، وعلى طول تاريخنا الوطنى ، نحلم دائما بالمستقبل . والحلم ثورة .

يقول « كروجى » ان التاريخ كلــه تاريخ معاصر ، يــريد بذلك ان التاريخ يتكــون فى الاساس من رؤيــة الماضى بمنظار الحــاضر وبضوء مشاكله .

وهذا الادراك للبعد التاريخى هو أساس بناء المستقبل وليس هناك ما يمنع من ان لا نتأثر بسوابق التاريخ ، انه لا يتحتم علينا ان نحكم على التاريخ بان يعيد نفسه ، وامام مثقفى المغرب العربى وقــواه الواعية فرص ملائمة ليوجهوا التاريخ وجهة جديدة . عليهم ان يعيدوا التاريخ الحق ، تاريخ الشعوب ، وعندها ستنفتح أبواب الوحدة الطبيعية الحقيقية الخلاقة .. وتنتظم حلقات التاريخ المغربى فى سلسلة متصلة ، متسقة ، فى خط مستقيم صاعد . والزمن يعمل معنا ، ولا مرد لاتجاهه على بعــث مغرب الشعوب ، وسوف يتجسد مطلب الشعوب حتما .

مَوقف مَلك المغرب من الجزائر

إثر الاحتلال الفرنسي

المهـدي البوعبدلي
عضو المجلس الاسلامي الاعـلى
ـ الجـزائر ـ

تعرض كثير من المؤرخين لموقف المغرب هـذا اثـر الاحتلال الفرنسي مباشرة ، أى بعد استسلام باى وهران حسن قبل مبايعة الامير عبد القادر ، ثم تجدد الموقف مع الامير فى اخريات ايام حربه ، وبالضبط فى نفس السنة التى وضعت حربه مع الفرنسيين أوزارها، وختمت صفحة جهاده ، اذ كثيرا ما اشتبه على المعاصرين الموقفان اللذان ظنوا بانهما واحد ، كما سنبين ذلك بتفصيل فى هـذه الدراسة • ولضيق مجال هذه الدراسة اقتصرنا على ثلاثة مصادر لها علائق جوهرية بالموضوع :

المصدر الاول : كتاب المزارى المعروف « بطلوع سعد السعود ، فى أخبار وهـران ومخزنها (1) الاسود » ألفه صاحبه سنة 1307هـ توجد منه نسخـة خطيـة ـ أظنهـا الاصلية ـ بمكتبة المتحف البلدى بوهران •

(1) المخزن : الجيش النظامى المتكون من القبائل الموالية للباى •

المصدر الثانى : تقرير فى الموضوع كتبه بواى BOYER القائد الاعلى للجيش الفرنسى بوهران (مؤرخ فى 15 نوفمبر 1831) وقد نشره الكاتب الفرنسي بول لفرانك Paul Le Franc فى « مجلة الجمعية الجغرافية » الصادرة بوهران (الجزء 83 مارس 1932) ·

المصدر الثالث : ما كتبه فى الموضوع المؤرخ الناصرى فى تأليفه « الاستقصاء » ·

قال المزارى فى تأليفه المذكور بعد أن استعرض أحداث الاحتلال ، وانذار الاسطول الفرنسى للباى حسن ، وتخييره بين الاستسلام أو الحرب ، أرسل سكان (1) تلمسان وفدا الى ملك المغرب لانقاذهم وكان الملك أنذاك عبد الرحمن بن هشام ، فارسل الملك ولد عمه مولاى علي وفى هذا قال المزارى « وبعث ابن عمه مولاى على ولد السلطان مولاى سليمان ومعه خليفته السيد أحمد الحجوطى وأوصاه أن يبعث الحجوطى لمعسكر ويتخذ هو دار سكناه بتلمسان ولما وصل مولاى علي الى تلمسان انقسم أهل المخزن الى قسمين ، قسم تحت رياسة الحاج محمد المزارى مؤيد لمولاى على ، والقسم الآخر تحت رياسة مصطفى بن اسماعيل مؤيد للباى حسن وكان دمريمو (لعله DAMREMONT) بالمرسى الكبير ينتظر اتيان الامر له لدخول المدينة (وهران) ثم جاء جيش مولاى علي لغنم المخزن الذى بوهران فأخذها عن آخرها وقصد (2) تلمسان فقصد تلمسان فسمع مخزن وهران بذلك فلحقوا مالهم ··· فبينما هم غائبون عن البلد واذا بالجنرال دمريمو لما سمع بذلك اغتنم الفرصة ودخل لوهران ولم يتكلم فيه وجه واحد (أى طلقة نارية) كما لم يتعرض لواحد من السكان بالاذاية وكان دخوله لها فى 4 جانفى 1831 ـ 9 رجب 1246 وقيل أول رجب الموافق 27 ديسمبر 1830 ولما دخل لوهران أخذوا السلاح لاهلها وتركوا الحكم كعادته ··· ثم أركبوا الباشا بمن معه من الاتراك والباى حسن بما عنده أيضا من الاتراك وأوصلوهما للمحلات التى أرادوها كان الجيش الذى لحق مولاى علي تحت

(1) يذكر المزارى أن الباى حسن هو الذى أرسل وفدا الى ملك المغرب فأجابه الباى الى رغبته . وبقية الروايات كلها متفقة على أن سكان تلمسان بعثوا وفدا يحمل بيعتهم الى ملك المغرب . وقد أيد هذه الرواية شرشيل الانكليزى وذكر أن التاجر ابن نونة المغربى هو الذى سعى فى هذه البيعة ·

(2) ان لغة تأليف المزارى مهلهلة . ومحافظة على أمانة النقل لم أغير مفردة واحدة ·

ـ التاريخ يعيد نفسه ـ



بدون تعليق

قيادة مصطفى بن اسماعيل فقابل مولاى علي وكان هو الآخر جمع ما عند أهل تلمسان وخليفته أحمد الحجوطى ما بمخزن وهران ، وللغد ذهبا معا الى المغرب ومعهم مصطفى ابن اسماعيل واعيان المخزن الذين معه مغلولين على البغال ـ أى مكبلين ـ ولما وصل لفاس مثل أعيان المخزن بين يدى السلطان مولاى عبد الرحمن أظهر لهم توبيخه وأطلق سراحهم وبعث معهم نائبا آخر أحمد بن العامرى كان مصطفى بن اسماعيل من دعاته وفى هذه المدة أتى النصارى بجيش تونسى تحت رياسة خير الدين (سنتحدث عنه فى آخر هذه الدراسة) ثم ظهر من احمد بالعامرى ما كان ادهى من سلفه مولاى علي ·

ولما حصل لهذا الوطن بالمغاربة الاذلال أنشد بعض الادباء من أهله بأبيات فقال :

آها للمغرب الاوسط ضاعا	وبان وهنه ومن به جاعا
تراكمت اهواله وزادت	به الشدائد الفساد ذاعا
جاء به للحكم أهل فاس	فجاسوا خلال دياره سراعا
وحلوا وابرموا الحكم بظلم	ودبت فيما اجراه ضباعا
كانه على التحقيق ليست	به رجال قد قهروا سباعا
لا غرو يا علويين يحل	بكم ما ببنى سعد قد عاعا
فانه قبلكم قد جاءوا	لمغربنا وقد ذهبوا جزاعا
رأوا من بأسنا ما ليس يرى	واسيافنا للحومهم قطاعا
بنادقنا رصاصها مصيب	لهم بكل حاله وقاعا

ولما ذهب الاتراك من وهران والمغاربة من معسكر وتلمسان وذلك فى عام 46 قامت الغرب على بعضها بعضا ثم ساءت سيرة الجند التونسى فأطرد » ·

أهـ ما كتبه المزارى (1) ·

---

(1) كان المزارى من اقارب مصطفى بن اسماعيل وهو أخو المزارى الذى تولى القيادة فى العهد التركى ثم فى عهد الامير وهو المذكور فى ص 3 ·

ثم ذكر المزارى الظروف التى تولى فيها والد الامير السيد محيى الدين واثبت قصيدة باللغة الدارجة وصف فيها صاحبها أول معركة وقعت بضواحى وهران بين الجند الاسلامى الذى يترأسه محيى الدين والجيش الفرنسى ٠٠ ولننتقل الى تقرير الجنرال بواى Boyer وهذا نصه : « **الجنرال بواى الى وزير الحرب وهران فى 21 سبتمبر 1831** ٠

(وثيقة تاريخية فى الاحداث التى وقعت بولاية وهران بداية من نزول الجيش الفرنسى بمرسى سيدى فرج) ٠

عندما بلغ لداى الجزائر الخبر الرسمى عن مسيرة الاسطول الفرنسى من مدينة تولون TOULON ظهر له ان هذا الاسطول لم يتوجه كله لمدينة الجزائر بل بعضه يقصد وهران والمرسى الكبير فاعطى أوامره الى الباى حسن الذى كان يمثله بوهران ان لا يرسل أى جندى الى الجزائر ، ولكن ينبغى له ان يأخذ العدة لتحصين بروج وهران ٠٠٠ (ويذكر صاحب التقرير باسهاب وتفاصيل الاحداث التى عاشتها وهران والجزائر بعد ذلك فاخترت الاقتصار على ما به الحاجة أى موقف المغرب من الجزائر آنذاك) ٠

« فسكان تلمسان تخوفوا من مصيرهم عند انتشار الفوضى ارسلوا الى ملك المغرب وفدا يحمل بيعتهم فقبلها ومولاى على الشريف حفيد الملك استولى على تلمسان وكان معه جيش يشتمل على 700 شخص أتى بهم من المغرب ولكنه لم يمكنه الاستيلاء على قصبة البلاد التى كان يسكنها الجيش التركى والكولغلى كان مولاى علي رغم امتناع الجيش التركى من الاعتراف به وتمكينه من القصبة يتمتع بنفوذ شعبى فهو قريب لملك المغرب وكانت عمامته الخضراء تضفى عليه احترام سليل الرسول وكان يظهر الورع والاستقامة كما كان ينقصه تاييد الرئيسين الشيخين مصطفى بن اسماعيل وموسرلى Mousserly والجيش التركى ـ المتحدث عنه ـ المرابط بقصبة تلمسان فاستعمل للبلوغ الى هدفه جميع وسائل الاغراء من تقديم الهدايا والوعود ليعقد اجتماعا مع الرئيسين اذ لما لبيا دعوته للموعد الذى ضربه كانوا بمجرد وصولهم تلقاهم اعوانه فالقوا عليهم القبض وكبلوهما بالسلاسل هم ونحو 600 جندى من اعوانهم وكل هؤلاء الجنود من سكان الدوائر والزمالة (القبيلتين المواليتين للحكم التركى) وأرسلهم كلهم الى المغرب فهذا

التصرف اثار حقد العرب الذين غادروا تلمسان وأوصوا الجالية التركية أن لا تمكن الشريف من البلاد ثم ان الجنرال كلوزيل الذى احتج بدوره عن الدور الذى اراد مولاى علي ان يلعبه فارسل انذارا واحتجاجا الى الملك المغربى بواسطة الكولونيل أوفرى AUVRAI فكان رد فعله مغادرة مولاى على البلاد ويمكن ان سبب هذه المغادرة ما ظهر له ان يستحيل عليه الاحتفاظ بسلطته فغادر تلمسان خفية صحبة عساكره الذين أتى بهم» اهـ .

ثم واصل الجنرال فى تقريره ذكر الاحداث التى مرت على وهران اذ ذاك الى ان واصل حديثه عن مصير مصطفى بن اسماعيل ورفقائه بعد وصولهم مكبلين الى المغرب فقال :

« اننى اخبرتكم فى التقرير الذى بعثته ان رسولا ثانيا أتى من المغرب الى تلمسان وان سكانها اعترفوا به فها هى التفاصيل :

كنت حدثتكم عن 12 من الرؤساء ـ تلمسان ـ كانوا أرسلوا مكبلين بالسلاسل الى المغرب صحبة الرئيسين الشيخين مصطفى بن اسماعيل من أهل القبيلة العظيمة الدوائر والموسرلى EL MOUSSERLY رئيس قبيلة الزمالة ، فهذه الشخصيات بمجرد وصولها الى المغرب اظهرت ولاءها لتنجو من المخاوف التى انتابتها وتحافظ على الحياة وتعهدت للملك بانها تبذل قصارى جهدها لتمكين ممثل الملك من الحكم على المنطقة فسمع الملك لتعهداتهم وارسل معهم ممثلا ثانيا وهو العامرى والى تطوان السابق الذى وصل الى تلمسان على رأس مائتى جندى فى أوائل أوت وحينئذ كاتب مصطفى بن اسماعيل ورفيقه الى السكان يطلبون منهم الاعتراف بالوالى الجديد الا ان القبائل كما يقال اعطتهم الاذن الصماء فاغتنموا هذه الفرصة واتصلوا بمائتى ، وألف فارس من عشائرهم اتخذوها للوقاية ، اذ فى داخل الامر كانوا ضد مطامع الملك وفى حقيقة الامر يرسلون خفية الى السكان لئلا يغتروا بملك المغرب » اهـ .

هذه صفحة ثانية من مواقف ملك المغرب مع الجزائر ذكرناها باجمال وهى ما وقع اثر الاحتلال الفرنسى مباشرة أى فى سنة 46 هـ 1831 م .

وقد ذكر الجنرال في تقريره هذا احداث وهران مع رسول باى تونس سنتحدث عنها فى محلها أى آخر هذه الدراسة .

والآن نذكر المصدر الثالث الذى اعتمدناه فى هذه الدراسة وهو ما ذكره فى الموضوع المؤرخ المغربى أحمد بن خالد الناصرى السلاوى فى تاليفه « الاستقصا لدول المغرب الاقصى » ٠

وان استعرض صاحبه أحداث الجزائر اذ ذاك أى الاحتلال الفرنسى الذى اعقبته تولية الامير بعد سنتين حاول مؤرخنا تزييف الحقائق تزييفا جليا يظهر بوضوح عند قراءة مقاله ٠ قال فى ص : 191 من الجزء الرابع (طبع مصر 1310) ما يلى :

« ظهور الحاج عبد القادر بن محيى الدين المختارى بالمغرب الاوسط وبعض اخباره » وبعد هذا العنوان ذكر « لما رجع جيش السلطان من تلمسان مع المولى على بن سليمان (سنذكر ما قاله الناصرى فى هذه القضية بعد انهاء حديثه عن ظهور الامير) حسبما مر ، بقى أهل تلمسان فوضى ورجعت الحرب بين الحضر من أهلها والكرغلية ٠٠٠ (ثم ذكر اجتماع السكان ومبايعتهم لوالد الامير الذى اعتذر لكبر سنه وقدم ولده ولما جاءته وفود وأخبروه انهم سبق لهم ان بايعوا ملك المغرب) وهذا قوله فى الموضوع « ولما سمع به أهل تلمسان وهم احوج ما كانوا الى من يقوم بامرهم وفدوا عليه واخبروه بما كان منهم من مبايعة السلطان المولى عبد الرحمن صاحب مراكش وفاس وانهم يبايعونه على بيعته والاعلان بدعوته فاجابهم الحاج عبد القادر الى ذلك واخذ عليهم البيعة واظهر الطاعة والانقياد للسلطان المولى عبد الرحمن وخطب به على منابر تلمسان وغيرها وولى على تلمسان واعمالها وزيره ابا عبد الله محمد (1) البوحميدى الولهاصى وكتب الى السلطان يعلمه بانه بعض خدمه وقائد من قواد جنده واستقام أمر الحاج عبد القادر وثبتت قدمه فى تلك الايالة التلمسانية ثم ان قبيلتى الزمالة والدوائر الذى قدمنا ذكرهم انحرفوا عن الحاج عبد القادر لاسباب . . . . واعلنوا بدعوة الفرنسيس فقبلهم وحماهم وحدثت بينه وبين الحاج عبد القادر بسببهم حرب صلبة ٠٠

---

(1) وهو الذى قتله الملك عبد الرحمن كان ذهب اليه سفيرا والحق به الحافظ بن عبد الله المشرفى ، قيل مات مسموما بعد ان استقبله الملك اذ أوفده الامير ، وانشد قصيدة بليغة أعجب بها الملك عبد الرحمن بن هشام ٠

... الى ان قال فى فصل آخر فى ص : 198 تحت عنوان « بقية اخبار الحاج عبد القادر وانقراض أمره وما آل اليه حاله » .

قال : « قد قدمنا ما كان من فساد نية الحاج عبد القادر وانه رام الاستبداد بل والتملك على المغرب فلما كانت الهزيمة بايسلى ازداد طمعه ... الى ان ذكر المعركة التى وقعت بين الجيشين أى جيش ملك المغرب وهنا نذكر ان المؤرخ سواء ذكر ذلك عمدا أو ساقه وصف الاحداث على ما هى الى ذكرها فقد كان نزيها فى وصفه لهذه المعركة التى يؤيدها بعض من لا نشك فى صحة رواياتهم وهم الشعراء الشعبيون . قال الناصرى فى وصف هذه المعركة تتجلى فيها البطولة والاستهانة بالحياة فى سبيل العزة والشرف قال : « فلما اطلع السلطان على دسيسته بعث الى أولئك الجماعة عسكرا من الشراردة عليهم القائد ابراهيم بن أحمد الاكحل فاجتاحوهم بعد جهد جهيد وقتال شديد من ذلك انهم اعتصموا بربوة وجعلوا يقاتلون على حريتهم وكانوا رماة لا تسقط لهم رصاصة فى الارض فكانوا كلما توجهت اليهم طائفة من الجيش استاصلوها بالرصاص وكانوا يجمعون موتاهم فينصبونهم اشبارا يتترسون به ويقاتلون من خلفه . ولما اعيا الجيش أمرهم حملوا عليهم حملة واحدة حتى خالطوهم فى معتصمهم وجالدوهم بالسيوف وطاعنوهم بالرماح والتوافل وانقطع البارود فكانوا يقتلون ابناءهم ونساءهم بايديهم فرارا من السبى والعار ثم جعلوا يقتلون انفسهم حين تحققوا انهم فى قبضة الاسار . وبعد هذا وجه السلطان ولده سيدى محمد لحسم دائه فى جيش كثيف » (وبعد ان حاول تبرير موقف ملك المغرب بانه كان ينوى اصلاح ذات البين وانما الامير هو الذى التجأ الى الحيلة والغدر) .

قال : « وفى اثناء ذلك عمد الحاج عبد القادر ذات ليلة الى طائفة من جنده نحو الخمس عشرة مائة على ما قيل كلهم بطل مجرب انتقاهم انتقاء وكان جيش الخليفة (أى ابن ملك المغرب) منقسما قسمين بعضهم معه وبعضهم مع اخيه المولى أحمد فصمد الحاج عبد القادر اليهما :

فى ليلة من جمادى ذات اندية   لا يبصر الكلب من ظلمائها الطنبا

بتلك العصبة الذين هم فتيان الكريهة ومساعير الهيجاء وجمرات الحرب طالما شهد بهم الوقائع وخاض غمرات الموت مع الفرنسيس وغيره فلم يقف بهم الا بين المحلتين واطلقوا الرصاص مثل المطر وارسلوا حراقيات على الجمال وتهاويل مفزعة فماج الناس فى ذلك الظلام الغاسق ونزل بهم من الهول ما يقصر اللسان عن وصفه وقام الخليفة فجعل يسكن الناس بنفسه ويمنعهم من الركوب خوف الفرار وأمر العسكر والطبجية بالرمي بالكور والضوبلى فكانوا يرمون الى جهة محلة المولى احمد ظنا منهم ان العدو لا زال مقابلهم ومحلة المولى أحمد يرمون الى جهتهم كذلك فهلك من المحلتين بسبب ذلك بشر كثير . واما الحاج عبد القادر فانه فر فى اصحابه بعد ان حملوا الكثير من موتاهم معهم وكان للقائد محمد ذكر فى تلك الليلة ولما اصبح الناس وتفقدوا حالهم وجدوا فيهم من الجرحى نحو الالف ومن القتلى ما يقرب ذلك وأصبح حول المحلة من قتلى أصحاب الحاج عبد القادر الذين أجهضهم القتال عن حملهم نحو الخمسين وأسروا نفرا أحياء فشاهدوا من طمانينتهم عند القتل ما قضوا منه العجب ووجدوا عليهم كسى رفيعة مطرزة بالصقلي والحرير ونحو ذلك فقد كان للرجال اعتناء بالجيش كما ترى.ثم ان الخليفة رحمه الله أمر باتباع الحاج عبد القادر فتبعته الكتائب المختارة فكان اللقاء ثانيا بمشرع الرحائل بوادى ملوية قرب البحر عند مسقط ملوية فى البحر فصدمته الجيوش صدمة أخرى فنى فيها كماته ، وكسرت شوكته وفل حده ، وخشعت نفسه وأيس من جبر حاله ففر الى الفرنسيس ولجأ اليه وترك محلته بما فيها فاستولى جيش الخليفة عليها الخ » اه . ما قاله صاحب الاستقصا وفاته أن يذكر أن معاهدة ملك المغرب مع الجنرال بيجو اثر واقعة ايسلى كان من جملة بنودها بند ينص على تعهد الملك أن يخرج الامير من بلاد المغرب ولم يكتف بهذا بل جره الى هذا الكمين وعندما حمل عليه بمصب ملوية كان القائد الفرنسى بالحدود الجزائرية على علم فلم يسع الامير الا الاستسلام وقد ذكر فى احدى رسائله للاسقف دبيش ان الذى حمله على هذا الاستسلام هو شفقته على قومه أو ما تبقى منهم الذين أعيتهم المقاومة طيلة 15 سنة والا لكان رغم كل تلك المناورات والمكائد يمكنه النجاة بنفسه الى الصحراء حيث لا يعدم العيش بقليل من التمر والحليب .

وتتميما لموضوع بحثنا نذكر ما سجله بعض الشعراء الشعبيين بايجاز فى هـــذه الاحداث وهى وان كانت توافق رواية « الاستقصا » فى الوجهة الحربية فقد تخالفهـــا فى الاسباب التى ذكرها المؤرخ فالشاعر الاول من المعاصرين لهذه الاحداث وهو الشاعر الشعبى بالمطر من الظهرة ـ أى بين مستغانم وتنس شمالا ـ قال يخاطب جيش الامـــير الذى كان يطلق عليه الخيالة (الفرسان) ·

« زلتكـــم فـوق الزلـة آلخيالـــة	حاكـم فاس اعـلاه اوباه قاللكـــم
معتاها فـوق المحنـــات محنتكـــم	
انطحتـوا نطـــح ازغـالا الخيالـــة	راحت ذيك الدنيـا راهبـة منكـــم
منكـم ما قَعْـدَتْ رُجْـــلا آلخيالـــة	باقى الغـــول اهنـايا عاشَرْ اوطنكم
صـــادق شنـــين الحالة آلخيالـــة	اصْحَبْهُـــم وَلاَوْ ايقاتلـــوا فيكـــم
حاكمهـــم قال للجملـة آلخيـــالـة	تفـدوا مـــن وطنى ولاّ نعاديكـــم
جـــاب افْزُوعُه كالحملـــة آلخيالـة	ذاك البَـرّْ او هـــــذا دايَـرْ بكـــم
مـن قـدّام او مـن الزَّوْلة آلخيالـة	قالوا لي غـــاشى قـــوة افزع لكم
مَتّـــوا كامـــل بالجملـة آلخيالـــة	اهتَـزْ العـرش العـالى ابْـكى منكم
مـدفنوكـــم رجـــالا آلخيـــالـــة	ما هشْمُـــونى نـــدّابَات بابْكَاكُـم
جبريـــل عليكـــم صـــلى آلخيالة	رُحتـوا غُـرْبا وانتمـــا بْوَالِيكـــم
متـــوا فى وجـــه المولى آلخيالـــة	يـا قـوم العـــدنان الله يرحمكـم

فراش :

حاكـم فاس اشريف احقيـــق	واعمـــل هاذى مَا مَنْهَـــاش
اطعن الشـــوك اوْخَلاَّ الطريـق	مثـــل اللّى ما يعرفهــــاش
قلنـــاذا سلطـــان امطيـــق	وثَـــرْنُـه قَلْبُـــه مَغْشَـــاش
راه ارجـــع للرُّومْ اصـــديق	قـال اهْـــنا مـا يَبْقَـــاوش،

هــذا قــال اعـدونا واعدوكـم

جـاب ادشـور مْـع النَّزْل آلحيالـة	مـن سُـوسْ لُوَجْدَة الاسلام غبنوكم
تَقْبْـوا فيـكم شَعَّالة آلحيالـة	قالوا لي ابن يحيى طايَـحْ احذاكم
منكم هذا الوطن اخْـلَ آلحيالـة	ما شيَّبْ راسي لْكَـانْ مَرْسَمْكُـم
دَمْعـة عـينى هَوْطَالـة آلحيالـة	رانى نبكى دِيمـا عابـد احْزَنْكُـم
منكـم مانى فى حالـة آلحيالـة	كى الابْـرار العشرة ظاهـر اشناكم
واكْ انتمـا قتـَّالا آلحيـالـة	واكْ انتما دايـم نايضْ عدوكـم
أهـل امْحَاصَنْ تَتْلالاَ آلحيـالـة	اللَبْسَـة الزينـة واسْرُوجْ طَبْعُوكُم

فراش :

حاكـم فاس اعـلاه اوبـّاه	يعمـل هـذا المظلَمـة
قاتـل جيش رْسـول اللـه	شـوفـوا مَعْتـَاهَـا عَظْمَة
عـادَى مـولاه وبـَابـّاه	ما قعـدت عنـدُه حُـرمـة
جـاب الغيض امقـام اشراه	فـى سقـر الحكمـة

غـدوه فى يـوم الميعـاد يلقاكم

قـدام اللـه تعـالى الحيـالـة	تشرْعـوه المـولى شاهـد عليكم
ما تحضر عنـده حيلـة الحيـالـة	ما يحلفشى فى القبلـة ويَبْلَعْكُـم
يـوم اجماجـم تتخـلى الحيـالة	قـدام النـاس انتمـا يْخَلَّصْكُـم
ضربـت مطبـوع الحـالة الحيالـة	ولـد الـزهرة (الامير عبد القـادر)

فى الميدان يندهكم

يوكَـدْ يـوم ان تَسـلا الحيـالـة	يقتـل بالعشرة ويـوبَـدْ ابْكَـرْكُم
يعمـل كى السيـد الْعْـلى الحيالة	مـن عـديان اللـه هـو يفرَّحكم

ميشـــدوه الجهلـــة الخيـــالـــة	كى فرحـوا عـديان اللـه برايسكم

ويختم قصيدته بذكر الامكنة التى قصدها جيش الامير ووقعت فيها المعارك ٠

ولاوا فى بحـــر الحـــلا الخيالـــة	قالـوا لي فى جبل املـــوا عشرتكم
زدتـّــوا غادى بالرحلـــة الخيالـــة	فى ملويـــة خلِّيتـــوا امقابركـــم
هربـــتوا لبنى يعـــلا الخيـالـــة	اقْصَـدتُّوا زَعْـــمَ الاسـلام تَنْعَركم
انزَلْتـوا فى بُوحَمْلَـــة الخيـالـــة	كُنْتُـــوا غاشى قـــوّة فى امْحَلَّتْكُـم
كـــل ليلة تبنـــوا هَالاَ الخيالـــة	بَتْقَاصَرْكُـم دايَـــمْ فى اقْوَاطَنْكُـــم
لا تعطـــوا عني غفلـــة الخيـــالـــة	فى هذيـــك الـدار امنـين نَلْحَقْكُم
فى الابـراج المنـــزلا الخيـــالـــة	قالـــوا لي بـزاف الحـور ضيفتكم

قال ناقلها : « وهذا ما وجدناه من كلامه رحمه الله » وهذه من اهـــم السجلات التاريخية لهذه الحادثة ٠ ثم نختم هذه الدراسة بقصيدة أخرى للشاعر الشعبى المشهور مصطفى بن ابراهيم الذى تولى القضاء فى العهد الفرنسى ببالعباس وابعدته السلطات الفرنسية فاقام مدة بفاس فقال عدة قصائد كلها غرر وتعرض فى هذه لحادث الامـير عبد القادر مع ملك المغرب فبعد ما افتتح قصيدته بتصوير حالته فى غربته متشوقا الى وطنـــه قال :

حسراه وِيـــن عرب الجود على اجْواد	جمعوا الجود هـَّة كلمـــة واصيانا
الـــرايْ رايْ وافى كَلْمَـــة ولا ازْيَاد	يرضاوا الموت ولا يبغُوشْ الهـــانا
اخلاق ذا الوطن لا نيف ولا اضْدَادْ	فى السُّوق ياكلـوا وعْنَاقى عـريانه
ادْخَلْـــت فاسْ شفْـتْ اسْـوَاقُوا	ميـّـــزْتْ مَا صُبْـــتْ ارْجَـــــال
بْنَـــاسْ عَامْـــرِين ازنـاقـــوا	الكـــــل فى الحْــــرَفْ تَحْتَـــال

ثم يذكر القبائل الجزائرية من حدود المغرب الى مسقط رأسه الزفيزف الى ان يصل الى السرسو ثم يذكر واقعة الامير فيقول :

ساس الكلام معنى نتْفكّر فى البلاد | هـدفوا نْجُوع لِىَ واتـــوا معنانا
يوم الزقا يْزيخوا ويْتِيهُوا للطْرَاد | عـــلى البـــلا تهـــد اقْطَاوَرْفتَلنَا
اعلاه يالْغَرْبى تمـزَحْ مَـــزْحْ العناد | انتما وسْلَعْكُمْ تَسْوَاوْ افَلْسْ أوْزَانَا

فراش

شتَّى نْجـــوعْ مـــا نَهْدَرْلَـكْ | يـــوم الحيانيـة عـــادوا لي
الغـــرب كلتـــوجا حـــارَكْ | حـــوزى وبَرْبـْـرِى والجبْـلى
بفزوعهـــــــا الآتَـــــدَّارَكْ | اعيّـاوا مـــن القْتَال ابْطـــالى
يَوْمَـــيْن والطْــرَاد امْشَبـَّـكْ | نِـــيرَانْ شاعْلـــة والنصْـــلى

ميتـــين عـــود انتاعـــدّة ابْلاَ عْدَادْ | النصف مات الاخرى ذَهْبَتْ هربانا
افناوا كلهـم ساروا للجنـــة اشهاد | ماتـــوا مْجَاهدين ارضاهـم مـولانا
الّي مات منكـــم جهنـــم اخــــلاد | ربى مـع الرسول املايكْتُه غَضْبَانَا

الى ان يقول :

سلطان خانهم واغْدَرْهُـم ذوك الجْوَادْ | على احْكَامْ عبـــدُه ولـــــد المْصَنَانَا
صاقوا وعمدوا للوحلـة شور البلاد | بدعوا الشرق وقالـوا نغدوا باعنانا
قالوا حـــرام نبقى معـيرة للـولاد | المـــوت كاينـــة واعلاشى ذا الهانا

فراش

اتْيَـــقّن الكـــلام اسْتَخْبَـــر | أَجِ تْقَصَّـــــرْ وسقْصِيـــنى
الغـرب بالكـــذوب امعمـــر | مارِيـتْ فيـــه ما يَعْجَبْـــنِى
احنـــا رجالنــــا تسعـــــد | ســـوق الحيـا عليهـــم مبنى

ابك فراق وطنك وافراق أهل البلاد | ابك ارجال تاهـــوا فرحـــوا معانا
ابك زمان بدّل فرحتنا بالكســــاد | ..... الــخ

ويختم قصيدته متسائلا هل يمن الله عليه بالرجوع الى وطنه ويجمع شمله بأهله فيقول :

صافا هنا مهـــوّل ويحقن بالثمـاد يـــرجى لشمل يجمع لنا مـــولانا

يا من درى نروح تَهْدِى غَرْبْ الْفَسَاد نغدى اشْوَارْ ناسى اذا طـال احيانا

اهـ منظومة مصطفى بن ابراهيم الشاعر الشعبى الشهير الذى لازال المغنون الشعبيون يلحنون قصائده وينشدونها ويتاثرون بها وفى السنوات الاخيرة كانت حياته موضع اطروحة قدمها الاستاذ عبد القادر عزة لجامعة باريس نال بها الدكتورة ·

موقف تونس من احتـلال الجـزائر

نص ما جاء فى تقرير الجنرال BOYER المؤرخ فى 15 يوليو 1831 ·

تقـــرير رقـم 1

الجنرال BOYER الى وزير الحــرب

(المحفوظات التاريخية لوزارة الحرب : الجزائر مراسلة ملف 8 : 15 ـ 7 ـ 1831)

سيـــدى الماريشـــال :

من الاخبار التى اطلعنى عليها كاتب مبعوث تونس وهو الذى كلف بابرام المعاهدة فى الجزائر مع الامين l'intendant en chef Vollant للتخلى عن مدينة وهران لداى تونس فان هذه الاخبار تذكر أن عدد الجيش التونسى المرابط بوهران يبلغ عدده ألفا منهم 300 فارس استولوا على الخيل من السكان منطقة وهران وبعد ان يذكر ثمنها الذى دفعـوه يسترسل فى تقريره ويقول : «ان هذه القوة تحت رياسة القائم مقام أو ملازم lieutenant الباى كان قبل هذا جاء جنرال تونسى الا أنه عندما شاهد نتيجة الفظائع التى ارتكبها الجيش التونسى عند خروجه لقمع سكان البوادى رفض منصبه ورجع الى تونس » ·

انه من الاحسن ان حكومة عظمة ملكنا تقرر ماذا تفعل بالمائتى فـرس التى هى فى حوزة التونسيين حتى يظهر للسكان ان فرنسا حقيقة عازمة على حمايتهم وان الجنـرال حاكم المنطقة الوهرانية يمكنه استثمار هذا الحل ·

ان رئيسين من رؤساء القبائل العربية الذين لهم التصرف المطلق خارج وهـــران حيث يتمتعان بالنفوذ التام اعلنوا عداءهم للتونسيين اثر قمعهم البربرى للسكان وهما الحبيب بوعلام ومصطفى بن اسماعيل فهذان الرئيسان يتصرفان خارج وهران وهـــم

الذين منعــوا السكان من معاملتنا فقطعوا عنا التموين فبقدر ما تستعجلون بطــرد التونسيين ومغادرتهم البلدة تطمئن نفوس السكان » اهـ وقد تعرض الجنرال فى تقريره الذى ذكر فيه أحداث بيعة أهل تلمسان (التى تحدثنا عنها) لملك المغرب لموقف بـاى تونس وهذا نص التقرير :

« تقرير رقم 4 الجنرال BOYER الى وزير الحرب »

(محفوظات الولاية العامة بالجزائر : نقل المحفوظات الحربية) ·

وهران فى 21 سبتمبر 1831 :

(وثيقة تاريخية فى الاحداث التى وقعت فى ولاية وهران منذ نزول الجيش الفرنسى بسيدى فــرج) ·

يذكر الاحداث التى منها ما تقدم لنا الحديث عنه فهذان الرئيسان يتصرفان خـارج البلدة وهم الذين منعوا الفلاحين بمعاملتنا فقطعــوا عنا الحطب والتموين فبقـدر ما تستعجلون بارسال التونسيين تطمئن نفــوس السكان » اهـ كما تعرض BOYER فى تقريره عدد 4 المؤرخ فى 21 سبتمبر 1831 محفوظات الولاية ·

اثر مبايعة سكان تلمسان لملك المغرب وارسال هذا الاخير ابن عمه ثم والى تطوان الخ قال : « فى شهر فيفرى الماضى وصل الى الجزائر القائمقام الذى أوفده داى تونس لاحتلال مدينة وهران بناء على معاهدة الجنرال كلوزيل Clauzel ان هذا الرئيس التونسى كان مصحوبا بـ 250 جنديا ـ فرسان ـ وبعد اقامته مدة بالجزائر ومفاوضاته مع القائد الاعلى ذهب الى وهران مع جيشه وبعد وصوله مكنوه من مال القمارق Deuanes كما مكن من محتويات مخازن الباى حسن ··· ،

القائمقام التونسى استصحب معه جيشا قليل العدد لا يمكنه حماية المدينة ولهـذا بقيت الفرق الفرنسية تحتل المرسى الكبير وحصون وهران ·

فهذا القائد العسكرى التونسى لم تكــن عنده امكانيات لدفع ما تتطلبه مصاريف جيشه فلم يفكر الا فى ملء جرابه الذى هو جراب الشحاذ ، لم يشاهد سكان وهران مسؤولا بلغ به البؤس والفاقة الى حد أن جنده كان يتسول ونفرق عليه الخبز وكذلك

الجيش الذى كونه من نحو 500 تركى ميليشيا جزائرية ولم يعطهم قيراط من عنده وبعبارة شاملة فخير الدين (القائم مقام) لم يفكر الا فى مصلحة جيبه والاستيلاء على المال بأية طريقة فقد باع للتجار اليهود الرخص لاصدار الحبوب بنحو 50000 فرنك وهو يتحقق انه يبقى فى وهران حيث ان ملك فرنسا لم يمض على معاهدة كلوزيل كما ان سلوكه الوضيع اثار غضب السكان المسلمين قليل من رؤسائهم وردوا لزيارته أما كبار الرؤساء فلم يقيموا له وزنا فأراد ان ينتقم ولهذا دخل فى صبيحة بعض الايام ونحو 30 راس نسوة وصبيان محمولة على السيوف ونحو 4000 رأس غنم وبقر سرقوها فى طريق رجوعهم من قمع السكان وقد ارضوا اطماع اليهود الذين اشتروا منهم الغنم وباعوها بدورهم الى الاسبان والانكليز بجبل طارق » الخ اهـ · ملخص ما فى هذا التقرير من فظائع ·

الخلاصة : ان التضامن الجزائرى ـ المغربى الذى عنونا به هذه الدراسة والتضامن الجزائرى ـ التونسى الذى ختمناها به ، حقيقى ، وانه اثبت وجوده عبر التاريخ · وانما لم يكن هذا التضامن من صنع الولاة والرؤساء بل كان يرعاه أفراد الشعب وفى طليعتهم علماء الدين ، فاثر الاحتلال الفرنسى ، والوقوف المخجل الذى وقفه كل « من ملك المغرب وباى تونس » كان أفراد سكان البلدين يتلقون جماعات اللاجئين الجزائريين ويعاملونهم معاملة الاخ لاخيه جاعلين نصب اعينهم ما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » أو كما قال ·

ولضيق مجال هذه الدراسة سنخص موضوع التضامن الحقيقى بدراسة أخرى ·

رحلة المرحوم "أبو زهـرة" إلى المغرب

وانطباعاته عنها

نشرت مجلة « لواء الاسلام » التى تصدر بمصر بعددها الثالث المؤرخ فى ذى القعدة 1387 هـ الموافق لـ فبراير 1968 م في ص 139 تحت عنوان « رحلـة » للشيخ المرحوم محمد ابوزهرة ضمنها انطباعاته عن بعض المظاهر الفولكلورية والاستبدادية المصبوغة بالدين زورا وبهتانا مثـل أمـير المؤمنـين وغير ذلك ٠ (القسم الاول منها هذا نصه) :

1 ـ « رحلـة » (1) ٠

كان مجمـع البحوث الاسلامية بالقاهرة يفكـر فى الاحتفال بمرور أربعـة عشر قرنا على انبعاث النـور الاسلامى والهدى القرآنى بارسال محمد صلى الله عليه وسلم بالحق بشيرا ونذيرا على أن يكون ذلك الاحتفـال جامعا يدعى اليه كبار العلماء فى أرض الاسلام قاصيها ودانيها شرقها وغربها ، ويكون ذلك عقب احتفال وزراة الاوقاف المصرية بهذه الذكـرى الطيبة الطـاهرة فى حاضرتها القاهرة ، وبقية الحواضر المصرية ، حتى يعم نور الذكرى ريف البلاد وصعيدها ٠ ولكنى كنت استبطىء الاحتفال العام الجامع ، وأجادل اخوانى العلماء فى شأن هذا التأخير ٠

2 ـ وبينا أنا أجادل وأدعو الى التعجيل ، وان كان العام يصلح للذكرى ـ جاءتنى دعوة من حكومة المغرب باسم ملكها ، وانى دائما أعتقد أن أرض الاسلام واحدة ، لكل مؤمن حق مشاع فى أى جزء من الارض فى أى اقليم ، ولو كان شبرا ، فسارعت لهذا الاعتبار الى الاستجابة ، وان بعدت الشقة ، وعظمت المشقة ، ووهن العظم ، واشتعل الرأس شيبا ، وهيأت لنا سفارة المغرب بالقاهرة السفر على أول طائرة تقوم من القاهرة ، ولو التوت مسالكها ، وتعرجت طرائقها ، ولم يناسب ميقاتها ، فاعددنا للسفر فى ليلة الثلاثاء 25 من رمضان وخرجنا من منزلنا صباح ذلك اليوم حول الساعة الثانية صباحا ، وقامت بنا الطائرة فى الساعة الثالثة والنصف فى قرور البرد ، عن طريق روما ، وتناولنا طعام الصحور فى الطائرة ، ووصلنا الى روما قبل الشروق ، ومكثنا فى انتظار جيس أكثر من ثلاث ساعات حتى جاءت طائرة فرنسية تحملنا الى نيس المدينة الفرنسية ، ومكثنا ننتظر بها أكثر من خمس ساعات فى مكان ضيق لا نطلع فيه على شىء ولو حاولنا ما تمكنا ولا استطعنا ، وما استطعنا أن نحصل فيه على كرسى نجلس عليه الا بشق الانفس ، وكانت المناظر البشرية تؤذى كل ذى دين وتزعج نفسه ·

وبعد طول الانتظار ، وعدم القرار جاءت الطائرة ، فارتفعنا اليها ، واستطعنا فى زحام ، وبعد جهد ان نجد الكرسى الذى نتمكن من الجلوس عليه ، ثم وصلنا الى مرسيليا ، ومكثنا ننتظر فى مطارها نحو نصف ساعة ، ثم عدنا الى الطائرة التى كنا بها ، وسارت بنا ميممة وجهها شطر الرباط فوصلنا فى نحو السادسة وتناولنا طعام الفطور فى الطائرة بعد أن تحرينا وقت غروب الشمس ، أى بعد الثامنة حسب توقيت القاهرة ·

3 ـ نزلنا الى المدينة العامرة الطيبة ـ الرباط ـ فوجدنا فى استقبالنا مندوبا أرسله ملك البلاد ، فأحسن استقبالنا وصحبنا الى فندق ضخم يطيب النزول فيه ، واسمه (فندق حسن) ، فأزلنا غبار السفر ، واسترحنا قليلاً من وعثائه ، ثم نمنا نوما هادئا طيبا عميقا ، ورد الله به علينا ما وهبنا من قوة إنه القوى العزيز اللطيف الخبير ·

التقينا نحن الوفود الاسلامية من علماء الشرق ، وجاء الى رسول الملك ، وأسر الى ان الملك سيجىء الى الوفود الاسلامية ليرحب به بشخصه ، فقلت ان الأليق أن نذهب نحن اليه ، لا أن يجىء هو الينا ·

وفى مساء ذلك اليوم الاربعاء 26 من رمضان آقام لنا سفراء الدول الاسلامية وليمة التقينا فيها بعلماء الاسلام ، وممثلى الدول الاسلامية فان بجواره شهى الحديث المتبادل . ولو كان مقتصرا على تناول الطعام وكان بجواره شهى الحديث المتبادل المعلن للوحدة الاسلامية والمشاركة فى السراء والضراء والبأساء .

توالت الايام من بعد ذلك ، ففى يوم الخميس 27 ، كان اجتماع مع وزير الخارجية المغربية ، وقد بين منهاج الاجتماعات ، وليس فيها قيام مؤتمر يتذاكر فيه العلماءحال المسلمين ، وما يجب نحو القرآن، بل كان فيه استعراض للعلماء أمام التليفزيون يتحدث فيه كل مدعو نحو دقيقتين أو أكثر قليلا ، ثم مذاكرات من بعد ذلك فى جامعة الرباط ، لا تتجاوز ان يتكلم بعض مريدى الكلام، وكان الوقت مطلقا ابتداء ، ثم قيد بخمس دقائق واستطعنا فى هذا الاجتماع أن نتكلم بضع عشرة دقيقة فى شان القرآن ، والسبيل للمحافظة عليه بالاجتماع،والاخذ بتعاليمه التى استنبطها السلف،ولنا أن نستنبط منه ومن سنته ما تدعو الضرورة الى استنباطه وعلى أن يقوم الحكام بتنفيذ أحكامه ووضحنا القصد فى ذلك ... ولقد علمنا أن بعض ذوى الشأن وفيهم بعض الوزراء اعتبرونا جامدين ، لاننا رفضنا ما يسمى تطوير الشريعة ، فان كان ذلك جمودا فنعما هو ، ونحن ننادى بـه هنـا .

4 ــ فى مساء الخميس (27) من رمضان التقى بى الرجل الطيب الكريم وزير الاوقاف هنالك ، وقال لى : ان رجالات العلم من الوفود سيوزعون فى الاقاليم ، كل عالم يلقى فى حاضرة اقليم ، فبعضهم فى الدار البيضاء ، وبعضهم فى طنجة ، وبعضهم فى فاس . الى آخر الاقاليم .. ولعل ذلك اتباع لنظام ــ القاهـرة ــ ولا فرق الا أن ــ القاهـرة ــ كان فى علمائها غناء اغناها عن الاستعانة بغيرهم ، وذكر لى أن الملك أى (أمير المؤمنين كما يسمونه) اختصنى بأن ألقى فى المسجد الاعظم بحضرته ، فقبلت ذلك شـاكرا وذهبت ، وصليت فى ذلك المسجد ، وكان الخطيب ممتازا فى خطبته والقيت الكلمة بعد الصلاة ، ولم يتيسر حضور الملك ، فارسل مدير ديوانه وبعض الامراء ، وكان موضوع كلمتى « المجتمع الاسلامى » ، وحق العدالة فيه بشعبها ومنها العدالة الاجتماعية ، وحق توافر الكرامة الانسانية لكل انسان من غير نظر للونه أو جنسه أو دينـه ، وبينت

تحرير الاسلام للعبيد ، وتحريمه الرق فى الجملة ، ثم بينت التعاون الانسانى فى الاسرة والمجتمع الصغير ، ومجتمع الامة ، والمجتمع الانسانى ، وقد استغرقت المحاضرة ساعة وثلاثة أرباع الساعة ٠

ثم اشتركنا فى بعض المذاكرات اذ لم يكن هناك مؤتمر بالمعنى الحقيقى أو القريب منه ، كما نرى فى المؤتمرات ، التى يعقدها مجمع البحوث الاسلامية فى القاهرة ، بل انها احتفالات وولائم تتخللها أحيانا مذاكرات ٠

5 ـ وفى يوم الاحد دعينا الى الدار البيضاء من قبل أحد اثريائها ، فأجبنا داعيه ، ووجدنا ذلك البلد الامين أجمل بلد رأيناه ، هـو على سيف المحيط الاعظـم ، تتخلله الحدائق الغناء والقصور الفخمة ، ولا شىء يقتحمه النظر ، حتى قال لنا قائل : انه لا خيال يشبهه الا فى سويسرا ونحن نسير فى الطريق اليها ، ما كنا نرى الا الخضرة عن اليمـين والشمال ، لا فرق بين جبال شامخة وسهول منبسطة ، ووديان منحدرة ، وأكام مرتفعة بل كلها بساط أخضر سندسى منسق يعلو وينخفض ، ولا ينقبض عنه النـظر قط ٠ والاجام والغابات تتخلله ، وأشجار الزيتون مبثوثة فيه كالعمائم الخضراء وقد تمـتد حتى كف جانبيه ، وأثمار الفواكه دانية متدلية ٠

ولا نريد أن نسترسل فى ذكر جمال ما رأينا ، حتى لا نبعد عن الحقائق ٠٠ قضينا شطرا من الليل فى ذلك البلد الجميل ، ثم عدنا بعد هـزيع منه ، فوجدنا رسالة فى الفندق من قبل السيد وزير الاوقاف ، يقول لى : ان الملك يـرغب فى أن أتحدث فى التليفزيون غدا فى الساعة التاسعة والنصف ليستمع الى هو وأسرته ، اذ فاته سماعى بالمسجد ، فتقبلت ذلك شاكرا راضيا ، وكان ذلك الحديث فى مساء يوم الاثنين يـوم عـيد الفـطر ٠

6 ـ وفى ذلك اليوم خرجنا فى الصباح الى خارج الرباط حيث أقيم للصلاة فسطاط كبير ، حضره الملك وقد استقبلناه نحن المدعوين وقد نبهت الى انى اذا حييت الملـك برفع يدى كالمعتاد ، فسيحييني بوضع يده على صدره ، وكان ذلك كما قيل لى ٠٠

جاء الملك يركب جوادا مطهما حوله ستة جياد مثله ، ويحف بجواده طائفـة كبـيرة من السود ، **قالوا انهـم عبيـده ! !**

صلينا ثم حييناه ، وقد ذكرنى عند تحيته بحديث التلفيزيون فى التاسعة والنصف ٠٠ وفى نحو التاسعة وثلاثة أرباع تحدثنا فى التليفزيون ، وكان موضوع الحـديث

« الخلق الاسلامى ، والتربية الاسلامية » تكلمنا فى العبادات واثرها فى البناء الاجتماعى والارتباط الوثيق بين الضمير الاسلامى وهذا البناء ، ثم عرجنا على العدالة الاجتماعية ، والترابط بين آحاد المجتمع والجماعات الانسانية ، ومكث الحديث خمسا وخمسين دقيقة • وفى اليوم التالى الثلاثاء الثانى من شوال ، كانت التشريفات الملكية فى صباحه الخطبة أمام الملك ••

7 ـ عندما عدت من التليفزيون فيما بعد الحادية عشرة ، وجدت بعض العلماء يقول لى انهم اجمعوا على أن أكون أنا المتكلم عليهم أمام الملك فى وقت التشريفات ، فاعتذرت وقدمت الاستاذ (عبد الحميد السايح) لمقام جهاده ، ولانه وزير بالاردن •••

وفى ساعة التشريفات جاء الى وزير الاوقاف ، وقال لى : أنت ستخطب والا ستفهام تقريرى ، فقلت له ـ سيتكلم الاستاذ السايح ، فقال لا مانع من اثنين فقلت انى مقصود وقد يكون فى الموضوع سياسة ، وأنا أبغضها ، فقلت يضم اليه الاستاذ عبد الله غوشه وهو قاضى القضاة فى مرتبة وزير ، فقال لا مانع من ثلاثة فقلت الاستاذ نديم الجسر مفتى طرابلس بلبنان ••

تنفست الصعداء ، لانى تخلصت من الخطبة وقد يسأل سائل لماذا هذا التخلص ، وأقول فى الاجابة عن ذلك قامت لدى أسباب منها :

أ ـ ان فى طبيعتى انقباضا نفسيا ربما لا يعرفه الكثيرون وأن هذا الانقباض يمنعنى من الكلام الا لحاجة دينية أو علمية •

ب ـ انى لا أعرف كيف يخاطب الملوك •

ج ـ انى رأيت ان ارادتى للكلام سياسة ملكية ، وأنا لا أريد أن أكون أداة سياسية مطلقا •

حمدت الله تعالى على انى لم أخطب ، وما ندمت على ذلك مطلقا ، ولكن فقدت النظرة العاطفة التى كانت تحوطنى ، وانى لم أفقد حسن المعاملة وقد خطب الملك خطبة رحب فيها بالعلماء وخص الدكتور حته عبد الرحمن بالذكر ، وقيل من بعض العلماء ان ذلك رد على الامتناع من الخطبة •

تعاقبت الاحوال بعد ذلك ، وقد زادتنى اطمئنانا الى ما صنعت ، وفى مساء يوم الثلاثاء كان حفل شاى أقامه الملك ، وفيه وضع فى عنقى ، وعنق كبار العلماء نشان

كتب عليه انه تقدير الكفاية الفكرية ، وما شعرنا انه رفعنا بذلك ، واننا لو منعناه ما نقصنا شيء ·

في يوم الاربعاء ثالث أيام العيد طلب الينا أن نزور قبر الملك ـ محمد الخامس ـ فزرناه ، ووجدناه قطعة من الفن الزخرفي ، الارض مبسوطة بالصدف ، والجدران محلاة به ، وأما السقف فالزخرفة فيها بلغت حد الخيال ، ولم أجد في قبور أسرة محمد على عندنا ما يدانيها ولكن هذا القبر لم يرض به الملك الحالي ـ الحسن الثاني ـ قبرا لابيه ولاجداده ، فبنى لهم في أرض متسعة ربما وصلت الى فدادين قبرا فيه الطنافس والزخارف التي تتجاوز حد الخيال في البهاء والمنظر ، وقد اخذنا في تقديره نحدس ونقدر فما اهتدينا ، وسألنا مسؤولا عما قدر له في ميزانية المغرب ، فقال لنا انه قدر له ابتداء ثلاثة ملايين من الجنيهات وليس للقارىء أن يظن اني ندمت لاني لم ألق الخطبة بل انني رضيت عن نفسي من غير غرور ولا حول ولا قوة الا بالله ·

وفي مساء ذلك اليوم كان حفل **يسمى عندهم حفل الولاء** · أخذنا اليه ووقفنا حول ميدان واسع، وجاء الينارئيس الديوان يقول لنا « ان جلالة الملك سيحضر راكبا الجواد ، ويمر على ممثلي الاقاليم والعبيد يقولون « ربنا يطول عمرك يا سيدي » فيقول ممثلو الاقاليم (آمين) وممثلو الاقاليم قد صفوا صفوفا كل صف يمثل اقليما ، وعدد الصفوف يصل الى ما يقل عن خمسة عشر ، وقدجاء الملك راكبا جواده ، وحوله السود **الذين سموهم عبيدا** · تقدم الى الصف الاول ، فدعا أولئك دعاءهم ؛ **فركع ذلك الصف ركوع الصلاة كاملا** ثم ذهبوا ، وتقدم الى الصف الثاني ، ثم الثالث ، والدعاء متوال ، **والتامين الراكع ركوع الصلاة** متوال مثله حتى أتمها ، **وكانه لا يكتفي بالركوع الجماعي من الصفوف ، بل لابد من أن كل صف بمفرده يركع ثم يذهب موزورا غير ماجور** ·

عاد الملك بعد ذلك ، وبعد أن استوثق من الولاء الراكع وهو على الصفوف ، والسيدة التي خصها بالثناء تلوح بيدها تحية واكبارا وقد وضع يده على صدره ردا على التحية بمثلها وأنا واقف مشدوه العقل ، ويدي لم ترتفع هذه المرة والعين متجهة الى ·

وارجو الا يظن أحد من ابنائي اني ندمت لامتناعي عن الخطبة ، لاني لم أفهم السياسة بل اني زدت اطمئنانا لتوفيق الله ، ولكني مع ذلك جزعت من بعد ان فكرت وقدرت

احوال المسلمين ، وما آلت اليه أمورهم اللهم املا قلوبنا عــزة بعزتك وارفع نفـوسنا برفعتك ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا .

رحلـة ـ 2 ـ

انتهينا من رحلتنا الى أرض المغرب الى ما رأيناه مما **حز في نفوسنا من حفل الولاء الراكع الذى اظلمت الدنيا برؤيته في عينى** ، وكان العجب من أمرين :

ـ أولهما ـ **تلك الطائفة التى سموها عبيدا ، وهم اخوتنا فى الانسانية وفى الاسلام وانه لا رق بعد ان اصبح الناس لا يسترقون** ، اذ قد وضعوا فى قانونهم انه لا رق فى هذه الايام ، وان من حق الانسان فى كل الارض قاصيها ودانيها أن يكون حرا ، وبذلك لا يكون فى الحروب استرقاق قط، ولا رق فى الاسلام الا فى الحرب التى يسترق فيها الاعداء أسرى المسلمين ويكون استرقاقنا من قبيل المعاملة بالمثل ، اذ أن الله تعـالى يقول : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين » (سورة البقرة آية 194) . ويقول تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين » (سورة البقرة آية 190) . ولا شك اننا اذا فرضنا الرق على اسراهم وهم لا يفرضونه نكون قد اعتدينا ، والله تعـالى لا يحب المعتدين ، **اذن فلا رق بحكم الاسلام فى هذه الايام الا أن يكون من قبل النخاسة وهى اثم لا يرضاه الله تعالى** ، ولا شرع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يرضاه خلق دينى أو اجتماعى ومن يعاونه آثم موزور .

وقد قال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومـن كنت خصمه خصمته ، رجل أعطى ذمتى ثم غدر ، ورجل باع حرا وأكل ثمنه ، ورجـل أستأجر أجيرا ولم يعطه أجره » .

ولا شك أن هذا الذى يخاصمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بائـع الحر ، يشاركه كل المشاركة المشترى الذى يعلم انه حر ، وانه لم يقم به سبب الرق .

فهل يرضى بهذا من ينتسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شرع ، لا حول ولا قوة الا بالله .

2 ـ الامر الثانى : **ان يقبل الملك ذلك الولاء الراكع وهو ينتسب الى فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمية ، والى على بن أبى طالب الذى كان وهو الامام يسير بين الناس كأحدهم والذى حرق بالنار من سجدوا له** ، ثم هو ينتسب اليها عن طريق الحسن أول الاثنين من شباب أهل الجنة ، وهو الذى كان تذهب به قوة الايمان وفرط تواضعه الى أن يسير الى الحج ماشيا ونجائبه بجواره ، فانه يروى فى صحاح السنة انه كان يمشى فى طريق الحج ونجائبه تقاد الى جنبه ، فقيل له الا تركب يابن بنت رسول الله ، فقال : انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من اغبرت قدمه فى سبيل الله تعالى لم تمسسه نار جهنم » ٠

هؤلاء عترة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نريد أن يكون حاضرهم كماضيهم ، وأن تكون ذريتهم صورة من أخلاقهم ، ليكونوا حجة على الناس ، وليثبت بالعمل ذلك النسب الرفيع ، وذلك الشرف الكريم ، نريد أن تكون أعمال اشرافنا صورة مزكية للاسلام داعية ، ترد كيد الكائدين عنه ، ولا تغرى ظالما باتباعهم ، اننا نريد رفعة العترة المحمدية النبيلة عن قالة تسر ممن لا يرجون للاسلام وقارا ، ولا لنبيه محمد خير الانام اخلالا وتقديرا ٠

3 ـ هذه أمور شاهدناها ـ ذكرناها وما أردنا بذكرها الا تذكيرا ، ولنلقى على أنفسنا المؤاخذة على تقصيرنا ان سكتنا ، ولنقضى العهد الذى أخذه الله على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه وانا لا نبغى الا كلمة الحق ، ما أردنا المال ولا ابتغيناه ولا طمعنا فيه لان الله سبحانه رزقنا الرزق الوفير ، وأعطانا العطاء العزيز ، ونكفر بنعمة الله ان اعترانا طمع والله سبحانه وتعالى عليم بذات الصدور ٠

ولقد علمت من بعد ذلك أمورا غريبة عجبت كيف تحدث فى بلد اسلامى ٠

أول هذه علمته من ابنة عالم جليل عرفته بعلمه ولم أسعد برؤية شخصه ، ذلك هو العلامة الشيخ الحجوى الثعالبى عالم المغرب وفقيهه ٠

ذلك أننا انتهزنا فرصة وجودنا فى طنجة ، وزرت مع صحب كرام جبل طارق ذهب صاحباى الى شراء امتعة من سوق الجبل وأخذت أنا أجوب طرقاته متفصحا الوجوه حتى تعبت ، فجلست فى مقهى ارشدانى اليه ورأيت ما ألقى بالحسرة فى قلبى على الاندلس

فردوس الاسلام المفقود ، فرأيت أكثر من فى الجبل وجوها عـربية وأجساما عـربية ، فايقنت انهم سلالة العرب ، بقيت صورهم ، وحالت قلوبهـم ، بالاكـــراه النصرانى وبالوحشية التى ارتكبها المعذبون . والتى تذكر الى اليوم بالهمجية الاوربية التى مـا زلنا نراها فى أمريكا وغيرها ، من همج الانسانية الذين يسمون انفسهم متحضرين أو مؤمنـــين .

4 ـ وبينا نحن عائدون على الباخرة الى طنجة ، وجدت سيدة كريمة وزوجها ينظران الي ، وكنت فى مجلسى على مقربة منهمـا ، ثم تحـــدثا الى فقالت لى السيدة فى أدب واحتشام ، أأنت فلان ؟ فقلت نعم، ومن أين علمت ؟ قالت رأيتك ـ فى التلفزة ـ وأردت أن أتحدث اليك لان أبى عالم وله كتب ، فقلت فما كتبه ؟ فذكرت لى كتابا أنا قرأتـه وانتفعت به فى علمى وفى كتبى التى كتبتها ، وهو كتاب « الفكر السامى فى تاريـخ الفقه الاسلامى » للشيخ الحجوى الثعالبى ..

فقلت لها انت ابنة ذلك العالم الجليل العظيم ، فقالت نعم ، فسألتها أهو حى ، وذلك لازوره ، فقالت هو مات مقاربا المائة ، ولكنه مات محدودا مقترا عليه فى الرزق ، لان أمواله كلها صودرت فى عهد الملك ـ محمد الخامس ـ بعمل أحـــد تلاميذ الشيخ ، اذ اتهموه بالخيانة وادعوا ولاءه للفرنسيين ، مع انه كان فى سن لا تسمح لـه بالتفكير فى السياسة وقد أصابه خوف الشيخوخة فعلمت انها فتنة السياسة ، لا تقدر الانسان ، ولا فضل العلماء ، ولا السابقات المكرمات التى تغفر الهنات بل السيئات ، ثم قلـت لها : لا حول ولا قوة الا بالله ، ولكنها استرسلت هى وزوجها الكريـم فى القـــول ، فقالت : « ولما مات دفن فى مسجد قد بناه أخوه ، وتلك عادة معروفة بين أهل المغرب ، فمنعوا الناس من الصلاة فى هذا المسجد امدا غير قصير ، ثم جاءوا ونبشوا قبـــره ، ونقلوا جثمانه الى المقابر العامة !! » أثر فى نفسى أن يحارب ذلك العالم الجليل فى رزقه حيا ، حتى يموت وهو محروم معثر ولكن اللـه أكرمه بالموت ، حتى يستـر فقره ، ولا يكشف عواره ، ثم اذا قبضه الله تعالى اليه لا يرهبون الموت ، فينبشون قبره ، مـــا الذى يدفعهم الى هذا ؟ فقال زوج السيدة الكريمة ، لانه قد استوزره الفرنسيون فكان وزيرا للعدل فى عهدهم ، فهلا علموا انه كان يمكن أن يقولوا عفا الله عما سلف ، وان

يعرفوا ان الوطنية رحمة ، وليست ارهاقا ، وان له من سنه ما يوجب العفو ، ولكن هكذا النفوس غير المتحرجة ، ولا حول ولا قوة الا بالله ٠

5 ـ ولقد علمت أمرين آخرين زاداني ألما ، ورفقا على صفو هذه الرحلة الجميلة ٠

أحدها : انه عند نكسة العرب في حرب يونية سنة 1967 أقام اليهود الافراح ، وانارو متاجرهم بالاضواء البراقة ، وعم ذلك مدائن المغرب الاسلامي العربي ، ففاض ذلك المؤمنين فهبوا مستنكرين ، والتحموا باليهود الذين يتحدون العرب والمسلمين ، في أرضهم وديارهم ، فتجردت الحكومة الاسلامية العربية لتفض ذلك التصادم وكانت تقبض على المؤمنين ، وتزج بهم في غيابات السجون ولا تقبض على يهودي ، حتى زالت الاضطرابات وبذلك جعلت كلمة اليهود هي العليا في أرض عربية مسلمة ٠

الامر الثاني : انه بعد أن أطفأت تلك الثورة التي أوجدها التحدي الصارخ رأى التجار المؤمنون أن يعملوا عملا اجدى من اثارة الاضطرابات ليتقوا الفتن ، وليتقوا السجون التي فتحت أبوابها لهم ، وهو عمل مشروع وذلك بأن يقاطعوا التجار اليهود ويقتصروا على معاملة المؤمنين واذا كان ذلك يؤدي الى خسارتهم ماديا ، فانه يملأ نفوسهم بالاحساس بحق الايمان عليهم ، وانه لعوض معنوي ، عما يخسرونه ماديا ، ولكنهم فوجئوا من ولى الامر بأنهم ستصادر أموالهم ان اقدموا وكان التهديد ممن لا يستطيعون اعتراضا على قول له ٠

لقد حز ذلك في نفسي وقلت قول الحق ، ان الشعوب مؤمنة ، ونضرع الى الله العلى القدير ، ان يصل ايمان الشعوب الى قلوب الكبراء ، وان لم يمكن ذلك فان الامر لله ، وهو الذي يملك تغيير الاحوال ، ولقد قال سبحانه « لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » (سورة الروم آية 5) ٠

6 ـ رأينا في المغرب ما سرنا وما ضرنا ، فكان ما سرنا شارح لصدورنا ، وما ضرنا تمنينا معه أن تزول اسبابه ، وتنقشع غمته ، وانا لنرجو ان تكون سحابة صيف عما قريب تقشع أن المغرب بلد جميل فيه شعب طيب « بلدة طيبة ورب غفور » ٠

جمال ما رأيت له نظيرا ، وقال كثيرون ممن يعيشون في أوربا انه ليس مثله ، في أوربا كثيرا جبال خضر ، ووهاد سندسية والزيتون مبثوث في كل قطعة من الارض والطرقات مسقة تنسيقا هندسيا رائعا ، فيلتقي فيها جمال الطبيعة بجمال الصنعة ٠ اللهم متع المسلمين بديارهم وأملأها بالعزة والكرامة فلا عزة الا عزتك ولا ولاية الا ولايتك ، وانت وليهم في الدنيا والآخرة ٠ اهـ

منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية

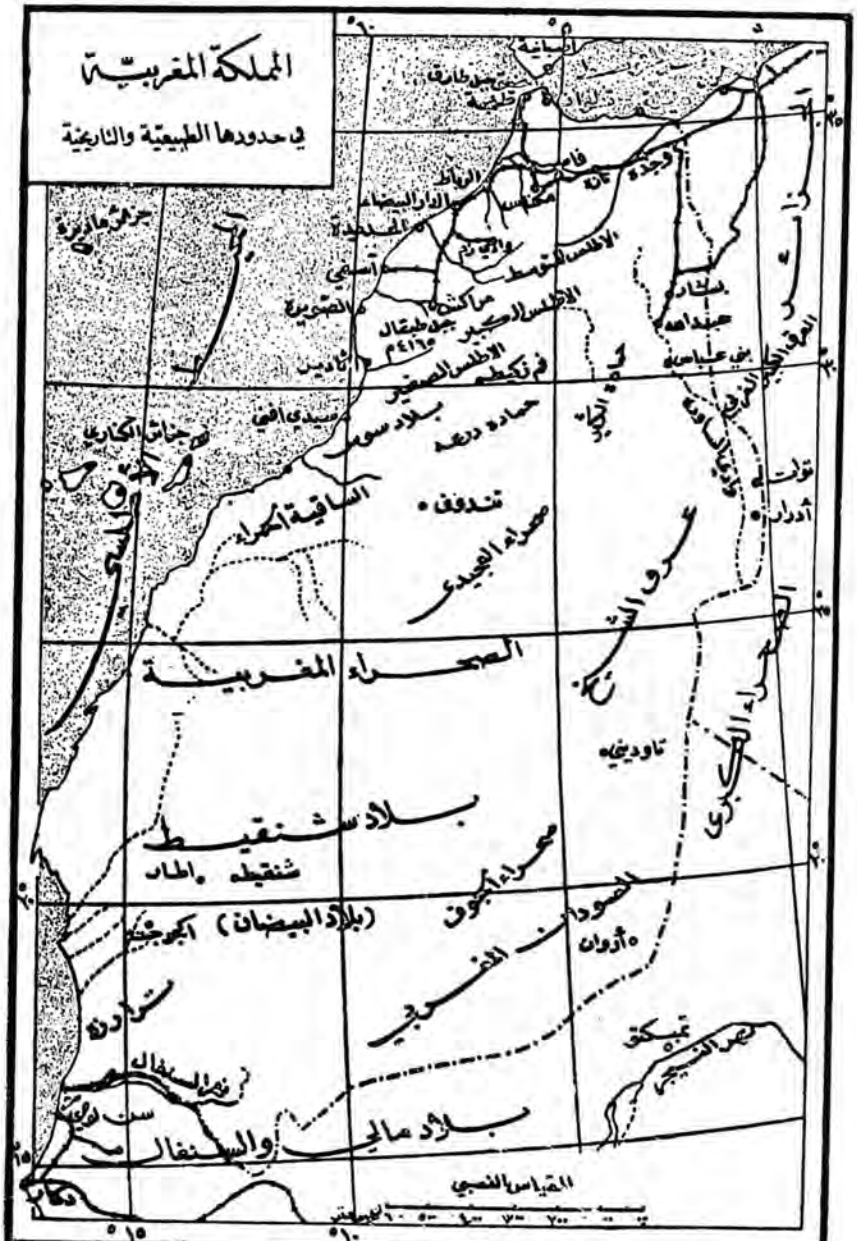
صـــدر أخـيرا:





في 5 مجلدات (بالعربية)

الامبراطورية المغربية كما يتخيلها



خريطة نشرت في المدرسة توضح
المغرب الكبير كما يدعى العرش العلوي

النظـام العلـوي فى المغـــرب

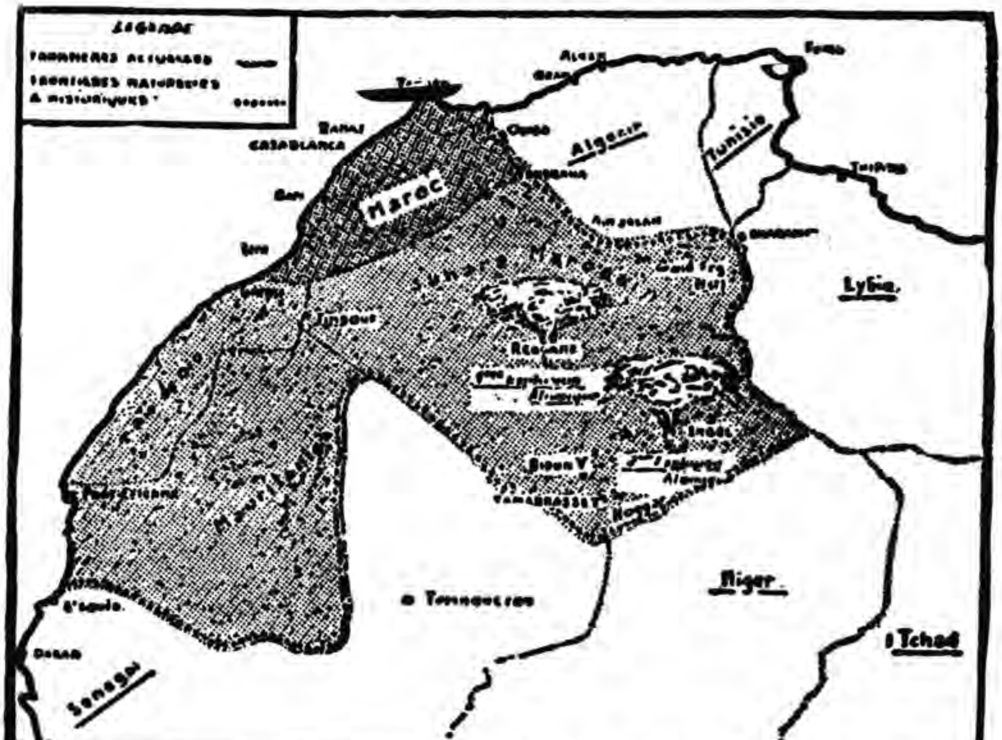
ان السياسة التوسعيــة المغربية ظهــرت فى صلب برامــج التعليم ومخططات الاحــزاب العميلــة للملك ، وعلى سبيــل المثــال يمكن تتبــع هاتين الخريطتــين اللتــين تدرســـان فى المدارس المغربية بصفة رسميــة وتتضمن ما يسمى بالمغرب الكبــير والمملــكة المغربيــة فى ـ حــدودها الطبيعيــة والتــاريخيــة ـ ·

وهذه الخريطة تتضمن ضم الصحراء الغربية وموريطانيا الى نهــر السينغال ، ومن جهة أخرى مجموع الصحراء الغربية الجزائرية بما فى ذلك مدننا بشار ، العبادلة ، بنى عباس وأدرار التى توجد داخل المغرب ، وبطبيعة الحال تتحول تندوف الى مدينة مغربية ، وتتضمن هذه الخريطة ايضا جزءا هاما من مالى وبالخصوص مدينتا ودانى وأوران ، هذا هو المغرب الكبير الذى تعلمه مدارس الملك للاطفال المغاربة ، بكيفية رسمية علنية ·

وهناك مثال آخر على النوايا التوسعية يظهر فى الخريطة الثانية وهى منشورة مــن طرف حزب الاستقلال الذى أعلنت صحافته أن « الجزائر لا تشكل أمة » ·

ويتضمن المغرب الكبير لحـــزب الاستقلال الصحراء الغــربية بمجموعها موريطانيا ومجموع الصحراء الجزائرية الى غاية الصحراء الليبية ·

هكذا يتضح أمـــام جميع الناس أن الحسن الثانى يرمى من وراء غزوه للصحراء ، لتنفيذ اول مرحلة من مخطط توسعى سيعرض المنطقة بل القارة الافريقية كلها الى الخطر وأنه يسعى لضرب وحدة الشعوب العربية فى المغرب لاشباع نهمه الاستعماري ·



خريطة نشرتها جريدة ـــ الاستقلال ـــ

الساقية الحمراء

ماضيا وحاضرا

نتشر فيما يلي نص الندوة حول الصحراء الغربية التي نظمها المركز الثقافي الاسلامي بالعاصمة لتوضيح حقيقة الدعاوى المغربية في الموضوع • وشارك فيها الاساتذة : المهدى البوعبدلي ، ومولاى بالحميسى ، ويحيى بوعزيز .

المهدى البوعبدلى
عضو المجلس الاسلامى الاعلى
– الجزائر –

ان هذه الناحية كانت لها صلة بالحضارة من فجر التاريخ ، وبالضبط من العهد الحجرى ، كما تدل عليه الاكتشافات الاثرية ، كما لعبت دورا عظيما فى الحياة السياسية والاقتصادية ، وبلغت ذروة المجد التي خلدها لها التاريخ ، لم تحلم بها كثير من دول بلاد العالم . ان دورها فى الميدان الاقتصادى يرجع الى أن مناجم الذهب التى حبتها بها الطبيعة كانت أجود أنواع ذهب العالم . وقد رأينا انها كانت قوافل التجار ترد اليها فى العهد الاسلامى من مختلف عواصم البلاد الإسلامية . وقد ذكر البكري فى معرض حديثه عن قلعة بنى حماد التى ورثت مركز عاصمة المغرب العربى اذ ذاك القيروان ، بعد سقوطها ، قال فى وصف القلعة : « وهى

اليوم مقصد التجار ، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب » الخ . وقد ذكر كثير من المؤرخين ان هذه القوافل كانت تقصد بلاد الذهب .

وانني سأنتقي بايجاز في هذه الدراسة المحدودة تاريخ هذه المنطقة، وموقعها ، وما آلت اليه ، من فجر تاريخها الى أوائل القرن الجاري . وانني من الآن أقول : ان هذه الناحية التي شاهدت عبر تاريخها الطويل الاهوال والحروب والغزوات ، احتفظت بسيادتها ، وقاومت كل معتد من القبائل المجاورة لها ، ملوكا وشعوبا . واستحال استقلالها في العصور الاخيرة الى استقلال داخلي ، اعترف به كل المؤرخين ، مسلمين واجانب، حتى بعض وزراء المغرب بعد استقلاله ، كما نبين ذلك .

كانت هذه المنطقة في أول عهدها ، يسكنها الحراطين والسود ، وحوالى القرن الرابع قبل الميلاد احتلتها قبائل صنهاجة ، وقد ادركهم الفتح الاسلامي بها ، كانت هذه القبائل تتكون من لمتونة ومسوفة وقدالة ، وقد وصلتها كتائب عقبة بن نافع الفهري في ولايته الثانية سنة 62 هـ .

اشتهرت هذه الناحية بالغنى والرفاهية ابتداء من القرن الثاني الهجري الى أواخر القرن السادس. وقد عرف كثير من المؤرخين والرحالين هذه الناحية مع اختلاف بسيط في المواقع الجغرافية ، واسماء القبائل ، ذكر المؤرخ Henri Terrasse في الجزء الاول من كتابه « تاريخ المغرب » الذي كان يدرس بثانويات المغرب ، عند حديثه عن دولة المرابطين الصنهاجية ، قال : « وقد عرف الصنهاجيون بعد الفتوحات الأسلامية بالملثمين ، وكانوا متفرقين من غدامس الى المحيط الاطلنطي، ومن جنوب المغرب الى السنقال والنيجر ، وفي القرن التاسع الميلادي كانت جموعهم تشمل لمتونه ومسوفه وكانوا يجوبون الصحراء ، وحينئذ

اتخذوا اوداغوست قاعدة حكمهم ، وقد نظموا التجارة بواسطة القوافل التى كانت تصل الى صحراء مصر » الخ .

وعرف البكرى أوداغوست هذه فقال بعد أن بين موقعها ، وذكر أن بها مساجد ، فى جميعها معلمون للقرآن ، تعرض لوصف سكانها فقال : « وهم أرباب نعم جزيلة ، وأموال جليلة ، وسوقها عامر الدهر كله ،... وتبايعهم بالتبر ، وليست عندهم فضة ، وبها مبان حسنة ، ومنازلهم رفيعة » . ثم يذكر دورها الاقتصادى فيقول : « وذهب أهل أوداغوست فى عشر الخمسين وثلاثمائة تين يروتن رجل من صنهاجة ، وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان ، كلهم يؤدى له الجزية » اه .

واما الحياة اليومية الحضارية لسكان هذه المنطقة ، فقد تعرض لبيانها الشريف الادريسى الذى بعد أن وصف سكانها بانهم يعملون الاكسية الرقاق والثياب الرفيعة ، وان أهلها يربون شعور رءوسهم قال : « ولهم بها اهتمام وحفظ وذلك انهم يصبغونها فى كل جمعة بالحناء ، ويغسلونها فى كل جمعة مرتين بدقيق البيض ، وبالطين الاندلسى ... انهم أرفه الناس واكثرهم خصبا » الخ .

وقد كانت هذه الامارات وقواعدها تتغير حسب الظروف الصحراوية وطبائع الرحل . وقد ذكر بعض الجغرافيين الفرنسيين (الجغرافية الجديدة لافريقيا الشمالية) ان هذه المنطقة كانت فى العهد الاسلامى تسمى بسوس ، الذى كان ينقسم الى ثلاثة اقسام :

- سوس الادنى وقاعدته تارودانت .
- سوس الاوسط وقاعدته تيزنيت .
- سوس الاقصى ويشمل وادى نون والساقية الحمراء .

وقد تعرض للتعريف بهذه الناحية الكاتب الخبير المتخصص في دراسات المدنيات الصحراوية الرائد Robert Montagne في تأليفه «حضارة الصحراء» La civilisation du désert طبع هاشيت 1944 قال :

« في عهد المرينيين دخل عرب المعقل الى هذه الناحية أي الساقية الحمراء ، وكان النظام الذي احدثوه شبيها بنظام الجزيرة العربية ... وابتداء من القرن السادس عشر كانت الساقية الحمراء مركزا لانطلاق الدعوة الدينية في كامل شمال بلاد المغرب العربي » ثم قال : « ان الملوك السعديين هم الذين حاولوا ضم هذه النواحي فاحتلوا سنة 1581 بلاد توات ، ثم اعانوا القائد جوذر سنة 1591 في غزوه لتنبكتو ، ورغم امداد الارسالية العسكرية طوال ثلاثين سنة بنحو 25000 جندي ، فقد اندمجوا في السودان ، ولم يخلفوا أي اثر ، اذ كانت هذه الغزوة فاشلة لم تنجر منها أية فائدة لمن قاموا بها ... » ثم قال : « كان في ظاهر الامر المعقل هم المسيطرون على تلك النواحي ، ولكن في الحقيقة والواقع كان النفوذ لصنهاجة ، والقبائل التابعة لها ، مثل التوارق – ابناء عمومتهم – وقبائل الرقيبات الباقين الى الآن بوادي الذهب . وكان الفضل في السيادة التي احتفظ بها سكان هذه المنطقة الاصليون يرجع الى النفوذ الديني ، والسلطة الروحية ، اذ كان التكوين الروحي تحت سلطتهم ، وكثيرا ما كانت السلطة الروحية تتغلب وتتقوى على سلطة السيف والعصبية القبلية . ومن آثار هذا التفوق انه عندما ثار الشيخ ماء العينين في أوائل القرن العشرين (يقصد اعلانه للجهاد سنة 1909 عندما غادر للابد الساقية الحمراء والسمارة اللتين اقام بهما من سنة 1884 الى سنة 1909) عند ما أعلن الشيخ ماء العينين اجاب نداءه كل سكان موريطانيا الزرق، : عرب وبربر ، والتحق بهم سكان جبال الاطلس ، الذين كانوا من انصار دنيويين » ثم قال « ورأينا كيف ختم هذا الفصل،

أى تأثير السلطة الروحية ، عند محاولة الهيبة ولد الشيخ ماء العينين عزل ملك المغرب عبد العزيز فكانت معركة سيدى بوعثمان التى لقيته فيها جنود الكولونيل مانجان Maugin وهو فى طريقه الى فاس . وكانت سببا فى رجوعه الى مراكش سنة 1912 » اهـ .

وقال المؤرخ الفرنسى Cornevin فى كتابه (تاريخ افريقيا ـ طبع 1966 فايو باريس) بعد ان تعرض لذكر أحداث بداية استيلاء الفرنسيين على بعض الجهات من الصحراء قال : « ان هذا الاحتلال كان سببا فى تجمع عصابات اللصوص بالساقية الحمراء سنة 1909 التى فارقها ماء العينين واعلن الجهاد بتيزنيت ـ التى التجأ اليها ـ ونصب نفسه ملكا ، وان الفضل فى الحيلولة بينه وبين امانيه ، يرجع الى الجنرال موانى Moinier الذى حاربه بتادلا سنة 1910 كثير من المؤرخين اعتنوا بذكر هذه الاحداث وبترجمة مسهبة لحياة الشيخ ماء العينين الذى كان له نفوذ مطلق وقيادة روحية متوفرة الشروط ، فقد كان من اكبر دعاة الاسلام وتعاليم الدين ، فكان يؤلف ويعقد مجالس الوعظ والارشاد ، وكانت القبائل التى انظمت اليه ورافقته الى تيزنيت قبائل شنقيط وكنتة وعريب وتاجكنت واولاد دليم ، كان عبد الحفيظ اذ ذاك بمراكش خليفة لاخيه عبد العزيز ، ولما رأى استنكار الرأى العام المغربى لاستهتارات عبد العزيز واحتلال الفرنسيين لوجدة والدار البيضاء ، نادى بالجهاد واستعان بعلماء مراكش الذين اذاعوا النداء الممضى عليه من جميع الاعيان والاشراف ، كما استعان بابن الشيخ ماء العينين ، تبنى عبد الحفيظ حركة الدعوة الى الجهاد لمعارضة الاحتلال الفرنسى ونال أمنيته حيث عزل عبد العزيز أو تخلى عن الملك بدل جراية قدرها ثلاثة آلاف فرنك شهريا وبمجرد تولية عبد الحفيظ وافق على ابرام معاهدة الحماية سنة 1912 وكاتب اثرها دول حلف الجزيرة ليعترفوا

بملكه . وفى هذه الاثناء كان أحمد الهيبة بن ماء العينين حصل على بيعة قومه وجهز جيشا عرمرما لاعانة زعيم الدعوة الى الجهاد عبد الحفيظ ، والزام عبد العزيز بقبول حكم العزل ، فبلغ ذلك عبد الحفيظ ، فمنعه من اللحاق به الى فاس ، اذ كان ابرم المعاهدة ، وادعى ان سبب منعه هو الخوف عليه من الفرنسيين .

ولنرجع الى موقف ممثلى دول حلف الجزيرة،فقد اتفقوا على الاعتراف بعبد الحفيظ بشروط ، منها : تحمل دين أخيه عبد العزيز ، والجراية التى تعهدوا بدفعها له ، أى عبد العزيز ، وتبرئه من الدعوة الى الجهاد التى أصدرها صحبة علماء مراكش . كان راس أعضاء الحلف ممثلا فرنسا واسبانيا ، وتبعهم الباقون ، الا المانيا ، فانها اقترحت أن يستبدل بند التبرؤ من اعلان الجهاد بالدعوة الى الهدنة .

هذه أوضاع هذه المنطقة المتصلة فى عهدها الاخير بأحداث المغرب ، تلك الاحداث التى كان السبب فيها تكالب الدول الاستعمارية طيلة أواخر القرن المنصرم الميلادى ، وكان من نتائجها تقاسم مناطق النفوذ داخل المغرب وخارجه ، وذلك كله لضعف الحكومة الصورية المركزية ، خصوصا فى عهد عبد العزيز ، وان فقد الامراء والملوك نفوذهم وسلطتهم ، فكان رؤساء الدين يتمتعون بثقة الجماهير ، كالناصريين أصحاب زاوية تامجروت واحساين أو الهاشمى بتزروالت ، وماء العينين بوادى الذهب . وكدليل على ضعف الملوك اذ ذاك انه بعد معاهدة المغرب مع اسبانيا تلك المعاهدة المعروفة بمعاهدة تطوان ، وكان البند الثالث منها تعهد فيه المغرب ، بتمكين اسبانيا من الصحراء . ولما تولى الحسن مكان أبيه المتوفى سنة 1873 زاره وفد اسبانى يذكره بانجاز تعهداته ، فتعينت لجنة من الطرفين ، المغربى والاسبانى ، وامتطت باخرة اسبانية اسمها Blascode Garay فوقع اختيارها على ناحية

ايغنى ، وعندما رجع الوفد المغربى أخبروا ملكهم الحسن الاول ما رابهم من وجود تاجرين انكليزيين لهما اتصال وثيق بقبائل آيت عمران وبالشيخ حساين فتوجس الملك منهم خيفة حيث انهما بائعا سلاح . فجهز الملك جيشا عرمرما يتركب من 40 ألف جندى من بينهم 17500 جندى مدرب ،ومعهم ثلاثون مدفعا ، ولما وصلوا الى ايليغ حيث يوجد رباط الشيخ ، امتنع الشيخ من استقبال الملك وارسل لمقابلته ولده ، فحاصر الملك ايليغ ، ولما خشى من نفاذ الزاد اذ قاطعه السكان ، رجع من حيث أتى ، وكل ما قام به هو هدم أسوار البرج القديم ، وسبق للملك الحسن انه عند ما كان وليا للعهد بمراكش وبلغه ان الشيخ حساين يدعو سكان سوس لخلع طاعة الملك ، جهز جيشا وقصد به تيزنيت فتعرضت له قبيلة جزولة ومنعته من الوصول الى تيزنيت .

وهذان الحادثتان يذكرهما المؤرخون للاستدلال على أن أكثر القبائل كانت لا تخضع للسلطان ، ونفس القبائل التى كانت تتصل به كانت تحتفظ باستقلالها الداخلى ، وانما تعترف بالسلطة الادبية ، وهذا ما حققه المؤرخ الشهير المختار السوسى وزير الاوقاف فى عهد الاستقلال فى كتابه « ايليغ قديما وحديثا » لما تكلم على سوس .

ومما يؤيد ما ذكرناه البحث القيم الذى نشره احمادو محمادو « بمجلة الجغرافية والآثار » التى تصدر بوهران فى عددها المؤرخ بمارس 1932 تعرض فيه « لامارة ءادرار » قال : « بين وادى نون وبين ولاتة والشاطىء الاطلنطى توجد ءادرار ، التى كانت حد الاتصال بين المراكز التجارية للصحراء الغربية » الى أن قال : « اشتهرت مدينة ءادرار التى كانت تابعة للمنطقة المشهورة فى عرف بلاد المغرب ببلاد السيبة (اى لا تنالها أحكام السلاطين) كانت القبائل التى تحكم هذه الناحية من سلالة يحيى بن عثمان ، ويسمون بالجعافرية ومعهم قبائل

غيلان والعويسيات بتاقنت اتوارث الجعافرية . حكم هذه الناحية مدة قرنين ، وكانت الحروب بينهم وبين سكان امارة الترارزة تارة ، وتارة مع اولاد دليم ، ثم اولاد سالم القبيلتين العربيتين اللتين انتقلتا الى زمور بعد مفارقتهما للساقية الحمراء ووادى درعة اثر حروبهم مع الرقيبات » الخ . اهـ

ولنختم هذه الدراسة بانه ابتداء من القرن العاشر الى الاحتلال الفرنسى ، كل المؤرخين يطلقون على ملوك البلاد الذين تعاقبوا ملوك الشرفاء ، الا ان هؤلاء الملوك لا يعترف بعضهم لبعض بصحة نسبهم، ومن ذلك أن مؤسس الدولة العلوية محمد بن الشريف العلوى بعث اليه محمد الشيخ السعدى عند ضعف الدولة كتاب « مناهل الصفا » للوزير الفشتالى و « الممدود والمقصور » لابن القاضى ، فاجابه العلوى بقوله : « ولا معول على كتاب الفشتالى ، ولا ابن القاضى ولا ابن عسكر الشريف الشفشاونى ، وسواهم ، اذ الكل أهل بساطكم ومحل مزاحكم وانبساطكم » . وقد هجا الثائر ابن أبى محلى أحد انصار السعديين ، كان الملوك السعديون يرونه من أبناء عمومتهم وكانوا فى أواخر عهدهم ينضوون تحت لوائه وكان ابن أبى محلى يضيق بجميعهم ذرعا ، خاطبه بهذه الابيات :

أيحيى الخسيس النذل مالك تدعى بزور شعارا للفحول الاوائل

كدعواك فى بيت النبوءة نسبة وأنت دنىء من أخس القبائل

ووجهك وجه القرد قبح صورة ورأسك رأس الديك بين المزابل

كان مصير أحمد الهيبة من أسرة الشيخ ماء العينين اثر الاحتلال الفرنسى اعلانه الثورة والجهاد واحتلاله لمدينة مراكش ، وعندما نجح الفرنسيون أقام بتارودانت والتجأ الى جبال الاطلس ، وكان داعية ضد

الاستعمار طيلة الحرب العالمية الاولى الى أن مات بكردوس تاركا خلافته ورياسة زاويتهم الى أخيه مربى ربو ، وفى سنة 1934 لما أحس بعجزه عن مقاومة تقدم الفرنسيين ، التجأ الى المنطقة الاسبانية رغم الاغراءات والوعد والوعيد .

الى هنا انتهى ، واننى على العادة سأنشر دراسة فيها مزيد من البيان والتفصيل بمجلة الاصالة ، وننبه المستمعين الى أن كثيرا مـن الاحداث التى ذكرتها أفرغت فى قوالب مزيفة ، وذلك ان كثيرا من الملوك كانوا يستميلون رؤساء القبائل على وجـه الصداقة والتعاون عـلى تذليل الصعوبات والتتلمذ لهم حتى اذا اجيبوا لرغباتهم يصورون للملا ان ذلك الاتصال كان برغبة من أولئك الرؤساء ليبرهنوا على طاعتهم وولائهم .

الإحتلال الإسباني للساقية الحمراء ووادى الذهب

م. بالحميسى

ـ ما يسمى اليوم بالصحراء الغربية مقاطعة واسعة (270.000 كم مربع) أى نصف مساحة فرنسا تقريبا يحدها المغرب شمالا ، والجزائر شرقا ، وموريطانيا جنوبا ويمتد ساحلها على نحو 700 كم . ويتركب البلد من الساقية الحمراء شمالا ووادى الذهب جنوبا . والاغلبية من السكان من الرقيبات واشتهروا بتربية المواشى والتنقل عبر الصحراء وهم أغنى وأقوى سكان المنطقة ومنهم الثواسم فى شرق البلاد ورقيبات الساحل فى غربها . اما الجنوب فيقطنه أولاد دليم .

ويروى أن الساقية الحمراء نزل بها ـ فى القرن الثالث عشر ـ قوم من المعاقل قدموا من الشرق مارين بالجنوب التونسى والجزائرى والمغربى ثم استقروا بوادى تارجا المعروف بالساقية الحمراء وهو أول الصحراء كما قال البكرى .

* * *

وحتى نتتبع خطوات الاسبان وهم يحققون أغلى الاحلام ، يجدر بنا ان نعود الى الوراء ، الى الفترة التى سبقت عصر نشاط الاستعمار الاوربى .

كان الاوربيون ـ وفى طليعتهم البرتغال والاسبان يتاجرون على الساحل الافريقى الغربى وذلك منذ القرن الخامس عشر ـ وقد اكتشفوا أشواقا على شواطىء وادى الذهب فكانت أرباحهم مشجعة على التعرف بهذه الناحية .

وفى سنة 1402 اكتشف رائدان وهما جان دى بتانكور ودياقو دى مريره جزر «الخالدات» التى وقعت فى قبضة الاسبان منذ 1479 . ومنها راحا يتعرفان على ساحل الصحراء ثم على داخلها وقد حصلا على امتيازات من طرف الاهالى . وبعد ذلك أسست سلسلة من المراكز للمراقبة .

وكان القرن التاسع عشر عصر تقسيم القارة الافريقية عندما اشتد التنافس بين الدول الغربية .

ـ انعقد مؤتمر فييانا سنة 1815 وأقر سيادة انقلتيرا التى كان لها التفوق على غيرها على البحار والمحيطات وفى مقابل هذا الدور وافقت بريطانيا على اعادة توزيع الممتلكات الاوربية مع تمسكها بحظ الاسد .

وكانت المستعمرات الاسبانية ـ فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ـ هامة جدا . فان أفلتت من يدها امريكا الجنوبية فانها ما زالت تحتفظ بكوبا وبرتوريكو والفيليبين ومراكز بالمغرب وبافريقية

السوداء ولهذا كانت اسبانيا ـ فى هذه الفترة ـ دولة استعمارية اقوى من فرنسا .

الا أن انحطاط البلاد فى الميدان الاقتصادى ، والاضطرابات الداخلية المتواصلة جعلت اسبانيا عاجـزة عن القيام بـدور الوطن الام فتسرب النفوذ الانكليزى والامريكى فى العديد من المستعمرات .

ـ وتضاعفت محن افريقية فى النصف الثانى من القرن الماضى . وقد تعرض مؤتمر برلين (نوفمبر 1884 ـ ففريى 1885) لمشكل المستعمرات التى أصبحت لها أهمية كبرى فى العلاقات الدولية . وكانت الغاية من انعقـاد المؤتمر ايجاد حـل لاقتسام افريقية الوسطى عندما اشتدت الخلافات بين فرنسا وبلجيكا حول الكانقو وبين فرنسا وانكلتيرا حول النيجيريا والتشاد وبين انكلترا والمانيا حول الجنوب الغربى والجنـوب الشرقى لافريقية فيما بين 1884 و 1892 .

ولعل القارىء الفاضل يتساءل كيف تم التقسيم وما هـى مقاييس التجزئة وهل هناك أسس لهذا الاستيلاء الشامل ؟

لقد تم اقتسام القارة بين الدول الاوربية دون مراعاة اية صلة بين مختلف العناصر البشرية أو فئـات السكان أو اعتبـار مصالحهم وانما انقضت نسـور الاستعمار بنـاء عـلى مصلحة الغربيين فقط وحسب انشغالاتهم الخـاصة ومراعاة لاحوالهم الداخلية ومشاكلهم الخـارجية وامكانياتهم الصناعية .

ولذا تقرر «تشريح» افريقية فى أوربا اتباعا لقواعد التعويضات الدولية . . .

وتقرر أيضا الاحتلال الفعلى للمناطق والاستيلاء الحقيقى على ما تبقى من بلدان مستقلة آنذاك .

* * *

وبعد 1870 يدخل المخطط حيز التنفيذ . وتتسابق فرنسا وايطاليا واسبانيا فى بسط نفوذها فى القارة بينما تحتل انكلترا جزيرة مالطة وجزيرة قبرص (1880) .

وهكذا تسلط الاستعمار الفرنسى ـ بعد الجزائر ـ على السنيغال 1856 الى 1864 وعلى تونس 1881 وعلى تنبكتو 1894 وعلى موريطانيا 1898 ـ 1900 .

واحتلت ايطاليا الحبشة والصومال فى 1889 .

وكانت الصحراء الغربية من نصيب اسبانيا . ففى سنتى 1884 ـ 1885 انتهت المغامرة وبدأ الاحتلال الرسمى وتأسست لجنة «ريجيا» للصحراء وأنشأت اسبانيا مدينة فيلاسسنيروس (الدخلة حاليا) وضمت البلاد اليها مبدئيا . . .

وانتضمت المقاومة وقام زعيم يعرف بماء العينين ـ مقره مدينة «السمارة» ـ يقود الحروب على الدخلاء .

(ويقوم ابنه بعده سنة 1910 ويدعو لنفسه سلطانا على المغرب ويحتل مراكش . . . وتهزمه الجيوش الفرنسية بعد معارك ضارية) .

وتستنجد الواحات الجنوبية بسلطان المغرب وذلك ما بين 1891 و 1899 غير أن هذا الاخير عجز عن القيام بواجبه نحو المسلمين .

ـ ومما لفت انظار الاسبان فى الصحراء ـ غداة الاحتلال ـ هى تجارة الذهب وكانت رائجة ولذا تعددت المؤسسات التجارية تحميها

مراكز عسكرية بينما أهملت السلطات الحاكمة داخل البلاد ولم تبال به في المرحلة الاولى .

☆ ☆ ☆

وحدث تحويل محسوس ـ فى القرن الحالى ـ داخل الصحراء . ففي مطلع القرن استفادت اسبانيا من «تفهّم» بريطانيا التى تركت لها حرية التصرف فى هذه المنطقة كما استغلت «الحياد العطوف» من طرف ايطاليا فحققت مطامعها على وادى الذهب سنة 1900 والساقية الحمراء سنة 1904 .

وهكذا أبرمت فرنسا واسبانيا معاهدة ـ فى 27 جوان 1900 ـ مفادها ضبط الحدود الجنوبية بين موريطانيا ووادى الذهب تلك الحدود التى تنطلق من الراس الابيض وتطلع شمالا الى أن تلتقى بالخط 21 درجة و 20 دقيقة عرض شمالى .

وكانت سنة 1904 سنة حاسمة بالنسبة للمنطقة . ففى مقابل تنازل فرنسا عن مطامعها المصرية لكى تبسط نفوذها على المغرب الاقصى . حصل اتفاق سرى بين باريس ومدريد يجعل الساقية الحمراء أرضا اسبانية .

☆ ☆ ☆

وكان الوجود الاسبانى فى الصحراء ـ خلال المرحلة الثانية ـ يهدف لا للاخذ بيد الاهالى للوصول بهم الى الاستقلال ـ بل كان كل تطور تعرقله سلسلة من المراعات والتحفظات وامتنعت اسبانيا ـ وهى تحذو حذو البرتغال فى المستعمرات ـ من أى تعامل مع العنصر المحلى فى الميدان السياسى عملا بالمبدأ «الابوى» المسيطر على عقلية الغربيين ..

ومع هذا فان الاسبان لم يحتلوا من الصحراء الغربية سوى النقاط المفيدة مثل السواحل لِماَ للبحر من خيرات عجيبة فى هذه الناحية وحول مناجم الفسفات ببوقراع ثم امتدت يدهم لسمارة سنة 1934 .

وكان جماعات مسلحة تضايقهم وتضايق المراكز الفرنسية ، فأجبرت الدولتان الفرنسية والاسبانية على القيام بعمليات عسكرية ضد المواطنين واسست مدينة العيون سنة 1958 وأصبحت عاصمة المستعمرة .

وعندما اتسعت رقعة الثورات فى افريقية لم تسلم المستعمرات الاسبانية مثل فرناندوبو وغينيا الاسبانية وكانت بها معارك وكان بها عنف واستسلمت الدولة الحاكمة فى آخر الامر فمنحتهما الاستقلال فى 12 اكتوبر 1968 . وبقيت الصحراء الغربية تحت نير الوجود الاجنبى وقد جنت عليها ثرواتها الطبيعية فنزلت بها الويلات تلو الويلات ...

حقيقة مطالب المغرب الأقصى التاريخية حول الساقية الحمراء ووادى الذهب

يحيى بوعزيز

الواقع التاريخى للمنطقة :

لقد كان من نتائج الفتح الاسلامى لاقليم شمال افريقيا الغربى ، أو جزيرة المغرب كما يعبر عنه المؤرخون المسلمون فى العصر الوسيط ، استعادته لوحدته السياسية التى فقدها خلال العصر الرومانى البيزنطى . وكان أهم شىء قدمه الحكم الاسلامى لهذا الاقليم وحدة اللغة والعقيدة . ويعتبر تأسيس مدينة القيروان على يد عقبة ابن نافع وقواته ، ايذانا بتصميم المسلمين على تركيز الحكم الاسلامى بهذه البلاد ، ومد نفوذه الى المناطق النائية غربا الى الاندلس ، وجنوبا الى اعماق الصحراء وما وراءها .

فتوغل عقبة بن نافع فى ولايته الثانية جنـــوبا الى اقليـم السوس الادنى ، وسيطر على بلاد المصامدة ، ومدن : مامشا ، ونفيس ، وأغمات . وقيل انه وصل الى مدينة نول على شواطىء الاطلس ، والى مواطـــن التكرور بغانة القديمة أو غينيا الحالية ، وأخضع عنـــاصر المسونيين الملثمين ، وأسس فى مواطنهم بعض المساجد ، وادى عمله هذا الى فتح طرق التجارة الى مدينة أودغشت على اطراف بلاد السينيغال الحالية .

وبعد عقبة بمدة قدم الى هذا الاقليم موسى بن نصير فاتبع سبيل عقبة الى الصحراء وشن على شواطىء المحيط الاطلسى انطلاقا من أقليم السوس الى وادى درعة ، واخضع سكان المنطقة وأسس بعض المساجد أو أصلحها فى اغمات ، واقنع السكان بالايمان والتصديق بالدين الجديد .

وعندما قامت دولة الادارسة فى المغرب الاقصى اصطدمت باللمتونيين الملثمين ، واضطرت ان تحول اتجاهها نحو الشمال والشرق الى المغرب الاوسط فى حين تحالف اللمتونيون فيما بينهم ، وشرعوا فى التوسـع والزحف نحو الجنوب لنشر الاسلام ومد نفوذهم الى هناك بعض الوقت قبل ان يتحولوا الى الشمال ويكتسحوا كل المغرب الاقصى، ونصف المغرب الاوسط الى حدود مدينة الجزائر الحالية فى اطار الدولة المرابطة التى انطلق زعيمها الروحى عبد الله بن ياسين ، وأمــــيرها الزمنى يحيى ابن ابراهيم الجدالى من رباطهما بمنحنى نهر النيجر ، أو السينيغال، على الاطراف الجنوبية للصحراء الغربية أو السينيغال الحالية .

وعندما قامت الدولة الموحدية بزعامة عبد المؤمن التاجرى فرضـت سيطرتها على كل المغرب العربى الشمالى من طرابلس الغـرب شرقـا الى طانجه وسواحل الاطلس غربا ، وعلى كل الصحراء الغربية الجنوبية التى تشمل اليوم مالى ، وموريطانيا ، والساقية الحمراء ، ووادى الذهب ، وشمال السينيغال .

وبعد سقوط دولة الموحدين انقسم اقليم المغرب العربى الكبير على نفسه وتكونت فيه ثلاث دويلات متناحرة متحاربة فيما بينها هى : الدولة الحفصية بتونس ، والدولة الزيانية بتلمسان ، والدولة المرينية بالمغرب الاقصى . وانفصلت الصحراء الغربية وقامت بها امارات محلية اختلفت قوة وضعفا وعمرا ، من ضمنها مملكة مالى ، ومملكة الصنغاى التى ستصطدم باطماع ملوك المغرب الاقصى السعديين ، فالعلويين خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادى ، فى أطار حملة أحمد المنصور السعدى أواخر القرن 16 ، وحملة المولى اسماعيل العلوى أواخر القرن 17 م . اللتين يستند عليهما المغرب فى مطالبه الحالية .

فما هى حقيقة هاتين الحملتين ؟ وما هى أهداف سلاطين المغرب من الحملتين ؟ .

حملة أحمد المنصور السعدى
وحقيقة مطالب المغرب الاقصى التاريخية حاليا :

ان بذور اطماع المغرب الاقصى فى الصحراء الغربية ترجع الى عهد المرينيين . وعندما قامت الدولة السعدية فى مطلع القرن 16 ، عجزت عن طرد الاسبان والبرتغاليين من موانى المغرب التى يحتلونها ، واصطدمت بصمود سكان المغرب الاوسط (الجزائر) ، وحزم الادارة التركية الناشئة به ، فاتجهت بانظارها وأطماعها نحو الصحراء جنوبا . وكان السلاطين السعديون ينعتونها ومن ضمنها الساقية الحمراء ووادى الذهب ، ببلاد « السيبة » على اعتبار انها بلاد خارجة عن نطاق حكمهم وسيطرتهم ، ويكلفون قبائل المخزن الخاضعة لهم بغزو هذه المناطق وغنم ما بها من أموال وبشر باعتبارها مصدرا للثراء . فترتكب الاعمال الوحشية كالقتل ، والتشريد ، والمصادرة الجماعية ، رغم أن السكان مسلمون .

ومن الصدف أن السعديين لم يتجهوا لغزو الصحراء الا بعد أن عجزوا عن طرد الاسبان والبرتغاليين من موانى الشمال ، وعجزوا عن النيل من تراب الجزائر والمغرب الاوسط ، وان ملك المغرب اليوم لم يقم بغزو الصحراء الغربية الا بعد أن فشل فى طرد الاسبان من مدن سبتة ومليلية ، والجزر الجعفرية وحجر باديس ، وعجز عن النيل من تراب الجزائر عام 1963 .

ومن أهم الاغراض التى دفعت أحمد المنصور لغزو الصحراء الغربية طمعه فى خيراتها التى تتوفر عليها خاصة مناجم الذهب ، ومقالع الملح ، وريش النعام ، والابنوس التى كانت من أهم صادرات المنطقة . وكذلك العبيد السود . تماما كما فعل اليوم ملك المغرب الحسن الثانى عندما اندفع بجيوشه الغازية الى المنطقة طمعا فى استغلال خيراتها وثرواتها المعدنية كفسفاط بوكراع ، وسمك المحيط .

ومن الصدف كذلك أن تجار المغرب الاقصى آنذاك عارضوا حملة أحمد المنصور ، مثلما يعارض اليوم الشعب المغربى غزو الحسن وقواته للاراضى الصحراوية ، لانهم تأكدوا ان الغزو العسكرى لا يؤدى اطلاقا الى نشاط التجارة ، ولا السيطرة على مناجم الذهب ، ومقالع الملح ، بل الى العكس تماما . وصدقت نبوءتهم .

وقد استغل احمد المنصور خلافه مع مملكة الصنغاى حول واحة تغزة التى تشتهر بانتاج الملح الذى يستغله المغاربة ليشتروا به التبر ، والعاج ، وريش النعام ، فقرر شن حملة عسكرية خرجت من مراكش عام 1590 بقيادة رجل اسبانى يقال انه أسلم ويدعى جودار باشا ، وكان عدد جنودها أربعة آلاف شخص وقيل عشرون ألفا ، بينهم عدد كبير من المسيحيين ، والاسرى ، والعبيد . تماما كما فعل اليوم الحسن الثانى

عندما اعتمد على القوات الاسبانية فى احتلال المنطقة الصحراوية : الساقية الحمراء ووادى الذهب .

اتجهت حملة المنصور الى الساقية الحمراء ، واخترقت شنقيط الى أعماق الصحراء حتى وصلت الى واحة جاو عاصمة مملكة الصنغاى ، وواصلت سيرها حتى وصلت الى مدينة تمبوكتو وتمركزت بها عام 1591 ، واضطر ملك الصنغاى اسحاق الثانى ، واتباعه أن يعتصموا بالمناطق الجبلية لتنظيم المقاومة ضد هذه القوات المغربية الغازية بعد معركة تونديبى المهولة .

لقد حققت هذه الحملة العسكرية المغربية نصرا عسكريا مؤقتا ، وغنمت ، على ما قيل ، حمولة ثلاثين بعيرا من تبر الذهب ، الامر الذى جعل أحمد المنصور يلقب بالذهبى ، وغنمت اموالا أخرى متنوعة استغلها المنصور فى استصلاح موانى المغرب الشمالية كالعرائش ، وفى تطوير صناعة السكر باقليم السوس . غير أن هذه الحملة فشلت فى تحقيق الاحتلال الكامل والدائم للمنطقة ، واقتصر نفوذ رجال الحملة وأولادهم واحفادهم فيما بعد على واحة جاو ، ومدينة تمبوكتو ، واعتمد قوادها فى تعينهم بمناصبهم الباشاوية على الجنود وعناصر السكان بالواحة ، ولم يكن لسلاطين المغرب الا سلطة اسمية رمزية عليهم ، وصاروا يحملون لقب الباشا تقليدا لباشوات الجزائر ، من جودار باشا الى آخر عهدهم ، وبقوا يحتفظون بمظاهر السلطة على هذا الشكل حتى عام 1780 ثم اختفوا وانقرضت امارتهم وظهرت سلطات محلية فى هذه المنطقة (فى الساقية الحمراء ووادى الذهب ، وشنقيط ، برئاسة زعماء محليين).

ومن الصدف أيضا أن أحمد المنصور تقرب من الانجليز والهولنديين للحصول على الاسلحة الضرورية لحملته الغازية ، فى نفس الوقت الذى

كانت فيه الجزائر تقاوم ببسالة القرصنة الاوروبية ودولها المتوحشين في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، ومن ضنهم الانجليز والهولنديون والاسبان ، والفرنسيون . تماما مثلما حدث اليوم عندما تحالف ملك المغرب مع الاسبان والفرنسيين والامريكان ضد الشعب الصحراوى في الساقية الحمراء ووادى الذهب ، وعادى الجزائر التى تقاوم التسلط الامبريالى ، وتؤيد حق تقرير المصير لكل الشعوب بما فيها الشعب الصحراوى .

وبعد موت أحمد المنصور تنازع ابناؤه الثلاثة : زيدان ، والمأمون ، وأبو الفوارس ، على السلطة ووراثة العرش ، واستعان المأمون بالاسبان ضد أخيه زيدان بفاس . وسلم اليهم ميناء العرائش بعد أن استصدر فتوى من علماء فاس تجيز تسليم أرض اسلامية للنصارى الكفار مقابل فداء أحد أحفاد الرسول . ولم يتورع المأمون في كشف خطة مسلمى الاندلس الرامية الى استعادة بلادهم الاندلس بتأييد ومساعدة من الجزائر ، مما دفع ملك اسبانيا الى اصدار قرار التشريد المشهور عام 1610 الذى ادى الى طرد كل من بقى من المسلمين بالاندلس بصورة متوحشة ومرعبة .

هكذا كان أحمد المنصور وابناؤه عونا للاوروبيين المسيحيين ضد مسلمى الاندلس ، وضد سكان الصحراء ، وضد الجزائر ، وضد وحدة المغرب العربى الكبير التى كان يتمتع بها في صدر الاسلام ، وخلال عهد الموحدين . تلك الوحدة التى سعت الجزائر خلال العهد التركى ، أن تبعثها وتعيدها من جديد وحتى اليوم ، ولكن ملوك المغرب الاقصى السعديين والعلويين عارضوها حتى اليوم .

حملة المولى اسماعيل العلوى

لقد قامت الدولة العلوية فى مطلع القرن 17 ، وكان من ابرز ملوكها المولى اسماعيل الذى حكم المغرب أكثر من نصف قرن (1672 — 1727 م) ، فجدد أطماع أحمد المنصور ونظم حملة على المنطقة الصحراوية مما يدل على فشل حملة أحمد المنصور . غير أن هذه الحملة كانت أقل ضخامة وعدة من الحملة السابقة ، ولم تستطع ان تتوغل كثيرا الى اعماق الصحراء واكتفت بفرض سيطرتها المحدودة زمنا ومكانا على الساقية الحمراء وشمال وادى الذهب ، وشنقيط (موريطانيا الحالية) . واستعان المولى اسماعيل بجيش (العبيد البخارى) الذين أخذوا من الصحراء زمن أحمد المنصور وبعده ، وكان من ضمن أهدافه فى هذه الحملة كذلك تجنيد المزيد من السود قسرا فى المنطقة الصحراوية ليستخدمهم كسلفه المنصور فى قواته الغازية للنهب والسلب والخطف فى المنطقة الصحراوية أو «بلاد السيبة» كما كانوا ينعتونها ، وفى الاعمال الشاقة بشمال المغرب .

وكما حصل لحملة أحمد المنصور فانه بمجرد أن اختفى المولى اسماعيل تقلص نفوذ المغرب من الساقية الحمراء ووادى الذهب وشنقيط ، واستقلت هذه المناطق برئاسة الزعامات المحلية للقبائل الصحراوية . وبقيت على هذه الحال الى أن زحف عليها الاستعمار الاوروبى فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ووزعها كقطع الشطرنج . وكان من نصيب فرنسا ما يسمى اليوم بموريطانيا الى جانب مالى والسينيغال ، وكان من نصيب اسبانيا الساقية الحمراء ووادى الذهب .

تلك هى خلاصة المطالب التاريخية في هذه المنطقة التى لا تستند ، كما رأينا، على أى أساس معقول أو مقبول، استنادا الى منطق التاريخ نفسه :

أولا : ان سيطرة الموحدين على هذه المنطقة اذا أمكن اعتبارها مبررا كما أدعى ملك المغرب اليوم فان الجزائر أولى بالمطالبة لا بالمنطقة الصحراوية فقط ، وانما بالمغرب الاقصى نفسه لان منشىء الدولة الموحدية وبطلها الكبير عبد المؤمن بن على جزائرى أصلا ومنشأ .

ثانيا : ان سيطرة سلاطين المغرب على المنطقة الصحراوية تقتصر فقط على جزء من فترة الحملتين العسكريتين السابقتين لاحمد المنصور ، والمولى اسماعيل أما قبل ذلك وبعدها فكانت المنطقة مستقلة ما عدا فى صدر الاسلام وعهد المرابطين والموحدين الذين يعتبر عهدهم تاريخا لكل المغرب العربى ، وليس للمغرب الاقصى وحده . واذا فما يدعيه اليوم ملك المغرب هو حق مشاع بين دول المنطقة ومنها الجزائر . اذا جاز أن نساير هذا المنطق ونسلم به .

ثالثا : عندما شن أحمد المنصور ، والمولى اسماعيل حملتيهما على هذه المنطقة الصحراوية لم تكن شاغرة ، أو « بلاد سيبة » كما ينعتونها بالمغرب الاقصى وانما كانت بها ممالك وامارات وطنية محلية على غرار كثير من مناطق العالم فى صدر عصر التاريخ الحديث . تماما مثل ما هو الحال اليوم عندما غزاها ملك المغرب اذ يوجد بها شعب بلى بالاستعمار الاسبانى المتعصب ، المتقوقع ، الجامد .

رابعا : ان حملتى أحمد المنصور والمولى اسماعيل لم تنجرا من أجل الدفاع على هذه المنطقة وحمايتها أو نشر وسائل التحضر فيها وانما من أجل النهب والسلب والغنم للاموال والثروات ، ومن أجل استرقاق أهلها كعبيد لخدمة مصالح قصور السلاطين بالشمال ، وكم هى تلك الجرائم الوحشية التى ارتكبها جنود أحمد المنصور والمولى اسماعيل فى حق سكان الساقية الحمراء ووادى الذهب وموريطانيا ، التى يحلو لهم

أن يعبروا عنها ببلاد السيبة ليبرروا غزوهم وارهابهم وما اقترن بهما من مظاهر الوحشية .

خامسا : ان سلاطين المغرب الاقصى لو كانوا ينوون الخير لهذه المناطق لما استعانوا بالاجانب من النصارى الاسبان وغيرهم فى غزوها ولو كانت البلاد لهم قبل ذلك لما اضطروا الى تجريد مثل تلك الحملات العسكرية الكبيرة ، والى الاستعانة بالعناصر الاجنبية التى تعتبر عدوة الجميع . ولكن التاريخ يعيد نفسه فى هذه القضية فكما استعان احمد المنصـور بالنصارى فى غزو الساقية الحمراء ووادى الذهب ومـوريطانية فى أواخر القرن 16 ، استعان ملك المغرب اليوم عام 1975 بنفس العناصر ولنفس الغاية والهدف الخسيس .

سادسا : وأخيرا ، ان ملك المغرب الحالى متناقض مع نفسه ومـع الامثلة التاريخية التى اعتمدها . فاحمد المنصور ، والمولى اسماعيل لم يقتصر غزوهما على الساقية الحمراء ووادى الذهب فقط وانما امتـد ليشمل شنقيط (موريطانيا) ومالى . فلماذا لم يطالب بهما كذلك ولم يجرد جيوشه لغزوهما ، لو كان حقيقة صاحب مبادىء ومثل عليا يعتمد على المطالب التاريخية الحقيقية . ان استقلال مـالى ، وموريطانيا ، لا يحول دون المطالبة بهما اذا كانتا حقيقة جزءا من التراب المغربى .

ان ملك المغرب استأسد اليوم على شعب الساقية الحمـراء ووادى الذهب ولكنه يمثل دور النعامة أمام الاسبان فى سبتة ومليلية والجزر الجعفرية وحجر باديس ، غير ان الطريق طويـل ، كما قـال الرئيس بومدين ، ومزروع بالاشواك وقنابل الثوار وسوف لن يكـون الحسـن الثانى باحسن حالا من أحمد المنصور والمولى اسماعيل . فالطرد مـن الصحراء هى النهاية الحتمية له ولجيوشه الغازية طال الزمن أم قصر .

البيعة والشورى في الإسلام
وتطورهما عبر التاريخ

وهذه الندوة الثانية التى نظمها المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة حول المفهوم الدينى الصحيح للبيعة ، لا كما يزيفه النظام الملكى فى المغرب ، وشارك فيها الشيوخ :
المهدى البوعبدلى ، واحمد حمانى ، وعبد الرحمان الجيلالى ، وسليمان داود بن يوسف ·

المهدى البوعبدلى

عضو المجلس الاسلامى الاعلى
ـ الجزائر ـ

ان بحثنا فى هذه الندوة ، سيشمل البيعة ومبدأ الشورى وتطورهما عبر التاريخ .

وحيث أن البيعة والشورى ، هما من دعائم الخلافة الاسلامية ، فاننى سأتناول بالبحث الخلافة بصفة عامة ، ثم تطورها عبر التاريخ ، وما آلت اليه فى العهد الاخير ، أى عهد الانحطاط ، والتدهور ، وتفكك ما تبقى من اوصالها .

ولما كانت وجهات نظر ائمة الاسلام تختلف فى هذه القضية الهامة فى الاسلام ، ركزت القسم الاخير الذى ختمت به هذه الدراسة ، على مواقف بعض ائمة المذهب المالكى ببلاد المغرب الاقصى كنماذج ، اذ بقية بلاد المغرب العربى كالجزائر وتونس ، وليبيا ، كانت منضوية تحت حكم الخلافة العثمانية ، كما انى لضيق مجال البحث ذكرت المراجع فى دراسة موسعة ستنشر فى مجلة الاصالة .

الخلافة الاسلامية هى رئاسة عامة فى الدين والدنيا وهى خلافة عن النبى (صلعم) فللامة عليه الولاية العامة ، والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم ، من اقامة الحدود ، وتنفيذ الشرائع ، وله أيضا القيام على شؤون دنياهم ، وبالجملة فهو الحاكم الزمنى والروحى ، ومع هذا كله لا تجب طاعته الا فى حدود الشرع ، وقد بين حدود الخلافة ، أبو بكر الصديق فى خطبته بعد مبايعته مباشرة فقال : (أيها الناس ، انى وليت عليكم ولست بخيركم ، فان احسنت فأعينونى ، وان اسأت فقوموني ، فالضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه .. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فان عصيت الله فلا طاعة لكم على) وعزز فحوى هذا الخطاب عمر بن عبد العزيز فى خطابه المنهجى الذى القاه بعد توليه مقاليد الخلافة فقال : (ألا لست بقاض ، ولكنى منفذ ، ولست بمبتدع ولكن متبع ، ولست بخير من احدكم .. الى أن قال .. وان الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بظالم ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) .

وقد اعتنى بالخلافة أعلام الاسلام وائمته ، فخصصوها بالتآليف القيمة ، الجامعة المانعة ، وأهم ما كتب له الخلود منها « الاحكام السلطانية » لابى الحسن الماوردى ، وقد ترجم الى عدة لغات ، وسأقتصر على لقطات من مواقف بعض علماء الاسلام ، أظهروا فيها آراءهم ، وطبقوها قولا وعملا ، عندما انحطت الخلافة ، وتدهورت دعائمها كالبيعة والشورى ، خصوصا فى بلاد المغرب العربى . ان علماء الاسلام ومفكريه متفقون على أن تاريخ الخلافة ينقسم الى فترتين . الفترة الاولى تشمل عهد الخلفاء الاربعة ، والفترة الثانية تبتدىء من تولية اليزيد بن معاوية ، الى الغاء الخلافة العثمانية ، اثر الحرب العالمية الاولى .

وهم متفقون على أن القسم الاول توفرت فى أصحابه شروط الخلافة باتم مدلولاتها ، واما القسم الثانى فانهم كادوا أن يتفقوا على أن اطلاق لقب الخلافة على من ادعوها من باب التجاوز ، بل هى نظام ملكى بحت ، واستثنوا من بينهم الخليفة عمر بن عبد العزيز . كان فى طليعة أصحاب هذا الرأى ، القاضى الفقيه محمد المقرى التلمسانى أستاذ عبد الرحمن ابن خلدون ، الذى كان يرى ، ان نظام الملكية مناف للشريعة الاسلامية ، وانما الذى يوافق مبادىء الاسلام هو الخلافة المبنية على الشورى واستدل على رأيه بقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض » الآية ثم قال (ولم يجعل فى شرعنا الا الخلفاء) فكان أبو بكر خليفة ، ولم يستخلفه رسول الله (صلعم) نصا لكن فهم الناس ذلك فهما ، وأجمعوا على تسميته بذلك ، ولما توفى لم يورثها لاولاده ، وانما ترك نظر الاختيار لاصحابه ، وهكذا بالنسبة الى عمر وعثمان فعلى .. ثم قال : (ثم كان معاوية أول من حول الخلافة ملكا ، والخشونة لينا ، فجعلها ميراثا فلما خرج بها عن وضعها ، لم يستقم ملك (فيها) وأيد ابن خلدون رأى أستاذه هذا بمزيد من الوضوح والتفصيل فقال : ان الخلافة الخالصة كانت فى الصدر الاول الى آخر عهد على ، ثم صار الامر الى الملك ، وهكذا كان الامر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك ، والصدر الاول من خلفاء بنى العباس الى الرشيد وبعض ولده ، ثم ذهبت معانى الخلافة ، ولم يبق الا اسمها وصار الامر ملكا بحتا ... وجرت طبيعة التغلب الى غايتها ، واستعملت فى اغراضها ، من القهر والتقلب فى الشهوات والملاذ الخ) .

ولا يمكننا التعرض لتحليل حكم الشورى وآراء العلماء فى شروط وجوبها ، فنكتفى بسرد ما ورد فيها من بعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى « وشاورهم فى الامر » وقوله « وأمرهم شورى بينهم » ونكتفى

أيضا بالاشارة الى عمل النبى (صلعم) وعمل خلفائه مـن بعده ، ذلك العمل الذى كان مبنيا على التشاور ، وعدم الاستقلال بالرأى ، وكـل ما هنالك أن الشريعة الاسلامية ولو قررت مبدأ الشورى ، كأصل مـن أصول الحكم فانها لم تنظم طريقة تطبيقه ، وانما تركت ذلك للظروف والمقتضيات ، ومن جملة اختلاف وجهات نظر علماء الاسلام ، فى الخلل الذى يطرأ على اثر البيعة والشورى ونتيجته انحراف من وضعت فيه الثقة ، وأخل بواجبه . من سوء سلوك أو اهمال واجباته الحيوية ، فانه بمجرد ثبوت ذلك تسقط أهليته ، وحينئذ يمكن لاهل الحـل والعقد عـزله ، وان لم يستجب ، فيجب قتاله ، وهذا العزل وما يترتب عليه ، هو محل الخلاف الجوهرى بين العلماء أجازه بل أوجبه بعضهم ، وتردد آخرون ، واحتفظوا بآرائهم ، ورأى بعضهم عدم الجواز ، وآخرون أفتوا بالمقاطعة السلمية أى ملازمة البيت ، وعللوا ذلك ، بالخوف من أحداث الفتن وللمثال نذكر ، أن المعتزلة يرون ان عزل المنحرف واجب ، وان أبى فقتاله ، وجعلوا ذلك أصـلا من الاصول الخمسة ، فى مذهبهم ، وكذلك الصفرية من الخوارج ، فهم يرون أن الامام المنتخب ولو توفرت فيه الشروط المطلوبة ، وحافظ عليها ، مدة ولايته ، الا أنه ان ظهـر من هو أصلح منه واكفأ عزل ونصب الاصلح مكانه .. ولضيق مجال هذه الندوة نكتفى بذكر بعض علماء المغرب من الفقهاء المالكيين ، لـم يترددوا فى اصدار فتاويهم بعزل الامام المنحرف ، وقتاله ان لم يمتثل لحكم العزل وطبق هؤلاء العلماء آراءهم قولا وعملا ومن هؤلاء الفقيه الذائع الصيت أبو العباس أحمد بن عبد الله المشهور بأبى محلى ، فقد أعلن الثورة على ابناء الملك أحمد المنصور الذهبى السعدى الذين اتهمهم بموالاة البرتغاليين عند احتلالهم لمدينة العرائش ، ومن جملة ما قاله فى الموضوع « والبيعة لا تعقد لملحد ، ولا تلزم لمتعد مكره عليها كـل

موحد ، والجهاد عليه هو فرض عين ، والجائر المنفر المشتت للجماعة لا يصعد خطيبا بالامة كلها على المنبر ، على هذا نحيا ، وعليه نموت ان شاء الله » ثم قال يصف مجتمعه اذ ذاك (اللهم انى ابرأ اليك مما فعل أهل عصرى وقطرى بدينك ، عالمهم مداهن ، ومرابطهم كاهن ، وسلطانهم فاجر أو كافر ودليلهم حائر ، وسبيلهم عن القصد بها جائر ، فاليك الشكوى ، فى رفع هذه البلوى) ، ثم ظهر جليا أن البيعة كانت تعقد تحت حكم السيف قهرا وغلبة ، وقد روى ان أول من هدد باستعمال السيف أحد دعاة البيعة لليزيد ، ابن معاوية وذلك أنه عندما جمع معاوية أهل الحل والعقد لمبايعة اليزيد قام من جملة الخطباء الذين أشادوا بفضائله يزيد ابن المقفع ، وألقى خطابا موجزا ، ختمه بقوله « أمير المؤمنين هذا » وأشار الى معاوية « فان هلك فهذا » وأشار الى اليزيد « ومن أبى فهذا » وأشار الى السيف .

ولنختم هذا البحث بما استحالت اليه البيعة والشورى فى عهدنا الاخير ، لما ابتليت بلاد المغرب العربى باحتلال بعض اجزائها ، وحماية الاجزاء الاخرى ، وكانت بلاد المغرب الاقصى هى البلد الوحيد ، الذى احتفظ بالنظام الملكى ، فثبت انه رغم ما كان ينشر ويذاع من أن مجلس علماء البلاد ، واعيانها ، وذوى الحل والعقد من نخبتها رشحوا الملك الفلانى وحرروا عقد البيعة بعد التشاور ، وأمروا بتلاوتها على منابر المساجد ، ومحلات التجمعات فان اختيار الملك كان يقع سرا فى الاقامة العامة ، وهى التى تستشير بدورها الوزارة الخارجية وبعد الموافقة يؤمر العلماء والاعيان وأصحاب الحل والعقد بالاجتماع وتحرير عقد البيعة أو امضائه ، ثم يتولون نشره واذاعته على الطريقة المألوفة ، وكدليل على هذا ما كتبه رئيس الجمهورية الفرنسية السابق Poincaré الذى ذكر فى تأليفه الشبيه بالمذكرات ، المسمى (اثر أحداث أقادير)

ذكر فى سياق حديثه على المغرب قبل الحماية وبعدها ، عندما كان رئيس الوزارة الفرنسية ، كيف أمكن للمقيم العام الجنرال ليوطى ، بعد ابرام معاهدة الحماية مع الملك عبد الحفيظ سنة 1912 اختيار من هو ألين عريكة ومحل ثقة الفرنسيين ، فوقع اختياره على مولاى يوسف وامكنه ان يحصل على تخلى الملك عبد الحفيظ بدلا من جراية سنوية ، قدرها ستون وثلاثمائة ألف فرنك وقد خلع الرئيس Poincaré على الجنرال ليوطى لقبا جديدا وهو (صانع الملوك) وكان المغرب اذ ذاك لم تتغير وضعيته التى وصفها ابن أبى محلى فى عهده يصف كثرة المتوثبة للملك قال (وكل من تغلب على جهة قليلة منهم انما يبايعه من لا بال له ، أو مكره على بيعته خوفا من ظلمه فسابت الامة ، وعمت البلبلة والغمة) ولهذا كلــه ان ظهرت كتب مثل (الاسلام ونظام الحكم) لعــلى عبد الرزاق ، ذلك الكتاب الذى أحدث هزة عنيفة اثر سقوط الخلافة العثمانية وحكم باحراقه ، وصودر ، وجرد مؤلفه من اجازاته الازهرية ، هناك ما يبرره .

الإمامة وأهميتها وشروط من ينتخب لها

احمد حمانی
رئيس المجلس الاسلامی
الاعلی ـ الجزائر

ان الامة الاسلامية ـ اذا كانت مؤمنة حقا • مستقيمة على الطريقة صدقا كما كانت فى عهدها الاول ـ خير امة اخرجت للناس • دينا وخلقا ، وعدلا واحسانا • ونظاما وحكما وقوة وأهلية للحياة المثلى ، تؤمن بالله وتتكل عليه وتستجيب له ، وتتبع سننه فى الكون وما شرع لها من الدين • يشيع بين أعضائها الخير والصلاح والمعروف ويامرون به ، ويختفى من مجتمعهم الشر والفساد والمنكر ويتناهون عنه ، يتعاونون على البر والتقوى ، ويتنكرون للاثم والعدوان ويتحالفون على حرب اهله •

ولقد وصف الله اعضاء هذه الامة المثالية فى آيات كثيرة من كتابه وأعلن رضاه عنهم وضمن لهم النصر والتمكين فى الارض ما استقاموا ، ومن أجمع الآيات القرآنية فى الموضوع ما جاء فى سورة الشورى ، قال الله عز وجل : « **فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (33) والذين**

يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون (34) والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون (35) والذين اذا اصـــابهم البغيى هم ينتصرون (36) » ·

ومن تمعن جيدا فى هذه الآيات البينات وتدبرها تبين له بوضوح انها اشتملت على أكمل صفات أعضاء المجتمع المثالى الفاضل الذى تتكون منه خير الامم وأفضل الشعوب ، وأقوى الدول واحسنها ، وأسعد الناس وازكاهم فى دينهم ودنياهم ·

ايمان بالله متين تطمئن به القلوب وتزكى النفوس وتسمو الاخلاق · ودين قويم ، واتكال على الله مع السعى والجد · وبعد عن الاغراق فى المادية الصرفة والتهالك عـلى متع الحياة الدنيا · واجتناب لكبائر الاثم والفواحش · وحلم عند الغضب يعصم من الندم على الاندفاع مع القوة الغضبية والاستسلام لسورتها · واستجابة لله وللرسول اذا دعاهم لما يحييهم بطاعة مثالية فى العسر واليسر والمنشط والمكره مما يضمن النظام · وتشاور بينهم فى أمورهم مما يضمن لهم حسن التدبير فى السياسة والحكم ، ويعصمهم من الخطا والتعرض لاستبداد الفرد بالرأى مما يؤدى الى فساد نظامهم ، ويعرضهم لذهاب ريحهم وزوال دولتهم وهلاك أمتهم · واقامة للدين بقيامهم باركانه المصلحة لمجتمعهم لابدانهم وأرواحهم المزكية لنفوسهم كالصلاة والزكاة والانفاق من طيب كسبهم مما رزقهم الله · وعدل ورحمة واعتدال فى سيرتهم واحكامهم لا يظلمون ولا يظلمون ، واذا أصابهم البغى هم ينتصرون ، يجزون السيئة بسيئة مثلها ولا يسرفون ، يعفون اذا قـدروا ويغفرون لان العفو أقرب للتقوى وانه لمن عزم الامور ·

بهذه الصفات جعلت الامة المسلمة وسطا خير الامم وأبـرها ، واطهرها وأزكاها ، وكانت أمة الهداية والاصلاح المادى والروحى · أمة عدل ورحمة واحسان · ورئيسها منها ، ويجب ان يكون أولها فى الفضل ، وامتنها فى الدين ، واكملها فى الخلق ، وأقواها على الاضطلاع بشؤونها الدينية والدنيوية فى الرخاء والشدة ، فى الحرب والسلم ·

وكان الرئيس الاول لها نبيها ورسولها الاعظـم محمد بن عبد اللـه عليه الصـلاة والسلام ، جاءها بالهدى ودين الحق ، ورباها على الاستجابة وحسن السمع والطاعة ، واشاعة العدل والاحسان ، والتعاون على البر والتقوى · ومحاربة الاثـــم والعدوان ·

ومكن من نفسه من طلب منه ان يستقيد ، وكان خلقه القرآن « **وانك لعلى خلق عظيم** » ٠ وكل من دخل فى دينه لزمه ان يسمع ويطيع ، فقد كان يبايع على التزام الاخلاق الفاضلة وتجنب الاثم والفواحش والسمع والطاعة فى المنشط والمكره والعسر واليسر ٠ وصح فى الحديث أنه بايع الانصار فى العقبة على « أن لا يشركوا بالله شيأ ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ٠ ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيدهم وأرجلهم ، ولا يعصوه فى معروف » ٠ وكذلك كان من بعد يبايع المؤمنات امتثالا للآية الكريمة « **يايها النبىء اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئا** » الآية ٠ وبايعه الانصار بيعة الحرب قبيل الهجرة ليلة العقبة كما روى عبادة بن الصامت أحد النقباء رضى الله عنه قال : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا ، وعلى ان لا ننازع الامر أهله ، وعلى أن نقول الحق اينما كنا لانخاف فى الله لومة لائم » رواه مسلم وابن هشام وغيرهما ٠ وبايعه جرير بن عبد الله على السمع والطاعة والنصيحة للمسلمين ، وبايعه أصحاب الشجرة بيعة الرضوان على ان يقاتلوا قريشا وان لا يفروا ، أو على الموت ، فعلم الله ما فى قلوبهم من الصدق والاخلاص والوفاء فرضى عنهم واثابهم فتحا قريبا ومغانم ، وكفاهم شر القتال ٠ فالمبايعة عهد وثيق بين الراعى والرعية والتزام بالسمع والطاعة فى المعروف يلتزمه المسلم مختارا لولى الامر فيلزمه ما التزم ، ويوجب على ولى الامر مسؤوليته الكبرى من اقامة الدين وحفظ النظام بالعدل والاحسان وحماية الملة والدفاع عن الامة ٠

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى المسلمين وامامهم : يؤمهم فى صلاة الجمعة والجماعة ، ويحل مشاكلهم ٠ يجهز جيوشهم ويقودهم بنفسه فى الحرب أو ينيب عنه من يسير بهم الى لقاء الاعداء ويؤمر الولاة ويرسلهم الى الجهات ، ويقبض الصدقات والزكاة والاموال وينفقها فى شؤونهم ويعطيها لمستحقها منهم ، ويحكم بين الناس بما أنزل الله عليه وبما أراه لا يتبع الهوى فى الحكم ، ولا ينقاد لاهواء المتخاصمين ، بل يحكم بالحق والعدل ويهدى الى سواء الصراط ٠ وما توفى الا بعد اكمال الدين واتمام النعمة على المسلمين ٠

وبوفاة الرسول وجب على المسلمين ان ينتخبوا من بينهم من يخلفه فيهم ، ويتولى من أمورهم ما كان يتولاه بنفسه فى حياته • فان من شرع الاسلام أن يسود النظام والامن والصلاح مجتمع المسلمين ويختفى الفساد والخوف والاضطراب والفوضى ، ولذلك يجب أن يبايعوا اماما منهم يدير أمورهم ويحفظ الملة ويقيم قوانين الشرع ، وهو خليفة الرسول فيهم ، والامام بعده وأميرهم ، ولهذا سمى من يقوم بهذا الامر : الخليفة ، والامام الاعظم ، وأمير المؤمنين • فمن يستحق هذا المنصب ؟ وكيف ينتخب ؟

ان كتاب الله ينص على أن أمر المسلمين شورى بينهم « **وأمرهم شورى بينهم** » • ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفذ ما جاءت به هذه الآية ، فكان يستشير أصحابه فى أمرهم فى الامن والخوف ، فى الحرب والسلم ، فى السياسة والتدبير ، وقد أمر بمشاورتهم فى قوله تعالى « **وشاورهم فى الامر** » •

ومما لاشك فيه أن أعظم أمور المسلمين وأخطرها أمر الحكم ونظامه ، أمر الامامة العظمى ومن يستحقها ، فالمسلمون مأمورون أن يتشاوروا فى ذلك ، وان يبنوا نظامهم فى الحكم على الشورى •

قال الاستاذ محمد رشيد رضا رحمه الله : « الحكم فى الاسلام للامة ، وشكله شورى ورئيسه الامام الاعظم أو « الخليفة » منفذ لشرعه ، والامة هى التى تملك نصبه وعزله • قال تعالى فى صفات المؤمنين : « **وأمرهم شورى بينهم** » • وقال لرسوله « **وشاورهم فى الامر** » • وكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه فى المصالح العامة من سياسة وحربية ومالية فيما لا نص فيه من كتاب الله • (1)

وقال الاستاذ الامام محمد عبده رحمه الله « ليس من السهل أن يشاور الانسان ولا أن يشير ، واذا كان المستشارون كثارا كثر النزاع وتشعب الرأى ولهذه الصعوبة والوعورة أمر الله تعالى نبيه أن يقرر سنة المشاورة فيها بالعمل فكان يستشير أصحابه بغاية اللطف ويصغى الى كل قول ويرجع عن رأيه الى رأيهم » (2) • ولم يضع رسول

1) الوحى المحمدى ط • الثانية ص 221 •
2) تفسير المنار ج 4 ص 199 — 200 •

الله (ص) قاعدة للشورى ، ونظاما خاصا لاجرائها قال الاستاذ محمد رشيد رضا : لان « هذا الامر يختلف باختلاف أحوال الامة الاجتماعية فى الزمان والمكان ٠٠٠ (1) ... اذ لا يمكن ان تكون القواعد الموافقة لذلك الزمن صالحة لكل زمان ، والمنطبقة على حال العرب فى سذاجتهم منطبقة على حالهم بعد ذلك وعلى حال غيرهم فكان الاحكام ان يترك (ص) وضع قواعد الشورى للامة تضع منها فى كل حال ما يليق بها بالشورى (1) ٠٠٠ ولان النبىء (ص) « لو وضع قواعد مؤقتة للشورى بحسب حاجة ذلك الزمن لاتخذها المسلمون دينا ٠ وحاولوا العمل بها فى كل زمان ومكان (1) ٠٠٠ ولانه « لو وضع تلك القواعد من عند نفسه عليه الصلاة والسلام لكان غير عامل بالشورى وذلك محال فى حقه لانه معصوم من مخالفة أمر الله » ٠ (1)

فالعمدة فى جعله ـ أى الامام الاعظم ـ أميرا على مبايعة الامة ، والمبايعة يحتاج فيها الى الشورى لاجل جمع الكلمة على واحد ترضاه الامة « فاذا أمكن ذلك بغير تشاور بين أهل الحل والعقد ـ كإن جعلوا ذلك بالانتخاب المعروف الآن فى الحكومة الجمهورية وما هو فى معناها ـ حصل المقصود » (2) ٠ أما أهل الشورى من المسلمين فهم أولو الامر منهم كما نصت عليه الآيتان فى النساء ، الاولى هى قوله تعالى : « **يايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تاويلا** » والثانية هى قوله تعالى : « **واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف اذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** » ٠ أولو الامر (هم أهل الحل والعقد والرأى الحصيف فى مصالحها الذين تثق بهم الامة وتتبع ما يقررونه (2) من « الامراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند ، وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع اليهم الناس فى الحاجات والمصالح العامة فهؤلاء اذا اتفقوا على أمر أو حكم وجب ان يطاعوا فيه بشرط ان يكونوا منا ، وان

1) تفسير المنار ج 4 ص 201 ـ 202 ٠
2) تفسير المنار ج 4 ص 203 ٠

لا يخالفوا أمر الله ولا سنة رسول الله التى عرفت بالتواتر وان يكونـوا مختارين فى بحثهم (1) هؤلاء هم الذين يمثلون سلطة الامة ويعربون عنها · قال الاستاذ محمد رشيد رضا : « صرح كبار النظار من علماء الاصول بأن السلطة فى الاسلام للامة يتولاها أهل الحل والعقد الذين ينصبون عليها الخلفاء والائمة ويعزلونهم اذا اقتضت المصلحة عزلهم(2).
اما الامامة أو الخلافة فقد عرفها الامام الرازى بقوله : « هى رئاسة عامة فى الدين والدنيا لشخص واحد من الاشخاص » وقال ابن سلمون المالكى فى تعريف الامامة : « عبارة عن نيابة شخص على النبىء صلى الله عليه وسلم فى اقامة قوانين الشرع وحفظ الملة عـلى وجه يجب اتباعه على كافة الامة » (3) ·

ان النظام الاسلامى فى الحكم بلزوم رضى الجمهور عن الامام وانتخابه من الامـة بواسطة أهل الحل والعقد أو مباشرة قد سبقت اليه الامة الاسلامية غيرها وقررته ، فان رؤساء الجمهوريات ينتخبون من أعضاء مجلس النواب والشيوخ أو بالتصويت العـام المباشر من الامة ، وانه لاحسن الانظمة لانه يجعل رئيس الامة المتجدد هو أفضلها واكملها واقدرها واقواها واعلمها بالاحكام الشرعية وبالسياسة والتدبير ، وهـذا ما فهمـه المسلمون من نصوص كتابهم وسنة نبيهم القولية والعملية ومن تربية نبيهم · فلقـد اجمعوا على أن هذه الامامة لا تورث ليس للخليفة ـ شرعا ـ ان يورثها بنيه أو أقاربه ، وانما يتولاها افضلهم واقدرهم على القيام بها ، ولا يتحقق هذا فى نظام وراثى يخلف فيه الابن اباه ، أو القريب قريبه فان فضل الله ليس حكرا على « عائلة » وانما يوتيه مـن يشاء من عباده · وشذت الشيعة الذين زعموا ان الامامة وراثة فى ذرية على من فاطمـة عليهما السلام كما هو مذهب الامامية والزيدية أو فى ذرية على ولو من غيرها كما هـو مذهب الكيسانية · وليس للشيعة فى الموضوع سند صحيح صريح لا يقـبل المناقشة من كتاب الله ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم · ومع اجماع المسلمين على

1) تفسير المنار ج 5 ص 181 من كلام الشيخ محمد عبده ·
2) الوحى المحمدى ص 223 ·
3) نقل عن التاودى فى شرح التحفة فى تعريف القاضى عند قوله : (منفذ للشرع بالاحكام له نيابة عن الامام) ·

ان الخلافة غير وراثية فقد اصبحت كذلك بعد الخلفاء الراشديين ، سن ذلك بنو أمية وتبعهم فى سنتهم العباسيون ثم الفاطميون .

ان المسلمين طبقوا قاعدة الشورى فى انتخاب اميرهم خليفة رسول الله ، فاجتمعوا فور وفاته وقبل دفنه فى سقيفة بنى ساعدة وكان أغلب المجتمعين من الانصار اوسهم وخزرجهم وأداروا الرأى وأجروا المناقشة بحرية واشتدت احيانا بين الانصار والمهاجرين الذين لم يحضر منهم هذا الاجتماع سوى ابى بكر وعمر وابى عبيدة ، ورشح فيه ـ للخلافة ـ أربعة من خيار الصحابة : أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد بن عبادة رئيس الخزرج وكان أكثر المرشحين أنصارا واعزهم نفرا لو كان الامر للعصبية القبلية ، ولكن اصحاب رسول الله اطهر قلوبا وأقوم دينا من ان تغلبهم الحمية الجاهلية ، واستبان من المناقشة فضل المهاجرين القرشيين على القبائل العربية ، وفضل أبى بكر الصديق على سائر المسلمين فبايعوه وتم انتخابه باجماع ، وعللوا اختياره بانه افضلهم واقواهم على الامر ، وأطولهم صحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والصقهم به ، وقالوا : قد اختاره رسول الله لديننا افلا نرضاه لدنيانا ؟ وكان قد اختاره لامامتهم فى الصلاة وهى عماد دينهم فكيف لا يرضونه لدنياهم ؟ وقد صدق حكمهم فيه وظنهم به لانه استطاع بحسن تدبيره وحزمه ومعرفته وصلابته أن يخمد نار الفتنة ويقضى على الردة .

ثم كان من بعده بيعة كل واحد من الخلفاء الراشدين نتيجة استشارة وبحث عن سيرته وكفاءته ومعرفة آراء الناس فيه ، فقد رشح ابو بكر ـ فى مرضه ـ عمر بن الخطاب واستشار فيه الناس فرادى وجماعة فاعلنوا رضاهم وقال فيه عبد الرحمان بن عوف لما استشاره فيه : « وهو والله افضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة » فقال أبو بكر : «ذلك لانه يرانى رفيقا ولو أفضى الامر اليه لترك كثيرا مما هو عليه» . وقال فيه عثمان لما استشير : « اللهم علمى به ان سريرته خير من علانيته وانه ليس فينا مثله » . وقريب من هذا قال فيه سادة المهاجرين والانصار منهم طلحة واسيد بن حضير وسعيد ابن زيد وغيرهم . ولم تكف استشارة الافراد حتى أشرف ابو بكر على الناس بالمسجد فقال :

« أترضون بمن استخلف عليكم ؟ فانه والله ما ألوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قرابة ، وانى قد وليت عمر بن الخطاب فاسمعوا له واطيعوا » . وأجاب الناس «سمعنا واطعنا » فقال : « اللهم انى لم ارد الا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم ما انت

به اعلم واجتهدت لهم رأيا فوليت عليهم خيرهـــم واقواهم عليهـــم واحرصهم عـــلى ما ارشدهم » · (1)

وقد اشتهر أن بيعة عمر كانت بالعهد لا بالشوري ، والصحيح انها كانت شــوري يقول الاستاذ محمد رشيد رضا : « استشار أبوبكر كبراء الصحابة فى العهد الى عمر فلما علم رضاهم عهد اليه حتى لا يكون للتفرق والخلاف محل» (2) ثم يقول : «الصواب ان بيعة عمر كانت بالشورى ولكن هذه الشورى حصلت فى عهد ابى بكر وهو الذى تولاها بنفسه ··· وانما تعجل ذلك لخوفه على الامة فتنة التفرق والخلاف من بعده فشاور أهل الرأى والمكانة من الصحابة فيمن يلى الامر بعده فرأى الاكثرين منهم يوافقونه عـــلى ان امثلهم عمر » (3) ولم يهمل ابو بكر رأى الاقلية المعارضين بحجة شدة عمر « حتى انـــه تكلف صعود المنبر قبل وفاته وتكلم بالمسألة بما اقنع القوم فعهد اليه فى الامـــر فى حياته » (3) ثم بويع بالخلافة من بعده · والعبرة بهذه المبايعة المعـــربة على المصـــادقة والرضى · وأما عثمان فقد رشحه للخلافة عمر فيمن رشح ، ولما اجتمع المرشحون تبـــين انها منحصرة فى عثمان وعلى ، فخلع عبد الرحمن بن عوف نفسه منها على ان يستشـــير الناس ويبايع من يرضون عنه ، وأخذ يتصل باولى الامر من الانصار والمهاجرين ، وظهر ان الاغلبية فى جانب عثمان فبايعه وقدمه على على ، وتمت البيعة له باجماع المسلمين ولم يتخلف عنها على كرم الله وجهه · ولما اغتيل عثمان تعينت فى على وبايعه أهل المدينة ، بما فيهم طلحة والزبير وبقية المهاجرين والانصار رضوان الله عليهم ، ورؤساء الجند من مصر والكوفة والبصرة ولهذا عدّ أهل الشام بغاة لانهم لم يرضوا بما رضى به جماعـــة المسلمين واغلبهم ، فقوتلوا مقاتلة البغاة بمقتضى قوله تعالى : « **وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيىء الى أمر الله** » ·

اجتهد أهل الشام فاخطأوا ، ونازعوا الامر أهله فبغوا ، وقد اجمع أهل الاسلام على أن علي بن ابى طالب كان أهلا للخلافة ، لانه افضل الامة فى عصره وأحقهم بها ، وقـــد

1) انظر كتاب الفاروق عمر للدكتور محمد حسين هيكل ·
2) تفسير المنار ج 4 ص 202 ·
3) تفسير المنار ج 4 ص 203 ·

بويع بيعة صحيحة من أهل المدينة وجند مصر والبصرة والكوفة وهم اغلبية المسلمين من أهل الحل والعقد ، وقد تحقق بغيهم بقتلهم عمار بن ياسر الذى اخبر رسول الله (ص) انه مقتول من البغاة فقال (ص) : « تقتل عمارا الفئة الباغية يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار » رواه مسلم من حديث ام سلمة رضى الله عنها قال ابن عبد البر : « تواترت الاخبار بهذا وهو من أصح الحديث » . ولم يطعن فيه معاوية رضى الله عنه ، وانما تاوله بعد أن قتل عمار من فئته ورد تاويله عمرو بن العاص .

وبعد اغتيال علي عليه السلام وتنازل الحسن عن حقه فى الخلافة ـ بعد بيعة جنده ـ اجتمع أمر المسلمين على معاوية وأيدوه جميعا فرحين بانتهاء الفتنة وسموا عامهم «عام الجماعة» وصدق فى الحسن عليه السلام ما اخبره به جده صلى الله عليه وسلم من أنه سيد ولعل الله ان يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين . ولا شك أن معاوية كان أهلا للخلافة يوم بويع من الجميع لما كان يتصف به من العلم والفقه والحنق بالسياسة وحسن التدبير فى الحرب والسلم . وقد كان ولى عهده الحسن بن على حسب الاتفاق، ولكن الحسن توفى قبله، وخشى أن يدركه أجله فتعود الفتنة من جديد وتشتعل بين المسلمين نار الحرب ، فأراد أن يرشح للمسلمين من يتولى الامر من بعده ليبايعوه فى حياته ومن بعد مماته . ولقد أحسن التفكير والاحتياط ولكنه لم يحسن الاختيار وظن بابنه يزيد من الخير ماليس فيه . ويقينا أنه لم يكن يعلم من سيرته ما ظهر فيه من بعد ، فقد كان يزيد يتكتم ، ويتظاهر لابيه بالحزم والفضل والرغبة فى الجهاد وقاد الجيش الذى حاصر القسطنطينية ، وكان فى جيشه ذلك أبو أيوب خالد بن يزيد الانصارى الذى توفى عند أسوارها وما يزال قبره معروفا الى اليوم بها . ولو رشح معاوية عبد الله ابن عمر لما وجد من ينكر عمله ، ولكنه لما رشح يزيد وجد معارضة شديدة وانكارا علنيا مجمعا عليه وذلك لامور : منها ان يزيد لم يكن من خيار المسلمين فضلا عن أن يكون خيرهم ، وقد كان فى المسلمين أمثال عبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وعبد الله بن عباس والحسين بن على وغيرهم وكلهم خير من يزيد ، ومنها ان يزيد ابنه ووريثه ، فتعيينه للخلافة من بعده وهو ابنه يخرج بالنظام من طابعه الاسلامى الجمهورى الى طابع الاعجمين الوراثى الكسروى القيصرى . وقد أعلن أبو بكر انه لم يستخلف على

المسلمين ذا قرابة وانما استخلف عليهم أفضلهم وأقواهم ، كما ان عمر بن الخطاب منع منها ابنه وأنكر انكارا شديدا على من أشار عليه باستخلاف عبد الله بن عمر مع صلاحه وأهليته وكفاءته وقال له « ما أردت بهذا وجه الله » • كما أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لم يوص بها لابنه ولم يستخلفه ، وان كان الجند قد بايعه من بعده • ومنها ان في هذه الوصية غصبا لحق من حقوق المسلمين أعطاهم اياه القرآن بآية الشورى ، وخطرا عظيما على نظام الحكم الاسلامي الجمهوري • وكان من أشد المعارضين الحسين بن علي ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير ، فأما عبد الرحمن بن أبي بكر فقد صرخ في وجه مروان بن الحكم عندما أعلن مروان ترشيح يزيد وطلب مبايعته وزعم أنها سنة أبي بكر وعمر قائلا : « سنة هرقل وقيصر ! أهرقلية اذا مات قيصر كان قيصر مكانه ؟ لا نفعل والله أبدا » • وقد حاول معاوية أن يسترضيه ويلين من قناته فبعث اليه بمائة الف درهم بعد أن أبى البيعة ليزيد فردها وأبى أن ياخذها وقال « لا أبيع ديني بدنياي » ومات قبل موت معاوية (1) • ولما استخلف يزيد وتبين سفهه وفسقه واستهتاره أعلن الحسين بن علي عليه السلام ثورته ، وبايع له أهل العراق واستقدموه ، فلما قدم عليهم نكثوا عهده ، وخانوه ومكنوا منه عبيد الله بن زياد وقاتلوه معه فقتلوه • وثار عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما بمكة من بعد الحسين ، كما ثار أهل المدينة ، وكاد الامر يتم لابن الزبير بعد وفاة يزيد لو أحسن السياسة وقبل ما عرضه عليه قائد جيش أهل الشام المحاصر له • لقد بايع له أهل الامصار وبعض جند أهل الشام ، ونازعه مروان بن الحكم وابنه عبد الملك بن مروان ، فانتزع عبد الملك بنفسه العراق من أخيه مصعب بن الزبير وقتله ، ووجه اليه الحجاج بن يوسف فقتله بالمسجد الحرام بعد أن سلم عليه بالخلافة مدة 9 سنوات وبايعه كثير من الصحابة ، وكان ابن الزبير أهلا للخلافة لتدينه وفضله وعلمه قال فيه الامام مالك فيما رواه عبد الرحمن بن القاسم : « ابن الزبير أفضل من مروان ، كان أولى بالامر من مروان وابنه » •

1) انظر كتاب الاستيعاب لابن عبد البر في ترجمة عبد الرحمان . وانظر كتب التفسير عند قوله تعالى : « **والذي قال لوالديه اف لكما** » من سورة الاحقاف •

وهكذا نرى أن الاصحاب وجلة العلماء، يحتجون لاهلية الشخص لهذا المنصب الجليل بأنه أفضل المسلمين • ولتحقيق هذه الافضلية فى المرشح وضعوا شروطا لا تنعقـــد الامامة لاحد منهم الا بتوفرها فيه ولا تدوم له ان فقد بعضها بعد توليه •

قال ابن سلمون « وشروطها المتفق عليها ستة : الذكورة والبلوغ والحرية والعدالة والاجتهاد وأن يكون ذا رأى مصيب ونجدة فى تجهيز الجيوش وسد الثغور واقامة الحدود وضرب الرقاب بالحق، وانصاف المظلوم من الظالم لا يلحقه خور أى ضعف فى ذلك• وزاد أهل السنة كونه قرشيا لقوله صلى الله عليه وسلم الخلافة فى قريش » (1) • ولاشك أن من اجتمعت هذه الصفات فيه من أكمل المسلمين وأفضلهم وأقواهم وأحقهم بالامامة العظمى •

وانما اشترطت الذكورة فى هذا المنصب الجليل لانه منصب عام يتطلب صفات تتخلف فى الانثى ولا يقتضى هذا الشرط استنقاصها ، فالخليفة هو الذى يؤم المسلمين فى صلاتهم يوم الجمعة والجماعة وفى الاعياد ، والمرأة لا تكون مستعدة لذلك كل حين ، فقد تسقط عنها الصلاة ، ولان من مهامه تجهيز الجيوش وقيادتها ومباشرة القتال بنفسه ، ومن مهامه اقامة الحدود وضرب الرقاب وردع أهل الفساد والبغي وطبيعة المرأة الرقيقة وشفقتها مما لا يساعدها على مثل هذه المواقف القاسية • ولان المرأة قد تكون متزوجة ـ اذ لا رهبانية فى الاسلام ـ وللزوج على زوجه سلطان ، ولا ينبغى ان يكون على أمـير المؤمنين سلطان الا للـــه •

ثم ان وجود امرأة على رأس الدولة قد يسبب فتنة بين الرؤساء والوزراء والـولاة والحكام وتكثر الدسائس والمكائد وقد صح فى الحديث أن أبا بكرة رضى الله عنه قال : « لقد نفعنى الله بكلمة أيام الجمل ، لما بلغ النبىء صلى الله عليه وسلم أن فارسا ملكوا عليهم ابنة كسرى قال : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » • رواه ـ كما فى الجامـــع الصغير ـ البخارى والترمذى والنسائى واحمد ، ويفهم من الحديث نهى المسلمـــين ان يسلكوا هذا السبيل اذا أرادوا ان يتجنبوا الخسران ، وأحداث هذا العصر تشهد لهـذا الحديث ، وذلك واضح •

(1) انظر وثائق ابن سلمون ، وشرح التاودى على التحفة •

واما البلوغ فان الصبى ضعيف ، لا يتصرف حتى فى ماله ، ولا يتوجه اليه خطاب الشرع بالتكليف اذ كل تكليف بشرط العقل مع البلوغ ، والامامة تكليف وأى تكليف فكيف يكلف بمسؤولية الامامة العظمى من لا يتوجه اليه فى نفسه خطاب التكليف ، ولم يجب عليه صلاة ولا صيام ولا حج ؟ اللهم ان السفه الاعظم لفى أمة تبايع على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره اماما سفيها ليقيم لها قوانين شرعها ويدفع عنها كيد خصومها ويضمن لها عزها .

واما العدالة فانها تتضمن الاسلام فان الكافر لم يجعل الله له على المؤمنين سبيلا قال الله عز وجل : « **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا** » والولاية العظمى من اعظم السبيل ، ولان الكافر غير مأمون ولا موثوق به . والعدل ـ كما هو معلوم ـ من يتجنب كبائر الاثم والفواحش ، ويتقى فى غالب أمره الصغائر ، بل يجتنب المباح اذا كان قادحا فى المروءة مثل الاكل والشرب فى السوق ، والمشى حافيا فى الازقة اذا كان مثله لا يفعل ذلك . فلا تنعقد الامامة لكافر ولا تدوم له ، ولا تنعقد لفاسق ابتداء ، واختلفوا فيه اذا طرأ عليه الفسق ، قال القاضى عياض رحمه الله فيما رواه النووى فى شرح مسلم :

« اجمع العلماء على ان الامامة لا تنعقد لكافر ، وعلى انه لو طرأ عليه الكفر انعزل ، قال : وكذا لو ترك اقامة الصلوات والدعاء اليها قال وكذلك عند جمهورهم البدعة قال وقال بعض البصريين : تنعقد له وتستدام لانه متاول قال القاضى : فلو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ووجب على المسلمين القيام وخلعه ونصب امام عادل ان امكنهم ذلك » (1) . ثم قال : ولا تنعقد لفاسق ابتداء فلو طرأ على الخليفة فسق قال بعضهم : يجب خلعه الا ان يترتب عليه فتنة وحرب ، وقال جماهير أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين لا ينعزل للفسق والظلم وتعطيل الحقوق ولا يخلع ولا يجوز الخروج عليه بذلك بل يجب وعظه وتخويفه للاحاديث الواردة فى ذلك . (1)

1) النووى على مسلم ج 12 ص 229 عند الكلام على شرح حديث عبادة بن الصامت .

ومن الاحاديث الواردة فى الموضوع مما اشار كلام القاضى عياض من الحث على الطاعة والتحذير من مفارقة الجماعة ما رواه مسلم وغيره من حديث أبى هريرة ان رسول الله (ص) قال : « من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو الى عصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتلة جاهلية ، ومن خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفى لذى عهد عهده فليس منى ولست منه » . وروى أيضا من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله (ص) قال : « من كره من أميره شيئا فليصبر عليه فانه ليس احد من الناس خرج من السلطان شبرا فمات عليه الا مات ميتة جاهلية » . وأنكر عبد الله بن عمر على من أراد الثورة ضد حكم يزيد بن معاوية فذهب لزيارته ونصحه فقال له : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » رواه مسلم . وكان عبد الله بن عمر قد بايع يزيد بن معاوية ولم يخلع له طاعة ، كما بايع من بعد عبد الملك بن مروان بعد قتل ابن الزبير . روى مالك فى الموطأ : أن عبد الله بن عمر كتب الى عبد الملك بن مروان يبايعه فكتب اليه « بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو واقر لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت » . وسأل سلمة بن يزيد الجعفى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الامراء : « يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا ؟ فاعرض عنه حتى كرر السؤال فقال رسول الله (ص) : « اسمعوا واطيعوا فانما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم » . رواه مسلم ، وأصرح منه ما رواه حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما قال : قال رسول الله (ص) : « يكون بعدى ائمة لا يهتدون بهداى ولا يستنون بسنتى وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان انس » قال : قلت كيف أصنع يا رسول الله اذا أدركت ذلك ؟ قال : « تسمع وتطيع للامير وان ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع واطع » رواه مسلم . وانما تكون الطاعة فى المعروف لا فى معصية الله وتكون الثورة وخلع الطاعة عند الكفر الصريح يظهر من الامام فقد صح فى حديث بيعة العقبة عن عبادة ابن الصامت رضى الله عنه قال : « كان فيما أخذ علينا ان بايعنا على السمع والطاعة

في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وان لا ننازع الامر أهله » قال : « الا ان تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان » رواه مسلم والكفر البواح هو الكفر الظاهر الصريح المعلوم المحقق من قواعد الاسلام . وانما حرم الخروج على مثل هؤلاء الظلمة السفقة لما تسببه الفتنة بين المسلمين من فساد عظيم وقتل ذريع وتشتيت شملهم وذهاب قوتهم، ولهذا ادعى بعضهم الاجماع على حرمة الخروج ، والحقيقة ان فى علماء المسلمين من يقول بوجوب القيام ورد القاضى عياض على من ادعى انعقاد الاجماع على حرمة القيـــام قال : « ادعى ابو بكر بن مجاهد فى هذا الاجماع وقد رد هذا بقيام الحسين وابن الزبير وأهل المدينة على بنى أمية وبقيام جماعة عظيمة من التابعين والصدر الاول عـــلى الحجاج مـع ابن الاشعث . (1)

ولا شك ان هذه الثورات المذكورة وما حدث فيها من فتنـــة وفساد فى الارض مما لا يزال المسلمون يتجرعون مرارته حتى اليوم مع انها لم تحقق اهدافها ولم يصـــل اصحابها الى شيء وما أرادوه منها ، كل ذلك مما يدعم مذهب أهل السنة والجماعـة فى فهمهم احاديث النهى فهما صحيحا والرضاء باهون الشرين فقد استبيحت المدينة ثلاثة أيام وانتهكت الاعراض وسفكت دماء الصحابة من المهاجرين والانصار وابنائهم وانتهبت الاموال . وانتهكت حرمات البيت العتيق وضرب بالمنجنيق . وقتل بكربلاء الحســـين عليه السلام وآل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل فى ثورة ابن الاشعث الآلاف من ابطال المسلمين واشرافهم وعلمائهم . ومع كل هذا بقى يزيد فى حكمه . والحجاج فى ظلمه فما احسن اتباع قول الرسول ، والاستماع الى أمره « **فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** » .

واما الاجتهاد فان الامام نائب عن رسول الله فى اقامة قوانين الشرع فلابد ان يكون عالما فقيها باحكامه قال الامام الشاطبى : « ان العلماء نقلوا الاتفاق على ان الامامة الكبرى لا تنعقد الا لمن نال رتبة الاجتهاد والفتوى فى علوم الشرع » (1) . وأول شروط المجتهد ان يكون مؤمنا بالله عارفا به عالما بمدارك الاحكام واقسامها وطرق اثباتها . له درجة

---

1) راجع كتاب الاعتصام للشاطبى ، وتفسير المنار ج 7 ص 196 .

وسطى فى العربية وفنونها ، وفى الاصول والكتاب والسنة • ويكفى فى زمننا الرجوع الى مصنفات ائمة الحديث فى الجرح والتعديل وما يصح وما لا يصح (1) • وان تعذر الحصول على المجتهد أو تعسر فلابد من التحرى ومبايعة الامثل قال الشاطبى : « اذا فرض خلو الزمان من مجتهد يظهر بين الناس وافتقروا الى امام يقدمونه لجريان الاحكام وتسكين ثورة الثائرين والحياطة على دماء المسلمين وأموالهم فلا بد من اقامة الامثل ممن ليس بمجتهد » (2) •

واما اشتراط الكفاءة من الرأى المصيب والنجدة فى تجهيز الجيوش وسد الثغور واقامة الحدود وضرب الرقاب بالحق وانصاف المظلوم من الظالم فامر ذلك واضح لان الامام انما يبايع لضمان جريان الاحكام والقضاء على الفتن وصيانة الدماء والاموال ، وحماية الديار ، وقد رأينا الامام الاول أبا بكر الصديق كيف جابه الاحداث وأخمد فتنة الردة وقهر مانعى الزكاة ، وقد خالفه الاصحاب فى محاربتهم كما اشاروا عليه بابقاء جيش اسامة أو استبدال قائده فأبى وكان المصيب فى رأيه • ومثل بقية ائمة المسلمين وخلفائهم العظام فى عصر الراشدين ، أو عصر بنى أمية أو عصر العباسيين أو فى عصورهم المختلفة فى الشرق والغرب ، فما انتخبوا خليفة واماما أو ملكا كفؤا لمنصبه توفرت فيه هذه الشروط الا كتب صفحة مجيدة فى تاريخ الاسلام • وما قدموا عاجزا خلوا منها الا كان بلاء على الاسلام والمسلمين •

واما اشتراط القرشية « عند أهل السنة ـ فى الامام فالاصل فيه الاحاديث الصحيحة التى رواها البخارى ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الناس تبع لقريش فى هذا الشأن » رواه مسلم من حديث أبى هريرة • وروى من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ان رسول الله (ص) قال : الناس تبع لقريش فى الخير والشر » • وروى أحمد والطبرانى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « والخلافة فى قريش ••• » •

1) راجع تفسير المنار ج 5 ص 204 ـ 205 وشروح جمع الجوامع •
2) راجع كتاب الاعتصام للشاطبى وتفسير المنار ج 7 ص 196 •

قال النووى فى شرحه الصحيح مسلم : « هذه الاحاديث وأشباهها دليل ظاهر على أن الخلافة مختصة بقريش لا يجوز عقدها لاحد من غيرهم وعلى هذا انعقد الاجماع فى زمن الصحابة فكذلك من بعدهم » ثم ذكر أن من خالف فى ذلك « محجوج باجماع الصحابة والتابعين فمن بعدهم وبالاحاديث الصحيحة » ونقل عن القاضى عياض قوله : « اشتراط كونه قرشيا هو مذهب العلماء كافة قال وقد احتج به أبوبكر وعمر رضى الله عنهما على الانصار يوم السقيفة فلم ينكره أحد ... » وقد عدها العلماء فى مسائل الاجماع ولم ينقل عن أحد من السلف فيها قول ولا فعل يخالف ما ذكرنا وكذلك من بعدهم فى جميع الاعصار » (1) .

وذكر القاضى رحمه الله ان الذين خالفوا فى هذه الشرط هم الخوارج ، والنظام من رؤساء المعتزلة ، وأهل البدع . وان ضرار بن عمرو يفضل أن يكون من غير قريش قائلا فى سخافته : « ان غير قريشى من النبط وغيرهم يقدم على القرشى لهوان خلعه ان عرض منه أمر وهذا الذى قاله من باطل وزخرفه مع ما هو عليه من مخالفة اجماع المسلمين » . (1)

وقد ابتلى القاضى عياض فى عصره بمن يدعى الخلافة من غير قريش وهم ملوك دولة الموحدين ، فقد ثار ابن تمرت على أساس انه الامام المهدى الذى سيملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت جورا ، ثم بويع من بعده عبد المؤمن بن على بالامامة العظمى عام 528 هـ . ولم يخف القاضى عياض للطاعة والبيعة للموحدين لان ملوك المرابطين كانوا يعترفون بالامامة الكبرى للخليفة العباسى الموجود فى بغداد ويستمدون شرعية حكمهم من ولايته لهم ، ويخطبون باسمه منذ عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رحمه الله . فولايتهم شرعية . اما ادعاء الموحدين للخلافة فانكار للنصوص وبدعة من البدع واتباع للهوى ، ولعل هذا ما جعله يثور عليهم مع الثائرين كما هو معروف فى تاريخه زيادة على سفكهم الشديد لدماء المسلمين ، فقد استباحوا مراكش ثلاثة أيام وقتلوا كل محتلم من الرجال ، وباعوا فى الاسواق من نجا من الموت كما ذكر ابن الخطيب فى الاحاطة ، بينما كان أمير

1) شرح صحيح مسلم ج 12 ص 200 .

المسلمين على بن تاشفين قد أبى ان يقتل ابن تمرت عندما تمكن منه بل بكى من وعظه ٠ ولقد صدقت الايام ما ذكره أبو بكر يوم السقيفة فى محاجة الانصار من أن الناس لا يذعنون لغير قريش ٠ فقد كان الخليفة العباسى يكون فى بغداد وقد بلغ به الضعف والعجز أسفل الدركات ٠ ومع ذلك يخاطبه الملوك المسلمون يطلبون منه التولية لهم ليكتسبوا شرعية امارتهم كما فعل يوسف بن تاشفين ، وابن سبكتيكين ، وصلاح الدين وكل واحد منهم أعظم منه وأقوى ولكن الخليفة القرشى رمز وحدة المسلمين ٠ فلما انقضى عهد القرشيين من الخلفاء انتثر عقد المسلمين ، وأصبحت الصلة مفقودة بين شعوبهم ودولهم ٠ وكذلك كان الحال فى الاندلس، لم تقم قائمة المسلمين منذ القضاء على امامة الامويين القرشيين أوائل القرن الخامس ٠ ورغم أن الخوارج لا يقولون باشتراط القرشية فى الامام فقد كان أئمتهم ورؤساؤهم بالمغرب على اتصال حسن وتعاون مع الخلفاء الامويين الاندلسيين ٠ وقد بلغ ـ من بعد ـ خلفاء بنى عثمان أعظم درجات القوة والنفوذ ولم نر من أمـــراء المسلمين فى الآفاق من التمس منهم ذلك لان الناس تبع لقريش ، صدق رسول الله ٠ ومـــن عجيب الامر أن يلتمس لهذا تاويل يؤدى الى تخطئة اجماع المسلمين وعلماء الفقه وأصول الدين والفقه من أهل السنة منذ عصر التابعين الى اليوم ، وقد صدقت الايام ما أخبـــر به المعصوم عليه الصلاة والسلام ٠

واذا لم يوجد الكفؤ الذى تتوفر فيه كل الشروط المذكورة كالقرشية والعدالــــة والاجتهاد بويع غيره من الاكفاء ابتداء أو استدامة بعد وجوده خوفا من الفتنة وتفـــرق الكلمة ذكر ذلك الشاطبى فى الاعتصام واستشهد عليه بمثال « مبايعة ابن عمر ليزيـــد ولعبد الملك بن مروان على كونهما من أئمة الجور ، وأخذهما الملك بالسيف لا باختيـــار الامة ، ونهى مالك عن الخروج على أبى جعفر المنصور ٠ (1)

وذكر الاستاذ محمد رشيد رضا رحمه الله « أن الرأى الغالب على الامم فى هذا العصر أن المصلحة فى الخروج على الملوك المستبدين الجائرين » (2) ٠

1) تفسير المنار ج 7 ص 196 ٠
2) تفسير المنار ج 7 ص 197 ٠

والخلاصة أن الحكم فى الاسلام للامة ، وان هذا المنصب لا ينال بارث من أب أو قريب بل يتولاه أفضل المسلمين وأعظمهم أهلية وكفاءة وأحسنهم تدبيرا فى الحرب والسلـــم ، فى الامن والخوف · وان المسلمين لو طبقوا مبادىء دينهم وحققوا الشروط فى أئمتهـم لو فروا على أنفسهم أشق المصاعب وأعظم الخطوب · فكم من فاسق ظلوم غشوم تـــولى امارة المؤمنين وتلاعب بأمرهم وعبث بشؤونهم ، وكم من صبى تربع على كرسى الامامـة الكبرى ، وترك الحبل على الغارب للمفسدين وكم من عبد فى ثياب حر ، وكم من عاجز أخرق لا رأى له ولا شجاعة ولا تدبير ولا معرفة بشؤون الحرب والسلم عبث بهم وهذا ما وصل بهم الى الدركات وجعلهم غير أهل لما وصف اللـــه به سلفهم فى قوله سبحانه : **« كنتم خير امة أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .**

صـــدق اللـه العظيـــم ·

الخلافة وإمارة المؤمنين
أو البيعة ومبدأ الشورى في الإسلام

عبد الرحمن الجيلالى

مؤرخ وفقيه

ان مقولة الخلافة والامامة العظمى فى مجال البحوث الاسلامية هى من أولى المشاكل الهامة التى أثيرت بين الفرق والطوائف المسلمة قاطبة ، وانى ما رأيت مسألة من المسائل الاسلامية الاصيلة تضاربت فيها الآراء واختلفت فيها الاقوال وتبلبلت فيها الافكار وتلاعبت بها الاهواء ودخلها التعصب وكثر فيها النزاع مثل ما وقع فى مسألة الخلافة ، أو الامامة العظمى ، وامارة المؤمنين .

وكلما مر عليها زمن الا وزاد البحث فيها غموضا وتعقيدا حتى أنها أصبحت أعقد من ذنب الضب ، اذ ليست ثمة مسألة من مسائل الدين أسالت الدماء وأثارت النزاع في كل عهود التاريخ الاسلامى مثل ما أسالت

هذه المسألة واثارته من نقاش حاد وخلاف أدى أصحابه الى المقاتلـــة والمقاطعة ، وهذا ما نهى عنه الاسلام ، وفى ذلك يقــول الشهرستانى وهــو من كبار علماء الاســلام وحكمائه فى القــرن السادس الهجرى ــ الثانى عشر الميلادى ــ قال : وأعظم خلاف بين الامة خلاف الامامة اذ ما سل سيف فى الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الامامة فى كل زمـــان .

وان السبب فى ذلك ــ حسبما يظهر ــ هو ما لحق الامة من دعــوة عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، أو قل هى فراسته فيها كما رواه الطبرى فى تاريخه ، وذلك حينما حضر الاشتر النخعى بين يدى عثمان فى أواخر حياته أى أيام الفتنة فقال له الخليفة يا أشتر ، ما يريد الناس منى ؟ قال الاشتر : ثــلاثا ليس من احداهن بد ، قال : مــا هى ؟ قال : يخيرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول هذا أمركم فاختاروا له مــن شئتم ، وبين أن تقتص من نفسك ، فان أبيت هاتين فان القوم قاتلوك !!. فقال عثمان : فو الله لئن قتلتمونى لا تتحابون بعدى أبدا ، ولا تصلون جميعا بعدى أبدا ، ولا تقاتلون بعدى عدوا جميعا أبدا . وها نحن نرى ذلك واقعا بالفعل ودعوته هذه مستجابة وفراسته هذه مستمرة المفعول على مر الدهور والعصور منذ تولى الامر معاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنه ثم بعده ولده اليزيد الى هلم جرا ....

فمن المعلوم ضرورة أن الخليفة هو مصدر السلطات الدينية والمدنية لجميع الامم الاسلامية ولا يتعدد فلا يكون الا شخصا واحدا فى الزمن الواحد ولكننا رغم ذلك شاهدنا فى الزمن الواحد والعصر الواحد عدة حكومات كل منها يدعى الخلافة لنفسه فهذه خلافة أموية ، وهذه خلافة علوية ، وهذه خلافة عباسية ، وهذه خلافة فاطمية ، وهذه خلافــة فى الاندلس ، وهذه خلافة فى المغرب حتى صدق على أصحابها قول من قال :

وتفرقوا شيعـا فكـل قبيلـة فيهـا أمـير المؤمنين ومنبـر

وهكذا تفرق شأن الخلافة فى أنحاء المعمورة فادعاها العرب والعجم ، وهم الى ذلك ــ الى يوم الناس هذا ــ فى خلاف مستمر فى تعيين الشخص الذى يقوم بهذه المهمة ، وبما أنه ــ حسبما يتطلبه منصبه ــ هو مصدر السلطات الدينية لجميع الامم الاسلامية ، اشترطوا فيه شروطا أربعة كما عند ابن خلدون ، وهى العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضاء مما يؤثر فى الرأى والعمل ، واختلف فى شرط خامس وهو النسب القرشى . ومنهم من قال : هى سبعة شروط ، وفيهم من زاد على ذلك الى عشرة .

والذين اشترطوا القرشية نراهم كذلك اختلفوا مع أنفسهم فى هذا القرشى ، هل يكون من مطلق قريش أو هو من آل على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم وجهه خاصة ؟.. وكذلك نراهم اختلفوا أيضا فى من يخلف الخليفة بعد فقده فهل يكون ذلك بترشيح من سابقه فيتولاها اللاحق بطريق الاستخلاف وولاية العهد ... أم يكون ذلك بالانتخاب ؟.. وكذلك نراهم اختلفوا فى عزله فى حال ما اذا انحرف وثبت جوره وظلمه فمنهم من قال بعزله ، ومنهم من خالف وقال : وليس يعزل ان أزيل وصفه ؟.. بل حتى شرط العدالة الذى هو شرط أساسى فى الخلافة وقد قال فيها امام الحرمين : وكيف يتصدى لها من ترد شهادته ؟.. هذا الشرط نفسه وجدنا من فقهاء الاحناف من اسقطه وجوز أن يتولى الامامة الفاسق مع الكراهة .

ثم ان نفس جوهر القضية وهو تنصيب الخليفة هذا نجدهم قد اختلفوا فيه ... هل هو على سبيل الواجب أم لا ؟ ... وان قلنا بالوجوب فهل هو واجب شرعا أو عقلا ؟ ... وفيهم كذلك من توسع ممن قال منهم بالوجوب حتى قال : هل هو واجب على الله أو على الخلق ؟ ... كما أننا

وجدنا فيهم من لا يقول بالوجوب اطلاقا فليس قيام الامام عنده من الفروض الدينية تماما . فان الجماعة الاسلامية عندهم تستطيع فى أى وقت من الاوقات أن تقوم بجميع الفروض الدينية ، وأن تكون لها حكومة مدنية مستكملة لجميع الصفات الشرعية من غير أن يقوم فيها امام على الاطلاق فاذا ما رأت هذه الجماعة فى ظروف خاصة أن من المستحب أن يكون لها امام أو أوجبت الظروف ذلك فلها أن تختار من يلى هذا المنصب ، فاذا تبينت انه ليس أهلا له على أى وجه من الوجوه فلها أن تعزله أو تقتله كما حكى ذلك الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل .

كما أنهم اختلفوا فى تنصيب المفضول مع وجود الفاضل مراعاة للظروف ، وهناك من اشترط الاجماع على المبايعة ومنهم من شط فى الخلاف فلم يشترط العدد ولا اتفاق من فى سائر البلاد ، بل قال : بانعقاد البيعة ولو بمبايعة واحد مطاع من أهل العقد والحل ، وفيهم من اشترط الاشهاد فى المبايعة ومنهم من لم يشترط ذلك ، الى غير هذا مما حام حولها من آراء متناقضة ومتضاربة مختلفة .

وهكذا نجدهم فى خلاف مستمر لا يستقرون على رأى أو مذهب . وانى لست هنا بصدد مناقشة كل هذه الآراء ونقدها وتمحصيها وتمييز صحيحها من غيره فلهذا ميدان آخر . وكذلك لا أحب أن اعزو أى قول من هذه الاقوال ثبت لطائفة أو فرقة معينة من الفرق الاسلامية التى خاضت فى هذا الموضوع بل يكفينا منها أنها مسلمة ، اذ انه لا يكاد يسلم النقاش فى هذا الموضوع من الوقوع فى معارضة شديدة وتصلب فى الرأى ، وتعصب للمذهب وللسياسة أيضا ، كل حزب بما لديهم فرحون ... وهذا ما أشار اليه امام الحرمين فى الارشاد حيث قال : ان الكلام فى هذا الباب يعتريه نوعان محضوران عند ذوى الحجاج ، أحدهما ميل كل فئة الى التعصب ،

وتعدى حد الحق ... وانما حسبى اننى اشرت هنا الى مبلغ دقة موقف علماء الاسلام وتقصيهم فى البحث فى هذا الباب وشدة الخلاف فى ذلك، وهنا وقع الكثير من أرباب الطوائف والفرق والمذاهب الكلامية والفلسفية فى مزالق حرجة ومسالك شائكة وقانا الله شرها .

وما رأيت من استطاع التخلص من هؤلاء الذين خاضوا فى مباحث الخلافة والامامة الكبرى أحسن تخلص مثل ما تخلص به أصناف ثلاثة : أولا الصنف الذى رأى انقضاء زمن الخلافة وانتهاء ايامها باستشهاد الامام على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم وجهه اعتمادا على الخبر المأثور عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم تصير ملكا عضوضا قال الراوى : حسبت خلافة أبى بكر وخلافة عمر وخلافة عثمان وخلافة على رضى الله عنهم فوجدناها ثلاثين سنة ، فمعنى هذا أن معاوية ومن بعده لا يكونون خلفاء بل كانوا ملوكا وأمراء .

والصنف الثانى هو القائل بصراحة بحلول القوة محل النظر العقلى فى العالم الاسلامى ، وانه تولد عن هذه القوة نظرية دستورية : وخير من يمثل هذا الرأى من العلماء هو بدر الدين بن جماعة المتوفى سنة 819هـ/1416 م . وقد بسط الكلام فى ذلك فى كتابه تحرير الاحكام فى تدبير أهل الاسلام ، فهو يقول بأن الامام يلى منصبه اما بالانتخاب واما بالقوة حسبما تقتضيه المصلحة العامة .

والصنف الثالث هو القائل بتركها شورى بين أهل العقد والحل كما تركها عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه شورى بين الستة المعروفين ، فيكون مجلس الشورى هو فى مجموعه بمنزلة امام واحد من غير تعيين لشخص بعينه .

وهكذا عاشت الامة الاسلامية طيلة تاريخها السياسى بين مد وجزر حول قضية الخلافة أو البيعة والشورى فى الاسلام الى أن قضى عليها الاتراك سنة 1342 هـ/1924 م . ومع ذلك لا زلنا نسمع الخوض فيها الى يومنا هذا وما يزال ذكرها يتردد ويطول الجدل فيها بين الناس مع التصريح جهرة باللقب الذى اختص به صاحبها : أمير المؤمنين .

نحن نعلم ان أول من اشتهر من الخلفاء بهذا اللقب هو الخليفة عمر الفاروق رضى الله تعالى عنه ، وكانوا يدعون سعد بن ابى وقاص بالامير لامارتة على جيش القادسية سنة 14 هـ ، وهم معظم المسلمين يومئذ ، كما نعت به عبد الله بن جحش فى سريته الى نخلة فى العام الثانى للهجرة فكان أول أمير فى الاسلام ، ثم توارث الخلفاء هذا اللقب بعد عمر لا يشاركهم فيه أحد سواهم سائر دولة بنى أمية ثم دولة بنى العباس ، الا أن الشيعة خصوا عليا باسم الامام لما هو عليه مذهبهم فى كونه هو أحق بامامة الصلاة من غيره فخصوه بهذا اللقب هو ومن يسوقون اليه منصب الخلافة من بعده ، فكانوا كلهم يسمونهم بالامام ما دامو يدعون اليهم فى الخفاء ، حتى اذا استوثق لهم الامر حولوا اللقب فيمن بعده الى (أمير المؤمنين) وهكذا فعل شيعة بنى العباس قبل ظهور السفاح فانهم ما زالوا يدعون ائمتهم بالامام الى ابراهيم فلما هلك دعى أخوه عبد الله بن محمد بأمير المؤمنين ، واشتهر بالسفاح ، وكذا خصومهم من الذين ادعوا الخلافة لانفسهم كالعلويين والقرامطة والفاطميين . وكان الادارسة بالمغرب يلقبون ادريس بالامام وكذلك ولده ادريس الثانى وهو الاصغر كما يعبر عنه المؤرخون ، ومثلهم فى ذلك الرستميون فى تيهرت ــ الجزائر ــ ولم يكن هناك من لقب بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم من لدن تولاها الصديق رضى الله تعالى عنه أحد سواه .

وكما هو الحال كان عند الامويين والعباسيين والفاطميين من اطلاق لقب أمير المؤمنين على صاحب السلطة المطلقة ، فكذلك أطلقه الامويون وعدد من أسر الحكم الصغرى في الاندلس قبل الغزو الموحدي وبعده على معنى السلطة المستقلة المحدودة ، وكذلك فعل الموحدون والحفصيون والمرينيون والزيانيون بالمغرب العربي فكلهم اتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين مع أن سلطتهم كانت محدودة .

وظل بعدهم اشراف المغرب وسلاطين الترك يتخذون هذا اللقب سمة لهم ، ولكن هذا اللقب لم يتخذه الاتراك لقبا رسميا من حيث هو يتضمن حقا في الخلافة العامة حتى بعد فتح السلطان سليم مصر سنة 922 هـ ، 1517 م ، وادعاه أيضا بعض ملوك سجلماسة من بني مدرار في سنة 342 هـ 953 م . وتلقب صاحبه بالشاكر ، وضربت بذلك الدراهم والدنانير ، وهكذا فعل امراء الجيوش الاسلامية في السودان الغربي وعلى حدود السينيغال في القرن الماضي كان منهم المسمى أحمد الشيخ أو أحمد سيكو بن الحاج عمر حاكم تكرور ، ومثله حمدو لبو في تلك النواحي أيضا فكلاهما اتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين ، ووقع مثل ذلك في جاوى أيضا . ولهذا التزاحم والنزاع على مقام الخلافة والتهافت على لقب أمير المؤمنين نرى أحقية قول ابن خلدون : انه لم يبق من الخلافة بعد زوال سلطان العرب الا اسمها . ويقول أبو الريحان البيروني المتوفى سنة 440 هـ/1408 م . انه لم يبق للخليفة من الامر شيء اللهم الا ما كان متعلقا بالدين وحراسته .

والخلاصة ــ عندي ــ ولا سيما بعدما تطور نظام الحكم اليوم عند جميع الشعوب الاسلامية حيث ولا حدود تقام ولا تطبيق لاحكام القرآن في المعاملات ولا نظام لبيت المال ، ولا نظام للصدقات والزكاة والعشور ولا للخراج ولا للجهاد ولا للبيوع والقراض والاجارات الخ ... كل ذلك

دخله التحريف والتبديل والتغيير والحذف ، فلم يبق مع ذلك لمقام أمير المؤمنين أى حرمة ولا هيبة ، وعليه فلا ارى حرجا فى ان يتلقب من شاء اليوم بلقب أمير المؤمنين ، وليدعه من شاء فلا معنى له عندى اليوم وما هو الا كما قيل :

مما يزهدنى فى أرض أندلس أسماء معتصم فيها ومعتضد

القاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

وليتسم به من أحب فهو عندى لا يزيد عن من يتسمى اليوم بسيف الدين وسيف الاسلام أو محيى الدين وعضد الدين أو ركن الدين ، فهو مطلق علم أو (اسم يعين المسمى مطلقا) ويعجبنى فى ذلك قول من قال :

طلع الدين مستغيثا الى الله وقال العباد قد ظلمونى

يتسمون بى وحقك لا أعرف منهم شخصا ولا يعرفونى

وكان من فضل الله علينا وعلى الناس أن كانت مسألة نصب الامام ليست ركنا يعتقد فى الدين ولا هى من أصول الاعتقاد كما قال امام الحرمين فى الارشاد .

الإسلام وأصول الحكم

السعيد الصالحي

عضو المجلس الاسلامى الاعلى
ـ الجزائر ـ

الاسلام قدم للناس فى الكتاب والسنة مبادىء لتكوين الدولة ، وترك المجال فسيحا لصياغة النظام المفصل حسب ما يناسب كل زمان ومكان و بيئة،فرسول الله ص سلك طريقا اذ لم يوص بل لمح فقط وأبو بكر اختار وأوصى ، وعمر سلك طريقا آخر حسب اجتهاده . والكل لا يخالف ما نص عليه كتاب الله والسنة النبوية .

فالحكم أو الدولة جزء من تعاليم الاسلام ، فأقوال النبى عليه السلام تشتمل على مصطلحات جديدة فى فكرة الدولة لم تكن معهودة من قبل فلقد أكد عليه السلام تنظيم الجماعة أيا كانت هذه الجماعة فلنستمع الى قوله عليه السلام : لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الارض الا أمروا عليهم احدهم ، فالامر بتأمير واحد فى الجماعة القليلة يدل دلالة واضحة على التأمير فى سائر الجماعات كثيرة أو قليلة لقد وردت أحاديث استعمل فيها لفظ الامام بالدلالة على الحكم كقوله عليه السلام (كلكم راع وكل

راع مسؤول عن رعيته (حديث) فالامام راع ومسؤول عن رعيته الحديث) وقوله (ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل (حديث) وقوله (يوم من امام عادل أفضل من عبادة ستين سنة) (حديث) وكذلك استعمل لفظ الخلافة كقوله (عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى) . كما استعمل أيضا فى صدر الاسلام لفظ أمير المؤمنين ولم يستعمل لفظ الملك ولا السلطان الا فى الآونة الاخيرة فى عصور الانحطاط . اذ توحى هذه الكلمة على التسلط والاستحواذ والطغيان والجبروت والاستعلاء فوق الناس ، فالاسلام يوجب صراحة على كل مسلم ان ينتسب الى دولة اسلامية بارتباط البيعة والرضى والمساواة ، ولذلك قال عليه السلام : (من مات وليس فى عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية) ، وقال أيضا (من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فميتته جاهلية) وكقوله (من نزع يده من طاعة امامه فانه يأتى يوم القيامة ولا حجة له) . وقد ثار جدال كبير بين فقهاء الاسلام ومتكلميهم على اختلافهم فى المذاهب والنحل على الشروط المستلزمة للامامة والمرشح لها هل هو قرشى أم لا وغير ذلك من الشروط الكثيرة . ولكنهم اجمعوا منذ فجر الاسلام الى يومنا هذا على وجوب اقامة الدولة . قال اللقانى فى جوهرته :

وواجب نصب امام عدل	بالشرع فاعلم لا بحكم العقل
فليس ركنا يعتقد فى الدين	فلا تزغ عن أمره المبين
الا بكفر فانبذن عهده	فالله يكفينا اذاه وحده

كل ذلك لاجل اقامة العدل بين الناس ضعيفهم وقويهم وحماية المسكين واليتيم والمرأة واغاثة المحتاجين وكفاية العاجزين وحراسة الثغور وتنفيذ أسس الاسلام وأركانه واقامة الحدود وغير ذلك .

فالوالى أو الخليفة أو الامام والمعنى واحد مكلف بتحرير الانسان من الخضوع لغير الله وهو الهدف الاسمى والغاية القصوى لتكوين الدولة

الاسلامية اذ من الانحطاط والمسخ والصغار ودوس كرامة الانسان أن يصبح عبدا لانسان آخر مثله في الخلقة حيا أو ميتا أو لهيئة من بني آدم أو لبعض أجزاء الطبيعة كالكواكب والحيوانات وغير ذلك .

فالناس كلهم على اختلاف صفاتهم ولغاتهم ومنازلهم في المجتمع مثقفون أو جهلاء أغنياء أم فقراء ذكـور أم انـاث لا فـرق بينهم في الكرامة الانسانية . فالراعي والرعية متساوون في الاسلام . فليس لواحد من البشر أن يخضع له الآخرون اذ هذه الصفة لا يستحقها الا الخالق الجبار . فالعلاقة بين الامام والرعية علاقة تنظيم لا غير . فهي طاعة في حدود الشريعة السمحاء . فليس ثمة طبقة تمتاز بامتيازات خاصة لا للحكام ولا لعلماء الشريعة الاسلامية ولا لغيرها فالطبقية منافية للاسلام والخلق كلهم عيال الله واحبهم اليه أنفعهم لعياله كما ورد ذلك عن المعصوم عليه السلام . فالبشر كلهم متساوون كما قال الامام علي رضي الله تعالى عنه :

الناس من جهـة التمثيل اكفـاء أبـوهم آدم والام حـواء

فكلهم مستخلفون من الله فوق هذه البسيطة لعمارتها وصدق الله العظيم اذ يقول : « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة » ويقول : « هو انشأكم من الارض واستعمركم فيها » ويقول : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعـوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ومما حذر منه الاسلام اشعار الفرد بالذلة أمام القائد الجبار أو الزعيم الاوحد أو الملك المقدس أو ظـل الله في الارض أو الجزب المستعلي الذي يسدل على اعماله القدسية أو ما يشبه ذلك من الالقاب والاصنام والوثنيات البشرية والصفات التي لم ينزل بها من سلطان ، قال عليه السلام : خيار ائمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلـون عليهم ويصلـون عليكم وشـرار أئمتكم الـذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم فالامام الذي يدير شؤون الناس في

نظر الاسلام راع كما ورد فى الحديث الشريف ولقد فهم أصحاب الرسول عليه السلام هذه الوضعية السامية فنفذوها وساروا على نهجها قال خليفة رسول الله أبو بكر رضى الله عنه لما بويع له بالخلافة : (الضعيف عندكم قوى حتى آخذ له الحق والقوى ضعيف حتى آخذ منه الحق) أو كما قال . ولقد دخل أبو مسلم الخولانى على معاوية رضى الله عنهما وهو أى معاوية أمير المؤمنين فقال له (السلام عليك أيها الاجير) فالاسلام مبنى على حرية الرأى فى حدود الشريعة قال عليه السلام : (اذا رأى الناس الظلم فلم يأخذوا على يده أو شك أن يعمهم الله بعذابه فالانسان حيوان مخلوق مكرم) كما قال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم » لقد منحه الله صفات عالية من قدرة وارادة وعلم وحياة وعقل وكل المقومات ليكون سيد المخلوقات فوق هذه الارض ، فله حقوق ليس لاحد اهدارها وانتهاكها وهو نفسه لا يجوز له أن يتنازل عنها ويتصاغر لمن هو مثله فى الخلق بناء على ما تقدم من وجوب اقامة الدولة وتعيين رئيسها شرعا فلابد من وجود شروط واستكمال صفات فيمن يتأهل لرئاسة المجتمع الاسلام أو المرشح للرئاسة أو الخلافة والمعنى واحد فالمرشح لابد أن يستوفى هذه الشروط التى بينها الفقهاء والمتكلمون . العقيدة الصحيحة التى تبنى الدولة على أساسها وأركانها من علم واخلاق وخبرة ادارية وسياسية واستشارة ذوى الرأى والكفاءة أو ما يعبر عنه في السابق بأهل الحل والعقد . ومن الشروط الاساسية التى لا محيد عنها الرضى من الامة عند توفر الشروط فى المرشح وهو المعروف فى عهد السلف بالبيعة أو المبايعة ، فهى عقد وميثاق بين الراعى والرعية أو بعبارة أصح بين الامام المرشح والشعب ، أما الامام فيبايع على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله وما اجمعت عليه الامة والنصح للمسلمين وعدم تضييع شبر من الوطن الاسلامى .

وأما الامة فتبايع على الطاعة فى ضمن طاعة الله ورسوله كما عرفنا بذلك خليفة رسول الله أبو بكر الصديق بقوله : (اطيعونى ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعــة لى عليكم) لقد كان فى عهــد القرون الاولى والدولة الاسلامية متسعة الاطراف متعددة الاقطار تقتصر البيعة أولا على عاصمة الدولة ثم يرسلون الى الامصار الاخرى لاخذ البيعة اما من أهل الحل والعقد فقط واما من جميع أفراد الشعب،وأما الآن الطرق معبدة والوسائل متوفرة والعالم أصبح كمدينة واحدة فلابد من أخذ البيعة من جميع أفراد الامة دون قهر ولا حيلة بــل بالرضى والاختيار عن بينة وبصيرة ، فلا غش ولا خداع ولا تزييف ولا شــراء الاصوات ولا تملق الجماهير واستغلال غفلتها وغير ذلك . فلا تعتبر البيعة شرعا اذا كانت جبرا أو قهرا بالسنان والمدفع والاعدام والكيد كما يعمد لذلك الكثير من الملوك والرؤساء فى وقتنا هذا . الحكم فى الاسلام لا يكون الا بالشورى للنص الوارد فى القرآن والامر لنبيه عليه السلام بقوله تعالى (وشاورهم فى الامر) رغم كونه معصوما لا ينطق عن الهوى وكما ورد أيضا فى وصف المؤمنين بهذه المنقبة (وأمرهم شــورى بينهم) . الامام فى الاسلام مسؤول عن جميع تصرفاته أمام الله وأمام الامة . مسؤول أمام الله فى النصح لامته والعدل بــين رعيته والدفاع عن الاســلام وبيضته واقامة حدود ربه ، ومسؤول أمــام الناس على المحافظة عــلى الاعراض والدماء والاموال والصهــر على جميــع مصالحهــم الدنيوية والاخروية اذ ليس الحكم فى الاسلام استعلاء وامتيازا وانما الحكم امانة كما وصفها رسول الله عليه السلام لابى ذر الغفارى رضى اللــه عنه بقوله يا أبا ذر «انها أمانة، وانها يوم القيامة خزى وندامة الا من أخذها بحقها وأعطى الذى عليه فيها» وقال عمر لابى موسى الاشعرى رضى الله عنهما لما ولاه : (انما أنت امرء منهم وقد جعلك الله اثقلهم حملا) .

فالاسلام الزم الامة بمبادىء فى كتابه وسنة نبيه ولم يجبرها على شكل معين من أشكال الحكم مبين بجزئياته وتفاصيله ، وانما يشتمل على مبادىء دستورية أساسية فلكل جيل أن يصوغ منها انظمة متنوعة دون الخروج عن أسسها وقواعدها . فرأس هذه المبادىء وذروة سنامها قوله تعالى : (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) ، ثم لنستمع لقوله عليه السلام : (من ولى على عصابة رجلا وهو يجد من هو ارضى منه فقد خان الله ورسوله) ، وقوله أيضا عليه السلام : (اذا وسد الامر الى غير أهله فانتظروا الساعة) فالاسلام يراعى الاخلاق الفاضلة والخبرة السياسية والادارية أو بعبارة أشمل الكفاءة فى جميع الامور المؤهلة للامارة ، فلقد كان عليه السلام ينهى عن تولية أمور المسلمين بالبطانة والعنصرية والرشوة والعاطفة وغير ذلك ، مما يخالف المصلحة والمنطق . فاذا ولى خالدا بن الوليد مثلا امارة الجيش وهوحديث عهد بالاسلام فلكفاءته الحربيةوكذلك زيد بن حارثة وابنه اسامة وغيرهم كثير. واذا ولى عُمَرٌ عَمْرَو بن العاص الامارة فلكفاءته ودهائه فى السياسة . ولم يراع الخلفاء رضوان الله عليهم القرابة ولا المحسوبية أصلا . فاذا وردت بعض الاحاديث مع درجتها في الصحة والضعف مثل (الائمة من قريش) أو (الناس تبع لقريش مسلمهم وكافرهم) (أو فى الخير والشر) فهذه الاحاديث تقرر واقعا ملموسا فى ذلك الوقت اذ ان العرب الكافرين يؤمرون عليهم قريشا فى جاهليتهم وكذلك العرب المسلمون . لا ايجاب حكم وتقريره كقعادة للخلافة .

وبيان ذلك أن لقريش مكانة بين العرب فى ذلك الوقت لكونهم سدنة البيت مقام ابراهيم المعظم المحترم عند سائر العرب وقد أبقاه الرسول لهم بعد الاسلام ، وأيضا لما لهم من الاموال برحلة الشتاء والصيف ،

ولما لهم من المنعة والرجال لكونهم مأمونين فى بيت الله الحرام ، فهذا تقرير زمانى واقعى وليس حكما لطول الدهر ، وقد أشار أبو بكر رضى الله عنه الى ذلك بقوله : ان العرب لا تدين الا لهذا الحى من العرب . والتاريخ اصدق شاهد اذ بقيت الخلافة عددة قرون لبنى أمية وبنى العباس . وهم قرشيون فاذا كانت لا تزال لقريش فيه قوة ومناعة .

وختاما فالامامة مرتبة سامية عظيمة وخلافة لرسول الله فى امته عالية ، فان أحسن صاحبها تحمل ثقلها وعظيم مسؤوليتها فتلك نعمة من الله سيقت اليه كما قال عليه السلام فى حديث مشهور سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله وذكر فى الدرجة الاولى ـ الامام العادل ـ واذا ظلم واستهان بمسؤوليته واندفع مع شهواته واغراضه واغتر بسلطانه وخيب المسلمين فى الثقة التى جعلوها فيه فتلك مصيبة سيقت اليه وستتعلق جميع الامة بتلابيبه يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الخلافة في الإسلام لاعلاقة لها بالإرث

سليمان داود بن يوسف

مؤرخ وفقيه

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحابته ، ايها العلماء الكرام رأيت ان اشارك فى هذه الندوة ندوة العلماء الذين يركزون بحثهم عن الخلافة فى الاسلام وكان هذا الموضوع من أهم المواضيع التى يجب ان نوليه اهتماما زائدا وقبل أن أخوض فى الموضوع يجب التعريف بالخلافة قال الشيخ رشيد رضا : « الخلافة والامامة العظمى وامارة المؤمنين ثلاث كلمات معناها واحد وهو رئاسة الحكومة الاسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا » وقال العلامة الفقيه أبو الحسن على بن محمد الماوردى فى كتابه الاحكام السلطانية : « الامامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا وقد اجمع سلف الامة على ان الامام واجب على المسلمين عندما تكون الشروط مستوفية » .

من ينصب الخليفة ويعزله

اتفق المسلمون على أن المطالب بنصب الخليفة أهل الحل والعقد فى الامة وبقى علينا توضيح من هم أهل الحل والعقد وهل تشترط مبايعتهم كلهم أم يكتفى بعدد معين منهم أم لا يشترط العدد أد المتبادر منه انهم زعماء الامة وأولو المكانة وموضع الثقة من سوادها الأعظم بحيث تتبعهم فى طاعة من يولونه عليهم فينتظم به أمورها ويكون بمامن من عصيانها وخروجها عليه وقد ذكر السعد في شرح المقاصد كغيره من المتكلمين والفقهاء بأن أهل الحل والعقد هم العلماء والرؤساء ووجوه الناس زاد فى المنهاج للنووى الذين يتيسر اجتماعهم وعلله شارحه الرملى بقوله : لان الامر ينتظم بهم ويتبعهم سائر الناس وهذا التعليل هو غاية التحقيق فاذا لم يكن المبايعون بحيث تتبعهم الامة فلا تنعقد الامامة بمبايعتهم وهذا هو المأخوذ من عمل الصحابة رضى الله عنهم فى تولية الخلفاء الراشدين فتحرر بهذا ان الاصل فى المبايعة ان تكون بعد استشارة جمهور المسلمين واختيار أهل الحل والعقد ولا تعتبر مبايعة غيرهم الا أن تكون تبعا لهم ومن تصدى لمثله فبايع أحدا فلا يصح أن يكون هو ولا من بايعه أهلا للمبايعة بل يكون ذلك تغريرا بأنفسهما قد يفضى الى قتلهما اذا احدث فى الامة شقاقا فقد قال الامام على كرم الله وجهه بعد موت الخليفة عمر رضى الله عنه وهو يخطب فى منبر الرسول صلى الله عليه وسلم : « من بايع رجلا من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذى بايعه » .

سلطة الجماعة ومعنى الجماعة

قال الله تعالى فى وصف المؤمنين وأمرهم شورى بينهم والجماعة هم أولو الامر من المسلمين وأهل الحل والعقد والاجماع المطاع ومن الآثار

الدالة على الاجماع فى ذلك قول ابى بكر رضى الله عنه فى خطبته الاولى بعد المبايعة : « اما بعد ، فقد وليت عليكم ولست بخيركم فاذا استقمت فاعينونى واذا زغت فقومونى » وبهذا قررت المعتزلة والخوارج ووافقهم كثير من العلماء مثل امام الحرمين والرازى والعضد والسعد والجرجانى ان للامة خلعه وعزله مثل ان يوجد منه ما يوجب اختلال أحوال المسلمين وانتكاس أمور الدين كما كان لهم نصبه واقامته لانتظامها واعلائها وقد فسر كثير من العلماء قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم) ان المراد بأولى الامر أهل الحل والعقد الذين يمثلون سلطة الامة وهم أهل الشورى من زعماء المسلمين وقد حقق هذا المعنى الفخر الرازى والشيخ محمد عبده والنيسابورى وغيرهم ومما تقدم يعلم أن أهل الحل والعقد هم الرؤساء الذين تتبعهم الامة فى أمورها العامة واهمها نصب الامام الاعظم وكذا عزله اذا ثبت عندهم وجوب ذلك ومن يملك التولية يملك العزل ومن ظن أن كل من يوصف بالعلم والوجاهة تنعقد بيعتهم الامامة ويجب الامة على الامة اتباعهم فيها فقد جهل معنى الحل والعقد ومعنى الجماعة والاجماع وما تقدم من الاخبار والآثار .

الشروط المعتبرة فى الخليفة

يرى ابن خلدون ويشاركه فى هذا الرأى جمهور العلماء من المسلمين انه لابد أن تتحقق فيمن يرشح للخلافة على المسلمين اربع صفات وهى العلم والعدالة والكفاءة وسلامة الحواس والاعضاء بما يؤثر فى الرأى والعمل وهناك من يشترط النسب القرشى ولكن هذا الشرط رفضته المعتزلة والخوارج وقد جعل العلماء لكل شرط من الشروط المتقدمة حدودا لا يتسع المقام لبسطها قال المسعودى كانت المعتزلة وغيرها من الطوائف تذهب الى أن الامامة اختيار من الامة وأن اختيار ذلك مفوض

الى الامة تختار رجلا منها ينفـذ فيها أحكام الله سـواء كان قرشيا أو غيره من أهل ملة الاسلام وأهل العدالة والايمان ولم يراعوا فى ذلك النسب وواجب على أهل كل عصر أن يفعلـوا ذلك والذى ذهـب الى أن الامامة قد تجوز فى قريش وغيرهم من الناس هم المعتزلة باسرها وجماعة من الزيدية ويوافقهم على هذا القول جميع الخوارج من الاباضية وغيرهم قالوا وقد صح بذلك عن النبى أخبار كثيرة منها قوله اسمعوا واطيعوا ولو لعبد اجذع وقوله لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى وقول الله تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم بعد هذه المقدمة التى بسطنا فيها القول عن معنى الخلافة والامامة ومن يستحقها تنتقل الى الواقع الذى يعيشه المسلمون من العصـور الاولى الى يومنا هذا شهـد التاريخ ان الخـلافة الراشدة التى لبس ثوبها الخلفاء الراشدون قد تحولت الى ملك عضوض وان عمرها لم يتجاوز ثلاثين عاما فى هذه الحياة .

يقول ابن خلدون فقد رأيت كيف صار الامر أمر الخلافة الى الملـك وبقيت معانى الخلافة من الجرى على منهاج الحق مدة ثم انقلب عصبيـة وسيفا وذهبت معانى الخلافة ولم يبق الا اسمها وصار الامر ملكا بحتـا كما كان الشان فى ملوك العجم ، وقد روى كثـير من المؤرخين ان النبى (صلعم) قال : الخـلافة بعـدى ثلاثـون سنـة ثم يعـود ملكـا عضـوضا (1) حقيقـة بعـد الثـلاثين مـن مـوته صـلى اللـه عليـه وسلـم صـارت التغلـب عـلى الملـك بعصبيـة الجنـس والايثار للاقارب بولاية العهد وطلب الامارة بالقهر والجبر وهذا هـو الواقع فى أكثر البلاد الاسلامية من القديم الى الآن وقد نص كثير من العلماء على أن الوصول للملك بهاته الوسائل مناف للدين.يقول رشـيد رضا ان أحكام الشرع هى الحاكمة والنافذة وان المسلمين لا يدينون الا

1) أبو الفداء ج 1 ص 13 .

بها ولا يخضعون الا لمن ينفذها واما التغلب بعصبية الجنس فليس مـــن هدى الاسلام فى شىء بل خروج عن هدايته وحكمه وان الامويين كانت عندهم عصبية لاهـــل بيتهم ثم للعربية فمقتهم العالم الاسلامى وقلبهم قبل ان يستكمل ملكهم قرنا واحدا وقد حذر الامام العادل عمر بن الحاج الخطاب رضى الله عنه من ايثار الاقارب المنافى لهدى الاسلام والمفضى الى فساد الامر . ولهذا كانت ادارسة المغرب يلقبون بالسلاطين (2) يقول السيد قطب رحمه الله فى كتابه العدالة الاجتماعية فى الاسلام يصبح حاكم المسلمين باختيار المسلمين الكامل وحريتهم المطلقة لا يفيدهم عهد من حاكم ولا وراثة كذلك فى أسرة فانه فى دولـــة بنى أمية انساحت حدود بيت مال المسلمين فصار نهبا مباحا للملوك والحاشية والمتملقين وتخلخلت قواعد العـــدل الاسلامى الصارم فاصبح للطبقـــة الحاكمـــة امتيازات ولاذيالها منافع ولحاشيتها رسوم وانقلبت الخلافة ملكا عضوضا وكان أول من احتاط على نفسه أن يقع فى ما يراه مناف لقواعد الخلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فانه امتنع أن يكون ولده عبد الله فى قائمة أهل الشورى مع انه فى الحقيقة كما تعلمون أهل لها وخوفا من الوقوع فى المحذور شرط أن يكون ابنه عبد الله شريكا فى الرأى ولا يكون له حض فى الخلافة (3) .

وقد اجتمعت بنى أمية الى معاوية ابن يزيد بن معاوية فقالوا لـــه اعهد الى من رأيت من أهل بيتك فقال والله ما ذقت حلاوة خلافتكم فكيف اتقلد وزرها وتنتحلون أنتم حلاوتها واتعجل مرارتها اللهم انى برىء منها متخل عنها (4) ثم دخل منزله وتغيب فيه حتى مات (5) وأن الخليفة

2) رشيد رضا ، الخلافة والامامة العظمى ص 23 – 24 .
3) أبو الفداء ، ج 1 ص 16 – المسعودى ج 3 ص 20 .
4) أبو الفداء ، ج 1 ص 193 .
5) أبو الفداء ، ج 1 ص 201

عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان موته بالسم فان بنى أمية علموا أنه ان امتدت أيامه أخرج الامر من ايديهم وقد فهموا منه انه يتطلع الى تسليم الامر لغيرهم ممن ترضاه جماعة المسلمين فسقوه السم وقد استعمل كثير ممن يريد التوصل الى الحكم وسائل القهر والضغط ولا يهمه الا التوصل للحكم مهما كلفه ذلك روى البخارى والنسائى وابن أبى حاتم أن مروان خطب بالمدينة ليزيد بن معاوية قال أن والده استخلفه سنة أبى بكر وعمر فقال عبد الرحمان بن أبى بكر سنة كسرى وهرقل ولما رفض أهل المدينة البيعة ليزيد اباحها ثلاثة أيام ارسل جيشه يقتلون الناس ويأخذون الاموال ويفسقون بالنساء ثم أن مسلما بن عقبة المرى بايع من بقى من الناس على أنهم خول وعبيد ليزيد.ولما فرغ من المدينة سار بالجيش الى مكة (6) ولما اختل أمر بنى أمية أجتمع أهل البيت بالمدينة وتشاوروا فيمن يقدموا له الخلافة فوقع اختيارهم على محمد بن عبد الله النفس الزكية فبايعوا له بالخلافة وسلموا له الامر بأجمعهم وحضر هذا العقد أبو جعفر المنصور ، قال ابن خلدون ولهذا كان الامام مالك والاما أبو حنيفة رحمهما الله يحتجان له حين خرج بالحجاز ويريان أن امامته أصح من امامة أبى جعفر المنصور وكان ذلك سبب المحنة التى أصابت الاماميين أيام أبى جعفر المنصور حتى ضرب الامام مالك على الفتيا فى طلاق المكرهوسجن أبو حنيفة على القضاء وزاد حقد بنى العباس على الامام مالك أنه نوه بشأن أبى حمزة المختار بن عوف الاباضى عند استلائه على المدينة فى أواخر أيام بنى أمية وكان معجبا بخطبه الجمعية ثم أنه اجتمع ببعض حجاج المغاربة فسألهم عن سيرة عبد الرحمان الداخل فقيل له أنه يأكل الشعير ويلبس الصوف ويجاهد فى سبيل الله

---

6) رشيد رضا ، الخلافة ص 44

7) المسعودى ج 3 ص 17 — أبو الفداء ج 1 ص 192 .

فقال الامام مالك : ليت الله زين حرمنا بمثله ، فنقم عليه بنو العباس هذه المقالة وكان من أسباب توصلهم الى ضربه فى مسألة الاكراه كما هو مشهور وقد عاشت الامة الاسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين حيـــاة سعيدة لم تعشها أمة قبلهم ولا بعدهم وقد ضربت حياة الشعب المسـلم فى أيام عزه أروع الامثال لم يسبق لها نظير ولم يتوصل اليها أى حكم فى العالم قال عبد الكريم الخطيب فى كتاب الخلافة والامامة كثير مــن المسلمين كفر بالخلافة وانكر مقامها فى المجتمع الاسلامى حين نظر اليها فى أيام ضعفها وهزالها وفسادها حـين تمثلها فى أولائك الخلفاء مــن الخلعاء والسفهاء والمتسلطين أنه يراها بلاء على الاسلام ونقمة عـــلى المسلمين وأنها لتجنى على الاسلام اشنع جناية واسوأها حين تتخذ الدين مصرحا تقيم عليه مفاسدها وتمثل فيه تلك الادوار الساقطة التى تشيع فى الناس صدودا عن الدين ونفرة منـــه هذا ولا تزال بعض الامـــم الاسلامية تبتعد عن نظام حكم الخلافة وانما تعمل جاهدة بجميع الوسائل للاستيلاء على الحـكم والحصول على السلطـة بدون أى مراعاة لقواعد الشريعة ولهذا نرى أهل الحل والعقد من العلماء والوجهاء يتورعون عن تسمية أحد الملوك بأمير المؤمنين فترى صلاح الدين الايوبى رحمه الله بعث برسالة الى عبد المؤمن بن على يطلب منه المعونة والتأييد فى الحرب الصليبية وتحاشى ان ينعته بأمير المؤمنين وقد انتحل عبد المؤمن لنفسه لقب أمير المؤمنين حتى ظن كثير من الناس انه لا يستجيب له ولكن ايمان عبد المؤمن رحمه الله جعلته يستجيب لصلاح الدين لانه يرى أن الخلافة لم تطبق قواعدها منذ زمان فاذا كان عبد المؤمن مع جلالة فضله وعلــو منزلته وعظيم جهاده ينزه صلاح الدين نفسه ان يلقبه بأمــير المؤمنين مع انه فى أشد الحاجة لاعانته فكيف يسوغ لغيره ان يتطاول لهذا اللقب الذى هــو بعيد عنه . والخــلاصة ان بعض الامــم الاســلامية لم تــزل

تبتعد عن الخلافة وتتطلع للحكم بجميع الوسائل الممكنة ونرجو من جميع ولاة أمـور المسلمين فى جميع العالم الاسلامى ان يرجعوا الى رشدهم ويحاولوا تطبيق الشريعة الاسلامية فى جميع الحالات واما انتحال اسم الخلافة أو الامارة بدون أى اعتبار لاصـول الشريعة فى ذلك فسراب لا يثبت بحال وأو لى ممن كانت حالته هذه ان يتلقب بالملك أو السلطان حتى لا تلتفت اليه انظار الباحثين والمفكرين فى الامر نسأل الله أو يجمع كلمة المسلمين ويوحد بين صفوفهم ويرفع من شأن الاسلام والمسلمين ويرد للاسلام عزه ومجده والحمد لله رب العلمين .

اعتـــذار

نعتذر عن خطا مطبعى وقع فى مقال للسيد مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الأصلى والشؤون الدينية ، بعنوان « اما تـنـزال بـراقش » المنشور فى عدد 27 ص 3 من « الأصالة » حيث سقط سطر فجاءت العبارة هكـــذا :

(··· والجنان والحدائق ، مظنة الهواء والعيون ، ايغمراسن بن زيان ، فى تلمسان) ·

والصـــواب :

(··· والجنان والحدائق ، مظنة الهـواء والعيـــون ، ومنهـل الآداب والفنون ، مثـوى العباد والزهاد ، ومعقـل بنى عبد الـواد ، فى عاصمة ايغمراسن بن زيان ، فى تلمسان !) ·

فمعذرة للقـــراء الكـــرام ·

فهـــرس العـــــدد

دراســات تاريخيــة

دراسات ثقافية وادبية

دراســات اسلاميــة

من محاضرات الملتقى التاسع للفكر الاسلامى بتلمسان

المقاومة فى الجزائر
1830 ـ 1848

د. محمد العربى الزبيرى
كلية الآداب ـ جامعة الجـزائر

بعد حوالى عامين ونصف من الحصار البحرى على الايالة قرر مجلس وزراء فرنسا فى يوم 30 ماى 1830 م ارسال حملة عسكرية تضع حدا للنزاع القائم بين الدولتين وقد اطلع الداى على هذا القرار الخطير قبل دخوله الى حييز التنفيذ وذلك بفضل عيونه المبثوثة فى كثير من مختلف أنحاء أوربا (1) ولما شرعت وزارة الحربية فى اعداد الاسطول الرهيب نقل الجواسيس هذا الخبر أيضا فى حينه الى رئيس الديوان الذى كلف على الفور سفينتين جزائريتين استطاعتا ان تتسللا ليلا ، بين السفن الفرنسية المحاصرة ، وتاتيان باخبار من جملتها ان الاسطول يشتمل على أكثر من مائتى سفينة حربية وحوالى خمسمائة سفينة تجارية حولت للضرورة الى بوارج ، اما عدد الجنود المشاركين فى

(1) سيمون بفايفر : لمحة تاريخية عن الجزائر ، ترجمة الدكتور أبو العيد دودو ص : 63 وأحمد باى مذكرات أحمد باى : تعريب وتعليق محمد العربى الزبيرى ، ص 19 .

الحملة فان السيد سيمون بفايفر يقدره باربعين الفا (2) فى حين تـــذكر بعض المصادر الاخرى بان هذا العدد لم يتجاوز خمسة وثلاثين الفا (3) وتقـول هذه الاخبار ايضا ان الحملة موجهة الى البحر ، وان النزول سيكون فى شبه جزيرة سيدى فرج فى شهر مـاى سنة 1830 م ٠

وعلى الرغم من توفر الادلة على صحة هذه المعلومات ، فان الداى لـــم يستعد جديا للتصدى الى عملية الغزو هذه بل انه اكتفى ، حسب جميع المصادر التى عثـرنا عليها ، باخبار بايات الايالة وطلب منهم ان يكونوا على استعداد لنجدة العاصمة عندما يقتضى الحال كما انه وجه رسائل خاصة الى سائر رؤساء القبائل يخبرهم فيها بنوايا فرنســا ، ويدعوهم فيها الى المزيد من اليقظة وبالاضافة الى هذين الاجراءين أمر باحصاء العمال فى فى مدينة الجزائر ودراسة امكانية اسهامهم فى وحدات المدفعية ٠

ولقد كان من الممكن ان تكون هذه التوجيهات قاعدة متينة لتنظيم وسائل الدفــاع عن البلاد لو ان وزير الحربية كان فى مستوى المسؤولية المناطة به ، ولكن هذا الاخير وهو الآغا ابراهيم الذى لم يكن قائدا ممتازا ولم يكن يعرف الشىء الكثير مـــــن التكنيك العسكرى ، بالاضافة الى انه لم يعين فى هذا المنصب الا بعـد حادثة السفينة البرلمانية « بروفنس » سنة 1829 ٠

وما من شك ان الداى لم يكن يعرف ان زوج ابنته غريبا عن فن الحرب ٠ لذلك رأيناه يسلم له مخططات الفرنسيين التى أرسلها اليه جواسيسه وكذلك جميع المعلومات الخاصة بالحملة وملحقاتها ولكن ابراهيم الذى كان يستخف باعدائه لم يقـــم باى شىء لتعبئة القبائل واستقدامهم الى معسكرات قريبة من سيدى فرج كما أنه لـــم يحضـــر الخنادق ٠ والى جانب ذلك ترك جميع الفرق المكونة لجيشه تقيم على مسافة من مـــدينة الجزائر تتراوح ما بين خمس وعشر مراحل على حد تعبير السيد بفايفر ٠ (4)

(2) نفس المصدر ، ص : 63 ٠
(3) نور الدين عبد القادر ، صفحات فى تاريخ مدينة الجزائر من اقدم عصورهــا الى انتهاء العهد التركى ، ص : 121 ؛ وادوار باهر : مسألة الجزائر ، ص : 17
(4) بفايفر ، ص : 64 ٠

وعلى هذا الاساس فانه لم يكن مع الآغا سوى ثلاثمائة فارس فى اليوم الذى نزل فيه الفرنسيون بسيدى فرج بالاضافة الى أربعمائة كانت مع الحاج أحمد باى قسنطينة الذى قدم الى مدينة الجزائر لا ليشارك فى حرب وانما لاداء الدنوش أو الزيارة الاجبارية التى يؤديها الى الباشا جميع البايات مرة كل ثلاث سنوات • اما باى وهران وباى التيطرى فان حمدان خوجه يقول بأنهما كانا متغيبين (5) بينما يذكر الحاج احمد باى فى مذكراته بان باى التيطرى كان موجودا فى الجزائر قبل نزول الفرنسيين بها وشارك فى جميع المعارك وخاصة معركة سيدى فرج وسطاوالى • (6)

وقبل وصول الاسطول الفرنسى بساعات قلائل أمر الداى بأن يعقد مجلس حربى يحدد خطة الدفاع عن المدينة • ويذكر الحاج أحمد باى الذى حضر هذا المجلس بأنه انعقد تحت اشراف الآغا ابراهيم وبمحضر كل من باى التيطرى وخوجه الخيل وخليفة باى وهران الذى كان متغيبا كما ذكرنا آنفا • (7)

ووقعت الندوة فى مكان قريب من سيدى فرج : ويقول أحمد باى بأنه حدث خلاف بينه وبين الآغا حول الاستراتيجية التى يجب اتباعها فى هذه الحرب ضد الفرنسيين (8) ذلك ان صهر الداى كان يرى من الضرورى المبادرة فى بناء الحصون على شاطئ البحر وتزويدها بمدافع قوية بينما لاحظ باى قسنطينة استحالة ذلك لعدم توفر امكانيات حمل المدافع والذخائر الحربية الى مكان المعركة فى الوقت المناسب ، ثم عرض على المجلس خطة يقول فيها بأن على جيش الجزائر ان يتجه الى وادى مازفران (9) فيجد الفرنسيون أنفسهم مخيرين بين أمرين لا ثالث لهما : اما أن يهاجموا المدينة واما ان يتبعوا خطانا • ففى الحالة الاولى ننقض على مؤخرتهم فنأخذ مؤونتهم ونهاجم قوافلهم فنقتل المتخلفين ونعمل

---

(5) أحمد خوجه ، ص : 190 •
(6) مذكرات أحمد باى ، ص : 20 •
(7) نفس المصدر ، ص : 22 •
(8) نفس المصدر ، ص : 25 •
(9) نفس المصدر ، 28 .

على قطع الاتصال بينهم وبين مراكبهم واما ان يهاجموا جيشنا ويكون علينا ان نتجنب المعركة ونجرهم الى ميدان ملائم وبعيد عن مدينة الجزائر التى هى هدف حملتهم • (10)

وكان أحمد بـاى يعتمد كثيرا على الطبيعة اذ كان يظن ان الحرارة وفقدان المـــاء وانعدام العديد من المرافق الاخرى التى تعود بها الاوربيون،اذ كـل ذلك سيقضى عـلى عدد كبير من الاجناد بدون استعمال أى نوع من أنواع السلاح • بعد ذلك يكون الهجوم المـركـز •

وكما نرى ، فان هذه الخطة هى أسلم طريقة يمكن ان تؤدى الى النجاة ، ولكـن وزير الحربية الآغا ابراهيم لم ير ذلك وانما أصر على ابقاء قيادة الجيش الجـزائرى فى نـاحية الدار البيضاء التى كانت تفصل بينها وبين مكان المعركة فى ذلك الوقت مسيرة حوالى أربع ساعات • ولقد علق حمدان خوجه على هذا القرار بقوله : ان ابراهيم كان يريـد محاربة الفرنسيين بدون جيش منظم ولا ذخـيرة حربية ولا مؤن ولا شعير للخيل ولا حتى أى تخطيط عسكرى • (11)

وبالاضافة الى هذا العجز الصارخ والى قصر النظر الذى تميز به هذا الآغا ، فان الغرور والطمع لم يسمحا له بأداء واجبه المتمثل فى حسن الاستعداد للمعركة ، وعلى سبيل المثال نذكر ان حسين داى سلم له مبالغ هائلة وأمره أن يوزعها على القبائل وعلى سائر الاجناد كوسيلة لترغيبهم فى المعركة وبدلا من تنفيذ الاوامر ، فان ابراهيم قد احتفظ بالمبالغ لنفسه دون أن يفكر فيما يمكن ان ينتج عن هذه العملية من عواقب وخيمة •

وهكذا ، اذا ، فان وجود هذا الآغا على رأس الجيوش الجزائرية يعد فى حد ذاته غلطة فادحة لا يمكن ان يغفرها التاريخ لحسين داى الذى قد تكون هى غلطته الوحيدة خلال السنوات الثلاث عشرة التى دامها عهده • ذلك ، ان الجيش لا يمكن ان يخوض المعركة بدون قائد • وكان جيش الجزائر بدون قائد بعد ان أمر حسين باعدام يحيى آغا الذى كانت له

---

(١٠) نفس المصدر 28

(١١) حمدان خوجه ، ص : ٢٠٦ •

تجربة وخبرة واسعة في البر والبحر وكانت له شجاعة وحكمة يمكن للمقاتل ان يستمد منها صمودها واسماتته في الميدان • (12)

وأحس الداى بذلك الفراغ الرهيب في مستوى قيادة الجيش فتدخل بنفسه للاتيان بنوع من الاصلاحات ومن جملة ما قام به انه أمر بحفر الخنادق لتغطية المدفعية عند ما يقوم الهجوم ، واشرف على انجاز هذه العملية التى لم تتطلب أكثر من ليلتين ؛ غير ان حمدان خوجه يذكر بان هذه الخنادق لم تستعمل لاى شىء ، لان الآغا كان يعتقد بان جيشه يعرف كيف يحمى نفسه دون اللجوء الى الخنادق • (13)

وبالاضافة الى حفر الخنادق التى هى فى الواقع وسيلة ضرورية لحماية المقاتلين وعتادهم الحربى ، فان الداى قد اصدر عفوا عاما شمل جميع المساجين ليتحد الصف ويلتئم الشمل ثم سمح لجميع السكان لحمل السلاح الذى كان محظورا على غير الاجناد ، ووجه نداء الى كل جزائرى قادر ليسارع عندما يحين الاوان للحيلولة دون نزول الجيوش الفرنسية الى البر • (14)

ولكن هذه المجهودات التى بذلها الداى فى اللحظات الاخيرة قبل وقوع الاحتلال لم تجد نفعا ، لان الآغا كان يعرف حق المعرفة ان تكنيك الاوربيين يختلف كليا عن تكنيك العرب (15) ولذلك فانه لم يعمل بنصائح الداى ولا بنصائح حمدان خوجة الذى أوصاه بألا يترك معسكره خاليا مهما كانت الظروف ، بل لابد من الاحتفاظ فيه بثلث الجيش على الاقل بعيدا عن كل أنواع التعب حتى يتمكن من ان يدعم بـه اجناده المنتصرين أو ليسهل به عملية الانسحاب اذا حدث عكس ذلك •

وفى الصباح الباكر من يوم 14 جوان سنة 1830 م نزلت الجيوش الفرنسية بشبه جزيرة سيدى فرج وكان النزول سهلا لان ابراهيم آغا يعرف كيف يرغب السكان ويدفع

---

(12) حمدان خوجه ، ص : 189 •
(13) نفس المصدر ، ص : 193 •
(14) بفايفر ، ص : 65 •
(15) حمدان خوجه ، ص : 192 •

بهم فى خضم المعركة ، ولان الاجناد الفرنسيين كانوا مجبرين على تحقيق النصر أو الموت • لقد كانوا فى نفس الوضع الذى كانت عليه جيوش المسلمين عندما نزلت على شواطىء الاندلس بقيادة طارق بن زياد • فالبحر من ورائهم والعدو أمامهم : ومن لم يمت فى ميدان المعركة مات غرقا • لاجل ذلك كان لزاما عليهم ان ينتصروا اذا كانوا يرغبون فى الابقاء على حياتهم •

ولقد كانت لعظمة الاسطول الفرنسى ، دور كبير فى نشر الرعب والخوف بين أوساط السكان وحتى فى صفوف المقاتلين الجزائريين : وبالاضافة الى ذلك فان تصرفات الآغا قد بثت الشقاق فى أوساط زعماء القبائل الذين قدموا من مختلف انحاء البلاد لصد الغزاة وتحول الشقاق الى تمرد وعصيان تلاهما انسحاب كلى من الميدان •

وعلم الداى بهذه الهزيمة الاولى فامر بالانسحاب الى هضبة اسطوالى والاسراع بتحصينها وتنصيب المدفعية الثقيلة حولها وهو ما تم بالفعل • ويقول أحمد باى بهذا الصدد ان الباشا قد تولى بنفسه توزيع هذه المدافع على الاعيان الذين كانوا يقودون الجيش وعلى من كانوا مثلى قادمين من مناطق بعيدة (16) •

وعندما تمت الاستعدادات واحكم التمركز فى هضبة اسطوالى ، أمر الداى بالهجوم على الجيش الفرنسى وكانت جميع التكهنات تدل على ان النصر سيكون الى جانب الجزائريين • ولاحت بشائر النصر ، فعلا ، لما بدأ الفرنسيون يتراجعون تاركين وراءهم قتلاهم والعتاد • وكان من الممكن ان تصدق التكهنات فتندحر الجيوش الغازية وتدخل الحملة الفرنسية فى عداد المغامرات الكثيرة التى تحطمت على صخرة البينون على مر العصور • ولكن حادثا وقع قبيل منتصف النهار فغير سير المعركة ويقول السيد بفايفر ان هذا الحادث يتمثل فى كون بعض المقاتلين الجزائريين ممن تعرضوا لاهانة الآغا ابراهيم أرادوا ان ينتقموا منه فتركوا ساحة القتال دفعة واحدة على حين غرة وهربوا الى الجبال وهم يهتفون : لقد غلبنا فلنهرب ، ولينج بنفسه من قدر على النجاة (17) •

---

(16) أحمد باى ، 30.

(17) بفايفر ، ص : 85 •

وقد نتج عن هذا الانسحاب المفاجيء ان عم الاضطراب صفوف الجزائريين ، واغتنم الفرنسيون هذه الفرصة ففكوا الحصار المضروب عليهم وحولوا الهزيمة الى نصر مبين ، وهكذا وقعت هزيمة اسطوالى التى منى فيها الجزائريون بخسائر فادحـــة فى الارواح والعتاد ، والتى تعتبر بحق ، هى بداية الاحتلال الفرنسى للجزائر · ويقول أحمد باى عن هذه المعركة : اننا خسرنا فيها جميع المدافع التى وزعت علينا ··· وكان مدفعى قـد سقط ، مرة أولى ، بين أيـــدى الفرنسيين ولكننى جمعـــت فرسانى وتمكنت مـــن استرجاعه · (18)

وعلى اثر سقوط اسطوالى انتشرت الفوضى فى أوساط المقاتلين الجزائريين وتذبذبت القيادة · بحيث لم تعد تعرف ما العمل · ووقع الانسحاب فى شتى الاتجاهات ، اما الآغا فانه غادر المعسكر وترك كل شيء وراءه كالقطيع بدون راع حتى ان حمدان خـــوجه يذكـــر بان دو برمون ، لو سير جيوشه فى ذلك اليوم الى حصن الامبراطور لما لاقى أية مقاومة · (19)

لم تكن القيادة الفرنسية متأكدة من التوصل الى ما حققته من نتائج لذلك فانها لم تفرغ الذخيرة الحربية كلها ولم تنزل المدافع الثقيلة التى أرادت ابقاءها للنجدة فى حالة ما اذا رجحت كفة الجزائريين · وعندما وقع الاستيلاء على اسطوالى أمر ، دوبرمون جيوشه بالتزام اماكنهم فى انتظار وصول تلك الذخائر والمدافع الثقيلة التى من شأنها ان تسمح لهم بالتقدم نحو المدينة · ولو ان القيادة الجزائرية كانت تعرف ذلك لجمعت كل ما لديها من قوة وهاجمت · ومن الممكن لو انها فعلت ذلك لغيرت مجرى التاريخ · ولقد كان ذلك ممكنا لو كان على رأس الجيوش رجل غير الآغا ابراهيم ، اما وقد فـــر القائد الى حيث لا يدرى أحد وتشتت القبائل التى لم تعد تثق فى قدرة الدولة على صد الغزو الفرنسى ، فان كل شيء قد ضاع ، ولم يعد هناك غير المقاومة سبيلا لتعطيل الزحف الاستعمارى على مدينة الجزائر ·

---

(18) أحمد باى ، 30 ·
(19) حمدان خوجه ، ص : 196 ·
(20) بفايفر ، ص : 98 ·

وبعد مرور يومين على هذه الهزيمة تجرأ حمدان خوجة على الذهاب الى حسين داى وقال له صراحة بان صهره لم يكن له سلوك القادة وانه لابد من استبداله برجل يعرف على الاقل ، كيف يصمد فى وجه العدو ٠

عندئذ استيقظ الداى من سباته العميق واقدم حينا على اتخاذ اجراءين حاسمين يتمثل الاول فى دعوة شيخ الاسلام وتكليفه بحمل لواء الجهاد فى سبيل الله ، ويتمثل الثانى فى تعيين مصطفى بومرزاق ، باى التيطرى ، خلفا للآغا ابراهيم ٠

واذا كان شيخ الاسلام بعيدا كل البعد عن فنون الحرب وغريبا عن قيادة الجيوش وانما وقع الاختيار عليه فقط لما يتمتع به من ثقة فى أوساط الجماهير ، فان مصطفى على العكس من ذلك ، يعتبر من اشجع القواد فى الايالة ٠ ويقول السيد بفايفر : انه استطاع ان يلحق بالفرنسيين خسائر فادحة عن طريق التحرش بهم ومناوشتهم بدون انقطاع ٠

وعندما وصلت الامدادات الجديدة الى دوبرمون ، سير جيوشه نحو حصن الامبراطور الذى كان حسين داى قد عين الخزناجى للدفاع عنه ٠ ويذكر بفايفر ان هذا الوزير قد ضرب أروع الامثال بدفاعه المستميت ٠ ولما بدأت جدران الحصن تتحطم تحت قنابل المدفعية الفرنسية ، واحس الخزناجى بالخطر الداهم ، أمر الاجناد بمغادرة المكان ثم راح يذر البارود فوق الطريق الى ان خرج من القلعة عندها امر باطلاق النار فتناثر قسم كبير من الحصن فى الجو محدثا دويا رهيبا (21) ٠ لقد كان الخزناجى يعتقد ان حجارة الحصن ستسقط فوق معسكرات الفرنسيين فتقضى على عدد كبير منهم ، ولكنه اخطأ فى حسابه اذ ان الحجارة اخذت طريقها نحو المدينة فالحقت بها خسائر مادية وبشرية لم يكن يتوقعها أحد ، بالاضافة الى انها تركت أبواب الحصن مفتوحة امام دوبرمون الذى تاكد بعد سقوط القلعة من امكانية الاستيلاء على مدينة الجزائر ٠

ولم يكن دوبرمون وحده هو الذى تاكد من ذلك ، بل ان الداى أيضا ، قد ايقن ان الجزائر ضاعت منه نهائيا ٠ لذلك رأيناه يقوم فى اليوم نفسه بجمع سائر الامناء وعددهم

(21) بفايفر ، ص : 98 ٠

اثنى عشر وكذلك اعيان المدينة ورجال الدين ، فعرض عليهم الوضع وطلب رأيهم فى الموضوع • وعلى الرغم من ان الداى قد طلب من المجتمعين ان يختاروا بكل حرية بين الاستمرار فى المقاومة أو الاستسلام للعدو فان المجلس فضل مواصلة الحرب الى النصر أو الاستشهاد • ونظمت المقاومة فعلا ، ولكن بعد أن فات الاوان •

وفوات الاوان هنا يتمثل في تلك البيانات ذات الكلام المعسول التى تمكن الفرنسيون من توزيعها على السكان بواسطة مجموعة من اليهود التجار فى مدينة الجزائر وتقول هذه البيانات التى كتبت على لسان الامة الفرنسية الى أهالى الجزائر تقول « بأنى (كومت دوبرمون قائد الجيش الفرنسى) لم آت لمحاربتكم ، فابقوا راضين وسالمين حيث انتم •• اعملوا عملكم المعتاد بثقة انى اضمن لكم بانه ليس منا من ينوى مضرتكم لا فى ممتلكاتكم ولا فى عائلاتكم ، اننى اضمن لكم أيضا بأن بلادكم وأراضيكم ، ومزارعكم ، ودكاكينكم وكل شىء ينتمى اليكم صغيرا أو كبيرا سيبقى على ما هو عليه ليس هناك منا من يتدخل فى شىء من شؤونكم التى ستبقى دائما تحت ايديكم ثقوا بوعدى (22) » •

لقد كان لهذه البيانات مفعولها القوى فى اوساط الجماهير وحتى فى صفوف الانكشاريين • وكان الجميع يظنون بأن أمة متحضرة مثل الامة الفرنسية لا يمكن ان تنكث العهد • وبما ان العهود واضحة ، فان الوزراء والعلماء وكبار الموظفين قد طلبوا من الداى ان يرسل الى دوبرمون من يفاوضه على الاستسلام لان الدفاع عن الجزائر بالقوة ، سيؤدى الى ازهاق العديد من الارواح بلا فائدة والى تخريب المدينة ونهبها من طرف الغزاة الذين كانوا يستعملون المدفعية الثقيلة والاسلحة الحديثة التى لم تكن متوفرة لدى المقاومين الجزائريين •

وكان الداى مضطرا للاستجابة الى رغبة من كان حوله فارسل وفدا الى معسكر الفرنسيين • ويقول حمدان خوجة بهذا الصدد : لقد كان الوفد يتكون من المقطعجى

(22) تحمل هذه البيانات العنوان التالى : نداء الى الشعب الجزائرى من القائد الاعلى للجيش ، أنظر النص الكامل باللغتين العربية والفرنسية فى المجلة الافريقية الصادرة بتاريخ 1862 ، المجلد السادس ، ص : 147 وما بعدها •

وقنصل انجلترا وسيدى بوضربه (23) وابنى الحاج حسن (24) مترجمين يجيدان الفرنسية (25) ·

وبعد مناقشات طويلة حول كيفية الاستسلام وشروطه تم التوقيع على الاتفاقية التالية كما أوردها حمدان خوجة فى المرآة ·

اتفاقية بين قائد جنرالات الجيش الفرنسى وسمو داى الجزائر :

1) ـ يسلم حصن القصبة وجميع الحصون الاخرى التابعة للجزائر وكذلك ميناء هذه المدينة الى الجيوش الفرنسية هذا الصباح على الساعة العاشرة (حسب توقيت فرنسا) ·

2) ـ يتعهد قائد جنرالات الجيش الفرنسى بانه يترك لسمو داى الجزائر حريته وكذلك جميع ثرواته الشخصية ·

3) ـ الداى حر فى الانسحاب مع أسرته وثروته الخاصة الى المكان الذى يحدده ، وسيكون هو وكامل اسرته تحت حماية قائد جنرالات الجيش الفرنسى ، وذلك طيلة المدة التى يبقاها فى الجزائر ، وستقوم فرقة من الحرس بالسهر على أمنه وأمن أسرته ·

4) ـ يضمن قائد الجنرالات نفس المزايا ونفس الحماية لجميع جنود الميليشيا ·

5) ـ تبقى ممارسة الديانة المحمدية حرة ، كما أنه لن يقع أى اعتداء على حرية السكان من جميع الطبقات ولا على دينهم واملاكهم وتجارتهم وصناعتهم ، ونساؤهم سيحترمن ·

ان قائد الجنرالات يتعهد بشرفه على تنفيذ كل ذلك · وان تبادل هذه الاتفاقية

---

(23) هو أحمد بوضربة الذى كان من التجار المغضوب عليهم قبل الاحتلال وبعد الاستسلام وضع نفسه تحت تصرف الجيش الفرنسى ويقول عنه حمدان خوجه : ان الرجل كان مرتدا لا دين له ولا ملة · ولمزيد من التفاصيل حول هذا الشخص يستطيع القارىء الرجوع الى مذكرات أحمد باى ·

(24) ورد فى مكان آخر ان ولد حمدان خوجه هذا كان يجيد الفرنسية والانجليزية ، فى حين ان ابنه الثانى على كان يكتب بالتركية ، وقد ألف بها مرآة الجزائر ·

(25) حمدان خوجه ، ص : 202 ·

سيتم قبل الساعة العاشرة من هذا الصباح ، وبعد ذلك مباشرة تدخل الجيوش الفرنسية الى القصبة ثم الى جميع حصون المدينة والبحرية ٠

حرر فى المعسكر المخيم أمام الجزائر يوم 5 ـ 7 ـ 1830 م

امضاء : كونت دوبرمون　　　　خاتم : حسين باشا ، داى الجزائر

هكذا ، اذاً ، تم تسليم مدينة الجزائر الى الماريشال دوبرمون : وكان الداى يعتقد بأن فرنسا ستلتزم ببنود المعاهدة والبند الخامس منها على وجه الخصوص ٠ وكان الاعيان بدورهم يظنون ان امضاء الكونت ملزم ، وان شرف فرنسا اعظم من ان يضرب به عرض الحائط ٠

ولقد كان بامكان حسين داى ان ينهب خزينة الايالة قبل مغادرة القصبة ٠ ولكنه لم يفعل ، بل اكثر من ذلك ، فانه لم يسمح لاى كان ان يمس أى شىء مما حوته تلك الخزينة لانه كان يرى ان العكس اخلال بشروط الاستسلام ٠ ونتيجة لموقف الداى هذا يقول حمدان خوجة ان فرنسا استطاعت ان تستحوذ على كنوز الجزائر كاملة (26) ولو ان حسين كان يعرف بان المعاهدة كانت خديعة لسلك مسلكا آخر ، ولما استجاب لرغبة الوزراء والعلماء وكبار الموظفين الذين دفعوه الى التفاوض ٠ والذى جعل الاعيان يميلون الى ابرام المعاهدة انما هو حرصهم على حياة العاهل وعلى سكان المدينة ، بالاضافة الى ما جاء فى البيانات التى كان يوزعها دوبرمون وأعوانه على الاهالى ، يعدون فيها بانهم سيحترمون المواثيق وان الجيش الفرنسى سيرحل عن المدينة فى ظرف ستة أشهر ، أى بعد ان يدرب ابناء الوطن على ممارسة السلطة ليتمكنوا من أخذ مقاليد الحكم بأنفسهم ٠ ولو أنهم كانوا يعرفون بأن تلك الوعود انما كانت مجرد خديعة لفضلوا الحرب ودخلوها بشجاعة أكبر وضحوا بكل ما يملكون وعن طيب خاطر لان السعادة لا تشترى الا بالدماء ، ولان الذى لا يخاطر لا ينال كما كان يقول القدماء ٠

وعاث الجيش الفرنسى فى المدينة فسادا ٠ فنهبت الديار وسلب المتاع وانتهكت الاعراض واريقت الدماء وسيق الرجال والنساء الى المنفى داخل البلاد وخارجها ووقع تهديم المنازل والمحلات وتخريب المساجد وغيرها من المؤسسات العمومية قصد ادخال

(26) نفس المصدر ، ص : 207 ٠

الرهبة على قلوب السكان ، فلا يقاومون ولا يثورون · ولقد كان الاجناد الفرنسيون ، وهم يقومون بهذه الاعمال الوندالية البربرية ، يسيرون على خطى قادتهم وضباطهم السامين امثال الجنرال كلوزيل الذين كانوا يستولون على الجوامع والقصور فيهدمونها بحثا عن الكنوز وبقصد الاستحواذ على الزرابى والثريات وغير ذلك من الاشياء الثمينة التى يقول حمدان خوجه ان معظمها كان ينقل الى مدينة تولوز (27) فى حين تذكر المصادر ان كنوز القصبة كلها ارسلت الى لندن حيث تقاسمها شارل العاشر ووزير خارجيته تاليران ·

وعندما رأى الاهـــالى ان عشرات الهكتارات من أراضى متيجة الخصبة تغتصب بعد قتل اصحابها أو نفيهم ، وعندما لاحظوا أن ، دور فوكو ودور شمبو وكلوزيل يدعون الى فكرة الاستئصال واعلان حرب الابادة ضد الشعب الجزائرى ، ولما ظهرت نوايا فرنسا الحقيقية واحس السكان بالخديعة راحوا ينظمون المقاومـــة دفاعا عما تبقى وامـــلا فى استرجاع المسلوب ·

والمقاومة فى الجزائر بعد سقوط مدينة الجزائر نوعان من الكفاح : كفاح مسلح وكفاح سياسى ، وفيما يلى سنتناول بايجاز كل واحد منهما على حدة :

1) الكفـــاح السيـاسى :

لقد ظهر هذا النوع من المقاومة فى أوساط تلك النخبة التى دفعت الداى الى التفاوض تم الاستسلام ظنا منها ان الامة الفرنسية متحضرة لا تسلك سلوكا همجيا ، وشريفـة لا تخل بعهودها · ولما تأكدت من سوء تقديرها ومن خيبة أملها فى رسل السلام والحرية، هبت الى النضال من أجل تقرير المصير واقناع السلطات العليا فى فرنسا بضرورة سحب الجيش الفرنسى من الجزائر وفقا لما جاء فى مختلف البيانات التى اشرف المارشال دوبرمون على توزيعها والتى تقول على لسان الفرنسيين « اننا لا نغزو المدينة لنصبح سادة عليها » اننا نقسم على ذلك بدمائنا ··· فانضموا الينا وستحكمون بلادكم كما كنتم فى السابق سادة مستقلين فى وطنكم · (28)

(27) نفس المصدر ، ص : 280 ·

(28) ميشال هابار ، قصة نكث العهد ، باريس 1960 ، ص : 88 ·

ومما لا شك فيه ان زعيم هذه المقاومة السياسية هو حمدان ابن عثمان خوجه الذى بذل المؤرخون الغربيون كل جهودهم ليقدموه مشوها للقراء ، وبذلك يحرمون الجزائر من شخصية هي من المع وجوه كفاحها ضد الوجود الاستعماري ٠

والواقع ، ان ما عثرنا عليه من مخطوطات يفند جميع مزاعم هؤلاء المؤرخين ويثبت أن حمدان كان قوميا ينادى بحق امته فى ان تكون وحدة سياسية مستقلة ٠ ولقد تعلم مبادئ القومية هذه من أوربا التى شهدت ميلاد تلك الحركة فى الربع الاول من القرن التاسع عشر ٠

ومن جهة أخرى يذكر السيد جورج ايفار ان حمدان خوجه هو أول من استعمل عبارة « الجزائر للجزائريين » (29) مؤكدا بان ذلك المفهوم هو الاطار الشرعى الوحيد الذى يمكن ان تجد فيه فرنسا احسن وسيلة تساعدها على الانسحاب من الجزائر بكل شرف.

ومواقف حمدان فى المجال السياسى كثيرة ، وهى حسب رأينا يجب ان تدرس مقسمة الى فترتين زمنيتين مختلفتين :

اولا : الفترة التى قضاها فى الجزائر بعد الاحتلال وهى لا تتجاوز ثلاث سنوات

وثانيا : تلك التى قضاها فى باريس وهى لا تقل عن الاولى ٠

أما فى الجزائر فقد بدأ نشاطه الى جانب المفتى الحنفى وابراهيم بن مصطفى باشا بالدفاع عن احترام ما جاء فى وثيقة الاستسلام ٠ فتوجه الى بورمون أكثر من مرة يحاول صده عن تدابير النفى التى اتخذها فى حق الاهالى مبينا له بان اتهاماته لا ترتكز على أساس من الصحة ٠ كما انه بذل قصارى جهده لمحاربة سياسة الابادة والاستئصال التى برهن على انها ناتجة عن التعصب الدينى ، وبهذا الصدد قال لجماعة الجنرالات الذين كانوا يقترحونها على أساس ان عدد سكان الايالة لا يزيد عن المليونين : ولو اقترحنا ان هذا العدد القليل لا يتجاوز المليونين ، كما ذكر بعض الكتاب ، الا تكون ابادة مليونين من الناس جريمة فى نظر الشعوب المتحضرة والانسانية جمعاء ؟ (30)

---

(29) جورج ايفار ، حمدان خوجه ، المجلة الافريقية ، 1913 ، ص : 119 ٠

(30) حمدان خوجه ، ص : 303 ٠

وفى الجزائر أيضا ، التقى مرتين بأحمد باى ، باى قسنطينة • وهناك روايات مختلفة حول ذلك الاتصال : ولكن الباى نفسه يشير فى مذكراته بأنه ارسل اليه من طرف الدوق دور فيكو للتفاوض حول امكانية التفاهم مع الفرنسيين ، فى حين ان السيد جورج ايفار يشك فى ذلك ويذهب الى ان المفاوضات لم تكن سوى وسيلة للتمكن من الوصول الى الباى دون التعرض لمكروه ، ويؤكد بهذا الصدد ان حمدان ظل دائما وفيا لحسين داى ومتصلا به (31) ومن ثمة يكون حمدان ، حسب زعم ايفار ، هو الذى سعى ليكلف بتلك المهمة حتى يتمكن بكل سهولة من تبليغ تعليمات الداى الى قائد المقاومة فى الشرق الجزائرى • وليس من المستبعد ان يكون هذا الزعم صحيحا ، خاصة اذا علمنا ان وزارة الدفاع الفرنسية قد رفضت تسديد كلفة المساعى مدعية انه لم يقدم وثائق مكتوبة تثبت صحة المصاريف ، وهى حجة مفتعلة ، اذ لم تكن هناك ، فى ذلك الحين ، شركات للنقل أو مطاعم أو فنادق يحصل منها على تلك الوثائق وانما كان عليه ان يدفع مقابلا عن كل خدمة تقدم له سواء فى السفر أو فى اثناء الاقامة بقسنطينة • ومن المعلوم ان الذى يكلف بمثل هذه المهمة ينبغي ان يكون سخيا مع رؤساء القبائل خاصة •

وهل من المعقول ان يشترط حمدان بيانا عن كل هدية يقدمها ، أو ان يطلب وصلا مقابل أى ثمن يتبرع به فى نطاق مهمته • كلا ! وان وزير الدفاع لا يجهل ذلك ، ولكن رفضه تعويض ما انفقه حمدان فى رحلاته ناتج ، فى نظرنا ، عن سبب جدى هو أن فرنسا قد تكون ارسلت عيونا تراقبه وتتجسس عليه ••• ومن الممكن ان هؤلاء الجواسيس قد توصلوا الى معرفة الغاية الحقيقية من اتصالات حمدان خوجه فى قسنطينة، فضمنوها تقاريرهم ، مما جعل وزارة الحرب تمتنع عن تحمل النفقات •

وهناك دليل آخر على ان حمدان خوجه كان مساعدا للباى ومستشارا له ، نستخرجه من رسالة كان خوجه قد ارسلها الى السلطان بعد وفاة حسين داى ، جاء فى تلك الرسالة : « ان عبدكم الحاج احمد باشا بن أحمد باى رجل شجاع وعاقل ، ويكون من اللائق تعيينه باشا على البلاد » • (32)

---

(31) جورج ايفار ، ص : 102 •

(32) عبد الجليل التميمى ، ص : 177 • وقد كتبت الرسالة باسم الشعب الجزائرى وبموافقة ابراهيم بن مصطفى باشا يوم 29 ربيع الاول 1249 الموافق 16 أوت عام 1833 م •

ومهما يكن ، فان روفيكو ، الذى احس بنزعة حمدان القومية ، قد سلط عليه بعد عودته الثانية من قسنطينة ، أنواعا من المضايقة ، وتأكد خوجة انه لم يبق امامه سوى الذهاب الى فرنسا بحثا عن الآذان الصاغية ، عله يستطيع ان يجد مسلكا للتخفيف من ويلات بنى قومه • غير ان كلوزيل وهو الد عدو له يقول : (انما سافر الى باريس ليدافع عن مصالحه الشخصية (33) وفى هذا الصدد يذكر ايفار أن حمدان اتهم باختلاس بعض الاموال ، وان جماعة من التجـــار المسلمين واليهود قدموا شكاية بــــه الى السلطات الاستعمارية يزعمون فيها بأنه لم يدفع لهم مبالغ ضخمة كان قد استلفها منهم لقضاء بعض حاجاته ، ولكننا نستبعد ذلك خاصة وان ايفار نفسه يروى فى مكان آخر ، ان سكان الايالة هم الذين فوضوا له التكلم باسمهم والنيابة عنهم وان اعيان العاصمة مكنوه من رسالة اعتماد سلمها الى ملك فرنسا • ويقول حمدان نفسه : « ان الشعب الجزائرى قد عهد الى مسؤولية الاتصال بالباب العالى واطلاعه على وضعيتنا » (34) وذلك لا يمكن أن يتم من الجزائر •

وفى باريس اتصل حمدان بجميع المسؤولين وعلى رأسهم ملك الفرنسيين الذى رفع اليه عددا من الاعتراضات والشكاوى ، كما أرسل يوم 3 جـــوان عام 1833 م مذكرته الشهيرة الى الماريشال سولت وزير الحربية الفرنسى ، وقد ضمنها جميع المخالفات التى ارتكبتها الجيوش الفرنسية فى الجزائر منذ الاحتلال • وتشمل الوثيقة على ثمانية عشر نقطة سيجدها القارىء كاملة ضمن ملحقات هذا الكتاب •

وفعلا لقد انتجت مساعى حمدان خوجة فى هذه المرة اذ أعلن فى السابع من شهــر جوليت سنة 1833 ، عن تشكيل اللجنة الافريقية • واستبشر الجزائريون بهذا الحدث ظنا منهم انه سيسفر عن الاستقلال ، وامطر الاعيان اعضاء اللجنة بوابل من الوثائــق والمذكرات تتحدث عن الاضطهادات التى تعرض لها الشعب ، وتقترح الحلول التـــى يرونها مناسبة للطرفين • وساهم حمدان ، كذلك فى تزويد هذه اللجنـــة بمعلومات

(33) ايفـــار ، ص : 103 •
(34) حمدان خوجة ، مذكرات حمدان خوجة ، ص : 158 •

قيمة ، فبدأ أولا بنشر كتابه « المرآة » الذي يعتبر مصـدرا أساسيا لكتابـة تـاريخ الجزائر فى الثلث الاول من القرن التاسع عشر ٠ وارسل منه نسخة الى أعضاء اللجنـة ارفقها برسالة يناشدهم فيها القيام بالعدل والاتسام بالنزاهة ، وقـد ترجمنا هذه الرسالة وعلقنا عليها فى كتاب المذكرات ٠

أما عن اللجنة الافريقية المشار اليها أعلاه ، فان اعضاءها قد اشاروا عـلى الحكومة الفرنسية ، بعد انتهاء التحقيق ، بمواصلة الاحتلال ، وذلك على الرغم مما جمعوه مـن شهادات وشكاوى تقدم بها الاهالى للاعراب عن رغبتهم فى الاستقلال الكامل ٠

ولقد حاول هؤلاء الاعضاء اسداء بعض النصائح الى السلطات الاستعمارية لتحقيق عمليات الغزو ٠ ومن أهم هذه النصائح ، كما ورد فى ملفات اللجنة ، ان يعمل قـادة الحملة جاهدين على ملاطفة الاهالى فى مرحلة أولى ، وعلى اذابتهم فى المعمرين الذين ينقلون الى الجزائر من مختلف انحاء أوربا فيما بعد ، ولا يمكن ان يكون ذلك ، على حد تعبير أحد أعضاء اللجنة ، الا اذا تمكن الفرنسيون من استبدال تشريع السكان الاصليين بتشريعهم وبعبارة أخرى ، ان عملية الاندماج تستوجب أولا وقبل كل شىء عملية تمسيح شاملة ، وهو ما يستحيل قبوله بالنسبة للجزائريين الذين تؤكد اللجنة انهم متمسكون أشـد التمسك بدينهم وتقاليدهم ، أى بشخصيتهم ولا يرضون بها بديلا ٠

ويرى أعضاء اللجنة ، من جهة أخرى ان استعمار الجـزائر يتطلب استعمال العنـف مع الاهالى وممارسة الضغط على الاعيان ٠ واحسن وسيلة للقيام بذلك فرض الجزيـة والتفنن فى تحديدها ، لان فرض الجزية على القبائل القوية يشكل فى نظر أحد الاعضاء برهانا على قوة فرنسا وقدرتها « وليس ثمة وسيلة أخرى لفرض سيادتنا على الايالـة خاصة ٠ وان الذى لا يكون قويا ، فى افريقيا لن يكون فيها سيدا الى الابد » ٠

ومن باريس ، أيضا ، قام حمدان بمراسلة السلطان العثمانى واعيان دولته ، طالبا منهم ان يتدخلوا لانقاذ الشعب الجزائرى من براثن الاستعمار ٠ وقد كان يخاطب كـلا حسب مقامه : فيقول لصاحب الجلالة مثلا : ان المسلمين الذين استشهدوا ودفنوا فى

هاته التربة سوف يسالونكم يوم الحساب لماذا تخليتم عنهم (35) • ولمحمود بن أمين السكة الذى كان يقيم فى اسطنبول منذ ان استولى الفرنسيون على الجـزائر : عرفوا سلطاننا ·اعرضوا عليه حالنا ، استعطفوا لنا شفقته ورحمته السلطانية ••• اننى قد جاهــدت بقلمى والرعية بسيوفهم ، فجاهدوا بالسنتكم • (36)

وبالاضافة الى هذه الاتصالات بالمسؤولين الفرنسيين وبالباب العالى ، كان حمــدان يبحث عن المعونة فى أماكن أخرى من مختلف انحاء العالم • قال : « ولو ان الكفار يعلمون شطر ما فعلت من كتابات وتاليف ومراسلات مع الاجناس ، وغير ذلك مما لا اقــدر على ذكره، كل ذلك لاجل انقاذ البلاد، لأكلوا لحمى وأوقعوا بى • والحمد لله سترنى الله (36) •

تلكم هى بعض مواقف حمدان السياسية، ومن خلالها يستطيع القارىء ان يحكم عليه وان يحدد الاطار الذى ينبغى ان نحشر فيه هذه الشخصية التى نعتبرها فيما يخصنا من ألمع وجوه المقاومة فى الجزائر •

وفيما عدا ذلك ، فان حمدان ينتمى الى اسرة جزائرية عريقة كانت تملـك الاراضى الشاسعة فى سهـــول متيجة ، والبنايات الضخمة والمحـــلات التجارية فى مختلف انحاء العاصمة وضواحيها ، وبحكم وضعها الاجتماعى هــذا استطاع بعض افرادها ان يلعبوا ادوارا هامة فى تسيير الايالة فكان الحاج محمد خال حمدان ـ أمينا للسكة قبــل الاحتلال ، وذا نفوذ قوى يحسب له الف حساب خاصة فى الاوساط التجارية • أمـا والد حمدان فقد كان فقيها وامينا عاما للايالة وهى وظيفة يقــول عنها حمدان نفسه : انها لا تقل أهمية عن وظيفة شيخ الاسلام التى يضطلع بها المفتـــى الحنفى الذى يعتبر الشخصية الثانية فى الدولة بعد الداى (37) •

ان الوثائق والكتب والمجلات التى تكلمت عن حمدان لا تذكر بالضبط تاريخ ميلاده• ولكننا اذا اعتمدنا على ما قاله بنفسه من انه عاش فى الجزائر الى أن بلغ الستــين مــن

(35) رسالة حمدان الى السلطان محمود الثانى ، نفس المصدر ، ص ، 170 •

(36) رسالة حمدان الى السيد محمود بن أمين السكة ، باريس يوم 23 محـــرم 1250 الموافق فاتح جوان 1834 ، انظر التميمى ، ص : 179 •

العمر ، وعلمنا انه غادر البلاد نهائيا سنة 1833 م استطعنا ان نقول بأنه ولد سنة 1773 م أى قبل ميلاد الولايات المتحدة الامريكية واعتراف الجزائر بها ، كدولة مستقلة بثلاث سنوات ٠

وكانت ولادته فى عهد الداى محمد عثمان باشا أو بابا محمد كما تسميه المصادر الغربية ، الذى حكم الجزائر مدة ست وعشرين سنة ابتداء من عام 1766 ٠

وقد كان هذا الداى عاملا وعالما ، قام بانجازات جبارة كقنونة المياه وتوزيعها ، وتشييد العيون فى الشوارع والساحات العمومية ، وبناء المدارس والمساجد ، والثكنات والحدائق وتطوير الصناعات الحربية وتدعيمها ، وتشجيع الثقافة والعلوم بجميع انواعها ٠ وباختصار ، لقد كانت ولايته عهد ازدهار بالنسبة للايالة ٠ وعليه ، نستطيع القول بأن جميع الشروط كانت متوفرة لكى ينشأ حمدان نشأة مرضية فى جو مناسب للتعليم ومساعد على تحصيل الثقافات ٠

وعندما توفى عثمان ، كان الابن قد انهى دراسته بعد ان استقى من مختلف ينابيع العلم والمعرفة ، ولذلك فانه لم يتردد وشغل بكل فرحة وابتهاج منصب والده ٠ غير ان هذه العناية بالتدريس لم تطل اذ رأيناه سرعان ما يتخلى عنه ليهتم بالفلاحة والتجارة وقد نجح فيهما نجاحا باهرا الى درجة أنه اصبح من كبار الاغنياء وذوى الشأن فى مدينة الجزائر تقدر ثروته قبيل الاحتلال ، باربعين مليونا من الفرنكات (38) الفرنسية ٠ ولكى يتصور القارئ قيمة المبلغ نشير الى أن قنطار القمح كان يساوى ، آنذاك ، حوالى عشرين فرنكا ٠

ولئن كانت التجارة بالنسبة لحمدان مصدرا هاما من مصادر ثروته الطائلة فانها كانت فى نفس الوقت وسيلة من وسائل التفتح ، سمحت لذلك العالم المسلم بأن يطلع

---

(37) المرآة ، ص : 103 ٠

(38) الدكتور عبد الجليل التميمى ، بحوث ووثائق فى التاريخ المغربى ، الدار التونسية للنشر ، 1972 ، ص : 143 ٠

على انماط الحياة المختلفة وكذلك العادات والتقاليد والانظمة السياسية التى كانت سائدة فى أوربا وآسيا الصغرى وفى الشرق الاوسط فى ذلك الحين ٠

هذا وتذكر المصادر أن حمدان غادر باريس متوجها الى القسطنطينية عن طريق ماتز يوم 28 ماى 1836 م ، وذلك بعد ان تأكد من عدم جدوى مساعيه لدى السلطات الفرنسية ٠ وتوفى بعاصمة الدولة العثمانية فى الفترة ما بين 1840 و 1845 م ٠

ولقد ظهر فى مجال الكفاح السياسى بالجزائر فى بداية الاحتلال ، رجل آخر يعد من انشط مساعدى حمدان خوجة ، ورد اسمه مرات عديدة الى جانب اسمه ، وذكر هو نفسه ، فى أكثر من مكان ، بعضا من الجهود الجبارة التى كان يبذلها للتعريف بالقضية الجزائرية فى مستوى البلاط الفرنسى ٠ هذا الرجل هو ابراهيم بن مصطفى باشا الذى وقع مع حمدان ذلك الاعتراض الشهير الموجه الى رئيس وزراء فرنسا والمكون من ثمانى عشرة نقطة ٠

المعز لدين الله وجيل جديد من كتامة
من خلال وثيقة فاطمية معاصرة

د . لقبـــال موسى
أستاذ التاريخ الاسلامى
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

لقد عانت الخلافة الفاطمية فى بداية عهدها فى بلاد المغرب ازمة ثقة أعقبت حادث التصفية الذى راح ضحيته الداعى الشيعى واخوه وانصارهما مـــن قادة كتامـــة التاريخيين : الاخـــوان عروبة وحباسة ، والقريبان : ابو زاكى وماكنون .

وكذلك عانت ازمة اخرى كانت ذات طابع قبلى ومذهبى اعقبت حركة النكارية بقيادة أبى يزيد شيخ المؤمنين . وكانت الازمة الاخيرة أكبر حدث امتحنت أثناءه الخلافـة الفاطمية بخطر الزوال وامتحن الاولياء وانصار الدولة من كتامة وطبقة الفتيان الصقالبة بخطر التلاشى كقوة عسكرية نشيطة ومترابطة .

وقد وضح للمهدى عقب الازمة الاولى ، أى خطا جسيم ارتكب فى حق بناة الدولة والرجال المؤسسين للنظام ، كما وضح لخلفائه أثناء وبعد الازمة الثانية ما صار اليـه

وضع هؤلاء الرجال المؤسسين ، بسبب سياسة التصفية ، والتجاهـــل والاهمـــال ، واصطناع وجوه جديدة ممن مسهم الرق من غير أولى الطول والعصبية ٠

واذا كان النكارية بقيادة أبى يزيد ، قد هددوا النظام القائم لفترة ، انتقاما لحـادث سقوط الامامة الرستمية وردا على الحملات الانتقامية ضد مراكزهم السياسية والثقافية فى افريقية وجبل نفوسة ، وتسببوا بحركتهم الخطيرة فى احياء فصل محـــزن مـن الصراع القديم بين البتر والبرانس ، فان الحقيقة التى ظهرت جلية بعد انتهاء هذا الصراع أن هؤلاء النكارية لم يستطيعوا رغم بعض الانتصارات أن يصلوا الى هدم ما بنته عصبية الدوالة التاريخية ـ وهم قبيلة كتامة التى هب رجالها جميعا على ما فى نفوسهم يدافعون عن الشرعية ويبذلون جهدا لكى يبقى النظام مستمرا وسليما ٠

واذا كان الخليفة القائم قد غدا أسيرا لنبوءة حسب رواية النعمان بن محمد ٠ ومن ثم صمد فترة فى المهدية حتى مات محصورا وفى نفسه مقهورا (1) فان حجته ولى عهد المسلمين المنصور (2) استطاع بمساعدة كتامة أن يصفى هذه الحركة التخريبية ويعيد للدولـة هيبتها ، وللخلافة تكاملها السياسى ، بفضل جهوده المركزة ، واعتماده على عصبيـــة من جند كتامة الذين بدأ يعيد اليهم اعتبارهم كحماة للنظام ، وكشركاء فى المسؤوليـة

---

1) النعمان المجالس والمسايرات 1 ، ورقة 13 ، وعندما استشير اثناء الفتنة فى أمـــر جرى ، ترك الحرية لشيوخ كتامة ، وقال للنعمان « ما يمنعنى من الرأى أحملهم عليه وان كنت أرى وجه الصواب الا يكون عناء » ٠ وعن هذا القول عقب النعمان بقوله « كـان القائم قد علم أن أمر تلك الفتنة لا ينقطع على يديه » ٠

2) تنبأ المهدى قبل ميلاد المنصور بأنه الذى يقضى على أبى يزيد بقوله « صاحب هـذا الامر فى هذا الوقت حمل فى بطن أمه وعن قريب يولد » ٠ النعمان المجالس والمسايرات 2 ورقة 619 ٠ وعندما ماسئل المنصور بعد انتهاء الفتنة عن سبب فتور القائم ونجاحه هو فى تصفية الحركة انكر السؤال ، وقال « ما كان للقائم أن يفعل الا ما قد فعله ، ولا كان لى أن افعل الا ما فعلت » ٠ وعن هذا القول عقب النعمان بن محمدَ بقوله « فقام المنصور بالامر فى أوانه ، وتركه القائم لانصرام امره وانقطاع زمانه » انظر : المجالس والمسايرات 1 ، ورقة 11 ـ 12 ٠

وقد اتضح كل ذلك عندما خاطبهم أثناء نعي أبيه القائم ، وغداة انتهاء حركة النكارية بقوله : « يا أهل دعوتنا يا أنصار دولتنا يا كتامة ، أحمدوا الله واشكروه على ما خصكم به من نعمته » ٠ (3)

وكي يبعث عندهم مزيدا من الاعتزاز بانفسهم ، ومن الارتباط بالدولة ، ويضمد جراحهم مما اصابهم أثناء الفتنة وقبلها ، ولكي ينسيهم ما حصل لقادتهم التاريخيين في عهود خلت أوضح أمام الملأ بقوله : « اللهم اني قد أصبحت راضيا عن كتامة لاعتصامهم بحبلك وصبرهم على الباساء والضراء » ٠

والذي يبدو أن المنصور الفاطمي لم يكن مجاملا لكتامة ، ولا مبالغا في الثناء على جندها عند ما نوه باهميتهم أثناء حركة النكارية ، لان دورهم أثناء هذه المحنة كما يسميها المعز لدين الله كان رائعا (5) ٠ فلم يشأ رجالها رغم قوتهم ، أن يستغلوا الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الخلافة عهدى القائم والمنصور لتحقيق أهداف خاصة ، أو لشفاء ما في نفوسهم من جراح بل وقفوا ضد بعض الانتقاضات المضادة للخلافة اثناء الفتنة ، هذا مع أن مبررات تحركهم ضد القائم خاصة كانت كثيرة لانه المسؤول عن الكثير مما حل ببلادها ، وبرجالها التاريخيين من كوارث ومن نكبات ٠

وعلى نهج المنصور الذي كان عهده ارهاصا ببدء حقبة ازدهار لكتامة مرة أخرى ، سار حجته ولي عهد المسلمين ، المعز لدين الله رابع خلفاء الدور المغربي ، وأول خلفاء الدور المصري للخلافة الفاطمية ٠

فقد اغتنم فرصة نعي ابيه المنصور وخص جند كتامة بقول معبر : « اخصص أولياء دولتنا وأنصار دعوتنا المجاهدين الصابرين بما استوجبوه بطاعتك وقضاء فروضك

---

3) العزيزي الجوذري : سيرة الاستاذ جوذر 55 وما بعدها ٠

4) نفسه : وعن خطبة المنصور ينعى أباه انظر : ابن حماد ، اخبار ملوك بني عبيد 22 — 23 ٠

5) المقريزي : اتعاظ الحنفا 1 ، 79 ، وفيه اشارة الى هذه الحقيقة « ثم وصلت كتامة فنزلت بقسنطينة فخاف أبو يزيد » النعمان : المصدر السابق 2 ، 616 — 617 ٠

وموالاة أوليائك ومعاداة أعدائك » (6) ، وقد اردف هذا القول بالعمل فاسبغ عليهم نعما ومنحهم امتيازات (7) ، واعاد الى قادتهم المسؤولية ، والى بلادهم اعتبارها فى نظر الدولة ، بل أكثر من الاتصال بمختلف فئات كتامة ليسالهم عن احتياجاتهم ، وعن وجهة نظرهم فيما يجرى ، وليشرح امامهم ما تطلبه الدولة منهم فى هذا العهد بحيث دخلت كتامة بولايته بداية عصر جديد هو بحق عصرها الذهبى الثانى الذى لم تعرف نظيرا له الا فى فترة قصيرة من حياتها السياسية بعد قيام الخلافة فى بلاد المغرب ، ثم بعد انتقالها الى مصر ·

ومن دراسة أهم وثيقة فاطمية معاصرة وهى كتاب « المجالس والمسايرات والمواقف والتوقيعات عن الامام المعز لدين الله وعن آبائه صلوات الله عليهم » (8) التى سجلها عنه مجتهد الاسماعيلية ومؤرخ الدعوة معاصر المعز لدين الله وقاضيه على المنصورية والمهدية وسائر افريقية وهو النعمان بن محمد بن حيون التميمى نلاحظ : كيف أن المعز لدين الله لم يأل جهدا فى خلق روح جديدة ، أو فى التمهيد لجو جديد بين فروع كتامة ، بل سخر كل مواهبه الفذة وحيله وقدراته الخاصة فى الاقناع والتوجيه بل فى التلبيس عليهم احيانا كى يشعرهم بأنهم فى عهده كل شىء فى نظام الخلافة كما كانوا ، وان العلاقة بينهم وبينها موغلة فى القدم ، أو أبدية حسب تعبيره ، وقد وجدت لتبقى سليمة : « وهؤلاء كتامة اجدادهم مع اجدادنا وآباؤهم مع آبائنا ، وهم معنا وكذلك يكون اعقابهم مع اعقابنا الى يوم الدين » · (9)

---

6) الجوذرى العزيزى : المصدر السابق 80 وما بعدها ·

7) نفسه : 116 ·

8) يوجد مخطوطا حتى الآن فى عدة مكتبات عامة وخاصة وقد اعتمدت على مخطوط مكتبة جامعة فواد الاول المحفوظ تحت رقم 26060 · وهى ثلاثة أجزاء وقد تضمنت هذه الوثيقة مجمل آراء وأقوال ونقول ومواقف واجتهادات المعز لدين الله وقاضية النعمان ابن محمد ·

9) النعمان : المجالس والمسايرات 1 ، ورقة 4 ·

وبين المعز لدين الله فى مناسبة أخرى كيف ان رجال الدعوة الاسماعيلية ، وقادة الخلافة الفاطمية يعترفون بجهود قادة كتامة ، وباخلاصهم ووفائهم ، وتعلقهم بالولاء ، وبصبرهم فى عصر المحنة بقوله : « والله ما وفت أمة من الامم لنبى من الانبيـــاء ، ولا لامام من الائمة ولا ملك من ملوك الدنيا ولا وفى لها وفاءهم لنا ووفاءنا لهم الا وقد تداخل أولئك الفشل واعتراهم الخلل وحال عليهم ملوك الدنيا واستأثروا غيرهم دونهم واطرحوهم واوقعوا بهم • (10)

ومن ذا الذى يجرؤ على ادعاء ما لكتامة من منزلـــة ومكانـــة فى الدولـــة ، أو يدرك ما لفرسانها من حسن الهيئة وجمال المراكب (11) ، وقدرة على تحمل المكروه ؟ أليسوا هم الذين اشتدوا على اعداء النظام ، وحاصروا أبا يزيد ورجاله فى أعالى الجبـــال حتى «اذاقوهم طعم الموت وأحلوهم محل الذلة واخرجوهم قسرا بظباء السيوف وحد الرماح حتى الحقوهم بقنن الجبال من أطراف البلاد ثم استنزلوهم منها قسرا وأبادوهم قتلا بنصر الله لوليه وبركة مقامه وسعادة جده وأيامه » • (12)

ولقد كان المعز لدين الله يؤكد فى كل مناسبة ، وحتى عن طريق القسم أيضا ما يكنه لرجالات كتامة من محبة وتقدير ويبالغ أحيانا فيصفهم بالاقربين والابناء ، والاخـوة ، وبحزب الله وانصاره وجنده واحبائه • وهذه بادرة منه « انتم البنون والاخوة والاقربون ما يعد لكم عندى أحد ولا يبلغ مبلغكم من قلبى بشر وما ذلك الا لمالى فى قلوبكم » • (13)

---

10) نفســـه •

11) نفسه : وبمناسبة الاحتفال بعـــيد الاضحى سأل المعز لدين عن مجىء قادة كتامة من مختلف الاعمال لحضور المناسبة وعندما عرف انهم جاءوا قال : « بارك الله فيهم وكثر اعدادهم فما أسرنى بهـــم وباحتفالهم !! وما أحب الى اشخاصهم ! وازيـــن فى عيـــنى مناظرهم ! » • ثم خاطب القاضى النعمان بقوله : « أرأيت مثلهم عند الولى والعدو ؟ » • أما رجال ابى يزيد فكانوا يقولون « اما ركوب كتامة وجمالهم فيه فما ندعيه ، ولا ننازعهم فيه » • أنظر : المجالس والمسايرات 1 ، ورقات 2 ــ 3 •

12) نفسه ورقات 2 ــ 3 •

13) النعمان : المصدر السابق 1 ورقات 28 ــ 29 •

ويقرر المعز فى مجلس آخر أن استمرار كتامة جيله على الانتصار للدولة وخدمة أهدافها ان هو الا صدى لموقف الآباء والاجداد ، وامتداد طبيعى له فيقول « ما نصر الله وليا من اوليائه قبلنا بمثل نصركم لنا ، على ذلك مضى أولكم ، وعليه انتم (14) » .

أما سلامة اخلاق رجال كتامة المقربين منه ، وبعدهم عن مظان الشبهة ، وتنزههم عن التعرض لسير الناس بالدس لهم وبالطعن فيهم عند الائمة الذين كانوا يقربونهم وينادمونهم فقد كانت من دواعى اعجابه بهؤلاء الرجال ، على أساس أن غيرهم من أولياء الدولة وأنصارها انما كانوا يتقربون الى الخلفاء بالمخامرة على غيرهم وبالوشاية بهم والطعن فيهم (15) .

ومع أن المعز لدين الله حرص على ايجاد توازن بين أنصار الدولة والمخلصين للنظام بارضائه لطبقة الفتيان أيضا ، فانه كان صريحا وواضحا معهم عندما عرف أنهم نفسوا على كتامة مكانتها فى الدولة (16) ، وفضلها وانتعاش أمرها بسبب اكثاره من مدح رجالها وثنائه عليهم دون غيرهم فى أكثر المناسبات ، ولكى يقنعهم ركز كلامه معهم على بعض ما يميز كتامة عنهم فى نظره ومنها : ان كتامة كانوا أحرارا وفى وضعية طبيعية ومع ذلك استجابوا للدعوة ونصروها مختارين وضحوا ببلدانهم وأهليهم وهاجروا بدافعى الاخلاص للمذهب الاسماعيلى والولاء للنظام ، ولبثوا على نهجهم رغم تغير الاحوال وتعاقب الخلفاء فهم لا نظير لهم ولا سواء بهم » (17) عى حد تعبيره .

---

14) نفسه 1 ، ورقات 10 ، 26 ، 29 .

15) النعمان : المصدر السابق 1 ، ورقة 7 وما بعدها وهنا يشير النعمان الى مجاراة المعز لدين الله لاحد جلسائه من شيوخ كتامة ليظفر بشيء عن حالة غيره فلا يجد عنده غير حديث البر والاصلاح .

16) وقد تجلى ذلك عندما خاطبوا المعز لدين الله بقولهم « فنحن يا أمير المؤمنين فما ترى أنا قصرنا وقد كان لنا من العناد والجهاد كمثل ما كان لغيرنا ، فمن نازعنا ذلك فليعد مشاهدنا ووقائعنا ومقاماتنا ومن استشهد منا » انظر : المجالس والمسايرات 1 ورقات 3 ، 4 ، 6 ، 7 .

17) نفسه 1 ، ورقات 3 ، 4 .

واذا فشتان فى نظر رجال الخلافة ، بين من ياتى الدولة طائعا مختارا وعن اقتناع ، وبين من تملكه عن طريق الشراء والحروب وفى ظروف خاصة وتتعهده فى كل وقـــت وحـــين (18) ·

ومع هذا الاعتراف بامتياز كتامة فان مكانة قيصر ومظفر من طبقة الفتيان الصقالبة وجوهر الكاتب الصقلى كانت لا تعدلها أية مكانة أخرى فى واقع الامر خاصة فى عهدى المنصور والمعز الذى تعلم فى صغره الخط على يد مظفر الصقلبى (19) ·

ولقد أصبح وضع قيصر ومظفر فى الدور المغربى للخلافة ، كما أضحى وضع جوهر فى مصر فيما بعد ، محل غيرة من الاولياء بما فيهم كتـــامة ، لان قيصر ومظفرا، استبدا بشـؤون الحكم (20) ·

وعندما شعر المعز لدين الله بالآثار السيئة لاستبدادهما وسمع أنباء عن قلـــق أنصار الدولة ورجالها نكبهما (21) وشهر بهما فى بعض مجالسه ووصفهما باللعينين ونفى أن يكون لاى منهما سلطان عليه أو على كبار رجال الدولة وشيوخها ، بل اعتبر التجاء الانصار اليهما أو الى أية واسطة أخرى لقضاء شان مادى أو معنوى من الامام يحط من قدرهم ويسىء الى سمعتهم وقد وضح ذلك فى قوله : « وربما تعلقوا بمن دوننا ليجعلوا ذلك وسيلة الينا ، لا والله ما جعلنا لاحد عليهم من ذلك من سبيل (22) وبعد أن نهى المعز لدين الله أنصار الدولة عن الالتجاء الى استخدام أسلوب الوساطة واتخاذ الولائج

---

18) نفسه العزيز الجوذرى : المصدر السابق 41 ، 42 ، وكان جوذر يشرف على بعضهم وقد بالغ مرة فى عقوبة من انحرف منهم وسجنه ، ولم يطلق سراحه الا بعد تـــدخل أبى الطاهر اسماعيل حجة القائم بأمر الله ·

19) المقريزى : اتعاظ الحنفا 1 ، 101 س 8 — 9 ·

20) ابن خلدون : العبر 4 ، 96 — 97 ط بيروت ، ابن أبى دينار : المؤنس 63 — 64 ·

21) ابن خلدون : المصدر السابق 4 ، 96 ، 97 ، وقد أمر بقتلهما سنة 349 هـ · قارن ذلك بما ورد سهوا فى سيرة الاستاذ جوذر ص 157 تعليق 30 ، وهو من تحرير المحققين ·

22) النعمان : المصدر السابق ورقة 156 — 157 وقارن ذلك بما ورد أيضا فى القســم الثانى من كتاب المجالس والمسايرات ورقة 666 وما بعدها ·

للوصول الى سدة الامامة وحثهم على الاتصال المباشر به فى كل حين مثلما جرت عادته من قبل معهم ، تظاهر بانه كان دائما مستعدا لاستقبال وفودهم وقضاء حاجاتهم ، وأنه لم يرفض لاى أحد منهم طلب رؤيته فى اى شأن من الشؤون الخاصة او العامة (23) .

ولادراك المعز لدين الله بأن كتامة امتحنت فى عهد المهـــدى وزالت عنها الرئاسة الفعلية وتخطتها المسؤوليات المباشرة حتى خمل ذكرها ، وفنى جيلها الاول فى حـــروب الدعوة والتوسع ، وأثناء الفتن الداخلية ، بينما نشأت نواة جيلها الموالى ، بعيدة عـن السلطة وعن المراكز الرئيسية فى الدولة ، فقد أراد أن يعدل الحال ويرجح كفـــة الميزان لفائدتها ويعيد وضع كتامة سيرته الاولى ، حفظا لمبدأ التوازن بين العناصـــر المستبدة بشؤون الدولة واظهرهم صنهاجة وكتامة ثم طبقة الفتيان الصقالبة .

واستهل أعماله فى هذا الاتجاه ، بالبدء بتعيين شبـــاب كتامـــة فى الوظائف ، وتكليفهم بالمهمات ، وتوليتهم على الاعمال التى كان يليها آباؤهم واقرباؤهم من قبل ، هذا مع قيامه بتوجيههم توجيها خاصا لفائدة الدولة . ولم يكن يشترط عليهم أثنـاء التكليف غير الطاعة والامتثال ، ورعاية حقوق الامام الفاطمى فى ضرورة اطلاعه على كل ما يجرى فى أرجاء البلاد ويتضح ذلك من قوله لاحد ولاة كتامة « طالعنا بامورك ما عسى أن تريد العمل به قبل أن تعمله فما أتاك منه فامض على ما نامرك به تكن على سبيل نجاة وسلامة وراحة وتزول الحجة عندك (24) .

ولتخوف المعز لدين الله مما قد يظهر فى عهده أيضا من حركات انفصالية قد يقوم بها بعض قادة كتامة ثار الماحل من قبل بآبائهم واقربائهم ، كان يوضح أمامهم بان ما حصل لرجالهم وشيوخهم فى عهد المهدى انما كان يقصد به تطهيرهم من الذنوب وتربية غيرهم من العامة وبسطاء الناس حفظا للنظام ورعيا لمبدأ الانسجام بين اتباع الـــدولة وأوليائهـا .

23) نفسه 2 ، ورقتا 512 — 557 .

24) نفسه 2 ، ورقات 600 — 603 .

« وان قتلنا منكم من نقتله ممن يجب القتل عليه ولا يسعنا أن نبقيه فما ذلك منا فيه الا تطهير له وتمحيص لذنوبه،وكلما تجرى به أمورنا فيكم فهو صلاحلعامتكم. (25)

ومبدأ الانسجام بين رعايا الدولة حرص المعز لدين الله على تحقيقه حرصا كبيرا حتى فى المناسبات الاجتماعية أيضا ، ومن ذلك أنه أمر فى 1 ربيع الاول 351هـ 962م ، باعذار الاطفال فى كامل أرجاء الدولة بمناسبة ختان أبنائه عبد الله ونزار وعقيل ، وبتوزيع الهدايا والارزاق على سائر السكان فى المناطق القريبة والبعيدة التى نالت من ألطاف الخلافة خمسين حملا . (26)

وقد قصد المعز لدين الله أن تكون أيام الختان التى استمرت شهرا ، مناسبة أفراح وسرور ووحدة مشاعر بين سائر السكان .

وقد اغتنم هذه الفرصة كى يستخلص العبرة من مغزى هذا الحدث أمام وفد من شيوخ كتامة وكان من بين أوائل الوفود التى حظيت بلقائه بعد انتهاء ايام الختان ، ثم ليؤكد أمامهم مرة أخرى بأنهم البطانة والخاصة وأساس وجود النظام واستمراره منذ عهد الاسلاف ، وأن عليهم أن يصدروا فى أعمالهم وفى علاقاتهم الخاصة مع بعضهم على نهج سليم غير ضار بسمعتهم ، أو بمصالح الدولة التى كانت وما زالت تعتمد عليهم كقوة موحدة الاهداف بعيدة عن ريح النفاق والشقاق ، لتحقق أهدافها العليا على حساب الامويين فى قرطبة والعباسيين فى بغداد .

وكل هذه المعانى ضمنها فى قوله للكتاميين : « أنتم خاصتنا وبطانتنا وأحب الخلق الينا لو أعنتمونا بسمع وطاعة وامتثال أمر ، وان كنا لا نشك فى حسن اعتقادكم لولايتنا وصفو نياتكم لنا ، ولكن الدنيا ربما استمالت كثيرا منكم بحطامها والهوى والحمية ربما مال بكثير منكم عن امرنا لا سيما ما يعترى بعضكم لبعض من الحسد والمنافسة حتى تصيروا فى مواضعكم الى الحروب ، والقتل وهتك الحريم ، وذلك وأن

25) نفسه 2 ، ورقات 434 – 435 – 584 وما بعدها .

26) المقريزى : اتعاظ الحنفا 1 ، 94 النعمان : المجالس والمسايرات 2 ، ورقة 645 وما بعدها .

يشفى به بعضكم من بعض ، فانه مما يغمنا ، وينكينا فيكم ، وكان من الواجب أن تدعوا ما تحبونه ، من شفاء غيظكم وبلوغ شهواتكم ، لما نحبه من حقن دمائكم ، وصلاح أموركم ، وبقاء نعمة الله عليكم » • (27)

ان الذى يلفت النظر فى أحاديث المعز لدين الله وفى مجالسه الخاصة مع كتامة استخدام القسم لحملهم على التصديق ، والتكرار للتاكيد ، أما المبالغة فى تصوير فضائل كتامة وميزاتهم ، ووصفهم بمعدن الولاية (28) ، وأما الحرص على مجىء وفودهم الى المنصورية فى المناسبات (29) ، وأما تبسطه فى الحديث معهم عن وضعهم فى الدولة وعن نظرتها اليهم ، واستطلاعه لمعرفة رأيهم فى عمالهم واستفساره المستمر عن شيوخهم وشبابهم ان كانوا يواظبون على ارتياد المجالس الحكمية التى كانت تعقد فى المساجد وفى القصر ، لسماع الذكر والحكمة وعلوم آل البيت (30) فيستنتج منها كلها أنه لم يكن مطمئنا اليهم ، وأن رجال كتامة كان يعتريهم شىء من الفتور ، والتهاون فى نصرة الخلافة الفاطمية ، وكان أحيانا يخامر بعضهم الشك فى المذهب الاسماعيلى ثم فى حقيقة وجهة الخلفاء الفاطميين ، وتصرفاتهم تجاه القيادات المحلية ، ولذلك اجتهد المعز لدين الله بما أوتى من قدرة ولقانة كى يحاصرهم فى اطار المذهب وفى الخط السياسى الذى كان يريده كى يبقوا عدة لما يعتزم القيام به من مشروعات ضد العباسيين والروم البزنطيين • (لاترتابوا فينا ولا تشكوا فيما نأتيه ونذره من أموركم كيفما جرت الاحوال) • (31)

27) النعمان : المصدر السابق 2 ، 666 وما بعدها •

28) ومع ذلك فقد وصفهم مرة بالسفلة فى قضية خاصة عرفها من جوذر ، الذى كان مشفقا على كتامة رؤوفا بهم لمكانهم فى هذه الدولة الطاهرة ، انظر العزيزى الجوذرى : المصدر السابق 121 — 122 •

29) النعمان المصدر السابق 1 ، ورقات 2 — 3 •

30) نفسه 2 ، ورقات 512 — 557 ، وعندما عرف مواظبتهم قال : هذا الذى نريده منهم ومن غيرهم مما فيه حظهم وصلاح أحوالهم ، أما هدفه من ذلك فقد أوضحه فى قوله : « نحب أن نجعل جميعهم أعلاما يهتدى بهم وسرجا يستضاء بنورهم وعلماء تقتبس الخلائق منهم » •

31) نفسه 2 ، ورقة 584 •

وزاد هذا المعنى توضيحا وتاكيدا فى مناسبة أخرى بقوله : « أحب لكم ولغيركم خاصة ولجميع من تمسك بولايتنا عامة ، ان يكون ما تكنه صدوركم لنا موافقا لما تنطق به ألسنتكم عندنا » • (32)

ولما كان المعز لدين الله يشتد احيانا على كتامة فى بعض مجالسه ، يعنف ، ويؤنب ، ويلمح بالتهديد ، والوعيد ، فقد كان جليسه ومدون أحاديثه ، النعمان بن محمد ، يتدخل أحيانا ، لتهدئة الموقف وتلطيف الجو ، ومن ذلك ان المعز لدين الله شعر مرة بتاثر الكتاميين مما سمعوه منه ، فاستدرك أمامهم بما يبعث الاطمئنان فى نفوسهم وقال للنعمان : « لو لم يكونوا عندى بمحل من نحب صلاحه ونشتهى رشده ، لم اقل لهم مثلما قلته ولولا ما أخشاه عليهم لعرفتهم مكانهم عندى ، وكيف محلهم من قلبى ، ولو أشاء لعاقبت المذنب عقوبة مثله ، ولقتلت من يجب فى صلاح الدولة قتله وأبقيت من ينتفع فيها به ، ولكنى حملت الامر على ما أوجب الزمان لى ، وجرت به عادة الله الجميلة عندى » • (33)

وأمام جموع كتامة الذين أتوا بأعداد كبيرة من بلادهم للاشتراك فى تاديب ابن واسول وانهاء انفصال سلجماسة السياسى والمذهبى ، أشار الى ظاهرة تثاقلهم وعدم استجابتهم لنداء أسلافه من قبل على هذا النحو الهائل ، عندما استصرخوا ضد ثورات زناتة ، وحركة النكارية بقيادة أبى يزيد بقوله : « بارك الله فيكم وأحسن صحابتكم ، والخلافة عليكم فقد صدقتم ظنى فيكم وأملى عندكم ، وانتم من معدن البركة وعنصر الخير بكم بدأ الله اظهاره أمرنا وبكم يتمه ويصلحه بحوله وقوته وقد علمت مسارعتكم الى ما ندبتكم اليه واجابتكم لما أردتكم له ، وأرجو أن تلقوا من ذلك بحسب الامل فيكم ويرفع الله درجاتكم ويعلى ذكركم • (34)

---

32) نفسه 2 ، ورقة 512 •

33) نفسه ورقات 670 — 673 • وكان تعقيب النعمان بن محمد على أحاديث المعز لدين الله مع شيوخ كتامة قوله : « لقد وعظ المعز عبيده وأبلغ فى الموعظة ، ونبههم ، وتفضل عليهم » •

34) نفسه 1 ، ورقة 26 وما بعدها •

ولكي يعتذر اليهم عما دبره ، ويوصيهم بالفتيان خيرا ، ويبرز أمامهم تقديم جوهر الصقلي للقيادة على حملة سلجماسة دون أحد رؤسائهم البارزين ، قال : « لولا السنة ما قدمت عليكم أحدا منكم ولا من غيركم ، اذ كل واحد منكم يستحق عندى ان يكـون المقدم ، ولكن لا يصلح الناس الا برئيس ، وقد وليت عليكم منى شخصا أقمته مقـام نفسى وجعلته معكم كأذنى وعينى ، احسنوا عشرة بعضكم وعشرة من تصبحون مـن غيركم واحسنوا معاملة عبيدى فهم اخوانكم وموالاتى تجمعكم » • (35)

والذى يبدو أن ظاهرة التثاقل ، أو عدم الاستجابة بالقدر الكامل من قبـل عصر المعز شيآن لا ينازع فيهما بعد تلك التطورات التى مرت بالدولة وبعصبيتها التاريخية عهدى المهدى والقائم ، ومن المسلم به أن مستوى الحماس للدعوة الاسماعيلية ، ولنظام الخلافة الفاطمية لا يمكن أن يظل على حاله نظرا لاختلاف وجهة نظر الخلفاء الفاطميـين وأنصار الدولة ، ولتغلب أهواء القبائل المغربية •

وادراك المعز لدين الله لما حصل هو الذى حمله على تقصى أخبار كتامة فى بـلادهم وتتبع ما طرأ عليهم من تحول فى نظرتهم نحو الدولة • ولقد كانت فـرحته شديدة عندما علم عن طريق وفودهم الكثيرة ، أن الطاعة للامام المعصوم من عترة الرسول هى الظاهرة العامة التى يستوى فيها الكبير والصغير ، والسيد المسـود ، وان الكتاميين يقسمون باسمه ذكورا واناثا شبابا وشيبا ، سادة وعبيدا • « وما ذلك فينا دون بنينا وخدمنا وعبيدنا ، والله ما يحلف أطفالنا وعبيدنا وخدمنا الا بحق مـولانا وفضله ولا على ألسنتهم ولا لهم غيره ولا يعرفون لهم مولى سواه » • (36)

ولان هذا الاعتراف الصريح أعطاه اطمئنانا لما يجرى فى مجتمع كتامة الصغير وزوده بمادة طيبة يستغلها فى الحديث مع وفود أخرى فقد أوضح فى مناسبة أخرى مـدى تعلق سكان منطقة كتامة بجميع فئاتهم بالولاء لنظام الخلافة العلوية الفاطمية بقوله :

35) نفسه 1 ، ورقات 30 — 31 •

36) نفسه 1 ، ورقات 150 — 153 •

« والله والله ما يتخالجنى الشك فى اعتقاد صغيركم وكبيركم وحرمكم وعبدكم وذكركم وأنثاكـــم » . (37)

وان صرفنا النظر عن تفنن المعز لدين الله فى اصطنـــاع الاســـاليب ، والمواقف المختلفة للتأثير على كتامة واشعار رجالها بأنهم وحدهم المسؤولون على مصير الدولـة ، والقوامون على بقائها وسلامتها ، وعلى مد نفوذها فى الآفاق المشرقية البعيدة ، فانـــه يلاحظ أيضا ان المعز لدين الله فى اطار هذه السياسة ، جرى فى معاملته لهم أحيانا على غير الرسوم المألوفة مع غيرهم بقصد التأنيس ، وتأكيد المواقف اذ تشـــير بعض النصوص (38) الى أنه دعا بعضهم الى الاجتماع به فى يوم شات ، وسمح بادخالهـــم عليه من غير الباب الذى جرى الرسم بدخول العامة ورجال الدولة منه على الخلفاء قبله وكان لحظة دخولهم ، على هيئة متواضعة ، منصرفا الى كتابة رسائـل الى الدعـــاة فى المشرق ، والى الولاة والعمال فى المغرب ، يجيبهم فيها بنفسه على بعض مشاكل الدعوة الاسماعيلية (39) ومصاعب الحكم الفاطمى فى بلاد المغرب . (40)

وكان هدفه من هذا الحركة التمثيلية أن يشعرهم بأنه عندما يحتجب عن رجاله لا ينصرف الا لتدبير شؤون المجتمع ، ولما يحفظ الدعوة ، ويضمن استمرار الدولة ، كل ذلك مع زهد كامل فى شتى مباهج الدنيا وملذات الحياة الباذخة ، وفى ذلك ايماء الى أن رجاله المقربين منه يجب عليهم بمقتضى مبادئ المذهب الاسماعيلى اسوة بامامهم أن يكرسوا جهودهم لخدمة المصلحة العامة ، ولتخفيف المشاكل عـن الضعفاء ولاشاعة جـو العطف والرحمة على البؤساء ، حتى يشعر الجميع بالاطمئنان ، وبالراحة فى ظل الخلافة العلوية

37) نفسه 1 ، ورقة 154 وما بعدها .

38) المقريزى : اتعاظ الحنفا 1 ، 95 ماجد عبد المنعم : أصل حفلات الفاطميين بمصر 253 — 254 مقال صحيفة معهد الدراسات الاسلامية — مدريد — مجلد 2 سنة 1954 .

39) النعمان : المجالس والمسايرات 1 ، ورقات 155 — 331 — 326 .

40) نفسه 1 ، ورقات 179 — 183 ، 203 — 207 — 294 وما بعدها .

العادلة ولا يتيحوا لانفسهم ولحياتهم الخاصة الا قدرا مما تستحقه فى نطاق القصــد والاعتدال خاصة فى أمر النساء • (41)

ان جهود المعز لدين الله فى سبيل تقويم سلوك الكتاميين ومواعظه الكثيرة بهـدف توجيههم ، وأحاديثه فى مجالسه الخاصة عن كتامة ومبالغته فى الثناء عليها وفى اطراء اخلاق رجالها ، ونشاطه من أجل بث روح جديدة فى نفوسهم ، وخلق مناخ ملائم فى ربوعهم ، قد أثمرت فى نهاية الامر وآتت ثمرها شهيا ، اذ هيأت لظهور نواة جيل جديد من كتامة يمتاز بميزتين بارزتين هما :

1) الاعتزاز بماضى الاسلاف فى مجال نشر الدعوة وتوجيه حركة التوسع فى بلاد المغرب •

2) ثم الادراك الكامل لمدى أهمية استمرار الخلف على سيرة السلف ، وترسم طريقهم واحياء دورهم من جديد ، وذلك بالعمل على دعم مسيرة الدولة ، لتدرك فى عصرهـم أهدافها فى عالم شا مصر ، وغيره من بلاد المشرق العربى الاسلامى ، بعد أن عمـل أسلافهم من قبل ، على انجاح حركة الدعوة الاسماعيلية ونشرها وتعميمها ، ثم تحويلها الى نظام دولة مستقرة ، وخلافة جامعة فى بلاد المغرب وملحقاتها •

واذا كان الجيل الاول من كتامة ، قد زانه قادة رواد مثل عروبة بن يوسف والى تاهرت والجزء الغربى من الخلافة الفاطمية فى عهد المهدى ، وأخيه حباسة قائد فتح طرابلس ومساعد القائم بأمر الله فى قيادة الحملات التمهيدية التى وجهت لاستطلاع أوضـاع مصر الاخشيدية ، وابى مدينى بن فروخ اللهيصى والى برقة ومنطقة الاطراف مما يـلى مصر ، وأبى زاكى تمام بن معارك الاجانى أخص مساعدى أبى عبد الله الداعى الشيعى ،

41) المقريزى : المصدر السابق 1 ، 95 – 96 وهما قاله لهم « افعلوا يا شيوخ فى خلواتكم مثل ما أفعله ولا تظهروا التجبر والتكبر •• وتحننوا على من ورائكم ممن لا يصـل الي كتحننى عليكم ليتصل فى الناس الجميل ، ويكثر الخير ، وينشر العدل • واقبلوا بعدها على نسائكم ، ولا تشرهوا الى الكثير منهن ••• فحسب الرجل الواحد الواحدة • ونحن محتاجون الى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم ، واعلموا أنكم اذا لزمتم ما آمركم به رجوت أن يقـرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم » •

ثم عمه ماڤنون بن ضبارة والى طرابلس الغرب ، فان جيل كتامة فى عهد المعز لدين الله برز منه قادة ساروا على نفس الخط واستعادوا سيرة اسلافهم فى ميادين : نشر الدعوة وتوجيه الحرب ، وتسيير الادارة ، ومن بين هؤلاء : ابن عطاء الله والى قابس ، وصولة متولى ديوان خراج افريقية ، وعبد الله بن يخلف عامل طرابلس المستقل بشؤونها عن نفوذ الزيريين ، عسلوج بن الحسن الدنهاجى أخص خواص المعز لدين الله ، ولـذلك أطلعه على سر النص على حجته ولى عهده ابنه عبد الله (42) ، وجبر بن القاسم السكتانى الذى بلغ منزلة كبرى فى مصر لدرجة أنه ولى شؤون الدولة نيابة عن الخليفة العزيـز منصرفه لقتال القرامطة وافتكين الشرابى ، ثم أبو على جعفر بن فلاح بن أبى مرزوق ، مساعد جوهر الكاتب فى قيادة أضخم حملة ناجحة وجهت ضد مصر الاخشيدية (43) الذى ادرك هو الآخر مجدا كبيرا فى بلاد المغرب ثم فى مصر بعد الفتح · ويبدو أن ما كان بينه وبين جوهر من منافسة فى بلاد المغرب تجددت فى مصر ، ولذلك أبعده جوهـر بوصفه القائد الآمر الى بلاد الشام برسم الفتح وتتبع فلول الاخشيدية والكافورية · وتركه هناك ــ فى دمشق ــ دون نجـدة رغم علمه بتحرج الموقف بسبب قوة الاحلاف والمغامرين · (44)

ولشهرة جعفر بن فلاح كقائد محنك درب ، كان أحد الجعفرين اللذيـــن ألبسهما أبو القاسم محمد بن هانى شاعر الدعوة الاسماعيلية برود مدحه حيث يقول فيه بعد أن رآه :

---

42) العزيزى الجوذرى : المصدر السابق 139 ص 11 ، ابن أبى دينار : المصدر السابق 63

43) ابن عذارى : البيان المغرب 1 ، 315 ــ 316 ط المناهل ــ ابن خلدون : المصـــدر السابق 3 ، 673 ــ 674 حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية 153 هامش 1 ، ابــن خلكان : وفيات الاديان 1 ، 13 الجيلالى : تاريخ الجزائر العام 1 ، 317 ط 2 ، 1965 ، مفاخر البربر (لمجهول) 57 ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة 4 ، 28 ــ 29 ·

44) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق 1 وما بعدها · ابن تغرى بردى : المصدر السابق 4 ، 32 وما بعدها جمال سرور : النفوذ الفاطمى فى الشام 17 وما بعدها ·

كانت مسالة الركبان تخبرنى عن جعفر بن فلاح اطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت اذنى باحسن مما قد رأى بصرى (45)

وكان الشاعر الدمشقى ، اوضح بيانا وأكثر تاثيرا عندما رثاه بعد موته بقوله :

يا منزلا عبث الزمان باهله فأبادهم بتفرق لا يجمع
أين الذين عهدتهم بك مرة كان الزمان بهم يضر وينفع (46)

ومن بين أشهر قادة هذا العصر أيضا : أفلح بن ناشب عامل برقة منذ سنة 342 هـ ـ 952 م (47) .

وقد أدرك هو الآخر فى برقة مجدا كبيرا ، واشتهر من بين قادة الخلافة حتى طمحت نفسه لمنافسه جوهر القائد الذى كان أول من مارس مهمات واختصاصات الوزير دون تلقيب (48) ، فأبى أن يترجل له أنفة واستعلاء بنفسه رغم أن جميع رجال الدولة وانصارها بما فيهم رجال البيت الفاطمى ، كانوا كمارسم المعز لدين الله ، يترجلون لجوهر وحاول بتلطف مع الخليفة المعز ، أن يعفيه من هذا العمل الثقيل على نفسه لقاء

---

45) ابن تغرى بردى : المصدر السابق 4 ، 31 هامش 3 ، ابن خلكان : المصدر السابق 1 ، 113 ، الجيلالى : المرجع السابق 1 ، 118 .

46) ابن تغرى بردى : المصدر السابق 4 ، 58 — 59 .

47) ابن أبى دينار : المصدر السابق 63 القلقشندى صبح الاعشى 3 ، 349 ، لمعة من اخبار المعز (لمجهول) ورقة 4 . وقد وصف أفلح بمولى المعز وغلامه مما يشعر بأنه قد يكون من الفتيان الصقالبة . ويبدو انه من كتامة وهو أحد أخوة ثلاثة واصغرهم أيضا : فاكبرهم فيما يبدو هو الذى ورد فى بعض النصوص باسم الحكم بن ناشب (ناسب) الذى عينه الداعى الشيعى نائبا عنه فى قلعة ايكجان غداة مغادرته اياها بعد حدوث فتنه الى قلعة تازروث . وكانت مهمته رعاية انصار الدعوة الاسماعيلية فى ايكجان وأوسطهم هو جبر بن ناسب الذى ازدهر فى عهد المهدى ، وهو الذى تولى باذنه قتل أبى العباس المخطوم بتسع عشرة طعنة بالرمح انظر : ابن عذارى المصدر السابق 1 ، 228 ، النعمان افتتاح الدعوة ورقة 62 .

48) المقريزى : اتعاظ الحنفا 1 ، 93 .

تعويض مادى ضخم ، ولما أشعر بالرفض ، وبضرورة الالتزام بما رسم نحو جوهر امتثال للامر ، على ما فى نفسه ـ طاعة للخليفة ، وترجل لجوهر وقبل يديه • (49)

وبسبب نشاطه الجم استقر الامن والنظام فى منطقة برقة التى كانت معبرا الى مصر كما أخلد عرب الاطراف من ناحية مصر ، الى الراحة •

واستقرار الامن والنظام انعكست آثاره الايجابية فى النشاط الثغرى ضد جـزر البحر المتوسط التابعة للروم ، ومن ميناء طينه على ساحل برقـــة انطلقت النجـدات الفاطمية الى مسلمى جزيرة اقريطش الذين هددوا من طرف الامبراطورية البيزنطية ، ووجود أفلح كان بدون شك مفيدا للحملة التى مرت ببرقة وفتحت أثناءها مصر وضمت الى بلاد المغرب • (50)

ولقد كانت صلات أفلح برجال الدولة وبالاستاذ جوذر ، ثم بالخليفة المعز لدين الله قوية ومتينة لدرجة أن الاستاذ جوذر على ما بلغه من قيمة وشأن ونفوذ فى دولة المعز لدين الله لما طلب من أفلح ارسال عشرة جمـــال من برقة ، وأرسل اليــــه ضعفها أى عشرين ، تحرج من رد ما زاد على الطلب ، ومن مراجعته فى هذا الشأن ، وتطلب الامر عرض الوضع على الخليفة نفسه لاخذ رأيه ، فيما اذا كان يمكن للاستاذ جوذر أن يرد مثل هذه الهدية الى أفلح فكان توقيع الخليفة ـ بالموافقة دون تردد أو ابطاء • (51)

---

49) لمعة من أخبار المعز (لمجهول) ورقة 4 خ مكتبة جامعة فؤاد 1 رقم 24022 ، القلقشندى المصدر السابق 3 ، 339 ، ابن أبى الضياف • اتحاف أهل الزمان 1 ، 126 ، 127 ، عبد المنعم ماجد ظهور خلافة الفاطميين 254 •

50) النعمان : المجالس والمسايرات 2 ورقة 117 وما بعدها ، العزيزى الجوذرى : المصدر السابق 95 تعليق 101 ، ابن الاثير : المصدر السابق 8 ، 196 (أحداث 301 هـ) الدشراوى : قضية اقريطش فى عهد المعز لدين الله 27 وما بعدها ، انظر عن هذه النصوص التى اقتبها الدشراوى من نسخة خطية لكتاب المجالس والمسايرات كانت فى حـوزة المرحوم ح • ح • عبد الوهاب حوليات الجامعة التونسية عدد 2 ، سنة 1965 •

51) العزيزى الجوذرى : المصدر السابق 95 •

ومثل ذلك لا يعنى الا التقدير المتبادل ، والاهمية الكبرى التى كان يحظى بها أفلح ابن ناشب فى نظام الخلافة وبين ولاة الدولة فى عصر المعز لدين الله ثم فى شطر من عصر ابنه العزيز بالله اذ كان أحد الثلاثة الذين طلبوا من المعز لدين الله فى أخريات حياته ، أن يفضى اليهم بسر النص ، أى بقضية تعيين حجته من بعد وفاة ابنه الامير عبد الله فى مصر • (52)

وبلغ من قيمته وشهرته ، أن غدا ضمن ممدوحى ابن هانىء الافريقى ، شاعر القصر الفاطمى (33) • ان هؤلاء القادة وأمثالهم ممن لم نتعرض لذكرهم ، وازدهر بهم النصف الاول وشطر من النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى كانوا حقيقة ، نتاج عصر وثمرة جهد فكرى بذله المعز لدين الله بسخاء ، وتفان فى سبيل تحقيق الاهداف العليا للاستراتيجية الفاطمية ، ولاحساس المعز لدين الله بضخامة الجهد ، وأهمية الرجال خاطبهم بقوله : « فوالله ما هيأ الله لامة من الامم ما هيأه لكم ، ولا فتح على أحد مثلما فتح فيه عليكم وأن أمركم معنا لما فيه برهان لمن تأمله ، ودليل على امامتنا ، وذلك لطول صحبتكم ، ايانا ، أجدادكم مع أجدادنا ، وآباؤكم مع آبائنا ، وأنتم معنا وكذلك يكون أعقابكم مع أعقابنا ، لا يموت أحد حتى يخلف من ولده الجماعة ممن يخلفونه ويسدون مكانه ، ويفضلونه ، ويسعدون بولايتنا ، ويشرفون بطاعتنا ، ولانت اليوم بما نلت من رضانا عنك أفضل من أبيك بالامس مع آبائنا ، وان كانت السابقة له

---

52) المقريزى : اتعاظ الحنفا 1 ، 229 ص 9 ط 1967 وعندما كان يأتى أفلح الى القاهرة يستقبل استقبالا فخما ولقد استمر واليا فى برقه حتى بعد سنة 379 هـ انظر ص : 216 246 من اتعاظ الحنفا •

53) الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا 193 هامش 1 ، اليعلاوى : قصائد لابن هانىء لم تنشر ، حوليات الجامعة التونسية 1969 ، وقد وصف أفلح هنا بقاضى برقة ، ومن شعر ابن هانىء يتبين أن له ابنا •

والفضل والجهاد ، فما أمة من الأمم كانت هكذا مع ائمتها قبلكم مثلكم ، وما ذلـــك الا للحق الذى نحن عليه • (54)

ان المعز لدين الله من خلال هذا القول ، يمن على كتامة بسبب ما أدركوه من مجـــد بسبب تعلقهم بالولاء ، ويوضح أن أساس التفاضل بين الاجيال انما يكون بالجهـــاد الذى أراده مبدأ يتمسك به الكتاميون فى عهده ، كما وضح ان اخلاص كتامة جيله ، وفضلهم ، وتعلقهم بالولاء الذى ورثوه عن آبائهم واولى السابقة منهم ، انما يقوم برهانا ساطعا على أحقيه الفاطميين فى الامامة ، وعلى شرعية حكمهم لسائر المسلمين •

وهكذا لم يبق أمام كتامة بسبب التعبئة المعنوية ، والتنظيم المادى ، الا أن يتصرفوا وفقا لما وصل اليهم وضعهم فى الدولة فى عهده ، ويترجموا أقوال المعز حول أهميتهم وفضلهم واعتماد الدولة عليهم ، الى حقيقة واقعية ، والى تصرفات فعلية ، وفى هـــذا الصدد تشير بعض النصوص ، الى أن المعز لدين الله نفســـه واجـــه موقف الرفض والاعتراض من شيوخ كتامة جيله ، عندما رغب منهم ، واقترح عليهـــم قبـــول تعيين عمـــال (55) ، للصدقات يقيمون فى بلادهم ليكونوا مندوبين عن الخليفة فى جمـــع الاموال والزكوات والاشراف على ارسالها الى دار الخلافة فى المنصورية للاستعانة بها فى تحقيق مشروعات الدولة فى المشرق ، وكانت الاستعدادات جارية لتجهيز حملـــة جوهر الى مصر الاخشيدية ، (56) ، والنية معقودة منذ فترة على اتخاذها مقرا دائمـــا

---

54) النعمان : المجالس والمسايرات 2 ، ورقات 329 — 330 ، وأكد هذا المعنى فى مناسبة أخرى بقوله « ولقد سبق من آبائكم مع الآباء وأجدادكم مع الاجداد ، من يقول الناس انهم يسبقهم أفضل منكم ما أقول أنا الا أنكم أفضل ممن تقدمكم بما فضلكم الله به فى أيـــامى ورحمتى وحياتى انظر : المجالس والمسايرات 2 ، ورقة 670 وما بعدها •

55) ونص كلامه كما نقله رسوله : يا اخواننا : قد رأينا أن ننفذ رجالا من قبلنا الى بلدان كتامة يقيمون بينهم ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم ويحفظونها علينا فى بـــلادهم ، فاذا احتجنا اليها انفذنا خلفها فاستعنا بها على ما نحن بسبيله » انظر : المقريزى : اتعاظ الحنفا 1 ، 68 •

56) المقريزى : اتعاظ الحنفا 1 ، 97 • وكان خفيف الصقلبى صاحب الستر ، هو رسول المعز لدين الله الى شيوخ كتامة •

للدولة الفاطمية ، للاشراف من قرب على شؤون المشرق ، وللنضال ضد العباسيين ، والروم البيزنطيين ٠

وعندما استفسر المعز لدين الله ، شيوخ كتامة الذين حضروا بناء على طلبه عن حقيقة قولهم وما نقل اليه عنهم (57) ، وكان ممتطيا صهوة جواده قالوا : « نعم هو جواب جماعتنا ما كنا يا مولانا بالذى يؤدى جزية تبقى علينا » وبهذا برروا موقفهم المعارض لاقتراح الخليفة على أساس تاريخى واضح طالما تغنى به هو فى مجالسه الخاصة معهم ٠

ومعنى كل ذلك : أن الكتاميين فهموا اقتراح الخليفة على أنه محاولة اذلال لهم ، وحط من قيمتهم وقضاء على بعض امتيازاتهم التاريخية فى الدولة ، ولذلك رفضوه بقوة وبمنطق سليم ، بحيث بهت المعز لدين الله ولم يسعه ـ وهو المسؤول عما حصل الا أن يتظاهر بالسرور والرضا ويتصنع الاغتباط بموقفهم القوى ويقول فى ختام مجلسه معهم : « بارك الله فيكم ، فهكذا أريد ان تكونوا ، وانما أردت أن أجربكم فانظروا كيف أنتم بعدى اذا سرنا عنكم الى مصر ، هل تقبلون هذا أو تفعلونه وتدخلون تحته ممن يرومه منكم ؟ والآن سررتمونى بارك الله فيكم » (58) ، ومبعث سروره فيما يبدو هو أن تمنع كتامة عن دفع الجباية، وتمسكهم بهذا الامتياز الذى أقره المعز لدين الله حديثا ، نتيجة موقف الاعتراض ، سوف يؤدى الى حركة النضال المرير بينهم ، وبين الامراء الزيريين ـ نواب الغيبة ـ أى الى حركة المواجهة بين حلفى كتامة وصنهاجة ، ذلك لان عقد التقليد الذى ظفر به أبو الفتوح بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، ثم الوصية الخاصة التى زود بها من طرف المعز لدين الله فى سردينية ـ من ضواحى القيروان ، لم يتضمنا استثناء كتامة من الجباية ولا امتيازا لاحد ٠

---

57) ومما ردوا به على خفيف الصقلبى قولهم « قال لمولانا : والله لا فعلنا هذا أبدا ، كيف تؤدى كتامة الجزية ، ويصير عليها فى الديوان ضريبة ؟ ! وقد أعزها الله قديما بالاسلام ، وحديثا معكم بالايمان وسيوفنا بطاعتكم فى المشرق والمغرب » ٠ انظر : المقريزى المصدر السابق 1 ، 98 أ س 5 ـ 7 ٠

58) نفسه 1 ، 98 ٠

ان غاية المعز لدين الله ان يبقى ظل الخلافة السياسى ووجودها المعنوى مستمرين فى بلاد المغرب بعد رحيله ، الى مصر • وهذا يتأتى فى ظـــل وضع مضطرب بالنضال القبلى تبقى فيه الخلافة الفاطمية تمثل دور الحكم الفصل وصاحب السيادة الشرعية •

ومن أجل هذه الغاية ، اضطرب المعز لدين الله فى قضية الاستخلاف فى بـــلاد المغرب فكان يريد استخلاف أبى أحمد جعفر بن على « الامير » الاندلسى (59) ، رغـم ضعف عصبيته ومخامرته عليه لفائدة أمويى الاندلس ، لانه كان يعرف عداء صنهاجة لاسرته • وقد قيل أنه فكر أيضا فى استخلاف جوذر الصقلبى (60) • رغم أنـه كان طاعنا فى السن ضعيف الحال فاقدا للعصبية ، لمجرد أنه من أخلص رجـــال الدولة وأخبرهم بشؤون الحكم وبسياسة القبائل المغربية •

وللحفاظ على مكاسب الدولة وحقوقها السياسية الثابتة ، لم يفكر المعز لدين الله فى استخلاف أحد شيوخ كتامة ، كما لم يفكر فى ترشيح رجل له مكانة قبلية ، قـد تشجعه سريعا على فك الارتباط التاريخى بين المغرب ، وخلفائه الفاطميين (61) •

ولهذا السبب لم يدع أحدا يظهر فى ميدان القيادة باستقلال فى بلاد المغرب ، من غير الصقالبة وقد تمتع جوهر الصقلى بمكانة كبرى ، واضفى عليه المعز لدين الله قيمة وبالغ فى تكريمه واستمر على هذا المنهج فى مصر أيضا لفترة (62) ولئن كان زيرى بن مناد قد ولى بعض المهمات رفقة جوهر ، فاكتفى ولئن كانت عصبية صنهاجة قد حصلت على ترضية كافية عندما استخلفت على شؤون المغرب ، فان جعفرا بن فـلاح وعصبيته الكتامية قد هضمت بعض امتيازاتها ، فاحست بالجرح لكبريائها ورافقها هذا الاحساس

---

59) المقريزى : المصدر السابق 1 ، 99 •

61) ابن أبى الضياف : المصدر السابق : 128 — 131 ، وقارن بما ورد فى المقريزى : اتعاظ الحنفا 1 99 عن المحاورة التى جرت بين المعز لدين الله وبين أبى طـالب أحمد بن المهدى عما بين قول جعفر بن حمدون ، ويوسف بن زيرى من فروق وكيف أن المعز كان مقتنعا بأن مصير بلاد المغرب الافلات من قبضة الفاطميين ، خلفاء مصر •

62) المقريزى : المصدر السابق ، 133 ، 138 ، 144 ، 616 على ابراهيم حسن : تاريـخ جوهر الصقلى 103 — 104 •

الى مصر ، فترجمته الى مكايدة جوهر (63) ومساندة جعفر بن فلاح الذى نافس جوهر ، وكاتب المعز لدين الله مباشرة من بلاد الشام بعد فتحها ، دون وساطته اشعارا بانه ليس أقل منه قيمة واخلاصا فى واقع الامر • ولئن كان المعز لدين الله قد استوحى فى موقفه من جعفر بن فلاح وامثاله مصلحة الدولة ومبدأ الحفاظ على تكاملها وسلامتها ، فهو معذور • وحسبه من العمل بعث جيل جديد من خيرة جند الدولة ودعاتها التاريخيين الذين نشروا ظل الخلافة السياسى والحضارى فى مصر نافذة المشرق ، وعملوا على مده الى بلاد الشام ، وهى بوابة العراق • أما العراق العباسى ، فى حد ذاته ، فكان هدفا رئيسيا للدعوة والدعاة الاسماعيلية منذ عصر مبكر (64) •

وبكتامة جيله أزهر الامل وتحققت أهم مشروعات الدولة ، وقطف أبو تميم المعز لدين الله ثمار دعاء جده المهدى ، وجهود القائم ، والمنصور ، وائتلفت بلاد المغرب وملحقاتها بعالم شا مصر وملحقاته فى مظهر وحدة سياسية مذهبية رفعت شعارى الدفاع عن دار الاسلام والمسلمين ، والنضال ضد المغتصبين والمتكالبين •

---

63) 1 ، 242 • وقد تركته كتامة يلقى الهزيمة والذل فى قتاله ضد افتكين فى بلاد الشام ، وموقف كتامة منه كان تعلة أفادته فى الاعتذار للعزيز بالله عن هزيمته •

64) ابن الاثير : المصدر السابق 8 ، 239 — 240 ، ولتحقيق مبدأ وحدة الخلافة وحصرها فى العلويين ناضل الفاطميون من موقعهم فى بلاد المغرب ضد العباسيين ، فجعلوا مصر هدفا رئيسيا أوليا فلما حقق لهم فتحها وفتح الشام رنوا ببصرهم نحو العراق والمشرق الاسلامى •

موقف وجهاء الإيالة الوهرانية من ثورة المقراني والحداد عام 1871

يحيى بوعزيز
وهران

لقد كان عام 1871 بالنسبة للجزائر هو عام الثورة والتمرد الكبيرين والخطرين على الوجود الفرنسى الاستعمارى بها (1) • ذلك ان اكثر من نصف سكان البلاد تقريبا حملوا السلاح هذا العام وارتموا فى احضان الثورة التى أعلنها المقرانى والحداد فى مارس وابريل عام 1871 على التوالى (2) • وذلك من اجل طرد الاستعمار الفرنسى واعادة الاستقلال الوطنى لبلادهم •

ولم يستطع الفرنسيون ان يخفوا هذه الخطورة ، خاصة وان الثورة اندلعت فى الفترة التى كانوا يعانون فيها مرارة الهزائم التاريخية على يد البروسيين الالمان فى سيدان ، وميتز ، وباريس ، التى أدت الى أسر الامبراطور نابوليون

(1) Ch. R. Ageron : *Les Algériens musulmans et la France 1871-1919* (Paris, 1968) PP. 4 - 5.
(2) Acte d'accusation : *Assises du Département de Constantine* (Alger 1873), P. 10.

الثالث ومائة الف جندى من جيشه ، والى اسقاط نظام الامبراطورية الثانية ، واقامة نظام جمهورية الرابع من سبتمبر 1870 • (3)

والحقيقة ان ثورة 1871 كانت عارمة ، ومن أخطر الثورات ضد الوجود الفرنسى بالجزائر بعد ثورة عبد القادر ، وقبل ثورة التحرير الكبرى فى نوفمبر 1954 • وتركزت فى الجزائر الشرقية والوسطى ، ومن أبرز ميادينها : حوض وادى الصومام ، وجبال البيبان ، والبابور ، وجرجرة ، والحضنة ، والواد الكبير ، وونوغة ، والاوراس (4) ، وبعض الواحات الجنوبية الشرقية مثل : ورقلة ، وتقرت ، ومتليلى ، والرويسات ، وقمار ، وتيماسين ، بواد سوف وهضبة مزاب • (5)

ومع ان زعماء الثورة الجزائريين عام 1871 كانوا كثيرين الا ان الثورة التصقت وارتبطت باسم الباشاغا المقرانى ، والشيخ محمد امزيان بن على الحداد نظرا للدور البارز والرئيسى الذى لعباه خلالها لاكثر من سبب (6) ، على عكس غيرهما امثال الشريف بوشوشة ، وابن ناصر بن شهرة والشريف محمد بن عبد الله ، ومحمد الكبلوتى بن الطاهر رزقى الحنانشى ، ومحى الدين بن الامير عبد القادر ، والزبير ولد حمزة ولد سيدى الشيخ ، ومحمد البركانى ، وغيرهم •

اما الغرب الوهرانى فكان هادئا خلال هذا العام (1871) لعدة ظروف وعوامل منها :

1 ـ بعد الشقة بينه وبين شرق البلاد •

2 ـ صعوبة الاتصال بينهما •

3 ـ حرص السلطات الفرنسية على اخفاء ثورة الشرق ما امكن حتى لا تسرى عدواها الى غرب البلاد الوهرانى •

4 ـ يضاف الى هذا ، وهو الاهم ، أن الغرب الوهرانى كان ما يزال يعانى من آثار ثورة أولاد سيدى الشيخ الشرارة الاولى التى اندلعت فى مطلع عام 1864 بالبيض

---

(3) Yves Lacoste, A. Nouschi, A. Prenant : *L'Algérie passé et présent,* (Paris 1960) PP. 375 - 376.

(4) Louis Rinn : *Histoire de l'Insurrection de 1871 en Algérie.* (Alger 1891), PP. 1 - 3.

(5) Louis Rinn : *Les grands tournants de l'Histoire de l'Algérie.* (Alger 1902), P. 25.

(6) S. Gsell, G. Marçais, G. Yver : *Histoire de l'Algérie.* (Paris 1927), PP. 234-235.

سيدى الشيخ وانتشرت فى كل الغرب الوهرانى شماله وجنوبه (7) ، ولو أن الجنوب هو الذى عانى منها كثيرا من الحدود المغربية الى شرق هضبة مزاب (8) ، فى حين لم يعان الشمال كثيرا الا فى السنوات الاولى (1864 ـ 1866) قبل ان يقتل المرابط سى الازرق (9) ، وينسحب سى الاعلى الى جبال عمور ، فبلاد المغرب الاقصى • (10)

وعلى أى حال فان الغرب الوهرانى بصورة عامة كان هادئا خلال ثورة المقرانى والحداد عام 1871 بشرق البلاد ووسطها ولكن هذا الهدوء لا يعنى اطلاقا ان عامة سكان الغرب الوهرانى لم يتعاطفوا مع اخوانهم فى الشرق والوسط ، بل ان انضمام سى الزبير وغيره من زعماء ثورة أولاد سيدى الشيخ الى ثوار 1871 دليل على انهم مع هذه الثورة • (11)

وهذا على عكس بعض زعماء الاسر الذين ادعوا انهم يمثلون سكان الغرب الوهرانى ويتكلمون باسمه بحكم كونهم نوابا فى المجلس العام للايالة الوهرانية من طرف الادارة الاستعمارية والحقيقة انهم لا يمثلون الا أنفسهم ، والادارة الاستعمارية التى عينتهم فى ذلك المجلس ليخدموا مصالحها ويدعموا سياستها الاستعمارية •

لقد تطوع باشاغا فرندة ، أحمد ولد القاضى عن منطقة معسكر ، وخليفة الشلف محمد بن عبد الله بن والى عن منطقة مستغانم ، وآغا أولاد رياح حامد بن حامد عن منطقة تلمسان ، وآغا بنى عامر عبد القادر ولد الزين عن منطقة بلعباس ، تطوعوا لتسفيه ثوار 1871 الذين نعتوهم « بضعفة العقول » • وليس ذلك غريبا بالنسبة اليهم كاشخاص لانهم عينوا فى ذلك المجلس ليؤدوا نفس الدور وما شابهه ، ولكن الغريب أن يصدر منهم ذلك كممثلين ، حسب ادعائهم ، لشعب الغرب الوهرانى الذى يبرأ منهم ومن تمثيلهم المزيف له •

---

(7) Trumelet : *Histoire de l'Insurrection dans le sud de la province d'Alger en 1864.* (Paris 1865), PP. 4 - 16.
(8) Trumelet : *Les Français dans le désert.* (Paris 1865). PP. 68 - 70.
(9) Henri Garrot : *Histoire générale de l'Algérie.* (Paris 1910), P. 990.
(10) Ch. A. Julien : *Histoire de l'Algérie Contemporaine.* (Paris 1964), PP. 491-492.
(11) Bardon Xavier : *Histoire Nationale de l'Algérie.* (Paris 1886), P. 299.

ففى رسالة صادرة من هؤلاء وجهوها الى ما سموه « الجماعة الجمهورية المنتخبين للنظر فى شؤون الدولة » (12) ، احتجوا على سوء معاملتهم داخل المجلس العام الذى هم أعضاء فيه ، وعلى محاولة التغيير من الشريعة الاسلامية ، وعوائد المسلمين · وفسروا سبب سوء معاملتهم داخل المجلس العام بقولهم : « وما علمنا بأى ذنب استوجبنا هذا الطرد الا أن يكون بما وقع فى بعض ضعفة العقول فى هذه السنة من الفتنة فى البلاد المشرقية سيما وقد صرح لنا به أهل الكونصيل جنرال » ويعنون بضعفة العقول المقرانى والحداد وغيرهما من ثوار 1871 ، ويعنون بالفتنة ، الثورة ، ويعنون بالبلاد المشرقية الشرقية التى اندلعت فيها الثورة ، وحتى لا نطيل الكلام ، نحيل القارئ على نص الرسالة نفسها فيما يلي :

نص رسالة وجهاء الايالة الوهرانية الى اعضاء حكومة تور حول موقفهم من ثورة 1871، وسوء معاملتهم داخل المجلس العام

بمنه تعالى وبه استعين · (13)

أعلا (كذا) الله الدولة الفرنسية وأسعد أيامها ونصرها وأذل اعداءها حضرة الجماعة الجمهورية المنتخبين للنظر فى شؤون الدولة عليكم شريف السلام كما يليق بعلى المقام وبعد فالمعروض على مسامعكم الشريفة أنه لا يخفاكم سيرة الدولة الفرنسوية مع أهل الاقليم الجزائرى من يوم استلائها عليه أنها لا زالت ساعية فى حصول التاليف والاتحاد والاهتمام بكمال المخالطة بين جنسى العرب والفرنسويين من تعليم المصانع والتمهن

---

12) أرشيف باريس الوطنى صندوق : 2803 CARTON · تاريخ الرسالة 1 جانفى 1872 ، أمضاها أحمد ولد القاضى باشاغا فرنده بمنطقة معسكر ، ومحمد بن عبد الله بن والى خليفة ميرا والشلف بمنطقة مستغانم ، وحامد بن حامد آغا أولاد رياح بتلمسان ، وعبد القادر ولد الزين آغا بنى عامر ببلعباس · وبذلك فهم يمثلون كل سكان الغرب الوهرانى كما ذكروا فى رسالتهم · ولم نتمكن من تصوير هذه الرسالة لان مصلحة التصوير فى الارشيف كانت معطلة آنذاك خلال شهر أوت ، ولذلك اكتفينا بنقل نصها بامانة ولم نحاول أن نغير من اخطائها الكثيرة لان المعنى مفهوم ·

13) أرشيف باريس الوطنى صندوق : 2803 A.N.P. Carton L.

فى أمر الفلاحة ومخالطة الاولاد فى المدارس ، وتشريك أهل الوطن مع ابناء جنسها فى كل جمع من جموعهم والحاقهم بهم فى كل مآرب ، بيد أننا فى هذه السنة لما استدعينا للحضور بالكونصيل جنرال (14) فبادرنا اليه ضنا (كذا) منا أننا نكون كالعادة السالفة فلما حضرناه كان أول ما بشرونا به الفرنسويون (كذا) من أهل الكونصيل عدم الرضى بحضورنا وعلى تقدير الحضور فلا يكون لنا مدخل فى الكلام ولا فى طلب أمر الا مطلق السؤال ان احتيج اليه فتعجبنا من هاذه (كذا) المباشرة المخالفة طبعا للقانون الصادر من حضرة البريزدان (15) ولعقول كبراء الدولة ولاهل فرنسة ٠ وما علمنا بأى ذنب استوجبنا هذا الطرد الا ان يكون بما وقع من بعض ضعفة العقول فى هذه السنة من الفتنة فى البلاد المشرقية (16) سيما وقد صرح لنا به أهل الكونصيل جنرال ٠ فهذا أمر لا يلتفت اليه ولا يعبأ به فان الفتنة لا تنقطع من النوع البشرى لاختلاف آراء الخلق اصابة وخطا وهذا أمر موجود فى كل دولة وفى كل زمان ومكان ولا يمكن انقطاعه من الوجود ٠ والظن باهل الدولة الفرنسوية أن تنظر الى الغالب من الناس فكل واحد تجازيه بفعله ونحن لا نرضى بفعل هؤلاء الفتانين وأنتم متحققون بخدمتنا معكم وحضورنا فى كل معركة من يوم استلائكم على الاقليم الجزائرى ٠ ولا يخفاكم انهراق دماء أولادنا فى جميع الحروب الافريقية والاوروبية سيما ما وقع فى الحروب البروسية (17) أولا يكفى هذا فى الانقياد وحصول المودة والنصيحة فالمطلوب من جنابكم العالى أن نبقى على ما كنا عليه سابقا فى الخدمة مع الدولة الفرنسية ونحن نرجو الزيادة ٠

ثانيا قد سمعنا من أهل الكونصيل جنرال الطلب على جل تغيير (حكام شرعنا (18)

---

14) أى المجلس العام من الكلمة الفرنسية : Conseil Général

15) أى الرئيس من الكلمة الفرنسية : Président

16) يعنون بذلك ثورة المقرانى والحداد التى اندلعت فى شرق الجزائر خلال مارس 1871 ٠

17) أى الحرب البروسية الفرنسية التى اندلعت فى جويلية 1870 وانتهت بهزيمة فرنسا ٠

18) يشيرون بذلك الى قضية احداث محاكم الجنايات والاستغناء عن المحاكم الشرعية الاسلامية حسبما نص على ذلك مرسوم كريميو يوم 24 أكتوبر 1870 ٠

فلم تقبلوا (كذا) هذا الطلب منهم وقد عارضناهم فى الوقت بالكلام وبالكتابة ورفعنا شكايتنا اليكم نطلب منكم ان تبق (كذا) شريعتنا على أصلها وان لا يقع فيها تبديل ولا تغيير أصلا وفاء بالعهد الصادر من الدولة يوم استلائها على الاقليم الجزائرى يوم 5 جوليت 1830 من أن دين المسلمين يبقى على حاله وأملاكهم وتجارتهم وصنائعهم ونسائهم لا يقع فيها تبديل ولا تغيير وكذلك العهد الواقع بين كبراء مخزن وهران وبين الدولة فى 6 جوان 1835 ولم نزل نسمع من الدولة تقرير هذا العهد والوفاء به فى جميع القوانين وفى أوراقها الخبرية (19) سيما ما كتب به السيد كريميو وزير الشريعة ورئيس الجماعة المنتخبين للنظر فى شؤون الدولة الجمهورية فى 14 جانفى 1871 (20) ما نصه ان أصل كل خير مبنى على احترام الناس والمحافظة عليهم فى جميع أمورهم الدينية والدنيوية الخ ، وغير هذا مما يطول جلبه ونحن معاشر المسلمين لاعمدة عندنا سوى ديننا وهو رأس مالنا ولا يخفى أن الشرع عندنا هو الدين والدين هو الشرع فلا فرق بينهما كما يتوهمه بعض الناس واذا وقع أقل القليل من التغيير فى شرعنا فقد تغير ديننا لانهما شيء واحد وقد اعطيتم لنا العهد على بقائه وعدم تغييره والمتحقق من هممكم العلية وكمال مروءتكم هو الوفاء بالعهود .

ثالثا قد سمعنا مباشرة من أهل الكونصيل جنرال الطعن فى عوائدنا التى لا يضرهم بقاؤها وقد تشوش خاطر اخواننا المسلمين من هذا الطعن فالمرجو من سعادتكم تأمل شكوانا وسماع دعوانا وقبول ما طلبناه وجبر خواطرنا بالجواب كى تطمئن نفوسنا وتسكن روعتنا فى أمر ديننا وعوائدنا وعليكم السلام من كافة مسلمى الايالة الوهرانية ومسلمى جماعة الكونصيل جنرال الواضعين خطوط أيديهم وخواتمهم أسفله فى 1 جانفى سنة 1872 .

أحمد ولد قاضي	وكتب محمد بن عبد الله بن والى	حامد بن حامد	عبد القادر ولد الزين
(باشا غافرندة)	(خليفة ميرا والشلف)	(آغا أولاد رياح)	(آغا بنى عامر)
بلعباس	تلمسان	مستغانم	معسكر

19) يعنون بذلك الجرائد اليومية والاسبوعية الصادرة بالجزائر خاصة المبشر والاخبار

20) هو النداء الذى وجهه كريميو للجزائريين ليطمئنهم على أن جمهورية الرابع من سبتمبر 1870 ستحميهم وتحترمهم أكثر من امبراطورية نابوليون الثالث وذلك بعد ان اشتد قلقهم . ولكن هذا النداء أدى الى نشوب واندلاع ثورة المقرانى والحداد فى مارس وأبريل 1871 .

دور المبشرين في نشر المسيحية

بتونس 1830 - 1881

عبد الجليل التميمي

كليـة الآداب ـ الجـامعة التونسيـة .

تساعد دراسة موضوع نشر المسيحية فى تونس (*) على فهم عدد من القضايا التاريخية والقاء اضواء جذرية عميقة على عدد آخر ، خيل الينا انها عوارض لا تسترعى انتباهنا ولا تستحق الوقوف ، وهى فى الواقع ذات اثر بعيد المدى على مجريات الاحداث على الصعيد الداخلى والمغربى ، وحركة التبشير من الحركات التى يجب ان يتوقف عندها الباحث والمؤرخ على الخصوص لا لفهم وتفسير الاحداث والعقلية السائدة والسلوك والنتائج فحسب ، بل يجب ايضا فهم الايديولوجية الدينية المسيحية التى كانت وراء تطلعات الكنيسة بافريقيا الشمالية خلال العصور الحديثة وخاصة بعد احتلال الجزائر الذى يمثل تحولا كاملا وعميقا لسياسة الكنيسة تجاه الدول المغربية الثلاث ، فضلا عن رجال السياسة الفرنسيين الذين خططوا لهذا الاحتـلال ، حيث كانوا هم الآخرون يامـلـون القضـاء على الطـابع الاسلامى لهـذه الشعـوب خدمـة للمسيحيـة وللانسانية (1) .

وقد صفقت لهذا الحدث التاريخى كل الدول الاوروبية وحكوماتها وكذلك رجال الكنيسة الذيـن اعتبروا ذلك فتحـا ونصرا من عند الله . ألـم يصرح الكردينـال لافيجـرى بان الجزائر اصبحت لنـا او بتعبيـر اصـح اصبحت ملكا للعالم المسيحى (2) وبان فرنسا اصبحـت الآن حـارس المسيحيـة الاول بافريقيا (3) وان عليها ليس فقط استغلال اكبر الثروات ، بل غرس الحقيقة،لا ان تقيم السلطة على العبودية والقضاء على المنهزمين ، بل ان تعمل على انشاء شعب حر ومسيحى ، ذلك انه من المغرب الاقصى ومن تونس حتى مصر تتناثر

---

* نص المحاضرة التى القيت فى المؤتمر العالمى الاول للاخاء الاسلامى ـ المسيحى المنعقد بقرطبـة ما بين 10 و 15 سبتمبر 1974. وعلى الرغم من ردود الفعل الحادة التى اثارتها هذه المحاضرة من طرف الحاضرين بين مهاجم اشد الهجوم وممتدح غاية المدح، انشر اليوم نصها وفاء وامانة للحقيقة التاريخية مع التاكيد انني سابقى ملتزما بكل ما جاء فى هذا البحث التاريخى .

استندنا فى هذا البحث الى عدد من الوثائق التاريخية المحفوظة بارشيف الدولة التونسيـة وقد ذكرنا ارقـام ملفاتها تباعا فى حواشى الـدراسة . كما رغبنا فى الاطـلاع على ارشيف الكردينال لافيجـرى وغيره من الوثائق المتعلقة بالموضوع ، الا اننا لم نتمكـن من ذلك لعـدة اسباب .

(1) راجع دراستنـا ، « التفكيـر التبشيرى والدينى لدى عـدد من المسؤوليـن الفرنسيين فى الجزائر فى القرن التاسع عشر » ، ص 12 ـ 24 ، المنشورة بـ : المجلة التاريخية المغربية، عدد 1 ، تونس، 1974 .

(2) Mgr. Grussenmeyer, *Vingt cinq années d'épiscopat en France et en Afrique. Documents biographiques sur son éminence le Cardinal Lavigerie*, t. II, p. 407, Alger, 1881.

(3) Fournel, Marc, *La Tunisie, le christianisme et l'Islam* dans l'Afrique septentrionale, p. 172, Paris, 1886.

بقايا امة مسيحية امتزجت بالهجومات البربرية (4) ؟ وكذلك عندما نجحت الجيوش الفرنسية لاحتلال تونس واعلان حمايتها عليها ، صرح الكردينال لافيجرى بان ذلك قد اكسب الكنيسة عدم اعلان حرب دينية (4 مكرر) .

والواقع ان التخلف بشتى مظاهره الذى ران على شعوب العالم الاسلامى منذ فجر العصر الحديث وبالاخص على المجتمع المغربى ، ثم الوضعية الاقتصادية القاتلة التى اصابت المجتمع ، فضلا عن نوعية اكثر الحكام الذين اداروا شؤون هاته البلاد ، يفسر طبيعة هذا الهجوم السياسى والعقائدى من طرف الغرب المسيحى الذى كان يعيش ثورة فكرية وصناعية واجتماعية كانت ابعادها عميقة جدا . ومن الطبيعى ان يكون تقييم المشاكل خاضعا لهذه المبادىء التى هيمنت خلال القرن التاسع عشر كله على تفكير المسؤولين ورجال الديـــن الغربيين تجاه المغرب العربى .

وقد تعددت نداءات رجال الدين وكثرت تآليفهم حول حتمية ارجاع هذا الشعب الى حضيرة الدين المسيحى باعتباره دين اغلبية اجدادهم ، و « حيث ان الاسلام انتزع منهم ذلك باقسى وسائل العنف . على ان الدين المسيحى قادر اليوم على ضمه الينا وصيرورته معنا شعبا واحدا » (5) ، وعليه اتفــق المبشرون والساسة على ان الاسلام فى افريقيا يعتبر عدوا لفرنسا وللحضارة والكنيسة ولا مهادنة معه (6) . وان تنصير الشعوب الاسلامية يدخل فى اطار مصالح السياسة الاوروبية ، وكذلك تطلعات الكنيسة والفكر المسيحى عموما (7) .

ولكن ما هى الطريقة المثلى التى وجب اتباعها لدى المواطنين المسلمين لجلبهم الى الدين المسيحى والحضارة المسيحية الاوروبية ؟ هل يتم ذلك بدعوتهم الى اعتناق الدين المسيحى وتزيينه لهم وافهامهم اياه مع ثلب الدين الاسلامى وانه وراء تخلفهم وانحطاطهم ؟ ام وجب التفكير فى وسائل اخرى اكثر نجاعة وفاعلية واقل تعرضا للسلطة السياسية من جهة وللهيجان العاطفى من جهة اخرى ؟ .

انتبه عدد من المبشرين ورجال السياسة الى ان القيام بعملية تبشيريـــة مكشوفة لدى المواطنين المسلمين يعد عملا محفوفا بالمخاطر ، وقد كتب ليون روش يقول : « لم اعرف خلال اقامتى الطويلة بعدد من البلدان الافريقية الا مسلما واحدا اعتنق باخلاص المذهب الكاثوليكى (8) وان هاته العملية خطيرة ،

---

(4) Grussenmeyer, *op.cit.*, t. 2, p. 415.

(4 مكرر) Narcisse Faucon, *La Tunisie avant et depuis l'occupation française, histoire et colonisation,* la préface, Paris, 1893, cité in, Pierre Soumille, *Les Européens de Tunisie et les questions religieuses de 1893 à 1914 : étude d'une opinion publique,* Thèse de 3[e] cycle dactilographiée, Aix-en-Provence. 1973.

(5) *Idem,* t. I, p. 153.

(6) Klein, Abbé Félix, *Le Cardinal Lavigerie et ses œuvres d'Afrique*, nouvelle édition, p. 91, Tours, 1897.

(7) Bourgade, Abbé François, *Association de Saint-Louis ou croisade pacifique ayant pour but de répandre la civilisation chrétienne parmi les musulmans*, pp. 1-2, Paris, s.d.

(8) راجع بخصوص هذا الموضوع : 173، Fournel, *op.cit.*, وحيث يؤكد : « اننا لم نعمل على اعتناق مسلم واحد للدين المسيحى على طريقتنا منذ سنة 1830 » .
راجع ايضـــا (Bourgade) حيث ذكر المثل الشائع للقـديس سان بولص (Saint Paul) من ان الدين والعقيدة ماتاهما التعلم

ذلك انه بمحاولة دعوة المسلمين الى اعتناق الدين المسيحي سنجازف بانتزاعهم من عدم اهتمامهم بالدين (ويقصد به الدين الاسلامي) حيث يعيش اكثرهم وحيث عمل عبد القادر على محاربة ذلك ، غير اننا نستطيع ان نهيىء لــدى العرب وبالاخص القبائل ، عصــر تمسيحهم باقامــة عــدد مــن المبشريــن ضمنهم ، تكون مهمتهم الوحيدة تعريفهم بالاخلاق المسيحية وتمريض مرضاهم وتعليمهم لغتنا وتلقينهم مبادىء المعرفة العامة » (9) .

وقد كتب احد مؤرخي التبشير الفرنسيين معبرا عن هذا الاتجاه بصورة أكثر دقة من ان اهم المشاريع المسيحية تتمثل في الاحسان والتعليم وان على فرنسا القيام بذلك الواجب بله حمايته باعتبار ان ذلك يساهم في نشر لغتنا وحضارتنا وتاثيرنا في كل مكان وان « الصليبية اللينة والسلمية لا تبقى وراءها اراقة الدم ويستوجب الاخذ بالثار والحقد والكراهية المتبادلة بين الغالبين والمغلوبين ... ان هاته العملية تهيىء اخضاع الشعب والى حد كبير ادماج الشعوب وهي وسيلة افضل من قوة السيف القاطع ، وسوف تحصل هاته الصليبية مع الزمن ، على اضمن نجاح وابقاه ... » (10) .

ولانجاح هاته الصليبية اللينة والسلمية كما عبر عنها، وجب على المبشرين ان يعرفوا تاريخ ولغة وعادات واخلاق الشعب الذى يعيشون بينه حتى يضمنوا عطفه وكسب مشاعره ، وهذا يتوقف عــلى شرطيــن اساسين : معرفــة آراء الطرف المقابل جيدا ثم مزجها بطابعه الخاص (11) : وقد كتب الاب بورغاد وهو الذى لعب دورا هاما وخطيرا لتنشيط حركة التبشير بتونس : « امدحوا كبراءهم (ويقصد به التونسيين المسلمين) ، ارفعوا معنوياتهم ، تلك هي وسيلة لاضفاء الذكاء على الناس وجعلهم اكثر استعدادا وقبولا (لآراءالآخرين)، تحدثوا للعرب عن تاريخهــم واعمالهم العلمية ، اعطوهم فكرة عمــن كانــوا في الماضي ، ثم ان احترامك لثرواتهم هي وسيلة لجعلهم اكثر استعدادا لتقييم ثرواتنا » (12) ثم ألم يقر الاسقف باذى (Mgr. Pavy) ثاني اساقفة الجزائر ، تعليم اللغــة العربية للجزائريين في حين كانت السلطات الفرنسية قد اغلقت المدارس والكتاتيب وضيقت على العربية حتى خنقتها تماما وقضت عليها (13)»

وعليه اقر المبشرون ان تعليم الاطفال مسلمين كانوا او مسيحيين او يهودا ، واقامة المستشفيات والملاجىء ، واسعاف المرضى والعجز على اختلاف جنسياتهم ، وتوفير الخدمات الانسانية ، هو انجع الوسائل لكسب القلوب واخضاعها وتهيئة ظروف اعتناق الدين المسيحي في المستقبل وخاصة مــن طرف المسلمين (14) . وقد الح الكردينال لافيجرى على هذا الاتجاه بعد فشله الذريع في انشاء قرى الاطفال العرب ـ المسيحيين بالجزائر وايمانه « بان الاحسان واللطف والاخلاص والعدالة المنصفة ثم الحمية المتبصرة واليقظة ،

---

(9) Léon Roches, *Trente deux ans à travers l'Islam*, t. II, pp. 306-307, Paris, 1887.

(10) Victor Guerrin, *La France catholique en Tunisie, à Malte et en Tripolitaine*, pp. 11-12, Tours, 1890.

(11) Bourgade, *op.cit.*, p. 11.

(12) *Idem*, p. 12.

(13) Idem., p. 13.

(14) Klein, *op.cit.*, p. 137.

وهى الخصال التى فرضتها علينا العقيدة المسيحية ، هى القادرة وحدها على انجاز الاعمال التى فرضت بادىء الامر عن طريق السيف » (15) .

ما هى اوجه تطبيق هاته السياسة التبشيرية بتونس ومدى نجاحها فى ذلك ؟ .

نشط الساسة الفرنسيون ورجال الدين للاستفادة من الانتصار العسكرى الفرنسى فى الجزائر وعملوا منذ اللحظات الاولى على مطالبة باى تونس بالتسليم مبدئيا بحق اقامة كنيسة باسم سان لوى بقرطاج . وقد عرفت حركة نشر المسيحية بتونس فى عهد حكم احمد باشا باى رعاية كبيرة من طرف الدولة التونسية وكذلك من طرف جوزاف رافو (Joseph Raffo) وزير الخارجية التونسية آنذاك ومن مترجم الباى الرسمى بوقو (Bogo) (16) وكذلك الياس مصالى فى عهد محمد الصادق باشا (17) .

والواقع ان دور رافو ، هذا المسيحى المتحمس لنشر المسيحية وحماية المبشرين لم يتعرض اليه احد بالبحث ، وفى اعتقادنا انه دور هام جدا لما اتاحه للبعثات التبشيرية من توفير الكنائس لهم (18) وبناء المستشفيات والمدارس ومدهم بمختلف المساعدات وجلب لهم عطف احمد باشا باى الى درجة ان هذا الاخير وعد ببناء كنيسة بباردو من ماله الخاص كما جاء فى احد الوثائق التاريخية المحفوظة بارشيف الدولة التونسية التاريخى (19) . وقد ساهم الكونت رافو فى توفير حرية المبشرين وعدم التعرض لنشاطهم وتحقيق مطالبهم كما عمل على ربط الصلة بين الباى وبابوية روما حيث قام بزيارتين رسميتين باسم تونس الى رومة ، ولا ادل على ذلك من هاته المراسلة الرسمية التى تمت بين احمد باشا وبيوس التاسع حيث تكشف مدى الامتنان الذى

---

(15) Grussenmeyer, *op.cit.*, t. I, p. 116.

(16) طلب دى روساليا (De Rosalia) اسقف تونس من المترجم بوقو ان يتدخل لدى الباى ليحول احد الاماكن المحبسة بالمهدية الى اقامة للمبشر ومكان للصلاة ، راجع هاته الوثيقة بـ : **ارشيف الدولة التونسية (ا. د. ت) ملف 755 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 9** ، رسالة بتاريخ 20 اوت 1854 ، راجع ايضا الوثيقة رقم 4 ، من نفس الملف ، وهى رسالة من قنصل فرنسا بتونس الى بوقو بتاريخ 20 اكتوبر 1854 ، طالبا منه ان يتدخل لدى الباى ليمنحه ارضا بحلق الوادى لبناء كنيسة .

(17) رسالة من ليون روش ، قنصل فرنسا بتونس الى الياس مصالى بتاريخ 11 نوفمبر 1861، طالبا منه ان يتدخل لدى الوزير الاكبر لتوفير مكان لاقامة كنيسة للمذهب الكاثوليكى ببنزرت راجع : **ا. د. ت ، ملف 761 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 24** .

(18) لقد ساهم هو شخصيا بمقدار 16.000 ريال لبناء كنيسة للاب لوى دوتاجيا (Père Louis de Taggia) راجع :
Mg. A Pons, *La nouvelle église d'Afrique ou le catholisme en Algérie, en Tunisie et au Maroc depuis 1830*, p. 208, Tunis, 1930.

(19) **ا. د. ت. ملف 760 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 4** ، وهى رسالة باللغة الايطالية من جوزاف رافو الى احد رجال الدين بتونس ، بتاريخ 20 ماى 1846 ، نقتطف من ترجمتها العربية وهى تحمل الرقم 5 ، الفقرات التالية : « اتشرف باعلام جنابكم بالالفاظ التى جاوبنى بها جنابه بحضرة جميع دايرته وهى اننى اضع دايما جميع ما ينشأ منه رضا خاطر الاسقف وقل له ان يكون مطمئن الخاطر من قبل الدار التى اعطيتها اياه التى كانت قنصلات صبانيا فى السابق لاننى اشتريتها من اصحابها 17000 ريال وامس التاريخ بمحضرى اذن حاكم حلق الوادى بان يعطى لجنابكم ما يكفى من الارض لاجل بناء كنيسة اخرى . واما فى خصوص كنيسة باردو فان جنابه اذننى بانتخاب محل لايق (كذا) بذلك ووعد جنابه ببنايها (كذا) من ماله ، فمن جهتى ابذل غاية جهدى فى اسعاف ما يظهر لجنابكم من الراى العائدة منفعته الى كنيستنا ولمرضاة خاطر جناب سيدنا البابا » (كذا).

يكنه البابا لرافو واصفا اياه بـ « ولدنا المحبوب » (20) اما أحمد باشا فيضفي عليه الالقاب التالية : « صاحب اسرارنا الموقر المحترم الوجيه الثقة المقرب الاميرالاى الكمندتور ابننا جوزاف رافو » (21) .

اما قنصل فرنسا بتونس فقد كتب الى رافو يحثه على التدخل لدى الباى: « اننى اطلب من سيادتكم حيث لا يخفى على مدى الغيرة التى تتحلون بها لكل ما يتعلق بالمصالح الكاثوليكية ، ان تتفضلوا بتذكير الباى ان يصدر اوامره الكافية لاعادة ترميم الكنيسة (بنزرت) فورا » (22) ولا تخفى اهمية شهادةاحد المبشرين حول نشاط رافو الذى يعتبره « من اشد المتمسكين لمبادئه وللحكومة ، غير ان تمسكه بالدين الكاثوليكى اكثر حيث يقوم ، بصورة لائقة بكل الواجبات نحوه ، وهو يعتبر من اشد المخلصين الاصدقاء ومن اكثرهم حماية وعطفا على البعثات والمبشرين » (23) .

وقد اهتم الكونت بميدان نشر التعليم حيث اوحى لاخوات القديس يوسف بفتح مدرسة للبنات المواطنات بالمرسى سنة 1843 (24) ، كما تدخل لدى الباى لتقديم مساعدة مالية (25) لمعهد سان لوى الجديد والذى فتحه سنة 1845 الاب بورغاد بكنيسة سان لوى بقرطاج او توسيع هاته الاخيرة (26) لتحتضن اول مستشفى سنة 1843 وليتم ادارتهما من طرف الاب بورغاد .

الا انه قبل ذلك وصلت السيدة فيلار (Mme Vialar) من الجزائر لتعمل لاول مرة على تقديم المساعدة ونشر العلم وبالفعل فقد باشرت حين

---

(20) **ا. د. ت. ملف رقم 755 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 14** ، رسالة من البابا بيوس التاسع الى احمد باشا باى بتاريخ 17 مارس 1851 ومما جاء فى هاته الرسالة : « لقد سرنا جدا قبول ولدنا المحبوب البارون جوزفى رافو وزيركم فى الامور البرانية الذى ارسلته الينا ليهنينا باسمكم على رجوعنا الى هذه البلدة بعد الوقايع المغمة التى حصلت واصحب لنا بيده جوابا تكلم بحنينه التى شرحتم لنا بهم (كذا) بكل محبة جميع مرامكم .... ونحن نعترف اننا مربوطون نحوكم بتلك المحبة التى اظهرتموها لنا بجوابكم ونحن متحققون ان عند الاحتياج المكرم اخينا الموقر الاسقف دو روزاليا الوكيل الرسولى بتونس والقسيس المبعوثين المسيحية (كذا) وجميع الكاثولكية القاطنين بتلك الاقطار يحصلو على مساعدتكم ومحاماتكم ... » .

راجع نص هاته الرسالة كاملا باللغة اللاتينية ثم ترجمته الى الفرنسية فى القسم الفرنسى لهذا العدد ، ص 95 ـ 99 .

(21) **ا. د. ت. ملف 756 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 3** ، امر من احمد باشا بتاريخ 28 محرم 26/1262 جانفى 1846 ، قارن ايضا : ابن ابى الضياف ، احمد ، **الباب السادس من اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ، « دولة احمد باشا »** ، تحقيق احمد عبد السلام ، ص 118 ، تونس ، 1971 .

(22) **ا. د. ت. ملف رقم 761 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 21** ، رسالة قنصل فرنسا بتونس الى رافو بتاريخ 11 جويلية 1853 .

(23) Père Anselme des Arcs, *Mémoires de la Mission des Capucins,* p. 45, Rome, 1875, cité in, Pons, *op.cit.*, p. 211.

(24) Docteur Arnoulet, « *La pénétration intellectuelle en Tunisie avant le protectorat,* p. 152, in, Revue Africaine, 1' et 2' trim. 1954.

(25) *Idem,* p. 231.

(26) استغل الاب بورغاد تساهل وعطف الباى وحمايته للمبشرين لتوسيع كنيسة سان لوى ، غير ان مجال ذلك كان كبيرا وتم ذلك بغير اذن الباى حيث اظهر هذا الاخير تخوفا من الاقاويل التى راجت لدى عموم الناس وقد بعث الباى الى قنصل فرنسا يستفسره عن ذلك : « فانه كثرت لدى الاقاويل وخصوصا ارجافات العامة فى هذا البناء الذى فى الصان لويز (كذا) ، فخاطبتكم على وجه المحبة بهذا المكتوب لتعرفنى بصورة ما هناك من البناء ومقداره وكيفيته لنكون على بصيرة من هذا الامر الذى لا يخفى عليكم ما يلحقنى فيه من التعب ،،، » راجع هاته الوثيقة : **ا. د. ت. ملف 757 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 3** ، رسالة بتاريخ 18 رمضان 1/1260 نوفمبر 1844 .

وصولها تبث الحضارة المسيحية وتعلم اطفال مختلف الطبقات واقامت بسوسة بيتا لهذا الغرض سنة 1843 ثم بصفاقس وحلق الوادى (27) .

على ان الاب بورغاد يعتبر من المع وانشط المبشرين الذين عرفتهم تونس فى منتصف القرن الماضى ، وقد وصل الى تونس سنة 1840 مرافقا « لاخوات الصفاء الساعيات فى مصالح الفقراء والمرضى ابتغاء مرضاة الله » . (28) . على ان سلوك بورغاد ونشاطه وتآليفه العديدة وانجازاته تكشف بكل وضوح عن اخلاصه لمبادىء وظيفته التبشيرية . وقد ادرك عميق الادراك ان انشاء المستشفيات وتوفير المعاهد هما انجع الوسائل لبعث الكنيسة الافريقية على اسس ثابتة فضلا عن امتهان معنويات المسلمين وتشكيكهم فى دينهم وتاريخهم وحضارتهم وقيمهم الاخلاقية كما تحاول اقناعهم بخطئهم فى اتباع الدين الاسلامى وبالتالى وجب تشجيعهم على اعتناق الدين المسيحى عن اقتناع وروية . وقد نشر بورغاد ثلاثة كتب هى : **امسيات كرطاج** و **مفتاح القرآن والمرور من القرآن الى الانجيل** ، والتى ترجمت بامانة عن فلسفة بورغاد التبشيرية بتونس (29) ، ولتتويج هذا النشاط قام بورغاد بانشاء سنة 1847 « جمعية سان لوى او الصليبية السلمية التى هدفها نشر الحضارة المسيحية لدى المسلمين » وكان مقرها باريس وقد استقطبت هاته الجمعية كل نشاطه كما أنشأ بالاضافة الى ذلك معهدا لتدريس اللغة العربية للاطفال العرب ، وقد وضع بنفسه برنامجه التعليمى ، وكان يصرح للمشرفة : « ان ذلك حتمى لانتصار الدين وشرف فرنسا » (30) . وقد لقى هذا المعهد لدى المواطنين نجاحا ملموسا ويكفى دلالة على مدى هذا النجاح ونوعية المثقفين الذين تخرجوا من مثل هذا المعهد ان نذكر سليمان الحرايرى .

وفى سنة 1855 جلب الاسقف سوتر (Mgr. Sutter) الى تونس « اخوان المذهب الكاثوليكى » الذين فتحوا معهدا لتدريس الفرنسية والايطالية سرعان ما ضم اليه كل الاطفال ، وهذا ما اجبر الاب بورغاد ان يغلق معهده وان يرحل الى باريس (31) ، وقد عدد الاسقف سوتر مساعيه فى هذا الميدان ونجح مع الزمن فى انشاء ثلاثة معاهد للاطفال وخمسة للبنات (32) .

ومنح الاب بورغاد من جهة اخرى ميدان التطبيب اهمية بالغة حيث عرف الجناح الذى خصصه من كنيسة سان لوى لاستقبال المرضى ومنحهم المساعدات الطبية مجانا للمسلمين وغير المسلمين ، رواجا كبيرا ، وقد طلب بورغاد من الاخوات اللاتى يشرفن على اقتبال المرضى ، وكن يخشين من عدم توفر الاسرة الكافية قائلا لهن : « اقبلن اقبلن دوما المرضى دون ان تحصوهن، فان العناية الالهية ستمنحنا مساعدتها » (33) .

ولقد حرصت اخوات القديس يوسف البالغ عددهن اثنتى عشرة على توزيع نشاطهن باهم مدن الولاية فى ميدان التعليم والتطبيب حيث كن

---

(27) V. Guerrin, *op.cit.*, p. 64.

(28) عبد المجيد الشرفى، « الحركة التبشيرية فى تونس فى القرن التاسع عشر: بورغاد ولافيجرى » ص 134 ، المنشورة بـ : **حوليات الجامعة التونسية** ، العدد الثامن ، تونس ، 1971 .

(29) **المصدر نفسه** ، ص 131 ــ 142 ، يقدم اطارا تاريخيا واعيا لمحتويات هاته الكتب الثلاثة.

(30) Mgr. Pons, *op.cit.*, p. 222.

(31) Louis Machuel, *L'Enseignement public en Tunisie*, p. 6, Tunis, 1900.

(32) Grussenmer, *op.cit.*, t. II, p. 122.

(33) Mgr. Pons, *op.cit.*, p. 230.

يقدمن الهبات والمساعدات ويداوين المرضى على اختلاف اديانهن وان هؤلاء الاخوات « يترددن كل يوم على بيوت المرضى مسلمين كانوا ام مسيحيين ام يهودا وان دخولهن لهاته البيوت كان يتم دوما بسهولة وبسرور » (34) .

وقد لمح الاب بورغاد في المقدمة التي وضعها لكتابه عن اللغة الفينيقية بتونس والذي اهداه الى احمد باشا انه عمل باعانة من الله على تخفيف آلام المرضى وتثقيف الطفولة وانه فتح عددا من المعاهد ، هي ولا شك متواضعة، غير انها تنبىء بمستقبل عظيم خصوصا وهي تحت اشراف احمد باشا الابوى (35) ، كما جاء ذلك في المقدمة (36) .

لقد منح احمد باشا كل التسهيلات لرجال الكنيسة ، فوسع لهم من كنائسهم ومنحهم اراضي كثيرة في طول البلاد وعرضها لبناء كنائس ومعاهد جديدة والغى الكراء على بعضها (37) ، كما وهب عدة اعانات (38) وهذا ما يفسر نمو واطراد حركة نشر المسيحية بتونس في عهده (39) وحيث كان يعتبر ذلك واجبا يقوم به « اعانة لسكان ايالتنا وحرصنا على زيادة راحتهم وابحنا لقيمي الكنيسة التصرف فيما ذكر ... » (40) كما جاء في احدى رسائله . وقد اضفى البابا على رعايته للمسيحيين والمبشرين اجمل الالقاب والاوصاف ، اعترافا بجميله ، اما ملك سردانيا فقد اهداه نيشانا يقرب من شكل الصليب (41) .

وقد تأثر باذي (Mg. Pavy) اسقف الجزائر عندما بلغه نجاح نشاط بورغاد الذي تمكن من تنصير احد المواطنين المسلمين، وقد كتب رسالة

---

(34) **ا. د. ت. ملف 755 ، صندوق 64 ، وثيقة 7** ، رسالة من قنصل فرنسا بتونس الى احمد باشا بتاريخ 19 اكتوبر 1854 .

(35) من مظاهر العطف الذي يفتخر به الاب بورغاد ، ان احمد باشا نصب خيمة قرب كنيسة سان لوى (ولا ندرى ما هو الغرض من ذلك ، هل لطلب الهواء ام للتظاهر بالعطف والحماية لرجال الدين المسيحيين ؟) وعندها احس الأب بورغاد ، ليكون وفيا للروح الشرقية التي خبرها جيدا ان يهدى شيئا لجاره الباى ، ويضيف بورغاد انه فعلا اهداه البقرتين الوحيدتين اللتين يملكهما كعلامة اكرام للباى ، راجع هاته الوثيقة : **ا. د. ت. ملف 755 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 11** ، رسالة بتاريخ 26 جانفي 1850 .

(36) Abbé François Bourgade, *Toison d'or de la langue phénicienne,* 2ᵉ édition, p. 1. Paris, 1856.

(37) احمد ابن ابى الضياف ، **اتحاف ... نفس المصدر** ، تحقيق احمد عبد السلام ، ص 117 ـ 118 ، اسقط احمد باشا 1000 ريال كراء على كنيسة باب البحر ثم امر بتوسيعها .

(38) راجع الرسالة الطويلة المؤثرة التي حررها قنصل فرنسا بتونس وارسلها الى احمد باشا يرجوه منح اخوات القديس يوسف مساعدته بـ : **ا. د. ت. ملف 755 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 7** ، وهي بتاريخ 19 اكتوبر 1854 .

(39) راجع رسالة البابا بيوس التاسع الى احمد باشا ، الملحوظة رقم 19 المنشورة اعلاه . كذلك رسالة ثانية من البابا الى احمد باشا وجاء فيها : « ... واردنا ان نخاطبكم بهذا المكتوب لنعرض الى حضرتكم (كذا) السامية مخصوص الصداقة وشكر الاحسان الذى حصل بقلبنا في وارد سيادتكم ولا شك عندنا بأن حضرتكم تعود تفعل مع هذا الاخ المبجل (ويقصد به الاسقف دو روساليا) ومع هؤلاء الرهبان ومع ساير الكاثولكيين القاطنين بعمالتكم السامية (؟) وبقدرتكم القوية ... » ، راجع : **ا. د. ت. ملف 755، صندوق 64، وثيقة رقم 20** . رسالة من البابا بيوس التاسع الى احمد باشا بتاريخ 10 فيفرى 1847 .

(40) **ا. د. ت. ملف 755 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 3** ، امر من احمد باشا بتاريخ 26 جانفي 1846 .

(41) يذكر ابن ابى الضياف ان الباى توقف في حمله وقد افتاه بعض الراسخين في العلم بجواز حمله اذا لم يعتقد معتقد اهله ، وافتاه آخرون بالمنع ... راجع **اتحاف ... نفس المصدر** ، تحقيق احمد عبد السلام ، ص 176 .

مؤثرة الى سوتر اسقف تونس جاء فيها : « ان الاب بورغاد يعد مبشر الانجيل بحق ، بحيث تمكن بفضل موارد الاحسان والصدقة ان ينشىء بتونس مستشفى ومعهدا حيث يتلقى المسيحيون والعرب واليهود جميعهم تعليم لغتنا وكذلك المبادىء الاولية للمعرفة . هل تعرف اجمل من هاته الطريقة لنشر الانجيل ؟ » (42) .

ولكن هل هناك نجاح اثمن من هذا التأثير الذىخلفه الاب بورغاد واخوات القديس يوسف ولافيجرى فيما بعد ، على المجتمع التونسى فى ميدان التعليم حتى يطلب باى تونس منحه قسيسين اثنين يقومان بالاشراف على تعليم ابناء البلاط والطبقة الحاكمة بقصره بالمرسى ؟ (43) . وكذلك التجاء الامهات المسلمات الى تعميد ابنائهن حتى يضمن لهم الصدقة المسيحية عندما اجتاحت المجاعة البلاد التونسية فى العقد السابع من القرن الماضى، وتفشت الامراض واصبحت الطبقة الفقيرة من الشعب لا تجد حتى قوت يومها (43 مكرر) .

ولقد استمرت هاته السياسة فى عهد محمد باى ، خلف احمد باشا حيث انشئت مدرسة انجليزية ـ مالطية سنة 1856 فتحت ابوابها للناس جميعا وخاصة للمسلمين الذين وقع التاثير عليهم لجلبهم الى الديانة المسيحية ذات الاتجاه الانكيلكانى (44) . كذلك نشطت الحكومة الايطالية فى انشاء مدرسة بتونس قرب قنصليتها فى العقد السادس من القرن الماضى (45) .

والواقع ان التأثير الذى احدثه القنصل الفرنسى ليون روش (Léon Roches) فى محمد باى وخلفه محمد الصادق باشا لتوفير المعاهد والمستشفيات وبناء الكنائس وانشاء مقابر للجاليات المسيحية ومد يد المساعدة لجميع البعثات التبشيرية خاصة التى تتمتع بحماية القنصلية الفرنسية (46) ، كان هذا التاثير عميقا وحاسما ، ولابد ان نعرف ماضى ليون روش لنتحسس مدى عمق هذا التاثير على سلوكه وتفكيره (47) ثم الغيرة التى ما فتىء يظهرها كلما سنحت الفرصة لذلك .

كان محمد باى يسر الى ليون روش فى كل شىء . وكان لا يفارقه كظله خصوصا اذا اخذنا بالاعتبار ان روش كان يجيد العربية ، وكثيرا ما يستشهد

---

(42) Abbé François Bourgade, *Association... op.cit.*, pp. 23-24.

(43) Docteur Arnoulet, *op.cit.*, p. 159.

(43 مكرر) **ارشيف وزارة الخارجية العثمانية** : من تقرير حرره احد الرعايا الايطاليين عن الوضعية الاجتماعية والسياسية لولاية تونس، وسوف ننشره قريبا على صفحات هذه المجلة.

(44) Ibid., p. 173.

(45) Guerrin, *op.cit.*, p. 60.

Léon Roches, *op.cit.*, t. II, pp. 250-206.

(46) يحتفظ لنا ارشيف الدولة التونسية عددا من رسائل ليون روش وهى تعكس مدى الحرص الشديد الذى بذله روش باعتباره حامى المصالح الكاثوليكية ، راجع : **ا. د. ت. ملف 755 ، وثيقة رقم 29 و 31 وملف 756 وثيقة رقم 7 وملف 759 وثيقة رقم 3 وملف 763 وثيقة رقم 3 .**

(47) كان ليون روش شخصية غريبة الاطوار ، لعب دورا سياسيا فى الاربعينيات من القرن الماضى كمستشار للامير عبد القادر ، بعد ان اسلم وتزوج بجزائرية ثم ارتد عن ذلك وسافر الى مكة متنكرا ويذكر انه خلال زيارته للكعبة وقبر الرسول ، كان يتحسس صليبه الذى اخفاه فى طى ثيابه ، وهو يشكر العناية الالهية التى هدته الى احتضان الدين المسيحى من جديد ، وكان يتالم اشد الالم من ماضيه ، راجع رسالته الى والدته بهذا الخصوص، بـ : Léon Roches, *op.cit.*, t. II, pp. 205-206 :

بالقرآن والحديث والسنة في خلواته مع محمد باى (48) وهذا شيء ارتاح له هذا الاخير ووقع منه موقعا كبيرا ، وهو الذى عرف بضعف شخصيته وجهله وبساطته ، ومن الطبيعي ان ينجح روش في مساعيه لكل ما يمس نشاط المبشرين بتونس .

اما في عهد محمد الصادق باشا فقد شهدت حركة نشر المسيحية نموا مطردا وشاملا لاشعاعها بمختلف مدن الولاية ، كما ركزت مظاهر وجودها وتاثيرها مع الزمن نتيجة تزايد المصالح الفرنسية والدعم الادبي الذى ما فتئت القنصلية الفرنسية تقدمه لرجال الكنيسة والبعثات التبشيرية عموما (49) ، فضلا عن مختلف الخدمات التى كان الباى محمد الصادق وحكومته يوفرونها (50) ، كالاعفاء من جميع الاداءات (51) ، ومد يد المساعدة لشراء دور لاسقف تونس (52) ، وموافقة محمد الصادق باشا بتاريخ جويلية 1862 على منح الاب اغستينو (Agostino) دارا لتصبح معهدا تقوم فيه الاخوات بجمع الاطفال الفقراء وتدريسهم (53) . اما الاخت دافيس (Sœur Daffis) فقامت بفتح معهدين بسوسة كان احدهما مجانا ، كما فتحت مستوصفا لاستقبال كل المرضى من المواطنين العرب الذين يرغبون في ذلك (54) . وقد

---

(48) احمد ابن ابى الضياف ، **اتحاف** ، ج 4 ، ص 193 ، يصف لنا ادق وصف حيث يقول متحدثا عن ليون روش : « يتكلم بالعربية ويحسنها نطقا وكتابة ويستشهد بآيات قرآنية واحاديث نبوية ، جال في اقطار المغرب ، وركض في كل ميدان وهب مع كل ريح فقام الباى بتلقيه في بيت قصره ، وهو اول قنصل قبل بهذه الكيفية الجارى بها عمل الوقت مع سائر القناصل . وترامى على الامتزاج بهذا الباى ومداخلته تراميا يزرى بمنصبه ولم يعهد ممن تقدمه ، وكانه آنس ضعفا (في القريحة) فاستعمل الفضول في ابداء النصائح وتلوينها وهو اول من اظهر ذلك من قناصل جنسه وله في ذلك مراد » .

(49) لهجة ليون روش في مراسلاته وتدخلاته لدى محمد الصادق باشا لأقوى دليل على الاهمية التى توليها القنصلية لرجال الكنيسة في نشر المسيحية وقد كتب روش رسالة الى الباى يخبره فيها انه : « اعطى اوامره للموظفين الفرنسيين في بنزرت وغار الملح وسوسة والمنستير والمهدية ان يفتشوا في مقر اقامتهم ، اماكن صالحة لبناء او توسيع الكنائس او المقابر »
راجع : **ا. د. ت. ملف 763 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 3** ، رسالة من روش الى محمد الصادق باشا بتاريخ 7 افريل 1861 .

(50) كان الباى يمنح لاسقف تونس موظفا برتبة « اوضة باشى» (رتبة عسكرية) مماليك وزوج جوانب وزوج مماليك لرد البال منه واحضار كروسة له بثلاثة زوايل يسافر بها وثلاثة زوايل لحمل ضرورياته وخطاب عمال الاماكن المذكورة (سوسة والمهدية والمنستير وصفاقس وجربة والوطن القبلى وبنزرت) بقبوله في محل يليق به ويناسبه واجراء المونة له ولمن معه من المتعنيين وغيرهم وعلف دوابهم مدة اقامته ويردوا البال منه في ساير الاحوال »
راجع : **ا. د. ت، ملف 755 . صندوق 64 ، وثيقة رقم 26** ، رسالة من امير اللواء رستم ، مستشار وزارة الخارجية الى الشيخ عبد العزيز بوعتور ، رئيس كتاب وزارة المال. وهى بتاريخ 3 ربيع الاول 20/1279 اوت 1862 .

(51) **ا. د. ت. ملف 756 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 26** رسالة بامضاء الوزير الاكبر خير الدين بتاريخ 3 رمضان 26/1290 اكتوبر 1873 ومما جاء فيها : « ... ان قسم العمل يوافق على اجراء الكنيسة المذكورة مجرى ساير جوامع المسلمين وكذلك اماكن الخير التى ليست بذات دخل ، وبناء على ذلك فان الكنايس المعدة للعبادة الكاثوليكية وما يسكنه البباصات من الاماكن بتلك الكنايس والمكاتيب العمومية الدينية والمستشفيات تعفى من جميع المراسيم الموظفة من الدولة لا سيما الحروبة الموظفة على الكراء التقديرى ... » .

(52) منح الباى مبلغ 1875 ريال كشراء دار سيدى المرجانى ، راجع : **ا. د. ت. ملف 756** ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 6 ، رسالة من حسين مستشار وزارة المالية الى مدير المال القائد نسيم .

(53) L'Abbé A.F. Leynaud, *Hadrumète Sousse*, pp. 67-68, Sousse, 1903.

(54) *Idem*, pp. 82-83.

ادركت هاته الاخت ان حملة التعليم والتطبيب والاحسان على عكس حمله السلاح ، هي الابقى والادوم والاكثر تاثيرا ، ثم ان طبيعة نشاطها لم تهمل ايضا حبها لوطنها فرنسا حيث عرفت كيف تجعل الآخرين يحبونها قبل انتصاب الحماية الفرنسية على تونس (55) .

اما في سنة 1871 فقد انشئت مدرسة بحلق الوادى على يد اخوة المذهب المسيحى (Frères de la Doctrine chrétienne)(56) . ومن جهة اخرى وهبت الحكومة التونسية سنة 1874 دارا كائنة بسوق البراملية داخل باب البحر بتونس الى « الرهبان المعروفين باخوة المكاتب النصرانية لتعليم الصبيان » (57) . وفى السنة الموالية قدم الاخوة المبشرون لافريقيا (Frères missionnaires d'Afrique) الى تونس بوصفهم القائمين على معهد ومستشفى سان لوى (58) . وفى سنة 1879 انشات اخوات القديس يوسف مدرسة بجربة، ثم نجحن فى فتح مدارس بالمنستير والمهدية وبنزرت وتونس (59) .

لقد لعب التنافس بين مختلف اتجاهات المبشرين دوره فى انشاء هذه المدارس والمستوصفات وتعددها وجلب المواطنين اليها ، الا ان هذا الميدان سيعرف دفعا جديدا وحيوية وابعادا عميقة على يد المبشر الشهير الكردينال لافيجرى . ولابد ان نقف عند هذا المبشر اللامع قليلا باعتباره احد الوجوه التاريخية المسيحية التى اثرت بعمق على فلسفة التبشير ، وطبعتها بتفكيره وسلوكه وجرأته فى شتى الميادين، ودون ان نتعرض الى المساعى الجبارة التى قام بها الكردينال لافيجرى لاحياء وبعث الكنيسة المسيحية بالجزائر وتونس ، نؤكد انه كان يعتبر الاسلام كاشد اعداء المسيحية ، وان واجبه يفرض عليه محاربة هاته القوة العمياء والخطيرة التى يسمونها الاسلام – ولكن بدون استعمال السلاح – ثم العمل على وقف نشر القرآن لدى الزنوج الذين يجهلونه ، وكذلك السعى ايضا بحذر ولكن باصرار للقضاء عليه لدى الشعوب التى استولى عليها منذ قرون ، ذلك ان القرآن يعد شريعة عمياء ، شريعة الكذب واللا أخلاق » ، (60) ، وكان لافيجرى يعتقد ان على فرنسا حلين تجاه الشعوب المغلوبة على امرها ، اما طرد المسلمين الى الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر ، او السعى الى تطبيق سياسة ادماج الشعوب عن طريق المسيحية (61) ،، واعتبر الحل الثانى كاكبر امانى لافيجرى (62) وقد صرح لرجال الكنيسة بالجزائر : « يجب انشاء المدارس فى كل مكان وكما تعلمون انها الاداة القوية والضرورية لتحقيق سياسة الادماج ، حيث نستطيع بفضلها اذابة كل العناصر التى تنتمى الى امم مختلفة » (63) .

وقد خاطب لافيجرى الاميرال قيدون (Gueydon) ، حاكم الجزائر

---

(55) *Idem*, p. 92.

(56) Machuel, *op.cit.*, p. 6.

(57) ا. د. ت. ملف 756 ، صندوق 64 ، نسخة من امر علي بتاريخ 1 محرم 11/1291 فيفرى 1874 .

(58) Machuel, *op.cit.*, p. 6.

(59) Guerrin, *op.cit.*, p. 65.

(60) Klein, *op.cit.*, p. 84.

(61) J. Tournier, *Le cardinal Lavigerie et son action politique (1863-1892)*, p. 22, Paris, 1913.
راجع ايضا : Fournel, *op.cit.*, p. 162.

(62) Grussenmeyer, *op.cit.*, t. I, p. 155.

(63) Leynaud, *op.cit.*, p. 101. Gussenmeyer, *op.cit.*, t. II, p. 18 :

العام قائلا له : « انى اؤكد لكم بانكم بالعمل على تقريب الاهالى الينا بتعليمهم وتقديم الاحسان للناس جميعا ، فانكم تقومون بخدمة فرنسا . ان فرنسا لا تنجب كثيرا من الرجال لتعمير الجزائر ، وعليه يجب ان نعوض ذلــــك بفرنسة المليونين من برابرتنا المستعربين » (64) .

وقد انشأ لافيجرى بالجـزائر مدارس عدة وبنى قرى لاطفـال العـرب المسيحيين والملاجىء والمستوصفات واكثر من اغداق المساعدات على المعوزين لكسب العطف وترقيق القلوب وجلبها شيئا فشيئا الى احضان المسيحية ، وقد جوبه لافيجرى من طرف السياسيين الذين كانوا يخشون انتفاضـــات العرب نتيجة نشاطه التبشيرى الذى أثار استياء المواطنين ، الا ان لافيجرى لم يثنه ذلك عن الاستمرار فى تطبيق سياسته تلك ، وقد كتب الى نابوليون الثالث يخبره فيها انه خلال اقامته بالمشرق انشئت ملاجىء للاطفال بالقاهرة وبيروت ودمشق وازمير والقسطنطينية وكامل ارجاء الامبراطورية العثمانية، وانه كان يستقبل الاطفال اليتامى المسلمين ويتبناهم ويعمدهم ويربيهم بدون صعوبة ودون ان يطالب احـد بعكس ذلك (65) . وقد اخلص الى القــول فى رسالته : « انى افكـر بالخصوص ان الوقت قد حان لنبدأ عملنا ، متجملين المسؤولية ، بممارسة الاحسان ، على الاقل، تأثيرا اخلاقيا ودينيا على العرب » (66) .

أثار انشاء لافيجرى القرى العربية ــ المسيحية وجمع الاطفال وتعليمهم وتنشئتهم على الطريقة المسيحية ، اثار ذلك خوف حاكم الجزائر العـــام ماك ماهون (Mac-Mahon) واستياء الاهالى الذين طالبوا باسترداد هؤلاء الاطفال . وقد رفض لا فيجرى اعادتهم معلنا ان القضاء عليهم افضل الف مرة من بقائهم عند آبائهم (67) . وكان لا يالو جهدا فى تحقيق المزيد من انشاء الملاجىء والمدارس والمستوصفات بكامل التراب الجزائرى ، غير انه كان يتطلع الى تونس التى تمثل بالنسبة للمسيحية اجمل رهان لبعث كنيستها بقرطاج .

وعندما نجحت الجيوش الفرنسية فى احتلال تونس صرح لافيجرى بان ذلك يمثل الانتصار النهائى للحضارة المسيحية فى هاته الشعوب البربرية (68). ومن جهة اخرى نادى فى وجه المبشرين الشبان : « تعالوا يـا ابنـائى ، اسمعوا نواقيسكم ، يجب ان نعلن عن بعث قرطاج المسيحية . ان عرب تونس ليسوا مطلقا مسلمين متعصبين ، وسوف يخضعون بسهولة لتقاليدنا .. » (69) .

وفى تونس لم يفتأ لافيجرى يدافع ويطلب بالاكثار من انشاء المدارس والمستشفيات والملاجىء فضلا عن بناء الكنائس فى طول البلاد وعرضها ، وقد انشأ معهد سان لوى بقرطاج سنة 1880 الذى سيتحول فى السنة الموالية الى معهد سان شارل بتونس ، ثم قام بانشاء مدارس ببنزرت وسوسة والمنستير والمهدية وصفاقس وباجة وجربة وقد عهد بالتدريس فيها الى اخوات القديس يوسف (70) ، وكان يبذل فى هذه المشاريع حتى امواله الخاصة (71) ، كما

(64) Grussenmeyer, *op.cit.*, t. I, p. 177.
(65) Ibid., *op.cit.*, t. I, p. 170.
(66) *Idem*, t. I, p. 169.
(67) *Idem*, t. I, p. 161.
(68) *Idem*, t. II, p. 15.
(69) *Idem*, t. II, p. 162.
(70) Machuel, *op.cit.*, p. 7.
(71) Mgr. Pons, *op.cit.*, p. 247.

أنشىء اكبر معهد من طرف الاخوات سيون (Sœurs de Sion)
بتونس سنة 1882 .

وقد ذكر لوى ماشوال (Louis Machuel) اول مدير للتعليم بتونس في عهد الحماية انه توجد بالبلاد سنة 1883 ، اربع وعشرون مدرسة ومعهدا وان عشرين منها يشرف عليها رجال الدين المسيحيون ، اما الاربع الباقية فهى المعهد الصادقى وثلاث مدارس اسرائيلية حيث عهد بالتدريس فيها الى معلمين واساتذة علمانيين (72) .

اما نوعية هذا التعليم وبرنامجه واتجاهه فاننا نملك تصريحا بهذا الخصوص للافيجرى حيث يوضح بشكل قاطع لا لبس فيه خطته عندما قال : « انني ، والحق يقال ، لا استطيع ان اعلمهم الا ما كنت اؤمن به شخصيا ... وانه من الافضل ان نحب جميع الناس مهما كانت الجنسية التى ينتسبون اليها عوضا عن قتل المسيحيين الكلاب ، وان فرنسا وامراءها هم اكبر فى نظر الله والناس من تركيا وسلاطينها (73) »

ومن جهة اخرى انشأ لافيجرى ملجأ للفتيات بالمرسى تقوم اخوات القديس يوسف بالاشراف عليه ، كما انشأ قرب اقامته ملجأين للاطفال اليتامى (74) ، ثم وسع مستشفى سان شارل ، وانشاء مستشفى آخر باحدى الثكنات العسكرية التى عهد بها اليه (75) ، كما طالب بفتح مكان للبر والاحسان بالمنستير (76) وكان يصرح دوما : « ساعدوا الفقراء جميعا ، عالجوا جرحاهم ، داووا مرضاهم ، انكم بذلك تشرفون عقيدتكم وتخدمون فرنسا المسيحية . ذلك ان طريقتنا لخدمتها وللدفاع عنها ليس لجعلها مخيفة ومروعة بل لجعل الآخرين يحبونها بفضل اخلاقنا واحساننا » (77) .

ان المساعدات والخدمات الطبية التى قدمتها اخوات القديس يوسف وخاصة الاخت روساليا (Sœur Rosalia) التى كانت تزور العرب والاسرائليين الفقراء بتونس وضواحيها ، قد اثرت على الاوساط الاسلامية (78)، وجعلتها تقدر هذا الاخلاص الظاهرى والتفانى المقنع .

وتماشيا مع هذا المبدا قام لا فيجرى بزيارة عدد من المدن التونسية التى قاومت الحماية ، موزعا الاموال بسخاء على فقرائها ومعوزيها ، كما كان يتدخل لدى السلط الفرنسية للتخفيف من الغرامات التى فرضت على الاهالى (79) .

---

(72) Machuel, *op.cit.*, p. 7.
(73) Grussenmeyer, *op.cit.*, t. II, p. 434.
(74) Guerrin, *op.cit.*, p. 42.
(75) L'Abbé Bombard, *Le Diocèse de Carthage, notes historiques*, p. 10, Tunis, 1899.
(76) ا. د. ت. ملف 764 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 24 ، رسالة من المقيم العام الى الوزير الاكبر التونسى بتاريخ 19 سبتمبر 1882 .
(77) Leynaud, *op.cit.*, p. 109.
(78) Arnoulet, *op.cit.*, pp. 153-154.
(79) G. Goyau, *Le second acte de la conquête (tunisienne) : Promenade pacificatrice de Lavigerie*, pp. 793-791.
مذكورا فى : عبد المجيد الشرفى ، نفس المصدر ، ص 150 ، ملاحظة رقم 45 . ونحن نذكر انه فى نفس الوقت الذى يقدم فيه لافيجرى باغداق الأموال والمساعدات المالية على الفقراء ، نراه من جهة اخرى يطلب من الباى السماح له باستعمال اليانصيب لاول مرة بتونس لغرض جمع المال ، وقد سمح له بذلك ، راجع : ا. د. ت. ملف 758 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 12 امر مؤرخ فى 4 ربيع الثانى 23/1299 فيفرى 1883 .

وقد دافع بول كامبون عن نشاط المبشرين هذا ، وكان يرى ان تونس كانت خاضعة دوما لنظام الحماية الكاثوليكية الفرنسية ، وانه شخصيا يعتبر حماية المصالح الدينية كاحد واجباتــه المقدسة التي يمكن ان تنشأ بالبــلاد التونسية (80) .

ان نشاط لافيجري التبشيري ، بعد الاحتلال الفرنسي للبلاد والحرية التي تمتع بها فضلا عن احاطته بعدد من المبشرين المخلصين والمدد الادبي والمعنوي الذي كان يلقاه لدى البابا والمنظمات المسيحية في فرنسا ،قد مكنه من تحقيق ما عجزت عنه السلطة السياسية والعسكرية كتركيز التأثيــــر الفرنسي (81)، وتدعيم مكانة فرنسا ، ونشر الحضارة الغربية ـ المسيحية عن طريق اللغة الفرنسية ، وكسب ثقة وعطف الطبقة النيرة ، وكذلك دغدغة مشاعر العوام واحاسيسها بفعل مختلف المساعدات التي تقدم اليه حتى تكسب بساطتها وتستغل جهلها وتستميل اليها أبناءها وبناتها شيئا فشيئا .

على ان دور لافيجـري في احيــاء المسيحية وتاصيلها ونشرها والدعــوة اليها على الصعيد الداخلي والخارجي ، مستغلا كل الوسائل لتحقيق هــــذا الفرض ، كان دورا رائدا بحيث لم تعرف الكنيسة مثله في القرن الماضــــي مبشرا ذكيا مخلصا ، لامعا دؤوبا ، ذا اهداف مرسومة ومحددة عمل السن والاحداث على تعميقها لديه . ولا نتردد اليوم، استنادا الى الوثائق التاريخية التي امكن الحصول عليها فضلا عن التآليف العديدة بمختلف اللغات من اعتبار حركة لا فيجري ومن سبقه حركة خطيرة واسلوبا جديدا صليبيا شنه رجال الكنيسة والمبشرين على الاسلام والشعوب الاسلامية ، ومن المؤلم حقا ان نلمس مدى التاثير الكبير والسلبي الذي خلفه نشاط المبشرين ، هذا النشاط الذي بعد بين الديانتين ، وعمق الخلاف بينهما ، وحارب حتى ماضي العرب والاسلام المجيد الذي تفتخر به الانسانية ، كما كان هذا النشاط دوما في خدمة السلطة السياسية الفرنسية القائمة آنذاك .

* * *

ان تطلعنا الى العمل والتعاون النزيه لا يمنعنا من حق دراسة الماضي والاصداع برايينا فيه بكل تجرد ، بل اعتقد ان مؤتمرنا ولقاءنا هذا من شانه ان يساعدنا على تصفية هاته التركة الاليمة التي خلفها نشاط المبشرين في بلادنا خلال العصور الحديثة والمعاصرة .

عـبد الجليـل التميمـي

---

(80) Guerrin, *op.cit.*, pp. 53-54.

(81) G. Goyau, *La France missionnaire dans les cinq parties du monde*, t. II, pp. 324-325, Paris, 1948.

مشاكل تطوير اللغة العربية وكيفية معالجتها

عبد الرحمن الحاج صالح
مدير معهد العلوم اللسانية
والصوتية ـ الجزائر

1 توطئة
- 1 ـ الماضى القريب
- 2 ـ الحاضر

2 الدراسة العلمية الدقيقة الشاملة شرط اساسى لتطوير اللغة
- 1 ـ ما أهمله العلماء
- 2 ـ الواقع اللغوى
- 3 ـ الاصول الناجعة التى يجب اعتمادها
- 4 ـ الانجازات التى يجب أن يتعاون عليها
  - نمط جديد للكتابة
  - الرصيد اللغوى المشترك
  - معايير الأداء العفوى
  - القاموس الجامع لألفاظ العربية
  - مشروعان جد مهمين

3 الخاتمة

1 تـوطئـة

1 ـ المـاضى القـريب

ان الشعور بضرورة تكييف العربية وبتطوير أدوات التعبير بها بحسب ما تقتضيه التحولات الاجتماعية والثقافية في عصرنا الحاضر لهو أمر حاصل لا محالة ، الا أن هذا الشعور لا يزال فى غالب الاحيان وعند أكثر الناس عبارة عن احساس مبهم وغامض بعيد كل البعد عن الفكرة الواضحة فهو مجرد شعور بحاجة مسيسة يدركها المتكلم والمحرر باللغة العربية بل المترجم عند ما يريد كل واحد منهم أن يعبر عن مفهوم جديد (بالنسبة الى الحضارة العربية) أو يريد فقط أن يسمى لسامعه أو قارئه شيئا أحدث فى زماننا هذا • وتحول هذا الشعور عند بعض العلماء ـ منذ القرن التاسع عشر ـ الى وعى صحيح بالحاجات الهائلة التى طرأت فى عصرنا فى ميدان الاتصال اللغوى وتبليغ المعارف والمخاطبة ذات الصبغة العلمية والفنية بصفة عامة • فكان ذلك شعورا باحتياج اللغة المأنوسة لديهم أى التى تعلموها عن الاجيال السابقة الى مفردات فنية تعبر عن تلك المفاهيم التى احدثها العلماء والفنيون فى باقى بلدان العالم وخاصة فى القارتين الاوربية والامريكية • فاندفع البعض بحكم الحاجة الى وضع المصطلحات المناسبة التى كانت تنقصهم • وبدأت هذه الحركة ـ بالنسبة الى الحضارة الحالية ـ فى زمان مبكر أى فى أوائل النهضة العربية وهكذا ظهرت فى الكتب التعليمية الاولى والصحف والمجلات وغير ذلك من المنشورات العدد الكبير من الكلمات المولدة التى لم تسبق أن استعملها العرب قبل ذلك الوقت بهذا المدلول بل وبتلك الصيغة • الا أن أكثر هذه المفردات كانت ظهرت بكيفية عفوية وبدون ما قرار سابق من الهيئات العلمية أو السياسية ولذلك كتب للكثير منها البقاء بعد أن هذبها الاستعمال الجماعى المتواصل • وما كاد البعض يخرج الى الوجود حتى لقى حتفه وسنرى أسباب ذلك فيما يلى • ففى ذلك الزمان ظهرت لاول مرة كلمات بمدلولات جديدة مثل : القطار (ومدلوله القديم القافلة كما هو معروف) والحافلة والربطة (للعنق) والبلدية والحوالة والمصلحة وغير ذلك من المولدات • ثم أنشىء فى النصف الاول من القرن العشرين أول مجمع للغة العربية بدمشق ثم تلاه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ثم مجمع بغداد وشرع كل واحد منهم فى

وضع المصطلحات والكلمات الحضارية وكان ذلك على تفاوت بين عهد وآخر • وكل قدم للغة خدمات طيبة يشكر عليها • ويجدر بنا أن ننوه بما بذله بعض الافراد من العلماء فقد بذلوا جهودا فى هذا الميدان قد لا تضاهيها أعمال المجامع وان كانوا منتمين أحيانا الى هذه المجامع ونخص بالذكر مصطفى الشهابى •

2 ـ الحـاضر

لقد واصلت هذه المجامع والكثير من المثقفين حركة الوضع اللغوى وحاولوا أن يسدوا ثغرات القاموس العربى الحديث ولكن رغم نيتهم الطيبة لم يستطيعوا أن يواكبوا الحركة العلمية والتقنية اذ ان هذا الركب يسير بسرعة عجيبة ولان الوسائل التى استخدمت الى يومنا هذا لسد الفراغ هى وسائل جد ضئيلة بل قد تكون دون المستوى الذى عرفه علماؤنا القدامى ولذلك ستبقى مشكلة المصطلحات قائمة ما لم نتخذ التدابير الحازمة • وقد سبق أن قلنا فى غير هذا الموضع : « ان المزامنة والمسايرة اللغوية الكاملة هى من أهم شروط التقدم وأشد الناس احتياجا لها هم الباحثون فكيف يتم لهم اقامة معلوماتهم وتطويرها وتحويرها واثراؤها لو لم يكن لديهم من وسائل التعبير ومن أدوات لحصر الاشياء وتصنيفها وتجريدها ما يكفى حاجتهم بذلك ؟ والحق أن الفئة القليلة من الباحثين الحقيقيين (أى المبدعين منهم) لا تقوى أبدا على وضـــع الآلاف المؤلفة من المصطلحات لمقابلة ما وضعه غيرنا منها فى عشرات السنين ثم ان السرعة العجيبة ـ سرعة الصواريخ ـ التى تتصف بها الحركات الاكتشافية والاختراعية فى زماننا هذا لا تسمح لنا ان لم نقلب الاوضاع الحالية قلبا جذريا أن نلتحق بالركب الحضارى فى أقـــرب الآجال فان سيرنا فى طريق التنمية اللغوية ـ وغيرها من التنميات ـ بالنسبة الى سير غيرنا هـو كتدرج المتواليات العددية بالنسبة الى تدرج المتواليات الهندسية •

واذا كان الامر كذلك فكيف يجوز لنا أن نبقى البحث اللغوى على ما هو عليه الآن من بطء وفوضى ؟ وكيف نتركه يسير هذا السير المتثاقل ولا نبادر الى اتخاذ الوسائل الجبارة التى يجب اتخاذها فى مثل هذه الاحوال ؟ أفلا يحسن أن يكون هذا العلاج على قدر تضخم الداء ؟ لقد قلنا فى غير هذا المكان أن الثمرات التى تجنيها الشعوب مـــن أعمال المجامع ضئيلة جدا بالرغم من كل المجهودات التى تبذلها ومهما كانت هذه الجهود

فانها لن تفى أبدا بالعدد الهائل من الحاجات التى لا تزال تطرأ علينا فى عصرنا هـذا وكل يعرف البطء الذى تتسم به الاعمال المجمعية (وهذا لا يخص المجامع العربية الا أن الشعوب الاخرى لا تترجى شيئا كبيرا من مجامعها اللغوية وقد بادرت الى اتخاذ وسائل أخرى لتكييف لغتها) • والذى زاد الطين بلـــة هو أنها لا تتفق فى غالب الاحيان فى وضع المصطلحات » •

2 الدراسة العلمية الدقيقة الشاملة شرط أساسى لتطوير اللغة

1 ـ ما أهملـه العلمـــاء

لقد اقتصر العلماء الى الآن ، كما رأيناه ، على ايجاد الالفاظ اللائقة بالمفاهيم الحديثة بطرق تقليدية لا يمكن أن تكون الا بطيئة اذ تعتمد أساسا على البحث الفردى والمباشرة اليدوية فاذا خرجت الى الاعمال الجماعية فانها اكتفت بعرض البحوث ومناقشتها مرتين فى السنة ! ثم لم يتضح بعد فى أذهانهم أن الالفاظ المفردة وان كانت جزءا هاما مـــن اللغة فانها ليست على كل حال كل اللغة فان الالسنة البشرية هى فى الحقيقة أجهـزة وأدوات لها نظام خاص بها ذو مراتب متداخلة كمرتبة الاصوات ومرتبة المفـــردات ومرتبة الجمل وكل هذا يكون بنية منسجمة تترابط فيها اجزاؤها ترابطا وثيقا وعـــلى هذا يستحيل أن يكون لهذا الجهاز نجوع وفعالية ان لم تكن دواليبه متكاملـــة متكافلة يؤدى كل دولاب فيه العمل الذى من أجله وضع ، هذا وتناسى الواضعون من جهة أخرى أن المولد من الالفاظ لا بد من أن تراعى فيه المقاييس التى تضبط الاستعمال اللغوى بل القوانين الموضوعية التى ينبنى عليه هذا الاستعمال والا فشلت المحاولة من أساسها اذ المقصود الاول من وضع الالفاظ هو أن يجرى اللفظ المحدث فى الاستعمال وأن يذيع ذيوعا واسعا • فالسؤال الذى كان ينبغى أن يطرحه اللغويون على أنفسهم هو هل هذا اللفظ المحدث خاضع حقيقة لقوانين الشيوع اللغوى ؟ ولهذا لا بد من اجراء بحـــوث علمية دقيقة واسعة النطاق لاكتشاف هذه القوانين • وهذا من الاشياء التى حملتنا منذ استقلال الجزائر على ايجاد الاسس العلمية الصحيحة لكى تعتمد عليها كل البحوث التى تعالج مشكل التطوير اللغوى •

2 ـ الواقـع اللغـوى

تؤدينا هذه الملاحظة بالضرورة الى طرق موضوع الواقع اللغوى العربى · تساءلنا مرارا عن السبب الذى جعل العلماء ينزوون دائما عن هذا الواقع متناكرين له اشـد التناكر والسبب الذى أداهم الى الاكتفاء بما وجدوه من قواعد التوليد اللفظى فى الكتب القديمة · فان هذا الذى جاء به علماؤنا قديما هو بلا شك جليل مفيد اذ كفونا الى حد ما من البحث عن أهم القواعد ولكن الاتكال على ما تركه أجدادنا الابرار واغلاق باب الاجتهاد عليه هو من أنجع الوسائل لتجميد الفكر وهذا الذى حصل بالفعل ·

علينا اذا أن ننظر الى هذا الواقع اللغوى نظرة علمية شاملة وننطلق منه لترميـم ما انتقض فى اللغة بسبب انزوائها فى زاوية التحرير وحده دون التخاطب اليومى وفى زاوية التعبير الادبى دون العلمى والتقنى · وأول ما يتبين لنا من هذا الواقع هو أن نمو اللغة لا يتم الا بنمو الشعب الناطق بها فى الميادين الاقتصادية وبالتالى الثقافية وهـذا يعرفه اليوم كل الناس تقريبا لكن الذى قد يفوت البعض منهم هو أن العلاقة الموجودة بين حيوية اللغة وحيوية الاقتصاد والصناعة لا تنعكس دائما ـ على حد تعبير علمائنا ـ أى قد تزول العلة (هاهنا انحطاط الاقتصاد) ولا يزول مع ذلك معلولها (أى عدم حيوية اللغة) · فان تقوقع اللغة وعدم حيويتها قد يستمر ما لم يـدخل عليها تكيف جـذرى شامل بحيث تستجيب به لمثيرات الناطقين بها وتفى بكل حاجيات الانسان التعبيريـة · نعم قد يعوق نموها ما يصيبها من منافسة اللغات الاجنبية اذا كانت احداها قد رسخت أقدامها لعارض تاريخى كما هو الشأن فى بلادنا ولكن هذا لا يكفى لتفسير نقائص التعبير العلمى فى البلدان العربية الشقيقة فان أكثرها تستعمل العربيـة فى غالب الميادين (وناهيك بسوريا التى لم تبق أى أثر للغة الفرنسية) ورغم ذلك بل ورغم ما تبذلـه من جهود فى ميدان التعريب لا يزال مشكل تطوير اللغة قائما فى جميع الاقطار العربية نعم انها لم تبلغ بعد ـ وكلنافىذلك سواء ـ المستوى اللائقمن النمو الصناعىوالاقتصادى بصفة عامة ولكن هذا لا يفسر أيضا لماذا لا يزال التعبير العربى فيها متكلفا وقاصرا عن تادية كل المفاهيم العلمية والتقنية التى تناسب مستواها الاقتصادى والفنى · أما الوضع الذى هى عليه بلدان المغرب العربى فهو طبعا أخطر لان منافسة الفرنسية فيها للعربية

ما تزال قوية • فاول شرط يشترط لتطوير العربية هو بلا شك ازالة هذه المنافسة ازالة تامة ولكن ما دامت لغتنا لم تحظ بعد بعلاج علمي جذري وشامل فستبقى كما هو حاصل في البلدان العربية الاخرى لغة أدبية أكثر منها علمية بل ــ وهذا أخطر ــ لغة مكتوبة اكثر منها منطوقة ، لغة خواص اكثر منها لغة شعب •

هذا وسيفيدنا التتبع الممعن الدقيق لهذا الواقع اذ سيطلعنا على أسرار الشيوع اللغوي وعلى أسباب تقبل الناس لهذا اللفظ أو هذه العبارة دون ذاك أو تلك • وهذا سيمكننا من اقامة المقاييس الصحيحة كما سبق أن قلناه لوضع الالفاظ الحضارية والعلمية • هذا ومن جهة أخرى لا بد من اجراء التحريات الواسعة في كل أنحاء البلاد بل وفي كل البلدان العربية لحصر الرصيد اللغوي ــ افرادا وتركيبا ــ حتى نتمكن من المقارنة المنتظمة بين ما يوجد في الاستعمال الحقيقي من الالفاظ والعبارات الفصيحة الحية أو ما يمكن تفصيحه بسهولة لان أصله فصيح • وبذلك نصل الى تحديد اللغة الحية بل ولا بد من ذلك لاننا في حاجة الى معرفة درجة شيوع العبارات الفصيحة المستعملة بالفعل في التخاطب اليومي وكذلك المشترك منها وهكذا نحصل على كمية من العناصر اللغوية المشتركة ونوحد على أساسها لغة التعليم في مراحله الاولى على الاقل • ولا شك أن هذا العمل سيكون له أثر عميق اذ ستحدد به المفاهيم في مستوى العالم العربي ونبتعد بذلك عن البلبلة اللغوية وبالتالي عن البلبلة الفكرية •

ان كل هذا يعتبر شرطا أساسيا لتطوير اللغة اذ لا تطوير بدون توحيد ولا ترقية لغوية بدون اعتماد على أساليب التعبير الحية • وقد بدأنا على مستوى المغرب العربي في تحقيق هذه الاهداف ونعتقد أننا قد توخينا لاول مرة المنهج الصحيح •

3 ــ الاصول الناجعة التي يجب اعتمادها

ان الانطلاق من اللغة المجردة عما يربطها بالتراث هو شيء مستحيل • لان اللغة ليست فقط أداة للتخاطب بل هي أيضا أداة لنقل الثقافة ومن ثم فهي بالضرورة مندمجة في الثقافة التي تنتمي اليها بل هي التي تحددها ولا يمكن أن تتجسم الا بها • ولذلك فاننا نرى أنه لابد أن يعتمد في عمليات البحث التطويري على التراث العربي وخاصة ما تركه لنا اللغويون العرب القدامى لا المتأخرون منهم (الا ما ندر) لاكتفائهم بترديد ما قاله

أساتذتهم بـل أولئك العلماء الفطاحل الذين أعجب بهم المبدعون من العلماء الغربيين عند ما قدمنا لهم بعض النماذج من أفكارهم ومناهجهم . فان الكثير من هذه الاشياء الرائعة فى التحليل والتصنيف والتعليل قد يتفق بما أثبته العلم الحديث . ولا نعنى بذلك قواعد التوليد اللفظى فهذا هو أبسط ما استخرجوه بل المفاهيم العلمية الدقيقة التى توصلوا بها الى تفسير مبانى اللغة العربية وشرح مجاريها .

والاصل الثانى الذى يجب أن نرتكز عليه هو التجاوز المستمر لما ناخذه عن غيرنا يجب أن ننفض عنا غبار التقليد الذى أصبنا به منذ أكثر من ستة قـرون والـذى ما نزال مصابين به بالنسبة لا الى القدامى فقط بل حتى بالنسبة الى الغربيين . فلان كنا من أشد الناس تحمسا لما أخرجه علماؤنا قديما فاننا سوف نكون قد جعلنا المثـل العامى : النار تاتى بالرماد عنوانا لاعمالنا فالذى نريده هو أن نجعل هذه التركـة العظيمة منطلقا لبحوث جديدة ونفتح باب الاجتهاد فيها حتى لا نبقى مثل من سبقنا فى القرون الحالكة مقلدين غير مبدعين كما أننا نريد أيضا ألا نبقى مقلدين للغربيين التقليد الاعمى لانهم ـ وان كانوا السباقين الآن فى ميدان الابداع ـ الا أننا متيقنون (كما تفضل أن صرح به السيد الرئيس مرارا) أن الآدميين ، أبيضهم وأحمرهم ، كلهم من طينة واحدة ولا يتصور أن تكون الامة منهم أكثر من غيرهم مواهب وذكاء انما المواهب تظهر باعطائها الفرصة فى ميدانها الخاص بها .

وهناك أصل ثالث يخص طرق البحث ووسائله . فالى حد الآن لم تحظ العربية بما حظيت به اللغات الاوربية من البحث العلمى الشامل فان علوم اللسان فى البلدان الغربية قد نهضت اليوم نهضة لم يشاهد لها مثيل اللهم الا تلك التى عرفها العصر الذهبى للنحو العربى . وأصبحت هذه العلوم علوما دقيقة جدا على مثل ما صارت اليه الفيزياء والكيمياء ، تعتمد على التجربة فى المختبرات والتحريات الميدانية الواسعـة المنهجة وأدخل فيها التحليل الاحصائى بل حتى الصياغة الرياضية . وبما أن اللغـة ظاهرة ذات وجوه شتى فان العلماء المختلفى الاختصاصات بدأوا يتعرضون لها ومـن الجانب الذى يهمهم . ولهذا فقد اتجهنا فى بلادنا هـذا الاتجاه العلمى البحت فأنشأنا مجمعا يلتقى فيه ويعمل من أجل القيام ببحوث علمية جماعية متخصصون من مختلف

الميادين يجمعهم اهتمام واحد وهو التعرض لاسرار الظواهر اللغوية بكيفية علمية محضة كل واحد منهم ينظر اليها من الجانب الذى يتعلق بتخصصه · وذلك مثل الخبير بتحليل مبانى اللسان البشرى ومثل الرياضى المهتم بصياغة هذه المبانى على ما تتطلبه الرياضيات الحديثة والالكترونى المتخصص فى علم الصوت والطبيب المتخصص فى أمراض التعبير اللغوى والخبير بعلم النفس اللغوى وغيرهم · والغاية من هذا الجمع بين أولئك الخبـراء الذين تختلف تخصصاتهم أشد الاختلاف هو أن يستفيد كل واحد منهم من تجـارب الآخرين فتكون بذلك أعمالهم أوعب لموضوع بحثهم والغاية القصوى هو التوصل الى نظريات ومناهج تحليلية تبنى على مبدأ البحث المتكامل والتصحيح النظرى المشترك وبذلك نضمن موضوعية البحث ونجاعة الوسائل المنهجية ·

4 ـ **أما الانجازات** التى يجب أن يتعاون عليها جميع العرب قصد تحصيلها والتى ستطور العربية وتسترجع بها مكانتها المفقودة بارتقائها الى مرتبة اللغات الواسعـة الانتشار فهى كالآتى :

ـ اعداد نمط من الكتابة تندمج فيه علامات الشكـل وتحترم فى نفس الوقـت خصائص العربية ولا تبتعد كثيرا عن الكتابة العربية الحالية ثم اقرارها على أعلى مستوى فى الوطن العربى ثم تحديد أجل لتطبيقها فى جميع البلدان العربية حتى نتفـادى الانعكاسات السلبية فى الاقتصاد وغيره ·

ـ اعداد الرصيد اللغوى فى جميع المستويات (تحديده : أدنى عدد من المفردات والتراكيب العربية الحية يحتاج اليها الناطق للتعبير عن كل ما يختلج فى نفسه وعن المفاهيم الحضارية العربية) لتفادى الفوضى اللغوية التى أصيب بها تعليم اللغة العربية فى مختلف مراتبه وكذا الحشو اللغوى (كثرة المترادفات والعناصر الميتـة) **والغموض** (كثرة المشترك **وعدم الدقة**) والخصاصة اللغـوية التى يعانيها التلميذ والطالب عنـد التعبير عن مفهوم حضارى لا يجد له لفظا يدل عليه فيما يتلقاه فى المدرسة ·

ـ اعداد معايير صوتية لتعليم النطق الفصيح **العفوى** الذى عرفه فصحاء العرب فى **مخاطباتهم اليومية** وذلك لجعل العربية أكثر حيوية وأكثر انسجاما مع ما يتطلبه **التخاطب التلقائى غير المتكلف** الذى يجب أن تتسم به اللغات الحية **المنطوق بها بالفعل** فى جميع

المناسبات وذلك بالرجوع الى الثـروة الادائية التى تركتها لنا كتب القراءات القرآنية حيث نجد فيها من أنواع الاداء الفصيح العفوى ما لا تعرفه المعايير المدرسية أو لا تكترث به لشعور الناس شعورا خفيا أن الفصحى هى لغة خطب ومطارحات أدبية ٠

ـ اعداد طرق ناجعة فى تعليم اللغة العربية باستغلال البحوث اللسانية الحديثة والبحوث العلمية الاخرى التى تتعرض للغة من جوانب أخرى كالبحوث التربوية اللغوية وبمتابعتها على ما تقتضيه ماهية اللغة العربية وخصائصها ٠

ـ اعداد القاموس الجامع لالفاظ اللغة العربية باحصاء جميع ما جاء فى المعاجم القديمة والحديثة وجرد عينة كبيرة من الانتاج الفكرى والادبى العربى منذ أقدم العصور (أمهات الكتب العلمية والادبية ثم جميع الدواوين الشعرية وغير ذلك) ٠ (أنظر فيما يـلى ما سنقوله عن أهمية هذا العمل) ٠

ـ اعداد أطلس جغرافى لغوى للبلدان العربية حتى نمكن الباحثين فى العـــربية وفى تحسين وسائل تعليمها من الاطلاع على الاوضاع اللغوية الحقيقية للوطن العـــربى ونزعات المتكلمين بها فى النطق واستعمال المفردات والمركبات فينطلقوا فى بحوثهـــم من الواقع المشاهد لا من التصورات الزائفة ويستطيعوا أن يصححوه بالاعتماد عـــلى معايير كلام العرب الفصيح **العفوى** ٠

ـ اعداد مقاييس رياضية للوصول الى صياغة المبانى اللغوية صياغة رياضية ونتمكن بذلك من استغلالها لعلاج النصوص العربية على الرتابات (= الادمغة الالكترونية) ٠

ـ اعداد اختصاصيين فى البحث اللغوى وامدادهم بالمعلومات الهامة التى حصلـت عليها علوم اللسان الحديثة وتغذيتهم بالتراث العلمى العربى الخاص بالعربية عـلى أن يكون ذلك مبنيا أساسا على الدراسة التطبيقية والميدانية كما هو الشأن فى العـــلوم الدقيقة ٠

ـ مواصلة تعريب المصطلحات بالاعتماد على ما سينجز تدريجيا من القاموس المذكور وعلى المقاييس التى سيكشفها البحث الميدانى (عن قوانين الاستعمال) وبطرق دقيقـة ستحدد من الآن ويتفق جميع الواضعين على اتباعها ٠

ـ مشروعان جد مهمـين

من بين هذه المشاريع التى هى الآن فى طور الانجاز أو الاستعداد له لا شك أن اعداد الطرق الناجعة لمضاعفة مردود التعليم باللغة العربية واعداد القاموس الجامع لالفاظها هما أهمها اذ كل ما ذكر فهو تابع لهما ٠ فاما الطرق التعليمية فيجب أن يكون المنطلق هاهنا أيضا من الواقع المشاهد ٠ يجب أن نتثبت مما هو موجود بالفعل باجراء التحريات الميدانية الواسعة وأن يتفرغ لذلك فريق من الباحثين (وهذا هو الذى فعلناه مـــنذ سنتين) وننظر ما هى العيوب الراسخة غير العارضة التى يتصف بها تعليم العــربية فى مختلف مستوياته وتقـــلل مـن مردوده سواء كان من حيث تخطيط المادة الملقنة وبرمجتها أم من حيث كيفية تقديمها وتلقينها أم كيفية ادخال القواعد فيها أم تـوعية التمارين ومدى قصورها فى تحصيل الآليات اللغوية الاساسية ٠ ثم يشرع فى تفسير هذا الواقع وتعليله من جميع الجوانب : الاجتماعى والنفسانى وغيرهما بالاعتماد عـلى احصائيات دقيقة مستفيضة تتجسم فى رسوم بيانية وعندئذ وبناء على هذه المعلومات الموضوعية يشرع هذا الفريق فى اختبار طـــرق جديدة ومتنوعة تتجنب العيوب التى اتصفت بها الطرق التقليدية أو ما يظن أنها عيوب (طرق تستوحى مما جدّ وحدُث أو تبنى على افتراضات جديدة تماما) ويقارن بانتظام واستمرار بين النتائج التى يتوصل اليها بوسائل دقيقـــة تخضع لمنهجية الاختبار والروائز النفسانية الحديثة والتقيـيم الرياضى ٠ وتدعم الاختبارات فى التلقين المجرد باختبارات أخرى فى الوسائل السمعية البصرية حتى يعرف مردود هذه الوسائل بالنسبة الى التلقين المجرد (وتقييمه بنفس المناهج) ٠ ويحاول الباحثون فى كل ذلك الخروج عن الطرق المعبدة وأن يختطوا لانفسهم المناهج الجديدة التى يرونها أفيد وأنجع وينبذوا روح التقليد ٠

أما فيما يخص القاموس الجامع لالفاظ العربية فهو فى الواقع مجموعة عظيمة مـن المعطيات المحصة المرتبة (بجميع أنواع الترتيب كما سنراه) تتشكل بشتى الاشكال : اما مسجلة فى ذاكرة الرتابة يمكن للباحث أن يعثر على مقصوده بعملية بسيطة واما على شكل جذاذات من القطع العادى أو ميكروفيشات يسهل نقلها من بلد الى آخر ٠ وسيتم

جرد كل هذه المعلومات اللغوية بفضل الادمغة الالكترونية وفـوائد هذا القاموس هى كما يـلى :

1) **يحصر** لا ما جاء فى المعاجم اللغوية فقط بل كل أوضاع اللـــغة التى جاءت فى أمهات الكتب القديمة والحديثة (بما فيها المصطلحات) والآثار الادبية والرسائل بل المطولات العلمية ومحاضرات الاساتذة قديما وحديثا (مما يعتمد عليه أساسا فى الآداب العربية والعلوم) •

2) **ترتب** فيه هذه الاوضاع ترتيبات مختلفة :

- ترتيب أبجدى عام (الانطلاق من اللفظ) •
- ترتيب بحسب مجالات مفهومية (الانطلاق من المفهوم) •
- ترتيب بحسب درجة شيوع الكلمة (عـــدد المرات التى ظهـرت فى النصوص واتساع رقعة استعمالها) •
- ترتيب بحسب العلوم والفنون

وأفيد هذه الترتيبات بالنسبة للتعريب هو طبعا التصنيف بحسب المفاهيم فمثلا اذا أراد الباحث أن يعرف بالضبط وباستفاضة كل ما يدخل فى مفهوم الحيل من الكلمات فسيجده فى الباب المعنون بهذا اللفظ وذلك مثل أن يتساءل عما اذا كان هناك لفظ فى العربية يدل على مرض معين خاص بالخيل أو هل ذكرت لفظة الازهـــر أو الكميت فى الادب القديم وكم مرة وفى أى نص أو أى كتاب وبأى معنى بالضبط وفى أى سيـاق وهذا يشبه ما نجده فى الكتب القديمة كرسالة الخيل لابن الكلبى وغيره ولكننا لن نجد فيه هذا النوع من المعلومات : **كل** ما جاء تحت هذا اللفظ وأين جاء وبأى كمية • فمن ثم سوف يستطيع الباحث المتتبع لتطور اللغة من اثبات تاريخ كل كلمـة عبر الزمان وتطور معانيها • ثم بالنسبة الى تعريب المصطلحات فان هذه الترتيبات وهذا الحصـر سيسهل على الباحث ايجاد اللفظ اللائق اذ سيجد أمامه كل ما وضع واستعمل **بالفعل** فى العربية بل سيستطيع أن يختار من بين العشرات من الالفاظ المتجانسة المعنى فهـى

كلها محصورة وبالتالى تحت تصرفه (وسوف يستطيع بذلك أيضا مـن تفادى النادر الذى لم يستعمل الا مرة أو مرتين) .

3) **يذكر كل السياقات** والقرائن التى جاءت فيها الكلمات العـربية فى المعطيات المدونة وبذلك يمكن أن تضبط المعانى الدقيقة لكل الكلمات بالرجوع الى الاستعمال الفعلى ولا يكتفى بتحديدات المعاجم التى كثيرا ما يصيبها الغلط .

4) **يحصر كل المواد الاصلية** التى تتكون منها الكلمات وكـل **الصيغ التى صيغت** عليها مع تحديد درجة شيوع كل واحدة منها (يذكر عدد الالفاظ التى تدخل فيها وعدد المرات التى تظهر هذه الالفاظ) كما **يحصر** من جهة أخرى كل **أنواع التراكيب** العربية التى استعملت فى الكلام الفصيح بالفعل وبذلك نستطيع أن نحـــدد أولوية بعضهـا وأسبقيتها نظرا لكثرة استعمالها ونعتمدها فى تعليم العربية للصبيان وغير الناطقين بها .

3 ـ الخاتمة : لاشك أن هذا النوع من العمل العلمى يحتاج الى كمية كبيرة من الامكانيات المادية والبشرية والذى تم انشاؤه فيما هو موجود الآن بالجزائر وما سيتم فى المستقبل القريب يجعلنا ننظر الى هذه الاهداف (التى كنا نراها منذ زمان غير بعيد من الاشياء المستحيلة) بمزيد من التفاؤل الا أن الاخصائيين الجزائريين لن يستطيعوا أن يواصلوا أعمالهم ويثبتوا أقدامهم فيها الا بمساعدة اخوانهم العرب ، **المعنوية بصفة خاصة** فـلان حظيت الجزائر من الله بشىء من الامكانيات المادية فانها لن تقوى أبدا أن تسير قدما الا مع شقيقاتها وبالتعاون معها والذى ترغب فيه هو أن يدرك كل الباحثين العـــرب أن مشاكل العصر الحاضر لا يمكن أن تحل بالوسائل التقليدية بل بما أحدث فى زماننا هذا من الوسائل الجبارة لان مشاكلنا أصبحت هى بنفسها مشاكل جبارة ، تطـرح الآن ، أحببنا أم كرهنا ، على مستوى الكرة الارضية لا على مستوى البلد الواحد .

وبالله تعالى التوفيق .

التخلف الفكري وأبعاده الحضارية *

الدكتور فؤاد زكريا

نواصل نشر أبحاث النـدوة الفكريـة التى انعقدت فى الكويت حول « أزمة التطور الحضارى فى الوطن العـربى » حسبما اعلنا عنـه سـابقـا ٠

مقدمة :

في احدى اللمحات الذكية حددتوفيق الحكيم (جريدة الاهرام في ١٩٧٣/١٢/٧) معنى التخلف بأنه عدم القدرة على ملاحقة الركب بعد ان كانت هذه القدرة متوافرة . وبهذا المعنى يكون المجتمع المتخلف ـ اذا التزمنا اشتقاق اللفظ ـ هو ذلك الذي كان

(*) ظهرت بعض الافكار الرئيسية في هذا البحث ، في صورة موجزة جداً ، في مقال بجريدة الاهرام المصرية بتاريخ ١٩٧٣/١١/٢٨ .

يساير الموكب الحضاري يوماً ما ، ثم عجز لسبب او لآخر عن الاستمرار في السير ، فسبقه الموكب . وهذا يعني ان هناك فرقاً بين التخلف والتأخر : فالتأخر سمة للمجتمع الذي لم يكن يوماً ما في المقدمة ، أما التخلف فهو سمة المجتمع الذي وصل الى المقدمة وحمل مشعل التقدم في وقت مضى ، ثم تباطأت مسيرته بعد ذلك أو توقفت .

من هذا التحديد ، الذي يلتزم المعنى الاصلي للفظ ، نستطيع ان نتخذ نقطة انطلاقنا في بحث موضوع التخلف الفكري وأبعاده الحضارية في العالم العربي . ذلك لأن التخلف مرتبط ارتباطاً أساسياً بالبعد الزمني وبالعلاقة بين الماضي والحاضر . والعالم العربي يقدم الينا مثلاً بارزاً تتوافر فيه كل مقومات التخلف ، بالمعنى الذي حددناه : اذ كان يوماً ما رائداً لحضارة زاهية ، ثم توقفت مسيرته واصبح الان يتطلع الى الوراء متحسراً على الأيام التي ولت . ولنذكر . في هذا الصدد ، ان هناك صلة اشتقاقيةواضحة بين الخلف ، والتخلف ، وان المتخلف ينظر دائماً الى الخلف ، ومن ثم فان تحليل عوامل التخلف الفكري العربي ينبغي ان يرتكز أساساً على بحث تلك الصلة الفريدة بين الماضي والحاضر في العقل العربي ، وهي صلة أزعم أنه لايوجد لها نظير في الثقافات الاخرى ، وانها أحد العناصر الرئيسية التي توصلنا الى فهم أفضل لأزمة الانسان العربي المعاصر . وعندما أقول انها توصلنا الى فهم أفضل ، فأنا لا أعني بذلك ان تحليل هذه الصلة بين الماضي والحاضر يقدم الينا حلاً لأزمة الانسان العربي وانما أعني أنه يصحح بعض المفاهيم التي يشيع استخدامها عند معالجة هذا الموضوع ، وهذا التصحيح للمفاهيم هو الخطوة الاولى في طريق البحث عن حل .

العلاقة بين الماضي والحاضر :

ان السمة التي تنفرد بها العلاقة بين الماضي والحاضر في الثقافة العربية هي ان الماضي ماثل دائماً أمام الحاضر ، لا بوصفه مندمجاً في هذا الحاضر ومتداخلاً فيه ، بل بوصفه قوة مستقلة عنه ، منافسة له ، تدافع عن حقوقها ازاءه ، وتحاول ان تحل محله ان استطاعت . ولو شئت ان الخص هذه السمة في كلمة واحدة ، لقلت ان نظرتنا الى الماضي « لاتاريخية » فالنظرة التاريخية الى الماضي هي تلك التي تضعه في سياقه الفعلي، وتتأمله من منظور نسبي ، بوصفه مرحلة انتهى عهدها ، وتلاشت في مراحل لاحقة تجاوزتها بالتدريج حتى اوصلتنا الى الحاضر . وفي مثل النظرة التاريخية لا يكون

الماضي قوة منافسة للحاضر، ولا تثار على الاطلاق مشكلة التوفيق بين الماضي والحاضر، لان الحاضر بطبيعته يحمل في داخله بذور الماضي ولان الماضي خلق الحاضر عن طريق تجاوزه المتدرج لذاته . أما في ثقافتنا العربية فان الماضي يقطع صلته بالتاريخ ، ويفقد طابعه النسبي ، ويخرج عن الاطار الزمني الذي كان مرتبطاً به ، ليصبح قوة دائمة الحضور ، ولا بد ان يتصادم ما هو دائم الحضور مع الحاضر . ان العلاقة بينهما ، بايجاز علاقة قوتين متعارضتين ، مع أن الماضي والحاضر ليسا أصلاً سوى قوة واحدة يتغير طابعها خلال الامتداد الزمني بالتدريج . وفي اعتقادي ان هذه النظرة « اللاتاريخية » الى الماضي هي المسؤولة عن قدر كبير من التخلف الفكري الذي يعاني منه العالم العربي ، وعن ذلك التخبط والاضطراب الثقافي الذي يظهر أوضح ما يكون في الطرق التي تعالج بها مشكلة موقفنا من التراث ودوره في حياتنا الحاضرة ، أو مشكلة الاصالة والمعاصرة كما يشيع تسميتها . وسوف يكون جهدي خلال هذا البحث منصباً على اثبات ان الطريقة التي طرحت بها هذه المشكلة ، سواء من جانب أنصار التراث أم خصومه ، لم تكن هي الطريقة الصحيحة ، وأن هذه النظرة الخطئة الى التراث ، والى ثقافتنا الماضية في صلتها بالحاضر من أهم أسباب التخلف الفكري وعدم الاستقرار الحضاري في عالمنا العربي .

موقف نقاد التراث :

لسنا نود ان نكون طرفاً في المعركة الدائرة بين أنصار التراث وخصومه ، لاننا نعتقد ان المفاهيم المستخدمة في هذه المعركة تفتقر الى الدقة ، وأن الطريقة التي طرحت بها المشكلة غير سليمة . ومع ذلك فان الرأي الذي نريد أن نثبته في النهاية لن يظهر بصورة واضحة، ولن يكون مرتكزاً على أسس سليمة، الا اذا عرضنا للمواقف المألوفة من التراث ، في علاقتها بحالة التخلف الفكري التي تعاني منها بلادنا .

ولنبدأ أولاً بنقاد التراث ، فنلاحظ أن هؤلاء النقاد يشيرون عن حق الى عيوب كامنة في هذا التراث ، أو من الواجب ادخال تعديلات أساسية عليه . ومع موافقتنا التامة على المقدمات التي يرتكزون عليها، فاننا لا نعتقد بصحة النتائج التي يستخلصونها منها.

فالتراث ، مثلاً ، يتهم بأنه حافل بالعناصر اللاعقلية ، والخرافية وبأنه يحتشد بالغيبيات وبالأفكار الاسطورية . وهذا اتهام يصدق بالفعل على التراث في جانب من

جوانبه . ولكن النتيجة التي تستخلص منه ، وهي أن هذا التراث فاسد من أساسه ، ليست بالنتيجة الصحيحة . ذلك لأن أمثال هذه العناصر اللاعقلية والخرافية لم تمنع الفكر الاوربي من أن يصل الى ماوصل اليه الآن من تقدم .

فمن الحقائق المعروفة أن العصور الوسطى الاوربية كان تفكيرها أشد اظلاماً واغراقاً في الغيبيات ، وأن أوربا الحديثة ظلت تحتفظ بقدر غير قليل من العناصر اللاعقلية حتى في صميم عملها العلمي . فحتى القرن الثامن عشر كان العقل الاوربي ينظر الى الكهرباء والمغناطيسية على أنها قوى خفية تؤثر عن بعد بطريقة غير مفهومة، وكان الاعتقاد بوجود معادن مذكرة وأخرى مؤنثة شائعاً فيها ، وحتى عصر ديكارت كان يظن أن أجسام الحيوانات مجرد آلات لا وعي فيها ولا احساس ، وكان المصابون بأمراض عقلية يحرقون أحياناً وهم أحياء من أجل القضاء على الروح الشريرة التي تتقمصهم، وكان السحر منتشراً على أوسع نطاق، في نفس الوقت الذي كانت فيه أكثر التهم التي توجه الى الخصوم شيوعاً ، من أجل الخلاص منهم ، هي تهمة ممارسة السحر .

كل ذلك كان شائعاً في أوربا ، ولكنه لم يكن حائلاً بين أوربا وبين قيادة حركة التقدم في العالم كله . فلماذا اذن كانت هذه العناصر من عوامل التخلف الفكري في العالم العربي ولم تكن كذلك في الغرب؟ ومن المؤكد ان أساس التخلف لا يكمن في هذه العناصر ذاتها بل في شيء آخر. بل ان من الأوربيين المعاصرين من يرون هذه الاخطاء الفكرية مرحلة ضرورية من مراحل الطريق الموصل الى الحقيقة وحسبنا أن نشير الى تأكيد « باشلار Bachelard » أن الخطأ يسبق الصواب دائماً ، وان الصواب ليس الا محاولة مستمرة لتصحيح الخطأ ، وجهداً دائماً يبذل من أجل قهر العقبات العديدة التي تعترض طريق المعرفة . فالعلم ليس في صميمه مجموعة من الحقائق التي نتوصل اليها واحدة بعد الاخرى، وانما هو مجموعة من الاخطاء التي نتغلب عليها واحدة بعد الاخرى . وفي هذه الحالة يمكن أن تكون الخرافات والغيبيات ، مرحلة لابد منها في المسار الطويل للمعرفة ، والمهم – بطبيعة الحال – هو أن تعقبها المراحل التي تعمل على تجاوزها . أي أن اللاعقلانية والخرافة، اذا مانظر اليها في اطار تاريخي ، لا يتعين أن تكون عاملا للتخلف ، وانما يتحدد ذلك وفقاً للتطور اللاحق الذي يطرأ عليها .

والى مثل هذه النتيجة ننتهي لو تأملنا اتهاماً آخر يوجه الى التراث العربي ، ويعد واحداً من العوامل المسؤولة عن تخلفه الفكري ، وهو الاستبداد واضطهاد الحريات

(انظر مثلا « تجديد الفكر العربي » للدكتور زكي نجيب محمود) . فتاريخ الفكر الاوربي بدوره حافل بمظاهر قمع الحريات ولا سيما الحرية الفكرية . ولسنا نود أن نستشهد هنا بما كان يحدث للخارجين عن التيار المعترف به في العصور الوسطى ، أو لشهداء الاصلاح الديني في عصر النهضة ، بل أن العصر الحديث ذاته قد استهل بفترة طويلة من اضطهاد الفكر باسم الدفاع عن الدين، وفي هذه الفترة أحرق جوردانو برونو حياً، وحوكم جاليليو، وكاد أن يدفع حياته ثمناً لايمانه بالنظام الفلكي الجديد وتأييده له بالملاحظات العملية والمعادلات الرياضية ، وعاش ديكارت مهدداً بمصير مماثل لمصير جاليليو ، واضطر اسبينوزا الى أن يكتب بلغة ظاهرها لاهوتي وباطنها عقلاني حتمي ، وهكذا لم يكن تاريخ الغرب خالياً عن مظاهر قمع الحريات الفكرية ، وكانت السلطة الدينية تمارس ارهاباً فكرياً لايقل عما شهدته الحضارة العربية في العهود التي بلغ فيها الاستبداد قمته. ومع ذلك فان هذا الاستبداد لم يمنع الغرب من التقدم ، ولم يحل دون ظهور « عصر التنوير » بحريته الفكرية الرائعة ، بعد قرن واحد من الزمان .

ومجمل القول ان من حق المرء ان يشير الى عيوب في التراث وينبهنا الى طريقة التغلب عليها . ولكن ليس من حقه ان يؤكد أن هذه العيوب وحدها هي التي أدت الى تخلفنا الفكري ، إذ أن نظائرها كانت موجودة في الغرب ، وربما بمزيد من القوة والعنف ، ولكنها لم تحل دون وصول الغرب الى مرحلة احترام الفكر الحر ،واكتساب التقدم الذي لابد ان يترتب على ضمان حق العقل البشري في التعبير عن نفسه . وهنا ايضاً ينبغي ان نعيد الى الاذهان تلك النتيجة التي أشرنا اليها من قبل . وهي أن العلة الحقيقية للتخلف الفكري ينبغي ان تلتمس ، لافي هذه العوامل السلبية وحدها ، بل في المسار الذي اتخذه تطورها التالي .

على أن خصوم التراث أو نقاده يصرون على ان يوجهوا حملتهم بعنف الى هذه العوامل السلبية ، وكأنها هي وحدها سبب التخلف ، فعلام يدل هذا الاصرار ؟ انه في واقع الامر يدل على ان هؤلاء الخصوم كانوا يتوقعون من التراث ان يحل مشكلات الحاضر ، أو يتصورون ان له مثل هذه الوظيفة ، ولكنهم يرونه عاجزاً عن أدائها . ومجرد توجيه النقد بمثل هذا العنف ينطوي على مقارنة ضمنية بين التراث وبين الحاضر ، وعلى اعتقاد بأن التراث قوة حية ينبغي الدخول في معركة معها ، أي أن هذا النقد

ينطلق من نفس الموقف الذي يقفه انصار التراث – كما سنرى بعد قليل – وان يكن ينتهي آخر الامر الى نتيجة سلبية .

وحسبنا ، لكي ندلل على أن موقف الخصوم وموقف الانصار يمثلان وجهين ، احدهما سلبي والآخر ايجابي ، لعملة واحدة ، ان نشير الى موقف الاوربيين من تراثهم القديم . فمن العسير ان نجد اليوم كاتباً أوربياً ينتقد نظرة اليونانيين الى الكون ، مثلاً ، أو يحمل على النظريات الاخلاقية عند الفلاسفة الرومان . وليس هذا راجعاً الى ان تلك الفلسفات أو الآراء العلمية كانت بمنأى عن النقد ، بل هو راجع الى سيطرة النظرة التاريخية على موقف الاوربيين من التراث ، وادراكهم ان سيادة هذه النظرة التاريخية تعني ضرورة الامتناع عن مقارنة الماضي بالحاضر ، وبالتالي الامتناع عن توجيه الذم أو المدح الى التراث ، إلا إذا كان ذلك داخل الاطار التاريخي الخاص به . وهكذا فاننا حيث نشدد الحملة على التراث من منظورنا الحاضر ، انما نتخذ موقف من كان يتوقع منه شيئاً ثم خاب ظنه . وحين نتهم التراث ، بطريقة مجردة ، بأنه علة التخلف الفكري ، فاننا نغفل بذلك الموقع التاريخي للتراث ، والوظيفة التي كان ينبغي عليه أن يؤديها في اطار عصره ، ونقفز بهذه العصور عبر مسافات زمنية واسعة ، وعندئذ يكون من السهل ان نجد عليه – من وجهة النظر الحاضرة – مآخذ لا أول لها ولا آخر . واذن فالبحث عن اسباب التخلف الفكري في العالم العربي لاينبغي له ان يتخذ من نقد التراث مدخلاً وحيداً ، أو مدخلاً رئيسياً .

موقف انصار التراث :

يمثل انصار التراث ، كما قلنا من قبل ، الوجه الآخر من نفس العملة التي تجعل للتراث نطاقاً يفوق بكثير نطاقه الحقيقي ، أي نطاقه التاريخي . وفي حالة هؤلاء الانصار يقال لنا ان سبب التخلف هو عدم التزامنا للتراث ، أو هو ابتعاد الحاضر عنه ، وان طريق التقدم الحقيقي هو الرجوع اليه بصورة أو بأخرى . وصحيح ان الكثيرين يكتفون بالدعوة الى استلهام « روح » التراث ، والمبادىء المعنوية التي ألهمت رواده واقطابه ، غير ان الفكر العربي الحديث والمعاصر لم يعدم أناساً يدعون الى استعادة التراث بتفاصيله ، ويرون أن خلاص العرب في حاضرهم انما يكون ببعث الماضي من جديد ، حتى في جزئيات الحياة اليومية كالملبس أو اسلوب المعاملات التجارية . وسواء

أكان الامر متعلقاً بهؤلاء او أولئك ، فان مثل هذا الموقف ، الذي يدعو الى استعادة مقومات الماضي في الحاضر ، بعد – بين سائر الثقافات العالمية – موقفاً تنفرد بـه الثقافة العربية .

ولكي يدعم أنصار التراث حجتهم ، فانهم يستندون الى مصادر معينة في هـذا التراث يؤكدون ان المعرفة البشرية كلها تكمن فيها ويجعلونها تبدو كما لو كانت قد وعت علم السابقين واللاحقين ، بحيث يكون من العبث محاولة تجاوزها لأن كل شيء سبق أن قيل فيها . وسأكتفي بضرب أمثلة قليلة لهذه المصادر التي يقال انها تشتمل على كل معرفة بشرية :

١ – فهناك فئة كاملة من الكتاب تخصص أفرادها في اثبات ان الكشوف العلمية الحديثة موجودة كلها في آيات قرآنية . ويعتمد هؤلاء الكتاب على مشابهات لفظية بسيطة في اثبات دعواهم ، كالاعتماد على آية « ومن يعمل مثقال ذرة » .. في اثبات وجود علم الذرة في النصوص القرآنية أو على آية « وجعلنا من الماء كل شيء حي » في اثبـات وجود جميع حقائق علم الاحياء ، وربما وجد بعضهم فكرة سفن الفضاء في بعض آيات الاسراء الخ ..

ومـن الأمور التي تسترعي الانتباه ان هنـاك فريقاً قوياً من أنصار التراث المتحمسين يرفضون هذا النوع من التفسير بكل قوة (بنت الشاطىء مثلا) ، ويستنكرون بشدة أن يكون القرآن كتاباً في علم الطبيعة أو البيولوجيا ، أو تكنولوجيا الفضاء ويؤكدون أن الوظيفة الأخلاقية لا الوظيفة العلمية ، هي الهدف الأساسي من النصوص الدينية .

وهناك فريق آخر ، من أنصار التراث أيضاً ، يرفض هذه المحاولة ذاتها لأسباب أخرى ، هي تهوينه من شأن العلم بوجه عام . ففي رأي هذا الفريق أن العقل البشري بأسره قاصر ، والعلم الذي يمكن أن يكتسبه الانسان ، مهما ارتفع ، انما هو ضرب من الوهم أو الخداع ، ولا بد أن يدرك الانسان أن مايصل اليه من علم سيظل على الدوام محدوداً ، وسيعود عليه في نهاية الامر بأضرار وخيمة . مثل هذا الموقف المعادي للعلم ، لن يقبل تفسير النصوص الدينية على أنها ذات وظيفة علمية تعليمية ، أو على أنها تتضمن أهم ماتوصل اليه الانسان من الكشوف والمخترعات ، لسبب بسيط هو أن مجـال العلم بأكمله ثانوي الاهمية في نظره .

ومعنى ذلك أن معسكر أنصار التراث لايجتمع رأيه على استخلاص العلم كله، قديمه

وحديثه ، من الآيات القرآنية ، بل ان داخل هذا المعسكر انقساماً أساسياً في هذا الصدد وفيه أكثر من فريق يصف أصحابه هذه المحاولة اما بأنها جهد ضائع وراء هدف عقيم ، وأما بأنها نفاق يدعو الى السخرية .

على أن التفنيد الذي ربما كان أكثر حسماً من هذا أو ذاك ، هو أن هذه المحاولة ، حتى لو صحت ، تخفق في تحقيق أي هدف . ذلك لان القصد منها هو اثبات ان النصوص القرآنية تحتوي على كل علم ، وعلى كل نظرية جديدة تكتشف ، وبالتالي ان دراسة هذه النصوص توصلنا ، وحدها ، الى كل ماتريد من علم ومعرفة . والمشكلة التي يؤدي اليها هذا الموقف هي أننا ، حتى لو افترضنا جدلاً صحة كل مايقال في هذا الصدد ، لا بد أن ننتظر أولاً حتى نكتشف النظرية العلمية بالجهد البشري ، ثم نهتدي اليها بعد ذلك في النص الديني . فالذرة لم يتبين وجودها في القرآن الا بعد أن كانت قد اكتشفت قوانينها فعلاً على أيدي رذر فورد وطومسون ونيلز بورو وغيرهم . وقل هذا عن كل كشف علمي يقال ان أصوله موجودة في الآيات القرآنية . ولا شك ان حجة انصار التراث ، في هذا الصدد ، كان من الممكن أن تصبح فعالة بحق ، لو كانت هناك حالات أمكن فيها التوصل الى كشف علمي عن طريق دراسة الآيات ورد فيها هذا الكشف فحسب . ولكن لما كان من المستحيل الاتيان بحالة واحدة كان فيها النص الديني مصدراً لنظرية جديدة في العلم ، فان الهدف الذي يرمي اليه أنصار هذا الرأي يفقد كل مبرر له .

وهكذا فان عشرات الكتب التي يحاول أصحابها أن يثبتوا وجود العلم كله — سواء ما اكتشف منه وما سيكتشف فيما بعد — في النصوص الدينية ، انما هي جهد ضائع يبذل في سبيل هدف محكوم عليه منذ البداية بالاخفاق . وفي هذه الحالة يكون رأي ذلك الفريق من أنصار التراث ، الذي يرى أن النص الديني لايستهدف سوى هداية البشر لاتعليمهم أساسيات الطبيعة أو البيولوجيا أو الكيمياء ، أحكم بكثير من رأي أولئك الذين يتوهمون أنهم يجلون من قدر النص الديني اذ يضعون فيه كل علوم البشر ، ثم يتبين لهم أن حجتهم تهدم نفسها بنفسها ، لأنها حتى لو صدقت فستظل كل نظرية جديدة تكتشف بالاساليب البشرية المألوفة ، وان نهتدي اليها في النص الديني إلا بعد أن تكون قد اكتشفت بالفعل .

٢ـ وثمة فئة أخرى لاتحاول أن ترد علم البشر — ما كان منه وما سيكون — الى نصوص دينية ، وانما ترى في التراث العلمي والفكري العربي ، في عصر نهضته الكبرى ، أصلاً لعدد كبير من المكتشفات الحديثة ، وتجد ذلك التراث بوصفه منبعـاً للحكمة

والمعرفة لم تعرف البشرية له نظيراً . ولا جدال في أن موقف هذه الفئة أقوى من موقف الفئة السابقة ، لأن هناك بالفعل سنداً قوياً من التاريخ للرأي الذي ينادي بتمجيد الفكر والعلم العربي القديم . ولهذا فاننا لانجد مايدعونا الى أن نؤكد مرة أخرى أن العصور الوسطى العربية كانت ،على عكس العصور الوسطى الاوربية فترة ازدهار علمي وفكري، وان الدين الذي تدين به النهضة الاوربية الحديثة للعرب لم يعترف به حق الآن اعترافاً كافياً ، بالرغم من كل ما كتب عنه .

على أن الامر الذي يضعف موقف هذه الفئة ليس المبدأ العام الذي ترتكز عليه ، وانما المبالغة المسرفة في تأكيد هذا المبدأ ، والسعي الى الخروج بهذا التراث الجيد عن اطاره التاريخي ، واضفاء نوع من الصحة المطلقة التي تسري على كل زمان ، على انجازاته التي كانت في وقتها شيئاً رائعاً بحق . (وفي هذا النزوع الى صبغ التراث العلمي والفكري بصبغة المطلق ، مايقرب بين هذه الفئة وسابقتها على نحو لايحتاج الى مزيد من البيان) .

فليس من الأمور غير المألوفة أن نجد بعض كتابنا يحاولون اثبات أن أحدث النظريات العلمية كانت موجودة لدى العرب . ولقد استمعت بنفسي الى واحد من كبار المتخصصين يؤكد أن نظرية النسبية قد عرفت أيام العرب (وأظن أنه حدد البيروني بوصفه مصدراً لهذه النظرية) . كما أن هنالك كثيرين غيره لايكتفون ببيان أهمية الكشوف التي توصل اليها العلماء العرب في علم البصريات وغيرها من فروع الفيزياء وانما يصرون على الاهتداء الى أحدث النظريات العلمية في هذه الميادين لدى العرب القدماء . وعندما يجدون عالماً ومفكراً مثل ابن خلدون ، فانك تجد منهم من لايكتفي بسرد انجازات هذه الشخصية الفذة – وهي انجازات رائعة بجميع المقاييس العالمية – بل يسعون جاهدين الى استخلاص التطورات التالية في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ من كتاباته. وحين يتحدثون في ميدان الفلسفة ، فلا بد أن يؤكدوا أن الغزالي قد استبق هيوم في نقده لفكرة العلية ، وان ابن تيمية قلبه ، قبل المناطقة الرياضيين المعاصرين بقرون متعددة ، الى عيوب أساسية في المنطق الارسطي ..

هذه النظرة « اللاتاريخية » الى التراث ، ومحاولة قراءة التطورات التالية ، لا في الفكر العربي بل في الفكر الغربي ، بين سطوره ، من أوضح مظاهر التخلف الفكري في بلادنا ذلك لأنها ترفض النظر الى عصرنا من خلال منطقه الخاص ، وتحاول أن تفكر فيه بمنطق عصر أصبح في ذمة التاريخ ، مهما كان المجد الذي كان يتصف به عندئذ ، وهي ، في

انكارها للسياق التاريخي الذي ظهر فيه ذلك التراث ، ترتكب اخطاء فادحة حق في حق التراث ذاته . فمن المستحيل ، مثلاً ، أن تكون نظريات الفيزياء الحديثة قدظهرت في العصور الوسطى العربية لان ظهورها في العصر الحديث كان مرتبطا بتطورات طويلة لم يكن لها نظير في أي عصر سابق . أما النقد الفلسفي عند الغزالي وعند ابن تيمية فكان في الحالتين يهدف آخر الامر الى ابطال حجج الفلاسفة والمنطق الذي يرتكزون عليه من أجل افساح الطريق للايمان ، وللتدخل الالهي المستمر في العالم ، أي أنه كان داخلا في اطار فكري يختلف اختلافاً حاسماً عن ذلك الذي كانت تنتمي اليه أفكار هيوم أو المناطقة الرياضيين المحدثين .

على أن التفنيد الحاسم لهذا الموقف (بدوره) انما يكمن في كونه يؤدي الى عكس الهدف المقصود منه . فغاية هـذا التمجيد ، الذي نرجع فيه الى علمائنا ومفكرينا من العرب فضل التوصل الى عدد كبير من النظريات والافكار الحـديثة ، هو أن نثبت ان العرب قد استبقوا علمـاء ومفكرين غربيين ، وانهم كانوا أصحاب فضل عليهم . ولكن حقيقة الامر أن هذه الغاية تنقلب الى تمجيد ضمني للفكر والعلم الغربي على حساب العرب: ذلك لانها تتخذ من نواتج الثقافة الغربية مقياساً وتحـدد مكانة المفكر العربي تبعاً لمدى اقترابه أو ابتعاده عن هذا المفكر الغربي أو ذاك . فاذا كان العالم العربي قد استبق اينشتين واذا كان المفكر العربي قد استبق كونت أو هيوم ، فلا بد أن كان عظيماً لهذا السبب ذاته . وهكذا يصبح معيار العظمة هنا هو الوصول الى مـا أنجزه الغرب . وفي هذا تمجيد ضمني للحضارة الغربية لا يحلم بـه الغربيون أنفسهم . ولو كان لدينا ايمان حقيقي بما أنجزه علماؤنا ومفكرونا ، لاقنعنا الانسانية بفضلهم عليها من حيث هم فحسب ، لا من حيث انهم سبقوا أفكار هذا العالم أو ذاك المفكر الغربي .

ولكي تكتمل لدينا الصورة ، يكفينا ان نسأل أنفسنا : هل حدث ذات يوم ان مجد الغربيون أحد رجـالهم لانه توصل — قبل هؤلاء العلماء أو المفكرين العرب — الى رأي من آرائهم ، أو لانه استطاع ان يتوسع فيه ويفصله بعدهم ؟ هنا يكمن الفرق بين الثقافة التي تمجد نفسها بثقة ، وتلك التي تمجد نفسها عن طريق الاصرار على مقارنة نفسها بالآخرين وربط نفسها بعجلتهم . ومن المؤكد ان هـذه المقارنة الدائمـة واتخاذ انجازات الغربيين مقياساً لمدى اصالتنا ، تؤدي آخر الأمر الى تثبيت قيمة الثقـافة الغربية على نحو مطلق ، أما قيمة ثقافتنا فـلا تتأكد الا بقدر ما تنتسب بصورة أو

بأخرى الى تلك الثقافة وهذا ما كنت أعنيه حين قلت ان هذا التمجيد اللاتاريخي يؤدي الى عكس الهدف المقصود منه .

واذن فالخطأ لا يكمن في مجرد تمجيد التراث ، وانما يكمن في طريقة التمجيد ذاتها، فهو يقارن دائماً بما أنجزه الغرب ، وكأن الشكل الوحيد الممكن للتقدم الثقافي هو ذلك التي يوجد في الحضارة الغربية . كما ان التراث يصور كما لو كان قوة حية قادرة على حل جميع مشكلات العصر الحاضر . بل ان المتحمسين يذهبون الى حد القول ان أية هزيمة تلحق بنا ، حتى في الميدان العسكري ، لا بد أن تكون مرتبطة ، بصورة أو بأخرى ، بموقفنا من هذا التراث : فالتجاهل المزعوم لجذورنا ، ومنها الجذور الدينية ، هو في رأي الكثيرين السبب الحقيقي لهزيمة ١٩٦٧ ، وموقفنا من الماضي هو الذي أدى الى تلك الكارثة ، على حين أن الاداء الافضل الذي قمنا به في عام ١٩٧٣ انما يرجع – في نظر هؤلاء – الى أننا ازددنا اقتراباً من هذهالجذور بعد ان تبينت لنا فداحة الاضرار التي نجمت عن انفصالنا عنها . وهكذا يخرج التراث خروجاً تاماً عن مهمته الاصلية ، وعن وظيفته المنطقية التي لا يصح ان يتعداها حتى بالنسبة الى أشد الناس تحمساً له ، ويصبح الماضي هو القادر على تخليصنا من مشاكل الحاضر ، ويظل الفكر « متخلفاً » ، راجعاً الى الوراء وناظراً الى الخلف وتصبح المواجهة المباشرة للحاضر أمراً مستحيل التحقيق في ظل هذه النظرة « التراجعية اللاتاريخية » .

وبعبارة أخرى ، فان هذا النمط من أنصار التراث يشوهون معنى الحاضر والماضي على حد سواء : اذ أن الماضي في نظرهم له وظيفة حرية فعالة ، يظل فيها محتفظاً بطابعه الخاص ، ولكنه يؤثر في الحاضر ويتحكم فيه بطريقة مضادة للتاريخ ، ومن جهة أخرى فان الحاضر يضيع منه حضوره وحيويته ، اذ ينظر الى عوامل النجاح والاخفاق فيه على أنها مرتبطة أساساً بموقفنا من الماضي ، ويفقد منطقهالخاص فعاليته لكي يحل محله منطق مستمد من عصر مغاير أساساً له . ومثل هذا المسلك ، الذي يؤدي الى موقف غير تاريخي ازاء الماضي والحاضر معاً ، لا يترتب عليه فقط اخفاق عملي في معالجة مشكلات اللحظة الراهنة ، بل يترتب عليه أيضاً اخفاق نظري ذريع في فهم وظيفة التراث وظلم فادح له ، يتم على أيدي أولئك الذين يتخذون أنفسهم أنصاراً له ، وتكون قوامه هي نفس عملية الدفاع والتبرير التي يظنون انهم يثبتون بها تمجيدهم للتراث .

السمة المميزة للتراث العربي :

لابد أن تكون التراث العربي سمة مميزة ، تضفي طابعها الخاص على جميع العوامل السابقة ، سواء منها تلك التي ينحاز لها انصار التراث أم خصومه ، وتنحرف بهذه العوامل في اتجاه خاص مميز للثقافة العربية على وجه التخصيص . فلماذا لم تؤد العناصر اللاعقلية ، التي احتشدت بها الثقافة الغربية زمناً طويلا ، أو سياسة اضطهاد الفكر الحر التي حفل بها التاريخ الغربي ، الى نتائج مماثلة لتلك التي أحدثتها هذه العوامل في العالم العربي ؟ ولماذا استطاع الغرب أن ينهض بالرغم من هذه العوامل السلبية ، بينما كانت نتيجتها الوحيدة في مجتمعنا هي استمرار التخلف ؟ وما الذي يضطر انصار التراث الى التمسك بنظريتهم التراجعية والبحث عن علم العصر كله في نص ديني أو كتاب كلاسيكي ؟ ما هي العلة الحقيقية لهذا التطلع المستمر الى الخلف الذي يرتبط — في المجال الفكري — بالتخلف ؟

هذه التساؤلات تتجاوز نطاق الانحياز للتراث أو العداء له ، وتنتمي في الواقع الى مجال التشخيص والتعليل ، لا الى مجال التقييم واتخاذ المواقف المؤيدة أو المعارضة . وليس من الممكن أن يوصف من يطرح هذه التساؤلات ويحاول تقديم اجابة عنها ، بأنه ينتمي الى معسكر انصار التراث أو خصومه ، بل هو أساساً شخص يريد أن يفهم ، ويتخذ موقف التحليل العلمي .

اننا نعتقد ان سمة « الانقطاع الحضاري » هي السمة المميزة للتراث الفكري والعلمي في بلادنا العربية ، وهي التي تصبغ بصبغتها الخاصة كل ما أشرنا اليه قبل الآن من عوامل ، وتؤدي بأنصار التراث وخصومه معاً الى اتخاذ مواقف غير سليمة ، وتجعلهم يتوقعون من التراث مالا ننتظر منه القيام به ، أو يحملون عليه لاسباب هو منها بريء . ولو شئنا أن نهتدي الى سبب رئيسي لتخلفنا الفكري ، لقلنا ان هذا السبب هو ان ماضينا وحاضرنا لايكونان خطاً متصلاً ، وان هذا الانقطاع هو الذي أدى الى تشويه نظرتنا الى الماضي والحاضر على السواء .

ان العلم والفكر العربي يتسم بفترة ازدهار وصل فيها الى أقصى درجات التقدم المتاحة في العصور الوسطى ،وكان العرب خلال هذه الفترة هم معلمو الانسانية وموجهوها بحق ، وكان مركز الثقل الحضاري في العالم هو البلاد الناطقة بالعربية ، من الخليج الى

جبال البرانس . ولكن هذه الفتوة اللامعة ما لبثت ان انطفأت ، ولم يحـدث استمرار واتصال لحركة التقدم ، وتوقف نمو العقل العربي عند مرحلة معينة ، كاد بعدها هـذا العقل أن يصبح منسيا . وفي عصر قريب ، قد يكون هو القرن العشرون أو التـاسع عشر على أحسن الفروض ، بدأت مرحلة النهوض من جديد ، وحـاولت أن تستعين بذلك العقل الذي كان مكتمل النمو في وقت ما ، ولم يدر بخلدها ان نمو الانسانية ككل كان قد تجاوز هذه المرحلة بكثير ، وان التخلف كان أعمق وأوسع مدى من أن يمكن تعويضه عن طريق استئناف السير من جديد ابتداء من النقطة التي توقفت عندها المسيرة قبل زمن طويل .

هذا الانقطاع الثقافي اذن امر واقع ، وليس هنا مجال لتعليله ولكن يكفينا أن نقرر حدوثه فحسب ، كظاهرة تاريخية لاسبيل الى انكارها، وحدوث هذا الانقطاع يعني أن العلم والفكر العربي لم يكونا تراثا متصلا ، استمر منذ فترة ازدهاره حتى وقتنـا الحـالي بلا توقف ، بل كانا فترة مضيئة أعقبها ظلام طويـل ، وقد ترتب على عدم استمرار هذه الفترة انه لم تتهيأ لها الفرصة لكي تندمج في عقل الشعب العربي وتصبح مبادئها جزءا من تكوين الانسـان الذهني في هذه المنطقة من العالم ، وانما ظل العلم والفكر منعزلين ، ومقتصرين على الصفوة المختارة .

وصحيـح أن كل علم وفكر رفيـع يبدأ على يد صفوة مختارة كهذه ، غير ان استمراره وتوطيده لمكانته يتيـح له الفرصة لكي يصبـح ، بالتدريـج ، مندمجـا في الذهن العادي ، داخلا في اطار العتاد العقلي الذي يحمله معه كل انسان. فنظرية كبرنيكوس كانت ، في عصر النهضة ، فرضا لايؤمن به الا قلة من العلماء ، ولكن استمرار التراث الكبرنيكي والجهود التي بذلت من أجل دعم هذا الفرض واثباته ، جعلتهـا تتحول بالتدريـج الى عنصر أساسي من عناصر المعلومات الثقافية في ذهن الانسان العادي . وقل مثل ذلك عن نظرية التطور ، وعن مبادىء التحليل النفسي ، وغير ذلك من الكشوف والتحليلات الهامة التي كانت في البداية وقفا على اذهان قليلة ، ثم ادى استمرار التراث العلمي واتصاله الى اندماجها ، بمضي الوقت ، في ثقافة الانسان غير المتخصص . أما في حالة التراث العربي ، فان العقلية العادية والسلوك اليومي للانسان العربي لم تكتسب شيئا من مبادئه ، ولم تصبـح جزءا من سلوكه مثلما نقول اليوم عن الفرنسي ان نظرته الى الامور ديكارتية . بل ان أشد الناس تحمسا للتراث العربي يقدمون دعواهم على أنهـا

اكتشاف لعناصر لايتوقع العقل العادي أن تكون قد وجدت يوماً ما في البيئة العربية، ولشخصيات لابد أن « تندهش » حين نعلم انها كانت تفكر بهذه الطريقة المستنيرة المتعمقة ، وهذه الدهشة في ذاتها دليل على أن تراث هذه الشخصيات لم يندمج فينا ، ولم يصبح جزءاً من تكويننا .

على أن الاخطر من ذلك ، في رأيي ، هو أن معنى التراث نفسه يصبح في حالة الانقطاع الثقافي ، محتاجاً الى مراجعة جذرية . ذلك لأن قيمة أي تراث علمي وفكري، نريد له ان يكون قوة حية ، انما تكمن في استمراره ، وفي كونه جزءاً من تاريخ متصل . فالامتداد الزماني المتصل مصدر أساسي لقوة تأثير التراث ، بل هو جزء لايتجزأ من معناه الحقيقي وليس معنى ذلك أن التراث العلمي والفكري يجب ان يسير في خط مستقيم أو يرسم خطاً بيانياً صاعداً ، فكلنا نعرف تلك النكسات المؤقتة والتعرجات والالتواءات التي تطرأ على مسار العلم والفكر في جميع الثقافات ، ولكن المهم في الامر ان يكون المسار في مجموعه سائراً بالرغم من حالات التراجع الجزئية المؤقتة ، في طريق صاعد متصل .

ويترتب على هذا المسار المستمر والمتصل للعلم والفكر ، أن تكون قيمة التراث الذي يمثله كامنة في تجاوزه . وهذه عبارة تبدو منطوية على مفارقة واضحة ، ولكن من اليسير فهم معنى هذه القيمة التي يكتسبها التراث عندما يفند إذا أدركنا ان التراث المتصل أشبه مايكون بالحياة في استمرارها عبر الاجيال المتعاقبة . فالكائن الحي يولد حياة أخرى تنطوي ، في آن واحد ، على معنى استمرار القديم من جهة ، وفنائه من جهة أخرى . وهذا الاستمرار من خلال الفناء هو الشكل الوحيد الذي تستطيع به الحياة أن تؤكد ذاتها . وقل مثل ذلك عن التراث : فهو — اذا كان متصلاً — يحيا من خلال عملية تفنيده وتجاوزه .

ولو نظرنا الى أي تراث قديم — علمي مثلاً — عبر مسافات زمنية طويلة لبدا لنا أن الحالة الجديدة للعلم منقطعة الصلة به تماماً . ولكن حقيقة الأمر هي أن هذه الحالة الجديدة لم تنشأ ، ولم تصبح ممكنة ، الا بفضل سلسلة من التطورات كان فيها القديم ذا تأثير في البداية ، ثم ضعف تأثيره بالتدريج نتيجة للنقد والتصحيح ، واستمرت عملية التصحيح والتجديد هذه حتى المرحلة التي يبدو فيها ان القديم لم يعد له أي أثر. والواقع انه موجود ، ولكن من خلال فنائه وتصحيحه ونقده ، موجود في الاجيال الجديدة

من النظريات والافكار التي ماكانت لتبعث الى الوجود لو لم تكن من سلالة هـذا الجـد البعيد . فنظرية كبرنيكوس موجودة لدى جاليليو بقوة ، وجاليليو كان له تأثـيره القوي في ديكارت وفي نيوتن ، ولكن مع مزيد من التعديل والتصحيح . ونيوتن كان هو القوة الدافعة للحركة العلمية التي استمرت طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والتي أدت في نهاية الأمر، وبعد سلسلة طويلة من التصحيحات والتعديلات ، الى انشتين في أوائل القرن العشرين . وخلال ذلك كله يوجد القديم في الجديد لا بمعنى ان الجـديد يعود الى القديم أو يـستلهم منه أفكاره ، ولكن بمعنى أن القـديم يتيح للجديد فرصة تجـاوزه وتصحيحه وتفنيده . ومن خـلال اخطاء القـديم تأتي القوة الدافعـة التي تولد الجديد .

اننا ، لو شئنا ان نلخص في كلمة واحـدة التضاد بين النظرة الى التراث التي تؤدي الى تقدم فكري ، وتلك التي لا يترتب عليها سوى التخلف ، لقلنا ان التراث في الاولى ، يحيا من خلال موته ، أما في الثانية فانه يموت من خلال حياته . في الأولى يكون التراث متصلاً ، لا يطرأ عليه انقطاع ، فتكون النتيجة أن كل مرحلة قديمة تمهد الطريق لمرحلة جديدة تعلو عليها ، وتستوعبها في ذاتها ولكن مـع تجاوزها وتفنيدهـا. فالتراث هنا غذاء لجسم حي ، هو جسم المعرفة النامي . ونمو هـذا الجسم لايتحقق الا عن طريق امتصاصه للغذاء ، الذي يفنى ويتلاشى بمعنى معين ، ولكنه يحيا ويـستمر بمعنى آخر وأهم داخل الجسم الحي . أما في الثانية ، حين يحدث انقطاع في التراث ، وحين تتم محاولة الاحياء دون ادراك لمقتضيات العصر الجديد الذي طرأ بعد الانقطاع الطويل ، فان في هذا الاحياء ذاته موتاً للتراث، لأنه يبعثه من جديد في غير وقته، ويزرعه — كالقلب الغريب — في جسمعصر لا بد أن يرفضه .

ومعنى ذلك أن الاحياء الحقيقي للتراث انما يكون عن طريق تجاوزه واتخـاذه سلماً لمزيد من الصعود . اما احياء الاسترجاع فهو في حقيقته قضاء على التراث ، الذي لايريد منا أن نختزنه ، كالثروة المدفونة التي لاينتفع منها أحد ، بل يريد منا ان نستثمره وننفقه ، حتى يعود علينا انفاقه بالخير . وحين يدوم اختزان هذه الثروة اطول ممـا ينبغي فلا بد ان تصبح العملة التي تتألف منها هذه الثروة غير متداولة ، وغير قابلة لان ينتفع منها احد .

درس النهضة الاوربية :

ولو فكرنا ملياً في علاقتنا الراهنة بالتراث العلمي والفكري العربي لتبين لنا ان موقفنا منه موقف الاختزان ، لا الانتفاع والاستثمار . اما الذين انتفعوا حقاً من هـذا التراث فهم الاوربيون ، الذين افادوا من جهود العرب في الميادين الفلسفية والفكرية والعلمية خلال الحقبة الاخيرة من العصور الوسطى ، وامتصها جسم المعرفة عندهم فنا بفضلها نمواً هائلاً في عصر النهضة ، واستمر النمو منذ ذلك الحين بلا انقطاع . صحيح ان من الصعب ان نتعرف ، في الحضارة الاوربية الحالية ، على تراثنا هذا تعرفاً مباشراً ، ولكن هذا شأن الحياة الحقيقية للتراث ، فمع أنك لاتستطيـــع في أغلب الاحيان ان تتعرف في وجهك الحالي على صورة جدك العاشر (ان كنت تحتفظ بصورة كهذه) فان هذا لايمنعك من أن تؤكد أنه هو الاصل القديم لوجودك . لذلك فان المقدمات التي بنيت عليها هذا البحث تؤدي الى نتيجة لامفر منها ، هي أن الحضارة الاوربية هي التي حفظت التراث العربي وصانته بالطريقةالصحيحة ، أعني أنها صانته عن طريق تجاوزه وتصحيحه وتفنيده ، وضمنت له من خلال موته حياة مستمرة .

ولنقارن بين ماحدث للتراث المستمر ، وما حدث للتراث المنقطع في اوربا ففي عصر النهضة كان امام الاوربيين تياران يمكن نظرياً الاستعانة بهما في احياء العلم ، أحدهما هو التيار اليوناني ، والآخر هو العربي . وعلى قدر ما انتفع الاوربيين بالتيار الاخـير (وهو انتفاع يتسع نطاق الاعتراف به حتى بين أشد المؤرخين الاوربيين اغراقاً في تمجيد حضارتهم الخاصة) ، فقد رفضوا التيار الاول . وحين أقول انهم رفضوه فأنا لا أعني أنهم ظلوا يرفضونه دائماً ، أو أنهم رفضوه في جميع المجالات . فمن المؤكد أنهم عادوا الى التراث اليوناني والروماني في مجال الفنون والآداب ، ولكنهم في مجال التفكير العلمي والفلسفي رفضوه رفضاً قاطعاً . فقد كان أول ماحرص عليه كبار فلاسفة الفترة الاولى من العصر الحديث (حين كان الفلاسفة علماء أو موجهين لتيار المعرفة بوجه عام) هو توجيه أقسى الانتقادات الى العلم اليوناني ، والى سلطة أرسطو على وجه التخصيص . ولست بحاجة الى ان اشير الى تلك النصوص المشهورة التي دعا فيها بيكن وديـكارت الى الخلاص من سلطة القدماء ، واتخاذ الفكر الواضح ، أو المشاهدة والتجربة الواضحـــة معياراً اوحد لقبول الفكرة والاعتراف بصحتها .

ان من واجبنا في العالم العربي ان ندرس هذا الموقف بامعان ، لكي نعرف كيف

انتقلت اوروبا من مرحلة تخلف طويلة الى اول الطريق الذي اوصلها الى ماهي فيه الآن من تقدم ، ولكي تتضح امام اعيننا العوامل التي جعلت الغربيين يتقدمون علينا الى حد هائل ، مع ان نقطة بدايتهم - في ذلك العصر - كانت اضعف بكثير مما كنا قد وصلنا اليه قبلهم بقرون عدة .

وأول ما نستخلصه من هذه الدراسة هو أن الاوروبيين لم يخجلوا من اعلان رفضهم القاطع لتراث كامل ينتمي الى صميم ثقافتهم ، وتمتد اليه جذورها . فقد كان الفلاسفة في هذه الفترة يقفون من تراث الفكر الارسطي الذي سيطر على العصور الوسطى سيطرة كاملة ، موقف التحدي الصحيح ، الذي وصل الى حـد الغبن والتجني . ذلك لانهم حملوا أرسطو جميع أوزار التـأويلات والتشويهات الفاسدة التي صبغت بها آراؤه في العصور الوسطى ، وهاجموا فكره وعلمه على أساس ما لحق به بعـد ذلك من تطورات لم يكن أرسطو ذاته مسؤولا عنها ، ولم يكن ايقبلها على الاطلاق لو قدر له أن يعرف شيئاً عنها . وكانت نقطة بداية العلماء — من أمثال جاليليو — هي ضرورة تحرير الفكر من سلطة القدماء ، والتوجه الى الطبيعة مباشرة ، بدلا من كتب التراث ، من أجل فهم العالم وقوانينه . ولم يكن في موقف الرفض القاطع هذا ما يعيبهم ، بل لقد أصبح هذا الموقف هو أساس مجدهم وهو الذي وضعهم على قمة الفكر والعلم في عصرهم .

ولو بحثنا عن العامل الذي جعل الفكر والعلم الاوروبي يرفض تراثه القديم على هذا النحو القاطع ، الذي وصل — كما قلنا — الى حد القسوة لوجدنا ان هذا العامل كان في حقيقته انقطاع التراث . فالفكر والعلم القديم كان في عصره شيئاً هائلا بحق ، وكان مصدر امجاد للامة التي ظهر فيها مازال العالم يعترف لها بهـا حتى اليوم . ولكن تجمد هذا التراث في العصور الوسطى الاوروبية ، ووقوفه عند حدوده القديمة ، أو حتى تراجعه عنها ، وعدم قدرته على تطوير ذاته في حركة متصلة يعمل فيها القديم على استيعـاب القديم ، في داخله مع تجـاوزه على الدوام ، كل ذلك كان من المحتم أن يؤدي باقطاب الفكر والعلم في عصر النهضة واوائل العصر الحديث الى أن يشنوا حملة ضارية ضد التراث ، ويتصوروا أن التقدم الحقيقي لن يتحقق الا عن طريق رفع شعار « البدء من جديد » في جميع المجالات ، ولم يمنع ذلك ، بطبيعة الحال ، من أن يتخذ الاوروبيون فيما بعـد موقفاً متوازناً من التراث القديم حين وضعوه في اطاره التاريخي ، ولم يعودوا ينظرون اليه على أنه قوة تنافس الحاضر ، فعندئذ ، حين بدأ الحاضر الاوروبي يمتلىء بمضمون

غني ، لم يعد هناك ما يخجل في الاعتراف بقيمة التراث الكلاسيكي وفي تمجيده، بوصفه قوة كانت لها قيمتها الكبرى في عصرها ، وان تكن التطورات التالية قد تجاوزتهـا الى حد لامتناه . ولنقل بعبارة اخرى ان النظرة التاريخية الى التراث تؤدي الى ازالة كل تناقض بين تمجيد التراث والاعتراف بتخلفه . فهو يمجد لانه كان شيئاً رفيعاً في عصره على حين أن تخلفه يظهر واضحاً اذا ما قورن بالاوضاع التي تجاوزته في العصر الحاضر .

وهكذا نستخلص من استيعاب درس النهضة الاوربية وموقفهـا من التراث حقيقتين على أعظم جانب من الأهمية .

الاولى هي أن من الممكن أن تقوم نهضة علمية وفكرية رفيعة المستوى في مراحلها الاولى ، على أساس الرفض الحاسم للتراث ، وذلك حين يكون هناك انقطاع في التراث يمنع من استمراره في خط متصل حتى الحاضر . وعندئذ لا بد أن ترفع النهضة شعار « البدء من جديد » كعلامة على تحدي التراث .

والثانية هي أن التطور والتقدم المستمر في المعرفة يساعد على الوصول الى نظرة تاريخية الى التراث ، يختفي فيها التناقض بين تمجيده والاعتراف بتخلفه .

الصلة بين التخلف والاغتراب :

ان المقارنة بين موقف الاوربيين من تراثهم ، بل من تراثنا نحن أيضاً، وموقف الثقافة العربية من هـذا التراث ، تكشف لنا عن مصدر أساسي من مصادر تخلفنا الفكري . وهذا التخلف يتخذ في العصر الحـاضر ، شكل الاغتراب والتمزق ، الذي لا يمهد لانطلاقة جديدة الى الامـام ، بل يعبر عن حالة من العجز عن مواجهـة العصر والعجز عن نسيانه في الآن نفسه . فالعقـل العربي ، في المرحلة الراهنة من تاريخه ، مغترب بصورة مزدوجة ، وهو لا يتلقى هـذا الاغتراب من الخارج ، أو من قوة تفرضه عليه ، بل انه هو الذي يفرضه على ذاته باصرار وعناد ، فتكون النتيجـة الوحيدة لذلك هي بقاؤه حيث هو ، على حين أن العالم من حوله يجري بسرعة مذهلة لكي يحتل في كل يوم مواقع جديدة ، يغزوها العقل السليم .

ولقد ألفنا ان يحدثنا الكتاب في بلادنا عن ذلك الاغتراب « المكاني » الذي يتمثل لدى المتعلقين بثقـافة بلاد غير بلادهم وهم أولئك الذين تجـدهم حولك أينما ذهبت : يكلون ما يعجزون عن التعبير عنه بكلمات أجنبية ، ويقتبسون من بلاد بعيدة أسلوب

حياتهم اليومية ، وشكل ملبسهم وربما طريقة ايماءاتهم واشاراتهم. هؤلاء الناس مغتربون مكانياً لان جسمهم في أوطانهم وعقلهم في أوطان أخرى نائية . وربما كان كل مثقف متعلق بالفكر الغربي – بمعنى ما – من هؤلاء المغتربين « مكانياً » ، ومن ثم فهو هدف للحملات التي يشيع توجيهها ضد « الغزو الحضاري » والثقافات المستوردة التي تهدد أصالتنا بأفدح الخطر .

غير أن أصحاب هذه الحملات هم أنفسهم مغتربون بمعنى أخطر ، لأنه أشد خفاء. ذلك لأن التعصب المتحمس للتراث يغترب عن عصره ، وعن حاضره ويتعلق بعصر تفصله عنه أبعاد زمانية كبيرة . ومثل هذا الاغتراب الزماني أمر لامفر منه بالنسبة الى كل من يلتمس في التراث اجابات كاملة عن الاسئلة التي يثيرها العصر الحاضر : فهو مفروض على ذلك الذي يبحث في التراث اللغوي عن كل ألفاظ العصر المستحدثة ، ويعتقد ان عجزنا اللغوي انما يرجع الى عدم قدرتنا على التنقيب عن كنز الالفاظ والتعبيرات التي كانت تعبر عن كل مانريده من معان في التراث اللغوي ، وهو مفروض على من يلتمس في حكمة الاقدمين حلاً لكل مشكلات العصر الاخلاقية ، وعلى من يجد في سلوك القدماء في المعارك مرشداً وموجهاً في الحرب الحديثة ، الى آخر هذه الامثلة التي يحفل بها عالم الفكر في بلادنا العربية . مثل هذه الانماط الفكرية – وهي كثيرة – لابد أن تكون مغتربة ، حتى لو تنكرت للعصر الذي تعيش فيه ، وسعت إلى قطع روابطها به ، وظل فكرها وقلبها مرتبطاً بالعصر القديم الذي تتركز فيه كل آمالها . ذلك لأن الحاضر يفرض نفسه على المرء مهما حاول ان يهرب منه : انه حولك اينما ذهبت ، ومهما دفنت رأسك في رمال الصحراء أو في رمال البيداء . ولا بد أن يظهر الاغتراب في حياة هؤلاء المتنكرين للعصر على شكل عجز عن فهم مايدور فيه أو عدم قدرة على السلوك السوي ، او تمسك بمعادلات لاتلقى من الاخرين إلا السخرية ، أو – على أحسن الفروض – احساس طاغ بان كل شيء في العصر الحاضر خطأ ، وبأن الأيام الطيبة قد ولت الى غير رجعة ، وبأن المرء قد كتب عليه ان يعيش في عصر ويتعلق بعصر آخر . وهذا من أجلى صورها .

ان المأساة التي تنطوي عليها هذه الازمة هي أن اصحاب هذا الاتجاه يبحثون عن الانتماء ، ويفتشون عن جذورهم العميقة ، ولكنهم يزدادون اغتراباً كلما توهموا انهم وعوا روابطهم بهذه الجذور . لأن ذلك الاغتراب الزمني قد يكون أخطر من الاغتراب المكاني . فصحيح ان من يرتبط الى حد مفرط بثقافة معاصرة تنتمي الى مجتمع غريب

عن مجتمعه هو – الى هذا الحد – شخص مغترب ولكن الا يؤدي بعد الشقة في الزمان الى اغتراب اخطر ؟ الا يمكن ان تكون ثقافة المجتمع الذي ننتمي اليه غريبة عنا اذا كان يفصلها عنا بعد زمني وحضاري هائل ؟ وهل نستطيع ان نقول بصدق اننا منتمون حين نتعلق بثقافة هي حقاً منتمية الى مجتمعنا ، ولكنها ظهرت في عصر تختلف جميع مقوماته عن عصرنا الى حد اننا لانستطيع ان نتعرف على أي منها في حياتنا الراهنة ؟ الا تزداد وطأة هذا النوع من الاغتراب في عصرنا الحاضر بالذات ، حيث اصبح الجيل الجديد منفصلاً عن الجيل السابق عليه مباشرة « بفجوة » أصبحت موضوعاً للدراسات ومثيرة للازمات .

ان المكان في عصرنا ينكمش . والعالم يتجه الى التقارب الفكري وتكوين ثقافة ذات طابع عالمي تقوم فيها التكنولوجيا الحديثة بمهمة تخفيف الحواجز بين الثقافات المحلية، وفي مقابل ذلك تحدث في الزمان حالة عكسية : فهو يزداد امتداداً الى حد أن الفارق بين جيلين متعاقبين قد يزيد الآن عن الفارق بين عشرة اجيال في القرون الماضية وفي مثل هذا العصر الذي تزداد فيه المسافات الزمانية اتساعاً وتزداد فيه المسافات المكانية ضيقاً ، قد تكون العودة الى ثقافة سحيقة القدم مؤدية الى اغتراب أشد من ذلك الذي يؤدي اليه التعلق بثقافة بعيدة مكانياً . وبطبيعة الحال فان المغتربين زمانياً ينكرون ذلك عن طريق نظرة معينة الى الزمان . يؤكدون فيها ان التغير وهم، وأن الزمن لم يتقدم ، وأن التطور خداع ، أي أنهم يعزون أنفسهم بنظرة سكونية الى الزمان . ولكن التسارع المتزايد للتغير يثبت انهم ، في هذا أيضاً انما يخدعون أنفسهم .

خاتمة :

تبدو النغمة التي نختم بها هذا البحث نغمة حزينة ، اذ يتضح منها ان من ينكر التراث مغترب ، ومن يتمسك به مغترب ، ويبدو – تبعاً لذلك – ان القصور والعجز الفكري أمر مكتوب على الجميع .

على أن هدفنا – كما قلنا في مستهل هذا البحث – ليس حل اشكال التخلف الفكري بقدر ماهو القاء ضوء جديد على بعض المفاهيم الاساسية التي يشيع استخدامها عند معالجة موضوع التخلف . ومن المؤكد ان تصحيح هذه المفاهيم ، أو على الأقل كشف أوجه القصور والخطأ في استخداماتها الجارية هو أمر له فائدته الايجابية ، لأنه يمثل

الخطوة الاولى في الطريق السليم ونحن لانطمع في أن نحقق أكثر من هذه الخطوة الاولى، أما بقية الخطوات فانها رسالة جيل كامل ، ومجتمع بأمره ، اذا توافر شرطا الاقتناع والارادة .

وتحقيقاً لهذا الهدف ، نود أن نختم هذا البحث بعرض لأهم المفاهيم والافكار التي يمكن أن يؤدي هذا البحث الى تغييرها ، وهو عرض لايقتصر على تلخيص ماجاء من قبل في البحث ، بل انه يستخلص بعض النتائج التي تؤدي اليها المقدمات المعروضة في البحث ، والتي لاتظهر في هذه المقدمات الا بصورة ضمنية .

أولا : أن معنى التراث ذاته في ثقافتنا المعاصرة يحتاج الى مراجعة أساسية ، ذلك لأن التراث الحقيقي هو الذي يندمج في التاريخ اللاحق ويصبح جزءاً لايتجزأ منه . أما التراث المنقطع ، وغير المندمج ، فربما لم يكن يستحق هذا الاسم . وما دامت كثير من مبادىء هذا التراث ومقوماته لم تصبح (لأسباب متعددة) جزءاً من تكوين العقل العربي (بالمعنى الذي أصبحت فيه مبادىء بيكن وهيوم جزءاً من العقلية الانجليزية، أو مبادىء ديكارت جزءاً من العقلية الفرنسية) فان شرطاً اساسياً من شروط «التراث» لايتوافر فيها .

ثانياً : يترتب على ذلك ان فكرة « احياء » التراث لها عندنا موقع فريد ومعنى غير مألوف . ذلك لأن التراث ، بالمعنى الحقيقي، أعني التراث « المندمج » لا يحتاج الى احياء ، لأنه حي بطبيعته ، حي في تجاوز التطورات التالية له وتصحيحها اياه ، بل في تفنيدها له أما الاحياء الذي ندعو اليه فهو بعث للماضي بطريقة لا تاريخية ، وإعادة كشف له بعد طول انقطاع في عصر مختلف، مع توقع قيامه بوظيفة لايستطيع التراث الحقيقي أن يقوم بها على الاطلاق ، وهي حل مشكلات الحاضر .

ثالثاً : وإذن فالمشكلة الحقيقية التي جعلت من نظرتنا الى التراث عاملاً رئيسياً في تخلفنا الفكري ، ليست كون هذا التراث مليئاً بالعناصر الغريبية أو الخرافية أو اللا عقلية (مع اعترافنا بالخطورة الشديدة لهذه العناصر) ، بل في كون هذا التراث منافساً للحاضر بطريقة « لا تاريخية » والوضع الصحيح هو ألا تكون هناك أية منافسة بين الماضي والحاضر ، لأن الحاضر يضم الماضي في داخله ويتفوق عليه بنفس المعنى الذي تتفوق به الأجيال الجديدة على الأجيال القديمة دون منافسة بينها . فالمفاضلة بين

الماضي والحاضر أمر لا معنى له ، اذا كانت النظرة الى التراث الفكري سليمة وصحيحة، على حين أن هذه المفاضلة تشغل قدراً هائلا من خلافاتنا الفكرية وصراعاتنا الايديولوجية .

رابعاً : ومعنى ذلك ان التشخيص الذي نقدمه لظاهرة التخلف الفكري يتخلص من التضاد بين انصار التراث وخصومه ، ويتجنب اخطاء الفريقين المستمرة ، من لوم التراث بلا تحفظ ، أو امتداح له الى حد اطالة فعاليته حتى العصر الحاضر ، لان هذا التشخيص يضع التراث في اطاره التاريخي ، ويؤكد الفارق النوعي بينه وبين الحاضر اي استحالة المقارنة بينها . وهكذا يتيح لنا هذا التحديد للمفاهيم ان نتجنب الوقوع في شراك المعركة التي لا تنتهي بين أنصار الماضي وخصومه ، والتي يرى فيها كل فريق ما يريد ان يراه في التراث في ضوء فهمه للحاضر ولطريقة السلوك فيه .

خامساً : من هذه النقطة الاخيرة يتبين لنا أن الصراعات الحقيقية حول التراث هي في الواقع صراعات حول الحاضر ، فاذا كنت ترى في التراث ما يؤيد الفكر الاشتراكي مثلا ، أو كنت ترى فيه ما يؤيد الحكم الثيوقراطي المبني على سلطة الدين وحدها ، فان الخلاف بين هذا وذاك لا يرجع الى موقفين متعلقين بطريقة فهم التراث ، بقدر ما يرجع الى موقفين متعلقين بالحاضر ، يتم اسقاطهما على التراث .

سادساً : ومعنى ذلك ان مشكلة التراث ترتد في حقيقتها ، الى ما فعلناه نحن به، وطريقة تناول العصور التالية له ، وموقفها منه ، فاذا كانت تختزنه بطريقة سلبية دون انتفاع ودون تداول ، فانها تعبر بذلك عن عجزها هي ، لا عن عجز التراث في ذاته ولذلك فان تخلف التراث هو تخلفنا نحن ، وعيوبه هي عيوبنا .

سابعاً : ان اصلاح حاضرنا من خلال منطق العصر هو الاحياء الحقيقي للعناصر الجيدة والزاهية في تراثنا ، حتى لو لم يكن من الممكن التعرف على هذه العناصر في ثقافتنا الحالية . ولا بد أن يؤدي امتلاء الحاضر بالمعنى وبالمضمون والهدف الى نظرة أكثر ثقة ، واكثر موضوعية الى التراث . أما فراغ الحاضر وعجزه فهو الذي يؤدي الى تشويه فكرتنا عن الماضي ، اما بالمدح الزائد واما بالذم المفرط .

وبعد ، فان الكثيرين يدعون الى عصر نهضة ، مواز لعصر النهضة الاوربية في العالم العربي . وانا لست ضد هذا الرأي ، لأن كثيراً من الصراعات التي كانت تدور في

عصر النهضة الاوربية بين عقلية العصور الوسطى والعقلية البادئة في التحرر ، تدور في حياتنا المعاصرة ، كما يظهر فيها ذلك التعايش غير المستقر ، وغير المريح ، بين هاتين العقليتين وكل ما أود أن أقوله هو أن عصر النهضة العربية ، حين يحدث في الثلث الاخير من القرن العشرين، لابد أن يكون مختلفاً بصورة جذرية عن نهضة تحدث في القرن السادس عشر . كما أن سلوك أولئك الذين يجدون أمامهم أمثلة سابقة شقت الطريق أمام العالم ، ينبغي أن يكون مختلفاً عن سلوك أولئك الذين كانوا رواداً أوائل لهذا الطريق ، والذين تحملوا وحدهم عبء التجربة الأولى وعانوا مشاكلها . ومع كل ذلك فقد كانت نظرتهم الى تراثهم ، في عصر نهضتهم ، نظرة ناضجة ، لا تخجل من الاعتراف بالاختلاف الجذري بينه وبين حاضرهم الجديد ، وكانت بذلك عاملاً حاسماً في القضاء السريع على تخلفهم الفكري . فهل نقبل نحن ان تكون نظرتنا الى التراث ، في عصر نهضتنا الحالي، أقل نضوجاً ، وأشد تخلفاً ؟

تعليق على بحث «التخلف الفكري وأبعاده الحضارية» الذي كتبه الدكتور فؤاد زكريا

الدكتور قسطنطين زريق

ان البحث الذي وضعه الدكتور فؤاد زكريا في موضوع «التخلف الفكري وأبعاده الحضارية» جدير بكل عناية وتدبر لانه يتناول مشكلة من أهم مشكلات الواقع العربي المعاصر، ويعالجها بتجرد ووعي واطلاع ونفاذ. ولما كان قد طلب مني أن أعلق على هذا البحث، فاني أورد الملاحظات التالية راجياً أن تأتي تتمة لجهده، وأن تسهم في استخلاص جوهر هذه المشكلة ورسم ابعادها، وفي توضيح بعض جوانبها، وفي اثارة النقاش وتركيز الحوار حولها، تحقيقاً للغرض الذي استهدفته الندوة الكريمة.

١ – يخيل الي أن الدكتور زكريا نظر الى موضوع « التخلف الفكري وابعاده الحضارية » من زاوية واحدة هي نظرتنا الى تراثنا . ففي رأيه أن هذه نظرة خاطئة في جوهرها لكونها « لاتاريخية »، وهي التي أدت الى تخلفنا الفكري الحاضر . هذه النظرة الخاطئة ، وأثرها الفريد في واقعنا الفكري ، هما محور البحث ومنطلق المواقف التي يتخذها الباحث . ففي الصفحة الاولى مثلا يقول : « ومن ثم فان تحليل عوامل التخلف الفكري العربي ينبغي أن يرتكز أساساً على بحث تلك الصلة الفريدة بين الماضي والحاضر في العقل العربي .. » ، وفي الصفحة التالية : « وسوف يكون جهدي خلال هذا البحث منصباً على اثبات أن الطريقة التي طرحت بها هذه المشكلة ، سواء من جانب انصار التراث أم خصومه ، لم تكن الطريقة الصحيحة وأن هذه النظرة الخطئة الى التراث ، والى ثقافتنا الماضية في صلتها بالحاضر من أهم اسباب التخلف الفكري، وعدما لاستقرار الحضاري في عالمنا العربي » . وفي ص ١٩ : « ان المقارنة بين موقف الاوروبيين من تراثهم ، بل من تراثنا نحن أيضاً وموقف الثقافة العربية من هذا التراث ، تكشف لنا عن مصدر أساسي من مصادر تخلفنا الفكري » . وفي ص ٢٢ : « فالمشكلة الحقيقية التي جعلت من نظرتنا الى التراث عاملاً رئيسياً في تخلفنا الفكري .. » .

فهذه النظرة هي اذن : «عامل رئيسي» في تخلفنا الفكري ، أو «مصدر أساسي» من مصادره ، أو سبب « من أهم اسبابه » ، وينبغي أن تكون أساساً لتحليل عوامله .

٢ – على أن الدكتور زكريا يقول : من جهة ثانية : ان هذه النظرة « اللاتاريخية » الخاطئة هي « من أوضح مظاهر التخلف الفكري في بلادنا » . وهنا لابد للمرء من أن يتساءل ، هل هذه النظرة « اللاتاريخية » الخاطئة ، التي أحسن الدكتور زكريا في ابرازها وتفصيلها ، عامل أو سبب أو مصدر (رئيسي أو هام) لتخلفنا الفكري ، أم هي مظهر من أوضح مظاهره ونحن نعلم جيداً أن كثيراً من الاحداث التاريخية والاوضاع الانسانية – ان لم نقل جميعها – هي بالوقت نفسه اسباب ومظاهر ونتائج . فتخلفنا التربوي مثلا هو علة من علل ضعفنا الاقتصادي ، ولكن هذا بدوره هو أيضاً علة لذلك . فالاسباب والمظاهر والنتائج تكون في أغلب الاحوال متشابكة متفاعلة ، ومن الصعب جداً فصل بعضها عن بعض ، ومن العسير عند تحليلنا لأي وضع من الأوضاع أن نميز بين « سببيته » من ناحية و « ظاهريته » من

ناحيـة اخرى . واني أرى ان الدكتور زكريا قد اقتصر أو كاد على الوجه « السبي » لنظرتنا الخاطئة الى التراث ، وجعلها مدار بحثه في تعليل تخلفنا الفكري ، ولم يشرالى وجهها « الظاهري » أو « المظهري » الا اشارة عارضة . اما أنا فأوافقه على أن هذه النظرة الخاطئة هي سبب من أسبـاب تخلفنا الفكري ، ولكني لا أرى لها ذلك الدور الرئيسي الذي يميزها به ، واعتبرها مظهراً ونتيجـة أكثر منها عاملا وسبباً . وبكلمة اخرى : اننا لسنا ، في الدرجة الاولى ، متخلفين فكرياً لاننا ننظر الى تراثنـا نظرة خاطئة ، وانما نحن ننظر هذه النظرة بسبب تخلفنا الفكري .

٣ — ومن هنا كنت أرجو ان تكون نظرة الدكتور زكريا الى الموضوع أوسع وأشمل ، أي ان تتناول مختلف عوامل تخلفنا الفكري ومظاهره ، لا أن يقتصر على العامل الذي يبرزه . وهو نفسه ينعت هذا العامل بأنه رئيسي أو أساسي أو هام ، ولكنه ، إذ يصب اهتمامه عليه ، يكاد يوحي بأنه العامل الرئيسي أو الاساسي أو الاهم ، ان لم نقل العامل الوحيد . أليس ثمة عوامل أخرى ، رئيسية أو غير رئيسية وما هي ثم ماهي مظاهر هذا التخلف الفكري ونتائجه ؟ اني اعترف ان الموضوع واسع غير محدد ، وقد يضل المرء في شعابه المتشابكة . ولا ضير على الباحث ان يقصر بحثه على جانب من جوانبه كالاسباب دون المظاهر أو المظاهر دون الاسباب ، او حتى على سبب معين أو مظهر محدود ، ولكن لابد له في هذه الحال من ان يضع موضوعه ضمن نطاقه الشامل. فملاحظتي العامة على بحث الدكتور زكريا هي اذن ملاحظة مزدوجة : فمن جهة ، ان تعليـله لتخلفنـا الفكري هو ، بالفعل ، تعليل واحدى في حين اني أجد الاحداث التاريخية أوسع وأشد تعقداً من ان تكون ناشئة عن عامل واحد مها يكن شأنه ، ومن جهة ثانية ان مايراه عاملاً أولياً وما كاد يجعله عاملاً وحيداً لتخلفنـا الفكري (أي نظرتنا الخاطئة الى التراث) أراه بمنظوري مظهراً ونتيجة بالدرجة الأولى وسبباً بالدرجة الثانية أو الثالثة .

٤ — ومن هنا فاني اعتقد أنه يجب ان نخرج من الوضع الذاتي للعقل العربي المعاصر في نظرته الى الماضي الى السياق الموضوعي لذلك الماضي . والحقيقـة الكبرى التي تواجهنا في ذلك السياق هو ما أشار اليه الدكتور زكريا عند كلامـه عن « الانقطاع الحضاري » . فالحضـارة العربية ، بعد ان نمت وزهت وأثمرت عدة قرون ، توقفت عن النمو والاثمـار ، وهذا التوقف ، كما هي الحـال في كل حضارة من

الحضارات ، هو بدء الانحلال والتخلف . وقد تختلف – حسب مفاهيمنا لمباحث الحضارة ومقوماتها ولتطوير مجرى التاريخ – في تعيين بدء هذا التوقف . ولكن لا مجـال للاختلاف في حقيقته وواقعه . فلا بد اذن من استكشاف أسبابه وتحليل عوامله لأن هذه الاسباب والعوامل هي التي أدت في نهاية الأمر الى تخلفنا الفكري الحاضر .وليسمح لي الدكتور زكريا ان أخالفه عندما يقول (ص ١٣ ، بدء الفقرة الثالثة) : « هـذا الانقطاع الثقافي اذن أمر واقع ، وليس هنا مجال تحليله ، ولكن يكفينا ان نقرر حدوثه فحسب » . ذلك اني اعتبر ان النظر في هذا الانقطاع ومحاولة تحليل عوامله يجب ان يكون مرتكز هذا البحث ومنطلق المعالجة ، لأن الانقطاع الحضاري ، أو التوقف الحضاري ، هو الذي أدى الى تخلفنا الفكري . فما هي اسبابه وعوامله لماذا توقفت الحضارة العربية عن النمو والانتاج والعطاء فتخلفت وورثنا نحن منها هـذا التخلف . وهنا لابد من اشارة عارضة ولكنها هامة . فقد بدأ الدكتور زكريا كلامه عن هـــذه الظاهرة أو السمة بتسميتها « الانقطاع الحضاري » ، ثم عادفجعلها « الانقطاع الثقافي » (ص ١٣ ، بدء الفقرتين الاولى والثالثة) . وحبذا لو التزم التسمية الاولى ، لأن الحضارة أوسع من الثقافة وأشمل ، بل انها تؤلف كيانا عضويا موحـداً يضم الى الاوضاع الثقافية الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعيـة وسواها . والثقافة ، مهما يعظم تقديرنا لها ، تبقى عنصراً من عناصر الحضارة أو وجهاً من وجوهها أو جزءاً من مضمونها .

نعود ، بعد هذه الملاحظة العارضة، الى تساؤلنا :لماذا انقطعت أو توقفت الحضارة العربية ، أكان ذلك لعجز العرب عن التغلب على عصبياتهم القبلية والعائلية والفردية والانصهار في ولاء أو رابطة أعظم واوسع ، أم للعنعنات والمنازعات الجنسية بينهم وبين سواهم من الشعوب التي انخرطت تحت راية الاسلام أم لأن بعض هذه الشعوب لم تكن لها سابقة في الحضارة ، فلم تسهم في الانجاز الحضاري الاسلامي، بل على العكس عطلته وشلت حيويته عندما تسلمت زمام الحكم والسيطرة ، ام لان العرب بعد فتوحاتهم الباهرة اخذوا يفقدون روح المبادرة والاقدام وينصرفون الى التلهي والتنعم ، ام لان الانجاز الحضاري العربي ذاته – على عظمته – كانت تعتريه نواقص جوهرية هي التي ادت آخر الامر الى توقفه وانقطاعه ، ام لان هذا الانقطاع هو سنة التاريخ وسبيل كل حضارة من الحضارات، فكل حضارة تولد وتنمو وتزدهر ثم لابد لها من ان تفسد وتنحل ، ام لاجتماع بعض العوامل او كلها ، ام لعوامل اخرى غيرها. اقول ان تحري هذه العوامل الموضوعيـة

لتوقف الحضارة العربية او إنقطاعها ضروري لفهـم تخلفنا الفكري الحاضر ، الذي هو وليد هذا التوقف او الانقطاع، وضروري كذلك لمعالجة التخلف المذكور ومحاولة الخروج منه الى الحيوية الفكرية والتقدم الحضاري .

ه – وما دمنا في مجال الكلام عن هذا الانقطاع ، يجدر بنا ان نثير تساؤلاً آخر. أصحيح ، كما قال الدكتور زكريا ، « ان سمة الانقطاع الحضاري هي الصفة المميزة للتراث الفكري والعلمي في بلادنا العربية » اني اعتبر هـذا القول صحيحاً اذا كان المعنى به ظاهرة بارزة من ظواهر تراثنا ، وهي ظاهرة لانستطيع انكارها . اما اذا كان المقصود به ان هذا الانقطاع هو الصفة المميزة للتراث العربي دون غيره من التراثات ، فاني لا استطيع قبوله . ولعل مايثير الشك في نفسي هو قوله في مفتتح بحثه عن الموقف العقلي العربي الحـــاضر: « ومن ثم فان تحليل عوامل التخلف الفكري العربي ينبغي ان يرتكز اساساً على بحث تلك الصلة الفريدة بين الماضي والحاضر في العقل العربي، وهي صلة ازعم انه لايوجد لها نظير في الثقافات الاخرى» و«ان السمة التي تنفرد بها العلاقة بين الماضي والحاضر ، في الثقافة العربية هي ان الماضي ماثل دائماً امام الحاضر ، لابوصفه مندمجاً في هذا الحاضر ومتداخلاً فيه ، بل بوصفه قوة مستقلة عنه ، منافسة له ... ولو شئت ان الخص هذه السمة في كلمة واحدة ، لقلت ان نظرتنا الى الماضي « لاتاريخية » .

اني ، من جهتي ، ازعم ان لا الانقطاع الحضاري كظاهرة موضوعية للتراث العربي هو ظاهرة مقصـورة على التراث العربي او مميزة له عن التراثات الاخرى ، ولا الموقف الذاتي العربي المعاصر من هذا التراث هو سمة تنفرد بها ثقافتنا العربية الحاضرة وليس لها نظير في الثقافات الاخرى . ان الانقطاع قد حدث في كل حضارة انسانية سابقة زهت ثم انحطت وتفسخت ، ولست ارى ان حضارتنا العربية هي فريدة في هذا المجال . ويكفيني هنا ان احيل القاريء الى الكتاب الجليل للمؤرخ الشهير ارنولد توينبي « دراسة في التاريخ » والذي يحلل سياق نيف وعشرين من الحضارات الكبرى التي قامت في التاريخ ويظهر انها كلها – ماعدا الحضارة الغربية الحديثة – قد توقفت وركدت بعد نموها وازدهارها وتضعضعت وانحلت بسبب هذا التوقف والركود . حتى الحضـــارة الغربية الحديثة فان ثمة مظاهر خطيرة عديدة توحي بأنها هي ايضاً قد دخلت مرحلة التضعضع والانحلال . فهل يصح اذن ان نقول ان « الانقطاع الحضاري » هو صفة

مميزة للحضارة العربية اذا كان المقصود انه يميزها عن سواها من الحضارات ، الم يكن هذا شأن الحضارة الهندية والحضارة الصينية ، بل شأن الحضارة الغربية ذاتها التي توقفت وانقطع سياقها – قليلاً او كثيراً على اختلاف بين المؤرخين والمحللين – طيلة عدة قرون في العصر الوسيط .

وكذلك فيما يتعلق بالموقف الانقطاعي الذاتي في العقل العربي بين الماضي والحاضر، أصحيح ان هذا الموقف هو ظاهرة « لا يوجد لها نظير في الثقافات الاخرى » و «السمة التي تنفرد بها العلاقة بين الماضي والحاضر في البلاد العربية»، اني أميل الى الاعتقاد ان هذه الظاهرة تسم أدوار التخلف والانحطاط في أية حضارة كان لها ماض زاه وانجاز سابق رائع . فان من سمات تخلفها انها تتلفت الى الماضي ولا تتطلع الى المستقبل ، فتتخدر بشعور الاعتزاز بالتراث ولا تحس بضرورة « تجاوزه » ، ويغدو هذا التراث عبئاً عليها شالاً ومهدداً بدلاً من أن يكون باعثاً ومحيياً كما هي الحال في أدوار الانبعاث والنمو . يصبح الماضي محط النظر ومرتكز الطموح فينفصل عن واقع الحاضر ، بدلاً من أن يكون خاضعاً للنقد ومنطلقاً لانجازات جديدة « تتجاوزه » وتسمو عليه ، أو كما يقول الدكتور زكريا » يصبح الماضي هو القادر على تخليصنا من مشاكل الحاضر ، ويظل الفكر « متخلفاً » ، راجعاً الى الوراء وناظراً الى الخلف وتصبح المواجهة المباشرة للحاضر أمراً مستحيل التحقيق في ظل هذه النظرة التراجعية اللا تاريخية » . اني أزعم ان هذه النظرة التراجعية هي سمة لأدوار التخلف والتضعضع في الحضارات والثقافات بوجه عام لا سمة تنفرد بها الثقافة العربية .

٦ – وثمة ملاحظة أخرى على ظاهرة الانقطاع هذه، ما هو الذي انقطع بالفعل. ان جوابنا على هذا السؤال يتوقف على مفهومنا للتراث . ويخيل الي ان الدكتور زكريا يقصر هذا المفهوم على « الفترة اللامعة » التي وصل فيها (العلم والفكر العربي) الى أقصى درجات التقدم المتاحة في القرون الوسطى » والتي تلتها فترة انتشار الظلام وتوقف التقدم الممتدة الى عصر قريب « قد يكون هو القرن العشرون أو التاسع عشر على أحسن الفروض » . ومن هنا قوله « ان ماضينا وحاضرنا لا يكونان خطاً متصلاً وان هذا الانقطاع هو الذي أدى الى تشويه نظرتنا الى الماضي والحاضر على السواء ». والواقع هو ان تاريخنا ، كتواريخ جميع الشعوب ، يكون خطاً متصلاً ، وان الذي

انقطع ليس التاريخ أو التراث بكامله، وانما الذي انقطع هو الابداع الحضاري ، والذي توقف هو التقدم الحضـاري . ولذلك يجب ألا نقصر « التراث » على الانتاج الايجابي والاشعاع المضيء في فترة معينة فحسب ، بل ان نمده على جميع ما ورثنا من الماضي من عهوده اللامعة والمظلمـة معاً ، عهود الابداع والتقدم وعهود الركود والتأخر . والواقع هو ان الفرد العربي العادي اليوم يتحسس بأحاسيس وينطلق من مفـاهيم هي مزيج مما تلقاه من تراثه كله ، وخصوصاً من تراثه القريب الذي ساد فيه التخلف وتغلب الجهل على العلم و « الغيبيات والافكار الاسطورية » على الجهد العقـلي . ولذا ، فلا بد من غربلة هـذا التراث ، ومن فصل ايجابياته عن سلبياته ، لانه لا يزال فاعلا فينا ، شئنا أم أبينا ، فعلينا أن نتحرى آثاره المختلفـة في حياتنا لنعزز ما يصلح لحاضرنا ولمستقبلنا ولنتخلص مما لا يصلح بل يعيق ويسيء .

٧ – اني أوافق الدكتور زكريا في « ان الاحياء الحقيقي للتراث انما يكون عن طريق تجاوزه واتخاذه سلماً لمزيد من الصعود . أما احياء الاسترجاع فهو في حقيقته قضاء على التراث » . ولكن كيف يمكننا ان نتجاوز هذا التراث ونتخذه سلماً لمزيد من الصعود اذا لم نعرفه على حقيقته واذا لم ننتقده ونغربله وليس يجدينا كمايقول : « الامتناع عن توجيه الذم أو المدح الى التراث ، الا اذا كان ذلك داخل الاطار التاريخي الخاص به » . طبعاً لا يحق لنا ان نطبق على الماضي مقاييس الحاضر ،ولكن يمكننا على الاقل ان نتساءل : لماذا استطاع التراث ان يزهو ضمن الاطار التاريخي الخاص به، ولماذا عجز عن ان « يتجاوز » هذا الاطار الى اطار آخر . ومن مجابهتنا لهذا التساؤل تتضح لنا امكانات تجاوزه في الوقت الحاضر ، وهكذا يكون الاحياء الحقيقي نابعـاً من نقد التراث . اما الاسترجاع فحسب ، الذي يضيق بالنقد ويبغي اعـادة الماضي كما هو ، فاني أرى مع الدكتور زكريا انه في حقيقته قضاء على التراث ، بل اذهب الى القول – ولا أشك في أن الدكتور زكريا يوافقني عليه – انه قضاء لا على التراث فحسب ، بل على الحاضر والمستقبل ايضاً .

٨ – ولكن اذا كان الاسترجاع المطلق أمراً غير مرغوب فيه ، بل ليس ممكنـاً حتى لو أردناه ، فان هذا يجب ألا يجرنا الى الطرف الآخر فنقول : « ان من الممكن أن تقوم نهضة علمية وفكرية رفيعة المستوى في مراحلها الأولى ، على أساس الرفض الحاسم

التراث ، وذلك حين يكون هناك انقطاع في التراث يمنع من استمراره في خط متصل حتى الحاضر . وعندئذ لا بد أن ترفع النهضة شعار « البدء من جديد » كعلامة على تحدي التراث » قد ترفع النهضة هذا الشعار ولكن هل يمكنها أن تطبقه فعلا اني أقر انه يجب أن نبدأ من واقــع الحاضر ، بل من تطلعات المستقبل . ولكن هل يمكننا أن نقطع صلتنا بالماضي قطعاً باتاً حتى في المراحل الأولى من نهضتنا . ألا يكون هذا القطع موقفاً « لا تاريخياً » مقــابلا للموقف « اللا تاريخي » الآخر الذي تحدث عنه الدكتور زكريا مطولا وحذرنا من مغباتــه . لا ضير علينا اذا كنا نعني به « تحدي التراث » مجابهته ونقــده والتصميم على تجاوزه ، أمــا اذا كنا نعني بـ « الرفض الحاسم للتراث » ، فاني أزعم ان هــذا الرفض الحاسم هو ، كالاسترجاع المطلق ، أمر غير مرغوب فيه، وغير ممكن حتى لو أردناه لأن الحاضر هو وليد الماضي ونتاج التراث . نستطيع — بل يجب علينا — أن نتجاوز الماضي على أن يتضمن هذا التجاوز كل مافي الماضي من خير وابداع . ولست أظن انه يكفينا في عملية التجاوز هذه ان نتوجه الى الحضارة الأوروبية وحدها على أساس « ان الحضارة الاوروبية هي التي حفظت التراث العربي وصانته بالطريقة الصحيحة ، أعني انها صانته عن طريــق تجاوزه وتصحيحه وتفنيده ، وضمنت له من خلال موته حياة مستمرة » (ص ١٧ ، س ٢ — ٤). قد تكون الحضارة الاوروبية قد حفظت التراث العربي العلمي والفلسفي وتجاوزته ، ولكن ثمــة جوانب أخرى من التراث العربي ، وأهمهــا التراث الأدبي ، لم تعرفه الحضارة الاوربية ولم تتجاوزه بالتصحيــح والتفنيد ولم تضمن له من خلال موته فيها حياة مستمرة كما ان هناك تراثاً عربياً فنياً ، في العمارة والصنع والزخرفة والموسيقى ، قد عرفته الحضارة الاوروبية ، ولكن ظلت له شخصيته الخاصة ولم يذب أو يتجاوز في تلك الحضارة. ان استكشاف العناصر الابداعية في هذه الجوانب من تراثنا، واستخلاص حوافز الابداع في ما أخذه الغرب وتمثله ثم تجاوزه من علم وفلسفة ، جديران بأن يعززا نهضتنا ، وان يحفظا بالوقت ذاته اصالتنا . وبكلمة أخرى: ان تصميمنا على التجرد من كل مافي تراثنا من رواسب التأخر والتخلف يجب أن يتماشى مع حرصنا على استعادة كل ما احتواه من حوافز الانطلاق والتقدم .

٩ — ولنطبق هذا على « درس النهضة الاوروبية » الذي حلله الدكتور زكريا (ص ١٧ — ١٩) ومما ذكره في تحليله هذا : « وأول ما نستخلصه من هذه الدراسة هو ان الاوروبيين لم يخجلوا من اعلان رفضهم القــاطع لتراث كامل ينتمي الى صميم ثقافتهم » (ص ١٧ ، س ٥ من أدنى) . ويفهم من الجملة التالية ان الدكتور زكريا

يعني بهذا التراث الكامل « تراث الفكر الارسطي » . ويرى بعض الباحثين أن الأوروبيين لم يرفضوا التراث الارسطي بكامله . لعلهم رفضوا المنطق وما وراء الطبيعة والعلوم الطبيعية ، ولكنهم ظلوا يتأثرون بكتب أرسطو الاخلاقية والسياسية . ثم لما جاءتهم كتب أفلاطون وارسطو بأصولها اليونانية من أهل القسطنطينية اللاجئين الى اوربا اقبلوا على دراستها بنهم لأنهم ، بدافع اعجابهم بالأصول اليونانية ، كانوا حريصين على الاطلاع عليها مباشرة لا عن طريق ترجماتها العربية أو العبرية فحسب . ولكن لو فرضنا انهم ثاروا على الفكر الارسطي ورفضوه فان هذا الفكر ، على أهميته وسيادته طيلة القرون الوسطى ، لم يكن يمثل التراث الفلسفي اليوناني بكامله . اذ يجب الا ننسى ان الفكر اليوناني من أيام طاليس بدأ يتجه نحو الطبيعة ويتساءل عن ظواهرها وعللها ويتحراها بالاساليب العقلية ، ثم جاء سقراط وأفلاطون وأرسطو فأضافوا الى الاهتمام بالطبيعة الاهتمام بالانسان بالاساليب العقلية ايضاً. وهكذا كان للعقلانية الاوربية في عصر النهضة وما بعدها جذورها العميقة في الفكر اليوناني، وكان رجال النهضة ورجال عصر التنوير واعين لهذه الجذور ، ولا أظننا نستطيع القول انهم « في مجال التفكير العلمي والفلسفي رفضوه (التراث اليوناني والروماني) رفضاً قاطعاً » . ومع ان الدكتور زكريا يؤكد ان الاوروبيين « عادوا الى التراث اليوناني والروماني في مجال الفنون والآداب » ، فان هذا التأكيد يكاد يأتي عرضاً ، لأن النهضة الاوروبية تمثل عنده في جوهرها موقف الرفض القاطع للقدماء « ولم يكن في موقف الرفض القاطع هذا ما يعيبهم ، بل قد أصبح هذا الموقف هو أساس مجدهم وهو الذي وضعهم على قمة الفكر والعلم في القرون الوسطى » . وفي رأينا ان حركة النهضة لم تكن تمثل رفضاً قاطعاً . انها كانت ، من جهة ، رفضاً للعقلية اللاهوتية الكلامية الوسيطية التي جندت منطق أرسطو وفلسفته لغاياتها) ، ولكنها كانت ايضاً ، من جهة أخرى ، بعثاً للتراث اليوناني في عقلانيته والتراث اليوناني اللاتيني في « انسانيتها » ، وفي روائع أصولها الادبية والفنية . ان النهضة Renaissance كانت حركة بنزعات التجدد والتأصل معاً . ومن هنا كانت عظمتها وكان أثرها البارز في الحضارة الأوروبية .

١٠ – وبعد ، فقد أطلنا الحديث عن التراث وكدنا نخرج عن الموضوع الاصلي وهو : « التخلف الفكري وأبعاده الحضارية » . فلا بد اذن من أن نتحرى العوامل المختلفة لهذا التخلف ، وان نتساءل عن أبعاده الحضارية . ولست أدري بالضبط ما هو

المقصود بهذه « الأبعاد » . ان هذا التعبير يحتاج الى مزيد من التدقيق والتوضيح . فهل المقصود هو آثار تخلفنا الفكري في أوضـــاعنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفي سلوكنا الخاص والعام ، أم المقصود هو دلالة تخلفنا الفكري على وضعنا الحضاري العام. ومهما يكن من أمر ، فان هذا الجانب من الموضوع يحتاج الى دراسة خاصة والى معالجة يصعب أن يستوعبها نطاق البحث الذي نحن بصدده .

ويسرني في ختام هذا « التعليق » أن أعود فأشيد بما في هذا البحث من موضوعية وجرأة وتجدية ، ومن تأكيد سديد على « التاريخية » الصحيحة ، وعلى ضرورة تجاوز الماضي ، وعلى أولوية الحاضر ، ومن تسلسل منطقي ووضوح فكري . كما أعود الى القول ان ملاحظاتي ليست سوى تتمة لهذا البحث أرجو أن يجد فيـــا الدكتور زكريا والمشتركون في الندوة ما هو حري بالاعتبار والتدبر والنقاش .

هوامش على
مقامع ابن عبد الحق الخزرجى
فى الرد على صليبية الأندلس

د • المنجى الكعبى
نائب فى مجلس الامة التونسى

الكتاب الذى احببت أن أخصه بهذا المقال ، نشره أخيرا مركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية ، التابع للجامعة التونسية • وهذا المركز ، كما قد يعلم بعض القراء ، كان حرما مغلقا على اهله حتى اتيح له من ثلاث سنوات تحوير وتجديد ، وأدخله كل باحث وشاد للبحث • ومما أحدث به « قسم للنشر » لطبع الابحاث الجامعية وغيرها من اعمال اعضائه ، ولم يكن قبل ذلك أمام الباحثين الادبيين الا طريق وحيد ، مضمون ولكنه طويل ، لطبع مؤلفاتهم ، وهو قسم النشر بكلية الآداب • وبوجود قسم النشر التابع لمركز الدراسات أصبح فى امكان الاساتذة والباحثين بالجامعة التونسية ان يتوقوا غائلة دور النشر التجارية عندنا ، كلها او بعضها • ويصبح لهم حظ أوفر لنشر مؤلفاتهم • ولا شك أن سائر المؤلفين والكتاب فى تونس يغبطونهم على ذلك قليلا •

ومحقق الكتاب وكاتب مقدمته زميل بكلية الآداب ، وعمله هذا يعد باكورة انتاجه العلمي في ميدان نشر المخطوطات • وكنت عرفته بباريس في السنة الدراسية 1969 ـ 70 ، وكان في بعثة علمية لمناظرة التبريز في الآداب العربية • ولم نكن نجتمع الا قليلا عندما اكون على موعد مع الاستاذ بيلا لمناقشة سير بحثي للدكتوراه ، فأحضر بعد ذلك مع طلبة التبريز درسه الاسبوعي لهم في الترجمة • وكان بيلا فيما يبدولي يعجبه منه الحضور في الاجابة والتخير في التعابير • ويعجبني ذلك منه ايضا الى هدوء عميق لا تدري ما وراءه واعتناء بصورته في النفس •

ولا اذكر اني قرأت للاستاذ عبد الحميد الشرفي شيئا في بعض مجلاتنا في غير الدينيات • وكان له منذ سنة بحث قيم ، القاه في الملتقى المسيحي الاسلامي ، الذي انعقد بتونس بدعوة من جماعة من ذوي العطف على اتحاد الاديان ، لعله من بينهم • والانطباع الذي تركه بحثه في نفسي انه ـ الى حد ما ـ من هؤلاء الذين يذهبون في البحث الديني مذهب العقلانيين والوضعيين ، ولا يهمه بعد ذلك ان يكون ما يقرره من احكام يفجأ المؤمنين او يصدمهم •

ويبدو ان الدعوة الحديثة للتوفيق بين الاديان التي تنظمها جماعات دولية من مذاهب شتى ، والتي لا يمكن ان يقول الانسان صراحة وهو متأكد ان لها اهدافا تخدم المجموعات الدينية عامة ـ يبدو ان تلك الدعوة ، المتقادمة في الاصل ، تعمل على عدة جبهات ، ففي مجال البحث العلمي تشجع على نشر ودراسة المجادلات الدينية بين الاقوام ، لعلها تخرج منها بعناصر تزكي التآلف الذي تدعو اليه ، وبعناصر اخرى للانكار على اصحاب الاديان والآخذين بها روح التعصب الذي ـ فيما يقولون ـ يصم آذانهم عن كل حوار • وبالفعل ، فهناك نفر منا اصبحوا يكتبون عن الحوار بين المسيحية والاسلام ، ووسعوا لهذا المؤتمر المسيحي الاسلامي من الانعقاد على ترابنا ، ولدعوته من النفاذ الينا ، اذ نحن على انفتاح •

وبطبيعة الحال هناك غير واحد يشارك في هذه الندوات الدينية بسذاجة المخلصين لا يلتفت الى شيء غير تحقيق مسالة تاريخية او مصاحبة شخصية علمية ، او عرض

معلومات تكونت له عن موضوع معين لا يضع لنفسه قصدا غير الكشف عنها ومناولتهـا للبـــاحثـين ٠

وكان بيننا فى السنتين قبل الماضيتين أحد رسل هذا التقارب المسيحى الاسـلامى ، وكان يدرس بكلية الآداب عندنا ، وهو رجل دين فيما مضى من حياته ، اسبانى ، ولكن لا تميزه عن أجدادنا الاندلسيين ـ لو بعثوا أحياء بيننا ـ الا بمظهره الاوروبى الحديث ، أما اتقانه للعربية ومحبته لاهلها فهو ما يلتبس عليك به ٠

وأعتقد أن الذى ربط هذا الاستاذ بتونس كتاب ، كان محل عنايته ، طبع بتونس لاول مرة فى أواخر القرن الماضى ٠ وهو كتاب الخزرجى الذى طبعه الشرفى مـــن موضوع واحد ٠ هذا الكتاب هو تحفة الاريب فى الرد على أهـــل الصليب لعبد اللـه الترجمان ٠ ونشر الاستاذ الاسبانى هذا الكتاب وترجمه ووضع عنه دراسة وقدم ذلك كله بين يدى جامعة بلاده رسالة لنيل شهادة الدكتوراه ٠

وقد تكون عناية الزميل التونسى بكتاب « مقامع » الخزرجى جاءت ، عن بعد أو عن قرب ، من عناية صاحبنا الاسبانى بكتاب التحفة ٠

وهناك اسبانى آخر كانت له ، قبل الشرفى ، عناية بالخزرجى وكتابه المقامع ، دون أن ينشره فى أصله العربى ٠

فهل فى اشتغال بعض التونسيين وبعض الاسبانيين اليوم بنشر ودراسة هـــذه النقائض الكلامية بين المسيحيين والمسلمين ، جزء من العناية العامة بتراث أهل الاندلس الذى نعتبر نحن والاسبانيون من حملة آثارهم المقدمين ٠ أم هو احياء لباب من التأليف ضرب فيه الاندلسيون بسهم وافر يشبه ما كان لاصحاب الديانات فى أطراف الدولـة الاسلامية بالمشرق ، ولكنه احياء أو خوض فى الاعتقاديات بأسلوب يختلـف ، وروح تختلف ، وفى هذا الجو المختلف الذى سكنت به ريح التهافت وأخذت فيه هذه الجمعيات الاجنبية تحض على الحوار الدينى الهادف ؟

وليس الظن بالشرفى او غيره ممن ينشطون لهذا الحوار دون أن تكون لهم هـــذه الخلفية التاريخية عنه ٠ ولكن الظن بمن يوهمون أنهم يبحثون فى تاريخ الاديان وأحوال

أهلها محبة فى البحث وهم فى الحقيقة قد وسعت عليهم هذه الجمعيات والمنظمات الدينية للتخصص فى هذا الميدان ، حتى تستخدم أبحاثهم فى مقاومة الاعتقاد الدينى عامة . من ذلك أنى عرفت ، زمن الطلب بمصر ، شابا أوروبيا على منحة من احدى هذه الجمعيات لوضع رسالة دكتوراه حول صحة الحديث النبوى فى نظر العلماء المصريين المعاصرين . وانما المقصود فيما أسر الى ـ بعد طول صحبة ومجالسة المنكب بالمنكب بقاعة مكتبة الجامعة الامريكية بالقاهرة ـ أن يبين أن الجدل كان قائما على أشده حول هذا الموضوع بمناسبة صدور كتاب لبعض شيوخ الازهر يضعف فيه من أبى هريرة ، أحد كبار رواة الحديث ، وأن الكفة رجحت أخيرا الى جانب الطعن فى مصادر السنة المحمدية كلها حتى لا يكاد يتفق اثنان على صحة حديث .

وأخرى ، أننى نفذت مرة الى دخيلة فتاة عربية شرقية ، قابلتها بلندن ، وكانت لى بها معرفة سابقة ببلدها . فوجدتها لا تشتكى من شيء قدر شكايتها من التعصب الاسلامى كما شهدته فى بعض بلدان مغربنا العربى بمناسبة بحث للدكتوراه عن الادب القومى باللغة الفرنسية فى ذلك البلد ، ولم أشك لحظة فى اسلامها ، لانى أعرفها على ذلك ولانها أطلعتنى على نشاطها البارز فى عدة ندوات اسلامية ، ورأيت مكتوبا على جواز سفرها انها مسلمة وكنا على سفر معا من باريس . ولكنى ظللت بها حتى عرت لى عن حقيقة اعتقادها الصلب فى المسيحية . وتمنت لو أن الارض انشقت وابتلعتها اذ قد صدر منها هذا الاعتراف فى لحظة ضعف ... وكنت أعلم قبل ذلك شيئا من وضعية زواج أبويها المزدوج دينيا ...

وكانت لها أحكام فى رسالتها عن أدب هذه البيئة المغربية غاية فى التعصب على المسلمين . وهى من الذكاء فى اخفاء هذه النزعة المسيطرة على احساسها تذكرنى بنفر من المستشرقين من علماء الآثار الاسلامية ، كل تنقيبهم فى معالمنا كان لا هدف له سوى تقصى الاحجار والاعمدة البيزنطية التى انتزعها العرب من المدن الخالية لبناء مساجدهم .

وقد رأيت ، من شهر ، بجامع الزيتونة كثيرا من فرشه الرخامى منزوعا ومعروضا بركن فى صحنه للسائحين .. لا لسبب الا لانه اكتشف من ترميمات أخيرة أنه كان لوحات رخامية منقوشة على معابد رومانية قلبها المسلمون على ناحيتها الصقلية واتخذوها

فرشا لعتبات الجامع · ولعل الامر يهون اذا لم نتصور آنه سيأتى يوم يقولون لنا فيـه ان الامانة العلمية تقتضى وان الحفريات الاثريـــة تحتـم تجميـع واستخراج العاديات الرومانية من الآثار الاسلامية ووضعها فى متحف على انفراد ، وربما وجوب نقل بعض المبانى الاسلامية من مواضعها للتنقيب عن احتمالات أسس بيزنطية أو بربرية قامت عليهـــا ·

وهذا الاستدراج الواقع علينا منذ وقت للانفصال البطىء عن تراثنا الدينى وثقافتنا العربية أعتقد أن كثيرين فى تونس اليوم يشعرون به ويخشونه كثيرا على تراثنا الدينى وثقافتنا العربية ولا يالون جهدا فى معاكسته ·

وقد أعتذر عن طول هذا الاستطراد قبل أن أعود الى كتاب ابن عبد الحـق وتحقيق الاستاذ الشرفى له ·

انالجهد الذى بذله المحقق فى هذا العمل يفصح عنه الكتاب فى كـــل ورقة منه · وهو جهد يستحق عليه كل تقدير وتشجيع خاصة ، لانـــه ليس من اليســـير نشر المخطوطات محققة · وأعرف من الباحثين من يفضل الاشتغال بدراسة التراث والبحث فيه ، لا اعداده للنشر فى أصوله القديمة · ولكنى أعتقد أنه ليس أعود بفائدة عـــلى الطالب بكلية الآداب من أن يكتب على مخطوط يهيئه لقراءة صحيحة وفهم دقيق · لانه سيكشف خلال ذلك عن ضعف معلوماته التى تلقاها فى النحو واللغة والادب والحضارة واضطرابها وقلة ثقته بصحتها · فاذا اكتشف ذلك تعلقت نفسه بتحقيق معارفه السابقة بمناسبة عمله على المخطوط ، والى ذلك فهو سبيل الى توسيع دائرة ثقافته أو تخصصه فى الموضوع ·

وقد قلت ان السيد الشرفى بذل جهدا كبيرا فى تحقيق هذا المخطوط · ولكن الجهـد شىء والتوفيق فى التحقيق شىء آخر · لان التحقيق علم ومنهج ، أما الجهد فهو قابلية الانسان أن يعطى ما فى استطاعته لعمل من الاعمال ، وعلاقة القابلية بمدى الاتقـــان يتحكم فيها عنصران : العلم والمنهج ·

والعلم بتحقيق المخطوطات واختيار المنهج المناسب لكل مخطوط شيئان يبدو لى أن الاستاذ الشرفى حديث عهد بهما ، وهو أقرب الى أن يرى بعد قليل من الاعمال الاخرى قد تمكن منهما ٠

فهناك على الاقل أمران مهمان من الناحية الشكلية للتحقيق أغفلهما ، أو لعله أسقطهما ولكن لم يبين السبب : الاول : ضم صورة ورقة على الاقل من احدى نسخ المخطوط التى اعتمدها ، الى طبعته ٠ والثانى : تحديد أوراق المخطوط أو صفحاته فى حاشية النص المطبوع ٠ ولا أعتقد أنه فى حاجة الى أن أبين له المقصود من هذين الامرين ، أو ان أبين أن ذلك أقل ما يذكر بروح المخطوط ٠

والخطة التى اتبعها السيد الشرفى فى التحقيق لم يتحدث عنها كلها ، ولا فى موضع واحد ٠ فهو يقول فى ثلاث مسائل رئيسية من الخطة : انه اعتمد على عدة نسخ مختلفة للمخطوط وأن النص أقامه أساسا على قراءة نسخة فضلها على سائر النسخ ٠ ويقول فى المسالة الثانية ـ والعبارة له ـ « كما قسمنا النص الى فقرات راعينا فيها قدر الامكان وحدة الموضوع دون أن يدل هذا التقسيم على استقلال هذه الفقرات عن بعضها أو على أن معنى كل فقرة يتم بانتهائها وذلك حتى يسهل علينا وضع الفهارس » ٠ والمسالة الثالثة : انك تعرف فى آخر الكتاب فقط عند تصفح الفهارس ان كل ما فيها من أرقام « تشير الى عدد الفقرات » ٠

ونحتاج قبل ان نبدى ملاحظاتنا على المسالة الاولى أن نشير الى أن السيد الشرفى جمع من مخطوطات الكتاب ، على ما يقول ، تسع نسخ وصفها وصفا دقيقا فى المقدمة (ص 18 ـ 25) ٠ وليس من السهل أن نتصور العناء الكبير الذى يلاقيه الانسان فى مقابلة هذه النسخ بعضها ببعض واختيار القراءة الصحيحة من كل منها ٠ ولكن المحقق بعكس ما يوهمنا كلامه لم يقابل بينها جميعا ، لسبب بسيط هو أنه لم يطلع الا على النسخ التونسية من مخطوطات الكتاب ، وعددها خمس ، أما نسخ المكتبات التركية ، فلم تقع بيده الا نسخة واحدة مصورة من مكتبة آيا صوفيا ، أعاره اياها الاستاذ دى لاغرانخا الاسبانى ٠ ومع أنه التزم الامانة فى أن يشير أثناء وضعه لهذه النسخ الى ما لم يطلع عليه منها الا بعد طبع الكتاب ، لكنه اغفل أن ينبه الى أنه عندما

يقول ان المقصود من عبارة « جميع النسخ » أو « سائر النسخ » فى تعليقاته لايعنى الا النسخ التونسية التى رجع اليها بالفعل ·

ومع انه يقول ان نسخة آيا صوفيا ، التى يرمز اليها بالحرف «ص» هى التى اعتمدها أساسا فى النص المطبوع وأنه « نبه على المواضع التى فضلنا فيها رواية نسخة أو نسخ أخرى » ، لكن الذى يتجلى لنا ، دون بحث طويل ، انه انما أثبت فى الاكثر نص احدى النسخ التونسية ، والظن انها نسخة الشيخ الشاذلى النيفر ·

ويمكن أن نقفك على حقيقة ذلك فى موضع واحد فقط · فانظر ، مع العلم أن عنوان الكتاب فيه اختلاف بين النسخ ، فى الصفحة 39 التعليق 22 ، فستجده أثبت عنوان النسخة «ن» وأنزل الى التعليق عنوان النسخة «ص» ، وكذلك يفعل بكثير من العبارات والالفاظ فى رواية النسخة «ص» : يثبت فى النص المطبوع شيئا منها وشيئا من غيرها ، ويداخل بين ذلك وذلك دون تمييز أو موجب تصحيف فى الغالب ، فاحدث بذلك من البلبلة فى قراءة النص المطبوع ما أحدث ، لان لكل نسخة روحها وسياقها المخصوص ·

ولو كانت النسخة «ص» هى المعتمدة أصلا لكانت بداية الكتاب المطبوع كالتالى : (بعد البسملة) لما نفذ القضاء من الله تعالى على قرطبة باندثار ملكها ، وتفرق أهلها لتتابع ضنكها ، الحق منهم بطليطلة صبيا من آل عبد الحق الخزرجى يوصف بالذكاء ، وكان بطليلة قسيس من القوط يكثر الاعتراض فى الدين على نفر كانوا يأتونه من المسلمين ، فجعلوا يرفعون سؤالاتهم الى الصبى ، فيجاوبهم الصبى عليها ، فيرجعون بذلك الى القسيس ، فانكر جوابهم لعلمه انهم ليسوا من أهل الذكاء ، واستفهمهم فاعلموه بذلك ، فكتب القوطى اليه كتابا ، وسالهم أن يوصلوه اليه ويأتوا منه بجواب ·

« كتابه : باسم الاب والابن والروح القدس اله واحد ، سلام عليك أيها الفتى الاسماعيلى المسلم المحمدى ورحمة الله وبركاته ، الخ ··· »

ولما كانت البداية ، كما عند السيد الشرفى : « (بعد البسملة) : هذا التاليف كتاب مقامع الصلبان فى الرد على عبدة الاوثان · الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان الا على الظالمين · لما نفذ القضاء من الله على قرطبة بانتثار سلكها ، وتفرق أهلها

عنها لتتابع ضنكها الحق منهم بطليطلة صبى من آل عبد الحق الخزرجى يوصف بالذكاء ، وكان بها قس نسبه من الغوط ، يكثر من الاعتراض فى الدين على نفر كانوا يالفــون له من المسلمين ، فجعلــوا يرفعون سؤالاتهم الى الصبى ، فيجاوبهم الصبى عليهـا ، فيرجعون بذلك الى القس · فانكر جوابهم لعلمه أنهم ليسوا من أهل الذكر ، واستفهمهم فاعلموه بالصبى ، فكتب الغوطى عن نفسه كتابا وسالهم أن يوصلوه اليه ، ويأتــوا منه بجواب · وهذا نص كتابه : من فلان الى فلان ، باسم الاب والابن والروح القدس اله واحد سلام عليك أيها الفتى الاسماعيلى المسلم المحمدى ورحمة الله وبركاته ، الخ ··

ولم أطلع على النسخة «ص » (آيا صوفيا) التى قدمت روايتها ولكنى رممتها مـن خلال التعليقات ، لأبين للقارىء مدى الاضطراب والتلفيق من عدم الاعتماد على نسخة أم وإلحاق سائر النسخ بها على سبيل التصحيح والمقابلة ·

ويزيد من هذا العنت الذى لحق النص أرقام التعليقات عليه ، التى تزدحم بكثـرة وغلظة على صفحته · حتى ليحدث للعين وهى تجرى على النص ما يحدث للسائق وهـو يرى من عجب علامات الطريق تنتصب أمامه ، فى كل مرة تظهر ، وسط الطريق لا عن يمينه أو يساره !

وعندى أن النسخة «ص» اصح كلاما وأقوم أسلوبا وأقرب الى أن تكون صــورة الاصل مع قليل من التحريف · ولو كان المحقق أخذ بها أساسا ، كما يقول ، لما أسقط العنوان الذى تحمله وأخذ بغيره · وذلك أن الاستاذ الشرفى لما وجد نفسه أمام اختلاف فى عنوان الكتاب بين النسخ التى بيديه ألهم حلا مدهشا ، لا يفكر فيه المحققون عادة ·

ولكن لنتبين هذا الاختلاف فى العنوان قبل أن نتعرف على الحل الذى ألهمه ·

ونبين ذلك بما لم يبنه المحقق ، فنقول ان كلا من النسخ التركية مجموعة والنسـخ التونسية مجموعة تتفق على عنوان وتختلف فيه عن الاخرى · ففى المخطوطات العثمانية ، وعلى رأسها النسخة «ص» : « مقامع هامات الصلبان ومراتع روضات الايمان » · أمـا النسخ التونسية ، وأخصها نسخة الشيخ النيفر ففيها : « مقامع الصلبان فى الرد على عبدة الاوثان » ·

والتقط المحقق من مصادر ترجمة المؤلف عناوين أخرى للكتاب ، ولكنها مـن قبيل الاختصار للاولى ، أو وردت بشيء من تحريف النساخ وتصحيفاتهم ٠

ماذا فعل الاستاذ الشرفي ؟ يقول : « آثرنا الاكتفاء بـ « مقامع الصلبان » لاتفاق جل المخطوطات وعدد من المصادر على الجزء الاول من هذا العنوان ، ولان الجزء الثاني منه قد يكون اضافة متاخرة اما للتسجيع أو للدلالة على محتوى الكتاب » ٠

ونرد عليه قبل كل شيء بأن التصرف الصحيح في تحقـيق المخطوطات غير ذلك ٠ والرأى أن تثبت العنوان الذى تختاره وتردف به عنوانا آخر تقترحه على سبيل الاختصار أو الدلالة بدقة عن موضوع الكتاب ٠ وأما ظنك أن الجزء الثاني من العنوان جيء به بعد المؤلف فليس بظن ٠ لان السجع المجرد أو الدال على محتـوى الكتاب ـ كما أشرت الى ذلك ـ كان ظاهرة عامة في عصر المؤلف ٠ وأسلوبه نفسه ينبىء عليه ٠ وهناك أكثـر من دليل على أن العنوان الحقيقي الذى وضعه الخزرجي لكتابه هو « مقامع هامات الصلبان ومراتع روضات الايمان » ٠ أولا : ان الكلمتين اللتين اخترتهما في طبعتك عنوانا للكتاب لا يمكن أن يكونا للنظرة الاولى الا اختصارا لعنوان مسجوع ، ولا يمكن لواضع العنوان أن يتخذهما عنوانا مفردا ٠

ثانيا : ثم لان هناك تلازما بين المقامع والهامات في ثقافة المؤلف ٠ والمقمعة ـ وهذا ما لم يفسره الاستاذ المحقق ولا اشار اليه ـ هي الخشبة أو الحديدة المعقفة يضرب بها رأس الحيوان لينقاد ويذل لصاحبه ، وفي القرآن الكريم « ولهم مقامع من حديد » أى أعـدت للكافرين ليذلوا بها ولا يهربوا من النار ٠ ولا أظن الا أن المؤلف اقتبس لعنوانه شيئا من لفظ هذه الآية ، خاصة وانه بصدد الرد على الكافرين بالاسلام ٠

ثالثا : اذا ، فبالتأكيد هناك في بداية العنوان « مقامع هامات الصلبان ٠٠ » ، بقي الجزء الثاني ٠ وهذا لا يمكن أن يكون كما تذكر النسخ التونسية « ٠٠ في الرد على عبدة الاوثان » وذلك ـ أولا ـ لان هذه النسخ الخمس تنقل ، كما قد عرفت من مصدر واحد ، وقد رجحت أن يكون «ح» التي كانت بملك المرحوم حسن حسني عبد الوهاب ٠ ولـكن هذه النسخة بالذات تفطننا الى أنه « يسمى أيضا روضات الايمان » ٠ وهي ترد على غير ما قد يكون فهم الاستاذ الشرفي أن الجزء الثاني من العنوان يسمى أيضا « روضـات

الايمان » ٠ اذا ، فهذا مما يرجح كفة عنوان النسخ التركية ، ويجعلنا نفكر فى أن بعض التصرف الذى وقع للعنوان فى النسخ التونسية جاء من كونها كلها موجودة ضمن مجموع من المخطوطات الاخرى فى الرد على النصارى واليهود وغيرهم ٠

رابعا : وأخيرا ، فلقد وهم الاستاذ الشرفى حين ذهب الى أن الذى سمى كتاب الخزرجى بـ « روضات الايمان » هو الشيخ الثعالبى ٠ والذى أدى المحقق الى ذلك هو تنصيص وجده فى هذا المعنى بهامش ثلاث مخطوطات ٠ وهو يتاسف على عدم اطلاعه على مخطوط الثعالبى الذى ذكر فيه ذلك ، وعنوانه « الانوار فى آيات النبى المختار » ، وانما نقل المحقق هذه الاشارة من فصل للشيخ محمد المنونى فى بعض المجلات ٠

والثعالبى هذا ـ كما يذكر المحقق ـ أشارت اليه ثلاث نسخ تونسية حيث يوجد بها بصدد العنوان « ويسمى أيضا بروضات الايمان ، سماه بذلك الشيخ الامام ٠٠ سيدى عبد الرحمن الثعالبى ، رحمه الله فى السيرة » ، أى كتاب الانوار ٠

ففهم المحقق من ذلك ومن عبارة الشيخ المنونى أن الثعالبى هو الذى وضع له ابتداء هذا الاسم « روضات الايمان » ٠ وليس ذلك بفهم ٠ ولا أعتقد أن كثيرا من القراء فى حاجة الى أن أبين لهم ذلك بطول كلام ٠ فالامر كله ان الثعالبى ذكره أيضا باسم آخر هو ذلك الاسم٠ وبطبيعة الحال لا يعقل من الثعالبى أن يسمى كتابا لغيره بغير الاسم الذى وجده له٠

خامسا : ويمكن أن نضيف الى أدلتنا هذه دليلا آخر لا يدع مجالا للشك فى أن عنوان الكتاب انما هو « مقامع هامات الصلبان ومراتع روضات الايمان » ، وهو أن المصدر الوحيد الذى يعترف المحقق أنه أوفى المصادر بترجمة ابن عبد الحق وهو الذيل والتكملة ليس العنوان فيه الا بهذه الصورة ٠ فهل من التحقيق أن يكون الحل بعد ذلك أن نقتضب فى عنوان المخطوط بشكل مخل عند طبعه ؟٠٠ وأن نتصرف كذلك عند ذكر اسم مؤلفه تحت العنوان ؟

فاسم المؤلف يجب أن يدون كما وجد على ظهر النسخة المعتمدة وهى المرموز لها بـ «ص» ٠ وليس كذلك اسم المؤلف عليها ٠ وهو الآخر فيه خلاف ، وبما أنه ليس لدى معلومات كافية للتحقيق فى نسب المؤلف ، فانى اكتفى بملاحظة بسيطة أؤخرها الى

حين الحديث فى المسائل التى عرض لها المحقق فى مقدمته حول شخصية المؤلف واثـرها فى كتابه ٠

ونبقى الآن دائما عند المسائل المتعلقة بخطة التحقيق ، وقد قلت ان المسالة الثانية هى تقسيم النص الى فقرات راعى فيها المحقق قدر الامكان ـ كما يقول ـ وحدة الموضوع دون أن يدل هذا التقسيم على استقلال هذه الفقرات عن بعضها (أى بعضها عن بعض) أو على أن معنى كل فقرة يتم بانتهائها وذلك حتى يسهل علينا وضع الفهارس » ٠

ويدل ذلك على أحد أمرين اما أن الكتاب لا يستقيم للتقسيم المضبوط ، كان يتوزع الى رؤوس موضوعات فموضوعات ثانوية ففقـرات تستقل كـل منها بفكـرة كبـرى ، واما أن المحقق أعياه تبين أجزاء الكتاب وفواصل الكلام فيه ، وفكر فى وجوب تسجيل جدول بمحتواه فى آخر الكتاب فأخذ يقطعه الى فقرات غير متجانسة تخدم خطتــه فى فهرسة الكتاب ٠ وليس الفهرسة فحسب ، ولكن نكتشف أمرا آخر ساعدته عليه هذه الفقرات ، أو صنع هذه الفقرات لتساعده عليه ، هو نظام التعليقات على النص ، فقد جعل كل فقرة مستقلة بارقام ٠ وهى خطة لا باس بها ، وربما اتبع غيره بدلا منها تخصيص كل صفحة من المطبوع بارقام متتالية للتعليقات ٠ ولكن هذه الطريقة رغـم افضليتها تستدعى مجهودا كبيرا من المحقق ، وخاصة اذا لم يجد مساعدة من المطبعى كما هى الحال غالبا فى بلادنا ٠ فقد تضطرب التعليقات ويدوم تصحيح بروفات الطبع شهورا كما وقع لى فى كتاب القـزاز ٠

لكن ملاحظتنا على الطريقة التى اتبعها الاستاذ الشرفى فى تقسيم الكتاب الى فقرات هى أنها طريقة غير مطبقة كلها كما هى عند المحققين المتمكنين مـن صناعتهم ٠ فالذى ينقصها هو أن هذه العناوين التى استنبطها المحقق للفقرات كان ينبغى أن يضعها بـين معقوفين على رؤوس هذه الفقرات فى النص نفسه أو يكتبها بحرف رقيق فى أحد جوانبه بدون معاقيف ، ويشير الى أنها من صنعه ٠

أما أن يكتفى بايرادها فى فهرس بآخر الكتاب ، فان الفائدة منها للنص لا تتحقق عند مطالعته ٠

ومما لاحظناه ، في نقطة ثالثة واخيرة ، عن خطة المحقق موضوع الفهارس • وهـــى عديدة ومتنوعة وكلها شاملة ودقيقة • ورغم أن الارقام التى بها تشير الى الفقرات وليس الى الصفحات كما هو المعتاد الا أن ذلك أسرع فى البحث عنها لان طول الفقرة فى الغالب اقل من طول الصفحة •

وكانت لدى ملاحظة عن اسم المؤلف أخرتها الى هنا ، الى حين الحديث عـــن مسائل عرض لها المحقق بمواضع مختلفة من مقدمته •

يقول المحقق فى أول كلامه عن مؤلف الكتاب : « لم يذكر اسم المؤلف ضمن أى نسخة من مخطوطات الكتاب وجاء فى مقدمته أنه صبى من آل عبد الحق الخزرجى » ، يريد المحقق أن يقول ان اسم المؤلف كاملا غير مذكور فى واحدة من نسخ المخطوطات التى بين يديه ، الا ما يكون من الكنية عنه بأنه « صبى من آل عبد الحق الخزرجى » • ولكن المحقق يعرف من معظم المصادر التى تنسب الكتاب أن هذا الصبى لم يكن غير أحمد بن عبـــد الصمـــد ابن أبى عبيدة (بن) محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحق الانصـارى الخزرجى الساعدى • واذ قد عرف ذلك ، تصور أنه لم يبق أمامه الا أن يثبت على صفحة غلاف الكتاب المطبوع « أحمد بن عبد الصمد الخزرجى » •

وما لاحظناه عليه من التصرف فى عنوان المخطوط نلاحظه عليه كذلك فيما يتعلـق باسم المؤلف على ظهر الكتاب • فقد كان الواجب أن يحتفظ بنسبة الكتاب الى صاحبه كما هى الاصل ، وكما هو مذكور فى النسخ بين يديه • ولو فعل المحقق ذلك لرعى المؤلـف رعاية ما بعدها لانه يكون قد حفظ لكتابه جزءا من شخصيته التاريخية ولانه يكون قد حفظ له ــ أى للمؤلف ــ جزءا من تاريخه وبعض أحواله مع أهـل زمانه ، ولـــه ، أى وللمحقق بعد ذلك أن يكتب على سبيل التبيين الاسم الحقيقى للمؤلف تحـــت الاســـم المستعار • لكن المحقق ، حتى وقد ذكر الاسم الحقيقى للمؤلف ذكره بصورة لا أستطيع وصفها ولكنى أشبهها بموظف فرنسى ، فى عهد الحماية ، تعرفه باسمك على النحو الذى يحقق لك تمام شخصيتك وأصالتك وما أنت مشهور به ، فلا يريد أن يعلم مـــن أمرك شيئا الا أنك مجرد فرد ، ويبتدرك مستهينا : اسمك واسم « أبوك » ولقبك العائلى ؟

والاستاذ الشرفى أسقط من عناصر اسم مؤلفنا عنصرا مهما ، وهو اسم أحد أجداده الأولين وهو عبد الحق ٠ واكتفى بانه « أحمد بن عبد الصمد الخزرجى ٠ وفضلا عن احتفاظ كثير من الباحثين المحدثين باسم « عبد الحق » ، هناك العبارة المذكورة بنصه على أنه من تاليف صبى من بنى عبد الحق الخزرجى ٠ وهناك ، فضلا عن ذلك حساسية بالتراث لا يزكاها الا المنعطفون عليه تجعل سقوط « ابن عبد الحق » من نسب الخزرجى أمرا فى غير حقه ٠

فهو « أحمد » أو « صبى » ولكنه أساسا « ابن عبد الحق الخزرجى » ، والذى فعله المحقق هنا أشبه ما يكون من انسان أراد أن يخرج للناس كتاب العبر ، فكتب فى غلافه انه لعبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمى ! فهل تراه أصاب حين أسقط اسم « خلدون » ذلك الجد الاعلى الذى أصبح لا يعرف مؤرخنا الا به ٠ ويبدو لنا أن خلدون هذا كعبد الحق ذاك ، كلاهما جد أعلى للرجلين بالاندلس ، وكلاهما أصبح اسما لبيتهما ، فيقال آل بنى عبد الحق كما يقال آل بنى خلدون ٠

وننتقل الى نقطة أخرى تتعلق بشخصية المؤلف فى هذا الكتاب ، فقد رأينا أن المؤلف ألغز اليه بأنه « صبى من آل عبد الحق الخزرجى » ٠ فلما رأى المحقق أن أكثر المصادر التى تنسب الكتاب الى صاحبه تسميه باسمه الحقيقى ، ولما رأى من أخباره فيها انه عندما ألف الكتاب كان أسيرا لدى النصارى ، ولما رأى هناك اشارة فى صدر كتابه الى سقوط قرطبة ، لما رأى ذلك كله أخذ يقارب بين تواريخ تلك الاحداث ليجعل هناك تطابقا بين تاريخ تاليف الكتاب وعمر المؤلف آنذاك ليحقق له ما المؤلف موصوف به من « الصبا » حين كتب « المقامع » ٠ فانتهى من كل ذلك الى أن عمره كان آنذاك اثنتين وعشرين سنة أو ثلاثا وعشرين (ص 9) ٠

وقد يكون هذا أبرز جهد بذله المحقق فى معالجة بعض مسائل الكتاب ٠ ويشعرنا الاستاذ الشرفى فى تعليق له على هذه النقطة بأسفل النص بأن الاستاذ دى ابلثا له رأى آخر فى المسالة ، يقول المحقق : « يذهب م ٠ دى ابلثا ٠٠ الى أن الكتاب قد ألف سنة 1186/582 من قبل ابن أو تلميذ لعبد الحق الخزرجى ، وليس لما ذهب اليه مبرر فى نظرنا » (ص 9) ولدينا على موقف المحقق ملاحظات :

اولا : ليس دى ابلثا هو الوحيد ، كما سنبين ، الذى له رأى فى هـذه المسالة (عـلى الاقل فى الجزء الثانى منها) • وعلى كل فقد أبدى هذا الاستاذ الكبير ظنا واحتمالـين • أما ظنه حول تاليف الكتاب ، فغير صحيح أن نتحدث عنه بفعل الماضى المصحوب بقـد (يذهب الى أن الكتاب قد ألف) ، أما الاحتمالين حول هوية المؤلف فلا ثالث لهمـا ، وانت نفسك أخذت بأحدهما • ومع أن الاحتمال الثانى ضعيف الا أن « مبرر » التفكير فيه بصورة مبدئية جائز فى حالة مؤلفنا •

ثانيا : هناك كل الدلائل على أن المؤلف أخفى اسمه جزئيا لكونه كان متخوفا عـلى نفسه من حكم النصارى • ولو كنت اهتممت بهذا الامر لاوليت عناية لملاحظة قيمة توجد على نسخة المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب (ولعلها له) ، يقول فيها : « ان المجيـب المسلم كان يعيش تحت حكم النصارى ولذلك أخفى اسمه » • ولكنك نقلت هـــذه الملاحظة عند وصفك للمخطوط (ح) دون أن تشير اليها أدنى اشارة عندما عرضـت الى شخصية المؤلف والى مذهب الاستاذ دى ابلثا فى ذلك •

ولو كنت اهتممت بذلك الامر لتجاوزت ما تبادر الى ذهنك من أن الكتاب « مـــن الممكن أن يكون أحد هؤلاء الجماعة (الذين ترك المؤلف كتابه بين أيديهم) هو الذى وضع المقدمة » (ص 14) ، وبما أن مقدمة الكتاب هى التى تحتوى الاشارة الى التكنية عـن المؤلف بانه « صبى من آل عبد الحق الخزرجى » فهذا منك ميل الى أن المؤلف لم ينسب كتابه اليه فى الاصل ، لا صراحة ولا كناية • وقولك انه : « من الممكن أن يكون أحـد هؤلاء الجماعة هو الذى وضع المقدمة » دليل على ما ذهبت اليه •

وهذا مذهب نعارضك فيه بشدة ، وكان ينبغى أن تخالط المخطوط قبـــل تحقيقه مخالطة الانسان لنفسه وتستأنس فى كثير من المشكلات التى عرضت لك بشأنه بآراء العلماء وأهل التحقيق لا أن تبادر الى المخالفة عليهم وقلة الاهتمام بملاحظاتهم ، وكـان ينبغى عليك أن تتعمق المسائل بما هو لائق من أهل البحث والتحقيق مثلك ولا تاخذ لفظ « الصبى » على ظاهره أو تظن بشانه ظنا فطيرا كالذى ظننته بأن مقدمة الكتاب اذا كانت تحتوى على وصف لحال المؤلف فهى ليست له • ان مقدمة كتاب واحد من كتب التراث كانت تدلك على العادة الجارية لدى المؤلفين القدامى فى تقديـــم أنفسهم بانفسهم فى

صدور كتبهم ، ولا يجدون أدنى تحرج فى ذلك · ويشفع للخزرجى اذا تحدث عـــن نفسه فى هذا الكتاب كونه لا ينسبه الى نفسه نسبة تامة تدل عليه دون غيره من آل بيته·

واذا كانت لفظة « الصبى » لم تثر فى خاطرك الا انه صغير السن ، فنحـــن نسأل باستغراب أين هو هذا الجو العلمى الذى يحتاج أن يستحضره المحقق ليتآلف مع نفسية المؤلف وظروف كتابه ؟

واذا كان هذا الذى قدرت له اثنتين وعشرين سنة او ثلاثا وعشرين حين ألف كتابه هو « صبى » لفظا ومعنى وهو « صغير السن » فى حسابك ، فانا نعجب لكون هـــذه المفارقة لم تثر فى ذهنك شيئا سوى تشكيكنا فى أن المؤلف قد اطلع ـ كما يدعى ـ على أناجيل المسيحيين بالعبرانية وقرأ شيئا من تفاسيرهم لها (ص 15) ·

ان الطالب اليوم يتخرج من كلية الآداب بأكثر من ثلاث لغات وهـــو لـــم يتجاوز العشرين من عمره ، وتجد لكثير من نوابغ الطلاب تآليف على غير قليل من الاهمية وهم فى مثل هذه السن أو ما يقاربها · ومع ذلك فالقدامى اقل تهيبا للتاليف وأقل عناء فى نشر بضاعتهم منا ·

فهل نستكثر على ابن عبد الحق أن يقرأ فى أناجيل المسيحيين ويشغل نفسه بما هو شغل علماء المسلمين فى ذلك الوقت للدفاع عن ذاتيتهم ودينهم ؟

ثالثا : ان الاقرب الى الظن ، بناء على ما قدمت ، أن يكون ابن عبد الحق الخزرجى قد اضطرته التقية على نفسه أن يختار لقبا له فى صدر كتابه ، ولكن مع الابقاء على النسب العام الذى يدل على آل بيته حتى لا يضيع على نفسه (عند ما يعلم أمره) وعلى أسرتـه شرف هذا التاليف · وقد يكون حديثا بالتاليف وحديث السن عند ذلك ، غير أنه من المؤكد أنه لم يختر كلمة « الصبى » لا تصغيرا لشانه أمام مخاطبه ولا مهاونة لنفسه ، ولكن لأمر آخر قد يكون ذلك الوقع الجميل فى سمعه وقلبه لقوله تعالى : « **وآتيناه الحكم صبيا** » (أى حكمة وعلما) · ونميل الى ذلك لشخصية المؤلف الدينية ولاقتباسه مـن القرآن الكريم فى عنوان كتابه كما بينا ·

وماذا تكون طريقة التأليف عند هذا « الصبى » « الصغير السن » على ما فهم المحقق ؟ وما يكون وزنه العلمى فى هذا الكتاب كما يراه المحقق ؟ وما تكون حاله فى منطقه وفكره مع مخاطبه القوطى النصرانى كما يراها المحقق أيضا ؟

كل هذه المسائل نجد للمحقق أحكاما قاطعة بشأنها ، يلقيها الينا بدون تردد وبكثير من الاطمئنان الى أنها موضوعية ودقيقة ، ومع أنه يرى أن موضوعه فى المقدمة ليس دراسة الكتاب الا انه رأى «من المفيد التنبيه» الى أشياء من ذلك، فيقول فى فقرة مركزة : « ولئن كانت دراسة الكتاب دراسة تفصيلية ، خارجة عن النطاق الذى رسمناه لهـذا التقديم فمن المفيد التنبيه الى أن طريقة المؤلف فى رده تعتمد الحجج النقلية أساسا ولا تجنح الى المناقشة « الكلامية » البحت الا بصفة عرضية وسريعة ، ولا غرو فقد رأينـا أن الخزرجى محدث قبل كل شىء ، وهو لا يتحاشى استعمال عبارات السب والشتم فى بعض المواضع ، ويبدى الكثير من الترفع على مخاطبه والاحتقار له ولقومه ـ رغم أنـه كان أسيرا فيهم ـ ولكنها ، لعمرى ، قاعدة تكاد تكون مطلقة فى هذا النوع من التاليف فى القديم سواء صدر من المسيحيين أو المسلمين » (ص 14 ـ 15) .

ان الذى لا نوافقك عليه ، فى هذه الفقرة هو ما تقوله خصوصا بعد « لا غرو » وبعد « لعمري » ان كون الخزرجى محدث لا يعنى بالضرورة ان طريقته اقتصرت بحكم ذلك على ردود نقلية لا عقلية على طريقة أهل الكلام . ومعنى ذلك عندك أن أهل الحديث بعداء عن المناقشات الكلامية . وهذا ظن منك غير حقيق . فهل تعلم أن علماء الكلام من المسلمين أبرزهم كانوا من المحدثين . وحمل الحديث وأعمال العقل أمران ـ لعمـــرك ! ـ غـير متعارضين . ولا نطيل فى بيان ذلك ، انما الذى نريد أن نقوله لك ان طريقة المؤلـف اقتصرت على ردود نقلية الا ما قل من العقليات ، ليس لانه « محدث » على نحو ما تفهم ، ولكن أساسا لان مخاطبه رجل دين وخاطبه فى رسالته اليه ببراهين نقلية من دينـه ومن دين الاسلام . فهل ترى المسالة بينهما كان ينبغى أن تكون على نحو هذا « الحوار » الذى تدق له الاجراس اليوم ؟ !

وهذا « المحدث » الحشوى السباب الشتام والمتكبر الذمام ، كما تصوره لنا كلماتك لمحا ، ماذا تراه جاعل مكان تلك العبارات فى تلك المواضع التى احتاج فيها الى أن يعبر

عن عظيم سخطه واستنكاره لحملة الاستلاب التى تقـــوم بها صليبية الاندلس عـــلى المسلمين ؟ فهل تراه رجل من مخاذيل المسلمين اليوم قد خففت الثقافة الغربية مـــن شوكته الدينية وحميته العربية فيدان ويهان فى مقوماته ولا يقبل منه أن يتحدث عن ذلك الا بعقل وافر وأدب جم ؟

لقد كنت بباريس سنة 1970 ورأيت بعينى رأسى أمام كاتدرائية نوتردام خـروج فريق من الشابات والشبان الفرنسيين مدرعين على الجياد لاحياء ذكرى انطلاق حملـة لويس التاسع ملك فرنسا فى صليبيته نحو الشرق ٠

وانه مهما يكن من تطور الشعور الدينى بفعل الحضارة الحديثة ، فان دراسة الشعور الدينى قديما ينبغى أن لا تلتبس باعتبارات حديثة ٠

ولقد شككنا المحقق فى كثير من أمر صبى بنى عبد الحق ، ولكنه لم يشككنا فى أمر مهم جدا هو فهمنا لنص كتابه كما حققه لنا ٠

فالاصل فى عمل المحقق أن يقدم لنا النص بصورة مقروءة مفهومة ، لان المفروض فى النص أنه قديم فى أسلوبه وعبارته ومعانيه ، والمفروض فى قرائه المحدثين أنهـم ليسوا من خاصة العلماء بالمخطوطات وبالتراث القديم ، ولذلك ففى كثير من المخطوطات القديمة ما يستغلق عليهم فهمه وقراءته ٠

ونحن لا نرى للمحقق شرحا للفظة واحدة فيه ، لا شرحا لغويا ولا حضاريا ٠ حتى كلمة « المقامع » لم تظفر منه بشيء من ذلك ٠ وفى هذا الكتاب بالذات شرح المعانى أهم فى الغالب من شرح الالفاظ ٠ ولا نجد له ولا تعليقا على المعانى المضطربة فيـــه ٠ ولا يخامرنا الشك مع ذلك فى أن المحقق ركن الى المقابلة الآلية بين روايات بعض النســخ التى حصل عليها من المخطوط ، يثبت من هذه ومن تلك ، مرة صحا ومرة غلطا ٠ والحال أنه كان له من عمل أحمد بن عبد الله السوسى صاحب النسخة (أ 1) من الكتاب ، فى بعض هوامشه عليه ، قدوة ومنطلق لتعميم أمثال تلك التعليقات على الكتاب (انظـر ص 179 و 121) ٠

وحتى فى المواضع القليلة التى وجدنا للمحقق تعليقا عليها ، فهى تعليقات غريبة وهذه بعض نماذج من ذلك :

نقرأ فى النص فى ص 55 : « وعجبا لتوهمكم أيضا باختلافكم فى خشبة صلبه ، فمن قائل كانت من السرول ومن قائل كانت من الارز ومن قائل كانت أطروشا من نبيط ٠٠ » فيكون تعليق المحقق رقم 13 على « أطروش نبيط » : « ولم نفهم المقصود من هذه العبارة » ٠ انها خشبة ! ولكن قل لنا ان كنت وجدت هذه الكلمة فى المعاجم أم لا ؟ ان التعليق لا يكون هنا الا كذلك ٠ وهذه اذا صدقت هى العبارة الوحيدة التى يشير المحقق الى أنه لم يفهم المقصود منها فى الكتاب ٠ وكم فى الكتاب من عبارات تحتاج الى توضيح ٠

وفى صفحة 111 يعدد المؤلف المعجزات النبوية التى منها : « ٠٠ رد عين قتادة بن النعمان الانصارى (الى موضعها) يوم أحد بعدما (برزت) فكانت أحسن عينيه وكانت الاخرى تمرض ولا تمرض هى ، فلقب قتادة العينى ، وهو من أدواء اليمن » ٠ والصحيح « أذواء » أى ملوك اليمن ، ولكن المحقق لم يتحقق من ذلك بل مما يفهم من تعليقه رقم 11 لم ينصرف ذهنه الى ذلك بالمرة ، ولعله فقط لما رأى « المرض » سـارع الى « الادواء » ٠ وكان بامكانه أن يشرح هذه الكلمة كما شرح السوسى فى هامـش نسخته (واثبت المحقق هذا الهامش) كلمة النجاشى فى ص 179 بقوله : « هو علم على كل من ملـك الحبشة » ، ولذلك قلت فيما سبق لو اتخذ المحقق هذا السوسى الشارح قدوة فى عمله على تحقيق الكتاب لكان أفضل من أن يرى عمله أشبه بعمل المستشرقين على مخطوطاتنا حين يكون اتقان الواحد منهم للغتنا ناقصا واطلاعه على تراثنا محدودا ٠

وبمناسبة « النجاشى » اطلعنا فى الفهرس على أنه مذكور مرة واحدة فى الكتاب بالفقرة رقم 150 ولكنه مذكور مرة أخرى فى الفقرة 151 الموالية ٠ فهل لا يخلو الفهرس من بعض نقص ؟

وفى ص 93 ، وقد عرض المؤلف للكلام عن مسيلمة الكذاب فقال المحقق فى الاسفل « انظر عنه دائرة المعارف الاسلامية بالفرنسية ، ط 1 ، ج 3 ، ص 796 ـ 797 » ٠ وأنا أعتقد أن المحقق لديه أقوى المبررات على تفضيله احالة القارىء عـلى هذا المرجع دون

غيره من المصادر والمراجع العربية الوثيقة . ولكن ، لو جعل معه كتابا كالاعلام للزركلي مثلا أو كتاريخ الطبرى مثلا (خاصة هناك نصوص من قرآن مسيلمة مذكورة به ، وهى فى هذا المخطوط تحتاج الى تحقيق) ـ قلت لو جعل مع المرجع الفرنسى مرجعا عربيا واحدا على الاقل لكذب الظن الذى لم ننفك نتهم به المتخرجين على أيدى المستشرقين بأنهم ليسوا فى جلتهم الا مستشرقون أو أشباه مستشرقين . والمستشرقون أفضل منهم على كل حال فى معاملة تراثنا وأبنائه غير المتاوربين . فهل أنا محتاج أن أدل على أن قسم العربية بكلية الآداب عندنا هو عبارة عن خلية مستشرقين صغار ؟

ان مقامع ابن عبد الحق الخزرجى لم يظفر بحظه كاملا من التحقيق ، رغم الجهد الكبير والمشكور الذى بذله المحقق فيه ، كما يبدو لنا من مقابلاته بين النسخ ومن تخريجه للنصوص الدينية فى كتبها الاصلية ومن الفهارس الموضوعة له . وما أشرنا اليه من الملاحظات عليه انما هو من قبيل المراجعة لعلنا أو اياه على صحة أو على خطأ قليل . ونرجو أن يوفق يوما الى مقابلة الكتاب ببقية النسخ التى تحصل عليها بعد طبعه . وربما يستدرك على نفسه وعلينا أشياء فى طبعة ثانية .

وقد يقبل منا المحقق أن نرى له تلخيصا للكتاب أطول من الخمسة سطور التى كتبها فى المقدمة ، ودعا القارىء بعدها أن يرجع الى فهرس الموضوعات بآخر الكتاب . فليس فى ذلك الفهرس غير عناوين جافة ورؤوس فقرات لا تغنى القارىء الذى يريد أن يجد بين يديه قبل قـراءة الكتاب أو بعد قراءته اختصارا لطيفا له . ومعلوم ما يتكلفه المحققون من جهد فى تلخيص أمثال هذه المخطوطات التى يطول الكلام فيها حول موضوع واحد تتشعب فيه سبل القول . وذلك لانهم يخشون أن لا يرى القارىء الحديث ـ وهو متسرع عادة ـ مقبلا عليها لطبيعة تاليفها التى بعدت بنا الاذواق عنها . فيجملون له من نص الكتاب ما يحببه فى الاقبال على قراءته كاملا ويبعثه بسهولة الى التعاطف مع أسلوب صاحبه .

ونخشى ، ان نحن أقدمنا مكان الاستاذ المحقق أو قبله على تلخيص الكتاب ، أن نفسد عليه ما قد يكون من عزمه فى أن يصور لنا بأسلوبه الحديث شيئا من هذه المباهلة

الدينية بين الرجلين ، وشيئا من ومضات ايمانهما وحماسهما فى التداعى الى الهدى ودين الحق ، فى هذه الاندلس الشهيدة ٠

وقبل أن ننهى هذه الهوامش نعود لننوه بالمجهود الكبير الذى بذله المحـــقق فى اخراج هذا المخطوط المهم ٠ ورحم الله ابن عبد الحق الذى لم يمنعه غضبه لدينه ولنبيه فى وجه هذا القسيس المبشر من أن يترضى فى كتابه على الحواريين ويصلى عـلى عيسى عليه الســـلام ٠

الثقافة المغربية

أو قضية حوار

د . الطاهر اللبيب الجديدي
كلية الآداب - الجامعة التونسية

اذا سألت مغربيا اليوم أن يتحدث عن الحوار فينبغي ان تتوقع محاولة منه ، تلقائية أو قائمة على التفكير والتروي، لان يتأمل أولا ، ظهر التاريخ أو بعبارة أدق ، التاريخ المعكوس : الشيء الذى كتب عنه ، أو كتب له ، أو كتب ضده .

والواقع انه يشترط فى قيام حوار ما ، ان يثبت كل من المتحاورين ذاتيته . وعدم توفر هذا الشرط هو مصدر الاتهامات التى توجه الى المؤرخين والاحكام التى تصدر عليهم . والمسألة ليست مسألة النظريات والمساعى والنتائج التى فرغ من ادأنتها . وحتى كتاب شارل اندرى جوليان المعنون : « افريقية الشمالية فى مسيرتها » ، أصبح يوجد من اكتشف فيه ثغرات عديدة (1) .

وكذلك نجد أعمالا علمية أخرى ، كانت محل تقدير الجميع فى الماضى ، تتعرض بحكم تقدم البحث التاريخى ، للنقد والتشهير كما اصبحنا نشاهد مؤلفين وبرامج ومؤتمرات متعاقبة تلح كلها فى الدعوة الى اتخاذ موقف مغربى لتقييم التاريخ . وهذه هى الطريق الوحيدة لادماج المغرب فى تاريخه الذى طرد منه ، ادماجا كليا .

والمغرب (التسمية التى تطلق على مشروع للوحدة فى اطار الذاتية) كلمة مرادفة من الوجهة التاريخية للحوار . ففى هذه المنطقة التى تنفتح منها أربع نوافذ ، تلتقى عناصر

(1) راجع « الاصالة » ، عدد 11 ، نوفمبر ، 1972 .

السكان المتعددة : البربر والفنيقيين والعـــرب والاتراك والاسبـــان والفرنسيين ، هـــذا اذا اقتصرنا على ذكر الشعوب التي تملك لغات ، دون سواها • وهذا التنوع في عناصر السكان ، كان له تأثير عالمي على انتاج المغرب الحضاري ، ذلك الانتاج الذي عرف الغرب قيمته منذ اقـــدم العصور • وفي عصرنا هذا ، وجد البعض ما يبرر تسمية المغرب « مصرفا » ، أو « مستودعا لوثائق الحضارة » • وهذا ينطوي ، في نفس الوقت على استرجاع وتحقيق الامكانيات •

مخاطـــر التعـــاون:

وهنا يطرح نفسه سؤال لم تزل اليقظة المغربية تبدع في تنويع الجواب عنه : مع من ؟ وعلى أي أساس ؟ وكيف نجري حوارا • وهـذه الصيغة للسؤال أقل غموضا من غيرها • ففكرة « العالمية » مثلا ، تثير كثيرا من التشكك بـــين الجيل الجديد • وقد يقال ان هذا التشكك تعبير عن التشاؤم • ولكن الواقع ان هذا التشكك يوجد ما يبرره في انقسام العالم في الوقـــت الحاضر ، أكثر من أي وقت مضى ، الى نظم ومذاهب متعددة . وقد اصبح الانتماء الى كتلة أو الى كتلة فرعية من الكتل المتطاحنة ، أكثر من مجـــرد تعريف الفرد لنفسه : وسيلة للبقاء •

والمغرب الذي يثير في الذهن وضعه على ضفة البحر الابيض المتوسط الجنوبية فكرة الحياد والحوار ، يحاول الآن ان يثبت نظرية طالما كانت سببا في فقد شخصيته • فهل من مجرد الصدف ان تنشر في الوقت الحاضر في الجرائد ترجمـة حديث أجري مع المؤرخ الانجليزي ، طوينبي ، ويظهر فيه اندماج الدول الغربية في نوع من « الدولة العالمية » ، ضرورة لكي يتجنب الغرب الانتحار الصناعي ؟

انه ليكفي الوقوف لحظة عند هذه المظاهر لندرك حقيقة دقيقة وهي : ان تعابير المغرب ، والعالم العربي ، وافريقية وتكتل دول البحـر الابيض ، والعالم الثالث وهي افكار يتداخـــل بعضها في بعض احيانا ، انما هي مراحـــل وخطوات في العالم وليس في اتجاه الوحـــدة العالمية • لان هذه الوحدة وهم بعيد المنـال • ونحن لكي ندرك هذه الحقيقة ، يكفي ان نأخذ مثالا للحوار الذي يجري حاليا والذي يتمثـل في التعاون الثقافي •

ولنبدأ أولا ، بسرد بعض الارقام • فـان المتعاونين الفرنسيين الذين يعملـون في حقـــل التدريس في المدارس الثانوية في تونس ، يمثلون 37٪ في سنة 1965 و 40٪ في سنة 1970 وهذه

النسبة ترتفع فى التعليم العالى ، لتبلغ 47 ٪ فى سنة 1971 . وهذه الزيادة لا تنطوى على ما يستحق اللوم على مستوى الوجود المادى الذى تحقق بناء على طلب الدوائر المعنية ولكن اللوم الذى يوجد ما يبرره ، هو فى جانب النقد الذاتى .

ولكن لنعقد مقارنة تسمح لنا بان نتبين الوضع على حقيقته فى هذا المجال :

يدل تحقيق أجراه بعض الباحثين مؤخرا على ان 23٪ فقط من الفتيات ، و 18ر7٪ من الشبان ، من تلامذة المدارس الثانوية ، اعلنوا انهم ينتمون الى الثقافة التونسية .

فى مقابل ذلك ، نجد ، حسب هذه الاحصائيات أنه فيما عدا الغائبين (وهم نسبة تثير الانتباه) ، 10ر2٪ من الفتيات ، و 31ر2٪ من الشبان يعلنون انهم ينتمون الى الثقافة الفرنسية . (2)

واذا كان الاجنبى لا يجد غرابة أو ما يدعو الى القلق فى هذه الارقام ، فنحن نتوقع ان يساوره شعور بالفضاعة متى عرف 32٪ من الفتيات و 38ر5٪ من الشبان يشعرون بميل خاص الى هتلر . ولكن لم هذا الاستفضاع ؟ ان الشعوب تشعر شعورا متقاربا نحو هذا الاتجاه الذى يسميه البعض لسذاجتهم والبعض الاخر لانتهازيتهم « الضمير العالمى » . وهذه الشعوب تعرف ان اعظم القيم الانسانية نفسها تتعرض لخطر المسخ والتشويه بهذه النظرة .

نحو الذاتية :

ولهذا الاعتبار ، ينبغى التزام جانب الصراحة : وفى المرحلة الاولى ينبغى اعتماد مبدا « التبادل التجارى ، بدلا من المساعدة » . وهذه بالفعل هى الصيغة التى تعتمدها نزعة الى التعاون الثقافى . ولكن هذا فى الحقيقة لا يتعدى حدود الثقة . (3)

ونحن لكى نتجنب عرض التفاصيل المخيبة للآمال ، نكتفى هنا بالاشارة الى الخطر الذى لم يتردد وزير تونسى ذو ثقافة عالية ، عن التحذير منه حين قال انه يجب الحذر من « احلال امبراطورية ثقافية محل امبراطورية استعمارية زائلة » . وفى رأى هذا الوزير ان فكرة « التعاون » لا تزال غامضة ، ويمكن بسهولة ان تتحول الى « ارهاب ايديولوجى » . (4)

(3) راجع Quelques aspects du biliguisme en Tunisie, in Kakiers du C.E.R.E.S., série Linguistique n° 3. Nov. 1970.

Esprit, Juillet-Août, 1970

(4) مزالى ، فى مقال افتتاحى فى مجلة الفكر ، فبراير ، 1971 .

أفلا ندرك ، حينئذ ان الحوار الذى هو (نظريا) المبدا الذى يقوم عليه التعاون ، قد ينطوى على ما من شأنه ان يؤدى الى انقطاع الحـــوار نفســه ؟

ان ارادة الحوار انما تتبلور نتيجة لاحساس انسانى عميق تجاه الاجوبة التى تعبر عن تجارب المتحاورين فى الحياة . واحدى هذه الاجوبة التى اثبت التاريخ البشرى قيمتها ، هى الذاتية . فهذه الذاتية هى التى توجه الحوار وتثريه وتجعله فعالا وتحدد هدفه . فنحن ، مثلا ، نعرف انـه اذا اختار المغرب طريق التعريب ، فسيجد فى اللغة الفرنسية عونا له فى هذه المهمة . وبالتالى فان هذا الاختيار سيكون عامـــلا فى تشجيع الحوار .

ومن جهة أخرى ، فاذا تدخل الفرنسيون فى هذه العملية فى الوقت الـذى يتحدث فيـــه التونسيون عن « أسس الشخصية التونسية » ، وينشر فيه الجزائريون كتيبا بعنوان « بحث عن الشخصية » فى دورية بعنوان « معلومات سريعة » (هكذا !) ، فان هذا التدخل لا يعارض ارادة سكان هذين البلدين فحسب ، بل ان الفرنسيين يعارضون بذلك عبقريتهم أيضا ـ تلك العبقرية التى وجدت تعبيرا بليغا عنها فى « حقوق الانسان » .

ان هذا مثال واحد ، ولكنه مثال واقعى مستخلص من صميم التجربة ، وهو من الدقة بحيث يثبت انه اذا كان المغاربـــة يتطلعون الى ربط الحوار ـ الحوار الحقيقى والشامل والفعال ، فهو يوحى الينا بما يلى :

ان الحديث عن الحوار دون معرفة الطرف الاخر فى هذا الحوار ، أو محاولة التعرف عليـه ، ودون ان نكون على استعداد للاعتراف بفرديته ووجوده وذاتيته ، انما هو محاولة من المحاور لفرض نفسه بحيث يصبح طرفا وحكما فى نفس الوقـت .

وهذه الطريقة عقيمة فى الحوار وهى تنطوى على ميل الى تصور الانسان ان رغباته وأحلامـه حقائق واقعة ، وبالتالى فهو يبنى صروحه على الرمال ، وليس على أرض صلبة .

ابن زيدون

جعفر ماجد
كلية الآداب ـ الجامعة التونسية

ظلت عصافيرها حيرى تنادينا والعطر بعدك قد مل البساتينا
والسحب ما كللت بالسحر هامتها الا لتكتب ـ اذ تهمى ـ معانينا
والنهر لم يجر يوما فى معاطفها الا ليسكب فى صمت أغانينا
حسناؤك البكر ما زالت محجبة لم يجلها شاعر بعد ابن زيدونا
(أوليس) لم يأت يا(ينلوب)أندلس لا تسأل الريح الا عن موانينا
يا حسن قرطبة فى ثوب بهجتها لا غرو أن أسرت قبل السلاطينا
رأيتها والقباب البيض تحجبها مثل الجواهر زانت بنت عشرينا
مدت يديها الى التاريخ تحضنه فعانقت كل شهم فارس فينا
أنفاسها لم تزل بالمجد دافئة وقلبها خافقا بالحب مشحونا

قـد خبرتها الليالى عـن مصائبنا وحـدثتها طـويلا عـن مـآسينا
فأيقظت جرحها مـن بعد هجعتـه وأرسلت دمعها فى الصمت تبكينا
أبـا الوليد وهذا اليـوم موعدنا قد كان منـذ الصبا حلوا تـلاقينا
كم مجلس فى المنى الخضراء يعرفنا ومـن قطـوف هصرناها بأيـدينا
نـأتى اليـك متى شئنـا بأجنحـة تطـوى الزمان فتنسيـه وتنسينا
لكننـى حامـل همـا أكابـده من ألف عـام ، فخذا وزاره حينـا
ماذا جنينـا مـن التاريخ نظلمـه ومن كؤوس الهوى والخمر تسقينا
أين الميـادين هـل فيها فوارسنـا بـل المخادع هـل فيها جـوارينا
كانت بـلادك مثل الفلـك يلطمها مـوج الهـلاك ولا تلقى المنجينـا
وأنت فى غمـرة اللذات منهمـك مـا كان يعنيك أمـر كان يعنينـا
وللطـوائف أقـزام رأيتهـم لكـل وصـف كبـير مستحقينا
مـدحت معتضدا منهـم ومعتمدا وعشت مبتـذلا فيهـم ومسكينـا
ولادة يـا كتاب الحـب معـذرة تخصى الفحـول وتغتـال المحبينـا
ولادة ضيعـت بالامس أنـدلسا ولـم تـزل حيـة موجـودة فينـا
يا واهب الشعر معنى مـن روائعه كـم كنت تمـلأ بالوهم الدواوينا
لم تـدر أن حروف الشعر غاليـة لم تـدر أنك فى صف النبيينا ..
الحـرف مقصلـة لا يشتهى دمهـا مـن لا يقبل فى الحـق السكاكينا
ما همنا أن نـريق اليـوم أدمعنـا لم يبـق دمـع عزيز فى مـآقينا
لقـد شربنـا مـرارات منـوعة ولـم تـزل لـك كأس من دوالينا
عشنا عـلى هامش التاريخ مثلكـم وبعد أنـدلس خنـا فلسطـين
يا شاعـر الحـب لا تجرح مـودتنا اذا قسوت ولم أسلك بـك اللينـا

ان المـــودة أبقـــى فى معـــاتبها وقـــد عـــرفت من العتبى أفـــانينا
علمتنا أن نرى فى الارض فتنتها وزدت رونقهـــا حسنـــا وتلـــوينا
حتى كـــأنك رســـام بريشـــته قد نمنم العشب واشتق الرياحينا
وكنت فى الشرق مثل الغرب مبتكرا الهامـــه عـــربا يهـــدى ولاتينـــا
وحبـــك الشىء نـــوع من حمايته فهـــل درأت عن الارض الثعـــابينا
يا ليتنى اليـــوم أنسى ما وهبتهـــم وليت شعـــرك لـــم ينس المساكينا

في الذكرى الالفية لابن زيدون :

شاعر الخلد

محمد الاخضر السائحي
الجزائر

يا ساكب اللحن خمرا فى أغانينا من بعد لحنك لم تسكر ليالينا
لم يرقص الحلم في نجوى نطوف بها عبر الليالى .. ولم تسلس قوافينا
لا روعة الحسن تغرينا وتأسرنا اذا نظرنا ، ولا الأنغام تشجينا
تغيرت بعدك الألحان ، واضطربت وضيع الشعر ــ كالناس ــ الموازينا
لا تسأل الشعر عن ماضيه ما بقيت للشعر ــ والله ــ أرحام بماضينا
تقاذفته دروب ليس يعرفها فضاع ، لا نسبا ــ يدرى ــ ولا دينا
وعاد كالليل ألفازا محجبة لا نستبين طريقا فيه يهدينا
لحن نشاز وألفاظ مبعثرة لا تلتقى عند معنى من معانينا
أضناه بعدك يأس لا يفارقه فعاش بعد انعدام الذوق مسكينا

لـم يلـــق ولادة أخـرى يعاتبها ... وراح يلقى ابن عبدوس مـلايينا
يا خالد الشعر يسقى الناس خمرته ... مـا كان أروع خمـر أنت تسقينا
ليلاتك البيض فى أيـام قرطبـة ... ما زال ايقاعها فى الـدهر يسلينا
تعـيش أعمـاقنا فيهـا مجنحـة ... وتستطيب بهـا الـدنيا أمـانينا
ما جـال منها خيـال فى خواطرنا ... الا تـــالـق دمعـــا فى مـآقينـا
ولا ذكـرناك الا قـــال قـائلنـا ... «أضحى التنائى بديلا من تدانينا»
من ألــف عـــام تغنينا فتطــربنا ... هـلا استرحت قليـلا لا تغنينـا
يـــا رب أغنيــة حـيرى تلقفهـا ... فم الزمان .. مضت كالغيث تحيينا
كانت شكـاة الى الاحباب هامسـة ... لكنهـا فجـرت فينـا البـراكينا
ماذا لقيت مـن الشكـوى ترددها ... لغـادرين ـ بـلا ذنـب معـادينا
أقصوك لم يقبضوا غير الاسى ثمنا ... وغـير أن زدت بالاقصاء تمكينـا
تركتهم فى شراك الخـوف تخنقهم ... وطـرت تسخر مـن كيـد المحبينا
سريت من أفـــق عال الى أفـــق ... كالبـدر مرتفعا خلقـا وتكـوينا
هالات نـورك تغشى كـل ناحيــة ... كالشمس من فوق قاصينا ودانينا
سل عنك «اشبيليا» هل كان في فمها ... غير ابن زيدون ترجيما وتلحينا ؟
يا ساقى الشعر خمرا ، ما يزايلها ... هذا الصفاء الذى قـد ضل يغرينا
ما زلت وحدك هذى الخمر تعصرها ... ومن يديك تنـال الفضـل أيدينا
مـــرت قرون ومـا تنفك نشـوتها ... كـأمس للطـرب الاسمى تنـادينا
قضبـان سجنك لـم تحجب أشعتها ... ولم تـــرد شـــذى منها يغـادينا
مـا كان يعـــلم سجـانوك أنهـم ... قد أطلقوك.. وهم كانوا المساجينا

* * *

أبـا الوليد وكم سافرت في زمـن   وطفت بـين قلـوب في مغانينا
سامـرت كـل محب بـين أربعنـا   وعشت في كـل نـاد من نوادينا
فكنت في نغمـة الشادي يسامرنا   وكنت في زفـرة الشاكي يناجينا
مجدان صغتهما في الـدهر قافية   غنـى بها كـل شـاد في ليـالينا
والشعر نهـر اذا جادت روافـده   أعطى الروابي ما أعطى البساتينا
لكننا قد نسينا الحـب من زمـن   ولم نعـد يا ابن زيـدون مجانينا
لم يبـق للحب في أعماقنا أثـر   قضت عليـه همـوم مـن مـآسينا
الحـب ضيـع بالأوهـام أنـدلسا   وضيع اليوم ـ لو تدري ـ فلسطينا
فنـم فقد عشت عهـدا لا يكـدره   عليك شيء سـوى هجـر المحبينـا
« ليسق عهدكم عهـد السرور فما   كنتـم لارواحنـا الا رياحينـا »

إلى ابن زيدون
في ذكراه الألفية

نور الدين صمود

كلية الآداب - الجامعة التونسية

من هنا مر طارق بن زياد حاملا مشعل الهدى والرشاد
لكأنى فى الغيب أسمع منه زأرة الليث خلف صف الجياد
يستحث المطهمات الى الفتح ويزجى الجنود كالآساد
بربرى لكنه عربى مسلم حامل لواء الجهاد
ناشر راية الاله على الأندلس البكر جنة القصاد
نثرت فوقها الشموس اللآلى وتحلت بصبغة الاوراد
من هنا مر ذلك الفاتح المغوار من أجل دين خير العباد
من بلادى ، ومن هنا جيشه المنصور أعظم بجيش هذى البلاد
ليس بدعا أن يصحب الجيش سيل من خيول تربو عن التعداد

وجنود أمضى من العزم عزما وسيوف تهتز فى الأغماد
فلقد كان تحت امرة موسى ابن نصير رب التقى والجهاد
ذلك الجيش جمع الله فيه كل هذا الشمال يوم الطراد
وحدة المغرب الكبير تجلت منذ فجر الزمان ، من عهد عاد
قد تفر الجبال فى الحرب لكن لا تفر الابطال يوم الجلاد
(خلفهم يزأر المحيط ويدوى وأمام الجيوش بحر الاعادى
لو توانوا لاصبحوا كيتيم ضائع فى مآدب الاوغاد) (*)

* * *

وأقام الاسلام صرحا عتيدا فى حماها للعز والامجاد
عرف المجد عهد صقر قريش والصناديد من بنى عباد
ثم ضاعت يا ويحنا كيف ضاعت وتوارت كالحلم اثر رقاد
بعد عهد من الضياء أقام الـ ـعرب فيه حضارة الاجداد
الخلافات حطمتهم فأضحوا يستعينون بالعدى الانكاد
الخلافات منذ أمس أضاعت ملك غرناطة الرفيع العماد
أين قصر الحمراء والحائط المنقوش بالتبر كاللظى الوقاد ؟!
أين منا غرناطة وهى روض تتبارى على رباها الشوادى ؟!
أين منا ظلالها ورباها وخرير المياه فى كل واد !!
قطعة من فرادس الله فرت واستقرت فوق الربى والوهاد
يضحك الورد فى رباها نديا وتشع الثلوج فوق النجاد

(*) معنى البيتين مأخوذ من خطبة طارق بن زياد فى فتح الاندلس .

ـر مـــرتـع سرمـــدى كعـروس فى

ـى ولادة وهى أنـــس وجمـــال وفـ

ـا يمنـح العيـون ضيـاء كالثـريا تـلأ

قبلــة الوفــود ، ولكن حسنهـا كـان

ـرها دب فى القلـوب شهيـا كدبيب السلا

ـد الشعر فى النـدى فتوحى ببـديع الاشعـ

ى حقـــل لكـل فـــن جميـل حسنها كـل لحـ

ـرح العـين فى حقـول بهـاها كفـــراش يـ

ـه ولادة اسحبى ذيـل حسـن وتغنـى بصـو

تكـونى أمـيرة دون عـــرش فاجلسى فـوق ع

حكمى فى القلـوب فهى رعاياك وسـيرى بالعـ

بن زيـدون فى سمـاء المعـالى يبهـــر العـين

م سبتـه أمـيرة الحســن لكـن قـد سبـاها بالعـ

ـرطبى السمـات حلـــو المحيـا تتبـع العـين حسـ

ـه الشـاعر الـوزير تجـــلى وتحـــلى بأجمـ

ن نجمـــا يشع فى كل أفـــق نـوره يغمـر الد

نكتـه الايـام حتى لقـد كـــا د يرى السـر فى

قد كــاد أن يـرى ما تــوارى فى ضمـــير الآز

اذا مـا بـدا عـلى الرأس شيب لامـع كالشمـاع

ياض الثلـــوج يلمـع دومـا فـوق هامات شامـ

البياض الذى على الرأس إكليـــل مـــن الغار زينـ

عـ

ضـ

شـ

ذ

ـ

و

!

ا

ـاش دهرا للمجد يصنع مجـدا   أين ضـ
ـيمتها الشحناء دبت وسارت   فى ملـو

* * *

ـاعر الحب والجمال ترفق   بقلوب تجيـ
ـصبوك العداء سرا وجهرا   فتنبه من طـ
ـقدها فى الصدور يغفو رهيبا   كسيوف تنام
ـأرى الكيد فى الحنايا دفينا   مثل نار تنام تحـ

* * *

ـا رفاقى وقد دهتنا الدواهى   واغتدى الخل مثل اعدى
ـلا تلام الذئاب ان اهمل الراعى   قطيع الشياه وسط البـ
ـاحذروا الخلف انه شر داء   فجيوش العدو بالمر
ـواجمعوا الشمل فى اتحاد متين   باركته السماء بالانعقـ
ـواجمعوا الشمل فالرباط تدانى   من رباط على شطوط بلادى
ـكان هذا الشمال ليثا هصورا   خادرا تحت وطأة الاصفاد
فنزعنا أغلاله وأرحنا   أرضنا من حثالة الاوغاد
ورمينا الى البحار وحوشا   عاملونا بقسوة الجلاد
وغسلنا أرض الشمال المفدى   من جيوش تعيث مثل الجراد
وحرسنا بلادنا بجنود   كأسود الشرى صلاب شداد
تشهد الارض أنهم من ثراها   ويقول التراب : هم أكبادى
كلما أظلمت خطوب شداد   بذلوا الروح فى صفوف الجهاد
ان مجد الابطال فى الحرب يبدو   فى انتصار أو ميتة استشهاد

ضوء عينى فـداء جيش بــلادى وحيــاتى الفــداء للقـــواد

* * *

يـا ابن زيـدون أنت تـدرى بأنا قـد رفعنــا منــارة للضــاد
نورها انساب فوق أندلس الانس فشــع الشعــاع فى بغــداد
ونشرنا الآداب فى «الغرب» دهرا فمشى «الغرب» فى دروب الرشاد
وجعلنــا «جزيرة» الغــرب تسمو وتحــاكى «جـزيرة» الاجـداد
غـير أنا ـ والانحطاط دهــانا ـ قـد غـرقنا فى أبحــر الاحقاد
فهــدمنا ما قد بنــاه جــدود وسخـرنا مـن طـارق بن زيـاد
وطمسنا نــور الصبــاح بليــل سرمــدى مسربــل بالســواد
وأفقنــا من بعـد نـوم طـويل فى جحيـم الهــوان والاصفـاد
مــزقتنا مذاهــب « الغـير » حتى أصبـح الغــير سيـد الاسيــاد
يـا ابن زيدون قـد جمعت وفودا كلهم كالمنــار فى اللــيل هــاد
فلتكــن للجميـع رمـز اتحـاد يجمع العـرب فى المنـى والمبادى

الشيخ محمد أمزيان بن الحداد
وقضية الحج

المهدى البوعبدلى
عضو فى المجلس الاسلامى الاعلى
بالجـزائر

الف الشيخ المذكور تاليفا يتعلـق بالبدع المنسوبة للطريقة الرحمانية وقدم للتاليف بحثا يصف فيه حالـة البلاد اذ ذاك أى سنة 1261 هـ ٠ وذلك بامر شيخـه المهدى السكلاوى اليراتنى المتوفى بدمشق وذلك قبـل هجرته بنحو السنتين اذ هاجر المهدى السكلاوى وصحبه سنة 1263 هـ ٠

قال ابن الحداد فى التقديم : « ٠٠٠ وبعد فقد ادركنا الزمان الذى وصفه المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله لم يبق من الاسلام الا اسـم ، ولا من القرآن الا رسمه ، فلا ريب وقد شاهدنا ذلك فى كل قطر وفى كل عصر بلغ اليه علمنا فتجدهم يدعون انهم مسلمون وهم لا يصلـون ولا يصومون ولا يزّكون ولا يحجون عنـد الاستطاعة ولا يؤمنون بالله ورسله حق الايمان فان فعلوا ذلك أو بعضه فعلى غير وجـه شرعى ، فكل ما خالف الشرع فهو باطل ، فان صلوا لم يأتوا بشروط الصلاة واركانها » ٠ ثم يتتبع المؤلف المخالفات فى الطهارة والصلاة بالتفصيل وحكم الفقه فيها ، ثـم يتعرض

للحديث عن الصوم ثم الزكاة فيقـــول : « واما الزكاة فقد هـــدمت قاعدتها بالكلية الا نادرا ، على وجه غير شرعى ، فيعطونها للاغنياء دون الفقراء ، وللاشرار دون الاخيار ، واما الحج فقد فقدت الاستطاعة التى هى شرط فى وجوبه فى أهل غربنا هذا ، فالحمد لله على سقوطه علينا ، وقد نص على سقوطه على من ذكر غير واحد من الائمـة المقتدى بهم ، فعليك بالشيخ سالم السنهورى على مختصر الشيخ خليل · فانه اجاد فى نقل نصوص المذهب الدالة على سقوطه الى ان قال : « فمن تكلفه وحج اجزأه ، ثم انا لـــم ار من تكلفه غالبا الا الفقـــراء الذين يعرضون أولادهم للسؤال أو للسرقـة وازواجهم للزنى واكثرهم جهلة لا يعرفون احكامه ولا يتعلمونها وامـا اغراضهم ونياتهم فيعلمها العليم الخبير » اهـ

والمقصود ان صاحب هذا الرأى هو فقيه جليل محافظ اشد المحافظة حـر الفكـر · وعندما نطلع على ما كتبه مواطنه الشيخ الورتلانى فى رحلته الى الحج وما يتعرض لـه الحجاج اذ ذاك نعلم ان موافقة ابن الحداد على من حكم بسقوط الحج على سكان المغـرب فى عهده ليس من المبالغة أو من باب التساهل فى الفتوى خصوصا وهو من فقهـــاء المذهب المالكى النافين متابعة الرخص والاقوال الضعيفة فى المذهب ·

نبذ من انطباعات الرحالين عن النواحى السلبية التى شاهدوها مدة اداء فريضة الحج ابتداءا من أواخر القرن السادس الهجرى الى عهدنا هذا

فاول الرحالين أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الاندلسى البلنسى الذى رحل الى الحج سنة (578 هـ) وسمى رحلته « تذكرة بالاخبار ، عن اتفاقات الاسفار » (عن النسخة المطبوعة فى مدينة ليدن (هولاندا) بمطبعة بريل 1907) ·

وقد اتفق الباحثون ان هذه الرحلة هى فى طليعة كل الرحلات المعروفة من حيـث الموضوعية ودقة الوصف ونزاهة صاحبها وقد وصل الى القاهرة فى عهد تولية الملـك صلاح الدين الايوبى قال فى ص 55 من رحلته المذكورة :

« ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالى وآثاره التى ابقاها ذكرا جميلا للدين والدنيا ازالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين فكان الحجاج

يلاقون من الضغط في استيدائها عنتا مجحفا ويسامون فيها خطة خسف باهظة وربما ورد منهم من لافضل لدين على نفقته أولا نفقة عنده فيلزم اداء الضريبة المعلومة وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية التى هـــى خمسة عشر دينارا مومنية (نسبة الى عبد المؤمن بن على الذى كانت الاندلس تابعة لحكمه اذ ذاك) على كل رأس ويعجز عن ذلك فيتناول بأليم العذاب بعيذاب فكانت كاسمها مفتوحة العين ، وربمـا اخترع له من أنواع العذاب **التعليق من الانثيين** أو غير ذلك من الامور الشنيعة نعوذ بالله من سوء قدره ، وكان بجدة امثال هذا التنكيل واضعافه لمن لم يؤد مكسه بعيذاب ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الاداء فمحى هذا السلطان ـ صـلاح الدين ـ هـذا الرسم اللعين ودفع عوضا منه ما يقوم مقامه من اطعمة وسواها وعين مجبى موضـــع معين باسره لذلك وتكفل بتوصيل جميع ذلك الى الحجاز لان الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة عمرهما اللـه فعوض من ذلك اجمل عوض وسهل السبيل للحجاج وكانت فى حيز الانقطاع وعدم الاستطاع وكفى الله المؤمنين على يدى هذا السلطـان العادل حادثا عظيما وخطبا أليما فترتب الشكر له ... » الخ

ثم يقول فى ص 62 فى نفس الموضوع :

« وببـلاد هذا الصعيد المعترضة فى الطريق للحجاج والمسافرين كاخميم وقوص ومنية ابن الخصيب من التعرض لمراكب المسافرين وتكشفها والبحث عنها وادخـــال الايدى الى أوساط التجار فحصا عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير ما يقبح سماعه وتستشنع الاحدوثة عنه كل ذلك برسم الزكاة دون مراعاة لمحلها أو ما يدرك النصاب منها حسبما ذكرناه فى ذكر الاسكندرية من هذا المكتـــوب وربما الزموهم الايمان على ما بأيديهم وهل عندهم غير ذلك . ويحضرون كتاب الله العزيز يقع اليمين عليه فيقف الحجاج بين ايدى هؤلاء المتناولين لها مواقف خزى ومهانة تذكرهم أيـــام المكوس وهذا أمر يقع القطع على ان صلاح الدين لا يعرفه ولو عرفه لامر بقطعه كمـــا امر بقطع ما هو أعظم منه ولجاهد المتناول له فان جهادهم من الواجبات لما يصدر عنهم من التعسف وعسير الارهاق وسوء المعاملة مع غرباء انقطعوا الى الله عز وجل وخرجوا مهاجرين الى حرمه الامين » .

وفى ص 180 يتعرض المؤلف الى الازدحام الذى يقع حول البيت فيقول : « ... وفى هذه الايام يفتتح البيت الكريم كل يوم للاعاجم العراقيين وللخراسانيين وسواهم من الواصلين مع الامير العراقى فظهر من تزاحمهم وتطارحهم على الباب الكريم ووصول بعضهم على بعض وسباحة بعضهم على رؤوس بعض كانهم فى غدير من الماء امر لم يرا هل منـــه يؤدى الى تلف المهج وكسر الاعضاء وهم فى خلال ذلك لا يبالوه ولا يتوقفون بل يلقــون بانفسهم على ذلك البيت الكريم من فرط الطرب والارتياح ، القاء الفراش بنفسه عــلى المصباح فعادت أحوال السرو اليمنيين فى دخولهم البيت المبارك على الصفة المتقدمة الذكر حال توءدة ووقار بالاضافة الى هؤلاء الاعاجم الاغتام نفعهم الله بنياتهم وقد فقد منهـــم فى ذلك المزدحم الشديد من دنا اجله والله يغفر للجميع وربما زاحمهم فى تلك الحــال بعض نسائهم فيخرجن وقد نضجت جلودهن طبخا فى مضيق ذلك المعترك الذى حمــى بانفاس الشوق وطيشه والله ينفع الجميع بمعتقده » الخ ..

وذكر أبو سالم العياشى الرحالة المغربى الشهير فى رحلته المطبوعة بفاس طبعــة حجرية وذلك انه رحل مرات فى أوائل القرن الحادى عشر وكان كثيرا ما يرافق الوفـد القسنطينى الذى كان يقوده عالم قسنطينة الشهير الشيخ عبد الكريم بن الفكون قال فى الجزء الاول من الرحلة المذكورة ص 198 يصف الهدى بمنى ما يلى :

« وكان نزولنا وراء المسجد قرب الغار الذى نزلت به سورة المرسلات على النبى صلى الله عليه وسلم وخبره مذكور فى الصحيح ... الى ان يقول : « وكان نزولنا فى هـذا المحل ايثارا لقرب هذا المكان وقرب المسجد مع كونه انظف وأوسع واقرب للجبل الذى يشرف منه على منى كلها وهو استر وامكن للانسان فى حاجته والناس يتحامون القرب من الجبل تقية من أذى السراق فيستجير بعضهم ببعض ويفرون الى الدخـول فى غمار الناس ولا يبالون بما نالهم فى ذلك من وطء الاقدام وتقطيع الحبـــال وتعفن الارجاء واستنشاق الروائح الكريهة ونحن استسهلنا أمر السرقة فى جنب هذه المضار وكان منزلنا انظف المنازل واحسنها وأبعدها عن الاذى وابهجها ، وقد ذبح فى مــنى ذلك اليوم والذى بعده من البقر والغنم ما احسب الغنى والفقير وكفـى الوارد والمستوطن وامتلات الطرقات وافنية المنازل باللحم واما الجلد والساقط والاكارع فلا ترى واحدا

ياخذها بل بقى كثير من الغنم غير مسلوخ الى ان ارتحل الناس من هناك لم يمسه الناس فمن الفقراء من يأخذ نحوا من عشرة من الغنم فيبيعون لحومها بأرخص ثمـن ويببسون ما قدروا عليه ضيافة الله الملك الحق الذى لا يقدر أحد على كفاية خلقه فقد ورد مـن آفاق الارض اصناف من الخلق لا تحصى: اغنياء وفقراء فأكل الكـل من ضيافة مالكهم وتزودوا ما قدروا وفضل ما اعجز الطير والوحش والهوام · لقد مررت بهـذا المكان بعد سنة أو قريبا من ذلك فى قفولى من الطائف فوجدت به عدة كثيرة من الغنم قد يبست جلودها على لحومها وعظامها لم تمس الى ان صارت مثل الخشب من يبسها » الخ

وعن رحلة الحسين الورثلانى (1125 ــ 1193 هـ) المسماة « نزهة الانظار فى فضل علم التاريخ والاخبار » (طبع الجزائر 1326 هـ ــ 1908 م) ·

ذكر النواحي السلبية التى شاهدها فى رحلته منها وصفه للحجاج الجزائريين اى مرافقيه قال : « ··· واما الركب الجزائرى فلا حكم عندهم اصلا ولا يقفون عند الامر والنهى لا سيما أهل عامر (سكان سطيف) فما فارقهم أحـد فى هواهم الا ابغضوه وجعلوه عدوا وقد اصابتنى منهم عداوة عظيمة من أجل انى آمرهم بالسنة والقيـام بالاحكام الشرعية لا سيما السير بسير الشيخ والنزول بنزوله ــ يقصد سـير القافلة والشيخ رئيس الركب الذى كان هو يشغله ــ وستر نسائهم لانهن يذهبن مكشوفات العورات فيبدين زينتهن لكل الناس بل يتزين لاجل ذلك ليرعن من فتن بهن. فاردت اقامة الحد عليهن وعلى ازواجهن فصارت لى فتنة عظيمة غير ان من عادانى منهم ببركة السنة لم يرجع الى بيته فأظهر الله امره ، فتطيروا وتشاءموا بعد ذلك وتاب من بقى منهـم بعد ان هلك من هلك منهم والحمد لله على اظهار السنة النبوية وقد قال تعـالى : ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم ··· الى ان يقول : « وقد سمعنا ان بعض الفاسقات ممن يزعم (كذا) الاحوال الربانية والمواجد الالاهية ممن استولى الشيطان عليهـن وسولت انفسهن لهن تتعرض بنفسها للرجال وتزعم ان من لم يوافقها فى غرضها الفاسد ابتلى بمصيبة بل قد تقول ان لم توافقنى فى غرضى اصابك كذا وكذا بان تعينه فيصير ذلك ويظن الجاهل المغرور المخدوع المخذول الشقى والعياذ بالله تعالى ان ذلك أمر ربانى وكرامة منه تعالى » اهـ

ثم يقول فى موضع آخر متشكيا من اللصوص الذين يتعرضون للحجاج ما يلى :
« حاصله ان الوقائع التى وقعت بيننا وبين البدويين كثيرة يطول بنا استقصاؤها ...
الى ان يقول ... فلما كنا على شاطىء البحر فى توديع من ذهب فى البحر ولانتقالنا
الى الموضع المذكور إتانا ذلك التركى الاول الذى اراد سجنى فى قضية أخرى ارتشاه
بدوى آخر فلما رأيته ارادنى اشليت عليه بعض اصحاب ليقتله فلما علم ذلك المتمرد
خاف اذ هو منفرد ونحن فى جماعة فصار يسلك مسالك الطلب فاعطاه سيدى أحمد
ابن حمود (من بنى يعلى) نصف ريال اب الطاقة وعليه البعد من الله فلا أظن انـــه
مسلم اذ اكثر العسكر فى مصر انهم خـــوارج أو طغاة لا تعمى أبصارهم لــكن تعمى
قلـــوبهم .

وقد حكى لنا انهم يأتون الى المستضعفين من الناس فيبيعونهم عبيدا أو يجعلونهم
اسرى يخدمون فى مدينة السويس الى ان يموتوا اهلكهم الله ان لم يعلم هدايتهم وهذا
معلوم ضرورة فى زمان هذه الحجة وسبب هذا الاهمال من الحكام والمترفهين لانهم فى
نعمة عظيمة لم يحسبوا أحدا فاباحوا الرقاب والنفوس ولم يعلموا بهـــذه الرذائل
كالغش فى الاسواق والسرقة فى الطرق والدكاكين فصارت فى النفوس اقبح الاوطان
واذ لها للغريب مصر ومكة فلا تجد أحدا من مصر الا يحتقر المغاربة حتى كـــادوا أن
يخرجوهم من الاسلام وطبائعهم منافية لطبائع أهل المغرب بلا نظر لعلمهم ولا لفضلهم
فترى المغربى اذا تكلم تعصبوا عليهم بالباطل ولو بالـــزور فلم ينفع فيهم الا عـــدم
مخالطتهم والانعزال عنهم فيتحاشى عن أسواقهم وما فيها فاذا اضطره أمـــر اختلس
مقصوده اختلاسا يحفظه من المخالطة أو يتزيا بزيهم ليصرف عنـــه السوء والفحشاء
الصادرة منهم وما تخفى صدورهم لنا أكبر وأعظم ودأبهم وديدنهم التحيل لاخـــذ
أموالنا وسلب ما عندنا الخ » اهـ

نقتصر على هذه الفقرات من السلبيات التى شاهدها الورتلانى وسجلها ويسهـــل
تتبعها فى محلها كذكره لما شاهده فى الجنوب التونسى فى طريق ذهابه كعثوره عـــلى
اجتماع سكان ذلك المحل رجالا ونساء يسبحون عراة مجتمعين فى بعض الاودية فاراد
ان يغير المنكر فقابلهم من ضفة الوادى وصار يلعنهم ويرميهم بالحجارة الى ان انصرفوا

واما الهدى فى منى فتعرض له ولم يزد على ما كتبه فى الموضوع أبو سالم العياشى فى رحلته وقد نقل ما فى رحلة العياشى بتمامه .

زار محمد حسين هيكل الحجاز فى الثلاثينات كصحافى وكممثل لطبقات التقدميين والمجددين اثر الحملة التى قام بها حوالى 1926 ـ 27 كرئيس تحرير لمجلة « السياسة الاسبوعية » وردد صداها كتاب العالم الاسلامى فسجل انطباعته فى تأليف قيم سماه « فى منزل الوحى » طبع فى القاهرة سنة 1356 هـ . وقد تربو صفحاته على 670 ص . وقد تعرض لجميع مناسك الحج وبين وجهة نظره فى حكمة مشروعيتها وقد تبادل آراءه مع المسؤولين السعوديين الذين كانوا قريبى عهد بتولية حكم الحجاز وعلى رأسهم الملك عبد العزيز كما اجتمع بكثير من العلماء والمفكرين المسلمين الذين اجتمع بهم فى موسم الحج وايد آراءه بما اطلع من انطباعات الرحالين المسلمين الاصليين والاجانب المعتنقين للدين الاسلامى واننى سأنقل لقطات تهم موضوع بحثنا ـ من غير ترتيب ـ

قال فى ص 115 تحت عنوان (منازل منى ـ حكمة الجمرات) .

« عدت غداة يوم النحر من رجم الجمرة الوسطى ومعى صاحب يسالنى عن رجم الجمار ما حكمته ؟ وأية مثوبة فيه ؟ وتمثل لى وأنا اسمع لقوله صاحب عرفات اذ يقول : ان مناسك الحج فروض نؤديها ولا نعرف حكمتها ، كما ذكرت ما يقوله اهل الحجاز من إنهم أنما يرجمون الشيطان بالجمرات حتى لا يعود فيوسوس اليهم ليردهم الى المعصية والاثم ، لكن صاحبى لا يقتنع بهذا القول ولا بذلك ، انما يريد ان يعرف رأى المجددين من مفكرى المسلمين ، قلت له ان هؤلاء العلماء يرون فى القاء الجمار اعلان المشيئة على طرح ما فى النفس من زيف ، وصدق الارادة لدوام طهرها بعد ان غفر الله بالحج ماضى حوباتها واشهاد ملأ المسلمين على ذلك كله ، قال صاحبى : « هذا كلام أدنى الى تصور العقل ، وان يكن كلام أهل الحجاز أكثر اتفاقا مع ما يقصه الرواة الاقدمون فى بطون الكتب ، لكنى احسب حكمة الله ابلغ من هذا ومن ذاك » .

وتداولنا الحديث فى الامر ، وانتهينا الى رأى لعله اكثر اتفاقا مع ما جاء فى القرآن من حكمة الحج ، فأول اجتماع للمسلمين فى الحج بعرفات ، وهم يومئذ يجتمعون محرمين

ملبين مستغفرين ربهم مستمعين الى خطاب امير المؤمنين أو من ينوب عنه ، وفى ذلك كله ما يشغلهم عن التعارف والتشاور وشهود المنفعة المشتركة التى تربطهم بعضهم ببعض ، لذلك وجب عليهم ، متى افاضوا من عرفات ونزلوا منه ، ان يجتمعوا وان يتعارفوا وان يشهدوا منافع لهم ، واجتماع الوفهم المؤلفة ساعات معدودة لا يحقق هذا الغرض ، لذلك فرضت أيام النحر الثلاثة ليحسنوا التعارف والتشاور وشهود المنافع ، ولاتمام ذلك بما يتفق وروح الاسلام **وجلال موقف الحج سنت لهم مناسك** يؤدونها الى الله لتظل نفوسهم نقية وأرواحهم طاهرة واى منسك خير من ان يشهدوا العقبة التى شهدها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وان يلقوا بسواعدهم جمرات يعلنون بالقائها انهم على عهده فى بيعة العقبة ينفع بعضهم بعضا ويذود بعضهم عن عقيدة بعض ويكفل الكل بذلك حرية العقيدة الاسلامية وحرية الدعوة اليها ، ويشهدون على انفسهم اذ يلقونها انهم على استعداد لالقاء مثلها فى وجه عدوهم اذا حاول فتنتهم عن دينهم أو حاول اخضاعهم وقهرهم ٠

لعل هذا الرأى ادنى من غيره الى روح الاسلام وحكمة الله فيه ، فهذا الدين كله الباس والقوة على الحياة ، وكله النظام الذى يضاعف هذه القوة اضعافا مضاعفة ، ولقد جمع **الاسلام بين النظام والحرية ما لم يجمع بينهما دين غيره** ، هو يصل بالحرية الى غاية حدودها ، وبالنظام الى غاية حدوده ، فلا عبادة الا لله ، **والامير ورجل البادية سواسية فى التزام حدود الله** ، ومن يتعد منهم حدود الله فقد ارتكب اثما وبهتانا عظيما ، هم فى هذا سواء وان تفاوتوا فى الثروة وفى الجاه وفى كل مظاهر هذه الحياة الدنيا ، والحرية اعز ما يحب الانسان لنفسه ، ويجب ان تكون اعز ما يحب لاخيه ٠ اذا أراد ان يكمل ايمانه ، وحرية الفرد ملاكها قوة الجماعة ٠ **ولا قوة لجماعة الا بالنظام يبلغ من دقته ان يكون كنظام جسم** الفرد فى تآلف ذراته ٠ وفى اتساق عملها جميعا تمام الاتساق ٠ كل اضطراب فى هذا الاتساق يفسد حياة الفرد ويجعله عرضة للامراض والعلل ، وكل **اضطراب فى نظام الجماعة** يضعفها ويجعلها عرضة لتسلط الغير عليها ولتحكمه فيها ومظهر النظام فى الاسلام بالغ غاية الدقة من غير ان يجنى مع ذلك على الحرية أو ان يمسها ، وهو يقوم على أساس من المساواة الصحيحة والتعاون الصادق ،

ذلك شانه فى اركان الاسلام جميعا : فى صلاة الجماعة وفى الصوم ، وفى الحج ، ومظهره فى الحج أوضح جلالا وأعمق فى النفس اثرا ، واجتماع المسلمين بمنى والقاؤهم الجمرات ختام شعائر الحج بعد الوقوف بعرفة والطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة أما **وغاية الحج اشتراك المسلمين من اقطار الارض** فى التفاهم على منافعهم واشتراكهم فى ذكر الله **فيجب لنجاح هذه الغاية ان يبلغ نظامهم إثناء الحج غاية الدقة** ، ويجب لذلك أن يكون القاء الجمرات والتعارف والتشاور خيرا مما هى اليوم نظاما ، والمسلمون يشعرون اليوم بواجبهم فى تحقيق هذه الغاية أكثر مما كانوا يشعرون به من قبل ، دعا الشباب العربى السعودى ذوى المكانة من الذين جاءوا يؤدون فريضة الحج من أهل الامم المختلفة الى اجتماع بمنى للتعارف والتشاور ، وقد اجتمعنا فى الموعد المضروب ، وجاء مجلسى بين هندى وتونسى ، وبادل الداعون ضيوفهم التحيات ، وأحدثوا بينهم من التعارف ما يستطاع احداثه فى مثل هذه الحفلة ، ثم دعوا بعضهم ليتحدثوا اليهم ، وكم تمنيت لو كان بين من يؤدون فريضة الحج من أهل المكانة والراى والكلمة المسموعة فى بلادهم من يحضر مثل هذا الاجتماع ، لتتم حكمة الحج ولتكون مكة مقرا لعصبة الامم الاسلامية تسمع كلمة أهلها ، ويكون لهم فى العالم راى ممدود ، ولكن ذوو الكلمة المسموعة ممن حضروا لم يكونوا يمثلون من العالم الاسلامى الا أقله ، ولم يكونوا يقصدون باجتماعهم الى غاية وراء الاجتماع ، لذلك ضعف الرجاء فى اثر ما القوا فى هذا الاجتماع من أقوال لم تتعد الدعوة العامة الى اخاء المسلمين وتحابهم ولو اجتمع ذوو الكلمة المسموعة لغاية يريدون تحقيقها لكان لاجتماعهم اثر يدوى فى العالم كله » اهـ

وبعد ان يتعرض المؤلف الى مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية ويقارن بين ماضى الجزيرة والحرمين بالخصوص فى أطوار مراحلها يتعرض الى ناحية جوهرية لا زالت تثير الخلافات بين مفكرى الاسلام الذين يرون تغيير الوضع مثل الامير شكيب ارسلان الذى ذهب الى اداء فريضة الحج وأقام مثل زميله هيكل وسجل انطباعاته فى رحلته المشهورة : « الارتسامات اللطاف » وتعرض بالخصوص لذبائح الهدى وقدم اقتراحات لحل مشاكلها الى الملك عبد العزيز آل سعود فى الثلاثينات قال هيكل فى ص 138 ما يلى :

« وهذا الماضي الذى يثقل خطى دعاة الاصلاح يجد فى ناحية من نواحى الحياة بمكة ما يشد من أزره ازاء المحاولات التى تبذل للتغلب عليه ، هذه الناحية هى التفكير القديم الذى اشرت فى أول هذا الفصل اليه ، والذى يجعل فكرة التوكل قائمة على التواكل والكسل وعدم السعى فى الحياة والقناعة فى الرزق بما يجىء من غير مشقة أو عمل وان الوفا وعشرات الالوف من المقيمين بمكة ليرون حقا لهم ان يعيشوا من الصدقات التى تجرى عليهم ، ولا يفكر أحدهم فى مزاولة عمل يقيم أوده وأود أهله ، وهذا الروح هو الذى يجعل التسول منتشرا بمكة ، وخاصة اثناء الحج ، انتشارا مروعا ، فانت كلما ذهبت الى المسجد الحرام للصلاة وجدت على كل باب من أبوابه الكثيرة العدد ، وهى تبلغ ستة وعشرين بابا ، عشرات من الصبية والنساء يتكففون الناس ويسألونهم الحافا ، ويرى كثيرون من الحجاج ، وكثيرات منهم بنوع اخص فرضا عليهم ان يعطوا هؤلاء ، فهم ينفقون فى ذلك العطاء الرخيص الشىء الكثير مومنين بانهم يعطون الفقير مما اعطاهم الله من فضله ، فلهم مثوبة ذلك عند ربهم ، وكثيرون من هؤلاء المتسولين أقوياء البنية اصحاء الاجسام قادرون على العمل ، وكثيرا ما رأيت منهم من لو وجد من احياء القاهرة أو فى ارياف مصر لانذر بالتشرد ولشددت الشرطة عليه الخناق ، لاكنهم فى المدينة الاسلامية المقدسة يجدون عطفا عليهم من حجاج المسلمين وتسامحا معهم من جانب الحكومة ، ولعلك لو سألت فى ذلك لقيل : انهم من ذرية اسماعيل وانهم تنطبق عليهم الآية : « رب انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم » ٠

وان ما يبذله الناس من هذه الصدقات انما هو هذا الهوى من افئدة الناس الى ساكنى البلد الامين ، هذا وان لم يكن بين سكان البلد الحرام من ذرية اسماعيل اليوم الا القليل ، اما الاكثرون فخليط من ابناء البلاد الاسلامية فى آسيا وافريقيا ٠

ولقد ذكرنى مشهد هؤلاء المتسولين بما تقرر مذاهب عصرنا الحاضر من حق العمل للافراد كى يعيشوا منه ، وذكرت دعوة القرءان الناس ليمشوا فى مناكب الارض وياكلوا من رزق الله ، وحاولت ان اجد مسوغا لانتشار التسول بمكة ، فلم اجده الا فى سوء التاويل للفكرة الاسلامية ذهبت اليه طائفة أرادت استغلال العواطف لفائدة

قوم كسالى لا يعملون ، وهم على العمل قادرون ، وهذا التأويل الفاسد لا يقره مـذهب سليم ، فالدعوة الاسلامية أساسها العمل فى الحياة والجهاد للـــرزق فيها ، ولقد كان المسلمون الاولون من اهل مكة من اكثر الناس دأبا وسعيا ، فلما هاجروا مع الرسول الى المدينة وأراد الانصار أن يشاطروهم أموالهم أبوا ذلك على انفسهم رغم حاجتهم اليه ، وذهب يعمل فى التجارة منهم من تؤهله مواهبه للتجارة ، ويعمـل فى الزراعة مـــن يفضل العمل فى الزراعة ، ولم تكن الارزاق يومئذ تجرى الاعلى العاجزين عن الكسب ، شأنهم فى ذلك شأن امثالهم اليوم فى ارقى الامم حضارة ، فأما القادر على الكســب فلا حق له فى الحياة ما لم يعمل ، والعمل للقادر عليه ، عبادة لها مثوبتها عند اللـه ، ولها كرامتها واحترامها عند الناس ولو ان الالوف التى تعيش اليوم بمكة من الصدقات زاولت من الاعمال ما تستطيعه لتغير وجه الحياة فى مكة ، **ولو ان مـا يخرجه المسلمون من مالهم صدقات للمتسولين جمع وأنفق فى اعمال يقوم على استغلالها** هؤلاء لكان أعود عليهم وعلى مكة بالفائدة ، **ثم لتغيرت هذه العقلية المريضة** ، عقلية التواكل والكســل المزرى العجيب ، ولتغير تبعا لذلك تفكير الناس تغيرا يدفع مكة الى ناحية الحياة الحديثة ، لست اجهل ما فى ذلك التغير من عسر واهل مكة لا تجمع بينهم رابطة الجنس ، ولهـذه الرابطة اثرها القوى فى تكوين الحياة القومية ٠ ولقد كنت اتحدث يوما الى مكى صميم فى حرب الاشراف والنجديين ، وكنا نفرض الاسباب التى ادت الى دخول الاخـــوان مكة من الطائف موفورين ، ومما اتفقنا عليه من هذه الاسباب تكوين اهل مكة مـــن خليط من أجناس المسلمين المختلفة المنتشرة فى انحـــاء الارض جميعا ٠ فماذا يعنى المغربى أو الجاوى أو الافغانى أو الهندى ان يكون حاكمه عَربيا قرشيا او بدويا نجديا ما دام هذا وذاك مسلما ، وما دام كل منهما يدع له من اسباب الرزق بلا سعى ولا عمل ما اعتاده منذ قرون خلت ! أما وذلك شأنه فليس يعنيه ان يشترك فى نزاع على حكم مكة أو حكم الحجاز ، وليس يصيبه من تغيير الحاكم خير ولا اذى ، ولو ان اهل مكة كانت تجمع بينهم رابطة الجنس لتغير وجه تفكيرهم فى الدفاع عن مدينتهم ، ولرأوا هذا الدفاع واجبا عليهم متصلا بكرامتهم لانه الدفاع عن الوطن ، ثم لرأوا واجبا على كل فرد من ابناء الوطن ان يعمل لخير الوطن ، والا يعيش عالة عليه ما دام قادرا على العمل ٠

ولقد ادركت الحكومات العثمانية هذا السر في الماضي فلم تعمل لتغيير عقلية التواكل في مكة وفي الحجاز كله ، بل عملت على تثبيت قواعدها وتعميق جذورها باجراء الارزاق على هؤلاء الاغراب الذين نزحوا الى مكة واستوطنوها ، وتشجيع ذوى اليسار على حبس الاوقاف لاجرائها عليهم ، بذلك توطد روح التواكل والقعود بالبلد الحرام وانتشر منه الى ما حوله من بلاد الحجاز ، وبذلك تعذر القيام فيه بأى حظ من الاصلاح ، فاذا فكر احد في اصلاح شوه مقصده ونعت بانه يريد اخراج الناس من طمانينتهم السعيدة التى ارادها الله لهم ، والزج بهم الى حظيرة العمل الشاق والافكار الضارة المارقة .

لست اقصد مما سبق الى ان الطبيعة قضت ببقاء فكرة التواكل سائدة أهل البلد الامين ممتدة منهم الى ربوع البلاد العربية المختلفة ، وانما أقصد الى ان التغيير لا يتم سراعا كما يتم في بلد تربط وحدة الجنس بين ابنائه ، لأكن تعاهة أمر لا مفر منه ، كما اسلفت لتزايد أسباب الاتصال بين بلاد العرب والعالم الخارجى هذا الاتصال يسرع بالوان التفكير الحديث الى مكة على ايدى المسلمين الذين يحجسون البيت من مختلف الاقطار . كما يسرع به اليها ما بين الحكومة العربية والحكومات الاسلامية الاخرى من أسباب التفاهم **ومن أسباب الانهيار فى تفكير التواكل** ما تم الاتفاق عليه بين حكومة مصر والحكومة السعودية فى امر الارزاق التى تجرى من مصر الى الحجاز غلة لاوقاف الحرمين ، وفى أمر الاموال التى ترسلها حكومة مصر الى الحجاز ، فقد كانت هذه الارزاق والاموال توزع فيما قبل الاتفاق صدقات ضئيلة القيمة على أهل مكة وعلى أهل المدينة ، أما بعد الاتفاق الذى تم عام 1936 فقد اصبحت **هذه الارزاق تجمع لتنفق فى اعمال ذات فائدة عامة كتعبيد الطرق وتعمير المنشآت الاسلامية فى البلاد المقدسة** ، وقد كان الناس هناك يكتفون بالصدقات عن مزاولة هذه الاعمال لاقامة حياتهم ، فاذا انقطعت هذه الصدقات أو قلت فصارت لا تكفى حاجات العيش ، اضطر أهل البلاد للعمل ، وحلوا بذلك محل العمال المصريين وغير المصريين ممن يجاء بهم لاتمام هذه الاعمال .

وسيكون الاتفاق الذى تم بين مصر والحكومة العربية مثلا لغير مصر من الامم الاسلامية التى تجرى الارزاق الى الاماكن الاسلامية المقدسة ، ومن ثم لا يبقى أمام هؤلاء الكسالى الا أن يعملوا غير مكتفين بما يصلهم من صدقات الحجاج ، واغلب ظنى ان الحكومة العربية

ستنظم هذه الصدقات كذلك وتضرب على أيدى المتسولين وتعمل جهدها للقضاء عـلى حالة محزنة تثير اليوم اشفاق الكثيرين ، ولا كنها **تثير الى جانب اشفاقهم الزراية بمـن يقيمون** فى موطن الرسول العربى أعظم داع للسعى والعمل وللاخاء فى السعى والعمل، هنالك تتغلغل فكرة العمل فى حياة مكة وحياة الحجاز ، على انها **الفكـــرة الاسـلامية الصحيحة** ، بعد ان كانت تعتبر مخالفة لروح الاسلام ٠

هذه لمحات سريعة تشف عن العوامل التى تدفع مكة نحو الحياة الحديثة ٠٠٠ الخ » ٠

اهـ ما كتبه محمد حسين هيكل فى كتابه « منزل الوحى » بعد ان تعرض لوصف بعض المناسك ونواحيها السلبية وما دار بينه وبين السلطات وبعض الحجاج فى اصلاح هذه السلبيات ٠

نموذج من اجتهاد عمر بن الخطاب

اجتهاد الخليفة عمر بن الخطاب فى بعض القضايا تعرض لها الاستاذ محمـد معروف الدواليبى الحائز على اجازة الفقه الرومانى من جامعة باريس ٠

والمتخرج من معهد دراسات العلوم الاسلامية بحلب ثم الدكتورة فى الفقه المقارن من جامعة باريس وكان موضوع اطروحته التى قدمها لجامعة باريس « الاجتهاد فى الفقه الاسلامى » وقد طبعت بباريس سنة 1941 (بالمكتبة الشرقية والامريكية

(198, Bd St Germain, G. P. Maisonneuve

قال فى ص 52 تحت عنوان : القسم الثالث الاجتهاد بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم (632 ـ 700 م) ٠

أ) عمل الاجتهاد فى هذه الفترة ٠

ب) مجـــــاله

ج) الفقهاء فى هذا العهد

د) طرقهم فى الاجتهاد ورسالة عمر (التى ارسلها الى قاضى اليمن) ٠

ع) الطرق الثلاث للاجتهاد والامثلة أو نماذج منها وهذا الفصل هو الذى نقلته من الاصل الفرنسى من دون تصرف ولا تعريب ٠

ويختم الدواليبى هذا الفصل الذى يبين تقدير الخليفة عمر لما اتفق عليه علماء الاصول وهو ، ان الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما ، لا كما فهمه كثير من الزملاء فى الاجتماع الاخير للجنة الافتاء فقال فى ختام فصل الاجتهاد :

LES TROIS VOIES DE LA JURISPRUDENCE ET LEURS EXEMPLES

I - Une étude approfondie de toutes les solutions de la jurisprudence (Ijtihad) des disciples du Prophète, nous amène à préciser qu'elle est réalisée par les trois voies suivantes :

1°) L'interprétation des prescriptions du Coran et de la Sunnah.

2°) Le raisonnement basé sur les cas analogues mentionnés dans les dites sources.

3°) L'appréciation libre basée sur l'ESPRIT de l'Islam, formulé à juste raison en disant : « Que là où l'on trouve le bien c'est la loi de Dieu ».

Citons quelques exemples sur ces trois voies accompagnés des raisonnements originaires des disciples du Prophète.

II - Dans le domaine de l'interprétation, citons celui concernant les dispositions des butins de guerre.

En principe, le butin est divisé en cinq parties, dont la première partie est la part du trésor public, réservée pour le bien de la communauté aux prescriptions du Coran dans le chapitre des *Butins* (verset 41) tandis que les quatre autres sont réparties entre les guerriers conformément aux exemples du Prophète.

Après la conquête de la Syrie, de l'Irak et de la Perse, d'énormes butins tombèrent aux mains des Musulmans, parmi lesquels il y avait de grands terrains. Le khalif Omar ordonna que seuls les biens mobiliers soient répartis ; quant aux terrains, que les intérêts seulement soient réservés aux guerriers pour toujours, mais les guerriers, s'appuyant sur les prescriptions du Coran et les faits de la Sunnah, exigèrent la répartition des terrains. Une grande discussion s'éleva entre le khalif et quelques compagnons du Prophète ; ces derniers insistèrent pour que ces terrains, pris avec leurs propriétaires et faisant partie des butins, soient répartis comme il est prescrit dans le Coran et la Sunnah

Omar reconnut que ces terrains faisaient bien partie des butins ; mais il répliqua que la répartition n'était plus raisonnable, que la sûreté et l'intérêt public réclamaient qu'un fond permanent soit disponible pour défendre le pays et subvenir aux besoins des guerriers de tous les temps ; et c'est pourquoi il voulut laisser ces terrains aux mains des propriétaires indigènes en les frappant d'un impôt qui subviendrait toujours à ces besoins. Bref, Omar affirma que les textes soutenus par ses adversaires devaient être toujours interprétés dans le sens de l'intérêt public.

Avant de prendre une décision définitive sur ce point qui touche à fond l'avenir et la sûreté de la communauté, Omar convoqua les grands compagnons du Prophète à un conseil et il s'adressa à eux en ces termes :

« Je vous ai dérangé afin que vous assumiez avec moi la responsabilité d'une décision dans l'intérêt de la nation. C'est à vous de prononcer aujourd'hui la juste décision, et je ne suis que égal. Il y a des hommes qui sont d'accord avec moi, mais d'autres qui sont contre moi, je ne veux pas que vous approuviez mes actes sans raisonnement. Vous avez le Coran qui ne prescrit *que le Bien* et c'est *le Bien* que je cherche.

« On prétend que j'ai privé des hommes de leur droit en ne répartissant que les biens mobiliers des butins et non les terrains. Si j'ai voulu laisser ces terrains aux mains des Indigènes, ce n'est que pour en affecter les intérêts exclusivement aux besoins des guerriers d'aujourd'hui et de l'avenir.

« Voyez ces immenses frontières dont la garde est indispensable, voyez ces grands pays : la Syrie, l'Irak, la Gézirah, l'Egypte, dont la sûreté nécessite des armées permanentes et des dépenses énormes et continuelles. Comment payera-t-on ces armées dans l'avenir si je répartis aujourd'hui ces terrains entre les guerriers » (1).

Voilà un exemple, dans lequel on a interprété le fait de *la Sunnah*, réservant les 4/5 des butins aux guerriers, en conservant seulement les intérêts des terrains aux besoins des armées d'aujourd'hui et de l'avenir.

III - Maintenant citons un exemple dans le domaine du « raisonnement basé sur les cas analogues mentionnés dans le Coran et dans la Sunnah ».

Dans une succession, la grand-mère maternelle a, d'après un jugement prophétique (Sunnah), un certain droit dans l'héritage de son petit fils.

A l'époque du premier khalif Abou Bakr, une question lui fut posée dans laquelle deux grand-mères, paternelle et maternelle, réclamaient des droits dans l'héritage de leur petit-fils. Le khalif voulut donner droit dans l'héritage à la grand-mère maternelle seule d'après la Sunnah, et priver l'autre grand-mère, faute de texte. Mais un des compagnons du Prophète critiqua cette solution et demanda que la grand-mère paternelle participasse aussi, à plus forte raison à la succession :

(1) C.F. pour toute cette question : Abou Youssef Al-Kharâj, Le Caire 1354 H. p. 23-27.

« Car le petit-fils, dit-il, a le droit de participer à l'héritage de sa grand-mère paternelle et non à celui de sa grand-mère maternelle ». Le khalif décida, d'après ce *raisonnement* inductif, appelé (Qiyas) (raisonnement par analogie) que la grand-mère paternelle participerait avec la grand-mère maternelle à l'héritage (1).

IV - Citons enfin un exemple « sur l'appréciation libre, basée seulement sur l'esprit de l'Islam ». *Cette voie a une très grande importance* que l'on doit d'abord souligner dans le Droit islamique.

Elle embrasse toutes les questions appelées plus tard dans la « science des sources du droit » (المصالح المرسلة) , qui signifie : Les questions dont les solutions ne sont pas mentionnées dans le Coran et la Sunnah et qui n'y ont plus de fondement particulier, ni par voie d'interprétation ni par voie de raisonnement analogique ; mais qui ont leur fondement dans l'esprit de l'Islam, précisé ainsi : Là où l'on trouve le bien, c'est la loi de Dieu (2).

L'exemple est l'expropriation de quelques pâturages par le khalif Omar, afin de les réserver à la nourriture des animaux de l'armée. Les propriétaires furent indignés de cet acte et vinrent se plaindre en lui disant (3) : « Comment expropries-tu notre terrain ? Nous nous sommes battus pour le défendre avant que nous soyons Musulmans, et puis nous nous sommes convertis, confiant dans la sécurité de nos propriétés ». Omar leur répondit que c'est l'utilité publique qui a nécessité cet acte : « Si je n'étais pas chargé d'entretenir ces animaux pour la défense commune, je ne vous aurais même pas exproprié un empan (4) ».

V - Les caractéristiques de leur jurisprudence.

Ces quelques exemples sur la jurisprudence des compagnons du Prophète nous permettent d'en préciser les caractéristiques.

La jurisprudence dans ces trois voies :

— L'interprétation.

— Le raisonnement basé sur les cas analogues.

— L'appréciation libre basée sur l'esprit de l'Islam, n'a plus d'autres règles servant de principe pour interpréter ou pour raisonner par analogie ou pour apprécier librement, que celle de l'idée générale du bien et de la justice : « L'esprit de l'Islam » qui devra être réalisée dans les nouvelles solutions.

---

(1) C.F. Ibn Al-Jawzié, (اعلم الموقعة) Edit. Nil, T. 1, p. 259-260 ; Ibn Rushd (Averroès) بادية المجتهد Le Caire 1935, T. 2, p. 344.

(2) Histoire de la législation islamique, Le Caire 1920, p. 196-241-243 ; cf. Kallaf, La politique loyale, Le Caire 1350 H., p. 2-4, 7-8 ; Al-Ghazali, T. 1 p. 284-315.

(3) C.F. Ibn Al-Jawzié ; Histoire d'Omar Ibn Al-Khattab.

(4) Empan : Espace entre les extrémités du pouce et du petit doit écarté.

Les compagnons du Prophète, étant d'origine arabe et ayant puisé leur doctrine dans l'enseignement direct du Prophète en présence des événements successifs, comprenaient les dispositions dans toutes leurs portées et possédaient facilement « l'esprit de l'Islam ».

Pour ceux-là, cet esprit était si explicite qu'ils y recouraient toujours pour les nouvelles solutions, ou plutôt, ils se contentaient souvent d'y trouver le fondement suffisant par voie « d'appréciation libre » (2) quoiqu'il y eut dans le Coran et la Sunnah d'autres fondements : « l'interprétation » ou « le raisonnement analogique ». L'exemple typique est l'expropriation des pâturages par le khalif Omar pour cause d'utilité publique fondée sur « l'appréciation libre », tandis qu'il aurait put fonder son acte directement sur un cas analogue mentionné dans la Sunnah concernant l'expropriation des forêts par le Prophète pour cause d'utilité publique (on sait que le Prophète a fait entrer dans le domaine public plusieurs forêts se trouvant dans le Taïf et Médine).

L'AUTORITE DE LA JURISPRUDENCE DES COMPAGNONS

I - Pour les mêmes raisons que nous venons de citer et qui rendirent *l'esprit de l'Islam* plus explicite aux disciples du Prophète, une grande partie des docteurs de l'Islam accordèrent aux solutions de ceux-ci, dans les siècles suivants, une autorité absolue (3) si les disciples du Prophète étaient tous d'accord sur la solution d'une question, ces docteurs n'en prenaient pas d'autre ; si les disciples n'étaient pas tous d'accord. Ces docteurs préféraient choisir celle qu'ils jugeaient la meilleure que d'en innover une autre.

II - Il reste à montrer qu'elle était, à l'époque des compagnons du Prophète, l'autorité de leurs solutions divergentes sur une question.

Il y a deux cas à distinguer :

a) Avant la sentence du juge, toutes les solutions divergentes ne dépassaient pas la valeur d'une consultation.

b) Après la sentence du juge, la solution décidée a la valeur de la chose jugée ; aucun autre juge, ayant une autre solution, n'a le droit d'annuler le jugement ; aussi, le premier juge, s'il a changé d'avis après la prononciation de la sentence, n'a pas non plus le droit d'annuler son premier jugement, mais il aura le droit, dans une autre action semblable, de prononcer une sentence d'après sa nouvelle appréciation.

---

(2) C.F. الخضرى L'Histoire de la législation islamique, Le Caire 1920 p. 195-196.

(3) C.F. اعلام الجوزية Le Caire Edit. Nil T. 1 p. 91-94,285
T. 1 p. 260-274. الغزالى (المستلقى)

ويختم الدوالبى هذا الفصل الذى يبين تقدير الخليفة عمر عما اتفق عليه علماء الاصول وهو « أن الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما » لا كما فهمه كثير من الزمــــلاء بالاجتماع الأخير للجنة الافتاء فقال فى ختام فصل الاجتهاد ·

Un condamné ayant expliqué au deuxième khalif Omar son cas qui avait était tranché par un juge, le khalif lui dit : « Si j'avais été le juge en cette question, je l'aurais tranchée par une autre solution ». Le condamné sollicita alors le khalif d'abolir la sentence en sa qualité de juge suprême, le khalif lui répondit : « Je le ferais si je te renvoyais à une prescription coranique ou à une loi prophétique, mais je te renvoie à une solution par voie d'appréciation (jurisprudence) chacun à la sienne et je n'ai pas de préférence à imposer » (1).

Autre exemple : Le khalif Omar avait prononcé une sentence dans une action par voie de jurisprudence ; quelques années après, dans une autre action de même nature, il rendit justice par une autre solution. On lui dit : « Mais tu avais jadis rendu justice autrement » ; le khalif répondit : « C'était mon appréciation ce jour-là, et celle-ci est mon appréciation aujourd'hui » (2).

(1) اعلام الموقعين ·

(2) اعلام الموقعين ·

دور الإسلام في تاريخ الإنسانية

د ٠ الحاج عبد الكريم
يوليوس جرمانوس
استاذ العلوم الاسلامية
بجامعة بودابيست ـ المجر

انفتح عصر جديد فى التاريخ الانسانى حينما قام محمد صلى الله عليه وسلم ، بوحي النبوة وبالهبة الالهية ، بتوحيد القبائل العربية المتطاحنة برباط روحي وثيق ، واحيا بذلك الهامات قدسية كادت ان تضيع فى غياهب النسيان ٠ فقد دعا محمد صلى الله عليه وسلم الى دين السلام ٠٠ الى العقيدة المؤسسة للمجتمع الانسانى ٠٠ دعا الى الاسلام ٠

والاسلام كمعنى حرفى وكمفهوم فلسفى يعنى أن يسلم المؤمن نفسه الى تلك القوة الاخلاقية المهيمنة على الكون كله ٠٠ والتى يرمز اليها بكلمة « الله » ٠ ففى هذه العقيدة يرسخ الاقتناع بان ارادة الكون الموحدة هى التى تسير ملايين الاجرام السماوية وتوجه القوى الخفية المهيمنة على مجريات الامور فى الارض ، بل وتتحكم فى نواميس الفكر

أيضا • وتسير كل هذه الامور فى توافق بديع مع القوة المهيمنة على الكون • والاسلام بالتحديد دعوة اخلاقية ، من خلاله تنبعث قوى الطبيعة المؤثرة والتى تتجسد فى الحياة نفسها بدءا من أدق المخلوقات الى أرقاها •• الى الجنس البشرى • وتمتد هذه الوحدة الى تعاليم علم الالهيات والمنطق الاسلامى • ولم تتوصل العلوم الطبيعية فى مختلف العصور الى حقيقة هذه الوحدة الا بعد تجارب طويلة •• وهى تلك الحقيقة التى يجسدها الاسلام فى حد ذاته والتى قام بتحقيقها منذ أن وجد •

وتحتل معجزة محمد صلى الله عليه وسلم أعلى مكـــانة بين المعجزات العلمية العديدة ••• تلك المعجزة المتمثلة فى القرآن الكريم النابع من الوحى الالهى • فبدون الوحى الالهى لما استطاع شخص أمى ان يخرج عملا فى روعة هذا الكتاب المقدس الذى لا يزال ـ وبعد قرابة الف وأربعمائة عام ـ يهز بآياته الكريمة كل سامعيه وحتى من لا يفهمون العربية يهتز وجدانهم لسماعه •• نعم ، فلم ولن يوجد هذا الكاتب ولا ذلك الفنان الذى يستطيع أن يخلق عملا يضارع ـ أو حتى يشابه بأى صورة من الصور ـ القرآن الكريم أو أثره على سامعيه • ومنذ ألف وأربعمائة من الاعوام وقد أصبحت هذه الكلمات المقدسة هى العبادة ، والابتهال ، والسلوى فى الاحزان ، والرفيق المخلص فى المسرات ، ومصدر الانتاج الادبى ، وعماد العلوم للملايين من البشر • لقد ميز اللـــه سبحانه وتعالى العرب عن غيرهم من الشعوب بان أهدى البشرية جمعاء بالقرآن الكريم بلغتهم العربية • ولا زال تاثير القرآن الكريم على كل الشعوب ، من ايرانيين وأفغان وأتراك وتتار وهنود ، بل وصينيين أيضا ، وعلى كل من هجع الى قانـون الله واختار الاسلام دينا ودليلا فى طريق الحياة الوعر •

ولقد كانت لغة القرآن الكريم عميقة التاثير لدرجة أن الشعوب المسلمة أثـــرت لغاتها الاصلية بالعديد من الكلمات العربية وبهذا تمكنت من التعبير بطريقة أفضـــل عن كل المفاهيم الممكن تصورها • ويحق للشعوب الناطقة بالعربية •• لشعوب شبـه الجزيرة العربية ••• للسوريين وللبنانيين وللمصريين وللييبيين وللتونسيين وللجزائريين وللمغاربة أن يفتخروا بان لغتهم العربية تحتل هذا المكان البارز بين لغـــات العالم الاخـــرى •

لقد أنزل الله سبحانه وتعـالى كلماته الاخيرة على محمد سيد المرسلين وخاتمهم باللغة العربية · وفى لحظات ضعف الامبراطورية الرومانية فقد تردت شعوبها المتقلقلة فى هاوية البربرية واعتمدت علومهم على معتقدات التطير والخرافات ، وحاولوا التخفف من جوعهم وعطشهم ، من فقرهم وبؤسهم الجسدى بالهجوم على جيرانهم وسلبهم ونهبهم وقتلهم وسادت العداوة بين الجميع وأمست القـوة الوحشية هى عقيدتهم وهاديهم ، وقادتهم الى الصدام والاقتتال · وفى ذلك العصر لم تكن الكنيسة متحدة لان الرهبان أعطوا لنفسهم الكثير من الامتيازات التى تمكنهم من حكم شعوبهم الجاهلية وقد قامت طبقة الرهبان المتميزة هذه بوضع علوم مستقاه من المصادر الوثنية القديمة ، وتجمع عناصر من اليهودية واليونانية والمسيحية ،·والتى تحتوى كل منها بذاتها على متناقضات فضلا عن تناقضها مع بعضها البعض · وفى الوقت نفسه كانت الغالبية العظمى من أفراد الشعب محرومة من العلم والمعرفة ووقعت فريسة لطبقة من الرهبان التى لم تكن بقادرة على ايجاد الطريق الصحيح ، وألقت بأفـراد الشعب فى المناقشات العقيمة وتصيد الهفوات والانقسام الى مجموعات متنافرة · وقد تحكمت طبقة الرهبان المتميزة هذه فى الشعوب الغربية لقرون طويلـة مستمدة سيطرتها الاجتماعية من المميزات الممنوحة لها ، مبقية على الشعوب فى ظـلام الجهل والخوف من تهديداتهم وتمائمهم · وهكذا افتقدت شعوب أوربا لمئات السنين ذلك التراث العلمى لاسلافهم الاغريق والرومان وتاهت هذه الشعوب وسط غياهب التطير ومعتقداتها العقيمة ، وظلت أسيرة لهـذه المعتقدات قرابة الالف عام الى أن بدأت حركة ترجمة كتب المسلمين العرب الى اللاتينية فبدأت تتحرر منها ·

ولذا فلكل عربى أن يتذكر بفخر واعتزاز أجداده العلماء الامجاد ·

والاسلام كما أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسـلم لا يعترف بوجود طبقة رهبان ذات امتيازات خاصة ترتفع بها فوق مستوى البشـر لما تدعيه من علم · وكما أعلنها الرسول صلى الله عليه وسلم : «لا رهبانية فى الاسلام» ·

فالاسلام هو دين كل مسلم ومسلمة ، وجوهر هذا الدين هو العلم والمعرفة التى يجب على كل مسلم بالغ أن ينهل منها بقـدر ما يستطيع · فالانسان الذى يفتقر الى

المعرفة ، لا يستطيع تأدية واجبه نحو ربه ولا نحو اخوانه في الانسانية ٠٠ وهى الامور التى بدونها لا تستقيم حياة المجتمع ٠

والمجتمع الوثنى فى الجزيرة العربية لم يعرف الصلاة قط ، وانما كانوا فى تلـــك العصور يحترمون ذكرى الاسلاف ويقدرون الاشخاص اللذين ذاع صيتهم نتيجـــة لميزات جسدية أو عقلية ، فكانوا يطوفون حولهم سبعة مرات ، وفى أيام الوثنية أيضا كانوا يطوفون بالحجر الاسود فى الكعبة الشريفة فى مكة سبعة مرات فى الشهر الحرام تعبيرا عن احترامهم ، وفى حالة انقطاع المطر كانوا يبتهلون الى نجوم السماء أن تبارك أراضيهم الجافة بهطول الامطار ٠ وباستثناء هذه الشعائر فان العرب فى الجاهلية لـــم يمارسوا أى نوع من أنواع الصلاة المنتظمة قط ٠ وقد فرضت الصلاة كأحد أهـــم أركان الاسلام ٠ ولا زالت حتى يومنا هذا واحدة من أهـم مظاهر الايمان بالعقيدة ٠ واذا كانت الصلاة تقوم على التلفظ بكلمات ابتهال معينة ، فأن لـب الصلاة ليس فى الالقاء الآلى للنصوص بدون ادراك لمعانى الكلمات ، وليست الصلاة مجرد تحريك للفم واللسان ، وانما جوهر الصلاة هو فى التفهم التام والكامل لكـل كلمة ، ففى الادراك الكامل للكلمات والاحساس بمعانيها تكمن القوة التى توحى للمؤمن بواجباته الدنيوية التى جاء من أجلها ، والتى بأدائها يتمتع بحقوقه الانسانية التى وفرها له الاسلام ٠

والصلاة فى الاسلام تشتمل على كافة الضمانات المطلوبة لاسس المجتمع الانسانى وطوائفه ، والمظهر الخارجى للصلاة يمثـل بوضوح هذا الطابع الطائفى والاجتماعى ٠ فالطائفة تختار من بين أفرادها اماما يقف المؤمنون خلفه فى صفوف متراصة ، يركعون ويسجدون ويقومون طبقا لما يقوم به امامهم كما لو كانوا جنودا خلف قائدهم ولكـن مع الفارق بأن كل حركة من حركات الصلاة كالركوع أو القيام أو السجود لها مضمونها العقلى ومفهومها الروحى ٠

ان المسلمين أثناء أداء صلاة الجماعة يتغلغل فى داخلهم الاحساس بأنهم اخـوة ٠٠ بأنهم يعيشون سويا مع كل اخوانهم فى النظام الاخلاقى العـــالمى ، يحسون نفـــس أحاسيس هؤلاء الذين يعملون ويتمتعون بنعمة العمل فى خدمة العدالة الالهية ٠ الكل يصلى متجها بقلبه وروحه وعقله الى الله سبحانه وتعالى ٠٠ لا فرق فى ذلك بين غنـى

وفقير ، بين مسلم أبيض أو ملون ، بين عربي وعجمي ، فقد خلق سبحانه وتعالى الناس كلهم سواسية لا يميز بينهم الا مقدار علمهم بالله ، وعلى الجاهـــل أن يبـذل جهده للارتفاع بنفسه من ظلمات الجهالة ، والسمو بروحه الى رحاب العلم الواسعة ٠

ولا يوجد فى العالم كله أى عقيدة تقدر العلم وتحترمه كما تفعل العقيدة الاسلامية ، ويشهد بهذا التاريخ الاسلامى كله ٠

ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم لم يعلن عقيدة جديدة وانما ارتفع بالمخدوعين والجهلة بأن أعلن عليهم دين الله ٠٠ دين ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ٠

حينما هاجر رسول الله صلوات الله عليه من مكة الى يثرب تجنبا لاضطهاد اعدائه جعل من يثرب ـ التى أصبح اسمها فيما بعد مدينة النبى المنورة ـ مقرا ومستقرا له ، وجعل من أحدى ضواحيها مقرا للعبادة ٠٠ وقبل ذلك كانت القدس هى قبلة المصلين ٠ ولكن بعد أن دعم الانصار مجتمع المهاجرين الصغير ، فقد أعلن رسول الله قراره الحكيم المستمد من الوحى الالهى بتغيير القبلة من القدس الى مكة المكرمة ، فكانت هذه الخطوة خطوة حاسمة ، نابعة من تفكير عميق وتوجيه ربانى ٠ ففى ذلك الوقت كان المسلمون فى مكة يحاربون مجموعة عفنة متخلفة من عبدة الاوثان ، ممن يستندون الى امتيازات اقتصادية خاصة ٠ وهكذا قاد محمد صلى الله عليه وسلم حربا لا تعرف الهوادة بعقيدة لا يمكن فلها ، من أجل تحرير الفقراء والعبيد والرجال والنساء المستغلين ، من براثـن الجاهلية والوثنية ٠ وباعلان الدعوة الي التوحيد الالهى فقد أراد صلى الله عليه وسـلم توفير الحقوق المتكافئة لكل العاملين الشرفاء ، عـــربا أم عجما ، من الرجال والنســاء والاطفال ، وفى الوقت نفسه هدف الي توزيع المسؤوليات المتساوية عليهم جميعا داخل اطار عقيدة اشتراكية انسانية ٠

والديمقراطية ، أى تكافوء الحقوق لكل من يحترم قوانين المجتمع ، اشتملت عليهـا تعاليم الاسلام ٠ فالزكاة مثلا ، التى هى فريضة على كل مسلم قادر ، أصبحت هـــى الاساس الذى قام عليه مؤخرا النظام الاشتراكى ٠ وكون رسول الله عليه وسلم قــد أعطى حقوق المواطن لكل مؤمن أيا كانت ديانته ٠٠ سواء كان يهوديا أم مسيحيا ، فقد

تخطي بذلك النظريات العنصرية لبعض شعوب أوربا ومنع حدوث أى اضطهاد أو مذابح لبعض فئات الشعب ولو كان قادة أوربا وزعماؤها قد اخذوا بمبدأ التسامح الدينى هذا لما تلوث تاريخ شعوبهم بمظاهر الاضطهاد الدينى أو العنصرى ·

لقد كانت تعاليم الاسلام الاجتماعية التحريرية ، والمنادية بالتكافوء هى مصدر الخطر الاول الذى أحست به الطبقة الحاكمة فى مكة فى ذلك الحين ، واضطهدوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، بل وهددوه فى حياته · ولم يكن لمحمد اليتيم من ملجا له فى اضطهاده سوى أقرباءه ·· ولكن حتى الكثير من هؤلاء تخلوا عنه ·

وكان خير سند له هو السيدة خديجة رضى الله عنها ، التى أحبته ·· بل وآمنت به منذ البداية وساندته حينما تكاثر عليه أعداؤه · ان هذا التمسك والاصرار الذى قامت به السيدة خديجة رضى الله عنها ليبعث على الاعجاب وسيظل مثلا حيا أمام كل مسلم ومسلمة · وتغير وضع رسول الله عليه الصلاة والسلام فى المدينة المنورة بعد أن أحرز نصرا مبينا على أعدائه ، واذ بصاحب الدعوة المضطهد يصبح زعيما وقائدا حربيا يقوده توفيق الله والهامه فى كل خطاه · وأنضجت الرؤيا والتجارب المتصلة والتفكير العميق محمدا صلى الله عليه وسلم وجعلت منه أعظم رجال الدولة فى تاريخ العالم · فقد أذكى صلى الله عليه وسلم الشعور القومى لدى العرب ، فدين الاسلام دين أجدادهم ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ومكة العربية هى مركز الديانة الاسلامية ، واحتفظ صلوات الله عليه وسلم للعرب بالكثير من قدسياتهم ·· فاعترف بالحجر الاسود رمزا وبالكعبة الشريفة قبلة ، وبالسعى بين الصفا والمروة سبع مرات ، ولكنه صلى الله عليه وسلم أمر فى نفس الوقت بهدم كل الاصنام الوثنية ، وأقام مجتمعا يطبق قواعد الاسلام وقوانينه · وحينما دخل صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين الى مكة على اثر المباحثات السلمية التى أجراها مع اعدائه ، فقد أرسى صرح الدولة والديانة الاسلامية ·

وشعار الاسلام نفسه ، بأن لا اله الا الله الواحد الحق ، يعبر فى ايجاز معجز عن تلك الحقيقة الرائعة التى جاهد العقل الانسانى وحاولت تعاليم الفلاسفة المتعاقبين

طوال السنين أن تعبر عنها وتعترف بها · فالكون باجمعه قد خلقته قوة أخلاقية شاملة تتحكم فى الشكل الخارجى المتغير للمادة ·

وعلى الرغم من أن الشعوب العربية فى ذلك الوقت كانت تعـــانى مـن العداوات القبائلية العتيقة التى ورثوها عن أيام الجاهلية والوثنية ، فقد كانت البساطة المتناهية لشعار الاسلام فى حد ذاته ، وتلك القوة القاهرة الكامنة فيه ، هى التى قادت الشعوب العربية المسلمة بعد وفاة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الى الوقوف أمام شعـــوب ذات حضارة مرتفعة كالبيزنطيين والفرس · فجيوش الامبراطورية البيزنطية ودولـة الفرس كانت على أعلى درجات التنظيم وكانت مجهزة خير تجهيز ، فى الوقت الذى كانت فيه الجيوش العربية لا تملك سوى وسائل القتال البدائية : النبال والرماح والسيوف والحراب · ولكن ، على الرغم من هـــذا ، فقد توالت انتصارات المسلمين العـــرب فى سرعة تخلب اللب ، انتصروا على جيوش بيزنطة وفارس واحتلوا ديارها ، وخضع أهالى هذه الاقاليم طواعية للمسلمين العرب رافعى راية الاسلام ·· دين البساطة والحق ·· دين السماحة والمعايشة السلمية · انها حقا ظاهرة فريدة لم يعرف التاريخ لها مثيلا ·· أن ينتصر قوم بسطاء لا يملكون الا أدوات القتال البدائية على أمم ذات حضارة مرتفعة وتسليح جيوشها يكاد يبلغ حد الكمال ·

ان القوة الاخلاقية العظيمة هى التى حققت انتصار الاسلام وليس نوع ســـلاح المسلمين أو كميته ·· سر النصر يكمن فى نفس عقيدة الاسلام ·· فى ذلك الانضباط الروحى الفريد الذى تفرضه شعائر الصلاة ، خالقة بذلك قوة شجاعة لا يمكن قهرها ، وارادة متينة لاتهاب الموت ·

واليوم ، وبعد مرور أكثر من ألف عام ، فلعل العرب يأخذون العبرة الوافية مـن تلك الانتصارات الحربية التى حققها أسلافهم العظام فى القرن السابع الميلادى ·

أخرجت الانتصارات الحربية العـــرب من براريهم المقفرة الى الاراضى الخصيـــبة المجاورة ، الى سوريا والعراق ومصر ·· وقادتهم فتوحاتهم غربا حتى المحيط الاطلسى ، وشرقا الى بلاد الفرس وشواطىء بحر قزوين ، وظلت الجيوش العربية المسلمة تتقـدم

بلا توقف فى كل الاتجاهات ··· وعلى الرغم من أن قبائل البربر فى افريقيا قاومتهم قليلا ، الا انها اعتنقت الاسلام ، وان احتفظت بلغتها الاصلية ، وفى الشرق حاول الخزر اعاقة الزحف الاسلامى ·· ولكن لم يمض الكثير من الزمن حتى اعترف هــؤلاء أيضا بسمو الاسلام · وهكذا أصبح الاسلام الديانة الغالبة فى العصور الوسطى ·

وبذلك الاتساع الهائل فى رقعة الدولة الاسلامية ، ونما دخلها وتضاعف الى درجة لم يعد من الممكن معها تقسيم هذا الدخل على أفراد المجتمع بنفس الطريقة العائلية التى كانت متبعة فى النظام القبلى سابقا ·

وكان سيدنا أبو بكر الصديق ، رفيق محمد صلى الله عليه وسلم وأول الخلفـاء الراشدين ، والداعية الى حياة البساطة والزهد ، كان كالاب العادل وسط عائلة المسلمين المتنامية · وكانت تصرفات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وحفاظه على أمـوال المسلمين هو النبراس المضىء لصحابته وخلفائه والمثل الدائم الذى يدعم نقاءهم الاخلاقى فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ما زاره الصديق أبو بكر للتباحث معـــه فى أمور دنيوية شخصية ، أطفأ صلوات الله عليه قناديل الزيت المضاءة من بيت مال المسلمين ، وكانت هذه التصرفات وستبقى دليلا وهاديا لكل مسلم وكل حاكم ·

وبدأ الخليفة عمر بن الخطاب ، الذى كان أول من لقب بامير المؤمنين ، بدأ فى قيادة الدولة الاسلامية المتعاظمة طبقا لتعاليم الاسلام الحازمة · وفى بداية هذه المرحلة ، لم يكن العرب على دراية كافية بوسائل الادارة ، ولذا فقد اضطروا للاستعانة بالمسيحيين والفرس فى هذه المجالات ، وكانت حسابات الدولة الاسلامية تتم فى البداية باللغات الفارسية واليونانية كما تداولوا عملاتهم فيما بينهم · وقام الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بتقسيم الدولة الاسلامية الى ولايات وجعل على كل منها عاملا يحكم بين الناس بالعدل ويجبى الضرائب ، وتولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بنفسه حـــكم المدينة المنورة ·· مقر الدولة الاسلامية فى ذلك الحين ، وكانت عدالة عمر بن الخطاب مثـــار اعجاب كل الكتاب العرب فيما بعد وأشادوا بها دائما ·

ولقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا ذوهمة ، وبعد تفكير ملى بدأ فى تنظيم تلك المبادرات التى بدأها أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، والتى تتشابه فى نـــواح

معينة مع تجارب اشراف الدولة الاخرى التى برزت فيما بعد فى تاريخ الاسلام · وقد حكم ابن خلدون ـ أحد أكبر المفكرين العرب ـ حكم على تلك المحاولات فى **مقدمته** التى صدرت بعد ذلك بزمان طويل ، بأنها ضارة وغير اقتصادية ولا تؤدى الى الهدف المقصود منهـا ·

ولقد خشى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تثمل نشـوة النصر المحاربين العرب فيعتبروا الارض المحررة ملكا خاصا لهم ويتصرفوا تصرفات الاقطاعيين ، أو أن ينسلخوا باقطاعياتهم الجديدة عن الدولة الاسلامية ·· بل وقد يتحدون سلطة الدولة المركزية نفسها فيما بعد · ولذا فقد أمر الخليفة عمر رضى الله عنه بمنع وجود ملكية خاصة للاراضى ، واهتم بتحصيل الضرائب المقررة لبيت مال المسلمين · وكان المتبقى من دخل بيت المال بعد اقتطاع نسبة الخمس ، يتم توزيعه توزيعا عادلا على صـورة هبات وعطاءات على المقاتلين وعائلاتهم ، وبهذا فقد تمتع كل مسلم من الرضيع الى العجوز بخدمات الدولة وانفاقها عليه ، وكانت الدولة تتحرى بدقة عن الحاصلين على هبـات من الدولة بدون وجه حق · ولفترة من الزمان بدأ نظام اشراف الدولة هذا كما لو كان نظاما مثاليا ، ولكن قصور الجهاز الادارى وبدائيته فى ذلك الحين ، بالاضافة الى طبيعة دخل الدولة المتمثل فى المنتجات الخام ، أوقع هذا النظام فى الكثير من المشاكل وبالتالى لم يعمر طويلا ·

ومنذ منتصف القرن السابع الميلادى ، فقد انقسم العالم دينيا الى قسمين : مسلمين ومسيحيين ، وأيا كان قدر تباين الاديان ـ سـواء كانت مسيحية ام زاردوشتيـة ـ فانها عادة تدمغ الثقافة بطابعها·ولكن الاساس الحيوى للثقافة ، وهو الوضع الاقتصادى لم يتغير ، وان ارتبط مع مرحلة التطور التكنولوجى للعصر بعلاقات متبادلة ·

وفى نهاية القرن السادس الميلادى ومطلع القرن السابع الميلادى ، أدت عمليـات اشراف الدولة التى أدخلها الامبراطور يوستينيان فى الامبراطورية البيزنطية ، أدت الى عمليات متشابهة فى بلاد الفرس ، حيث بدأت الصناعة والتجارة فى الدخـول تحت سيطرة الدولة تدريجيا ، واصبح الجنود والموظفون يتقاضون نسبا متزايـدة من مرتباتهم على صورة مواد عينية بدلا من النقود · ونتج عن الاشراف الكامل للدولـة

سيطرتها على جميع المرافق المختلفة ، الفقدان التام لحرية الحياة الاقتصادية ، واصبح التعامل بالنقود محدودا للغاية ، بل ولم يقتصر الامر على العاملين فى قطاعات التجارة والصناعة فحسب وانما وصل الحال الى المحامين والاطباء والكتبة اصبحوا تدريجيا موظفين حكوميين • وأدت القيود المفروضة على الحرية الاقتصادية للافراد الى اندلاع حركات التمرد مما ارغم حكومة بيزنطة على ادخال أنظمة اقتصادية جديدة للتخفيف من التوتر القائم فى الحياة الاقتصادية • وقد طبق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومن بعده معاوية بن ابى سفيان فى سوريا ذلك النظام الاقتصادى القديم للحكومة البيزنطية من سيطرة الحكومة على مختلف المرافق ، وهو ذلك النظام الذى استبعد فيما بعد كنتيجة للتطور الاقتصادى العالمى •

ولكن ، وكنتيجة حتمية لانتصار العرب على الشعوب الاجنبية ذات الثقافة العالية العتيدة ، ومن خلال الزيجات المشتركة والاتصالات الفكرية المتعددة ، فقد تحول العرب من قبائل رحل ، ساكنى خيام ورعاة أغنام ، الى سكان مدن ، وصناع ، واهل فكر ، وعلماء ، ورجال دولة ناضجين لتولى مهام الحكم •

وبدخول العديد من الاجناس فى دين الله افواجا ، اشتد عود الفكر العربى المتوقد دائما ، اذ بدأ العرب يتعرفون فى همة على العلوم الاجنبية وعلى الفكر العالمى • وخلال فترة الحكم الاموى ، كان المسلمون والمسيحيون اثناء مسامراتهم يناقشون سويا أوجه الاختلاف بين الديانتين فأخذ المسلمون يتخذون من كلمات الله عز جلاله حججا مقنعة وبراهين ساطعة لآرائهم ، مما قوى من عقيدة علماء المسلمين انفسهم ، وأوسع من مداركهم وبدأوا فى تفسير العديد من آيات القرآن الكريم المعجزة من وجهات نظر مختلفة ، وادت هذه العملية بدورها الى البدء فى تفسير تراكيب اللغة نفسها ، وشرعوا فى وضع اسس عملية لقواعد الحديث والمخاطبة •

ولما كانت لهجات القبائل العربية قد انتشرت فى مناطق الفتوح الاسلامية ، كل منطقة حسب اللهجة الغالبة للقبيلة الفاتحة والمستوطنة ، فقد قاموا بخطوة صحيحة هامة ألا وهى ارسال مندوبين عنهم الى المصادر الاصلية للغة فى شبه الجزيرة العربية نفسها للبحث عن اللغة الاصلية الاصيلة التى لم تفدها اللهجات بعد ، وجمعوا موادها

من افواه العجائز · وبذا تمكنوا من انقاذ التراث الشعرى الهائل لعصر الجاهلية وقاموا بتسجيله كتابة بعد قرابة القرن على صـــدوره ·

وفى خلال هذه الفترة الطويلة ، مر العرب بتحول حاسم وهام فى تراثهم المــادى والفكرى ، وذلك بحلول المجتمع الاسلامى بتركيباته المستحدثة محل مجتمع الوثنيــة والجاهلية القديم · ولذا فليس بالمستغرب ان يكون هذا التغيير فى المجتمع قد تــرك طابعه وآثاره على لغة ومفاهيم أدب الجاهلية التى تم انقاذها من الضياع ·

ومما يثير الاعجاب فى هذا المجال ، بروز روح النقد وقيام العلماء العرب كابن سلام، والاصمعى ، وعمرو بن العلاء باظهــار أخطــاء جامــعى التراث الادبى ·

وفى خلال فترة الخلافة العباسية تميز المجتمع بتعقيده · · فتركيبه الاجتمـــاعى يقوم على العرب القبائليين ، والمسلمين من العجم ، والموالى من اتباع عـــرب القبائل ، ومن العبيد ومن المعتقين · وتميز بتجارة متسعة الى مشارق الارض ومغاربها بقاراتــها المختلفة ، وبالزراعة ورعاية الماشية · واصبحت المشاكل التى يجب على القضاة الفصل فيها اكثر تعقيدا عن ذى قبل · · بل ان معظم المشاكل كانت جديدة على القضـــــاة الذين تعودوا على حل مشاكل البدو البسطاء التى تتميز بدورها ببساطتها ، وكــانت تلك المشاكل عادة تعرض فى القديم على شيخ القبيلة الذى يقضى فيها حسبما يقتضيه العرف · وكما ينمو اللبلاب على شجرة البلاط ·

فقد تطورت عادة تطبيق العرف وأصبحت تقاليد حية ، واكبت تطور الامبراطورية الاسلامية ونموها · وازدادت خبرة قضاة الولايات المختلفة نتيجة للمزيد والعديد من التطبيقات المختلفة ، وأدخل على العرف والتقاليد العديد من العناصر المستحدثة · وفى سوريا فقد ازدهر القانون الرومانى المعـــروف باســم Responsa Prudentium والذى طبق فى عصر الامويين ، اذ أجاب على تساؤلات العلماء ، واستمر فى التطـــور القانونى مثله فى ذلك مثل الفتاوى الاسلامية · ولكن القانون الرومانى ، وما انبثـق عنه فيما بعد من أنظمة قانونية أخرى فى أوروبا لم يتلاءم مع مبادىء روح الاســلام · فروح الاسلام ترفض الخضوع للعقل البشرى المحدود أو لاى تعاليم مـن تلك التعاليم

التى تتغير بتغير الزمان أو بتطور المجتمع ·· والتى عادة ما تكون متناقضة · وعلى الرغم من أن هذا القانون تغير وتطور فانه قانون واقع تحت تأثير الاحداث الدنيوية ، ولذا يفتقر الى تلك القوة الاخلاقية المهيمنة على الكون كله ·· الى تلك الارادة العليا ·· الى تجسد العقيدة ·· الى ذلك القانون الالهى الصالح أبدا لكل زمان وكل عصر ·

وقد يبدو هذا المفهوم اليوم مفهوما دوجماتيكيا جازما ، ولكنه كان العنصر المنعش للحياة فى العصور الوسطى ، بل قد يبدو غريبا أن نقول بانه لو توفر اليوم مثل هذا المفهوم للمجتمعات الغربية التى لا تستطيع أن تحمى أمن وشرف وحياة مواطنيها ، لامكن لهذه المجتمعات أن تتغلب على التمزق والاهتزاز الذى تعانيه ·

والاسلام ، مثله فى ذلك مثل الديانة المسيحية الحقة ، لم يقم بتوضيح ظواهر الحياة المختلفة من خلال العديد من التفسيرات المتناقضة ، ولكنه تصورها وتفهمها من خلال الوحى الالهى ووائم نفسه بداخل اطار الحقيقة الاخلاقية المطلقة · وكان من الضرورى خلق وحدة ومفهوم مشترك بين الآلاف من شواهد الحياة العديدة وبين العدالة المطلقة التى يتضمنها القرآن الكريم الصالح لكل زمان وكل عصر · ولذا أصبح ضروريا تفسير كلمات الله سبحانة وتعالت قدرته فى قرآنه الكريم لكى يمكن للادراك الانسانى والفهم البشرى أن يعرف طريقه بين طواياه المعجزة · وقد استخدم أبو جعفر ، والطبرى ، والزمخشرى ، والبيضاوى ، وفخر الدين الرازى ، وأحمد النوبى ، والسيوطى ، وأبو سعود ·· وغيرهم ، استخدموا التفسيرات القديمة للقرآن ·

ولكن باتساع الدولة الاسلامية وانتشارها ، نمت الحياة الاقتصادية وتعددت مطالب الحكم والادارة ، وتنوعت المشاكل بحيث أمست الحاجة ضرورية للبحث عن مصادر أخرى للتقنين والاحكام ، الى جانب الاحكام القانونية الموجودة فى القرآن الكريم · وأى مصدر للتقنين والاحكام خير من سيرة وسنة محمد مبعوث السماء ورسول الله صلوات الله عليه ؟ ولذا فقد بدأ المسلمون فى جمع كل ما يمكن من البيانات المتعلقة بحياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، واستمرت الجهود التى لا تعرف الكلل فى جميع أنحاء البلاد الداخلية ضمن الدولة الاسلامية ، وجاب جامعو السيرة الشريفة أقاصى

الارض ودانيها بحثا عن كل من يستطيع أن يضيف الى ثروة التشريع الاسلامى جديدا ٠٠ سواء كان راوية الحديث قد سمع الحديث الشريف بنفسه أم توارثه عن أبيه أو جده ٠ ولكن الكثير مما نسب الى الحديث والسنة الشريفة كان يفتقر الى الصحة لاسباب عديدة فقد اختلفت الاحزاب السياسية ، والمذاهب الدينية ، والحركات الاقليمية ٠٠ بل ولاسباب شخصية أيضا اختلق الكثير من الاحاديث نسبت زورا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلق العديد من الافعال ودست على السيرة الشريفة ٠ وبذلك زادت صعوبة الامر على قضاة المسلمين الذين كان يجب عليهم الحكم فى القضايا المعروضة عليهم بروح القرآن الكريم وحده ٠

ويرجع الفضل فى حسم هذه القضية البالغة الاهمية الى رجاحة عقل عدد كبير من العلماء العرب الذين تصدوا لنقد كومة الاحاديث والسنة ونقضها سواء من ناحية الاسلوب أو اللغة أو قدر الثقة فى راوى الحديث نفسه ، بل وقاموا بمناقشة ونقد مضمون الاحاديث نفسها اذا ما أحسوا بزيفها ٠ وقد ساعدهم الى حد كبير ظهور العديد من التراجم وسير الحياة فى القرن التاسع الميلادى ، فقد أمكن بذلك التحقق تاريخيا وموضوعيا من صحة الروايات المختلفة ٠ فعلى سبيل المثال ــ اذا اتضح تاريخيا أن راوية ما ولنسميه الراوى « أ » كان قد مات حينما كان الراوى « ب » لا زال فى المهد رضيعا ، أمكن الحكم بان رواية « ب » نقلا عن « أ » رواية مزيفة ٠ أو اذا أثبت المؤرخون أن الراوى « أ » عاش فى الاطراف الشرقية للدولة الاسلامية بينما الراوى « ب » عاش فى التخوم الغربية ، أعلن علماء المسلمين المحققين تشككهم وريبتهم فى صحة الحديث المنقول عنهما الى أن يتم ثبوت المكان والزمان الذى التقى فيه « أ » مع « ب » ٠ وبذلك أمكن للعلماء اثبات زيف العديد من الاحاديث والسنة المنسوبة زورا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ بل أن حدة ذهن العلماء وتوقد فكرهم مكنهم من تمييز زيف عدد كبير من الاحاديث المختلفة نظرا لاختلاف لغتها عن لغة العصر الذى ترجع اليه ، أو لان لهجة الحديث تختلف عن لهجة قبيلة راوية الحديث ٠

ان علماء تلك العصور بتوقد ذهنهم الذى تجلى كخير ما يكون فى نقدهم ونقضهم للاحاديث المدسوسة والسنة المنسوبة زورا الى رسول الله صلوات الله عليه ، قد

سبقوا بذلك قرنائهم فى أوروبا بقرون طويلة ، حيث بدأت حركة نقد النصوص فى أوروبا بعد ذلك بزمن طـــويل ، وهذا هو أحد دواعى فخر العرب بعبقرية أسلافهم العظـــام ٠

من روح الاسلام انبثق الشعور بأن الحقوق تنبع من أصل الهى ، وبان على الانسان أن يبحث عن الارادة الالهية وأن يقوم بتحقيقها فى حياة المجتمع ٠ وتوافقت هذه الروح مع المنطق الذى ساد تلك العصور ٠٠ منطق الـ Civitas Dei أو المجتمع الالهى ، وبذلك جاهد الانسان من أجل بناء مجتمع مثالى وظهرت علوم الفقه التى توضح كيفية تطبيق الارادة الالهية فى حياة الانسان القانونية والشريعة التى تبين طريق العدالة ٠

واذا نظرنا الى مدارس التشريع الاسلامية الاربع ٠٠ أو المذاهب الاسلامية الاربعة من وجهة نظر أوروبية بحتة لاعتقدنا بأن نظام الحقوق الاسلامية هنا نظام مغلق ، لانه يحدد للفكر الانسانى الحر حدودا معينة ٠ ولكن ، اذا نظرنا اليه مـــن زاوية التطبيق العملى ، لامكننا الحكم بأنه نظام معجز يشهد بتفوق ذهن علماء المسلمين وسمو تفكيرهم ٠٠ فهذا النظام يتعرض لكل الظروف المختلفة فى حياة أى انسان منذ ولادته الى يوم وفاته وما بعدها ، يدرس النظافة البدنية والبناء الروحى ، يقنن ارادة الانسان وتصرفاته بكل ضوابطها وروابطها ، ويحدد لها حدودها المناسبة ، ويطبق القوانين لحماية الفرد والمجتمع ٠

واذا كان المجتمع الاوروبى يعجب لكون النظام الاسلامي يعطي لمسائل العبادة نفس مستوي اهمية المناقشة لمسائل النظافة أو الذنوب مثلا ، فلا بد أن نمجد نحن هـذه الحقيقة ونشيد بها ، لان من يهمل في أداء أيا من واجباته تجاه مجتمعه ، لا يقل ذنبـا عن مرتكب أيا من الافعال التي تعاقب عادة بمزيد من القسوة ٠

ومن العوامل الهامة للغاية فى نظام الحقوق الاسلامي أنه فصل ما بين النية لارتكاب فعل ما ، وبين نتائج هذا الفعل ٠٠ لان النية في حد ذاتها هى منبع الافعال ومصدرها ٠

وعلى تعاقب السنين والاعوام ، فقد تحول نظام الحقوق الاوروبى الى ميادين السياسة وأهمل جانب الاهانة الاخلاقية في حد ذاتها للتصرفات الآدمية ٠ وساهم انعدام الايمان

واعطاء المزيد من الحريات ، فى تفسخ ارتباط الفرد الاوربى بمجتمعه وتراخيه فى أداء واجباته تجاه رفقائه فى المجتمع ، وبذلك تردى الاوروبيون فى هاوية الذنوب الجسمية ·

بينما نجد أن نظام الحقوق الاسلامى يقيم كل الافعال من وجهة النظر الاخــلاقية البحتة ، ويميز بين الذنوب البسيطة والجسيمة عن طريق زيادة العقوبة المفروضة فقط·

وبهذا يتميز المفهوم العقلى الاسلامى ويسمو على المفهوم الاوروبى المبنى على منطــق الحــق العقلى البــحت ·

ولذا فليس من عجب ان يقف نظام الحقوق الاوروبى اليوم امام دوامة الذنـــوب والتدهور الاخلاقى ، عاجزا لا حول له ولا قـــوة ·

وهناك الكثير من الامثلة التى توضح هذا الفارق ·· فالعدالة الاسلامية تـــدين متعاطى الغيبات بأشد العقوبات ·· أيا كانت صورة مغيب الذهن ·· مشروبا روحيـا أم جوهرات مخدرة ·· فالمغيب أيا كانت صورته يرتكب جريمة فى حق مفهوم الانسان نفسه · السكر يفقد الانسان تلك المزايا التى وهبها له الله سبحانه · وتعالت قدرته·· يفقد الانسان قدره واتزانه واحترامه ، ويؤدى به الى ارتكاب الذنوب والمعاصى ·· ولذا فلا يمكن ان يعامل بصورة مخففة لان السكر فى حد ذاته معصية وذنب ونفس الامـــر ينطبق على مغيبـــات الذهن الاخــرى أيضا ·

واذا كانت المجتمعات الاوروبية تقف عاجزة عن تطبيق قوانينها امام مثل هـــذه الذنوب وما قد ينتج عنها ويتبعها من معصيات اخرى،فما اجدرهم فى اوروبا بان يطبقوا قوانين الشريعة الاسلامية ·

وشريعة الاسلام تجيز تعدد الزوجات ، ولكنها بالطبع لا تشترطها ·· بل هى عـلى العكس من ذلك تقيد الزوج بأن لا يستخدم هذا الحق الا بعد توفر الكثير من الشروط · وتاريخ الاسلام كله يشهد بعدم حدوث أى انحلال أخلاقى على مستوى كبـــير ·· لان الاسلام ، عن طريق هذه الحقوق ، احتفظ دائما بصحة الانساب والاصول ، وفى نفس الوقت فان الاسلام يعاقب الخيانات الزوجية بأقصى قدر من الصرامة · كما نجـــد ان الديانة الاسلامية وشريعته السماوية تحدد تحديدا دقيقا علاقات التعايش والمجـاورة

بين الانسان ورفقائه فى المجتمع وتوجيهها داخل حدود اللياقة الواجبة . أما مـا نص عليه الدين الاسلامى من وجوب احترام المسنين والنساء والعلماء وتقديرهم ، فقـــد سبق بذلك اوروبا بعدة قرون . ومؤسسات الصحة والنظافة البدنية التى أوجدتهـا الانظمة الاسلامية تقف فى المقدمة دائما مقارنة بمثيلاتها فى المجتمعات الغربيـــة .

وقوانين العقوبات فى المجتمعات الاسلامية تخلص البلاد مـن المجرمين بفرض اقصى العقوبات عليهم بل واعدامهم ، ولذلك نجد ان الجرائم المنتشرة فى المجتمعات الاخـــرى كالسرقة والنهب والقتل وقطع الطريق يندر حدوثها فى الدول الاسلامية .

ان التحديد القاطع الذى قامت به مذاهب التشريع الاسلامى الاربعة لكل التفاصيل الصغيرة فى حياة الفرد والمجتمع تستدعى الاعجاب وتخلب اللب كعمل فنى رائـــع يمثل القمة فى التفكير المنطقى وسمو العقل الانسانى ، ولا غـرو أن تظل حتى يومنـا هذا صرحا للثقافة شامخا يقاوم كل عوامل الزمن والعصر ، ويشهـد بعبقرية العـــرب ونبـــوغـــهم .

حول الملتقى التاسع للفكر الإسلامي بتلمسان

ملاحظات واقتراحات

يحيى بو عزيز

اهمية الملتقيات الفكرية واهدافها :

ان ملتقيات التعرف على الفكر الاسلامى التى تنظمها وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية كل سنة ، تمثل مظاهرات ثقافية حية وبالغة الاهمية ، تدخل فى اطـار الثورة الثقافية التى تعتـزم الجزائر خوضها بعزم منذ مطلع هذا العام (1975) الذى هو عـام التعريب انطلاقا من الندوة الوطنية للتعريب • ذلك أن هـذه الملتقيات تلتقى فيها نخبة من مفكـرى العالم الاسلامى الواسع الارجاء ليتدارسوا أوضاع الحضارة والفكر الاسلاميين ، ويحيوا ما اندثر منهما ، ويزيلوا الغبار عـلى بعض جوانبهما ، ويعطوا تحليلات جديدة ملائمة لروح العصر تتماشى مع التجديد الحديث ، وتواكب ركب التطور الحضارى ، وفى نفس الوقت لا تتناقض مع اصالتنا الاسلامية المتفتحة •

ثم ان هذه الملتقيات الفكرية ، تهدف فيما تهدف اليه ، الى تطعيم عقـــول شبابنا بتراث حضارتنا الاسلامية الاصيلة ، التى تكسبهم الحماية والمناعة ، ضد أفكار الغرب الهدامة ، المتحللـــة ، المتـفسخـــة ، التى تسعى بكـــل ما تملك من وسائـــل ، لتشكيكنا فى شخصيتنا القومية وامجادنا الحضارية ، وتاريخنا الاسلامى الطويل .

واذن فان هذه الملتقيات الفكرية تمثل مفخرة للجزائر بصورة عامة ، ولوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بصورة خاصة ، يجب تدعيمها بمختلف الوسائل الماديـــة والمعنوية ، خاصة وان الجزائر عانت أكثر من غيرها مرارة الحرمان الفكـــرى والثقافى خلال العهد الاستعمارى الفرنسى الذى حاول جهده أن يفصلها عـن ماضيها التاريخى وأمجادها القومية والحضارية ، وأن يطمس شخصيتها القومية والوطنية تماما .

ان التاريخ سيسجل للسيد الوزير مولود قاسم ، بانه أخـــرج الاطارات الدينية بالجزائر ، من خمولها ورهبنتها اللذين ورثتهما عن عهـود التخلف الطويلة والمريرة ، وزرع فيها دماء الحياة الجديدة عن أصالة وتفتح ، ونزع من أذهان الكثيرين تلك النظرة المنحرفة التى تصور الاطارات الدينية فى صورة أناس خاملين متخلفين لاهـم لهم الا كتابة التمائم ، وتسلم الرشاوى ، والتكالب على موائد الموتى و « الزرادى » ، وما الى ذلك من مظاهر الارتزاق التى هى ليست من الدين ، ولا من العادات الاسلامية الاصيلة والنظيفة فى شىء ، ويبرأ رجال الدين الاتقياء الورعون منها ومن أمثالها .

من كان يتصور أن هذا الاطار الدينى المعزول عن الحيـاة الصحيحة والمغلوب عـلى أمره ، تتاح له الفرصة ليستضاف فى أفخم الفنادق ومؤسسات الاستقبال ، كقصـــر الامم بالعاصمة ، وفندق الحماديين ببجاية ، وفنـــدق الزيانيين بتلمسان . ومن كان يتصور أن هذا الاطار الديني سيقود وينظم ملتقيات قمة فكرية اسلامية رائعة يلتقى فيها عدد من مفكرى العالم الاسلامى ليتدارسوا شؤون دينهم الاسلامى ، وأوضـــاع حضارتهم الاصيلة التى تعرضت للمسخ والتشويه خـــلال عهود الركـود والتخلف الطويلة . وقد عز على غير الجزائر حتى هذه الساعة أن تنظم مثل هذه الملتقيات .

ان على اطارات وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ان يضعـــوا فى اعتبارهم هذا . وهم يخوضون هذه المعارك الفكرية فى جـو من الاصالة والتفتح حتى لا يتركوا

مجالا لعودة التكاسل والتواكل اليهم وامثالهم ، ولا يسمحوا لتلك النظـرة المنحرفة الزائلة أن تعود الى الاذهان الزائغة والمتشككة من جـــديد ، خاصـــة وأن محاولات التشكيك ، والعرقلة منبثة ، والفخاح منصوبة فى كل مكان لا يقاف هذه المسيرة الجادة والمباركة ، والاصيلة ، فى آن واحد ·

الاسلوب المطلوب اتباعه فى هذه الملتقيات :

ونظرا لاهمية هذه الملتقيات فى مسيرتنا الثقافية الكبرى ، فان الاسلوب المطلوب اتباعه فيها هو : **المنهجية العلمية** التى تعنى ثـــلاثة اشياء رئيسية واساسية هى : التركيز ، والوضوح ، والايفاء ·

أ) **التركيز على ابراز الحقائق الاساسية** ، والمحاور الكبرى للموضوعات ، باسلوب خال من التهويش ، والحشو الزائد ، والاطناب الممل ، الذى يبعث على الكلل والسأم ، وينفر عقول الشباب من المتابعة ، ويحول دون استيعابهم لما حضروا لاجله ، وهـــم الهدف الاساسى من هذه الملتقيات ·

ب) **الوضوح فى التعبير والاستعراض للمواضيع المطروقة** ، وذلك بالاتجاه مباشرة الى الغرض المقصود المطلوب دون مقدمات وهوامش طويلة ومملة ، وذلك مما يسهـــل على الشباب أن يتابعوا ما يعرض عليهم من أفكـــار ، ويستوعبوها بسهولة ويسر ، ويستفيدوا منها ويعودوا بحصيلة مفيدة لهم فى حياتهم ، تنسيهم فى نفس الوقـــت الاتعاب التى نالوها خلال مدة الملتقى ·

ج) **الايفاء ، ما أمكن ، بمحتوى الموضوعات المطروقة** ، وعدم بترها واهمال جوانب منها قد يضر بصميمها ، كما لاحظنا في ملتقى تلمسان التاسع · حيث أهمل موقف الدولة العثمانية من غزو العالم الاسلامى واستعماره بعد كارثة الاندلس ، وأهملـــت الطريقة التى يؤدى عليها الحج اليوم ، وهو عنصر حساس فى نقطة مقصد الشريعة من الحـــج ·

تقـويم ملتقـى تلمســان :

ان هذه المقـــدمة كان لابد منها لتقودنا بعد ذلك الى ملتقى تلمسان التاسع الذى لاحظنا فيه ثلاثة أنواع من الاساليب فى المحاضرات ، وثلاثة أصناف من المحاضرين :

ـ الصنف الاول : **التزموا بالمنهجية** الكاملة · فافادوا ، واستفاد الغير منهم ، ومن بينهم الدكاترة : احسان عباس ، ليلى الصباغ ، زكى نجيب محمود ، ابراهيم حركات ، الاستاذ عبد الله عنان ·

ـ الصنف الثانى : التزموا بمنهجية جزئية ، وركزوا عـلى جوانب ووضحوها ، ولكنهم أخلوا بجوانب أخرى مطلوبة ، وأهملوا بذلك عنصر الايفاء ، ومن بينهم الدكتور عبد الهادى التازى ، والاستاذان : عثمان الكعاك ، وأحمد محمد جمال ·

ـ الصنف الثالث : أخلوا بعنصر المنهجية تماما مثـل : الشيخ سليمان داوود ، وعبد الحميد بن اشنهو ، والقاضى عبد الله الشماحى · وقد يكون لاختلاف طـــرق وأساليب التكوين الثقافى ، دور فى اختـــلاف أساليب المحاضرين · فليس الدارس والمدرس فى جامعة : كالمكون لنفسه بصورة شخصية بعيدا عـــن الاساليب الحديثة · ونحن هنا لا نقصد ان نطعن فى أحد ، فكلهم أساتذة أجلاء محترمون ، ولكن النقـــد النزيه والوجاهة العلمية ، والرغبة فى انجاح هذه الملتقيات أكثر ، هى الـدافع لابداء هذا الرأى · ونعتذر مسبقا لمن أوردناهم كأمثلة ·

ولقد لاحظنا فى ملتقى تلمسان عدة أمـور نعتقد ان تجنبها وتفاديها فى الملتقيات المقبلة سيساعد على النجاح أكثر وهى :

1) **عدم وجود توازن فى موضوعات الملتقى** فيما بينها ومـع الزمن المخصص لها · فالنقطة الاولى خصص لها أربعة محاضرين ، والثانية ضعف هذا العدد ، أى ثمانية ، والثالثة ربع الثانية ، ونصف الاولى ، أى محاضران اثنان فقط · ومع ان هذا ليس ذنب المنظمين للملتقى ، لان المحاضرين أحرار فى اختيار الموضوعات · وتشاء الصدف أن يشترك عدد كبير فى اختيار موضوع واحد من نقطة واحدة ، وينتج عن ذلك انعـدام

التوازن . ولكن لابد من مراعاة التوازن ولو بفرض أدبى على بعض المحاضرين مسبقا بأن يحاضروا فى نقطة خاصة .

2) **كثرة عدد المحاضرين** ، وقلة افادة البعض منهم ، وغياب عدد لا بأس به يقارب الثلث (تسعة من ثلاثة وثلاثين) وذلك أخل بموضوعات الملتقى المطروقة خاصة ، النقطة الثانية والنقطة الثالثة .

3) **غياب الجزائريين فى ميدان المحاضرات** ، رغم أن الجزائر هى الداعية والمنظمة والمستضيفة للملتقى بحيث لم يشارك من الجزائريين الا اثنان من بين ثلاثة وثلاثين محاضرا . وحتى هذان الاثنان لم يحسن اختيارهما بحيث كانت محاضرتاهما هزيلتين محتوى وأسلوبا . وليس هذا قدحا فيهما ، فهما عالمان جليلان ، ولكن ليس كل عالم صالحا لان يحاضر ، وليس كل عالم صالحا لان يكتب .

فملتقى تلمسان من هذه الناحية يكاد يكون غير جزائرى الا فى المكان وهو اجحاف بالجزائر ومفكريها الذين هم كثر والحمد لله ، ولا يساعد على تفجير الطاقات الفكرية الكامنة ، بل على تحجيرها ، ونحن أحوج الى التفجير لا الى التحجير بعد الذى عانته البلاد من الحرمان الفكرى والثقافى كما أن الثورة الثقافية تتطلب تفجير الطاقات الكامنة .

4) **لاحظنا كثرة المعقبين عددا** ، وقلة من يتدخل منهم غالبا ، وعدم منهجية بعض من يتدخل منهم فى المحتوى ، والاسلوب ، والوقت . ان بعض المعقبين لا يزنون ما يقولون ، والبعض يعقبون خارج الموضوع ، والبعض يطنب ويركز على التفصح . ونحن فى حاجة الى التركيز والوضوح والايفاء .

5) لاحظنا فى الملتقى الاهتمام بالاستعراض والسرد ، والتقليل أو الاحجام عن اعطاء الحلول للمشاكل المطروحة . اننا فى عصر صناديق التوفير ، وبنوك التنمية ، والتاميم ، والاقتصاد الموجه ، والارض لمن يخدمها ، والقطاع العام أو ملكية الدولة ، ومن أين لك هذا . وهى أمور فرضها التخلف علينا فرضا ، وتجد من يعارضها داخل مجتمعاتنا الاسلامية باسم الدين ، ولابد من اعطاء الحلول لها والمبررات من تراثنا ، وتقاليدنا ، وشريعتنا الاسلامية السمحاء التى من أبرز سماتها مسايرتها لكل عصر

ومكان . وليس هناك أجدر من هذه الملتقيات لتعطى لها الحلول الناجعة . وقد أثارت وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، **مشكلة الذبيحة فى الحج** ، والطريقة السيئة التى يؤدى بها الحج اليوم ، وهى مشكلة هامة بحاجة الى علاج وحلول سريعة ، ولكن لم يتعمق فيها أحد من الملتقين المحاضرين والمعقبين ، وأثار الدكتور عبد الهادى التـــازى مشكلة ذكاة الابقار الحلوبة التى تعتمد على التربية الحديثة ، وكم نتمنى أن تطـــرح مشكلات أخرى على غرارهما فى الملتقيات المقبلة ، وتناقش بتوسع من طرف مفكـــرين متخصصين ومتفتحين ، يخرجون فى النهاية بنتائج وقرارات ملزمة لكـــل الحكومات والشعوب الاسلامية ، ولنا مثل فى الكنيسة المسيحية التى تحاول اليـــوم أن تذيب الحواجز بين مذاهبها المختلفة بحزم وجد رغم الفوارق الكثيرة بين شعوبها . ان كـــل جوانب الشريعة الاسلامية تحتاج اليوم الى فحص ، ودراسة ، وتوضيح ، يزيل عنهـا ما علق بها من الترهات والاباطيل ، والشعوذات ، التى يبرأ اللـه والرسول منها ، وتعتبر من ابتـــداع الدجالين والمافونين ، وذلك من أجـــل مواكبة العصر ، والتطور التكنولوجى الخطير الذى يهددنا فى كل شيء اذا لم نواجهه بالتفتح .

الاقتـراحـات للمستقبـــل :

تلك هى أهم الملاحظات التى تتصل بصلب الملتقى التاسع للفكر الاسلامى بتلمسان . وفى مقابلها نطرح عددا من الاقتراحات التى نعتقد أنها هامة ستساعد عـــلى النجاح أكثر اذا ما اعتبرت وروعيت . ولكن الخيار يبقى مـــع ذلك لمنظمى الملتقيات فى أن يأخذوا بها أو ببعضها ، أو يهملوها ، وفى كل الحالات هم مشكورون ، وليس مـــن مقصودنا ان نتدخل فى شؤونهم الخاصة فهم أدرى بها منا .

1) اختيار المحاضرين الاكفاء بدقة وصرامة وفق مقاييس محددة وموضوعية لا يجامل فيها أحد ، فالذى تتوفر فيه يفتح له المجال للمشاركة ، وغيره يقال له لامع الشكر . ان هذا الاختيار والانتقاء للمحاضرين الاكفاء ممكن اليوم بعد تجربة تسع ملتقيات ، وفى نفس الوقت يساعد على الاحتفاظ بالمستوى العالى والمشرف للملتقيات الفكرية ، ويؤدى خدمة خاصة لشبابنا الذى تسعى البلاد جاهدة لتكوينهم تكوينا أصيلا وتمكينهم من الحصانة القوية والمناعة الصلبة ضد كل التيارات الهدامة الوافدة .

2) فرض نسبة خاصة ومعينة من المحاضرين الجزائريين حتى لا يبقى الملتقى غريبا وأجنبيا عن البلاد التى تنظمه وتعدله . ونقترح ان تكون المحاضرة الاولى من كل نقطة من نقاط الملتقى من طرف محاضر جزائرى كمفتاح للمحور والنقطة ، على ان ينتقى هؤلاء المحاضرون بدقة كذلك ليشرفوا البلاد وأمجادها الفكرية .

3) اختيار معقبين أكفاء ، لان دورهم هام جدا ، والاستغناء عن الذين يمثلون عبئا على الملتقى وليس دعما له ، ويحضرون لغاية الترفيه ، وتحقيق البغية السياحية . وفى هذا الاطار يمكن تصنيف المعقبين الى صنفين :

- صنف للتعقيب حقيقة ، وينبغى الاهتمام باختيارهم كالمحاضرين ، من الاكفاء علما ، وثقافة ، وقدرة على التعبير ، حتى يعطوا للملتقى حيوية ونشاطا ، ويثروه بأفكارهم وتعقيباتهم ، وتدخلاتهم التى ينبغى أن يقدر لها دورها وحسابها ، مثل المحاضرات الاساسية .

- وصنف للتعقيب وللتشريف معا ، وهم الذين تتوفر فيهم الكفاءة العلمية ، ولكن قد لا يكثرون من التعقيب والتدخل ، ولا يطلب منهم ذلك لاكثر من اعتبار . غير أنهم يمثلون رصيدا للملتقى فى الجلسات الخاصة والجانبية ، ومصدر أنس للملتقى .

- وهناك صنف ثالث يمكن أن يضاف وهم الذين يدعون للملتقى لغاية تكوينهم على غرار الطلبة ، لان الملتقى عبارة عن مدرسة حية لمن يريد ان يتكون ثقافيا ويوسع مداركه العلمية ، ويتدرب فى نفس الوقت على الحوار والنقاش ، وتلاقح الافكار حتى يمكن أن يفيد مستقبلا فى الملتقى وميدان عمله . اما غير هؤلاء فلا فائدة من استدعائهم اطلاقا ، حتى لغرض ملء القاعة أو تجميلها لانهم يتسببون فى فوضى ويخلون بأمن وهدوء الملتقى كما لاحظنا فى تلمسان .

4) توزيع البرنامج التفصيلى للملتقى مسبقا على المعقبين قبل أن يحضروا ولو بأيام قليلة ، حتى يستطيعوا أن يزودوا أنفسهم بمادة علمية واسعة تساعدهم على المشاركة بفعالية ونجاعة ، وتسمح لهم أن يثروا الملتقى بأفكارهم وتدخلاتهم عن علم ومعرفة ودراية.ان النقط العامة وحدها لا تساعد المعقبين على أداء دورهم المطلوب خاصة

اذا ما لاحظنا أن بعض المحاضرين يتناولون موضوعات جانبية عـــن النقط الاساسية المطروحة فى جدول الاعمال للنقاش ·

5) التقليل من عدد المحاضرين فى اليوم الواحد والاكتفاء بثلاثة أو أربعة على الاكثر ، وفى الفترة الصباحية فقط ، على أن يمتد وقت كل واحد منهم من ساعة الى ساعـــة ونصف · وتخصص كـــل امسيات الملتقى للتعقيبات والتدخلات والحوار · ان هـــذا الاسلوب ، على ما نعتقد أكثر نجاعة للافادة والاستفادة معا ، وهو الكفيل باتاحة الفرص للاجابة على كل الاسئلة المطروحة من طرف الطلبة وغيرهم ·

6) تخصيص وقت كاف للتعقيب لا يقل عن عشر دقائق ، ولا يزيد عـــلى عشرين دقيقة على ان يكون فى صلب الموضوع وليس خارجـــه الا ما يتطلب ذلك وبصـــورة نسبية · وينبغى استعمال الحـــزم ضد كـــل المهوشين الذين لا يزنون ما يقولون ، ولا يضبطون أفكارهم ، ولا يهمهم الا ان يقال عنهم بأنهم تدخلوا ·

7) الزام السلطات المحلية البلدية والولائية التى يعقد لديها الملتقى ، بالقيام بحملة نظافة واسعة قبيل الملتقى حتى تظهر المدينة فى ثوب قشيب يتناسب مع جو الملتقى ، وجمال موضوعاته الفكرية ، ويعطى للملتقين وجها مشرقا ومشرفا عن الجزائر الجديدة التى تخطو خطوات طموحة وعملاقة فى عهد انبعاثها الجديد ·

ان تلمسان هذا العام قد أعطت مثلا سيئا ، وصورة غير مشرفة ، خيبت آمـــال الكثيرين ممن يحبونها ويعزونها ولا يتمنون لها الا الازدهار والنمو والتطور · فـــلم تنظف المدينة ، ولم تعلق الشعارات المناسبة للملتقى ، ولم تعد الاماكن المناسبة لعقد الملتقى · ويكفى ذكر أن الملتقين يقيمون فى مكان ، ويتناولون وجبات الطعام فى مكان آخر ، ويعقدون الملتقى فى مكان ثالث ، وقد اعتذر السيد الوزير للملتقين ولكن البعض لم يقتنع بذلك ، لعدم معرفتهم ببواطن الامور ·

أليس باستطاعة تلمسان أن تعد وتجهز قاعة للمحاضرات ، وهى تعلم منـــذ أربعة عشر شهرا قبل ذلك ، بانعقاد الملتقى عندها · لقد بذلت وزارة السياحة جهدا خاصـــة فى انجاز أربعة طوابق من فندق الزيانيين اكراما للملتقى ، والسلطات المحلية لتلمسان

لم تحاول أن تجهز قاعة واحدة لمحاضرات الملتقى • اننا فى بلد ثورى يضع المعجـزات يوميا ، فاين هى سلطات تلمسان التى حضيت ببرنامج خاص لتنمية وتطوير الولاية • ثم ما بال تلمسان لم تشرف الملتقى الا فى شخص لشيخ بلديتها ونائب المحافظ الوطنى للحزب وليس المحافظ نفسه ، وفى جلسة الافتتاح فقط ، فى حين أن الرئيس بومدين نفسه واعوانه شرفوه رغم الأتعاب التى نالتهم طوال اليوم فى ثورية ماقورة الرعوية ، وفى حين أن بجاية التى هى عاصمة دائرة فقط آنذاك ، قد شرفت الملتقى الثامـن بالوالى ، وشيخ البلدية ، ورئيس الدائرة ، والمحافظ الوطنى للحزب ، ومسؤول الناحية العسكرية ، بل ان والى تيزى وزو المجاورة ورئيس المجلس الشعبى للولاية قد شـرف الملتقى كذلك لتحية الملتقين وقد تكون تلمسان معذورة فى اليوم الاول للملتقى لانشغالها بزيارة رئيس الدولة العملية • ولكن الملتقى بقى عشرة أيام فلم يشرفه أحد على ما نعلم •

لقد كنا ننتظر من تلمسان الزيانية ، وهى منبت ، ومحط ، ومثوى ، عظماء الرجال امثال : يا غمراسن ، وعبد المؤمن ، وابن خلدون وأخيه يحيى ، وابن صاحب الصلاة ، وأبى مدين شعيب ، غير ما كنا قد وجدنـاه • كيف سمحت سلطات المدينة لنفسها أن تقطع الماء على الطلبة الذين حضروا الملتقى ثلاثة وعشرين ساعة من أربعة وعشرين فى شهر جويلة ، وفى فترة خارقة للعادة فى حرارتها الغير الطبيعية • لقد كان على سلطات المدينة ، حتى ولو اعتادت قطع الماء على الاحياء ، أن تطلقــه اكراما للملتقى ، وتوفيرا لبعض الراحة لهم ، وليكن الملتقى رحمة وبركة على سكان الاحياء الذين اعتادوا قطـع الماء عليهم فى مثل هذه الفترة • ان قطع الماء على الف وثلاثمائة طالب وطالبة من الساعة السابعة صباحا الى الساعة السادسة فى اليوم الموالى اجرام ، خاصـة وأنهم يتنكبون مشاق الجلوس والاستماع فى قاعة المحاضرات معدل تسع وعشر ساعات فى اليـوم ، وعندما يعودون الى المراقد لا يجــدون حتى الماء ، من يصـــدق هذا ؟ ومن يهضمـه ويستسيغه ؟ ومن يستطيع أن يفسره الا بالتنكر للملتقى الفكرى الاسلامى واهـدافه النبيلة ؟ •

8) تعيين مرشدين محليين للشرح والايضاح خلال الزيارات التى تنظم للملتقيـن داخل المدينة وخارجها حتى تنجح تلك الزيارات ويستفيد الملتقون •

9) تخصيص امسية أو اثنتين حرتين للملتقين حتى تستفيد المدينة من الناحيـــة الاقتصادية والسياحية ، اذ لا يمكن فصل الفكر عن الاقتصاد ، والمدينة أو البلدة التى تكرم بسخاء ضيوف الملتقى يستاهل أهلها التفاتة مـن هذه الناحية تعويضا لهم عما بذلوه ، ولو ان ذلك البذل كان دون مقابل طبعـــا ، والملتقون الذين يبخلون ببعض دريهماتهم اذا كان ذلك عن قصد واصرار لا يستاهلون الاستضافة ·

10) ينبغى ، وهذا نبديه بتحفظ كبير ، التفكير مستقبلا فى اطالة الفترة التـــى تفصل بين ملتقى وآخر ، مثلا كل عامين ، حتى لا تتحول الى ملتقيات روتينية ، وحتى تستطيع السلطات المحلية أن تهيىء الظروف المادية للملتقى بدقة وعناية ، ويستطيـع المحاضرون ان يعدوا موضوعاتهم بدقة وفى سعة من الوقت ·

اننا نعتقد أن مراعاة هذه المقترحات تخفف من ثقل العبىء عـلى السيد الوزير ، وتساعده على التفرغ للجانب الفكـــري المحض من الملتقى · وهو الاهـــم ، والهدف الاساسي في نفس الوقت ·

الثقافة والحضارة

د. عثمان أمين
كلية الآداب
جامعة القاهرة ـ ج م ع



لا يخطر ببالي أن أتحدث هنا عن الثقافة والحضارة بمفهومها الحديث ، فهذا أمر لا قبل لي به ، ولا حاجة بنا اليه • وانما مقصودي أن أرسم خطوطا سريعة توضح نظرتي اليهما وموقفي منهما من خلال لغتنا العربية ، وهي كما تعلمون لغة جوانية على الأصالة ، تجعل الصدارة للمعنى والقيمة والفكرة •

وقد حفزني الى هذه الخواطر أننا نشهد هذه الايام من آثار الغرب فيما يسمونه « حضارة » و « ثقافة » ما يدعونا الى وقفة تامل وتفكير : اغراق في الاقتصاديات ، واستعباد للماكينات وسباق الى الالكترونيات ، وازورار عن القلب والجوهر والروح في الانسان • ونشهد موكبا حاشدا من الصور تلاحقنا بها السينما والصحف والاذاعة والتليفزيون ـ تجعلنا نجري ونلهث الى غير غاية ، ونعيش على هامش أنفسنا ، وكأنما اضحى مثلنا الأعلى أن نقيم في معسكرات أو مخيمات وكأننا خطوط هندسة أو أرقام حساب •

وباسم الثقافة والحضارة أهدروا الناطقية فينا ، وباسم العقل ، بعـد أن ابتذلوه ، نددوا بما هو روحي وابدى ، وسخروا من الأديان بعد أن سخروها لحكم الجماهير ٠

قالوا لنا ان تقدم العلم سيمهد السبيل الى الوئام بين جميع الشعوب ٠ ولكن المبدأ الأعلى للعلم ، وهو السماحة والنزاهة ، قد أفلت منهم ولم يفهموا دروسه ، حتى قال أحد علمائهم : « متى خرجنا من مجال تخصصنا عدنا كما كنا بدائيين » ٠

ان الثقافة والحضارة لا يرتجلان ولا يستعاران ولا يستوردان ولا يقومان باللوائح أو المراسيم ٠ والشعوب لا تتثقف ولا تتحضر الا فى أناة وتريث وعكوف ٠ ولن تبلغ من ذلك ما تريد الا بالتعهد والرعاية ، وكلها تتنافى مع العجلة والتهور والاندفاع ٠

وليست الثقافة ولا الحضارة محفوظات أو مجهزات أو « معلبات » ، بل هى كما قال هريو : « ما يتبقى فى نفوسنا بعد أن نكون قد نسينا كل ما حفظنا » ٠

وليس شأن الثقافة والحضارة كشأن ما يسمى باللغة العصرية باسم « القهوة الفورية » instant coffee أو Nescafé وشتان عندنا بين هذه القهوة « الجاهزة » وبـين القهوة « المجهزة » ، أعنى تلك التى لا تصير قهوة الا بعد اعداد خاص وعلى مـراحل ٠ وتلك فى نظرنا هى نفحة الحضارة الحقيقية فى عمل القهوة . لانها تتطلب تريثا وعناية ، وتجعل للذهن مجالا للتأمل والروية ٠

وما قلته عن القهـوة الفـورية نستطيع أن نقوله عـن بعض الافكار الجاهزة والاديولوجيات المستوردة والعقائد المجهزة حتى قبل أن تجهز ٠ كما يقول برجسون ٠ ويحضرنى فى هذا المقام حكاية واقعية تعبر فى نظرى عما أريد أن أؤكد من جوانيـة الثقافة والحضارة ، وأنهما لا تقومان الا بالعراقة والاصالة :

فى سنة 1910 مثلت مسرحية « أوديب ملكا » على مسرح « أورانج القديم » فى فرنسا ، وكان الثرى الامريكى « كارنيجى » من شهود المسرحية ، فأعجب بها أيما اعجـاب ٠ وما كاد ينتهى التمثيل حتى نهض من مكانه وأسرع الى مدير المسرح يهنئه ، ووجه اليه السؤال التالى :

« كم من الدولارات تلزم لاخراج هذه المسرحية فى أمريكا على هذا النحو من الابداع ؟ فاجابه الفنان الفرنسى : « مع الأسف يا مسيو كارنيجى » ، ليست الدولارات هى الشىء المطلوب هنا ، بل يلزم لذلك الفان من السنين ! » •

وأكبر الظن أن المدير الفرنسى أراد أن يقول ما قاله من قبل الشاعر العربى القديم :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

وأود أن أنوه هنا أن وزارة الثقافة المصرية قد أحسنت من الناحية الشكلية على الاقل ـ حين راعت هذا المعنى عند انشائها « المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب » ، فدلت بهذا على انها قد انتهت الى أن لجان هذا المجلس لا تنشىء ثقافة ، وانما « ترعى » الثقافة القائمة ، وان هذه الرعاية أمر يحتاج الى الجهد والوقت والمال •

والواقع أننا لا نستطيع أن نبحث عن ثقافة أو حضارة بمعزل عن وعى الانسان وموقفه منهما • ان الناطقية الانسانية هى مركز الكون كله • والعالم الخارجى أو « عالم الاعيان »، كما يقول المتكلمون الاسلاميون، لا يكون كذلك الا بالقياس الى عالم الأذهان • وكل أمر « واقع » فهو ملون دائما بموقف الذات من الموضوع • ان الذات « تقد العالم على قدها » كما يقول كانط • والانسان ليس مجرد نتيجة للتاريخ ، بل هو القوة المحركة للتاريخ • والدين دعامة اساسية للحضارة ، لأنه منبع للقيم الروحية ، ولأنه هو «البعد الجوانى للانسان من حيث هو انسان » • فما من حضارة تصلح لان يطلق عليها هذا الاسم اذا جعلت ديدنها ان تتنكر للدين ولقيم الروح • وهناك مجتمعات متقدمة ربما نجحت فى حل مشكلات الانتاج ، ولكنها لم تستطع حتى اليوم ان تحل مشكلة الانسان• والانسان لا يقنع بالمادة بل يريد الروح ، ولا يكتفى بالحياة فى الحاضر بل يتطلع الى حياة المستقبل •

ان الحضارة تقوم فى النهاية على الايمان كما يقول « مادارياجا » • والايمان رابطة اخلاقية تجعل الناس يرتفعون فوق مصالحهم الشخصية المباشرة • وان المدافع والذخائر والمؤن مادة لا حياة فيها بغير الايمان • وفى معركة « ثالمى تغلب الايمان بلا مدافع على المدافع بلا ايمان » !

والحرية والعدل روح المجتمع المتحضر • ولا يمكن أن يدوم مجتمع بلا حرية ولا عدالة، وليس هنالك سوى اختيار واحد : اما الحرية واما الطغيان ، فاذا الغيت الحرية فســـم طغيانك ما تشاء : فاشية أو نازية أو دكتاتورية « المافيا » أو استبداد الصعاليك •

المجتمع المتحضر هو المجتمع الاخلاقى أو « المدينة الفاضلة » بتعبير الفارابى ، وهى تلك التى يجعل أهلها أمور السياسة خاضعة لقانون الاخلاق ، ويدأبون على الانصات الى صوت الضمير • ولا ريب أن العلوم الاخلاقية والنفسية والاجتماعية هى اليوم ألـزم من علوم المادة التى هى أدنى الى أن تكون خطرا يتهدد الناس فى مجتمع ما يزال أهله على جهل بأنفسهم • ومن البين ، كما يقول مالك بن نبى ، ان تربية انسان متحضر واعداده أصعب من صنع محرك ، أو تعويد قرد على أن يلبس رباط رقبة !

ان الروح هى التى تتيح للانسانية ان تنهض وتتقدم • وحيث تغيب الروح يكون السقوط والاضمحلال : لان ما يفقد القدرة على الصعود لا يملك الا أن يهوى منجذبا بثقل لا سبيل الى مقاومته • والدين هو « مجمّع » القيم الاجتماعية • ولكنه يقوم بهذا الدور فى حال نشأته وانتشاره وحركيته ، حين يعبر عن فكر الجماعة ، اما حين يصبح الايمان مطويا ، بغير اشعاع اعنى حين يصير ايمانا فرديا ، فان رسالته التاريخية تنتهى عـــلى الارض ، اذ يكون عاجزا عن تحريك دفة الحضارة • ويصبح ايمان متعبدين ، يعـزلون أنفسهم عن الحياة ، ويهربون من واجباتهم ومسؤولياتهم (مالك بن نبى : **وجهة العالم الانسانى** • ترجمة عبد الصبور شاهين ، سنة 1959) •

فى 18 من يونيو 1916 ألقى « رابندرانات تاغور » محاضرة فى جامعة طوكيو خاطب فيها الشبيبة بقوله : « انكم لا تستطيعون أن تقبلوا الحضارة الحديثة كمـــا هى • ان واجبكم أن تدخلوا عليها التغير الذى تتطلبه عبقريتنا الشرقية • وواجبكم ان تبثوا الحياة حيث لا يوجد الا الماكينة ، وان تستعيضوا بالقلب الانسانى عـــن حسابات المصلحة الباردة ، وأن تتوجوا الحق والجمال حيث لا سلطان الا للقوة الغاشمة والنجاح اليسير • إن حضارة أوربا نهمة ومسيطرة ، تلتهم البلاد التى تغزوها ، انها تبيد الافراد والهيئات والشعوب التى تعوق مسيرتها الفاتحة •

انها حضارة كلها سياسية ، تستسيغ لحوم الادميين ، انها تقهر الضعفاء وتثرى على حسابهم ، انها آلة للطحن • انها تبذر ، أينما ذهبت ، الحسد والغيرة والشقاق •

انها تصنع الفراغ حولها • انها حضارة علمية لا انسانية ومصدر قوتها أنها تركز جميع قواها صوب غاية واحدة : الثروة والسلطة وتحت اسم الوطنية لا تراعى كلمة الشرف • انها تمد بلا خجل شباكها ، ونسيجها الكذب ، وتقيم للمعبود الهائل البشع الذى تعبده المعابد المشيدة للكسب والمنفعة ، ونحن نتنبأ دون تردد بأن ذلك لن يدوم ، لان فى العالم قانونا اخلاقيا مهيمنا ينطبق على الجماعات كما ينطبق على الافراد . فان هدم كل مثل أعلى فى الاخلاق ينتهى بأن يؤثر فى كل عضو من أعضاء الجماعة ، ويولد عدم الثقة والاستهتار ، ويحطم فى الانسان كل ما هو مقدس ، ان حضارة تجعل دأبها أن تتمرد على القوانين التى سنها العلى القدير لا تستطيع أن تنتهى الا الى « كارثة » •

وروما رولان الذى سجل بعض فقرات هذه المحاضرة فى « يومياته » أعلن أن هذه المحاضرة التى تبين منعطفا فى تاريخ العالم لم يكن لها صدى فى كبرى الصحف الاوربية ولم تنشر الا فى المجلة المسماة (أوت لوك) The Outlook الصادرة بنيويورك فى 9 من أغسطس 1916 •

الثقافة عندنا ليست معلومات محفوظة ولا تطبيقات منقولة بل هى فى مفهومها الصحيح شىء يجاوز المهارة أو البراعة فى أى ناحية من نواحى العلوم النظرية أو العملية • الثقافة مرادفة فى نظرنا لحضور القلب ويقظة الروح ، وهما لا يكونان الا مع الضمير الحى والعقل الناضج والقلب السليم • ومتى استيقظ الوعى والضمير فى الانسان اصبح النظر والعمل عنده متلازمين لا يفترقان ، وأصبحت حياته مصداقا لأفكاره . فبعد عن الآلية والانانية ، وقصد الى الغايات بأفضل الوسائل ، واتجه الى الجوهر والمخبر ، دون وقوف عند المظاهر والأعراض • والأساس المتين الذى تقوم عليه الثقافة الواعية ، ثقافة القلب والعقل والحس ، هو الاعتقاد بالقيم الروحية والمبادىء الاخلاقية : فلسنا نتصور أن واعيا لا تصدر أفكاره وأعماله عن يقين راسخ بأن الثقافة ـ كالحضارة ـ تقوم على الايمان ، أى على الرابطة الاخلاقية التى تدفع الناس الى أن يفكروا ويعملوا متساندين ، مرتفعين على بواعث الانانية والاثرة متخطين نوازع المصلحة المادية المباشرة •

والانسان المثقف منوط برسالة اخلاقية اجتماعية عليه أن يؤديها : فهو بحكم وعيه المستنير تكون رسالته السعي الدائب الى تقدم المجتمع واسعاده . فهو يجعل جهده ان يزكى فى نفوس الناس الشعور بالمثل الاعلى وهو ذلك الشعور الذى استضاء بنـــور العقل ، فأصبح حرية نابعة عن الذات ، ووعيا للحقوق والواجبات . ينبه وعيهم للحقوق حتى لا يستغلهم المستغلون وحتى يتعانوا فيما بينهم ، وحتى يبذلوا جهودهم من أجــل المجتمع . والمجتمع لا يتطلب من المثقف ، لكى يؤدى هذه الرسالة ، أن يكون عارفـــا فحسب ، بل ان يكون على الخصوص « فاضلا » . ولا يتطلب منه أن يكون قد وصل الى أعلى درجة من الثقافة فحسب ، بل أعلى درجة من الاخلاق فى عصره . وما من واحـــد من أهل الثقافة يستطيع أن يزهو بنجاح دعوته لاصلاح أمته ما لم يكن قد بدأ باصلاح نفسه . ان الثقافة الحقيقية هى تلك التى يتألق فيها نور العقل والايمان .

أما المدنية فقد سجلت موقفى منها منذ أكثر من أربعين سنة فى مذكرة جيب فقلت ما نصه : ان أعظم ما يميز « المدنية » عندى خلق التسامح ، والبعد عن التحيز وتجنب الميل مع الهوى . وما دامت المدنية الحاضرة لا تزال مشوبة بنزعات العصبية ونـزوات الكراهية ، وعلى الخصوص فى الامور السياسية ، فهى بعيدة فى جوهرها عن المدنيـة الحقيقية « **الجوانية** » ص : 36 .

فى سنة 1927 استوقفتنى مشكلة العلم والاخلاق ، ومضيت أقرأ وأتأمل ، وكانت نتيجة هذه الدراسة التأملية مقالا نشرته بعنوان : « هل العلم صديق للانسان ؟ » قلت فيه انى لا أرى حـــدا لما يأتى به الانسان من مغامرات رهيبة فى آفـــاق العلم . وان العقـــل لتساوره الحـــيرة بازاء ما ستكون عليه الحيـــاة أمام أحفادنا » . وقلـــت مفسرا أسباب تخوفنا من العلم ، مع انه فيما يقال رهن اشارة الانسان وطوع أمره : « وانه ليهولنا أمر القوى التى استطاع العلم ابتعاثها حتى اليوم وقد يساورنا القلـق لفكرة القوى التى قد يوفق الى ابتعاثها فى الغد . فقد يأتى يوم نـــرى فيـــه الوجود الانسانى نفسه تحت رحمة عالم من العلماء ، ونرى أن لمسة زر صغير قد تفجر قـــوى عنيفة تقضى على جماعات وشعوب باسرها ...

« أفكانت هذه نبوءة منى بالاخطار التى سيتعرض لها العالم بعد ذلك بعشرين سنة بفضل الاسلحة الذرية ؟ مهما يكن الامر فقد مضيت فى مقالى فعبرت عن أملى فى أن يكون العلم فى المستقبل قوة روحية كلها خير وبركة تخفف أعباء سكان الأرض جميعا ٠ وذكرت مع ذلك ان الشك يخامرنى فى استطاعة العلم أن يجعلنا أوفر سعادة وهناء ، وان كنت على يقين بانه لا يجعلنا أكثر حكمة ورشادا ، وأشرت فى وضوح الى أن صداقة العلم للانسان أو عداوته له انما هى مسالة انسانية فى صميمها ، ترجع الى قوة النفوس ومتانتها » ٠ « والامر كله يتوقف علينا ، وعلى مدى شعورنا بوجوب الاقلاع عن الخطة السقيمة التى سارت عليها قافلتنا فى ماضيها ٠ ولو سار أهل العلم على أساس الحكمة والروية لزال خوفنا منه ، ولأصبحنا نرى فيه ذلك المحسن المتفضل الذى يدر الخير على الجنس البشرى جميعا . ومن ثم نستطيع ان نستخدم المال الذى اعتدنا انفاقه على السلاح والذخائر فى وجوه الاصلاح ، وفى تحسين مرافق الحياة تحسينا من شانه ان يحل مشاكل الانتاج والطعام والزراعة والصناعة وما اليها ، وان يهيىء لنا حياة أرغد وأهنأ وأوفر سلاما واطمئنانا ، وعالما أرحب مكانا لاقامتنا القصيرة مما كان عليه فى تاريخه المضطرب العصيب » ٠ ووجهت التحذير الذى كثيرا ما وجهه المفكرون المعاصرون بعد اطلاق القنبلة الذرية فى الحرب العالمية الثانية : « لقد آن لنا أن نتعلم كيف نعيش معا فى وفاق وأمن وسلام ، وان نعمل على تنظيم أنفسنا وضم صفوفنا فى مواجهة الفتنة النائمة التى لو قدر لها أن تستيقظ لقضت على الغالب والمغلوب على السواء » ٠

وكتاب الاستاذ البيربابيه بعنوان « أخلاق العلم » يؤكد موقفى الجوانى من العلم والاخلاق والمدنية ، فالفصول الاولى منه تؤكد هذه الفكرة : وهى ان العلم لا يستطيع انيرشدنا الى القيم الأخلاقية ، ولا الى ما ينبغى ان يكون ٠ ولهذا يجب « الا نطلب الى العلم ما لا يسوغ له أن يعطينا » (**دفاع عن العلم**) ص : 53 ٠

لقد آن ان نختم الحديث فاقول انى الآن بعد أن طوفت فى الآفاق شرقا وغربا ، التماسا لمعنى الثقافة والحضارة ، لا أجد معبرا عن موقفى منهما خيرا من بيت عربى للشاعر الصوفى فريد الدين العطار يقول فيه :

فان تقرأ علوم الناس ألفا بلا عشق فما حصلت حرفا

تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام المعاصر

أنور الجندي
عضو المجلس الاعلى
للشؤون الاسلامية
بالقاهرة



لقد تكشفت فى السنوات الأخيرة حقائق كثيرة كانت خافية وأذيعت أسرار ظلت فى طى الكتمان أعواما وأجيالا ••• وقد كان لظهور هذه الحقائق واذاعة هذه الأسرار أثر بعيد المدى فى أمور كثيرة ، (وكان من أبرز هذه الوثائق « بروتوكولات صهيون » (1)) التى غيرت أمورا كانت قد أصبحت كالمسلمات، مما استدعى اعادة النظر فيها ومراجعتها من جديد ••• وكان أبرز هذه الأمور ، ما اعترض تاريخ الاسلام الحديث من مواقف

ارتبطت بالدولة العثمانية والصهيونية العالمية ، ومحاولة استيلاء اليهود على فلسطين ، ففى خلال هذه الفترة الأخيرة من حياة الدولة العثمانية كانت المطامع المتضاربة بين الدول الغربية من ناحية ، والصهيونية العالمية من ناحية أخرى ؛ قد عملت على حجب كثير من الحقائق ، وتزييف جانب آخر منها فى محاولة عاتية لتمزيق الوحدة الاسلامية ، ولفتح الطريق للقوى الصهيونية الى فلسطين ، واقامة الحواجز الاقليمية العميقة بين أجزاء العالم الاسلامى ، وخاصة بين اقطار البلاد العربية ، وذلك حتى تتمكن هذه القوى الجديدة من الوثوب والسيطرة باعتبارها شريكا للاستعمار الغربى ، وبديلا عنه من خلال مطمع عقائدى يرتبط بأرض الميعاد ، وبتاريخ قديم لليهود متصل بها ٠ ومن خلال هذه المحاولات الواسعة زيف تاريخ الاسلام الحديث ، ووضعت خطط وكلمات ومصطلحات أصبحت بمثابة المسلمات التى رددتها كتب المدارس ، وبحوث الجامعات ، ومقالات الصحف على انها التصور الحقيقى للامور ٠٠ وكلها تقول : بالاستعمار التركى ، والسلطان الاحمر ، والاستبداد العثمانى ، والصراع بين العرب والترك ٠٠ والقومية الطورانية ٠٠ ومن هنا نشأ تصور ما زال مطروحا فى أغلب كتب الادب والتاريخ العربى وخاصة فى المناهج الدراسية والجامعية قوامه ما ياتى :

1 ـ أن السلطان عبد الحميد كان رجلا مستبدا ظالما ، وأنه كان يلقى خصومه بالعشرات فى الدردنيل ، وكانت له قوى ضخمة تشتغل بالجاسوسية وتصادر الحريات ٠

2 ـ أن الدولة العثمانية كانت دولة مستعمرة سيطرت على البلاد العربية بالقوة ، واستولت على ثرواتها وتركتها فقيرة وضعيفة ٠

3 ـ أن الاتحاديين فى الدولة العثمانية كانوا قوة تقدمية عصرية ٠٠ بينما كانت القوى الاخرى رجعية ومتخلفة ٠٠٠

4 ـ ان دعوة السلطان عبد الحميد الى الوحدة الاسلامية كان الزمن قد تجاوزها ، وفات أوانها ٠٠ وأن الدعوة القومية كانت أسلوب العصر ٠٠

منذ أن عقد مؤتمر بال فى سوسيرا عام 1897 بزعامة الصحفى اليهودى **هرتزل** وبعد صدور كتاب الدولة اليهودية بقلمه ، كان قد انفتح مجالٌ جديد للعمل فى مواجهة العالم الاسلامى لشق الطريق الى فلسطين لاقامة وطن قومى لليهود بها من خلال مخطط القوى الاستعمارية التى كانت قد انطلقت منذ 1799 الى مصر تحت اسم الحملة الفرنسية ، ثم الى الجزائر 1830 ثم الى مصر مرة أخرى عام 1882 والى تونس قبل ذلك بعام واحد ، وفى هذه المرحلة كان الصراع قويا بين الاستعمار الفرنسى والانجليزى فى المنطقة التى تضم الدولة العثمانية التى كانت تمثل الوحدة العربية التركية ـ ولكى تكتمل الصورة فان هولندا كانت قد سبقت ذلك بوقت طويل بالاستيلاء على الملايو وجاوة وما يطلق عليه الآن « **اندونيسيا** » وكانت بريطانيا قد احتلت الهند ، وكانت اجزاء من الخليج قد سقطت فى أيدى اسبانيا ، والبرتغال ثم ورثتها بريطانيا وكان هذا كله جزءا من مخطط الاستعمار الغربى الحديث الذى تكامل فى نهاية الحرب العالمية الاولى بايقاع الصراع بين العرب والترك فى المناطق العربية (**الحجاز والشام والعراق**) وحلول فرنسا وانجلترا بدلا من الدولة العثمانية فى هذه المناطق بعد معركة أدارتها انجلترا بقيادة لورانس الذى وصف فى يوم من الايام بأنه ملك العرب غير المتوج ٠

كان المخطط معدا لان تعطى فلسطين فى هذا المسرح الذى مثلت عليه هذه الرواية كلها **للصهيونية العالمية** ، وأن استيلاء بريطانيا على فلسطين عام 1918 كان تمهيدا لان تقع بما فيها « **بيت المقدس** » فى أيدى اليهود ٠

ومراجعة الاحداث ينبىء بهذا التخطيط الواسع المدى الذى بدأ منذ وقت مبكر يسبق لقاء « هرتزل » للسلطان عبد الحميد ٠ وهو فى حقيقته صراع بين ارادتين :

الارادة الاولى : هى ارادة السلطان عبد الحميد الذى تولى الملك فى الدولة العثمانية عام 1868 والذى قاد حركة كبرى فى سبيل الوحدة فى مواجهة الاستعمار تحت اسم (**الجامعة الاسلامية**) (2) لتعمل مع جميع مسلمى العالم خارج نطاق الدولة العثمانية ٠ ولتوحد كل القوى والمذاهب والاقطار ٠

ولا ريب فى أن هذه الحركة كانت مضادة **لارادة اخرى** تستهدف تمزيق الدولة العثمانية نفسها وحتى لا تتمكن من أن تجمع اليها اقطار المسلمين الاخرى التى فى

خارجها ، ولذلك كان النضال عميقا ، وكان الصراع شديدا ، فقد تكاتفت القوى الغربية كلها فى سبيل السيطرة على البلاد الاسلامية ، وتقسيم الامبراطورية العثمانية بعد أن عمدوا الى انهاكها بالحروب والمؤامرات سنوات عدة حتى باتت لقمة سائغة ولما فكر السلطان عبد الحميد فى أن يقاوم الاستعمار واستيقظت القوى الاسلامية بعد نوم عميق دام طويلا ٠٠ كان لابد من ازاحته ٠٠٠ كذلك فان اليهودية العالمية كانت ترى أن الدولة العثمانية هى مدخلها الى فلسطين ٠٠٠ وكانت تعد العدة منذ وقت بعيد فى بؤرة خطيرة داخل تركيا هى « **سالونيك** » التى كانت تتجمع فيها (**الدونمة**) أولئك الذين دخلوا الاسلام تقية من يهودى اسبانيا الذين هاجروا بعد خروج الحكم الاسلامى منها ، والذين كانوا قد أنشأوا المحافل الماسونية لاعداد خطة الانقضاض على الدولة العثمانية ، والذين استطاعوا احتواء جماعة الاتحاد والترقى ، والتغلغل فيها والسيطرة عليها ، ومن ثم استطاعوا بها اقصاء السلطان عبد الحميد ، واسقاط مشروعه ، والقيام على الدولة لتمزيقها ، والقضاء عليها ، ولا عجب ففى ظل حكم الاتحاديين بعد اسقاط عبد الحميد منذ عام 1909 ـ 1918 هزمت الدولة فى الحرب العالمية ، وسلمت طرابلس الغرب الى ايطاليا وفتحت الطريق الى فلسطين أمام اليهود ٠

هذه المرحلة الدقيقة الخطيرة من تاريخ الاسلام فى العصر الحديث ما زالت تشوبها الشوائب وتحول قوى كثيرة دون الكشف عن حقائقها ٠٠ وما زالت الصورة التى رسمتها الصهيونية والاستعمار لها هى الصورة الرسمية المدونة فى كتب المدارس والجامعات بالرغم من وجود الحقائق الكثيرة التى تكشفت والتى أزاحت الظلم عن وجه الرجل الكريم السلطان عبد الحميد وبينت حقيقة موقفه ٠

والحق أنه ليست هناك شخصية فى تاريخ الاسلام الحديث هوجمت بمثل هذا العنف والتعسف الذى هوجم به السلطان عبد الحميد حتى كشفت الوثائق فى السنوات الاخيرة لا عن براءته فحسب بل كشفت عن بطولته ٠٠٠ ومن عجب أن أبرز النصوص التى أحقت الحق ، جاءت فى مذكرات هرتزل التى نشرت وترجمت الى اللغة العربية ٠

ولنعد الى حقيقة الصراع بين القوى الاسلامية بقيادة عبد الحميد وبين القوى الاستعمارية واليهودية ، لنعرف مدى ما حققه اسقاط عبد الحميد تمهيدا لالغاء الخلافة

الاسلامية (3) لكى نعرف حقيقة حركة الوحدة الاسلامية الجامعة التى قام بها السلطـان عبد الحميد ، يجب أن نتصور بوضوح واقع : الدولة العثمانية والعالم كله خلال النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، فقد بلغت الدولة العثمانية أشد مراحل الضعف،وتجمعت الدول الغربية على وضـــع الخطط للقضاء عليها وتمزيقها واذلالها ·· وكانت روسيـا وبريطانيا والمانيا وفرنسا بالاضافة الى البابوية تشترك فى رســم هذه الخطط ، وفى انتزاع الاجزاء الاوربية من الدولة واسترجاعها ، والاستعداد لتقسيم الاجزاء العـــربية فى الدولة وهى الشام والعراق والجزيرة العربية ·

وكانت مخططات الصهيونية العالمية (4) تركز تركيزا شديدا على الدولة العثمانية من أجل الوصول الى فلسطين وتحقيق حلمها فى اقامة هيكل سليمان · فلما ولى السلطان عبد الحميد الحكم خليفة للمسلمين وسلطانا للدولة العثمانية ، واجه الموقف على نحـــو يختلف عما واجهه به سلاطين آل عثمان الذين سبقوه ، وكانت مواجهته جادة وحاسمة ، كان احساسه بالتبعة كبيرا وكان ذكاؤه وسعة فكره والمامه بالتيارات المختلفة بالغـا ، ومن هنا فقد جرى من الاحداث فى طريقها المرسوم شوطا ، ثم لم يلبث أن وضع خطتـه المحكمة التى رأى أنها الطريق الوحيد لمواجهة الغزو الاستعمارى الزاحف ، والذى كان قد تشكل داخل الدولة العثمانية فى مؤسستين خطيرتين ــ احداهما : المحافل الماسونية فى سالونيك ، وتركيا الفتاة التى سميت بعد (الاتحاد والترقى) والتى ضمت مجموعة من المثقفين ثقافة غربية ، ومن أصحاب الولاء الفكرى الغربى وخاصة الفرنسى ، ومـــن الذين أغروا عن طريق المستشرقين وكتاب الغرب بأنه لا سبيل أمام الدولة العثمانية لكى تصل الى التحرر والقوة الا بالتماس مناهج الغرب التماسا كاملا وطرح فكرها وأسلوبها ومنهجها الاسلامى القديم والتخلص منه الى غير رجعة ، غير أن هذه الجماعة لم تستطع أن تقف وحدها ، فالتمست العون من المحافل الماسونية ومن ثم احتوتها الحركة الصهيونية ، وسيطرت عليها ووجهتها الوجهة التى ارتضتها فى القضاء على الدولة العثمانية · وكـان السلطان عبد الحميد قد حدد هدفه فى مواجهة النفوذ الغربى على هذا النحو : أن الوسيلة الاساسية لمواجهة النفوذ الاستعمارى هو تجمع المسلمين فى كل مكان تحت جناح الخلافة الاسلامية الذى تحمل لواءه الدولة العثمانية الجامعة فى كيانها بـين العـرب والترك ،

ومن هنا فقد كان على السلطان العثمانى الذى هو خليفة المسلمين أن ينادى المسلمين فى جميع انحاء الارض لكى يقفوا معه فى صف واحد فى مواجهة النفوذ (الغربى) ، ومن هنا كانت صيحته المعروفة المشهورة التى هزت الغرب كله « **يا مسلمى العالم اتحدوا** » ٠

ومن هذا المنطلق بدأ الخطر الذى واجهته الدول الاوربية ، والاستعمارية والبابوية ، والصهيونية العالمية فى عنف ، وأخذت فى التماس كل وسائل التآمر والغدر فى سبيل تحطيم الخطة ، والقضاء على القائم بها ، ولكن السلطان عبد الحميد استطاع أن يصمد لذلك وقتا طويلا ٠٠ وكان قد بدأ هذه الحركة على وجه التقريب عام 1879 وظل يحمل هذا اللواء بقوة فى مواجهة عواصف السياسة الاوربية ثلاثين عاما كاملة دون أن يتزلزل أو يضعف ، لم يكن السلطان عبد الحميد يملك من القوة العسكرية ما يستطيع أن يواجه به أوربا والغرب المتجمع المتآمر العنيد ، ولذلك فانه قد اتخذ من هذا الاسلوب الخطير ، أسلوب التجمع والاتحاد تحت شعار واحد هو « **لا اله الا الله** » وتحت لواء الخلافة قوة عارمة خشيت بأسها أوربا ، وحسبت لها ألف حساب ، فقد كان المسلمون الموالون للسلطان منبثون تحت النفوذ الغربى فى عديد من الاقطار التى احتلتها بريطانيا وفرنسا ، وخاصة قارة الهند ويمثلون قوة روحية ذات أهمية خطيرة ، ولقد مضى السلطان فى تنفيذ مخططه فى قوة وسرعة بحيث شملت الدعوة كل الآفاق الاسلامية ، وذاعت فى كل مكان ، وحملت معها عملا ايجابيا نافعا : فالمدارس والمنشآت فى كل صقع من البلاد الاسلامية ، وكان قد أنشأ مدرسة للدعاة الذين سرعان ما انبثوا فى كل أطراف العالم الاسلامى الى الهند والصين ، وجزائر المحيط ، ومصر ، وافريقيا وتركستان ، وافغانستان ، وبلاد العرب ، وأطراف المملكة العثمانية ، كما عقد مع الامراء فى شتى هذه البقاع مراسلات وعقودا ، وعمق روابط الود والاخاء الاسلامى فيما بينهم وبين الخلافة حتى قيل انه لم يبق مسلم واحد لم يعرف طرفا عن هذه الدعوة ، وقد جعل السلطان عبد الحميد نصب عينيه أمرين هامين :

الاول : أن يكون أهل بلاد العرب ساقة هذه الدعوة ، وحاملى لوائها ومن هنا ، فقد اتخذ فى كل قطر عربى « **مشيرا** » له ، فجمع حوله علماء وأمراء من الجزائر والشام ومكة ، ومنهم أبناء الامير عبد القادر الجزائرى وغيره من أمراء المسلمين ٠

الثانى : هو انهاء الخلاف الذى اججه الاستعمار بين **السنة والشيعة** أو بين الاتـراك والفرس ، وقد استخدم لذلك عالما من أكبر العلماء **السيد جمال الـدين الافغانى** ··· وأجرى صلحا مع شاه فارس وصفى أمر الخلافات القديمة كلها ·

ولم يتوقف عن هذه الحركة الفكرية وحدها وانما جعلها واجهة لعمله الكبير الـذى بداه فى بناء القوة الحربية والعسكرية وتقوية جيوشه وأساطيله فقد استقدم بعثـة ألمانية ولم يلبث أن أنشأ معاهد عسكرية ، دخلها عدد كبير من الشبان الممتازين مـن شباب العرب من العراق وسوريا ومصر ، وقد مضت الخطة الى غايتها المرجوة ، فاشتد عصب المسلمين بالترابط ، وتوحدت فكرتهم بالعمل الجامـع ، وكان دعاة الفكـرة الاسلامية ينشرون ثقافة جديدة قوامها مواجهة الاستعمار الغـربى الزاحف والخطـر الاوربى القيصرى الصهيونى جميعا ·

وتركزت الآمال حول السلطان عبد الحميد خليفة المسلمـين ، وترابطت الـدول الاسلامية وأهلها حول عاصمة الخلافة على نحو بلغ غاية القوة (فكانوا يذكرون اسمه فى خطب الجمعة ويدينون له بالولاء والطاعة الروحية وباسم خلافته على المسلمين كافـة ، وجلهم من رعايا دول أوربا فى الهند ، وجزر الهند الشرقية ، وشمال افريقيا ، وكـان السلطان على حد تعبير محمد رفعت باشا ـ فى كتابه التوجيه السياسى للفكرة العربية ، « **يفاوض الدول الكبرى** ويساومها بل يهددها أحيانا ملوحا بسلاح الجهـاد الدينى » واستطاع السلطان أن يجمع تحت لواء الدعوة أبرز المسلمين فى مجال الفكر والسياسة وفى مقدمتهم « **خير الدين التونسى** » وجمال الدين الأفغـانى ، وأبو الهـدى الرفاعى الصيادى ، وأبناء الامير عبد القادر الجزائرى ·

وأقام من العرب فرقة خاصة ضمها الى الحرس السلطانى ، وولى كثيرا منهم مناصب رئيسية فى الدولة وفى مقدمتهم « **احمد عزت العابد** » وكان من أكبر أعمال السلطان فى هذا الصدد : انشاء سكة حديدية تربط بين دمشق والمدينة المنورة بالحجاز وكذلك فرعها الذى يربط بين الحجاز وبغداد ، وقد وجد هذا العمل تقديرا بالغا من المسلمين فى كل مكان ، وتبرعوا له باكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات الذهبية فكان من أخطـر

المشروعات التى عجلت بالقضاء على السلطان ، اذ كان منذرا للغرب بتغيير اسلامى كبير ، وقد استهدف غالبا القضاء على دسائس الانجليز ومؤامراتهم فى البحر الاحمر والجزيرة العربية ، وكان من أخطر مواقف الحركة الاسلامية الواحدة التى دعا اليها وحمل لواءها « عبد الحميد » : هو معارضة أهداف الحركة الصهيونية فى السيطرة على فلسطين ومواجهتها ...

ومن هنا انطلقت الصحافة الاوربية ، وتابعتها الصحافة العربية التى ظهرت فى مصر ، والتى قاد حركتها خريجو الارساليات التبشيرية من أمثال **سليم سركيس وجرجى زيدان ، وفارس نمر ، ويعقوب صروف ، وفرح انطون** ، وغيرهم من الذين حملوا لواء التشهير بالسلطان ومعارضته ، واشاعة الاتهامات المختلفة حول شخصه وتصويره بتلك الصورة الرديئة لحساب الصهيونية العالمية التى انطلقت لاشاعة روح الكراهية والانتقاص للرجل بعد موقفه الحاسم الكريم من مطالبهم وكان أعظم ما تركز عليه هذه الحملة اثارة عوامل الفتنة بين قيادة الحركة الاسلامية وبين العناصر المختلفة فى الدولة العثمانية وخارجها .

وكان أقوى من هاجم حركة السلطان عبد الحميد فى مصر « اللورد كرومر » الذى حمل على فكرة الجامعة الاسلامية حملة ضارية ، ودعا الدول الاوربية فى تحريض سافر الى التجمع للوقوف فى وجه هذه الدعوة ، وكذلك هاجمها ... « هانوتو » الفرنسى ـ واللورد غراى ـ ووصفوها بأنها بؤرة التعصب الدينى وأنه ليس القصد منها الا تحدى قوات الدول الغربية المسيحية ، وحملت جريدة المقطم فى مصر لواء معارضة هذه الدعوة ، ولقد شهد كثيرون باصالة هذه الحركة وقوتها وأثرها . يقول دكتور **توفيق برو** انها كانت كرد فعل للحركة الاستعمارية الاوربية الطاغية ، وأن قادتها كانوا من الدعاة المبرزين وقد أذكى نار هذا الشعور أئمة من أفاضل العلماء امثال « **جمال الدين ، محمد عبده ، ومصطفى الغلايينى ، ورشيد رضا** الذين قاموا باستغلال هذا الشعور فى سبيل سيطرة السلطان فى الداخل وتثبيت مكانة الدولة فى الخارج . وبعد :

فلقد كان السلطان عبد الحميد سياسيا قديرا ، وقوما من أقرام السياسة الدولية ، ولولا ذلك ما استطاع أن يصمد فى وجه هذه الرياح العاتية ، وكان قادرا على التعرف على

مختلف التيارات والمؤامرات ، وكان يفهم أبعاد الخطر الداخلى الذى يؤججه الاستعمار والصهيونية عن طريق حزب تركيا الفتاة ، وكيف تسيطر عليهم الماسونية العالمية ، وتوجههم لصالحها كما كان يعرف نقاط الضعف فى الدول الغربية ، وأوجه الخلاف بينها فيستغلها ويستفيد منها ولست استطيع أن أصور هذا المعنى بأعظم مما صوره **جمال الدين الافغانى** : الذى التقى بالسلطان ساعات ومرات ، وتدارس معه شؤون العالم الاسلامى ، ومخاطر السياسة الاوربية ، ومخططاتها ، وذلك بعد أن قدم الى الاستانة عام 1892 قال :

رأيته (1) يعلم دقائق الامور السياسية ، ومرامى الدول الغربية ٠٠ وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجا وسلما ، وأعظم ما أدهشنى ما أعده من خفى الوسائل وأمضى العوامل كى لا تتفق أوربا على عمل خطير فى الممالك العثمانية ، ويريها عيانا محسوسا أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن الا بخراب يعم الامم الاوربية بأسرها ٠ وقال : ان ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره ، واعداده العدة اللازمة لابطال مكايد أوربا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة ، قد دفعنى الى مد يدى له فبايعته بالخلافة والملك ٠ اهـ

ولقد أكد كثير من المؤرخين والباحثين فى انصاف : أن السلطان عبد الحميد كان آخر الحصون التى دافع بها الاسلام عن وجوده العالمى ، وبعد انهياره تمت مؤامرات الغرب وربيبته الصهيونية ، ومن الحق أن يقال ان الحركة التى حمل لواءها السلطان عبد الحميد فى تجميع المسلمين تحت لواء الخلافة كان اتجاها طبيعيا وأملا يملأ كل النفوس ، ولذلك فقد حققت نجاحا كبيرا ، أزعج الاستعمار والصهيونية ازعاجا شديدا مما استدعى العمل من جانبهم لاجهاضه والقضاء على حامل لواء الدعوة أصلا كوسيلة للقضاء عليها وتدميرها ٠

فى هذا الضوء يتمثل العمل الذى قامت به الصهيونية من جانبين :

أولا : من جانب الدونمة داخل الدولة العثمانية وخاصة فى محاصرة السلطان والتآمر عليه ٠

---

(1) راجع (خاطرات جمال الدين) لمحمد المخزومى باشا ٠

ثانيا : من ناحية الصهيونية العالمية فى التفاهم مع السلطان عبد الحميد والياس منه واصدار القرار الحاسم بالعمل على اسقاطه ·

الدونمة : هى القوة اليهودية الكامنة داخل الدولة العثمانية التى اختارت مدينة سالونيك ودخلت الاسلام تقية بعد تاريخ طويل معروف ، وهى التى انشات المحافل الماسونية (3) فى الدولة العثمانية لهذه الغاية ، واتصلت بجماعة الاتحاد والترقى (وحزب تركيا الفتاة) وافسحت له فى محافلها الفرصة للعمل ، وتلاقت الرغبات على التخلص من الوجه الاسلامى لتركيا ومن السلطان عبد الحميد وكان ذلك قد بدأ ياخذ طريقه بقوة منذ أعلن السلطان عبد الحميد دعوته الى المسلمين ، وكانت قوى كثيرة تشارك اليهودية العالمية فى هذا الاتجاه ·

وقد كان السلطان عبد الحميد يعرف هذه القوى التى يواجهها فى الداخل ويعرف المؤامرة التى تدبر لفكرته وله شخصيا ، وكان يعرف أبعاد المخطط كله ، : فئة المثقفين الغربيين الذين سيطرت عليهم افكار الثورة الفرنسية ربيبة المحافل الماسونية من ناحية، وحركة الارساليات الاجنبية فى لبنان وثمارها المنبثة فى مصر وسوريا والبلاد الاسلامية تحمل احقادها على الاسلام والوحدة الاسلامية ، والمحافل الماسونية فى سالونيك ··· واذا كان السلطان قد عارض مدحت وحزب تركيا الفتاة ، فقد كان عالما بأنهم واقعون تحت نفوذ الماسونية العالمية اداة الصهيونية العالمية فى ذلك الوقت ، وأن موقفه دون تمكين اليهود من فلسطين قد حرض كل هذه القوى وأمدها باشارة الانقضاض ، أن تصريحات كثيرة للسلطان عبد الحميد تكشف أنه كان عالما باهداف الصهيونية فى هذا الوقت المبكر ، ولذلك فقد كان وقوفه فى وجه الاتحاديين وتركيا الفتاة وعمله على تحطيم مخططاتهم ليس نابعا من كراهية لنهضة الدولة العثمانية ، ولكن كان عمقا فى النظرة الى الأهداف البعيدة لتدمير هذه القوى التى كانت تحمى المسلمين داخل الدولة وخارجها ، ومن هنا كانت رقابته الشديدة عليهم لمحاصرتهم وملاحقة مخططاتهم وضربا اولا باول ·

ولقد صدقت نظرة السلطان عبد الحميد على الاتحاديين فيما فعلوه بعد ان دخلوا التجربة فعلا وسيطروا على الحكم من سنة 1909 الى 1918 وما قاموا به من تسليم كامل

للدولة وتبعية كاملة لمخططات الاستعمار والصهيونية مما كشف أصالة عبد الحميد وبعد نظره وتقدير موقفه الحسم في وجه النفوذ الاستعماري نفسه بالدعوة الى الوحدة الاسلامية ، وفى نفس الوقت بمقاومة هذه التبعية التى كانت تحمل مظهرا براقا ، هو الاصلاح على طريقة الغرب بينما كانت تحمل فى أعماقها ايمانا بالفناء فى الغرب كله والتسليم له • ولقد خدع المسلمون والعرب بالاتحادين ، وأقاموا الافراح ، وسرعان ما اكتشفوا أنهم أسلموا أنفسهم الى فك الأسد وأنيابه ، •• ان مقدرة عبد الحميد على فهم ما يحيط به كانت أكبر مما يظن كثيرون ، ولكنه كان فى موقف لا يستطيع معه أن يكاشف المسلمين بالأخطار التى تحيط به ••• لقد كان اليهود يسرون فى السلطنة العثمانية شبحا مخيفا خطرا على مستقبلهم كما يقول دكتور « محمد على الزغبى » فى كتابه « الماسونية فى العراء » وكانت الدونمة بكل مؤسساتها وتداخلها أداة تنفيذ فى الوقت المناسب •••

ثانيا : بعد أن عقد مؤتمر بال سنة 1897 وكانت حركة الوحدة الاسلامية قد استحصدت ، كانت وجهة نظر اليهود اقتحام فلسطين ، ولذلك فقد تركزت الخطط حول الدولة العثمانية وحول السلطان عبد الحميد فى محاولة لاحتوائه ظنا منهم أنه فى ظرف من الضعف ، وفى حالة من الاستدانة تجعله يخضع للاغراء ، اغراء اليهود بالذهب وهم من قبل أصحاب العجل الذهبى ، وبدأت المحاولات منذ ذلك الوقت ، واتخذت وسائل متعددة ، ووسائط كثيرة ••• منها وساطة الامبراطور ـ غليوم ، ولقاء اليهود الثلاثة « **مزراحى قراصو ـ جاك ـ ليون** » ولقاء هرتزل ومعه موشى ليوى **حاخام** اليهود فى الدولة العثمانية ، ولقاء السفير اليهودى ـ غوسن ، وهى سابقة على مقابلة اليهود الثلاثة ثم لقاء هرتزل للسلطان ولرجال قصره •

وقد عرض من خلال هذه المقابلات مشروع يرمى الى تقديم قرض للدولة العثمانية يبلغ خمسين مليونا من الجنيهات الذهبية • ومليونا لخزانة الملك الخاصة • وبناء اسطول كامل للدفاع عن أراضى الدولة العلية •••

وذلك فى مقابل السماح لليهود بانشاء مستعمرة صغيرة لهم قرب القدس ينـــزل بها أبناء جلدتهم ... وحتى لا نطيل والتفاصيل كلها موجودة والمراجع ثابتة : تنــوه بالرد النهائى للسلطان عبد الحميد :

« بلغوا الدكتور هرتزل : ألا يبذل بعد اليوم شيئا عن المحاولة فى هذا الامر التوطن بفلسطين فانى لست مستعدا ان أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لغيرى ، فالبــلاد ليست ملكى بل هى ملك شعبى ، روى ترابها بدمائه .. فلتحتفظ اليهود بملايينهم من الذهب ، فان الدولة العلية لا يمكن ان تختبىء وراء حصون بنيت بأموال أعداء الاسلام.. لست مستعدا لأن اتحمل فى التاريخ وصمة بيع بيت المقدس لليهود وخيانة الامانـــة التى كلفنى المسلمون بحمايتها .

ان ديون الدولة ليست عارا لان غيرها من الدول الاخرى مدين مثل فرنسا ، ان بيت المقدس قد افتتحه المسلمون أول مرة فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنـه فلست مستعدا أن اتحمل وصمة بيعه لليهود وخيانة الامانة » .

وقد أورد هرتزل فى مذكراته التى طبعت بالالمانية فى تل ابيب عام 1924 قصة هذه المحاولات وقال بعد فشل المحاولة الأخيرة : ان السلطان بعـــث له وساما عاليا ومعـه خطاب جاء فيه ذلك . هذا موقف السلطان عبد الحميد الشريف الفذ الذى أخفى عـن المسلمين والعرب منذ عام 1909 حتى سنوات قريبة عندما ترجمت مذكرات هرتـزل ، وكان أول من أشار الى هذا النص الاستاذ أحمد الشقيرى فى دروسه فى معهد الدراسات العربية بالقاهرة منذ عشر سنوات وقد ظل المسلمون فترة لا تقل عن خمسين عاما يرمون الرجل عن قوس واحدة لان الاستعمار والصهيونية والصحف العربية التى أصـــدرها تلاميذ مدارس الارساليات وخاصة فى مصر (**المقطم ، الاهرام ، الهلال ، المقتطف ـ مجلة سركين**) وعشرات من هذه الصحف كانت تصف عبد الحميد بانه السلطان الاحمر المستبد وقد انتقلت هذه العبارة من الصحف الى كتب التاريخ ، وكتب تاريخ الادب العـربى ، وما من كتاب أرخ هذه الفترة الا احتوى على هذه العبارات التى أصبحت مسلمات بالاضافة الى تعبير آخر سنعود له من بعد وهو : « الاستعمار التركى أو العثمانى » .

كانت هذه العبارات النارية التى وجهها السلطان عبد الحميد الى هرتزل 1902 ايذانا بتلك الحملة العاتية على السلطان بعد أن تقرر ازاحته ، وكانت هذه الحملات التى وجهت اليه تمهيدا واعدادا للرأى العام لهذا الغرض ، ولقد جرت منذ ذلك الوقت محاولات لاغتياله واسقاطه حتى وقع ذلك عام 1908 بالانقلاب الذى قام به الاتحاديون بالاشتراك مع الماسونية ممثلة فى الدونمة ... ولا تزال عبارات عبد الحميد نبراسا مضيئا ، وتاجا لامعا ، وشرفا ما بعده شرف يتوج جبينه فى تاريخه المعاصر ، وعند ربه ، ويذود عنه ومن حوله كل الاشاعات والشبهات والاضاليل ، وقد تبين من بعد فى وثائق كثيرة ، وانكشف الستار عن مؤامرة قلب الدولة العثمانية ، وانزال عبد الحميد بالذات كخطوة أولى لتنفيذ هذه الجريمة البشعة ، والمؤامرة العالمية لتحطيم الوحدة الجذرية ، والرابطة العضوية القائمة بين العروبة والاسلام ، ولقد تحقق فعلا لليهود وللاستعمار باسقاط عبد الحميد كل ما كانوا يرجونه ، ولم تلبث الهجرة الى فلسطين أن بدأت سافرة منذ ذلك الحين ، وتحقق ذلك الامل الذى استعصى سنوات وسنوات ، وكان ذلك مقدمة لاشك فيها للقضاء على الخلافة الاسلامية .

ولقد كان ضروريا للباحث المتمهل المنصف أن يقف دائما من تاريخ الدولة العثمانية فى العصر الاخير موقف العدل والصدق ، وأن يفرق بين عهدين : عهد السلطان عبد الحميد الذى انتهى عام 1908 تقريبا وعهد حكم الاتحادين الذى بدأ منذ ذلك الوقت وظل مستمرا حتى أسلم أمره الى الكماليين بعد الحرب العالمية الاولى ، فهذه التفرقة واضحة وضرورية ، خاصة بالنسبة لنا فى المشرق : ذلك أن سوريا ولبنان والعراق التى تأخر الاستعمار الغربى عن السيطرة عليها حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، كانت فيما قبل ذلك تعيش فى هذا الاتجاه المعارض للخلافة والسلطان ، بينما كانت مصر التى سقطت عنها ولاية الدولة العثمانية وسيطر عليها الاستعمار البريطانى منذ 1882 تؤيد الخلافة والسلطان ، ولقد كان لموقف حكومة الاتحاد والترقى من أهل سوريا ولبنان ، ومحاكمة رجالهم ، وتعليقهم فى المشانق عام 1916 أثرا نفسيا بعيدا فى نظرتهم الكلية الى الدولة العثمانية ، والحقيقة أنها يجب أن تكون قاصرة على الاتحادين وحدهم .

ومن هنا وجب التفريق بين مرحلة السلطان عبد الحميد التى انتهت عام 1908 وهى فترة كان موقف الدولة العثمانية فيها بالنسبة للعرب والمسلمين موقفا كريما ، وكانت الحركة الاسلامية الواحدة من أعظم الاعمال ، أما الفترة التالية التى حكم فيها الذين اسقطوا السلطان ، فانها تمثل أسود صفحات الحكم التركى ولاءا للصهيونية والاستعمار وضربا للوحدة الاسلامية واعلاءا للحركة الطورانية ، ومحاولة لتتريك العرب فى سوريا ، وتعليق زعمائهم فى المشانق هذه الفترة وحدها هى التى يقف منها العرب فى سوريا موقف الخصومة للترك ، وهى ليست من حساب الدولة الاسلامية العثمانية فى الحقيقة ·

كذلك نجد أنه من الضرورى أن تصحح عبارة « الاستعمار التركى ـ أو العثمانى ·· والواقع أن كلمة استعمار كلمة مستحدثة مرتبطة الى حد كبير بدول مسيطرة بقوة الحديد والنار تأخذ ثروات الامم بأبخس الاثمان لتجعلها مواد خاما لمصانعها ، ثم تعيد الى هذه الامم منتوجاتها لتبيعها بأغلى الاسعار ، وهذا النظام الاستعمارى لم يكن موجودا فى هذه الفترة ، ولم تكن الدولة العثمانية بهذا المعنى دولة مستعمرة ، كذلك فان الاجزاء العربية التي انضمت الى الدولة العثمانية لم تكن باحتلال وقسر ، ولكنها كان برضاء ودعوة فقد وجد العرب أنفسهم بعد ضعف المماليك فى حاجة الى الالتقاء تحت اسم الاسلام مع هذه الدولة الكبرى ، رغبة فى الوحدة ومحافظة على النفس وبعد أن تعرضت سوريا ومصر لمحاولات غزو صليبى مجدد من الغرب ، والمعروف أن العرب فى مصر وسوريا قد رحبوا بالوحدة الاسلامية العثمانية ، ولم يعارضوها حيث وجدوا فى العثمانيين اخوانهم فى العقيدة والدين منتعشا جديدا للاسلام (وكذلك وجد فيها مسلمو المغرب) وقد أكد المؤرخون والباحثون أن هذا الالتقاء بالعرب والترك فى ظل الدولة العثمانية قد حمى العالم الاسلامى أكثر من أربعمائة عام من الغزو الصينى الذى لم يلبث أن جاء بعد ان دخلت الدولة العثمانية فى مرحلة الضعف ·

والواقع أن الدعوة الى الوحدة الاسلامية لم يتجاوزها الزمن ، ولقد تبين للمسلمين اليوم بعد سنوات طويلة من الدعوات الاقليمية والقومية أن الوحدة الاسلامية هى الاصل الاصيل ، والوجهة الصحيحة ، وكل الدلائل تؤكد الآن أن المسلمين سائرون الى طريق الوحدة الذى حطمته الصهيونية والاستعمار باسقاط عبد الحميد والغاء الخلافة ولعل نجم التجمع الاسلامى يلمع فى السنوات القادمة فى صورة جديدة ·

مـــلاحق البحـــث

(1) بروتوكولات صهيــون :

نشرها سرجيوس بيلوس بالروسية عام 1902 وأعـــيد نشرها عام 1905 وترجمت الى الالمانية عام 1919 ونشرتها جـــريدة التيمس الانجليزية عــام 1920 ثم نشرتها جـــريدة المورتنج بوست وكانت قد أودعت المتحف البريطانى منذ عام 1906 أما فى العالم الاسلامى والبلاد العربية فان أول ما أشير اليها هو ما نشرته مجلة الرسالة عام 1949 وما قامـــت بترجمته مجلة روز اليوسف عام 1951 ثم جاءت كتابات مفــرقة عنها لنيقولا حداد عام 1951 فى الرسالة ، وكان الاستاذ محمد خليفة التونسى أول من ترجمها فى مجلة الرسالة عام 1951 وقد ظلت هذه البروتوكولات سرية منذ أن عرضت فى مؤتمر بال عام 1897 حتى اكتشف أمرها فى أواخر القرن التاسع عشر ، وقال سرجيوس بيلوس عندما طبعها عام 1905 أنـــه تسلمها عام 1901 مترجمة الى الروسية عن أصل فرنسى ، وقال هنرى فورد معلقا على أنهـــا تصدق على ما هو حادث الآن فى العالم ، وأنه منذ نشرت قبل ستة عشر عاما وهى تصدق على حالة العالم فى هذه الفترة ، وفى 14 يوليو 1922 نشرت جريدة جوليس كرونيكل اليهودية بعض مذكرات تيودر هرتزل وفيها خلاصة حديث مع الكولونيل جولد سميد وقد لمح هذا اليهودى المتنصر لهرتزل بما يستفاد منه أن ثلثمائة شيخ من شيوخ بنى اسرائيل معروف بعضهم لبعض يقررون مصير القارة الاوربية وهم ينتخبون خلفاءهم ، وأشار محمد خليفة التونسى فى أول ترجمة له للبروتوكولات الى اللغة العربية الى أن هذه البروتوكولات هى من أسرار اليهود التى يحرصون على اخفائها كل الحـــرص وتحوى بروتوكولات صهيونية مخططا كاملا للخطة التى تدبرها الصهيونية العالمية للسيطرة على العالم فى خلال مائة سنة وتكشف عن الوسائل التى تتخذها عن طريق الصحافة والمسرح والنظريات الفلسفية لتدمير العالم قبل السيطرة عليه ...

(2) الجـــامعـة الاســـلامية

كانت صيحـــة الجامعة الاسلامية عندما أعلنت انها تعنى تجميع المسلمين فى العالـم الاسلامى تحت لواء الخلافة العثمانية فى وجه النفوذ الاستعمارى الزاحف الذى كان يخطط

من أجل تمزيق الدولة العثمانية ، وايقاع الخلاف بين العــرب والترك كعنصرين يجمعهما وحدة الاسلام بقيمه كلها من سياسية وفكـــرية واجتماعية ، واسقاط الخلافة الاسلامية باعتبارها القوة الجامعة للمسيحية ، ولقد كانت الدعوة الاسلامية قسما بين السلطان عبد الحميد ، وجمال الدين الافغانى أما السلطان عبد الحميد فقد حمل لواءها منذ تولى الحـكم كمحاولة لتجميع مسلمى العالم كله مع الدولة العثمانية فى وجه النفوذ الغربى الذى كان قد بدأ يسيطر على كثير من أجزاء البلاد الاسلامية ، أما جمال الدين الافغانى فقد كان يطمع فى تحرير قطر من الاقطار العربية ليكون منطلقا الى الوحدة الاسلامية ، وكان يركز عـلى مصر بالذات فى هذا المجال فلما سقطت مصر فى قبضة النفوذ الاستعمارى البريطانى عام 1882 رأى أن يدعم دعوة السلطان عبد الحميد الى الوحـــدة الاسلامية الجامعة وانتقل الى استانبول من أجل هذا الغرض غير أن حوائل كثيرة حالت دون تحقيق هدفه أهمها : مزاجه النفسى ، وطابعه الفكرى ، كداعية ومفكر ، وما شاب حركة السلطان عبد الحميد من معوقات وضغوط غير أن اسقاط السلطان عبد الحميد عام 1908 كان آخر المحاولات فى ظل الخلافة لاقامة الجامعة الاسلامية التى تردد التفكير فيها من بعد ، وخاصة بعد سقوط الخلافة وعقدت مؤتمرات كثيرة من أجل هذا الغرض ، ثم جاءت فكرة التضامن الاسلامى فى السنوات العشر الاخيرة كمحاولة جديدة لهذا الغرض تحت اسم جديد ...

(3) الخــلافـة الاســلامية

كانت الخـلافة الاســلامية هدفا من أخطر أهداف الاستعمار والصهيونية ، فقد استطاع السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية فى أشد مراحل الضعف ، وهى ترمى من الـدول الاوربية بالمؤامرات من أجل تمزيقها والقضاء عليها ، استطاع أن يحمـــل لواء الوحدة الاسلامية للامم الهندية والفارسية وجميع المسلمين من خارج الدول العثمانية لاقامة حاجز ضخم فى وجه الزحف الاستعمارى الغربى ، وقد نجحت دعوته نجاحا قويا أكد وحدة المسلمين الفكرية والسياسية والنفسية ، وقد كاد أن يوقف مخطط الاستعمار المندفع الى السيطرة ، والصهيونية العالمية الطامعة فى السيطرة على فلسطين ، ومن هنا كانت تلك الحملة الضخمة التى ساقتها تلك القوى على السلطان ، ورميه باتهامات متعددة أقلها الاستبداد ، وقد تحقق

هدف الصهيونية والاستعمار بعد الحرب العالمية الاولى ، وفى امتداد الاتحادين الكماليين باسقاط الخلافة الاسلامية ·· واليوم ترتفع الاصوات من جديد بالدعوة الى اعادة هذه المؤسسة الاسلامية الضخمة لتكون سنادا للمسلمين ···

(4) الصهيونية العالمية

الصهيونية حركة سياسية تقوم بها اليهودية العالية من أجل السيطرة على مقدرات الامم والشعوب ، واعادة مملكة صهيون ، وهيكل سليمان ، وقد بدأت هذه الحركة فى العصر الحديث سرا عن طريق الماسونية ثم استعلنت بعد أن حققت الماسونية خطوات واسعة وخاصة بالثورة الفرنسية ، واستعلنت عام 1897 بالحركة التى قادها تيودر هرتزل فى الدعوة الى الدولة اليهودية التى اتخذت من بعض نصوص التوراة سندا فى أرض الميعاد ، ومن ثم كان السعى الى تحقيق هذا الهدف بكل وسائل الخداع والاكراه والظلم ، وذلك بعد أن قطع اليهود شوطا طويلا بالسيطرة على الحكومات الاوربية ، وتحقق لها أول الخيط بالحصول على وعد بلفور عام 1918 باقامة وطن قومى فى فلسطين ، ولم يتحقق ذلك الا بعد أن اسقطت السلطان عبد الحميد الذى وقف فى وجه الحركة ، واستطاعت المنظمات الماسونية أن يقدم حزب تركيا الفتاة الذى فتح لهم الطريق مما هيء لوعد بلفور الذى أعطى الصهيونية جواز الاقامة فى فلسطين ، وقد تمت هذه الخطوات عن طريق دسائس اليهود ومؤامرات الصهيونية بما حقق قيام اسرائيل 1948 ·

(5) الماسونية

جمعية سرية أقامها اليهود للقضاء على كل القوى المناهضة لهم ، وفى مقدمتها الكنيسة الكاثولكية ، وقد أخفوا هدفها الاساسى الذى يقوم على أساس بناء هيكل سليمان ، ومن هنا سميت الماسونية باسم « البنائين الاحرار » وقد خفيت هذه الغاية على المخدوعين ، وشاعت دعواها فى العالم الاسلامى مع مخططات الاستعمار الاخرى كالتبشير وغيره ولم يكتشف العرب أمرها الا بعد سقوط السلطان عبد الحميد الذى كان يعرف أخطارها منذ اتصلت محافلها القائمة فى سالونيك مع جماعة تركيا الفتاة وعملت على السيطرة عليها واحتوائها ، وتوجيهها الى غايتها الاساسية فى اسقاط عبد الحميد الذى وقف ضد مطامع

اليهود فى فلسطين ، وكانت جمعية تركيا الفتاة ممثلة فى حزبها الحاكم خلال 1908 — 1918 هى التى حققت هدف الصهيونية على أوسع نطـــاق ، كما حققت هدف الاستعمار بايجاد مذابح دموية للعرب بواسطة الاتحاديين حتى لا تلتئم وحدة العنصرين المسلمين الى وقـــت طـــويل ...

المـــراجـــع

مذكرات	هـــرتزل
الخط المحيط بالاسلام	جواد رفعت
خاطـــرات	جمال الدين الأفغانى
تركيا الفتاة وثورة 1908	
بروتوكولات صهيون	
العرب والترك	توفيـق بـــرو
العروبة والاسلام	أنـــور الجنـــدى
صحف ومجلات متعددة الخ الخ	

انقذوا اخوانكم المسلمين وأخواتكم المسلمات بالفلبين
ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم

جاءنا البلاغ التالى من مسلمى الفلبين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

فبالاشارة الى ان المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها كلهم اخوة فى اللـــه وفى الاسلام نحيطكم علما بان بعض اخوانكم المسلمين واخواتكم المسلمات فى الفلبين تعرضوا مع أطفالهم الصغار للمذابح البربرية الوحشية الجديدة ، وللابادة الجماعية اللاانسانية فى حادثتين أليمتين :

الحادثة الاولى : وقعت فى بلدية (تالاكاغ) بمحافظـــة (بوكيدنون) فى جزيـرة (مينداناو) بالفلبين بتاريخ 29 من رجب 1395 هـ الموافق 7 من أغسطس 1975 م ٠

وصورة هذه الحادثة أن 137 نفرا من أخوانكم المسلمين وأخواتكم المسلمات خرجوا من هذه البلدية هاربين بدينهم وأموالهم وأنفسهم متوجهين الى المناطق الاسلامية الآمنة فى محافظة (لاناو الجنوبى) ، وفى طريقهم اليها تعرض لهم الجيش الفلبينى الظالـــم لابادتهم ، فقتل منهم 38 نفرا بعد أن قيدهم بالحبال ، وربطهـــم فى جـــذوع الاشجار واصولها ، وقطع أيديهم وآذانهم ، وانوفهم وثدى نسائهم ، وفقأ عيونهم ، وبقر بطونهم، وأخرج أجنة الحوامل من النساء بالسكاكين ، وقتل اطفالهم الصغار بالضرب والتعذيب أمام أمهاتهم ، لا باطلاق الرصاص عليهم ، ولا بطعن الخنجر والسيف ، ونجا واحد اسمه (الحاج ماكارامبون) وهو الذى حكى المذبحة قبل أن يموت شهيدا فى المستشفى وهـو مجـروح مشـوه ٠

أما الباقون وعددهم 99 نفرا فهم مفقودون ، ومن بينهم 20 فتاة شابة ، ولم يعرف مصيرهم حتى الآن ، هل قتلوا أو ما زالوا أحياء عند أعداء الله المعتدين ٠

الحادثة الثانية : وقعت فى احدى ضواحي مدينة (ماراوى) بتاريخ 5 من شـــوال 1395 هـ الموافق 9 من أكتوبر 1975 م .

وصورة هذه الحادثة الثانية أن السيد/الحاج محمـد نـاصر (باليندونج) رئيس بلدية (بوالاس) بمحافظة (لاناو الجنوبى) خرج مع زوجته السيدة الفاضلة/الحاجـة منيرة (بينيتو) و 7 من رجاله الشرط ، لحضور مؤتمر رؤساء البلديات بمحافظة (لاناو الجنوبى) ، وفى أثناء عودتهم تصدى لهم الجيش الفلبينى الظالم فى أحد شوارع ضواحى المدينة المذكورة ، وأمرهم بالقاء أسلحتهم المرخصة لهم من قبل الحكومة بوصف الحـاج ناصر أحد رؤساء البلديات ، فألقوها طاعة وانقيادا لأمر الجيش ، ثم أمـر قائد الجيش باطلاق الرصاص عليهم ، حتى استشهدوا كلهم أمام أعداء الله فى الفلبين .

هذا ومع العلم بأن السيد/الحاج محمد ناصر كان واحدا من أغنياء مسلمى الفلبين ، وأنه أدى مع زوجته السيدة الفاضلة/الحاجة منيرة فريضة الحج فى شهر ذى الحجـــة الماضى عن طريق الجو ، ومرا على القاهرة ليشاهدا أهم المساجد والجوامع فى جمهوريـة مصر العربية ، وبالاخص جامع الأزهر الشريف .

ولا يفوتنا أن نخطركم بأن حكومة الفلبين لم تعد مسلما واحدا حتى الآن الى القرى الاسلامية التى احتلها الجيش الفلبينى عنوة وقسرا ، والى الاراضى التى اغتصبت مـــن المسلمين ، ولم ترد شبرا واحدا من أراضى المسلمين الى أصحابها الحقيقيين ، ولم تسلم للمسلمين أموالهم التى أخذها الأعداء قهرا .

هذا ولم يكتف الجيش الفلبينى الظالم باستيلائه عـــلى آلاف الهكتارات من أراضى المسلمين ، بل يترصد لهم من كل الدوائر ، ويتصدى للمسلمين المدنيين ، ويتعرض لهم فى مختلف الأماكن والشوارع لابادتهم والقضاء عليهم كما ذكرناه ، ويهاجم القـــرى الاسلامية الباقية بغية التوسع فى امتلاك الاراضى الجديدة ، ويحاصر المسلمين حصـارا اقتصاديا وسياسيا وثقافيا .

يا رب ! اللهم انصر الاسلام والمسلمين فى مشارق الارض ومغاربها ، وألهم قـــادة المسلمين وحكامهم فى الدول الاسلامية والعربية أن يقبلوا على اتحادهم وتكاتفهم ، ليعيدوا مجد الاسلام كما كان من قبل فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعصور الخلفـاء

الراشدين ، وألهمهم جميعا أن يهبوا لانقاذ اخوانهم المسلمين المستضعفين ، الذين يتعرضون ـ فى مختلف الأماكن من العالم ـ للمذابح البربرية البشعة التى ترتجف لها القلوب وتقشعر لها الأبدان ، ويعانون من الابادة الجماعية اللاانسانية على مرأى ومسمع من اخوانهم فى العالم الاسلامى والعربى ·

والتاريخ يدلنا على أنه بمجرد قتل الروم لمن كانوا يعتنقون الاسلام من نصارى أهل الشام فان الرسول صلى الله عليه وسلم لم ير بدا من ارسال الجيش الاسلامى لانقاذ هؤلاء المسلمين المستضعفين ، لأنه هو وأصحابه لا يستطيعون أن يقفوا مكتوفى الأيدى أمام أناس يقتلون اخوانهم المسلمين ·

وهذا من أسباب قيام الحرب الشاملة بين الدولة الاسلامية والدولة الرومانية ، حيث اعتبرت الروم ارسال الجيش الاسلامى الى الشام تدخلا فى شؤون مستعمراتها ، واعتبر الرسول فتنة أتباعه المسلمين اعتداء على دينه وصدا عن سير الاسلام ·

وأخيرا وليس آخرا نبلغكم أن اخوانكم المسلمين بالفلبين ، وأخواتكم المسلمات وأطفالهم الصغار ، ينادونكم كل يوم ، ويناشدونكم أن تنقذوهم من هذا المازق الأليم ، الذى يكابدونه من قبل حكومتهم الظالمة ، ويطالبونكم بالدعاء لهم من الله عز وجل ـ فى أوقات الصلوات الخمس وفى خطب أيام الجمعة ـ ان ينصرهم على أعدائهم المعتدين ، ويحميهم من كيد الطغاة والقتلة والسفاحين بالفلبين ، ويدخل شهداءهم الجنة بغير حساب ·

كما يطالبونكم بان تبلغوا اخوانهم المسلمين فى الدول الاسلامية والعربية وغيرها بهذه الحوادث الأليمة ، التى ارتكبت وما زالت ترتكب ضد اخوانهم المسلمين الأبرياء · قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ترى المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** » ·

اللهم بلغنا ، اللهم فاشهد ، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، والقارىء من لم يقرأ ، والسامع من لم يسمع ، والعارف من لم يعرف ·

يوم الاثنين 7 من ذى القعدة 1395 هـ ·
10 من نوفمبر 1975 م ·

لجنة المتابعة لمسلمى الفلبين
والله أعلم
صلاح الدين مجاهد

تصحيــح اخطـــاء

وقعت اخطاء مطبعية فى مقال : « **الهجــرة الأندلسيــة الى افريقية أيــام الحفصيين** » للاستاذ **محمــد الطالبى** ، استاذ التاريخ بالجامعة التونسية الذى نشر فى العدد الماضى من الأصــــالة ٠

وقد اتصلنا من الاستاذ **الطالبى** بهذه التصويبات ننشرها مع اعتذارنا لــه وللقارىء الكــريـم ٠

« الأصـــالــة »

الصفحة	السطـر	خطـــا	صـــواب
47	6	العضر	العصر
49	التعليق 3	Cariyya	ariyya
50	29	( )	(3)
51	21	الرابع عشر	11/5
52	التعليق 1	l'Espagne et	l'Espagne Catalane et
53	14	شخصيتها	شخصياتها
53	14	Ramon) « خنجر	Ramon) صاحب « خنجر
53	17	Ramon	Ramon
54	20	ايام سلطان	أيام السلطان
54	التعليق 1	Avril - Juin,	Avril - Juin 1971,
55	2	عزوز وخالد	عزوزا وخالدا
55	21	(وستمائة)	[وستمائة]
58	3	(أبى)	[أبى]
58	4	بعد المستنصر	بعد المستنصر ٠
58	10	مشايخ الموحدين	مشايخ الموحدين ٠
58	11	(بــن)	[ابــن]

الصفحة	السطر	خطــــا	صـــواب
60	17	الذى ـ	الذي
61	13	وسط محرم	(وسط محرم
61	17	أعلى مستوى	أعلى مستوى !
61	21	دفينة ، (3)	دفينة ، فاستخرج
61	تعليق 3		يحذف هذا التعليق
62	1	من سنة	من سنة (1) ،
62	2	(1)	يحذف ذلك
62	2	أبى الحسن	أبى الحسن (2)
62	10	(بن يوسف)	[بن يوسف]
62	15	(1)	(2)
62	12	، • (2)	(3) • ،
62	20	أبو الحسين سعيد	أبو الحسن سعيد
62	26	(2)	(3)
63	7	(وسبعمائة)/ديسمبر 1382)	[وسبعمائة/ديسمبر 1382]
63	11	ان فيما	هذه فقرة جديدة
63	تعليق 1	ص 681 ـ 682	ص 692
64	24	لترائهم	لثــرائهم
65	15	لذلك	لذلك •
65	18	• (1)	11 • ،
68	2	مر ببجاية أو استقر	مروا ببجاية أو استقروا
68	2	قــد درس	قــد درسوا
71	8	توفى	(توفى

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
71	24	ص 2109	ص 1209
74	تعليق 3	ص 15	ص 66
75	1	تخلع	يخلع
78	تعليق 1	ص 11	ص 61
79	15	C. Brunschvig	R. Brunschvig
79	20	تونس 6966	تونس 1966
84 _ 86			قدمت هذه الرسالة ويجب أن تؤخر
85	7	جاقمو	جاقمو (2)
85	8	برجلونة	برجلونة (3)
85	9	بطرو	بطرو (4)
85	15	السليم	السليم (6)
85	24	Père de Montmelo	Pere de Montmelo'
86	8	لمراسنا	لمراسينا
86	16	(سنة 1316)	[سنة 1316]
88 _ 90			أخرت هذه الرسالة ويجب أن تقدم
88	12	(والحمد لله) ( )	[والحمد لله] (2)
88	23	658 _ 618)	658 _ 718)
89	1	(مقدمين)	مقـ[ـدمين]
90	2	(وتصافيكم)	[وتصـ]ـافيكم
90	3	وقد (أ) مرنا	وقد [أ]مرنا
90	4	(كتابنا هذا)	كتا[بنا هذا]

منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية

صـــدر أخـــيرا:





في 5 مجلدات (بالعربية)

LES NATIONS ONT LEURS JOURS DE GLOIRE (1)

par Mouloud Kassim NAIT BELKACEM

A travers les diverses époques, l'histoire est faite de périodes de souffrance et d'espérance. Au cours de sa vie, chaque nation connaît des zones d'ombre ou de lumière. Ce sont ces anniversaires et ces grandes dates que nous célébrons et que nous commémorons. En leur miroir se reflète le visage de la nation. Grâce à quoi elle peut évoquer son passé, y voir l'image de son présent et la préfiguration de son avenir.

Aujourd'hui, en célébrant le 20e anniversaire qui marque le début de l'ultime étape dans le combat libérateur aboutissant au recouvrement de notre indépendance et de notre présence parmi les Etats souverains, l'Algérie ne fait que feuilleter les pages du registre où son combat le long des siècles est inscrit. Combat qui s'est déroulé sur toute l'étendue de son territoire et qui même dépassa ses frontières pour traverser les mers et atteindre la capitale de celui qui était l'adversaire acharné mais dont notre pays parvint à enfoncer les retranchements.

Que notre salut soit donc adressé à ce qui fut le point de départ réel de la dernière phase de notre mouvement libérateur, lors de sa décisive et rude étape : à tous ces cafés insalubres, à ces ruelles humides et étroites, à ces hôtels où règne la fièvre, à ces caves où l'on étouffe ! Que les forces du mal dans ces quartiers le veuillent ou non, qu'elles aient su que c'était là le début de leur fin ou pas, je crois qu'elles ressentent aujourd'hui, malgré elles, une certaine fierté, celle qui animait notre mouvement, et qu'elles admirent cette œuvre jaillie de leur aveuglement et de leur stupidité (2) !

---

(1) Traduction d'un article paru en arabe l'an dernier dans le numéro spécial d'Al Açala à l'occasion du XXe anniversaire du 1er Novembre 1954 et que nous reproduisons dans sa version française à la demande de plusieurs lecteurs, surtout en France.

(2) Que soient salués également, à cette occasion, le 115 boulevard St. Michel, siège de l'A.E.M.N.A. (Association des Etudiants Musulmans Nord-Africains) et de l'U.G.E.M.A. (Union Générale des Etudiants Musulmans Algériens) ; le 22, rue Xavier Privas, bureau du M.T.L.D. ; la Salle des Sociétés Savantes ; la grande Salle de la Mutualité ; la Salle des Granges-aux-Belles, tous lieux où se tinrent — ou souvent furent interdites en dernière minute à coup de matraques des C.R.S. — tant de nos réunions nationalistes ! Salut à toutes ces salles et à tous ces locaux bien connus à Paris, et à bien d'autres salles et lieux restés obscurs, et à tant de militants-soldats de notre lutte libératrice demeurant encore inconnus !

Salut donc à toi, nouvelle hidjra, nouvelle émigration ! Salut à toi dans ton immortalité ! Car tu ressembles tant à l'autre émigration, la Hidjra, qui, jadis, eut lieu ! Oh combien, au sein de notre combat libérateur, semblable est ton rôle à cette lumière que reflétèrent les escarpements d'Abyssinie sur la "bat'ha" (la grande place) de la mère des cités, Omm al Qoura, la Mecque, berceau de l'Islam !

N'est-ce donc point de ton occident que l'Etoile (1) se leva ? N'est-ce point dans tes profondeurs que le Peuple (2) retrouva son souffle ? N'est-ce point avec toi que le "Triomphe" (3) a connu son essor ? N'est-ce point auprès de toi que le Front (4) s'est amplifié ? N'est-ce pas toi qui accordas à la Révolution un soutien permanent et lui communiquas un nouveau souffle ? Le rugissement du 17 octobre fut-il autre chose que l'écho immédiat répondant au noble appel ? Revenez-donc, derniers émigrants, car le retour est louable ! Les ténèbres et les injustices du colonialisme se sont dissipées. Après votre retour, la mer, comme de glace, sera gelée !

Et toi, glorieux mois de Novembre ! Tu nous fis oublier Juillet et Octobre ! Soit béni, mois au front resplendissant ! Car c'est par toi que notre peuple mérita la Liberté. C'est en toi qu'il retrouva, pour une vie nouvelle, l'essor et la source de son action !

Et vous militants, soldats de la résistance, ici-bas et dans l'au-delà ! Rappelez, en chaque 1er Novembre, aux ancêtres que leur patrie a mis fin à l'esclavage et à l'exploitation et ce, en recouvrant sa liberté, son indépendance, sa place dans le concert des nations et en reconquérant le droit de gérer ses propres affaires. Que dans les instances internationales s'élève, vibrante, votre voix, vous qui ne pouviez tenir vos réunions que secrètement, dans les réduits ou dans les profondeurs des abris ou caves de magasins ! Clamez maintenant votre réalité ! Dites et affirmez que l'Algérie est redevenue indépendante, que c'est une chose acquise et que plus rien ne peut nous faire redouter le contraire ! Parlez en termes affirmatifs et bannissez de vos propos "après" et "peut-être" !

Et vous, jeunes d'aujourd'hui, qui ne futes point contemporains de ces événements ou qui ne les connûtes qu'indirectement et par oui dire — mais combien toute relation des faits est éloignée en ce domaine de la réalité même et de ce qu'elle mérite en fait de sollicitude et de soins attentifs ! Efforcez-vous de vous imprégner de l'esprit de cette époque et d'en tirer un enseignement durable et utile pour votre action !

---

(1) L'Etoile Nord Africaine.

(2) P.P.A. (Parti du Peuple Algérien).

(3) M.T.L.D. (Mouvement du Triomphe des Libertés Démocratiques).

(4) F.L.N. (Front de Libération Nationale).

Sans verser dans les rancunes et les rancœurs, n'oubliez jamais les humiliations, douleurs et malheurs !

Soyez une génération d'honneur qui sait pardonner mais dont les yeux restent grands ouverts ! Soyez cléments sans être oublieux !

Sachez vous armer pour ne pas déchoir. Sachez proclamer ce qui est juste pour éviter le triomphe de l'erreur. Soyez jaloux de votre honneur pour demeurer sans tâche, passionnés de vérité pour que la vérité ne soit point souillée. Assumez votre propre défense pour vous passer de défenseur. Trouvez enfin en votre probité et en votre authenticité le fer de lance de votre action et les traits de votre combat !

Edifiez et sachez atteindre vos objectifs, en distinguant le bon grain de l'ivraie. C'est de la sorte que vous serez fidèles envers vous-mêmes, envers les martyrs et que vous répondrez " présent " au rendez-vous de l'histoire et à celui de votre siècle. Vous réaliserez ainsi une œuvre dont la pérennité, la forme et le fond, pourront atteindre leur niveau le plus haut !

فهـــرس العـــدد

كونوا الرعاة الوعاة والدعاة السعاة !

مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

اخواننا الاعزاء ،

أولا نشكر الله ونحمده على هذه النعمة التى انعم بها علينا ، اذ مكننا من حضور هذه اللحظة السعيدة ، بافتتاح هذه المدرسة لتكوين الاطارات الدينية ورفع مستواها . وقد كان هذا المحل قلعة للتبشير المسيحي ـ كما كانوا يسمونه ـ او التنفير من الاسلام ، كما هو الواقع ، وكما هو الغرض الحقيقي ، في العهد الاستعماري البغيض .

(*) نص الكلمة التى ارتجلها السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، بمناسبة تدشين المدرسة الوطنية للاطارات الدينية بمفتاح (ولاية البليدة) بتاريخ 14 محرم 1396 هـ الموافق 16 جانفي 1976 .

وبهذه المناسبة نشكر جميع الذين ساهموا فى تحقيق هذا المشروع مـــن الاخوة الوزراء السابقين ، ومن الاخوان المساعدين فى الوزارة ، ومن السلطات المحلية ، بما سعت به من قبل ، وبما عزمت ان تقوم به فى المستقبل ، كما وعـدكم بذلك السيد الـوالى منذ لحظة ، والسيد المقاول ، وجميع الذين ساهموا بقسط ما فى تحقيق هذا المشروع ٠

والعمدة الآن عليكم طبعـا بالدرجة الاولى ، وعـلى حضرة الاساتذة الافاضـــل ، الذين نشكرهم ســـواء كانوا مـن اطـارات الوزارة ، أو البحـــاثة عـلى المستـــوى الوطنى ، أو من الاساتذة من الاقطار الشقيقة الموجودين هنا فى اطار نشاطهم العـادى التربوى ، نشكرهم كلهم مقدما ، على ما سيقدمونه وما يقومون به لانجاح هذا المشروع ٠ لأنه وان كان فى شكله المادى متواضعا جدا ، فالآمال المعلقة عليه ، والاهداف المنتظـرة منه ، كبيرة جدا ، وتحقيق هذه الآمال وهذه الاهداف متوقف عليكم ، وعلى الاساتـذة طبعا ، وعلى الائمة المتداولين ، اذ أن نشاط هذه المدرسة ، كما ذكر لكم الاخوان قبلى ، سيشمل جميع ائمة البلاد الموجودين حاليا ومستقبلا ـ على الاقل ريثما تنطلق كليـــة الشريعة والقانون المقارن فى قسنطينة ٠

ربما تبادر الى ذهن البعض منكم ممن اخترناهم لحضور هذه الدورات التدريبية ، ربما تتساءلون : لماذا عينت أنا بالذات ؟ هل معنى هذا أن مستواى ضعيف ؟ هل معنى هذا أن الوزارة تقدرنى تقديرا سيئا ، تقدرنى دون مستواى الحقيقى ، أو تسىء الظـن بهذا المستوى الخ ٠٠٠ ؟ ما معنى تعيينى أنا بالذات من الولاية ؟ حيث أننا عينا ـ كما ذكر لكم الاخوان قبلى ـ عينا من كل ولاية امامين اثنين ، من جميـع ولايات البـــلاد ٠ ونقول لهم ان هذا ليس تمييزا بالمعنى السلبى ، بالمعنى القادح لكم ٠ فبالعكس ، كنـا اخترناكم فى الدرجة الأولى ليكون الانطلاق بالذين نـرى فيهم أرفع مستوى بالنسبة للمستوى الموجود ، بالنسبة للمستوى العام لدى أئمتنا ، وبالنسبة للمستوى الثقـافى العام فى بلادنا ٠

ولا بد هنا أن نعترف طبعا أن رواسب الاستعمار لا يمكن ان تمحى هكذا بجـــرة قلم ، وبعصا موسى ٠ فهذا يتطلب مجهودات متواصلة ، متوالية ، منتظمة ، ولمـــدة



السيد مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية يلقي كلمته ، ويظهر على يمينه والى ولاية البليدة وقائد القطاع العسكرى بالولاية ، وعلى يساره المحافظ الوطنى للحزب لولاية البليدة ، ورئيس بلدية مفتاح .

طويلة ، لنتدارك النقص الذى ورثناه عن عهد استعماری طويل ، وعن عهد طويل أيضا من الهمود ، والجمود ، والخمود ·

فاذن اخترناكم لأننا نرى فيكم بالعكس مستوى لا بأس به ، وفضلنا أن نبتدىء بكم ليكون الانطلاق يبعث على التفاؤل ، مشجعا للاساتذة ، حتى لا يصدموا منذ الأول اذا ما وجدوا أنفسهم أمام أئمة ليس لديهم أى شيء اطلاقا ، ما عدا حفظ القرآن بدون فهمه ، فطبعا القرآن عندما يفهم فهو كل شيء ، ولكن عندما لا يفهم فهو ـ واسمحوا لى أن أقول ـ ليس شيئا بالنسبة لكم ولا لنا اذا لم نفهمه ، وهناك آية فى هذا السياق تعرفونها تلكم عن حمل الاسفار ··· فان شاء الله لا تنطبق على أحد منا ·

ادن فهذا الاختيار كان بهذا القصد ، وسيشمل ـ كما قلنا ـ جميع الأئمة الموجودين حاليا فى جهات البلاد ، جميع الأئمة الذين يعملون ، وسيشمل أيضا الآخرين الذين سيتعينون فيما بعد ، حتى الذين سيتخرجون من كلية الشريعة والقانون المقارن فى قسنطينة غدا سيمرون كذلك بفترة ما · فلصقل هذه المعلومات ، ولترتيبها ، ولاعطائهم البطاقة الأخيرة ، بطاقة الانطلاق فى العمل . لا بد أن يمروا بهذه المدرسة التى ستكون نواة ان شاء الله لجامعة اسلامية كاملة ·

ولهذا قلت لكم فى الأول ربما نستصغر شأن هذه المدرسة عندما ننظر الى هياكلها المادية ، الى شكلها الحالى ، ولكن الذى ستتمخض عنه ان شاء الله فى المستقبل سيكون أكثر بكثير من هذا الوجه المادى ، من هذه الهياكل التى قد تستصغر ·

نقطة أخرى أيضا ، قد يقول البعض منكم : ـ وقد قلنا اننا اخترناكم لمستواكم ، طبعا بالنسبة للآخرين ـ : « اذا كنتم ترون فينا هذا المستوى ، فلماذا اذن جئتم بنا الى هنا لهذا التكوين ، وأنتم ترون كما صرحتم بأنفسكم بأننا لا بأس بنا بالنسبة للآخرين ؟ » · وكما قلت منذ لحظة ، فحتى الذين سيتحصلون على الليسانس سيمرون بهذه المدرسة ، وهذه لا شيء فى الواقع بالنسبة لما كان ينبغى وينبغى أن يتم وأن يحدث .

وأعطيكم مثلا : هناك بلدان فى العالم ، بلدان اسلامية ، وبلدان مسيحية ، وبلدان شيوعية أيضا ، يكفينى أن أذكر أن يوغوسلافيا البلد الشيوعى المعروف لديه أربع

كليات للاهوت (أربع كليات من أصول الدين ، كما نسميها نحن) ، هذا بلد شيوعي ذكرته كمثل ، وهناك بلدان شيوعية أخرى ، وهناك بلد آخر أوروبي ، أكتفي بذكر واحد كنموذج لبلدان أوروبية أخرى غير شيوعية ، بلدان غربية ، فرنسا مثلا ، لديها عدة جامعات مسيحية ، جامعات دينية ، بغض النظر عن الجامعات الأخرى العادية . هذه الجامعات المسيحية كلها تقوم على نواتها الأصلية المركزية ، التي هي كلية اللاهوت، كلية أصول الدين ، كما نسميها نحن . وهناك تركيا كبلد اسلامي لا ديني ، كما يقال ، أي ليس لدولتها دين رسمي ، عكسنا نحن ، ولكن لديها كليات لأصول الدين لتكوين رجال السلك الديني ، كليات عديدة ، ومدارس أخرى عديدة أيضا ، ويمر كل رجال السلك الديني عندهم بهذه الكليات ، وبهذه المدارس .

وبأي مستوى يدخلون الى الكليات في فرنسا مثلا ، أو يوغوسلافيا ، أو في تركيا بالنسبة للكليات ، اذ أن الكليات يدخلونها بمستوى معين ، شأنهم في ذلك شأن فرنسا البلد الغربي الرأسمالي ، ويوغوسلافيا البلد الشيوعي اللاديني الملحد ، أو الذي ينكر على الأقل الأديان ، بأي مستوى يدخلون الى هذه الكليات في هذه البلدان الثلاثة ؟ بلد اسلامي لا ديني ، بلد مسيحي غربي ، وبلد مسيحي أيضا ولكن شيوعي ؟

لا أحتاج الى ذكر بلدان اسلامية لديها هذه الكليات ، بلدان اسلامية الدين الاسلامي فيها رسمي ، وهي عديدة ، نكتفي بذكر واحد منها ، ولديكم هنا بعض الأساتذة من أساتذة هذه الكليات ، مثلا الجامعة الأزهرية التي فيها كلية لأصول الدين . يدخلون الى هذه الكليات الدينية كلها ، سواء في كلية أصول الدين في الجامعة الأزهرية ، أو في كليات أخرى مماثلة في بلدان اسلامية عديدة ، أو في الكليات المماثلة الفرنسية والشيوعية وفي تركيا اللادينية ، في جميع هذه البلدان التي ذكرتها ، في جميع هذه النماذج المختلفة ، يدخلون الى كلية أصول الدين بالبكالوريا ، في تركيا ، وفي مصر ، وفي يوغوسلافيا ، وفي بولونيا .

أما في فرنسا وبلجيكا مثلا ، وبلدان غربية أخرى لديها كليات اللاهوت ، فيدخلونها بعد أن يتحصلوا على شهادة الليسانس ! فكما يدخل آخرون الى كلية العلوم مثلا ، أو الطب ، أو الهندسة ، أو الآداب ، بالبكالوريا ، هم يدخلون الى كلية اللاهوت

باليسانس ! هذا هو المستوى ، هذا هو التقدير الذى يعيرونه فى هذه البلدان المتقدمة المختلفة الأنظمة لهذا الجانب الهام من نشاطهم ومن تكوين شخصيتهم ، ومن تعزيز أصول مجتمعهم وقواعد أمتهم ٠

ولهذا لا تستغربوا أبـدا عندما عيناكم رغـم مستواكم الممتاز، بالنسبة لكثير منكم ، وبالنسبة لأغلبكم ، نقول قد نكون إسبانا الاختيار ، ونكون نحن المخطئين ولستم أنتم ٠ وكذلك بالنسبة للآخرين الذين سيتلونكم ، وكذلك بالنسبة للذين سيتحصلون عـلى الليسانس من كلية الشريعة والقانون المقارن فى قسنطينة غدا ، ومن كلية أصول الدين وتاريخ الأديان المقارن فى وهران ، بعد غـد ، بعد الليسانس سيمرون بهذه المدرسة ٠ وربما اصبحت هـذه المدرسة فى يـوم ما مدرسة علـيا ، ليست فقط مدرسة وطنية للاطارات ، ولكن مدرسة عليا بمستوى الماجستير ، كما يقال، أو دكتوراه الدرجة الثالثة ، أو حتى لدكتوراه الدولة فى يوم من الايام ان شاء الله ٠ هذا هو السبب الذى اخترناكم من أجله ، وبدأنا بكم أنتم ، اخترناكم لمستواكم الذى رأيناه فيكم وننتظره منكم ٠

هذه البلاد ــ كما تعلمون ــ عانت كثيرا ، لا أريد أن أسترسل طويلا فى هذا لضيق الوقت ، وكنا نوينا أن نصلى الجمعة وأن نوجز طبعا فى الكلام ، ولهـذا حتى الاخـوان من السلطات المحلية كالاخ الوالى ، والاخ مسؤول الحزب فى الولاية ، والاخ رئيس المجلس البلدى الشعبى، وغيرهم من الاخوان المسؤولين فى هذه الولاية، لم نطلب منهم أن يلقـوا كلمات ولو مختصرة ، وأنا شخصيا كنت حضرت بضعة عناصر وكنت نويت أن أوجـز فيها الى أقصى حد الايجاز ، لنترك وقتا كذلك لصلاة الجمعة ولدرس الجمعة ، والاستاذ أحمد حمانى كان قد أحضر درسه ٠

ولكن السادة الائمة هنا معنا اختلفوا فيما بينهم ، وبالتدقيق السيدان رئيس المجلس الاسلامى الأعلى ونائبه ، أحدهما وهو نائب الرئيس ، قال : انه لا تجوز صلاة الجمعة ، لاننا لسنا مقيمين هنا فى هذه البلدة ، والمسافة هى كذا وكذا الى آخـره ، والسيـد



جمهور الحاضرين من سلطات محلية ، وصحفية ، وأساتذة ، وطلبة ،
يستمعون الى كلمة السيد الوزير .

الرئيس قال : بل تجوز ، ثم بعد ، لا أدرى لماذا أعادا النظر فيما بينهما ، وفى آخر لحظة اعلمانى ونحن هنا بأننا نكتفى بصلاة الظهر . كالعادة ! الاختلاف رحمة، وأحيانا نقمة (1).

لهذا ربما سنستطرد قليلا ، وأكثر عليكم فى هذه الكلمة التى كنت نويت أن تكون رؤوس أقلام فقط كما يقال ، وبكلمات موجزة جدا أقول ان هذه البلاد عانت كثيرا جدا فى العهود الطويلة ، منذ الاحتلال الاسبانى الذى بدأ فى سنة 1505 باحتلال المرسى الكبير فى وهران ، وفيما بعد استمر ووصل الى العاصمة سنة 1510 م ، والى تونس وطرابلس فى نفس السنة 1510 م ، هذا الاستعمار الاسبانى حطم أهم ما كان موجودا فى هذه البلاد من بقايا آثار لمراكز ثقافية زاهرة فى العهود الماضية فى تيهرت (تيارت) ، وفى طبنة ، وفى قسنطينة ، وفى بجاية ، وفى تلمسان ، وفى ندرومة ، وبسكرة ، ومازونة ، والعاصمة ، الى آخره ··· فى مختلف جهات البلاد ·

حطم المد الاسبانى الجامعات المشهورة التى يذكرها علماء أعلام · ثم جاء الاستعمار الفرنسى فأجهز عليها ، ولم يترك شيئا منها ، حتى الجدران ، وحتى الأسوار ، وحتى الآثار ، حتى المواقع أحيانا اختفت ، حتى الاطلال لم يبق شىء منها !

فقد كانت لهذه البلاد مراكزها الزاهرة ، التى يذكرها المؤرخون ، مثل ابن خلدون ، والعبدرى،وأمثالهما كثيرون فى كتب الرحلات وكتب التاريخ · وقد خصصنا حصصا لهذا ، سيقوم بها الأستاذ المهدى البوعبدلى تحت عنوان « التراث والمراكز الثقافية فى الجزائر فى الماضى » ·

اذن بهذه المؤسسات التى ذكرتها ، بكلية قسنطينة للشريعة والقانون المقارن ، وكلية وهران لأصول الدين وتاريخ الأديان المقارن ، وغيرهما ، وتطوير هذه المدرسة فيما بعد الى مستوى أعلى ، وبجامعات أخرى ان شاء الله ستتلوها ، بهذا كله سنصحح الأوضاع فقط ، سنعيد شيئا الى مكانه ، بعد أن أزيح عنه بفعل الاستعمار ، الذى كان

(1) وهنا دار نقاش حول جواز صلاة الجمعة فى المدرسة أو عدم جوازها ، لأن أغلب المصلين غير مقيمين بها على الدوام ، بل بالعاصمة التى تبعد عنها بأكثر من ساعة وبجهات أخرى من البلاد ، واستقر الرأى فى الاخير بين الشيوخ من مختلف المذاهب الاسلامية على جوازها ، بل وجوبها ، بالتوفيق بين بعض المذاهب ، وصليت فعلا هناك ، واصبحت تصلى فيها بانتظام ، بدون حاجة الى نصاب مقيم لا يريم !

سلاحه كما تعلمون كلكم ، كما أعلن هو بنفسه عن ذلك على لسان أعمدته : « السيف ، والمحراث ، والصليب » ! (الجنرال بيجو ، الكردينال لافيجرى ، وغيرهما) ·

والمهام المطلوبة منكم بصفة عامة ، كمهام دائمة لنشاطكم على مدار السنة ، كما تعلمونه ، وكما بينا لكم فى عدة مناسبات ، يتمثل ، زيادة على المهام المعروفة ، أو التقليدية كما يقال ـ وان كنت لا أحب هذه الكلمة ، ولكن ما دام درجت عليها الألسن أقول ، زيادة على المهام التقليدية للامام التى أحيينا بعضا منها ، وأضفنا بعضا آخر ، يتمثل فى ثلاث مهام رئيسية جديدة وبعضها جددناه فقط ـ وهى : 1) مكافحة الأمية بالسبورة ، ولكن لاحظنا أن الكثير منكم لا يقوم بهذه المهمة رغم المنشورات ، ورغم التقارير ، ورغم التنبيهات ، ورغم العقاب ، ورغم الخصم أحيانا من المرتب ، ورغم الانذارات ، لا يزال بعضكم مع الأسف مخلا بهذه المهمة ، وهى مهمة كبيرة جدا ، وأول آية نزلت فى القرآن ، كما تعلمون ، هى « اقرأ » ! 2) **والمهمة الثانية** هى تحفيظ القرآن من الإمام نفسه ، بالنسبة للمساجد الصغيرة فى الأرياف ، فى القرى والمدن الصغيرة ، وفى المدن الكبيرة يقوم بها المؤذن أو الامام المساعد ، امام الصلوات الخمس · 3) **والمهمة الثالثة** هى الدروس المسجدية ، من فقه ، وتوحيد ، وتاريخ ، وتفسير ، وحديث ، الى آخره، حسب مستواكم وحسب المطلوب من المصلين ·

هذه الدروس كان يقام بها أثناء العهد الاستعمارى فى المساجد الحرة ، كان يقام بهذه الأدوار كلها . الآن مع الأسف فى الجزائر التى استعادت استقلالها يقصر كثير منكم فيها ، رغم التنبيهات ، ورغم التحذير ، ورغم التوبيخ ، ورغم العقاب ، ورغم المراقبة · ولكن أعدكم بأننا سنتشدد معكم بعد أن ازداد نظام الولايات بهذا العدد الكبير ، وأصبحت الرقعة محدودة ومنحصرة على المفتشين أيضا فى هذه الولايات ·

والمفتشيات ، كما يعلم بعضكم ، وكما أعلمكم اليوم ، رفعت الى مستوى المديريات فى الولايات · أصبحت الآن مديريات ، ستنطلق قريبا ان شاء الله ، وسيكون جهاز المراقبة اذ ذاك شديدا جدا عليكم . والى جانب الحقوق التى أعطيتموها ، والتى ستبدأون قريبا فى التمتع بكاملها ، من ترسيم ، ومرتب ملحق أو اضافى ، وتقاعد ، ومنح عائلية ، وعطلة

سنوية ، ستكون عليكم واجبات ، كغيركم من الموظفين الآخرين العاديين فى أيـة وزارة أخـرى فى البـــلاد ·

اذن لديكم الآن جميع الحقوق التى يتمتع بها الموظف المركزى فى الوزارة ، أو موظف الداخلية ، أو الخارجية ، أو الدفاع · ولكن سيطلب منكم نفس العمل أو أكثر ، بما أنه ينتظر منكم ، وتعتبرون أنفسكم ، أو اعتبرتم وتعتبرون ، أو قـيل لكم ، أو المفروض فيكم، أن تكونوا الواعظ فى الأمة، أن تكونوا المنبه، أن تكونوا الراعى الواعى ! فأنتم الذين تأخذون الكلمة ، وتصعدون الى منبر الرسول ، وتتكلمون باسم الرسول ، أنتم الامام ·

فالامام فى كثير من النظم الاسلامية هو الخليفة ، هو الامير ، هو السلطان ، هو الملك ، هو رئيس الجمهورية ، هو رئيس الدولة ، كما تشاؤون · اذن المطلوب منـكم أن تقوموا على مستوى مسجدكم مع المصلين ، ان تتحملوا مسؤولياتكم كاملة فى تتبع شؤون البلاد ، فى تتبع نهضة البلاد ، فى المساهمة فى تنمية البلاد فى جميع مجالات البناء ، بل وفى نهضة الأمة الاسلامية كلها ، وتتجاوزوا حدود الوطن بنشاطكم ، وباهتمامكم ، وبتوعيتكم، وبسهركم ، وبحرصكم ، **وتكونوا الرعاة الوعاة ، والدعاة السعاة !**

هذا هو المطلوب منكم ، ليس فقط أنه مطلوب أن تتركوا هذا الـذل ، هذه المسكنة التى يتسربل بها الكثير منكم ، المظهر الملىء بالذل والمسكنة الذى ورثتموه عن العهـــد الاستعمارى · يجب أن تكونوا رافعى الرأس ، موفورى الكرامة ، الآن فى ظـل الدولة المستعادة ، تحت حماية السيادة المسترجعة ·

اذن كونوا عناصر حية ، عناصر صالحة ، ليس فقط كجميع العناصر الحية فى جهاز البلاد ، فى جهاز الأمة ، بل ان تكونوا القدوة ، لأنكم انتم الذين تؤمون الأمـة ، تؤمون المصلين ، تقودونهم ، انتم الذين تقفون فى محراب الرسول ، أنتم الذين ورثـــتم هذه الرسالة ، ينبغى أن تكونوا وعاة بها ، ان تكونوا مقدرين لها ، ان تكونوا قائمـين بها فاذن عليكم مهام كبيرة جدا ، ثقيلة جدا ، ومسؤولية خطيرة جدا ·

يبقى أن هذه الدروس التى تساهمون بنشاط وفعالية ، فيها ، تشاركون عمليا فيها ، وليست فقط تلقى عليكم هكذا سلبيا ، كما تتلقونها أمـــام التلفاز ، تبتلعون الأشيـاء

من غث وسمين، وفى أى جهاز تلفزيون فى العالم، ليس فقط فى جميع أنحاء العالم الاسلامى مع الأسف، وعندنا أيضا، يتلقى الانسان الغث والسمين، والأول أكثر ! لا، بل تشاركون فيها عمليا بأسئلتكم ، وبتوجيهكم ، توجهون حتى الأساتذة ، عندما تلاحظون أن الأستاذ قد أغفل نقطة ما ، سها عن جانب ما ، أنتم تنبهونه الى ذلك ، تثيرون الاهتمام بذلك الجانب الذى أغفله ، فيتداركه ، ويفيدكم به ، ويفيد غيركم ٠ فاذن تشاركون عمليا فى هذه الدروس التى راعينا بقدر الامكان ، بقدر ما لدينا من كفاءات ، من امكانات ، من اطارات ، ان تكون متكاملة ، ان تكون شاملة لمختلف جوانب التكوين ٠

مثلا فزيادة عن الدراسات القرآنية ، وعن التفسير ، وعن الحديث ، وعن السيرة النبوية ، وعن الأصول ، وعن الفلسفة الاسلامية ، وعن الخطابة ، وعن قواعد اللغة ، وعن الانشاء ، زيادة عن هذه المواد كلها ، رأيتم من البرنامج ــ وبدأتم تتلقون فعلا ــ بعض المواد الاخرى ٠ لماذا اعطيناكم هذه المواد ؟ قد يقول البعض : « لماذا الفلسفة مثلا ، ماذا أفعل أنا بالفلسفة ؟ » فزيادة على الفقه ، على المذاهب الاربعة ، وعلى المذاهب الاسلامية الأخرى تتلقون الفقه على المذهب المالكى بالتوسع ، لأنه المذهب السائد فى البلاد ، وفى المذهب الشافعى ، وان كان ليس لدينا فى الجزائر شافعيون ، وفى المذهب الحنفى ، ولدينا مواطنون حنفيون ، حتى ولو كان عددهم قليلا بالنسبة للمجموع ، وفى المذهب الاباضى ، وعندنا مجموعة من المواطنين إباضيون ، وفى مذهب ابن حزم ، وان كان لدينا شخص واحد فقط هو الأستاذ مبروك العوادى الموجود بينكم يتبع هذا المذهب ، وفى المذهب الحنبلى ، وان كان ليس لدينا فى الجزائر مسلمون حنبليون ، ولكن لابد من تدريسه ، وفى المذهب الزيدى،والجعفرى ، أى على جميع المذاهب الاسلامية الثمانية ، وكان بودنا أن نعطيكم زيادة عن هذه اللمحة ، ولكن نكتفى بهذا القدر مؤقتا ، ريثما يتوفر لدينا هذا الاطار ان شاء الله فى المستقبل ٠ ولكنكم ستتلقون هذا كله حتى على المستوى الحالى لهذه المدرسة ٠

اذن فزيادة على هذه المواد كلها التى ذكرتها ، أضفنا لكم دروسا عن دور الجزائر الثقافى وتراثها ٠ فلابد أن تطلعوا على هذا الجانب ، على هذا التراث ، على دور الجزائر الثقافى وتراثها فى الماضى البعيد ، منذ فجر الاسلام ٠

بل وحتى عما قبل الاسلام نستطيع أن نعطيكم لمحة ، فعندما يقول الفرنسيون مثلا « انكم كنتم شعبا همجيا فى هذه البلاد ، حتى دخلت روما ، ثم جاءت فرنسا لتستأنف ارث روما ، جاء الاستعمار الفرنسى وارثا ومستأنفا لعهد سابق لجدته روما » ، لان فرنسا كانت تعتبر نفسها البنت البكر للكنيسة كما تعلمون ـ كانت تسمى نفسها : « La fille aînée de l'Eglise » ، وملك فرنسا لويس الرابع عشر كان يلقب نفسه : « Le Roi très-chrétien » أى الملك المسيحى بالذات ، « الملك المسيحى بمعنى الكلمة » ، « الملك الممثل حقيقة للمسيحية » • هكذا كانوا يعتبرون أنفسهم ، وأنهم جاءوا الى هذه البلاد لاخذ الارث القديم لروما ، لأن هذا البلاد ـ بحسب دعواهم ـ كانت همجية قبل ، حتى جاءت روما ، جدتهم روما فى العهد الوثنى قبل الاسلام ، ثم فى المسيحية ، فمسحت هذه البلاد ، ومدنتها ، الى آخره •••

جاءت فرنسا بعد « العصور الجامدة ، الخامدة ، الهامدة ، بعد عهود الظلام ، لتصفية هذه الرواسب كلها ، ولاستئناف الارث الصافى ، النقى ، الزاهر ، المزدهر ، لروما » كحفيدتها البكر ! قلنا نحن : لا ، ولا ! فحتى فى العهد الاستعمارى ، بل حتى فى العهد الوثنى والمسيحى قبل الاسلام ، كانت لهذه البلاد أيضا ادوارها الثقافية ، حضارتها ، وذكرنا امثلة لهذا فى عدة مناسبات وسياقات أخرى •

ويكفى أن نشير الى شرشال مثلا • فالملك يوبا الثانى ، ملك شرشال فى ذلك الوقت ، هو الذى وضع أول خريطة للجزيرة العربية ، وهو أول من وضع دائرة معارف حسب المراجع الأوروبية ، دائرة معارف شاملة للعلوم الانسانية ، لأنه حتى ارسطو فى مدرسته ، أو افلاطون فى أكادميته ، وغيرهما ، حتى هؤلاء لم يضعوا دائرة معارف بمعنى الكلمة ، لجمع معارف الانسان ، بجميع العلوم والفنون البشرية فى ذلك الوقت ، حتى جاء يوبا الثانى ، ملك الجزائر ، فوضع دائرة معارف كاملة شاملة • وكذلك مثلا فى مداوروش ، فى شرق البلاد ، كان هناك أيضا أبو ليوس المعروف الذى كان سلطة ، كان مرجعا فى قرطاجنة فى القانون ، والآداب ، والفلسفة ، والطب •

هذه البلاد ، هذه الجزائر ، كان لها اذن دورها ، وكانت لها مساهمتها حتى فى ذلك الوقت البعيد فى العهد الوثنى ،- ثم المسيحى ، وأوغستين الذى يقدرونه أيضا فى مجالات أخـرى ، وانما يذكرونه فقط فى مجـال التفـريق ، فى مجـال التمزيق ، لـكن لا يذكـرونه فى المجـال الفلسـفى ، وهـو مـن أساطينـهم الكبـرى فى التـاريخ المسيحى ، ولد ونشأ بسوق أهراس ، ونشط فى عنابة ، ثم كان من الاساطين فى روما .
اذن لابد من أن نشير الى هذا بلمحة ، ولكن نركز طبعا على تراثنا الاسلامى ، على مختلف العصور الزاهرة ، من طبنـة ، وتيارت،وبجـاية ، وتلمسان ، ومازونة ، والعاصمة ، وقسنطينة ، وغيرها فى جميع عهود للبلاد ، جميع الدول الوطنية المتعاقبة على هذه البلاد ، التى قامت كل منها بقسطها فى اطار التراث الثقافى عامة ، والعربى الاسلامى خاصة .

وستتلقون أيضا الجغرافيا ، على الأقل الجغرافيا السياسية للعالم الاسلامى ، فلابد كذلك أن تعرفوا الجغرافيا السياسية ، وحتى الاقتصادية ان امكن ، اذا اتسع لـديكم الوقت . فعندما تسمعون بالفلبين ، بالمسلمين فى الفلبين ، أو تايلاند ، الذين يتعرضون لمجازر وحملات ابادة ، تتساءلون : أين هذه الفيلبين ؟ وأين تايـلاند ؟ ربما الكثير منا لا يستطيع أن يصورهما الآن فى الخريطة لو وضعنا أمامه الورقة والقـلم . والمسلمون فى فنلندا متى بـدأ وجودهم هناك ؟ وكيف كان ماضيـهم ، وكيف حاضرهم اليـوم ، وأين يوجدون ؟ وكم هم ؟ فلابد اذن أن تتلقوا عن الجغرافيا والتاريخ بضـع معلومات ، على الأقل خطوطا عريضة .

وهذا كله سيكون فقط انطلاقا لكم ، وليس تكوينا ، وتعليما ، وتثقيفا ، الى آخره . هذا يقوم به الانسان لنفسه بنفسه فقط ، فى جميع البلدان ، وفى جميع المستويات ، وفى جميع الجامعات ، وفى جميع الأزمنة والأمكنة . وانما الشىء الذى يعطى فى مؤسسات التربية ، والتعليم ، والتكوين ، والجامعات ، هى التوجيهات العامة ، ذكر المراجع ، ذكر الاتجاهات العامة ، وعليكم أنتم أن تواصلوا ، وأن تتابعوا ذلك بأنفسكم .

نعطيكم أيضا الاتجاهات الاقتصادية ، وتاريخ الأديان المقارن ـ وقد يقـول البعض منكم : ما فائدتى أنا اليوم فى دراسة اليهودية ، أو المسيحية ، أو كذا من الأديان المنزلة مثلا أو البـوذية ، أو المنـوية ، أو الزرادشتية ، أو اليهودية ، أو الاتجاهات السياسية



مدخل المدرسة

المعاصرة ؟ ما فائدتي أنا في دراسة النازية ؟ والشيوعية ما دخلها هنا في مدرسة تكوين الائمة ؟ ما المبرر لهذا ؟ ما القصد من تدريس الاتجاهات الاقتصادية والتيارات السياسية المعاصرة ، رأسمالية ، واشتراكية ، وشيوعية ، وغيرها ؟ ما معنى هذا ؟ ما مكانه من الاعراب ، كما يقال ؟ ما مكانه في هذه المدرسة ؟

هذا كله لا بد لكم منه ، لا بد لكم من هذا كله ومن علم الاجتماع والفلسفة . قد يقول أحدكم : لماذا أدرس أنا هنا الوجودية ، وكتب افلاطون ، وكتب زرادشت ، أو فلان الألماني ، أو علان الطلياني أو الاسباني ، أو موسى الأكويني المسيحي ، أو ابن ميمون اليهودي ، الذى كان تلميذا لابن رشد ، أو غيرهم ؟ ما معناهم ، ما ضرورة تدريس هذه المادة هنا للامام ؟ الامام يصلي ، يؤم الناس ، ينبغي أن يعرف أركان الاسلام ، وكفى ، أما هذا الآخر كله فهو ربما دفع بهم الى الالحاد ، الى الكفر ، الى المروق ، الى البدعة ، الى آخره !

قد يقول بعضكم هذا وقد يضيف آخر كذلك : ما معنى تدريس النظام الادارى في الجزائر ؟ لماذا أدرس أنا هنا النظام الاقتصادى ، والسياسى ، والاجتماعى في الجزائر ؟ لماذا ؟ هناك موظفون قائمون بهذا ، هناك وزارة الداخلية التي تقوم بالادارة في البلاد ، هناك وزارات التعليم ، ولو كانت هذه الوزارة التي تشرف على الائمة من جملة هذه الوزارات ، وزارات التعليم ، الا أن هذا لا يهم الأئمة كأئمة ! والجانب الاقتصادى ؟ هناك وزارة المالية ، ووزارة التخطيط ، وغيرهما ، لماذا ندرس نحن هذا ؟ هناك الجامعة ! .

نعم ، لا بد أن تدرسوا هذا كله ! هذا من واجبكم ، لأنكم تؤمون المصلين ، لأنكم لا بد أن توعوا الفرد على مستواكم ، وفي وسطكم ، وفي بيئتكم ، وفي اطار واجبكم ، **والاسلام دين ودولة ، وليس للقراءة على الأموات ، وكتابة « الحروز » والتمائم ،** هذا ليس من الاسلام في شيء ، لأن القرآن أنزل ، والرسول أرسل ، **للأحياء ، وليس للأموات** ! وعندما يموت الانسان فقد انتهى ، وقراءة القرآن عليه وكذا وكذا ، وكتابة الحرز له ، كل هذا لا ينفعه في شيء ، كما تعلمون كلكم من قوله صلى الله عليه وسلم : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث عين جارية ، أو ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به » أو كما قال .

اذن ليس هذا هو مهمتكم ・ فمهمتكم ، **البناء المادى والروحى** ، مهمتكم **بناء المدرسة ، وبناء السد** ، **وبناء العين** ، **وفلاحة الأرض،وبناء مصنع** ، **وتسليح جيش** ، **وبناء جامع، وبناء كلية** ・ هذه هى مهمتكم ・ مهمتكم هى الدفع بهذه الأمة الى الأمام ، تقوية هذه الأمة ، وأعدوا لهم ما استطعتم ・ وهذا فى جميع المجالات ! ومن الذى يقوم به اذا كنتم تقولون : هذا لا يهمنا ، يهم الموظف فى البلدية ، والموظف فى الولاية ، وموظف الدائرة ، وموظف وزارة المالية ، ووزارة الدفاع ، ووزارة الاقتصاد ، يهم الجندى ، والضابط ، والشرطى ، والدركى ، أما أنا فلا يهمنى !

لا ! بل يهمكم أنتم كغيركم ، وربما يهمكم أنتم أكثر من أى أحد آخر ، لأنكم أنتم لديكم بعد وان كان مفروضا فيهم جميعا ، كمسلمين ، والاسلام لا يعترف **بهذا اللاهوت ، والكهنوت** ، ذلك السلك الدينى الخاص بالطقوس الدينية فقط ، المفصول عن الدنيا ・ لا ، لأن الاسلام ، كما قلنا ، دين ودولة ، ونظام اجتماعى كامل . اذن الامام يؤم المسلمين. فينبغى أن يكون متحصلا على جميع هذه الجوانب ، وينبغى أن يساهم فى جميع هذه الجوانب على مستواه وبقسطه ・ وليس معنى هذا أن الشرطى ، أو الدركى ، أو الجندى ، أو أى موظف من موظفى الدولة ، أو أى مواطن ، لا يهمه الاسلام ・ لا ، بل هو مسلم طبعا ، ولكن مهمته محصورة فى قطاع فنى معين ، أما أنتم فشاملة مهمتكم ، شاملة لهذا ولغيره !

هذا عبء قبلتم به ، هذه مسؤولية تحملتموها ・ فينبغى أن تقوموا بها ، وتؤدوا هذا الدور ، والا فقولوا : نحن لا نستطيع أن نقوم بهذا ، لتكلفوا بعمل آخر ، والبلاد محتاجة اليكم فى قطاعات أخرى، وتستطيعون أن تقوموا بالتعليم، تعليم القواعد، كمدرس للنحو مثلا ・ والمنتظر منكم عند تدريس قواعد النحو فعل وفاعل ، عوض أن تقولوا : قام زيد ، أن تقولوا : « قام الامام بدوره ! فعل وفاعل ، وجار ومجرور ومضاف اليه ! » ・

يبقى أن نقول أن ليس معنى هذا أن يقول موظف آخر : « ان كل ما يتصل بالدين من شؤون وزارة الدين ، هناك وزارة للدين ! « أنا خطينى ، ماوش شغلى ! » لا ، بل هذا شىء مطلوب من كل مسلم ، مفروض فيه ، منتظر منه ، **الدين معلوم بالضرورة ، وكل مسلم مطالب بأن يقوم بقسطه فى هذا الجانب** ・

اذن لهذا زودناكم بهـذه الاتجاهات السياسية والاقتصادية المعاصرة ، أى النازية ، والشيوعية ، والصهيونية ، والرأسمالية ، والاشتراكية ، والفاشيستية ، والديمقراطية، الى آخره ، جميع الاتجاهات السياسية والاقتصادية الموجودة فى العالم اليوم لابد أن تكون لكم فكرة عنها ، والا فكيف تريدون أن تردوا على قسيس ؟ أنتم تجادلون الآن ، وجادلوا أهل الكتاب بالتى هى أحسـن ، وعند الضرورة بالتى هى أخشـن (بالخـاء المعجمة) (اسمحوا لى ، أنا لست مسيلمة الكذاب ، بالتى هى أحسن ، أو بالتى هى أخشن ، الأولى بغير نقطة ، والأخرى بنقطة) ، كيف تريدون أن تردوا عليه ، أن تجادلوه ، اذا كنـتم أنتم لا تعلمون شيئا عن اللاهوت ؟ بعثنا أحد الاخوان ، ومن أحسن الاخوان تكوينا ، فى مناسبة رمضان الى أوروبا ، لأن فى باريس وفى فرنسا وفى غـيرها مواطنين قالوا لنا : « انكم تبعثـون لنا بالأئمـة فى رمضان فقط ، أى مـرة فى السنة ، لموسم رمضان ، فيشتغلون وبعد يطبقون حوائجهم ويمشون هكذا ، واصبح مجىء الائمة الينا موسميا ، مثل الفطائرية ، والزلابجية ... ! » وهنا أفتح قوسين ثم أعود :

هذا الدور للأئمة فى فرنسا كان موجودا حتى فى العهد الاستعمارى ، كانت جمعية العلماء اذ ذاك قامت بدور ، وكان حزب الشعب قام بدور فى اطار التوعية السياسية ، وقام أيضا فى التعليم بقسطه ، ولكن هذا الدور بالجانب الدينى البحت قامت به جمعية العلماء ، اذ أرسلت وفدا دائما الى فرنسا شارك فيه الكثير ، شارك فيه الشيخ العـربى التبسى ، أظن ، فى وقت من الأوقات ، والشيخ السعـيد البيبانى ، والشيخ الفضـيل الورتلانى ، والشيخ الربيع بوشامة ، والشيخ البشير الابراهيمى فى وقت من الأوقات ، وان كانت مدة قصيرة ، كلهم مروا هناك بطريقة ما ، وقد يكون آخرون نسيتهم ، الشيخ فرحات الدراجى ، الشيخ السعيد الصالحى ، وآخرون وآخرون قاموا بقسط مـا ، فى ظروف صعبة ، ولكن قاموا به .

أما الآن ، وقد استرجعت الأمة حريتها وسيادتها ، لابد أن تقوم بهذا الوفد على الأقل فى رمضان . والوفد كان متمثلا فى مجموعة قليلة من الأئمة فقط ، ثم بعد وسعناه الى مجموعة من الأساتذة الشباب ، البعض منهم مزدوجو اللغة ، كما يقال ، مزدوجو الثقافة، لأبنائنا هناك فى الهجرة ، ثم عززناه فيما بعد أكثر ، ولكن بنوع من التطور والتقدم فيه

نسبيا ، عززناه أيضا بسيدات ، بعثنا بعض الاساتذة بزوجاتهم الى هناك ليساهمن ، هم يتكلمون لدى الرجال ، والسيدات زوجاتهم يتكلمن لدى النساء الجزائريات هناك وبناتهن في اطار ، هذا فقط في شهر رمضان ·

ثم فيما بعد انشئت المفتشية الدائمة التي ستنطلق قريبا ، وبعض اطاراتها موجودون هناك في فرنسا ، وآخرون يسافرون قريبا وموجودون هنا معنا الآن ، ولكن هذا كلـه سيبقى ـ طبعا ـ ناقصا ، سوف لا يكفي · وأرجع الى السيد الذى بعثناه الى فرنسا منذ بضع سنين ، أحد الأخوان في اطار هذه الوفود «الزلابجية» التي تذهب فقط في رمضان ، قام بمحاضرة لدى الشباب ، وهو شيء حسن ، وهو من أحسن العناصر ايمانا ، وثقافة أيضا ، وينبغي أن نعترف له بذلك في غيابه · ولكن مع الأسف عندما قام قسيس فرنسي كان هنا في الجزائر قبل ، قام ليرد عليه فقال له صاحبنا : « لا ، أنت قسيس ، قـم واخرج من هنا ، لا مكان لك هنا في هذه القاعة ! » واستنكر ذلك جميع الطلبة الجزائريين الحاضرين هناك ، المعرضين للتيارات ، وللتأثيرات المختلفة ، وقالوا : « لماذا تقول للقسيس اخرج ؟ كان ينبغي أن نجادله ، وأن نفحمه ، ان نقارعه بالحجة ، وليس أن تقول له اذهب واخرج من هنا ! ان معنى هذا هو العجز ، معنى أن هذا السيد الذى تكلم بهذه الطريقة عاجز لا يستطيع افحامه ، فقال له : اخرج » والسيد الذى تكلم لم يكن عاجزا في الواقع ، بل هو كما قلت من أكفا الاطارات ، ولكن مع الأسف طبعه حاد ككثير منا ، فتغلب عليه طبعه الحاد ، وتصرف بهذه الطريقة ·

ينبغي اذن أن نجادل ، ينبغي عليكم أن تجادلوا بطريقة ، أن تجادلـــوا بالتي هي أحسن ، عند الضرورة فقط استعملوا النقاط الأربع على الحاء والسين ، ولكن في الظروف العادية جادلوا بالطريقة التي تكسب ، التي تقنع ، أو التي على الأقل تعزل العدو ، تنزع منه سلاحه · فعندما تفحمونه أمام الغير هو انتصاركم ·

ولكن كيف يتوفر لديكم هذا ؟ فزيادة على التغلب على الطبع الحاد بقـــدر الامكان ، ستتوفر لديكم هذه الغلبة بالمعلومات ، بالكفاءة · والا فكيف تريدون أن تردوا عـــلى مسيحي ، أو على شيوعي ، أو على نازى ، أو على صهيوني ، اذا كنتم جاهلين بتاريـخ

هذه الأديان والايديولوجيات ، واذا كنتم جاهلين حتى بأصولها ، وبطريقة تحريفها ؟ ينبغى أن تعرفوا أصولها ، وتحريفها ، أن تميزوا الغث من السمين ، لتقولوا لهم : يا قسيس فلان : دينك المسيحية الأصلية هى كذا وكذا ، هذا ما قاله المسيح ، ولكن أنتم حرفتموه فى العصر الفلانى ، فى العهد الفلانى بالمدرسة الفلانية ، بالطريقة كذا وكذا ! لكن اذا كنت جاهلا للأصل ، وللتغيير ، وللتحريف ، فكيف تريد أن تفحمه ، وأن تجادله ؟ طبعا هو الذى يتغلب عليك ، لأنه هو يعرف عن دينك الشىء الكثير ، ويكلمك بلغتك ربما ، ويكلم مواطنيك ، ويمسحهم ، وينفرهم من الاسلام ، بينما أنت جاهل لغته ودينه لا تستطيع طبعا ، وهذا سواء كما قلنا فى الجانب الدينى ، أو فى الجانب الاقتصادى ، أو فى الجانب السياسى ٠

اذن لا بد لكم من الاطلاع على الأديان السماوية ، وغير السماوية ، فى أصلها ، وما حرف منها ، ولا بد لكم من الاطلاع على الاتجاهات السياسية المعاصرة ، من الموالية لنا ، والقريبة منا ، والمعادية لنا ، والمختلفة معنا ، أو المماثلة لنا ٠ لا بد لكم أن تطلعوا كذلك على الاتجاهات الاقتصادية المعاصرة ٠ نفس الشىء أيضا ما قيل عن الاتجاهات السياسية ، وما قيل عن الأديان ٠ ينبغى أن تطالعوا فى كل هذا ، لتطلعوا ، ولتقارعوا ٠ فقبل التقدم الى الميدان ، لابد أن تطلعوا على هذا كله ٠

ولهذا أعطيناكم هذه التيارات السياسية ، والاتجاهات الاقتصادية المعاصرة ، وأعطيناكم كذلك تاريخ الأديان المقارن ، ولهذا أعطيناكم الفلسفة الوثنية ، والمسيحية ، واليهودية ، الى آخره ، واسمحوا لى أن اذكر هنا نكتة : قال لى أحد الاخوان هنا ، ولا تغضبوا عليه ـ وأقول لكم كذلك ، للدفاع عن الاخوان الذين يدرسون لكم هذه المواد ، انى أنا الذى ألححت عليهم ليقوموا بها ، فاذا كانوا قد أخطأوا بتدريسها لكم ، فألقوا المسؤولية على ، وليس عليهم ٠ فالأستاذ الطاهر الزيتونى ، الذى يحاضركم فى تاريخ الأديان المقارن، اذا رأيتم أنه قد أخطأ فى اعطائكم هذه المادة ، فليس هو المسؤول٠ بل أنا المسؤول اذا كان هناك خطأ فأنا الذى اتحمله٠ وكذلك اذا كان الأستاذ عثمان شبوب يقدم لكم الفلسفة المعاصرة، أو الفلسفة عموما فى المقدمة، وتكلم لكم عن جانب ما لم يعجبكم فليس هو المسؤول ، بل أنا المسؤول ٠ فأنا الذى كلفته بهذا ٠ أما هو فمسؤول فقط عن

كيفية التقديم ، عن جمع المادة وطريقة عرضها ، هذا هو العمل الكبير المنتظر منه ، والمطلوب منه ومن غيره ، ليحببكم فى هذه المادة ، ليس ليجلبكم اليها طبعا ، ولكن للاطلاع عليها كما قلت • أما الفكرة نفسها فاذا رأيتم أنها خطأ فأنا المسؤول عنها •

وأعود الآن الى بعض نوادركم التى ذكرها لى بعض الاخوان • فعندما سال الأستاذ الطاهر زيتونى بعضكم عما هو الدين استغربوا ذلك ، وقيل له كيف هذا وأنت أعلم ، تقول لنا ما هو الدين ؟ آه ! استنكروا ذلك منه • وعندما جاء الأستاذ عثمان شبوب وقال لهم مثلا : نعطيكم فكرة عن الفلسفة عموما ، وتكلم عن الميتافزيقا ، وعن سقراط ، وقال لهم : ان مؤرخى الفلسفة قالوا عنه انزل الفلسفة من السماء الى الارض ، صاح كثير منكم : «يا لطيف ، أهذا جبريل ؟» وعندما قال لكم فى مقدمة دروسه عن الميتافزيقا : « لا بد أن نعطيكم فكرة عن الميتافزيقا ، والميتافزيقا يسميها ابن رشد ما وراء الطبيعة ، وسماها قبله الفارابى علم الربوبية »، صاح آخرون منكم : «أوه يا لطيف ! يا لطيف !»•

هذا الشهرستانى ألف كتابا ضخما فى الملل والنحل، وتكلم عن الزرادشتية، والمانوية، واليهودية ، والمسيحية ، والصائبة ، والمجوسية ، كل المصائب تكلم عنها ، وتكلم طبعا عن الاسلام ، وعن المصائب الكثيرة أيضا الملصقة به من طرف ذويه ، أو من ينتسبون اليه • وكذلك ابن حزم فى كتابه الفصل فى الملل والنحل ، ومثل تاريخ الفرق الاسلامية، للبغدادى ، ومقالات الاسلاميين واختلاف المصلين لأبى الحسن الأشعرى ، وغيرهم كثيرون جدا ، أئمة كثيرون جدا كتبوا فى هذا • فلماذا ؟ لاطلاع المسلمين ، ولتحذيرهم من مناورات اليهود ، والمسيحيين ، والمجوس،الرامية الى مغالطة المسلمين ، والانحراف بهم عن دينهم •

فلا بد من المقارعة بالحجة • هل أخطأ الأئمة العظام الذين ألفوا امهات الكتب ليطلعوا المسلمين على هذا ، وليحذروهم ، وليعطوهم السلاح الذى به يقارعون الآخرين الذين يأتون ليجادلوهم ، يؤولون لهم الآية ويأتون بشىء من عندهم ؟ فأنت طبعا بحكم جهلك لدينهم ، وضعف تمكنك من دينك ، طبعا تستسلم !

وحتى اذا كنت انت كامام لا تستسلم طبعا ، فان شبابك اليوم ، شبابك المعرض اليوم لمختلف الهزات والزوابع ، الذى يدرس على أساتذة متعاونين من مختلف الجنسيات

والأديان ، ومن مختلف الاتجاهات السياسية والاقتصادية ، والايديولوجيات والمذهبيات، فيأتيه أستاذ شيوعي ، واستاذ مسيحي ، وأستاذ يهودي قد يكون مندسا ، لا ندري ؟ هذا موجود في جميع انحاء العالم الاسلامي ! الأساتذة الشيوعيون ، والأساتذة اليهود ، والأساتذة المسيحيون المتعاونون موجودون في الجزائر ، كما هم موجودون في تونس ، وموجودون في مصر ، وموجودون في سوريا ، وموجودون في العـراق ، وفي المغرب ، وفي ماليزيا ٠

وذلك أن جميع البلدان الاسلامية الآن تسمى نامية ، يعني في طريق النمو ، وكلها محتاجة ، وكلها تستورد الأدمغة من الخارج ، ولا تسأل عن أديانها ، لأن كثيرا من البلاد لا تعترف بالأديان رسميا أو لا تكتب الدين في بطاقات التعريف ، تطلب منهم مهندسا فيبعثون لك مهندسا ، فمن اليابان قد يكون بوذيا ، أو مسيحيا ، ومن بلدان شيوعية ، ومن بلدان أخرى أوروبية ٠ فقد يكون الذي يأتيك مـن فرنسا مسيحيا ، أو شيوعيا ٠ فاختر ، وأحلاهما مر ، هذا هو الوضع ، الذي يعلم فقط ولا يحاول ان يؤثر قليل !

بل وأكثر من هذا : فمن بعض البلدان الشقيقة يبعثون بالمسيحيين ! نحن نبهناهم مرارا ، ولكن بعضهم مع ذلك ينسون أو يخطئون فيبعثون لنا بأساتذة مسيحيين ٠ مع الأسف هذا الشيء موجود ، بأسماء عربية وكذا ، وشعبنا لا يعرف ، حيث ان بلادنا ليس فيها مسيحيون ، فمواطنونا عندما يسمعون اسم مراد ، أو أسعد ، وهو اسم عـربي ، فيظنونه مسلما ٠ فاذا لم يكن شبابك مسلحا ، واذا لم يكن مطلعا ، فكيف تريد أن يميز ؟ لا يميز بين هذه الاشياء التي يسمعها عن المتعاون ، سواء كان كما قلت من أوروبا ، أو من غير أوروبا ، أو من البلاد الشقيقة ، من مسيحيين وشيوعيين ، ومن مختلف الأنظمة السياسية ٠

لا نريد للتلميذ أن يبقى هناك انسانا أعزل ، انسانا ضعيفا بدون سلاح ، أمام هؤلاء الأساتذة ٠ بل ينبغي أن يسلح ، ينبغي أن يطلع ٠ وكيف يطلـع ؟ أنتم الذين تطلعونه كأساتذة أولا ، وكائمة ٠ وممن يأتيكم كثير من الطلبة لم تتـوفر لهم هذه الدروس في مؤسستهم ، ولكن في الجامع يأتي كم من واحد يستطيع أن يتحصل على هذا ، ربما أبوه أو أخوه ينبهه الى هذه الدروس عندما تقومون بها أنتم ٠

وكيف تريدون أن تقوموا بها اذا كنتم أنتم تجهلونها ؟ كيف تريدون أن تردوا على هذا الاتجاه السياسى أو ذلك التيار الاقتصادى فى العالم اذا كنتم أنتم تجهلونه ؟ كيف تريدون أن تردوا على الرأسمالية اذا كنتم أنتم لا تعرفون ما هى الرأسمالية ؟ كيف تريدون أن تردوا على الشيوعية اذا كنتم أنتم لا تعرفون الشيوعية ؟ كيف تريدون أن تردوا على الصهيونية اذا كنتم أنتم لا تعرفون الصهيونية ؟ كيف ؟ طبعا لا يمكن ، لا يمكن لكم أن تقولوا كلمة فى المجال الاقتصادى الا اذا كانت لكم بعض معلومات على الاقل عن الاقتصاد الاسلامى ، والاقتصاد المقارن ، أى الأنظمة الاقتصادية المختلفة فى العالم • وكذلك بالنسبة للناحية السياسية • وكذلك بالنسبة للنواحى المختلفة الاخرى •

لهذا كله أعطيناكم هذه المواد • وهذه كما قلت وأكرر منطلق فقط ، وليس تسليحا لكم ، يعنى توجيها الى مصنع الأسلحة ، توجيها لكم الى المراجع • فالاساتذة الذين يحاضرونكم فى هذه المواد يعطونكم المراجع ، تسمعون بكلمة الربوبية ، فما معنى الربوبية ؟ لابد أن تعرفوا معناها ، ليس معنى هذا ان الاستاذ يقول لكم ينبغى لكم أن تكفروا ، أن تقولوا أن هناك أربابا ••• ولكن هناك دول ، هناك شعوب ، هناك ثقافات فيها هذا التعبير ، وفيها هذا المعنى ، ينبغى أن تعرفوه لتردوا عليه • وقد تقول أيها الامام « لا حول ولا قوة الا بالله ، هذا كفر ، هذا الحاد ! » وتذهب من هنا ، وتقول : « الوزارة أغرقتنا ، جاءت لترشدنا ولتكوننا ، واذا بها ذبذبتنا ، وشردتنا ، وفرقتنا شيعا ، وجعلتنا أسوأ من الأمس ، وخرجنا من هناك لا ندرى ما الطريق ، كنا من قبل نعرف شيئا ، وأصبحنا الآن نعرف أشياء كثيرة مختلطة أو لا نعرف شيئا أصلا ! » • لا ! ليس هذا هو مقصودنا طبعا •

فلابد أن تطلعوا على هذا كله ، ولابد أن تكملوا هذا بالمراجع ، سواء كانت موجودة هنا عندكم فى اطار المكتبة الضيقة ، أو فى المكتبات الأخرى عندما ترجعون الى عملكم • هذا اطلاع ، عمل متواصل ، عمل مستمر ، عمل دائب ، لا يكتفى فيه بمحاضرات • والطالب الجامعى عندما يتحصل على الليسانس أو الدكتوراه فهو منطلق فقط ، وليس معنى هذا أنه قد أتم دراسته ، قد حصل كل شيء • هذا هو الهدف من اعطائكم هذه

المواد · فلتقارعوا ، وتصارعوا ، لابد أن تطالعوا ! هذا هو الشيء الأول · الانسان يبتدىء بالخطوة الأولى ، يبتدىء بالبداية ·

وعند الرجوع الى عملكم ينبغى أن تركزوا بالدرجة الاولى على الشباب ، وليس على الشيوخ · فعندما يمتلىء الجامع بالشيوخ ، سواء كانوا معممين ، أو مطربشين ، أو عراة الرؤوس ، لا تفرحوا ··· لا تظنوا أنكم قد أديتم واجبكم ! هؤلاء جاؤوا بأنفسهم ، بدون عمل منكم ، وبدون جهد منكم ، وبدون مزية منكم ، وبدون فضل منكم ، وليس لكم فى هذا أى شيء ، ليس لكم فى هذا أى حظ ! جاءوا ، هكذا ، من تحصيل الحاصل ، كانوا فى الجيب ، كانوا موجودين قبل ، لم يبق شيء بالنسبة لهؤلاء الكبار الا الجامع ، يأتون الى الجامع ! ولستم انتم الذين جذبتموهم اليه ! اذن فلا اجـر لكم فى ذلك ، ولا فضـــل ، ولا مزية ، ولا كسب !

ولكن المكسب الذى تكسبونه ، الجهد الذى تبذلونه ، النتيجة التى تجنونها ، هـى عندما يمتلىء المسجد بالشباب الطالع ، بالشباب الصاعد ، بالشباب المعرض للتأثيرات ، للهزات · هنا نستطيع أن نقول بأن هذا الامام بارك الله فيه ، لديه طريقة تحبب الناس، تجذب الناس !

ابن باديس رحمه الله كان يقف عند باب الجامع الأخضر فيقول للشباب : ادخـلوا الى الجامع ! فاعترض عليه بعض أصحابه فى السماح لهم بالدخول ، فكان يقول لهم لا ، بالعكس ، اتركوهم يدخلون ! لماذا اعترض عليه هـؤلاء ؟ قالوا هـؤلاء الشباب الذين يدخلون الجامع غير متوضئين، غير أطهار، كيف يدخلون الى الجامع ؟ يسمعون بابن باديس فيريدون أن يدخلوا ، يريدون أن يعرفوا من هو ابن باديس هذا ؟ وأن يروه مرة واحدة على سبيل حب الاطلاع والاستطلاع فقط ، « فنحن نمنعهم من دخول الجامع لأنهم غـير أطهار » « ألأنهم لا يصلون عادة ؟ لا ! اتركوهم يدخلون الجامع مرتين ، عشر مرات ، غير أطهار ، وفى المرة الحادية عشرة ، سيدخلون أطهارا ، اتركوهم هكذا » ·

فأنتم كذلك : الشباب هو المهم ، وواجبكم ينحصر فى هؤلاء الشباب ، هذا واجبكم ، وهذه مزيتكم ، اذا كانت لكم مزية ، وهذا فضلكم ، كسب هذا الشباب الى الجامع ، ملء

الجامع بالشباب ، وليس بالشيوخ • فأنتم عندما تجدون الشيوخ يتمايلون معـــكم ، يمينا وشمالا ، ويقولون بارك اللـــه فى هذا الامـــام ، الى آخره ، وأنتم تذكرون لهم الخرافات من أحد الكتب القديمة ، والقديمة فيها الصالح والطالح ، ولكن فيها كثير من الطالح مع الأسف ، مثل « من صام يوم منتصف شعبان غفر له ما تقدم من ذنبه ومـــا تأخر » ، الى آخره ، رواه فلان ، كذا وكذا ، وتهرجون على الناس • فليس هذا الكـلام هو الذى يكسب المسلمين للاسلام ، هذا ليس العمل ! لا ، ليس هذا ، العـــمل عندما تكسبون له الشباب ! ان عملكم اليومى ، ان جهادكم اليومى لتدخلوا الجنة ، ويغفر لكم ما تقدم من ذنبكم وما تأخر ، هو أن تقوموا بالعمل اليومى ! ان قيامك بعمل ما لا ينجر عنه ان الله يغفر لك **ما تأخر** ، أى ما يأتى فيما بعد ، لا • هذا كله غير صحيح ، ينبغى أن تأخذوا الكتب الصحيحة فى الحديث ، الكتب الصحيحة فى التفسير • هذا واجـب الأساتذة الذين خيروا ليدرسوكم فى هذه المواد •

لا تغرروا بالناس ، لا تقولوا للانسان من صام يوم كذا غفر له ما تقدم من ذنـــبه وما تأخر ، وتدفعونه الى ارتكاب الحرام ، وتدفعونه الى العصيان فيما بعد ، حيث انـــه يعرف انه اذا ما صام يوم كذا سيغفر له ما تقدم وما تأخر ! تحثونه بذلك من حيـــث لا تريدون على اتيان المعصيات ، وارتكاب الاثم ، لأنه سمع منكم أن لديه بطاقة فى الجيب بطاقة الجنة ، لأنكم أنتم قلتم له : « وما تأخر » ، (اعمل ، فركس كما تحب ، راك مضمون حتى يوم القيامة » ! « الشىء الى تعمله راه مغفور لك مقدما » ! لا ! غير صحيح !

ادرسوا الكتب الصحاح وعلموا الناس ، ووعوا الناس ، ولا تدفعوهم الى الخطـا ، ولا تدفعوهم الى الاجرام ، ولا تدفعوهم الى الحرام بهذه الطرق ! لابد أن تأخذوا الكتب الصحاح ، المراجع الصحيحة ، لتوجهوا هؤلاء الشباب ! أما الشيوخ ، فسواء حكيتم لهم هذا أو لم تحكوه ، فهم أولا لم يعد فى امكانهم أن يعصوا ، لأنهم فاتهم الوقت ! لم يعـد الشيخ الكبير راغبا فى المخمرة ، أو فى أن يرتكب أشياء أخـــرى ، أو يذهب ليسرق ، أو يذهب ليقطع الطرق،هذا كله لم يعد فى امكانه •

الذى هو معرض لهذا هو الشباب ، والشباب هو الذى تكسبونه بالطرق الحديثة ، بالطرق الصحيحة ، بالرجوع الى الكتب الأصلية ، الى المراجع الأساسية ، وبمنهج أيضا ،

بمنهج صحيح ، واضح ، يكسب لنا الشباب ، هذا هو المطلوب منكم ، اذن فمقياس نجاحكم هو هذا ، ملء الجامع بالشباب ، بالصغار ، سواء كانوا رجالا أو نساء · هذا هو المقياس ـ والنساء طبعا فى الأماكن المخصصة لهن ـ أى فى المساجد التى فيها أماكن لصلاة النساء ، هذا هو المطلوب منكم ·

وعليكم أن تقوموا بدروس حتى للنساء عندما يكون الطلب · هناك شروط ، وهناك حدود ، وهناك قواعد ، ولكن المبدأ أن تقوموا بهذا أيضا ، بالتوعية لدى النساء · واذا ما أصلحتم مرأة فأحسن من عشرين رجلا · المرأة هى سبب الداء ، هى سبب المصيبة · فاذا صلحت استطاعت أن تساهم فى اصلاح عشرين رجلا ، واذا فسدت أفسدت العدد الاكبر · فاذن لابد أن تهتموا كذلك بالمرأة فى التعليم ، وفى الدروس المسجدية أيضا · لابد أن تقوموا بهذا الواجب ، والا فكيف تريدون أن تصلحوا المجتمع ؟

لهذه الجوانب كلها ركزنا على هذه النقاط ، وهذه المواد ، ونلح الالحاح الأكبر عليكم فى أن تستفيدوا من هذه الدورات التدريبية ، التكوينية ، كمنطلق لكم فقط ، وكبداية ، وكخطوة أولى لزيادة الاطلاع وللتوسع · وبالرجوع الى المصادر ، وبالتباحث فيما بينكم ، وبالتناقش ، تستطيعون أن تكونوا حلقات كالحلقات التقليدية ـ امتاع بكرى ، أمتاع زمان ـ تبادل الأسئلة والأجوبة · وبهذا تركزون المعلومات فى أنفسكم · تستغلون هذا الوقت الذى تجتمعون فيه هنا خاصة فى التركيز ، فى تحصيل أكبر مقدار من المعلومات، ووسعوها ، وأكرر وأكرر بقصد ، عند العودة بالاطلاع ، بمواصلة الاطلاع فى الكتب ، فى المراجع · فهذه التى يعطونكم اياها هنا لا تمزقوها بمجرد الخروج من هنا والذهاب الى القطار ، أو تلقون بها مع المهملات ؟ لا ، ينبغى أن تحتفظوا بها ، وترجعوا الى تلك المراجع ، الى تلك المصادر ، لتكونوا أنفسكم ، ولتستمروا فى مواصلة الاطلاع ·

يبقى دور الاساتذة · طبعا أظن أنى لست فى حاجة الى التركيز عليه ، فبجهودهم هذه ، وبتقديرهم لواجبهم ، وبحرصهم على أداء هذه المهمة أحسن الأداء ، تستطيع هذه المدرسة أن تكون مصنعا لصقل الأذهان ، مصنعا لتربية الذوق ، مصنعا لتحصين الأرواح ، مصنعا لتوفير المناعة ، مصنعا للانطلاقة الجديدة فى هذا المجال على مستوى البلاد ، لتجهزوا الأدمغة والقلوب ، الافئدة والعقول ، وتحصنوا الأرواح بهذه المادة التى

تعطونها ، وبالطريقة التى تعرضونها بها ، التى بها تحببونهم فيها ، وتساهمون المساهمة الكبرى فى ضمان هذا الاسمنت الروحى ، بتحقيق هذه المناعة ، هذه الحصانة المعنوية · تستطيعون أن تقوموا بهذا ، وتستطيعون تكوين الرجال الأكفاء ، كما تستطيعون كذلك أن تكرهوهم فى هذا ، وأن تثبطوا عزائمهم، وأن تجعلوهم يراجعون أنفسهم، ويتساءلون عما اذا كانوا قد أخطأوا الطريق يوم أن اختاروا هذه المهمة ، أو المهنة ، أو الحرفة ، أو الوجهة · فعليكم يتوقف هذا ، أنتم الاساتذة ، عليكم يتوقف هذا الى حد كبير ، الى حد فاصل ·

عليكم أن توضحوا لهم المعالم بين الربوبية والالحاد ، ان تنيروا أذهان من ينغلقون على كل شيء ، ولا يريدون تتبع العصر ، مصرين على مواصلة الهمود فى أعقاب عصور الجمود والخمود ، ويحوقلون عند سماع كلمات مثل الربوبية والفلسفة · وان تفتحوا بهم آذان وأعين الذين يرمون بجميع القيم عرض الحائط ، المعرضين للتحلل ، والانحلال ، والالحاد !

أرجو لكم النجاح فى مهمتكم ، وادعو الله أن يوفقنا جميعا ، والسلام عليكم ·

قضية

الصحراء الغربية والقانون الدولي العام

د . بوعلام بن حمودة
وزير العدل ، وحافظ الاختام



ان جمعية الحقوقيين الجزائريين تستحق الشكر على مبادرتها لعقد هذا الملتقى الذى يعتزم أن يدرس قضية الصحراء الغربية من الوجهة القانونية .

فمن خلال المبادرة تجسد جمعية الحقوقيين هدفا من اهدافها وهو تجنيد الحقوقيين لنصرة القضايا العادلة فى العالم . والقاعة التى تجتمعون فيها شهدت عدة ملتقيات من هذا النوع ونذكر من بينها الملتقى الذى انعقد لتأييد شعوب الهند الصينية ولتبيان أن الحق والقانون الدولى مع المكافحين الهند الصينيين والاحداث قد أنصفتهم وانصفتنا .

نص الكلمة التى ألقاها السيد بوعلام بن حمودة ، وزير العدل ، وحافظ الاختام ، يوم 30 جانفى 1976 بقصر يوسف زيروت ، أمام جمعية الحقوقيين الجزائريين .

ولابد أن يعلم الصحراويون أن الكفاح التحريرى يخاض ، حسب التجربة ، على عدة جبهات : الجبهة السياسية والجبهة العسكرية والجبهة الدبلوماسية والجبهة القانونية ٠

فملتقى اليوم هو مساهمة فى معركة الصحراويين على الجبهة القانونية ، مساهمة تدخل فى اطار سياسة الثورة الجزائرية الناصرة لكل الحركات التحريرية فى العالم ٠

الاغراض الدنيئة للغزاة

انه لا يصعب على المحلل النزيه لقضية الصحراء الغربية أن يكتشف الاغراض التوسعية للنظام الملكى المغربى والاغراض السياسية والاقتصادية لنفس النظام : أما الاغراض التوسعية فهى بارزة فى الصحف المغربية وبرامج الاحزاب المغربية والمهرجانات الهستيرية وتباطؤ النظام الملكى فى المصادقة على اتفاقية الحدود الجزائرية المغربية قصد استغلالها كورقة ضغط فى قضية الصحراء الغربية ٠ أما الاغراض السياسية والاقتصادية فهى واضحة أيضا : محاصرة الثورة الجزائرية ، الاتصال المباشر بالحدود الموريطانية للانقضاض عليها وعلى جزء من مالى وعلى جزء من الجزائر فى الوقت المناسب ، الاستيلاء على مناجم الفوسفات ٠ كل هذه المسائل دخلت فى حسبان النظام الملكى المغربى ٠ فكل من ينكر هذه النوايا مصاب بالعمى السياسى كما يقال ٠

وممثل اسبانيا صرح أمام جمعية الامم المتحدة فى آخر 1975 بأن مطالب المغرب لم تكتس صبغة الحاح الا فى اليوم الذى ظهرت فيه ثروات الفوسفات ٠

من انتهاك الى انهاك

واذا تناولنا موضوع الصحراء الغربية من الوجهة القانونية ورجعنا الى الوثائق التى التزمت بها الدول المعنية والهيئات الدولية لتوصلنا الى نتيجة بينة وهى أن النظام الملكى المغربى ومواطئة النظام الموريطانى ذهبا من انتهاك الى انتهاك ٠ وفعلا لقد انتهكت الالتزامات الفردية كما انتهكت الاتفاقيات الثنائية والثلاثية وخولفت قرارات الهيئات الدولية ، مما يعرض القانون الدولى للزوال ويجعل العلاقات الدولية غير آمنة ٠ ان عدم احترام الدول لالتزاماتها التى عبرت عنها بمحض ارادتها سواء فى تصريحاتها الرسمية

أو فى الاتفاقيات التى وقعت عليها ، يخل بالامن الدولى وبالتالى يحطم كل المكتسبات التى حصلت عليها الانسانية بعد أن قضت على قانون القوة .

وتجدر الاشارة الى أن محكمة العدل الدولية الدائمة أكدت سنة 1933 على ضرورة احترام الالتزامات فى قضية نشأت بين الدانمارك والنرويج حول «القرويلاند» الشرقية وقالت بأن تصريح وزير خارجية النرويج باسم حكومته يلزم بلده .

فما بالكم بتصريح رئيس دولة يؤكد التزام حكومته باحترام مبدأ تقرير المصير فى الصحراء كما سنرى من بعد ! .

والقاعدة القانونية تكسب صفة الزامية بالتقاء ارادات الدول سواء كانت قليلة العدد أو كثيرة . فسنرى كم من مرة التقت ارادات الدول المعنية حول ضرورة ضمان تقرير المصير للشعب الصحراوى .

ويذهب بعض العلماء منهم النمساوى كلسن الشهير الى أن قاعدة القواعد فى القانون الدولى العام هى « قدسية الاتفاق والوفاء بالعهد » وباللاتينية Pacta Sunt Servanda وهى اذن أساس الالتزام .

والعمل بهذه القاعدة يمنح استقرارا فى العلاقات الدولية ويسد الفراغ الناجم عن انعدام سلطة دولية عليا تفرض احترام الالتزامات والاتفاقيات العامة والخاصة التى تقيم قواعد تعترف بها الدول المتخاصمة ، مذكورة فى المادة 38 من قانون محكمة العدل الدولية كمصدر من المصادر القانونية التى تعتمد عليها بجانب العرف الدولى والمبادىء العامة للقانون ومذاهب الفقهاء المشهورين .

ولا ننسى أن كل أعضاء الامم المتحدة منضمون الى قانون محكمة العدل حسب المادة 93 من ميثاق الامم المتحدة .

فقانونيا اذن الاتفاق الذى وقع بين الدول المعنية بقضية الصحراء والذى أقر مبدأ تقرير المصير لصالح الشعب الصحراوى اكتسى صبغة الزامية .

وقاعدة الوفاء بالعهد التى يعمل بها الآن القانون الدولى كعمود لوجوب احترام الاتفاقيات نجدها فى الحقيقة فى القرآن العظيم وفى الحديث النبوى الشريف . فكم من

آية الحث على وجوب احترام العهود والوفاء بها ! من بين الآيات الكثيرة نـــذكر الآيات التالية : « **أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم** » الآية 100 سورة البقرة · « **واوفــوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا** » الآية 34 سورة الاسراء · « **بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين** » الآية 76 سورة آل عمران ·

ومن الاحاديث النبوية المعروفة : « **من عاهد وفى** » فالوفاء بالعهد شيء مقـدس في الدين الاسلامي ·

انتهـاك التصريحـات الرسميـه

يقول السيد بوطالب ممثل المغرب فى الدورة الخامسة والعشرين لجمعية الامم المتحدة (12 أكتوبر 1970) فيما يخص الصحراء : « ان المغرب وجيرانه ، حرصا على السلم فى المنطقة وعلى تنمية التعاون بين بلدانها ، قرروا بذل كل ما فى وسعهم لتسهيل تطبيق تقرير المصير فى الصحراء بتعاون مع جمعية الامم المتحدة والسلطـــة المديـرة » (أى اسبانيـا) ·

والسيد بن هيمة فى الدورة الثامنة والعشرين (3 أكتوبر 1973) يؤكد نفس الشيء باســم الحكومة المغربية اذ يعلن : « الكل يعلم أن بلدى صرح رسميا هنا وأمام هيئـات دولية أخرى أنه تبنى مبدأ تقرير المصير لسكان هذا البلد » أى الصحراء ·

أما وزير خارجية موريطانيا السيد ولد مكناس فقد أعلن أمام جمعية الامم المتحـدة فى أول أكتوبر 1974 : « ان بلدى قد وافق منذ 13 ديسمبر 1962 هنا فى الامم المتحدة على مبدأ تقرير المصير لسكان الصحراء » ·

والسيد كورتينا موزى Cortina Mauri ممثل اسبانيا يقول دائما أمام جمعية الامم المتحدة يوم 30 سبتمبر 1975 : « ان أحداث السنة الاخيرة والكيفية التى تعاون بهـا سكان الصحراء معنا يبينان أنه لابد من الاخذ بالاعتبار ارادة هؤلاء السكان لمواصلـــة السعى الى نزع الاستعمار · وفى النهاية ينبغى أن نحمى هذا الشعب ليمارس حقه فى تقرير المصير ، فمن الخطأ فى التقدير أن نفسح المجال لارادة عناصر أجنبية تعمل ضــــد المصالح الاصلية لهذا الشعب الذى يجب أن نحميه ليقرر بحرية مصيره » ·

والاستاذ رمان طماناس Raman tamanas ذكـــر فى المحاضرة التى نشرت فى جريدة المجاهد يوم 25 ديسمبر 1975 أن الحكومة الاسبانية تعهدت عـــلى لسان رئيس دولتها الجنيرال فرانكو بضمان سلامة التراب الصحراوى وبالاعتراف بسيادة الشعب الصحراوى على ثرواته الطبيعية كما تعهدت دولة اسبانيا بضمان حريـــة الشعـــب الصحراوى فى تقرير مستقبله ·

هذه التزامات فردية واذا تطرقنا الى الالتزامات الجماعية ، وجدنا اختراقات أخـــرى رغم وضوح النصوص المتفق عليها ·

انتهـاك التعهـدات الجماعيـة

فى البلاغ الجزائرى المغربى الصادر يوم 27 ماى 1970 بعد اللقاء الذى تم بين الرئيس بومدين والملك الحسن الثانى نقرأ : « فيما يخص الاراضى التى تحتلها اسبانيا ، فـــان الطرفين استنادا الى لائحة الامم المتحدة الناصة على مبدأ تقرير المصير قررا تنسيق العمل لتحرير هذه الاراضى من الاستعمار » ·

فيظهر أن المغرب لم ينسق الجهود مع الجزائر حسب ما جاء فى هذا البلاغ لتحريـــر الصحراء من الاستعمار بل عمل وتعاون مع اسبانيا على اقتسام ثروات واراض هى ملك للغـــير ·

والبلاغ الجزائرى الموريطانى الصادر فى الجزائر يوم 26 فيفرى 1973 بين الرئيس بومدين والرئيس ولد داده يشير الى تبنى قرارات جمعية الامم المتحدة · ومنظمة الوحدة الافريقية ومنظمة عدم الانحياز والى ضرورة السعى لتطبيق حق تقرير المصير بالنسبـة للصحراء الغربية ·

وهناك أيضا اتفاق ثلاثى نشر بعد لقاء نواديبو فى 14 سبتمبر بين الرئيس بومدين والرئيس ولد داده والملك الحسن الثانى · وهذا الاتفاق يؤكد على ضرورة تنسيق العمل وضرورة تطبيق لوائح جمعية الامم المتحدة ·

أما لقاء أقادير فى 24 جوليت 1973 بين الرؤساء الثلاثة فانه بعد ذكـــر اهتمـــام الرؤساء الثلاثة بقضية الصحراء الغربية يقول : « ان رؤساء الدول الثلاثة يؤكدون من

جديد تعلقهم المتين بمبدأ تقرير المصير وحرصهم على تطبيق هذا المبدأ فى اطار يضمن لسكان الصحراء التعبير الحر والحقيقى لارادتهم حسب قرارات جمعية الامم المتحدة فى هذا الميدان ، فالعبارات ليست فيها أى غموض ٠

ومجلس منظمة الوحدة الافريقية سواء فى أديس أبيبا (6 سبتمبر 1969) و (فيفرى 1970 وأوت 1970 وماى 1973) أو فى الرباط (جوان 1972) أو فى موقاديشو (جوان 1974) فانه ألح دائما على مبدأ تقرير المصير بالنسبة للشعب الصحراوى ٠ ونفس الموقف فى اجتماع كوالا لامبور فى اطار الندوة الاسلامية (25 جوان 1974) ومؤتمر عدم الانحياز الذى انعقد فى الجزائر (من 5 الى 9 سبتمبر 1973) ٠

انتهاك لوائح جمعية الامم المتحدة

ان اللائحة رقم (20) 1514 بتاريخ 14 ديسمبر 1960 صرحت بان وضع الشعوب فى تبعية وسيطرة واستغلال أجنبى يكون جحودا للحقوق الاساسية للانسان ويناقض ميثاق الامم المتحدة ويعرض للخطر السلم والتعاون فى العالم ٠

نفس اللائحة تقرر بأن كل الشعوب لها الحق فى تقرير المصير ٠

والمبادىء هذه اعتمدت عليها جمعية الامم لمنح حل تقرير المصير للشعب الصحراوى فى عدة لوائح : لائحة رقم (22) 2354 بتاريخ 19 ديسمبر 1967 ، لائحة رقم (23) 2428 بتاريخ 16 ديسمبر 1968 ، لائحة رقم (24) 2591 بتاريخ 16 ديسمبر 1969 ، لائحة رقم (25) 2711 بتاريخ 14 ديسمبر 1970 ، لائحة رقم (22) 2983 بتاريخ 14 ديسمبر 1972 ، لائحة رقم (23) 3162 بتاريخ 14 ديسمبر 1973 لائحة رقم (24) 3292 بتاريخ 13 ديسمبر 1974 ٠

ويوم الخميس 11 ديسمبر 1975 صادقت جمعية الامم المتحدة على لائحتين الاولى نالت 88 صوتا والثانية 42 صوتا ٠ يبدو ان اللائحة الاولى (التى تستنكر كل مبادرة فردية مخالفة لقرارات الامم المتحدة التى تدعو الى احترام حكم محكمة العدل وتقرر مبدأ تقرير المصير) هى التى نالت رضى أغلبية الدول وهى التى ينبغى أن تطبق ٠

اما اللائحة الثانية وان كانت تسجل الاتفاق الثلاثى بين اسبانيا وموريطانيا والمغرب فانها تؤكد أيضا على وجوب احترام حق تقرير المصير وعلى مسؤولية الامم المتحـدة فى هـذا المضمـار ٠

ان تحليل اللوائح المختلفة للامم المتحدة أظهر بوضوح تعلقها بحق تقـرير المصـير الممنوح للشعب الصحراوى والاعتراف لم يكن بالفاظ عامة بل عنى الشعب الصحراوى خصيصا بذكر اسمه ٠

واللوائح المتخدة من طرف جمعية الامم المتحدة ليست وليدة الظروف أو المؤامرات بل هى وفية لميثاق الامم المتحدة الذى يسجل فى مادته الاولى من بين الاهداف هـدف تنمية علاقات ودية بين الامم مبنية على احترام مبدأ المساواة فى الحقوق لصالح كـل الشعوب واحترام حق تقرير المصير لهذه الشعوب ٠ والمادة 55 من الميثاق تكرر هـذا المبـدأ ٠

فبعد اختراق هذه المبادىء والقرارات الملزمة فى نظر القانون الدولى لا يسعنا الا أن نتكلم عن انتهاك للقانون الدولى من طرف الانظمة السياسيـة فى اسبانيا والمغـرب وموريطانيا وعن خيانة عظمى وصمت بها تلك الانظمة ٠

شرعيـة الكفـاح التحريـرى

فامام الفضيحة كيف يلام شعب على طرد الغزاة الذين لم تاخذهم رحمة ولا شفقـة على شعب فقير الحال طالما استغله الاستعمار الاسبانى ٠ ان الحق بجانـب الشعـب الصحراوى والقانون أيضا اذ أن اللائحة رقم (20) 2105 فى سنة 1965 تقر شرعيـة كفاح الشعوب من أجل تقرير مصيرها وتوجه نداء لمساعدة هذه الشعوب ماديا ومعنويا ٠

وكفاح الشعب الصحراوى الآن كفاح من كان فى حالة دفاع شرعى عن الكيـان وفى حالة مضطر الى رد العدوان السافر ٠

عـدم احترام اتفاقيات جنيف ولاهـاى

وبما ان الحرب فرضت على الشعب الصحراوى فان الاتفاقيات الدولية وقواعد العرف الدولى تدعو المحاربين الى احترام الحقوق الانسانية ٠

والقواعد التى نصت عليها اتفاقيات لاهاى واتفاقيات جنيف أصبحت مندمجةفى القانون الدولى العام · وياللاسف نلاحظ أن الغزاة المغاربة والموريطانيين لم يراعوا تلك القواعد · فالاخبار تؤكد انتهاكاتهم لها وعودتهم الى الجاهلية والهمجية : فهم يقتلون اللاجئين والسكان العزل أى يقتلون غير المكافحين ، وهم يحمون أنفسهم بأتراس بشرية ، ويعذبون اعتباطا أى بدون منفعة ولا يقومون بتغذية عادية للسكان بل يحاولون تجويعهم ، ويستعملون مواد قاتلة محرمة فى الاتفاقيات الدولية المتعددة مثل النابالم · كل هذه التصرفات الاجرامية يدينها القانون الدولى العام · ونحبذ لو اقترحتم انشاء لجنة دولية خاصة تحقق فى جرائم الحرب التى ترتكبها جيوش النظام الملكى المغربى ونظام موريطانيا ، وتعرض القضية على محكمة Russel روسل ·

شرعية المساندة

فكيف تلام الجزائر وهى تدعو الى احترام المواثيق الدولية وقرارات منظمة الوحدة الافريقية والندوة الاسلامية ومؤتمر عدم الانحياز وتطالب باحترام تقرير المصير الذى اتفق عليه بصفة رسمية وعلانية ؟

ومساعدة الجزائر لكفاح الشعب الصحراوى سواء أكانت مادية أو معنوية زيادة على أنها تنسجم تماما مع السياسة التى انتهجتها دائما فى قضايا التحرير ، فانها تعتبر واجبا تحث عليه الهيئة الدولية العليا أى جمعية الامم المتحدة فى قرارها رقم (25) 2625 بتاريخ 4 نوفمبر 1970 ·

واللائحة الآنفة الذكر تحمل تصريحا متعلقا بالمبادىء السبعة التى تمس العلاقات الدولية والتعاون بين الدول · فالمبدأ الرابع يفرض على الدول فرديا وجماعيا ان تساعد على محو الاستعمار · والتأييد المادى والمعنوى لجبهة البوليزاريو من طرف الجزائر يعتبر أيضا تلبية للنداء الموجود فى هذه اللائحة واللائحة رقم (20) 2105 (سنة 1965) التى ذكرناها من قبل ·

قضية الصحراء ومحكمة العدل الدولية

والغريب فى الامر هو أن النظام المغربى والنظام الموريطانى بعد ما اتفقا على طرح قضية الصحراء على محكمة العدل الدولية ، تهربا من اتباع النتائج التى توصلت اليها ·

وننبهكم الى أن مجرد تقديم القضية للمحكمة الدولية يدل على ارتباك النظامين وشكهما في تبعية بلد الصحراء الغربية لسيادتهما المزعومة · كما أن تقسيم البلد يفسد مزاعم كل من النظامين في السيادة · ونضيف، أن رفضهما لمبدأ استفتاء شعبي يؤكد عدم تأكدهما من صحة مزاعهما ·

فان كان الشعب الصحراوى حقا تابعا للمملكة المغربية أو لموريطانيا فكيف يرفض الالتحاق « بالوطن الام » ؟ ولماذا لم يخص المغرب وموريطانيا كفاحا مسلحا لانقاذ أرضهم حسب ما يدعون ، من براثن الاستعمار الاسبانى ؟ بينما رأينا الجزائر رفضت مرارا استقلال أرض جزائرية مبتورة من أى جزء من أجزائها ·

والمهم أن بحوث وأشغال محكمة العدل الدولية أسفرت عن نتائج واضحة ولا يمكن لنا أن نشك فيها ، وطبقا للمادة الثانية من قانونها الاساسى ان المحكمة مؤلفة من بين القضاة السامين الذين يتمتعون بتقدير معنوى وبعلم وافر فى القانون الدولى ، وينتمى هؤلاء القضاة الى جنسيات مختلفة ·

هؤلاء القضاة منتخبون ويعملون مستقلين ·

واليكم النقاط الاساسية التى توصلت اليها المحكمة :

1) ان المحكمة تعترف بأن الصحراء الغربية لم تكن أرضا مهجورة بدون مالك بل كان فيها سكان يعيشون فى نظام اقتصادى اجتماعى تحت سلطة رؤسائهم المحاطين بالجماعة ·

2) التشريع المطبق فى الصحراء الغربية لم يكن تشريعا مغربيا بل كان مستمدا من الفقه الاسلامى ومن العرف ·

3) لم تكن تبعية ترابية للمغرب ·

4) لم يمارس المغرب أو موريطانيا أعمالا سيادية فعلية ·

5) لم تجب ضرائب فى الصحراء باسم دولة المغرب أو مجموعة موريطانيا ·

فالنقاط الخمسة هذه لم تترك مجالا للشك : فالشعب الصحراوى عاش حرا حتى استولى عليه الاستعمار الاسبانى · اذن فهل تطالب المغرب لتملك الصحراء الغربية

لان بعض التجار مروا بها لشراء العبيد والذهب مما كان يسمى بالسودان ؟ ليحق للصحراويين فى هذا الافتراض أن يطالبوا بالسيادة على المغرب وعلى اسبانيا لان أجدادهم المرابطين انطلقوا من الصحراء الغربية فى القرن الحادى عشر لبسط سلطتهم على كل المنطقة وعلى الاندلس ٠

فبعد الرأى الاستشارى لمحكمة العدل الدولية وبعد امتناع المغرب واسبانيا وموريطانيا عن اتباع نتائجه ، وبعد الحالة التى أحدثتها تلك البلدان والتى تعرض السلم للخطر فى المنطقة ، لم يبق لمجلس الامن الا أن يتخذ التدابير اللازمة طبقا للاحكام الموجودة فى الفصول 5 و 6 و 7 من ميثاق الامم المتحدة ٠

فالسؤال الموجه لمجلس الامن والامين العام للامم المتحدة : ما هذا الصمت ؟ ٠ ما هذا الجمود بعد التحركات التى لاحظناها فى العام الماضى ؟ فلابد أن نكشف القناع عن مؤامرة الصمت التى تحاك حول قضية الصحراء ٠ فالامم المتحدة لم تضطلع بمسؤولياتها القانونية وتجاهلت واجباتها ، وبعض الدول اعتبرت المسالة هامشية ٠

كل البراهين التى قدمناها والتى تثبت حق الشعب الصحراوى فى تقرير المصير والاستقلال مستمدة من المواثيق الدولية ومن التعهدات الفردية والجماعية ، ولقد زادها قوة أنها جزء من القانون الدولى العام وأنها أكدت تكرارا فى هيئات دولية من النوع الجهوى ومن النوع العقائدى ومن النوع القضائى ومن النوع الاممى ٠

فليكن كلامنا مساهمة فى الدعم القانونى الذى أرادت جمعية الحقوقيين الجزائريين أن توفره لقضية مقدسه ، قضية استقلال الشعب الصحراوى ٠

دراسات تاريخية

المفتى الجزائرى - المصرى ابن العنابى وكتابه

السّعي المحمُود فى نظام الجنود

د. أبو القاسم سعد الله

كتاب « السعى المحمود فى نظام الجنود » لمفتى الجزائر ومصر ، محمد بن محمود الجزائرى المشهور بابن العنابى ، يعتبر من أوائل الكتب العربية التى عالجت موضوع التجديد فى النظم الاسلامية أو تقليد المسلمين للاروبيين فى مبتكراتهم الحديثة ٠ حقا أن هذا الكتاب يتناول خاصة طريقة الاخذ بنظام الجيوش الاروبية ، ولكنه يحتوى كذلك على لمسات جديرة بالدراسة حول قضية التقليد والابتكار. وقد ناقش المؤلف كل ذلك فى ضوء الشريعة الاسلامية من جهة وفى ضوء حاجة المجتمع الاسلامى الى التطور من جهة اخرى ٠ فاذا عرفنا ان المؤلف كان مفتى الاحناف (شيخ الاسلام) ، وان زمن تاليف الكتاب 1242 (1826 م) يشكل منعرجا خطيرا فى لقاء الحضارتين الاسلامية والاروبية ، أدركنا ما للكتاب من قيمة

* كتب هذا البحث مساهمة فى الكتاب التذكارى الذى اعده فى مصر طلاب وأصدقاء الدكتور أحمد عزت عبد الكريم على شرفه ٠

تاريخية وحضارية ، وما لآراء صاحبه من أهمية • ولهذه الاسباب عزمنا على كتابة هذه العجالة عنه وعن مؤلفه •

أولا ـ **حياة ابن العنابى** : ورغم شهرة ابن العنابى كمفتى ومؤلف وصاحب موقف سياسى فان تاريخ ميلاده غير معروف بالضبط • ولكننا اذا عرفنا ان المصادر تجمع على أن تاريخ وفاته هو 1267 (1851 م) (1) وانه قد عاش حتى تجاوز السبعين سنة عرفنا أنه من مواليد الربع الاخير من القرن الثامن عشر الميلادى (2) وهذه الفترة التى عاشها ابن العنابى تعد من أحرج الفترات التاريخية لا فى الجزائر فحسب ولكن فى الدولة العثمانية والعالم الاسلامى قاطبة • فقد عاصر الثورة الفرنسية وما نتج عنها من أحداث مست جوانب متعددة من الحضارة الاسلامية ، وعاصر فى بلاده (الجزائر) حروبا خارجية ضد الانكليز والامريكان والفرنسيين والاسبان والتونسيين وغيرهم ، وحروبا داخلية كثورة الطريقة الدرقاوية وثورة ابن الاحرش ، والتنازع على السلطة بين الطائفة التركية نفسها سواء على مستوى السلطة المركزية فى مدينة الجزائر أو على مستوى الاقاليم • وكان ضحية كل هذه الحروب (الخارجية والداخلية) هو الرجل العادى من الفلاحين وأصحاب الحرف والتجار ، لانه هو الدافع للضرائب وهو وقود الفتن •

وبالاضافة الى ذلك عاصر ابن العنابى ، الذى تولى عدة وظائف رسمية كما سنرى ، بداية عهد التنظيمات فى الدولة العثمانية من جهة وأخذ محمد على والى مصر عندئذ بمبادىء التمدن الغربية من جهة أخرى • وسنرى ان هذه التنظيمات والمبادىء هى التى دفعته الى كتابة كتابه الذى نحن بصدد التعريف به • اما فى الجزائر حيث كان يعمل فاننا لا نجد هذه الظاهرة قد وجدت لها مكانا • حقا ان الانكشارية قد تدهورت كنظام

---

(1) على ذلك بروكلمان ، ملحق 2 ، ص 739 ، والاعلام للزركلى ، 7 ، ص 311 • وكلاهما لا يذكر له تاريخ ميلاد • وشذ محمد بن عبد الكريم فذكر ان ابن العنابى تولى الافتاء فى الاسكندرية سنة 1267 (1851) وتوفى بها سنة 1269 (1853) ـ أنظر حمدان بن عثمان خوجة ومذكراته ، بيروت 1972 ، ص 161 ، هامش 2 •

(2) ليس هناك من أشار الى تاريخ ميلاد ابن العنابى ، ولكن مشاركته المبكرة فى الحياة السياسية (ابتداء من 1805) ووصف تلاميذه له بأوصاف تدل على الشيخوخة تجعلنا نرجح ان يكون تاريخ ميلاده حوالى 1775 م •

واصبحت عاملا سلبيا فى الحياة السياسية والاقتصادية ، بل اصبحت مثار فتنة واضطراب فى البلاد ، ولعل ذلك هو ما جعل الداى على خوجة يحاول التخلص منهم سنة 1817 (3) بطريقة سبق بها السلطان محمود الثانى معهم . ولكن على خوجة قد مات بالوباء (4) وفشل فيما رامه وعاد بعده الانكشارية الى صولتهم . ولعل ذلك هو ما ساعد على احتلال فرنسا للجزائر بعد حوالى عشر سنوات من وفاته .

وقد ولد ابن العنابى على ما يظهر فى مدينة الجزائر فى التاريخ المشار اليه . واسمه الكامل هو محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائرى (5) ، وشهرته العنابى أو ابن العنابى (6) . وكان على مذهب الحنفية . واسرته تركية قديمة فى تاريخ الجزائر (7) ولكنها ظهرت فيما يبدو بعد مجىء العثمانيين . فنحن نجد اسم جده الثانى (حسين بن محمد بن العنابى) فى قائمة المفتيين الاحناف فى الجزائر سنة 1148 (1735) . والمفتى الحنفى فى الجزائر العثمانية هو « شيخ الاسلام » الذى لا يفوقه فى المنزلة والاعتبار سوى « الداى » أو رئيس الدولة . وكان حسين بن العنابى ، فيما يبدو عالما واسع

---

(3) انظر الطريقة التى استعملها لضربهم فى (مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار) تحقيق ونشر أحمد توفيق المدنى ، الجزائر ، 1974 ، ص 132 ــ 134 .

(4) عن هذا الوباء انظر نفس المصدر ، ص 141 ، 151 . وقد مات منه خلق كثير ، ودام حوالى سبع سنوات . وتوقف بسببه اداء فريضة الحج فترة .

(5) لا ندرى كيف ولا متى لصقت به هذه النسبة . والظاهر انها نسبة لاحد اجداده الذين قدموا من آسيا الصغرى الى الجزائر فى العهد العثمانى ، ولعل جده حسين هو الذى أخذ النسبة أولا لان المؤلف يتوقف عنده . وقد كنا نرجح أن المؤلف أخذ هذه النسبة بعد خروجه من الجزائر لولا وجودها فى اسمه فى نص قديم يعود الى سنة 1811 (1226هـ) عندما كان فى الجزائر .

(6) الذى كان يكتبه بنفسه هو (ابن العنابى) ، ولكن بعض المؤلفين، ومنهم بروكلمان، يكتفون (بالعنابى) فقط . والراجح انها ليست نسبة الى عنابة (مدينة بالجزائر) ولكنها شهرته ، وهو قد استعملها كذلك فى جوابه على مسالة التوحيد الذى يعود الى سنة 1811 فقال بعد ذكر اسمه « المدعو بابن العنابى » . ويستعمل بعض المؤلفين عبارة « الشهير بابن العنابى » . وقد استعمل الزهار ، المعاصر له ، مرة ابن العنابى ومرة العنابى فقط . أما خوجة ، المعاصر له أيضا ، فقد استعمل العنابى ، بخلاف ديرينو الذى استعمل ابن العنابى ، وهكذا . وهى فى الواقع شهرة جده الاعلى أيضا ، حسين بن محمد بن العنابى .

(7) رسالة الشيخ المهدى البوعبدلى الى المؤلف بتاريخ 27 مايو 1975 .

المعرفة بعلوم الشريعة ، وله تفسير للقرآن الكريم ينقل عنه حفيده ، موضوع هذا البحث ، في كتابه « السعى المحمود » عدة مرات ، ويشير اليه بهذه العبارة « قال مولانا الجد الاكبر حسين بن محمد رحمه الله فى تفسيره » (8) · واشتهر عالم آخر من هذه العائلة وهو مصطفى بن رمضان العنابى (9) المتوفى سنة 1130 وهو عم حسين المذكور · أما جد المؤلف الادنى (محمد بن حسين) فقد أصبح قاضى الحنفية بالجزائر وتوفى سنة 1203 بمصر · ورغم أن والده (محمود بن محمد) لم يتقلد ، حسبما نعلم ، منصب الافتاء أو القضاء (اذ لا نجده ضمن قائمة هؤلاء أو أولئك) فانه كان يعتبر من علما العصر · وقد توفى هو أيضا بمصر (دفن عند ساحل السويس) عند منصرفه من الحج سنة 1236 (10) · وهكذا نجد أن مؤلف (السعى المحمود) ينتمى الى أسرة جزائرية عريقة فى العلم والوظائف الرسمية والفقه الحنفى ·

وتثقف ابن العنابى ثقافة واسعة بمفهوم عصره · ونحن نقول « بمفهوم عصره » لنمهد الى القول بأن ثقافته تقليدية اذا ما حكمنا عليها من خلال كتابه المذكور ومن خلال ثبته المعروف (بثبت الجزائرى (11) فهو حافظ وناقل اكثر منه مفكرا ومجتهدا · ومهما يكن الامر فقد تلقى العلم فى وطنه على جده وعلى والده كما تلقاه على المفتى المالكى

---

(8) فصول 6 ، 7 ، 8 ·

(9) قرأ عليه أحمد بن مصطفى برناز التونسى اثناء زيارته لمدينة الجزائر · انظر (بشائر أهل الايمان فى فتوحات آل عثمان) لحسين خوجة ، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية · وكذلك رسالة الشيخ البوعبدلى الى المؤلف · وقد اطلع البوعبدلى على بعض تآليفه فى طرابلس الغرب · وفى زيارة قمت بها لمدينة البرواقية بالجزائر سجلت فى مذكرتى اننى رأيت مخطوطا باحدى المكتبات هناك فيه اسانيد مصطفى العنابى وبعض الاسماء الاخرى من اسرته · ولكنى لم اعد الى هذه المكتبة ولم اسجل بالضبط ما رأيته فى المخطوط ·

(10) ذكر المؤلف هؤلاء وتواريخ وفاتهم فى اجازته لبعض تلاميذه ، ومنهم ابراهيم السقا وعبد القادر الرافعى · وتعرف اجازته للاول (بثبت الجزائرى) · وكلاهما مخطوط عندى · اما اجازته للاول فقد نسختها من نسخة المرحوم نعيم النعيمى الجزائرى فى داره بقسنطينة 12 ابريل ، سنة 1971 ، واما اجازته للثانى فقد سلمنى منها نسخة الاستاذ محمد بن عبد الكريم مشكورا ·

(11) الاعلام ، 7 ، ص 311 · ورسالة الشيخ البوعبدلى الى المؤلف ·

على بن عبد القادر بن الامين (12) . وهؤلاء هم الذين ذكرهم فى (ثبته) وهو يشير الى روايته الحديث وغيره . فقد قال انه قرأ بعض صحيح البخارى على جده (يعنى جده الادنى) وأجازه ببقيته وبكتب الحديث الستة الاخرى ـ أما عن والده فقد قرأ الفقه الحنفى وغيره من العلوم . وهو يروى البخارى « بأعلى سند يوجد فى الدنيا » عن شيخه على بن عبد القادر المفتى المالكى المذكور . ويسميه تارة « شيخى أبى الحسن » وتارة « شيخنا ابن الامين » ، واحيانا يقول « صاحبت شيخنا » . ولكننا اذا تأملنا فى مصادر (السعى المحمود) وجدنا ان ابن العنابى كان عميق الثقافة ، سواء منها تلك التى تمت بصلة الى علوم الدين أو علوم الدنيا . اما فى (الثبت) فهو يتحدث فقط عن روايته لسلسلات الحديث الشريف وهى المعروفة « بالسند » .

وقد كان فى مدينة الجزائر علماء معاصرون له ، نذكر منهم المفتى الشاعر محمد بن الشاهد (13) ، والمفتى مصطفى بن الكبابطى (14) ، والعالم محمد بن مالك (15) ، والكاتب السياسى حمدان خوجة (16) .

ولعل الذى رشح ابن العنابى للوظائف الرسمية فى الدولة هو مكانة أسرته ومنزلته العلية . وقد عرفنا ان أسرته كانت ذات حظوة لدى دايات الجزائر منذ أوائل القرن الثانى عشر للهجرة (الثامن عشر الميلادى) . اما المنزلة العلمية فالظاهر ان ابن العنابى كان متمكنا فى العلوم الشرعية خاصة ، واقدم نص وجدناه له يدل على ذلك . فقد عثرنا له على جواب أجاب به على مسالة فى التوحيد بدأه هكذا «ورد على سؤال نصه بعد

(12) توفى عن ثمانين سنة عام 1236 (1820) . انظر (ثبت الجزائرى) .

(13) توفى حوالى سنة 1792 وكان بالاضافة الى الشعر ينظم الموشحات ويلحنها ، ولا سيما فى المولد النبوى وقد تولى الافتاء عدة مرات .

(14) تولى الافتاء زمن الفرنسيين ثم نفوه لمعارضته ضم الاوقاف الاسلامية الى املاك الدولة الفرنسية ، وقد استوطن الاسكندرية ، ولعله تولى فيها الافتاء ، وكان شاعرا رقيقا أيضا ، وله شعر فى الحنين الى الوطن . وهو دفين الاسكندرية .

(15) مذكرات ، ص 81 ـ 82 ، 91 . وكان ابن مالك مدرسا وقاضيا للمالكية وله تدخل فى الامور السياسية .

(16) له عدة مؤلفات سنذكر بعضها . وقد تزعم حركة معارضة ضد الفرنسيين فنفوه ، وبعد اقامة قصيرة فى باريس استوطن اسطانبول وتولى بها بعض الوظائف وبها توفى حوالى 1845 .

عنوانه ، اذا قيل حيث كان أهل الحق مطبقين على ان الحق تعالى يرى فى الاخرة بالابصار ... فاقول اعلم أولا ان المدركات تنقسم الى ما يدخل فى الخيال كالصور المتخيلة والاجسام المتلونة المتشكلة والى ما لا يدخل فى الخيال كالذات العلية ، وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والارادة ... » وعندما وصل فى هذه المسألة الى الفصل بين رأى المعتزلة وأهل السنة اختار ابن العنابى رأى أهل السنة قائلا عن رأى المعتزلة « ونحن لا نقول به لضيق مجاله فنسلمه لاربابه ، سالكين مسلك الجمهور من أهل السنة لوضوح أدلتهم ... » (17) . ويتضح من هذا النص القصير منطق ابن العنابى فى معالجة هذه القضية الشائكة وترجيحه لرأى الجمهور المعروفين بتفضيل النقل عند تعارض الادلة . فاذا عرفنا ان تاريخ هذا النص يعود الى سنة 1226 (1811) عرفنا منزلة ابن العنابى المبكرة لدى علماء عصره ، وهى المنزلة التى جلبت اليه انتباه حكام عصره أيضا .

والوظائف الرسمية التى تولاها ابن العنابى فى الجزائر متنوعة . والظاهر ان أول من ولى ابن العنابى وظيفة القضاء الحنفى هو الداى أحمد باشا (1220 = 1805) (1223 ـ 1808) . ذلك أن النص الذى بين ايدينا ينسب الى ابن العنابى عندئذ مهمتين كبيرتين الاولى وظيفة القضاء والثانية الكتابة الى باى تونس . فقد جاء فى مذكرات احمد الزهار ان الباشا قد أمر « الفقيه محمد بن العنابى ، قاضى الحنفية ، ان يكتب كتابا الى حمودة باشا (باى تونس) . فكتب الكتاب وبعثوا به » . ووعد الزهار ان يذكر نص الكتاب فى مبيضته ، ولكنه لم يفعل لانه لم يبيض عمله . وعلى كل حال فقد اشار اليه بانه يقع فى « ورقة صغيرة » (18) . ولو ذكره لعرفنا منه فحوى الكتاب واسلوب كاتبه . ومهما يكن الامر فان هذا الخبر يشير الى منزلة ابن العنابى لدى الداى ، ولولا

---

(17) يقع النص فى ورقتين ضمن مجموع ص 55 ـ 58 . الخزانة العامة المغربية ، ك 1089 . والخط ليس خط المؤلف لان نهاية النص هكذا : « انتهى ما نقل من خط المؤلف » . وقد وقع اسمه هكذا : « قال هذا وكتبه بيده الفانية محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائرى المدعو بابن العنابى اصلح الله حالة ... بتاريخ ذى القعدة سنة 1226 » .

(18) مذكرات ، ص 97 .

ذلك لاستكتب الداى كتابه الرسميين (أو الخوجات) لنفس الغرض . اذ المعـروف أن قاضى الحنفية (أو القاضى عامة) لا يقوم بهذه المهمة ٠

ويختفى اسم ابن العنابى فترة من الوظائف الرسمية ، فلا يظهر من جديد الا فى عهد الداى عمر باشا (1230 ـ 1814) (1232 ـ 1816) ٠ فقد وجد اسمه عندئذ هكذا « محمد بن محمود » ضمن قائمة وزراء وأعيان الباشا المذكور ، متقلدا وظيفة « نقيـب اشراف مكة والمدينة » واضعا اما ذلك ختمه الذى يحمل تاريخه (19) ٠

وكما كلف الداى أحمد باشا ابن العنابى بالكتابة لباى تونس كلفه الداى عمر باشا بسفارة للمغرب الاقصى لدىالسلطان المولى سليمان٠ذلك أن الجزائر قد تعرضت الى قصف الاسطول الانكليزى سنة 1816 (20) ٠ وقد ادى ذلك الى هلاك معظم الاسطول الجزائرى فأرسل الباشا سفراء عنه الى السلطان محمود الثانى والسلطان سليمان ويوسف باشا باى طرابلس يستعينهم على اعادة بناء الاسطول بنجدته بالسفن والاموال ٠ والذى يهمنا من هذه الحادثة هو ان الباشا كتب الى السلطان سليمان كتابا بعث به مع « السيد الحاج محمد العنابى ، قاضى السادة الحنفية رسولا » ٠ وقد ذهب ابن العنـــابى شخصيـا الى المغرب وسلم مكتوب الباشا الى السلطان ، « وبعد ان استراح التقى مع السلطان فأحسن اليه » ، وجهزه ببعض المراكب « واعطاه اموالا وأمره بتسليمها للمجاهدين » ٠ وعـــاد

(19) عبد الجليل التميمى (بحوث ووثائق فى التاريخ المغربى) تونس ، 1972 ، ص 255 ولم يستطع التميمى قراءة تاريخ الختم ، ونرجح ان يكون سنة 1232 لوجوده فى مكان آخر كذلك ٠ ويذكر أحمد توفيق المدنى فى (مذكرات) الزهار ص 128 ان ابن العنابى قد تولى القضاء الحنفى لنفس الباشا ، وكان آخر قضاته قبل وفاته ٠ اما التميمى فيذكر ص 255 ان القاضى الحنفى كان يدعى سليمان بن محمد وأن المفتى الحنفى كان يدعى محمد بن أحمد ٠ ولعل قصر مدة التولية لهؤلاء هى التى سببت هذا الغموض ٠

(20) هى حملة اللورد اكسموث الشهيرة ، وقد فصلها قنصل بريطانيا فى الجـــزائر الضابط بليفير فى كتابه (جلادة المسيحية) ، لندن ، 1884 ، ص 250 ـ 280 ٠ انظر كذلك عبد الجليل التميمى « وثائق تركية غير منشورة عن ضرب مدينة الجزائر » سنة 1816 فى (مجلة الغرب الاسلامى والبحر الابيض) ، رقم 5 ، سنة 1968 ص 111 ـ 133 ٠

ابن العنابى بذلك الى الجزائر ، فكانت سفارته ناجحة ، على الاقل اذا حكمنا من نتائجها . (21)

وهكذا يتضح ان ابن العنابى لم يكن مجرد عالم بالفقه وما اليه من العلوم الشرعية بل كان أيضا دبلوماسيا ناجحا وخبيرا بشؤون الدول . ولعل سفارته الى المغرب لم تكن أول خروج له من الجزائر فقد استعملت عبارة (الحاج) مع اسمه قبل ذلك . ومعنى هذا انه قد يكون حج خلال سنوات 1808 ـ 1815 . والحج عندئذ ليس مجرد اداء للفريضة ، ولكنه تعلم وتعليم ، وسياحة واطلاع ، ومشاركة فى كثير من جوانب الحياة السياسية والاقتصادية . فماذا كان نصيب ابن العنابى من كل ذلك خلال حجه ؟ ذلك ما سيظهر عندما نعالج محتوى كتابه .

اما الآن فحسبنا ان نتتبع نشاطه فى الجزائر الى سنة 1830 وهو تاريخ احتلال فرنسا للجزائر وتاريخ فصل جديد من حياة المؤلف . ذلك ان وثائق سنوات 1817 ـ 1819 تتحدث عنه كقاضى الاحناف فى الجزائر زمن الداى على خوجة (1232 ـ 1817) والداى حسين باشا (1233 ـ 1818) . فقد جاء فى احدى الوثائق ان ابن العنابى ، قاضى الحنفية ، قد وضع ختمه بتاريخ 1232 (1817) ضمن قائمة وزراء وموظفى الداى على خوجة فى رسالة بعث بها الداى الى السلطان محمود الثانى (22) . وورد فى وثيقة أخرى ان أول قاضى حنفى لدى الداى حسين باشا هو محمد بن محمود العنابى (23) . فاذا عرفنا ان هذا الداى قد تولى سنة 1233 (1818) وانه قد ولى قاضيا حنفيا جديدا سنة 1235 (1820) (24) عرفنا ان ابن العنابى قد يكون توجه الى المشرق خلال سنوات 1235 ـ 1244 والمهم هو ان هذه الفترة من حياته غامضة . ذلك اننا سنعرف ان كتابه (السعى المحمود)

(21) مذكرات ، ص 127 . ويذكر هذا الكاتب ان عهد عمر باشا كان نكبة على البلاد ، فقد حل بها الجراد والوباء وغلاء المعيشة ، وحملة الانكليز ، وموت القبطان (الريس) حميد وفى معركة ضد الاسطول الامريكى ، بالاضافة الى ان هذا الباشا كان سفاكا للدماء .

(22) التميمى ، بحوث ، ص 260 .

(23) مذكرات ، ص 182 .

(24) جواخيم قونزاليز (مشاهير مسلمى مدينة الجزائر) الجزائر ، 1886 ، ص 57 . انظر كذلك نور الدين عبد القادر ، (صفحات من تاريخ مدينة الجزائر) ، الجزائر 1964 ، ص 187 ـ 188 .

مكتوب سنة 1242 (1826) وان اسمه يذكر عندئذ مقرونا بعبارة « نزيل مصر القاهرة » فهل كان مغضوبا عليه سياسيا ؟ أو هل ذهب الى الحج مرة ثانية واطال الاقامة بالمشرق، وخاصة بمصر التى دفن فيها كل من والده وجده ؟ أو هل ذهب فى مهمة لدى محمد على فى عهد حسين باشا كما ذهب فى مهمة لدى سلطان المغرب ؟ أو هل اخذته قـــدماه الى الآستانة فى مهمة لدى السلطان محمود الثانى الذى سنجده يتحدث عن مآثره ومآثـر اجداده فى كتابه ؟ كل هذه اسئلة يمكن طرحها فى هذا المجال ما دام الغموض يكتنف هذه الفترة من حياته . وسيظل الجواب على هذه الاسئلة مرهونا باكتشاف ما تضمره الايـــام عنـه .

وعلى كل حال فان ابن العنابى لم يكتب سنة 1242 كتابه (السعى المحمود) فقط ، بل نجده يقيم فى مصر ويختلف الى الجامع الازهر ، ويأتيـــه العلماء للـــدرس « وروما للثواب » ويقوم هو باجازة المستجيزين واجابة الداعين . فقد كتب (السعى المحمود) فى شهر رجب من السنة المذكورة واجاز الشيخ ابراهيم السقافى شهر شعبان ، كما اجاز الشيخ عبد القادر الرافعى فى رمضان من نفس السنة . ومعنى هذا ان ابن العنابى قـد تصدر لتدريس الحديث والفقه فى الازهر والتف حوله تلاميذ وعلماء .

ومما جاء فى اجازته لتلميذه ابراهيم السقا ما يلى : « وقد قرأ على الشيخ الامـــام الفاضل ابن الحسن ابراهيم بن على بن حسن المعروف بالسقا ... جل صحيح البخارى الى باب الاحتباء من كتاب اللباس . وسمع ذلك الشيخ الامـــام ابو العباس أحمـــد بن يوسف القنواتى (؟) امام الجامع الازهر والشيخ الامام ابو زيد عبد الرحمن بن عثمان الدمياطى الغمراوى الشافعى ... (25) وابراهيم بن حسن الكردى الشافعى ... » وختمها بقوله « قال هذا وكتبه الفقير اليه سبحانه محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائرى الحنفى الشهير ببلده بابن العنابى ... بتاريخ خامس شعبان سنة 1242 » .

(25) بين الاسمين يوجد بياض فى الاصل المنقول عنه .

اما الاجازة الثانية فهى اجازته للشيخ عبد القادر الرافعى • وهى كالسابقة باستثناء بعض التفاصيل وقد قرأ عليه هذا اوائل كتب الحديث وغيرها واجازه اجازة عامة• ووضع بأسفل الاجازة خاتمه وهو « منتظر لطف الودود عبده محمد بن محمود 1232 » (26) •

ولاشك ان لابن العنابى تلاميذ آخرين أجازهم ، أو قرأوا عليه • وسنعرف ان كتابه (السعى المحمود) كان نفسه عبارة عن جواب لاحد السائلين ممن جمعته معه حلقة درس أو جلسة سمر •

ولكننا نجد اسم ابن العنابى فى الجزائر من جديد بعد سنة 1244 (1829) • فبعد تولية الشيخ أحمد بن ابراهيم ، المذكور سابقا ، يأتى المفتون : محمد بن عبد الرحمن (بدون تاريخ) وأحمد بن عمر بن مصطفى (سنة 1244 ـ 1829) ومحمد بن محمود (بدون كلمة العنابى وبدون تحديد تاريخ) ، ويرد بعده اسم مصطفى أفندى (27) (بدون تاريخ أيضا) ثم محمد بن شعبان (سنة 1251 ـ 1835) (28) • فمتى عاد ابن العنابى الى الجزائر ؟ وكيف تولى الافتاء من جديد ؟ وهل تولاه فعلا ؟ أسئلة أخرى ليس من السهل الاجابة عليها الآن لعدم توفر المادة • ومما يزيد الامر تعقيدا ان المؤرخين يذكرون بعض الحوادث التى جرت فى الاسابيع الاولى للاحتلال وورد خلالها اسم ابن العنابى •

وليس من المؤكد الآن ان المفتى الحنفى وقت دخول الفرنسيين للجزائر كان هو ابن العنابى • فقد عرفنا اسماء عدد من المفتيين تولوا فى الفترة القصيرة من 1244 (1828) الى 1251 (1835) من بينهم ابن العنابى، مع اغفال تواريخ تعيين بعضهم • وهذا الغموض فى تلك الفترة الدقيقة لا يساعد على فهم الحوادث التى سيرد فيها اسم ابن العنابى •

---

(26) هذا يدل على انه شخصيا كان يختصر اسمه ويكتفى بمحمد بن محمود • كما ان التاريخ المذكور قد يكون هو الذى لم يستطع التميمى قراءته فى وثيقة أخرى •

(27) حسب احمد توفيق المدنى انه هو مصطفى بن الكبابطى « الذى وقعت الكارثة (الاحتلال) فى عهده » . ولكن المعروف ان هذا كان مفتى المالكية وانه هو الذى نفاه الفرنسيون سنة 1843 ، وليس وقت الاحتلال • انظر (مذكرات) ، ص 183 •

(28) انظر نور الدين ، ص 187 ـ 188 ، وقونزاليز ، ص 57 ، وكذلك (مذكرات) ، ص 182 •

ومن هذا الغموض أيضا ان وظيفة المفتى الحنفى قد تعرضت الى تقلبات خلال السنة الاولى من الاحتلال مع عدم ذكر اسم المفتى المعنى بالامر · فقد جاء فى اخبار الحملة الفرنسية على الجزائر ان الداى حسين باشا قد عزل ، فى آخر لحظـــة قبل دخول الفرنسيين ، المفتى الحنفى « التركى » وعين بدله مفتيا عربيا من أهل البلاد آملا ان يكون ذلـــك سببا فى التفاف الجزائريين حوله فى مقاومته للجيش الفرنسى · فمن هو المفتى المعزول ؟ ومن هو المفتى الجديد ؟ هذه نقطة تظل بدون جواب أيضا · كذلك تتحدث الاخبار عن ان الباشا قد استدعى ، بعد هزيمة جيشه فى فى واقعة سطاولى ، « المفتى الحنفى ، شيخ الاسلام » وسلمه سيفا وطلب منه ان يدعو الناس للجهاد دفاعا عن البلاد (29) · ولكن هذه الاخبار لا تذكر اسم هذا المفتى سيء الحظ الذى وضعته الاقدار فى مفترق الطرق (30) ·

وفى العهد الاول للجنرال كلوزيل (31) ظهر اسم ابن العنابى من جديد · فقد كان هذا المفتى موضع شبهة السلطات الفرنسية منذ دخولها ، وكانت العلاقات متوترة بينهما، وتأزم الموقف بين الطرفين فحيكت له مؤامرة قرر أثرها كلوزيل سجن المفتى ثم نفيـه خلال مدة قصيرة · ويبدأ هذا التوتر ، حسب اخبار الحملة الفرنسية على الجزائر ، حينما اجبر كلوزيل المفتى على تسليمه بعض المساجد فى المدينة لجعلها مستشفيات للجيش ، متعهدا له باستعمالها مدة شهرين فقط (32) · وكان ابن العنابى شديد النقد للسلطات الفرنسية على خرقها للاتفاق الموقع بين الداى حسين باشا والكونت دى بورمون · وكان

---

(29) حمدان خوجة ، (المرآة) ترجمة العربى الزبيرى ، الجزائر ، 1975 ، ص 198 ·
أنظـر بيليسييه ديرينو (الحوليات الجزائرية) ، ج 1 ، باريس ، 1854 ، ط 2 ، ص 53 ·
وكذلك ابو القاسم سعد الله ، (تاريخ الجزائر الحديث ، بداية الاحتلال) ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1970 ، ص 69 ــ 71 ·

(30) يذكر خوجة أيضا ان بورمون ، قائد الحملة الفرنسية على الجزائر ، وقد وشى له بالقاضى الحنفى (ولم يذكر اسمه) فنفاه · ص 229 · فمن يكون هذا القاضى ؟ ·

(31) تولى الجنرال كلوزيل قيادة الادارة الفرنسيـــة فى الجزائـــر مرتـــين الاولى (1830 ــ 1831) ، والثانية (1835 ــ 1836) · وكان شديد الحماس للاستعمار ، ولذلك شن حملة ضد الجزائريين المعارضين للاحتلال الفرنسى فنفى بعضهم الى المشرق ونفى آخرين الى فرنسا ، وشرد وسجن الباقى فى الجزائر نفسها ·

(32) خوجة ، ص 250 ·

يكتب بنقده ولومه الى الجنرال كلوزيل (33) . وضاق كلوزيل ذرعا بجرأة المفتى فقرر وضع حد لها . فقد القى عليه رجال الدرك القبض وقادوه الى السجن وتعرضت أسرته خلال ذلك الى المهانة (34) . وكانت التهمة التى وجهت اليه هى تدبير مؤامرة ضد الوجود الفرنسى واعادة الحكم الاسلامى (العثمانى) للجزائر . وتروى المصادر الفرنسية ان المخبرين قد وشوشوا فى أذن كلوزيل بأن المفتى الحنفى لمدينة الجزائر رجل خطير على الوجود الفرنسى وأن له تأثيرا قويا على أهل البلاد . وهذا ما ادعاه لنفسه (35) . ويعلق ديرينو على ذلك بأن المفتى لم يكن له ذلك التأثير المشار اليه . اما حمدان خوجة الجزائرى فيفصل الحادثة ، حسبما رواها له المفتى نفسه ، فيما يلى : جاء الترجمان الى منزل ابن العنابى وطرح عليه بعض الاسئلة تتعلق بمكانته فى البلاد وخططه المستقبلة . من ذلك ان الترجمان أخبره بأن كلوزيل ينوى الجلاء عن الجزائر وتسليم الحكم له ، وسأله ما اذا كانت لديه القدرة على تنظيم جيش والدفاع عن البلاد ، فأجابه المفتى بأن ذلك فى استطاعته اذا اقتضى الامر . ثم سأله الترجمان هل جيشه سيكون من داخل البلاد أو من مدينة الجزائر وحدها ، فأجاب المفتى بانه سيجيش جيشا يبلغ ثلاثين ألفا من كل البلاد . وكان الترجمان قد اخفى ، حسب هذه الرواية ، شخصين ظلا ينصتان لهذه المحادثة ، ليكونا شاهدين ضد المفتى (36) .

فكم بقى ابن العنابى فى السجن ؟ هذا ما لا نعلمه الآن . والذى نعلمه حقا هو ان كلوزيل قد أمر بنفيه فورا (37) ، ولم يمهله ، رغم انه كان صاحب اسرة واطفال وأملاك

---

(33) نفس المصدر ، ص 259 .

(34) يستعمل خوجة ، نفس المصدر ، عبارة « وتعرضت اسرته لجميع الاهانات بحجة انها كانت تدبر مؤامرة يا ترى ما الجناية التى يمكن اسنادها للنساء والاطفال » ؟ . وهذا برهان على انه كان للمفتى اسرة كبيرة ومتفرعة . وقد يكون بين المفتى وخوجة مصاهرة .

(35) ديرينو ، ص 155 ـ 156 . وسعد الله ، ص 69 ـ 71 . ويقول خوجة بأنه سأل كلوزيل عن التهمة الموجهة الى المفتى فأجابه بأنه كان يعد القبائل للثورة ضد الفرنسيين ، خوجة ، ص 259 .

(36) خوجة ، ص 260 .

(37) يؤكد المهدى البعبدلى فى رسالته الى المؤلف ان المفتى كان يباشر وظيفته عند دخول الفرنسيين وان كلوزيل قد « عزله » منها . وهذا يؤكد أهمية دور ابن العنابى فى تلك الظروف .

وديون وغيرها مما يستوجب مهلة معقولة لتصفية هذه الامور قبل مغادرة البلاد • وهذا الجانب الانسانى هو الذى جعل خوجة يتدخل لدى كلوزيل لصالح المفتى ، رغم توجس هذا منه (38) • فقد رجاه ان يمهله حتى يبيع املاكه ويصفى ديونه ويسفر أسرته • ولم يحصل له خوجة على مهلة عشرين يوما الا بصعوبة كبيرة • وبعد انقضاء ذلك الاجل رحل ابن العنابى الى الاسكندرية (39) • ولا شك ان سفر المفتى كان بحرا • ورغم ان تاريخ النفى غير معروف الآن بالضبط فانه بدون شك كان فى خريف أو شتاء سنة 1830 ـ 1831 لان كلوزيل قد تولى مهمته فى الجزائر خلال سبتمبر سنة 1830 •

وبنفى ابن العنابى من الجزائر أسدل الستار على نشاطه فيها • فقد توجه باسرته الى مصر واقام بالاسكندرية ، وهناك ولاه محمد على وظيفة الفتوى الحنفية بهذه المدينة ، ولذلك نجد اسمه مقرونا بعد حادثة النفى بعبارة « مفتى ثغر الاسكندرية » • والملاحظ ان بعض العائلات الجزائرية الاخرى قد هاجرت أو نفيت أيضا الى الاسكندرية • من ذلك المفتى ابن الكبابطى ، والداى حسين باشا نفسه ، ومصطفى بومزراق باى التيطرى السابق ، والباى حسن ، باى وهران السابق الخ ••• وقد قيل أن أسرة ابن العنابى ما زالت بالاسكندرية الى اليوم وتعرف بأسرة الجزائرلى (40) •

* * *

لم يعرف عن ابن العنابى أنه كان من المؤلفين المكثرين • فاغلب المصادر لا تذكر له سوى (السعى المحمود) الذى نحن بصدده (41) • و (ثبته) المذكور ، أو اجازته لتلميذه ابراهيم السقا. وقد عرفنا أن له اجازة أخرى مشابهة لتلميذه عبد القادر الرافعى. وعثرنا له على رسالة فى مسالة توحيد كنا قد أشرنا اليها أيضا • والظاهر انه ما كان مقلا فى التاليف كان مكثرا فى الفتاوى • وقد اشتهر بذلك حتى ان بعض العلماء

(38) يقول خوجة ، ص 198 ، ان الواشين قد زعموا للمفتى بأن خوجة عميل للفرنسيين لانه زار بلادهم واعجب بحضارتهم ، واوصوه بالاحتراس منه •
(39) خوجة ، ص 261 ، ورسالة البوعبدلى ، وابن عبد الكريم ، ص 161 •
(40) رسالة البوعبدلى الى المؤلف •
(41) سنذكر بعض النسخ الموجودة من هذا الكتاب عند الحديث عنه •

الجزائريين ، كالمفتى حميدة العمالى ، كان ينقل فتاويه بنصها فى (كناشه) (42) • وكان ابن العنابى يوقع فتاويه ، وهو بالاسكندرية ، هكذا « مفتى السادة الحنفية بثغر الاسكندرية » • وقد عرفنا ان الدايات كانوا يستكتبونه فى المسائل السياسية أيضا • ولا شك ان بعض رسائله فى ذلك ما زالت مدفونة فى دور الوثائق (الارشيف) • ولعل له بعض الاعمال الاخرى التى لم نهتد اليها بعد • ومما يذكر أن مؤلف (الاعلام) قد عثر له على نموذج من خطه ، على (ثبت الجوهرى) فى دار الكتب المصرية (43) • ولا ندرى ماذا كتب ابن العنابى هناك ولا كمية ما كتبه •

ولكن اذا كان التاليف قليلا عند ابن العنابى فان تلاميذه كثيرون • وقد عرفنا منهم على الاقل اثنين ، (الرافعى والسقا) والاخير هو الذى اختصر كتاب شيخه لمحمد على ، كما سنرى • واذا كنا لا ندرى ان ابن العنابى قد تصدر للتدريس فى بلاده بالجامع الكبير أو الجامع الجديد ، فاننا قد عرفنا أنه جلس للتدريس فى الجامع الازهر وكانت حلقة درسه موئل العلماء على اختلاف مستوياتهم • وجاء فى رسالة الشيخ المهدى البوعبدلى (44) ان ابن العنابى قد « روى عنه الكثير من اعلام المشرق والمغرب لما كان فى الاسكندرية » ، ونحن لا نشك فى ان تلاميذه بالجزائر قد يفوقون عدا تلاميذه فى المشرق لطول اقامته بها وارتفاع شأنه فيها •

وباشارة من محمد على ، والى مصر ، اختصر ابراهيم السقا (45) ، تلميذ ابن العنابى ،

(42) رسالة البوعبدلى الى المؤلف • وحميدة العمالى كان مفتى المالكية فى الجزائر مدة طويلة • انظر صورته فى (التقويم الجزائرى) للشيخ محمود كحول سنوات 1911 ـ 1913 ، ولا اذكر الآن فى أية سنة توجد صورته • وفى مراسلة راسلنى بها الشيخ المهدى البوعبدلى بتاريخ 3 ديسمبر 1971 حديث عنه وعن علاقته بالطيب ابن المختار وغيره من علماء الجزائر والمغرب • انظر عنه دراستنا « مدارس الثقافة العربية فى الجزائر خلال الاحتلال الفرنسى » فى (مجلة معهد البحوث والدراسات العربية) راجع أيضا أبو القاسم الحفناوى ، تعريف الخلف برجال السلف ، جزآن ، الجزائر ، 1906 ـ 1907 • ج 2 ، ص 526 ـ 529 • وفيه ان وفاة العمالى كانت سنة 1876 ـ 1877 •

(43) الاعلام ، II ـ الخطوط والصور ، 2 ، رقم 1279 •

(44) من رسالة الى المؤلف •

(45) توفى سنة 1298 (1881) ، انظر بروكلمان ، ملحق 2 ، ص 739 • انظر كذلك مقالة لعيسى اسكندر المعلوف عن نفائس المخطوطات بالخزانة التيمورية ، فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، م 3 (نوفمبر ـ ديسمبر ، 1923) ، ص 365 •

كتاب (السعى المحمود) وسمى المختصر هكذا (بلوغ المقصود مختصر السعى المحمود) .
ولا شك ان محمد على قد فعل ذلك لاهمية الكتاب الاصلى التى سنتحدث عنها ، ولكونه محشوا بشواهد واستطرادات مملة للقارىء العادى الذى يهمه الرأى والفكرة أكثر مما يهمه التثبت والتعليل . وقد وقفت شخصيا على نسخة من (بلوغ المقصود) (46) فوجدته يحتوى على 68 صفحة ومكتوبا بخط نسخ جيد . والنسخة التى وقفنا عليها تحمل تاريخ سنة 1308، وهو بلا شك ليس تاريخ اختصار الكتاب وانما هو تاريخ نسخة أخرى منه . ونعتقد ان ابراهيم السقا قد اختصر كتاب شيخه بعد تأليف الاصل بقليل، أى بعد سنة 1242 (1826) ، لانها هى الفترة التى تليق بموضوع الكتاب الذى سنتحدث عنه . وقد وجدت اسم الناسخ (لبلوغ المقصود) هكذا « تم هذا الكتاب ... على يد ... أحمد عبد رب النبى المغبى (كذا) بلدا الشافعى مذهبا ... يوم الاحد المبارك 23 ... المحرم سنة 1308 » . اما اسم ابن العنابى فى هذه النسخة فقد ورد على النحو التالى « كشاف الحقائق ، ومنبع الرقائق ، شيخنا المحفوف باللطف الخفى ، محمد بن محمود ابن محمد الجزائرى الحنفى » (47) . والغالب على الظن ان هذه العبارة هى من وضع ابراهيم السقا وليس من وضع الناسخ . والملاحظ ان النسخة التى اطلعنا عليها من (بلوغ المقصود) تضم تعاليق مطولة فى معنى الايات والاحاديث والكتب والمعانى الواردة فى صلب المختصر ، ولا تضيف جديدا للفكرة الاساسية التى انطلق منها المؤلف الاصلى .
والملاحظة الاخيرة التى نبديها حول (بلوغ المقصود) انه قد جاء فى آخره اضافة وصف « الشافعى » أمام اسم ابن العنابى . فقد جاء هناك « قال اصله قال جامعه الفقير اليه سبحانه محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائرى الحنفى الشافعى (48) ، الشهير ببلده بابن القبانى (كذا) ، نزيل مصر القاهرة ، فرغت من جمعه سنة 1242 ، رابع عشر رجب هجرية » .

---

(46) دار الكتب المصرية ، الخزانة التيمورية ، فروسية رقم 31 .
(47) بلوغ المقصود ، ص 2 .
(48) الظاهر ان ذلك سهو من الناسخ ، وان كان شائعا لدى العلماء الانتقال من مذهب الى آخر . كما سها نفس الناسخ فى كتابة القبانى بدل العنابى .

وقد اختلفت الآراء حول شخصية ابن العنابى · فقد عرفنا وصف تلاميذه له من كونه شخصا يتبرك به ويرام الثواب عنده · وجاء فى نسخـــة (السعى المحمـــود) التى سندرسها انه « شيخنا واستاذنا العالم الربانى » · ووصفه السقا فى (بلوغ المقصود) « بكشاف الحقائق ، ومنبع الرقائق والدقائق ، شيخنا المحفوف باللطف الخفى الخ » · وتوافق هذه الاوصاف المصطبغة بالمشاعر الدينية والصوفية الاوصاف التى اطلقها عليه معاصروه ومواطنه حمدان بن عثمان خوجة ، وهو رجل سياسى واقتصادى · فقد لاحظ خوجة على تكليف الباشا للمفتى (اذا صح انه ابن العنابى) بالدعوة الى الجهـــاد ابان الحملة الفرنسية بأن المفتى كان رجلا صالحا وعادلا ولكنه لم يكن محاربا (49) · ويتفق هذا الحكم تقريبا مع حكم ديرينو الفرنسى المعاصر له أيضا (50) · وعندما تقـرر نـفى ابن العنابى من الجزائر كتب خوجة « كان المفتى سيدى محمد العنابى رجلا نزيها وفاضلا ··· كان يكتب دائما الى كلوزيل يلومه على تصرفاته التى كانت تبدو له مخالفة لوثيقة الاستسلام » (51) · وقد عرفنا انه كان محل ثقة لبعض دايات الجزائر الذين كلفـــوه بسفارة للمغرب واستكتبوه لباى تونس ، كما اصبح محل ثقة محمد على الذى عينـــه مفتى الحنفية بالاسكندرية (52) ·

وهكذا يتضح ان ابن العنابى كان شخصية مرموقة بين قومه فى عصره · ويمكـــن تقسيم دوره الى دينى وسياسى · فالدور الدينى لعبه وهو يباشر وظيفة الافتاء ويتصدر للتدريس ويمنح الاجازات لتلاميذه والمعجبين بعلمه · اما الدور السياسى فيتمثـــل فى صلته بدايات الجزائر وفى موقفه من الاحتلال الفرنسى لبلاده وفى اشادته بدولة آل عثمان (وسنعرف هذا منه) وتوليه وظيفة الافتاء بمصر باعتباره عالما منفيا لاسباب سياسية · ويضاف الى ذلك دوره الفكرى ، وهو الذى يظهر فيما طرحه فى كتابه (السعى المحمود)

---

(49) خوجة ، ص 198 ·

(50) ديرينو ، ص 53 ·

(51) خوجة ، ص 259 · أيضا ديرينو ، ص 155 ـ 156 ، وسعد الله ، ص 69 ـ 71 ·

(52) احتضنت مصر منذ القديم علماء الجزائر ، ومنهم احمد المقرى صاحب (النفح) ويحيى الشاوى ، واقام فيها ابن عمار ، والمقايسى ، وبـوراس · وفى العهـــد الفـرنسى ابن العنابى والكبابطى · وهناك غيرهم كثيرون ، سيما منذ فاتح القرن الحالى ·

من آراء فى الحضارة الغربية وضرورة أخذ المسلمين منها ما يرقيهم وينسجم مع شريعتهم ·
واذا كنا قد تعرضنا الى دوره الاول والثانى ، فقد بقى علينا ان ندرس دوره الثالث ·

* * *

ثانيا ـ كتاب (السعى المحمود) :

النسخة التى اعتمدنا عليها فى هذه الدراسة تحمل عنوان (السعى المحمـــود فى نظام الجنود) · ولكن تعدد النسخ من هذا الكتاب جعل عنوانه يتغير قليلا من نسخة الى أخرى · ونفس العنوان تحمله نسختا اسطانبول (53) ، وكذلـــك نسخـــة محمـد ابن عبد الكريم (54) · اما بروكلمان فقد اورد كلمة « تاليف » بدل « نظـــام » (55) ، وسار الزركلى فى (الاعلام) على نفس النمط (56) · واورد عيسى اسكندر المعلـــوف أيضا كلمة « تاليف » بدل « نظام » نقلا عن نسخة الخزانة التيمورية (57) · ولكـــننا اطلعنا على نسخة فى الخزانة التيمورية فاذا عنوان الكتاب فيها هكذا (السعى المحمود فى تاليف العساكر والجنود) (58) · وانفردت المكتبة البلدية بالاسكندرية باعطاء الكتاب عنوانا فيه تصرف كبير ، فقد جاء فى فهرستها ان لابن العنابى (رسالة فى نظـــــام العساكر الاسلامية) (59) · ويبدو ان هذا عنوان وضعه صـــاحب الفهــرس ، وليس العنوان الاصلى للكتاب · اما ابراهيم السقا ، تلميذ المؤلف ، ومختصر الكتاب فقد جعل

---

(53) محمد بن عبد الكريم ، مخطوطات جزائرية فى مكتبات اسطنبول · دار مكتبـة الحياة ، بيروت 1972 ، ص 159 · فقد ذكر له نسختين ، الاولى بالمكتبة السليمانية ، قســم شهيد على باشا، رقم 1275 ، وتقع فى 182 صفحة · والثانية بنفس المكان، قسم اسعد افندى، رقم 1885 ، وتقع فى 140 صفحة ·

(54) من نسخة صور لى منها مشكورا صفحة العنوان · ولا ادرى مصدرها، ولعلها صورة لاحدى النسختين المذكورتين فى التعليق السابق (53) ·

(55) بروكلمان ، ملحق ، 2 ، ص 739 ·

(56) الاعلام ، 7 ، ص 311 ·

(57) مجلة المجمع العلمى العـــربى بدمشـــق ، م 3 ، (نوفمبر ـ ديسمبر 1923) ، ص 364 ـ 365 ·

(58) دار الكتب المصرية ، الخزانة التيمورية ، مخطوط رقم 1 ضمن مجموع ، رقم 219 ·

(59) فهرس المكتبة البلدية بالاسكندرية ، 4562 ج ، والمخطوط رقم 1 ضمن مجمـوع يحمل الرقم السابق ·

عنوان مختصره هكذا (بلـوغ المقصـود مختصر السعى المحمـود فى تاليف العسـاكر والجنود) (60) ، وهذا العنوان لكتاب ابن العنابى ينسجم مع النسخة التيمورية الـتى اطلعنا عليها ٠

ويتبين مما سبق ان كتاب ابن العنابى قد تعددت نسخه وانه سافر مـن مصر الى اسطانبول ٠ والغريب فى الامر اننا لا نجد ، حسب علمنا ، نسخـة منه فى فهـارس مخطوطات الجزائر٠اما النسخة التى اعتمدنا عليها فهى نسخة سوهاج (مصر) المصورة لدى مكتبة معهد المخطوطات العربية بالجامعة العربية ٠ وهى موجودة فى قسم « فنون حربية وفروسية » ٠ اما فى مكتبة سوهاج نفسها فالنسخة موضوعة فى قسـم « الادب » ٠ ومقاسها 17 × 23 سـم ٠ وخطها رقعى جـيد ٠ وهى من نسـخ السيد محمد الشربينى وبدون تاريخ ، وعدد صفحاتها 120 صفحة (61) ٠ ولو كنا بصدد تحقيق هذه النسخة لقابلناها ببعض النسخ المشار اليها ، ولكن هذا ليس من هدفنا الآن ٠ ولذلك نكتـفى منها بهذا التعريف القصير ٠ وما دمنا قد اطلعنا على نسخة أخرى فى المكتبة التيمورية فلنشر الى انها بخط رقعى جيد ، ومنسوخة فى جمادى الآخرة سنة 1268 (1852) أى سنة بعد وفاة المؤلف ، ولا وجود فيها لاسم ناسخها ، وتقع فى 145 صفحة ٠ وفيها ان المؤلف من علماء القرن الثالث عشر وان الكتاب « فى فضل الجهاد وجواز تنظيم الجند على النظام الجديد » (62) ٠ والملاحظ انها ، بالرغم من نسخها سنة 1268 ، فان اسم المؤلف لا يقترن بعبارة « المرحوم » ٠ وبدلا من ذلك وردت معه عبارة « نفعنا الله ببركتـه » ٠ فهل معنى هذاانه كان ما يزال عندئذ حيا ؟

ولكن ما مكان وزمان تاليف هذا الكتاب ؟ اما المكان فالغالب على الظن انه القاهرة ، لسببين :

(60) أنظر تعليق رقم (46) ٠

(61) تحمل النسخة فى مكتبة سوهاج رقم 678 ٠ اما فى مصورات معهـد المخطوطات العربية فتحمل رقم 22 فى الجزء الرابع الخاص بالمعارف العامة والفنون المتنوعة ٠ وعندى صورة منها على الميكروفيلم ٠

(62) انظر التعليق رقم (58) ٠

الاول : ان اسم المؤلف فى جميع النسخ يأتى مقرونا بعبارة « نزيل مصر القاهرة » ·

والثانى : اننا قد عرفنا ان ابن العنابى قد تصدر للتدريس فى الازهر وأجاز بعض العلماء فى نفس التاريخ الذى ألف فيه الكتاب · ومعنى هذا ان المؤلف كتب كتابه فى القاهرة اثناء اقامة بها غير محددة وان ذلك كان قبل استيطانه اذسكندرية منفيا من الجزائر · واما زمان تأليف الكتاب فمن المؤكد ان المؤلف فرغ منه فى سنة 1242 (1826) لانه قد ضبط ذلك بنفسه بالحروف والارقام · غيران نسخة محمد بن عبد الكريم تضيف تاريخا محيرا (63)، فقد جاء فى صفحة العنوان بعد ذكر اسم المؤلف «نزيل مصر القاهرة» الموجود سنة 1245 · فما معنى كلمة « موجود » هنا ؟ هل تدل على كونه موجودا فى القاهرة أو موجودا على قيد الحياة ؟ ووجه الحيرة من هذا التاريخ هو اننا قد عرفنا ان ابن العنابى كان موجودا ضمن قائمة من تولى الافتاء فى الجزائر بعد سنة 1244 · فكيف نوفق بين وجوده فى القاهرة ، مثلا ، ووجوده فى الجزائر ؟ الواقع انه لا جواب لدينا الآن على هذه النقطة ·

ان عقد العشرينات من القرن الماضى يمثل نقطة تحول فى تاريخ الدولة العثمانية · فبالاضافة الى المسألة الشرقية القديمة هناك الحروب ضد روسيا ، وثورة اليونان ، والثورة الوهابية ، وتهديد محمد على ، وضياع الجزائر · ولكن القضية التى تمس خاصة موضوع كتاب ابن العنابى هى ذلك النزاع الطويل والخطير الذى كان بين السلطان محمود الثانى وفرقة الانكشارية ، وهو النزاع الذى انتهى بالقضاء نهائيا على هذه الفرقة سنة 1826 ، وهى السنة التى الف فيها ابن العنابى كتابه · وكان مصدر ذلك النزاع هو رغبة السلطان فى ادخال النظم الاوروبية الحديثة على جيشه بعد الهزائم التى منى بها على يد الروس خاصة ، بينما كانت فرقة الانكشارية وانصارها يعارضون ذلك اشد المعارضة بدعوى انه مخالف للشريعة الاسلامية ·

واذا كان السلطان ما يزال عندئذ يواجه هذه المعارضة فى الاخذ بالنظم الاوروبية فان محمد على كان قد تجاوز هذه المرحلة وبدأت تظهر النتائج الايجابية من تقليد

(63) انظر التعليق رقم (54) ·

الاوروبيين فى انتصاراته الخارجية وتقدم نظامه فى الداخل · ومن ثمة وجد ابن العنابى الجو ملائما له فى القاهرة ليكتب كتابه ويطرح افكاره بحرية فى قضية خطيرة عندئذ ، كالتى تناولها فى كتابه ، وهى جواز ، بل وجوب ، تعلم الحضارة من الاوروبيين (أو الكفار كما يسميهم) · ولعل ذلك يفسر لنا انتقال نسختين من كتابه الى عاصمة الدولة العثمانية التى كانت فى حاجة الى مثل رأيه ، كما يفسر لنا تكليف محمد على للسيد ابراهيم السقا باختصار (السعى المحمود) وجعله فى متناول القراء ، لانه كتاب يساير الاتجاه الذى كان هو يعمل بمقتضاه · وقد روى ابن العنابى فى مقدمة كتابه هذه الظروف بشىء من الاختصار · فالاوروبيون ، فى رأيه ، قد نظموا جندهم ليضروا بالاسلام وأهله · وامام هذا الخطر اصبح من المحتم على المسلمين ان يتعلموا منهم ما اخترعوه من صنائع ونظم ، لان فى ذلك مصلحة عليا للدين والامة الاسلامية · فقد قال « لما حدث فى هذه الاعصار الآخرة ، تطاول طغاة الامم الكافرة ، بترتيب اجنادهم على طريقة محكمة ابتدعوها ، وتدريبهم على فنون حيل اخترعوها ، قصد المكيدة للاسلام وأهله ، وسعيا فى استباحة حماه وتمزيق شمله ، ··· عظم الخطب (64) فدعت ضرورة الحال الى استعلام ذلك من قبلهم ، والتدرب على ما ألفوا من صنائع وحيلهم » · وقد أشار ابن العنابى الى ان الدولة العثمانية قد اخذت بهذا النظام الجديد ، وهذا يدل على ان تأليفه كان قريب عهد بحادثة الانكشارية · كما لمح الى ان هذا النظام لم يكن مقبولا لدى الجميع ، وان هناك معارضة له من بعض رجال الدين وبعض الجنود المتمسكين بالنظام القديم ، وحتى من بعض المترمتين من شرائح المجتمع الاخرى · فقد قال فى هذا المعنى « فرتبت العساكر الاسلامية على نحو من ذلك نظاما جديدا ، وصدر به من جانب السلطنة العلية ، ادام الله تأييدها ، وضيقت ملابس الجند، واختصرت، وفننت ألوانها وقصرت ، فاستكره ذلك اناس ··· » (65) ·

اما الدافع الذى حمل ابن العنابى على وضع هذا الكتاب فالظاهر انه اجابة احد السائلين المستزيدين من آرائه فى الموضوع · ذلك ان موضوع تجديد الجيش والاخذ

(64) هنا كلمات غير مقروءة على الميكروفيلم ·
(65) السعى المحمود ، المقدمة ·

باسباب الحضارة ، أو اذا شئت الخصام بين انصار التقليد والتجديد ، كان على اشـــده خلال عقد العشرينات ، وكان حديث المجالس ، ومدار الدروس ، ولعله كان أيضا مصدر الهمس والنكتة • ومن ذلك ما جرى فى احد المجالس التى حضرها ابن العنـــابى فى القاهرة • وقد نطق اثناء ذلك بكلام جعل بعضهم يرسل اليه ، بعد افتـــراق المجلس ، طالبا منه كتابة رسالة فى الموضوع • وهذا نص كلامه فى عبارات مسجعة ثقيلة « وقـــد جرى بينى وبين افاضل الاخوان ، فى مجمع انس جاد به الزمان ، كلام علق منه بباله ، فوجه الى خطابه بكتابة جواب على منواله ، فلزمنى ان اسعفه بما رام ، وازيده بسطـــا يناسب المقام ، فاقول فى جوابه ، متلذذا بتجديد خطابه » • (66)

ولكن هذا دافع تقليدى لتاليف الكتاب ، فالمؤلفون كثيرا ما يخلقون شخصا يطلب منهم أو يحثهم على وضع كتاب فى الموضوع الذى اختاروه • فهل كان بطل ابن العنابى حقيقيا أو تصوريا ؟ واذا كان حقيقيا فمن يكون يا ترى ؟ هل هو من اصحاب محمد على نفسه الذى امر فيما بعد ، كما عرفنا ، ابراهيم السقا ، باختصار الكتـــاب ؟ واذا كان تصوريا فهل كان اقتناع ابن العنابى شخصيا بفكرة تجديد الجيش وتقليد الحضـــارة الاوروبية اقتناعا كاملا جعله يقدم على هذا العمل تلقائيا ليدعو الى مذهب التجديـــد الذى آمن بفوائده على دينه وقومه ؟ ومهما يكن بطل ابن العنابى ، حقيقيا أو تصوريـــا ، فان اقدام المؤلف على هذا العمل يخدم انصار التجديد عندئذ ، وفيهم السلطان محمود الثانى ومحمد على والى مصر ، كما يخدم نزعة شخصية واضحة لدى ابن العنابى •

ذلك أن ابن العنابى لم يكن شخصية بسيطة ولا ضيق الافق • فقد عرفنا انه مـــن اسرة توارثت القضاء والافتاء ، وكانت قريبة من مقاليد السلطة وذوى النفوذ فى البلاد • وكان هو شخصيا قد تولى ، الى جانب وظائفه الدينية ، بعض المهمات السياسية • وكان قد شاهد اسطول بلاده يتحطم امام الغزو الانكليزى ـ الهولاندى ، وامـام الاسطـول الامريكى فى فترة قصيرة ، ولاحظ مدى الصراع على السلطة لدى (الوجق) أو الانكشارية فى الجزائر • وقد تجول فى البلاد الاسلامية فرأى ما عليه حال جيش المغرب الاقصى ، وما عليه حال جيش مصر بقيادة ابراهيم باشا ، وسمع عن انتصارات الاوروبيين عـــلى

(66) نفس المصدر •

انكشارية الدولة العثمانية ، وعاش فى زمن شهد الحروب النابوليونية ومؤتمر فيينا . فهل نستغرب منه بعد ذلك ان يكتب (السعى المحمود) داعيا فيه الى تجديد الجيوش الاسلامية والاستعداد للجهاد الحق على غرار ما كان عليه الجهاد زمن الانتصارات الباهرة ؟ وهل نستغرب منه أيضا تأييده لحججه بالايات والاحاديث وآراء المجتهدين من ائمة الاسلام الاوائل ليبرهن على ان دعوته نابعة من الكتاب والسنة والسلف وانها فى صميم التقاليد الاسلامية ؟ . ومما يلفت النظر ان ابن العنابى يرى ان ما جاء به الاوروبيون من جديد فى نظام الجيش تتلازم فيه الفكرة العسكرية والسياسة للارتباط الوثيق بينهما ، لانه لا جيش بدون حكم ولا حكم بدون جيش . وقد جاء فى نص كلامه ما يلى « اعلم أولا انه قد عرف ان ترتيب نظام الجند على الوجه الذى ابتدعه الكفرة يحصره امران : احدهما أمور حربية ، والثانى أمور سياسية » .

واعتبارا لهذه الفكرة قسم ابن العنابى كتابه الى قسمين رئيسيين ، اطلق على كل منهما عبارة « مقصد » ، وهما : المقصد الاول فى الامور الحربية ، والمقصد الثانى فى الامور السياسية . وفى نهاية الكتاب جاء بخاتمة طرح فيها ما لم يذكره فى المقصدين من افكار . والمقصد الاول هو اساس الكتاب ، فكرة وحجما . اما الافكار فسنتعرض اليها ، واما الحجم فقد خصص له 97 صفحة من مجموع 120 صفحة . وبينما قسم هذا المقصد الى ستة عشر فصلا ، اكتفى فى المقصد الثانى بايراد افكاره دون منهج . مهملا استعمال الفصول . وهذه الخطة تنسجم تماما مع عنوان الكتاب الذى يجعله خاصا بنظام الجند ، أى بالامور الحربية . واذا كان هذا صحيحا فان اشتمال الكتاب على قسم خاص بالامور السياسية يصبح خارجا عن الموضوع . غير اننا سنعرف لماذا جاء المؤلف بهذا القسم فى آخر الكتاب .

ولنذكر الآن عناوين الفصول الواردة ضمن المقصد الاول (الامور الحربية) ، ثم نعود اليها بشىء من التفصيل ، وقد فضلنا وضع رقم ازاء كل فصل ليعرف القارىء حجم كل فصل من الكتاب :

وبعد هذه الفصول يأتى المقصد الثانى (الامور السياسية) وهو من صفحة 99 الى صفحة 111 . اما باقى الصفحات فهو للخاتمة . وقد اعطى المؤلف شبه عنوان للخاتمة أيضا فقال انها « فى أمور شتى من أسباب النصر والقوة » .

* * *

هذا هو الاطار العام أو الهيكل الذى بنى عليه ابن العنابى كتابه ، فما محتواه ؟ وما الافكار التى بثها فى ثناياه والتى كانت الدافع الحقيقى على تأليفـه ؟ . اننـا نعتقد ان ابن العنابى قد وضع أفكاره الاساسية فى أمكنة ثلاثة من الكتاب . الاول فى مقـــدمة

المقصد الاول (الامور الحربية) ، والثانى فى الفصل الرابع عشر الذى اشاد فيه بدور آل عثمان فى التاريخ ، وامتدح رجالهم المعاصرين ، ونصح القائمين منهم من مغبة التهاون والاستبداد ٠ والثالث فى الفصل الاخير (جواز تعلم العلوم الآلية من الكفرة) ٠ أما بقية عناصر الكتاب فموضحة أو مكملة لهذه الافكار الاساسية ٠

وقد عرف ابن العنابى الامور الحربية بانها كل قوة مادية أو معنوية لردع الاعداء والحط من شأنهم ٠ واعتبر كل ذلك أمرا شرعيا ٠ ومما جاء من كلامه فى هذا المعنى قوله : « نعنى بها كل ما انتج قوة محسوسة أو معقولة على دفاع الاعداء وارهابهم واغاضة نفوسهم واتعابهم » ٠ فكل هذه المعانى أمور شرعية ، لان فيها اذلال الكفرة وعز الاسلام ، وانه المقصود الاعظم من شرعية الجهاد » ٠ فالمؤلف هنا لا يكتفى بتقرير الحقيقة ولكنه يجتهد فيربط بين القوة ونصرة الدين وحكمة الجهاد ٠ ثم توسع فى هذا المعنى واضاف اليه فكرته عن النظام العسكرى الجديد ٠ ولخصه فى ان كل ما يفيد المسلمين ويرفع من شأن الدين فهو شرعى ، ولو جاء ذلك من الاروبيين ، ولو كان مبتدعا منهم غير معروف لاهل الاسلام ٠ ونورد هنا عبارته ، رغم ما فيها من حشو ، اذ أن آخرها هو خبر بدايتها المفصولة بكلام طويل :

« فكل ما يفيد منفعة لها تعلق باعزاز الدين ورفعة أهله ، مما اشتمل عليه النظام المستجد للكفرة من ترتيب العساكر ، وتصفيفهم ، وحصر اعدادهم ، وتعديد قوادهم ، وعرفائهم ، ولتسويم اصنافهم وكبرائهم ، بخصوص لباس أو علامة ، وتضييق ملابسهم ، وتقصيرها ، وتعيين مواقفهم وعملهم ، وتخصيص كل فريق براية أو لواء ، ثم تدريبهم على عمل الحرب لتعليمهم كيفية الرمى والطعن والضرب ، وغير ذلك مما يقتضيه امر الحرب من تصفيف واغارة ، واجتماع وافتراق ، واقدام واحجام ، وكر وفر ، وركوب ونزول ، وظهور وكمون ، وتحريض وتثبيت ، ورفع صوت وخفضه ، ورد منهزم ، وحراسة ، وغير ذلك مما قد تدعو اليه الحاجة فهو أمر مشروع » (67) ٠

وكان ابن العنابى كان يجيب بالحديث التالى سائله ويوضع له اسس الفكرة التى يدعو اليها ٠ فهو يخاطبه بقوله ان الاروبيين اذا اخترعوا عتادا حربيا جديدا قد يضر

(67) نفس المصدر ، ص 3 ٠

بالمسلمين فما على هؤلاء الا أن يتعلموه ويحذقوه ، بل عليهم ان يسبقوا فى ذلك أصحاب الاختراع انفسهم • واذا اقتضى الامر عدم تعلم ذلك الاختراع الا منهم وجب على المسلمين ان يتعلموه منهم ما دام ذلك فى قدرتهم ، لانه لا يعقل ان يواجه المسلمون هذا الاختراع الجديد الفتاك بأسلحة بالية غير فعالة • فالتمسك بالتقاليد القديمة فى هذا المجال يلحق بالمسلمين الهزيمة والهوان ، وهو امر ضد الدين وضد الرجولة • وتطوير هذه الفكرة عند ابن العنابى ، على النحو الذى سبق ، يتماشى تماما مع ما كان ياخذ به محمد على والى مصر • فقد كان لا يكتفى بتقليد الاروبيين فيما اخترعوه بل كان يأتى بهم ليعلموه الى المسلمين أو يبعث بهؤلاء اليهم فى مواطنهم • فابن العنابى فى الواقع كان يبارك هذه السياسة من محمد على ويقنع الناس بها • فكتابه اذن من كتب الدعاية ، اذا صح هذا التعبير • واذا عرفنا انه أيضا كان يشيد بالخطوات التى قطعتها الدولة العثمانية بهذا الصدد عرفنا انه كان يبارك أيضا اتجاهها نحو التجديد • وها نحن نورد نص عبارته فى ذلك المعنى ملاحظين انه ، خلافا لبعض النصوص السابقة ، لم يستعمل فيها السجع ، ولكنه احتفظ فيها بالجملة الطويلة المعقدة ، ولاسيما الجملة الاخيرة من الفقرة :

«••• وانهم (يعنى الكفار ـ الاروبيين) اذا ابتدعوا من أدوات الحرب وصنائعه أمرا له موقع لا نؤمن من استطالتهم به علينا ، لزمنا بذل الوسع فى تعلمه واعداده لهم والاجتهاد فى مجاوزتهم فيه • وانه اذا لم يكن استعلام ذلك الا من قبلهم ، وجب استعلامه منهم لانه مستطاع لنا • وانهم اذا اعدوا لنا صواعق البارود فاعددنا لهم القسى والمنجنيق ، اللذين صارا اليوم كالشريعة المنسوخة ، أو اقتصرنا على السيوف والبندقيات ، أو شمروا لنا الثياب فاعددنا للقائهم الثياب المجررة والاكمام المطولة ، والعمائم المكبرة لم نخرج عن عهدة الامر ، ولزمنا الاثم والعار ، فلا غرض الشارع حصلنا ولا سبيل الرجولة سلكنا » (68) •

ونحب ان يتامل القارىء في هذه المقابلات والصور التى يجريها ابن العنابى فى كلامه • فصواعق البارود تقابلها القسى والمنجنيق ، والتشمير على الثياب تقابلها الثياب المجررة ، والعمائم المكبرة والاكمام المطولة • وصورة اتباع الشرع يقابلها البوء بالاثم ،

(68) نفس المصدر ، ص 11 ـ 12 •

وصورة الرجولة يقابلها العار . وهكذا . كما أن عبـارة « الاجتهاد في مجاوزتهم فيه » تبرهن على أن المؤلف لا يدعو الى التقليد فقط ولكن الى القوة والتفوق . واعتباره الاسلحة القديمة (القسى والمنجنيق) « كالشريعة المنسوخة » يعبر عن صورة في نفسه من جهة وعن ثقافته الدينية من جهة أخرى . فالمؤلف يجمع في هذا النص بين الدعوة الى الاخذ بأسباب الحضارة الاروبية ، والحث على التفوق واليقظة والاجتهاد ، والعتاب على التمسك بالامور البالية التي تخالف الشريعة والرجولة معا .

ولكي يقنع المتزمتين من قومه ، المدعين في بقائهم على ما هم عليه بالتمسك بالدين ، قال ابن العنابي ان ما تقدم من كلامه يدل على اعجاز القرآن وانه تعالى ما فرط في الكتاب من شيء . ذلك ان كل ما جاء به من افكار حول أسباب القوة والتفوق له « شواهد ... من الكتاب والسنة » . وعلى هذا الاساس بنى كتابه ، لانه ، كما لاحظنا ، يطرح الفكرة ثم يحشد لها من الشواهد القرآنية والاحاديث النبوية ما تصير معه مقنعة ، في نظره ، للمتزمتين والمترددين من قضية التجديد وتقليد الاجانب والتعلم منهم .

وطريقة ابن العنابي في الفصول التي ذكرناها بسيطة وواضحة ، فهو يبدأ بتعـريف الفكرة التي حملها عنوان الفصل ، ثم يروى لنا ما جادت به حافظته ونقوله من الشواهد والامثال ، وحتى الاشعار احيانا ، ومن المواقف والتجارب السابقة للنبي (صلى الله عليه وسلم) والصحابة والخلفاء والقواد الكبار . واذا اراد هو ان يتدخل في الموضوع بـرأى فانه يستعمل له عبارة «قلت كذا» او «قلت وهو الاوجه عندى» ترجيحا لرأى دون آخر. وهو ينقل كثيرا عن المؤلفين السابقين حـول الموضوع كالطبراني والطرطوشي والغزالي . وينقل ايضا عن جده الاعلى كما سبق ان اشرنا ، وعن ابن عبد الحكم والوزير السـراج (صاحب الحلل السندسية في الاخبار الاندلسية) ، وحسين خوجة (صاحب بشائر اهل الايمان بفتوحات آل عثمان) ، وغـيرهم .

فقد عرف تجنيد الجند (69) بانه جمع الاعوان والانصار لحماية الاسلام وجهاد الكفار وارهابهم ، مستدلا على ذلك بحديث البيعة مع الانصار ، وتحدث عن واجب الامـام في

(69) نفس المصدر ، الفصل الاول .

مثل هذه الاحوال ، وعن الجهاد الواجب والمستحب . وعرف ترتيب الجند (70) بأنه «تنزيل كل منهم في خصوص مرتبة تليق به بحسب ما له من خصال» وهذا هو معنى الجدارة والاستحقاق في نظم اليوم ، فالتفضيل هنا بحسب الكفاءة لا بحسب المال او الجاه . ومما تجدر ملاحظته بهذا الصدد انه قال : ان هذا التصنيف يطابق الآية الكريمة « **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** » ، مفسرا العلم هنا بأنه جنس العلم «الشامل لكل علم شرعي وكل علم له ثمرة تتعلق باقامة امر شرعي» . وهذا طبعا اجتهاد منه قصد به تاييد رأيه في جواز تعلم العلوم من الاجانب اذا كان فيها منفعة للاسلام وأهله . وقد اضاف بان العالم بفنون الحرب يستوي مع العالم بأمور الشرع . بل انه اعتبر العالم بفنون الحرب من العلوم الشرعية قائلا « فمن العلوم الشرعية العلم بكيفية الحرب ، وعمله وتدبير أمره ، وتصريف حيله بهذه المثابة (أي من العلوم الشرعية) اذ لا تكاد تتم اقامة الجهاد المفروض الا به . فالعالم به مندرج في عموم علماء الشرع» . (71) ويشترط في الجندي ان يكون شجاعا ، ولكن غير متهور ، لان الشجاعة فضيلة ترشح صاحبها لقيادة الجنود ، اما التهور ، وهو الخروج عن حد الشجاعة ، فمذموم ولا يصلح المتصف به لرياسة الجند « ذ ربما غرر بهم فالقى بهم الى التهلكة» . (72) وبعد توفر الشجاعة يصنف الجند ، في نظر المؤلف ، على حسب الفضيلة والغنى . وقد عمم هذه القضية فقال بانه «ينبغي ان يراعى ذلك (ايضا) في تدوين الدواوين وتوفر العطايا» معتمدا في ذلك على سيرة الخليفة عمر بن الخطاب .

وعند ما تحدث عن تصنيف الجند (73) اورد كلاما يعتبر اليوم ، وفي عصر القوميات ، محل نظر . فقد قال بان تصنيف الجند يعني جعل كل صنف منهم على حدة ، اقتداء بسيرة الرسول الذي صنف جيشه «اصنافا مصنفة ، كل قبيلة على حدتها متميزة عن غيرها» . والى هنا يمكن أخذ كلام المؤلف على انه رواية تاريخية قابلة للمناقشة . ولكنه

(70) نفس المصدر ، الفصل الثاني .
(71) نفس المصدر ، ص 18 .
(72) نفس المصدر ، ص 21 .
(73) نفس المصدر ، الفصل الثالث .

يتدخل فى الامر مرجحا هذه الطريقة فى الربع الاول من القرن التاسع عشر ، الـــذى كانت فيه الشعوب الاروبية خاصة تعلن عن نهاية عصر القبيلة والاقطاع واقامة كيانات على اساس «القومية» التى تذوب فيها جميع عناصر شعب من الشعوب ، ولا سيمـا اذا كان الامر يتعلق بخطر خارجى يحدق بهذه القومية ٠ ومما يلفت النظر ان ابن العنـابى يقيم دعوته على التجربة الشخصية، قائلا «وذلك (اى التصنيف حسب القبيلة) ما لا يخفى على من جرب» ٠ ولكن اذا تذكرنا الظرف الذى كان يكتب فيه ابن العنابى ، ووضـــع العالم الاسلامى عندئذ ، وشيوع الاقطاع والقبلية وما اليها ، عذرناه فيما ذهب اليـه ٠ وفى تدخله الشخصى فى هذا الموضـوع قال «وهذا (يعنى التصنيف حسب القبيلـة) ما يقتضيه حسن السياسة فى تدبير أمر الجند ، تحرزا من الاختلاف وافتراق الكلمـة ، لما فى خلط الفرق المختلفة من تعريضهم لثورات الفتنة بينهم ، وبسبب اختلاف طباعهم وميل كل فريق لمن انتسب اليه بمقتضى الطبع البشرى ، وافراد بعضهم عن بعض ادعـى للالفة وحسن العشرة ، لان بناهما على اتحاد الطبع وتقاربه ، ولاتحاد الوطن والحال اثر عظيم فى ذلك ٠٠٠ وذلك ما لا يخفى على من جرب» ٠ (74)

ويسير على نفس النسق فى ضبط عدد الجند وقواده وتسويمه (75) ، ولكنه يختصر الكلام اختصارا ، ولا يكاد يأتى حول هذه الموضوعات بجديد ٠ وقد رتب عدد الجند عـلى نماذج من غزوتى أحد وبدر ، ناقلا للحديث الشريف «خير الصحابة اربعة ، وخير الرايات اربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا يهزم اثنى (كذا) عشر ألفا من قلة»٠وقد تحدث عن الطاقة واتفاق الكلمة فى الجيش باعتبارهما شرطا لمواصلة الجهاد ٠ ويكتفى فى كل ذلك بالنقول ولا نكاد نظفر له برأى شخصى ٠ اما قائد الجند فقد عرفه بأمير اللواء الذى تنقاد اليه الجيوش ، وعرف العريف بالنقيب ، وبين ان السيرة النبوية واضحة فى ان الرايات والالوية لا يحملها الا المتقدم على القوم ٠ واضاف بأن «النظام المستحدث» يرتب الجنـد على المئين والعشرات ، ويدخل فى ذلك تسويم الجند بمعنى وضع العلامات ، ناقـلا عن جده فى تفسيره ان التسويم من المسومة وهى العلامة التى توضع على الشاة وغـيرها ٠

(74) نفس المصدر ، ص 23 ـ 24 ٠
(75) نفس المصدر ، فصول 4 ، 5 ، 6 ٠

وكذلك الشعار أو العلامة أيضا · والمعمول به هو ان يختار أمام المسدين كلمة أو عبارة ترمز الى الانتصار على العدو تفاؤلا · وفي كل هذه الامور يورد المؤلف الآيات والاحاديث والمواقف ، ولكنه يقف عندها ولا يظهر هو فيها برأى او تعليق ·

ومن القضايا التى تحدث عنها فى بداية الكتاب ثم خصها بفصل متوسط (76) حديثه عن لباس الجند · ورأيه فى ذلك معتمد على السيرة النبوية والصحابة الذين قال عنهم انهم كانوا يضيقون اللباس فى وقت الحرب · وقد قيد ضيق اللباس بهدف المنفعة كالخدعة او دفع البرد وليس التشبه بالاعداء · ومن الجدير بالذكر هنا هو انه قال ان «الكفار» هم الذين كانوا يجررون الثياب · وقد قال بان «الافضل ان يكون منتهى طول الثياب الى نصف الساق ، وان الزيادة على ذلك الى منتهى الكعب مرخص فيها من غير تضييق ولا تأثيم ، وان ما اسفل الكعبين غير مرخص فيه بل متوعد عليه بالنار» · وقد اعتمد فى بعض اخبار هذا الفصل على رأى جده المذكور · كما اعتمد عليه فى حديثه عن تعيين مواقف الجند · (77) ولا تكاد شخصية ابن العنابى تظهر هنا ايضا ، فالفصل كله عبارة عن مستخرجات من حافظته ، مع الاشارة الى النهى عن تزحزح الجندى من مكانه واستعجاله الغنيمة قبل الانتهاء من المهمة المسندة اليه · ونفس الشىء تقريبا اتبعه فى عقد الالوية والرايات · (78) فقد اكتفى بتعريف اللواء بانه علم صغير بخلاف الراية التى هى علم اكبر من اللواء واصغر من البندق (او البيذق) · وتمشيا مع هذا الاتجاه نقل عن السيدة عائشة ان لواء الرسول كان ، يوم الفتح ، ابيض ، وان رايته كانت سوداء وتدعى «العقاب» · ولاحظ وجوب ايثار قواد الجيوش بالراية او العلم الاكبر اظهارا للتواضع حسب تعبيره ·

ويبدو ان شخصية المؤلف تظهر تدريجيا فى كتابه ، وخاصة فى حديثه عن التدريب على الاعمال الحربية ، وعن الحصون والخنادق والاسلحة ، وعن حيل الحرب · (79) فقد عرف

(76) نفس المصدر ، الفصل السابع ·
(77) نفس المصدر ، الفصل الثامن ·
(78) نفس المصدر ، الفصل التاسع ·
(79) نفس المصدر ، فصول 10 ، 11 ، 12 ·

التدريب على انه من الدربة (بالضم) وهو «تعليم صناعة الحرب التى هى علم بكيفية اعماله ، مع مباشرتها ، لتحصيل ملكته التى هى كيفية نفسانية تصدر عنها افعاله الاختيارية من غير روية» ، وهو تعريف معقد مؤداه ان الجندى يتدرب على فنون الحرب باستعمال ادواتها وخوضها عمليا حتى يصبح قادرا عليها تلقائيا • وآلات الحرب التى ذكرها كثيرة ، منها المنجنيق والحراب والمصارعة • والغريب انه لم يستعمل اسماء حديثة لهذه الآلات ، سيما وقد عرفنا انه يدعو الى التجديد ، وانه اعتبر المنجنيق «كالشريعة المنسوخة» • وقد سبق له ان ذكر فى المقدمة عبارة «صواعق البارود» فى مقابلة الآلات المذكورة • وعدد بعد ذلك جملة من الامور التى على الجندى التدرب عليها ، واذا شئت بلغة اليوم ذكر برنامج التدريب العملى والنظرى للجندى ، مثل الاجتماع والافتراق ، والاقدام والاحجام ، والكر والفر ، والظهور والنزول ، والتجلد للاعداء ، والتثبيت والتحريض ، ورفع الصوت وخفضه ، والحراسة ، وركوب البحر ، وغير ذلك • ويتصل بهذا اقامة الحصون وحفر الخنادق والاحتساب فيها • وقد أورد هنا رأيا شخصيا له عبر عنه بقوله « قلت ومن فرط فيها (الخنادق) استهوانا لامر عدوه ، واغترارا بكثرة جنده ، فقد مكن عدوه من تبييته ، وعرض نفسه للهزيمة والمعرة » (80) • وأما حيل الحرب فهو يعنى بها زرع الجواسيس فى صفوف العدو ، وتحطيم معنويات العدو بمنح الهدايا لقواده ، ودس الكتب على ألسنتهم ، واستعمال الخدعة • وقد أورد بهذه المناسبة قصة طويلة من حروب الاندلس •

وفى حديثه عن الحزم (81) يقترب المؤلف من عصره رواية ورأيا • فقد عرف الحزم بأنه ضبط الرجل أمره واخذه بالثقة والمشاورة ، لان الرأى هو اساس الانطلاق نحو النجاح ، ولذلك جاء ببيت المتنبى المشهور :

الــرأى قبـل شجـاعة الشجعــان فهــى أولا وهــو المحــل الثــانى

كما جاء بخبر عن المؤرخ ابن عبد الحكم خاصا بفتح الاسكندرية • وحول المشاورة وأهميتها نقل قصة طويلة عن فتح الاندلس أيضا على يد طارق بن زياد ، ونقل قصة

(80) نفس المصدر ، ص 69
(81) نفس المصدر ، الفصل 13 •

أخرى فى نفس المعنى عن حرب الاحباش والفرس من كتاب (الحلل السندسية فى الاخبار التونسية) للوزير السراج • وختم ذلك بقوله « فانظر ماذا يتأتى على الملوك اذا عرفوا فى الحروب من الحيلة ••• بالمكيدة » • أما عن كتاب (بشائر أهـل الايمان بفتوحات آل عثمان) لحسين خوجة فقد جاء بقصة السلطان العثمانى ، مراد الاول الذى أهمل الحزم فقتله عدوه الجريح خدعة • ولنلاحظ أنه لم يشر بشىء الى وقائع الحملة الفرنسية عـلى مصر ، رغم حداثة عهدها ، فهل كان لميول محمد على نحو فرنسا أثر فى ذلك ؟ كما أنه لم يستشهد بحوادث معاصرة له فى الجزائر •

ولكن ابن العنابى يدخل عصره حقا فى تناوله رحمة الضعفاء واجراء العدل وبـذل الحقوق لمستحقيها (82) • والواقع ان زجه بهذا الموضوع « السياسى » وسط حديثـه عن « الامور الحربية » قد جعله وكأنه هو المقصود بالذات من الكتاب كله ، رغم نشازه • فهو فصل معقود لتمجيد آل عثمان وتفضيلهم على غيرهم ، واظهار دورهم فى التاريخ ، ثم تحذير المعاصرين منهم من الظلم والاستبداد والانحراف عن سيرة أجدادهم • ولذلك مهد لهذه المعانى بقوله « ان قسوة القلب على الضعفاء ، والجـور فى الاحكام الشرعية ، ومنع الحقوق من مستحقيها ، والايثار بها لمن لا يستحق ، من أسباب خراب الملك وزوال الدولة » • ويظهـر ابن العنابى مـؤرخا ونـاقدا سياسيا وواعظا عند تناوله لتـدهور واضمحلال الدولة العباسية لقسوة حكامها وجورهم ومنعهم الحقوق من أهلها وتقديمهم لها من لا يستحقها • وكان ذلك ، فى رأيه ، فى أخريات تلك الدولة حينما منح حكامها « الاموال العظيمة للمغنين والشعراء وأهل اللعب والبطالة ، وأهملوا الرعية ، وركنوا الى اللذات واشباع الشهوات ، كما يعلم ذلك من سيرهم فى الكتب المطولة » (83) •

وهذا درس قاس لسلاطين آل عثمان أيضا ساقه المؤلف اليهم بطريقة غير مباشرة • ذلك أن عاقبة العباسيين فى اتباعهم تلك السيرة كانت زوال ملكهم بعصيان الممالـك الاسلامية فى اطراف الدولة ، ثم تسلط عليهم التتار فابادوا ملكهم ومحوا اسمهم مـن الوجود ، فضعف شأن البلاد الاسلامية ، ولاسيما الجزء المشرقى منها • فمن انقذ الاسلام

(82) نفس المصدر ، الفصل 14 •
(83) نفس المصدر ، ص 90 •

اذن من كبوته واقاله من عثرته ؟ انهم العثمانيون طبعا ، اذ لولاهم لكانت العاقبة سوءا ٠ فهم الذين وردت فيهم الاحاديث النبوية وتم على ايديهم النصر بفتح القسطنطينية ، وهم القائمون اليوم (زمن المؤلف) على النهوض بهذه الدولة ٠ فعلى هؤلاء الاعقاب ان يكونوا خير خلف لخير سلف ٠ هذه هى الافكار الرئيسية التى أوردها ابن العنابى فى هذا الفصل الهـــام ٠

وعلينا الآن أن نأتى على بعض نصوص منه ٠ فقد قال عن أهمية الدولة العثمانية ، بعد وصفه لسقوط الدولة العباسية ، ما يلى : « ولولا ظهور الدولة العثمانية ـ أعلى الله مقامها ، ورفع بالتأييد والنصر أعلامها ـ فجدد القائمون باعبائها معالم الدين ، وأحيوا ما اندرس من شريعة سيد المرسلين، لاتسع الخرق، وعم الفساد سائر الخلق» ٠ فالمؤلف اذن صريح فى عواطفه العثمانية ، ولا غـرابة فى ذلك فهو منحدر من أسرة تركمانية (84) ، خدمت العثمانيين فى الجزائر زمنا طويلا ٠ ولذلك نقل الحديث الشريف الذى يقـول : « لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الامير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش » ، مؤكدا عـلى أنــه حديث صحيح الاسناد ٠ وقد علق عليه بقوله : « ففى هذا الحـديث الكريم منقبة عظيمة ومأثرة جسمية لآل عثمان اختصوا بها من بين سائر ملوك الاسلام » ٠ ولكى تتم الصورة التى وضعها ابن العنابى لآل عثمان اعتبر محاولات الامويين والعباسيين (العرب) لفتح القسطنطينية مجرد مناوشات ٠ أما الفتح الحقيقى لها فهو الذى تـم على ايـــدى آل عثمان ٠ فالمقصود اذن من كلمة « أمير » المبشر به فى الحديث هو «أبو الفتوحات محمد» (محمد الفاتح) وانها بعد ذلك تعم كل خلفائه سلاطين (أمراء) آل عثمان ٠

ولا نعتقد أن ابن العنابى أتى بجديد حول هذه النقطة ، لان الموضوع قد أخذ بـه كل المؤيدين للدولة العثمانية خوفا أو طمعا أو اقتناعا ، ولكن الجديد فى الموضوع هو انتماء ابن العنابى الى هذه الطائفة والاخذ برأيهم ٠ ولعل ابن العنابى يفترق على هؤلاء فى توجيهه النصح الى القائمين عندئذ على شـــؤون هذه الدولة بأن يكونوا أقوياء وان

---

(84) جاء فى اجازة محمد الطيب الفاسى لمصطفى بن رمضان العنابى ما يلى :
أقـول مجيبـا مفصحـا بلسـانى اجـزت الفقيـه المصطفى التركمانى
من رسالة البوعبدلى الى المؤلف ٠

يراعوا حرمة وحق الرعية وأن يسيروا على هدى الصالحين من سلفهم ، لان ذلك هو سر وجودهم وسر بقائهم أيضا . وهذه عبارته « فعلى القائم منوم (85) أن يعرف حق رتبة شرفه فيجرى على طريقة الاكرمين من سلفه ، فان بذلك سعادة الدنيا والآخرة (86) . ولاشك أن هذا من المؤلف موقف سليم ، فهو يظهر النواحى الايجابية لهذه الدولة ورجالها ويحذر من النواحى السلبية التى قد يكون فيها خرابها ونهايتهم كما كانت الدولة العباسية وخلفاؤها . ولذلك أيضا نصح باتباع الرحمة ، وتوفير العدل ، ومراعاة حقوق الضعفاء . ولامر ما أورد بعد ذلك مباشرة حديثه عن اجتماع الكلمة والاتفاق (87) ، مكتفيا فيه بتفسير قوله تعالى « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ناقلا فى ذلك عن غيره ، دون أن يكون له أى أثر أو رأى .

أما الموضوع الرئيسى الثالث والاخير فقد خصصه للحديث عن « جواز تعلم العلوم الآلية من الكفرة » (88) . والعنوان ، أو اذا شئت ، الفتوى واضحة . ولكن ابن العنابى تدرج فى اصدار رأيه . فهو لم يجد آية أو حديثا صريحا عن جواز تعلم العلوم الآلية من الاروبيين ، ولذلك راح يبحث فى نصوص أخرى يمكنه بعدها أن « يقيس » عليها . فقد جاء أولا بأحاديث عن جواز تعلم اللغات من غير المسلمين ، مثل حديث تعلم السريانية الموجه لزيد بن ثابت ، لان كتبا كانت تأتى للرسول بها ، فتعلمها الصحابى فى سبعة عشر يوما ، كما تعلم العبرية فى نصف شهر . وقد استنتج ابن العنابى من ذلك جواز تعلم الكتابة أيضا من غير المسلمين ، ودل ذلك الجواز غير المشروط ، فى نظره ، على « جواز تعلم العلوم الآلية التى لها منفعة فى أمر الدين من الكفار » . ولا يتوقف الامر عند تعلم اللغات والكتابة بها من غير المسلمين بل يتعداه الى جواز تعلم كل معارفهم اذا توقف عليها أمر من أمور الدين ، لانه اذا جاز تعلم اللغة السريانية واللغة العبرية والكتابة بهما ، « فغير ذلك من معارفهم الصناعية التى لها موقع فى أمر الدين ، كالذى نحن فيه ، بالاولى » . ومن هذه المعارف أيضا الطب والحساب اللذان يعتبران من علوم

(85) يعنى بدون شك السلطان محمود الثانى .
(86) السعى المحمود ، ص 92 .
(87) نفس المصدر ، الفصل 15 .
(88) نفس المصدر ، الفصل 16 .

فلاسفة غير المسلمين ، حسب تعبير ابن العنابى . وقد اعتبر شيوخ ابن العنابى هـذين العلمين فرض كفاية على المسلمين . وهذه هى عبارته فى ذلك « وعن هذا ونحوه (يعنى المعارف الصناعية للكفار) عد جمع من مشائخنا وغيرهم ، الحساب والطب فى جملـة العلوم المفروضة على سبيل الكفاية ، مع انهما من علوم كفار الفلاسفة » (89) .

* * *

ونصل الآن الى القسم الثانى من الكتاب ، وهو الخاص « بالامور السياسية » . وقد عرف المؤلف السياسة بأنها مصدر ساس الرعية يسوسها سياسة ، اذا أمر فيها ونهى . فهى ، بناء على هذا التعريف ، سلطة الحكم وسلوك الحاكم . وتطلق السياسة أيضا على حسن التدبير وجودة الرأى . ونقـل عن بعضهم تعريفا آخـر للسياسة يحصرها فى القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الاحوال .

واذا كان ابن العنابى يرى ضرورة تقليد غير المسلمين فى الامور الحربية والصناعية والعلوم العملية فانه لا يرى ذلك بخصوص التشريع والعلوم السياسية ، بل صـرح بأن السياسة « العقلية » لغـير المسلمين لا يحتاجها المسلمون ، فهـو يقول ان ما عليـه « الكفرة من سياستهم العقلية فنحن فى غنى عنه » ، لان للمسلمين الكتاب والسنـة ، وفيهما من التشريعات السماوية ما يغنى عن قوانين الاروبيين الوضعية . وهذا الـرأى للمؤلف يدل على أنه كان مطلعا على الاتجاه الليبرالى العقلانى الذى بدأ ينتشر فى اروبا بعد الثورة الفرنسية . ومن الغريب اننا نجد ما عبر عنه ابن العنابى هنا شبيها بمـا عبر عنه مواطنه ومعاصره ، حمدان خوجة ، بعد أقل من عشر سنوات ، حين قال وهـو يحاجج الليبراليين الاروبيين انهم لو اطلعوا على ما لدى المسلمين من قوانين وأحكـام لغيروا موقفهم من الحضارة الاسلامية من جهة وغيروا من سياستهم الاستعمارية فى الجزائر من جهة أخرى (90) . وعلى كل حال فان رأى هذين المفكرين جدير بالدراسة والمقارنة، لان

(89) نفس المصدر ، ص 98 .

(90) أبو القاسم سعد الله (الحركة الوطنية الجزائرية) ، دار الآداب ، بـيروت ، 1969 ، ص 43 ـ 44 . انظر أيضا أبو القاسم سعد الله (مساهمة بعض المفكرين الجزائريين فى الحضارة الاسلامية) فى (محاضرات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى) ، طبـع وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، الجزائر 1973 ، الجزء الرابع ، ص 95 ـ 146 . وفى هذا البحث تحليل سريع لكتاب ابن العنابى الذى نحن بصدده ، ولآراء حمدان خوجة وغيرهما

كليهما يؤمن بضرورة التقدم والتجديد والاخذ عن اوربا نظامها العسكرى واختراعها العلمى ، ولكن ليس كذلك فى التشريع والسلوك والسياسة ٠

وقد أوضح ابن العنابى بأن مبنى السياسة الشرعية ثلاثة أمور هى :

1) اللين وترك الفضاضة ، أو بعبارة أخرى تبصر الحاكم ومرونته وقدرته على خفض الجناح وكبح الغضب ٠

2) المشاورة ، أو بتعبيرنا اليوم ديمقراطية الحكم وعدم الاستبداد بالرأى والتصرف .

3) عدم استعمال الولاة أو الاطارات اذا كانوا راغبين فى الولاية (أو الوظيفة) ٠

ورغم أن الحاكم ما هو الا فرد من الامة فان المشورة ضرورية له لان رأيه الفردى لا يستطيع أن ينفذ الى كل الاغوار ولا أن يحيط بكل شيء ٠ لذلك وجب عليه شرعا أن تكون له مجالس (استشارية) مع العلماء وأصحاب الرأى فى الامة ٠ وقد أورد المؤلف آيات وأحاديث فى الامور الثلاثة السابقة ٠ ومما جاء فى الامر الاخير أن رجلا جاء للرسول يطلب تعيينا فرد عليه الرسول « لا نستعمل على عملنا من طلبه » ، وعلق ابن العنابى على ذلك بقوله أن الولايات أمانات ، وطلب الامانة دليل على الخيانة ٠

وربط المؤلف بين عدة أمور أخرى تعتبر من صميم نجاح الحكم وقوته ٠ من ذلك أن نجاح أى حكم يتوقف على اجراء العدل بالدرجة الاولى ، لان الظلم مصدر خراب الدولة ٠ وبين أهمية الجيش لقوة الدولة ، وكذلك وفرة المال ، وحرمة العلماء ، وانتشار العمران ٠ وقد أعطى أهمية خاصة لمكانة العلماء والجيش فى الدولة ٠ وحذر من مغبة التبذير والاسراف فى صرف أموال الامة وجمعها بطريقة الاكراه وأخذها ممن يعجز عن دفعها ٠ ومما نقله عن بعضهم تأييدا لرأيه أن « الملك بناء والجند أساسه ، فاذا قوى الاساس دام البناء واذا ضعف الاساس انهار البناء ٠ فلا سلطان الا بجند ، ولا جند الا بمال ، ولا مال الا بجباية ، ولا جباية الا بعمارة ، ولا عمارة الا بعدل ٠ فصار العدل أساسا لسائر الاساسات » ٠ ومن مظاهر عدل الحاكم (والمؤلف يستعمل عبارة السلطان) أن يقرب منه « حملة العلم الذين هم حفاظه ورعاته وفقهاؤه ، وهم الادلاء على الله ، والقائمون بأمر الله ، والحافظون لحدود الله ، والناصحون لعباد الله » ٠ وعلى الحاكم كذلك أن يتفقد جيشه باستمرار ويتعهده ، لان الجيش أساس الملك وهو حامى «الدين والحريم» .

أما المال فهو « قوة السلطان وعمار المملكة » • وعلى الحاكم أن لا يأخذ من الرعية « الا ما فضل عن مصالحها ومعاشها » • وان ينفقه فيما يعود بالفائدة على الرعية كمد الطرق ورفع الجسور واقامة الثغور • وقد قارن بين السياسة المالية للصينيين والفرس والعرب ، ووجد أن اولئك يدخرون الاموال لوقت الحاجة اما هؤلاء فينفقونها فيما ينفع الرعية ويوسع عليها • لان الرعية هى الجند ، وعلى ذلك السيرة النبوية •

ان هذه الآراء للمؤلف حول سياسة الحكم ، وان كان جلها منقولا عن غيره ، فانها توضح مدى تبنيه وتحبيذه لها • والقضايا التى ذكرها فى هذا المجال ، كالعدل والجند ، ومكانة العلماء ، والضرائب ، والعمران ، والمشاورة الخ • كانت حديث الساعة عندئذ لاسيما فى مصر واسطانبول • وقد شاهد هو من استبداد الدايات فى الجزائر وارهاقهم الرعية بجباية الاموال قسرا واستعمالهم البايات (الولاة) الطالبين للعمل والمتآمرين من اجله مع الطائفة اليهودية (اسرة بكرى وبوشناق) (91) ما حرك فى نفسه هذه الخواطر وجعله يكتب بالحاح ما كتب • ولاشك ان ابن العنابى يقف ، بآرائه السابقة فى طليعة المتنورين بالنسبة لوقته •

أما الخاتمة التى جعلها « فى أمور شتى من أسباب النصر والقوة » ، فقد حصرها المؤلف فى معنى الآية الكريمة « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز • الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » • وهناك أربعة شروط تشترط فى الحكام المرضى عنهم من الله والعباد ، وهى :

1) اقامة العدل •

2) اظهار شعائر الدين •

3) نصر المظلوم والاخذ على يد الظالم وكف يد القوى عن الضعيف •

4) مراعاة الفقهاء والمساكين وملاحظة ذوى الخصاصة والمستضعفين •

(91) اسماعيل العربى « دور اليهود فى الدبلوماسية الجزائرية فى اواخر عهد الدايات » فى (مجلة تاريخ وحضارة المغرب) عدد 12 ، ديسمبر 1974 ، ص 37 — 71 • انظر أيضا اطروحة العربى الزبيرى (التجارة الخارجية للشرق الجزائرى) ، كلية الآداب جامعة الجزائر ، سنة 1972 •

فاذا أخلوا بشىء من هذه الشروط الاربعة « تضعضعت قواعدهم وانتقض عليهم من اطراف ممالكهم » وانتصر عليهم عدوهم واضطربت عليهم الامور وظهر عليهم باغى الفتنة وحاسد النعمة · وأنهى الخاتمة بالحديث عن التوبة وعن أمور أخرى فى سلوك المسلم مستوحاة من السيرة وسلوك الصحابة ، ومأخوذة من كلام المتقدمين والمفسرين · وأبى الا ان يختم كتابه بالحديث عن الجند كما بدأه به فقال : « ينبغى لمن له مظلمة أو حق قبل جندى خرج غازيا ان يسامحه ويعفو عنه حتى لا يعود ضرر مظلمته على الاسلام » (92) والخاتمة ، كما يبدو ، وعظية اخلاقية أكثر منها سياسية أو عسكرية · وأفكارها موجهة بالدرجة الاولى الى الحكام والمسؤولين على الرعية بصفة عامة ·

* * *

وبعد أن درسنا حياة المؤلف وأقسام ومحتوى كتابه يجدر بنا أن نقف قليلا عند منهجه وأهمية عمله · وأول ما نلاحظه هو أن تقسيم الكتاب على النحو الذى أوردناه يتبع منهجا غير سليم · فالكتاب أساسا جزآن عسكرى وسياسى ، ولكننا لاحظنا ان الجزء الاول هو الذى استأثر بحجم الكتاب ، وهو الذى قسمه المؤلف الى فصول وجعل لكل فصل عنوانا ، وبذل فى ذلك جهودا في النقل والاستشهاد والاحتجاج والاقناع · ولو جعل المؤلف كتابه قسما واحدا مكرسا « للامور الحربية » وضم القسم الثانى الى الخاتمة لكان أكثر توفيقا وأكثر منطقية حتى مع العنوان الذى اختاره لكتابه · حقا انه قد وجد نفسه مضطرا ، عند تناول الامور العسكرية ، أن يشير الى الامور السياسية أيضا للتلازم بينهما فى حياة الدولة ؛ ولكن ملاحظتنا تنصب على المنهج لا على ادراج الفكرة فى حد ذاتها · وقد لاحظنا كذلك ان الفصل الرابع عشر يحتوى على كثير من النقط التى جاء بها فى المقصد الثانى · ونختم هذه الملاحظات بأن توزيع مادة الكتاب على الفصول لم تكن منسجمة ، فبعض الفصول قصير الى درجة الاخلال وبعضها طويل الى درجة الملل ·

ويكثر ابن العنابى من النقل بطريقة جعلت شخصيته احيانا تزول أو تكاد · فهو عادة يبدأ بتعريف عنوان الفصل لغويا ثم يورد لذلك المعنى حشدا من الآيات والاحاديث

(92) السعى المحمود ، ص 119 ·

والاخبار ، وكثيرا ما يبدأ الفصل بآية أو حديث أو بعبارة قال فلان ، الخ · فاذا أراد أن يبدى هو رأيه ، وقليلا ما يفعل ذلك ، يتدخل بكلمة « قلت » بعد ما يكون قد جاء بكلمة « قال » فلان · وطريقة ترجيحه لاحد الآراء طريقة فقهية مملة مثل « قلت وهو الا وجه عندى » أو « قلت وهو الاصح » الخ · وأحيانا يأتى بهذا التعبير الجدلى « فان قالوا كذا قلنا ··· » ومن أجل ذلك يصعب على الباحث ان يفصل رأي ابن العنابى من آراء غيره فى الكتاب ، رغم أنه يأتى بكلمة « انتهى » أو « انتهى منه » عند النقـــل · وتشيع فى الكتاب روح دينية واضحة ، رغم ان الموضوع دنيوى صريح · فمن نقوله الى طـــريقة العرض الى وجوه الاحتجاج الى النتائج ، كلها مشبعة بروح عالم فقيه حافظ للنصـوص متمسك بالتقاليد · ولا عجب فى ذلك فالرجل من طبقة العلماء القضاة ورجال الـرأى والافتاء فى شؤون الدين ، بل ولا عجب أيضا انه كان يتحدث عن الجهاد وشروط المجاهد وعن الاستعداد للحرب للدفاع عن الاسلام وأهله ، وعن اعداد الجندى المسلم للقيـــام بهذه المهمة · أما اسلوبه فسهل اذا ترسل ، رغم طـــول الجملة عنده · وقد يستعمل السجع فى بعض الاماكن كالمقدمة · أما سائر الكتاب ـ الذى يكثر فيه النقل كما لاحظنا ـ فهو بحسب النص الذى ينقله · ولعل طريقة ابن العنابى فى كتابه تجعله كتابا غـــير صالح للنشر كنص لانه من محفوظه أكثر من معقوله · ولذلك ، فيما نعتقد ، أمـــر محمد على بتلخيصه (أو بعبارة أصح بتجريده) فلخصه تلميذ المؤلف فى حوالى نصفه ·

ومما يلفت النظر فى هذا الكتاب عـدم تعـرض صاحبه للقضايا المعاصرة تقريبا · فباستثناء ما جاء فى المقدمة عن دوافع التأليف وظروفه ، وما جاء فى الفصل الرابـــع عشر عن « القائم » بامر الدولة العثمانية ، فان المرء لا يكاد يجد فى الكتاب ما يدل على أنه من تآليف القرن التاسع عشر · لقد عرفنا الاحداث التى عاشها أو عاصرها المؤلف فى الجزائر ومصر ، وفى العالم ، وهى احـــداث كبيرة سياسيا وعسكريا واجتماعيا ، ومع ذلك لا نجده يشير الى واحدة منها فى الاحتجاج أو الاستشهاد · فلا الحملات الاجنبية على الجزائر فى عهده ، ولا سفرته الى المغرب فى مهمة ، ولا الحملة الفرنسية على مصر تجد لها مكانا فى كتابه المخصص لتنظيم الجنود وتقليد الاجانب فيما اخترعوه من أدوات الحرب والقتال · وقد رأى تفوق هؤلاء الاجانب واضحا فى حملة اللورد اكسموث الانكليزى

على الجزائر ، وغارة الاسطول الامريكي بقيادة ديكاتور على الاسطور الجزائري ، في عرض البحر ، ومقتل الريس (الضابط) حميدو الشهير ، ورأى تفوقهم أيضا في حملة نابليون على مصر ، وفي موقعة نافرينو • فلماذا كان يبحث في التاريخ البعيد عن الشواهد بينما شواهده حية معاشة امامه ؟ هل هي روح الكاتب العربي المسلم الذي يبتعد باستمرار عن الواقع هروبا منه وبحثا له عن مكان آمن في التاريخ السحيق ؟ •

وعلى أية حال فقد وجدناه ينقل عن جده بعض الآراء ، ويستشهد بكلام ، غير مباشر أيضا ، من حسين خوجة صاحب (بشائر أهل الايمان) ، والسراج صاحب (الحلل السندسية) ، وكلاهما قريب منه نسبيا • كذلك وجدناه يستعمل عبارة غامضة وهي : « وذلك ما لا يخفى على من جرب » بعد حديثه عن تصنيف الجند • وهي عبارة نفهم منها انه هو المجرب المقصود ، ولكنه لم يفصح عن ذلك بحادث أو حوادث من عصره • وفي حديثه عن الحساب والطب في الفصل الاخير نقل رأى « جمع من مشائخنا » في انهما من العلوم المفروضة كفاية رغم « أنهما من علوم كفار الفلاسفة » (93) ، حسب تعبيره • والواقع ان هذه الاشارات والنقول من حوادث العصر ورجاله تعطي ، رغم ندرتها ، للكتاب أهمية خاصة •

ويقف المؤلف موقفا مبدئيا الى جانب الدولة العثمانية ، فارومته ، كما لاحظنا ، تعود الى آل عثمان • وهو مدين لهم بالوظائف الرسمية التي تقلدها على ايديهم ، كما تقلدها والده وجداه وغيرهم من أفراد أسرته • ومن جهة أخرى كان يعتقد ان الفضل ، كل الفضل ، يعود الى هذه الدولة في انقاذ الاسلام من براثن التتار ، وغارات الاوروبيين طيلة قرون • وقد عاصر هو احداثا كانت فيها هذه الدولة في صراع ضد نفسها من ناحية وضد الخطر الخارجي من ناحية أخرى • فرأى ان الحل يكمن في تجديد هذه الدولة وعودتها الى ما كانت عليه من القوة والرهبة ، أو يكون مصيرها مصير الدولة العباسية ومصير الامم الاخرى التي انقرضت أو تهاوت • فانتصر لتحديث الجند باعتباره اساس الدولة • وكان في

(93) من الغريب ان يؤيد ابن العنابي ذلك ، وهو المطلع على الحضارة الاسلامية والعارف بدور العرب والمسلمين في تقدم الطب والحساب • فكيف يصبحان في نظره من علوم كفار الفلاسفة ؟

ذلك يؤيد أيضا سياسة محمد على فى نفس الاتجاه ، رغم أنه لم يشر اليه بالاسم • ولعل فى ذلك تعريضا بما كانت عليه الانكشارية فى الجزائر من استبداد وصلف وانانية وتخلف •

والموقف من تجديد الدولة العثمانية يقودنا الى الحديث عن موقف المؤلف من قضية التجديد عامة • فقد رأيناه يقف الى جانب التيار التجديدى فى مختلف الميادين ، وليس فى الميدان العسكرى وحده • واذا اتبعنا قياسه فان كل ما يفيد المسلمين فى دنياهم ويجعلهم أعزة اقوياء يجب الاخذ به لان الشريعة الاسلامية لا تمنعه بل تفرضه ، والتهاون فيه يؤدى الى الاثم والعار • وقد رأيناه ينادى بضرورة تعلم اللغات والعلوم الآلية والصناعية ، وعلوم الطب والحساب ، والعلوم العسكرية • ولا يرى فى ذلك غضاضة أو مخالفة للشريعة • والتجديد يعدى كما ان التقليد يعدى • فاذا عرفنا انه نادى بتقصير الثياب ، والنظر فى أمر العمامة والاكمام الطويلة ، واستعمال السلاح الحديث ، عرفنا انه ينادى ، ضمنيا ، بتجديد المجتمع الاسلامى أيضا ، لانه لا يستطيع ان يتصور ، وهو المفتى والمجرب ، ان يتعلم المسلمون تلك اللغات والعلوم كلها ولا يتغيرون فى انفسهم وعقولهم ومذاهبهم فى الحياة • ومن ثمة يبرز ابن العنابى مجددا ومجتهدا أيضا • فهو كرجل دين استعمل عقله بحرية ليصل الى آرائه التى طرحها فى كتابه ، ولو أنه تزمت أو تجمد أو أصر على ضرورة التمسك بالتقاليد لما توصل الى تلك الآراء • على انه تجب الملاحظة الى انه بقدر ما كان المؤلف مجددا فى الحياة العملية والعلوم المفيدة بقدر ما كان محافظا بالنسبة للقوانين التى تسير المجتمع الاسلامى ، فهو يرى ان تلك القوانين (الكتاب والسنة الخ) كافية لضمان حياة سعيدة لهذا المجتمع •

وفى هذا المضمار تدخل آراء ابن العنابى فى السياسة • فقد ألح على ضرورة تمسك السلطان (ويسميه احيانا الامام واحيانا الملك) بالتعاليم الدينية والاخلاقية • كما ألح على مبدا المشورة وعدم الاستبداد بالرأى أو بالحكم • وبين أن صلاح السلطان يظهر فى تقريب العلماء اليه ، وهو لا يعنى العلماء على الاطلاق ، ولكنه يعنى خاصة أولئك العلماء الذين تميزوا بالرأى والاجتهاد والاطلاع ومعرفة الدين ، ولذلك وصفهم بتلك الاوصاف التى اتينا عليها • فمجالس السلطان هى التى تنوره وتبصره بأفضل الطرق

لتجاح جماعة المسلمين · اما الاستبداد والظلم والجور والانحراف عن التعاليم الدينيـة فقد قال انها تؤدى الى خراب الحكم وسقوط الدولة · وقد جعل العدل وقوة الجيش وصرف المال فيما يفيد الناس عامة اساسا للحكم الصالح · بالاضافة الى انه طالب بمزج الاهداف الدنيوية والدينية عند القيام بأى عمل فى صالح المجتمع ، ومن ثمة ألح عـلى ضرورة الانتصار لله وبالله ، وضرورة التوبة من المعاصى · وهكذا تصبح الاخلاق والسياسة والدين امورا متلازمة فى نظر المؤلف ، وهى بدون شك كذلك فى نظر الدين الاسلامى ·

ومن حقنا فى النهاية ان نتساءل : لو أن حسين باشا أخذ بالنظام الذى دعا اليـه ابن العنابى ، فهل كان يواجه نفس المصير الذى لقيه على أيدى الفرنسيين ؟ وهل كانت الحملة الفرنسية تنجح النجاح الذى حققته سنة 1830 ؟ ان الوثائق تتحـدث عـن أن ابن العنابى قد تولى الافتاء فى بداية عهد حسين باشا وفى أخريات عهده أيضا · ونعرف من دراستنا للعهد العثمانى فى الجزائر ان مقام المفتى الحنفى كان بمثابة شيخ الاسلام فى اسطانبول ، ومعنى هذا أن نفوذه كان عظيما وآراءه كانت محل ثقة الجميع · ولكننـا نعرف من جهة أخرى ان مكانة العلماء ورجال الدين قد ضعفت لدى الدايات فى العهـد الاخير من حكمهم، واصبح هؤلاء يتصرفون بأمرهم ولا يعودون الى العلماء الا فى الاحتفالات والمظاهر الشكلية · ولعل جرأة ابن العنابى اوائل الاحتلال الفرنسى لبلاده واستعداده لتجنيد الجند وتنظيم البلاد ، حسبما تزعم المصادر الفرنسية ، ينسجم مع آرائـه فى الكتاب أكثر مما ينسجم موقفه ، كمفتى ، زمن حسين باشا ·

ومهما وجه الى كتاب ابن العنابى من نقد فانه يظل حلقة هامة فى التراث الفكـرى الجزائرى وفى تاريخ الفكر التقدمى لدى العرب والمسلمين ، فهو من أوائل الكتب التى طرحت مفهوم التجديد على مستوى الدولة الاسلامية ، ونادى صاحبه بعدم الانغلاق امام الحضارات المعاصرة ، ودعا الى تحديث الجيش ، واتباع العدل ، والشورى ، وتوفير المال ، والتمسك بالاخلاق الكريمة ، باعتبار كل ذلك أساسا لقوة وكرامة الامة الاسلامية ·

ومن غريب الصدف ان قضية التجديد التى طرحها ابن العنابى منذ قـرن ونصف ما زالت لم تجد حلها الى اليوم ، ولعل فيما أورده من براهين دينية وتاريخية جوابا مفحما للذين ما زالوا منا غير مقتنعين بهذه القضية ·

ابن عكنون (الجزائر) 7 يونيو (جوان) 1975 ·

أبـو القـاسم سعـد اللـه
معهد العلوم الاجتماعية،جامعـة الجزائر

أضواء على

ثورة بوعمامة 1881

عبد الحميد زوزو
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

من المعروف عن ثورة بوعمامة أنها أطـــول الثورات الجزائرية التي اندلعت في وجه الغزو الفرنسي ، ذلك انها دامت ثمانية عشر سنة ، من افريل 1881 الى أكتوبــر 1899 ، السنة التي حصل فيها بوعمامة على «الامان» (1) • ومع ذلك نجدها أقل حظا من حيث عناية الدارســـين واهتمام الباحثين بها • وفضلا عن ورود أخبارها بشكل لا يتناسب مع طولها الزمني في الكتب المدرسية ؛ فـان الابحاث المختصة هي الاخـــرى لا تولي لاحداثها نفس العناية التي توليها لثورتي المقراني والامير عبد القادر مثلا.

لكن ، بالرغم من قلة المراجع الاجنبية عن ثورة بوعمامة وانعدامها بالعربية ، فـان الوثائق المتوفرة تعكس مدى الانزعاج والقلق اللذين سببتهما للفرنسيين، عسكريين منهم

(1) BEZY (le citoyen) : *l'Insurrection du Sud Oranais,* réponse à SAHRAOUI, notes recueillies et publiées par le citoyen BEZY. Oran, Collet (1884).

ومدنيين على حد سواء ، كما تكشف عن حقيقة المرحلة الاولى من هذه الثورة الطويلـــة التى كانت فعلا فى صالح بوعمامة كما سنرى ٠

حقا ، لقد دامت ثورة بوعمامة طويلا ، بيد أن أهم فترة فيها هى الواقعة بين 22 افريل 1881 و 2 افريل 1882 ٠ فخلالها جرت موقعة « مولاق » (2) MOULAG الشهيرة بـين الجيش الفرنسى والثوار ، وخلالها أيضا سار بوعمامة واتباعه مسيرتهم الطويلة نحو التل.

وكلا الحادثين ساهما فى تدعيم نفوذ بوعمامة لدى القبائل الصحراوية ، فى حـــين أثارا دهشة الرأى العام الفرنسى ومخاوفه فى كل من فرنسا والجزائر ٠ (3)

وفى هذا المقال ، سنحاول الكشف عن حقيقة هذه المرحلة من الثورة ، وذلك بمقارنة ما كتبه الفرنسيون حول الموضوع ببعضه ، ثم مقارنة هذا الاخير بالتقارير العسكريـة الموجودة بالارشيف الحربى الفرنسى ٠ (4)

وعندها يتبين للباحث أن الكتاب عملوا عن قصد على طمس انتصارات بوعمامـــة والتقليل من أهميتها ، متبنين فى ذلك اسلوب السلطة فى اخفاء الحقيقة ، مضفين عـــلى الاعمال الباهتة لعسكرييهم مزيدا من البطولة والانتصار ٠

يعود نشـــاط بوعمامة بالزاوية التى أسستها فى مغرار التحتانى (5) الى سنـــة 1876 (6) ٠ وقد جلب نشاطه هناك انتباه الرقابة العسكرية ، ولا سيما خلال سنـــة 1880 ٠ فقد كانت بعض التقارير العسكرية تتحدث عـــن شعبيته فى أوساط القبائل الصحراوية ، وعن التفافها المتزايد حول زاويته ، وخاصة قبائل رزيانة ، وحميـــان ، وترافى، (7) فى حين تتحدث تقارير أخرى عن الهدايا «الزيارة» التى كانت قبائل بنى غيل،

(2) نسبة الى المكان الذى جرت فيه المعركة ، وهو يقع بين عين تازينة وقصر شلالـة ، بنحو عشر كيلومترات شمال شرق قصر شلالة ٠

(3) E. GRAULLE, ancien chef du bureau Arabe, *Insurrection de BOUAMAMA,* (avril 1881) p. 14.

(4) A. G. وسأرمز اليها فى هذا البحث بـ Archives de guerre. H 376

(5) بين عين الصفراء وجنين بورزق ٠

(6) Graulle - p. 7

(7) A. G. H 376 ٠ تقارير بتاريخ 9 و 11 افريل 1880 و 12 جوان 1880 ٠

وأولاد جرير ودوامنية تحملها اليه ، وترى فى وعود بوعمامة للقبائل الزائرة له « بتحريرها من الاستعمار » خطرا على الوجود الفرنسى • (8)

ويبدو من التقارير المتوفرة ان اقبال الناس على تأييد بوعمامة وتقديم عروض الولاء له لم يكن هكذا تلقائيا ، وانما كان وليد خطة مرسومة ، ذلك أن بوعمامة كان يدعو الى الخروج عن سلطة فرنسا (9) بالتنقل بين القبائل أو مراسلتها • كما كان يبعث برسله « مقدمين » الى البعض الآخر فى مهمة تعبئة والتبشير « بقرب فرحة المسلمين » ، والدعوة الى « تهيئة السلاح ، والتزود بالبارود والذخائر انتظارا ليوم الفرحة » • (10)

أما السلطة العسكرية من جهتها فقد كانت على اطلاع بتحركات بوعمامة ونواياه عن طريق عيونها من الاهالى أنفسهم ، لكنها لم تعتقله لتقدير الصحراويين له وتقديسه ، وبدلا من ذلك منعتهم من زيارة زاويته وتأدية القرابين • (11)

اندلعت شرارة الثورة بمقتل ضابط فرنسى برتبة ملازم أول ، وأربعة من حراسه حينما حاولوا اعتقال الطيب الجرمانى أحد أقرباء بوعمامة ومقدميه بتاريخ 22 افريل 1881 ، لكن اللقاء الحاسم • بين بوعمامة والجيش الفرنسى كان فى موقعة « مولاق » التى استعد لها الطرفان ، وذلك بتاريخ 19 ماى 1881 • (12)

---

(8) A. G. H 376 تقرير من ولاية وهران الى الوالى العام بتاريخ 9 افريل 1881 • يبين التقرير القبائل التى تحدث اليها بوعمامة عن تحريرها من الاستعمار الفرنسى فكانت : حميان ، وترافي ، وأولاد زياد ، والاغواط الحرار •

(9) نفس المصدر ، تقرير بتاريخ 22 أفريل 1881 • بناء على هذا التقرير يكون بوعمامة قد زار قبيلتى أولاد التومى وأولاد أحمد • أما القبيلة التى راسلها فهى جنابعة •

(10) نفس المصدر • تقرير بتاريخ 7 أفريل 1881 و 22 افريل 1881 • كان «المقدمون» الى القبائل كالتالى :

الطيب بن الجرمانى الى قبائل الاحرار الشراقة •

مرزوق السدورى الى قبائل ترافى • بلقاسم ولد لزغزان الى أولاد زياد •

العربى ولد الطيب أحمد الى قبائل رزيانة • انظر BEZY ، ص 17 ـ 18 •

(11) ـ Graulle p. 13 • كان الوالى العام حينئذ قريفى البير Grévy Albert يعارض فكرة اعتقال بوعمامة ، وحجته أن عهد الثورات قد انتهى •

(12) يرى Graulle ص 14 ، بأن بوعمامة كان يفضل نهاية شهر جوان لاشعال الثورة . أى حتى يمكن أهل التل من اتمام موسم الحصاد ، لكن ضغط مؤيديه جعله يعجل بها • بينما يتبين للباحث أن تدخل السلطة باعتقال دعاته هو السبب المباشر •

نالت موقعة « مولاق » حظا وافرا من اهتمام الصحافة عندئذ ، كما حظى القـــادة العسكريون المشاركون فيها بتنويه رسمى ، ولا سيما فى أوساط الجيش · وصـورت الموقعة على أنها انتصار عسكرى هائل على الثوار فى الجنوب الغربى ، بينما الواقع خلاف ذلك · فموقعة «مولاق» كانت نصرا لبوعمامة لم يحسن استغلاله كاملا ، وهزيمة للجيش الفرنسى كانت له درسا قاسيا استفاد منه ·

ولسنا فى حاجة الى القول بأن تغطية حقيقة موقعة « مولاق » كانت بهدف رفـــع معنويات الجيش والتخفيف من روع المعمرين ·

أكمل الجيش الفرنسى استعداده فى أواخر افريل 1881 لملاقاة بوعمامة بالتنظيـم العسكرى التالى :

1 ـ ثلاثة فيالق من المشاة ، يتكون الاول من الزواف والثانى من اللفيف الاجنبى ، والثالث يكونه الرماة · وكان الكولونيل سوينه SWINEY يتولى قيادتها ·

2 ـ أربع سرايا من قناصة جيش افريقيا الرابع ، يقودها الكولونيـل اينوسنتى INNOCENTI

3 ـ فرقة مدفعية ·

4 ـ فرق متنوعة مساعدة ·

5 ـ ثلاث فرق من «القوم» قوم سعيدة ، وفرندة ، وتيارت ، وكان يقود الاوليين الآغا قدور ولد عدة ، ويقود الثالثة الآغا الحاج قدور صحراوى ·

6 ـ ألفان وخمسمائة جمل محملة بالمؤن والذخيرة يحرسها ستمائة أهلى ·

ويخضع هذا التنظيم العسكرى لقيادة الجنرال كولينيون دانسى Collignon d'Ancy لكنه تخلى عن القيادة العامة للكولونيل اينوسنتى لمرض أصابه بمدينة البيض Géryville

أما بوعمامة فقد كان تحت قيادته ألفان وثلاثمائة رجل بين فارس وراجل تتوزعهـم القبائل بالشكل التالى : (14)

(13) Graulle p. 42

(14) Marche de BOUAMAMA : أنظر A. G. H 376

من قبائل ترافى	700 بين فارس وراجل ٠
أولاد زيـاد	180 « «
الحـــرار	160 « «
أولاد سيدى الشيخ	250 « «
مقهـــار	100 « «
أولاد عمــور	170 « «
أولاد سيدى التاج	50 « «
القصــور	500 من المشاة
من قبائل أخرى	190 بين فارس وراجل

فالتفوق العددى ، اذن ، كان الى جانب الفرنسيين فضلا عن تفوقهم المادى فقد كان الجيش الفرنسى ضعف جيش الثوار أو يكاد ، بحيث كان عدد « القوم » الاهالى وحـده يقارب 1200 رجل ٠ (15)

لكنْ عند اللقاء ، اندهش الفرنسيون لاقدام الثوار وتحديهم للمدفعية ٠ وكان من عنف الهجوم وشدته أن وقع اهتزاز فى مقدمة صفوف العدو ، استغله الثـــوار فى تفكيك تنظيمه العسكرى ، وزرع الاضطرابِ والبلبلة فى صفوفه ، مما شـــل فعـــل المدفعية ، ومكن الثوار من انتزاع النصر رغم تفوق العدو عددا وعدة ٠

ومع ذلك فالفرنسيون لا يقرون بالهزيمة ، بل ويزعمون بأن التفوق العددى للثوار وهروب « القوم » عند احتدام المعركة هما الحائل دون احرازهم للنصر النهائى ٠ (16)

---

(15) Graulle p. 43

(16) تتضارب الروايات حول عدد جيش بوعمامة ، فالرسمية منها تقدره بخمسة آلاف رجل ، أما جرول فيقدره بحوالى 2700 ، بينما نجد الوثائق العسكرية تشير الى 2300 ٠
وهذا العدد الاخير هو المعتمد عندنا ، وهو لا يبعد كثيرا عما ذكره جرول
أنظر : Graulle p. 43

والواقع ان انهزام الجيش الفرنسى مرده الى جهله بالاسلوب الجديد ، أسلوب الكر والفر السريعين ، ثم الى ما لم يكن فى حسبان القيادة : اقدام الثوار الذى لم يتمكن العدو نفسه من اخفائه (17) ، وأيضا الى نقص الانضباط فى صفوف الجيش الفرنسى (18)

ولعل حصيلة المعركة ، ثم أثرها المباشر على الجانبين هما الكفيلان بتحديد الجانب المنتصر من المنهزم .

فالروايات الرسمية حول ضحايا الطرفين فى المعركة تتضارب ، فقد قدرها الكولونيل اينوسنتى فى تقريره الى وزير الحربية الفرنسى بسبعة وثلاثين قتيلا وستة عشر جريحا من بينهم ضابط وأربعة من المفقودين من جانبه فى حين قدر ضحايا بوعمامة بما يقارب ثلاثمائة . (19)

وفى تقرير عن الولاية العامة ، تجد ضحايا « مولاق » بهذا الشكل : ثمانون عن الجانب الفرنسى من بينهم أربعة وثلاثون قتيلا وستة وعشرون مفقودا ، وأربعمائة من جانب الثوار بدون تفصيل . (20)

أما الجرحى الفرنسيون فى المعركة فقد صرحوا بأن الرقم الحقيقى للضحايا يفوق كثيرا الارقام الرسمية (21) . وفى رسالة لجندى شارك فى المعركة ، بعث بها الى والديه بالجزائر أكد فيها بأن عدد القتلى الفرنسيين بلغ ثمانين ، وأن عدد جرحاهم بلغ مائة وعشرة . (22)

ومهما تضاربت الارقام المذكورة فهى كلها تقريبية (23) ، لكن المؤكد هو أن السلطات الرسمية قد أخفت عن قصد الحقيقة التى أسفرت عنها معركة « مولاق » لاسباب منها :

(17) A.G. H 376. Rapport sur la situation en Algérie jusqu'au 10 juin 1881, p. 5 et ordre Général du 24 mai 1881, voir également Dépêche Télégraphique du 20 mai 1881.
(18) Graulle p. 44
(19) *Dépêche télégraphique* du 20 Mai 1881.
(20) *Rapport sur la situation en Algérie jusqu'au 10 Juin 1881*, p. 5 A. G. H 376
(21) *AKHBAR, Journal de l'Algérie*, (6, 7, 8 Juin 1881) n° 7753.
(22) نفس المصدر (9 جوان 1881) رقم 7754 .
(23) ذكر جرول Graulle فى ص 48 ، عدد الضحايا في «مولاق» هكذا : من الجانب الفرنسى 60 قتيلا و 22 جريحا . ومن جانب الثوار : مائتان . وهى أرقام مقبولة لانها جاءت بعد مرور الزوبعة .

أولا : اضعاف صدى انتصار بوعمامة ، والتشكيك فيما كان قد أذيع بين القبائل من أن « بوعمامة قد أباد الجيش الفرنسى » (24) حتى لا تنتشر عدوى الثورة بين الصحراويين ·

ثانيا : التقليل من أهمية ثورة بوعمامة فى نظر السكان الاوروبيين ، تهدئة لفزعهم ، وتخفيفا من غضبهم على العسكريين المتهمين « بالغفلة وقلة اليقظة » (25) ·

ثالثا : رفع معنويات الجيش الفرنسى عن طريق الاشادة بانتصاره فى موقعة «مولاق» والتنويه بكل من الكولونيل اينوسنتى والجنرال سريز CEREZ على لسان وزير الحربية ورئيس الجمهورية ، وذلك فى « أمر عام » صادر عن قيادة الاركان العامة · (26)

أما الاثر المباشر للمعركة فقد كان سيئا بالنسبة للكولونيل اينوسنتى ، جعله يتجه نحو خريذر KREIDER فى الشمال (27) عوض العودة الى البيض « جيرفيل » تجنبا للقاء آخر مع بوعمامة قد يقضى على جيشه · ولو كان الكولونيل اينوسنتى قد انتصر حقا فى «مولاق» لما تباطأ فى اللحاق ببوعمامة الذى كان معسكرا بمقربة منه (28) . ثم ان اختفاء الكولونيل اينوسنتى بعد ذلك وحلول الجنرال ديتريه DETRIE محله قد يكون من أثر الصدمة التى منى بها فى «مولاق » ·

وفى المقابل كان أثر المعركة مشجعا لبوعمامة جعله يتجه الى مدينة الابيوض سيدى الشيخ لاعداد مسيرته الطويلة التى سنتعرض لها بعد قليل ·

وهكذا يتبين أن السلطات العسكرية والمدنية قد عملت على تحويل الهزيمة الى انتصار ، وباتت موقعة « مولاق » لفترة طويلة ، بفعل التضليل وتغطية الحقيقة من نصيب الجيش الفرنسى وأمجاده ·

---

(24) وقد أذاع هذا الخبر « القوم » المسرحون بعد معركة « مولاق » · انظر نفس المصدر ص 49 ·

(25) نفس المصدر ص 15 ·

(26) Ordre général du 24 Mai 1881 A. G. H 376.

(27) انظر الخريطة الاولى ص 8 ·

(28) يذكر BEZY ص ، 46 بأن بوعمامة في ليلة 20 ماى كان على بعد اثنى عشر كيلومترا فقط من المعسكر الفرنسى · وفى ليلة 21 ماى دب الخوف فى المعسكر الفرنسى بسبب اقتراب رجال بوعمامة منه ·


البحر الأبيض المتوسط
نهر الشلف
عمي موسى
مستغانم
أرزيو
وهران
غليزان
المحمدية (بريقو)
تيارت
سوقر
بلعباس
تلمسان
مغنية
وجدة
سبدو
رأس الماء
العريشة
الجعافرة
مرحوم
سعيدة
سيدي خليفة
خنق العزيز
البيض (جريفيل)
الشط الغربي
أوقلات الشكة
عين بن خليل
مشرية
الغاسول
الأربعاء
مولاق
متلالة
بني سمغون
عين الحجاج
الأبيوض سيدي الشيخ
تيوت
عين الصفراء
خنق
فقيق
وادي زوزفانة
المصطلحات :
السكة الحديدية .
الخط الفاصل بين التل والصحراء .
المكان الذي جرت فيه معركة "مولاق"

أما الحدث الثانى فى هذه المرحلة من الثورة فهو مسيرة بوعمامة نحو التل اثر موقعه « مولاق » • وتمثل المسيرة التى استغرقت ثلاثة وعشرين يوما (من 28 مـــاى الى 21 جوان 1881) انتصارا ثانيا لبوعمامة على الجيش الفرنسى • ذلك أن المتتبع لها (انظـر الخريطة التالية) يندهش لنجاحها ، ويلاحظ بوضوح عجز الجيش الفرنسى عن اللحـاق ببوعمامة والتصدى له فى معركة فاصلة ، بالرغم من حالة الاستنفار القصوى للجيش الفرنسى طيلة هذه المسيرة •

انتظم الجيش بقيادة الجنرال سريز قائد الناحية الوهرانية فى طوابير كثيرة ، هدفها تطويق بوعمامة ، والحيلولة ، بجميع الوسائل ، دون تقدمه نحو التـل • وقـد انيطت بكل طابور مهمة معينة ، فكلف طابور الكولونيل برينتيير BRUNETIERE المتمركز فى قرية مدريسة جنوب مدينة فرندة بمنع بوعمامة من التقدم الى اقليمى فرندة وتيارت ، وفى نفس الوقت كلف طابور آخر يقوده الجنرال ديتريه DETRIE بالاتجاه شرقا الى خنق السوق لاعتراض طريقه • أما الكولونيل مالاريه MALLARET فقد تكلف بحراسـة ممر كريدر الاستراتيجى والنواحى التى يتحكم فيها (29) ، هذا فى الوقت الذى كـان طابور جانين JANNIN يقوم بمراقبة المنطقة الممتدة بين قـــورم والعريشة (30) فى الغـــرب •

وكانت هناك طوابير ثانوية كلفت بنفس المهام ، فقد كان طابور الرائد دى فيلهـول FILHOL متمركزا فى عين سوان ، وعلى استعداد للسير الى قريـــة سفيسفا • وكان طابور الرائد لافون LAFON بقرية عين عطاب على أهبة الاتجاه الى دبروس • أما الرائـد سهير SEHURR فقد كان على رأس طابوره بسعيدة ينتظر اشارة السير نحو قريـة مصبـــاح •

وباختصار فقد كان الجيش المؤلف للطوابير يفوق كثيرا جيش بوعمامة ، بحيث كـان طابور الكولونيل مالاريه وحده يساوى جيش بوعمامة عددا (31) • ومع ذلك تمكن هذا

(29) Croquis de la Marche de BOUAMAMA. A. G. H 376.
(30) BEZY, p. 53

الاخير من اجتياز الحد الفاصل بين التل والصحراء ، بالرغم من التعاليم العسكرية الصارمة بمنعه من الوصول الى التل ٠ (32)

ويصف العسكريون الفرنسيون فى تقاريرهم اختراق بوعمامة للحد المذكور ، واقتحام صفوفه للجيش الفرنسى « بالعملية الجريئة » (33) ٠

وفعلا ، يلاحظ الباحث حيرة الجيش الفرنسى أمام نجاح المسيرة ، كما يلاحظ من خلال الخريطة سير الطوابير الفرنسية ضمن حلقة مفرغة نتيجة تدويخ بوعمامة لها ٠ (34)

ويرجع نجاح بوعمامة فى مسيرته هذه ، فى نظرنا ، الى الاسباب التالية :

1 ـ سرعة تنقله التى حيرت القادة العسكريين (35) ، والتى نسج حولها العامة قصصا مستوحاة من القوة الغيبية ، العاملة ، فى نظرهم ، على نقل بوعمامة بين أماكن متباعدة فى وقت قصير ٠ (36)

2 ـ معرفته بالمسالك الصحراوية وبطرق السير فيها ٠

3 ـ علمه بتحركات العدو وبمضارب القبائل الصحراوية ، عن طريق عيونه العارفين بطبيعة البلاد ٠

---

(31) كان طابورا الكولونيل مالاريه ، والجنرال ديتريه يتكونان بالشكل التالى :

طابور ديتريه :	طابور مالاريه :
فليقان 1200	قوم ماطر 800
فصيلتان 250	فصيلتان 300
فرقة مدفعية 40	فيلقان 1100
المجموع	فرقة مدفعية 50
1500	2250

وللمزيد من الاطلاع ، انظر Marche de BOUAMAMA A. G. H 376

(32) نفس المصدر Télégramme du 10 Juin 1881

(33) نفس المصدر Télégramme du 13 Juin 1881

(34) Guy de Maupassant, *Au Soleil,* Louis Conars, libraire-éditeur, Paris 1902, p. 35

(35) Télégramme du 10 Juin 1881. A. G. H 376

(36) *Akhbar de l'Algérie* (Samedi 18 Juin 1881), n° 7762. ـ كانت سرعة بوعمامة أثناء مسيرته التى استغرقت 23 يوما بمعدل 31 كيلومترا فى اليوم ، بينما كان معدل سرعة الطوابير الفرنسية 26 كيلومترا فقط انظر Marche de BOUAMAMA. A. G. H 376.

4 ـ اعتماده اسلوب التضليل بافشائه الاشاعة الكاذبة • (37)

5 ـ اخفاؤه لرأس قافلته على العدو بتفريعها الى فروع ، يتعذر على العدو معه معرفة مكان القيادة منها • (38)

وخلال المسيرة التى استغرقت ثـــلاثة وعشرين يوما ، والتى قطـــع فيها بوعمامة سبعمائة وثلاثين كيلومترا ، قام الثوار بتنفيذ عراقيل "Sabotages" (39) ، والاستيلاء على المواشى والحبوب التى للقبائل الموالية للسلطة ، ومهاجمة مـراكز الشركة الفرنسية للحلفاء التى كان أكثر ضحاياها من العمال الاسبان • (40)

وتنتهى مسيرة بوعمامة بوصوله الى بوسمغون فى الجنوب الغربى بتاريخ 21 جوان 1881 ، (41) ولم تكن «مثقله بالغنائم» ، (42) على حد تعبير التقارير العسكرية فحسب ، بل كانت أيضا ضخمة بشريا ، لان بعض القبائل فضل الثورة ومواكبة المسيرة على البقاء تحت سلطة فرنسا • (43)

اما جماعة الكولون والقبائل الموالية للسلطة فان صدى المسيرة قد ترك فى أوساطها جوا من الشعور بالخطر وانعدام الامن ، جعلها تفر الى ما وراء الخط الفاصل بين التـــل والصحراء • (44)

---

(37) Graulle, p. 92.

(38) يلاحظ فى الخريطة تفرع القافلة الى ثلاث اتجاهات بقرب تيرسين ، الاول نحـــو سفيد ومحروم والثانى نحو الهدمة وسيدى خليفة • أما الثالث فنحو عيون البرانس وعين الحجـــار •

(39) BEZY, p. 52. تتمثل هذه العراقيل فى قطع خطوط التلغراف بين فرندة والبيض فى 28 ماى ، وفى الاول والثالث من شهر جوان •

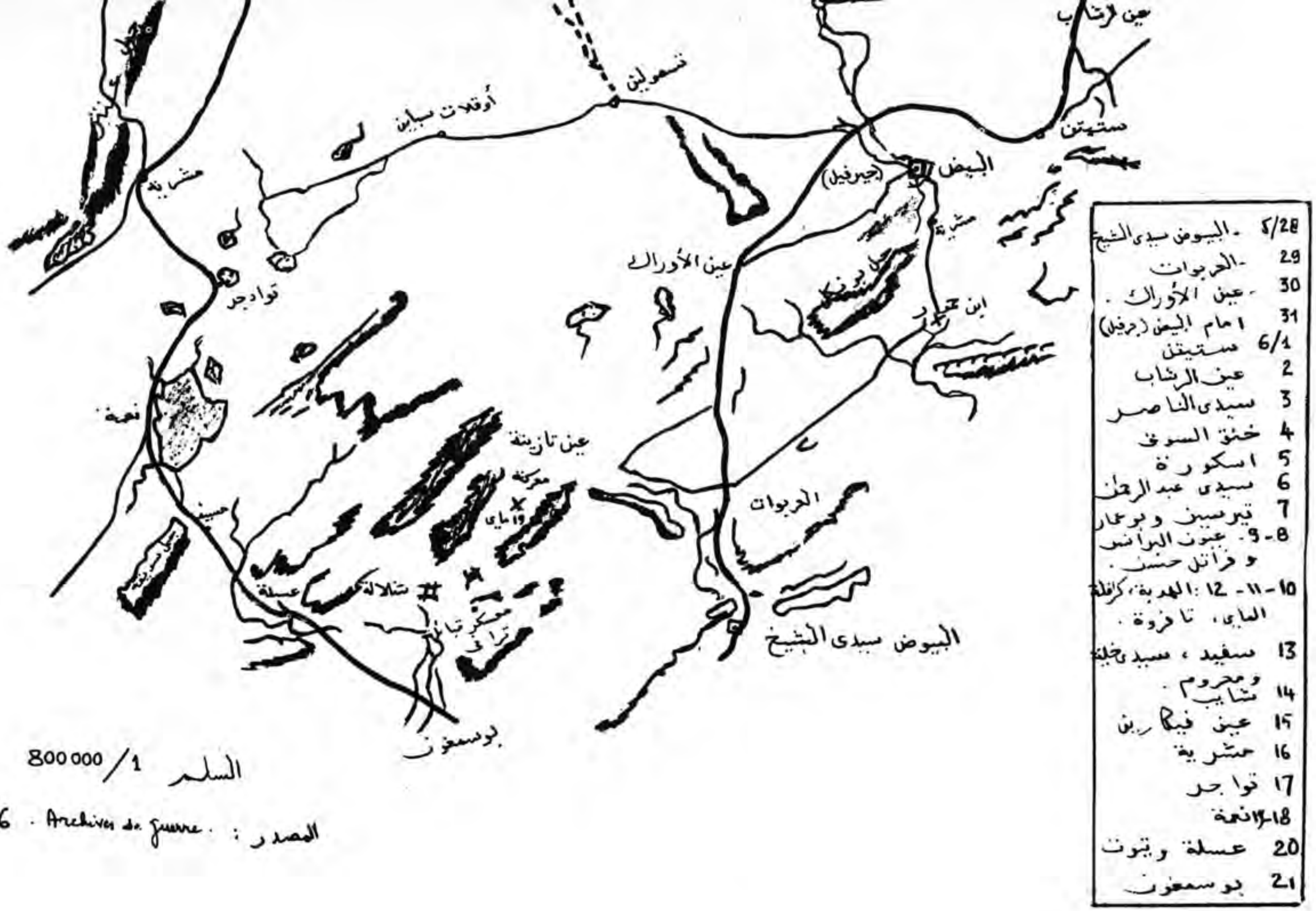
(40) Marche de BOUAMAMA. A. G. H 376. قتل من الاسبان أثناء الهجوم 180 شخصـــا وأسر منهم خمسون •

(41) نفس المصدر •

(42) نفس المصدر . 13 Juin 1881

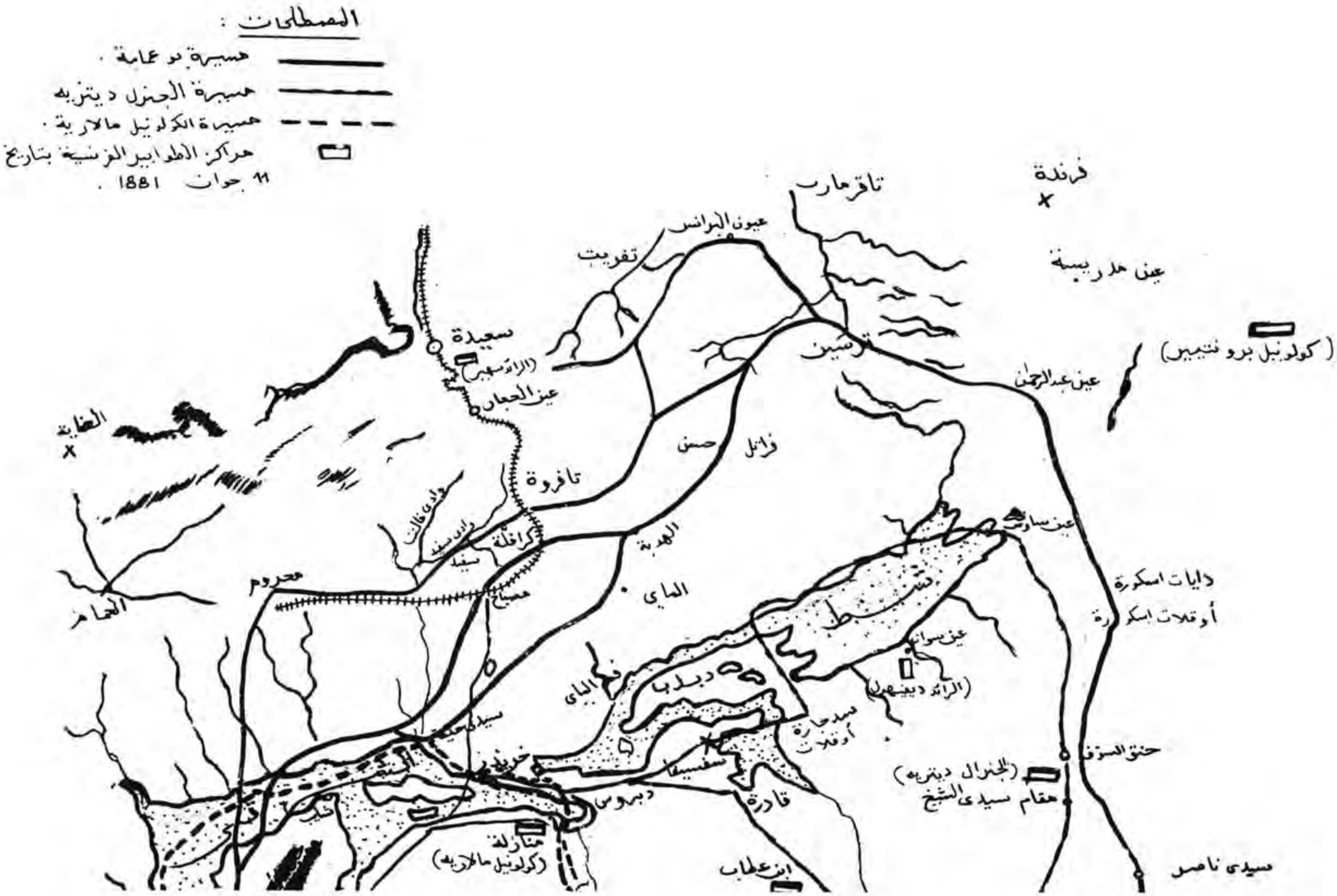
(43) منها قبائل الاغواط "Les Laghouat du KSEL" التى انضمت اليه عند سيدى ناصر ، وبعض قبائل الاحرار. Marche de BOUAMAMA, télégramme du 13 Juin 1881 A. G. H 376.

(44) كانت القبائل التى هاجمها بوعمامة هى الحساسنة وبعض قبائل الاغـــواط • أما الكولون فقد غادروا مزارعهم ، فى الوقت الذى فضلت قبائل أخرى النزوح الى المغرب الاقصى على البقاء فى جو من انعدام الامن •



السلم 1/ 800000

المصدر : Archives de guerre. H.376


المصطلحات :
مسيرة بو عمامة .
مسيرة الجنرال ديتريه
مسيرة الكولونيل مالاريه .
مراكز الطوابير الفرنسية بتاريخ
١١ جوان 1881 .
فرندة
تاقرمارت
عيون البرانس
تفريت
عين حدربيسة
سعيدة
عين الحجار
تافروة
كولونيل برو نتيير
عين عبد الرحمن
الغابة
وادي فالت
كاخلة
الهدبة
الماي
معروم
الحمام
عين ساوة
دايات اسكورة
أوقلات اسكورة
عين سواية
الرائد ديفيهل
حنق السوف
الجنرال ديتريه
مقام سيدي الشيخ
قادرة
ابن عطاب
سيدي ناصر
منازلة
كولونيل مالاريه
ديبدوس

والواقع أن رجوع بوعمامة الى الجنوب بعد اجتيازه الموانع والوصول الى قرية ترسين في الشمال لا يبرره ، في نظرنا ، حرسه على الغنائم التي غنمها كما يذهب الى ذلك بعض الكتاب الفرنسيين في تحليلهم ، (45) اذ لم يكن بوعمامة يشكو عوزا ماديا · واذن ما سبب رجوع بوعمامة الى الجنوب قبل استغلال انتصاراته في تعميم الثورة ونشرها على نطاق واسع ؟

فهل رأى الكفاية فيما اظهره من سطوة ونفوذ ، أم أن السبب فيما رآه من تزايد في الجيش الفرنسي ، وفي عداء بعض التليين له ·

ان انعدام المراجع العربية ، لا يساعد على الاجابة بشكل جازم · لكن نفترض أن تكون من جملة الاسباب ·

1 ـ شدة مقاومة « القوم » لثورته بقيادة آغا فرندة الحاج صحراوي عند وصوله الى المناطق التلية ·

2 ـ رفض بعض القبائل التلية لزعامة بوعمامة والتشكيك في أمره ·

3 ـ منافسة بعض الشيوخ له وشنهم حملات عليه للحط من قيمته وقيمة ثورته(46)

ولعل هذه المنافسة تندرج ضمن النفوذ الروحي للطرق الدينية ، فبوعمامة ينتمي الى الطريقة الشيخية (47) ، بينما ينتمي سكان التل الى طرق أخرى كالشاذلية والقادرية (48) ·

واذا كان تراجع بوعمامة نحو الجنوب الغربي قد تم لسبب أو لآخر ، فلماذا عاد من جديد الى الشمال في مطلع شهر جويلية 1881 · يبدو أن عودته كانت بقصد اخضاع

(45) Graulle p. 69.

(46) هناك مخطوط بعنوان القول الاوسط في اخبار من حل بالمغرب الاوسط للحاج أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي ، يتحامل فيه صاحبه على بوعمامة ·

(47) تفيد بعض التقارير بانتماء بوعمامة الى الطريقة السنوسية : انظر :
Septembre 1881 A. G. H 376

انظر أيضا
Wachi (colonel) *l'Insurrection de BOUAMAMA* (1881-1882) dans *Revue Tunisienne* (1901), p.354

(48) لاخذ نظرة عن الزوايا في القطر الجزائري انظر :
Auguste Bernard et R. de Flotte de Roquevaire, *Atlas d'Algérie et de Tunisie*. Service Cartographique du gouvernement général de l'Algérie 1925.

قبائل الحرار الشراقة ، القاطنة بمنطقة تيارت ، والتى قاومته بشدة ، وكذلك لاخضاع كل من « قوم » فرندة و « قوم » آغا ادريس · (49)

وعلى أى حال فقد عاد بوعمامة الى الجنوب الغربى من جديد فى حدود 14 جويلية 1881 · ومنذ هذا التاريخ كانت التقارير تفيد بوجوده بمدينة فقيق حينا ، (50) وببلبالة حينا آخر (51) ، وتبقى الاخبار ترد من هناك عن استعداداته للثورة من جديد ، وعن بعض مناوشاته للجيش الفرنسىالملاحق له الى أن تنقطع عنا أخباره فىحدود أفريل 1882 · (52)

وبينما كانت الاخبار عن بوعمامة تقل مع خريف 1881 ، فاذا بأخبار ثورة سى سليمان وسى قدور بن حمزة (53) ، وكلاهما من أولاد سيدى الشيخ، تجوب صحراء جنوب الغرب الجزائرى ، وبالرغم من أن التقارير العسكرية كانت تشير الى التنسيق بين بوعمامة من جهة ، وسى سليمان وسى قدور من جهة أخرى لضمان استمرار المقاومة وتدعيمها (54) فان التنسيق الفعلى بينهم لم يتم فى هذه المرحلة التى درسناها ·

---

(49) Télégramme du 10 Juin 1881. A. G. H 376.

(50) نفس المصدر · تقرير من قائد تيوت TIOUT الى الجنرال كولونية ، وتقرير آخر من قائد سفيسفا الى نفس الجنرال ·

(51) نفس المصدر

Note de service du Général DELEBECQUE du 5 Décembre 1881 et dépêche télégraphique du 9-12-1881.

(52) Graulle p. 118-119.

(53) Télégramme du 17-11-1881 et dépêche télégraphique du 9-12-1881 A. G. H 376.

سى سليمان هو رئيس قبائل أولاد سيدى الشيخ الغرابة ، حارب الفرنسيين سنة 1864 ، لكنه سلم نفسه اليهم سنة 1869 · وقد أعطى لقب آغا على قبائل حميان حتى سنة 1873 ، عندما أقيل من منصبه ، وحبس بعين تموشنت ، وتمكن فى الاخير من الهروب الى المغرب الاقصى · وفى 17 نوفمبر 1881 شن هجوما بجيش قوامه ثلاثمائة فارس على قبائل حميان الشعانة ، وعكرمة ، وأولاد منصورة ، وهى قبائل كانت موالية لفرنسا ، والحق بها خسائر جسيمة فى الارواح والاموال ، ويبدو أنه قتل فى مطلع سنة 1883 ·

أما سى قدور بن حمزة فهو رئيس قبائل أولاد سيدى الشيخ الشراقة ، ومعه عقدت فرنسا الصلح سنة 1883 · انظر

Etat des pertes éprouvées par les tribus razziées. A. G. H 376 par Si Slimane. Voir également télégramme du 17-11-1881.

(54) نفس المصدر

Correspondance du 4 Décembre 1881 du Général Delbercque au Colonel Commandant de Méchéria et note de service du 5 Décembre 1881.

وتعتبر المرحلة المدروسة من الثورة ، فى نظرنا ، من أهم مراحلها · ولئن تعــــذر علينا تقييم الثورة كاملة الآن ، فان مرحلتها الاولى كانت ، بالتأكيد ، فى صالح بوعمامة على الصعيدين ، الشعبى والعسكرى · فعلى الصعيد الاول تمكن بوعمامة من كسب ثقة بعض القبائل ، وجرها الى العصيان والثورة · وعلى الصعيد الثانى ، كنا قـد أشرنا الى مسيرته التى دوخ بها القادة العسكريين ، حتى أن البعض منهم كان يتجنب مجابهتــه وتعرض سبيله · (55)

اما الفتور الذى أصاب الثورة بعد سنة من اندلاعها فيرجع الى عوامل منها : حصـر السلطة الفرنسية للثورة داخل نطاق الصحراء ، وعزل القبائل الصحراوية نفسها عـن الثورة بالضغط عليها ونهب أموالها (56) ، ومنها التوقيع بين القبائل بقصد تفريـق كلمتها ، والعمل أيضا على كسب بعضها بالمال والجاه · ولا حاجة الى ذكر الدور الذى لعبه القياد عامة ، والآغا صحراوى والباشاغا السيد أحمد ولد القاضى خاصة فى اضعاف ثورة بوعمامة (57) ، أما العامل القوى الذى أضعف الثورة فيتمثل فى الشقاق الذى أحدثته السلطة بين قبائل أولاد سيدى الشيخ نفسها ، وذلك فى الوقت الذى كان شيوخها فى محاولة تنسيق ثورى كما سبق أن أشرنا (58) ، واخيرا ، كانت المراكز الفرنسية التى اقيمت فى عين الصفراء وفى غيرها ، وكذلك الخط الحديدى الواصل الى كولون بشــار عاملا من عوامل عزل الثورة نحو اقصى الجنوب الغربى ·

وكان من نتائج هذه المرحلة من الثورة :

(55) Graulle p. 60. · كان الكولونيل مالاريه Mallaret هو الذى تجنب لقاء بوعمامة · وقد احيل الكولونيل المذكور على التقاعد فورا ·

(56) Télégramme du 10 juin 1881 du Commandant supérieur de Tiaret au Bach Agha de Frenda A. G. 376.

انظر أيضا BEZY ص 54 ·

(57) A. G. 376. انظر رسالة من قائد تيوت الى الجنزال كولونية ، ورسالة أخـرى من قائد سفيسفا الى نفس الجنـــرال · انظر نمـــاذج من مراسلات القياد الى العسكريين الفرنسيين فى آخر المقال ·

(58) نفس المصدر Dépêche télégraphique du 15-12-1881 et télégramme du 5-11-1881.

1 ــ استمرار الحكم العسكرى فى الصحراء وتدعيمه ٠

2 ــ شعور الولاة العاميين بضرورة مراجعة اتفاق 18 مارس 1845 بشأن الحــدود الجزائرية المغربية وتحديد معالمها بشكل واضح ٠

3 ــ القضاء على خرافة كون عهد الثورات فى الجزائر قد انتهى بفشل ثورة المقرانى سنة 1871 ٠

وعلى أى حال فان انتهاء المرحلة الاولى من ثورة بوعمامة لم يتم عن طريق نصر عسكرى فرنسي كما كان الحال بالنسبة للثورات الجزائرية السابقة وانما كان عن طريق منـــح الامتيازات لذوى النفوذ فى الصحراء الوهرانية مقابل الولاء، كان ذلك فى ماى 1883 ٠(59)

أما بوعمامة قائد الثورة ، فقد كان فى هذه الفترة بمدينة دلدول ، ويبدو أنه قـــد اعتــزل المقاومة الى حــين ٠ وستكون شخصيته ، وأسباب ثورته موضوعا لمقــال ثــان ان شاء الله ٠

(59) كانت هناك محاولات سابقة للوصول الى الاتفاق مع قبائل أولاد سيدى الشيــخ ٠ أما الاتفاق الاخير الذى تم بتاريخ 8 ماى 1883 ٠ فقد كان على أساس ما يلى :

1 ــ تتكلف الحكومة الفرنسية باعادة بناء قبة البيوض أولاد سيدى الشيخ ، الـــتى هدمها الكولونيل نيقريية NEGRIER

2 ــ وتتكلف الحكومة أيضا بدفع مرتب شهرى مبلغه 60.000 ف الى سى قـــدور والى أفراد عائلته أولاد سيدى حمزة ، كتعويض على الحجر المضروب على ممتلكاتهم خـــلال ثورة 1864 ٠

نمـــاذج من مراسـلات القيـــاد الى العسكـــريـين الفـــرنسيـين

Le Caïd de Sfissifa au Général Colonieu

J'ai reçu votre lettre & j'ai été heureux de la lire. Si Bou amama est passé de l'Est à l'Ouest; pendant sa marche il a campé à Tiout; ses gens meurent de faim, ils n'ont pas d'orge et c'est par force qu'ils se sont réfugiés au Maroc.

El hadj ali ould taleb ben Cheikh, Khalifa des Derraga (neveu du Caïd Cheikh ould Bou tekhil) & un homme des Harrars qui avec leur famille n'ont pas voulu suivre Si Bou-amama sont restés à Ain Sfissifa. Prévenu de ce fait par un espion Si Bou amama est revenu sur ses pas à deux reprises différentes et en augmentant chaque fois son goum pour emmener de force El hadj ali & son compagnon. Ces deux indigènes m'ont laissé des lettres et m'ont donné toutes les nouvelles que je vous rapporte. Ils me disent la vu El hadj ali a suivi Si Bou-amama au Maroc pendant deux étapes, mais alors il s'est sauvé seul et est revenu à Sfissifa. A la nouvelle de cette fuite Si Bou amama a fait arrêter la famille d'El hadj ali & de son compagnon des Harrars et a voulu leur prendre tout ce qui leur appartenait. Ceux-ci ont donné 4.000 f. à Bou amama pour qu'il les laisse en paix mais ils n'en ont pas moins été obligés de repartir de force avec lui. Actuellement El hadj ali est revenu à Sfissifa (le sens est très obscur)

Cet indigène m'a dit qu'avec 300 chevaux on pourrait enlever Si Bou amama; celui-ci et ses gens campent depuis Feratis (près Galoul) jusqu'à Tigri. Les Laghouat étaient à Figuig, ils se sont battus avec les Amour; il y a eu de chaque côté 2 morts et des troupeaux razzés. Les Laghouat ont demandé aux Doui-menia & aux Oulad Djerir, dans un miad à Figuig pour qu'ils puissent s'entendre avec eux

نمــــاذج من مراسـلات القيــــاد الى العسكـــريــين الفـــرنسيين

Ils leur ont également demandé de les laisser passer pour aller rejoindre Sid Kaddour ben Hamza; les Douï Menia et les Oulad Djerir ont refusé en invoquant les ordres du Sultan. Après ce refus, les Laghouat se sont rendus à Souf Kteur, auprès de Si Bou-Amama. Tous ces gens meurent de faim; ils demandent à acheter l'orge à 3f. le kharrouba et ne peuvent en trouver; ils cherchent à vendre un cheval pour 5f. un mouton pour 0f.50c un bœuf ou un âne pour 4f. Ils ne peuvent trouver d'acheteur. Tous se repentent d'avoir quitter leur pays; ils disent que leur malheur vient de Si Bou-Amama qui les a indignement trompés; aussi ils veulent l'abandonner. Le Marabout a fait transporter tous ses effets à Figuig. Tous les Arabes sont prêts à revenir entre vos mains. Gardez bien le poste Géryville car c'est votre poste avancé. Beaucoup de gens veulent la paix; pour moi je suis avec vous et je vous donnerai toutes les nouvelles qui me parviendront.

نمـــاذج من مراسلات القيـــاد الى العسكـــريـين الفـــرنسيـين

الحمد لله وحده

الى سعادة المعظم [illegible] الرئيس الكبير سيد

دار العسكرية السلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد يا [illegible] فقد اتانا

امرك على نسبة ان نعد [illegible] والان لزمنا العقوبة فتراخ من يوم اتانا [illegible]

واننا وانعد به على ساق الجد من غير تراخ وهذا الامر كثير عرشه كله مروس

من متاعه وغدا ان شاء الله [illegible] بهم جميع ما خصهم نكملوه هاذه

الليلة ولا تحسب ذا الحاجة [illegible] تراخ [illegible] كثير كما لا يخفاك

والسلام عن اذن القايد الطالب [illegible] وتاريخ ٢ من المحرم عام ١٢٩٨

Le Caïd des Akerma rend compte qu'il ne pourra remettre les états des pertes subies par suite de l'invasion de Si Sliman que demain matin.

المقاومة فى الجزائر
1830 ـ 1848

د. محمد العربى الزبيرى
كليـة الآداب ـ جامعة الجزائر

ـ 2 ـ



يكاد جميع المؤرخين يحصرون حركة الكفاح المسلـح بالجزائر ، اثناء الفترة ما بين 1830 و 1848 ، فى مقاومة الامـير عبد القادر للفرنسيين ، وذلك عـلى الرغم من ان الامير لم يدخل المعركة ، كقائد ، الا بعد عامين من نزول القوات الفرنسية على شواطىء سيدى فرج •

ويتعمد نفس هؤلاء المؤرخين غض النظر عن كل مـا قام به أحمد باى فى مجال الدفاع عن سيادة البـلاد ، وذلك على الرغم من ان مقاومته ظلت مستمرة من قبل يوم النزول الى ما بعد استسلام الامـير عبد القادر بحـوالى سنة كاملة •

واذا كان هؤلاء المؤرخون يقصدون التقليل مـن روح المقاومة لـدى سكان الجزائر ، وابعاد أحمد باى عن التاريخ البطولى الذى سجلته بلادنا ، فان موقفنا ، نحن ابناء المغرب

العربى بصفة عامة وابناء الجزائر بصفة خاصة ، ينبغى ان يكون مخالفا لذلك ومسايرا للحقيقة ٠

وفيما يلى ، سوف أحاول ان اتعرض بنوع من الايجاز الى مقاومة الرجلين ٠ لا أريد مقارنة بينهما لان هذا ليس هو هدفى الاسمى ـ ومن الممكن اننى اتناول ذلك على حدة فيما بعد ـ وانما لاضع بين ايدى القراء وثيقة حاوية بقدر الامكان لمعلومات اجمالية عن نشاط كل منهما ومجهوداته فى سبيل الدفاع عن الارض المغتصبة ٠

أ ـ مقـــاومة أحمـد بـــاى :

لقد كان أحمد باى كرغليا ، أى من أب عثمانى نازح وأم جزائرية ٠ وكباحثين فان المنطق يحتم علينا أن نؤكد بأنه كان جزائريا قبل كل شىء : ولد فى الجزائر من أب ولـــد فى الجزائر ؛ بالاضافة الى انه ذلك الرجل الذى وهب حياته لهذا الوطن ولا يعرف وطنــا ســـواه ٠

واذا سلمنا للمؤرخين الغربيين الذين ذكرناهم أعلاه بان أحمد لم يكن جزائريا ، فماذا نقول عن أباطرة روما العرب والافارقة وخاصة منهم فيليبيوس أرابيكوس ذى الاصـــل العربى كما يدل على ذلك اسمه والذى قدر له أن يحتفل بالذكرى الالف لتأسيس رومـا ؟ وعن بونبرت الذى جاء الى فرنسا من جزيرة كورسكة ؟ وعن الامراء والملوك الفرنسيـــين الذين ينحدرون من سلالة بريطانية ؟

واذا أردنا ، نحن كجزائريين ، أن نجرد أحمد من الجنسية الجزائرية ، يجب قبل ذلك أن نطرح على أنفسنا السؤال التالى : لماذا أعطيت الجنسية الجزائرية لكل من طلبها فمـــن انخرط من الاجانب فى صفوف جيش أو جبهة التحرير الوطنى أثناء ثورة نوفمبر 1954 ؟ هذا بالاضافة الى انه لا مجال للمقارنة بين أحمد وهؤلاء ، لان الباى لم تكن له لغة أخرى ، ولا تقاليد ولا عادات ولا أخلاق غير لغة الجزائريين وتقاليدهم وعاداتهم وأخلاقهم ، بالاضافة الى أن مفهوم القومية فى الجزائر لم يكن قد تبلور فى ذلك الحين ؛ وانما كان هنـاك فقـط الانتماء الى الدولة العثمانية المترامية الاطراف ، كما ان المفاهيم السياسية والايديولوجية لم تكن منتشرة فتمكننا من تفسير مواقف الحاج أحمد ٠

أما عن حياته ، فان السيد أحمد بوضربة ، عندما قدم مذكراته الى اللجنة الافريقية سنة 1833 ، يذكر بان الباى كان يبلغ من العمر فى ذلك الوقت 47 سنة ؛ الامر الذى يجعلنا نحدد تاريخ ازدياده بعام 1786 ، وقد كان يسمى باسم أمه ، فيقال الحاج أحمد ابن الحاجة رقية· وهى من أسرة ابن قانه المعروفة فى الصحراء· وأبوه هو محمد الشريف خليفة حسن باى الذى تولى الحكم بعد صالح باى المتوفى سنة 1792 ؛ وأما جده فهـــو الباى امحمد القلى الذى حكم قسنطينة مدة ست عشرة سنة ابتدأها عام 1755 ، والذى يقول عن الحاج امحمد المبارك في «تاريخ حاضرة قسنطينة» انه رجل عاقل صالح عالـم بتسيير شؤون البلاد ·

وقد نشأ أحمد فى بيت أخواله ، فشب على حياة البداوة ، وتعلم الفروسية ، وتدرب على القتال ، فكان رجلا حاسما وشجاعا لا يعرف التردد عندما يجب الفصل فى القضايا · وان هذه الصفات الخليقة بكل مسؤول هى التى جعلت الايالة تعينه ، وهو لم يتجاوز الثلاثين خليفة لباى قسنطينة التى هى أكبر المقاطعات فى الجزائر واهمها فى جميـــع النـــواحى ·

ولقد اظهر احمد ، أثناء ممارسته هذه المسؤولية الجبارة ، مهارة كبيرة وخبرة واسعة فى اكتساب ثقة الاهالى وضمان تعاونهم معه ، بحيث انه ، عندما وقع الخلاف بينه وبين رئيسه ، وأمر هذا الاخــير بحبسه ، وجدناه يحظى بمساعدة أعيان المـدينة والبايلك بصفة عامة لمغادرة المكان والتوجه الى العاصمة بسلام ·

وفى منفاه ، ظل الباى متمسكا بسيرته الأولى ، فكان يبرهن على شجاعته ، وتفانيه كل ما دعى للمساهمة فى عمل من الاعمال · وفى البليدة استطاع ان يثير اعجاب يحيى آغا باستقامته واخلاصه ؛ وانقلب هذا الاعجاب محبــة بعد تجارب طويلة ، وخاصــة بعد الدور الذى لعبه احمد اثناء الزلزال الذى اصاب البليدة سنة 1825 · ولذلك رأينا الآغا ، صاحب النفوذ والسلطان فى ذلك الحين يتدخل لدى الداى ، ويحصل للحـاج على العفو فى مرحلة أولى ، ثم على البايلك فى مرحلة ثانية سنة 1826 ·

هكذا ، حصل احمد على هذا المنصب باستحقاق · وبمجـــرد ما تسلـم مسؤوليته الجديدة شرع فى تنظيم الامور والقضاء على الفوضى · وتبين من خلال هذه الاعمال أنـــه

قائد مقتدر له من الدهاء العسكرى والسياسى ما لم يتوفر لسابقيه • ولذلك تمكن من البقاء اثنتين وعشرين سنة على الرغم من المشاكل والمحن ، ومن المجهودات والتضحيات التى بذلتها فرنسا للقضاء عليه •

لقد شارك احمد باى فى اشغال المجلس العسكرى الذى كلفه الداى بدارسة الوضع وتحديد الخطة التى يتحتم على الجزائر اتباعها لصد العدوان الفرنسى • ولم يكن موافقا على آراء رئيس المجلس الذى هو فى نفس الوقت صهر الداى ولكنه كان مضطرا ، بعد ان أبدي رأيه بصراحة وتأكد من اصرار قائد القوات وتماديه فى خطته ، على قبول القرار المجمع عليه • ولم يكن فى امكانه ان يفعل غير ذلك خاصة وانه قادم من منطقة بعيدة وليس له ما يكفى من الجنود والعتاد ما يسمح له ، لو تمرد ، بتكوين جيش مستقل (39) •

وهكذا دخل المعركة وهو متيقن من انتصار القوات الفرنسية • ولما سلمت مفاتيح العاصمة الى المارشال دو بورمون ، جمع الباى حوله جميع الهاربين ثم توجه الى قسنطينة. وفى أثناء الطريق اتصل برسالة من قائد الحملة الفرنسية يعرض عليه فيها الاستسلام مع الاحتفاظ بمنصبه • ولكنه رفض •

ومن الصعب جدا ان نفسر هذا الرفض فى وقت كان فيه بومزراق باى التيطرى يسعى ليحظى بثقة الفرنسيين ، وباى وهران يقف من الغزو موقف اللامبالاة •

(ولئن كان أحمد ينسب موقفه الرافض هذا الى ضرورة استشارة أهالى البايلك أو سكان مدينة قسنطينة على الاقل مدعيا انه لا يريد ان يسلك مسلكا قد يخالف رأيهم ، فاننا نرجح ، فيما يخصنا ، ان يكون هذا الموقف ناتجا عن الرغبة فى الاستقلال عن أية سلطة مركزية •

لقد كان يريد ان يجعل من بايلك الشرق باشوية تابعة للدولة العثمانية مباشرة • ومن الجدير بالذكر ان هذه الارادة تجسدت على اثر الخلاف الذى وقع بينه وبين باى التيطرى وبعد اعتزام الجنرال كلوزيل استبداله بباى آخر فاعلنا أحمد عن تكوين الباشوية وتعيين احد اعوانه المقربين ـ على بن عيسى ـ خزناجيا وأمينا للسكة التى أمر بضربها وفقا لما جرت بها العادة فى ايالة الجزائر •

(39) يذكر الباى فى مذكراته انه لم يصطحب معه سوى 400 فارس ومدفع واحد •

أما باى التيطرى ، فانه لما لم يتمكن من كسب ثقة الفرنسيين ثار عليهم ثانية وطلب من أحمد ان يعلن الولاء له بصفته اقدم منه واقرب الى العاصمة • وعندما رفض بـــاى قسنطينة الاستجابة « لهذا الذى لا يعرف ماذا يريد » اعلن بومزراق عن عزله وعـــين مكانه ابراهيم باى الذى كان حسن قد عزله لعجزه ولعدم حيازته على شروط الحكم •

وأما الجنرال كلوزيل ، فانه ارسل الى احمد يطلب منه ان يستسلم الى فرنســـة التى تتركه بايا مقابل ما كان يقدمه لرئيس الايالة من اتاوات وخدمات • ولما لم يقبل ، أمر كلوزيل بعزله وراح يتفاوض مع باى تونس لابرام معاهدة ترمى الى الحاق الشـــرق الجزائرى ببايلك تونس •

وامام هذه الضغوط المختلفة المصادر ، وامام كل هذه الصعوبات اخـــتار البـاى الاعتماد على النفس والاعلان عن ارتباطه بالباب العالى ؛ أولا ليلبى رغبة الاهالى الذيـــن ما زالوا يولون بالغ الاهتمام بالخلافة الاسلامية ، ويعتقدون ان السلطان العثمانى هـــو صاحبها الشرعى ، وثانيا انه كان متأكدا من ان الاستانة لا يمكـــن ان تراقبـــه فى تصرفاته ، ومن ثمة يكون مستقلا فى حكمه لا يحاسبه أحد •

وفى قسنطينة ساعد غياب الباى على تدبير مؤامرة تزعمها بعض القادة العسكريين الذين ارادوا استعمال حامية الشتاء (40) لتنصيب القائد سليمان على رأس بايلـــك الشرق الجزائرى •

وكان من الممكن ان تكون سنة 1830 هى نهاية عهد الحاج أحمد باى ، ولكن الباشحمبا على بن عيسى (41) استطاع ان تجد السكان فالقوا القبض على رؤوس المؤامرة واعدموهم امام باب المدينة •

---

(40) تتكون هذه الحامية من مائة خيمة ، وتأوى الخيمة الواحدة ثلاثين جنديا • ويقود الحامية ضابطا برتبة آغا ، أما الخيمة فيشرف على تسيرها ضابط برتبة بولكباش •

(41) يزعم ابن قانة فى كتابه (ص : 38) ان الفضل يعود اليـــه فى التغلب عـــلى المتمردين • فى حين يقول العنترى (ص : 55) ان الشيخ لفغون هو الذى تزعم الحركـــة المساندة للباى • أما الحاج احمد فينسب ذلك فى مذكراته (ص : 19) الى ابن عيسى •

وهكذا حقق أحمد باى انتصارين فى آن واحد · الانتصار الاول يتمثل ، طبعا ، فى القضاء على تلك المعارضة الخطيرة قضاء لم يعد بعده اى خوف واما الانتصار الثـانى فيتمثل فى كون الباى استرجع سلطته على اساس متين وقاعدة شعبية ستمكنه مـن تنظيم نفسه كما ينبغى والاستعداد ، مرتاح البال ، لمقاومة الغزو الفرنسي ·

وأول هزيمة منيت بها قوات الحـاج أحمد هى احتلال عنابة النهائى الذى وقع بعد استسلام الداى بعامين·ولقد كان الفرنسيون قد استقروا فى هذه المدينة قبل ذلك ولكنهم اجبروا على الخروج فى حينهم · ولكن الجيوش الفرنسية بقيادة الضابط دارمندى فى هذه المرة ، عرفت كيف تستغل ظروفا خاصة تسبب فى خلقها الصراع الدموى بـين ابراهيم باى الآنف الذكر وعلى بن عيسى الذى كلفه الباى باسترجاع المدينة مهما كانت التكاليـف ·

وتمركز دارمندى فى عنابة بكيفية محكمة ثم نصب يوسف المملوك قائدا لفرسان المدينة · بعد ذلك بدأ الفرنسيون يستعدون للتوسع والتقدم نحو عاصمة الشـرق الجزائرية · وتفطن احمد باى لذلك ، فامر ابن عيسى بمحاصرة عنابة وتضييق الخنـاق على جيش الاحتلال، لارغامه على الجلاء لان ذلك لم يعد ممكنا بعد تشييد الحصون وتزويدها باحدث الاسلحة واثقلها ، ولكن لعرقلة عمليات الزحف الى ان تصل الامدادات مـن القسطنطينية ؛ وكان الباى ما زال يعتقد بان الباب العالى قادر على نجدتـه التى هى فى الحقيقة حماية لقطعة من ممتلكات الدولة العثمانية ·

واستمرت المعارك بين الطرفين حاميـة ، باهضـة التكاليف ، اذ يذكـر الدوق دوروفيكو بان الحرب التى كانت تشنها قوات الباى على الفرنسيين قـد كلفت فرنسا حوالى ثلاثة ملايين من الفرنكات فى ظرف عام واحد · (42)

ولقد كان من الممكن ان يحدث سلم بين الجانبين فى سنة 1833 لولا ذلك الحـذر الشديد الذى كان يتسم به الباى · وبالفعل ، فان دوروفيكو قد عرض على احمـد

(42) مذكرات احمد باى ، ص : 33 ·

وبواسطة حمدان خوجة ، نوعا من الاستقلال مقابل السماح لفرنسا بتنصيب حاميتين احداهما فى قصبة عنابة والثانية فى قصبة قسنطينة ، بالاضافة الى ان ميناء عنابة يكون تابعا للفرسيين . ولكن احمد رفض رفضا باتا ، وذلك ، فى نظرنا ، يرجع الى سببين رئيسيين : يتمثل الاول فى كون الباى لم يكن يثق بوعود فرنسا بعد ان رأى اخلالها بالعهود المضروبة قبل استسلام مدينة الجزائر ؛ ويكمن الثانى فى تواجد رسول الباب العالى بقسنطينة اثناء المفاوضات . ويقول أحمد ان هذا الرسول ابلغه بان السلطان محمود يامر بعدم قبول أى حل دون الرجوع اليه بصفته العاهل الشرعى الذى يمثل الخلافة الاسلامية . (43)

وحينما تاكد الفرنسيون ان الباى لم يستسلم بسهولة وانه يرفض ، كليا ، جميع الشروط التى عرضوها عليه ، قرروا تنظيم حملة عسكرية يكون الهدف منها فك الحصار الذى تضربه قوات الخليفة ابن عيسى على عنابة من جهة واحتلال مدينة قسنطينة والقضاء على أحمد باى عن طريق العنف من جهة أخرى .

وتواردت على عاصمة الشرق الجزائرى اخبار الاستعدادات ، لان اهالى عنابة كانوا على اتصال دائم بالقيادة الشرعية فى قسنطينة . ويقول الباى انه عندما علم بموعد الحملة استدعى خليفته وكلفه بالدفاع عن المدينة التى كانت « مجهزة كما ينبغى بالاسلحة والعتاد الحربى » (44) ثم أمر بتجنيد حوالى ستة آلاف مقاتل وخرج معهم بنفسه الى وادى الكلاب الذى يسمى حاليا وادى الاحد للقاء القوات الاستعمارية .

لقد سلك أحمد باى طريقة حربية ممتازة . انه لم يكن يخشى على سقوط عاصمته التى تركها تحت قيادة من يثق بهم وبكفاءتهم القتالية . وكان يعرف ان مجابهة القوات الفرنسية مباشرة يؤدى حتما الى الهزيمة ؛ وعليه ترك العدو يتقدم دون مقاومة الى ان صار بينه وبين المدينة كقطعة الحديد بين المطرقة والسندان .

(44) مذكرات احمد باى ، ص : 46 .
(45) نفس المصدر ، ص : 53 .

وجاء هذا السلوك الذكى بنتائج ايجابية ، اذ حقق له من النصر ما لم يكن يتوقعه • فانهزم الجيش الفرنسى هزيمة نكراء ، وانسحب مخذولا وقوات الباى تطارده الى ان دخل ثكناته •

وهنا تجدر الاشارة الى ان أحمد اخطأ فى تقديره لما بعد المعركة • وسيكلفه هذا الخطأ سقوط عاصمته فيما بعد • ذلك انه ، بدلا من ملاحقة الجيوش الفرسية والاثخان فيها ، والدخول وراءها الى مختلف الثكنات والمراكز حتى يسترجع ميناء عنابة ويستحوذ فيه على كامل معدات العدو ، ثم يدعم الحصون ويسلحها استعدادا لصد أى نزول آخر فانه فضل الكف عن الملاحقة ليشعر الفرنسيين بانه يميل الى المهادنة والسلم ، ولا يريد شرا بالقوات الفرنسية • ويعزى الباى هذا الموقف ، فى مذكراته ، (45) الى خوفه من الثأر • ان هو اباد الجيش الفرنسى ، والى أمله فى ان يوفد له الفرنسيون ، فى خضم هذه الاحداث ، من يفاوضه ويعمل معه على ارساء سلم دائمة مبنية على اسس متينة • ولكن الفرنسيين لم يكونوا يفكرون فى هذا كله ، وانما كان همهم الوحيد تضمد الجراح وتدعيم المواقع لصد الهجومات المحتملة • لاجل ذلك عاد أحمد خائبا ، رغم النصر، الى مدينته يرمم اسوارها وحصونها التى تأثرت من جراء هجومات العدو •

وهناك خطأ آخر ارتكبه الباى ويتمثل فى اعتماده كثيرا على الدولة العثمانية ، وثقته العمياء فى قدرتها على تخليص الايالة من الاستعمار الفرنسى • ولقد كان السلطان محمود يغذى تلك الثقة برسالة يكتبها من حين لآخر يضمنها كثيرا من الوعود والتعابير المهنئة والمشجعة •

وحتى عندما أراد الباب العالى أن يوفى ببعض هذه الوعود حينما ارسل الى تونس أربع بواخر مشحونة بالجنود ، وعلى متنها اثنا عشر مدفعا ومائة وخمسين من المختصين فى الاسلحة الثقلية ، فان باى تونس قد عارض ورفض السماح بانزال تلك القوات لكى لا يعرض السكان الى سخط الفرنسيين • (45)

ولما رأى الفرنسيون استماتة أحمد باى فى القتال ، وتأكدوا من تصميمه على مواصلة المعركة من أجل الحفاظ على سلطته ، وبعد فشلهم فى الدخول الى مدينة قسنطينة

(45) مذكرات احمد باى ، ص : 62 •

فى زعمار بالقرب من مدينة قالمة • وبالاضافة الى ذلك تدفع سلطات الشرق الجزائرى الفرنسية باقامة معسكرين احدهما فى قصبة قسنطينة نفسها وثانيهما فى المكان المسمى لفرنسا غرامة حرب قدرها مليونان من الفرنكات ، وتترك لجميع القبائل حرية الانضمام الى فرنسا •

ولقد كان الشرط الاخير هو أقسى ما جاء فى المعاهدة لانه يقضى بالتدريج على سلطة الباى اذ يسمح للقبائل أن تنفض من حوله والالتحاق بالمعسكرات الفرنسية كلما أرادت الفرار من أداء الواجب • لاجل ذلك ، فان أعيان المقاطعة الذين جمعهم أحمد للنظر فى العرض الفرنسى قد أجابوا بالرفض ، وأشعروا قائد الجيوش الفرنسية بأن الحل الوحيد المتبقى انما هو ما تسفر عنه المعركة بين الطرفين • (46)

ويرى السيد دامرمون ان رفض أحمد باى انما كان بسبب المفاوضات التى كانت تجرى آنئذ بينه وبين الامير عبد القادر حول امكانية توحيد صفوف المقاومة • ومن الممكن ان يكون هذا الرأىصحيحا لان الفترة هى تلك التى انعقد فيها ما يسمى بمؤتمر بوخرشفة •

ومهما كان الامر ، فإن فشل المفاوضات بين القيادة الفرنسية فى الجزائر وأحمد باى قد جعل هذا الاخير يستدعى جميع قواته على الفور ويأمر قادته بضرب الحصار على المستعمرين ثم يركز هجوماته على مجاز عمار الذى يعتبر فى ذلك الوقت أهم تجمع فرنسى • ودامت هذه الهجومات عدة أيام لكنها لم تسفر عن نتيجة ايجابية نظرا لتفوق العتاد الحربى عند الفرنسيين وعدم تمكن أفراد الجيش الجزائرى من السيطرة على فنيات الاسلحة الحديثة وبصفة خاصة على المدفعية التى كان لها الوزن الثقيل فى المعركة •

وشجعت هزيمة أحمد باى ، أثناء هذه المعارك المتتالية ، قيادة الجيش الفرنسى على الانتقال من الدفاع الى الهجوم ؛ وتواصل ذلك الى أن ضرب الحصار ثانية على مدينة قسنطينة التى كان يحرسها الخليفة على بن عيسى وقائد الدار محمد البجاوى على رأس جيش يضم حوالى خمسة آلاف جندى •

---

(46) نفس المصدر ، ص : 66 •

لقد كان أحمد متاكدا من أن عاصمته منيعة لا يمكن أن تسقط بين أيدى المهاجمين . ذلك انه استطاع بعد الحصار الاول واندحار القوات الفرنسية أن يدعم الاسوار ويخللها بمدافع كثيرة أعدها وضبط رميها جماعة من الاخصائيين على رأسهم الفنى الالمانى شلوتسه الذى كان يعيش فى بلاط الباى .

ويذكر السيد شلوتسه هذا الحصار فى مذاكرته (47) فيعترف بان الخطة التى رسمها الباى هى خطة عسكرية من الطراز الاول ؛ وان الجيوش الفرنسية ما كانت تستطيع الصمود أمام نيران المدافع الجزائرية لولا أن هناك خيانة دبرها هو نفسه « خدمة للمسيحية ، ولنفسه كى يتحرر من العبودية » . (48)

وتتمثل هذه الخيانة فى أن رمى المدافع كلها ضبط ، فى اللحظات الاخيرة ، عاليا بحيث تمر القنابل فوق الرؤوس ، ولا يمكن تصويبها الى أهداف معينة. ويقول شلوتسه بان نيران المدافع الجزائرية كانت ، عندما نشبت المعركة ، حامية ولكنها غير صالحة الا لتسخين الفضاء .

وعلى الرغم من استماتة السكان فى الدفاع عن مدينتهم ، فان الجيوش الفرنسية قد تمكنت من ثلم الحائط وتسلق الاسوار ؛ ثم اسرعت الافواج الاولى من المتسربين ففتحت الباب على مصراعيه ... وسقطت المدينة .

وكان سقوط قسنطينة ضربة قاسية بالنسبة لمستقبل الشرق الجزائرى بصفة عامة ومصرا لمآسى كثيرة تعرض لها الباى طيلة عشر سنوات أو أزيد . لقد كان احمد يعتمد اكثر ما يعتمد على أسرتى ابيه قانة والمقرانى لما كانت بينه وبينهما من اواصر القرابة المتينة . وكانت الاسرتان تتبعانه وتؤيدانه مطلق التاييد عندما كان واقفا على رجليه ؛ أما الآن وقد زلزلت القاعدة ، فان كل أسرة اصبحت تريد جره فى ركابها لتحقق به مآربها فى منطقة نفوذها . وكان احمد مدركا لكل هذه المناورات ، ولكنه لم يكن فى وسعه الاستغناء عنهما خاصة وان السلطان لم يف بوعده ، ولم يرسل له الامدادات التى

---

(47) مذكرات سلوتشة ، كتبها بالالمانية ونقلها الى العربية وعلق عليها الدكتور أبو العيد دودو ، وهى الآن تحت الطبع .
(48) نفس المصدر .

تمكنه من مواصلة المقاومة بفعالية وبكيفية منتظمة . ولقد سبق أن تحدثنا عن المحاولة الاولى وعن تصدى باى تونس لها .

وعلى الرغم من هذه الظروف القاسية ، فان الباى لم يستسلم ، ولم يضيع وقته فى البكاء والنواح على ما ضاع ؛ بل انه سارع الى جمع قادته العسكريين الى جانب ما تبقى من أعيان المدينة ثم عرض عليهم خطة تقضى بعزل الغزاة عن قاعدتهم الاساسية وسد طرق الامدادات مهما كان نوعها . وبذلك يضطر الفرنسيون الى الاستسلام وتسترجع قسنطينة بالقوة كما أخذت .

وكان من الممكن ان يتحقق هذا المشروع ، خاصة اذا علمنا ان التقارير التى وصلت الى وزير الحربية الفرنسى بتاريخ 28 أكتوبر 1837 تؤكد بان « زاد الجيش قد نفذ عندما هجمنا » ولو ان الهجوم ، الذى زعزعه انفجار لغم ، لم ينجح ، واستطاع العدو ان يرجع الجيوش الى مكان المدافع الصامتة ، وهو ما كاد ان يقع ، لهلك الاجناد كلهم » (49) . غير ان عاملا جديدا تدخل فى الموضوع فحال دون تحقيق ارادة الباى . هذا العامل هو خوف شيخ العرب ابن قانة علىمنطقة الصحراء الشرقية التى كان منافسه فرحات بن سعيد(50) يعمل على ضمها الى منطقة نفوذ الامير عبد القادر .

أما أحمد ، فان لم يكن يبالى بمصير الصحراء ما دامت بعيدة عن الاستعمار . ولم يكن يهمه سوى ان يسترجع ما أخذ منه عنوة واصبح فى قبضة الاجنبى . وأما بوعزيز فكان همه الوحيد هو ان يقضى على خصمه التقليدى . لان عائلة ابن قانة وبوعكاز لم تتوقفا منذ زمن بعيد جدا عن التناحر والتطاحن على منصب قيادة العرب الذى كان ينتقل من واحدة لاخرى وفقا لما ترتضيه القبائل الصحراوية التى تقدم معونتها لمن تريد له الغلبة .

وتغلبت العاطفة على الباى ، فتبع اخواله الى الصحراء لمقاتلة فرحات بن سعيد ، تاركا للقوات الفرنسية فرصة التمركز فى عاصمة الشرق الجزائرى ، وربط المركز

---

(49) المحفوظات الوطنية بباريس ، ف 80 ، 1672 .
(50) المحفوظات الوطنية بباريس ، ف 80 ، 1672 .

الجديد بالقاعدة الاساسية ؛ عنابة ، ويقول الباى فى مذكراته : « لقد اتبعت بوعزيز ، وكان ذلك هو مصابى الاعظم ··· واذا حكم القدر على شخص بالهلاك عمى بصره وبصيرته » · (51)

واراد المارشال فالى ، الذى شغل منصب الولاية فى الجزائر من سنة 1837 الى سنة 1840،ان يضع حدا نهائيا للمقاومة فى شرقى البلاد حتى يتسنى للقوات الفرنسية ان تتفرغ لمحاربة الامير عبد القادر الذى الهته معاهدة الطافنة عن الاهتمام جديا بامكانية توحيد الكفاح المسلح فى كامل انحاء البلاد · لقد ارسل فالى ، بعد أيام فقط من سقوط قسنطينة ، عددا من الرسل ، يحاولون حمل الباى على الاستسلام مقابل نقله الى فرنسا والحفاظ على أسرته واملاكه (52) · غير ان هؤلاء الرسل لم يتوصلوا الى نتيجة لان الباى كان ما يزال يعتقد بان السلطان سيوفى بعهده ويمده بالنجدات التى تمكنه من استرجاع المسلوب · وأخيرا لجأ فالى الى نفس الحيلة التى تمت بها مخادعة الامير عبد القادر ، فصاغ مشروع اتفاقية ثم ارسلها الى الباى طالبا منه ان يقبلها كعرض يهدف الى انهاء الحرب ·

تنص هذه الاتفاقية على ان الباى يعترف بسيادة فرنسا ، وبالمقابل يحصل على لقب الباشا ويسمح له بالتصرف فى مقاطعته السابقة دون الموانىء · والى جانب الاعتراف بالسيادة يرفع الباشا الجديد غرامة سنوية قدرها مائة ألف فرنك ويتعهد باحترام عدد من الشروط تضمنتها مواد الاتفاقية · (53)

ولقد كان من الممكن ان يصادق احمد على هذه الاتفاقية لو خلت من مادتها الثانية عشرة · وتقول هذه المادة : « لا قيمة لهذه الاتفاقية الا بعد ان يصادق عليها الملك ، وحتى ذلك الحين ، فان فرنسا تحتفظ بحامية فى قسنطينة » ·

---

(51) مذكرات احمد باى ، ص : 77 ·

(52) من المعلوم ان الباى قد ترك كل املاكه فى قسنطينة · وقد جاء فى المذكرات انه انما فعل ذلك ليكون قدوة ولتكون مقاومة السكان أكثر ضراوة · (انظر المذكرات ، ص : 75) ·

(53) انظر النص الكامل للاتفاقية فى كتاب المذكرات ، ص : 108 ــ 111 ·

هذا مجرد رأى اذ ليس هناك وثيقة تاريخية توضح لنا الاسباب التى دفعت الباى الى الامتناع عن التوقيع • والشىء الثابت ، بعد تحليل الاوضاع السائدة فى الجزائر آنذاك ، هو ان معاهدة الطافنة قد ساعدت كثيرا على احتلال قسنطينة لانها مكنت قوات الاستعمار من التركيز على واحدة من قاعدتى المقاومة المسلحة •

وحاول الباى ان يجمع حوله اعيان المقاطعة الى جانب جيشه النظامى الذى بدأ يتشتت بسبب سقوط قسنطينة من جهة ، ولعجز خزينة البايلك عن تسديد الاجور ، وتوفير سائر الامكانات الضرورية للاعتناء بالاجناد • ولكن الجهود المبذولة كلها تقريبا لم تؤد الى نتيجة ايجابية لان الذى يفقد الملك ـ كما قال الباى نفسه ـ يكون كالاسد الذى يلفظ أنفاسه الاخيرة • ويصير أولئك الذين كانوا يخشون النظر اليه فى عهد عزه ، كالطيور الكاسرة تنقضى عليه لتقتلع قطعة من لحمه » • (54)

ومن هنا دخلت المقاومة فى الشرق الجزائرى مرحلة جديدة تتمثل فى شخص الباى يتنقل من قبيلة لاخرى ومن منطقة الى منطقة ثانية • وكلما حل بمكان وجه له الاستعمار سارية يشتبك معها تارة ويفر أمامها مرة أخرى • أما الجيش النظامى ، فانه قد تفتت تدريجيا للاسباب التى ذكرناها ولان الباى لم يعد قادرا على ان يوفر له الاسلحة والذخيرة للتمكن من المقاومة •

ولقد كان الباى يدرك كل الادراك ان هذه المرحلة الجديدة لا يمكن الاعتماد عليها لطرد قوات الاحتلال أو حتى لاسترجاع بعض المراكز المحتلة حديثا • وعلى الرغم من ذلك ، فانه ظل يواصل جهاده مدة اكثر من عشر سنوات أخرى قاسى خلالها من الشدائد والمصائب ما لم يكن فى وسع غيره من البشر ان يتحملها •

ب : مقاومة الامير عبد القادر •

(54) نفس المصدر ، ص : 88 •

الحقيقة تقود خطواتهم

تـأليف :
منديس فرانس
عرض ونقد :
محمـد الميـلي
مدير وكالة الانباء الوطنية



يقترن العمل السياسى ، فى ذهن الرجل العـادى ، بصور أقل ما يمكن ان يقال فيها انها صور غير مرضية ؛ ولعل الكثير من جيلنا ما يزالون يرددون قولة الشيـخ محمد عبده الشهيرة التى يلعن فيها السياسة والساسة وكل ما تصرف عن فعل ساس ويسوس • والى عهد غير بعيد كانت عبارة « السياسة » بالفرنسية ، تعنى عند رجل الشارع عندنا الكذب أو التضليل ، فكثيرا ما تسمع من شخص يريد ادانة موقف أو تصريح بانه مخـادع ، فيصفه بانه « بوليتيك » •

ويبدو ان هذه الصوزة عن السياسة والاشتغال بها ، التى يعطيها تعبير «البوليتيك» فى تصور رجل الشارع ، ترجع الى العهد الاستعمارى فليس من محض الصدفـة ان تقترن هذه الصورة بتعبير فرنسى دخل كما هو ، دون ترجمة ، فى كلام الناس العادى •

Pierre Mendès France

La vérité guidait leurs pas

Collection Témoins/Gallimard



وليس من المستبعد ان يكون اصل ذلك ما كان يصدر من وعود ، وخاصة على المستويات المحلية ، اثناء الحملات الانتخابية ، سواء كانت للمجالس البلدية أو المجالس الاقليمية أو مؤسسات فرنسية أخرى مثل « المجلس الجزائرى » ومجلس النواب الفرنسى ٠ فاهتمامات سكان القرية اثناء مثل هذه الحملات الانتخابية ـ وخاصة قبل الحرب العالمية الثانية ـ قد تطغى عليها احيانا الاعتبارات المحلية والمصاعب اليومية ، وقل ان يتغلب فيها جانب العناية بالقضايا الوطنية الكبرى ، الا فى بعض المدن ، أو بعد الحرب العالمية الثانية ٠

فى حين ان العمل السياسى ينبغى ان يكون هو أكثر الاعمال التزاما بقواعد الخلق الفاضل ومتطلبات النزاهة القصوى ٠ لان العمل السياسى أو نشاط رجل السياسة ، يتجاوز حدود شخصه ومحيطه القريب ، وعلى قدر ما ترتفع درجة المسؤولية على قدر ما تتسع دائرة التاثير ، وعلى قدر ما تمتد آثار العمل السياسى فى المستقبل وتنعكس على مصير جيل أو أجيال ٠ وعلى هذا الاساس ينبغى ان يكون العمل السياسى مبنيا على قواعد خلقية تاخذ فى الاعتبار انعكاساته المتوقعة على حياة الناس ومصير مستقبلهم ٠

* * *

خطرت على ذهنى هذه الملاحظات وانا أقرأ كتاب منديس فرانس الاخير الذى ظهر فى مطلع هذه السنة عن دار « غاليمار » ٠ وهو كتاب يضم أحاديث ومقالات وخطبا كتبت وألقيت بمناسبات مختلفة، تناول فيها الكاتب أربعة عشر شخصية من الشخصيات السياسية أو التى احتكت بالسياسة عن طريق الصحافة ، أو عن طريق الادب ٠ وعنوان الكتاب يوحى بالفكرة العامة التى أراد ان يستخلصها المؤلف من حياة هؤلاء الرجال الذين تعرض لهم ٠ والذين قرأ عن بعضهم ، وعرف بعضهم الاخر ٠

« فالحقيقة تقود خطواتهم » عنوان يكشف عن البعد الاخلاقى الذى يراه مانديس فرانس لكل عمل يقوم به رجل السياسة ورجل الدولة ٠

السياسة والاخلاق

وقد وضع الكاتب ، بين يدى تلك الصور التى رسمها لرجال أعجب بهم ، مقدمة طويلة تقع فى نحو أربعين صفحة ، بعنوان « رجل الدولة والسلطة » حوصل فيها افكاره

عن السلطة والحكم والديمقراطية ووسيلة الانتقال الى الاشتراكية ، ومسؤولية رجل الدولة عندما يمارس الحكم فى العمل على تغيير الهياكل باتجاه المستقبل وتحسين الاوضاع الاجتماعية الى أفضل ، وهو منذ المقدمة ، يشعر القارىء بمدى ما يعطيه من قيمة للاعتبار الاخلاقى · لان سياسة الحكم قد تسير فى اتجاه « تدعيم الامتيازات والحفاظ عليها » ، كما قد تسير فى اتجاه « توسيع دائرة الديمقراطية » · ويمكن « ان تستلم للظلم القائم » كما يمكن ان يغذيها « تصميم صلب على تحقيق التطور » (ص 21) وفى هذه الحالة تقل نسبة المظالم وتتقلص مساحة البؤس · وينتهى من ذلك الى ان الحكم على رجل الدولة وتقييم نشاطه يقوم على أساس ما أراد واستطاع ان يحققه فى هذا المجال ، أى على الآثار الملموسة لعمله ، وعلى مدى تأثيره فى الاحداث ·

وتحتل الحقيقة ، أى البحث عنها وخدمتها ، مكانة خاصة فى تلك القاعدة الاخلاقية التى يعتبرها مانديس فرانس ضرورية لكل عمل سياسى ، وهو يستشهد فى هذا المجال بالالتزام الذى التزم به اليون بلوم ، (وهو أحد الشخصيات التى تحدث عنها فى هذا الكتاب) عندما رجع من المنفى اثر انتهاء الحرب العالمية الثانية ، اذ قال :

« ··· لن أقول للفرنسيين الا ما أعتقد انه حق ، وهو أمر سهل · وسوف أقول لهم كل ما أعتقد انه حق ، وهو أمر أكثر صعوبة ، ولو لم يرقهم كلامى ، بل حتى ولو صدمتهم » · (ص 33) ·

واذا كان هناك من يرى ان ليس كل حق يقال ، فان المؤلف يسوق له مقالة للكاتب المعروف اميل زولا (وهو أيضا احد شخصيات الكتاب) عندما قال :

« ··· ليس لى من هوى الا شىء واحد ، وهو النور » ·

بل ان مانديس فرانس ، فى هذه المقدمة ، يرى ان رجل السياسة يجب ان يكون واثقا فى حس شعبه ، مؤمنا بصلاحيته لمعرفة حقيقة الاحداث ومواجهتها · على ذلك قائلا :

« ··· وعندما تصبح القاعدة التى ينتهجها الحكام هى قول الحقيقة والتخلى عن المسالك المطروقة والمهارة المزعومة فان البلد سيعرف كيف يستمع للحقيقة ، وسوف يمنح تقديره الى الذين لا يخفونها » (ص 33) ·

والسؤال الذى قد يواجه القارىء بهذا الصدد هو : هل الاعتبار الذى يوليه مانديس فرانس للاخلاق ، يتصل بالحياة العامة فقط للرجل السياسى ، ام يمتد لحياته الخاصة أيضا ؟ لاننا نجد شائعا فى المناقشات التى تدور حول هذا الموضوع ، ان الحياة الخاصة لا تهمّ ، ولا ينبغى ان تكون موضوع نقاش ، لان الذى يهم هو الاخلاق المتصلة بالحياة العامة ·

ان مانديس فى مقدمة الكتاب لا يطرح السؤال ولا يجيب عنه · ولكننا عندما تقرأ مجموع الكتاب نجد ان هواه ينصرف الى عدم الفصل بين الحياة العامة والحياة الخاصة ، ويفهم من بعض الاحكام التى يصدرها ، والاقوال التى يستشهد بها انه يرى ضرورة مراعاة الاعتبارات والقواعد الاخلاقية فى الحياة العامة وفى الحياة الخاصة على السواء ·

فهو عندما يتحدث عن ايدوار هيريو ، الذى كان أبرز وجه للحزب الراديكالى قبل انهياره ، يسجل بعض ملامح هذا الرجل الاساسية ، وهى بغضه للمناورة ولما يسمى بالمهارة الفائقة التى تتحول بسرعة الى نفاق وتدليس ، ومناهضته للقاعدة القائلة بأن الغاية تبرر الوسائل ثم يسوق بعض ما قاله ايدوار هيريو فى هذا الصدد :

« ··· ان البعض يرون (مثل فوشى وتاليران وغيرهما ممن يعتبرون تلاميذ ليكيافيلى) ان السياسة حيل والعاب مهارة · وهناك آخرون، وهم ورثة فكرة مونتيسكيو النبيلة ومنظرو الثورة الكبرى ، يرون ان السياسة هى تطبيق للاخلاق فى قيادة المجتمعات · ان الاستقامة العامة لا تنفصل عن الاستقامة الخاصة ، فلها نفس المقتضيات ونفس الواجبات » (ص 149) ·

وفى مكان آخر من الكتاب ، عندما يتحدث عن شارل دى غول نجده فيما يصدر من احكام على رجل 18 جوان ، يحكم الاعتبار الاخلاقى فهو يدين الضربات التى وجهها الجنرال دى غول للحياة الديمقراطية بفرنسا اذ يعتبر ان دى غول فوت على فرنسا فرصة ديمقراطية عصرية ، وأن الشعب الفرنسى ما يزال الى الآن يدفع ثمن ذلك ، ثم يقول :

« ··· لانه اذا كانت الديمقراطية هى تعاقد واضح بين الشعب ومن يعملون باسمه ، فان الجمهورية الخامسة لا يمكن فى نهاية التحليل الا ان تعتبر فترة تدهور ، لا يكاد

تخفيه عديد الانتخابات التى لم تكن تحافظ الا على الاشكال الخارجية للديمقراطية ، فلم يبق لفرنسا ان عرفت من الانتخابات مثلما عرفت فى عهده ، ولم يسبق للشعب ان أبعد عن اتخاذ القرار كما أبعد على حكمه » (ص 201) ٠

ثم ينتهى الى الحكم الاخلاقى الذى هو محل الشاهد فيقول :

« ان الذين يؤيدون ـ أكثر من غيرهم ـ دى غول ونظامه يضعون فى قائمة ايجابياته ومزاياه مهاراته وأنواع مكره ، فسواء تعلق الامر بالنهج الذى اعتمده كى يعود الى الحكم فى 1958 ، أو تعلق الامر بحل المشكل الجزائرى ، أو بالسياسة الخارجية ، فقد قرأنا مائة مرة الاشادة بالحيلة والسرية واللعب على حبلين ٠ لكن لا نجد كلمات الاخلاقية السياسية ، والاستقامة والنزاهة تستعمل فى وصفه من طرف هؤلاء المعجبين به ، ان الاساليب التى يدينها كل أحد لو كانت تتعلق بالحياة الخاصة أو المهنية ، تقدم من طرف أولئك المعجبين بدى غول كما لو كانت مشكورة وتستحق التمجيد ما دامت تتعلق بالحياة العامة » ٠ (ص 201) ٠

الحركة شرط للتوازن والاستقرار

لكن هذه القيمة الكبرى التى يوليها ما نديس فرانس للاخلاق فى الحياة العامة والخاصة أيضا ، لا تعنى ان الاخلاقية شيء جامد ٠ بل ان مفهوم الاخلاقية التى يشترطها فى كل عمل سياسى مفهوم ، ديناميكى متطور ٠ لماذا ؟ لسبب بسيط ، وهو ان الهدف الرئيسى لكل عمل سياسى ، فى نظر مانديس فرانس يجب ان يكون هو تحقيق الديمقراطية ، وتحقيق الاشتراكية ٠

وما دام يعتبر ان الديمقراطية والاشتراكية لا يمكن لكل منهما ان يتحقق بصفة نهائية ومثلى ، فان الامر يتطلب يقظة مستمرة وعملا متواصلا ٠ أى يتطلب اخلاقية ديناميكية لتخدم حركة دائبة ، وفى هذا الصدد يقول :

« لا وجود لديمقراطية تحققت نهائيا ، ولا وجود لاشتراكية انجزت للمرة الاخيرة ٠ ان الديمقراطية مثل الاشتراكية هى ما نهفو اليه ، ما نكدح ونعمل من أجل تحقيقه ، انه الهدف الذى يظل فى الافق ٠ ولان انجازهما لا يمكن ان يعتبر نهائيا وناجحا نجاحا

كاملا ، فهما دائما مهددتان • من طرف الاعداء ولاشك ، ولكن أيضا لان الرأى العام قد يضل ، وهو سوف ينخدع ولاشك عند المناسبة • ان الانسان غير منزه عن الخطا • وسيظل كذلك دائما ، لكن اخطاءه قد تصير عبرا عندما تكون موضوع نقاش صريح فى الساحة العامة » (ص 44) •

تؤكد هذا المفهوم الديناميكى للعمل السياسى فكرة لايدوار هيريو استشهد بها منديس فرانس ، وهى تربط بين الديمقراطية والحركة والاستقرار • يقول هيريو : « فى ظل نظام ديمقراطى ، لا وجود لتوازن مستقر الا بواسطة الحركة » (ص 145) •

وعلى هذا الاساس فالاخلاقية المطلوبة من السياسى ، ليست متولدة عن « الفضائل » التى تتحدد بالسلب ، ولكن عن تلك التى تتحدد ايجابيا • والاخلاقية المطلوبة من رجل السياسة مطلوبة أيضا من مجموع المواطنين ، لان :

« ••• أكبر خطر يهدد الديمقراطية وحكومة الشعب بالشعب هو اهمال المواطنين • المواطنون وحدهم هم الذين يستطيعون ان يجعلوهما موضوع نشاط دائب ، أو يتركوهما يضعفان بفعل اهمالهم وجمودهم » (ص 44) •

الا ان مسؤولية المواطن هذه ، هل تمارس من خلال التصويت على أشخاص أو برامج ؟

لا يتردد مانديس فرانس فى تخوفه من تشخيص الحكم • وهو فى هذا يصدر خاصة عن التجربة الديغولية ، فهو يرى ان :

« اختيار رجل ، حتى ولو كان هو الافضل ، بدل اختيار سياسة ، يعنى الاستسلام • ان تشجيع الامة على ان تعتقد بأن كل شىء يحل من طرف رجل ، دون ان تتدخل الامة نفسها ، دون ان تختار وتقرر ، معناه أننا نعطى للسياسيين السيئين فرصة ذهبية ، معناه اننا نمنحهم حماية وتغطية ضد القوة الوحيدة الكفيلة بقهقرتهم ، وهى قوة شعب قرر ان يختار حلوله وصمم على ان يحترمها ويحترم نفسه » (38) •

ويسوق منديس فرانس فى هذا السياق ، ما قاله ديدرو بشأن الحاكم المستبد المستنير ، عندما كانت هذه الفكرة مطروحة للنقاش قبل اندلاع الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر ، يقول ديدرو :

« ان حكومة تحكمية على رأسها أمير عادل ومستنير هى دائما سيئة • ففضائلة تعتبر من بين أشد الاخطار وأقوى الاغراءات انها تعود الشعب على ان يحب ويحترم ويخدم خلفه مهما كان شريرا أو غبيا • انه ينزع من الشعب حق النقاش ، حق ان يريد أولا يريد ••• ما الذى يميز المستبد ؟ انه امتداد سلطانه وليس استعماله » هامش ص 38 •

ويبرر مانديس فرانس تخوفه من تشخيص السلطة ، ان ذلك يؤدى الى اشاعة الغموض فى الحياة السياسية • فالشخص الواحد ـ فى حالة انعدام سياسة واضحة ـ قد يجمع حوله تيارات مختلفة ، لان الذى يحدث فى هذه الحالة هو ان الناس :

« يمنحون ثقتهم لنفس الشخص ، فى حين ان كل واحد منهم ينتظر منه القرار الذى يرضيه ، أى ان الجميع ينتظرون منه قرارات متناقضة » (ص 39) •

ويرى ان الظاهرة البونابارتية التى عرفتها فرنسا فى 1848 والسنوات التى تلتها ليست شيئا آخر غير هذا •

على ان مانديس فرانس لا ينكر ان السياسة هى فى النهاية من عمل أشخاص ، ومن هنا فان الحياة السياسية ما فتئت مشخصة • فالعمل السياسى الذى قام به رويسبيير أو جوريس ليس شيئا آخر غير روبسبيير أو جوريس • الا ان المؤلف يرى بان روبسبيير أو جوريس ، يمثل فى نظر أتباعه مجموعة افكار وأهداف يراد تحقيقها ووسائل ملائمة لذلك •

ويذهب مانديس فرانس ، فى ادانة النظام السياسى الفرنسى الى حد تشبيهه بنظم أميركا الوسطى والجنوبية ويقول فى هذا الصدد :

« ان مواطنى أميركا الشمالية يجدون صعوبة كبرى فى فهم الوضعية الفرنسية ، بينما مواطنو أميركا اللاتينية لا يخطئون فى تقدير النظام الفرنسى فى 1975 ، لانهم يجدون فيه خطوطا ونماذج غير غريبة عنهم • فخاصية نظم أميركا اللاتينية هى كونها لا تشتمل على مجموعة من القوانين الدائمة والاجراءات المجردة لحل المشاكل ، تكون مقبولة من الجميع ويطبقها الجميع ••فالواقع ان تلك النظم تسيطر عليها لعبة القوى الخارجية عن المؤسسات • (جيوش ، شركات متعددة الجنسيات ، أو ليغارشيات ،

نقابات الخ ٠٠) قوى لا تنحنى أمام سيادة القوانين المعترف بها ، وتحاول ان تفـرض بشكل خفى أو بالعنف قرارتها ومرشحيها ٠ وتلك هى حالتنا بفرنسا » (ص 42) ٠

وفى خاتمة المقدمة ، يحاول مانديس فرانس ان يسجل الفروق الموجودة بين هـذا العصر وبين العصور التى سبقته فى الازمنة الحديثة ، ويرى أن المسؤولين السياسيين اليوم لا يمكن ان يشبهوا رجال سياسة الامس ٠ ويؤكد هنا على البعد الانسانى فى الحياة السياسية ، على ضرورة فهم الانسان الذى يجب ان يكون هو مصدر الحق قبل ان يكون موضوعه ، ويقول على الاخص :

« ٠٠٠ يجب ان يعرفوا ، قبل كل شىء ، الانسان فى مطامحه وقدراته التى هى غنية ومعقدة ٠ يجب ان يعملوا مع هذا الانسان الذى تغير هو الآخر ، وأصبح مواطنا رشيدا ، لان الرقى قد شق طريقه رغم الصعاب ٠ لقد تقدمنا ، وأصبحنا نتبين أكثر من ذى قبل ماذا ستكون المكتسبات الجديدة للعصر الذى نعيش » (ص 46) ٠

ان الصورة التى يرسمها منديس فرانس على امتداد الكتاب لرجل السياسة ولرجل الدولة من الصرامة والاستقامة بحيث تبعث على التساؤل : أليس يطلب من رجل السياسة أكثر مما يطيق ؟ ألا يدفعه فى هذه الحالة إلى ان يكون دائما فى مـــوقع معارضة ، لان المعارضة هى الموقع السهل الذى يجعل رجل السياسة يستطيع ان يشترط وينتقد دون ان يقع فى أخطاء التطبيق ؟ فى حين ان الرجل السياسى بمعنى الكلمة ، اذا كانت لـــه مبادىء وافكار يغار عليها قد يندفع نحو الاستيلاء على الحكم بأية وسيلة ؟

يحاول منديس فرانس ان يقدم فى خاتمة الكتاب عناصر أجوبة عن هذه الاسئلـــة اذ يقـــول :

« ان الرجل السياسى ليس فقط مناضلا وداعية يريد ان يسمع صوته ويحبب لقلوب الناس الرسالة التى يحمل ٠ ان هويته الاخيرة هى ان يعمل ، ويبنى ، وينجز ٠٠ والرجل السياسى الذى يكون دوره قاصرا على المعارضة سيشعر حتما بانه لم ينجز كل المهمـــة التى أراد ان يكرس لها حياته ٠ ومن هنا نجد البعض ، قد ينساقون من أجل التوصل الى السلطة ، ان يقبلوا بالمساومات والجمود الذى قد يمس حتى الاشياء الاساسية ٠ وهو

رهان خطير للمتسرع وللورع قد لا يقدر كل منهما عواقبه • فالمتسرع يريد ان يجرب حظه ، وقد ينزلق نحو الانتهازية والجمود ، والمتورع يرفض السلطة ، وقد يلوم نفسه بعد ذلك على انه ترك فرصة مناسبة تضيع ، وانه اختار صرامة عقيمة » (ص 256) •

اذن ما العمل ؟ ان منديس فرانس لا يقدم اجابة قاطعة • انه يحدد قواعد للعمل السياسى ذات طابع اخلاقى يجعله دوما محل نقاش وموضوع دفع الى الامام • والملاحظات التى تضمنتها الفقرة السابقة التى سقناها من خاتمة كتابه ، تبدو موجهة الى شخصه ، فقد سجل ان بعض الشباب الفرنسى اخذوا عليه انه قد يكون رفض السلطة بدافع صرامة أخلاقية عقيمة ، ويقول ردا على ذلك :

« لا أعتقد انى استحق هذا اللوم ، اذ انى ، بكل بساطة ، لم أكن مستعدا ان أدفع ثمنا باهضا لكى اتولى مناصب شرفية لا تسمح فعلا بالعمل والبناء • لم أكن مستعدا لان أربح كرسيا مقابل ان أضحى بموضوع المعركة ذاتها • انى لم أهتم أبدا بالسلطة من أجل السلطة » (ص 256) •

لكن هذه اللوحة الجذابة التى يقدمها منديس فرانس عن نفسه ألا تخلو من ظلال ؟ أليس قد قبل بمنصب شرفى فى حكومة الجبهة الجمهورية التى تراسها غى مولى فى مطلع 1956 ؟ ان السؤال جدير بالطرح ، خصوصا فى الجزائر حيث يتذكر الجميع ان ثورة نوفمبر 1954 اندلعت فى عهده • واذا كان تاريخه فى الحكم سيظل مقترنا بتخليص فرنسا من الحرب الفيتنامية ، فسوف يسجل عليه التاريخ ان التوفيق قد أخطاه فيما يتعلق بحرب الجزائر •

ويبدو ان منديس فرانس قد أحس بهذا المأخذ فاجاب عنه بنوع من النقد الذاتى اذ قال :

« ••• اذا كنت مدركا لكل ما ساهمت فى انشائه ، فانى لا أنس أيضا فشلى وأخطائى • إن الندامة تلازمنى على انى لم أستطع ان أفرض فى الابان ما يستلزمه الانفجار الجزائرى ، وضرورة الاستجابة له بروح تختلف عن الروح التى سادت طيلة سنوات دامية • فقد ذهبت نتيجة ذلك ما لا يحصى من حياة ناس ضحى بهم عبثا ،

بالاضافة الى ما عاناه الجزائريون وأوروبيو الجزائر ٠ وكل ذلك كان من الممكن تجنبه »
(ص 257 ـ 258) ٠

الا انه مهما تكن ندامة منديس فرانس صادقة بشأن الجزائر ، فلا يسعنا الا ان نسجل بأن المواقف التى سجلها ضد استمرار حرب الجزائر ، كانت قد صدرت عنه عندما أصبح خارج الحكم ، أو على هامش الحكم ٠ فهو يقول مثلا ، عند تعرضه لشخصية جول فيرى :

« يقع النظر الآن فى اعداد ستة ملايير لبناء ثكنات الجندرمة ، لكن يبدو انهم لم يجدوا بضعة مآت الملايين لتعبيد الطرق وحفر الآبار فى الاوراس» (66) ٠

وهى كلمة كتبها وألقاها فى 11 جوان 1955 أى بعد ان سقطت الحكومة التى كان يرأسها ٠

والواقع ان كل المواقف التى أدان فيها حرب الجزائر ، خلال هذا الكتاب ، كانت كلها ترجع الى فترات وجوده خارج الحكم ، فقد تعرض لنفس الموضوع ، بكيفية أخرى ، فى خطاب القاه عن جان جوريس ، بتاريخ 20 جوان 1959 (ص 95) ، وفى عدة مواضيع من مقاله عن دى غول الذى كتبه فى 12 نوفمبر 1970 (ص 194 ـ 207) ٠

واذا كان لابد من استخلاص نتيجة من ذلك ، فهى ان الوجود فى موقع معارضة ، بالنسبة لرجل مثله ، لا يخلو من مزايا ، لانه يجعله يتبين ما لم يتبينه عند ما يكون فى موقع سلطة ٠

حيوية الشباب وامكانيات التغير

لكن لا ينبغى ان يفهم من ذلك اننا نشكك فى شجاعة الرجل الادبية أو نطعن فى اخلاقيته ٠ كلا ٠ فمنديس فرانس من بين رجال الجمهورية الرابعة ، يعتبر من أشدهم شجاعة وجرأة واقداما على مواجهة الرأى العام بما يخرج عن المألوف والمعتاد ٠ وهو الى ذلك قد احتفظ بحيوية خارقة ، لم يؤثر فيها تقدم السن ، أو البقاء مدة طويلة خارج الحكم ٠ ولم تكن محض صدفة زيارته للجزائر فى ربيع 1974 عندما كانت فرنسا تتأهب ـ بعد موت بومبيدو ـ لانتخات رئيس جمهورية جديد ٠ فقد كان من أنصار فرانسوا ميتران ، وكان مقررا ان يتولى ـ لو نجح ميتران ـ منصبا وزاريا هاما يتصل بشؤون

الاقتصاد والمال ٠ ولم يكن هناك شك فى انه جاء الى الجـــزائر يجس عبرها نبض هذا العالم الثالث التى تعاظم نموه خلال السنوات الاخيرة ٠ ولعل كثيرين من القراء لا يعرفون ان مانديس فرانس كانت له منذ نحو عشرين سنة آراء اقتصادية ومالية انطلقت من مبدا مراعاة امكانيات العالم الثالث ، الغنى بالموارد الاولية والفقير من الصناعات 0 وقد حاول خلال زيارته تلك للجزائر ان يناقش بعض تلك الآراء مع اطارات جزائرية فتية تأخـــذ بزمام مؤسسات اقتصادية ومالية ٠ وقد حضرت بعض تلك المناقشات خلال حفل نظمه الرئيس المدير العام آنذاك للبنك الوطنى الجزائرى الاخ عبد المالك تمـام (وزير المالية حاليا) ٠ وشاهدت كيف ان منديس فرانس كان شبه مشدوه امام المجرى الذى أخذه النقاش : لقد كان امام نظريات جديدة ، لم يكن قد تبينها لانه ظل مدة طويلة بعيدا عن الاحتكاك المباشر بقضايا هذا العالم النامى ٠ وقد لاحظت آنذاك حيـوية الرجل اذ كان يتفهم ما يقال له ، ويسلم ببعض الآراء التى كانت تبدو له فى البداية بعيدة عن الصواب٠

والحقيقة ان حيوية هذا الرجل وانفتاحه على المستقبل وتفهمه لتيارات الشباب تعتبر من أبرز ما يتمتع به من مزايا ٠ فهو يعتبر ان كل تغيير ايجابى يسير فى اتجاه المستقبل لا يمكن ان يتم الا بمساعدة الشباب ٠ فهو يقول مثلا ، عند تعرضه لشخصية الجنـرال ذى غول ونقده لنظام الجمهورية الخامسة :

« ان الديمقراطية ، هى فى نهاية الامر انفتاح فرص جديدة وتفتيق آمال جديدة لكل الذين يعملون ، فى مواجهة نظام اجتماعى ظالم ، من أجل تحقيق غد أفضل ٠ والشباب يأتى دائما فى طليعة هؤلاء ٠ ففى الماضى كلما نجحت فرنسا فى تجديد نفسها ، فانها لم تفعل ذلك الا بالمساعدة الايجابية للشباب ٠ وليس هذا لانهم هم وحدهم الذين يستطيعون تغيير مجتمع هرم أو تتحكم فيه مصالح المحافظة ، ولكن لان انظارهم المتجهة تلقائيا نحو المستقبل ، وبوصفهم أقل حرصا على الحقوق المكتسبة ، وأكثر تجردا وايثارا ، يقدمون للتحركات الجماهيرية الكبرى تلك الخميرة الضرورية ، ويمنحون التحولات والاصلاحات التى يؤيدونها صلاحية الدوام » (ص 202) ٠

ويعود بعد ذلك بعد خمسين صفحة ، فى خاتمـة الكتاب ، الى نفس الموضوع ، أى تسجيل الدور الذى يلعبه الشباب فى التحولات الاجتماعية الكبرى ٠ الا ان دور الشباب

لكى يكون ايجابيا يشترط فيه ان يتلاقى مع مجموعات أخرى ، مثل الطبقات المحرومة والتى هى موضوع استغلال • ويرى ان تلاقى هذه العناصر : الشباب مع الفآت المضطهدة هو الذى ضمن نجاح الثورة الفرنسية ، ويقول فى هذا الشان ما يلى :

« ••• كانت جمهـرة البلاد بئيسة ، وخاصة الفلاحون والفآت الشعبية ، وكانت هذه الفـآت هى عناصر الثـــورة ، وكان الشبان متحمسين نشطين فى جميع الفـآت الاجتماعية ، وكان هناك فلاسفة دائرة المعارف الذين كانوا قد درسوا منذ جيل عـــلى الاقل ، المجتمع الفرنسى القائم آنذاك وهياكله وقدموا الحلول • وبفضل هؤلاء وجـدت الثورة فى متناولها أدوات غنية ومتوفرة سمحت بتحقيق اصلاحات واعطت لفرنسا وجها جديدا » (ص 254) •

ويمكن ان نستخلص من ملاحظة قدمها منديس فرانس فى هامش نفس الصفحة ، من ان نفس الظاهرة ، تفسر نجاح حركات التحرير ضد الاستعمار • ويمكن ان نستخلص من ذلك ان نجاح هذه الحركات ، ومن ضمنها حركة التحرير الوطنى بالجزائر ، قد تكون هى التى ساعدت المؤلف على اكتشاف هذه الحقيقة • فالعالم الفريد ســـوقى المعروف ببحوثه الاجتماعية ، كان قد اكتشف هو الآخر أهمية عنصر الشباب فى الثورة الجزائرية واستخلص من ذلك نتائج حاول تعميمها بالنسبة للتاريخ الفرنسى الحديث : كما تدلنا على ذلك قراءة كتابه « صعود الشباب » الذى خصصه لمعالجة هذه الظاهرة 0 (وقد ظهر كتاب ألفريد سوقى هذا فى أواخر 1959 عن دار نشر كالمين ليفى)

ويعتمد منديس فرانس على نفس القاعدة السابقة ليفسر فشـــل حـركة ماى 1968 بفرنسا • فهو يرى ان اللقاء المطلوب بين قوى الشباب وبين الفآت الشعبية المضطهدة لم يتم فى ماى 1968 ، ويعقب على ذلك قائلا :

« ••• كان طلاقا فاجعا بين الشباب واليسار التقليدى ، بين الطلبة وقسم هام من الطبقة العاملة ، انها انقسامات تفسر الفشل المشترك • وفيما اذا عرفنا ساعة أخـرى ينفتح فيها باب التاريخ ، دون أن يتحقق اللقـــاء بين جميع أعضاء الحلف الضرورى ، فسوف نعرف اجهاضات أخرى » • (ص 254) •

وعندما يرسم المؤلف لوحة الجنرال دى غول ، نجد انه يقدر ما يسجل اعجابه الشديد برجل 18 جوان 1940 ، بقدر ما يدين رجل 18 ماى 1958 ٠ فالاول يبدو حازما عارفا أين يقصد ، واثقا فى الشعب ، والثانى يبدو مذمذبا مترددا ، محتقرا للشعب ٠ ولعـــل تفسير الفارق بين الرجلين ، الذى أغفل المؤلف ذكره ، يرجع بالضبط الى ان الاول كان فى عنفوان نضج الشباب ، فأدرك اتجاه رياح التاريخ وأخذ مسارها ٠ بينما دى غــول 1958 ، كان قد دخل طور الشيخوخة ، فلم تعد له قدرة على تبين الاتجاه الأسلم ، وراح يغالب تيار العصر حتى غلبه التيار ، فتظاهر بمجاراته ٠

* * *

وبعد فذلك عرض وتحليل مع شيء من النقد حاولت ان يكون كاملا بالقـــدر الذى يسمح تناول كتاب فى مقال ٠ ولان صدق صاحبه وحماسه لما يكتب يبدو من خــــلال السطور ، فان قراءته تحلو حتى فى المواطن التى لا نتفق فيها مع الكاتب ٠

مولد الرسول والاحتفال بذكراه :

لاشك أن محمدا رسول الله اكرم خلق الله عليه وافضلهم عنده · قد اختاره على علم لتبليغ رسالته ، واداء امانته ، رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا ليخرجهم من الظلمات الى النور : من الجهل الى العلم ، ومن الضلال الى الرشد ، ومن العمى الى الابصار ، ومن القسوة والجهل الى اللين والحلم ، ومن العبودية لغير الله الى الحرية الحقة بالعبودية لله وحده · فكانت رسالته رحمة للناس أجمعين « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » ·

فميلاد الرسول الكريم ميلاد النور والرحمة · وحق على البشرية جمعاء ان تحتفى بمقدمه ، وتحتفل بذكراه احتفالا صحيحا باحياء سنته واقتفاء آثاره والتعرف الى دينه ، واذاعة شمائله واشاعة فضائله ·

عيد المولد عند المسلمين :

وقد اعتادت الامة الاسلامية ـ كل سنة ـ أن تحتفى بذكرى ميلاده فى اليوم 12 من أول الربيعين ، وان تعتبر هذا اليوم عيدا لها ، يصطبغ بالصبغة الدينية ، وان لم يكن عيدا دينيا بالمعنى الشرعى · لان العيد الدينى الشرعى هو ما شرع فيه عبادات خاصة به وسنت فيه أعمال دينية يؤديها المؤمنون وأقوال يقولونها وقربات يقدمونها كالصلاة والخروج اليها ، والتكبير والتهليل ، وتقديم النسك أو اخراج الصدقة الواجبة ، وأذن فيها فى تبادل التهانى وحضور ألعاب أو القيام بها · فالشارع هو الذى سن ذلك أو أذن فيه وقال عنه « ان لكل قوم عيدا ، وهذا عيدنا » (1) ·

وليس يوم المولد بعيد دينى بهذا المعنى ، لان الشارع لم يؤسس فيه عبادة خاصة ولا أمر بالاحتفال به · ولكن المسلمين أحدثوه ـ فى اعيادهم القومية ـ منذ قرون كثيرة ، ولم يحدثوا فيه عبادة العيد ، وهم اليوم مجمعون على الاحتفاء فيه ، والاحتفال به حبا فى محمد عليه الصلاة والسلام ووفاء له ، وتمسكا بشريعته ، واعلانا للارتباط بسنته · ومن أحق الناس باحتفاء المسلمين واحتفالهم به واظهار محبته والتعلق به ، واعلان الوفاء له والابتهاج بيومه من محمد صلى الله عليه وسلم ويومه ؟

ان يوم محمد صلى الله عليه وسلم فى الايام لهو اليوم الاغر ، وان ذكراه لاجل الذكر ، وان العبرة فى ذلك لاعظم العبر · وقد كان شعبنا فى الجزائر ينتهز هذا اليوم الاغر ليعلن

(1) من حديث صحيح رواه مسلم وغيره خاطب به رسول الله (ص) أبا بكر لما نهى جارتين كانتا عند عائشة تغنيان وتضربان على الدف عن فعلهما ، وأذن لهما الرسول فى فعلهما ·

حبه للرسول ، والتمسك بشريعته ، واظب على ذلك أيام عسره ويسره واعلن للصديق والعدو شدة وفائه ، وفي ذلك قال شاعره الكبير الشيخ محمد بن العابد السماتي رحمه الله فأنشده كل ابنائه منذ قاله الى اليوم :

انـــــت يـــــا يـــوم محـــمد	في جبـــين الـــدهـــر تـــاج
جئـــت بالنـــور المـجـــــدد	فكســـا الـكـــون ابتهـــاج
فـابعـــث النـخــــوة لحنـــا	في رؤوس النـــاشئـــــين
فهـــي في الاكـــوان معـــنى	يســـتفـــز الغـــافلـــين
وامــــلا الـدنيـــا فخــــارا	أيهـــا النـــشء الجـــديـد
واشـــد بالـذكـــرى هـــزارا	تطـــرب الحفـــل الرشيـــد
لـــك في المجـــد سنـــام	دونـــه هـــام القمـــر
ســـل تخبـــرك سمـــام	بهـــواديـــك الـــغـــرر

ثم يختمه بالتنويه بذكر هذا الوطن المحمدي المقيم على حب النبيء المتطلع الى التحرر من قبضة العدو العادي فيقول :

وطـــن جـــم المفــاخـــر	وجـــديـــر بـاهتمـــام
هـــو الارض الجــــزائـــر	هـــو في الارض الجـــزائـــر

وقد أصبح هذا النشيد تشدو به حناجر عشرات الآلاف من فتيان وفتيات شعبنا في حماس ديني وطني عظيم منذ سنة 1936 وكان من الاناشيد التي دعمت روح المقاومة والاستبسال في شعبـــنا .

ان الامة الاسلامية ـ في مختلف أوطانها من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ـ تسـمى بالاحتفال بعيد المولد للاعراب عن محبتها للنبيء ، فتقيم في هذا اليوم المهرجانات العظيمة ، والولائم الفخيمة . وتظهر معالم الزينة في الدور والاسواق والشوارع من المدن والقرى ويفتن الناس في التزين بأحسن أنواع اللباس والزينة وفي انتخاب ألذ المآكل ، واشهى الحلويات ، وأحلى المشروبات ، ويجتمع المتدينون في المساجد ليلا أو نهارا لحلقات الذكر ، أو سماع العظات ، أو تلاوة قصة المولد أو انشاد القصائد والمدائح الموشحات وتسخو أنفس أهل الخير والمعروف بانواع الاحسان والصدقات . ويجد البائس الفقير فيه ما يسد خلته ويقيم اوده ويكفيه يومه من ألذ المطعومات والمشروبات وتشيع فيه أنواع الفرح والمرح بين الرجال والنساء والولدان يملئون ذلك بالاغاني والالعاب وتفجير المفرقعات ، وقـد

يخرج بعضهم ـ فى بعض الجهات ـ عما يبيحه الدين ، ويأذن فيه الخـــلق القويم بارتكاب المنكرات وتنفق فيه الاموال الطائلة غير مأسوف عليها من المنفقين والمنفقات · فهل أصاب المسلمون وجه الصواب بما فعلوا ؟ وهل حققوا الغرض الذى اليه رموا ؟ وهــل وفقوا الى الحق بما صنعــوا ؟

محبــة الرســـول واجــب أكيــد :

لاشك أن هدف المسلمين من اقامة هذا العيد والاحتفال فيه هو اعلانهم عن حبهم النبىء عليه الصلاة والسلام · والاعراب عن وفائهم لذكراه والتمسك بدينه ، والانتساب اليه ·

ومن المعلوم أن حب النبىء فرض على كل مسلم ، وواجب أكيد من الواجبات الدينية · ولا يتم ايمان أحد حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما : من نفسه وماله ، وولده ووالده والناس اجمعين · وان هو احب شيئا أكثر من حبهما ، وآثر شيئا عليهما كان مـــن الهالكين · قال الله تعـــالى « قـــل ان كان ءاباؤكم وابناؤكم ، واخوانكم ، وازواجـــكم ، وعشيرتكم ، واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحـــب اليكم من الله ورسولهٔ وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى ياتى الله بامره والله لا يهـــدى القـــوم الفاسقين » (2) · وروى البخارى ومسلم أنه (ص) قال « ثلاث من كن فيه وجد حـــلاوة الايمان : ان يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ··· » الحديث ·

اجل انه ليس بالمحظور ان يحب المرء نفسه أو ماله أو أهله ، ولكن المحظور أن يؤثر شيئا فى الحب على الله ورسوله بحيث يجعلهما دون شيء من ذلك مما يعز عليه حتى نفسه · فان بلغت محبتهما فى نفسه هذه الدرجة ، وآثرهما على كل شيء عنده ادرك الغاية القصوى والدرجة العليا من صفاء النفس وتزكيتها ، وكمال استعدادها ونـــال السعادة الروحية العظمى ، والاطمئنان النفسى الكامل ، ووجد ـ حقا ـ حلاوة الايمان ·

المحبـــــة :

ان عاطفة المحبة فى الانسان من انـــبل العواطف واسماها وارقها واجملها واقواها سطوة على النفوس واشدها · اذا تمكنت من انسان ملكته وسيطرت على حواســه وادراكه وجعلته ـ وهو السميع البصير ـ الاصم الاعمى كما جاء فى الحديث : « حبك الشيء يعمى ويصـــم » (3) ·

---

(2) من سورة التوبة الآية 24 ·

(3) أخرجه البخارى فى تاريخه ، واحمد فى مسنده وابو داود فى سننه ·

وقـال الشـاعر :

وكذبت طرفى فيـك ، والطرف صادق   وأسمعت اذنى فيك ما ليس تسـمع

ان عاطفة المحبة قد تدفع العاشق الواله الى الشفقة والرحمة والحنان والبذل وفعل الاحسان وقد تدفعه الى القسوة والغلظة والاجرام ، الى التضحية البالغة واقتحام الاهـوال ارضاء للمحبوب واكتسابا لمودته وبرهانا على الصدق فى محبته ، وطاعة لهواه وتجنبا لسخطه .

وقد عرف علماء الشريعة المحبة بانها « دوام الذكر للمحبوب » وقال بعضهم « هـى ايثار المحبوب » وبعضهم قال « المحبة الشوق الى المحبوب » .

وقال آخر : « ميل القلـب الى موافق له » قال القاضى عياض رحمه الله : « واكثر العبارات المتقدمة اشارة الى ثمرات المحبة دون حقيقتها . وحقيقة المحبة الميل الى ما يوافق الانسان » ، ثم شرح ذلك بان هذه الموافقة تحصل اما لادراك حسى ، أو لادراك عقـلى قلبى ، أو لوجود الاحسان والانعـام من المحبوب . وقال ما فحـواه : « هذه المـوافقة امـا لاستلذاذه بادراكه حسا كحب الصور الجميلة ، والاصوات الحسـنة ، والاطعمة والاشربة اللذيذة واشباهها مما يميل اليه كل طبع سليم لموافقتها له . واما لاستلذاذه بادراكه معنى بالعقل والقلب ادراك المعانى الشريفة والحقائق اللطيفة كحب الصالحين والعلماء العاملين ، وأهل المعروف والمحسنين لما اثر عنهم من السير الجملية والافعال الحسنة ، وطبـع الانسان يميل الى الشغف بامثالهم ، وقد يبلغ ببعضهم حب أقوام والتشيع لهم الى التضحية البالغة من الجلاء عن الاوطان ، والصبر على هتك الحرم واخترام النفوس ، أو يكون حبه لموافقته لـه من جهة احسانه له وانعامه عليه,والنفوس مجبولة على حب من أحسن اليها وأنعم عليها» (4).

وحب العبد ربه يجب ان يكون فوق كل حب ، وأسمى من كل حب لانه سبحانه خلـق كل شىء فاحسن خلقه . وصور الناس فاحسن صورهم ، وأنعم بما لايعد ولا يحصى عليهم ، وهو وحده المتصف حقيقة بالجمال والكمال والبر والاحسان ، وكل ما يميل اليه الانسان فى الوجود ويحبه هو من صنع الله وفيض جوده واحسانه «صنع الله الذى أتقن كل شىء» (5) وهو سبحانه وتعالى « عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذى أحسن كل شىء خلقه » (6) فحب العبد ربه حب لسيده ومولاه القوى القادر المبدع . الرزاق المنـعم الرؤوف الرحيم الرحمان ، انه حب لمن هو أهل للمجد والحمد والتقديس والعظمة والجلال والجمال .

(4) انظر كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ج 2 ص 29 ـ 30 ط بيروت (دار الفكر)
(5) من آية 88 من سورة النحل .
(6) من آية 5 و 6 من سورة السجدة .

قالت رابعة العدوية تخاطب رب العــزة :

أحبــك حبين حــب الهــوى   وحبــا لانــك أهــل لـذاكـا
فاما الذى هــو حــب الهــوى   فشــيء شغلـــت به عن ســواكا
وامـــا الـذى انـت أهـــل لـــه   فكشفك لى الحجـب حتى اراكـا (7)

واذا أحب العبد مولاه فنى في طاعته ، ووزن كل حركة منه أو سكـــون بميزان شرعه ، ورضى ما يرضيه وسخط ما يسخطه ، وهذا هو شأن المؤمن حقا كما تعرب عن ذلك نصوص واضحة من الشريعة « من كان يؤمــن بالله واليوم الآخـر فليقل خيـرا أو ليصمت » (8) « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا ءاباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه» (9) .

واما حب المؤمن الرسول فانه دون حبه لله وفوق حبه لكل شيء « والذين آمنوا أشـد حبا لله » (10) · وان محمدا صلى الله عليه وسلم أهل لما أوجب الله له على كل مـــؤمن من الحب ، وذلك لما اتصف به من جمال خلق ، وكمال خلق ، واحسان الى الخلق اجمعين حتى الوحوش فى اكماتها ، والطير فى وكناتها ·

لقد كان صلى الله عليه وسلم من خلقه فى أجمل صورة مع وفور عقل ، وصحة فهم ، وفصاحة لسان ، وقوة حواس ، وتناسق اعضاء ، واعتدال حركات · وكان مع جمال خلقه أوسط قومه حسبا ، وأشرفهم نسبا ، واكرمهم اما وأبا ، واعزهم نفرا ·

وكان خلقه القرآن فى علم ــ مما علمه الله ــ واسع ، وقلب لله خاشع ، وحلم وافر ، وكرم كبير ، وصبر عظيم ، وشجاعة نادرة ، وزهد كامل ، وتواضع شامل ، وعفــة وحياء ، ومروءة ووقار · ورحمة سابغة ، وادب رفيع ، وشكر للنعمة جزيل ، وعدل مطلق ، فى كل ذلك لا يسبقه سابق ، ولا يلحقه لاحق · ومثله الرائعة لكل خلــق ذكر مما أكدته الآيــات الكثيرة من كتاب الله أو تواترت به الاخبار في سيرته قال تعالى «وانك لعلى خلق عظيم» (11).

وانعاماته على الناس ، ورحمته بالخلق أجمعين واشفاقه عليهم ، وحرصه على هدايتهم وايصال الخير اليهم واستنقاذهم من النار ، وتألمه من عنـــاد المعاندين واعراض المعرضين

(7) من تفسير المنار ج 10 ص
(8) حديث رواه مسلم وغيره ·
(9) من آية 22 من سورة المجادلة ·
(10) سورة البقرة من الآية 165 ·
(11) سورة القلم الآية 4 ·

وسروره باهتداء المهتدين مما نطقت به الآيات وشهدت به الآثار الصحيحة قال الله تعالى « لقد جاءكم رسول من انفسكم عـزيز عليه ما عنــتم حريص عليكم ، بالمؤمنــين رؤوف رحيم » (12) وقال : « ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل » (13) • وقـال : « طسم تلك آيات الكتاب المبــين لعلك باخع نفسك ان لا يكونوا مـؤمنين » (14) ، وقال : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفا » (15) •

وهكذا تجتمع فيه عليه الصلاة والسلام كل دواعى ميل القلوب اليه ومحبتها ايـــاه والتاريخ شاهد صدق على ان كل من لقيه واستمع اليه ونظر فى وجهه الكريم • وسبر خلقه العظيم لم يملك قلبه ان يلين ، وجوارحه ان تخشع لولا العناد فى أقوام أصروا على الكفر والضلال ـ حتى أعتى القلوب واشدها قسوة واعظمها كفرا كانت تذل اذ تستمع اليه صلى الله عليه وسلم يتلو آيات القـــرآن كما هى قصة الوليد بن المغيرة ، وعتـــبة بن ربيعة ، والنضر بن الحارث ممن ختم الله لهم بالشقاء ، وكما هى قصة عمر بن الخطاب رضى اللـــه عنه وكثير ممن كانوا قد بيتوا قتله وجاءوه ليقتلوه فلما لقوه أو استمعوا له ، أو رأوا من حسن معاملته الامثلة الرائعة لانت قلوبهم واسلسوا قيادهم ، وأسلموا الى الله وجوههم ، وأصبح أحب اليهم من سمعهم وبصرهم وكل عزيز عليهم كما أعلن ذلك عمرو بن العاص ، وابن أبى شيبة ، وصفوان بن أمية وهند بنت عتبة وكثير غيرهم رضى الله عنهم • وكـــل من درس سيرته ممن لم يره ، وعلم بها انباءه ، وتتبع أقواله وأعماله لا يملك ان يميل اليه ويعجب أو يؤمن به ويحبه ويفديه •

محبة الـرسول فى طاعتــه والاســوة فيه :

لهذا وجبت على المؤمنين طاعته • وتأكدت محبته • وشـأن من احب شيئا ان يؤثــره ويوافق مراده • ويقدم هدى المحبوب على هواه ، ورضاه على رضاه • ولو كانت دعـــوى المحبة كافية لتصديق كل ناطق بها لكان الامر سهلا ميسورا لكل زاعم ان يزعمها ، ودعى ان يدعيها • ولكن الدعوى يصدقها أو يكذبها الاعمال والامتحان بالطاعة والاتباع والاقتداء أو بالعصيان والمخالفة والاعراض •

---

(12) من سورة التوبة الآية 128 •
(13) من سورة النحل الآية 37 •
(14) من سورة الشعراء الآية 3 •
(15) من سورة الكهف الآية 6 •

ان طاعة الرسول من مستلزمات الايمان به ، والاذعان الكامل له ، والتصديق بكـــل ما جاء به بحيث يطابق التصديق بالقلب القول باللسان ، فتذعن الجوارح وتستجيب ، ويتم الاهتداء ويكمل الايمان ٠

وكان عليه الصلاة والسلام يشترط على من آمن به ان يبايع ــ فيما يبايع عليه ــ على السمع والطاعة فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ٠ وهذا من مستلزمات الرسالة « وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله » (16) ٠ وقد جاء فى حديث بيعة العقبة عن عبادة ابن الصامت رضى الله عنه عنهم بايعوه ــ فيما بايعوه عليه ــ على السمع والطاعة فى المنشط والمكره والعسر واليسر فان وفوا فلهم الجنة (17) ٠ وجاء فى آيـــة بيعة النساء : (ولا يعصينك فى معروف) (18) ٠

وقد دلت الآيات الكثيرة المحكمة والاحاديث الصحيحة المتواترة معا على وجوب طاعتـه وانها من طاعة الله ، مقرونة بها ، وشرط من شروط محبة اللــه ، وان عصيانه ومخالفته عصيان لله ومخالفة له قال تعالى : « من يطــع الرسول فقد اطــاع الله » (19) ٠ وقــال : « يايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول » (20) ٠ وقد بينت الآيات ان طاعته رشد واهتداء ، وان عصيانه ضلال مبين ٠ قال تعالى : « وان تطيعوه تهتدوا » (21) ، وقال : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنه اذا قضى الله ورسوله آمرا ان تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » (22) ٠

وانما تتم طاعته بالاتيان بما أمر به ، وهجران كل ما نهى عنه ، والرضاء بـــكل ما حكم به والاذعان له ٠ قال تعالى : « وما ءاتاكم الرسول فخـذوه ، ومــا نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله » (23) ٠ ومن رحمة الله بعباده ان جعل الطاعة فيما أمر به على قدر الاستطاعة قال عليه الصلاة والسلام : « فاذا نهيتكم عن شيء فدعوه ، واذا أمرتكم بشيء فاتوا منه ما استطعتم » (24) ٠

---

(16) من سورة النساء الآية 64 ٠
(17) انظر سيرة ابن هشام ، وصحيح مسلم ٠
(18) الممتحنة الآية 12 ٠
(19) من سورة النساء الآية 80 والآية 59 ٠
(20) سورة الانفال الآية 20 ٠
(21) سورة النور من الآية 54 ٠
(22) من سورة الاحزاب الآية 36 ٠
(23) من سورة الحشر الآية 7 ٠
(24) رواه مسلم واحمد والنسائى ٠

ولقد جاء الوعد الصادق بحسن الجزاء والثواب العظيم على الطاعة ، كما جاء الوعيد الشديد بسوء الجزاء على المخالفة والعصيان قال تعالى : « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » (25) ، وقال : «ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم ...» (26) ، روى البخارى من حديث أبى هريرة انه صلى الله عليه وسلم قال : « كل أمتى يدخلون الجنة الا من أبى ، من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى » . وقال الله فى المخالف أمره « يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا اطعنا الله وأطعنا الرسولا » (27) ، فهم فى النار يتمنون مالا يتحقق لهم مما فرطوا فيه فى دنياهم . وكان سهلا عليهم ميسروا لهم . ومن خالفه لم يأمن الفتنة فى الدنيا والعذاب الاليم فى الآخرة .

وليس بصادق فى دعواه الايمان وحسن الطاعة من غلبته شهوته وآثر هواه على الطاعة والامتثال بتنفيذ حكم من احكامه ، والاذعان لما أمر به . فقد زعم قوم انهم آمنوا به واذعنوا لما جاء به ثم جاءوه للخصام والتحاكم فلما حكم بينهم بالعدل بما أراه الله لم ترض طائفة منهم بحكمه ، وطلبوا العدل عند غيره فعجب الله من صنعهم تعجيبا ، وكذب دعوى ايمانهم فقال : « ألم تر الى الذين يزعمون أنهم ءامنوا بما أنزل اليك وما انزل من قبلك يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا » (28) ، ثم قال : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (28) ، فهؤلاء ليسوا بالمؤمنين ، وانما هم من المنافقين يظهرون الايمان بأقوالهم ويسرون الكفر فى قلوبهم ، فتبرزه اعمالهم وتصرفاتهم «واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول رايت المنافقين يصدون عنك صدودا» (28) فى هؤلاء وامثالهم جاء قوله تعالى فى سورة النور أيضا « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون ، وان يكن لهم الحق ياتوا اليه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا واولئك هم المفلحون » (29) . فمقتضى الايمان السمع والطاعة والامتثال والرضى والتسليم بما يوافق

---

(25) سورة الاحزاب الآية 71 .
(26) من سورة النساء الآية 69 .
(27) من سورة الاحزاب الآية 66 .
(28) النساء الآية 60 والآية 65 فالآية 61 .
(29) من سورة النور الآيات 47 ـ 4 ـ 59 ـ 50 ـ 51 .

الهوى والمصلحة الشخصية وبما يخالف ذلك وبهذا يكون الفلاح ، واما الاعراض والمخالفة وتقديم الهوى على الطاعة فانه من شأن المنافقين الظالمين ·

والطاعة وحسن الاتباع آية المحبة وبرهان الصدق فى الايمان · والاعراض والصد والمخالفة للامر والنهى دليل العصيان والغفلة ، رغم قوم أنهم يحبون اللـه وهم معرضون فانزل فيهم قوله : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » قال علمـــاء التفسير نزلت فى كعب بن الاشرف من زعماء اليهود ، وفى غيره منهم اذ قالوا : « نحن ابناء اللـــه واحباؤه نحن اشد حبا لله » قال الزجاج ان كنتم تحبون الله ، ان تقصدوا طاعته فافعلـوا ما أمركم به فان محبة العبد لله والرسول طاعتهما ورضاه بما أمرا » (30) · وأما دعوى فى المحبة مع الاصرار على العصيان والمخالفة لامر المحبوب ونهيه فلا يستقيم فى ذوق صحيح الوجدان كما اعرب عن ذلك قول من قال :

تعصى الالـه وانت تظهـــر حبـه	هذا لعمـــرى فى القياس بـــديع
لـو كان حبـــك صادقـا لأطعتـه	ان المحـــب لمـن يحـــب مطيـــع

الاســوة الحسنــة فى رســول الله :

والاسوة فى الرسول (ص) اتباعه والقدوة الصالحة فيه ، وترك مخالفته فى قول أو فعل · وذلك واجب على كل من آمن به واحبه قال تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » · أى قدوة صالحة · فان رسول الله لا يعمـــل الا الصالح ، وعمله أكمل الاعمال واحسنها ، وعبادته أصح العبادات وأحراها بالقبول عند الله ، وطاعته لله اجل الطاعات فمن سلك طريقه واقتفى أثره اهتدى وافلح ، ومن حـاد عن طريقه ورغب عن سنته ضل وغوى ، كما أفصح عنه الحديث الصحيح « ان خير الهدى هدى محمد ، وشر الامور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » ·

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أعرف الناس بربه ، وأتقاهم له ، وأشكرهم لنعمه واخشاهم لنقمه واسلمهم طريقه ، يعبد الله مخلصا له الدين مستقيما على الطريق كما أمر ، لا يحل ما حرم الله ، ولا يحرم ما أحل الله · ولا يشرع للناس مالم ياذن به الله وانما يبلغ عن ربه ما يوحى اليه وقد اباح الله بشرعه للناس زينته التى اخرج لعباده والطيبات مـن الرزق ، ورفع به الاصر والاغلال التى كانت على من قبله من الامم ·

(30) الشفاء ج 2 ص 9 ·

وقد اجتهد قوم من الصحابة في العبادة ، واعتقدوا انهم مقصرون ، وأرادوا أن ياخذوا انفسهم بالزهد وان يرفضوا الدنيا وزخارفها ومتاعها ، ويتركوا النساء ويترهبوا وسألوا أزواج النبيء عن عمله في السر فقال بعضهم لا آكل اللحم ، وقال بعضهم لا اتزوج النساء . وقال بعضهم لا انام على فراش فبلغ ذلك النبيء (ص) فقال : « ما بال أقوام يقول احدهم كذا وكذا ؟ ولكنى اصوم وافطر ، وانام واقوم ، وآكل اللحم واتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » (31) · وليس اغلظ من هذا القول في الرد على من انحرف عن اتباع طريقه في العبادة والاعراض عن سنته حتى لو أراد بذلك الرغبة في العبادة ، والاجتهاد في القربة والغلو في الدين · وسنة النبيء (ص) الوسط فلا افراط ولا تفريط ، وأمة المسلمين الامة الوسط « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » (32) وخير الامور أوسطها ، والغلو في الدين قبيح مثل الاهمال والتفريط « يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق » (33) ·

وفي هؤلاء الاصحاب البررة الذين لم يريدوا العصيان وانما أرادوا الرغبة نزل قوله تعالى تعليما لهم ولنا : « يايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى انتم به مؤمنون » (34) · فعلمنا منها ان الانحراف عن سنة الرسول (ص) في التوسط ، والغلو في تعذيب النفس بترك الطيبات من الرزق الحلال تقربا الى الله اعتداء ومجاوزة للحد ، لانه شرع لما لم ياذن به الله ، وتحريم لما احل الله ، والتحريم والتحليل لله وحده « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » (35) · والاسوة الحسنة والقدوة الصالحة انما تكون في رسول الله ، فمن أراد ان يعبد الله كما يحب منه ويرضى عنه ، على أكمل الوجوه واحسنها فليتبع سنة محمد وطريقته فيها فبذلك أمر الله « وما ءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (36) ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أمرت أمتى ان يأخذوا بقولى ويطيعوا أمرى ، ويتبعوا سنتى فمن رضى بقولى فقد رضى بالقرآن قال تعالى : « وما

(31) اخرجه البخاري ومسلم عن عائشة ·
(32) سورة البقرة الآية 143 ·
(33) سورة المائدة 77 ·
(34) سورة المائدة الآية 87 و 88 ·
(35) سورة الشورى الآية 21 ·
(36) سورة الحشر الآية 7 ·

ءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» وقال عليه الصلاة والسلام «من اقتدى بى فهو منى ومن رغب عن سنتى فليس منى » (37) ·

ولقد التزم السلف الصالح من الصحابة والتابعين والعلماء الراسخين ان يتبعوا سنته ولا يحيدوا عن طريقه ، وان يحذروا البدعة ويحذروا غيرهم منها قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « القصد فى السنة خير من الاجتهاد فى البدعة » (38) ، وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لعثمان رضى الله عنه لما نهاه عن القران فى الحج : « لم أكن أدع سنة رسول الله (ص) لقول احد من الناس » (39) ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ونظر الى الحجر الاسود : « انك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ثم قبله » (40) ، وانما فعل ذلك اتباعا لرسول الله ، وان كان فى شىء تعبدى غير معقول المعنى فان الوفاء للرسول والاتباع يوجب ذلك · وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول : « عمل قليل فى سنة خير من عمل كثير فى بدعة » (41) · وقال عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه : « سن رسول الله وولاة امره بعده سننا الاخذ بها تصديق بكتاب الله ، واستعمال لطاعة اليه وقوة على دين الله ليس لاحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر فيها من اقتدى بها فهو مهتد ، ومن انتصر بها فهو منصور ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى ، واصلاه جهنم وساءت مصيرا » (42) ، وسمع الزبير بن بكار سفيان ابن عيينة يقال : « سمعت مالك بن انس وأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الله من اين احرم ؟ قال : من ذى الحليفة من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : انى اريد ان احرم من المسجد فقال : لا تفعل قال انى اريد ان احرم من المسجد من عند القبر قال لا تفعل فانى اخشى عليك الفتنة ، قال : وأى فتنة فى هذا انما هى أميال ازيدها قال : واى فتنة اعظم من ان ترى انك سبقت الى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم انى سمعت الله يقول : فليحذر الذين يخالفون عن امره ان يتصبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم » (43) · وكان مالك كثيرا ما ينشد :

وخير امر الناس ما كان سنة   وشر الامر المحدثات البدائع

(37) الشفاء ج 2 ص 11 ·
(38) الشفاء ج 2 ص 14 ·
(39) الشفاء ج 2 ص 14 ·
(40) الشفاء ج 2 ص 15 ·
(41) الشفاء ج 2 ص 13 ـ 14 ·
(42) الشفاء ج 2 ص 13 ·
(43) احكام القرآن لابى بكر بن العربى ج 2 ص 119 ·

البدع والمنكرات فى المولد :

اذا كانت المخالفة لسنة رسول الله والرغبة عنها مذمومة ولو أراد المخالف طاعة وخيرا بانشاء قربات واختراع عبادات واجتهاد فى طاعات زهدا فى الدنيا واعراضا عن متعها فاولى واخرى بالذم والرد على صاحبه من ادعى المحبة وهو غافل عن الفرائض والاركان ، أو أتى من الاعمال ما كان بعيدا عن شكل القربة وصفة العبادة فان مثل هذا لا يبرهن عن المحبة ، ولا يعرب عن الطاعة ·

ان كثيرا من الناس ابتدعوا موالد ـ غير مولد النبيء صلى الله عليه وسلم ـ واقاموا لها احتفالات مصبوغة بالدين · وهم عن الاركان والفرائض من الدين غافلون · وعن الصلاة ساهون وكثير منهم الصقوا بها بدعا ومنكرات شنيعة ، وارتكبوا فيها موبقات فظيعة مما يبرأ منه الدين ويشمئز لدى رؤيته كل ذى خلق قويم · من ذلك ما يقع عند قبور بعض الصالحين ويسمى فى الشرق (موالد) وفى الجزائر يسمى « الزردات » · وقد كان له ببلادنا منذ حين سوق رائجة ، وأشهرها « زردة سيدى عابد » بقرب مدينة غليزان يوتى لحضورها من الشرق والغرب ·

ان الذين يقيمون هذه الاحتفالات المنسوبة الى الدين يزعمون انهم يعظمون هؤلاء الصالحين ، وينفق فيها الاغنياء الاموال الطائلة ، ويرى فعلهم بعض الفقهاء والعلماء فيسكتون رغبة أو رهبة ·

وفى ذلك يقول الاستاذ الامام محمد عبده ـ كما نقل صاحب تفسير المنار : « لقد تشوهت سيرة مدعى التصوف فى هذا الزمان وصارت رسومهم اشبه بالمعاصى والاهواء من رسوم الدين ، واظهرها فى هذا البلاد الاحتفالات التى يسمونها (موالد) ··· زاعمين انهم يتقربون الى الله ··· ولا يرون ما يكون فيها من المنكرات منافية للتقرب الى الله كان كرامة الشيخ الذين يحتفلون بمولده تبيح المحظورات وتحل للناس التعاون على المنكرات · فالموالد اسواق الفسوق فيها خيام للعواهر ، وحانات للخمور ، ومراقص يجتمع فيها الرجال لمشاهدة الراقصات المتهتكات ، الكاسيات العاريات ، ومواضع أخرى لضروب من الفحش فى القول والفعل يقصد بها اضحاك الناس ، وبعض هذه الموالد يكون فى المقابر ويرى كبار مشائخ الازهر يتخطون هذا كله لحضور موائد الاغنياء فى السرادقات والقباب العظيمة يضربونها وينصبون فيها الموائد المرفوعة ، ويوقدون الشموع الكثيرة احتفالا باسم صاحب المولد » (44) · ونرى من هذا النص ان الاستاذ عبده امام المصلحين فى هذا العصر ينتقد

(44) تفسير المنار ج 2 عند الكلام على قوله تعالى « والذين آمنوا أشد حبا لله » ·

اعمال ثلاث طوائف انحرفوا عن السنة والدين الصحيح ، طائفة الصوفية الذين افسدوا رسوم التصوف الحقيقى والتدين الصحيح ، وطائفة الاغنياء الذين اسرفوا فى اقامة حفلات تستباح فيها القبائح وترتكب فيها الفواحش والمنكرات ، وطائفة علماء الدين ، والفقهاء الجامدين الذين يرون المنكر ولا ينهون عنه ، بل يكون حضوركم مشاركة وتشجيعا لمرتكبيه وحجة لهم على من انكر عليهم ٠

وما وصفه الاستاذ الامام صادق على ما كان يجرى عندنا ومنطبق تماما عليه من انحراف عن السنة ، وفساد فى الدين لدى الطوائف الثلاث ٠ ولكن استاذنا الامام عبد الحميد ابن باديس رحمه الله وجماعته المتأثرين بدعوة الاصلاح ، وتعاليم الامام محمد عبده حاربوا هذا الفساد ، فاندثر أكثره ، وان بقيت آثاره ٠

ومما يقع فى عيد المولد النبوى من المنكرات المكاء والتصدية فى بيوت الله والضرب على الآلات والنفخ فى المزامر والقيام بالرقصات ٠ وانما عبد الله بالمكاء والتصدية أهل الجاهلية فقال الله فيهم : « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية » (45) والمكاء ، الصفير ، والتصدية ، التصفيق ، وقيل المكاء ، الضرب بالايدى والتصدية ، الصياح ٠ قال الشوكانى : « ومعنى الآية ان المشركين كانوا يصفرون ويصفقون عند البيت الذى هو موضع الصلاة والعبادة فوضعوا ذلك موضع الصلاة » (46) ٠

وحاش لله ان يكون عمل الجاهلية لنا طاعة ، وما استقبحه القرآن لنا قربة أو علامة محبة للرسول (ص) ، وفاء له ، وقياما بحقه ٠

وانما يبرهن على حبه والوفاء له الاستقامة على دينه ، واحياء سنته وطاعة امره ونهيه فعلا وتركا ، والاسوة الحسنة فيه « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » ٠

(45) سورة الانفال الآية 35 ٠
(46) تفسير فتح القدير ج 2 ص 291 ــ 292 ٠
(47) سورة آل عمران الآية 31 ٠

من محاضرات الملتقى

روح الشريعة الإسلامية
وواقع التشريع اليوم في العالم الإسلامي

للأستاذ/ محمد أبي زهرة
أستاذ الشريعة وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة



هذا موضوع من الموضوعات التى عرضـــها القائمون على الملتقى السابع المنعقد بالجزائر العامرة المجاهدة للتعرف على الفكر الاسلامى، وقد اخترناه من بين الموضوعات الكثيرة التى عرضها القوامون عليه.

وانا نرحب بهذا الملتقى،لان كل التقاء بين المسلمين تعارف بينهم وكل تعارف سبيل للوحدة والتفاهم والمســـــلمون اخوة ويجب ان يلتقوا ليتعارفوا ، ويتفاهموا فيما هو رفع للبلاد وجنب للخير الذى يهم ، والاسلام يجمعهم ، ولا يفرقهم .

(*) محاضرة ألقاها المرحـوم فى الملتقى الســابع للفـكر الاسلامى بتيــزى وزو المنعــقد من 10 ــ 22 جمــادى الثانية 1393 هـ ــ 10 ــ 22 يوليو 1973 م .

ونظرا لطول المحاضرة ننشرها على حلقات .

ان المسلمين قد توزعتهم الارض ، وتفرقوا شيعا واحزابا وكانوا شيعا لغيرهم ، واحزابا لاعدائهم ، فهذا تركى ، وذاك مسكوفى، وذلك فرنسى ، وآخر انجليزى ، ونادر من يكون اسلاميا وهذا النادر لا يسمع له صوت وسط ضجيج الاهواء ، وقـــوة الانتماء ، والانتماء لأعداء الاسلام دائما ٠

ان الوحدة الاسلامية يجب أن تكون هى المقصد الاسمى، واذا لم نقصد اليها حقا ، واكلنا سباع السادة فى كل أرض ، وانما يأكل الذئب من الغنم القاصية ، فيجب ان نضم القاصى والدانى ونجتمع على الفكرة الاسلامية أولا ـ والشعور بأن المسلمين أمة واحدة ثانيا ، وأنه لا يصح لمسلم ان يتخذ من غير المسلم وليا يناصره كما يقـــول تعالى : « **لا يتخـذ المؤمنـون الـكافرين أوليـاء من دون المـؤمنين** »٠ ثالثا ـ ونجتمع للعمل جماعة مؤتلفة موحـــدة لازالة ذلك الغبار المتكاثف أولا والذود عن حياض المسلمين آخرا ٠

وان الملتقيات امثال هذا الملتقى اتجاه الى المعنى الاول فلنسر الى ما يليه ، حتى نصل الى الغاية ، وهى صراط الله المستقيم ٠

روح الشريعة وواقع التشريع اليوم

١ ـ ان هذا العنوان ليس محدود المعنى فى تفكيرنا ، بل هو مقول بالتشكيك ، كما يقول المناطقة فهو يشع فى مؤداه ، ويضيف فهـو يشع حتى يكون معناه ، الشريعة الاسلامية مطبقة فى تشريع المسلمين اليوم ، أم غير مطبقة ، ولذلك جواب يوجب الحسرة والاسى ويضيق حتى يكون معناه الشريعة الاســـلامية متحقق روحها فى التشريعات القائمة اليوم ، وان لم تكن مطبقة بحذافيرها وغير قائمة حدودها ، ولا منفذة زواجرها الاجتماعية ، ولا نظمها الاقتصادية وقد يزداد فى هذه المعنى ، فيدعى أن روحها قائمة فى التشريع ، لانها قائمة على المصلحة الانسانية فى زعم الزاعمين ، وادعاها البعض متفقة مع هذا الزمان فى كثير من المسائل ٠

كان هذا التشكيك فى المعنى أو الشك فيه سببا فى حيرة المعنى ، لان الروح معنى فيه ابهام ، الا اذا قلنا ان روح القانون أو الشريعة

اما أن تكون سالبة واما أن تكون موجبة ، وعلى ضوء هـــذا المعنى نقول أعلاقة القوانين المطبقة اليوم سالبة أم موجبـــة ، اى للشريعة تأثير فيها أو ليس لها تأثير ، بل مناقضة ٠

2 ــ وعلى ضوء هذا ، أتكلم وبايجاز شديد ونحصر كلامنا فى ثلاثة موضوعات :

1) مقام الشريعة من التطبيق فى الماضى ٠
2) مغزى تطبيقها ٠
3) العلاج مع القوانين القائمة ٠

(أ) مقام الشريعة فى التطبيق :

3 ــ جاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم رسولا من رب العالمين فاشرقت الارض بنور ربها ، ولا نريد فى هـــذا المقام أن نتكلم فى العقيدة التى دعا اليها فى وسط الوثنية ، وعبادة الكواكب والنيران، ووثنية اليونان والرومان ، والثالوث الذى كان عنـــد الافلاطونية الحديثة الذى قبسته منه بعض الملل التى كانت فى الاصل ديـانة توحيـــد ٠

لا نتكلم فى شىء من ذلك لانه أمر معروف للعامة والخاصة من الذين عرفوا الاسلام وأدركوه ولا نتكلم فيه لانه ليس من موضـــوعنا فى الظاهر ، انما الموضوع مقصور على التكليفات ، ان العملية التى جاء بها القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبينته السنة النبوية ٠ ويلاحظ ان هذه التكليفات أوامر ونواه جاءت من السماء ليس لبشر أن يناقضها أو يغير فيها ويبدل انما له فقط حق استخراج معانيها من ألفاظها ، وتحقيقها وتطبيقها على أقـــوم سبيل وأعدل طريق مستقيم من غير نقص منها ، ولا مزيد عليها ، ولا تحريفها عن مواضعها ٠

جاءت هذه الاوامر والنـــواهى ، وقد كان القانون الرومانى فى أوجه ، وصقلته التجارب فى نحو ثلاثة عشر قرنا من وقت انشـــاء روما ، وكان للفرس نظام ، وللهند وراءها نظام الطبقات الذى يحدد الناس أربع طبقات : طبقة البراهمة أى علماء اللاهوت قد خلقوا من

راس براهما الههم وطبقة المحاربين وقد خلقوا من سواعد براهما ، وطبقة التجار والصناع ، وقد خلقوا من ساق براهما ، وطبقة الخدم وقد خلقوا من اقدامه ، ووراء هؤلاء الانجاس الذين لا يحسون جاء التكليف الاسلامى فى زمن سادت فيه النظم ·

ولعل أقواها فى الصياغة القانونية وأحكمها القانون الرومانى الذى لا يزال المصدر الثانى أو الاول فى قانون نابليون ·

4 ـ وانه بالموازنة بينه وبين الشريعة الاسلامية فى المبادىء الانسانية المقررة الآن فى داخل الدول الاوروبية والامريكية نجد المفارقة واضحة والموازنة بينهما كالموازنة بين نظام همجى يتحكم فيه الانسان فى أخيه الانسان من غير أن تكون للضعيف حقوق أمام القوى ، ونظام يقرر الحقوق والواجبات من غير تفرقة بين قوى وضعيف ، ولا شريف وغير شريف ، ولا لون ولون ، فالشريعة تقرر ذلك والقانون الرومانى لا يعرفه ، فالمرأة تعامل كالرقيق ، فهى أمة فى بيت أبيها ، وامة فى بيتّ زوجها واذا قتلها لا يسأل لم قتلها ، لان الزواج فى هذا القانون عقد رق ، والابن لا يملك أن يتصرف فى ماله ، أو ان يتصرف مادام أبوه حيا ، ولو بلغ الستين الا ان يأذن له أبوه ، فالولاية عن النفس عند الرومان ، وفى قانونهم الذى يقدمه الفرنسيون الى اليوم رق ، وليس سدا لنقص يزول بزواله ، أو معاونة لعاجز يزول بزوال عجزه ·

وقد تعددت أسباب الرق فى القانون الرومانى ، حتى ان الرجل اذا خرج من أرضه كان عرضة لان يسترقه من يكون من قوم آخرين، ولقد جرى الرق على شيخ من شيوخ الفلاسفة ، وهو افلاطون فقد استرق عند انفراده خارج قومه ، حتى استعاد حريته بالفداء ·

كل هذا واضعافه فى الاشياء والنظام فى قانون الرومان أما الاسلام فقد الغى كل اسباب الرق ولم يبق الا سببا واحدا ، وهو الحرب العادلة اذا كان الاعداء يسترقون فيكون من قبيل المعاملة بالمثل ، لقوله تعالى : « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا ان الله مع المتقين** » ·

ولنزن القانون الرومانى وقانون فارس ، وطبقات الهنود ، لنزن هذا ، ولننظر الى الشريعة وروحها ، فان الافضل لا يستمد من المقابلات والموازنات ، انما يستمد من ذاتها ٠

ان الفضل للشرائع ذاتى ، وليس باضافى حتى نوازن بينه وبين غيره من النظم ٠

مقاصد الشريعة الاسلامية

تكريم الانسان وأول مقصد من مقاصد الشريعة الاسلامية التى هى روحها ومغزاها ـ هو الكرامة الانسانية ، وقد بدا تكريمها للانسان فى عقيدتها ، وفى تكوينه ، وفيما له من حقوق ، وما عليه من واجبات فالعقيدة الاسلامية تقوم على التوحيد ، أى وحدانية الله تعالى فى ذاته وفى صفاته وفى عبادتهوالاعتماد عليه وحده والاستغناء عمن سواه كبيرا أو صغيرا شريفا او ضعيفا ، وانه لا فضل لمخلوق عليه ، وانما الفضل لله وحده ، فلا عزة الا منه ولا تكريم الا منه ، ولا فقر الا اليه « **يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد** » ٠

فالعقيدة تربى العزة ، ولو كان المؤمن عبدا حبشيا ٠

والتكوين الانسانى فيه بيان انه اكرم خلق الله عند الله تعالى : الم تر أن الله تعالى أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم لمقام الادراك ،والعلم بالاشيا. ، « **وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال انبئونى باسماء هؤلاء ، ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ماعلمتنا ، انك انت العليم الحكيم ، قال يا آدم انبئهم باسمائهم فلما انباهم باسمائهم قال : الم اقل لكم ، انى اعلم غيب السموات والارض ، واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابىواستكبر وكانمنالكافرين** »٠

ولقد صرح الله سبحانه بتكريم الانسان فقال تعالى : «**ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » ٠

وان الانسان يكرم لانه انسان فلا فرق بين أبيض واسود ، ولا احمر فى الكرامة الانسانية ، واختلاف الالوان من آيات اللهسبحانه وتعالى فى خلقه ، ولذا قال تعالى : « **ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم** » ٠

والكرامة يستحقها لا فرق بين غنى وفقير ولا أمة غنية بمواردها وصناعاتها وموقعها الجغرافى ، وأخرى ليست فيها هذه المزايا ، ولا بين امة فيها علماء ، واخرى ليس فيها علم يكون ، وعلى العلماء ان يعلموا الجهلاء من غير أن يستعلوا عليهم ، ولقد روى أن على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه قال : لا يسال الجهلاء لم لم يتعلموا ، حتى يسال العلماء ولم لم يعلموا ٠

ولان الكرامة حق فطرى للانسان : سوى فى استحقاقها اهل الاديان المختلفة ولا فرق بين مسلم وكافر ، ولقد روى البخارى انه مرت جنازة يهودى فوقف لها الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا انها جنازة يهودى فقال الرسول الحر : اليست نفسا ٠

كرامة الرقيق

6 ـ لم تفرق شريعة القرآن فى الكرامة بين الحر والعبد ، بل كرمت العبد كما كرمت الحر على سواء ، ومن احترام كرامة العبد الا ينادى مالكه بيا سيدى ولا سيدتى ، ولا ان ينادى المالك مملوكه بيا عبدى أو امتى بل يقول المالك فتاى وفتاتى ، ويقول المملوك مولاى ومولاتى ومن احترام كرامة الرقيق ان ياكل المالك والمملوك على مائدة واحدة، ولقد قال الرسول الكريم : «**اخوانكم خولكم ملككم اياهم ، ولو شاء لملكهم اياكم ، اطعموهم ما تطعموا ، واكسوهم مما تكسون** » ٠

ولقد دخل عمر بن الخطاب على قوم من أهل مكة فوجدهم ياكلون ومواليهم لا ياكلون معهم فغضب الفاروق رضى الله تعالى عنه وامتنع عن أن ياكل فى وليمتهم ، وقال بئس القوم لا ياكل مواليهم معهم ، وذكر ان لا عزة لهم وقد منع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من ان يضرب العبيد ،، وقال « من لطم عبده فكفارته عتقه » ٠

وروى عن ابن عقيل من فقهاء الحنابلة أنه يعتـــق بمجرد اللطم الظالم ٠

ومن كرامة العبد ان الله جعل نفسه كنفس الحر ، ولذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه الامام احمد فى سنده : « من جدع عبده جدعناه ، ومن قتله قتلناه ولقد كان فى المذهب الحنبـل ان الحر يقتل بالعبد ، وان المالك يقتل بمملوكه ، وهو نص الحديث ، وقد رويناه ٠

وقد يقول قائل انما كان الاولى ان يلغى الاسلام الرق ؟ ونقول فى الاجابة عن ذلك ان القرآن سد أبواب الرق المبنى على الاسترقاق الغاصب ، ولم يفتحه الا فى باب الحرب الاسلامية ، لان الاعــداء يسترقون ، وقد بنيت الحرب الاسلامية على المعاملة بالمثل ، ما لم يكن فيها هتك لحمى الفضيلة والاعداء يسترقون ، فكيف لا نستــرق اسراهم ، ومن فضيلة الاسلام الكبرى ان المصـــدر الاول له وهو القرآن لم يوجد فيه نص يبيح الرق ، ولكن وجدت فيه النصوص التى توجب العتق وما فهمت اجـــازة الرق الا من الاوامر الملزمة بالعتـــق ٠

فامر من افطر فى رمضان بعتق رقبة، ومن حلف يميناً فحنث بعتق رقبة ، ومن قتل مؤمنا خطأ بعتق رقبة ، ومن قال امرأته عليه كظهر أمة ، لا يقربها الا اذا اعتق رقبة ، واذا طلب العبد ان يتركه ليكسب ثمنه ، ويدفعه لمالكه ويسمى هذا مكاتبة ، فعلى السيد بمقتضى ظاهر القرآن ان يعقد معه عقد المكاتبة فقد قال تعالى : **«فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم »** ٠

واعتبر العتـــق فى ذاته قربة يتقرب بها الى الله تعالى ، فقال تعالى : **« فلا اقتحم العقبة ، وما ادراك ما العقبة ، فك رقبة »** ٠

وانه يقتضى احضار الرق فى حرب المسلمين مع الكافرين وأوامر القرآن الكريم بالعتق لا يمكثُ الرقيق فى ملك مالكه اكثر من سنة ٠

وانه بعد ايفاد الاسترقاق فى الحروب وغيرها ليس لأحد ان يدعى بقاء الرق فى الشريعة الاسلامية ٠

العـــدالة :

7 ـ ان العدالة سمة الاسلام ، وشعـاره والشريعة الاسلاميـة ميزاتها العدالة ، وقد جاءت بها وقررتهامع العدو والولى علىالسواء ، ويقول الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامـين لله شهـــداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، ان الله خبـير بما تعملـون** » أى لا يحملنكم البغض الشديد لقوم على ألا تعدلوا ، فالعدل أقرب للتقوى ٠

واذا كان قد روى عن المسيح أنه قال اســـتغفروا لاعدائكم ، فالاسلام يقول : « اعدلوا مع اعدائكم » وان ذلك هو الممكن والاسلام لا يستنفر الاعداء الا اذا اعتقدوا الحق ، وتركوا الباطل ، ولقد روى أن أكثم بن صيفى حكيم بنى تميم لما بلغته دعوة الاسلام أرســـل بنيه ليسألوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « **ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنـكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون** » ٠

ولما بلغوا أباهم رسالة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وتلوا عليه الآية الكريمة،قال حكيم بنى تميم انه ان لم يكن دينا كان فىالاخلاق أمرا حسنا ، كونوا يا بنى فى هذا الامر أولا ولا تكونوا آخرا ، هذه هى روح الشريعة ومغزاها ، العدالة التى لا فرق بين عبد وولى ولا أبيض وأسود ، ولا عربى واعجمى ، وقد طبقت فى عهد الرســـول الامين وعهد الراشدين تطبيقا دقيقا ، حتى ان رسول الله سيد الخلق أجمعين ، ليطلب ان يقتص منه ، وهو الطاهر المطهر ٠

وان من أبرز صور العدالة فيها ، العدالة بين الحاكم والمحكوم ، فالحاكم فرد من الافراد ويؤخذ منه اذا ظلم ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقتص من الوالى اذا ظلم واحدا من الرعية وينبه عماله الى ذلك فى اوامر صارمة قاطعة ، لقد جمع ولاته فى موسم الحـج وقال لهم :

وما ارسلتكم لتضربوا أبشار الناس ، ولكن ارسلتكم لتعلموهم أمر دينهم ، والله لا أوتى بعامل ضرب الناس فى غير حد ، لاقصيته منـــه ٠

ولقد قال عمرو بن العاص لرجل من المؤمنين : يا منافق فقال ما نافقت مذ أسلمت وشد رحاله الى عمر ، وقال لامير المؤمنين : « لقد نفقنى الامير وما نافقت مذ أسلمت فأرسـل الفاروق الى عمرو بن العاص ، يقول فلان أنك نفقته وما نمق مذ أسلم فاذا وصلك ، فمكنه من ان يضربك ، فعاد الرجل الى الملأ الذى سمعه ينفقه ، فسـألهم أرأوا الامير ينفقه ، فقالوا كلنا نسمعه فتلا كتاب أمير المؤمنين على عمرو ، فقالوا أتضرب الامير ، فقال الرجل ليس هنا لامير المؤمنين أمر فطأطأ عمرو للرجل رأسه ليضربه ، فهز الرجل السوط ، وقال الآن عفوت .

ولقد كان عمر نفسه يضرب القصاص ممن يضربه بغير حق فيروى انه قد أمر فى الحج ألا يطوف الرجال مع النساء ، وخصص للنسـاء وقتا ، فـرأى رجلا يطوف معهن ، فعلاه بالدرة ، وقال افما علمت عزمتى بالا يطوف الرجال مع النساء ، فقال الرجل ما علمت لك فى هذا عزمه لئن كنت ظالما فما علمتنى ، وان كنت جاهلا فقد ظلمتنى ، فاعطاه عمر الدرة ليضربه ، فامتنع فطلب منه إن يعفو فما عفا .

فلما التقى بأمير المؤمنين فى الغد ، وجده مضطرب النفس ، فقال له لعل ذلك من ضربه الامس قال نعم ، فقال العـربى المؤمن الآن عفوت .

(يتبع)

النشاط الثقافي

الشعب الجزائرى يحتفل بالمولد النبوى

احتفل الشعب الجزائرى بذكرى ميلاد الرسول الاعظم محمد (صلعم) كسائر الشعوب العربية والاسلامية .

وبهذه المناسبة العظيمة ازدانت شوارع المدن والقرى بالاعلام والاضواء الملونة وعمت الفرحة البيوت وخرج الشباب والاطفال الى الشوارع وهم يرددون الاناشيد الدينية ، كما شهدت المؤسسات الثقافية تظاهرات ثقافية وفنية تتناسب مع جلال الذكرى .

حفل توزيع الجوائز على الفائزين في مسابقتي رمضان العامة والخاصة بالشباب لعام 1395 هـ / 1975 م

وفى هذا الاطار اشرف السيد مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، صباح يوم الجمعة 11 ربيع الاول 1396 هـ الموافق لـ 12 مارس 1976 م ، فى مقر المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة ، على حفل توزيع الجوائز على الفائزين فى مسابقتي رمضان العامة والخاصة بالشباب .

وقد افتتح السيد الوزير الحفل بكلمة توجه بها الى الفائزين أبرز فيها الهدف من تنظيم هذه المسابقة ، وحثهم على المزيد من البحث والتنقيب عن النفيس من التراث الاسلامى بصفة عامة والجزائرى منه بصفة خاصة ، مؤكدا أن القصد الاول من تنظيم هذه المسابقات هو تشجيع الشباب المثقف والمواطنين بصفة عامة على الدلاسة والبحث واستقصاء المعلومات فى مضانها .

وان ملكة البحث والاطلاع هى الفائدة الاولى المشتركة ، وبالنسبة للناجحين فى المسابقة هناك طبعا هذه الجوائز المادية الرمزية بالاضافة •

ثم هنأ الفائزين بنجاحهم مشيرا الى أن نسبة المشاركة فى مسابقة رمضان تزداد سنة بعد أخرى ، مما يدل على أن شهر رمضان ، على عكس ما يزعم بعض الجهلة السذج ، هو شهر الجد والعمل لا شهر السلبية والملل ، أو الهزل والكسل •

وقبل أن يشكر اللجنة التى سهرت على اعداد اسئلة المسابقة وتصحيح أجوبتها على المجهود الكبير الذى بذله أعضاؤها ، تمنى اطراد الفوز والنجاح للمشاركين •

وبعد قيام السيد الوزير ومساعديه بتوزيع الجوائز ، ختم الحفل بالاستماع الى بعض الاناشيد الدينية والوطنية التى أدتها مجموعة من تلاميذ وتلميذات ثانوية بلكين للتعليم الأصلى بالجزائر العاصمة •



السيد مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الأصلى والشؤون الدينية اثناء القاء كلمته ، ويظهر على يمينه السيد الطاهر الزيتونى مدير الشؤون الدينية ، وعلى يساره المامون القاسمى المدير المساعد للتوجيه الدينى •

هذا وعلى الساعة السادسة والنصف من نفس اليوم اشرف الاخ مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الأصلى والشؤون الدينية على تدشين معرض الفـــن الاسلامى برفقة والى الجزائر الاخ عبد الرزاق بوحارة ، وحضر حفل التدشين الذى جرى بقاعة الاعمدة الاربعة عدد كبير من الشخصيات الدينية والثقافية وجمهور كبير من المواطنين ٠

وبعد أن طافوا بأجنحة المعرض انتقل الاخ الوزير والوالى والمدعوون لحضور حـــفل دينى ساهر جرى بدار الولاية ٠

هذا وبودنا ان تتـبع الولايات والدوائر والبلديات ومختلف المؤسسات والمنظمات الوطنية وفى مقدمتها الحزب هذا التقليد وان تعمل على ترسيخه ليبقى مناسبة منتظـرة بكل شـــوق ولهفـــة ٠

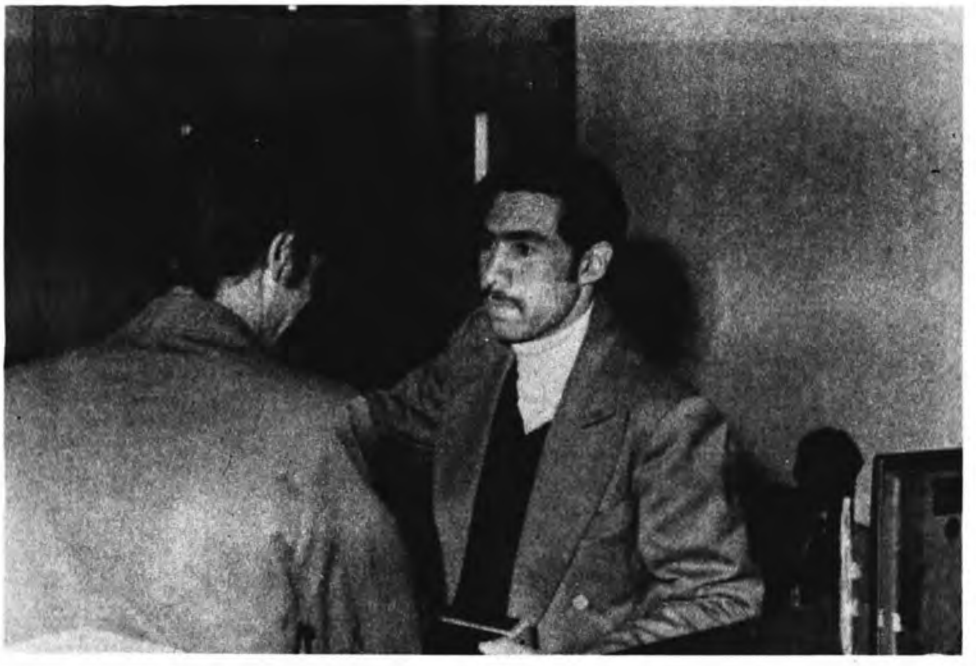


السيد الوزير يسلم للسيد عمرو امشارة ، الفائز الاول جائزته المتمثلة فى جهاز تلفاز .

تـوزيـع جـوائز مسـابقة رمضـان

1395 هـ ـ 1975 م

الاسم واللقب	العنوان	المهنة	الجائزة	الرتبة	نوع المسابقة
عمرو امشاورة	برج زمورة سطيف	معلم	تلفزيون	الاول	العامة
حسين جلودى	حي العناصر القبة ـ الجزائر	طالب	راديو مسجل + حاكي	الثانى	»
مولود بورزق	الحى الجامعى ابن عكنون الجزائر	طالب	راديو مسجل + قلم باركر	الثالث	»
بوزيد قرنان	حى البوسكى سيدى مبروك قسنطينة	طالب	مسجل عادى + قلم باركر	الرابع	»
ابراهيم جلاب	سيدى عيسى المسيلة	معلم	راديو عادى + قلم باركر	الخامس	»
رشيد خليفاتى	بلدية بنى سليمان المدية	معلم	آلة تصوير + قلم باركر	السادس	»
آمنة بلة	68 نهج مصطفى الصغير ـ المدنية	معلمة	راديو مسجل كبير	الاولى	الخاصة
رفيقة بشارى	الجنينة برج الكيفان الجزائر	طالبة	حاكى كبير	الثانية	»
نصيرة جمعونى	نهج طاطشى بلقاسم قسنطينة	طالبة	مسجل عادى + قلم باركر	الثالثة	»
محمد بن احمد بقاش	أولاد سيدى ابراهيم ـ بوسعادة	طالب	حاكى صغير	الرابع	»
العربى شوالين	عمارة 7 ن فيكتور هيقو ـ الجزائر	طالب	راديو عادى	الخامس	»
حسين بادى	الدار الحمراء القبة ـ الجزائر	طالب	آلة تصوير + قلم باركر	السادس	»
حفصة بارى	بادى موسى المركب المدرسى ببراقى ـ الجزائر	طالبة	منبه راديو	السابعة	»



السيد محمد الشريف ايت ورجا المفتش العام بالوزارة يسلم الجائزة للسيد مولود بورزق طالب بكلية الحقوق ـ الحى الجامعى ابن عكنون ـ الجزائر ٠



السيد المامون القاسمى المدير المساعد للتوجيه الدينى يسلم الجائزة للآنسة حفصة بارى



جـو المـرح والمشروبات بعد تـوزيع الجـوائز ٠



منجز جديد تحققه
وزارة التعليم الأصلى والشؤون الدينية
بافتتاح المدرسة الوطنية لتكوين الاطارات الدينية

بابا علي
مدير المدرسة

فى يوم الجمعة 14 محرم سنة 1396 هـ الموافق 16 جانفى سنة 1976 م ، أشرف الاخ مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، رفقة السلطات المدنية والعسكرية التابعة لولاية البليدة ودائرة الاربعاء ، وبمحضر كبار الموظفين فى الوزارة وعدد معتبر من أعضاء السلك الدينى والعلماء والمثقفين ، على حفل افتتاح المدرسة الوطنية لتكوين الاطارات الدينية، الواقعة بمرتفعات بلدة مفتاح، قرب العاصمة . (ولاية البليدة) .

الاهداف :

ـ ورغم ان المنجزات التى تحققها الوزارة بانتظام عبر التراب الوطنى قد بلغت من الحجم والتنويع ما يستحق التنويه بحق ، الا انها فى هذه المرة أوردت شيئا جديدا يتمثل فى وضع اللبنة الاساسية من مشروع واسع النطاق ، يرمى فى مراحله الاولى الى تكميل التكوين ، وفى مراحل لاحقة الى التخريج ، فيما يتعلق بالاطارات المشرفة على شؤون الدين ، أو التى يتمم فيما بعد قبلات جامعية أخرى وعمدة زادها القيم الدينية الاصيلة ، تكوينا وتخريجا يتمشيان ومقتضيات العصر الحديث ، ويستجيبان فى نفس الوقت لما تدعو اليه الحنفية البيضاء من الاحاطة والتروى واعمال الفكر ، ليتحقق الانسجام بين الأصالة الواضحة المعالم من جهة ، والانفتاح من جهة أخرى .

البرامج :

وان نظرة سريعة على برامج فترة التربص الاولى التى تتراوح ما بين منتصف محرم ونهاية جمادى الاولى من هذه السنة ، لكفيلة باعطائنا فكرة عن الآفاق الواسعة التى

تفتح أمام الطلبة كى يتمموا ما ينقصهم لاداء رسالتهم ـ الاداء الافضل ـ بالمساجد وحيال المواطنين الذين يدعون الى الاقامة بين ظهرانيهم كمعلمين وكمصلحين ٠

وفيما يلي المواد التى بدأ بعد تدريسها على يـــد مشايخ وأساتذة لا اخالنا محرجيهم ـ ولا منصفيهم أيضا ـ اذا نحن كشفنا عن بعض محاسنهم ، ونعنى بها الكفاءة المشهودة ، والتفانى فى اقتسام مـا أوتوه من النور ، مـع التواضع ولـين الجانـب المكتسبين فى « الحلقة » ـ وكم يطول حنيننا الى « الحلقة » المباركة ـ واللذين يذللان سبـل التقارب ، بل والالتحام بين الشيخ والطلبة :

- تاريخ الاديان المقارن ٠
- دراســات قرآنيــة ٠
- دراســات السنــــة ٠
- الفقه على المذاهب الاربعة ٠
- الفقــه المالكــى ٠
- المدارس الفلسفية المعاصرة ٠
- الفلسفة الاســلامية ٠
- الاقتصــاد الاســلامى ٠
- التيارات الاقتصادية والاتجاهات السياسية المعاصرة ٠

كافة الايمة بدون استثناء ٠

- علـم النفــس ٠
- دور الجزائر الثقافى وتراثها ٠
- النظام الاقتصادى والادارى فى الجزائر ٠
- علــم الاجتمــاع ٠
- فـن الخطابــة ٠
- دراســات اللغـة العـربية ٠
- الجغــرافيــــا ٠
- التــاريـــخ ٠

عـــدد الطلبـــة :

ـ يشتمل الفوج الاول الذى تحتضنه المدرسة على اثنين وستين طالبا ، بمعدل طالبين (امامين) من كل ولاية ، وسيوسع هذا العدد ، ان لم يكن فى هذه الفترة بالذات ، ففى الفترة التى تليها ، ليبلغ ضعفه أى مائة وعشرين طالبا • وذلك قصد التعجيل باستيعاب كافة الايمة بدون استثناء •

المشـاريـــع :

وما ان تتم هذه العملية اللازمة ، حتى تتفرغ المدرسة لدورها الاصلى الذى أنشئت من أجلـه ، وهو استقبال أفـواج من الطلبة المتحصلين على شهادة الباكلوريا واللذين يثبت اختيارهم وترشحهم الوزارة لان يكونوا الاطارات الطلائعية ، لا فى مجال الـــدين فحسب ، بل فى مجالات أخرى أكثر طموحا وشمولا يكونون فيها بمثابة المرآة الصادقة لجامعيى الغد ، وقد تجسمت فيه شعارات الاحاطة والأصالة والتفتح •

وفقنا الله جميعا ، والسلام عليكم ورحمة الله •

ملتـقى مديـرى التعلـيم الاصـلى

هو أول ملتقى يعقد من نوعه فى اجتماعات وملتقيات وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية هذا الملتقى الذى دام ستـة أيام من 1396/2/9 الى 1396/2/14 بثانـوية عمر ابن الخطاب بمدينة البليدة ، مدينة الازهار والورود ، تلكم الايام التى كانت كلها عمـلا دائبا وحزما متواصلا وتوجيهات هادفة •

لقد افتتح السيد الوزير الاخ مولود قاسم نايت بلقاسم الجلسة الاولى لملتقانا هذا بمقر المركز الثقافى الاسلامى بكلمات توجيهية مركزا فيها على التعريف بمضمون المرسوم الخاص بتكوين مديريات لوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بدلا من المفتشيات التى كانت تابعـة قبـل فى الاعتبـار الادارى لمديريات أخـرى ، كما نـدد ببعض جـوانب

الضعف الموجودة بالنسبة لتطبيق التعليمات ، وعـــدم اعطائها ما تستحـق من العناية والتنفيذ ، ثم بالتالى معايشة الحياة اليومية المتطورة لمسايرة الزمن فى سرعته ، للوصول الى المستويات الفضلى عملا وتطبيقا لروح الدين الاسلامى وتعاليمه القيمة التى كانت ولا تزال ثورة على الجهل والمرض ، وحربا على الخمول والجمود ، والانعزال والانغلاق وربما الى وجوب تحمل المسؤولية كما يجب ان تكون هذه المسؤولية ، لان المدير ممثل للوزارة فى الولاية ، فمنه تنعكس الصورة المشرفة ، وقد تصدر عنه الملاحظات السيئة ٠

كما أكـد على وجوب التحلى بالالتزام واليقظة فى كـل آن وزمـان ، لاسيما فى هذه الظروف التى تتكالب فيها القـوى الرجعية ، وهذا يقتضى ـ طبعا ـ تشديد الرقـابة وتجددها على موظفينا فى مختلف الميادين ، حتى يتحلوا بروح المبادلة ، والايجابية فى السلوك والعمل وحتى لا يتخلـوا عن اليقظـة التى يجب أن تكون فى طليعـة واجباتنا اليومية ٠

والحقيقة التى لا مراء فيها ، والتى ينبغى أن يشعر بها كل منـا فى مختلف الميادين والتى يجب الايمان بها ، هى الاقتناع ـ عن عقيدة وايمان ـ بان كلا منا ينبغى ان يعتبر نفسه جنديا فى معركة البناء والتشييد الذى رفعت سلطة البلاد شعاره ٠

هكذا وفى هذا الجو المفعم بالتوجيهات والنصائح الثمينة ، تواصلت الافادة والنصح ، وأخيرا توجت جلسة الافتتاح هذه بالمصادقة على لائحة تاييد ـ باسم الملتقين ـ للقيادة الثورية بمساندتها المطلقة فى كل ما تهدف اليه من مخططات ثورية ، وبرامج انمائية ، كما تضمنت التنديد بالاعتداء الثالوثى على شعب الصحراء الغربية ، لمنعه من حقه فى الحياة بتقرير مصيره بنفسه ٠

اما الجلسات الصباحية والمسائية المسجلة فى برنامج الملتقى المشتمل على عشر نقاط فقد سارت فى مواعيدها المقررة ، مادة فمادة ، فى جو من النظام والفاعلية ، أخذا وعطاء . ولقد تمت دراسة وشرح كـل النقاط بغاية الـدقة والبيان ، بقدر ما استفاد الملتقـون واستناروا بما تفضل به السيد المفتش العام والسادة مديرو الادارة المركزية من الشرح

والتوجيه ، والاجابة على الاسئلة المطروحة بروح بناءة سواء ما كان منها فى حقل التربية والتعليم ، أو فى التنظيم الادارى وتحديد المهام المناطة بكل مدير ومسؤول .

ومما زاد فى تقديرنا للمجهودات المبذولة لاعداد هذا الملتقى ، تكلم الاسئلة التى تطرح بعد كل محاضرة من طرف الملتقين والاجوبة الصريحة التى تلقى أضواء على حلول المشاكل ومعالجة القضايا .

ولعل ما يشجع على العمل أكثر ، ويبعث فى النفوس الاطمئنان ، ويدعو الى الامل الباسم نحو مستقبل أسعد وأفضل ، تلكم الروح الطيبة التى سادت مدة التدريب ، والشعور المتبادل ما بين المشاركين فى الملتقى والمشرفين عليه ، انطلاقا من مبدا نشد ان الحكمة ، وعملا على تكامل المعرفة وتبادل التجارب والخبرات ، لابراز المؤسسة المدرسية الجزائرية الحرة فى أعلى مستوياتها التربوية المهنية ، المتسمة بالضبط والابتكار ، والجدية والثورية فى هذه الآونة التى تخوض فيها البلاد معركة فى ثورات ثلاث متكاملة .

نشاط المركز الثقافى الاسلامى

نظم المركز الثقافى الاسلامى فى الاسابيع الاخيرة مجموعة من المحاضرات ، تناول الاساتذة المحاضرون فيها عدة مواضيع ، وعالجوا قضايا مختلفة ، منها الادبية والفنية ، ومنها الاجتماعية ومنها الفلسفية والدينية ، ومنها التاريخية ، وهى كالتالى :

ـ مشكلة الكتابة الادبية للطفل العربى ، للدكتور خير الله عصار ، أستاذ التربية بالمعهد التيكنولوجى لتكوين أساتذة التعليم المتوسط ببوزريعة ، ألقاها يوم 27 ذى القعدة 1395 هـ الموافق 1 ـ 12 ـ 1975 م .

ـ خصائص العمارة الاسلامية ، للمؤرخ الجزائرى الاستاذ عبد الرحمن الجيلالى ، ألقاها يوم 5 ذى الحجة 1395 هـ ، الموافق 8 ـ 12 ـ 1975 م .

ـ تحديد النسل على ضوء الشريعة الاسلامية ، للاستاذ عبد الكريم حسنى ، ألقاها يوم 12 ذى الحجة 1395 هـ ، الموافق 15 ـ 12 ـ 1975 م .

ـ المثالية والواقعية فى الاسلام ، للدكتور صبحى الصالح نائب رئيس المجلس الشرعى الاسلامى الاعلى بلبنان ، ألقاها يوم 19 ذى الحجة 1395 هـ ، الموافق 22 ـ 12 ـ 1975 م ·

ـ ملاحظات وانطباعات حول موسم الحج فى هذه السنة ، للاستاذ على شنتير ، نائب رئيس المجلس الاسلامى الاعلى ، ألقاها يوم 3 محرم 1396 هـ ، الموافق 5 جانفى 1976 م ·

دور محيى الدين بن الامير عبد القادر فى ثورة 1871 م ، وموقف أبيه والسلطات التونسية منه ، للاستاذ يحيى بوعزيز ، أستاذ التاريخ بالمعهد التيكنولوجى لتكوين أساتذة التعليم المتوسط بوهران ، ألقاها يوم 24 محرم 1396 هـ ، الموافق 26 جانفى 1976 هـ ·

ـ نبذة من ترجمة عبد الكريم بن الفكون القسنطينى ، والتعريف بكتابه : « منشور الهداية فى كشف حال من ادعى العلم والولاية » ، للاستاذ المهدى البوعبدلى ، مكلف بمهمة فى وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، ألقاها يوم 2 صفر 1396 هـ ، الموافق 2 فيفرى 1976 م ·

فهــــرس العــــــدد

مفهوم العدالة الإجتماعية في الإسلام [1]

مولود قاسم نايت بلقاسم

بسم الله الرحمن الرحيم



السيد الامين العام ،

حضرات السادة ،

لا أكتم السادة المؤتمرين انى ترددت عندما عرض على السيد الامين العام لهذا المؤتمر الكريم أن ألقى هذه الكلمة فى هذا الموضوع بالذات ٠ لا لعدم أهميته ، ولا لتعقده ، بل بالعكس ، لبداهته وبساطته ، مما يجعله من ذلك السهل الممتنع الذى ليس فى متناول أى أحد ٠

ومع ذلك رأيت ان أقوم بمحاولة عل الله يوفقنى فى التذكير هنا بما شدا وأشاد به اعلام مسلمون وغير مسلمين بخصوص العدالة الاجتماعية فى الاسلام مفهوما ومضمونا ٠

(1) نص المحاضرة التى ألقاها السيد وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى المؤتمر الاسلامى الدولى بلندن يوم 9 ربيع الثانى 1396 (9 ابريل 1976) ٠

ان العدل فى الاسلام ليس فقط أساس المجتمع الاسلامى فى أصالته وعلى ما ينبغى أن يكون ، وليس ركنا من أركان الاسلام متمثلا فى الزكاة وما فى حكمها فحسب ، كما سنرى ، وليس فقط صفة من صفات الله فى قوله تعالى : « القائم بالقسط » ، ولا يدخل فقط فى مئات الاحكام الاسلامية التى هى من صميم العبادات كشرط فى صحتها ، بـل هو أيضا أساس من أسس العقيدة نفسها ، متصل بصميم الايمان !

فلنتأمل قليلا فى قوله تعالى : « أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يـدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » ! ولننظر الى حديث رسوله صلى الله عليه وسلم : « ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعانا وجاره جائع » ! فالعدل هنا ، أو التكافل الاجتماعى عموما ، مرتبط بالايمان نفسه ، بأصل العقيدة ذاتها !

ويتضح ارتباط العدل بأصول العقيدة ، أى الايمان نفسه ، فى الايمان باليوم الآخر . وما اليوم الآخر اذا لم يكن الايمان بالبعث ، وبالحساب ، وبالثواب ، والعقاب ، أى بالله ، وكتبـه ، ورسلـه ؟

فالايمان باليوم الآخر هو الايمان بمغزى الكتب المنزلة ، والانبياء المرسلين ، وبالبعث والنشور للحساب والجزاء ، وللثواب والعقاب ، لكل حسب عمله ، كما يقتضيه العـدل الالهى ، وكما تروم ذلك حتى عدالة الانسان فى التعامل الدنيوى .

ومن ثم رأينا فرقة اسلامية ، من رجالها أمثال الزمخشرى والقاضى عبد الجبار ، تسمى حرية الاختيار ، التى لا يفهم العقاب والثواب بدونها ، نظرية العدل .

واذا كان الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعـام المسكين مكذبا بالدين . وكان الذى يبيت شبعانا وجاره جائع غير مؤمن بالله واليوم الآخر ، وكان اليوم الآخر هو العـدل الالهى ، فان أى مجتمع يقول عن نفسه انه مسلم ولا يحقق هذا العدل ليس له من الاسلام الا الاسم ، فضلا عن ان يكون مـؤمنا !

بعد هذه المقدمة البديهية ، التى قد تبـدو للبعض فلسفية ، أو عقائدية ، كما يقال اليوم ، ونحن فى عصر الصراع العقائدى ، فلنعرض الآن نماذج لهذه العدالة الاجتماعية فى الاسلام ، نصا ، وروحا ، ومقاصد شريعة ، وسلوكا ، التى كانت طابع المجتمع الاسلامى

فى عهوده الزاهرة ، وكما لا تزال ، نصا وروحا ، تنتظر التحقيق ، ونظريات ومقاصد لمن يريد التطبيق ٠

ولنبدأ هذا بالتذكير بأن الاسلام ينظر الى ابن آدم ، الذى كرمه الله ، وجعله خليفة فى الارض ، على أنه كائن متألف من جسم وروح ، له حاجاته المادية ، كغيره من الكائنات الحية ، ولكن له أيضا كرامته ، وجوانبه الروحية ، والخلقية ، والاجتماعية عامة ، وبالتالى لا يقتصر فى حياته على الجانب المادى المحض ، أو الاقتصادى البحت ٠

ومن هنا فالمجتمع الاسلامى ـ كما ترسمه لنا الشريعة السمحاء ـ مجتمع متوازن يتكون من أفراد ينبغى أن يشعر كل منهم انه يكون مع الآخرين وحدة متماسكة ، متضامنة ، تقوم على التآخى ، والتكافل الاجتماعى ، والمساواة فى أصل الحقوق والواجبات ، تعمل لهدف واحد ، وينظم انشطتها الحكم العدل الذى يضمن العمل للجميع حسب الطاقة والكفاءة ، ومن منطلق تكافؤ الفرص ، ويوزع نتاج الامة فى مجموعها بالقسطاس حسب الحاجة على مجموع أفرادها على أساس التكافل الاجتماعى ٠

وهكذا فصل الاسلام أبواب الدخل ومصارفه ، ففرض حقوقا وواجبات ، وحث على البذل ، والتضحية ، وتزكية الاموال ، باسعاف المحتاج ، وهدفه فى ذلك كله تهذيب النفس ، ومصلحة الجماعة ، وحيث لم تفد وسائل التهذيب أمر بالزجر ، وحيث لا يكفى وازع الضمير الدينى ، ولا يفيد الوعظ والارشاد من عالم الدين ، يتدخل سوط القاضى وسيف الحاكم ٠

وبهذا ضمنت العدالة الاجتماعية فى الاسلام ، على أساس العدالة الاقتصادية ، حقوق جميع أفراد الامة ، من قادرين على العمل وغير قادرين ، من فقراء ، وعجزة ، وأرامل ، وأطفال ، وشمل من بين العجزة المسلمين والذميين ، بل وقد ادرج فيهم حتى الحيوانات كما سنرى ٠

على ان الفقر بسبب الكسل والخمول لا تشمله هذه العدالة ، لان الاسلام لا يقرهما ، ولا يجوز لاحد التسول ، اذ يمنعه الاسلام منعا باتا ، وعلى المحتسب ان يأمر المتسول القادر بالعمل ، والا عزره ، حتى يقلع ، ولا يشجع الاسلام روح الاتكال على الغير ، والاستكانة الى الزوايا والتكايا ٠

العـدالة الاجتماعية مع العمـــال :

والاصل فى الاسلام هو التكسب بالعمل • وقد أشـاد القرآن بالعمل والفعل فيما يقرب من خمسمائة آية ، كما ورد تمجيده مرارا فى أحاديث الرسول صـلى الله عليه وســـلم •

والعمل هنا سواء منه الذى يقوم به الشخص فى ملكه من زراعة ، وصناعة ، وتجارة ، وغيرها من وسائل التكسب والانتاج ، كما يقال اليوم ، أو الذى يقـوم به الاجـراء من موظفين ، وعمال ، ومستخدمين ، أو غيرهم من أصحاب الحرف الحرة المستقلين •

وهناك أحاديث نبوية عديدة فى حماية أجر العامل ، من حيث كل من مبلغ الاجـرة وســرعة انجـــازها •

ويضيف صلى الله عليه وسلم فى حقوق العمال : « من ولى لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليس له زوجة فليتزوج ، أو ليس له دابة فليتخذ دابة » ، ويعلـــق المرحوم الشيخ أبو زهرة فيقول : « وكل ذلك لا ريب من بيت مال المسلمين ، لان الراحة التى ينالها العاملون توفر خيرا يعود على الجماعة الاسلامية » •

وهذا يتضمن مجانية الاسكان ، والمواصلات ، بل والتزويج أيضا من الدولة عنـد الحاجة ! فضلا عن المنح العائلية التى كانت تعطى فى وقت الرسول وأبى بكر للـزوج، والزوجة ، والاولاد •

وقد كانت تعطـــى فى وقت عمر بن الخطـاب رضى الله عنه للابنـاء بازدياد مبلغها تصاعديا مع السن ، فكلما نما الولد زاده ، ولم يكن عمـــر يضمنها للابناء الشرعيـين فحسب ، اذ كانت تشمل حتى اللقطاء ! واستمر على ذلك عثمان وعلى ومن بعدهم مدة •

كما ضمن الاسلام للعامل راحته ، بل وللحيوانات أيضا ، وقد نص الامام أحمد على انه على المحتسب ان يمنع ارباب الحيوانات من استعمالها فيما لا تطيق •

ولما نشر الكاتب الفرنسى Peltier ترجمته للبخارى (1) عن هذه الجوانب وغيرها من الضمان الاجتماعى الاســلامى ، أو العدالة الاجتماعية ، لحماية العمال ، اعـــرب عن اعجابه هو والكثيرون فى تعليقات مستفيضة •

(1) Peltier : *Oeuvres diverses de Boukhary.*

واذا كان هذا كله لا يوجد اليوم فى العالم الاسلامى مع الاسف ، فانه لم يصل أيضا حتى اليوم الى هذه الدرجة فى أرقى الدول المتقدمة خارج العالم الاسلامى !

2) للأســــرة :

وهذا الذى كفله الاسلام منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم للموظفين والعمال عموما ضمنه لاسرهم أيضا بعد وفاتهم ان لم يتركوا لها ارثا يكفيها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك ضياعا (أى ورثة) أو كلا (أى ذريـــة ضعفاء) فليأتنى فانا مولاه » ٠

مع فئـــات العجـزة عموما :

وقد شمل نظام العدالة الاجتماعية هذه ، أو التكافل الاجتماعى ، فئات عديدة من العجزة صحيا ، كالشيوخ ، حتى الذميين منهم ، مثل الحادثة المعروفة بين سيدنا عمـــر واليهودى المسن اذ قال له رضى الله عنه : « ما أنصفناك أن أكلنا شبيتك ثم ضيعناك عند الكبر » ! وأخذه فى الحال الى منزله فاعطاه من قوته ثم أمر له بمعاش من بيت المال لبقية أيـــامه ٠

ونفس الترتيب وضع للفقراء والمساكين عموما ، والمرضى ، والعميان ، والمقعدين ، والمشردين ، والاسرى ، وقد ذكرنا اليتامى ، والعجزة ، واللقطاء ٠

وهناك أبواب كثيرة أخرى شملها هذا التكافل الاجتماعى ، مـــن الغرابة واللطافة بحيث لا تكاد تصدق بالنسبة لانسان لم يعش فى بيئة اسلامية ، وخاصة منها ما يسمى بوقف الزبادى لتعويض الخدم والاطفال ما يكون قد وقع منهم وتكسر عن غير عـــمد ، لتجنيبهم العقاب أو الخصم من أجرتهم ، وهناك مساعدة المدين العاجز عن التسديد ، بدفع دينه عنه من بيت المال ، وهناك ابن السبيل المعسر والبعيد عن بلده ، وكان هناك وقف خاص لتمويل العلاج النفسانى فى المستشفيات بالموسيقى ، والتمثيل الشعبى الفكاهى ، وقد اثبتت تجارب ما يسمى فى الطب الحديث ــ وان كان هذا قديما كما نرى ! ــ بالطب النفسانى الجسمانى psychosomatique ان هذه الطريقة فى العلاج على غاية من الفعالية والنجــاعة ٠

وبدون أن أكــون قد أتيت على نهاية القائمة أذكــــر أطرفها ، التى أشرت اليها فى البداية ، وهو الوقف الخـاص بالحيوانات وبعض الطيور ، لعلاجها ، وجبر كســرها ، وكفالتها حتى نهاية حياتها .

على ان هذه العـدالة الاجتماعية وهذا التكافل الاجتماعى لم يكـــونا مقتصرين على الجانب المــادى .

فالى هذه الجوانب كلها التى تتجاوز اطار العدالة الاجتماعية لتصبح التكافل الاجتماعى أو الحنو الاجتماعى ، وهو واجب فى المجتمع الاسلامى الذى ينبغى أن يكون كالجســـد الواحد وكالبنيان المرصوص ، نجد انها قد شملت أيضا « العدالة الانسانية » ، ان جاز هذا التعبير . ففى عصرنا هذا الذى لا تزال تسوده الطبقية ومظاهر التمييز العنصرى ، نجد الاسلام يسوى بين الجميع .

وسند تلك المساواة نجده فى الآية الكريمة : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ، وفى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان المسلمين سواسية كاسنان المشط » ، كما نجده أيضا فى أحاديث أخرى للرسول وأحداث وقعت فى عهد الصحابة ، نذكر بعضها بايجاز ونشير الى أخرى مجرد اشارة .

ففى مجـــال المساواة بين الاجناس والالوان ، نعرف كلنا تعنيف الرسول لابى ذر الغفارى عندما عير فى لحظة غضب وانفعال بلالا الحبشى بلون أمه ، اذ قال له الرسول : « يا أبا ذر انك لامرؤ فيك جاهلية ، ارفع رأسك فانظر ، ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود ، الا ان تفضله بعمل » .

وفى المجال القضائى نجده صلى اللـه عليه وسلم قد أقـــاد مرة حتى من نفسه فى حادثة مشهورة وقعت فى جامع ، اذ اعتبر أحدهم ان الرسول ، وهو بصـدد تســوية الصفوف ، قد آلمه ، فمكنه الرسول من نفسه ليقتص لو شاء !

وحادثة أخرى تشبهها تؤكد ذلك ، وهى عندما تدخل أسامة ابن زيد عند الرسول فى حادثة المرأة المخزومية التى سرقت ، وطلب اعيان قبيلتها الكبيرة القوية توسط اسامة ابن زيد لمكانته من الرسول ، ليقيهم من فضيحة وقوع الحـد على واحدة منها ، فغضب

الرسول وقال لأسامة : « أفي حدود الله ؟ » ثم خطب في المسلمين وقال لهم : « انما أهلك من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركـوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا الحد ، وأيم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ! » •

فالرسول طبق العدل والمساواة على نفسه ، وعلى حبه أسامه بن زيـد ، في شخص المرأة المخزومية الشهيرة ، واعلن انه مستعد لتطبيقهما على بنته فاطمة لو استوجبت ذلك، معلنا بذلك عمليا ألا طبقية في الاسـلام ، كما فعل عمر في حادثـة ابنه عبد الرحمن ، وكذلك عندما طبق قانونه « من أين لك هذا ؟ » على كبار الصحابة أمثال خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبي هريرة ، وغيرهم •

ولم يحصر الاسلام هذه العدالة بين المسلمين فحسب ، بـل جعلها واجـبـة بينهم وغيرهم من ذوي الاديان الاخرى ، كما تبرز ذلك أمثلة عديدة تدل على انها كانت القاعدة ، كحادثة ابن القبطي وابن عمرو بن العاص عندما وصلت الى سيدنا عمر رضي الله عنه ، ومثل تقاضيه هو ، أي سيدنا عمر ، مع يهودي أمام القاضي شريح ، ومثل تقاضي سيدنا علي كرم الله وجهه ويهودي آخر أمام سيدنا عمر ، مما جعل اليهودي يعلن اسـلامه في الحـال !

واذا ما استثنينا عمر الثاني ، ابن عبد العزيز ، فهل هناك من رئيس دولة آخـر في العالم القديم والحديث ، حتى بين أكثرهم تبجحا بالديمقراطية أو الثورية في عالم اليوم غربا وشرقا ، وجد نفسه في وضع عمر عندما وقف ، وهو أمير المؤمنين ، في مسـجد الرسول ليجيب على سؤال : « من أين لك هذا الطول في ثوبك يا عمر ، وحصة كل منا في توزيع الكتان هي نصف هذا المقدار ؟ »

وسـائل العـدالـة الاجتماعية
أو
العـدالـة الاقتصـاديـة

وقد يتساءل متسائل عن الموارد التي يصرف منها على جميع أبـواب الصرف التي ذكرناها ، وغيرها مما لم نذكر ، وهي كثيرة •

وهنا نود ان نورد بضع اشارات عابرة عن تلك العدالة الاقتصادية التى هى الشرط فى العدالة الاجتماعية والمتكاملة معها ، اذ هما صنوان متلازمان ٠

فالى جانب الجهود الخيرية كالاوقاف ، وقد رأينا أنها كانت تشمل بجناحها حتى الحيوانات ، والى جانب المساهمات العديدة الواجبة دينيا لصالح المجتمع ، كالنفقة على الاقارب ، والكفارات ، والوصية ، وغيرها ، التى تساهم فى تمويل التكافل الاجتماعى ، وهى تتجاوز العشرة أبواب ، نجد هناك بيت المال الذى تتمثل وسائله خاصة فيما يلى :

1) ـ الزكاة وما فى حكمها ، وهى ، كما نعلم كلنا ، الركن الثالث من اركان الاسلام ، والعمود الاجتماعى الاساسى فى البناء الاسلامى ، وليست صدقة ولا منة ، ولكنها واجب ، ومانعها عمدا كافر يقتل ، كما حدث ذلك فى حرب الردة التى حسم بها سيدنا أبو بكر ، رضى الله عنه ، الامر الذى كاد يستفحل ويعود بكثير من المسلمين الى الجاهلية الاولى ، ويقصم ظهر أمة الاسلام ٠ وهى الى كونها عبادة ، تقرب العبد من ربه ، كسائر العبادات ، تكافل مع المجتمع ، وتربية للذات على التغلب على الأنانية ، وترويض لها على البذل والتضحية ، وطمأنينة للنفس بأداء الواجب ، ورضا للضمير ازاء الله ٠

وبهذا كله فالزكاة تختلف كل الاختلاف فى طبيعتها وأهدافها عما يقابلها لدى المحدثين من الضرائب ، التى كثيرا ما يتحايلون على تأديتها كاملة بحسابات مشكوك فيها دفعت الى اتهام رؤساء حكومات فى دول أوروبية كبيرة ، والى حملات صحفية على أعلى منهم لنفس السبب ، واحيانا أدت ببعضهم حتى الانسحاب الذى هو فى الواقع عزل أكثر منه استقالة ٠

2) ـ **والمورد الثانى** هو ما سماه ابن حزم « باب الحق سوى الزكاة » ٠ وقد علق على الحديث الشريف الذى رواه الامام على كرم الله وجهه من ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم » ، بما يلى : « فرض على أغنياء كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ان لم تقم الزكوات بهم » ، وافتى هو وآخرون بدية من مات جوعا بين قوم ، واعتبروه قتيلا لهم عليهم ديته ٠(1)

(1) ابن و. م. المحلى ٠

وقد روى بعض المحدثين ان الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر من اصناف المــال ، التى يعود بها من له فضل فيها على من ليس له فضل ، ما ذكر ، حتى رأى الصحابة انه لا حق لاحد فى فضل ! (أى فى الزيادة على الضرورى) ٠

وقد قال سيدنا عمر رضى الله عنه : « لو عشت لاخذت فضل أموال الاغنياء فرددتها على الفقراء ٠ ليس أحد أحق فى هذا المال من أحد ، وسالحق أواخر الناس بأوائلها ... »

ومن هنا يتضح ان لولى الامر العادل ان يتدخل لمنـــع الظلم والاجحاف ، ولتحقيق العدالة والانصاف ، بالعدالة الاقتصادية ، وبالتالى الاجتماعية ، فى الامة ، عندما تكون هناك فجوات فى وسطها ، ويكون هناك بذخ وثراء يقابلهما فقر وادقاع ٠

3) ـ **والوسيلة الاساسية الثالثة** لتحقيق العدالة الاجتماعية هى ملكية الامة ، وذلك بنزع الملكية الكبيرة عموما ، فى حالة وجودها ، لتعود للدولة ، اذا اقتضت مصلحـــة الامة انتزاعها ، وبمنع نشوئها ابتداء ، اذا كان فى ذلك احتكار لها ومضارة للضعفاء ، وهو ما يحدث عموما ٠

ومقصد الشريعة من هذا ، وهى التى تحترم أساسا الملكية الفردية ، وتحميها ، هو **تحقيق العدل** بمنع تكدس الثروات فى أيد قليلة من الاغنياء يعيشون فى البذخ والترف ويكون المال دولة بينهم ، أى يتداول ويدور بينهم فقط ، أمام أغلبية من فقراء يرزحون تحت الجوع ، والعرى ، والغطرسة ، مكونين بذلك جيش سخط ، وعامل تهديد وعـــدم استقرار للامة ، بل ووسيلة ضعف ومعول هدم لها ، والله يأمرها بأن تكون قـــوية ، مزدهرة ٠ ثم ان الاسلام يكره ان يكون هناك فقراء ٠٠٠ ورسوله استعاذ بالله من الفقر ، فقال : « أعوذ بالله من الفقر والكفر » ، كما قال : « كاد الفقر أن يكون كفرا » ٠

فقد « حمى » الرسول صلى الله عليه وسلم ارضا بالمدينة يقال لها « النقيع » لترعى فيها خيول المسلمين ، أى جعلها ملكية للأمة كلها (1) ، كما « حمى » عمر أيضا أرضـا بالربذة لنفس الغرض ، ولما جاء أهلها يقولون : « يا أمير المؤمنين» انها بلادنا ، قاتلنـا عليها فى الجاهلية ، وأسلمنا عليها فى الاسلام ، علام تحميها ؟ فاطرق عمر ثم قــال :

(1) أورده د. مصطفى السباعى (ص 10) فى كتابه (اشتراكية الاسلام) ٠

« المال مال الله ، والعباد عباد الله ، ولولا ما أحمل عليه فى سبيل الله ما حميت من الارض شبرا فى شبر » (1) .

ومعنى الحمى هنا هو اقتطاع مساحة من الارض كانت ملكا خاصا لجعلها ملكا للجماعة، أى للامة ، فى أشخاص المحتاجين الى ذلك من أفرادها .

ويتضح ذلك بدون جدال فى وصية عمر لعامله على حمى الربذة اذ قال له ما معناه : « استعمال هذه الارض مخصص للمحتاجين » ، وأضاف بصيغته ، كما توردها كتب التاريخ ، ما يلى : « ودعنى من أنعام ابن عفان وأنعام ابن عوف ، — وقد كانا من الاغنياء — فانهما ان هلكت ماشيتهما رجعا الى نخل وزرع ، وان هذا المسكين — أى الفقير — ان هلكت ماشيته جاءنى ببنيه يصرخ : يا أمير المؤمنين ! (أى له ان يطلب معونة الدولة لان له حقا فى بيت المال حين يفتقر) أفتاركهم أنا ، لا أبا لك ؟ الكلأ أيسر على من الذهب والورق — أى الفضة — . وانها لارضهم ، قاتلوا عليها فى الجاهلية وأسلموا عليها فى الاسلام، — وانهم ليرون انى ظلمتهم » (2) ويضيف انه انما فعل ذلك فى سبيل الله ! (3)

وما فعله عمر هنا تطبيق للحديث الشريف : « الناس شركاء فى ثلاث ، الماء ، والكلإ ، والنار » ، وطبقا للقاعدة المعروفة : « يتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى » .

وشبيه بهذا ما حدث فى عهد عمر أيضا ، عندما رفض توزيع أراضى سواد العراق والشام على الافراد ، بل أبقاها ملكا للامة ، وقال قولته المشهورة : « لو قسمت الارضون لم يبق لمن بعدكم شىء ، فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الارض قد قسمت ، وورثت عن الآباء ، وحيزت ؟ ما هذا برأى ! وما يكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق » ؟ (4)

ويروى ان معاذ بن جبل ، الذى وافقه على ذلك مع جماعة من الصحابة ، منهم الامام على ، قال له : « انك ان قسمتها صار الريع العظيم فى ايدى هؤلاء القوم ، ثم يبيدون فيصير ذلك الى الرجل الواحد أو المرأة » (5) .

---

(1) د. م. سباعى : « اشتراكية الاسلام » .
(2) و (3) نفس المرجع عن المغنى لابن قدامه .
(4) و (5) نفس المرجع ص 102 ، عن الاموال لابى عبيد بن القاسم .

فعوض ان يقسم هذه الاراضى الواسعة الشاسعة على جماعة محدودة العدد من الصحابة، بحيث تصبح ملكية كبيرة ، رأى سيدنا عمر وصحابة معه ، كما يقول الأوزاعى ، اقرار العدد الكبير من الفلاحين ، أهل القرى ، فى قراهم على ما كان بأيديهم يعمرونها ويدفعون خراجها ، ويرون أنه لا يصح لاحد من المسلمين شراء هذه الاراضى طوعا ولا كرها ، لما كان اتفاقهم انها لاتباع ولا تورث » (1) ·

ويقول المرحوم الشيخ أبو زهرة فى ذلك : « ونرى عمر يبنى رأيه على ثلاثة أمور مصلحية :

1) **منع الملكية الكبيرة** ، اذ أن أراضى العراق (والشام) تعد بألوف الألوف من الافدنة ستقسم على عشرات الالوف من الناس ، وبذلك يكون احتكار للاراضى الزراعية ·

2) ان خراج هذه الاراضى ، اذا منعت قسمتها ، يكون لصالح الدولة والجهاد فى سبيل الله ·

3) انها لو قسمت ما كان مال ينفق منه على الضعفاء من اليتامى ، والارامل ، والمساكين ، ونراه أقام الرأى على المصلحة ، وكان له ان يحتج بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم » (2) ·

واذا منع الاسلام الملكية الكبيرة للافراد فى صالح المجتمع ، كما رأينا فى المثلين الاولين ، ومنع نشوءها ابتداء فى الحالة الثالثة ، بعد أن أصبحت فى حيازة الدولة ، بمنع توزيعها ، فهو يمنع أيضا نشوؤها ابتداء من مال الافراد اذا كان فى ذلك احتكار لها ، وبالتالى تكدس للثروة ، وملكية كبيرة ، كما يوضح ذلك الشيخ أبو زهرة اذ يقول حرفيا :

« وان الاحاديث كثيرة فى ان الاحتكار حرام ، مهما تكن الاصناف التى تكون موضوع الاحتكار ، ما دام حبسها يضر بالناس ، سواء أكانت ثيابا ، أم طعاما ، أم غيرهما ؛

(1) نفس المرجع ص 107 عن المغنى لابن قدامه ·
(2) فى المجتمع الاسلامى ، ص 36 ·

« وبذلك يعد من الاحتكـــار ان يضيق على الصغـار امتـــلاك الاراضى الزراعية ، والاختصاص فيها ، بأن يكون هناك ملاك كبار لهم الاراضى الواسعة الكثيرة ، وكلمـــا ظهرت الاراضى استولوا عليها بطريق الشراء ، فلا يستطيع صغار الزراعين ان يغالبوهم فى شرائها ، فيكون على ولى الامر التدخل » (1) ·

هذا والشيخ أبو زهرة رحمه الله معروف بمواقفه الصلبة فيما كان يراه الحق ، ولم تسجل عليه ممالأة الحكام ، ولا التقلب حسب اهواء انظمة الحكم ، ولذا فلا يمكن ان يقال انه كتب هذا فى ظروف معينة ، وتحت ضغط معين ، وهو الذى صمد على مواقفه وعانى فى ذلك بعض الشىء ، وظل هو هو الى ان مات ، على الاقل فيما نعلم ، والله أعلم ·

حضرات الســـادة ،

هذه لمحة عن مفهوم العدالة الاجتماعية فى الاسلام ، نصا ، وروحا ، ومقاصد ، وتطبيقا فى العهود الزاهرة للاسلام ، وعن مضمون العدالة الاقتصادية التى عليها تقوم ، اذ الاولى مشروطة بالثانية التى تمـدها بالوسائل التى تعطـى مفهومها مضمونا ، وان سمحتم باستعمال تعبير لفيلسوف أوروبى ، هو ايمانويل كنط الذى قال :

« ان الادراك يتكون من عنصرين متكاملين : المفاهيم والاحساسات ، فالمفاهيم بدون الاحساسات فارغة ، لا مضمون لها ولا محتوى ، والاحساسات بـــدون المفاهيم عميـاء لا مغزى لها ولا مـدلول » (2) قلت ان العـــدالة الاجتماعية مفهـــوم ، والاقتصادية مضمونها ، ومحتواها ، وشرط تطبيقها ·

وكيف يكون الامر غير ذلك فى الاسلام وهو الذى يؤكد ان حق الفرد مقيد بحـــق الجماعة ، ويقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ومصلحة الامة على مصلحة الفرد ، وكل ذلك بدون ان يخنق الفرد ، ويغمطه حقوقه ، ويذيبه فى المجتمع !

كيف يكون الامر غير ذلك وهو دين ودولة ، ونظام اجتماعى كامل ، أى ، كما يقول الشهيد سيد قطب ، هو « النظام فى الاصطلاحات الحديثة ، مـــع شمـول فى المدلول

(1) نفس المرجع ص 62 ·

(2) كنط : مقدمة الطبعة الاولى لنقد العقل المجرد :

« Die Begriffe ohne Empfindungen sind leer ; die Empfindungen ohne Begriffe, blind ».

للعقيده فى الضمير ، والخلق فى السلوك ، والشريعة فى المجتمع » (1) « فكلها داخلة فى مفهوم الدين فى الاسلام » (2) ·

لقد كانت هذه العدالة الاجتماعية ، المتكاملة مع الاقتصادية ، التي تسهر الدولة على تطبيقها ، والمعززة بشبكة من أعمال خيرية شعبية متواصلة ، تشبه بساطا لا متناهيا، أو أيديا متحاذية ممدودة تحفظ كل من تزل به قدم الدهر ، وتحوجه الايام ، من ان يقع على الارض ، وكان ذلك تشريعا ، كما رأينا ، يتبعه التنفيذ · هل وجد أو يوجد اليوم شيء من هذا فى غير نظام الاسلام كما طبق بالامس ؟

بل رأينا أنه فى عهد عمر بن عبد العزيز مثلا ليس المتسولون فقط هم الذين ما كانوا يوجدون ، بل حتى من يقبلون الزكاة من الفقراء والمساكين كثيرا ما كان لا يرى لهم أثر ، مع العلم ان المسكين هو من ليس له قوت يومه ، والفقير من ليس له قوت عامه ·

وقد قال عامله على افريقيا مرة : «كنا نطوف بالزكاة على الناس لعلنا نجد من يقبلها» !

هل هناك من عدالة اجتماعية مزدهرة اكثر من هذه ؟ سموها كما شئتم ، المهم ان ينتفى بها الطغيان ، والاستغلال ، والإذلال ، وتكون شاملة ، وان تكون فيها كرامة الجميع موفورة ، والقيم الروحية مصونة ، والحريات مضمونة ، ودين الله قائما !

سموها العدالة الاجتماعية ، مع الشهيد سيد قطب (3) ، سموها التكافل الاجتماعى ، مع الشيخ أبى زهرة (4) ، أو سموها الاشتراكية مع الدكتور محمد المبارك اذ يكتب ما يلى :

« فالقول ان ليس فى الاسلام اشتراكية ينطوى على جهل بحقيقة الاشتراكية ، وعلى قصور فى فهم الاسلام ، وتعاليمه ، واهدافه ، وبعد عن معرفة احكامه المتعلقة بهذا الموضوع » (5) ، أو سموها اشتراكية الاسلام مع د. مصطفى السباعى (6) أو

---

(1) و (2) و (3) سيد قطب ـ العدالة الاجتماعية فى الاسلام ·
(4) أبو زهرة : المجتمع الاسلامى ·
(5) د. محمد المبارك : آراء ابن تيمية فى الدولة ومدى تدخلها فى المجال الاقتصادى ·
(6) د. مصطفى السباعى : اشتراكية الاسلام ·

سموها الاشتراكية الاسلامية مع الشهيد حسن البنا (1) ، أو بأى اسم آخر قد يبتدع ، اذا كان لنفس المدلول ، ولابد له من مدلول ، والا فهو مجرد شعار !

فالعبرة ليست بالاسماء ، والصيغ ، والشعارات ، وانما بالمضمون ، والمحتوى . فلتكن هذه العدالة الاجتماعية كما ذكرنا عنها منذ حين فى العهود الزاهرة للاسلام ، مع ضرورة اعتبار ما يستجد باعتبار مصلحة الجماعة ، أى الامة ، فى الدرجة الاولى ، بدون خنق الفرد ، وبالاستفادة من تجارب الامم ، صالحها وفاسدها ، بالاجتهاد واستعمال قواعد الاستصلاح والاستحسان ، ولتأخذ بعد ذلك هذه العدالة الاجتماعية ما تشاء من الاسماء ، بل وحتى ذلك الاسم نفسه الذى يقبل عليه كثير من شباب اليوم ، وهو الاشتراكية ، اذا اطلق عليها بالمعنى الذى ذكرناه ، فلن يكون فى مبناه ومعناه الشراك ، والشرك ، والإشراك ، بل سيفيد الاشتراك ، من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « الناس شركاء ... » .

ألا نرى اليوم من حين لآخر فى عواصم العالم المتقدم ، من الغرب والشرق ، أى خارج العالم الاسلامى ، متسولين حقيقيين ومن فى حكمهم ؟ بل ألم نقرأ منذ أسابيع فقط ، فى صحف غربية ، عن أناس ماتوا جوعا ، أو بردا ، أو من كليهما ، كما حدث ذلك أخيرا فى فرنسا مثلا وفى الولايات المتحدة الامريكية ؟

وفى هذه الاخيرة مات جنين فى بطن أمه لانها ظلت أياما بدون ان تذوق طعم الخبز ، كما روت ذلك جريدة لوموند الفرنسية أخيرا فى سلسلة من مقالات عن حالات الفقر فى بعض جهات الولايات المتحدة ، أغنى دولة فى الارض اليوم وأكثرها تقدما !

والعبرة ليست بعدد هذه الحالات ، وهى كثيرة جدا نسبيا حسب الجريدة ، ولكن بحدوثها فى ذاته !

ولكن هل معنى هذا ان الوضع فى عالم الاسلام اليوم أحسن مما هو فى أوروبا وأمريكا ؟ الجواب هو ، مع الاسف الشديد ، أننا لانستطيع الا أن نقول انه أسوء بكثير وبلا أية مقارنة !

(1) حسن البنا : فى مقدمته للكتاب : « أبو ذر الغفارى ، الاشتراكى الزاهد » لعبد الحميد جودت السحار ، (ط ٠ 4) ٠

فالوضع فى العالم الاسلامى وحتى فى الاغلب من أغنى جهاته حاليا ، بل وربما فى بعض هذه أكثر من غيرها ، هو ان حالات الفقر المدقع ، فى مقابلة البذخ المسرف ، وما تؤدى اليه من كوارث ، ربما ليست حالات فردية ، تذكرها الصحف بالاستغراب ، كما فى أوروبا والولايات المتحدة ٠

ان الهوة بين العدالة الاجتماعية ، كما شرعها الاسلام ، وحال المسلمين اليوم ، لسحيقة ، والحفرة بينهما لعميقة !

ابن قيم الجوزية كان يقول : « أينما كان العدل فثم شرع الله ! » (1) ، والشهيد سيد قطب كتب : « ان الناس فى هذا العالم الذى يطلق عليه اسم « العالم الاسلامى » تنظر فترى واقعا اجتماعيا لا يسر ، وتبصر فتشهد أوضاعا اجتماعية لا تحقق العدالة ! » (2) ٠ وينضم اليه الدكتور محمد فاروق النبهان ، الاستاذ بكلية الحقوق والشريعة فى الكويت، ليصف الحالة فى بدء محاضرته فى الملتقى التاسع للفكر الاسلامى، الذى انعقد صيف هذا العام فى تلمسان بالجزائر ، معبرا عن هذا كله فى كلمات فيقول : « ويجب أن نعترف فى البداية ان واقع الشعوب الاسلامية اليوم واقع قاتم شاحب ، بعيد عن عدالة الاسلام وروحه ، وان الظلم الاجتماعى اليوم ليفرض نفسه علينا بشكل مغاير لكل القيم الدينية والانسانية » !

وأود أن أختم بالتعبير عن تخوفى ، بدورى ، وأقول ان المسلمين ، اذا استمر انعدام هذه العدالة الاجتماعية بينهم ، وفصلوا المسجد عن المزرع ، والمصلى عن المتجر والمصنع ، وكانوا بذلك يراءون ويمنعون الماعون ، فويل لهم ثم ويل فى هذه الدنيا قبل الآخرة ، حتى اذا لم يكونوا من الذين هم عن صلاتهم ساهون !

اذ لن تنفعهم فى ذلك صلاة ولا صيام ، كما كتب أخيرا الامام الاكبر الدكتور عبد الحليم محمود عن أهل الردة الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة ، وقد رأينا ان هناك

---

(1) ابن قيم الجوزية فى : أعلام الموقعين عن رب العالمين ٠ ذكره د. صبحى الصالح فى الملتقى التاسع للفكر الاسلامى فى تلمسان بالجزائر ٠

(2) العدالة الاجتماعية ، ص 2 ٠

أيضا ما سوى الزكاة، كما كتب ابن حزم الظاهرى. وكما قاله قبله بقرون وفعله الرسول صلى الله عليه وسلم وسيدنا عمر رضى الله عنه ·

هدانا الله ، ووقى أمة الاسلام سوء الخاتمة ، ووفقها ، وهى أمة الرسالة الى سائر البشر ، لخيرها وصالح الانسانية كلها ·

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

بـــــــلاغ

حـــول الملتقى العاشر للفكـــر الاســـلامى

تعلن وزارة التعليم الأصلى والشؤون الدينية أن الملتقى العاشر للفكـــر الاســـلامى سينعقد من الثانى عشر الى الواحد والعشرين من رجب 1396 هـ (العاشر الى التاسع عشر يوليو 1976 م) فى عنابة .

وهو لطلاب الجامعات وتلاميذ السنتين النهائيتين من الثانوى ، وسيسمح لغير الطلبة ممن هم فى المستوى المذكور بالمشاركة فى حدود الامكان .

وقد دعيت الى الملتقى شخصيات جامعية ورجال بحث من الجزائر وغيرها .

وتتحمل الوزارة ، فى اطار الملتقى ، نفقات الاقامة والتنقل داخل التراب الوطنى .

ويطلب من المشاركين اسهام رمزى قدره خمسون دينارا جزائريا ، ويعفى منـــه الطلبة الآتون من خارج الجزائر ، جزائريين كانوا أو غيرهم ، والساكنون فى عنابة .

وترسل طلبات المشاركة الى ادارة البحوث الاسلامية والملتقيات ، نيابة الملتقيات ، وزارة التعليم الأصلى والشؤون الدينية ، 4 نهج تيمقاد ، حيدرة ، الجزائر ، مع ذكـــر كلمة « الملتقى » على زاوية الغلاف .

وعلى كل مترشح أن يبعث مع طلبه شهادتين : دراسية وطبية ، وظرفا (ذا مقياس 16×21) يحمل عنوانه وطابع بريد .

وآخر أجل لقبول طلبات المشاركة هو الثلاثون من ربيع الثانى 1396 هـ (الثلاثون من أبريل 1976 م) عند الارسال ، ويكون ختم البريد شاهدا على ذلك .

هذا وسيكون جدول الاعمال كالآتى :

1) ازدهار الحضارة والفكر الاسلاميين فى الغرب الاسلامى ، وخاصة فى بلـــدان المغرب ، وابريا ، وصقلية ، ودورهما فى النهضة الاوروبية .

2) ضرورة التصنيع فى العالم الاسلامى ووجوب اختيار أحســـن الطرق لتجنب امراض المجتمعات الصناعية .

3) الابعاد الروحية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية للعبـادات واهميتها لكل من الأمة والفرد .

ماضي وادي الذهب والساقية الحمراء وحاضرهما

المهدى البوعبدلى
عضو المجلس الاسلامى الاعلى
بالجزائر



ان هذه الناحية لها مكانة ممتازة فى تاريخ افريقية حيث لعبت أدوارا في التاريخ الحضارى والاقتصادى والثقافي بفضل موقعها ، اذ وصلت أوج العظمة والقوة لما استولت على مناجم الذهب الذى اشتهر بجودته ، حتى انه كان يفضل جميع أنواع الذهب المعروفة فى بلاد العالم ، وذلك ابتداء من القرن الثالث الهجرى ، كما كان لهذه المنطقة صلة بالحضارة من قديم الزمان • أى من العهد الحجرى ، اذ عثر فيها على عدة صور شبيهة بصور طاسيلى ، وأدوات فلاحية ، وأسلحة حجرية ، وفى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد احتلتها قبائل صنهاجة ، وأجلوا سكانها الاصليين الذين كانوا ينتمون الى الحراطين والسود ، كانّ اتصال هذه الناحية وثيقا بجيرانهم سكان غانة والسودان فكانوا تارة يتبادلون معهم التجارة ، وتارة يتحاربون وقد تكونت فى هذه الناحية عدة امارات ، من بينها امارات أدرار (1) ، والبراكنة ، وقانت ، وكونته ، والحوض ، والترارزة ، وقد وصلها الاسلام مع كتائب عقبة بن نافع الفهرى فى ولايته الثانية حوالى سنة 62 هـ •

(1) المقصود هنا بأدرار الموريطانية الحالية •

بعدما انتهت من غزو المناطق الشمالية ، واشتهرت هذه الناحية ابتداء من القرن الثانى الهجرى بالغنى والرفاهية الى اواخر القرن السادس وكان سكانها ينتمون الى قبائل لمتونة وقدالة ومسوفة الصنهاجيين ، وقد عرف هذه الناحية المؤرخ الفرنسى هنرى تراس (I) فى تأليفه تاريخ المغرب (الذى كان يدرس فى الثانويات بالمغرب) عندما تعرض لتاريخ دولة المرابطين فقال : « وقد عرف الصنهاجيون بعد الفتوحات الاسلامية بالملثمين وكانوا متفرقين من غدامس الى المحيط الاطلنطى ، ومن جنوب المغرب الى السينغال والنيجر ، وفى القرن التاسع الميلادى كانت جموعهم تشمل لمتونة ومسوفة ، وكانوا يجوبون الصحراء وحينئذ اتخذوا اوداغوست قاعدة حكمهم ، وقد نظموا التجارة بواسطة القوافل التى كانت تصل الى تخوم صحراء مصر » الخ ··· اهـ

وعرفهم المؤرخ ابوراس الناصرى الراشدى فى كتابه « عجائب الاسفار ولطائف الاخبار » فقال فى تعرضه لقبائل صنهاجة : « ··· الفرقة الثانية من صنهاجة لمتونة ، وهم الملثمون ، مساكنهم بين البرابرة والسودان ، قوتهم البان الانعام ولحومها ، وتميزوا باللثام من بين الامم ، وهم بطون ، ومساكنهم ما بين البحر المحيط بالمغرب ، الى قبلة برقة ، وهم الذين يقال لهم التوارك ··· وكان دينهم المجوسة ثم اسلموا بعد فتح الاندلس ، وكان يتلوثان من ملوكهم يركب في مائة ألف نجيب، ويؤدى له الجزية عشرون ملكا من السودان» اهـ

وقد عرف البكرى فى كتابه المسالك والممالك عاصمة صنهاجة :اوداغست فقال : « وهى مدينة كبيرة ··· بها جامع ومساجد كثيرة فى جميعها المعلمون للقرآن وحولها بساتين ··· ثم وصف سكانها فقال : « وهم ارباب نعم جزيلة واموال جليلة ، وسوقها عامر الدهر كله ، لا يسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه ، وضوضاء أهله ، وتبايعهم بالتبر ، وليست عندهم فضة ، وبها مبان حسنة ، ومنازل رفيعة ، وهو بلد الوان أهله مصفرة ، وامراضهم الحميات والطحال ، لا يكاد يخلو من احدى العلتين احد منهم ، ويجلب اليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الاسلام على بعد ··· وسكانها أهل افريقية وبرمجانة ، ونفوسة ، ولواتة، وزناتة ، ونفزاوة ، هؤلاء اكثرهم ··· ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم ، وذهب اوداغست أجود من ذهب أهل الارض وأصحه ، وكان صاحب أوداغست فى عشر خمسين وثلاثمائة تين يروتان ابن ويسنو بن نزار رجل من صنهاجة ، وكان قد دان له ازيد من عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدى له الجزية » · اهـ

(I) هنرى تراس كان استاذا بمعهد الرباط ثم جامعة الجزائر وهو اختصاصى فى تاريخ المغرب والاندلس وكانت له تآليف هامة فى الفن المعمارى الموحدى والاندلسى ·

وقد ذكر بعض المؤرخين ان هذه المنطقة صار يطلق عليها بعد فتوحات الملـــك يوسف ابن تاشفين لبلاد المغرب والاندلس : سوس الاقصى وقسموا بلاد سوس (2) حينئذ الى ثلاث مناطق :

1 ـ سوس الادنى وقاعدته تارودانت ·

2 ـ سوس الاوسط وقاعدته تيزنيت ·

3 ـ سوس الاقصى ويشمل وادى نون ودرعة والساقية الحمراء ·

هذه لمحة من تاريخ هذه المنطقة التى كانت قبل انتفاضة المرابطين ، تنقسم الى عـدة امارات مستقلة ، تعيش مع جيرانها من سكان غانة والسودان ما بين حالات سلم وحـرب ، وابتداء من ظهور دولة المرابطين التى اكتسحت بلاد المغرب أمراء سجلماسة ، وبنى يفرن ، وفى ذلك قال ابوراس الناصرى فى الفصل الذى عقده لتاريخ دولة المرابطين فى تأليفـه « عجائب الاسفار ولطائف الاخبار » فقال : ومن اشهر ملوكهم يوسف بن تاشفين ، فأول حروبهم ـ أى لمتونة ـ معمسعود ملك مغراوة واسقطوا المغارموالمكوس، ونشروا العدل الذى لم يكن بعده مثله آخر الدهر ، وكانوا يشاورون العلامة وايجابى اللمطى تلميذ ابى عمران الفاسى ، ويقفون عند أمره ونهيه ، وكان من اعيان الاولياء ، فهلك يحيى بن عمر منهـم سنة سبع واربعين ، وقدم أخوه ابو بكر لفتح السوس وماسة وتارودانت واغمات ، وهـرب أميرها لقوط المغراوى ، ثم استباحوا تادلا ، وقتلوا بنى يفرن ملوكها ، وقتلوا برغواطة أهل تامسنا ، وكانوا اشد كفرا فى حروبهم ، استشهد شيخهم عبد الله بن ياسين تلميـــذ وايجابى سنة خمسين ، فاستمالوا برغواطة وأخذ عقليتهم زينب ، ثم ارتحل ابو بكـــر الى الصحراء ، واستعمل ابن عمه يوسف بن تاشفين ودعا لبنى العباس ، وقد نزل له عن زينب، لما كرهت أرض الصحراء وجاهد ابو بكر فى السودان حتى استولى على تسعين مرحلة مــن بلادهم ، ثم ان يوسف دوخ أرض المغرب ، وقطع ملك عطية (3) من فاس بعدما قتل منهم ثلاثة آلاف وأزيد ، وقطع ملك بنى الخير من وهران وقطع بنى وانود مـــن صفرو وكلهم مغراوة » اهـ تبين من هذا ان هذه القبائل من صنهاجة الصحراوية كانت تقاسم بنى عمومتها من صنهاجة الشمال العداوة التى يكنونها لزناتة ·

---

(3) عطية المغراوى هو مؤسس مدينة وجدة كان من بقايا امراء مغراوة الذين قضـى على دولتهم بلقين بن زيرى سنة 360 هـ والتجأوا الى مـــلك الاندلس فاقطع لهم اقطاعات بالمغرب هم وابناء عمومتهم من بنى يعلى اليفرنى ·

ولنرجع الى الحديث عن تاريخ هذه المنطقة التى اجمع المؤرخون والرحالون ، انهـــا كانت فى فترات تاريخها الاول مشهورة بالغنى والازدهار ، ومن ذلك ما تقدم لنا من وصف البكرى لامارة اوداغست حيث قال : « وهم أرباب نعم جزيلة واموال جليلة ، وسوقها عامر الدهر كله ، لا يسمع الرجل جليسه ، لكثرة جمعه ، وضوضاء أهلـه وتبايعهـــم بالتبر ، وليست عندهم فضة » • الخ •

وهذا الوصف متمم وموضح لما وصف به الرحالون ومنهم البكرى ، قلعة بنى حماد ، عاصمة صنهاجة بالجزائر ، بعد سقوط القيروان ، حيث قال : « وهى قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة ، وتمصرت عند خراب القيروان انتقل اليها اكثر أهل افريقيا ، وهى اليوم مقصد التجار ، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب ، وهى اليوم مستقر مملكة صنهاجية » • اهـ

وقد بلغت « قلعة بنى حماد » هذه المكانة فى الميدان الاقتصادى لان قوافلها كانـــت تجوب الصحراء ، مركز تجارة الذهب ، ويرى كثير من المؤرخين الاروبيين (4) ان محـــور الاقتصاد الاروبى فقدته أوروبا بعد سقوط روما ، وتلاه فــراغ الى ان فتـــح المسلمون فتوحاتهم ، فخلف المسلمون الاوروبيين ، وكانت افريقية تسيطر على اقتصاد افريقيا وجزء من آسيا بسبب اكتشافها لمنطقة الذهب وتذليل الطرق للقوافل التى كانت ترد عليها كما قال البكرى « العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب » •

وقد نشر السيد احمدو محمدو دراسة قيمة عن تاريخ امارة ادرار التى كانت تشمل منطقة الساقية الحمراء ، نشرها بمجلة الجغرافية والآثار التى كانت تصدر بوهـــران فى عددها 53 بتاريخ مارس 1932 ، وعنوان المقال (امارة ادرار من 1872 الى 1908) • (5)

قال فيه : بين وادى نون وسانلود وبين ولاته والشاطىء الاطلنطى ، توجد ادرار التى كانت الحد الواصل بين المراكز التجارية للصحراء الغربية ، وبفضل ما حبتها الطبيعة من الخصب والمراعى والجبال ، اشتهرت ادرار هذه التى كانت تابعة لبلاد ما يسمى فى عـــرف المغرب الى الآن ببلاد السيبة ، أى الجهة التى لا تنالها الاحكام السلطانية لتمرد أهلها المتواصل ضد الحكومات المركزية ، كانت القبائل التى تحكم هذه الامارة تنحدر من يحيى بن عثمان ويسمون بالجعافرية ، وكان يحيى بن عثمان هذا من أهل القرن السابع عشر ، وقبائل غيلان

(4) منهم صاحب كتاب « الاسلام فى عظمته الاولى » لومبار Lombard ظهر هذا الكتاب منذ سبـــع سنوات •

(5) ادرار هذه غير ادرار الولاية الجزائرية المشهورة •

المنحدرة من أخ يحيى المذكور ، المسمى بغيلان بن عثمان والعويسيات بتاقنت ، توارث الجعافرية وهؤلاء حكموا هذه الناحية مدة قرنين ، وكانت الحروب بينهم وبين الترارزة تارة بينهم وبين أولاد دليم ثم أولاد سالم ، القبيلتين العربيتين اللتين انتقلتا الى زمور ، بعد مفارقتهما للساقية الحمراء ودرعة اثر حروبهم مع الرقيبات » • اهـ

ان انتفاضة المرابطين اللمتونيين هى التى كان لها الاثر المحمود من حيث تهذيب اخلاق ، وجمع كلمة سكان هذه المنطقة ، ونشر تعاليم الدين الصحيح ، وهى انتفاضة لنشر تعاليم الاسلام ، أكثر منها انتفاضة للاستيلاء على البلاد واستعباد أهلها ، خصوصا وانه فى عهدهم وان أدركت البلاد كما قدمنا أوج الرفعة والازدهار الا أن أخلاق سكانها كانت لا زالت على شراستها ، فهم دائما فى نزاع واحد بينهم وقد يظهر لنا مصداق ذلك عندما نطلع على ما وصفها به ابن حوقل فى رحلته التى ابتدأها سنة 331 هـ • وختمها سنة 359 هـ وسماها « المسالك والممالك والمفاوز والمهالك » قال فى تعريفه ببلاد سوس : « وأهل السوس فرقتان ، احداهما فرقة موسويون يقطعون على موسى بن جعفر والغالب عليهم الجفاء وغلظ الطبع ، والفرقة الثانية ، سنية ، مالكية حشوية ، وبينهم القتال المتصل ليلا ونهارا ، والدماء الدائمة ، ولهم مسجد يصلى فيه الفريقان فرادى عشر صلوات اذا صلوا هؤلاء أتوا هؤلاء يعشر اذانات وعشر اقامات ، والمالكيون منهم فوق الشيعة فى الفظاظة ، وغلظ الطبع وجباسة الاخلاق وبقدر ما لهم من مواد لذة العيش يتغالون فى الجهل والطيش • وقد ألح الروم فى وقتنا هذا على المسلمين الذين على سواحل بحر الروم يعنى البحر الابيض المتوسط بالغارات واختطاف مراكبهم من كل جهة ولا غياث لهم ولا ناصر ، والملك فيهم حقير ذليل وهو جامع مانع ، والعالم يسرق ولا يشبع ، ويفتى بالتأويل على ما يختار ، ولا يخاف معادا ولا مرجعا ، والتاجر فاجر ، لا يعاف ، وبكل ربح يلقع ، فالثغور والجزائر الى الاعداء مسلمة ، والارض الى الله من أربابها متظلمة (6) الخ » • اهـ

كانت هذه وضعية وادى نون والساقية الحمراء بداية من الفتوحات الاسلامية ، وهذا دليل على انها كانت فى أول عهدها سكنها قبائل صنهاجة لمتونة ومسوفة ، وكانت مجموعة امارات تربطها العلائق التجارية مع بعضها ، ومع جيرانها ، كغانة والنيجر والسودان ، وبعد انتفاضة المرابطين اللمتونيين ، التى كانت انتفاضة دينية مشهورة ، متفق عليها ، لها برامج ، ودستور ، يعزز أحكام الشريعة الاسلامية •

---

(6) يستدل كثير من الباحثين على ان الاسلام بهذه الناحية لم يتغلغل فى النفوس الا بعد ظهور دولة المرابطين اللمتونيين أى اوائل القرن الخامس •

اتصلت هذه الناحية ببلاد المغرب الاقصى ، فى وقت كان سكانـه يجهلـون الحـدود والقوميات ، وانما كان كل السكان ينضوون تحت العالم الاسلامى فى المغرب العربى كان يحكمه أمراء مغراوة وبنى يفرن وبنى رستم والدولة الاغلبية ممثلة الخلافة العباسيـة ، وعندما ظهرت دولة الشيعة ، اكتسحت البلاد ، وقضت على جميع الدول التى كانت تحكم بلاد المغرب العربى اللهم الا بلاد المغرب الاقصى ، التى كان يحكمها (7) ملوك الاندلس الامويون، وبعد قضاء دولة الفاطميين على هذه الدول بواسطة قائدها بلقين بن زيرى هاجر بقايا أمراء دولتى مغراوة وبنى يفرن الى المغرب حيث اقطع لهم ملك الاندلس ، المغرب الاقصى ، وهاتان الدولتان الزناتيتان هما اللتان قضى عليهما يوسف بن تاشفين اللمتونى ، وعندما لحـق بقايا زناتة بالجزائر ، وتداخل فى الخلاف بين أحفاد بلقين أى ملك بنى زيرى بالمهديـة وبنى حماد بالقلعة حاربه بلقين الثانى حفيد بلقين الاول ووصل فى مسيرته الى فاس واحتلها وأعاد الكرة لمحاربة يوسف بن تاشفين ملك بجاية المنصور الحمادى ، الذى تتبعه الى تلمسان حيث هزمه فى عدة معارك ، واحتل مدينة تلمسان وأباح (8) المدينة لجيشه الى أن تقدمت اليه زوج والى تلمسان اللمتونى واستشفعت له ... صر القربى الصنهاجية فاستجاب لها وأعطى الاوامر لجيشه بالانسحاب من تلمسان وبعد سقوط دولة المرابطين على يد عبد المؤمن بن على خليفة المهدى بن تومرت وتكوينه لاعظم مملكة ، لم تكن فى عهده ولا عهد أبنائه وعماله من بعده ، نظرية الوطنية الضيقة الجدود ، اذ عبد المؤمن جزائرى الولادة والنشأة ، ولـم تطأ قدماه المغرب الا بعد دخوله مع أستاذه المهدى بن تومرت ، وبعد موت أستاذه خلفـه (رغم وجود كثير من أفراد عشيرة المهدى بن تومرت تتوفر فيهم جميع شروط القيـادة) عبد المؤمن ولم يأنف قوم بن تومرت من مبايعته ، اللهم الا بعض الشواذ الذين لم يخل منهم زمان ولا مكان وعلى هذه الطريقة سارت دولة الموحدين اذ لما تكونت دولة بنى حفص وحكمت الجمهورية التونسية الحالية والقطاع الشرقى من الجزائر (بجاية وقسنطينة) لم يرد فى خلد سكان البلدين التعرض لملوك بنى حفص بدعوى أنهم مغاربة ولا ينتمون الى الجزائـر أو تونس بصلة ، واذا وجدنا فيما بعد خلافات بين ولاة الموحدين الذين استقل كل منهـم

---

(7) سبق ملوك الاندلس الادارسة أن حكم الادارسة كان دينيا محضا ولهذا لم يحاربه الامويون بالاندلس بل اذنوا لشبه عمالهم كبنى خزر بالجزائر ان يسهلوا استيلاءهم عـلى تلمسان وما جاورها .

(8) ان بلقين الثانى حارب يوسف ابن تاشفين لما اقتحم حرم البلاد وتتبع زناتة امـا المنصور الذى حارب نفس يوسف فات خلاف الذى كان بين بنى حماد وبنى زيرى واستنجد بنو زيرى بابن تاشفين عندما هاجمهم روجار ملك صقلية .

بمقر ولايته كبني مرين بالمغرب ، وبني زيان بالجزائر ، وبني حفص بتونس ، فمرجع ذلك الى تنافس داخلى فى اطار المذهب الموحدى ، اذ كل منهم كان يرى انه احق بوراثة الفكرة الموحدية وتمثيلها ولنرجع الى الحديث عن ماضى منطقة الساقية الحمراء ووادى الذهب فنجد ان هذه المنطقة تغيرت نوعا ما فى عهد الدولة المرينية وذلك بظهور قبائل عربية، ولنترك الكلمة للباحث المتخصص فى دراسات المدنيات الصحراوية الرائد روبير منطانى : (Ct Robert Montagne) فى تأليفه « حضارة الصحراء » (La civilisation du désert) (طبع هاشيت 1944) قال : « فى القرن الثالث عشر (م٠) ظهر عرب المعقل بسوس فى نواحى درعة كانت تلك النواحى مسكنا لصنهاجة اقارب التوارق وكانوا لا زالوا يحتفظون بمذهبهم العقائدى ــ أى مذهب المرابطين ــ وكانت قبائل صنهاجة مشهورة باصحاب اللثام وكانوا فى خلافات وحروب متواصلة مع السود من ورقلة الى غانة وولاية ، وفى عهد المرينيين دخل عرب المعقل الى هذه الناحية أى الساقية الحمراء وكان النظام الذى احدثوه شبيها بنظام الجزيرة العربية ٠٠٠ وابتداء من القرن السادس عشر كانت الساقية الحمراء مركز انطلاق للدعوة الاسلامية التى اجتاحت بلاد شمال المغرب » ثم تعرض لتاريخ استيلاء ملوك المغرب على هذه المنطقة فقال : « ان الملوك السعديين هم الذين حاولوا ضم هذه النواحى فاحتلوا سنة 1581 بلاد توات ثم اعانوا القائد جوذر سنة 1591 عند غزوه لتنبكتو ورغم امداد هذه الارسالية طوال ثلاثين سنة بنحو 25000 جندى فقد اندمجوا فى السودان ولم يخلفوا أى اثر ، اذ كانت هذه الغزوة فاشلة لم تنجر منها أية فائدة لمن قاموا بها وقد اعاد الكرة الملوك العلويون ، لكن بطرق أخرى ، حيث كانوا يعتمدون على ذوى حسن من عرب المعقل » ــ وهذه الطريقة التى كانوا يستعملونها هى التقرب الى الشعب بواسطة رؤساء الدين ــ ثم يقول : « كان فى ظاهر الامر ان المعقل هم المهيمنون على تلك النواحى ، ولكن النفوذ الحقيقى كان لصنهاجة والقبائل التابعة لها مثل التوارق ــ بنى عمومتهم ــ وقبائل الرقيبات الذين لا زالوا بوادى الذهب وكان الفضل فى هذا النفوذ الذى احتفظ به السكان الاصليون يرجع الى القيادة الروحية التى حافظوا عليها اذ كان التكوين الروحى تحت سلطتهم وكثيرا ما كانت السلطة الروحية تتغلب وتتفوق على سلطة السيف والعصبية القبلية ، ومن آثار هذا التفوق الجلية هو عندما أعلن الشيخ ماء (9) العينين الثورة فى

(9) يقصد بهذا الدعوة التى قام بها ماء العينين عندما احتلت الجنود الفرنسية سنة 1909 قطعا من الصحراء جلى اهلها الذين كانوا من اتباع ماء العينين واستنجدوا به وبايعوه على الجهاد فخرج بهم الى نيزنيت اجابة لرغبتهم وفارق الساقية والسمارة ٠

أوائل القرن العشرين مناديا بالجهاد فاستجاب لندائه كل سكان موريطانيا الزرق عــــرب وبربر وتوجهوا كلهم الى بلاد سوس المغربى ثم التحق بهم سكان جبال الاطلس الذين كانوا تابعين لرؤساء دنيويين ، والفصل الذى ختمت به هذه المسرة هـــو عندما اعلن الهيبـــة ابن الشيخ ماء العينين (المذكور) الثورة على الملك عبد العزيز العلوى الذى ثار عليه أخوه مولاى عبد الحفيظ الذى كان يمثله بمراكش وتزعم حركة الجهاد لما ساءت تصرفات اخيه الذى اثقل كاهل البلاد بديون جسيمة وفتح ابواب المغرب للمطامع الاوروبية واحتلــت معظم مواقع البلاد الحربية امكن لعبد الحفيظ ان يحصل عـلى تأييد علمــاء مراكش (10) الذين افتوا بخلع الملك عبد العزيز فعندئذ استنجد مولاى عبد الحفيظ بالشيخ الهيبة بن ماء العينين الذى جدد له البيعة قومه ، واتباع والده فنادى بالجهاد ولكنه وهو فى اثناء مسيرته الى فاس كان عبد الحفيظ حصل على تخلى اخيه عبد العزيز بعد واقعة القلعة التى هـــزم فيها جيشه وخلفه هو فابرم معاهدة الحماية التى فرضها ممثلو الدول الاوروبية الذيـــن وقعوا معاهدة الجزيرة المشهورة سنة 1906 اذ امكن لممثلى هذه الدول وفى طليعتهم فرنســا واسبانيا وايطاليا وانكلترا والمانيا امكنهم ان يتقاسموا مناطق نفوذهم داخل بلاد المغرب وخارجه وحينئذ تغيرت نظرية الملك عبد الحفيظ ومنع بواسطة واعانة الكولونيل مانجان Mangin الشيخ الهيبة من مواصلة مسيرته اثر معركة سيدى بوعثمان فى سبتمبر 1912 فلم يسع الشيخ الهيبة الا الانسحاب الى مدينة مراكش وقد برر الملك عبد الحفيظ موقفـه مع الشيخ الهيبة انه كان يخشى عليه من مكر الفرنسيين ... الا ان الرأى العام المغربى خصوصا سكان سوس وحاحة لم ينخدعوا لمزاعم الملك عبد الحفيظ بل انتصروا للشيخ الهيبة كما سنبين ذلك بما قاله المرحوم المختار (11) السوسى (وزير التاج والاوقاف بالمغرب) .

وقد بين بمزيد من التوضيح المـــؤرخ الفرنسى كورنفان Cornevin فى تأليفه : « تاريــخ افريقيا من بــدايتها الى ايامنــا هــذه » (نشــر بــاريس 1966) قــال بعد ان تعرض لاحداث استيلاء الفرنسيين على المغرب قال : « ان هذا التدخل الفرنسى خصوصــا احتلال بوذنيب كان سببا فى تجمع عصابات اللصوص بالساقية الحمراء ووادى درعة حتى

(10) نشر هذه الفتوى عبد الرحمن بن زيدان فى اتحاف اعــلام الناس بجمال حاضرة مكنـــــاس .

(11) المختار السوسى عالم مؤرخ متخصص فى تاريخ سوس ورغم ولايته للعرش العلوى كان نزيها فى كتابته موضوعيا فى بحوثه وقد خلــف كتاب المعسول فى 20 جـــزء وايليغ وغيرهما فى غاية الدقة والتفاصيل .

ان أهل ماء العينين الذين كانوا بمواشيهم فى مضيق نواحى السمارة اعلنوا الجهاد وبايعوا شيخهم ماء العينين ملكا وقد ارادوا ان يجددوا تجربــة العلويين عندما اطاحوا بالملــوك السعديين الذين تورطوا بموالاتهم للبرتغاليين ، الا ان هذه المرة كان الجنـــرال الفرنسى Moinier موانى بالمرصاد فاوقف مسيرته بتادلا فى 23 يونيو 1910 » • اهـ

ان هذه المنطقة أى الساقية الحمراء ووادى الذهب بل بلاد سوس الادنى والوســط والاقصى الى السودان وما كانت تسميه الحكومة الفرنسية افريقيا الغربية كان ابتداء من وفاة الملك المنصور الذهبى فى بداية القرن الحادى عشر يخضع لنفوذ الطرق الصوفيــة أو الاسر الشريفة وكانت أهم هذه الطرق القادرية التى تفرعت منها الطريقة الكنتيــة المنسوبة للشيخ المختار الكنتى (1143 ــ 1226 هـ) والطريقة البكائية المنسوبة لحفيده أحمد البكاى المتوفى سنة 1282 هـ ثم ورثها الشيخ محمد المصطفى الفاضل والد الشيخ ماء العينين الذى كان يقيم بالساقية الحمراء بداية من سنة 1884 الى ان فارقها سنة 1909 عندما احتلت فرنسا عدة مراكز صحراوية بالجنوب فنادى بالجهاد وبايعه انصاره والقى عصا التسيـــار بتيزنيت ومحمد المصطفى هذا هو الذى اختط مدينة السمارة وقد خضعت له جميع الطرق التى كانت تتقاسم نفوذ هذه النواحى كأولاد سيدى أحمد بن موسى ومولاى بوعزة والكنتيين، وجل المؤرخين مجمعون على ان هذه القبائل كانت لا تخضع للحكومة المركزية فكانت تتمتع باستقلال داخلى ، وكان يطلق عليه فى المغرب ببلاد السيبة ، وهذا باعتراف ملوك المغرب انفسهم ، ففى عدة تقارير وظهائر (12) أرسلوها الى عمالهم كانوا يذكرون القبائل المتمردة التى لا تخضع لحكمهم داخل مناطق نفوذهم ، اما المنطقة الصحراوية موضوع دراستنا فقــد تحدث عنها كثيرا العالم المؤرخ الشيخ المختار السوسى واعترف بانها كانت لا تخضع لاحكام السلاطين قال فى تأليفه : « ايليغ قديما وحديثا » (نشر المطبعة الملكية تحقيق وتعليــق محمد بن عبد الله الروداني الرباط 1386 هـ ــ 1966 م) قال فى حديثه عن بــلاد سوس ص 11 : « لما كان لها بعض استقلال عن العرش المغربى فلا تخضع له الا خضوعا أدبيا دينيا من بعيد » وقال فى موضع آخر من نفس التأليف يذكر فيه ثورة الشيخ الهيبة ابن ماء العينين فى عهد الملك عبد الحفيظ قال فى ص ، 305 فى ترجمة أحمد الهيبة : « وكانت الغاية من قيامه أولا هى انقاذ المغرب وتحريره من الحماية الاجنبية ولما ظهر أمره طمعت المانيــا ان

(12) قد نشر الكثير من هذه التقارير والظهائر مؤرخ الدولة العلوية الشيخ عبد الرحمن ابن زيدان حفيد الملك مولاى اسماعيل الذى كان يملك وثائق هامة فى خزانته الخــاصة وقد استوعب جلها كتابه اتحاف اعلام الناس المطبوع سنة 1930 فى خمسة اجزاء •

تستغله فى محاربة الفرنسيين فى المغرب بواسطة بعض القواد المحليين ـ ذكرهم باسمائهم ـ ثم قال : « اما السوسيون فكانوا ازاءه فرقتين فرقة انضمت اليه وهى الاكثرية ، وفرقة تجنبته خوفا ان لا يتم أمره فيتوارطوا وكانت الحماية قد تمت اذ ذاك فسهل قبول الدعاية السيئة ضد المولى عبد الحفيظ واتهامه بأشنع الاعمال ولم يكن هم كل من انضم الى الهيبة من السوسيين الا الجهاد فى سبيل الله وحتى أولئك الحاجيون أنفسهم لا غرض لهم سوى محاربة الحماية وبعد اقبال وادبار واقدام واحجام اجتمع عليه أهل ناحية تيزنيت من السوسيين وعلى رأسهم العلماء فتبعهم من سواهم ، فانتصب الشيخ أحمد الهيبة ملكا على عرشه تتلى أمامه القصائد ويخاطبه الشاعر الفحل المرن الاستاذ الطاهر الافرانى بامارة المؤمنين وبالخلافة الخ » . اهـ

وقد ذكر البحاثة المتخصص فى الشؤون الدينية جورج دراق (George Drague) فى كتابه « نبذ من التاريخ الدينى بالمغرب » (نشر بيرونى Peyronnet باريس ج 2) ص ، 96 قال أثناء حديثه عن تولية مولاى الحسن الاول مكان والده محمد الثانى سنة 1873 قال « وفى سنة 1874 كانت اسبانيا تطالبه بتنفيذ البند الثامن من معاهدة تطوان فعينت لذلك لجنة مغربية ـ اسبانية امتطت الباخرة الاسبانية بلاصكو دو قارى Blasco de Gary التى اقلتهم الى شاطىء سوس قرب مصب وادى درعة ، الا ان الوفد المغربى رابه لما شاهده من اتصال بعض التجار الانكليز بالشيخ حساين أو الهاشمى رئيس قبيلة تزروالت وقبائل أيت باعمران فبلغوا ما شاهدوه الى الملك الحسن الاول فخشى ان ذلك الاتصال كان هدفه تزويد تلك النواحى بالسلاح فجهز الملك الحسن المذكور قوة تشمل نحو 40 ألف مقاتل منها 17500 مدربا ومعها ثلاثون مدفعا فوصل بسهولة الى تيزنيت الا ان وجوده لم يرهب الشيخ حساين ولهذا لم يقابله وانما ارسل اليه ولده وتحصن هو فى رباطه بايليغ فحاصر الملك الرباط ولما قاطعه السكان وخشى نفاذ الزاد أمر جنده بالرحيل وكل ما فعله لاظهار غضبه هو هدم اسوار القصبة المخزنية القديمة لتيزنيت وكان سبق له أى للملك الحسن الاول عندما كان وليا لعهد والده بمراكش انه سمع بان الشيخ حساين هذا نفسه يدعو سكان سوس للتمرد على السلطان فجهز جيشه وقصد الشيخ الى تيزنيت فتعرضت له قبائل جزولة انصار الشيخ حساين ومنعوه من الوصول الى تيزنيت ، فرجع من حيث أتى وهذان الحادثان بهما (من جملة ادلة أخرى) على عدم خضوع سكان القبائل ومن جملتهم سوس الى السلاطين ، ثم غير الملك الحسن الاول رأيه وسلوكه مع الشيخ حساين اذ نجده فى سنة 1886 ارسل جيشه الى الناحية بعد ان حصل رضا الشيخ حساين المذكور وبادله المراسلة والهدايا واظهر له انهم

يتعاونون على المصلحة العامة وعلى هذه الطريقة سار الحسن الاول مع كثير من ذوى النفوذ الـــديني ٠

وقبل الختام نذكر ان منطقة الساقية الحمراء ووادى الـذهب كانت تتمتع بالاستقلال الداخلي وكان رؤساؤها الحقيقيون يتمتعون بتاييد السكان اذ لم يتخلف هؤلاء السكان عـن مبايعة الشيخ ماء العينين عندما أجتمعت لديه قبائل تاقنت وادرار وواحات شنقيط اثـر احتلال الجنرال قورو Gouraud فحينئـذ الجنود السنقاليين على رأس منطقتهم سنة 1909 لم يسع الشيخ الا مغادرة الساقية الحمراء ومدينة السمازة بعد ان أقـــام بالساقية الحمراء بداية من سنــة 1884 واختط مدينة السمارة اثناء مدة اقامته أى من سنة 1884 الى سنــة 1909 وقد التحق به الى تيزنيت التى ألقى فيها عصا التسيار قبائل كنته والرقيبات وعريب وتجكانت وأولاد دليم بعدما بايعوه واعلن الجهاد وارتحل نهائيا بصحبتهم الى تيزنيت حيث ادركه المنون سنة 1910 نستخلص من جميع ما ذكرناه ان هذه المنطقة أى الساقية الحمــراء وما قاربها كانت لا تنالها أحكام السلاطين وانما كان رؤساؤها متصلين ببعض الملوك اتصالا دينيا ادبيا من بعيد كما ذكر ذلك صاحب كتاب « ايليغ قديما وحديثا » وقد ايد هذا شاهد له وزنه هو رئيس الجمهورية الفرنسية السابق رايمون بوانكارى الذى كان عــند ابرام معاهدة الحماية سنة 1912 رئيس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها قال فى تأليفه : « فى سبيل خدمة فرنسا » (مذكرات تسع سنوات بعد احداث اقادير سنة 1912) ذكر بعد ان تعــرض للاحداث التى تقدمت معاهدة الحماية وتاخير الملك عبد العزيز وتعيين أخيه عبد الحفيظ ثم تاخير عبد الحفيظ وتعيين أخيه مـــولاى يوسف وقيام بذلك كله الجنـــرال ليوطى قــال بو انكارى (13) فى 12 أوت عندما كنت سانيتير سبرق(St Petersbourg) لينيقراد الحالية مولاى حفيظ غادر الرباط على ظهر الباخرة Duchayla الى مرسيليا فالمقيم العام الذى صار صانع الملوك اهـــتم بالتفتيش عن مـــلك جديد الخ ، وهذا اصـــل النص بالفرنسية :

« Le 12 août, alors que je me trouvais à St Petersbourg, »

وبعد ان تكلم على تولية مولاى يوسف واجتماع العلماء والاعيان بجــامع القرويين للبيعة ، وكان هذا الاجتماع تحت رياسة الوزير الاكبر والصدر الاعظم واذيعت البيعة قال وقـــد بقيت لنا عقبات وهنا تعرض للدعي الجديد وهو أحمد الهيبة قال : « فى 18 أوت ظهر الدعى

---

(13) ان بــو انكـــارى الذى خصـــص كتابـــه هـذا المشهـــور ذكـــر فى شبه مذكرات جميع احداث المغرب ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر بمزيد من التفاصيل ودور كل أحد من الساسة الفرنسية والضباط والاحزاب ثم ما دار فى الكواليس من ممثلى الدولة الاوروبية ٠

الهيبة الذى احتل مدينة مراكش انه ولد الفتان ماء العينين المرابط المقدس ، اخـــوته يتمتعون بنفوذ قوى فى الصحراء التابعة لصحرائنا الغربية » اهـ

فالصحراء الغربية بعد ابرام معاهدة الحماية وتولية الملك مولاى يوسف كانت تابعة للصحراء الغربية التى عبر عنها الرئيس يوانكارى بصحرائنا • اذ كان سبـــق احتــلالها بالجيش السينيغــالى تحت قيــادة الجنــرال قـــورو سنة 1909 وبسبب هذا الاحتـــلال غادر الشيخ ماء العينين الساقية الحمراء والسمارة وقد بين الرئيس يوانكارى ان خطـــر الهيبة على المملكة امكن القضاء عليه بعدما تقلدت فرنسا مقاليد الحكم وقضت كامل عهـد الحماية فى قمع القبائل المغربية وتطويعها للعرش •

مغامرة الحماية التونسية على وهران

- سنة 1831 -

عبد الجليل التميمي

نشرت « المجلة التاريخية المغربية » الصادرة بتونس فى عددها الاخير هذه الدراسة لمديرها الدكتور عبد الجليل التميمى عن تواطؤ باى تونس حسين باشا وولديه مع الغزو الفرنسى منذ البدء فى وهران سنة 1831، تحت قيادة الماريشال كلوزال.
وقد اذن لنا السيد المدير صاحب الدراسة بنشرها فى « الاصالة » تعميما للفائدة والحاقا بما جاء فى عدد 29 من الاصالة عن مغرب الشعوب.
« الاصالة »

من الاحداث السياسية التى وقعت اثر عملية الاحتلال الفرنسى للجزائر، تلك الحادثة السياسية الغريبة التى تمت بين باى تونس حسين باشا بـاى والجنرال كلوزال (Clauzel) الحاكم الفرنسى العام للجزائر والتى كانت تهدف ظاهريا الى تعيين بايين تونسيين احدهما على بيلك قسنطينة والآخر على بيلك وهـران .

وقد لعب القنصل الفرنسى بتونس دولسبس (De Lesseps) دورا هاما فى انجاح هذا المشروع واقناع باى تونس بقبول ذلك « لاعتقاده بصلاحية ذلك لفرنسا ومن شأنه أيضا أن يسرع بتمدين هذه المناطق » (1)

ونتيجة لقبول باى تونس مبدأ تفويض أمر وهران وكذلك قسنطينة الى أفراد عائلته أرسل الى الجزائر بعثة يرأسها ضابط القصر محمد شولاق وحسونة مورالى حيث استقبلا بكل عناية واكرام من طرف الجنرال كلوزال . وقد أجريت مباحثات سياسية بين الطرفين استعمل فيها الحاكم الفرنسى لهجة اثارت مستمعيه عندما اعلن لهم بأن : « دولة الفرنسيس ما صنعت هذا الامر مع دولة ومكنتها من قسنطينة وعمالتها الا مرادها انها بعد مدة تمكنها بجميع عمالة الجزائر وما احتوت عليه من البلدان بعد الاتفاق بينهم على ما يتراضوا (كذا) به ، واسمع منى يقينا وصدق به انه اثناء العامين من هذا الوقت لا بد تكون جميع عمالة الجزائر فى قبضة ملك تونس لما بينهم وبين دولة الفرانسيس من المودة » (2) كما صرح أيضا : « خذ منى يقينا واعلم به الجناب العلى ، انه لا يتم العام حتى يكون باشه (كذا) تونس مستوليا على جميع مملكة الجزائر » (3) .

---

* استندنا فى هذا البحث الى دور الوثائق التالية :
ا. د. ت = (ارشيف الدولة التونسية ــ دار الباى) تونس .
A.E. = ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس .
A.M.G. = ارشيف وزارة الحربية بفنسان بباريس .
A.O.M. = الارشيف الوطنى لما وراء البحار باكس اون بروفنس (فرنسا) .
F.O. = ارشيف الخارجية البريطانية بلندن .

(1) *A.E., Tunis N° 1* : من تقرير دولسبس الى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 19 نوفمبر 1830 .

(2) **ا. د. ت الفهرست التاريخى ، القسم الاول وثيقة رقم 411** ، تقرير باللغة العربية من وضع حسونة وردياني باشا بتاريخ 26 جمادى الاولى 1246/12 ديسمبر 1830 .

(3) **ا. د. ت ، القسم الاول ، وثيقة رقم 410** ، تقرير باللغة العربية بتاريخ 17 جمادى الاولى 1246/13 ديسمبر 1830 . راجع أيضا الترجمة الفرنسية لهذه الوثيقة :
Mzali, M.S., « La cession de Constantine et Oran à des Princes Tunisiens », in *Revue Tunisienne*, N^os 1 et 2, 1948, pp. 1 - 39.

دغدغت هذه الوعود من مسؤول يدعى أنه يتكلم باسم فرنسا ، حسين باشا دى وكذلك الوزير الاكبر شاكير صاحب الطابع ، ولم يصدقا الامر وكانا يعتقدان ان فرنسا لا تستطيع لاسباب كثيرة ان تواجه الجزائر ولا ان تحكمها ، اذ أنها حققت ما كانت تطمح اليه وهو الانتقام من داى الجزائر حسين باشا ، وهذا ما تم لها بسهولة .

وقد صرح حسين باشا بأن فرنسا لا تستطيع المحافظة على الجزائر « وأن هاته البلاد سوف تعهد الى وأصبح الحاكم المطلق على ولاية الجزائر » (4) . وهذا هو السبب الحقيقى الذى جعل شاكير صاحب الطابع وحسين باشا يقبلان المعاهدة المقترحة عليهم ، تلك المعاهدة التى لا تعنى فى نظرهم سوى « بيع هاتين الولايتين بمبلغ يتراوح بين 15 و 20 مليون فرنك على أن يتم تسديد مليون كل سنة ، وبالنتيجة يصبح باى تونس السيد المطلق والملك الوحيد للتراب الجزائرى وان فرنسا لن يكون لها اى تدخل فى ذلك » (5) .

تلك هى العوامل الحقيقية التى حفزت حكومة الباى لقبول المعاهدتين دون أخذ بالاعتبار المناخ السياسى العام الذى كان يسود فرنسا ووزارة خارجتها على الخصوص ، ولا طبيعة القضايا المعلقة والناتجة عن الاحتلال الفرنسى للجزائر والتى احدثت فى داخل الحكومة الفرنسية بعض التضارب والاختلاف حول مصير الجزائر . على أن قبول المعاهدة قد جابه من طرف أعضاء الديوان معارضة وقد نصحوا الباى خاصة بالتخلى عن المشروع المتعلق بوهران (6) لبعد هذه الولاية عن تونس . وقد تردد الباى فى قبول المعاهدة بادىء الامر خاصة وان شاكير صاحب الطابع الوزير الاكبر كان متغيبا عن الحاضرة ولكنه تحت الحاح قنصل فرنسا الذى طالب بالجواب فورا ، قبل حسين باشا باى بنود معاهدة وهران (7) على الرغم مما يلحق الولاية من « ضرر كبير علينا » (8) .

أما هدف الجنرال كلوزال فهو العمل على تجنب تنظيم حملة ستكون سيئة العواقب لاحتلال بيلك قسنطينة وكذلك وهران ، هذا فضلا عن ان الجيش الفرنسى لا يمكنه القيام بذلك ، ومن رأيه « ان بهذه الطريقة سيكون شرق الجزائر وغربه تحت سلطة بايين تونسيين ، وحيث ان مصلحتنا الحيوية

---

(4) *A.E., Tunis, N° 1* من تقرير وضعه هودير (Huder) وارسله الى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 8 جويلية 1837 .

(5) **المصدر نفسه** .

(6) ابن أبى الضياف ، أحمد ، **اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان** ، ج 3 ، ص 176 – 177 – تونس .

(7) **ا. د. ت ، القسم الاول ، وثيقة رقم 420** ، كتب حسين باشا باى الى وزيره شاكير صاحب الطابع رسالة نقتطف منها ما يلى : « فاننا فى يوم التاريخ اجتمعنا بقنصل الفرنسيس وطلبنا منه تاخير قضية وهران وشقة الشوفار الى ان تقدم لنا كما اخبرناكم فى الجواب الذى وجهناه لكم امس . فقال اما شقف الشوفار فانني نوخره لكم قدر عشرة ايام ، واما قضية وهران فلا بد من الجواب فيها فى الحين ، اما بالقبول أو بعدمه . فراودناه على التاخير مرارا فابى وصمم على طلب الجواب عاجلا فعند ذلك قبلناه منه وهران وعملها ... »
رسالة بتاريخ 19 رجب 3/1246 جانفى 1831 .

(8) **ا. د. ت ، وثيقة رقم 434** : رسالة من حسين باشا باى الى الجنرال كلوزال بتاريخ 23 رمضان 2/1246 مارس 1831 .

هو العمل على ان يبقيا اصدقاء فرنسا بل حلفاء لها في المستقبل وان فرنسا ستربح ولا شك من هذا التحالف » (9) .

وبذلك لم يعلم الجنرال كلوزال الحكومة الفرنسية بامضاء المعاهدة الذى تم بتاريخ 18 ديسمبر 1830 ، معتقدا ان هـذه المسألة ادارية وذات طابـع داخلى محض وهو الموقف الـذى سيترتب عنه معـارضة الحكومة الفرنسيـة فيما بعـد .

ودون ان نتعرض الى ولاية قسنطينـة والملابسات التى حفت بذلك ثـم الاجراءات التى تم اتخاذها بتونس بالتعاون مع السلط الفرنسية بالجـزائر ، نركز اهتمامنا لكل ما يتعلق ببيلك وهران والمعاهدة (10) المتعلقة به ، وهـو موضوع بحثنا هنـا .

ان الدارس لروح بنود هذه المعاهدة يلاحظ مدى استقلال الباى فى ادارة ولايته وان الدولة التونسية تعهدت بدفع 800.000 فرنك سنويا تسدد كـل ثلاثة أشهر ، وأن أحمد باى الذى عين بايا على وهران سيحمى جميع الرعايـا من كـل ما يمس مختلف أنشطتهم التجـارية والفلاحية وغيرهـا فضلا عـن تخصيص احد البنود للتأكيد على عدم تدخل الجنود الفرنسيين فى وهران بل يسمح لهم فقط بالاحتماء والاحتفاظ ببرج مرسى الكبير . وأن حسين باشـا باى ، والى تونس هو الذى يولى من يشاء من عائلتـه فى حالة شغـور منصب باى وهـران .

لقد اقتنع باى تونس بصدق نوايا الجنرال وأرسل لامضاء المعـاهدة الى الجزائر الوزير صاحب الطابع وسليمان كاهية (11) . وقد كتب الى كلـوزال « بأننا قبلنا ولايـة وهران لابن أخينا وابننا السيد احمد بـاى بانشراح قلب

---

(9) A.M.G., H 5 رسالـة من كلوزال الى وزير الحربيـة بتاريخ 1830/12/16 . وفى نفس هذه الرسالة يذكر كلوزال أن باى تونس الذى يسعى ان يستحق حماية فرنسا هو الذى اوحى للقنصل الفرنسى بتونس ـ اذا ما رغبت فرنسا اخضاع هذه الولاية ، تكليف احد افراد العائلة التونسية بالقيام بذلك ... وهذا تاريخيا غير صحيح ، ذلك ان المبادرة كانت من الجـانب الفرنسى حسبما تؤكده عديد الوثائق ببـاريس وتونس ، وليس هـذا التغليط هو الاول من نوعه والصادر عن الحاكم الفرنسى العام بالجزائر !

(10) **ا. د. ت ، وثيقة رقـم 407** ، وتنص على شروط معاهدة وهران وهـى :

الشرط الاول : ان باشا تـونس هو الذى يدفع لزمة وهـران وعملها برا وبحرا بعـد ان يستولى عليها وعلى عملها استيلاء الحكام على محل ولايتهم وقدر اللزمة ثمانماية فرنك فى العـام .

الشرط الثـانى : ان هذه الدراهم المذكورة تدفع على اربع كرات بعد كل ثلاثة اشهر دفعة ومجموع الاربع دفعات هو القدر المذكور اعـلاه ربما فى المستقبل ينقص من هـذا القـدر المذكور حين تصير المكالمة والتدبير على ذلك .

الشرط الثـالث : ان جميع مداخيل وهران وعملها من اى جهـة كانت برا وبحرا وسهـلا وجبلا تكون للاسعد احمد باى وهران .

الشرط الرابـع : ان تجار الفرنسيس بوهران وعملها يؤدون اربعة فى الماية قمرقا وبقية الجنوس يؤدون قمرقا ثمانية فى المائة .

الشرط الخـامس : ان باى وهـران يلتزم أن يحمى جميع طوايف الافرنـج الذين ياتـون لوهران لاجل السكنى والمتجر والفلاحة وغير ذلك .

الشرط السـادس : ان عساكر الفرنساوية لا تاتى لوهران الا باذن الباى ما عدا المـرسى الكبيرة (كذا) فان البـرج يبقى فى يـده فقط ولا يتعرض لشىء من مداخيل البـلاد ولا غيرهـا .

الشرط السابـع : ان باشا تونس يولى فى وهران من شاء من نسله او اصهاره ويعلم به الجنـرال .

وزيادة مودة وحب .... ونحن متحققون مودة الدولة الفرنساوية فينا ومرادنا ان تكون قلوبنا متعاضدة وأنفاسنا متواردة ومحبتنا دايما متزايدة ، وبعد ايام نوجه رجلا من كبار دولتنا بمائتى نفر للجزائر ... خليفة عن حاكم وهران ومن الجزاير يتوجه الى وهران ونوجه له الف عسكرى من بلادنا ، ولما يخبرنا الخليفة باستقرار الامر واستقامة الاحوال يتوجه ابننا السيد احمد باى الحاكم بالف عسكرى أخرى لان محبتنا فى الفرنسيس ثابتة الاركان وثيقة البنيان فأحببنا ان نظهر سر ذلك للعيان » (12) .

واثر توقيع المعاهدة طالب الجنرال كلوزال من أحمد باى بالتحول مباشرة الى وهران وفى أقرب فرصة ممكنة لاستلام سلطته ذاكرا له فى رسالة كان قد وجهها اليه : « لقد وافقت على التسويات المتعلقة بتعيينكم على بيلك وهران ، ثم ان قنصل فرنسا العام بتونس قد كلف بتبادل وثائق الاتفاق ، وعندما يتم هذا الاجراء ، آمل ان تسرعوا فى تولى سلطتكم ولا يسعنى الا توصيتكم بابحاركم فى أقرب فرصة ممكنة . ان وصولكم الى وهران يهم فرنسا وتونس وخاصة الشعوب (كذا) التى أنتم مدعوون الى ممارسة سلطتكم عليها » (13) .

ونتيجة لتعدد هذه الاجراءات السياسية والتزام الحكومة التونسية باستلام ادارة وهران كلف الباى القائمقام خير الدين اغا بالتوجه الى وهران رفقة مائتين وخمسين جنديا لدراسة الوضع وتقديم تقرير عام عن ولاية وهران وتهيئة ظروف قدوم أحمد باى . ويعكس هذا التصرف الذى تبناه الباى ومن ورائه شاكير صاحب الطابع مدى الحذر الذى لازم الحكومة الفرنسية خاصة اذا كان الامر يتعلق بصرف مبالغ ضخمة فى ظرف كانت ولاية تونس تعيش أزمة اقتصادية تمتد جذورها الى سنة 1815 (14) .

وقد وصل خير الدين اغا صحبة الجنود التونسيين الى الجزائر فى 24 جانفى 1831 واستقبل القائمقام من طرف الجنرال الذى طمأنه على الوضعية العامة وأنه سوف يجد الولاية هادئة تماما وان جميع البدو سينقادون لسلطته بل سيجد القائدين مصطفى بن اسماعيل ومورصالى فى انتظاره لتسهيل امر اقامته وتوليته السلطة (15) .

وبالفعل وصل خير الدين الى وهران بتاريخ 9 فيفرى 1831 ونزل مرفأها صحبة جنوده وحيث توجه مباشرة الى « البرج الاحمر الذى هو محل الحاكم والعسكر الذى معنا كله فى البرج المذكور ... » (16) .

---

(11) Ageron, Charles-Robert, *Le Gouvernement du Général Berthezène à Alger en 1831*, p. 99, thèse complémentaire, encore manuscrite.
يرى المؤلف ان المعاهدة وقعت من طرف مصطفى باى ، وهذا غير صحيح .

(12) ا. د. ت ، **القسم الاول من الارشيف التاريخى ، وثيقة رقم 421** ، رسالة بتاريخ 20 رجب 1246/4 جانفى 1831 .

(13) *A.M.G., H 6* رسالة بتاريخ 8 فيفرى 1831 .

(14) Cherif, Mohamed, « Expansion européenne et difficultés tunisiennes de 1815 à 1830 » pp. 714-745, in *A.E.S.C.*, mai - juin, 1970.

(15) Demontès, Victor, « Un essai de protectorat tunisien à Oran (9 février - 22 août 1831) » p. 251-288, in *Revue de l'Histoire des Colonies Françaises*, t. XV, Paris, 1923.

(16) ا. د. ت ، **وثيقة رقم 429** ، رسالة من خير الدين اغا الى حسين باشا باى بتاريخ 3 رمضان 1246/15 فيفرى 1831 .

ما هى الوضعيــة السياسية والاجتماعية لبيلــك وهران بعد الاحتــلال الفرنسى للجزائر مباشرة وكيف كانت مدينه وهران حين دخلها التونسيون ؟

كان على رأس بيلك وهران حسن بى ، وكان رجلا مسنا ، وقد تظاهر بعد الاحتلال بتأييد الفرنسيين ، وهاج الناس فى وهران وتلمسان وعبــروا عن سخطهم لموقف الباى المتخاذل وتحققوا من ميلــه « الى ملة الكفر ورضــاه بالوقيعة فى دينه وخشوا تراكم الفتن واختلاف الآراء ... » (17) ، بل ذهبوا حتى الى محــاصرة قصره بزعــامة مصطفى اغــا ، متهمين ايــاه بالتعاون مــع الفرنسيين خاصة بعد احتــلال الجيش الفرنسى المــرسى الكبير . وقد عبــر المفتى هو الآخر عن تخوفــه من الوضع معلنا أن سلطتــه أصبحت لا أثر لهــا وسط هذه الفوضى الادارية مهددا بمغادرة البلاد الى المغرب الاقصى » (18) .

وعلى هذا الاساس لم يعد بمقدور الباى أن يرعى المواطنين ولا أن يفرض عليهم سلطته وأصبحت المدينة بل البيلك كله يعيش وضعا سياسيا لم تعرفه المدينة من قبل ، وطبق قانــون الغاب وقد خشى النــاس المصير خاصة بعــد هيجان الاتراك (19) الذين طالبوا بمغادرة البلاد الى الاناضول اذا لم تتوفــر لهم وسائل الرزق . وقد عجز البــاى حسن عن القيام بتسديد رواتبهم بــل اضطر الى بيع أغراضــه الشخصية لمواجهة المــوقف ، ولكن بدون جــدوى ، يضاف الى كل هذه العــوامل استيلاء المغاربة على تلمسان ومناداة مــولاى على ملكا عليها . بل ان هذا الاخير وجه رسالــة الى حسن بــاى يذكره فيها انــه الوحيد الذى قبل العيش تحت سيطرة الفرنسيين و « أنكم اذا غادرتم الصف الفرنسى حالا ووليتم وجهكم نحونا ، فاننا نضمن لكم الامان التام ، وعلى أية حال ستكونون مجبريــن على الانصياع تحت سلطــة قوانيننا كبقية العــرب والقبائل ، سلموا مدينة وهران الى لأقيم بها حكم ملك المغرب ، واذا رفضتم الانقياد ، سوف أهجم عليكم واستولى عنوة على مدينة وهران » (20) .

ونتيجة لهــذا الوضع الخطير والمتــأزم ، قرر حسن بــاى مغادرة البــلاد مصطحبا معــه 175 شخصا متجهــا ، على متن سفينة فرنسيــة ، الى مدينــة كرتجــان (Carthagène) باسبانيا (21) وحاملا معه ما أمكنه حمله من أمتعته وثرواته الشخصية ، تاركا البيلك كلــه فى وضع فوضوى غير مأمــون مــن الفرنسيين وهجمات البدو على حد سواء .

وقد استغل الفرنسيون الوضع عندما أمر الجنرال دمرمن (Damrémont) باحتلال مدينة وهران نظرا لشغــور منصب الباى وقد تم له ذلك بسهولــة . وقد جابه دمرمن مدينة لا حياة اقتصادية ولا تجارية فيها وقد كتب الى حاكم الجزائر يطلب منــه ارسال الحطب واللحــم لمختلف وحدات الجيش وانه يأمــل « ان لا يضطر الى تحطيم المنازل للحصول على لوحها للاشتعال » . (22)

---

(17) *A.E., C.D., Maroc N° 3, 1830-1832* : رسالة من ملك المغرب الاقصى الى أهل تلمسان بتاريخ 1830/1246 ـ 1831 .

(18) *A.M.G., H 5* : رسالة من قائد السفينة الراسية بوهــران الى حاكــم الجزائر العــام بتاريخ 9 اكتوبر 1830 .

(19) **المصدر نفسه** ، يذكر ان عدد الاتراك بلغ فى شهر اكتوبر 1830 ، حوالى 800 انكشارى.

(20) *A.M.G., H 5* : من محتوى الرسالة التى وجهها مولاى على الى حسن باى وحيث وجهها هذا الاخير الى الحاكم الفرنسى العام بالجزائر بتاريخ اوت ـ سبتمبر 1830 .

(21) *A.M.G., H 6* : رسالة من قنصل فرنسا بكرتجــان الى وزير البحريــة والمستعمــرات بتاريخ 16 جانفى 1831 .

(22) *A.M.G., H 6* : رسالة بتاريــخ 1831/2/3 .

وقــد استمر الوضع غامضا طوال صيف وخــريف 1830 ، وقد التجـأ الناس الى تلمسان وقرر جمعهم مناشدة سلطان المغــرب لحمايتهم والانضــواء تحت سلطته وطاعته ، بل ان فريقــا من أعيان المدينة يتزعمهم مصطفى بــن اسماعيل والحاج بن الحضر وابن أخيهما المازرى وجميع أعيانهم « توجهــوا الى السلطان لاقناعه ببسط حمايته عليهم » (23) .

والواقع ان سلطان المغرب كان هو الاخر غير مرتاح للاتراك بتلمسان ، وكان يرى ان اجتثاثهم من بيلك وهران سيسهل عليه هو الاخر ضم تلمسان اليه وربما بيلك وهران كله ، وهذا ما يبرر سرعة استجابة السلطان ووزيره محمد بن ادريس لأهل تلمسان حيث رد عليهم بأنه « ورد على حضرتنا العلية بالله أعيان أهل تلمسان وقبــايل جوزها راغبيــن فى دخــول فى طاعتنــا أو مستبحرين لولايتنا طالبين منا الكون (كذا) من رعيتنا لنحميهم ونذب عــن حوزتهم ونجمع كلمة (كذا) لما رأوا اندثار دولة الترك واستيلاء العدو الكافر على قــاعدة ملكهم ردها الله (الى) دار الاسلام . ولما حققــوا (كذا) ميل بــاى وهران الى ملة الكفر ورضاه بالوقيعة فى دينه وخشوا تراكم الفتن واختلاف الآراء فاجبنا داعيهم ورجونا بحول الله وقوته حفظهم ورعيتهم (كذا) وجمــع كلمتهم مع المسلمين غيرة على الاسلام وأهله وحفظا للدماء والاعراض والاموال ووجهنا محلتنا السعيدة صحبة ابن عمنا الفقيه الارضى مولاى على آصلحه الله ووفقه ... فان العدو الكافر دمره الله منتظر للفــرصة فى المسلمين وتفريــق كلمتهم فمهما رءا (كذا) ثلمة بادر اليها وغرة اعتمد عليهــا وأى شىء يجب على عدو الدين للمسلمين فارغموا أنفه وافعلو (كذا) ما يسوءه من اجتمــاع كلمتهم مع اخوانكم لان المؤمنين أخوة ... » (24) .

وبالفعل توجه مولاى على الى تلمسان التى استولى عليهــا باسم سلطــان المغــرب ، ذلــك أن أهــل تلمسان فى نظــر حكومــة السلطــان « مسلمــون أحــرار (25) ولما عبروا عن رغبتهــم فى الدخول الى ايالتــه وقف للسلطــان عارهم وقبلهــم ولا مضرة فى ذلــك لجنسكم (الفرنسيين) اذ كــان مرادهــم الجزاير فقد ملكوها واستولوا عليها والترك انما هم غاصبون لملك تلك النواحى وقاهرون لأهلها وقد أخرجهم الله من رقهم وكل واحد اختار لنفسه ما يصلحه ولا غضاضة فى ذالــك (كذا) ولا لومــة (كــذا) وليس فيــه مــا يكـــدر المحبــة » (26) .

وقد اثار استيلاء المغاربة على تلمسان واللهجة التى استعملها مولاى على مع حسن باى ، استياء وغضب الجنرال كلوزال الذى سرعان ما أرسل انذارا خطيرا من تلقاء نفسه وبدون مشورة الحكومة الفرنسية شأنه فى ذلك شــأن المعاهدة التى عقدها مع التونسيين ، وقد طــالب فى هذا الانذار من سلطــان المغرب ، انه اذا لم يحصل خلال الاربع والعشرين ساعة الترضية التى يطالب بها ، فانه سوف يحمل على أرضه فيلقــا من الجيوش ، يغادر اليوم وهــران

---

(23) *A.M.G., H 5* : رسالة سرية من قنصل فرنسا دولابرت (Delaporte) بطنجــة الى سيدى محمد بن ادريس بتاريخ 1830/10/29 .

(24) *A.E., C.D., Maroc N° 1* : رسالــة بتاريخ 1830/1246 (ما بين شهر اكتوبر ونوفمبر 1830) .

(25) **المصدر نفســه** ، رسالة من محمد بن ادريس الى قنصل فرنسا بطنجــة بتاريخ 5 جمــادى الاول 22/1246 اكتوبر 1830 .

(26) **المصدر نفســه** .

وسوف يلحق بولاياته نفس الاضرار ويأخذ ثاره وبالتالى سوف يضرب حصارا على موانئــه » (27) .

وتبدو لنا جليا اذن الاسباب الحقيقية التى دفعت الجنرال كلوزال أن يلح على التونسيين فى امضاء المعاهدة والاسراع بالقدوم على وهران لشعــوره أن الوضع العام للبيلك متدهور جـدا ، هادفا بذلك ضمـــان استمرار السلطـة الفرنسية بهذه المنطقــة والعمل على ادخال للخزينة العامة نفس المبالــغ التى كان يسددها الباى الى الداى ، وبأقل الاجراءات التعسفية على المواطنين كما كان الحال بالنسبة للحكومة السابقة (28) .

تلك هى المعطيات العامة للظروف الدقيقة التى وصل فيها التونسيــون لاستلام السلطة بوهران ، وقد أخفى الفرنسيون عنهم حقيقــة الوضع ، بــل لقد غرروا بهم موهمينهم بأن الامن يسود البلاد تمامــا وأن أسواقهــا محـط تجارة كبيرة . غير ان القائمقام خير الدين اغا عندما وصل الى المدينة ، التى لم يتجاوز عدد سكـانها الثلاثــة آلاف ساكــن (29) لم يجـد سوى « قــدر خمسمائة يولطاش (30) وعسكر الفرنسوية واليهود لا غير وشىء يسير من المزابية والعربان كلها تفرقت » (31) و « ان هؤلاء الناس لا أمان لهـم بحيث أن المحلة من النصف فى رمضان رميناها وليس لنا رجالا (كذا) بما نعارضوا (كذا) الفتن الواقعة فى البلدان كتلمسان وغيرها بين العسكر والبلديــة ، والعربان أيضا الضعيف يفــاتنه القوى ... » (32) و « أن الديــار التى بهــا حيطانها موجودة لا غير وأن السقوفات والبيبــان (33) كسرهــا الفرنسيس لاجل الشعول وجميع سكان البلاد وجميع العربان كلهــا توجهت الى الشريف الذى بتلمسان » (34) .

كانت البلاد تعيش فوضى سياسية وكان الجيش الفرنسى بقيادة لوفول (Lefol) قائد الحامية الفرنسية بوهران ، هو الحاكم الفعلى والمطلق للبلاد ، أما الشعب فان طبقته الواعية قد غادرت المدينة والتجأت الى تلمسان لرفضها مبدا الخضوع لحاكم غير مسلـم و « العربان يقولون لا ندخلـوا (كذا) لبلـد فيها النصارى » (35) وانعدمت بذلك الطمأنينة الاجتماعية وهذه نتيجة حتمية

---

(27) *A.M.G., H 5* : رسالــة من كلوزال الى قنصل فرنسا بطنجــة بتاريخ 1830/12/9 . غير ان القنصل الذى استغرب استعمال هــذه اللهجة ، لم يجرؤ على مبــادرة السلطــان بذلك ، حتى يطلع راى وزير خارجيته الذى سرعان ما ادرك خطورة الموقف الصادر عــن كلوزال ، وأن لا يأخذ بالاعتبار اوامر الجنرال ، بل يطلب ولكن بلطف من ملك المغــرب تعويض الخسائر واخذ رايــه فى الموضوع ، راجع : *A.M.G., H 6* : رسالة بتاريــخ 1831/1/1 .

(28) *A M.G., H 5* :رسالة من كلوزال الى وزير الحربية الفرنسية بتاريخ 1830/10/25 .

(29) *A·M.G., H 4* : تقرير موجه الى حاكم الجزائر العام بتاريخ 1830/9/28 .

(30) من الكلمة التركية يولداش اى الانكشاريون .

(31) **ا. د. ت ، القسم الاول من الوثائق التاريخية ، وثيقة رقم 415** ، تقرير خير الدين اغــا الى حسين باشا باى بتاريخ شهر فيفرى 1831 .

(32) **ا. د.ت ، القسم الاول من الوثائق التاريخية ، وثيقة رقم 389** ، رسالة خير الدين اغــا الى الوزير الاكبر التونسى شاكير صاحب الطــابع بتاريخ 10 ذى القعــدة 1246/4/22 1831 .

(33) اى السقوف والابــواب .

(34) **ا. د. ت ، وثيقة رقــم 429** ، رسالــة من خير الدين اغــا الى حسين باشا باى بتاريــخ 3 رمضان 1246/15 فيفرى 1831 .

(35) **ا. د. ت ، وثيقة رقــم 437** ، رسالة خير الدين اغا الى شاكير صاحب الطابع بتاريخ 28 شوال 1246/11/1831 .

لمختلف الارتجاجات السياسية والاجتماعية التى كانت بلاد الجزائر برمتها مسرحا لها ، هذا فضلا عن انعدام تعاطى اسواق المدينة حركة البيع والشراء ، وهذا ما جمد أبسط مظاهر الحياة بالمدينة ، بل ان خير الدين اغا لم يجد ما يقر لديه العزم على مجابهة المصاريف اليومية المرتفعة خاصة اذا كان الامر يتعلق برواتب الجنود التونسيين والاتراك . وما يتطلبه تنشيط الحياة السياسية والاقتصادية من موارد ضخمة تعجز ميزانية البيلك فى هذه الظروف عن القيام بها خاصة اذا علمنا ان خير الدين لم يجد شيئا يذكر بالخزينة .

لم يشجع هذا الوضع خير الدين على البقاء ، بل طالب الحاكم الفرنسى العام بالغاء هذه المعاهدة والعودة حالا الى تونس ، معتقدا أن الفرنسيين غالطوا الحكومة التونسية تماما بادعائهم أن الامن مستتب بالبيلك ما عدا تلمسان (36) . الا أن رد كلوزال كان شديد اللهجة مؤكدا ان قصر المدة التى قضاها لا يمكن أن تكون حكما على الوضع ومذكرا فى نفس الوقت بالمنافع التى سيحصل عليها التونسيون من هذه المعاهدة (37) .

وفى هذا الظرف وصل الى علم الحكومة التونسية وخير الدين اغا ان الحكومة الفرنسية لم توافق على نص المعاهدتين المتعلقتين بقسنطينة ووهران ، ذلك أن وزير الخارجية الفرنسية الذى استاء من موقف كلوزال فى قضية الانذار لسلطان المغرب ، واجه قضية أخرى لا تقل أهمية وخطورة ، وقد ثار ضد سلوك الجنرال الخارج عن العرف السياسى عندما أخذ المبادرة بالتفاوض مع دولة أجنبية وليس له أية سلطة تنفيذية للقيام بذلك وهذا ما يبرر طبيعة الموقف المعارض لروح هذه الاتفاقية . وقد كتب الى وزير الحربية منددا بهذا العمل : « وجب على أن الفت انتباهكم الى المضار التى ستنجر عن هذه المعاهدة ومن ذلك الاسراع فى هذه المسألة ومعرفة ما اذا سنقرر البقاء نهائيا فى الجزائر أم لا ؟ وفى حالة بقائنا ، فاننا سنعمل بالتأكيد على الاحتفاظ بثمرة نصرنا ... اننا لو درسنا بنود هذه المعاهدة فسنلاحظ تنازلا كاملا لحقوقنا لفائدة تونس .. » (38) .

وقد ترتب عن هذا الموقف ان طلب الجنرال كلوزال اعفاءه من منصبه والتحاقه بفرنسا حيث وافقت الحكومة الفرنسية على ذلك فى الحين ليتم تعويضه بالجنرال برتزين (Berthezène) الذى وصل الى الجزائر مع أوائل شهر فيفرى . غير ان كلوزال ما فتىء يدافع بحرارة عن مشروعه ، محاولا اقناع وزير الحربية بذلك : « ان التسويات المتعلقة بولايتى قسنطينة ووهران ليس لها أى طابع سياسى ويجب ان ينظر اليها على أنها اجراءات ادارية داخلية ... ان رغبة استعمار الجزائر كلها الآن واقامة مراكز عسكرية فى المناطق الحساسة وادعاء الاستحواذ والاحتفاظ من اليوم بكل شىء تحت سلطتنا المباشرة هو فى رأيى مشروع خيالى وحتى لو حاولنا ذلك ، فاننا سنعرض نجاح مراكزنا بافريقيا الى الخطر ونضطر الى مصاريف باهظة ومشطة . ان قراركم بتعديل اى تغيير او الغاء ما قمت به يتوقف عليكم فقط ،

---

(36) راجع نص رسالة خير الدين اغا الى كلوزال بتاريخ 1831/2/16 بـ :
Demontès, *op.cit.*, pp. 256 - 257.

(37) المصدر نفسه .

(38) *A.O.M., Serie E - liasse 164* : رسالة بتاريخ 31 جانفى 1831 ، قارن ايضا .
A.M.G., H 6 :

لكن المستقبل سيكون كفيلا بتاكيد تقديراتى وسيضطركم الى اعادة ما بنيته متجشمين مصاريف كبيرة » (39) .

ولدى وصول برتزين الى الجزائر ، عمل على فهم الاوضاع السياسية المعلقة آنذاك ودرس عن كثب أبعاد معاهدة وهران ومدى صلاحيتها وتطبيقها بالنسبة لفرنسا ، ومن الوجهة العملية ، كان يرى أن الجنرال كلوزال كان يهدف بتعيينه بايا تونسيا هو اجراء اتفاق سياسى وهى عملية مالية لفائدة الخزينة (40) ، ونظرا لعدم وجود أى شخص بالايالة يوفر له الضمانات الكافية لتسديد هذا المبلغ ولا المحافظة على البلاد ، ارتأى تعيين أحد التونسيين ، وبالاستناد الى عدد من الاعتبارات كان الجنرال برتزين يؤيد الموافقة على هذه المعاهدة « على أن عكس ذلك سوف يضر موقفنا ويحول رعايا الولاية وكذلك ولاية تونس الى اعداء لنا » (41) ، بل ان الجنرال ذهب الى اكثر من ابداء الرأى حول المحافظة على نص المعاهدة وتطبيقها بل الدفاع عنها عندما كتب الى وزير الحربية منبها اياه : « ان السبب الرئيسى الذى أثاره وزير الخارجية (لرفض المعاهدة) وهو الحكم مسبقا على مسالة الاحتلال أم لا، تبقى فى نظرى هامة ولكنها غير ثابتة ، ان لنا الحق فى ادارة البلاد التى فتحناها ، وماذا يهم بالنسبة للدول الاوروبية الكبرى اذا عينا تركيا أو جزائريا أو تونسيا لادارة البلاد » (42) وقد نجح الجنرال برتزين فى اقناع حكومته بالاستمرار فى تأييد بنود المعاهدة وتنفيذها فى الظروف الراهنة . وكانت الحكومة ترى ، بعد هذه المساعى ، المحافظة على الاتفاقية المبرمة وتنفيذها دون الزج بالجيوش الفرنسية فى حلبتها (43) .

اما الحكومة التونسية فلم تحتج الى جهد كبير لادراك موقف الحكومة الفرنسية ، التى لم توافق بادىء الامر على نصوص المعاهدتين ، ولكنها فوجئت بذلك وأصيبت بخيبة عميقة خاصة وأنها تحملت مصاريف ضخمة لالتزامها بالمعاهدة ، وعلى الرغم من هذا فان التونسيين « لثقتهم المطلقة فى العدالة والامانة الفرنسية ، فانهم سيستمرون فى تجهيزاتهم الحربية » .

وقد طالب حسين باشا من الجنرال كلوزال العمل على التدخل لدى حكومته لاقناعها بقبول شروط معاهدة وهران (44) ، وهذا ان دل على شىء ، فانما يدل على عدم ادراك الواقع السياسى العام الفرنسى وضعف المخابرات التونسية لفهم الملابسات العامة ، فضلا عن عدم تتبعها لما تنشره الصحافة

---

(39) A.N., F80, N° 1670 (الارشيف الوطنى بباريس) : رسالة بتاريخ 1831/6/14 .

(40) ذكر الجنرال برتزين فى تقرير له لوزير الحربية الفرنسية ان كلوزال قد أسر اليه ما يلى : « عندما تم تعيين تونسيين على راس البيلك لم يكن الهدف من ذلك عقد اتفاقية سياسية ، بل هى قضية مبلغ مالى لفائدة الخزينة ، قارن :
Berthezène, Général, *Dix-huit mois à Alger*, pp. 182-183, Paris, 1833.

(41) *A.M.G., H 6* : رسالة من برتزين الى وزير الحربية بتاريخ 1831/2/21 .

(42) *A.M.G., H 7* : رسالة من برتزين الى وزير الحربية بتاريخ 1831/3/8 .

(43) *A.M.G., H 7* : تعليمات من وزير الحربية الى الجنرال برتزين بتاريخ 1831/3/11 .

(44) ا. د. ت ، **وثيقة رقم 434** ، كتب حسين باشا إلى كلوزال بتاريخ 23 رمضان 1831/3/7/1246 :
« لقد قبلنا منكم وهران وعملها بالشروط التى وجهتم الينا (كذا) وان كان فيه ضرر كبير لا ترونه الينا ... وانتم بمقتضى المحبة تبذلون غاية الجهد فى اتمام شروط وهران مثل شروط قسنطينة ... فالمرجو منكم ان تبذل الجهد فى فرانسة على اتمام ما وقع بيننا من الاتفاق ... » ، راجع ايضا *A.M.G., H 7* : رسالة بتاريخ 7 مارس 1831 .

الفرنسية آنذاك ، وخاصة الصحافة المعارضة التي شجبت المعاهدة وجردتهـا من كل نجـاح عملي .

ونظرا لقبول حسين باشا باي المعاهدة والتزامه بجميع بنودها وخاصة البند المتعلق بتسديد مائتي الف فرنك كل ثلاثة أشهر وان الدفعة الاولى قد وعد بها (45) للفرنسيين ، طالبت الحكومة التونسية خير الدين اغا أن يقف « على ساق الجد في ضبط المحصولات التي تتحصل في العمالة ... ومعلومكم ان دفع الكرة الاولى من المال قرب وقته ومقصدنا أن يكون المـال من محصول العمالة وكذلك المصاريف ولما يحل وقت دفع المال نأذنـك تدفعه ... فعليـك ابننا بضبط القمارق ورد البال من السراحات » (46) .

لم يكن حسين باشا ولا وزيره شاكير صاحب الطابع يتصوران حقيقـة الوضع بوهران ولا المخاطرة التي قاما بها وزجا فيها الجنـود التونسيين ، ولا طبيعة المشاكـل والفراغ السياسي والاداري والاقتصادي للبيلـك في هـذه الظروف . وقد كان رد خير الديـن حاسما ومخيبا للآمال عندما نقل صـورة أمينة للوضع ، ولم يتردد في القول مخاطبا الوزير الاكبر : « قول سيادتكـم نبين لكم محصول العمالة ، تعلم يا أخي أننا الآن ليس بصدد هذا الامـر ولا يمكن يصدر منا لأحد ، لان الناس كلها فارة ولا وجدنا من نطالب ونحن ليس لنا مدخولا (كذا) الآن الا من القمرك فقط ونلفقوا (كذا) فياحوالنا بما أمكن واما غير القمرك فلا تظن درهم (كذا) واحد » (47) . وفي رسالة أخرى يذكر خير الدين كيف أنه لم يجد شيئـا يذكر بالخزينـة ولا بمخزن الذخيـرة وان الذي « وجدنـاه في الخزينة فانه أمر لا ينبغي ذكـره ... (48) وخـل وبعض دوزان وجانب سكرة وأصحنة وصناديق فارغة ومخزن به ثلاثة عشر خابيـة سمن منها اثنين مملوءين (كذا) والبقيـة للنصف وأقل مـن النصف وزوج خوابي زيتا وبقية زيت واثنين وعشرين بغلة لاكن (كذا) عند الفـرانسيس يخدمون عليهم (كذا) ضروريتهم ولاكن (كذا) مرجعهم الينا ومائة وأربعـة وثمانين بردعة وستة أحصنـة ... » (49) وكما « وجدنا بزمـام حسن بـاي فصل به ستة الاف ريال وليس ثلاثون (كذا) الف كما جاء في رسالتكم وان من كتبها كذب على سيادتكم » (50) .

كان على خير الدين اغا بادىء الامر ان يواجه الانكشاريين الاتراك البالغ عددهم 465 نفرا ، وكانت سياسة خير الدين تعمل على جلبهم بزيادة رواتبهم الشهرية فأصبحوا يستلمون 4 ريـالات بوجو في كل شهر عوضا عن ثلاثـة

---

(45) ا. د. ت ، وثيقة رقـم 418 ، وصل بتاريخ 1831/1/19 .

(46) ا. د. ت ، وثيقة رقـم 436 ، رسالة من حسين باشا الى خير الدين اغـا بتاريخ 3 شوال 1831/3/7/1246 .

(47) ا. د. ت ، وثيقة رقـم 389 ، رسالة من خير الدين اغا الى شاكير صاحب الطابع بتاريـخ 10 ذي القعدة 1831/4/22/1246 .

(48) كلمة غير مقروءة في النص الاصلي للوثيقـة .

(49) ا. د. ت ، وثيقة رقـم 415 ، تقـرير خير الدين اغـا الى الحكومـة التونسيـة بتاريـــخ 1831/2/9 .

(50) ا. د. ت ، وثيقـة رقـم 389 ، رسالة من خير الدين اغـا الى شاكيـر صاحب الطـابع بتاريخ 10 ذي القعدة 1831/4/22/1246 .

(51) وفي وثيقة أخرى يذكر خير الدين انـه يسلم بالاضافة الى 4 ريالات بوجـو كل شهـر « يأخذون الخبز يومي (كذا) وقمح وسمن وزيت مونـة (كذا) كل شهـر » ، راجـع هذه الوثيقـة بـ
ا. د. ت ، رقـم 429 ، رسالة بتاريخ 1831/2/15 .

كما كان سابقا (51) ، بالاضافة الى خمسين ريـالا كل ستة أشهـر وكذلـك تسديد راتب اضافى عند حلول شهر رمضان ، وقد تم لهم ذلـك ، ومع هـذا طالب الانكشاريون من خير الدين اغا تسديد مبلغ 50 ريالا لكل واحد منهـم فى الشهر الموالى . ولما رفض لهم هذا الطلب ثـارت ثائرتهم : « ولم يبيتـون (كذا) تلك الليلة بالمحلة، وأرسلنا لافتكاك سلاحهم وهى المثاتين (كذا) مكحلة صنداد الذى اخذنا (كذا) من عند الفرانسيس وخاطبناهم بأن البحـر ليس لهم قدره (كذا) على التوجه فيه والبر فان العربان يقتلونهم قتلا شنيعا . فلما تحقق عندهم خطـابنا رجعوا على بعضهم بعضـا » (52) . كمـا وزع عليهـم كعادتهم عند حلول شهر رمضان « 25 انفار قمـح ، ثلاثة فنيقات قمح قـدره ستة ويبات تونسى وقدر قلتين سمنا وقلة زيت وعادتهم يأخذون أكثر ممـا ذكرنا وفرقناهم فى الابراج والظاهر منهم الفرح والسرور » (53) .

غير أن الاتراك الذين عودتهـم الظروف على الهيجان واعلان العصيـان ، اتفقوا مع العرب : « بأن يوصلوهم الى تلمسان ، ووقع منا غيـظ كبير الى ان أردنا تسييب (اطلاق) المدافع على القهوة المجتمعين بها ، ثم رجعـوا » (54) ويعكس هذا مدى الاضطراب النفسى الذى كانت تعيشه الجـالية العثمانيـة ببيلـك وهران ، خـاصة وقد وجدت نفسهـا بين عشيـة وضحاهـا اتباعـا للفرنسيين تارة وللتونسيين طورا آخر ، بعد ان كانوا اسياد البلاد .

وقد تحول اهتمام خير الدين آغـا الى نشر الطمأنينة بين الرعايا وجلب أعيان البلاد اليه وكسب ثقتهم والعمل على تشجيع توافد اعراب المنطقـة على وهران لتنشيط التبادل التجارى والخروج بالبلاد من وضعها الحالى ، ذلك أن « تلمسان ومستغانـم وأم عسكر يتفـاتن كل عسكر بالبلـدان المذكورة مـع البلدية والعربان الذى بازاء كل بلدة والناس أكلت بعضها بعضا ولا وجدنـا رجالا نمانعو (كذا) هذه الفتن ... وليس بوهـران الا البعض من الدوايـر والزمالة وقلوبنا ليست مطينة (كذا) بهم ولا بالعسكر المذكور لانهم أناس ظاهرهم شىء وباطنهم شىء ... » (55) .

وقد تركزت خطة خير الدين على مكاتبة رؤساء العرب والقبائل واحاطتهم علما بوصوله وتقليده أمر البيلك وقد وفد عليـه عدد كبير من الرؤساء وعلى رأسهم عدة بن محمد قدور « الذى أظهر لنا النصيحة وطلب منا الكتب لأناس عديـدة فكتبنا لـه ولبسناه برنوسا ملفـا عمارته فضـة وحـرير على عـادة بلادهـم ، واتفـق معنا على انـه يجمع أهل الزمالـة كلهـا وينـزل بنـواحى البلاد » (56) ، كما وصل الى وهران اخو مصطفى بن اسماعيل ، كبير الدواير بالمنطقة وتحادث معه حول الوسائل الفعلية باطلاق سراحه من شريف تلمسان الذى سجنـه .

وقد حقق خير الدين اغا ما اقترحه عليه الوهرانيون أن يعين « قاضيـا ملكيا (كذا) لان البلاد ليس بها الا قاضيا حنفيا (كذا) لان الاحباس كلها ضاعت ، فوافقنا على ذلك واعلمنا عن رجل فقيها (كذا) كان قاضيا وطلب منـا الكتب اليه فكاتبناه » (57) . ثم ورد على خير الدين اغا اعيان البلاد شيئا فشيئا وقد

---

(52) أ. د. ت ، وثيقة رقـم 390 ، رسالة بتاريخ 1831/4/22 .

(53) راجع مصدر الملحوظة رقـم 49 .

(54) راجع مصدر الملحوظة رقـم 52 .

(55) المصدر نفسـه .

(56) راجع مصدر الملحوظة رقـم 49 .

(57) المصدر نفسـه .

طلبوا اليه تنظيم حملة على تلمسان والعمل على ارجاع هذه المدينة الى بيلك وهران واطلاق سراح الحاج البراسيلى ومصطفى بن اسماعيل اللذين بهما تستقيم البلاد ... وقد تكلمنا مع الرجال المذكورين بأن عساكرنا قادمة من تونس المحروسة عن قريب ونحن نترقبوا (كذا) فيهم كهلال العيد ولم يظهر لنا من سيادتكم شيئا (كذا) حاصله سيدى أن مثل هذا الامر لا ينبغى فيه التغافل والتراخى لان العسكر ليس عندنا الا الذى ذكرناه ... فالمطلوب من سيادتكم ارسال العساكر والمونات (58) (كذا) من بشماط وزيتا وزيتونا (كذا) وخل ... » (59) كما طلب بارسال بنادق حديثة وبرانيس تونسية لاعيان مدينة وهران (60) . وقد مده حاكم الجزائر العام بـ 200 جندى و 250 بندقية (61) .

لم يخف خير الدين اعجابه بوهران والموقع الاستراتيجى الذى تتمتع به المدينة فضلا عن القلاع الضخمة التى تحيط بالمدينة « وان البلاد فى غاية الحصن والابراج بها من كل ناحية » ولكنها مجردة من المدافع وأن البيلك فى رأيه « مملكة عظيمة » و « بلاد نظيفة » وانه اذا قر قرار الحكومة التونسية الاستمرار فى تنفيذ المعاهدة ، فان واجب الحكومة التونسية مساعدته على حكم البلاد ليتسنى له تنشيط الحياة الاقتصادية وارجاع الثقة الى نفوس الاهالى ، وقد أعطت سياسة خير الدين اغا بادىء الامر ثمرتها ، فقد أخذ الناس يتوافدون عليه وقد « اتتنا العربان بالاسعاى » (62) وبجميع الاثمار وبالقمح والشعير .

وقد تحسن الجو السياسى العام عندما شاع الخبر بأن الحاج البرسيلى ومصطفى بن اسماعيل أطلق سراحهما حاكم تلمسان وان القبائل عبرت عن كبير ارتياحها لهذا الحدث ، وقد قدمت على وهران معلنة خضوعها الى خير الدين . يضاف الى هذا قدوم 300 جندى تونسى (63) الى وهران مما زاد فى تعزيز شوكة خير الدين لدى الاعراب الذين أخذوا يتوافدون على المدينة بكثرة منشطين حياتها الاقتصادية . وقد أصبحت وهران من كثرة الواردين عليها فى هذا الظرف معرضا وليست سوقا ، وقد وصل القمح بكميات كبيرة كما حمل الاعراب انواعا مختلفة من البضائع وحتى الفحم والحطب فقد وجدا بكميات كبيرة ولم يشاهد مثل هذا الامر من قبل .

ونتيجة لهذا الانتعاش الاقتصادى بالمنطقة ، وفراغ الخزينة من جهة أخرى وعدم وصول أى نجدة من تونس لمواجهة المصاريف المختلفة والمتعددة اضطر خير الدين ان يبيع الى اليهودى بعض الرخص لتصدير منتوجات البلاد الى الخارج وهذا طبقا لروح المعاهدة التى خولت لباى وهران حرية التصرف فى ولايته دون تدخل السلط الفرنسية . وقد أكد خير الدين

---

(58) اى المؤونة .

(59) راجع مصدر الملحوظة رقم 49 ، يذكر خير الدين ان العسكر الذى معه ياخذ الخبز من الفرنسيين .

(60) **ا. د. ت ، وثيقة رقم 447** ، ارسلت الحكومة التونسية بتاريخ 1831/3/21 ثلاثة قطع قماش طولها على التوالى 35 ، و 35 و 34 ذراعا ، و 14 كسوة مفضضة و 30 برنوسا و 4 ازواج برانس و 5 افراد برانس .

(61) *A.M.G., H 7* : رسالة من برتزين الى وزير الحربية بتاريخ 1831/3/17 .

(62) مفردها فى اللهجة التونسية سعى أى فريق من الغنم .

(63) Demontès, *op.cit.*, p. 272.

ذلك فى تقاريره الى تونس من انه « وقع البيع والشراء والوسق (64) أى القمح والشعير والبقر ، نسئل الله ان يصلح الاحوال » (65) .

على أن استمرار هذا الوضع أو عكسه رهين بالسياسة التى انتهجها خير الدين ومدى العلاقة التى حاول أن يقيمها مع الرعايا ويكفى ان ترتكب أقل الهفوات لتقضى تماما على هذا الهدوء النسبى المغلف بالنظام بالطاعة والولاء للسلطة المحلية . وقد حدث استنادا الى التقارير الفرنسية وحدها ما عكر هذا الجو وقضى على هذا الهدوء تماما ، بل قد اثار حقد الاعراب ضد التونسيين ومفادها أن خير الدين اغا قد أمر الانكشاريين والتونسيين للقيام بجولة داخل البلاد ، وكان الهدف من ذلك التظاهر امام القبائل ورؤساء العرب والذين أخذوا يشتكون من جمود التونسيين وعدم قيامهم بأى عمل لاسترجاع تلمسان .

وبالرجوع الى تقرير قائد الحامية الفرنسية بوهران لوفول مع صمت الوثائق التونسية تماما عن هذا الموضوع ، نظمت حملة بتاريخ 28 افريل خارج مدينة وهران وكانت نتائجها سيئة للغاية حيث قام جنود الحملة بتقتيل النساء والاطفال والشيوخ واستحوذوا على خمسمائة رأس من الحيوانات (66) . ولا شك ان الجو العام الذى كان يعيشه انكشاريو وهران وعدم ارتياحهم لوضعهم الاجتماعى والسياسى ثم سنوح الفرصة من الخروج من وهران وتنظيم هذه الحملة كان له الاثر فى اطلاق عنانهم تحت نظر وسمع التونسيين للقيام بهذه الفضائع . ومن الطبيعى ان يستاء المواطنون وان يقاطعوا سوق وهران بل وان يحملوا على التونسيين والانكشاريين معا . وكان رد الصحافة الفرنسية عنيفا .

أما الحكومة الفرنسية فقد عبرت عن طريق حاكم الجزائر العام عن دهشتها لاقتراف هذه الفضائع ، وقد زاد هذا الموقف من اقتناع الحكومة الفرنسية بالغاء هذه المعاهدة تماما والعمل على تهجير التونسيين من وهران.

اما خير الدين فلم يزده ذلك الا حيرة ويأسا خصوصا وانه لم يتصل من الحكومة التونسية بشىء طوال أربع أشهر لاستحالة تبنى خطة معينة وواضحة فى هذا الموضوع فضلا عن أن الحكومة التونسية التى سعت جاهدة بتجهيز جيش مدرب على الطريقة الاوروبية لاحتلال قسنطينة قد تخلت عن المشروع فى اللحظات الاخيرة . وكان على خير الدين ان يواجه المشاكل اليومية فى البيلك خاصة لكل ما يتعلق بتسيير شؤونها المالية والادارية فى جو يكتنفه الفوضى بسبب وجود الحامية العسكرية الفرنسية وعدم ارتياح قائدها الى سلوك التونسيين (67) وكذلك الى الوضع الغامض الذى خلفه حسن باى ببيعه عددا من المنازل الى أحد المواطنين البريطانيين قبيل سفره واعطائه حق التصدير لعدد آخر من المواطنين الاجانب . وعندما رفض خير الدين الاعتراف بهذه الامور ، هدده القنصل الانجليزى بالجزائر سان جون

---

(64) اى التصدير .

(65) راجع مصدر الملحوظة 49 .

(66) *A.M.G., H 7* : رسالة من لوفول الى الجنرال برتزين بتاريخ 1831/5/8 . الغريب اننا لم نعثر ولو على اشارة لهذه الحملة فى مختلف التقارير التى حررها خير الدين اغا والمرسلة الى الحكومة التونسية .

(67) كان لوفول يرى ان خير الدين صالح لادارة قصر الباى وليس بيلك وهران ، راجع : Demontès, *op.cit.*

باستعمال القوة (68) ، وكان يرى بانه بالاستناد الى المعـاهدة ، فهو صاحب البيلك وأنه الوحيد الذى يمكنـه تسليم هذه الرخص وبيعهـا ، وهـذا هـو السبب الذى جعله فى آخر لحظة يأذن ببيعها .

وبالاستناد الى وثيقة بأرشيف الدولة التونسية نستطيع ان ناخذ صورة عن مداخيل مدينة وهران ومصاريفها خلال الستة أشهر من اقامة خير الدين اغا فيهـا :

شهـــر	المدخـــول	المصـــاريف
فيفـرى	20922	9534
مـارس	16256	7046
افريـل	35965	15910
مـاى	22711	5972
جـوان	17539	6494
جويليـة	12644	4996
اوت	8227	2826 + 4170

بحيث ان جملة المداخيل بالريال بوجو 131440 . اما جملـة المصاريف فتقدر بـ 77307 ريال بوجو (69) .

ليست لنا أى فكرة عن الطريقـة التى اتبعها خير الدين لجمـع الضرائب وعلى أى أساس كان ذلك ، ولا عن اسعار البضائع المحلية وعن الكميات التى تم تصديرها من القمح والشعير والاغنام الى الخـارج فى هذه الفتـرة ، اذ أن الوثائق الفرنسية والعربية ضنينة تماما عن طرق هذا الموضوع ، كما نلاحظ صمت الوثائق على عدد آخـر من الاهتمامات الاخرى التى كـانت تشغل بـال الناس . على أننا نلاحظ حيرة الرعايا من أمرهم واضطراب أحوالهم الداخلية ووصول التونسيين لم يكن ليهيىء لهم ظروفـا جديدة ، وهذا ما يفسر مـدى الغليـان الذى كان يعيشه أصحـاب الطـرق الدينيـة وتطلعهـم الى تصفيـة الفرنسيين والتونسيين معا وتعاونهم مع شريف المغرب الاقصى الذى لم يكن يتعاون مع « الكافر » ، بل يبدو ان التونسيين الذين لم يكونوا يعرفون مـاذا يعملون قد زادوا المشاكل تعقيدا . ولم يكن بالمدينة لا حكومـة ولا ادارة وان سلطة البـاى على القبائل أصابهـا الفتور ، بل ان القبـائل كـانت تعيش فى استقلال تام وطبق قانون الغاب نتيجة عدم وجود حكم مركـزى يفرض نفسه ويوجه البلاد . على أن سلطة خير الدين اغا فى بعض الاحيان لم تتجاوز حدود مدينة وهران . وهذا ما جعل الحكومة الفرنسية تفكر فى صيغة جديدة لهـذه الاتفـاقية ولكن على أساس جديد من التبعيـة التونسية لفـرنسا . غيـر ان الحكومة التونسية صرحت : « بأن ذلك به ضرر علينا من وجوه عديدة يطـول

(68) *F.O., 3/33.* : رسالة من سان جون الى خير الدين بتاريخ 1831/4/13 وجاء فيها :
« I trust you will give me full satisfaction on these points, as I shall be sorry to have to refer to England and to the British Consul General at Tunis to seek redress from the Bey about it; but you must be aware that the British Government is not be consulted with impunity and that as long as you have the authority at Oran it will look to you for production and justice for its subjects ».

(69) ا. د. ت ، وثيقة رقـم 446 .

شرحها والخيرة فيما يختاره الله ونحن ودولة فرنسا حال واحدة حاجتنا حاجتها وهى كذلك لاتصال محبتنا معهـا ... ونطلب منكم تبعثـوا (كذا) لنا خيـر الدين اغا ومن معه من عساكرنا ... » (70) وانه « منذ خمسة أشهر ، وافقنا على الرغم من انها كلفتنا مصاريف باهظة وضد مبادئنا ومشاعرنا الدينية على معاهدة وهران . ومنذ ذلك الـوقت والمصاعب ما فتئت تتضـاعف كل يـوم ووسائل التنفيذ بعيدة المنال . اما اليوم فان هذا المشروع اصبح مستحيلا على الباى : ان جلالته جد قلقا (كذا) لجو الهيجان الذى يسود ولايته فضلا عـن تفكيره لاخضاع شعوب أخرى ... وانـه فى الاخير لا يستطيع ان يوافـق على اية تسوية مع فرنسا بخصوص ولايتى وهران وقسنطينة ، وان صيغة التولية الجديدة لا يمكننا قبولهـا » (71) .

ومن جهـة أخرى كتب حسونة المـورالى ، أحد المفاوضين الذين أمضـوا المعاهدة بالجـزائر ، كتب الى الجنرال كلـوزال : « انى أهنـىء نفسى بالغـاء المعاهدتين ، ذلك انى أعتقد بعدم فائدتهما لحكومتى خصوصا بعـد المصاريف الضخمة التى قمنا بها دون ان نتحصل على أى نفع ما . ان امضاءنا المعاهدتين لم يتم الا بتدخل دى لسبس أو بالاحرى وجب القول : لنكون احباء للحكومة الفرنسية ولم يكن لاهداف توسعية أو نفع خاص » (72) .

ونتيجة لذلك أصبح الطرفـان فى حل من بعضهما البعض . أما فـرنسا فقد تبنت مبدا احتلال البـلاد شيئا فشيئا واقرار الغـاء المعاهدتين بصـورة نهائية ، ولم يبق على التونسيين الا مغادرة البلاد . وقد حرص الفرنسيون ان يتم ذلك دون مس للنظام العام أو للروابط التى تجمع فرنسا بتونس « وجب عليكم تسهيل مهمة سفرهم بأمان تام وبجميع أفراد الجالية . احموا انسحابهم ضد كل العوائق أو الاهانات الصادرة عن المواطنين ، على أن لا يأخذوا معهـم الا الاشياء التى أتوا بها والتى هى ملك للحكومة التونسية » (73) .

وقد تـم انسحاب الجيـوش التونسية من وهران بتاريـخ 1831/8/26 لتطوى صفحة غريبة لهذه التجربة الفاشلة والمغامرة الخـاسرة ، والتى طبعت العلاقات بين الجزائر وتونس بطابع معين .

عبـد الجليل التميمـى
كليـة الآداب ـ الجامعة التونسية

---

(70) **ا. د. ت ، وثيقة رقـم 439** ، رسالة من حسين باشا الى برتزين بتاريخ 2 جويلية 1831.

(71) *A.O.M., Serie I E, liasse 168.* : من تصريـح محمد بلخوجـة ، وزير الحربيـة التونسية الى العقيـد هوديـر **(Huder)** الذى كلف بالتفاوض من جديد مع الحكومة التونسية .

(72) *A.M.G., H 7* : رسالة بتاريخ 17 مـارس 1831 .

(73) *A.M.G., H 8* : تعليمات وزير الحربية الى قائد الحامية بوهران بتاريخ 1831/7/12 .

دور قبائل المخزن فى تدعيم الحكم التركى بالجزائر

ناصر الدين سعيدونى
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر



ظلت الدراسة التاريخية المتعلقة باوضاع الريف الجزائرى أثناء الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر ، يكتنفها الاهمال ويحيط بها الغموض ، مع أن التعرف على حياة سكان الريف تعتبر بمثابة حجر الزاويه الذى كان يقوم عليه البناء الاجتماعى للايالة الجزائرية، فضلا عن أن علاقة هؤلاء السكان بالحكام الاتراك كانت تمثل القاعدة الاساسية التى يرتكز عليها التطور السياسى والوضع الاقتصادى للجزائر العثمانية ٠

ولعل هذا ما شجعنى على أن أتناول نوع هذه العلاقة من خلال الدور الذى لعبته قبائل المخزن فى تدعيم الحكم العثمانى وطبع الريف الجزائرى بطابع خاص ٠

فقد كانت قبائل المخزن حلقة الوصل بين الاهالى والحكام ، ورابطة متينة شدت المحكوم الى الحاكم ، وأبقت تماسك الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، وذلك نظرا لمهام هذه القبائل الادارية والعسكرية المنوطة بها ٠

فقبائل المخزن هذه كما سنرى من حيث نشأتها وتطورهـا وصلاحياتها كانـت انعكاسا صادقا وتطبيقا عمليا لسياسة الاتراك مع الغالبية الساحقة من الجزائريين (1) ؛ هذه السياسة التى أبرزت قبائل المخزن بالخصوص فى شكل مجموعات سكانية تعميرية لها صبغة فلاحية وعسكرية وادارية ، استمدت منها تماسكها ٠

فهذه الصبغة الخاصة التى اتصفت بها قبائل المخزن جعلتها تتميز عن بقية القبائـل الاخرى التى تعتمد فى تدعيم كيانها وجمع شملها على رابطة الاصل المشترك والنسـب الواحـــد ٠

فقبائل المخزن بهذا المفهوم كانت عبارة عن تجمعات سكانية اصطناعية متمايزة فى أصولها مختلفة فى أعراقها ، فمنها من أقره الاتراك بالاراضى التى وجدت عليها ، لتكون سندا لهم ، ومنها من أعطيت لها الارض لتستقر عليها ، ومنها من استقدم كافراد مغامرين او متطوعين من جهات مختلفة (2) ، ليؤلف جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة التركية ٠

وبفعل الانتساب والاستقرار والنشاة على أراضى البايليك اكتسبت هذه المجموعات البشرية المعروفة بقبائل المخزن كيانا مستقلا متمايزا ، ولم تعد تعرف من أنسابها القديمة ومواطنها الاصلية الا ما علق بتسمياتها الجديدة كقبائل : الصحارى والغرازلة وهاشم والعبيد والعثامنة ، فى حين اتخذت الغالبية الكبرى من قبائل المخزن تسميات محليـة وألقابا خاصة بها استمدتها من مواطنها الجديدة ، أو اشتقتها من الوظائف التى كانت تمارسها والمهام التى كانت تقوم بها أو استعارتها من نوع السلاح الذى كانت تحمله ٠

فمخزن الزواتنة عرفوا بهذا الاسم لتوطنهم على ضفتى وادى الزيتون (3) رغم كونهم كراغلة ٠ ومخزن المكاحلية عرف بذلك لنوع السلاح الذى اشتهـر بـه فرسـانه ٠

---

(1) حسب الوثائق والمصادر المتوفرة ، كان سكان الارياف الجزائرية فى الفترة العثمانية يقدرون بـ 94 ٪ من مجموع السكان ، فى حين لم يكن يتجاوز سكان المـدن والحواضر فى أحسن الاحوال 6 ٪ ٠

(2) M. Pouyanne, *la propriété foncière en Algérie,* Imp. A. Jourdan, Alger 1900, p. 291.

(3) يقع واد الزيتون على الضفة اليسرى لوادى يسر ، جنوب شرق الجزائر العاصمة ، بين قبيلتى الخشنة وبنى جعاد ٠

والمجموعات المخزنية من عزارة ومخازنية وزمول (جمع زمالة) ودوائر ، (جمع دائرة) ؛ عرفوا بهذه الاسماء نظرا للمهام التى كانوا يمارسونها والتنظيم العسكرى الذى كانوا يخضعون له والحيز الادارى الذى استقروا ضمنه ٠

على ان قبائل المخزن على اختلاف مواطنها وألقابها ، لم يكتمـل تبلور كيانهـا الاصطناعى واستكماله مقومات القبائل المتلاحمة ، الا بفضل سياسـة مرسومـة دأب الاتراك على اتباعها والاخذ بها ، وبفعل أحداث تاريخية وظروف خاصة عاشتها البـلاد الجزائرية أثناء الحكم التركى ٠

وتبرز هذه السياسة وما أحاط بها من ظروف خاصة من خلال نوعية التأثير الـذى أحدثته علاقة الاتراك بسكان الريف ٠

ومما يميز هذا التأثير أنه مر بمراحل ثلاث متمايزة من حيث النوعية والنتائـج ؛

فالمرحلة الاولى : تبتدىء بحلول الاتراك بالبلاد (1516) وتستمر طيلة القرن السادس عشر ، وأثناء هذه المرحلة كان الحكام الاتراك أمام خيارين ، اما الاستعانة بالمتطوعين من فرق زواوة وجموع العشائر المحيطة بالمدن مع اللجوء ان أقتضى الحال الى طلب النجدة من الوجاق مباشرة ، واما الاعتماد على قبائل حليفة تقدم لهم العون وتوفر لهم فـرق الفرسان الضرورية مقابل ما تناله من منافع ومزايا ٠

لكن الاتراك حسب ما نستنتجه من الحوادث التاريخية فضلوا الخيار الثانى ، واعتمدوا على فرق الوجاق وما انضم اليها من المتطوعين ، وذلك لانعدام التجربة وقلـة الخبـرة بالنسبة لهم فى هذا الميدان ، فلم ينتفعوا بخدمات القبائل الحليفة ، ورغم أن الاستعانة بهذا النوع من القوات المحلية كان تقليدا معروفا فى الجزائر منذ أوائل الفترة الاسلامية ، وقد شاع أستعماله بالخصوص فى دولة بنى عبد الواد والدولة الحفصية ، حتى أصبـح رؤساء هذه لقبائل الحليفة آنذاك يجردون الحملات العسكرية لجمع الضرائب فى المناطق الخاضعة لهم دون الرجوع الى الدولة الحاكمة وكأنهم حكام مستقلون ٠

على ان الاتراك فى هذه الفترة لم يحاولوا جديا استغلال هذه القوة المحلية ، وبذلك اقتصر تأثيرهم طيلة القرن السادس عشر على تنصيب قواد اتراك على الاراضى الخاضعـة

لهم ، والتى نادرا ما تتجاوز نطـاق المدن وفحوصها حيث تتمركز الحاميات العسكرية ، ولم يعد لقبائل المخزن دور يذكر فى الامور الادارية والعسكرية للبلاد .

وهذا عكس المرحلة الثانية لتأثير الاتراك فى الارياف ، التى تستغرق القرن السابع عشر باكمله ، وترتبط بتصرفات الباشوات (1587 ــ 1659) . هذه التصرفات الـتى تسببت فى استنزاف موارد الريف الاقتصادية .

ويفسر تصرف الباشوات هذا حاجتهم الى الاموال الطائلة والثروات الضخمة ليضمنوا لانفسهم حياة الرفاهية ، ويعوضوا ما دفعوه من أموال مقابل الحصـــول عـــلى منصب الباشوية ، بعد ان حددت مدة حكم كل واحد منهم بثلاث سنوات ، وأنقصت صلاحياتهم بفعل أمتيازات الطائفة التركية بالمدن . فلم يجد هؤلاء الباشوات لتلبية رغباتهم منفذا سوى البوادى يجردون عليها الحملات العسكرية ويفرضون عليها الضرائب الثقيلة .

وحتى تكون هذه الحملات الحربية مجدية اتخذت شكل محلات (1) فصلية تنطلق مع كل فصل ربيع وخريف من مراكز البايليك بقسنطينة والمدية ووهران ومعسكر والجزائر متجهة الى الارياف تتقدمها فرق الانكشارية ويحف بها فرسان المخزن المشهورين بباسهم وقوة شكيمتهم .

وقد ازداد الاعتماد على قبائل المخزن فى هذه الفترة عندما برهنت أثناء المعارك على كفاءتها وفعاليتها ، حتى أصبحت العمود الفقرى لهذه الحملات .

وبفعل هذا الدور الرئيسى الذى لعبته قبائل المخزن تعرض الاهالى إلى ضغوط متزايدة تسببت فى اتلاف مواردهم وذهبت بثرواتهم ودفعتهم الى الثورات والانتفاضات ، تلك الانتفاضات التى رفعت فى أغلب الاحيان شعارات دينية وتسترت فى كثير من المـرات وراء مطالب عشائرية ، وان كانت فى حقيقة الامر تعبر عن مدى سخطها وعدم رضاها عن الاوضاع الاقتصادية ، مثل سلسلة الانتفاضات التى حدثت طيلة الفترة الممتدة مـن سنة 1590 الى 1647 م . (4)

---

(4) Boyer, (P) Beys et Bey Liks, in Hatti del congresso internazionale di studi nord-africani Cagliani 1962, p. 172.

أما المرحلة الثالثة لتأثير الحكم التركي في سكان الارياف فتبتدىء بمستهل القرن الثامن عشر وتنتهي بالغزو الفرنسي عام 1830 ·

وفي هذه المرحلة زاد اهتمام الاتراك حكاما وجنودا بداخل البلاد نتيجة ضغوط خارجية واحتياجات مادية ملحة ، بعد أن شحت موارد الاتاوات وتناقصت غنائم القرصنة ، ولم يعد الاسطول الجزائري قادرا على المحافظة على تفوقه في مياه المتوسط · في وقت زاد فيه تكالب بعض الحكام من الاتراك على جمع الثروات لاشباع جشعهم وارضاء مطالبهم ونزواتهم ·

وقد ترك هذا التحول التدريجي آثاره واضحة على أهالي الارياف وعلى أسلوب الحكم التركي بالبلاد الجزائرية ، وذلك بفعل الدور الحاسم الذي كانت تقوم به قبائل المخزن ، فلم يعد دور هذه القبائل أثناء هذه المرحلة مقتصرا على المشاركة في المحلات كما كان الشأن بالنسبة لفترة الباشوات ، وانها أصبحت الساعد الايمن والوسيلة الفعالة لتدعيم الاجراءات الادارية والحربية التي كانت تستوجبها ظروف تلك الفترة ، حتى ارتبطت بها أنظمة الحكم ، واصبح امتداد نفوذ الدولة داخل البلاد يقاس بمدى نشاط هذه القبائل ·

وهكذا يتضح لنا الدور الحاسم الذي لعبته قبائل المخزن ، بحيث جعلت الحكام الاتراك ينظرون الى الاهالي على اختلاف أوضاعهم لا على كونهم رعايا خاضعين وانما باعتبارهم اصنافا ومجموعات بشرية متفاوتة من حيث الواجبات والحقوق ·

فحسب هذه النظرة التي نتجت عن دور قبائل المخزن ، نجد عدة أصناف من السكان ، فهناك صنف خاضع مستغل من طرف الدولة وحلفائها ، وصنف ثان ظل مستقلا أو ممتنعا يعيش منعزلا في أراضي الجنوب والمناطق الجبلية · وصنف ثالث متعاون ومتحالف مع الاتراك ، مع العلم أن قبائل المخزن تنتمي الى هذا الصنف الاخير من السكان ·

على أن هذا التطور الذي عرفته قبائل المخزن أثناء هذه المراحل الثلاث يرتبط بالاسباب والدواعي التي جعلت الاتراك يستخدمونها ويعطونها صلاحيات ومميزات دون بقية السكان ·

فمن أهم هذه الاسباب ؛ ما يتصل بالوضع الديمغرافي للاقلية التركية الحاكمة في الجزائر :

اذ ان ضآلة العنصر التركى دفع الحكام الاتراك الى استخدام قبائل المخزن لتكون لهم سندا داخليا وقوة حليفة ، بعد ان عجزوا عن تجنيد أكثر من اثنى عشر الف رجل من أتراك وكراغلة فى أوقات الحرب (5) ، وبعد ان انخفض عدد الجيش الانكشارى فى الاوقات العادية الى أقل من أربعة آلاف رجل ، وحتى عشية الاحتلال أى سنة 1829 لم يكن يتجاوز عدد هذا الجيش فى الواقع 3661 رجلا • (6)

فى حين ان الاستعانة بقبائل المخزن تعزز الجيش التركى فيصل عدد أفراد الفرق المتحركة منه الى 30 ألف رجل (7) ، ويضع تحت تصرف البايليك 15000 محارب موزع على مختلف انحاء البلاد (8) ، فضلا عن توفير قوة فعالة من فرسان قبائل المخزن تكون موضوعة فى حالة احتياط •

ويمكن ان نتعرف على هذه القوة الاحتياطية لقبائل المخزن من خلال ما توفره بعض هذه القبائل من فرسان ، فقبيلتا الدواير والعبيد بالتطرى تستطيع ان تساهم عند الحاجة بـ 1200 محارب (9) ، زيادة عن 600 (10) فارس تشارك بها القبيلتان فى الاوقات العادية بغية حفظ الامن وجمع الضرائب وحراسة الطرق ومعاقبة الجناة • كما ان دواير ميلة كانت قادرة على تجنيد 1000 فارس عندما يتطلب الامر ذلك ، وكذلك الحال بالنسبة لدواير جميلة وواد الزناتى (11) •

أما السبب الآخر الذى شجع الاتراك على استخدام قبائل المخزن فيتعلق بالوضع المادى الممتاز الذى كان يعيشه أفراد الطائفة التركية ، فهذا الوضع هو الذى دفع الاقلية

---

(5) Emerit M., *les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du XIX^e^ siècle* - Annales Economies S.C. N° 1, 1966, p. 44.
(6) Devoulx, Tachriffat, Alger, 1853, p. 34-36.
(7) Perrot, Alger, *Esquisse topographique et historique du Royaume et de la ville d'Alger*, Paris 1830, p. 55-56.
(8) نفس المصدر ص 53 — 54 :
(9) URBAIN I., *Notice sur l'ancienne province du Titteri*, R. A (1843) p. 400-403.
(10) Boyer (P), *l'évolution de l'Algérie Médiane de 1830 à 1956*, Paris 1960, p. 31
(11) URBAIN, op. cit. p.400-403.

التركية على ان تحافظ على امتيازاتها ومصالحها الخاصة ، وذلك بالتقليل من عدد الجيش المرتزق وعدم الاكثار من جلب المجندين من الاناضول لان عملا مثل هذا يضطرهـم الى صرف أجور كثيرة ومصاريف اضافية تنقص من ثرواتهم ومواردهم الخاصة ٠

ولهذا التجؤوا الى قبائل المخزن يعوضون بها القوة العسكرية الضرورية لحفظ الامن ويوفرون عن طريقها تلك المصاريف والنفقات التى هم فى غنى عن انفاقها ٠

وبالاضافة الى هذين السببين هناك سبب آخر يتصل مباشرة بحفظ الامن وفـرض سيادة الاتراك على الارياف ٠

ويظهر هذا السبب واضحا فى كون حكومة الاتراك فى الجزائر اضطرت أن تعتمـد كثيرا على قوة قبائل المخزن القادرة على التحرك والمتهيئة للقتال فى كل وقت ، بعـد أن لم تعد تتلقى هذه الحكومة التركية فى الجزائر أى دعم مادى أو بشرى من مركز السلطة العثمانية ٠

فبفضل قبائل المخزن استطاع الاتراك ان يفرضوا سيطرتهم ويمدوا نفوذهم عـلى جهات.متباعدة من الايالة الجزائرية ٠ (12) ، وأن يحافظوا على الحاميات المتمركزة بالقرب من الاسواق المهمة والحصون الاستراتيجية والمواصلات الحيوية ، وأن يتمكنـوا مـن استخلاص الضرائب واخضاع الثائرين ٠

هذا بغض النظر عن أن تواجد قبائل المخزن فى النقاط الاسترتيجية من البـلاد ساعد بصورة محسوسة على ابعاد خطر القبائل الجبلية والصحراوية والحد من عصيانها ومنع انسيابها نحو السهول الخصبة بعريب وبنى سليمان ، ومتيجة وغريس وتلمسان وفرجيوة وغيرها ٠

وبذلك تمكن الاتراك من حكم الجزء الاهم والاكثر غنى من الايالة الجزائرية ، بصفـة مستمرة وبطريقة ملائمة وفعالة ، بينما ظلت القبائل الجبلية الشديدة المراس بمناطـق

---

(12) Warnier et Carette, *Description et division de l'Algérie*, Hachette, Paris 1847, p. 49.

(13) الحاج أحمد بن عبد الرحمن الشقرانى الراشدى ، كتاب القول الاوسط فى اخبار بعض من حل بالمغرب الاوسط ، مخطوط ، ص 9 ٠

جرجرة والبابور والاوراس وبنى مناصر والونشريس وبنى سنوس وطرارة منعزلة فى مواطنها الفقيرة لا تجسر على الاقتراب من مواقع فرسان المخزن ، وان هى اضطرتهـا الحاجة الى النزول نحو السهول الخصبة طلبا للرزق ارغمت على الانخراط ضمن فرسان قبائل المخزن ، وهذا ما تؤكده تقاييد منسوبة لبعض حذاق المؤرخين ، اذ تنص هـذه التقاييد على « أن انقياد برابر جبال جنوب تلمسان ، وشمال الظهرة للحكم العثمانى كان بالاسم فقط ، وكذلك الضاعنون مـن العرب ، ما عدا أعراش قليلة مستخدمة فى المخزن لكونها قريبا من رمية مدافع الحصون » • (13)

أما السبب الاخير فهـو يكمن فى محاولة الحكومة التـركية التقليل من عداء بعض القبائل لها ، وذلك بادراجهم ضمن قبائل المخزن واعطائهم الحق فى القيام بمهمة مراقبة المنطقة التى شهدت ثوراتهم •

فبهذا العمل الذكى أمن البايليك ثورات القبائل المشاغبة ، وتخلص من المشاكـل التى كانت تثيرها ، بل وانتفع رجال البايليك بنشاطها الجديد عندما أمكن لهم مراقبته وتوجيهه لاخضاع بعض المناطق الجبلية أو الصحراوية •

وهناك أمثلة عديدة لهذا العامل الذى أوجد كثيرا مـن قبائل المخـزن فى الاراضى الجبلية والسهبية ، ففى الجهات الجنوبية الشرقية من بايليك التطرى أصبح أولاد سيدى عبد الله ينتمون الى قبائل المخزن بعد أن اصبغ البايليك على لصوصيتهم صبغة شرعية وأوكل لهم مراقبة المنطقة الممتدة بين سيدى عيسى وبوسعادة • (14)

وفى السرسو جنوب الونشريس سمح الاتراك لعشيرة أولاد عياد وعلى رأسها عائلة فرحات أن تمارس نفس مهام قبائل المخزن وأن تراقب نيابة عن الحكومة قطاع أولاد عنتر وأولاد هلال ، ونفس الشىء حدث جنوب التطرى ، اذ اصبحت قبيلة أولاد مختار مهيأة للقيام بدور قبائل المخزن ، رغم منافسة قبائل بوعياش وأولاد شايب لها ولو أنها لـم تتلق الاذن الرسمى من السلطة التركية على ذلك • (15)

---

(14) Arch, du gouvernement de l'Algérie 21 / H. 19, notice des tribus de la subdivision d'Aumale.
(15) Boyer, (P), l'évolution, p. 25

هذه بعض الاسباب التى جعلت مصالح الحكومة التركية بالجزائر ترتبط أساسا بالخدمات والمهام التى كانت تقوم بها قبائل المخزن ·

وبالتالى أصبح لزاما على الحكومة التركية ان أرادت تدعيم حكمها وتقوية نفوذها ان تحافظ جاهدة على ولاء والتزام تلك القبائل ، وهذا ما دفعها بالفعل الى اصباغ بعض الامتيازات واقرار بعض الحقوق لقبائل المخزن دون بقية الاهالى ·

فمن هذه الامتيازات : الاعفاء من الضرائب الاضافية والاكتفاء بدفع واجب الزكاة والعشور ، فى حين الزمت قبائل الرعية الخاضعة مباشرة للبايليك بتقديم الضرائب الاضافية بجانب أداء رسوم الزكاة والعشور ·

وقد كانت هذه الضرائب الاضافية لا تتعدى فى بأدىء أمرها ضريبة الخراج الاسلامية التى كانت تفرض على أهل الذمة فى الفترة الاسلامية ، ثم تطورت مع الزمن حتى أصبحت فى الفترة العثمانية تتضمن عدة أنواع من الالتزامات المالية الثقيلة كالغرامة والمونة والقادة (16) · وهى المعروفة عادة عند قبائل الرعية باسم اللزمة · والغرامة فى بايليك التطرى وبايليك الغرب ، وبأسم الحكور والجبرى والغرامة والمونة فى بايليك قسنطينة ·

مع الملاحظة بان هذا الاعفاء من الضرائب الاضافية الذى حظيت به قبائل المخزن ، وميزها عن بقية السكان ، لم يكن قاعدة عامة ولا حكما شاملا ، اذ نجد هناك بعض الاستثناءات التى استوجبتها وضعية بعض الجهات ، واصبح معها لزاما على بعض القبائل المخزنية أن تساهم بقسط من الواجبات المالية ، وان كان هذا القسط لم يصل فى كميته ومقداره حدا يجعله نوعا من الضرائب الاضافية الثقيلة ·

فهذه المساهمات المالية لم تكن تنقص فى الواقع من امتيازات قبائل المخزن ، ما دامت لم تتجاوز سدسى المحصول (17) ولم تتعد تقديم حصان واحد وبعض الخرفان (18) ، فى

---

(16) Pouyanne, p. 220.

(17) Pouyanne, p. 293.

(18) Rinn, *le Royaume d'Alger sous le dernier Dey*. R. A. 41/1897, p. 128.

وقت كانت فيه الخيمة المتوسطة الحال من قبائل الرعية يستخلص منها 115 فرنكا أى ما يعادل 28 خروفا سنويا ، زيادة عن الزكاة والعشور • (19)

مع العلم بأن ما تقدمه قبائل المخزن من زكاة وعشور وبعض المساهمات المالية كان يدفع فى شكل انتاج عينى من نوع المحصول ، أما ما تقدمه قبائل الرعية من ضرائب اضافية فكان يتم على شكل مبالغ نقدية (20) ، مما يضطر تلك القبائل الى بيع محاصيلها بثمن بخس لتحصل على النقود اللازمة لتسديد الضرائب ، وهذا ما يزيد فى استنزاف مواردها ويجهد طاقتها الانتاجية •

أما المنطلق الذى يعتمد عليه هذا التمايز بين قبائل الرعية والمخزن ، والهدف الذى تسعى الدولة آنذاك لتحقيقه من وراء ذلك ، فيكمن حسب ما نستنتجه من أوضاع الملكية العقارية فى تلك الفترة ، فى أن العشور والزكاة باعتبارهما ضريبة اسلامية شرعية تحق على المسلمين ، كانا بمثابة رمز لتحالف وتعاون قبائل المخزن ، أما الحكور والغرامة واللزمة وغيرها من الضرائب الاضافية ، فكانت عبارة عن رسوم مالية مقابل حق كراء الاراضى واستغلالها عوضا عن البايليك ، وبالتالى تكون الاراضى التى يحق عليها العشور والزكاة ، أو التى يفرض عليها الحكور والغرامة ملكا للدولة والبايليك ، لانها فى الحالة الاولى تقدم بدون كراء كامتياز تحظى به القبائل الحليفة حتى تبقى على اخلاصها وتعاونها، وهى فى الحالة الثانية تقدم مقابل كراء متعارف عليه لتزيد بذلك الدولة تحكمها فى القبائل الخاضعة والمغلوبة على أمرها •

ولعل عدم التفريق بين الحالتين ــ حالة المنح بدون مقابل وحالة الكراء ــ هو الذى جعل السيد رين (21) ، عندما أراد أن يصنف المجموعات السكانية فى الجزائر أن يدخل فى عداد قبائل المخزن بعض قبائل الرعية ، متناسيا بذلك الهدف من نظام الضرائب وما يترتب عليه •

---

(19) Emerit, *la stution économique de la Régence d'Alger en 1830*, p. 171.
(20) Carette et Warnier, description, p. 48.
(21) Rinn, op. cit., p. 331 et sq.

أما الجانب الآخر من الامتيازات التى حظيت بها قبائل المخزن فيمس الحالة النفسية والوضعية المعاشية لهذه القبائل ٠ اذ كانت العائلات التى تنتمى الى المخزن كثيرا ما تتمتع بالامن والحماية ، وتعيش فى مأمن من الغارات والتعديات التى تكاثرت فى أواخر الفترة العثمانية ، وتنعم بحياة كريمة بما تدره أراضيها الخصبة من انتاج وفير ، وبما تتسلمه من مبالغ نقدية هامة من قبائل الرعية المجاورة ٠

وبالفعل أصبح هذا المورد المالى الذى كان يتحصل عليه فرسان المخزن من قبائل الرعية يشكل دخلا محترما ودعما ماليا لا يمكن التقليل منه ، لا سيما فى أواخر الفترة العثمانية عندما أصبح للمجموعات المخزنية نفوذ خاص وتأثير ملموس على مناطق شاسعة من الايالة الجزائرية (22) ، كما هو الحال فى الاراضى المعروفة باليعقوبية الواقعة جنوب معسكر ، والممتدة حتى الشط الشرقى (23) ، حيث كانت قبائل الدواير والزمالة المستقرة فى الجهات الشمالية ، تمارس سلطة خاصة على القبائل الرعوية المقيمة فى هذه الجهات ، وتتقاضى منها رسوما مالية لا يصل منها الى يد البايليك سوى الجزء اليسير ٠

وكما هو الشأن بالنسبة لقبيلة أولاد خليف المنتمية لنظام المخزن ، اذ كان شيخها يفرض على كل القبائل الرعوية من شعانبة ، وسعيد عطية ، والارباع ، وأولاد يعقوب والزرارة والمخادمية مبلغا من المال يعرف برسم العسة (24) ، مقابل اختلافها الى الاسواق وترددها على المراعى الواقعة تحت تصرفه ٠

وبجانب هذا المورد المالى الذى ساعد بصورة محسوسة على تحسين الظروف المعاشية لقبائل المخزن ، هناك الكثير من المنح التى تقدمها الدولة لفرسان هذه القبائل ، كالفرس والسلاح وأدوات العمل الفلاحية دون مقابل ، مع اعطاء أجور مؤقتة للمحاربين منهم تماثل الاجرة التى كانت تصرف لافراد الجيش الانكشارى ، هذا بغض النظر عما ينتفعون به من الغنائم والاسلاب التى كانوا يتحصلون عليها اثناء مشاركتهم فى المحلات العسكرية ولنا أمثلة حية تشهد على ذلك ، مثل تلك التشجيعات التى قدمها الحاج أحمد آخر بايات

(22) A. Bernard, M. Lacroix, *l'évolution du nomadisme en Algérie,* Paris, 1906, pp. 27-28.

(23) Boyer, l'évolution, p. 31.

(24) Carette et Warnier, notice, p. 151.

قسنطينة (1826 ـ 1837) لفرسان المخزن عندما أراد الانتقام من قبيلة عبد النور ، والتى تتلخص فى اعطاء 30 ريالا (60 فرنكا) لكل فارس يستظهر برأس من رؤوس الاعداء ، ومنح 10 ريالات (20 فرنكا) لكل من يغنم بندقية للعدو ، مع الاحتفاظ بكل ما يتم الاستيلاء عليه من الامتعة والملابس (25) ·

ولعل الشيء الذى ساعد على تدعيم امتيازات قبائل المخزن ولا سيما النـــوع الاخير منها والمتمثل أساسا فى الانتفاع بالموارد المالية المستخلصة من مناطق قبائل الرعيـــة الخاضعة ، يكمن فى أهمية الامكنة الاستراتيجية والمواقع الحصينة والنقاط الحيـــوية المكلفة بحراستها والمحافظة على هيبة الحكومة بها ·

ففى هذا الصدد نجد أن قبائل المخزن كانت تتمركز فى الاماكن والنقاط التالية :

1 ـ حول الابراج والحصون التى كانت تقيــم بها الحاميات التركية الصغيرة ، وفى هذه الحالة يكون فرسان القبيلة على أهبة الاستعداد لحمل السلاح وخوض المعارك اذا طلب منهم قائد الحامية التركية ذلك (26) ·

ومن أشهر القبائل التى كانت تقيم حـول هذه الاماكن : هاشم ببرج بوعريريج ، وعمراوة ببرج ساباو ، وأم نائل ببرج يسر ، والخشنة ببرج ثنية بنى عائشة ·

2 ـ بالقرب من الخوانق الجبلية والممرات الصعبة وعند الجسور والقناطر الرئيسية ·

ومن أهم الممرات والفجاج الجبلية التى استقرت بالقرب منها تلك القبائل : ممـر سور الغزلان حيث قبيلة عريب ، وممر الكنتور بين سطورة وقسنطينة وتحرسه قبيلة أولاد ابراهيم المخزنية ، وممر رأس العقبة بين قالمة وقسنطينة وتحرسه دائرة الزناتية ، وكذلك مضيق وادى يسر « الاخضرية » فبالقرب منه حرشاوة والزواتنة ، ومضيق وادى الجر المراقب من طرف مخزن بوحلوان ، ومضايق وادى مينا وتراقبه مجموعات مخـزن المكاحلية ·

أما القناطر والجسور الهامة التى كانت تستقر حولها مجموعات المخزن ، فنذكر منها قنطرة يسر حيث مخزن الخشنة ، وقنطرة الشلف الكبرى غرب مليانة وبجوارها مخـزن أولاد الصحارى ·

---

(25) Féraud, (L), notice historique sur Ouled Abdennour, Constantine, 1864, p. 151.

3 ــ بجوار الاسواق الرئيسية الاسبوعية منها والفصلية ، كسوق عين اللوحة بالقرب من تاهرت ، ومنه يراقب مخزن أولاد خليف تحركات أولاد سيدى الشيخ التى كثيرا ما كانت تقلق الباى على بن شنوف (27) ، وسوق الاربعاء جنوب التطرى ، تراقبه قبيلة أولاد مختار الحليفة وسوق العثمانية غرب قسنطينة وبالقرب منه دائرة الصحراوية ومخزن بوصلاح ٠

ويضاف الى هذه الاسواق ، تلك المستودعات الرئيسية لخزن الحبوب وحفظ المحاصيل الزراعية المعروفة بمطامير البايليك ، وكذلك الطواحين المائية ٠

وما دامت هذه المستودعات والطواحين تقع فى الغالب بالقرب من المراكز العسكرية أو عند مخارج المدن (28) ، فانّ مهام قبائل المخزن انحصرت فى مساعدة الجيش الانكشارى على حراستها والتعرف على الاهالى المختلفين اليها قصد مراقبتهم وفرض الضرائب عليهم .

4 ــ عند محطات القونان KONAQ المقامة عادة عند نهاية كل مرحلة من مراحل الطريق ، وهذه المحطات كانت عبارة عن مجموعة من الخيام تقيمها قبائل المخزن لتكون مأوى ومكانا أمينا تحط به القوافل رحالها وتستريح عنده فرق الاوجاق المتوجهة من الجزائر أو اليها من احدى مراكز البايليك ، والحاملة للضرائب السنوية والفصلية المعروفة بالدنوش الكبرى والصغرى ، كما تستخدم هذه المحطات أيضا لتوقف حاملى البريد والضرائب (29) وبعض المسافرين للاستراحة من عناء الطريق واتعاب السفر قبل مواصلة الطريق ٠

5 ــ على مقربة من طرق المواصلات الرئيسية والمسالك المهمة ، وبالخصوص الطرق المعروفة آنذاك بالطرق السلطانية ، والتى كانت تربط مراكز البايليك فى مدن قسنطينة والمدية ومعسكر ووهران بمركز السلطة الحاكمة فى الجزائر ٠

فاذا تتبعنا مثلا طريق السلطان الرابط بين الجزائر وكل من مدينتى وهران ومعسكر نجد العديد من قبائل المخزن مستقرة حوله ؛ فمن الشرق نحو الغرب نجد على التوالى :

(26) Warnier et Carette, description, p. 47.
(27) A. Bernard, N. Lacroix, pp. 27-28.
(28) Emerit, la situation économique, p. 170.
(29) Rinn, op. cit., p. 133.

مخزن بوحلوان بالقرب من مليانة ـ ومخـزن أولاد الصحارى الى الغـرب من مليانة ، ومخزن بنى يحيى على وادى الروينة ، زمالة البغدادى على وادى الفضة ، مجموعتين من قبائل الزمالة عند ملتقى وادى اسلى بالشلف ، عزارة وزمالة الحاج المدة عند ملتقى وادى رهيـو بالشلف ، ثم نجـد مجموعتين آخريين من قبائل الزمالة عند ملتقى وادى مينـا بالشلف فمخزن الصحارى عـلى وادى الهليـل (30) ثـم مجموعات الدواير والزمـالة المنتشرة بين وهران ومعسكر ·

أما اذا سرنا مع الطريق السلطانى الواصل بين الجزائر وقسنطينة ، فهناك العديد من هذه القبائل : مخزن الزواتنة ، مخزن حرشاوة عند بنى هارون على وادى سفلات أحد روافد يسر ، العريب على وادى الاكحل ، هاشم بالبرج ، الغرازلة الغربية بعين الترك ، العثمانية بسطيف ، دائرة وادى الذهب بنواحى العلمة ، دائرة بوصلاح والصحراوية بنواحى قسنطينة (31) ·

هذا ولم تقتصر حراسة قبائل المخزن على الطرق السلطانية فقط ، بـل تعدتها الى مراقبة الطرق الثانوية الرابطة بين مراكز البايليك وباقى المدن الاخرى ، مثل طـــريق قسنطينة تونس التى كانت تحرسها زمالة بنى مراد ، وطريق قسنطينة القل (32) التى كان يراقبـها مخـزن أولاد ابراهـيم والمعـاوية ، وطـريق قسنطينة عنـــابة ، التى كانت تتحكم فيها دائرة الزناتية ، وطريق المدية الاغواط التى كان يشرف عليها مخزن البرواقية المكون من العبيد والدواير (33) ·

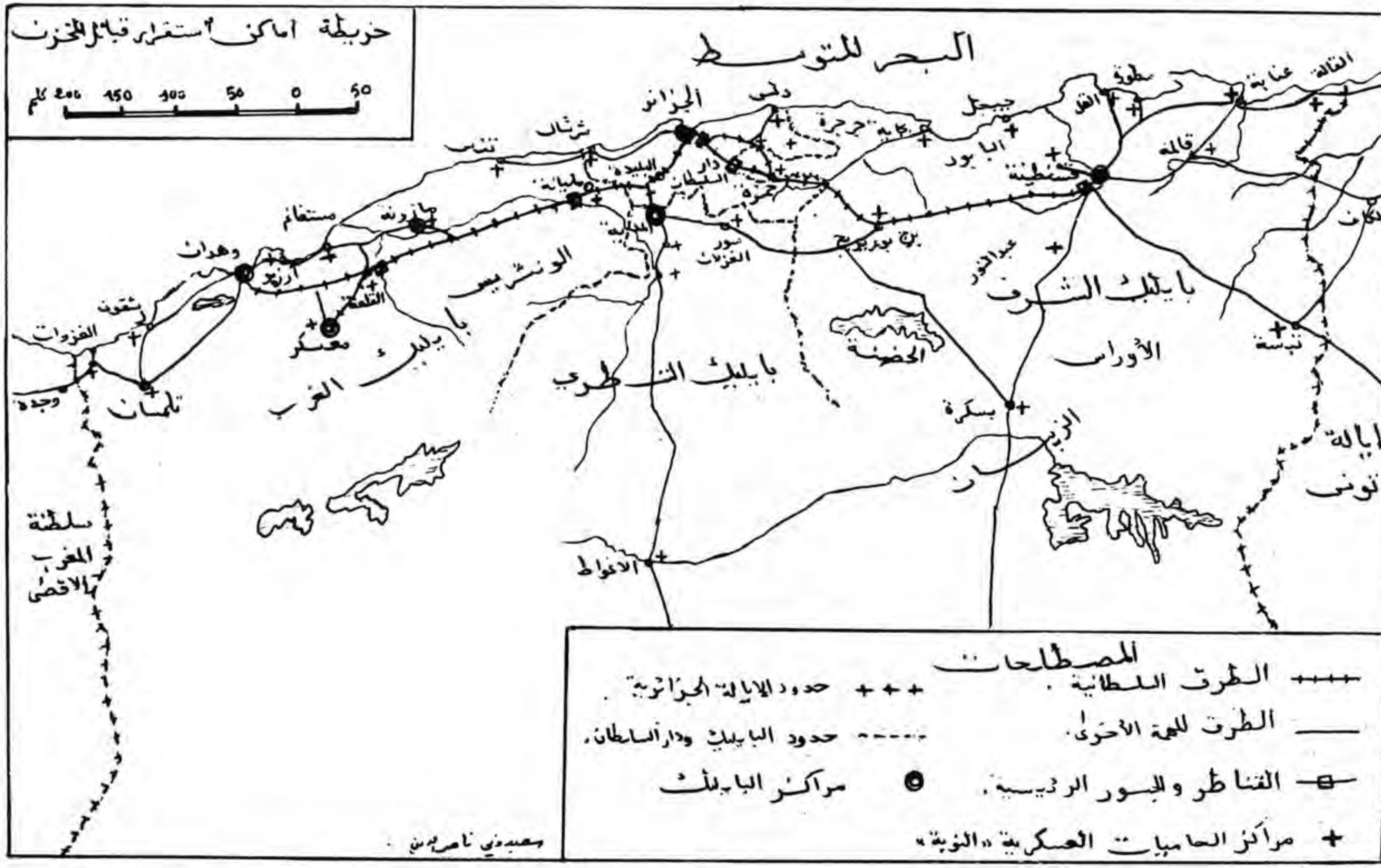
6 ـ فى النقاط التى تمر بها المحلات الفصلية عند قيامها بمهام جمع الضرائب ، او عند خروجها لمعاقبة الثائرين ، وكذلك فى الاماكن التى تتكرر فيها الثورات والهجومات على موظفى الحكومة ، وهذا ما يقدم لنا جوابا كافيا على الهدف من استقرار دوائر المخزن فى الاماكن التالية : نواحى ميلة وجميلة وساباو وبوغنى ويسر والخشنة وعين بوسيف والبرواقية وبوغار · لان البايليك استطاع بفضل قبائل المخزن هذه أن يبقى قبائـل

(30) Warnier et Carette, description, p. 49.

(31) Warnier et Carette, description, p. 50.

(32) كانت القل تعتبر الميناء الطبيعى لقسنطينة طيلة الفترة العثمانية ·

(33) أنظر : خريطة أماكن استقرار قبائل المخزن الملحقة بالمقال ·



خريطة أماكن استقرار قبائل المخزن
50 0 50 100 150 200 كلم
البحر المتوسط
الجزائر
دلس
جيجل
عنابة
القالة
قسنطينة
قالمة
الكاف
شرشال
تنس
مستغانم
وهران
تلمسان
وجدة
معسكر
مليانة
البليدة
المدية
سور الغزلان
برج بوعريريج
بسكرة
تبسة
الأغواط
بايلك الشرق
بايلك التيطري
بايلك الغرب
الونشريس
الأوراس
الحضنة
إيالة تونس
سلطنة المغرب الأقصى
المصطلحات
الطرق السلطانية.
الطرق للجهة الأخرى.
القناطر والجسور الرئيسية.
مراكز الحاميات العسكرية «النوبة»
حدود الإيالة الجزائرية.
حدود البايلك ودار السلطان.
مراكز البايلك

جرجرة والتطرى فى هدوء وسكينة مدة طويلة ، كما استطاع صالح باى ومن بعده أحمد باى قسنطينة أن يقمع ثورات الاوراس والهضاب العليا الشرقية باسكان قبائل الزمول فى الهضاب العليا وسفوح الاوراس الشمالية بعد طرد قبائل عبد النور واحلافها من تلك الجهات .

7 ـ فى المواقع الحساسة ، والمهددة بهجمات الاسبان وغارات المغاربة باستمرار كالسهول الوهرانية ، التى عرفت استقرار قبائل المخزن من زمالة ودوائر على ثلاث فترات متعاقبة ، تحكمت فيها الملابسات التى عاشتها الناحية الغربية :

ـ الفترة الاولى : تعود الى الثلث الاول من القرن السادس عشر ، وقد تمكن أثناءها الاتراك من مصادرة أراضى قبيلة الامحال بالسهول الخصبة الممتدة من البحر الى سفوح الاطلس التلى ، ومن وادى صالادو الى نهرى الشلف ومينا ، بما فى ذلك مدينتى آرزيو ومستغانم حيث لا زال برج الامحال يحمل اسم هذه القبيلة العتيدة .

وقد استقرت مجموعات المخزن فى الاراضى المصادرة ، وبذلك أمكن التقليل من الخطر الاسبانى ، ووضع حد نهائى لمقاومة قبيلة الامحال ، وان بقيت ذكراها عالقة باذهان الرواة الى القرن الماضى لشدتها وضراوتها ، واجبرت الفلول المتبقية منها على الانعزال فى أراضى مجيرد الواقعة الى الغرب من نهرى الشلف ومينا (32) .

ـ أما الفترة الثانية التى استقرت فيها قبائل المخزن بالسهول الوهرانية ، فتمت فى نهاية القرن الثامن عشر ، واعقبت طرد الاسبان من وهران للمرة الاولى سنة 1709 م ، ومصادرة أراضى القبائل المساندة لهم من عشائر بنى عامر وفليتة ، عقابا لها على مساندتها للاعداء الاسبان ، وبذلك استطاع الباى مصطفى بوشلاغم توطين الزمول والدوائر من جديد بالسهول القريبة من وهران ، سعيا منه للحيلولة دون اية محاولة أخرى قد يقوم بها الاسبان والمغاربة .

ـ الفترة الثالثة ، ارتبطت بطرد الاسبان من وهران سنة 1792 م للمرة الثانية والاخيرة ، وقد بادر الباى محمد الكبير اثناءها الى اقرار مجموعات الدواير والزمالة

(33) Bache (P.E.) *la Propriété Arabe en Algérie avant* 1830 *in, Revue Algérienne et coloniale,* T. III, (1860), pp. 694-695.

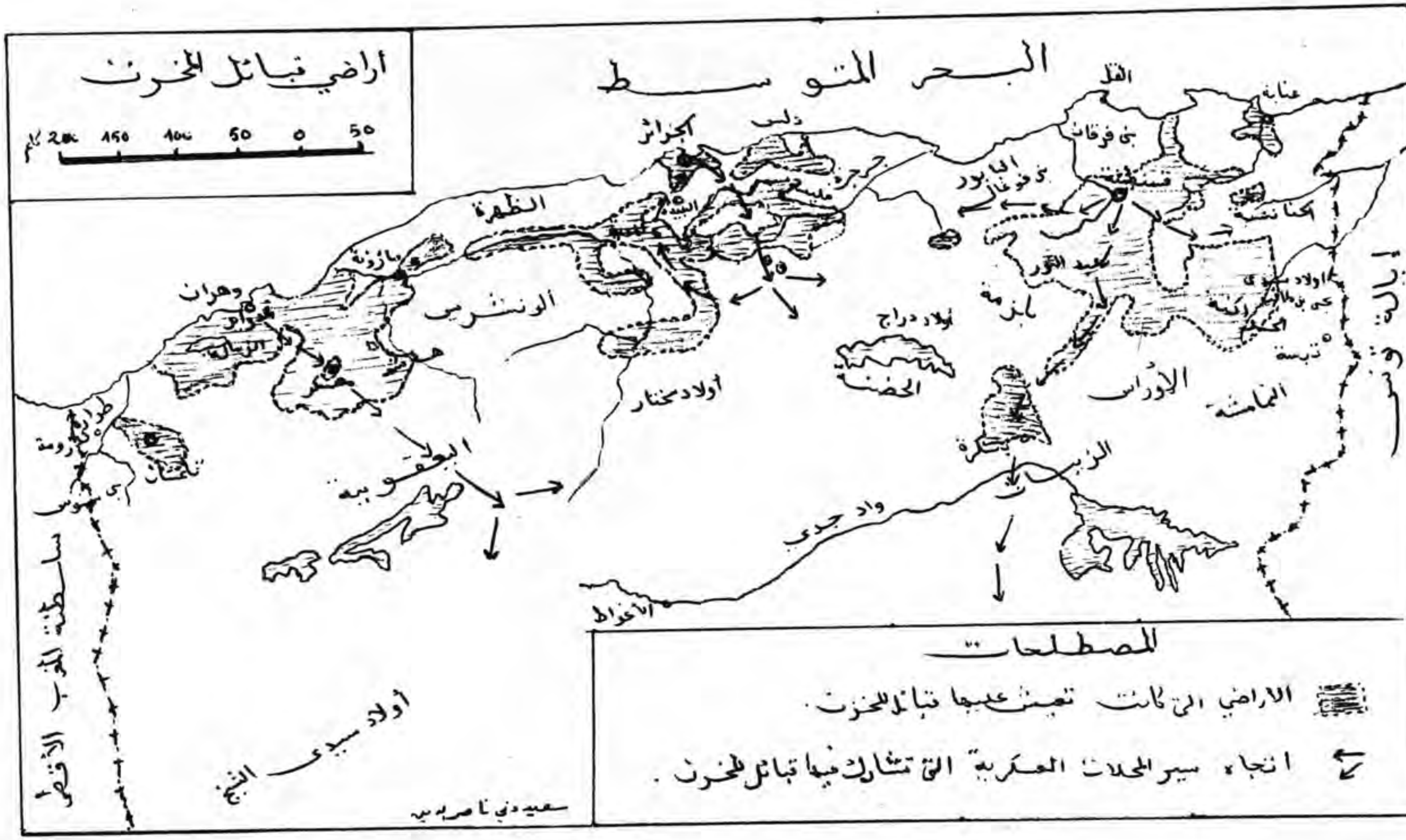
بالجهات المحيطة بوهران مباشرة ، بعد ان أحس بالحاجة الى خلق قوة محلية تشد ساعده فى صد هجمات درقاوة ودسائس المغاربة ، فضلا عن أن هذه القوة تكفل له القضاء على شوكة المتعاونين مع الاسبان من العرب المسالمين las Moros de Paz من عشائر حميان وقبائل بنى عامر وفى مقدمتهم أولاد عبد الله وقيزة المشهورين باخلاصهم للاسبان (34) .

وهكذا تم توطن الدوائر والزمالة بالجهات الوهرانية ، وبذلك اكتمل دور قبائل المخزن فى تدعيم سيادة الاتراك بالايالة الجزائرية .

على أن هذا الدور يدفعنا الى التساؤل عن الآثار والنتائج التى ترتبت على تواجد قبائل المخزن ، والخصائص والمميزات التى طبعت بها المجتمع الريفى الجزائرى ، والنظام الاقطاعى الذى انبثق من دور المخزن الادارى والعسكرى والفلاحى ، وهذا ما نتمنى ان نواصل الكتابة حوله فى مقال آخر ان شاء الله .

---

(34) عبد القادر المشرفى الجزائرى ، بهجة الناظر فى اخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الاعراب كبنى عامر ، تحقيق ، محمد بن عبد الكريم ، مكتبة الحياة بيروت بدون تاريخ ، ص 26 ــ 30 .



أراضي قبائل المخزن
50 0 50 100 150 200 كلم
البحر المتوسط
القل
عنابة
بني فرقان
الجزائر
دلس
جرجرة
الظهرة
مازونة
وهران
الونشريس
تلمسان
ندرومة
أولاد مختار
أولاد دراج
الحضنة
بسكرة
الزيبان
الأوراس
النمامشة
تبسة
الحنانشة
بلزمة
واد جدي
الأغواط
أولاد سيدي الشيخ
سلطنة المغرب الأقصى
إيالة تونس
المصطلحات
الاراضي التي كانت تعيش عليها قبائل المخزن.
اتجاه سير المحلات العسكرية التي تشارك فيها قبائل المخزن.
سعيدوني ناصر الدين

كيف تم التعريب فى وزارة العدل

د . بوعلام بن حمودة
وزير العدل وحافظ الاختام



ان الاهداف الاساسية للثورة الجزائرية اقتضت انشاء لجان خاصة تدرس وتناقش وتقترح أنجع الطرق لبلوغ تلك الاهداف وتضمن استمرارية المجهود والتجنيد .

ففى هذا المضمار شهدنا ميلاد اللجنة الوطنية للثورة الزراعية واللجنة الوطنية للتسيير الاشتراكى للمؤسسات واللجنة الوطنية للتشريع واللجنة الوطنية للتعريب التى ينبغى أن ترسم مثل أخواتها .

وقد استطاعت هذه اللجنة الاخيرة ان تجند المناضلين فى القاعدة وفى القمة وان تفسح المجال للعمل البناء ، وان تستقطب انتباه الرأى العام الوطنى وان تهيىء الظروف المادية والمعنوية لعقد هذه الندوة وهى حاملة معها الدراسات التحليلية والاقتراحات الموضوعية لاعطاء اللغة العربية مكانتها الطبيعية فى وطنها وفى ضمير شعبها الذى لم يتشكك يوما ما عن عروبته وعن اسلامه .

(*) محاضرة القيت فى الندوة الوطنية الاولى للتعريب . قصر الامم بالجزائر من 14 ـ 19 ماى 1975 .

لقد اتت اللجنة بوثائق تناولت مسائل نظرية وتطبيقية معا لان الحديث عن التعريب ليس كافيا ان لم تمنح اللغة العربية وجودا فى كل مرافق الحياة ·

والتجربة دلت على ان النظرية تبقى جامدة أو صورية اذا نقصها التطبيق الذى لا تؤكد الا به ولا تصحح ولا تكمل الا على ضوئه ·

فالمسألة هذه بقيت فى اذهاننا راسخة ونحن نشرع بدون انتظار وبدون تردد فى تعريب القضـــاء ·

وبما اننا نعيش السنة الرابعة من تطبيق التعريب فى وزارة العدل طلبت منا اللجنة الوطنية للتعريب أن نفيد الندوة بالحديث عن الطريقة التى انتهجناها وعن النتائج التى حصلنا عليها وعن الصعوبات التى لاقيناها ·

فى اى اطار اتخـــذنا القـــرار :

المنشور الاول الذى امضيناه فى 15 سبتمبر 1971 والذى يأمر بتعريب المحاكم والمجالس تعريبا كاملا شاملا لم يأت بصفة ارتجالية بل أخذ بعين الاعتبار المسائل التالية :

1) علاقة القضاء بالجمهور وارتباطه بالسيادة الوطنية التى حصلنا عليها بعد كفـــاح مريـــر ·

2) التعريب هدف من أهداف الثورة فلا يعقل أن يفصل عن الاهداف الاخرى وهـــو نتيجة طبيعية من نتائج الاستقلال الوطنى· ونذكر بأن كل وثائق الثورة مـــن برامـــج وخطب تؤكد على ضرورة استرجاع اللغة الوطنية · فالقرار الذى اتخذناه فى وزارة العدل منسجم تماما مع محتوى ثورتنا المجيدة ·

3) الامر الرئاسى الذى صدر فى 26 أفريل 1968 يفرض على الموظفين معرفة اللغـــة العربية معرفة كافية ·

4) صحة ايماننا بمقدرة الانسان فى التكيف مع الظروف الجديدة وعلى الاجتهاد السريع أمام هذه الظروف ولا سيما اذا شعر بانه لا مكان ولا حيلة للرجوع الى الوراء ·

فالمقصود من التطرف فى قرارنا ومن المفاجأة هو « رمى الناس فى البحـــر ليتعلموا السباحة » وارغامهم على ممارسة اعمالهم باللغة الوطنيـــة ايمانا منا بان الممارســـة هى الطريقة الوحيدة التى تخطو بالتعريب خطوات عملاقة ·

5) تأثير عدة عوامل موضوعية تخدم التعريب في الجزائر وكثيرا ما يغفل عنها الناس وهى : توسع التعليم المعرب • تطور امكانيات الطبع والنشر • دخول الكتاب العـــربى وقد كانت الابواب مغلقة امامه قبل الاستقلال • نشاط وسائل الاعلام امكانيات هائلـــة منحناها الوسائل العصرية من مسجلات ومخابر لغات وافلام واسطوانات • فكل هذه الوسائل الناجعة تخفى على من يعيش فوق الارض وهو لا يعى ما يجرى حوله الا ما له علاقة بقوته وسلامتــه •

6) تجربة التعريب الكامل فى مجلسى بشار وورقلة منذ 1966 نفعتنا باطلاعنا على العقبـــات •

عمليــة التعريب •• وكيف جــرت :

بعدما أخذنا بعين الاعتبار كل الوسائل المذكورة آنفا اصدرنا فى 15 سبتمبر 1971 منشورا يأمر باستعمال اللغة العربية فى الجلسات والمرافعات وباتخاذ الاحكـــام المعربـة وبرفض مذكرات المحامين ان لم تكن مكتوبة باللغة الوطنية •

والملاحظ أن الامر كان صارما ولكنه اختصر فى التطبيق الحديث وحتى الكتابة بالعربية الدارجة لان المهم كان عندنا المرور من عهد الفرنسية الى عهد العربية ونحـــن نعلـم أن الممارسة وحدها هى التى تصحح الالسن وتصقل الاقلام وتحث عن البحـــث عـن تدقيق المصطلحات وتحض على توحيدها فى مستوى البلد أولا ثم فى مستوى الوطن العربى ثانيا •

ولسد الطريق أمام كل من يريد الاعتماد على نقص الوسائل ليعارض عملية التعريب اسرعنا الى تزيد القضاة والمحامين بمطبوعات قانونية تساعدهم فى اعمالهم والى تنظيـــم الدروس فى كل محكمة والى انشاء مركز لاعادة التكوين متمتع بمخبر اللغات وبمكتبة غنية•

وتجدر الاشارة ان كل مطبوعاتنا مشكولة وذلك لتجنب اللحـــن وللتعجيل بحفـــظ المصطلحات ولتسهيل الفهم على المواطنين •

وقد تغلبت التقنية على صعوبة الطباعة المشكولة والكتابة المشكولة على الآلة الراقنة فلماذا نتردد فيما يخص اعادة الشكل الى لغتنا والاسباب التى تدعو اليها اليـــوم أشـــد الحاحا من تلك دعت فى زمن الخليل بن أحمد الفراهدى •

ومن المعلوم ان الاستمارات اذا كانت مكتوبة بالعربية والفرنسية تغوى كثيرا من الناس على ملئها بالفرنسية ولهذا كانت الاستمارات التى طبعناها مكتوبـــة بالعربية وحدهـا للارغام على التفكير والتحرير باللغة الوطنية وحدها • ونعتقد ان الازدواج اللغوى ان كان مفيدا للثقافة الشخصية فانه يصبح عائقا اذا اعتمدناه في الاستعمال •

« تصحيح العملية وتوسيعها »

بعد أن مضى على عملية التعريب سنتان ونصف تقريبا وبعد أن اطلعنا من خلال تجوالنا واجتماعاتنا المتكررة على ما قطعنا من مراحل بدأ لنا ان نضع الاسس المتينة والنهائية للقضاء الجزائرى المعرب تعريبا كاملا وذلك يوجد فى منشور 2 ماى 1974 الذى كان أوسع وأدق من المنشور الاول لسنة 1971 ·

فان منشور 2 ماى 1974 موجه لكل الهيئات التابعة لوزارة العدل لاننا اكتشفنا ان بعض المصالح اعتبرت انها غير معنية بالتعريب فذكرنا فى المنشور هذه المصالح باسمائها : الادارة المركزية والمحاكم والمجالس ومكاتب التوثيق ومؤسسات اعادة التربية ومركز اعادة التكوين وديوان الاعمال التربوية وهيئة المحامين ، ووضحنا لها ما هو المطلوب منها من أجل تعريبها تعريبا كاملا ·

فالعملية اصبحت اذا أكثر شمولا تحت دفع حريتها وأحسن تكييفا تحت اثر مكاسبها ·

فالتعريب كما قلنا فى المنشور لا يهم المرافعات والاحكام فقط بل لابد أن يغزو جميع أنواع النشاطات الادارية من مكالمات هاتفية واجتماعات وحوار مع الجمهور ورسائل وقرارات ونصوص تنظيمية وقانونية ورخص مختلفة وعقود توثيق ، وتوصلنا فى المنشور الى رسم صورة التعريب الكامل ·· ان كل ما يصدر من وزارة العدل ومن المصالح التابعة لها يجب أن يكون بالعربية وحدها أما الترجمة فهى غير اجبارية أى تتماشى مع حاجيات المحيط الادارى الخارج عن وزارة العدل فألغينا الترجمة الاجبارية نظرا للخطر الذى تحدثه فى مسيرة التعريب اذا أننا علمنا ان بعض الموظفين والقضاة ينطلقون من النص الفرنسى الى النص العربى ومن جهة أخرى لاحظنا أن كثيرا من المحاكم والمجالس والمكاتب التوثيقية أصبحت تعمل بالعربية فلم نحملها مشقة الترجمة اذا كانت هذه غير لازمة ·

فانظروا كيف تخلق العملية منطقها الخاص بها وترغم المسؤولين على الذهاب الى ابعد مما خططوا ·

ان عملية التعريب تحدث تفاعلات متسلسلة تؤدى فى النهاية رغم الاضطراب الذى يصحبها تؤدى الى حتمية شمولية التعريب وحتمية اضمحلال العمل بالفرنسية ·

النتائج :

من النتائج ما هو نفسانى :

ان القرار المتطرف الذى اتخذناه أحدث صدمة سارة عند البعض ودهشة عند البعض الآخر ولكن الناس سرعان ما تخلوا عن الذهول وحاولوا ان يتكيفوا مع الوضع الجديد وهذه نزعة طبيعية عند البشر ينبغى استغلالها ·

فانكب القضاة المحامون على تعلم اللغة العربية والكثير منهم لاول مرة منذ الاستقلال ·

والجلسات العلانية خلقت جوا ساعد على تعود المصطلحات القانونية وأشعر الشعب أكثر فأكثر بمعنى الاستقلال الوطنى ·

ومن ناحية أخرى قضى التعريب الكامل على التمييز بين الجنوب المعرب والشمال المفرنس ·

فان اعتمدنا فى أول العملية على القضاة المزدوجى اللغة المكونين فى الجزائر بالمدارس « الفرنسية الاسلامية » وعلى الاخوان المجاهدين والمناضلين الذين تكونوا فى الشرق تحت رعاية جبهة التحرير الوطنى فاننا الآن نعتمد أيضا على عناصر أخرى تتألف من الشبان المتخرجين من الاقسام المعربة ومن القضاة والكتاب الذين كانوا لا يعملون الا بالفرنسية وحصلوا فى زمان قصير على رصيد لغوى جعلهم فى صف العاملين والقائمين على التعريب فهذه النتيجة مهمة للغاية ·

ـ هناك ، بجانب النتائج النفسانية نتائج متعلقة بالتعليم : فالقرار الذى اتخذناه لتحقيق التعريب أدى الى تنظيم دروس اجبارية فى كل المحاكم والمجالس والى فتح مركز الدار البيضاء الذى يدرس بصفة مكثفة اللغة العربية والمسائل الفقهية ويعلم الضرب على الآلة الراقنة واستعمال المطبوعات الجديدة ، وتحرير الاحكام والمركز معرب تماما ، وقد تخرج منه عدد من القضاة والكتاب وكانوا مدة ثلاثة أشهر لا يسمعون الا لغة الضاد وينتفعون بمخبر اللغات الذى زودنا به المركز·

وفى آخر سنة 1975 سنفتح ان شاء الله فى تيزى وزو مدرسة وطنية للحراس تسعى الى تكوينهم العام فى مهنتهم الحراسية والتربوية باللغة العربية ·

ـ فالمدرستان المذكورتان لهما هدفان : رفع المستوى المهنى وتعريب ما تبقى من الموظفين والقضاة لاننا جعلنا حدا منذ أول مارس 1975 للامتحانات والمسابقات باللغة الفرنسية ·

فالخطة التى رسمناها متماسكة والنجاح حليفها اذ أننا قطعنا المرحلة الصعبة الامر الذى سمح لنا بغلق باب التوظيف بالفرنسية وبفتح باب التكوين بالعربية للذين يوجدون

فى القضاء ولم يستطيعوا مسايرة الركب منذ التعريب الكامل والشامل ، فغلق بـــــاب التوظيف بالفرنسية يحصر عندما هو عليه الآن عدد المتأخرين فى اللغة العربية ويسهـــــل لنا مواجهة التكوين الذى يتعقد اذا استمرت أفواج الموظفين الجدد المفرنسين ٠

ـ ومن نتائج ما هو متعلق بالعمل الادارة المركزية تعمل الآن بالعربية وفى اجتماعاتها ومراسلاتها وفى معالجة ملفات الموظفين وفى حركتها التشريعية والتنظيمية ٠

كما ان الجلسات والمرافعات تقع باللغة الوطنية وحدها فى المحاكم والمجالس ٠

والاحكام والقرارات ينطق بها عربية وتحرر بدون ترجمة فرنسية ٠

ومن بين 160 مكتب للتوثيق 130 يعمل باللغة العربية ، أما المكاتب التى ما زالت تعمل باللغة الاجنبية فقد زودناها شيئا فشيئا بالكتاب المعربين ٠ وقد تم أيضا تعريـــب ادارة السجون ٠

والنتائج المتعلقة بالعمل اليومى تتمثل كذلك فيما طبعنا من استمارات ونماذج أحكام ونماذج رسائل وأنماط العقود ، فمنذ بداية عملية التعريب فى آواخر 1971 سحبنا 500 نوع من المطبوعات المكتوبة بالعربية وحدها و 10 مدونات القانونية مطبوعة صفحـــــة عربية مشكولة تقابلها صفحة فرنسية وفى الايام القادمة ستصدر أول مجموعة الاحكـــام الرئيسية تغطى 10 سنوات قضاء (1962 ـ 1972) ٠

وبلغ عدد المطبوعات المسحوبة والموزعة 45 مليون نسخة ، والعملية مستمرة لان المطبعة التابعة لوزارة العدل مخصصة لتلبية حاجيات المصالح بصفة دائمة ٠

وعربنا أيضا مجلة القضاة الدورية ونصحنا منظمة المحامين باضافة قسم عربى فى مجلة المحاماة وقد عملت بهذه النصيحة ٠

ومن المتوقع أن تصدر عن قريب مجلة قانونية أخرى معربة أيضا عن الجمعية الفتية ، جمعية الحقوقيين الجزائريين ٠

ومن المؤكد أن هذه المجلات ستساهم فى تعريب المحيط القانونى وفى تغذية الحقوقيين بدراسات متنوعة تشحذ الاذهان وتنبىء بما يصدر فى الجزائر من تشريع وأحكام وبما يجد فى مجال الفقه المقارن ٠

ومن الطبيعى أن نتساءل أين بقى المشكل الآن ؟ ٠

ان الصعوبات التى ما زالت تعرقل مسيرتنا محصورة فى مسألتين : مسألة ما يأتينـــا بالفرنسية من المصالح الخارجية عن وزارة العدل ـ رسائل وتقارير وأوراق رسميـــة ـ

وقد واجهنا هذا المشكل باتخاذ موقف واقعي : فاننا نقبل هذه الوثائق ونخذها بالاعتبار بدون اللجوء الى ترجمتها ٠

والمشكل الثاني هو مشكل فردي : فالتعريب لا يتعثر في مصلحة من المصالح الا والسبب يعود الى وجود شخص لم يتمكن بعد من ان يحرز مستوى لغوي يؤهله للتطبيق السريع . والحل لهذا المشكل يكمن في التكوين المستمر وفي غلق باب التوظيف لمن لا يحسن اللغة العربية نطقا وتحريرا ٠

استخلاص العبر من تجربتنا

استنتجنا من تجربتنا هذه دروس يمكن للغير ان يستفيد منها وهي كالآتي :

1) ينبغي اشعار الناس ان التعريب أمر لا رجوع فيه . وذلك لا عن طريق الكلام والكتابة بل عن طريق وضع الناس أمام الامر الواقع ٠

2) الشروع في العمل هو وحده الذي يخلق الظروف الملائمة للتعريب ٠

3) لابد ان يستعمل اسلوب الاكراه الذي لا يعني رفع العصا بل هو غير مباشر وهو عبارة عن خلق الظروف التي ترغم الموظفين والمواطنين على التفكير والتحرير باللغة الوطنية ٠

فاليكم انواع الاكراه التي مارسناها :

ـ اجراء الجلسات العلانية بالعربية حث الكثير على الاسراع بتحسين مستواهم في اللغة لكي لا يكونوا عرضة للتهكم ٠

ـ الغاء المطبوعات الرسمية المكتوبة بالفرنسية اجبر الموظفين على تعود المصطلحات المستعملة في المطبوعات التي توزعها الوزارة مكتوبة بالعربية فقط ٠

ـ اجراء الامتحانات والمسابقات بالعربية ٠

قصد التوظيف في مصالح وزارة العدل جعل الناس يولون أهمية لتعلم لغتهم وجعل الفرنسية لا تصلح كلغة القوت في ميدان القضاء ومهنة المحاماة . فهذا السلاح الذي استعملناه أصدق انباء من الخطب . في ناره الحد بين الجد واللعب لانه لا ينفع ان نشكو غزو اللغة الفرنسية وان نبكي على مصير اللغة العربية بل الامر يقتضي الشجاعة والاقدام ٠

ـ والشمولية تعتبر نوعا آخر من الاكراه الغير المباشر لانها لا تترك مجالا للتهرب : فلو عربنا قسما دون آخر لرأينا المعربين في جهة والمفرنسين في جهة وهذا يعرض طبعا

لمخاطر الانشقاق بين الموظفين ، ويترك للمفرنسين عذرا لتأجيل تعلمهم اللغة الوطنية الى أجل غير مسمى ·

ــ ولا اخفى عليكم اننى استعملت فى بعض الحالات الشاذة الاكراه المباشر الذى تمثل فى تهديد بعض القضاة كتابيا وشفاهيا بالاقصاء ان لم يسرعوا بتطبيق تعليمات الوزارة الخاصة بالتعريب ، وهذا الموقف ليس تعسفيا لان قانون الوظيف العمومى يعرض لعقوبة ادارية كل من يعصى تعليمات الوزارة · ولا أخفى عليكم ان التهديد اتى الثمار المرجوة فى وقت قصير ·

ــ درس آخر أكدته تجربتنا : فان البعض كان وما زال يقول بأن مشكل التعريب يحتاج الى وقت ، حقا نحن فى حاجة الى مدة زمنية لتكوين جيل جديد يفكر ويعمل بالعربية، ولكن الواقع بين ان عامل الزمن لا يكفى وحده بل لابد ان يواكبه عزم وارادة وشروع فى العمل لاننا لاحظنا ان بعض القضاة والمحامين والموظفين لم يبذلوا مجهودا فى اللغة العربية منذ الاستقلال الا منذ أعلنا التعريب الشامل والكامل فى آخر 1971 أى لم يفتحوا كتابا لتعلم لغتهم مدة 9 سنوات بعد التحرر من الاستعمار ·

4) تعريب الادارة لا يطرح في الحقيقة صعوبات لا تقتحم لان العمل الادارى قسم الى حد جمل العمليات التى يقوم بها الموظف يوميا وتكرارا منحصرة فى عدد قليل جدا ، وكل الادارات فى العالم بسطت أعمالها بوضع أنماط ونماذج تغطى معظم النشاطات (المراسلات ، الطلبات ، الاجوبة ، تصميم مفصل للاحكام حسب انواعها ··· الخ) ، وقد تيقنا من هذه الحقيقة من خلال عملية المطبوعات التى قمنا بها والتى أوصلتنا حتى وضع نماذج من عقود التوثيق ونماذج من الاحكام وهذا يوفر الوقت ويجنب التحرير ويسهل التعريب ·

فاننا نعتقد بان التعريب تعريب الادارة المتعاملة مع الجمهور التى تشغل العدد الاكبر من الموظفين ليس فيه مشكل يذكر لان الاعمال الإدارية مبسطة ومنظمة ومجزأة ولان المشرفين عليها يتخرجون فى الغالب من المدارس الابتدائية والثانوية التى تعد الآن للامتحانات المعربة أو المزدوجة لغويا ·

أما الاعمال الادارية التى تتطلب ملكة فى اللغة فهى اعمال التحرير والتشريع ويقوم بها عدد قليل من الموظفين نستطيع أن نوجه عنايتنا لتعريبهم بسرعة وبأحدث الطرق التعليمية ·

5) والدرس الآخر الذى لقنته تجربتنا هو وهن الحجة التى يقدمها البعض وهى قلة المترشحين للوظيف العمومى بالعربية · فنقول لهؤلاء الذين يعيشون بأبدانهم فى سنة

1975 وبأفكارهم في سنة 1935 : أفلا تعلمون أن عدد التلاميذ فى التعليم الابتدائى والثانوى يبلغ ثلاثة ملايين وأنهم سيخرجون باللغة العربية سواء من الاقسام المعربة أو الاقســـام المزدوجة فاثر البلاغ الذى نشرناه أخيرا فى الجرائد الوطنية لتوظيف 400 شخص فى مناصب مختلفة بعد امتحانات ومسابقات تجرى كلها بالعربية تلقينا 7000 آلاف طلب سأترك الواقع التعليمى يتكلم واترك هذه الارقام تعطى الاشارات الضوئية ٠

6) وتجربتنا دلت فى الاخير على ان الموظفين والقضاة الذين كانوا لا يحسنـــون الا الفرنسية استطاعوا ان يتكيفوا مع الواقع والحالة الجديدة وقد أصبح الكثير منهم من أنصار التعريب ومن المشرفين على تطبيق التعليمات الصادرة فى شأنه والنتيجة هذه مهمة جدا لانها برهنت على امكانية التعريب دون أن نرتكب خطأ أو ظلما ازاء الذين لـــم يسعدهم الحظ بالتعريب السريع ٠

وخلاصة الدروس من عملية التعريب فى وزارة العدل مركزة فى هذه العبارات :

ايمان بالقضية وارادة وخطة واضحة وتتبع العملية مع ربط النظرية بالتطبيـــق والتصحيح فى اثناء العمل وملازمة اليقظة والصرامة ٠

وكل ثورة لا تسمى ثورة الا اذا استعملت وسائل استثنائية تختلف عن الاساليب المألوفة وتحمل فى طياتها فكرة المبادرة والاجتهاد وفى قلبها قوة العقيدة والايمان ٠

فسنواصل السعى حتى نحقق الاهداف التى رسمناها فمن اجتهد وأصاب له أجران ومن اجتهد وأخطأ له أجر واحد ٠

وسنصغى الى كل الملاحظات والانتقادات التى من شأنها أن تضمن الانتصار النهائى الابدى للغة العربية ، لغة القرآن ولغة هذا الوطن العزيز الغالى الذى ما أراده شهداؤنـــا ورفاقنا فى الكفاح الا عربيا مسلما تلتقي فيه فكرة العدالة الاشتراكية مع فكرة العـدالة الاسلامية الخالدة ٠

كتاب الأصالة

في فرنسا

شبكات التخريب والتهريب تنبع من السلطة

تاليف : **بادريس شايروف**

عرض ونقد : **محمد الميلي**

مدير وكالة الانباء الوطنية





بعد مرور ثمانية عشر عاما على قيام الجمهورية الخامسة ، وبعد انقضاء أربعة عشر عاما على انتهاء حرب الجزائر ، ما يزال غلاة « الجزائر الفرنسية » يفكـــرون فى التخريب ، تخريب المؤسسات الجزائرية ، بفرنسا ، وتتبع الهجرة الجزائرية هناك بأعمال العدوان والعنصرية وحتى التقتيل الاعمى أحيانا •

وقد عرفت الجزائر ، فى مطلع هذا العام ، تصعيدا فى موقف غلاة ارهابى « الجزائر الفرنسية » تمثل فى التخطيط لعدد من عمليات التخريب كان مقدرا لها ان تشمل جهات واسعة من القطر الجزائرى ، لكنها اكتشفت كلها قبل التنفيذ ، ماعدا واحدة هى التى نفذت فى مقر « المجاهد » اليومى ، والسؤال المطروح فى مثل هذه الحالة، هو : كيف أمكن لاجهزة الامن الجزائرية اكتشافهم بهذه السرعة ، ومن هى الجهات التى تكمن وراء هؤلاء المخربين ، ولماذا لم يكتشفوا بفرنسا ، رغم انهم ارتكبوا ــ علــى امتداد سبــع سنوات ــ أكثر من 160 عملية تخريب ؟

لا ندعى اننا نستطيع ان نجيب عن هذا السؤال ، ولكننا نريد فقط ان نعطى صورة عن وسط فرنسى غريب تنتمى اليه عادة مثل هذه العناصر ، وهو وسط يقع على حدود أجهزة الاستخبارات وحدود اوساط اللصوص والقتلة · انها عناصر تنتقل بسهولة ، بين هذا وذاك ، متمتعة بغطاء رسمى أو شبيه بالرسمى ·

والصورة التى نريد اعطائها عن هذا الوسط الغريب ، نعتمد فيها على كتاب صدر بفرنسا فى آخر السنة الماضية ، أى منذ شهور قلائل عنوانه الحرفى هو : « ملف ب مثل باربوز » وقد صدر هذا الكتاب ضمن سلسلة تبدأ دائما بكلمة « ملف ·· » متبوعة بالحرف الاول من الموضوع الذى يخصص له الكتاب · وكتابنا هذا مخصص لهيئــة استخبارات خاصة ، قامت بنشاطات متعددة فى أكثر من اتجاه ، خلال العهد الديغولى · وقد بذل مؤلف الكتاب ما لا يقل عن ثلاث سنوات من الجهود فى البحث والتنقيب عن جهاز الاستخبارات هذا ، معتمدا هنا على شهادة حية ، وهناك عن وثيقة صحافية ، وتارة على بيانات رسمية الخ ··· حتى توصل الى تقديم صورة واضحة عن هذا الجهاز الديغولى الغريب · وكلمة « باربوز » بالفرنسية مشتقة من كلمة « بارب » (أى اللحية) لان بعض من كانوا يختارون لحراسة الرسميين من بين اوساط معينة نظرا لخصائص بدنيــة معينة، كانوا ملتحــين ·

بدايـــات الشبكـــة

عرفت شبكة الاستخبارات الديغولية هذه بعناوين واسماء مختلفة · وقد ولدت ، بصفة رسمية عام 1958 باسم « ساك » (S.A.C.) أو « مصلحة نشاط الاخـــلاق المدنية » ، ظهرت فى صورة جمعية مسيرة حسب قانون الجمعيات (الصادر عام 1901) ·

والواقع انها ترجع الى ما قبل ذلك بأكثر من عشر سنوات ، لانها ارتبطت بنشـاط التنظيمات الديغولية السياسية مثل « تجمع الشعب الفرنسى » (الذى انشىء عام 1947) والذى كان يهدف الى تهيئة الظروف الملائمة كى يعود الجنرال دى غول الى الحكم · ومن بين الوسائل المعتمدة لذلك هو العنايـة بجميـع الميادـين الاجتماعيـة والاقتصادية والسياسية ، وضبط جهاز يوازى جهاز الدولة الرسمى ، حتى يتحرك عندما تجتمـع ظروف رجوع الجنرال ، وقد حرص التنظيم الديغولى على ان يضم اليه العناصر ذات النفوذ والتى تتمتع بمواقع هامة فى الميادين الاقتصادية والمالية والسياسية · اذ نجد مـــن بين الشخصيات المتعاونة مع هذا التنظيم مدراء بنوك وشركات بترولية بل وحتى السيد مارسيل داصو المشهور بصناعة الطيران الفرنسى · ومن هنا لم تكن مصادر التمويـل تنقص هذا التنظيم · ولنستمع الى شخصية تحتل اليوم موقع مسؤولية فى بنك أميركى بباريس ، تعطى بعض المعلومات عن جانب التمويل · تقول الشخصية المذكورة ما يلى :

« جمعت ثلاثة ملايين دولار فى لندن من طرف «المكتب المركزى للاستخبارات والعمل» (وهى مصلحة استخبارات ديغولية انشئت خلال الحرب العالمية الثانية) كانت خارج أى حساب رسمى ، ووزعت فى عدة بنوك بريطانية ، وخاصة بنك « مـورغن غارنتى تروست » و « بنك باركلاى » ، وكانت مهمتى الرسمية داخل بنك « مورغن » تتلخص فى زيارة فروعنا بأروبا الغـربية · وبمناسبة هذه الزيارات كنت أرســـل الى فرنسا وسويسرا عملات صعبة أسلمها الى شخصيات موثوق بها تابعة لمصلحة أمن حركة «تجمع الشعب الفرنسى» · وكان خروج العملة من بريطانيا لا يصطدم بأية عرقلة رغم صرامة الاجراءات لاننا كنا نتمتع بغطاء المخابرات البريطانية · فقد كانت الصداقات الـتى تكونت خلال المقاومة السرية ما تزال قوية » · (ص 17 ـ 18) ·

ولكى نأخذ صورة عن أهمية تنظيم امن الحركة الديغولية فى الخمسينات يسوق المؤلف شهادة مفادها انه ـ أى التنظيم الامنى المذكور ـ كان يشمل ستة عشر ألف شخص ، من بينهم من يعملون فى مصالح الدفاع الوطنى الفرنسى ٠

ويسجل المؤلف ان التنظيم السرى المذكور لم يكن يتشدد فى انتقاء العناصر ، طالما تتوفر فيها الشروط المطلوبة ، أى انه لم يكن الماضى يؤخذ بعين الاعتبار ٠ وبذلك وقع الاعتماد على عناصر كانت قد اشتغلت مع نظام فيشى أو مع سلطات الاحتلال الالمانى ، لكن فيما اذا كان العنصر المطلوب معروفا جدا فى منطقته بأنه كان يتعاون مع الاحتلال النازى ، فتزور له شهادة نضال ومشاركة فى المقاومة ثم يوجه الى مدينة أخرى لا يكون فيها معروفا ٠ اما شهادات النضال نفسها فقد كانت تطبع بالجملة فى بلجيكا ٠

وقد استعملت هذه الشبكة خلال حملة الانتخابات البلدية لمدينة مرسيليا عام 1947٠ يقول أحد عناصر هذا التنظيم ، بهذا الصدد ما يلى :

« كانت التعليمات الواردة من باريس قاطعة ، يجب ان ننتصر بكل ثمن ٠٠٠ فجمعنا الاصدقاء وأصدقاء الاصدقاء وكاشفناهم بالوضع : يجب ان تفسدوا الاجتماعات الانتخابية للاعداء بالعصى ، وفيما اذا لم يكن ذلك كافيا فاستعملوا الاسلحة النارية ٠ فاذا نجحنا فى الانتخابات فسوف نتكفل بتغطيتكم وبمستقبلكم ، وفيما اذا هزمنا فسوف نضمن نقلكم الى جهات أخرى ٠٠٠ وقعت عدة أضرار ، لكننا نجحنا » (ص 20) ٠

ويصف المؤلف بعد ذلك كيف بدأت محاولة التسرب الى الاجهزة البوليسية الرسمية والسيطرة عليها ، ويقول ان الذى قام بهذه العملية هو محافظ الشرطة « جان ديد » ٠ وقد كان دخل الى سلك البوليس فى عام 1936 وعندما قامت الحرب العالمية الثانية وجدته فى سلك البوليس السرى الذى عهد اليه بمراقبة نشاط الاجانب ٠ وقد كان هو الساعد الايمن لمدير الاستخبارات العامة ، « روقى » الذى اعدم عند تحرير باريس نظرا لتعاونه مع الالمان ٠ وكان « جان ديد » خلال هذه المدة يجمع الملفات والمعلومات والوثائق التى تمكنه من تجنب عمليات « التطهير » التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ٠ ونظرا لاشتهاره بعداء الشيوعيين فقد قبلت المخابرات الاميركية بالتعاون معه ٠ وفى عام 1947 انضم

الى حركة « تجمع الشعب الفرنسى » الديغولية ، وتعهد بتسريب العناصر الديغوليـــة وسيطرتها على الاجهزة البوليسية · وقد اختار مساعدا له شخصا اسمه « دولارو » كان محكوما عليه بعشرين سنة سجنا لتعاونه مع النازيين ، فهربه فى سبتمبر 1947 ليصبح بعـــد ذلك هـو رئيس البـوليس الخاص بالرئيس الكونغولى « فولبـير يـولـو » · الذى كان معروفا بعلاقاته وتبعيته لباريس ·

امبراطورية جـاك فوكـار

بعد تعريف موجز بهذا التنظيم وأصوله ـ وهو موضوع الفصل الاول ـ يخصص المؤلف الفصل الثانى من الكتاب للتعريف بمهندس هذا التنظيم الذى وضع اسســـه الاول وطوره ، وهو جاك فوكار ، وقد اشتهر اسم فوكار بصفة خاصة فى افريقيـــا السوداء ، عندما كان ـ من مكتبه فى رآســة الجمهورية الفرنسية ـ يصنــع حكومات افريقية ، ويوجه خيوطها · فمن هو جاك فولكار ؟

بدأ حياته فى عام 1938 ـ وعمره آنذاك خمس وعشرون سنة ـ بانشاء شركـــة صغيرة للتوريد والتصدير · جند فى الجيش مع قيام الحرب فى عام 1938 ، وتم تسريحه من الجيش فى شهر جويلية 1940 فعاد الى الحياة المدنية بانشاء شركة للفحم · ولا يلبث بعد ذلك أن ينضم للمقاومة فى عام 1942 ، ليصبح فى عام 1943 على رأس شبكـــة واسعة للمقاومة وبعد أن يقدم المؤلف شهادات تؤكد غموض شخصية فوكار ، اذ يفهم منها انه كان فى نفس الوقت الذى يشتغل فيه مع المقاومة الديغولية ، كان يتعاون تجاريا مع الالمان مما مكنه من تحقيق أرباح كبيرة ، يسلط المؤلف الضوء على فترة التدريب التى قضاها فى جهاز الاستخبارات البريطانية فى اكتوبر 1944 ، ويســوق فى هذا الصـــدد شهادة أحد اساتذته الانكليز فى هذا التدريب اذ يقول :

« كان يبدو كما لو انه خلق ليتخصص فى الاستخبارات · كان الاول فى الترتيب · وكانت له مقدرة كبرى على تجميع عناصر المعلومات واستنطاقها ، مما يمكنه من التعرف بسرعة على نقطة الضعف فى جهاز العدو ، ويسمح له بأن يضبط بسرعة حل مشكـــل معقد » (ص 66) ·

طلب اليه الجنرال دى غول فى اكتوبر 1945 ان يترشح للانتخابات التشريعية ، فقبل ثم تخلى لفائدة جاك سوستيل الذى كان مسؤوله فى التنظيم الديغولى السرى ٠

وفى عام 1946 عاد الى نشاطه التجارى الاسبق ، فأنشأ « الشركة الفرنسية للتصدير والتوريد » ، وهى أولى شركات عديدة ستسمح بتمويل جهاز الاستخبارات الديغولى ، وقد تخصصت فى العلاقات مع اقطار ما وراء البحار ٠ وقد أصبح فى 1949 مكلفا ، داخل حركة « تجمع الشعب الفرنسى » باقطار ومحافظات « ما وراء البحار » ليصبح عام 1952 هو الامين العام للحركة الديغولية المذكورة ٠

وبعد ما ان تخلى دى غول عن الحكم بعد فشله فى فرض مشروعه الدستورى ، ظل جاك فوكار الى جنبه ، معتمدا فى تمويل جهازه السرى على الشركات التجارية التى ينشؤها هنا وهناك ٠

وقد أصبح دوره الاساسى يتلخص فى التهيئة لعودة الجنرال دى غول الى الحكم ، ومن ثم لعب دورا كبيرا فى حركة 13 ماى 1958 ٠ وبعد ان اصبح الجنرال دى غول رئيسا للجمهورية ، استقر فوكار الى جنبه كمستشار خاص مكلف بشؤون « المجموعة الفرنسية » ٠ وفى عام 1960 تم تعيينه أمينا عاما للمجموعة ٠

وقد انشأ فى 1959 شركة أخرى للتصدير والتوريد ، واعقبها بانشاء تسع شركات أخرى خلال السنوات التالية ٠ وقد تخصصت بعض هذه الشركات فى بيع الاسلحة والمعدات الحربية ، ولكى يتم تأمين تمويل جهاز الاستخبارات الديغولى السرى انشئت شركات أخرى وهمية ، حتى يتم نقل مبالغ العملة الصعبة عبر شبكات معقدة حتى لا تظهر العلاقة بين جهاز الاستخبارات والشركات التجارية الفوكاردية ٠ ولاعطاء صورة عن كيفية تنظيم هذه الشركات واهدافها وكيف تنسج خيوطها ، يضرب المؤلف المثل بنشاطها فى منطقة الخليج العربى فيقول :

« كانت الامارات العربية فى ساحل القراصنة بالخليج وشط العرب تتهيأ ، خلال سنوات 1968 ـ 1971 للحصول على الاستقلال التام فى عام 1972 ٠ وبعض هذه الامارات مثل ابو ظبى وعمان وقطر لها موارد بترولية ، أى مالية معتبرة ٠ وبعضها لها

موارد محدودة وعليها ان تكتشف وسائل أخرى · وتلك هي وضعية امارة الشارجة التي انشأت في عام 1971 شركة طيران وبحرية بهدف مضاعفة القنوات التجارية ، وقد انشئت هذه المصلحة الرسمية للشارجة بمبادرة من « جان كلود سيغال » ، وهو أحد الرجال الذين يعتمد عليهم كريستيان كالفى الذى هو المسؤول عن القطاع المالى فى أجهزة فوكار · وقد كان كريستيان كالفى هذا ينتقل فى تلك الفترة بين أروبا واليونان ومصر والخليج ، وكان أحيانا يستعمل جواز سفر بريطانى باسم « ستيفان شاندلير » وأحيانا أخرى يستعمل جواز سفر سويسرى باسم « غاستون برنسى » ، ويواصل الكاتب وصف هذه الشركات الغربية التى انشئت بمجرد دفع ثلاثة آلاف دولار فقط اذ ان مؤسيسها لا يطلب منهم اقامة الدليل لاثبات رأس المال الذى يدعون انهم يخصصونه للشركة ، ثم يقول :

« أنشأت هذه الشركة فروعا لها فى أروبا والولايات المتحدة الاميركية ، باستعمال شبكة من الوكالات التجارية تمتد من أثينا الى ميامي ومن لندن الى روما مرورا بجنيف وزوريخ وباريس وبروكسل · وبما ان المقر الرسمى لهذه الشركة يوجد فى بلد عربى فان ذلك يسمح لها بأن تستقبل استقبالا حسنا من طرف بلدان العالم الثالث · وهكذا بدأ تنظيم الميدان الخاص بفوكار ·

فقد اقترن اسمه بجميع الاحداث السياسية الهامة التى وقعت فى افريقيا السوداء وفى بلدان أخرى من العالم الثالث · وقد قام السيد بيير مارى دى لام ··· وهو من أوائل مساعديه ، بعدة مهام لحسابه فى افريقيا السوداء فيما بين 1959 و 1969 · وقد غادر السيد بيير مارى دى لام · ··· تنظيم فوكار وتعرض بعد ذلك لمحاولة اغتيال مرتين ، المرة الاولى فى دوسيلدورف عام 1969 ، والمرة الثانية فى بال عام 1971 · وذلك قبل أن يدلى بشهادته » (ص 70 ـ 71) ·

ثم يسوق المؤلف شهادة هذا العون من اعوان فوكار الذى تخلى عنه والذى يصف فيها كيف وضع فوكار رجاله فى كل المناصب الحساسة فى المحافظات سواء فى فرنسا او فى أقطار ما وراء البحار ·

وفى هذا الاطار يصف المؤلف الظروف التى تم فيها اغتيال الزعيم الكاموونى، فليكس مومبى بسويسرا بأمر من فوكار ، وبمساعدة صحافى فرنسى كان يلعب على حبلين ، كما يشير الى ان فوكار هو الذى نظم محاولة اغتيال وهمية ضد الجنرال دى غول حتى يتم تبرير أعمال العنف ضد منظمة الجيش السرى ، كما يتحدث باسهاب عن تدخلات جهاز فوكار فى شؤون افريقا السوداء ، فيقدم شهادة لاحد أعوان فوكار السابقين يتحدث فيها عن تفاصيل العمليات التى ضبطت من أجل قلب نظام الرئيس سيكوتورى لانه رفض التصويت بـ « نعم » فى استفتاء 1958 ·

وبعد استقلال الجزائر اصبحت افريقيا من اختصاص فوكار ، أى خارجة عن نطاق وزارة الخارجية الفرنسية · ويسلط المؤلف بعض الاضواء على نشاط تنظيم فوكار فى افريقيا فيقول :

« كان أحد أعوان فوكار فى الكونغو البلجيكى سابقا هو اندرى لاباى ، الذى ظهر تورطه ـ بعد ذلك بسنوات ـ فى قضية مخدرات ، قد أصبح مسؤول الاستخبارات لدى سيريل أدولا رئيس وزارة الكونغو ـ كينشازا ـ وقد تولى آنئذ ، لحساب فوكار ، مراقبة عدة شبكات لتهريب الاحجار الكريمة (الديامنت) ···

ولم يكن الكونغو ـ برازافيل بمنجاة من شبكات فوكار · وطالما كان فولبير يولو هو الذى يمسك بزمام الحكم هناك ، أى الى غاية 13 أوت 1963 فلم يكن هناك أى مشكل أمام شبكات فوكار · بل لقد أصبح الكونغو ـ برازافيل آنذاك قاعدة أساسية من قواعدها · فقد كان « صحافيان » هما اللذان يتوليان استقبال بريد الشبكة وتوزيعه من خلال وكالة صحافية وهمية هى « هادلين بريس اجانسى » (صندوق بريد 2110 برازافيل) وكان كل من دانيال بوجى وجان مارى لوران يقومان بعدة مهام بين برازافيل، ابيدجان ، باريس وبون » (ص 76) ·

ثم ينقل المؤلف شهادة صحافى كان يشتغل فى وكالة الانباء الفرنسية ، وكان يعمل فى شبكات فوكار تحت اسم مستعار هو جيلبير شارقيل · وقد جاء فى هذه الشهادة مـا يـلى :

« ··· كنا نتردد على مواعيد تضبط فى بون ، بألمانيا الغربية ، مع بيير جولى وهو متطرف بلجيكى يزودنا بالمرتزقة وبالخبراء فى حرب العصابات · وكان أحد الامكنة المفضلة للقاءتنا حانة « ايفال بار » الذى كان صاحبه احد أعوان فوكار المقيمين فى ألمانيا الغربية ··· » (ص 77) ·

وقد نشطت اجهزة فوكار خلال حرب بيافرا الانفصالية (1967 ـ 1970) فساعدت الانفصاليين بالاسلحة · وعندما فشل الانفصاليون فى بيافرا حاولت أجهزة فوكار الاستيلاء على بعض الوثائق التى تبرز مدى تورط فرنسا الرسمية مع زعماء بيافرا · وقد توصل أحد أعوان فوكار الى استخراج هذه الوثائق التى كانت مودعة فى خزانة رجل صناعة ألمانى فى ابيدجان عاصمة ساحل العاج · لكن تبين فيما بعد ان نسخا مماثلة كانت مودعة فى مكان أمين فى بنك من بنوك لندن · وقد أصبح الغابون أحد القواعد الاساسية لتنظيم فوكار ، حيث ينتقل أعوانه فى صورة مستشارين تجاريين ورجال أعمال يعملون فى شركات خفية الاسم· وقد قامت ببناء مصنع تبريد فى ساحل العاج عام 1961، وزودت ايران بتجهيزات كهربائية ، ويسجل المؤلف ان احدى هذه الشركات وهى شركة « مارتمير » معتمدة بصفة رسمية لدى وزارة الدفاع الفرنسى لتقوم بصفقات أسلحة ومفجرات تبيعها للخارج ·

ومن بين الاعمال التى تخصصت فيها أجهزة فوكار هى تزوير العملات الاجنبية ، وخاصة عملات العالم الثالث واغراق أسواق العالم الثالث بالعملات المزيفة · ويتحدث المؤلف فى هذا الفصل عن شخصيات متورطة فى عمليات التزوير هذه ، مدراء بنوك وموظفون سامون فى ادارة المالية ، ومراقب عام بوليس الخ ··· ولا تتورع أجهزة فوكار ، كى تضمن تمويل برامجها ، عن ممارسة تجارة المخدرات ، فقد ألقى القبض على أحدهم فى نيويورك عندما كان ينقل معه أربعا وأربعين كيلو غرام من الهيروين ·

على ان نشاط فوكار لا يقف عند حدود افريقيا السوداء أو منطقة الخليج ، بل هو يتجاوز ذلك الى اميركا اللاتينية ، ففيما بين 1965 و 1968 عين اثنان من أعوان فوكان سفيرين فى بوليفيا والاروغاى · ويوجه فوكار الى أميركا اللاتينية رجاله الذين «احترقوا»

فى أروبا وافريقيا ، وقد ربط بعض هؤلاء علاقات متينة ، فى البرازيل ، مع الكوميسار المشهور « سيرجيو فلورى » رئيس « فرقة الموت » المعروفة ، ومن بين هؤلاء نجد « باتريك بيرتين » المقيم فى ساوبولو · وقد انعقدت فى منزل هذا الاخير (نهج غويرا ، 202 باسك دى سود) عدة اجتماعات حضرها الكوميسار الآنف الذكر وعدد من ضباط البوليس البـــرازيلى ·

ويساهم رجال فوكار هناك فى محاربة الحركات اليسارية · ونجد « بيير بيران » فى فانزويلا (حيث يقيم فى شارع هندوراس ، بكاراكاس) ونجـــد « ماكس أورباني » و « هارولد روبينس » فى غواتيمالا (شارع 4/61 الخ ··· وتوجد فروع لفوكار حتى فى الولايات المتحدة الاميركية ، ومكتبه الرئيسى هناك يوجد بنيويورك ويشرف عليـه « راى كلارك » الذى يقول المؤلف ان اسمه الحقيقى هو « روجى آسيون » وأن البوليس الفرنسى يبحث عنه ، وانه يتنقل بجواز سفر ، يثبت انه اميركى من مواليد افريقيا ·

وعندما توفى بومبيدو ، فى 1974 ، سعى فوكار الى نقل كل وثائقه الى مكان أمين ·

ايديولوجية المخابرات الديغولية

يخصص الكاتب فصلا للحديث عن ايديولوجية المخابرات الديغولية · فيذكر انها فى مرحلة أولى ، بعد عودة دى غول الى الحكم ، كانت تتمثل أساسا فى محاربة جبهة التحرير الوطنى ، ويسوق المؤلف ، للتدليل على الروح التى كانت سائدة فى 1958 ، فقرة مـن نداء وجهه المتطرف الاستعمارى المعروف « أليكسندر سانغيناتى » جاء فيها على الاخص مـا يـلى :

« لقد نهضت فرنسا ، أكثر من ثمانية ملايين مسلم ، وأكثـر مـــن مليون فرنسى ذوى الثقافة المسيحية يدافعون عن قبورهم ومهدهم · يجب ان تساعدوهم انخرطوا فى مصلحة الخدمة المدنية » (ص 103) ولهذا الغرض اقيمت مدارس لتكوين اطارات هـذا التنظيم الغريب ، استمرت تعمل بانتظام من 1959 الى 1963 · ويتلخص التدريب فى هذه المدارس على التدرب على استعمال السلاح، وأستعمال الراديو واللاسلكى ، والشفرة والتخريب واستعمال المفجرات واضرام النار ، كما يشتمل على تعلم الجيدو والكراتى

والاستنطاق النفسى ، والاستنطاق بواسطة التعذيب ، والقتل • وهناك قسم نظرى فى هذا التدريب يتلخص فى التكوين السياسى ، مع التركيز على مناهضة الشيوعية ، وعلى اساليب التسرب ونشر الاخبار الكاذبة الخ ••• ويسوق المؤلف نموذجا للمناشير التى تعتمد فى هذا التكوين السياسى فيقول ان بعض هذه المناشير ينص على ما يلى :

« نريد ان نعتبر بان الحزب الشيوعى الفرنسى يمثل خطرا على الوطن يجب القضاء عليه • نريد تحطيم جهازه • ووسائله ونريد القضاء ان لزم الحال على قادته » (ص 107) •
ويقول احد رجال هذا التنظيم فى مجال تاكيد دور « النخبة » على حساب الجماهير ، مما يبرز الطابع الفاشى للتنظيم :

« يجب ان نلاحظ بأن أقلية محدودة هى وحدها القادرة على تطوير الحضارة ، وهذه الاقلية تتميز بانها فردية وليست جماعية ••• ودور الدولة كما نتصوره هو اتاحة الفرصة للنخبة ان تنفصل عن الجمهور » (ص 115) •

وجاء فى احدى منشورات التنظيم :

« نخضع كلنا لسلطة منظمة • ان رئيسنا هو الجنرال دى غول • وقد فوض سلطاته للامين العام ، فالاوامر التى تتلقونها من الآن فصاعدا من مسؤوليكم تعتبر صادرة عن الجنرال دى غول رئيسنا جميعا » (ص 117) •

وقد خصص المؤلف عدة صفحات لوصف كيفية اختيار العناصر التى تنخرط فى التنظيم وخاصة تلك التى تعتمد فى محاربة جبهة التحرير • وهنا يسوق شهادة أحد هذه العناصر ، احتفظ باسمه سرا • وقد ادلى بهذه الشهادة للمؤلف فى عام 1973 ، وقد جاء فيها على الاخص ما يلى :

« فى صيف عام 1958 كنت بالسجن فى مرسيليا ، كان محكوما على بخمس سنوات• وكانت العدالة تستعد لمحاكمتى على مسالة أخرى بتهمة الاعتداء بالسلاح • اتصل بى محامى من مرسيليا سألنى فيما اذا كنت اقبل بالانخراط فى صفوف حركة سرية لمحاربة جبهة التحرير الوطنى مقابل ان يتم الافراج عنى • كان عرضا مغريا ، فهو أولا يسمح بانقاذى من وضعية صعبة ، ثم انه يمكننى من محاربة العرب الذى لم أحبهم فى يوم

من الايام · قبلت ، فنقلت الى « ايكس اون بروفانس » ثم الى سجن فى باريس هنــاك اتصل بى محام باريسى وقال لى : ان التنظيم السرى الذى انخرط فيه هو فى الواقـــع بوليس سرى موازى للبوليس الرسمى ·

كان العمل المطلوب منا عملا مزدوجا : يتمثل أولا فى التسرب الى شبكات جبهـــة التحرير عن طريق التظاهر باننا يساريون متطرفون متعاطفون مع الجزائريين ، وبعـد ذلك نقوم بكل العمليات التى تحدد لنا والتى لا يستطيع البوليس الرسمى القيام بها · وخاصة التصفية البدنية لبعض العناصر ، وفى مقابل ذلك يطلق سراحى فورا ويمنـح لى مرتب ضخم زيادة على المنح ، وعند الانتهاء من مهمتى يصبح دفتر السوابق نظيفا ، وتتوقف التتبعات القضائية القائمة ضدى · بعد ثمانى وأربعين ساعة أصبحت حرا · كان شخصان بانتظارى فى حانة تدعى « على نخب الصحة » تقع فى مواجهـــة سجـن « لا سنتى » الذى كنت به · لم يكن على الا ان اقطع الطريق ، ذلك ان العمل يبدأ فى الحال · أعطى لى جواز سفر مزيف ، ورخصة سياقة مزيفة وبطاقة بوليس قديمة ورخصة حمل السلاح مع السلاح الذخيرة · ورقمى هاتف أحدهما يستعمل نهارا والآخر ليلا · وكنت اعمل مع أربعة اشخاص آخرين من بينهم ضابط مباحث عامة ، منحت له اجـازة مرضية بالمناسبة ، وكانت عمليات التسرب الى صفوف جبهة التحرير من اختصاص فرق أخرى · اما نحن فقد كان علينا ان نفتعل عمليات تصفية حسابات بين الجزائريين ، كما علينا ان نقتل بعض الناس · وكان ذلك عملا سهلا ، كنا نصل فى سيارة أو اثنتين ، الى الحى العربى « باب ايكس » فى مرسيليا ، أو حى باربيس فى باريس ، ونقف أمام مقهى يعين مسبقا ، ثم نطلق قنبلة أو اثنتين ونصحبها بطلقات رشاشة ··· وكان علينا أيضا ان نضطلع بعمليات أصعب ، مثل استنطاق بعض من يلقى عليهم القبض ، ومثل اخفاء جثث الذين يقتلون فى محافظة البوليس لكى نلقى بها فى نهر السين · وعندما نضـع ايدينا على عنصر من الجبهة مكلف بجمع الاموال نقتسم الغنيمة اخماسا ، فحتى الشرطى الرسمى لم يكن يتعفف عن أخـذ نصيبه ، وباختصار لقـد كان مسؤولونا عند كلمتهم ماعدا شيئا واحدا لم ينفذوه وهو تطهير سجل السوابق » (ص 31 ـ 32) ·

على ان مثل هذه الاعمال ليست هى المهام الوحيدة التى تقوم بها أجهزة فوكار ، فهناك جانب أخر يسلط عليه **المؤلف الاضواء في الفصل السابع من الكتاب** ، وهو يتلخص فى تجميع المعلومات وكيفية استغلالها · ويتحدث المؤلف هنا عن شخص اسمه « شـــارل فانسوزينى » كان يشتغل فى المصلحة المضادة للجوسسة ، وكان هو الذى تولى تنظيم المخابرات الديغولية فى منطقة ليون · يقول المؤلف يصف كيفية تجميـــع المعلومات وتحليلها بعد ذلك ، ما يلى :

« أصبح (أى شارل فانسوزينى) هو الساعد الايمن لفوكار من جانفى 1962 حتى صيف 1974 ، وكان هو المسؤول عن تجميع المعلومات في نطاق المخابرات الديغولية ، كان يقيم فى الطابق الرابع من العمارة الواقعة فى شارع سولفيرينو رقم 5 » (ص 200) ، وكان يستعمل معارفه فى جميع مصالح البوليس السرى ، يأخذ عنهم ما لديهم مـــن معلومات ويزودهم بالمعلومات التى تأتى عن طريق شبكات المخابرات الديغولية ، وكانت هناك عدة حانات يلتقى فيها من يتبادلون المعلومات · ويورد المؤلف هنا اسم الكوميسار جان كاى من المباحث العامة الذى كان له دور فى قضية اختطاف بن بركة والذى يشتغل الآن فى مصلحة البوليس الاقتصادى ·

وبعد تجميع المعلومات ، يلتقى شارل فانسوزينى مرة فى اليوم مع جاك فوكار فى جلسة عمل تستغرق نصف ساعة تقريبا · اما مكان هذه الاجتماعات اليومية فهو يختلف حسب الظروف : فقد يلتقى الرجلان فى قصر الاليزى حيث يوجد مكتب فوكار بوصفه الامين العام لرئاسة الجمهورية مكلفا بالقضايا الافريقية والملغاشية ، أو فى البنايـــة المخصصة لمركز المخابرات الديغولية فى شارع ماجنتا · ويحضر عادة هـــذا الاجتماع شخص متخصص فى موضوع المعلومات المدروسة · وقد قبل احد الذين أتيح لهم حضور هذه الاجتماعات ان يدلى بشهادة يصف فيها كيفية دوراتها ، واسمه بريس لالوند وكان من مساعدى ميشيل ديبرى عندما كان رئيس حكومة على عـهد دى غول · وهـــو الآن يشتغل تاجر أسلحة لحساب شركة سويسرية ، يقول بريس لالوند ما يلى :

« كانت أول مرة أرى فيها جاك فوكار عن قرب · كان ينتظرنا فى مكتب بالطابـق الثانى من العمارة الواقعة فى شارع ماجنتا ، كان استقباله لنا باردا ، ولست أدرى هل

يرجع ذلك الى وصولنا متأخرين عن الموعد أو الى انه يريد ان يزرع فينا الهيبة • الانطباع الذى تكون عندى جعلنى لا أتصور انى امام موظف سام ، بل تصورت انى امام رئيس عصابة • كان يناقش جزئيات الملف بادق تفاصيلها •• وقد كان اندهاشى كبيرا ، لان هذا الرجل عبارة عن دماغ اليكترونى ، فقد دعانى لاناقش معه مسائل بيع الاسلحـــة من طرف البلدان الشرقية ، وكنت قد وجهت له ، عن طريق فانسوزينى قبل ذلك ببضعة ايام ، تقريرا مفصلا يقع فى مائتى صفحة مضروبة على الراقنة ، وأستطيع ان أؤكد انه هضم ما جاء فى التقرير ، وألقى عليه اسئلة رجل محترف فى هذا الميدان دون أن يراجع أية مذكرة • وبعد ساعة من الحديث كسبنى واقتنعت ان العمل متعة مع مثل هذا الرجل الفعال حقا • طبعا ان خيبة الامل تستولى علينا بعد ذلك عندما نلاحظ انه يبتلع الرجال والتنظيمات » (ص 202) •

قضيـــة اختطـاف ابن بركـــة

وبما ان المخابرات الديغولية كانت على صلة بقضية اختطاف المهدى بن بركة ، فان مؤلف الكتاب يخصص لها فصلا خاصا • ويتعرض المؤلف لعدد من الاشخاص الذيـن شاركوا فى تلك العملية المشينة والذين ترددت أسماؤهم عدة مرات فى الصحافة العالمية خلال السنوات العشر الماضية • ومن بين هؤلاء شخص المانى يدعى « اوتوكارل دوبيو » الذى كان يرأس جمعية وهمية اسمها جمعية الصداقة الالمانية العربية • ويقال انه كانت له علاقات مع المخابرات المركزية الاميركية وكان يستعمل لاتصالاته رقما تيلفونيا تبين بعد التحقيق انه يوجد فى مقر اذاعة اميركا الموجهة الى أوروبا الشرقية والتى يوجد مقرها فى ميونيخ بالمانيا الغربية • والتى تشرف على توجيهها المخابرات الاميركية • ويقـول المؤلف بان عدد الاتصالات التى تمت بين المهدى بن بركة وبين الالمانى اوتو كارل دوبوو قد بلغت فيما بين 1963 و 1965 عشرا على الاقل • وكان دوبوو هذا يرسل عن اتصالاته مع المهدى تقارير الى شخص يدعى « بول ويللس » يقيم فى بون ، وان نسخة من تلك التقارير توجه الى شخص يدعى « بول ايف ريو » يقيم فى طنجة ، وهذا الاخير أى بول ايف ريو هو الذى اتصل به البوليس السرى المغربى واجتمع به فى مقره بطنجة 53 نهج دى فينى (الكروم) فى نوفمبر 1964 وفى ماى 1965 • ويقول المؤلف ان دوبوو كان قد

قام آنذاك بعدة مهام لحساب جهاز المخابرات الديغولية الذى يشرف عليــه سوكــار ، فى الجزائر والكامرون والطوغو وانه اطلع فوكار على اتصالاته بالمهدى بن بركة ، وانه تلقى مقابل ذلك أكثر من ستين ألف دولار · ويقول المؤلف أيضا ان دوبوو تعهد باستدراج المهدى بن بركة الى ديسلدورف فى ألمانيا الغربية حيث كان من المقرر ان يتم الاخطاف ، وان ذلك كان مقررا تنفيذه فى شهر سبتمبر 1965 · ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان، ففى أوت 1965 ألقت مصالح الامن الجزائرى القبض على دوبوو فى الجلفة · ولذلك وقع توجه المخابرات المغربية الى جورج فيغون وفيليب بيرنسى وانتوان لويز ، اما جـــورج فيغون فقد تردد اسمه فى الصحافة العالمية بما فيه الكفاية ، وقد كان معروفا ارتباطه مع المحامى بيير لومارشى المعروف باتصالاته بالمخابرات الديغولية · ثم يسوق المؤلف شهادة جيرار فيريكور الذى يعيش الآن خارج فرنسا يصف الجو الذى كان سائدا فى أجهزة فوكار عند الاعداد لاختطاف المهدى ، تقول الشهادة المذكورة :

« ··· كنا نعيش فترة جنونية · لان كل المصالح وكل احد يريد ان يسحب نحــوه الغطاء ، ومما زاد الامور صعوبة ان أحمد الدليمى كان قد عرض باسم أوفقير منحة ضخمة فى حالة نجاح العملية · فحسب شتوكى هناك مبلغ مليون دولار قد رصد فى بنـــك بسويسرا ، وقد كان الامل فى اقتسام هذا المبلغ الضخم قد شحذ همم الجميع ··· » (ص 325) ·

كما يسوق المؤلف شهادة شخص آخر اسمه « ليوتنان كاهور » حضر تنفيذ عمليــة الاختطاف ، فوصف دقائقها وكيف انه اعطى هو مبلغ ستين ألف دولار اقتسمها مـــع ثلاثة اشخاص هم ليفى ، وقيبرلاك وبريسى ، ويقول كاهور ان فيرلاك قد هرب واختفى وان بريسى قد مات فى حادث سيارة بألمانيا الغربية فى جويلية 1970 وانه هو نفسه ، أى ليوتنان كاهور ، قد حاولت اجهزة فوكار ان تلصق به عدة تهم فألقى عليه القبض بايطاليا ويبدو ان فوكار أراد ان يمحى آثار بعض من حضروا العملية ، ويقول المؤلف انه سجل شهادة ليوتنان كاهور بينما كان فى سجن « مورات » بفلورانس فى ايطاليــا، ويضيف لذلك ان كاهور تمكن من الفرار من السجن الايطالى والتجأ الى البرتغال ، فى نوفمبر 1972 ، وان آثاره اختفت من ذلك الحين ·

ثم يواصل المؤلف متابعة نشاطات تنظيم فوكار فى ميادين أخرى ، مثـــل تجارة المخدرات وتنظيم عمليات الارهاب والاستفزاز ضد أوساط اليسار وتجارة الاسلحة ، وعمليات الاغتيال الى آخر القائمة ٠

ويختم المؤلف كتابه بعد ذلك داعيا الى تجميع أكثر ما يمكن من المعلومات عن امثـال هذه التنظيمات ، وان ذلك لا يجوز ان يبقى قاصرا على الاختصاصيين فقط ٠ فالدفاع الذاتى هو احسن وسائل المواجهة ٠

* * *

وباختصار فان هذا الكتاب يتوفر على معلومات قيمة تفيد كل الحركات الثورية وكل الانظمة التقدمية ، لانها ليس فقط تبرز حقائق وتعرى مسؤولين ، وتكشف عن ان منبع الفضائح والتخريبات يوجد احيانا داخل السلطة الحاكمة نفسها ، ولكن أيضا لانه يساعد على تبين الاساليب التى يشتغل بها الاستعمار الحديث سواء فى علاقاته الخارجيـــة أو الداخلية ٠

انه لا يجوز ان نستغرب وجود عناصر استعمارية ، ما تزال حتى الآن ، تحلم بارجاع عجلة التاريخ الى الوراء ، فى الجزائر أو خارج الجزائر ، فقد كتب انتوان أرغو ، احـــد كولونيلات 13 ماى 1958 ، فى خاتمة كتاب له صدر فى نهاية عام 1974 يعتز فيه بمـا اقترف من جرائم فى حق الجزائريين يقول ما يلى :

« انى لا آسف على شىء ٠٠٠ سوى على انى فشلت ، ولو ان المعركة تستأنف لعدت اليها من جديد » !

نعم فهناك عناصر استعمارية ما تزال تحقد على الجزائر المستقلة بكل قواها ٠ وهذه سوف تسعى دوما الى ان تستغل نقاط ضعفنا ، وتستمد منها تبريرا لنشاطها التخريبى٠ والعبرة التى يمكن ان تستخلص من ذلك هى ضرورة الاعتماد على الدفاع الذاتى ، وتحويل اليقظة من مجرد شعار الى ممارسة فعلية حية واعتبارها مهمة كل احد وليست مهمـــة اجهزة الامن وحدها ٠٠٠ فالمعركة لم تنته بعد ٠

دراسات

في أدب الرحلة عند العرب

بقلم : د. حسنى محمود حسين
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

ـ أ ـ

تمهيــــد :



منذ دب الانسان على هذه الارض وهو يحاول اكتشاف ما يحيط به من أسرارها بقصد التعرف والسيطرة على ما يكتنفه من الحياة ، لا فرق فى ذلك من حيث المبدأ بين ارتياده بقعة تجاوره من نفس الغابة التى ياوى اليها أو غزوه غابة أخرى ، وبين ارتياده أطراف الفضاء أو غزو أجوازه البعيدة . ويوم يحط قدمه على سطح القمر(1) أو أى كوكب آخر سيبدأ يعيد سيرة أبيه الاقدم عندما حط هو الآخر بقدميه على سطح الارض ، وانتصب على ساقيه يذرع ، متوجسا ، ما حوله منها ، ولكن مع فارق الاداة العلمية ، واختلاف الوسيلة

(1) كتب هذا البحث قبل أن يطأ الانسان أرض القمر .

والامكانات التى تاتت له على مدى هذا التاريخ الانسانى ، الذى خط ذلك الاب الاقدم اول حروفه بتلك الخطوات الاولى فى رحلة الحياة الآدمية • وتوسع الانسان برحلاته على مدى الدهور ، ولم يعد يقصرها على سطح الكرة الارضية ، فراح يتشوف رحلات أعجزته قدرته عن تحقيقها بالفعل ، فلجا الى خياله وفكره يجوس بهما خلال عوالم ودنى اخرى على غرار ما فعل آحاد نابهون من بنيه يعدهم الزمان على أصابع اليد الواحدة • وجاء انسان القرن العشرين ليبدأ بالفعل تحقيق ما عجز عنه اسلافه بغير الخيال • وهكذا فان حياة الانسان رحلة دائمة لا تتوقف الا على تخوم الابدية ، ويوم يعجز عن افتضاض اسرار الحياة والاكوان حوله بالرحلة أو بالخيال فلسوف تكون قدماه تقتربان به من تلك التخوم ••• ولربما تكون رحلة من نوع جديد ! !

والرحلة فى هذا المفهوم أمر طبيعى يتعلق بحياة الافراد والامم ، ولا داعى للحديث هنا عن دور الامم السابقة من الفراعنة والفنيقيين واليونان والرومان وغيرهم فى مضمار الرحلات ، وانما نحن معنيون بالتوجه الى الحديث عن دور العرب فى هذا المضمار لنتعرف على تطوره واتجاهاته لديهم فى مختلف العصور •

أولا ــ الرحلات : أهميتها وعلاقتها بالعلوم وبالجغرافية خاصة : ــ

اذا قلنا ان فنا من فنون القول العربى يعرض فى مضمونه الى ناحية أو الى أخرى من نواحى الحياة ، فاننا نقول ان نمط الرحلات يتعرض الى جميع نواحى الحياة أو يكاد ، اذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافى وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخى الآداب والاديان والاساطير • فالرحلات منابع ثرة لمختلف العلوم ، وهى بمجموعها سجل حقيقى لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور • فالرحالة وهو يطوى الارض اثناء رحلته يغطى فى نفس الوقت ملاحظة مظاهر مختلفة من الحياة ، يشاهدها أو يسمعها احيانا وينقلها فى رحلته • ولا شك ان الرحالين يختلفون فيما بينهم فى دقة ملاحظتهم وفى درجة اهتمامهم وفى نوع هذا الاهتمام ، كما يختلفون أيضا فى درجة صدقهم وأمانتهم وفى تنوع فهمهم للامور تحت الظروف المتغايرة التى يخضعون لها • ومع ذلك ، فاننا ننظر من هذه الناحية الى الرحلات كمبدأ أو ككل ، مهما كان بينها من

اختلاف وتنوع فى الاتجاه والتقدير · ومن هنا كان للرحلات قيمتان عظيمتان : قيمة علمية ، وأخرى أدبية ·

اما القيمة العلمية ، فقد تأتت لها مما تحتويه معظم هذه الرحلات من كثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها ، مما يدونه الرحالة تدوين المعاين فى أغلب الاحيان من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة خلال رحلته · واذا حددنا هذه العلوم بأنها تسجيل للظاهرات المختلفة المتعلقة بميادينها ، ودراسة هذه الظاهرات وتفسيرها ، فان الرحالة يمثل دور الناقل لهذه الظاهرات ليضعها بين أيدى الجغرافيين أو المؤرخين أو علماء الاجتماع مثلا ، كل حسب اختصاصه · وهو يقرب من أحدهم بمقدار ما يلجأ الى دراسة ظاهرات اختصاصه وتفسيرها · فان كان علم الجغرافيا مثلا يدرس ظاهرات سطح الارض الطبيعية والبشرية ، ويقوم منهجه فى ذلك على تسجيل هذه الظاهرات وتفسيرها وتوزيعها على سطح الارض ، فان الرحالة ، وهو يدون مشاهداته الجغرافية على سطح الارض ، انما يعمل فى خدمة هذا العلم من هذه الناحية على الاقل ، اذا لم يتجاوزها الى الخطوة التالية لها فى منهج هذا العلم · فهو عندما يصف الممالك والبلدان والاصقاع والاقاليم ، والمدن والمسالك ، ويتحدث عن المناخ والطبيعة ، وعن ظاهرات توزيع السكان وغير ذلك مما يعتبر من صميم الدراسات الجغرافية ، انما يعتبر من هذه الناحية مرجعا أساسيا ومعينا كبيرا للعالم الجغرافى الذى يدرس تلك الموضوعات · ومثل ذلك يمكن ان يقال فى الرحالة بالنسبة لباقى العلوم التى يتعرض لمجال دراساتها · ومن المعروف ان بعض المؤرخين والجغرافيين العرب يعتبرون رحالين ، اذ كانوا يجمعون مواد موضوعاتهم عن طريق الرحلة قبل أى طريق آخر · وهذه العلوم المختلفة مرت بعدة مراحل قبل أن تصل الى ما هى عليه اليوم من دقة وضبط وتحديد ، وقبل أن تتخذ صفة العلم القائم بذاته بفضل تقدم العقل البشرى وادواته العلمية · فقد كان علم الجغرافيا مثلا يعتمد قديما الاسلوب الوصفى الادبى ، كما كان يستقى مواده من مصادر الادب والتاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد والدين ، فاذا أصحابه يمزجون بين هذه العلوم جميعا ، حتى ويمزجون بينها وبين الخرافات والاساطير ، فأتت كتبهم محتوية على كل طريف ممتع · وحتى اليوم ، فان العالم

الجغرافي أو الباحث الاجتماعي ينـــزل الى ميـدان عمله ليرصد بعض الظاهرات التي تهمه من وجهة النظر الخاصة بعلمه وبحثه •

ومن هذه الناحية ، فان من المتفق عليه أن الرحالين العرب قدموا ، على مر العصور ، خدمات جلى فى دراسة أحوال البلاد العربية والاسلامية من مختلف نواحيها • ولم تقتصر افادتهم فى ميدانهم هذا على البلاد الاسلامية وحدها ، وانما تعدوها فى رحلاتهمواخبارهم الى بلاد أجنبية أخرى فى آسيا وافريقيا وفى أوروبا فيما بعد ، ولما يكن وصلها الاسلام ، فامدونا عنها بمعلومات من الدرجة الاولى خصوصا اذا قورنت هذه المعلومات بما كـان يعرفه العالم عنها فى العصور الوسطى حتى الكشوف الجغرافية المتاخرة لدى الاوروبيين• ولقد كان للرحالة العرب فى العصور الوسطى فضل كبير قدموه للانسانية كجغرافيين ، يتجلى فى حفظهم ودراستهم للمادة الجغرافية الهائلة التى أورثها العلماء اليونان مـــن امثال استرابون وبلينيوس وبطلميوس القلوذى وغيرهم ، للعصور الوسطى • ولا يقلل كثيرا من قيمة ما كتبه الرحالون العرب فى المادة الجغرافية ، ما خضعوا فيه للنظريـات الموروثة عن الاوائل (2) ، أو ما نقلوه من خرافات الشعوب وأساطيرها دون أن يحكموا فيه العقل وملكة النقد والتحليل التى يبدو أنها كانت ضعيفة لديهم فى غالب الاحيان مما جعل مثل هذه النظريات تاخذ طريقها الى أفكارهم مع أنها لم تـــرق الى مستـوى تجربتهم العملية التى أسهموا عن طريقها بتقديم مواد جغرافية جديـــدة وذات قيمـة عظيمـــــة •

وأما القيمة الادبية فى الرحلات فتتجلى فيما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها الى عالم الادب ، وترقى بها الى مستوى الخيال الفنى • وبرغم ما يتسم بـه أدب الرحلة من تنوع فى الاسلوب من السرد القصصى الى الحوار الى الوصف وغيره ، فان ابرز ما يميزه اسلوب الكتابة القصصى المعتمد على السرد المشوق ، بما يقدمه من متعة ذهنية كبـرى ،

(2) كالظن ، على غرار اليونان ، بأن المعمور من الارض هو ربعها فقـط ، وذلك فى النصف الشمالى منها ، وكالاعتقاد باستحالة الحياة فى البلاد الشديدة الحـرارة أو القارسة البرودة ، وبوجود سلسلة جبلية تنتظم الارض من الغرب الى الشرق ، وبأن بعض الانهار (كالنيل) تسقط منابعها فى الجنة •

مما حدا بالدكتور شوقي ضيف الى اعتبار أدب الرحلة عند العرب « خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها الادب العربي ، تهمة قصوره في فن القصة » (3) . وقد أفـــاد أدب الرحلة ، بغنى موضوعاته ، في صرف اصحابه في غالب الاحيان ، عن اللـــهو والعبث اللفظي والتكلف في تزويق العبارة ، ايثارا للتعبير السهل المؤدي للغرض لنضجه بغنى تجربة صاحبه ، مما يفتقده كثير من الادباء والمحترفين في بعض عصورنا الادبيـــة . ولا يعني هذا ان الاسلوب في هذا الادب قد تخلص من كل الصفات والعيوب الاسلوبية .لاخرى ، فهو يعتمد السجع احيانا ، وهو ينحو منحى الجفاف والصرامة العلمية احيانـا الاخرى ، فهو يعتمد السجع احيانا ، وهو ينحو منحى الجفـاف والصرامة العلمية احيانا بشيء من الطراوة والاخضرار يبقيانه غضا وعلى شيء من اللين ، « ولقد أثار هـذا الادب اهتماما بالغا بسبب تنوعه وغنى مادته ، فهو تارة علمي وتارة شعبي ، وهو طورا واقعي واسطوري على السواء ، تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة.لذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب لا يوجد مثيل لها في أدب أي شعب معاصر للعرب » (4) .

وبهذه الميزات والخصائص المتعلقة باسلوب أدب الرحلة وبموضوعه الشمولي الغـني بما فيه من علم وأدب واسطورة يمكننا اعتباره نمطا خاصا من انماط القول الادبي ، قد لا يرقى الى مستوى الفن القائم بذاته كفن القصة أو الشعر أو المسرحية أو المقالة الادبية مثلا ، ففيه تجتمع أساليب هذه الفنون وموضوعاتها كلها من غير ان تضبطه معاييرها أو أن يخضع لمقاييسها .

ثانياً ـ دواعي الرحلات والتاليف فيها عند العرب : ـ

سنجعل الفتوح الاسلامية نقطة البداية في هذا الحديث ، مع ان عرب الجاهلية كـان لهم رحلاتهم التجارية الى بلاد العراق والشام واليمن وغيرها ، ثم ان بعض الشعراء كانت لهم رحلاتهم في داخل الجزيرة والى خارجها . ومع ان هذه الرحلات لم يـدون منها شيء أكثر مما ورد في مضامين الشعر وكتب اللغة فيما بعد ، الا انه لا بد انها افادت العرب

---

(3) الرحلات سلسلة فنون الادب العربي ـ طبعة دار المعارف ـ القاهرة : 6 .

(4) اغناطيوس كراتشكوفسكي ـ تاريخ الادب الجغرافي العربي قسم I . ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم . (طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة) : 24 .

فوائد عملية جلى فى فتوحاتهم التى انطلقوا فيها الى ماجاورهم من بلاد لهم بها سابق معرفة عن طريق هذه الرحلات وغيرها من مثل رحلات عبور البدو ٠٠٠ وجاءت عملية الفتوح رحلة أو رحلات فى ذاتها قدمت للعرب تجارب ومعارف جديدة كلما توسعوا فى هذه الفتوح ، وخلقت ظروفا أخرى جديدة اقتضت الرحلة والبحث : فقد وحد العرب البلدان التى فتحوها دينيا وثقافيا الى حد بعيد ، وتطلبت مسالة ادارتها التعرف التام عليها لضبط شؤونها المالية والادارية بتنظيم الادارة والبريد والخراج خصوصا وان ذلك يرتبط بالطريقة التى تم بها الفتح ليتقرر على أساسها مقدار الجزية والخراج ، ومن ثم تحمل المؤرخون من أصحاب السير والمغازى مهمة وصف هذه المدن وسكانها واحوالهم ٠ وبتحدد الامور وتبلورها مع الايام ، استقل البعض بوصف المدن والاقاليم والتعريف بها وبطرقها وبخراجها ٠ وكان متولو البريد وأشباههم أصلح الناس للقيام بهذه المهمة ، فلم يكن غريبا اذن أن يؤلف « ابن خرداذبة » كتابه « المسالك والممالك » تقريرا عن جباية الدولة العباسية ، وهو يومها متولى البريد والخبر بنواحى الجبل بفارس ، وحرره فى (سامرا) بعيد عام (230 هـ) ٠ ثم كان كتاب (الخراج) لقدامة بن جعفر ، بين فيه الطرق والمسافات فضلا عن قيمة جباية المملكة ، وضمنه أخبارا كثيرة تتعلق بأحوال الدولة والبلاد المتاخمة لها ٠ وفى هذه الفترة كان المسلمون قد علقوا بعلوم اليونان وكتبهم فتأثرت أبحاث العرب الجغرافية فى عهدها الاول بما وصل اليه اليونان من قبل ، فكان أثر بطلميوس على الجغرافيين منهم كبيرا ، فجاءت كتبهم تحمل آثاره بشكل واضح ٠ « فابن خرداذبة ، نقل بعض كتابه عنه ثم أضاف اليه الخراج والطرق على ما ذكره هو فى مقدمة كتابه » (5) ، والخوارزمى فى كتابه « صورة الارض » خلف لنا خلاصة لجغرافية بطلميوس ، اذ « حذا حذوه ، واقتفى أثره ، غير انه جاء بكتاب جديد ممدوح مستحسن ٠٠٠ » (6) وبالاضافة الى ذلك فقد اقترنت بالحاجة الادارية حاجة دينية اقتضت وصف طرق الحج لتعيين محطات القوافل ومنازل الحجاج بين البلاد والاماكن

(5) نقولا زيادة ـ الرحالة العرب (دار الهلال 1956) : 38 ٠

(6) جويدى ـ محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب (مجموعة محاضرات ألقاها فى الجامعة المصرية بين عامى 1908 ـ 1909) : 13 ٠

المقدسة فى الجزيره • ثم ان كثيرا من الحجاج والتجار قد وصفوا فى كتب خاصة الطرق والبلاد التى رأوها • ولا شك ان طلب العلم فى مراكز البلاد كان يقتضى رحلة طلابـه من اطراف ومدن عديدة فى انحاء البلاد الى مراكز العلم فيها ، يساعدهم وحدة البـلاد السياسية والدينية والثقافية • فكان ذلك أيضا احد اسباب الرحلة الداخلية ووصف المشاهدات وتاليف الكتب فيها ، كما كان عند البعض روح المجازفة والمغامرة على غرار رحلة الفتية المغررين (7) فى بحة الظلمات ، حتى انه ليظن ان من العرب من وصل الى أمريكا قبل كولومبوس •

ومن الطبيعى ان العرب لم يبدأوا فى تمثل الخبرات الخاصة بهم الا بعد رسـوخ قدمهم وازدياد معارفهم العلمية • حتى انه « يمكن القول بان مصنفات المسلمين لم تنشأ فرعا متميزا بنفسه عن فروع التاليف الاخرى الا بعد عام 800 لميلاد » • (8) فعظمـة الدولة فى ذلك الحين هيات لهم آفاق الاتصال القوى مع غيرهم عن طـريق السفـارات والبعثات مما فتح لهم ابواب معرفة علمية جديدة عرفوا من خلالها اخبار مجاوريهـم معرفة دقيقة • ومن اقدم من يذكرونهم فى هذا الباب سلام الترجمان الذى يقـال ان الخليفة الواثق (842 ـ 847) ارسله فى بعثة الى بلاد الصين ليشاهد السـد الذى بناه الاسكندر فى ديار ياجوج وماجوج ، وعادت البعثة لتقص على النـاس اخبـار الصين

---

(7) هى رحلة قام بها ثمانية رجال من ابنـاء اشبونه (لشبونه) فى القـرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادى) ، غرروا بأنفسهم ، فطافوا فى بحـر الظلمات (المحيط الاطلسى) لمدة بضعة أشهر تقاذفتهم خلالها الاقدار والامواج من جزيرة الى أخرى • وبعد أهـوال ومخاطرات عادوا الى بلدهم ، فاطلق عليهم الناس اسم (الفتية المغررين) ، يقصدون انه غرر بهم فى مجازفات ومغامرات غير مجدية • والمظنون (كما يقول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه ـ الرحلات ـ صفحة 44) انهم وصلوا الى بعض الجـزائر فى المحيط الاطلسى ، ولعلهم وصلوا الى جزائر أزورا وكنارى •

لمعرفة المزيد عن هذه المرحلة انظر كتاب « المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس » ، المأخوذ من كتاب ، « نزهة المشتاق فى اختراق الآفـاق » للشريف الادريسى • طبعـة ليدن 1863 : 184 ـ 185 •

(8) دائرة المعارف الاسلامية مجلد 7 ـ مادة جغرافيا : 10 •

وعجائبها • (9) وكذلك فان هناك بعثات دينية كان لبعض افرادها دور فى ميـــدان الرحلات والكتابة فيها ، كالبعثة التى ارسلها الخليفة المقتدر عــام 921 م الى بـــلاد البلغار حيث كان ملكها قد طلب بعثة دينية بسبب دخول كثير من البلغار فى الاسلام • وراس هذه البعثة (ابن فضلان) ووضع كتابا وصف فيه تلك البــلاد وذكر عـادات أهلها واحوالهم • ومع الزمن وبقوة الدولة الاسلامية بدأت العلوم والمعارف فى النضج عند العرب ، ومن بين هذه المعارف الجغرافيا الوصفية التى قامت على رحلة بعض المفكرين والادباء لسبب أو لآخر ، فاطلعوا خلال رحلاتهم على أحوال البلاد وشاهدوا حياة أهلها وعاداتهم ، وكتبوا فى مظاهر الحياة الطبيعية وغير الطبيعية • ومما تجدر الاشارة اليه ان غالبية هؤلاء الرحالة المؤلفين كانوا كتابا قبل كل شيء ، فجاءت كتاباتهم يغلب عليها الطابع القصصى يستندون به الى الواقع احيانا ، ويجنحون الى الخيال احيانا أخــرى ، ويحفلون فيه بالقصص الممتعة التى تسمو به الى مرتبة الادب الفنى الصرف فى أغلــب الاحيــان •

ونحن اذا اردنا ان نعرض ملامح من هذه المؤلفات على مر العصور ، فاننا نجــد ان القرن العاشر الميلادى يمثل من هذه الناحية فترة النضج التام ، فقد زخر بمصنفات مهمة بلغت أوج التطــور الخــلاق كحركة مستقلة قائمة بذاتها ، اذ « تم فى هذا القــرن تشكيل ما يسمى بالمدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية ••• وقد بلغ عدد الرحالة فى هذا القرن حدا كبيرا » (10) ، نذكر منهم ابن حوقل والمقدسى والاصطخرى وابا زيـــد البلخى والمسعودى الذى يعد أعظم الجغرافيين اصالة فى هذا القرن • وقد يفسر هـــذا النضج ، على الرغم من الضعف السياسى للدولة الاسلامية بنضج الحضارة الاسلاميـــة وتأصلها ، وبعدم فعالية هذا الضعف القائم على الانقسام الداخلى ، لانه لم يؤثر على وحدة البلاد الدينية والثقافية بخاصة • ويطلع علينا فى القرن الحادى عشر اسم ابى الريحان البيرونى ، الذى كان قد التحق بالسلطان محمود الغزنوى فى غزنة سنـــة 1017 م ،

(9) انظر خبر هذه الرحلة فى كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة (طبعة مكتبة المثنى ببغداد) : 162 ـ 170 •

(10) اغناطيوس كراتشكوفسكى ـ تاريخ الادب الجغرافى العربى قسم 1 : 177 •

حيث قام بعدة رحلات علمية فى بلاد الهند التى قضى فيها نحو اربعين سنة ، ووضع كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » ، ومع ذلك ، فهو كتاب يستحيل « اعتباره كتابا جغرافيا بالمعنى الضيق للفظ ... فالمكانة الاولى عنده تحتلها الحضارة الروحية للهند ، وقليل من فصوله الثمانين يمس موضوعات جغرافية بحتة . وهو ينتمى الى طراز آخر من المؤلفات » (11) ، اذ هو اقرب الى مصنفات البحوث العقلية منه الى المصنفات الجغرافية .

وبعد القرن الحادى عشر ، وان ظلت بعض المصادر الادبية ، وخاصة الكتب التاريخية، تزودنا بالمعارف الجغرافية المعتمدة على المعاينة ، فقد أخذت الكتب الجغرافية الصرف يتميز طابعها أكثر فاكثر بالتنسيق الادبى للمواد الواردة فى المصنفات المتقدمة . وبدأ بعد ذلك نمط آخر ينال القبول لدى الجمهور ، ذلك هو وصف الرحلات . « ولم تدون الرحلات على هيئة كتب (المسالك) المعروفة لنا ، بل دونت على هيئة مذكرات يومية مع تفاوت فى الدقة فيما يتعلق بتدوينها من يوم لآخر ... وأول من وضع الاساس لهذا الفن حسب علمنا ، وكان ذلك قبل نصف قرن من ابن جبير ، هو الفقيه ابو بكر محمد ابن العربى (468 ـ 543 هجرية ، 1076 ـ 1148 م) . وأصله من اشبيلية ولكن لم يلبث ان غادرها الى المشرق بعد زوال دولة آل عباد ... وكان هدفه الدراسة (فطاف فى الشام والعراق والحجاز ومصر وعاد الى الاندلس) ... اما وصف رحلته فمفقود ، وكان يحمل عنوان ـ الرحلة ـ أو ـ ترتيب الرحلة ـ ، وقد نقل عنه ابن خلدون والمقرى » (12) . وجاء ابن جبير بعد ابن العربى ليؤصل هذا الاتجاه فى كتابة الرحلة بصياغة أدبية عالية ، حتى انه ليمكن القول بان كتب الرحلات تبدأ من هذا العهد برحلة ابن جبير التى سنعرض لها فى هذا البحث بالدراسة والتحليل . وتلا ابن جبير فيما بعد بحوالى قرنين ابن بطوطة ليقدم فى ظروف خاصة نمطا جديدا من الرحلات يختلف عن سابقه ابن جبير ، فى انه نحا منحى الغرائب والخرافات فى رحلته .

(11) ن. م : 297 ـ 298 .
(12) المرجع السابق : 255 ـ 256 .

وكما سنرى ، فقد كان من أهم بواعث هذه الرحلات الحج وطلب العلم · وابتداء من القرن الثالث عشر يبدأ طابع الرحلة فى (طلب العلم) يطغى على نمط الرحلة ، كما نشاهد فى رحلة ابى محمد العبدرى ، وابى عمر عبد الله بن رشيد النشريسى · وفى هذا النمط من الرحلة يحتل الصدارة لدى صاحبها التعريف باساتذته وبالعلماء الذين التقى بهم ووصف المكتبات ودور العلم التى زارها ، ونحا بعضهم بهذا النمط من الرحلة منحى آخر ، استند فيه الرحالة على أساس ترجمة حياته الشخصية (أوتو ـ بيوجرافيا) والتعريف بنفسه ، وقد يتحول فيه احيانا الى معجم للسير يترجم فيه لشيوخه وللعلماء الذين التقى بهم والى معرض لمختارات أدبية تعطى فكرة جيدة عن الذوق الادبى لعصره · واكثر من يمثل هذا الاتجاه عبد الرحمن بن خلدون فى كتابه « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ·

وهكذا شهدت القرون التالية لابن جبير كثيرين من الرحالة الذين اغنوا الادب العربى وبعض العلوم العربية الاخرى بما كتبوه فى رحلاتهم من أمثال عبد اللطيف البغدادى وياقوت الحموى وابن سعيد والعبدرى فى القرن الثالث عشر ، وابن بطوطة وابن خلدون ومحمد بن رشيد الفهرى الاندلسى ومحمد التجانى فى القرن الرابع عشر ، ثم الظاهرى والملك قايتباى فى القرن الخامس عشر · وحتى هذا القرن ظل العرب متفوقين فى ميدان الرحلات الى ان قامت حركات الاستكشاف الاوروبية ، وكان العرب قد منوا بفترة من التأخر امتدت ثلاثة قرون أو يزيد ، عم خلالها الضعف والجهل فى جميع ميادين الحياة ، وانصرف الكثيرون عن الحياة الى الزهد ، ولم يصلنا خلال هذه القرون شىء ذو بال من الرحلات ، فقد اقتصرت الى حد كبير على زيارة استانبول عاصمة الخلافة العثمانية ، أو على الحج وزيارة الاماكن المقدسة الاسلامية والمسيحية · ومن أبرز هذه الرحلات رحلة عبد الله المراكشى العياشى ، ورحلة عبد الغنى النابلسى ورحلة على الجبيلى · وظل هذا الجمود العام يطبق على أدب الرحلة فيما يطبق عليه من حياة الامة العربية حتى كانت النهضة الحديثة ، ففتحت على اساسها أبواب أوروبا على البلاد العربية ، وراح الكثيرون من ابنائها يرحلون الى تلك البلاد طلبا للعلم أو العمل أو السياحة أو غيرها ، فبدأ أدب الرحلة ينتعش ، وبدأت زهوره فى التفتح من جديد ، وكان فيض عميم من هذا الادب فى

القرنين الاخيرين · ومن ابرز اصحابه فى القرن الماضى الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ، وشهاب الدين الالوسى، وعبد الله فكرى، وأحمد فارس الشدياق، وسليمان البستانى ·

أما فى القرن العشرين ، فقد زاد الاتصال وتعمقت آثاره ، ونضجت العلوم والتفكير أكثر مما كانا عليه ، وزاد الوعى واليقظة ، وكثر الرحالون من امثال محمد الخضر حسين ، والورتنانى والبتانونى ، ومحمد حسين هيكل ، وطه حسين ، وحسين فوزى ، وأمين الريحانى وكثيرون غيرهم ·

رحلة ابن جبير :

هى رحلة قام بها أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الاندلسى ليحج بيت الله الحرام ، فخرج من غرناطة فى الثامن من شوال سنة خمسمائة وثمان وسبعين للهجرة ـ ثلاث وثمانين ومائة بعد الالف ميلادية ـ ، وقد استغرقت رحلته مذ خرج من غرناطة الى حين عودته اليها سنتين وثلاثة أشهر ونصفا ، مر فيها على مصر والديار الحجازية حيث بقى فيها بضعة أشهر ، وعرج بعد أداء الفريضة ، فى طريق عودته على بلاد العراق والشام ، ومنها سافر بحرا عن طريق صقلية فوصل بلاده فى الخامس عشر من محرم سنة خمسمائة وواحد وثمانين للهجرة ، ولا يهمنا ان نتابع ابن جبير فى طريق رحلته ذهابا وايابا ، فذلك مدون فى أخبار الرحلة وفيما كتب حولها ، وانما الذى يهمنا فى الحقيقة ان نسجل بعض الملاحظات والانطباعات عن هذه الرحلة فى سياق مكتبة الرحلات العربية · فزمن الرحلة كما يبدو من تاريخها وكما اشار صاحبها فى مصر والشام كان فى ايام احتلال الصليبيين لبلاد الشام ، أيام كان السلطان صلاح الدين فى مصر يعد ويعمل على صدهم وطردهم من هذه البلاد · وصاحب الرحلة كان رجلا متفقها فى أواخر العقد الرابع من عمره ، فهو مولود فى سنة 540 هـ ، وكان قريبا من بلاط الحكم فى غرناطة ، اذ الحقه حاكمها أبو عثمان سعيد بن عبد المؤمن بكتاب ديوانه بعد ان لمع اسمه هناك·وهو يدون أخبار رحلته هذه على صورة مذكرات يومية ـ يستعمل فيها دائما التاريخين القمرى (مع السنة الهجرية) والشمسى (دون ذكر السنة) ـ أراد ككاتب ان يحفظ فيها بعض صور هذه الرحلة التى قامت عليها شهرته الادبية بين

الاجيال التالية • وفى الغالب ، فان ابن خبير لم يكن ينوى نشر هذه الرحلة ولم يكن يتوقع لها هذا الذيوع ، والا كان وضعها فى كتاب متسلسل مطرد • ولربما كان تسجيله هذه المذكرات لمجرد اطلاع سيده بعد العودة على مشاهداته لبلاد المسلمين والديار المقدسة وانطباعاته عن أهلها خلال فترة غيابه عنه • ويؤيد هذا ما يقوله ابن الخطيب عن أبى الحسن الشارى من ان بعض تلاميذ ابن جبير هو الذى نسق هذه المذكرات وفقا لمراحل الرحلة (13) • فابن جبير ، كما يبدو ، لم يكن يخطر فى باله ان يكتب ادب رحلة بقدر ما كان ينوى ان يضع شبه تقرير يرفعه الى سيده ابى عثمان • ولكن طول الزمن الذى استغرقته الرحلة جعل صاحبها يستمرىء التدوين ويتوسع فيه ، ثم كان لغلبة الصبغة الادبية الواضحة على ابن جبير ، والتنسيق الذى أصاب هذه المذكرات أو هذا التقرير ان ارتفع به ، وعن جدارة ، الى مصاف ادب الرحلة القيم • ويزيد فى كف ترجيح هذا الرأى ان صاحب الرحلة قام بعدها برحلتين أخريين حج فيهما وزار الديار المقدسة ولم يكتب عن هاتين الرحلتين شيئا • وكان بامكانه ، لو توفر فيه روح الرحالة الاصيل ان يقارن بين أحوال البلاد وشعور المسلمين خلال السنوات التى فصلت بين زياراته الثلاث من سنة 578 وحتى سنة 614 هـ ، خاصة وكان صلاح الدين قد انتصر على الصليبيين واسترجع بيت المقدس ، وزارها ابن جبير وعلم الاسلام يرفرف فوقها ، ولكنه لم يفعل • ثم ان الشهرة التى نالها ابن جبير من وراء هذه الرحلة ، دون ان يعرف له اثر أدبى سواها ، قد تقوى هذا الزعم وتفسح له مكانا بين ما قيل فى هذه الرحلة • وعلى أية حال ، فليس المقصود انتقاص شيء من قيمة الرحلة سواء صح هذا الزعم أم لم يصح ، فلسوف تبقى فى ذروتها السامقة نموذجا لا ينازع على افضل ما كتب فى ادب الرحلة الخالص فى العصور الوسطى • ولعل فيما زعمته سالفا ، مع ما يتسم به ابن جبير من سمات شخصية ، اثرا فى تخليص رحلته من كثير مما صبغ رحلات سابقيه من تداخل واسع بين شتى الموضوعات ، ولذلك اتسمت بطابع أدبى أنقى ، فكانت أكثر آثار العصور الوسطى قيمة فى هذا المجال ، مجال أدب الرحلة ، لما امتازت به من اتقان وجودة ، ونفحات أدبية •

(13) د• حسين نصار . (محقق الرحلة) ـ طبعة مكتبة مصر 1955 ـ المقدمة : د ـ هـ •

ومن الملاحظ ان ابن جبير ، وان كان من رجـــال الديوان فى غرناطة ، لم يشـــر أدنى اشارة الى أنه عومل اثناء رحلته ، سواء فى معاملات السفر أم فى النزول والقيام ، معاملة خاصة أو رسمية ، فهو مـع صحبه ، كأى حـاج آخر ، يفتش كما يفتشون فى الاسكندرية ، بل انه يقدم عليه فيها (أحمد بن حسان) صاحبه فى الرحلة ليسأل عن أحوال المغرب ، فهل كان (أحمد) هذا مقدما فى الحـاج المغربى أكثر من ابن جبـير ؟؟ يبدو ان ابن جبير كان وقتها شخصا عاديا لم تقم له أية شهرة فى العالم الاسلامى ، ولم لا ، فرحلته لم تكن قد كتبت بعد ، بل لم تكد تبـــدأ !! وهذا على عكس ما نـــرى مع ابن بطوطة الشاب ، الذى يسجل لنا آيات تكريمه لدى السلاطين والامراء ، ويذكر كتب التوصية به من أحدهم الى الآخر ٠ وهكذا كان ابن جبير فى هذه الرحلة شخصا عاديا ، وانما يحكمه ، كما يقرأ من سطور رحلته ، كونه عالما فقيها يولى المساجد وقبور الصحابة والاولياء جل عنايته واهتمامه ٠ ففى كل بلد يحل فيه يشغل نفسه كثيرا فى احصـاء مساجده ووصف المشهور منها ، وفى زيارة قبور الصحابة والصالحين واطالة الحديث حولها ، ففى القاهرة يقف طويلا عند القرافة فيها ويعدد ما فيها من قبـور ومشاهد ٠ ويزور قبر الحسين ، ويقف امامه مبهورا لكثرة الطائفين حـوله وتقديسهم له ، فيعجزه التحرج الدينى من التعرض لوصفه ٠ وفى رأيى ان هذا التحرج الذى يشف من بـين سطور الرحلة عن وقار العالم وشىء من تزمت الفقيه حد من فيض الاحاسيس لـــدى الاديب ، ان لم يكن شلها الى حد كبير ، فجعله يتحدث من خـلال عقل الرجـل المتدين وحسب ، فحرمنا مما كان ممكنا أن يفيض فيه الرحالة من وصف للطريق الطويل فى البر وفى البحر : فى مناظره ومشاهده وأناسيه المختلفى السحن ، المتباينى الاهواء ٠ وفى الحالات النادرة التى تعرض فيها ابن جبير لما يمكن ان يكون مجالا لوصف المشاعر واستثارتها ، بقيت مشاعره حبيسة رزانة الفقيه ، وطيبته المتدينة ، فهو يكتفى فى وصف البحر وقد سكن بانه « يخيل لناظره انه صحن زجاج ازرق » (14) ، ويتحدث عن مهارة النواتية فى التصرف بالمراكب بين الشعاب ، فيكتفى بالقول « ويدخلونها فى مضايق ويصرفونها خلالها تصرف الفارس للجواد الرطب العنان ، السلس القياد ، ويأتون فى

(14) + (15) الرحلة (طبعة مكتبة مصر سنة 1955) : 48 ٠

ذلك بعجب يضيق الوصف عنه » (15) · وليس هذا وحسب ، وانما تبدو هذه الاغلال التى يغل بها مشاعره عن الانفلات فى وصفه الطوافين حول قبر الحسين فى القاهرة اذ يقول « وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك واحداقهم به ، وانكبابهم عليه ، وتمسحهم بالكسوة التى عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين متوسلين الى الله سبحانه وتعالى ، ببركة التربة المقدسة ومتضرعين ما يذيب الاكباد ، ويصدع الجماد ، والامر فيه أعظم ، ومرأى الحال أهول ، نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم · وانما وقع الالماع بنبذة من وصفه مستدلا على ما وراء ذلك ، اذ لا ينبغى لعاقل ان يتصدى لوصفه ، لانه يقف موقف التقصير والعجز · وبالجملة فما اظن فى الوجود كله مصنعا أحفل منه ، ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبدع ، قدس الله العضو الكريم الذى فيه بمنه وكرمه (16).

وهذه الاحكام التعميمية تكاد تقترب فى عددها لدى رحالتنا من عدد الموضوعات التى تعرض لها ، وهى ان دلت على شىء فانما تدل على طيبة فيه ، وعلى سلامة طوية دفعتا به الى هذا الافراط والتعميم فى الاحكام ، فكل ما يعجب به غاية لا يستطيع وصفها الواصفون · فها هو ذا ، وقبل ان يصل مكة ويرى مقدساتها ، يحكم وهو لم يزل فى بداية رحلته بان لا مصنع فى الوجود احفل من قبر الحسين فى القاهرة مما يعجز عنه الوصف ، ويحكم بعدها بأن عدد الحجاج لا يحصيه الا الله ولم يوجد مثله فى أى عام آخر · ويطيل المكث فى مكة ، اذ يظل فيها ثمانية أشهر وثلثا من 13 ربيع الآخرة سنة 879 الى الخميس 22 ذى الحجة من نفس السنة ، ويستغرق وصف الاماكن المقدسة ومشاعر الحج فيها جزءا كبيرا من رحلته ، فيصف الكعبة والمسجد الحرام وصفا دقيقا مفصلا ، ولكنه وصف أصم يصلح لان يقيم به مهندس معمارى نموذجا أو خريطة لموصوفاته ، اذ هو للاسف ، خلو من شعور الواصف وأحاسيسه أو من أى تعبير لاحاسيس الناس فى هذا الموقف العظيم · وكذلك هو وصفه لكل المساجد والاماكن الدينية التى تعرض للكلام عليها فى المدينة أو فى دمشق أو فى حلب أو فى غيرها · يقول فى وصف جامع حلب « وهذا الجامع من أحسن الجوامع واجملها ، وقد أطاف

(16) المرجع السابق : 14 ·
(17) الرحلة : 140 ـ 141 ·

بصحنه الواسع بلاط متسع ، مفتح كله أبوابا قصرية الحسن ، الى الصحن ، عددها ينيف على الخمسين بابا ، فيستوقف الابصار حسن منظرها • وفى صحنــه بثران معينــان • والبلاط القبلى لا مقصورة فيه ، فجاء ظاهر الاتساع رائـق الانشراح وقـد استغرقت الصنعة القرنصية جهدها فى منبره ، فما أرى فى بلد من البلاد منبرا على شكله ، وغرابة صنعته • واتصلت الصنعة الخشبية منه الى لمحراب ، فتجللت صفحاته كلها حسنا ، على تلك الصنعة الغريبة • وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعـلا حتى اتصــل بسمك السقف ، وقد قوس اعلاه وشرف بالشرف الخشبية القرنصية ، وهو مرصع كله بالعاج والابنوس ••• فتجتلى العيون منه أبدع منظر يكون فى الدنيا • وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من ان يوصف » (17) • والمرة الفريدة التى تكاد مشاعره فيها تغلـت من اغلالها يصف فيها جماعة السرو ، وهم قبائل من اليمن يعيشون فى جبال السراة ، لفتــوا انتباهه فى صخبهم وكثرة ازدحامهم وهم يدخلـون البيـت العتيــق ، وفى حركاتهم وتصرفاتهم أثناء الصلاة ، يقول « ••• فازدحم السرو للدخول على العادة ، فجاءوا بأمر لم يعهد فيما سلف ، يصعدون أفواجا حتى يغص الباب الكريم بهم ، فـلا يستطيعون تقدما ولا تاخرا، الى أن يلجوا على أعظم مشقة، ثم يسرعون الخروج، فيضيق الباب الكريم بهم ، فتنحدر الفوج منهم على المصعد ، وفوج أخرى صاعدة فيلتقيان ، وقد ارتبط بعضهم الى بعض ، فربما حمــل المنحدرون فى صــدور الصاعدين ، وربما وقف الصاعدون للمنحدرين وتضاغطوا ، الى ان يميلوا ، فيقع البعض على البعض ، فيعاين النظارة منهم مرأى هائلا : فمنهم سليم ، وغـير سليم ، واكثرهم انما ينحدرون وثبا عـلى الرؤوس والاعناق » (18) • اما كيف يكون شعور النظارة وحكمهم على هذا المرأى الهائل ، فابن جبير يسكت عنه ولا يفصح • وعن صلاة السرو أيضا يقول لنا « واما صلاتهم فلم يذكر فى مضحكات الاعراب أظرف منها ، وذلك انهم يستقبلون البيت الكريم ، فيسجدون دون ركوع ، وينقرون بالسجود نقرا ، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ، ومنهم من يسجد اثنتين والثلاث والاربع ، ثم يرفعون رؤوسهم من الارض قليلا ، وايديهم مبسوطة عليها ، ويلتفتون يمينا وشمالا التفات المروع ، ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا

(18) المرجع السابق : 147 •

جلوس للتشهد ، وربما تكلموا أثناء ذلك ، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده الى صاحبه وصاح به ، ووصاه بما شاء ثم عاد الى سجوده ، الى غير ذلك من أحوالهم الغريبة » (19) · والغالب ان الوصف لديه يخلو من الحركة والحياة ، فلا يكاد يشى بشيء من نبض الشعور ، ونفث الحياة ، فما هو الا آلة تصوير ، تنطبع الاشياء على قلمه كما تنطبع صورها على عدستها · والحق فانه ماهر فى هذا ومجيد ، ولكنه مع ذلك يفقد كثيرا من عناصر الجمال فى الوصف الحى · ومن أحسن ما كتبه ابن جبير فى الوصف وصفه المدن والآثار والمدارس والمستشفيات · ومن ابرز عناصر الصنعة الادبية فى هذا الوصف افتتاحه الكلام على المدن المهمة خاصة بفقرة مجودة مجملة ، تتزين بالسجع والجناس ، اذ تلقى منه احتفالا كبيرا ، فيدبج فيها فقرة أو بضع فقرات فى عبارة أدبية أنيقة ، ولكنها ، على اية حال ، تظل داخل اطاره المخصوص فى الوصف · يقول مثلا فى وصف مدينة نصيبين « شهيرة العتاقة والقدم ، ظاهرها شباب ، وباطنها هرم ، جميلة المنظر ، متوسطة بين الكبر والصغر ، يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر ، قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه وتطرد فى نواحيه ، وتحف بها عن يمين لم يعهد فيما سلف ، يصعدون أفواجا حتى يغص الباب الكريم بهم ، فلا يستطيعون تقدما ولا تاخرا ، الى ن يلجوا على أعظم مشقة ، ثم يسرعون الخروج ، فيضيق الباب الكريم وشمال بساتين ملتفة الاشجار ، يانعة الثمار ، ينساب بين يديها نهر وقد انعطف عليها انعطاف السوار ، والحدائق تنتظم بحافتيه ، وتفيء ظلالها الوارفة عليه ، فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانيء حيث يقول :

طابت نصيبين لى يوما فطبت لها ‏ ‏ ‏ ‏ ياليت حظى من الدنيا نصيبين

فخارجها رياضى الشمائل ، اندلسى الخمائل ، يرف غضارة ونضارة ، ويتالق عليه رونق الحضارة ، وداخلها شعث البادية باد عليه ، فلا مطمح للبصر اليه لا تجد العين فيه فسحة مجال · ولا مسحة جمال » (20) ·

(19) المرجع السابق : 114 ·
(20) الرحلة : : 225 ـ 226 ، أنظر وصفه لدمشق وحماة وحلب وبغداد والاسكندرية والقاهرة ·

وهكذا تراه فى مثل هذا الوصف ، كأنه طالب ناضج يكتب موضوعات فى الانشاء ، وهو فى ذلك انما يمثل الطابع العام للكتابة فى عصره · ومع هذا فان الوصف لديه يكون جزءا مهما من خصائص كتابته فى هذه الرحلة ، ينجح فيه على هذا المستوى الى حد بعيد· وفى رأيى ان النجاح الاهم الذى يسجله ابن جبير فى رحلته انما هو فى مجال الحياة الاجتماعية ، فهو ينظر دائما الى احوال الناس ومستشفياتهم ومدارسهم · وفى هذا المجال تتجلى قدرته على الملاحظة وتبرز ملكته فى النقد والحكم ، ولا غرو ، فهو على الاغلب ذو خبرات حياتية ناضجة بحكم علمه وسنه ، فلا يتحرج من اصدار الاحكام أو شبهها فى بعض الاحوال · ففى كلامه على أهل (عيذاب) وتحكمهم فى الحجاج وشظف الحياة التى يحيونها يقول « ··· ولاهل عيذاب فى الحجاج أحكام الطواغيت · وذلك انهم يشحنون بهم الجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة ، يحمل اهلها على ذلك الحرص والرغبة فى الكراء حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى طريق واحدة ، ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك · ويقولون : (علينا بالالواح ، وعلى الحجاج بالارواح) · وهذا مثل متعارف بينهم · فأحق بلاد الله بحسبة يكون السيف درتها ، هذه البلدة ، والاولى بمن يمكنه ذلك ألا يراها ، وان يكون طريقه على الشام الى العراق ، ويصل مع أمير الحاج البغدادى ··· وان طال طريقه بهذا التحليق فيهون عليه لما يلقى بعيذاب ونحوها » (21) ، فالحلول بها من أعظم المكاره التى حف بها السبيل الى البيت العتيق ، والحياة فيها على قدر كبير من الشظف والمشقة ، ويصفها بقوله « ··· حسبك من بلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء ، والعطش اشهى الى النفس منه ، فاقمنا بين هواء يذيب الاجسام ، وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام ، فما ظلم من غنى عن هذه البلدة بقوله : (ماء زعاق وجو كله لهب) » (22) · وبالاضافة الى هذه الحياة فيها ، فاهلها ألفوا بها عيش البهائم ، وهم أقرب الى الوحش منهم الى الانس ، وهم « أضل من الانعام سبيلا ، وأقل عقولا ، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التى ينطقون بها اظهارا للاسلام ، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يرضى

(21) المرجع السابق : 44 · الجلاب : المراكب ·
(22) المرجع السابق : 46 ·

ولا يحل ، ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة ، الا طرفا يسترون بها عوارتهم ، واكثرهم لا يسترون ٠ وبالجملة فهم أمة لا خلاق لهم ولا جناح على لاعنهم » (23) ٠ وكما كان فى هذا الموقف مدفوعا بعقله وعلمه ، فلعن أهل عيذاب ، وجعلهم أضل سبيلا من الانعام ، ودعا الى اعلان مقاطعتهم بتغيير طريق الحاج عنهم ما أمكن ، فاننا نراه يقف بعاطفته موقفا آخر مختلفا من أهل جدة فيحنو ويشفق عليهم ، خاصة وان اكثرهم علويون ، « وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد اشفاقا ، يستخدمون انفسهم فى كل مهنة من المهن : من اكراء جمال ان كانت لهم ، او مبيع لبن او ماء ، الى غير ذلك من تمر يلتقطونه ، أو حطب يحتطبونه ٠ وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن ، فسبحان المقدر لما يشاء ٠ ولاشك انهم أهل بيت ارتضى لهم الآخرة ، ولم يرتض لهم الدنيا : جعلنا الله ممن يدين بحب أهل البيت ، (الذين) أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » (24) .
وقد لا يكون هذا الموقف غريبا وخصوصا من مغربى يزور المشرق حاجا ، ولكن الغريب هو ما يصف به أهل بغداد من رياء ونفاق ، وطمع وضلال ، فهل كان حكمه فيهم صادقا يا ترى ، أو أنه صادر عن حالات فردية أخطأ فى تعميمه عنها ، خصوصا وهو لم يقم فيها الا فترة وجيزة لم تتجاوز اثنى عشر يوما من يوم الاربعاء الثالث من صفر سنة 580 هـ الى يوم الاثنين الخامس عشر لنفس الشهر ، يقول فيهم بعد أن يصفها كما رآها فى زمانه « وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم الا من يتصنع بالتواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء ، يزدرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الانفة والكبرياء ، ويستصغرون عمن سواهم الاحاديث والانباء ، قد تصور كل منهم فى معتقده وخلده ، ان الوجود كله يصغر بالاضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون فى معمور البسيطة مثوى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون ان لله بلادا أو عبادا سواهم ، يسحبون أذيالهم أشرا وبطرا ، ولا يغيرون فى ذات الله منكرا ، يظنون أن أسنى الفخار فى سحب الازار ، ولا يعلمون ان فضله بمقتضى الحديث المأثور فى النار ، يتبايعون بينهم بالذهب قرضا ، وما منهم من يحسن له فرضا ٠ فلا نفقة فيها الا من دينار تقرضه ، وعلى يدى مخسر للميزان تعرضه ، لا تكاد تظفر

(23) المرجع السابق : 45 ٠
(24) المرجع السابق : 50 ٠

من خواص اهلها بالورع العفيف ، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها الا على من ثبت له الويل فى سورة التطفيف ، لا يبالون فى ذلك بعيب كانهم من بقايا مدين قوم النبى شعيب • فالغريب فيهم معدوم الإرفاق ، متضاعف الانفاق ، لا يجد من أهلها الا من يعامله بنفاق ، او يهش اليه هشاشة انتفاع واسترفاق ، كانهم من التزام هذه الخلة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق • فسوء معاشرة ابنائها يغلب على طبع هوائها ومائها ، ويعلل حسن المسموع من احاديثها وانبائها • استغفر الله الا فقهاءهم المحدثين ، ووعاظهم المذكرين » (25) • وقد ساء ابن جبير بعض ما شاهده من شؤون الحكام والمسؤولين فى البلاد الاسلامية • فاعلن تذمره من بعض تصرفاتهم كتفتيش رجال الجمارك للحجاج ومحاسبة (مردة) أعوان الزكاة لهم على ما معهم من مال أو متاع دون نظر الى أحقية النصاب ، ومنهم من تجب الزكاة لهم لا عليهم • وقد نظر الى المسألة من وجهة نظر تشف عن شعور انسانى بالاضافة الى النظر الدينى حيث يقول « ••• وقد نهى الله عن التجسس ، فكيف عن الكشف لما يرجى ستر الصون دونه ، من حال لا يريد صاحبها ان يطلع عليها ، اما استحقارا أو استنفاسا ، دون بخل بواجب يلزمها » (26) • ومما زاد فى سخطه ما شهده من ظلم الحكام المسلمين لرعاياهم وللحجاج المسلمين وفى الحجاز بخاصة (27) • وصور بعض جوانب من حياة المسلمين تحت حكم الافرنج من الصليبيين ، وضاعف من سخطه على الحكام المسلمين ما رآه من حسن الحال بين الصليبيين والمسلمين من أهالى البلاد تحت ايديهم ، فقال فى ذلك « وقد اشربت الفتنة قلوب اكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لانهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين : ان يشتكى الصنف

(25) المرجع السابق : 204 ـ 205 •
(26) المرجع السابق : 35 •
(27) كان أمير مكة مكثر بن عيسى بن فليته زعيم الشيبيين • حكم على فترتين من (571 ـ 572 ومن 584 ـ 593) يفرض مكوسا كثيرة على الحجاج لقاء السماح لهم بالحج ، ولما رفع ذلك عنهم بضمان السلطان صلاح الدين بتعويض الامير عن ذلك بمال وطعام كان الامير يرهن حسابه للحجاج فى مقابل وصول هذا العوض ، وكأنه وارث حرم الله بيته • ثم ان هذا الامير كان يرتشى فى سبيل تعيين حجاب البيت الحرام • ـ انظر الرحلة صفحة 52 وصفحة 142 •

الاسلامى جور صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ويأنس بعد له ، فالى الله المشتكى من هذه الحال » (28) ٠

وللرحلة قيمة فريدة من هذه الناحية فيما يتعلق بتصويرها حياة المسلمين فى صقليه حيث عرج عليها فى طريق عودته وبقى هناك فترة يرقب عن كثب مظاهر الحضارة المادية والروحية للمسلمين فيها ٠ ولقد برز ابن جبير الفقيه فى هذه الرحلة فى حكمه على أحوال الحجاز أيام حكم أمير مكة الظالم (مكثر بن عيسى) حيث يقول « فأحق بلاد الله بان يطهرها السيف ويغسل أرجاسها وأدناسها ، بالدماء المسفوكة فى سبيل الله ، هذه البلاد الحجازية ، لما هم عليه من حل عرا الاسلام ، واستحلال اموال الحجاج ودمائهم » (29) ، حتى ليبلغ به الامر حد القول « فمن يعتقد من فقهاء أهل الاندلس اسقاط هذه الفريضة عنهم ، فاعتقاده صحيح لهذا السبب ، وبما يصنع بالحاج مما لا يرتضيه الله عز وجل ٠ فراكب هذا السبيل راكب خطر ، ومعتسف غرر ، والله قد أوجد الرخصة فيه على غير هذه الحال ،فكيف وبيت الله الآن بأيدى أقوام قد اتخذوه معيشة حرام ، وجعلوه سببا الى استلاب الاموال واستحقاقها من غير حل ، ومصادرة الحجاج عليها ، وضرب الذلة والمسكنة الدنية عليهم ، تلافاها الله عن قريب بتطهير يرفع هذه البدع المجحفة عز المسلمين ، بسيوف الموحدين انصار الدين » (30) ٠

ومع ما قد يكون فى احكامه هذه من غلو وقسوة ، الا انه كان متدينا مستنيرا الى حد بعيد ، فلم يكن متعصبا للدين تعصبا أعمى ، وان ظهرت بساطته فى كثرة لجوئه الى الله فى حالاته من الرضى والغضب ، والاعجاب والاستنكار والاطمئنان والفزع ٠ ودليلنا على ذلك بعض ما يذكره من معتقدات شعبية تنسب كذبا الى كرامات دينية يأبى هو ان يصدقها أو ياخذ بها ، فيفسرها ويبين مواضع الخلل فيها ، حتى ليبلغ به الامر ان يقيس مع آخرين ارتفاع ماء زمزم ليدحض ما يشيع بين الناس على سوالف الازمنة من زيادة ماء زمزم سبعة أذرع لبركته ٠ وكذلك لومه على من شهدوا زورا برؤية الهلال طمعا فى

(28) الرحلة : 292 ٠
(29) + (30) المرجع السابق : 52 o غرر بمعنى هلاك ٠

ان يكون العيد والوقوف فى عرفه يوم جمعة » كان الحج لا يرتبط الا بهذا اليوم بعينه » ، ومثل هذا أمور كثيرة يعارض فيها المعتقد الشعبى السائد · ولكنه ، مع ذلك ، لا يسلم من بعض الهفوات التى لم يخطر بباله تفسيرها كان يقول فى الحجـر الاسود » وللحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة ينعم بها الفم ، حتى يود اللاثم ان لا يقلع فمـــه عنه ، وذلك خاصة من خواص العناية الالهية » (31) ، متناسبا قول عمر فيه (والله لولا أنى رأيت رسول الله يقبله لما قبلته) ، ومتجاهلا او جاهلا بالفعل الحال النفسية التى يقبـل بها الحاج ذلك الحجر · وكذلك فان ابن جبير لم يسلم من تاثير الخرافات الشعبية من مثـل تصديقه بقاء أثر دم هابيل فى جبل قاسيون بدمشق ، « وقد ابقى الله منه فى الجبـل آثارا حمرا فى الحجارة ، تحك فتستحيل وهى كالطريق فى الجبل ، وتنقطع عند المغارة (مغارة الدم) ، وليس يوجد فى النصف الاعلى من المغارة آثار تشبهها » (32) · ومثل هذا ما قد يمثل امانيه الحقيقية فى انتصار الدعوة المؤمنية الموحدية ، هذه الامانى التى أعمته عن الخرافة التى تقول « ان بين جامع ابن طولون والقاهرة برجين مقتربين عتيقى البناء ، على احدهما تمثال ناظر الى جهة المغرب ، وكان على الآخر تمثال ناظر الى المشرق · فكانوا يرون ان احدهما اذا سقط ، انذر بغلبة أهل الجهة التى كان ناظرا اليها على ديار مصر وسواها · وكان من الاتفاق العجيب ان وقع التمثال الناظر الى المشرق ، فتلا وقوعه استيلاء الغز (جنس من الترك ، ويريد صـلاح الدين وجيشه) عـلى الدولة العبيدية (الفاطمية) ، وتملكهم ديار مصر وسائر البلاد وهم الآن متوقعون سقوط التمثال الغربى وحدثان ما يؤملونه من ملكة أهله لهم ان شاء الله · ولم يبق الا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد ··· ونمى الينا ان بعض فقهاء هذه البلاد المذكورة وزعمائها قـد حبر خطبا أعدها للقيام بها بين يدى سيدنا أمير المؤمنين ، أعلى الله أمره ، وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة ، وينتظره انتظار الفرج بالصبر الذى هو عباده · والله عز وجل يبسطها من كلمة ، ويعليها من دعوة ، انـه على ما يشاء قـدير » (33) · واذا

(31) المرجع السابق : 65 ·
(32) المرجع السابق : 263 ·
(33) الرحلة : 53 – 54 ·

عرفنا ان ابن جبير قد أشاد كثيرا بحكم صلاح الدين الايوبى ودعا له ، وعذره عن ظلم عماله بعدم معرفته بذلك وبانشغاله فى حرب الصليبيين ، ومجده كثيرا لعنايته بالحجاج بعامة وبالمغاربة بخاصة ، وهم وجدوا عطفا كبيرا منه طوال رحلته ، فاننا نعجب لهذا الموقف المتناقض الذى وقع فيه ، فهل يكون أضاف الحبر أو خطر بباله ان يضيفه بعد عودته الى سيده فى غرناطة ، أو أن الخبر زيد من بعض تلاميذه ؟ ولكن قد لا يكون بعيدا ان تعظيمه لصلاح الدين لم ينف حبه لسيادة أسياده الموحدين وطمعه فى حكمهم العالم الاسلامى ٠

بقى أن أشير أخيرا الى اسلوب ابن جبير فى رحلته ٠ يرى البعض ان « وصفه المفصل للابنية وان كان مملا للقارىء العادى ، فان اسلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية وسهـولة التعبير ٠٠٠ اما عرضه العام فيستهدف الصنعة والاناقة ، وهو كثيرا ما يلجأ الى السجع الذى يعالجه بالكثير من المهارة دون ان يبالغ فيه او يضطر القارىء الى تكلف الجهـد فى تفهمه ٠ كما يشحن كتابته بالاقتباسات الادبية والاشارات اللطيفة مما يتطلب درجـة معينة من المعرفة والاطلاع حتى يضحى مفهوما للقارىء » (34) ٠

ويأخذ عليه الدكتور حسين نصار ، محقق الرحلة عدة مآخذ منها : عبارته العامية التى لا ترضى عنها اللغة الفصيحة ، ويرد ذلك الى كتابتها على صورة مذكرات ثم تنسيق هذه المذكرات فيما بعد على يده أو يد أحد تلاميذه ٠ ومنها كذلك اختـلال الضمائر ، فهى لا تسير وفقا للقواعد العربية الفصيحة ، وانما على القواعد العامية وخاصة فى المثنى الذى يعامل كالمؤنث فى أغلب المواضع ٠ وكذلك عـدم ترابط العبارات فى كثير مـن الاحيان ، حتى اضطر هو ، مثله مثل محققها السابق ، الى زيادة كثير من ادوات العطف لترتبط الجمل وتتضح معانيها (35) ٠

ومن الملاحظ ايضا ان ابن جبير يضمن كـلامه كثيرا من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ٠ وقارىء الرحلة يقع فيها أحيانا على كثير من الاستعارات والتعبيرات الادبية التى يصطنعها اصطناعا ، مثل قوله فى وصف أحد خطباء الحرم الشريف فى مكة « ٠٠٠ وفى

---

(34) كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافى العربى قسم I : 301 ٠
(35) مقدمة الرحلة : هـ ٠

اثناء ذلك (حديثه) ترشقه سهام من المسائل فيتلقاها بمجن من الجواب السريع البليغ ، فتحار له الالباب » (36) ، وفى عودة احدى خواتين الحاج العراقى الى مكـة وفى أسباب ذلك « ... واجيلت فى سبب انصراف هذه الملكة المترفة قداح الظنون ، وسلت الخواطر على استخراج سرها المكنون (37) . ويقول فى سفرهم من عكا وقد سكن البحر « فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير ، ولم يبق للجهات الاربع نفس يتنسم ، فبقينا لاعبين عـلى صفحة ماء ، تخاله العين سبيكة لجين ، كأنا نجول بين سماءين (38) .

ومهما يكن ، فان هذه الرحلة تحوى بعض المعلومات التى لا يستغنى عنها مـؤرخ أو جغرافى أو أديب يريد ان يدرس هذه الفترة المهمة من حياة الشرق الاسلامى ، وقد رفع بها صاحبها هذا الضرب من الصياغة الادبية الى درجة عالية مما حدا بالكثيرين الى عدها ذروة من ذرى ما بلغه نمط الرحلة فى الادب العربى . وقد أفاد منه فائدة كبـرى الجغرافيون والمؤرخون والرحالة المتأخرون عليه ممن اعجبوا بعبارته ، واكثر الشريشى تلميذه من اقتباسها فى شرح مقامات الحريرى ، واستعار منها المقريزى والمقرى والفاسى وابن الخطـيب .

(36) + (37) + (38) الرحلة : 165 ، 167 ، 303 .

الذكرى السادسة والثلاثون لوفـاة الشيخ عبد الحميد بن بـاديس:

ابن باديس وعوامل نجاحه في أداء رسالته

احمد بن ذياب
أستاذ فى ثانوية فتح بالبليدة

ان صحة العقيدة ، واستنارة الفكر ، وطهارة النفس ، وكمال الخلق ، واستقامة العمل وهذا هو الاصلاح كله ـ مما يشترك فى الانتفاع به جميع المسلمين بل جميع بنى الانسان ، وانما نذكر المسلم الجزائرى لانه هـو الذى قدر ان يكون منا ، ونكون منه ـ كما يكون الجزء من كله ، والكل من جزئه ، فحاجته اشد ، وحقه اوجب .
(من افتتاحيات شهاب غرة المحرم 1355 ـ أفريل 1936)

تلك ـ أيها الاخـوان الابـرار ، والابنـاء الاطهـار بعض الكلمات التي يمكن أن تكـون مفتـاحـا لفـهم شخصية المرحـوم الجليـل القـدر ، العظـيم الاثـر فى ابنـاء هذا الوطن الغالى والاقطار المجاورة وهى كلمة مضى عليها منذ قيلت أربعون سنة كاملة ،

(*) محاضرة القيت فى 16 ربيع الثانى 1396 الموافق 16 أفريل 1976 بالمركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة .

ولكنها ما تزال معنا حين نعود الى انفسنا ، ونريد تحديد هدفنا ، اذ نجدنا مؤمنين بأن « صحة العقيدة » أساس كل بناء عظيم « مؤمنين » فى الكيان الشخصى ، أو النظـــام الاجتماعى ، وان استنارة الفكر هى المنطلق الثابت للرقى الحضارى ، وان طهارة النفس هى الضمان للتكافل بين الاقوام ، والتعاون بين الطوائف ، وأن كمال الخلق هو الذى يتوج تضافر الجهود ، وتكامل الطاقات ، وينجح المساعى ، ثم ان صحة العقيدة واستنارة الفكر ، وطهارة النفس ، وكمال الخلق جميعها تعمل متساندة مترافقة على تنظيم الاعمال وتوزيع المسؤوليات واختيار الألزم فالألزم ، والاحسن فالاحسن ، والاسمى فالاسمى وهو ما نسميه ــ أو ما سماه المرحوم ابن باديس « باستقامة الاعمال » ٠

فهل تكون هذه الكلمات القليلة مفتاحا لفهم شخصية المرحوم ابن باديس ؟ وهــل تصلح أن تكون منطلقا لدراسة أطوار حياته ؟ ومتى كانت الكلمات المحدودة ، أو الفقر المنتقاة من مقال أو المقتبسة من خطاب عنوانا صادقا لحياة حافلة بجلائل الاعمال ، عامرة بعظيم المساعى فياضة بالعطاء فى كل ميدان من ميادين العلم النافع ، والخلق الشافع ، والتوعية الجادة ، والغاية القاصدة ، وارادة الخير للخير ، وتحرى لجلال الحق ، وخدمـــة الوطن لقداسة الوطن والاعتزاز بالاسلام لانه الجامع بدستوره لكل تلك المبادىء ، والهادى اليها ، والمساعد على تحقيقها وازدهارها ؟ وكيف تستطيع ان تستوعب كل ذلـــك ؟ يقول بعض الكتاب ان شخصية الانسان تتكون من جوانب ثلاث : رأى الانسان فى نفسه ، وما يحسه فى وجدانه من طاقات ، ويتصف به من خلال ويأتيه من أعمال ، ومن رأى الناس فيه وما يشهدون به له أو عليه ، وما يكبرون فيه من مزايا ومحامـــد ، أو مواهب ومآثر ، ثم الواقع الذى قد يكون من يجامز الاثنين مع تعديل فى هذا ، أو ذاك ، أو تكميل وتوفيق بين الرأيين ، أو الميزانين ٠

وابن باديس ــ اذا طبقت عليه هذه النظرية يخرج مهضوم الحق لان تواضعه ، وقلة التحدث عن نفسه ، وسعيه الدائب الى الكمال يجعله لا يعطينا الكثير من خصائص حياته وسر تصرفاته وجلال موافقه الا فى نطاق محدود ٠

أما الناس فقد ينصفه قوم لكنهم لا يستطيعون انصافه لان مكاناتهم لم تكـــن يوما لتدانى مكانته أو تقارب آثاره ومآثره ، والانسان عادة يغلب عليه طبعه الموهوب ، وتربيته

فى بيئته ، وفهمه لاحداث الحياة ، ومعاييره الخاصة فى النقد والتحليل ، وفى التفسير والتدليل ، فتأتى دراسته ، الى حد بعيد صدى لما فى نفسه وانعكاسا لما يراه ويعتقده هو ، ولكن الذى يسهل علينا تفهمنا له ، ودراستنا لعوامل نجاحه ، هو ما نعرف فى الرجل من صدق فى اللهجة ، وعناية بتصوير الواقع ، والتزام بمدلول الكلمة سواء فيما يكتب ويحبر أو فيما يلقى من دروس ، ويرتجل من خطب ٠

وابن باديس يقول عن اسرته بأن عناية أبيه به كانت ذات وزن « فهو الذى ربانى تربية صالحة ووجهنى وجهة صالحة ، ورضى لى العلم طريقة أتبعها ومتربا أرده ، وبرانى كالسهم وراشنى ، وحمانى من المكاره ، صغيرا وكبيرا ، وكفانى كلف الحياة صغيرا وكبيرا أفلاشكرنه بلسانى ولسانكم ما وسعنى الشكر ، ولاكلن ما عجزت عنه من ذلك لله الذى لا يضيع جزاء العاملين » مجلة الشهاب الخاص بختم القرآن يوليه 1938 ٠

وهذه الشهادة ـ أو هذا الاعتراف من ابن باديس يضع بين ايدينا مدى المساعدة العظيمة والتأييد المتواصل ، والتشجيع الذى ظل ينمو مع الايام ، وتتسع آفاقه على كل السنين ، كان فى مبدا الامر توجيها للسلوك ، وترغيبا فى العلم ، وانفاقا فى سبيل ما يساعد عليه ، حتى اذا احس الاب ـ والاسرة كلها من ورائه أن لابنه شأنا هان عليه بعد ذلك كل بذل مهما شق أو عظم فى سبيل ابنه ٠

والذى لا شك فيه ان الابن كان يحب اباه ، وكانت لذلك الاب آمال أوحى بها اليه ، فظل الابن شعر كأنه هبة لتلك الآمال ، أو وقف عليها ٠

والاب والابن معا يشعران أن فى احياء العلم أو فى السعى لتحصيله تكريما لماضى الاسرة الماجد ، وكسبا للصيت البعيد من جديد ٠

يضاف الى هذه الحقيقة حقيقة الاصل الماجد ، والميراث المتأصل فى النبل ، وما يشعر به كرام بنيه وأحراره من الزهو الذى يحتاجون معه الى اقامة الدليل عليه ، واثبات الحجة على انهم أهل لتحمل المسؤولية ، والمحافظة على الحسب منها وشرف النسب حتى يكونوا مثلما قال عبد الله بن معاوية حفيد جعفر الطيار ـ ض ـ عنهم فى اعتداده بنفسه ٠

لسنا وان احسابنا كرمت يوما على الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ، ونفعل مثلما فعلوا

فالحافز الشخصي لابن باديس كان حافزا قويا لانه يشعر بالعزة ، ويحس فى اعماقه نوازع النبل ، ومغارس الشرف ، ولانه فى الوقت نفسه كان يجد الحماية والتأييد والتشجيع ٠

وقد تعودنا من أبناء الاسر الكبيرة ـ اذا وجدوا العناية ـ أن يشقوا طريقهم فى الحياة الاجتماعية بنجاح لانهم ألفوا هذه الحياة ، وسط الاسرة الكبيرة التى يوجد بين افرادها تفاوت فى الخطوة ، وتنافس على التقرب من السائس لامورها أو المتحمل لمسؤولياتها ، ويكون هناك حب والفة بين أبناء هذه المرأة ضد أبناء تلك ، وميل من هذا العضو البارز فيها لتلك الفئة أو هذه ـ ان صح هذا التعبير ٠ ـ

فما يكاد يشب الطفل حتى يكون قد ذاق معانى الحب والبغض ، وتذوق مرارة السخط ، وحلاوة الرضا ، وتفهم أسرار الكبد لذا ، والدفاع عن ذاك الى آخر ما يوجد فى عوالم الاسر الكبيرة ٠

ولكن الاسرة الكبيرة ـ مع ما فيها داخليا ـ تظهر شديدة التماسك فى الخارج تدافع عن بنيها ، وتحفظ لهم كرامتهم وتتالب ضد من يتعرض لهم بالشر ٠ أو يريدهم بمكروه وقد ظلت أسرة ابن باديس تحميه وتحيطه بالرعاية حتى مع فرنسا الاستعمارية ٠

فأبوه هو الذى بذل وجاهته مبكرا حتى أعطيت له «الرخصة» للقيام برسالته التعليمية فى الجامع الاخضر ولا شك ان وجاهة أبيه بين الاسر التجارية والفلاحية الفرنسية والاسرائلية ـ أو الرأسمالية القسنطينية عموما نفعت ابن باديس ، ودفعت عنه الكثير من البلاء على الاقل بالتغاضى والتسامح ٠

كما أن وجود أخيه ـ بعد ذلك ـ فى دار العمالة كان له وزنه فى مساعدته على أداء مهمته ، والمضى فيها ، واذا كان ابن باديس ـ لما شب عن الطوق ـ لم يستطع أن يستغله أبوه ، ولا أخوه فى صالح حياتهما الخاصة فلأن ابن باديس كان يعلم يقين العلم « ان لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وأن مرونته ، وليونة جانبه وكونه من الذين يألفون

ويؤلفون هو الذى مكنه من أن يصاول أسرته ، ويطاولها فاذا لم يستطع أن يقودها لصالح الشعب ـ كما يريد ـ وقف لها معارضا مصاولا دون أن يسمح للمصالة والمعارضة أن تنال من حقيقة الصلة المكينة بين الابوة والبنوة ، ولا بين الرباط الاخوى الوثيق الذى يصله باخوته وعلى رأسهم الزبير الموظف السامى فى دار العمالة .

فابن باديس الذى وهب نفسه ، ووقف نشاطه على خدمة الاسلام والعربية والجزائر ، كان هو ابن باديس المستقل الشخصية ، القوى فى الحق وبالحق ، الماضى العزم فى اخلاص لربه أولا ولدينه ثانيا ، ولقومه ووطنه ثالثا ونترك أثر الاسرة لنعود اليه باشارة خفيفة اذا لزم الامر مرة أخرى .

أما العامل الثانى فهو عامل الثقافة الاسلامية العربية وهذا العامل يمكن أن يختصر فى أن الامة الجزائرية فى جملتها لم تكن قط مفرطة فى تمسكها بالاسلام ، أو مستسلمة للمستعمر ، وانما كانت تتقى شره وتداريه مضطرة عند اللزوم . لهذا نقول بأن الاسلام ـ أو الثقافة الاسلامية ـ تلقاها ابن باديس أول ما تلقاها فى أسرته ، ثم عن معلمه الاول للقرآن الكريم المرحوم محمد المداسى .

وقد تعرض باديس مرات خلال دروسه للسن التى حفظ فيها القرآن فكان يقول « انه حفظ القرآن حفظا جيدا وفى عمره أربعة عشرة عاما » .

ثم تتلمذ للاستاذ المرحوم حمدان الونيسى فكان له فيه أثر عظيم ، والذى يصفه بأنه العلامة الفقيه . وفى تونس تلقى دروسه فى الزيتونة المعمورة ، وأساتذة الزيتونة أكثرهم لا يهتم بالتلاميذ حتى يكون له أثر خاص أو يطبعهم بطابع يحمل بعض نوازعه وميوله لتحتفظوا له بذكريات . ولكن ابن باديس يذكر بالفضل أستاذين عظيمين علميا واجتماعيا هما الاستاذ النخلى ، والاستاذ الطاهر بن عاشور .

فاذا عدنا الى الاثر الذى خلفه هؤلاء الاساتذة فى ابن باديس امكن أن نلخصه فيما يلى حسبما كنا نسمع منه ، أو نقرأ له :

أما أثر الروح الدينية الاسلامية فى ابن باديس فيعود الفضل فيها للاسرة أولا ، ثم للمعلم القرآنى محمد المداسى ثم للاستاذ حمدان بن الونيسى ، ثم الاستاذ النخلى ،

أما التأثير الخاص فالاستاذ حمدان أوصاه بل أخذ عليه ما يشبه العهد أن يستنكف عن الوظيف ، ولا يجعل منه غلا في عنقه ، وأما الاستاذ النخلي فقد ذكر له يوما ما يجده في نفسه من التبرم والقلق بأساليب المفسرين ، وتأويلاتهم الجدلية ، واختلافاتهم فيما لا ينبغي أن يقع فيه الخلاف فكان أن قال له النخلي :

« اجعل ذهنك مصفاة لهذه الاساليب المعقدة ، وهذه الاقوال المختلفة ، وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح » .

ويعقب ابن باديس على اثر هذه الكلمة التى نجدها مسجلة فى العدد الخاص بختم القرآن من الشهاب فيقول :

« فو الله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهنى آفاقا واسعة لا عهد له بها » .

والذى يظهر ان ابن باديس فى مطلع شبابه ، وفى عنفوانه لم يكن يهتم للغة العربية ، أو يعيرها كبير اهتمام الا بالقدر الذى يحتاج اليه فى مصطلحات العلوم الفقهية، والعلوم اللسانية وكتب التفسير والاصول ، والحديث والتاريخ والتراجم حتى اذا كان فى آخر مراحل تعلمه بالزيتونة صادف أن لقى ـ وهى يبحث عن المعرفة والازدياد من العلم ـ صادف أن لقى (الاستاذ المرحوم الطاهر بن عاشور) فتلقى عنده دروسا من ديوان الحماسة يقول عنها ابن باديس مسجلا وقعها فى نفسه ، وتأثيرها فى ذوقه ، وصقلها لملكته فى العربية (وكانت من أول ما قرأت عليه فقد حببتنى فى الادب ، والتفقه فى كلام العرب ، وبثت فى روحا جديدا فى فهم المنظوم والمنثور ، وأحيت منى الشعور بعز العروبة والإعتزاز بها كما أعتز بالاسلام) انظروا « النص » فى الصفحة 75 من الجزء الرابع من كتاب (ابن باديس حياة وآثار) للدكتور عمار طالبى ، وأصل النص مقال نشر فى جريدة البصائر .

واذا نحن تاملنا مدلول هذه الكلمات العابرة من المرحوم ابن باديس علمنا ان الرجل بعد هذه الدروس أصبح عظيم الاهتمام بالعربية لا لانها تعينه على فهم القرآن الكريم ودراسته الآثار النبوية البليغة ، وتساعده على فقه اسرار اللغة العربية ، وانما لتكون له ـ فى الوقت نفسه ـ أداة طيعة لخدمة الاسلام ، وتقريب مبادئه ، وتسهيل ايصاله

للنفوس وتحبيبه للقلوب ، وايناس الارواح المتعطشة بالكشف عن ينابيعه الصافية ، وموارده العذبة ، وحياضه النميرة · واذا كان ابن باديس يقول ـ فى جملة ما يقول ـ

« انى امرؤ جبلت على حب شيوخى وأساتذتى وعلى احترامهم الى حد بعيد، وخصوصا بعضهم » فمن هذا الخصوص هؤلاء الثلاثة الذين ذكرناهم فان الاحترام للاستاذ ـ فيما نعهد ـ يضاعف من سخائه بالعلم ، وجوده بالنصيحة ، ويستحثه على الاهتمام بالتلميذ، وما ينبغى له أن يعنى به ، وما يجب أن يتجنبه ، وهكذا كان التجاوب عظيما بين ابن باديس وأساتذته ولا سيما الشيخ حمدان بن الونيسى والشيخ النخلى والشيخ ابن عاشور ،

وكل من النخلى وابن عاشور كانا ـ أثناء عهد ابن باديس بالزيتونة ـ يعنيان بالروح الاصلاحية التى ينشرها فى الشرق يومئذ تلميذ محمد عبده الوفى الاستاذ رشيد رضا ، ويعلى شأنها فى سوريا هذه الحقيقة حقيقة الاصلاح الدينى فى اخريات مراحله بجامع الزيتونة ، حيث اتصل بابن عاشور اثناء تحضيره لنيل الشهادة العالمية كما اتصل بالنخلى بعد نيلها ، ويومئذ لم يعد فى حاجة الى سماع ما يقول الرجعيون عن الفكرة ، أو يحاولون به طمس معالمها · وقد عبر ابن باديس نفسه عن هذا الاتجاه حين قال :

« وما تخلصت من تلك البيئة الجامدة ، واتصلت بالشيخين النخلى وابن عاشور حتى تحصلت على العالمية ووجدت لنفسى حرية الاختيار ، فاتصلت بهما عامين كاملين كان لهما فى حياتى العلمية أعظم الاثر » نفس المصدر المشار اليه سابقا ·

والآن ماذا عن ابن باديس ؟ وأنى بلغ من سلم الثقافة ؟ وكيف نستطيع أن نقدر مستواه العام فى حقل المعرفة ؟ لقد قرأ ابن باديس سنوات اربعا بقسنطينة ثم سنوات أربعا بتونس كان فى اثنتين منهما معلما ومتعلما فى الوقت نفسه ، وهو يحمل الشهادة العالميـــة ·

فهل يدل اسم الشهادة ـ وحده على مستواه ؟ ـ ومتى كانت الشهادة عنوانا عـــلى المستوى ؟ اللهم الا بمقدار الثقة بالمعهد الذى أعطاه ، وشهرة خريجيه · فاذا اردنا أن نعرف مدى ما يستطيعه تمليذ جاد عظيم الجد ، قد وفر له أبوه وأسرته كل ما ينبغى ان

يوفر له من عون مادي وافر ، وآخر معنوى الى حد بعيد · يجب أن نصغى اليه وهـــو يحدثنا عن مبلغ عنايته فقد سمعت منه ذات يوم بالجامع الاخضر ، وهو يريد أن يوحى الينا بما ينبغى ان نكون عليه فيقول :

« كنت أسهر الليل للدراسة والمطالعة مستعينا ببعض المنبهات لكنى حين أحس أن النوم أصبح يغالبنى ، ولم تعد المنبهات العادية تنفع فى دفعه عمدت الى (مطرح) أضعه على الارض وأضع مرفقى على حافته حتى اذا أخذتنى تهويمة من الوسن زل بى مرفقاى أو أحدهما فيلامس الآجر باردا فأستيقظ وأجدد مطالعتى أو مراجعتى حتى أفرغ منها»·

فهذا العناء العنيف يبذله تلميذ بر بأبيه ، بر بأساتذته لابد أن يكون محصوله العلمى الادبى ، ومستوى ثقافته أعمق مما نصوره ، أو تشير اليه شهادته أو شهاداته ·

واذا كان مستواه العلمى قد أصبح مستوى محترما ، وكان العالم يومئذ يتهيأ لحرب كبرى ، ويتحفز لها ، وكانت نذرها تظهر فى الافق السياسى والاقتصادى والاجتماعى مكفهرة قائمة فلماذا لا يقوم ابن باديس برحلة « حج وحاجة » كما يقول الجزائريون ···

وكانت الرحلة التى لقى فيها جملة من العلماء الاعلام بما فيهم أستاذه الاول حمدان الونيسى ولقى فيها الشيخ محمد بخيت المطبعى الاول بالمدينة المنورة ، والثانى بمصر ·

وعاد ابن باديس وهو خبير بالكثير مما يجرى فى الشرق وما يؤمل للنهضة الـتى كانت نذورها الصالحة قد أخذت تنمو نموها الصالح فى الشام ومصر ، وما جاورهما ، فكان عليه أن يسهم فيها بالرسالة التى يستطيع اداءها فى الجزائر فهل أعد لها عدتها ؟ وكيف ينبغى ان تكون ؟ وما هى الوسائل التى يجب أن يستعان بها ؟

يقول ابن باديس :

« لا يستطيع ان ينفع الناس من أهمل أمر نفسه ، فعناية المرء بنفسه عقلا وروحـــا وبدنا لازمة له ليكون ذا اثر نافع فى الناس على منازلهم منه فى القرب والبعد » ·

ومن كانت هذه فكرته فلابد ان يكون لها وزن عملى فى حياته ولهذا لا نشك بل نتأكد ان ابن باديس حين فكر وقدر هداه تفكيره وتقديره الى وجوب المسارعـة بنشر العلـم ولا سيما منه ما كان متصلا بالثقافة الاسلامية العملية سلوكا وتهذيبا ، ومعاملة بـين

الاسر الخاصة ، والمتساكنين عامة ، والى جانب الثقافة الاسلامية الواسعة بما فيها من تاريخ وحضارة يجب ان تتأصل الثقافة العربية ، ومن هنا جاءت مع الايـــام شعارات « الاسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا » ٠

والذى يلفت النظر أن حماس ابن باديس اللطيف الظريف الهين اللين كان شديدا فى الحق ، صلبا فى التمسك بما يرى انه الحق ، لهذا لم يطل العهد به فى الجامع الكبـير حتى اصطدم بالمفتى المولود بن الموهوب خشية من هذا على زعزعة مكانته فى الشعب ، وشهرته فى الاوساط الادارية ، وحصل له اذنا بالتعليم فى الجامع الاخضر ٠

وكانت هذه هى المحاولة الاولى لعرقلة ابن باديس ، والوقوف دون مشاريعه ٠

والاحرار اذا وجدوا أمامهم تحديات ـ مهما كانت ـ لم يهنوا ولم يحزنوا ، ولـــم يستسلموا أو ييأسوا ٠

وهنا ثارت حمية محمد مصطفى بن باديس فوقف الى جانب ابنه ، واستغل نفوذه فى الاوساط الادارية ، وحصل له اذنا بالتعلم فى الجامع الاخضر ٠

وبدأ ابن باديس عمله تجديدا فى أساليب التعليم تجديدا فى الكتب التى تختـــار ليتعلم منها التلاميذ ولكن بطريقة هادئة وادعة ليألفه الناس ، ويألف التلاميذ الخواص دروسه ، وليعرفوا قيمته ، والغاية التى يسعى بهم اليها ٠

وجاءت الحرب فكانت الاحكام العرفية ـ أو ما يشبهها ـ نفسها تستوجب الاسرار أكثر من الاعلان ، والمضى فى الخطة ـ دون دعاية ، ولا كثير تبشير بالمهمة السامية ٠

واثر نهاية الحرب ظهرت مساعى الامير خالد فى الحقل السياسى ، وكان للجزائريين دالة ـ أو منة ـ على فرنسا اذ كان شبابها وقودا للحرب ، وعاملا من عوامل الانتصار ، فهل تعطى فرنسا شيئا ما مقابل ذلك ؟ وهناك مبادىء الرئيس الاميركى « ولسون » التى كانت تدعو لحق الشعوب فى تقرير المصير فهل يسمح للجزائر صوت فى هذا الميدان فيخفف على الاقل من بعض الضغط والقوانين الاستثنائية ؟

كانت هناك مساع واسعة ، ولكن الاستعمار بذل ما استطاع حتى يفرق عن الامير خالد جميع صحبه ، ويلقى به فى المنفى بعيدا عن القطر الجزائرى أما ابن باديس فكان

فيما يظهر يأمل ويعمل ، ولكنه حتى الآن ما يزال مؤمنا بأن « العلم » هو الذى ينقص الامة الجزائرية بالدرجة الاولى وهو يرى :

« أنه لا أدل على وجود روح الحياة فى الامة وشعورها بنفسها ، ورغبتها فى التقدم من أخذها باسباب التعليم ذلك التعليم الذى ينشر فيها الحياة ويبعثها على العمل ، ويسمو بشخصيتها فى سلم الرقى الانسانى ، ويظهر كيانها بين الامم » وأحسبنا كلنا مع عبد الحميد فى هذه الفكرة ، وقد تعتبر خيبة الامير خالد لم تكن لتقع بتلك السهولة لو أن الشعب متعلم واع ملتف حول زعيمه ·

غير أن ابن باديس ـ وقد مضت عليه عشر سنوات فى تأديته لرسالته التعليمية أصبح يشعر بأن الموعد الذى يجب أن تساند فيه حركة التعليم صحافة حرة حبة قد آن أوانه فهناك كثير من تلاميذه أصبحوا موزعين فى القطر من شرقه الى غربه ومن شماله الى جنوبه ·

وهناك طائفة منهم أكملت تعلمها بتونس، أو هى على وشك الاكمال، وهم سيشاركون ـ ولا شك ـ فى التحرير والمراسلة والتوزيع والدعوة للمساندة ـ اذا لزم الامر ·

وبدأ يكتب مقالاته فى بعض الجرائد الموجودة على علاتها ، ثم بدا له فسعى فى تاسيس جريدة المنتقد ثم خلفتها الشهاب فكان اختيار الاسمين وحده عنوان رسالتهما وكان ذلك سنة 1925 ·

وهكذا يمكن لمثل ابن باديس أن يبتهل الى الله بمثل هذا الدعاء حين قال :

« نسأل الله أن يجعل فينا ما ينفع عباد الله ، وأن يجعل ما نعطى أكثر مما نأخذ ، وما نعمل أكثر مما نقول آمين يا رب العالمين » ·

ودعاء الانسان ربه ـ فى الكثير الغالب ـ يحمل بين طياته أغلى الامانى ، وأعظم الآمال ·

ويحتاج ابن باديس الى سند فى الجريدة أو المجلة ، والسند الذى يهمه ـ فى الدرجة الاولى ـ هو السند المعنوى العلمى الادبى ، وكان ان التقت العواطف والمشاعر فالتفت حين قرأ تلاميذه واحباؤه مقالاته فى المنتقد والشهاب فتشجعوا أو كتبوا ·

ولم يكن ابن باديس ليقص فكان يزور بسكرة مرة ليلتقى بالشيخ الطيب العقبى العائد من الشرق منذ سنة 1920 ، وليجتمع بامثال المرحوم الامين العمودى ثم الاخوان الآخرين ممن كونوا فيما بعد أسرة « الاصلاح » ويزور ضواحى سطيف مرة أخـــرى ليلتقى بامثال المرحوم الاستاذ الابراهيمى ، وتأخذ الاهتمام بالمشاريع تتزايد وتنمـو خمائر فى الضمائر والقلوب والعقول وتلقى بها الشفاه فتناقش وتعدل وتبقى تترصـد الفـــرص ·

ففى سنة 1924 كانت محاولة لتاسيس « جمعية الاخاء الأدبى » ·

أما سنة 1931 فقد تاسست جمعية العلماء تحديا للاستعمار الفرنسى ، وردا عمليا على دعواه بانه بعد قرن من الزمن وهو رابض فى التراب الجزائرى لم يعد له من سبيل للتفكير فى مغادرته ·

وتاسيس جمعية العلماء صار ابن باديس عضوا عاملا فى هيأته ، ولكنه الذى يتحمل المسؤولية الاثقل امام الدولة ، وأمام الاحزاب وأمام الامة ، ولكنه يبدى النشاط المتواصل فلا يعرف الكلل ، ولا يشكل الملل وانما يمكن ان يقال عنه ان احسن ما يصدق عليـه هو قولـــه :

« اذا نظرنا فى عمل الماضى الذى قدمنا ، انبعث فينا الرجاء والامل فيما نستقبل ، واصدق الامل ما انبنى على عمل فنتقدم باذن الله للعمل فى سبيل ترقية المسلم الجزائرى داعين الى العدل والاحسان والالفة والرحمة بين جميع المتساكنين بهذا القطر، والى التفاهم والتعاون على ما فيه هناء وسعادة الجميع » « شهاب أفريل 1936 » ·

وتمضى حركة جمعية العلماء قدما فى عهد ابن باديس معنية بالتعليم اولا ، والاصلاح الاجتماعى الدينى ثانيا ، وتوجيه لسياسة فى الاحزاب الوطنية من وراء مـرة ومباشرة أخرى ·

وتجيء قضية المؤتمر الاسلامى فيعمل ابن باديس جادا على قتل « مشروع السيـد فيولات » الى الابد كما جاء فى تعبير الشهاب عدد المؤتمر لانه مشروع يفرق الامـــة ، ويشتت وحدتها ، ويصدع صفوفها ·

وتقع (مؤامرة اغتيال المفتى ابن دالى) فيكون لابن باديس الى جانب مواقفه الاولى مواقف أشد صلابة ، وأمهر فى الجدال بالتى هى أحسن وقرع حجج المبطلين بثبات جأش ورباطه قلب ، ويقين المؤمن الصادق ·

وقد مضينا طويلا ولم نتعرض للعوامل الباطنية ــ ان صح هذا التعبير ــ من ايمان عميق الى اعجاب بالشعب الى حسن تقبل الى استقامة نادرة وتدين شديد ·

وبكلمة موجزة نقول ــ والله يشهد ــ بأن ابن باديس كان يتخذ القدوة الحسنة من سيرة رسول الله وسيرة صحبه فلا يحيد عن الصراط السوى فى كل ما يستطيع أن يصل اليه اجتهاده ، وتساعده عليه ظروفه ·

واسمحوا لى يا أبنائى الاعزاء ، واخوانى النبلاء وبناتى الغاليات ان انهيت الموضوع وهو ما يزال يتطلب الافاضة ، ويستحق البيان ، ولكن لنؤجل ذلك الى فرصة أخرى ·

وحسبنا الآن أن ننهى هذه الكلمة بل نقتطعها اقتطاعا لنتابع ابن باديس فى بعض الفقر من صائب أحاديثه ، وجليل حكمه وبليغ آرائه ، عسى أن تكون فيها العبرة والعظة بهذه المناسبة الكريمة ، ولعلكم واجدون فيها متاعا للتفسر ، وثمرة دانية للقلب ، ومنهاجا سويا لمستقبلكم الماجد بالعلم الحافل بالاعمال ، الصالح المصلح لبناء الوطن الغالى الحبيب ·

فمن بين كلماته التى ينبغى أن تكونوا على علم بها قوله فى احدى التوجيهات للشباب :

أيها الشبان أرجوكم أن تاخذوا العلم بأى لسان كان وعن أى شخص وجدتموه ، وان تطبعوه بطابعنا لننتفع به الانتفاع المطلوب كما أخذه الاوروبيون من أجدادنا وطبعوه بطابعهم النصرانى وانتفعوا به ، وهم اذا انكر بعضهم اليوم فضلنا عليهم فذلك شأنهم ، أما نحن فلا ننكر من أسدى الينا الخير الخالص ، ونعترف له بالجميل ، ولا علينا فيمن « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » ولا يكن فى صدرنا من حالهم حرج فصدورنا بالايمان بالله ، والثقة به أوسع ، وعقولنا أرجح ، وديننا أرحم وأكمل · **ج 4 ص 314 من آثار ابن باديس للدكتور عمار طالبى ·**

ومرة نصغى اليه يقول :

رزقنا الله القوة في قلوبنا وعقولنا وأرواحنا وأبداننا ، وأشعرنا الرحمة بأنفسنا وببعضنا وبغيرنا انه القوى المتين الرحمن الرحيم ٠

وأخيرا نبتهل الى الله معه في قوله :

« جمع الله قلوبنا على الحق ، وأقوالنا على الصدق ، وأعمالنا على العدل والاحسان والحمد لله رب العالمـين » ٠

من محاضرات الملتقى

روح الشريعة الإسلامية وواقع التشريع اليوم في العالم الإسلامي

للأستاذ/ محمد أبي زهرة
أستاذ الشريعة وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة



ـ 2 ـ

وانه من المقرر فى الفقه حقيقتان يجب ذكرهما لمعرفة مدى العدالة الاسلامية ، ومدى المساواة العادلة :

الحقيقة الاولى : أنه اذا ارتكب الامام الاعظم ما يوجب حدا ، وجبت اقامته عليه ، ولم يخالف فى ذلك أحدا الا أبوحنيفة وحده ، والقاضى يقيم حق الله عليه والا كان آثما ، لان القاضى نائب عن المسلمين وليس بنائب عنه ، وكونه مولى من قبله لا يجعله نائبا عنه ، اذ ان التولية لدى الاهلية تمكين من القيام بالواجب ، وليست أى نيابة له بدليل أنه لا يعزل بموته ٠

واذا ارتكب الوالى المولى من قبل الامام الاعظم ما يوجب حدا فانه بالاجماع يقام عليه الحد ٠

(*) محاضرة ألقاها المرحوم فى الملتقى السابع للفكر الاسلامى بتيزى وزو المنعقد من 10 ـ 22 جمادى الثانية 1393 هـ ـ 10 ـ 22 يوليو 1973 م ٠

ونظرا لطول المحاضرة ننشرها على حلقات ٠

والحقيقة الثانية : أنه قرر الفقهاء بالاجماع أنه اذا ارتكب الامام الاعظم أو عماله ما يوجب قصاصا وجب القصاص منه ، وعلى عامة المؤمنين ان يعاونوا المجنى عليه من القصاص فى غير هوادة ، لانهم أولياء دمه يشاركون ولى الدم فى الولاية اذا عجز عن الاخذ بحقه ، وذلك لما جاء فى قوله تعالى : « **ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا** » ·

فقرر الفقهاء بالاجماع انه فى حال اعتداء ولى الامر اعتداء يوجب القصاص قرروا أن لولى الدم المطالبة ، وقد فرضوا انه قد يعجز عن القصاص لنفسه ، فأوجبوا على المسلمين المطالبة بذلك حتى يحملوا القائم على الامر أن ينزل الى القصاص منه ، وفى ذلك تطبيق دقيق لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « **لتامرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتاخذن على يدى الظالم ، ولتاطرنه على الحق اطر ، او ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ، ثم تدعون فلا يستجاب لكم** » ·

هذا مبدأ ، لم يسبق به الاسلام ، ولا يمكن ان يلحق به قانون وضعى ، لان القانون الوضعى يستمد قوته مما تواضع عليه الناس ، وقد تواضع الناس على أن ذات الملك مصونة لا تمس ، ولان غير الملك من الرؤساء يتغلبون ، والتغلب تحكم بالغلب لا بالحق ، وحتى رؤساء الجمهوريات المنتخبون انتخابا واستباح فى عصورهم دماء الملونين مهراقا ، ولا ناصر لهم ، أما الشريعة فانها مستمدة من الله ، وحكم الله هو الحق ·

العدل مع الضعفاء :

8 ــ الضعفاء فى كل القوانين الوضعية فريسة لا ناصر لهم ، فمرة يؤكلون باسم الملونين ، ومرة باسم العادات ، ومرة باسم الطبقات ، ومرة باسم الاشتراكية التى فرقت ولم تجمع ، ومرة باسم حماية المجتمع ، وجرت تطبيقات الاحكام ، ولو كانت عادلة على أساس ملاحظة المراكز الاجتماعية ، فمن كان ذا مركز اجتماعى يرفق به فى تطبيق القانون ، وعند محاكمته ينادى بأرفق المعبارات ، ويكون

وكيله فى مثل مكانته ، أما الفقير والضعيف ، فانه يخاطب بأخشن العبارات ، وليس له وكيل يدافع عنه ، أو يحميه من الظلم الاجتماعى الذى يكون القاضى فى أكثر الاحيان فى عينيه غشاوة بسبب كثافته ٠

وهنا نجد الشريعة التى نزلت بالقرآن حامية الضعيف بامرين :

اولهما : ان القاضى الاسلامى قد رسمه عادل الانسانية بعد النبيين عمر بن الخطاب فى كتاب القضاء الذى بعثه الى أبى موسى الاشعرى قال الفاروق فى كتابه : « سو بين الخصمين فى مجلسك وكلامك واقبالك واشارتك ، حتى لا ييئس ضعيف من عدلك ، ولا يطمع قوى من ضعفك » ولا تنس الانسانية ان على بن أبى طالب ابن عم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وزوج ابنته سيدة نساء المؤمنين تخاصم مع يهودى امام عمر الفاروق فسمع أمير المؤمنين كلام اليهودى ، ثم التفت الى على وقال : وما قولك يا أبا الحسن ؟ فقال تركت الخصومة ، فقال عمر لانى سويتك باليهودى ٠

قال امام المجاهدين ، لا بل لانك لم تسو بيننا ، لقد كنيتنى ، ولم تكنه ، والنداء بالكنية تكرم ، فكان المجاهد الاول بعد الرسول يرى أنه كرمه ، ولم يكرم خصمه ، فلم يسو بين الخصمين فى كلامه ٠

ولقد نص الفقهاء فى آداب القضاة على انه يجب التسوية عند المقاضاة بين الخصمين فى الامور الاربعة التى رويت عن الفاروق ، حتى انه يروى ان الرشيد قد تخاصم امام الامام يوسف القاضى صاحب ابى حنيفة مع يهودى ، فأجلس الرشيد ولم يجلس اليهودى فاعتقدت انها ليست عدلا أمام الله ، فكان يستغفر عن ذلك ، ويعتذر بان الذى دفعه هو مقام الخلافة ، ونحن نقول انه ليس بعذر فما كان الرشيد بخير من على ، ولا بخير من عمر ، انما هو الباب الذى فتح ، ولم يغلق الى اليوم ، حتى صار أمر المسلمين بددا وفسدت الامة — **ثانى الامرين** — الذى حمت به الشريعة الضعفاء أنه جعلت عقوبة الضعيف على النصف من عقوبة القوى ، وكان الضعفاء فى العصر الاول هم الرقيق ، والاقوياء هم الاحرار وقد جعل القرآن الكريم عقوبة الاماء على النصف من عقوبة الحرائر ، وقد قال الله

سبحانه وتعالى فى الاماء : « **فاذا احصن فان اتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب** » أى ان حد الزنى مائة جلدة ، فيكون على الحرة مائة ، وعلى الامة خمسين وكذلك العبد ، وكذلك كل الحدود المقدرة ، فمن شرب الخمر ثمانون جلدة على الحر ، وعلى العبد يكون اربعين ، وحد القذف ، وهو الرمى بالزنى ثمانون يكون على الحر ، وعلى العبد يكون اربعين وهكذا ٠

وقد استنبط كاتب هذه السطور من هذه القاعدة أنه يجب ان تكون العقوبة على الضعفاء اخف من عقوبة الاقوياء فالوزير يجب ان تكون عقوبته أشد من عقوبة الخفير أو قائد السيارة ، وذلك عكس ما هو قائم الآن ٠

وذلك لان الجريمة والعقوبة تسيران سيرا طرديا مع الكبير والضعيف فى الشريعة فالجريمة تكبر بكبر المجرم ، وتضعف بضعفه ، والعقوبة تتبعها ، فتكبر بكبره ، وتضعف بضعفه ، وذلك لان الجريمة مهانة انسانية ، والمهانة من المهين اجتماعيا وفى نظر الناس قرينة فتهون بهوانه وهى من الكبير اجتماعيا كبيرة ، فتكبر تبعا لمقامه ، هذا نظر عادل رفيق بالضعفاء ولكنا نرى فى القوانين الوضعية ، أو فى تطبيقها على الاقل عكسا للمعقول ، وظلما للعقول ، وذلك لان القوانين الوضعية هو القانون الرومانى ، ثم الاوضاع الاجتماعية التى اصطنعها الاقوياء فى المال ، أثر الجاه أو نحو ذلك من أسباب القوة ٠

ولنضرب لذلك مثلا للمفارقة بين حكم الله وحكم الرومان واتباعهم، قد رايت ان الشريعة الاسلامية بنص القرآن ومضمونه تجعل عقوبة العبد فى الزنى وغيره على النصف من عقوبة الحر ٠

أما القانون الرومانى سيد قوانين هذا الزمان ، فانه يقول كما جاء فى مدونة جستنيان ان العبد اذا زنى بحرة قتل ، أما اذا زنى عضو الشيوخ ، فانه يغرم غرامة بسيطة ، (مدونة جستنيان ترجمة المرحوم عبد العزيز فهمى) ٠

وقد سكت القانون عن الحرة المزنى بها ما حكمها ، لم يعتبرها مجرمة وربما لو كانت هى التى همت به وأغرته ودفعته ولا حول ولا قوة الا بالله من ظلم الانسان للانسان ٠

العدالة الاجتماعية :

٩ ــ لم يتجه الاسلام بهدى محمد صلى الله تعالى عليـــه وسلم ، ونصوص القرآن الكريم الى اقتطاع أموال الاغنيـــاء ، ليذيب ما بين الاغنياء والفقراء ، كما قال ذلك بعض الذين تزعموا السياســة فى بعض البلاد العربية ، لان الغنى والفقر حقيقتان ثابتتان فى الوجود بمقتضى الطبائع الانسانية ، وان الثمرات تابعة للطاقة ، وان نظام الانتاج وتقدير الله تعالى لها دخل فى اثراء هذا ، وجعل ذلك فى قل من المال ، فان نتائج الاعمال كثمرات الغرس وكاثمار الزرع والقوى متفاوتة ، فهذا ينتج بقوة أشـــــد ، وذاك ينتج بقدر أقل ، وبذلك تتفاوت الثروة قلا وكثرة فى أيديهما ، ولا يمكن اتحاد القوى ، فلا يمكن اتحاد الثروة ، وقد يتحد الانتاج ولكن احدهما يسارع فيبيع فى وقت غلاء الاسعار ، وينتظر الآخر غلاء اكثر ، فيجىء كســـاد ، فيبيع بثمن بخس ، فيكون فى يد الاول ثروة ، وتكون يد الثـــانى خاليــة ٠

وذانكم اثنان يزرعان فى قطع من الارض متجاوران ، وتســـقى بماء واحد وتبذر فيها بذور واحدة وتسمد بسماد واحد ، ولكن تأتى آفة ، زراعية لاحدهما دون الآخر فيكون أحدهما ذا ثروة والآخـــر لا ثروة فى يده ٠

انه لا يمكن زوال ما بين الغنى والفقر بالاذابة كما يجـــرى على السنة الجهلاء بطبائع الاشياء وطبائع القوى الانسانية ، وما يجرى به الـــزمان ٠

والاسلام اذا اعترف بهذه الحقيقة الثابتة عالج الفقر ، فلم يجعله داء ينخر فى عظام المجتمعات ، بل عمل على سد حاجـــــة الفقير ، ومعاونته محبة ورحمة ، ففتح باب الصدقات المنثورة ، وجعل التعاون فى الاسرة قائما على المودة والتراحم فأوجب على الغنى فيها الانفاق على الفقير العاجز ، ونفذ ذلك بحكم القضاء ان لم تكف دعوة الرحمن٠

وأوجب على أهل كل حى أو قرية ان يتعاونوا فى سد خلة الفقير ، فقد جاء فى المحلى لابن حزم الفقيه السلفى الذى يأخذ بالمأثور : أن

على أهل كل قرية ان يتعهدوا فقراءها بالانفاق ، فاذا لم تكف الزكاة الفقراء كان عليهم ان يرتبوا لكل فقير فيها مطعما طيبا ، وملبسا كاسيا ، ومسكنا يؤديه هذا نص عبارة ابن حزم تقريبا ٠

وهذا نوع من التكافل الاجتماعى فى المجتمع الصغير ونراه قائما على التضافر والتكافل الاجتماعى ٠

وهناك باب من أبواب سد الفقر ، وهو باب النذور والكفارات ، فمن نذر أن يتصدق كان عليه بحكم ان يتصدق ، ويكون ذلك واجبا فى ذمته ، ودينا عليه حتى يؤديه ، وقد قال عليه السلام من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر ان يعصى الله فلا يعصه ٠

وكفارات الذنوب كلها بالصدقة ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام الصدقة تطفىء المعصية ، كما يطفى الماء النار ٠

ومن افطر فى رمضان ، وليس عنده رقبة يعتقها عليه اطعام ستين مسكينا ، ومن حلف على شىء ورأى خيرا منه وحنث ، فعليه اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ،وهكذا كانت كفارة الذنوب دائما الصدقة اللازمة على الفقراء ، وذلك لان اكثر المعاصى فيها اعتداء على المجتمع ، فكان حقا على العاصى ان يعوض المجتمع عما كان من اعتدائه عليه ٠

الزكاة والعدالة الاجتماعية :

٢٥ ـ ان ما تقدم اكثره عطاء فردى يتولى من وجب عليه اداؤه ، لمن يشاء من الفقراء أو المحتاجين أو جهات البر بشكل عام ، ولكن للدولة الاسلامية نظام يوجب جمع الزكوات الواجبة على القادرين الذين لهم اموال نامية تؤخذ الزكاة من نمائها أو عينها على حسب اختلاف الاحوال ، فيؤخذ من عينها من النقدين وهما الذهب والفضة ، وما يقوم الآن مقام الذهب من الاوراق النقدية (البنكنوت) ومن الارض من الثمار والزروع ٠

وان لمال الزكاة بيتا من بيوت المال قائما بذاته ، وذلك لقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لمعاذ بن جبل عندما ارسله واليا على اليمن قال له فى شان الزكاة (خذها من أموالهم وردها لفقرائهم) ٠

وقد عين القـــرآن الكريم مصارف الزكاة ، فجعلها فى ثمانية مصارف ، ولم يترك لنبى او حاكم أن يوزعها كما يشاء له الهوى ، بل قال سبحانه وتعالى فى شان توزيعها :

« انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم » ·

وجعل لها فى بيت مال الدولة حصيلة قائمة بذاتها ، وترى ان من بين الثمانية ثلاثة يجب التنبيه اليهم ، هم ابن السبيل ، وهو الذى له مال ولكن فى مكان قد انقطع عن ماله ، ولا ماوى ولا مطعم ولا ملبس ، فانه يجب ان يستضاف فى بيت مال الزكاة حتى يعود الى أهلـه ·

والثانى فى الرقاب ، فانه يجب ان يشترى من مال الزكاة عبيد ليعتقهم بيت المال ، ليكونوا قوة عاملة فى الدولة ، بدل ان يكونوا ارقاء متدغمين فى غيرهم ليست لهم شخصية كاملة مستقلة ·

والغارمون ، وهم المدينون بديون اســـتدانوها فى غير اسراف ، وعجزوا عن السداد فى غير اسراف كتاجر استدان ، وعجز عن سداد الدين لهبوط فى الاسواق ، فانه يسدد عنه دينـه من مال الزكاة ، وهنا نقف وقفة قصيرة ، ونشيرالى أمرين :

اولهما : انه لا يوجـــد الى الآن فى أى قانون من قوانين العالم شيوعيا او اشتراكيا او رأس مالى ، وصل الى هذا النوع من التعاون الانسانى ، ولكن الشريعة الاسلامية بنص القرآن الحكيم أعلنت اليه منذ نحو اربعة عشر قرنا من الزمان ، فهـــل يعتبر المعتبرون الذين يتكففون التطعم ، وعندهم خير من فى الوجود كله ، وانه فى الوقت الذى كان فيه القانون الرومانى فى بعض أوقاته يسترق المدين اذا لم يسدد دينه ، ويباع لياخذ ثمنه فى السداد ·

فى هذا الوقت كان القرآن يوجب سداد دين المدين ليبقى قـــوة منتجة مثمرة ، ولا تنقطع ثمرات انتاجه عن الامة ·

الامر الثانى : أن والى الصدقات فى افريقية فى عهد الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز أرسل اليه يشكو من أن بيت مال الصـــدقات

اكتفظ ، ولم يجد فقيرا يعطيه ، فأرسل اليه عمر بن عبد العزيز يقول : سدد الديون عن المدينين ، فسدد ، ولكن بيت مال الصدقات لا يذهب منه جزء حتى يعود الى الامتلاء اذ تترادف عليه الاموال ·

فأرسل الى الحاكم العادل ، لقد سددت ديون المدينين ، حتى لم يبق مدين لم أسدد دينه ، فأرسل اليه عمر بن عبد العزيز ، اشتر عبيدا من عبيد المسلمين واعتقها ·

العدالة الدولية :

11 ـ بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم للناس كافة وعد الجماعة الانسانية أمة واحدة ، ولقد جاء فى القرآن الكريم : « **كان الناس أمة واحدة** » وقد قال تعالى : « **وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا** » وقد جعل القرآن الغاية من اختلاف الانسان الى شعوب وقبائل ان يكون التعارف دون التخالف ، فقال تعالى : « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « **كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى** » ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « **بعثت للاحمر والاسود** » ·

فنظرة القرآن الكريم الى الناس ، على أنهم تجمعهم وحدة الانسانية ، وان التعاون بين آحاد الانسان وجماعته أمر تحتمه الفطرة ، ويؤكدها الاسلام ، وان المعاونة واجبة بين الناس ولذا قال عليه السلام : « **الله فى عون العبد مادام العبد فى عون اخيه** » ·

بهذه النظرة المتسامحة المتآخية هى نظرة الاسلام الى علاقة المسلمين بغيرهم من الاجناس والاديان ، فجميع الناس امام الله تعالى على سواء ، لا تنافر ولا تناحر ، واذا كان قد أباح الحرب ، فلمنع الفساد فى الارض ، ولمنع الاعتداء ، فلا يعتدى قوى على ضعيف فكانت الحرب ، لأمرين : أولهما دفع الفساد ، وثانيهما منع الاعتداء ، وليعيش ابن الارض فى سلام مع أخيه الانسان ، والسلام الحق هو الذى يقوم على العدل ودفع الفساد ، ولقد قال تعالى : « **ولولا دفع**

الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين » فكان دفع الظلم فى شريعة الفضيلة باعثا على القتال لمنع الفساد ، وليستقر الحق فى هذا الوجود الانسانى ، او ليعيش غير مستخذلولا مستسلم للباطل ، انه من وقت أن حسد قابيل أخاه هابيل ، لأنهما قدما قربانا لله فتقبل من احدهما وهو هابيل ، ولم يتقبل من الآخر وهو قابيل ، فانفجر غيظا من رد قربانه قائلا : **لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ، ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك ، انى اخاف الله رب العالمين** » ... « **فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فاصبح من الخاسرين** » .

ذانكم ولدا آدم ، فجاءت ذريتهما متناحرة متغالبة ، الشر يغالب الخير ، وكان على الخير اما ان يستسلم ليتحكم الشر فى الارض ، واما أن يغالبه ، ويكون النصر متداولا بين الحق والباطل ، ولذلك كانت الحرب وكان الانحياز فى الارض ، فصار لكل شعب اقليم ، وكان لابد أن يكون تنظيم فى العلاقات بين الناس من غير ان يجتث الشر اجتثاثا ، ومن غير أن يستحكم قانون الغابة ، ويكون السلطان للقوى الغالب سواء أكان محقا أم كان مبطلا ، كما نرى الآن فى الامم التى أوتيت المال والارض ، والعلم ، فكان ذلك شرا على الانسانية كلها ، وركب الشيطان رءوس حكامها ، حتى صاروا لا يبالون بفضيلة ولا حق .

ان شريعة القرآن هى شريعة الله تعالى وهى لا تقر الظلم ، ولا تخضع الحق للباطل ، بل يحق الله الحق بكلماته ، ويبطل الباطل ولو كره المجرمون

ولذا نظم الاسلام علاقة الدولة الاسلامية بغيرها ، ولعل ما اشتمل القرآن عليه من علاقات بين المسلمين وغيرهم هو أول تنظيم للعلاقات الدولية ، ومن هدى القرآن وأعمال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وسنن الصحابة فى الحروب ، والعهود تكون أول قانون دولى ، وجد فى العالم .

لقد جمع امام من أئمة الفقه الاسلامى ، وهو الامام محمد بن الحسن الشيبانى ما فعله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وما اتبعه

فيه اصحابه من بعده ، وخصوصا عمر بن الخطاب رضى الله عنــه ، الذى حارب وعقد العهود ، فى كتاب سماه السير الكبير ، وآخر سماه السير الصغير ٠

وتدارسهما أهل أوروبا ، وأخذ منهما علماء فى هولنــدا وكتبوا فى القانون الدولى ، ولــكن كتب محمد بن الحســن ومن عاصره كالاوزاعى والقاضى أبى يوسف ، فيها القانون الدولى مستمدا من القرآن ، وقائما على الفضيلة ، والاخلاق الانســانية ، ولم يقم على مجرد العهود التى يمليها القــوى ويمليها قانون الغلب ، لا قانون العدل والفضيلة ٠

12 ـ هذا وتقرر أن العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم تقــوم أولا على أن الاساس فى العلاقلت هو السلم ، حتى يكون اعتــداء على المسلمين ، اما بالوقوف ضد الدعوة الاســلامية ومصادمتها وفتنة المتدينين بالاسلام ، ثممحاربة الملوك الذين كانوا يحولونبين رعيتهم، والاسلام انما يحاربونهم لتكون الحرية الدينية بالتبليغ بالحق ، لا لحملهم على الاعتقاد ، فلا اكراه فى الدين ، انما ازالــة هؤلاء الملوك ليتبين الرشد من الغى ، وبعد ذلك فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ٠

هذا وان العلاقة من بعد ذلك تقوم على ثلاث دعائم كل يعتمد على الحق ، والعدل والفضيلة فى ذاتها أولها المودة التى توجبها المؤاخاة الانسانية العامة ، سواء أكانوا متقاربين أم كانوا متباعدين وسواء اتحد اللون أم اختلف ،وسواء اتحد الدين أم اختلف، مادام الاعتداء غير قائم ، ولم يقاتلوا المؤمنين ولم يظاهروا عليهم ، وهذا قوله تعالى: **« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطــين ، انمــا ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الــدين وأخرجــوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ، ومن يتولهم منــكم فاولئك هم الظالمــون »** ٠

واذا لم تكن المودة متمكنة لاعتدائهم ، اذا كانوا يحادون المؤمنين فى دينهم يكون القتال كما قال تعالى : « **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله** » ·

فاذا كانت العداوة المعتدية تكون العدالة هى الفصل الحـــاكم ، ويكون على دولة الاسلام ان تعدل مع اعدائها ، فالعدالة لا تفرق بين عدو وولى فهما على سواء فى استحقاقها وقدذكرنا من قبل فى هـذا البحث قوله تعالى : « **ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلـوا هو اقرب للتقوى** » ولذا كان رد الاعتداء بمثله لا يتجاوزه ·

واذا لم يعتدوا بالفعل لم يكن لدولة الاسلام ان تحاربهم الا اذا تبين لها أنهم سيعتدون ، ويعدون العدة للاعتداء ، وللانقضاض على المسلمين ، وانه حينئذ لا يسوغ لدولة الاسـلام ان تنتظـــر حتى ينقضوا ، فان الله تعالى يقول فى القرآن الكريم : « **يا ايها الذين آمنوا خذوا حذركم ، فانفروا ثبات اوانفروا جميعا** » ·

والدعامة الثانية ، هىالمعاملة بالمثل ، ما لم يكن رذيلة ، فبالسلاح الذين يحاربوننا به نحاربهم ، وبالمعاملة التى يعاملوننا بها نعاملهم الا أن تكون رذيلة ، فاذا كانوا يقتلون الشيوخ والنساء والاطفال لا نحاربهم فيها ، واذا كانوا ينتهكون حمى الفضيلة لا ننتهكها ، ولو فى ميدان القتال ، واذا كانوا يمثلون بالقتلى ، لا نمثل بقتلاهم ،ولقد مثل المشركون بجثمان حمزة بن عبد المطلب عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأدال منهم ، ولم يمثل باحد منهم ، لان حرب الاسلام لاقامة العدل ، والفضيلة ، لا لمجرد المغالبة ، واظهار القوة كما يفعل الوحوش الامريكان وغيرهم فى هذه الايام ·

13 ــ واذا انتهت الحرب لا يقول الاسلام ويل للمغلوب كما يقول ساسة اليوم الذين يحكمون الوحشية فى سياستهم ، بل يقـول : « **لا تثريب عليكم ، اليوم يغفر الله لكم ، وهو ارحم الراحمين** » كما قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للذين أخرجـــوه من داره ، وفتنوا اصـــحابه فى دينهم ، ومثلوا بعمه وحبيبه حمزة بن عبـد المطلب ·

والدعامة الثالثة فى علاقة دولة الاســــلام بمخالفيها ــ الوفاء بالعهد ، فان الوفاء بالعهد دعامة العلاقة الدولية الفاضلة ، وهو من العدالة التى لا تستقيم العلاقات الانسانية الا بها ولقد شدد الاسلام فى الامر بالوفاء بالعهد ، فقال تعالى: **«وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعــد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمــة انما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون، ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ويهــدى من يشاء ، ولتسألن عما كنتم تعملون ، ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل اللــه ، ولكم عذاب عظيم»** ، وان هذا النص الكريم يشير ، بل يؤكد ثلاثة معــــان :

اولها : ان العهد الذى يوثق باسم الاســـلام هو عهد الله ، فمن ينقضه فانما ينقض ميثاق الله سبحانه وتعالى .

ثانيها : ان العهــــد فى ذاته قوة وأمن للمتعاقدين . والوفاء به يكسب قوة ، ولذلك شبه من ينقضه بالحمقاء التى تغزل غزلا ، وتفتله وتقويه ، ثم بعد احكامه تنقضه جزءا جزءا ، وفوق ذلك عن نقضــه ذلك لنقدم بعد ثبوتها ، والعهد كذلك ، لانه تثبيت للسلم ، والسلم قوة ، ونقضه اضعاف لهذه القوة ، وقد رأينــــا الدول التى تنقض العهود وتسميها أوراقا غير ملزمة تزول ، وفى وقت الحاجة لا تجــد من يثــق بها .

وثالثها : من المعانى التى تدل عليها الآيات الكريمات انه لا يصح أن تكون الزيادة فى أرض الدولة ، وقوة السلطان فيها ســـببا فى نقض العهد ، ولذا ذكر من بواعث الغــدر الباطلة ان تكون أمة هى اربى من أمة ، أى أن تكون أكثر عددا ، وأوسع أرضا وأقوى سلطانا من امة اخرى .

وان القوة التى تكون بسبب باطل تؤدى الى الضعف لا محـــالة ولأجل هذا شدد القرآن الكريم فى أن تكون العلاقات الدولية قائمة على العدالة ، ومنها الوفاء بالعهود .

وانه لا يجوز نقض العقد ، لأى سبب الا أن يكون السبب مشتقا من العهد نفسه ، بأن ينقضه العدو ، ولا يستمسك به ، كما نقض المشركون عقد الحديبية ، وكما نقض يهود المدينة عهودهم مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عهدا بعد عهد ٠

وان القرآن الكريم لا ينتظر الاعداء حتى ينقضوا العهد ، ويخونوا امانات المؤمنين ، بل انه ، يترقبهم ، ويحذرهم ان قامت امارات تدل على الخيانة ، أو ظهرت بوادرها عليهم ببطلان العهد الذى هموا بان ينكثوه أو عدوا العدة لنكثه ، ولذا قال تعالى : « **واما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء** » أى سويا بينك وبينهم ، فان العقد لا يوفى من جانب واحد ، بل لابد ان يوفى من الجانبين لانه رباط لا يكون الا بين طرفين ٠

هذه هى الشريعة الاسلامية ، اشرنا فى هذه العجالة الى اساس العلاقات الدولية ، لو نفذت فى هذه الايام لرفرف السلم فى العالم، وما كانت الحرب الا بين المفسدين ، وما دخل العادلون الا لمنع الفساد فى الارض ٠

الرأى العام الفاضل :

14 ـ ذكرنا أن الاسلام يبنى تنظيم المجتمع على الكرامة الانسانية، أولا ، وعلى العدالة ثانيا ٠ والمجتمع الفاضل دعامته هذان الامران ، ولا يتكامل فضيلة الا اذا ساده الخلق الطيب ، واختفت فيه الرذائل واستترت ، وعاشت فى ظلام ، فان الظلام يقتلها ، وان النبى صلى الله تعالى عليهوسلم دعا الى اخفاء الرذائل ، فى قوة ، فقال : يا معشر الناس من ارتكب شيئا من هذه القاذورات ، فاستتر فهو فى ستر الله ، ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « **ان من أبعد الناس عن الله منازل يوم القيامة المجاهرين** قيل ومن هم يا رسول الله ؟ قال **ذلك الذى يعمل عملا بالليل قد ستره الله تعالى عليه ، فيصبح يقول فعلت كذا وكذا يكشف ستر الله** » ٠

ولذا كان الرأى العام الفاضل النزيه فهذا الانماء ، ونرى الاسلام الى تكوينه بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو خاصة الامة الاسلامية ، واساس قوتها اذا أخذت به ، كما قال تعالى:« **كنتم خير**

امة اخرجت للناس تامروون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله » وترك هذا الفرض الذى حرض عليه القرآن الكريم فى كثير من آياته المحكمة لهو الطريق لفناء الامم ، وما ضعفت شوكة المسلمين ، وتفرق جمعهم ، وصاروا نهزة المفترضين الا أن سكتوا عن ذلك وتركوا ذوى القوة والجاه ،والحكم منهم من غير ناطق بالحق متقدم للجهاد به ، فصاروا عبرة المعتبرين ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ٠

وان البناء الاجتماعى الفاضل لابد ان يسوده الحياء ، بحيث يخفى الشخص رذائله ، ويظهر محاسنه ، لان اظهار الفضائل دعوة اليها ، واخفاء الرذائل استحياء من الله والناس يحمى الناس منها ، ولذا دعا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الى الحياء،فقال **الحياء خير كله** ، وقال لكل دين خلق وخلق الاسلام الحياء ، ويقول من لا حياء فيه لا خير فيه ، ويقول **ان مما توارثه الناس من كلام النبوة الاولى ، اذا لم تستحى فاصنع ما شئت** ٠

وهكذا شرع الاسلام للامة ما يحمى مجتمعها من الرذائل ان تسيطر ، وأن الفرق بين المجتمع الفاضل وغيره ، ليس بمقدار عدد الرذائل فيه ، ولكن بمقدار سيطرة الفضائل ، ولو كان عدد الرذائل كثيرا ، لان الفضيلة اذا سيطرت وجهت ، وطهرت ، وطهر المجتمع بها ، والرذيلة اذا سيطرت دنست المجتمع كله ولو كثر عدد الفضلاء فى ذات انفسهم ، وقد وجدنا فى عصرنا مع سيادة الظلم امة كانت حريصة على طهارة الرأى العام فيها ، فكانت تغمض العين عن الرذائل قلت أو كثرت مادامت في الظلام ، فاذا ظهرت حاربتها ، وقاومتها بعنف شديد ٠

وجدنا هذه الامة الآن آلت الى انهيار ، اذ يعلن كبراء فيها معاصيهم ، ويكتفون بوصف انفسهم بالصغاير ، فضلوا ونسوا ان اعلان معاصيهم تحريض على المعاصى ٠

الكسب الطيب :

15 ــ تكلمنا فيما هو قوام الانسانية ، وما به يتكون المجتمع الفاضل ، واخذنا الاحكام من القرآن والسنة مباشرة ٠

والاسلام لم يكتف بذلك التنظيم الاجتماعي الانساني العام ، بل تكلم فى اسباب الرزق الحلال ، والكسب الطيب ، وقال الله تعالى : « **يا ايها الذين آمنوا لا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل ، الا ان تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا انفسكم ، ان الله كان بكم رحيما ، ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما ، فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا** » ، بهذا النهى الحكيم من رب العالمين كان تنظيم المال وعقوده ، وأشار سبحانه الى أن أكل المال بالباطل يقتل به الامة نفسها ، وقد جاء اليهود من هذا الباب ، فيسروا أكل المال بالباطل بين المسلمين ، وقتلوها ، اذ حكموا المادة فيها فماتت وتفرقت ، واستطاعوا ان يسيطروا عليها .

والاسلام ككل تنظيم اقتصادى المتبع له فى جملته وتفصيله بحده يقسم الكسب الطيب الى ثلاثة انواع :

كسب بالزراعة . وهو حلال لا ريب فيه . وقد من الله تعالى على عباده فقال : « **كلوا من طيبات ما كسبتم ، ومما اخرجنا لكم من الارض** » .

والثانى الكسب بالتجارة : والكسب بالتجارة أشار اليه القرآن الكريم فى الآية التى تلوناها : « **يا ايها الذين آمنوا لا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل** » الآية .

وان التجارة حبب فيها الاسلام وقد تولاها النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وذلك لان التجارة لكل الاموال من أرض تنتج أنواعا الى أرض لا تنتجه فتجعل ابن الارض ينتفع بخيرات أرض فى كل أرض تنتج خيرا ، ولقد قال عليه السلام الجالب مرزوق ، والمحتكر خاطىء ، والجلب هو الاستيراد من الاقطار الاخرى ، ويقول بعض الاقتصاديين من المسلمين الاولين نقل المتاجر من الاقطار لا يفعله الا ذوى الاخطار من التجار .

وانه فى هذا تتعرض المتاجر للمخاطر ، ولا يقوم عليها الا من يريد أن يكسب بالتعرض للربح والخسارة كالغرم بالغنم .

والطريق الثالث هو العمل ، والعمل هو الاصل فى الكسب وقد حث النبى صلى الله عليه وسلم على العمل ، وحبب فيه وقال

عليه السلام : «**خير ما اكل ابن آدم ما كان من عمل يده ، وان نـــبى الله تعالى داوود كان ياكل من عمل يده** » ·

وكرم الله تعالى عمل اليد لكيلا يحقره أحد ، وتتعاون الامة كلها بالعمل ، وهكذا ·

تهيئة الفرص :

16 ـ وان الاعمال متفاوتة فى ذاتها اوسعها عمل اليد ، واعلاها عمل الفكر ، وبينهما درجات . وقد استنبط منها المسلمون من آثار الصحابة والتابعين ، ومن قبلهم هدى سيد المرســلين توزيعا عادلا للقوى الانسانية ، كل فيما يستطيعه ، وان ذلك التــوزيع تنظمه الفطرة وهو شىء من القوى التى وهبها الله لعبــاده ، وهى متفاوتة ويكون عمل كل امرىء بمقدار مواهبه وبمقدار استعداده ·

لقد قرر الشاطبى مستنبطا من فقه الصحــابة والتابعين وهدى سيد المرسلين أن الاعمال التى تسند لذوى القدرات تكون على حسب الفروض الكفائيــة ، وتكون التربيــة لتهيئة الناس على الفروض الكفائية ، كل بحسب مقدرته وطاقته ، فيكون لكل ذوى طاقة فكرية وبدنية فرض كفائى يناسبها ، وتقوم به ، وتؤديه ·

17 ـ وقبل ان نخوض فى بيان ذلك نشــير الى معنى الفروض الكفائية ، فنقول ان الفروض كما اوجبها الاسلام فروض عينية يجب على المكلف ان يقوم بها كالصلاة والزكاة والحــج لمن استطاع اليــه سبيلا أن يقوم به ولا يغنى عن واحد قيام غيره به ، فلا تغنى صــلاة واحد عن آخر ، وكذلك من صومه ، وكذلك الزكاة لمن وجبت عليه ، والحج لمن استطاع اليه سبيلا ·

وهناك فروض لا تجب على الآحاد بل تجب على الجماعة ، وتتضافر على تحقيقها وتتعاون فى ايجاد من يقومون بها ، كالجهاد وكالقضــاء ويقول الامام الشافعى الفروض الكفائية واجبة على العموم والخصوص ، فالطب مثلا فرض كفاية ، وهو واجب على العموم ، وعلى الخصوص ، فهو واجب على الامة بأن تعد طائفة من بينها للتخصص فى الطب وان تعين لكل نوع منه طائفة معينة ·

ثم بعد تعيين هـــذه الطائفة المتخصصة يكون الطب واجبا على الخصوص على هذه الطائفة التى خصصتها الامة ٠

ويكون الوجوب على هؤلاء قريبا من الوجوب العينى ، لانه لا يتعين طبيب لكل مريض ولكن بلا ريب يكون الوجوب على الاطباء هـــو الافضل فى الوجوب بعد تعيينهم ٠

وكذلك الهندسة وكذلك القضاء ، وكذلك الجهاد ، لابد ان تتضافر الامة على تربية طائفة لقيادة والجنـــدية ، وتدريبهم ، وتمدهم بكل الاسباب ، ويكون الفرض عليهم أولا ، ولا يكون الجهاد على الكافة الا اذا دخل العدو أرض الاسلام فى أى جزء من اجزائها القاصى والدانى، فكل شبر من أرض الاسلام لكل مسلم حصته شافعة فيه ، فعليه ان يرابط لحصته ، وكما قال صلى الله تعالى عليه وسلم « **كل مسلم على ثغرة من ثغور الاسلام لا يؤتى الاسلام من جانبه** » ٠

١٧ ـ على ضوء هذه الاشارة الموجزة الى مقام الفروض الكفائية ، ومقدار الوجوب فيها قد قرره الشاطبى بانيا على كلام الشافعى فيه وكلام الشافعى فى فرز من هدى النبى صلى الله تعالى عليه وســـلم ويأخذه عنه الصحابة والتابعون ، بعد نصوص القرآن الكريم ٠

قرر الشاطبى فى التربية الاسلامية فى الجـــزء الثالث من كتابه الموافقات أنه يجب ان تبنى التربية على أساس تهيئة الجميع للفروض الكفائية كل على حسب طاقته ٠

قرر أن يكون التعليم على ثلاث مراحل :

١) المرحلة الاولى ، وتكون عامة لكل الشباب ، يعلمون فى هذه المرحلة فروض الدين ، وأحكامه واللغة العربية ، ويحفظون القرآن الكريم أو جزءا منه ويعلمون به شؤون دينهم كما اوجب الشـــافعى ويعلمون فيه السباحة والرماية وركوب الخيل للجهاد ، ويعلمون حمل السلاح ، ويدربون على النضال كما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يوصى به فى تربية شباب الصحابة ، وكما كانوا يفعلون ، ومن اجتاز هذه المرحلة بتفوق انتقل الى المرحلة الثانية ، ومن لم يجتزها بتفوق ، وقف عند ذلك الحد ، وهو حينئذ يقف عنـــد فرض كفائى يجب على الامة تحقيقه ، وهو القيام بالاعمال اليـــــدوية، ومن عمال يدويين ، ومن جنـــد يحاربون ليس لهم الا قوتهم البدنية بها يدافعون ٠

٢ ـ المرحلة الثانية ـ وهى المرحلة المتوسطة تكون من المتفوقين فى المرحلة الاولى اجتازوها بتفوق ، وبرعوا فيها ، وفى هذه المرحلة يتجهون نحو التفنن المحدود ، ويعلمون أصول الصناعات ، ويدربون على الاعمال الفنية ٠

ومن اجتاز هذه المرحلة بتفوق انتقل الى المرحلة الثالثة مرحلة التخصص الكامل أو ما يكون طريقا الى الكمال ٠

ومن لم يجتزها بتفوق ، وقف عند مرحلة تحتاج اليها الفروض الكفائية التى تحتاج اليها الامة ، فالامة تحتاج الى ممرضين ، ومساعدى صيادلة ومهندسين ، وكتبة للديوان وغير هؤلاء ، وهؤلاء يكونون ممن وقفوا عند هذه المرحلة وتحتاج الى عمال فنيين مدربين مهرة ، وغيرهم ، وهؤلاء يكونون ممن وقفوا عند هذه المرحلة ، فحيث وقفوا كانوا يستطيعون القيام بفروض كفائية ، الامة محتاجة الى أنواعها ٠

والمرحلة الثالثة أو التالية ـ هى التى تتكون ممن يبقون فى المرحلة السابقة ، وهذه مرحلة التخصص ، وفيها يتخرج كبار القواد ، والعلماء والفقهاء ، والمهندسون والاطباء ، وهذه المرحلة فى حقيقتها مراحل ، ولكن مراحلها تكون بالجهود الذاتية ، فمنهم من يربى نفسه فى القيادة حتى يكون كخالد بن الوليد ، ومنهم من يربى نفسه بالفقه ، حتى يكون كأبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ومنهم من يربى نفسه فى القضاء حتى يكون كعثمان التبتى وعبد الرحمن بن شبرمه وابى يوسف القاضى ، ومنهم من يربى نفسه فى الطب ، حتى يصير كابن سينا ومنهم من يربى نفسه فى الهندسة حتى يكون كأبى الريحانى البيرونى ، ومنهم من يربى نفسه فى العلوم الرياضية حتى يكون كأبى بكر الخوارزمى ومنهم من يربى نفسه فى علوم البيان، حتى يكون كالجاحظ ، وابى هلال العسكرى والزمخشرى ، وهكذا يتجهون نحو القمة ، حتى يصلوا اليها ٠

١٨ ـ وان خلاصة هذا الكلام تنتهى الى أن التربية كما قررها الشاطبى مستنبطا من عمل النبى والصحابة والتابعين ، كبناء الهرم٠

وقاعدته أوسعته وهى تشمل المرحلة الاولى ، وهى شباب الامة كلها، ثم يضيق من بعد القاعدة حتى يصل الى المرحلة الثانية ، ثم يذهب فى الارتفاع حتى يصل الى المرحلة الثالثة ٠

والمرحلة الثالثة تضيق وترتفع حتى تصل الى القمة ، وفى القمة يكون العدد قليلا ، وهؤلاء هم العباقرة الذين تبنى عليهم الحضـــارة الانسانية فى كل فروعها ، وأنواعها ٠

وقد يقول قائل ، ان هذا كلام أقرب الى اصطلاحات العصــــور الحديثة فهل كل هذا شرعه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونفذه الصحابة ؟

ونقول فى الاجابة عن ذلك ان المراحل ذكرت بعضها تقريبـا فى كتاب الموافقات للشاطبى وواضح أنه اقتبس اصلها من كلام الشافعى فى الرسالة الا صولية : فكـلام الشـاطبى تفصيل لمعنى الخصوص والعموم بالنسبة للتكليفات الكفائية ، وهو توضيح لقديم ، وليس ذكرا لجديد والشافعى ، وهو العالم بالقرآن ، وامام السنة وناصرها أخذهما مما درس من فقه الصحابة وفقه السنة ، واذا كانت الاسماء لم ترد على السنتهم ، فالحقائق قد ثبتت بأقـــوالهم وافعالهم ، وما اتبعوه فى سياستهم العلمية ، والحربية ، وتنظيم الدولة ٠

وعدم ذكر هذه الاسماء ، وجريانها على السنة الصحابة من تقسيم المراحل ، وذكر واجبات كل مرحلة وما تنتهى به واليه لا يدل على أن وقائعها لم تكن موجودة ، بل انها موجـودة ، وان لم يقف السلف الصالح بالاسماء عنى بالوقائع ٠ (يتبع)

نشــاط المركز الثقافى الاســلامى

نظم المركز الثقافى الاسلامى خلال الاسابيع الاخيرة سلسلة من المحاضرات بالعربية، قـام بها أساتـذة متخصصون جزائـريون ومستشرقـون ، وتنـاولوا فيهـا مواضيع متنوعة ، منها التاريخية والحضارية ، ومنها الفلسفية والدينية والثقافيـة ، ومنها الادبية واللغوية والفنية ، وهى كالتالى : ـ

ـ دولة بنى برزال الجزائرية بالاندلس ، للشيخ سليمان داود بن يوسف ، بحاثـة جزائرى ، ألقاها يوم الاثنين 9 صفر 1396هـ ، الموافق 9 فيفرى 1976م ،

ـ أرسطو وأثره فى الفكر الاسلامى ، للاستاذ نافع النومان ، من الجمهورية العربية السورية ، ألقاها يوم الاثنين 23 صفر 1396 هـ ، الموافق 23 فيفرى 1976 م ·

ـ نظرية الدولة الاسلامية فى آراء الفلاسفة العرب المشارقة والمغاربة ·

ـ المناظرة بين المنطق الفلسفى والنحو العربى فى عصر الخلفاء ، للمستشرق الالمانى الدكتور جيرهارد أندرس ، أستاذ اللغة العربية والعلوم الاسلامية فى جامعة بوخوم ـ بجمهورية ألمانيا الاتحادية ـ ، ألقاها يومى الخميس والجمعة 26/27 صفر 1396 هـ ، الموافق 26/27 فيفرى 1976 م ·

ـ تطور مفهوم الثقافة فى العالم العربى ، للمستشرق الالمـانى الدكتـور فولف ديتريش فيشر ، أستاذ اللغة العربية والعلوم الاسلامية فى جامعة ارلنجن ، بجمهورية ألمانيا الاتحادية ، ألقاها يوم الثلاثاء 1 ربيع الاول 1396 هـ ، الموافق 2 مارس 1976 م ·

ـ أهمية الاحتفال بالاعياد الدينية والوطنية ، للاستاذ أحمد حمانى ، رئيس المجلس الاسلامى الاعلى ، ألقاها بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، يوم الاثنين 7 ربيع الاول 1396 هـ ، الموافق 8 مارس 1976 م ·

ـ عوامل النهضة والانهيار فى الاندلس ، للدكتور محمد الشريف قاهـر ، أستاذ الادب العربى بجامعة الجزائر ، ألقاها يوم الاثنين 14 ربيـع الاول 1396 هـ ، الموافق 15 مارس 1976 م ·

ـ الثورة الجزائرية فى شعر سليمان العيسى ، للسيد أحمد بن ذياب ، أستاذ بثانوية ـ فتح ـ بالبليدة، ألقاها يوم الاثنين 21 ربيع الاول 1396 هـ، الموافق 22 مارس 1769 م.

ـ مواقف من كفاح الشيخ الفضيل الورتلانى ، للاستاذ على مرحوم ، مفتش التعليم الابتدائى والمتوسط سابقا ـ ، ألقاها يوم الاثنين 28 ربيع الاول 1396 هـ ، المـوافق 29 مارس 1976 م ·

والملاحظ أن هذه المحاضرات ستنشر فى مجلة الاصالة فى المستقبل ·

مناقشات

حول جواز تعويض الهدي نقدا

محمد المامون القاسمي الحسني
المدير المساعد للتوجيه الديني
ـ الجزائر ـ

أمام تزايد عدد الحجاج سنة بعد اخرى ، وتفاديا لضياع قيمة الذبائح التي توارى في التراب دون الاستفادة منها ، مما يفوت على الامة الاسلامية مقصد الشريعة من هذا الهدى ،

أجمع أعضاء لجنة الافتاء المركزية التابعة لوزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، اثر الاجتماعات التي عقدوها يومي 6 و 7 جمادى الثانية 1395 هـ الموافق لـ 16 و 17 يونيو 1975 م ، على وجوب مضاعفة الجهود الهادفة الى تنظيم عمليات ذبح الهدى ، خلال موسم الحج ، بالاكثار من المذابح ، وتوفير ذباحين مهرة ، واقامة ثلاجات حديثة ، وتأسيس مصنع للتصبير والتعليب .

وفي حالة تعذر هذا التنظيم ، وافقت اللجنة ، بأغلبية أعضائها ، على جواز دفع ثمن الذبائح نقدا ، لفقراء المسلمين والمساكين ، بمكة المكرمة والبقاع المقدسة ، وفي سبيل الله عموما .

تعليق على مقال للصحافي السعودي السيد رضا محمد لاري رد فيه على المجلس التأسيسي لرابطة العالم الاسلامي الذي أفتى ببطلان الفتوى الجزائرية المتعلقة بجواز تعويض الهدى نقدا ، ونشرته صحيفة عكاظ الصادرة بتاريخ 1395/12/27 .

ورغم أن هذه الفتــوى كان المقصود منها ، بالدرجة الاولى ، الحجاج الجزائريين ، فان المجلس التأسيسى لرابطة العالم الاسلامى ، قد تعرض لدراستها ، خلال اجتماعاته فى موسم حج 1395 هـ ، ورفض جواز تعويض الهدى نقدا ، بحجة أن الاسباب الداعية اليه لم تــعد قائمة ، وان التنظيم الذى دعت اليه لجنة الافتاء الجزائرية قد تحقق ، وأصدر المجلس هذا القرار متجاهلا استمرار الوضع المزرى الذى يسود تأدية هذه الشعيرة الدينية ، الامر الذى حدا بالسلطات السعودية الى الاتفاق مع شركة أجنبية أعدت أفرانا بمنى تحرق فيها الذبائح بمجرد ذبحها حتى تتلف قبل تعفنها • وهذا الاجراء لا يعدو أن يكون حــلا سلبيا لانه لم يحفظ أموال المسلمين من التبذير ، ولم يحقق ، بالتالى ، مقصد الشريعة من الهدى •

ومما يؤكد هذا الرأى ، استمرار ظهــور تعليقات وملاحظات تطالب جميعها بايجاد حلول ناجعة للقضاء على ظاهرة التبذير هذه والاستفادة من هذه الاموال التى تبدد دفنا أو احــــراقــا •

ومن هذه التعليقات ما كتبه السيد رضا محمد لارى أحد كبار الصحافيين السعوديين ، فى جريدة عكاظ ، احــدى كبريات الصحف السعودية ، الصادرة بتاريخ 1395/12/27 ، حيث أكد على أن « أكثر من مليون رأس من الغنم يدفن فى أرض منى ، ويضيع هدرا دون أن ينتفع به أحد » •

ويرى كاتب المقال « أن فى هذا خــلافا بين الاصــل الفقهى والصور التطبيقية لــه ، وهو ، بالتالى ، تناقض بين التصرف بالذبح ودفنه ، وبين وجود أفواه جائعة من الاخــوان المسلمين ، نتيجة سوء تطبيق الشريعة ، وبسبب الفهم الخــاطىء من قبل الحــاج للمناسك الواجبة عليه لاداء فريضة الحج ، حيث يتصور الحاج أن عليه أن يسيل دما استكمالا للحج ، وبالتالى ، أخذ يمارسها دون قناعة بها ، وكأنها حكم اسلامى لا يستطيع مخالفته ، والا أصبح حجــه باطــلا » •

وقد دعا الكاتب الى دراسة الفتوى الجزائرية بجد ، وتعميم حكمها لســائر المسلمين حيث قــال :

« وبعد وضوح الصورة بأبعادها الحقيقية تبـين لى الاساس الفقهى الذى استنـد عليه علماء وفقهاء الجزائر فى اصدار فتواهم بجواز الدفع المادى للراغب فى الذبح على اعتبار أنه يمثل نوعا من أنواع الصدقة المقدمة لفقراء المسلمين ••• واعتقد أن لهذه الفتــوى مبرراتها وجوانبها المنطقية البراقة مما يدعونا الى دراستها بجدية أكبر من قبل المتخصصين فى العلوم الدينية لاصدار فتوى عامة تنطبق على كل المسلمين لنمنع اهدار أموالنا كما حدث فى موسم الحج الاخير وفى غيره من مواسم الاعوام السابقة •• ويتضح حجم الخسارة التى حققناها هذا العام من كلمة الاستاذ عبد الله عريف التى قرر فيها أن أمانة العاصمة عاجزة عن توفير العدد الكافى من الجزارين لسلخ وحفظ مليون رأس مذبوح فى فترة محــدودة للغاية • فلو تصورنا متوسط ثمن الرأس المذبوح 400 ريــال (400 دج) وأخذنا بتحـديد الاستاذ العريف بمليون رأس ذبحت فقط ، لكان معنى ذلك أننا أهدرنا أربعمائة مليون ريال كان في استطاعتنا ، لو استثمرناها بواسطة البنك الاسلامى مثلا لاطعام الفقراء من المسلمين،

لقضيتنا على المجاعة العالمية ككل ، خصوصا مع استمرار حصول هذا البنك على مبلغ مماثل بشكل ثابت كل عام » ·

وختم الكاتب مقاله بقوله :

« انها مشكلة تبحث عن دراسة فورية وجادة ، خصوصا ، وأن أحكام الشريعة لا تشترط ضرورة الذبح ، وانما تهدف الى اطعام الفقراء والمساكين ، (فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون) » ·

ونحن اذ نشكر الكاتب السعودى على حثه على دراسة الفتوى الجزائرية بجد ، ودعوته الى تعميم حكمها لسائر المسلمين ، نذكر بأن هذه الفتوى كانت خاصة بالحجاج الجزائريين ، وأننا لم نقصد تعميمها بقدر ما قصدنا الى اثارة البحث الجاد فى هذه القضية الهامة التى تشغل بال الامة الاسلامية فى مجموعها ، لايجاد حلول ملائمة تتماشى وروح الشريعة الاسلامية ، وفى نطاق قوانينها ، وتراعى المقاصد العامة لها ، مع عدم اغفال تقدم الحضارة المادية فى هذا العصر ·

«موسم الحج بين الامس واليوم»

هذا وقد اطلعنا على مقال للدكتور محمد أبو شهبة بعنوان : « موسم الحج بين الامس واليوم » نشره فى مجلة « التضامن الاسلامى » السعودية بتاريخ ذو الحجة 1395 هـ والمحرم ، الموافق لـ ديسمبر 1975 · تعرض فيه الى عدة مشاكل تتعلق بموسم الحج ، وفى مقدمتها مشكلة الذبائح ·

وننشر هنا الفقرة المتعلقة بهذا الموضوع · من باب تعميم الفائدة ، والتأكيد على ضرورة تكاتف الجهود لايجاد حل لها :

« ··· وأذكر أنى اقترحت فى ذلك المقال الاستفادة من ألوف الذبائح التى كانت تذهب لحومها هدرا ، ويكون مآلها الى التعفن والفساد ، ثم الحرق أو الدفن فى الارض حتى لا تكون سببا لانتشار الأوبئة والامراض ، وذلك بعمل مصنع لتجفيف ما فضل عن حاجة الفقراء والمساكين ، وما اكثره !! ثم توزع على الفقراء والمعوزين أثناء العام ، أو توزع على فقراء الحجاج الذين لا يقدرون على شراء اللحم، ومن ثم لا يطعمون اللحم أبدا، أو ان طعموه فقليلا أو أقل من القليل مع أن اللحم من الاطعمة التى لا يستغنى عنها الجسم ، والا أصيب بالهزل والاعياء ، والامراض · وليس من شك فى أن الاسلام يدعو الى صحة الابدان كما دعا الى صحة الاديان ، قال عز شأنه : « وكلوا ، واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين » (الاعراف ــ 31) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ·· » رواه الامام مسلم · والقوة تشمل القوة فى الدين ، والقوة فى العقل والتفكير ، والقوة فى الاجسام ، والضعف على الضد من ذلك ــ الى غير ذلك من الاحاديث ·

على هامش

رحلة المرحوم "أبو زهرة" إلى المغرب

د. فاروق منصور
مدير لمجلة : الاذاعة والتلفزيون
ـ القاهرة ـ

كان المرحوم محمد أبو زهرة أستاذا لى والذين عرفوا هذا العالم الجليل عرفوا منه كيف تكون الاستاذية ؛ أبوة حانية ، ومودة خالصة ، وعطاء سخيا وتوجيها أمينا ، ورعاية صادقة ، وبرا موصولا • ان محمد أبى زهرة الذى كان عملاقا فى مواقفه جسورا فى نضاله ثوريا فى سلوكه كان طفلا بريئا فى عواطفه يحب بلا حدود وتجد فيه رقة متناهية تدمع عيناه لابسط شيء ويشتد غضبه لمجرد احساسه بأن انسانا ما قد جرح فى كرامته أو عجز عن رد ما وجه اليه من اهانات •

ويكشف أسلوب الشيخ أبى زهرة ـ طيب الله ثراه ـ الذى كتب به رحلته تلك والتى اعادت مجلة الاصالة نشرها فى العدد 28 يكشف عن طبيعته الصادقة الرقيقة وانفعالاته السريعة لمجرد احساسه بأن شيئا ما قد وقع بطريقة خاطئة أو متعارضا مع الدين •

واذكر الآن كيف التقيت به ـ رضى الله عنه ـ وقد عاد من رحلته تلك وكيف قص على مشاهداته ولقد علق عليها تعليقات كثيرة نشر بعضها فيما كتبه عن رحلته تلك ولم ينشر

البعض الآخر وبالطبع لـن افشى حديثا دار بينى وبينه فليس ذلك مـا اعتاده الرجل منى حيا ولن يحدث وهو فى جوار ربه ولكن فقط وجدت أن من الخير خدمة للحقيقة وتسجيلا للتاريخ أن أضيف الى ما نشره ــ طيب الله ثراه ــ فى حياته موقفه الذى لم يذكره لانه لم يكن من عادته أن يمتدح نفسه أو يثنى على تصرفه بل كان يؤدى ما يؤمن أنه الحق وانـــه يخدم الاسلام ويعلى من شأن المسلمين وكرامتهـــم ٠

ان جهاد الشيخ محمد أبو زهرة ملحمة كفاح بطولية رائعة يجب أن تسجل وأن تعيها الاجيال خاصة شباب المسلمين الذين يتعرضون اليوم لاخطار شتى ويواجهون كل يوم ما يهز معتقداتهم أو يكاد أن يضعف معنوياتهم مما يجعلهم بحاجة دائمة الى القدوة توضع أمامهم والى المثال الحى الذى يذكرهم بما يجب ويدلهم على الطريق ويوجههم الى ما يجب ان يفعلون ٠

واعتقد أن الامانة يجب أن يحملها كل قادر وان تاريخ أمثال الشيخ أبى زهرة يجب أن يلقى العناية ولقد قررت من قبل ووعدت ــ وأسأل الله أن يوفقنى للقيام بما وعدت ــ وعدت ان اكتب تاريخ الرجل كاملا ومواقفه الرائعة وقد عرفت منها الكثير وعايشته فى لحظات كان اعزلا الا من ايمانه يواجه قوى كثيرة شريرة وعاتية ٠

وهذا ما جعلنى اهدى اليه كتابى « آداب القرآن » الذى نشرته عام 1974 بعد وفاته بقـــولى :

« الى روح أستاذنا الجليل فقيه القرن العشرين الداعية المصلح والمجاهد المسلم، والمؤمن القـــوى « محمد ابو زهرة » ٠

الذى علم فعمل بعلمه ٠ ورأى فجاهر برأيه ٠ وآمن فجاهد بايمانه ٠ امتحن فصمد ، وابتلى فصبر ، وناضل فانتصر لله وبالله ٠

تحية له ، واعترافا بفضله ، فقد علمنا أن الايمان سلوك ، وان العالم قدوة ، والعلم امانة ، والوفاء شريعة ، واعطانا كأستاذ علما نعتصم به ، واسمى قيم نحرص عليهـــا ، وانبل عواطف يجب ان يحسها الانسان ويعيشها ليكتمل ايمانه ، وتكمل انسانيته ٠

نعاهده ان نفى بالعهد ، فنكمل الرسالة ، ونمضى بعده على الطريق فليرحمه اللـه ، وليتقبل جهاده ، ويثيبه خيرا » ٠

اما ما اود ان اشير اليه الآن متعلقا برحلته الى المغرب فهو الموقف الذى رفض فيـــه ان يتحدث باسم العلماء امام الملك المغربى فهو موقف اتخذه لاسباب وقد ترتب عليه بعض النتائج او بمعنى ادق تعرض الرجل ــ رحمه الله وتقبل جهاده ــ بسببه الى بعض المتاعب ٠

قال لى ـ رحمه الله ـ لقد رفضت أن اتحدث نيابة عن العلماء واثناء المقابلة الملكية لان حديثى سيكون حديثا رسميا وباسم جميع العلماء الذين جاءوا الى المغرب هذه واحدة ، أما الثانية فان المتحدث هو الشيخ محمد أبو زهرة ومعنى هذا أن علماء الاسلام يقرون ما يجرى في المغرب وان محمد ابى زهرة الذى يدعى الغيرة على الاسلام والدفاع عنه ويتصدى لمقاومة المنحرفين فى مصر يقر الانحراف فى غير مصر ويقبل ان يقيم ملكا مسلما لابيه معبرا بملايين الجنيهات ·

ان واجبى ان اقول له لا يا صاحب الجلالة ! الاسلام لا يقبل هذا منك ولو كان والدك حيا لما قبله منك ولو استطاع ان ينطق من تحت التراب لقال لك انفق هذه الاموال لخير شعبك او لاعداد جيش يدافع عن القدس ويعيد الارض السليبة ·

هل كان ممكنا ان اقول له ذلك فأغضبه وأسىء الى العلاقة بينه وبين مصر ، وهل كان واجب الضيافة يسمح به وهل لو قلته سيغير قولى من الامر شيئا ؟ لا أظن · لذلك نصحت وابديت انتقادى لمن قابلتهم بغية اصلاح الحال والعمل على ما فيه خير الاسلام ·

وتوقف قليلا ثم قال : ما رأيك يا مولانا ؟

اجبت : حسنا ما فعلت لقد كنت الشيخ أبو زهرة جريئا وذكيا قال : هل يرضى هذا حكومة مصر ؟ هل يرضى هذا الذين يجلسون على مقاعد السلطة ويوجهون الامور ؟

ثم أجاب بالطبع لم يرضهم ، لقد جاءنى السفير المصرى فى المغرب (آنذاك) ليسألنى لماذا رفضت الحديث امام الملك انه تكريم لمصر ان يتحدث عالم منها فثرت عليه وقلت له انه عار لمصر أن يبارك عالم منها ما يجرى فى المغرب وانه عار لمحمد أبى زهرة أن يثنى على ملك أو حاكم يرى فى تصرفاته ما يسىء لدين الله أو يتعارض مع الاسلام ان واجبى ان أبصر بالخطأ وأنبه اليه وليس واجبى أن أؤيد الظلم وأقر الفساد ·

اذا كنت سأتحدث سأذكر ما أراه خيرا وأحمد ما أجده صوابا وانتقد ما أراه ضارا بالاسلام والمسلمين فهل يفيد هذا ؟

اذا كان الامر كذلك فأقوم الآن بالحديث امام الملك · قال الشيخ أبو زهرة ـ رحمه الله ـ فسكت السفير وهو غير راض بما قلت وغير مقتنع به وعندما عدت الى مصر وجدت ان الامر قد علم وان فى تصرفى ما يغضب المسؤولين · فنحمد الله ان اعاننى على طاعته وساعدنى على اغضابهم ما دام ذلك من أجل الحق ·

ومضى يقص على تفاصيل لا داعى لذكرها وحدثنى يومها حديثا مريرا عما فعلـــه يهود المغرب يوم الخامس والعشرين من يونيو عام 1967 وكيف بلغ النفوذ الصهيونى فى بلد مسلم عربى حتى استهانوا بمشاعر الناس ولم يبالوا بالشعب العربى الجريح حتى فى أرضه العربية بالمغرب ·

هذه خواطر سريعة وذكريات أثارتها فى النفس تكرم مجلة الاصالة الجزائرية مشكورة بنشر رحلة أستاذنا الامام التقى النقى محمد أبو زهرة رحمه الله وأثاب كل من أحيى ذكراه خيرا ووفق الله المسلمين الى الخير وجمعهم على الحب والتآخى والسلام ·



جــولــة بــين المجــلات

اعداد : د. م. بالحميسى

تصــدر حاليــا باروبا وخارجها عدة مجلات جامعية متفاوتــة الحجــم ، مختلفــة الاتجاهــات تحــت اشراف مستشرقين ومؤرخين وادبــاء وتناول باستمرار قضايــا عربية واسلامية مــن شتى الجوانب ؛ الحضارة ـ الفقــه ـ علم الكلام ـ التاريــخ ـ السياسة ـ الادب الخ ...

وتخضع هــذه المجلات فى غالب الاحيان ـ الى طــرق البحث العــلمى والمنهجيــة المعاصرة وقد اعتمد فيهــا الكتاب ـ وهم عادة اساتذة جامعات ـ على تخصصهم وطول ممارستهم لمسائل معينة وعلى عثورهم الموفق على الوثائــق الهامة التى تلقى أضــواء جديدة . كما لجأوا الى المقارنة بين المصــادر والدراســات المعمقة أينما وجدت فاقدموا بدون ملل ، على احياء علوم ، وبعث فنون ، وتسطير خطط، وأعادوا النظر فى قضــايــا تخلى عنها المسلمون منذ زمان وأقبلوا عــلى نشر مخطوطات نادرة ـ ومــا أبرعهــم فى اصطياد مثل هذه النفائس .

ومن أجل هذا كله تحــلى معظم الدوريات بسمعة أدبية مرموقة واغترف من محتواها الدارســون وذاع صيتها فى المشرق والمغرب ؛ لهذا رأينا من المفيد أن نقدم لقــراء « الأصالة » الكرام ـ فى هذا الركن الذى عنوناه « جولــة بين المجلات » نبذة عما يصدر بباريس وغيرها لاطلاعهم على ما يهتم به الغربيون والبحاثون العرب المعاصرون من مسائل مختلفة تحتل الجزائر قسمــا كبيرا منها سواء فى ميــدان التاريخ ، أو الثقافــة ، أو تراجم الاعلام أو النضــال وأحسن دليل على ذلك ، العدد الاخير (الذى اتصلنا بــه) من مجلة « تاريخ المغــرب الاســلامى والبحــر الابيض المتوسط» التى تصدر «باكس آن بروفانس» بفرنسا فانــه

خصص امهات المقالات لما يعنى بلادنا قديما وحديثا : فالاولى للاستاذ آدام من جامعة باريس بعنوان : التحول الثقافي بالمغرب (الكبير) في عهد الاستقلال ، متسائلا هل الظاهرة راجعة الى «المثاقفة» والتأقلم الثقافي الذي يفضي الى رفع مستوى الشعب أم هي مجرد حملة تقربه من ثقافته الطبيعية • ويلي هذه الدراسة صفحات عديدة (حوالى 40 صفحة) لبوايي محافظ أرشيف اكس حول رحلة الاب هيرولت الى المغرب الاوسط في منتصف القرن السابع عشر وقد ضمت هذه المذكرات أوصافا وانطباعات ووجهات نظر تساعد على فهم بعض الحوادث جرت بالمغرب •

والمقالة الثالثة للاستاذ لوفو من جامعة « اكس » أيضا عنوانها : « الشنوى » منذ تصفية الاستعمار فوصف المؤلف هذه الناحية المجاورة لمدينة شرشال وتعرض للحالة الاجتماعية بها أيام الاستعمار واثناء الحرب التحريرية وبعد 1962•

ويقتصر تقديمنا هذه المرة على ثلاث مجلات فرنسية نلخص لكل واحدة دراسة لها علاقة بالجزائر أو تتخذ موقفا يخالف المألوف في قضية من القضايا •

1) جاء في مجلة «أرابيكا» Arabica (1) بقلم ماى شواتزميلير دراسة بعنوان الظروف التي ألف فيها ابن مرزوق (الجد الخطيب التلمساني) كتابه الشهير بالمسند •

فشمس الدين أبو عبد الله محمد بن مرزوق شخصية بارزة في عالم الادب والسياسة بالمغرب في القرن الرابع عشر ــ وقد أثر تأثيرا بعيدا في معاصريه ولعب دورا لا يقل عن دور ابن خلدون ودور ابن الخطيب.

وعلى القارىء ان يعود الى ما خصه به معاصروه من تراجم ومصنفات (يحيى ابن خلدون : بغية الرواد ، عبد الرحمان بن خلدون : كتاب العبر ، ابن الخطيب : نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ــ المقرى نفح الطيب الخ •••) •

ها هي خمسون سنة تمر منذ ان عثر المستشرق ليفي بروفانسال على مخطوط المسند في مكتبة الاسكريال (باسبانيا) وقد نشر هذا العالم اجزاء من الكتاب تتقدمها دراسة حول المؤلف وانتاجه • ثم انقطع الاعتناء بابن مرزوق الى أن ساعد الحظ على اكتشاف مخطوطات أخرى بالمغرب نتمنى أن تنشر يوما. ومع هذا بقيت جوانب كثيرة من المسند غامضة من بينها : ظروف التأليف وتاريخه •

ويحاول صاحب المقالة أن يرفع الغطاء على هذا الجانب

---

1) مجلة الدراسات العربية ــ باريس • يحتوى عدد 1975 على مقالة لجمال بن الشيخ : الموسيقيون والشعر ــ مدرسة اسحاق الموصلي وابراهيم بن المهدى ــ ومقالة لــ ر ــ ق الخورى : طه حسين وفرنسا •

فيقول : بما أن مخطوط الاسكريال لم يذكر تاريخ التصنيف فقد ذهب ليفى بروفانسال الى افتراض سنوات 1359 ــ 1361 معتمدا على ان هذه المدة توافق عهد السلطان أبى سالم (760 ــ 762 1359 ــ 1361) .

وكان ابن مرزوق ملازما للعاهل مقربا عنده فمن الممكن جدا أن يخصص ابن مرزوق « المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا ابى الحسن » تخليدا لأبيه .

غير أنه يوجد بالمخطوط المذكور صفحات تبين عكس ذلك وتجعل تاريخ تأليف المسند يتأخر بسنوات . ومثال ذلك : « وان تنصر مولانا ابا فارس نجله الاوضى الخليفة المرتضى ... » وجاء فى باب آخر : « قد قدمت فيما أسلفته ملازمة المولى المرحوم أبى سعيد للعباد أيام حصر تلمسان ومجالسته للشيخين والدى وعمى رحمة الله عليهما ... » .

ومجمل القول ان ابن مرزوق صنف المسند تعظيما لابى الحسن لكى يلفت اليه نظر ابنه ابى فارس راجيا منه المساعدة التى تخفف من محنه الكثيرة (2) وتقصر مدة منفاه بتونس . وأبو فارس هو السلطان عبد العزيز المرينى الذى حكم من 767 الى 774/1366 ــ 1372 وقد عرف بالحزم والشجاعة . وكان ابن مرزوق يعيش فى ضيق واغتراب مكتفيا بالتدريس بجامع الموحدين . وعندما غارت جيوش بنى مرين على تلمسان قدم ابن مرزوق بواسطة كتابه المسند مطلبين :

1) استرجاع دخل أملاكه بفاس ويروى ابن خلدون وابن الخطيب بتفصيل قصة هذه الثروة .

2) أن يصاحب ابن مرزوق المصاحف القرآنية التى يبعثها السلطان الى المشرق غير أن هذا الاخير أبى مفارقة الفقيه ... فيكون اذا احتلال تلمسان سنة 1370/772 هـ واغتنام فرصة وجود عبد العزيز بها من الدوافع التى حملت ابن مرزوق على انهاء المسند متمنيا بذلك التخلص من ورطته بتونس .

2) المجلة الثانية التى طالمناها أخيرا هى « استوديا اسلاميكا » Studia Islamica الصادرة بباريس (3) .

---

2) راجع ترجمة ابن مرزوق فى دائرة المعارف الاسلامية . الطبعة الجديدة .

3) يحتوى العدد ان 50 و 51 على دراسات اسلامية وافية : مقالة لـ د قنارى حول مسألة طالما شغلت علماء الاسلام عنوانها هل الله [سبحانه] يريد القبائح لعباده ؟ وقد استعرض الكاتب ــ فى حوالى مائة صفحة نظريات أهل السنة وحججهم وقابلها بنظريات المعتزلة ، متجولا بالقارئ فى امهات الكتب التى يتعذر الوقوف عندها .

والمقالة الاخرى الجديرة بالاطلاع هى للاستاذ فهمى جعدان (من عمان) عنوانها : مكانة الملائكة فى اللاهوت الكونى عند المسلمين . دخل بنا فى عالم الجن والانس وطاف بنا بين السماوات والارض معتمدا على الكثير من الآيات القرآنية والتفاسير القديمة والتأويلات الحديثة .

ومن بين المقالات التى وجدناها دراسة للاستاذ رشيد ابن أبى شنب فى أصول التمثيل عند العرب ·

لقد عودنا الغربيون فى حديثهم عن النهضة الثقافية عند العرب فى القرن 19 م · ان يرجعوا الفضل كل الفضل للادب الفرنسى والانكليزى وخاصة فى نشأة التمثيل عند العرب · فلولا موليير وراسين وكورناى – فى زعمهم – لما استطاع مارون النقاش أو أديب اسحاق أو نجيب الحداد شيئا من الابداع والابتكار ·

والمقالة هذه رد على هذه النظرة وبيان ان التمثيل العربى اغترف مواضيعه من الادب العربى والفولكلور العربى وقد أوحت قصص الف ليلة وليلة الكثير من الروايات ·

يقول الاستاذ ابن أبى شنب : «كتب مرارا ان التمثيل العربى وارد من أروبا وأنه اكتفى منذ نشأته بنقل وتكييف مسرحيات شكسبير وكورناى وغيرهما وهذا خطأ · فمنذ فجر النهضة ومنشطو التمثيل – فى سعيهم لتحبيب هذا الفن الأدبى للجمهور ولتسليته – يقدمون روايات تتفق وذوقه للمغامرات وميله لكل ما هو عجيب · فاقتبسوا مواضيعهم لا من الآثار الأجنبية ولكن من الانتاج العربى الفصيح والشعبى ·

وكانت الف ليلة وليلة مصدر الوحى الممتاز لما يوجد فيه من أحاسيس وأساطير وغريب وخيال وحيل وتحليلات ···

فلا يوجد عند العرب كتاب يجعلنا نعيش – أحسن من مسامرات شهر زاد – تلك العصور الذهبية والأيام السعيدة التى خلدت دولة العباسيين عامة وعهد هارون الرشيد خاصة · وهذه هى أهم الأسباب التى دفعت الكتاب العرب الى البحث عن مواضيع قصصهم ومسرحياتهم قبل كل شىء فى تلك الليالى الحافلة بالاحداث ···

وقد وجد فيها مارون النقاش ما يكفيه لتأليف « أبو الحسن أو المغفل » و « هارون الرشيد وأنس الجليس » و « وخليفة الصياد » البطل فيها هو الخليفة هارون الرشيد ·

كما تصدى لها أحمد أبو خليل القبانى فكتب « ناكر الجميل » و « الشيخ الوضاح ومصباح وقوت القلوب » وهارون الرشيد والامير غانم » ···

والغاية من هذه الروايات هى استجابة لرغبة الجماهير وارضاء ذوقها ، تلك الجماهير التى كانت تعانى ما تعانى من قساوة الاحتلال الاجنبى فتجد فى التمثيل ذكريات لذلك الماضى المجيد ولتلك القيم الاسلامية الطاهرة التى تتمثل فى عنترة أو مجنون ليلى أو ولادة أو هارون الرشيد ···

وكانت ألف ليلة وليلة منجما لا يفنى وعينا لا تنضب يتهافت عليها الكتاب من كل فن فتدر عليهم بالمواضيع الشيقة ·

. ومن بين هــؤلاء الكاتب المصرى محمود واصف الذى اقتبس روايتـــه « هـــارون الرشيد » من قصة « خليفة الصياد والقرود » .

فالقول بان مصدر التمثيل عند العرب هو الادب العربى خطأ لان كثيرا مـــن الكتاب العـــرب ما كانـــوا يقرأون الفرنسية أو الانكليزية ولان الجماهير العربية ــ فى الماضى بصفة خاصة ــ كانت لا تتذوق ــ وهذا طبيعى ــ الا ما ينجم من تراثها ويصنع من طينها ويتلائم وأذواقها .

3) وجاءتنا مجلـة « المغـرب ــ المشرق» (عدد 70 ــ ديسمبر 1975 الصادرة هى الاخـرى بباريس) .

بمقالة للاستاذ أركـــون حول الملتقى التاسع للفكـر الاسلامى الذى انعقد بتلمسان من 10 الى 19 جوليت 1975 .

ــ يتوفر الاستاذ أركـــون على دراسة تقدر . فى مظهـر من مظاهر الاســلام المعاصر المتمثـل فى ملتقيات الفكــر الاسلامى التى تنعقد باستمرار فى بلادنا .

وبعـــد استعراض قصيـر لمهام وزارة التعليم الاصـلى والشؤون الدينية منذ 1970 فى ميدان الدين والتربيـــة والثقافة وللـــــدور الاساسى الذى يناط بالاسلام بقصـد اعـــلاء مكانـــة الشخصية الجزائرية العربية الاسلاميـة بمحاربة الانحيـار والتعصب وضروب التشويه والسكـوت المفرض مـــن قبـل المثقفين الاستعماريين . ومن جهـــة أخرى تأهيل هذه الشخصيـة لمقاومة التيـــارات الكثيـرة المغالية فى حب التجديد وفى الاعتماد على العلم وحده مع نبذ الانتفاع بطرق المعرفـة الاخرى وعـــلى الوضعيـــة والمادية ...

وكل ذلك يلقى ضــوءا جديدا على المفهـوم الاجمالى لبناء الهياكل الوطنية العزيزة على الرئيس بومدين وبــــذل الجهود لارساء قواعد ووسائل للاقتصاد الحديث (الثـورة الزراعية ، التصنيع) .

ويلخص صاحب المقالـــة مراحل الملتقى والمواضيع التى نوقشت فيه مذكرا بالنقـاط التى تعرض لهـا الدارسون ببجاية .

وما من شك ان استعراض هذه المواضيع سيثير معارضة بعض الناس (كالذين تأثروا بالتيار الثقافى الماركسى) أو يثير احتقار الاخرين (كالذين يعتمدون فى كسب المعرفـــة على العلم وحده ونبذ كـــل ما عداه من طـرق المعرفة) ويواصل الكاتب قوله واصفا هذه الملتقيات بانهـــا تلقى أضواء جديدة على مشاكـــل كل العالم الاسلامى المعاصر وعلى مصاعبه ومطامحه وآماله ويضيف ان للبلدان الممثلـة فى الملتقى تشاركا عميقا فى الافكار كما تدل عـلى ذلك ، التوصيـــات التى تبناهـــا المشاركون . ويسهل الوصول الى النتيجة ، الشبه التام فى اللهجة ومنهجيـــة استخلاص العبر مـــن التاريـخ . ثـم يخلص الكاتب الى الحديـــث باسهاب عن تعريف الانيـــة

والأصالة ويلاحظ ان اللفظين identité و Authenticité هما أضيق فى التعبير عن مفاهيم لفظى الانية والأصالة ويذكر ان مفاهيم هذين اللفظين مشتركة بين ايديولوجيات النضال فى بلدان العالم الثالث لمجابهة الهيمنة السياسية • ويلح الكاتب على صعوبة التوفيق بين مفهوم الاصالة النابعة من الوحى ونزول القرآن وبين التفتح فى العالم المعاصر أو بعبارة أخرى يستقى العلم عند المسلمين من القرآن اما البحث عن العلم - فى العصر الحديث - فهو يرفض كل علم سابق للتجربة •

وقد استلفت انتباه الكاتب شيء وهو أن المجتمعات البشرية كلها فى المغرب العربى تشترك فى عين المصير الوطنى الذى تعيشه على أساس التراث العربى الاسلامى •

والمشاركون فى ملتقيات الفكر الاسلامى على اختلافهم فى السن والثقافة والوظيف والمرتبة الاجتماعية يتجهون الى هدف واحد هو تفهم ما حدث للمسلمين وتبيين أسباب رقيهم وعوامل انحطاطهم والبحث عن حلول جديدة جريئة لمشاكلهم •

وعلى منبر الملتقى تعرض بحرية تامة كل المشاكل والآراء وتقترح كل الحلول على اختلاف انواعها ونزعاتها ويقدم الملتقى فرصة للتعبير عن الافكار والمفاهيم والاتجاهات وحرية التعبير مضمونة رسميا بصوت الوزير الذى تندد بالتصلب والجمود لان الاصالة تنافى التعصب والمحافظة المتطرفة والتكرار العقيم والانطواء على النفس وليس معناها أيضا اغلاق الابواب والنوافذ •••

هذا ويشير الكاتب فى آخر مقالته الى ما نشره من كتب ودراسات فلسفية اخلاقية اجتماعية حبذا لو نقلت أو نقل بعضها الى العربية وخاصة ما يهم قضايا الساعة مثل الاسلام والتطور الاقتصادى أو الاسلام وتجديد العلوم الانسانية •

هذا المشهد الفكرى فى تلمسان

وكتب الاستاذ صفوان قدسى ، رئيس تحرير مجلة « المعرفة» السورية الذى شارك فى الملتقى التاسع للفكر الاسلامى بمدينة تلمسان مايلى :

سوف أحاول فى هذا العرض السريع لوقائع الملتقى التاسع للفكر الاسلامى الذى انعقد فى مدينة تلمسان الجزائرية بين العاشر والتاسع عشر من شهر تموز الماضى ، ان اتجاوز النظرة النقدية التقويمية ، وأن اكتفى بدلا من ذلك بعرض الوقائع على النحو الذى جرت عليه . وأنا أعرف مسبقا بأن النظرة النقدية

يمكن أن تسهم فى استكشاف ملامح هذا المشهد الفكرى الكبير الذى شهدته مدينة تلمسان ، والذى شارك فى صنعه نخبة ممتازة من المفكرين والكتاب العرب ، وفى المقدمة منهم الاستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الأصلى والشؤون الدينية في جمهورية الجزائر الديمقراطية الشعبية الذى بذل جهودا ربما كانت تبدو فى بعض اللحظات فوق طاقة البشر ، والذى كان يتابع وقائع الملتقى يوما بيوم، وساعة بساعة، ودقيقة بدقيقة ، والذى ضرب المثل فى الصبر ، والجلد ، وتحمل المشاق الجسام ٠

احاول أن أقول أن النظرة النقدية التقويمية تشكل الاساس الذى يمكن أن تقوم عليه أية محاولة لاستكشاف ملامح هذا المشهد الفكرى كذلك فان هذه النظرة النقدية تملك مقدرة اثارة حوافز للحوار حول مسائل فكرية بالغة الاهمية تعجز النظرة التسجيلية عن اثارتها ٠ غير أن هذه النظرة النقدية تبدو مستحيلة ما دامت الابحاث موضوع هذه النظرة النقدية بعيدة عن متناول القارىء ٠ ولقد فكرت فى نشر القسم الاعظم من هذه الابحاث التى القيت فى هذا الملتقى الفكرى لكنى امتنعت عن ذلك لسببين ، الاول هو أن هذه الابحاث لا تتسع لها مجلة المعرفة ، بل أن نشر هذه الابحاث يحتاج الى ثلاثة مجلدات على الاقل ، وهو ما حدث بالنسبة للابحاث التى قدمت فى الملتقيات الفكرية السابقة التى شهدتها الجزائر فى السنوات السابقة ، والتى نشرت فى مجلدات صادرة عن وزارة التعليم الأصلى والشؤون الدينية في الجزائر . والسبب الثانى هو ان مجلة « الأصالة » التى تصدرها وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية لابد وأن تقوم بهذه المهمة ، قياسا على السنوات الماضية عندما كانت تنشر فى كل عدد تصدره مجموعة من الابحاث التى القيت فى آخر ملتقى للفكر الاسلامى ٠ ولا أظن أن من حق مجلة المعرفة أن تدخل فى منافسة مع مجلة الأصالة التى هى أحق منا بنشر ما تراه مناسبا في هذه الابحاث (I) ٠

وبعد أن يستعرض الكاتب برنامج محاضرات الملتقى يقول :

هذا عرض سريع للابحاث التى قدمت الى الملتقى التاسع للفكر الاسلامى والتى تغطى النقاط الست التى انعقد الملتقى من أجل بحثها ومناقشتها ، وهى أبحاث تتصف بقدر كبير من العمق والجدية ، برغم تفاوت مستوياتها ٠ وقد اسهمت المناقشات التى جرت على

(I) لقد عمدت الزميلة « المعرفة » على نشر محاضرة الدكتور زكى نجيب محمود التى القاها فى ملتقى تلمسان المشار اليه دون ذكر المصدر والمناسبة ٠

هامش الملتقى فى اضاءة جوانب عديدة من هذه الابحاث ، وذلك على الرغم من أن بعض هذه المناقشات خرج على الابحاث موضوع المناقشة ومضى الى مناقشة مسائل لا علاقة لها بهذه الابحاث بشكل من الاشكال. كذلك فان بعض من أسهم فى هذه المناقشات كان يسعى الى لفت الانظار وكسب تصفيق الطلبة الذين حضروا الملتقى. غير أن هذا كله لا يغض من قيمة هذه الابحاث التى لاشك أن أصحابها بذلوا جهودا طيبة فى اعدادها ·

فى نهاية جلسات الملتقى ، شكلت ست لجان لصياغة التوصيات فى ضوء الابحاث التى ألقيت والمناقشات التى جرت حول هذه الابحاث ، وانتهت هذه اللجان الى توصيات أقرها المشاركون فى الملتقى بالاجماع ·

وفيما يختص بالنقطة الاولى ، مساهمة تلمسان الزيانية فى الحضارة والفكر الفكر الاسلاميين · أسباب ازدهارها وعوامل انهيارها ، فقد جرى اقرار توصية تقول بضرورة العناية بالمعالم التاريخية لمدينة تلمسان ، وباقامة متحف يستطيع المتجول فى ردهاته أن يتعرف على الحضارة العريقة التى صنعتها هذه المدينة ·

وفيما يتصل بالنقطة الثانية : موقف اسطنبول وباقى العالم الاسلامى من سقوط الاندلس وآخر مسلميها وامام الغزو الاوروبى للعلم الاسلامى عموما ، فان الملتقى أقر توصية تدعو الى النظر فى الكتب المدرسية التى تبحث فى تاريخ الدولة العثمانية وفى موقفها ازاء سقوط الاندلس ، وذلك بالاستناد الى الوثائق التاريخية التى تميط اللثام عن حقيقة ناصعة فى وضوحها وهى ان الدولة العثمانية ، شانها فى ذلك شان مصر وامارات المغرب العربى لم تبذل جهدا يذكر لنجدة آخر مسلمى مملكة غرناطة ومنع الاندلس من السقوط فى أيدى الفرنجة ·

وفيما يتعلق بالنقطة الثالثة : هل كان الشعر فى الاندلس سببا فى انحلال اخلاقها ، أم كان لهما مجرد مرآة وانعكاس ؟

فقد جرى اقرار توصية تبرىء الشعر الاندلسى من تهمة مسؤوليته عن انهيار الاخلاق ، وبالتالى عن انهيار الوجود العربى فى الاندلس ، وتعتبر هذا الشعر ظاهرة حضارية شاركت مع غيرها من الظواهر الحضارية الاخرى سلبا أو ايجابا ·

أما التوصيات المتعلقة بالنقطة الرابعة المتصلة بعلاقة الآداب والفنون بالاخلاق ، فانها تنص على عودة الادباء والفنانين الى الجدية والى وعى رسالتهم فى المجتمع ، والى تجنب كل ما من شأنه ان يبث الميوعة والانحلال ·

وكانت توصيات النقطة الخامسة المتعلقة بالعدالة

الاقتصادية والاجتماعية فى الاسلام ، تشير الى عناية الاسلام بالثروة واعتبارها وسيلة من وسائل استمرار الحياة الكريمة ، والى اعتبار الحقوق فى الاسلام مقيدة بمصالح الجماعة مما لا يجيز لاى كان ان يتعسف فى استعمال هذه الحقوق اذا كان هذا الاستعمال مضرا بغيره ·

أما النقطة السادسة والاخيرة ، وهى النقطة الخاصة بمقصد الشريعة من الحج والطريقة التى يؤدى بها اليوم ، فقد نصت التوصيات المتعلقة بها على ان مقاصد الحج قد حجبها الجهل عن عيون بعض الحجاج مما يوجب العمل على توعية الحجاج بهذه المقاصد وبطرق اداء الحج ·

Le concept de justice sociale en Islam [1]

par M[r] Mouloud Kassim NAIT-BELKACEM

Au Nom d'Allah le Clément le Miséricordieux.

Monsieur le Secrétaire Général.

Messieurs les membres du Congrès.

Lorsque ce sujet m'a été proposé par Monsieur le Secrétaire Général, j'ai éprouvé, à vrai dire, quelque hésitation que je ne saurais vous céler. Non pas que le thème suggéré fût malaisé ou sans importance. Bien au contraire ; il paraît si clair et si évident que j'ai craint aussitôt qu'il ne soit inaccessible par le seul effet de son évidence.

Nonobstant mes craintes, j'ai pensé qu'il fallait oser tenter quelque chose, avec l'espoir que Dieu m'aiderait à évoquer ici ce que des penseurs parmi les plus illustres, musulmans ou non, ont célébré dans leurs écrits quand ils ont eu à parler de ce concept de justice sociale en Islam et de son contenu.

La justice, ou 'adl, en Islam, n'est pas seulement la base de l'authentique société musulmane telle qu'elle fut et telle qu'elle devrait être ; ni seulement l'un des cinq piliers de l'Islam représenté par la zakât (la part dûe annuellement à l'Etat et à la société sur les revenus) et toutes les dispositions légales apparentées, comme nous allons bientôt le voir ; ni seulement l'un des attributs de Dieu énoncé dans

(1) Traduction du texte de la conférence prononcée par Monsieur le Ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses au Congrès Islamique Mondial à Londre le 09 avril 1976.

le verset coranique suivant : « Celui qui tient la balance égale » ; ni même seulement cet élément qui participe de centaines de lois islamiques concernant les « ibâdât » ou actes de dévotion, en tant que critère de validité de ces dernières.

La justice ('adl) est bien plus que tout cela : elle est l'un des fondements du dogme même, ('akida). Elle est directement reliée au domaine de la foi même (imân).

Essayons de réfléchir quelque peu sur ces versets du Très Haut :

« N'as-tu point vu celui qui nie la religion ? C'est celui-là même qui bouscule l'orphelin et se garde d'inciter à nourrir les pauvres ».

Et voyons maintenant ce que dit le Prophète, (sur lui la prière et la bénédiction divines) :

« Non, il ne croit pas en Dieu, ni au Jugement dernier, celui-là qui passe la nuit repu lorsque son voisin se tord de faim ».

Tels nous apparaissent ici el 'adl ou la justice sociale, complétée par la solidarité sociale : justice sociale : elles sont directement rattachées au imân (foi), c'est-à-dire au fondement de la 'aqida (dogme) même.

Mais là où le lien qui rattache le 'adl aux bases même du dogme, c'est-à-dire à la foi (imân), nous apparaît le plus clairement, c'est lorsque nous examinons la croyance au Jugement dernier. Que serait en effet ce jour du jugement (al yaoum al âkhir) sans la foi en la Résurrection, en la Reddition de comptes (hissâb), en la Rétribution, en le Châtiment, c'est-à-dire en Dieu, en ses Ecritures et en ses Prophètes ?

Croire en ce jour du jugement, c'est donc croire en cette finalité que nous désignent les Ecritures, les Prophètes Envoyés, en d'autres termes la Résurrection, le Jugement dernier où les comptes se font pour que chacun soit châtié ou récompensé selon ses actes, conformément aux règles de la justice divine, ou même de la justice humaine telle qu'elle prétend y aspirer.

C'est la raison pour laquelle une doctrine islamique qui compte des savants de la valeur de Zamakhchari et du cadi Abdel Djabbar a donné au libre arbitre (hourryat al ikhtiar) — sans lequel ni la rétribution, ni le châtiment de Dieu n'auraient de sens et seraient même, bien plus, « injustes », — le nom de « théorie de la justice », (étant bien entendu qu'en l'occurence il s'agit chez elle de justice divine).

Mais puisque « l'homme bousculant l'orphelin et se gardant d'inciter les gens à nourrir les pauvres est bien le négateur de la religion » ; mais puisque « le repu oubliant son voisin affamé est bien celui qui nie Dieu et le Jugement dernier » ;

mais puisque le jugement dernier c'est la justice divine elle-même, nous pouvons alors affirmer que toute société qui se dit islamique sans réaliser cette justice ('adl), n'a en commun avec l'Islam, et encore moins avec la foi, (el 'imân) que le nom.

Après avoir rappelé ces évidences, en guise d'introduction qui pourrait paraître, aux yeux de certains, philosophique ou idéologique (mais ne sommes-nous pas, comme l'on dit de nos jours, au siècle des affrontements idéologiques ?), essayons maintenant de donner quelques exemples de cette justice sociale en Islam, vue sous son double aspect formel et spirituel et aussi sur le plan du comportement (sûlûk) et des buts (maqâssid) recherchés par le Législateur ; tout en considérant que cette justice sociale qui fut la marque de la civilisation islamique durant ses siècles de splendeur demeure encore, tant dans sa lettre que dans son esprit, une œuvre en perspective, offrant à ceux qui voudraient la réaliser un vaste champ de virtualités théoriques et d'objectifs à atteindre.

Rappelons tout d'abord que l'Islam considère le fils d'Adam, honoré par le Créateur qui en fit son vicaire ici-bas, comme un être doué non seulement d'un corps, mais aussi d'esprit, soumis, certes, à certaines servitudes physiques, à l'instar des autres créatures vivantes, mais possédant sa dignité et ses dimensions spirituelles, morales et sociales. C'est pourquoi il ne saurait se suffire du côté purement matériel et économique de la vie.

Il découle de ceci que la société islamique telle que nous la trace notre Loi (Chari'a), constitue une communauté humaine équilibrée, où chaque individu doit ressentir qu'il forme avec les autres une unité compacte, solidaire, basée sur la fraternité, la solidarité sociale, l'égalité des droits et des devoirs.

Cette société doit œuvrer pour un objectif commun. Son activité doit être organisée sous l'égide d'un arbitrage juste qui puisse assurer du travail à tous, à chacun selon ses capacités et ses mérites, et à chances égales. Le revenu de la Oumma (la communauté islamique) doit être distribué équitablement, selon les besoins, à l'ensemble de ses membres, en tenant compte de la solidarité qui les lie.

L'Islam a bien précisé les divers chapitres de recettes et de dépenses. Il a instauré des droits et des devoirs. Puis il a exhorté à la générosité au sens élevé (badhl), au sacrifice financier (tadhya), à la purification des biens par la zakat (tazkia), et ce, dans le sens de cette justice sociale. En tout cela, il tend à un double objectif : éduquer les âmes et préserver l'intérêt de la Communauté (jama'a). Mais lorsque les moyens éducatifs se révèlent insuffisants, l'Islam exerce le zajr, c'est-à-dire le blâme coercitif. Puis, dans le cas où les moyens de persuasion religieuse n'agissent plus sur la conscience, lorsque ni les exhortations du prédicateur (w'adh), ni les conseils du murchid (directeur de conscience) ne portent leurs fruits, il fait intervenir le fouet du cadi ou le glaive de l'Autorité Suprême de l'Etat.

C'est ainsi que la justice sociale en Islam, elle-même basée sur la justice économique, a su garantir les droits de tous les membres de la Oumma, qu'ils fussent capables ou incapables de fournir un travail, qu'ils fussent pauvres, impotents, veuves ou enfants. Il a englobé, parmi les impotents, aussi bien les Musulmans que les Dhimmis (ceux qui vivent dans un pays de souveraineté islamique et ne professant pas la religion musulmane). On trouve même, parmi les impotents, des animaux, comme nous le verrons par la suite.

Cependant, cette justice sociale n'encourage guère la pauvreté engendrée par la paresse ou l'inertie. L'Islam n'approuve pas une telle attitude. L'Islam interdit la mendicité d'un manière absolue. Le muhtasib (commissaire chargé des questions économiques) a le devoir d'ordonner au mendiant, physiquement capable, de travailler. En cas de refus, ce responsable doit employer des moyens coercisifs jusqu'à ce que le mendiant cesse de tendre la main. Car l'Islam n'encourage ni le parasitisme, ni l'oisiveté au sein des zaouias ou des hospices vivant de charité mal comprise, dispensée par qui que ce soit.

1°) *La jūstice sociale à l'égard des travailleurs.*

Le principe en Islam est le suivant : l'homme doit gagner sa vie en travaillant. Le Coran a prôné le travail et l'activité dans cinq cents versets environ. Le Prophète (sur lui la Prière et la Bénédiction divines) a glorifié le labeur dans plusieurs de ses hadiths. Il faut entendre par 'amal aussi bien le travail de l'homme dans le sein de son entreprise personnelle (agricole, industrielle ou commerciale et autres formes de gain et de production, comme l'on dit de nos jours) que le travail fourni par les salariés (fonctionnaires, ouvriers et tous autres employés).

On trouve de nombreux hadiths consacrés à la protection du salaire des travailleurs, du point de vue du taux de la rémunération elle-même et de la rapidité de son paiement.

Le Prophète ajoute à ce sujet : « Celui qui fait un travail alors qu'il n'a pas où se loger, qu'il prenne un logement. S'il est célibataire, qu'il prenne femme. S'il n'a pas de monture, qu'il s'en arroge une ». Le regretté cheikh Abu Zohra, commentant ce propos, ajoute : « Tout ceci évidemment au compte du beït-el-mal de l'Etat musulman, c'est-à-dire du trésor public.

Car ces commodités, dont pourraient jouir les travailleurs, sont productives des multiples avantages dont bénéficiera la communauté musulmane toute entière en dernière analyse.

Ceci implique la gratuité du logement, des transports, mais aussi du mariage dont les frais seront assumés, en cas de besoin, par l'Etat, sans parler des indemnités familiales qui, du temps du Prophète et de Abu Bakr, étaient versées

au titre de l'époux, de l'épouse et des enfants. Puis, sous le calife Omar, le taux de ces indemnités se mit à augmenter avec l'âge des enfants jusqu'à la majorité. Elles n'étaient pas octroyées seulement pour la descendance légitime, mais également pour les enfants dits naturels. Ce régime se perpétua sous les califes Othman et 'Ali et bien après.

L'Islam assure aux travailleurs leur bien-être. Il assure cette tranquilité aux animaux eux-mêmes. L'imam Ahmad a dit qu'il incombe au mohtassib de défendre aux gens qui possèdent des bêtes de les utiliser dans des travaux qu'elles ne peuvent accomplir. L'auteur français Peltier, dans sa traduction des œuvres de Boukhary (1), (les hadiths du Prophète), a été amené à examiner ces divers aspects de la solidarité et de la justice sociales en Islam, ainsi que les garanties offertes aux travailleurs par notre religion. Il n'a pu s'empêcher — avec bien d'autres — d'exprimer l'admiration que leur inspira ce système.

Si tout ce que nous venons de mentionner n'existe plus, hélas, aujourd'hui, dans le monde islamique, nous devons à la vérité de dire que même dans les Etats les plus avancés, parmi les non-musulmans, nous ne trouvons pas d'exemple atteignant un tel degré de perfection.

2°) *La justice sociale à l'égard de la famille.*

Tout ce que l'Islam a prescrit en faveur des employés et des ouvriers depuis l'époque du Prophète, il l'a également assuré aux familles, lorsqu'après la disparition du soutien familial elles ne disposent pas d'un héritage suffisant. Le Prophète, (sur lui la Prière et la Bénédiction divines), a dit : « Celui qui laisse après sa mort un héritage, le laisse pour ses héritiers. Mais celui qui ne laisse que des héritiers démunis ou des enfants en bas âges son affaire me regarde, je suis son tuteur », c'est-à-dire l'Etat.

3°) *La justice sociale à l'égard des impotents.*

Le domaine de la justice sociale ou solidarité sociale s'est étendu à la protection de plusieurs catégories d'impotents ('ajaza) ou faibles, tels les vieillards, y compris les « Dhimmis » (non-musulmans) bénéficiant du statut des tributaires. Citons à cet égard un cas célèbre. Un jour, le calife 'Omar, s'adressant à un vieux Juif, lui dit : « Nous n'avons pas été équitables à ton égard, puisque nous avons épuisé ta jeunesse puis t'abandonâmes lorsque tu es devenu vieux ». Il l'invita sur le champ à venir chez lui, puis lui donna de sa propre nourriture et lui fit verser par le Trésor une pension pour la fin de ses jours

(1) Peltier : **Oeuvres diverses de Boukhary.**

Les mêmes mesures ont été prises en faveur des pauvres, des indigents, des malades, des aveugles, des infirmes, des personnes déplacées ou déportées, des prisonniers, sans compter les orphelins, les impotents et les enfants naturels dont nous avions déjà parlé.

Il y a d'autres domaines encore plus originaux où nous voyons cette solidarité sociale s'exercer avec une telle délicatesse que la chose paraîtrait incroyable à quiconque n'a pas vécu en milieu islamique. Citons à cet égard le Waqf dit « zabadi ». Cette fondation était destinée à couvrir les dommages occasionnés par les enfants et les serviteurs, afin de leur faire éviter les sanctions pécuniaires ou les châtiments corporels que leurs parents ou maîtres seraient tentés de leur infliger.

Il était prévu également une intervention du trésor public pour aider le débiteur insolvable à rembourser sa dette. On portait secours aux voyageurs pauvres qui se trouvaient loin de leur pays. D'autres fondations étaient consacrées aux hôpitaux psychiatriques où l'on soignait les malades par la musique et par des représentations de comédie populaire. De nos jours, la psychosomatique prouve que ces méthodes, prétendument modernes, étaient déjà utilisées à cette époque et étaient d'une grande efficacité.

Enfin, sans prétendre avoir donné une liste exhaustive de tout ce qui se faisait dans ce domaine, je citerai la plus curieuse et la plus originale de ces fondations : celle qui s'occupait des animaux et de certains oiseaux en les guérissant, en soignant les fractures de leurs membres brisés et en les adoptant pour toute leur vie.

Cependant, cette justice et cette solidarité sociale ne se bornaient pas à envisager le côté matériel de la vie.

A côté de tous ces aspects, qui dépassent le stade de la justice sociale pour atteindre celui de la solidarité et de la tendresse, chose nécessaire dans la communauté islamique qui doit se présenter comme un seul corps, un édifice compact, nous trouvons « la justice humanitaire », si l'on nous permet de nous exprimer ainsi. Alors que de nos jours c'est encore l'esprit de classe et de race qui prévaut, nous constatons que l'Islam a établi l'égalité entre tous. Cette égalité est proclamée dans le verset suivant : « Le plus noble parmi vous aux yeux de Dieu, c'est le plus pieux », et aussi dans ce hadith du Prophète, (sur lui la Prière et la Bénédiction divines) : « Les Musulmans sont tous égaux, comme les dens d'un peigne ».

Nous retrouvons ce principe dans plusieurs autres hadiths ou faits qui se sont déroulés à l'époque des compagnons du Prophète. Nous allons soit citer succintement ces cas, soit y faire une allusion rapide.

En ce qui concerne l'égalité des races et des ethnies, souvenons-nous des durs reproches que fit le Prophète à son compagnon Abu Dharr Al Ghifari. Celui-ci

s'était moqué de Bilâl l'Abyssin en évoquant « la couleur de sa mère ». Le Prophète lui dit : « O ! Abu Dharr, tu es encore un homme de l'époque païenne (jahilyya). Lève la tête et regarde. Puis sache que tu n'es guère supérieur à un homme de couleur, noire ou rouge, à moins que tu ne le surpasses par des actes ».

Dans le domaine judiciaire nous constatons que le Prophète s'est soumis bien volontairement (akâda) à l'exécution d'un châtiment corporel sur sa personne. Il s'agit d'un fait célèbre qui s'est passé dans une mosquée. Le Prophète était en train de disposer les rangs des fidèles pour la prière. Quelqu'un prétendit que le Prophète lui avait fait mal en le bousculant. Mohammad lui accorda alors la permission de se venger sur sa personne s'il le voulait.

Mentionnons aussi un fait à peu près semblable. Il s'agit de l'intervention de Usâma Ibn Zaïd. Une femme de la tribu des Banu Makhzûm avait commis un vol. Les chefs de cette tribu, qui était grande et puissante, demandèrent à Usâma Ibn Zaïd d'intervenir auprès du Prophète qui le tenait en grande estime. En effet, cette femme risquait de déshonorer sa tribu, si on lui appliquait le châtiment corporel (hadd), conformément à la loi. Le Prophète entra en colère et dit : « Allez-vous intervenir dans les peines légales instaurées par Dieu ? » Puis il prit la parole devant les Musulmans et proclama : « Ce qui a causé la perte des nations avant vous, c'est que lorsqu'un voleur était d'origine noble, on le laissait « tranquille », mais lorsqu'il était d'origine modeste, on le soumettait au châtiment. Je jure par tous les serments de Dieu, que si Fatima, fille de Mohammad, commettait un vol, je lui trancherais la main ».

C'est ainsi que le Prophète a appliqué les règles de la justice et de l'égalité sur lui-même, à l'encontre d'Usama Ibn Zaïd, qu'il aimait beaucoup, et sur la personne de la célèbre dame des Benu Mahzoum. Il a déclaré qu'il était prêt à agir de la même façon à l'égard de sa propre fille Fatima, le cas échéant. Le principe qu'il a énoncé pratiquement est le suivant : il n'y a pas d'esprit de classe ou de caste en Islam.

Le calife 'Omar a eu le même comportement à l'égard de son fils Abdelrrahman. Il a agi de la même façon lorsqu'il appliqua son fameux principe « D'où ces biens te proviennent-ils ? » (Min ayna laka hadha ?) loi qu'il a fait subir aux plus grands compagnons du Prophète, comme Khâlid Ibn Al Walid, 'Amr Ibn Al'As, Sa'd Ibn Abi Waqqas, Abu Horaïra et tant d'autres.

Cette justice ne se limite pas aux seuls Musulmans entre eux. L'Islam en a fait une obligation dans les rapports que peuvent avoir les Musulmans avec les fidèles d'autres religions. Contentons-nous de faire allusion à certains faits qui prouvent que ce principe de justice était la règle. Ainsi cet incident qui opposa le fils d'un Copte et le fils de 'Amr Ibn Al'As, gouverneur d'Egypte, et la façon dont 'Omar le régla dès qu'il le sût. Citons aussi la comparution du calife 'Omar

avec un Juif devant le cadi (juge) Choreïh, la comparution de 'Ali avec un autre Juif devant le calife 'Omar. Ce jour-là, le Juif proclama sur le champ son entrée dans la religion musulmane.

Si nous exceptons 'Omar II, Ibn 'Abdel 'Aziz, pourrions-nous citer le nom d'un autre chef d'Etat, dans l'histoire ancienne ou moderne, à travers le monde, même parmi les plus « démocrates » ou même « révolutionnaires », qui se soit trouvé, comme 'Omar, tout chef d'Etat qu'il était, en face d'un homme qui lui posa, en pleine mosquée, donc publiquement, la question suivante : « Comment peux-tu te permettre d'avoir un vêtement aussi long alors que la part de tissu qui revient à chacun d'entre-nous est la moitié de ce que tu portes ? ». (Précisons que 'Omar était de très grande taille). Ce fût à son fils 'Abdallah de répondre qu'il lui avait cédé sa part.

LES VOIES ET MOYENS DE LA JUSTICE SOCIALE
OU :
LA JUSTICE ECONOMIQUE

On peut se demander quelles sont les sources de revenu qui suffisent à faire face aux dépenses que nous avons déjà citées et à d'autres charges bien plus importantes et nombreuses. Nous voudrions tout d'abord formuler quelques idées qui nous viennent à l'esprit à propos de cette justice économique qui est la condition et le complément de la justice sociale. Les deux sont complémentaires et inséparables en réalité.

Il existait, à côté des institutions de bienfaisance comme les awqaf (fondations pieuses qui souvent allaient jusqu'à protéger les animaux), à côté des multiples contributions individuelles imposées par la loi religieuse pour le bien de la communauté (soutien aux proches parents, expiations ou Kaffarat, dispositions testamentaires ou wasiyya etc...), lesquelles dépassent en nombre une dizaine de chapitres et renforcent la solidarité sociale, il y avait surtout le beït-el-mal ou trésor public qui tire ses revenus des sources suivantes :

1°) La zakât (ou impôt purificateur) et tout ce qui entre dans cette catégorie. Nous savons que la zakat est le troisième pilier de l'Islam. Elle constitue la principale base sur laquelle repose l'édifice social de l'Islam. Elle n'est ni aumône ni charité. Elle a un caractère obligatoire. Celui qui sciemment refuse de s'en acquitter est renégat et encourt la peine de mort. Cela s'est vu d'ailleurs pendant la guerre de la ridda (apostasie), lorsque le calife Abu Bakr, (que Dieu l'agrée), a déclaré la guerre aux récalcitrants qui voulaient faire retourner les Musulmans à la jahiliyya et détruire la nation islamique.

La zakât a également un côté pieux, puisqu'elle est acte de dévotion ('ibada) qui rapproche l'être de son Créateur. Elle est acte de solidarité avec la société, éduque l'âme en lui apprenant à vaincre l'égoïsme et à pratiquer le sacrifice et la générosité. Elle constitue pour l'esprit une source de joie et de tranquillité et procure à la conscience la satisfaction du devoir accompli vis-à-vis de Dieu. Pour toutes ces raisons la zakât diffère totalement, quant à sa nature même et à ses objectifs, de tout ce qui peut lui correspondre de nos jours, chez les modernes, et que l'on appelle «impositions » (daraïb) (1). Nous savons aujourd'hui comment nos contemporains s'efforcent souvent de tromper le fisc par toutes sortes de ruses. Au point que tel ou tel chef de gouvernement, dans des Etats européens puissants, ont été impliqués dans des affaires pareilles. D'autres, occupant un rang encore plus élevé, ont été la cible de campagnes de presse pour les mêmes raisons. D'autres encore ont été contraints de s'effacer, de démissionner, pour ne pas dire destitués.

2°) La seconde source des revenus qui alimentent le beït-el-mal ou trésor est constituée par ce que Ibn Hazm appelle « chapitre de ce qui est dû en dehors de la zakât ». A ce propos, Ibn Hazm a commenté un hadith rapporté par 'Ali, (Dieu illumine son visage). Ce hadith est le suivant : « Dieu fait obligation aux riches d'un pays de subvenir aux besoins de leurs pauvres. Le pouvoir doit les y contraindre lorsque les ressources de la zakât sont insuffisantes ». Ibn Hazm et d'autres savants ont proclamé que lorsqu'un homme meurt d'inanition, les gens chez qui il est mort doivent le considérer comme la victime d'un meurtre commis par eux collectivement et doivent par conséquent verser la diya (prix du sang) (1).

Les savants (Muhaddithin), spécialisés dans la science de la transmission des hadiths, ont dit qu'un jour le Prophète s'est mis à énumérer les biens superflus que le musulman doit donner à celui qui n'a que le strict nécessaire. Les compagnons du Prophète s'aperçurent, après cette énumération, qu'au fond personne n'a le droit de posséder de superflu.

Le calife Omar a dit aussi : « Si Dieu me prête vie, je prendrai le superflu que possèdent les riches pour le donner aux pauvres. Aucun homme n'est plus digne qu'un autre de détenir la fortune. Et puis, ensuite, je pousserai les derniers des gens au rang des premiers ».

Il ressort de tout ceci que l'homme juste qui détient l'autorité doit intervenir pour empêcher l'arbitraire et l'iniquité. Il doit assurer la justice et l'équité. Il doit garantir la justice économique et, partant, sociale, lorsqu'il se trouve qu'il y a des disparités gigantesques dans le sein de la communauté et que l'on constate que le luxe et la richesse jurent avec la pauvreté et la misère.

---

(1) Précisons que, dans le monde musulman aujourd'hui, la zakât, que l'Etat n'exige plus, est dûe à la société **en plus** des impôts levés, eux, par l'Etat.

(1) Ibn Hazm : **El Mouhalla.**

3°) Le troisième moyen de réaliser la justice sociale c'est la propriété de la oumma (communauté). Il consiste à supprimer la grande propriété en général, lorsqu'elle existe, pour la remettre à l'Etat. Mais si elle n'existe pas encore, on doit empêcher sa naissance, chaque fois qu'il y a monopole des richesses (ihtikar) et préjudice pour les plus pauvres. C'est le cas le plus répandu.

Le but visé par la loi islamique, alors qu'en principe elle respecte la propriété individuelle et la protège, c'est d'établir la justice en empêchant que les richesses ne s'accumulent entre les mains d'une ploutocratie oligarchique vivant dans l'opulence et le luxe et faisant circuler l'argent uniquement entre ses membres, pendant que la majorité des gens vit dans la faim, le dénuement et le mépris. Les plus pauvres ne tardent pas alors à constituer une armée de mécontents capables de menacer l'équilibre de la nation, de l'affaiblir ou de le saper. Or Dieu a ordonné que notre communauté soit forte et florissante. L'Islam abhorre qu'en son sein il y ait des pauvres. Le Prophète a dit : « Je m'en remets à Dieu quant à la pauvreté et à l'infidélité (Kufr) ». Il a dit également : « La pauvreté c'est presque de l'infidélité ».

Le Prophète a « protégé » (hama) une terre à Médine qui s'appelle Naqui' pour servir de pâturage aux chevaux appartenant aux Musulmans, ce qui revient à dire qu'il en a fait un bien appartenant à tous les Musulmans (1). Pour la même fin, 'Omar a également « réservé » une terre à Rabdha. Les propriétaires de cette terre vinrent lui dire : « O Prince des Croyants ! Cette terre nous appartient ! Pour elle nous avons combattu pendant la jahiliyya ! Elle nous appartenait encore lorsque nous sommes entrés dans l'Islam ! Pourquoi l'as-tu « protégée ? ». 'Omar réfléchit un instant, puis il leur répondit : « Les biens appartiennent à Dieu ! Les gens sont des créatures de Dieu ! Si je n'était contraint de faire certaines choses pour rester dans la voie de Dieu, je n'aurais « protégé » de terre un seul empan » (2).

Il faut entendre par le mot « hama » «protégé » le fait de prendre une certaine superficie de terre qui était propriété privée pour en faire un bien de la communauté, dont bénéficient les membres de cette communauté qui en ont besoin. Cet objectif apparait clairement, incontestablement, lorsque nous lisons les instructions données par 'Omar à l'agent chargé des terres « protégées » (1) de Rabdha. Il lui a spécifié que ces pâturages étaient « à ceux qui se trouvent dans le besoin » (muhtâdjîn). Puis il lui a ajouté textuellement ceci, que l'on peut lire dans les livres d'histoire (2) . « Ne me parle pas des bêtes appartenant à Ibn 'Affân ou Ibn 'Awf (c'étaient des gens riches), car eux lorsqu'ils perdent leur cheptel auront toujours le loisir de revenir à leurs palmiers et à leurs grains, tandis que ce pauvre

(1) et (2) Voir docteur Mustapha Sıba'i : **Le Socialisme de l'Islam**, p. 10.

(1) Hama : **« protégé » dans le sens de « nationalisé ».**

(2) Ibid, pris dans : « **El Moughni** » d'Ibn Oudâma.

malheureux, dès qu'il aura perdu son troupeau, ne pourra s'empêcher de venir me voir avec ses enfants et de crier : O Prince des Croyants ».

Cet homme dans la détresse a le droit de demander l'aide de l'Etat, car il a sa part du beït-el-mal s'il tombe dans la pauvreté. Et le calife 'Omar d'ajouter :

« Dois-je, moi, les abandonner à leur triste sort, puisses-tu perdre plutôt ton père ? Leur fournir du pâturage est plus facile pour moi que leur donner de l'or et de l'argent. Oui, je sais que cette terre appartient à ses propriétaires, qu'ils ont combattu pour elle dans la jahiliyya et qu'ils l'avaient en entrant dans l'Islam. Je sais qu'ils pensent que je suis injuste à leur égard. Mais, c'est pour marcher dans la voie de Dieu que j'ai fait tout cela ».

Cette manière d'agir d'Omar est une façon de mettre en pratique le hadith du Prophète : « Les hommes sont associés dans (disposent en commun de) trois choses : l'eau, le pâturage et le feu ». Sa conduite est conforme au principe connu qui dit : « On doit supporter un mal moindre pour éviter un préjudice majeur ».

Nous pourrions donner un exemple identique et qui remonte également au califat de 'Omar. En effet, on lui suggéra de distribuer les contrées conquises qui se trouvaient en Iraq et en Syrie et de les donner aux gens. 'Omar refusa et en fit la propriété de l'Etat. C'est alors qu'il prononça ses paroles célèbres :

« Si l'on devait partager toutes les terres, il ne resterait rien pour ceux qui viendraient après vous. Et que dire alors des Musulmans qui surviendraient ensuite pour constater que la terre a été distribuée, héritée et possédée ? Cette idée ne vaut rien. Et que restera-t-il des terres syriennes et irakiennes pour les orphelins et les veuves de ces pays ? » (1).

On raconte que Moadh Ibn Djabel, qui fut avec l'imam 'Ali de ceux qui donnèrent raison à 'Omar, dit à ce dernier : « Si tu distribues ces terres, toutes leurs récoltes seront entre les mains de ces gens. Puis après leur disparition, tout sera concentré entre les mains d'un seul homme ou d'une seule femme » (2).

Au lieu de partager ces superficies immenses entre un groupe restreint de compagnons du Prophète et de former une nouvelle caste de gros possédants, 'Omar et certains autres ont préféré fixer, comme dit Al Awzaï, un plus grand nombre de petits fellahs et de villageois dans leurs villages, en les laissant agir par leurs propres moyens. Ainsi ils pourraient faire fructifier la terre et payer les impôts qu'ils devraient à l'Etat. Ils avaient pleine conscience qu'aucun Musulman ne pouvait acheter ces terres, que ce soit de gré ou de force. Car ils étaient tous d'accord que ces biens ne pouvaient faire l'objet d'aucune vente, ni d'aucun héritage (3).

---

(1) et (2) « **Le Socialisme de l'Islam** » par Mustapha Siba'i, p. 102.
Citant **Al Amwal** de Abu 'Obeïd Ibn Al Qacim.

(3) Même source, citant **Al Moghni** d'Ibn Qudâma, p. 107.

Le regretté cheikh Abu Zohra écrit à ce sujet :

« Nous pensons qu'Omar a basé son jugement sur des raisons d'intérêt général qui sont au nombre de trois :

1°) Empêcher la création d'une grosse propriété foncière, car les terres d'Irak et de Syrie comptent des milliers de milliers de feddans. Si on les partage entre des dizaines de milliers de gens on crée, malgré tout, une classe de gros possédants.

2°) Si l'on empêche ce partage, l'impôt foncier (kharadj) que rapporte ces terres sera un avantage pour l'Etat et le Jihad dans la voie de Dieu.

3°) Si ces terres avaient été distribuées, l'Etat aurait disposé de moins d'argent pour aider les plus faibles, c'est-à-dire les orphelins, les veuves et les pauvres. Nous constatons que le calife 'Omar a basé son jugement sur l'intérêt de la oumma, alors qu'il aurait pu tout simplement se prévaloir de certains précédents du temps du Prophète, (sur lui la Prière et la Bénédiction divines » (1).

Si, dans les deux premiers exemples, l'Islam a mis la grande propriété individuelle à la disposition de l'intérêt commun ; si dans le troisième exemple il a empêché l'apparition et le développement (nuchû) de cette grande propriété après que cette dernière fut tombée en possession de l'Etat, nous constatons qu'il (l'Islam) interdit ce développement à partir des biens individuels chaque fois qu'il y a accaparement ou monopolisme des richesses (ihtikâr) susceptible de créer cette grande propriété. Le cheikh Abu Zohra, commentant cette idée, écrit textuellement :

« Les propos du Prophète (hadith) prouvant que l'ihtikâr est illicite (harâm) sont nombreux, quelle que soit la forme que revêt cet accaparement, car il constitue un « habs », un arrêt de la circulation des biens (aliments, vêtements ou autres). Nous pouvons donc dire que l'ihtikâr empêche les plus faibles d'accéder à la propriété agricole et d'exercer ce métier. En effet, lorsqu'il y a de gros propriétaires terriens, ce sont eux qui achètent toutes les terres mises en vente. Les petits agriculteurs ne peuvent pas lutter contre eux pour les acquérir. Le devoir de l'autorité est alors d'intervenir » (2).

Tout le monde connaît l'intransigeance du cheikh Abu Zohra, (Dieu ait son âme). Il soutenait fermement ce qu'il croyait être la vérité et ne flattait jamais les hommes au pouvoir. Il n'était pas de ceux qui changent d'opinion chaque fois que le régime change. C'est pourquoi l'on ne peut dire qu'il a écrit ce qui précède par opportunisme ou par crainte. Car il a toujours résisté à toutes les pressions. Son attitude ferme lui a valu quelques ennuis. Mais il n'a pas varié. Telle fut sa position jusqu'à la fin de ses jours. C'est, du moins, ce que nous savons de lui. Dieu est le plus savant.

(1) Abou Zohra : **El Moudjtama' El Islamy** (« A propos de la Société Islamique »), p. 36.

(2) Ibid, p. 62.

Messieurs.

Nous avons donné un aperçu du concept de justice sociale en Islam, en examinant tout à la fois sa lettre, son esprit, sa finalité et la façon dont elle fut réalisée aux époques les plus brillantes de l'Islam.

Nous avons de même examiné le contenu de la justice économique qui lui sert de base. En effet, la première est conditionnée par la seconde qui lui fournit les moyens de se concrétiser. Et si vous me permettez de comparer cette complémentarité à une idée d'un célèbre philosophe, I. Kant, qui écrit :

« L'entendement se compose de deux éléments complémentaires : les concepts et les sensations. Les concepts, sans les sensations, sont vides et ne contiennent rien. Les sensations, sans concepts, sont aveugles : elles n'ont ni but ni signification » (1), je dirais, dans le contexte de ce sujet, à mon tour, que la justice sociale est le concept et que la justice économique est sa teneur, sa substance, la condition sans quoi elle ne peut être appliquée.

Comment en irait-il autrement alors que l'Islam proclame que le droit de l'individu est lié au droit de la communauté, que l'intérêt général prime l'intérêt particulier et que le bien de la oumma passe avant celui de chacun ? Notre religion a réalisé tout cela sans que l'individu soit étouffé, lésé ou fondu dans la masse de la société.

Comment en irait-il autrement alors que l'Islam est à la fois religion, Etat et ordre social parfait ? Seyyid Qotb écrivait, à ce sujet : « L'Islam signifie, d'après le langage moderne, système ou organisation (nidhâm), en complétant toutefois ce dernier sens par l'idée du dogme ('aqida), au niveau de la conscience, puis celle de l'éthique (khuluq) au niveau du comportement (suluq) et enfin par celle de loi divine (chari'a) au niveau social » (1).

Cette justice sociale, complémentaire de la justice économique, était protégée par l'Etat qui veillait à son application. Elle était enrichie, aidée, par tout un réseau d'institutions populaires de bienfaisance, comparable à un tapis immense ou à des mains ouvertes et tendues, les unes à côté des autres, capables de protéger chaque homme victime de l'adversité ou sur le point de succomber. Et tout ceci, comme nous l'avons vu, était l'œuvre du Législateur suivie d'efforts pour son application. A-t-il existé hier, existe-t-il aujourd'hui quelque chose de tout ceci, en dehors de l'ordre conçu par l'Islam, tel qu'il fut appliqué dans les temps passés ?

Bien plus : à l'époque d'Omar Ibn 'Abdel 'Aziz, ce n'étaient pas seulement les mendiants qui n'existaient pas, mais même les pauvres (fuqara) et les indigents

(1) I. Kant : **Kritik der reinen Vernunft** (La Critique de la Raison Pure), Introduction de la première édition : « Die Begriffe ohne Empfindungen sind leer ; die Empfindungen ohne Begriffe, blind ».

(1) Seyyid Qotb : **La Justice Sociale en Islam.**

(massakin). On ne trouvait nulle trace de ces gens susceptibles de recevoir le produit de la zakât, alors que l'on sait que la définition légale des « massakin » est : « ceux qui n'ont pas de quoi se nourrir pendant une année ».

Le gouverneur d'Afrique sous le même calife dit un jour : « Nous faisons du porte à porte afin de trouver quelqu'un qui acceptât de recevoir la zakât ! ».

La justice sociale peut-elle atteindre, dans son essor, un plus haut degré d'épanouissement ? Appelez-la comme vous voudrez. L'essentiel est qu'elle ait supprimé la tyrannie, l'exploitation et la servitude ! L'essentiel c'est qu'elle soit générale, qu'elle garantisse la dignité de l'homme et ses libertés. L'essentiel c'est qu'elle protège les valeurs spirituelles et que ce soit la religion de Dieu qui prédomine.

Appelez-la, si vous voulez, « justice sociale », comme l'a fait Seyyid Qotb (1), ou « solidarité sociale », avec cheikh Abu Zahra (2), « ichtirakyya » (socialisme), avec le docteur Muhammad Al Mubarak qui écrit :

« Dire qu'il n'y a pas de socialisme en Islam c'est ignorer ce qu'est le socialisme et montrer une certaine incapacité à comprendre l'Islam, ses enseignements, ses objectifs et prouver qu'on est loin de connaître les lois islamiques qui se rapportent à ce sujet » (3).

Nommez-là, si vous préférez, « le socialisme de l'Islam », ainsi que l'a appellée Mustapha Siba'i (4), ou « le socialisme islamique », comme l'a fait le chahid Hassan Al Banna (5) ; donnez-lui tout autre nom que l'on inventera demain, pourvu que le vocable que l'on aura créé renferme un contenu. Car sans cela il ne serait qu'un slogan !

L'essentiel ne réside ni dans les noms, ni dans les formes, ni dans les slogans. L'essentiel, c'est le contenu, c'est la substance. L'essentiel, c'est qu'elle existe, cette justice sociale, telle qu'elle fut pendant les siècles d'or de l'Islam, enrichie par de nouveaux apports qui, en premier lieu, doivent être nécessairement conformes à l'intérêt général, c'est-à-dire à celui de la oumma, sans pour cela aboutir à l'étouffement de l'individu. Et qu'il soit tenu compte aussi des expériences, bonnes ou mauvaises, des autres nations, grâce au critère de l'effort rationnel (ijtihad) et à ses règles d'amélioration et de perfectionnement. Qu'ensuite cette justice sociale soit désignée par le nom que l'on voudra, même celui de « socialisme », puisque c'est celui-là que la jeunesse préfère de nos jours, pourvu qu'on lui confère le sens

(1) Seyyid Qotb : **La Justice Sociale.**
(2) Cheikh Mohammad Abou Zohra : **La Société Islamique.**
(3) Docteur Muhammad El Mubarak : **Les idées d'Ibn Taymyya sur l'Etat et sur l'étendue de son intervention dans le domaine économique.**
(4) Docteur Mustapha Siba'i : **Le Socialisme de l'Islam.**
(5) Hassan Al Banna, dans son introduction au livre de A. Djaoudat Al Sahhar : **« Abu Dharr Al Ghifari., le Socialiste Ermite ».**

qui lui revient, et qui est tout autre que le « chirk » (infidélité), les « chirac » (pièges), ou « ichrak » (idôlatrie). Il signifira, tout simplement, « el ichtirak » communauté des efforts et des fruits, selon le précepte de notre Prophète : « Les hommes sont des associés... » (cité plus haut).

Ne voyons-nous pas de nos jours, ici et là, dans les grandes métropoles du monde développé, de vrais mendiants ou de pauvres êtres que l'on pourrait assimiler à des mendiants? N'avons-nous pas lu ces derniers temps, dans la presse européenne, que des hommes sont morts de froid ou de faim, ou des deux maux à la fois, en pleines villes, comme cela s'est passé récemment en France et aux Etats-Unis ?

Un enfant est mort dans le sein de sa mère parce que, enceinte, est restée plusieurs jours sans manger un seul bout de pain. Ceci a été relaté par le journal français « Le Monde » dans une série d'articles consacrés à l'analyse de certains cas de sous-développement dans des régions des Etats-Unis, Etat le plus puissant et le plus riche de la terre. Ce qui donne à réfléchir, ce n'est pas tant le nombre élevé de cas semblables, et ils sont relativement nombreux d'après ce journal, mais c'est leur existence même ! Est-ce à dire que la situation du monde islamique est meilleure à cet égard que celle de l'Europe ou de l'Amérique ?

Hélas, non ! Nous pouvons dire que notre situation est de beaucoup plus mauvaise. Nous ne pouvons même pas établir une comparaison ! Car dans les pays musulmans les plus riches (et peut-être même beaucoup plus dans ces derniers qu'ailleurs !) nous constatons l'existence de la misère la plus atroce à côté de l'opulence la plus scandaleuse, avec tous les drames qui peuvent découler de cette concomitance. Dans la oumma, il ne s'agit plus de cas d'espèce que mentionnent des journalistes étonnés, comme en Europe ou aux Etats-Unis. Entre la justice sociale, telle que la préconise l'Islam, et la situation des Musulmans d'aujourd'hui, il y a un gouffre, un abîme sans fond.

« Là où règne la justice la Loi divine est ». Tel était le propos d'Ibn Al Qayyim Al Jauzyya (1). De même, écrivait le chahid Seyyed Qotb :

« En ce monde que l'on appelle « monde islamique », tu regardes et puis tu vois une réalité sociale qui ne réjouis pas. Et puis tu ouvres les yeux et tu constates des institutions sociales qui ne garantissent pas la justice » (2).

C'est le même point de vue que nous livre le docteur Muhammad Faruk An nabhan, professeur à l'Université de Droit et de Loi islamique du Koweit, au début de la conférence qu'il a prononcée au IX^e^ Séminaire de la Pensée Islamique qui s'est tenu à Tlemcen l'été dernier. Il a condensé toutes ces réflexions en quelques mots que nous citons :

---

(1) Ibn Al Qayyim in" **A 'alam al Muwaqqi'in 'an Rabbi al 'Alamine.**

(2) **La Justice Sociale**, p. 2.

« Pour commencer, nous devons reconnaître que la réalité des peuples islamiques est sombre, lugubre, éloignée de la justice et de l'esprit même de l'Islam.

« Nous devons reconnaître que l'injustice sociale s'impose à nous sous une forme qui contredit toutes les valeurs religieuses et humaines ».

Je voudrais, en guise de conclusion, exprimer à mon tour mes appréhensions. Je voudrais dire que si les Musulmans persistent à accepter cette absence de justice sociale parmi eux, s'ils continuent à séparer le culte dans la mosquée de la justice sociale à observer dans les terres à ensemencer, et les lieux de prière du négoce et de l'industrie, s'ils s'obstinent dans l'hypocrisie d'un culte sans âme tout en se montrant « avares envers ceux qui on besoin d'aide », je dis alors malheur à eux en ce monde, malheur à eux dans la vie future, même s'ils ne sont pas de ceux qui, selon l'expression coranique, « négligent leurs prières » ('an salatihim Sahûn) !

Ce jour-là rien ne leur sera utile, ni leur prière, ni leur jeûne. C'est cette situation qu'a décrite récemment le recteur d'Al Azhar, le docteur Abdelhalim Mahmud, à propos des apostats (ahl arridda) qui ont voulu établir une séparation entre la prière et la zakât. Or, nous avons bien vu qu'en plus de la zakât, il y a d'autres aspects de la justice sociale en Islam, comme l'a écrit Ibn Hazm (1) et comme l'a déclaré et réalisé par des actes, depuis quatorze siècles, notre Prophète, sur lui la Prière et la Bénédiction divines, et les plus illustres de ses compagnons, tel 'Omar.

Puisse Dieu nous guider dans le droit chemin et protéger la Nation islamique de toute fin malheureuse. Puisse le Seigneur l'aider à atteindre ses buts, elle qui est la Nation porteuse du dernier Message divin (erissala) à l'humanité entière, pour sôn bien et dans l'intérêt de tout le genre humain.

(1) Ibn Hazm : **El Mohalla**.

فهـــرس العـــدد

على هـامش مناقشـة المشـروع التمهيـدى للميثـاق

التقـــدميـــة الأصيلـــة

عثمان شبوب

كانت فرصة مناقشة المشروع التمهيدى للميثاق الوطنى مناسبة لحـوار مثمر على المستوى الوطنى ساهمت فى اثراء المشروع ، ومحاولة تصحيح مساره •

وكان طبيعيا ان تحظى المسائل الايديولوجية بالعناية الكاملة من طـــرف الجميع بصفتها دليـل العمـــل فى المستقبـــل •

وقـد سمحت لى هـذه المناقشات الغنيـــة ، باستخلاص بعض الانطباعات عـــن منطلقاتها ••• ودور ذلك فى الطريقة التى جرى بها النقاش •

وأول انطباع يتبادر الى الذهن هو ان هناك اتجاهين يطغيان على سير كل المناقشات وهما : اتجاه ما يسمى بالرجعية ، واتجاه ما يسمى بالتقدمية •

ويحصر الاتجاه الاول فى الغالب ، فى المتحمسين للتراث العربى الاسلامى ، والاتجاه الثانى فى المتحمسين للفكر الاشتراكى عامة والماركسى منه بصفة خاصة •

ولكن من يتتبع سمات كلا الموقفين متابعة متأنية ، مستبصرة ، لا يجد أى اختلاف أو تناقض بينهما ••• فكلاهما ينطلقان من نظـــرة شكلية ، رجعية ، منغلقة ، ومغتربة كمـا يقـــال •

وبهذا لا يمكنهما ان يحققا النهضة الحضارية فى بلادنا ••• لانهما نبتتان غريبتان عن التـــربة الوطنيـــة •

ولا أجد تعبيرا أصدق فى وصف كلا الاتجاهين مما ذكـــره « توينبى » فى كتابه : « الحضارة فى امتحان » ، « ان الطريقتين اللتين يمكن ان يستعملهما فى الدفاع عـــن نفسه مجتمع صدمته قوة أجنبية ، أى ضغط حضارة أجنبية أقـوى منه ، تتلخصان فى طريقة الذى يحاول أن يجد ملاذا وملجأ فى الماضى كما تصنع الزرافة حين تدس رأسها فى التراب حتى لا ترى الصياد الملاحق لها ، وطريقة الذى يجرؤ ويقدم فيتقبل ويتلبس بالدخيل الهـــاجم عليه » •

ولعل الجامع لهذين الاتجاهين المتناقضين هو وحدة المنهج • واذا عدنا الى المناهـــج المتبعة فى دراسة التحول الاجتماعى وجدنا منهجين رئيسيين وهما : منهج الحركة والتغير ،

ومنهج الثبات والسكون ، ومنهج هذين الاتجاهين ــ مع الاســف ــ هو المنهج الثانى ٠
وويل لقوم ــ كما قال أحد الكتاب ــ يكونون اشباح أموات لماض ، أو قرود مسخ حديث.

* * *

فالاتجاه المحسوب على الاسلام ، أو التراث عامة ، رأيناه بهذه المناسبة ، ومناسبات أخرى ، وازاء أى موقف جديد ، يعود دائما بالذاكرة الى الوراء ، بدلا من ان يبعث بالخيال الى الامـــــام ٠

حقا ان أعظم ما تمتع به الانسان هو « الذاكرة » و « الخيال » ٠ ولكن على أساس ان هذه الذاكرة تثير الخيال كما هو الواقع فى المجتمعات المتحضرة ، لا ان تقـــيد من هذا الخيال كما هو الشأن فى المجتمعات المتخلفة ٠ ولسنا ــ طبعا ــ نقصد بهذا اهدار التاريخ، والغاء الذاكرة التاريخية ، فالذاكرة هى الشرط الاساسى لقدرات الخيال ٠ فبدون المعرفة التاريخية والتجارب المتراكمة لا يمكن للانسانية ان تتقدم ٠ وانما ندعو الى أن نحصـــر التاريخ والذاكرة فى هذه الحدود ، دون أن يتجاوزها الى خنق الخيال وايقاف التطور ٠

ويمكن أن نطلق على هذه النظرة أيضا ، النظرة اللاتاريخية لانها لا تهتم بمـــــرور التاريخ ، والزمن لديها ليس بذى قيمة ٠

ولعل الانقطاع الذى حصل فى المسيرة الحضارية للشعوب العربية الاسلامية يعود ، فيما يعود اليه ، الى تخلى هذه الشعوب عن ذلك المنهج الديناميكى الخلاق الذى أخذت به فى فترات قوتها ٠٠٠ منهج الحركة المستمر ، والتغير الدائم ٠

ولسنا فى صدد عرض الحالة التى آلت اليها هذه الشعوب فى تلك العصور ، ولكننا فقط نلاحظ استمرار هذه الحالة الى يومنا الحاضر ٠

ولنضرب لذلك بعض الامثلـة :

دأبت وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية على تنظيم ملتقيات للفكر الاسلامى ، وكانت مواضيعها من الغنى ، والتنوع ، والشمول ، بحيث تعطى صورة عن الاســــلام كما هو فى جوهره عقيدة ، وفكرا ، وحضارة ٠ وكان من النتائج الايجابية لهذه الملتقيات استقطاب الكثير من الشبان والمثقفين الذين كانوا « معقدين » من هذا الجانب ٠

لكن البعض من قصيرى النظر اعتبروا هذه الملتقيات غير اسلامية ، وجدول أعمالها خارج موضوع الاسلام ، لانهم حصروا مفهوم الاســلام ــ جهـــلا ــ فى العبادات فقط ، وأهملوا الجانب الآخر منه وهو الجانب الاجتماعى ، أو الدنيوى بشكل عام ٠

ويمثل موقفهم من الاشتراكية ــ كما ظهـر بمناسبة مناقشة مشروع الميثـــاق ــ امتدادا لهذه النظرة المحدودة حيث اعتبروا الاشتراكية كفرا ، ودعاتها اعداء للاسلام ٠ كأن الاسلام يزكى الاستغلال ، ويبيح الاضطهاد الاجتماعى ، وهو الذى أتى لتحـرير الانسانية من العبودية الفردية والاجتماعية ٠

ونحيل هؤلاء الى المحاضرة القيمة للسيد مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية المنشورة فى العدد الماضى من « الأصالة » بعنوان « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » ليصححوا معلوماتهم ويعمقوها عن موقف الاسلام من العدالة الاجتماعية ٠

وكما نلاحظ فان هذه « الجماعة » تعانى ما يسمى بـ « الاغتراب » على مستويات ثلاثة : على مستوى التراث نفسه بسبب الانقطاع الطويل عنه ، والاكتفاء بالجانب السكونى منه ، وعلى مستوى المجتمع الذى تعيش فيه ، لانقطاعها عن همومه وتطلعاته وعلى مستوى العصر ومشاكله ٠

ان المجتمعات الاسلامية تواجه اليوم مشاكل عديدة فى حياتها اليومية ، وليست القضايا المتعلقة بجانب العبادات هى كل هذه المشاكل ٠ فهناك مشاكل سياسية تتعلق بانظمة الحكم الملبية لمطالب الشعب ، ومشاكل التنمية الاقتصادية ، ومشاكل التنظيم الاجتماعى وغير ذلك من المشاكل التى عليها ان تتجاوزها لتلتحق بركب العصر ٠

ولكن « الدعاة الاسلاميين » بسبب هذه النظرة الناقصة القاصرة لمفهوم الاسلام ، أهملوا هذه الجوانب الاساسية من حياة المجتمعات الاسلامية ، ومن الدين الاسلامى أيضا ، واكتفوا بترديد مقولات عامة ، مثل : الاسلام نظام كامل ، الاسلام دين ودولة ، الاسلام صالح لكل زمان ومكان ٠٠٠ الخ ٠

وهذا الاسلوب فى الدعوة لا يفيد اطلاقا ، بل قد يضر ، واضر فعلا ، ولعل هذه الصورة المشوهة عن الاسلام التى يحملها البعض تعود بعض مسؤوليتها الى هذا الاسلوب الاجوف ٠

ينبغى تجاوز أسلوب العموميات ، والشعارات ، والضجيج الهستيرى ، والعمل على اعطاء مدلولات محددة لها ٠

فعندما نقول بأن الاسلام صالح لكل زمان ومكان ، فمعنى ذلك ان المبادىء التى نادى بها مثل : الحرية ، العدالة ، الشورى ، الاستقامة ، مبادىء خالدة ، تتماشى مع المنطق السليم الى آماد بعيدة فيما نتصور ، ولكن محتوى هذه المبادىء ، ليس خالدا ، ويجب أن يتغير وفق الحاجات المستجدة للشعوب الاسلامية ٠

وعندما ننادى أيضا بمبدا الشورى ونقول ، يجب أن يطبق كما طبق فى تاريخ الاسلام نقول : لا ، لان الطريقة التى طبق بها ابتداء من عهد أبى بكر فات أوانها ٠ لذلك يجب أن نعطى لهذا المبدأ محتوى جديدا يتفق وتعقد الحياة العصرية وتشعبها ٠

وعندما نطالب بضرورة الاستفادة بما فى تراثنا من فكر علمى ، فليس معناه تطبيق نظريات علمائنا الاقدمين التى قد تكون غير مفيدة الآن ٠ ولكن المهم فى هذا هو الاستفادة من المنهج الذى استرشدوا به فى بحوثهم ٠

ولا بأس فى هذا ، بـل ومن الضرورى ، ان نستفيد من تجـارب غيرنا الناجحة ٠ والمسلمون الاولون فى تصديهم لمشاكل تنظـيم الدولة الاسلامية واقامـة مؤسساتها استفادوا الى أبعد الحدود من شرائع الامم التى جاورتهم ٠

ان حركة التصنيع والعلوم والتكنولوجيا وكل القوى التى تعمل فى تكييف مصـير المجتمع الانسانى لم تعد محصورة فى رقعة ضيقة من الارض ، بل أصبح مفعولها ينتشر بسرعة مدهشة بفضل المواصلات الحديثة ٠ ومعنى ذلك انه لا يمكن لاية ثقافة أو حضارة أن تنحصر رؤية وفعلا ، ولا تتسع الى آفاق العالمية الشاملة ٠

* * *

أما قضية المعاصرة ، أو التقدمية ، أو غير ذلك من التعابير المشابهة المثارة الآن بصفة خاصة ، فتستخدم عادة فى مجتمعنا استخداما شكليا لا يرتجى منها نفـع ، وهى فى النتيجة دعوة الى الاندماج فى الغير ، والاكتساء من لباسه ، والتنفس بانفاسه ٠ وهذا تعطيل للكيان الذاتى وتجميد لحركة التاريخ واختيار للسهل الجاهز من الامور ٠

واذا طبقنا المقياس الاجتماعى فى التحليل ادرجنا هواة الشعارت التقدمية ضمـن هذه العناصر الرجعية المغتربة فى مجتمعنا ، لانه فى ظل هذا الاستلاب ، تفقد اللغة دقتها كرموز للواقع بكل عناصره واجزائه ، لتحل اللفظية محل الاشياء ، والشعارات محـل المحتوى الفكرى المبنى على واقع محدد ٠

ان المقابل الحقيقى للاغتراب هو امتلاك الذات أى شعور الفرد أو الجماعة بامتلاكهما لذاتهما ٠ ويرى المفكر الفرنسى « غارودى » ان مقابل الاغتراب هو الابداع : « أى وعـى الفرد لذاته ، من حيث هو حرية ، مستقلة ، تقوى على الفعل ، وتقرير المصير فى اطـار تاريخـى خـاص » ٠

وهكذا فان الابداع الحقيقى يتم فقط، بدأ من امتلاك الذات٠وكنا نتمنى من هذه الجماعة « التقدمية » التى ترفع لواء الماركسية ان تدرس الماركسية بعمق ، لتستفيد بعد ذلك من منهجها الجدلى ، وتدرس به تاريخ ، وحضارة ، وثقافة مجتمعها ٠ ــ كما فعـل غيرهم ــ لتبدع على أساس ذلك ٠ ولو فعلت ذلك لما وقعت فى هذا المنطق الشكلى (اما ، واما) ، ولا انتفى هذا التقابل ، وزالت هذه الثنائية ٠ لان وضع التقابل بين التطور والتقليد ، الماضى والحاضر ، والاصالة والمعاصرة أى كشيئين متعارضين يتنافى مع المنهج الجـدلى ـالذى من المفروض انهم يستخدمونه بحكم انتمائهم اليه ــ وبهذا يكـون من المنطقى أن تكون أوروبا الزراعية القديمة مثلا ، امتدادا متطورا لاوروبا الصناعية الحديثة ٠

اذن كل جديد ينبع من القديم ، والجديد يصبح قديما نتيجة تجاوز يقع من داخله ، وهكذا ، حسب الحركة الجـدلية ٠

والآية القرآنية ادق اذ تعبر عن هذا الجدل : « يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحـي ٠٠٠ » الآية ٠

ويعبر عنه ابن قتيبة قائلا : « كل أدب بالاضافة الى ما قبله جديد ، وبالاضافة الى ما بعده قديم » ٠

واما قولهم فى ميدان المعرفة بأن العلوم وحدها هى التى بامكانها معرفة الحقيقة وان لا وجود لغير المادة ـ فهذه نظرية مرفوضة حتى من الماركسية نفسها التى ترى فيها نزعة وضعية تجزيئية معادية لكل تصور عام ، متكامل ، للكون والانسان ، ومناهضة للفلسفة .

ونرى ان العقلانية أو التفكير العلمى لا يتنافى مع بعد آخر وهو ذلك الذى يربط ما بين الانسان والكون ٠

وتاريخ العلم حافل بمشاهير العلماء الذين لم يمنعهم تدينهم ، من أن يكونوا عباقرة كبار أثروا فى عصرهم وفى غير عصرهم ايما تأثير ٠

وانجلز نفسه يقول فى رسالة بعث بها الى أحد معاصريه يسمى « بلوخ » بتاريخ 1890/9/12 :

« لقد كنا ، ماركس ، وأنا ، مسؤولين جزئيا ، عن تركيز الشباب على الجانب الاقتصادى تركيزا أكثر مما يستحق ٠ لقد كان لابد لنا نحن من أن نركز على المبدا الاساسى فى مواجهة معارضينا الذين ينكرونه ، ولم يكن يتوافر لنا دائما الوقت ، والمكان ، والفرصة المناسبة لنسمح للعناصر الاخرى بالتدخل فى التأثير المتبادل بالقدر الذى تستحقه » ٠

وكما هو واضح من هذا النص ، فان التركيز على الجانب الاقتصادى أو المادى كعامل وحيد فى عملية التطور كان مبالغة مقصودة ، وأن التقدم ينبع من تأثير الافكار أيضا ٠ لهذا كانت العلاقة بين الفكر والواقع المادى ، علاقة تأثير متبادل ، أى علاقة جدلية ٠

* * *

يتبين لنا من هذا كله ان فشل الفريقين يكمن فى عيب المنهج الشكلى السكونى الذى استخدماه بوعى أو بدون وعى ٠ والذى أدى ـ كما رأينا ـ الى شل التفكير ، والخضوع للتقليد ٠

ولتحقيق الثورة على صعيد الفكر والثقافة ، نرى ضرورة ارتكازها على قيمنا الاساسية أولا ، وعلى ابداعنا القائم على أساس تلك القيم ، وعلى المركب المتناسق الناتج عن ذلك الجهد والابداع ثالثا ، تجمع بينها جميعا علاقة جدلية ٠

ان الاسلام بالمفهوم التقدمى الاصيل ـ لا كما يصوره الرجعيون المنغلقون ، ولا العملاء الحضاريون ـ كما يسميهم أحد الكتاب يمثل الاطار الاعم لتراثنا الفكرى والثقافى عامة ، كما يمثل المجال الطبيعى لعملية الابداع التى ندعو اليها ، دون ان يمنعنا ذلك من الاستفادة القصوى من كل التجارب الانسانية الناجحة ، فى أى ميدان ، ومن أية جهة كانت ٠

دراسات تاريخية

المجاعة بالجزائر

أواخر عقد الستينات من القرن 19 ومواقف وآراء الجزائريين من ادعاءات الفرنسيين حول أسبابها

يحيى بوعزيز

تعرضت الجزائر خلال عهد الامبراطورية الفرنسية الثانية الى احداث سياسية واقتصادية واجتماعية مؤلمة نظرا لسياسة القسوة التى اتبعها الفرنسيون تجاه الجزائريين ، ولتوالى النكبات والكوارث الطبيعية على البلاد ، مما حول الجزائريين الى طبقة محرومة وبائسة ، وجعلهم احيانا يلتجئون الى العنف كوسيلة لمواجهة تلك السياسة .

أ ـ النكبات الطبيعية :

ان العمليات العسكرية التى شنها الجيش الفرنسى على بلاد القبائل عام 1857 نتج عنها فقدان السكان لاستقلالهم السياسى وتحطيم انتاجهم الفلاحى والزراعى ، وتخريب

(*) هذا المقال عبارة عن فقرة من الفصل الاول من الباب الاول من دراستنا الجامعية عن ثورة المقرانى والحداد عام 1871 .

صناعاتهم التقليدية والقضاء على أسواقهم التجارية وهلاك حيواناتهم . وبالاضافة الى ذلك فقد أدت الى فرض غرامات حرب وضرائب باهضة كانت فوق طاقة السكان (1) .

وكان من المتوقع أن يكون عقد الستينات فترة نقاهة لهم بسبب السياسة الجديدة التى حاول نابليون أن يتبعها . ولكن سرعان ما فاجاتهم وتوالت عليهم النكبات والكوارث الطبيعية والاقتصادية أواخر الستينات كالجراد ، والجفاف ، والمجاعة ، والامراض ، والاوبئة .

ففى عام 1864 بدأت افواج الجراد تغزو البلاد من كل صوب ، واتخذت شكلا خطيرا فى مطلع عام 1866 الذى دعى « بعام الجراد » وعبرت فى شهر أبريل جبال الاطلس من الجنوب الى حقول الشمال ومزارعه ، والتهمت كل ما وجدته من الخضرة والثمار ، ففقد الناس انتاجهم وتعرضوا لضائقة مادية شديدة وكان أكثر المتضررين هم الجزائريون أما الاوروبيون فكانت الازمة خفيفة عليهم لتوفر وسائل الوقاية لديهم والامكانيات المادية الاخرى .

ولقد ادعى الاب بورزى بان « العرب لم يقاوموا الجراد ، وعندما سالناهم عن سبب ذلك قالوا بأن الله الذى بعثه هو الذى سيطرده » (2) وهى دعوة غريبة لا تستند على أساس مقبول ، لان بورزى يريد أن يتهم الجزائريين بالقدرية والتواكل ليبرر بعد ذلك وصفهم بالتخلف الفكرى والذهنى ، وهى تهمة لا تخلو من النزعة الاستعمارية . ثم ان الامر يتعلق بمصدر العيش ، ومن الصعب على شخص أو أسرة تعتمد فى حياتها على انتاج حقل او ضيعة أن تهملها وتتركها لرحمة الجراد .

وقد بقى خطر الجراد يتجدد كل عام تقريبا ، ولذلك نجد الدكتور فيتال يشير اليه فى كثير من رسائله الى اسماعيل أوربان (3) . وفى عامى 1869 و 1870 عاود الجراد

(1) Robin : *L'Insurrection.* pp. 25 -27.

(2) L'Abbé Burzet : *Histoire des désastres de l'Algérie* 1866, 1867, 1868 (Alger 1868, pp. 12-30.

3) فقد قال فى رسالة 13 أبريل 1867 : « اننا فى غزوة كبيرة ، لكن ليس ضد سى الاعلى هذه المرة ، وانما ضد الجراد » . وقال فى رسالة 13 جويلية : « ان الجراد يزحف باعداد كبيرة جنوب باتنة » . أنظر نوشى ص 217 ــ 218 و 286 .

الهجوم على البلاد ، وخاصة منطقة حكم المقرانى بمجانة التى اتلف فيها محصولات الفلاحين ، فزاد من بؤسهم الاقتصادى والاجتماعى بالاضافة الى المجاعة والاوبئة ۰ واضطر المقرانى بسبب ذلك الى أخذ قروض من البنوك والسماسرة اليهود بأرباح عالية ليساعد بها الفلاحين على توفير حبوب البذر (4) ۰ وهذا الاقتراض هو الذى سيورثه مشاكل وصعوبات أواخر عام 1870 كما سيأتى ۰

وبينما الاهالى يعانون من اخطار الجراد ، حدثت زلازل فى البليدة وقرى متيجة فى مطلع عام 1867 ، (5) وانتشر مرض الكوليرا والتيفوس ۰ فقد ظهر مرض الكوليرا عام 1866 بشكل محدود ، واشتد خطره عام 1867 وانتشر فى البلاد بواسطة بعض المسافرين الذين قدموا من الخارج عن طريق الموانى ۰ (6) وعانى منه الجزائريون لانعدام وسائل الوقاية الصحية لديهم ، وسوء حالتهم الاقتصادية والمعاشية ، وعدم اهتمام السلطات الفرنسية بمقاومته الا فى اوساط الاوروبيين الذين كانت حالتهم الاقتصادية حسنة ، والوقاية الصحية متوفرة لديهم ۰ (7)

ومع انتشار الكوليرا ، فشا ايضا مرض التيفوس ، فاخذ الجزائريون يموتون بالجملة فى القرى والطرقات العامة حتى أرغمت السلطات الفرنسية السكان على حفر خنادق عميقة لدفن الموتى ۰ وذكر الاب بورزى بانه « يصعب تقدير عدد الموتى والضحايا ، ولكن مجموع الذين ماتوا خلال شهرين فقط ، مائتان وخمسون ألف شخص » ۰ (8)

وأشار الدكتور فيتال فى عدد من رسائله الى ما كان يعانيه الجزائريون من ذلك فقال فى رسالة 9 جويلية 1867 « انه لم تبق الا الاشياء المحزنة ماثلة أمام الاعين ، كالعطش

---

(4) Rinn : *Histoire.* pp. 50 - 51.

(5) Burzet : pp. 43 - 42.

6) نقل بورزى فى (ص 55 ـ 68) عن تقرير لاحد الرهبان بأن هذا المرض حدث نتيجة لانتشار رائحة الجراد عام 1866 التى نقلتها الرياح الى المناطق الآهلة ۰ وهى دعوة غريبة لان رائحة الجراد لا تبقى عاما كاملا ۰ أمارين فذكر فى تاريخه (ص 50 ـ 51) أن المرض وصل الى الجزائر من تونس ۰

(7) Burzet : pp. 58 - 65.

8) نفس المصدر ص 55 ـ 68 ۰

والجوع ، والتعاسة ، والامراض ، والاهـــالى يموتون بالجملة فى السمندو ، والعلمة ، وعدة جهات أخـرى من جـراء الكوليرا ، والتيفوس المتفشيين بسبب المجاعـة » (9) ·
وروى روبين «أن ضحايا الكوليرا فى منطقة دللس وحدها بلغوا عشرة آلاف شخص» (10).

والى جانب مرض الكوليرا والتيفوس ، كثر القحط والجفاف ، وقلت من ثم المحصولات الزراعية والغذائية · فمنذ عام 1865 والمطر يشح ولا ينزل الا بمقدار ، وفى أيـــام قليلة من الشتاء · ودام هذا القحط ثلاث سنوات وخاصة عام 1867 الذى قلت فيـــه حتى مياه الشرب والسقى ، وجفت الينابيع فى الصيف ، واشتد البـرد فى الشتاء · فيبست الحشائش وماتت المواشى خاصة فى الهضاب العليا · وتفشت من جـراء ذلك المجاعة فى البلاد حتى أصبح الناس يؤرخون بها ويقولون حدث ذلك « عام الشر » (11) وعم غلاء المواد الغذائية لدرجة اثارت دهشة الدكتور فيتال الذى حكى فى رسالة 25 جوان 1867 : « بان سعر القمح بلغ أكثر من مائة فرنك للصاع الواحد وسعر الشعير بلغ خمسة وأربعين فرنكا للصاع فى حين كان يباع عند الحرث بسعر ستـة وعشرين فرنكا للقنطار فى السوق » ، وقال : « بأن هذا لم يحدث أبدا من قبل ونتج عنه تصاعد المجاعة وموت الناس بالجملة » (12) ·

ومند شهر نوفمبر أصبح الاهالى فى ضيق شديد · اذ استنفدوا ما عندهم من المواد الغذائية ، وباعوا ما بقى من حيواناتهم التى نجت من الموت بأبخس الاثمان وأخـــذ سكان الهضاب العليا يهاجرون افواجا وجماعات الى اقليم التل بحثا عن الطعام ، وأكل الكثير منهم جذور الحشائش وأوراق الاشجار ، والحيات ، والكلاب (13) · بل ان البعض

9) وذكر فى رسالة 16 جويلية « بان الكوليرا ظهرت فى جهـــات المسيلة ، وعنـــابة ، وسكيكدة ، والعلمة » · كما ذكر فى رسالة 30 من نفس الشهر « بأن هناك أكثر من ألــف أهلى ماتوا من الكوليرا فى بسكرة مـــا بين 15 و 30 جويلية ، ومنها انتشرت الى الجنـــوب وأصبحت ورقلة وسوف مهددة » أنظر نوشى : ص 213 ــ 215 ·

(10) Robin : *L'Insurrection.* pp. 25 - 27.
(11) Rinn : *Histoire.* pp. 50 - 51.
(12) Hoschi : pp. 210 - 211.
(13) *La famine en Algérie.* pp. 22 - 24.

منهم نبشوا القبور وأكلوا جثث الموتى وادعى أحد الكتاب بأنهم أكلوا حتى الاحياء من البشر (14) ·

وأقدم بعض الاهالى على ارتكاب جرائم القتل والسرقات ، حتى يلقى عليهم القبض فيضمنوا لقمة العيش اليومى داخل السجون والمعتقلات · وعندما كثر ازدحامهم فى الطرقات والساحات العامة بقرى ومدن الشمال ، بحثا عما يسد الرمق ، فى المزابل وأكوام القمامة ، تصايح الاوروبيون وطلبوا من السلطات الحاكمة أن تطردهم بدعوى انهم كانوا يهددون الامن والصحة العامة (15) ·

وقد أكد الحاكم العام ماكماهون عندئذ « بأن سكان التل الذين توجه اليهم هؤلاء المنكوبون ، كانوا أيضا فى ضيق وكرب لقلة مردود انتاجهم الفلاحى » وأضاف قائلا : « انى طلبت من السلطات المدنية أن تقدم المساعدات لهم ، ولكن الاوروبيين خافوا أن تصيبهم الامراض ، وذلك اعطيت الاوامر لضباط الجيش لانشاء محتشدات لهم فى مليانة ، والاصنام ، وغليزان حشد فيها حوالى خمسمائة وأربعين الف شخص » (16) · والواقع أن هذه الاماكن كانت عبارة عن محتشدات عسكرية جمع فيها الاهالى لا من أجل اسعافهم ، وانما لتوفير الامن للاوروبيين (17) · وأورد كل من بورزى ، وشارل كوفى (18) أمثلة كثيرة لمظاهر المجاعة فى عدة أماكن من البلاد بأرقام وتواريخ محددة تثبت أن ضحاياها كانوا لا يقلون عن ثلاثمائة ألف شخص بينما أوصلهم البعض الى ضعف هذا العدد (19) ·

ففى عمالة قسنطينة مات مائة وستون ألف شخص (20) · ونقل بورزى عن اسقف مدينة الجزائر أن عدد الموتى قد بلغ مائة ألف شخص فى عمالة الجزائر ، وانه خلال

---

(14) Julien : pp. 439 - 440.

15) هكذا يذكر بورزى فى كتابه (ص 71 ــ 72) وما بعدها ، مضيفا « بأن الجائعين تحولوا الى لصوص وقطاع طرق للنهب والسلب والسرقة » ·

(16) Le maréchal Mac-Mahon : *Mémoire du maréchal Mac-Mahon duc de Magenta.* (Paris 1932) pp. 328 - 330.

(17) Mercîer : *L'Algérie*. pp. 56 -58.

(18) Charles Cuvier : *Compte rendu des dons reçu des victimes de la famine en Algérie.* (Strasbourg 6/05/1868) pp. 1 - 2.

(19) Martin : pp. 138 - 184.

(20) *La famine* : pp. 22 - 24.

شهرين فقط مات تسعة عشر ألفا (21) . وتجاوز عدد الموتى فى عمالة وهران مائة ألف شخص (22) .

وحسب رأى جول فافر فان عدد السكان الجزائريين نقص بمقدار الربع خلال عشر سنوات ، وذلك نتيجة للبطء المستمر فى عدد المواليد منذ الاحتلال من جهة ، ولنقص المحصولات الزراعية والفلاحية خلال سنوات الجفاف من جهة أخرى . وقدر نقصهم عام 1871 بأربعمائة ألف شخص (23) .

وبينما كان الاهالى يتناقصون على النحو الذى ذكرنا ، كان عدد الاوروبيين فى تزايد مستمر ، فقد كانوا يعدون 220 ألف عام 1861 فارتفعوا الى 272 الف عام 1872 ، وذلك راجع لعدم تأثرهم بالازمة لانهم كانوا يملكون الاراضى الجيدة والمسقية فى المناطق الساحلية كثيرة الامطار ، ولديهم مدخرات كافية من الحبوب الغذائية وقت الازمة (24) .

ومن مظاهر هذه المجاعة أن الفلاحين الجزائرين عجزوا عن توفير حبوب البذر لفلاحة أراضيهم ، ولم تبذل السلطات الرسمية على ما يظهر المجهودات اللازمة لمساعدتهم ، واكتفت بتوجيه نداء لرؤساء العائلات الجزائرية الغنية كى يقدموا تسبيقات لصغار الفلاحين ، ومنهم المقرانى (25) .

وقد استغل اليهود المجاعة عامى 1868 و 1869 ، لتنمية ثرواتهم وأرباحهم عن طريق القروض التى كانوا يقدمونها للمنكوبين بفوائد وأرباح عالية تتراوح بين أربعين ومائة فى المائة لمدة شهرين أو ثلاثة فقط من العام مما جعل الكثيرين من الجزائريين يفقدون فى نهاية الامر املاكهم ويتحولون الى عمال بالخماسة . وقد أورد السيد بيدولت طرائف فى هذا الموضوع ، وزاد قائلا : « بأن الجزائريين حتى عندما تخصب أراضيهم ، ويرتفع مردودها ، فان السماسرة اليهود ، والمعمرين ، يتدخلون لخفض أسعار حبوبهم بنسبة عشرين الى ثلاثين بالمائة » (26) ، حتى لا يكونوا مصدر منافسة لهم ، وهذا ما

(21) Burzet : pp. 71 - 104.
(22) *L'Algérie au point de vue.* pp. 9 - 49 et suivante.
(23) Jules Favre : pp. 23 - 24 et 29 - 31.
(24) A. Nouschi, A. Prenant et Lacoste : *L'Algérie passé et présent.* (Paris 1960) pp. 372 - 375.
(25) Louis Vignon : *La France en Algérie.* (Paris 1893) pp. 357 - 359.
(26) Bidoult : pp. 67 - 68, 84 - 85 et 95 - 98

جعل الحاكم العام ماكماهون يؤكد « ان رؤساء الاهالى دفعوا كل ثرواتهم التى استردوها من صغار الفلاحين ، الى السماسرة اليهود أرباحا (فاحشة) عن القروض التى أخذوها منهم » (27) ·

وقد تكون شهادة النواب الجزائريين أكثر وضوحا فى هذا الميدان · فقد أجاب حسن بن بريهمات ، والمكى بن باديس ، وأحمد ولد القاضى ، لجنة التحقيق التى استفسرتهم عن أسباب مجاعة عام 1869 فقالوا : « ··· نعم كان فى السالف كثير من الفلاحين يكون عندهم الفاضل فى الزرع عن قدر كفايتهم فيحفظونه فى المطامير ، ويجرونه وقت المسغبة ليدفعوا المضرة · ولما حل بهم غلو السعر فى كراء الارض الدومينية (28) وغيرها من الزيادة فى المغرم وصارت الحاجة تدعوهم الى قرض الدراهم بالفائدة المضرة كستين فى المائة ونحو ذلك ممن انتصب لذلك ولم يرحم خلق الله ، كما تدعوهم الحاجة الى بيع الزرع والصوف قبل أوانها بأقل من نصف القيمة فصار الزرع الذى يحصلونه فى المصيف يخرج كله من ايديهم فى الشأن المذكور ولم يبق بايديهم فاضل يدخرونه (29) ·

والحقيقة أن تجارة اليهود وسعيهم وراء الارباح الباهضة ليس بالشيء الجديد فى الجزائر ، فقد أوضح ذلك أحد الاوروبيين بوهران فى رسالة له الى نابليون يوم 15 ماى 1865 قائلا : « وأحيط جلالتكم علما بأن الشعب الاهلى لعمالة وهران يدفع لصالح (ربا) اليهود مبلغا يساوى أربعة اضعاف ما يدفعونه لفرنسا بعنوان (الضرائب) (30) ، ولعل هذا هو الذى حمل دوكوس على القول ، وهو يرد على الجنرال دوكرو ، « بأن السبب الحقيقى للثورة هو رغبة رؤساء الاهالى فى التخلص من ديونهم » (31) ·

وقد زادت الازمة الاقتصادية حدة عندما رفض بنك الجزائر تقديم تسبيقات لجمع المحصولات كما كان معتادا ، واستعجل الدائنون بقسنطينة فى استعادة قروضهم ،

(27) Mac-Mahon : pp. 328 - 330.

28) أى الاراضى المملوكة للبلديات ·

(29) A.N.P. Carton F 80 - 1704.
(30) Pique : pp. 282 - 283.
(31) E. Ducos : *L'Algérie.* Quelques mots de réponse à la brochure la vérité sur l'Algérie, par le général Ducret (Paris 1871) pp. 2 - 14.

وخاصة من المقرانى ، ولكن المدينين كانوا عاجزين عن الدفع نتيجة الازمة التى أحدثت سخطا واسعا فى كثير من الجهات وخاصة منطقة المقرانى حيث أصبح الشك فى المستقبل خلال صيف عام 1870 ، يمثل « حالة من اليأس تقريبا » كما عبر عنها جليان (32) ·

وحسب رأى نوشى وزميليه فان السلطات المدنية حاولت أن تجعل هذه الازمة الاقتصادية سببا فى الثورة التى لاحت بوادر الاستعداد لها فى الاسواق العامة خلال الشهور الثلاثة الاولى لعام 1871 (33) · فى حين أدعى البعض بأنها حدثت بسبب كسل الجزائريين الفطرى عن العمل ، ولذلك لا يمكن ولا ينبغى مساعدتهم (34) · وأيده فى ذلك السيد أوجان لونيل (35) · وهذا يوضح مدى الاحتقار الذى يكنه هؤلاء الكتاب نحو الجزائريين ·

ان هذه الازمة الاقتصادية شاركت فى تحطيم ثروة المقرانى وعرضته الى الافلاس ، وجعلته يفقد الامل فى السلطة المدنية الجديدة · ولئن لم تكن هى السبب المباشر فى دفعه الى الثورة ، فانها حفزته على أن يفكر فيها ويستعد لها كآخر وسيلة للتخلص من مصاعبه الكثيرة اداريا ، وسياسيا ، وماديا ، لان هذه السلطة المدنية الجديدة رفضت أن تعامله كما كان على عهد الامبراطورية ، أو على الاقل ، لم يستطع هو أن ينسجم مع سياستها الجديدة ·

المدخل الى الوثائق :

وثائقنا فى هذه الدراسة تتمثل فى أجوبة النواب الجزائريين الثلاثة : حسن ابن بريهمات عن مقاطعة الجزائر ، والمكى بن باديس عن مقاطعة قسنطينة ، وأحمد ولد القاضى عن مقاطعة وهران ، عن أسئلة لجنة التحقيق التى الفتها حكومة الامبراطور نابليون الثالث يوم 5 ماى 1869 برئاسة الماريشال راندون ، لبحث أوضاع الجزائر ، ومشاكلها الاقتصادية والاجتماعية ، والادارية ·

فقد وجهت هذه اللجنة خمسة اسئلة مكتوبة الى أولئك النواب الجزائريين ، فاجابوا

(32) Julien : pp. 453 - 454.
(33) Nouschi, A. Prenant et Lacoste. pp. 375 - 376.
(34) *La famine* : pp. 22 - 24.
(35) Lunet : pp. 50, 84 - 85 et 95.

عنها كتابة فى خمس صفحات من القطع الكبير ، توسعوا فيها فى شرح كثير من اوضاع الجزائر الاقتصادية ، والاجتماعية ، والادارية ، وتتسم أجوبتهم بكثير من الجرأة ، والشجاعة ، والصراحة ، ويظهر أنهم سافروا الى باريس ليحرروا اسئلتهم هناك بعيدا عن ضغط المعمرين ، وذلك يتضح من آخر الاجوبة حيث قالوا : « بتاريخ الثانى والعشرين من دجنبر سنة 1869 بباريس » ·

فقد رفضوا أن يكون سبب المجاعة هو جهل الجزائريين بأمور الفلاحة ، ونددوا ضمنيا بممارسة اليهود للربا الفاحش ضد الجزائريين · واستنكروا محاولة تقسيم أراضى الاعراش ، أو بيعها للاوروبيين ، لان ذلك يؤدى الى تشتيت الاسرة الجزائرية · ولم يحبذوا اختلاط الجزائريين بالاوروبيين لحيثيات مهذبة تدل على حذقهم وتحرزهم · ونددوا بنظام البلديات الذى لا يخدم الا مصالح الاوروبيين فى حين أن الجزائريين هم الذين يمونونه ماديا ، ووضحوا بجلاء كيف أن شيخ البلدية الاوروبى لا يهتم اطلاقا بمصالح الجزائريين ، وأن القضية التى يمكن انجازها فى ظرف ساعة ، بمكتب البلدية يبقى صاحبها الجزائرى يتردد عليه أياما وأسابيع ، وتبقى تلك القضية معلقة تلف وتدور ·

ووضحوا كذلك أن التحقيق الذى اجرته لجنة الكونت لوهون عام 1868 ، عن الوضع الفلاحى بالجزائر ، لم يطلع عليه الا اقلية صغيرة من الجزائريين ، وان الاوروبيين تجاوزوا الحد فى آرائهم امام تلك اللجنة لدرجة انهم حاولوا ان ينالوا من كرامة الشريعة الاسلامية ، وحاولوا ان يعطوا تقييما لكيفية استخلاص الضرائب من الجزائريين ، ومدحوا فى الاخير نظام المكاتب العربية التى نعتوها « بالمحاكم العربية » ، وختموا اجوبتهم بمدح الامبراطور نابوليون الثالث ·

ان اسئلة هذه اللجنة ، واجوبة هؤلاء النواب الجزائريين تنشر لأول مرة فى هذه الدراسة ، وسنترك المجال للقارىء ليطلع بنفسه على نصوصها ، ويشاهد اصولها الفوتوغرافية وفقا للامانة التاريخية ، وذلك فى الصفحات التالية :

الوثيقة الاولى :

نص اسئلة لجنة التحقيق الى النواب الجزائريين حول اسباب المجاعة وأشياء اخرى عام 1869

الحمد لله (36) ، هذه أسئلة برزت من جماعة الكمسيون المنتصب بباريس لتأسيس أحوال الاقليم الجزائرى الى الاشخاص القايمين هناك مقام عرب الاقليم المذكور .

السؤال الاول :

ان المجاعة الواقعة التى مات بسببها كثير من العرب أتظنون ان لو كانت الارض محروثة حراثة متقنة او كانت مطامير الزرع معدة لوقت الحاجة لكانت تلك المجاعة اضعف مما وقعت . ولا يمكن اتقان الحرث الا بمشاهدة من هو اهل لذلك وباتخاذ الآلات التى تصلح لذلك،ولا يحصل ذلك الا بمجاورة الاوروبيين،فكيف بكم تجنبتموهم.

السؤال الثاني :

الم يقع وقت اقتسام الارض للحرث عند شروع الناس فيه الظلم احيانا ، اما ان القايد والشيخ يختارون بعض الارض الجيدة لانفسهم او يخصصون بها اقاربهم ويحرمون منها بعض ضعفاء اهل محلتهم ولا يخفى عنكم ان هاذا الفعل ظلم والخلاص منه صعب فلو ان كل شخص يستقل بملكه لأمكنته المدافعة على حقوقه فلا يقع عليه ظلم وهناك فائدة عظيمة فى استقلال كل واحد بملكه لان بذلك تتقن حراثة الارض وتحيى ابوارها وغير خاف عنكم لانه يجد ويجتهد فى ترتيب احواله ويسعى فى كل ما يجلب الخير والغنى له ولعيلته وبسبب ذلك لا تخشى العيلة ضياعا ولا تشتيتا بل العيلة تنمو ويكثر خيرها وفى ذالك فائدة للعرب .

السؤال الثالث :

أتظنون ان العرب يختارون اداء مغرم معين محدود مبنى على حسب الرتبة الوسطة من مغارم السنين الماضية ويكون ذلك المغرم عاما لارض الحراثة وارض المرعى ويبطل مغرم ـ الحكر ـ والزكوة والعشر التى امرها صعب فى الضبط لها والقيام بخدمتها .

36) أرشيف باريس الوطنى ، صندوق : A.N.P. Carton F 80 - 1704

الحمد لله هاذه اسيلة برزت من جماعة الكمسيون المنتصب بباريز لتاسيس احوال الاقليم الجازي الى الاشخاص العالمين هناك معلوم عن الاقليم المذكور

السؤال الاول

ان المجاعة الواقعة التي مات بسببها كثير من العرب اتظنون ان لو كانت الارض محروثة حراثة متقنة او كانت مطامير الزرع معدة لوقت الحاجة لكانت تلك المجاعة اضعف مما وقعت : ولا يمكن اتقان الحرث الا بمشاهدة من هو اهل لذالك وباتخاذ الالات التي تصلح لذلك ولا يحصل ذالك الا بمجاورة الاروبيين فكيف بكم تحسبوه

السؤال الثاني

الم يقع وقت اقتسام الارض للحرث عند شروع الناس فيه الظلم احيانا اما ان القايد والشيخ يختارون بعض الارض الجيدة لانفسهم او يخصصون بها اقاربهم ويحرمون منها بعض ضعفاء اهل علتهم ولا يخفى عنكم ان هذا الفعل ظلم والخلاص منه صعب فلو ان كل شخص يستغل بملكه لامكنته المدافعة على حقوقه وكان فلا يقع عليه ظلم وهناك فايدة عظيمة في استغلال كل واحد بملكه لان بذالك تتقن حراثة الارض وتحيى ابوارها وغير خاف عنكم ان من يخدم لنفسه ولاولاده يجلب المنفعة اكثر من غيره لانه يجد ويجتهد في ترتيب احواله ويسعى في كل ما يجلب الخير والغنى له ولعيلته وبسبب ذالك لا تخشى العيلة ضياعا ولا تفتيتا بل العيلة تنمو ويكثر خيرها وفي ذالك فايدة للعرب

السؤال الثالث

اتظنون ان العرب يختارون اداء مغرم معين محدود

F80 1704

الشكل رقم 1 ـ الصفحة الأولى من أسئلة لجنة التحقيق الى النواب الجزائريين

A.N.P. carton F80-1704

مبني على حسب الرتبة الوسطة من مقادير السنين
الماضية ويكون ذلك المقدار عاما للارض الحراثة وارض
المرعى ويبطل كل مغرم الحكر والزكوة والعشر التي امرها
صعب في الضبط لها والقيام بجبية منها

السؤال الرابع

هل الامر السلطاني اللازم في ترتيب الكمون باراضي العرب
مفهوم ام لا وهل فيه فايدة ومنفعة للعرب ام لا
وهل يوجد من يشتكي من تلك الحكومة الموجودة الان
وهل ان خدمة البيرو عرب سالكة طريق العدل والاجتهاد
في مصالح الوطن

السؤال الخامس

هل علم العرب بالبحث الواقع في شؤون الفلاحة وهل
عرفوا ما تكلم به الفلاحون الاروبيون في شان ذلك
وهل ارتضاهم ذلك الحال ام لا :: هل العرب سكان الاعراش
لهم امان في ان دولة السلطان نابليون لها نية
طيبة معهم .

الشكل رقم 2 ـ الصفحة الثانية من اسئلة لجنة التحقيق الى النواب الجزائريين

A.N.P. Carton F80-1704

السـؤال الـرابع :

هل الامر السلطاني البارز في ترتيب الكمون (37) بأراضي العرب مفهوم ام لا ، وهل فيه فائدة ومنفعة للعرب ام لا ، وهل يوجد من يشتكى من تلك الحكومة الموجودة الآن ، وهل ان خدمة البيروعرب (38) سالكة طريق العدل والاجتهاد في مصالح الوطن ·

السـؤال الخـامس :

هل علم العرب بالبحث الواقع في شؤون الفلاحة ، وهل عرفوا ما تكلم به الفلاحون الاوروبيون في شان ذلك ، وهل ارتضاهم ذلك الحال ام لا · هل العرب سكان الاعراش لهم امان في ان دولة السلطان نابليون لها نية طيبة معهم ·

الوثيقـة الثـانية :

نص اجوبة النـواب الجـزائريين عن اسئلة لجنـة التحقيـق

الحمد لله رب العالمين (39) الذى يقضى الحق وهو خير الفاصلين ، والصلاة والسلام على جميع الانبيـاء والمرسلـين ·

الجـواب عن السؤال الاول :

اما كون المجاعة تضعف بسبب اتقان حراثة الارض فلا نسلمه · ونقول ان خدمة الارض المعتادة عند العرب هي التي تناسب غنيهم وفقيرهم ويسهل عليهم القيام بهـا · وقد كانوا معها على احسن حال منذ قرون عديدة ، واما ادخار الزرع في المطامير فليس فيه كبير فايدة للعامة لانه لا ينتج منه الا وجود الحبوب في الوطن وانما تكون فائدة تلك المطامير خصوصية بأربابها ومع هذا فان الزرع الآن لا يضر وجوده لما ان التجار يجلبونه من سائر الاقطـار · نعم كان في السالف كثير الفلاحين يكون عندهم الفاضل في الزرع عن قدر كفايتهم فيحفظونه في المطامير ويخرجونه وقت المسغبة ليدفعوا بـه المضرة ، ولما حل بهم غلو السعر في كراء الاراضي الدومينية وغيرها مع الزيـادة في

37) الكومون معناها البلدية من الكلمة الفرنسية : la Commune
38) البيرو عرب معناه · المكتب العربي من الكلمة الفرنسية · le Bureau Arabe
39) نفس المصدر ·

المغرم وصارت الحاجة تدعوهم الى قرض الدراهيم بالفائدة المضرة كستين فى المــائة ونحو ذلك ممن انتصب لذلك ولم يرحم خلق الله ، كما تدعوهم ايضا الى بيع الـزرع الذى يحصلونه فى المصيف يخرج كله من ايديهم فى الشأن المذكور ولم يبق بايديهـم فاضل يدخرونه ، نعم ان وقع فى المستقبل التزام العامة كل سنة بجمع نصيب مـن الزرع وادخاره للحاجة اليه ففى ذلك مصلحة عظيمة ، والحاصل ان المسغبة انما تحصل من عدم المطر ويبس الزرع والكلأ واصابته بالبرد والجراد ، ولا يخفى على احد ان الجوائح المذكورة تفسد زرع الحرث المتقن وغيره · وكما ان الجوائح المذكورة اوقعت المسغبـة بمملكة الجزائر · كذلك اوقعتها بالمملكة المراكشية والتونسية غير انها كانت فى اراضى السواحل من الاقاليم الثلاثة اخف ضررا واقل موتا لما ان اراضى السواحل اصابها بعض المطر مع جودتها ووجود الماء المعدنى ببعضها وكونها مصب الاودية مع ان الجراد لم يصبها الا قليلا وكان ضرره بالاراضى الموالية للصحراء فما بعدها لانه يكون اشد ضررا فى ابتداء امره وما وصل الى سواحل مملكة الجزائر الا بعد ان كان العرب والعساكر قتلوا جلـه ، (حسن بن بريهمات ـ احمد ولد القاضى ـ المكى بن باديس) ، واما كون اتقان الحـرث لا يعرف الا بمشاهدة صاحب المعرفة وباتخاذ الآلات المعدة له فلا نزاع فيه غير انـه لا يعسر تحصيل ذالك لمن اراده من الفلاحين لان الشخص اذا حصل له داع لشيء موجود بوطنه ولو مع البعد فان داعيه يوصله الى غرضه،واما مجاورة الاروباويين فانها لا تناسب الآن العرب الذين هم جهلة بالاحوال التى تنبغى فى معاشرة الاروباويين وغلاظ الطبع وعادتهم اهمال المواشى والمجاوزة عن بعضهم فى ذلك وفى الرعى فى اراضى بعضهم بعضا وغير ذلك من العوائد الجارية بالرفق والمعاملة فيما بينهم · فينبغى لهؤلاء ان تـكون ارضهم متصلة ببعضها وغير مختلطة باراضى الاجانب وان يبقوا على حالهم الى ان تكبـر اولادهم المنتقلون الآن من المكاتب المدارس الابتدائية الى المدارس السلطانية بالمملكـة الجزائرية ثم الى المدارس الحربية والصناعية بافرنسه فاذ ذاك يتم المراد ويسهـل الاختـلاط وتحسن المجـاورة · اهـ ·

الجـواب عن السؤال الثـانى :

اما قسم الارض المشاعة بين سكان العرش وقت الحراثة فغالب الظن انه لم يكـن

لان المعروف فى الوطن ان لكل عيلــة نصيبا من الارض تتصرف فيه كما كان سلفها قبلها ، وأما تعدى القواد والمشايخ لمنفعة أنفسهم أو لمنفعة الغير فلا يكــون الا نادرا ، ومهمى انتهى الخبر الى الحاكم ازال المظلمة وعاقب فاعلها بما يناسبه ٠ واما ما ذكـر فى السؤال من قوله فلو أن كل شخص يستقل بملكه لامكنته المدافعة على حقوقه ٠٠٠ الخ فلا نزاع فيه غير أنه ان كان المراد بالشخص أصل العيلة أى الاب مع أولاده وأهلــه فلا ضرر فى ذلك ، واما افراد الولد عن أبيه أو الزوجة عن زوجها مثلا فان ذلك يؤدى الى الاضرار بالعيلة وتشتيتها ويؤدى أيضا الى فساد الاراضى وتقسيمها على المنوال الذى لا يمكن معه الانتفاع بها لان القطعة الصغيرة فى أراضى الاعراش لا ينتفع بها لكون عملهم فى الاراضى حرث الزرع أو المرعى ولا يمكنهم غير ذلك لعدم الماء ، وأما افراد ابن العم عن ابن عمه ونحو ذلك فلا بأس به حيث يأخذ حضه لينتفع به لنفسه أو يبيعه لاهــل محلته ، وأما بيعه لنصيبه من أجنبى فيخشى منه الضرر وتشتيت شمل تلك العيلــة والتحفظ على جمع شمل العيلة اولى من مصلحة الفرد ٠ هذا فى أراضى الحــراثة واما أراضى المرعى والاحتطاب فاللائق بالعرب أن تكون أرض كل فرقة من العرش مجموعة لما ذكر من المرعى والاحتطاب ينتفعون فيها مع بعضهم بعضا عـلى سبيل الاشتراك لان اقتسامها وتصييرها قطعا قطعا صغيرة يؤدى الى الهرج بينهم وعدم الانتفاع على الـوجه اللائق ، ولان قسمة ارض المرعى ربما توجب الاختلاط بأرض الحراثة فهذا يحرث حصته وهذا يخليها للرعى وفيه ما لا يخفى من السبب فى الهرج ، ولا تستقيم معيشة أهــل البادية الا اذا كانت حراثتهم على جهة والمرعى على جهة أخرى ، اهـ

الجـواب على السـؤال الثالث :

أما كون العرب يرضون باتحاد المغرم وتبديله واجرائه على حسب مساحات الارض وجنسها بالمراعات للقدر الوسط مما كان يدفعونه من المغارم فى عشر سنــين مضت ، فالذى نظن أن ذلك لا يليق فى جانب العرب كلهم على الاطلاق ، وانما يناسب ذلك فى العمالات السفيلية (40) فقط لقلة الارض مع عمارتها ان كان ذلك برفق مع التـأمل فى الفرق بين حال العرب فى السبع سنين الاولى من العشرة وفى الثلاثة الاخيرة منها ،

40) يعنى : المدنية من الكلمة الفرنسية : Civil

وأما الاعراش المتصرف فيها الحكم العسكرى فلا يناسبهم ذلك لاتساع أرضهم وقلـــة المنتفع به مع ضعف الماء وفقره وحال أهل الاعراش اليوم من قلة مواشيهم بسبـــب المسغبة التى مرت عليهم ضعيف • فينبغى لهؤلاء ان يبقى مغرمهم على ما كان عليه اهـ •

الجــواب عن الســؤال الرابــع :

ان القانون السلطانى البارز فى ترتيب الكمون بأرض العرب فهمه الخواص مـــن الناس فقط ، وأما فائدة العرب فى الكمون فهى شىء تافه • وذلك أن كثير المنافع التى يشتهر فيها المير (41) ، والديوان هى المنافع التى يحتاج اليها الاوروباويين ، وأما منافع المسلمين فلا يلتفتون اليها فى الغالب حتى ان المكاتب المفتوحة بالكمون لم تكن مؤسسة على الطريق اللائقة بابناء العرب • وكلمة المسلمين المشاركين لهم فى المشورة ان انفردت لا تجدى نفعا وبحسب ذلك فلا ينال المسلمون شيئا من منفعـــة الكمـون الا بالتبعية للاوروباويين كالانتفاع بالطرق ونحو ذلك ولا يخفى أن جباية الكمون غالبها تقبض من المسلمين ، واما شكاية العرب من ذلك فموجودة • فالكمون الذى ليس لميره خليفة مسلم أضر بالعرب ذلك لانهم وقت الحاجة بالمير قد لا يجدونه • وان وجدوه فلا يجد من يترجم عليهم فتجدهم يترددون الى الفيلاج (42) مرارا فى الامر الذى من حقـــه أن يقضى فى ساعة فشق عليهم الحال وتعطلت بعض من منافعهم •

وكما يتأسفون أيضا فى كثير من النواحى من عدم اعتناء المير والديوان بالقيام بالمنافع اللازمة لهم فاللائق هو أن يجعل فى الكمونات جميعا شيخا مسلما مع الشيخ الفرنساوى يعلم أبناء العرب ما يلزمهم تعليمه ويكون له راتبا قدر الكفاية • ويجعل أيضا خليفـة مسلما فى الكمونات التى ليس فيها خليفة ليكون واسلة بينهم وبين المير يرفعون اليه أمورهم ويبصر المير باحوال أهل الدائرة وعاداتهم •

وأما ترتيب الجماعات فى الدواوير على حسب مـا قـــرر عليه من أنهم يدبرون فى مصالحهم اللازمة لهم ثم يعرضون نظرهم على حاكم عمالتهم وهو الذى يتصرف فيها على

41) أى شيخ البلدية من الكلمة الفرنسية : le Maire
42) أى القرية من الكلمة الفرنسية : le village

وفق ما تقتضيه القوانين المؤسسة فى شأن ما ذكر ففى ذلك مصلحة عظيمة لانه صار ما يجمع من الجبايات الخاصة يصرف فى مصالحها ٠

واما خدمة محاكم العرب (43) فانها قائمة بمنافع البلاد والعباد باذلة جهدها فى نشر العدل وقمع أهل الفساد ساعية فى انصاف المظلوم من ظالمه حافظة للطرق من اللصوص ومشتهرة فى زرع التمدن بين الناس مغرومة بتعليم ابناء العرب المعارف الفرنساوية وغير ذلك مما يطول تتبعه ٠ اهـ

الجواب على السؤال الخامس :

ان البحث الواقع فى شؤون الفلاحة بمملكة الجزائر بواسطة السيد الكونط الهون (44) ٠ لم يعلم بحقيقته ولا بما قاله الاروباويون فى ذلك الا بعض الخواص من العرب ومن علم بذلك لم يرتض ما قاله الاروباويون كما انهم فى بعض العمالات جاوزوا الحد وخرجوا عن المقصود حتى أنهم تكلموا فيما يضر بالشريعة الاسلامية ٠ ومن غريب ما وقع بعمالة قسنطينة أن ما طلبه الاروباويون من السيد المذكور كرروا طلبته من جماعة الديوان الاعظم السنتو (45) المنعقد سنة 1868 ورغبوهم فى ان يجردوا ذلك المطلب من جانب الدولة ولم يقبل منهم مطلبهم الجماعة المذكورة ٠ وأما أمان العرب بالدولة السلطانية وأنها ما تؤمل الا الخير للعرب فذلك أمر محقق وأن العرب لا يخطر ببالهم أن الدولة الفرنساوية تنقض عهودها ومواثقها التى كانت التزمت بها للعرب فى اليوم الخامس من شهر جليت سنة 1830 ثلاثين وثمنمائة وألف وقد تأكد عندهم ذلك من يوم مخاطبة حضرة السلطان نابوليون لهم أطال الله حياته ووعده اياهم بأن يوفى لهم بما التزمت به لهم الدولة يوم وضع قدمها بتراب الجزائر من احترام دينهم وشريعتهم وعوائدهم وأنفسهم وأموالهم ٠ وبالغ حفظه الله فى اظهار محبتهم بأن جعلهم وابناء جنسه بمنزلة واحدة حيث قال أنا سلطان للعرب كما أنا سلطان للفرنساويين ٠ فمن يوم قدوم حضرته السعيدة لاقليم الجزائر ودورانه به ومشاهدة العرب للين جانبه

43) يعنون بها المكاتب العربية ٠

44) الكونت لوهون Le Comte Le Hon هو الذى ترأس لجنة تحقيق عام 1868 ٠

45) أى مجلس السيناتوس كونسولت : le Sénatus - Consult

معهم وكثرة حنانته عليهم ، واشغال باله بالتدبر فى مصالحهم ازداد فى قلوب العـرب حبه وحب عيلته وصاروا داعين له ولزوجه الطاهرة الكريمة ونجله السعيد بتأييد الملك ودوامه بكل لسان وكل مكان وها نحن اليوم نجدد الدعاء ونردده ونتضرع الى اللــه فى قبوله لحضرتهم العلية وعيلته المفخمـين المبجلين بقولنا اللهم أطــل عمر السلطان نابليون الثالث مع العافية الدائمة وأطل عمر زوجه الطيبة الطاهرة وأطل عمر نجلــه السعيد وعيلته الشريفة وخلد اللهم الملك فى عقبه وعقبهم ما دامت الدنيا ۰ وكن اللهم معينا وظهيرا ووليا ونصيرا لهم ولمن أعانهم وأحبهم من الوزراء والامــراء والنــواب والمتصرفين آمين اللهم آمين ۰ يا رب العالمين ، وكتب من يضع أسماءهم فيه مسلمون على من يقف عليه ورحمة الله وبركاته ۰ حسين بن بريهمات لطف الله بهما فى الحــركات والسكنات ۰ أحمد ولد قاضى لطف الله بهما آمين ۰ المكى بن باديس ۰ بتاريخ الثـانى والعشرين من دجنبر سنة 1869 بباريس ۰

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ... والصلاة والسلام على جميع الانبياء والمرسلين

الجواب عن السؤال الاول

اما كون الجماعة تضعف بسبب اثقال خراج الارض فلا شك فيه ، ويقولون ان خدمة الارض العتيقة

عند العرب هي التي تناسب غنمهم وبقرهم ويسهل عليهم القيام بها ، وقد كانوا معها على

احسن حال خبزهم عزيز ، واما ادخار الزرع في المطامير فليس فيه كبير فائدة للعامة

لانه لا يخشى منه الا وجود الحبوب في الوطن وانما تكون فائدة تلك المطامير خصوصية بأربابها

ومع هذا فان الزرع الان لا يعز وجوده لما ان التجار يجلبونه من ساير الاقطار

ثم كان في السالف كثير الفلاحين يكون عندهم الفاضل من الزرع عن قدر كفايتهم

فيحفظونه في المطامير ويبيعونه وقت المسغبة ليدفعوا به المغرم ، ولما حل بهم

غلو البيع في كراء الارض الدومينية وغيرها مع الزيادة في المغرم وصارت الحاجة

تدعوهم الى قرض الدراهيم بالفايدة المسماة كستيين في المائة وغفود الخ من انتصب

لذلك ولم يرحم خلق الله ، كما تدعوهم ايضا الى بيع الزرع والصوف قبل اوانهما

باقل من نصف القيمة فصار الزرع الذي يحصلونه في الصيف يخرج كله من ايديهم

في الشأن المذكور ولم يبق بايديهم باقل ما يدخرونه ، نعم ان وقع في المستقبل

التزام العامة كل سنة بجمع نصيب من الزرع وادخاره للحاجة اليه ففي ذلك

مصلحة عظيمة ، والحاصل ان المسغبة انما تحصل من عدم المطر ويبس الزرع

والكلا واصابته بالبرد والجراد ، ولا يخفى على احد ان الجوايح المذكورة تصيب

زرع الحرث المتقن وغيره ، وكما ان الجوايح المذكورة اوقعت المسغبة بمملكة

الجزاير كذلك اوقعتها بالمملكة المراكشية والتونسية غير انها كانت في

اراضي السواحل من الاقاليم الثلاثة اخف ضررا واقل موتا لما ان ارض السواحل

اصابها بعض المطر مع جودتها ووجود الماء المعدني ببعضها وكونها مصب الاودية

"واما كون اتقان الحرث لا يعرف الا بمشاهدة صاحب المعرفة وباتخاذ الالات المعدة له

٢ معوان الذي ذكرتها الانفليلا وكان ضرره بالاراضي السواحلية لكن ما ذكرنا لانه دائما يكون الشر ضررا في الشتاء اكثر وبلوده الى سواحل مملكة الجزاير الا بعد ان كان العرب والعساكر قتلوا اكثر [illegible]

صح ... احمد [illegible]

الشكل رقم 3 ــ الفحة الاولى من اجوبة النواب الجزائريين الى لجنة التحقيق

ولا نزاع فيه غير انه لا يعسر [illegible]

جاع لشيء موجود فولكنه ولو مع البعد فان داعيه [illegible]

جانبا لا تناسب الان العرب الذين هم جهلة بالاحوال [illegible]

وغلاظ الطبع وعادتهم اهمال المواشي والمجاورة عن بعضهم في ذلك [illegible]

وغير ذلك من العوايد الجارية بالرفق والمعاملة فيما بينهم فينبغي [illegible]

متصلة ببعضها وغير مختلطة بارض الاجانب وان يبقوا على حالهم الى ان ذكراولادهم [illegible]

المكاتب

الان من المكاتب الابتدائية الى المدارس السلطانية بالمملكة الجزايرية ثم الى [illegible]

الحربية والصناعية فاذا نشء فيها ذلك الجيل تم المراد ويسهل الاختلاط وتحسن المجاورة

الجواب عن السؤال الثاني

اما قسم الارض المشاعة بين سكان العرش وفق الجائزة فغالب الظن انه لم يكن لان العرف في

الوطن ان لكل عيلة نصيبا من الارض تتصرف فيه كما كان سلفها قبلها. واما تعدي افراد

والمشايخ لمنفعة انفسهم او لمنفعة الغير فلا يكون الا نادرا ومهما انتهى الخبر الى الحاكم

ازال المظلمة وعاقب فاعلها بما يناسبه. واما ما ذكر في السؤال من قوله فلو ان كل شخص

يستغل ملكه لامكنته المراجعة على حقوقه الخ فلا نزاع فيه غير انه ان المراد بالشخص اصل

العيلة اي الاب مع اولاده واهله فلا ضرر في ذلك. واما افراد الولد عن ابيه او الزوجة عن

زوجها مثلا فان ذلك يؤدي الى الاضرار بالعيلة وتشتيتها. ويؤدي ايضا الى افساد الارض

وتقسيمها على المنوال الذي لا يمكن معه الانتفاع بها لان القطعة الصغيرة في اراضي الاعراش

لا ينتفع بها لكون عملهم في الارض حرث الزرع او المرعى ولا يكفي غير ذلك لعدم الماء.

واما افراد ابن العم عن ابن عمه ونحو ذلك فلا باس به حيث ياخذ حقه لينتفع به لنفسه

او يبيعه لاهل محلته. واما بيعه لنصيبه من اجنبي فيخشى منه الضرر وتشتيت شمل

تلك العيلة والتحفظ على جمع شمل العيلة اولى من مصلحة الفرد. هذا في ارض الحراثة

واما ارض المرعى والاحتطاب فاللايق بالعرب ان تكون ارض كل فرقة من العرش مجموعة لا ذكر

الشكل رقم 4 ـ الصفحة الثانية من أجوبة النواب الجزائريين الى لجنة التحقيق.

A.N.P. Carton F80-1704

من الرعي والاحتطاب ينتفعون فيه مع بعضهم بعضا على سبيل الاشتراك لا باختصاصها
وتعيين حدودها فهذه مضرة تؤدي الى الهرج بينهم وعدم الانتفاع على الوجه اللائق ، ولان قسمة
ارض الرعي زمامها توجب الاختلاف بارض الرايه فهذا يحرث حصته وهذا يخليها للرعي وفيه ما لا
يخفى من السبب في الهرج ، ولا تستقيم معيشة اهل البادية الا اذا كانت حراثتهم على جهة والرعي
على جهة اخرى م   الجواب عن السؤال الثالث

اما كون العرب يرضون باتخاذ الحزم وتسريحه واجرائه على حسب مساحات الارض وجنسها بالزمامات
للغرور الواسع بما كان يرجعونه من المغارم في عشر سنين مضت ، فانا نظن ان ذلك لا يليق في
حق العرب كلهم على الاطلاق ، وانما سبب ذلك في العلامات السيئة بعضها لقلة الارض
مع عمارتها ان كان ذلك يرتبط مع اختلاف العرف بين حال العرب في السبع سنين الاولى
من العشرة وفي الثلاثة الاخيرة منها ، واما الاعراش المتوطن فيهم الحكم العسكري فلا بأس بهم
ذلك لاتساع ارضهم وقلة المنتفع به مع ضعف الماء وغيره ، وحال اهل الاعراش اليوم
من قلة مواشيهم بسبب المسغبة التي مرت عليهم ضعيف ، فينبغي لهؤلاء ان يبقى حكمهم
على ما كان عليه م الجواب عن السؤال الرابع

ان القانون السلطاني الذي في ترتيب الحكور بارض العرب محصور احكامه من انفاس فقط ، واما ما يراه
العرب في الحكور فهي شيء يتلقونه ، وذلك ان كثير المنافع التي يشتهر فيها الي والديوان هي
المنافع التي يحتاج اليها الاوروباويين ، واما منافع المسلمين فلا يلتفت اليها في الغالب حتى
ان المكاتب المفتوحة بالحكور لم تكن مؤسسة على الكيفية اللائقة بابناء العرب ، وكلمة المسلمين
المشاركين لهم في المشورة ان انفردت لا تجر نفعا وبسبب ذلك فلا ينال المسلمون شيئا من منفعة
الحكور الا بالتبعية للاوروباويين كالانتفاع بالطرق ونحو ذلك ولا يخفى ان جباية الحكور غالبها
تقبض من المسلمين ، واما شكاية العرب من ذلك فموجودة ، فالحكور الذي ليس لديه خليفة
مسلم اقرب للعرب ذلك لانهم وقت الحاجة باليد فلا يجدونه ، وان وجدوه فلا يجدون من يترجم عليهم فتجرهم
يترددون الى الحاكم مرارا الامر الذي من شأنه ان يفض وساعة فيشق عليهم الحال وتعطلت بعض ما
منافعهم

الشكل رقم 5 : الصفحة الثالثة من اجوبة النواب الجزائريين الى لجنة التحقيق

وكذا يتأسفون ايضا في كثير من النواحي من عدم امتثال الذين في الديوان بالقيام بالمنافع اللازمة لهم

مثلا الذين هواه يدخل في الكمونات جميعا شيخا مسلما مع الشيخ الفرنساوي يعلم ابناء العرب ما يلزم

تعليمه ويكون له راتبا من الكبانية . ويجعل ايضا في الكمونات التي ليس فيها خليفة مسلما خليفة ليكون واسطة .

بينهم وبين الذين يرفعون اليه امورهم ويبعث الذين باحوال اهل الدائرة وعاداتهم

واما ترتيب الجماعات في الدواوير على حسب ما قرر عليه من انهم ينظرون في مصالحهم اللازمة

لهم ثم يعرضون نظرهم على حاكم عمالتهم وهو الذي يتصرف بجميعها على وفق ما تقتضيه القوانين

المؤسسة في شأن ما ذكر ففي ذلك مصلحة عظيمة لانه صار ما يجمع من الجبايات الخاصة بالجماعة

يصرف في مصالحهم . واما خدمة محاكم العرب بالنظر لذاتها لمنافع البلاد

والعباد فان لها جهد طائل في نشر العدل وقمع اهل الفساد ساعية في انصاف المظلوم من كان له

مانعة للآخر من الدعوى ومشتهرة في زرع التمدن بين الناس مغرومة بتعليم ابناء

العرب المعارف الفرنساوية وغير ذلك مما يطول تتبعه م

الجواب عن السؤال الخامس

ان البحث الواقع في شأن الفلاحة بمملكة الجزائر بواسطة السير الكونط الهون . لم يعلم حقيقة

وكلما قاله الاوروباويون في ذلك الا بعض الخواص من العرب . ومن علم ذلك لم يرتض ما قاله

الاوروباويون في كلامهم في بعض العبارات جاوزوا الحد وخرجوا عن المقصود حتى انهم تكلموا

فيما ليس في الشريعة الاسلامية . وهو غريب مرفوع بعادة فنستحسن ان ما طلبه الاوروباويون من

(النغفر سنة ١٨٦٥) السير المذكور كرروا طلبه من جانب الديوان الاعظم السني وغيرهم بان يردوا اذا الطلب من

جانب الدولة ولم يقبل منع مطلبهم الجماعة المذكورة . واما امان العرب بالدولة السلطانية

وانها ما تؤمل الا الخير للعرب فهذا الامر محقق . وان العرب لا يخفى ببالهم ان الدولة

الفرنساوية تنقض عهودها وسر اشعارها التي كانت التزمت بها للعرب في اليوم

الخامس من شهر جليت سنة ١٨٣٠ ثلاثين وثمانماية والف وقد تأكد عندهم ذلك

من يوم جاء الجيد حضرة السلطان نابليون (نعم) الجلال الله حياته ووعد اياهم بان يوفي

الشكل رقم 6: الصفحة الرابعة من أجوبة النواب الجزائريين الى لجنة التحقيق

A.N.P. Carton F80-1704

لهم في الزمن بدولهم الا ولذا اليوم وضع فرنسا بتراب الجزائر من احترام دينهم وشريعتهم
وعوايدهم وانفسهم واموالهم . وبلغ موقف امة الاظهار محبتهم بان جعلهم وزينوه جنسه
بمنزلة واحدة حيث قال انا سلطان للعرب كما انا سلطان الفرنساويين . فمن يوم قدوم
حضرته السعيدة لاقليم الجزاير وزوجته به ومشاهدة العرب للين جانبه معهم وكثرة
حنانته عليهم . واشتغال باله بالنظر في مصالحهم ازدادت قلوب العرب محبة وحب عيلته
الطاهرة الكريمة
وصاروا داعين له ولزوجته ونجله السعيد بتطويل بقاء الملك ودوامه بكل لسان
وكل مكان . وها نحن اليوم نجدد الدعاء ونزيده ونتضرع الى الله في قبوله لحضرتهم العلية
وعيلته الفخيمة الجليلة بقولنا اللهم الطف بالسلطان نابليون الثالث مع العافية
الدايمة والطف بزوجته الطيبة الطاهرة والطف بنجله السعيد وعيلته الشريفة وخلد اللهم
الملك في عقبه وعقبهم ما دامت الدنيا . وكن اللهم معينا وظهيرا ووليا ونصيرا

لهم ولكل اعوانهم واحبابهم من الوزراء والامراء والنواب والمتوليين امين اللهم
امين يا رب العالمين . وكتب من يضع اسماءهم هنا متكلمون على من يقف عليه
ورحمة الله وبركاته   حسن بن بريهمات لطف الله به بالبركات والسكنات

احمد ولد قاضي لطف الله به امين

ليلة الثلاث والعشرين من دجنبر ١٨٦٩
بباريس

[illegible]

الشكل رقم 7 – الصفحة الخامسة من أجوبة النواب الجزائريين الى لجنة التحقيق

A.N.P. carton F80-1704

وثائق جديدة

عن ثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب

أبو القاسم سعد الله

اجريت فى صيف 1968 بدمشق مقابلة مع الامير حسن بن الامير عبد المالك الجزائرى وطلبت منه ان يحدثنى عن ثورة والـده فى المغرب (1914ـ 1924) ، وعن ذكرياته عنه . وكانت المقابلة فى منزل الامير حسن الواقـع باحد أحياء دمشق المشهورة بالمغاربة . وكانت القاعة التى جلسنا فيها محلاة بصور أبيه الامير عبد المالك وصور جده الامير عبد القـادر . فهناك صـورة للاول باللباس العسكرى العثمـانى ، واخرى يظهر فيهـا لابسا برنسا فى هيئة شبيهة بهيئة والده (الامير عبد القادر) . وثالثـة يظهر فيها ممتطـا صهوة فرس تـذكر ايضا بالصورة المعروفـة للامير عبد القـادر يحيط بـه عدد من المغاربـة راجلين تماما كما تظهر صورة أبيـه وهو محـاط بأتباعـه الجـزائريين .

وقد تحدث الى الامير حسن بصراحة عن والده ، فكان يتكلم وانا اكتب طيلة بضع ساعات . وبعد ان انتهى من حديثه وجهت اليه بعض الاسئلة عن موضوعات رايت انها ما زالت غامضة ، فأجابنى عنها ايضا بصراحـة . كان الامير يتمتع بذاكرة قوية . ويحتفظ بصور كثيرة عن تاريخ والده وجـده ، كما يحتفظ بوثائق هامة تفضل بتسليمها الى فى أصولها .

ويمكننا ان نعيد بناء احداث ثورة الامير عبد المالك بالمغرب بالاعتمـاد على هذه المعلومات الجديدة المتمثلة فى المحادثة التى اجريناها مع ابنه ، وفى الوثائق والصور التى تفضل بالكشف عنها ، وفى مقال هام ظهر فى جريدة (الاحـرار) البيروتية ، بالاضافة الى ما استقينـاه من معلومات حول هـذه الثـورة فى مناسبـات متعـددة منـذ صـدور كتابنـا « الحركـة الوطنيـة الجزائرية » (1) الذى خصصنا فيه فصلا عن ثورة الامير عبد المالك .

والوثائق المشار اليها هى ما يلى مرتبة حسب تواريخها :

الوثيقة رقم 1 : رسالة من الامير عبد المالـك الى أخيه الامير على بتاريـخ 16 نوفمبر 1914 ، بالعربية .

الوثيقة رقم 2 : رسالة من الامير عبد المالك الى ابن اختـه سيدى **مصطفى** بتاريخ 4 صفر 1334 هـ (1915 م) ، بالعربية .

الوثيقة رقم 3 : رسالة من ممثلى الدولتيـن العثمانيـة والالمانيـة بمدريـد بتاريخ 25 مايو 1916 ، بالعربية .

الوثيقة رقم 4 : شعر للامير عبد المالك الى أسرة الامير عبد القادر بالشام بتاريخ 14 ربيع الثانى 1338 هـ (1919 م) ، بالعربية .

---

(1) دار الآداب ، بيروت ، 1969 ، ص 257 — 265 ، لم احاول في عدد الدراسة ان ارفق بين ما ذكرته في (الحركة الوطنية الجزائرية) وبين ماورد في الوثائق الحالية عن الامير عبد المالك .



الشكل رقم 7 . الامير حسن بن الامير عبد المالك (سنة 1928) .

من الوثائق الشخصية للأمير حسن .



الشكل رقم 6 . الامير حسن بن الامير عبد المالك (سنة 1913) .

من الوثائق الشخصية للأمير حسن .

الوثيقة رقم 5 : رسالة الى الامير عبد المالك من مجهول ، بتاريخ 26 سبتمبر 1920 ، بالفرنسية .

الوثيقة رقم 6 : رسالة من الامير عبد المالك الى الجنرال موريال ، بتاريخ 7 اكتوبر 1920 ، بالفرنسية .

الوثيقة رقم 7 : رسالة من خليل حقي قائم بأعمال الدولة العثمانية بمدريد الى الامير عبد المالك ، بتاريخ 10 ديسمبر 1920 ، بالفرنسية .

★ ★ ★

وقبل استعراضنا لهذه الوثائق نود أن نكشف عن بعض الجوانب الشخصية والعائلية للامير عبد المالك ، معتمدين في ذلك بالدرجة الاولى على حديث ابنه الامير حسن . فعبد المالك هو الابن الثاني قبل الاخير من ابناء الامير عبد القادر ، اذ لا يصغره الا أخوه عبد الرزاق . وقد ولد الامير عبد المالك بدمشق سنة 1285 هـ (1868 م) . وهناك تعلم وتأثر بحركة الجامعة الاسلامية . وكان يحسن الى جانب العربية اللغتين التركية والفرنسية . وكان خطيبا وشاعرا أيضا . وكان قد سمع بثورة الشيخ بوعمامة في الجنوب الجزائرى فأخذ بها . وقد غادر دمشق سنة 1903 ، ولا ندرى أين توجه بالضبط ، ولكننا نعلم انه عين سنة 1906 قائدا للشرطة الدولية في طنجة . واجتمع سنة 1912 بأسرته في طنجة . وكانت هذه الاسرة تتكون من زوجته وبنتين وابنيه الاميرين محى الدين وحسن (2) .

التحق الامير عبد المالك بالشيخ بوعمامة (3) وحارب معه الفرنسيين. وعندما القى بوعمامة السلاح سنة 1904 انضم الامير الى الثائر المغربى بوحمارة وحارب معه أيضا فترة . ولكنه اكتشف ان حركة هذين الثائرين كانت فردية فانضم الى السلطان مولاى عبد العزيز الذى عينه قائد جيوشه فى منطقة القصر الكبير . واثناء حروبه لصالح السلطان عبد العزيز ضد مولاى عبد الحفيظ ، الذى كان يسانده الفرنسيون ، القى عليه القبض فى فاس . ثم اطلق سراحه وعين نائبا لوزير الحربية المغربى ثم قائدا للشرطة الدولية فى طنجة .

وعندما بدأت الحرب العالمية الاولى كان الامير عبد المالك فى فيشى بفرنسا يتداوى من مرض الربو . كما زار اسبانيا فى نفس العام . وعندما تأكد موقف الامير عبد المالك المعادى للفرنسيين اتصل به سفير المانيا فى مدريد ، الكونت دى راتيور ، وطلب منه ارسال مندوب عنه الى مدريد للاتفاق على خطة مشتركة . فأرسل الامير عبد المالك ابنه محى الدين الى مدريد لذلك الغرض . وقد وقع الاتفاق على فتح جبهة ضد الفرنسيين فى المغرب . ومحتوى هذه الخطة ان المانيا والدولة العثمانية تتعهدان بالمساعدة ، اذا نجحت الخطة ، على اقامة مملكة واحدة تضم المغرب والجزائر .

وفى آخر سنة 1914 ترك الامير عبد المالك طنجة (4) ، بناء على الاتفاق ، وتوجه الى داخل المغرب لتنظيم قواته وفتح الجبهة المذكورة . وقد توجه أولا الى جبالة حيث القى عليه القبض وكاد يقع فى قبضة الفرنسيين

---

(2) انتحر الامير محي الدين بعد خلاف مع والده في بداية الحركة ، اما حسن فهو الامير الذي اجرينا معه المقابلة .

(3) رغم تاكيد الامير حسن على علاقة والده بثورة بوعمامة فاننا ما نزال غير مطمئنين اليها .

(4) تدل الوثيقة الاولى على ان الامير قد بدأ حركته في أوائل سبتمبر 1914 .



الشكل رقم 8 . الامير عبد المالك بن الامير عبد القادر .

من الوثائق الشخصية للامير حسن .

لولا تدخل قـائد بني منصور العيـاشي الفـلال (5) (؟) الـذي حمـاه مـن الشيخ الريسوني (الذي كان ضده) واتباعه ، وسهل له الخروج من المنطقة الاسبانيـة .

وفي بني مستارة الف الامير عبد المالك أول قوة لمقاومة الفرنسيين في المغرب الخاضع للادارة الفرنسية . وكان جيشه يتالف عندئذ من فرق نظامية واخرى شعبيه . وكان يعمل في معسكره ضباط الماني وأتراك . وكان رئيس البعثة الالمانية لديه هو السيد هيرمان . اما رئيس البعثة العثمانية لديه فان الأمير حسن لم يتذكر اسمه . وكان في معسكر الامير عبد المالك أيضا بعض الهاربين من فرقة اللفيف الأجنبي الفرنسية .

كان الاتراك والالمان يعملون معـه كمستشارين . وكان الالمـان بالذات يقدمون مساعدة لاسرته التي كانت تعيش في مدينة تطـوان . كما كانـوا يقدمون اليه الاسلحه والعتـاد ، ولكن بكمية غير كافية . وكانوا احيانـا لا يوفون له بوعودهم . مثل ما حدث عندما دخل الامير عبد المالك مدينه فاس، فقد ظل هناك ينتظر المـدد من القوات المركزية لكي ينطلق الى جهات اخـرى ولكن بدون جـدوى .

وعند وقوع الهدنة بين القوات المركزية والحلفـاء سنة 1918 بدأ الامير عبد المالك عهدا جديدا كان أقسى تجربة عليه من العهـد الاول . فقـد تخلى عنه جميع الاتراك والالمان وإنسحب من عنده 500 فارس من بني زنـاسن ، ودهبوا باسلحتهم وأموالهم الى مليلية بالمنطقة الاسبانية . وهكذا بقي الامير عبد المالك وحده في الميدان فالتجأ الى قبيله غمارة . وقد التجأ أيضا الى زاوية سيدي علي بن داود حيث بقي مدة مع قوة صغيرة من اتباعه . وخلال ذلـك كان يجري سلسلة من المفاوضات مع الفرنسيين لم تؤد الى نتيجة . غير ان الامور بدأت تأخذ شكلا جديدا سنـة 1923 عندمـا اندلعت حرب الـريف بقيادة الامير الخطابي . وكانت هذه الحرب في البدايـة ضد الاسبان . وقـد أرسل الاميـر الخطـابي أخـاه الى فرنسا يطلب مساعدتهـا ، غيـر ان هذه اشترطت عليه، لكي تقدم له المساعدة ، أن يحارب الامير عبد المالك ويخرجه.

وبناء على ذلك جاء الامير الخطابي بقوة كبيرة وحاصر الامير عبد المالك وطلب منه التسليم . لكن الاخير فضل احرب على التسليم . وجرت معركة بين الطرفين دامت خمسة عشر يوما انكسر اثرها الخطابي وعاد الى موطنه وبدأ يعد العدة لجولة ثانية أكبر من الاولى . غير ان الامير عبد المالك لم يكن يملك قوة كبيرة فالتجأ الى المنطقه الاسبانية وطلب مساعدة اسبانيا . وقد جرى اتفاق بين الطرفين تعهدت بمقتضاه اسبانيا بتقديـم المساعدة الماديـة للامير عبد المالك ، على أن يكون من حق الامير تجنيد الجنود ليحرر بهم مـا يشاء من البـلاد ، فاذا احتل أي جـزء منها فانه يصبح مستقـلا ولا يدخلـه الاسبـان .

وقد حضر الامير حسن المعركـة الاخيرة التي قتل فيها والـده . فقـد خرجوا على الساعة الرابعة صباحا وبدأ القتال الذي دام حتى العاشرة حين انتهت المعركة . وعلى اثر ذلك مباشرة أصابت طلقات قلب الامير عبد المالك. وجرى ذلك في شهر أغسطس سنة 1924 . وقد ادعى الريفيون أن الاسبان هم الذين قتلوه بينما ادعى هؤلاء أن الريفيين هم الذين فعلوا به ذلك . وعلى

---

(5) لم استطع أن اقرأ خطي الذي كتبت به هذا الاسم اثناء مقابلتي مع الامير حسن ، ولذلك فانا غير متاكد من نطق الاسم .

كل حال فان الامير عبد المالك كان قد خرج للحرب تحدوه الرغبة فى تحرير المغرب من الاسبان وثوار الريف معا .

وتؤكد الوثائق الجديدة علاقة الامير عبد المالك بكل من أخيه الامير علي وابن أخيه الامير خالد . فقد كان الاول هو المتحدث باسم حركته فى المشرق وموضع سره هناك ، كما تشهد بذلك الوثيقة رقم 1 . وفى سنة 1916 طلب الامير عبد المالك من الامير خالد ان يشرع فى تهيئة الجو فى الجزائر للقيام بحركة مساندة لحركته فى المغرب . وقد ارسل اليه من اجل ذلك الاموال والمناشير . ولكن ظروف الامير خالد لم تسمح له بهذه المهمه . وتؤكد جريدة (الاحرار) هذه العلاقة بين الاميرين (6) . ومهما يكن الامر فمما لا شك فيه هو أن الامير خالد قد استفاد من حركة عمه فى المغرب عندما بدأ هو حركته السياسيه فى الجزائر بعد الحرب العالمية الاولى .

حارب الامير عبد المالك فرنسا اقتداء بوالده الامير عبد القادر . وكان هدفه تحرير الجزائر . ولكنه لم يبدأ من الجزائر لان جذور فرنسا فيها كانت قوية . وقد اختار بدلا منها المغرب كمنطلق لان مجال العمل فيه أوسع حيث توجد سلطتان من جهة وحيث المغرب كان حديث العهد بالاستعمار من جهة أخرى . وكان العدو الاول للامير عبد المالك هو المارشال ليوتى . وكانت للامير اهداف دينية ووطنية من تحرير المغرب والجزائر ، شبيهه بالاهداف التى حارب من اجلها الامير عبد القادر . ورغم ذلك فان الامير عبد المالك لم يدخل الجزائر قط ، لا قبل الحرب العالمية الاولى ولا بعدها . واقرب نقطة اقترب فيها من الجزائر هى مدينة وجدة .

★ ★ ★

تكشف الوثائق السبع التى بحوزتنا عن مدى ايمان الامير عبد المالك بالجامعة الاسلامية وبفكرة الجهاد وتعلقه الشديد بفعائل أجداده . كما تكشف عن ترفعه واعتزازه بنفسه، سواء فى حروبه او فى مفاوضاته مع الفرنسيين. ومن جهة اخرى تكشف عن علاقاته بأصدقائه (العثمانيين والالمان) وبأعدائه (الفرنسيين) .

فاذا نظرنا الى هذه الوثائق واحدة واحدة فان **الوثيقة الاولى** عبارة عن رسالة كان قد وجهها الامير عبد المالك الى أخيه وممثله الامير علي فى اسطانبول . والظاهر أنها مترجمة لان جريدة (الاحرار) قد نشرتها ضمن مقال موقع بامضاء السيد فؤاد ميداني وبجانبه عبارة « تعريب » (7) . بالاضافة الى ان الاسلوب لا يدل على انها قد نشرت بنصها العربى الاصلى . وعلى كل حال فالرسالة اخبارية وهي مؤرخة بـ 14 نوفمبر 1914 ، أى بعد بضعة شهور فقط من بداية الحرب العالمية . وقد عدد فيها انتصاراته على العدو فى المغرب . وأشار الى انه ارسل دعاته أيضا الى الجزائر وتونس . وهذا يؤيد صحة ما ذكره الامير حسن من ان والده قد كاتب ابن أخيه الامير خالد فى الجزائر ، والرسالة بالاضافة الى ذلك تكشف عن ثقته بنفسه وربطه الجهاد الذى يخوضه بحركة الجامعة الاسلامية . وفى الرسالة أيضا اشارة الى بدء ثورته حين ذكر أنه استولى على بطارية للعدو قبل شهرين من تاريخه .

والوثيقة الثانية عبارة عن رسالة (8) مفصلة أرسلها الامير عبد المالك

---

(6) القصاصة التي عندنا من هذه الجريدة تحمل رقم 1930 ، لكن تاريخ الجريدة منزوع .

(7) جريدة (الاحرار) عدد 1930 . لكن التاريخ منزوع من القصاصة التي عندي . وفي المقال اخبار اخرى عن حوادث افريقية الشمالية خلال الحرب العالمية الاولى وموقف الدولة العثمانية منها .

(8) مقاس 27 × 21 ؛ 31 سطرا ، بالاضافة الى 15 سطرا مكتوبة على اطراف الرسالة .

سنة 1915 الى ابن اخته السيد مصطفى الذى لا نعرف عنه الآن اكثر من هذا . وهذه الرسالة المكتوبة بخط مغربى وموقعة من قبل الامير عبد المالك نفسه بخطه المشرقى ، تتلخص فى نقطتين : الاولى وصفه للمعارك التى خاضها هو واتباعه ضد الفرنسيين وحلفائهم اولاد بكار ، والثانية طلبه النقود من جهة مجهولة أشير اليها باسم « الطبيب » فقط ، ثم انذار هذه الجهة بأن الامور ستسوء اذا لم ترسل بالمال المطلوب عاجلا . وقد ذيل الامير عبد المالك هذه الرسالة بكلمة طلب فيها من ابن اخته ان يطلع ابنه الامير حسن على فحواها مع توجيهات خاصة به . ومن الاسف اننا لم نستطع ان نتعرف على شخصية ولا مهمة الرجلين المشار اليهما فى هذا الذيل وهما حميدة الوزانى والبشير بن السفاح (؟) ، كما لم نعرف هوية بوغابسن .

والوثيقة الثالثة وردت الى الامير عبد المالك من سفير دولة المانيا بمدريد ونائب الدولة العثمانية بمدريد أيضا ، وهى بتاريخ 25 مايو 1916 (9) . وهى مكتوبة بخط عربى مقبول وأسلوب رديىء . ولعل الذى كتبها أحد موظفى السفارتين المذكورتين . وفى أسفل الوثيقة ختم كل دولة بالشمع الاحمر ، ويظهر عليه النسر الالمانى تحت عبارة « سفير دولة الالمانية بمدريد » و « دولة الخلافة العلية » تحت عبارة « نائب دولة العثمانية بمدريد . » والوثيقة تؤكد صداقة الدولة العثمانية والالمانية للامير عبد المالك ، وتبعد الشائعات التى شاعت عندئذ من ان انسحاب الضباط العثمانيين من صفوفه تعنى التخلى عنه وعن المغرب . وتكشف هذه الوثيقة من جهة أخرى عن دور الخلافة العثمانية والمانيا فى تلك الاحداث .

كل الوثائق السابقة كانت خلال الحرب العالمية الاولى . وتاتى **الوثيقة الرابعة** سنة 1919 حين كتب الامير عبد المالك عشرة أبيات من الشعر بخط يده وبقلم الرصاص وموقعة بقلمه أيضا (10) . وقد وجهها الى آل الامير عبد القادر عامة . والظاهر أنه لام فيها بعض افراد هذه العائلة الذين ربطوا مصيرهم بفرنسا عدوته وعدوة والده ، ناسين أيادى السلطان عبد المجيد الذى كفل والده مما تسبب فى اطلاق سراحه من سجن الفرنسيين . وقد عاب عليهم الفرقة بعد الوحدة والهوان بعد العزة . ومما يلاحظ أن البيت الاخير مكسور . ولم يفصح الامير عبد المالك عن الدافع الذى دفعه الى قول هذا الشعر . غير أن ابنه الامير حسن ذكر لى اثناء المقابلة بان والده قد رد بهذا الشعر على آل الامير عبد القادر عندما طلبوا منه ان يقبل عرض فرنسا الذى يقضى بتخليه عن ثورته ضدها فى المغرب وتنصيبه ملكا على سورية بدل الامير فيصل . غير أننا لم نجد فى الوثائق ما يشير الى هذه القضية .

والوثيقة الخامسة عبارة عن رسالة غامضة وجهها مسؤول ، يبدو أنه فرنسى ، سنة 1920 الى الامير عبد المالك (11) . وهى مكتوبة بالفرنسية ولا تحمل توقيعا ولا جهة ارسال . وتتحدث عن خطة سفره من المكان الذى كان يوجد فيه ، وهو غير مذكور ، ولكن الظاهر أنه كان قريبا من فاس . وهى تدل على ان هناك مفاوضات كانت تجرى بينه وبين الفرنسيين . وكانت نقطة الخلاف فيها حول الطريق الذى يجتازه بعد انتهاء العمليات العسكرية ،

---

(9) مقاس 33 × 5،20 ؛ 21 سطرا ، وقد نقلتها كما هى دون أن انبه الى ما فيها من اخطاء لكثرتها .

(10) مقاس 27 × 5،20 ؛ 12 سطرا .

(11) مقاس 20 × 5،15 ؛ 14 سطرا للصفحة (من صفحتين) .

هل يتوجه رأسا الى تطوان لرؤية اهله قبل التوجه الى الرباط لزيارة الجنرال ليوتي أو يؤدي الزيارة الى ليوتي قبل التوجه الى عائلته ؟

وكأن **الوثيقة السادسة** (12) التي وجهها الامير عبد المالك الى الجنرال موريال الفرنسي ، مدير الشؤون الاهلية ومصالح الاستخبارات بالمغرب ، تجيب على ما غمض في الوثيقة الخامسة . فالرسالة الرسمية التي قيل له انها آتية اليه كانت تحمل شروط الفرنسيين لاستسلامه . وهي الرسالة التي حملها اليه احد الضباط السامين . وقد وجد الامير ان هذه الشروط مهينة لشرفه ومقيدة لحريته فرفضها . ولذلك قدم بدلها شروطه الخاصة الموضحة في الوثيقة ، وهي من ثلاث نقاط ، مضيفا اليها شرطا رابعا ، وهو حصوله على رخصة لمغادرة التراب المغربي من المقيم آنعام (الجنرال ليوتي) نفسه . وفي هذه الوثيقة كشف الامير عن اهداف كفاحه خلال خمس سنوات . وقد سخر من التسامح والاريحية الفرنسية . ومن الملاحظ ان هذه الوثيقة المكتوبة بالفرنسية كأنها كانت مسودة لما فيها من شطب وتعديل . ثم ان تحديد مكان الجهة التي يطلبها بعد خروجه من المغرب غير واضحة . فقد وجدت كلمة اسطانبول مشطوبة ومكتوبا فوقها كلمة رومة . والملاحظ كذلك ان الوثيقة بدون توقيع . وهي بتاريخ سنة 1920

أما **الوثيقة السابعة** والاخيرة فهي من السيد خليل حقي القائم بأعمال سفارة الدولة العثمانية بمدريد الى الامير عبد المالك (13) . وهي ايضا بتاريخ 1920 . وقد أجاب بها الامير على رسالة كان هذا قد كتبها اليه بمناسبة تعيينه في منصب القائم بالاعمال . وتكشف الوثيقة ان الامير قد التجأ الى سفارة الدولة العثمانية بعد فشل مفاوضاته مع الفرنسيين . لذلك بادر القائم بالاعمال العثماني الى عرض خدماته عليه وفتح مراسلات الامير السابقة مع سلفه . وفي الوثيقة عبارات تطمينية كثيرة ودغدغات دينية واضحة ، ووعود ووصف لحالة الدولة العثمانية الدولية . وهذه الوثيقة مكتوبة أصلا بالفرنسية ، لكن تتخللها بعض العبارات العربية ذات المحتوى الديني (كالجهاد) والآية الكريمة (ولا تقنطوا من رحمة الله) ، الخ. ولكي أميز بين المترجم والاصل العربي وضعت العبارات العربية أصلا داخل قوسين هكذا ( ) .

★ ★ ★

وتنقطع عنا أخبار الامير عبد المالك ابتداء من سنة 1921 . والمعروف انه ظل في حالة حرب مع أعدائه حتى صيف سنة 1924 حين قتل كما أسلفنا . ولو عثرنا على وثائق عن هذه الفترة ايضا ، ولا سيما مراسلاته مع الاسبان ومع الامير عبد الكريم الخطابي ، لاتضحت لنا معالم الطريق الذي سلكه وجوانب شخصيته الخفية . ولكن التاريخ ما زال ، في نظرنا ، يخبيء لهذه الشخصية اسرارا لن يبوح بها كلها دفعة واحدة . وحسبنا منه الآن هذه الوثائق التي نوردها بنصوصها ، موضوعة أو مترجمة ، مرتبينها تاريخيا . وعسى أن يجد فيها الباحثون بعض ضالتهم عن شخصية الامير عبد المالك وعن تاريخ المغرب الحديث .

ابو القاسم سعد الله
كلية الآداب ــ جامعة الجزائر

الجزائر في 18 اكتوبر 1973

(12) مقاس 36 × 26 ؛ 28 سطرا للصفحة (وهي في صفحتين وربع)
(13) مقاس 34 × 21 ؛ 40 سطرا .

الوثيقة رقم 1 :

رسالة من الامير عبد المالك الى أخيه الامير علي

في الوقت (14) الذي كان يتخيل فيه أمام ناظري الحروب والفتوحات التي كان يشنها اجدادنا العظام ، كنت أحيي الليالي حتى الصباح مفكرا ، تلك التصورات والافكار التي كنت أعتبرها أنها فاتحة آمال ذلك اليوم المقدس الذي نقوم به الى الجهاد .

فالشكر لله ان ذلك النور قد بدأ ينشق عن فجر للامة الاسلامية واخذ في تنوير الظلمات التي كانت تكتنف الامة .

ان أول فوز أدركناه كان منذ شهرين عندما تمكنا من الاستيلاء على بطارية من العدو على اثر معركة شديدة دارت بيننا وبينه وكتب الله لنا الفوز عليه .

لقد كنت اشعر بعذاب شديد في ضميري عندما أرى العدو يطأ في قدميه الملوثة أراضي وطني المحبوب .

وعلى اثر قيام ضباطي ورجالي الفدائيين باعلان الجهاد المقدس ضد العدو ، مستمدين القوة من العزة الالهيه وروحانيه سيدنا محمد (صلعم) ، هاجمنا بنفوس تستحقر الموت مراكز العدو وتمكنا من احتلال (كازبلانكا) ، ذلك المركز الحربي الخطير الذي يحرص عليه العدو شديد الحرص حيث استولينا فيه على عشرات الرشاشات المدفعيه ومئات البنادق والعتاد الحربية .

انني لا أترك العدو الذي يتراجع الى الوراء يرتاح دقيقة واحدة ، وعلى الاخص فان الفرنسيين الذين فقدوا معنوياتهم بعد هده المعركة باتو (كذا) يقومون بمقاومة تستحق الذكر .

وقد ارسلنا الرسل والمناشير الى الجزائر وجنوبي تونس لاخبار اهلها بالجهاد المقدس . وبات اليوم المنتظر قريبا جدا . وسنظل ثابتين على خطتنا الى آخر نقطة نريقها من دمائنا . ومن الله التوفيق .

وليعلم اعداء الاسلامية في العالم ان قلوب الملايين من المسلمين تخفق اليوم بكلمه الجهاد المقدس ، وان المظالم والاضطهادات التي ارتكبوها ضدنا في الامكان احتمالها قط .

ونحن نتمنى ان يحذو المسلمون في سائر العالم حذونا ، ويلبوا داعي الجهاد ليتسنى لهم الحصول على الفوز العظيم .

والمعارك الاخيرة التي نشبت بيننا وبين الافرنسيين اسقطنا منهم 700 قتيل وجريح . ان معنويات المجاهدين قوية جدا ، وعند سنوح الفرص سأنقل اليكم اخبارا جديدة . والله جل جلاله عون للمدافعين عن حقوقهم .

الامضاء : **الامير عبد المالك**

---

(14) تاريخ الرسالة 28 ذي الحجة سنة 1333 هـ : 16 تشرين الثاني (نونمبر) سنة 1914 .
عن جريدة (الاحرار) البيروتية 1930 السنة التاسعة . لكن التاريخ منزوع من القصاصة .

(15) يعني الامير عبد القادر . والوثيقة مليئة بالاخطاء التي ليست في حاجة الى تنبيه .

الوثيقة رقم 2 :

رسالة من الامير عبد المالك الى ابن اخته سيدى مصطفى

الحمد لله وحده،

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم .

ابن اختنا الشريف الأجل النزيه الافضل سيدى مصطفى رعاك الله وسلام عليك ورحمة الله . وبعد فلا زائد على ما قدمناه لكم سوى اننا بعد الاسترعاء (؟) التام على قبيلة اولاد بكار الداخلة تحت حكم الفرنسيس لم يرد الله بها خيرا فركبنا اليها صبيحة يوم الثلاثاء متم الشهر الفارط فى وسط محلتنا السعيدة . ولما اشرفنا على أول بلادهم تلقانا أولاد على بن منصور منهم متضرعين صاغرين وعرقبوا علينا فعفونا عنهم رعيا لضعفائهم وحريمهم وصبيانهم . ودخل بقية قبيلتهم طيش كبير . وقابلونا بالبارود فاطلقنا اليد للمحلة فيهم فلم يكن الا كلمح البصر أو هو أقرب حتى صارت بلادهم حصيدا كأن لم تغن بالأمس . واستولت جنود الله على سائر اموالهم وماشيتهم وسائر ما يملكون على اختلاف انواعه وحرقت دورهم على الوفاء والتمام . ورجعنا ولله الحمد سالمين ، والعناية الالهية تحفنا . ولم يصب منا ولا من خيلنا الا فرسين (كذا) أحدهما قتل والآخر جرح .

وفى مغرب الغد وردت علينا الانباء بنزول العدو بعين بوقلال بين اولاد بكار والبرانيص ومكناسة . فنهضنا فجر يوم الخميس معتصمين بحبل الله الذى لا ينفصم . وغيرنا الطريق الاول فتوجهنا على قبيلة مغراوة . ولما اشرفنا على وادى أولاد بكار ظهرت لنا المحلة المذكورة وعلى اطرافها جيش العدو يرعد ويبرق فتوكلنا على الله سبحانه واستنصرناه فنصرنا واستوهبنا منه المعونة فأعاننا . واشتب القتال بيننا وبينه . وغدر أولاد على بن منصور المذكورين (كذا) فحمى الوطيس وشمر المجاهدون عن ساعد الجد والاجتهاد واحتلوا قصبة أولاد على بن منصور ، فجعلها العدو أمامه ودفع طالعا اليها فتقهقر المجاهدون عنها . ولما رأينا الامر كذلك وجهنا مودا كبيرا تحت رئاسة القائد عزوز المركاتى الغياثى لافتتاحها والاستيلاء عليها . ونزلنا بمن معنا من أنصار دين الله على رتبة مقابلة لها . وشمرنا بمن بقى معنا على ساعد الجد لنجد عن المود المذكور من يقابله حتى يصل الى جوار القصبة . فتمم الله العمل وأنجحه . وفى ظرف عشرين دقيقة كان المود المذكور بوسط القصبة فاقتفينا اثره بمن معنا فوصلنا اليها وشب الحريق فيها . واحتوى المسلمون على جميع ما احتوت عليه بسائر أنواعه رغما عن حماية العدو لها بعدده وعدده .

ولما تم الاستيلاء عليها خرجنا منها وحمى الوطيس واشتب القتال . وفى عشية النهار انكسر العدو الى خزاينه . ولم يصب من حزبنا الا رجل غياثى استشهد ، وقتل اربعة أفراس وجرح غياثى آخر . فتعين علينا المبيت بتلك النواحى فبتنا متفرقين شذر مذر بقبيلة مغراوة .

وفى فجر يوم الجمعة نهض العدو قبل اجتماع المحلة وطلع على وادى أولاد بكار وحرق بعض دور قبيلة مغراوة كان افرغها أهلها فى اليوم السابق فتسابقت اليه الرجال من الشعاب والآكام ، واشتب القتال بيننا وبينه . وكان اليوم مهيبا والموت رهيبا . ووهب الله المسلمين الثبات وصبروا صبر

أولى العزم الكـرام . وتلقو (كذا) قنابلـه وصواعقه بقلوب ملئهـا (كذا) الايمان بالملك العلام . وفى آخر النهار وهبوا نصرا باهرا . واشتد القتـال فلم يكن من العدو الا أن فعل فعلته فى اليوم السابق من الانكسار الشنيع . فحينئذ قوى الايمان فى صدور المسلمين وصاروا يطاردونـه مطاردة الكـرة بين الصبيان ، الى ان اسدل الظـلام رداءه ووصل العدو الى مقـره فافتـرق الجمع على عشرة من القتلى ونيف سبقت لهم من الله العنايـة . وجرح رجـل واحد مغراوى . اما جهة الظلمة فتحقق لدينا يوم تاريخه موت القبطان كودير حاكم عسة باب المروج وسبعين عسكريا فرانسويا ، زيادة على قتلى المتنصرة من أولاد بكار ومكنـاسة . ونرى على الحضيض اربعين فـرسا . وقد خلفنـا باكام الموقعة عسسا . ورجعنا الى المحلة فى منتصف ليل يوم الجمعة . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

اما العدو فلم يبد حراكا يوم تاريخه من جهتنا ولاكن ظل يكابد الاهوال مع قبيلة غياثة التى انجدتنا من وادى بولجراف (؟) بين قصبة مسرة وتازة. ومن جهة اخرى على بنى بويعلى الذين انجدونا من ناحية سيدى احمد زروق .

وفى هذه الساعة التى هى العاشرة من الليل ، يوم السبت وردت علينا الانباء باستعداده للقتال معنا صبيحة الغـد . ونحن مصممون على الركـوب للقاته . والنصر من الله .

وعليه فلا بد اعلم الطبيب بذلك كله . وقل له اننا فى غاية العجب من عدم ارساله الدراهم لنا فى هذا الوقت الحـرج . وطالما كتبنا لكم فى شـأن ذلك وشرحنا لكم الحال على وجهـه . وملخصه ان هـذا الامر اوله الدراهـم وآخره الدراهم . ومع ذلك لم تعيرونا التفاتا . وقل له اياكـم ان تتركونـا غارقين فى هذا البحر الذى اركبتمونا اياه ، بل داوموا لنا مساعدتكـم حتى نبلغ الى شاطىء النجاة بحول الله . والمعتقد فيكم هو النظر لهذا الامر بعيـن العناية والاهتمام . فالعجل العجل ! الغوث الغوث ! فان فى تاخيركم ذلـك الغرض مضرة كبرى ومفسدة عظمى . وما على الرسول الا البلاغ . ومن انذر فقد اعذر . والله يوفق الجميع لما فيه رضاه . والسلام .

فى 4 صفر الخير عـام 1334 هـ

عبد المالك بن الامير عبد القادر

(النص أعـلاه مكتوب بخط مغربى ، لكن بتوقيع الامير عبـد المالك . وقد ذيله الامير بكلمة مع توقيعه . وهذه الكلمة بخطه خلافا للنص أعلاه . وهى هذه :)

اطلع ولدنا العزيز الامير حسن على هذا الكتـاب . وانى اهديه وكافـة الاهل سلامى واحترامى الابوى . وارجو الله ان يكونوا جميعهم بخير وعافية. ولا شك أنهم يطلبون لنا النصر من الله سبحانه فى كل وقت وعند كل صلاة. والرجاء فى الله جل جلاله ان نتلاقى ونحن وآياهم على الحالة التى نتمناهـا . والله يحفظكم جميعـا .

وليداوم ولدنا على دروسه ، ولا يبقى يرسل لنا شىء (كذا) على يـد السيد حميدة الوزانى ، بل اذا اراد ان يرسل شيئا يرسله بواسطة القـائد البشير بن السناح (؟) أو من جهة بوغابسن . والسلام على الجميع .

عبد المالـك

الوثيقة رقم 3 :

رسالة من ممثل الدولتين الالمانية والعثمانية بمدريد الى الامير عبد المالك

و الحمد لله وحده

دامت سعادة الارضى ، الشريف البركة الاعز الاحضى ، المجاهد فى سبيل الله سيدى عبد المالك بن الامير عبد المالك (15) محى الدين نصركم الله على عدوكم . وسلام عليكم لا يعد ولا يحصى .

وبعد قد وصل لعلمنا ان فى المغرب صار الخبر ان خروج الضباط العثمانيون من خدمتهم فى المغرب قد سببه تبريد المعاهدة والصحبة بين الدولتين العثمانية والالمانية . والآن نعلمكم ان كل ذلك هو آكاذب وان الدولتين المذكورتين يجتهدون الآن كما فعلوا فى الماضى جميع جهدهما لينصروا على أعداء الاسلام ، وكذلك أنهما شددوا معاهدتهما وصحبتهما بعاهد جديد قد فرزوا فيه ما يكون فى المستقبل ، يعنى بعد كمال الحرب .

اما سبب خروج الضباط العثمانيون من المغرب هو أمر نفسيا ولم هو شهادة ان خليفة المعظم يسمح فى اعانته لاستقلال المغرب . ولنظهر لسادتكم ان المخزن العثمانى لا زال على فكره فى استقلال المغرب . نعلمكم ان الوزير الحربى العثمانى سعادة وحضرة انفر باشا يرسل فى المواجبة الاولى ضباط عثمانيون جدود الذين بصحبة الضباط الالمانيون يعونون المسلمين ليحررهم من يد الفرنسيون دمرهم الله .

والآن جميع الاخبار الذين يصدرون فى صورة سمح المخزن العثمانى فى اعانته للمغربيون اوجب الدولة الالمانية ان يتملك المغرب الاقصى يكونون اخبار غير حقيقيين . ولا يخفى على سيداتكم ان كل ذلك يصدر من أعداء المسلمين ليبردوا نفوس المغربيون الذين يجاهدون لاستقلال وطنهم ولشرف دينهم .

أما نحن فعندنا الامر من مخزننا ان نتوقفوا جميع الوقوف من المغرب لان المغربيون ينضربون أيضا (كلمة غير مقروءة) أعداء الاسلام وأعداء الالمانيون . فالمطلوب من سيداتكم ان تعلموا المسلمين بكل ذلك . جزكم الله بخيره . ودمتم فى هناء وسرور وعلى المحبة . والسلام .

مدريد فى 25 مايو عام 1916 .

نائب دولة العثمانية بمدريد	**سفير دولة الالمانية بمدريد**
(ختم دولة الخلافة العلية بالشمع الاحمر)	(ختم الدولة الالمانية بالشمع الاحمر)

الوثيقة رقم 4 :

بالشـــام
شعر من الامير عبد المالك الى أسرة الامير عبد القادر

عهدى بكم آل الامير كواكبا — نشرت أشعتها على الاكوان

علم وحكم والشجاعة والندى — رفعت منازلكم على كيوان

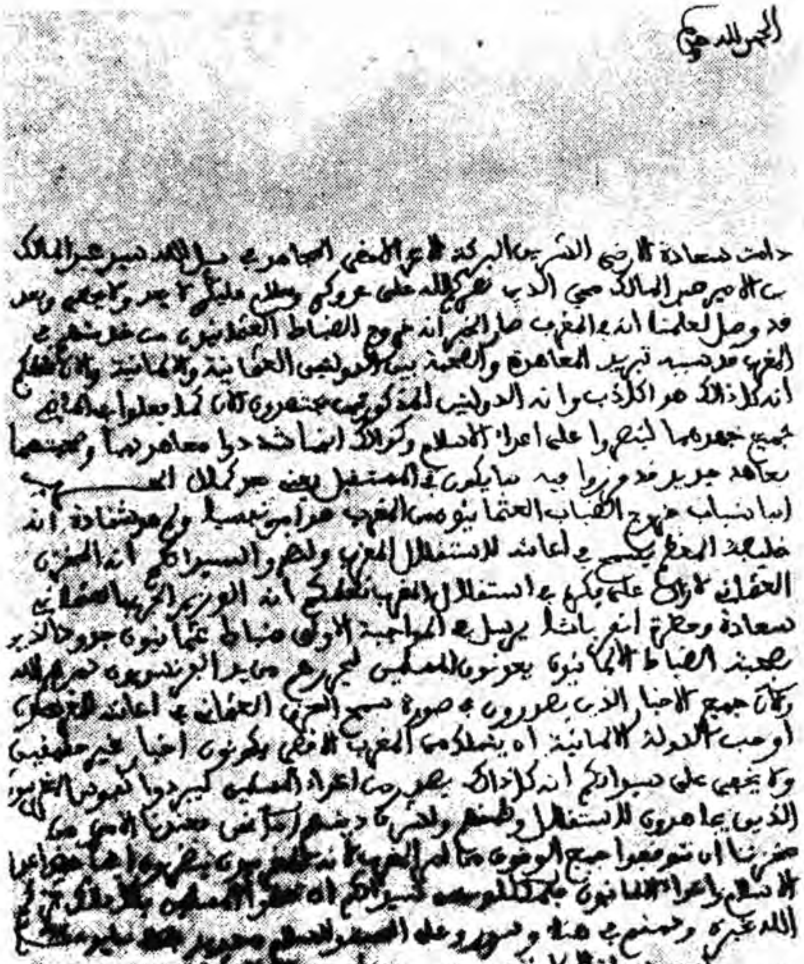
ومناقب وشمائل ومكارم — وهبت لكم من غابر الازمان

والكل يرجوكم لدفع ملمة — هدمت عماد الدين والاوطان

فصرفتم تلك المكارم كلها — فى غير ما نفع ولا احسان

---

(15) يعني الامير عبد القادر . والوثيقة مليئة باخطاء لا تحتاج الى تنبيه .



الشكل رقم 9 : رسالة من ممثلي الدولتين الالمانية والعثمانية بمدريد الى الأمير عبد المالك .

من الوثائق الشخصية للأمير حسن .

ضحيتم اقماركم وشموسكم	**أسد الحروب وقاهرى الاقران**
في نفع من اضحى لكم في فعله	**أعدى عدو من بنى الانسان**
ونسيتم عبد المجيد وفضله	**وضمانه ذاك الاسير العاني**
لولاه لم يطلق سراح سبيله	**وبقى لديهم في نوى وهوان**
الفرقة هدمت شوامخ مجدكم	**هذا لعمرى غاية الخسران**

عن قبيلة غمارة .

لست من أهل هذا الشأن ولكنها نفثة مصدور . والسلام عليكم .

14 ربيع ثاني 1338

عبد المالك

الوثيقة رقم 5 :

الى الامير عبد المالك من مجهول

انني مكلف أن احيطكم علما بأن مطالبك مقبولة ما عدا تعديلا واحدا يبدو ضروريا يتعلق بنقطة خاصة ، وهي خطة سفرك .

ان الشخصية السامية التي تعرفونها والتي جاءت حديثا تلح على أنكم تمرون بفاس والرباط حتى يمكنكم تقديم تحياتكم الى المخزن بدون تأخير . ثم ان كل التسهيلات ستكون متوفرة لديكم لزيارة أسرتكم في تطوان .

وان الموظف الذي طلبتم حضوره كواسطة هو في الطريق . ويجب عليه ان يمر بالرباط لاخذ تعليمات من المخزن . وخلال أيام سيكون في فاس . وبمجرد وصوله الى هنا سيحمل اليكم الرسالة الحقيقية والرسمية التي تطلبونها .

ابعث اليكم مبعوثنا العادي لكي يطلعكم على الحوادث . وسيخبركم بأن تنتظروا بعض الايام الاخرى . وأتمنى ان يحل المشكل قريبا برضى الجميع .

16 سبتمبر ، 1920 **(بدون امضاء ولا جهة ارسال)**

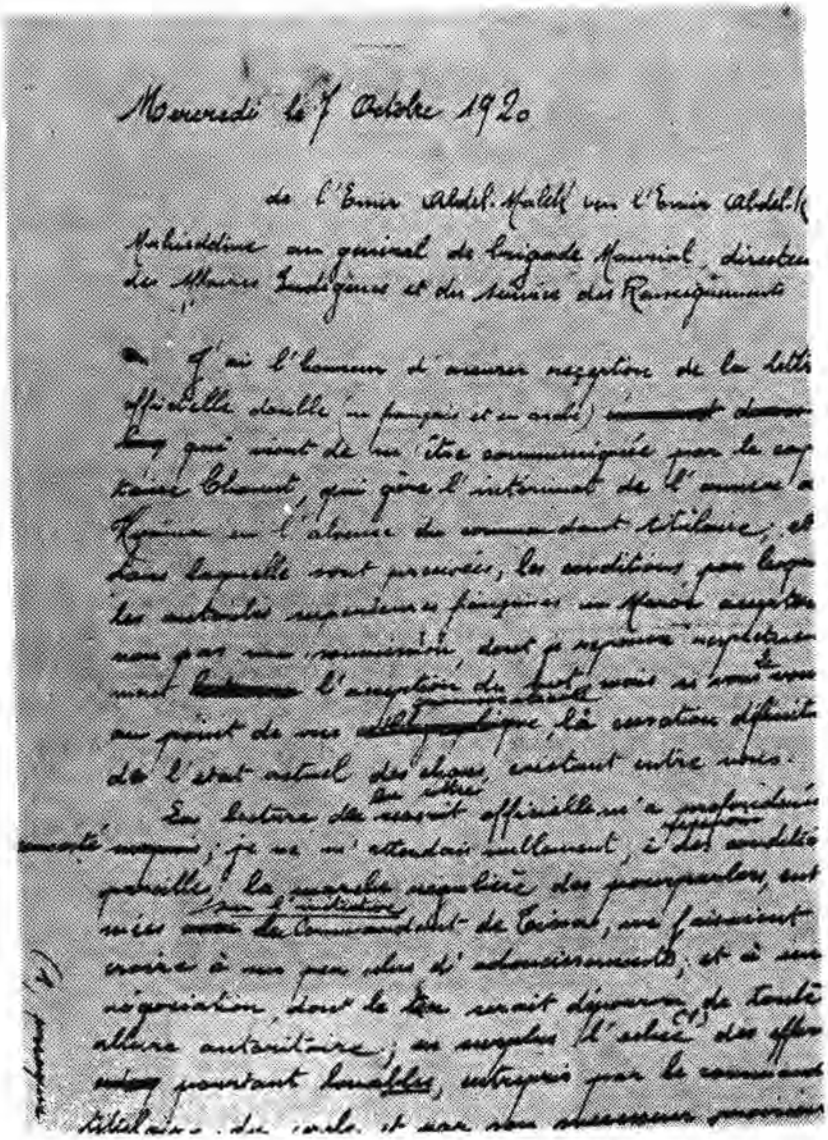
الوثيقة رقم 6 :

من الامير عبد المالك بن الامير عبد القادر محي الدين الى الجنرال موريال مدير الشؤون الاهلية ومصالح الاستخبارات

الاربعاء 7 اكتوبر 1920

اتصلت بالرسالة الرسمية باللغتين العربية والفرنسية التي سلمها الى الضابط كانوت الذي يتولى بالنيابة ماحقه الحيابنية في غياب الضابط المسؤول ، وهي الرسالة التي تحتوي على توضيحات عن الشروط التي بمقتضاها ستقبل السلطات العليا الفرنسية في المغرب ليس استسلامي ، وهي الكلمة التي ارفض قبولها بكل تقدير ، ولكن اذا شئتم من الناحية اللغوية ، التوقف النهائي للوضع الحالي الموجود بيننا .

ان قراءة هذه الرسالة الرسمية قد أقلقتني لانني لم اكن اتوقع أبدا ان تصلني مثل هذه الشروط . فالمفاوضات العادية التي بادر بها الضابط دي تيسة جعلتني أتوقع مزيدا من اللطف ، كما جعلتني اعتقد في مفاوضات ذات لهجة مجردة من كل دافع تحكمي، زيادة على ان الفشل الذي يكاد يكون



Mercredi le 7 Octobre 1920

de l'Emir Abdel-Malek ben l'Emir Abdel-K[ader] Mahieddine au général de brigade Maurial, directeur des Affaires Indigènes et du Service des Renseignements

الشكل رقم 10 . الصفحة الاولى من رسالة الامير عبد المالك الى الجنرال موريال ، مدير الشؤون الأهلية ومصالح الاستخبارات .

من الوثائق الشخصية للامير حسن .

خياليا للجهود التى بذلها الضابط المسؤول فى الدائرة وخلفه المؤقت الضابط كانوت قد سبب لى أسفا مريرا .

ان الشرط الذى بمقتضاه سأجبر على تحديد اقامتى فى مدينة تقع فى المنطقة الفرنسية ستحــدد لى فيما بعــد ، والذى بمقتضــاه ايضا سوف لا يسمح لى بتغيير الاقامة بدون اذن خاص ، يمس بشدة من حريتى . فانــا لا أرضى ان اعيش حياة أسير ولو معنويا .

وبالاضافة الى ذلك ، فان عزمى على مغادرة التراب المغربى آمر لا رجوع فيــه .

اما عن دخولى من نقطة ما فى المنطقة الفرنسية فانه آمر يستحيل تحقيقه ماديا ، كما ان حياتى ستكون مهددة بأخطار جسيمة . لذلك فانه من الحكمة والحذر تفاديــه .

واما عن تلميحكم الى موضوع هذه الشروط التى هى فى نظركم سهلة المنال ، ما دمتم قد ذكرتم لى بأنها لا تمنح لى الا بدافــع التسامح المتنــاهى ، فاننى اعتقد كما يعتقد الجميع ، أن التسامح والاريحية هما بصفة استثنائية من شيم الجنس الفرنسي . وقد اثبتهما التاريخ مرارا .

لكن الذى مس كرامتى بشدة والذى ارفضه ترفعا واشمئزازا هو كلمة « تمرد » التى لعلكم قصدتم بها وصف الدور النبيل والفروسى الذى لعبته ببطولة خلال الخمس (سنوات) المــاضية من آجل قضية عزيــزة على نفس متحمسة ومصممة ومتلهفة للحرية والعظمة . واذا كان الحظ قد خاننى بعقوق فاننى لا آسف ولن آسف أبدا على ما فات . ولو كنتم مكانى حضرة الجنرال لن تتصرفوا بغير ما تصرفت . (؟)

لذلك ارجوكم ، حضرة الجنرال ، ان تسجلوا حالا الشروط التى سبق أن قدمت لكم والتى سأعددها لكم مضيفا اليها شرطا سيكون مقبــولا بدون صعوبات جديدة ، وهو الحصول على رخصة من السيد المقيم العــام بمغــادرة التراب المغربى والاقامة فى اسطانبول (رومة ؟) ، وهذه الشروط هى :

1) العفو التام عنى بغض الطرف عن الماضى .

2) اعادة املاكى التى صودرت فى طنجة ، كما سبق لى ان ذكرت لكم .

3) سفرى الى الربــاط لا بد أن يكون عن طريق تطــوان ، اى لرؤيــة عائلتى هناك قبل القيام بزيارتكم .

ارجو منكم ان تحيلوا من جديد ما ذكرته لكم الى السيد الجنرال ليوتى لموافقته وأن تخبرونى فى أقرب وقت ممكــن بقراره الاخير بواسطــة قائــد دائرة الحيايينــة .

وتفضلوا ، حضرة الجنرال ، بقبول تقديرى .

(بدون توقيع)

الوثيقــة رقــم 7 :

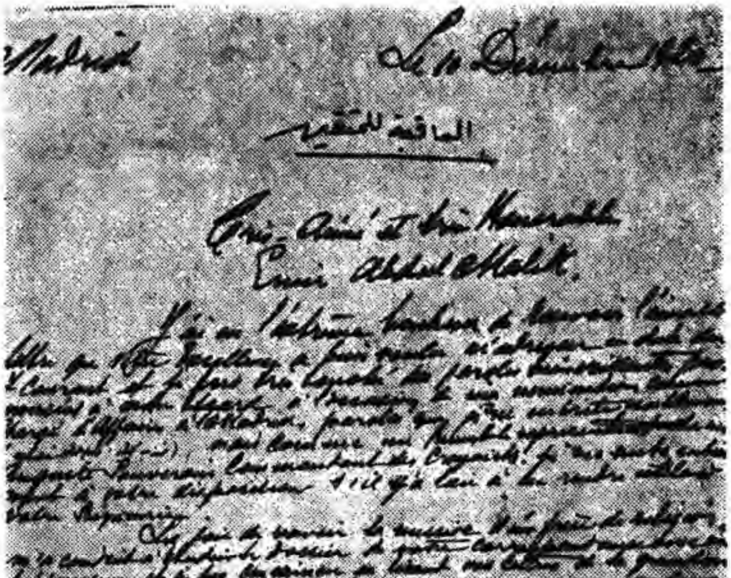
رسالــة من القــــائم بالاعمــال العثمــانى فى مدريــد
الى الاميــر عبــد المالــــك

مدريــد ، 10 ديسمبر 1920

(العــاقبة للمتقيــــن)

عزيزى المحترم ، الامير عبد المالك :

لقــد غمرتنى السعــادة بتلقى الرسالــة اللطيفة التى تفضــل جنابكــم



Madrid — Le 10 Décembre

العاقبة للمتقين

Prince Aimé et très Honorable
Emir Abdel Malek

الشكل رقم 11 . رسالة القائم بالأعمال العثماني في مدريد الى الامير عبد المالك .

من الوثائق الشخصية للأمير حسن .

بتوجيهها الى بتاريخ السابع الجارى . وقد تأثرت كثيرا بالعبارات الرقيقة التى عبرتم بها تحوى بمناسبة تسميتى قائما بالاعمال بمدريد ، وهى العبارات التى لست أهلا لها مطلقا (أنا – عبارة غير مقروءة –) . ولكن باعتبارى ممثلا متواضعا لصاحب السيادة أمير المؤمنين فانى أضع نفسى فى خدمتكم اذا كنت فعلا أفيد جنابكم .

ان الفرحة التى غمرتنى نتيجة تلقى رسالة أخ فى الدين قد دفعتنى الى دراسة ملف مراسلاتكم مع سلفى . وقد اقتنعت عند قراءة رسائلكم ، بالعظمة والنبل والتجرد ، هذه الصفات التى جابهتم بها لهيب المعركة خلال سنوات (الجهاد) .

واسمحوا لى ان اهنئكم بدورى من اعماق قلبى على المواقف الشجاعة التى وقفتموها كقائد مسلم وجندى عظيم من جنود الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

واليوم اسجل بارتياح ان فرنسا واطاليا تسعيان الى ابطال « معاهدة سيفر » التى كانتا قد وافقتا عليها وستفعلان ذلك قريبا لصالحنا لان مصالحهما قد تضررت فى الشرق نتيجة توسع اليونان . واننى واثق من ان الله سيرزقنا أياما طيبة نحن المسلمين (ولا تقنطوا من رحمة الله) .

أما الآن ، يا حضرة الامير ، فاننى فى خدمتكم . فمنذ حلولى بمدريد ، أى منذ اكثر من شهرين ، وأنا اتراسل مباشرة ، برعاية الله (الحفيظ) مع حكومتى ، والى الآن لم تواجهنا عقبات . وسوف لا أتردد فى ابلاغها كل ما يرغب فيه جنابكم منى .

وانى اذ اقدم لكم مرة اخرى أقصى عبارات الاعتراف باخلاصكم النبيل الذى برهنتم عليه بخدمة الاسلام ، اغتنم الفرصة لأقبل الايدى التى قادت الى اعلاء (كلمة الله) .

أخوكم المخلص المتواضع
خليل حقى

دور الآداب والفنون عموماً والشعر والموسيقى خصوصاً

فى تعزيز أخلاق أمة أو انحلالها، وفى شحذ عزائمها أو قتل روحها

د. عمر فروخ

عضو مجمع اللغة العربية فى القاهرة
عضو المجمع العلمى العربى فى دمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية فى بومباى



ان هذا الموضوع الرابع من موضوعات الملتقى التاسع مهم جدا ، وخصوصا فى الزمن الذى نحن فيه ، لا لان الامة الاسلامية لم تمر بمثله من قبل ، بل لان عناصر الدفاع الذاتى التى كانت موجودة من قبل للحفاظ على الامة يغيب اليوم أكثرها ٠ ولقد تنبه كثيرون لهذا الامر فكتب فيه الكاتبون كثيرا ٠ غير أن الذين كتبوا فى هذا الموضوع قد أوغلوا كثيرا فى التاريخ حتى رد بعضهم بدء التاخر الذى نشهده اليوم الى صدر الاسلام الاول ومقتل عمر بن الخطاب ٠ أما أنا فاحب أن أجمع كلامى من العصر الذى نحن فيه لارى ــ من خلال ذلك ــ صورة المستقبل المطل علينا ٠

كتب هذا الموضوع فى أثناء الفتنة الاخيرة فى لبنان من 13 الى 19 ــ 4 ــ 1975 ٠
وهناك عدد من الحواشى وشىء من النماذج لم أعثر عليها فى مكتبتى الخاصة ٠
ــ وهذه الدراسة ألحقها الكاتب بالدراسة التى القاها فى الملتقى التاسع للفكر الاسلامى بتلمسان ، وهى تلقى مزيدا من الاضواء على هذا الموضوع ــ

واحب ان أحيل هذا العنوان للموضوع ثم أعيد تركيبه كما يلي :

يكون تطور الامة ورقيها بتعزيز الجانب الخلقي فيها وبشحذ عزيمتها للنهوض أو للاستمرار فى الرقى ـ ويكون تاخرها ثم انحلالها بقتل روحها ، أى بسلبها مقومات الحياة • ـ والاسباب الفاعلة فى تقدم الامم وتأخرها كثيرة جدا ، منها حال الآداب والفنون عندها • ويحسن التاكيد هنا على الشعر فى نطاق الآداب ، وعلى الموسيقى فى نطاق الفنون •

* * *

ولكن يحسن قبل البدء بتحليل الموضوع المطروح أن أشير الى عدد من العوامل التى ليست أقل أثرا ولا خطرا ، فيما نشكو منه ، من أثر الآداب والفنون ، وان كنت أنا هنا سأقيد نفسى بالعوامل المطلوبة فى الموضوع المطروح • فمن هذه العوامل كلها مسرودة على غير نسق :

الصحافة الجديدة ـ النظريات الادبية المستحدثة ، والشعر الجديد ، والقصص ـ النظريات التربوية والكتب المدرسية وكتب المطالعة للاطفال خاصة ، والمناهج المدرسية فى جميع المراحل ـ الادب المكشوف ـ الفنون غير الفصحى فى الرسم والموسيقى والغناء والشعر ـ التمثيليات الخفيفة فى الاذاعات خاصة ـ الازياء ـ المسكرات وحياة الليل ـ الاحزاب ذات الاتجاهات المتضاربة وما تدعو اليه تلك الاحزاب من مظاهر الحرية والاباحة والشخصية الفردية ـ وسائل الاعلام الخاصة والعامة كالسينما والمناشير والكتابات على الجدران ـ اتلاف العنصر الروحى ـ الترف الظاهر باقامة المدنية المستهلكة لاسباب المعاش مكان الحضارة المنتجة لاسباب المعاش ـ اندفاع الكثرة من الامة الى حب القيام بالخدمة براتب مضمون بدلا من العمل الصناعى المنتج مع شىء من المغامرة ـ الرغبة فى العلم النظرى بدل العلم العملى ـ اثقال جهاز الدولة بالموظفين مع وجود جماعات منهم فى غير المحل اللائق أو النافع •

* * *

لا شك فى أن الآداب عامة والشعر خاصة ثم الفنون عموما والغناء على الاخص أشد أثرا فى مجموع الناس من سائر وجوه الآداب وسائر وجوه الفنون • والشعر أشد تأثيرا فى النفس من النثر ، والغناء أشد فعلا فى النفوس من الشعر نفسه • ذلك لان

المستمعين الى الغناء والمتأثرين به هم فى العادة أكثر عددا من الذين يقرأون الشعر ويفهمونه · ثم ان الذين يقرأون الشعر يقرأون فى معظم الاحيان ما يختارون ثم يقرأون القدر الذى يريدونه · أما الموسيقى والغناء فان الامر فيهما مختلف جدا · ان الاذاعات المسموعة والمرئيّة تفرض على الناس ما تشاء هى ، ولان الكثرة من الناس تعتقد أن الغناء والموسيقى للترفيه لا للتثقيف · ولقد اتفق لى مرارا كثيرة أن كنت فى مجتمع عام أو مجتمع خاص أو فى سيارة عامة ، وكان البث من الاذاعة المسموعة مستمرا · فاذا اتفق أن انتقل البث الى حديث أو أخبار أو تعليق على الاخبار رأيت أيدى الناس تسرع الى مفتاح الاذاعة لتبحث عن محطة تبث غناء أو موسيقى ·

أما أثر الشعر بين فروع الادب فقريب من أثر الغناء والموسيقى بين فروع الفنون · ان الشعر أقصر وحدات من النثر فهو مِن أجل ذلك أقرب الى العلوق بالذهن ثم هو ، بما فيه من الموسيقى فى الوزن والقافية ، أقرب الى العاطفة الثائرة منه الى العقل الهادئ وأحفل بالصور الخيالية التى تجمل فى مخيلة جمهور الناس · وأكثر موضوعات الشعر ـ بخلاف موضوعات النثر عامة ـ وجدانية عاطفية خفيفة تفعل فى أنفس القراء العاديين فعلا شديدا ، وخصوصا اذا علمنا أن جمهور الناس يفهم من الشعر والنثر ومن الغناء والموسيقى ما يتهيأ له فهمه ، أى ما يقدر هو على فهمه أو ما يريد هو فهمه ، أكثر مما يدرك من المعانى الحقيقية فى الشعر والنثر ومن الاهتزاز الصحيح فى الغناء والموسيقى · وسأضرب هنا عددا من الامثلة تجمع بين الشعر والغناء وتبين أن معظم الناس لا يفرق بين المغنى والمعنى ، ولكنه يؤخذ باللفظ الذى يظن أنه يفهم معناه وبالنغم الذى يظن أنه يدرك سلوكه فى النفس · حتى لو أن سائلا سأل سامعا عن كلمات تغنى لما استطاع ذلك السامع فى أحوال كثيرة أن يعرفها أو أن يدرك معانيها اذا هو فهمها أو ظن أنه فهمها · من ذلك مثلا أن محمد عبد الوهاب يغنى فى شعر شوقى :

وتأودت أعطاف بانك فى يدى   واحمر من خفريهما خداك !

فيقول : ···   واحمر من خضريهما خداك ·

من غير أن يفطن كثيرون الى أن كلمة « خضريهما » غير مؤتلفة وجاراتها · ومع ذلك فان هؤلاء السامعين يظهر الطرب عليهم لبيت لم يبق له معنى ·

وكذلك يغنى محمد عبد الوهاب فى شعر مهيار الديلمى :

أعجبت بى بين نادى قومها أم سعد فمضت تسال بى !

فيقول : أعجبت بى ذات حسن ... !

والرجل العادى لا يفطن للمعنى المراد ، اذا كان الذى غناه لم يفطن له او لم يشأ ان يفطن له او فطن له ثم بدله بعد ما عرفه !

ان هذا التبديل هنا قد أفقد أبيات مهيار الديلمى معناها المقصود . كان مهيار فارسى النسب مسلم الايمان ، فقال ان ام سعد ، و «أم سعد» كناية عن العرب ، أعجبها أدبه (سلوكه فى الحياة وخلقه) مع انه فارسى . ولذلك قال مهيار عن أم سعد العربية :

سرها ما علمت من خلقى فأرادت علمها ما حسبى

ويقصد مهيار بالحسب هنا : العمل الحميد الذى هو من توابع الاصل الشريف ، فأجابها :

لا تخالى نسبا يخفضنى أنا من يرضيك عند النسب

وبعد ان يذكر مهيار فضائل قومه الفرس يختم مقطوعته الجميلة بقوله :

وجمعت المجد من أطرافه : سؤدد الفرس ودين العرب !

فانظر الآن قوله « ذات حسن » فى البيت الاول مكان « أم سعد » ، كيف أفسد معنى الابيات كلها وكيف أتلف اللفتة البارعة عند الشاعر :

وجمعت المجد من أطرافه : سؤدد الفرس ودين العرب !

فاذا كان هذا الذى مر بنا يحدث فى غناء الموسيقار محمد عبد الوهاب فى شعر شوقى امير الشعراء فى العصر الحديث وفى شعر مهيار أحد أمراء الشعر الوجدانى فى الادب العربى ، فما بالك بالذى يحدث فى غناء القاصرين فى المعرفة الفنية فى الغناء او الشعر او فى الغناء والشعر معا ؟

ولما غنت اسمهان الابيات :

ليت للبراق عينا فيرى ما أقاسى من عذاب وعنا !

غنت فى بيت تال :

.... عذبونى ، ضربوا جسمى الناحل منى بالعصا !

مكان قول الشـــاعر :

• • • • • ضــــربـــوا موضع العفـــة منى بالعصـــا

لقد افسد الغناء بيت الشاعر وأتلف فيه الكناية «ضربوا موضع العفة» ، وهى عقدة الابيات كلها ومدار القصة التى اوجبت نظم هذه الابيات •

هذه الشواهد لم يؤت بها هنا لانتقاد المغنين ـ فان المثل القائل : ليس على المطرب أن يعرب ، مثل مشهور ـ ولكن جىء بها هنا لتدل على أن السامعين للغناء فى العادة ، ومن جمهور الناس ، لا يلقون بالا الى معانى الشعر المغنى بقدر ما يندفعون مع عواطفهـــم وخيالهم بما يخيل اليهم من مرامى الغناء فى أنفسهم هم • ولكى ندرك أثر المعنى المتخيل فى اللفظ العادى واللحن المألوف أقول ان فريد الاطرش يردد فى احدى أغنياته : بحبك، بحبك (أحبك، أحبك) نحو عشرين مرة ثم جماعات من الناس يموجون مع ترداده هذا موجا عنيفا •

كل هذا يدل على أثر الغناء خاصة فى مجموع الناس من الناحية العاطفية • وهـــذا بطبيعة الحال يؤدى الى أثر بالغ فى الخلق الشخصى ثم فى السلوك الاجتماعى الـــذى يتصل صلة وثيقة بحال الامة وفى سيرها فى الحياة صعدا أو فى انحدارها الى التخلف •

* * *

والكلام فى أثر الغناء خاصة ـ فى نشأة الفرد وفى حال الجماعات ـ قديم جدا • قال اخوان الصفا (رسائل اخوان الصفا 134/1) :

« ••• ان لصناعة الموسيقى تأثيرات فى نفوس السامعين مختلفة ••• فمن أجـــل (ذلك) يستعملها كل الامم من بنى آدم ، وكثير من الحيوانات أيضا • ومن الدليل على أن لها تأثيرات فى النفوس استعمال الناس لها تارة عند الفرح والسرور فى الاعراس والولائم والدعوات ، وتارة عند الحزن والغم والمصائب وفى المآتم ، وتارة فى بيـــوت العبادات وفى الاعياد ، وتارة فى الاسواق والمنازل ، وفى الاسفار وفى الحضر ، وعنـــد الراحة والتعب ، وفى مجالس الملوك ومنازل السوقة • ويستعملها الرجال والنساء ، والصبيان والمشايخ ، والعلماء والجهال ، والصناع والتجار وجميع طبقات الناس » •

فالغناء والعزف ، اذن ، فنان من الفنون القديمة نشآ مع النشأة الطبيعية للانسان ، فعرفهما الانسان وعرف تأثيرهما ثم استخدمهما فى أفراحه وأحزانه وفى مواسمه وأعياده وفى عباداته · وأهل البلاد الحارة أميل الى الاستغراق فى هذين الفنين من أهل البلاد الباردة · والاطفال يهدأون عند سماع الموسيقى وينامون اذا طال التهليل على آذانهم ·

فاذا كان أثر الغناء قويا فى النفوس الى هذا الحد ، فمن الواجب على العقلاء فى الاسرة وفى الدولة وفى المجتمع أن يجعلوا من الغناء أداة لتهذيب نفوس الافراد وللحفاظ على المسلك القويم فى الجماعة · ذلك من الناحية الطبيعية الفلسفية · أما من الناحية الدينية الاجتماعية فلم يكن الموضوع أقل قيمة ولا كان المصلحون أقل اهتماما به · فلقد ثار الجدال بين الفقهاء من المسلمين فى الغناء : أحلال هو أم حرام ؟ أو مكروه هو أو مندوب (اليه) ؟ والجدال فى هذا الموضوع طويل متشعب لا أرى أن أذهب بالسامعين والقراء فى مطاويه ، ولكنى أرى أن أورد قول الامام الغزالى ، فقد قال فى ذلك قولا مصيبا عاقلا ، هو :

« ويشترط فى اباحة السماع (الغناء) أن يكون السامع قد جاوز غرة الشباب أو تهذب تهذيبا نزعت به الشهوة من قلبه » ·

ومن آثار الغناء أنه يصبح فى الافراد والجماعات عادة ثم ادمانا · يقول اخوان الصفا فى ذلك (رسائل اخوان الصفا 3 : 147 ـ 148) :

« ··· انك اذا تأملت وجدت لكل أمة من الناس ألحانا ونغمات وأصواتا يستلذونها ويفرحون بها لا يستلذها غيرهم ولا يفرح بها سواهم · وذلك لاختلاف لغاتهم وتباين أمزجتهم وطباعهم وما جرت به العادات والاخلاق · وهكذا يجرى فى أصحاب لغة واحدة : أقوام يستلذون ألحانا ونغمات وأصواتا لا يستلذها غيرهم من (أبناء) لغتهم · وهكذا ربما تجد انسانا واحدا يستلذ وقتا لحنا ما ويعافه وقتا آخر » ·

ثم ان الغناء والعزف قد أصبحا عادتين جاريتين فى الافراد والجماعات ، فانهما بهذا يكونان وسيلتين صالحتين فى التنشئة والتهذيب لا تجوز الغفلة عنهما ولا أن يعهد بهما الى أيد غريبة أو الى أيد قريبة كالغريبة ·

* * *

ذلك كان أثر الغناء من الفنون الجميلة فى التربية • وأما الشعر من الآداب فليس مكانه أقل أثرا ولا أدنى منزلة • وأحب أن أرجع فى هذا الوجه من الموضوع المطروح الى اخوان الصفا أيضا • قال اخوان الصفا فى أثر الاحتكاك الشخصى والقدوة فى التنشئة ، وخصوصا فيما يتعلق بالصغار (رسائل اخوان الصفا 1 : 236) :

« ان العادات الجارية بالمداومة فيها تقوى (بها) الاخلاق المشاكلة لها ••• والمثال فى ذلك أن كثيرا من الصبيان اذا نشأوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم • وهكذا أيضا كثير من الصبيان اذا نشأوا مع النساء والمخانيث والمعيوبين وتربوا معهم وتطبعوا بأخلاقهم صاروا مثلهم ، ان لم يكن فى الخلق كله ففى بعضه • وعلى هذا القياس يجرى حكم سائر الاخلاق والسجايا التى يتطبع عليها الصبيان منذ الصغر اما بأخلاق الآباء والامهات أو الاخوة والاخوات ، والاتراب والاصدقاء والمعلمين والاستاذين المخالطين لهم فى تصاريف أحوالهم • وعلى هذا القياس حكم الآراء والمذاهب والديانات جميعا » •

واذا نحن انتقلنا من هذا الاثر فى التنشئة بالاحتكاك والقدوة عامة الى أثر الشعر خاصة وجدنا قولا للفيلسوف ابن سينا كأنه متمم لقول اخوان الصفا فى هذا النطاق • قال ابن سينا فى رسالة موجزة له عنوانها « كتاب السياسة » (مقالات فلسفية قديمة ، ص 13) :

« فاذا اشتدت مفاصل الصبى واستوى لسانه وتهيأ للتلقين ووعى سمعه أخذ فى تعلم القرآن وصور له حروف الهجاء ولقن معالم الدين • وينبغى أن يروى الصبى الرجز ثم القصيد ، فان رواية الرجز أسهل وحفظه أمكن لان بيوته أقصر ووزنه أخف • ويبدأ من الشعر بما قيل فى فضل الادب ومدح العلم وذم الجهل وعيب السخف ، وبما حث فيه على بر الوالدين واصطناع المعروف وقرى الضيف وغير ذلك من مكارم الاخلاق » •

ثم يقول ابن سينا فى « كتاب السياسة » (ص 14) :

« فاذا فرغ الصبى من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك الى ما يراد أن تكون صناعته فوجه لطريقته • فان أراد الكتابة أضاف الى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ومناقلات الناس ومحاوراتهم وما أشبه ذلك ، وطورح الحساب ودخل به الى

الديوان وعنى بخطه ··· وليس كل صناعة يرومها الصبى ممكنة له مؤاتية ··· ولو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطب دون المشاكلة والملاءمة ، لما كان أحـد غفلا من الادب وعاريا من صناعة ، واذن لأجمع الناس كلهم عـلى اختيار أشرف الآداب وأرفع الصناعات » ·

* * *

وللعقلاء فى كل أمة وزمان ، حتى فى زماننا هذا ، حرص على ألا تتلوث أخـــلاق الفرد وأخلاق الجماعة منهم بشىء يضر بها ، وخصوصا حينما يكون الافراد وتكـــون الجماعات أحيانا فى طور التنشئة · فلقد اتفق فى النتاج الفنى ، فى الشعر وفى الرسم والنحت خاصة أن وضعت نماذج تدعو الحاجة اليها أو لا تدعو الحاجة اليها ، من تلـك النماذج التى لم تالفها البيئة الاجتماعية السليمة ولم يالفها العقل السليم أيضا · فقد تدعو الحاجة فى كتب الطب مثلا الى الكلام على الحياة الجنسية وعلى أسبابها ونتائجهـا وتكون الرسوم الموضحة ضرورية فى ذلك · ولكن هذه الضرورة تظل مقصورة على كتب الطب وعلى الذين يحتاجون اليها فى كتب الطب · وليس ثمت حاجة الى أن توضع هذه الكتب أو أن توضع تلك النماذج منها بين أيدى الصغار الذين لا يدركون الغاية مـــن الحاجة اليها فى كتب الطب ·

وقد يخطر لرسام أو نحات أن يخرج بالالوان على الورق نموذجا للجسم البشرى ، من ذكر أو أنثى ، أو أن يفعل ذلك بالخطوط فى حجر أو حديد ، كل ذلك حتى يشـــق بان معرفته بالتشريح صحيحة أو حتى يدل على العنصر الفنى فى هذا التناسق الموجـود فى الجنس البشرى · وحينما يقف الدارس العاقل أمام هذه النماذج الفنية فان عقله يتبين الخطوط فى استقامتها وتعرجها والاقسام بمقاديرها ونسبها ، وقل أن يفكر فى ما وراء ذلك ، لان الاشياء التى أمامه ليست سوى ورق لا يحس والوان لا تتحرك · أما أن ناتى الى هذه النماذج فنضعها فى الكتب النافقة والمجلات والصحف أو أن نرسمها على طوابع البريد ونبيعها للاطفال وأشباه الاطفال باسعار بخسة فامر لا يجوز بوجه · ومن اغرب ما اتفق أن دولا عربية مسلمة يصدر باسمها طوابع لنساء عاريات من النماذج الفنيـــة

المشهورة وغير المشهورة ثم تباع بعشرات الالوف لاطفالنا ولاطفال غيرنا باسمنا وهـذا أمر وراء العذر) .

وفى عدد من الاحيان يخطر لاديب ناثر أو شاعر أن يحبر شيئا من النتاج الوجدانى فى العاطفة الانسانية ـ خيرا أو شرا ، وقصدا أو عفوا ـ ويتفق أن يجتمع له من هـذا النتاج قدر معلوم ، ويكون فيه براعة فنية أو صورة لجانب من عصر يستفيد منها الدارس العاقل فى فهم العصر الذى عاش فيه ذلك الاديب . ومع أننا نعبس فى وجه هذا النتاج فاننا أيضا نحفظه ولكن نحجزه عن الذين لا يدركون المقصد منه .

لابى نواس ثلاثة عشر بابا من الشعر آخرها مجون فى لفظ صريح جدا . من أجل ذلك طبع الباب الثالث عشر من شعر أبى نواس مستقلا فى كتيب جعل عنوانه « الفكاهة والائتناس فى مجون أبى نواس » (بومباي 1316 هـ) ، منذ ثمانين سنة فقط . وليس العرب المسلمون الشرقيون وحدهم فى هذا الحرص على حجب ما لا يجوز لكل الناس أن يطلعوا عليه ، بل يشركنا العقلاء من كل أمة فى ذلك .

فى عام 1936 كنت فى باريس فى رحلة طويلة قضيت أكثرها فى الجامعة والمكتبات وخطر لى يوما أن أرى نظائر أبى نواس فى المجون عند الغربيين لان « الدراسة القصيرة » التى كنت قد خصصت بها أبا نواس ، فى عام 1933 ، قد نفدت وكنت عازما على طبعة ثانية . واتفق فى ذلك الحين أنى كنت فى مكتبة جنفياف فطلبت ديوان فيرلان وديوان بـيرون . سألنى المشرف على اعارة الكتب عن غايتى من الديوانين فأخبرته . ثم انـه أراد الاستيثاق فأريته بطاقتى من جامعة برلين . فأتى الى بالديوانين ، ولكن رغـب الى أن أجلس فى جناح معزول من قاعة المطالعة لان هذين الديوانين لا يعاران لمن يريد مطالعتهما فى خارج المكتبة . وكان الجناح الذى جلست فيه معزولا لانى أنا الذى أريد الكتابين لغرض علمى ، ولا حاجة الى أن أجلس بهما بين المطالعين الآخرين .

هذا فى باريس ، فى البلد الذى يقال فيه عادة ما يقال وما لا يقال . ولكن الانصاف أن نقول نحن : انك اذا كنت فى أى مكان أردت ، فانك تستطيع أن تجد الشىء الـذى تبحث عنه . فالذى يبحث عن الخير والخلق فى باريس يجدهما ، ومن بحث عن غـير ذينك فى غير باريس وجده أيضا . ان الحجارة والاشجار ومياه البحر والغيوم والجدران

والنوافذ والمقاعد لا تعرف شرا ولا خيرا لانها لا تحس عملا ولا خيالا ، ولكن الناس هم الذين يستخدمون هذه كلها فى الخير أو فى الشر • ان السكين فى يد الشرير أداة للشر ، ولكن هذه السكين نفسها فى يد الطبيب أداة خير قد ترد شيئا من الحياة الى من يقطع الطبيب جسمه بها •

هذه العناية التى أولاها المربون فى الشرق والغرب قديما وحديثا لاولادهم عناية صحيحة محمودة لانها تجمع الامة على الخلق الكريم والسلوك السليم • والخلق فى الامة هو القانون الاختيارى الذى ياخذ الافراد به أنفسهم على السلوك الشخصى والسلوك الاجتماعى • والجماعة تظل متماسكة ما دامت على مسلك واحد فى الحياة • فاذا تشعبت بها المسالك تفرقت قواها فضعفت ثم هرمت وذابت فى الاقوياء أو فقدت العيش الكريم• قال الله تعالى فى سورة الانعام (6 : 153) :

« وأن هذا صراطى مستقيما ، فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله • ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » •

* * *

وقد تأمن الجماعة المتفرقة الهوى الناشزة عن الخلق اذا كانت فى عالم لا منافس لها فيه • أما اذا كان لها منافس خارجى أو اذا كانت موزعة الجهود ، فان الامر يصبح مختلفا جدا • وبلادنا الاسلامية لا يمكن أن تكون فى مأمن من المنافسة لانها على طريق التجارة والحرب وعلى مقدار عظيم من الثروة • من أجل ذلك كان النزاع بينها وبين خصومها مستمرا منذ الزمن الاقدم قبل ظهور الاسلام وبعد ظهور الاسلام • وحاول الغرب أن يضعف البلاد الاسلامية بوسائل كثيرة ــ ولن أتناول الكلام على العصر القديم والعصر الوسيط لاننى شرطت على نفسى أن يكون كلامى قاصرا على العصر الحديث • وأخيرا وقع الغرب على وسيلتين جديدتين فاستخدمهما بنجاح كبير مع الاسف •

أما الوسيلة الاولى فكانت القومية العربية جاء بها الينا فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر • ولم تكن القومية العربية شرا لو أن الغرب أراد جمعنا بها ، فكل أمر يجمع الامة على رأى واحد خير • غير أن القومية العربية التى جاءتنا ظلت نظرية يجادل كل قطر عن رأيه فيها • وبعد أن كان العرب يأملون أن يكونوا أمة واحدة أصبحوا

عشرين شعبا · ولكن هذا أيضا ليس من شرطى أن أتكلم فيه · ولكنى لما عددت وسيلتين وجب أن أعرف الوسيلتين ·

وأما الوسيلة الثانية فكانت « التجديد » الاخذ بجديد وهجر قديم · ووجد الغرب نفرا من العرب فى كل قطر يدعون الى قومية غير عربية : فرعونية وفينيقية وأشورية · وقام هؤلاء يدعون الى هجر كل قديم مهما يكن والاخذ بالجديد · ومعنى هجر القديـــم الاستغناء عن كل ما هو شرقى باعتبار أن الشرق قديم ، والاخذ بكل ما هو غربى باعتبار أن الغرب جديد · أى أنه جاء جديدا الى الشرق · وهنا تحضرنى قصة صغيرة تمثل هذا الموقف من القديم والجديد · دخلت مخزنا كبيرا لبيع المأكولات فى برلين وسألت اذا كان بامكانى الحصول على بيض طازج جديد · فقال لى المسؤول : نعم · ثم دلنى على صندوق فيه بيض · فنظرت فى الصندوق فاذا فيه ختم على كل بيضة : بلغاريا· فقلت للمسؤول : هذا غير طازج ، وهذا الختم عليه : بلغاريا ! فقال لى : كيف لا يكون طازجا جديدا وقد وصل الينا اليوم ؟

ومع هذه الوسيلة جاءت النظريات الجديدة فى الادب القديم والادب الحديث · ولا شك فى أن الغربيين قد اختاروا نفرا لا يقرأون فى مصادر الادب العربى ، والا فكيف يغيب عن هؤلاء قول ابن قتيبة : كل أدب بالاضافة الى ما قبله جديد ، وبالاضافة الى ما بعده قـــديم ·

وليس فى هجر القديم الذى لم يبق فيه شىء من مقومات الحياة ضرر · ثم ان فى أخذ الجديد نفعا ظاهرا · ولكن الضرر فى أن المجددين المتأخرين عدوا التجديد فى نـــقل الآراء الغربية وعدوا الجمود فى الادب العربى كائنا ما كان ·

لا أحب فى اثبات صحة هذا الرأى هنا أن آخذ شواهد من نفـــر من الادباء الذين نعدهم كبارا لان ذلك يقتضى أخذا وردا كثيرا · ان هؤلاء الادباء الكبار الناضجين كانوا يحتاطون فيما يقولون · من أجل ذلك تحتاج ادانتهم الى قول مستفيض لا يتسع لـــه بحث فى مؤتمر · ولكننى سآخذ شيئا من أقوال أبى القاسم الشابى ، لان أبا القاســـم الشابى كان ، لقلة اختباره وقصر عمره ، غير محتاط فى القول · وكذلك كان نفر من

المتحمسين لادب الشابي في النقد يذهبون مذهبه · فلنسمع شيئا من أقوال هؤلاء قبل أن أقول ما الذى دفعهم الى قول ما قالوا ·

ـ يقول الشابي في محاضرته « الخيال الشعرى عند العرب » :

« ان أدب العرب مادى لا سمو فيه ولا الهام ولا تشوف الى المستقبل ولا نظر الى صميم الاشياء ولباب الحقائق · ولكنى لا أنكر أن الادب العربى قد أجاد ··· فى وصف مظاهر البادية ··· ان الادب العربى كان فى جميع العصور أدبا حيا صحيحا فياضا بكل ما تصبو اليه آمال تلك الشعوب (فى تلك العصور) ··· ولكنه لم يعد ملائما لروحنا الحاضرة ولمزاجنا الحالى ولاميالنا ورغائبنا فى الحياة · لقد أصبحنا نتطلب أدبا جديدا نضيرا يجيش بما فى أعماقنا من حياة وأمل وشعور · وهذا ما لا نجده فى الادب العربى ولا نظفر به لانه لم يخلق لنا نحن أبناء هذه القرون ، وانما خلق لقلوب أخرستها سكينة الموت · أما نحن فما زلنا بعد من أبناء الحياة ، ولهذا لا ينبغى لنا أن ننظر الى الادب (العربى) كمثل أعلى للادب الذى ينبغى أن يكون ، بل يجب أن نعده كأدب من الآداب القديمة التى نعجب بها ونحترمها ليس الا ···

··· ان كل ما انتجه الذهن العربى فى مختلف عصوره كان على وتيرة واحدة ليس له من الخيال الشعرى حظ ولا نصيب · والروح العربية خطابية مشتعلة لا تعرف الاناة فى الفكر فضلا عن الاستغراق فيه ، وهى مادية محض لا تستطيع الاتيان بغير المظاهر ··

··· ونقدة الاسلام كانوا لا يفهمون الادب على حقيقته التى ينبغى أن يفهم عليها والقدماء كعمرو بن العلاء وطبقته كانوا ينظرون الى الادب العربى كوسيلة من وسائل الدين لانهم كانوا لا يمارسونه ويدرسونه الا ليتفهموا غريب القرآن والحديث · وهذا الفهم الذى فهموا به الادب قد جعلهم لا يفهمون من الادب الا أنه ألفاظ وتراكيب وجمل وأساليب ليس وراءها روح ولا فكر ···

··· والطبقة الثانية من النقدة كان الادب فى رأيها وسيلة من وسائل اللهو ونوع (؟) من أنواع الشحاذة المنظمة وضرب من ضروب الاستجداء لا غير ··· »

وللشابي أنصار يذهبون مذهبه ويزيدون عليه فى العنف أحيانا · من هؤلاء :

ـ مصطفى رجب يقول فى كتابه « شاعران » (ص 87 ، 91) :

« خبرونى ، يا سادة ، أى شاعر عربى يستطيع أن يحدثكم حديثا مغريا صادقا ... بل أى شاعر عربى يستطيع أن يحدثكم عن الامل ؟ ... كأنما الشاعر العربى آلة حاكية ليس لها من النفس البشرية حظ ولا نصيب » .

ـ خليفة محمد التليسى ، قال فى كتابه « الشابى وجبران » (ص 124) :

« ان الشعر العربى لم يعرف الزوجة الوفية والاخت الحنون والام الرؤوم » .

ـ أبو القاسم محمد كرو ، قال فى كتابه « كفاح الشابى » (ص 11 ـ 13) :

« كان الشعر العربى لا يحفل بالمجرى الانسانى الرفيع لحياة الانسان ولا يزيد عن خواطر عابرة ... فان الادب (العربى) عامة والشعر منه خاصة بوجه خاص قد احتفظا بروحهما القديم ، فلم تتغير أهداف الشعر ولا رسالة الشاعر . وظل الشاعر (العربى) مهرجا كبيرا يحرز قصب السبق فى المبالغة والكذب » .

هؤلاء الذين قالوا هذه الاقوال ، وغير هؤلاء مما لا يتسع هذا البحث لذكرهم وللاستشهاد بأقوالهم لا يعرفون التراث العربى فى الادب . وهم طبعا لا يعرفون التراث العربى فى الفلسفة وفى العلم . ولكن هؤلاء مع الاسف يمكن أن يؤثروا فى تشكيل التفكير فى بيئاتهم لان الناشئين ـ وخصوصا الرافضين الذين كثروا فى أيامنا ـ يحبون أن يقرأوا مثل هذا الكلام . ان هذا الكلام يحاول أن يرفع عن عاتق القارىء عبء التبعة فى الاهتمام بتراث أصيل عظيم ، وهذا العبء باهظ يتطلب عزما أكيدا وجهدا شديدا . والرافض يحاول أن يتملص من كل تبعة وينفلت من كل رباط . وأول خطوات التملص من التبعة والانفلات من الرباط أن يفلسف الرافض ـ أو أن يعلم أن يفلسف ـ الزمن فيقول : زمان قديم وزمان حديث ثم يقول ان القديم قديم بكل ما فيه ، والحديث حديث بكل ما فيه فيترك هذا الرافض قديمه لان عليه أن يفهمه بنفسه وأن يحافظ عليه بنفسه وأن يدافع عنه بنفسه ، وهذا أمر دونه حدد (أى حدة وشدة) . ولكن من الاسهل على هؤلاء أن يأخذوا الجديد الآتى من عند غير قومهم ، فان هذا الجديد يصل اليهم ، أو يعطونه ، مشروحا ومقطوعا عن كل ماض وخالصا من كل تبعة ، فليس

عليهم أن يفهموه ولا أن يفهموا الا القدر الذى أعطوا · ثم ليس عليهم أن يحافظوا عليه ولا أن يدافعوا عنه لان ذينك الحفاظ والدفاع عمل غيرهم ·

ثم لو ان هذا الامر الذى أخذوه عن غيرهم ، أو كانوا قد أعطوه ، انهزم لخذلوه وتركوه لانه ليس لهم ولا هو منهم · ولقد كانوا من قبل قد خذلوا تراثهم وتركوه ·

ان كل ما يشرطه الفرد على نفسه ، وان كل ما تفرضه الجماعة على نفسها ، أمانة يجب القيام بها وأداء حقوقها · وذلك صعب على النفس ، والانفس تهوى السهل الهين ، وجديد الحاضر بما فيه من مفاجئة وبريق يبدو أحب الى النفس التى بدأ تفتحها بالقليل من الاختبار ، من قديم الماضى المثقل بالتبعة والحقوق والمألوف المسلك والبريق ·

ونأتى الى الجديد من الغناء ·

وموقف العرب ، والبشر كلهم ، من الغناء القديم والحديث قديم منذ كان الغناء · ان الغناء وجه من وجوه الادب كالشعر سواء بسواء · ولعل الغناء أقرب الفنون الى الشعر ، أو هو أقربها · والخلاف فى جديد الغناء وقديمه كالخلاف فى جديد الادب وقديمه · وسأصف أسباب هذا الخلاف ومظاهره فى المقطع التالى : (تاريخ العلوم عند العرب 183) :

أعظم المغنين والملحنين فى العصر الاموى ابن سريج (ت 108 هـ ـ 726 م) ، كان غناؤه متكاملا يستوفى جميع مقومات الغناء الفحل · وكان ابن سريج يقول : المصيب المحسن من المغنين هو الذى يشبع الالحان ويملأ الانفاس ويعدل الاوزان ويفخم الالفاظ ثم يعرف الصواب ويقيم الاعراب ويستوفى النغم الطوال ويحسن مقاطع النغم القصار ثم يصيب أجناس الايقاع ويختلس مواقف النبرات ويستوفى ما يشاكلها فى الضرب من النغمات ·

وأشهر الذين جمعوا حسن الصوت الى البراعة فى الغناء مع المقدرة على الضرب بالعود معبد بن وهب (ت 125 هـ ـ 743 م) ، وكان ميالا الى الغناء الخفيف من الرمل والهزج ، يطيل الشعر ويمططه · فكان الناشئون أكثر ميلا الى معبد ، بينما المتقدمون فى السن والاختبار كانوا أميل الى ابن سريج ·

ليس معنى هذا أن معبدا كان أحسن من ابن سريج أو أن ابن سريج كان أحسن . ان معنى هذا أمران واضحان :

ـ كان لابن سريج مذهب فى الغناء ؛ وكان لمعبد مذهب فى الغناء .

وكان استعداد بعض الناس وحال بعض الناس يجعلانهم أميل الى هذا أو الى ذلك . فالمغنيان كانا يمثلان حالين فى عصر . وليس من العقل أن تنشب بين فريقى المعجبين بهما معركة فى كل يوم . ويحسن أن نطبق ما عرفناه من أمر المختلفين فى قديم الادب وحديثه على المختلفين فى شأن الغناء الحديث . ان جمهور الناس عادة لا يريد أن يعنى نفسه بالمقدمات والمقارنات وبالتفاصل ، بل يريد أن يعرف النتائج المتصلة برغباته . فى أثناء احدى المرات التى جرى فيها تعديل لقانون المعلمين فى لبنان لقينى مدير مدرسة ترك التعليم الآن وأصبح يحتل مركزا فيه شىء من الادارة وشيئان من السياسة والعناية الاجتماعية . وفى أثناء الحديث قال لى : ما تم بقانون المعلمين ؟ فقلت له : قسم كل راتب ثلاثة أقسام : سيزاد على القسم الاول اثنا عشر بالمائة ثم على القسم الثانى (الذى يزيد على مائتى وخمسين ليرة ويقل عن خمسمائة ليرة) ستة بالمائة ، ثم يزاد على ما تبقى ثلاثة بالمائة . فحرك يده حركة سريعة ثم سألنى : كان راتبى كذا ، فكم أصبح الآن . فصمت دقيقة ثم قلت له : أصبح راتبك كذا . فتركنى وانصرف .

ودخل التجديد ، بعد الحرب العالمية الاولى ، على الغناء أيضا ، وبعد الاحتلال الفرنسى فى سورية ولبنان والاحتلال الانكليزى فى العراق والاردن وفلسطين واستقرار الاستعمار الانكليزى فى مصر . أما ليبيا فكانت فى الاستعمار الايطالى منذ عام 1911 ، وأما تونس والجزائر والمغرب فكانت كلها فى الاستعمار الفرنسى فى الاكثر والاستعمار الاسبانى فى الاقل . والكلام فى هذا البحث ينطبق على البلاد العربية فى آسية وعلى مصر .

وأول مظاهر التجديد فى الغناء كان هجوم الموسيقى الفرنجية على البلاد العربية حتى أصبحت تلك الموسيقى زيا شائعا . ثم بدأت الموسيقى العربية تتطعم بالالحان الاجنبية . هذه الحركة من تطعيم الموسيقى العربية بالموسيقى الاجنبية يمكن أن يكون تطورا طبيعيا (فان مثل هذا التعليم حدث فى صدر الاسلام ، حينما بدأ الغناء العربى يتأثر بالغناء الفارسى على الاخص وبشىء من الغناء الآرامى الذى لا يزال ظاهرا فى الاغانى

الشعبية العامة · ثم حدث على نطاق واسع فى العصر العباسى) · ولكن الغناء العـربى دخل معركة القديم والحديث ، وأخذ مناصرو الغناء الفرنجى يناصبون الغناء العـربى أشد العداوة ويتخذون من الكلام على الغناء منفذا الى مقارعة القومية العربية واللغـة العربيـة ·

وكان الغناء القديم ، اذا نحن عددنا شيئا ما قديما أو حديثا ، يجرى فى الالفاظ المهذبة والمعنى الشريف · فلما جاء الغناء الجديد انحدرت الالفاظ الى العامية وانحدرت المعانى الى المدارك الجنسية المكشوفة ، فغنت صباح فى لبنان ، مثلا « شب واستحـلى » (شاب وقد تاقت نفسه) كما غنت « دندلتونا لنص البـير ، وقطعتو الحبلـة فينـا » (أو صلتمونا الى النهر ولم تسقونا) · وفى مصر غنى محمد عبد الوهاب « ما أحـلى الرجوع اليه » ، كما غنتها نجاة الصغيرة · ولكن تخيل رجلا يغنى معنى تتمناه النساء ! وكذلك غنى محمد عبد الوهاب « عينيك فى عينيه » مما لا أجيز لنفسى تفسير الكنايات فى هذه الاغنية التى تنطوى ــ فيما أعتقده أنا ــ على فسق وكفر ·

كل هذا يؤثر فى الناشئة التى لم تعرف بعد شيئا من الحياة الجنسية فتتمنى مثـل ذلك ، وتنزل أمثال هذه الاغنية من نفوس أولئك الناشئين منزلة مكينة · وقد يكون نفر من الناشئين قد عرفوا عددا من الاوجه المحرمة أو الشاذة ، فاذا سمعوا مثل هـذه الاغانى من أمثال هؤلاء المغنين هان عليهم ما كانوا قد صنعوه ثم جرؤوا على أكثر منـه ومردوا عليـه ·

وهنالك غناء ليس فيه كفر ، ولا تجد فيه فسقا كثيرا ، ولكنك تجد فى كلماته وجمله تخنيثا ، أو على الاقل لا تجد فيه روحا يبعث النشاط ويذكى الهمة ويسمو بالانسان الى ما هو أليق بالانسان : انه تأكيد على غرائز الانسان العادية ، كما نجد فى أغـانى فريد الاطرش وعبد الحليم حافظ ، وان كان قد سبق لفريد الاطرش أن غنى أشيـاء قومية عربية فى « بساط الريح » ·

ولا عذر لاحد اذا قال : ان الناس يريدون ذلك ، كما قيل لى مرارا فى عدد من دور الاذاعات فى البلاد العربية · ان الناس يديرون أصابعهم على مفاتيح الاذاعات ليستمعوا الى ما يذاع · ولا ريب فى أنه كلما كان الانسان أقل ثقافة كان أكثر تعلقا بالقريب من

مستوى ثقافته • غير أن عمل اذاعاتنا لا يجوز أن يكون الابقاء على الفرد القليل الثقافة حيث هو ، كما لا يجوز النزول به الى درك أدنى • يجب أن نحاول الارتفاع بهذا الفرد الى مستوى أرقى •

* * *

ونشر الثقافة لا يتأتى بيسر من طريق الكتاب • ان قراءة الكتاب فن • فى قـــراءة الكتب فن الاختيار بين الكتاب الموافق والكتاب غير الموافق • وفيه فن النفوذ الى الكتاب، فان نفرا كثيرين من الناس يبدأون قراءة كتاب ثم يقفون فى وسطه او فى اوائلـــه • وفيه ايضا فن الادراك لمجموع من الآراء منسوقة فى سلك واحد ، وهذا امر ثقيل عـلى نفوس غير المثقفين تثقيفا معينا • وفى قراءة الكتب فن المشاركة للمؤلف فيما يقول • وفيها فن الرجوع الى الكتاب عند الحاجة الى رأى من الآراء او حقيقة من الحقائق • وفـى قراءة الكتب فن استخدام الزمن ، فان على قارىء الكتاب ان يعد لنفسه برنامجا للقراءة ومقدارا يقرأه فى كل مرة •

أما قراءة المجلات فهى ايسر خطبا : هنالك مجلة او مجلات تصدر لك فى زمن معين فتصبح لك كالادمان تنتظرها كما تنتظر الطعام او تشتاق اليها كما يشتاق المدخن الى التدخين • والمجلات الاخبارية العامة خاصة تأتيك بمواد كثيرة متنوعة ليس علـيك ان تقرأها كلها ، بل تقرأ منها ما ترغب فى قراءته او يتفق لك ان تقرأه • وموضوعـات المجلات ليس لها طول موضوعات الكتب ، فيكون الانتقال من موضوع قصير الى موضوع قصير على النفس • وقد يتخلل المجلة نوادر وحكايات لا تدخل فى نسيج الكتاب •

وقبل الحرب العالمية الاولى كانت المجلات قليلة ، وكانت فى الحقيقة كتبا موجزة ، كان كل مقال فيها فصلا من كتاب ، لان الموضوعات التى كانت تعالج فى المجلات كانت هى الموضوعات التى تدخل فى بناء الكتاب • ولم يكن فى اول الامر من فرق بين الصحيفة والكتاب ، الا ان الكتاب يتناول موضوعا قائما بنفسه مقطوعا من المكان والزمان فى اكثر الاحيان بينما المجلة تتناول القضايا الثائرة والاخبار الجديدة • ثم ان المجلة تتناول السياسة احيانا عرضا وتتعرض للحكام من وراء ستار او من دون ستر • والكتاب لا يفعل ذلك فى العادة • ولا ريب فى ان المجلة ألصق بالقارىء لان كاتب الكتاب يلقـى كتابـه الى

قارئه مرة فى عام او فى عامين او اكثر ، وربما كتب المؤلف الكتاب مرة فى العمر • فلا يستطيع المؤلف ان يحتاط لما يحتاج اليه القارىء او يرغب فيه القارىء من وراء هـــذا الزمن الطويل • اما الكاتب فى المجلة فليس عليه الا ان يحتاط لزمن هو اسبـوع او شهر • فالصلة بين الكاتب فى المجلة وجمهور قرائه أوثق واكثر ترددا من الصلـــة بين المؤلف وقــراء كتابه •

وتستطيع ان تعرف الاتجاه فى المجلات الاولى المتقدم من عدد من اسمائها ، الجوائب ـ مجموع العلوم ـ ثمرات الفنون ـ المقتطف ـ الهلال ـ الطبيب ـ الصفا ـ البيان ـ مرآة الاخلاق ـ مكارم الاخلاق ـ الآثار ـ العروة الوثقى ـ فتاة الشرق ـ الزهور •

وبعد الحرب العالمية الاولى حدث الانتقال من الجد الجد الى شىء من الترفيه بدأ يتسع مع الايام حتى كادت الصلة بالجـد تنقطـع •

وأول ما بدأ ذلك فى مجلة الهـلال •

كانت مجلة الهلال لصاحبها جرجى زيدان « ت 1914 » تصدر فى أول كل شـــهر قمرى (ومن هنا جاء اسمها) وتضم بحوثا فى التاريخ والحضارة والادب اصبح بعضها كتبا مستقلة لصاحب المجلة ، ككتاب تاريخ التمدن الاسلامى ، وتاريخ آداب اللغـــة العربية ، وتاريخ العرب قبل الاسلام ، الخ • ثم روايات تاريخ الاسلام الخ • ولا شك فى أن مجلة الهلال ومؤلفات جرجى زيدان قد أدت فى زمنها خدمـــة جليلة للقارىء العربى ، وان كان الزمن قد تخطى الآن « تاريخ آداب اللغة العربية » و « تاريخ التمدن الاسلامى » ، وبرغم ما فى عدد من روايات تاريخ الاسلام من المغـــامز • ولا شك فى أن حياة مجلة الهلال كانت جزءا من حياة صاحبها ، فلما توفى جرجى زيدان لم ينشأ بعده من رفاقه من كان له ذلك الافق الواسع فى الثقافة العامة ولا من كان له هذا النشاط الوافر • ان الجهد الاساسى لجرجى زيدان كان فى اصدار مجلته الشهرية ، ولكنه هـو كان الكاتب الرئيسى فى المجلة ، فأكثر بحوثها ومقالاتها كانت بقلمه بخلاف أكثـــر المجلات التى نشأت فيما بعد والتى يسهم فيها صاحبها بمقال أو اثنين أو ثلاثة • وتكون سائر البحوث والمقالات لآخرين • والى جانب هذه المجلة ، نشر جرجى زيدان أربعـين كتابا بعضها فى أربعة أجزاء أو خمسة ، فى مدى ربع قرن (1889 ـ 1914 م » ، ولا

يقدح فى نشاط جرجى زيدان أن معظم هذه الكتب كانت مادتها مجموعة من بحوثه فى المجلـــة •

وبعد الحرب العالمية الاولى نشأت « دار الهلال » وكثر عدد المجلات وعـــدد الكتب اللذين صدرا عنها ، ولكن لم تبق مجلة الهلال كما كانت فى أيــام منشئها ، ولا كانت المجلات الجديدة : المصور ـ الفكاهة ـ الكواكب ـ الاثنين (الفكاهة والكواكب مجموعتين) من قيمة مجلة « الهلال » أو من اتجاهها • ولكن لا شك فى أن أثر مجلات دار الهـلال كان واسعا جدا لاسباب لا تزال بحاجة الى دراسة • ولكن يمكن القول منذ الآن ان مجلة الهلال كانت اسلم اتجاها من مجلات دار الهلال ، بما فى ذلك مجلة الهـلال نفسها فى شكلها الجديد •

وجميع المجلات التى استمرت من قبل الحرب العالمية الاولى أو التى نشـأت بعـــد الحرب العالمية الاولى وأرادت أن يكون لها سمت مستقيم وجـد لم تستطع أن تثبت فى الميدان • حتى مجلة المقتطف الاصيلة فى ميدان العلم انقلبت ، على يد فؤاد صروف ابن أخى يعقوب صروف أحد مؤسسى المجلة ، الى مجلة « المختار » التى كانت تنشر مقالات طريفة جدا من ميادين الحرب العالمية الثانية • وكان عدد من تلك المقالات مثقفا حقا ، ولكن المقالات كانت تمثل وجهة نظر واحدة • ولما انتهت الحرب العالمية الثانية توقفت مجلة المختار ، خليفة المقتطف ، مرة واحدة •

ونشأ فى العالم العربى ، بين الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية ، عدد من المجلات الرصينة فى العلم والادب والفـــكر : كالرسالة والثقافة فى مصر ، والاديب والامالى والعلوم فى بيروت ، وغير هذه أيضا • ولكن أكثر هذه المجلات قد زال الآن ، والذى بقى منها لم يبق قادرا على أداء رسالته الاولى ، بل اندفع فى التيار العام الموجه الى الادب الخفيف والماشى للاتجاه الاعسر من الموضوعات التى يقال فيها انها تمثل رغبات جمهور الناس ممن أشرت اليهم من قبل : تحللا من القيود المختلفة واغتـرافـا مـــن التجديد الآتى من العالم الاجنبى المعادى لنا ـ وان كانت هذه المجلات التى أشير اليها فى هذا المقام تتفاوت فى هذا الاتجاه • ولا ريب فى أن تفاوتها ، وان كان بعضه قليـــل الضرر فى رأى العين ، هو العامل الاكبر فى تشتيت التفكير وتفتيت الجهود مما يوجـد

فى الامة آراء متضاربة وأيديا متقاتلة وجماعات متحاجزة · هذه الحال أشد ضررا على أصحابها من الجيوش المغيرة ، لان الجيش المغير يجمع أصحاب الارض المغار عليها على الدفاع عن الوطن ، أما الجماعات المتحاجزة المتنافرة فى الوطن الواحد فانها عون للجيش المغير ·

والمجلات العامة الرصينة المثقفة ـ والتى يأمن الانسان أن يدخل بها الى بيته ـ ليست كثيرة فى العالم العربى اليوم · وأعنى المجلات الاسبوعية خاصة من تلك التى تصل الى أيدى القراء فى كل بقعة من أرضنا بيسر · أما المجلات الرصينة والتى تصدر شهريا أو مرة كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ستة ـ عن مجامع اللغة العربية وعن كليات الآداب وكليات العلوم ، أو تصدرها مؤسسات رسمية (فى وزارات الثقافة مثلا) أو مؤسسات شبه رسمية ، فانها ، من سلامة اتجاهها ومع الجد فى تخير موضوعاتها وفى صياغة تلك الموضوعات ، تكاد تكون غائبة عن جمهور القراء معدومة الاثر الصحيح فى جانب غيرها بطبيعة اتجاهها الى اختصاصها الضيق وكبر حجمها أحيانا وللغلاء فى أثمان بعضها (وان كان عدد كبير منها يوزع أحيانا بالمجان) ولتباعد مواعيد صدورها أو لاضطراب وصولها الى القراء ·

والمحل الذى خلا من المجلات الرصينة ـ فى تثقيف الامة ـ شغلته مجلات خفيفة المادة كثيرة العدد تكاد ، بتنوع اتجاهها وبموضوعاتها العاطفية الهينة ، تصل الى معظم القراء الناشئين فيفعل فيهم سحرها فعلا عجيبا · كنت مرة أنتظر دورى فى عيادة فيها طبيبان مختلفا الاختصاص · وكانت المشرفة على مواعيد أحدهما تقلب بين يديها مجلة من تلك المجلات · وفجأة صدرت من هذه المشرفة حركة لفتت الانتباه ثم نادت المشرفة على مواعيد الطبيب الآخر وقالت لها : اسمعى ما تقوله المجلة فى حظى هذا الاسبوع ! ان هذه الجمل التافهة التى تنسب الى أفعال النجوم فى كل شهر فيما يتعلق بالمولودين فى هذا الشهر تقتنص انتباه الناشئين ـ وغير الناشئين أحيانا ـ اقتناصا غريبا ·

واللغز الذى ليس غريبا هو : كيف تصل هذه المجلات الخفيفة الى كل بقعة فى العالم ثم تنفد عشرات الالوف من نسخها فى أيام قليلة من كل أسبوع ـ مع غلاء أثمانها حينا ـ ثم لا تلاقى المجلات التى تشرف عليها الحكومات أحيانا مثل هذا الرواج ؟

ويعترض معترض فيقول ·

ولكن هذا الادب الذى تعبس فى وجهه وهذا الغناء الذى تنكره شىء موجود عند آخرين : فى الولايات المتحدة وفرنسة ، وانكلترة والمانية وايطالية وسواها · فلماذا لا يخشى الناس هنالك منه على انفسهم وتراثهم كما تخشى أنت منه هنا على أنفسنا وتراثنا ؟

وجوابى على هذا ، فى هذا اليوم ، هو جواب التاريخ من قبل هذا اليوم · ان للامم أعمارا طبيعية وأطوارا من النشأة والقوة والضعف والانحطاط والانقراض وحينما تكون الامم قوية فى مطلع حياتها الطبيعية لا تتأثر بالهزات ـ ولو كانت تلك الهزات عنيفة ـ أو لا نرى نحن أثر تلك الهزات واضحا · أما اذا بدأت الامم فى الضعف فان الهزات تبدأ التأثير فيها ، ولو كانت تلك الهزات نفسها ضعيفة · واذا كانت الولايات المتحدة الاميركية لم تسقط بعد ، برغم ما نرى اليوم فيها من عوامل الانحلال التى نخشاها نحن اليوم فى بلادنا ، فليس معنى هذا أنها لن تسقط بأثر هذه العوامل وأمثالها فى المستقبل · تأمل الولايات المتحدة اليوم أو انكلترة أو فرنسة أو ايطالية ، ثم قارن حال هذه الدول بما كانت عليه مثلا ، فى عام 1923 ، أوفى عام 1927 ، أو فى عام 1935 ، فهل تجد هذه الدول اليوم من القوة حيث كانت تلك الاعوام الماضية · واذا كانت هذه الدول اضعف اليوم مما كانت عليه قبل أربعين سنة ـ وهى بلا ريب كذلك ـ فانها ستكون بعد عشر سنوات أشد ضعفا وأقرب الى السقوط مما هى اليوم ·

ونحن المسلمين اليوم فى حال من الضعف لا فى حال من القوة ـ وربما كنا اليوم ، فى بعض أحوالنا أحسن من قبل : فى الثروة الاقتصادية ، وفى بعض جوانب العلم ، ثم فى عدد من نواحى العمران التى تعم بلادنا ببعض ما تعم به بلاد غيرنا ـ غير أن ضعفنا الحاضر لا يجيز لنا أن نتساهل فى تقبل عوامل تزيدنا ضعفا · فنحن اذن أحق بأن نتمسك بما يجعل الامم أكثر قوة لا بما يدنيها من ضعف أشد ·

* * *

هذا هو الموضوع مبسوطا بسطا يسيرا · أما معالجة السوء الذى نعانيه فيحتاج الى بحث جديد مفصل أيضا ، ولكن يمكن الآن ايجازه فى الاشارة الى ضرورة قيام الدولة

بمراقبة ما ينشر ، اذا كانت الدول العربية تريد أن يكون لها فى المستقبل جيل سليم البنية سليم التفكير سليم الاتجاه • ولكن ربما اعترض بعضهم فقال : ولكن أين تكون الحرية حينئذ ؟ وردى عليه موجز واضح : كيف تراقب الحكومات فى عالم النشر ما يمس سياستها الخاصة بها فتسجن مثلا رجلا ذكر رئيس دولة صديقة بسوء أو تطرد رجلا ألف رواية خيالية تتعرض لمدرك نظرى من المدارك السياسية أو الاقتصادية ، ثـم لا تراقب كتبا ومجلات تمس بالامة كلها مسا شديدا ضائرا ؟

لمحة حول الإتجاه الفكرى فى فرنسا

خلال حرب الجزائر

د · ايفون تورين
استاذةالتاريخ
بجامعة الجزائر سابقا



استجابة لطلب الاصالة انطلقنا فى البداية من مشروع اكثر طموحا ولكن فيه كثير من الاعتداد بالنفس، وهو مشروع يشبه مثلا « المثقفون الفرنسيون ودورهم فى حرب الجزائر » ، ولكن يكفى الشروع فى فحص صحافة تلك الفترة ، ولتكن مثلا صحيفة يومية محلية ، للتأكد من ان النقاش وعنف النزاعات المتولدة فى فرنسا بسبب احداث الجزائر ، قد وضعت فى الميزان كل التقاليد السياسية التى ترتبط ان قليلا أو كثيرا بتيارات عقائدية مختلفة ذات جذور بعيدة فى بعض الاحيان · ان تصادم وامتزاج الافكار يحدثان بعنف فى كل مكان ، ولهذا تحتم الاختيار اذا لم نرد الاكتفاء بتفاهات بسيطة حول كل منها ·

وحتى اذا اخترنا وتعين انتخابنا لمجموعة تحاول التفكير بجد ، فان تنوع المشاكل، المطروحة واهميتها يتطلبان توسعا يتجاوز كثيرا حدود هذا المقال · إن مفهوم الامة والوطن

والدور الموكل للقوة ، والمشاكل التى يطرحها العنف وحتى مفهوم الحرب نفسه ثم ـ وفى ميدان مختلف ، لكنه قريب من الموضوع : سير العدالة ، والوجود المؤلم للتعذيب ، وتجابه الرجال وجها لوجه ، كلها مواضيع يطرقها الجميع ، والكل يشعر انه معنى ، والكل يميل الى الدخول فى النقاش ، نقاش فيه كثير من الخلط ولكن فيه أيضا مجهود للبحث المتعمق ٠

لقد قررنا اختيار المجموعة الفكرية التى تنطق بلسانها كل من مجلة **الفكر** وجريدة **تيموانياج كريتيان** (الشهادة المسيحية) ودارى النشر **سوى** و **مينوى** وهاتان الداران، وان كانتا اكثر تطرفا الا انهما تختلفان جوهريا مع وسائل التعبير المذكورة ، ولكن ، وحتى فى هذه الحالة ، فقد ألحنا فى العنوان على الصيغة المحدودة للموضوع اذ قلنا : نظرة.وللتمكن من القيام بعمل اشمل من هذا يصبح من اللازم المضى فى تحر طويل وتتبع فكرة معينة بدل مجموعة مثل : مفهوم الوطن ، أو الدرس التاريخى الحتمى للمساواة الانسانية ٠

ولنضف ، قبل ان نبدأ التحليل وحتى نستبق الملامة : صحيح اننا اخترنا دراسة المجموعة الاكثر ملاءمة لتصورنا ، تلك المجموعة التى عرفت كيف تجعل فى اعتبارها حساب المستقبل ، وعذرنا الاول انه ليس من اليسير للمرء ان يتحدث للآخرين عن نقصه وقصوره ٠ اما عذرنا الثانى فيترتب على ان قيمة الافكار ومجهود البحث أكبر واكثر أهمية لدى أولئك الذين يؤمنون بضرورته ، منه لدى اتباع جمود وتحجر سياسى يتخذون من التكرار والثرثرة عقيدة سياسية ٠

فهل نحن معذورون ؟ ٠٠٠

ان أول حركة سجلت ، وأول موقف فعلى تأكد ـ وهذا ضرورى للدخول فى لعبة القلق وفى المسألة ذاتها ـ تمثل فى وعى وادراك عام بان مشكلا جديدا قد برز فى سنة 1954 فى الجزائر ، وانه مشكل يتجاوز مجرد السياسة ، انه احساس لا يزال غامضا يعبر عن نفسه بعموميات ، ولكن مهما كان الابهام الذى يكتنفه فانه يمثل نقطة تثبيت ضرورية لكل تفكير لاحق ٠

وهاك مثلا كيف قدمت جريدة « الشهادة المسيحية » فى عددها الصادر فى 12 نوفمبر 1954 الوضعية الجزائرية ، وتم اختيار صيغة التساؤل : « ماذا يجرى فى الجزائر ؟ » عنوان عريض بالصفحة الاولى والجواب : « اغتيالات،انتفاضة منظمة هناك ضد جيش يوجد فى الميدان.انها ليست حربا ، وهى أكبر بكثير من مظاهرة.مع أن الجزائر كانت تبدو واحة طمأنينة وسط افريقيا التى يهزها الغليان . ان استيقاظ يوم عيد ذكرى الاموات كان قاسيا.ان الاناس المطلعين لم يفاجأوا كثيرا لان النار كانت تحت الرماد منذ زمن بعيد . ان عددا لا يحصى من الأسباب قد ساهم فى هذه الدفعة القوية الوطنية المباغتة».

لقد كان هناك اذن منذ البداية شعور بأن المشكل الذى تفجر مشكل يطرح بعمق ، واحساس أيضا بأن « الاعلام » ليس كافيا عمقا وشمولا .

وأول المهام التى تم القيام بها اذن كانت تقوية هذا الاعلام وتوسيعه بواسطة الجرائد والمجلات التى تنشرها المجموعة وهكذا نجد جريدة « الشهادة المسيحية » تنشر فى نفس عددها الصادر يوم 12 نوفمبر 1954 مقالا طويلا لشارل اندرى جوليان « يلخص تاريخ المشكل ، وواصلت الجريدة نشر الاخبار السياسية اليومية وتدعيمها باعلام عميق حول الاقتصاد ، والسكان الخ ... ولكن مجهود المعرفة،والمعرفة العلمية،قد تأكد أكثر خاصة فى مجلة الفكر التى تتجه ككل مجلة الى جمهور ثقافى أكثر الحاحا فى الطلب . ان بعض الاعداد كانت تكاد مخصصة للجزائر مثل عدد ماى 1955 الذى يضم سلسلة من المقالات المتعلقة بالاقتصاد والمشاكل الدينية والاجتماعية والثقافية ومشاكل الهجرة .

أما عدد مارس 1956 الذى يحمل عنوان التفاوض مع الجزائر فقد كان سياسيا أكثر ، وقد صدر فى جانفى 1957 ثم فى مارس 1959 عددان مخصصان تقريبا لظروف معيشة الجزائريين اما مباشرة أو من خلال دراسة التخلف ، وهذا ما يدل على ان ادراك المشكل الجزائرى والاحساس به قد اتسع ، بحيث أصبح أكثر تقنية ويحاول الخروج من مجرد المجابهة بين فرنسا والجزائر.كان عنوان عدد مارس 1959 : « الفقر والعالم المعاصر » وهو عنوان لا يزال ذا قيمة حتى اليوم .

ان هذا الجهد الاعلامى يبدو فى حد ذاته ركيكا ومبتذلا لا يثير تعاليق علمية ، ويمكن التفكير فى ان المثقفين اذا اكتفوا بهذا الدور فانهم يكونون قد رضوا لانفسهم القيام بدور

اداری أو مکتبی ، غير أن الاعلام هو الخبز الذی يمكن كل واحد من التفكير • وليس هناك عقل يستطيع مهما كان لامعا أن يفكر تفكيرا سليمـا انطلاقا من معارف خاطئة.وحتى اذا كان المثقف في الظاهر لا يتمتع بكثير من المجد ، فانه بتكريس جهده للمعرفة هو أيضا ، وبطريقته الخاصة ، مناضل •

غير أن تطور النزاع قد فرض على هذا النوع من النضال مهمة أكثر فأكثر دقة،وصيغة سياسية أكثر فأكثر وضوحا أو ان شئنا التزاما أكبر

ولا ريب فی ان الاعلام الاساسی بقی ضروریا ، كما أن الصفاء العلمی كان مفيـدا ، ولكن برز الى جانب ذلك ، المشاكل التى يطرحها الاعلام اليومى ، ومع أن بعض المقالات أو المؤلفات قدمت على أساس انها عمل فكرى حول العنف ، والامة ، والحرب ، الا أنهـا كانت فی الوقت نفسه جهدا اعلاميا عاجلا ومجردا،مثل ذلك يبذل للاعداد لمحاكمـــة ما، والذى يجتهد لجمع مواده قــاضى التحقيق ، وكتاب تلك المقالات ـ أو المؤلفات ـ وهـم واعون تمام الوعى ـ سخروا ارادتهم فی تقديم اعـلام صحيح وحقيقى ، وذلك كواجب يفرضه عليهم ضميرهم الثقافى . انهم لم يخوضوا المعركة السياسية مباشرة ، ولكنهـــم اذ ذكروا بالمتطلبات الصعبة للاعلام اليومى وهى متطلبات مؤلمة احيانا للمرء نفسه ، فقد قبلوا ان تنتزعهم صرامة الاحداث انتزاعا من حيادهم لحد أن التهجم عليهم فاق التهجـم على السياسيين أنفسهم : وهذا ما حدث لكل من ج• أ• ألكى (1) ، و ب• هـ• سيمون ، و ا• ميشــلى ، و هـ• ألاق ، و ب• ف• تــاكى ، الذين ألفــوا كتبا ، و هـ• مــارو ، و أ • ماندوز ، وهيئة تحرير مجلة الفكر وخاصة مديرها ج • م • دومنيك ، وغيرهـــم كثيرين ممن سوف نجد اسماءهم خلال هذه الدراسة •

وعلى هذا ، فقد اصبح الاعلام اذا كان شاملا ، عملا شجاعا والتزاما للضمير العلمى •

غير أن الاعلام ليس هو النقاش • وقد اثارت احداث الجزائر داخل الاوساط الثقافية الفرنسية أكثر من مجرد نقاشات حتى أن بعضهم ما وصف ما يحدث بينهم بحرب أهلية بين العقول وهذا لمح اليه كتاب « ادمون ميشلى » « ضد الحرب الاهلية » وكان ما يحدث

(1) ج. أ. لكى : لقد هدأنا تازمالت ـ ب هـ. سيمون ضد التعذيب أ• ميشلى : ضد الحرب الاهلية هـ. ألاق ـ المسألة الجزائرية ا. ف. تاكى « قضية أو دين » •

فى الواقع مجابهات نظرية لا يمثل الاعلام فيها الا عنصرا من عناصر التفكير ، ويعتمد جوهرا لتحليل ، حتى وأن لم يقل هذا ، على ا ستناد الى قيمة يتم اختيارها دائما بصفة شخصية ، حتى وأن برر هذا الاختيار بعلاقته بناموس عام ، وهنا فقط يبرز بكل وضوح الارتباط بتقاليد تاريخية وسياسية بعيدة ٠

ان طبيعة الرد الحكومى على احداث الجزائر ، وتعبئة القوة ، واستعمال الاسلحة والقمع البوليسى ، قد احدثت شيئا فشيئا تفكيرا حول استعمال العنف ، والحرب ، وهو تفكير تدرج الى تحليل تلك المحاذير واثرها على السياسة الداخلية ، ونجد فى جريدة « الشهادة المسيحية » ابتداء من نوفمبر 1954 افتتاحيات تذكر بحدود استعمال القوة وعلاقتها بالعنصرية ولكننا نجد فى عدد نوفمبر 1955 لمجلة الفكر الصادر تحت عنوان « لنوقف حرب الجزائر » تحليلا فكريا عميقا تتناول فيه هيئة التحرير بعمق موضوع العنف الناتج فى الحقيقة عن الواقع الاستعمارى نفسه ، وهو تفكير يتجاوز الحكم على مجرد القمع الظرفى . « هناك أعمال العنف وهناك العنف . أما أعمال العنف فهى تلك المذابح التى وقعت فى 20 أوت فى الجزائر والمغرب ٠ أما العنف فقد سبق هذه الاعمال التى لفها وسبب حدوثها : والعنف يكمن فى الجانب الفرنسى ٠ انه الاحتقار العنصرى للعربى ، وتزوير الانتخابات ، وبؤس وشقاء المدن القصديرية ، وهجرة الجوع ٠ ان العنف ثابت فى استعمال المبادىء الديمقراطية استعمالا منافقا بهدف الاضطهاد الفعلى ٠ ان العنف يكمن داخل اخلاق ، ومؤسسات واقتصاد جزائرى يدعى زورا أنها فرنسية . يجب الاقرار بأن هذا العنف لم يكتشف الا بفضل اللجوء الى استعمال السلاح ٠ ان ما عجز عن القيام به جمع من المؤلفين وكثير من الشهادات قد فعلته الثورة » هذا ما قالته هيئة تحرير مجلة الفكر فى العدد المذكور ٠

وهكذا نرى أن الثورة التى هى عمل من أعمال العنف مبررة يحتمها القضاء على وضعية العنف الاساسى ٠ وهذا تعليل استعمل فيما بعد مرات متكررة حول أمريكا الجنوبية ٠

واصل الحرب ؟ وطبيعة الحرب ؟

ان العمليات التى تتواصل ويتسع نطاقها ، ويصلى لظاها جمع المجندين الفرنسيين احدثت أيضا تفكيرا حول الحرب نفسها ٠

« انها ليست بالحرب القذرة ، كما انها ليست حربا مقدسة ».كان هذا عنوان لمقال أساسى نشرته « الشهادة المسيحية » فى عددها الصادر يوم 27 أفريل 1956 بقلم الابوين اليسوعيين ج. مارتلى و ج ى. كالفيز ٠ والاول رجل دين ، اما الثانى فاختصاصى فى القانون الدولى والقضايا الماركسية ٠ ومن خلال دقة المقال يتضح أن الكاتبين يرميان الى الاجابة على تساؤلات لم يفتأ يطرحها قراء المجلة وقسم من الرأى العام الفرنسى ، والمسيحى منه بصفة أخص . يقول الكاتبان : « نعم ، للدفاع عن النفس حدود ٠ نعم ، ان كلا الطرفين يحارب من اجل وطن.نعم ، لقد حلت الحرب محل الحوار ، غير أن الحرب لا تعنى لا ابادة الخصم ولا فرض حل بالقوة مهما كان الوجه الذى يراد ابرازه به ، بل يجب الاعتراف بالخصم وقبول الحوار والحل الوسط » ويرد الكاتبان على الذين كانوا لا يزالون يطرحون المشكل الدينى ، ردا صريحا : « هذه حجة واهية ، لنقاوم اغواءات النزعات الصليبية ٠ ولنحصن انفسنا ضد كل النزعات الصوفية ما عدا تلك النزعة المتمثلة فى تحقيق عدالة انسانية حقة تدعو الى الحوار مع الطرف الآخر ويعترف بحقوقه حتى نتمكن من أن نحصل على ضمانة حقيقية لذوينا وان نحقق أمنهم المشروع ».وبما أن بعض القراء قد تخوف من هذا التحليل وطرح السؤال التالى : أيصح موقف مثل هذا من مسيحى ؟ والرد هو : « اذا كان هناك من نيل فى الله ـ الذى تؤمن به الها للمحبة ـ فى هذه الحرب ، فان هذا النيل يتجسم أولا فى شخص كل انسان تساء معاملته فرنسيا كان أم مسلما » ٠ وهكذا جرى التدرج من تحليل العنف الى البحث عن تجاوز روحى لوضعية تعتمد على القوة ٠ ويجب ان تبقى القوة خاضعة للقانون ٠

غير أن الحرب تتواصل ، وتزداد ، ويتضاعف آثارها ٠ وهكذا لم يعد بالامكان أن تقع الحرب وحدها تحت طائلة التحليل،بل كل سلوك الدولة ، والعلاقة بين الغاية والوسائل المستعملة لتحقيقها ٠ ففى مقال بعنوان «الساقية أو الفعالية» نشرت جريدة : « الشهادة المسيحية » الصادرة يوم 28 فيفرى 1958 ، وبقلم السيد ب ٠ هـ ٠ سيمون ،

ما يلي : « ان قضية الساقية الحمقاء والكئيبة ، قد ادت على الاقل خدمة عندما اظهرت مرة واحدة ، وفيما يشبه تمزق العاصفة ، وانحطاط الدولة ، وعبث السياسة المتربعة ، وأزمة روح الامة » • ويتبين من هذا أن فرنسا لا توشك أن تفقد متاعا ماديا فى هذه الحرب ، بل أنها مهددة بضياع « روحها القومية » وماذا كان يعنى هذا ؟ ففى تلك الايام من سنة 1958 كان معنى هذا : فقدان « الروح الديمقراطية » • ان ما كان يلمحه ب • هـ • سيمون فى أذيال الحرب هو مخاطر الحكم العسكرى،وهذا يعنى ضياع الحريات وهنا أيضا يبدو بوضوح اختيار هؤلاء المفكرين • انه حتى النصر العسكرى لا يمكن أن يعوض ضياع الحريات • وعلى العكس من التفكير الفاشى فان الحرب فى حد ذاتها مرفوضة رفضا مطلقا لان آثارها ونتائجها قد تكون اسوأ من الفوز بها •

ففى هذا الاطار يجب تسجيل القضية الحاسمة والمؤلمة فى نفس الوقت ، الا وهى قضية : رفض التجنيد • وقد نشرت مجلة « البانوراما المسيحية » تحقيقا حول هذا الموضوع الصعب وجاء فى التحقيق ما يعرض المجلة للمنع •

ومن جراء التحول من التفكير النظرى نحو مشاكل ذات طبيعة سياسية أكثر ، لاح فى الأفق توجيه جديد للنقاش • هل الفرنسيون الذين ينتقدون العنف والقوة والحرب خدمة لبلادهم ، هم ضد فرنسا ؟

وبدأ كل يقذف خصمه بمفهومه وتصوره الخاص لفرنسا • وتكاد تقول ـ جريا على ما تم من نقاش اثناء الملتقى الثامن للتعرف على الفكر الاسلامى ـ ان كل طرف عبر بطريقة خاصة عن « أصالته » • وهنا تراءت للسيد « ادمون ميشلى » نذر حرب أهلية بين العقول • وفى الحقيقة ما هى العلاقة بين الامة كما يراها أتباع « موراس » ، وتلك التى تستلهم من التقاليد الثورية والا يمكن أن تكون يعقوبية أو لبيرالية ، وهما شكلان يكادان يتعارضان مع التقاليد الكبرى . واخيرا تلك التى تود أن لا تبتعد عن بعض المبادىء الانجيلية • كل هذا يمكن أن يؤدى فى الواقع الى الصراع المباشر خاصة اذا ارتبطت به مصالح محددة ، فلندخل الحلبة ـ دائما من الزاوية المحدودة التى اخترناها منذ البداية •

ومنذ ان تأكد فى صفوف بعض أوساط المعارضة انتقادهم للعمل الحكومى وخاصة للاختيار المعنوى المترتب عليه ، أصبح عنف الالفاظ والعبارات يترجم تمزق الاحاسيس . ففى عدد جانفى 1957 لمجلة الفكر نشر « باستير » مقالا بعنوان «حسن استعمال الخزى» . اما « العدالة لا تتجزأ » فعنوان المقال كتبه فرانسوا موریاك بجريدة «الشهادة المسيحية» فى 16 نوفمبر 1956 . وتحتم حتى على أكثر الاوساط اعتدالا ان تعرى العقل من غشائه العاطفى . ولكن ما اعظمه من مجهود ! ان من النادر أن تصبح اللغة سليمة وصافية تماما . ومن خلال ذلك الغشاء المحموم يمكن ملاحظة بداية نقاش حول «الفكرة الوطنية» . لقد برزت تصورات شديدة الاختلاف تمتد جذورها فى أعماق ماضى تاريخى شديد التنوع هو الآخر .

ففرنسا الملوك ، وفرنسا الثورية ، وفرنسا المسيحية ، كلها أصول يرجع اليها عن وعى أو دون وعى ، وهى أصول قليلة التشابه ، ولا تسهل بحال من الاحوال أى وفاق .

«ماذا فعلوا بوطنى ؟ ...» أريد أن أبدأ بهذه الصيحة . ان «الوطن» لم يكن موضة كما هو فى تلك الايام . وفى كل المناسبات نرى « الوطن » منتشرا على أبواب البنوك وعلى نوافذ الحافلات : « أنكم بمساهمتكم المالية تنقذون فرنسا ، وتحققوا استثمارا جيدا لاحوالكم » . ان كلمة « الوحدة الوطنية » فى كل الخطب . ما أجملها ذكريات الثورة وعند أول اعلان بان الوطن فى خطر تنتصب المنصات وتعود دقات الطبول والخطب النارية ... وينسى فقط أن اجدادنا العظام كانوا يدفعون غزوا اجنبيا بينما نمثل نحن فى الحاضر ذلك الغزو الاجنبى الذى يكافحه شعب آخر ، وان ثورة 1789 كانت تسلح سواعد وقلوب مبادىء هى نفسها التى يدافع عنها خصومنا اليوم » . هذه صيحة ، وباستير نفسه هو الذى يقول هذا (الفكر ، جانفى 1957) . وهى صيحة مجللة بالذكريات . ومع أن هذه ذكريات أكثر دقة ووضوحا لدى المثقفين ، ولكنها راسخة لدى العموم بواسطة دراسة التاريخ ولكن هناك عدة طرق لتأويل هذه الذكريات ولاختيارها ، ومن هنا يبدأ الصراع .

فمنذ مارس 1955 نشرت مجلة الفكر عددا يمكن لعنوانه أن يكون عنوانا لكل النقاش الذى وقع فيما بعد والعنوان هو : « قيمة وحدود الامة » . وأمكن شيئا فشيئا التمييز

بين المتعاونين مع تلك المجلة فيما يخص طرق الاختيار الوطنى ٠ فقد تبنى كل من ج٠ م٠ دو منياك و ج. سوفير تحديد جان روس . «أن المؤرخين يدركون أن ما يشكل «الامة» فى نظر المدرسة الفرنسية ، ليس العرق أو الدين أو اللغة بل الارادة الجماعية» ٠ (الفكر جوان 1956) ٠ والتاميح الى النزعة الثورية واضح تماما هنا ٠ وتذكر الناس روسو الذى كانوا يفضلونه على روبسبير ٠ ان فرنسا « الارادة الجماعية » هى فرنسا الفدرالية وليست فرنسا اليعقوبية أو فرنسا الارهاب ، ونجد نفس الفكرة لدى آلن بيرجى اذ كتب : « ان الامة أولا مشروع مشترك بين كل الفرنسيين » ٠ (الفكر ـ 1957 ديسمبر : فرنسا والفرنسيون) ٠

وفى خضم كل هذا ، ما مصير « فرنسا الخالدة » ، « وطن الحرية » المتغنى بها فى العديد من الخطب الرسمية ٠ ان بعضهم يردد بعنف تلك النكتة التى قالها الكاتب برنانوس : « ان الديك طائر أحمق » ٠ اما هـ٠ مارو فيرد بطريقة أكثر تربوية ، وعلى صفحات « الشهادة المسيحية » على من تغضبه تلك التمييزات بما يلى : « ما هو الوطن ؟ وكيف يجب أن أحبه ؟ » ان المؤرخ ليس بوسعه الا أن يضفى صبغة نسبية على هذا التصور ٠ انها نتيجة عابرة لتطور تاريخى يجرنا بعيدا عن كل هذا ٠ وعلى لسان الجنرال ديغول ، فان « فرنسا ، فرنسا الخالدة » تكتسى لهجة مؤثرة ، ولكنه خطأ تاريخى : ففرنسا ليست ذلك الشكل المثمن الاضلاع والذى يقع مركزه فى « بورج » ، ولم يقدر لها أن تكون هكذا منذ الازل ٠ وهى لم توجد منذ عهد « أجدادنا الغاليين ».يجب مراجعة هذه الصورة الجاهزة ٠٠٠ اننا نسير ، ولقد تمكنا فعلا من تجاوز بعض الاطر التقليدية للوطن القومى ٠٠٠ انى أحس انى فرنسى ، ولكن أيضا أوربى ، وغربى ٠ ويضيف المفكر المسيحى فيقول : « يجب ان نعمق فى هذا الاتجاه مضمون وطننا ٠ اننا نكتشف فى تباين الشعوب تلك الثروة اللا متناهية التى أراد الله ان يجلى بها مخلوقاته » ٠

وبتتبعنا لـ هـ ٠ مارو ندخل افقا تاريخيا شديد الاتساع يضفى صفة النسبية على نظرية « الامة » : ان الامة ليست خالدة ٠ فلجميع الامم بداية ، غير أن بعضها يمكن ان يندثر ، وبعضها على العكس تولد وتكبر ٠ ان من يكتبون بهذا الاسلوب قد عرفوا النازية ، وما من شك فى أن تذكيرهم بالفكرة النسبية للامة فى ذلك الظرف السياسى

الصعب ، يشكل تحذيرا للبعض من الفاشية ومن نوع من الفلسفة الالمانية ذات العلاقة بالتقاليد اليعقوبية التى هى نتيجة لها جزئيا ، مثل فلسفة فيخته ؛ وهى فاشية يمكن لاستعمال الجهاز العسكرى ان يمنحها الفرصة للتعبير عن نفسها ٠

ان التذكير بهذه الارادة التاريخية ، واعادة ادماجها فى الفكرة القومية امر كثير الاهمية فى هذه الحالة بالذات ، لان من شأنه ان يجعل ظهور الامم الجديدة أكثر ثبوتا وأكثر شرعية فى نظر القوميين ٠ وما صنعه التاريخ للبعض يمكن ان يصنعه للبعض الآخر ٠ ويجب ، كما يقول الاب « مارتيلى » فى مجلة « الشهادة المسيحية » الصادرة بتاريخ 10 ابريل 1958 ان « يهذب الضمير » ٠ وهذا يعنى أن المرء بعد أن يتعلم كيف يفكر لنفسه ، يعمق تفكيره ليمارسه على الآخرين وعلى الجزائر بالخصوص ٠ وهذا التهذيب للضمير لا يمكن فى النهاية ان يجتنب مشكل الغايات الصعبة،وغايات هذه الحرب نفسها ، وهل يمكن للضمير أن يكتفى بطرح المبدا القائل بأن الجزائر يجب ان تبقى فرنسية فى الوقت الذى تم فيه الاعتراف لهذا البلد بشخصيته الخاصة ٠ فكل المشكل يكمن بالتحديد فى كل ما يعنيه كل ذلك ويقتضيه ٠ فالاحساس القومى لا ينبغى أن يتخذ هنا مقياسا مطلقا للضمير اذا لم يتقبل ان يدرج ضمن اطار أكثر اتساعا يتمثل فى امكانية أمم أخرى أن تنشأ بالفعل ٠

إنه لمن واجبنا الدينى ان نفتح الضمائر الى مثل هذا التفكير الذى ، على الرغم من أنه لا يقدم حلولا عملية ، الا أنه يمكنها من ان توجد حقيقة ٠

اذن،فالامة بناء تاريخى ، وليست ذلك الشىء المطلق الذى من شأنه أن يبرر تلك الصوفية أو حتى ميتافيزيـاء الدولة ، لا ، ان الامة ليست الا ذلك الاطار أو الوسيلة بل ويمكن القول،ذلك المرفق ، لقد صنعها التاريخ لمجموعة من الناس ، تكتلا اجتماعيا يمكن كل واحد منهم ان يحقق من خلالها انسانيته ٠ ويتفق مراسلو « الفكر » و « الشهادة المسيحية » وعدد من المجلات والجرائد ذات نفس الاتجاه (مثل مجلة «اقتصاد وانسانية») يتفقون على التأكيد بانه لا يمكن أبدا للانسان ان يبتلع أو تتم الهيمنة عليه من طرف ذلك المجتمع ، بل يجب ان يبقى المجتمع دائما فى خدمة الانسان ٠ يقول « ب ايمانويل » فى

مجلة الشهادة المسيحية (28 سبتمبر 1956) .«لنكف لحظة عن التفكير فى فرنسا ، ولنفكر فى الفرنسيين·ان فرنسا ليست شيئا مطلقا · انها نسبية · **انها مكان لاناس**»·

وفى نفس هذا المقال الذى يكتسى لهجة هجائية ويحمل عنـوان « فرنسا المستقبل»، يعرب المؤلف بوضوح عن تخوفه من عكس القيم المطلقة · ان اللجوء الاعمى واللاعقلانى للحرب والتمجيد الحماسى لامـة يكـاد يتم تاليهها ، يفتحان الباب أمـام مخاطر سياسية لا حدود لها · والكل يثير التخوف صراحة أو ضمنيا من الانظمة الاستبدادية.لان الكلمات يمكن ان تتجسد · ويحمل « ب ايمانويل » بعنف على هذا الشكل الغامض من القومية · «انى أقول وكلى ايمان بفرنسا،ان هذه القومية التى تغرينا تبدو لى بذخا،عفا عليه الدهر وخرابا وبلاهة · ففى هذه السمفونية التعصبية شرع فى الصراع على مكانة العازف المنفرد أو على الاقل على مكانــة عازف الكمان الاول · ان هذا الحـب للنظام يخيفنى كما يخيفنى ذلك التبجح بالشرف ··· واذا كان لزاما علينا ان ندفع فى مقابل كوننا فرنسيين ضريبة من الخضوع الاعمى ، والكذب المتواصل وكل القاذورات الاستبدادية ، فانى لا أحس ان لى نفس كلب،كى ألتمس وضع سلسلة فى عنقى وحمايتى داخل حجرة . ان نهايتى ستكون بالضبط داخل حجرة كلب اذا اكتفيت بأن انبح بكلمة « فرنسا » وان اصرخ بالموت أمام تلك الجثة التى يسعون جاهدين ان يجعلوها منها ··· » ·

ان عنف هذه اللهجة يسمح بتبين طبيعة الخطب التى تقال فى الجانب المقابل !·· ان الذين يتحدثون هكذا لا يمكن الا أن يكونوا اعداءا لفرنسا·خونة ، لقد قيلت هذه الكلمة؛ الخيانة والخيانة تذكر بفصيلة تنفيذ حكم الاعدام·كان هذا احد العناصرالايديولوجية لتلك الحرب الاهلية بين الافكــارالتى عناها « ايدمون ميشلى » وكانت هذه الحرب أكثر ضراوة بشأن الجدال حول التعذيب ·

ولنكمل تحليل الفكرة القومية قبل الخوض فى هذا الموضوع الجديد · ان مثقفى اليسار بعد ان هوجموا على هذه الصورة تصدوا للدفاع عن انفسهم · فبعد أن تمت القطيعة بين الاتحاد الوطنى لطلبة فرنسا والاتحاد العـام للطلبة المسلمين الجزائريين احتجت الاقلية من الطلبــة الفرنسيين · « ان جـزائر اليوم دبابات ومجنـدون · ان البعض يحاولون اختراق هذا الضباب الحربى لكى يتذكروا ان هناك بعض المسلمين تجب محبتهم · هل

يكون هؤلاء أيضا خونة ؟ جاء هذا فى مجلة « الشهادة المسيحية » الصادرة فى 8 جوان 1956 وبقلم ف. بوريلا • واستشهد هنرى الاق «فى كتابه : «المسالة» بقول رومان رولان. « انى اذ أهاجم الفرنسيين المتعفنين ، فانى ادافع عن فرنسا » •

لقد كان اذن لكل هؤلاء مفهوم آخر عن فرنسا مخالف لذلك المفهوم المتجسم فى القوة والدبابات والدفاع باى ثمن • ان هؤلاء المثقفين الذين قدمنا بعض انتقاداتهم يحكمون على أنفسهم ويودون ان يظهروا لا بمظهر أعداء لفرنسا ، وهذا بديهى ، بل على العكس المدافعين الحقيقيين عن فرنسا الحقيقية • ان مورياك ومارو ودوميناك وايمانويل وكل الآخرين كانوا يناضلون من أجل الابقاء على وجه صورة لا يتنكرون لها ، بل هى غالية لديهم • ولكن اية صورة تلك ؟ انه قول الكاتب « برنانوس » فى مؤلفه « رسالة الى الانجليز » الصادر فى 1940 والذى استشهدت به مجلة الفكر فى عددها الصادر فى نوفمبر 1955 يلخص تلك الصورة جيدا • يقول برنانوس « ان فرنسا تحملنى معها فى مغامرتها الكبرى التى لن يكون لها أبدا بداية أو نهاية لانها مغامرة روحية » • ومن أجل هذا فان كل ما من شأنه ان يدنس مثلا أعلى معينا يقتل فرنسا أكثر بكثير مما يقتلها ضياع اقليم ليس فى الحقيقة ملكا لها •

ان الانقلاب الايديولوجى يكمن فى ما يلى : ففيما يرى البعض ان فرنسا شىء ، يرى البعض الآخر ان فرنسا فكر • ان «مورياك» يرى انه فى عهد الامبراطوريات العملاقة ، فان هذا الرأى الاخير هو وحده الكفيل بأن يحتفظ لفرنسا بمكانة متميزة ، مكانة مختارة • ويقول فى « الشهادة المسيحية » الصادرة بتاريخ 16 نوفمبر 1956 • « يجب ان يفهم اولئك البسطاء التفكير أخيرا انه فى عالم الذرة الذى تسيطر عليه امبراطوريتان تملكان وحدهما القوة فان الحظ الاخير للامة ذو طابع روحى وفكرى • وبأنها لن تبقى عظيمة الا بهذه الطريقة، وبأن شعوب ما وراء البحار لن تبقى وفية لها الا اذا لم تخن هى نفسها رسالتها • • • ولكنى اشك فى كون هؤلاء باستطاعتهم ان يفهموا أى شىء » • وفى نفس الاسبوع دافع مارو فى نفس المجلة عن نفس الفكرة بقوله : «ان مما يثير دهشة اصدقاء فرنسا انها تمارس سياسة تناقض تماما الاسس التى يجب ان تحدد سياستها أى « تلك العدالة، وتلك الاخوة وتلك الحرية » التى كانت تبشر بها فى كل مكان» •

واستمر الجدل ، واستمرت الرغبة فى التصدى له ، وربما وجدنا فى ما كتبه دو مينياك فى « الشهادة المسيحية » بتاريخ 26 ابريل 1957 وسيلة لانهاء هذا الفصل حول البحث الذى ولدته حرب الجزائر عن صيغة لتصور الهوية القومية • ان هذا النص الواضح والمحدد يلخص على ما أرى افكار كل أولئك الذين تعرضنا لذكرهم يقول « دومينياك » • « انها ليست بالسياسة،ولا بالفلسفة،ولا باللاهوت • انها حقيقة فى متناول فهم الصبيان، هناك اشياء لا ينبغى القيام بها ، وكل من قام بها انما يأتى باعمال منافية للشرف • واذا ذهبنا الى أعماق ما يجعل الوطن يحيا ، فاننا نجد تقاليد للخدمة ، وشرف العائلة ، وفى أساس تضحية خالدة تلك الفكرة البسيطة التى تجدها عن القديس لويس،وعن جان دارك،وعند بيقى،وعند ديغول ، تلك الفكرة التى خانها القوميون • وهى أنه ينبغى ان تخدم من خلال فرنسا تلك الطهارة التى يعطيها البعض اسما سماويا بينما يطلق عليها البعض الآخر اسما جمهوريا » •

لقد الحنا ، طوال تعرضنا للمشكلة القومية ، لمشكلة التعذيب ، وكذلك لمفاهيم: الحرية،والاخاء،والمساواة.أى لاسس الشرعية الوطنية • ان طبيعة المعلومات التى تم الحصول عليها والاعمال التى تم الوقوف عليها ادت بسرعة الى نقاش مكمل للنقاش السابق ولكنه نقاش أكثر حدة لانه هذه المرة نقاش لا يعرف المهادنة • هل تبرر ضرورات الدفاع استعمال أساليب غير مشروعة ؟

ان الصحافة التى سبق ان اشرنا اليها اعتبرت هنا أيضا ان من واجبها ان تخبر • والاخبار فى هذا المجال شديد الدقة والحساسية لانه لا يحتمل الخطأ • ان التهجم على الجيش،واتهام ضباط وجنرالات اتهاما يكاد يصل الى ذكر اسمائهم،يتطلب الحذر،ويستدعى خاصة صرامة مطلقة فى صحة المعلومات اذا ما أريد تجنب الوقوع فى فخ الخصم وعدم تبرير صفة الخيانة التى كان من السهل الوصم بها • كان من اللازم جمع الحجج وتقديم الملف الى الجمهور • وهذا ما قامت به مجلة « الشهادة المسيحية » فى ربيع 1957 • فقد قدمت فى عددها الصادر فى 15 **فبراير رسائل جان مولير** ، كما طبعتها فى شكل كتيبات • ان تلك الرسائل عبارة عن شهادات شخصية كتلك التى تقدم أثناء المحاكمات. وفى 22 مارس 1957 توجه جوزيف فولييى مباشرة الى رئيس الحكومة معتمدا على مجموع

تلك المعلومات · فقد كتب تحت عنوان : « **رسالة مفتوحة الى غى مولى** » ما يلى : « مـــن 1940 الى 1944 (المجلة انشئت تحت الاحتلال) قلنا لكل من المانيا الهتلرية **وفيستى** والمقاومة موقفنا · ونفس الشرف يحـتم علينا اليوم ··· وفى هذا الشـــان فان شرفنا كمسيحيين ، وشرفنا كفرنسيين يمد كل منهما يده للآخر » ·

وبعد ذلك وكما تم للمجلة ان نشرت تفكيرا عميقا حول مفهوم الحرب ، فانها ودائمـا بقلم « كالفى » تنشر بتاريخ 12 يوليو 1957 تحليلا معمقا للاساليب التى تم كشفهـا بفضل ملفات جديدة ، وتحت عنوان : **الحـرب الثورية والتعذيب** عمد كالفى الى نقاش لاهوتى منظم يبرز الخطأ والغلط المعنويين بالاضافة الى عدم جدوى تلك الاساليب.ولكن مصدر هذا النقاش نفسه يدل على ان الاجماع قلما يحصل حتى داخل المجموعة الدينية الواحدة · وقد أثار موقف « فوليبى » ردا بعنوان:«**رسالة من قسيس حـول التعذيب**» بتاريخ 21 يوليو ، وهذا الرد على العكس يؤكد رأى صاحبه فى موافقته على التعـذيب وعارض هذا الرأى كالفى فى 12 يوليو · وعلى كل فان لهذه المقالات المتضارية ميـــزة أكيدة ، فهى تمكن الجمهور من المشاركة فى النقاش وتقدم له عناصر المناقشة والجدال ·

غير أن التحليل الاكثر عمقا ـ مع أننا لم نتمكن من الاطـلاع على كــل ما كتــب فى الموضوع ـ هو ما ورد ما فى ذلك المؤلف الذى نشره ب هـ. سيمون تحت عنوان واضح ينبىء بمحتواه : **ضد التعذيب** · مجموعة من الملفات تسنـد سردا بسيطا ، وحماسيا ، ولكنه لم يصل أبدا الى حد الشتم أو التلفيق ·

فى البداية ليس هناك بالطبع من يوافق على التعذيب عن طيب خاطر · انه على الاكثر ضرورة ظرفية تفرضها الحرب الثورية ، ويجب تقبلها · وهنا يرد ب· هـ· سيمون : ان اى ظرف مهما كان ماساويا لا يسمح بانتهاك المبادىء أو التنكر لها · وقد ذكر الكاتب «بديان بيان فو»مما أثار حفيظة الكثيرين ، حيث كتب · نعم ، ان امتنا فى قمة وجدانها ، كان همها أن تحصل على احترام الهزيمة ، وان لا تشترى النصر بالغدر · آه يا ليتنا لن نخسر المعركة والشرف معا»·

وبعد أن ذكر بماساة كان من شأنها هى الاخرى ان تبرر كل شىء اضـاف يـؤكد : « ان الوضعية لا تعفى من كــل شىء ، وان ما يشكــل قوة المبادىء هى كونها مبادىء أى

تعبير عن شيء مطلق لا يخفى أي اعتبار للظروف أو المصالح ، والا لم يبق هناك أي حق أو اطلاق » . وهكذا تحددت المواقف . فهناك من يؤمنون بأن الحق والاخلاق ولو كانت سياسية يعلوان الدولة ، وهناك من يقبلون النقيض . ولكن هذا الاختيار يمثل في نظر ب. هـ. سيمون خطورة بالغة بحيث يمكن ، حسب ما عبر عنه ب. ايمانويـــل ان يشكل أحد أسباب فصم التعاقد الوطني ومن العواقب ذات الخطورة القصوى الاتهام بالخيانة . وهذا يعني ان الانسان اذا كان فوق مستوى الدولة فانــه يجب عليه ان يقوم ضدها . « ان الشرطي الذي يعذب المتهم ولو كان مذنبا ، فما بالك اذا كان بريئـــا ، يمس في شخصه روح الانسانية ، لانه انما يقوم بالتعذيب كقاض يتمتع بنوع التفويض الاجتماعي وهذا ما يعطي لفعلته صفة الخرق الرسمي للقانون ، ويمثل عكسا للمبدا الروحي ويحطم الرابطة التي تكتل المجتمع » . ان هذا الخطأ بلغ من الخطورة الحد الذي يسمح للمواطنين ان يعصوا الدولة الفرنسية اذا كان من شأن ذلك ان يتحول الى وسيلة رسمية الاستعمال. وفي هذه المعركة من أجل المطلق السياسي أثار سيمون قضية « درفوس » التي قسمت الفرنسيين قبل 50 عاما لدرجة انها كادت تشعل حربا أهلية ، وليس في الافكار فقط .

والمدافعون الحقيقيون عن الجيش وقتها لم يكونوا أولئك الذين يحاولون تغطية خطإ قضائي « بل أولئك الاخلاقيين الصرماء الذين طالبوا باعادة المحاكمة » .

والمدافعون الحقيقيون عن المانيا هم أولئك الذين ثاروا في وجه النازية . ولهذا يجب على الفرنسيين الحقيقيين ان يقفوا ضد هذه المواقف التي يـــدفع ثمنها الوطن بأكمله ، يدفعهم الى ذلك التزامهم الخلقي .

وهناك سؤال آخر مطروح:فبامكان الكاتب أو القارىء ان يقول : « أنا لست مسؤولا أنا لم أصدر أمرا ولم أمارس تعذيبا ، اذن فأنا لست مذنبا » . ان هذا تهـرب ، فهناك بطريقة أو بأخرى شكل من المسؤولية الجماعية أو الذنب الجماعي.ان هذا المفهوم لدقيق ، ولذا يجب بذل العناية الكاملة في تحديده . ان التأكيد عـــلى الذنب الجماعي يمكن في الواقع ان يشكل تقهقرا شاسعا في ميدان القانون الذي قضى قـرونا للتخلص منه » . وهنا نضع اصبعنا على مشكل اخلاقي يجب تسليط الضوء عليه . مشكل الذنب الجماعي الذي يطرح مسألة شائكة من حـق القانونيين أن يتحذروا منها . فهذا المشكل يشبه

مشكل المشاركة الايجابية من طرف مجموعة تعتبر مسؤولة عن أعمال يقوم بها شخص واحد مرتبط بها اما بشكل مباشر، بواسطة ضغط الوجدان المشترك واما بصفة غير مباشرة بحيث تركت المجموعة الشخص يقوم بتلك الاعمال • وفى هذه الحالة فان الاحساس بالذنب الجماعى يمثل شكلا تلقائيا من أشكال حب الشرف • وهنا نجد تلك العاطفة الشديدة والغامضة التى يصعب تحديدها والتى تكلم عنها دوميياك اثناء بحثه عن تعريف للقومية • هذه العاطفة التى تلقن منذ الطفولة حول ما يجب عمله وما لا يجب القيام به •

هناك مجموعة من المثقفين أكثر اتساعا من المجموعة التى تكلمنا عنها ، وهى مؤلفة من كل أولئك الذين عليهم أن يمثلوا عالم الفكر فى مجموعه ومن بينهم خاصة الجامعيون -انتهزت هذه المجموعة قضية « اودان » لتتخطى الكلمات ولتعمل فى ميدانها الخاص بها • ففى 1957/12/2 وامام جمع غفير من الحاضرين انعمت جامعة السوربون على موريس اودان بلقب دكتور فى العلوم بعد وفاته ، ان هذا الاجراء الغير عادى يريد أن يؤكد على نوع من اتخاذ المواقف الرسمية من طرف الجامعة ، مع أن الجامعة لم تكن أيضا تحظى باجماع اعضائها — •

وهذا التأكيد الاخير يحصل وسط جو متفجر وشديد التوتر من جراء المناقشات التى جرت خلال أسبوع المثقفين الكاثوليك ، تلك المناقشات التى بدت للسيد ميشلى أنها تحمل فى طياتها حربا أهلية بين الافكار • وتناول الكلمة السيد ب. هـ. سيمون أمام ذلك الجمع العلمى والذى يعتبر مسالما.وكان نص مؤلفه موجودا فى كل الافكار • وحدث الانفجار فبينما ساند موقفه مارو وهو ردان اتهمه كل من ج• مارسيل و م• ماسينى بالخيانة • وفى هذه الواقعة يقول ادمون ميشلى فى كتابه :«انك ترى على الوجوه **الواجمة** للمتخاصمين تلك الصورة التى يجب ان تسميها باسمها الحقيقى • الحقد • ونظرا للمكان وقيمة الحاضرين لابد من طرح السؤال : « هل يمكن لكل هذه الضغينة أن تقطن نفوس اناس اتقياء ؟ » • بلاشك ، واذا كان الشأن هكذا هنا ، فكيف يمكن ان يصير الوضع فى الاوساط الاخرى • وللرد على تهمة الخيانة يثار اتهام آخر لا يقل خطورة وهو تهمة الاستبداد أو الفاشية ، البعض خونة والبعض الآخر فاشيون ، ويعلم الله ما كان تحمله

تلك الكلمة من ذكريات فى فرنسا بعد عشر سنين فقط من انتهاء الحرب العالمية الثانية · ففى صيف 1957 طلب بورجيس مونورى الصلاحيات الخاصة ، ونجد بسبب هذا نفس الفرز الذى قسم بين المثقفين الفرنسيين تحت الاحتلال الالمانى · غير أن التقسيم آنذاك لم يكن متساويا . يجب التأكيد على هذا والالحاح عليه · فهناك اقلية « موراسية » ، تأخذ القوة بلبها ، وهناك الاغلبية العظمى الوريثة للتقاليد الجمهورية والمعادية لكل حكم عسكرى · وقبل عودة الجنرال ديغول الى الحكم بسنة ، كانت قد حدثت حرب أهلية بين الافكار ، وهى حرب تمهد لكثير من الاشياء الاخرى · وهذه الاشياء الاخرى لم تتخذ بعد شكلها · ولكن ، وبينما صارت تتضح ملامح حل المشكلة الجزائرية ، استخلص دومينياك فى مجلة الفكر (عدد يناير 1961) العبرة من كل تلك المجابهات والاصطدامات الحادة · « ان الجمهورية الرابعة قد تحطمت على حرب الجزائر · واذا كانت الديمقراطية لا تزال توجد بفرنسا فالفضل يعود الى شخصية الجنرال ديغول المتميزة · ولكنها أصبحت ديمقراطية محمية ليس لها من قوة ذاتية ولا من دافع مدنى · والسبب الاول لهذا الانحطاط هو ممارسة الكذب والتضليل ايجابا أو سلبا · فخلال تلك الاربع سنوات ليس هناك أى رجل دولة وليس هناك أى حزب سياسى كبير لم يكذب ولم يتنكر لنفسه · وهنا يمكن ان نحكم على الشر والاذى الذى سببه التعذيب » ·

وتحول الموضوع شيئا فشيئا من مشكل عدالة ، وعمل فردى الى تحليل لهياكل الدولة كلها بحيث وصل الامر الى حد التساؤل عن الانتماء لدولة فاسدة · ولكن ، وقبل أن يصل الشأن الى هذه الحالة القصوى يجب ـ كما فعل الرجال الذين يعنوننا هنا ـ اختيار جانب الدفاع عن الدولة ضد أولئك الذين يحفرون قبرها · ففى مثل هذا الجو الساخن للافكار ، وضع الجنرال ديغول فى سنة 1958 ثم فى 1961 وأخيرا فى 1962 الحل النهائى الذى ترتضيه الاغلبية حتى ولو أن البعض لم يلقوا بأسلحتهم بالمعنيين الحقيقى والمجازى ·

* * *

كيف نختتم هذه السطور السريعة ؟ يبدو لى اننا سوف نختمها بعلامة استفهام شأننا فى ذلك شأن كثير من المثقفين الذين تساءلوا : هل لعبت مناقشاتهم دورا فى حل المشكل وفى تطوير العقول ؟ ان الجواب لصعب · والانطباع السائد لدى أغلبهم هو

أنهم كانوا يتكلمون فى صحراء ، وانهم لم يكن لديهم أى تاثير فعال على الاحداث • فقد كتب ب• ريكور فى مجلة الفكر (عدد فبراير 1959) معلقا على « ماكس ويبر) ما يلى : « ان هذه الدراسة تبعث البلبلة فى نفوس المثقفين الذين سرعان ما اكتشفوا بأنهم ليسوا الا هواة فى السياسة ، وبأنهم معزولون عن النفوذ السياسى الحقيقى من طرف السياسيين المحترفين » • ان المحترفين يخاطبونهم بلقب « سيدى الاستاذ » بلهجة كلها سخـــرية وازدراء مضيفين : « أنكم لا تفهمون شيئا » ويقــول لوك ايستانغ فى مجلة « الشهــادة المسيحية » الصادرة فى 29 مارس 1957 :

« ان المرء ليكاد يقتنع بان عناء البشر لا يساوى قصيدة شعر • وما جدوى ذلك القلم الذى نوقع به ذيل البيانات • ان من الاجدى له ان يتحول الى عصفور كما تحول قـــلم تلميذ السيد بريفير » • انها كلمات تقطر بأسا ومرارة أمام وضعية لم تتغير ، رغـــم الكلمات ، بل انها لا تزداد الا خطورة •

وعلى هذا السؤال الختامى ، يجيب الكل فى الواقع لانه ليست هناك أيـــة وسيلة للحكم المؤكد على فعالية القلم •

ولكن ، اذا لم يكن بالامكان ان نرى رأى العين وأن نحصى بالارقام فعالية تفكير أو نداء هل معنى ذلك أن نحكم عليها بأنها أوهام ؟ وهل معنى ذلك ان نتخلى عن العـــمل الفكرى • ان كثيرا من الرجال قد كتبوا ولم يروا أبدا مفعول أقوالهم حتى يئســـوا ، ونحن نقرؤهم اليوم بكل اهتمـــام •

مَعاقد الطرافة في فكر ابن خلدون

د. عثمان أمين
استاذ الفلسفة بجامعة القاهرة



عبد الرحمن بن خلدون ، فى نظر الكتاب الغربيين ، امام المؤرخين العرب ، وأحد كبار المؤرخين فى العالم ، ومؤسس « علم الاجتماع » الحديث ، قبل « أوجست كمت » بنحو خمسة قرون ...

ومن عجب أن هذا المفكر العبقرى ، الذى يمجده اليوم ، كتاب العرب وكتاب المسلمين قد ظل عند أولئك وهؤلاء ردحا طويلا من الزمان مغمورا ، فلم يلتفتوا اليه ، ولم يتبينوا مواقع أصالته ، ولم يستشفوا آفاق جدته .

أكبر ظننا أن دراسة آثار ابن خلدون فى العالم العربى انما بدأت فى مصر ، أواخر القرن الماضى ، وكان رائدها السيد جمال الدين الافغانى وحمل لواءها من بعده الامام محمد عبده الذى ألقى فى « دار العلوم » محاضرات عن ابن خلدون .

وفى كتاب ابن خلدون المشهور باسم « المقدمة » نظرية مستفيضة فى البحث التاريخى أو فى « فلسفة التاريخ » ـ كما يقال اليوم ـ وفيها على الخصوص اسهام جديد

فى نمو الفكر الانسانى ، ونعنى به تحليلا مبتكرا للمنهج التاريخى ، وتأسيسا متينـا لما يسمى فى الاصطلاح الاوروبى الحديث « علم الاجتماع » ٠

يستهل صاحب « المقدمة » كتابه بحديث عن أهمية التاريخ وفضله : ولاول وهلـة نراه يبين الفرق بين النظرة « البرانية » والنظرة « الجوانية » الى هذا الفن العتيق ٠ ولاول مرة أيضا نراه يدعو الى اعتبار التاريخ فرعا من فروع الفلسفة ، أو « العلوم الحكمية » ، على حد تعبيره اللماح ، فيقول (1) : « ان فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الامـم والاجيال ، وتشد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته الســوقة والاغفـال ، وتتنافس فيه الملوك والاقيال ، يتساوى فى فهمه العلماء والجهال ، اذ هو فى **ظاهــره** لا يزيد على اخبار عن الايام والدول والسوابق من القرون الاول ٠٠٠ وفى **باطنه** نظـر « وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل فى الحكمة عريق » ٠

وهو يحلل لنا أعمال من سبقوه من « فحول المـؤرخين فى الاســلام » ، مبينا أن المتطفلين على التاريخ قد خلطوها بما توهموه أو ابتدعوه « **ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والاحوال** » ، ولم يرفضوا ترهات الاحاديث والروايات ٠ ومع أنه كان فى **مؤلفــات** الكلبى والمسعودى والواقدى من المطاعن والمغامز ما هو معروف عند الثقات ، الا أن الكافة اختصهم بقبول أخبارهم ٠ « ثم لم يأت من بعد هؤلاء الا مقلد بليد الطبع والعقل ينسج على ذلك المنوال ٠٠ ويذهل عما أحالته الايام من الاحوال » ٠ وبالجملـة كانت أعمالهم «حوادث لم تعلم أصولها » ٠ يكررون فى موضوعاتهم الاخبار المتداولة (دون تمحيص لها) ٠٠٠ فيبقى الناظر متطلعا بعد الى افتقاد أحوال مبادىء الدول ومراتبها ، ومفتشا عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها ، باحثا عن المقنع فى تباينها أو تناسبها ٠٠٠ ثم جـــاء آخرون فافرطوا فى الاختصار ، وذهبوا الى الاكتفاء بأسماء الملـوك والامصار ، مقطوعة عن الانساب والاخبار » ٠

---

1) اعتمدنا فيما أوردنا من نصوص لهذا المقال على الطبعة القيمة الممتازة التى قـام على تصحيحها وتحقيقها وشرحها الدكتور على عبد الواحد وافى (القاهرة سنة 1960) ٠

وينتقل ابن خلدون الى بيان أسباب الخطأ أو الكذب أو التحريف فى الاخبار ، وأهمها فى نظره : التشيع للآراء والمذاهب ، والثقة بالناقلين والنفاق لاصحاب الجاه والسلطان ، و « الذهول عن المقاصد » · وهو ما نسميه فى اللغة العصرية باسم « الغفلة » (أو التغفيل !) ·

ولا يقتصر ابن خلدون على النقد اللاذع لما وقع فى كتب المؤرخين السابقين ، ولكنه يعرض علينا منهجا علميا لعلاج هذه الاسباب ·

وخلاصته تحرى ما نسميه الآن باسم « الموضوعية » وقوامها التحرر من الهوى ، وتجنب ما سيطلق عليه « ديكارت » من بعده اسم « الرأى المسبق » او « الفكرة المبيتة

وواضح هنا أن « خلفية » فكر ابن خلدون فى معالجة تصديق المؤرخ للرواة والناقلين هى قاعدة « التجريح والتعديل » المعروفة عند « علماء مصطلح الحديث » · ومن هنا كانت دعوة ابن خلدون الى تطبيق هذه القاعدة على علم التاريخ ·

ولمن شاء أن يتوسع فى المقارنة بين قواعد هذا المنهج عند ابن خلدون وقواعد المنهج الديكارتى (وأولها قاعدة البداهة) ، وثانيها قاعدة (تجنب العجلة والتحيز) ، فمجال القول عند دارسى الفلسفة والاجتماع هنا فسيح خصيب ·

* * *

ويتحدث ابن خلدون عن واقعات « العمران البشرى » أو « أحوال الاجتماع الانسانى » الذى هو « عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومعاشهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث فى ذلك العمران بطبيعته من الاحوال » ·

ويتضح مما كتبه ابن خلدون فى « المقدمة » أنه نظر الى الظاهرات الاجتماعية نظرة شاملة تحيط بجميع أقسامها وأطرافها ـ من ظاهرات عائلية واقتصادية ودينية وسياسية واخلاقية وجمالية وتربوية ولغوية ، ـ واستطاع بأن يبين اثر البيئة الجغرافية فى الظاهرات الاجتماعية · وهذه فيما يبدو نظرة جديدة امتاز بها ابن خلدون ولم يسبقه

اليها أحد ، بل انها ظلت مجهولة حتى مستهل القرن العشرين ، اذ عرفت باسم « علم البنية الاجتماعية » (أو المرفولوجيا الاجتماعية) كما يحدثنا الثقات من علماء الاجتماع فى العالم الغربى ٠

ولاول مرة ـ فيما يحدثنا المستشرق الفرنسى « دوسلان » ـ يؤخذ المجتمع الانسانى موضوعا للدراسة ، اذ نرى ابن خلدون يقرر أنه لاغنى لمؤرخ الحضارة عن أن يرسم صورا لتقدمها وتدرجها منذ نشأتها حتى وصلت الى ما وصلت اليه فى عهده ، ولاغنى له عن أن يزود قراءه بجميع المعارف التى ينبغى له الوقوف عليها قبل الاقدام على دراسة التاريخ الانسانى ٠ ثم هو يوضح أن واجب فيلسوف التاريخ هو أن يستكشف القوانين التى تخضع لها الظاهرات الاجتماعية فى نشأتها وتطورها ، وأن علم « العمران البشرى » هو المعيار الصحيح لتمييز الحق من الباطل فى التاريخ ٠ لابد اذن من متابعة ارتباط الوقائع بعضها ببعض ، لان « قانون العلية أو السببية » ذو دور كبير فى التاريخ ٠

وهذه أيضا نظرة فيها جدة وطرافة : فقبل ابن خلدون لم يفطن أحد الى أن الظاهرات الاجتماعية لا تسير حسب المصادفات والنزوات ، بل هى خاضعة لقوانين مطردة لا تتخلف ، شانها فى ذلك شان الظاهرات الطبيعية والفلكية والبيولوجية ٠ ومن أجل ذلك رأى ابن خلدون أنه يتعين دراسة هذه الظاهرات الاجتماعية دراسة « موضوعية » بتعبيرنا الحديث ، أى على نحو كنا ندرس ظاهرات العلوم الاخرى ٠

وواضح مما تقدم ان الدراسة التى انشأها ابن خلدون فى « المقدمة » قد جاءت بعلم جديد هو « علم الاجتماع » ٠

وواضح أيضا من كلام ابن خلدون نفسه أنه كان مدركا تمام الادراك للمهمة التى نهض بعبئها ، وكان معتزا كل الاعتزاز بالاكتشاف (أو الاختراع) الذى فتح الله به عليه ، فهو يقول عن منهجه فى كتابه ، « وسلكت فى ترتيبه وتبويبه مسلكا **غريبا** ، **واخترعته** من بين المناحى مذهبا **عجيبا** ، وطريقة **مبتدعة** وأسلوبا ، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض فى الاجتماع الانسانى من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها » ٠

ويقول عن علم العمران البشرى ، « وكأن هذا علم **مستقل بنفسه** ، فانه ذو موضوع ، وهو العمران البشريْ والاجتماع الانسانى ، وذو مسائل ، وهى بيان ما يلحقه من العوارض الذاتية واحدة بعد أخرى· وهذا شأن كل علم من العلوم ، وضعيا كان أو عقليا.

ثم هو يعود فيقول : « اعلم أن الكلام فى هذا الغرض **مستحدث** الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ، أعثر عليه البحث ، وأدى اليه الغوص ، وليس من علم الخطابة الذى هو أحد العلوم المنطقية ، فان موضوع الخطابة انما هو الاقوال المقنعة النافعة فى استمالة الجمهور الى رأى أو صدهم عنه ، ولا هو أيضا من علم السياسة المدنية ، اذ السياسة المدنية هى تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الاخلاق والحكمة ، ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه ، فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنين اللذين ربما يشبهانه ·

ويمضى ابن خلدون فيقول عن العلم الجديد الذى أنشأه « وكانه علم **مستنبط النشأة** ، **ولعمرى لم أقف على الكلام فى منحاه لاحد من الخليقة » ما أدرى لغفلتهم عن ذلك ـ وليس الظن بهم ولعلهم كتبوا فى هذا الغرض واستوفوه ولم يصل الينا ، فالعلوم كثيرة ، والحكماء فى أمم النوع الانسانى متعددون ، وما لم يصل الينا من العلوم أكثر مما وصل»**.

وقد عقد ابن خلدون فى « المقدمة » فصلا مشهورا يكثر الاستشهاد به فى كتابات المعاصرين وعنوانه أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده · وقد بين فيه أن السبب فى ذلك أن النفس تعتقد الكمال فى من غلبها وانقادت اليه ، اما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو بما تغالط ص أن انقيادها ليس لغلب طبيعى انما هو لكمال الغالب · فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به ، وذلك هو الاقتداء ··· ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلاحه ، بل وفى سائر احواله » ·

وبعد فان استكشاف فكر ابن خلدون فى أيامنا هذه ليس من قبل الاشتغال بالامور النظرية أو البحوث الاكاديمية التى لا تهم الا الدارسين المختصين أو الباحثين الفارين من بؤس الحاضر الى رحابة الماضى المجيد وبعبارة أخرى نقول ان دراسة فكر ابن خلدون فى

مظاهر عبقريته ليست انصرافا عن مشاكل زماننا ، بل هى مشاركة ايجابية فى تحليل العلل البعيدة العميقة لاخطر ما نواجهه من مشكلات وتحديات ٠

والواقع أن كتابات ابن خلدون تضىء لنا مرحلة مهمة جدا فى تاريخ أقطار نشهدها اليوم فى وضع من أوضاع البلاد التى يطلق عليها اسم « المتخلفة » أو « النامية » والواقع أيضا أن ابن خلدون حين قام بتحليل علمى للاحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى كانت تعيش فيها افريقية الشمالية ابان العصر الوسيط ، قد أثار عددا من المشكلات التاريخية الاساسية ، لقد وصف نظما وانماطا اجتماعية وسياسية معقدة أشد التعقيد ٠ وهذه النظم والانماط حين خضعت لتأثيرات خارجية قد مهدت السبيل لقيام السيطرة الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ٠ وهذه السيطرة الاجنبية هى التى أدت بدورها الى أوضاع التخلف الحاضر ٠

ان عمل ابن خلدون تسجيل لمولد التاريخ من حيث هو علم ، وهو يفتح لنا نافذة واسعة على مرحلة رئيسية من مراحل الماضى لدى ما يطلق عليه اليوم اسم «العالم الثالث».

انطباعات عن
ملتقى الدراسات العربية
و الاسلامية
بمعهد تكوين الدعاة
للجامعة السيفية - ببومباى -

المهدى البو عبدلى

عضو المجلس الاسلامى الاعلى
الجزائر



انعقد هذا الملتقى بمدينة بومباى اثر المهرجان الذى اقامته طائفة (البهرة) الفاطمية بمناسبة احياء ذكرى قائدها الراحل الداعى الواحد والخمسين ، الدكتور طاهر سيف الدين ، الذى كان ابرز وأمثل دعاة الطائفة وساعدته الظروف حيث دامت رياسته خمسين سنة اى من سنة 1945 الى سنة 1965 م · وفى هذه الفترة وضع كثيرا من التآليف باللغتين العربية والاوردية ، ونشر نفائس المخطوطات الفاطمية التى كانت تزخر

بها خزائنه ، وفى عهده ازدهرت الجامعة السيفية بمدينة سورت ، المتخصصة فى تكوين الدعاة ، والتى تبعد عن مدينة بومباى بنحو 160 كم • وهى من مؤسسات احد اجداده • وهو الداعى سيف الدين الذى سميت الجامعة باسمه ، تطورت الجامعة السيفية فى عهد د • طاهر سيف الدين ، تطورا ملموسا ، حيث ادخل فى برامج التعليم بها ، زيادة على العلوم الدينية اللغات والعلوم الاقتصادية والفنية والسياسية واللغة العربية وأكثر تلامذتها من ابناء الطائفة ، المنتشرة فى مختلف البلاد الاسلامية ، وبالخصوص فى بلاد اليمن ، وافريقيا الشرقية ، والخليج العربى ، كما اسندت الى د • طاهر سيف الدين ، ادارة جامعة (على كرة) بحيدراباد ، الشهيرة فى بلاد الهند بانها من أهم مراكز انبثاق الثقافة الاسلامية ، ود • طاهر سيف الدين هو والد الرئيس الحالى لطائفة البهرة ، وهو عظمة السلطان د • محمد برهان الدين ، الداعى الثانى والخمسون ، وقد دشن فى هذا المهرجان ، مسجد وروضة ، بمدينة بومباى فى الحى الاسلامى ، المعروف ببندربازار (Bender Bazar)

ترأس احتفالات التدشين ، رئيس الجمهورية الهندية فخامة السيد فخر الدين على أحمد ، وحضرها علاوة على عدة وزراء وشخصيات هندية ، ممثلون لمعظم الدول الاسلامية والعربية كان المشرف على مهرجان التدشين وملتقى الدراسات العربية والاسلامية ، الذى اعقبه مباشرة ، عظمة الداعى الفاطمى د • محمد برهان الدين وهو الذى وجه وفودا من افراد أسرته ، وتلاميذه ، الى دعوة الشخصيات الاسلامية ، وغير الاسلامية ، من مختلف بلدان العالم ، للحضور فى هذه الاحتفالات ، كان من ضمن هؤلاء المدعوين ، الاخ الوزير السيد مولود قاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، الذى استجاب للدعوة ، الا انه ، عرضت له موانع ، فشرفنى بالنيابة عنه ، فمثلت الجزائر فى هذا الحفل ، صحبة الاخ السيد عمر أو صديق ، سفير الجزائر بالهند •

حضر هذا الحفل ، عشرات الآلاف من مختلف سكان الهند ، مسلمين ، وغير مسلمين ، وفى طليعتهم ممثلو الدول الاسلامية وجامعاتها •

وقبل ان اتعرض بمزيد من البيان والتفصيل لمهرجان التدشين هذا ، ولاعمال ملتقى الدراسات العربية والاسلامية ، الذى اعقبه ، وللحديث عن الخطبتين المنهجيتين اللتين

القاهما فى هذين الحفلتين رئيس الطائفة د · محمد برهان الدين · احدثكم باختصار عن اطوار الدولة الفاطمية فى الميدان الدينى والعقائدى بعد ما تولى الايوبيون على مملكة مصر ، وهاجر الكثير منهم الى اليمن ، ثم الى بلاد الهند ، حيث تواصلت الدعوة ، وتقمص دعاتها ثياب التستر من جديد الى يومنا ، هذا ، وقد حافظ هؤلاء المهاجرون ، على الوثائق التى نقلوها من الجزائر ، عندما اختار الملك المعز لدين الله الفاطمى حوالى سنة 36I هـ · الاقامة بالقاهرة المعزية ، وبفضل هذه الوثائق ظهر جليا، الرباط الوثيق، الذى يربط الدولة الفاطمية بالجزائر ، ومما يؤيد هذا ، أى نقل هذه الوثائق ، والاحتفاظ بها ، ما نشرته مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية ، فى المجلد الرابع الجزء الثانى المؤرخ فى ديمسبر 1936 كتقديم لمذكرات تتعلق بالمهدى الفاطمى (استتار الامام ، وسيرة جعفر الحاجب) التى تولى تحقيقهما المستشرق IVANOW ايفانوف ، وتولى ترجمتهما الى العربية ، الاستاذ محمد كامل حسين الذى قال فى تقديمه : « هاذان المؤلفان ـ اللذان ينشران هنا ـ من الكتب التى يحتفظ بها الاسماعيلية المستعلية بالهند ـ أى البهرة ـ كمادتين من مواد أدبهم الدينى ، الذى لا يسمحون لاحد ان يطلع عليه ، وبالرغم من ذلك ، فقد ترجم غلام على ابن اسماعيل أول هذين المؤلفين الى اللغة الكجراتية ، وطبعه (بالمطبعة الحجرية) فى بومباى عام 1344 هـ ـ 1916 م · لا يعد هاذان الكتابان من كتب التاريخ ، لكنهما مذكرات ، جمعت عدة حوادث ، يغلب عليها روح الاساطير ، ومع ذلك فهما يجمعان تفاصيل عديدة ، أكثرها ممتع قيم ، ومتمم لما رواه الطبرى (ج 2 ص : 2217 ـ 2246) الذى كان يعاصر من ورد ذكرهم فى هذين النصين ، اما الكتاب الاول ـ استتار الامام ـ فينسب عادة الى رجل اسماعيلى ، كانت له مكانته الرفيعة ، هو احمد بن ابراهيم (أو ابن محمد) النيسابورى ، ولا نعرف شيئا عن حياته ، وكل ما يمكن استخلاصه من كتابه ، انه كان يعيش فى اواخر القرن الرابع ، فى أيام المعز لدين الله الفاطمى) اهـ

والذى يهمنا فى موضوع بحثنا ، مما أوردته من هذا التقديم ، اننا نجد ، فى هذه الكتب ، ذكر كثير من اعلام البلدان والقبائل والمدن الجزائرية ، منها المندثرة ، ومنها الباقية الى يومنا هذا ، كايكجان ، وكتامة ، وصنهاجة ، واشير ، وطبنة ، وبسكرة ،

وتيفاش وفرجيوة الخ . كما نجد فى هذه التآليف مكانة مرموقة لقبيلة كتامة ، حيث ان الخلفاء الفاطميين ، كانوا يشيدون بشجاعتهم واستماتتهم فى حروب الدولة ، بـل صرح الخليفة القائم فى خطبة وجهها الى جيشه ، عند اشتداد حروبهم مع الثوار ، الذين كان يقودهم مخلد بن كيداد الزناتى الخارجى ، المشهور بصاحب الحمار شبههم بالمهاجرين والانصار ، الذين نصروا دين الاسلام فى ابتداء أمره ، فقال « وقد علمتم يا معشر كتامة ما مضى عليه آباؤكم ، وقدماء اسلافكم ، من لزوم الطاعة والاعتصام بحبلها ، والتفىء بظلها ، والمجاهدة فى الله حق الجهاد ، وانكم خبيئة الله لهذا الحق المحمدى الفاطمى المهدى ، حتى اظهره الله واعلاه ، وجعل لكم فخره وسناه ، فانكم كحوارى عيسى ، وانصار محمد صلى الله عليه وسلم يا أبناء المهاجرين والانصار الاولين السابقين المقربين، أليس بكم أزال الله دول الظالمين ، التى مضت لها أحقاب السنين ، حتى جعلهم اللـه حصيدا خامدين ، وأورثكم أرضهم ، وديارهم ، فصرتم تغزون ، بعد أن كنتم تغزون ، نزل بازائكم الدجال اللعين ، فى شرذمة ضالة مضلة ، لم يستضيئوا بنور هدايـة ، فهم كالانعام المهملة ، والصور الممثلة ، والخشب المسندة ، والحمر المستنفرة ، ان أقاموا هلكوا ، وان طولبوا أدركوا ، فلا تنكصوا بعد الاقدام ، وأنتم حزب الله ، وهم حزب الشيطان ، وقتيلكم فى الجنة وقتيلهم فى النار ، فأى حق بعد هذا الحق تطلبون ، ومع أى امام بعد امامكم تقاتلون الخ . » (من كتاب « سيرة الاستاذ جوذر » نشر سلسلـة مخطوطات الفاطميين ـ 11 ـ دار الفكر العربى 1374هـ ـ 1954م) .

وعلاوة على ما ذكرناه فان جميع المؤرخين الذين كتبوا تاريـخ الدولـة الفاطمية ، متفقون ، على ان الفاطميين مرتبطون بالجزائر ، وكيف لا ، وهم مدينون بتكوينهم اليها ، اذ فى قطعة من ترابها ، تاسست دولتهم ، وقبيلة كتامة الجزائرية العتيدة ، التى كان موقعها يمتد من سواحل عاصمة الجزائر الى سواحل الحدود التونسية ، هى التى تبنت الدعوة الفاطمية ، وقادت مسيرة انتفاضاتها ، التى اكتسحت الدولة الاغلبية ، الممثلة للخلافة العباسية ، وقضت عليها . ثم أزاحت من طريقها بقية الدول ، التى كانـت تتقاسم بلاد الجزائر ، والمغرب الاقصى ، كالادارسـة ، والرستميـين ، ومغراوة ، وبنى يفرن ، ومع هذا كله ، نجد بعض المؤرخين ، خصوصا المعاصرين ، يظنون ان منطلق

الدعوة الفاطمية ، كان من مدينة المهدية المشهورة بتونس ، وعندما يتكلمون على ايكجان، معقل الفاطميين ، ومنطلق انتفاضاتهم ، وعلى مدينة المسيلة ، التى ولد فيها الملك المعز لدين الله الفاطمى ، وتربى فى ربوعها ، يجعلونهما تابعين لتونس ·

واننى قبل أن أتعرض للحديث عن هذا المهرجان ، الذى دشن فيه المسجد ، والضريح ، بمدينة بومباى ، وملتقى الدراسات العربية والاسلامية ، الذى أعقبه ، أحدثكم باختصار ، عن أطوار الدولة الفاطمية ، بعد نهايتها من مصر ، وانتقال أفرادها الى اليمن ، ثم الى الهند ، وهى الفترة التى تقمص فيها الفاطميون من جديد ، الدعوة الدينية المتسترة ، وواصلوا دعوتهم الى يومنا هذا ، فاننى أتناول بالبحث ، مراحل هذه الفترة ، التى تثبت لنا ، حيوية هذه الطائفة ، التى لقيت فى طريقها ، منذ ما يزيد على الالف سنة ، عقبات ، ومحنا ، فى الميادين السياسية ، والحربية ، والعقائدية فقدت فيها كثيرا من مقوماتها ، الا انها ، بفضل ايمان رجالها ، ووفائهم للمبدأ ، الذى كانوا يؤمنون بحقيته ، واصلوا مسيرتهم ، وذللوا جميع الصعوبات التى تعرضت لهم ، وهذا شأن كل دعوة ، آمن بها أهلها ، والتاريخ ملىء بعاقبة هذا النوع من الايمان ، بالمبادىء التى لم يتسرب اليأس الى نفوس أصحابها ·

الفاطميون

ينحدر الفاطميون ، مؤسسو الدولة ، من صلب الامام جعفر الصادق ، حفيد على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ·

وقد توفى الامام جعفر الصادق سنة 148هـ وهو مشهور بالعلم ، ورواية الحديث ، وقد أخذ عنه كثير من معاصريه ، الذين نجد من جملتهم ، الامام مالك بن أنس امام المدينة المنورة ، ولما توفى الامام جعفر الصادق هذا ، افترق أولاده ، وأنصاره ، فرقا وشيعا ، كان من بين هذه الفرق ، الامامية الاثنى عشرية ، التى كانت تنتصر الى موسى الكاظم ، ابن الامام جعفر الصادق ، وفرقة الاسماعيلية ـ موضوع بحثنا ـ التى تنتسب الى الامام اسماعيل ، الولد الاكبر للامام جعفر الصادق ، وقد توفى الامام اسماعيل هذا ، فى حياة والده ، وخلفه ولده ، الامام محمد ، وقد كتب لهذه الفرقة

الخلود ، اذ هى التى تكونت منها الدولة الفاطمية ، ثم تفرقت الاسماعيلية هذه الى فرقتين ، مشهورتين ، عند مؤرخى المذاهب ، وهما الفرقة الاسماعيلية « الغربية » ، والفرقة الاسماعيلية « الشرقية » ، وذلك ان الخليفة الفاطمى المستنصر بالله الخليفة الثامن للدولة الفاطمية ، كان أوصى ـ حسب المبادىء الفاطمية ـ بالخلافة لابنه البكر ، ثم عزله منها ، وأوصى بها ، لابنه الاصغر ، ولما توفى الخليفة المستنصر بالله ، سنة 487هـ · الموافق 1094م · تفرقت شيعته الى فرقتين ، احداهما انتصرت للولد الاكبر ، وهذه هى الفرقة الاسماعيلية الشرقية ، وكان مقرها ببلاد ايران ، ومن أشهر دعاتها ورؤسائها المعاصرين ، آغا خان ، الذى توفى منذ سنوات ، وخلفه ولده السيد كريم الذى لا زال يتمتع بالتجلة والتقدير عند أنصاره ، وهو الآن بكراتشى ويتردد كثيرا على أوروبا ·

والفرقة الثانية التابعة للولد الاصغر ، هى المعروفة بالاسماعيلية « الغربية »، وهى التى يتزعمها اليوم عظمة سلطان البهرة د · محمد برهان الدين ، الداعى الثانى والخمسون ، الذى أقام المهرجان المتحدث عنه ·

والحديث عن هذين الطائفتين ، وعن بقية الطوائف الشيعية ، خصص بمئات التآليف، ولا زال معينه لم ينضب ، وكان من بين الباحثين الذين تتبعوا مراحل هذين الطائفتين ، المستشرقين أمثال VON HAMMER PURGSTALL (فون هامر بور قسطال) النمساوى ، ودو ساسى DE SACY الفرنسي والمستشرق الروسي ايفانوف IVANOW وأخيرا فقط ظهر كتاب قيم للمستشرق الفرنسى هنرى كوربان ، HENRY CORBIN عنوانه « تاريخ الفلسفة الاسلامية » ، وهنرى كوربان هذا ، متخصص فى الدراسات الفارسية ، بجامعتى الصوربون وطهران ، وقد استعان بعالمين مسلمين ، متخصصين فى تاريخ الاسماعيلية ، وهما الاستاذ عثمان يحيى السورى ، العضو بالمركز الوطنى للبحوث العلمية (C.N.R.S.) بباريس والاستاذ حسين نصر ، استاذ بجامعة طهران ، هذا كله يدلنا على اهتمام الباحثين ، من مختلف الملل والنحل ، بمثل هذه المواضيع الجوهرية ، فى تاريخ الشعوب ، وتطور الاديان ·

وقد تعلم ان المذهب الشيعى له مكانته ، فى كثير من البلاد الشرقية ، وان من أصول العقائد الاسماعيلية ، وجوب وجود امام يتولى الزعامة الروحية فى العالم ، وان قيام

الوصى الذى يرجعون عهده ، الى النبى صلى الله عليه وسلم ، يكون بالنص ، ويستدلون على رأيهم هذا ، بان أول وصى للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الخليفة الرابع علـى ابن ابى طالب ، ويخلفه فى هذه الولاية ، الائمة من ذريته ، ويستمر ذلك بالتسلسل الى يوم القيامة ٠

وفى عهد ملوك بنى امية ، والصدر الاول من الدولة العباسية ، ضيقوا الخناق عـلى أهل البيت ، فاختار ائمتهم الاستتار ، وفى هذا قال الامـام الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » :

« وبعد اسماعيل محمد بن اسماعيل السابع التام ٠ وانما تم دور السبعة به ، ثـم ابتداء منه بالائمة المستورين الذين كانوا يسيرون فى البلاد سرا ، ويظهرون الدعـوة جهرا » الخ اهـ ٠

علمنا انه بعد انتهاء حكم الدولة الفاطمية على مصر ، حاول الملوك الايوبيون القضاء على البقية الباقية منهم ، فكانت الهجرة الى اليمن ، تلك الهجرة التى دامت حوالى أربعة قرون ، وفى مدة الاقامة باليمن ، كان جل الفاطميين ، يحترفون التجارة ، وكانت قوافلهم تجوب بلاد الهند ، حيث انتشرت الدعوة السرية ، واخيرا أى فى اوائل القرن العاشر الهجرى ، انتقل مركز الدعوة من اليمن الى الهند وذلك فى عهد الداعى المطلق الثالث والعشرون محمد عز الدين (منة ربه) حوالى سنة 946 هـ ٠

امتاز افراد هذه الطائفة الذين لا يتجاوز عددهم المليونين ، بالاشتغال بالتجـارة ، ولهذا اطلق عليهم اسم « البهرة » التى هى مرادفة لاسم التجارة ، بلغة الغرب الهندى ، واننى جنبت المستمعين ، الدخول فى التفاصيل ، التى تحتاج الى مجلدات ، وانما ذكرت ما لابد من ذكره ٠ بغاية الايجاز ، تمهيدا لصميم موضوع بحثنا الذى هو تدشين المركز ببومباى وأعمال ملتقى الدراسات العربية والاسلامية بالجامعة السيفية ، كان يـوم التدشين يوما مشهودا فى مدينة بومباى فانه زيادة على الوفود التى وردت على المدينـة من جل الاقطار الاسلامية وغير الاسلامية الذين خصص لهم نزل « تاج محل » الشهير ، اذ يعد من افخم اوتيلات العالم ، ولفت اليه الانظار بصفة خاصة ، الاسم الذى يحمله ، اذ « تاج محل » هو اسم الضريح الشهير فى تاريخ الادب الهندى ، والادب العالمى ، الذى

يعده كثير من الكتاب المعاصرين ، الذين لا يخلو بحث من بحوثهم عن الهند من ذكره ، وتخصيصه بصفحات كما نجد ، وكالات السياحة العالمية ، تخصص له رحلات ، اذ يعتبر رمزا لوفاء الزوج لزوجته ، وذلك انه فى القرن السابع عشر الميلادى وبالضبط فى سنة 1629 م • توفيت السيدة ممتاز محل ، زوج الشاه جهان ـ الذى هو من سلاطين المغول المسلمين الذين حكموا بلاد الهند عدة قرون ـ ولم يصبر زوجها عنها ، اذ كانت زيادة على جمالها الممتاز ترافقه الى ميادين القتال ، لاثارة نخوة الجيش وقد اصابها المخاض فى ساحة الوغى ، عندما توفيت فاراد زوجها ان يخلد ذكرها ، فبنى هذا الضريح ، الذى استغرق 14 سنة ، وتكلف مصاريف قل ان يصل اليها مبنى آخر طيلة قرون ، والهند كما نعرف كلنا بلاد القصور ، ولا زال هذا القصر محط رحال سواح العالم ، خصوصا الاوروبيين ، ويوجد هذا الضريح بمدينة اغرا ، التى كانت عاصمة البلاد فى عهد ملوك المغول قبل ان ينتقل مقر العاصمة الى مدينة لاهور ، ومدينة اغرا تبعد من مدينة دلهى عاصمة بلاد الهند الحالية ، بنحو 180 كم • كما اشتهر نزل « تاج محل » هذا بمكانته ، رغم احداث أوتيلات تابعة لشبكات أوتيلات شيراطن SCHERATON وهيلتون HILTON العالمية ، يحتوى نزل « تاج محل » على عدة قاعات خاصة للمؤتمرات العالمية التى كثيرا ما تختاره الدول لعقد مؤتمراتها ، وكذلك يحتوى على حدائق صيفية وشتائية ، ولنرجع الى الحديث عن حفل التدشين ، وقع هذا الحفل يوم السبت 20 افريل 1975 على العاشرة صباحا ، وقبل انطلاق وفود المدعويين من النزل ، كانت شوارع بومباى ، وسقوف المنازل ، وشرفاتها ، مكتضة بالكتل البشرية التى لا يمكن مشاهدة مثلها ، الا فى البلاد الآهلة بكثرة السكان ، مثل بلاد الهند الذى يجاوز عدد سكانها ستين وثلاث مائة مليون نسمة ، ويطلق على جميع السكان هنود ، مع اختلافهم فى الاصل ، والدين ، واللغة ، اذ يوجد من تباين الاجناس ، والديانات ، واللغات ، واللهجات ، فى الهند ، ما لا يوجد مثله فى جميع اقطار العالم ، ويمتاز الهنود بصفة عامة ، انهم يعتزون بقوميتهم ، فهم متمسكون بالزى الوطنى فى ملابسهم ، القميص المقفول الى الرقبة RADINGOTTE والسروال الابيض ، ولهذا لم نستغرب عند ما جلس كبار الشخصيات وفى طليعتهم رئيس جمهورية الهند ، السيد فخر الدين على أحمد ، على المنصة التى وضعت بالسرادق،

وهو عبارة عن قيمة تسع عشرات الآلاف ، أن كان لباس جميعهم بسيطا جدا ، لا يمتاز عن لباس طبقات الشعب ٠

وكذلك نجد السلطات لا تتشدد فيما يستوجبه نظام التشريفات فى مثل هذه المهرجانات ، فافراد الشعب يحترمون الاوامر والنظام ، ويقفون عند حدودها ، اللهم الا في التجمعات ذات الطبقة الدينية ، وهذا لا يستغرب من امة وصفها ، مؤرخ قديم يونانى حسبما نقل ذلك الباحث الانكليزى المتخصص فى تاريخ حضارة الهند WILL DURANT فى تأليفه « قصة الحضارة » الذى نقله الى العربية د ٠ زكى محمود المصرى قال : « ان سكان الهند يستوقفون النظر باستقامتهم ، وانهم بلغوا من سداد الرأى حدا يجعل التجاءهم الى القضاء نادرا ، كما بلغوا من الامانة حدا يغنيهم عن الاقفال لابوابهم ، وعن العهود المكتوبة تسجيلا لما اتفقوا عليه ، فهم صادقون الى ابعد الحدود » اهـ ٠

وقد اندهشت عندما لمحت على المنصة الشرفية السيد على ياروجنك ، الحاكم الاعلى لمقاطعة مهراشتر ، الذى يشتمل نفوذ حكمه ، منطقة مدينة بومباى ، وقد القى خطابه قبل خطاب رئيس الجمهورية مباشرة ، وقد اخبرنى الاخ السفير عمراو صديق بانه من الشخصيات العظيمة فى الهند ، والسيد على ياروجنك ، سبق له ، ان زارنا الى الجزائر بمناسبة الاحتفال الالفى لمسجد ابى مروان بعنابة ، ورافقنا اياما ، لم نر منه الا التواضع التام ، والبساطة ، بينما شاهدنا فى مثل هذه الملتقيات ، وبالخصوص فى ملتقى عنابة ، من يتأثر لادنى سبب ، ويريد ان يعرف الناس ابتداء من سائق سيارته ، انه العالم الفذ ، أو الوزير الخطير السابق ، وويل للمشرفين على الملتقى ، ان بدلت سيارته لاسباب قاهرة ، أو تأخر عن الموعد ولم يفسح له مكان الصدارة ، وهذا الرجل الفاضل لولا ملاقاة بومباى لما كنت اعرف مكانته ، وقد اجتمعنا فى معرض المصاحف ، وفرح كثيرا ، واخبرنى انه لن ينسى ابدا ما قوبل به من الحفاوة والتكريم بالجزائر ٠

افتتح حفل التدشين بتلاوة آيات من القرآن تلاها المقرىء المصرى ساطع الحصرى ، ثم القى المضيف د ٠ محمد برهان الدين خطابا متهجيا ، هذه بعض فقراته ، اذ الخطاب له وزنه ، سواء عند افراح الطائفة ، الذين وردوا على بومباى من جميع بلدان العالم ، أو

المدعوين ، الذين لم تسبق لهم معرفة تامة بطائفة البهرة ، هذه ، وتاريخ تطور بقايا الدولة الفاطمية ، منذ فقدت دولتها ، ومحور الخطاب يدور حول هذا الموضوع ، ونظرا لعدم الاهتمام فى بلادنا بقضايا الهند الفكرية ، اللهم الا للدارسين المتخصصين ، وفيهم من يعتمد على بعض المصادر الاجنبية ، التى لا تخلوا من تزييف ، مثل الباحث الانكليزى WILL BRANT الذى نقل د · نجيب محمود تأليفه « قصة الحضارة » الى العربية ، وبين ان القسم الخاص من التأليف بالفتوحات الاسلامية مزيف ، فاننى نقلت جل ما فى خطاب الداعى الفاطمى فى حفل التدشين هذا ، ولم اقتصر على الخطوط العريضة ، اذ هو من أهم الوثائق للباحثين فى مثل هذه الموضوعات ، وهذا نص الخطاب بعد الديباجة والتقديم :

« أيها السادة · ان المسلمين منذ ابتداء عهدهم الى اليوم شيدوا كثيرا من المساجد والمشاهد ، وأقاموا عديدا من صروح المعرفة والايمان ، ولا تزال الآثار الباقية تشهد بروعتها وعظمتها، وجلالها وجمالها، وبهائها وبهجتها الا انه لم يوجد عبر القرون الاربعة عشر أية عمارة ـ مثل عمارتنا هذه ـ فهى بسيطة من مظاهرها فى مبناها ، غنية من داخلها فى معناها ، حيث قد نقش القرآن الكريم بكامله فى جدرانها أحسن النقش ، فأصبحت هذه العمارة فى قلب هذه المدينة التاريخية ، وميناائها التجارى ، ملجأ لقلوب آلاف من الزائرين ، الوافدين عليها ، وغدت آلاف متعددة مثلها من سائر أنحاء العالم ، تشهد بعظمتها وطهارتها ، وتراقبها وتنوء قصدها وتنزع اليها ، قد ضم مشهدها ، جثمان داع جليل من دعاة الدين ، وساهم فى بنائها ـ بالاموال والانفس ـ مئات آلاف من التابعين المحبين » ·

ثم استرسل فى خطابه فقال :

صاحب الفخامة ، حضرات الضيوف الكرام ·

هذه روضة طاهرة ـ بما فيها من مسجد ومشهد ـ فريدة ، لا فى أوضاعها الحاضرة فقط ، بل عديمة النظير فى ما يزدان به جيدها ، وجبينها ، من تراث الماضى ، فقد اقتبسنا من الآثار الفاطمية القديمة جواهر مجدها ، ومآثر عهدها ، حتى انضم فى مبناها

خلاصة محاسن تلك الآثار الفاطمية ، ومزايا تلك المآثر السنية ، فاحتوت على محاسن بناياتهم ، كما انطوت فى شخصية من نسب اليه خصائص كل داع مـن سلفه الابرار ، وعالى صفاتهم ، هكذا كانت شخصية من نسبت اليه هذه العمارة ، فكان نسيج وحده ، فى جميع صفات سائر الدعاة السالفين الاجلة على تواليهم ، فنرى كل جزء من هذا المبنى فى عظمته ، وفخامته ، يجمع حب كل من أهـل الايمان ، ويمثل تغاديهم ، يذكرنا ذلك كله ، ما نراه اليوم فى جمع شمل كبير من شخصيات عالمية بارزة ، قد اطل عليه ـ يـا صاحب الفخامة ـ ظل رعايتكم ، وحسن عنايتكم ·

ولابد من كلمة تقدير واعتراف ، بان مساعدة الحكومة الهندية ، قد يسرت لنا الطريق فنشكرها ، ونسأل الله سبحانه ـ بحق كتابه العـزيز ـ ان يبـارك لنا جميعا فى هذا اليوم المشهـــود ·

ثم واصل خطابه بهذه الجمـــل :

« أيها السادة ، والدى ، فخامة الداعى المطلق ، سيدنا طاهر سيف الدين ، قـــد أتى حاديا وخمسين ، فى سلسلة مجيدة ، عريقة من الدعاة الفاطميين ، وظل فى منصبه الجليل ، زهاء ثلث وخمسين سنة ، كان هذا منة من الله سبحانه ، ونعمة ، لم تتوفر لاى داع قبله ، فاستفاد بهذه النعمة الموهوبة من الله سبحانه فى الدعوة الى الصلاح والفلاح، وتعميم خير الدنيا والآخرة ، ونشر رسالة الوئام والاتحاد بين الجماعات والمـــلل ، وبين المذاهب والفرق ، وقد اقتدى به التابعون ، وسلك طريقه السالكون ، فشاركوا المسلمين فى ضرائهم وسرائهم ، حتى اصبحوا محل ثقتهم ، ومناط رجائهم ، وبفضل ذلك كله ، اصبحت هذه الجماعة ، القليلة العدد ، ذات مكانة مرموقة ، لا فى الهند فحسب ، بـــل فى سائر ارجاء العالم الاسلامى ، فازداد عددها ، وعظم فى الناس قدرها » ·

ان اجتماعنا اليـوم ، وتشريفكم لهذا الحـــفل بعد معاناة السفر ، ومقاساة الحرب احسبه تقديرا منكم لهذه الشخصية الجليلة ، ولذكراها معـا ، ثم انه تعبـير عن حقيقة أخرى ، هى اجل واعظم ، وهو ان المسلمين لا تزال فيهم الحماسة والعـزائم للاحتفاظ بآثارهم ، وبناء الجديد منها ، ولا يزالون يحتفلون بعظمائهم ، ويشيدون بذكراهم ، فى

هذه الارض الطيبة ، التى اتخذوها لهم وطنا ، وعمروها ، وعاشوا بها ، وحظوا منها ، ونحن متيقنون ، بان مستقبلنا فى الهند مرتبط بمستقبلها ، هنا نختبر فى الامـــوال والانفس ، وهنا نسعد بالراحة والرفاهية ·

صاحـــب الفخـــامة ،

أود ــ اليوم ــ أن أصرح بحقيقة ، واعبر عن أخرى ــ أريـد أن أصرح ان اجتماعنا اليوم ، وحضور فخامة الرئيس ، وسائر أصحاب السعادة ، وأصحاب المعالى ، وأصحاب السماحة ، ومشاركتهم فى عواطفنا ، تعبير واقعى لروح الحرية الكاملة لجميع الاديان فى الهند يمنحها دستورها ، ويعترف بها جمهورها ، فالاجتماع تحيـة سنية ، حييتمونى بها ، فوجب على ان احييكم بعمل تذكارى فى هذا اليوم ، وأفضل ان يعبر عنه ، ويعلن به صاحب الفخامة رئيس جمهورية الهند الموقر ·

وأخيرا ارحب بكم فى هذا المسجد ، وهذا المشهد ، وأشكركم أيها السادة العلماء ، والقادة الفضلاء ، والممثلون لمختلف الاقطـار والشعوب شرقها وغربها ، وأدعو اللـــه سبحانه ان يشملنا برحمته ، ويغمرنا ببركته ، ويعلى درجاتنا فى الدنيا والآخرة ، كل وفق ما رعى ، ووعى ــ وان ليس للانسان الا ما سعى ــ وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين ، واسمحوا لى ان أطلـــت ولم أقتصر على الخطـــوط العريضة من هذا الخطاب التوجيهى للداعى الفاطمى اذ ان ما يدور فى القـارة الاسيوية وخصوصا فى المجـالات العقائدية ، لا تهتم به كثيرا وسائل الاعلام بالمغرب الغربى ، ولربما نتصور أشياء كثيرة ، بخلاف واقعها ، كما ان هذا الخطاب ، تعرض فيه صاحبه ، بوضوح ، لوضعية طائفـــة البهرة ، ومكانتها ، ومنشآتها ، وعلائقها ، ببقية الطوائف الاسلامية وغير الاسلامية فى الهند ، كما يثبت لنا ان مســيرى هذه الطائفة ، امكنهم ربط صلتهم بمـــاضى الـدولة الفاطمية ، حيث كانت درجات الداعى د· طاهر سيف الدين الحادى والخمسون · وولده المضيف د· برهان الدين الـداعى الثانى والخمسون ، امتدادا للدعـاة الاولين، الذين كانت بداية سلسلتهم بالتراب الجزائرى ·

وقد أشرت فى خطابى الذى القيته فى ملتقـى الدراسات العربية والاسلامية الذى أعقب حفلات التدشين ذكرت فيه ، باننا ان وجدنا طائفة البهرة ، لا زالت تذكر صلتها

بالجزائر وقد زار الداعى الفاطمى د· محمد برهان الدين منذ سنوات قليلة الجـزائر ، وتجول فى ربوع معاقل ومآثر الدولة الفاطمية ، ذكرت ان الجزائر لم تنس مـن جهتها هذه العلائق ، وكيف تنساها ، وعاصمتها الجزائر ، من مؤسسات قائد الدولة الفاطمية بلكين بن زيرى بن مناد ، الذى بناها بأمر الملوك الفاطميين ، قبل انتقالهم الى مصر بنحو العشرين سنة ، وقد احتفلنا منذ سنتين بالعيد الالفى لتأسيسها ، كما خصصت وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى الملتقى الثامن للفكر الاسلامى ، المنعقد ببجـاية ، يوما لزيارة مدينة المسيلة التى انشئت فى عهد الداعى الاول ، عبيد الله المهدى وبامره ، وقد اتخذها قاعدة الزاب ، بدلا من مدينة طبنة ، التى كانت قاعدة الخلافة الاسلامية بعد الفتــوحات ·

وفى مدينة المسيلة ، التى خلد مآثرها ومعالمها ، ابن هانى الاندلسى ، شاعر البلاط الفاطمى ، ولد الملك المعز لدين الله الفاطمى · ونشأ فيها صحبة بلقين ابن زيرى ، وارث قيادة المملكة الفاطمية بالمغرب العربى ، كما زرنا فى ذلك اليوم قلعة بنى حماد ، التى بنيت فى سفح جبل كيانة الذى له مكانة فى تاريخ الفاطميين اذ فى الجبل المذكور ، هزم وقتل الثائر أبو يزيد مخلد ابن كيداد الزناتى الخارجى ، كما ان المركز الوطنى للبحوث التاريخية ، التابع لرياسة الدولة ، منح جائزته الاولى السنوية لاحياء التراث التاريخى منحها لمؤلف ، كان موضوع تأليفه « تاريخ دولة بنى حماد » ، وحماد هذا كما تعلمون هو ولد بلقين بن زيرى ، الذى عينه الملك المعز لدين الله الفاطمى ، خلفــا له بالمملكـة الفاطمية ، ببلاد المغرب العربى الحالى ·

ثم تلا الداعى الفاطمى ، ممثلو رؤساء حكومات ، مصر ، وشرق الاردن ، وتونس ، والامارات العربية ، ثم والى مقاطعة مهراشتر السيد على ياورجنك ، ثم رئيس الجمهورية الذى امتاز خطابه بالتركيز على مكانة الاسلام فى الهند ، وان العـلائق التى تربط فى الظروف الحالية الهند ، بالبلاد العربية والاسلامية ، راجعة الى الطبيعة ، وتحتمها المصلحة العامة المشتركة ، لا الطمع ، ولا الاغراض ·

وبعد دور الخطب ، وتقديم الهدايا الرمزية من رؤساء الوفود ، دخلنا للروضة الطاهرة كما يسمونها ، وهى عبارة عن بنايـــة ضخمة ، بنيت كلها بالرخـام الابيض الناصع ،

ونقش على جــدران قبتها القرآن الكريم بتمامه بالذهب المصفى ، الخالص ، والمحــلى بالجواهر والاحجار الثمينة كاللؤلؤ والزبرجد ، ثم دخلنا المسجد الملاصق للروضة ، وهو كذلك لا يقل بناؤه روعة وجمالا على الروضة ، التى دفن فيها المحتفل بذكراه ، الداعى الواحد والخمسون ، د٠ طاهر سيف الدين ، وقد روعى فيه الفن التقليدى ، وبلاد الهند اشتهرت من فجر التاريخ بانها بلاد القصور النادرة المثال ، والمساجد العديمة النظير ، وقد اضفى عليها ملوك المغول الذين حكموها ما يزيد على الثلاثة قرون ، ما بهـر العالم المتمدن فى الفن المعمارى المنتشر فى ربوعها ٠

وقد خصص جانب من المسجد لاستعراض المصاحف القرآنية ، فكان عددها خمسين مصحفا ، يرجع نسخ أقدمها الى منتصف القرن الثانى الهجرى ، وأكثر نســـاخ هذه المصاحف من أشهر الخطاطين ، وقد وضع فهرس يحتوى على تراجم حياتهم ، وما اشتهر من آثارهم فى ميدان المخطوطات ، وقد أحصى ان بعضهم نسخ ثلاثين مصحفا ، ومــن هذه المصاحف ، المكتوب بالذهب الخالص ، أما التسافير والتجليد فان تقييمها يعـادل الارقام الخيالية التى لا يعرفها الا تجار الآثار ، وألواح الفنانين ، وعلى ذكر هذه المصاحف التى عرضت بمسجد بومباى ، وقيمتها نذكر انه فى أوائل الشهر الجارى ، افتتح ببلاد انكليترا معرض « الفنون الاسلامية » بقاعة هايوارد بمدينة لندن افتتحته الملكة اليزابيت وقد شاركت مصر بعدة قطع فنية ، ومخطوطات نادرة من بينها ثمانية مصاحف ، قدرت اثمانها بمليونين ومائتى ألــف جينيه استرلينى ، أى عشرين ومـائتى مليـون دينـار جـزائرى (220) ٠

وفى مساء ذلك اليوم كانت الدعوة بقصر المضيف ، الداعى الفاطمى ، الموجود فى حى من احياء السكن الجميلة بمدينة بومباى ، وكان الاستقبال ببهــو خاص ، وهــو الاستقبال الثانى اذ سبق للداعى الفاطمى زيارة الضيوف بنزل « تاج محل » قبل حفلات التدشين واقام لهم بهذه المناسبة حفلة شاى ، وفى حديقة القصر ، اقيمت مأدبة عشاء ، حضرها زيادة على الضيوف، كبار الشخصيات الهندية ، من مختلف الطبقات، والديانات، وكان القائمون بخدمة الضيوف ، هم افراد أسرة المضيف ، ويساعدهم المقربون مــن افراد الطائفة الذين أتوا لهذا الغرض ، من مختلف البلدان ، فيهم الطلبـــة ، والعلماء ،

والعلماء ، والتجار ، والموظفون السامون ، وميزتهم التفانى فى خدمة الضيوف ، حتى يظن انها حرفتهم الوحيدة ، وقد كانت جميع أنواع الماكولات محلية ، هندية ، وتمتاز باستعمال التوابل والبهارات ، ولم يقتصر استعمال التوابل على الموائد المحلية ، بل هو عام حتى فى افخم الفنادق ، التى ينزلها سواح العالم الامريكى والاوروبى ، بل الكثير منهم يتخذها مسكنا معظم فصول السنة ، حيث يتدفق سيل السواح ، ويصعب التحصيل على بيت بالنزل ، ولو كان من الدرجة البسيطة ، وما يقال عن بيوت الاوتيلات يقال عن التحصيل على بقعة بالطائرة فى الخطوط الجوية الداخلية ، والذى يلفت النظر ، فى هذه المأدبات ، أنواع من اشربة عصير الفواكه ، وأنواع من إطباق الحلويات ، تعطر باجود روح العطر الخاص بها ، اما البخور ، والعطورات ، فذلك لا يستغرب من بلاد عريقة فى التمدن ، وقد ذكر صاحب كتاب « قصة الحضارة » WILL DORANT فيل دورانت ؛ الانكليزى ، الذى نقله الى العربية د . زكى نجيب محمود نقلا عن تصريح الاثرى الانكليزى المشهور « سيرجون مارشال » الذى اكتشف حوالى سنة 1924 مدينة اثرية بالهند ، يرجع عهدها الى خمسين قرنا ذلك الاكتشاف الذى ابطل جميع تكهنات وافتراضات التاريخ الحضارى للهند ، ومبدئيا ، قال الاثرى مارشال ، معلقا على هذا الاكتشاف « تؤيد هذه الكشوف قيام حياة مدنية ، بالغة الرقى ، فى السند والبنجاب خلال الالف الرابعة ، والالف الثالثة ، من السنين قبل الميلاد ، يدل على حالة اجتماعية فى حياة أهل تلك المدن ، تساوى على الاقل ما وجدناه فى « سومر » وتفوق ما كان سائدا فى العصر نفسه ، فى بابل مصر . . . وحتى «أور» وحتى لا تضارع بمنازلها من حيث البناء منازل « موهنجو ـ دارو » (اسم المدينة التى اكتشفت) .

ملتقى الدراسات العربية والاسلامية بالجامعة السيفية التابعة لطائفة « البهرة » افتتح صباح يوم الاحد أى ثانى يوم التدشين باحدى قاعات نزل « تاج محل » هذا الملتقى بمناسبة ادخال تعليم اللغة العربية ضمن بقية مواد التعليم بمعهد تكوين الدعاة الفاطميين وتعرض معظم الباحثين لآثار تكوين الدعاة الموجودة فى انحاء العالم ، لمختلف المذاهب العقائدية ، بصفة عامة ، ومقارنتها مع ما تبقى من معاهد المذاهب الاسلامية ، واسندت رياسة جلسة الافتتاح للدكتور عبد الحليم محمود شيخ الازهر دامت أعمال الملتقى

ثلاثة أيام ، القيت فيها دراسات قيمة ، خصوصا دراسة د · عبد الحليم محمود شيخ الازهر : التى ركزها على معاهد الدعوة المسيحية، التى زارها بأوروبا ، وكذلك دراسة الدكتورة سعاد ماهر مديرة كلية الآثار ، التى عرضت شريطا للآثار الفاطمية والاندلسية، وختم الملتقى بحفل للقرآن بميدان يسع ما يزيد على الخمسين ألف نسمة ، جمـــع فيها زيادة على المقرئين المصريين امثال الشيخ ساطع الحصرى ، وعبد الباسط عبد الصمد ، كما اقيمت حفلات أخرى لجمعيات خيرية ، وثقافية ، ثم اقيـــم معرض تابع للجامعـة السيفية عرض فيه نماذج من الاعمال الصناعية لتلاميذ الجامعة ، وكرة أرضية قديمة ، صورت عليها مسيرة الدعوة الفاطمية ، ثم دخلنا لعيادات الاطبـــاء الاختصاصيين فى مختلف الامراض التابعين لمنظمة البهرة ، والجامعة السيفية ، وتآليف الداعى الواحـد والخمسين ، المحتفل بذكراه ، وبعد الانتهاء من زيارة المعرض ، ذهبت الوفود الى قصر المضيف للتوديع ، حيث قسمت عليهم هدايا رمزية ، وختمت هذه الزيارة بمآدبة اقامها المضيف على شرف المدعوين ، بأوتيل شيراطن SCHERATON ولنختم هذه الدراسة ، بان هذه الطائفة ، وان اهتمت بالناحية العقائدية ، وحافظت على كثير من تعاليم الفاطميين منذ ظهورهم ، وربطت بين الماضى والحاضر ، بسلسلة الدعاة ، هى دون فاصل ، أو ادخال أى تغيير على تعاليم المذهب ، فانها لم تهمل الناحية المادية ، فعلاوة على اشتغال افرادها بالتجارة داخل البلاد وخارجها ، فان الداعى الفاطمى الحالى ، يشرف على عدة منشآت صناعية ، شبيهة بمنشآت الدول الصناعية العظمى ، وقد زار بعضها صاحب جريـدة الاحداث الجزائرية ، اوائل السنة الجارية ، وكتب عنها سلسلة مقالات قيمة فى موضوعها، ولنا عودة الى اتمام الموضوع فى فرصة أخرى ·

كتاب الأصالة

بعد أن تسكت المدافع

تأليف : **محمد سيد احمد**

عرض وتحليل ونقد **محمد الميلى**

مدير وكالة الانباء الوطنية



كانت حرب رمضان ـ أو حرب أكتوبر ـ موضوع تعاليق ودراسات عديدة ، أخذت أشكالا متعددة واتخذت وجهات مختلفة ، فمنها ما سلك مسلك التمجيد الاعمى ، الذى يذهب الى حد اعتبارها « انتصارا عربيا لم يسبق له مثيل » وهناك من حاول ان يدرس آثارها من الوجهة العسكرية وذهب الى حد تصوير تلك النتائج فى صورة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ، اذ ان هناك فعلا من لم يتردد فى وضعها فى مصاف الحروب الكبرى فى تاريخ البشرية ، والى حد القول بان نتائجها العسكرية تشبه من حيث قيمتها ، النتائج المترتبة على بعض الحروب الحديثة بما فيها الحرب العالمية الثانية • وفى هذا الاطار نظمت جامعة القاهرة ندوة دولية انعقدت فى أكتوبر 1975 لدراسة آثار حرب أكتوبر ، حضرتها شخصيات عربية وغربية ، سياسية وعسكرية ، أدبية وصحافية من بلدان مختلفة •

ولم تكن الكتب التى ظهرت حول حرب أكتوبر قاصرة على العالم العربى ، بـل لقد ظهرت فى لغات مختلفة وبلدان متعددة ، ظهـرت فى اسرائيل بالعبرية ، وظهـرت فى فرنسا بالفرنسية ، وظهرت فى انكلترا وأميركا بالانكليزية الخ ٠٠٠ وهذه الكتب التى ظهرت فى بلدان مختلفة ، منها ما هو ذو طابـع صحـافى ، سياسى ، كتبه معاينون أو شهود أحداث ، مثل كتاب محمد حسنين هيكل « الطريق الى رمضان » الذى ظهـــر بالانكليزية ثم ترجم منها الى العربية ٠ (ونستطيع أن نفتـح قوسين لنسجل ان كتب هيكل التى ظهرت فى السنوات الماضية كانت مترجمة عن الانكليزية ، حتى ما ظهـــر منها باللغة العربية ٠ وهذا هو السبب فى ان الترجمات العربية كانت أقل تأدية لصور وأفكار المؤلف ، من الطبعات الفرنسية مثلا) ٠ وكذلك كتاب « **التقصير** » الذى ظهـــر بالعبرية فى اسرائيل ، والذى شارك فى تأليفه سبعـة اسرائيلين ، سجلوا انطباعاتهم عن تلك الحرب ومشاهداتهم فيها ٠ وقد ترجم هذا الكتاب الى الفرنسية ولقى رواجـــا واسعا ، وقد ترجم الى العربية ، ترجمة أمينـــة كاملة ٠ فقد تـــولت تعريبه مؤسسة الدراسات الفلسطينية المعروفة بحرصها على الامانة فى النقل ، وبأسلوبها الجـامعى ، لكن الكتاب مع ذلك لم يسمح له بأن يباع فى عدة بلدان عربية ، ذلك انه لا يخلـو من « **حقائق** » يراها فيها هذا النظام أو ذاك تشويها لصورته ٠ وقد اشترطت بعض الانظمة العربية التى اتصلت بها المؤسسة من أجل تامـين توزيع الكتاب المذكـور ـ اشترطت لذلك نزع عدد من الصفحات التى تتعرض بالذكر لبعض ضباطها بكيفية يراها النظام مخلة بالصورة التى يريد ترويجها عن نفسه فى الداخل ٠ وقد رفضت المؤسسة ذلك ، وظل الكتاب محدود التوزيع ، على الرغم من أهميته فى ذكر عدد من الحقائق التى يزيد فى قيمتها أنها تساق على لسان شهود من داخل اسرائيل ٠

وتختلف قيمة الكتب والكتابات التى وضعت عن حرب أكتوبر باختلاف قيمـــة أصحابها ومقاصدهم ٠ وليس فى الامكان تصنيف كل تلك الكتابات لكن يمكن أن نسوق نموذجين لاكثرها غـــرابة ســـواء بتأثير الاندفاع العاطفى العـارم أو بدافع الانتهازية السياسية اللامحدودة ٠ ففى صنف الكتابات الانتهازية نجد حشدا طويلا من المقالات والكتابات ، تصورها ادق تصوير كتابات مصطفى أمين الذى قال :

« عبور الجيش المصرى من الهـزيمة الى النصر ··· وعبـور الشعب المصرى مـــن الانقسام الى الوحدة ··· وعبور سمعة العـرب من الهـوان الى الكرامة ··· وعبـور المظلومين من الظلم الى العدل ·· وعبور الخائفين من القلق والرعب الى الطمأنينة والامان والاستقرار ·· وعبور المقيدين من الاغلال الى حياة الاحرار ·· » ·

ومن نماذج الكتابات المندفعة المبالغة ما كتبه أحمد حسين ، زعيم حزب «مصر الفتاة» عندما قال :

« ان النصر الحربى الذى أحرزه الشعب المصرى هو من أعظم الانتصارات العسكرية التى شهدها تاريخ الحروب ، وأعظم انتصار للشعب المصرى بالذات » ·

بل انه يضيف الى ذلك قائلا عن حرب أكتوبر انها :

« كانت معجزة الهية بكل المقاييس ، اجراها الله على يد عبده الصالح محمد أنـور السـادات » !

نتـائـج الحـرب

لكن استعراض نماذج الكتابات المختلفة عن حرب أكتوبر سيقودنا الى استطرادات تخرج بنا عن موضوع الكتاب الذى نعرضه اليوم ·

فهذا الكتاب ، يتناول بالبحث نتائج الحرب ، أكثر مما يتناول موضوع حرب رمضان نفسها · وهو يركز على النتائج السياسية أكثر مما يركز على النتائج العسكرية · وهو لا يقتصر على النتائج السياسية القريبة المدى ، ولكنه يتعرض حتى للنتائج السياسية البعيدة · ومعروف ان المحـلل السياسى عندما يريد أن يخـرج من دائرة الاحداث الجارية ، ليقفز من فوق سنوات عديدة الى الامام ، يدخل فى مجال التجريد والتخمينات التى قد تبدو للبعض صائبة ، وقد تصدم البعض الآخر · ونظرا الى ان معظم الناس ، فى كل مكان ، وخاصة داخل ما يعرف بالعالم الثالث ، وعلى الاخص فى العالم العربى ، محكومون عادة بمجرى الاحداث الآنية ، فان مثل هذه التحاليل تصدم أكثر مما تحتمل على النقاش · وهذا هو السبب الذى جعل الكتاب المذكور : « بعد ان تسكت المدافع »

موضوع مناقشات حادة أحيانا • وقد بادرت بعض الدوائر السياسية فى العالم الغربى الى هذا الكتاب تعرف ببعض خلاصاته لانها بالضبط تخـــرج عن المالوف فى الكتابات العـربية المماثلـة •

الا انه يحسن ، قبل ان نتعرض الى رأى المؤلف ، فيما يتعلق بالنتائج البعيدة المدى ، ان نسوق تصوره وتصويره للنتائج القريبة المدى •

يمهد المؤلف ، للخوض فى هذا الموضوع ، باستعراض الجو السياسى السائد دوليا ، قبل اندلاع الحرب فى أكتوبر 1973 • ويسوق فى هذا المجال تصريحا ينسب الى كيسنجر الذى يبدو انه قال قبل ستة أشهر من تلك الحرب ، أى فى افريل 1973 ما يلى :

« انى لا أعالج هذه الازمات وهى باردة ، لابـد كـى أعالجها ان تكون ساخنة ، حتى أستطيع ان ازن ما يستحقه كل طرف • ولا أستطيع ان أحتكم فى ذلك الى ما كانت عليه هذه الاطراف منذ ست سنوات •• أو منذ ألفى سنة » (ص 108) •

ويقصد كيسنجر بذلك الى ان وضـــع الازمة آنذاك لم يكن يسمح بتحريك أيـــة محاولة ، لان الاحتكام الى وضع ما قبل 5 جوان 1967 ، أو الى الوضع الذى كانت عليـه الدولة اليهودية القديمة عندما تم تقويضها على يد الرومان ، لا يصلح قاعدة للنقاش أو الحـــوار •

ويتساءل مؤلف الكتاب بعد ان يسوق تصريح كيسنجر هذا :

« هـل معنى ذلك ان القـرار العربى بخوض الحـرب فى 6 أكتوبر جاء تلبية لمخطط اميركى ؟ وان حرب أكتوبر كانت مجرد « حرب معملية » ، حرب توافقت ارادات بعينها على اشعالها ، لكسر حالة « اللاسلم » و « اللاحرب » (صفتـان سلبيتان) والعبــور « بالحرب » (فعل ايجابى) الى « السلم » (فعل آخـر يتطلب انجـازه الايجابية) ؟ » (ص 108) •

والواقع ان هذا التساؤل اثاره غير واحـد ، قبـل محمد سيد أحمد ، مـؤلف هذا الكتاب • ويذهب البعض الى حد اعتبار حرب أكتوبر « **مجرد مسرحية** » لم تمـانع فيها

الولايات المتحدة الاميركية على أساس انها ستكون « صدمة » لا مفر منها ، تفتح آفاقا جديدة لتسوية سياسية تخرج بالازمة من الجمود الذى استقرت عليه سنوات عديدة ٠

ويبدو ان تصريحات كسنجر الآنفة الذكر لم تكن أجنبية عن هذه التساؤلات ، وعن اتجاه بعض الاجابات ، على ان تصريح كيسنجر فى نظرى لا يكفى وحده فى تفسير اجابة الاتجاه القائل بأن حرب رمضان كانت « مجرد مسرحية » ، قد تكون تمت بايحاء من أميركا ٠ وأعتقد ان هناك عاملا آخر يفسر وجود مثل هذا الاتجاه فى عالمنا العربى ، وهو يتلخص فى تهويل وتضخيم آثار الاقوال والافعال الصادرة عن الولايات المتحدة الاميركية ٠ وهو تهويل قد يصدر أحيانا عن حسن نية ، لكن نتائج هذا التصور الخاطىء لا تقل ـ من حيث الضرر والخطورة ـ عما لو كان ذلك التصور حقيقة ٠ لان العرب اذ ينسبون للعدو تلك المقدرة الخارقة على توجيه الاحداث ، وذلك التحكم المطلق فى مفاتيحها يسعون ـ عن غير وعى ـ الى شل مبادراتهم ووضع قيود وهمية على امكانيات تحركهم ، لها مفعول القيود الحقيقية ٠

وحتى اذا سلمنا جدلا بأن حرب أكتوبر ، كانت « مسرحية » أعدت واخرجت فى معمل فان نتائجها المباشرة فى الميدان تكون قد تجاوزت حسابات وتوقعات الذين أعدوها أو دعوا لها ٠ ولهذا يجيب المؤلف على تساؤله السابق قائلا :

« ٠٠٠ لا يملك أحد انكار ان حرب أكتوبر قد اسفرت عن اراقة دم سال بسخاء على كل الجهات ، وسفك الدم فى حد ذاته شاهد على صدام يمس مصالح حقيقية ، وعلى اشتباك عسكرى حاد لا يمكن بحال رده الى مجرد مسرحية » ٠ (ص 109) ٠

الا ان المؤلف هنا فى دفاعه عن هذا الرأى يقع هو الآخر فى مبالغات سبق له ان انتقدها على آخرين ممن كتبوا ـ من المصريين ـ عن حرب أكتوبر ٠ فهو يقول عقب الفقرة التى سقناها آنفا :

« ولا يملك أحد التشكيك فى ان ضراوة معارك أكتوبر لم يسبق ان شهدت الحروب العربية ـ الاسرائيلية مثيلا لها ٠ بل وربما كانت من أعنف ما شهدته حروب المنطقة على الاطلاق ، وحروب ما بعد الحرب العالمية الثانية على الاطلاق » (ص 109) ٠

وقد يبدو غريبا ان تصدر مثل هذه المبالغة عن رجـــل سياسى يعتمد الاشتراكية العلمية منهجا فى التحـــليل · وفى تصـــورى ان مصدر مثل هذه المبالغات يكمن فى الاوضاع التى فجرتها حرب أكتوبر داخل مصر وما تولد ـ متصلابها ـ مـن صراعات نتجت عن غياب عبد الناصر · فكأنى بالمؤلف ، وهو يرسم هذا التقييم الموجز لحـــرب أكتوبر ، قد استحضر خصومه السياسيين الذين يرقبون كل زلـــة قلم تصـــدر عنـــه لاستغلالها ضده ، ومن هنا قد يكون تصور ما سوف يقوله عنه خصومه ، لو أنه توقف مثلا عند حـد قوله : « لم يسبق ان شهدت الحـروب العربية ـ الاسرائيلية مثـلا لها ، الا يبادرون الى اعتبار ذلك تحقيرا من المؤلف لحرب أكتوبر ؟ ومن هنا كان تصعيد أول تمثل فى قوله : « ··· وربما كانت من أعنـــف ما شهـدته حـروب المنطقـة عـــلى الاطـــلاق » لكن قد لا يرضى ذلك بعض دوائـر السلطة التى تعتـــبر انها تتجـــاوز ـ أهمية وعنفا ـ حروب منطقة الشرق الاوسط ! وكان تصعيد ثان رفع هذه الحرب الى درجة جعلها اعنف من « حروب ما بعد الحرب العالمية الثانية على الاطلاق » !

ولست أشـك فى ان مناقشة المـؤلف ، فى هذه المبالغات ، وعـــلى هذا الاساس ، ستدفعه الى ايجاد تبريرات لها ، حتى ولو كان فى قرارة نفسه يسلم بسداد ما يوجـه له من مآخذ بهذا الصدد ·

لكن الذى يهمنا فى استعراض هذا القسم من الكتاب هو النتائج التى ترتبت عـلى هذه الحرب ، والتى يريد المؤلف ان يرتب عليها نتائج أخرى ، فى امكنة أخرى من هذا الكتـــاب ·

يبدأ المؤلف فى وصف النتيجة الاولى من نتائج الحرب باطلاق أوصاف سالبة عندما عندما يتساءل اثر تحليل يفهم منه ان الحرب لم تكن نصرا خالصا للعرب ، قائلا :

« ان لم تكن حرب أكتـوبر نصرا خالصا للعرب ، ولا نصرا خالصا لاسرائيل ، ماذا كانت اذن ؟ » (ص 94) ·

ويستعرض ـ قبل ان يقدم اجابته هو عن السؤال السابق ـ نظرية لهيكل خلاصتها ان حرب أكتوبر كانت انتقالا بالحالة من حالة « اللاسلم واللاحرب » الى حالة « اللانصر واللاهزيمة » ·

الا ان المؤلف يرى ان كلمتى « النصر » و « الهزيمة » لا ينطبق عليهما معناهما الدارج عندما تستعملان فى سياق ازمة الشرق الاوسط ، ويرى ان هذه الخاصية السائدة يرجع الى :

« ٠٠ الملابسات الخاصة بالنزاع العربى ـ الاسرائيلى ، والى المكونات الاساسية التى يتشكل منها طرفا النزاع ، التى نجعلها فى عبارة موجزة بقولنا ان النزاع يمكن رده الى مواجهة بين ما يمكن تسميته بـ « الكيف الاسرائيلى » من جانب ، و « الكم العربى » من جانب آخر » (ص 96) ٠

ويعقب بعد فقرتين ، على ذلك قائلا :

« وهذه الخاصية التى انفرد بها النزاع العربى الاسرائيلى ، كيف اسرائيلى ينقصه الكم ، الذى يضاهى أوجه الكم لعربى ، وكم عربى تنقصه أوجه الكيف التى تضاهى الكيف الاسرائيلى ، قد اكسبت النزاع صفة فريدة ، صفة استناد طرفى النزاع الى « أصول » لا قاسم مشتركة ولا لغة مشتركة بينهما ، وصفة امكان تصور استمرار النزاع الى غير أجل ، دون أن يستطيع أى طرف فيه استنفاد « أصول » الطرف الخصم » (ص 96 ـ 97) ٠

ويضيف الى ذلك ، وصولا الى احدى نتائج حرب أكتوبر ، فيقول :

« ولكن حرب أكتوبر قد ادخلت جديدا على هذه المعادلة الفريدة ٠ لاول مرة اثبت العرب قدرتهم على تمثل بعض أوجه التفوق « الكيفى » التى ظلت قصرا على اسرائيل من قبل ، واكتسبت بعض أوجه الكم العربى قيمة « كيفية » (البترول) ولو لا سباب لا تمت الى العرب مباشرة (أزمة الطاقة) ٠ وفى المقابل لم تستطع اسرائيل تعويض هذا التغيير فى موازين القوى ، بتأكيد أوجه تفوقها الكيفى بطفرات جديدة الى الامام ، تستعيد به صفة « التفوق المطلق » ٠

ثم يقول :

« وقد أوجدت الحرب معادلة جديدة فى المواجهة ، معادلة أسفرت لاول مرة عن موازين قوى اظهرت « قاسما مشتركا ما » وعنصر « تكافؤ » ما ، ولغة لها مصطلحات واحدة بمداولات واحدة لدى طرفى النزاع » (ص 97 ـ 98) ٠

مقدمات ... وخلاصة

أشرنا آنفا الى المناقشات الحادة التى أثارها هذا الكتاب . ولاشك ان القارىء قد تساءل عن مصدر تلك المناقشات وسبب حديتها .

نستطيع ان نستبين بعض تلك الاسباب من خلال استعراضنا لما جاء فى الجزء الاول من هذا الكتاب ، وهو الجزء الذى يحمل عنوان : « **حرب أكتوبر .. نقطة تحول** » . وخاصة الفصل الثانى من هذا الجزء الاول وهو الذى يحمل العنوان التالى : « هل نشأ تكافؤ بين الاطراف » . فمنذ هذا الفصل الثانى يشرع المؤلف فى التمهيد للفكرة الاساسية التى تعتبر هى محور « بعد ان تسكت المدافع » .

نستطيع ان نتابع مراحل هذا التمهيد من خلال الخطوات التالية :

الاولى : تبدأ مع تسجيل المؤلف انه « قد يؤخذ على العرب شىء من المغالاة فى تحديد أهدافهم » (ص 101) ويقصد المؤلف بذلك الى الموقف العربى من استمرار اسرائيل ـ الدولة ، فى ضوء الملابسات الدولية . ويشرح هذا المقصود بأنه اذا كان رفع الغبن عن العرب والفلسطينيين أمرا مسلما به عالميا ، فان قضية وجود اسرائيل واستمرارها كدولة تختلف بشأنها الآراء ، ويتساءل المؤلف فى هذا المجال : « الى أى حد تشكل اسرائيل « حالة خاصة » غير مقصورة على انها مجرد « حدث كولونيالى » أو مجرد « كيان عنصرى » وما هى الشروط التى يمكن ـ اذا ما توافرت ـ ان تبرر استمرار وجودها مستقبلا » . (ص 102) .

الخطوة الثانية : تتمثل فى النتيجة التى يرتبها المؤلف على الخطوة الاولى ، وذلك عندما يعتبر أن الغبن الذى ألحقته اسرائيل بالعرب لا يترتب عليه بالضرورة « تسليم شتى الاطراف الدولية المعنية بالازمة بأن رفع هذا الغبن يقتضى ازالة اسرائيل ، ويقتضى استعادة العرب حقوقهم المشروعة على حساب « حقوق » مشروعة أخرى نشأت أو تم تكريسها مع اقامة اسرائيل ، وهى « حقوق » لا ينبغى ان يحجبها ما هو غير مشروع فى كيان اسرائيل » . (ص 102) .

الخطوة الثالثة : تتلخص فى تقديم تفسير ـ منسوب الى مجهول فى صيغة « هناك من يقول » ـ يفسر نشاة « الشخصية الاسرائيلية » و « الامة الاسرائيلية » وذلك عندما يقول المؤلف ما يـــلى :

« هناك من يقول : ان العداء المستحكم الذى استقبل به العرب اقامة الدولة اليهودية فى فلسطين ـ ايا كان حقهم فى ذلك ـ بلـور فى مواجهته ـ وكنتيجة لـه ـ شخصية اسرائيلية ، وأمة اسرائيلية ، تماما كما افضى العداء المستحكم الذى عاملت بـه الدولة اليهودية الفلسطينيين ـ سكان أرض فلسطين قبل الاستيطان الاسرائيلى ـ الى بلـورة شخصية فلسطينية وأمة فلسطينية فى مواجهتها » (ص 105 ـ 106) ·

الخطوة الرابعة : بعد اعـــداد الرأى العـــام للتسليم بوجود « شخصية اسرائيلية » و « أمة اسرائيلية » فى ظروف رد فعل عداء العرب المستحكم ضد اسرائيل ، تشبـــه ظروف تكوين شخصية فلسطينية وأمة فلسطينية فى مواجهة العداء الاسرائيلى المستحكم ضد عرب فلسطين ـ بعد هذا تاتى الخطـــوة الرابعة التى تعتبر هـــى خلاصة النتائج والمقدمات السابقة ، وهى تتلخص فى أن الاعتراف بالشخصيتين الاسرائيلية والفلسطينية يعنى التسليم بقيام دولتين فلسطينية واسرائيلية ، تقتسمان فلسطين الارض ، ما دام من غير الممكن « تجزئة الحق » · ويسوق المؤلف هذه الفكـرة ـ المنسوبة فى أصلها الى مجهول ـ كما يـــلى :

« وحـركة التاريخ لا تقبل العـــودة الى الوراء · فقـد انشأت الممارسة التاريخية « حقوقا » ، وعند استشراف احتمالات المستقبل ، يتعين الاعتراف بهذه الحقوق ، ولمـــا كان « الحق » لا يقبل التجزئة ، سواء كان ذلك « الحق الاسرائيلى » أو « الحق الفلسطينى » فليس من مخرج الا تجزئة الارض لا الحق ، وتقسيم أرض فلسطين بين أصحاب هـذين « الحقين » (ص 106) ·

يجدر بنا هنا ان نسجل ملاحظتين واردتين فى مجـال الحديث عن امكانية تقسـيم فلسطين بين دولتين فلسطينية واسرائيلية ·

الملاحظة الاولى تتلخص فى أن الانتهاء الى هذه النتيجة بعد التمهيد لها بمقدمات تبدو متسلسلة مترابطة ، هو فى الواقع تجريدى بالغ التجريد ، فهو لم يأخذ فى الاعتبار ،

كما كان يجب على الاقل ، ارادة الاطراف المتصارعة فى فلسطين • ولا يخفى انه على مثل هذه الارادة تتوقف الى حد كبير امكانية تحقيق تلك الامكانية •

ومن الجدير بالتذكير ان منطقا شبيها بالمنطق السالف الذكر ، كان قد استعمل فى الجزائر اثناء حرب التحرير حتى من طرف بعض المثقفين الفرنسيين اليساريين ، للدفاع عن فكرة تقسيم الجزائر التى كانت قد بدت لهم آنذاك هى المخرج الوحيد من مأزق الحرب • وقد استعمل ، فى جملة ما استعمل من حجج قيام اسرائيل نفسها ، للتدليل على امكانية دولة أوروبية فى بعض جهات الجزائر •

ومع ذلك كلنا يعرف مآل تلك الفكرة ، فى حين ان الامكانيات العسكرية التى كانت ستتوفر عليها دولة أوروبيى الجزائر لم تكن لتقل عن امكانيات اسرائيل العسكرية • ورغم ذلك فقد ادرك الاستعمار الفرنسى نقط ضعف مثل ذلك المشروع،وما كان سيتسبب فيه من استمرار الحرب فى اشكال مختلفة وبصورة متعددة ، نظرا لوجود تصميم مسبق من طرف الجزائريين على انتزاع الاستقلال فى نطاق وحدة التراب الجزائرى ـ •

الملاحظة الثانية تتصل بالاستدلال المنطقى الصورى الذى نجده فى الخطوة الرابعة السابقة الذكر والذى يقول ما معناه : ما دام من غير الممكن تجزئة الحق ، فلابد من تقسيم الارض • ان مثل هذا المنطق يذكرنا بقصة توجد فى التراث الاسرائيلى نفسه ، وهى حكاية المرأتين اللتين ادعتا امومة طفلة وتنازعتا عليها واحتكمتا فى ذلك الى سليمان الحكيم • فما كان منه الا ان أمر بتقسيم البنت شطرين بين المدعيتين ، فصرخت احدى المرأتين رافضة شطر البنت الى شطرين ، وقالت بانها ترضى تسليمها لغريمتها • واستخلص سليمان من ذلك انها هى الام الحقيقية وحكم لها بالبنت •

ترتيب التناقضات

ويبدو ان المؤلف نفسه لم تخف عليه مواطن الضعف التى يتضمنها مثل ذلك المنطق • ومن هنا لم يعتمد كل الاعتماد على تلك الخطوات الاربع فى الانتهاء الى الفكرة الاساسية التى يدور حولها الكتاب •

ولذلك نجده ، يعود الى الموضوع ، فى صيغة جديدة ، بعد ان يكون قد مهد له بستة فصول : أربعة أدرجها ضمن الجزء الثانى من الكتاب ، وهو الجزء الذى يحمل عنــوان : « الانفراج الدولى ماذا يعنى » ٠ وفصلان ادرجهما فى الجزء الثالث الذى يحمل عنوان : « أزمة الشرق الاوسط ٠٠ فى مناخ الانفراج الدولى » ٠ وقد رأينا ان نمر على هذين الفصلين دون عرضهما ، لان الافكار الموجودة بهما ، أفكار عامة من جهة ، وهى من جهة أخرى تعتبر تمهيدا للجزء الرابع الذى وضع عنوانا له : « أزمــة الشر الاوسط ٠٠ الى أيــن » ٠

ينطلق الكاتب ، لشرح الفكرة الاساسية التى من أجلها نشر الكتاب ، محاولا تقديم سلسلة من الفرضيات يفتحها بعنوان الفصل الاول من هذا الجزء الرابع الــذى هـو : « ولو تمت التسوية » ٠

ويبادر المؤلف الى القول بأن التسوية « لا تعنى الغاء التناقض » ولكنه يعنى « اعادة ترتيب هذه المتناقضات بجهد واع ومدبر ومعتمد يستهدف « عـزل » و « تجميــد » التناقضات التى يعتبر ضررها على جميع الاطراف اكبر مــن فائدتهـا لاى طـرف » (ص 269 ـ 270) ٠

ويرى المؤلف ان التناقض الذى طغى على كل الاطراف هو التناقض « الوطنى » ٠ فالشعب الفلسطينى « عانى من اهــدار صميم وجـوده كشعب ينتمى الى وطــن » والاسرائيليون « يحسون بأن العداء العربى هو تهديد فى الصميم لهــدف المشروع الصهيونى فى اقامة وطن قومى لليهود « فى فلسطين » ، واذا كانت هوية شعب قد برزت مستقلة ، فقد اكتسبت القضية خواص متميزة « لعدم استناد شعب فلسطين الى وطن مستقل مكتمل السيادة عند نشوب النزاع » ٠

لكن مع بروز احتمال التسوية ، « لم يعد التناقض الوطنى وحده هو الطاغى ٠ ولم يعد هو التناقض الخليق بامتصاص كل صور التناقض الاخرى » ٠ (ص 272) ٠ ذلك ان احتمال التسوية ابرز تناقضات أخرى « أفقية » هى فى الاغلب تناقضات «اجتماعية» ٠ « وقد أصبح التناقض الاجتماعى يزاحم التناقض الوطنى فى احتلال مقدمــة المسرح

السياسى فى المنطقة » (ص 274) · وهكذا تعقد الوضع بفعل تداخل التناقضات الرأسية التى تتمثل فى الصراع بين اسرائيل من جهة والدول العربية وشعب فلسطين من جهة أخرى ، مع تناقضات افقية تفصل بين شرائح مختلفة من مجتمعات الدول العربية المشاركة فى النزاع ·

ثم ينتقل الكاتب الى مناقشة مسألة قبول أو رفض مبدأ التسوية ليقرر ان « مبدأ التسوية لا يستشف منه فى حد ذاته منطلق يمينى أو منطلق يسارى · وقبول مبدأ التسوية لا يتم فى حد ذاته عن موقف رجعى · ان المبدأ مقبول ، سواء بنظرة تقدمية ثورية أو بنظرة رجعية استعمارية » (ص 279) · وبعد تقرير هذه الفكر والدفاع عنها ، يرتب عليها النتيجة التالية التى تتمثل فى « أن قوى تنتمى الى منطلق استعمارى لن تمانع فى الاعتماد على اليسار العربى واليسار الاسرائيلى فى سبيل ان يشكلا معا ركيزة تيسر عملية انجاز التسوية ، اذا كان اليمين هو المستفيد منها فى النهاية » · (ص 281) ، ولكنه يوازن هذه الفكرة بفكرة أخرى تقابلها تقول بان « الحلول التقدمية الخليقة بتيسير عملية التسوية قد لا تكون مرفوضة على اطلاقها أيضا من وجهة نظر الاستعمار والرجعية المستنيرة » (ص 281) ·

وفى فصل ثالث بعنوان « أسلحة العرب » يتطرق المؤلف الى الامكانيات التى يملكها العرب والآفاق التى يفتحها توظيف البترو دولارات ان هى وظفت وفق مخطط عربى وليس وفق مخطط استعمارى · ويلمح المؤلف من طرف خفى فى مبدا الامر الى امكان قيام « تعاون عربى اسرائيلى » بعد تحقيق مشروع أو مشاريع التسوية ، ثم يفصح عن مراده بوضوح بعد ان يمهد لذلك بتقديم نظريته فيما يتعلق بتطبيق « الانفراج الدولى » على قضية فلسطين فيقول :

« لقد نسبت بعض المصادر الغربية الى لقاء القمة الثالث بين برجنيف ورئيس الولايات المتحدة فورد فى فلاديفوستك ، التوصل الى صيغة اتفاق بشأن قضية فلسطين قوامها ان تقنع موسكو الفلسطينيين بالاعتراف بحق اسرائيل فى الوجود ، مقابل أن تقنع واشنطن اسرائيل بالاعتراف بمنظمة التحرير » ويواصل المؤلف شرح نظريته قائلا :

« معنى ذلك ان يتم « الانتقال » من حالة « عدم الاعتراف المتبادل » الى حالة « الاعتراف المتبادل » • وبعبارة أخرى ، ان تقبل السلطة الاسرائيلية وجود كيان « لفلسطين » مقابل ان يقبل ممثلو شعب فلسطين كيان « اسرائيل » (ص 347 ـ 348) •

ثم يطالب المؤلف القيادات الممثلة فى « منظمة تحرير فلسطين » الى ان تكون لها « استراتيجية سياسية » لانها لم تعد تملك « ان تبنى استراتيجيتها فقط على العمل النضالى والفدائى » (ص 361) ليقرر ان « نقطة البدء » التى تسمح بالخروج من المازق ، هى فى : « أن تتبنى منظمة التحرير الدعوة التى نادى بها الحبيب بورقيبة منذ عدد من السنوات ، وتبدو فى الملابسات الراهنة للازمة ملائمة للطرح أو ـ ان لم تكن ترى المبادرة بهذه الخطوة ـ ان تطالب الدول العربية منظمة التحرير بأن تستجيب لدعوتها بأن يجرى تنفيذ قرار مجلس الامن الصادر فى نوفمبر 1947 ، والخاص بتقسيم فلسطين الى دولة فلسطينية عربية ودولة اسرائيل » (ص 365) • ودفاعا عن هذه الفكرة يقول اثر ذلك ان :

« هذه الدعوة لا تنطوى على تنازل من قبل منظمة التحرير عن هدفها الاساسى فى اقامة دولة علمانية فى فلسطين تتسع لليهود والمسيحيين والمسلمين معا ، ذلك ان قرار التقسيم صدر باعتباره الحل « العملى » الوحيد ، ما لم تتوافر الظروف لاقامة دولة يهودية عربية واحدة تتسع لكل أرض فلسطين » (ص 365) •

ويرى المؤلف ان هذه الدعوة « سوف تدعم المركز الدولى لمنظمة التحرير ، وسوف تعطى دفعة جديدة للانجازات التى حققتها فى الآونة الاخيرة ، وتوجتها دعوة ياسر عرفات للتحدث باسم شعب فلسطين على منبر الامم المتحدة ، وسوف تعزز الاعترافات الدولية التى حصلت عليها المنظمة » (ص 366) وعلى الرغم من أن المؤلف لا يذهب الى حد مطالبة منظمة التحرير ان تتخلى عن هدفها النهائى ، فانه يلح على ان موازين القوى الراهنة تتطلب من المنظمة « ان تسلم بأن حصولها على اعتراق من قبل اسرائيل بقيام الكيان الفلسطينى ، هو هدف نضالى لا غنى عنه لو أرادت فى المستقبل تحقيق هدفها النهائى » (ص 369) •

ويحاول الكاتب تدعيم فكرته بضرب مثل العلاقة الموجودة بين الاتحاد السوفياتى والولايات المتحدة الاميركية ، ويطالب منظمة التحرير واسرائيل بأن تسترشد فى العلاقة بينهما بقواعد التعامل التى تتحكم فى تنظيم العلاقة بين العملاقين أى قواعد الانفراج الدولى التى لا تقتضى من الاتحاد السوفياتى ان يتنازل عن هدفه النهائى ، وهو سيادة الشيوعية للعالم ، وكذلك لا تقتضى نفس القواعد من الولايات المتحدة الاميركية ان تتخلى عن هدفها النهائى فى القضاء على الشيوعية ٠

ومن هنا يتلخص المؤلف الى النتيجة التى يريد الوصول اليها وهى التى خصص لها الفصل الاخير من الجزء الرابع والتى يلخصها تساؤله التالى : « هل من المستحيل فى ضوء هذه المعطيات الجديدة ان ينشأ لدى بعض الدوائر العربية التصور بأن القدرات التكنولوجية والاقتصادية والاسرائيلية يمكن ان تصبح عنصرا مساعدا للتنمية العربية، لا عنصرا معوقا فقط لهذه التنمية » ٠ (387) ٠

ويرى ان هذا التصور اصبح ممكنا « لان ظروفا وملابسات تهيأت لاول مرة لا تستبعد لاسرائيل دورا و « وظيفة » فى المنطقة ٠ ولاول مرة يلوح « نمط » قد يحث البعض على البحث عن مصلحة فى قيام « تكامل ما » بين « الكيف الاسرائيلى » و « الكم العربى » ٠ تكامل بين قدرات اسرائيل التكنولوجية ، ومقدراتها البشرية من جانب ، وبين المال العربى وحاجة العرب الى توظيف هذا المال فى صورة انجازات تحقق منافع من الجانب الآخر » ٠ (ص 387 ـ 388) ٠

وبعد ان يقرر المؤلف بأن الحلم الفلسطينى باقامة دولة علمانية ديمقراطية لكل أرض فلسطين ، قد يكون السلم أكثر من الحرب سبيل تحويله الى واقع ، بعد ذلك برى أن اسرائيل سوف تقاوم بكل ما تملك من وسائل استيعابها فى المنطقة ٠ ويرى ذلك ان قيام الحرب الخامسة احتمال وارد ٠

* * *

وبعد ان هذا الكتاب الذى وضعه محمد سيد أحمد ، يعتبر من حيث البناء والترتيب الفكرى ، ناجحا الى حد بعيد ٠ فمقدماته تبدو خاضعة لمنهجية صارمة ، تسلمك الواحدة

نحو الاخرى فى تسلسل متماسك • ولا شك ان القراءة المتمعنة للكتاب تجعل القارىء يتأكد من أن الكاتب يعرف أين يريد ان يصل ، واذا كان قصده هو تعويد العرب ليس فقط على التسليم بوجود اسرائيل ، ولكن أيضا على التعامل معها حتى يستفيد « الحكم العربى » من « الكيف الاسرائيلى » ، وحتى يتكاملا ـ اذا كان ذلك هو قصده ، فلا شك انه سلك فى الدفاع عن هذا القصد واقراره مسلك المدافع الجاد الذى لم يستهن بالمصاعب المختلفة التى تواجه مثل هذه الفكرة ، وانه قد حشد لذلك كل ما يلزم من أساليب محاجة قوية وجدل •

ويمكن ان نعتبر ـ من هذه الناحية ـ ان هذا الكتاب حاول تقديم اضافة جديدة ، أو بعبارة ادق ، اعاد صياغة بعض الافكار المتعلقة بمشكل الشرق الاوسط ، متصـــلا بالقضية الفلسطينية • وبقطع النظر عن الموقف الذى يمكن ان تتخذه من صياغة محمد سيد أحمد ، لفكرة دمج اسرائيل فى المحيط العربى ، فان هذه الصياغة تقدم تصورا يخرج عن المسالك المطروقة ، ويمثل اجتهادا يسارى الطابع ، من شأنه ان يساعد على اثراء المناقشات التى تدور فى الساحة العربية ، ليس فقط حول قضية فلسطين ، ولكن أيضا حول كل ما يتصل بمصير ومستقبل الشعوب التى يتشكل العالم العربى مـــن مجموعهـــا •

ذلك ان التناول الذى تناول به محمد سيد أحمد القضايا التى بنى عليها فكرة هذا الكتاب ، مثل تفسير نشأة الكيان الفلسطينى ، الذى لم يتردد فى ان يطلق عليه « الامة الفلسطينية » وتطبيق نفس التناول على اسرائيل ـ هذا التناول يقلب رأسا على عقب « المسلمات » ـ أو التى تبدو كذلك ـ التى تعود عليها الرأى العام المشرقى فيما يتصل بـ « الامة العربية » • فمصطلح الامة العربية ، والتصور البعثى له ، (وهو التصـــور الذى ما يزال سائدا فى المشرق حتى فى القطاعات والجهات الخارجة عن النفوذ السياسى والعقائدى لفلسفة حزب البعث) ، يرفض مثل هذه الاستعمالات • وتجدر الاشـــارة هنا الى أن الظروف السياسية التى تشكلت ضمنها الحركات الوطنية بالمغرب العـربى ، جعلت اطلاق مصطلح « الامة » على كيانات الجزائر وتونس والمغرب مثلا، استعمالا شائعا سواء فى فترة نشوء تلك الحركات الوطنية ، فيما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية ،

أو فى فترة التحرير ، أو بعد استقلال بلدان المغرب العربى · ومن شأن هذا الاستعمال ـ فى المغرب العربى ـ لمصطلح « الامة » ان يشكل ـ طال الزمن أم قصر ـ موضوع أخذ ورد وجدال مع التصوير والاستعمال المشرقى لنفس المصطلح ، وهو جدل نعتقد انه لن يخلو من فائدة لانه يسمح بتسليط الاضواء على بعض النظريات التى إكتسبت صفة التقديس حتى أصبحت تبدو فى شكل بديهيات ومسلمات غير قابلة للنقاش ·

واذا كان صحيحا أن هذا كله يتعلق بـ « مصطلحات » وبالتالى بـ « الفاظ » ، ويعتبر تبعا لذلك أمرا غير ذى أهمية كبيرة ، فان « المصطلحات » تلعب دورا كبيرا فى حياة شعوب متخلفة مثل الشعوب العربية · بل لقد شهدنا معارك سياسية طاحنة ، بين أحزاب وبين أنظمة قامت فى المشرق العربى من أجل اصطلاحات وألفاظ · على أن الاهمية التى تعطى للمصطلح واللفظ ، لا يمكن أن تفسرها فقط مسالة التخلف ، ولكنها ترجع ـ بالنسبة لشعوب المشرق العربى ـ الى تراث عريق فى القدم · فسواء تعلق الامر بالتراث الاسلامى أو التراث المسيحى ، فانه نجد معركة المصطلحات تحتل حيزا كبيرا من تاريخ المنطقة فى العصور الوسطى والتاريخ القديم ·

* * *

أما فيما يخص بالمآخذ التى يمكن أن توجه للكتاب والكاتب ، فنرى أن ابرزها هى : ان هذه المحاولة تتسم فى كثير من مواطنها بالمبالغة والايغال فى التجريد · واذا كان التجريد ضروريا ، طالما الامر يتعلق بأفكار وتصورات ، فان المبالغة فيه تبطل مفعول المحاولة التى تتناول واقعا قائما وترمى الى ايجاد واقع جديد ·

ومن هذا المنطق نجد أن الكاتب لم يقدر التقدير اللازم بعض جوانب الواقع أو بعض وقائعه ·

وفى مقابل هذا نجد انه قد بالغ فى تضخيم أهمية بعض مظاهر الاعتراف الدولى بالكيان الفلسطينى · وهى مبالغة لم نكن لناخذها عليه لو انه لم يحاول أن يعتمد عليها لكى ينتزع فى مقابلها تنازلات أساسية من الفلسطينيين ·

وبنفس المنطق يطالب الكاتب منظمة تحرير فلسطين بتحديد استراتيجية سياسية وديبلوماسية وعدم الاكتفاء باستراتيجية النضال المسلح ، كما لو أن الامر يتعلق أساسا

بارادة الفلسطينيين دون غيرهم من العرب • فهو فى هذا المكان يسكت عن الالتزامات العربية الواجبة ازاء المعركة الفلسطينية ، كما لا يتعرض لانعكاسات سياسات الانظمة العربية على الساحة الفلسطينية ولو أن منظمة التحرير حددت استراتيجية سياسية وفق خط الكتاب ، فانها تكون قد ساعدت على تفجير تناقضات داخل صفوف المقاومة الفلسطينية تعزز بعض التيارات العربية التى تريد أن تتخلص بكل ثمن من المشكل الفلسطينى وتعمل من أجل الوصول الى تصفية نهائية للمقاومة الفلسطينية •

كما ان مطالبة الفلسطينيين بأن يسترشدوا فى صراعهم مع اسرائيل بما تطبقه الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتى على قواعد التعامل بين بعضهما البعض ، يعتبر مقارنة غير صحيحة ، فلكل من السوفياتى والولايات المتحدة الاميركية ، ليس فقط كيان مجسم واضح ومعترف به دوليا ، وليس فقط شبكات مصالح تتوزع عبر ارجاء الكرة الارضية ، ولكن له أيضا ترسانة أسلحة نووية تجعل كلا منهما مضطرة الى مثل هذا التعايش ان أرادتا تجنب صراع ذرى يودى بهما معا •

وفى هذا الاطار بالذات نسجل ان التوفيق أخطأ المؤلف فى تقديره لما يترتب على احتمال امتلاك اسرائيل للقنبلة الذرية من نتائج • فقد بات مؤكدا ان اسرائيل تملك فعلا القنبلة الذرية ، وانها تحرص حرصا شديدا على أمن المنطقة التى توجد فيها تلك القنابل ، ففى حرب أكتوبر وفى يوم 9 أكتوبر 1973 بالضبط ، عندما طرح على قيادة أركان الجيش الاسرائيلى سؤال يتعلق بالموقف المطلوب اتخاذه من طائرة تجسس أميركية شوهدت على الرادار الذى يحرص صحراء النقب ، كانت الاجابة قاطعة ودون تردد : اسقطوا الطائرة •

وبعبارة أخرى ان هذه الامكانية ، امكانية استعمال اسرائيل للسلاح الذرى ، تتطلب تحديد سياسة عربية تختلف كل الاختلاف عن الموقف الذى يوحى به ذلك التحليل المطمئن الذى انتهى اليه المؤلف عند تناوله لهذه النقطة •

ويمكن ان يؤخذ على المؤلف أيضا تناوله لقضية عملية مثل قضية « توظيف المال العربى » بتجريد مبالغ فيه ، الى درجة أنه غفل عن الشرط الاساسى لتحقيق ما يريده وهو توفر « الارادة السياسية » • فالذين يملكون البترو دولارات فى العالم العربى يفضلون توظيفها فى بلدان غربية ، بل ويفضل بعضهم ان يشترى بها عمارات وقصورا فى أوروبا وأميركا ، مسهما فى حل بعض مشاكل هذا العالم الغربى ، دون ان يضمن

أى الطرف العربى ، لنفسه مصالح دائمة · وباختصار ان الطرح الذى طرح به المؤلف المشكل الاساسى الذى من أجله وضع له هذا الكتاب ، يخدم ـ سواء قصد المؤلف الى ذلك ام لم يقصد ـ اتجاها ما فتئت الاوساط الاسرائيلية والصهيونية تروج له فى العالم الغربى ، وخاصة عن طريق المثقفين ، وهو اعتبار ان الديانة اليهودية هى أصل كل ثورة فى العالم · لان النتائج التى يصل اليها المؤلف فى هذا المجال تعتبر بالفعل « ثورة » ـ بقطع النظر عن تقييمها ـ لا تقتصر فقط على العالم العربى ، ولكن تتجاوز حدوده بكثير· ولن نعدم آنذاك من ينسب الفضل فى ـ هذه « الثورة » الى اسرائيل ··· تماما كما نشاهد اليوم محاولات تستعمل الكتاب والسنما والتلفزيون لتأكيد ان « العصر الحاضر الذى هو عصرنا قد ولد فى صحراء سيناء على يد قوانين موسى » · فهناك الآن محاولات تهدف الى ربط مكافحة الاستعباد والرق بتحريم الرق فى المجتمع اليهودى على عهد موسى !

ومهما يكن من شىء فان الاتجاه الذى يدعو اليه مؤلف هـــذا الكتاب ، يتلاءم مـــع الاحتياجات الجديدة لاسرائيل · ولا يعنى هذا أننا نتهم الكاتب بانه يخدم عن عمـــد مصالح اسرائيلية ، كلا · ولكنه يعنى ان تحليل احتياجات المجتمع الاسرائيلى وتناقضاته، ومن وجهة نظر تسلم بوجود دولة اسرائيل ، ينتهى الى نفس النتائج تقريبا ·

ذلك ان اسرائيل اسرائيل قد استنفذت الاعتماد على الماضى وجذوره كى تثبت نفسها· لم تعد بها حاجة الى الماضى كى تبرر وجودها · بل انها اصبحت فى حاجة الى ان تضمن المستقبل ، وان تحلق ضمن اجوائه وهذا التحليق يستلزم منها الاعتماد على المجالات العربية والامكانيات العربية ·

وليس من محض الصدفة ان تصدر فى هذه الفترة بالذات ، كتابات عن اسرائيليين أو عن مثقفين موالين لاسرائيل تتحدث عن هذه الامكانية ، امكانية « التكامل بين الكم العربى والكيف الاسرائيلى » · وقد انتهى احد الكتاب الاسرائيليين راشيد ميزراحى ، الذى له كتاب عنوانه « أين عاد الليل ؟ » (وهو عنوان له أكثر من دلالة) انتهى الى الخلاصة التالية :

« لا نحتاج الى جذور ، ولكننا نحتاج الى اجنحة » ·

فهل العرب على استعداد لان يقصوا اجنحتهم كى يعيروها لاسرائيل تطير وتسيطر بها على أجواءهم ؟ ·

من محاضرات الملتقى

روح الشريعة الإسلامية
وواقع التشريع اليوم في العالم الإسلامي

للأستاذ/ محمد أبي زهرة
أستاذ الشريعة وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة



ـ 3 ـ

الكسب بالزمن :

19 ـ لم يعد الاسلام الكسب بالزمن سببا من أسباب الكسب الطيب لأن الزمن لا ينتج ثمرا ، ولا يلد نقدا ، أو يحمل فيه نقد حتى يتمخض ، ولذلك أبطل القرآن الكريم الكسب بالزمن ، وجعله من قبيل أكل أموال الناس بالباطل ، وعده سحتا في الكسب ، فقال تعالى : « **الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله**

(*) محاضرة ألقاها المرحوم في الملتقى السابع للفكر الاسلامي بتيزى وزو المنعقد من 10 ـ 22 جمادى الثانية 1393 هـ ـ 10 ـ 22 يوليو 1973 م .

ونظرا لطول المحاضرة ننشرها على حلقات .

البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه ، فانتهى فله ما سلف وامره الى الله ، ومن عاد فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون،يمحق الله الربا ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم ، ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات واقاموا الصلاة وآتووا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون » ٠

نص صريح لا ريب فيه ، وعد القرآن الكريم من لم يذر الربا بعد تحريمه فى حرب الله ورسوله ، لانه سيحارب نظام الشريعة فى الكسب ، لانه يرتكب اعظم الاثام جرما فى بناء المجتمع ، وحد مؤدى التوبة ومغزاها وهو ان يسلم لهم رؤوس أموالهم ، ولا يأخذوا فوق راس المال شيئا والا فهو الربا ٠

ولكن تنبأ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بزماننا هذا ، وهو زمان ربوى فى أكثر طرق الاستغلال ، فقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الامام أحمد : «**يأتى على الناس زمان ياكلون فيه الربا ، من لم ياكله ناله غباره** » ٠ وهذا هو زماننا ، وان ذلك بلا ريب انحراف بالامة عن مقاصد دينها ، ونصوص كتاب الله تعالى الذى نزل رحمة للعالمين ٠

انما الطامة الكبرى ، ان ينبرى بعض كبراء المشتغلين بالعلم الاسلامى لبيان أن فوائد البنوك ليست ربا لان القروض فيها استغلالية ، والربا فى زعمهم انما هو فى القروض الاستهلاكية ٠ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذبا ، فالقروض الاستهلاكية والاستغلالية على سواء فى تحريم الربا ، لان اللفظ عام ، لم يفرق بين قرض للاستهلاك ، وقرض للاستغلال ولان ربا الجاهلية كان فى أكثر احواله للاستغلال لا للاستهلاك ، فربا العباس بن عبد المطلب الذى ذكره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند تحريم الربا فقال عليه السلام : « **ان ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أبدأ به ربا**

عمي العباس بن عبد المطلب » وما كان العباس في شرف محتده الذى كان يسقى الحجيج بقنع العنب فى موسم يجنيه طالب قـوت ، ويقول أما ان تربى واما أن لا اعطيك ، ولأن العرب ما اتسـعت حاجاتهم ، بل كان الرجل يعد موفور الرزق مادام يجد التمر واللبن ، فمادامت عنده الناقة التى يحلب لبنها ، والنخلة التى يأكل ثمـــرها ، فهو مجدود ورزقه موفور ، فليست عنده ولا عليـــه نفقات تعليم ابنه أو جهاز ابنته ليقترض لها ، واذا كان لا يملك الا قوت يومه ، فمن الذى يقرضه ، ليأخذ وراثه اقراضه ربـا •

وان العرب فى مكة كانوا قوما تجارا ، فمنهم من كان يتجـر فى ماله ، ومنهم من كان يتجر فى مال غيره ، على ربح مقوم بينهما ومنهم من كان ينمى رأس ماله بالقرض على أن يكون لصاحب المال قدر محدود من النقد ، وهذا هو الربا ، وكان هو ربا الجاهلية الذى شـــاع مع شيوع التجارة •

وقد اختلف بنو المغيرة الذين اقترضوا من بني ثقيف عندما نزل تحريم الربا ، فقال بنو المغيرة ، ان الربا على ما اخذوه فى المـــاضى يحتسب من رأس المال ، وقال بنو ثقيف لا يحتسب ، واحتكموا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليطبق عليهم النص القرآنى ، « **ذروا ما بقى من الربـا** » •

وما كان بنو المغيرة يقترضون ليأكلوا ، بل كانوا يقترضون ليزيدوا فى رؤوس أموالهم ، فمنهم الوليـــد بن المغيرة الذى نزل فيه قوله تعالى : «**ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا وبنـــين شهودا** » وان التعبير برأس المال فى قوله تعـالى : « **وان تبتـم فلكم رؤوس أموالكم** » ، ان هذا التعبير عن الدين يدل على أنه رأس مـال للاتجار ، لا للاكل وإعداد الحاجات •

20 ــ ومن الكسب بالانتظار والاحتكار ، فانه كسب الزمن ، اذ تدخر البضائع فى وقت كثرتها الى وقت قلتها ، فيزداد ثمنها ، ويكون الكسب بالزمن ، وقد حرم بأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « **الجالب رزوق والمحتكر خاطىء** » •

ولماذا حرم الاسلام الكسب بالزمن وعده كسبا خبيثا ؟ والجواب عن ذلك ان الكسب الطيب في الاسلام هو الذى يزيد ثروة الامة ، أو ينمى مالها فى مجموعه اما بالزراعة ، واستخراج ينابيع الارض ، أو بتحويل الاشياء بالصناعة فالتحويل يزيد الثروة ، فتحويل القطن الى نسيج يزيد ثروة الامة ، وتسد حاجاتها ، وغير ذلك ٠

والتجارة تحويل البضاعة من مكان فيه وفرها الى مكان آخر ليس فيه وفر ، بل حاجة ، وذلك ينمى ثروة الامة وتسد حاجاتها ٠

اما الكسب بالزمن فانه لا يسد حاجة ، ولا ينمى ثروة الامة ، انما الذى يسد الحاجات وينميها فهو المقترض المستقل مثلا ، ويجب تشجيعه لا بخسه ، ولا الاقطاع منه لمن لا يعمل ، ولا يتحمل أى تبعة

ويقول اولئك الذين انحرفوا لان المجتمع الربوى جرفهم ، ان الربا يمكن المستغل من أن يستعمل بوفرة ، ونقول انه يرهقه من أمره عسرا لانه يعمل مستغلا ثم يجيء الآخر ويشاركه فى كسبه ، من غير ان يشاركه فى خسارته ، ان خسر ، وبذلك تتوالد الازمات عندما يكون الكسب غير قائم بسداد الربا الذى هو كالاتاوة ، ولو كان الرابى شريكا ، لتحمل الخسارة ، ولكنه لا يريد الشركة ، بل يريد الاخذ من غير تحمل لتبعة وذلك ظلم مبين مؤدى الى فراغ عند المرابين ويصيرون كلا على المجتمع ، لا يفكرون الا فى حساب الفوائد، وفوائد الفوائد ، وكيف يقتنصون أموال الناس ، ويأكلونها أكلا لما ، ولعل أرسطو قال قوله الحق عند ما قال : ان الكسب بالفائدة كسب خبيث ، لأن النقد لا يلد النقد ٠

مؤدى تطبيق الشريعة او مغزاه

21 ـ ما ذكرنا اجمال لبيان الشريعة ، وما كانت ترمى اليه ، وقد أسهبنا بعض الاسهاب ، لكى نعرف مدى تطبيقها فى الماضى ، وما ينبغى لتطبيقها فى الحاضر ومنه كيف أن نطبقها أو روحها ، أم نحن فى واد ، وهى فى واد !

ان هذه الشريعة كانت مطبقة تطبيقا كاملا فى عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذى علم الانسانية ، كلها ، علم الحق والعدل ،

وكانت مطبقة فى عهد الراشـــدين الاربعة ، ثم عهد الحاكم العادل عمر بن عبـــد العزيز رضى الله عنه الذى عـــده بعض المؤمنين من المؤرخين خامس الراشدين ٠

اقيمت فى عهد هؤلاء الحدود كلها ، حد الحـــرابة ، وهم قطاع الطريق والعصابات ، وحد السرقة وهو قطع اليد ، وحـــد الزنى ، وحد قذف المحصنين والمحصنات ورميهم بالزنى ، وحد الشرب ،وهو ثمانون جلدة ، لمن يقبض عليه شاربا الخمر ، وحد الردة ، وهو قتل المرتد بعد استتابته ٠

ونفذ القصاص ودفعت الديات ٠

وبذلك قام مجتمع صالح تختفى فيه الرذيلة ، وترفع راســـها الفضـــيلة حتى تكونت بحق المدينة الفاضـــلة التى كان يحلم بها الفلاسفة ولم يستطيعوا لها تطبيقا أو ايجادا ٠

وكانت التعزيرات ، وهى العقوبات غير المقدرة بقـدر محدود فى الكتاب أو السنة تقوم بالعدل والميزان فما كان يعتدى انسان الا اذا اعتدى على مصلحة مقررة فى الشرع أو انتهك حـــرمة من حرمات الشرع ، أو اعتدى على حق عام ، أو نشر فسادا ٠

وكانت العقوبة تقدر بقدر الاعتداء ، وتكون رادعة فى غير تحيف ولا ظلم ، ولا دفع للتعاريف وأشد وما كانت التعزيرات أو غيرها من العقوبات لشهوة الحكام وارضائهم ، بل لارضاء الله سبحانه وتعالى ٠ وهو الرءوف بعباده الرحيم بهم ٠

وكان الحكم قائما على الشورى ، كما قال تعالى : « **وأمرهم شورى بينهم** » ، وكما قال تعالى : « **وشاورهم فى الامر ، فاذا عزمت فتوكـل على اللـــه** » ٠

فأساس الحكم فى الاسلام هو الشورى لا يعين الحـــاكم الا برضا المؤمنين ، وبيعتهم أو بيعة أهل العقد والحل الذين اختيروا لذلك من بعده ، ولم يول أحدا من بعده ، واختبر الله تعالى عترة محمد اختبارا شديدا ، فلم يتمكنوا من سلطان الا فى الاطراف من الارض ، ولآماد

قصيرة والذين طال بهم الامد وصاروا حكاما قد حولوه الى ملك عضوض فكانوا كغيرهم فى الدول التى ادعت الخلافة ٠

وفى الحق أن أول هدم فى بنيان الحكم الاسلامى كان تحويل الخلافة الى ملك عضوض ليعض عليه بالنواجذ ، ولقد ورد فى الاثر ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « **الخلافة بعدى ثلاثون ثم تصير ملكا عضوضا** » ٠

واذا كان علماء القانون فى هذا الزمان يقولون ان دستور الدولة هو أمر القوانين فيها عنه تصدر حكمه تنفذ ، واليه يحتكم فى صحة ما تشترع ، فأساس الحكم ، والانحراف عن الشورى الى الملك العضوض هو أول هدم لحكم الشرع الاسلامى ، ولقد سئل الحسن البصرى عن معاوية بن ابى سفيان فقال فى معاوية اربع احداهن موبقة أولاها أن أمر المسلمين كان شورى فجعله ملكا عضوضا ، وعهد الى يزيد السكير والحق به زيادا ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول **الولد للفراش ، وللعاهر الحجر** ، وقتله حجر بن عدى غدرا ، « ويل له من حجر بن عدى » ٠

هذه كلمات الحسن البصرى أحد كبار التابعين ، وسيد علماء البصرة ننقله ، ولا نذكر اننا نؤيده فى قوله أو لا نؤيده ، ونرضاه أو لا نرضاه ٠

22 ـ وانه فى الحق نقول انه فى الفترة التى غير فيها دستور القرآن ، وهو الشورى كان الفقه الاسلامى فى منهاجه الحق بالنسبة للاحكام الشرعية المستخرجة من الكتاب والسنة ، واعمال الصحابة مجمعين وغير مجمعين وقد سار فى طريقه السوى من غير عوج ، ولا مبالاة للحكام المستبدين ، كما رأينا فقيها ما لا فى حكم شرعى ، ولا أدهن فى حد من حدود الله تعالى بل يقرر الاحكام المستنبطة من الكتاب والسنة فى رأيه من غير عوجاء ولا لوجاء ٠

ولكن نلاحظ أمرين :

ـ احدهما ، انهم لم يتعرضوا من مبدا الحكم فى الاسلام الا بكلام قليل وأكثر القليل كان متخذا من الاوضاع التى كانت قائمة ، راضيا بها أو ساكتا عنها

ومنهم من كان يستنكر ظلمهم أولاد على كأبى حنيفة وما تركه أبو جعفر المنصور حتى زج به فى غيابات السجن بتعلة غـــير الباعث الحقيقى ٠

وكان مالك رضى الله عنه لا يؤيد الخارجين ولا يؤيد الحاكمين ، وقد خرج فى المدينة محمد النفس الزكية من أولاد عبد الله بن حسن بـــن حسن ، فسئل مالك رضى الله عنه أنكون مع الخارجين أم نكون مـــع أمير المؤمنين ؟ فقال رضى الله عنه : ان خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلوهم ، والا فاتركوهم ، فينتقم الله من ظالم بظالم ، ثـــم ينتقم من كليهما ٠

وحاول والى المدينة أن يمنعه من رواية حديث وليس لمســـتكره يمين لان الخارجين كانوا يســـــتدلون به فى رفض خلافة ابى جعفر المنصور ، لانها أخذت بالاكراه وأبى امام المحدثين وامام دار الهجرة ان يمتنع عن التحدث بحديث رسول الله اتباعا لهوى حاكم أو ملك تسمى باسم خليفة ، فضرب بالسياط ٠

وحوكم الامام الشـــافعى لاتهامه بالولاء لآل على حتى اســـتطاع الخروج من التبعية بلباقة وشفاعة محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة الذى كان قاضيا للرشيد ٠

وحبس وجلد الامام أحمد لانه لم يقل ان القـــرآن مخلوق اتباعا للمأمون أولا ، والمعتصم ثانيا والواثق ثالثا ٠

هذه تعذيبات شديدة نالت الفقهاء أو بعضهم بسبب آرائهم حول الحكم أو على مقربة منه ولكن الفقه استمر سليما لم يرنق بضلال قد يكون فيه أخطاء بدليل ان بعضهم كان يخطىء بعضا ، ولم يكن فيه انحراف فى الدين أو التواء فى النفس أو حض على هوى الحكام ٠

ولذا جاء الفقه سليما فى استنباطه وسليما فيما استقى من ينابيع وسليما فى فتاويه فى الواقعات يهدى ويرشد ، ولا يضل ويفرى ٠

وقد اغلق باب الاجتهاد أو غلقه الفقهاء على أنفسهم ، وكان ثمـــة بواعث اقتضته ، ولكن أرى أن ذلك هو من قدر الله تعالى ، وصيانته لشرعه من أن يعبث به أهواء الملوك الذين استولوا على ملكهم بغير حق شرعى ولا شبه شرعى ٠

فان الاحكام بهذا التغليق على انفســـــهم ، وان لم يكن بمصدر شرعى ، صان الشريعة عن عبث الاهواء ، وقد حـــــكم الهدى دون الشرع ، لان حكم الملكية حكم الهوى الا من اســـتقام على الطريقة ، وقليل ما هم بل نادر ما هم ٠

وقد اســـتمرت الشريعة محفوظة بحفظ الله مع فســـاد الحكم الاسلامى ، وما كان فيه من سلاح مدعى كان فى الحرب ، وما كانت الحرب جهادا ، بل كانت للغلب ٠

ثم انقلبت فصارت حربا بين المسلمين عندما تمنعت يد الحـــاكم العباسى على القبض على السلطان ، فقام بين مؤيديه ، وصارت الحرب بين المسلمين ، حتى جاء التتر واستولوا على بغداد، وطردوا العباسيين منـــها ٠

ومن الحق علينا ان نقول ان الذخيرة الشرعية كانت ثابتة قائمة يتذكرها الفقهاء ، ولا يزيدون ولا يتصرفون ٠

وجاء الى الاجيال الذخيرة الفقهية غير عرجاء ولا عوجـــاء ، وجاءت احكام القرآن والسنة مصونة لم تمس ، واذا كان فيـــها فى بعض الاحيان جمود على آراء فان ذلك خير من أن يجرى التغيير والتبديل تبعا لاهواء الحكام ٠

ابتـــداء الانحراف :

23 ــ قلنا ان تغليق الفقهاء عن انفسهم باب الاجتهاد حفظ الذخيرة الفقهية ، ولكن بعد أن آل أمر المسلمين الى آل عثمان وجد اتصـــال قانونى بين الاتراك ، وغيرهم ، ووجد الاتصال بين المغرب واوروبا ، وكان يمكن أن يكون اجتهادا يقرب ، ولا يبعد ، وباب الاجتهاد مغلق لا يفتح رتاجه ، ولكن استطاع الممالئون لسلطان آل عثمان ان يدخلوا من باب الحيل أى من غير الباب الذى يصح الدخول منـــه ، فوجدت الحيلة الشرعية لاباحة الربا ، بما يسمى « بيع العينة » الذى قال فيه محمد بن الحسن أحد تلاميذ ابى حنيفة « بيـــع العينة اخترعه أكلة الربا وهو أثقل على نفسى من الجبال » ٠

ولهذا البيع صور شتى منها أن يبيع شخص لآخر لبنا بثمن مؤجل قدره مائة مثلا ويتسلم العين أو لا يتسلمها،ثم يبيعها المشترى ثانية للبائع الاول بثمن معجل قدره ثمانون ، فتكون النتيجة أنه قد قبض ثمانين ، وصار عليه دين قدره مائة ، والعشرون هى فـــرق الثمنين ربا بلا ريب ، ولكن فى صورة البيع والشراء يحسبون انه اختفى على الله ، وما خدعوا الا أنفسهم ، ودخل فى الفقه على صـــور كثيرة ، ودخلت تغييرات فى الفقه بهذه الطريقة ٠

دخول القوانين الاوروبية

24 ـ قلنا أن أول تغيير فى الاصول الشرعية كان انحراف الحـكم من شورى بنص القرآن الى استبداد بارادة الحـــكام ، ملوكا وغير ملوك ، كما ظهر من بعد ، وصار أمر المسلمين بورا ، وحكمهم فرطا يحكم الملك ، وكأنه يحكم بأمر الله ، وطاعته مقدسة ، والخروج عليه تمرد على حكم الله ، وحكم المسلمين حكام جهلة ، واضطربت الامور ، ولم يكن ثمة قضاء منتظم ، ولا حقـــوق مرعية ، وتصرف الملوك فى الناس تصرف المالك فى ملكه ٠ ولم يكن لهم عند سلطان آل عثمان ارادة ، ولا رأى فى أى أمر من الامور ، ولم يكن ثمة ملك من ملوك المسلمين يحس بأى تبعة أمام الشعب المسكين ، وكان الدين قائمـــا الى حد عند بعض الملوك ، فكان يخشى الله فى رعيته ، الا اذا اعترض على حكمه معترض ، فعندئذ يكون الويل والثبور وعظـــائم الامور ، وتقوم الدنيا وتقعد ، ويكون ممن يجهلون علم الاسلام من يبرر للملك تصرفه أيا كان ٠ كانت الامور فوضى وكان لابد من تغيير واعـــــداء الاسلام بالمرصاد ٠

ابتدأت العثمانية فكبلت المسلمين بالامتيازات الاجنبية ، زاعمـة أنها من مذهب أبى حنيفة الذى ذكر بالنسبة للذميين ان لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وأننا أمرنا بتركهم وما يدينون ، وحرف فيه الحكم عن موضعه وجاءت القوة من ورائه تفسره كما يهوى الاقوياء ، لا كما هو مقرر فى المذهب الحنفى ٠

ان المقرر فى المذهب الحنفى أمران ، أولهما : انهم فى المعــاملات كلها عقودا أو حدودا وقصاصا ، تطبق عليهم الاحكام الاسلامية المقررة

بلا تفرقة ، وقد أصل ذلك فى الامتيازات الاجنبية اجمالا تاما فلما ضعفت الدولة العثمانية صاروا يحاكمون فى موضـــوعات الحدود والقصاص فى بلادهم ، وامام قضـــاة منهم ولو كان الامر بينهم وبين رعايا الدولة الاسلامية .

الثانى : أن أبا حنيفة قرر أنه فيما يتعلق بأحكام الاسرة من زواج وما يتعلق به تطبق عليهم شريعة دينهم عملا بقاعدة أمرنا بتركهم وما يدينون .

جاء سليمان القانونى ، ومن بعده خلفاء ، فاعطوهم امتيازات ، وتوسعوا فيها كلما زادوا قوة ، وزاد آل عثمان ضعفا ، حتى تدخلوا فى كل شيء يتعلق بالاجانب ووجد ما يسمى بالصالح الاجنبى أى ان كل قانون أو نظام يسن يكون فيـــه ما يمس الاجنبى ولو عن بعد تدخلوا فيه باسم الصالح الاجنبى .

كانت هذه الامتيازات غلا فى أعناق المسلمين فرضه الجهل التركى على الشعوب ، أو ابتداء استخذاء الدولة الاســـلامية أمام الغارات الفكرية الاوروبية أو محاولة الاتصال التجارى بأوروبا ، فتســهيلا لتجارتهم ومتاجرهم كان ذلك الامتياز الاوروبى ، ووجدوا فى بعض نصوص المذهب الحنفى ما يفتح الباب لذلك وان لم يكن الا بقـــدر ضــــئيل .

25 ـ كان فساد الحكم ، وفساد القاضى ، وعدم وجود أى نظام قار للقضاء ولتنفيذ الاحكام الشرعية مع سوس الامتيازات سيما لتورد القوانين الاوروبية فى العالم الاسلامى ، ولنضرب مصر مثلا ، من بين هذا العالم .

1) جاء رجل ارمنى اسمه نوبار باشا ، فأنشأ المحاكم المختلطة فى مصر ، لتكون مركز التقاضى بعضهم مع بعض والتقاضى بينهم وبـين المصريين وذلك فى الامور المدنية والجنح التى تقع مع الاجانب ، أمـا المتـــصلة بالحياة ، فكان التقاضى فيها من اختصـــــاص دولة المدعى عليه والتداعى أمامها وكان التقاضى فى هده المحاكم على حسب القانون الفرنسى الذى جمعه نابليون بونابرت ، وكان انشاء المحاكم المختلطة سنة 1875 .

واستبدت المحاكم المختلطة ، حتى كانت لا تعترف فى قضائها بأى عقد الا اذا سجل أمام المحكمة المختلطة وكان ذلك توسعة لنفوذها وتطبيقاتها على المصريين بغير حق ، وكان ذلك سببا لان ينشأ فى المحاكم الوطنية قلم للتسجيلات ، والتسجيل فيها ، من بعد ذلك ٠

2) كان انشاء هذه المحاكم منفذا دخل منه الى قانون نابليون نقل الى مصر ، وانشئت المحاكم الوطنية ، التى كما كانت تسمى بالاهلية واسمها يدل على اختصاصها وانها كانت مختصة بأهالى مصر ، وابتدأ ذلك سنة 1881 وعم انشاؤها ربوع الديار المصرية سنة 1883 ٠

وصار التقاضى بين الاهالى على نظام القانون الفرنسى خاصة والقوانين الاوروبية بشكل عام ، ولم يتضمن القانون المطبق من الشريعة الا بعض الموضوعات الجانبية التى بنى الاخذ منها على العادات التى كانت مدعية فى ذلك ، وهى حقوق الارتفاق ، واحكام الشفعة ، واحكام المريض ، مرض الموت ، فى بيته ، وتصرفاته التى تقيد الورثة من بعد الوفاة ٠

وترك للاحكام الشرفية ما تطبقه المحاكم الشرعية التى كانت قائمة ابان ذاك ، فكانت تقضى فى الزواج والطلاق ، والنفقات وثبوت النسب ، وغير ذلك مما يتعلق بأحكام الاسرة ٠

وكانت تقضى فى أصل الوقف ، وما يتعلق بانشائه ، وما تشتمل عليه وثيقة انشاء الوقف التى تسمى كتاب الوقف ، وما تضمنه من شروط فى الوثيقة وترتيب للاستحقاق فيها ، وتوزيع ٠

3) ومما خرج من اختصاص المحاكم الاهلية التى صارت تسمى باسم المحاكم الوطنية ، الميراث والوصايا على خلاف يسير فى الوصايا ، انتهى بخروجها من اختصاص المحاكم الوطنية ، كالوقف والوصية أخت الوقف ولا ينفصل الاخوان الا عند من يريد تقطيع الارحام ٠

وقد جرت اقتراحات خاصة بمحاكم الاحوال الشخصية ، ثم تعسف الحكم المصرى فيما تعسف فالغى المحاكم الشرعية وعد المفكرون فى ذلك الالغاء مأتما للشريعة الاسلامية ، أو مقدمة لمأتمها العام ، ثم

أخذ أمر الشريعة يضمر أمام القوانين الاوروبية عند ما كان قلب النظم الازهرية بالقاهرة الذى سمى تطوير الازهر ، وكان من مقتضاه فيما يختص بالشريعة ان صارت القوانين الاوروبية بأصولها وفروعها وملحقاتها تدرس بجوار العلوم الشرعية فى كلية الشريعة ، وغير اسمها ، فصار كليـــة الشريعة والقانون ، واذا كان فى ذلك كسب للطالب الازهرى ، فهو بلا ريب على حساب الشريعة وصارت القوانين الاوروبية والشريعة على سواء ، فى ذلك العهد الدينى العتيق ٠

26 ـ وفى العشرة الثالثة من هذا القرن استعارت تركيا المسلمة قانون سويسرا المدنية ، وطبقت فى كل شيء فيها ، حتى فى الاسرة فاستعارت منها قانون الاسرة فيما استعارت من قوانين مدنية ، وعلى ذلك كانت المرأة مثل الرجل فى الميراث على ســــواء واتيح للمرأة المسلمة أن تتزوج غير المسلم ومنع تعدد الزوجات ، ومنع الطلاق ، وصار الاقدام على واحد منهما اقداما على جريمة يعاقب عليها من اقدم عليها ، وصارت المباحات الشرعية يصدر بتحريمها قانون العقوبات فى الاسرة ٠

ولقد دخلت القوانين الاوروبية كل البلاد العربية والاسلامية بشكل عام ، وصرت لا تجد بلدا يطبق الشريعة ، الا ما نراه فى الحجـاز ، وبعض البلاد العربية الاخرى مثل الكويت الى حد ما ، ومثل الامارات العربية ، وغيرها ٠

وقد اخذت القوانين الاوروبية تتورد اليها قانونا بعد قانون فى غير مواربة واستحياء ٠

وان البلاد الحجازية الذى يقال ان الشريعة تطبق فيها تطبيقا كاملا يلاحظ فيها أمران :

أولهما : أن الحكم فيها لا يمكن ان يكون اسلاميا ، فان نظام الحكم فيها ملكية متوارثة كان الشعوب أشياء تورث كما يورث كل شيء ، وهذا نظام لا يعرفه الاسلام ، والحكم فيها اســـتبدادى ، الملك فيها مطلق اليد لا معقب لقوله ، ولا ناقض لحكمه ، فهل كان محمد ملكا ، وهل كان الشيخان ملكين ، وهل كان ذو النورين ملكا ، وهل كان ابو الشهداء على ملكا ؟

لا ندرى كيف يطبق الاسلام والحكم ملكى ، ومطلق لا يقيد بقيده ؟

الامر الثانى : الذى يجب التنبيه اليه أن المذهب المطبق هو المذهب الحنبلى ، ولم يدون فى قانون مسطور وهـــذا المذهب كغيره فيه آراء كثيرة ولذلك يصعب الرجوع الى ما يحكم به ، واعلم ان بعض ابنائنا من خريجى كليات الحقوق فى القاهرة ، أراد ان يضع قانونا مسطورا من مذهب أحمد ، وهو عمل صالح ، فصودر الكتاب .

ونحب أن نقول أن الافكار الاوروبية أخذت تتورد على بلاد الحجاز فهناك مؤسسات للتأمين على الحياة ، وعلى المتاجـــر ، وقد انشرحت قلوب بعض الحجـــازيين ، حتى صار منهم من يريد أن ياخذ بها ، وحكمت محاكم بجواز عملها ، والى الله المصير .

الاسرة

27 والآن عمت القوانين الاوروبية البلاد الاســـلامية ولم تبق الشريعة الا فى الاسرة ، والاوقاف والمواريث والوصايا ، وذكرناها ، وان كانت من ضمن الاسرة ، لانها أقرب الى التنظيم المالى ، ولـــكن انتزعت من الشريعة انتزاعا فى قانون تركيا ، فحيل بينها وبين حيز الشريعة فى أعمـــال كثيرة اقترنت بها كالغاء الحـــروف العربية ، واستبدال الحروف الافرنجية بها ، فى غير تحرج ، وكمنـــع الآداب بالعربية وان انحشرت غمة ذلك بقوة الشعب التركى .

ولكن هل سلمت للشريعة الاسلامية الاسرة ، لقد وجدنا دعوة الى اخراجها من نطاق الشريعة ابتدأت فى أول هذا القـــرن فى كتب فى مصر ، ابتـــدأت وكانت بتأويلات فى الشريعة وايدها كبار من المفكرين خصوصا فيما يتعلق بتعدد الزوجات والطلاق ولكن صرخات هؤلاء ذهبت فى واد .

فقد كتب الكاتب الاجتماعى قاسم أمين كتابه تحرير المرأة ، وأيده فيما اشتمل عليه الامام محمد عبده ، والزعيم العظيم سعد زغلول لان حال المرأة فى ذلك الوقت كانت فيها مهينة مظلومة ، وكانت فوضى الطلاق والتعدد .

ولكن بمجرد ان استيقظت المرأة المصرية سلمت ما لها من حقوق

شرعية وصدرت غير محتاجة الى قانون غير مشتق من الشريعة ذاتها ، وان حملت تأويلات مذهبية .

ولذلك أراد بعض تلاميذ الامام محمد عبده ان يحيوا آراءه فى تعدد الزوجات سنة 1926 وقدموا مشروعا بذلك ولكن الزعيم العظيم الخالد الذكر حقا وصدقا ، قد رأى المرأة حملت عبئها ، وكان ممن عمل على وأد ذلك المشروع وطيه فى زوايا النسيان، وكذلك فعل خليفته من بعده .

واذا كانت هذه الآراء قد اماتها الشعب المصرى المتمسك بالشرع فقد وجدت طريقها فى غفلة من التفكير الاجتماعى الاسلامى السليم .
فقد اخذت سوريا بمبدا أن تعدد الزوجات لا يكون الا باذن من القاضى الشرعى أو من يقوم مقامه ، ولم تقيد الطلاق .

وجاءت من بعدها العراق فمنعت الطلاق وتعدد الزوجات فى عهد عبد الكريم قاسم ، ولكن ما ان أزيل حكمه الطاغى ، حتى زال معه قانونه المائع ، والذى اقتدى فيه بتركيا فى تسوية الرجل بالمرأة فى الميراث ، ولما ذهب ذلك الرجل الظالم مع قوانينه عادت الشريعة كما هى .

وجاءت تونس فمنعت منعا مطلقا الطلاق وتعدد الزوجات أخذا بما أخذ به القانون الفرنسى ، والنظم الكنيسية بشكل عام حتى أن أحد اصدقائنا الانجليز دعى لالقاء محاضرة فى تأييد القانون المشتمل على هذه المبادىء على اعتبار انه قانون اسلامى ، فوقف وبين أن الفرق بين الاسرة فى نظام الكنيسة ، والاسرة فى الاسلام هو فى الطلاق وتعدد الزوجات ، فالاسلام يتيح التعدد ، والكنيسة تمنعه ، والكنيسة تمنع الرجل من أن يتولى التطليق بذاته والاسلام يبيحه ، ولذا لا يعد هذا القانون اسلاميا .

ومما يحكى ونذكره على سبيل الفكاهة ، وان كان متصورا أن يكون حقيقة ان رجلا تزوج وهو متزوج فقدم للقضاء ليحكم عليه بالحبس ، والغرامة ، جزاء ما اقترف ، فأوعز اليه المحامى الذى تقدم للدفاع عنه ان يقول انه صديقها يباشرها فى بيته على أنها صديقة وليست زوجا ، ورضيت الزوجة بهذا لتنجو هى وهو من العقاب ، فاعترفا

بذلك ، وكانت البراءة ودخل الرجل المحكمة وهو طاهر ، وخرج منها وهو زان لينجو ، ودخلت المرأة حصانا رزانا طاهـرة ، وخرجت زانية ، ويروى أن هذه الواقعة كانت فى تركيا وروى أنها كانت فى تونس ، ولعلها كانت فيها لان قوانينها تسمح بأن يقع هذا فيها ولا حول ولا قوة الا بالله تعالى ٠

واننا اذا غادرنا تونس ، الى المغرب ، نجد القانون المغربى مع انه يبيح تعدد الزوجات يذكر أنه لا يجوز التعدد اذا خيف عدم العدل وحسب أنه أخذ ذلك من القـــرآن ، من قوله تعالى : « **فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم** » ٠

وانما نرى أن هذا يخالف ما كان عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واصحابه الاكرمون ٠ واجماع المسلمين ، ونلاحظ مع ذلك ما يـلى :

(1) ما معنى العدالة ، وكيف تثبت ، بشهادة اثنين ، ان العدالة أمر نفسى لا يعلم الا من جهة صاحبها ، وخصـوصا الخوف منها وان القرآن الكريم عندما ذكر العدل أناط الامر الى الخوف من أن لا يعدل، كما قال تعالى : « **فان خفتم ألا تعدلوا** » مناطة الى أمر نفسى لا يجرى فيه اثبات القضاء ، وما لا يمكن اثباته قضاء لا يوضـــع فى قانون يمنعه القضاء ٠

(2) ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صرح بأن العدالة المطلوبة هى العدالة الظاهرة بالسوية فى المآكل والملبس والمسكن ، والمحبـة الظاهرة بألا يظهر المحبة لاحداهن ولا يظهرها للاخـــرى أما المحبة القلبية فليست بمطلوبة ولقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « **اللهم ان هذا قسمى ، فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك** » وهذه هى العدالة الحقة التى لا يمكن استطاعتها اذ قال تعـــالى : « **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كـل الميل فتذروها كالمعلقة** » ٠

(3) انه قد اجمع الفقهاء على أنه لا يحل الزواج ، ولو من واحدة اذا تأكد أنه لا يعدل مع زوجته اذا تزوج الواحدة فى ذلك كالتعدد

على سواء ، فهل يشترط لاباحة الزواج قضـــاء ان يكون عادلا ؟ ان ذلك يترك للتدين والاخلاق اذا بعد فانه من هذا السياق التاريخى والواقعى نقول ان ظل الشريعة مع الاسى والاسف ، قد انكمش فلم يستظل المسلمون بظله . واستعاروا قوانين هى بالنســـبة لشريعة القرآن كنســـبة النقص الى الكمال ، وقد ارتضوا هـــذه القوانين الناقصة وتركوا كمال الشريعة القرآنية ولذلك حلت الاهواء محـــل العدل وحل الفساد محل الصلاح ، وضاع المسلمون لانهم أضـــاعوا القرآن والشريعة .

3 ـ **الطريق السوى لاعادة الشريعة لمكانها :**

28 انتهينا من هذه السلسلة التاريخية الى أمرين :

أولهما : ان الشريعة أخذ سلطانها يضعف شيئا فشيئا فى العصور المختلفة وان الفقهاء فى وقت ضعفها أو تدرج هذا الضعف نازلا درجة درجة ، كان الفقه الاسلامى المتعرف لاحكام الشريعة وغاياتها ، ففى الوقت الذى قال فيه عبـــد الملك بن مروان : « من قال لى اتق الله قطعت عنقه » وكان الحجاج بن يوسف الثقفى يملأ ســـجونه ، وفى الوقت الذى كان يقول فيه ابو جعفر المنصور العباسى لرجل قال له اتق ، يقول لهذا القائل اهتياها ، ولا تعد لمثلها ، وفى هذا الوقت ، وفى ظل امثال هؤلاء كان الفقه الاسلامى خصبا ، ويقرر الاحـــكام لشرعية ويستنبطها من كتاب الله وسنة رسوله يأخذه منهما صفوا لا كدرة فيـــه .

حتى اذا كان القرن الرابع اغلق الفقهاء على أنفسهم باب الاجتهاد وبذلك حفظت الذخيرة الفقهية من أن يعبث بها الحـــكام الطاغون ويتنبهوا للتدخل فى الاســـتنباط ليوجهوا الى ما يرضى أهواءهم وشهواتهم ، ويكون الذهب والمغريات وجاه السلطان وحكم الطغيان موجها للفقه والفقهاء وهو منهم بمعزل ، ولا قبل لهم به .

الامر الثانى : ان نظام الحكم مكن لاهل الباطل ان يغلبوا ويتولوا أمر المسلمين واذا لم يظهر اثر ذلك والاســـلام غض ، وان كانت مظالم ، فقد ظهر بعد ذلك ، وقد ضعف الوازع الدينى عند الحـكم ، ولـــم تكن ضمائـــر دينية تسيطر ، وقد وقع فى أذهان الحكام أنهم

يملكون الرقاب الاسلامية ، ويحـــكمونها ، ويتصرفون فيها تصرف المالك فيما يملك لا معقب لاحكامهم ، وهم المتصرفون وحدهم ·

وذهب أمر الشورى وذهب قوله تعالى : « **وأمرهم شـورى بينهم** » وصار لكل حاكم رجال يناصرونه ويؤيدونه كالملاء من قوم فرعون ، وكالملاء من قوم عاد وصار هؤلاء الملاء هم الذين وحدهم مستشارون فيما يثبت سلطان سيدهم وسلطانهم ·

وبذلك ينتهى الامر الى أن ذهاب الشريعة العادلة وضرورة حكمها شـكلا لا معـــنى فيه ، ثم ذهب الشـــكل ثم اجتـــرأ الناس عليهمـــا ، حتى صار القانونيون يتهكمون بالحدود تهكما مزريا عنجهالة لا تتفق حتى كدنا نقول ما قاله الله تعالى : « **ومن لم يحـكم بما انزل اللـه ، فاولئك هم الكافرون** » لا بل نقولها مصرين عليها ويفعل الله ما شاء ، وهو الفاعل المختار ·

واذا كنا نريد ان نعيد للشريعة مكانتها ، وللحـــكم الاســـلامى اصلاحه للناس ، واعلاء شأن المسلمين ، فانه يجب علينا ان نعود الى اسباب قوتها فى عهد النبى صلى الله تعالى عليه وســـلم ، وعهد الراشدين من اصحابه الكرام الذين رضى الله عنهم ، ورضوا عنه ·

الشورى فى الحكم :

29 ـ ان الشريعة أخذت تتولى فى سلطانها ، لا فى ذاتها ، فهى شريعة الله لا تتولى ابدا بل هى تقرر هذا الوجود الســاطع دائما ، وعلى الناس ان يعشوا اليه ·

امر القرآن بالشورى ، فيجب ان يختار الحاكم منهم اختيارا حرا ، ولا يتولى أى سلطان الا بعد أن يختار ، وليبحث العلماء عن طـــريق لاختيار عادل لا ريبة فيه ، ولتتجه العقول المفكرة الى النظر فى أمثل طريقة لانتخاب حر يختار به الحاكم الاعلى للمسلمين أو الرئيس الذى يحكم فى أى اقليم اسلامى ·

ومن المؤكد انه ليس من الاختيار ان يرشـــح شخص نفســـه ، ويقول فى طريق الانتخاب قل : لا ـ أو نعم ، فهذا الامر لا اختيـــار

فيه ، انما الاختيار أن يكون بين أشخاص أو اثنين يختار امثلهما ، ومن ذا الذى جعل لذلك اختارنى ، فأنا مفروض ·

ان اختيار الحاكم هو السبيل الذى سنه الاسلام بالقرآن وباعمال الصحابة فى اختيار الراشدين هو السبيل الامثل لوقاية الشريعة من عبث الحاكمين وكل تهاون فى ذلك هو تهاون فى أصل من اصول الاسلام ، ألم تنظر الى الامريكان ، والازمة التى قامت على رئيسهم اليهودى فى حكمه ونزعته ، لانه فى أثناء الانتخاب للرئاسة وضعت الحكومة بأمره سامعا لاستراق السمع من الحزب المخالف له ، فقامت الدنيا وقعدت ، وربما تنتهى بعزله ، أمر العزالة ويذهب طاغوت من طواغيت الارض ، ولا نأمن أن يجىء من يخلفه ، ان المسلمين اذا لم يأخذوا بشريعة القرآن فى اختيار حكامهم الاعليين أو الاقليميين ، استمروا فى ضيعتهم الى الابد ، وكان بطن الارض خيرا لنا من ظاهرها ، وانه بعد الاختيار للرئاسة يجب ان يكونوا فى رقابة مستمرة من الشعوب · وان تتدبر قوله تعالى : « **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** » وقوله عليه السلام : « **لا يسأل العامة عن ظلم الخاصة حتى يروا الظلم ، ولا ينكروه** » ، وبذلك تحمل العامة ظلم الملوك جميعا ، ولا تزال تطلع على بقية منهم ، فهل لنا ان نزيل التراب عن وجوهنا ونتبع احكام الشريعة فى الحكم لانفسنا ، وذلك لحفظ الاسلام والمسلمين ، ان الشعوب فى كل الانسانية تتطلع لحكم نفسها ، وللسيطرة على حكامها الا المسلمين ، حتى توهم الناس ان ذلك هو الاسلام ·

يجب ان يتفطن كل مسلم ليقرر ما فيه خيره وخير الاسلام ،ولنضع اعناق الذين يفرضون انفسهم على المسلمين تحت اقدام المسلمين طوعا ، فان لم يفعلوا فليضعها المسلمون كرها · واعلنوها جهيرة صريحة قوية ، لا ملكية فى الاسلام ، لا ملكية فى الاسلام لا ملكية فى الاسلام ، ان الشعوب الاسلامية ليست سلعا تورث كما يورث المال وأن الارض يرثها عبادى الصالحون ·

ان الاحكام الشرعية فى ظاهرها وباطنها ومن لم يرض ذلك يديث بالصغار ويوطأ بالمناسم ، وخير لنا ذلك ، من أن توطأ شريعة الله ،

وتتخذ كتاب الله تعالى ، وراء ظهرينا وسنة نبينا دبر آذاننا ، ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ٠

الحدود تقام والقصاص ينفذ

30 – يجب ان تقام الحدود كلها من غير هوادة ، وليس لاحد ازادة في هدمها ، أو التأويل لاسقاطها او التعابث بها ، فان اقامتها صيانة للمجتمع من المفاسد ، وحماية له من الانهيار ومنع للترف الذى اطفىء الحكام من أن يهلك الامة كما قال تعالى : « واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »٠

انه يجب ان تنفذ الشريعة فى العقوبات تنفيذا محكما ، لا يفر من حكمه أحد ، ولا يدرع سلطان بسلطانه ، ولا ذو جاه ٠

يجب ان تطبق الحدود على الحاكم والمحكوم على السواء ، ويجب أن يطبق القصاص فى النفس والاطراف على الجميع لا فرق بين حـــاكم ومحكوم ويجب ان يعين الشعب اولياء الدم ليأخذوا بحقهم ، وينفذوا سلطانهم عملا بقوله تعالى : « **ومن قتل مظلوما ، فقـد جعلنا لوليـــه سلطانا فلا يسرف فى القتـــل انه كان منصـــورا** » يجب أن يتحـــرك المسلم فى كل بقاع الارض ليأخذ الحكام من نواصيهم الى تنفيذ حكـــم الاسلام ليحمى نفسه ودينه من ظلمهم وعبثهم ، انهم وباء الاسلام ، فيجب ان تنفض الشعوب عنها شرهم ٠

يجب على المسلمين فى كل البقاع الاسلامية قاصيها ودانيها ، أن يرفعوا عن أنفسهم رق الحكام ، ويجعلوهم مسؤولين ككل الناس ، والا استمر الضياع ، ولا منجاة ، يجب ان يتحركوا فقد طم السيل وعم ، وحاولوا ان يطفئوا نور الاسلام او أطفأوه لا نباع ولا نورث ، ولا يتحـــكم فينا بعد اليـــوم ٠

نور الله يشرق

31 – انبلج نور الفجر ، ونرجو ان يعم الكون ضياؤه ، لقد ابتدأ الناس يحسون بنور الشريعة لا فى المسلمين وحـــــدهم ، بل فى الغربيين الذين كانوا يفاخرون بقوانينهم ، وان كانت ناقصـــة عن العلاج ، وابتـــدأ بعض المثقفين الذين كانوا يتاثرون طريق الفـــكر

الاوروبى ، ويسيرون فى مساره ، وان كانت الكثرة أو الظاهرين من هذه الكثرة لا يزالون فى ضلال مبين عن الحقيقة ·

وفى الجامعات الاوروبية دراسات فقهية للحـــــدود والقصاص وعلاجهما لآفاق المجتمع ، بل ان بعض البلاد الاوروبية أدركت أنــه لا نظير للشريعة ·

نذكر بعضا من هذه الامور او واحدة فقط :

انه من المقررات الشرعية أنه لا يذهب دم فى الاسلام هدرا أبـدا فاذا قتل قتيل ولم يعلم له قاتل لا يقرر المحقق الاسلامى انه تحفظ قضيته لجهل الفاعل أو لعدم كفاية الادلة بل انه يستحلف خمســون من أهل الحى الذى وجد فيه القتيل ، من العدول ، يحلف كل واحد ، انه ما قتله ولا يعرف له قاتلا ، وكذلك أهل القرية فاذا حلفوا كان على بيت المال ديته أو غرم أهل القرية أو الحى ديته ·

درست هذه النظرية ، وقررت اكاديمية العلوم الجنائية فى جامعة روما ، انها نظرية صالحة يمكن تطبيقها ، ونقول مطمئنين انه يجب تطبيقها ان كانوا منصفين ·

فالحدود والقصاص ، قد أخذت الجامعات العربية والاســـلامية والجامعات الاوروبية تدرســـها ، وانه قد اتيح فجــر التطبيق لا الدراسة فقط ·

فان ليبيا بقيادة الشاب قررت ضرورة تطبيق الحدود والقصاص ، كما قررها القرآن ، فمنعت الخمر منعا باتا ووضعت عقوبة لشاربه ، وقرر حد السرقة وهو قطع اليد ، وقررت عقوبة الحرابة ، وهى فى جرائم العصابات التى تهدد الامن والسلام وتقطع الطـــريق ، وهى شـــغـــل الامريكان حتى ان بعض العصابات كانت لـــهـــا موازنة مالية ، تقارب موازنة الولاية التى تعيش فيها ، ومنع الربـا بين الآحاد منعا باتا ، فلا يجوز الحـــكم بفائدة ، وفى الطريق منع الفائدة بالمؤسسات ووضع حد الزنى وان لم يتم القانون ، وهكذا ·

ان هذه بشار النور الهادى ، ونرجو أن يتصل حتى يعم

ولا ننسى أن نقول خاتمين القول انه يجب نشر حكم الشورى الذى يلغى حكم الملوك والطغاة والمفســـدين الغاء ٠ وفق الله العاملين على تطبيق الشريعة خائنة الاعين وما تخفى الصدور ٠

جولة

بين المجلات

اعداد : د. م. بالحميسى



لقد وعدنا قراء « الأصالة » الكرام بمتابعة هذه « الجولة » لاطلاعهم على ما يكتب فى الغرب حول قضايا تهمنا .

1

اتصلنا بالمجله التاريخية (Revue historique) عدد 517 المؤرخ فى مارس 1976 . وخصصت هذه المجلة صفحات للاطروحات التى نوقشت فى مختلف الجامعات الفرنسية والتى تناولت مواضيع عديدة فى شتى ميادين البحث .

وكان حظ العالم العربى والاسلامى كبيرا فى هذا المجهود فاخترنا أهم العناوين نقدمها باللغتين :

Halawi Mahmoud : *L'époque du Sadr al Islam à travers Kitâb al Aghânî.* Paris - Sorbonne.

حلوى محمود : عصر صدر الاسلام من خلال كتاب الاغانى ٠

(اطروحة الدور الثالث ـ باريس السوربون) ٠

Abd al Hamîd (Saleh) : *Les Bédouins en Egypte au Moyen-Age* (Doctorat d'Etat - Paris I).

عبـد الحميـد (صالح)

البدو فى مصر فى القرون الوسطى (دكتورة دولة ـ باريس 1) ٠

Ben Ndike Tong Nsangou : *Rôle du commerce dans l'expansion de l'Islam en Afrique Occidentale du* VII[e] *au* XIII[e] *siècle.* (3[e] cycle - Paris I).

ابن انديكى تونق انسانقو

دور التجارة فى انتشار الاسلام بافريقيا الغربية من القرن السابـــع الى القــرن الثالث عشر ٠

(الدور الثالث ـ باريس 1) ٠

El Khatib (Nachéat) : *Etude historique de l'époque abbasside à travers le Kitâb al Aghânî* (3[e] cycle - Paris - Sorbonne).

الخطيب نشعت

دراسة تاريخية للعهد العباسى من خلال كتاب الاغانى ٠

(الدور الثالث ـ باريس ـ السوربون) ٠

Pradines (Josiane) : *Recherches sur le rôle des Chrétiens à la cour des Umayyades et des premiers Abbassides* (661-861 après J.C.). (3[e] cycle - Toulouse le Mirail).

بـــرادين (جوزيان)

بحوث حول دور النصارى فى بلاط بنى أمية وأوائل بنى العباس (661 ـ 861) ٠ الدور الثالث ـ تولوز لوميراى ٠

Schneider (Madeleine) : *Stèles funéraires musulmanes des Iles Dahlak (Mer Rouge)* (3[e] cycle - Paris - Sorbonne).

شنيـــدر (مادلين)

انصاب تذكارية اسلامية بجزر دحلق بالبحر الاحمر

(الدور الثالث ـ باريس ـ السوربون) ٠

Goutalier (Régine) : *L'O.A.S. en Oranie* (3ᵉ cycle - Provence).

قـوتاليى (ريجـين) :

المنظمة المسلحة السرية بالقطاع الوهرانى ٠

(الدور الثالث ـ بروفانس) ٠

Nordman (Daniel) : *La notion de frontières en Afrique du Nord, mythes et réalités* 1830-1912 (3ᵉ cycle - Montpellier).

نـــوردمان (دانيـال)

مفهوم الحدود فى شمال افريقيا : أوهام وحقائق 1830 ـ 1912 ٠

(الدور الثالث ـ مونتبيلى) ٠

Soherin (A.) : *L'Egypte et les mouvements arabes* 1919-1939 (3ᵉ cycle - Paris I).

سوهيرين (أ) : مصر والحركات العربية 1919 ـ 1939 ٠

(الدور الثالث ـ باريس 1)

يسلون أولادهم بالتاريخ المشوه ...

فاجأتنا مجلة الاطفال المعروفة بـ « جورنال دى ميكى » (Journal de Mickey) عدد 1237 الصادر فى 76/2/29 بقصة غريبة وخطيرة لانها موجهة للصغار ما مـــن شك انها تترك فى نفوسهم أسوأ الآثار ٠

فليتفضل القارىء الكريم بالقاء نظرة على صفحة 32 من المجلة ٠ فالصورة رقـم 1 ترينا « البطل » شارل مارتيل يزرع الرعب فى قلب مجاهد عربى يلوذ بالفرار طالبـا الرحمة والعفو من المنتصر ٠

وجاء فى الصورة رقم 2 مثال على لسان الفرنسى يقول : من الافضـل أن يكـــون الانسان مطرقة (تلاعب بالالفاظ الفرنسية Martel marteau). لا سندانا ٠

Martel en tête...



En 732, Charles Martel livre, à Poitiers, une bataille décisive qui arrêta l'invasion des Arabes...
En sachant que « Poitiers » s'écrit « 52464573 » en chiffres arabes, traduisez la phrase que prononce ce guerrier maure en déroute ?...



En lisant dans le sens de la flèche, une lettre sur deux, découvrez le genre de maxime que Charles Martel aurait pu peindre sur son bouclier... La difficulté est de trouver la première lettre du départ de la phrase.





Ce chef arabe, assez mal en point, au lieu de voir 36 chandelles est en train de compter les « marteaux »... Combien y en a-t-il ?



Cet autre guerrier musulman a préféré courir jusqu'à la mer, pour y trouver refuge... Hélas, une surprise l'y attend ; car, même au fond de l'eau, quelque chose se charge de lui rappeler Charles Martel...

SOLUTIONS

1. Pitié !... Toi... « Pote »... si stop !...
2. Il vaut mieux être marteau qu'enclume...
3. 24 marteaux.
4. Il s'agissait du « requin-marteau », dont la tête a effectivement l'allure d'un marteau. Cette espèce de squale visite fréquemment les côtes de France.

وأما الصورة رقم 3 فهى عبارة عن قائد عربى فى حالة سيئة للغاية فقد أصيب بدوران الرأس حتى رأى النجوم ظهرا فراح يعد المطرقات (تلاعب بين كلمتى Martel ومارتو أى المطـرقة .

ودفعت الصورة الرابعة والاخيرة بالمجاهد المسلم الى البحر لشدة « خوفه » لعله يجد هناك ملجأ لكن ... وأسفاه حتى فى قعر البحر تهزه مفاجأة ما هى ؟ سمكة الكوسج رأسها على شكل المطرقة Martel و Marteau كذلك .

كان من المفيد جدا أن تسلى هذه المجلة الصغار الفرنسيين باحترام التاريخ والواقع المعروف عند الناس وتقدم لهم المعركة الشهيرة فى صور أجمل .

وحتى لا ينخدع أطفالنا ــ قراء هذه المجلة ــ رأينا من الواجب أن نلخص لهم وقعة بواتيى (Poitiers).

ــ لما انتهى العرب من فتح اسبانيا قاموا بعدة غارات فى فرنسا واستولوا ــ بدون مشقة ــ على عدد من مدن الجنوب مثل ناربون (Narbonne) ثم ليون (Lyon) وماكون (Macon) ثم انتشروا فى وادى الرون (Vallée du Rhône) حتى أصبح نصف البلاد الحالية تحت أقدام المسلمين وكانت فرنسا تتخبط فى فوضى اقطاعية لضعف الملوك « الكسالى » (les rois fainéants).

وفى سنة 732 خرج عبد الرحمن من اسبانيا عابرا جبال البيرينى ونهر لاقارون . رغم مقاومة أهالى الناحية (685 ــ 741) (Bordeaux) ثم استولى على مدينة بوردو يحكم باسم ملكين ضعيفين من ملوك الميروفنجيين فقاد الحرب ضد المسلمين .

ومن الاشياء التى سكتت عنها كتب التاريخ الفرنسية عمدا هى ان المناخ كان قاسيا على أبناء الصحراء فكانت شدة البرد أقوى عدو اصطدم به المسلمون .

ومن جهة أخرى هل كان العرب ينوون حقا احتلال فرنسا ؟ لا فاقتصرت حملتهم على غارة تعود بالغنائم لاثراء الجند . وكان سلاحهم خفيفا متواضعا ويعوزهم عتاد الحصار . بينما كان الفرنسيون يحملون الدروع ومن الاسلحة ما يجعل الحرب ضارية وفتاكة .

وتواصلت المعركة الى آخر النهار دون أن تميل الكفة لفائدة فريق ٠ فلجأ العــدو الى حيلة شتت بها صفوف المسلمين الذين رجعوا نحو الجنوب ٠ فلاحقهم شارل مارتيل وحاصر عبثا مدينــة ناربون ثم أخذ ينهــب النواحي المجــاورة حتى اضطر السادة الاقطاعيون النصارى الى التحالف مع المسلمين لطرد شارل مارتيل وهزمه ٠

واحتفظ المسلمون ببعض النواحي فى الجنوب لمدة قرنين ٠ وفى سنة 737 سلمهم حاكم مرسيليا مقاطعة بروفانس وفى 889 دخلوا مدينة سانت تروبيز (Saint Tropez) ومكثوا بتلك النواحي الى آخر القرن العاشر مما يدل على ان « انتصار » شارل مارتيل لم يكن له أهمية أو مفعول كما تصور ذلك بعض المؤرخين ٠

وقد قيل ان مارتيل أنقذ أوروبا والمسيحية ٠ وكيف ذلك وهو لم يزعزع العرب من أية مدينة احتلوها عسكريا ٠ وراح بعضهم يدعى بأن مارتيل هو الذى « منع المعمورة من ان تقع فى يد محمد » « وأوقف أعداء التقدم والحضارة » ٠٠٠

وهل تذكروا أن اسبانيا لم تزدهر وتتحضر الا فى أيام المسلمين وكان باقى أوروبا فى جهالة ووحشية وحبذا لو استنشقوا نسمات الاسلام ٠٠٠

السيــارة والتعــريب

اصبحت السيارة جزءا من حيــاتنا اليو ميــة والمهنيــة والاجتمــاعية والاقتصاديــة كما اصبحت تغـطى قطـاعا هــامــا من النشــاط ، وهى اليوم الشغــل الشــاغــل لصانعيــها وبائعيــها وسائقيــها والمتخصصــين فى اصــلاحاتــها ، واللغـــة حولـــها بالفــرنسية ، والتعــريب ما زال غريبــا عن هــذا «العــالم» والى مــتى ؟

جاء فى مجلة « أرابيكا » البارسية مقالة طويلة فى شكل قاموس مرتب على الابجد ، يعين على تعريب جميع ما يتعلق بالسيارة من أدوات وقطاع وخلل واصلاح ٠

وقد اخترنا ـ على سبيل المثال ـ بعض المصطلحات تساهم فى تعريب هذا القطاع الحيوى ونتمنى أن ينشر هذا القاموس العملى فى فرصة أخرى .

A

Accélérer	دعس البنزين
Accélérateur	دواسة البنزين
Accumulateur	ســـراعة مــركـــم حاشـــدة
Adhérer	التصــق ب ...
Adhésif	لصـــوق
Admission	ادخـــال امتصـــاص
Aération	تهـــوية
Agir sur	أثـر فى
Ailette de ventilation	جنـــاح ريشـــة
Ailette (de refroidissement)	ضلع (ج. ضلوع ـ أضلاع أضلع)
Ajuster	ســـوى عـــدل ضبـــط
Ajustage	احكـــام ضبـــط
Ajusteur	مضبـــط
Alésage	تقوير (اسطوانة)

Aléser	قـــور جـــوف
Alimentation	تغـــذية
Allier	خلـط بين مـــزج
Alliage	اشعـــال
Allumage	اضـــرام
Amortisseur	مِخْمَـاد
Arbre	جـــذع محـــور عمود ـ جزع التوزيع
Arbre de transmission	ذراع التوصيل
Armature	وشيعـــة مِكَـبّ ملَـفّ
Aspirer	امتـــص مـــص
Atomiser	رشّ نهـــض
Avance	سبْـق
Avance à l'allumage	تقديم الاشغال
Avertisseur	آلـة التنبيه منبـــه

Axe	مِحْـــوَر / مَـــدَار / قطـــب

B

Baisse de compression	انخفاض الضغط / انخفاض الكبْس
Balai	فحمة التماس / فــرشة (مولّد)
Batterie	بطــارية
Bielle	ذراع التوصيل
Bloc cylindres	ملـــف / مكـــب
Boîte de vitesse	صندوق التُروس / علبــة السرعة
Boucher	ســـدّ
Bougie	شمعـــة
Branchement	وصـــل / تــوصيل
Brosse	فرشــة (ب فرش)
Bouton	زِرّ
Brut	خـــام
Bulle	فقـــاعة

C

Calibre (dimension)	عيار
Calibre (instrument)	معيار
Calibrer	عاير عيّر
Came	مرفعة
Canal	انبوب قناة
Carburant	وقود
Carburateur	مُفحّم مُبخّر
Cardan	محور عمومي الاتجاه مفصل متحول
Carter	حوْض
Catadioptre	عاكسة عاكس نور
Centrer	رَكّز
Chambre à air	اطار داخلي
Chambre de combustion	حجيرة احتراق
Chambre de précombustion	حجيرة الاحتراق المتقدم
Chambre de préchauffage	حجيرة تسخين
Champ (magnétique)	حقل مغنطيسي
Charbon	فحمة

(يتبع)

LE RESPECT D'AUTRUI

El Moudjahid 24.3.1976

Les locataires des « Asphodèles » - Ben Aknoun - Alger

Nous voudrions, par la présente, attirer l'attention des autorités compétentes sur un problème auquel nulle famille algérienne et musulmane ne pourrait rester insensible. Il s'agit des attroupements indécents qui se forment, chaque soir aux abords de la cité universitaire de jeunes filles qui fait face à notre cité.

Il est vrai qu'une cité universitaire de cette envergure (plusieurs centaines de locataires) est une concrétisation importante de la démocratisation de l'enseignement supérieur dans notre pays. Mais encore eut-il fallu veiller à un strict respect des mœurs Nous comprenons. bien sûr, un certain esprit libertaire à nos étudiants et étudiantes. Nous ne leur en voulons absolument pas pour cela. Mais qu'ils essaient un peu — ou plutôt elles, puisqu'il s'agit d'étudiantes — de se mettre à notre place. C'est simple, pour des raisons faciles à comprendre, il nous est impossible de nous mettre en famille au balcon tant certaines attitudes sont choquantes. C'est chaque soir un défilement ininterrompu de voitures de toutes marques et de toutes immatriculations, des comportements vraiment indécents et qui ne sont rien d'autre qu'une atteinte à la bonne moralité. Notre gène est encore plus grand quand nous recevons des invités. Nous sommes sûrs que c'est là le fait d'un petit groupe de résidentes et que la grande majorité de leurs

---

El Moudjahid 14.4.76

Cherche-t-on à ternir notre image ?

PAR LES RESIDENTES DE LA CITE UNIVERSITAIRE DE JEUNES FILLES DE BEN AKNOUN

A la suite de la publication d'une lettre parue dans « El Moudjahid » en date du 24 mars 1976 dont les signataires ont prétendu parler au nom des locataires des Asphodèles, les résidentes de la cité universitaire de jeunes filles de Ben Aknoun par le biais du comité de cité formulent leur point de vue comme suit :

La contenu de la lettre et la forme de l'attaque rejoignent curieusement les menées actuelles de la réaction contre les réalisations de notre pays. Nous connaissons très bien l'idée que la réaction veut entretenir des étudiants et des étudiantes auprès des masses « attitude indécente, sont coupés des réalités algériennes, ce sont des jeunes occidentalisés et on en passe ». Nous disons que l'objectif de ces attaques est de faire des étudiants une couche coupée du peuple et opposée au peuple. Si la réaction s'acharne sur l'étudiante en voulant provoquer une levée de bouclier de la part des familles notamment à travers le passage... « ... nulle famille algérienne et musulmane ne pourrait rester insensible... »

C'est uniquement parce que la jeune fille lie sans cesse son avenir aux orientations progressistes du pays et participe de plus en plus à la lutte anti-impérialiste que mène notre peuple — au sein de sa famille l'étudiante en communiquant son expérience, sa culture, son ouverture d'esprit sur le progrès universel en tenant compte de notre patrimoine culturel, contribue à faire reculer les préjugés rétrogrades au sein des familles et des jeunes filles encore soumises par leurs conditions sociales à l'idéologie rétrograde. Dans le cadre du volontariat en participant activement aux côtés des paysans et paysannes à l'application de la Révolution agraire, l'étudiante volontaire a donné une image réelle de l'étudiante en mettant son instruction et son savoir au profit de la lutte.

La réflexion d'un paysans est significante à ce sujet : « On avait une autre idée de l'étudiante mais maintenant je suis prêt à envoyer ma fille à l'école pour qu'un jour elle soit étudiante ». Les énormes progrès accomplis par notre pays dans le domaine de l'enseignement affaiblissent chaque jour la réaction qui tire sa force entre autre du manque d'instruction, de l'analphabétisme et de l'absence d'ouverture sur la civilisation universelle de la part des masses populaires (phénomènes objectifs liés au niveau du développement de notre pays).

C'est pour affaiblir notre peuple, l'exposer à l'impérialisme que la réaction veut ouvrir une brèche à l'université car le nombre plus important d'étudiants crée les conditions de développement plus rapide de notre économie au profit des masses populaires. En effet pourquoi cette lettre maintenant ? La réaction espère qu'avec l'aide de la monarchie marocaine et l'impérialisme américain il lui sera possible de remettre en cause les acquis révolutionnaires de notre peuple. C'est pourquoi au niveau du pays la réaction tente de créer un mécontentement populaire et une confusion politique ceci explique que l'offensive des mandataires et des maquignons dans la spéculation des produits de première nécessité, les tentatives de remettre en cause la 2ème phase de la Révolution agraire en voulant la vider de son contenu politique, les attaques contre le volontariat étudiant qui demeure un cadre efficace de la lutte contre la réaction et l'impérialisme. Toute ces tentatives montrent que la réaction est en mauvaise posture dans notre pays, elle essaie de regrouper autour d'elle toutes les couches de la population à partir des problèmes objectifs que connait notre pays, pour affronter la charte nationale et tenter de la mettre au service des gros propriétaires fonciers, gros éleveurs et la bourgeoisie liée à l'impérialisme contre les intérêts de notre peuple.

Cette lettre contre les étudiants ne trompe personne, nous la considérons comme une manœuvre réactionnaire.

Le comité appelle toutes les étudiantes à resserrer leurs rangs et d'être vigilantes pour ne pas s'exposer aux coups de la réaction et d'exprimer leur soutien à notre peuple en lutte contre la réaction et l'impérialisme en participant à toute activité anti-réactionnaire et anti-impérialiste, et de se tenir prêtes à déjouer toute provocation et diversion dirigées contre la cité, l'université et contre le pays.

يلاحظ القارىء ان الطالبات لم ينكرن فى رسالتهن هذه ما نسب اليهن • وانما ذكـرنا خمسة عشر مرة ـ كما يظهر من الترقيم ان استغاثة السكان ، ونقد هذه الاشياء ـ رجعية
ونحن نقول الى الشاك فى هذا ان يتاكد بام رأسه بان يعـــرج بذلك المنعـرج ، أو « يضرب دورة » الى ذلك المكان لير ما نسب اليهن •
ولله فى خلقه شؤون •

فهـــرس العـــدد

طموحنا كقيادة ، وشعب ، هو
خلق مجتمع متطور ونظيف .



● الاســلام يـجب أن يلــعب دور المحــرك فى حاضــرنــا و مستقبلنـــا .

● الميثاق يرسم استراتيجية البلاد، ويعطى للثورة محتواها النظرى ، ويحدد المبادىء الدائمة لمسيرتنا .

أيهـا الاخـــوة والاخـــوات ،

ها نحن مرة أخرى على موعد مع التاريخ ، التاريخ الذى يقيم الحاضر ويلقى الاضواء على المستقبـــل •

لقد التقينا فى هذه الايام الثلاثة فى ندوة وطنية تختلف عن كل الندوات الوطنية التى شهدتها هذه القاعة ونختتم أعمالنا فى يوم 19 يونيو الذى يمثل بالنسبة لنـــا وبالنسبة للبلاد حـدثا تاريخيا هاما •

وها قد حان الوقت لكى نفترق بعد هذه الايام الحافلة بالنشاط والمناقشات الجادة المثمرة على أمل اللقاء فى الشهور القادمة وفى المرحلة القادمة لتناول مواضيع هامـــة جدا بالنسبة لمستقبل البلاد ولمستقبل الثـورة •

ولقد كنا أعلنا فى نفس التاريخ من العام الماضى باننا مع 19 يونيو 1976 على موعد وها نحن نحتفل اليوم بالمصادقة على المشروع التمهيدى للميثاق الوطنى الذى تحـول منذ لحظة مصادقتكم عليه الى ــ مشروع الميثاق الوطنى .

وقبل بداية الحملة الوطنية لمناقشة الميثاق وفى خطـــاب أول مايو قلت بأن ذلك المشروع التمهيدى هو حصيلة تقييم لتجربة وتحديد لاستراتيجية المستقبل فى كـــل الميادين وقلنا باننا نضع التجربة بكل ما تحتويه من معالم القوة ونقاط الضعف بـين يدى الشعب الجزائرى ليقول فيها كلمته ، وهذا ما حدث بالفعـــل ، بل ان المساهمة الشعبية قد تجاوزت كل التقديرات وحماسة الجماهير قد فاقت كل التوقعات وكان هذا دليلا قاطعا على عمق الثقة المتبادلة بين القيادة والقاعدة ، وأثبتت هذه العملية الرائدة والفريدة من نوعها بان اختيارنا كان اختيارا سليما وبأن الثقة كانت فى محلها وبان تقديرنا لارادة الجماهير الشعبية ولوعيها والتزامها كان تقديرا صائبا •

(*) نص خطاب رئيس مجلس الثورة والحكومة الذى القاه بقصر الامم فى اختتـــام اشغال الندوة الوطنية يوم 19 جوان 1976 •

المناقشات كانت عبارة عن مؤتمر موسع للثورة

ان الحماس الذى شهدته البلاد كان حماسا رائعا عبرت عنه تلك المناقشات الحرة العميقة التى دارت بدون أية حواجز أو قيود ، ولقد أظهرت الاحصائيات التى تقدمتم بها الى هذه الندوة بان حوالى أربعة ملايين مواطن ومواطنة قد شاركوا فى المناقشات عبر أكثر من مائة ألف اجتماع وتجمع تضاف الى الرسائل وما كتب ونشر وأذيع فى أجهزة الاعلام الوطنية بحيث يمكننا اليوم أن نقول ان الثورة الجزائرية قد عقدت اجتماعا شعبيا كانت قاعدته هى الشعب الجزائرى كله ، وكان بمثابة مؤتمر موسع شاركت فيه كل فئات الشعب الجزائرى من عمال وفلاحين وطلبة وجنود وكل الاعمار من شبان وكهول وشاركت فيه المرأة على قدم المساواة مع الرجل ، وكان هذا كله علامة صحة بالنسبة للشعب وبالنسبة لنظام الحكم الذى يعبر دائما عن وفائه لمبدأ ـ الثورة من الشعب والى الشعب ـ والتجربة التى تمت فى الجزائر لم تعرفها بلدان تدعى الديمقراطية وتتهم نظامنا بالحكم الفردى حيث كانت تجربة ثورية رائدة ووسيلة لتعميق التكوين السياسى على نطاق واسع ولخلق المفهوم الواحد والموحد .

ثم أن هذه التجربة عبرت تماما عن قوة الثورة ، ولو لم تكن الثورة قوية بمبادئها وأهدافها وانجازاتها لما استطاعت أن تخوض مثل هذه التجربة الديمقراطية الشعبية بحيث خرجت بعد كل تلك المناقشات الجماهيرية الواسعة وهى أقوى مما كانت عليها قبلها اذ ثبتت سلامة الاختيار وتأكدت الثقة المتبادلة .

ولقد تتبعنا حصيلة المناقشات التى دارت والآراء التى أذيعت ونشرت بقدر الوقت الذى أتيح لنا وأطلعنا على كل الافكار والاقتراحات بل وبعض التيارات والتناقضات بحيث يمكننا القول بان الجزائر كانت عبارة عن بيت زجاجى الجدران كل شىء فيه كامل الوضوح .

ولقد أثبتت المناقشات بأن كل الذين يؤمنون بالشعب وبمصلحته العليا قالوا نعم للميثاق ولجوهر الميثاق رغم التحفظات أو الملاحظات التى قدمها البعض ولست أعنى هنا أولئك الذين اتخذوا من المنابر الاجنبية مكانا مختارا يبثون منه سمومهم فيومنا هذا أعظم من أن ندنسه بذكرهم .

أقول بأن الجزائر عرفت اجماعا شعبيا على جوهر الميثاق رغم بعض الملاحظات التى أبداها عدد من المواطنين وتطرقت الى مواضيع شتى ، غير أن علينا أن ننظر الى الميثاق كوثيقة تحدد الجوهر والخط العام لا كتقرير يقوم بحصر كل المشاكل اليومية والمحلية .

ان الميثاق بجانب تقييمه للتجربة يرسم استراتيجية البلاد ويعطى للثورة محتواها النظرى ، ويحدد المبادىء الدائمة لمسيرتها .

وابتداء من هذه اللحظة فان الفرز سيكون على أساس الميثاق الذى صادقتم عـــلى مشروعه وعلى أساس الالتزام بما جاء فيه وينطبق هذا على كل أجهزة البلاد وتنظيماتها سواء أكانت حزبية أم ادارية .

وهذا لايعنى اهمال الآراء التى صدرت عن بعض المواطنين وكانت خارجة عـــن أبواب الميثاق وكل المشاكل التى اثيرت ستتم دراستها وتتخذ فيها الاجراءات اللازمة .

وقبل أن أتطرق الى بعض المواضيع التى أثيرت خلال المناقشات ـ وأنا أدرك بأننى أتحدث الى شعب واع مسؤول ـ ألاحظ بأن الانتقاد طغى أحيانا على النقد الذاتى . ان النقد الموضوعى هو غير الانتقاد والتشهير . والنقد الموضوعى هو علامة الصحـــة للشعب ولنظام الحكم ونحن نوصى به كما نوصى بالنقد الذاتى فى الاجتماعات المقبلة سواء الاجتماعات النظامية أو الشعبية .

هذه ملاحظة عابرة ، أما بالنسبة للمواضيع التى تطرق اليها النقـــاش الجماهيرى فهناك كلمات لابد أن تقال .

لقد دار نقاش طويل حول مكونات الشخصية الوطنية مثلا وأنا أعتقد بأن الشعب الجزائرى كان دائما فى مسيرته التاريخية شعبا منسجما الى درجة أنه فى الوقت الذى ثار فيه الجدل حول تفسير القرآن والسنة ، وتكونت مذاهب كثيرة كانت لهذا انعكاسات على كل الدول العربية والاسلامية باستثناء منطقة المغرب العربى والجزائر بالذات ، حيث أن المذهب الوحيد السائد فى بلادنا هو المذهب المالكى .

الجـزائر مسلمـة وستبقـى كذلك

ان الجزائر مسلمة وستبقى كذلك ولقد قامت القيادة بأهم واجباتها فى هذا المجـال والاسلام الذى كان درعا واقيا حفظ الشخصية الوطنية وحافظ عليها لابد له أن يلعب فى الحاضر وفى المستقبل دور المحرك .

ولقد كان الحاح المواطنين على قضية الاسلام تعبيرا قويا عن التمسك بشخصيتهم وأصالتهم ومن الخطأ الفادح أن يعتبر البعض ذلك من قبيل الافكار الرجعية ٠

هناك حقيقة بعض المتزمتين الذين عجزوا عن فهم الدين فهما حقيقيا وعن مسايرة العصر والتجاوب مع التطور وظلوا متشبثين بأفكار وخرافات وأوهام ليست من الدين فى شىء أو حاولوا استخدامه لمصالحهم الخاصة ولكن هؤلاء لا يمثلون الاسلام على حقيقته كما يؤمن به ويتطلع اليه الشعب الجزائرى ، الاسلام الذى يدعو للعدل والمساواة وعدم استغلال الانسان لاخيه وينادى بتوزيع الثروة الوطنية بصفة عادلة ولا يقبل بأى واسطة بين العبد وربه ٠

ان الجزائر المتمسكة بأصالتها وشخصيتها تريد أن تبقى هى الجزائر ٠ ولكن هذا لا يعنى ان ننغلق على أنفسنا ونتقوقع لاننا جزء من الوطن العربى الذى تربطنا به أربعة عشر قرنا من حضارة كنا جزءا منها عندما كانت فى القمة وانعكست علينا أثارها عندما أصيبت بالانحطاط وابتليت بالتخلف والاستعمار ٠

ان اعتزازنا بتاريخنا العربى الاسلامى لا يعنى أن نتنكر لماضينا البعيد منذ ماسينيسا وقبله كما أشار الى ذلك الميثاق وكما ندافع عن ماضينا ونفخر به علينا الا ننسى تاريخ بلادنا وخاصة التاريخ العربى الاسلامى وعلينا أن ننظر الى المستقبل ونتعرف جيدا على مقومات شخصيتنا وعلى المحيط الذى يجب أن نحافظ على ارتباطنا به دون أن نضيع الوقت والجهد فى نقاش لا طائل وراءه ولا يستند الى معطيات تاريخية حقيقية ، يمكننا للتعرف على هذا ان نتساءل عن سر الحماس البالغ الذى يتفجر به الشعب الجزائرى كلما ذكرت فلسطين والمرارة التى تجرعها والالم الذى عبر عنه عندما وقعت الهزيمة فى فى المشرق فى ــ 67 ٠

لا شك فى سيادة اللغة العربية
ولا منازع لها فى بلادنا

السر هو أن الشعب الجزائرى يدرك فى أعماقه بانه جزء من كل وأنه عضو من جسد واحد ٠

لقد دار نقاش طويل حول تفسير كلمة الامة الجزائرية الواردة فى الميثاق ، ربما كان هناك فى المشرق العربى من يعتبرها ضد الاتجاه الوحدوى كما أن هناك الذين أعربوا

عن تخوفهم أن يكون هذا بابا للنعرات الجهوية وهنا أوضح الامر رفعا لكل التباس ولان على جيلنا مسؤولية توضيح كثير من المفاهيم ذات الصلة بالماضى ٠ ان المقصود بالامة هو الوطن ، والشعب ، والتاريخ ٠

ولقد كان الصراع حول بلادنا قائما منذ عهد الرومان وقبله ثم انصهرت الجزائر فى الحضارة العربية الاسلامية وهناك نظريات تقول بأن بعض ملوك البربر قد ساهموا فى تحقيق عروبة البلاد ٠

وهكذا أصبحت الجزائر جزءا من كل وساهمت فى بناء الحضارة العربية الاسلامية واثرائها ٠

واننا نتحمل تاريخنا كله وتفسير الميثاق يأخذ كل تلك المعطيات بعين الاعتبار ونحن اليوم أكثر من أى وقت مضى موجودون كشعب قوى متلاحم متكاتف متضامن من أجل بناء مستقبله ٠

وربما كان من الضرورى أن أتحدث عن هذا الموضوع ولاول مرة بهذه المناسبة التاريخية لوضع الامور فى مكانها الصحيح حيث أننا نقوم بهذه التجربة الشعبية الاولى من نوعها من أجل تنظير الثورة وتقنينها واعطائها مفاهيمها الحقيقية الموحدة وبحيث لا يبقى مجال للتفسيرات الفردية وكثرة الآراء وتناقضها وبعثرة الجهود ٠

فيما يتعلق باللغة القومية يجب أن يكون واضحا بان سيادة اللغة العربية لا شك فيها ولا منازع لها وهى ان صح التعبير سيدة لا تقبل أن تكون لها ضرة واقصد بالضرة اللغة الفرنسية ، وهناك لهجات محلية نقول بأنها جزء من تاريخنا الثقافى ٠

الارتفاع بمستوى اللغة العربية رفع للمستوى الثقافى للجماهير

ولكن السؤال المطروح ما هى السياسة التى يجب أن تتبع ، هل هى السياسة التى تدعم وحدة الشعب والامة وتقوى أساس الدولة أم السياسة التى قد تخلق مشاكل نحن فى غنى عنها ؟

وهناك مشكل الجهوية مثلا ولعل روح الجهوية موجودة ولا ينطبق هذا على جهة بعينها لكنها مرض قد يعانى المجتمع من أثاره خاصة وأن هناك بجوارنا من يعتمدونها

كسياسة ويتعمقون فى بحثها بهدف ـ فرق تسد ـ لقد اخترنا السياسة التى تدعم وحدة الشعب والامة وسرنا قدما فى سياسة التعريب ، ولعل من أكثر الامور التى تبعث على البهجة سيادة اللغة العربية على المناقشات التى دارت وخصوصا بالنسبة للشباب الذين كانوا يتحدثون لغة عربية سليمة وراقية فى أدق المواضيع وأكثرها صعوبة ٠

ولقد كان المستوى الذى يجب أن تكون عليه لغتنا العربية من القضايا التى استقطبت اهتمامنا وكان السؤال المطروح هل نرتفع بمستوى اللغة العربية التى نستعملها ليرتفع معها المستوى الثقافى العام أم ننزل بها الى المستوى الثقافى الحالى للجماهير ٠

ان هناك دعاة اللهجات المحلية واللغة الدارجة والتى تختلف من جهة الى أخرى شرقا وغربا وجنوبا ، لكن السؤال ، ما الذى سيبقى من الرابطة القومية بعد خمسين سنة اذا كان استعمال اللغات الدارجة هى القاعدة ، وفهم لهجة محلية لمنطقة ، قد يتعسر على سكان منطقة أخرى ٠

بل اننا نعجز عن التفاهم مع الاخوة فى دمشق أو العراق أو مصر أو غيرها من البلدان العربية اذا استخدم كل منا لهجته المحلية فى التخاطب ومعنى هذا ان اختيار اللغة العربية الفصحى هو اختيار سياسى يحتم رفع مستوى اللغة العربية للجماهير لتكون لغة سليمة راقية لا تعقدها الكلمات المندثرة والمصطلحات غير المألوفة ٠

المرحلة القادمة ستتميز بانضمام الملاكين الصغار والحرفيين كحلفاء للثورة

قضية أخرى كان لها مكانها فى النقاش الذى دار حول المشروع التمهيدى وهى قضية الملكية الخاصة ، وهناك ، من طالب بالغائها وبالقضاء على القطاع الخاص ٠

واننى أقول هنا باسم القيادة بانه فيما يتعلق باستراتيجيتها لسنا نفكر فى القضاء على الملكية الخاصة غير المستغلة لان اتخاذ مثل هذا القرار فى هذه المرحلة بالذات من تطور الثورة هو تطرف وتشنج ، وهذا ليس من الثورة فى شىء ، بل اننا نعتقد بأن المرحلة القادمة يجب أن تتميز بانضمام كل الحرفيين وكل الملاكين الصغار للمعركة وكسبهم كحلفاء للثورة وسيصدر قانون يحدد بصفة مدققة المفهوم الذى جاء به الميثاق٠

فيما يتعلق بالملكية الخاصة غير المستغلة ونحن نعتقد بأن لهذه الملكية مكانها فى تجربة الجزائر الاشتراكية ٠

ولقد حدد الميثاق الموقف فيما يتعلق بالملكية الخاصة المستغلة وغير المستغلة ، أن هناك ملكية كبيرة مستغلة وهناك ملكية صغيرة ٠

ولقد حاولت بعض البلدان الاشتراكية تأميم كل شيء لكن هذا أدى الى تفاقم البيروقراطية وتعقيد الحياة ٠

وأنه لمن غير المنطق أن يعتبر الحلاق أو الحرفى الصغير الذى يعكف طوال يومه لانتزاع قوته وقوت عياله انسانا مستغلا يجب القضاء عليه ٠

ان الذين يستغلون غيرهم معروفون ووضعيتهم واضحة وهناك الذين تمكنوا بطرق غير شريفة من تهريب أرباحهم التى حققها فى الجزائر بل وجزءا من رأس مالهم ليقيموا بها فى بلدان أجنبية معامل لا تستفيد منها الجزائر ولا العامل الجزائرى وهذه من سمات الملكية المستغلة ٠

ان للثورة منطقها ، وان ما يهمنا هو أن تنجح الثورة ولقد حاربنا سبع سنوات ونصف لانتزاع الاستقلال ثم وضعنا فى العشرية الماضية أسس المجتمع الجديد وعلينا فى المرحلة القادمة أن تسير بكيفية منتظمة مضبوطة تكفل تحقيق الاهداف الثورية ٠

جبهة التحرير الوطنى جزء من تراثنا

وليست هناك قوة يمكن أن تعزلنا عنه

ان الثورة الزراعية لم تطبق فى 1965 أو فى 1966 رغم ان هناك من كان يقول بغير ذلك ٠

لكننا كنا نرى أنه لابد من ايجاد الشروط الموضوعية لكى ينجح تطبيق الثورة الزراعية ، وقد بدأ تطبيقها فعلا يوم تمكنا من توفير تلك الشروط ، ونجاح الثورة الزراعية اليوم دليل على سلامة الخط الذى انتهجناه حيث بدأت ثمارها تبرز وبدأ الفلاحون فى الاستفادة من خيراتها ٠

أيهـا الاخـوة ،

جرى حديث كثير حول الحزب وهناك من نادى بتطهيره ، وان كنت أفضل ان تستعمل عبارة أخرى حتى لا نمس عواطف الناس ، ومن طالب باعادة تنظيمه ليتماشى مع الواقع الجديد للبلاد ومع تطور الثورة ، ولا بد عند الحديث عن الحزب أن ننظر للامور نظرة شاملـة ·

لقد كان عملنا تحقيقا لترابط تاريخي بحيث جعلنا من تطور البلاد سلسلة تمثل كل حلقة فيها مرحلة من المراحل التاريخية التى عرفتها بلادنا ·

أن مليون ونصف من الشهداء قد سطروا بدمائهم كلمات جبهـة التحرير الوطنى التى رفعوا لوائها وسقطوا تحته ، وبهذا فان جبهة التحرير جزء من تراثنا الثـورى الذى يجب أن نحافظ عليه ولا توجد هناك أية قوة يمكن أن تعزلنا عن هذا التـراث الذى سجلناه بالدمـاء ·

ان جبهة التحرير الوطنى تعيش فى ضمير كل المواطنين ، لانهـا تعنى بالنسبـة للمواطن الاستقلال فهى التى طردت الاستعمار وهى التى وحدت الشعب فى معـركة من أكبر المعارك التاريخية فى بلادنا ، ولقد قلت يوما بأن أعظم جيل فى تاريخ البلاد هو الجيل الذى حقق المعجزة التاريخية والذى كافح تحت لواء جبهة التحرير وضحـى بمئات الآلاف من ابنائه لرفع ذلك اللواء ·

ان العبرة ليست بالاسم وانما بدلالاته ومعانيه ولا يمكن ان نهدم اليوم ما بنيناه بالامس بدمائنا وتضحياتنا ونقوم بالتجديد لمجرد التجديد ·

النضـال يفقـد مضمونـه اذا لـم يتجـدد
والثـورة ليست احتكـارا لافـراد

لقد تحملنا مسؤولية 19 يونيو 1965 ولكننا لم نستعمل يوما تعبير ثورة 19 يونيو كما حدث فى بلدان أخرى لاننا نؤمن بثورة واحدة هى ثورة أول نوفمبر ونؤمن بضرورة استمراريتها ومن هنا كان التعبير الذى استعملناه هو انتفاضة أو تصحيح 19 يـونيو

الثورى لانه كان فعلا تصحيحا لمسار ثورة أول نوفمبر ونترك للتاريخ مهمة الحكم على هذا الاختيار .

غير ان تعبير جبهة التحرير بعد الاستقلال لا يعنى ولن يعنى باى حال من الاحوال تجمع احزاب وهذا ما نقوله اليوم على الملا وسوف نرى فى 27 يونيو القادم بان الشعب الجزائرى فى هذه المرحلة من تاريخه قد اختار نظام الحزب الواحد وهو ما اثبتته كل المناقشات التى دارت بحرية وعلنية عبر التراب الوطنى ، ولن تكون جبهة التحرير الوطنى أبدا تجمع احزاب وهذا مطروح فى الميثاق ، يبقى موضوع المحتوى البشرى وهو محتوى زائل لا يدوم .

ان هناك الذين مهدوا لثورة 54 ومن بينهم الذين استشهدوا فى 8 مايو 1945 لتلحق بهم قافلة شهداء حرب التحرير الكبرى وهناك الذين كانوا من الاوائل غير ان الثورة ليست احتكارا لافراد والنضال يفقد مضمونه اذا لم يجدد كل يوم ميدان العمل.

اننى أعتقد بأن أحسن وسيلة لتقوية الحزب واستبعاد العناصر التى قد لا تتوفر فيها كل شروط النضال هو انخراط كل العناصر الملتزمة فى اطار الحزب وهنا يتم الفرز من الداخل ويمكن أن تبرز العناصر القيادية الصالحة التى تضمن للحزب قوته وتمكنه من أداء دوره على الوجه الاكمل .

وعلى اطارات البلاد بوجه خاص أن تكون منخرطة فى الحزب ولعل منهم من لم يتمكن من ذلك قبل اليوم ربما لظروف العمل وكثرة المسؤوليات ، غير ان احتكاك الاطارات العليا بجماهير الشعب المناضلة فى خلايا الحزب هى الطريق الامثل لتفادى وجود هوة بينهم وهو يسمح لهم بالاقتراب أكثر فأكثر من الواقع الشعبى بالاضافة الى ما يحققه من اثراء للمحتوى البشرى لحزب جبهة التحرير .

هدفنا خلق مجتمع متطور وخال من الامراض الاجتماعية

ان أبواب الحزب مفتوحة لكل الاشتراكيين ، ولكل اشتراكى ومخلص مكانه . والمفاهيم اليوم واضحة سواء فيما يتعلق بالنسبة لمعتقداتنا كشعب أو بالنسبة للسلاح النظرى ومكان كل من يؤمن بهذه الوثيقة وبهذا الاتجاه هو فى داخل صفوف الحزب .

واذا كنت أقول بان المفاهيم اليوم واضحة فاننى أعنى بذلك ضرورة اعطاء كل كلمة دلالاتها الحقيقية دون غموض يسمح بأى لبس ٠

ان تعبير الجبهة يعنى جبهة قوات الثورة الاساسية من عمال،وفلاحين،وشبيبة،وجنود. وتعبير تحالف القوى الثورية الذى نستعمله أحيانا يجب أن يعنى تحالف القوات الاساسية للثورة وقاعدة العمل بالنسبة الىنا جميعا هى بناء البلاد وتطويرها والقضاء على رواسب الماضى ومخلفاته ٠

لن أحاول أن أتطرق الى كل المواضيع التى تطرق اليها النقاش الجماهيرى والتى سجلت بكيفية أمينة وكاملة ستتيح الرجوع اليها لتتم معالجتها حسب الاسبقيات التى تفرضها أهميتها ٠

ان ما نطمح اليه ، كقيادة وكشعب ، هو خلق مجتمع متطور حديث يكون فى الوقت نفسه مجتمعا نظيفا لا يعانى من الامراض الاجتماعية ، واننى أحاول هنا أن أقدم رأى القيادة فى بعض المواضيع التى طرحت وعلى ضوء الممارسة والتجربة ٠

ان المشاكل التى يشكو منها المواطن ليست قليلة ومنها البيروقراطية ثم المحسوبية والرشوة ٠ ولست أرى داعيا لتذكير المواطن بان عمر الدولة الجزائرية بعد الاستقلال لا يمكنها من الوصول الى حلول جذرية للمشاكل التى تكاد تعانى منها كل المجتمعات والناتجة عن التركة الثقيلة التى ورثناها والظروف القاسية التى عاشها الشعب الجزائرى أثناء العهد الاستعمارى ٠

لكن الثورة تسير قدما فى طريق تغيير الاوضاع والقضاء على تلك المخلفات وعلى الامراض التى يمكن أن يفرزها مجتمع جديد ناشىء يتطور باستمرار وبسرعة كبيرة ٠

حتى تكون الرقابة ناجعة يجب أن تكون شعبية وسيعاقب الراشى والمرتشى

واذا كنت أطالب الاطار مهما كان بأن يدرك بانه خادم للشعب وليس سيدا له فان على المواطنين أيضا ان يتفادوا التعميم عند نقدهم لبعض ما قد يتعرضون له فى معاملاتهم اليومية مع مصالح الدولة ٠

اننى أقول بكل صراحة وبكل موضوعية وبدون أية محاولة للدفاع عن الاطارات لان موقفنا من الاطار ومن المواطن موقف واحد أقول بأنه من الجحود أن يشمل الانتقاد كل الاطارات الوطنية التى بذلت الكثير من أجل بناء هذا الوطن ٠

ان علينا أن نقضى على الامراض الاجتماعية بطريقة موضوعية تضع كل شىء فى مكانه الصحيح ، ان الرشوة مثلا يجب أن تحارب بالحجة والبينة ويجب أن يعاقب الراشى والمرتشى على حد سواء ٠ ومن هنا فان الرقابة ضرورية ولكى تكون ناجعة يجب أن تكون رقابة شعبية واذا كانت الثورة الجزائرية هى ثورة المجالس الشعبية حيث كونت مجالس منتخبة من القاعدة على كل المستويات وخاصة فى الميادين الاقتصادية والتجارية التى تسير بأموال الشعب ٠ وعلى هذه المجالس ان تقوم بدورها المنوط بها والذى تستجيب فيه للآمال التى يعلقها عليها الناخبون وللثقة التى تتمتع بها من القيادة ٠

ان أول مراقبة يجب أن تكون عبر المجالس المنتخبة التى يجب أن تتحمل مسؤولياتها كاملة ولعل هذا لم يتحقق بعد على الصورة المرجوة وهنا يتعين على القاعدة أن تقوم بدورها ليتحسن مستوى المجالس باستمرار وتتزايد فعاليتها أكثر فأكثر ٠

ان قضية الرقابة ومحاربة الامراض الاجتماعية من رشوة ومحسوبية هى قضية الجميع وسنبذل من جهتنا كل جهد لاختيار أحسن الوسائل والطرق لكى تصبح الرقابة حقيقية وفعالة وسيساهم الحزب مساهمة ناجعة فى هذا المجال بعد تقويته وأدائه لدوره الكامل ٠

لقد سجلت الايام الماضية وقوع حدث بالغ الاهمية فى تاريخ البلاد ولقد عبر الشعب عن رأيه بكل صراحة ودون قيود كما برزت اهتماماته الرئيسية وتأكد التزامه مع الخط الثورى الذى تنتهجه البلاد وسيكون كل ما ورد فى ذلك النقاش الحى موضوع اعتبار ٠

أول اجراء تطبيقى للميثاق هو الدستور المنبثق منه والمعبر عنه

أيها الاخوة والاخوات ،

ان الاشتراكية يطبقها الاشتراكيون وهذا مبدا مسلم به والسؤال المطروح الآن هو كيف ومن سيطبق الميثـاق ؟

أول اجراء تطبيقي للميثاق هو الدستور ، لان دستور الجزائر يجب أن ينبثق من الميثاق ويعبر عنه ، سواء فيما يتعلق بالحكم وتنظيمه أو بالحزب وأولويته ، أو بالنسبة للميادين الاخرى الاقتصادية والاجتماعية .

واذا كان الدستور هو الخطوة الاولى فان الذى سيقوم بتطبيق الميثاق كاجراء ثـان هو الحزب المدعم الذى تنخرط فيه كل العناصر المنسجمة مع الميثاق وخصوصا نضـال وكفاح القـوى الاساسية للثـورة .

وتحضرنى هنا اجابة فلاح متعاون على سؤال ، من يطبق الميثاق ، كنت قد استمعت اليهـا فى التلفـزة .

قال الفلاح ببساطة رائعة : الناس يتساءلون ترى هل سيطبق الميثاق أم سـوف لا يطبق ، لقد كافحنا سبع سنـوات ونصف وانتزعنا الاستقلال ، وكافحنا سنوات عديدة لكى نبرز القرية الاشتراكية التى نتمتع بها اليوم الى الوجود ، وعلينا اليوم أن نكافح ونناضل لنضمن للميثاق التطبيق العملى الكامل .

ان أهمية هذه الاجابة التى صدرت عن مواطن يعيش انجازات الثورة وتهمه حماية مكاسبها هى انها الامل الحقيقى الذى يعبر عن سـلاح التطبيق الفعال وهـو التجنيد الجماهيرى حيث لا أحد يقول : « ... اذهب أنت وربك فقاتلا...» .

ان الميثاق هو ميثاق كل المناضلين وتطبيقه يجب أن يكون الشغل الشاغل للجميع ، ومن هنا لا يجب أن يكون طرح السؤال حول التطبيق بصيغة ، كيف ستطبق القيادة الميثـاق ؟

كل الاهداف الواردة فى مواثيقنا انجزت
وعلينا جميعا تطبيق هـذا الميثاق الذى هـو ربـاط بيننا

ان تطبيق الميثاق الوطنى هو أمر لا ريب فيه لان الثورة الجزائرية تغلبت دائما على كل التحديات ، ولقد حققنا كل الاهداف التى سطرناها بل وتجاوز التحقيق الاهداف المعلنة نفسهـا .

ان الاهداف التي جاءت في بيان 1954 قد تحققت وزيادة ، وأهداف ميثاق الصومام قد تحققت وزيادة ، والاهداف التي احتوى عليها ميثاق طرابلس من أجل ثورة ديمقراطية شعبية قد تم تحقيقها بل وتجاوزها ، وكذلك ما جاء في ميثاق الجزائر الذي صدر في ظروف تعرفونها جيدا ، والذي تجاوزته بكثير ، الانجازات والتغييرات العميقة التي تمت في السنوات العشر الماضية ·

كما يمكننا القول بأن محتوى بيان ـ 19 يونيو 1965 ـ قد انجز وطبق ، علينا اذن أن نستعد لتطبيق هذا الميثاق وهذا يتطلب التعبئة والتجنيد والالتفاف حول هذه الوثيقة التاريخية ، وليكن موعدنا عام 1982 عام العيد العشرين للاستقلال ولنتم بتحد جديد يكلل بنجاح كما كللت به كل التحديات لنستطيع ان نقفز ببلادنا وثورتنا قفزة جديدة ·

أيها الاخوة ،

كان وعدنا في مثل هذا اليوم من العام الماضي أن نقدم هذه الوثيقة التي تمت المصادقة عليها اليوم ، وان نستكمل مؤسسات الدولة ، وهو ما سيتم قبل نهاية هذا العام لنتجه بعد ذلك الى تحقيق بقية البرنامج المتعلق ببناء الحزب ليكون في مستوى عظمة الثورة الاشتراكية ·

ان المرحلة التي نعيشها اليوم هي مرحلة ممارسة الديمقراطية الاشتراكية في اسمى معانيها ونحن على يقين بأن النصر سيكون حليفنا في هذه المعركة الجديدة ويكون الميثاق الوطني الرباط الوثيق الذي يجمع بيننا والوثيقة التي نلتف حولها كمناضلين اشتراكيين ، والمجد والخلود لشهدائنا الابرار ·

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ·

في هذا العدد

لقد أفردنا هذا العدد الخاص من مجلة « الأصالة » لمدينة عنابة بمناسبة انعقاد الملتقى العاشر للفكر الاسلامى بها . وهذا اتباعا لنهج سرنا عليه منذ الملتقى السادس فى العاصمة وذلك بمناسبة العيد الألفى لتأسيس الجزائر من طرف بلكين بن زيرى، ومليانة ، والمدية ، والعيد العاشر لاسترجاع الاستقلال ، وفاتنا أن نفعل ذلك فى الملتقى السابع فى تيزى وزو . ولكن عدنا اليه فى الملتقى الثامن فى بجاية ، والتاسع فى تلمسان وفى العاشر هذه المرة فى عنابة .

ونرجو أن نستمر على هذا التقليد الحسن .

وأخيرا ننوه بجهود جميع الاساتذة الافاضل الذين لبوا دعوتنا وساهموا فى هذا العدد مساهمة هامة ومشرفة .

الأصالة

عنابة عبر التاريخ

يحيى بوعزيز
أستاذ بالمعهد التكنولوجي للتربية
وهران ـ الجزائر

تقع عنابة في شرق البلاد على ساحل البحر في خليج عريض يعطي وجهه الى الناحية الشرقية ، ويشرف عليها من الجنوب جبل ايدوغ الاشم بغاباته الجميلة المتناسقة ، وحقوله وبساتينه الخلابة الساحرة ،وفندقه السياحي الضخم « سرايدي » الذي يجثم على قمته كأنه درة في جبين عروسة شابة ، وبثرواته الطبيعية المعدنية النحاسية الهامة التي يزخر بها باطنه ، ويزود بها صناعة البلاد الوطنية الشابة الناهضة التي تمثل احدى مفاخر الجزائر الحديثة .

ويشق عنابة من زاويتها الشمالية الشرقية وادي سيبوس بجسوره الجميلة ، ومياهه المتدفقة ، وسده الضخم بونا موسة . وتنفتح المدينة من الجنوب وراء جبل ايدوغ على

ترتيب دراسات هذا العدد روعي فيه التسلسل التاريخي .

سهل فسيح الارجاء ، بديع الجمال ، خصب التربة ، عالى الرطوبة ، غنى بالثروات الفلاحية المتنوعة والمتعددة ، من حبوب ، وخضر ، وفواكه ، ونباتات صناعية ، كالتبغ ، والكاوكاو (فول سودانى) ، ودوار الشمس ، وحيوانات خاصة الابقار الحلوبة ، مما جعل هذا السهل فى مستوى سهل متيجة أو لربما أحسن منه ·

ومما زاد فى أهمية هذا السهل ، سد بونا موسة الذى يزوده بمياه السقى والرى ، وأدى الى مضاعفة انتاجه وتمويعه أكثر بمرور الزمن · وترتبط مدينة عنابة بمناطق تعدينا لحديد فى الوانزة وبوخضرة ، والسماد الطبيعى (فوسفاط) فى الكويف وجبل العنق ، بخط سكة حديدية مكهرب ينقل تلك الثروات اليها لتسويقها سابقا وتكييفها وتصنيعها حاليا فى المعامل التى أقيمت بها خاصة مصنع الحجار للحديد والصلب · ومصنع تكييف السماد الطبيعى ·

نشأة مدينة عنابة وتطورها التاريخى :

كانت عنابة فى القديم تدعى : هيبو ريجيوس : Hippo-Régius ،ونواتها القديمة تقع على بعد كيلومترين اثنين، من عنابة الحديثة، ويرجح الآن أن تكون ضمنها ، ولا يعلم بالضبط متى تأسست ، ولكن الفينيقيين استقروا بها منذ أواخر القرن التاسع قبل الميلاد بعد أن أسسوا مدينة قرطاجنة فى خليج تونس · واكتسبت أهميتها من مينائها الذى يوجد فى مأمن من الرياح الغربية ، ويسهل على السفن الرسوب دون أن تتعرض لخطر الزوابع ، ولذلك كثر ارتياد الاساطيل الفينيقية والقرطاجية اليها لممارسة العمل التجارى مع السكان ، وبمرور الزمن تحولت الى سوق تجارى وفلاحى فى عهد القرطاجنيين · (1)

وخلال العهد الرومانى واصلت هذه المدينة نموها وتطورها ، واتخذها يوليوس قيصر، هى وقالمة، الحد الغربى والجنوبى الغربى لولاية افريقيا الجديدة التى أسسها،وربطها الرومان بمدينة تبسة الى الجنوب بطريق معبد كبير ، ووضعوا بها وبمداوروش حاميات عسكرية ، وانشأوا بها صهاريج كبيرة لحفظ مياه الامطار لغرض تزويد السكان بمياه الشرب تسع لحوالى اثنى عشر ألف متر مكعب ·

(1) شارل أندرى جوليان : تاريخ شمال افريقيا . ترجمة محمد مزالى ، والبشير ابن سلامة · (الدار التونسية للنشر 1969) ، ص 109 و 234 ·

وعندما اقتطع الامبراطور الرومانى كاليكولا ، نوميديا من ولاية افريقية اتخذ عنابة الحد الفاصل بينهما غربا • (2)

وكما ازدهرت الفلاحة والتجارة فى عنابة القديمة ، ونما العمران وتطور ، أخصب الفكر كذلك ، وشاركت عنابة فى الابداع الثقافى ، والدينى ، والاجتماعى ، وبرز بها مفكرون عالميون تجاوز تاثيرهم الفكرى هذه المنطقة ليعم كل اصقاع أوروبا فى تلـك العصور القديمة •

ففى مطلع القرن الثالث الميلادى برز بها الكاتب المداوروشى الشهير أبوليوس المولود حوالى عام 125 م ، بقرية مداوروش قرب عنابة ، والذى كان يعتبر أكبر كتاب افريقيا آنذاك (3) فقد استقر هذا الكاتب بمدينة قرطاجنة فترة من الزمن للدراسة ، ثم رحل الى ايطاليا ، واليونان ، وآسيا الصغرى ، فى رحلة دراسية طويلـة لطلب العلـم ، والاستزادة من المعارف ، والاطلاع على نشاط الحواضر الكبـرى • واعجب بالافكـار الافلاطونية الرائجة آنذاك ، واتخذها لنفسه أسلوبا ومنهجا • وعند ما عاد استقـر بعض الوقت فى طرابلس ، وتزوج هناك ، وتفرغ للكتابة والتاليف حول عدة مجالات واعتبر فيما بعد أديبا وقصاصا عاليا وعالميا • وفى قرطاجنة ألف قصته المشهورة : الممسوخ : les métamorphoses أو الحمار الذهبى (4) • وفى منتصف القرن الرابع الميلادى انجبت مدينة تاجاست : Thagaste (سوق أهراس) رائدا آخر من رواد الفكـر الافريقى العالمى ، احتضنته فيما بعد عنابة ، وجعلت منه زعيما روحـيا وسياسيا ، وأكسبها هو أيضا شهرة واعتبارا ، ذلك هو القديس أوغسطين الذى ولد بسوق أهراس عام 354 م ، وقضى صدر شبابه بها • ثم انتقل الى مداوروش موطن الكاتب أبوليوس ، ليواصل تعلمه هناك ودراسته • ومن هناك انتقل الى قرطاجنة ، واعتكف بها حوالى خمس سنوات كاملة على الدراسة والتعلم فى جو من التحرر وعدم التقيد ببعض التقاليد الشائعة ، واتخذ لنفسه خليلة على غير عادة المسيحيين ، ولم يتخل عنها ، الا بعد تدخل أمه لديه عدة مرات ، والحاحها عليه فى ذلك•

(2) نفس المصدر ، ص 168 و 196 ـ 198 و 212 •
(3) نفس المصدر ، ص 251 ـ 252 •
(4) أحمد صفر : مدينة المغرب العربى في التاريخ (تونس 1959) ج 1 ، ص 253 ـ 254

ومن قرطاجنة شد الرحال الى روما ، وميلانو ، سنة 383 أو 384 ، وتجول فى بلاد الرومان ، واستعمل عقله وفكره حتى عاد اليه هدوؤه النفسى ، وزال عنه تشككه السابق فآمن عن عقيدة وايمان بالمسيحية ، وعـاد الى افريقيا ، واستقر بقريته سوق اهراس لمدة ثلاث سنوات فقد خلالها أمه وبنته ، ولكن الاقدار كانت تهيئه لمناصب عالية (5) ٠

ففى عام 391 انتقل الى عنـــابة ، واختير مستشارا لاسقف قرطـاجنة أوريليوس Aurélius ، ثم معاونا له عام 396 (6) ، وأخيرا عين أسقفا لمدينة عنابة نفسها بعد أن رقى الى هذا المنصب ، ومن يومئذ ارتبط تاريخ هذا الرجل لمدينة عنابة وترأس بهـــا عدة مجاميع دينية فى أعوام 393 و 395 و 426 (7) ، لمواجهة تيار مذهب الدوناتية أو الدوناتوسية الذى اعتبر هرطقة وابتداعا فى المسيحية ، وشنت عليه الكنيسة حـــربا شعواء ٠ وشارك أوغسطين فى مؤتمر قرطاجنة عام 405 (وقيل عام 411 م) الذى اعتبر الدوناتوسية تيارا ملحدا يجب مقاومته بكل الوسائل ٠

وكان أوغسطين خطيبا مصقعا ، فصيح اللسان ، قوى التأثير (8) ، خلف لنا وراءه عـددا من الرسائل والكتب فى مجالات فكـــرية ودينية متعـددة منها : مدينة اللــه : la cité de Dieu ، واعترافاتى : mes confessions ، وحوالى 276 رسالة أخرى ٠ ولم تكتسب المسيحية سمعتها وقيمتها بافريقيا الا بفضل هذا الرجل (9) ، لانه هو الشريان الرئيسى الذى حمل فلسفة افلاطون وآراءه الى الغرب الاوروبى المسيحى ، بعد أن اطلع عليها هو من كتابات شيشرون ، وافلاطون ، واتخذها منطلقا لوضع فلسفته الدينية ٠

فالفلسفة الاوروبية التى بلغت الذروة على أيدى ديكارت مصدرها الاول هو القديس أوغسطين ، وتقوم على أساس الايمان بوجود الفكر الذى يستلزم وجود العقل الذى يعتمد على أساس الثالوث المشهور : « المعرفة والادراك والارادة » ٠ ومما جعل الاهمية

(5) نفس المصدر ، ص 104 ـ 118 ٠
(6) نفس المصدر ، ص 368 ـ 369 ٠
(7) عبد الرحمن بن محمد الجيـلالى : تاريخ الجـزائر العـام (الجزائر 1954) ج 1 ، ص ، 105 ـ 106
(8) الدكتور سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى (دار المعـــارف 1965) ص 67 ـ 68 ٠
(9) جوليان ، ص 314 ـ 327 ٠

لافكار أوغسطين هو أنه كان الواضع الاول للمذهب الايرادى فى الفلسفة المسيحية ، وهو الذى عالج مشكلة الشر ، كما أن بذور مذهب القضاء والقدر فى المسيحية تعود الى أفكاره وآرائه (10) ٠

وعندما غزا الوندال هذه البلاد فى مطلع القرن الخامس الميلادى اقتحم أوغسطين ميدان السياسة ، وشارك فى محاولة انقاذ بلاده من وحشية الغزاة الجدد ، فتدخل لـــدى الامبراطورة الرومانية بلاسيديا من أجل اعادة الوالى الرومانى بونيفاس الى منصبه بعد أن عزل لاتهامه بالتواطىء مع الوندال ، فأعادته استجابة لتدخلاته ، وعندما انهـزم هذا الوالى أمام الوندال انسحب الى عنابة واعتصم بها ، وتصدى معه أوغسطين للمقاومة طيلة أربعة عشر شهرا الى أن توفى فى أوت 430 (11) ٠ فاتخذها الوندال عاصمة لهم بعد احتلالها ، وأبرموا لها مــع الرومان اتفاقية 11 فيفرى 435 م ، التى خـــولت لهم امتيازات خاصة بالبلاد ٠ وبقيت عنابة عاصمة للوندال حتى احتلوا قرطاجنة عام 439 ، فنقلوا عاصمتهم اليها (12) ٠

وتمضى السنون والاحقاب ، ويدخل الاقليم تحت السيطرة الاسلامية ، وتسير عنابة مع الركب الحضارى ، ويبرز بها الاعلام والمفكرون ، ويشاركون فى خلق وبناء حضارة هذا الاقليم ، ويظهر الشيخ أبو عبد المالك مروان بن على الاسدى القطان البونى العنابى كفقيه ومحدث بارز ، وبارع ، فى كنف الصنهاجيين الحماديين ، فتنقل هـــذا الرجل بين قرطبة بالاندلس ، وعواصم الشرق والقيروان، للدراسة والاطلاع والتأليف . وكان من نتيجة اعماله العلمية شرحه لموطا مالك فى الفقه والعبادات الذى نال شهرة واسعة فى الاوساط العلمية والثقافية والدينية شرقا وغربا وبقى يواصل نشاطه العلمى والثقافى حتى توفى بالقيروان عام 1047 (439 هـ) (13) ٠

---

(10) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشــور : أوروبا العصور الــوسطى (القاهرة 1959) ج 2 ، ص 154 ـ 156 ٠

(11) يحيى بوعزيز : الموجز فى تاريخ الجزائر (الجزائر 1965) ج 1 ، ص 26 و 60 ـ 61

(12) مبارك بن محمد الهلالى الميــلى : تاريخ الجــزائر فى القديم والحــديث ، ط 2 ٠ (الجزائر 1963) ، ج1 ص 96 ٠

(13) الجيلالى ، ج 1 ، ص 355 ـ 356 ٠

والى جانب النشاط الثقافى ، كانت عنابة مركزا اقتصاديا هاما ، نشطت بها التجارة والصناعة ، واشتهر ساحلها وساحل الخزر (القالة) بوفرة أصداف المرجان التى دأب سكانها على اصطيادها واستخراجها للاتجار به مع الخارج خاصة الهند والصين (14) ٠

ولاهمية ميناء عنابة ، ووفرة المعادن والاخشاب حولها، اتخذها الفاطميون هى والقالة مركزين هامين لصناعة السفن ، واصلاحها ، وقاعدة لرسو الاساطيل البحرية الحربية منها والتجارية ٠

وعندما قامت دولة الموحدين، قضى عبد المؤمن بن على الكومى على كل الامارات المحلية الحمادية ، ومنها امارة عنابة التى كانت تتبع بجاية الحمادية ، فاصبحت من القواعد الهامة بعد ذلك للاسطول الموحدى الكبير الذى تصدى لنشاط النورمان البحرى التوسعى ، وقضى على بقاياهم بالمهدية التى كانوا يحتلونها لعدة سنوات هى وبعض الموانى التونسية الاخرى ٠

لقد استغاث حاكم عنابة الحمادى الحارث بن العزيز ، بالنورمان ضد الموحدين ، فلبوا نداءه ، وانزلوا قواتهم بعنابة عام 1153 ، وبقوا بها حتى عام 1136 ، ثم داهمهم الموحدون وقضوا عليهم ، وقتلوا الامير الحمادى ، وحرروا عنابة من نيرهم بصورة نهائية، واتخذوها قاعدة هامة لصناعة السفن واصلاحها ، هى والقالة ، ولرسو الاساطيل ، فأصبحت فى عهدهم ثالثة الاثافى للقواعد البحرية الموحدية مع وهران ، وهنين ، ولعبت دورا بارزا فى مقاومة الغزاة النورمان فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ٠ وبلغت قدرة استيعابها للسفن الى مائتى سفينة مع القالة (15) ٠

ومما زاد فى أهمية عنابة ومنائها ، توفرها على معدن الحديد لصناعة بعض الادوات الضرورية لصناعة واصلاح السفن ، وعلى اصداف المرجان لاستغلالها فى التجارة الخارجية مما جعل دخلها يرتفع الى عشرين ألف دينار ، ودخل القالة الى عشرة آلاف دينار سنويا من صيد المرجان (16) ٠

---

(14) نفس المصدر ، ص 301 ٠

(15) الجيلالى ، ج 1 ، ص 261 ـ 266 و 333 ـ 334 و 378 ـ 379 ٠

(16) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة (بولاق 1274 هـ) ، ص 123 ٠

وقد زارها الجغرافى العربى الافريقى الشهير الشريف السبتى الادريسى فى القرن الثانى عشر الميلادى ووصفها بقوله : « انها كان بها أسواق حسنة ، وتجارة مقصودة ، وأرباح موجودة ، وكان بها كثير من الخشب موجود جيد الصفة ، ولها بساتين قليلة وشجر ، وبها من أنواع الفواكه ما يعم أهلها ، وأكثر فواكهها من باديتها ، والقمح بها والشعير فى أوقات الاصابات كما وصفنا كثير جدا ، وبها معادن حديد جيد ، ويزرع بأرضها الكتان ، والعسل بها موجود ممكن ، وكذلك السمن ، وأكثر سوائمهم البقر ، ولها أقاليم وأرض واسعة تغلب العرب عليها » ، وزاد البكرى على هذا بأن معظم تجارها من أصل اندلسى ، وأن مواردها من غير جباية الاموال ، عشرون ألف دينار (17) ويعنى بذلك مدخول صيد المرجان على ما يظهر ·

وعند ما تختفى الدولة الموحدية من الميدان ، وتقوم على أنقاضها دول المغرب العربى الثلاثة : الحفصية ، والزيانية ، والمرينية ، يفرض الحفصيون سيطرتهم على شرق المغرب الاوسط (الجزائر) ، وتصبح عنابة امارة حفصية ضمن الامارات الحفصية الاربعة بهذه البلاد وهى : امارة عنابة ، وامارة بجاية ، وامارة قسنطينة ، وامارة الزاب (18) ·

وتدخل عنابة معترك الصراع ، خلال هذه الفترة ، فى اطار الدولة الحفصية ، مع تبعيتها لامارة بجاية المركزية وتشارك فى الاحداث الجارية بالمنطقة حقبة من الزمن ، ويشارك شعبها فى مقاومة حملة لويس التاسع الفرنسى الصليبية فى سبتمبر 1270 م ، ويكلل بالنصر الحاسم (19) · ولا تقنع عنابة بهذه التبعية ، فتسعى للتفوق ، ويصل أمير الفضل بن بكر الى منصب الرئاسة على عرش تونس الحفصى نفسه بعد الغزو المرينى للجزائر وتونس بزعامة السلطان أبى الحسن المرينى عام 750 هـ (1349 م) (20) ·

وهذا الخوض فى غمار المعارك السياسية والعسكرية لا يمنع عنابة من مواصلة نهضتها الفكرية والثقافية ، التى استهوت الكثير من رجال العلم والادب ، فانتقل اليها

(17) عن الجيلالى · ج 2 ، ص 222 ـ 223 ·
(18) الجيلالى · نفس المصدر · ج 2 ، ص 29 ـ 30 ·
(19) نفس المصدر ، ص 83 ·
(20) احمد توفيق المدنى : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ، 1492 ـ 1792 (الجزائر ـ بدون تاريخ) ، ص 141 ·

العالم المشدالى الكبير ، أبو الفضل محمد بن محمد بن أبى القاسم المشدالى البجائى ، حوالى 1442 م • واستقر بها بضع سنوات قبل ان يلتحق بمصر (21) ، وكان عالما كبيرا ، واسع الثقافة والمعرفة فى ميادين ومجالات كثيرة •

وتستمر عنابة فى سيرها وتطورها الى أن يرمى الاسبان بثقلهم بهذه المنطقة خلال القرن السادس عشر ، من أجل الغزو والاحتلال ، بعد أن نجحوا فى طرد مسلمى الاندلس من ديارهم أواخر القرن الخامس عشر • وتكون عنابة احدى أهدافهم فيغزونها ويحتلونها بعض الوقت عام 1510 بعد احتلالهم للمرسى الكبير ، ووهران ، وبجاية ، ولكن سكان عنابة يتصدون لهذا الغزو ، ويخوضون المعارك المتعددة ، ويظهر خير الدين كبطل منقذ فى هذه البلاد ، وينتزع عنابة من الاسبان عام 1535 ، ويعيد اليها حريتها فى اطار دولة المغرب الاوسط الذى أصبح يسمى منذ ذلك التاريخ بالجزائر •

ولعبت عنابة نفس الدور الذى لعبته خلال صدر الدولة الحفصية ، فانطلق منها أميرها أبو العباس أحمد (حميدة) ليسيطر على عرش تونس ، وينتقم من سلطانها الخائن الحسن الحفصى ، الذى قبل حماية الاسبان قبل ذلك ، ورضى بالذل والعار ، فيسمل عينيه ، وينفيه الى القيروان ليموت هناك هما ونكدا من مصيره المظلم (22) •

وعندما تستقر السلطة التركية وتتركز بالجزائر ، ستصبح عنابة أهم موانى بايليك الشرق (قسنطينة) ، وتتخذ قاعدة بحرية كبيرة لاسطول الجزائر الحديث الذى سيواجه بقوة وعن جدارة وعنف غارات قراصنة أوروبا واطماعهم وحملاتهم المتكررة على هذه البلاد سنوات طويلة • وتبقى هكذا صامدة حتى حملة الاحتلال الفرنسى للجزائر عام 1830 ، ثم يظهر الصراع حولها بين الحاج أحمد باى زعيم بايليك قسنطينة ورائد المقاومة الجزائرية فى الشرق الجزائرى ، وخصمه ابراهيم ، والفرنسيين الغزاة الجدد للبلاد ، وذلك لاهميتها الاستراتيجية • فيحصنها الحاج أحمد باى بعض الوقت ، ثم يعتصم بها الباى ابراهيم خصمه ، وأخيرا يحتلها الفرنسيون عام 1832 ، ويتخذونها قاعدة هامة

(21) نفس المصدر • ج 2 ، ص 255 •

(22) حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس (تونس ــ محرم 1373) ــ ص 118 ــ 127 •

بحرية وبرية للهجوم على قسنطينة قاعدة بايليك الشرق ، واسدها الحاج أحمد باى ، فمنها جهزوا حملة عام 1836 التى انتهت بانهزام كلوزيل ، وعزله عن الجزائر كلهـا ، ومنها جهزوا حملة اكتوبر 1837 التى انتهت بمقتل قائدها دامرمون ، وسقوط قسنطينة فى يد الغزاة الفرنسيين ، وهزيمة الحاج أحمد باى وانسحابه الى الاوراس والصحراء لمدة أحد عشر عاما أخرى قبل ان يقع فى يد أعدائه عام 1848 (23) • وتبقى عنابة ، ومعها كل البلاد ، حبيسة فى يد الغزاة الفرنسيين قرنا وثلاثين عاما ، حاولوا خلالها ايقاف عجلة التاريخ ، ولكن عنابة تصمد وتقاوم ببسالة ، وتبرز بمعاركها الكبرى فى ثـورة نوفمبر الخالدة عام 1954 ـ 1962 ، ويسجل المجاهدون بها بطولات رائعة مـن ضمنها هجومهم التاريخى عليها أيام 23 و 24 و 25 ماى 1959 التى انتهت باسقاط ثلاث طائرات وقتل عدد كبير من ضباط العدو وجنوده (24) •

وبعد تحقيق الاستقلال الوطنى ، حصلت عنابة على مكسب قومى رائـع ، عندما اختيرت لتكون مركزا للصناعة الثقيلة الجزائرية الحديثة التى تعتبر المنطلـق الحقيقى لثورتنا الصناعية الحديثة الشابة ، والتى بها دخلت بلادنا عـالم الصناعة بمفهومـه الحقيقى ، ومن بابه الواسع • فعنابة فى هذا الميدان بالنسبة للجزائر ، مثل بريطانيا بالنسبة لاوروبا كلها فى القرن التاسع عشر • منها أشرق فجر الصناعة ليشع عـلى أوروبا آنذاك ، وكل بلاد الجزائر فى عهدها الحاضر الزاهر • وستكون جامعة عنابـة التكنولوجية ، التى افتتحت خلال العام الماضى ، مكسبا آخر لدعم صناعتها الحديثـة ، ونهضة الجزائر كلها التى تشق طريقها نحو المستقبل بثقة وعزم وتصميم •

تلك هى الملامح العامة لعنابة عبر التاريخ ، وهى عبارة عن خلاصة مختصرة نرجـو أن تكون منطلقا للدراسات المتخصصة ، التى ستكشف المزيد من امجاد هذا البلـد الشاب الذى حرم ، حقبا كثيرة ، من التعرف على ماضيه الحقيقى •

---

(23) محمد العربى الزبيرى : مذكرات أحمد باى وحمدان خوجة وبوضربة (الجزائر 1973) ، ص 26 ـ 27 و 33 ، وهنا وهناك •

(24) يحيى بوعزيز : ملف ثورات الجزائر فى القرنين التاسع عشر والعشرين (مخطوط 1975) ، ص 157 •

هيبون القديمة

محمد بشير شنيتى
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر

اذا كانت شهرة المدن التاريخية تقاس بمدى عراقتها، وبالاحداث الجسام التى مرت بها دون أن تفنيها وبالاشعاع الحضارى الذى مارسته على محيطها الجغرافى، وبمدى المساهمة الايجابية فى حركة التاريخ ، فان مدينة هيبو القديمة الواقعة على مقربة من عنابة الحالية تعتبر من بين المدن الجزائرية القليلة التى تبوأت هذه المكانة المرموقة عبر التاريخ القديم .

نشأة المدينة

فكيف نشأت هيبون ومن مؤسسها ؟

من الشائع ان بلاد شمال افريقيا قد خرجت من عصور ما قبل التاريخ مع دخول الفنيقيين اليها فى أواخر الالف الثانية قبل ميلاد المسيح عليه السلام . أى أن التاريخ

لم ينبلج فجره على سكان بلاد المغرب القديم الا مع الرواد الفنيقيين الاوائل الذيـــن حطوا رحالهم على شواطىء الشمال الافريقى • فاصبحت محطاتهم التجارية منبع اشعاع حضارى أزاح ضباب عصور ما قبل التاريخ من سماء المنطقة• وبذلك كانوا رسل حضارة فضلا عن كونهم رواد بحر وتجارة •

تقع هيبو على مصب وادى سيبوس عند السفوح الشرقية لمرتفعات ايدوغ العتيدة ، تنبسط حواليها سهول خصبة على امتداد يتوغل الى عمق أربعين ميـلا طـــولا وستـة وعشرين ميلا عرضا ، أى ما يساوى حوالى 64 كلم طولا و 40 كلم عرضا (1) • وعـــلى هامش هذه السهول تبدأ المرتفعات النوميدية فى الظهور ، حيث الغابات والاشجـــار المثمرة ذات الشهرة التاريخية • وتطل على هيبو من الخلف مرتفعات ايدوغ بشموخ ، تلك الحصون المنيعة للمقاومة النوميدية عبر التاريخ القديم ، وهى مرتفعات تزخر بثروة معدنية هامة كالرخام والحديد والنحاس ، مما ساهم فى تعدد الموارد الاقتصادية لهيبو ، تختفى المدينة برأس الحراسة الذى يحميها من الرياح الغربية المثيرة للزوابع والامواج العاتية ، فهى على خليج هادىء المياه ، قليل العمق • انها أنسب مكان طبيعى لرســـو السفن • فلا غرو ان تعلقت بذلك المكان الاعين الفاحصة للبحارة الفنيقيين الاوائل فنزلوا به واسسوا لهم أول مركز عمرانى على سواحل نوميديا الشمالية •

غير أن هناك من الباحثين من يفترض تاسيس هيبو على أيدى البحـــارة الكريتيين (نسبة الى جزيرة كريت) أو الايجيين (2) (وهم سكان جزر ايجى) ، على اعتبار ان هؤلاء البحارة كان لهم قصب السبق فى هذا المجال خلال الالف الثانية قبل الميلاد ، وخاصة فى عهد ازدهار الحضارة المينوية (منتصف الالف الثانية ق م •) عندما كانت السفن الكريتية والايجية تجوب الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، محتكرة التجارة بين شعوبـــه •

لكن جمهرة الباحثين لا يميلون الى هذا الافتراض ، ويرجحون ادراج هيبو ضمن المنجزات الفنيقية على السواحل المتوسطية (3) ، خاصة وأن اسمها (هيبو) مشتق من

---

(1) أنظر Jean Léon l'Africain : Description de l'Afrique ; T. 2, p. 369

(2) أنظر Stephane Gsell : Atlas archéologique de l'Algérie ; T. 2, p. 5, F. 9.

(3) أنظر Tissot : Géographie des provinces d'Afrique T. 2, p. 90.

لفظ (أوبون Ubbôn) الفنيقى الذى يعنى المكان الخفى أو المخبأ أو الخليج · ولعل (أبون) كان الاسم الشائع الاستعمال أثناء الفترة السابقة للرومان ، وأن التحريف داخله فيما بعد على لسان الاغريق واللاتين فأصبح هيبو Hippo.

وهناك من يذهب الى القول بأن هيبو من تأسيس القرطاجيين (4) · ولعل هذا الرأى يستند الى فترة الزعامة التى مارستها قرطاجة على المستوطنات الفنيقية بالسواحل الافريقية ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد ·

ان أسباب تعدد الفرضيات حول تاريخ تأسيس هيبو والذين أسسوها يعود الى ندرة المصادر المادية (الاثريات) والكتابية (النصوص) التى يفتقر اليها تاريخ شمال افريقية العائد الى ما قبل القرن الخامس قبل الميلاد ·

غير أنه يمكن القول بشىء من التأكيد ان هيبو تندرج ضمن الاسكالات (المحطات البحرية) التى أنشأها الفنيقيون على شواطىء شمال افريقيا ابتداء من القرن الثانى عشر قبل الميلاد · ثم تطورت بفعل مواردها الاقتصادية الهامة فأصبحت مركزا تجاريا ممتازا ، ما لبث ان اتسع وصار مدينة متسعة الارجاء ·

كان معظم سكان هيبو فى بداية أمرهم من الجالية الفنيقية لان علاقة هؤلاء بالنوميديين كانت محدودة ، حيث اقتصرت على التعامل التجارى بالدرجة الاولى · ثم انالفنيقيين لم يكن يهمهم فى بداية الامر تعمير المنطقة ، وانشاء سلطة مركزية فيها · ذلك أن تبعيتهم للوطن الام (فنيقية) كانت كبيرة ، بالاضافة الى حرصهم على احتكار التجارة والاحتفاظ باسرار البحار وما وراءها من مصادر الثروة ، ومن ثم لم يحاولوا اشراك النوميديين فى اهتماماتهم ·

غير أن هذا لم يمنع من تواجد نوميديين بالمراكز الفنيقية كعمال مساعدين فى تفريغ السفن أو شحنها ، وبالقيام بأعمال متنوعة أخرى كالوساطة بين التجار الفنيقيين وأهالى نوميديا من المزارعين والرعاة ، ذلك التواجد الذى مهد السبيل لتفاهم أكثر ، وتعاون أنفع ، واندماج أشد فى العهد البونى (القرطاجى) ·

---

(4) أنظر La Grande Encyclopédie ; T. 20, p. 111.

هيبـــون البونيـــة

وابتداء من القرن السابع أخذت قرطاجة تستجمع الزعامة السياسية على المستوطنات الفنيقية بشمال افريقيا كي تتمكن من احتكار التجارة مع الداخل والخارج ٠

ولم يات القرن الخامس قبل الميلاد حتى اصبحت قرطاجة تنشيء محطات تجاريـة خاصة بها على الشواطيء المتوسطية ثم الاطلسية ، فتكونت لديها امبراطورية بحرية تجارية ٠ وفى خضم التوسع القرطاجى انضمت هيبو الى الدولة القرطاجية ، وأصبحت من أهم مدنها التجارية على الساحل النوميدى ، وأخذت أنظمة هيبو الادارية والاجتماعية تكتسى طابعا قرطاجيا ، فكان لها مجلس الكبار وقاضيان (5) ٠ واحتكر البونيـــون المناصب السياسية والادارية ، وسيطروا على الحركة التجارية مكونين طبقة ارستقراطية ممتازة فى المدينة ، وأخذ التأثير الحضارى البونى يتغلغل فى أوساط المجتمع النوميدى ، فانتشرت اللغـــة البـونية بين النـاس ، وقلـد القـــوم البونيـــين فى أساليـــب حياتهـــم اليـــومية ، وفى معتقـــداتهم ٠ وتـــزايد عـــدد النـازحـين الى هيبـــو من النوميديين ، فأصبحوا يشكلون أغلبية فى المدينة مما عمل على انتشار أوســـع للحضارة البونية فى أوساط المجتمع النوميدى ، ليس فى المدينة فحسب ، بل وفى الارياف كذلك ، تلك الارياف التى احتفظت باللغة البونية الى عهد القديس أوغسطين (القرن الخامس الميلادى) رغم جهود الرومان المكثفة فى مجال « رومنة » البلاد ونشر اللغة اللاتينية بين الناس ٠ (6)

أما الدلائل المادية على هذا التأثير فتشهد به النقوش البونية العديدة التى احتفظت بها خرائب هيبو القديمة (7) ٠

وينبغى التنبيه هنا الى أن انتشار الحضارة البونية قد تجاوز الابعاد الزمنية للسيطرة القرطاجية على هيبو وضواحيها ، بحيث بلغ هذا المد الحضارى أوجه فى عهد السيادة

(5) أنظر S. Dahmani : Hippo Régius ; p. 13

(6) أنظر مقـال Luis Leschi : Hippône à travers les siècles, (Bull. de l'Ac. d'Hippone) n° 38. 1961.

(7) أنظر S. Dahmani ; Hippo Régius ; P. 12.

النوميدية على هيبو ٠ مما يدل على أن الحضارة البونية في البلاد لم تعمل على نشرها سيطرة سياسية ، أو ضغط عسكري ، ولا ادارية قرطاجية محكمة ٠ وهو وجه بارز من أوجه الخلاف بين الحضارتين البونية والرومانية في بلاد المغرب ٠

هيبـون النوميديـة

ظلت هيبو تابعة للدولة القرطاجية الى الحرب البونية الثانية ويحتمل أنها تعرضت لمحاولة فتح من طرف الملك النوميدى غية Gaïa والد ماسنيسا ٠ كما استهدفتها حملة لاليوس الرومانية عام 206 ق م٠ فنالت منها الكثير ٠

وابتداء من معركة زاما Zama الشهيرة عام 202 ق ٠ م ٠ التى انهزمت فيها جيوش حنبعل القرطاجى أمام جحافل سيبيون الرومانى (الملقب بالافريقى لانتصاره فى افريقيا) أصبحت هيبو تابعة لمملكة نوميديا الموحدة التى انتصب عليها ماسنيسا ملكا باعتراف رسمى من مجلس الشيوخ الرومانى ، عملا بالاتفاق الذى تم بينه وبين القائد سيبيون فى اسبانيا قبل أربعة أعوام (أى عام 206 ق م٠) ٠ وبهذه النتائج الحاسمة أصبحت مدينة هيبو نوميدية ، تمارس عليها المملكة حقوق السيادة الترابية ، وان كانت بنيتها الاجتماعية طبقية الطابع ، للبونيين فيها المركز الأول ضمن المجتمع ٠ لكن سياسة « النومدة » التى كان ينتهجها ماسنيسا قد نالت من مركز الارستقراطية القرطاجية فى مدينة هيبو ، كما مكنته من تمتين دعائم المملكة وتقوية سمعته فى الداخل والخارج ، فضلا عن الربح الاقتصادى الكبير الذى حققه على حساب الدولة القرطاجية بسيطرته على السهول الزراعية بالدخلة ، ومحاصرة قرطاجة تجاريا بواسطة التحكم فى محاور التجارة مع افريقيا ، وفتح أسواق خارجية فى وجه المنتوجات الزراعية النوميدية ، وكان ميناء هيبو أفضل الموانىء التى يتم عن طريقها تصدير القمح النوميدى نحو ايطاليا وبلاد الاغريق ٠

هيبـون ريجيـوس

ونظرا للمكانة المرموقة التى أصبحت تتمتع بها هيبو فى نظر ملوك نوميديا أضيف لاسمها لقب ريجيوس Régius أى « الملكيـة » ، فأصبحت تدعى هيبو ريجيوس

(هيبو الملكية) • لقد كان ذلك ابتداء من عهد مسيبسا (148 ـ 118 ق م•) ابن ماسنيسا الذى حكم ما يقرب من أربعين سنة كلها أمن واستقرار ، هى فى الواقع جنى لثمرة الجهد الذى بذله والده فى توطيد الملك وزرع أسباب الرخاء فى المملكة •

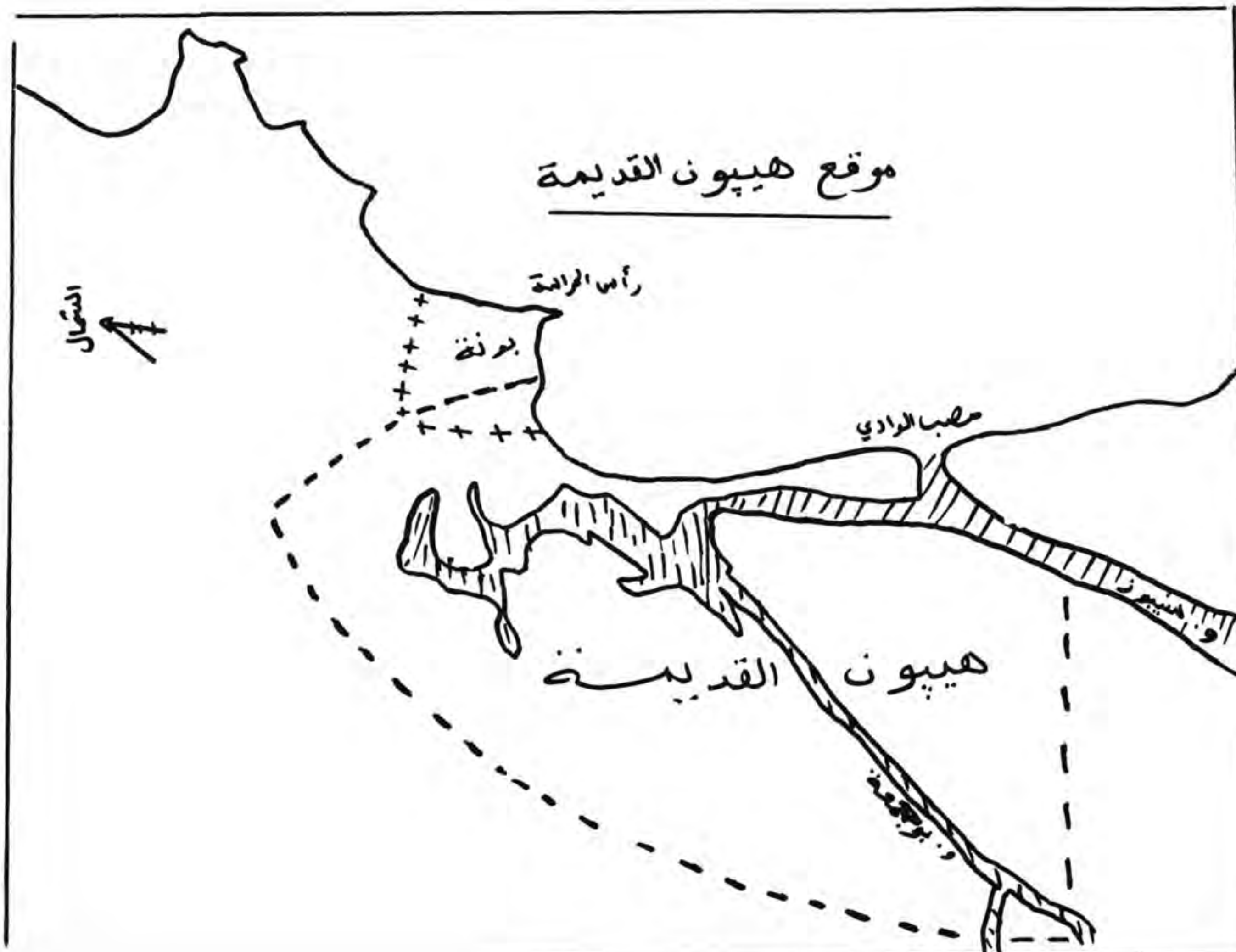
وتجدر الاشارة هنا الى أن لقب « ريجيوس » الذى أضيف لهيبو لا يعنى أنها أصبحت عاصمة للمملكة ، فالعاصمة كانت مدينة سيرتا ثم زاما ، ولكنه يعنى أن مدينة هيبو كانت مكانا مفضلا لدى الملك ، يقيم فيها متى شاء للراحة والاستجمام • أو أنها كانت مقرا ثانويا للعائلة المالكة (8) • ذلك أن هناك مدنا أخرى قد شاركت هيبو فى هذا الاسم ، منها بيلا ريجيا Billa Régia الواقعة شرقى شمتو على مسافة من وادى مجردة ، وكذلك زاما ريجيا Zama Régia قبل أن تصبح عاصمة ليوبا الاول •

ظل هذا الاسم المزدوج يميز هيبو النوميدية عن هيبو دياريتوس Hippo Diarrythus الواقعة ضمن الولاية الرومانية ، وهى بنزرت •

وان كان القديس أوغسطين كان يكتفى أحيانا بذكر هيبو دون ريجيوس (9) • ولعل ذلك يدل على الشهرة التى كانت تتمتع بها مدينته فى ذلك العصر ، فأصبح لقب هيبو علما على هذه المدينة وحدها •

على أن الرخاء الذى مرت به المملكة أيام مسيبسا كان مناسبة أيضا لتغلغل النفوذ الرومانى بنوميديا ، ..را لحالة التبعية السياسية للدولة الرومانية • وقد وجد التجار الرومان فى هذا المناخ السياسى فرصة سانحة للاستقرار بالمدن النوميدية الرئيسية قصد توسيع مجال أنشطتهم الاقتصادية فى المملكة ، فتكونت بالمدن جاليات أجنبية من الرومان واللاتين والاغريق ، وأصبحت تلك الجاليات تشكل خطرا على السيادة الوطنية للمملكة • ومن أبرز الامثلة على ذلك دور الجالية الرومانية فى مدينة سيرتا ضد يوغرطة ، حيث شكلت تلك الجالية جهازا دفاعيا لمنع يوغرطة من دخول المدينة ، ولم يتمكن هذا الاخير من اقتحام أسوار سيرتا الى على رقاب أولئك الرومان الامر الذى أثار حمية مجلس الشيوخ الرومانى فأعلن الحرب على يوغرطة عام 112 ق • م •

(8) أنظر لويس ليشى ـ المصدر السابق •
(9) أنظر قزيل ، المصدر السابق •


موقع هيبون القديمة
الشمال
رأس الحمراء
بونة
مصب الوادي
هيبون القديمة

وخلال حرب يوغرطة الضروس التى تكبد فيها النوميديون الشىء الكثير لا يعرف ما حدث لهيبو ريجيوس ، فهل ظلت مستقلة عن الاحداث نظــرا لهـامشيتها بالنسبة لمحاور القتال الاساسية بين الطرفين ؟ أم ان جاليتها الرومانية قد اعتصمت بها ولــم يحاول يوغرطة اخضاعها لقلة الاهمية الاستراتيجية بالنسبة اليه ؟

هيبـــون الرومانيــة

ومهما يكن من أمر فان الرومان لم يجروا تغيــيرات فى وضعيــة هيبو ريجيوس الادارية بعد قضائهم على ثورة نوميديا (عام 105 ق ٠ م ٠) شأنها فى ذلك شأن بقية المدن الاخرى ٠ غير أن سنة 46 ق ٠ م ٠ كانت حاسمة بالنسبة لنوميديا عامة وهيبــو ريجيوس على وجه الخصوص ٠ لقد سجلت هذه السنة (46 ق ٠ م ٠) سقوط مملكة نوميديا فى أيدى الرومان نهائيا ليقسموها غنائم ومكافآت ، بعد فشل عاهلها يوبا الاول فى مقاومته لحملة قيصر على افريقيا ٠ فقد قرر قيصر أن يسوى القضية النوميديــة نهائيا ، بكيفية يضمن بها المصالح العليا للدولة الرومانية ، وتمكن من توسيع رقعــة التراب الرومانى فى افريقيا ٠ واقتضت هذه الاعتبارات تقسيم نوميديا الى ثـلاثة أقسام رئيسية (10) :

ـ اعلان الجزء الشرقى من المملكة اقليما رومانيا تحت اسم الولاية الافريقية الجديدة Africa Nova.

ـ تسليم الجزء الشمالى منها كمكافأة لمرتزقة سيتيوس الذين كانوا أفضل عون لقيصر فى الاطاحة بمملكة نوميديا ٠ فكون أولئك المرتزقة من ذلك الاقليم امارة تعتمد على أهم المدن وهى سيرتا وميلة والقل وسكيكدة ٠

ـ أما الجزء الثالث ، وهو الغربى ، فكان من حظ ملك موريطانيا بوكوس الثانى اعترافا له من قيصر على جهوده فى غزو مملكة نوميديا من الخلف ، وتعبيرا له عن رغبة قيصر فى تمتين التحالف معه ٠

وكان مكان هيبو ريجيوس من هذا التمزيق فى الولاية الجديدة ، لان هيبو كانت تمثل بالنسبة لقيصر مكانة خاصة ، نظرا لكونها كانت ملجأ لاعدائه الفارين من أوتيكا ،

---

(10) أنظــر لويس ليشى ، المصـدر السابق ؛ وكذلك مقــال البيرتينى Albertini فى نفس المصدر ، ص 39 — 44 ٠

حيث أجهز عليهم بحارة سيتيوس وأغرقوا آخرهم فى سواحل هيبو أثناء محاولة الفرار الى اسبانيا ٠

وما لبثت هيبو ريجيوس أن تصدرت المدن النوميدية الساحلية ، وذلك ابتداء من عام 27 ق م٠ (11) عندما أجرى الامبراطور أوكتافيوس اصلاحات ادارية جوهرية على الولايات الرومانية ، فأصبحت هيبو ريجيوس عاصمة لاقليم واسع امتدت الى مدينة تبسة Thaveste فشملها ، وهو اقليم يضم أراضى زراعية خصبة ، وعين على رأسه حاكم رومانى يتمتع برتبة عالية فى الدولة الرومانية ، وهى رتبة قنصل قديم ، وسمى برو قنصل امبراطورى ، أى نائب الامبراطور على الاقليم الذى يحكمه ٠ تمثلت مهمة هذا الحاكم فى الاشراف على دواليب الانشطة الادارية والاقتصادية حيث أصبح ميناء هيبو ريجيوس بوابة كبرى دائمة الازدحام بالغلال التى تجمع من سهل سيبوس واقليم مدور وقالمة وتبسة لشحنها الى روما ، حيث ينتظرها جمهور استهلاكى متزايد العدد ٠

اقتضى هذا الاصلاح أن تقتطع هيبو واقليمها من افريقيا الجديدة وتصبح مستقلة نسبيا وتابعة للولاية القديمة رسميا ، أى أن حاكم ولاية افريقيا البرو قنصلية كان يشرف نظريا على اقليم هيبو ، لكن حاكمها يتلقى التوجيهات والاوامر من الامبراطور مباشرة ٠

هيبون بلدية

ونظرا للدور الجديد الذى كانت تقوم به هيبو لصالح اقتصاد روما ارتأى سيد العالم (الامبراطور أوكتافيوس) مكافأة المدينة باعلانها بلدية municipium (12) وفى عهد الاسرة الانطونية رفعت هيبو ريجيوس الى منزلة مستعمرة Coloniae اى ان سكانها أصبحوا رومانا من الناحية القانونية ، رغم تنوع أصولهم ، وهى مسألة قابلة للنقاش ، فهل ان جميع سكان المدينة بما فيهم النوميديون كانوا أمام الحقوق والواجبات

(11) أنظر مقال لويس ليشى ، السابق الذكر ٠

(12) نفسه ٠

سواسية بعد هذا القرار (13) ؟ لكن الذى يهم فى هذه المعالجة، ليس الدخول فى تفاصيل المعضلة ، ولكن التنبيه الى أن هيبو ريجيوس قد غمرها طوفان « الرومنة » ، فهل أغرقها نهائيا ، أم أنها غمست فحسب ، وظل جوهرها أصيلا ثابت البنية الحضارية ؟

ان الهياكل الرومانية قد أخذت تغطى كل ما سبقها من معالم الحضارة البونية ـ النوميدية بالمدينة فظهرت بها الساحات العامة Forum والمعابد ثم الكنائس ، والاسواق ، والملاعب ، والمسرح والحمامات ، وما الى ذلك من التجهيزات العامة التى تتميز بها المدن الرومانية ٠

وما لبثت هذه المرافق العامة أن أخذت تعكس مظاهر الرقى الاجتماعى والثراء الاقتصادى الذى بلغته المدينة أيام الرومان ٠ (14)

هيبون زعيمة المسيحية فى افريقيا

وفضلا عن ذلك ، فان هيبو قد اعتنقت المسيحية ، وكانت موطنا لاهم الكنائس المذهبية (المدافعة عن مذهب ما) فى مستهل القرن الخامس الميلادى بفضل ابن هيبو الشهير القديس أوغسطين ٠

فما هو الدور الذى مثلته هذه المدينة فى الصراع الدينى الذى نشب بين الحركة الدوناتوسية والكاثوليكية فى افريقيا ؟ ٠

بيد أن هذا الموضوع خارج عن نطاق هذا البحث الضيق غير أن ابراز العوامل الاجتماعية والوطنية من هذا الصراع أمر ضرورى ، لان هيبون كانت طرفا فى النزاع ٠

لقد كانت الدوناتوسية حركة دينية اصلاحية فى مظهرها ، غير أن جوهرها كان تعبيرا عن رفض الطبقات الاجتماعية المسحوقة لذلك الظلم الاجتماعى المسلط عليها فى ظل دولة مستبدة تستخدم الديانة للمحافظة على الاوضاع السيئة ، فالدوناتوسية (وهى قرطاجية النشأة ونوميدية الانتشار) لم تكن سوى ثورة اجتماعية ريفية ضد

---

(13) فى الموضوع رسالة جامعية للباحث ، تحت عنوان « سياسة الرومنة فى بلاد المغرب » بها تحليل مناسب يمكن الرجوع اليه ٠

(14) أنظر : السعيد دحمانى ، المصدر السابق ، الصفحات الخاصة بالصور الاثرية ٠

الاوضاع المتردية آنذاك (15) • وخاصة تلك التى نجمت عن الاجراءات الاقتصادية والقضائية المتخذة من طرف الامبراطور بخصوص المزارعين •

ويتجلى الطابع الثورى لهذه الحركة فى تحالفها مع حركة الثوار المعروفين بالدوارين حيث تحولت الدوناسة الى ثورة عامة هددت المدن التى اعتصم بها الارستقراطيون ومنها هيبو نفسها •

ان جهود أوغسطين تدخل حسب هذه الاعتبارات ، ضمن جهود السلطة الحاكمة ضد الثوار النوميديين « الخوارج » المطالبين بالعدالة الاجتماعية طبقا لروح المبادىء المسيحية ، ذلك ان أوغسطين قد اعتبر منقذا ، ليس فحسب ، للكنيسة الافريقية من خطر الانشقاق وانما أنقذ الحضارة الاغريقية ـ الرومانية كذلك •

وكان حلفاء أوغسطين بطبيعة الحال من ذوى الامتيازات الاجتماعية والمصالح الاقتصادية والنفوذ السياسى ، وهم من العناصر الرومانية الاصل ، أو من النوميدية « المرومنة » ـ « لقد شعر الجميع بأن الرومنة فى خطر » • (16)

ان هذا الصراع الدينى الذى ارتبط تاريخه بمدينة هيبو يعبر ، من جهة أخرى ، على أن مجتمع المدن الكبرى قد تأثر بالحضارة الرومانية ، بحيث أن مصالح الحضر ارتبطت بمصالح الحكام الاجانب ، وان ثورة الريف تشكل تهديدا صريحا لتلك المصالح المشتركة، الامر الذى قوى من جبهة مجتمع المدن ضد ثورة الريفيين ، وهكذا يكون الصراع المذهبى فى افريقيا وجها من أوجه الصراع الاجتماعى وثورة وطنية على الوجود الرومانى • لقد استهدفت هذه الحركة (الدوناتوسية) تحطيم عقلية الامتياز التى كانت تسيطر على أصحاب المذهب المحافظ • وفصل الدين عن السلطة التى كانت تستخدمه لخنق أنفاس الحرية •

هيبون تتحدى الوندال

ان هيبو الفنيقية الغرس ، البونية الترعرع ، النوميدية الشهرة أصبحت فى أواخر الحكم الرومانى حصنا منيعا لاكبر مذاهب الديانة المسيحية ، مدافعة عن وجهة نظر

(15) راجع مقال لويس ليشى ، السابق الذكر ، وكذلك جوليان ، تاريخ شمال افريقيا ج ، 1 • الفصل الخاص بالحركة الدوناتوسية وحركة الدوارين •
(16) راجع مقال لويس ليشى السالف الذكر ، ص 58 •

الدولة الرومانية فى موضوع الصراع المذهبى بافريقيا • فليس غريبا اذا توجهت نحوها الانظار من بعيد ، وكانت هدفا لاعداء الامبراطورية الرومانية ، وهم الوندال •

وبرهنت هيبو عن اخلاصها لمبادئها بدفاعها المستميت ضد الغزو الوندالى الذى اجتاح الولايات الرومانية الافريقية بقيادة جنسريق ، ولم يتمكن هذا من اجتياز أسوار هيبو الا بعد أن فقد أهلها الامل فى فك الحصار المضروب عليهم مدة تزيد عن سنة ، سقط فى مستهلها الزعيم الروحى للمدينة القديس أوغسطين (28 أوت 430 م) •

ونظرا لاهمية المدينة اتخذها الفاتح جنسريق عاصمة لافريقيا الوندالية بكاملها مدة تسع سنوات (431 ـ 439 م) ، ثم نقل الوندال مقر ادارتهم منها الى قرطاجة •

نهاية هيبون

انطفأت شعلة هيبو بعد هذه الاحداث المصيرية ، وخفت سناها فى عالم افريقيا ، وتحولت عنها الانظار تدريجيا • كما لفها سكوت حال دون تتبع تاريخها مفصلا خلال الفترة الفاصلة ما بين العهد الوندالى والفتح الاسلامى • غير انه يبدو أنها ظلت احدى المعاقل الهامة للروم البيزنطيين ، بدليل رواية ابن خلدون حول تحصن شرذمة من الروم والفرنجة بها بعد فرارهم من جيش حسان بن النعمان (17) غير أن «بونة» التى ذكرها ابن خلدون هنا وغيره من الكتاب العرب كابن حوقل والبكرى والنويرى ليست هى هيبو القديمة ، لان هذه قد تهدمت فى ظروف غامضة قد تكون بسبب فيضانات وادى سيبوس الذى أخذ يغير مجراه تدريجيا مجتاحا مبانى المدينة • (18)

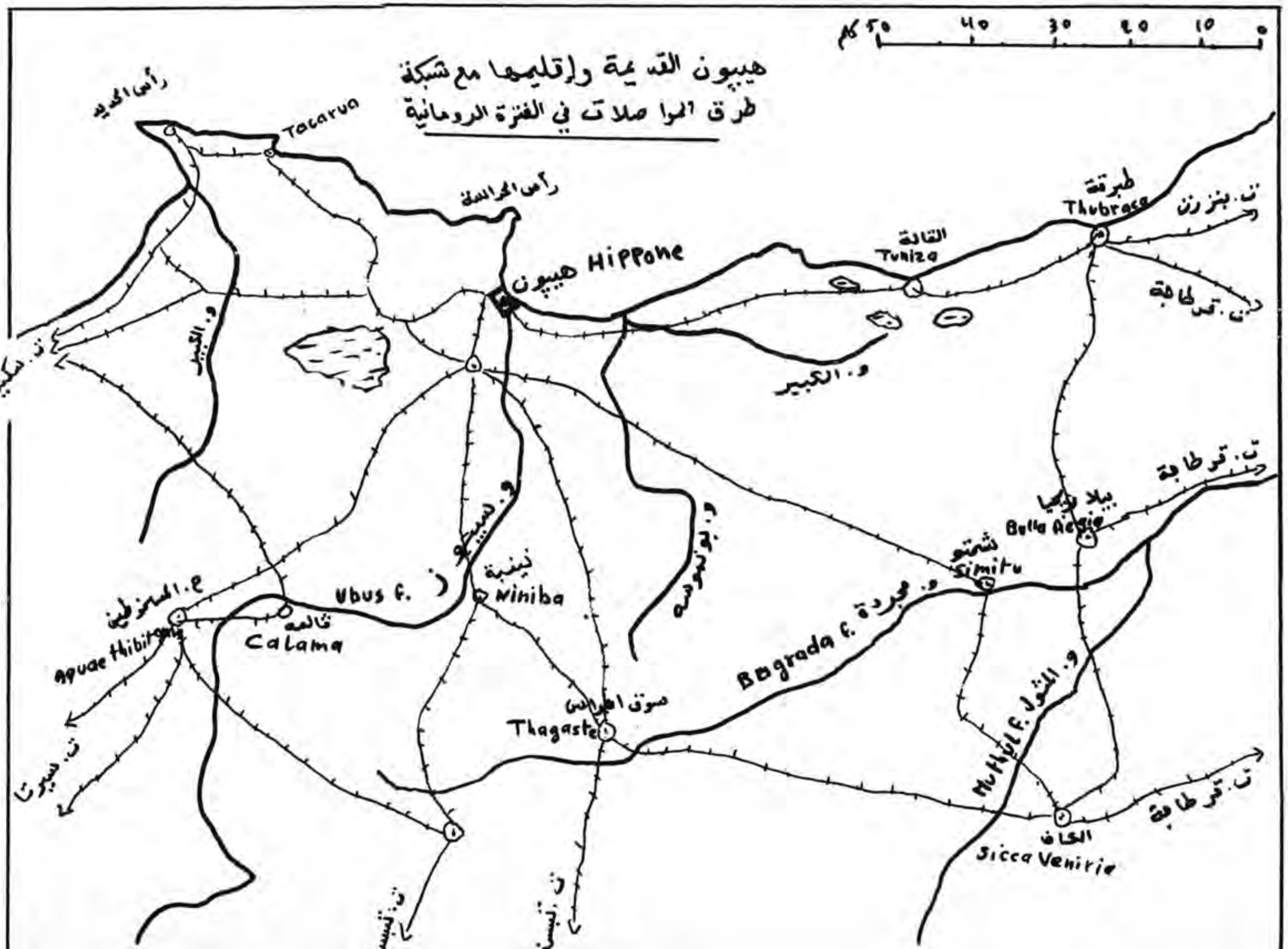
وبونة الحديثة التى ذكرها ابن خلدون وغيره قد تعرضت هى الاخرى للهدم لاسباب مجهولة كذلك ، ويذكر ليون الافريقى ان ذلك تم فى عهد العثمانيين (19) •

---

(17) أنظر : ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 4 ، ص 401 ، منشورات دار الكتاب اللبنانى 1958 •

(18) راجع : قزيل ، الاطلس ، ص 7 • ورقة 9 •

(19) أنظر : ليون الافريقى ، المصدر السابق • ص 369 •



هيبون القديمة وإقليمها مع شبكة
طرق المواصلات في الفترة الرومانية
٥٠ كم
رأس الحديد
Tacarua
رأس الحراسة
هيبون Hippone
القالة
Tunizo
طبرقة
Thubraca
ت. بنزرت
ت. قرطاجة
و. الكبير
ت. سكيكدة
و. سيبوس
و. بوجموسة
بيلا ريجيا
Bulla Regia
شمتو
Simitu
و. مجردة
Bagrada F.
نيفنية
Niniba
Ubus F.
ع. السخونة
Aquae Thibilitanae
قالمة
Calama
سوق أهراس
Thagaste
و. الملاق
Muthul F.
الكاف
Sicca Veneria
ت. تبسة
ت. سيرتا

وخلاصة القول ان هيبون تضرب بجذورها بعيدا فى أعماق تاريخ نوميديا القديم ، حيث كانت احدى المراكز الهامة لاشعاع الحضارة السامية على المجتمع المغربى القديم ، وأهلتها امكانياتها الاقتصادية كى تبلغ منزلة مرموقة من النمو والازدهار ، ابتـــداء من العهد الوطنى النوميدى ، لكن طوفان « الرومنة العاتى » قد صبغ هيبو ريجيوس بلون الحضارة اللاتينية ، ثم رفع القديس أوغسطين شهرة المدينة الى المستوى العالمى أثناء الجدل المذهبى • غير أن هذا المجد المتلألىء قد داسته أقدام الوندال ، فهوت قيمة هيبـــو ريجيوس ، وانصرف عنها الاهتمام ، وان بقى المسيحيون يتباهون الى الآن بقراءة مؤلفات أوغسطين ، ذلك القديس الورع ، صاحب الحجة الدامغة ، والاسلوب الادبى الاخاذ •

عنابة قبل الاسلام

عثمان الكعاك
مؤرخ ـ تونس

العصر الاول البربرى :

البربر أمة عربية قحطانية حميرية جاءت المغرب فى عصور متقادمة مهاجرة من اليمن وأسست حضارة كبرى على ضفاف العرق الكبير (اسم نهر مطموس الآن) .

والبربر الذين بعنابة هم قبيلة كتامة المرابطة بجبال اليدوغ وبقبائل الحضرة أى الحضرة الفاطمية لانهم ناصروا الفاطميين ضد مخلد بن كيداد وانتصروا عليه بقلعة كتامة فوق قلعة بنى حماد ، وكتامة فى الشمال وقدالة فى الجنوب والجيتولى فى عهد الفنيقيين والرومان معناها الرعاة ومنها كلمة قدال المستعملة بالمغرب ومعناها المرعى ، ذلك لان هؤلاء رعاة بقر وبقارون بولاية عنابة ولا سيما بقالمة وبوشقوف وسوق أهراس ورعاة غنم «شاوية» بالنجاد العليا .

ولهؤلاء البربر حضارة سابقة للحضارة المصرية الفرعونية وأرفع منها فهم اخترعوا العجلة ذات الاشعة والدماغ (كوبيــو moyen) منذ فجر التاريخ وهم كتبوا بالحروف البزبرية (تيفيناغ) ، **هذه النقوش الصخرية الموجودة فى بلاد الهوقار بالجزائر وفى** جبال السوداء والتيبستى بليبيا ٠

وستستمر هذه الحضارة البربرية **بعنابة فى الحقبة الاستقلالية التى مرت بين سقوط** قرطاجنة البونيقية وانتصاب الرومان أى من سنة 208 ق م. مع الملك البربرى غـــالا **الى سنة 25 ق٠م٠ مع الملك الامبراطورى العالم الموسوعى الفنان يوبا الثانى ٠**

ثم ظهر البربر من جديد مع الفاطميين بقسنطينة وبعاصمتهم يدبس قرب قسنطينة وبميلة الى تاهـيرت ٠

ثم فى العهد الصنهاجى مع دولة زيرى ، ثم دولة زاوى بن زيرى المستقل **بعنابة فى القرن** الحادى عشر الميلادى **وويغلان من 1090 الى 1094** ، ثم أبو الفتوح سنة **1094** ، ثم فى العهد الحفصى مع أبى زكريا يحيى الى أن جاء الاتراك وسنتحدث عن كل ذلك حسب نسبة وروده الزمنى ٠

مصــادر البــربــر

ابن خلدون « ديوان العبر »

ع ــ ك/البربــر ٠

ع ــ ك/الموجز التاريخى العام للجزائر ٠

دائرة المعارف الاسلامية ٠

دائرة المعارف الايطالية ٠

ابن حــزم : جمهــرة الانساب ٠

العصر الثانى : الفينيقى ثم البونيقى ــ **القرن 9 قم ــ 146 قم** ٠

أسست عنابة كمدينة وكمرسى ذى شأن من طرف الفينيقيين الصوريين Tyrieuse الذين قدموا من لبنان بين القرن الثانى عشر قبل الميلاد والقرن التاسع ق م ، فأسسوا عنابة

كمرسى كبير لجرف منتوجات الشرق الجزائرى وتوزيعها على أقطار البحر المتوسط ، بدأوا أولا بالغابات التى جلبوا لها الاشجار من لبنان وهى الارز Cèdre ويسمى عند البربر بالبقنون والصنوبر وغيرهما مما هو صالح لبناء السفن، حيث جعلوا فى عنابة دار صناعة لانشاء السفن، ثم الحديد وهو موجود على مقربة من هناك بكثرة لصنع المسامير والمخاطيف وغير ذلك مما تحتاج اليه السفينة • وزرعوا البردى والقنب لصناعة قلوع السفن ، ولم يكن فى المغرب يومئذ من الاشجار الا الزيتون والتين فجلبوا التفاح والسفرجل والاجاص والرمان والعنب والخضر على أنواعها • فازدهرت البلاد • ثم صنع ماغون القرطاجنى موسوعة فلاحية الاولى من نوعها فى الدنيا فاستفاد منها البربر ، وعلموهم الصناعات التقليدية الجميلة من نجارة وحياكة للقطن والصوف والكتان وصباغة. وصوغ للحديد الى غير ذلك ، ولم يمتلكوا الارض ولا تعاطوا الصناعات ولا الفلاحة وحسبهم التجارة والملاحة• واستعملوا البربر فى الملاحة وصيد الاسماك وتصبيرها وتعليبها فى القصدير الذى كانوا يجلبونه من انكلترا التى كانت من أجل ذلك تسمى بالجزائر القصديرية فاستغنى البربر وبنوا المعالم الكبرى وعرفوا طريق الصحراء الى المحيط الاطلسى لان الفنيقيين جلبوا غراسة النخيل واحضروا الجمل ونظموا قوافل الصحراء الى السنغال وغيرها •

وتعلم البربر من الفنيقيين استعمال النقود وممارسة الانتخاب البلدى وانتخاب الجماعات التى تتألف منها الوحدات السياسية القبائلية أو المجموعات المحلية ــ وظهر لاول مرة ــ ان جانب الادب البربرى الشعبى أو المنقوشات على الصخور أو المكتوب على البردى الذى كان مزروعا ببحيرة فزارة وغيرها •

أما نظام الحكم فهو انتخابى : ينتخب شفطان للبلدية وينتخب مجلس شعبى ببونة لاول مرة فى التاريخ •

واخترع الفنيقيون الكتابة بالحروف الصوبنة لاول مرة فى التاريخ •

مصادر التاريخ البونيقى

الاستاذ أحمد توفيق المدنى : قرطاجنة فى أربعة عصور •

ع ـ ك/موجز التاريخ العام للجزائر ٠

ع ـ ك/ الادب البونيقى رحلة حتون ٠

رحلة عملقــون ٠

الموسوعة الفلاحية لماغون ٠

العصر الثالث البربري :

فيما بين سقوط قرطاجنة 146 قم. والاحتلال الروماني وفيه أسست الامبراطوريات البربرية الكبرى المستقلة من امبراطورية موريطانية الطانجيـــة (المغـــرب الاقصى) وامبراطورية موريطانية القيصرية وهى الجزائر الوسطى ، وامبراطورية نوميديا وهى شرق الجزائر وعاصمتها سيرتا أو قرطة أى قسنطينة وأهم مدينة ـ بل المدينة الام هى عنابة المعروفة يومئذ بـ (هبون) أى السوق بالبينيقية فقد كانت تجـــرف جميــع منتوجات نوميديا من الجبال الى السهول الى الصحارى من تمور وجلـــود وقمـــوح وخمور وزيوت ولحوم وأصواف وعسل وشمع وثمار وأخشاب ومعــادن ورخـــام الى غـير ذلــك ٠

قامت المملكة البربرية نحو ألف سنة تزيد قبل ظهور الاسلام بالغرب ٠ وكانت مملكة نوميديا ٠ ونوميديا هى ولاية قسنطينة بالمعنى الواسع للكلمة وتوالى على عنابـة

الملك سفاقس النوميديين الماساسيليين 204 ـ 146 قم » .

الملك أوسالقس 208 ٠

الملك كابوسا 208 ٠

الملك ميزينول 208 ٠

الملك ماسينسا 208 قم ـ 204 قم ٠

الملك سيفاقس النوميديين الماساسيليين 204 ـ 146 ق م .

ميسيبسا ملك النوميديين الماساسيليين 146 قم ـ 112 قم ٠

الملك اذربعل 118 ـ 112 ٠

الملك يوغرطا ، ملك نوميديا 112 ـ 106 قم ٠

الملك غـاودا ٠

هيامبسـال ٠

الملك يوبا الثانى ملك نوميديا 30 ـ 25 ق م ٠

كان في الحقيقة ملك موريطانيا القيصرية وعاصتمه شرشال وزوجه هى قليو فطرة سيلينى (الهلال) بنت قليو فطرة المصرية من زوجها انطونيوس ولكن ملكه كان ممتدا الى موريطانيا السطيفية ونوميديا ، فعنابة مشمولة ٠

هو ابن يوبا الاول ولد حوالى 52 ق٠م ، مات سنة 18 ب ٠ م ٠

وقبض عليه يوليوس قيصر فى معركة طبسوس (البقالطة قرب المهدية) ومثل فى استعراض انتصاره ، واهتم بتربيته حتى تخرج فى الآداب اللاطينيـــة والهلينيـــة وأقطعه أوكتافيوس مملكة فسيحة الارجاء فأسس قيصريـــة شرشـــال وزينها ببدائع المعمار اليونانى والرومانى وأسس بها معهدا عظيما للآداب والفنون والموسيقى والتمثيل٠ وألف دائرة معارف عجيبة وجغرافية مطولة لجزيرة العرب

مصادره : Stephane Gsell : A.N. dans l'Antiquité
Stephane Gsell : L'Algérie antique

رابعا العصر الرومانى 146 قم ـ 438 ب م ٠

انتصر الرومان على قرطاجنة البونيقية سنة 146 قم ٠ وأستولوا على المغرب وأسسوا الامبراطوريات البربرية كما مر ، وكان غرضهم من الاستيلاء الحصول على التموين من الخمور والزيوت والقموح والمواد الغذائية عامة لان ايطاليا جبال وليس لها الا حاشيتان للزراعة شرقية وغربية ولكنهما لا تكفيان ، فكان المغرب « العربى » هدى رومية ٠

وعنابة ومنطقتها غنية بأبقارها وأغنامها وسهولها المزروعة قمحا وشعيرا ومغارسها من أشجار على اختلافها ودواليها الممتازة بخمورها وزياتينها مع الهضاب التى تأتى بزيت ممتاز وبحارها ذات الاسماك الكثيرة الجيدة ، ولا ننسى المرجان ومعادن الحديـــد وغيرها ٠ لذلك ازدهرت ازدهارا كليا نراه فى جلال مبانيها بمدينة أوغوستينوس وهى المدينة الرومانية العجيبة بآثارها المدهشة وديارها التى من الفسيفساء مما يخلب الانظار

ومن النقوش الرخامية ما يوجب الاعجاب والادكار ومن التماثيل ما هو آية الله ومن المسارح وغيرها ما يتحدث به الناس قديما وحديثا ·

والعصر الروماني ليس فيه أى شيء للرومان بل وكل ما هناك هو من آثار الجزائريين العنابيين وغيرهم ممن ترمثوا ففاقوا الرومان فى لباسهم وحكامهم وآدابهم وحضارتهم ومعمارهم وعلومهم وفنونهم ـ منهم أبو ليوس المداورشى الذى كان محاميا عظيما وطبيبا ماهرا وأستاذا فى التشريح له مخبر عجيب وأستاذ فى القانون يدعى الى رومـــة فى القضايا المعقدة · هذا علاوة عما ألف من الكتب الروائية والتاريخية وغيرها ومنهـم فروشتوتوس البرقى ·

ومنهم فى عنابة بالذات القديس أوغستينوس Saint Augustin **المولود** بتاغاست (سوق اهراس) والذى كان أسقف عنابة وعظيم النصرانية ومؤسس الكثلكة علاوة عن كونه له دراسات خلقية وتربوية صالحة لكل زمان ومكان ·

أنظر عن الادب اللاطينى بالجزائر ·

(**تلخيصا**) **ع ـ ك** موجز التاريخ العام للجزائر ·

(تفصيـــلا) ·

Paul Monceaux : Les Africains.
Paul Monceaux : La littérature latine d'Afrique.

وعن الآثار الرومانية بعنابة أنظر :

Stephane Gsell : Atlas archéologique de l'Algérie.

وينقسم العصر الروماني الى عهدين :

العهد الاول « الوثنى » من 146 ق م الى القرن الاول قبل الميلاد ·

العهد الثانى « مسيحى » وفيـــه كثرت المذاهب فى **الجزائـــر عن الكاثوليكيـــة** والدوناتوسية والاوبتاتوسية شيعة القديس أوبتاتوس الميلى والاروسية التى أتى بها الوندال الى غير ذلك ·

العصر الخامس العهد الوندالى 438 ـ 538م ·

الوندال جنس برمانى جاء من آسيا فمر ببولونيا ثم بأوساط أوروبا ، **فغربهـــا باسبانيا** وانتهى الى شمال افريقيا ·

فاستولى جنسريق على بونة سنة 440م وقهر جليمار واستولى البيزنطيون سنة 536 ·

انظر عن الوندال ـ بالجزائر ع/ك موجز التاريخ العام للجزائر ·

الاستاذ أحمد توفيق المدنى : قرطاجنة فى عصور المعركة ·

Gauthie : Genserie roi des Vandales.
Schmidt : Les Vandales.
Larousse en 10 vol. — in vandales + bibliographie.
Courtois : bibliographie des Vandales.

العهد البزنطى أو الرومى

استولى البيزنطيون على الجزائر وبونة سنة 356 م ، واهتموا بتجهيز البلاد بالقلاع على عجل مخافة زحفة المسلمين ·

انظر عن هذا العصر :

Charles Diehl : l'Afrique byzantine.
Stephane Gsell : l'Algérie antique.

ع/ك موجز التاريخ العام للجزائر ·

وانتهى حكم البزنطيين بانتصار المسلمين سنة 27 هـ ، فى واقعة العبادلة السبعة على الطريق (جرجير بسبيطلة) ·

انظر كتب الفتوحات :

د· حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ·

محمد بن عبد الحكم : فتوح المغرب ·

ابن ناجى : معالم الايمان ـ ج الاول ·

البـــاب الثـــانى

(الفتـــح الاســـلامى)

فتحت عنابة سنة 51هـ · من طريق عقبة بن نافع الفهرى شهيد تاهودا التى هى سيدى عقبة قرب بسكرة وتعاقب عليها الولاة من القيروان وما جاء القرن الاول الا وقد اسلم كل سكانها وعرفوا العربية وحفظوا القرآن وضربوا بسهم مصيب فى الاسلام المغربى ·

وفى العصر الاغلبى ظهر بها علماء المعمار الاغلبى المبنى على الزليج والنقش العربى وأسس فيها الاغالبة الاسواق وبنوا سورها الاول واحدثوا مرساها ودار صناعة بها ·

أنظر عن عنابة الاغالبة : المقدسى أحسن التقاسيم ·

اليعقوبى : صفة بلاد المغرب ·

ابن حوقل : المسالك والممالك ·

1) العصر الاغلبى 186 ـ 298 هـ ·

حققت الدولة الاغلبية للشرق المغربى استقلالا داخليا واتمت فتحمالطة وصقلية(212) وسردانة (80هـ) وأسست بيت الحكمة جامعة للطب والصيدلة والهندسة والرياضيات والعلوم الدخيلة والترجمة وجلبت من الشرق البارود والكاغذ والطباعة الخشبية وأسست الاربطة ومنها رباط القالة لا يزال موجودا وعنابة (سيدى مروان) وسيدى ابراهيم (جبل يدوغ) ، وتاكوش ورأس الحمراء وغيرها وذلك للقيام بالمراسى البحرية وتأمين الطرق للمسافرين وايجاد مستشفيات للمرضى وديار بريد على طول طريق الحج من طنجة الى الاسكندرية ·

وجلبت المحامض (النارنج ـ الليم) فى المغرب والاندلس وأوروبا فانتشرت بعنابة بساتين سيبوس وزرعت الارز فى البحيرات وقصب السكر فى المسيلة فتغير وجه الاقتصاد وانتشر الخراسانيون الذين جاءوا من خراسان (ايران) مع الولاة من بنى المهلب ولا يزال منهم الديلم فى جهة المسيلة ومنهم بنو رستم الذين أسسوا دولة مستقلة غرب الجزائر هى دولة بنى رستم بمدينة تيهرت (تيارت) ولا تزال آثارهم بها من الجامع والحمام ومنازه الميناء وبستان السلطان · ووجود صقلية الاسلامية مع بنزرت أغلق الباب فى وجه الاسطول البزنطى فتنفست عنابة الصعداء واتسعت واستقرت امكانيتها كثغر أساسى لشرق الجزائر لنقل الخشب المصنوع وغير المصنوع والنارنج والارز وحرير قابس وبقر قالمة وقموح الولاية فازدهرت · وجلب الاغالبة من الشرق الزليج المؤتلق بالتحاف المعادن فدخل قصورها وجوامعها وانتشر النقش العربى الذى لا تزال آياته بمدينة سدراتة الاثرية قرب وارقلة (ورجلان) فدخل ذلك فى المعمار العنابى وبنيت الاسواق

ودار الصناعة الكبرى · وسهل وجود الكاغد والمطابع الخشبية والاربطة وانتشار التعليم والكتاب والتأليف ·

2) **العصر الفاطمى** 296 ـ 370 ·

جاء عبيد الله المهدى الشيعى ومعه عبد الله الصنعانى صاحب دعوته والقائم بتأسيس دولته وكان عمله على الخصوص لدى بربر كتامة (جبل اليدوغ) والقبائل الصغرى المعروفين بقبائل الحضرة أى الحضرة الفاطمية فأسس الصنعانى سور تبسة والقصر الفاطمى بها ولا يزال معظمهما الى الآن وأسسوا تديس بين قسنطينة وميلة كمركز للاصطياف ومعمل للفخار المطلى وضرب نقود الذهب ولا يزال كذلك ظاهرا الى الآن ·

وأسسوا بميلة فندق فرجون الذى لا يزال موجودا وقد سكنه المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين بالمغرب بعد انتصاره على الثائر صاحب الحمار مخلد بن كيداد النكارى وأسسوا بميلة جامعا فاطميا لا يزال موجودا قائم الذات جميل المخبر يبين لنا عظمة المعمار الفاطمى شرق الجزائر وأسسوا حمام ميلة البعيد عنها بعشرة كلم · والذى خصصه اليه المنصور ليستجم من العاف حرب صاحب الحمار ولا يزال موجودا ·

وأتخذوا عاصمتهم بالجبال التى تسمى الآن بنى عزيز قرب جميلة وأسسوا مدينة أميرية تسمى تغزوت على بعد 20 كلم،منها وكل هاته الآثار موجودة،وأسسوا قلعة كتامة فى جبال قلعة بنى حماد وفيها انتصر المنصور على مخلد بن كيداد النكارى · اما فى الجنوب الشرقى فأسسوا مدينة المسيلة وأوطنوها بنى حمدون الاندلسيين الذين بنوا فيها قصر السلطان ولا تزال أبوابه وسوره وآثاره قائمة فى المسيلة القديمة وكذلك الضواحى على سد وادى المسيلة ، وأسس الاغالبة رباط عنابة وهو سيدى مروان ورباط تكوش ورأس الحمراء والقالة وكل ذلك لا تزال آثاره قائمة فلما جاء الفاطميون عززوها ورمموا ما احتاج منها الى ترميم ·

انظر عن بونة الفاطمية : اتعاظ الحنفاء للمقريزى ·

ابن حماد : تاريخ العبيديين ·

ع/ك موجز التاريخ العام للجزائر ·

بونـة دائرة المعارف الاسلامية ·

بـونـة تاليف العلامة ابن أبى شنب ·

البكـــرى : المسالك والممالك ·

والعصر الفاطمى وهو عصر انتصاب أول خلافة مغربية فيها اشتراك أكيد بـين العرب والبربر وسيادة المغاربة على البحر المتوسط والصحراء والاطلس الغربى وفتح مصر وتأسيس الجامع الازهر والقاهرة وفتح الشام والهند وفتح غرب فرنسا وسويسرا وجزيرة اقريطش (Crête).

ع/ك ـ مسلك القاهرة ، أى أروع عصر للسيادة الادبية (ابن هانى بالمسيلـة) والسياسة المهدية تحكم من السينغال الى الهند ومن فرنسا الى ما تحت خط الاستواء والتعليمية (بيت الحكمة) بالقيروان جامع الزيتونة جامعة القرويين بالمغرب أسستها فاطمة أم البنين القروانية الجامع الازهر أسسه الفاتح الكبير جوهر الصقلى ، والسيادة الاقتصادية (الحرير الزعفران ، التوابل ، الانسجة وسيادة الجيش والثغور البحرية) ·

وفى هذا العصر انجبت بونة أبا مروان صاحب كتاب الموطا وشارح الصحاح ·

3 ـ عنابـة الحماديـة

فى العصر الصنهاجى 370 ـ 602

كانت عنابة أولا تابعة للملك البربرى زاوى بن زيرى ثم لابى الفتوح، ثم انقسمت الدولة الصنهاجية الى صنهاجيين فى المهدية وحماديين فى قلعة بنى حماد أولا ثم فى بجايـة فكانت عنابة تابعة للحماديين وتأثرت بحضارتهم العلمية والمعمارية (القباب الحماديـة الزليج الحمادى النقش الحمادى المعمار الحمادى والاقتصادى نظام ديوان البحر والمرسى فى القالة وعنابة ··· وربما فى جيجل وسكيكدة·وهو أن يكون المرسى لـه ··· سنبكة ويكون مسقوفا ومثاله مرسى بجاية الحمادى ومرسى القالة الى الآن ، وكانت القالة تسمى مرسى الخرز ، وهى مشهورة بالاسماك وبالمرجان وفيها جماعة من الاندلسيين لاصطياد المرجان وصباغته وبيعه ·

ولعل الدراسات العميقة تميط اللثام عن الآثار الحمادية فقد عثرنا عليها بتنس (باب المرسى) وبندرومة (الباب الداخلي للجامع) وهي موجودة بصقلية · ومن امراء البربر الحماديين المستقلين بعنابة :

الامير زاوي بن زيري بن مناد ، أبو بولوغين باني الجزائر ومليانة والمدية · **ويغـــلان 1090 ـ 1094**

أبو الفتوح يوسف بن بولوغين 1094 (سبعة أشهر) ·

الحارث بن المنصور الصنهاجي **1148 ـ 1152** ·

عبد المؤمن بن على الكومي التاجري **1152** ·

رجوع الحارث بن المنصور مع الصقليين **1152 ـ 1157** ·

4 ـ العصر الموحدي الحفصي 1206 ـ 1537 ·

استولى الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن على الكومي الجزائري التاجري (مـن بلـدة تاجرة قرب هنين بغرب الجزائر) على المغرب والجزائر وتونس وليبيا ووحدوا المغرب بعد القضاء على دولة المرابطين في المغرب وذيولهم بني غانية بالجزائر وتونس ودولة بني حماد ببجاية ودولة صنهاجة بالمهدية دول الطوائف المنتشرة هنا وهناك ·

وانتصبت بتونس دولة الموحدين أولا وتفرعت عنها دولة بني حفص ، سلطانها أمير المؤمنين بتونس واحد أفراد العائلة بقسنطينة وآخر ببجاية وأمير صغير بعنابة ·

وكانت بونة تقع أحيانا بأيدي الميورقي لا سيما عند ما استولى على المهدية فلم يبق له بافريقية منازع وحصلت تحت بيعته طرابلس وقابس وصفاقس وبلاد الجريد ··· ووصلت بيعته بونة · ومن ولاة الموحدين على بونة أبو العلاء الموحدي أولاه أبو زكريا الحفصي على بونة ، وكان أديبا شاعرا فحلا ·

وعبد المؤمن بن على **1152** ·

ابن غانية (المرابطي) **1209** ·

أبو يحيى زكرياء بن اسحاق الميورقي **1235** ·

أبو على بن عيسى بن الشيخ أبي الحفص **1292** ·

أبو محمد صالح بن مبرور ـ مولى أوروبى 1316 ·

أبو العباس الفضل 1350 ·

أبو زيد عبد الرحمن 1357 ·

أبو عبد الله بن زكرياء 1360 ·

أبو عمرو عثمان 1439 ·

أبو عبد الله محمد المسعود

5 ـ العهد التركى 1534 ـ 1830 ·

جاء الاتراك فى القرن السادس عشر لافتكاك **ليبيا وتونس والجزائر من أيدى الاسبان،** وأول من افتتك عنابة هو خير الدين 1534 ـ 1535 ··· ثم وقع استيلاء اسبانى ثان كان كما يــــلى :

ضــــون الفار قومس الزغل 1335 ـ 1540 · Don Alvar Gomez el Zagal

القبطان بطرو قودينيز دى آزيفيدو 1540 · Capitano Pedro Godinez de Azevedo

ثم رجع خير الدين واستصفى الاحتلال الاسبانى مرة نهائية ·

ثم تعاقب الولاة على عنابة من طرف بايات قسنطينة منهم :

القائـد أحمد شلبى 1725 ·

القائد الحاج حسن 1783 ـ 1786 ·

الحاج عمار بن زاغوطة 1830 ـ 1831 ·

والعصر التركى هو عصر ظهر فيه المعمار التركى فى الجوامع (جامع الباى) وفى الثكنات والاسوار والاسواق والديار وما أشبه ذلك من التأثر بالمعمار الاندلسى الآتى مع مهاجرة الاندلسيين بعد سقوط غرناطة واجلاء فيليب الثالث ملك اسبانيا البقية الباقية من الاندلسيين الى المغرب والجزائر وتونس وليبيا وتعزز الاسطول العنابى بمن توالى عليه من الرياس والقبودانات وانتشر المذهب الحنفى الى جانب المذهب المالكى ، والقــاضى

الحنفى الى جانب القاضى المالكى ، وانتصر جنود (الينيشرية) Janissaires والطريقة المولوية (طريقة جلال الدين) الرومى تلميذ محى الدين بن عربى وصاحب المثنوى ومؤسسة المولوية أو طريقة الدراويش اللفافين (Derviches fourneus).

وازدهر الاقتصاد العنابى بظهور الطماطم والفلفل والبطاطة والهند (التين الشوكى) والاشجار المثمرة . وبنيت القصور فى عنابة والابراج فى الضيعات ، لان الاتراك جلبوا معهم الوجق وهو الحرس المتجول الحامل لكلاب الشرطة والمتجول فى عربات اعدت لها الطرقات والجسور فاستتب الامن ، وأقبل الاندلسيون بأساليبهم الفلاحية الجديدة .

وفى هذا العصر انتشر شرب القهوة وتعددت المقاهى وجاء لعب الورق من الاندلس وعمت الالعاب التركية أو الافرنجية كالدومينو والشاشباش والطاولة والشطرنج وغيرها . وعم اللباس التركى المعروف بلباس الرنلووط المطرز بالذهب ودخلت كثير من الكلمات التركية فى لغة عنابة اليومية والبحرية .

6) بونة على عهد الاسبان « 922هـ ـ 946» (1516م ـ 1540) .

استولى الاسبان على بونة سنة 1516 ، ثم أخرجهم منها خير الدين سنة 1540 . وما خرجوا الا بعد ما نهبوا كل شيء حتى الرخام والزليج من الجدران والتحف والارحية الصغيرة والكبيرة والاثاث والرياش والاقمشة وكل مرتخص وغال ، فكان النهب شاملا عند دخولهم وشاملا عند خروجهم .

ثم نزل عقاب الله فما أخذوه من الاقوات ـ أقوات سكان البلاد ادركه الفساد فكل من أكل منه اما مات بعد عذاب شديد أو بقى مريضا لا أمل له فى الحياة .

وغادر الاسبانيون عنابة مغادرة انكسار واذلال وهوان .

انظر تفاصيل الحوادث فى Maistref : Histoire de Bône militaire.

وكاد الجنود الاسبانيون يدخلون فى الاسلام عن بكرة أبيهم فرارا من الجوع والعطش لكن ضباطهم سارعوا بنقلهم الى السفن الشواحن وقائد الحملة ضون الفارعندما رأى كارثته الكبرى اختنق بخزامه وأصبح ميتا .

فأمر شرلكان اجلاء بونة ودمر الاسبانيون ابراج المدينة وقصبتها • وســـارع الاتراك لحينهم بالاستيلاء على المدينة واعادة تحصيناتها وتنصيب حاميتها • ولم يكـــن الاسبان ببجاية أسعد حظا ، فان الحامية استسلمت أمام بسالة الاتراك ، وقطع الاسبان رأس قائد الحملة بيريكتا لانه لم يستطع أن يموت وسيفه فى يده • وفى يوم 13 سبتمبر 1571 سقطت تونس بدورها وانتهت مهزلة شارلكان الامبراطور المغرور وذهب جيشه الذى لا يغلب Invincible armada ادراج الرياح والامر كله لله أولا وأخيرا •

7) عنابـــة الاندلسيـــة

فتح طارق بن زياد الاندلس سنة 92 هـ ، واستقر بها المسلمون وزادت قدمهم رسوخا بها عند انتصاب الدولة الاموية وانتقال عبد الرحمن الداخل من دمشق الى قرطبة •

منذ ذلك الحين عرف الاندلسيون طريق الشرق من جديد بسبب الحج وطلب العلم وفيما يخص طريق عنابة بصورة خاصة ، وعلاوة عن الحج وطلب العلم للتجارة وصيد الاسماك واقتلاع المرجان ، فكانت جالية بعنابة وأخرى بالقالة •

على ان مرابط عنابة وعالمها سيدى مروان هو وليد قرطبة وأصيلها ، وزاوى كـــان أميرا بالاندلس ، قبل أن يصير أميرا بعنابة وكذلك أبو زكرياء يحيى الحفصى •

وكلما سقطت مدينة هاجر أهلها الى المغرب اشبيلية بطرنة مالقة بلنسية فى القرن الثالث عشر ، غرناطة فى القرن الخامس عشر ، وبقية الاندلسيين عندما اجلاهم فليب الثالث سنة 1017هـ/1611م •

ومن أشهر هؤلاء الاندلسيين مصطفى القرنبالى المعروف بمصطفى كرداناس الذى كان منتصبا بقرنبالية بتونس وقد بنى المدينة وزينها وغرس بساتينها ثم لما ضايقه على باى المرادى هاجر الى عنابة واستقر بها وبنى بها قصرا وغرس فى مزارعها 30.000 عـــود زيتـــــون •

جاء فى كتاب الاستاذ الاسبالدا الاسبانى عن هجرة المريشكو الى المغرب « ومن جملة المريشكو فأكثر الاجناس ذكرا لدى المؤرخين المحليين هم الغرناطيون فقد ذكر البحاثة روفى : ان ألف غرناطى رجالا ونساء وأطفالا أجروا سفينتين باشبيلية مـــن سفـن

الفلمنك (الهولانديين)، فغرقت احدى السفينتين ، وحاول من نجا من ركابها الالتحاق بمرسيليا حيث كانت المستشفيات مملوءة بالناس وكذلك محــلات التمريض وكان يموت منهم فى كل يوم جماعة والناس يخشون اندلاع وافدة الوباء فاكترت مدينـــة مرسيليا سفنا ونقلت من بقى من الغرناطيين الى عنابة وطبرقة وغيرهما عن ثغـــور المغـــرب الشرقـــى • اهـ ص (94) وذكــــر فى ص 123 ان أهــــل عنــــابـــة كانـــوا فى الاول يذهبـــون الى الانـــدلس • ولـما انتصـب مصطفـى كردنـــاس بعنـــابة أخـــذ يـــزرع الزياتـــين ويتـــولى فـــديـــة المسلمـين المأســـورين عند النصارى فقنصلية فرنسا بتونس تحتوى على 30 وثيقة متعلقة بمصطفى كردناس منها 27 تتعلق بالفدية ، وكان يتولى التجارة مع أوروبا كبيع السكر المغربى وبذور الكتان والاتجار فى الشواشى •

كان بعاصمة الجزائر سوق للشواشى، وكانت بغرب العاصمة الجزائرية عائلة بوناتيرو ولا تزال ومعناها القلانسى بالفرنسية Bonnetier وبالاسبانية Bonnetero أى الشواشى فلعله كان يصنعها • لكن معظم أسواق صناعة الشاشية (400 سوق) كانت بمدينة تونس ، وكان مصطفى كردناس شيخ الاندلس وله معرفة جيدة بالأساليب الزراعية التقنية فوقعت بسبب هجرة الاندلسيين نهضة علمية وأدبية كبرى ونهضة اقتصادية واجتماعية شاملة وانبعاث معمارى عديم النظير ، وساعد على ذلك وجود مرسى عنابة الذى كان مصرفا وادارة توزيع لهذا الانتاج الجيد الجميل •

مصـــادر البحـــث :

مناقب أبى الغيث القشاشى، وهو الذى اقتبل الاندلسيين وافتدى أسراهم وهو أفضل من Saint Vincent de Paul الذى كانت صناعته افتداء الاسرى النصارى (مخطوط دار الكتب الوطنية) وكتاب المناقب المتعلق به هو من تاليف المنتصر بن المرابط بن يحيى القفصى •

8) بونة والغزو الفرنسى

ملحمة بونة طويلة واليمة ودامية ومحزنة تكون مأساة تذرف الدموع لقراءتهـــا وتنقبض النفس ويتذكر القلب واننا نجدها فى

Maistref : Bône militaire, p. 173 - 425.

Bugeaud : Correspondance de Bugeaud. Larousse en dix volumes - « Bône » + Bibliographie.
E N E de l'Islam - Bône et Annaba + Bibliographie.

وابن بونة فى هذه الظروف الذى دافع عنها هو الشيخ محمد بن محمود العنابى الذى درسه الدكتور سعد الله دراسة وافية شافية علمية فى العدد الاخير من مجلـــة الاصـــالـة ·

البـــاب الثـــالث
وصف بونة عند الغزو الفرنسى

تفيدنا الكتب الفرنسية المعاصرة للغزوين تشريح مدينة بونة ··· فهى تعطينا صورة واضحة عن المدينة وتشرح ذلك بخرائط معاصرة ونحن نتولى ذلك فى أبواب :

1 ـ حـارات المدينـة :

تتألف المدينة العربية من أزقة نافذة وغير نافذة متشعبة المسالك تؤول فى الغالب الى الاسواق التى تتوسطها وتحيط بالجامع الكبير ·

وتحمل هذه الحارات أسماء بعض المؤسسات، مثل حومة كوشة العصافرى،والعصافرى هو الذى يصطاد العصافير ويربيها ويبيعها، ولهؤلاء سوق فى تونس تسمى «العصافرية» قرب سيدى محرز ، والى جانبه سوق القفافصية أى الذين يصنعون القفافيص ويبيعونها واذ هناك اسم العصافرى فلا بد أنه كان هناك سوق العصافرية وبالتالى القفافصية أو القفاصـــين ·

وكثيرون من سكان عنابة من الاندلسيين الذين هم مغرومون بتربية الطيور المغنية والاستماع اليها تغنى فى اقفاصها ، والكوشة تمثل معلما جوهريا فى الحى وسمى عليها· ففى تونس ـ مثلا كوشة طاباق على اسم طاباق ـ داى من دايات تونس ، وهو حى أنيق من العاصمة والكوشة هى فرن عمومى لطهى الرغفان واللحوم المصلية والحلويات فى الاعياد والمواسم ·

والذى يتولى نقل الواح الخبز أو صوانى الحلويات أو اطباق اللحوم اليها هو الطراح واللفظ بغدادى واندلسى فى الآن الواحد وبالتالى فهو مغربى شامل · وللطراحة أصول كمعرفة العلامات الخاصة لخبز كل عائلة وله رسوم عـــلى طهى الخبـــزة ونقلها وطهى

الاطباق والصوانى ويأخذ جزءا من الحلويات واللحوم وممن سمى الطراح أبو سلامة كان حيا سنة 720 ·

كان نحويا شرح قصيدة حازم القرطاجنى التونسى فى النحو فى مجلدة (انظـر السيوطى ـ بغية الوعاة ، ص 402 ـ وكوشة العصافرى بنهج سطاوالى ثم حومة سيدى عبرة أو حومة اليهود · وتسمى فى تونس حارة اليهـود وفى المغـرب مـلاح اليهود

2 ـ جوامـع عنابـة :

فى آخر القرن الثامن عشر الميلادى كانت توجد لعنابة 37 جامعا · لكن لكثيرا منها كان مهملا وفى حالة خراب لتهاون بعض الوكلاء الذين لا يستغلون أملاك الاوقاف المحبسة عليها ـ ونظرا لهاته الحالة أحضر باى قسنطينة صالح باى القاضى والمفتى واعيان عنابـة وسجلوا هذه الحالة فى عقد حرر بتاريخ ربيع الثانى 1193هـ (1779م) ، ويتبين من ذلك أن الجوامع الكبار المعتبرة ثلاثة ·

أولا ـ جامع سيدى مروان ـ الذى هو جامع رباط عنابة فى أعلى الجبل · وقد بنى الرباط فى القرن الثالث الهجرى على العهد الاغلبى ، وهو رباط عظيم ذو طيقان · وبه كان يرابط مروان عبد الملك الصالح الفقيه وكان يدرس هناك الفقه والحديث · وعندما جاء الفرنسيون حولوا الجامع الى مستشفى عسكرى ثم خلص منهم سنة 1943 ، واهتـم اهل عنابة باعادته وفرشه بفاخر الرياش واعادة الدروس اليه ـ وهو جميل وكبير ـ يشرف على المدينة والبحر ، وكانت به مكتبة كبرى احتفظ له الوقاء وقت الاحتـلال وجدر عليها ·

ثانيا ـ جامع الباى ـ وهو الجامع الحنفى وسمى أيضا الجامع الكبير والجامع الحنـفى والجامع الجديد تركى الطراز بديع الزخرف ـ بناه الامير صالح باى ـ باى قسنطينة ، وبالتالى باى عنابة (1775 ـ 1792) وكتب عليه فوق بابه الذى بنهج القاضى ما يلى :

لعمـرك بيـت اللـه للسر جامـع ... مشيد أركان ـ به النور ساطـع

بدت دونه زهـر الكواكب رفعـة ... به بونـة للسعد منهـا مطالـع

به جـــاد تاج الدين والمجـد صالح　　الى درج العليـــاء راق وطـــالـــع
أمـير البرايـا زاد ظفـــرا ونصرة　　مؤيـد ديـن الحق للشرع تـابـــع
رفع أساس البيت الرفيع على الهدى　　فأرخه للخير « بركـة جامـــع »

ومجموع الحروف المتتالية للخير بركة جامع بحروف الجمل 1206 هجرية ـ 31 أغشت 1791 ـ 18 أغشت 1792 ٠

ثالثا : جامع الرمانات Mosquée des grenadiers اذ جرت العادة زرع رمانات أو نارنجات بصحون الجوامع للظل والزيادة فى الجمال ٠ كاد سنة 1830 أن يكون فى حالة خراب ، ولم يكن به يومئذ امام مثل سالفيه ٠

رابعا : وهناك أيضا جامع رابع سمى جامع الشبكة اضمحل وحلـــت محله زاوية سيدى عبد الرحمن الواقعة فى ركن نهج القديس أوغستينوس ونهج كستيليونى ، وبقى على وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ان تبحث عن الجوامع الاخرى حتى تتبين عظمة الحياة الدينية بهذه العاصمة الاسلامية الكبرى ٠

اســواق المدينـــة :

يصف لنا المقدسى (أحسن التقاسيم) واليعقوبى (صفة بلاد المغرب) وكلاهما من القرن الثالث الهجرى على عهد الرستميين بالجزائر والاغالبة بتونس ـ أسواق بونـــة ويلحق بهما أبو عبيد البكرى الذى يعتمد على ما ألفه محمد بن يوسف القيروانى الوراق الذى ألف عن كل مدينة ذات شأن بالمغرب كتابا منفردا ، فألف عن اخبار تيهرت ووهران وتنس وبونة وسجلماسة وغيرها ٠

ولد محمد بن يوسف سنة 292 ـ 904 وتوفى سنة 361 ـ 973 واذن فنحن دائـما فى نفس المدة ٠

ثم جاء ابن حوقل فى العصر الفاطمى ، وابن حوقل زار المغرب وقدم تقريرا وصفيا مستوفى فى وصفه ٠ وبذلك صار لنا وصف اسواق بونة فى القرن الرابع ٠ ونجد وصفا آخر فى القرن الخامس وهو للادريسى على عهد الحماديين وقد أقام مدة مطولة ببجاية ، يبحث عن النباتات ويجمعها ويصورها ٠ واذن فـ ـه لابد أن يكون قد زار بونة من أجل

جبل اليدوغ وما فيه من نباتات ، فوصفه يرجع بنا الى العهد الحمادى الذى هو عهد زاوى بن زيرى وأبنائه بمدينة بونة المستقلة يومئذ داخليا على الأقل • وفى العصر الحفصى (الزيانى بالجزائر) كان أمير حفصى يتولى أمر بونة • وقد وصفها لنا العمرى فى كتاب الاستبصار وصفا مفصلا ووصفها لنا القلقشندى فى الجزء الخامس من صبح الاعشى وصفا دقيقا • ووصف لنا محمد الوزان (ليون الافريقى) ابدع وصف ، ثم جاء مرمول الاسبانى فأكمل البقية • هذا علاوة عن رحلات ابن بطوطة وخالد البلوى والعبدرى وغيرهم •

اما عند الاستيلاء الفرنسى ، فالاسواق الموجودة هى الآتية :

أولا : خارج السور ـ يوجد سوقان :

ـ سوق الرحبة للحبوب •

ـ سوق المواشى للبقر والغنم وما يتبع •

ثانيا : الاسواق التى داخل المدينة حول الجامع الكبير ، الذى ربما كان فى مكان جامع البـــاى •

فهناك الاسواق الآتية :

1 ـ سوق الحوكة ـ ج ـ حائك ، وهو يقابل سوق البرانسية بتونس ـ كان يقع فى أعالى نهج لويس فيليب •

2 ـ سوق الحجامين ، وسمى الحجامين لا الحفافين ، كما هو اسم الحجام بالجزائر • بنهج القديس لويس سابقا ، ومثله يوجد بتونس فى الربض الاعلى •

3 ـ سوق الدزارين ـ الجزارين ـ يقع بنهج هليوبوليس •

4 ـ سوق النجارين •

5 ـ سوق الفخارين ـ بنهج الاهرام ـ الفخارين بتونس داخل السور والقلالين خـارجـه •

6 ـ **سوق العطارين** ، والمقصود به باعة العطور والروائح التى يحتاج اليها المصلى ـ لقول النبى صلى الله عليه وسلم : من ذهب منكم الى المسجد ـ فليتعطر وليتبخر ـ أو كما قال • لذلك كان سوق العطارين بتونس مستندا الى الجدار الشمالى من جامع الزيتونة

والى الآن بمدينة بالرم بصقلية لا يزال بعض الجوامع التى صارت كنائس تستند الى جدار يسمى Socco Lattarini Grandi سوق العطارين الكبار ·

أما سوق الطيبين بتونس فهو أمام صحن الجنائز بالزيتونة ، فلذلك فان ســـوق العطارين بعنابة لابد أنها كانت مستندة الى جدار الجامع الاعظم ، وهو الآن بالنهج الذى كان يسمى بنهج لابيرنار ·

7 ـ **سوق الجيارين** ـ أى سوق صانعى الجير وباعته ، وهو يقابل الجيارة بتونس فى الربص الاعلى يقع بنهج سولى Sollier مستندا الى باب قسنطينة فى الجنوب من المدينـــة ·

8 ـ **ســـوق الحدادين** ، وتقع غالبا بين آخر السور الداخلى وبداية الارباض لتكون بعيدة عن المساكن اتقاء نيرانها ودويها، وكانت تقع فى أسفل نهج لويس فيليب وراء دار Rancrozi ·

9 ـ **ســوق الخرازين** ـ أى الاساكفة ولعل المقصود هو البلاغين ـ أى صناع البلغة وكانوا يسمون فى تونس بلاغين ويسمون الآن بالغاجبة أو بالاغجبية على أن أســـواق الاحذية كثيرة،منها الشبارلية جمع شبرلة من اللاطينية كبرلة أى العنز الصغيرة أو الجدى الصغير لان جلدهما طيب جيدا فارفع الاحذية عند الاوروبيين تكون من Chevreau والشبرلة لباس رومانى مغربى للنساء أسود اللون عديم العقب · Mocassin

وهناك سوق اليمانى وهو أجمل الاحذية العربية معروفا فى كامل العالم الاسلامى وهو من الجلد الاحمر الرقيق ، وكانت سوق اليمانى بتونس وسوق الشبارلية بشارع القصبة بتونس الى ما بين الحربين العالميتين ·

والحذاء الاحمر يفدى ، يقول المصرى فى رجلى ولا فيك ياأحمر · ويقال بتونس فى ساقى ولا فى السباط ، وأتى الاتراك أيضا بالطماق وباشمق ، ولابد من أن الاسواق كانت موجودة فى بونة · والله أعلم ·

لكن مغازات الحذاء الاوروبى (الصباط) بالنسبة للرجال والايسكربين بالنسبـــة للنساء · قد غزت عنابة منذ الاحتلال الاسبانى وكذلك تونس والمغرب وبقية الجزائر ·

وسوق الخرازين لا تزال موجودة بالرباط وبفاس ومكناس وسلا · فلابد أن أسواق السلاح أمثال السرايرية والزنايدية والرماحين والسيافين قد كانت هناك ·

وكان جند الانكشارية Janissaire الاتراك يسكن قشلات ثلاث ، تسمى كل واحدة طبانة ، ومن تحريف طوبخانة التى تسمى فى تونس تربخانة ومعناها دار المدافع وبوجه عام دار السلاح وهذه الطبانات هى :

1 ـ طبانة القصبة وهى كانت فى موضع غرب المستشفى العسكرى متكئه على جامع سيدى مروان وهذا مفهوم لان سيدى مروان رباط يحتاج الى السلاح فى المقام الاول ٠

2 ـ **طبانة المقابر** أو برج القصارين نحو باب الخروبة ٠

3 ـ **طبانة القلعة** فوق باب البحر ، وهذا واضح ، وأيضا لان باب البحر ثغر ، والمثل يقول الباب المحلول تدخل منه الغولة والغول ، فيجب أن يكون السلاح هناك ٠

بقى أن نقول أن عنابة ثغر كبير على البحر الابيض المتوسط له صلات ومعاهدات تجارية مع البندقية وبيزه وجنوة ومرسيلية والاندلس والتجار النصارى يأتون اليه ببضاعتهم ولهم أسواق خاصة بهم فى البلدان الاخرى ، فأين هى أسواقهم بعنابة وأين كانت ؟ ثم نحن نعلم أن عنابة تنتج الشمع فلابد أنها تصنع الشموع فأين هى سوق الشماعين ؟ اذ لابد أن تكون قريبة من الجامع الاعظم ، لان الصلوات ثلاث ليلية واثنتان نهارية ـ والليلية تحتاج الى شمعة للطريق وشمعة للجامع ، وشمعة الطرق تحتاج الى سوق الفنارية لحمايتها من الرياح وهو يقع غالبا فى الجدار القبلى من الجامع الاعظم ، وأين هى سوق الكتبية ؟ لان الجامع مدرسة ومكتبة ، وأين هى سوق السلاح لكن هذه السوق سهلة التعيين ، فهناك أمام الجامع الكبير الذى هو جامع صالح باى ساحة تسمى ساحة السلاح ٠

بلديـــة عنابـــة :

جعل الفرنسيون من عنابة بلدية يوم 21 جانفى 1848 وتتالف الهيئة من رئيس بلدية ومساعدين وسمى لاكومين رئيسا يوم 28 من نفس الشهر ٠

وكانت ميزانية البلدية يومئذ 1٠458٠000 فرنك ـ وفى يوم 3 يوليو 1854 تألفت البلدية نهائيا ، فكانت تشمل رئيس البلدية ومساعدين يسميهما الامبراطور (يومئذ)

وعشرة مستشارين : ستة وستين واثنين من الاجانب ، و «اهلى» واحد ··· ما شاء الله· ياله من عمل صالح يرفعه الله الى أسفل !

وآخر « اهلى يهودى » يسمى مانوريك الضابط العسكرى سابقا رئيسا يوم 1854/12/23 وتولى مهام وظيفه يوم 16 فبراير 1855 منذ العهد الحفصى على الاقل ان لم يكن منذ العهد الاغلبى ويسمى فى مصر مختار وفى المغرب المقدم ، وكان المحرك موجودا من قديم فى عنابة الى أوائل الاحتلال الفرنسى ، وهو الذى كان يتولى ما ذكرنا · وأسمه المحرك أيضا ، ويسمى بالفرنسية Maitre et chef du cartier de cérémonie

ومن حارات عنابة ـ حومة بير جرادة ، وجرادة امرأة قسنطينية ، كانت هذه البئر على ملكها فوهبتها الى عنابة وربما كانت البئر المالحة التى يتحدث عنها البكرى ·

ويتولى تدبير شؤون الحومة رجل يسمى المحرك تابع لمشيخة المدينة ، له مكتب يتولى تلقى التصريح بالولادات والوفيات وتنظيم المواكب العائلية من ختان وحمل جهاز العروس وعشاء العرس وتنظيم جوقات الطرب ووضع الخباء على صحن الدار واستدعاء الناس وهو الذى يزود دار العرس بالكاس والطنافس وطاولة العشاء والصحون وقدور الطبخ ويزود الجامع بالمباخر والمرشات والبخور وقلال الشربات عند كتابة العقد بالجامع او بالزاوية ·

وهو يتولى تنظيم الجنائز والاعلام بالوفاة وجلب المغسل والنعش والقراءة والمثارد لطعام الفرق وغيره وحضور الدفن وقبر الميت ··· الخ · ومجموع المحركين تحت امرة الشيخ عليهم يسمى باش محرك ـ أى رئيس المحركين ، وكان المحرك موجودا بتونس ·

اما حارة اليهود فهى بنهج Belesaire et Damermort وهناك أيضا حومة العقبة ـ أى الصعدة ـ وهى تقع بنهج Vieille St Augustin ، وهناك حومة حمام القائد بنهج Royale ويوجد فى هذا الحى حمامات القائد التى هى على ملك عائلة أحمد بن الشيخ التى لها طراز معمارى غريب ·

والحمام مؤسسة دينية واجتماعية وصحية ضرورية فى الاسلام بسبب الصلاة التى تفرض الطهور الاكبر والطهور الاصغر ـ ولان النظافة من الايمان ـ ولكل حمام فرناق ـ

fornax - fournaiseويسمى فى المشرق مستوقدا تحشر اليه المزابل والحطـ، لاحماء الحمـام وتغلية النحاسة التى توزع الماء الحار على المستحمين والفرناق تشوشط به الاكـرع ورؤوس الاغنام لصناعة حساء الهرقمة فهذه مؤسسات اسلامية ضرورية فى كل حو اسلامى ·

البـــاب الــرابــع
فى بعض علماء بونـة

الوليـــد البـــونى :

هو الوليد بن أبان بن بونة البونى ثم الأصبهانى أبو العباس ·

مفسر : محدث حافظ ·

ارتحل رحلات كثيرة ، وحدث عن أحمد بن الفرات الرازى وطبقته ·

وعنه أبو الشيخ والطبرانى وغيرهما من أصل اصبهانى

توفى باصبهان سنة 922/310 ·

من آثاره : تفسير القرآن ، المسند المعلل فى الحديث ·

مصادره ــ أولا ــ المخطوط ·

أبو الشيخ طبقات المحدثين باصبهان 307 ــ 308 ·

ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ 12/3 ·

الذهبى سير النبلاء 212/9 ·

ثانيا ــ المطبوعة :

ابن الاثـير : اللباب 153/1 ·

ابن العماد : شذرات الذهب 261/2 ·

البغدادى : ايضاح المكنون 483/2 ·

كحالـة المؤلفين 163/13 ·

الذهبى : تذكرة الحفاظ 3/6 ·

مرآة الجنان 2/250 ·

الزركلى : الاعـلام 9/129 ·

البـــونى :

هو : العالم المجاهد المرابط الفقيه المحدث مروان بن محمد ـ وفى « الصلة » ابن على الاسدى الاندلسى البونى ـ المالكى ـ أبو عبد المالك ، أصله من قرطبة ·

روى بها عن : عبد الرحمن بن محمد بن فطيس وغيره ·

روى بالقيروان وطلب العلم بها عن : ابى الحسن القاسمى ، وأحمد بن نصر الداوودى، ثم استقر ببونة مدرسا ومرابطا وتوفى برباطه وبه قبره ·

روى عنه : حاتم بن محمد ·

توفى ببونة قبل 440/1048 ·

لــه كتاب كبير شرح فيه موطا مالك رضى الله عنه ·

مصـــادره :

ابن بشكوان ـ الصلة 557 ·

الحميــدى ـ جذوة المقتبس 321 ·

الضبى ـ بغية الملتمس 446 ·

ابن فرحون ـ الديباج المذهب 345 ·

البغدادى ـ ايضاح المكنون ·

البـــونى :

هو : محمد بن أحمد البونى (أبو المواهب) فاضل · له حزب النصر ·

تــوفى فى سنة 632/ 1235 ·

مصادره : البغدادى ، هدية العارفين 2/345 ·

سركيس : معجم المطبوعات 593 ٠

فهرس دار الكتب المصرية 3/320 ٠

كحالة المؤلفين 8/241 ٠

البــــونى :

هو أبو العباس أحمد بن على بن يوسف أبو العباس البونى ، عالم بسر الحـروف والعلوم الغيبية مغربى الاصل ، نسبته الى مدينة عناية التى كانت تسمى قديما بونـة وهى تقع بشرق الجزائر على شاطىء البحر المتوسط وسط جبال اليدوغ وغاباته ٠

توفى بالقاهرة سنة 622/1225 م ٠

تآليفه : شمس المعارف الكبرى فى علم سر الحرف والخواص ٠ ويسمى أيضا شمس المعارف ولطائف العوارف فى علم الحروف والخواص ٠ أربعة أجزاء من أجل « الكتـب فى الموضوع الخاص » ٠

رسالة فى شرح اسم الله الاعظم ط ٠ أولى وثانية ٠

مواقف الغايات فى اسرار الرياضيات ٠

فضل باسم الله الرحمن الرحيم ٠

مصـــــادره :

اسماعيل البغدادى ـ هدية العارفين 1/90 ٠

جامع كرمات الاولياء ٠

ابن العنـــابى

هو : محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائرى العنابى الحنفى الشهير بابن العنابى فقيه مقرىء مجود للقرآن عالم بالفنون العسكرية تولى افتاء الاسكندرية فى عهد محمد على خديوى مصر ٠

تــوفى بالاسكندرية سنة 1267/1851 ٠

تآليفه : السعي المحمود فى ترتيب العساكر والجنود ٠

التوفيق والتسديد فى شرح الفريد فى التجويد ·

مصـــادره :

البغدادى : هدية العارفين 2/378 ·

فهرسة الخديوية 1/94 ·

فهرسة التيمورية 2/64 ، 3/57 ·

البغدادى : ايضاح المكنون 2/118 ·

فهرسة الازهرية 1/321 ـ 322 ، 6/462 ·

كتبخانة خسروباشا ـ 6 ·

كحالة المؤلفين 12/5 ·

الزركـلى الاعـلام 7/311 ·

سركيس معجم المطبوعات 1720 ·

مخلوف : شجرة النور الزكية ·

وراجع خصوصا دراسة العلامة الدكتور سعد الله العدد الاخير من مجلة « الاصالة »

البـــونى

هو : أبو الحسن على بن عبد الله البونى الانصارى الشيخ الفقيه الوجيه السرى الفاضل العدل أبو الحسن على بن عبد الله الانصارى من أهل بونة ممن عرف بالدراية والعلم والامانة ، والحفظ والصيانة ، وكانت له وجاهة وناب عن القضاة بحضرة بجاية ، وكان ذلك لنهوضه فى الاحكام ومعرفته بوجوه الحلال والحرام ·

ولم يزل نبيه الذكر ، معروف القدر ، موصوفا بالخير ، وذلك بعد طول مدة من وفاته، وليس ذلك الا لوفور حظه فى وقته وشهرته رحمه الله وغفر له ·

عنابة
من الفتح الإسلامي إلى أواخر العهد الموحدي

د · رشيد بورويبة
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر

لا نعرف بالضبط متى افتتحت مدينة هيبون ، وهو اسم مدينة عنابة في العصور القديمة ، من طرف الجيوش الاسلامية ولنا فيما يخص تاريخها في عهد الفتح الاسلامي ، المعلومات التي أتانا بها ابن الاثير صاحب « الكامل في التاريخ » (1) ·

فقال ابن الاثير : وهو يحدثنا عن حسان بن النعمان « وخافه اهل افريقية خوفا شديدا ، ولجأ المنهزمون من الروم الى مدينة باجة فتحصنوا بها وتحصن البربر بمدينة بونة» ونعرف أيضا ان المسلمين عند وصولهم الى بونة ، وهو الاسم الذي كانت تحمله مدينة عنابة في العصور الوسطى ، نزلوا بالمدينة القديمة هيبون ·

وأقدم وصف لمدينة بونة نجده في « كتاب صورة الارض » لابن حوقل (2) · فجاء فيه : « ومدينة بونة مدينة مقدرة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ومقدارها في رقعتها

(1) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج · 2 ، ص : 32 ·
(2) ابن حوقل ، كتاب صورة الارض ، ج · 1 ، ص : 75 — 76 ·

كالاربس وهى على نحر البحر ولها أسواق حسنة ورخص موصوف وفواكه وبساتين قريبة وأكثر فواكهها من باديتها والقمح بها والشعير فى أكثر أوقاتها كما لا قدر له ، وبها معادن حديد كثيرة ويحمل منه الى الاقطار الغزير الكثير ويزرع بها الكتان ولهـا عامل قائم بنفسه ومعه من البربر عسكر لا يزول كالرابطة ومن تجارتها الغنم والصوف والماشية من الدواب وسائر الكراع وبها من العسل والخير والمير ما تزيد به على ما داناها من البلاد المجاورة لها وأكثر سوائمهم البقر ولها اقليم واسع وبادية وحوزة بها نتاج كثير وقل من بها تقوته الخيل السائمة للنتاج » ·

والمقدسى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى لا يخصص لبونة الا سطورا قليلة كان المدينة كانت فقدت من أهميتها · فقال : « وبونة بحرية مسورة بها معادن حديد ؛ شربهم من الآبار»(3) ·

وفى بداية القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى بنيت مـدينة جديدة بجانب المدينة القديمة وأخذت اسم « بونة الحديثة » وعلى قول ستيفان كسال (4) ، يمكن ان تاسيس المدينة الحديثة يرجع الى تغيير سيل نهر سبوس الذى فاض على جانب من مدينة هيبون القديمة والى تراكم الغرين الذى ابعد هذه المدينة من الساحل.واما البكرى (5) ، الذى ألف كتابه فى القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى فيذكر ان بونة كانت تحتوى على ثلاثة مواقع : بونة ومدينة سبوس أو مدينة زاوى وبـونة الحديثة · فقال : « ومدينة بونة مدينة أولية وهى مدينة افشتين العالم بدين النصرانية وهى على ساحل البحر فى نشز من الارض منيع مطل على مدينة سبوس وتسمى اليوم مدينة زاوى وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة اميال ولها مساجد وأسواق وحمام وهى ذات ثمر وزرع وقد سورت بونة الحديثة بعد الخمسين وأربعمائة · وفى بونة الحديثة بئر على ضفة البحر منقورة فى حجر صلد يسمى بئر النثرة منها يشرب أكثر أهلها وبغربى هذه المدينة ماء سائح يسقى بساتين وهو مستنزه حسن · ويطل على بونة جبل زغوغ وهو كثير الثلج

(3) المقدسى ، كتاب احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، اقليم المغرب ، ص : 18 ·
(4) ستيفان كسال ، مجموعة خرائط آثارية جزائرية ، ورقة 9 رقم 59 ·
(5) البكرى ، كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص : 54 — 55 ·

والبرد ومن العجائب ان فيه مسجدا لا ينزل عليه شيء من ذلك الثلج وان عم الجبل كله . ومدينة بونة برية وبحرية كثيرة اللحم واللبن والحوت والعسل وأكثر لحمانها البقـــر الا انها يصح بها السودان ويسقم البيضان وحول بونة قبائل كثيرة من البربر مصمودة واوربة وغيرها وأكثر تجارها اندلسيون ومستخلص بونة غير جباية بيت المال عشرون الف دينـــار».

ان المدينة الحديثة التي تحدث عنها البكرى بنيت على التل الذى يطل على المينـــاء وفي عهد بنى زيرى ازدهرت بونة ازدهارا كبيرا بفضل التجارة مع الاندلس والقرصنة في غربى البحر الابيض المتوسط • ان الغارات التي كان يقوم بها سكان بونة أدت الى رد فعل سكان بيزة الذين هجموا على بونة واحتلوها مدة في سنة 426 هـ/1034 م •

وفي المقال الذى خصصه كريستيان كورتوا (6) « للتجارة البحرية فى افريقيا فى القرن الحادى عشر الميلادى » (الخامس الهجرى) يلاحظ صاحب المقال ان سكان مـدينة بيزة اختاروا مدينة بونة كهدف لغاراتهم لان المسافة بونة ـ كاغلياري هى على وجه عملي أقصر مسافة موجودة بين افريقيا وسردينية وان المراكب كانت بطبيعة الحال تسلك هذا الطريق فى العصور القديمة وفى العصور الوسطى الاولى •

هكذا نرى ان بونة عرفت ازدهارا عظيما فى الميدان الاقتصادى فى العهد الزيرى • فعرفت أيضا ازدهارا هاما فى الميدان المعمارى • ومن المبانى التى شيدت بها فى هذه الفترة من تاريخها نذكر جامع سيدى ابى مروان الذى ما زال موجودا الى أيامنا هذه •

فيما يخص تاريخ تأسيس هذا المسجد قال جورج مارسى (7) ان عالم من علماء عنابة اعلمه بان مؤرخا من مؤرخى المدينة اسمه أحمد البونى ، كان ذكر فى كتاب عنـوانه : « الدرة المكنونة » ان تاريخ بناء جامع سيدى أبى مروان يرجع الى سنة 425 هـ/1033 م.

---

(6) كريستيان كورتوا ، ملاحظات عن التجارة البحرية فى افريقيا فى القرن الحـادى عشر (الميلادى) ، مجموعة مقالات فى التاريخ وعلم الآثار للمغــرب الاسلامى ، ج • 2 ، ص : 51 — 59 •

(7) جورج مارسى ، جامع سيدى أبى مروان بعنابة ، مجموعة مقـــالات لشرف ويليام مارسى ، ص : 234 •

فاخذ هذا المسجد اسم الشيخ سيدى أبى مروان الذى وصـــل الى بـونة فى سنة 1111/505 ودفن بحجرة موجودة بجانب المئذنة ٠ فكان جامع سيدى أبى مروان مـــا زال جميلا فى وقت الاحتلال الفرنسى كما نستطيع أن نراه عبر صـنوز ليسور ووايلد ورسوم بربروغر ٠ ولكن بعد الاحتلال الفرنسى حول جـــامع سيدى أبى مـروان الى مستشفى فى سنة 1841 وبنيت طبقة أولى فوق بيت الصلاة هذا مـا أدى الى تغييرات عديدة منها هدم القبتين اللتين كانتا تعلوان الاسكوب الاوسط لبيت الصــلاة وادخال صفين من السوارى فى دعائم ثمانية الاضلاع وعديمة الاناقة ٠

مع ذلك جامع سيدى أبى مروان الذى يعتبر أقدم مسجـد جزائرى وصـــل الينا ما زال جديرا بان نعتنى به كل الاعتناء (8) ٠

فيحتوى هذا المسجد الذى يبلغ طوله 36،50 م وعرضه 19،60 م على بيـت صـلاة طولها 19،60 م وعرضها 19،20 م وصحن تحيط بـه أروقة من جهـــاته الاربع ٠ ان بيت صلاة جامع سيدى أبى مروان مبنى على سوارى من الرخام مجلوبة من المبـــانى القديمة تعلوها تيجان قديمة أو اســلامية ٠ ان التيجان الاسلامية من أنواع مختلفة : تيجان ذات صف أو صفين من أوراق الاكنتس منها تحتوى على صفين من ثمانى أوراق ومنها مالها صفها العلوى مكون من أربع أوراق وصفها السفلى مكون من ثمانى أوراق ٠

وما يلاحظ فى بيت صلاة سيدى أبى مروان هو ان الاقواس كلها على شكل حـــدوة الفرس وترتكز على التيجان بواسطة ثلاثة عناصر معمارية ، الكتف والركيزة والطنف ٠ ووجود هذه العناصر الثـلاثة بين الاقـواس والتيجان يرجع الى ان السوارى المستعملة جلبت من مبانى قديمة ولم يكن ارتفاعها كافيا بالنسبة الى الجامع ٠

ولمحراب بيت الصلاة مشكاة نصف دائرية القعر تعلوها قبة نصفية فقدت زخرفتها كلها ٠ وعلى يمين ويسار المحراب نجد ساريتين موضوعتين على مقعد احداهما مـــزينة بتـاج اســلامى الشكـــل ٠

(8) انظر ، ر ٠ بورويبة ، الفن الاسلامى الدينى فى الجزائر ، القسم الاول الفن الزيرى والحمادى ، ص : 21 ــ 65 ٠

وكان لجامع سيدى ابى مروان وقت الاحتلال قبتان موضوعتان فى طرفى الاسكوب الاسكوب الاوسط العمودى لجدار المحراب ٠ فهدمت هتان القبتان ، كما ذكرناه فيما سبق ، عندما بنى الطابق الاول ، ولكن احتفظنا بصور تسمح لنا ان نتخيل عناصر القبة الموجودة فى ملتقى الاسكوب الاوسط لبيت الصلاة والرواق الجنوبى للصحن ٠ ان هذه القبة تتكون من الخارج من قاعدة مربعة يعلوها حزام اسطوانى الشكل ثم القبة بذاتها مزينة باخاديد تشكل معرجات ٠ فلم تجد زخرفة من هذا النوع الا فى بنائين مغربيين آخرين الا وهما : قبة جامع القرويين بفاس وقبة بين القهاوى بسوسة ٠ اما القبة من داخلها فترتكز على الجدار الذى يفصل بيت الصلاة عن الصحن من جهة الجنوب ومن جهة الشمال على مجموعتين من السوارى كل مجموعة كانت تحتوى على ثلاث سوارى ٠ فقدت المجموعتان من السوارى اللتان كانتا ترتكز عليهما قبة البهو أى القبة الموجودة فى ملتقى الاسكوب الاوسط ورواق الجنوبى للصحن ولكن احتفظنا بالمجموعتين اللتين كانت ترتكز عليهما القبة الموضوعة امام المحراب ٠ وفوق القاعدة المربعة ، المكونة من جدار بيت الصلاة وثلاثة اقواس مرتكزة على السوارى وجدار بيت الصلاة ، نجد أربعة عقود زوايا موضوعة كما يدل عليها اسمها فى الزوايا الاربع للقاعدة تسمح المرور من القاعدة المربعة الى الحزام الاسطوانى ٠ اما القبة فى ذاتها فكانت على ما يبدو مزينة باخاديد ٠

ولجامع سيدى أبى مروان مئذنة مبنية فى الزاوية الشمالية الشرقية للصحن بجانب ضريح سيدى أبى مروان ٠ وفى ايامنا هذه تشتمل هذه المئذنة على خمسة بروج موضوعة بعضها فوق بعض ٠ ان ارتفاع البرج الاول يساوى 17،50 م ٠ وطول ضلع قاعدته المربعة 4،6 م ٠ وينتهى هذا البرج بسطيحة محاطة بجدار تعلوه شرفات ٠ ونصعد الى هذه السطيحه بسلم عرضه 90 سم ، يدور حول نواة مركزية غير خاوية ويؤدى الى بيت صلاة صغيرة نرى فيها محرابا ذا مشكاة نصف دائرية القعر عرضها 76 سم ، وجوفها 62 سم ، وارتفاعها 2 م ٠ ومن الجدير بالذكر هو اننا لم نجد بيت صلاة من هذا النوع الا ببرج خلف بسوسة الذى يرجع تاريخه الى القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى والبرج الثانى للمئذنة يساوى ارتفاعه 4،50 م ٠ وضلع قاعدته 2،50 م ٠ وكل وجه من وجوهه الاربعة مزين بمشكاة مسطحة القعر على شكل قوس مكسورة ٠ اما البرج الثالث

فله شكل مضلع ثمانى الاضلاع ارتفاعه 2 م · فيعلوه بريجان احدهما اسطوانى الشكل والثانى على شكل مخروط ·

هذا هو شكل مئذنة جامع سيدى أبى مروان حاليا ومن بروجها الخمسة لم يرجع الى العهد الزيرى الا البرج السفلى ·

وفى أخير الدراسة التى خصصناها الى جامع سيدى أبى مروان نذكر ان اثناء الترميمات التى اجريت به فى السنين الماضية عثروا على عدة دنانير من الذهب يرجع عهدها الى الدولة المرابطية ·

فلنرجع الآن الى تاريخ مدينة بونة لنلاحظ ان الدولة الزيرية ضعفت كثيرا بعد وصول بنى هلال الى افريقية واصبحت لا تسيطر الا على مدينة المهدية وناحيتها · فاغتنم الامير الحمادى الناصر هذه الفرصة لاحتلال مدينة بونة وجميع الموانىء الموجودة بينها وبين تونس وفى عهد الامير الحمادى المنصور بن الناصر ثار بلبار عم المنصور بقسنطينة· فاغتنم هذه الفرصة قائد من قبيلة بنى هلال اسمه ابن مسعود ليحتل بونة التى كانت تابعة لولاية قسنطينة ·

فبعث المنصور أبا يكنى ليحارب بلبار ويتولى الامر بقسنطينة وبونة ولكن أبا يكنى، بعد ما تغلب على بلبار ، خان المنصور وعين أخاه ويجلان على رأس ناحية بونة وخضع للامير الزيرى تميم وسلم له مدينة بونة · فقبل تميم وبعث ابنه أبا الفتوح الى بونة ليتولى الامر بها ·

امام هذا الامر بعث المنصور جيشا لمحاربة أبى يكنى وحليفه أبى الفتوح وبعد حرب دامت سبعة أشهر احتل من جديد مدينة بونة ·

وفى عهد يحيى بن العزيز الامير الحمادى الاخير كانت بونة تحت سلطة أخيه الحارث· وبعد فتح بجاية من طرف الموحدين ، أراد يحيى بن العزيز ان يسافر الى المشرق عند الخليفة العباسى فغادر بجاية ونزل ببونة حيث لامه أخوه الحارث على تسليم عاصمته وطلب منه ان لا يسافر الى المشرق عند الخليفة العباسى ، ولكنه لم يقترح عليه البقاء ببونة · فاضطر يحيى الى السير الى قسنطينة حيث استقبله أخوه الحسن استقبالا حارا وتخلى عن منصبه لفائدته ·

وبعد ما فتح الموحدون بجاية وقلعة بنى حماد وقسنطينة لم يحاولوا ان يحتلـــوا بونة • ولذلك فى رجب 548/سبتمبر ـ أكتوبر 1153 ، استطاع الاسطول الصقلى الذى كان على رأسه فيلب المهدوى ان يفتح بونة فكان فيلب المهدوى مسلما من المهدية كما يدل عليه اسمه جحد الاسلام واعتنق المسيحية وفتح بونة بمساعدة بنى هـــلال • فنهبت بونة وأسر سكانها ما عدا عدد من العلماء سمح لهم فيلب المهدوى ان يلجأوا مع عائلتهم الى المدن المجاورة • وبعد ما قضى فيلب المهدوى اياما ببونة ، رجع الى صقليـــة واشهرا قليلة بعد ذلك قضت عليه محكمة كنائسية بالاعـــدام • فحـــرق فى رمضان 548/ديسمبر 1153 • وحسب ابن الاثير (9) قضى على فيلب المهدوى بالاعدام من جهـة لانه عامل سكان بونة بلطف مبالغ ومن جهة أخرى لانه كان بقى يتبع الشريعة الاسلامية سريـــا •

وبدون شك الوصف الذى اتانا به الادريسى لمدينة بونة يرجع الى هذا العهد فقال : « ومدينة بونة وسطى ليست بكبيرة ولا بالصغيرة ومقدارها فى رقعتها كالاربس وهى على نحر البحر وكانت لها اسواق حسنة وتجارة مقصودة وارباح موجودة وكان فيها كثير من الخشب موجود جيد الصفة ولها بساتين قليلة وشجر وبها من أنواع الفواكه ما يعم أهلها وأكثر فواكهها من باديتها والقمح والشعير فى أوقات الاصابات كما وصفنا كثير جدا وبها معادن حديد جيد ويزرع بأرضها الكتان والعسل بها موجود ممكن وكذلـــك السمن وأكثر سوائمهم البقر ولها اقاليم وأرض واسعة تغلبت العرب عليها وافتتحت بونة على يدى احد رجال الملك المعظم رجار فى سنة 548 وهى الآن فى ضعف وقلة عمارة وبها عامل من قبل الملك المعظم رجار من آل حماد وعلى مدينة بونة وبجنبيها جبل يدوغ وهو عالى الذروة سامى القمة وبه معادن الحديد التى ذكرناها آنفا » • (10)

واثنتى عشرة سنة بعد ما احتلها نورمانديو صقلية فتحها الموحدون • وفى حوالى سنة 1203/600 سقطت بونة بين يدى يحيى بن غانية • ولكن هذا الاحتلال لم يـــدم

(9) ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، ج9 ، ص 42 •
(10) الادريسى ، وصف افريقيا الشمالية والصحراوية ، ص : 85 ـ 86

ولم تلبث بونة ان خضعت للموحدين من جديد وبقيت تحت سلطتهم الى ان تأسست الدولة الحفصية ٠

هكذا كما رأيناه فيما سبق لعبت مدينة بونة دورا هاما ابتداء من العهد الزيـــرى وترجع اهميتها الى خصب أراضيها الصالحة فى نفس الوقت للزراعة ولتربية المواشى والى وجود معادن الحديد اجيد فى جبالها واخيرا الى انها ، بفضل مينائها ، مركز تجارى ذى حركة مستمرة ومثمرة ٠

عنابة في عهد الحفصيّين

د. عبد الحميد حاجيات
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر

لقد كانت عنابة ، مثل سائر مدن الشرق الجزائرى ، تابعة للدولة الحفصية، طوال فترة تمتد من القرن السابع الى العاشر للهجرة ، أى ما يزيد على ثلاثة قرون . ولذا ، فالتعرف على عنابة فى هذه المدة الطويلة ، يندرج فى اطار استعراض تاريخ الدولة الحفصية وما ينطوى عليه من أمجاد وانجازات وأحداث هامة . وبما أن حديثنا لا يمكن أن يتسع لكل هذا الاطار الزمانى ، فقد راينا أن نحصره فى النقاط التالية :

- قيام الدولة الحفصية ومكانتها الحقيقية فى تاريخ المغرب .
- عنابة أيام حركة السلطان أبى الحسن المرينى الى افريقية .
- انهيار الدولة الحفصية والتحاق عنابة بالايالة الجزائرية .

عنابة وقيام الدولة الحفصية :

عرفت عنابة قبل الحفصيين ازدهارا كبيرا · فكان موقعها فى مصب نهر سيبوس يسمح لها بالقيام بنشاط تجارى هام منذ عهد الفينيقيين · وحظيت بعناية الحكـــام فى الاسلام ، فحصنها الحماديون فى أواخر القرن الخامس الهجرى · ولم تسلم من خطر غارات النصارى ، فاحتلها النورمان سنة 549 هـ/1153 م ، وكان من أهم عوامل حركة الموحدين الى افريقية ، بقيادة عبد المؤمن ، تحريرها من سيطرة الغزاة النصارى ·

ثم تعرضت بلاد افريقية الى خطر آخر ، لا يقل فظاعة عن ذلك ، وهو ثورة بنى غانية، التى اندلعت سنة 580هـ ، فى بداية عهد يعقوب المنصور الموحدى ، ولم تنته الا بعد ذلك بنصف قرن · واستفحل أمر بنى غانية بشكل خاص حوالى سنة 599هـ ، فى عهد الناصر الموحدى ، حيث استولوا على معظم مدن افريقية ، وعاثوا فيها فسادا وتخريبا ، الى أن قدم الناصر بنفسه على رأس جيش جرار ، فانهزمت جموع بنى غانية ، ولاذت بالفرار الى الصحراء · (1)

وكان من نتائج هذه الثورة أن اضطر الناصر الى اسناد ولاية افريقية الى وزيره أبى محمد عبد الواحد بن الشيخ أبى حفص عمر الهنتاتى ، لما كان يلمس فيه من كفاءة وحزم ، وكلفه بمهمة صد خطر بنى غانية ، والقضاء على ثورتهم · ولم يتخل أبو محمد ابن أبى حفص عن مهامه الوزارية الا بصفة مؤقتة ، وبعد ان اشترط أن يلتحق بالمغرب الاقصى « بعد قضاء مهمات افريقية فى ثلاث سنين ··· وأن لا يتعقب عليه (الناصر) فى أموره فى تولية ولا عزل » ، وغير ذلك من الشروط (2) · وكان قبول الناصر لهذه الشروط عبارة عن تفويض السلطة كلها لابى محمد على بلاد افريقية ·

غير أن الشيخ أبا محمد لم يغادر افريقية بعد ثلاث سنوات ، كما جاء فى شروطه ، بل مكث فيها يدبر شؤونها الى أن توفى فى أول محرم سنة 618 هـ ، بعد أن أعاد الامن والطمأنينة الى البلاد · وبعد وفاته ، أسند الخليفة الموحدى المستنصر ولاية افريقيـــة الى عم أبيه السيد أبى العلاء ادريس بن يوسف بن عبد المومن ، فقدم الى افريقية وضبط أمورها · وعندئذ ، غادر يحيى بن غانية معتصمه بودان ، فى صحراء ليبيا ، وأغار على

(1) راجع : ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 ، ص 401 ·
(2) راجع : الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص18 ·

ناحية الجريد • فنهض اليه السيد أبو العلاء ، وقصد الى قابس ، وارسل ابنه فى أثـر الثـــوار •

وتابع ابن غانية غاراته ، فاقتحم بسكرة وخربها • ثم انصرف عنها لما أشرف عليها أبو زيد • وفى تلك الاثناء توفى أبو العلاء ، والى افريقية (شعبان 620 هـ) ، فخلفه ابنه أبو زيد فى منصبه ، ولكنه لم يلتحق بمقر ولايته بتونس ، بل تمادى فى أثـــر ابن غانية ، الى أن وقع اللقاء بين الفريقين قرب تونس ، فكانت الهزيمة على ابن غانيـة (محرم 621 هـ) وعاد الى الصحراء • وصرف أبو زيد عنايته لتنظيم شؤون البـلاد ، الا أن سيرته أغضبت أهل افريقية ، لسوء معاملته لهم ، وشدته ، وقسوته • فـــرأى العادل الموحدى أن يولى على افريقية أبا محمد عبد الله بن أبى محمـــد بن أبى حفص (سنة 623 هـ) • (3)

وكان أولاد شداد ، رؤساء قبيلة ولهاصة ، القاطنين آنذاك فى سهل عنابة ، قـــد جمعوا قومهم للقائه • فأوجس الوالى الجديد خيفة من تجمعهم ، وأرسل أخاه أبا زكرياء ، لحسم دائهم ، وللاشراف على خروج طبقات سكان افريقية للقائه • فقام بتلك المهمـة أحسن قيام ، ووصل أبو محمد عبد الله الى تونس فى ذى القعدة 623 هـ • (4) وعـين أخاه أبا زكرياء على قابس ، وأخاه أبا ابراهيم على توزر ونفطة ، معتمدا عليهما لســد الطريق فى وجه ابن غانية •

وفي سنة625 هـ ، انتقلت ولاية افريقية الى أبى زكرياء يحيى فى ظروف لا حاجـة للاطالة فى شرحها (5) • وأقام أبو زكرياء الدعـــوة فى أول الامر للخليفة المـــوحدى أبى العلاء ادريس المأمون • ولكن ، سرعان ما ظهر الشقاق فى صفوف الموحدين بمراكش وقام يحيى المعتصم ينافس ادريس المأمون فى العرش ، بتأييد من عدد كبير من أشيـاخ الموحدين • وعندئذ ، كان رد فعل المأمون غير منتظر وفى غاية الخطورة ، اذ اعلن ابطال الدعاء للمهدى فى الخطبة ، ونفى عصمته ، وأسقط اسمه من السكة ، وأمر بلعنه ، الى

(3) راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 106 •
(4) راجع : ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 ، ص 592 •
(5) راجع : ابن قنفذ، الفارسية، ص 107 ؛ الزركشى ، تاريخ الدولتين ص 22 ـ 23 •

غير ذلك مما أغضب كل من كان متمسكا بعقيدة الموحدين، ومن بينهم الاسرة الحفصية(6)٠ ووافق ذلك ان المأمون كان قد أرسل عمالا الى افريقية ، فصرفهم أبو زكرياء من حيث أتوا ، وأقام الدعوة ليحيى المعتصم (سنة 626 هـ) ، ثم ، عندما رأى أن المعتصم لم يتمكن من التغلب على ادريس المأمون وضعف شأنه ، أهمله ، وأمر بالاقتصار على الدعاء للمهدى ، محققا بذلك أول خطوة نحو الانفصال عن الاسرة المومنية (سنة 627 هـ) (7) .

وفى سنة 628 هـ ، توجه الامير أبو زكرياء الى قسنطينة ، فحاصرها أياما ، ثم استولى عليها صلحا ٠ ثم سار الى بجاية فاحتلها ٠ وبذلك اتسعت حدود ولايته ، وشملت سائر بلاد افريقية ، بما فيها ولاية عنابة ، وولاية قسنطينة وولاية بجاية ٠ ثم ، فى سنة 634 هـ ، أمر أن يذكر اسمه فى الخطبة بعد ذكر المهدى ، مقتصرا على لقب الامير ، وبويع بالخلافة ، الا انه لم يتخذ لقب أمير المؤمنين ٠ (8)

ونهض الامير أبو زكرياء ، سنة 636 هـ ، فى اتجاه المغرب الاوسط ، فسار الى بجاية، ومنها الى الجزائر ، فاستولى عليها ٠ ثم قصد الى ناحية شلف ، فأطاعته مغراوة ، ثم انتهى الى بلاد بنى توجين ، فحاربهم وهزم رئيسهم عبد القوى بن العباس ، وأسره ، وعاد الى تونس ٠ وفى أواخر سنة 639 هـ ، نهض الى المغرب الاوسط مرة ثانية ، فى جيوش وافرة ، وقصد الى تلمسان ، فحاصرها ، واضطر أميرها يغمراسن بن زيان الى مغادرتها بعد فشل مقاومته (صفر 640 هـ) ٠ ثم جرت مفاوضات الصلح بينه وبين أبى زكرياء ، على أساس ولاء يغمراسن للدولة الحفصية ، واقامة الخطبة باسم أبى زكرياء، وتم الاتفاق بين الفريقين (9) ٠ وبذلك عظم نفوذ الامير الحفصى ، واتسعت امارته الى نهر ملوية ٠ فكانت مرحلة كبرى فى تحقيق آماله ، فى اعادة ازدهار الدولة الموحدية ، وحلول أسرته مكان الاسرة المومنية ٠

وهنا ، يجدر بنا أن نشير الى التنافس الشديد الذى كان قائما منذ وفاة ابن تومرت حول منصب الآمامة الموحدية ٠ واذا كان عبد المؤمن بن على قد عين فى منصب الامامة ،

(6) راجع : الناصرى ، الاستقصا ، ج 2 ، ص 238 ٠
(7) راجع : الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص 23 — 24 ٠
(8) راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 109 ؛ الزركشى تاريخ الدولتين ، ص 27 ٠
(9) راجع : يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، ج 1 ، ص 112 — 113 ٠

وجعله وراثيا فى أسرته ، فان كبار أشياخ الموحدين ، وبالخصوص الشيخ أبا حفص عمر الهنتاتى ومن خلفه من أبنائه واحفاده ، كانوا هم أيضا يتطلعون الى الامامة ، وكانوا يحتلون منزلة مرموقة فى جهاز الدولة ، فكان منهم وزراء وكثير من كبار الولاة بالاندلس وافريقية · ولما سنحت الفرصة لابى زكرياء ، لم يفلتها وأعلن امارته ، محققا بذلك الهدف الذى كانت تصبو اليه أسرته منذ زمان ·

والذى يبحث عن أسباب سقوط الدولة المومنية ، لا يمكنه أن يتجاهل قيام الدولة الحفصية من بين العوامل الرئيسية لانهيار المومنيين · ويمكن القول ان سقوط الدولة المومنية بمراكش لا يعنى نهاية دولة الموحدين ، بل بقيت هذه متمثلة فى الدولة الحفصية ، القائمة بتونس (10) · غير أن هذه لم تستطع أن تبسط سلطتها على سائر أقطار المغرب ، رغم ما قامت به من محاولات عديدة ، فى مختلف فتراتها ، ولم يحقق أمراؤها رغبتهم في نقل مقر خلافتهم الى عاصمة الموحدين الاولى ، مراكش ·

والذى أردنا تأكيده هنا ، هو أن دولة الحفصيين لم تكن نابعة من صلب القطر الذى تمركزت فيه ، وأنها كانت من مخلفات العهد الموحدى · ولذا ، كان كثير من رجال الحكم بها ينتمون الى قبائل المصامدة ، كما أنها ضمت مناطق مختلفة ، وتغيرت حدودها حسب اختلاف الاوضاع السياسية ، وتقلب الظروف من قوة واستقرار ، أو ضعف واضطرب .

هذا ، وفيما يخص عنابة ، فانها كانت آنذاك ، مثل غيرها من مدن تلك المنطقة ، تابعة للدولة الحفصية·وقد عين الامير أبو زكرياء ابن عمه أبا على عمر بن أبى موسى واليا عليها فى بداية امارته · ثم ، لما عاد من حركته الاولى الى المغرب الاوسط ، سنة 636 هـ ، عين ابنه أبا يحيى زكرياء واليا على بجاية ، وكان لا يزال فى سن المراهقة · وبعد ذلك بسنتين أسند اليه ولاية العهد ، وأمر أن يعلن ذلك فى الخطبة على جميع منابر افريقية · وفى نفس السنة ، نقل أبو زكرياء ابن عمه أبا على عمر من ولاية عنابة الى ولاية المهدية ، واضاف الى سلطة ابنه زكرياء « النظر فى سائر أعمالها (بجاية) ، من الجزائر وقسنطينة وبونة (عنابة) والزاب » ، فاتسع نفوذ الامير الشاب الى سائر مناطق افريقية

(10) راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 108 ·

الغربية (11) • وبقى الوضع كذلك الى أن توفى الامير زكرياء فى بجاية سنة 646 هـ • فعين مكانه فى ولاية العهد أخوه أبو عبد الله محمد (المستنصر) •

وفى سنة 647 هـ ، غادر الامير أبو زكرياء تونس ، قاصدا الى قسنطينة لتفقد أحوالها • وهناك أصيب بمرض ، ثم أبل منه ، وغادر قسنطينة متجها الى عنابة ، فراجعه المرض وتوفى بظاهر عنابة فى جمادى الآخرة سنة 647 هـ • فدفن بجامعها بجانب الولى الصالح أبى مروان اليحصبى ، ثم نقل شلوه الى مدينة قسنطينة سنة 666 هـ ، ودفن بهـا • (12)

عنابة أيام حركة أبى الحسن المرينى الى افريقية

ولننتقل الآن الى صفحة أخرى هامة جدا فى تاريخ افريقية ، وتخص حوادث دارت حوالى منتصف القرن الثامن الهجرى • وكان السلطان الحفصى أبو يحيى أبو بكر (710 ـ 747 هـ) ، قد عين أبناءه على ولاية المدن الرئيسية ، فعين الفضل على عنابة ، وأبا عبد الله محمد على قسنطينة ، وأبا زكرياء على بجاية (13) • ولما عظم خطر بنى عبد الواد على نواحى بجاية وقسنطينة وعنابة ، لجأ الى الاستغاثة ببنى مرين ، وتحالف معهم ، وصاهر الامير أبا الحسن المرينى فى احدى بناته • ولما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان والمغرب الاوسط ، سنة 737 هـ ، أوقف جيوشه عند حدود بلاد افريقية ، احتراما لما كان يربط بينه وبين السلطان الحفصى من الصلات والعهود •

وبعد وفاة زوجة أبى الحسن المرينى ، الاميرة الحفصية فاطمة ، فى معركة طريف بالاندلس (سنة 741 هـ) ، تواصلت هذه الروابط ، وعقد قران آخر بين السلطان المرينى وابنة أخرى من بنات أبى يحيى أبى بكر الحفصى ، تدعى عزونة ، وغادرت الاميرة تونس فى جمادى الثانية 747 هـ ، متوجهة الى المغرب ، وقد صحبها فى سفرها أخوها الفضل ، والى عنابة •

(11) راجع : كتاب العبر، ج 6، ص 619 ـ 623 ؛ الزركشى، تاريخ الدولتين ،ص 28 •

(12) راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 114 ؛ ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص 134 ؛ الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص 32 •

(13) راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 165 •

ثم كانت وفاة أبى يحيى أبى بكر الحفصى بعد ذلك بقليـــل (2 رجب 747 هـ) ، فنشأ خلاف بين ولى العهد أبى العباس أحمد ، وأخيه أبى حفص عمر ، انتهى بمقتـــل أبى العباس ، والبيعة لعمر بالامارة • ولم يشأ أبو الحسن المرينى أن يترك الامور عـلى هذه الحال ، بل قرر التدخل فى الامر ، واغتنام الفرصة للاستيلاء على العرش الحفصى ، مدعيا الثأر لصهره أبى العباس •

وفى صفر 748 هـ ، تحرك أبو الحسن المرينى متوجها الى افريقية ، بعد أن عين ابنه أبا عنان واليا على تلمسان وسائر المغرب الاوسط ، واحتل بجاية وقسنطينة وعنابـة ، ثم تونس ، فى مدة قصيرة (14) • وعين عمالا على بجاية وقسنطينة ، ولكنه أبقى الامير الفضل ابن السلطان ابى يحيى أبى بكر الحفصى واليا على عنابة، مراعاة لرابطة المصاهرة•

والجدير بالملاحظة أن ولاية عنابة هى الناحية الوحيدة فى بلاد افريقية التى لـــم تخضع آنذاك لسيطرة أبى الحسن المرينى • وبقيت معقلا للامارة الحفصية فى هذه الفترة الهامة من تاريخ المغرب • أما الفضل فانه كان يرجو من السلطان المرينى أن يسلـــم له عرش الحفصيين بتونس ، غير أن أبا الحسن لم يقدم على ذلك ، واكتفى بابقائه عـلى ولاية عنابة ، مما أحقد عليه الامير الفضل ، وجعله يتحين الفرصة المواتيـــة لتحقيـق رغبتـــه • (15)

غير أن سياسة ابى الحسن المرينى تجاه عرب افريقية امتازت بالشدة والعنف • وذلك انه منعهم من الاعطيات والاقطاعات التى اعتادوا أن ينالوها من الدولة الحفصيـة قبله ، فغضبوا لذلك ، واجتمع أمرهم ، وحاربوه ، وهزموه قرب القيروان ، ثم حاصروه بها (محرم 749 هـ) ولم ينج أبو الحسن الا بمشقة ، وخلص الى تونس ، وبقى العرب يشكلون خطرا عظيما على مستقبل الوجود المرينى بافريقية •

وسرعان ما تدهور موقف أبى الحسن المرينى ، وانهارت سلطته فى كل مكان من دولته الواسعة الارجاء • فقام ابنه أبو عنان يدعو لنفسه بالامارة بفاس ، واتجه أمراء

(14) راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 169 ــ 170 •
(15) راجع : ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 ، ص 815 ؛ ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 171 •

بني عبد الواد الى تلمسان ، واحيوا بها دولتهم تحت امارة أبى سعيد وأخيه أبى ثابت (جمادى الثانية 749 هـ) . أما الامير الفضل الحفصى فانه اغتنم فرصة انشغال السلطان المرينى بمحاربة العرب فى ناحية القيروان ، للنهوض الى قسنطينة ، باستدعاء من بعض أهلها ، وكان يوجد بها آنذاك كثير من الوفود فى طريقها الى تونس ، فلما اشرف الفضل على المدينة ، ثار أهلها على بنى مرين ، ودخلها الفضل ، واستولى على الهدايا الثمينة التى جاءت بها الوفود (محرم 749هـ) ، وأقام بها ثلاثة أشهر ، يترقب أخبار السلطان أبى الحسن ، وما آل اليه أمره ، ثم توجه الفضل الى بجاية ، فاحتلها ، واجتمعت بذلك تحت سلطته سائر الثغور الغربية لبلاد افريقية (16) . وبينما كان يفكر فى النهوض الى تونس والعمل على احتلالها والقضاء على النفوذ المرينى بها ، اذ وافته أنباء من المغرب ، مفادها أن أبا عنان قد أطلق سراح الاميرين الحفصيين أبى زيد وأبى عبد الله، أميرى قسنطينة وبجاية قبل حركة أبى الحسن المرينى ، وأرسلهما مع قوات مرينية الى مقر ولايتهما السابق ، بقصد جعل كل منهما حاجزا بينه وبين أبيه ، المستقر آنذاك بتونس . وفعلا ، تمكن الامير أبو زيد من الدخول الى قسنطينة حين وصوله اليها ، والاستيلاء عليها بمساعدة أهلها ، بينما اتجه الامير أبو عبد الله صوب بجاية ، وضرب حولها الحصار،ولم يزل ينازلها الى أن افتتحها فى رمضان 749هـ . وجيء اليه بابن أخيه الفضل ، فمن عليه وأركبه سفينة حملته الى عنابة ، فوصلها فى شوال 749هـ . (17) .

ولم ينقطع أمل الامير الفضل فى عرش آبائه بتونس . وذلك أن العرب من قبيلة الكعوب لم يهدأ لهم بال حتى عادوا الى خلع الطاعة للسلطان أبى الحسن ، واستعانوا بالفضل للاجلاب الى تونس ، فوافقهم على ذلك ، وغادر عنابة ، والتحق بهم فى آخر سنة 749هـ . واشتدت مضايقتهم للسلطان المرينى الى حد انه قرر مغادرة تونس (شوال 750هـ) . ودخل الفضل عاصمة آبائه ، وبويع له فيها بالامارة . (18)

(16) راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 171 ــ 172 .

(17) راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 173 ؛ الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص 86 ؛ ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 ، ص 822 ــ 824 .

(18) عن امارة الفضل بتونس ، راجع : ابن قنفذ ، الفارسية ، ص 173 ؛ الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص 90ــ92 ؛ ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 ، ص 824 ــ 828 .

وتشهد هذه الحوادث على أهمية الدور الذى أصبحت تلعبه عنابة ، بجانب قسنطينة وبجاية وتونس ، فى تاريخ افريقية ، ومما ساعد على ذلك ، ما كانت تمتاز به عنابة وناحيتها من ازدهار اقتصادى فى شتى المجالات ، من صناعة وزراعة وتجارة ، مما أكسب أهاليها الغنى وألرخاء ، بالاضافة الى موقعها الجغرافى وحصانتها ، الامر الذى أبعد عنها خطر غارات بنى غانية وأهوال الفتن التى كانت قائمة منذ أجيال عديدة بين قبائل عرب افريقية من كعوب ودواودة وغيرهم ٠

ولا يسعنا ، فى هذا الحديث ، أن نستقصى جميع الاخبار التى لها صلة قريبة أو بعيدة بعنابة أيام الحفصيين ، وانما الذى يهمنا هو الاقتصار على بعضها ، مما يلقى بعض الاضواء على تطور المدينة ، ودورها فى تاريخ تلك الناحية بصفة خاصة ، وتاريخ المغرب، بصفة عامة ٠ ولدراسة هذا الموضوع من مختلف جوانبه ، مجال فسيح جدا ، اذ أن استيعاب مختلف المعطيات يقتضى التعرض الى دور قبائل العرب الخطير فى تاريخ المنطقة ، وما انجر عن ذلك من انعكاسات فى الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، كما يقتضى الالتفات الى جانب العلاقات التجارية الداخلية والخارجية ، والعوامل التى كانت تساهم فى ازدهار اقتصاديات المدينة وناحيتها ، أو تؤدى الى انحطاطها وتقلصها ٠ ولسنا نشك أن الباحثين سيعنون فى المستقبل بتقديم دراسات وافية ومعمقة وشاملة حول تاريخ بلادنا فى مختلف عصوره ٠

عنابة فى آخر عهد الحفصيين

ولا يفوتنا فى آخر حديثنا هذا ، أن نشير ، ولو اشارة خفيفة ، الى الاوضاع السياسية والاقتصادية التى عرفتها عنابة وناحيتها فى المرحلة الاخيرة للعهد الحفصى ٠

والحقيقة ، التى لا يمكن تجاهلها ، أن بلاد المغرب كلها كانت تعيش فى القرن التاسع الهجرى فى جو ملىء بالفتن والاضطرابات ، وتطاحن الامراء والرؤساء فى مختلف المناطق ، وتهالكهم على المناصب السامية ، وتنافسهم على الحكم ، وانشغالهم بذلك عن تدبير شؤون البلاد واصلاح أحوالها والاعتناء باحياء مواتها ، وتنميتها ، والدفاع عن حوزتها ، وحمايتها من غارات العدو الخارجى ٠

وكان يقابل ذلك تظافر جهود النصارى فى أوروبا لشن حرب شعواء على المسلين فى حوض البحر الابيض المتوسط ، قصد مراقبة الملاحة فيه ، واحتلال موانىء الاقطار المغربية ، واستغلال خيراتها ، واستعباد شعوبها • ولم تمض الا سنوات قليلة بعد سقوط غرناطة فى قبضة النصارى الاسبان ، حتى انطلق هؤلاء ينفذون خطتهم بكل ما لديهم من عزيمة وقوة وقسوة ، فاحتلوا بجاية وعنابة (سنة 917هـ/1510م) وموانىء أخرى من القطر الجزائرى • (19)

والظاهر أن الاسبان لم يتمركزوا الا قليلا فى عنابة ، وفضلوا توجيه معظم جهودهم نحو بجاية • وقد مر الحسن بن الوزان حوالى سنة 923 هـ/1516 م ، بعنابة ، فلم يذكر شيئا عن وجـــود الجنود الاسبان بها ، ووصفها فقال : « تشتمـل مدينة عنابة على 3000 منزل ، وهى مكتضة بالسكان ، الا أن المنازل الجميلة قليلة بها ، وفيها جامع جميل جدا بنى على شاطىء البحر • وسكانها طيبـــون ، ومنهم التجار ، والصناع ، والنساجون ••• وفى الجانب الشرقى منها قصبة عظيمة ، محصنة تحصينا محكما ، بناها ملوك تونس ، ويسكنها الولاة • وتمتد الاراضى المزروعة ، خارج المدينة ، الى مسافة 40 ميلا طولا ، و 25 ميلا عرضا • وهذه الاراضى صالحة للحبوب ، وتسكنهـــا قبيلة مرداس العربية ، تقوم بفلحها ، وتملك كثيرا من البقر والضأن • وتنتج هــذه المواشى من السمن كميات يبيعها أصحابها فى سوق عنابة بثمن قليل لوفرتها • وكذلك الامر بالنسبة للقمح • وتأتى سفن عديدة كل عام ، من تونس وجربة وسائر موانىء القطر ، وكذلك من جنوة ، لتشترى القمح والسمن من عنابة ، حيث تستقبل استقبالا حسنـــا • (20)

تلك هى الحال التى كانت عليها عنابة عندما دب الضعف فى جسم الدولة الحفصية ، واذا لم تكن آنذاك فى منتهى البؤس والتدهور ، فانها ، دون ريب ، كانت فى بداية الانحطـاط •

---

(19) راجع : أحمد توفيق المدنى ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص 141 •
(20) الحسن بن الوزان (ليون الافريقى) ، وصف افريقيا ، ترجمة ايبولار الفرنسية ، ج 2 ، ص 370 •

ولا شك أن غارات النصارى على شواطىء المغرب قد آذت أهالى الموانىء التى احتلوها ، وأتت على رونق كثير منها ورخائها • ولم يتلق السكان مساعدة من الملوك الحفصيين ، الذين ضعف شأنهم وأصبحوا لا يقدرون على حماية الاراضى التابعة لهم ، من هجوم الغزاة ، وما يقومون به من سلب ونهب •

وعندئذ اضطر الاهالى الى اعلان الجهاد ، والاعتماد على انفسهم لرد العدوان ، وعلى كل من يهب لمساعدتهم • وكان الخلاص على أيدى عروج وخير الدين وجماعتهم من الاتراك •

ولما أجاب خير الدين نداء الامير الرشيد الحفصى ، الذى استغاث به ضد أخيه الخائن الحسن بن محمد ، مر الاسطول العثمانى بعنابة ، فاستقبله اهلها استقبالا حارا • وقدموا له مددا يستعين به لفتح تونس (941 هـ/1533 م) • فكان ذلك أول عهد لانضمام عنابة الى حظيرة الايالة الجزائرية • (21)

أما الامير الحفصى الحسن بن محمد ، فانه تحالف مع الاسبان ، وعقد معهم اتفاقية تضمنت اعترافه بالسيادة الاسبانية ، وملكية الاسبان لمدينة عنابة ومدن اخرى بافريقية ، فانتهت تبعية عنابة للدولة الحفصية بهذه الصفة المؤلمة • وسرعان ما احتل الاسبان عنابة مرة ثانية (943 هـ/1535 م) تنفيذا لهذه المعاهدة (22) • فانف أهلها ، وسكان ناحيتها ، والدولة الجزائرية الفتية ، من مذلة الاستيلاء الاجنبى ، وصرفوا همتهم لفتحها ، كما فتحوا غيرها من الموانىء المحتلة •

الخاتمة

والذى يمكن استنتاجه من هذا العرض الوجيز ، هو أهمية هذه المرحلة من تاريخ عنابة وغيرها من مدن الشرق الجزائرى بالنسبة لتطورها السياسى والاجتماعى والاقتصادى • وذلك أن العهد الحفصى كان منعطفا حاسما للمسيرة التى قطعتها هذه المنطقة ، والتى أدت بها ، بعد تبعيتها لمراكش ، أيام الموحدين ، الى تبعية حقيقية لتونس ، أيام ازدهار الدولة الحفصية ، ثم الى الاستقلال عنها تدريجيا ، مع تبعية

(21) احمد توفيق المدنى ، المرجع المذكور ، ص 230 •
(22) أحمد توفيق المدنى ، المرجع المذكور ، ص 234 •

عنابة ، تارة لبجاية ، وتارة لقسنطينة ؛ وكان انهيـار الدولة الحفصية ، تحت ضربات الحملات الصليبية ، وتحت تصاعد النزعات الانفصالية لدى عرب افريقية ، خاتمة عهد طويل ، يحمل طابعه الخاص فى شتى الميادين ۰ كما ان التحاق عنابة وبجاية وقسنطينة بالايالة الجزائرية ، بحافز الوقوف أمام العدوان الاسبانى وصده عن المنطقة ، يشكل فاتحة عهد جديد ، حافل بالامجاد ، ويحمل صبغته الخاصة ، ونقطة انطلاق حاسمة لتبلور كيان الدولة الجزائرية الحديثة ۰

الحياة الاقتصادية بعنابة
أثناء العهد العثماني

د . ناصر الدين سعيدونى
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر



عاشت مدينة عنابة فترات متتالية من تاريخها الطويل ، عرفت أثناءها تبدل الاماكن وتغير الاسماء تبعا للظروف السياسية والاحوال الاقتصادية التى امتازت بها كل فترة من هذه الفترات .

ففى أول عهدها كانت مقامة على منحدرات التل الذى بنيت عليه حديثا كنيسة القديس أغسطين . وعندما استوطنها المسلمون بعد الفتح استقروا بجوار الخرائب الرومانية بالقرب من مجرى نهر سيبوز ، وآنذاك عرفت لدى الرحالة العرب بمدينة سيبوز ، ثم اكتسبت فيما بعد تسمية مدينة زاوى نسبة للامير الزيرى الذى أعطيت له ضمن الاقطاعات التى حصل عليها من الدولة الصنهاجية .

وبعد أن عرفت المدينة فترة رقى وازدهار عمرانى وحضارى طيلة القرنين الخامس والسادس للهجرة، بدأت تتعرض للغارات البحرية وذلك نتيجة حلول النرمان بالسواحل

الاوروبية • واتخاذهم جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا قواعد لهم ينطلقون منها للاغارة على المدن الساحلية المغربية •

وقد اضطر سكان مدينة زاوى ـ عنابة الاسلامية ـ نتيجة هذا الوضع الجديد الى طلب الامان في مكان آخر حصين تتوفر فيه مقومات الدفاع الضرورية ، لا سيما وأن مكان المدينة الاسلامية فضلا عن تهديد الغارات البحرية له ، أصبح فى حد ذاته غير ملائـــم للاستقرار ، بعد أن بدأت أكوام الرمال وترسبات الطمى تحاصره من جراء فيضانات نهر سيبوز المتكررة ، بالاضافة الى انتشار برك المستنقعات والمياه الآسنة على شكـل حزام يطوق أسوار المدينة من جهة السهل ، مما تسبب فى كثرة الرطوبة وتردى الاحوال الصحية للسكان • (1)

فكانت المرتفعات المشرفة على الساحل من الجهة الغربية ، لما لها من مزايا طبيعيـــة جمة ، أحسن مكان يمكن أن تتوفر فيه عوامل الامن والحماية لساكنيه •

وبذلك استقر أغلب سكان مدينة زاوى فى هذا المكان الجديد ، الذى يبعد عـــن مدينتهم الاصيلة الى الشمال بحوالى ثلاثة أميال ، والذى أصبح يعرف فيما بعد ببونة الحديثة عندما استكمل عمرانه باقامة سور حوله سنة 450هـ ـ 1058م ، وشيد به جامع نسب الى الولى الصالح سيدى أبى مروان الذى وافته المنية بهذه الجهـة سنـــة 505هـ ـ 1111م • (2)

ثم لم يلبث اسم بونة الحديثة أن أصبح غريبا عن عامة الناس بعد أن صارت المدينة تعرف ببلد العناب ؛ نسبة لهذا النبات الذى كان ينمو تلقائيا بالجهات القريبة مـــن المدينة •

وهكذا لم ينته القرن الخامس عشر الميلادى حتى اكتسبت المدينة تسميتها الحاليـة ، وهى « عنابة » عند العام والخاص • ولم يعد يرد لفظ بونة الا فى المصنفات التاريخية والتقاويم الجغرافية رغم تشبث الفرنسيين أثناء الاحتلال بالتسمية اللاتينيـة وهـى : Bône القريبة فى اشتقاقها من كلمة بونة العربية • وبذلك تدخل مدينة عنابة مرحلة جديدة من تاريخها الطويل تحت الحكم التركى وقد وجدت المكان الطبيعى الملائم لنموها وتطورها ، كما اكتسبت تسميتها التى ظلت تعرف بها حتى اليوم •

على أن الباحث فى التاريخ الاقتصادى لمدينة عنابة العثمانية يجد نفسه مضطرا للتعرض لوضع عنابة الطبيعى نظرا لتحكم هذا الوضع فى أهم مقومات الحياة الاقتصادية للمدينة وما يتعلق بها من نواحى عمرانية واجتماعية ، أو ما يتصل بها من أنشطة صناعية ومبادلات تجارية ، فالشروط الطبيعية لهذا الوضع تبرز لنا من خلال موقع المدينة وميناثها واقليمها ٠

1 ـ موقع عنابة العثمانية : كان ينحصر فوق الهضبة الصخرية المحاذية لشاطىء البحر والمطلة على الجهات الداخلية المواجهة للغرب ، الامر الذى جعلها غير معرضة للرؤية من ناحية البحر مع محاذاتها له ٠

وكان هذا الموقع الطبوغرافى من الاهمية بمكان ، اذا أخذنا بعين الاعتبار مقاييس ذلك العصر الاستراتيجية ، فهو يكسب المدينة ميزة كبيرة بحيث يجعلها فى مأمن من غارات الاساطيل المهاجمة ، ويرد عنها طلقات المدافع المفاجئة ، ومن جهة أخرى يساعد على سهولة اتصال المدينة بداخل البلاد ، مما يؤهلها لان تصبح مدينة حصينة مقتدرة (3) برية وبحرية (4) فى آن واحد كما لاحظ ذلك بعض جغرافيى العرب ٠

على أن اختيار موقع المدينة فوق المرتفعات الصخرية تسبب فى حرمان السكان من الماء الضرورى ، ولهذا كانوا يضطرون الى جمع مياه الامطار (5) والاحتفاظ بها فى أحواض مهيأة لهذا الغرض فى أوقات الحصار ٠ أما فى الاوقات العادية فقد كان السكان فى أغلب الحالات يحصلون على مياه الشرب من بئر محفورة فى الحجر الصلد توجد على شاطىء البحر غير بعيدة عن أسوار المدينة ٠ لا سيما بعد أن تبيّن لهم أن ماءها يعتبر من أعذب المياه وأنفعها ٠ (6)

ومن الراجح أن هذه البئر الواقعة على شاطىء البحر مباشرة قديمة العهد ، اذ يعود تاريخها الى الفترة الاسلامية السابقة ، بدليل أن البكرى فى القرن الخامس الهجرى أشار اليها بقوله : « وفى بونة على ضفة البحر بئر منقورة فى حجر صلد يسمى بئر النثرة ومنها يشرب أكثر أهلها » ٠ (7)

وبغض النظر عن الوضع الطبوغرافى للمدينة فان الشىء الذى يثير الانتباه فى موقع عنابة العثمانية يتعلق بالنواحى العمرانية والانشطة الاقتصادية ، اذ كان عمران المدينة

ينحصر في رقعة محددة نسبيا لا تتجاوز مساحتها 1700 م2 (8) وهذا ما جعل شوارع المدينة ضيقة (9) وكثيرة الالتواء ، حتى انها تصبح غير صالحة للسير تقريبا عندما يحل الليل وتلتجىء قطعان الماشية المعدة للتصدير (10) الى داخل سور المدينة ٠

وقد ترتب على هذا الوضع أن أصبحت سوق الحبوب وسوق المواشي مع اهميتهما تقامان في الساحات الفارغة خارج أسوار البلد ٠ (11) كما تحكم هذا الوضع كذلك في توزيع أبواب المدينة الاربعة بحيث أصبحت كما يلي : باب المرسى من جهة الشرق ٠ وهو يؤدى الى الميناء وباب العرب تبتدىء عنده طريق قسطينة ، أما البابان الآخران فينفتحان في الجهة الشمالية الغربية في مواجهة حصن القصبة ٠ (12)

وقد كان لعنابة العثمانية بوضعها هذا منظر خاص اكتسبته من منازلها الصغيرة الناصعة البياض حتى انها كانت تتعب العين لنصاعة بياضها حسب ما جاء في وصف احد الرحالة الاوروبيين ، مع أن نصف المنازل كان مغطى بالقرميد بينما النصف الآخر كانت تعلوه أسطح وشرفات مختلفة الاشكال ٠ (13)

وكان يشرف على هذه المنازل حصن القصبة المشيد فوق أكمة مقابلة للمدينة ومطلة على الناحية الجنوبية على ارتفاع 105م وكان يحيط بهذا الحصن سور منيع يبلغ طوله 550م (١٤)

وقد شيد هذا الحصن الذى كان يحتوى على قصر (15) متين البناء (16) بأمر من أبى زكرياء بن اسحاق الحفصى ، ثم أدخلت عليه الحامية الجنوية عدة اصلاحات هامة عندما كانت تقيم به أثناء الاحتلال الاسباني للمدينة ، وهذا عكس ما ذهبت اليه بعض المصادر الاوروبية التى أرجعت بناء هذا الحصن الى الجنويين وحدهم مدعية في ذلك بان الامبراطور شرلكان كان قد أمر ببناء هذا الحصن سنة 1535 قصد توطيد احتلاله للمدينة ٠ (17)

ونظرا لاهمية حصن القصبة الاستيراتيجية فانه كان طيلة الفترة العثمانية مقر الحاكم التركى ومكان استقرار الحامية المكلفة بالدفاع عن المدينة والمعروفة بـ « النوبة » والتى كان عدد أفرادها يتراوح حسب الظروف ما بين 100 و 50 شخصا ٠ ففي السنوات

التى سبقت الاحتلال كان هناك 100 تركى يتمركزون بالحصن تحت قيادة أحد الكراغلة من ذوى النفوذ والهيبة (18) ، ثم تناقص عددهم قبيل الاحتلال مباشرة الى 50 شخصا فقط كانوا يعيشون فى عزلة بين أسوار القصبة • (19)

2 ـ ولا تكتمل أهمية موقع عنابة العثمانية الا اذا تعرفنا على مينائها البحرى الذى اكتسب طيلة الحكم التركى أهمية خاصة باعتباره الشريان الرئيسى الذى تمر منه كل المبادلات التجارية بين بايليك قسنطينة وباقى المدن الاوروبية مثل ليفورن ومرسيليا وجنوة • ومما زاد فى تدعيم مكانة ميناء عنابة العثمانى كونه محميا من الرياح الغربية وما يصاحبها من تيارات مائية بمرتفعات ايدوغ الممتدة من السهل فى الجنوب حتى رأس الحمراء فى الشمال على مسافة 14 كلم ، فضلا على أن الميناء فى حد ذاته كان يستند الى أسوار المدينة وتنتصب بالقرب منه قطع المدفعية المقامة فى الجهة الشرقية للمدينة (20) • ولعل هذا الوضع الملائم للميناء هو الذى ساعد على ممارسة الاهالى لاعمال القرصنة ، وذلك منذ تأسيس المدينة فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ومن الملاحظ أن أهمية الميناء وملاءمته للملاحة لم تخف على الكثير من التجار الاوروبيين وخاصة الايطاليين والفرنسيين منهم بعد أن فضل العديد منهم الاستقرار بالقرب منه لممارسة النشاط التجارى المربح ، وقد تدعم هذا الاستقرار بفعل تأسيس غرفة تجارية فرنسية مهمتها الاولى رعاية مصالح التجار المرسيليين وغيرهم من الاوروبيين بجهات الشرق الجزائرى •

3ـ ويضاف الى موقع المدينة ووضعية مينائها عامل ثالث كان بدوره أيضا يتحكم فى اقتصاديات عنابة العثمانية ويتمثل هذا العامل الثالث فى الاقليم (21) المجاور للمدينة والمرتبط بها اقتصاديا وبشريا •

ويعود تأثير هذا الاقليم الاقتصادى على المدينة الى ما ينتجه من الحبوب والخضر وما يضمه من أعداد وفيرة من المواشى أغلبها من قطعان الاغنام والابقار • (22)

وقد أصبحت حالة المدينة الاقتصادية مرتبطة بهذا الاقليم عندما بدأت أهميته تتزايد منذ الفترة الاسلامية ، فابن سعيد المغربى فى القرن 13 ذكر أهمية الاقليم فى اقتصاديات المدينة فى وصفه لعنابة بقوله : « مدينة جليلة عامرة خصبة الزرع كثيرة الفواكه رخية » • (23)

ونفس أهمية عنابة النابعة من طبيعة اقليمها هى التى جعلت صاحب الاستبصار فى عجائب الامصار يشير اليها بقوله : « وهى أنزه البـــلاد وأكثرها لبنا ولحمـا وعســـلا وحوتا » (24) والجدير بالذكر أن مواصفات هذا الاقليم الطبيعية لم يغفلها صاحـــب الاستبصار عندما أشار اليها بقوله : « وبغربها ماء سائح يسقى بساتينها وأرضها ··· وهناك بركة دورها نحو عشرة أميال وفيها سمك كثير جليل » (25) كما لم تخف أهمية هذا الاقليم عن ابن حوقل عندما ذكر اقليم عنابة بهذه العبارة :

« ولها اقليم واسع وبادية وحوزة بها نتاج كثير وقل من بها تفوته الخيل والسائمه للنتـــاج » · (26)

على أن هذه الاهمية التى كان يكتسبها اقليم عنابة لم تلبث أن تضاءلت قبيل مجيء العثمانيين ، مما ترك أثرا سلبياعلى اقتصاديات المدينة،وكان ذلك بفعل تغلب البداوة على السهل المحيط بها بعد أن استقر به الاعراب الهلاليون والذين كانوا فى أغلبهم ينتمون الى قبيلـــة مرداس ومـا انضـــم تحـت لوائهـا مـن بقايا قبائل مصمودة وأوربة ، وأول اشـارة صريحة لهذه الحـــال نجدها عند الشريف الادريسى فى القـــرن الثالث عشر الميلادى اذ يقول : « ولها اقليم وأرض واسعة تغلبت العـــرب عليها » (27) دون أية اشارة منه الى ثروات هذا الاقليم التى كان يشتهر بها ·

لكـــن هـــذه الشروط الطبيعيـــة مـن مـــوقع المـــدينة ووضعيـــة مينـــائها وطبيعـــة اقليمهـــا لا يمكـــن أن تفســـر لنـــا وحـــدهـا تطـــور الحيـــاة الاقتصادية بعنابة فى الفترة العثمانية ، بل لابد من الاشارة الى بعض العوامل الاخرى التى كان لها تاثير حاسم على تطور عمرانها وأحوالها الاجتماعية ، وعلى التحكم فى نشاطها التجارى والصناعى خاصة · ونظرا لكثرة هذه العوامل وتداخلها فاننا سنحاول أن نجملها فى النقاط التالية :

أ ـ الغارات والهجمات البحرية : التى كانت تتعرض لها عنابة بين الحين والآخـر ، منذ القرن الحادى عشر والتى زادت حدتها فى بداية القرن السادس عشر ، مما ترك انعكاسات سلبية على نشاط المدينة فى العهد العثمانى · وكانت هذه الغارات فى مجملها من فعل الاساطيل الاوروبية مثل هجوم الجنويين وحلفائهم من سكان بيزة على مدينة

عنابة سنة 425هـ/1034م ، والذى نتج عنه تخريب المدينة ونهبها من طرف الاسطول المغـــير ·

وقد اتبع هذا الهجوم البحرى احتلال المدينة من طرف قائد أسطول الملك روجرز النورماندى ملك صقلية ، تنصيب عامل على المدينة يكون تابعا للعرش النورماندى ، من آل حماد ـ سنة 548هـ ـ 1153م ـ كما يعتبر هجوم الاسطول الاسبانى على عنابة من أهم هذه الغارات البحرية الكبرى ، وقد تم ذلك الهجوم الكبير سنة 1535 ، عندما كانت قطع أسطول شرلكان فى طـريق عودتها من تونس الى اسبانيا ، ولكى يضمن الامبراطور سيطرته على المدينة نصب القائد الدون أفارزفال حاكما على عنابة وأبقى معه ألفا من المشاة الجنويين المزودين بالذخيرة الحربية والمجهزين بخمسة وعشرين حصـانا ، حتى يتمكنوا من شن الغارات المفاجئة فى الجهات الداخلية المحيطة بعنابة ·

على أن موت قائد الحامية الاسبانية فى احدى الغارات التى كان يشنها على نواحى عنابة ، اضطر باقى الحامية الى مغادرة تحصيناتها والخروج من عنابة بعد تدمير جميـــع الحصون الموجودة فى المدينة متذرعة فى ذلك بحجة أن الامبراطور شرلكان أهملها ولم يبادر بتنصيب قائد عليها وبذلك خرجت عنابة من السيطرة الاسبانية ·

وهكذا نلاحظ أن مثل هذه الغارات البحرية المتلاحقة التى ضيقت الخناق على مدينة عنابة ، كانت بمثابة عائق لازدهار المدينة الاقتصادى ونموها العمرانى ، لان مثل هذه الغارات كانت كثيرا ما تتسبب فى انقطاع حركة التبادل التجارى بين عنابة والاقطار المتعاملة معهـــا ·

وأحسن مثال على ذلك نجده فى وصف العبدرى للمدينة وهى على هذه الحالة حيث يقول : « انا صادفنا وقت المرور بها زويرقا للنصارى لا تبلغ عمارته عشرين شخصا وقد حصروا البلد حتى قطعوا عنه الدخول والخروج · وأسروا من البر أشخاصا فأمسكوهم للفداء بمرسى البلد وتركناهم ناظرين فى فدائهم · (29)

ب ـ تعاقب الحكام وتكرر الفتوحات :

تعتبر بدورها من جملة العوامل التى كان لها تأثير على أوضاع عنابة الاقتصادية خاصة،فمن أهم تلك الفتوحات المتعاقبة التى أصبحت عنابة هدفا لها قبل وأثناء الوجود

العثمانى نذكر على سبيل المثال : احتلال الموحدين للمدينة سنة 555هـ ــ 1160م ، ثم استيلاء يحيى بن غانية الميورقى عليها مجددا سنة 589هـ ، ثم خضوعها مرة أخـــرى للموحدين سنة 601هـ ، ثم خضوعها من بعدهم للامراء الحفصيين فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى مما ترك أسوء الاثر على عمران المدينة واقتصادياتها اذ أصبحـت آنذاك فى « ضعف وقلة عمارة » • (30)

ثم ازدادت أحوال المدينة سوءا بانهيار تجارتها واضمحلال صناعاتها وذلك بفعـل التنافس والتناحر بين فروع الاسرة الحفصية فى كل من تونس وقسنطينة وبجاية فلم تتمكن المدينة من المحافظة على سير الحياة العادية بها رغم فترة الاستقرار القصيرة التى عاشتها بين سنتى 759 و 762هـ ، عندما أصبحت عاصمة للامير الفضل الحفصى •

فعادت أحوالها الى الانكماش والتقهقر من جديد منذ أن اقتطعها أبو العباس ملك بجاية الحفصى لابن أخيه أبى عبد الله محمد • سنة 762هـ • ولهذا لم يبالغ العبدرى عندما وصفها بأسلوبه الرشيق وعباراته المنمقة وهى تعانى هذه الاوضاع القاسيـة ، بما نصه : « ثم وصلنا الى مدينة بونة فوجدناها بلدة بطوارق الغير مغبونة ، مبسوطة البسيط ، ولكنها بزحف النوائب مطوية مخبونة ••• تغازلها العيون من جور النوائب ، وتأسى لها النفوس من الاسهم الصوائب » • (31)

وكان من نتائج هذا الوضع السيء أن شق سكان عنابة عصا الطاعة على الحكـــام الحفصيين • وتمكنوا أخيرا من طرد عامل السلطان الحسن الحفصى ، وتوجيه الدعوة الى خير الدين بربروسة سنة 940هـ ــ 1533م ، عسى أن ينجدهم وينقذهم من هذه الحالة المؤلمة التى كانوا يعانون منها • ولم يلبث خير الدين أن لبى دعوتهم واستقر بينهم • يصلح أحوالهم ويعالج أمورهم ويستعد لمهاجمة تونس وطرد الاسبان منها •

ولكن حكم الاتراك لم يستقر بعنابة ، لان الاسبان بعد انتصارهم فى تونس احتلوا عنابة سنة 1535 ولم يغادروها كما هو معلوم الا بحلول سنة 1540 وبذلك يستتب الامر للاتراك بها طيلة حكمهم للايالة الجزائرية ، على أن الشيء الذى يلفت الانتباه هـــو أن المدينة لم تشهد ازدهارا ملحوظا بعد أن حطمت تلك الاحداث والحروب المقومات الاساسية

لاقتصادها رغم المجهودات الصادقة للحكام الاتراك لتحسين حال عنابة والنهوض بها ، لا سيما فى بداية عهدهم بها •

ح ـ تغير البنية السكانية لعنابة :

يعتبر تغير العنصر السكانى أيضا من العوامل المؤثرة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية لعنابة على حد سواء ، فقد كان لهذا التأثير جانب سلبى وآخر ايجابى •

أما الجانب الايجابى فكان يتمثل فى قدوم جماعات من مهاجرى الاندلس واستقرارهم باحياء المدينة يمارسون الصنائع المختلفة والمهن اليدوية ويحتكرون الاعمال التجارية التى أصبح أغلب من يشتغل بها من العنصر الاندلسى منذ عهد مبكر • (32)

وبذلك كان لقدوم هذا العنصر الاندلسى النشيط آثار ايجابية بناءة على اقتصاديات عنابة لا سيما بعد أن استقرت جماعات كبيرة من الاندلسيين بالمدينة بعد حلول الاتراك بها •

أما الجانب السلبى لتغير البناء السكانى فهو ناتج عن تلك الجماعات السكانية التى كانت تعيش بضواحى عنابة ، ومع مرور الوقت بدأ عدد كثير من أفرادها يستقر داخل المدينة ، وكانت هذه الجماعات فى أغلبها تنتمى الى قبيلة مرداس العربية التى استقرت أثناء الهجرة الهلالية بسهول عنابة منذ القرن الخامس الهجرى ، وكانت ما تزال على حالة البداوة والخشونة مما ترك أثرا سيئا على الحياة الاقتصادية • وبالخصوص ما يتصل منها بالنشاط الزراعى لسهل عنابة مما جعله فى ضعف وقلة عمارة ، حسب قول الشريف الادريسى • (33)

د ـ الحالة الصحية والمعاشية بعنابة العثمانية :

كان لها تأثير حاسم على الوضع الديمغرافى والاقتصادى للمدينة ، وذلك نتيجة التأثير السيء للامراض والاوبئة المهلكة التى كانت تجتاح المدينة فى فترات متلاحقة تكاد تكون غير منقطعة طيلة الفترة العثمانية ، وقد أمدتنا أرشيفات ووثائق الشركة الملكية الافريقية بمعلومات قيمة حول الوضع الصحى بعنابة طيلة القرن الثامن عشر الميلادى ولا سيما السنوات الممتدة من 1756 الى 1786 م •

وحتى نأخذ فكرة على مدى الآثار المدمرة لهذه الامراض ، نستعرض بشىء من التفصيل الحالة الصحية لمدينة عنابة سنة 1785 مستعينين فى ذلك بالتقارير التى كان يبعث بها موظفو الشركة الملكية الافريقية الى وكالاتهم بمرسيليا :

وذلك على سبيل المثال فقط . اذ تفيدنا تلك التقارير انه فى شهر مارس من هذه السنة (1785) قدر عدد الوفيات من جراء مرض الوباء ما بين 5 و 6 وفيات فى اليوم الواحد وذلك ما بين 10 و 14 من هذا الشهر (مارس) ثم تزايدت خطورة الوباء عندما ارتفع عدد الاصابات القاتلة بعد ان عم الطاعون المدينة وانتشر فى كل احيائها منذ نهاية شهر ماى حتى بلغت الاصابات فى يوم 24 ماى وحده ، 103 اصابة قاتلة ورغم أن الوباء قد خفت وطأته فى شهر جويلية عندما بدأ عدد الاصابات يتناقص بحيث لم تسجل فى اليوم الرابع منه سوى ثلاثة اصابات فقط ، فقد عاد الى الظهور مرة أخرى وتزايدت خطورته فى شهر أوت خاصة ، عندما ارتفع عدد الوفيات الناتجة عن هذا الوباء الى 100 وفاة فى اليوم الواحد ، وظلت الحالة هذه حتى أواسط شهر أكتوبر من نفس السنة حينما بدأت حدته تتناقص تدريجيا (34) .

على أن هذه السنة التى تعرضنا لها لم تكن شاذة فى حياة عنابة لان مثل هذه الاوبئة كانت تجتاح المدينة عادة نتيجة اتصالها المستمر بالخارج وانفتاحها على المبادلات التجارية ، فهى ملتقى العديد من التجار من مختلف مدن البحر المتوسط ، ومحطة استقبال للعديد من الحجاج . وفى هذا الصدد نشير الى أن سفينة عثمانية من نوع بولاكر Polacre كانت قد أرست بميناء عنابة اثناء عودتها من الاسكندرية محملة بالحجاج سنة 1822 تسببت فى انتشار الطاعون بالمدينة بعد أن ظهر هذا المرض الخبيث بين المسافرين منذ اقلاعها من ميناء الاسكندرية (35) ، وقد اضطر هذا الوضع مستخدمى الشركة الافريقية أن يطلبوا من باى قسنطينة فى رسالة عاجلة بتاريخ 24 جوان 1822 السماح لهم بغلق المركز التجارى التابع لهم بالمدينة . فسارع الباى الى تلبية طلبهم فى يوم 4 جويلية بعد أن استفحل الوباء وأصبح قاتلا (36) .

على أن الشىء الجدير بالذكر فى مثل هذه الاحوال هو حرص الحكام الاتراك على الحد من خطورة تلك الاوبئة والتقليل من أضرارها بمختلف الوسائل ، مثل اتباعهم نظام

الحجز الصحى لمدة أربعين يوما « الكرانتين » وذلك بالنسبة للمسافرين والحجاج على حد سواء مع فرض الرقابة الصارمة على المناطق المصابة بمثل هذه الامراض المعدية ، بغية عزلها عن باقى الجهات ٠ فلهذا الغرض نجد فرسان الحامية التركية المرابطة بعنابة عام 1785 يقيمون حزاما صحيا حول المدينة ، بغية الحيلولة دون تسرب العدوى الى سكان المدينة من القبائل المصابة بالطاعون فى جهات القالة ونواحى سهل عنابة ، على أن مثل هذه الاجراءات مع صرامتها لم تحل فى غالب الاحيان دون انتقال المرض الى السكان داخل أسوار المدينة ، بدليل أن بعض التقارير المتعلقة بالاوبئة تفيدنا بانه رغم الحزام الصحى الا أن المرض قد انتقل الى الاهالى داخل المدينة فى السنة التالية ٠

فمثل هذه الامراض كانت سببا مباشرا فى الركود التجارى والصناعى بالمدينة وذلك أنها كانت تهلك عددا كبيرا من الصناع والتجار وتترك السوق مفتوحة للتجار الاجانب لتصدير الانتاج المحلى ٠ وفى هذا الصدد نلاحظ انه بعد وباء عام 1787 تضاعفت كمية الاصواف المعدة للتصدير والمجلوبة من البوادى المحيطة بالمدينة خاصة بعد أن قضى الوباء على أغلب النساجين ولم يعد هناك من يقوم بمعالجة الاصواف وحياكة البرانس (37) ٠

ولعل الوصف الذى جاء فىاحد التقارير التى كان يبعث بها التجار الفرنسيون الى بلادهم يعطى لنا صورة لوضعية المدينة بعد تعرضها للاوبئة الفتاكة ففى هذا الصدد يصف احد التقارير الحالة بما نصه : « اذا اعتبرنا ان ثلثى المنازل كان موصدا ، يتبين المرء بكل ألم مدى الخراب الذى تعرضت له المدينة من جراء الوباء الذى حل بها » ٠ (38)

والجدير بالذكر ان هذه الاحوال الصحية المتردية لم تكن وحدها المسؤولة على سوء الحالة الاقتصادية لعنابة لان الاوبئة فى أغلب الاحيان تكون مصحوبة بموجات من القحط والمجاعات تختفى فيها الاقوات من السوق ويهلك الناس نتيجة الجوع والمسغبة مما يجعل الحالة المعاشية لسكان المدينة فى بعض السنوات سيئة وغير محتملة حتى انه فى سنة 1800 اضطر الحكام على خلاف العادة الى توفير الغذاء الضرورى للسكان بجلب كميات كافية من حبوب مناطق البحر الاسود ووضعها تحت تصرف الاهالى، بسعر 28 ريالا للصاع الواحد (39) ٠ خشية شيوع الفوضى والاضطراب ٠

وحتى نستطيع أن نبرز تأثير كل هذه العوامل السابقة والمتمثلة أساسا فى تلك المجاعات والامراض بالاضافة الى

الغارات والهجمات البرية والبحرية ، على الوضع الاقتصادى فاننا سوف نأخذ عدد سكان المدينة كمعيار أو مقياس تقريبى لتحديد فترات الازدهار الاقتصادى والتطور العمرانى لمدينة عنابة • بغض النظر عن امكانية الوقوع فى الخطأ لعدم توفر الوثائق والمعلومات الضرورية فى هذا المجال • فنجد حسب هذا القياس أن عدد سكان عنابة نظرا للعوامل السابقة الذكر لم يكن مستقرا على حالة واحدة ولا متقاربا فهو يرتفع أو ينخفض تبعا لازدهار المدينة أو تدهورها ، ففى بداية كل من القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر تضاءل عدد السكان الى حد كبير وهذا يجعلنا نستنتج أن كلا من بداية ونهاية الحكم التركى تعتبر من أسوء الفترات الاقتصادية فى حياة عنابة الاقتصادية ، بخلاف الفترة الممتدة من نهاية القرن السابع عشر الى أواسط القرن الثامن عشر كانت تعتبر حسب هذا القياس أيضا عصر ازدهار وتطور نسبى ، ومرد ذلك الى اختفاء كثير من هذه العوامل السلبية السالفة الذكر •

فبالنسبة لبداية الحكم التركى للمدينة يعلل هذا الاضمحلال بالهجمات البرية والغارات البحرية المتكررة ، ولهذا وبعد أن كانت عنابة طيلة الفترة الاسلامية تعتبر مدينة متوسطة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة حسب التقاويم الاسلامية (40) نجدها عند حلول الاتراك بها تضمحل فلم يعد سكانها يتجاوزون 3000 نسمة حسب ما نستخلصه من معلومات الحسن بن الوزان التى تشير الى أنه كان بعنابة فى هذا الوقت حوالى 300 موقد لا غير (41) ، ويبقى الوضع هكذا حتى مستهل القرن السابع عشر بدليل أن دابر يصفها فى هذا الوقت بأنها مدينة صغيرة جدا • (42)

لكن عنابة لم تلبث أحوالها الاقتصادية أن تحسنت أثناء القرن السابععشر الميلادى اذ ارتفع عدد سكانها الى حوالى 8000 نسمة (43) ثم تبلغ أوج ازدهارها فى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى عندما أصبح عدد سكانها آنذاك يقدر بحوالى 12000 نسمة (44) ومن الراجح أن هذا النمو السكانى المطرد هو الذى جعل الباى صالح يعمد الى تشييد مسجد آخر بها عام 91 ـ 1792 ، بعد أن ظلت المدينة حسب ما تفيدنا به المصادر المتوفرة ليس بها من المساجد الكبرى ســوى جامع سيدى « أبى مروان الذى يعــود تاريخ بنائه الى سنة 1033 » • (45)

لكن هذا الازدهار لا يلبث أن يتلاشى بانخفاض عدد السكان فى أوائل القرن التاسع عشر الى حوالى 5000 نسمة وذلك لتأثرهم بالوباء الذى حل بالمدينة سنة 1817 (46) ثم استمر تناقص السكان بعد ذلك سريعا حتى لم يعد يتجاوز 1600 نسمة عشية الاحتلال ـ بعد أن تكاثرت الفتن الداخلية ـ وتكرر احتلال الجيوش الفرنسية للمدينة عدة مرات (47) ثم تعرضها للتخريب المتعمد من طرف العشائر المجاورة لها بغية ابعاد الفرنسيين عنها • وهكذا لم يعد يقيم بالمدينة بعد احتلال الفرنسيين لها وخروج كثير من العائلات منها طلبا للامن وهروبا من المحتل الغاصب سوى 1500 ساكن تلثاهم (48) من اليهود الذين تعاونوا مع المحتلين •

أما النشاطات الاقتصادية التى انعكست عليها كل هذه العوامل والاوضاع وما صاحبها من زيادة أو تناقص فى عدد السكان ، فتقوم فى مجملها على المنتوجات المختلفة التى يوفرها اقليم عنابة وتقوم عليها الصناعات اليدوية والمبادلات التجارية باعتبارها المادة الاولية والقاعدة الاساسية للاقتصاد •

ويمكن الالمام بهذه المنتوجات الاولية عن طريق تصنيفها حسب طبيعتها كما يلى :

أ ـ المنتوجات الحيوانية :

ومن أهمها الاصواف والجلود • فبفضل وجود كميات وفيرة من الصوف اشتهرت عنابة منذ مطلع القرن السادس عشر بحياكة الملابس والاقمشة، ونسج الاغطية والبرانس والمعاطف والزرابى والبرادع (49) ، ولعل هذه الاهمية التى اكتسبتها الصناعات النسيجية بعنابة العثمانية هى التى جعلت ابن الوزان يخص النساجين بالذكر دون سائر الصناع الآخرين (50) ، كما ان توفر الجلود بأسواق المدينة سمح لبعض الصناع بانتاج الادوات الجلدية المختلفة مثل السروج والاحذية والحافظات •

ومع أهمية هذه الصناعات المتعلقة بالاصواف والجلود الا أن الاهمية الحقيقية لهاتين المادتين الاوليتين تكمن فى كونهما من المواد التى يكثر الاقبال عليهما فى مجال التجارة الخارجية لا سيما وأن اصواف عنابة كانت تمتاز بجودة نوعيتها المعروفة عالميا بصوف قسنطينة (51) ، بحيث كانت كمية الاصواف المصدرة من ميناء عنابة سنويا وطيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر

تتراوح ما بين 10،000 (52) و 12000 (53) قنطار ، وقد بلغت فى فترات الرخاء 16000 (54) قنطار • وكان يباع القنطار الواحد منها من فئة 130 رطلا بـ 16 قرشا (55) بالاضافة الى تصدير 50،000 قطعة من جلد البقر سنويا الى البلاد الاوروبية • (56)

ـ **المنتوجات الغابية** من أخشاب وعسل وشمع :

أما الاخشاب فتعتبر مادة أولية تدخل فى الصناعة اليدوية البسيطة وتندرج ضمن المواد المصدرة كذلك ، وهى فى مجملها تجلب الى عنابة من المناطق الغابية المحيطة بها مثل غابات ايدوغ وبنى صالح والقالة وسيبوز وقد امتازت أخشاب هذه المناطق بجودة أنواعها وملاءمتها لاعمال البناء وصنع السفن الشراعية وهذا ما ساعد على صنع الزوارق والسفن الصغيرة بميناء عنابة منذ العهد الحفصى (57) ، وجعل الانكليز يحرصون على الحصول على امتيازات تخول لهم قطع الاخشاب واستيرادها مقابل رسم سنوى يقدر بـ 200 ألف فرنك سنويا • (58)

أما العسل والشمع فهما من المواد النادرة التى يقبل الاوروبيون على استيرادها ولهذا بادرت حكومة الايالة الجزائرية آنذاك الى احتكار تجارتهما واعطاء حق تصديرهما لشركات أجنبية مثل الشركة الملكية الافريقية الفرنسية مقابل رسوم جمركية مرتفعة • وبذلك كان يصدر ميناء عنابة عادة ما بين 300 الى 400 قنطار من الشمع والعسل سنويا وهى نفس الكمية التى كان يصدرها ميناء الجزائر آنذاك • (59)

ح ـ المحاصيل الزراعية :

على اختلاف أنواعها وتعدد أصنافها وبها اشتهرت عنابة حتى وصفت بأنها بلاد « بها خصب ورخص وفواكه وبساتين قريبة ••• والقمح والشعير فى أكثر أوقاتها مما لا قدر له » (60) وتعتبر الحبوب أهم المحاصيل الزراعية على الاطلاق ، وذلك للكميات الضخمة التى تصدر منها والتى غالبا ما تتجاوز 40 حمولة (61) أى ما يعادل 16000 (62) قيسة من الحبوب ، وقد تبلغ فى السنوات الخصيبة 100،000 صاع (63) بحيث أصبح ميناء عنابة يحتل الرتبة الاولى مع ميناء الجزائر فى تصدير الحبوب من قمح وشعير

ويتفوق بكثير على باقى الموانىء الاخرى مثل أرزيو الذى يصدر منها عادة 30 حمولة سنويا، ودلس التى تبيع للخارج كل سنة ما بين 2 و 3 حمولات (64) ، وتذهب أغلب كميات الحبوب المصدرة وهى ما بين 6 و 8 آلاف قيسة من ميناء عنابة الى مرسيليا مباشرة لتسد احتياجات أسواق فرنسا الجنوبية من هذه المادة ·

أما المحاصيل الزراعية التى تضاءلت فى العهد العثمانى بنواحى عنابة فتتمثل فى منتوج الكتان الطبيعى ومحصول شجر العناب فالكتان الذى كان يزرع بكثرة فى السهول المحيطة بالمدينة ، ويمد العاملين فى نسج القماش بالمادة الاوليـــة ، تضاءلت أهميتـه واستعيض عنه بالصوف والوبر التى وفرتها الحياة الرعوية · وبذلك لم تعد المصادر تشير فى العهد العثمانى اليه بعد ما أكدت على أهميته كثير من المصـــادر فى الفتـــرة الاسلامية مثل البكرى وابن سعيد المغربى والادريسى وغيرهم · وكذلك الشأن بالنسبة لثمر العناب الذى لم يعد سكان عنابة يقبلون على تجفيفه بغية استهلاكه ، منذ القرن السادس عشر الميلادى ·

د ـ المـواد المعدنيـــة :

وتتمثل أساسا فى معدنى النحـاس والحديـــد وذلك لتوفرهمـا بكثرة فى الجهات القريبة ، فالنحاس كان يستخرج من نواحى عين باربار بسفوح ايدوغ الشماليـــة · أما الحديد فتقع مناجمه فى أماكن متفرقة مثل قطع الحديد الذى يعرف الآن ببوحمرة ومناجم مجاز الرسول وعين أم الرخاء وحريزاز ومعجوبة (65) ·

ومما يلاحظ أن أهمية هذين المعدنين تستنتج مما كتبه الرحالة المسلمون مثـــل ابن سعيد الذى ذكر بأن بظاهر عنابة معادن حديد (66) ، والادريسى الذى أشار أن بها معادن حديد كثيرة (67) ، وكذلك الشأن بالنسبة لابن حوقل الذى أكد ذلك بقوله : بأن « بها معادن حديد كثيرة ويحمل منه الى الاقطار الغزير الكثير » · (68)

ومن المؤكد أن أغلب الصناع تحولوا تدريجيا عن معالجة مادة النحاس والحديد بعد أن أصبحت مغانم القرصنة توفر حاجة السوق الداخلية من النحاس والحديد الجاهـز للاستعمال ، وهذا هو السبب فى سكوت المصادر المتعلقة بعنابة عن ذكر هذين المعدنين الضروريين طيلة الفترة العثمانية ·

على أن الشيء الذى نستنتجه من ذكر هذه الانواع المختلفة من المنتوجات والثروات التى كانت تساهم بها عنابة فى التجارة الدولية لذلك العصر ؛ يكمن فيما يلى من النقاط :

1 ـ ممارسة الحكومة التركية المتمثلة فى أجهزة البايلك المختلفة بمدينة عنابة لنوع من الاحتكار يخولها صلاحية شراء المواد الاولية من الاهالى بأسعار معددة وبيعها بعد أن يتم جمعها فى مخازن البايليك الى التجار الاوروبيين والشركات الاجنبية بثمن مرتفع نسبيـــــا ٠

ففى هذا المجال كان يحتكر البايليك شراء الصوف من المنتجين بـ 8 قروش ليبيعها مجددا للشركات الاوروبية بـ 10 قروش للقنطار الواحد (69) ٠

كما كان وكيل الخرج له حق احتكار شراء الجلود بسعر 6،7 موزونة للجلد الصغير و 8،9 موزونة للجلد الكبير ثم يبيعها مرة أخرى للتجار الاجانب بثمن لا يقـل عـن 30 موزونة لقطعة الجلد سواء كان كبيرا أو صغيرا (70) ٠ أما القمح فان الثمن المحددله فى رحبة عنابة (السوق الاسبوعية) هو 8،80 قروش وبه يتقيد رجال البايليك عنـد شرائهم لكميات الحبوب ، ثم يصدرونها مرة ثانية للشركات الاوروبية ، بثمن لا يقل عـن 26،30 قرشا (71) ٠ ونفس الاسلوب يتبعـــه رجال البايليك بالنسبة لمادة الشمـع فيجمعونها من الاهالى مقابل 60 بدقة شيك للقنطار الواحـــد ، ثـم يصدرونه للتجار الفرنسيين بثمن يقدر بـ 163 بدقة شيك ٠ (72)

2 ـ أوجدت المواد الاولية المصدرة من ميناء عنابة نوعا من العلاقات التجاريـــة مع أوروبا كان لها تأثير كبير على اقتصاديات الشرق الجزائرى كله وذلك منذ بداية القرن السادس عشر عندما تزايد نشاط التجار الفرنسيين بميناء عنابة بعد أن تمكن « صانصون نابولون » من عقد معاهدة سلم وتجارة مع ديوان الجـزائر بتاريخ 20 سبتمبر 1628 ، سمحت للفرنسيين بالتمركز فى الحصن التجارى الواقع غرب القالة بحوالى 10 كلم والمعروف بحصن فرنسا، كما سمحت لهم هذه المعاهدة أيضا بفتح وكالة تجارية فرنسية بعنابة مقابل رسم سنوى يدفعونه للداى يبلغ 26000 دوبل ، مع التعهد بدفع المصاريف الاضافيـة المتعلقة بصيانة ورعاية مركزهم التجارى وهى تبلغ حسب نصـــوص هــذا الاتفاق

133.74 جنيه فرنسي ، تتكفل وكالة عنابة بتسديـــد قسط منـــه يقدر بـ 13،300 جنيه • (73)

وبمرور الوقت تدعمت العلاقات بين عنابة ومرسيليا بعد ما تحصلت الشركة الملكية الافريقية التى تأسست بأمر ملكى سنة 1741 ؛ على حق تصدير المواد الاولية الرئيسية ، بالاضافة الى الحبوب والصوف والشمع والعسل والمرجان مقابل رسم سنوى تتعهد به الشركة للجمارك الجزائرية تبلغ قيمته 7000 جنيه فرنسى أو ما يعادل 14،000 دوبل اسبانى • (74)

ثم حلت هذه الشركة بقرار من لجنة السلامة العامة سنة 1794 بغية تصفية الامتيازات الفرنسية المعادية لها فى الخارج ، وأعقب ذلك انقطاع العلاقات بين الجزائر وفرنســا أثناء الحروب النابوليونية فاغتنم الانكليز الفرصة وتحصلوا على نفس الامتيازات التى كانت للفرنسيين • لكن تحسن العلاقات من جديد بين فرنسا والجزائر سمح بعودة المصالح الفرنسية الى منطقة عنابة بفضل معاهدة مارس 1817 وأسسوا لهذا الغرض الوكالة الافريقية المؤقتة l'Agence Provisoire d'Afrique سنة 1818 ثم عوضت فيما بعد بـ مؤسسة بارى maison de Paret سنة 1822 • (75) فبادرت هذه المؤسسة الى تنصيب وكيل تجارى لها يمثلها ويرعى مصالحها بعنابة بعد أن تحصلت من الداى على حق تصدير المواد الاولية من صوف وجلود وشمع ومرجان (76) مقابل مبلغ مالى قدر بـ 30 ألف قطعة ذهبية من صنف الدولار الاسبانى أو الريال الفرنسى يأخذ منه قائد عنابة وشيوخ القبائل المجاورة نصيبا متعارفا عليه مقابل الخدمات التى يقومون بها ، لكن فرض الحصار الفرنسى على السواحل الجزائرية أدى الى انهاء النشاط التجارى للمؤسسة بعنابة فى شهر جوان من عام 1827 •

3 ـ سمح النشاط التجارى للتجار والشركات الاوروبية التحكم فى السوق التجارية بعنابة بحيث أصبحت الشركة الفرنسية هى التى تقوم بتحديد أسعار المواد الاوليـــة القابلة للبيع مثل تحديد سعر القمح بـ 22 قرشا وسعر الشعير بـ 8 قروش وسعـــر الفول بـ 14 قرشا للقفة الواحدة سنة 1786 (78) • وهذا ما أدى بطبيعة الحـــال الى اختفاء بعض المواد الاستهلاكية الضرورية من أسواق عنابة فى وقت كانت تصدر فيه

الكميات الضخمة من الحبوب الى الخارج · ففى سنة 1787 مثلا والتى عرف فيها الشرق الجزائرى ظروفا اقتصادية صعبة تـم شحن 33 سفينة بالحبوب الى الموانىء الاوروبية من عنابة (79) ، وترتب على ذلك كله ممارسة نوع من التجارة غير المشروعة القائمة على التهريب والتحايل على الجمارك الجزائرية بعنابة، ورغم اصدار الاوامر المشددة والقرارات القاضية بمعاقبة كل مهرب بالاعدام (80)، كان وكلاء الشركة الافريقية الفرنسية يعمدون الى الحصول على ما يحتاجونه لسد حاجات السوق الفرنسية الجنوبية عن طريق المضاربات المحضورة · حتى ان ثلثى تجارة الشمع والعسل المقدرة فى مجملها بـ 300 قنطار سنويا كانت تتم بواسطة عمليات التهريب والمضاربات · (81)

4 ـ اما نتيجة هذا الوضع التجارى بمدينة عنابة العثمانية فقد كانت له آثـــار سلبية على حياة السكان المحليين وذلك بفعل مزاحمة الاجانب لاصحاب البلد فى كـــل الاعمال التجارية · وقد تسبب هذا الوضع فى اختفاء الطبقة التجارية الموسرة بالمدينـة بعد ما آلت كل الصفقات المربحة والمبادلات الهامة الى أيدى التجار الاجانب من فرنسيين ويهود بفضل الامتيازات التى كانوا يحظون بها من عمال البايليك ، وهذا ما جعـــل الاتصال مع الخارج محدودا فى المجال التجارى المحض ، فهو لم يساعد على خلق جو من التفاعل الحضارى والتبادل الثقافى البناء وبالتالى لم يساهم مثل هذا النشاط الناتج عن الوضع التجارى لعنابة فى رفع مستوى سكانها الذين ظلـــوا يعانـــون الشقـــاء والفقـر (82) · حتى بشهادة كتاب أوروبيين عـرفوا بتحيزهم ومجاراتهم للمصـــالح الاستعمارية · (83)

5 ـ كانت عنابة العثمانية بغض النظر عن الآثار السلبية للنشاط التجارى المتصل بالاحتكارات الاجنبية تعتبر مكانا مفضلا لكثير من الصناع يزاولون فيه الصناعـــات اليدوية المختلفة التى أتخذت فى تنظيمها شكل مجموعات حرفية ذات طابـــع نقابى يتمركز كل فرع منها فى شارع خاص به مثـــل الاسواق الخاصة بالخزازين والنجارين والخزافين وبائعى البرانس والحدادين(84)وبذلك كانت عنابة تعتبر من هذه الزاوية احدى الاسواق الرئيسية بالشمال الافريقى فضلا عن أنها كانت حلقة وصـــل بـين الجهات الشرقية للايالة الجزائرية وباقى الاقطار الاسلامية والاوروبية الواقعة على ضفاف البحر المتوسط وقد ساعدها على بلوغ هذه المنزلة ما كان يمتاز به سكانها من وداعة وحسن معاشرة وحفاوة بكل مسافر أو غريب · (85)

التعـاليق والهـوامش

(1) راجع خريطة موقع مدينة عنابة العثمانية الملحقة بالمقال ·

(2) G. Marçais : Al Annaba, in, Encyclopédie de l'Islam. Nouvelle édition, Brill-Leyde 1960

(3) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ليبزغ 1869 ·

(4) أبو عبيد الله البكرى ، المسالك والممالك ، جزء : المغرب فى ذكـر بـلاد افريقيا والمغرب باريس 1965 ·

(5) Léon l'Africain (J.) : Description de l'Afrique ; 2e tome, Nouvelle édition, tra. par A. Epaulare, A. Maisonneuve, Paris 1956, p. 370.

(6) نفس المصدر ، ص 370 ·

(7) البكرى ، نفس المصدر ·

(8) M. Rozet : Voyage dans la Régence d'Alger ; Paris 1833, T. III, p. 302.

(9) D'O Dapper D.M. : Description de l'Afrique ; Amsterdam 1684, p. 187.

(10) Perrot, A.M. Alger : Esquisse Topographique et Historique, p. 25.

(11) Madame Chollet née Duché : Bône de 1830 à 1881, Diplôme d'Etudes Supérieures, Alger 1952, Ch. I, p. 4.

(12) M. Rozet : op. cit. T. III, p. 302.

(13) Peyssonnel et Des Fontaines : Voyages dans la Régence de Tunis et d'Alger, publiées par M. Dureau de la Malle, Gide, Paris 1838, T. II, p. 219.

(14) Rozet, op. cit., T. III, p. 303.

(15) Perrot, op. cit., p. 25.

(16) Peyssonnel et Des Fontaines, op. cit., p. 219.

(17) Perrot, op. cit., p. 25, Peyssonnel et Des Fontaines, op. cit. p. 219.

(18) Pellissier : Annales algériennes - Laguionie, Paris, T. I, p. 227.

(19) Rozet, op. cit., T. III, p. 307.

(20) Peyssonnel et Des Fontaines, op. cit., p. 219.

(21) راجع خريطة اقليم عنابة الملحقة بالمقال ·

(22) Léon l'Africain, op. cit., p. 370.

(23) عن أبى سعيد المغربى ، نقلا عن القلقشندى ، صبح الاعشى ، الباب الرابع الجزء الخامس ، القاهرة ، 1922 ، ص 106 ·

(24) صاحب الاستبصار فى عجائب الامصار لمؤلف مجهول ط فوز كريمر ، فيما 1852

(25) نفس المصدر ·

(26) أبو القاسم بن حوقل النصيبى ، المسالك والممالك والمفاوز والمهالك ، المعـروف بصورة الارض ط · دار الحياة ، بيروت بدون تاريخ ، ص 77 ·

(27) الشريف الادريسى ، وصف شمال افريقيا والصحراء المقتبس من نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق من طرف هنرى بريس ، ص 85 ·

(28) F. Elic de la Primaudaie : Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête française, Revue algérienne et coloniale, T. II, 1860, p. 120.

(29) محمد العبدرى البلنسى ، الرحلة المغربية ، المعروفة : بما سما اليه الناظر المطرق فى خبر الرحلة الى المشرق ، تحقيق ونشر أحمد بن جدو ، مطبعة البعث ـ قسنطينة منشورات كلية الآداب الجزائر ، ص 33 .

(30) الادريسى ، نفس المصدر ، ص 85 .

(31) العبدرى ، نفس المصدر ، ص 33 .

(32) أبو عبيد الله البكرى ، نفس المصدر .

(33) الشريف الادريسى نفس المصدر ص 85 .

(34) Berbrugger : Mémoire sur la peste en Algérie depuis 1552 jusqu'à 1819. p. 211-215 et 229. d'après EA. Ch. CM.

(35) Guyon : Sur la peste d'Alger de 1817 - 1818, n° 108.

(36) Berbrugger, op. cit., p. 226.

(37) Valensi : Le Maghreb avant la prise d'Alger. Venture de Paradis, p. 18.

(38) نفس المصدر ، ص 22 ، والنص الفرنسى يرد العبارة بهذا السياق :

« on s'aperçoit péniblement des ravages qu'elle (la peste) y a faites, si on considère que les deux tiers des maisons de la ville sont fermées ».

(39) Hamdan Ben 'Athman Khodja : Le Miroir. p. 134.

(40) راجع ابن حوقل ، نفس المصدر ، ص 77 .
الادريسى ، نفس المصدر ، ص 85 .

(41) Léon l'Africain, op. cit. p. 370.

(42) D'O Dapper D.M. : Description de l'Afrique, Amsterdam, 1684. p. 187.

(43) D. Shaw : Voyage de M. Shaw, tra. Carthy, Paris 1830, p. 344.

(44) Perrot, op. cit. p. 26.

(45) مع العلم بان سعة المساجد وعددها كان يتماشى مع أهمية المدن الاسلامية ونمو سكانها .

(46) Perrot, op. cit. p. 26.

(47) احتل الفرنسيون مدينة عنابة لاول مرة فى 12 صفر 1246 ، ثم خرجوا منها فى 28 صفر من نفس السنة (1830) بأمر من قائد الجيوش الفرنسية بالجزائر الجنرال داموريمون ثم رجعوا مرة ثانية ـ فى 5 ربيع الثانى 1247 ، ثم خرجوا منها مرة أخرى فى 2 شوال 1247 (1832) وعند ذلك بادرت العشائر المجاورة لها بتخريبها بعد أن خرج ما كثر من سكانها ثم عاد بيها الفرنسيون للمرة الاخيرة سنة (1832) .

(48) Tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie, 1832.

(49) D. Shaw : Traduction Carthy, p. 344.

(50) Léon l'Africain. op. cit., p. 370.

(51) De la Primandaie, op. cit., p. 121.

(52) D. Shaw, op. cit. p. 344.

(53) Piquet aperçu sur l'état d'Alger ; Tableau des objets exportés et des lieux d'exportations p. 177.

(54) Boutin : Reconnaissance des villes, fonts et batteries d'Alger (1808). Publ. par G. Esquer 1927, p. 78.

(55) De la Primandaie, p. 121.

(56) D. Shaw : op. cit., p. 344.

(57) H.R. Idris : La berbérie orientale sous les Zirides, X^{e} - XII^{e} siècle, T. II, p. 494.

(58) Louis de Baudecour : La colonisation de l'Algérie, ses éléments, p. 53.

(59) Venture de Paradis, p. 21.

(60) ابن حوقل ، نفس المصدر ، ص 77 .

(61) Venture de Paradis : Alger au $XVIII^{e}$ (18^{e}) siècle, Fagnan, Alger 1898, p. 21.

(62) Shaler (W.) : Esquisse de l'état d'Alger (tra. Bianchi) Paris Iadvocat 1830, p. 102.

(63) Shaw, p. 344.

(64) Venture de Paradis, op. cit., p. 21.

(65) Baron Bande : L'Algérie, T. I. M. Chollet, 5^{e} point, les sources minières de la province de Bône.

(66) ابن سعيد المغربى نقلا عن القلقشندى . ص 106 .

(67) الشريف الادريسى ص 85 .

(68) ابن حوقل ، ص 77 .

(69 - 70) Venture de Paradis, op. cit., p. 19.

(71 - 72) Venture de Paradis, p. 20 - 21.

(73) Bouyac : Histoire de Bône.

(74) E. de la Primandaie, p. 121.

(75) Masson (P.) : A la veille d'une conquête, concessions et campagne d'Afrique, p. 108.

(76) Ch. A. Julien : Histoire contemporaine d'Alger d'après document au ministère de l'intérieur, 23 août 1827.

(77) Shaler, op. cit., p. 102, Shaw, p. 344.

(78) Venture de Paradis, op. cit., p. 21.

(79) Venture de Paradis, op. cit., p. 22

(80) Blondel (L.) : L'aperçu sur la situation politique, p. 54.

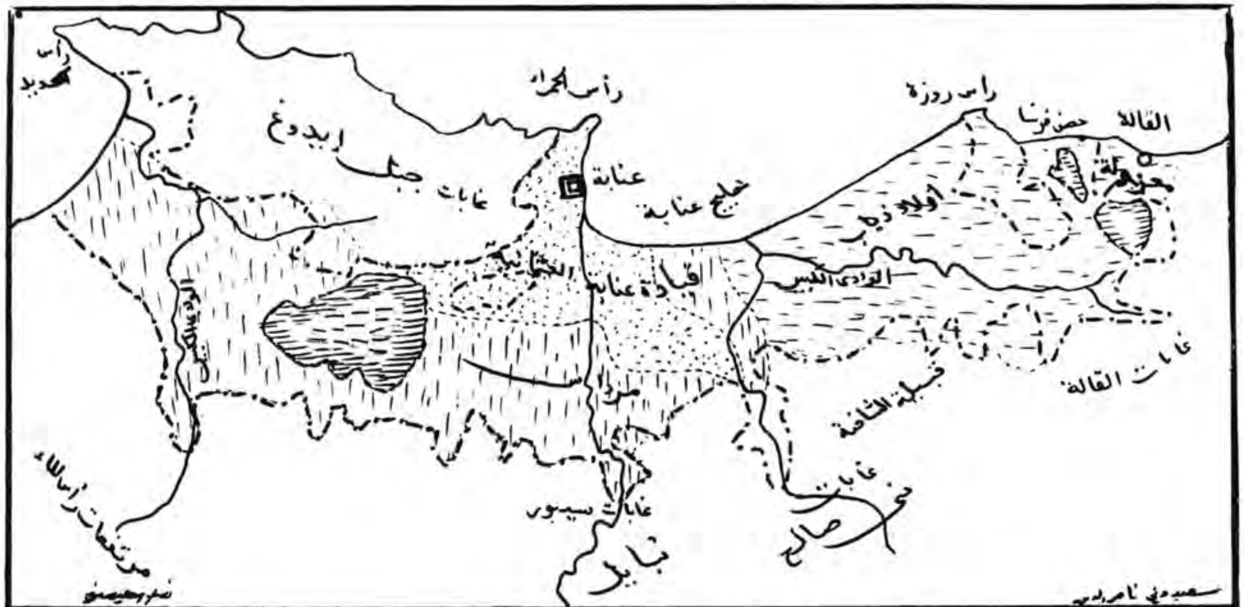
(81) Venture de Paradis, op. cit. p. 20.

(82) Perrot, op. cit., p. 26.

(83) Peyssonnel, op. cit., p 221.

(84) Chollet, T. I, op. cit., p. 45.

(85) Peyssonnel, op. cit., p. 221.



1- خريطة اقليم عنابة العثمانية

-.-.-.- حدود بسهل عنابة.

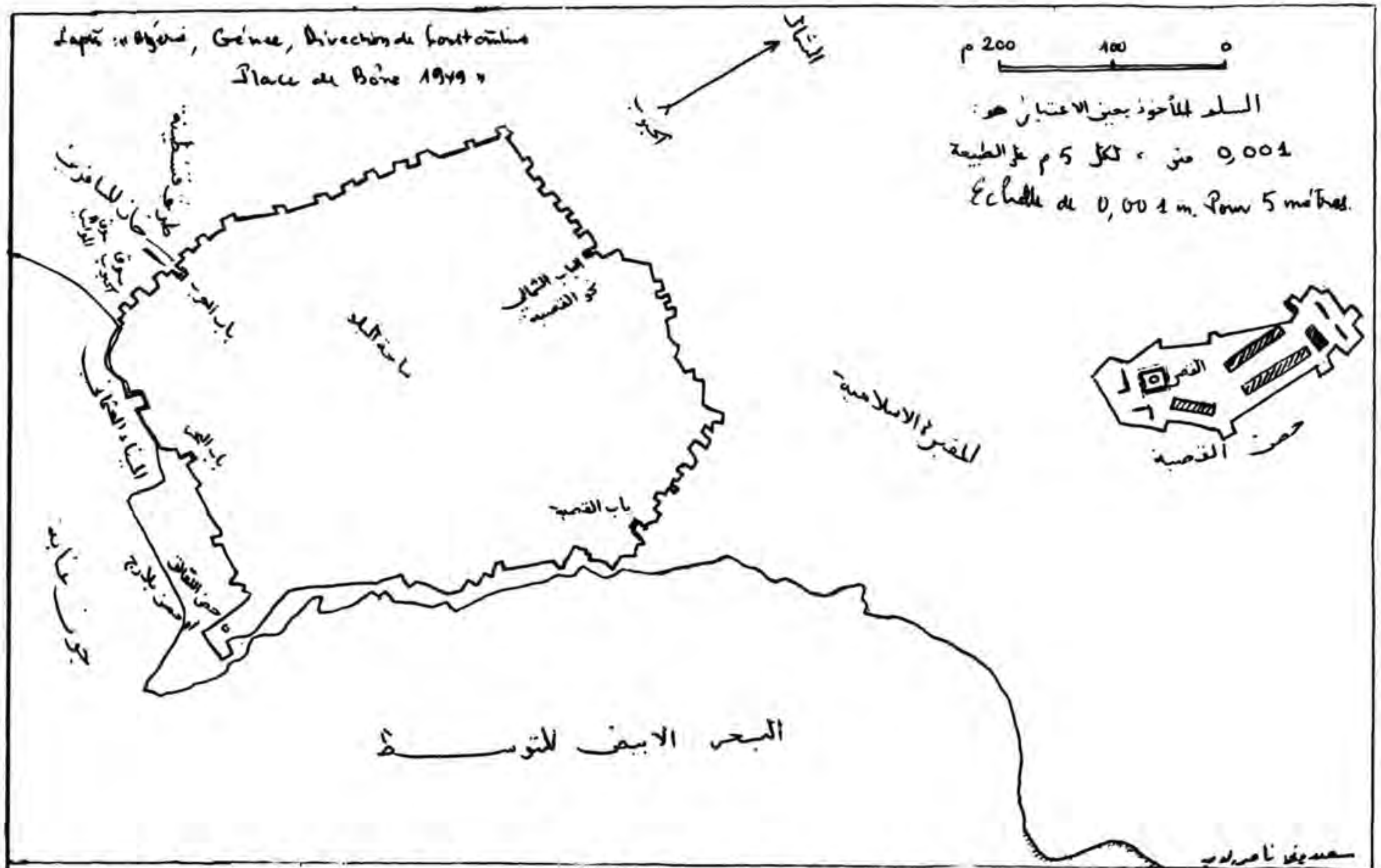
- أراضي تملكها عائلات المخزن

- أراضي تعيش عليها قبائل الرعية.

- أراضي تابعة لقبائل حليفة ومتعاونة.

- أراضي تقيم بها قبائل مستقلة وممتنعة عن الحكام الاتراك بباياليك الشرق.


2- خريطة عنابه العثمانية
و ضواحيها
حسب مواصفات الجنرال الملازم بيلي
M. lieutenant Général Pelet
Paris 1837, Echelle 1/12500 سلم
كثبان رملية
مستنقعات ومياه آسنة
حصن القصبة
المرجة
حصن اللقالق
نهر سيبوز



3- خريطة عنابة العثمانية (حسب مصلحة الأعمال الهندسية المحلية بتاريخ 1949).

حول ثلاثة أحداث غير معروفة من

العلاقات التاريخية بين عنابة واسبانيا

د • ميكـال دى ايبـالزا
استاذ بجامعة مدريد
ترجمة : د• عبد الحميد حاجيات

لا شك ان العلاقات التاريخية بين عنابة وناحيتها وبين السواحل المتوسطية من شبه جزيرة ايبيريا والجزر الشرقية (الباليار) ، قـد بدأت منذ عصر ما قبـل التاريخ • ويرجع استمرارها بصفة خاصة الى موقع المنطقتين الجغرافى ، على ضفتى بحر واحد ، هو البحـر الابيض المتوسط • وقد استقرت امبراطوريات مختلفة على شاطىء الحوض الغربى للبحر المتوسط ، فى الفترة التاريخية التى سبقت الاسلام ، مما أدى الى اقامـة علاقات بين ناحية عنابة وشبه جزيرة ايبيريا •

فالفينيقيون والقرطاجيون قدموا من شمال افريقيا الى اسبانيا ، وكذلك الرومان ، فانهم أقاموا امبراطوريتهم فى كلا المنطقتين • كما كان للمسيحية الافريقية والمسيحية الاسبانية علاقات متواصلة ، فالقديس أوغسطين ، الذى كان ابن هذه الارض المغربية ،

والذى يحظى مع ابن خلدون بشرف تمثيل شمال افريقيا من بين عباقرة الفلسفة العالمية ، كان معروفا باسبانيا ، مثلما كان يعرف فى افريقية الاسبانيان برودانس وايزيدور · ثم ظهر تياران سياسيان متعاكسا الاتجاه ، ساهم كلاهما فى التوحيد بين المنطقتين ، وذلك حينما قدم الوندال بقيادة جنسريك ، من اسبانيا ، واستقروا بعنابة قبل أن يغزوا قرطاجة ، وأقبل البيزنطيون من قرطاجة ، فاحتلوا مدة المنطقة الشرقية من شبه جزيرة ايبيريا ، أيام مملكة القوط ·

وفى العصر الاسلامى ، كان من شأن المنطقتين أن قطعتا مسيرة متوازية ، وربطت بينهما أواصر الاخوة المتواصلة ، سواء تحت سلطة سياسية واحدة ، كما كان الامر أيام ولاة القيروان فى القرن 2هـ/8م ، أو تحت سلطتين متعاديتين ، كما كان الامر فى القرن 4هـ/10م ، أيام الخلافتين الفاطمية والاموية · وليس فى الامكان أن نلخص فى بضعة أسطر فترة تسعة قرون ، امتازت بنزول كثير من الاندلسيين بعنابة ، مما يتطلب القيام بأبحاث عديدة ، قصد ابراز العلاقات التى كانت تربط بين القطرين ، طيلة العصر الوسيط الاسلامى · (1)

وعلى سبيل المثال ، نشير الى أحد الاندلسيين المتأخرين والمشهورين ممن مروا بعنابة ، وهو العالم الرياضى القلصادى ، المتوفى فى باجة سنة 891هـ/1486م · (2)

1) النصوص والدراسات المتفرقة ، فى هذا الموضوع ، كثيرة جدا · وتحتوى مجلة الاصالة على مجموعة هامة منها ، فى عددها الخاص بمدينة بجاية ، الذى صدر بمناسبة انعقاد الملتقى الثامن للتعرف على الفكر الاسلامى (1974) · وقد ورد ذكر دراسات هذا العدد ، الخاصة بالاندلسيين ، فى الدراسة البيبليوغرافية التى أجراها الاساتذة م. ابن على ، م. دى ايبالزا ، و أ. قفصى ، تحت العنوان التالى :

Produccion tunecina y argelina sobre historia de Espana desde la independencia (1956 y 1962), "Indice Historico Espanol" (Barcelona), vol. XV (1969/1975), pp. XI - LXIII.

أما القسم الجزائرى من هذه الدراسة البيبليوغرافية فقد أعد بالعربية والفرنسية ، وهو حاليا تحت الطبع ، وتنشره المكتبة الوطنية بالجزائر · هذا ، ويقوم حاليا الاستاذ الجزائرى أ. درارجة ، فى جامعة غرناطة ، بابحاث حول الاندلسيين الذين نزلوا المغرب الاوسط ·

2) م. سويسى ، **عالم رياضى اندلسى تونسى** : القلصادى ، « حوليات الجامعة التونسية » (تونس) ، عدد 9 (1972) ، ص 33 — 50 ؛ ولنفس المؤلف :

Un mathématicien tuniso-andalou : al-Qalasâdi, dans Actas del II Coloquio Hispano Tunecino de Estudios Historicos (Madrid/Barcelino, Mayo de 1972), Madrid, 1973, pp. 146 - 169.

وكمساهمة متواضعة لمعرفة هذا التاريخ الطويل الذى يربط بين عنابة واسبانيا ، يقتصر هذا المقال على تقديم بعض الوثائق المجهولة أو التى لا يعرف عنها الا الشىء القليل ، حول ثلاث فترات مختلفة من هذه العلاقات ، وهى :

ا) الاحتلال الاسبانى لعنابة فى القرن 10هـ/16م ·

ب) هجرة الاندلسيين الى ناحية عنابة فى القرن 11هـ/17م ·

ج) الازمة التى سادت العلاقات بين الجزائر واسبانيا ، والتى تسبب فى حدوثها أحد سكان جزيرة ميورقة ، فى مدينة عنابة ، فى القرن 13هـ/19م ·

فهذه الاحداث الثلاثة تمثل مختلف جوانب التاريخ المشترك بين القطرين ، وتفتح آفاقا جديدة أمام الدراسات والابحاث التى ينبغى القيام بها فى مجال التاريخ الجزائرى الاسبانى فى العصر الحديث ·

ا) الاحتلال الاسبانى لعنابة فى القرن 10هـ/16م ·

فى مدة وجيزة من الحرب الطويلة والشاقة ، التى قامت بين اسبانيا المسيحية والمغرب الاسلامى ، وقع احتلال عنابة من طرف الجيش الاسبانى · ولا تزال بعض آثار التحصينات الاسبانية ماثلة للعيان فى قلعة المدينة ، الا أن كثيرا من المؤرخين يغفلون غالبا عن ذكر عنابة ضمن المدن المغربية التى احتلها الاسبانيون (3) · والحقيقة أن عنابة كانت تمثل مركزا هاما فى اطار السياسة العدوانية التى انتهجتها اسبانيا فى المغرب ، والرامية الى مراقبة الملاحة المتوسطية ونفاذ الاقطار المغربية الى ذلك البحر المشترك ·

---

3) فمن بين المؤلفات العامة ، نذكر مثلا : M. Gaïd : L'Algérie sous les Turcs. Tunis, 1974. الذى لا يشير الى الاحتلال الاسبانى لعنابة ، ونذكر كذلك :

Ch. A. Julien : Histoire de l'Afrique du Nord ; Alger 1975.

الذى يغفل ذكر عنابة ضمن قوائم المدن المحتلة ، ولا يشير الى احتلال عنابة الا عرضا · غير أن أحمد توفيق المدنى ، فى كتابه : **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492 ــ 1792)** ، (الجزائر 1968) ، يخصص لذلك فصلين صغيرين (ص 141 ــ 142 239 ــ 240) ليس فيهما تفاصيل كثيرة ·

ولا يعرف عن تاريخ هذا الاحتلال الا القليل ، خلافا لعدد كبير من المدن المغربيـــة ، مثل سبتة ، مليلـة ، المرسى الكبـــير ، وهران ، شرشـــال ، الجزائـــر ، بجايـــة ، بنـــزرت ، حلـــق الوادى ، تونس ، قليبيـــة ، منستـــير ، المهديـــة ، جربـــة ، أو طرابلس • غير أن الوثائق لا تعوزنا بالاندلس ، واذا ما أجرينا تحقيقا حـــول الارشيفات العامة بسيمنكاس ـ التى تحتوى على كنوز من نفائس الوثائق المتعلقـــة بالسياسة المغربية لعهد كارلوس الخامس ـ ، وتصفحنا فهرست قسم « الحرب القديمة »، تمكنا من اضافة معطيات جديدة الى ما كان معروفا من الاخبار • (4)

وأغلب هذه الوثائق تشتمل على أخبار حول التكاليف التى كان يتطلبها بقـــاء الجيش الاسبانى بعنابة (5) ، والاشغال التى كان ينبغى انجازها لابقاء الحصن بكـــل امكانياته الدفاعية ضد أى هجوم للمسلمين عن طريق البحر أو البر (6) ، وتجارة المرجان التى شرع الاسبانيـــون فى استغلالهـــا (7) ومختلف تعيينـــات الموظفـــين والعسكريين (8) • فهذه الملفات ، وغيرها مما لم تتم بعد فهرسته ، تمكننا من الاطلاع على مظاهر جديدة أو محلية للحياة المنعزلة التى كانت تعيشها الحاميات الاسبانيـــة فى المغرب (9) • والظاهر أن وضعية عنابة كانت تشبـــه شيئا ما وضعية بجـــاية ، آنذاك ، وان كانت لم تصلنا عن عنابة وثائق تبلغ أهميتها المحفوظات التى بلغتنا عن

---

4) راجع :

C. Alvarez Teran : Catalogo XVIII del Archivo General de Simancas , Guerra y marina, vol. 1, Epoca de Carlos I de Espana y V de Alemania, Valladolid, 1949.

5) راجع :

A.G.S. : (Archives Generales de Simancas), Seccion "Guerra Antigua", leg II (1536), IX (1536), XIII (1538), XIV (1539), XV (1539), XVI (1539) XVII (1540). XXIV (1538), XXIX (1546), LVIII.

6) راجع : A. G. S. : Ibid., leg. XIV, XVI, XVII.

7) راجع : A. G. S. : Ibid., leg. XIII

8) راجع : A. G. S. : Ibid., leg. XVI et passim.

9) أحسن دراسة حادية حول حصن من هذا النـــوع هى التى تخص مـــدينة ساحلية بالمغرب الاقصى (العرائش) • وهى الدراسة التالية : T. Garcia Figueras

— C. Rodriguez - Joulia Saint Cyr : Larache, Datos para su historia en al Siglo XVII Madrid, 1973.

بجاية (10) ، غير أن محاكمة قائد الحصن ، المدعو الفارو قومس « الزجل » ، بتهمة تجاوز السلطة والقساوة ، تنبئنا عن البيئة الشاذة التى كان يعيش فيها أولئك العبيد الجنود فى أرض أجنبية • (11)

هذه صفحة مجهولة للتاريخ المشترك بين عنابة واسبانيا ، وهى جديرة بأن تكون موضوعا لدراسة وافية ، اعتمادا على الوثائق الاسبانية والعربية والاجنبية ، بالاضافة الى الدراسة الاثرية للآثار الاسبانية الماثلة ضمن البناءات العسكرية للمدينة الحالية •

ويتطلب هذا ، بصفة عامة ، من الباحثين الاسبانيين والجزائريين أن يقوموا بأبحاث تاريخية فى اتجاهين ، وأن ينجزوا هذا العمل جميعا ، حول تاريخهم المشترك •

فالاتجاه الاول أكثر تقنية ، وينبغى أن يدور حول دراسة وحفظ الآثار العسكرية الاسبانية فى المغرب ، من العصر الوسيط (وخصوصا على يد الصناع الاندلسيين) الى العصر الحديث (وهران ، والمرسى الكبير ، وسبتة ، ومليلة) عبر العهد الامبراطورى فى القرن 10هـ/16م • وتنتمى هذه الآثار الى تراث المغرب ، مثلما تنتمى اليه الآثار الرومانية • كما أنها أيضا صلة تربط تلك الآثار بالثقافة الاسبانية ، وبامكان هذه الاخيرة أن تعتبره تابعة لها ـ وذلك أن الفن العسكرى ، رغم الشذوذ الظاهر وأصله العدوانى ، يمكن أن يعد عنصرا من عناصر الثقافة ، ولا سيما عندما يفقد هدفه التقنى

10) فيما يتعلق بالازمات الداخلية التى عرفتها الحامية الاسبانية فى بجاية ، نجد وصفا حسنا لتلك الازمات من طرف شاهد عيان تحدث عن تخلى الاسبانيين عن المدينة • راجع :

— C. Fernandez Duro : Perdida de la cindad de Bujia, en Africa, ano 1555, referida por un clérigo vizcaino, testigo de vista, "Boletin de Real Academia de la Historia" ; Madrid vol. 38 - 39 (1901), 465 - 537.

وهناك وثيقتان غير مطبوعتين ، يمكن لنا أن نتبين من خلالهما التنظيم الداخلى للمدينة . من الناحية المدنية A. G. S. . Seccion "Guerra Antigua", leg XXV ; Sec. Camara de Castilla, leg. 48 (1084)

ومن الناحية الدينية A.G.S. Seccion "Guerra Antigua", leg. XXI هذا . وهناك أيضا وثائق عديدة وهامة جدا ، بسيمنكاس ، تخص مدينة عنابة ، قد نسخت فى القرن 19 م : وهى محفوظة بمادريد . فى المصلحة التاريخية العسكرية ، حسبما ورد فى فهرست مجموعة «أباريسى» :
Collection "Aparici" : Catalogo de la Biblioteca Central Militar, 1945, documents n° 855-861

11) راجع : A. G. S. : Seccion "Guerra Antigua" leg. XVI et XVII

العدوانى _ ؛ هذا وان الدراسة الجدية لهذه الآثار ، تحت اشراف أثريين اختصاصيين ، ربما تبين أن هذه الحصون « الاسبانية » هى أيضا مغربية ، وذلك أنها فى أغلب الاحيان بنيت على أنقاض « ربط » أو حصون مغربية راجعة الى العصر الوسيط ، أو أجريت عليها تحويلات أيام مختلف الولاة المغاربة ، الذين تصدوا بعد ذلك الى مدافعة الغارات الاجنبية ، ولذا ، فيجب القيام بتحقيق الاسطورة المغربية التى نشأت حول « حصون كارلوس الخامس » ، باجراء أبحاث علمية جدية ، لاحلالها منزلتها الحقيقية ، وليست بالوضيعة ، كما ينبغى القيام بنفس العمل فى اسبانيا ، حول سائر « الابراج العربية » التى تنسب الى العرب كلما جهل أصل مبنى أثرى منهار • ويجدر القول بأن آثـــار تلك المبانىء على الشواطىء الجزائرية ، تبلغ عددا وافرا وتكتسى أهمية تدعو كلا من الاسبانيين والجزائريين الى العناية بحفظها ، رغم ما قد تستشعره للمعاصرين مـــن ماض عنيف •

ومن شأن هذه الاعتبارات ، التى تضاف الى احتلال الاسبانيين لعنابة ، أن تؤدى بنا الى سلسلة أخرى من التأملات ، فى نطاق أوسع وأهم ، حول عرض تاريخ تلك الاعتداءات التى تظهر فى تاريخ العلاقات بين الدول ، بصفة عامة ، وبين الدول المتجاورة، بصفة خاصة ، مثلما هو الامر بالنسبة للجزائر واسبانيا • فكيف يكون عرض تاريخ تلك الحروب القاسية بدون المساهمة فى استمرار البغضاء أو العداوة بين القطريـــن ، الى يومنا هذا ، وربما أيضا الى المستقبل ؟ فعـــلى المؤرخين أن يشعروا بمسؤوليتهم فى هذا المجال • ولا ينبغى على الباحث ، فى هذا الصدد ، أن يقدح فى ماضى بلاده ، أو أن ينكر القيم الوطنية التى يتحلى بها بلده وأجداده • الا أن مهمة تهيئة مستقبل سلمى بين الشعوب تتعلق الى حد ما بكيفية عرض المؤرخين لتاريخ بلادهم ، فى يومنا هـــذا •

وهذا يكتسى أهمية خاصة فيما يخص العلاقات بين المسيحيين والمسلمين باسبانيا ، أعنى بلاد الاندلس ، كما يسميها العرب • فليس من السهل عرض تاريخ حروب دامت قرونا ، بين المغاربة والاسبانيين ، اذ يصطدم أحيانا فى ذهن المؤرخ شعور الوطنية المناضلة بنزعة سلمية لا عنفية ، ولا سيما أنه يعلم ، فى كثير من الاحيان ، بالتجربة

التى تمليها عليه المجابهات الحديثة الاسبانية المغربية ، ان الشعوب ليس لها تاثير كبير فى القرارات السياسية والعسكرية التى يتخذها المسيرون ، وخصوصا فى العصر الذى أشرنا اليه ٠

وهكذا ، ورغبة فى الوصول الى تفكير مشترك ، فان المؤتمر الاسلامى المسيحى الثالث ، الذى سينعقد بقرطبة ، سيجعل على الارجح ، موضوعه الرئيسى عرض تاريخ تلك الحروب السياسية الدينية ، مع توخى عدم امتداد المواقف العدائية ٠ ومن المؤسف أن تاريخ اسبانيا الاسلامى المسيحى يشتمل على أمثلة عديدة لمجالات تتطلب مزيدا من التأمل ٠ وكذلك التاريخ الجزائرى الاسبانى فى فترة الاحتلال الاسبانى لعنابة ٠

ب) هجرة الاندلسيين الى ناحية عنابة فى القرن 11هـ/17م ٠

لا يخفى على أحد أهمية المساهمة الاندلسية فى تشييد صرح الحضارة المغربية ، ابان طرد المسلمين « الموريسكوس » ، فى القرن 11هـ/17م ٠ وقد شرع فى دراسة هذا الموضوع ، بصفة جزئية فى أقطار المغرب الاربعة ٠ وهذه الابحاث قد عرفت تقدما ملحوظا بتونس (12) ، بينما هى ، فى المغرب الاقصى ، وافرة العدد مع بعض القصور فى الجانب العلمى (13) ، وفى ليبيا لا تزال فى مرحلتها الاولى ، مع ملاحظة أهمية استيطان الاندلسيين فى درنة وطرابلس وفى ناحية جبل نفوسة (14) ٠ اما

---

12) جمعت البيبليوغرافيا الاساسية وأهم الدراسات فى الكتاب التالى :

M. de Epalza - R. Petit : Recueil d'Etudes sur les Morisques Andalous de Tunisie ; Madrid 1974

ويضاف الى ذلك رسالتان فى اطار الدراسات العليا فى التاريخ بجامعة تونس (يولية1975) من عمل باحثين فى مركز الدراسات الاسبانية الاندلسية ، وهما حاليا تحت الطبع ٠ وقد قام هذان الباحثان بالدراستين التاليتين :

A. Gafsi : Estudio economico-social de un pueblo andalusi de Tunez : Qal'at al-Andalus de 1847 à 1881, "Almenara" (Madrid, vol. 9 (1976), (sous presse), et M. Benali : Un pueblo andalusı en Tunez en el siglo XIX : Soliman, "Miscelanea de Estudios Arabes " (Granada), (sous presse).

13) كانت آخر دراسة أحادية هامة حول أندلسيى سلا ، من انتاج الاستاذ غونز الفيز بوسطو G. Gouzalvez Busto (تطوان ، 1975) ٠

14) فعلا ، لا أعرف الا المعلومات التى وردت فى كتاب : M. de Epalza - R. Petit O. C., pp 80 et 180 وبعض الاشارات المتفرقة فى الرحلات التى قام بدراستها توربى دولوف (C. Turbet - Delof)

بالنسبة للجزائر ، فقد قام الاستاذ بلحميسى بتلخيص الوضع لمعلوماتنا الحالية (15) . الا أن وثائق جديدة قد ظهرت حديثا ، ونأمل أن أبحاثا قادمة ستمكن من تحسين معرفة هذا الفصل الهام للعلاقات الرابطة بين اسبانيا والمغرب (16) .

وفيما يخص ناحية عنابة ، فالمعلومات الحالية محدودة جدا . ولكن ينبغى القيام بجمعها ، فى انتظار اكتشاف أخبار أخرى ووثائق جديدة ، مما يسمح باثراء معلوماتنا .

فمن ذلك مخطوط يرجع الى القرن 11هـ/17م ، محفوظ بتونس ، ويدور موضوعه حول اثبات نسب « أشراف الاندلسيين » المهاجرين الى المغرب (17) . وقد حاول المؤلف المدعو ابن عبد الرفيع الشريف الاندلسى ، أن يبين انتماء عدد كبير من أشراف الاندلسيين الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما ينتسب اليه أشراف المغرب ، ويذكر بعض الاسر الشريفة التى أجازت من المغرب ـ وخصوصا من عنابة ـ الى الاندلس ، ثم عادت منها ابان طردها (18) . ويؤكد بعض المؤرخين الفرنسيين لذلك العصر هذا النبأ ، حول الاسر الاندلسية المستقرة بعنابة ، فهم يشيرون الى تحول بعض الاندلسيين الذين طردوا من اسبانيا ، من جنوب فرنسا ، متوجهين الى عنابة . (19)

ومن أشهر الاندلسيين الذين هاجروا الى المغرب ، يجدر بنا ذكر مصطفى قردناش، شيخ الاندلسيين بتونس وطرابلس لمدة ما يقرب من نصف قرن ، الذى التجأ الى عنابة ،

---

15) فى مجلة «تاريخ وحضارة المغرب» (الجزائر) ، عدد 11، 1974 ، ص 45 ـ 48 .

16) يقوم حاليا أستاذ جزائرى بدراسة الوثائق المتعلقة بأندلسيى مدينة الجزائر فى القرن 19 م ، والمحفوظة فى دار الوثائق الوطنية ، كما سيقوم السيد محمود بوعياد ، مدير المكتبة الوطنية ، بنشر وثائق أخرى تتعلق بأندلسيى تلمسان ، هذا ، وقد عثر السيد ابن عطية ، أستاذ بجامعة الجزائر ، على معلومات هامة فيما يخص مدينة الجزائر .

17) **«الانوار النبوية فى آباء خير البرية»** ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس . وقد نشر قسما منه أ. تركى ، تحت عنوان : **وثائق عن الهجرة الاندلسية الاخيرة الى تونس** ، « حوليات الجامعة التونسية » (تونس) ، ج 4، 1967 ، ص 23 ـ 82 ، وترجم قسم منه فى الكتاب التالى : M. de Epalza - R. Petit : O. C., pp. 115-127

18) راجع : Ibid, p. 123.

19) راجع: L. Cardaillac : Morisques en Provence, dans M. de Epalza - R. Petit, o. c., p. 94:

بعد أن طرد من تونس (20) . وقد قام في عنابة بالنهوض بزراعة الزيتون الكثيفة ، كما سبق له أن فعل ذلك في ممتلكاته الزراعية الشاسعة بالجزيرة (Cap Bon) وقد ورد أحيانا وصفه بكونه أبرز مثال لكبار التجار الاندلسيين في المغرب ، الذين أصبحوا كبار الملاك القرويين الجدد ، - ما يناسب « المعمرين » في هذا العصر - ، في بلاد المغرب التي استقبلتهم (21) . ومن المهم أن تجرى أبحاث لمعرفة ما اذا كان هذا الاندلسي قد خلف أحفادا بعنابة ، وهل كان لما أدخله من تقنيات زراعية جديدة تأثير استمر في ناحية عنابة . (22)

ج) الازمة التي نشأت بين الجزائر واسبانيا في القرن 13 هـ/19 م ، والتي تسبب فيها أحد سكان جزيرة منورقة ، بمدينة عنابة .

والآن ، ننتقل من الصراعات العسكرية في القرن 10 هـ/16 م ، ومن هجرات المسلمين في القرن 11 هـ/17 م ، الى حادث غريب في العلاقات بين القطرين ، خلال تلك الفترة السلمية التي دامت نصف قرن ، وتمتد من اتفاقيات الصلح الجزائرية الاسبانية الى الاحتلال الفرنسي (23) .

---

20) حول هذه الشخصية ، راجع :

M. de Epalza : Moriscos et Andalous en Tunisie au XVII^e siècle, dans M. de Epalza - R. Petit, o. c., pp. 152 - 155, 159 - 180 ; J. D. Latham : Contribution à l'étude des immigrations andalouses et leur place dans l'histoire de la Tunisie, dans le même recueil, pp. 32 - 33, 44 - 48, 52, 54, 60.

21) راجع :

D. Brahimi : Quelques jugements sur les Maures Andalous dans les régences turques au XVII^e siècle "Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb" (Alger), 9 (1970), 39 - 51, reproduit de nouveau avec introduction de M. de Epalza dans M. de Epalza — R. Petit, o. c., pp. 135 - 149.

22) كان أحد أبنائه ، على الاقل ، مستقرا بتونس بعد نفيه ، حسبما ذكره م. دى ايبالزا راجع : M. de Epalza — R. Petit, o. c., pp. 180 - 181

23) حول هذه الاتفاقية بين الجزائر واسبانيا ، راجع أحدث بيبليوغرافيا في الدراسات التالية : م. بلحميسي : **صفحات من تاريخ العلاقات الجزائرية الاسبانية : معاهدة 1786 بين الجزائر واسبانيا ، سبب ابرامها ، مضمونها ، نتائجها** مجلة «تاريخ وحضارة المغرب» (الجزائر) ، عدد 11، 1974 ، ص 5 - 22 ؛

M. de Epalza : Algunas consecuencias del Tratado de Paz Hispano — Argelino de 1786, dans Homenaje a Guillermo Guastavino, Madrid 1974, pp. 443 - 459 ; L. Cara de Aguila : Les Espagnols en Afrique, les relations politiques et commerciales avec la régence d'Alger de 1786 à 1830. Thèse de doctorat de 3^e cycle, université de Bordeaux III, 1974 ; J. B. Vilar : Relaciones comerciales hispano-argelinas en el periodo 1791 - 1814, "Hispania" (Madrid), vol. 34 (1974), 435 - 442 ; J. B. Vilar : Sociedad espanola en la Argelia otomana (1791 - 1814), "Almenara" (Madrid), vol. 9 (1976), (sous presse).

ولم يكن الامر ، فى الاصل ، سوى مجرد حادث عرضى عادى للمشاكل الادارية التى تنتج عن القرصنة والملاحة فى البحر المتوسط ، حتى فى فترات السلم بين القطرين (24) وفى سنة 1812 م ، حدث أن دخل ميناء عنابة قرصان من جزيرة منورقة ، فى الجـــزر الشرقية (الباليار) . لقد كان ذلك أمـــرا طبيعيا ، اذ العلاقات التجارية بـين منورقة والجزائر كانت جد متواصلة ، تحت حماية معاهدة الصلح ، كما بين ذلك كتاب جزائرى حديث ، مفيد جدا (25) . وفعلا ، فقد كان لنشاط المنورقيين دور حـاسم فى اقـــامه معاهدات الصلح مع الدول الاســلامية ، وذلك بفضـــل مساعى الوزير الاول الكونت دى فلوريدا بلانكا ، ووزير المالية سولير ، القوى النفوذ ؛ وكان هذا الاخـــير منورقيا وقريبا لعدة قناصلة اسبانيين وأوروبيين فى استنبول وطرابلس وتونس والجـــزائر وطنجة وعنابة (26) . هذا ، ولم تخصص دراسات كافية لدور المنورقيين فى المغرب ، الذى سيمتد طويلا ، حتى أيام الاحتلال الفرنسى (27) . ومن جهة أخرى ، لم يكن هذا النشاط منعدم الاثر فى سياسة اسبانيا المتوسطية ، الرامية الى اقامة توازن بين روسيا وبين تركيا وحلفائها المسلمين ، انطلاقا من ميناء ماهون بجزيرة منورقة (28) .

---

24) توجد وثائق عديدة بخصوص هذه القضية . وهناك ملخص حسن ، يضعهـــا فى السياق السياسى الاسبانى المغربى ، محفوظ ضمن أرشيفات الشؤون الخارجية بمادريد . وقد نشره وترجمه م. دى ايبالزا ، تحت عنوان : **تقرير حول العلاقات الاسبانية المغربية سنة 1812** ، «المجلة التاريخية المغــربية» (تونس) عـــدد 4 1975 . ص 91 ـ 96 . وأيضا :
M. de Epalza : Informa sobra las relaciones hispano-magrebies en 1812, "Almenara" (Madrid), vol. 9 (1976), (sous presse).

25) محمد العربى الزبيرى . **التجارة الخارجية لشرق الجزائر** . الجزائر . بدون تاريخ .

26) راجع :
A. Martel : Luis Arnold et Joseph Allegro, consuls du Bey de Tunis à Bône, Paris 1967, et M. de Epalza - A. Gafsi : Documents sur l'histoire des relations tuniso-espagnoles au XIX[e]/XIII[e] siècle, "Les cahiers de Tunisie" (Tunis), (sous presse).

27) راجع :
J. B. Vilar : Las Baleares y la expedicion francesa a Argel en 1830, "Mayurqa" (Palma de Mallorca), vol. 13 (1975), pp. 220 - 225
وكذلك كتابه الهام حول نزوح الاسبانيين الى الجزائر أيام الاحتلال الفرنسى فى القرن 19م (جائزة «افريقيا» لسنة 1975) ، (تحت الطبع) .

28) راجع :
A. M. Shop Soler : Las relaciones entre Espana y Rusia en la epoca de Carlos IV, Barcelona 1971 et J. Llabres : Los buques de la marina imperial rusa en Baleares (1769[e]- 1914), "Revista general de Marina" (Madrid), n° 182 (1972), 121 - 137.

اذن ، هذه سفينة القرصان المنورقي ، قد رست بعنابة • واذا بـه يتهم بالاستيلاء على قارب من قوارب عنابة ، قبل ذلك بأيام • وفي انتظار نتيجة التحقيق حول مساهمته في الاستيلاء على قارب عنابة ، انتزعت منه وثائقه الشخصية وبعض أدوات الملاحة ، تحت مسؤولية نائب قنصل اسبانيا بعنابة • وفعلا ، لم يكن للمنورقي يد في الاعتداء ، الذي ثبت بعد ذلك أنه ارتكب من طرف سفينة سردانية • الا أن ذلك المنورقي كان في حالة غير قانونية ، اذ أنه لم يكن يملك من بين رجـال سفينته العـدد المطلوب مـن الاسبانيين ليمكن اعتبار السفينة اسبانية ، وليتمتع بالامتيازات والحماية التي تخولها اتفاقية الصلح الجزائرية الاسبانية • فكان أكثر من ثلثي رجال السفينة من بحارة فرنسا وجنوة وسردانية وصقلية ونابلي • وهذا النوع من الحالات الخارجة عن القانون كان في كثير من الاحيان مصدرا للنزاعات القائمة بين الحكومتين الاسبانية والجزائرية • وكان الجزائريون يطالبون ، بحق وبصرامة ، باحترام القانون في هذه الشؤون البحرية ، التي كثيرا ما كانت غامضة (29) • وقد خشي القرصان المنورقي من سوء مغبة هذه الوضعية ، فانتهز فرصة مرور اسطول انجليزي ، وفر ليلا ، متسببا في قيام أزمة من أخطر الازمات التي حدثت في القرن 19 م بين الجزائر واسبانيا •

وفي الواقع ، فان العلاقات الطيبة التي تلت ابـرام معاهدة الصلح بين الجـزائر واسبانيا سنة 1786 م (30) ، قد تبعها فتور تدريجي ، يرجع بصفة خاصة الى الحـالة المالية السيئة التي كانت تعيشها قنصلية اسبانيا في الجزائر (31) • وقد نتـج عن الوضعية الاقتصادية في عهد كارلوس الرابع ، وعن الفوضى الشاملة التي احدثها الغزو النابليوني لاسبانيا وحرب التحرير التي تلته ، أن بقيت القنصلية سنوات عديدة مـن

---

29) انظر أمثلة عديدة في المرجع التالي : M. de Epalza : Algunas consecuencias..., pp. 454 - 455, 457 وتقوم الاستاذة الجزائرية ف. بوذه بتحضير أطروحة حول القانونية التي كانت تخضع لها كل هذه القضايا البحرية الجزائرية الاسبانية ، بعد معاهدة صلح سنة 1786.

30) راجع بخاصة الوثائق الرسمية الجزائرية في المرجع التالي :

M. de Epalza : Notice sur un fonds de documents officiels algériens du XII^e/XVIII^e siècle, conservés à Madrid, "Archives Nationales" (Alger), (sous presse).

31) راجع التقرير المشار اليه في الهامش 24 •

دون أن تحصل على أى اعتمادات مالية ، وأصبحت عاجزة عن تأدية الديون العظيمة الى غرمائها اليهود ، من أسرة بكرى · وهكذا ، لم يفتأ الوضع يزداد تازما حتى مع السلطات الجزائرية نفسهـــا ·

وذلك أن قضية القرصان المنورقى كانت الفرصة التى استغلتها الحكومة الجزائرية للاعراب عن استيائها الكلى ازاء الحكومة الاسبانية · فالقى القبض على نائب القنصل ، وحمل مكبلا بالقيود الى الجزائر ، وحكم عليه بالاشغال الشاقة ، وكذلك العشرات مـن الاسبانيين الذين كانوا آنذاك بالجزائر · وطلب من الحكومة الاسبانية أن تسلم القرصان أو أن تدفع مبلغا عظيما من المال كتعويض · وكذلك طلب منها دفع المتأخر من الديون التى عليها للدولة الجزائرية وللمواطنين الجزائريين · وباختصار فقد دامت الازمة سنوات عديدة ، حتى بعد أن ثبتت براءة القرصان المنورقى · وتحتوى الارشيفات الاسبانية ، وحتى أبعدها ظاهرا عن المشاكل المتوسطية ، على كثير من الوثائق حول «ديون الجزائر» الشهيرة ، التى حاولت الحكومة الاسبانية أن تحمل الغرف التجارية تأديتها ، وكذلك مختلف الجماعات المحلية بشواطىء البحر المتوسط ، وحتى فرسان القديس حنا ببيت المقـــدس (32) ·

وليس فى وسعنا أن ندخل فى تفاصيل نتائج هذه القضية ، التى اثـيرت بعنابة ، والتى أنهيت فعلا سنة 1827 ، وابان الاحتلال الفرنسى ، بيد أنه قد يكون من المفيـد أن يشار اليها كنقطة هامة للبحث عن العلاقات التاريخية بين القطرين ·

الخـــاتمـة :

وفى ختام هذا الحديث حول ثلاث نقاط صغيرة من العلاقات التاريخية بين عنـــابة واسبانيا ، لا يسعنا الا أن نهيـب بالمؤرخين على مواصلة أبحاثهم عن تاريخ الجـــزائر واسبانيا المشترك · ومن المحتمل جـــدا أن هذه الابحاث ستؤدى الى مفاجآت عـديدة ومعلومات هامة حول تاريخ هذين القطرين المتوسطيين ·

---

32) راجع مثلا :
M. Revuelta Gonzalez : La bailia de Poblacion de la Orden de San Juan de Jerusalem, Publicaciones de la institucion "Tello Tellez de Meneses" (Palencia) n° 32 (1971), 203 - 237.

عنابة بين اسمها وموقعها وعلاقاتها مع العالم المتوسطي حتى الاحتلال الفرنسي

د . ليلى الصباغ
استاذة التاريخ بجامعة دمشق
- سوريا -

كلما رن اسم (عنابة) فى سمعى ، تدفق فى خاطرى ، وعلى لسانى بيت شعر لكثير عزة يقول فيه :

وقد جعلن براق بدر
يميننا والعنابة عن شمال

ولا يلبث أن يجر وراءه بيتين لجرير :

أنكرت عهدك غير أنك عارف
طللا بالوية العناب محيلا
فتعز ان نفع العزاء مكلفا
بالشوق يظهر للفراق عويلا

وليست الرابطة فى توارد تلك الخواطر الشعرية سوى لفظ « العناب » على الرغم من أنه ورد مضموم العين تارة ، ومحذوف التاء أخرى ، وعلى الرغم من أن « جريرا » و « كثير عزة » قد قصدا موضعين متباينين فيما بينهما ، ومختلفين عن « عنابة » الجزائر، الا أنه يحلو لابناء المشرق عادة أن يشعروا أن أسماء الاماكن قد تكون مشتركة بين المشرق العربى ومغربه مع اختلاف مواقعها ، كجزء من رابطة فكر ، ومشاعر ، وتاريخ

وثرات : وقد دفعني هذا التوافق الجزئي في التسمية الى استفتاء كتب الجغرافيا ، والتاريخ ، ومعاجم اللغة العربية ، والبلدان بحثا عن الاماكن التي تشترك مع (عنابة الجزائر) بالاسم ، وعوامل تسميتها بهذا اللفظ ، وخرجت من تنقيبي في هذا المجال بأمريـــن :

أولهما : أن عديدا من الاماكن ضمن المشرق العربي يشترك مع (عنابة الجزائـر) بالاسم ، أكان بتشديد النون أو تخفيفها ، بضم العين أو فتحها ، وبالتاء في آخر الكلمة أو اهمالها ؛ فـ (عناب) جبل في طريق مكة (1) ، و (عناب) طريق من المدينة الى فيد (2) ، و (عناب) جبل أسود بالمروت (3) و (العناب) صحراء (دون تحديـــد لمكانها) (4) و (العناية) موضع على ثلاثة أميال من الحسينية في طريق مكة (5) ، و (عنابة) قارة سوداء أسفل من الرويقة بين مكة والمدينة (6) و (العنابة) كذلـك مارة في ديار كلاب بين مستوى الغوط والرقة (شمالي نجد فجنوب غربي العـــراق) كانت تسلك الى المدينة ، وكان « علي زين العابدين » (ابن الحسين بن علي بن أبي طالب) يسكنها ، وأصحاب الحديث يشددونه (7) وقد وردت بالتخفيف (8) و (عنابة السفينة) مرتفع أثري في شمالي سورية قرب نهر الفرات (8) مكرر ·

---

1) ياقوت الحموي : معجم البلدان (دار صادر بيروت 1957) ···ج 14 ص 159 (مادتا العناب والعنابة) ابن منظور : لسان العرب (دار صادر بيروت 1957) · ج 5 ص 631 · مادة (عنـــب) ·

2) المصدران نفساهما ـ الصفحتان ذاتهما · (فيد) · تقع في منتصف الطريق الى مكة المكرمة من الكوفة بالعراق ·

3) المصدران نفساهما ، الصفحتان ذاتهما (المروت) · من بلاد الغساسنة في جنوبي بلاد الشام ، وكذلك في « النيباج » من جنوبي العراق ·

4) المصدران نفساهما ، الصفحتان ذاتهما ، 5) ياقوت الحموي : المصدر نفسه ، الصفحة ذاتهـــا ·

6) لسان العرب ج 5 ، ص 631 مادة (عنب) ·

7) ياقوت الحموي المصدر نفسه ج 14 ، ص 160 مادة (العنابة) ·

8) لسان العرب ج 5 ، ص 631 ·

8) مكرر ، آثار الفرات ، اعداد مديرية الآثار والمتاحف حلب 1974 ·

وقد أضاف معجم (تاج العروس) الى ما ذكر آنفا قوله : « وكان يسمع منهـــا بدمشق » (9) وفي الواقع ان في دمشق محلة تدعى أرض « العنابة » (10) ، تقع قرب (باب السلامة) من أبواب دمشق ، وقد عرفت بهوائها النقي (11) ، وأنه كان فيهـا دور وقصور (12) وكان يسكنها كبار أعيان دمشق في القرن الحادي عشر للهجرة • (13)

وقد نسبت هذه المحلة الى ثمر (العناب) (14) الذي زرع شجره في أرضها قبـــل

9) المرتضى الزبيدي (القاهرة 1306 هـ) المجلد الاول ص 401 مادة (عنب) •

10) أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي (ولد عام 847 هـ/1443) نزهة الانام في محاسن الشام (القاهرة 1341 هـ) ص 270 ـ البوريني ، تراجم الاعيان من أبناء الزمان (دمشق 1959 ، تحقيق صلاح الدين المنجد) •• ج 1 ، ص 54 ـ الغزي الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة (حريصا 1959) ، ج 3 ، ص 40 •

11) صلاح الدين المنجد : تعليق على كتاب (تراجم الاعيان) السالف ج 1 ، ص 54 الا ان تعليقا على نسخة من مخطوط (الكواكب السائرة) يحدد المكان بقوله : « حارة عنابة فوق باب توما » ج 3 ـ 40 •

12) أبو البقاء المصري الدمشقي : المصدر السابق ، ص 270 •

13) البوريني : المصدر السابق ، ص 54 •

14) العناب : ثمر معروف وواحدته « عنابة » • ويقال له كذلك (السنجلان) بلسان الفرس ، وربما سمى ثمر الاراك عنابا (لسان العرب •• ج 5 ، ص 631 مادة عنـــب) • ويسمى باللغة الفرنسية Jujube وباللاتينية Zigiphum ، وأشجار العنــــاب أشجار شوكية ، ويعرف منه ما يقارب الاربعين نـــوعا في المناطق المدارية في آسيـا وأمريكا ، وبعض الانواع يزرع أشجارا تزيينية ، وبعضها الآخر لثمارها • والعناب العادي شجيرة بارتفاع يتراوح بين (2 ـ 8) أمتار • أزهارها صفراء ، وتنبت في جنوبي أوروبا وآسيا وتزرع في حوض البحر المتوسط • وثمر العناب يشبه الزيتون ، وهو أخضر في أوله ، ثم يصبح أحمر اللون بلب أبيض ، وهو حلو الطعم • ويستهلك العناب رطبا ، ومجففـا ، ومربى • Grand Larousse Encyclopédique - Art (Jujubier)

ويرى (الطب العربي) في العناب فوائد شتى ، منها : أنه نافع للشفاء من السعال والربو ، ووجع الكليتين والمثانة ، وأن رطبه أفضل من يابسه • واذا كان نضيجا لـــين الطبيعة ولا سيما اليابس منه ، واذا كان غضا عفصا حبس الطبيعة ، وسكن هيجان الدم وحدته ••• واذا ما جفف ورقه وسحق ونثر على الاكل نفع في ذلك نفعا لا يبلغه غـيره من الدواء ••• وشرابه بارد رطب ينفـــع من السعال اليابس والحصبة والجدري ••• ولقد أشار الى تلك المنافع وغيرها (أبو البقاء المصري الدمشقي) في مؤلفه الآنف الذكر (ص 271 ـ 272) ناقلا عن الطبيب (الاسرائيلي) و (الشريف الادريسي) •

الاسلام على ما يبدو ، ووجد فى الاسلام منه » فرد شجرة فبنى ما حولها وسميت المحلة بها » ، (15) واذا كانت أسباب التسمية قد تطابقت بين (محلة العنابة) بدمشق و (مدينة العنابة) فى الجزائر ، فان عوامل تسمية الاماكن الاخرى المذكورة آنفا ، ومعظمها فى شبه جزيرة العرب · مجهولة لدينا ، وان كان بعضها يدل على معان أخرى لكلمة عناب غير عناب الثمر (16) ·

أما ثانى الامرين اللذين كشف عنهما البحث فهو أن معاجم اللغة وكتب الجغرافيا العربية والرحلات السابقة للقرن التاسع الهجرى/الرابع عشر الميلادى ، والتى وصلت الى علمى (17) ، لم تورد اسم (عنابة) الجزائر ضمن العنابات وكذلك كتب التاريخ ·

15) يبدو أن شجر العناب لم يكن ينبت فى دمشق قبل الاسلام ، وانما كان يجلب الثمر اليها من الخارج ويعزو (أبو البقاء) زراعة العناب فيها الى القصة التالية التى توضح مدى اهتمام الطب بهذا النبات · فقد بين أنه كان فى هذه البقعة من دمشق زمن الروم (البزنطيين) كاهن كان يتعبد فى صومعة بتلك الارض فحصلت له علة أشرف فيها على الهلاك فنزل عنده تاجر من تجار الروم ، ومن جملة متجره خمسة أحمال عناب ، فحلها ونشرها ، وكانت دمشق محلة من العناب ، وليس يوجد بها حبة ، فصار هذا الكاهن يتناول منه وقد طاب له ، فلما أصبح جاء اليه الطبيب فوجده قد نصل من تلك العلة ، ووجد الكاهن فى نفسه نشاطا ، فقال له : ما الذى استعملت البارحة ؟ قال : الشىء الفلانى ، ونسى أن يذكر له العناب ، فقال الطبيب : ولعلك استعملت عنابا ، قال : نعم ، ومن أخبرك بذلك ؟ قال : لعلمى أن علتك هذه لا يبرئها سواه وهو معدوم ، واختشيت أن أعلق خاطرك به · فزرع الكاهن الارض الذى حول صومعته جميعها عنابا ، وتقرب بها فى كل من احتاج منها الى شىء يأخذه (نزهة الانام فى محاسن الشام ، ص 270 ـ 271) ·

16) ارجع الى لفظ (عنب) فى (لسان العرب) و (تاج العروس) · علما أن (عنابا) بفتح العين تعنى (رجلا يبيع العنب) ·

17) ابن حوقل (متوفى حوالى 367 هـ/977) · صورة الارض · (بيروت د· ت) ص 77

ـ المقدسى (حوالى 375 هـ /985) · أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ليدن 1906 · ص 216 ـ 226 ·

ـ البكرى (487 هـ/1094) · المغرب فى ذكرى بلاد افريقيا والمغرب (مكتبة المثنى بغداد د· ت) ص 54 ـ 55 ـ83 ·

ـ الادريسى (548 هـ/1153) المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس (مقتطفة من كتابه نزهة المشتاق) ليدن 1864 ، ص 116 ـ 117 ·

لا بل ولم تشر الى جانب اسمها المتعارف عليه آنذاك وهو (بونة) أنه كان يطلق عليها كذلك اسم (عـــابة) حتى أن الرحالة (البكرى) (المتوفى فى 487 هـ/1094 م) الذى يعطينا أفضل المعلومات عن تمصير (بونة) ، لا يذكر ضمن الاسماء التى تعاورت عـلى المدينة أثناء تطورها ، كمدينة (زاوى) (18) و (بونة الحديثة) اسم عنابة ، وقد يستدل من ذلك أن الاسم العربى (عنابة) جديد نسبيا ، أو أنه لم يكن معروفا أو شائعا فى الحقيقة التى دونت فيها تلك المؤلفات : وتبين « دائرة المعارف الاسلامية » أنه لا يعرف بالضبط متى أطلق عليها هذا الاسم (19) ، ويخمن « براون BROWN » المعلق على كتاب «ليو الافريقى » المترجم للانكليزية ، أن هذه التسمية قد ترجع الى بدايات القـــرن السادس عشر (20) (العاشر الهجرى) ، اذ أن « ليـو الافريقى » (الحسن بن الوزان) ،

ـ ياقوت الحموى (627 هـ/1229) معجم البلدان (دار صادر : بيروت 1957) ج 4 ص 512 و ج 14 . ص 159 ـ 160 .

ـ العبدرى (آخر القرن السابع الهجرى/الثالث عشر) : الرحلة المغربية . تحقيـق محمد الفاسى (الرباط 1968) ص 37 ـ 281 .

ـ التجانى (717 هـ/1317) رحلة التجانى (تونس 1958) . (جـــاء الاسم متفرقا وعـــابرا) .

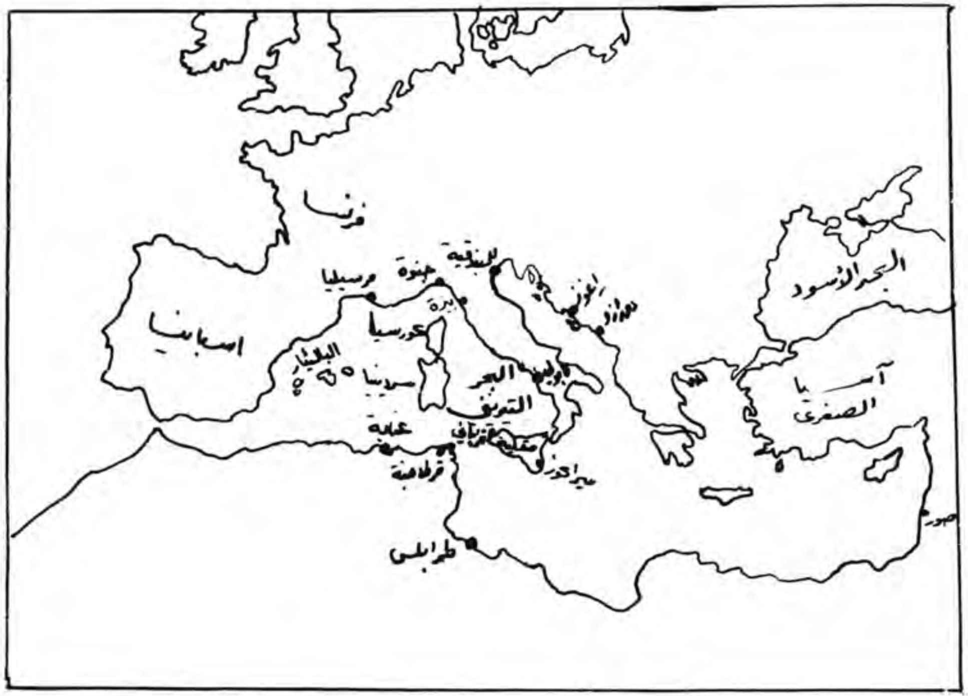
ـ شمس الدين الانصارى الدمشقى (شيخ الربوة) (727 هـ/326) . نخبة الدهر فى عجائب البحر (المثنى : بغداد د. ت) ص 235 .

أبو الفداء (732 هـ/1331) . تقويم البلـــدان (باريس : دار الطباعة السلطانية 1840) . ص 141 .

18) المغرب : ص 55 يفرق البكرى بين المدينة القديمة وهى مدينة (أفشتين) (أى سانت أغستين) العالم بدين النصرانية وهى على ساحل البحر فى مرتفع من الارض منيع . ويسميها مدينة (زاوى) ـ ويرجع المستشرق (دوسلان) التسمية الى أن المعز بن باديس رابع الســلاطين من بنى زيـرى قد أعطـى هذه المدينة لقـريبه (زاوى) بن زيـرى Encyclopédie de l'Islam - Art. Bône (وزاوى بن زيرى هو الذى التجأ الى الاندلس بعد أن ثار على باديس . ثم عاد الى القيروان عام 410 فى عهد المعـــز (ابن خلدون : ج 6 ، ص 179 ـ 180) ـ وبين مدينة جديدة بنيت على بعد ثلاثة أميـــال من السابقة وسميت (بونة الجديدة) . وقد ســورت بعد 450 هـ و (شيخ الربـوة) فى (نخبـــة الـــدهر) ص 235 لا يعترف الا بهذه المدينة ويعتبر أن بناءها قد كان بعد 450 هـ .

(19) Encyclopédie de l'Islam 2e Edition - Art. (ANNABA).

(20) Leo Africanus - The history and description of Africa (done into english) Its the year 1600 by John Pory - Edition by Dr. Brown (London MDCCCXCVII) III - P. 750.


فرنسا
البندقية
جنوة
مرسيليا
كورسيكا
اسبانيا
سردينيا
عنابة
قرطاجنة
طرابلس
البحر الأسود
آسيا الصغرى

فى وصفه لافريقيا فى مطلع القرن السادس عشر قد أطلق على (بونة) اسم (بلـــدان العناب) ، وعرفها بأنها المدينة التى عمرها المسلمون قرب هيبون القديمة بعد فتحهــم لها ، وعلى بعد ميلين منها ، واستخدموا فى بنائها خرائبها (21) ومع أن ابن خلدون لم يشر فى تاريخه ولا فى مقدمته الى (عنابة) الا تحت اسم (بونة) فان تعبير (بلد العناب) قد ورد فى كتابه · ويبدو من المكان الذى يعطيه هذا الاسم أنه المنطقة التى تقوم فيهـا (عنابة) · فقد بين عند بحثه فى هجرة (بنى هلال) و (سليم) أن (دريد) وهـــم أعز بطون (الاثبج) وأعلامهم كانت (مواطنهم ما بين بلد العناب الى قسنطينة··) (22) وقد تكون هذه التسمية الجديدة قد أطلقها هؤلاء العرب الوافدون مجددا على المنطقـــة خلف (عنابة) لكثرة ما رأوه من شجيرات العناب فى اقليمها (23) ، ثم لم تلبـــث أن انسحبت على المدينة نفسها التى يبدو أنه كان لها تجارة واسعة بهذه المادة (24) ، وكان السكان يجففونها فى الشمس ويتركونها حتى الشتاء (25) ، فكثير من العرب قد استوطن تلك الجهات (26) ، والمدينة نفسها ولاسيما (مرداس) (27) من بنى هلال والكعوب (28) وكذلك (عوف) من بنى سليم (29) هذا مع العـــلم أن سكانها قبل الهجرة الهـلالية السليمية ، وفى مطالعها ــ أى زمن البكرى ــ كانت من كتامة (30) ومن قبائل كثيرة من

---

(21) Ibid - P. 708.

22) العبر وديوان المبتدأ والخبر · (بيروت « نسخة غير محققة » د· ت) ج 6 ، ص 23·
ولقد ورد التعبير (ولد العناب) وصحيحه (بلد العناب) ·

(23) Shaw (Th), Travels or Observation Relating to Several Parts of Barbary and the Levante (Oxford - M.DCC.XXX.VIII "1738" - p. 95).
Pellegrin. Essai sur les noms des lieux d'Algérie et de Tunisie (Tunis 1949) p. 126

24) اسماعيل سرهنك ، حقائق الاخبار عن دول البحار (مصر 1321 هـ) ج 1 ، ص 356

(25) Leo Africanus, op. cit. p. 708.

26) الادريسى ، المصدر السابق ، ص 240 (ولها ــ أى لبونة ــ أقاليم وأرض واسعة تغلبت العرب عليها) ــ مبارك بن محمد الهلالى الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث (الجزائر د· ت) ج 2 ، ص 178 ·

27) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 6 ، ص 33 و Leo Africanus loc - cit. p. 709.

28) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها ·

29) الميلى ، المصدر السابق ج 2 ، ص 158 (وقد تقدمت عوف من سليم حوالى القـــرن الثامن من تونس الى ناحية عنابة) ·

30) ابن خلدون : ج 6 ، ص 148 · 31) البكرى ، المصدر السابق ، ص 55 ·

البربر ومن مصمودة وأوربة (31) فعرب من بنى هلال وسليم عمروا اذا اقليم (عنابة) حتى أن «مارمول» المؤرخ الاسبانى الذى زار الجزائر فى القرن السادس عشر/العاشر الهجرى يقدر أنه قد أصاب الاقليم بين قسنطينة وبونة من مقاتلة العرب المهاجرين الى الجـــزائر نحو عشرين ألفا معظمهم من بطن الحنانشة من رياح ، وذلك من أصل (199500) مقاتل توزعوا فى مجموع الجزائر (32) ٠

واذا كان اسم (عنابة) لم يرد فى كتب الجغرافيين والمؤرخين قبل القرن التاسع بل العاشر للهجرة ـ ما عدا ما ذكر عن ابن خلدون سابقا ـ فان المدينة فى الواقع قد نالـت قسطا كبيرا من اهتمامهم ، انما تحت اسم (بونة) ، واسمها هذا ، على ما أشارت اليـه بعض الدراسات (33) قد أتى من اللاتينية (Bona بونا) وهى اختصار وربح للتعبير (هيبون وغيو كولونيا) أى (مستعمرة هيبون الملكية) كما كان يطلق عليها فى العهد الرومانى ٠ وفى الحقيقة لقد عرفت (بونة) فى العصور القديمة تحت اسم (هيبو) ٠ وقد اختلف الباحثون فى لغة اللفظ ومعناه ، فبعضهم يرى أنه فنيقى الاصل ، مشتق من كلمة Ubbôn التى تعنى (خليج أو ملجأ) ، وهذا تفسير عقلانى ينسجم مع واقـع موقع (بونة) ، ومع واقع تسميتها (هيبو دياريتوس) (بيزرت) التى قد تكون معاصرة لها فى النشأة (34) بينما يرى بعض الباحثين الآخرين أن (أوبـون) الفنيقية ترجمها اليونان بـ (أكرا) أى (الرأس) ، وهذا المعنى يتلاءم بدوره مع طبيعة الاماكن الثـلاثة التى أطلقت عليها هذه التسمية ، وهى (هيبـــو أكرا) عنـد رأس (بير غاواوا) فى طرابلس الغرب ، (هيبو أكرا) (بيزرت) عند الرأس الابيض ، و (هيبو أكرا) بونة قرب رأس غارد ٠ بينما ربط فريق آخر بين (أوبون) والجذر العبرى (بايـه أو يافـه Iafeh) وتعنى (كائن جميل) ومنه اسم (يافا) الميناء فى بلاد الشام الفلسطينية ٠ وقد يعنى ذاك الجذر كذلك (حصنا) ، أو (مرصدا للمراقبة) (35) أما الرحالة الانكليزى

---

32) الميلى : المصدر السابق ج 2 ، ص 166 ، مستندا الى
Recherche sur l'origine des peuples - CARETT
المعتمد بدوره على Marmol - Description générale de l'Afrique (h).

(33) A. Pellegrin, op. cit. P. 126.

(34) Erwan Marec - Hipponela Royale Antique - Hippo Régius (Alger 1950 - P. 16)

(35) Pellegrin - loc. cit. P. 125-126.

(شو) فى القرن الثامن عشر فانه يؤيد رأى (بوشار Bochart) (36) بأن (هيبون) آتية من (أوبو) Ubbô و (أوبون Ubbôn) التى اذا ما ربطت بالجذر العربى عنت (مستنقعا مائيا) (37) ، ولعله يقصد كلمة (العبب) و (يعب) و (العباب) وتعنى المياه المتدفقة (38) وذلك لانه رأى أن (انخفاض المنطقة المجاورة لهيبو وغمر المياه الدائم للارض) يجعل ذلك التفسير معقولا ومنسجما مع الواقع (39) ٠

ومهما يكن التفسير الذى أعطى لاسم هيبو ، فان أغلبية الباحثين تقر أن التسمية فنيقية الاصل ، وأن عناصر وافدة اليها من الخارج ومن بلاد الشام بالذات فى أقصى البحر المتوسط الشرقى ، قد حملته للمدينة ، وهذا يفتح صفحة مثيرة من حياة بونة توضح مدى الصلات التى كانت لهذه المدينة مع العالم حولها ، وأثر موقعها فى تلك الصلات ٠

و(بونة)التى أتم العرب المسلمون فتحها على يد (حسان بن النعمان) وفى عهد الخليفة الاموى (عبد الملك بن مروان) (40) (65 ـ 86 هـ/684 ـ 705) ، مدينة يبـــدو أنها قديمة جدا على الساحل الافريقى المغربى المتوسطى والاوسط ، بل هى « عميدة المـــدن القديمة فى الجزائر » (41) ٠ فهى واحدة من أولى النزلات (الاسكالات) على الساحـــل الافريقى الشمالى ، التى لابد أنه قد أقامها فى ماض بعيد ، بحارة مغامرون وجريئون ، كمحطة على طريق انطلاقهم ورحلتهم الطويلة من المشرق الى بلاد (التارتيسيين) الغنية بالفضة (42) ويخمن بعض البحاثة المعاصرين أن هؤلاء المغامرين قد يكونون من الايجيين

---

36) لاهوتى بروتستنتى فرنسى (1559 ـ 1667) كتب الجغرافيا المقدسة géographie sacrée

(37) Shaw (th) op. cit. p. 97.

38) لسان العرب ج 2 ، ص 205 مادة (عنب) ٠

(39) Shaw : Loc. cit.

40) ابن خلدون ، المصدر السابق ج 4 ، ص 187 ٠ ويشير الى أن الفـــل من اعـــداء المسلمين قد انحازوا الى (باجة) و (بونة) وتحصنوا بها بعد سقوط قرطاجنة فى يـــد حسان ، الا أن (ليو الافريقى) يؤكد أن فتحها قد تم فى عهد الخليفة الراشدى (عثمان ابن عفان) (23 ـ 35 هـ/643 ـ 655) ٠ وأن المسلمين قد خربوها 708 ٠ op. cit. - P.

(41) Marec - op. cit. - Avant-propos P. 11.

42) كانت مدينة (تارتيسوس Tartessus) (وتقع عند مصب الوادى الكبير فى بلاد الاندلس) محطة الزامية على الطريق الغربية للتصدير ، والتى قد يكون (اليونان) قد طرقوها منذ القرن الرابع عشر ق م٠ الا أن (الفنيقيين) جابوها حتما فى القرن الثانى عشر ق م٠ ، ثم (الفوكيين) فى القرن السابع ق م٠ ، واخـــيرا وصلها (القرطاجنيون) الذين طردوا اليونان من هذه الاجزاء Grand Larousse Encyclopédique Art. (TARTESSUS)

الكريتيين (شعوب البحر) الذين كانت لهم علاقة مع الليبيين سكان البلاد الاصليين ـ كما أسماهم اليونـان ـ أو (الامازيغ) كما كانوا يسمون أنفسهم ٠ ويفترض بعضهم أن تأسيسها قد يرجع الى الالف الثالثة ق م ، (43) ٠ واذا كان هناك شك حول تأسيس الايجيين الكريتيين لها ، فانه من المؤكد أنه كان للفينقيين أهل بلاد الشام الساحلية مؤسسة فنيقية فيها ، ومنذ القرن الثانى عشر ق م ، أى قبل أربعة قرون من رسو الاميرة (ديدون) الصورية على الساحل الافريقى وتأسيسها مدينة (قرطاجنة) بحسب الاسطورة ٠٠ (44) فموقع بونة اذا كان من أولى المواقع على الساحل المغربى ـ الامازيغى التى استلفتت أنظار شعوب المشرق الماخرة عباب البحر المتوسط الى أقصى غربه ، محاذية لشواطئه ، وباحثة عن اقتصاد أوفر ، ومعرفة أوسع ، ومغامرة أخصب ٠

وفى الواقع ان موقع بونة أو هيبون أو عنابة اليوم يستوقف الملاح الذى خبر دقائق الساحل الشمالى الافريقى وطبيعته ، بعبوره من شرقه الى غربه ، ومن غربه الى شرقه ، والذى تفهم البحر المتوسط ورياحه ، وتياراته ، وأعماقه ، وشواطئه الاخرى ، والذى يحلم بآمال توسعية فيه ، وباقامة صلات فى أرجائه فبونة تقع :

أولا : قريبا من مدخل أو مخرج باب صقلية أو بتعبير أدق على سيف الحد الغربى لذلك الجزء من البحر المتوسط القائم بين افريقيا وصقلية والذى لا يحمل اسما (45) ٠ ذلك البحر بعتباته الغنية بالاسماك والمرجان ، والاسفنج ، وجزره الصغيرة المتناثرة ككركنة ، وطبرقة ، ومالطة ، وجربا ، والتى يكون طريقا من الطريقين البحريين اللذين لابد للسفن الوافدة من المشرق أو من المغرب أن تعبر أحدهما (46) وحدود هذا البحر تتمشى مع الجسر الجيولوجى القديم الممتد من صقلية الى افريقيا ، والمحصور فى الشرق

(43) Marec - Loc - cit. P. 16.

44) ان (ديدون) هى الاميرة الفنيقية من مدينة (صور) الشامية التى تنسب اليها أسطورة انها هربت من مدينتها مع أتباعها ، ورست بسفينتها فى موقع (قرطاجنة) وطلبت من سكانها (الليبيين) أن يمنحوها أرضا تقيم عليها تكون بمساحة جلد ثور ٠ فعملت على تقطيع ذلك الجلد شرائح رفيعة حتى تكون منه أكبر مساحة ممكنة ٠

(45) Braudel : La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II (Paris 1949) p. 83.

46) ان الطريق الثانى هو عبر مضيق مسينا

بين خط يمتد من (طرابلس الغرب) الى (سيراكوز) فى صقلية ، وفى الغرب بين بونة الى(ترابانى)فيها . وفى هذا البحر والى الشرق من بونة تقع أرصفة المرجان الغنية الممتدة على كل شرقى الجزائر وشمالى تونس والتى أعطت الساحل اسم (ساحل المرجان) (47) والتى أفاض الرحالة الجغرافيون العرب بوصف بعض محطاته كـ (مرسى الخرز) الذى كان يستخرج منه فى القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد/وأيام الحكم الاسلامى فى هذه البقاع ، أجود المرجان المعروف ، والذى يقع قريبا من بونة والى شرقها ، كما بينوا كيفية استخراجه ، ومدى النشاط فى الحصول عليه (48) ، وتلك الارصفة المرجانية هى التى أسالت لعاب الاوروبيين مذ بدأ نشاطهم التجارى يقوى فى البحر المتوسط فى القـرن الثانى عشر ، ولا سيما لعاب الصقليين الذين يكونون الحافة الثانية من هذا البحـر ، والنابولونيين والجنويين ، والبيزيين والكورسيكيين ، الذين كانوا يطلون عليه عبـر اجتيازهم البحر التيرينى فى جنوبه ، فتقابلهم بونة والارصفة المرجانية قربها . وقـد ازدادت شهيتهم له فى القـرن الخامس عشر ، ولا سيما جنوة التى كانت تعـمل عـلى

47) أنظـر Grand Larousse Encyclopédique (GLE) art (Coraïl) (Vol. 3, p. 493).

48) أنظر ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص 77 ، البكرى ، ص 55 ، الادريسى ، ص 116 معجم البلدان ج 7 ، ص 106 ، شيخ الربوة ، نخبة الدهر ، ص 235 .

لقد وصف (الادريسى) مرسى الخرز بقوله : مدينة صغيرة ، عليها سور حصين ، ولهـا قصبة وحولها عرب كثير وعمارة أهلها لها على صيد المرجان . والمرجان يوجد بها كثيرا ، وهو أجود جميع المرجان الموجود بسائر الاقطار ، مثل ما يوجد منه بمدينة سبتة وصقلية . ويقصد التجار من سائر البلاد الى هذه المدينة فيخرجون منه الكثير الى جميع الجهات ويعمل به فى كل الاوقات الخمسون قاربا والزائد والناقص ، وفى كل قارب العشرون رجلا وما زاد وما نقص .

ويعطى (ياقوت الحموى) صورة عن تقنية صيد المرجان ، يدل على طول بـاع العرب فى هذا المضمار . فيقول : « يتخذ لاستخراجه صليب من خشب طوله قدر الذراع ثـم يشد طول ذلك الصليب حجر ، ويشد فيه حبـل ، ويركب صاحبه فى قارب ويبعد عـن الساحل قدر نصف فرسخ . وفى مقر تلك المسافة ينبت المرجان ، فيرسل ذلـك الصليب فى الماء الى أن ينتهى الى القرار ، ثم يمر بالقارب يمينا وشمالا ومستديرا الى أن يعلـق المرجان فى ذوائب الصليب ، ثم يقتلعه بقـوة ويرميه اليه ، فيخرج وقد علـق فى ذلك الصليب جسم مشجر الى القصر ما هو ، أغبر القشر ، فاذا حل عنه قشره ، خرج أحمـر اللون فتفصله الصناع .

استخراجه من قرب بونة (49) ، والتى حصلت على امتياز احتكاره فى جزيرة طبرقة على الساحل التونسى فى القر ن السادس عشر (50) ، فالمرجان (51) لعب دورا هـامـا فى علاقات دول البحر المتوسط الاوروبية ببونة بل ابالجزائر كلها ، ولا أدل عـلى ذلك فى العـلاقات الفرنسية الجزائرية فى القـــرن الســادس عشر/العاشر هـ التى بـدالياتها الرسمية حصول شركة كورسيكية ـ فرنسية على امتياز باستثمار المرجان قرب بونـــة عام 1560 ، واقامة هذه الشركة لـ (حصن فرنسا Bastion de France) ، وما نجم عن ذلك من تواصل العلاقات بين توتر واسترخاء ، وعنف وسلام · (52)

وهكذا فوقوع بونـــة لصيقة بأرصفة المرجان الممتاز النوع ، وفى الوقت ذاته فى مداخل البحر البترينى الجنوبية (53) ومخارجه ، أو كما كانت تسميه وثائق صقليـــة بقنوات كورسيكا وسردينيا ، جعلها محط أنظار جميع البلدان التى تنفتح عليه كجنـوة ومرسيليا فى أقصى الشمال ، وطوسكانا فى الشمال الشرقى ، وكورسيكا ، وسردينيا فى الغـــرب ·

وبالاضافة الى هذا فان بونة تقع فى مطلع التيه البحرى الذى يمتـد من الشواطىء الصقلية والسردينية الغربية حتى البالسيكار فاسبانيا وأقصى المغـــرب والذى يمكـن

---

(49) Leo Africanus, op. cit. III. p. 709.

50) يذكر (فيان G. Wian) فى كتابه (تونس la Tunisie P. 106) أن هذا الامتياز قد أعطى للجنويين مقابل تحريرهم غازى البحر (طرغد) الذى كان قد أسر من قبل (دوريا) عند مهاجمته لجزيرة كورسيكا الجنوية وقد كان هذا الامتياز الذى حصـل عليه آل اللوميلينى Lomellini والغريمالدى Grimaldi سببا فى ثرائهم الفاحش · وقد استطاعت جنوة تأمين احتكاره بفضل أسطول صياديها المهـــرة ، ومراكز صناعته فيهـا ، واهتمام تجارها به · اذ كان حليه ثمينة لها أسواقها اللهفة فى أقصى آسيا ، وكانت تصدره عبر طريق مصر ـ الشرق الاقصى وتأخذ مقابله التوابل · وكانت البندقية تتاجر به كذلك مع الليقانت وتطلبه A.D.S. Venise, Sen, Secreta "Constantinople, 3/c. 27 août 1561"

51) هناك وثائق عديدة ودراسات حول المرجان استثماره · أنظر تعليـق (الدكتور براون) على كتاب (ليو الافريقى III. p. 750-51 و (بروديل) p. 335, N 7, op. cit.

52) أنظـــر :

— Paul Giraud, Les origines de l'empire français nord-africain. Paris (1939).
— F. Charles Roux, France en Afrique du Nord avant 1830 (Paris M.C.M.XXXII).

53) الى هذا المعنى يشير (البكرى ، ص 55 عندما يقول عن « مرسى الخرز » قـــرب بونة (ان مقطعها بقرب من جزيرة سردينيا بينهما نحو مجريين) (المجرى : مائة ميـــل بحرى · الميلى ج 2 ، ص 143) ·

تسميته ببحر سردينيا ، وقد كان صعب الاجتياز لعدم توافر شواطىء صالحة للملاحة ، ومراسى أمينة تحمى المراكب من الهبات العاصفة لرياح « الليفانت » و « النورد » (54) (الشرقية ، والشمالية الغربية) ، فبونة هى المحطة القريبة التى على السفن المتوجهة من المشرق الى المغرب عبر هذا التيه أن تمر أو ترسو فيها ، وهى المحطة الآمنة التى لا بديل عنها ، والتى تفتح ذراعيها مرحبة بالسفن الوافدة من المغرب واسبانيا والباليار قبل متابعتها طريقها الى المشرق ·

ثانيا : وبالاضافة الى تلك الخصائص لموقع بونة ، فان التركيب الجغرافى النادر له ، على شاطىء فقير بالملاجىء الطبيعية من بحر عاصف ، جعلت عابر البحر يأمن اليها ، والمطل من البر على البحر يمسح البحر كله منها بنظرة واحدة (55) · فوجودها على خليج واسع بين رأسى (غارد) و (روزا) ، وانفتاح هذا الخليج نحو الشمال الشرقى ، وانتصاب جبل ايدوغ شامخا (1008 م) الى شمالها الغربى ، وحمايتها بذلك من الرياح الغربية والشمالية السائدة جعلتها واحدا من المراسى الآمنة القليلة على الساحل الشمالى الافريقى (56) ، هذا وان الضباب (وادى السيبوس) فى أعماق ذلك الخليج ، وربطه بين بونة والداخل بفتحه لها مع روافده ، خلفيتها القسنطينية من البذد الجبلية والسهول المرتفعة ، الزاخرة بالغابات الصنوبرية فى العصور السالفة لصناعة السفن ، والتى كانت تعج فى غابر الايام بحيوانات متنوعة جدا استفادت منها روما فى ملاعبها ، وجعلت البقعة مرتعا للقنص · ولبونة سهل خصيب جدا وهو السهل الوحيد فى أقصى شرقى

(54 Braudel, op. cit. p. 100

(55 Shaw, op. cit. p. 97

(56 — Marec, op. cit. p. 16 : Encyclopedia Britannica (E.B.) (1970 ed.) Item. Annaba.
— Nagel, Algérie (Encyclopédie de voyage) Genève 1974. p. 323 - Shaw, loc. cit.

الا أن اسماعيل سرهنك (المصدر السابق ج 1 ، ص 356) الى جانب اثباته أنها (شبه فرصة عظيمة بين رأسين ممتدين فى البحر الى مسافة بعيدة) فانه يؤكد انها ليست بمرفأ أمين · ويستدل على ذلك بأنه تعطل فيها عام 1835 أربع عشرة سفينة منها ابريق حربى) · وقد ينسجم حديث سرهنك هذا ، مع ما أشار اليه الرحالة (شو) فى القرن الثامن عشر من أن طرح الرسوبات النهرية فى مرسى الميناء واهمال تنظيفه قد جعل المرسى أقل امانة وملاءمة من السابق (P · 98) هذا بالاضافة الى أن ابن خلدون فى مقدمته ص قد أكد على عدم أمانها من الاعداء ·

الجزائر المطل على البحر ، اذ من المعروف أن جبال الاطلس التلى الشرقى تتزاحم لتقترب منه (57) وهو مروى ريا حسنا بمجارى مياه لا تنضب صيفا • فوراء عنابة اذا عمــق أرضى غنى ، زراعة ومرعى ، وثروات معدنية (58) ، وهو الذى قال عنه الكاتب الفرنسى « بيير لوتى » (1850 ـ 1923) • « انه أكثر الاقاليم خضرة وازهارا ومرعى » (59) •
وقد انتزعت بونة بتكوينها الجغرافى هذا ، وبخصب خلفيتها ، اعجاب كل من زارهـــا من الكتاب العرب المسلمين ، والرحالة الاجانب ، على الرغم من أن بعضهم قد رآها وهى ليست فى أفضل أحوالها ، وبونة بالنسبة لابن حوقل فى أواخر القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد ، مدينة مقتدرة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ، فيـــها خصب ورخص موصوف ، وفواكه وبساتين قريبة ، وأكثر فواكهها من باديتها ، والقمح بها والشعـير فى أكثر أوقاتها كما لا قدر له ••• ويزرع بها الكتان ••• وبها من العسل والخـــير والمير ما تزيد به على ما داناها من البلاد المجاورة لها ••• وأكثر سوائمهم البقر ، ولهـم اقليم واسع ، وبادية ، وحوزة بها نتاج كثير ، وقل من بها تفوته الخيل السائمة للانتاج (60) • و (بونة) فى عهد (البكرى) أى فى الربع الاخير من القرن الخامس للهجرة/الحادى عشر للميلاد ، وبعد قرن من حديث (ابن حوقل) مؤلفة مــن مدينتين قديمة وحديثة ، وهى « ذات تمر وزرع •• كثيرة اللحم واللبن ، والحـــوت والعســـل ، وأكثر لحمانهم البقر ••• » (61) • وبقربها « ماء سايح يسقى بساتين وهو مستنزه حسن » (62) •

(57 Alazard, Bencheneb, Boyer et autres, Initiation à l'Algérie (Paris S.D.) Chap. I p. 26.

58) لقد أشار معظم جغرافى العرب الى غناها بمعدن الحـديد (معجم البلدان ج 4 ، ص 512) (الادريسى للمصدر السابق . ص 116) (ابن حوقل : صورة الارض ، ص 77) (المقدسى المصدر السابق ، ص 226) (أبو الفداء المصدر السابق ص 141) وهى لا تزال الى الآن تشتهر باستخراجه من مناجم (أوينزة) • ويضاف اليه اليوم (الفوسفات) مــن الكويف ، والزرنيخ من منجم (كاريزاس) والتونفتن كذلك • انظر من أجـــل النشاط الصناعى فى عنابة اليوم •
E.B. item (Annaba) - Grand Larousse. Ency. art. (Algérie) et (Bône).

59) استفادة من Marec, op. cit., p. 16

60) المصدر السابق ، ص 77

61) المغـــرب ، ص 55

62) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها

وعلى الرغم من أن بونة كان قد أغار عليها النورمان واحتلوها بعد نزع صقلية من المسلمين وذلك عام 548 هـ/1154 ، منتهزين فرصة قضاء الموحدين على مملكة بجاية الحمادية ، وعلى الرغم من « ضعفها وقلة عمارتها » (63) فى عهد عاملها (الحارث الحمادى) النائب عن (روجر النورمندى) ، فان (الادريسى) يصفها كما وصفها (ابن حوقل) بأن « بها من أنواع الفاكهة ما يعم أهلها ، وأكثر فواكهها ، من باديتها ، والقمح والشعير فى أوقات الاصابات ٠٠ كثير جدا ـ ويزرع بأرضها الكتان، والعسل بها موجود ممكن وكذلك السمن ، وأكثر سوائمهم البقر ، ولها أقاليم وأرض واسعة ٠٠٠ » (64) ٠

ورسم أوصافها (أبو الفداء) فى القرن الثامن الهجرى نقلا عن (ابن سعيد المغربى) (685 هـ/1286) ٠ وكانت آنذاك تحت حكم الحفصيين ورثة الموحدين ـ بأنها « مدينة جليلة ، عامرة على البحر ، خصبة الزرع ، كثيرة الفواكه رخية ٠٠٠ ويزرع بها كتان كثير ٠٠ وهى على آخر سلطنة بجاية وأول سلطنة افريقيا » (65) ٠

وفى مطلع القرن العاشر/السادس عشر يصف (ليو الافريقى) خلفيتها الغنية بقوله : « ووراء المدينة يمتد سهل فسيح واسع طوله (40) ميلا، وعرضه عشرون وبعض الاميال ، غنى بالقمح ، ويسكنه بعض العرب من مرداس ، ولدى هؤلاء كمية كبيرة من الابقار ، ويحملون كمية كبيرة من السمن الى بونة ٠٠ » (66) ٠

وبعد قرنين ونيف من (ليو الافريقى) هبطها الرحالة الانكليزى (شو) أى فى القرن الثانى عشر للهجرة/الثامن عشر وبين أن « موقعها ممتاز للتجارة والمبادلات ، وللصيد واللهو ٠٠ وتتمتع بهواء صحى ، ولها ميناء واسع ، وقربها جبال متنوعة مملوءة بالاشجار وسهول تجتازها الانهار» (67) ٠٠٠ ويجمع كثير من العناب من جوارها و « كمية كبيرة من القمح والجلود تحمل منها كل عام » (68) ٠

63) المصدر السابق ، ص 117
64) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها ٠
65) تقويم البلدان ، ص 141
66) Op. cit., p. 709
67) Op. cit., p. 97
68) Ibid, p. 96

ان موقع بونة مميزاته الخارجية والداخلية الآنفة الذكر ـ أى بكونها تطل على مداخل القنوات البحرية الرئيسية فى البحر المتوسط الغربى والشرقى بل وفى مجراها ، مع غناها بمنتجات البحر كالسمك والمرجان ، وبتكوينها الطبيعى الفذ كميناء محم وبخلفية برية عميقة وغنية اقتصاديا ـ قد رسم فى الواقع خطوط علاقاتها مع العالم المتوسطى خارج عالمها المغربى الخاص ٠

فوقوع بونة على أقصى حد بحر (صقلية ـ تونس) جعلها تعيش محورى العلاقات اللذين شقاه عبر التاريخ وهما محور المشرق والمغرب وبالعكس ، ومحور الشمال والجنوب وبالعكس ، بكل ما فيهما من أطر سلام وأطر حرب ، ومن تأثيرات بشرية ، وحضارية ، ففى العصور القديمة وكفة القوة والحضارة فى المشرق أرجح ، وحركة الانتقال منها الى المغرب أنشط ، اذا « بهيبو » بونة تتلقف منه البشر والتأسيس والاسم حيث كانت للوافدين منهم محطة عبور وتجارة ، وعندما أسست (قرطاجنة) من المشرق أيضا ، وليس بعيدا عن يمينها ، فانها تتوأمت معها ، وربطت مصيرها بمصيرها ، وأخذت عاداتها وتقاليدها ، ودينها ولغتها (69) فالمدينتان من منشأ فنيقى واحد ، وأمانيهما التجارية منسجمة ، ويجمعهما بحر واحد ، وموقع متشابه ، ولابد أن (هيبو) قد أسهمت مع قرطاجنة فى بناء تلك الامبراطورية الواسعة من المحطات التجارية التى زرعتها المدينة الفنيقية المعتزة بذاتها على سواحل صقلية ، وكورسيكا ، وسردينيا ، أو بتعبير آخر فى ركوب محور الفيض من الجنوب نحو الشمال عبر بحر صقلية ـ افريقيا ، فالبحر التيرينى ، فالتيه البحرى السالف الذكر واستيعاب ذلك الشمال ٠ ان محور الشمال ـ الجنوب وبالعكس فى العلاقات فى بحر صقلية ـ افريقيا كان دائما أقوى وأعنف من محور العلاقات المشرقية ـ المغربية لتقارب طرفى البحر ، وسهولة التواصل، والتباين الحضارى والبشرى ، وللمطامع الاقتصادية لكل طرف من أطراف هذا البحر بالآخر ، عبر التاريخ كان الطرف الاقدر هو الذى ينساح على الطرف الاضعف وكأنه يود أن يحقق وحدة الطرفين بأن يجمع فى صعيد واحد ، وتحت سيادة واحدة ، قمح صقلية وجبنها مع قمح بونة وسمنها ، وطون صقلية و نبيذها الى زيت جربا ، وما

(69 Marec, op. cit., p. 19

يقدمه الساحل ا لافريقى المقابل من مرجان وجلود وصوف ، وأبقار صغيرة ، ورخــام جميل ، وحديد من منتجاته الخاصة ، وما يصل اليه من أعماق افريقيا من تبر وعــاج ، وجلود وعبيد • بل قد ينساح هذا التيار ـ اذا كان يسير باتجاه الشمال ـ نحو أقصى شمال البحر التيرينى ليستوعب نحاس سردينيا وفضتها (70) •

ومثلما عاشت (هيبو) حياة ازدهار (قرطاجنة) ، بل وأسهمت فيها ، فانها عاشت صراعاتها عندما ارتد محور الشمال ـ الجنوب عليها فى بحر صقلية افريقيا ، وفى البحر التيرينى حيث أغلقت مرسيليا فى وجهها موانى بلاد الغال واسبانيا ، وبقيت كورسيكا فى يد الاتيروسكيين ، وشرعت صقلية تتخلص من قبضتها ، وروما تتحداها وتحرض مستعمراتها عليها ، وعندما خاضت قرطاجنة حروبها البونية ، قدمت خلفية (هيبون) النوميدية لها فرسانها ا لرائعين الذين أرهبوا ايطاليا فى مطالع تلك الحـروب • وخلال ذلك الصراع الشمالى الجنوبى انبثقت مملكتا (نوميديا) المحليتين • ويبدو ان (هيبو) قد اختيرت بعد معركة زاما (201 ق م) من قبل احدى المملكتين لتكون مقرا مفضــلا لملوكها يطلون منها على مواقع الصراع • وقد تكون منذ ذلك الوقت قد غــدت عاصمة لنوميديا الشرقية (مملكة ماسيل) التى كان رئيسها (غولا) جد (ماسينيسا) (71) ، وقد تكون أكتسبت صفة « الملكية Regius » منذ ذلك الوقـــت ، ولكن (بونـة) عاشت أوقاتا عصيبة خلال تلك الفترة لان الصراع كان لا يزال قائما وكانت هــى فى لبه ، وظلت كذلك حتى سقطت مدينة هانيبعل عام 146 ق م ، ونالت (هيبو) استقلالها الاول تحت صولجـان (ميسيبسا) عـلى النقيض مـن تسميتها (هيبــو دياريتوس) (بنزرت) التى هدمت مع قرطاجنة وضمت الى (اقليم افريقيا الرومانى) •

ودام هذا الاستقلال الذى حملها اسم (هيبون الملكية Hippo Regius فرنا ، الا أنهــا ظلت وفية لعلاقاتها المشرقية السابقة مع قرطاجنة أو بتعبير أدق ما خلفته تلك العلاقات من آثار اجتماعية وفكرية بخاصــــة(72) •

---

(70) Ch. André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord (Paris 1966) I. p. 82. (70

(71) Marec, op. cit., p. 20.

(72) لقد بقيت (هيبون) تتكلم البونية وتحتضن المفهومات السامية عن الاله الواحد Ibid

واذا كان موقعها قد فرض عليها صراع قرطاجنة ـ روما ، فانه عاد ليفرض عليها صراعها مع روما نفسها التى تغلبت على ملكها (يوغرتا) عام 104 ق م ، ووضعت نوميديا وعاصمتها (هيبو الملكية) تحت نصف تبعية لروما ، ودخل حكامها فى صراعات السلطة فيها وفى خليجها سقط القائد العادل البونى (سيبيون) وحليفها ، صريع سيفه ، عندما فاجاه أسطول (سيتيوس) قائد يوليوس قيصر وأحاط بسفنه ، وفيها لاقى ملكها (جوبا الاول) المصير نفسه عام 46 قم (73) ، واستوعب محور الشمال الجنوب ، وحول (يوليوس قيصر) مملكة جوبا الى (مقاطعة افريقيا الجديدة) وجعل حدها الغربى غربى (هيبون) ٠

وفى ظل السلام الرومانى ، تفاعلت الحضارة القرطاجنية ـ النوميدية مع الرومانية لتجعل من (هيبون) مركز حضارة يانعة استغلتها روما لصالحها ولا سيما فى المنحى الاقتصادى ، فارتقت زراعتها ، وتدرجت زراعة الاشجار المثمرة على سفوح الجبال المجاورة ، كالتين واللوز ، والرمان والعناب الذى يبدو أنه بقى منتوجا أساسيا للبلاد عبر العصور ، وتقدمت غابات الزيتون حتى مداخل المدينة ، وانتثرت معاصر الزيت فى أركان الاقليم (74) ، لقد كانت هيبون حديقة على حافة البحر ، فيها الفيل الصغير ، والخيول النوميدية التى كانت تربى لتنال قصب السبق على ملاعب روما ، وفيها يربى الثور الصغير الذى لا زالت منطقتها تشتهر به الى الآن ، وكذلك الغنم الذى كان مدار تجارة هامة ، ولقد اشتهرت (هيبون) أكثر ما اشتهرت بكرومها وحبوبها (75) ، كما هو حال عنابة اليوم ، وكانت مركز التصدير الاول للمقح الى روما ، ومن ثم فقد كانت مقر المكلف بشراء القمح لتموين روما (76) ، وظلت تلعب دور المصدر للقمح فى العصور الحديثة أكان سرا أو جهرا ، وكما كان المرجان عنصرا هاما فى علاقاتها مع العالم المتوسطى الاوروبى المقابل لها ، فان القمح لعب دورا مماثلا ان لم يكن أكثر

(73) Ibid, p. 23 - Julien, op. cit. I. p. 119 - 122
(74) Marec, p. 25.
(75) Ibid.
(76) Albertini, Hippone et l'administration des domaines impériaux. Bulletin de l'Académie d'Hippone. n. 35 - 1925, p. 57 - 99.

أهمية (77) · فأوروبا المتوسطية الجائعة لـــه كانت تسعى اليه والى مناطقه بشتـى الوسائل والطرق ، فمشكلة القمح قضية هامة فى حياة البحر المتوسط وعلاقاته (78) .

ولم تكن (هيبون) فى علاقاتها مع روما تزودها بالحبوب ، والعنب ، وغيرها مـــن المواد الغذائية بل انتزعت منها روما كل ما كانت تنتجه خلفيتها · فبدلا من سفـــن صور وصيدا المشرقية ـ المغربية ، كانت مراكب رومـــا هى التى تغـدو وتروح بين الشمال والجنوب حاملة رخام فيلفيلة ، والبورفير الاحمر والاخضر ، والاخشاب الثمينة والعاج والحيوانات المفترسة (لالعاب السيرك) ·

ويبدو أنه فى عهد (تراجان) سحب اليها الماء بقناة من منابع الغابات العليا ، وقد تكون نهايتها هى (« بير النثرة » المنقورة على ضفة البحر فى حجر صلد) التى أشـار اليها البكرى وكان الناس يشربون منها فى عهده (79) ، ويبدو كذلك أن هيبون قـــد عمرت على نمط المـدن الرومانية ، فحـــوت حمامات ومسارح ، وزينت بالفيسيفساء والتماثيل ، وهى ما كشفت الحفريات المعاصرة عنه (80) ·

ولم تغرق (هيبون) تحت تأثير الحضارة المادية الغربية ، بل عـــاد تيـار المشرق المغرب اليها يبعث ويتجاوب مع الخلفية الكامنة ، جاء هذه المرة فكريا عقائديا مماثـــلا بالمسيحية (81) ، وقد لاقت فيها هذه الديانة تربة خصبة ، ونفوسا مستعدة للعقيدة الجديدة اذ أن السكان الاصليين الذين تمازجوا مع العناصر السامية الفنيقية تغلغل فى ذاتهم مفهوم الاله الواحد ، ومبادىء المساواة ، وكان اعتناق (هيبون) للمسيحية بعـد الوثنية بمثابة تحد لتيارات الشمال الاوروبى ، أو هو رد فعل عميق للعلاقة المشرقية المغربية على العلاقة الشمالية الجنوبية ، وفى الوقت ذاته تحرك قومى ، وبالفعل فقـــد

---

77) أنظر : مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار ـ تحقيق المدنى (الجزائر 197) ، ص 65 Ch. Roux. op. cit. p. 66

78) أنظـــر Braudel. op. cit. p. 277 - 284

79) المصدر السابق ، ص 55 و 83

80) أنظر فى Marec. op. cit. p.

81) أنظر حول انتقال المسيحية وانتشارها فى شمالى افريقيا الميلى ، المصدر السابق ج 1 ص 219 ـ 223

وقعت (هيبون) فى صراع عقائدى مع روما ، التى شنت حملة اضطهاد دينى ضـــدها كان من ضحاياها عديد من مسيحيها أيام حكم الامبراطور قاليريان ، وديو قليسيان (82)

وعندما رضخت الامبراطورية الرومانية لتيار المسيحية المشرقى ، وضعفت قبضتها تحت طرقات البرابرة فى أوروبا ، بدت (هيبون) هالة نور فكرى لامع ، اذ تالق الفكر المسيحى فيها على يد أسقفها (سان أوغستين) (345 ـ 430) الذى بقى فيها خمسا وثلاثين عاما ، جعل من اسقفيته خلالها محط حياة فكرية يانعة ، ومركزا وضعت فيه الكنيسة الكاثوليكية أسسها النهائية ، وفيها اجتمعت المجالس الهامة للكنيسة الافريقية (83) ، وعندما اكتسح (ألاريك) ، ملك (الوزيغوط) مدينة روما عام 410 ، كانت هيبون ملتقى انظار المسيحية وأملها، وموئلها البديل ، وفيها كتب (سان أوغستين) ، كتابه الشهير (مدينة الله) التى رد فيها على الوثنيين الذين نسبوا متـاعب الامبراطورية الرومانية الى غضب الآلهة من انتشار المسيحية ، والتى أكد فيها ايمانه بأن (مدينة الله) هـــى فوق البرابرة ، وفوق كل اكتساح ، بل وفوق كل زمـان ومكـان ، وكأنه بذلك كان يصف مدينته مدينة (هيبون) ويقصدها ، ويحفزها على الصمود مهما توالت عليهـا النكبات ، وكان له ذلك عندما عاد تيار الشمال (الاوروبى) ليستوعب الجنوب (الافريقى) همجيا كاسحا بغزوات القّاندال بعد عشرين عاما من هجوم الاريك على روما ، ووقفت (هيبون) المدينة المحتضرة وهى فى احدى ذرى نشاطها الثقافى تحاول أن تذب عـن نفسها ، كما علمها اسقفها ، واستبسلت ثمانى عشرة شهرا أمام حصار قاسى ، ويبدو أن مقاومتها هذه غدت طبيعة فيها يتوارثها أجيالها عبـر التاريخ ، ولم يعش قديسها بعد سقوطها عام 430 الا أشهرا ·

وتحولت عاصمة للڤاندال لاربع سنوات ، ثم تحولوا عنها الى قرطاجنة ، وبعد قرن عاد التيار المشرقى لينالها بجستينان عام 533 ، وبتركيز الحكم البيزنطى فيها لقـرن آخر من الزمن وعاد طرفا بحر صقلية افريقيا ليد واحدة ، وبقيت هيبون مركز أسقفية خـــلالــه ·

82) أنظـــر Marec op. cit. p. 33

83) E.I. 1re Ed. art. Bône

ومرة أخرى عاد المشرق قوة عقائدية ـ فكرية لامعة ، وقوة بشرية موحدة ضخمة بظهور الاسلام ، وشرع بالانتشار غربا ، وعادت بونة لتنضوى فى خضمه ، ولا تشير المصادر العربية تفصيلا الى فتحها ونوعيته ولكن يمكن القول مع « فيليب حتى » أن الدين الاسلامى قد استهوى افئدة سكانها كما استهوى افئدة سكان الشمال الافريقى للقرابة فى العرق ، والتشابه فى المجتمع ، وللفكرية السامية السابقة (84) ، ومع ذلك فانه يبدوأن بعض سكانها بقى على الدين المسيحى بدليل انتخاب أهلها أسقفا لهم فى عهد بنى حماد (85) ، الا أن الاسلام استوعبهم فى عهد الموحدين ٠

وباستقرار الاسلام فى المغرب ، اختل التوازن على بحر صقلية ـ افريقيا ، فعاد محور الجنوب الشمال يتحرك ، ولما كان المسلمون هم القوة العظمى عسكريا ، واقتصاديا وروحيا ، فان حركة المد كانت من ساحل افريقيا الى الشمال ، ففاض (الاغالبة) حكام القيروان وبونة على صقلية وجنوبى البرالطويل (ايطاليا) ، ولابد أن بونة كانت ضمن تلك المسالح والحصون والرباطات التى زرعها الاغالبة على ساحل شمالى افريقيا حارسة لسوأحلها من بيزنطة ، ومجهزة الرجال والسفن للغزو (86) ، ولو أنه ليس هناك اشارة صريحة الى ذلك ٠ الا أن اشارة المقدسى الى أنها كانت مدينة مسورة (87) فى القرن الرابع الهجرى لدليل على تحصينها من قبل المسلمين ، أتم ذلك فى عهد الاغالبة أو الفاطميين بعدهم ، ولابد أنها لعبت دورها فى عمليات الغزو البحرى التى وصل به الفاطميون عام 322 هـ/933 الى مدينة (جنوة) فى أعماق البحر التيرينى وفتحوها ، وأحرقوا مراكب لسردينيا (88) ، لان بونة بموقعها فى مدخل البحر التيرينى ، وقريبا من سردينيا مهيأة لهذه المهمة ٠ ويثبت هذه الفرضية ما ذكره (ابن حوقل) ، من أنه كان (فيها عامل قائم بنفسه ومعه من البربر عسكر لا يزول كالرابطة) (89) ٠ وذلك

84) تاريخ العرب (مطول) (ترجمه الى العربية جبرائيل جبور وادوار جرجى ، بيروت 1949) ج 2 ، ص 280 ٠
85) الميلى المصدر السابق ج 2 ، 211
86) ابن خلدون : المصدر السابق ج 4 ، ص 203
87) أحسن التقاسيم ، ص 226
88) ابن خلدون ج 4 ، ص 208
89) المصدر السابق ، ص 77

فى اواخر عهد الفاطميين فى تونس وما وراءها ... كما أن (البكرى) بعد أقل من قرن يؤكد على أن مرسى بونة « مرسى منيع » ، « ومنه كانت تخرج الشوانى غازية الى بلاد الروم وجزيرة سردانية وكرسقة وما والاها » (90) . « وفى مدينة (مرسى الخرز) القريبة منها كانت تنشأ السفن والمراكب البحرية التى تغزى بها الى بلاد الروم .. والى هذه المدينة يقصد الغزاة من كل أفق لان مقطعها يقرب من سردينيا » (91) .

ويبدو أن هذا الدور الجهادى في علاقاتها مع المسيحية المتوسطية قد حافظت عليه بونة عبر الفترات التالية من تاريخها ، ولو أنها لم تفقد أبدا دورها التجارى القديم ، وكونها محطة تجارية هامة على خط المبادلات المشرقية المغربية وبالعكس . ومن ثم فانها كانت احدى محطات العمل التجارى للاندلسيين ، فأكثر تجارها كان منهم (92) ، الا أن دورها الحربى هذا كان مثار نقمة شمالها الاوروبى ، بل ومغربها الاندلسى المسلم الاموى ومرسى انتقامهما ، ففى عام 345 هـ/956 بعث الناصر صاحب الاندلس أسطوله باتجاهها وأحرق مرسى الخرز (93) كجزء من الصراع الفاطمى ـ الاموى . وفى عام 426هـ/1034 هاجمها أهل (بيزا) و (جنوه) انتقاما من نشاطها البحرى الحربى (94) ورغبة من المدينتين اللتين أخذتا تستفيقان للنشاط التجارى فى البحر المتوسط ومكاسبه ، فى ابعاد المسلمين من البحر التيرينى بل من كل الحوض الغربى للبحر المتوسط ، ولذا فانهما تحالفتا عام 1017 لطرد المسلمين من سردينيا واقتسام الجزيرة (95) ، فمحور العلاقات الشمالية الجنوبية عاد قويا اذا أمام بوادر ضعف الجنوب المسلم ، ويقظة الشمال النصرانى ، وظهور شعوب جديدة على مسرح السياسة كالنورمنديين الذين انتزعوا تدريجيا جزيرة صقلية من المسلمين (منذ عام 452 هـ 1060 م وحتى 485/1091) ، وكذلك مالطة ، وافتتحوا الحروب الصليبية عبر البحر المتوسط ، كما كان الاسبان قد انتزعوها فى الاندلس ، وسعى هؤلاء النورمنديين

90) المصدر السابق ، ص 83
91) المصدر السابق ، ص 55
92) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها . 93) ابن خلدون ج 4 ، ص 46 .
94) E.I. 1re Ed. art. Bône
95) G.L.E. art. (Génes)

لاستيعاب الشمال الافريقى المقابل لهم منتهزين صراعاته الداخلية ، وهجمات الهجرة الهلالية ، وانشغال المشرق العربى الاسلامى بالسطو الصليبى على أرضه • وقد يكون تركز النورمنديين فى صقلية ، متزامنا مع هجمات الهلاليين العرب على الشمال الافريقى هو الذى دعا سكان مدينة بونة الى تسوير مدينتهم الجديدة (96) ، وذلك ليدرؤوا عنها هجمات الداخل والخارج ، وان كان هذا التسوير موجها على الاغلب ضد الخارج ، وقد تكون نشاة المدينة الحديثة كلها قد تم فى هذه الفترة ـ كما أورد ذلك (شيخ الربوة) (97) ، حيث عمرت فى مكان صالح للدفاع ، وبعيد عن الاول ثلاثة أميال (98) ، الى شماله مهما يكن ، فقد كانت بونة ضمن مشروع روجر النورمندى للقبض على جنوب بحر صقلية ـ تونس ، ولذا فبعد حملة واسعة على جيجل ، وشرشال ، وتنس ، وجزر كركنة ، وطرابلس ، والمهدية ، وصفاقس ، وسوسة ، فانه أنفذ أمير بحره (فيليب المهداوى) لاحتلالها عام 549 هـ/1154 ، وأناب عنه فى حكمها الحارث من أمراء بنى حماد • ولكن الموحدين ما لبثوا أن استعادوا التراب الاسلامى ومنه بونة عام 556 هـ/1160 (99) •

وظلت بونة تعانى المد الشمالى الاوروبى المتفاقم الذى كان ملحا على ابعاد المسلمين من البحر التيرينى ، وكان الاوروبيون قد شرعوا بتكوين قرصنة تغير على الموانىء الاسلامية ، فتنهب وتسلب الارزاق ، وتحرق وتدمر ، ثم تتخطف الناس أسرى ليبيعوهم عبيدا ، أو ليأخذوا فديتهم مالا وفيرا • ويبدو أن المشرق الاسلامى على الرغم من مآسيه هو الآخر لم يكن غافلا عما يجرى • ويصور (ابن جبير) فى رحلته مأساة أسرى المسلمين المغاربة وتعاطف المشرق الاسلامى معهم فقد قال : « ومن الفواجع التى يعانيها من حل (بلاد الكفر) أسرى المسلمين يرسفون فى القيود ، ويصرفون فى الخدمة

96) أنظر البكرى ، ص 55
97) نخبة الدهر ، ص 235
98) البكرى ، ص 55
99) انتقلت بونة بعد الموحدين الى حكم الحفصيين ، وكانت موضع نزاع بين أمراء تونس وبجاية وقسنطينة . وبين المرينيين والحفصيين الا أنها كانت لعامين (760/1358 ـ 762 1360) قصبة مملكة صغيرة أسسها الامير الحفصى (الفضل) • كما كانت خلال حكم الموحدين ولعامين أيضا بيد (ابن غانية) الذى انتزعها من الموحدين (599 ـ 601 هـ/1202 ـ 1205) •

الشاقة تصريف العبيد ، والاسيرات المسلمات كذلك فى أسوقهن خلاخيل الحـــديد ، فتنفطر لهم الافئدة» (100)٠ ويستطرد فيشير الى أن مسلمى بلاد الشام من الاثرياء الرجال والنساء كانوا يوصون بقسم من أموالهم فى « افتكاك المغاربة خاصة » ، بل أن نور الدين الزنكى نفسه كان يعمـل فى هذا السبيل (101) ٠ ويذكـر (ابن جبـير) بالذات أمر رجل مغربى من بونة ــ عمل بجاية ــ كان أسيرا فتخلص على أيدى تاجـــر شامى ، له قوافله العاملة مع بلاد الفرنجة (102) ٠

واستفحل أمر البحريات الاوروبية فى القرن السابع الهجرى/الثالث عشر للميلاد واحتل الاراغونيون صقلية عام 1282 ، وأتبعوها بسردينيا 1325 ٠ وتبدى التيـــار الكتالونى الغربى تيارا قويا ، وجامحا من الباليـار نحو الشرق بطريق سردينيا وصقلية وأقام مستعمرات بحرية كانت فى واقعها محطـــات للقرصنة ، وبخاصة فى سردينيا وصقلية ، وعلى مقربة من بونة ٠ وكان الاسطول الحفصى قد تـدنى مستواه عـــددا ، وتقنية وعدة (103) ٠ بالنسبة لاساطيل جنوة ، وبيـــزة ، والاراغون ، فهذه وسعت من عماراتها البحرية ، وطورت من صناعة سفنها ، وارتقت بتقنية تجارتها (104) ، وجاء التأمين البحرى ليوسع من نشاطها (105) ، وبذلك بدا لها المغرب الاسلامى المنقسم على نفسه فريسة سهلة ، ولا سيما بالنسبة للاراغونيين الذين رأوا فيه امتدادا لبـــلاد الاندلس المسلمة وحرب المسيحية ضدها،ومن ثم شرع صاحب صقلية وهو نائب عن ملك برشلونة يشن غاراته على الشمال الافريقى المسلم٠ففى عام 686هـ/1287 غدر وحلفاؤه بمرسى الخرز القريب من بونة ، واقتحموها بعد أن ثلموا أسوارها واكتسحوا ما فيها ، واحتملوا أهلها أسرى وأضرموا بيوتها (106) ، وفى عام 688 هـ/1289 هاجموا جزيرة

100) طبعة ليدن 1907 ، ص 307 ابتدأ ابن جبير رحلته من المغـــرب الى المشرق عام 578 هـ/1182 ٠

101) المصدر نفسه ، ص 307 ــ 308

102) المصدر نفسه ، 308

103) Ch. André Julien, op. cit. p. 149

104) Ibid. p. 123

105) أنظر C.L.E. art. (Gênes)

106) ابن خلدون ج 6 ، 306

جربا ، وانتهبوها وحملوا أهلها أسرى وسبيا • وفى عام 686 هـ/1287 ظفر العـــدو بجزيرة ميورقا كذلك (107) ، وفى 689 هـ/1290 هاجموا المهدية (108) ، وفى العام ذاته حصروا (بونة) وأسروا من ضاحيتها أشخاصا (109) ، ويبدو أن الرحالة المغربى (العبدرى) قد زارها حوالى ذلك الوقت ، والنشاط البحرى الحربى الاوروبى فى أوجه ـ فكان حديثه عنها حديث أسى شعـــرى مسجع اذ « وجدها بطوارق الغـير مغبونة ، مبسوطة البسيط ، ولكنها بزحف النوائب مطوية مجنونة ، تلاحظ من كثب فحوصا ممتدة ، وتراعى من البحر جزره ومده ، تغازلها العيون من جور النوائب ، وتأسى لهـا النفوس من الاسهم الصوائب •• » (110) • وأشـــار الى تلك القرصنة الاوروبية ، وكيف أن بونة أثناء مروره منها قد مر « بها زورق للنصارى لا تبلـغ عمارته عشرين شخصا ، وقد حصروا البلد حتى قطعوا عنها الدخول والخروج ، وأسروا من البـــر أشخاصا فامسكوهم للفـــداء بمرسى البلـــد » ، واعتبر العبدرى ذلك مـن أغـرب المسموعات (111) لان عشرين شخصا فقط يتحكمون بمدينة • وهذا يدل على انحطاط أمرها ، وذبول حيويتها من كثرة الغارات عليها •

ويحاول (ابن خلدون) فى مقدمته أن يعلل أسباب تواتر غارات النصارى عليها ، وطمعهم بها ، بالبنية الجغرافية لموقعها الذى لا يقوم فى موضع متوعر من الجبل ، كمـا أن أهلها كانوا « من الحضر المتعودين للدعة وقد خرجوا عن حكم المقاتلة ، وصاروا عيالا وليس بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات » • وشأنها فى ذلك بحسب ابن خلدون شأن طرابلس من المغرب وسلا والاسكندرية من المشرق • وهى بموقعها هذا على نقيض سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها التى اختطت فى هضاب الجبال وعـلى أسنمتها ،

107) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها
108) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها
109) الميلى المصدر السابق ج 2 ، 393
110) الرحلة المغربية ، تحقيق محمد الفاسى ، ص 37
111) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها ، ولقد أدخـــل العبدرى بـــونة ضمن منظومته الشعرية للرحلة فقال فيها :

وبـــونة قـد أبـانت من أبـانت ★ صـــروف الـدهر من ســام سـرى

وتكاثرت القبائل والعصائب حولها ، فكان لها بذلك منعة من العدو ، فيئس من طروقها لما يكابده من وعرها (112) • وقد يكون نقد ابن خلدون موقع (عنابة) أو (بونة الحديثة) صحيحا من حيث ابتعاده عن وادى السيبوس ـ كما كان عليه موقع هيبو القديمة ـ والاتصال المباشر بالداخل وبأهل العصبيات فيه ، الا أن المكان الذى اختير لها زمن الهجرة الهلالية كان صالحا للدفاع (113) ، لانه بنى وفى أذهان أصحابه الانطلاق فى مجال الغزو البحرى (114) لا التجارة فحسب •

وفى الحقيقة على الرغم مما تعرضت اليه بونة بسبب موقعها من محن ، فانها بقيت مركزا تجاريا مطروقا ، أو بتعبير أصح نزلة (تسلة) ، تطمح عديد من الدويلات الاوروبية بالتجارة فيها ومعها ، ولا سيما بعد أن سعت تلك الدويلات ومنذ عهد الموحدين ـ لاقامة علاقات تجارية سلمية مع الشمال الافريقى ، وعقد اتفاقيات ، وكانت جمهورية (جنوة) من أوائل المدن التجارية الاوروبية التى طرقت هذا الباب (115) ، واسست على اثر ذلك شركات خاصة للتجارة بالمغرب (116) ، وكذلك فعل البيزيون عام 552 هـ/1157 (117) • وتوسع نطاق الدول الاوروبية الطامحة بهذه العلاقات السلمية المربحة فى عهد الحفصيين ، فدخلت البندقية الميدان ووقعت اتفاقها عام 629 هـ/1231 وجددت بيزة اتفاقها عام 632 هـ/1234 وحصلت على ضمانات أوسع عام 1353/751 ، كما جدد الاتفاق مع جنوة عام 634 هـ/1267 (118) ، وتقدمت الاراغون الى السلام كذلك عام 670 هـ/1271 (119) ، ودعمت الاتفاقات السالفة فى

112) ص 349
113) Nagel, Algérie, p. 323
114) Ibid.
115) لقدوقعت مع الموحدين معاهدة عام 548 هـ/1153 ضمنت فيها لرعاياها حرية التجارة فى المغرب الاسلامى برا وبحرا على أن يؤخذ من البضائع الواردة الى بجاية العشر والى غيرها ثمانية فى المائة (أنظر الميلى المصدر السابق ج 2 ، ص 265) •
116) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها
117) Ch. André Julien, op. cit. II. p. 123
118) Ibid. p. 151
119) Ibid. p. 139

الوقت ذاته (1271 ـ 1272) (120) وكل تلك الاتفاقات تمثل الصورة الاولية (121) ، لما يسمى بالامتيازات التى ستوقعها فرنسا مع الدولة العثمانية عام 942/1535 ٠

وهكذا كان لتلك الدول الاوروبية المعاهدة فنادقها فى بونة ، كما كان لها فنادقها فى تونس وبجاية وصفاقس وقابس وجربا (122) ، الا أن تلك الاتفاقات لم تمنع صاحب برشلونة ـ كما رأينا ـ من شن غاراته السالفة الذكر وعلى بونة نفسها ٠ وأمام جموح الغرب ، وتكالبه على العالم الاسلامى بحملاته الصليبية فى المشرق ، والاندلس ، والمغرب ، ثم أمام تبدى بعض التخلخل فى وحدته وقوته ، ولا سيما بعد طرده نهائيا من المشرق 691 هـ/1291 ، « تمت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل افريقيا لغزو بلادهم ، وشرع فى ذلك أهل بجاية ٠٠٠ فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر ويصطنعون الاسطول ، ويتخيرون له أبطال الرجال ، ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم ، على حين غفلة فيتخطفون فيها ما قدروا عليه ، ويصارعون ما يلقون من أساطيل الكفرة ، فيظفرون بها غالبا ، ويعودون بالغنائم والسبى والاسرى حتى امتلأت سواحل الثغور القريبة من بجاية بأسراهم تضج طرق البلاد بضجة السلاسل والاغلال عندما ينتشرون فى حاجاتهم ، ويغالون فى فدائهم بما يتعذر منه أو يكاد » (123) ٠ ويعطى ابن خلدون لهذا « التنظيم الشعبى » للغزو ، ورد الاعتداء بالاعتداء تاريخا منتصف القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد (124) ٠ وتنظيم

---

120) Ibid

121) لقد نصت تلك الاتفاقات فى خطوطها العامة على تأمين الملاحة والتجارة المتبادلة ، وتحديد أسس التجارة بين الطرفين وضمان اقامة الاوروبيين الاجانب فى الاسكالات (الموانىء المغربية) ، وأن يكون لكل جالية أوروبية (أمة) قنصلها وفندقها لحماية بضائعها ، واقامة أفرادها ، وأن تضمن المسؤولية الفردية أى لا يعاقب مثلا كل أفراد الجاليات أو الجالية الواحدة كلها لذنب اقترفه واحد منهم ، أو لتصرف سىء قامت به دويلة من دويلاتهم ٠ يرجع لتفصيل أكبر لـ

Mas Latrie, Traités de Paix et de Commerce... (Paris 1872 - 1875).

122) Julien, loc. cit. p. 151

123) ابن خلدون ج 6 ، ص 399 ـ 400 ٠

124) المصدر نفسه ، ص 399 اذ يقول : « منذ ثلاثين عاما » وكان يتكلم عن الحملة على المهدية ٠

الجهاد البحرى هذا الذى باركته على ما يبدو الدولة الحفصية ، أمـر حـرى بالدراسة الدقيقة ، ومعرفة مدى تواصله بتنظيم الجهاد على أرض آسيا الصغرى وسواحلها فى بلاد المشرق ، وفى بلاد المشرق بعامة · ويبدو أن الحركة الجديدة هذه ، التى هـى فى واقعها امتداد شعبى لحرب « الثغور البحرية » التى ابتدأها المسلمون ضد بيزنطة مـنذ فتحهم لسواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبية ، والتى تابعها بحماسة واصـرار الاغالبة ، فالفاطميون ، والزيريون ، والموحدون ، قد أزعجت وأقلقت بـال الـدول الاوروبية المتوسطية ، فقامت ترد على تيار الجنوب الزاحف اليها مـرة أخرى بعنف · وهكذا تحالفت « جنوة وبرشلونة ومن ورائهم بـحاروهم من أمـم النصرانية ، وأقلعو من جنوة » ، وحطوا بمرسى المهـدية عـام 792 هـ/1389 ، الا أنهم لم يفلحـوا فى احتلالها (125) ، بل أن سفن قالسنيا وميورقة قامت بهجوم على دليس عام 800/1398 وعلى بونة عام 801 هـ/1399 (126) ، ونزلت عليها فى (70) قطعة الا أنهم أقلعوا منها خائبين ودخلوا مرسى القل (127) ، وتتابعت هجمات دول البحر المتوسط الاوروبى على شمالى افريقيا فى القرن الخامس عشر (128) ، ودخلت البرتغال المعمعة بتوجيه غاراتها على ساحل المغرب الاقصى المتوسطى والاطلسى (129) ، الا أنه يلاحظ خفوت نسبى فى صوت تلك الهجمات فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر · وقد يكون العـامل الاكبر هو اطلالة الدولة العثمانية على البحر المتوسط الشرقى ، وتوسعها فى المشرق الاوروبى ، وتوجيهها بحريتها نحو مياه البحر المتوسط الاوسط فى عهـد السلطان محمد الفاتح ، وفتح هذا الاخير لمدينة (القسطنطينية) ، مما جعل القـوى الاوروبية البحرية المصارعة لموانىء المغرب الاسلامية توجه أنظارها الى الخطر الجديد الذى بدا لها

125) المصدر نفسه ، ص 400

126) Julien, op. cit. II. p. 143 وكانت الحملة ردا على مهاجمة غزاة البحر المغاربة لتوريبلانكا Torreblanca الميلى ، المصدر السابق ج 2 ، ص 393 ·

127) الميلى ، المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها

128) فى عام 828/1424 هـ هاجم أسطول (الفونس الخامس) ملك الاراغون جـزر كركنة وجربا ، وكانوا قد امتلكوا الجزيرة الاخيرة قبلا من 1284 – 1335 Braudel op. cit. p. 84

129) هاجم البرتغاليون (تطوان) عام 1399 ، وسبتـة عام 1415 ، وطنجـة 1437 ، والقصر الصغير (بين طنجة وسبتة) 1458

مهددا لمصالحها التجارية فى الشرق بل وساحقا لوجودها ، من أمثال البندقية وجنوة ، واسبانيا ذاتها ، ومن ثم فان الدول الاوروبية سارعت الى تجديد اتفاقاتها التجارية مع دول المغرب مع تودد لحكامها وتداخلات فى شؤونها ، ومنها فرنسا الويس الحادى عشر ، والبروفنس ، ومدن ايطاليا (130) • وكانت بـونة المرسى المحبب للمرسيليين والذى يتاجرون منه بكثـــرة (131) ، وكذلك للجنويين الذين كانوا يشترون منها القمـــح والسمن (132) ، كما كانوا يصيدون بقربها المرجان ، الا أن سكان عنابة على ما يبدو لم يكونوا يثقون بهم بدليل أنهم كانوا يعارضون انشاء هؤلاء حصنا لهم فى مدخل الثغر لرد هجمات القراصنة عنهم وهم يجمعون المرجان محتجين بأن الجنويين كانوا قـــد استولوا على مدينتهم بمثل هذه الخدعة سابقا (133) •

ومع تجديد الاتفاقات التجارية فى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى ، فانه لا يبدو أن عنابة قد بلغت شأوا فى التجارة ، بل يظهر من حديث (ليو الافريقى) عنها فى مطلع القرن العاشر/السادس عشر أن المدينة متدهورة ، وقد يكون سبب ذلك الهجمات الخارجية التى تعرضت لها والتى لابد أنها دفعت عديدا من سكانها لهجرها ، والصراعات الداخلية بين حفصيين ومرينيين وانقسامات الحفصيين على أنفسهم • فقـد قدر عدد سكانها بـ (300) أسرة (134) ، ويظهر أنها لم تتلـــق مهاجرين أندلسيين كثيرى العدد بعد سقوط غرناطة أو قبلها ، مع أنها كانت ـ كما أسلفنا القول محـــط تجارة لهم وعلى طريق عبورهم الى المشرق • وقد يكون بعدها النسبى عن بلاد الاندلس ووقوعها فى محط الغارات الاوروبية عاملا فى ذلك • ويظهر أن تجارتها كانت محدودة ومع تونس وجزيرة جربا وجنوة فحسب (135) ، اذ أن ليـــو الافريقى لا يشـير الى

130) Julien, op. cit. p. 144

131) Ch. Roux. France en Afrique du Nord avant 1830 (Paris M.C.M.XXXII) p. 64

132) Leo Africanus, op. cit. III .p. 709

133) الا أنه يبدو أن الجنويين قد أنشأوا مثل هذا الحصـن فى القرن الخامس عشر • أنظر حول هذا الامر Ibid. p. 709 - 710, Nagel, op. cit. p. 323

134) Op. cit. p. 708

135) Ibid. p. 709

جاليات أخرى · ويكمل « ليو الافريقى » وصفه لها بقوله : « انها لا تملك ينابيع ماء ، ولا ماء لديها سوى المجموع من المطر فى صهاريج ، ومبانيها منخفضة جدا ما عدا الكنيسة الوحيدة القائمة قرب البحر ، وبعض سكانها تجار ، أما الباقى فحرفيون ، وفيها صناعة كبيرة لنسيج الملابس الكتانية التى ينقل القسم الاعظم منها الى نوميديا » (136) ولم يشر الى نشاطها البحرى فى ميدان الغزو البحرى الا أنها مع صغرها ، ومظاهر ركودها النسبى ، فانها تبدت له مدينة قوية بدليل وصفه لسكانها بقوله : « ان سكان هذه المدينة أقوياء جدا بحيث يهددون ملك تونس » (137) · الا أنه لم يوضح وسائل قوتهم سوى اللهم اشارته الى وجود « قلعة حصينة فى المدينة بناها ملك تونس ، ويقيم فيها حاكمها الذى يعين من قبله » (138) ·

واذا كانت عنابة قد أسهمت فى استقبال الجاليات الاوروبية المتوسطية المتاجرة ، فهل أسهم تجارها بالمقابل بعلاقات تجارية سلمية فى موانىء أوروبا المتوسطية ؟ اننا لا نملك بين أيدينا الآن وثائق توضح هذا الامر أو تلقى عليه ضوءا ، الا أن « اليهود » الموجودين فيها لابد أنه كانت لهم علاقاتهم التجارية مع تلك البقاع كما هو حالهم فى المدن التجارية الاسلامية التى وجدوا فيها ، أما علاقاتها التجارية مع المشرق العربى الاسلامى فليس هناك أيضا من الوثائق ما يجلوها ·

وهكذا استقبلت عنابة القرن العاشر/السادس عشر وهى مدينة ذابلة ، ومهددة بالقوى الاوروبية المتوسطية عبر محور علاقاتها الشمالى ـ الجنوبى ، والممتدة هذه المرة الى شمالى البحر التيرينى كله ، وكذلك عبر المحور الغربى الشرقى الذى بدا أن اسبانيا المسيحية الموحدة هى الدافعة له · وفى الواقع لم تتغير المطامح الاقتصادية الاوروبية بالساحل المغربى ، وبعنابة منه ، بل قد تكون التطورات الجديدة الاوروبية فى مطلع العصور الحديثة قد أحجمتها وزادتها اندفاعا من تطور سياسى قومى ، ونمو فى المعارف نتيجة للكشوف الجغرافية ، ونهم للارباح والمكاسب ، الا أن القوى الاوروبية فى حوض

Ibid (136
Ibid (137
Ibid (138

البحر المتوسط الغربى ، وفى بحر صقلية افريقيا ، قد تغيرت هذه المرة وتنامت عددا وقوة ، فقد غدت مملكة نابولى خاضعة للاراغون منذ 1455 ، ولما ضمت الاخيرة الى تاج قشتالة ، فقد حل الجندى القشتالى فى البحر التيرينى محل التاجر الكتلانى السابق ، وكذلك فى نابولى وصقلية ، وبذلك غدا هذا البحر المنفتح على عنابة يشعر بوطأة القوة العسكرية البرية والبحرية لاسبانيا بدل القوة التجارية ، ومع أن (جنوة) ظلت مبدئيا هى السائدة فى هذا البحر بسبب سيطرتها على كورسيكا ، وقوتها المالية المصرفية ، فان (فلورنسة) (طوسكانا) قامت تنافسها ، وغدا لها أسطول قرصنة كبير تديره طائفة (سانت أتبين) ، وينشط فى محاذاة شواطىء افريقيا لمفاجأة المراكب الوافدة من مصر أو جربا وعنابة والجزائر (139) ، وانبثق ميناء (ليفورن) الذى كان كما قال عنه (بروديل) بيزه وفلورسنا معا (140) . ويضاف الى هذه القوى قوة فرنسا ممثلة بالمرسيليين الذين سيزداد نشاطهم فى الربع الاخير من القرن السادس عشر ، هـذا ويجب ألا ينسى (الراغوزيون) الذين أخذت جنوه نفسها تستخدمهم فى النقل البحرى فكانوا يقومون بحمل القمح والملح للصقليين ويقومون بالرحلات الطويلة المدى بأتجاه اسبانيا والمشرق والاطلنطى ، وكذلك (البندقية) التى كان لها اسطولها التجـــارى الخاص الذى يجوب سواحل المغرب وموانئه ، وذلك من منتصف القرن التاسع/الخامس عشر (141) .

الا أن كل تلك القوى الجديدة أو المتجددة لم تغمر التنظيم البحرى المغربى الذى نشأ منذ منتصف القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى ، والذى تمرس فى أفـــانين الغزو والهجوم على المراكب المسيحية والارض المسيحية ، والذى ازداد نشاطا فى القرن العاشر/السادس عشر بعد النكبة التى حلـــت بالمسلمين بسقوط غرناطة ، وسياسة اسبانيا تجاههم ، والمد الاستعمارى الاسبانى البرتغالى على سواحل المغرب ، واقتراب الاسبانى منه من عنابة ، بعد احتلاله القواعد المعروفة شمال الجزائر ، فمن البـــاب

139) وقد استند بروديل الى تعليمات موجهة الى قائد مراكب القراصنة للقيام بعملية هجوم عبر هذا الخط Braudel, op. cit. p. 89
Livorne 1er avril 1575 - A.D.S. Florence. Medicca 2077, F° 450 et VO.

140) Ibid

141) الميلى ج 2 ، ص 393 – و Ibid, p. 100

البحرى المفتوح بين صقلية وسردينيا والذى تطل عنـابة على مداخله ، كانت أساطيل المغرب الغازية تتقدم نحو الشمال، وتفاجىء قنواتِ ملاحة جنوة ونيس والبروفنس (142) وعندما تسربت سفن انكلترة وهولانده عبر جبل طارق الى البحر المتوسط ، فانها لم تعفها من الغزو هى الاخرى ، فالمغرب كله وعنابة منه ، لم يلق السلاح والمجابهة أمام التحديات الجديدة ، بل ضاعف من عملياته البحرية ـ الحربية ضد جميع القوى النصرانية بل وقام باعادة تنظيم مؤسسته البحرية ـ الحربية حتى غدت أشبه « بصناعة » قائمة بذاتها ، لها مدنها ، وأساطيلها ، وبحارتها ، وصناعاتها ، وتجارتها ، ولا سيما بعـد أن انضمت الى صفوفها أعداد غفيرة من مهاجرى المسلمين فى الاندلس تريد الانتقام ، واستعادة أوطانها ·

وفى الواقع لقد لعب محور العلاقات المشرقية ـ المغربية وبالعكس دوره الخطير فى اعادة هذا التنظيم ودعمه ، فالدولة العثمانية المنتصرة فى المشرق ، والسائدة عـلى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، مدت لذلك التنظيم يدا ، ونشرت وصايتها على المغرب الاوسط فالادنى ، وربطت بين أسطولها وأساطيل المؤسسة البحرية الحربية المغربية ، وبذلك عاد لعنابة دورها الحى ، فالخلفية المشرقية العميقة فى شرقى البحـر المتوسط كانت دائما دعما لها وكسبا عبر تاريخها ·

وكان الضغط الاسلامى هذه المرة على جميع القوى الاوروبية فى البحر المتوسط شديدا ، ولذا فانها لجأت أمام مطامحها الاقتصادية ، والتوسعية الخفية والعلنية ، الى اتباع الخطة السابقة التى اتبعتها مع الموحدين وورثائهم من الـدول المغربية ، لعقـد اتفاقات تجارية على غرار السابقة ، تؤمن لها نشاطها التجارى ، واقامة جالياتها ، وتبعد عنها ما أسمته بـ « القرصنة البربرية » ، وذلك مع الدولة العثمانية الحاكمة فى الغرب الاوسط · وكان اتفاق فرنسا معها عام 1535 الذى أطلق عليه اسـم (الامتيازات) ، والذى تتابعت الدول فى عقد ما يشبهه معها ، وبذلك عاد التناوب بين التجارة والغزو فى علاقات الثغور المغربية ، ومنها عنابة · ويمكن القول بأن دور عنابة فى العصـر الحديث ، وحتى احتلال فرنسا النهائى لها عـام 1832 ، لم يتغير ، أو بتعبير أدق ، ان

(142 Ibid, p. 89

علاقاتها عبر محوري الشمال ـ الجنوب ، والشرق والغرب ، بقيت علاقات تجارة سلمية وعلاقات توتر غزو أو رد غزو ، ويمكن تمييز الامور الآتية فى علاقات التوتر مع القوى الاوروبية ·

1 ـ لقد كانت عنابة خلفية داعمة وقوية للنشاط البحري ـ الحربى (المغربى العثمانى) الموجه لحرب القوى الاوروبية ، لنزع سيادة الحوض الغربى للبحر المتوسط منها ، وبذلك تكون منسجمة مع موقعها وماضيها مع تلك القوى التى طغت عليها فى بعض الفترات ، ولذلك تقبلت ضم « خير الدين بربروس » لها عام 929 هـ/1522 (143) بل أن سكانها ثاروا على حكامهم الحفصيين عام 940 هـ/1533 ، وطلبوا عون خير الدين ثانية (144) ، وفى عنابة أكمل (خير الدين) استعداده لحملته التى مكنته من الاستيلاء على تونس عام 942 هـ/1535 · وعندما انهزم خير الدين فى تونس أمام قوى شارلكان المهاجمة ، فان عنابة كانت وراءه ثائرة على موقف (الحسن الحفصى) المنحاز الى الاعداء ، واليها عاد ، « ومنها ركب البحر فى عشرين غرابا » (145) ، الى ميورقة ، ومنها الى الجزائر (146) · وظلت ثائرة بأميرها الحفصى ضد سلطان تونس ـ وكان أباه ـ لان السلطان خذل المسلمين وتعاون مع الاعداء ، الا أن شارلكان تمكن من احتلالها بزعامة (المركيز دو مونديار) ، ووضع فيها حامية عدتها (600) مقاتل (147) ، وقد بقوا فيها خمس سنوات (942 ـ 947/1535 ـ 1540) وحاصروهم فيها أهل المدينة حصارا شديدا (148) ، ذاقوا فيه الامرين ، حتى أن تحقيقا رسميا عن وضع الحامية فى اسبانيا عام 1540 كشف عن أن الجنود « من يأسهم كانوا يودون أن يصبحوا مسلمين » (149) .

143) Julien, op. cit. p. 257

144) E.I. 1re éd. art. "Bône"

145) محمد بن محمد الاندلسى السراج ، الحلل السندسية فى الاخبار التونسية ج 1 ، القسم 4 ، ص 1094 (تونس 1970) · 146) الميلى ج 3 ، ص 60

147) E.I. op. cit. وشعر (براون) فى تعليقه على كتاب (ليو الافريقى) أن الحامية كانت جنوية وبقيادة الفار زاغال Alvar Zagal وهؤلاء بعد أن حطموا تحصيناتها انسحبوا عند وفاة قائدهم ليعود اليها الاتراك وبربروس ·

148) Op. cit. p. 570
E.I. op. cit.

149) Julien, op. cit. II. p. 253

وعندما عاد (علج على) باى الجزائر لمهاجمة تونس برا عام 978/1570 هـ ، فـان عنابة كانت طريقا له وسندا يحمى مؤخرته ٠

2 ـ وبالاضافة الى ذلك الدعم ، فان عنابة كانت المرفأ الآمن لرسو سفن غزاة البحر الآمن خاصة من عواصف الرياح ، ومحطة يلجأ اليها هؤلاء الغزاة عند قيامهم بغزوات على شواطىء ايطاليا ، وفى طريق انطلاقهم عبر التيه البحرى الى اسبانيا ، أو فى قنوات البحر التيرينى ، أو عند عودتهم الى تونس والجزائر عن طريق سردينيا ، اذ نادرا مـا كانت المراكب تذهب مباشرة الى الجزائر المركز الاكبر للغزو البحرى الاسلامى (150) ، كما أنها بحمايتها من الرياح الغربية والشمالية ، فان بعض غزاة البحر كان يلجـــأ اليها ، ليقضى الشتاء فى مينائها ، ويراقب نشاط القرصنة المسيحية فى فتحة البحـر أمامه ، فمن المعروف أن نشاط الغزو يفتر فى هذه المرحلة من العام ، لسوء الاحوال الجوية (151) ، وتتضح أهمية عنابة للغزو البحرى الاسلامى ، أنها كانت ضمن الاغراءات التى رأى شارلكان تقديمها الى (خـير الدين بربروس) لاقناعه بالانحياز الى جانبه ، وترك الدولة العثمانية ، فقد وعده اثناء المفاوضات التى قامت بينهما بأن تكون لـــه

---

150) لقد تحدث (بيد روسالازار) فى كتابه المؤلف فى القرن السادس عشر عـــن بعض حملات غزاة البحر المسلمين واتجاهاتها ، وهى توضح خط السير المشار اليه آنفـا فقد بين أن ثلاثة مراكب تركية تابعة لاسطول (طرغد) كانت قد اتخذت قاعدتها فى سهل تونس وجنوبى جربا ، ففى عام 1550 خرجت من قاعدتها لتتوقف قرب مدخل خليـــج نابولى حيث عملت على مراقبة مؤخرة الاسطول الاسبانى الذى تحرك نحو صقلية ، وقامت المراكب الثلاثة بالاستيلاء على سفينة تموين ، ثم فرغيطة ، ثم على مركب محمل بالحجاج الى روما ، وبعد ذلك انفصل أحد المراكب وعاد الى جربا ، بينما تابـع المركبان طريقهما نحو الشمال الى قرب مصب التيبر فجزيرة البا ، الا أن واحدا اضطر للعودة ، فأتى عنابة ، ومنها الى الجزائر حيث باع غنيمته ، أما المركب الثالث المتبقى فقد تابع الرحلة وحـده ، وغزا كورسيكا ، واتجه الى اسبانيا ، ثم عاد الى بنزرت عن طريق سردينيا فعنابة ـ وبعد ذلك الى الجزائر Hispania Vientrix, Medina delcampo. 1552 (d'après Braudel, p. 727)

151) يذكر (هايدو) الرحالة الاسبانى فى أواخر القرن السادس عشر أن الريس (مامى ارنوط) كان يشتى فى نهر بونا عـام 1579 (أى فى مصـــب وادى السيبوس أو مدينة بونا) Braudel, p. 214 كما أن جميع القراصنة كانوا يشتون خارج الجزائر Braudel p. 124

بجاية وطرابلس وعنابة ، بينما كان بربروس يتظاهر بأنه لا يقبل عن الساحل المغربى كلـه بـــديلا (152) •

3 ــ والى جانب كل ذلك فقد أسهمت عنابة فى عمليات الغزو البحرى نفسها ، الا أنها لم تكن على ما يبدو مركزا من مراكزه الكبرى ، فهى لم ترد ضمن قائمـــة المراكز الاساسية الشهيرة التى كانت للقرصنة المسيحية أو للغزو الاسلامى فى البحر المتوسط فى القرن السادس عشر (153) ، وقد تكون احاطتها بالعديد مـن مـــراكز القرصنة الاوروبية القريبة أو البعيدة كترابانى القريبة فى صقلية ، وفرسان القديس يوحنا فى مالطة ، وسانت ايتين فى طوسكانا ، هو السبب فى ذاك التقلص النسبى ، أو قد يكون نشاط مدينة الجزائر الكبير فى هذا الميدان الذى بلغ أوجه بين 1538 ــ 1571 ، والذى كان بحجم البحر المتوسط كله ، قد غطى نشاطها ، ومع ذلك فان التقارير الواردة عن ذاك النشاط ، توضح أنه كان يتناسب فى الواقع مع حجمها وأحوالها فى ذاك القرن ، ويظهر فى الوقت نفسه تعاونها الوثيق مع مجموع المؤسسة البحرية ــ الحربية المغربية والعثمانية • فهناك تقرير من مرسيليا ، وفد الى اسبانيا ، وعـــلق عليه الملك فيليب الثانى نفسه ، يشير الى أنه قد خرج فى عام 1564 من مراكب الغزو الاسلامى من الساحل المغربى « خمسون مركبا من الجزائر ، وثلاثون من طرابلس ، وستة عشر من بونـــة ، وأربعة من قريز Velez » (154) • وفى الواقع ، ان التعاون بين غـــزاة البحـــر المسلمين قد لا يظهر بشكل واضح عمل كل ميناء على حدة ، هذا علما أن مركبا واحدا كان قادرا أحيانا على القيام بعمليات غزو مثخنة بالعدو (155) ، ولابد من الاضافة أن

152) C. Capasso, Barbarossa. Carlo V. Rivista Storica ital. 1932 - (Braudel, p. 725)
أنظر كذلك الميلى المصدر السابق ج 3 ، ص 64 •

153) يعدد (بروديل) تلك المراكز ، فيبين أن الاسلامية منها هى قالونا ، ودورازو ، وطرابلس الغرب ، وتونس ، وبنزرت ، والجـزائر ، وتطـــوان ، والعرايش ، وسلا ، أما المسيحية فهى لاقاليت ، وليقورن ، وبيزا ، ومسينا ، وباليرمو ، وترابانى ، ومالطة ، وبالما ما يورقة ، والمريه ، وقلنسية ، وفيوم ، وسينيا (p. 697)

154) Avisos de Marsella, 2 mai 1564. Sim E° 1393 (d'après Braudel, p. 710)

155) و 155) مكرر ، انظر الهامش 150) أى ارسال كل صيف مركبا مشحونا بالشحم والسمن للمراكب الجهادية من ميناء عنابة ، ومن قبل بـــاى قسنطينة الى داى الجـزائر ، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار ، الجزائر 1974 ، ص 47

الامر لم يدرس بعد وثائقيا على الصعيد العربي • ويظهر تعاون عنابة كذلك في عمليات الغزو اسهامها وولايتها قسنطينة ، ماديا ، في دعم المراكب الجهادية ، بارسال ما يسمى بزكاة الشرق (155) مكرر •

4 ـ ولم يقتصر دور عنابة الحربي في علاقاتها مع العالم الاوروبي المتوسطي على ما سلف ، وانما كان لها دورها الذى مارسه رجالها الاشداء ، كما وصفهم ليو الافريقي (156) ، وأظهرت فيه أنها مدينة قد تمرست في عمليات المقاومة والدفاع عـن الذات ضـد الهجمات الخارجية الاوروبية ، أو تهديداتها ، فقد أسهمت عام 976 هـ/1568 بمهاجمة القاعـدة (الباستيون دوفرانس) (157) التي أقامتها الشركـة الكورسيكية المرسيلية (لينشيو ـ ديريه) قرب مرسى الخرز غير بعيد عـن عنابة ، والتي حصنتها لحماية امتيازها الذى حصلت عليه من داي الجزائر ، أو سلطان القسطنطينية عـام 698 هـ/1560 (158) ، لصيد المرجان شرقي عنابة ، والذى أضيف اليه فيما بعد حق تأسيس مراكز تجارية لها في عنابة والقل ورأس روز ، فقد أزعج سكان الجزائر وعنابة القريبة أن الشركة قد أخذت تصدر ما تنتجه البلاد من قمح وشعـير وقنب وجلـود وشموع وغيرها ، وفجر نقمتها تصدير القمح بالذات ، ولا سيما أثناء تعرض البـلاد للمجاعات (159) ، علما أن القمح كان من المواد التي تحظر الدولة العثمانية تصديره ، حرصا على الغذاء الرئيسي للسكان (160) • وعندما عاد الفرنسيون الى احتـلاله في العام نفسه ، وسعوا لدى السلطنة العثمانية للتأكيد ضمن امتيازاتهم المجددة عـلى امتياز صيد المرجان ، ونالو ذلك منها عام 1597 و 1604 ، فان جنـود عنابة برئاسة مراد رايس ، عادوا الى مهاجمته وتخريبه عام 1604 ، بأمر من الديوان الجزائرى (161) ، ولما أرسلت فرنسا ثانية بين 1618 ـ 1620 حملتـين صغيرتين الى الساحل الجزائرى

(156 Op. cit. p. 709

(157 يحيى بو عـزيز ، المـوجز في تاريـخ (الجـزائر 1965) ج 1 ، ص 160
Ch. Roux, op. cit. p. 67

(158 هناك اختلاف حول مانح الامتياز هل هو الداى ، أو السلطان Ibid, p. 63

(159 Ibid. p. 66

(160 Gibb and Bown, Islamique Society and The West. Part II, p. 14 (New-York) ;
(London - Toronto 1955) أنظر هامشي (77) و (78) من هذا البحث ومتنهما

(161 Ch. Roux, op. cit. p. 67

لتستعيد الحصن ، وكانت العلاقات قد ساءت بينها وبين الجزائر بسبب مقتل السفراء الجزائريين فى مرسيليا ، الذين أرسلو للمفاوضة ، فان عسكر عنابة مؤيدا من الاهالى ، قام بمهاجمته ثانية عام 1621 (162) 0 وهذا يذكر بما قاله (ليو الافريقى) عن رفض سكان (بلد العناب) اقامة حصن جنــوى قريب منهم خشية العـودة الى احتـــلال مدينتهم (163) ، وينسجم كذلك مع تضييقهم الخناق على الحامية الاسبانية فيها عـام (1540) ، كما أشرنا سالفا · ويجب ألا ينسى أن وجود (حصن فرنسا) بقربهم وعمله بالتجارة ، ينافس المدينة تجاريا ، ويضعفها ·

ويظهر دور عنابة المحارب والمقـاوم للهجمات الخارجية كذلك فى مقاومتها العنيدة للهجوم الذى دبرته (طوسكانا) عام 1607/1026 (164) ، مستغلة توتر العلاقات بين فرنسا والجزائر ، وطامعة باحتـــلال المدينة بعد أن تبـــدى ضعف الروابط العثمانية الجزائرية (165) ، وقد جاء لنجدة المدينة (محمد بن فارح) باى قسنطينة الذى استشهد فى المعركة (166) ، الا أن العنابيين تمكنوا من دفع المهاجمين عن مدينتهم ·

ولم تكن عنابة أقل دفعا للقوى الاوروبية المغيرة عليها فى الفترات التالية مما كانت عليه عبر تاريخها الطويل ، ويبدو أن الرحالة (شو) قد أدرك هذه الحقيقة ، فوصفها بأنها : « مدينة قـــوية ومحاربة » (167) · وفى القـــرن التاسع عشر عندما حاولت

---

162) Ibid p. 104 لقد استعاد الفرنسيون هذا الحصن عام 1626 بعد مفاوضات طويلة قام بها (مانسون نابالون) · وأقامـــت (الشركة الافريقية الفرنسية) مركزها فيه أولا ، الا أنها نقلت هذا المركز الى القل · ويعلل (شو) الانتقال بالوضع الجغرافى والمستنقعات السائدة ، ويصف مركزهم فى القـــل بأن فيه منزلا رائعـا وحديقة ، وفى المركز (300) من صيادى المرجان ومجموعة من الجند ، ومركز أسلحة Op. cit. p. 98

163) أنظر كذلك هامش 133) Op. cit. p. 709-710

164) الميلى المصدر السابق ج 3 ، ص 150 ، و Braudel, op. cit. p. 1043

165) يحاول (بروديل) تعليل ذلك الهجوم بالمطامع الاوروبية والمشروعات الاوروبية العديدة لاستيعاب الشمال الافريقى المسلم (انظر Braudel, p. 84 حول هذه المشروعات) وبالنزعة الاستقلالية الجزائرية التى جعلتها فريسة للجشع الاوروبى ·

166) الميلى المصدر نفسه الصفحة ذاتها

167) Op. cit. p. 97

سفينتان ، برتغاليتان عام 1220 هـ/1805 دخول مينائها للاستيلاء على احدى القطع الحربية التابعة لاسطول الجزائر ، فان السفينة قاومتها (168) ، مدعمة بقوى المدينة نفسها ، مما دفعها للانهزام ، ولما حاول الانكليز الذين حلوا محل الفرنسيين فى امتياز صيد المرجان فى نواحى عنابة أن ينزلوا الى البر دون اذن ، صادمهم أهل المدينة وجيرانهم ، وقتلوا رجال البحر الانكليز ، وقبضت مراكبهم ، وصودر مرجانهم (169) ، مما كان عاملا من عوامل حملة اكسماوث الانكليزية على الجزائر عام 1815 ·

وهكذا فعنابة ظلت تقاوم استيعاب التيارات الشمالية الجارفة عبر محور علاقاتها المتوسطية الشمالية الجنوبية، منذ القرن الثانى عشر/السادس الهجرى، وصمدت ببسالة ، بل أن فرنسا نفسها عندما بعثت حملتها على الجزائر عام 1246ز/1830 ، فانها لم تستطع أن توطد أقدامها فى عنابة الا بعد عامين ، وبعد مقاومة شديدة · (170)

واذا كان ذلك هو دور عنابة الحربى فى العصر الحديث ، وهو دور دفاعى ، ولو اكتسب أحيانا الشكل الهجومى ، وهو دور غنى وحافل ، فان دورها التجارى الذى بدا خابيا نسبيا فى مطلع القرن السادس عشر ـ اذا ما صدق وصف ليو الافريقى ـ عاد الى التفتح والحياة ، وذلك للاستقرار الداخلى النسبى فيها ، نتيجة فرض السلطة الحاكمة ذاتها عليها (171) ، ولنشاط الغزو وتدفق غنائمه ، وللنشاط التجارى الدولى فى البحر المتوسط بعامة ، وزيادة حركة النقل البحرى بين المشرق العربى والغرب الاوروبى ، ولتفضيل الدول الاوروبية المتاجرة مع الجزائر مدينة عنابة على غيرها لموقعها أولا المشار اليه آنفا ، ولاهتمام الجزائر بالغزو البحرى على نطاق واسع ، ومن ثم فان

168) مذكرات الحاج الزهار ، ص 97

169) المصدر نفسه ، ص 121 ، وتعليق المحقق أحمد توفيق المدنى ، ص 128

170) E.I. 1re éd. art. (Bône) ، وكذلك محمد العربى الزبيرى : المقاومة فى الجزائر 1830 ـ 1848 ، مجلة الأصالة ، مارس 1976 ، ص 104 ·

171) لقد أوضح المؤرخ Colomb فى بحثه عن الجزائر التركية L'Algérie turque فى المؤلف المشترك المشار اليه آنفا Initiation à l'Algérie p. 116 واستنادا الى ماذكره الاسقف بواره Poiret فى زيارته لمنطقة (القل ـ قسنطينة ـ بجاية) فى الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، أنه اذا كانت الحامية فى بونة (عنابة) مع قلة عددها تفرض السيطرة التركية على سكانها ، واذا كان الواحد منهم يهاب التركى ، فان هذا ليس الامر فى بجاية أو القالة يستنتج من ذلك أن قبضة السلطة كانت قوية على عنابة ·

كثيرا من المراكب كانت تتجنبها ، ولانصراف تلك الـــدول عـن الموانىء التى احتلتها اسبانيا كوهران ، حرصا على علاقاتها الحسنة مـــع المغاربة المسلمين ، ولذبول تلـك الموانىء اقتصاديا ، وهربا من علاقات مع اسبانيا قد تتوتر ، وهكذا فانها كانت تلجـأ الى الموانىء الاسلامية كتاجورة ، ومصراته ، وعنابة ، بل والجزائر نفسها ، على الرغم من محاولات اسبانيا تنشيط اسكالاتها الافريقية ، وتحويل التجـــارة اليها ، ومن هـــذه الدويلات فخاصة البندقية (172) . بل أن اسبانيا نفسها على ما يبدو كانت تتاجـــر خارج مراكزها ، تلك عندما عاودت تجارتها مع الشمال الافريقى بعد عام 1530 (173) ، وهكذا ازدهر اقتصاد عنابة ، ونافست الجزائر فى تجارتها (174) ، وقد أشار تقرير اسبانى فى عام 1581 الى أن « بونة مدينة كثيرة السكان وهذا مخالف لقول ليو الافريقى فى مطلع القرن ـ تصنع الخزف الجميل ، وتصدر السمن والصوف والعسل والشموع » (175) ، وكانت شركة (لينش ديديده) حريصة عند اختيار مكان الباستيون أن يكون قريبا من عنابة ، لقيمتها التجارية لتجار مرسيلية (176) ، وبالفعل فان هذه المـدينة كانت مركزا من مراكز أعمال « الشركة الافريقية الفرنسية » ، وبخاصة ما يتعلق بشراء الجلود والاصواف والحبوب (177) والشموع (178) ، وذلك مقابل أن تـــدفع لحكومة الجزائر سنويا كمية من المال (179) ، وقد كان لعنابة فى تجـــارة فرنسا وفى صيدها للمرجان أهمية كبيرة بدليل تفكير لويس الرابع عشر بالاستيلاء عليها ، وجعلها محطة حصينة (180) ، بل أنه عندما انحطت تجارة فرنسا فى مدينة الجزائر ، فانها بقيـت

---

(172) Sanudo, Diarii XXVII, p. 25 (d'après Braudel, p. 688)
Bibliothèque Nationale (Paris) Esp. 6ᵉ F° S. 112 113. 18 juin 1570

(173) Sim E° 334 - Ibid.

(174) Julien, op. cit. II p. 281

(175) Relacion de Todos los puertos de Berberia que deben de ganarse y fortificarse - Sim. E° 1339 (d'après Braudel, p. 685).

(176) Ch. Roux, op. cit. p. 64

(177) E.I. 1re éd. (Bône)

(178) يشير (شو) الى أنه كان للشركة الافريقية الفرنسيةاحتكار تلك المواد op. cit. p. 98

(179) يبين الرحالة السالف الذكر الى أن الشركة كانت تدفع ما قيمته (30) ألف دولار أو ما يعادل (5000) جنيه انكليزى ، وأنها كانت توزعها على حكومة الجزائر ، وقائد عنابة ورؤساء القبائل المجاورين p. 98

(180) E.I. op. cit.

فى القل ، وعنابة ، والقالة ، وقـــد ازدهرت تجارتها معها بخاصة بعد أن سمـح لها بتصدير الحبوب (181) ، وقد عملت « غرفة تجارة مرسيليا » بدورها على تنمية نشاطها فيها وفى تلك الاسكلتين الاخريتين ، وقد حصلت التجارة المرسيلية عبر نشاطها فى تلك الاسكالات على مرابح ضخمة ، وقد عبرت الغرفة عـــن أرباحها تلك بأن سكـت ميدالية تمثل افريقيا ، وهى تحمل برق الرخاء والوفرة ، وقـــد تدلت منه سنـــابل القمـــح(182) ٠

وفى الواقع كانت علاقات عنابة التجارية فى القرن الثامن عشر نشيطة مع فرنسا بالذات ، وكان لهذه الاخيرة قنصلها فيها (183) ، بينما ضعفت علاقاتها مع الامـــم الاخرى ما عدا انكلترة (184) ٠ ويبدو أن عنابة كانت تستورد مختلف السلع المصنوعة من فرنسا وانكلترة ، وتزودها هى بالمواد المشار اليها آنفا ، وأهمها القمح والابقار ، الا أنه يظهر أن باشا الجزائر كان لا يسمح أحيانا بتصدير الحبوب (185) والابقـــار خوفا من المجاعات التى كانت البلاد تتعرض لها بين آونة وأخرى ٠

ولابد من التنويه أخيرا أن ازدهار التجارة الاوروبية قد لا يعنى ازدهار التجـــارة العنابية الوطنية وارتداد أرباحها الى أهالى المدينة ، بل ربما تستفيد من ذلك فئـــة محدودة جدا من السكان ، ولا سيما اليهود الذين كانت لهم صلاتهم بخاصة مع ميناء (ليفورن) ومع عدد من اسكالات الشرق وموانىء الغرب ، كما كان عليه الحال بالنسبة للتجارة الاوروبية فى المشرق العربى ، وفى مجموع المغـــرب المتوسطى وهذا يتطلب بدوره دراسة متعمقة موثقة ليكون الحكم سليما ٠

وأخيرا ، يمكن ا لقول أن عنابة فى محورى علاقاتها مع العالم المتوسطى كانت مركز تفاعل لهذين المحورين ، وجزءا من علاقات مجموع المغـرب الاسـلامى ، مع ذلـك العالم المتوسطى وبحره المتلاطم بشتى التيارات ، فاذا كان ذاك التفاعل بين محورى علاقاتها ،

181) Julien, op. cit. II. p. 290
182) Ibid
183) مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار ، ص 76
184) Julien, loc. cit.
185) أنظر مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار ، ص 49 – 50

وما حملاه اليها من تيارات بشرية ودينية ، وفكرية ، واقتصادية ، وتجارب حياتية ، قد أكسبها نضجا وقوة ، فانه فى الوقت ذاته قد حملها كثيرا من الاسى عنـدما كانت تؤدى باخلاص دورها النضالى المدافع والمهاجم الذى فرضه عليها موقعها ٠ لقد عانـت عبر تاريخها صراعا طويلا ، فتيارات الشرق والغرب قد حملت اليها البشر ، والفكر ، والعقيدة ، ومفهومات رخاء ، فتبنتها وتمازجت معها فغدت ذاتها ، وجاءت علاقات الشمال الجنوب ، وأرادت هى الاخرى أن تحمل اليها البشر ، والفكر ، والعقيدة ، ومفهومات رخاء الا أنها رفضتها وقاومتها للتباين بينها وبـين ذاك الشمال بالبشر ، والفكـــر ، والعقيدة ومضمونات الرخاء ، فكانت علاقات حارة دمية تمثل صـــورة حية من ذاك الصراع الحضارى الطويل بين الغرب والشرق ، والذى كانت تتحكم فيه عوامل العقيدة وعوامل الاقتصاد ، ويود كل واحد أن يستوعب الآخر ، الا أن عنابة خرجت من ذلـك الصراع معافاة ، وعادت لتعيش ضمن ترابها القومى حياة السلام والرخاء كما تفهمه ، لقد قال عنها (شو) عندما زارها فى القرن الثامن عشر : « ان موقعها رائع ـــ وامكاناتها كبيرة ٠٠ فاذا ما رممت خرائبها ، وأنفقت عليها العناية الكافية ، ونظف مرفؤها فانها ستصبح أكثر المـدن ازدهـارا فى الشمال الافريقى » (186) ٠ ويبـدو أن حاضـــر (بلد العناب) يسير فى هذا الاتجاه ٠

واذا ما كان اسمها قد أثار فى ذهنى تلك الطليعة الشعرية ، فان علاقاتها مع العالم المتوسطى تلح على بتعبير أدبى قد يخفف من جفاء الموضوع ويلخصه ، ويـــرسم بعض صوره ملونة قد لا تكون معبرة تمام التعبير الا أن فيها بعض الواقع وهى : لقد عاشت (عنابة) علاقاتها المتوسطية بين أصفر وثلاثة أحامر : أصفر القمح ، وأحمر العناب ، وأحمر المرجان ، وأحمر نجيع الجهاد عن العقيدة والوجود ٠

---

(186) op. cit., p. 96 - 97

احداث لواء جديد في الجزائر في أواخر القرن السادس عشر يتركب من

بلد العناب وباستيون ومتبارقة وقلعة باجة

د . خليل ساحلي اوغلي
مدرس التاريخ الاقتصادي
كلية الاقتصاد ـ جامعة
استانبول ـ تركيا ـ

كان العثمانيون يقومون باحصاء كل اقليم دخل حوزتهم ولكن شمال افريقيا العثماني وبعض ممتلكاتهم في آسيا وأوروبا كان لهم طابع خاص وميزة ادارية وبقيت خارج نطاق البلاد التي شملها الاحصاء • وقد تصدى الحكم العثماني لاحصاء المغرب مرارا والظاهر ان ذلك بقي في حيز الفكرة ولم يدخل في حيز العمل • ولهذا لا نجد عن التقسيمات الادارية في المغرب في مجاميع القوانين ولا كليات المنشآت الرسمية ولا التواريخ التي تعج بها مكتبات العاصمة العثمانية عن التقسيمات الادارية في المغرب شيئا • والظاهر أن الشخص الوحيد الذي تعرض للموضوع هو أحد رجال الدور القانوني وصاحب التوقيع في ديوانه • فالتوقيعي هو الشخص الوحيد الذي يتعرض للدفاتر

الخاقانية اى دفاتر الاحصاء ويعلق على حواشيها كل ما يحصل من تبدلات بامر خـــاص سلطانى • ومهمته تخوله الوقوف على التقسيمات الادارية • والمقصود هنا هو مصطفى ابن جلال التوقيعى صاحب التاريخ الموسوم بـ « طبقات الممالك ودرجات المسالك » • وهذا التاريخ ما يزال مخطوطا منه عدة نسخ فى مكاتب استانبول • ونعول هنـا على نسخة الفاتح رقم 4422 ومخطوطات الفاتح اليوم فى مكتبة السليمانية •

يورد لنا مصطفى بن جلال التوقيعى بحث الجزاير فى الطبقة (يريد بذلك الفصل) العاشر فيقول ان الجزاير الواقعة فى أرض المغرب والتى تجاور الخليج البندقانى وتقارب البرتقال بكلريكية عبارة عن (25) درجة ويقصد بذلك وحدة ادارية من سنجق، أو وطن، وقبيلة.ونحن نسردها مع المحافظة على املاء الكاتب •

الدرجة الاولى لواء الجزائر مع ما فيه من بنادر (اسكله) وقبائل وغير ذلك •

2 سنجـق مليانـة
3 سنجـق مديـه
4 سنجـق تنس
5 سنجـق بسكـرة
6 سنجـق مستغانـم
7 سنجق بلد العناب
8 سنجـق قسطنطينة
9 مدينـة تلمسـان
10 مدينـة قلعـه
11 قلعـة شرشـل
12 قلعـة ججـل
13 قلعـة دلس
14 قبائـل سوماتـه
15 قبائـل موزايـه

16 قبائـل بنى خليل

17 قبائـل بنى موسى

18 قبائـل غمراسيـه

19 قبائـل صنهاجـة

20 قبائـل فليـه (أو مليه)

21 قبائـل خشنـه

22 عربـان بنى راشـد

23 عربـان بنى عامـر

24 عربـان سويـد

25 عربـان حناشى

ويفيد هذا وضع الجزائر فى أواسط القرن السادس عشر فتاريخ مصطفى بن جلال لا يستوعب سلطنة سليمان القانونى الذى تولى الحكم بـين 926 ـ 974هـ · (1520 ـ 1566م) · ويجب أن نضيف ان السناجق وحدودها ومشتملاتها كانت تتغـير مع الزمن وحسب الاوضاع الراهنة·ولا نعرف من مصطفى بن جلال التوقيعى عن ما يضم كل سنجق من السناجق التى عددها · والذى حدانا الى كتابة هذا المقال الصغـير هو وثيقة عثرنا عليها فى دار الوثائق التابعة لرئاسة الوزراء الكائن فى استانبول · فان زعيم يتصرف زعامة فى تونس عبارة عن 60000 درهم (اقجه عثمانية)جاء طالبا امرة سنجق يتركب من بلد العناب وباستيون فرانسه ومتبارقه (؟) وقلعة باجـة وتكفل بدفع 10000 دينار سنويا من دخل هذا السنجق الى الخزانة · فوجهة نظـر الطالب وهو القائد محمد تتركز على أن تشكيل السنجق على هذه الصورة من الاماكن التى عددها سوف تؤدى الى فضل فى الدخل على المصرف · طبعا اننا لا نعرف عـن هذه الاماكن شيئا ولا ندرى أهل كانت تدخل فى حدود سنجق آخر ام لا ؟ وهل فضل فى دخل السنجق الجديد هو عجز فى ميزانية سنجق آخر انفصلت عنه تلك الامكنـة أم لا ؟ والوثيقة ماخوذة من دفتر كان ينعت بدفتر الرؤوس · ودفاتر الرؤوس هى الدفاتر التى كان يسجل فيها الاحوال الشخصية للمستخدمين من قبل الدولة من نصب وترفيع أو كما كان يقال فيها من ترقى أو مبادلة الى ما سوى ذلك · وهذا الدفتـر

يحمل رقم (كبه جى 238) وقد أوردنا صورة هذه الوثيقة وهى فى وسط الصحيفة 160 . وفى الصورة عدة انحآت من قبل أمير امراء الجزائر من أجل منصب أو ترقى . أما الوثيقة التى تهمنا فى الصورة فهى التى تحمل رقم 1 وقد كتبناها بلسانها الاصلى لتسهل قراءتها وأوردنا بعدها ترجمتها باللغة العربية .

يـــــوم السبت فى 18 شوال سنة 988

الأصـــل التركى

باخط همايـون

جزاير غرب بكلر بكى جعفر باشا ايله رمضان باشا وتونس وبلاد ساحل وقيروان قاضيلرى مكتوب كوندروب جزاير غربده بلد العناب وفرانسه باستيونى ومتبارقـه وباجه قلعه سى سنجاق اولورسه خزينه ءعامرهيه انفع اولوب جزايرك وطنلرى مصارفنه يتشوب فضله مال قالدوغى مقرردر ولايت مزبورهنك قديمى امكدارى اولوب تونسده التمش بيك اقجه زعامتى اولان قايد محمد محكمهيه كلوب ذكر اولنان يرلر سنجاغله عنايت بيور لورسه هربيل خزانه ءعامرهيه اون بيك التون ويرمكى شرط ايدوب هرسنه حقلشمق قبول ايدرين ديدوكين عرض اتمكين ذكر اولنان يرلر سنجاغله مشار اليه قايد محممده (بويورلدى) .

التـرجمـــة

بموجب خط همايونى (مبارك ، سلطانى)

تقدم كل من بكلر بكية (أمير أمـراء) الجزاير وهما جعفر باشا ورمضان بـاشـا وقضاة تونس وبلاد الساحل والقيروان برسائل اشاروا فيها واشادوا باحداث سنجق يتركب من بلد العناب وباستيون فرانسه ومتبارقه (؟) وقلعة باجه فبهذا سوف يتكافأ دخل ومصارف الاوطان فى الجزاير ويزيد الدخل حتما على المصرف وهذا للخزانة العامرة انفع . وان القائد محمد وهو زعيم من زعماء تلك الولاية سبقت خدماته يتصرف زعامة فى تونس تبلغ 000 60 اقجه (الاقجه هى واحد النقد الفضى العثمانى وتزن فى هذا العهد 682 مليغراما) جاء الى المحكمه وقال انه يتكفل بدفـــع عشرة آلاف دينـار (والدينار العثمانى يساوى 80 اقجه فى ذلك العهد ويزن 3،5 غرامات) سنويا يحاسب عليها فى آخر كل سنة ويرضى بقطع العلاقة فى ختام كل عام فأعطينا القائد محمد تلك الاماكن المارة الذكر على سبيل سنجق (وأمرنا بها اليه) .

- 2 -

ارسل بكلر بك طرابلس الغرب كتاب قال فيه ان عبدى بن حسين وهو احد فرسان قلعة درنيس فى لواء كليس (فى يوغسلافيا حاليا) واوده باشى براتب يومى يبلغ سبع اقجات احد من سبقت خدماته وانه يريد تيمارا (اقطاعا عسكريا) عوضا عن راتبه فأمرنا له بذلك من طرابلس .

- 3 -

ارسل بكلر بك طرابلس (وهو يكتب طربلوس) الغرب كتابا قال فيه ان رمضان وهو آغا « بشلو » يه قلعة ديرانوغراج فى لواء كليس وهو يتصرف عشرة آلاف اقجه ممن سبقت محمود خدماته وانه وقع فى أسر الكفار وتم خلاصه حاليا فأمرنا له بتيمار عبارة عن ثلثى راتبه النقدى .

- 4 -

أمرنا بتيمار عبارة عن ثلثى الراتب النقدى لكل من رمضان وابراهيم وهما من طائفة « المتفرقة » فى الجزاير براتب يومى يبلغ ثلاثون درهما (اقجه عثمانية) بناء على سابق خدماتهم وبناء على عرض دفعة بكلر بك الجزائر .

- 5 -

أمرنا لكل من محمد بن عبد الله وولى بن عبد الله لسابقه خدماتهم وبناء على عريضة دفعها بكلر بك جزائر الغرب بتيمار بدائيا بثلاثة آلاف أقجه .

- 6 -

أمرنا لسنان بن عبد الله وهو متفرقة براتب يومى يبلغ ثلاثون أقجه (ان يتقاضاها) من الجزاير بناء على سابق خدماته وعلى عريضة دفعها بكلر بك الجزائر .

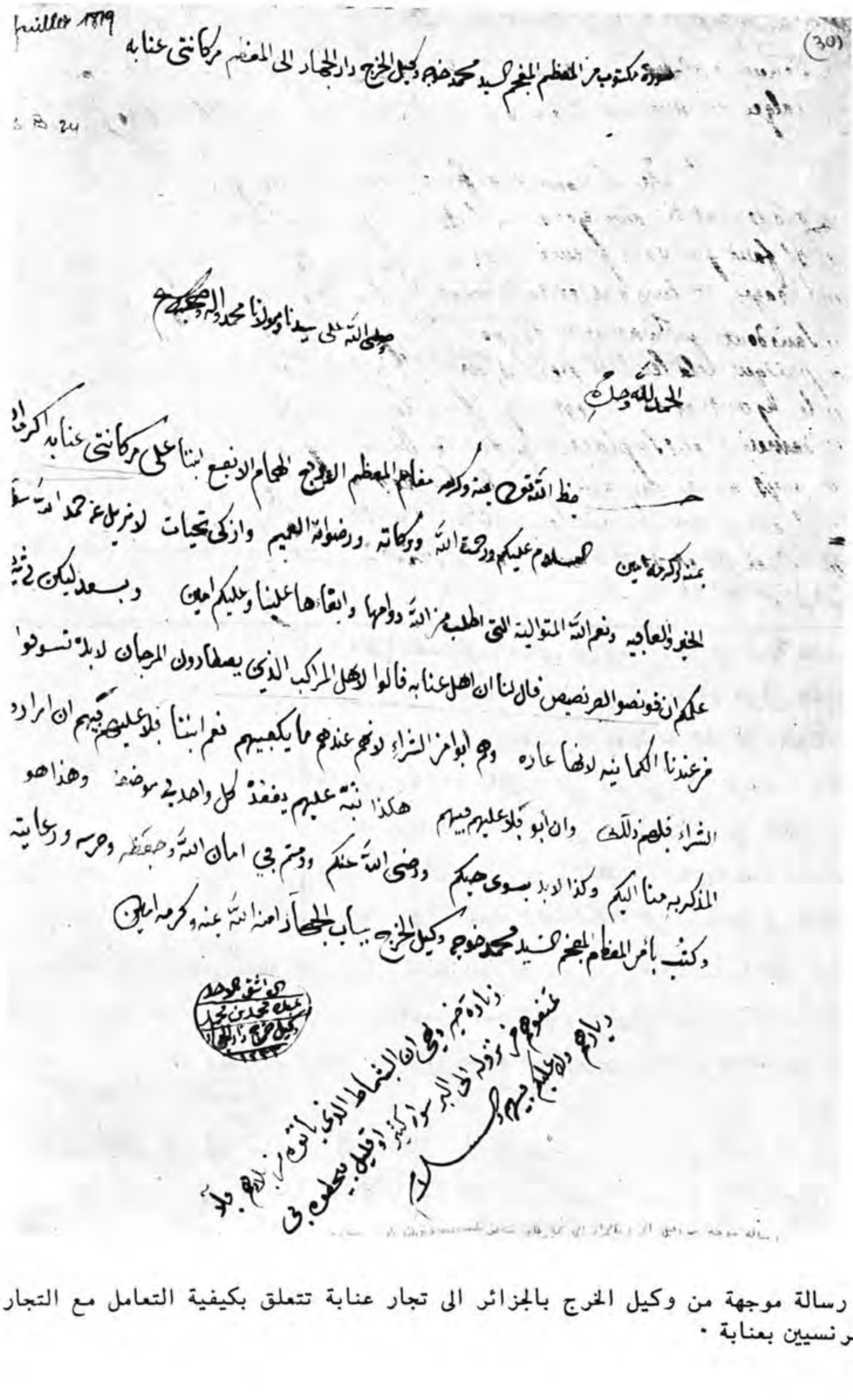
- 7 -

أمرنا بزيادة وترقى عبارة عن 1500 أقجه لمحمود بن عبد الله الذى بيده أمر يخوله تيمار يبلغ 12000 أقجه بناء على سابق خدماته وعلى كتاب أرسله حسن باشا أمير امراء الجزائر فى السابق .



3 4 5 1 2 6 7

صفحة من دفتر الروس نعود ليوم السبت 18 شوال 988 .



juillet 1819

(30)

صورة مكتوب من المعظم المبجل السيد محمد خوجة وكيل الخرج دار الجهاد الى المعظم مركانتي عنابه

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله وحده

حفظ الله ... بمنه وكرمه مقام المعظم الارفع الهمام الانفع ... على مركانتي عنابه اكرمه الله بمنه وكرمه آمين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ورضوانه العميم وازكى تحيات ... وبعد ... الخير والعافية ونعم الله المتوالية التي الطلب من الله دوامها وابقاها علينا وعليكم آمين

... علمكم ان فونصو الفرنصيص قال لنا ان اهل عنابه قالوا لاهل المراكب الذي يصطادون المرجان لابد تسوقوا من عندنا الكمانيه لانها عاده وهم ابوا من الشراء لانهم عندهم ما يكفيهم نعرفكم ... ان اراد الشراء فلهم ذلك وان ابو فلا عليهم ... هكذا ... عليهم ... لكل واحد في موضعه وهذا هو المذكور منا اليكم وكذا لابد ... ورضي الله عنكم ودمتم في امان الله وحفظه وحرسه ورعايته

وكتب بامر المعظم المبجل السيد محمد خوجة وكيل الخرج بباب الجهاد امنه الله بمنه وكرمه آمين

رسالة موجهة من وكيل الخرج بالجزائر الى تجار عنابة تتعلق بكيفية التعامل مع التجار الفرنسيين بعنابة .

أغسطين العنابي
ومقاومة الحركة الدوناتية

د. ابو عمران الشيخ
قسم الفلسفة - جامعة الجزائر

عاش أغسطين العنابي من سنة 354 الى سنة 430 بعد الميلاد وتولى وظيفة أسقف بونة (عنابة) حوالى 40 سنة واشتغل مدة ربـع قـــرن بمقاومة الحركة الدوناتية . واعتبر أن هذه المقاومة هى أهم شىء فى حياته • وقامت حركة دونات Donat فى بداية الامر على خلاف دينى ولكنه سرعان ما تطور الى مقاومة شعبية ضد الحـــكم الرومانى والكنيسة الكاثوليكية التى ساندته فى مواقفه .

وكان الامر الحقيقى الذى تسبب فى نشأة المقاومة الدوناتية هو التعاسة التى شملت أغلبية الاهالى فى افريقيا الرومانية ولا سيما الفـــلاحين الفقراء الـــذين انتزعت منهـم أراضيهم بعد احتلال بلادهم ، فتعرضوا الى اضطهاد المعمرين الاجانب وحلفائهم مـــن بعض المحظوظين الاهـــالى •

ولم يتفطن أغسطين لذلك الدافع الحقيقى لحركة دونات ولم ير فى أنصارها ســوى أهل بدعة تمردوا على الكنيسة الام والسلطة الرومانية ولذا قاومهم مقاومة مستميتة الى

آخر لحظة من حياته • ويبدو لنا أن هذه الحركة التى استمرت أكثر من مائة سنة جديرة بالدراسة ، وسنتعرض فيها على التـــوالى الى أسباب المقاومة التى عمت بـــلاد نوميديا وموريطانيا الوسطى ـ وهما تقريبا الجزائر الحالية ـ ثم الى موقف أغسطين **منها والدور** الهام الذى لعبه فى الظروف التى مرت بها • ولاشك أن المتتبعين لوضعية نوميديا آنذاك سيلاحظون وجوه التشابه بين السياسة الاستعمارية فى افـريقيا الرومانية وسياسة فرنسا فى الجزائر والمغرب العربى عدة قرون بعد انقراض امبراطورية روما ـ ولا غرابة فى ذلك ، لان الحضارة الفرنسية وليدة الحضارة الرومانية •

نشـــأة الحركة الدوناتية وتطـورها :

ظهرت حركة دونات حـــوالى سنة 311 م عندما اضطهـد الامبراطور **ديوكليسيان** (Diocletien) الديانة المسيحية فارتد بعض المسؤولين المسيحيين وسلموا كتبهم المقدسة الى الموظفين الرومانيين • فعارض هؤلاء المرتدين جماعة من الاهالى الافارقة ولم يعترفوا بسلطة الخونة (traîtres ou traditores) وتزعم المعارضة **دونات** (Donat) أسقف قرطاجة (313 ـ 355 م) مؤكدا أن الكنيسة ليست لها صلة بالامبراطورية • ولكن رومـــا لم توافقه على هذا فأصر على رأيه وانتصر له عدد من الاهـــالى المسيحيين فنشأت الحـركة الدوناتية واعتبرت نفسها هى الكنيسة الحقيقية الوحيدة اذ لم تتعامل مع الحكم الرومانى الوثنى وقرر الدوناتيون اعادة « تعميد » (baptême) الكاثوليك فعرفوا بذلك الاســـم (rebaptisants) وعلق بهم (1) ، وانفصلت الحـــركة الدوناتية عن الكنيسة الرسميـة واحتفظت بمعابدها (basiliques) وممتلكاتها •

ولم يكن هذا الشقاق الدينى فى الواقع الا ستارا ظاهريا لان الهدف الاساسى من قيام الحركة الدوناتية هو مقاومة النظام الاجتماعى والسياسى الذى كان يتجســـد فى الكنيسة والحكم الاجنبى والدليل على ذلك تحالف سكان نوميديا مع الحركة المعارضة، وقد التفوا حولها وناصروها بكل ما لديهم من قوة وكان جلهم من الاهالى الفـــلاحين الذين لم يتعلموا اللغة اللاتينية ـ وهى لغة المحتل ـ وكان الامر الذى دفعهم الى تأييد

(1) بوسيديوس (Possidius) : حياة القديس أغسطين ، ص 21 •

الحركة الدوناتية سياسة الدولة الرومانية التى انتزعت منهم أراضيهم وسلمتها الى المعمرين الذين جاءوا من ايطاليا واستولوا على خيرات البلاد · ويقول أحد المؤرخين صراحة : « ان امتلاك الارض من حق الشعب الغالب » · (2)

وبحكم هذا الاستعمار الاستيطانى أبعدت الدولة الرومانية الاهالى عن المناطق الخصبة وحشرتهم فى الجبال والهضاب الرعوية والصحراء · وتوسع المعمرون بحيث أن ستة منهم أصبحوا يمتلكون نصف أراضى افريقيا (3) · واستخدموا فى مزارعهم بعض الاهالى وشددوا عليهم واستغلوهم واستعبدوهم الى حد جعل الفلاحين الفقراء ينظمون الثورات المتواصلة لمقاومة وضعهم السىء وللدفاع عن حقوقهم بعد ما حاول بعضهم عبثا أن يرفعوا الامر الى الامبراطور بروما ·

ونشبت الثورة الاولى سنة 235م ، وشملت نوميديا وموريطانيا فتسلح الفلاحون الاهالى بما استطاعوا وخربوا مزارع المعمرين وأحرقوها · فأطلق عليهم أعدائهم اسم « مختلسى السقيفة » (circoncellions) فاشتهروا به وانتسب الثوار كلهم الى الحركة الدوناتية وظهر نشاطهم غربا وشرقا من قرية التافة (Altava) أى قرية أولاد ميمون بقرب تلمسان حاليا الى **أوزيا** (Auzia) **التى هى سور الغزلان اليوم الى مدينة ميليف** (Milev) أى ميلة الآن · وتركزت العمليات على تدمير الكنائس الكاثوليكية واضطهاد قساوستها ·

وفى سنة 289م ، أصدر الامبراطور **كونستان** (constant) مرسوما لمقاومة الحركة الدوناتية فتولدت عنه ثورة قبائل الاوراس واستولى الثوار على الكنائس بمدينة **بغاى** (Baghaï) فى ناحية خنشلة وتيمغاد وغيرها · فغزى الجيش الرومانى المنطقة وسيطر على الوضع هناك وحاصر الاسقف الدوناتى فى مدينة **بغاى** (4) وبعد ذلك تمرد الاهالى من جديد فى وسط البلاد · فاضطر الامبراطور **ماكسيميان** (Maximien) أن يخمد الثورة بنفسه سنة 297م ، ولكن الامن لم يستمر الا قليلا · فتوالت العمليات

(2) غسطون بواسيه : افريقيا الرومانية ، ص 319 ·
(3) المصدر السابق ، ص 152 ·
(4) لويس برتراند : القديس أغسطين ، ص 27 ·

وفر بعض الجنود الافارقة من جيش الاحتلال وتسلح المعمرون الرومانيون ليردوا عن مزارعهم أولئك الفلاحين المتمردين (5) ٠

مقاومة أخرى عبر وفى سنة 372م ، قاد الامير النوميدى **فيرموس** (Firmus) موريطانيا الوسطى استمرت ثلاث سنوات اعتمد فيها على الاهالى وزعماء الدوناتية والفلاحين فأحرق مدينة **سيزاريا** (شرشال) والتجأ الى جبال جرجرة الى أن أخمد الجيش الرومانى ثورته ؛ فساد « السلام الرومانى » مدة من الزمن الى أن تمرد أخوه (6) **جيلدون** (Gildon) على روما وكان الاسقف الدوناتى **أوبتا** (Optat) لمدينة تيمغاد (Thimgad) من أكبر أنصاره حتى سمى « الجيلدونى » ٠

ـ أغسطين والحركة الدوناتية

تعرف أغسطين على الحركة الدونانية منذ صغره اذ كان جل سكان قريته **تاغاست** (سوق اهراس) ينتمون اليها ؛ فارتدوا عن مذهب دونات [illegible] من مرسوم الامبراطور **كونستان** الذى أشرنا اليه سابقا واعتنقوا المذهب الكاثوليكى (7) وشاهد أغسطين أيضا جماعات مسلحة من الفلاحين تعتدى على مزارع أنصار الكنيسة الرسميةفى أنحاء نوميديا كلها وكان شعار المحرقين لتلك المزارع : « الحمد لله » فسجل أغسطين أن صراخهم كان مخيفا أكثر من زئير الاسود ٠ (8)

وعندما عين أغسطين قسيسا لبونة (عنابة) سنة 391م ، وجد الحركة الدوناتية مسيطرة عليها ولم تكن تملك الاقلية الكاثوليكية الا كنيسة واحدة فى المدينة وهى « كنيسة السلام » (9) وكان **بروكوليانوس** (Proculianus) هو الاسقف الدوناتى لبونة ٠ وفى قرطاجة أيضا كان يوجد أسقف كاثوليكى وهو **اوريليوس** (Aurelius) وأسقف دوناتى وهو بارمينيانوس (Parmenianius) .

---

(5) شا ل أندرى جوليان : تاريخ شمال افريقيا ، ج 1 ، ص 198 ٠
(6) فينوربيكى : حضارات شمال افريقيا ، ص 32 ٠
(7) بول مونصو : التاريخ الادبى لافريقيا المسيحية ، ج 7 ، ص 29 ٠
(8) لويس برتراند : ص 371 ٠
(9) نفس المصدر ونفس الصفحة ٠

وفى بداية الامر ا ختار أغسطين طريقة الحوار مع الدوناتيين اذ ارتأى « أنه يجب العمل بالكلمة والكفاح بالمناقشة والاقناع بالعقل » (10) • غير أن خصومه رفضوا الحديث مع من أنعتوه « بالمجادل القرطاجى » وأمروا أنصارهم بمقاطعته • وعندما وجه أغسطين رسائل الى **بروكليانوس** ردها له • فقرر أغسطين أن يعارض الدوانتية بالتآليف التى توزعت فى بونة وفى المدن المجاورة (11) نعرف منها 11 رسالة وضاعت 7 رسائل(12).

وكان أغسطين من أخطر المجادلين غير أنه لم يتصف بالدقة والموضوعية • فكان واثقا بنفسه مستعدا للتحدى متسرعا فى الرد قبل أن يتأمل النص كما يجب (13) • فتحامل على أعدائه بدون هوادة ولا رحمة واستعمل كل الوسائل للحط من شأنهم والتغلب عليهم فسخر من تجبر **بيتيليانوس** (Petilianus) وخشونة **كريسبينوس** (Crispinus) وبلادة **بريميانوس** (Primianus) أسقف قرطاجة وسياسته المتضارية وتهكم **بكريسكونيوس** (Cresconius) فى النحو واتهم **ايميرتوس** (Emeritus) أسقف شرشال بعدم التحرى **وغودينسيوس** (Gaudentius) أسقف تيمغاد بالتعصب ولم يسلم منه أحد من زعماء الحركة الدوناتية (14) •

وقد اكتفى أغسطين بهذا الاسلوب الى حين ولم يطالب السلطة بمقاومة خصومه بالقوة ظنا منه أن العقوبة المالية كفيلة بردهم الى الطريق المستقيم • وبناء على هذه الفكرة سعى فى معاقبة عدوه كريسبينوس أسقف قالمة (Calama) فى ذلك ولم يأل جهدا حتى حوكم خصمه ولكن هذا الاخير رفض الحكم ورفع القضية الى الامبراطور بروما فاقر الامبراطور معاقبته • (15)

وخلافا لما كان يظن أغسطين لم تتوقف الحركة الدوناتية فى نشاطها ولم تلتفت الى مقاومته لها ؛ بل ضاعفت عملياتها وحاربت الحكم الرومانى وحلفاءه من معمرين وزعماء

(10) أغسطين : رسالة الى فانسانسيوس (Vincentius) ، ص 68 •
(11) بول مونصو ، ج 7 ، ص 18 •
(12) تيكسرون : مختصر ، ص 38 •
(13) هنرى مارو : أغسطين والاغسطينية ، ص 68 •
(14) بول مونصو : التاريخ الادبى ، ج 7 ، ص 270 •
(15) بوسيديوس : حياة القديس أغسطين ، ص 23 •

الكنيسة الكاثوليكية ؛ فوقع **بوسيديوس** ـ أسقف قالمة وصديق أغسطين ـ فى كمين وضعته له جماعة من أنصار دونات فضربوه وانتزعوا منه أمتعته ودابته • واعتدت جماعة أخرى على **ماكسيميانوس** (Maximianus) أسقف بغاى فأشرف على الهلاك وتعرض أغسطين هو الآخر الى كمين غير أنه حاد ـ صدفة ـ عن طريقه المعتاد فنجا بنفسه (16) • وفى النهاية راجع أغسطين سياسته تجاه الدوناتية • فتساءل فى احدى رسائله : « لمـــاذا اذن لا تجبر الكنيسة ابناءها على العودة اليها ما دام هؤلاء الابناء الضالون يستعملـون القوة لمقاتلة الآخرين ؟ (17) •

اضطهاد الحركة الدوناتية

وبنى أغسطين فكرته على عبارة للمسيح التى تقول : « أجبروهم على الدخـــول » (Compelle entrare) وستعتمد محاكم التفتيش على نفس العبـــارة فى العصر الوسيط لتبرير أعمالها •

أعد لهم اغسطين « **ندوة قرطاجة** » التى انعقدت فى شهر يونيو 411 م • واستدعت السلطة اليها مجموعة من الزعماء الكاثوليكيين والدوناتيين يتجاوز عددهم 600 شخص ليتباحثوا فى الخلاف القائم بين الطائفتين • وترأس الندوة مندوب الامبراطور وكان من أنصار الكنيسة الرسمية ولهذا اتهمه الدوناتيون بالتحيز وكان الحكم عليهم مقررا قبل انعقاد الندوة • (18)

وفى هذه الظروف تغلب أغسطين على خصومه فاتهمتهم الندوة بالبدعة وقـــررت محاربتهم وابطال دعوتهم • وتولت السلطة الحاكمة مطاردتهم واضطهادهم فمنعتهم من اعادة « التعميد» وعقد الاجتماعات وفى حالة العصيان كان عقابهم بالمـــال أو بمصادرة ممتلكاتهم • وبالاضافة الى ذلك تميزت معاقبة الفلاحين بالضرب المبـــرح والقساوسة الدوناتيين بالنفى (19) • وسلمت الكنائس الدوناتيين للكاثوليكيين •

---

(16) المصدر السابق ، ص 22 •
(17) أغسطين : الرسالة 185 ، أنظر هنرى مارو ، ص 136 ـ 137 •
(18) شارل آندرى جليان : تاريخ شمال افريقيا ، ج 1 ، ص 224 •
(19) لويس برتراند : القديس أغسطين ، ص 388 •

وبطبيعة الحال كان رد الفعل عنيفا من طرف الدوناتيين فدافعوا عن أنفسهم وشنوا معارك كثيرة مركزة على أعدائهم وخربوا المزارع والممتلكات وأضرموا فيها النار ودبروا أغتيال بعض الخصوام · وقاد المقاومة المسلحة الزعماء الدوناتيون وساهم فيها جل الفلاحين الاهالى ولجأوا الى حرب العصابات والنظام السرى فسقط عدد كبير من الضحايا والمقاتلين فاعتبرهم الدوناتيون شهداء الحق وقدسوا قبورهم تقديسا وبالرغم من أن السلطة استعملت جميع امكانياتها العسكرية وغيرها الا أنها لم تستطع أن تقضى نهائيا على أنصار دونات الذين تحصنوا فى مناطق منيعة بنوميديا وموريطانيا · (20)

ـ فكيف يفسر تعصب أغسطين فى هذه القضية ؟ اختلفت آراء المؤرخين فى تفهم موقفه من الحركة الدوناتية · فرأى بعضهم أنه تعصب دينى سافر لا يبرره شىء · فقال أحدهم فى هذا المعنى : «ان أغسطين ـ فى نظرى ـ لم يكن أقل تعصبا من خصومه» ·(21) وأضاف غيره أن أغسطين تبنى مبدأ خطيرا وهو الذى يبرر الارهاب فى مسائل الاعتقاد مندوز ـ وهو من أكبر المتخصصين فى اغسطين ـ ان أسقف بونه كان يرى ان الحق اعتناق عقيدة (22) · وحاول فريق آخر من المؤرخين أن يتفهم وجهة نظر أغسطين فى الامر اعتمادا على ما جاء فى مؤلفاته واعتبارا للظروف التى كان يعيشها · فيقول أندريه فأول كلمة ىالمسيح : « أجبروهم على الدخول » تأويلا يسمح للدولة باكراه الناس على والوحدة شيئان لا ينفصلان » (23) وبما أن الحركة الدوناتية خرجت عن الوحدة وارتكبت «جريمة التفرق» فكان لابد من مقاومتها بشدة الى أن يعود أنصارها الى الكنيسة الام · فوقع من حيث لا يشعر فى جدلية القمع والارهاب (24) · وبما أن أغسطين لم يكن خبيرا فى الامور السياسية لم يتفهم المشكلة الاجتماعية والاقتصادية التى كانت

(20) بول مونصو : التاريخ الادبى ، راجع شارل أندرى جليان ، ج I ، ص 225 ·
(21) كريستيان كورتوا : المجلة الافريقية العدد 99 ، سنة 1955 ، ص 427 ·
(22) شارل أندرى جوليان : تاريخ شمال افريقيا ، ج I ، ص 226 ـ 227 ·
(23) أندريه مندوز : القديس أغسطين ، ص 364 ـ 365
(24) المصدر السابق ، ص 373 ·

الدافع المحرك للمقاومة الدوناتية ولم يتفطن لهدفها وهو ازالة النظام الفاسد الـــذى رضيت به الكنيسة فى افريقيا (25) ·

وفى الواقع ان الباحث الذى يريد انصاف أغسطين من خلال دراسة نفسيته وأعماله ليدرك أن الرجل كان يميل الى احترام النظام القائم والسلطة الحاكمة واضعا مصلحـــة الكنيسة والامبراطورية فوق كل اعتبار وكان وفيا لهما مهما كانت الظروف · فانـه أصبح افريقيا رومانيا لا يتصور وجوده ومصير بـلاده الا فى كنف الحضارة اللاتينية · ومما يدل على ذلك موقفه فى آخر حياته من الغزو الاجنبى وظهور المقاومة الدوناتيـــة من جديد ؛ انه انتقل الى طبنة بقرب بسكرة ـ وهو فى حالة مرض (26) ـ محاولا اقناع القائد **بونيفاس** (Boniface) الذى تمرد على روما ليعود الى بونة مـــن أجل رد هجـوم **الوندال** (Vandales) والدوناتيين · وتوفى أغسطين يوم 28 أغسطس سنة 430م · فى الوقت الذى كان بونيفاس محاصرا برا وبحرا فى مدينة بونة من طرف الوندال وكـان متيقنا من نهاية الامبراطورية الرومانية والكنيسة الكاثوليكية فى افريقـــيا ويشهـد صديقه الاسقف **بوسيديوس** الذى ألف كتابا سماه « حياة القديس أغسطين » ـ أنه لم يبق الا ثلاث كنائس فى افريقيا وهى قرطاجة وبونة وسرتا ··· وتدهور الوضـــع الى أن تم انتصار الوندال وانتهت افريقيا الرومانية ·

(25) المصدر السابق ، ص 294 ـ 295 ·

(26) لويس برتراند : القديس أغسطين ، ص 441 ـ 443 ·

المـــراجـــع :

1 ـ شارل أندرى جوليان : تاريخ شمال افريقيا ، ج 1 ، باريس 1956 .

— Ch. André Julien : Histoire de l'Afrique du Nord, t. I, édit. Payot ; Paris 1956.

2 ـ لويس برتراند : القديس أغسطين ، باريس ، 1913

— L. Bertrand : Saint Augustin, édit. Fayard ; Paris 1913.

3 ـ غاسطون بواسيه : افريقيا الرومانية ، باريس ، 1901 .

— G. Boissier : L'Afrique romaine, 6e édit. Hachette ; Paris 1901.

4 ـ كريستيان كورتوا : المدخل الى الجزائر ، باريس ، 1957 .

— Ch. Courtois : Initiation à l'Algérie, édit. Adrien - Maisonneuve ; Paris 1957.

5 ـ هنرى مارو : القديس أغسطين والاغسطينية ، باريس ، 1955 .

— H. Marrou : Saint Augustin et l'augustinisme, édit. du Seuil ; Paris 1955.

6 ـ بول مونصو : التاريخ الادبى لافريقيا المسيحية .

— P. Monceaux : Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne.

7 ـ أندريه مندوز : القديس أغسطين ، باريس ، 1968 .

— A. Mandouze : Saint Augustin, Etudes augustiniennes ; Paris 1968.

8 ـ فيكتور بيكى : حضارات شمال افريقيا ، باريس 1921 .

— V. Piquet : Les civilisations de l'Afrique du Nord. Edit. A. Colin ; Paris 1921.

9 ـ بوسيديوس : حياة القديس أغسطين ، باريس ، فى مقدمة كتاب الاعترافات .

— Possidius : La vie de Saint Augustin. trad. L. Moreau, avec les confessions, édit. Gaume et Cie ; Paris, 9e édit.

10 ـ تيكسرون : مختصر الباترولوجيا ، باريس 1941 .

— J. Tixeront : Précis de patrologie ; 14e édit. Lecoffre ; Paris 1941.

مدينة العناب

في آثار الأدباء والكتاب

د. م. بالحميسي
معهد العلوم الاجتماعية - جامعة الجزائر

هذه المدينة القديمة جدا ، « مـــن بناء الاوائل » ، كثيرة الآثار مشرفة على البحر ، قد لاحظ القدماء عذوبة مائها وحلاوة خضرها وفواكهها وجودة سمكها وجمـال ارضها وبساتينها وحسن موقعها ونشاط مينائها وتردد التجار عليها وتعـود الراغبـين في كسبها واخضاعها ـ واتحفها الناس بأسماء عديدة فسميت على التـوالي هبون (Hippone) وهبو رجيوس Hippo-Regius وبونة Bûna وبلاد العناب وبون Bône أو بـون Bonne وصفا لارضها الخصبة .

وخطرت ببالي مواضيع عديدة بمناسبة ملتقى عنابة فترددت أولا ثم أقدمت عـلى التعريف بمن كتب حول هــذه المدينة المزدهـرة وعـلى ذكـر مؤلفاتهم ومقالاتهم ـ وما أكثرها ـ آملا في ان أحد الباحثين في تاريخ المدن الجزائريـة يستعين بهـذه

الصفحات ويتحف « بلد العناب » بدراسة كافية شافية وجامعة وافية ونسأل الله التوفيق ...

ومن أهم المراجع العربية والفرنسية ما نعرضه على قراء هذا العدد الخاص .

1) التعرف على المدينة

Guide de la ville de Bône, plan général, rues, transports... Alger [Les guides pilotes] 1959 202 p.

2) دراسات خاصة

(monographies)

— Marçais (G.) : Annaba in Encyclopédie de l'Islam, 2e édi. T. I, p. 527.
— Bouyac (R.) : Histoire de Bône - Bône 1892.
— Feraud (Ch.) : Documents pour servir à l'histoire de Bône. Revue Africaine 1873 et 1888.
— Maitrot : Bône à travers les siècles.
— Pietri (l'abbé de) : Détails sur Bône et ses environs et divers autres sujets. Alger 1836, 55 p.
— Yver (G.) : Bône, Encyclopédie de l'Islam, 1re éd., T. I, p. 761 - 762.

3) التاريخ القديم

(Histoire ancienne)

— Pellegrin (A.) : Bône, étymologie ; Revue IBLA 1948. pp. 43 - 46 et 366.
— Carette (E.H.) : Précis historique et archéologique sur Hippone et ses environs, Paris 1841 25 p.
— Courtois (Chr.) : Les Vandales et l'Afrique. Paris 1955, 455 p.
— Gsell (Step.) : Atlas archéologique de l'Algérie - Texte - Alger - Paris 1911 - Feuillet n° 9 chap. 59, pp. 5 - 11.
— Marec (Erwan) : Hippone la royale, antique Hippo Regius. Alger 1954, 116 p.

4) تاريخ العصور الوسطى

(Histoire du Mayen-Age)

— Brunschvic (R.) : La berbèrie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du xve siècle. 2 vol. Paris 1940.
— Julien (Ch. A.) : Histoire de l'Afrique du Nord. T. II.
— Golvin (L.) : Le Maghreb Central à l'époque des Zirides. Paris 1957.
— Idriss (H.R.) : La berbérie orientale sous les Zirides xe - xiiie siècle ; Paris 1962.

ابن خلدون : كتاب العبر ج 5 و 6 .

5) العهـــد العثمـــانى

(Epoque ottomane)

— Mercier (E.) : Histoire de l'Afrique Septentrionale. 3e vol. ; Paris 1888 et 1891.
— Berbrugger : Algérie, Histoire pittoresque et monumentale (recueil de vues, costumes portraits avec textes descriptifs). Paris 1843.

مؤلف مجهول : غزوات عروج وخـير الدين ٠

6) الاحتـــلال الفرنـسى

— Chollet (Me) Bône de 1830 à 1881 ; Alger 1952 (D.E.S.).
— Cornulier Lucinière (Comte de) : La prise de Bône et de Bougie d'après les documents inédits 1832 - 1833 VIII -°377 p. illust.
— Julien (Ch. A.) : Histoire de l'Algérie contemporaine ; Paris 1964 P.U.F.
— Mélia (J.) : Les bombardements de Bône et de Philippeville, 4 août 1914 ; Paris 1927 193 p.
— Seybouse (La) : Journal de Bône 1843...
— Toudouze : Mémoire pour les victimes du casernement militaire de l'occupation civile à Bône depuis neuf années de conquête ; Toulouse 1840.

7) كتـب الرحـلات والجغرافيـة

ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان ٠

ـ البغدادى (عبد الحق) مراصد الاطلاع ج 1 ص 232، ط القاهرة 1954 ٠

ابن حوقل : « المسالك والممالـك » ٠

ـ المقدسى (شمس الدين) : « أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم » ٠

ـ البكرى (أبو عبيد الله) : « المسالك والممالك ، كتاب المغرب فى ذكر بـــلاد افريقية والمغرب » ٠

ـ الادريسى (الشريف) : « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ٠

ـ مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار ص 17 ـ 18 ٠

ـ العبدرى (محمد بن محمد) : الرحلة المغربية ـ نشر كلية الآداب بالجزائر ٠

ـ التمقروتى (أبو الحسن على) : النفحة المسكية فى السفارة التركية ٠

— Flaux (A. de) : La régence de Tunis au XIXe *siècle ; Parie* 1865. *Ch. II. pp.* 5 - 14.
— Léon l'Africain : Description de l'Afrique.
— Shaw : Voyages.
— Piesse (L.) : Itinéraire historique et descriptif de l'Algérie ; Paris 1874, 544 p.

8) التراجـــم

(Biographies)

ـ ابن ميمون (محمد الجزائرى) : التحفة المرضية فى الدولة البقداشية : ترجمة سيدى قاسم أحمد البونى ص 116 ٠

ـ القاضى عياض : كتاب المدارك : ترجمة الشيخ أبى عبد المالك مروان بن عـــلى ابن القطـــان ٠

ـ عادل نويهص : معجم أعلام الجزائر ٠ بيروت 1971 وفيه تراجم بونية ٠

1) أحمد بن على بن يوسف البونى (توفى 622 هـ ـ 1225 م) ٠

2) أحمد قاسم بن محمد ساسى التميمى البونى (1063 ـ 1653/1139 ـ 1726) ٠

3) أحمد بن محمد بن على العنابى (توفى 776هـ/1374م) ٠

4) على بن عبد الله الإنصارى البونى (ق 7هـ/13م) ٠

محمد بن محمود ٠٠٠ العنابى : (توفى 1271/1851) صاحب « السعى المحمود فى تاليف الجنود » وكتاب « ثبت الجزائرى » ٠

5) مروان بن على الاسدى القطان (أبو مالك) توفى 439هـ/1047م ٠

6) يحيى بن أبى بكر العماد (أبو زكريا البونى) ق 8 هـ/14 م ٠

9) المســـاجـــد

(Mosquées)

— Marçais (G.) : La mosquée de Sidi Bou Mérouane, Mélanges W. Marçais ; pp. 225 - 236.
— Papier (Ad.) : La mosquée de Bône, Revue Africaine 1889 ; pp. 312 - 320.

10) المـــــرسى

(Le port)

— Billard (L.) : Les ports et la navigation de l'Algérie ; Paris 1930.

— Burger : Notice sur le port de Bône.
— Lacoste (L.) et Quesmard (C.) : Les ports antiques de l'Algérie ; Paris 1933.
— Laurent (P.) : Les ports maritimes algériens ; Alger SD. 112 p.
— Lieussou (A.) : Les ports de l'Algérie ; Paris 1857.
— Lespès (R.) : Bône port minier ; Revue Africaine 1930 ; pp. 129 - 153.
Annaba-port : Port autonome de Annaba, capitainerie, Farifs..., Annaba imprimerie Centrale autogérée.

11) الاقتصاد

(Economie)

— Dumoulin (R.) : La structure asymétrique de l'économie algérienne d'après une analyse de la région de Bône ; Paris 1959, 376 p.

حول
مسجد سيدى بومروان العتيق بعنابة

عبد الرحمان الجيلالي
مؤرخ ـ الجزائر

بعد تقديم أخلص التحيات والتقدير الوافر لكامل أعضاء هيئة وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، وفى مقدمتهم جناب الاخ الكريم سيادة الوزير مولود قاسم نايت بلقاسم على حسن ظنهم بهذا العاجز الماثل امامكم فى اقتراحهم عليه القاء ما أسموه محاضرة بهذا القصر المنيف ، مع أننى ليس لى يد بهذا الامر ولا قبل لى به ، ولكنه نزولا عند رغبتهم الملحة سأحاول جهدى فى التحدث اليكم الليلة أيها الاخوة الكرام كمحاضر أو قل كمسامر يطوى هزيعا من الليل فى حديث أعده لاخوة له أوفياء يحوم حول التاريخ والفن المعمارى ، ولا جرم فى أن التاريخ هو أكبر عامل على الروح الوطنية ، حتى ليصح لنا أن نقول بأن الوطن هو تاريخ الوطن ، ولا حياة لامة الا باحياء ماضيها ، والموضوع هو ما علمتم : جامع سيدى بو مروان ببونة ـ عنابة ـ أو جامع بونة العتيق .

(*) محاضرة القيت فى المركز الثقافى الاسلامى بتاريخ 6 ربيع الاول 1395 هـ ـ الموافق لـ 19 مارس 1975 م .

ولقد اخترت الكلام حول هذا الموضوع لما يربط بين وزارتنا الموقرة هذه وبين المسجد بصفة عامة من الاتصال الوثيق : روابط متينة وأواصر ثابتة ، لا ينفك أحدهما عـــن الآخر ، فالتعليم الاصلي والشؤون الدينية مصدرهما واحد ، وذلك المصدر هو المسجد ٠

وركزت حديثي هذا حول مسجد سيدى بو مروان ببونة ـ عنابة ـ ذلك لما يمتاز به هذا المسجد أو يختص به ما بين مساجد الجزائر الجامعة من خصائص وامتيازات نادرة انفرد بها ما بين كثير من الجوامع ، وأهمها فى نظرى قيمته التاريخية الاثرية ، وهندسته الفنية ، ووضعيته الستراتيجية الحصينة ، وبذلك جاء حديثنا هذا يشتمل على أربعـة عنـــاصر :

أ ـ نشأة المسجد فى الاسلام بصفة عامة ٠

ب ـ جامع سيدى (بو مروان) ٠

ج ـ المدينة التى أنشىء بها هذا المسجد ـ وهى طبعا بونة ـ ٠

د ـ سيدى بو مـروان ٠

كلنا يعلم وانه بعد توحيد شبه الجزيرة العربية فى ظل الاسلام برز منها الفاتحون لنشر دينهم فى الآفاق ، فاحتلوا سوريا فى مدة وجيزة ، وثلوا عرش الاكاسرة والقياصرة وامتلكوا ناحية العراق وبلاد فارس ، ثم انتشروا غربا فى افريقيا والاندلس فاندكت لهم عروش الاباطرة ، واندفعوا شرقا نحو الهند والصين ٠ ففتحوا منهما من المدن القاصية ما لم يبلغه غيرهم من الفاتحين ، بحيث لم ينقض القرن الثـــانى للهجـــرة حتى كانت الامبراطورية العربية الاسلامية تمتد من جنوب فرنسا وجبال البيرينى غربا ، الى حدود طوروس وتركستان ووادى كشمير شرقا ، وبذلك شملت ممتلكات العرب رقعـة زادت سعتها عن رقعة الامبراطورية الرومانية ايام بلوغها أقصى ما بلغته فى أوج اتساعها ٠

واندفع المسلمون الفاتحون ـ بطريق مباشر وغير مباشر ـ الى العناية بفن العـمارة والانشاء والتعمير وكان منطلقهم فى ذلك عما وصف القرآن الكريم به الجنة فقال : « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الانهار » وقال فى آية أخرى : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الانهار»

الآية ، وفى آية سورة سبأ ، وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ·

وصرح سليمان : قال انه صرح ممرد من قوارير ، وذكر الصوامع والبيع والمساجد فى آية سورة الحج : « ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا » الآية ·

فما كان المسلمون يفتحون الامصار ويرون ما بها من الآثار حتى أقبلوا على البنـــاء والتشييد فأقاموا قصورا شاهقة رشيقة التكوين ، موزونة الابعاد ، منمقة الجـدران ، ضاع معظمها ويا للاسف ، ونفضت معاول علماء الآثار الاكفان عن بعضها ، وافلت من يد الدهر بعضها الآخر ، وهو ما نراه اليوم منبثا هنا وهناك فى أنحاء العالم شرقا وغربا ، منه جامع الرسول صلى الله عليه وسلم بقباء وبالمدينة المنورة وجامـــع عمرو بفسطاط مصر ، وجامع عقبة بالقيروان ، والمسجد الاقصى ـ المأسوف عليه ـ وقبة الصخـــرة ، والازهر ، وجامع دمشق ، وجامع قرطبة ، وجامع دلهى بالهند ، والقرويـــين بفاس ، وجامع الزيتونة بتونس ، ومساجد تلمسان والجامع الكبير وسيدى رمضان بالجزائر ، وذلك بالاضافة الى قصور القاهرة واسطنبول ودمشق ، وطشقند ، وفارس ، وما فى هذه البلاد من حصون وقلاع ··· ومنها تلك الجوهرة الثمينة وذلك القصر العظيم الذى شيده بنوا الاحمر فى الاندلس ، وهو بغرفه الفسيحة وزخرفته الرائعة ، وقبابه الرشيقة العالية ، ومياهه الدافقة الرائقة ، وجناته ذات القطوف الدانية ، لهو خير شاهد عـلى ما ذكـــرنا ·

ولم يكن هنالك من بد للدولة الاسلامية فى مراحل تاريخها الطويل من تشييـــد العمائر المختلفة لخدمة أهدافها الدينية والمدنية والعسكرية بشكل اختلف حسب تلك الاهداف ، ويأتى فى مقدمة العمارة الدينية : المسجـد ·

فالمسجد أيها الاخوة الكرام هو كما تعلمون فضلا عن كونه المعبد الذى يجتمع فيه المسلمون صفا واحدا متساوين فى كل شىء ، وفى شرف العبودية ، وفى شرعة العبادة التى تصفو بها أنفسهم من التعلق بالشهوات والانغماس فى أدرانها ، وتطهر بها ارواحهم

من التفانى فى المادة وحدها والجشع فى جمعها ، ففيه أيضا توثيق لروابط الالفة والمحبة الخالصة بين الناس ، وهو الى ذلك كله المدرسة الجامعة التى انبثقت منها هذه المعارف الزاخرة التى نراها اليوم غمرت الشرق والغرب بنورها الساطع ، وكان لها من الاثر الفعال فى نهضة العالم المتمدن ما هو مشاهد من التقدم والرقى وما ستكشف عنه الايام غدا ، كما اعترف بذلك العلماء المنصفون وان أنكره المكابرون والجاحدون ٠

ولقد أحصى بعضهم ما جاءت الاشارة اليه من أنواع العلوم فى القرآن الكريم أو المعارف المستنبطة من القرآن فبلغ الى ما يزيد على عشرات آلاف علم ، قال **ابن العربى** (543 هـ) فى العواصم من القواصم فيما حكاه على **أبى الحسن الاشعرى** (324 هـ) قال بأنه كتب تفسيرا للقرآن يحتوى على خمسمائة مجلد ، فمنه أخذ الناس كتبهم ، ومنهم عبد الجبار الهمدانى وضع كتابا فى تفسير القرآن سماه المحيط فى مائة سفر ، قال ابن العربى قرأته فى خزانة المدرسة النظامية بمدينة السلام ـ بغداد ـ ، وفى الحقيقة ان كل علم تحتاج اليه الامة الاسلامية تراه شريعة المسجد أمرا واجبا وفرضا محتما من فروض الكفاية وعلى أمة الاجابة اتقانه ٠

وكما أن المسجد هو مدرسة جامعة كما قلنا فهو الى ذلك البرلمان الذى توضع فيه قوانين الدولة وتناقش فيه الآراء المستمدة من معين الكتاب والسنة لتسيير شؤون الدولة الاسلامية ذلك المعين العذب الزلال الذى لا يغيض ولا ينضب ٠ وهو الى ذلك كله المحكمة الشرعية العليا التى تجرى فيها أعدل الاحكام ، والتى شطرت بها أروع صفحات القضاء البشرى ٠ ومن المسجد كانت تبعث البعوث وتعقد الرايات وتعبأ الكتائب ، فالمسجد الجامع فى الاسلام هو عبارة عن مؤسسة جامعة عامة لما يجرى بين الناس فى حياتهم العامة من عادات وعبادات ومعاملات فهو منطلق الحياة السياسية والاجتماعية فى الامة الاسلامية قاطبة وهذا معنى وضع المنبر الذى هو أشبه بالعرش الى جانب المحراب فى المسجد ٠ ومن هذه المؤسسة العظيمة تخرج أبطال الاسلام وقادته وولاته وعلماؤه وحكماؤه وفلاسفته وهداته ٠ وها هى مدونات التاريخ تشهد بذلك ٠

فهذا هو المسجد أيها الاخوة الكرام وهذا هو دوره فى الاسلام ، ومن هنا جاءت الاهمية البالغة التى أولتها الدولة الاسلامية فى أول ما عنيت به من مؤسساتها الاولية ،

فكان المسجد هو أول مؤسسة فى الاسلام اطلاقا ، وكان ظهوره على يد النبى صلى الله عليه وسلم وهو سائر فى طريقه الى مهجره يثرب فما غادر قباء حتى أسس بها المسجد وهو المعنى بقول الله تبارك وتعالى : لمسجد أسس على التقوى من أول يوم ، الآية وما حل حبوته صلعم ولا حط رحله بالمدينة حتى أخذ فى انشاء المسجد وشارك بنفسه فى تأسيسه وتشييده ، وكان مبنيا باللبى وسقفه من الجريد وعمده خشب النخيل ، ثم زاد فيه عمر وبناه بنفس المواد التى بنى بها على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجعل طوله مما يلى القبلة الى مؤخره مائة ذراع ، وفى الجانبين الآخرين مثل ذلك، فهو مربع الشكل ، وجعل الاساس قريبا من ثلاثة أذرع على الارض بالحجارة ، ثم بنوه باللبى ، ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة وبنا جداره بالحجارة المنقوشة والقصة ، ــ وهى الجسة بلغة الحجاز وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج ، فكان هنا التعمير للمسجد النبوى بهذه الصفة هو أساس فن العمارة الاسلامية ، ولم يكن للمسلمين ان يقفوا بمساجدهم عند حدود البساطة التى كانت عليها فى الايام الاولى ، بل تذكروا قول الله تبارك و عـالى : فى بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه • الآية ••• فاقبلوا على تشييدها وزخرفتها اجلالا لها وتعظيما لشأنها ، وأقبل عمر بن عبد العزيز على تزيين المسجد النبوى وتجميله الفسيفساء المذهبة وغيرها من أنواع الزينة، وكذلك فعل الامراء بعده بمساجدهم وقلدهم فى ذلك ذوو الثراء والمال فى كافة أنحاء العالم الاسلامى فرصعوا جوانب المسجد بآيات من آيات الفن والجمال كمثل ما فعله الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان بمسجد الصخرة بالقدس الشريفة سنة 72 هـ • 691 م • فجاء عمله هذا آية من آيات فن العمارة الاسلامية وغرة لامعة فى جبين الدهر على مدى العصور •

ولقد بلغ من اهتمام المسلمين بالمسجد وتعظيمهم له حتى ان بعضهم أقامه من لجين ، من خالص الفضة ، فقد روى لنا التاريخ أن أبا يوسف يعقوب الصفار أحد مشاهـــير الامراء وكبار دهاة العرب فى القرن الثالث الهجرى (9م) أهدى للخليفة العباسى المعتمد على الله تحفا نفيسة ، وكان من بينها مسجد من فضة يسع من المصلين خمسة عشر شخصا ، وهو عدد يكمل به نصاب العدد المطلوب لـ[illegible]ـة صلاة الجمعة •

وكان أول ما ظهر استعمال المحراب فى المسجد ان ظهر على يد عمر بن عبد العزيز فهو أول من أحدثه فى الاسلام وقد كان ذلك منه حين أعاد بناء المسجد النبوى بالمدينة

المنورة سنة 88هـ/706م . وكان في وضعه موفقا غاية التوفيق فانه فضلا عن كونه المصلى البصير يهتدى الى ناحية القبلة ، فالكفيف أيضا يجد فيه مساعدا له على توجيهه للقبلة من غير كبير جهد ولا عناء ، وهذا علاوة على تلك المنفعة العامة التى ترتبت على هذا الابتكار العجيب وهى اتساع المسجد بزيادة بلاط كامل أو قل صف بطوله حينما يخلى الامام بين المصلين وجدار القبلة ويتقدم داخل محرابه ، فهذه خصلة جميلة ابتكرها عمر ابن عبد العزيز زادت فى اتساع المسجد وأفادت فوائد أخرى .

وجاء دور المآذن ، فظهرت أول مئذنة بجامع عمر بن العاص بمصر ، أقامها مسلمة ابن مخلد بأمر الخليفة معاوية بن أبى سفيان سنة 47هـ/667م ، ولم يكن لجوامع أو مساجد المغرب العربى فى القرون الثلاثة الاولى مآذن عدا جامع عقبة بالقيروان ، بنيت على عهد خلافة هشام بن عبد الملك أنشاها بشر بن صفوان سنة 106 ـ 110 هـ . 724 ـ 728 م . أول القرن 2 هـ (8م) وهى مربعة الشكل كما نشاهدها اليوم ، ثم وقع فى انشاء المآذن تغيير فى الشكل ، الى ملتوية وحلزونية وأسطوانية ومربعة ومثمنة، وتفننوا فى زخرفتها وارتفاعها كما هو مشاهد اليوم فى مآذن العالم الاسلامى عامة ، وتمتاز مآذن المغرب العربى بشكلها المربع منذ وضعت مئذنة جامع عقبة بالقيروان الى الآن وليس ببعيد أن يكون هذا الشكل المربع فى اقامة المئذنة مستوحى من شكل الكعبة المشرفة التى كان أن أمر النبى صلى الله عليه وسلم بلالا باعلان صيغة الآذان من أعلاها. وهى تسمى أيضا بالصومعة كما هو المصطلح عليه فى بلادنا المغربية ، وذلك لمشابهتها بعض طراز أبراج الزهاد والرهبان المتخذة للعبادة ، ومنها مئذنة (العروس) بالجامع الاموى فى دمشق .

ثم يلى المآذن من حيث الاهمية فى بناء المسجد ولا سيما مساجد الامصار ، ذلك العنصر المعمارى الجميل الذى يعتبر من الميزات البارزة فى العمارة الاسلامية ، الا وهو عنصر القباب ، والقبة كما هو معلوم : هى بناء مستدير مقعر ذو شكل نصف كروى تقريبا ، يقام على مبنى مربع أو مثمن أو دائرى ، وهى ذات أشكال مختلفة ففيها نصف الكروية والبيضوية والاسطوانية وفيها ما اتخذ شكلا بصليا ، وفيها المضلعة ، وهى فى

بلاد المغرب بصفة عامة منخفضة على شكل الكروية خالية غالبا من الزخارف الخارجيـــة الا ما شذ منها فى أقل القليل ، ومن الشاذ قبة جامع سيدى بو مروان ٠

وفيما يرجع الى هذا النوع ـ نوع القبة ـ فى الع مارة الاسلامية يقول (ويل ديورانت) فى قصة الحضارة : ان العمارة البابلية ـ أى حضارة ما بين النهرين دجلة والفرات ـ هي التى أوحت بقباب المساجد للنارات والابراج فى **العهد الوسيط** ؟ ويقول مؤرخـو الحضارة بان المسلمين ورثوا القبة عن الامم السابقة عليهم مثل المصريـــين والعراقيين والرومان والبيزنطيين ، ولكنهم ورثوها عن هؤلاء صغيرة ساذجـــة بسيطة محـــدودة الاستعمال وردوها الى العالم كبيرة معقدة جميلة ، وأكثروا من استعمالها حتى لقـــد أصبحت من السمات البارزة للعمارة الاسلامية ولا ننسى كذلك ان العرب وان استوحوا هندسة القبة واستعملوها فى مبانيهم تقليدا للرومان والبيزنطيين كما قالـــوا ، فان الرومان والبيزنطيون لم يكونوا وحدهم بناة القباب ، فالباحثون فى تاريخ الحضـــارة الشرقية قالوا بأن القبة فى العمارة الشرقية نشأت فى آسيا الصغرى ، أو فى الاقاليـم الواقعة شرقيها ، ثم انتقلت عن طريق أرمينية الى بزنطة، ومن ثم انتقلت برعاية الكنيسة المسيحية الى البلقان وروسيا ٠

ويرجع تاريخ تشييد القبة فى الاسلام الى سنة 72هـ/691م ٠ على عهد عبد الملـــك ابن مروان فى تشييده لقبة الصخرة بالقدس الشريف ٠

قلنا ومن الشاذ فى انشاء القبب المزخرفة من الخارج فى بلاد المغرب قبة جامـــــع سيدى بو مروان فى بونة التى هى عنابة ، نعم وذلك لان شكل هذه القبة ـ وهى مفقودة اليوم ويا للاسف ـ كان غريبا بالنسبة الى غيرها من قبب الجزائر وتونس والمغرب كما نراها مرسومة ومصورة ولم يكن يشبهها فى تخطيطها الخارجى وزخرفتها الظاهرة على سطحها اليوم ، سوى قبتين بجامع القرويين قبة البهو والقبة المقابلة لها جنوب الصحن ، أعنى القبة التى تقع على أول البلاط المتصل بالعنزة ، والقبة الموازية لها التى تقع عـلى مدخل باب الصفر المعروف أيضا بباب الورد وهو الموالى لباب الحفاة ، وثم ثالثة بمدينة سوسة بتونس تعرف تلك القبة (بقبة بين القهاوى) ، فكل من هذه القباب مكســـو ظهرها أو قل سطحها بتضبيعات معوجة أو منكسرة تشبه حرف الزاد اللاتينية خطوط

متكسرة وهو شكل غريب بين القباب المعروفة لدينا ، وقد زالت قبة جامع سيدى بو مروان واختفت عن الانظار منذ أن أدخل عليه الاستعمار الفرنسى من التحوير والتغيير والتبديل بسبب تحويل المسجد الى مستشفى عسكرى ، وقد كان ذلك فى أيام الاحتلال الاولى ، وما عاد للمسلمين الا شهر ماى من سنة 1945 م ، ونحن ما عرفنا شكل هذه القبة الا بفضل الرسم والتصوير الذى وصل الينا ، ولا يخفى ما وقع ثانيا لهذا المسجد من التهديم والتحطيم بسبب حادث انفجار سفينة فرنسية كانت راسية هناك بالساحل أو بمرفأ المدينة ـ عنابة ـ شتاء سنة 1965 م • فانعطب المسجد وما اتصل به من الرباط ثم وقع ترميمه بعد ذلك ، فالى هذه الاسباب يرجع اختفاء القبة المومى اليها، ولوجود هذا الشبه القوى بين هذه القبة وقبتى القرويين وقبة (بين القهاوى) بسوسة قلنا أنها من فصيلة واحدة ، ورجعنا بتاريخها كلها الى عصر واحد ، ولكن أى عصر هو من بين العصور ؟ ••• هذا ما سنحاول التوصل اليه من بحثنا هذا •

فاذا قارننا قبة جامع سيدى بو مروان هذه بقبتى القرويين بفاس وجئنا نبحث عن تاريخ انشاء هذه المؤسسة الفاسية الجليلة لكى نتوصل الى معرفة تاريخ وضع هذه القبة بجامع سيدى بو مروان ، وجدنا تاريخ تعمير القرويين متشعبا بين العصور •

اذ كلنا يعلم وان مؤسسة القرويين هى المحسنة المرحومة أم البنين بنت محمد الفهرى القيروانى،سنة 245هـ/859م،أى كان ذلك على عهد الدولة الادريسية،والخليفة الادريسى يومئذ هو يحيى الاول حفيد ادريس الثانى ، ولكن الجامع بعد ذلك اعتراه تغيير وتبديل من بعض جهاته بسبب ما أدخل عليه من الزيادات والاصلاحات والترميمات المختلفة والمتعددة ، وفى أوقات متباينة ، فقد زاد فيه الامير أحمد بن أبى بكر الزناتى وبنى الصومعة الحالية سنة 344هـ/955م ، وشملت هذه الزيادة نواحيه الثلاثة : شرقا وغربا وجنوبا ، كما أن الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبى عامر لما احتل فاسا باسم الخلافة الاموية المروانية سنة 387هـ/997م ، أحدث فى جامع القرويين تغييرا كبيرا بقصد محو آثار الفاطميين فيه ، وكان فيما تناوله هذا التغيير هاتين القبتين : قبة العنزة، والقبة الموازية لها جوفى الصحن وهما اللتان جاء شكلهما أو زخرفتهما الخارجية تشبه زخرفة قبة جامع سيدى بو مروان وقبة سوسة ، وفى القرن السادس الهجرى ـ 12م ـ

وقع بهذا المسجد تغيير آخر بقصد توسعته ، بما يقرب من نصف مساحته ، وفي عهد المرابطين كذلك وقعت به زيادة أخرى ، باذن علي بن يوسف بن تاشفين ، كما وقع بـه حريق سنة 571هـ/1176م ، فجددت القبة والباب سنة 600هـ/1203م · ووقـــع به ترميم من ناحية الجدار الشرقي سنة 682هـ/1283م ، ثم بالجدار الشمالي سنة 696 هـ · 1300 م · الخ ···

هذا بالنسبة الى مقارنة تاريخ انشاء قبة جامع سيدي بو مروان بقبتي القرويين ، وانتم ترون ماذا أدخل على هذا الجامع من اصلاح وتغيير ، واذا التفتنا الى القبة المعروفـة بقبة (بين القهاوي) بمدينة سوسة بتونس ، وجدنا الامر أشد غموضا وأعقد من ذنب الضب ذلك اننا لم نجد نصا يضيء لنا الطريق نحو معرفة تاريخها ، أو يشرح لنا وجـه قيامها بهذا المكان ، أو يبين لنا على الاقل وجه تخطيطها على هذا الطراز الغريب ؟ ! · اذا فلم يبق لدينا سوى قبة جامع سيدي بو مروان المفقودة اليوم ··· وعليه فاذا أردنا متابعة البحث عن تاريخ المسجد فما علينا الا أن نلتفت الى الجذر ، أي الى تاريخ المدينـة نفسها التي انشيء بها هذا الجامع ، وهي طبعا بونة ، أو عنابة ·

من المعلوم ضرورة أن مدينة بونة هي قائمة على الشاطيء الشرقي الشمالي الجزائـري عند مصب نهر سيبوس وعلى الشاطيء الغربي للخليج المسمى بالاسم نفسه والـــذي ينحصر بين رأس قارد رأس العسة و (رأس روزا) شرقا ، أي موقع بونة يشتمل على مدينتي بونة القديمة ، وبونة الحديثة ، أما بونة القديمة فهي التي أسسها الفينيقيون بين النهرين : (سيبوس وبو جمعة) منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة ، وكان اسم المكان هذا حسب نطق الفينيقيين « هبو » · ولفظة هبو هذه هي كلمة سامية فينيقية معناها : « الاب » بتشديد الباء وهي قريبة منها في النطق ، ولا يخفى أن مخرج النطق بالهمزة وبحرف الهاء هو واحد ، أي من أقصى الحلق من جهة الجوف ، والاب عربية معناه المرعى وما يأكله الناس والانعام ، وقد نطق به القرآن الكريم حيث قال تعالى : « انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا **وقضبا** (كل ثمر يقطع ويؤكل طريا) وزيتونا ونخلا وحدائق **غلبـا** (ملتفة الاغصان لكثافتها) ، وفاكهة وأبا » وسمي هكذا لانه يؤب وينتج ، ومنه جاء الابان بمعنى ابان الفاكهة وهو أوانها ووقتها ، وقالوا بـأن

النون فيه زائدة كما زيدت في « ندمان » فلم يبق حينئذ الا « الاب » ومن المحتمل ان تكون تسمية المدينة هكذا (هيو أو أيو) وقعت بهذا القصد لما هي عليه تربتها مـــن خصب وخفض في العيش قال ابن حـــوقل وهو من أهـل أواسط القـرن الرابع الهجري « وفيها ـ أي بونة ، خصب ورخص موصوف ، بمعنى مذكور ومشهور وفواكه كثيرة ، وبساتين قريبة ، وأكثر فاكهتها من باديتها ، والقمح والشعير في أكثر أوقاتها كما لا قدر له الخ ··· ونجد كذلك الرحالة البكري ـ في أواسط القرن الخامس الهجري يقول في مسالكه واصفا لبونة : وهي ذات ثمر وزرع ، ··· الى أن يقول : « وبغربي هذه المدينة ماء سائح يسقي بساتين ، وهو مستنزه حسن ··· » الخ ··· كما نجـــد مثل ذلك عند الادريسي حيث نراه يقول : « وبها من أنواع الفواكه ما يعم أهلها ، وأكثر فواكهها من باديتها ، والقمح والشعير في أوقات الاصابات كما وصفنا كثير جدا ··· » وهكذا نجد هذه الاوصاف عند كل من تعرض لبونة من الجغرافيين أو غيرهم ، فكلهـــم يصفها بالخصب وخفض العيش ، ويسميها اليون الافريقي : « عنابة لكثرة وجود شجر العناب فيها » وهذا ما يشرح لنا وجه تسميتها عند الفينيقيين باسم (هبو أو ابو) وهو الاب في العربية والاب من الاباِن ، والنون زائدة كما ذكرنا فلم يبق الا الاب ، ويستأنس لهذا ورود كلمة (الاب) في اللغة السومرية على انه اسم للاله (دلبات)اله الزراعة والحرب.

والفينيقيون هم أمة متشعبة عن الفرع الكنعاني السامي ، ولغتهم هي لغـة سامية أخت اللغة العربية ، بل قال علماء اللغات هي لهجة من اللهجات العربية القديمة ، واشبه اللغات بها اليوم هي لغة أهل جزيرة مالطة ، وقد خضعت مالطة كغيرها من جزر هـــذا البحر الابيض المتوسط للعرب ردحا من الزمن ·

ولما حل الفينيقيون بهذا الشمال الافريقي أقبل عليهم السكان لما وجدوا فيهم من الارتباط بهم لغة وجنسا ، فكنعان هو الجذع الذي يجتمع فيه نسب البربر والفينيقيون . ومن هذا الاتصال الحاصل بين الفينيقيين والبربر تأكدت الصلة السامية وتمهـــدت الطريق للعروبة والعربية بهذا الوطن منذ ما يزيد عن ثلاثة آلاف سنة ·

وأصبح اسم المدينة ينطق به الرومان هكذا : (هيبونا) ومنه جاءت التسمية ببونة ، وجاء بعدهم الوندال فاحتلوها سنة 430 م ، ثم بعد قرن احتلها البيزنطيون ، ثم جاء دور

الفتح العربى الاسلامى ، فنزل العرب بهذا الشمال فى أوائل القرن الاول للهجـــرة ، واحتل جيش الفتح العربى مدينة بونة القديمة على يد القائد الامير حسان بن النعمان سنة 78هـ/697م ، ولم نجد لها فيما اطلعنا عليه من تاريخها الاسلامى ذكرا حتى القرن الرابع الهجرى ، حيث نجد نصوصا تاريخية تنص على تاريخ تاسيس بونة الحديثـة وانها بنيت فى أواسط القرن الرابع أى نحو سنة 350هـ/961م ، أى فى آخـــر عصر الفاطميين ، وما سورت الا بعد الخمسين وأربعمائة ، أى في عهـــد ملـــوك بنى زيرى الصنهاجيين ، وذكرها ابن حوقل فى المسالك ... الذى وضعه سنة 360هـ/971م . فقال : « كان لها عامل مستقل » .

ويذكر البكرى مدينة بونة القديمة ـ هبونة ـ فيقول : « تسمى اليوم مدينة زاوى ، ولها مساجد وأسواق وحمام ، وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال » . وفى سنة 548هـ/1353م احتلها روجى الثانى الصقلى النورماندى ، ولم نجد فى هذه المصـــادر التى بين أيدينا ذكرا لمسجد خاص أو جامع معين بهذه المدينة يرجع تاريخه الى هـــذه العصور الاسلامية الاولى ، سوى ما ذكره البكرى ومثله صاحب الاستبصار من قولهما : ولها مساجد ، أو ما ذكره كلاهما على سبيل التعجب والاستغراب من حال مسجد كان هناك بأعلى جبل « زغوغ » أو « ايدوغ » وهو الجبل المطل على المدينة ، فكلاهما وصف هذا المسجد ـ الذى هو بأعلى الجبل كما ذكرنا ـ وصفاه بأنه مسجد قديم قالوا ورغم كون مدينة بونة هى كثيرة الثلج والبرد ، فمن العجائب انه لا ينزل عليه شىء مـــن ذلك الثلج ، فاذا عم الجبل كله رأيت المسجد فى وسطه كأنه شامة . ! ... ؟

وهو كما يفهم من النص ان موقع المسجد كان خارج المدينة ، وهو قطعا ليس مـــن مساجد داخل المدينة وليس هو بمسجد سيدى أبى مروان ، وعليه فالى أى عصر يرجع تاريخ جامع سيدى بومروان ؟ ... وكيف حتى نسبها البكرى الى زاوى ، حيث قال : « تسمى اليوم مدينة زاوى » ؟ ... ومن هـــذا زاوى ؟ ... وما معنى قولهم بنيت أواسط القرن الرابع ؟ ... وقولهم : انها ما سورت الا بعد الخمسين وأربعمائة ؟ ...

أما عن نسبة المدينة الى زاوى ، فأرى انه لا يعلم فى تاريخ ولاة الجزائر من اسمـه زاوى غير زاوى ولد زيرى بن مناد الصنهاجى مؤسس الدولة الزيريـــة التى خلفت

الفاطميين حينما غادروا الشمال الافريقى متوجهين نحو المشرق ، فى أواسط القــرن الرابع الهجرى ، ونحن نعلم ان زاوى هذا قد فارق المغرب وانتقل الى الاندلس منذ سنة 391هـ/1001م ، وحــكم هنالك مملكــة غرناطة من سنة 403هـ الى سنة 410هـ (1012 ـ 1019م) حيث تغلب على قرطبة فكيف حتى نسبت اليه مدينة بونه هذه ؟ ...

والجواب عن ذلك هو انه قد ثبت تاريخيا حصول زاوى هذا على عودة الى الوطن أيام نشوب فتنة البربر بالاندلس سنة 410هـ/1019م وأنه نزل يومئذ عــلى المعز ابن باديس حفيد أخيه بلكين بالقيروان ، فأكرمه المعز ـ كما يقول ابن خلدون ـ ولقيه باحسن البر والتجلة وأنزله أرفع المنازل من الدولة ، وقدمه على الاعمام والقرابــة ، وأسكنه بقصره ، وكانت مدينة بونة اذ ذاك تعتبر من المدن التى هى تقوم على خط الحدود والتخوم بين المملكتين الصنهاجيتين الشرقية والغربية ـ أى مملكة القيروان شرقا والقلعة أو بجاية غربا ـ وقد ذكر لنا هذا أبو الفداء فى تقويمه عند ذكره لوضعيــة مدينة بونة فى جغرافيته نقلا عن أبى سعيد ، قال : « ان بونة على آخر سلطنة بجايــة وأول سلطنة افريقية » فأفادنا بذلك وان مدينتنا هذه كانت تعتبر جغرافيا من التخوم الشمالية المشتركة بين حكومتى أبناء العم الزيريين الصنهاجيين ، والنزاع يومئــذ قائم بين الحكومتين المتزاحمتين حول الاستيلاء على هذا الموقع من الحدود ، فليس ببعيد أن يتفق الطرفان على اقطاع المدينة لهذه الشخصية الصنهاجية الملكية شخصية زاوى ، وقد رجع الى وطنه بعد ما ملك الاندلس ، والزمن زمن اقطاع ، وكل ذلك تفاديا مــن النزاع القائم بين أفراد الاسرة الواحدة الملكة حول هذه البقعة ، فهذا هو الاحتمال الذى نستطيع أن نفسر به قول البكرى : « وتسمى اليوم مدينة زاوى » وفى قوله (اليوم) اشعار منه الى انه يريد بذلك عصرا متأخرا ، ولا يغرب عنكم ان عودة زاوى من الاندلس الى المغرب كانت سنة 410هـ/1019م ، وتبييض البكرى لكتابه « المسالك » كان سنة 460هـ/1068م فلا جرم ان هذه النسبة الى زاوى وقعت أثناء هذه الفترة من الزمن ، ولذلك عبر عنها البكرى بقوله : (وتسمى اليوم) .

وأما عن معنى قولهم عن المدينة بنيت فى أواسط القرن الرابع ، وانها سورت بعد الخمسين وأربعمائة ، فان ذلك يرجع الى الظروف التى وقع فيها تغيير فى المدينة بسبب

الغزو الاجنبى ، فلقد غزاها كل من حكومتى « بيزا » وجنوه الاطاليتين ، فى أواسط القرن الخامس الهجرى كما غزاها روجى أو روجار ملك النورمانديين واحتلها سنـــة 548هـ/1103م ، فكان ذلك لزاما لتجديد المدينة وانشاء أسوارها لرد هجمات العـدو فى هذا التاريخ • ثم تناولتها الايدى بعد ذلك فاحتلها الموحدون وامتلكها ابن غانية ، وسقطت بيد الحفصيين كما تنازعتها كل من حكومات تونس وبجاية وقسنطينة من الحفصيين ، وكل ذلك جناه عليها موقعها الجغرافى حيث كانت رابضة على التخوم ، وهكـــذا الى أن وقعت بيد الاتراك حكومـــة برباروس فى اواسط القـــرن العاشر الهجـــرى ـ 16م ـ •

ومع هذا كله فما زلنا لا نعلم عن تاريخ هذه المؤسسة الدينية الكبرى : جامع سيدى بومروان شيئا ؟ !

فقد تواترت الاخبار على أن هذا المسجد أسس على عهد الدولة الزيرية الصنهاجية المتمثلة فى حكومتى القيروان والقلعة الحمادية أو بجاية ، والذى أشرف على بنائـه وتأسيسه هو رجل علم وصلاح وكفاح ، وذلك هو أبو الليث البونى من عائلة محترمة هناك تعرف فى الوسط البونى بدار النيار ، ولا تزال بقية من أحفاد أحفادها الى عصرنا هذا وتمثل هذه المؤسسة فى تصميمها مسجدا ورباطا ، والرباط هذا هو ملاصـــق للمسجد من جهته البحرية ، واستمر هذا الرباط قائما الى حادثة انفجار السفينة فى فصل الشتاء من سنة 1965م • وانتشرت سمعة أبى الليث هذا بكونه هو القائم ببناء المسجد حتى صار اسمه مثلا يضرب ، وكلمة سائرة فى الاوساط البونية ـ العنابية ـ فانهم يقولون : (البنية لابى الليث ، والشنعة لابى مروان) وهم يقصدون بالشنعة الشهرة والسمعة ، حيث لا يعرف هذا المسجد الجامع فى الوسط العنابى الا بجامع أبى مروان •

وليس لدينا من المصادر التاريخية التى تعرضت لتاريخ بنائه سوى ما حققه علماء الآثار بالنظر الى مقارنته بغيره من المؤسسات الاسلامية وما دل عليه طرازه وشكله وهندسته المعمارية ووضعية ما احتوى عليه من السوارى الرومانية المجلوبة اليـــه والمستعملة فى تشييده وكيفية تجمعها حول محرابه وتحديد أقواسه وعقوده وحناياه وهيكل أبوابه وزخرفة قبته المفقودة اليوم ونقش بعض سواريه ، وتصميم الدهاليز

الموجودة تحت المسجد الى غير ذلك ، فنظروا الى هذا كله واستنتجوا نتيجتهم العلمية التى تقضى بعودة المسجد فى تاريخه الى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، أى الى تقاليد فن الهندسة المعمارية أيام دولة بنى الاغلب وبنى عبيد وبنى زيرى الصنهاجيين أو آخر ألقرن الرابع وأوائل الخامس الهجريين .

ومما يؤكد لنا هذا ما جاء فى تقييد كتبه أحد علماء بونة وهو الشيخ أحمد بن قاسم البونى المتوفى سنة 1139هـ/1726م ، فانه ذكر فى تقييده تاريخ انشاء المسجد فقال : انه بنى على يد أبى الليث سنة 425هـ/1033م ، وكانت وفاة أبى الليث سنة 450هـ/1058م ، أى بعد ربع قرن من بناء المسجد ، وهذا التاريخ قريب جدا من تاريخ فتح عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبى عامر لمدينة فاس باسم الدولة الاموية بالاندلس وما أحدثه هذا من تغيير فى قبة العنزة بالقرويين كما تقدمت الاشارة اليه ، فمن المحتمل ان يكون انشاء قبة جامع سيدى بومروان وقبة العنزة من فصيلة واحدة ، وفى عصر واحد ، وكذلك مثلهما قبة بين القهاوى - الباقية الى اليوم بسوسة ، ولكن لم يبلغها عن المروانيين انهم تقدموا الى الجانب الشرقى من هذا الشمال الافريقى حتى نستطيع أن نجزم بأن قبة بونة وقبة سوسة هما أثر من آثار دولة الامويين أو المروانيين بالمغرب ، ثم لا ندرى ما كانت صلاحية قبة (بين القهاوى) بسوسة ، بسبب ما طرأ على ما حولها من الانشاء والتعمير فتغير الوضع وحال ذلك بيننا وبين معرفة الحقيقة من انشاء هذه القبة ؟ .

بقيت لنا ملاحظة واحدة حول تاريخ المسجد الذى نقل على الشيخ أحمد بن قاسم البونى حيث جعله سنة 425هـ/1033م ، والحالة ان التاريخ يحدثنا عن هذه السنة نفسها بأنه وقع فيها اعتداء عظيم على مدينة بونة من طرف الجنويز وأحلافهم أهل بيزا الايطاليين فوقع فى المدينة تحطيم وتخريب كبير ، فكيف يمكن الجمع بين البناء والتشييد مع التحطيم والتخريب ؟ .

أقول لا مانع - ان صح هذا التاريخ - من أن يكون هذا التخريب حدث فى أول السنة أو فى وسطها ثم أعقبه تشييد الجامع المذكور ؟ ... ولا سيما انه لم يرد ضبط ذلك بالاشهر ، لا فى التخريب ولا فى التحطيم ولا فى التشييد ، وكذلك نستطيع

أن نفهم هذا من قول المؤرخين ما سورت المدينة الا بعد الخمسين وأربعمائة للهجرة ، فهل هذا يكفي للتحقيق من هذا التاريخ في بناء المسجد ؟ .

ثم من هو هذا بو مروان أو سيدى بو مروان الذى ينسب اليه هذا المسجد واشتهر به ؟ لقد عرفنا فيما مر بنا من الحديث وان بناء هذا المسجد وتشييده كان على يد ذلك الرجل العظيم أبو الليث البونى سنة 425هـ/1033م ، ولكن اسمه كما رأينا انغمر واختفى أمام شهرة أبى مروان ، حتى أصبح ذلك مثلا يضرب بين الناس ، فانهم يقولون : « البنية لابى الليث ، والشنعة لابى مروان » فمن هو بو مروان ؟

بو مروان هذا ذكرته كتب التراجم بوصفه رجل علم وصلاح وعقل ولسان وحفظ وبيان ، فهو بو مروان عبد الملك البونى ، ومنهم من سماه أبا عبد الملك مروان بن محمد نشأ بالاندلس فسكن قرطبة واشتغل بعلوم الشريعة وتخرج على يده جمع من العلماء ، وانتقل الى بونة وعمر هذا المسجد بعلمه ودروسه ، ولما توفى دفن برباط المسجد المتصل به ، وكانت وفاته رحمه الله سنة 439هـ/1047م ، وكان من بين مؤلفاته التى كان معول الناس عليها شرحه على موطأ الامام مالك بن أنس ، وقد ترجمنا له فى كتابنا : تاريخ الجزائر العام بما فيه الكفاية . وشكـرا .

عنابة
في نظر الرحالين الألمان

د · ابو العيد دودو
معهد اللغة والأدب العربي
جامعة الجزائر

زار بعض الرحالين الالمان مدينة عنابة كما زاروا غيرها من المدن الجزائرية ، وتحدثوا عنها في فترات تاريخية متقاربة · ولكن نظرتهم اليها كانت متفاوتة الى حد ما · فقد اكتفى بعضهم بتقديم صورة وصفية لها ، مثل بوكلر موسكار ، بينما حاول غيره تقديم وصف شامل لها جغرافيا وتاريخيا · وهنا فريق ثالث اهتم بماضيها التاريخي أكثر من اهتمامه بحاضرها ، لانه لم يجد فيها ما يثير انتباهه ·

ويبدو لي ـ حتى هذه اللحظة على الاقل ـ أن الرحالة الالماني موريتس فاغنر (1813 ـ 1887) أول من تحدث عنها باسهاب في كتابه « رحالات في ولاية الجزائر في سنوات 1836 ، 1837 و 1838 » الذي أصدره سنة 1841 ، وتحدث فيه عن مناطق مختلفة من الجزائر · وكان فاغنر قد زار عنابة عام 1837 ، وأقام بها حوالي سبعة أشهر، أي من 25 ماي الى نهاية شهر ديسمبر من السنة نفسها ، ووصلها على متن باخرة ، ومن

ثم بدأ وصفه لها فيها ، فقد حليت انتباهه القصبة ، التى عرفت ـ على حد تعبيره ـ محنا كثيرة منذ سنة 1832 ، حين ارسلت منها طلقة مدفع تحية للسفينة التى كانت فى تلك اللحظة تقترب من الميناء ، أو بعبارة أخرى تقترب من خليج المدينة ، لان عنابة لم يكن لها ميناء ، يحمى السفن القادمة اليها من سطوة الرياح والعواصف العاتية ۰

وهذا الوضع يحمل الرحالة على المقارنة بين ميناء عنابة وبقية الموانىء الاخرى فى الشواطىء الجزائرية ، فيذكر انه يعتبر ـ بعد ميناء مستغانم ـ أردأ الموانىء الجزائرية ، فكثيرا ما تتعرض السفن فيه للغرق ، وهو ما يمنع المدينة من أن تصبح مركزا تجاريا هاما (233/1) ۰

ويتحدث فاغنر (234/1) عن الاثر الذى يتركه منظر عنابة فى النفس ، فالمناظــر المتنوعة من جبال عالية ، وصخور جرداء ، وتلال مخضرة ، وسهول شاسعة ، ووديان واسعة ، كل ذلك يترك فى النفس أثرا لذيذا مبهما ۰ أما المدينة نفسها ، مدينة العناب ، فذات طابع ريفى هادىء ۰

وينتقل بعد ذلك الى الحديث عن سكانها فى تلك الفترة ، فيشير الى ان عدد الاوروبيين قد بلغ فى النصف الاول من سنة 1839 (وهذا يدل على أن فاغنر كان يتتبع اخبــار عنابة حتى بعد مغادرته لها بمدة طويلة) 3111 ، من بينهم 1120 من الفرنسيين ، و1209 من المالطاليين ، و 524 من الايطاليين ، و 121 من الاسبانيين ، و 122 من الالمانيين ، و5 من اليونانيين ، هذا بينما لا يزيد عدد السكان من المواطنين عن 1500 ، ثلثهم من العرب ، والقسم الباقى من الاتراك والكراغلة والزنوج وغيرهم ۰

ويحمل فاغنر ابن عيسى ، قائد قوات أحمد باى ، مسؤولية قلة السكان هذه ، ويتهمه بانه قد هدم القسم الاكبر من مدينة عنابة سنة 1832 ، وأرغم سكانها ، الــذين كان عددهم يبلغ حوالى 6000 نسمة ، على مغادرتها والهجرة الى مدن أخرى ۰ والمدينة مقسمة الى حيين ، حى أسفل كبير ، يقع فى السهل ، وشوارعه واسعة ومضاءة نسبيا ، ولكنها ليست نظيفة ولا هى متناسقة ۰ وتوجد بالميدان الكبير دور بنيت على الطريقة الفرنسية، وحولها أشجار باسقة ، ومنظرها جميل ، الا أن عيبها الوحيد يتمثل فى أن جدرانهـــا

تنهار فى مواسم الامطار • ونظرا الى أن من ينزل بها لا ينوى الاستقرار فيها لمدة طويلة ـ فالمناخ غير صحى من جهة،وهى لا تقدم شيئا لمن لا يحب الصيد والمناظر الجميلة من جهة أخرى ـ فقد أقيمت تلك الدور بسرعة وروعى فيها قلة التكاليف والجمال الظاهرى ، دون أى اعتبار لما قد ينجم عن ذلك من اخطار • واذا استثنى المرء المالطيين ، فان الجميـــع ينوون الخروج منها بعد جمع نصيب من المال ، وبيعها لمن يرغب فى الاقامة بعنابة باثمان مرتفعـــة •

اما الحى الاعلى فهو يشبه ما هو موجود فى مدينة الجزائر، الا انه دونه علوا وانحدارا، ويحتل أحد التلال ، ولا يزال يحتفظ بمظهره العربى ، ودوره أوطأ مـن دور مدينـــة الجزائر ، وتكاد تكون كلها أرضية ، ولا تحتوى على ما تحتوى عليه دور مدينة الجزائر من اعمدة ونقوش وزخارف بديعة • ويصف فاغنر (235/1) منزل القائد العسكرى فى عنابة ، بأنه دون فنادق الجزائر ومطاعمها حجما وراحة ، فليس به سوى بهو واحد فى الجانب البحرى • اما مسكن المقدم يوسف الشهير ، الذى كان قد انتقل فى تلك الفترة الى وهران ليقود فرقة الصبائحية ، فلم يكن يخلو من فخامة شرقية ، فهو واســـع الى حد ما ، وليس عاليا ، ولا له مظهر خارجى جميل •

ولا ينسى فاغنر أن يتحدث عن الجانب الدينى لمدينة عنابة ، فيعترف بأنها لم يعد بها من المساجد ما يجلب الانتباه ، فقد حول أكبر مسجد بها الى كنيسة • وبالمقابل ليس فيها من البنايات الفرنسية الجديدة غير المستشفى الذى تتسع بنايته لاكثر من ألف مـــريض •

وعنابة ليس لها غير بابين ، باب قسنطينة ، الذى يؤدى الى معسكر الدريعان ، وباب دامريمون الذى يفضى الى القصبة • وهى قلعة شامخة تقع فوق تل منعزل ، وتسيطر على المنطقة كلها ، ومصير المدينة بيد من يتمكن من احتلالها •

وفى جزء آخر يتحدث فاغنر عن تاريخ عنابة الحديث ، فيذكر (165/3) أن الجنرال بورمون استولى عليها فى بداية الاحتلال ، ودافع عنها ضد هجمات العرب ، ثم أمـــر باخلائها • وبعد خروج قواتـه منها احتلتها القبائل العربية ، وعاقبت السكان الذين

سمحوا للكفار بالاقامة فيها · وكان حاكمها فى ذلك الحين تركى يدعى سيدى أحمد ، يقيم فى القصبة ويدافع عن المدينة مع بضع مئات من مواطنيه · وكان هذا الشيخ التركى قد بعث برسالة الى الجنرال بيرتزين ، طلب منه فيها أن يساعده ويرسل له الجنود والذخيرة ، ولكنه اشترط عليه أن تكون القوات المساعدة من الاهالى فقط · فأرسل اليه الجنرال فرقة تتكون من 125 زواويا مسلما ، ولكنه أسند قيادتها الى ضابطين فرنسيين ، هما هودير وبيغو · فاستاء سيدى أحمد لوجود ضابطين فرنسيين لم يطلب حضورهما ، ولذلك سرعان ما وقع خلاف بينه وبين هودير ، تطور الى عداء صريح ، كانت نتيجته ان استولى هودير على القصبة ، وبذلك أصبحت المدينة تحت سيطرته (178/3) ·

وبما أن طبيعة التركى تميل الى التمرد والعصيان ، فقد ثار الاتراك على الضابط الفرنسى ، وفى مقدمتهم ابراهيم ، باى قسنطينة السابق ، وكان هذا المكار الغادر قد كسب ثقة هودير ، فطلب منه مبلغا من المال ، رشا به من بقى من الاتراك ، فاستولى بمساعدتهم على القصبة أثناء وجود هودير بالمدينة · وحين ظهر الضابطان الفرنسيان أمام القصبة ، بصحبة من بقى على ولائه لهما من الزواوة ، أطلقوا عليهم نيران بنادقهم ، فرجعوا من حيث أتوا ، ودخلوا المدينة · فأخبر سكانها الضابط هودير بأنه لا يستطيع أن يطمئن على حياته بينهم لمدة طويلة ، فالعرب ينوون القيام بمهاجمة المدينة طامعين فى وقوف بعض سكانها الى جانبهم · وعندئذ أسرع الضباط الفرنسيون الى الميناء ليصعدوا الى احدى سفنهم ، الا أن العرب كانوا قد حطموا الابواب فى تلك اللحظة نفسها ، ودخلوا المدينة ، فانضم اليهم عدد من سكانها ، فنشبت بينهم معركة فى الشارع ، قتل خلالها النقيب بيغو · واتجه من بقى من الفرنسيين والزواوة الى القوارب ، فقتل بعضهم أثناء الصعود اليها ومن بينهم القائد هودير ، الذى تلقى رصاصة فى صدره ، وأسر عدد من جنود البحرية الفرنسية (179/3) ·

وحين سمع الجنرال بيرتزين لهذه الحوادث الدامية ، أرسل الى عنابة القائد دو فيغى وتحت امرته 250 زواويا ، موزعين على سفينتين ، فاستطاع أن يسترد الاسرى ، ولكنه عجز عن القيام باى عمل حربى ضد القصبة الحصينة فعاد الى الجزائر خائبا ·

ورغم حصانة القصبة استطاع الفرنسيون احتلالها سنة 1832 ، وقد تم لهم ذلك بطريقة سهلة ، الا أنها تنم عن شجاعة نادرة ، اذ توجه اليها رجلان جريئان ، لم يصحبا معهما أكثر من 30 ملاحا ، واستطاعا أخذها رغم وجود الحامية التركية بها ، ورغم وجود خليفة باى قسنطينة بجيشه فى سفح الجبل • وكانت القصبة فى ذلك الحين بيد ابراهيم، وهو تركى طموح مغرور ، كان يود أن يحتفظ بالقصبة لنفسه ، ويقاوم ابن عيسى من جهة ، ومطامح الضابطين الفرنسيين ، يوسف ودار مندى ، اللذين كانا قد وصلا الى مدينة عنابة بسفينة حربية صغيرة من غير قوات برية (3/236) •

وعندما هم ابن عيسى بمهاجمة القصبة ، قرر الضابطان الفرنسيان أن يدخلا القصبة ، مع البحارة الثلاثين المسلحين ، طوعا أو كرها ، ويشاركا فى الدفاع عنها • ولكن ابراهيم التركى ، الذى تصور ان قيادته العامة سوف يعرضها للخطر وجود فرقة فرنسية ، منعهما من الدخول • وحينئذ نشبت معركة بين رجال الحامية نفسها ، فاغتنم يوسف تلك الفرصة ، واستمال عددا منهم ، فأيدوه ، واذ ذاك وجد ابراهيم التركى نفسه مرغما على مغادرة المدينة مع عدد من أتباعه ، الامر الذى سهل على يوسف ودار مندى والملاحين الثلاثين احتلال القصبة والسيطرة عليها • ولكن الاتراك دبروا مؤامرة ضدهم ، ولولا يقظة يوسف وشجاعته التى مكنته من القضاء على رؤوس المؤامرة لقتلوا جميعا ولفقدوا قلعة القصبة •

وبعد حين استطاعت هذه الفرقة نفسها أن تحتل المدينة أيضا ، ذلك أن ابن عيسى تخلى عن عنابة حين تبين له استحالة الاستيلاء على القصبة التى تدافع عنها حامية فرنسية بمجرد أن وقعت قربه قذائف فرنسية أطلقتها حامية القلعة • وقامت بعض القبائل العربية ، بتحريض من ابراهيم التركى ، بمهاجمة مدينة عنابة مرات عديدة ، ولكنها كانت ترد دائما على أعقابها • ولما استتب الامر ليوسف نظم فرقته التركية ، وقام بعدة غزوات فى نواحى المدينة ، فهاجم بعض القرى المجاورة ، ويخضع سكانها • وبعد ذلك حلت بالمدينة حامية فرنسية كبيرة ، وضعت تحت قيادة الجنرال مونك دوزير ، الذى استطاع أن يستميل بحلمه وحكمته عددا من القبائل القريبة من عنابة (3/237،1/198) •

ويصف فاغنر الحياة فى عنابة بعد الاحتلال وأثناء الاستعداد للقيام بحملة قسنطينة الثانية ، بأنها هادئة ورتيبة الى حد ما ، لا يمكن مقارنتها بالحياة فى الجزائر بوجه من الوجوه ، فقد كانت مليئة بالجنود والسواح والاجانب والمغاربين ، مما جعل الحياة فيها أغلى من الحياة فى العاصمة البريطانية ٠

* * *

واذا كان فاغنر قد اهتم بتاريخ عنابة ، وروى ما وصل الى سمعه من أحداثها فى ذلك الحين ، فان مواطنه هاينريش فون مالتسان (1826 ـ 1874) ، الذى زار عنـــابة فى خمسينيات القرن الماضى ، لم يهتم فى كتابه « ثلاث سنوات فى شمال غربى افريقيا » الذى نشره عام 1863 ، بهذا الجانب اطلاقا ٠ فبعد حديث قصير عن موانئها الثلاثة ، التى اعتبرها غير صالحة للسفن ، قال عن المدينة (2/259) انها لا تحتوى على شىء جدير بأن يثير اهتمامه ، فهى تكاد تكون مدينة أوروبية محضة ، ولذلك تركها وخرج يبحث عن عنابة القديمة ٠

وبعد أن يناقش من كتب عنها من المؤلفين فى موقعها ، يذكر ان اسم هيبو أو هيبونا مشتق من الكلمة الفينيقية ايبو ، التى تعنى « الجمال » أو « الفخامة » ، وهناك فى نظره (2/261) مدن كثيرة فى افريقيا واسبانيا وفلسطين ، كان لها نفس الاسم ، منها مدينة يوبو ، أو يافا ، تعود الى الاصل نفسه ، وتوجد بافريقيا نفسها ثـــلاث مدن ، اثنتان بالجزائر وواحدة بتونس حسب ما ذكره مؤرخو الرومان ٠ وبناء على مدلول الكلمـــة الفينيقية فان هيبو تعنى المدينة الجميلة أو الفاخرة ٠

وكانت عنابة احدى عواصم المملكة النوميدية منذ الحـرب الفينيقية الاولى الى أن احتلها الرومان وضموا المملكة كلها اليهم ، وقد وصفها الشاعر الرومانى سيليوس ايتالكوس بأنها كانت محبوبة لدى الملوك القدامى ٠ ومع ذلك فان مدينة عنابة لم تزدهر الا فيما بين القرنين الثانى والرابع ، حيث نشطت فيها الحركة التجارية ، وهذا ما يفسر كثرة عدد اليهود الذين كانوا يقيمون بها فى العصور المسيحية الاولى ٠ فكانت عنابة تمد روما بأشياء كثيرة ، من عاج ، وذهب ، وخشب ومختلف أنواع البهارات ، وكانت تمتاز أيضا بصناعاتها الخشبية (2/226) التى كانت تباع بأثمان مرتفعة جدا ٠ وقد

لعبت عنابة دورا كبيرا فى تاريخ المسيحية ، خاصة وان القديس أغوستينوس كـــان يعيش بها ، وتوفى اثناء حصار الفندال للمدينة • واعترف مالتسان بأنه لم يعثر على آثار ذات أهمية بعنابة القديمة ، فقد دمرها الفندال تدميرا كاملا ، ولم يتركوا منهـا غير الاسقفية ومنزل قديسهـا •

هذه خلاصة ما كتبه هذان الرحالان الالمانيان عن عنابة ، وقد اقتصرت عليهما لعدم وجود مصادر أخرى تحت يدى فى هذه الآونة ، وانى لارجو أن تتـــاح لى الفرصة فى المستقبل لتقديم معلومات أخرى عن الحياة الاجتماعية والسياسية بمدينة عنابة خلال النصف الاول من القرن الماضى •

جوانب من

تاريخ بونة الثقافي والسّياسي عبر العصور

المهدي البوعبدلي
عضو المجلس الاسلامي الاعلى
ـ الجزائر ـ

اشتهرت هذه المدينة ابتداء من القرن الرابع قبل الميلاد ، في عهد المملكتين البربريتين اللتين تقاسمتا بلاد الجزائر الحالية ، وقد عرفتا في التاريخ باسم ماسيسيل (Massessyles) وماسيل (Massyles)

فالاولى كانت تطلق على المنطقة الغربية وكانت عاصمتها مدينة سيفًا التي تبعد عن مرسى أرشقون، حيث مصب نهر تافنا في البحر الابيض المتوسط (تلمسان) والثانية كانت عاصمتها سيرتا مدينة قسنطينة الحالية ، وكثيرا ما كانت تتخذ بونة مقرا لملوك هذا القطاع ، ولهذا احتفظت بونة من ذلك العهد بمركزها الديني حيث اتخذتها الكنيسة المسيحية مركزا ثانيا بعد مركز قرطاجنة ٠ (1)

(1) L'Algérie dans l'antiquité, par Mahfoud Kaddache.
طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ٠

كانت بونة اذ ذاك تدعى بهيبو ريجيوس (Hippo Régius) وكان الملك البربرى الذى تولى عليها قاية والد ماسنيسا المشهور بحروبه مع القرطاجنيين .

ان موضوع دراستنا الذى ركزته عليه هو العهد الاسلامى ، وانما تعرضت لفترة ما قبل الاسلام كتمهيد ، حيث ان تاريخها الاسلامى مرتبط به ، اذ اشتهرت من أواخر القرن الرابع الميلادى باسقفيتها التى لعبت دورا ملموسا فى تطور الديانة المسيحية العالمية ، فقد اضفى عليها احد اساقفتها شهرة عالمية ، ويعد هذا الاسقف أعظم شخصية علمية ، تأثرت الحياة الفكرية المسيحية بشخصيته الى زماننا هذا ، اذ لا زالت تآليفه من أهم المراجع فى القضايا الدقيقة ؛ كان هذا الاسقف من مواليد سوق أهراس وبالضبط مداوروش ، وتثقف ثقافة عميقة بمسقط رأسه ، ثم بقرطاج وروما ، فاتقن عدة لغات ، منها الفنيقية واليونانية والبربرية واللاتينية وانتشرت تآليفه العقائدية فى الاوساط المسيحية بروما وقرطاج ، ومعظم تآليفه ، كتبها بكنيسة بونة ، التى كان يشغل فيها اذ ذاك رتبة مساعد لاسقفها الهرم ، ثم خاض غمار حروب الخلافات المذهبية التى كانت تتقاسم مسيحى ذلك العهد ، فاظهر عبقريته وقوة حججه ، حتى عد شخصية فذة ، لم تنجب الكنيسة المسيحية شخصية تضاهيه ، ولهذا كله ، اشتهرت بونة (هيبون) باسم اسقفها حتى بعد مضى قرون من الفتوحات الاسلامية ، ومن ذلك ان الجغرافى الاندلسى الشهير ، أبو عبيد البكرى عندما عرفها فى منتصف القرن الخامس الهجرى قال : « مدينة بونة أولية ، وهى مدينة أوغستين العالم بدين النصرانية ... الخ » .

فأوغستين هو اسم سانت أوغستين (Saint Augustin)

افتتح المسلمون بونة (2) على اصح الاقوال سنة 78 هـ . فى أيام حسان بن النعمان وكان سكانها الاصليون اذ ذاك ينتمون الى قبائل أوربة ومصمودة ، ونفزاوة وولهاصة ، وقد ملكها بنو الاغلب ثم الفاطميون ، الا انها كانت مدينة بسيطة كما عرفها ابن حوقل فى منتصف القرن الرابع فى كتابه « المسالك والممالك » فقال : « مدينة بونة مدينة مقتدرة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ، وهى على نحر البحر ، ولها اسواق حسنة ، وتجارة

---

(2) دراسة محمد بن شنب نشرها فى التقويم الجزائرى لسنة 1331هـ/1913م.

مقصودة ، وأرباح متوسطة ، وفيها خصب ورخص موصوف . وفواكه كثيرة وساتين قريبة وأكثر فاكهتها من باديتها ٠٠٠ وبها معادن حديد كثيرة ويزرع بها الكتان ٠٠٠ »

ثم يتعرض ابن حوقل الى مركزها السياسى فيقول : « ٠٠٠ ولها عامل قائم بنفسه ومعه من البربر عسكر لا يزول كالرابطة ، وبها وجوه من التجارة ، كالصوف ، والاغنام، وبها من العسل والخيرات ما يزيد على من داناهم من البلاد المجاورة لهم وأكثر سوائمهم البقر ، ولهم اقليم واسع ٠٠٠ الخ » ٠

فتعريف ابن حوقل صريح بان بونة التى تداول على حكمها اذ ذاك بنو الاغلب ، ثم الفاطميون ، كانت الى أواخر القرن الرابع بلدة متوسطة ٠

وقد عرفها بعد ابن حوقل ، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى (375 هـ/985م) فى كتابه « احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم » فقال : « ٠٠٠ وبونة بحرية مسورة ، بها معدن حديد ، شربهم من آبار » ٠

وقد عرفها ، بعد تعريفه بمرسى الخزر مباشرة فقال : « ٠٠٠ ومرسى الخزر مدينة فى جزيرة على البحر يدخل اليها من موضع واحد ومنها يرتفع المرجان لا معدن له غيرها ، ولا يخرج الا من بحرها » ٠

تمصرت بونة وازدهرت فى عهد الملك المعز بن باديس ، فى أوائل القرن الخامس لما أقطعها الى عم أبيه ، زاوى بن زيرى بن مناد، بعد وروده عليه من الاندلس حوالى 410 هـ٠

هاجر زاوى كما هو مشهور من الجزائر الى الاندلس بعدما شارك فى تمرد أخيه ماكسن بن زيرى على قريبهم المنصور بن بلقين ، الذى خلف والده بلقين ، وقد تصدى لقمع الثوار حماد بن بلقين ، فقتل ماكسن ، ونجا زاوى من القتل ، الا انه أبعد الى الاندلس صحبة ابنى أخيه ماكسن ، وقد قام بدور خلد ذكره فى الاندلس وفى العالم الاسلامى ، حيث تزعم حركة الجيش البربرى عند سقوط الدولة الاموية بالاندلس ، وتولى حكم ما عرف بمملكة غرناطة التى كان أول مؤسسيها وبعد ما بلغه موت ابن أخيه المنصور بن بلقين ، اختار الرجوع الى البلاد بعد ان عين ابنى أخيه ماكسن وهما حبوس وحباسة على حكم غرناطة ، وبعد وصوله الى افريقية ، تلقاه المعز بن باديس بحفاوة

بالغة ، تعرض لها كل مؤرخي تلك الفترة ، ولا زال المؤرخون المعاصرون ، يستدلون بها على ما وصلت اليه الحضارة الزيرية اذ ذاك ، قيل ان المعز بن باديس اقطع لزاوى مدينة بونة التى اختارها للراحة والاستجمام ، ومن ذلك العهد صارت تعرف ببونة زاوى كما عرفها البكرى ، ذلك التعريف الذى لا زال مرجع الباحثين فى تاريخ بونة من مسلمين وأجانب ، وهذا تعريف البكرى لبونة بتمامه قال : « مدينة بونة أولية ، وهى مدينة أوغستين العالم بدين النصرانية ، وهى على ساحل البحر فى نشز من الارض ، منبع مطل على مدينة سبوس ، وتسمى اليوم مدينة زاوى ، وبينها وبين المدينة الحديثة ، نحو ثلاثة أميال ، ولها مساجد واسواق ، وحمام وهى ذات ثمر وزرع ، وقد سورت بونة الحديثة بعد الخمسين وأربعمائة ، وفى بونة الحديثة بئر على ضفة البحر ، منقورة فى حجر صلد ، يسمى بئر النثرة ، منها يشرب أكثر أهلها ، وبغربى هذه المدينة ماء سائح يسقى بساتين ، وهو مستنزه حسن ، ويطل على بونة جبل ادوغ ، وهو كثير الثلج والبرد ، ومن العجائب ان فيه مسجدا ، لا يزال عليه شيء من ذلك الثلج ، وان عم الجبل كله ومدينة بونة برية ،بحرية كثيرة اللحم واللبن ، والحوت ، والعسل ، وأكثر لحمانهم البقر ، الا انها يصح بها السودان ، ويسقم البيضان ، وحول بونة قبائل كثيرة من البربر ، مصمودة ، وأوربة ، وغيرهما ، وأكثر تجارها اندلسيون ، ومستخلص بونة غير جباية بيت المال عشرون الف دينار » ٠ اهـ

فمن هذا التعريف المسهب ، يتبين ان بونة زاوى ، التى وصفها البكرى بانها فى سفح هيبون ، وعرفت بسيبوس ، هى التى قال عنها ، بانها تحتوى على المساجد والمحلات التجارية والحمامات ، ثم هناك المدينة الحديثة ، التى قال البكرى ان بينها وبين مدينة زاوى ثلاثة أميال ، وهى المدينة الحالية ، التى لا زالت باقية ، اذ الاولى هيبون احتفظت بآثارها المسيحية ، والثانية مدينة زاوى أو سيبوس اندثرت ، وانما اكتشفت بعض آثارها فى عهد الاحتلال ، والثالثة التى اطلق عليها البكرى فى تعريفه بونة الحديثة ، هى التى كتب لها الخلود ٠

لعبت بونة ادوارا فى التاريخ ، اذ كانت مرفأ للاساطيل التجارية والحربية بفضل موقعها الجغرافى ، اذ هى اقرب شواطىء افريقيا لكاقليارى (Cagliari) بساردينيا

التى كانت مركزا لاساطيل جنوب ايطاليا وغيرها من اساطيل المسيحيين ، وهذه الاساطيل كانت متصلة بها فى أزمنة السلم والحرب ٠

كان المعز بن باديس الذى دامت دولته حوالى نصف قرن أى من 406 الى 453 هـ ٠ على اصح الروايات ، بلغت مملكته أوج الرقى ، والعظمة ، والازدهار حتى ان ابن خلدون المشهور بتحفظه ، وصف هذه المملكة فى عهد المعز بن باديس بقوله : « كان اضخم ملك عرف للبربر بافريقيا ، واترفه وابذخه ٠٠٠ الخ » وبطبيعة الحال كانت بونة اذ ذاك ، من المدن الرئيسية لمملكة المعز ، التى لا شك انه اعتنى بها عناية خاصة ، ترضية لعم والديه زاوى ، الذى زيادة على أواصر القربى نال شهرة البطولة والمجد فى الاندلس ، بقيت بونة تابعة لبنى زيرى عندما تقاسموا مملكتهم مع ابناء عمهم بنى حماد ٠ حوالى سنة 408 هـ/1017 م ٠

كان المعز بن باديس كما وصفه الكاتب الشهير أمية بن أبى الصلت الدانى الاندلسى الذى قال فيه : « ولم يكن احد فى زمانه أشد بأسا فى الملاحم ، ولا اطول يد بالمكارم ، ولا اغنى بلسان العرب ، ولا احنى على الادب ٠٠٠ وكان متوقد الذهن ، حاضر الخاطر ، حاذقا بطرايق الالحان عالما بالمنثور والمنظور من الكلام ٠٠٠ » (3) ٠

وقال فيه ابن خلدون : « كان رقيقا رفيقا ، سمحا جوادا ، محبا للعلم وحامليه ، متجنبا لسفك الدماء ، حليما حسن الصحبة والعشرة، لين الجانب للاوداء ، خشنه للاعداء، ملك من برقة الى فاس ، وسكن الثوار بايناس منه وايساس . وكان يخضع لاحكام الشرع ٠٠٠ الخ » ٠ (4)

ولهذا نجد بونة ازدهرت فى عهده وتدفق عليها سيل من علماء البلاد والاندلس ، اذ صادف عمرانها خراب عاصمة القيروان ، التى خلفت مكانتها ، قلعة بنى حماد ، ثم بجاية ، والمهدية ، كان من جملة اللاجئين الاندلسيين الذين استوطنوا بونة أبو عبد الملك مروان بن على الاسدى القطان

(3) « الورقات » ج 2 . لحسن حسنى عبد الوهاب التونسى ٠

(4) من دراسة لعبد العزيز الراجكوتى السلفى الاستاذ بالكلية الشرقية فى لاهور (باكستان) نشر مطبعة الاستقامة بمصر ٠

القرطبى المعروف بالبونى ، ذلك العالم الذى اشتهرت به بونة الحديثة ، كما اشتهـرت بونــة العتيقــة (هيبون) بسانت أوغستين (Saint Augustin)اشتهر أبو عبــد الملـك مروان بعلمه وتآليفه ومساهمته فى ثورة الفقهاء التى كان جل افرادها بافريقية ، زملاءه، خريجى مدرسة أبى الحسن القابسى ، تلك الثورة التى خصصت بعدة تآليف ولا زال معينها لم ينضب بعد ·

اشتهرت بونة أيضا فى تاريخها المبكر ، بانها من الثغور التى انشئت فيها الربطة اذ كان ساحلها معرضا للغارات البحرية ، التى كان يشنها عليها المسيحيون من جنوبى ايطاليا ، وسردانية ، ثم صقلية ولهذا لا نستغرب وجود المسجد الذى تحدث عنه البكرى، وقال انه يوجد فى قمة جبل ايدوغ ·

ورباطات الثغور كانت ملازمة للمساجد ، ونفس مسجد أبى مروان ، كان له رباط من أروع الرباطات فى الفن المعمارى والحربى ، وقد اهتم بدراسته كثير من علماء الآثار، وصلنا منها دراسة علمية قيمة لجروج مارسى (Georges Marçais) صاحب التآليف المشهورة فى الفن المعمارى الاسلامى بافريقية عامة ، وعهد بنى زيــرى ، وآثار المعـز ابن باديس بالخصوص ، خصص مارسى دراسة عنونها بقوله : « جامع سيدى بومروان ببونة » · (5)

فبعد ان اعطى لمحة عن المسجد الذى هدم منه الكثير ، استعرض نقل وصف كثير من الباحثين ، الذين امكنتهم مشاهدته قبل تخريبه ، فكان من بين من ذكرهم ، الرحالة الحسن الوزان المعروف بليون الافريقى (Léon l'Africain) الذى زار بونة فى أوائل القرن العاشر الهجرى ، ثم الكاتب بيصونال (Peyssonnel) الذى زارها سنة 1725 ، ثـم الكاتبان ويلد ، ولصور ، اللذان زاراها سنة 1835 ، وأخيرا الكاتب الاثرى بربروقجير (Berbrugger) ، الذى وصف المسجد والرباط سنة 1843 ، وكل هؤلاء الباحثين نشروا صورا تدل على عظمتهما ، حتى ان بيصونال (Peyssonnel) قال : « ان احسن مبنى ببونة هو مسجد ابى مروان » وختم مارسى مقاله بعد ان وصف بتدقيق وتفصيل ما تبقى

(5) « Mélanges William Marçais » Edit. Maisonneuve ; Paris 1950.

من آثاره ، وختم حديثه عنه بقوله : « ان هذا المسجد كان من افخر المباني التي احتفظت بها الجزائر من ماضيها المجيد، اذ هو عبارة عن مسجد للعبادة، ورباط للدفاع الوطني» .

ثم واصل مارسي حديثه عن المسجد والرباط فقال :

« ان الوصف الفني للمسجد يمكننا من تحديد تاريخ بنائه ، ولهذا فان ما ذكره أحمد (6) البوني المؤرخ المحلي يتفق مع الواقع ، ففي تاليفه « الدرة المكنونة » قال : « ان بناء المسجد وقع سنة 425هـ/1033 م . بناه رجل صالح يدعى أبو الليث (7) المتوفى سنة 450هـ/1058 م .

ثم واصل مارسي حديثه فقال :

« اما سيدي أبو مروان ، الذي لا زال المسجد يحمل اسمه ، فقد ورد على بونة سنة 489 هـ/1087 م . وقد توفي أبو مروان (8) سنة 505 هـ/ 1111 م .

ثم ذكر مارسي ان هذه الفترة من تاريخ البناء تتفق مع مدة حكم الملك المعز بن باديس (1016 ـ 1062م) ثم استرسل في حديثه فقال : « ... ذكر ابن خلدون ان البربر كونوا مملكة في ذلك العهد ، لم ير لها مثيل في السعة والغنى ، وقد توقفت عجلة تاريخ هذا الازدهار بعد عشرين سنة مع الحملة الهلالية » ثم قال : «ان الخلافات وحروب الزيريين ملوك القيروان مع بني عمهم بني حماد ملوك القلعة وبجاية ، انتهت بالاتفاق الذي وقع سنة 1017 م . (408هـ) ذلك الاتفاق الذي اعترف للحماديين بحكم الناحية الغربية للمملكة ، بقيت بونة اذ ذاك تابعة لبني زيري أي المعز وبنيه من بعده » . اهـ

والحقيقة ان حكم بني زيري لم يطل على بونة ، ففي عهد المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي ، لما ثار عليه عمه بالبار ولي قسنطينة ثم عزله المنصور ، وعين مكانه قريبه ، أبا يكنى بن محمد بن القائد بن حماد ، واضاف اليه بونة (وهذا دليل على ان بونة كانت تحت حكم الحماديين اذ ذاك) ثم ثار الوالي الجديد ، أي أبو يكنى والي بونة على المنصور ،

(6) أحمد بن قاسم ساسي البوني (1063 ـ 1139 هـ) .

(7) ذكره أحمد ساسي في قائمة علماء بونة وهو دفينها «الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة » .

(8) وقد غلط مارسي حيث ان أبا مروان ولد سنة 405 هـ ، وتوفي ببونة سنة 440 أو قبلها بقليل (الصلة لابن بشكوال) .

حوالى سنة 487 هـ/1094 م ٠ باتفاق مع تميم بن المعز بن باديس الذى ارسل له لاعانته ولده أبا الفتوح وتبين بعد ذلك ، انهم كانوا على اتفاق مع دولة المرابطين ، ولولا يقظة المنصور بن الناصر لاودوا بالدولة الحمادية الناشئة ، الا ان المنصور كان مستعدا للطوارىء ، فهاجمهم ، وحاصرهم ببونة سبعة اشهر ، والقى القبض على أبى الفتوح ابن تميم بن المعز بن باديس ، وفر أبويكنى بن محمد بن القائد بن حماد ، ورجع لقر ولايته بقسنطينة ، الى ان قبضه المنصور وقتله ، ثم ولى المنصور وجهته الى الملك يوسف ابن تاشفين وهزمه فى معركة تاسالة ودخل تلمسان ، وذلك فى سنة 498 هـ/1105م ٠ فتبين مما ذكر ، ان بونة لم تطل تبعيتها لحكم بنى زيرى ، بل استرجعت فى عهد المنصور ابن الناصر ، وبقى الحماديون يتداولون حكمها الى ان احتلها عبد المومن بن على مؤسس دولة الموحدين ، وقضى على الدولتين أى الحمادية والزيرية فى آن واحد ، بدليل أيضا ان الموحدين لما ملكوا بجاية فر منها ملكها يحيى بن العزيز الحمادى الى بونة التى كان أخوه الحارث بن العزيز متوليا عليها ، فأنبه على عدم دفاعه على بجاية فارتحل يحيى من بونة الى قسنطينة ، وكانت تحت حكم اخيه الثانى الحسن ، وانتهى الامر بمبايعة يحيى ابن العزيز لعبد المومن سنة سبع وأربعين ، ونزل عن قسنطينة ، واشترط الامان لنفسه، فوفى له عبد المومن ، ونقله الى مراكش ، فسكنها ، ثم انتقل الى سلا سنة 558 هـ ٠ فسكن قصر بنى عشرة الى ان هلك فى سنته أى 558 هـ ٠

واما الحارث بن العزيز حاكم بونة ، فانه رفض الاستسلام الى عبد المومن ، وفر الى صقلية مستصرخا صاحبها ، فوعده بالعون وبعد رجوعه الى بونة ، غلبه الموحدون وقتلوه صبرا وانقرض ملك بنى حماد ببونة لا ببجاية » ٠ اهـ

ولنرجع الى دراسة مارسى ، فبعد ان بينا ان بونة انتقلت من حكم بنى زيرى فى عهد تميم بن المعز ، وبقيت تحت حكم بنى حماد الى ان لفظت دولة بنى حماد انفاسها فيها لا فى بجاية عاصمة المملكة ثم ذكر مارسى موقع بونة معتمدا فى ذلك على تحليل تعريف البكرى فقال : « ان البكرى الذى تحدث عن بونة ذكر ثلاثة مواضع :

1 ـ المدينة التى اشتهرت بأغستين : العالم المسيحى الشهير ، فهذه المدينة جبلية طريقها وعر ٠

2 ـ المدينة الثانية فى سفحها وهى مدينة سيبوس التى تحتوى علـى المساجد والمحلات التجارية والحمامات .

وهى المعروفة بمدينة زاوى ، وقد علق دوصلان (9) فى ترجمته لكتاب البكرى على كلمة زاوى فقال : « ان المقصود منه هو زاوى بن زيرى احد اعمام المعز رجع من غرناطة ولقيه المعز بحفاوة واقطعه بونة » .

3 ـ بونة الحديثة التى قال عنها البكرى انها تبعد عن مدينة زاوى بنحو ثلاثة اميال وهى المدينة الاسلامية الآن » .

ثم استرسل مارسى فى دراسته وقال : « فمن هذا يتبين ان هذه المدينة أى الاسلامية الحالية ، هى التى بعد الاولى ، التى هى هيبون ، والثانية التى اكتشف آثارها الاثريون وهى سيبوس أو مدينة زاوى بن زيرى » ، ثم شاءت الاقدار ، ان بونة لم تنتفع بتحصينها بحرا وبرا ، فقد قال الادريسى : انها فقدت مكانتها ، وازدهارها حيث استولى العربان على سهولها ، وسقطت المدينة فى يد روجار الثانى ، ملك صقليـــة النصرانى وذلـك سنة 1153 م .

ثم ختم مارسى دراسته بهذه الجملة التى قال فيها : « وقد امكن لهذه المدينة جمـع الآثار الوثنية ، والمسيحية ، ثم الآثار الاسلامية ، الدالة على اشعاع الفن الاســـلامى الافريقى » . اهـ

اشتهرت بونة أيضا بمركزها الاقتصادى فهى علاوة على معدنها الحديدى كانت بقربها مرسى مدينة الخزر التى قال عنها الشريف الادريسى فى « نزهة المشتاق » : « وهى مدينة صغيرة ، عليها سور حصين ، ولها قصبة ، وحولها عرب كثير ، وعمارة أهلها لها علـى صيد المرجان ، والمرجان يوجد بها كثيرا ، وهو أجل جميع المرجـــان الموجود بسائـــر الاقطار ، مثل ما يوجد منه بمدينة سبتة ، وصقلية ، ويقصد التجار من سائر الاقطار هذه المدينة ، فيخرجون منه الكثير الى جميع الجهات ، ومعدن هذا الجوهر فى هذه المدينة

---

(9) دوصلان Deslane ترجمان عسكرى كان فى ديوان الوالى العام بعد الاحتلال وترجم عدة كتب منها تاريخ ابن خلدون ، والمسالك والممالك للبكرى .

مخدوم فى كل سنة ، ويعمل به فى كل الاوقات الخمسون قاريا »· (ثم يتعرض الادريسى بمزيد من البيان والتفصيل لكيفية صنع هذا المرجان) ··· الخ · اهـ

هذه نبذ ذكرناها من التاريخ السياسى والاقتصادى لهذه المدينة فى العهد الاسلامى، وقد استرجعت مكانتها فى العهد الحفصى حيث كانت تتقاسم ولايتها نخبـــة الامــراء الحفصيين مع قسنطينة وبجاية ، وكثيرا ما يتولى ولاتها على المملكة كلها ابتـداء مــن مؤسس الدولة الحفصية أبو زكرياء الذى مات بها ، ودفن فى ضريح مسجدها الاعظم ، وببونة أيضا بويع ولده المستنصر بالله ، الذى هو امثل ملوك الدولة الحفصية وخصه ابن خلدون بدراسة لم يحظ بمثلها غيره ، ولا يمكننا تتبع تاريخ هذه الفترة ، ولا فترة العهد التركى ، وانما نذكر نبذة من تاريخها الثقافى ثم نختم هذه الدراسة بلقطات من عهدها بعد الاحتلال الفرنسى ·

فتاريخها الثقافى يظهر انها لم تخل من استيطان نخبة فطاحل العلماء ، ابتداء من القرن الخامس ، أى من عهد أبى مروان حسبما نجده فى كتب التراجم ، وفى التأليفين القيمين اللذين خصصهما على فضلون لتراجم علمائها ــ كما ذكرنا ــ ابتداء مــن القرن الخامس الى القرن التاسع ، ثم واصل هذا التاريخ أحمد ساسى البونى من القرن التاسع الى منتصف القرن الثانى عشر ، وهذان التأليفان من التاريخ الجهوى ، فالاول نثـــر ، والثانى نظم ، وقد شرح احمد ساسى تأليفه ، الا انه لم يصلنا مع الاسف الا تاليف أحمد ساسى البونى (1063 ــ 1139هـ) « الدرة المصونة فى علماء وصلحاء بونة » وكانت تحتوى على 3000 بيتا ، ثم اختصرها فى ألف بيت ، وعرفت بالالفية ، وقد استوعب فيها تاليف مواطنه على فضلون الذى انهاه بتراجم علماء القرن التاسع ·

وأحمد ساسى هذا من أكابر علماء عهده، فقد ترجمه العالم الذائع الصيت عبد الرحمن الجامعى الفاسى فى رحلته : « التاج المشرق الجامع ليواقيت المغـــرب والمشرق » اذ زاره بمحله سنة 1120 هـ ، واقام عنده مدة قال فيها : « لما دخلتها ــ يعنى بونة ــ اممت دار الشيخ الربانى ، العالم العرفانى الولى الصالح ، البر الناجح ، أبى عبد الله قاســم ابن الولى الصالح أبى عبد الله محمد المعروف ساسى ، فوجدته طلق المحيا ، وانزلنى بمنزل لاكرام اضيافه مهيا ، فاقمت عنده ينزهنى فى كل يوم فى رياض تآليفه الحديثة ،

وغيرها وينثر على كل ساعة من فوائد فوائده ما تبخل به على الغائصين قعور بحرها ، وكنت احضر تلك المدة مجلس رواية الصحيحين بين يديه ، مع مشائخ بلده وولديه ، ومما رويته عنه فسح الله فى اجله وأسهب ، (وان تآليفه بلغت ما ينيف على المائـة ما بين مختصر ومسهب) ولما وقفت فى علم الحديث على البحر العباب ، والعجب العجاب، سألته الاجازة فيما وقفت عليه وغيره من تصانيفه ... الخ » . (10) اهـ

وقد افرد أحمد ساسى البونى تآليفه فى كتاب سماه « التعريف بما للقفير من التاليف » (11) ومنهاج المؤلف فى « الدرة المصونة » انه بعد ان ذكر العلماء الذين ذكرهم على فضلون فى تاليفه أى من القرن الخامس الى القرن التاسع ، ألحق بهم علماء القرون العاشر والحادى والثانى عشر وابتدأ بعلماء البلدة ثم ضواحيها القريبة ثم الواردين عليها شرقا وغربا ، استهل منظومته هذه بقوله :

يقول راجى عفو رب راحم	من كل ذنب أحمد بن قاسم
ابن محمد ابن المسيتى	ثم التميمى بلا تنكيت

ثم يقول :

لذاك رام منى بعض الاذكياء	توسلا بذكر بعض الازكيا
فجئته « بدرة مصونة »	ذكرت فيها أولياء بونة
لكن بلا طول ولا تاريخ	لضيق نظم بهم صريخى

الى ان يقول :

واستعينه على الفية	بذكر بعض مجدهم وفية
وربما سمحت القريحة	فى بعضهم بنبذة صريحة
طالبها مسافر وذو عجل	زودته بها وانى فى خجل
ومن يرد زيادة كثيرة	فلينظر المنظومة الكبيرة
عددها كبيعة الرضوان	تسلى عن الاخوان والغوانى

(10) « تعريف الخلف لرجال السلف » ج 2 . لابى القاسم الحفناوى .
(11) ذكره أيضا أبو القاسم الحفناوى فى « تعريف الخلف لرجال السلف » .

الى ان يقول :

وقــد اردت ذكرهم تفصيلا	لكى أنـال بهـم تحصيلا
حواهـم جمع (على فضلونى)	لآخـر التاسـع مـن قـرون
ثـم اتيت بالذيـن بعـده	أرجـو بهـم تفريج كل شـدة
من عاشر القرون والحادى عشر	وفى البلاد ذكرهم قد انتشر
قد عرفـوا بعلـم أو صـلاح	وربنا المسؤول فى الفـلاح
وبعدهـم اذكـر أهل الزمـن	من كان فى البلد أو فى الوطن
أو دخـل البلد أو شيخا لنا	هـل يفـرج الكريـم هولنـا
بشرط ان كانوا لعلـم درسوا	أو لصلاح نسبـوا ما اندرسوا

بين أحمد ساسى منهاجه فى المنظومة التى وان كانت من قسم التاريخ الجهوى الذى انتشر فى الجزائر ابتداء من القرن التاسع الهجرى ، فهى مزيج بين التاريخ والاستغاثة ، وهذه الاخيرة وان كان جل اصحابها يفرغونها فى قالب دعاء وابتهال الى الله ويدعون الله لينتقم من ظاليمهم ، وقد انتشرت فى الجزائر ، ابتداء من القرن التاسع الهجرى ، الا انها مفيدة جدا من حيث تاريخ البلاد الجهوى ، وبعض هذه المنظومات يذكر فيهـا اصحابها العلماء والصالحين لمجرد التبرك بهم ، وأحمد ساسى صريح بان منظومته قصد بها أيضا الاستغاثة حيث قال :

ثـم اتيـت بالذيـن بعـده	أرجـو بهـم تفريـج كل شدة

وقد قسم « المنظومة » الى أبواب وفصول : « الباب الاول فى ذكر علماء وصلحاء بونة حرسها الله تعالى آمين الذين ذكرهم العلامة المؤرخ سيدى على فضلون البونى ممن كان فى البلد أو قريبا منه » :

اسأل ربى الحفـظ والاتقـان	بالعارف القطب ابى مـروان
نور القلـوب شارح «الموطىء»	وبـين أهـل العلـم ما تغطى
وقال بعض شرح « البخـارى »	وليس ذا بعجـب يا قـارى
ذكـره عيـاض والحلـوانى	وابن سليمـان أبـا خـلانى

واما اشارته الى مكانة مترجميه وانتاجهم فهذا نموذج منها .

فذكر أحد مترجميه ابن رحمون بانه رحل الى تلمسان واخذ عن الامام ابن مرزوق وفى ذلك قال :

وبابن رحمون أى الفضل ... محمد المعظم الجلى
وهو الذى رحل لابن مرزوق ... أخذ عنه العلم فهو مصدوق

والنموذج الثانى الذى ذكر فيه مؤلفات مترجميه يتمثل فى ابى زكرياء الكسيلى الذى قال فيه :

وبأبى زكرياء الكسيل ... العالم العلامة الجليل
مؤلفاته غدت عديدة ... كثيرة نافعة سديدة
تزيد فى العدد فوق الاربعين ... نثرا ونظما رشقت قلب اللعين
منها حواشيه على المرادى ... تسعة اسفار لدى التعداد ..الخ

وقبل ان ينتهى صاحب المنظومة من مترجمى مواطنه على فضلون (الذين استوعبهم فى منظومته) يلخص أوصافهم ومكاناتهم فى قوله :

فبعضهم فى المصر شعره وشى ... وبعضهم فاق على المراكشى
وبعضهم فى لغة قد نبغ ... ولكرامة الرجال بلغ
وبعضهم قاض وبعض مفتى ... وبعضهم مدرس ذو وقت
وبعضهم ألف فى الفرائض ... ففاق فيها صنع كل رائض
ولابن فضلون بذا منامه ... علا بها فى مصرنا مقامه
حاصلها انهم من أهل ... علم ونبل وتقى لا جهل

ثم يعقب الناظم على هذه الابيات بمقارنة المترجمين مع معاصريه فيقول :

والآن يلحنون فوق المنبر ... لا يقبلون النصح حتى من برى
لم يبق فيهم ناثر أو شاعر ... يحيى به الله ذوى المشاعر
وفى مواطن العلوم افلسوا ... لأنهم من كسبها قد فلسوا

وكتب الجهل عـــلى جباههـــم اليوم يختـم عـــلى افواههـــم
لو كنت ارسلت عنان القـــول آلـــت فريضتهـــم للعـــول
ليت الجـدود نظـروا اليهـــم ولو راوهـــم لبكـــوا عليهـــم

وقبل ان ينتهى من مترجمى على فضلون ويعقب عليهم بمترجميه نبه على ذلك بقوله :

وبابن فضلون عـــلى زين الخلف وهو الذى ذكر كل من سلـف
وقـــد تبرعـت بشىء فـــلا زيـــادة عليـــه لمـــا كمـــلا
وزاد هو أيضا اشياء أخـــرى فى « نثره » يرجو لديك ذخرا ..الخ

وان علماء بونة ونواحيها المذكورين فى هذه الارجوزة سواء من ذكرهم على فضلون أو أحمد ساسى هم سكان النواحى القريبة من البلدة . امـا النواحى البعيدة كتيفاش وقالمة ... الخ . فلم يتعرضا لذكرهم وقد اشتهر كثير من نبغائهم ولهم مكانة فى كتب التراجم .

ولنختم هذه الدراسة بالتعرض الى جانب من تاريخها بعد الاحتلال الفرنسى أثـار الجدل ولا زال الباحثون مهتمين به حيث لا زال يكتنفه الغموض ، وذلك مثل اتصـــال الولاة الفرنسيين باحمد بـــاى قسنطينة وتولية المملوك يوسف بايا عليها ، وظهـــور فضائح اختلاس قام بها الماريشال كلوزيل ونائبه ببونة الجنرال ديزار (D'uzer)

كانت السلطات الفرنسية اثر احتلال العاصمة ، تنوى الاحتفاظ بمدن الشمـــال الرئيسية كالجزائر ووهران ثم بونة ، ولهذا كلف الوالى الفرنسى الـــدوك دو روفيقو (Duc de Rovigo) فى شهر أوت 1832 ، بالاتصال باحمد باى (12) ليعرض عليـــه شروط فرنسا لابرام معاهدة تعترف فيها بمناطق نفوذه ، وتتعهد له بالحماية والتأييد وكانت بنودها (13) كما يلى :

(12) حمدان بن عثمان خوجة المشهور .
(13) « حوليات بيليسى دو رينو (Annales Pelissier do Raynaut) ج 2 ، ص 259 .

1 ـ تسليم مدينة بونة (التى كان احتلالها وقع فى أواخر يوليو 1830) .

2 ـ الاعتراف بالسيادة الفرنسية .

3 ـ دفع جزية سنوية يقع الاتفاق عليها .

4 ـ اتخاذ مرسى بونة مركزا للصادرات والواردات بدلا من مرسى تونس .

5 ـ اعتراف فرنسا بمناطق نفوذه التى تحدد ، واعانته فى الميادين الحربية والاقتصادية ... الخ .

الا ان الباى أحمد رفض تلك الشروط جملة وصرح بانه مستعد لابرام معاهدة صلح لا معاهدة استسلام ، وأكد على انه من رعايا الباب العالى لا من رعايا الفرنسيين وركز رفضه للشروط التى يوجد من بينها تسليم مدينة بونة ، ودفع الجزية للمسيحيين .

وهنا بدأت مناورات المملوك (14) يوسف الذى كان الدافع الحقيقى له ، خشية ابرام هذه المعاهدة التى تحرمه من التولية على بونة التى وعد بها ، وبالفعل عين بايا عليها سنة 1836 ، بعد ان كان رائدا عسكريا ولعب ادوارا مخزية ببونة مدة حكمه على منطقتها ، من جملتها انه أسس شركة تجارية يرأسها المرابى اليهودى العسرى(Lassery) رأس مالها ما كان ينهب جيشه للسكان العزل ... الخ .

اما الفضيحة المالية التى هالت حكومة باريس وعينت لها لجنة بحث مدنية ، فهى تتلخص فى استيلاء الماريشال كلوزيل على عدة املاك ببونة زورت عقودها بواسطة الجنرال ديزار والى بونة ، وكان الفضل فى اكتشافها لقاضى بونة الشرعى الذى وجد املاك الاحباس ضمن الاملاك المختلسة ، والذى لعب دورا فى القضية هو مصطفى بن كريم

---

(14) كان من مماليك بايات تونس والتحق بالجيش الفرنسى بعد احتلال الجزائر ولاطلاعه على « خبايا القصور » وتضلعه باللغة العربية لعب ادوارا كثيرة استفاد منها جيش الاحتلال خصوصا المكيدة التى ديرها عندما استولى على زمالة الامير عبد القادر وغيرها الا انه جوزى جزاء سنمار وابعد نهائيا من الجزائر .

الذى حملته لجنة البحث المسؤولية ، وأدانته ، الا ان السلطات ، مكنته من اللجوء الى تونس وأخيرا أى حوالى سنة 1295 هـ • زار المدينة محمد بيرم الخامس ودون انطباعاته عنها فى رحلته « صفوة (15) الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار » وهى هامـــة فى موضوعها •

هذه لقطات من تاريخ هذه المدينة لمختلف عصورها ذكرناها باجمـال ، ونتمنى ان يكون هذا الملتقى سببا لجمع ما امكن من ماضيها المجيد ، وان لا يقتصر المسؤولون عـــن تقديم كتب أنيقة الطبع ، مزخرفة ، الا ان محتواها منقول كله عما كتبه المستعمرون فى عهد كانوا يرون فيه العهد الاسلامى لا يثير انتباههم اللهم الا اذا عدت نقائصه •

(15) المطبعة الاعلامية بمصر سنة 1303 هـ •

جولة في متحف عنابة

د · سعيـــد دحمـانى
محافظ متحف عنابة

تمتاز آثار « بونـة العتيقـة » ، مبانيها وتحفها ، بشخصية قوية وتشعب الاصول سواء أكان من الوجهة التاريخية أو من الوجهة الاثرية · فكانت من المواضع الاثرية الممتازة · وقد تكون « بونة العتيقة » من الوثائق الاساسية الدالة عل مدى غنى،وعبقرية،تاريخ،وحضارة بـــلادنـا ·

تقع « بونة العتيقة » على مسافة ثلاثة كلم ، جنوبى مدينة عنابة ، فى طريق الحجار وسوق اهراس ·

ويشرف الموقع الحالى والعتيق شرقا على خليج عنابة ، ويحاذيه غربا السهل والربى المترامية عند سفح جبل الزغوغ (كما يسميه البكرى) · كما يحاصر موقع «بونة العتيقة» مجرى وادى بوجمعه الاسفل من الشمال الغربى ، ومجرى وادى سيبوس الاسفل من الجنوب الشرقى ·

لم تكشف الوثائق الى حد الآن عن المخططين الاوائل لمدينة بونة ، غير أن هناك أدلة كثيرة تبرهن على استمرار العمران الانسانى بالجهة منذ عصور ما قبل التاريخ ، مثل الصوان المنحوت والمبانى الميغاليتية والدلمن ·

أما بالنسبة للفترة التى تمتــــد من بداية التاريخ الى حــوالى القــرن الثانى عشر قبل الميلاد ، فلا يزال الغموض سادلا أستاره فلا تبرز الوثائق التاريخية وجود شعوب المور والامازيغ السياسى والاقتصادى الا ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد حيث تبـين ان قلب الدولة الامازيغية يمتد على طرفى المحور الرابط بونة بتفلستة (تبسة) ·

فان لم تؤكد الوثائق التاريخية أو الاثرية بعد،ازدهار حضارة أصيلة متقدمـــة فى هذه الربوع ، فهى لا تنفيه ·

ولذلك يمكن الاعتقاد انه قد استعمل هذا الموقع كمدينة أو ميناء أمازيغى فى تلك العصور الصامتة ·

وقد عرف هذا الميناء اقبالا منذ القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، اذ استعمل البونيقيون الميناء كمرحلة فى ملاحتهم طوال سواحل البحر الابيض المتوسط قبل انتصاب قرطاجة ونفوذها فى هذه الربوع ·

ولكن فى انتظار نتائج الدراسات الجارية ، فنحن نعتقد انه من الاسلم البحث عن أصل أمازيغى أول لموقع بونة ، لا سيما ان أكبر حصيلة عن النقوش اللوبية وجدت بهذه الربوع وخاصة بجبهة الشافية (أنظر صورة 1) ·

ويســود مفهـــوم كلمـــة هبـــو : نفـــس الغموض فـــأدى ذلك الى تاويـــلات كثــيرة · ومــن أقـــربها الى الـــواقع ان هنــاك شبهـــا بـين هبـــو ، باللفظـــة البـــونيقية (أبـــون) ومعنــاهــا خليـــج أو مـــاوى · وحيـــث كــان مـــوقع المـدينة ســاحليا يــلائم ضبـط اللفظـة البـونيقية ، فمـن المفتـــرض ان اعطــاء البـونيقيين هـذه التسمية للمينـــاء أو القلعـــة التـى كـــانوا يرســـون فيهـــا



1 ـ شواهد قبرية نقشت بالاحرف اللوبية

أو القلعة التى كانوا يرسون فيها ، أو التى شاركوا فى تحويرها أو الانتصاب فيها بين القرن الثانى عشر والثامن قبل الميلاد فكان « ابون كذا ٠٠٠ » أى « خليج أو ميناء كذا ٠٠٠ » وبطول المدة لم يبق الا « ابون » التى حرفت الى « هبو » ومنها الى بونة ٠

اما دخول بونة فى بوتقة قرطاجة فيرجع الى القرنين السادس أو الخامس ق٠م ، اثر تحالف أو خضوع تحت الهيمنة القرطاجية ونتيجة هذا الاتصال المستمر مع البونيقيين تاثرت **بونة** بالطابع والعادات والديانات واللغة القرطاجية وربما كان التأثر أيضا على مستوى المؤسسات السياسية والادارية ٠ وتاثر الجهة باللغة البونيقية تواصل الى عهد اغشتين ومن بقايا الحضارة المادية للفترة البونيقية ما نشاهده فى تصميم الديار والتخطيط العام للمدينة الذى يعود الى العهود الامازيغية البونيقية وبالاخص وجود المواجل فى أكثر المساكن وهو طابع استقل به أهل هذه الحضارة أكثر من سواهم فى حوض البحر الابيض المتوسط ٠ (صورة 2)

اما اللقى الاخرى التى عثرت عليها الحفريات ، والمعروضة فى الطابق الاول من متحف بونة الاثرى ، فتشمل اساسا فوانيس زيتية عرضت فى الخزانة رقم 1 ٠

وكانت **بونة** ، اقتصاديا ، ذات مكانة هامة خاصة فى الميدان التجارى ٠

وتخلصت بونة واقليمها من السيطرة القرطاجية السياسية والاقتصادية ، اذ بدأت الدولة الامازيغية تحت حكم **مسنسة** تستقل بين 218 و 200 ق م. ومن الممكن ان خضعت **بونة** لسلطة **مسنسة** فى تلك الفترة ؟ اذ أصبحت عاصمة ثانية للملوك الامازيغيين بعد 202 ق٠م٠ بعد انهزام **قرطاجة** فى واقعة زامة لكن هذا لم يمنعها من التعرض الى ويلات الحروب التى تعاقبت من اجراء كفاح الامازيغ تحت قيادة **مسنسة** وخاصة **يوغرطة** جريا وراء توحيد الدولة الجديدة ٠

وتميز تشييد الدولة الامازيغية بازدهار التجارة والصناعة فى بونة ٠ وشمل نمو **بونة** الامازيغية مختلف الميادين ٠

فمن الناحية المعمارية ، يبدو من الراجح ان جزءا من جدار « **الواجهة البحرية** » يعود الى أواخر العصر الامازيغى كما هو الامر بالنسبة للعناصر المعمارية التى وجدت تحت مبنى « **مجلس الشيوخ** » : التاج الايونى الضخم وجزء من عمود من نفس الصنع ٠



2 ـ منظر من آثار مدينة « بونة العتيقة »

اما تخطيط المدينة فكان على ما نشاهده اليوم ، اذ لم يدخل الرومان عليه الا تعديلات جزئية • والملاحظ ان مواد البناء تعتمد اساسا على اللبن الاحمر •

وتركت بونة الامازيغية قطعا كثيرة من الفخار من دنون وغيرها عرضت على أرض آثار بونة ، وعملة تعود الى أيام مسنسة وخلفائه عرضت بالطابق الاول من المتحـف وان دلت هذه اللقى على شيء فانما تدل عن وجود معامل منتوجات تقليدية وعن علاقات تجارية مع باقي افريقيا واسبانيا وايطاليا وبلدان الحوض الشرقى من البحر الابيض المتوسـط •

ولا تزال **بونة** ثقافيا تتأثر بعلاقاتها مع الشرق اذ يبدو ان البلاطات الامازيغية كانت قالبا تتعايش فيه اللغات والحضارات البونيقية واليونانية مع الاصول الامازيغية •

ولكن جيوش التوسع الرومانى ، بعد صراع طويل ، هزمت **قرطاجة** نهائيا ، فتمكنت **رومـا** من التفرغ لمنع الدولة الامازيغية من النمو والاستقرار • واثر حرب ضروس ، اخضعت **رومـا** القطاع الامازيغى تحت نوع من الحماية حوالى 104 ق•م• فجر ذلـك المملكة الامازيغية فى تيار معارك الاحزاب الرومانية عند انفجار الحرب الاهلية بين قيصر وبومبيوس • فاختار الملك **يوبة** الاول حزب **بومبيوس** الذى جرت هزيمته سنة 46 ق•م، هزيمة الامازيغ واتلاف استقلال دولتهم • وهكذا ستبقى **بونة** تحت الحكم الرومانى الى انهياره أمام حصار **الوندال** سنة 430 م• اذ اصبحت مملكة **يوبة** مقاطعة من الامبراطورية الرومانية واسمها « افريقيا الحديثة » وعاصمتها **بونة** •

وعادت المدينة الى الاستقرار ابتداء من القرن الاول بعد الميلاد وعرفت أياما جديدة من النمو وساعدها ماضيها الحضارى على استرجاع حيويتها ، ومكنها من فرض أصالتها بالرغم من ضمها الى العالم الرومانى •

وحسب تقويمات المؤرخين وعلماء الآثار ، فالمدينة كانت تمسح حوالى 60 هكتارا • وقد اشتمل حوزها البلدى المترامى الاطراف عديدا من الضيعات الفلاحية الكبرى تعـود الى تنظيم **مسنسة** الريفى مما جعل الريف أكثف عمرانا ما هو عليه اليوم •

وبقايا هذه الضيعات (**ويسميها** العوام : **الهناشر**) موجودة فى كامل الجهة الى اليوم، غير ان بناء المعامل قد أتلف آثار الكثير منها .

عرفت بونة وضعين قانونيين : كانت فى أولهما مدينة ذات كيان قانونى ، ثم رقاها القياصرة الانطونيون الى صف مستعمرة .

ويرأس ادارة المدينة احد نواب بروقنصل افريقيا الثلاثة بمساعدة سلك من الموظفين الدينيين والمدنيين والاقتصاديين تنبئنا عن اختصاصاتهم واسماء البعض منهم ما كشف عنه التنقيب الاثرى من شواهد منقوشة منها ما عرض بفناء المتحف ، ومنها ما بقى فى مكانه الاصلى تركت هذه الفترة أكثر معلومات من سابقاتها عـن الحضارة الماديـة والروحية، تتمثل فيما كشفت عنه التنقيبات من معالم عمرانية واقتصادية وفنية .. الخ

وقد تركت لنا الحياة الاقتصادية أكثر من دليل مادى على حيويتها .

فسبق ان اشرنا الى كثافة القرى الفلاحية التى كانت تنتشر فى السهول المحيطة ببونة . ولا عجب اذ المناخ من أرض طيبة وطقس ممطر مكن هذه الجهة من انتاج القموح والخضر والزياتين والفواكه ما استمر انتاجه الى يومنا هذا .

أما الصناعة فيشهد عليها آثار معمل الصباغة الضخم الموجود شمال « **البازليكـة الكبيـرة** » ، ويبدو ان الحى الذى توجد به هذه الوحدة كان باكمله حيا صناعيا مختصا فى النسيج وصباغته .

كما تدل اللقى المختلفة من فخار من دنون ومصابيح معروضة فى قاعات المتحـف على وجود افران لصناعتها . كما ان صناعة الامتعة المدنية كالاقفال واوانى الطعـام النحاسية والمسامير والقوارير الزوجاجية المعروضة بنفس المتحف من براهين وجود صناعات مختلفة بالمدينة (صورة 3) .

كما ان المدينة كانت تظم معاصر الزيت والطاحونات ، ويرى الزائر بقايا عديـدة من رحى الحب ورحى الزيت (صورة 4) .

وجعل موضع **بونـة** المتاز منها مدينة تجارية : فهى مستودع الانتاج الفـلاحى الذى كان يصدر من مينائها قموح الجهة وزيوتها الى **رومـة** . وما كثرة الدنون التى عثر عليها الا شاهدا آخر على غزارة هذه التجارة .



3 ـ مصباح من البرنـز



4 ـ رحى الحب من قمح وغيره

وكان ميناء بونة الثغر الذى يستورد على طريقة البضاعة من الخارج : فعارضات المتحف تزخر بالاوانى المستوردة مثل المصابيح والاطباق من السجيل وغيرها ٠

وكانت البضاعة المصدرة أو المستوردة تباع وتشترى فى رحاب السوق الواسعة التى كشفت عنها الحفريات ، والسوق يوجد بغربى المدينة ، مشتملا على ساحتين ، احدهما مربعة وربما كانت للبيع بالجملة والثانية تحتوى على رواق وحوانيت وساحة داخلية ٠ كل ذلك من الرخام ٠ وكان مواطنو المدينة ياتون هنا لابتياع ما يرغبونه من المتاع (صورة 5) ٠

فان كان السوق من مظاهر الحياة الاقتصادية فهو أيضا من مظاهر الحياة اليومية ، وقد كشفت الحفريات منها أوجها أخرى ٠

فمنها السكن ، والتخطيط العام للمساكن كالآتى صحن داخلى مكشوف ، نظمت حوله الغرف حسب اختصاص كل واحدة منها ٠ ومن الملاحظ ان أغلب البيوت تحتوى على ماجل لادخار الماء ، وفى الكثير منها فرشت أرضيتها بالفسيفساء الزاهية الالوان والمتصلة مواضع زينتها بمواضع مختلفة (صورة 6) ٠

ومنها الحمامات ، اذ كشفت التنقيبات على حمامين ضخمين احدهما بشمال المدينة ، يعود عهده الى القرن الثالث الميلادى وثانيهما جنوب المدينة ٠ والحمام فى تلك العصور مؤسسة مدنية عامة حيث كانت تحتوى على مختلف المرافق بالمستحم يؤم الحمام طالبا النظافة،والاتصال الاجتماعى والمطالعة؛اذ كان الحمام يحتوى على مكتبة،والرياضة اذ كان الحمام يحتوى على قاعة للرياضة البدنية، أما الحياة السياسية فكان مسرحها ساحة **الفروم** الذى كشفت عنه الحفريات وهو أوسع واقدم **فروم** كشف عنه فى المغرب ٠ ولا تزال آثار **الكورية** أى مقر الادارة ومجلس الشيوخ ، قائمة ٠ فيأتى المواطنون هنا للاطلاع على الانباء السياسية أو النقاش حولها ٠ وهنا يجتمعون فى المناسبات السياسية أو الدينية الكبرى فيستمعون الى الخطباء يلقون بخطبهم من فوق المنصة التى لا تزال قائمة أو يتعبدون امام معبد **الثالوث الكابتولى** ، الذى ما تزال أسسه قائمة (صورة 7) ٠



5 ـ سوق بونة العتيقة



6 ـ اثار منزل ببونة



7 ـ منظر من الفروم

وكان للثقافة والترفيه مكانهما فى بونة التى تعرض آثارها فى معمارها وتحفها فكانت التمثيليات تقدم فى مسرح بونة ، وبقايا المسرح من مدرجات وأركسترة ومرسح وحنيتيه تدل على ان المسرح كان فخما وجميلا (صورة 8) .

وترك الفنانون من نحاتين وصانعي الواح الفسيفساء روائع من عملهم منها شواهد القبور المنحوتة المقامة **لساتورن** وقد عرضت بساحة المتحف الداخلية ومنها التماثيل الرخامية التى عرضت داخل المتحف كتمثال **هرقليوس** وتمثال منرفة ، زوجة جوبتر وتمثال آلهة الحب افروديت (صورة 9) .

وغيرها من تماثيل رؤوس قياصرة ونحيتات ...

ومن روائع المتحف الفنية ما كشف عنه من الفسيفساء منها ما بقى على عين المكان مثل مختلف أرضيات البيوت الموجودة بحى الواجهة البحرية ، وأرضيات بيوت أخرى فى مختلف انحاء آثار **بونة** (صورة 10) .

ومنها ما عرض بقاعتى ب و ج من المتحف ، وأهمها **فسيفساء** الصيد ، « **ومنظر عام من بونة العتيقة** » .

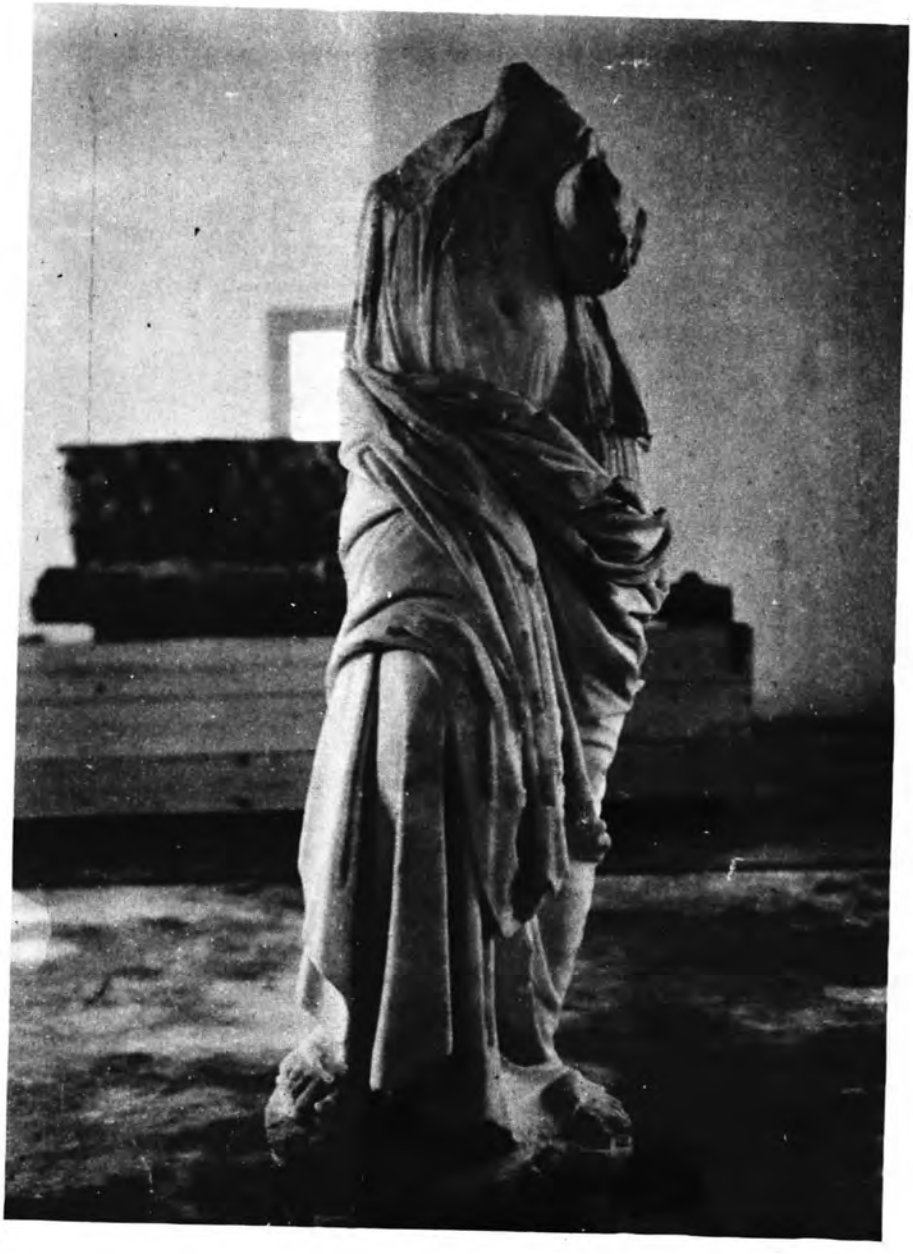
وتصور اللوحة الاولى مشهدا من عملية شاملة لصيد الوحوش الضارية حية لاستعمالها فى ألعاب السرك . اما اللوحة الثانية ، بالرغم من كونها مبتورة ، غير ان شطريها يعطياننا فكرة عن صورة الساحل من رأس الحمراء الى المدينة العتيقة فصور على الشطر الايمن (صورة 11 و 12) ساحل المدينة ابتداء من رأس الحمراء مارا بما يدعى بصخرة الاسد (التى وقع هدمها اثناء الحرب العالمية الاولى) الى الخليج الذى كان موجودا آنذاك وحيث صور مشهد صيد بحرى . ويصور الشطر الثانى منظرا من المدينة العتيقة ربما يعود الى أواخر القرن الثانى أو بادىء القرن الثالث .

وتعتمد مختلف أوجه الحياة المادية على أرضية عقائدية تتمثل فى مختلف المذاهب الدينية التى عرفتها **بونة** فى تاريخها القديم .

اما المعتقدات الوثنية فمختلفة ، منها ما نتج عن تمازج معتقدات الامازيغ والبونيقيين والرومان فتولدت عبادات الاله **بعل ـ حامون** وتدل عليها الشواهد القبرية العديدة



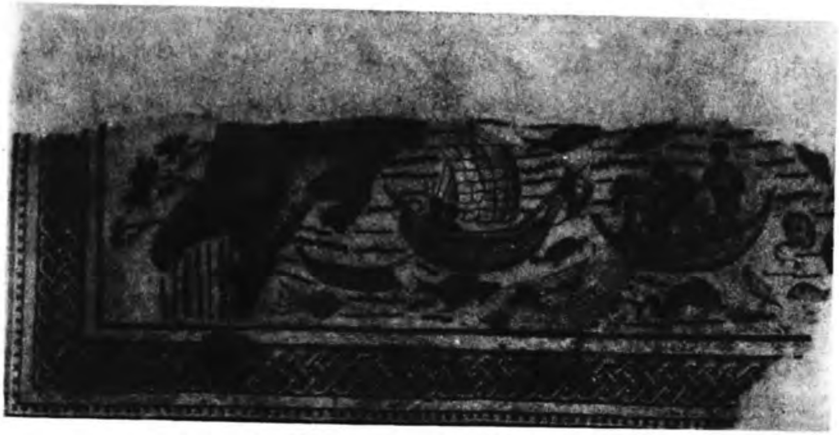
8 ـ صورة جزء من مسرح بونة



9 ـ آفروديـت



10 ــ جزء من فسيفساء الآلهة الملهمة



11 ـ الشطر الايمن من منظر عام لبونة



12 ـ الشطر الثانى من منظر عام لبونة

المقامة لهذا الاله ، ومنها عبادة **السيريس** وهى تشيد بآلهة تتصل بالفلاحة والانتاج الفلاحى وقد عثر على نحيتة مقامة لهذه الآلهة عرضت بالساحة الداخلية من المتحف • ومن الوثنية ما يتصل بالديانة الرومانية وقد بقى لنا منها آثار معبد الثالوث الكابتولى أى **جوبتير** وزوجته **منرفة** وابنتهما **جونو** ، الموجود **بالفروم** ؛ وآثار معبد آخر قرب الحمام الشمالى ، وربما كان معبد الاله نبتون ؟ اله المياه أو معبد م **كور**، وهو اله التجارة ؟ وعرف أهل بونة فى تاريخها العتيق الديانات الوحدانية اليهودية منها والمسيحية ، غير ان التاريخ والوثائق الاثرية تعطى اضواء أكثر على المسيحية ، اذ اقترن اسم **بونة** فى القديم باسم القديس أغشتين • ظهرت المسيحية حوالى القرن الثالث م • **ببونة** حيث انتشرت بسرعة • غير ان كنيسة **بونة** ، على غرار المسيحية بصفة عامة ، عرفت أزمة دينية خطيرة ضاعفتها أزمة اقتصادية حادة أدت الى نمو شيع عديدة بين الافارقة ، أهمها شيعة **الدوناتية** • ومن الممكن ان انتصار محبى مذهب **دوناتوس** كان تعبيرا عن عقيدة مسيحية كان الافارقة يريدونها تعبيرا خاصا بهم يمكنهم من فرض أنفسهم سياسيا واقتصاديا ؟ ولذلك ربما كان المذهب الدوناتى ثورة الاهالى الاصيلين على الرومان ومن اندمج فى تيارهم ، أصحاب الثراء والسلطة الذين أصبحت المسيحية الكاثوليكية تعبيرهم الدينى • وكاد المذهب الجديد أن ينتصر نهائيا ، غير أن الكاثوليكية وجدت فى أغشتين شخصية فذة قادتها الى التغلب وقد يكون ثمن انتصار أغشتين اعتماده على تحالف الرومان والافارقة المندمجين الاثرياء وهم أصحاب المصالح السياسية والاقتصادية التى هددها المذهب الدوناتى الذى كان يعتمد على العمال الفلاحين وصغار الصناع ؟

ولا يزال من آثار المسيحية **ببونة** « الحى المسيحى » تتوسطه بقايا « **بازليكة السلام** » أو « **البازليكة الكبرى** » ولواحقها من مساكن ومكان العماد ••• الخ (صورة 13) •

غير أن انتصار أغشتين الدينى لم يكن له امتداده السياسى اذ مات القديس وسط تخبط الامبراطورية الرومانية ، أثناء حصار **بونة** من طرف جيوش الوندال الذين اقتحموا المدينة يوم 28 أغشت 430 م • وطرد الوندال ، فحل مكانهم البزنطيون سنة 533 •



13 ـ جزء من الحى المسيحى ببونة تتوسطه البازليكة الكبرى

فكان القرنان الخامس والسادس م. فترة ركود ، تقلصت **بونة** فيه ولم يكن لتاريخها فيها حدث هام يذكر .

فمن بقايا هذا العصر ، بيوت رممت بطريقة عفوية ، ومقابر نهبت حيث كان العمران : فى فناء **الفروم** ، وفى الكنيسة ... الخ وربما كان بعض الحلى من الحديد والنحاس المعروض بالمتحف يرجع الى عهد الوندال ؟ .

ويضل موضع **بونة العتيقة** عامرا الى القرن العاشر م .

ان تدخل المدينة فى العهد الاسلامى ابتداء من القرن الاول هجرى/القرن السابع ميلادى . ولا يوجد فى خصوص الفتح الاسلامى فى الاصول الا بعض الجمل . وهذا يرجع الى أن **بونة** واقليمها بقيت بعيدة عن معارك الفتح ، اذ كانت الجهة خارجة عن محاور الانتشار الاسلامى الذى سار فى العشريات الاولى من عهده فى اتجاه الطرق الداخلية . ومن الروايات القلائل عن **بونة** أيام الفتح ، تلك التى تروى كيف ضغطت جيوش حسان بن النعمان على الافارقة من الاقاليم القرطاجنية والبنزرتنية حتى أجبرتهم الى الالتجاء الى اقليم **بونة** حوالى 73/75هـ (692/695م) .

فالاصول التى بين أيدينا لا تخبر عن فتح **بونة** عنوة . والبكرى الذى يروى عادة أهم الاحداث المتصلة بتاريخ كل مدينة يصفها لا يروى فى « الممالك والمسالك » شيئا عن بونة من هذا .

بيد ان أهم ما يرويه هو أن **بونة** مدينة العالم النصرانى الكبير أغشتين .

ويقول البكرى :

« ... ومدينة بونة أولية وهى مدينة أغشتين العالم بدين النصرانية . وهى على ساحل البحر على نشز من الارض منيع مطل على مدينة سيبوس وتسمى اليوم مدينة زاوى . وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال ولها مساجد وأسواق وحمام وهى ذات ثمر وزرع وقد سورت **بونة الحديثة** بعد الخمسين وأربعمائة (...) وبغربى هذه المدينة ماء سائح يسقى بساتين وهو منتزه حسن (...) ومدينة **بونة** برية بحرية كثيرة اللحم واللبن والحوت والعسل . وأكثر لحمانهم البقر . الا أنها يصح بها السودان

ويسقم البيضان.وحول **بونــة** قبائل كثيرة من البربر مصمودة وأوروبة وغيرهما وأكثر تجارها أندلسيون · (البكرى ، المسالك والممالك · ص 55/54) ·

فمن المعتقد ان بقى موقع بونة العتيقة معمورا حتى القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس هـ · ويناسب ذلك نهاية العهد الفاطمى وبداية العهد الصنهاجى · ثم بعــد انقسام الدولة الصنهاجية ، انتقل معظم سكان **بونــة العتيقــة** الى الموضع الجديــد ، شمال المدينة ، على ربوة سيدى أبى مروان ، لسببين : سبب صحى وسبب استراتيجى ·

ولا نعلم بالتدقيق أى جهات **بونــة العتيقــة** التى عمرت أثناء عهدها الاخــير وهو العهد الاسلامى وذلك يعود الى أن الحفريات التى أقيمت هنا لم تهتم بالطابــق الاسلامى من الحفرية ، كما وقع اهمال تسجيل مكان اللقى من الخزف (مصابيح وكسور من الدنون وغيرها) المعروضة بالمتحف · وتعود هذه القطع وخاصة سطل نحاسى الى حوالى القرنين الخامس أو أوائل السادس هجرى (صورة 14) ·

هكذا ولدت ونمت وتطورت بونة العتيقة · وبعد ما لا يقل عن ألفى سنة واثــر نوبات تمثلت فى طوفان الوديان واستفحال المستنقعات وبروز أهداف دفاعية ساحلية جديدة غابت المدينة ومعالمها تحت التراب ولم تبرز آثارها الى الوجود الا بعد انتهـاء الحرب العالمية الاولى ، وهي لم تبح بعد بجميع أسرارها ·



14 ـ سطـل نحاسى اسلامى

من أعلام عنابة

د • محمـد بلغـراد
معهد اللغة والادب العربي
جامعـة الجزائـر

أحمد بن على بن يوسف تقى الـــدين أبو العباس البونى نسبة الى مدينة بونة وهو الاسم القديم لعنابة الواقعة على شاطىء البحر المتوسط شرقى مدينة الجزائر، يلقبه بعض الباحثين بـ محيى الدين (1)، ولا نجد له لقبا فى كتابه شمس المعارف ، هو الامام المتصوف الفلكى الرياضى صاحب التصانيف العديدة المفيدة فى علـــم أسرار الحروف والاسماء وغيره •

رحل الى الشرق واستقر بالقاهرة (2) الى أن توفى • ولم يذكر أحد تاريخ ومكان ميلاده وكم عاش من السنين ولا كيف قضى حياته ولا كيف تلقى العلم • أجمعت المصادر

(1) ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، ص 38 •

(1) Huart (Cl.) : « Littérature arabe », Paris 1902, p. 314.

(2) معجم أعلام الجزائر ، ص 28 •

على أنه توفى بالقاهرة سنة 1225/622 · ويبدو أنه عمر طويلا كما سنرى ذلك فيما بعد ·

ذكر البوني في آخر كتابه شمس المعارف سند أشياخه وسند الرجال الذين وصل العلم اليه بواسطتهم · ذكر سنده بعلم الحروف وسنده بعلم الاوفاق وغيره · وفى الاخير نوه بأحدهم فقال : « أما شيخنا الامام العارف بالله العلامة أبو الحسن الحرانى قدس الله سره فقد ظهرت منه أحوال غريبة واشتهرت عنه حكايات عجيبة · وكان فائق اللسان فى علم الحروف والاسماء وعارفا بمراتب الخواص ·

وله فى علم الحروف مصنفات عظيمة الشأن · منها كتاب اللمعة وكتاب شمس مطالع القلوب وغير ذلك من الفوائد النورانية والزوائد العرفانية ·

وهو أبو الحسن بن على بن محمد بن ابراهيم بن محمد الحرانى · سكن حماة ومات بها سنة 538 · (3)

اذن أقل ما تكون سن البونى قد بلغت عند وفاة شيخه الحرانى خمسة عشر أو ستة عشر سنة ليتمكن من الافادة من تلقى دروسه فى علم الحروف أو الفلك أو الرياضيات بالنسبة الى طالب يافع موهوب فى مستوى البونى · لذلك نرجح أن يكون هذا الاخير قد ولد حوالى سنة 522 ويكون قد عمر قرابة مائة سنة · والله أعلم ·

وقد كان البونى جادا فى حياته الفكرية دؤوبا على العمل والتاليف · وتصانيفه تدل على خصوبة فى الانتاج وقوة على التفكير · ويبدو أنه كان ذا مزاج متفائل وكان مقبلا على الحياة محبا لها · وكان سلوكه متحليا بالاستقامة والورع والصلاح وخشية الله تعالى · وقد انتشر صيته فى مشارق الارض ومغاربها · ولعله كان مدينا بشهرته لفضله وسعة علمه واعتداله فى شؤون حياته ·

وكان البونى يلح على تاليف الكتب الكثيرة فى الموضوع الواحد · يدل ذلك على أنه كان معنيا بالاحاطة والشمول فى عرض المسائل وتفسيرها والاستقصاء فى توضيحها وذكر الدقائق والتفاصيل · وعلاوة على عنايته بالمضمون كان معنيا أيضا بتجويد الصياغة

(3) شمس المعارف ، ص 532 ·

والتأنق فى العبارة • وكثيرا ما يستخدم السجع بحظ وافـر من البراعة والتوفيق • ولم يأل جهدا فى اسداء النصائح لقارىء كتابه شمس المعارف حتى لا تكون قراءته مدعاة لمعصية الله •

قال فى المقدمة : فحرام على من وقع كتابى هذا فى يده أن يبديه لغير أهله أو يبوح به فى غير محله فانه ان فعل ذلك حرمه الله تعالى منافعه ومنعت عنه فوائده وبركته • ولا تمسه الا وأنت طاهر • ولا تقربه الا اذا كنت ذاكرا لتفوز منه بما تريد • ولا تصرفه الا فيما يرضى الله تعالى • فانه كتاب الاولياء والصالحين والطائعين والمريدين والعاملين والراغبين • فكن به ضنينا ولا تدع منه قليلا ولا كثيرا • وليكن يقينك صادقا وايمانك بحقائقه واثقا •

ومن الصعب ذكر كل ما ألف البونى من التصانيف (4) • ولذلك نجتزىء بـذكر بعضها ـ له فى أسرار الحروف ـ اسرار الحروف والكلمات ـ رسائـل الشهـود فى الحقائق على طريقة علم الحروف ـ شرف الشكليات وأسرار الحروف الورديات ـ كتـاب الحروف والعدد وخواصهما ـ لطائف الاشارات فى أسرار الحروف العلويات ـ وله فى شرح البسملة خصائص السر الكريم فى فضائل بسم الله الرحمن الرحيم •

وله فى شرح أسماء الله الحسنى •

موضح الطـريق وقسطاس التحقيـق من مشكاة اسمـاء اللـه الحسنى والتقرب بها الى المقام الاسنى ـ المشهـد الاسنى فى شرح أسمـاء اللـه الحسنى • وله كتب فى الاذكـار والادعيـة والتصـوف • منهـا : التوسـلات الكتابيـة والتوجهات العطائية ـ قبس الاقتداء الى وفق السعادة ونجم الاهتداء الى شرف السيادة ـ قوت الارواح ومفتاح الافراح ـ كنز اللطائف النورانية فى أسرار اللمعة النورانية ـ مواقف الغايات فى أسرار الرياضات ـ له فى التصوف : جواهر الاسرار فى بواهـر الانوار ـ وله فى النجوم رسالة فى أحكام النجوم •

وله فى شرح « ن والقلم » الرسالة النونية فى الحقيقة الانسانية •

---

(4) انظر فى تصانيف البونى : معجم أعلام الجزائر ، ص 28 وما بعدها •

وله رسالة فى شرح اسم الله الاعظم · وله : منبع أصول الحكمة يشتمل على أربع رسائل : 1 ـ الاصول والضوابط · 2 ـ بغية المشتاق فى علم الاوفاق · 3 ـ شرح البرهتية المعروف بشرح العهد القديم · 4 ـ شرح الجلجلوتية الكبرى · (5)

ويبدو أن أكبر كتبه هو كتاب شمس المعارف ولطائف العوارف · منه مطول عنوانه شمس المعارف الكبرى ومختصر عنوانه شمس المعارف الصغرى · وهو تأليف ضخم يشتمل على أربعة أجزاء · وهو شبه موسوعة فى علم السيمياء جمع فيه صاحبه ما تفرق فى سائر كتبه · وقد انعكست ثقافة المؤلف بما فيها من جوانب وألوان على صفحات هذا الكتاب ، يتحدث فيه المؤلف عن أشياء شتى عن الحروف وأسرارها وعن أشياء فلكية هى ألصق بعلم التنجيم كالبروج الاثنى عشر ومنازل القمر الثمانية والعشرين وعن خواص أوائل سور القرآن وعن فضل سور وآيات شتى كالفاتحة ويس وآية الكرسى والبسملة · ويتحدث البونى فيه عن الخلوة والاعتكاف وعن الاسم الاعظم وسائر أسماء الله الحسنى وعن الرياضات والاذكار والادعية وعن بعض الاوفاق

---

(5) مطبعة البابى الحلبى ـ القاهرة 1355هـ/1936 ·

والجدير بالذكر أن أحد الدارسين الجزائريين ألف أخيرا كتابا يذكر فيه طائفة من المخطوطات الجزائرية الموجودة حاليا فى مكتبات اسطنبول · وعددها مائتا مخطوط لمؤلفين جزائريين موزعة على مكتبات كثيرة وفى موضوعات شتى فى تفسير القرآن والحديث الشريف والعقائد والتصوف وأسرار الحروف والاسماء والادب والتاريخ وفنون شتى وقد ذكر من بينها طائفة من كتب البونى · منها 18 مخطوطا لكتاب شمس المعارف وحده ومخطوطات أخرى لكتاب التوبة وكتاب الدعوات وكتاب منافع القرآن وكتاب علم الهدى وأسرار الاهتداء وكتاب خواص أوفاق ورسالة فى أحكام النجوم ورسائل مجموعة وشرح اسماء الله الحسنى وكتاب غاية المغنم ، وكتاب اللمعة النورانية كلها من تأليف البونى · ويذكر المؤلف كل مرة عنوان المخطوط ونوع خطه وشكله واسم مؤلفه وموضوعه وعدد صفحاته وكم سطرا فى الصفحة ويذكر اسم المكتبة التى يوجد فيها المخطوط ورقمه واسم الناسخ ان كان ويشفع ذلك أحيانا بمعلومات أخرى عن المخطوط كتاريخ النسخ وكون المخطوط نقل عن النسخة الاصلية ، وهكذا ·

وفى أول الكتاب مقدمة مفيدة فيها تعريف بمكتبات اسطنبول وعددها وأسمائها ونظامها الداخلى والادارات المشرفة عليها ومشكلة ازدواج الكتابة بالحروف العربية والحروف اللاتينية فى فهارس الكتب وبطاقاتها كل هذا فى كتاب : مخطوطات جزائرية فى مكتبات اسطنبول · تأليف الدكتور محمد بن عبد الكريم عدد صفحات الكتاب 168 · بيروت 1972 ·

والطلسمات وعن أنماط الاسماء الحسنى وعن الفيض الربانى وعن أعمال السيمياء وعن أشياء كثيرة من العسير جدا حصرها وضبطها لتشعبها وكثرة أنواعها .

والبونى لا يكتفى فى كتابه شمس المعارف بالحديث عن الحروف وأسرارها من الوجهة النظرية بل يشفع ذلك بالخروج الى المجال العملى التطبيقى ولا يقتصر على دراسة حروف القرآن والبسملة وما يتصل بهما بل يضيف الى ذلك الاستفادة من هذه الاسرار فيما يختص بالحياة المعاشية . فاسم الله الاعظم يلجأ اليه عند الضرورة لتحقيق بعض الرغائب أو للخلاص من بعض المصاعب كما كان الاقدمون الغلاة يهزمون به الجيوش . وعندما يتحدث المؤلف عن بسم الله الرحمن الرحيم يذكر ان فيها تسعة عشر حرفا على عدد الملائكة الموكلين بالنار ويروى البونى عن ابن مسعود أن من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليكثر منها . كل حرف نجاة من كل واحد منهم . وفيها الاسم الاعظم الذى كان المسيح عليه السلام يرقى بالباء منها من الاوجاع والآلام (6) . فصار هكذا علم الحروف حرفة ووسيلة لتسخير الطبيعة . ومما يسترعى الانتباه أن البونى ذكر شيئا لعله لم يسبق له ذكر قبله وهو أن الحروف هى 32 حرفا . منها 28 حرفا عربيا مبينا وأربعة أحرف مدغمة واهية اللفظ وهى گ-چ-ث-پ (7) .

ومما يدل على المكانة السامية التى احتلها البونى بعصاميته بين العلماء والمفكرين فى القديم اقتران اسمه فى بحوث اشهر الدارسين باسماء لامعة فى سماء العلم والفكر والتصوف . ذكر ابن خلدون البونى فى مقدمته فى فصل واحد ثلاث مرات بصدد حديثه عن علم أسرار الحروف . قال : « وتعددت فيه (علم أسرار الحروف) تآليف البونى وابن عربى وغيرهما ممن اتبع آثارهما » ، وقال متحدثا عن أصحاب السيمياء : « ان مستندهم فيه الذوق والكشف . قال البونى : ولا تظن أن سر الحروف مما يتوصل اليه بالقياس العقلى وانما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الالهى » .

---

(6) شمس المعارف الكبرى ، ص 33 وما بعدها .
(7) المصدر نفسه ، ص 363 .

وقال : « ويبنون على ذلك مباني غريبة منكرة من تقسيم سور القرآن وآية على هذا النحو كما فعله مسلمة المجريطى (8) فى كتاب الغاية • والظاهر مـن حال البونى فى أنماطه انه اعتبر طريقتهم » • (9)

أما ما يخص علم أسرار الحروف فقد قال عبد الرحمن بن خلدون : وحدث هذا العلم فى الملة بعد صدر منها (10) ويبدو أن أبا محمد سهل بن هارون بن راهبون الكاتب صاحب بيت الحكمة أيام المأمون العباسى (830/215) كان أول من عرض لهذا الميدان ببحثه فى الحروف العربية عموما وملاحظته أن عددها يعادل عدد منازل القمر الثمانية والعشرين وأن أطول كلمة عربية لا تتجاوز حروفها السبعة عدد السيارات السبع وأن الحروف المزيدة على الاصول العربية تعادل عدد البروج الاثنى عشر وأن نصف الحروف يدغم مع لام التعريف وهى الشمسية ونصفها لا يدغم • فتنبه الى أن ذلك يشبه منازل القمر من حيث ظهور نصفها للعيان واختفاء النصف الآخر على الوجه الآخر للقمر والتفت سهل بن هارون كذلك الى أن حركات الاعراب الثلاث تشبه الحركات الطبيعية الثلاث : الاولى من الوسط كحركة النار والثانية الى الوسط كحركة الاجرام الساقطة من الجو على الارض والثالثة حول الوسط كحركة الفلك • (11)

---

(8) مسلمة المجريطى (338 ـ 950/398 ـ 1007) أبو القاسم • فيلسوف رياضى فلكى كان امام الرياضيين بالاندلس وأوسعهم احاطة بعلم الافلاك وحركات النجوم• مولده ووفاته بمجريط (مدريد) • الاعلام ط • 3 • 121/8

وكان موسيقارا معروفا وله فى الموسيقى والرياضيات رسائل • ولم يصلنا من كتبه الا كتابان : 1 ـ وثبة الحكيم فى الكيمياء والسيمياء • 2 ـ وغاية الحكيم وأحـــق النتيجتين بالتقديم فى الطب • تراث الاسلام ، ص 537 ، وقال عبد الرحمن بن خلدون : ثم جـــاء مسلمة بن أحمد المجريطى امام أهل الاندلس فى التعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها فى كتابه الذى سماه غاية الحكيم • ولم يكتب أحد فى هـــذا العلم بعده •

المقدمة تحقيق نصر الهورينى ، ص 242 •

(9) مقدمة ابن خلدون تحقيق نصر الهورينى ، ص 245 •

(10) مقدمة ابن خلدون بتحقيق نصر الهورينى ، ص 245 •

(11) الفهرست لابن النديم ، ص 10 •

وذكر ابن النديم أن الكندى (260/873) كان أول من حاول استخراج الدلالات العددية من الحروف لينتقل الى الاسرار الكامنة فيها · من ذلك انه ذكر أن لفظ « القلم » يساوى لفظ « نفاع » على اعتبار أن كلا اللفظين اذا جمعت جملة حروفه العددية يساوى 201 · (11)

من هنا برزت الحروف بوصفها مصدر للمعرفة وجاء بعد الكندى أبو زيد احمـــد ابن سهل البلخى (235ـ 322/849 ـ 934) أحد الكبار الافذاذ من علماء الاســـلام جمع بين الشريعة والفلسفة والادب والفنون وكان من براعته فى الحساب أنه وقت وفاة نفسه فى دقة غريبة وقد كتب أبو زيد هذا رسالة فى أن سورة الحمد تنوب عن جميع القـــرآن · (12)

وقد احتفظ التاريخ باسم كتاب ضاع ألفه محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبى (269 ـ 318هـ/883 ـ 931م) وهو كتاب الحروف · (13)

ولم يدخل القرن الرابع حتى كانت فكرة معالجة الحروف داخلة فى كل أشكال المعرفة الانسانية · فعالجها الشيعة والصوفية والفلاسفة · وقد زعم الحلاج مقتفيا أثر أبى زيد البلخى فى القول بأن فى القرآن علم كل شىء وعلم القرآن فى الاحرف التى فى أوائل السور وعلم الاحرف فى لام الف وعلم لام الف فى الالف وعلم الالف فى النقطة ··· (14)

وعنيت الفلسفة بمعالجة الحروف فكتب فيها ابن سينا (370 ـ 428هـ) رسالة فى معانى الحروف الهجائية التى فى فواتح السور القرآنية (15) وألف أبو حامد الغزالى (450 ـ 505هـ) رسائل ضاعت · منها : أسرار حروف الكلمات ـ رسالة فى الاحرف ـ فواتح السور ـ المبادى والغايات فى أسرار الحروف · (16)

(12) الاعلام 131/1 ـ الفهرست 138 ـ معجم الادباء 62/3 وما بعدها ·
(13) تاريخ الفكر الاندلسى ، ص 329 ·
(14) اخبار الحلاج (تحقيق ماسينيون وبول كراوس) باريس ، 1936 ، ص 95 ـ 96 · نقلا عن كتاب الفكر الشيعى والنزعات الصوفية ·
(15) تسع رسائل لابن سينا ، ص 92 ـ 96 ·
(16) مقدمة المنقذ من الضلال لجميل صليبا وكامل عياد ـ دمشق 1934 ، نقلا عن كتاب الفكر الشيعى والنزعات الصوفية ·

اما محيى الدين بن عربى (560 ـ 638هـ/1165 ـ 1240م) فقد تحدث باسهاب عن علم أسرار الحروف فى الفتوحات المكية • قال :

اعلم وفقنا الله واياكم أن الحروف أمة من الامم مخاطبون مكلفون • وفيهم رسل من جنسهم • ولهم أسماء من حيث هم • ولا يعرف هذا الا أهل الكشف من طريقنا • وعالم الحروف أفصح العالم لسانا وأوضحه بيانا • وهم أقسام كأقسام العالم المعروف فى العرف • (17)

وقال : ولو فتحنا الكلام عن سرائر هذه الحروف وما تقتضيه حقائقها لكلت اليمين وحفى القلم وجف المداد وضاقت القراطيس والالواح • فانها من الكلمات التى قال الله ـ تعالى ـ فيها : لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا • وقال : ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله وقـــال : وهنـــا سر واشارة عجيبة لمن تفطن لها وعثر على هذه « الكلمات » فلو كانت هذه العلوم الالهية نتيجة عن فكر ونظر لانحصر الانسان فى أقرب مدة • ولكنها موارد الحق ـ تعالى ـ تتوالى على قلب العبد وأرواحه البررة تنزل عليه من عالم غيبه • اهـ (18)

وننقل هنا ما يدل على موقف محيى الدين بن عربى من علم الحروف ورأيه فيها • قـــــال :

وهو (علم الحروف) علم شريف فى نفسه الا أن السلامة منه عزيزة • فالاولى ترك طلبه • فانه من العلم الذى اختص الله به وأولياؤه على الجملة وان كان عند بعض الناس منه قليل ولكن من غير الطريق الذى يناله الصالحون • ولهذا يشقى به من هو عنـــده ولا يسعـــد • (19)

---

(17) الفتوحات المكية 1/255 ـ 260 ـ كلام محيى الدين بن عربى عن الحروف كثير موزع على الاجزاء الثلاثة الاولى من الفتوحات • انظر الطبعة الجديدة بتحقيق د • عثمان يحيى وتصدير د • ابراهيم مدكور • القاهرة 1972 ـ 1974 •

(18) المصدر السابق ، 3/208 •

(19) ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، ص 90 •

وأسلوب المتصوفة فى علم أسرار الحروف والاسماء بوجه عام فى غاية الغموض والابهام لاستخدامهم الرموز والالفاظ الاصطلاحية لاخفاء أذواقهم ٠ فلعبارتهم فى الغالب معنيان أحدهما يستفاد من ظاهر الالفاظ والآخر يستفاد بالتعليل والتعمق ٠ وهذا المعنى الاخير مستغلق تماما على من ليس بصوفى ٠ ويعنى الرمز عند الصوفية أيضا دمج معان كثيرة فى ألفاظ قليلة غيرة عليه واتقاء لحاسد أو جاحد لمعانيه ومبانيه ٠

ربما يكون من المفيد أن نختم هذا المقال بالقاء شيء من الضوء على ظاهرة علم أسرار الحروف والاسماء بتلخيص ما ذكره ابن خلدون فى المقدمة بهذا الصدد : كان علم أسرار الحروف يسمى بالسيمياء ٠ وهي نوع من السحر ٠ واشتق علم أسرار الحروف من علم الطلمسات فى اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة ٠ وحدث هذا العلم فى الملة عند ظهور الغلاة من المتصوفة وميلهم الى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات فى الكون وتدوين الكتب والاصطلاحات ٠ وزعموا أن الكمال الاسمائى مظاهره أرواح الافلاك والكواكب وأن طبائع الحروف وأسماءها سارية فى الاسماء ٠. فحدث لذلك علم أسرار الحروف ٠ وهو فرع من علم السيمياء وحاصله وثمرته عند أهله كالبونى وابن عربى والمجريطى وابن سبعين وغيرهم تصرف النفوس الربانية فى عالم الطبيعة بالاسماء الحسنى والكلمات الالهية الناشئة عن الحروف المتضمنة للاسرار السارية فى الكون ٠ ثم اختلفوا فى سر التصرف الذى فى الحروف بماذا يكون ٠ منهم من جعله كامنا فى طبيعته المستكنة فيه ٠ وقسم الحروف بقسمة الطبائع الى أربعة أصناف كما للعناصر واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع التصرف فى طبيعتها فعلا وانفعالا بذلك الصنف ٠ فتنوعت الحروف بصفة صناعية الى نارية وهوائية ومائية وترابيـــة على حسب تنوع العناصر ٠ فالالف للنار والباء للهواء والجيم للماء والدال للتراب ٠ فاختص كل من العناصر وهى النار والهواء والماء والتراب بحروف سبعة ٠

ومنهم من جعل سر التصرف الذى فى الحروف للنسبة العددية ٠ فان حروف أبجد دالة على أعدادها ٠ فعلاوة على التناسب الذى بين الحروف والاعداد يوجد تناسب بـين الحروف نفسها أيضا كما بين الباء والكاف والراء لدلالتها كلها على الاثنين كـل فى رتبته ٠ فالباء تساوى اثنين فى رتبة الآحاد والكاف تساوى اثنين فى رتبة العشرات

والراء تساوى اثنين فى رتبة المئتين (ب = 2 ، ك = 20 ، ر = 200) وكالذى بينها وبين الدال والميم والتاء لدلالتها على الاربعة (د = 4 ، م = 40 ت = 400) وبين الاربعة والاثنين نسبة الضعف ٠

وخرج للاسماء أوفاق كما للاعداد ٠ يختص كل صنف من الحروف بصنف من الاوفاق الذى يناسبه من حيث عدد الشكل أو عدد الحروف ٠

وامتزج التصرف فى السر الحرفى والسر العددى لاجل التناسب الذى بينهما ٠ ويعترف ابن خلدون بأن سر هذا التناسب الذى بين هذه الحروف وأمزجة الطبائع أو بين الحروف والاعداد أمر عسير على الفهم ٠ اذ ليس هو من قبيل العلوم والقياسات ويعتمد أهل هذا العلم فى ذلك على الذوق والكشف ٠ قال البونى : ولا تظن أن سر الحروف مما يتوصل اليه بالقياس العقلى ٠ وانما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الالهى ٠ وتاثره بها أمر لا ينكر لثبوته عن كثير من أصحاب هذا العلم بالتواتر ٠ وينكر أن تصرف هؤلاء وتصرف أصحاب الطلسمات واحد ٠

فان تأثير الطلسم ـ كما يقر أهله بذلك ـ ناشىء عن قوى روحانية تؤثر وتفعل بطريق القهر والغلبة بواسطة أسرار فلكية ونسب عددية وبخورات جالبات لروحانية ذلك الطلسم مشدودة فيه بالهمة ٠ فائدتها ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية فيحصل بذلك الربط التحول المنشود فى الطبيعة ٠ فهيمنة الطلسم على الطبيعة يقع بملكة مكتسبة نابعة من نفس وهمه مستخدمة ٠ يقولون : موضع الكيمياء تأثير جسد فى جسد ٠ وموضع الطلسم تأثير روح فى جسد لانه ربط الطبائع العلوية وهى روحانية بالطبائع السفلية وهى جسد ٠

ولابد من التاكد من شىء وهو أن التصرف فى الطبيعة من قبل أهل الطلسمات وأهل الاسماء يعتمد على النفس الانسانية والهمة البشرية ٠

وتاكيد الفرق بين أهل الطلسمات وأهل الاسماء نابع من أن النفس البشرية تتصرف فى الطبيعة بذاتها ٠ أما تصرف أهل الطلسمات فانما يعتمد على استنزال روحانية

الافلاك وربطها بالصور أو بنسب عددية حتى يتحقق التحول المرجو فى الطبيعة ·
وتصرف أصحاب الاسماء يحصل لهم بالمجاهدة والكشف والاستمداد من النور الالهى
والعون الربانى · فيقع بذلك امتثال الطبيعة وخضوعها ·

وصاحب الاسماء لا يحتاج الى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها لان مدده أعلى منها
أما أهل الطلسمات فيحتاجون الى قليل من الرياضة تفيد النفس قوة على استنزال
روحانية الافلاك · بخلاف أهل الاسماء فان رياضتهم هى الرياضة الكبرى المنزهة عن
قصد التصرف فى الكون · وانما التصرف حاصل لهم بفضل وضعهم الممتاز وهو كرامة
من كرامات الله لهم ·

فاذا خلا صاحب الاسماء من الصلة بينه وبين الله حرم معرفة أسرار الله وحقائق
الملكوت النابعة من المشاهدة والكشف واستعاض عن ذلك باستخدام مناسبات الاسماء
وطبائع الحروف والكلمات وهبط الى دركة أهل السيمياء وصار اذن لا فرق بينه وبين
صاحب الطلسمات · بل صاحب الطلسمات أوثق منه لانه يرجع الى أصول طبيعية
علمية وقوانين مضبوطة (20) ·

(20) مقدمة عبد الرحمن بن خلدون بتحقيق نصر الهورينى ، ص 245·

اهم المصادر والمراجع

1 ـ الاعلام ـ الزركلي ـ ط 2 , القاهرة 1957 .

2 ـ تراث الاسلام ـ تأليف جمهرة من المستشرقين باشراف سير توماس أرنولد ، تعريب وتعليق جرجيس فتح الله , ط 2 بيروت 1972 .

3 ـ ابن سبعين وفلسفته الصوفية ـ د . أبو الوفا التفتازاني ، بيروت 1973 .

4 ـ شمس المعارف الكبرى ـ البوني ـ بيروت 1970 .

5 ـ الفتوحات المكية ـ محيي الدين بن عربي ـ طبعة جديدة ـ تحقيق د . عثمان يحيى وتصدير د . ابراهيم مدكور الاجزاء 1 ـ 2 ـ 3 ـ القاهرة 1972 ـ 1974 .

6 ـ الفهرست ـ ابن النديم تحقيق غوستاف فلوغل ـ ليبتزيق 1871 .

7 ـ مخطوطات جزائرية في مكتبة اسطنبول جمع وترتيب د . عمر بن عبد الكريم بيروت , 1972 .

8 ـ معجم الادباء ـ ياقوت ـ دار المأمون ـ الجزء 3 ـ القاهرة 1936 .

9 ـ معجم أعلام الجزائر ـ عادل نويهض ـ بيروت 1971 .

10 ـ مقدمة عبد الرحمن بن خلدون تحقيق نصر الهوريني القاهرة 1274 هـ .

11 ـ الفكر الشيعي والنزعات الصوفية ـ د . كامل الشيبي بغداد 1966 .

حول
اقتصاد مدينة عنابة
في عهد الإستقلال

جلول مكي
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر

مدينة عنابة : هى الوارثة لهبون العتيقة التى أسسها القرطاجيون فى القرن التاسع قبل الميلاد • ثم المدينة الاسلامية القديمة التى أسسها العرب فى القرن الحادى عشر الميلادى ، والتى تعلقت بالصخر فى مواجهة السهل وعلى آخر المنحدرات الشرقية لكتلة ايدوغ ، ويحميها رأس العسة من العواصف البحرية • والمدينة أيضا فى مأمن من فيضانات وادى سيبوس •

ولقد انتقلت المدينة اثناء القرون : هبون التى صارت أسقفية القديس أو قستان ، كانت بين السهل ومصرف ماء بحيرة فزارة ؛ والمدينة الاسلامية بنيت على بعد كيلومترين بالشمال من هبون ، حيث هى اليوم على مسطح منحنى ربوة حيث توجد القصبة ، وكذلك المصالح البحرية التى تحولت الى ميناء عصرى له حوضان محميان بكاسر للامواج •

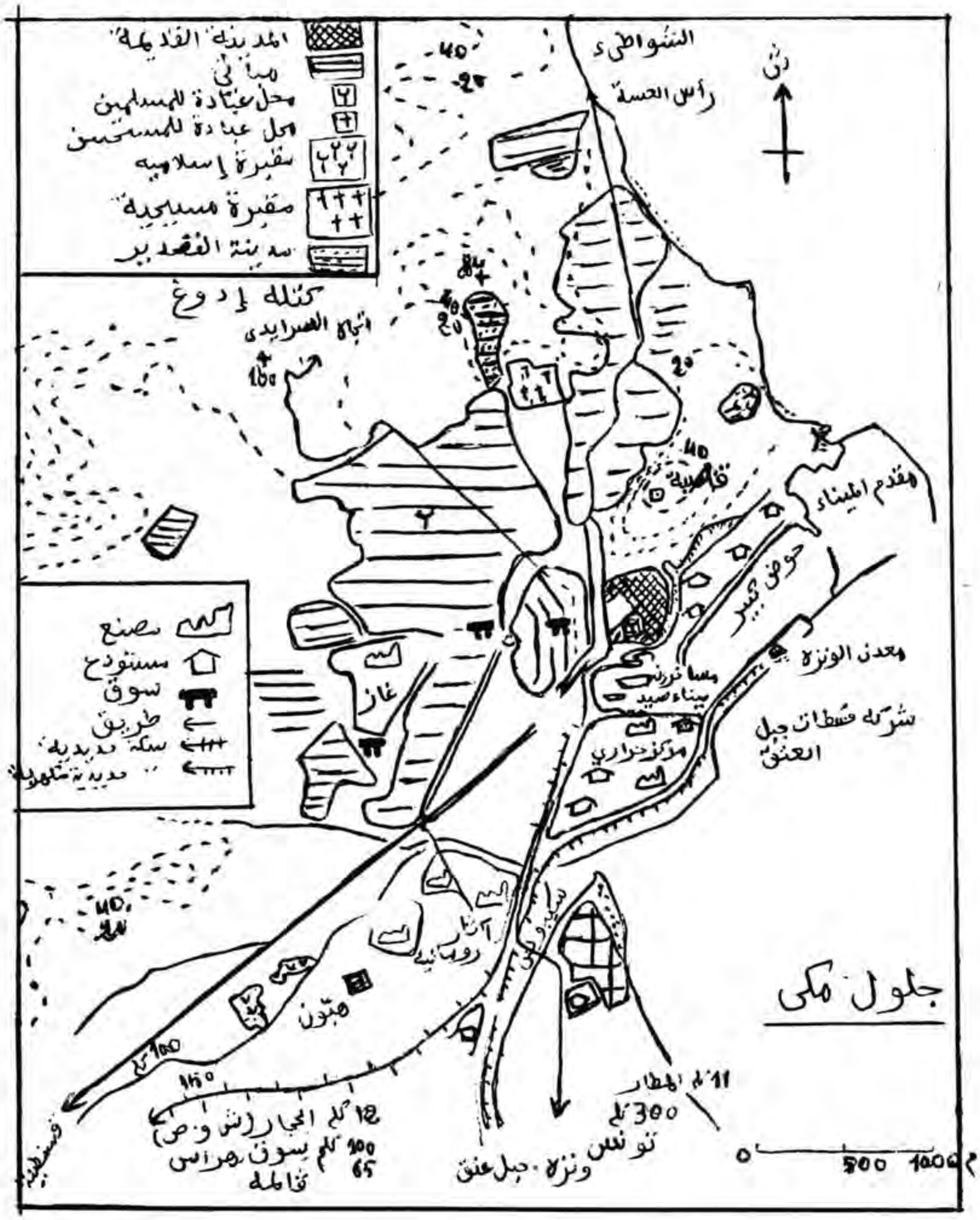
ووضع عنابة البحرى والقارى يذكر بموضع وهـران والجزائر وبجـاية • وميناؤها خاصة محمى جيدا ، ووادى سيبوس وروافده يصلها بظهيرها الخلفى من الجبال والسهول المرتفعة وما تحتويه من ثروات منجمية •

نمو المدينة : كان نموها بطيئا ، ففى سنة 1954 م كان عدد سكانها (90.000 نسمة) وفى سنة 1966 م بلغ هذا العدد (150.000 نسمة) • وهذه الزيادة كانت بسبب العمل فى الميناء ، فعنابة قبل كل شيء هى ميناء ، وهو أول ميناء بالجزائر لتصدير المعادن الى الخارج (حديد ، فسفات الخ •••) ، وكذلك لتصدير فلين التل وحمضيات سهـــل عنابة ، وحلفاء السهول المرتفعة • ويستورد الميناء أشياء الاستهلاك والتجهيزات لناحية عنابة • وهذا النشاط يعطى تجارة عادية بين 4،3 ميلون طن ، يدخل ضمن الصادرات ما يقدر بـ $\frac{4}{5}$ أربعة أخماس المجموع •

ولهذا كله فمدينة عنابة معتزة برخائها وشاعرة بعملها باعتمادها على ظهيرها الخلفى ، فهى تعمل جاهدة منذ زمن طويل لتصدير مركزا جهويا هاما ، ولتستقل عن قسنطينة ، ولم تحقق هذا الا سنة 1955 م بعام واحد فقط قبل تقسيم الجزائر الى ثلاثة عشر ولاية (13) سنة 1956 م •

ميناء عنابة : مدينة عنابة هى قبل كل شيء تعكس نشـاط مينائها المختص بتصدير الثروات المعدنية من حديد جبل الونزة وفسفات جبل الكويف ، واليوم فسفات جبـــل العنق أيضا ؛ واثمد وزنك حميمات جنوب صدراة ، ومنجم رصاص مسلولة غرب منجم الونزة ، ومنجم زنك الناظور جنوب شرق قالمة • والميناء يصدر أيضا منتوجات الارض للسهول المرتفعة (حبوب ، منتوجات حيوانية) ، وحبوب وفلين ظهيرها الخلفى الجبلى •

وعنابة كذلك تسوق وتحول (صناعة) بواسطة تعاضديات ثروات المنتوجات للسهول المجاورة : الخمور ـ القطن ـ الحمضيات ـ الخضر ـ وخاصة الطماطم • لكن هذه النشاطات الفلاحية هى احدى النشاطات الموسمية • وبالمقابل الاستيراد بقى ضعيفا نتيجة لمزاحمه سكيكدة ، وقللت عنابة أيضا من استيراد المنتوجات البترولية ، ومواد البناء ، والآلات والمعدات الـــلازمة للمراكز المنجمية ؛ فالاحصائيات تدل على عدم التوازن التجـارى • فالتصدير سنة 1965 (2.832.000 طن) • والاستيراد (264.000 طن) •



المدينة القديمة
مباني
محل عبادة للمسلمين
محل عبادة للمسيحيين
مقبرة إسلامية
مقبرة مسيحية
مدينة القصدير
كتلة إدوغ
الشواطئ
ش
مقدم الميناء
حوض كبير
معدن الونزة
ميناء صيد
مركز حراري
مصنع
مستودع
سوق
طريق
سكة حديدية
غاز
جلول مكي
المطار
300 كلم
تونس
ونزة - جبل عنق
0 500 1000 م

وميناء عنابة هو أيضا ميناء ثانوى للمسافرين نظير ميناء سكيكدة ، وبه ميناء ثانوى للصيد ، رغم التطويرات التى ادخلت عليه ، ورغم قاعدة الرصيف القارى الواسعة . اما مطارها فليس له نشاط كبير .

الفـــلاحـة بعنـــابـة :

سهل عنابة : يحده من الشمال كتلة ادوغ (1008 مترات) التى تمتد حتى رأس روزه بأقصى شرق السهل بواسطة الربى الرملية المشجرة ؛ ويحده من الغرب جبال القبائل الصغرى «القبائل الشرقية» ؛ ويحده من الجنوب سلسلة جبال قسنطينة «جبال نوميديا».

مساحة السهل وتكوينه : يمتد السهل على طول مائة كيلومتر (100 كلم) ، وعرض عشرين كيلومتر (20 كلم) ، ومساحته مائة وعشرون ألف هكتار (120.000 هـ) . أما تكوينه فهو سهل لحقى من نوع السهول الساحلية الرسوبية كثيرا مـا توجد بالمغـرب العربى «سهل الغرب بالمغرب الاقصى وسهل متيجة ، وسهل بنزرت بتونس» . هـــذا السهل كونته وديان أربعة هى : وادى سيبوس ووادى بونموسة ووادى الكبير الغربى ووادى الكبير الشرقى ، فترسبات طمى هذه الوديان ساعدت على تكوين تربة ثقيلة لكنها خصبة للفلاحة ، وخاصة الزراعة الحديثة ، ويتوسط هذا السهل مستنقعات كثيرة كونتها الوديان الاربعة التى تجمع كل شتاء ماءها وتلقى بها فى هذا السهل فتغذى المستنقعات والبحيرات مثل بحيرة فزارة .

واما مناخ السهل فالامطار كثيرة تتجاوز سبعمائة ملمتر (700 مم) ، وهكذا فمصادر المياه كثيرة ، من الامطار ومن طبقة الارض ومن الوديان ، لكن فى وسط السهل الامطار قليلة ، ولهذا يتطلب الـــرى فى الصيف ولهذا الغرض بنى سد الشافية عـــلى وادى بونموسة سنـــة 1965 ـ 1967 م . سعتـه مائـــة وسبعون مليـــون متر مكعـــب 170.000.000 متر3) . ويسمح برى (21.500 هكتار) . من السهل الاوسط ويـزود أيضا مدينة عنابة ومجمع الحجار الفولاذى بالماء .

متى بدىء فى استغلال السهل ؟ بدأ استغلاله سنة 1835 م باقامة عـــدد كثير من المستعمرات الصغيرة ، وتغلب على مياه السهل مترا مترا ، واستغل بالفـــلاحة الكثيفة (قطن ـ تبغ ـ قزازة ـ تربية الابقار) (1) .

وفى سنة 1880 ادخلت زراعــة الكـــرمة (فرنسيون ـ ايطاليون) ، 9000 هكتـــار كرمة (2) ، وبعد الازمة الاقتصادية التى وقعت بالمنطقة ابتداءا من سنة 1882 م حيث اصيبت الكرمة بمرض القمل ، جاءت موجة أخرى من المعمرين الكرامين من منطقة الجزائر العاصمة واشتروا أكثر الاراضى وجمعوها فى قطع بين (500 ـ 1000 هـ) ، وأسسوا اقتصادهم على الكرمة وتربية الماشية الكثيفة . وادخلت زراعة الحمضيات بين الحـــربين العالميتين (2.300 هـ) ؛ والخضر ، وخاصة الطماطم والتبغ والقطن وتربية المواشى .

وتم صرف مياه السهل الاوسط بين سنتى 1952 ـ 1956 م بوضع شبكة لتصريف الميـــــاه .

وبعد الاستقلال فى سنة 1963 التسيير الذاتى ورث هذا السهل ، وكانت الكـــرمة تحتل من 50 الى 60٪ من الارض ، ثـــم الحمضيات والخضر (بلدية البسباس) ، والزراعة السنوية الغنية مثل : القطن والتبغ والخضر ؛ واليوم اقتلعت الكرمة وعوضت بالمزروعات لكن تحتاج الى سقاية فى الصيف وتتضرر بكثرة الامطار فى الفصل المطـــر ، وهكذا انجزت شبكة لتصريف مياه الامطار ، بالاضافة الى شبكة لـــرى المزروعات الصيفية ، وانجز بنـــاء سد الشافية على وادى بونموسة سنة 1967 م لـــرى السهـــل ، ويسقى (21.500 هـ) ابتداءا من عام 1967 الى 1977 م وهذا الانجاز الهـــام يسمـــح بتكثيف الزراعة وتنويعها : قطن ـ بنجر سكرى ـ مروج . لكن السقاية هنا صعبة لان شبكـــة الرى تسد وتتطلب رقابة محكمة لشبكة التصريف . غير ان هذا الانجاز المهم لا يحـــل المشكل الباقى من السهل وهو : الثلث الغربى من السهل ، والثلث الشرقى من السهل

---

(1) قزازة : تربية دودة القز لانتاج الحرير الطبيعى .

(2) Despois (J.) Raynal (R.) : Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest. p. 166, année 1967 Paris.

الكثير المستنقعات وبه شريط واسع من الساحل ذى الكثبان الرملية . فيبقى الثلثــان بـــورا .

والسهل الاوسط هو الذى جرت فيه اصلاحات هامة .

وسهل عنابة قريب من الميناء ، وقريب أيضا من أكبر مركز للاستهلاك الذى تمثــل مدينة عنابة فتجعل هذا للسهل ذا قيمة كبيرة .

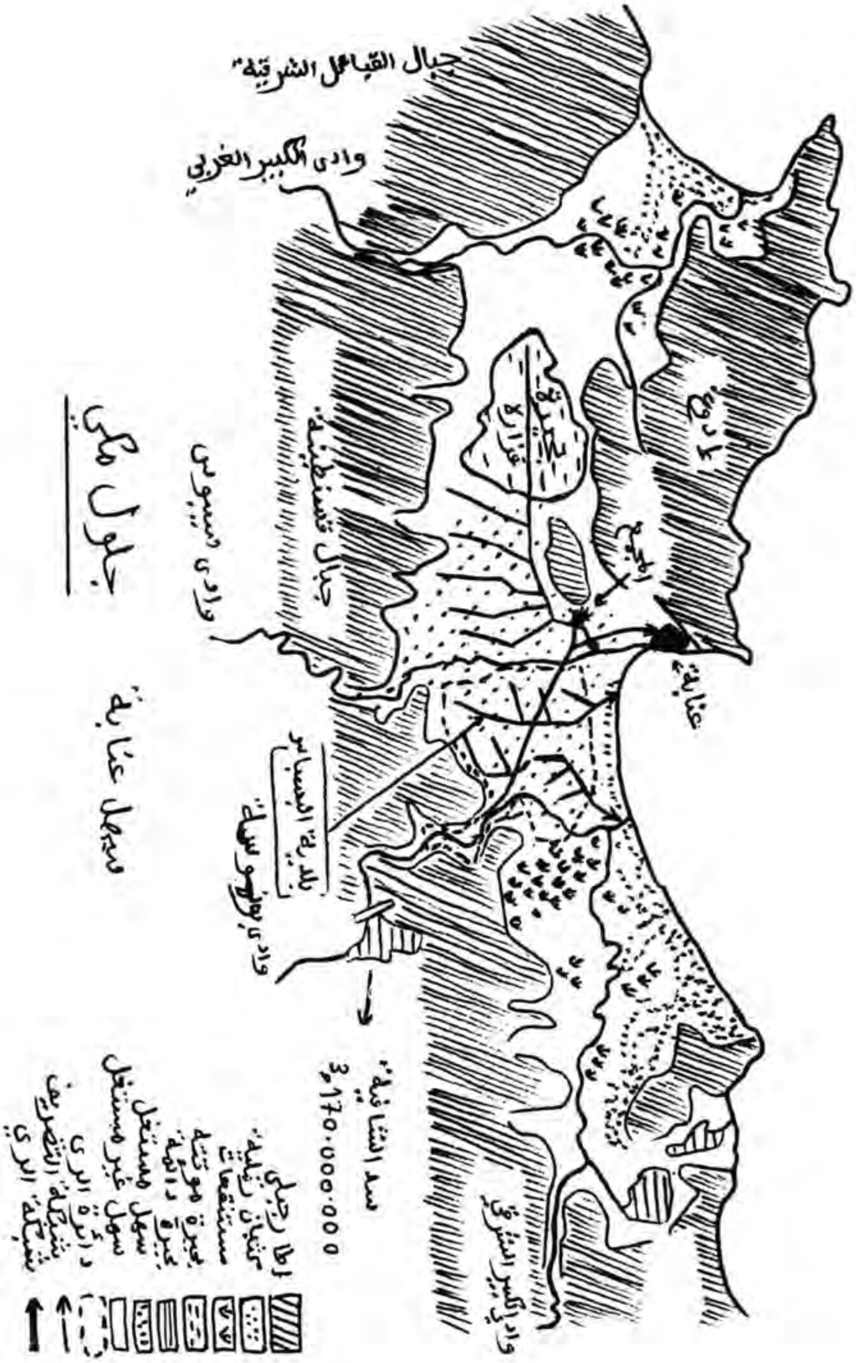
وسهل عنابة اليوم يمكن أن يكون متيجة ثانية لها نفس المساحة تقريبا ، ولـــه نفس الوضعية والقابليات ، ولكن متيجة عنابة تختلف عن متيجة العاصمة فى الكثافة السكانية ، فكثافة سهل متيجة (289 نسمة) فى الكيلومتر المربع ، وكثافة سهل عنابة (65 ن فى كـ2) سنة 1966 م (3) .

المناطق الماهولة بالسكان : تمتد المساكن بين المستنقعات والربى المشجرة ، فالسكان يعيشون أقل تبعثرا فى اكفار بئيسة من أكواخ الطين والاعراف وتزايد عددهم على هذه الحاشية من السهل بسبب حرب التحرير ، وبسبب تحسين الشروط الصحية بصرف المياه والتلقيح ، وأيضا بسبب نزول قسم من سكان الجبال ، وقامت قرى تجميع سكان الجبال رغم عودة بعض هؤلاء السكان الى مقر سكناه القديم (4) . ويقوم هؤلاء السكـان بزراعة الحبوب فى الاراضى الرملية (شعير ـ سرغو) ، والحبوب الجافة ، وخاصة الحمص ، والتبغ ، وهذان الاخيران لهما مردود جيد ؛ بالاضافة الى تربية الابقار الكثيفة والغنــم والماعز ، وشجارة الزيتون بشريط حاشية سهول سفوح الجبال ، تكون اقتصادا تقليديا كثيفا . ثم غرس أشجار الكافور لغرض الصناعة .

غير ان كثرة السكان ادت الى تجزأة الارض ، وهذه التجزأة عقبة كبيرة فى طـريق تحسين الاقتصاد . فالزراعة الصناعية والاعشاب تقهقرت أمام توسع القمــح الصلب ، والناس وجدوا بعض الاعمال فى الغابة ، وفى جنى خلايا النحل هناك .

---

(3) Géographie d'Algérie institut pédagogique national - Alger année 1967, p. 218.
(4) Despois (J.) Raynal (R.) p. 169.


سهل عنابة
جلول مكي
جبال القبائل الشرقية
وادي الكبير الغربي
جبال قسنطينة
وادي سيبوس
بلدية البسباس
وادي بونموسة
عنابة
المجمع
بحيرة فزارة
الوادي الكبير الشرقي
سد الشافية
170.000.000 م3
إطار جبلي
كثبان رملية
مستنقعات
بحيرة موقتة
بحيرة دائمة
سهل مستغل
سهل غير مستغل
دائرة الري
شبكة التصريف
شبكة الري

المجهود الوطني لتحسين سكان الريف بالناحية :

قامت الدولة بوضع برنامج لبناء ثمانية قرى اشتراكية بولاية عنابة ، بها هياكل مرافق الحياة العصرية الضرورية ، وهذا ضمن مخطط بناء ألف قـــرية (1000 قرية) . عبر كامل الوطن ، وهذه القرى الثمانية تشتمل على (1550 مسكنا) ، وانجز منها قريتين هما : قرية أم الطبول ، وبها (200 مسكنا) ، وقرية الفرين بها (150 مسكنا) ، والقريتان بدائرة القالة ، والقرى الستة الباقية هي في طريق الانجاز وكلها تقريبا تقع في السهل .

الصناعة : تهدف الى تغيير طريقة ونظام الاقتصاد الوطني والمحافظة على المبادلات التجارية ، وتوازن المدفوعات ، وترمى الصناعة أيضا الى تغيـير الانسان فى الميدانين : الاجتماعي والثقافي ؛ وبعبارة أخـرى تسعى الى تطـــوير الانسان وتجـديد المجتمع ، فالصناعات الحديدية التى كانت بالجزائر فى العهد الماضى بعنابة ووهران والعاصمة هى : مصانع أسلور (ACILOR) التى تنتج قضبان الخرسانة والاسلاك النحاسية (5) ولخلق صناعة حديدية ثقيلة بالجزائر والتى تهدف الى وضع أسس متينة لكل أنواع الصناعات الاخرى ، وذلك بتحويل مواد الخام تحـــويلا بسيطا وجعلها قابلة للاستغلال من لــدن مصانع أخرى ، كصناعة الفولاذ مثلا ؛ وامـا بصنع آلات لتجهيز هذه المصانع ، ولذلك تلقب أيضا بالصناعة الاساسية أو صناعة التجهيز ، وهى نوعان : (حديدية وكيمياوية) .ولتحقيق هذا الغرض أنشأت الدولة بمساعدة الصندوق الجزائرى للتنمية (ص. ج. ت) الشركة الوطنية للحديد والصلب (ش. و. ح. ص) سنة 1964 وبمساعدتى الاتحـاد السوفياتى وفرنسا المالية والفنية لخلق الصناعة الثقيلة التى تعطى التجهيز الاساسى والضرورى للحياة الصناعية والفلاحية العصريتين . وهذا التجهيز حيوى لبلد فى طريق التجهيز ، وأيضا لتقوم الشركة بتطوير القطاع المعدنى بصفة عامة بالجزائر . وكلفـت الشركة بمهام : 1 ـ انتاج مواد الحديد والصلب 2 ـ انتاج وتحويل المعادن غير الحديدية (نحاس ـ رصاص ـ زنك الخ ...) 3 ـ احتكار توزيع منتجـات الحديد والصلب (6) .

---

(5) Géographie d'Algérie, p. 306.

(6) Imprimerie de l'union, Kouba - Alger ملف الشركة الوطنية للحديد والصلب ص I

ولتحقيق هذه الاغراض فقد اقامت الشركة بانشاء مجمـــع الحـديد والصلـب المتكامل بالحجار ، على بعد أحد عشر كيلومتر من ميناء عنابة ؛ ليكـــون القاعدة الاولى لتحضـير منتجات الحديد والصلب لسد حاجات البلاد (7) .

ورسمت للمجمع الفولاذى المتكامل أهداف ثلاثة ومراحل ثلاثة هى : الهدف الاول من المرحلة الاولى لانجاز المجمع : 1969 ـ 1973 . هو انتاج أصناف مسطحة من الفولاذ (410.000 طن فى العام) . بانشاء فرن عال ارتفاعه 30 مترا ، وقطره 6 أمتار ، وحجمه 653 متر 3 (8) • وقد بدأ تشغيل قسم الحديد الزهر فى جوان 1969 م ، ويستطيع هذا الفرن انتاج (1200 طن) فى اليوم فى المتوسط ، من حديد الـزهر ، (هيماتيت) (9) ؛ ليغذى معمل الفولاذ ، ويعتبر هذا الفرن من أحدث الافران العالية فى العالم ويعـــالج الفولاذ بالاوكسيجين ، والدرفلة على الساخن والدرفلة على البارد وقد تطلب ذلك برنامج استثمار مبلغ مليارين من الدنانير ، وفعلا انجز قسم صناعة الفولاذ ، وسيوسع هـذا القسم حتى يحقق انتاج (500.000 طن) فى العام • من الفولاذ المدرفل بتحويل خامات منجم الونزة وبوخضرة الى منتجات مدرفلة لتسد متطلبات الصناعة المتعددة ، ولتحقيق هذا العرض خصص معمل للمنتجات المسطحة من الفولاذ المصنع عـلى البارد ، ويعتبر المعمل الاداة الضرورية لانتاج الفولاذ للاستهلاك العام فى قطـــاع الصناعات الميكانيكية والمعـــدنية .

ففى عام 1969 م بدأت الجزائر تشغل أكبر معمل فى العالم ينتـج أنابيب حلزونية ملحومة كهربائيا ، لانتاج (100.000 ط/ع) ، من الانابيب كبيرة القطر (الغاية 1،20 مترا) لنقل المحروقات والمياه • وأنشأت الشركة أيضا معملا آخر للانابيب بدون لحـام ينتج (86.000 ط/ع) .

والشركة تتهيأ لانشاء معمل (محبلة) لتصفيح الاسلاك والحلقات (الحبـال للتنقيب

(7) Géographie d'Algérie, p. 224 بمساعدات : فرنسا المالية والفنية لبناء ثلاثة افران عالية 1968 • والاتحاد السوفياتى المالية والفنية لانجاز مصنع الفولاذ 1969 م • وايطاليا المالية والفنية لانجاز مصنع للتصفيح 1970 م •

8) كتاب الثورة الصناعية ـ وزارة الصناعة والطاقة ـ الجزائر 1974 • ص 74 – 75 – 76 – 77 – 78 •

9) الحديد الزهر هو : فلذات تحول الى حديد ممزوج بالكوك وغيره •••)

على المعادن ، والحلقات للبناء والهندسة المدنية) · وللوصول الى غاية الهدف الثانى وهو زيادة نوعيات المنتجات المقدمة للاستهلاك ·

ويرسل خط السكة الحديدية المكهرب فى الحالة العادية خمسة قطارات فى اليوم ، كل قطار به 22 عربة محملة بمعدن الحديد من منجم الونزة وبوخضرة (10) · وقسم آخر من فلذات الونزة يصدر الى البلدان الاوروبية ، والانتاج السنوى حاليا 1974 م · بين 3،5،3 مليون طن ·

وبالمجمع فرن للحجر الجيرى ارتفاعه 75 مترا ينتج (120 طنا) يوميا من الحجر الجيرى . اما الهدف الثانى من المرحلة الثانية للمجمع الفولاذى التى تمتد من سنة 1973 ـ 1976

فقد تحقق فيها توسيع زمرة المنتجات المسطحة بانشاء قسم الدرفلة على البارد ، واقامة خط للخلفنة بواسطة الحل الكهربائى (11) · وانجاز خط آخر للقصدرة بواسطة الحل الكهربائى أيضا . بالاضافة الى اقامة قسم للانابيب دون لحام ، وقسم آخر لصناعة الفولاذ الكهربائى الذى ينتج (100.000 ط/ع) . وقسم لدرفلة الاسلاك والقضبان . والهدف الثانى لمجمع الحجار هو زيادة نوعيات المنتجات من الاسلاك والحلقات للاستهلاك . ويبدأ المجمع يشغل هذه المنشآت منذ أواخر عام 1972 ، وينتهى من اتمام التشغيل الامل فى عام 1976 م . وهكذا يصل المجمع الى الهدف الثالث من المرحلة الثالثة والتى تمتد من سنة 1977 الى 1978 م . بغية زيادة الانتاج من (1.800.000ط/ع) الى (2.000.000 ط/ع) . وصناعة (220.000 ط/ع) من الانابيب من مختلف الاحجام ، ولتحقيق هذا الهدف أنشىء قسم ثان للصلب مجهز بفون عال ثان حجمه (2000 م3) . وفرن على فحم الكوك طاقته (1.2) مليون طن سنويا (12) . وذلك بانشاء قسم جديد لانتاج الحديد الزهر ، ملحق به قسم لانتاج الكوك . وأيضا توسيع صناعة الفولاذ بالاوكسيجين ؛ وبانشاء قسم الصب المستمر الذى يشتمل على : 1 ـ ورشات لتحويل المخردة الى فولاذ . 2 ـ ورشة للصب المستمر للفولاذ السائل بها ثلاث آلات للصب المستمر . 3 ـ ورشتين ينتجان على الترتيب : 100 و 155 ط من الاوكسيجين يوميا من كاربون الكالسيوم ، وينتجان أيضا الآزوت والاراغون (13) .

(10) Géographie d'Algérie, p. 222.

(11) Imprimerie de l'Union, Kouba, Alger, p. 4. ملف الشركة الوطنية للحديد والصلب

(12) كتاب الثورة الصناعية ص 78 ·

(13) قسم صناعة الفولاذ بالاوكسيجين ص 8 ·

وبجانب المجمع مصنع حرارى قوى يشتغل بالغاز الطبيعى من حاسى مسعود (عبر سكيكدة)• لا لانتاج الطاقة الكهربائية للمجمع فقط ولكن أيضا لخط السكة الحديدية لنقل المعادن ، وللصناعات المختلفة : (نحاسة ـ بناءات كهربائية) . وبالاضافة الى الطاقة الكهربائية يستعمل المجمع الفولاذى كذلك الكوك مسورد . وبالاضافة الى هذا انشىء بجانب المجمع معهد للمناجم والمعادن والبناء الميكانيكى ، يسع (3.000 طالب) ، مركز لتكوين المهن المتعددة ومركز آخر للتكوين المهنى ، ويعتبر هذا المجمع هو أكبر مصنع بالجزائر ، يضم أضخم عدد من المستخدمين ، لهم اختصاصات متعددة فى الانتاج ، وفى صناعة المعدات ، وفى الفحوص الدقيقة المواد الاولية والمنتجات النهاية . وقد تلقوا تكوينا فى المراكز الوطنية للتكوين أو الجامعات الجزائرية أو الاجنبية ، وبالتدريبات الدورية فى المصانع الحديثة فى الاتحاد السوفياتى والمانيا الفدرالية وايطاليا وفرنسا . وهكذا هم مسلحون للمشاركة فى الجهود التى تبذلها البلاد والرامية الى تغيير المجتمع الجزائرى ، هذه الجهود التى تتمثل فى الثورة الصناعية (14) التى تخدم الزراعة بانتاج الآلات الفلاحية وآلات الرى ، وهكذا تكون الصناعة فى خدمة الفلاحة العصرية التى تؤدى الى تغيير جذرى فى طريقة التصرف الفردى والجماعى فى المعمل والورشة والمؤسسة والجماعة

الانتاج سنة 1974 (15) :

450.000 ط/ع من الحديد الصلب تحول الى

410.000 ط/ع من صفائح الفولاذ

120.000 ط/ع من الانابيب الحلزونية ملحومة كهربائيا

400.000 ط/ع من الصفائح المصنعة على الساخن

150.000 ط من اللوحات المصنعة على البارد

40.000 ط من اللوحات المغلفنة أو الممزوجة بالالومنيوم منها

20.000 ط معرقة

I4) ملف الشركة الوطنية للحديد والصلب ص II •
I5) كتاب الثورة الزراعية ص 77 •

الانتاج المرتقب سنة 1980 م :

1.550 ط من الحديد الزهر

1.700 ط من الحديد الصلب

1.000 ط من المنتجات المسطحة المدرفلة على الساخن

270 ط من المنتجات المسطحة المدرفلة على الساخن

840 ط من القطاعات والقضبان

180 ط من أنابيب كبيرة ملحومة

30 ط من الغلافات المعدنية

70 الزنك الصافى

730 ألف قارورة غاز

العمال بالمجمع : يبلغ عدد العمال حاليا (5.564 عاملا) ، 210 مهندسيون وكوادر ، و 280 مراقبون وفنيون ، و 1585 عمال مهرة ، و 2245 عمال عاديون ، و 935 مستخدمون واداريـــون .

هذه هى الصناعة الثقيلة الاولى بمدينة عنابة ، أما الصناعة الثقيلة الثانية بالمدينة فهى الصناعة الكيمياوية الثقيلة لانتاج الاسمدة الفسفاتية . لقد كان فى العهد الماضى مصنع لانتاج السماد الرفيع من فسفات الكويف . وفى سنة 1963 م انشئت الشركـة الجزائرية للمنتجات الكيمياوية والاسمدة لجبل العنق . وانتج هذا المصنع سنة 1966 م مائة ألف طن (100.000 ط) من الاسمدة الفسفاتية من فسفات جبل العنق وأمنيـاك ارزيو (16) . ونظرا لمتطلبات الفلاحة المتزايدة للمواد المخصبة بدأت الدولة سنة 1969 م فى انشاء مجمع للاسمدة الفسفاتية بعنابة وبدأ تشغيله سنة 1972 م . ليوافق المرحلة الاولى من الثورة الزراعية 1972 وتقدر كلفة المجمع بحوالى 400 مليون دينـــار جزائرى وينتج (500 طن يوميا) من العنـــاصر المحصبة (بـ 205) . وتبلـــغ طاقتـه السنوية

(16) Géographie d'Algérie, p. 307.

(550.000 ط/ع) من الاسمدة المركبة ، و (450.000 ط/ع) من حمص السولفيرى ، (175.000 ط/ع) من حمص الفوسفورى (17) .

ومع المجمع أحـــواض التخزين . وأممـت الشركة الجزائرية للمنتجات الكيمياوية والاسمدة لجبل العنق سنة 1972 م .

وأول قطار من فسفات منجم جبل العنق غادر المنجم به (22 عربة) كان فى خريف 1966 م . بخط حديدى مكهرب طوله (340 كلم) الى عنابة ، ويرسل الخط فى الحـــالة العادية قطارا كل يوم .

وانتـــاج الفسفات سنــة 1974 م (400.000 ط/ع) تصـــدر بحالتهـا الطبيعية و (600.000 ط/ع) منتقاة يجـــرى تحويلها فى المجمع لانتاج (550.000 ط/ع) مـن الاسمدة الفسفاتية والاسمدة المركبة .

وبالاضافة الى مجمعى الصلب والحديد ، والاسمدة الفسفاتية تـــوجد هناك بعض الصناعات المعدنية التابعة للشركة الوطنية للانشاءات المعدمية منها : وحدة شمال افريقيا للبناء الميكانيكى وآلات السكك الحديدية لانتاج عربات القطار من كل نوع (لنقل المعادن والركاب الخ ...) ومعدات السكك الحديدية ، بها مصهر للحديد ، ووحدة أخرى لانتاج معدات الطرق والهندسة المعمارية ، وهياكل البناءات المعدنية . ووحـدة ثالثة للبناءات الجـــاهزة .

وهناك صناعات أخرى : مصنع للرخام وآخـر للمواد الحمراء . وأخيرا الصناعات الغذائية : معصرة للزيت ـ أرحاء ـ تعاضديات توضيبية : (للتبغ ـ والقطن وتحـويل الطماطم ، والحمضيات) . واليوم هذه التعاضديات اتحدت ونظمت كل انتاج السهـــل (مشاريع التبغ ـ معالجة القطن) .

وهكذا عنابة بفضل مينائها وشبكة مواصلاتها بالداخل وقربها من سهـل خصب للفلاحة ، وبفضل ثروات معادن ظهيرها الخلفى ، وبالمجمعات الصناعية التى توجد هناك فعنابة تكون قاعدة اقتصادية متينة ، وهى بهذا صارت أحد أقطاب الصناعة الجـزائرية والاقتصاد الجـزائرى الحـــديث .

17) كتاب الثورة الصناعية ، ص 51 .

معركة عنابة
التى تحدت الحلف الأطلسى

محمد الصالح الصديق
أستاذ فى التعليم الثانوى

من المعارك التاريخية الخالدة ، التى وقف فيها المجاهدون موقفا بطوليا رائعا ، لن ينساه التاريخ فى غمرات الاحداث ، معركة عنابة التى وقعت فى يوم 24 جوان سنة 1959 .

تلك المعركة التى هزت الاوساط الاستعمارية فى الجزائر وفى فرنسا ، وشغلت الصحافة العالمية الحرة منها والماجورة ، والتى شاهدها ضابط بحرية بريطانى من ميناء عنابة ، وراعه عنفها وضراوتها ، وعجب من قلة المجاهدين وكثرة الجنود الفرنسيين والاستعدادات الهائلة الضخمة التى استقلمت للمعركة فقال لشخص كان بجانبه :

كم عدد الثوار الذين تحاربونهم الآن ؟ .

فاجابه الآخر : بانه يقال ان عددهم حوالى السبعين .

فابتسم الضابط البريطاني ابتسامة سخرية وقال :

« في استطاعة الحلف الاطلسي ان يعتمد عـــلى الجيش الفرنسي ضـــد الاتحـــاد السوفياتي ... » (1)

فأين الشاعر المبدع ؟ أين الكاتب العبقري ؟ أين المؤرخ المعلـل ؟ أيـن القصاص المـاهر ؟

أين هؤلاء ليكتبوا عن هذه المعركة ، ويصوروا ضراوتها ، ويحللوا أبعادها ، ويصوروا بطولة احفاد عقبة بن نافع وطارق بن زياد في الجزائر ؟

أين هؤلاء ليصوروا الفدائية الخارقة ، والبطولة الرائعة ، التي تجلت في تلك الفئـة القليلة المؤمنة ، وهي تقاتل قوة من اعظم القوى الحربية الفرنسية ؟

أليس هذا عجيبا يدعو الى الحيرة ، ويبعث على الدهشة ، ويثير في النفس تساؤلا ، وفي بعض النفوس تشككا وريبا ... ؟ تسعون مجاهدا ـ فقط ـ يقفون صامديـــن صابرين في بطولة واستبسال امام ثلاثة وعشرين ألف جندي فرنسي معززين بالطائرات والدبابات والمدفعية الثقيلة والأسلحة المختلفة الاخرى ، وتستمر المعركة في أشد ما يكون العنف ، واقسى ما تكون الضراوة والوحشية زهاء عشر ساعات متوالية ، ثم يسجلـون أكبر نصر ، ويكتبون بدمائهم انصع صفحة في تاريخ الاسلام ؟ ؟

هذا شيء كان الناس يقرأون مثله في القصص الخيالية فتهتز قلوبهم اعجابا ، وكانوا يسمعونه من بعض الشيوخ الأسطوريين الذين يلذ لهم ان يسامروا في ليالي الشتـاء الطويلة ، ولكننا رأيناه رأى العين في الجزائر ، وسمعناه سمع الأذن ممن تخلفوا عن ركب الشهداء ...

معـــركـة عنـــابـة

الى هذه المعـــركة ـ أيها القـــارىء الكريـم ـ في شيء من الـــوصف والتفصيل ريثما تنال معارك التحرير الجزائرية حظها من الكتابة الجدية المستفيضة ، وتعطى مـن العناية ما يتفق واهميتها في انقاذ الاسلام والعروبة في هذا الوطن :

---

(1) المجاهد عدد 46 ت 13 جويلية 1959 .

كانت فرقة (كومندوس) من جيش التحرير الوطنى بقيادة الملازم البطل (حيدوش) قادمة من الحدود التونسية وكانت على بعد ثلاثين كيلومترا من مدينة عنابة عندما اكتشفها الفرنسيون والساعة اذ ذاك تشير بالضبط الى السابعة والربع من مساء يوم الثلاثاء 23 جوان سنة 1959 ·

وما ان اكتشف الفرنسيون هذه الفرقة حتى أخذوا يطوقونها بحصار محكم فاستقدموا لهذا الغرض فرق القوم والحركة ، وفرق اللفيف الاجنبى ، وفرق القلانس الحمراء والخضراء،والفرقة الرابعة عشرة للمصفحات،ووحدات أخرى مختلفة من البوليس (س·ر·س) واستقدمت هذه الفرق من قسنطينة ، سكيكدة ، قالمة ، سطيف ، سوق السبت ، وادى العنف ··· بل ان بعض الفرق استقدمت من جنوب وهران بواسطة الطائرات ···

واستمرت القيادة العسكرية الفرنسية كامل الليل تهيىء هذه العدة الضخمة لتنظيم الحصار ، وباتت مدينة عنابة تلك الليلة فى موجة صاخبة من الهرج والمرج ، والفزع والروع تنتظر فى قلق بالغ ، وحيرة ماحقة ، ما يسفر عنه الصباح ·

وبالرغم من هذه القوة الضخمة التى تتلاحق الى المكان بين الفينة والاخرى فان فرقة جيش التحرير الوطنى لم تقف مكتوفة الايدى بل واصلت سيرها فى حذر داخل دائرة الحصار ، نحو مدينة عنابة ·

وكان البطل (حيدوش) قائد الفرقة قد وقف بين جنوده اثر اكتشافهم وقال، فى لهجة المؤمن الصادق الذى باع روحه لله فى سبيل عزة الوطن ، وتيقن انه واصحابه على موعد مع الموت :

(أيها المجاهدون الابطال ··· يا حماة الجزائر البواسل ··· اذا كان العدو يفوقنا عددا وعتادا فاننا نفوقه ايمانا بالله ، وايمانا بعدالة قضيتنا ، وثقة فى النصر ورغبة فى الشهادة ··· وهذ السلاح الذى نملكه ونعتز به لا يملكه عدونا ، وهو اقوى سلاح وامضاه ، من تسلح به صنع المعجزات ··· ولنقاتل فى سبيل الله وفى سبيل أرضنا العزيزة حتى نموت جميعا ، ولا تنسوا اننا مسلمون جزائريون فمن شان المسلم ان

يموت مقبلا لا مدبرا فاقبلوا على الموت ولا تدبروا ... ومن طبيعة الجزائرى منذ القديم ان يولد مجاهدا ، ويعيش مجاهدا ، ويموت مجاهدا ، وها نحن نموت مجاهدين ولكن فى سبيل ان تعيش الجزائر حرة مستقلة) .

وبعد هذه الكلمة التى ألقاها بالعامية وصغناها فى قالب عربى ، اندفع حيدوش مع رفاقه الابطال ونار الحماسة تتقد فى صدورهم ودماء عقبة وطارق والامير تغلى فى اجسامهم ، وصورة المعركة تتراقص امام اعينهم .

وفى الساعة الرابعة من صباح الغد (الاربعاء 24 جوان) وصلت فرقة جيش التحرير الى ضاحية سيدى سالم احدى ضواحى عنابة وكانت الشمس قد بزغت على الافق واخذت اضواء النهار تغزو المدينة ولما تدخل قلبها مما جعل الفرقة تتمركز فى مزرعة مشجرة محصنة بواد (سيبوس) .

وفى هذا المزرعة نظم المجاهدون مواقعهم الدفاعية ، ورسموا خطة للخروج ، مـــن الميدان ، وحفروا الخنادق ، واعدوا الاسلحة اعدادا محكما .

وكان الجنود الفرنسيون يجدون فى البحث عن آثار المجاهدين ، وفى حدود الساعة السادسة اكتشفوا موقعهم ، ولكنهم لم يكادوا يقتربون من المزرعـــة حتى أصلاهـــم المجاهدون جحيما من نيران اسلحتهم ، فسقط الفوج الاول من الجنود الفرنسيين صرعى وتراجع الآخرون على اعقابهم .

ولما عرفت القيادة العسكرية الفرنسية موقع المجاهدين وتاكدت منه اخذت تقذفه بقنابل المدفعية الثقيلة على اختلاف أنواعها ، وتواصل القذف باستمرار من الثامنـــة صباحا حتى العاشرة .

ثم توقف القذف وشرعت القيادة الفرنسية فى توجيه الهجوم ضد مركز المجاهدين وكان الهجوم حسب النظام التالى :

الصف الاول يتركب من القومية ، والحركة ، والصف الثانى من جنـــود اللفيف الاجنبى ، والثالث من جنود المظلات ، ويأتى بعد ذلك بقية الجنود .

وكان المجاهدون يملكون من السلاح ما يمكنهم من مواجهة هذه القوة العاتية أو على الاقل ما يجعلهم يموتون واقفين بعد ان يقيموا من العدو مجزرة بشرية مهولة ، فقد كان لديهم أربعة وعشرون رشاشة ومدفع هاون وبازوكا وأربعة مدافع رشاشة وبنادق حربية ٠

وبدأت المعركة تدور فى ضراوة وشدة بين هؤلاء الأسود البواسل الذين اقسموا ان يواجهوا القوة مهما كان نوعها وعظمتها ولا يخشون ، ويقتحموا المخاطر ولا يبالون ٠٠٠ وبين هؤلاء الشذاذ الذين قذفت بهم فرنسا أرض الجزائر ليموتوا دفاعا عن المحتل الغريب ، والمستغل المستعمر ، والغاصب المستبد ٠٠٠

وكان المجاهدون ــ وهم امام هذه القوة الجهنمية ــ يطلقون الرصاص ، ودماؤهم تغلى فى اجسامهم حمية وكراهية وغيظا وهم يتصايحون : (الجهاد : الجهاد) ويرددون فى حماس وقوة (الله أكبر) ٠

وكان القائد (حيدوش) يقول لاخوانه الابطال من حين لآخر :

(تذكروا انكم تدافعون عن الحق وتموتون فى سبيله فانتم الرابحون عشتم أو متم)٠

وكانوا ــ نظرا لمواقعهم الاستراتيجية ــ يصبون نيران اسلحتهم على الجنود الفرنسيين بمهارة فائقة ، وتركيز هائل ، فيحصدونهم حصدا ، ومنهم من كانوا يفرون دون هدف أو اتجاه محدود ، وقد بلغ الرعب ببعض الجنود الفرنسيين من هول الموقف انهم يلقون باسلحتهم على الارض ويرفعون أيديهم أو يفرون ٠٠٠ وكان الضباط الفرنسيون قد رأوا جنودهم يتقهقرون الى الوراء أو يفرون ، فراحوا يضربون مؤخرتهم بقنابل المدفعية الثقيلة حتى يجبروهم على التقدم والهجوم وحتى لا يجدوا أى منفذ للفرار ، ولكن انى لهم ذلك وقلوب الجنود الفرنسيين قد غادرت المعركة ولم تبق الا اجسام تجبر على المواجهة ٠

وقد ذكر لى احد المجاهدين الذين خاضوا هذه المعركة وتخلفوا عن ركب الشهداء بمعجزة ان من الصور التى ستظل عالقة بذهنه ما دام حيا صورتين مختلفتين :

صورة مجاهد رأى زميله يسقط شهيدا بجانبه فهزته الحمية والغيرة فصار يندفع الى الامام فى شجاعة خارقة ويهاجم برشاشته فيحصد الجنود الفرنسيين حصدا وهو يقول (هاكذا يكون الثار) ٠ حتى سقط شهيدا بقنبلة يدوية صوبت نحوه ٠

وصورة جندى فرنسى رأى رفيقه يسقط امامه ففر من المعركة وهو يصيح ... حتى اذا ابتعد قليلا خر صريعا برصاصة طائشة أو مصوبة لا أدرى .

وشاهد هذا المجاهد جنودا فرنسيين كثيرين لم يقدروا على مواجهة نيران القـــوة الوطنية فتظاهروا بالموت حيث لم يستطيعوا الرجوع الى الوراء أو الفرار ... لان قنابل المدفعية الفرنسية تمنعهم من ذلك .

وهناك من الجنود الفرنسيين من عجزوا عن متابعة المعركة (ومقاومة الموت) ورأوا ان الطريق الوحيد للنجاة هو الاستسلام للمجاهدين ، وعند المحاولة صوب الضباط الفرنسيون اليهم نيران رشاشاتهم فقتلوا جميعا وقد تكررت العملية عدة مرات بالرغم من هذه العاقبة التى كانوا يشاهدونها .

وعلى كل فقد ضرب المجاهدون فى هذه المعركة أروع امثال البطولة والتضحيـــة ، ولقنوا الجيش الفرنسى درسا فى الشجاعة والفداء ، وعلموهم ان الايمان بالله وبالقضية العادلة الشرعية تصنع المعجزات ، لان الايمان اقوى الاسلحة واشدها صلابة وثباتا .

وبعد ذلك تدخل الطيران الفرنسى واصبحت سماء المعركة تدوى بازيز الطائـرات وراحت تصب قنابلها على الارض فتندك دكا وتهتز اهتزازا ... وكانت معركة المجاهدين مع الطيران الفرنسى صورة رائعة ايضا للبطولة والفداء فقد صوبوا نيران اسلحتهم ضد الطائرات التى يبلغ عددها عشرين طائرة تقريبا بين قاذفات قنابـــل ، ومطـاردات ، وطائرات كشافة ، وغيرها من الطائرات المختلفة بين أمريكية وانجليزية وفرنسية ... فتمكنوا من اسقاط ثلاث طائرات واحدة من نوع (ب26) والثانية من نوع (ت6) والثالثة طائرة كشافة . وقد شاهدها جميع المـــدنيين ـ جزائريين وفرنسيين ـ وهى تسقط طعمة للنيران ...

وبعد هذه الموجة الرهيبة من الهجوم الجوى الذى واجهه المجاهدون ب تبسال خارق وصمود رائع عادت القيادة الفرنسية الى تنظيم هجوم برى آخر ... ولكن جنود اللفيف الاجنبى التابعين للفيلق الاجنبى المتمركز بمركز (شابو جاندارم) رفضوا القتـــال . وألقوا بأسلحتهم الى الارض فقتل منهم أربعة لارغامهم على القتال ...



احد أبطال معركة عنابة اغيل على بوجمعة (على اليسار)

وبالرغم من مشاهدة الجنود لزملائهم يقتلون أمام اعينهم لرفضهم المشاركة فى الهجوم فانهم أصروا على الرفض وأخذوا يولون الادبار غير مبالين بعاقبة أمرهم .

وما أروع منظر الجنود الفرنسيين ـ كما ذكر شاهد عيان ـ يفرون من المعركة وهم يعلمون انهم أضعاف عدوهم عشرات المرات ، وان لهم من العتاد الحربى ما يمكنهم من السيطرة الكاملة على الطبيعة برها وبحرها وجوها ، ولكنهم يرهبون من جيش التحرير وترتعد فرائصهم فزعا منهم وفرقا ، لان الوطنية الصادقة أورثت هذه الفئة القليلة صبرا ، والصبر أقوى الجيوش ، ولان الايمان بالله أكسبها الشجاعة ، والشجاعة أقوى من الاسلحة ، ولان الدفاع عن الحق ألبسها ثوب المهابة والجلال ، والمهابة قوة يصعب اقتحامها ...

فشتان بين جندى يقاتل دفاعا عن عزة ، وعن كرامة ، وعن حرية ، وعن وطن ، وعن دين ، وعن عرض ... يدافع عن دمه ، ودم آبائه ، ويدافع عن أرضه التى احتضنت رفات أجداده ...

وآخر لا يدرى لماذا يقاتل ، وغاية ما يدرى انه استقدم من وراء البحر ليقاتل ... ويدمر، ويخرب، ويعيث فى الارض فسادا.ان المجاهد حينما يواجه العدو تدور فى رأسه صور تفجر فى أعماقه طاقات من القوة والعزم والاصرار ... صورة زوجته التى عبث بشرفها جرذان باريس ، وجراد الاستعمار الفرنسى ... وصورة ابنه الذى فتكوا به شر فتك ... وصورة بيته الذى دمروه وخربوه ... وصورة آبائه الذين سقطوا فوق هذه الارض برصاص المحتلين السفاكين ...

أما الجندى الفرنسى فلا تسيره الا غرائز البهيم (هوى من غير عقل ، وشهوة من غير كابح ، وسطوة من غير ضمير) ولا يشغل رأسه الا التفكير فى الفرار ، وانتظار يوم العودة الى وطنه ...

والفرق بين الجنديين هو الفرق بين الحربين ...

ولما تأكدت القيادة الفرنسية ان الفشل قد دب فى صفوف جنودها ، وانها عجزت عن ارغامهم على خوض المعركة من جديد ، شنت هجوما جويا آخر ولكنها هذه المرة

استعملت أسلوبا مغايرا تعودت ان تستعمله كلما منيت قواتها بالفشل والخسائر النكراء أمام قواتنا الوطنية ـ استعملت الغازات الخانقة ٠

فعندئذ سقط المجاهدون الابطال شهداء الوطن ولم ينج الا أفراد قليلون جدا تمكنوا من الانسحاب من بينهم (اغيل علي بوجمعة) الذي اعتمدناه في كثير من حقائق الموضوع وجزئياته ٠

اما الخسائر في صفوف الجيش الفرنسي فلم يمكن حصرها بالضبط ، ولكن المدنيين الجزائريين الذين أجبروا على نقل الجثث من المعركة أكدوا ان الخسائر البشرية تبلغ (840) بين قتيل وجريح بالاضافة الى الطائرات الثلاث التي أسقطتها مدفعيتنا ، ودبابة حطمت بالبازوكا في بداية الهجوم ٠

ومما يؤكد ضخامة الخسائر الفرنسية وفداحتها ان سيارات الاسعاف المخصصة لنقل الجرحى أربعة عشر ة ، عشرة منها عسكرية وأربع مدنية ٠٠٠ كما خصصت ثلاث طائرات عمودية لنقل الجرحى من الضباط ، وست حافلات كبيرة من نوع (ج ٠ م ٠ س) لنقل القتلى ٠

اهميــــة هــذه المعركــــة ٠ تكتسي معركة عنابة اهمية بالغة تحتل بها مكانة الصدارة في معارك التحرير الوطنية بالجزائر ، لاسباب متعددة أهمها :

1) ان هذه المعركة وقعت في وقت كانت فيه السلطات الاستعمارية الفرنسية تؤكد ان الثورة على وشك النهاية ، وان جيش التحرير الوطني يلفظ أنفاسه الاخيرة ولم تعد له اية قوة يدافع بها أو يهاجم ٠

وكانت هذه الدعاية تتطور من (ارباع الساعة الاخيرة) في عهد لاكوست الى (آخر الكتائب المتبقية) في سنة 1959 وهذه المعركة في الشرق الجزائري جاءت جوابا عمليا صارخا القم المتخرصين الفرنسيين حجرا ، وأثبت للرأي العام العالمي ان كل تلك التصريحات زائفة باطلة ، وان القتال ما يزال على أشد ما يكون ضراوة وأقوى ما يكون صلابة وثباتا ، وان التهدئة التي ما انفك القادة الفرنسيون يزعمونها ليست الا أسطورة وهمية يحاول بها تضليل الشعب الفرنسي الذي مل هذه الحرب وتذمر منها ، وان جيش التحرير الوطني هو سيد الموقف والمالك لزام الامر ٠

2) ان برنامج شال الشهير الذى علقت عيله القيادة الفرنسية آمالها الفســـاح وجندت كل امكانياتها لانجاحه والدعاية له حتى ان معظم الصحف الفرنسية لا حديث لها الا عنه ، والذى كان من المقدر أن ينتهى فى أكتوبر سنة 1959 بالقضاء النهائى على جيش التحرير الوطنى ـ هذا البرنامج لم يكد يطبق فى مختلف أنحاء الجزائر حتى أخذ الفشل يسرى فى صفوف الجيش الفرنسى ، وأصبحت معنوياته تتدهور بصفة مريعة . ذلك لان الانتصار المزعوم الذى كان يحلم به الجنرال (شال) من وراء هذا البرنامج اتضح بعد التطبيق انه سراب لا يعدو ان يكون فى واقعه محاولة وهمية لتموين أجهزة الاعلام الفرنسية ، وتضليل الرأى العام ، ومخادعة الشعب الفرنسى أيضـــا .

فبعد تطبيق البرنامج القاضى بخنق الثورة فى كامل أنحاء القطر الجزائرى ـ اشتدت المعارك وتوالت الهجومات بعنف على المراكز العسكرية الفرنسية وخاصة القريبة من خط شال ، وازداد الشعب تماسكا وتلاحما وراء جبهته وجيشه وصار يبرهن يومـا بعد يوم على انه شعب لا يقهر ، وان روحه النضالية الخلاقة لا تعرف الضعف والفتور مهما تكالب العدو وتعددت مشاريعه الجهنمية .

3) من صيف 1956 الى صيف 1957 اتجهت القيادة الفرنسية الى وضع الاسلاك الشائكة على طول الحدود الجزائرية التونسية والجزائرية المغربية أملا منها ان تكـون هذه الخطوط المكهربة مانعا يحول دون تسرب السلاح حتى يسهل (القضاء على الثورة) ولكن المجاهدين كانوا يقطعون هذه الاســلاك باستمرار ويهاجمون بانتظـــام مــركز الونزة الاقتصادى والمراكز الواقعة على طول الحدود فيجمدون بذلك فرقا ضخمة مـن الجيش الفرنسى ويجبرونها على ملازمة الخـــط المكهرب ، وابطال معركة عنابة قاتلـوا باسلحة دخلوا بها من تونس فى وقت تؤكد فيه القيادة الفرنسية بأنه لا أحد يقدر على الدخول من الشرق الى الجزائر بقطعة من سلاح .

4) كانت معركة عنابة دليلا حيا قاطعا على أن مشروع قسنطينة ، ومعامل عنابة وكل البرامج التى خططها الاستعمار فى نطاق مشروع قسنطينة هباء فى الهـــواء ، وخيال فى أذهان أصحابها ما بقيت الحرب تدور رحاها فى الجزائر ، وان جيش التحرير الوطنى الذى يبرهن على قوته فى كل وقت وخاصة فى تلك الظروف هو القوة الوحيدة

التى يجب أن يقرأ لها الحساب فى الجزائر ، وان سياسة فرنسية تقوم على تجاهل هذه القوة لن يكون مآلها الا الفشل الذريع ·

وهذه الحقيقة هى التى خرج بها الرأى العام العالمى من معركة عنابة ولاحظتها الصحافة فى مختلف العواصم وخاصة الاوروبية منها فى الوقت الذى كان فيه الجنرال ديقول يطلب من (رؤوس الاموال الايطالية أن تساهم فى معامل عنابة) ·

العبرة من هذه المعركة · قد يقف البعض على أخبار معركة عنابة ووصف أحداثها ثم لا يعير لها أية لفتة جدية بل يمر عليها كما يمر على الاحداث اليومية التى تطالعه بها نشرة الاخبار من يوم لآخر فيرهف أذنه لاهمها لحظة سماعها ثم ينساها وتختفى الى الابد ولا يعود يذكرها ·

ان معركة عنابة ــ وما أكثر مثيلاتها فى الجزائر ــ أعظم من حدث عابر ، وأكثر من قصة تروى ثم تنسى ···

ليس سهلا ، ولا مسلما علميا ، ولا مقبولا منطقيا ، أن يقف تسعون مجاهدا أمام ثلاثة وعشرين ألف جندى بطائراتهم المختلفة ، ودباباتهم ومصفحاتهم وأسلحتهم المختلفة ثم يلحقوا بهم هزيمة نكراء ، وينشروا فى صفوفهم فشلا ذريعا ، وتصدعا ماحقا حتى يلجأوا الى الغازات الخانقة · وهل من المقبول علميا أن تتغلب فئة قليلة من البسطاء الذين لم يتلقوا درسا فى النظم الحربية بل هم فلاحون ورعاة غنم وبقر ــ على جيش منظم تخرج من مدارس وكليات حربية فى العواصم الاوروبية الشهيرة ؟

هل يتحول العلم أحيانا الى جهل ، والقوة الى ضعف ، والايجاب الى سلب ··· ويتحول الجهل الى علم ، والضعف الى قوة ، والسلب الى ايجاب ؟

من ذا الذى يسمع هذا ولا تملكه الدهشة ، ولا يستبد به العجب ؟

فئة قليلة من المجاهدين يقدمون من تونس مشيا على الاقدام ، يحملون أسلحة على أكتافهم وبعضها ثقيل مرهق ، ويتجشمون فى الطريق مشاق ومخاطر ومهالك ، ويعانون من الجوع والعطش والتعب المنهك ما يعانون ثم يجدون فى مدينة عنابة حيث كانوا ينتظرون أن ينالوا قسطا من الراحة بالقرب منها ــ يجدون معركة رهيبة تنتظرهم وتلاقيهم بالحمم والقذائف والدمار ··· ثم يقفون بالرغم من المفاجاة ، وبالرغم

من الجوع والعطش والتعب ، وبالرغم من السهر المضنى ، ـ يقفون سدا من البسالة النادرة والصبر الخارق ، ويثبتون ثبات الاسود الذائدة عن عرائنها ؟

ان المجاهدين يملكون العناصر الاساسية للنصر ـ وان فقدوا الطعام والشراب والنوم والراحة ـ وهى الايمان بالله والاعتماد عليه ، وشدة الكراهية للعدو ، وشدة الحب للوطن الذى يحاربون عنه · ويملكون عنصرا آخر ما تزال هناك افهام تعجز عن ادراكه واستساغته وهو الرغبة فى الشهادة التى هى جواز السفر الى جنة الخلد رأسا ·

وهم لم يدرسوا المذاهب المتطرفة ، والفلسفات المجنحة ، ولم يجلسوا يوما الى (أستاذ) حتى يصابوا بتلوث العقل الذى يعتز به أنصاف العلماء بل هم على فطرتهم النقية التى لم تلوثها خيالات ، ولم تزعزعها شطحات ··· ولم تنل منها أصنام الكفر والباطل · ولم تنزلق فى مهاوى الاثام وبؤر الاوهام ·

لقد رغب هؤلاء فى الشهادة فاستشهد معظمهم فى هذه المعركة ، واختلطت دماؤهم وارتوت بها ارض الجزائر المسلمة ··· وما مات رجال حرروا وطنا ولا أهدرت دماء احيت أمة ·

ذهبوا عنا تاركين وراءهم أولادا وأزواجا وأصدقاء ··· فى سبيل ماذا كل هذا ؟ فى سبيل أن تستقل الجزائر وتنال حريتها وسيادتها ، وتبنى مستقبلها ، وفى سبيل أن أعيش أنا وأنت وهم وهن فى هذا العهد الباسم الزاهر ، مرفوعى الرؤوس ، موفورى الكرامة ، فى نفوسنا حمية الاسلام ، وفى قلوبنا نشوة الامل ، وفى أيدينا سيوف النصر ، وأسلحة التعمير ·

أما الحقيقة التى يجب أن ينقشها على قلبه كل جزائرى وجزائرية حتى لا تعزب عنه لحظة قيمة الشهيد الذى حرره ومنحه العزة والكرامة فهى ان من الصعب العسير جدا أن يموت شخص ويفارق أولاده وأهله ووطنه من أجل أن يعيش شخص آخر ويحيا بين أولاده وذويه أيا كان هذا الشخص ·

ولكن الشهداء ماتوا ··· بكل شجاعة ، وبكل رضى من أجل أن نحيا أحرارا وأسيادا ···



قائد معركة عنابة الشهيد حيدوش (الوسط الواقف)

فليعيشوا فى كل خفقة من خفقات قلوبنا٠٠٠وفى كل بسمة من بسماتنا ، وليعيشوا ومضات هادية مع الشفق الباكى عند الغروب ومع الشفق الضاحك عند الطلوع ٠٠٠

ولتكن هذه الكلمة تحية من أعماق القلب أقدمها لذكراهم ، وباقة من الاعجـــاب ببطولتهم ، والتقدير الخالص لوفائهم ، أنثرها على قبورهم ٠

مراجـــع المقـــال ٠

المجاهد ـ العدد 46 ت 13 جويلية 1959 ٠

الجزائريين الماضى والحاضر محمد الصالح الصديق ٠

العقيد اعزورن خال قائد معركة عنابة ٠

اغيل على بوجمعة من أبطال المعركة ٠

الحياة العائلية فى الإسلام

فاطمة هيرين
كاتبة بالمركز الاسلامى فى
ميونيخ (المانيا الاتحادية)
ترجمة : د. سامى سلطان

فى وقت انقلبت فيه القيم رأسا على عقب ، هوجمت الحياة العائلية ، باعتبارها القلب الحقيقى للمجتمع ، بنفس الكثرة التى هوجم بها العديد من التقاليد المتوارثة الاخرى . ومنذ حوالى عشر سنوات ، عندما أصبح مألوفا لدى الشباب من حملة مشاعل التجديد أن يعيشوا فى جماعات الجنس والاطفال والمكاسب فيها مشتركا بينهم ، خشى كثير من الناس أن يكون معنى ذلك نهاية الحياة العائلية . ولكن الامر من حسن الحظ ليس كذلك . فقد ظلت الاكثرية الساحقة من النساء الصغيرات ، فى النهاية ، تحلم كل منهن بخاتم الزواج يوضع فى اصبعها ، وبالشقة المريحة تعيش فيها ، وبالبيت الملائم تنجب فيه أطفالها كزوجة تحمل اسم زوجها ، وبالشباب الذى يفضل أن يقدمها للآخرين بقوله « هذه هى



ترى السيدة فاطمة هيرن (الالمانية) فى الوسط جالسة ، وعلى يمينها السيدة عائشة لمـو ، (البريطانية) فى أقصى اليمين ـ التى سننشر نص محاضرتها فى نفس الموضوع فى عدد قادم ـ وعلى يسارها سماحة مفتى بلغراد (يوغوسلافيا) ٠

زوجتى » بدلا من عبارة « هذه رفيقتى أو زميلتى » • ان الاشتراكية أو غيرها من النزعات لم تستطع فى الواقع أن تجتث من الجذور ما قد غرس فى الجنس البشرى منذ زمن سحيق •

واذا كان من المستطاع التغلب بنجاح على الاخطار التى تهدد حياة الاسرة ، وبخاصة الحياة الزوجية ، فى الغرب ، فان هذه الاخطار لا يمكن أن تجد لها موطىء قدم فى العالم الاسلامى ، حيث اشترك العرف وقانون الدين معا فى بناء أساس راسخ لا يمكن التاثير فيه بصورة خطيرة ، للحياة العائلية بكل مظاهرها المتعلقة ليس بالزوج والزوجة والاطفال فحسب ، ولكن أيضا بجميع الاقارب الآخرين •

والآن يمكن للانسان القول بأن الحياة العائلية السعيدة والصحية لا يمكن ضمانها بقانون • حقيقة ان هذه الحياة تعتمد على الرغبة الصادقة لجميع الاطراف المعنية بحيث تظل أفضل القوانين حبرا على ورق فى حالة غياب هذه الرغبة • ولكن العامل المسيطر هنا ، وفى جميع المجالات الاسلامية الاخرى ، حقيقة أن الاسلام ليس عقيدة بالمفهوم الغربى لهذه الكلمة ، ولكنه فى الواقع أسلوب حياة لمعتنقيه • ان الاسلام يعنى ، فى ناحية ، الخضوع الكامل لارادة الله ، وهو ، فى الناحية الاخرى ، القبول الواعى لوكالة الانسان على الارض كما أمر بها الله •

ان الخضوع لارادة الله ، اذا طبق على الحياة العائلية ، يعنى قبول الرغبات المتأصلة فى طبيعة الرجل ، الرغبة فى رفيق يتبادل معه الحب والحنان والتضحية بالذات والثقة والعزاء ، والرغبة فى أطفال ووالدين واخوة وأخوات وأعمام وعمات وأخوال وخالات ، وغيرهم من الاقارب الذين يمكن له أن يثق فيهم ، ويمكن لهم أن يقدموا الحماية أو يتقبلوها ، وكذلك الرغبة فى بيت هادىء تتوفر فيه الرعاية ، والرغبة فى تعليم جيد ، والرغبة فى المساعدة وقت الحاجة لها ، والرغبة فى عمل الخير أو تلقى الخير حسبما تقتضى الظروف •

والقبول الواعى لوكالة الانسان على الارض يعنى البحث عن أفضل الوسائل الممكنة لتحقيق وكالة ناجحة • وهنا أيضا تقدم لنا الحياة العائلية انجع الاسس لنجاح نشاطاتنا • فالحياة العائلية السليمة والصحية تمنحنا الطريقة الصحيحة لفهم الحياة ،

وتساعدنا على آن نرى الامور فى أبعادها الصحيحة ، وتهىء لنا التعليم الاكثر فائدة ليس فقط لما يهم مهنتنا المستقبلة ولكن أيضا لمعالجة الحياة نفسها ، كما تهينا ، عندما نكبر ، البيت الآمن ، مما يساعدنا على المشاركة فى حياة المجتمع باكبر نفع ، وعندما نصبح كهولا ، أسباب الحياة التى اعتدنا أن نهيها لها عندما كان فى مقدورنا أن نفعل ذلك ٠

وربما يرى أولئك الذين اندمجوا تماما فى الحياة بأسلوبها السائد فى الغرب أن هذا أمر لا يمكن تقديمه ٠ انهم يتساءلون لماذا لا يترك الاطفال فى دور الحضانة ، ويعتمد فى تعليمهم على المدرسة بالرغم مما يدفع فى سبيل ذلك من نفقات باهظة ؟ ولماذا هذا الشعور بالمسؤولية عن الاقارب المحتاجين أو أفراد الاسرة الذين بلغوا سن الشيخوخة طالما انهم ولا ريب لابد وان يكونوا مؤمنين ضد مصادر القلق والازعاج بجميع أنواعها وطالما يمكن وضع الكهول فى بيوت خاصة حيث لا يضايقهم أحد ولا يضايقون أحدا ؟ ثم ينتهون الى القول بأن هناك ميادين كثيرة للعمل أعظم فائدة وأكثر ربحا من العناية بالاطفال ورعاية أفراد الاسرة المرضى أو العجزة ٠

ومع ذلك ، وبالرغم مما يبدو من الصعوبة فى التصديق ، فان هذه المسؤوليات والتبعات لا تزال تحمل على الاكتاف من جانب أغلبية العائلات فى العالم الاسلامى ٠ ويعود الفضل فى ذلك الى التعاليم الاسلامية التى لم يتخل عنها المسلمون قط خلال التطورات الصناعية والتقنية الحديثة ، وانما أخذوها بجدية تامة حتى يومنا هذا ، وذلك بحسب اعتقادى لان المسلمين يؤمنون بصدق أنهم سوف يحاسبون على سلوكهم هنا على الارض يوم القيامة ، ولانهم يعون تماما دورهم كوكلاء لله على الارض ، ولانهم أيضا يشعرون بسعادة فى الايفاء بواجباتهم الدينية لكسب رضاء الله ، وهو الهدف من وجودهم كله ٠

ومن الممكن لغير المسلمين أن يعجبوا كيف أن الدين لا يزال يمارس مثل هذا التأثير القوى على الناس فى العصور الحديثة ، الى حد تجنب الامثلة الغربية ، فى هذا المجال على الاقل ، بدلا من محاكاتها ، بعكس الاتجاه المعتاد فى معظم المجالات الاخرى ٠

ان البناء الوطيد القائم على الدعامات الاربع التالية ــ وهى دعامات أساسها التعاليم الاسلامية وسنة النبى محمد (ص) المتوارثة من جيل الى جيل ــ للحياة العائلية الاسلامية

هو فى الواقع ما يجعل تلك القيم راسخة ، ويساعدها ، أكثر من التجارب الغربية ، على البقاء • وهذه الدعامات هى : ـ

1) الحياة العائلية كمهد للمجتمع الانسانى تقدم بيت،آمن،وسليم ومشجع للوالدين وأطفالهمـــا •

2) الحياة العائلية **كحارس من الرغبات الشهوانية الطبيعية فى الانسان** ، توجه هذا الدافع القوى الى قنوات صحية •

3) الحياة العائلية هى المكـان الحقيقى لتغذية الفضائل الانسانية كالحـب والعطف والـرحمـــة •

4) الحياة العائلية هى الملجأ الاكثر أمنا ضد جميع المتاعب الداخلية والخارجية •

وتعود قـوة هذه الدعامات الاربع ، التى ترتب عليها ثبات سيماء العائلة الاسلامية بلا تغيير ، الى أنها كلها مشكلة على أساس قانون الاخذ والعطاء بالطريقة التى يتطلبها عصرنا وظروف كل يوم • ويجب ألا يكون منسيا أن فوائد الحياة العائلية لا تصل فقط الى أقارب الدم ، ولكنها تمتد أيضا الى جميع أفـــراد العائلة الاسلامية فى العالم كله ، وهو ما يعرف باسم الاخوة الاسلامية •

ولننظر الآن عن قرب الى كل من هذه الدعامات • ففيما يتعلق بالدعامة الاولى ، لكى تكون العائلة مهدا صحيا لمجتمع الانسان ، يجب أن يجد فيها الاطفال ، الذين بهم يتم دوام الجنس البشرى واستمراره ، الدفىء وطول الاناة والدأب على تثقيفهم بكل ما يدور حولهم • ومن أجل هذا الفرض يلزم أن تكون لهم أم تسهـر على رعايتهم ليس كمهنـة لبعض الوقت ولكن كواحد من أهم واجباتها ، وينبغى أن يكون لهم أب عبر عنه سيد أبو العلا مودودى تعبيرا جميلا بقوله انه ، بمقتضى طبيعة الاسلام الابوية ، امام العائلة الذى تستقر على كتفية المسؤولية الدينية فيها ، ويجب عليه أن يدعم عقائد الايمان ، كما يجب أن ترمز سلطته الى سلطة الله فى العالم • ويواصل سيد أبو العلا مودودى كلامه فيقول:بأن الاحترام الذى يتمتع به الرجل فى العائلة يعود فى الحقيقة تماما الى العمـــل المقدس الذى يقوم به فيها، وأن تمرد النساء المسلمات فى بعض نواحى المجتمع الاسلامى

انما وقــع عندما كف الرجال أنفسهم عن تاديــة وظيفتهم الدينية ، وفقدوا صفتهم الرجولية والابوية · هذا هو الرأى الجدير بالملاحظة لمفكر اسلامى اشتهر فى العالم كله · وفى الحقيقة فانه بوجود البيت الذى يكون فيه الاب والام واعيــين بدورهما الهــام ، ومدركين أن عالم الغد سيكون على ما ربيا أطفالهما عليه ، سوف يظــل أساس المجتمع سليمــا ·

وفيما يتعلق بتربية الاطفال فانى أعتقد أن هذه العملية يجب أن تتم فى اطار أربع مراحل · وأول هذه المراحل مرحلة وضع الاساس ، وقوامها تهيئــة المناخ أو الوسط الاسلامى الذى يعيش فيه الطفل فى حضن العائلة منذ يوم ولادته وحتى بلوغه ســن العشرين التى يغادر فيها عادة البيت · وكما يعلمنا علــم النفس الحديث فان الوسط العــائلى يــؤدى أهــم تأثــير له على الطفــل خــلال السنوات الاولى من عمــره · وهناك عوامل كثيرة تساهم معا فى تشكيل الوسط الاسلامى داخل العائلة · وأول هذه العوامل وأهمها أن يحب كل من الوالدين الآخر ويحترمه ، وأن يكونا ، وفق الامثلة الاسلامية ، صبورين ، وأن يسهرا بلا كلــل على رعاية أطفالهما · ولكن من المهــم أيضا أن يمكن الاطفال من الاستماع الى تلاوات جميلة لآيات القرآن (وتوجد فى هذه الايام تسجيلات قرآنية ممتازة) ، وأن يدركوا متى يكون رمضان ، شهر الصوم ، ومتى يحتفل بالاعياد والمواسم الاسلامية الهامة ، وأن يفهموا أن الاقارب والاصدقاء المسلمين يتبادلون عادة الزيارات ، وأن يسمعوا دائما كلمات مثل كلمة « الله » (جل جلاله) وكلمة « محمد » (صلى الله عليه وسلم) تنطق بصوت رقيق · وعلى أى حال فهذا فى الحقيقة مــا يفعله الكثيرون منا · غير أن هناك أمورا أخرى هامة لهيئة الوسط الاسلامى فى العائلة ، منها أن البيت الذى يعيش فيه مسلمون يجب أن يكون مزودا ببعض التجهيزات التى تعطى ثقافة اسلامية حقيقية ومركزة ، فينبغى أن يرى الاطفال بعض النماذج الخطية الاسلامية على الحوائط ، وربما سجادة جميلة هنا وهناك ، وغير ذلك مما لا يمكن وجــوده فى أى بيت غربى · ومن الواجب على المسلمين أيضا ، فى البيت على الاقل ، أن يلبسوا الاردية التى تلبس فى أوطانهم الاصلية ، وأن يخلعوا أحذيتهم حتى ولو عند مجرد دخولهم حجرة الجلوس ، فبهذا يستطيعون هم المحافظة على الاتصال اتصالا مباشرا بارثهم ، ويشعــر

أطفالهم شعورا واضحا بانهم مسلمون مما يملأهم بالثقة · وأنا أشـــدد على ذلك لانى مسلمة نعيش فى وسط غربى ·

أما المرحلة الثانية فى تربية الاطفال فسوف أطلق عليها اسم مرحلة الرواية · فنحن نعرف من علمائنا أن شعور الاطفال يتشكل بالاستماع فى سن مبكرة للقصص المرعبة والروايات المثيرة ، وأن من الممكن بالحكايات الساحرة جعلهم يسبحون فى آفاق الخيال الواسعة · وهنا يمتد المجال واسعا أمـــام الوالدين اذا توفرت لديها الرغبة الصادقة للعمل فيه · فينبغى عليهما أولا أن يعودا الى دراسة سير الانبياء الاولين كما وردت فى القرآن ، والى قراءة سيرة آخر المرسلين محمد (ص) وأحاديثه الرائعة ، وقصص أبطال التاريخ الاسلامى · وبعد ذلك يمكنهما أن يشكلا من هذا كله ، بعد مزجه بكـل ما فى جعبتهما من حـب وذكاء وبشاشة ، أكثر الحكايات تشويقا والهافا للاطفـال · وبحسب تجربتى فان الاطفال يكونون أكثر شغفا للاستماع الى مثل هذه الحكايات فى سن الثانية حتى الخامسة · ويمكن للام أن تقصها عليهم أثناء قيامها بأداء واجباتها المنزلية · وسوف يتبع ذلك فى معظم الحالات مناقشات لطيفة بينها وبينهم طالما أن كل واحـــد من هؤلاء الاطفال عنده أسئلته ويريد أن يعبر عن أفكـاره الخاصة · وبهذه الطـــريقة يمكن أن تتشكل شخصية الطفل على نحو واضح ومحدد ، ويمكن أن تتكون عنده معايير تظـل ملازمة له حتى نهاية عمره ·

ثم تأتى بعد ذلك المرحلة الثالثة من مراحل تربية الطفل من حضن العائلة · ويمكن تسمية هذه المرحلة ـ وهى مؤسسة عـلى المرحلتين الاولى والثانية ـ باســم مرحلـة الواجبات الاسلامية ـ فمن الملاحظ أن الطفل يميل الى محاكاة والديه وهما يصليان ، ولذا ينبغى عليهما ان يضعا فى متناول يده سجادة صغيرة للصلاة يجرى محاولاته عليها ، وفى الغالب فانه سوف يبقى من البداية ساكنا لعدة دقائق قليلة ، ولكن من المؤكد أنه فى الوقت المناسب سوف يتعلم كيف يصلى ويتعود على نمط « وروتين » يومى للصلاة وفق قواعد الاسلام · على أن هناك واجبا دينيا آخر ينبغى على الوالدين الاهتمام بـــه عند تربية أطفالهما هو واجب الصوم · حقيقة سوف لا يقدر الطفـــل فى البداية عـلى مواصلة الصوم لاكثر من عدة ساعات ، ولكنه مع ذلك سـوف يستمر فى المحاولة حتى

ـ ينجح ـ ولكن ببطء ـ فى صيام نصف يوم ثم يوم كامل • ومن المهم جـــدا هنا أن يهتم الوالدان أيضا بأن يكون تناول وجبات السحـــور والافطار فى احتفالات حقيقية قصيرة يشترك فيها أطفالهم • وكم يكون الطفـل فخـورا عندما يسمح له لاول مـــرة بالنهوض مبكرا من الفراش فى الصباح من أجل تناول طعام السحور مع والديه ! وكـم يكون عظيما سروره عندما يتمكن من الاستمرار فى الصوم حتى نهاية اليوم ! وأنا أعتقد بأن الكثيرين من الآباء والامهات سوف يجرون التجربة ، وسوف يرون عندئذ بأن الطفل نفسه سوف يلح فى الرجاء ليسمح له بالصيام مرة أخرى • والى جانب الصلاة والصوم سوف تتهيأ أيضا المناسبات التى يجب على الوالدين استغلالها لتعويد أطفالهما على اعطاء الصدقات • وأهم ما ينبغى عليهما عمله فى هذا المجال ألا يبخلا على هؤلاء الاطفال ببعض قطع النقود اللامعـة اللطيفة لانفاقها ، مـع تعليمهم بأن جانبا من هذه النقـــود ينبغى التصدق به على المعوز أو وضعه فى صندوق التبرعات فى جامع بدلا من انفاقه فى شراء اللعب أو الحلوى • أما فيما يتعلق بواجب الحج ، فيجب اخبار الطفل كيف أن المسلمين يفدون من جميع أنحاء العالم للاجتماع فى الاماكن المقدسة من أجل هـــدف هام هو أن يعبدوا خالقهم ، فى كتلة واحدة قوامها اخـــوة مترابطين ، كما كان يفعل خدام اللـــه ـ بلا انقطاع ـ منذ عهد أبيهم •

ان الطفل سوف يكون الآن مسلما واعيا ، ومن ثم فقد أقيم أساس عريض يمكن أن تستقر عليه المرحلة الرابعة من مراحل تربيته بثبات • هذه هى مرحلة الجهاد • فالطفل عندما يبلغ الخامسة عشرة من عمره يكون قد تعلم أن الحياة على هذه الارض محاولة ، وأن الذين يستطيعون أن يظهروا بنجـاح فى هذه المحاولة هم فقط الذين يخضعون لمشيئة الله باجلال وخشوع عميقين • ومع ذلك فهناك شىء متأصل فى طبيعة الرجال ، وبخاصة الشبان النشيطين الذين يبحثون عن هدف حقيقى لهم فى الحيـاة ، يمكنهم أن يناضلوا من أجله • وبطبيعة الحال فان الاهداف فى الحياة اليومية كثيرة ومتنوعة ، ومنها مثـــلا عدم اهمال الواجبات الدينية ، والنجاح فى الامتحانات المدرسية ، والشفاء من مرض ، والحصول على عمل مفيد أو مهم ، والعثور على زوج محب أو زوجة محبة ، وانجاب أطفال صالحين • غير أن هذه كلها ما هى الا انجازات شخصية ضرورية من أجل اقامـة أساس

سليم ، وسوف يظل الطموح السليم أو الصحى للرجل ، بالرغم من وجودها ، موجها نحو هدف ما أعلى وأسمى • فاذا لم يوجه الى القنوات الصحيحة لبلوغ هذا الهـــدف سوف يقع بسهولة ضحية اقناع غوغائى ويتطلع الى عبادة « أوثان » خطيرة تمثلها جميع النزعات السائدة ابتداء من القومية الى الشيوعية • وفى الجهاد ، أى النضال من أجـــل قضية الاسلام ، تتجمع هذه القنوات الصحيحة • فالجهاد يقدم فرصا كثيرة بحيث يجـد فيه كل مسلم حقل العمل الذى يناسب ذكاءه ومواهبه • ان من الممكن تأديته ــ وقـت الحاجة ــ بالسيف كما بالقـلم ، وبالمجرفة كمـا بالمشرط ، أو حتى بماكينة خياطة أو بمغرفة قدر • انه نضال ضد كل القوى التى تهاجم الاسلام من الداخل أو من الخارج • وسواء شننت هذه الهجمات بقصد السخرية من الاســـلام أو لاضعاف تقاليده وعاداته أو لتقويض قوته السياسية ، فينبغى أخذها مأخذ الجـد لان هدفها فى النهاية تدمـير الجذور الحقيقية لارثنا •

وبعد ، فان عائلة يحافظ فيها على هذه الروح يقظة باستمرار سوف تصبح الضامن الافضل لمجتمع اسلامى سليم ، لانها بهذا سوف تمكن جميع أفرادها من الممارسة الواعية لوكالتهم عن الله فى الارض ، وهذا واحد من أكثر أهداف الحياة العائلية أهمية •

ولقد كان من الضرورى توجيه عناية خاصة لشرح هذه الدعامة الاولى للحياة العائلية المتضمنة لمظهر التربية طالما أن هذا المظهر يهم مستقبل المجتمع الاسلامى كله •

والآن نأتى الى الدعامة الثانية ، وهى دعـامة الحيـــاة العائلية كحارس من الرغبات الشهوانية الطبيعية عند الرجل • وأنا أفضل عن عمد استخدام كلمة « شهوانية » بدلا من كلمة « جنسية » التى أسىء استخدامها بدرجة جعلت استخدامها قد يصحف ما أريد أن أقول بدلا من أن يوضحه •

لقد قال رسول الله (ص) : « انى أنا أعلمكم بالله ، وأخشاكم له ، ولكنى أقـــوم وأنام وأصلى وأفطر وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » صدق الرسول • وفى القرآن الكريم (سورة 2 آية 187) قيل للرجال « هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم ، وعفا عنكم ، فالآن باشروهن واتبعوا

ما كتب الله لكم ، صدق الله العظيم · وهكذا يضع الاسلام ـ وهو أسلوب كامل للحياة ـ في الاعتبار ميول الرجل الطبيعية ، فيفرض الزواج · انه يخبرنا بكلمات قليلة وجميلة كيف ينبغى أن يكون الزوج والزوجة كاللباس يغطى كل منهما الآخر ويحميه ، وكيف أن كلا منهما يجد فى الآخر اشباعا لنوازعه الشهوانية ، ولرغبته فى انجاب الاطفال وفى التبادل المشترك فى الحب والحنان ·

وأحب أن أضيف هنا كلمات قليلة وشخصية · فلانى مهتدية للاسلام أسأل أحيانا عن شعورى فيما يتعلق بالزواج فى الاسلام · وانى فى هذا الخصوص أبدى تقديرى لعدة جوانب لاحظت أن الامور تسير فيها بطريقة حسنة ·

فأولا ، هناك العادة التى تسمى فى العائلات الاسلامية ، باسم الزواج المرتب · وقد استطعت دائما أن ألاحظ ـ سواء أثناء اقامتى فى دولة اسلامية ، أو من تلاميذى السابقين كثيرى العدد ، ومن أصدقاء مسلمين آخرين تعرفت عليهم منذ أكثر من خمس عشرة سنة ـ أن الحياة العائلية فى حالات الزواج المرتب أكثر استقرارا ودواما منها فى العائلة الغربية العادية ، اذ أن الوالدين أو الاقارب الذين ، ببصيرة وخبرة واسعة ، يقترحون الزيجات لابنائهم وبناتهم ، انما يفعلون ذلك على أساس عريض تراعى فيه الخلفيات العائلية وأمور التعليم والمطامح والميول وأشياء أخرى كثيرة مماثلة عند العروسين · وبالرغم من أن جميع الزيجات الاسلامية تتم تقريبا ، كما نقول نحن فى المانيا ، على طريقة شراء القط فى الحقيبة ، بمعنى أنه لم يجرب مقدما ما اذا كان العروسان صالحين جنسيا أحدهما للآخر ، كما هو مالوف فى الغرب ، فانها تعتبر أكثر نجاحا من الزيجات الغربية ·

وثانيا ، هناك مسألة تعدد الزوجات الحساسة · وأود أن أقول هنا بأنه قبل أن يزوجنى المسجل لزوجى الاوروبى المسلم حذرنى من الزوجات الاربع المسموح للزوج بهم اذا عشنا فى يوم من الايام فى دولة اسلامية · وفى الحقيقة لقد أصبت فى البداية بفزع لفترة قصيرة · ولكنى سرعان ما علمت بأنه بالرغم من السماح فى الاسلام باتخاذ أكثر من زوجة فان ذلك لا يمارس فى الواقع الا نادرا · وبما أن هذا الحق ـ الذى منح من ناحية استجابة للميل الى تعدد الزوجات المتأصل ولاشك فى بعض الرجال · ومن ناحية

أخرى لظروف غير عادية مثل المرض المزمن أو العقم عند الزوجة الاولى ـ يحـــرم كلية العلاقات الجنسية خارج الزواج ، فأنا أعتبره قرارا حكيما جـدا ٠ ان الرجل المسلم اذا وجد نفسه لهذا السبب أو ذاك عاجزا عن مقاومة دافع الرغبة فى أكثر من زوجـــة ، لا يكون مضطرا الى أن يلجأ الى أى عمل آثم لاشباع هذا الدافع ، ولكنه يستطيع اشباعه تماما بطريقة شرعية ، على أن يتحمل المسؤوليات المترتبة على ذلك ، وهذا فى نظرى هو النقطة الاساسية اذ ليس من السهل على أى رجل أن يتحمل ، فى سبيل ارضاء جشعه ، نفقات أكثر من زوجه والاطفال الذين ينتجون عن زواجه الآخر أو زيجاته الاخرى ، انه سوف يفكر أكثر من مرتين قبل أن يقدم على ذلك ، فى حين نجـــد فى المجتمعات التى تفتقر الى مثل هذه القواعد الحساسة أن من السهل المرعب على الرجل أن يتصل ، بعـد زواجه الاول ، بامرأة أخرى ، ثم يهجرها من غير زواج ، تاركا لها ، وربما لابنها منه ، الذل والبؤس ، بدلا من الكرامة الانسانية ، والامثلة كثيرة أمامنا فلا يحتاج الامـــر لزيادة فى التعليق على الموضوع ٠

وثالثا ، هناك أمور الطلاق ٠ وأنا أعتبر أن الحل الاسلامى فيها أفضل من الحلـــول الاخرى التى أعرفها ، ومنها مثلا الحل المسيحى الكاثوليكى ٠ انه اذا وجد زوج وزوجة ، لاى سبب ـ بالرغم من أن ذلك لا يحدث فى الممارسة الا نادرا ـ أن من المستحيل عليها مواصلة العيش معا تحت سقف واحد ، فلا يوجد قيد كريه يبقيهما معا بالقوة ، ويمكنهما أن ينفصلا فى هدوء ويبحث كل منهما عن شخص آخر ينشد تحقيق سعادته معه ٠ ومن ناحية أخرى اذا وجدت زوجة أن ليس فى مقدورها تحمل اتخاذ زوجها زوجـــة ثانية يمكنها دائما أن تطلب الطلاق ولا يجبرها أحد على تحمل ما يبدو لها أنـــه لا يحتمل ٠ ويمكننا الآن أن نتساءل ، الا يكون أكثر توافقا مع الكرامة الانسانية لو بث الزوجان فى امورهما من غير أن يضطرا الى اللجوء الى الحيل والمخادعات ؟ فالزوج ، ألا يكون عليه أن يقص على زوجته أكاذيب وهمية كلما أراد أن يقابل صديقته ؟ والزوجة ، ألا تكون فى حاجة الى أن تتظاهر بعدم ملاحظتها لما يدور خلف ظهرها ؟ هذا ويمكن أن نضيف الى ما قلناه فى هذا الموضوع بأنه اذا أعتقد زوج بانه أصبح فوق طاقته أن يتحمل أكثر مما تحمل من بعض العادات السيئة أو من أشياء أخرى فى زوجته ، فلا حاجـــة له فى أن

يعذبها بالمعاملة السيئة ، بل يمكنه أن ينفصل عنها بسهولة ٠ ونفس هذا القول ينطبق على الزوجة أيضا ٠ ان بهذه الطريقة يصبح المجتمع الانسانى أكثر نظافة وصحة ، ولا تصبح البيوت مصدر شقاء للاطفال ، ولا يصبح أحد الزوجين محكوما عليه بأن يحيا حياة طويلة وهو غير سعيد ٠ ويبقى القول بأن هناك عـــددا من القوانين والوصايا متعلقة بالوضع المالى للمرأة المطلقة وأطفالها ، وأمورا أخرى متصلة بذلك ، ولكن ليس هنـــا مجال مناقشتها ٠ وكما يقص علينا أبو داود فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « أبغض الحلال عند الله الطلاق » ٠ وأنا أعتقد بأن هذا الحديث النبوى القوى يعود اليه الفضل أيضا فى حقيقة ان الطلاق ، بالرغم من أهميته فى بعض الحالات ، لا يمارس الا نادرا فى العائلات الاسلامية ٠

ورابعا ، أريد أن اقول كلمات قليلة فيما يتعلق بمنزلة المرأة فى الاسلام ٠ اننا نقرأ فى القرآن الكريم (سورة 2 مادة 228) : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجات ، والله عزيز حكيم » ٠ صدق الله العظيم ٠ ويعتبر أولئك الذين يريدون أن يجدوا خطأ فى التعاليم الاسلامية بأن فحوى هذه الآية ضار بكرامة المرأة ٠ غير أنى مع الرأى القائل بأن هذه الجملة الواحدة تتضمن كل ما هو ضرورى لسعادتى كامرأة ٠ انها تمنحنى كل الحقوق التى أصبو اليها : حق التعليم ، وحـق اقتناء الملكية الخاصة ، وحقى فى أن أكون الحارسة داخل المنزل ، وحتى حقى فى الوظيفة اذا استدعت الظروف ذلك ، وغير ذلك من الحقوق التى لم أذكر الا القليل منها ٠ على أن أهم من ذلك كله أنها تهبنى حق الاعتماد على زوجى سواء فيما يتعلق بوسائل العيش وسبله أو فيما يتعلق بأى قرارات هامة يلزم اتخاذها لصالح العائلة ٠ ومن ناحية أخرى يقع على كاهل الزوج مسؤولية رعاية الاسرة وايجاد أفضل الحلـول الممكنة لمشاكلها بالتشاور مـــع زوجته والاستفادة من كل حكمته ٠ والسؤال الآن ، ألا يكمن فى طبيعة المـرأة أنها ترغب فى زوج قوى وعادل وحكيم ومراع لمشاعر الآخرين حتى يكون كفوًا لاتخـــاذ جميع تلك القرارات المتعلقة بسعادة الاسرة ؟ هذه هى ، فيما أعتقد ، الحياة العائلية المثالية كمـــا رسمها الاسلام ٠ ومما لا شك فيه أن فى جـو مثل هذا الجـو سوف يجد كلا الزوجان

اشباعا فى الامور الجنسية ، وفى جميع حقول الزواج الاخرى ، وفى مقدمتها ما يتخلف عنـه مـن أطفـــال .

أما فيما يتعلق بالدعامة الثالثة ، وهى دعـــامة الفضائل البشرية كالحب والعطف والرحمة ، فانى سوف أدع القرآن الكريم يتحدث نيابة عنى ، يقول القرآن (فى سورة 46 آية 15) « ووصينا الانسان بوالديه حسنا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن اشكـر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى انى تبت اليك وانى من المسلمين » صدق الله العظيم . ويخبرنا القرآن أيضا (فى سورة 17 آية 23 ، 24) « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ربكم أعلم بما فى نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للتوابين غفورا » صدق الله العظيم . فيالها من روح بالحنان المتبادل أن يخفض لنا ، فى حالة عجزنا ، جناح الـــذل من الرحمة ، نحن الوالدين اللذين كنا دائما نغمر بحناننا الواقى أطفالنا وكبار السن فينا وقت حاجتهم الى هذا الحنان . اننا اذا كنا طيبين صبورين مشجعين متفاهمين فى سلوكنا نحو أفراد أسرتنا ، فان ذلك ولاشك من شأنه أن يخلق فيهم نفس هذه الفضائل التى يمكن أن ننقلها بهذه الطريقة أيضا الى المجتمع الانسانى خارج العائلة . ومن ناحية أخرى فان رب عائلة رحيما ومراعيا لشعور الآخرين سوف يكون صالحا أيضا بالنسبة لاولئك الذين يتصل بهم خارج البيت ، طالما أنه سيكون صادقا وعنيدا عندما يجـد أن عليه حمايتهم ـ شأنهم شأن أفراد أسرته ـ ضد ما يبرز من رذائل بقصد تقويض وتدمير تلـك الفضـــائل .

ولكى نكمل المناقشة ، فان الدعامة الرابعة تمنحنا داخـل ثنية الحياة العائلية ملاذا مأمونا ضد المتاعب أو مصادر القلق الداخلية والخارجية . ففى الوقت الذى فيه يرتاب الناس بعضهم فى البعض الآخر ، ويفكر كل واحد فى نفسه قبل كل شىء ، ويعتبر أن من الجرم اقلاق النفس بمشاكل الآخرين ، فان غـــير المحتاجين هم فقط أولئك الذين يعرفون أن لهم على الاقل مكانا واحدا للملاذ هو العائلة . فهنا ، فى العائلة ، يمكن أن تحصل على نصيحة مخلصة أو على قطعة خبز ، على يد ممدودة للمساعدة أو على فراش .

وهنا ، فى العائلة ، نستطيع أن نضمن الحماية ضد العالم الخارجى ، ونعرف بأن أفـراد الاسرة الآخرين ينتظرون منا أحسن ـ وليس أردأ ـ ما عندنا ، مما يساعدنا كثيرا على اظهار أجمل صفاتنا وخصائصنا ٠ وهكذا فان العائلة مؤسسة رائعة للمحتاجين كما هى رائعة للقادرين على تقديم المساعدة ٠ ولا توجد مؤسسة اجتماعية أخرى تحمل على كتفيها مسؤوليات مماثلة بمثل هذا النجاح ٠

وأخيرا ، كلما يصبح المجتمع أكثر كمالا فى أعين المشاهد السطحى ، كلما تبـــدو انجازاته الاجتماعية كلها ـ وهى انجازات عامة غير شخصية تماما ـ مدعاة للشفقـــة والرثاء فى نظر هؤلاء الذين يعرفون الرعاية الفائقة والدفىء فى الحياة العائلية الاسلامية الحقيقيـــة ٠

السيد مولود قاسم نايت بلقاسم
في حديث خاص
مع « الشعب »

لامعارضة بين الإسلام والإستفادة من تجارب الأمم الأخرى على أساس جوهرنا

اجرى الحديث : محمد فارح

اجرت الزميلة « الشعب » الصادرة بتاريخ 6 ماى 1976 حديثا مع السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، بعد عودته من المؤتمر الاسلامى بلندن ونعيد طبعه كاملا : بمقدمته ، وعناوينه الفرعية كما جاء فى الزميلة المذكورة تعميما للفائدة .

« الأصالة »

لعل هناك كثيرين يعتقدون أن المبادىء، والافكار، والقيم كلها لا تكتسب قيمتها ولا تنتعش وتثبت وجودها الا بالممارسة والعمل والنزول الى الواقع ، لرسم الطريق أمام الجماعات البشرية. ويرون الحوار الجاد أفضل وسيلة لاثرائها وازالة الصدا عنها ، وكشف جوانبها المشرقة ، ودفع العقول الساكنة أن تتحرك وتتفتح على مطالب العصر وتواجه مشاكله بحلول ملائمة تلبى حاجياته ، وترضى طموح ابنائه . وقد تكون المؤتمرات واللقاءات الفكرية بين العلماء والمفكرين خير طريق للحوار المنشود والمناقشة الهادفة .

وفى الايام الماضية انعقد مؤتمر اسلامى في بريطانيا ، وحاضر فيه الاخ مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، ويمكن أن يكون هناك من سمع بانعقاده وتساءل عما دار فيه ، وود معرفة هدفه، ولهذا حاولت منذ عودة الاخ الوزير الى الجزائر أن اتصل به لانقل للقراء صورة تقريبية عن هذا المؤتمر ، وظللت أتصيد الفرصة بين اشغاله حتى الاسبوع الماضى حملت اسئلة كثيرة ، وذهبت الى وزارته ، فاجاب عن بعضها مشافهة وارجأ بعضها الآخر الى مناسبة أخرى قد يكون الوقت فيها أوسع وتكون الاعمال أقل ، وبذلك أقتصر الحديث على ما يلى :



١٣٩٦
الدولى

س : السيد الوزير : لقد حضرتم أخيرا المؤتمر الاسلامى الدولى الذى انعقد فى لندن بمناسبة تنظيم المهرجان الاسلامى العالمى بها . والقيتم فيه محاضرة ، فما موضوع محاضرتكم ؟ وما الجوانب التى طرقتموها فيها ؟ وما الاسباب التى دعت الى عقد هذا المؤتمر ؟ ولماذا اختيرت بريطانيا بالذات مقرا لانعقاده ؟ ومن البلدان الاسلامية التى شاركت فيه ؟ وكيف لم يجد مقاومة من البريطانيين مع انهم غير مسلمين ؟ وما المواضيع التى جعلت محاور اساسية له ؟ وهل وجدت اقبالا عليه من غير المسلمين ؟

ج : للاجابة عن هذا السؤال لابد من أن أعود قليلا الى الوراء وبالضبط الى شهر مايو سنة 1973 ، حيث شاركت فى المؤتمر الاول للمراكز والهيئات الاسلامية فى أوروبا الذى انعقد بلندن بدعوة من اللجنة التنظيمية المؤقتة للمؤتمر ، وعن هذا المؤتمر انبثقت هيئة دائمة اسمها المجلس الاسلامى الاوروبى ومقرها فى لندن أيضا .

وهذه المرة تلقيت دعوة من السيد سالم عزام ، الامين العام لهذا المجلس ، من أجل المشاركة في المؤتمر الاسلامى الدولى الاول الذى انعقد بدوره بمناسبة المهرجان الاسلامى العالمى الذى احتضنته العاصمة البريطانية وقد اقترح على موضوع محاضرة هو « مفهوم العدالة الاجتماعية فى الاسلام » والقيتها يوم التاسع من شهر أفريل الماضى ، وتتلخص عناصرها فيما يلى : ان العدالة الاجتماعية فى الاسلام تأتى من العدل ، وان هذا العدل يتصل بصميم العقيدة الاسلامية نفسها ويكفى أن نقول : ان الحساب والعقاب فى الاسلام يقومان على الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وان معناه العدل فى الدرجة الاولى ، اذ يكافأ الانسان حسب ما عمل فى دنياه ، ومن هنا رأينا ائمة امثال جار الله الزمخشرى والقاضى عبد الجبار يعرفون مسؤولية الانسان على اعماله أمام الله غدا يوم القيامة بحرية الاختيار أو نظرية العدل كما هو معروف .

وقد حاولت أن اذكر بمعالم هذه العدالة الاجتماعية نظرية وتطبيقا ، معتمدا فى ذلك على آيات قرآنية، واحاديث نبوية، وعلى امثلة واقعية من سيرة الرسول «ص» وبعض الخلفاء الراشدين وعلى فتاو واجتهادات لبعض كبار علماء الاسلام من حيث أبواب هذه العدالة الاجتماعية ، واركان العدالة الاقتصادية التى هى شرط تطبيقها ، ومقاصد الشريعة من هذه العدالة التى هى مصلحة الامة بالدرجة الاولى . وهذا المبدأ الاساسى صالح لكل زمان ومكان ، الامر الذى يستبعد عن الاسلام كل ما يلصقه به اتباعه الجهلة واعداؤه المتجاهلون من تهم الاستغلال والاذلال والطبقيات والدرجات ، وغير ذلك من التهم الباطلة التى نسمعها من حين لاخر .

وقلنا : ان الاسلام ، بالعكس من هذه الادعاءات ، هو دين العدالة الاجتماعية الحقة كما طبقها خاصة الرسول والعمران (عمر ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز) وكما هى فى الشريعة الاسلامية ، مقاصد، ونظريات ، وتطبيقا ، فى العهود الزاهرة للاسلام ، وما تزال صالحة اليوم وغدا مع الاجتهاد ومراعاة الزمان والمكان وأخذ مصلحة الامة فى الدرجة الاولى بالاعتبار، وهو جوهر مقاصد شريعتنا

السمحاء، مما لا يستبعد اطلاقا الاستفادة من تجارب الامم ، الناجحة منها والفاشلة ، بل الاسلام يحثنا على الاستفادة من تجارب الامم على أساس جوهرنا، مهما كانت ديانة هذه الامم أو جنسيتها أو مكانها وزمانها ·

اما بالنسبة لاسباب انعقاد هذا المؤتمر فتكمن في توصيات مؤتمر 1973 بنفس المدينة وتتلخص فيما يتعلق بهذه النقطة في ضرورة توعية ملايين المسلمين الموجودين خارج العالم الاسلامي كما في أوروبا الغربية، وأمريكا، واستراليا ومحاولة محو كل ما علق باذهان غير المسلمين ، منذ الحروب الصليبية وخاصة منذ الغزو الاستعماري للعالم الاسلامي في العصر الحديث، من تشويه للاسلام ، واظهاره بغير وجهه الحقيقي ·

وحيث انه يوجد في بريطانيا كما في عاصمتها أكثر من مليوني مسلم ومسلمة ، فان انعقاد مثل هذا المؤتمر في هذه العاصمة وانعقاد مؤتمرات اسلامية أخرى في عواصم بلدان أوروبية وغيرها من التي توجد فيها جاليات اسلامية ، دائمة أو مؤقتة ، لما تفرضه ضرورة العناية بهذه الجاليات، فضلا عما تساهم به هذه المؤتمرات في رفع مختلف أنواع اللبس والتشويه والتحريف التي الصقت بالاسلام، وعلقت باذهان غير المسلمين في هذه البلدان ·

ولقد شاركت في هذا المؤتمر» اغلب البلدان والجاليات الاسلامية في العالم ، بل ان بعض البلدان الاسلامية التى بقيت مدة طويلة بمعزل عن كل نشاط اسلامي مثل تركيا ارسلت الى هذا المؤتمر بوزيرين اثنين احدهما وزير دولة ، وقد يكون السبب في هذا الحرص من تركيا وبعض الدول الاسلامية الاخرى وجود جاليات كبيرة لها في أوروبا الغربية اليوم ، ولكن هذه المشاركة نفسها، بقطع النظر عن هذا الاعتبار، ظاهرة جديدة وبادرة طيبة تستحقان التقدير · أما لماذا لم يجد مقاومة من البريطانيين ، فان الجواب نجده ، ربما ، في أن كثيرا من المواقف المضادة للاسلام في الماضي كانت مرتبطة بالحروب الصليبية، وخاصة بالاستعمار ، وبزوال تلك العهود السوداء بدأت هذه السلبيات تزول ، وربما وجدنا أكثر مؤيد لهذا التفسير في قيام شخصيات بريطانية ممتازة باتخاذ بادرة تنظيم المهرجان الاسلامي العالمي الذى يجرى حاليا في لندن بمعارضه، وندواته ومحاضراته ، التي تدوم عدة شهور، وهي محاولة مشكورة لشرح الجوانب المختلفة للفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية.

وبخصوص المواضيع التي طرقت في المؤتمر فهي متنوعة تدور كلها حول وضع الامة الاسلامية اليوم في المجال الروحي، والفكرى، والتشريعي ، والاقتصادى ، والاجتماعي عامة ، ووضع المراة خاصة· وهذا الموضوع الاخير طرقته سيدتان أوروبيتان مسلمتان احداهما ألمانية والثانية بريطانية وينبغي أن أقول انهما طرقتاه بكيفية ممتازة وعرض فائق وفندتا في محاضرتيهما كل ما يلصقه اعداء الاسلام في الداخل والخارج من ابنائه الجهلة وأعدائه المتجاهلين الحاقدين على الاسلام بالشريعة الاسلامية وموقفها من المرأة حيث أشادت السيدتان بكل ما أعطاه الاسلام للمرأة من حقوق، وخصها به من عناية ورعاية ، وهي كلها قيم لا تجدها حتى اليوم في أي تشريع آخر غير الاسلامي

يقدر مصلحتها وخير الاسرة والمجتمع حق التقدير .

وبشأن الاقبال من غير المسلمين على هذا المؤتمر ، فباستثناء الجلسة الافتتاحية التي عقدت في أكبر قاعة في أوروبا ، وهي « فيكتوريا هول » ، التي اسمعنا فيها صوت الجزائر ، حيث حضر أكثر من سبعة آلاف ، نصفهم على الاقل بريطانيون ، وحيث تزاحم الناس بالمناكب على الدخول ، فان بقية المداولات جرت في قاعة أخرى أصغر بكثير لم يتمكن كثير من غير المسلمين أن يحضروها لضيق القاعة أولا ، ولشدة الاقبال والازدحام من المسلمين ثانيا، مما حرم كثيرا من المسلمين وغير المسلمين من الحضور ، وهو شيء نأسف له جدا ، ونرجو ألا يتكرر في المستقبل بقدر الامكان .

ولئن حرص المنظمون على وضع أجهزة تلفزيونية في قاعات جانبية حول القاعة الرئيسية الا أن عدد المستفيدين من ذلك بقي ضئيلا بالنسبة لعدد المتنافسين على الحضور .

وقد وجدنا في القاعة عددا من الجزائريين والجزائريات ممن يدرسون في بريطانيا .

الرقص علامة على التفسخ البرجوازى والانحـــلال الارستقـــراطـي

س : ذكرت «مجلة المجتمع الكويتيـــة » أن المهرجـــان الاسلامي المنعقد بلندن قـد أقيم معظمه للرقص والفنون الشعبية بعد أن اسقطت منه الفقرات الحية التي يمكن أن تخدم الاسلام. فبماذا تعلقون على ذلك ؟

لم يكن العري وشبهه علامة على النهضة ، والـرقي ، والثورة .

ج : أنــا شخصيــا لم أكن ولكن أكون أبدا من أنصار الرقص ولم يسبق لى أن اعتبرته ولن اعتبره من مظاهر الحضارة والرقي والتقدم بل كان دائما على مر العصور في جميع الحضارات علامة على التفسخ البورجوازى ، والانحلال الارستقراطي ، حتى فيما يسمى باعلى صوره الكلاسيكية ، وهذا من العلب الليلية الى ارقى الاوبيرات والبالهات في العالم . ولم يكن العرى وشبهه في يوم من الايام من علامات النهضة والرقى ، والثورة ، والتفتح، والتقدم ، والتطور .

وفيما يتصل بمهرجان لندن بالذات ، سمعت فعلا أن هناك شيئا من الرقص الشعبي والفلكلوري ، أو سموه كما شئتم ، قامت به فرق من بعض البلدان العربية ، وانا شخصيا لم آره ، اذ بقطع النظر عن رأيي المعروف في هذا وعدم رغبتي في مشاهدة مثل تلك العروض ، فالوقت الضيق الذي تركه لي المؤتمر فضلت أن اخصصه للمعارض الرائعة الممتازة في متحفي العلوم والفنون اللذين قدما لنا كنوزا من فكر الاسلام وحضارته ، ورأينا هناك ما اذن سمعت ، وعين قرأت ولكن ما رأت قبل اليوم ولا خطر على قلب بشر ، حيث اجتمعت كنوز فاخرة ، نادرة، لاول مرة في مكان واحد ، لمن يريد أن يأخذ فكرة تجسيمية ولو مصغرة عن فكر الاسلام وحضارته، تتمثل في آلات وأجهزة هي غاية في الصنع ، والدقة ، والتقنية،وفي الوقت نفسه آية في الجمال ، والروعة والابداع !

وقل الشيء نفسه عن تلك المخطوطات النادرة المدفونة التى ليست فقط من تراث الاسلام فى ازهى عصوره ، ولكنها ملك للانسانية كلها ، اذ كانت المنطلق للنهضة الاوروبية في العصر الحديث،وبالتالى لارقى ما وصلت اليه البشرية المتقدمة اليوم ، ونقصد بها تلك الصفحات الخالدة التى سطرها امثال الفارابى ، وابن سينا ، وابن الهيثم ، والبيرونى ، والخوارزمى ، وابن الجزار ، وابن رشد ، وأبى حمزة الجزائرى ، وما أكثرن امثالهم فى سجلنا الخالد !

ومن هنا فلم أر فى لندن الرقص ، والشطيح ، والفركسة فى اطار هذا المهرجان ، ولكن رأيت الاجهزة التى كان يشتغل بها ابن ماجد ، وأولوغ باى ، والرازى، وابن القاسم، ورأيت مخطوطاتهم ومخطوطات امثالهم ، ممن ذكرنا ومن لم نذكر ، واقول بكل بساطة وايجاز شكرا لمنظمى المهرجان، وكم نتمنى لو تكثر مثل هذه البوادر .

س : ألا يفهم من انعقاد هذا المؤتمر بلندن ان المفكرين والعلماء المسلمين عجزوا عن ايجاد حلول لمشاكلهم الدينية والفكرية فحملوها الى غيرهم ليساعدهم على حلها ؟ أو أن المسؤولين في أوطانهم رفضوا حوارهم ففضلوا الانتقال الى غير أوطانهم ؟

ج ـ لا أظن هذا ولا ذاك ، ولكن أذكر فقط بما قلته آنفا من أن الباعث الرئيسى على مثل هذه المؤتمرات خارج العالم الاسلامى ينبغى أن يستهدف بالدرجة الاولى توعية المسلمين الموجودين هناك أولا، وبالدرجة الثانية، رفع اللبس ومحو الافكار المسبقة التى لا تزال عالقة بأذهان الكثير من غير المسلمين عن الاسلام والحضارة والفكر الاسلاميين ، ومن ثم فليست هذه المؤتمرات ولا ينبغى أن تكون للبحث فى الخارج عن حلول لمشاكل العالم الاسلامى ولا يليق بالمسلمين أن ينتظروا من غيرهم حلولا لمشاكلهم بل حلولهم تكمن لديهم ، وفى أرضهم ، وعلى أساس واقعهم وأصالتهم، مع الاستفادة من تجارب الامم ، على أن هذا لا ينفى فائدة أى حوار خصب،ولا يقلل من قيمة أى صراع فكرى حى ، بل الاسلام يحضنا على ذلك ويأمرنا بالسير فى الارض ، والنظر ، وبالتفكر والتدبر ، وبالجدال الحسن .

س : يخيل الى انكم رجعتم بانطباعات شخصية عن أعمال هذا المؤتمر ، فما هى هذه الانطباعات وهل تتوقعون ان تكون ايجابياتها أكثر من سلبياتها ؟ ولماذا ؟

ج ـ أظن أننى أستطيع ان استخلص من اقبال العمال والطلبة المسلمين فى بريطانيا على هذه الندوات ، ومن شدة اهتمامهم البادى على وجوههم، وفى أسئلتهم ، وتعليقاتهم ، وفى تتبعهم عن كثب لواقع الامة الاسلامية اليوم ، وفى نضج الكثير منهم ان لم أقل الاكثرية ، حسبما يبدو لى من انطباع سريع ، وفى تلهفهم على ضرورة حدوث تطورات جذرية فاصلة سريعة فى أمة الاسلام تحقق عدالة مجتمعها وتجعلها فى مصاف ان لم يكن فى مقدمة أرقى الامم ، أن شباب هذه الامة يقظ ربما أكثر من أى وقت مضى ، وأنه يبعث لا على التفاؤل فحسب بل على التأكد من قرب زوال رواسب عصور الهمود ، والجمود ، والخمود ، وما تلاها من عهود الاستعمار ، والاستغلال ، والاذلال ، والاطمئنان الى طلوع فجر هذه الامة من جديد واشراق شمس الحرية الحقة ، والعدالة التامة الشاملة ، والعزة

الكاملة في ظـل أصالتها وقيمها الصحيحة الخالدة .

س : ألم تلاحظوا أوجه شبه بين هذا المؤتمر وملتقيات الفكر الاسلامي التي تنظمها وزارتكم كل سنة ؟ وما الجوانب التي يلتقيان فيها أو يختلفان ؟

ج — لا أظن أن هناك أوجه شبه أو سبيلا للمقارنة بين الجانبين الا في بعض النقاط التي جاءت في جدول أعمال المؤتمر وسبق لنا ان طرقناها وناقشناها بتوسع في ملتقيات الفكر الاسلامي بالجزائر ونشرنا أغلبها ، والباقي في طريق النشر . فجو الملتقيات في الجزائر هو حوار موسع ، مطول ، منهجي متتابع ، منتظم بين أساتذة جامعيين وبحاثة من جهة ، وطلبة جامعيين ، ومن السنتين النهائيتين للتعليم الثانوي من جهة أخرى ، اذ تنعقد هذه الملتقيات سنويا ، وتتكامل مواضيعها وتستنفد نقاطها ، بينما الاطار في مؤتمر لندن لم يسمح الا بالمحاضرات وأسئلة محدودة العدد الى درجة التضييق والانعدام الكلي للتعليقات والتعقيبات ، ولكن نرجو أن يستكمل هذا في المستقبل لاننا لا ننسى اننا في الجزائر على أبواب الملتقى العاشر ، بينما مؤتمر لندن هو الثاني فقط ، اذا ما ضممنا اليه اجتماع سنة 1973، وان صعوبات قد اعترضت المنظمين في لندن، ولا ننسى انهم نظموا هذا المؤتمر في بلد أجنبي .

واختتم هذه الكلمات بالتذكير بما اعلنا عنه سابقا اننا لا نزال نفكر في تنظيم ملتقى أو ملتقيات لجاليتنا في أوروبا بعين المكان ، ولئن كنا ننوي التركيز في هذه الملتقيات بالدرجة الاولى على الطلبة فان الباب سيكون فيها مفتوحا لغيرهم من المواطنين والمسلمين خصوصا وغيرهم عموما ، دائما بروح الحوار الحر والجدال الخصب ، كما هي روح ملتقياتنا ومنهجيتها حتى الآن في الجزائر .

عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات

لزكرياء القزويني

El Moudjahid 24.3.1975

LE RESPECT D'AUTRUI

Les locataires des « Asphodèles » - Ben Aknoun - Alger

Nous voudrions, par la présente, attirer l'attention des autorités compétentes sur un problème auquel nulle famille algérienne et musulmane ne pourrait rester insensible. Il s'agit des attroupements indécents qui se forment, chaque soir aux abords de la cité universitaire de jeunes filles qui fait face à notre cité.

Il est vrai qu'une cité universitaire de cette envergure (plusieurs centaines de locataires) est une concrétisation importante de la démocratisation de l'enseignement supérieur dans notre pays. Mais encore eut-il fallu veiller à un strict respect des mœurs. Nous comprenons, bien sûr, un certain esprit libertaire à nos étudiants et étudiantes. Nous ne leur en voulons absolument pas pour cela. Mais qu'ils essaient un peu — ou plutôt elles, puisqu'il s'agit d'étudiantes — de se mettre à notre place. C'est simple, pour des raisons faciles à comprendre, il nous est impossible de nous mettre en famille au balcon tant certaines attitudes sont choquantes. C'est chaque soir un défilement ininterrompu de voitures de toutes marques et de toutes immatriculations, des comportements vraiment indécents et qui ne sont rien d'autre qu'une atteinte à la bonne moralité. Notre gêne est encore plus grande quand nous recevons des invités. Nous sommes sûrs que c'est là le fait d'un petit groupe de résidentes et que la grande majorité de leurs camarades sont d'accord avec nous.

Dans ces conditions, nous faisons d'abord appel à la compréhension et au bon sens des résidentes de la cité pour qu'elles n'affichent pas d'attitudes indécentes et pour qu'elles invitent leurs amis ou camarades d'études à un peu plus de respect envers les familles qui habitent en face d'elles. Les autorités, pour leur part, devront prendre les mesures qui s'imposent pour préserver notre dignité. C'est pourquoi nous adressons un appel pressant en ce sens à MM. les responsables du ministère de l'Enseignement supérieur et de la wilaya d'Alger.

Cherche-t-on à ternir notre image ?

El Moudjahid 14.1.76

PAR LES RESIDENTES DE LA CITE UNIVERSITAIRE DE JEUNES FILLES DE BEN AKNOUN

A la suite de la publication d'une lettre parue dans « El Moudjahid » en date du 24 mars 1976 dont les signataires ont prétendu parler au nom des locataires des Asphodèles, les résidentes de la cité universitaire de jeunes filles de Ben Aknoun par le biais du comité de cité formulent leur point de vue comme suit :

Le contenu de la lettre et la forme de l'attaque rejoignent curieusement les menées actuelles de la réaction contre les réalisations de notre pays. Nous connaissons très bien l'idée que la réaction veut entretenir des étudiants et des étudiantes auprès des masses « attitude indécente, sont coupés des réalités algériennes, ce sont des jeunes occidentalisés et on en passe ». Nous disons que l'objectif de ces attaques est de faire des étudiants une couche coupée du peuple et opposée au peuple. Si la réaction s'acharne sur l'étudiante en voulant provoquer une levée de bouclier de la part des familles notamment à travers le passage... « ... nulle famille algérienne et musulmane ne pourrait rester insensible... »

C'est uniquement parce que la jeune fille lie sans cesse son avenir aux orientations progressistes du pays et participe de plus en plus à la lutte anti-impérialiste que mène notre peuple — au sein de sa famille, l'étudiante en communiquant son expérience, sa culture, son ouverture d'esprit sur le progrès universel en tenant compte de notre patrimoine culturel, contribue à faire reculer les préjugés rétrogrades au sein des familles et des jeunes filles encore soumises par leurs conditions sociales à l'idéologie rétrograde. Dans le cadre du volontariat en participant activement aux côtés des paysans et paysannes à l'application de la Révolution agraire, l'étudiante volontaire a donné une image réelle de l'étudiante en mettant son instruction et son savoir au profit de la lutte.

La réflexion d'un paysans est significante à ce sujet : « On avait une autre idée de l'étudiante mais maintenant je suis prêt à envoyer ma fille à l'école pour qu'un jour elle soit étudiante ». Les énormes progrès accomplis par notre pays dans le domaine de l'enseignement affaiblissent chaque jour la réaction qui tire sa force entre autre du manque d'instruction, de l'analphabétisme et de l'absence d'ouverture sur la civilisation universelle de la part des masses populaires (phénomènes objectifs liés au niveau du développement de notre pays).

C'est pour affaiblir notre peuple, l'exposer à l'impérialisme que la réaction veut ouvrir une brèche à l'université car le nombre plus important d'étudiants crée les conditions de développement plus rapide de notre économie au profit des masses populaires. En effet pourquoi cette lettre maintenant ? La réaction espère qu'avec l'aide de la monarchie marocaine et l'impérialisme américain il lui sera possible de remettre en cause les acquis révolutionnaires de notre peuple. C'est pourquoi au niveau du pays la réaction tente de créer un mécontentement populaire et une confusion politique ceci explique l'offensive des mandataires et des maquignons dans la spéculation des produits de première nécessité, les tentatives de remettre en cause la 3ème phase de la Révolution agraire en voulant la vider de son contenu politique, les attaques contre le volontariat étudiant qui demeure un cadre efficace de la lutte contre la réaction et l'impérialisme. Toute ces tentatives montrent que la réaction est en mauvaise posture dans notre pays, elle essaie de regrouper autour d'elle toutes les couches de la population à partir des problèmes objectifs que connaît notre pays, pour affronter la charte nationale et tenter de la mettre au service des gros propriétaires fonciers, gros éleveurs et la bourgeoisie liée à l'impérialisme contre les intérêts de notre peuple.

Cette lettre contre les étudiants ne trompe personne, nous la considérons comme une manœuvre réactionnaire.

Le comité appelle toutes les étudiantes à resserrer leurs rangs et d'être vigilantes pour ne pas s'exposer aux coups de la réaction et d'exprimer leur soutien à notre peuple en lutte contre la réaction et l'impérialisme en participant à toute activité anti-réactionnaire et anti-impérialiste, et de se tenir prêtes à déjouer toute provocation et diversion dirigées contre la cité, l'université et contre le pays.

نعيد نشر هاتين الرسالتين لسقوط العمود الثالث من الرسالة الاولى ولخطإ مطبعي فى تعليقنا بالعربية ٠

ويلاحظ القارىء ان الطالبات لم ينكرن فى رسالتهن هذه صحة ما نسب اليهن ، وانما ذكرن خمس عشرة مرة ـ كما يظهر ذلك من الترقيم ـ ان استغاثة سكان الحى ونقد مثل هذا السلوك ، رجعية وتأخر !

مع ان المساكين لم يطلبوا منهن الا « التستر مع اصحابهن » وما على الشاك فى صحة ما نسب اليهن ـ وهو مالم ينكرنه هن أنفسهن ، كما ذكرنا آنفا ـ الا ان يعرج بذلك المنعرج ، و « يضرب دورة » الى ذلك المكان ليتاكد بأم رأسه ، ويرى عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات كما يقول زكرياء عماد الدين أبو يحيى القزوينى فى كتابه المعروف ٠

منشـــــــورات

وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية

صـــــدر أخـيرا كتـــاب :

الملتقـــى السـابع للفكـــر الاســـلامى

بالعربية في ثـلاثة اجـزاء

ويشمـــل ســائر المحاضرات ، والتعقيبات ، والمناقشات

كمـــا صـــــدر كتاب :

الملتقـــى الســادس للفكـــر الاســـلامى

بالفرنسية في خمســة اجـزاء

ويشمـــل أيضا ســائر المحاضرات ، والتعقيبات ، والمناقشات

فهـــرس العـــدد



السيد مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الاصلي، والشؤون الدينية يلقي كلمة افتتاح الملتقى بحضور السلطات المدنية والعسكرية في الولاية نذكر منهم بالخصوص السادة : العقيد الهاشمي هجرس ، رئيس المنطقة العسكرية الخامسة ، وأحمد علي غزالي ، والي عنابة ، والمحافظ الوطني للحزب

صناعة ومناعة! (1)

للسيد مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على خاتم المرسلين

بعد الترحيب الصادق بحضرات السادة الأفاضل وجميع ضيوف الجزائر، من أساتذة ، وصحافيين ، وطلبة

(*) كلمة افتتاح الملتقى العاشر للفكر الاسلامي بعنابة .

أود أن أبـــدأ كلمـة الإفتتاح هـذه للملتقى العاشر في عنابة بما أنهيت به كلمة الإختتام للملتقى التاسع في تلمسـان ، وأقول لكم ولنا جميعا :

مرحبا في العاصمة الصناعية مدينة الحجار، التي قاومت بالأمس البعيد الغزاة والفجار، معترك دونات والدوناتيين ضد القديس والعصابة ، ومثوى أبي مروان للعلماء رئيس النقابة ،حقل العنب والعناب : عنابة !

حضرات السادة ،

أمامنا ثلاث نقاط قد تبدو لأول وهلة متباعدة ، ولكنها في الواقع تنسلك كلها في سياق واحد ، وتستجيب لفكرة واحدة هي : كيف يكون الإنسان ابن عصره مع البقاء على أديم مصره ، وبدون أن يصبح نسخة غيره ، مستفيدا من تجارب الماضي لأمته والإنسانية كلها ، بانيا حاضره ، ومخططا لمستقبله.

1 فالنقطة الأولى هي " ازدهار الحضارة والفكر الإسلاميين في الغرب الإسلامي ، وخاصة في بلدان المغرب ، وإبريا ، وصقلية ، ودورهما في النهضة الأوروبية " ونستعرضها في معالجة موضوع مبلغ الحضارة والفكر الإسلاميين في عصورهما الزاهية ، ومدى تأثيرهما في نشأة ثم انطلاق ما يسمى بالنهضة الأوروبية في بداية العصر الحديث.

هل كان أسلافنا قد اسهموا حقا في التراث الإنساني ، وكانت لهم اليد الطولى في حضارة العصر الحديث وفكره بما أبدعوه، وأثروا به أنفسهم ، وقدموه للإنسانية ، من إنتاج

أصيل كان له الدور الفصل فى حضارة اليوم، كما يبدو لنا واضحا، وكما برهن عنه الكثير فى الغرب قبل الشرق، أم كان دورهم مقتصرا على الترجمة والنقل النزيه أو غير النزيه، كما ادعى آخرون فى كل من الغرب والشرق؟

وهذه الدراسة التى تقدمونها اليوم على غاية من الأهمية لا لشبابنا فقط، وشباب العالم الإسلامى على سعته، ولكن أيضا، فيما نرى، لأوروبا، وأمريكا، والإنسانية جمعاء، بما ستعززه من روح نزاهة البحث العلمى، وما ستحث عليه من زيادة الفحص والتدقيق، وتدفع إليه من التعاون والدرس فى سبيل الحقيقة وخير الإنسان.

2- والنقطة الثانية هى:

"ضرورة التصنيع فى العالم الإسلامى ووجوب اختيار أحسن الطرق لتجنب أمراض المجتمعات الصناعية" وتبحث عن كيفية الخروج من مأزق وجدت فيه الإنسانية نفسها على مر العصور والحضارات، ولكنه ازداد اليوم حدة أكثر من أي وقت مضى خلال التاريخ، ولم يسبق أن مرت به على هذه الشدة تجارب الأمم، وهو حتمية التصنيع، بل الإسراع فى هذا التصنيع من جهة، حتى لا يبقى عالمنا الإسلامى يقدم طاقاته البشرية والمادية مواد أولية وتبقى لشعوبه فى سلم التصنيف العالمى قيمة ثانوية، ومن جهة أخرى ضرورة تحاشى الإنعكاسات السلبية لما يخلقه الإزدهار المادى البحت من فراغ فى النفوس، وضحالة

في العقول، وضعف في القيم التي تجعل من الإنسان إنسانا، وذلك أنه ما من مجتمع اقتصر في حضارته على الجانب المادي المجرد، وأهمل البعدين الروحي والأخلاقي، إلا وانحل واختل، وأي نظام مهما كان قويا إذا كان متهالكا على الاستهلاك انتهى إلى الهلاك!

ولقد أكد على هذه البديهيات المستخلصة من تجارب الشعوب وتاريخ الحضارات علماء ومفكرون خاصة في أوروبا اليوم، ونكتفي هنا بذكر معاصرين اثنين، أحدهما هو أرنولد طويبني، من أقدم دولة صناعية في أوروبا، وثانيهما من أحدثها في عصرنا هو خوسي أورتيقا إي قاسيط.

وإن ما يشاهده أو يسمع عنه الملاحظ اليوم في أوروبا الغرب والشرق من مظاهر ما يسمى حقا بأزمة حضارة لأكبر منذر لكل ذي عقل تتجاوز اهتماماته نحو أمته يومها إلى غدها، ويروم لها الخلود ما خلد الإنسان!

3 والنقطة الثالثة والأخيرة هي "الأبعاد الروحية، والسياسية، والإقتصادية، والإجتماعية للعبادات، وأهميتها لكل من الأمة والفرد"، ونروم من خلال طرقها النظر بأنفسنا على طريقة أبي حامد وعلى ضوء القرن العشرين فيما إذا كانت لاتزال الأديان، والدين الإسلامي بالذات، صالحة للإنسان، ناجعة له من أمسه حتى رمسه، وفي أصله وفصله، وتعالج قضايا دينه ودنياه، وتلاحقه إن سلبا أو إيجابا، حسب سلوكه، في سافلته وعلياه. أم أنها تجاوزها الزمن، وأصبحت أضغاث

أحلام، يخدر بها ضعاف العقول عن واقعهم المر، كما ادعى ذلك مدعون؟

أم هل هي قيم خالدة ونبراس الإنسان في دهاليز الدنيا قبل الآخرة، كما آمن من آمن عن عقل ودراية، لاعن جزم ومجرد رواية، وكانت على الأقل بعدا أساسيا في حياة أي مجتمع بالأمس، واليوم، وغدا، وكان الجازمون بعكس ذلك هم الأدعياء وضحايا الدوغماتيكية والأحلام، كما كتب ذلك أكثر من مرة المفكر الفرنسي المعاصر روجي غارودي عن تجربة وسابق معاناة؟

كثيرا ما يقال لشباب اليوم إن الدين ضد العلم. وهل منع الدين بالأمس أمثال الرازي، وابن سينا، وابن رشد، وابن النفيس، وابن الجزار، والبيروني، وأبي حمزة عن اكتشافاتهم وإنارتهم الإنسانية؟

وهل أعاق اليقين الروحي روح البحث والاكتشاف بالأمس القريب أمثال باستور وآينشتاين؟ ألم يكن كلاهما يخرجان من مخبريهما إلى معبديهما، الأول إلى كنيسته، والثاني إلى بيعته؟

ما دور العبادات اليوم في حياة الفرد والأمة؟ وما هي مختلف أبعادها لصالح المجتمع وللإنسانية؟

هذا ما عليكم عرضناه، ونود منكم لو عرفناه، وإن الاستفهام ليس دائما إنكاريا، بل إن منه لإقراريا، ولسنا أصدق إيمانا من أبي حامد، وعلى الله قصد السبيل.

والسلام عليكم ورحمة الله

ازدهار الحضارة والفكر الإسلاميين في الغرب الإسلامي ودورهما في تغذية النهضة العلمية والحضارة الأوروبية

محمد عبد الله عنان
مؤرخ ـ مصر



فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، أو الحادى عشر الميلادى ، بدأت بين الشرق والغرب ، وبين الاسلام والنصرانية ، تلك المعارك المضطربة الطويلة الامد ، التى استمرت بين المد والجزر ، زهاء قرنين ، ونعنى الحرب الصليبية ، وهى الصفة التى شاء الغرب ان يسبغها عليها ، والتى اريد بها أن تحجب أغراضها الحقيقية الدنيوية والاستعمارية • وكانت طوائف الفرنج الغازية، التى اجتمعت فيها زهرة الفروسية الاوروبية ، من كل أمة ومجتمع ، تعتقد أنها سوف تلقى فى المشرق أمما همجية وثنية ، بعيدة عن كل حضارة وتمدن ، فاذا بها تصطدم بأمم قوية ناهضة ، حسنة التسليح والاهبة ، تدافع عن نفسها خير دفاع ، وتعيش فى عالم آخر من التقدم والازدهار ، غير ذلك العالم القائم ، الذى تصوره الغزاة ، وتنعم بالثراء والرفاهية ، ولا تقل فى تقدمها

وحضارتها ، عن الدولة البيزنطية ، التى كانت يومئذ كعبة أوروبا النصرانية ، ومثلها الاعلى فى الحضارة والتقدم •

وهكذا بهرت طوائف الفروسية الاوروبية ، بما وقعت عليه أبصارها فى المشرق ، من مختلف ضروب العلوم والتقدم ، واضحت المعارك المضطرمة بين الشرق والغرب ، ميادين للكسب الحضارى ، وفتح الغرب عينيه ، على ما لم يكن يحلم به ، من معالم الحضارة والعلوم المشرقية ، وبدأت محاولاته المنظمة ، للاقتباس منها والانتفاع بثمارها •

وكان صدى هذه المحاولات ، يتردد فى الوقت نفسه فى الناحية الاخرى من البحر الابيض المتوسط ، حيث كانت اسبانيا المسلمة ، التى كان الغرب يعرف عنها ، أكثر مما يعرف عن المشرق ، لقربها منه ، تثير بحضارتها وعلومها وفنونها ، اهتمام الامم الاوروبية ، وحيث كانت جارتها المباشرة ، اسبانيا النصرانية ، تلعب دورها المأثور ، فى الاقتباس والاتصال الحضارى • وفى الوقت الذى كانت تضطرم فيه المعارك الصليبية فى المشرق ، أعنى خلال القرن الثانى عشر ، كانت مدارس الترجمة ولا سيما مدرسة طليطلة الشهيرة ، وهى التى اسسها العلامة الايطالى جيراردو الكريمونى فى القرن الثانى عشر الميلادى ، تقوم بعملها المتصل المنظم فى نقل ثمار العلوم الاسلامية الى اللغة اللاتينية ، وهى يومئذ لغة العلم فى سائر انحاء أوروبا •

ومن ذلك الحين ، تبدأ مساهمة الحضارة الاسلامية ، فى تكوين الحضارة الاوروبية وقد امتدت هذه المساهمة زهاء ثلاثة قرون ، وكان لها أثرها الواضح • ولكن تأخر العالم الاسلامى ، منذ أواخر القرن الخامس عشر ، ثم تسلط الاستعمار الاوروبى ، بعد ذلك ، منذ القرن الثامن عشر ، على كثير من الامم الاسلامية ، قد حجب كثيرا من الحقائق العلمية والحضارية ، التى يدين بها الغرب الى حضارة الاسلام ، وتركت الكلمة فى معظم الاحيان للبحث المغرض • على ان هذا التشويه لحقائق التاريخ ، لم يقو على الصمود ، أمام نتائج البحث النزيه الحر • فمنذ أكثر من قرن من الزمان يدرس تراث الاسلام والعربية، وترى الحقائق المدهشة عن القسط العظيم ، الذى ساهمت به المدنية الاسلامية ، فى بناء الحضارة الاوروبية والحضارة الانسانية بوجه عام • وفى وسعنا الآن ، أن نتتبع

هذه المساهمة فى كثير من نواحيها ، العلمية والادبية والفنية وغيرها ، من مقومات الحضارات العظيمة ·

لبث العالم الاسلامى مدى عصور ، يشغل مركز الصدارة والتفوق فى العالم القديم، سواء فى الشرق أو الغرب · واذا استثنينا الدولة البيزنطية ، وبقايا الحضارة الرومانية القديمة ، فقد كانت المدنية الاسلامية ، تسطع وحدها خلال حلك العصور الوسطى ، فى الوقت الذى كانت فيه الامم الاوروبية ، ما تزال تعيش فى غمار من البداوة والتأخر · ولما وصلت المدنية الاسلامية الى ذروتها فى نحو القرن الثانى عشر، كان الغرب قد بدأ يستيقظ من سباته الطويل أولا بتأثير الهزة العنيفة ، التى شعر بها خلال الحروب الصليبية ، والتى انتهت بتحطيم طوائف الفرسان المستبدة ، التى لم يكن لها شعار سوى النار والسيف وثانيا بانحلال نظام الاقطاع ، الذى لبث عصورا يشل سائر ضروب النشاط العقلى والسلمى ، وثالثا بقيام القوميات الاوروبية ، ونهوض المجتمعات المدنية المنتجة فى داخلها ·

وكانت بقايا المدنية الرومانية ، ممثلة بالاخص فى المدنية البيزنطية ، هى اقيم تراث يهتدى به الغرب فى خطواته الحضارية ، منذ القرن السابع الميلادى فلما فتح الغرب عينيه على تراث الحضارة الاسلامية ، ألفى فيه ميدانا أوسع واخصب ، وأكثر جدة وتقدما · ومن ثم فقد أخذينهل من ثماره ، فى مختلف الميادين ، ولسنا ندعى أننا نستطيع ، فى مثل هذا المقال المحدود ، أن نحيط بسائر العلوم والفنون التى اقتبسها الغرب ، وانتفع بها فى تكوين مدنيته ، فهذا بحث يقتضى المجلدات الضخمة · ولكنا سوف نحاول فقط أن نقدم لمحات عابرة ، عن هذا التأثر والتفاعل الحضارى العريق ·

وربما كانت بحوث المسلمين فى الطب والكيمياء والطبيعة ، هى اعظم ما افاده الغرب ، وما افادته المدنية الانسانية من هذا التراث · وقد كان هذا الميدان ، منذ أقدم العصور ، يجذب بسحره وأسراره ، عقول الباحثين فى كل قطر · وقد خصه المذكرون المسلمون ، سواء فى الشرق أو الغرب ، بأعظم عناية ، وكانت لهم فيه بحوث واكتشافات عظيمة ، كانت أخصب مستقى للغرب ، فى هذا الميدان · وقد أحرز المسلمون بالاخص ،

فى ميدان الطب ، أعظم مكانة • وكان الاطباء المسلمون ، سواء فى الشرق أو الغرب ، أعظم الاطباء فى العصور الوسطى • وقد فتحت بحوثهم واكتشافاتهم فى ذلك الميدان آفاقا جديدة ، كان لها أعظم الاثر ، فى تطور الطب ، فى تلك العصور • ولعل الحضارة الغربية لم تفد من تراث الاسلام ، قدر ما أفادت من بحوث الاطباء المسلمين • ولدينا من أعلام الطب المسلمين سواء فى الشرق أو الغرب ثبت حافل ومنه اسماء ، لبث الغرب مدى عصور وما زال حتى عصرنا ، يذكرها مع عميق الاجلال والتقدير •

وفى مقدمة هؤلاء أبو بكر الرازى ، الذى عاش فى النصف الاول من القرن العاشر الميلادى • وقد كان الرازى ، من أعظم الاطباء والكيميائيين الذين عرفهم التاريخ • ويعتبره الاستاذ سارتون مؤرخ العلوم ، أعظم مشخص فى الاسلام ، وفى العصور الوسطى • وله بحوث هامة فى مواد الجراحة الرمدية ، والولادة وأمراض النساء • وقد ترجمت معظم مؤلفاته الى اللاتينية • ونشرت بعد ذلك بمختلف اللغات الاوروبية • وكانت ما تزال حتى القرن الثانى عشر من أهم وأقيم المراجع الطبية •

على ان اعظم اطباء الاسلام قاطبة هو الشيخ الرئيس ابو على بن سينا المتوفى سنة : 1037 م ، والمعروف للعالم الغربى باسم Avicenna • ويجمع النقد الغربى على اعتبار ابن سينا ، من أعظم رجالات العلم فى العالم كله • ويصفه الاستاذ سارتون بانه من أعظم الاطباء فى سائر العصور ومن اشهرهم ، بين سائر الاجناس والبلاد والعصور » ـ وقد كان ابن سينا طبيبا ، وفيلسوفا ، رياضيا ، وفلكيا ، وانسيكلوبيديا • وقد كتب فى الطبيعة والكيمياء والطب والفلسفة والمنطق وغيرها • ولكنه عرف بالاخص بتراثه الطبى • وتعتبر موسوعته الطبية المسماة « بالقانون » من أعظم المراجع الطبية فى العصور الوسطى • وقد لبثت قرونا عمدة العلوم الطبية فى الشرق والغرب • وترجمت الى اللاتينية على يد جيرارد والكريمونى ، ونشرت بعد ذلك بمختلف اللغات • وطبع « القانون » بنصه العربى واجزائه الخمسة فى مجلد ضخم بمطبعة آل حدتشى فى رومة سنة 1593 •

اما فى الغرب الاسلامى فانا نجد فى اسبانيا المسلمة ثبتا آخر من الاسماء اللامعة ، وفى مقدمتها أبو القاسم بن خلف الزهراوى القرطبى المتوفى سنة 1013 م ، ويعتبر

أبو القاسم اعظم جراح فى الاسلام ، وكان لطرائقه المستحدثة ، تاثير عظيم فى تقـدم الجراحة فى أوروبا حتى عصر الاحياء · وللزهراوى موسوعة طبية عظيمة يتناول فيها جراحة العين والاذن والاسنان · وله كتب أخرى فى علم الصحة والعلاج · وقد ترجمت كتبه الى اللاتينية والقشتالية فى وقت مبكر ، وذاعت فى جميع انحاء أوروبا ·

وأسرة بنى زهر الاشبيلية ، وعميدها الوزير الطبيب أبو العلاء بن زهر ، ثـم ولده أبو مروان بن زهر المتوفى سنة 1162 م ، وهو المعروف فى اللاتينية باسم Avenzoar وكان ابن زهر ، يعتبر اعظم طبيب ومشخص فى العصور الوسطى بعد الرازى · ويعتبره تلميذه ابن رشد اعظم طبيب بعد جالن · ويعتبر كتابه « التيسير » من اعظم مراجـع الطب فى الـــعصور الوسطى · وكان لمؤلفاته ، التى ترجمت كغيرها الى اللاتينيـة ، أثر عظيم ، فى سير المباحث الطبية فى أوروبا ·

والفيلسوف أبو الوليد بن رشد ، الذى برع فى الطب فى الوقت نفسه ، واشتهر فى الغرب منذ القرن الثالث عشر بالترجمة اللاتينية لكتابه « الكليات » فى الطب : وقد ألفه فى أبواب الطب الكلية أو الرئيسية ، بعيدا عن التفاصيل الجزئية ، وهى التى عنى بتناولها وشرحها استاذه ابن زهر ، فى كتاب التيسير وقصد ابن رشد من تأليف الكليات كتابه وكتاب ابن زهر فى الجزئيات ، وحدة تكمل بعضها ، وتستوعب كل ما عرف عن صناعة الطب فى هذا العصر ·

ونحن نقف فى ذكر الاسماء عند هذا الحد · وما نود أن ننوه به هنا هو أن العلـوم الطبية تقدمت على يد المسلمين ، فى العصور الوسطى ، تقدما عظيما ، وأن بحوث الاطباء المسلمين واكتشافاتهم فى هذا الميدان ، كان لها أعمق الآثار فى تقدم الطب فى أمـم الغرب · وكانت مدرسة سالرنو الطبية ، التى ازدهرت فى جنوب ايطاليا منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، من أعظم حلقات الوصل بين الشرق والغرب فى هذا الميـــدان · وكان لبحوث المسلمين الطبية فى مناهجها وتعاليمها أعظم تأثير · وكان جنوب ايطاليا معبر الحضارة الاسلامية ، التى ازدهرت فى صقلية زهاء قرن ونصف · وكان الطب يدرس منذ القرن الثالث عشر فى معاهد ايطاليا وفرنسا على ضوء المؤلفات العربية ·

ولقد كان لصقلية الاسلامية دورها الخاص فى هذا الاشعاع العلمى الذى تسرب الى دوائر الغرب العلمية • وكانت صقلية فى الواقع أندلسا صغرى ، تقـــوم بدورها الحضارى فى ايطاليا الجنوبية ، وفى منطقة البحر الابيض الوسطى • وقد استمر هـذا الدور الحضارى فى بث مؤثراته حتى بعد أن سقطت صقلية الاسلامية فى أيـــدى النورمان فى سنة 479 هـ (1086م) ، وغدت ارضا نصرانية • وكان الفاتحون النورمان انفسهم أول من قدر تراث الاسلام الحضارى فى الجزيرة وأول من ترجمه ، واستقى منه •

ويحدثنا الرحالة ابن جبير الاندلسى ، الذى زار الجزيرة فى سنة 580 هـ (1185م) ، وتجول فى حواضرها مثل مسينى وبلرم واطرانيش (ترابانى) عما شاهده يومئذ من أحوال البقية الاسلامية فى الجزيرة ، وعما وقف عليه من أحوال ملوك النورمان ، ومن عظيم تقليدهم لتراث الحضارة الاسلامية ، والاستقاء منه فى نظم بلاطهم ، وفى حياتهـم العامة والخاصة ، واستعمال المسلمين فى معظم شؤونهم وأحوالهم ، وكونهم يؤثـرون الانتفاع بعلومهم • وكان عاهل الجزيرة الدوق وجراد رجار الثانى ، يدعو الى بـــلاطه كثيرا من العلماء المسلمين النابهين ، من الصقليين المحليين ، ومن افريقية والمغرب ، وكان من هؤلاء ، حسبما تعرف الجغرافى العظيم ، الشريف الادريسى السبتى ، الذى وفد على الجزيرة فيما بين سنتى (524 ـ 535 هـ) (1130 و 1140 م) ، واستقبل فى بلاط صقلية بأعظم ترحاب ، ووضع تحت رعاية هذا الملك المستنير خريطته الشهيرة للعالم المعروف يومئذ على كرة فضية عظيمة • ثم وضع بعد ذلك معجمه الجغرافى الخالد « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وأتمه فى شهر شوال 548 هـ (يناير 1154 م) ، منوها فى مقدمته بفضل الملك النورمانى فى تشجيعه ورعايته • ونحن نعرف أن خريطـــة الادريسى الشهيرة لاقاليم العالم السبعة ، لبثت طوال العصور الوسطى ، مستقى لكثير من الجغرافيين الاوروبيين ، ولا سيما العلامة البندقى مارينو سانوتو (1260 ـ 1328م)، الذى استرشد بها فى وضع معظم خرائطه •

وهذا ، ولم يكن نبوغ المسلمين فى ميدان العلوم قاصرا على الطب وحده ، بل كان شاملا لسائر العلوم الاخرى التى عنيت بها سائر الحضارات العظيمة • فالى جانـب الطب ، كانت الكيمياء والرياضة والفلك والفلسفة وغيرها ، وهى جميعا مما يزهـــو

به تراث العربية · وقد كانت البحوث الاسلامية خلال العصور الوسطى ، فى هذه الميادين تفوق بحوث سائر الامم الاخرى · وقد استطاع العلماء والمسلمون بالاخص ، ان يقوموا فى ميدان الكيمياء باكتشافات مدهشة · وقد كانت الكيمياء العلمية ، تعتبر فى الواقع علما اسلاميا محضا ، وبلغت ذروة ازدهارها على يد العلماء المسلمين فى معامل الرى وبغداد والقاهرة ، وقرطبة واشبيلية · وانه ليصعب علميا ان نستعرض ذلك الثبت الطويل من الكيمائيين المسلمين فى كل عصر وكل قطر ، ولكننا نكتفى الى جانب ذكر أعظم عالمين مسلمين ظهرا فى المشرق فى ميدان الكيمياء ،وهما جابر بن حيان وابى بكر الرازى ، ان نقول ان الغرب قد وقف على تجارب الكيميائيين المسلمين واكتشافاتهم فى عصر مبكر ، وترجمت بحوث جابر والرازى كما ترجمت بحوث ابن زهر الاندلسى الى اللاتينية منذ القرن الثانى عشر الميلادى على يد جيراردو الكريمونى ، ثم ترجمت بعد ذلك الى مختلف اللغات الاوروبية · وكانت المعاهد الاوروبية تستقبل كتب الكيمياء العربية بحماسة واجلال ، اذ كانت تتفوق بمادتها واكتشافاتها على الكتب اليونانية · وقد تسرب كثير من الكلمات العربية الكيميائية الى مختلف اللغات الاوروبية، وما زالت تمثل فيها الى اليوم ، مثل الابنيق والقلويات والكحول وغيرها (ولم تكن مساهمة الثرات الاسلامى فى الحضارة الاوروبية فى ميدان الرياضة والفلك أقل شأنا · وقد ظهرت عبقرية العلماء المسلمين ، فى هذا الميدان فى عصر مبكر · فمنذ القرن التاسع الميلادى ، تتوالى بحوثهم الرياضية والفلكية · ونستطيع أن نذكر كثيرا من الرياضيين والفلكيين المسلمين ، ممن كان لبحوثهم أكبر الاثر ، فى تطور هذه الدراسات فى العصور الوسطى · فمنهم الخوارزمى الذى عاش فى النصف الاول من القرن التاسع، وهو فلكى ورياضى وجغرافى ممتاز ، يصفه الاستاذ سارتون بانه من أعظم علماء جنسه ، وأعظم علماء عصره · وقد أحدثت نظرياته الرياضية من التأثير ، ما لم تحدثه بحوث أى عالم آخر ، فى العصور الوسطى · ومنهم الفرغانى المعروف باللاتينية باسم Alferganus وقد عاش أيضا فى القرن التاسع ، ووضع مؤلفا شهيرا فى النجوم · والبتانى المعروف باللاتينية Albatanius والمتوفى فى سنة 929 م ، وهو من أعظم فلكيي العصور الوسطى · واشتهر فى اسبانيا المسلمة مسلمة المجريطى ، الذى اشتهر

ببحوثه عن الكواكب · والزرقالى القرطبى Azaequiel الذى عاش فى أواخر القرن الحادى عشر ، والذى كانت كتبه وجداوله الفلكية أهم المصادر العربية ، التى اعتمد عليها الملك الفونسو العالم · وقد ترجمت معظم بحوث أولئك العلمـــاء المسلمين الى اللاتينية ، واشتهرت جميعها فى أوروبا ، وانتفع بها البحث الغربى فى العصور الوسطى أعظم انتفاع ·

ويجب أن نذكر الى جانب هؤلاء رياضيا مسلما من طراز خاص ، هو ابن الهيثـم المتوفى فى سنة 1039 م ، والذى اشتهر ببحوثه المبتكرة فى البصريات · ويصفه الاستاذ سارتون بأنه أعظم العلماء الطبيعيين فى العصور الوسطى · وقد كانت نظرياته الهندسية والطبيعية من أعظم ما حدث منذ العصر القديم حتى القرن السادس عشر · وقد ترجمت بحوثه كذلك الى اللاتينية وكان لها فى الغرب أعظم تأثير ·

ونستطيع أن نذكر من العلماء المغاربة ثلاثة اشتهروا فى ميدان الفلك والرياضيات هم أبو العباس بن البنا المتوفى سنة 1321 م · وقد كان رياضيا وطبيبا ممتازا ، وقد انتهت الينا بعض آثاره فى الرياضة والفلك · والحسن بن عمر المراكشى ، الذى عاش أيضا فى النصف الاول من القرن الثالث عشر وكان فلكيا ممتازا · وابو الحسن على المراكشى ، الذى عاش أيضا فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، وقد برع كذلك فى الفلك ، وهاجر الى الاندلس ، واشتهر هناك ببحوثـــه الفلكية ومحاولاته لقياس ارتفاعات القطـب ·

وقد كان للدراسات الرياضية الفلكية الاسلامية ، أثرها العميق فى الدراســات الغربية · ونستطيع أن نذكر عدة من مشاهير العلماء الاوروبيين الذين تأثروا بهـذه الدراسات فمنهم كبلر ، ورجر باكون والبرتو ماجنو ، وليونارد فيبونوتشى وغيرهم ·

ونبغ المسلمون فى نفس الوقت فى النبات · وكانت بحوثهم فى هذا الميدان ، من أهم ما اعتمد عليه العلم الاوروبى ، فى العصور الوسطى · وقد ازدهرت البحـوث النباتية بالاخص فى اسبانيا المسلمة ، وكان من أعظم اقطابها ابن بصال الطليطلى ، الذى عاش فى عصر الطوائف ، وترك لنا مؤلفا نفيسا عن بحوثه النباتية والزراعية ·

وأبو جعفر الغافقى القرطبى المتوفى سنة 1165 م ، وقد درس النباتات فى افريقية واسبانيا ، ووصفها وصفا علميا دقيقا · وأبو العباس بن الرومية الاشبيلى ، المتوفى سنة 1229 م ، وهو يعتبر أعظم النباتيين والعشابين فى العصور الوسطى ، وابن البيطار المالقى المتوفى سنة 1248 م ، وقد درس النبات بمصر والشام ، وآسيا الصغرى ، وبلاد اليونان وترك لنا كتابه الجامع فى الادوية النباتية ·

وقد ساهم التفكير الاسلامى بقسط بارز ، فى ميدان الفلسفة ، وعنى الفلاسفة منذ القرن التاسع الميلادى ، بشرح الفلسفة اليونانية القديمة ، والتعليق عليها · وفى وسعنا ان نذكر ثبتا حافلا من الفلاسفة المسلمين ، الذين كان لبحوثهم أثر عميق، فى سير التفكير الاوروبى ، فى العصور الوسطى وما بعدها ويكفى أن نذكر فى هذا المقام من فلاسفة المشرق ، الكندى الذى عاش فى القرن التاسع ، والفارابى المتوفى سنة 951 م ، والذى كان يسمى بالمعلم الثانى بعد أرسطو ، والشيخ الرئيس ابن سينا المتوفى سنة 1037 م · ومن فلاسفة الغرب الاسلامى ، ابن باجه المتوفى سنة 1138 م ، وابن الطفيل المتوفى سنة 1185 م ، وقد ترجم الكثير من بحوثهم الى اللاتينية ، منذ عصر مبكر ، وابن رشد المتوفى سنة 1198 م · وقد اشتهر ابن رشد بالاخص بشروحه لفلسفة أرسطو ، وهى التى ترجمت الى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر ، وجعلت لابن رشد أعظم مقام فى التفكير الاوروبى منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث ·

ويجب أن نذكر بهذه المناسبة فيلسوفا مسلما من طراز خاص هو العلامة المؤرخ ، الفيلسوف ابن خلدون ـ · فقد كان لبحوثه الاجتماعية المبتكرة ، أعظم تأثير فى تطور البحوث الاجتماعية الاوروبية ، حتى ان النقد الحديث يعتبره بلا مراء واضع أصول علم الاجتماع الحديث ·

وأخيرا يجب ألا ننسى ما ساهم به المسلمون ، فى ميدان الجغرافيا والاكتشافات الجغرافية · فقد كان للجغرافيين العرب ، فضل كبير فى اكتشاف كثير ، من أنحاء العالم القديم · وقد عرفوا الشرق الاقصى وجزائر الهند الشرقية ، وشواطىء الصين ، قبل أن يعرفها العالم الغربى ، عن طريق مركوبولو ، بعد ذلك بنحو قرنين · وقد اكتشفوا فى الغرب ، جزائر كناريا والازور ، واكتشف الرحالة الكبير ابن بطوطة بلاد النيجر وممالك

السودان فى قلب الصحراء الافريقية ، قبل ان يعرفها العالم الغربى بقرون • واخترع العرب كثيرا من الآلات البحرية ، التى عاونت فى تقدم الملاحة فى العصور الوسطى • ولقد كان الجغرافيون المسلمون ، أمثال المسعودى وابى الفدا ، واليعقوبى ، والاصطخرى وابن حوقل ، وياقوت ، والادريسى ، هم الرواد الاوائل لتعريف الغرب ، بمعظم انحاء العالم القديم •

وحتى أواخر القرن الخامس عشر ، نجد الجغرافيين ورجال البحر المسلمين يحتفظون بتفوقهم القديم فى هذا الميدان • وليس أدل على ذلك من الذى قام بارشاد المكتشف البرتغالى الشهير فاسكوداجاما وقاده من ثغر ملندى ، خلال المحيط الهندى ، حتى ثغر قاليقوط فى الهند ، هو البحار العربى ابن ماجد ، وقد كان من أعرف الملاحين ، بطرق البحار الشرقية وأسرارها •

ننتقل بعد ذلك الى ناحية أخرى من مساهمة المدنية الاسلامية فى حضارة الغرب •

ان كثيرا من الباحثين ، ينوهون قبل كل شىء بمساهمة التفكير الاسلامى ، فى حضارة الغرب فى الميادين العلمية ، ولا يعلقون كبير أهمية على مساهمته فى الميدان الادبى •

لكنا سنرى مما سنقدمه من عرض موجز لهذا الموضوع ، ان الآداب العربية كان لها اثرها العميق فى تطور الادب الغربى ، واننا نستطيع أن نتتبع هذا الاثر ، ليس فقط فى أدب العصور الوسطى ، ولكن أيضا فى كثير من نواحى الادب الحديث ، وان ما نراه اليوم من اتساع شقة الفارق ، بين الادبين ، لا يمكن ان يدحض هذه الحقيقة التاريخية ، التى ألقت عليها بحوث المستشرقين ، فى العصر الاخير ، أعظم ضوء •

وقد بدأ هذا التأثير مبكرا ، فى اسبانيا ، حيث كان الادب العربى ، والادب القشتالى ، يلتقيان بحكم الجوار المباشر • وفى الوقت الذى وصل فيه أدب اسبانيا المسلمة الى ذروة قوته وروعته ، كان الادب القشتالى فى مراحله الاولى • ونحن نعرف أن الادب الاندلسى يمتاز بطابع خاص من الابداع والرونق والاشراق • ونعرف أيضا أن كتاب الاندلس وشعراءها قد أضافوا الى بلاغة المشرق ، ضروبا ساحرة من الافتنان فى

الخيال ، والتعبير ، والوصف ، وابراز المعانى الحسية والنفسية الدقيقة ، فى أساليب رقيقة مؤثرة ، وهو ما يرجع الى طبيعة جزيرتهم الساحرة وحضاراتهم الرفيعة ، وما ترتب على ذلك من رقة أمزجتهم ، وسلامة أذواقهم وقد كان لهذا الادب العربى الاندلسى الرفيع، أثر بارز فى آداب شبه الجزيرة الاسبانية · وكانت المؤثرات الاولى ، التى لقيت سبيلها، الى الادب القشتالى تقع فى ميدان الخيال والقصص · فقد ترجم منذ القرن العاشر الميلادى، كثير من القصص والحكايات العربية · وكانت القصص العربية ، الذائعة فى الشرق تنقل الى الاندلس ، وتتلى فى قرطبة واشبيلية ، وسائر القواعد الاندلسية الاخـــرى وينقلها النصارى المستعربون ، الذين يعيشون فى قلب المجتمع الاسلامى ، أو ينقلون ملخصاتها الى مواطنيهم فى قشتالة ، حيث تصاغ بالقشتالية ، وتنتشر فى سائر أنحاء اسبانيا النصرانية · وكانت أهم الآثار القصصية العربية ، التى ذاعت يومئذ ، بعض قصص ألف ليلة وليلة ، ومنها قصة السندباد التى لقيت فى الادب القشتالى نجاحا خاصا · وفى الوقت الذى ذاعت فيه هذه التراجم القصصية ، ترجم الى القشتالية من العربية ، أثر أدبى وأخلاقى عظيم ، هو كتاب « كليلة ودمنة » وأشرف على ترجمتـه الملك الفونسو العالم ، الذى شغف بالآداب العربية ، أيما شغف ، وترجمت فى عهده آثار عربية كثيرة علمية وأدبية ·

وكانت هذه التراجم القشتالية لآثار القصص العربى ، وسيلة قوية لذيوعها فى فرنسا وايطاليا ، وباقى الامم الغربية ، حيث ترجم الكثير منها الى اللاتينية وغيرها ، وكان لها أثرها فى تطور الآداب الأوروبية ، فى عصر الاحياء ومن بعده ، بل لقـــد ظهر أثرها واضحا فى مؤلفات كثيرة ، من أقطـاب عصر الاحياء ، مثـــل بوكاشيـو وجيرالدى ، وشوسر ، وجيشاردينى ، وغيرهم ظهر فى خيالهم وفى أسلوبهم ظهـورا قـــويـــا ·

والى جانب هذا التأثير القصصى المحض ، كانت ثمة مؤثرات أخرى ، من طـــراز أرفع وأعمق ، يمتزج فيها الخيال بالناحية الفلسفية والاخلاقية ، فان النقد الحديـث مثلا يؤكد لنا أن دانتى شاعر ايطاليا الاكبر ، قد تأثر فى كثير من كتاباته ، بتراث التفكير الاسلامى · ففى كتاب « الجحيم » يعرض دانتى من الفكر والآراء ، ما يمت بصلة

قوية الى فكرة الاسراء الاسلاميـــة ، والى بعض مؤلفات أبى العـــلاء المعـــرى • وفى « الكوميديا الالهية » وفى « الحياة الجديدة » يوجد ما يدل على أنـه قـــد تاثر بآراء الفيلسوف الاندلسى المتصوف ، محى الدين بن عربى • وقد وصلت هذه المؤثـــرات الى دانتى فيما يبدو عن طريق أستاذه Brunets Latini الذى كان ملمـا بالثقافة العربية ، أو عن طريق اطلاعه على بعض التراجم اللاتينية لآثار الادب العربى •

وهناك أثر عربى من نوع فريد ، كان له أثره القوى فى الادب الاوروبى وذلك هو قصة ابن طفيل الفلسفية المسماة « حيى بن يقظان » التى يصفها الاستاذ سارتـــون بانها كتاب من أشد كتاب العصور الوسطى طرافة وأصالة • وهى قصة الانسان الاول يتلمس سبيله فريدا مستقلا • الى الحياة والمعرفة عن طريق الالهام والحاسة ، يتخلـل ذلك كثير من المعلومات العلمية القيمة • وقد كتب ابن الطفيل قصته فى القرن الثـانى عشر ، وترجمت الى العربية منذ القرن الرابع عشر ، ثم نشرت مع ترجمة لاتينيـــة ، فى أواخر القرن السابع عشر ، وترجمت على اثر ذلك الى الانجليزية ، وكان لها تأثـــير دينى وفلسفى ، وتربوى عميق ، فى أدب القرن الثامن عشر ، وكان من أشد الآثـــار الغربية الادبية ، التى ظهرت فى هذا العصر ، تاثرا بها ، قصة دانيل ديفوى الشهيرة « روبنضى كروزو » التى ظهرت فى سنة 1719م ، بعـــد ظهور التراجـــم اللاتينية والانجليزية ، لقصة حيى بن يقظان ، بنحو ثلاثين عاما •

وقد كان للشعر العربى ، كما كان للنثر أثره العميق فى الادب الاوروبى • وينطبق ذلك بنوع خاص ، على الملاحم الشعرية ، وشعر الفروسية • وقد تسرب هـــذا الاثر ، بنوع خاص من اسبانيا المسلمة ، الى الادب القشتالى ، وانتقل بواسطته الى جنوب فرنسا وايطاليا • ويمتاز الشعر الاندلسى برقته ، وروعة خياله ، وتنـــوع مناحيه وأوزانه • وقد ظهر هذا التأثير ، بنوع خاص فى الملاحم الشعرية القشتالية ، لا سيما فيما كتب عن « السيد الكنبيطور » وهو الذى اشتق لقبه El-Cid من كلمـــة « السيد » العربية • وكذلك كان للملاحم الموريسكية ، التى تصور الاذواق والعادات الاندلسية ، أثرها فى الادب القشتالى حتى القرن السابع عشر ، بل يرى بعض الباحثين ،

ان يجل ثرفانتس أعظم كتاب اسبانيا ، قد تاثر بأساليب الملاحم العربية ، وتقاليد الفروسية الاسلامية ، فى قصته الخالدة « دون كيخوتى » .

والى جانب تأثير الملاحم العربية ، فى الادب القشتالى ، كانت تقاليد الفروسية الاسلامية ، تحدث أثرها العميق ، فى تقاليد الفروسية الاوروبية ، فقد نقلت فروسية اسبانيا النصرانية ، من جارتها اسبانيا المسلمة ، كثيرا من تقاليد الفروسية الاندلسية، ثم انتقلت منها الى مختلف بيئات الفروسية الاوروبية . وكانت الفروسية الاندلسية ، بتقاليدها النبيلة ، ومظاهرها الرائعة ، مثار الاعجاب والاجلال ، فى مجتمعات العصور الوسطى ، وكانت بذلك تحدث أثرها فى قصص الفروسية الاوروبى .

بيد أن أثر الشعر الاندلسى ، فى الادب الغربى ، يبدو أعمق وأشد وضوحا ، فى ميدان الشعر الغنائى . فان الموشحات الاندلسية ، التى ابتكرها ، وبرع فى نظمها ، شعراء اسبانيا المسلمة ، أثرت بأوزانها ، المبتكرة ذات القوافى الخاصة ، فى الشعر القشتالى ، وفى أوزانه ، وتسرب هذا الاثر الى الشعر البروفنسى ، فى جنوب فرنسا ، وكذلك كان للزجل الاندلسى ، الذى وصل الى ذروة افتنانه ، على يد ابن قزمان ، المتوفى سنة 1160 م ، والذى كانت تتمثل فيه تقاليد الاندلس الادبية ، أبدع تمثيل ، أثره البعيد ، فى الشعر الغنائى القشتالى والاوروبى ، وكان هذا الزجل يمتاز بنوع خاص ، بلونه الغنائى الاخاذ ، ونزعته الشعبية المحببة . وكانت الازجال الاندلسية ، تغنى على ضفاف الوادى الكبير ، الفاصل بين الاندلس واسبانيا النصرانية، وكانت أنغامها تتردد فى الجانب الآخر ، وتحدث أثرها فى توجيه الاساليب الشعرية والغنائية ، وتسربت هذه الآثار كلها ، عن طريق اسبانيا النصرانية ، الى جنوب فرنسا والى شمال ايطاليا ، حيث ظهرت قوية ، فى نوع جديد من الشعر ، يمتاز بلونه الغنائى، ونزعته الدنيوية اللادينية ، التى تتجه نحو أقاصيص الحب ونوازعه . وكان أبطال هذا النوع الجديد من الشعر ، طائفة التروبادرو ، التى ازدهرت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى اسبانيا وفرنسا وايطاليا ، واستمر تأثير هذه النزعة الغنائية ، فى الشعر الاوروبى ، قوية تتردد حتى القرن السابع عشر ، وتسربت آثارها الى الشمال ،

وظهرت فى انجلترا واسكتلندا • وقد كشفت دراسات المستشرقين ، لاغانى ابن قزمان، عن تتبع آثارها الكثيرة ، فى الشعر الغنائى الاوروبى •

ويلاحظ أنه لم يترجم ، من قصص ألف ليلة وليلة ، فى العصور الوسطى ، سوى القليل • وكان لهذا القليل ، الذى ترجم معظمه الى القشتالية واللاتينية أثره فى ميدان القصص الاوروبى • ثم ظهرت الترجمة الكاملة لالف ليلة وليلة ، لاول مرة فى أوائل القرن الثامن عشر ، ظهرت أولا باللغة الفرنسية ، ثم بسائر اللغات الاوروبية ، فكان ظهورها حادثا أدبيا عظيما • وسرعان ما ظهر أثرها فى مؤلفات ، كثير من كتاب القصص الاوروبى ، ولا سيما كتاب القصص الخرافية ، مثل « الاخوين جريم » و « هوفمان » و « هانس اندرسن » وغيرهم •

هذا ولم تقف مساهمة المدنية الاسلامية ، فى تكوين مدنية الغرب ، عند مؤثراتها العلمية والادبية • ولكنها ساهمت كذلك بقسط بارز فى ميدان الفنون والصناعات •

وقد كان الفن الاسلامى ، فى بدايته ، يعتمد على الاقتباس ، من تراث الحضارات ، التى ورثتها الدولة الاسلامية فى البلاد المفتوحة ، مثل الحضارتين الفارسية والبيزنطية، والحضارة القوطية فى الغرب • ولكن ما كاد يأتى القرن الثالث من الهجرة ، حتى أخذ الفن الاسلامى ، يستكمل شخصيته المستقلة ، ويبدو فى صوره المبتكرة الاخاذة • وكان فن العمارة والزخارف يومئذ ، أبرز ما فيه من الصور الحية القوية ، فكانت القصور والمساجد فى المدن الاسلامية ، تبدو نماذج فنية بديعة •

وظهر تأثير الفن الاسلامى ، فى مدنية الغرب ، بنوع خاص ، فى صقلية ، وشبه الجزيرة الاسبانية ، حيث كانت الحضارة الاسلامية ، تعيش هنالك ، على مقربة من أمم غربية نصرانية • فمن صقلية تسربت مؤثرات الفن الاسلامى الى ايطاليا ، ومن الاندلس تسربت مؤثراته الى قشتالة ، ومنها الى جنوبى فرنسا •

وقد كان أثر العمارة الاسلامية ، أشد ما يكون ، داخل شبه الجزيرة الاسبانية فكانت القصور الملكية الاسبانية ، نماذج من القصور الاندلسية ، وكانت خطط المساكن، فى معظم المدن القشتالية ، تغلب عليها خطة المنزل الاندلسى ، بل ظهر هذا الاثر فى

فيها مسلمو الاندلس وأنشأوا لها المصانع العظيمة ولا سيما فى شاطبة وطليطلة ، ونقلها عنهم الاسبان ثم انتقلت الى أوروبا ، عن طريق فرنسا ، وذاعت فيها منذ القرن الثالث عشر • وقد طبق المسلمون ، تفوقهم فى الكيمياء ، فى ميدان الصناعة ، فبرعوا فى صنع الادوية والعقاقير ، واستخراج العطور ، وتركيب الاصباغ المختلفة ولا سيما اللون الذهبى • وكذلك ازدهرت صناعة المنسوجات ، ولا سيما الصوف والحرير ، على يد المسلمين ، واشتهرت دمشق ودمياط فى المشرق ومالقة والمرية فى المغرب ، بمنتجاتها الصوفية والحريرية الممتازة ، طوال العصور الوسطى • وانتقلت صناعة الحرير من الاندلس الى ايطاليا ، التى اشتهرت بصناعة الحرير ، فى تلك العصور ، وما زالت تحتفظ بتفوقها فيها حتى الآن • وبرع المسلمون ، ولا سيما الاندلسيون ، فى صناعة الاسلحة وكانت الاسلحة الاندلسية من أنفس ما يقتنى • وما زالت مدينة طليطلة تحتفظ ببقية من تفوقها القديم • فى هذه الصناعة ، منذ أيام المسلمين • وكذلك نبغ مسلمو الاندلس فى كثير من الصناعات الدقيقة ، مثل المنتجات الجلدية الفاخرة ، التى ما زالت فى قرطبة ، تحتفظ حتى اليوم ببقية منها • ومثل صناعة الآنية الخزفية الملونة ، والقيشانى الفاخر ، وهى صناعة ما زالت تزدهر الى اليوم فى اشبيلية ومالقة • وقد لبث الموريسكيون ، منذ سقوط الاندلس زهاء قرن ، يحتفظون بتراث آبائهم ، فى الفنون والصناعات ، وهو تراث تلقت اسبانيا منه الكثير ، وما زالت المتاحف الاسبانية تغص بكثير من التحف والآنية الفخمة ، من صنع مسلمى الاندلس فى مختلف العصور •

هذه اللمحات العابرة عن مساهمة المدنية الاسلامية ، فى مدينة الغرب تقدم الينا فكرة عن الدور العظيم ، الذى قامت به المدنية الاسلامية ، فى هذا الميدان • ولقد حجبت عصور التأخر والانحطاط التى توالت على العالم الاسلامى والعربى ، ولا سيما منذ بسط الترك العثمانيون سيادتهم ، بالنار والسيف ، على كثير من البلاد الاسلامية ، التى كانت تتمتع بحضارات زاهرة ، حجبت هذه الحقيقة التاريخية الناصعة ، وغلبت نزعة التحامل والنكران • على معظم البحوث الاوروبية ، التى تناولت هذه الناحية • ولكن البحث العلمى المنزه ، لم يعدم أنصاره وحججه ، ومنذ القرن التاسع عشر الى يومنا، تلقى الاضواء تباعا على حقيقة هذه الجهود الحضارية العظيمة ، التى ساهمت بها العلوم والآداب ، والفنون الاسلامية العربية فى ميدان الحضارة الانسانية •

تأثيرات ابن رشد في أوروبا
وتصحيح التفسيرات الخاطئة عنه

الدكتور سلفادور غوميث نوغاليس
أستاذ فلسفة بالمعهد الاسبانى
العربى للثقافة ـ جامعة مدريد
ـ اسبانيا ـ



لقد كتبت عددا من الاعمال حول تاثير الفكر والحضارة الاسلاميين فى النهضة المسيحية الاوروبية (1) وعلى وجه التقريب تركزت كل هذه الاعمال بصفة خاصة حول شخصيتين عظيمتين منقطعتى النظير فى المجال الاسلامى ونظيره المسيحى وهما ابن رشد فيلسوف الاندلس الاسلامى ، وتوماس الاكوينى الذى أعلى من شأن اللاهوت المسيحى فى القرن الثالث عشر .

ولقد انتهيت مؤخرا من نشر قائمة وافية جدا بالدراسات التى لها صلة بتوماس الاكوينى والحضارة العربية حيث يبرز بوضوح الطابع الاسلامى فى تجديد الفكر المسيحى فى العصور الوسطى ، فثمة ستمائة وخمسة وثمانون عملا ما بين كتاب ومقال تعترف بصوت عال بوجود وعظمة هذا التأثير .

وقبل أن أدخل الى الموضوع الاساسى لمحاضرتى أريد أن أقدم له بكلمة قصيرة عن امتداد ونوعية هذا التأثير ٠

ويهمنى أولا ن أنبه الى أن تخصصى هو الفلسفة الاسلامية ، ومن هذا العنوان أريد أن أبـــدأ ٠

لقد دار الجدل كثيرا حول الاسم الذى ينبغى أن يطلق على الفلسفة التى ازدهـــرت فى ظل الاسلام (2) ٠ ويبدو لى أن موضوع النقاش حول الاسم فى هذه الحالة ليس مجرد تشدق بالكلام ٠ فهناك نزعة عن بعض الكتاب الغربيين غير المتضلعين فى الثقافة الاسلامية لاخضاع الفلسفة الاسلامية للمذهب العقلى وفقا لخطة الفلسفة المسيحية الغربية التى فيها تحققت علمانية الفلسفة ، حتى رجال اللاهوت المسيحى يرون أن التفلسف هو التفكير بعيدا عن الوحى ومهتديا بالنـــور الطبيعى ، وبعد ذلك ظهرت محاولات التوفيق فى هذا الصدد ٠

اذا كان العقل قد خلقه الله ، والوحى هو كلمته فمن المستحيل أن يوجد التناقض بين فعل الله وكلمته وهذا النسق من علمانية العلوم فى الاسلام لا يمكن أن يؤخـــذ كظاهرة عامة لا تنبع الفلسفة الاسلامية من مضمون دينى مثير للجدل وانما أكثـــر من ذلك فالتفكير الانسانى نفسه يخضع لتأثير الهداية الالهية ٠

ومن هناك فالمعرفة الاساسية للانسان يدركها المسلم كشىء يوجد فيما أنزله الله فى القرآن الكريم ٠ سواء فى الناحية الدينية ، أو فى التشريع الاخلاقى أو فى المجـال السياسى ، أو العلمى ، أو الثقافى ٠

ومما سبق يمكنك أن تسميها ومعك كل الحق ـ الفلسفة الاسلامية فهى تفكـــــير مستغرق اما فى حروف القرآن واما فى أعمق أعماق الصبغة القرآنية اذااستطردنا أكثر ,فبنفس السبب الذى أمكننا أن نسميها به فلسفة اسلامية يمكننا أيضا أن نطلق عليها فلسفة نبوية ٠

يمكن الحديث عن تأثير الثقافة الاسلامية فى جميع مجالاتها ٠ ولقد أعددت بالفعـل كتيبا ليستعمله طلابى فى الجامعة دفعا لهم الى دراسة اللغة العربية التى هى لغـــة

القرآن الكريم • وفيه حددت أن الثقافة الغربية ، وبالاخص الاسبانية مدينة للثقافة الاسلامية المكتوبة بالعربية في جميع المجالات ؛ ولا شك أن في هذا الملتقى كثيرا من المتخصصين الذين سيتكلمون في هذه المجالات •

ولتسمحوا لي بالتركيز على مجال تخصصي :

أعتقد أنه أصبح مفهوما من الصيغة التي شرحتها ن الفلسفة لا تستطيع أن تبقى بعيدا عن الفكر الاسلامي بل على العكس فانها واحدة من أعظم مآثر ماضيه •

لقد تعرض هذا الموضوع للنقاش وبالنسبة لموقفي الحالي فانني قد نشرت أيضا كذلك مقالا أود اعطاءكم عنه فكرة مقتضبة • (3)

ان قراءة المؤلفين المسيحيين للاعمال الفلسفية الاسلامية ظاهرة لا يمكن لاحد انكارها على الاطلاق • ويكفي للدلالة على ذلك اختيار قائمة المؤلفين المسلمين وأعمالهم مثبة في كتابات مؤلفي المسيحية في العصور الوسطى •

وينبع الجدل من مسألة أكثر دقة :

هل تشير هذه الدلائل الى وجود مدارس أو اتجاهات من التفكير الذي يمكن تسميته بالاسلامي داخل الحضارة الاوروبية ! سوف أشرح سؤالي عندما أحاول شرح أصول الفلسفة المسيحية فان بامكاننا أن نكتشف في الحال تيار التفكير الارسطا طاليسي والافلاطونية الجديدة ، وذلك بحسب وجود ارسطو أو افلاطون ، حيث ترك ما يشك عنه في أعمال كاتب ما أو مدرسة ما • هل يمكن أن يقال نفس الشيء عن مؤلف اسلامي أو مدرسة اسلامية ؟

بالنسبة للبعض المسألة غير معروضة للبحث منذ البداية فالفلسفة العربية لا يمكن أن تكون بالنسبة لهم أكثر من صورة للفلسفة الاغريقية • يمكن على الاكثر السماح باختلاف في الصيغة فيما هو أرسطي أو ما هو من الافلاطونية الجديدة عند هذا المؤلف أو ذلك ، أو عند مدرسة محددة • وعند خلو فلسفة ما من الاصالة فانه يستطاع بصعوبة الحصول على أثر خاص بها (4) • هذا الاسلوب من البحث في الوقت الحاضر من الصعب عليه أن يصمد بهذا القدر من الخشونة والفظاظة • عدد من المتخصصين

العرب وعلى الاخص الاستاذ الدكتور عثمان أمين ، وغيرهم من الباحثين الاوروبيـــين قد أبرزوا الى حد التخمة ، ان الثقافة العربية ليست مجرد تكرار لسابقتها ، وليست قليلة من تلك النقاط التى تلمع فيها أصالة الثقافة العربية مطلقة فى أعلى الآفاق .

ونفس الشيء فى كتاباتى ، فى غير قليـــل منها ، وبشكل ملـــح فى قاعة الدرس ومحاضراتى أحاول أن الفت نظر قرائى وطلابى ، انها ليست عناصر قليلة تلك التى لا تكون فيها الفلسفة الاسلامية مجرد تكرار للفلسفة الهيلينية ، بل هى عبارة عـــن صياغة جديدة تبرز فيها عناصر ذاتية المزاج الاسلامى لم تكن معروفة من قبل ، ومن ثم فالفلسفة الاسلامية هى واحدة من الفلسفات الاصيلة ، ومن هذه المسلمة ، ليس هناك طريق آخر غير أن نضع هذا السؤال . هل الاسلام قد أثر فى أوروبا كمجرد ناقــل أو كقنطرة للثقافة الهيلينية أو يوجد ما يمكن رؤيته من أثار هذه الموضوعات الاصيلة حقا فى الفلسفة الاسلامية عند المؤلفين المسيحيين ؟ .

ان الدور كقنطرة لعبور الثقافة معروف لكل مؤرخى فلسفة العصور الوسطى ، فالعرب ظهروا أمام اللاتين كأفضل المعلقين والشارحين للفلسفة الهيلينية . وعـــلى وجه الخصوص لفلسفة من يعدونه أميرا للفلاسفة أرسطو وهذا وحده يكفى للشهادة على قدرة ذكاء العقل الاسلامى .

لكن علاوة على كونهم قد قاموا بنقل تفكير القدماء فانهم قد صاغوا أفكارا جديدة ، وهذه الافكار تركت طابعها فى التفكير الغربى نحاول أن نحدد ذلك الدور بصورة أوضح :

بما أنه فى الغرب لم يوجد فيلسوف قام بنقل طريقة فيلسوف مسلم حرفيا فانه كذلك لم يوجد الفيلسوف المسلم الذى اقتصر على ترجمة تفكير العباقرة السابقين .

ما كان يسمح به فقط عند هؤلاء أو فى المدارس المؤسسة على آرائهم هو قبـــول الافكار الرئيسية للمفكرين المسلمين ، أو صيغة الحركة لمدرسة ما استلزمت الاستلهام فى تطويرها لشخصيتها الخاصة .

عند القيام بدراسة تسلسلية للفكر المسيحى فى العصور الوسطى لمعرفة كيف تطعم بالثقافة الاسلامية يمكننا أن نرى فى الجامعات الكاثوليكية ثلاث اتجاهات رئيسية

عند وصول التفكير الاسلامى الى أوروبا ، وكل واحد من هذه الاتجاهات يحاول أن يفرض هيمنته :

الاولى : الاغسطينية ، ومؤسسها الرئيسى القديس أوغسطين الجزائرى ، وتعتمد فى اللاهوت على الكتب المقدسة ، وفى الفلسفة على افلاطون ·

والثانية : هى الافلاطونية الجديدة بسماتها الصوفية وهى فلسفيا تتبع افلاطـون مدعما بعناصر شرقية واسكندرانية ، وخاصة الدونيسية المستعارة Pseudodionisio واسكوتو انيرخينا Escoto Erigena

والثالثة : هى الارسطية بسماتها العلمية ، أريسطو كان غير كامل ـ فقط فى المنطق وفى بعض كتاباته فى الطبيعة ، وجاء العرب ليكملوا هذا الاتجاه الثالث فأدخلوا أرسطو كاملا فى ترجماتهم وشروحهم ·

ابن سينا ، أغنى الافلاطونية الجديدة ، مقدما لها علاوة على ذلك ملائمة بين الفلسفة الاغريقية والفكر الدينى ، واستخدم ذلك كقاعدة لتجديد الفلسفة المسيحية فى القرن الثالث عشر الميلادى · وقبل ذلك فى أحد أعمالى اهتممت بما قد أعطتـــه الافلاطونية الجديدة ، العربية من أجل غنى الافلاطونية الجديدة اللاتينية Néoplatonisme (5) .

وأخيرا الاغسطينية وهى التى بدأت مقاومة صلبة لاختراق التفكير الاسلامى لكونها الفلسفة الاقرب الى التقليدية ، قليلا ، قليلا لم تستطع مقاومة اغراء الاضاءة النابعة من الاتحاد مع العقل الفعال مثلما ظهر فى الفلسفة الاسلامية ، وبالذات عند ابن سينا ·

كثر النقاش حول ما اذا كان يمكن الكلام عن مذهب لابن سينا أو مذهب لابن رشد لاتينيين ، لن نتكلم أكثر الا عن المؤلفين الذين خلقوا بصورة واضحة ثورة فى الفكـر المسيحى فى العصور الوسطى · ففى نظر الكثيرين فان مذهب ابن سينا أو الرشدية عبارة عن شيء ثانوى بحيث لا يمكن اطلاق اسمائهم على أية مدرسة فى الغرب · عـلى الاكثر من المستطاع اطلاق الاسم مجردا على بعض حالات مؤكدة من الافكار الهرطقية ، والتى خلقت تيارات جديرة بالاستنكار من السلطات الجامعية فى الجامعات الكاتوليكية ـ أعنى ـ حسب هؤلاء المؤلفين : ابن سينا وابن رشد كان تاثيرهما سيئا فقط · ولكن على أساس تصحيحات المستشرقين هذه النظرة تمضى الى الاختفاء ·

بالنسبة الى ابن سينا قلت فى مناسبة أخرى : « ان ابن سينا بفلسفته فى الكائنات وبحوثه الخاصة بعالم الملائكة قوله فى اللاهوت الطبيعى ، ملاءمته بين الله والعقل ، حاسة الدينية واقترابه من الله . استطاع أن يقدم لنا بهذا على وجه الخصوص النظام الامثل لجمع القديس أغسطو Augustin والديونيسية المخل Pseudodionisio واسكوتو ايرخينا Escoto Erigena مع افلاطون وأريسطوطاليس ، ولقد بدأ بهذا كالفيلسوف النموذجى ليشرح لنا العلاقات بين الانسان ، والعالم ، والله . (6)

وبالتأكيد يمكن القول عن مذهب لابن سينا صحيح داخل التفكير المسيحى ولقد وجد الكثيرين من المؤرخين لفلسفة العصور الوسطى قد عرفوه كما قد قلت ولذلك فليس من داع للاستطراد .

الشىء الذى حتى الآن لم يفتح له الطريق هو فكرة « الرشدية المؤمنة فى الفلسفة المسيحية » لقد سكبت كميات كبيرة من الحبر لازالة ما فرض على ابن رشد من أفكار هرطقية والتى تركزت فى فكرتين سيكون من الصعب جدا اقتلاعهما .

الفكرة الاولى : وجدت رشدية لاتينية فى الجامعات الاوروبية واستمرت الى فتـرة متقدمة جدا من القرن السادس عشر .

الفكرة الثانية : ان خصائص هذه الرشدية متعارضة تماما مع التفكير المسيحى لدرجة أن الصفة الوحيدة التى يمكن أن تنطبق الى هذه الرشدية هى الالحاد والهرطقية .

وأنا أتفق مع الرأى الاول . ولكنى لست مع الثانى بأنة طريقة من الطرق . آملا أن أقدم لكم الآن باختصار نتائج ابحاثى .

هناك شىء بديهى لا يمكن لاحد أن يخفيه ، وهو وجود تأثير مباشر لابن رشد عنـد المؤلفين اللاتينيين حمل اسم الرشدية لدرجة انه فى الغرب عندهم فكرة ضرورة أن يمضى الاسمان معا : ابن رشد اللاتينى ومن هنا حدثت خطورة الجهل بأنه وجدت أيضا رشدية عبرية ، وكذلك رشدية عربية ، كان شيئا محزنا ان رجلا مات فى عمر مبكر هو الباحث الاسلامى العظيم محمود قاسم : مرات عديدة حدثنى عن فكرة دراسة وافية لابن رشد فى المؤلفات المكتوبة باللغة العربية .

عن الرشدية اللاتينية فما شك مـــن مدن مثـــل باريس ، اكسفورد وكراكوفيا، Crakovie ، بادو Padua ، وبالرمو Palermo ، وشلامنقة Salamanca ، والقلعة Alcala' ، كرروا بما لا نهاية له اسم ابن رشد فى تأكيدهم أو معارضـــتهم لمذاهبهم • وبهذا لم يكن ابن رشد دائما ملحدا ، وهذا ما حاولت تأكيده فى العديد من مقالتى (7) وان قائمة المعضلات التى أثر فيها تشهد بذلك بصورة واضحة • حتى اذا وجدت المشكلات التى لا يظهر فيها الاسم • فانه عدة مرات يبدو فى طـــرح المشكلات نفسها • مرات أخرى كنقاط للتدليل على أبحاث لاحقة ، وأخيرا استيعاب أفكار ابن رشد لايجاد التكامل فى تركيب أفضل •

فلنقم باحصاء بسيط ، بطريقة برنامجية للمواد التى تلقى فيها اللاتينى تأثيرا عن ابن رشد ، فى موضوع العلاقات بين الايمان والعقل فى فلسفة الكائنات وعلم الفلـك حيـث فيهما اعتماد اللاتين الاكبر على العرب • تحت تأثيرهم ، رفضوا فكرة أن الكواكب هى المحرك الاخير للعالم ، وهذا فى ذاته لا يمكن ن يكون شىء آخر غير قريحة صافيـة وبسيطـــة •

من المعتاد القول فى نظرية الهيولانية ان القديس توماس Thomas كان أول من صاغها ولكنه تجاهل بكل صراحة منذ مدة طويلة من قبل تكلم ابن رشد مدافعا عنها .

ونفس الشىء بالنسبة للتفرد بالمادة قـد مـــر بمراحل مختلفة حيث مضى المؤلفون اللاتينيون منطلقين مع تيار أعمال ابن رشد وكذلك فى نظرية حركة الاجسام فى علم الانسان « الانثربولوجيا » فان تأثـــير ابن رشد يبـدو حاسما وقاطعا ، وفى نظـرية المعرفة يلعب اسهام العقل الفعال دورا رئيسيا • موقفه الذى كان اراديا أكثر منــه عقليا كان أيضا النغمة الفكرية لعدد غير قليـــل من المؤلفين الغربيين • كل شروحـه وتعليقاته حول مختلف أجناس العقل ستلعب دورا مهما فى الجامعات الاوروبية ولكن سنتحدث عن هذا حالا فى نص آخر •

فى علم ما وراء الطبيعة • ميتافيزيقيا عديدة هى النقاط التى تعتمد فيها أوروبا على ابن رشد • اعدادهم كافية هؤلاء المؤلفون الذين يفكرون مثل الفيلسوف القرطبى ، ان

وجود الله يجب أن يبرهن عليه قبل معالجة ما وراء الطبيعة ، حيث أنه يجب أن يكون وجود الموضوع سابقا على العلم الخاص به • ربما بوضوح أقل قد اشترك فلاسفة عرب آخرون بالاضافة الى ابن رشد الذى كان له الاسهام فى الثورة العظيمة داخل النظـام الاريسطى والناجمة عن فكرة شمولية الخلق ، وهذا يحمل معه ادخال فكرة العـــرض ووجود العرض مما سيدخل ، الوحدتين الميتافيزيقيتين للشىء والجوهر من أجـــل تفسير المحدود ، كذلك ادخال الجوهر والوجود من أجل تفسير العرض •

وفى نفس الوقت فان علم ما وراء الطبيعة فيه شجب كل الشجب للصدفة ، وهذا عولج الى حد كبير بالدليل عند ابن رشد ، وقد صارت براهين وجود الله عند القديس توماس عتيقة فى المسيحية ، ونفس المصطلح « طريق » مأخوذ من قاموس المصطلحات العربية ، وحتى التسميتان العربيتان « طريق التنزية » و « طريق التشبيه » قد أخذ أيضا فى Via emotionis و Via analogiae وفى مشكلة التشبيه فان نظام الاولية واللحوق جوهرى لتحقيق مفهوم الواقعية ، حيث ينبغى ان يتحقق أولا فى كائن ثم فى آخر ، وتلك حاشية تشبيهية أخذها المدرسون المسيحيون بشكل عـــام من العرب .
وأخيرا فى مسألة الصفات الالهية ، يوجد تعيين صفات الكمال والنقص ليســـت الا تعبيرات عربية أن البناء العربى يمكن أن يقيم فى معالجة القديس لوضوع مع عـــدد غير قليل من المدرسيين الغربيين •

وفى النهاية فان النور الالهى Lumen gloriae استشفاف كاف وملحوظ مـن تركيز الكلاميين المسلمين فى الحديث عنه .

هذا هو عدد ما أمكننا قوله بالنسبة للنقاط الاكثر أهمية ، والتى يمكنك القـــول فيها بالتأثير المباشر لابن رشـــد فى الفلسفة المسيحية • ينبغى أن نضيف أيضا اذا أخذت الرشدية الاجزء الاكبر من واجهة حركة الهرطقة داخل المسيحية وذلك لانهـم جعلوا ابن رشد يقول أشياء لم يقلها قط ، والتفسير بسيط ، فبـين علماء اللاهـوت والفلاسفة المسيحيين وجد العديد من الذين تابعوا مبادىء ابن رشد مستخرجين منهـا استنتاجات لم تمر اطلاقا برأس ابن رشد ، وربما استنتاجات الاكثر برزوا هى :

« مبدأ ثنائية الحقيقة » ومبدأ وحدة الوجود ، ومبدأ وحدة العقل الانسانى ، ولنقل كلمة واحدة فقط حول المبدأين الاولين لنتوقف قليلا عند الثالث • والذى أعتقد اننى قد وجدت بؤرات جديدة تصحح المفهوم المدرسى فى العصر الوسيط للمسيحيين •

بالنسبة لنظرية ثنائية الحقيقة ، وجد مؤلفون مسيحون فى مواجهة صعوبة التصالح بين الحائق المنزلة وبين العقل ، سمحوا بأن شيئا يمكن أن يكون مؤكـــدا بالتنزيل ، وزائفا فى الفلسفة ، ونسبوا ذلك كثيرا الى ابن رشد • ولهم شىء من الاساس ، حيث قال ابن رشد بامكانية أن يستخدم التنزيل لغة استعارية متميزة عن اللغة الفلسفية وأيضا فى ظاهرها تبدو متعارضة معها لتناسب العقلية الشعبية المختلفة عن الفلسفية فى حالة امكانية وجود حقائق فلسفية ليس العامى لديه استعداد لفهمها ، ويمكـــن القول باختلاف فى المنهج وفى الكلمات دون تعارض داخلى فى المحتوى بأى شكل من الاشكال ، وفعلا يوجد يهودى رشدى اسمه اسحق البلاج Issac Albalag الـــــذى أجاز بوضوح نظرية ثنائية الحقيقة ، ولكن هذا بالتأكيد ليس من عقلية ابن رشد فى شىء كما قلنا مرارا وتكرارا • وكذلك ليس من الممكن القول بأن نظام ابن رشـــد ـ حسب معاييرى ـ كذلك نظام من الفلاسفة العرب يمكن أن يؤدى الى وحدة الوجود •

وفى مواجهة غرو وجود الله للضمير الانسانى يمكن أن يعد مستحيلا القدرة عـلى التفكير فى شىء آخر وهذا ما أسميناه بوحدة الوجود فى التفكير ، وعلى أى الاحـوال فلا يوجد فى مثل هذه الحالة تطابق بين الوقائع ، ولا يمكن الكلام على وحدة وجـــود للكائنات (8) ونفسه سيمكن من القول بالحاد ابن رشد أو على عقلانية متضمنة التنزيل ، واليوم لا يمكن الشك فى التدين الاسلامى لاى واحـــد من الفلاسفة الكلاسيكيين فى الاسلام (9) • وربما تكون النقطة الهرطقية الوحيدة للمسيحية ، مثلها للسنة الاسلامية قد تكون نظرية ابن رشـــد وعديد من الفلاسفة المسلمين حـــول أزلية الكون ، وان الادلة التى أضافها ابن رشد فى صالح أزلية الكون أنتجت جدلا بين اللاهوتيين حتى أن القديس توماس قال : انها نظرية ليست على اتفاق مع الحقائق المنـزلة ، ولكنه فى كلامه عنها فلسفيا لم يكن هناك دليل ما عقلى لشجبها •

والآن أريد الانتهاء من ذلك الخط الذى يعرض أن ابن رشد ليس بالهرطقى كما يريد مسيحيو القرون الوسطى تصويره به .

سنوات عديدة من الدراسة فى هذا الموضوع ولم أرغب فى تقديمه للجمهور قبل أن أكون مطمئنا بصورة كافية الى أن موقفى يستطيع ان يبرهن عليه بصورة علمية . وعلى أن اعترف انني حتى اللحظة لم أجد أحدا يشاركني تفسيرى ، فأعداء ابن رشد والذين يمكن أن تجد من بينهم القديس البرت العظيم Albertus Magnus والقديس توماس الاكوينى Tomas de Aquino ورشدى العصور الوسطى . وحتى بين المحدثين ليس فقط منهم المدرسون الجدد ، بل أناس يعرفون العربية واعتادوا تبنى موقفا اكثر تفهما لصالح الفكر العربى .

مثلا حالة المستشرق الاسبانى الشهير أسين بلاثيوس Palacios فى كتابه (10) كل هؤلاء يزعمون رأيا مخالفا لرأى أعنى معضلة وحدة العقل لكل النوع الانسانى .

باختصار شديد جدا على أساس هذه النظرية فكل انسان يملك ذاتية شخصية عندما يكون فى الوجود فقط ، ومنذ اللحظة التى تغادر فيها أرواحنا عالم المادة تترك كونها ذاته لتكون مندمجة فى وحدة الجنس وعلى هذا الاساس تكون خالدة ، ولا ينطبق ذلك الا على ذوات النوع الانسانى دون كل الذوات ، النتائج ستكون خطيرة جدا داخل الاسلام مثلها داخل المسيحية ولكن اليوم لحسن الحظ يمكننى القول أن هذا النص ليس لابن رشد ، لم أكن رأيته ذلك واضحا هكذا فى البداية ، توجد نصوص ، وعلى وجه الخصوص فى الترجمات اللاتينية والتى بدا لى فيها أن وحدة العقل الانسانى كانت الشيء الوحيد الذى يمكن قراءته فى النص . ولكن وجد آخرون ، مع كونهم أكثر وضوحا من السابقين فان رأيهم بالسماع بموحدة العقل الانسانى كان تناقضا صريحا . وأخيرا وصلت الى نتيجة رأيت أنها تتأكد فى الحال عن طريق ثلاثة براهين مختلفة .

بعد أن نشرت أفكارى وجدت أن الباحثين باللغة العربية قد وصلوا الى نفس النتيجة ، ولكن ببراهين مختلفة عن البراهين التي وصلت بها ، ولنزاهة المهنة يجب أن أقول أن هذه البراهين لا تبدو لى دائما مقنعة .

مؤلفان عربيان ، ومتخصصان عظيمان فى ابن رشد قد اقتربا كثيرا مـن المشكلة ولكن بدون أن يخطوا الخطوة الحاسمة ٠

الاول كان رينان Renan تعرف على التناقض فى كتابات ابن رشـد ، عقليتـه الحقيقية قد تكون عقلية الوحدة التى يدافع عنها فى تعليقاته على أريسطو ، وقـد تكون عقلية الخلود الذاتى المختلفة عند كل انسـان وهذا قد يكون موضوع أعمـاله لا تعليقاته ، وبالتالى لا يمكن قبول التناقض الذى يشير اليه رينان Renan لانه يوجد فى التهافت ولم يكن قط تعليقا من تعليقات ابن رشد .

الكاتب الثانى هو P. Thevy فى عمل له حول الاسكندر الافريقى ، وهـو عبارة عن دراسة تاثيره فى ونظرية المعرفة Neotica موقف ابن رشـد عبارة عـن التورط بين موقف الاسكندر الافروديسى ، وبين تامسطيوس ، وذلك يعد شـرحا لنظرية أرسطو حول العقل الانسانى ٠ حيث أن الاسكندر سمح بعقلين متابعا فى ذلك أريسطو ، واحد منهما فعال ، ووضعه خارج الانسان ، والآخر مـادى ، وادركه أيضا عن طـريق المـادة ٠

ومادية العقل الانسانى المدافع عنها عن طريق الاسكندر تلك مضت ضـد المفهوم الروحى للعقل التى طبقها ابن رشد ، أما تامسطيوس لكى يهرب من هذه المادة أقحـم العقل الفعال داخل الانسان ٠ ابن رشد واصل تعريفا وسطا مع الاسكندر أكد أن العقل الفعال يوجد خارج الانسان ، وهذا موجد عند كل الفلاسفة الاسلاميين ، ولكنه كان متفقا مع تامسطيوس فى عدم قبول الطبيعة المادية والفانية للعقل ، وفى هذه المسـألة عندما يؤكد ابن رشد أن العقل انما هو جـوهر النفس ، بدون أن يتـدخل بعمـق للتفرقة بين النفس وقواها ، ويتعرف P. Thevy ، متابعا النصوص عـلى التوازى الموجود عند ابن رشد بين العقـل الفعال الخارج عن الانسان ، والعقل المـادى الذى يتمتع بنفس الصفات الروحية والبساطة وان الاثنين يحتاج اليهما لمعرفة اللمحـات الـروحية ٠

يمضى ذلك كله حتى الآن فى خط ابحاثى ، ولكن بعد ذلك بقليل لاحظ P. Thevy الصعوبات المطروحة عند ابن رشد نفسه ودافع باخلاص عن الشروحات التى سبـق

اعطاوها تقليديا عن المدرسيين ، وبقية له خطوة واحدة لا غير لكى يتفق معنا ٠ بالنسبة للصعوبات التى طرحتها مشكلة العقل ، هناك معلومتان مختلفتان حاول ابن رشـــد أن يجعلهما متفقتـين :

واحدة هى ، وحدة العقل الانسانى ٠ والثانية هى ، الاختلافات فى كل عقل خاص ٠ ترك نفسه فقط مع الاولى متبعا الخط التقليدى للعصور الوسطى لكن ماذا يجـب أن يعمل مع الثانية ؟ أعتقد انه لا يوجد حل آخر غير الذى لابن رشـد نفسه ، والذى هو محاولة التوفيق بينهما تعتقد بحق وجود الحل ، مثلما انطلق فى التهافت ٠ بما فيـه الترجمة اللاتينية « للشارح الاكبر » حول النفس (الاصل العربى قد فقد) ٠ ابن رشد قد وافـق على ما يـلى :

فى مواجهة مادية العقل الانسـانى المدافـع عنها بواسطة الاسكندر الافروديـسى أنكر أن العقل يمكن أن يكون مادة بمفهوم التركيب والفساد ٠ العقل اذن يـكون بسيطا ، وواحدا ، ولكن من جانب آخر فان كل عقل ينبغى ان يتكثر ويتميز عن بقيـة العقول ٠ «عقلك ليس هو عقلى» ومع انهما واحد فهما مختلفان فى نفس الوقت ، وبنـاء عليه فانه خالد فى فرديته مثله مثل العقل الفعال فى شموليتـه ٠ الفرق يـكون فى أن العقل المادى يجب ان يكون بسيطا ، وواحدا ، لانه يجب ان يستوعب جميع الصيـغ ، والعقل الفعال يكون بسيطا ، ومجردا ، لانه يجب ان يصـدر جميع الصيـغ ، دون ان يكون أخذها مستقبلا للفهم ، ويفهم منهما الآخر لانهما مشفان على ذاتيهما ٠

يوجد نص فى الشارح الكبير عن النفس ، لم يترك مجالا للشك حول الخلـــود الفردى للعقل المادى للانسان ، فالكون والفساد للذوات يعود الى تركيبها وليس الـى نوعها الذى هو واحـد فى تعـدده ٠

(Propter multitudinem contingentem eis, non propter modum quem sunt unica).

وهكذا عند ما تهلك ذات بسبب الفساد فى مادتها فانها تهلك بسبب فساد ذاتيتها، وهذا ليس هلاكا مطلقا ، لان وجودها فى العقل المادى لا يفسد ابدا (15) ٠ يـهلك الانسان بسبب فساد جسمه المادى،ولكنه لا يفسد فى الجانب الذى هو واحد ، وبسيط، أى عقله المادى ، وليس هذا الانسان مادة للمفاهيم المعروفة على طريقة أستقبال الجسـم

للنفس ، حيث أن وجوده فى العقل لا يفسد ابدا ، للسبب البسيط ، أن العقل لا يعرف حين يعرف مستقبلا صيغا بطريقة التركيب المادى ، بل مصدرا تلك الصيغ ومتحـولا فيها بطريقة التشابه المعـــرفى ·

وكما سبق القول ، نظن أننا قد برهنا على شيئين : فى المقام الاول ، أن تاثير ابـن رشد فى الفلسفة الغربية كان كبيرا ، وفى المقام الثانى ، هذا التأثير لم يكن دائمـا فى خط الهرطقة وحتى الآن ، فان الهرطقة فى غير قليل من الموضوعات ليست لابن رشد ، بل للرشــديين اللاتـــين ·

وهكذا تمضى متخذة شهرة تلك العبارة التى رددتها فى مؤتمرات دولية عـديـدة « ابن رشد ليس رشديا » لـكن حتى الآن هنـاك متخصصون اوروبيون ، والذيـن فى خطتهم التهوين من شان التأثير التقليدى لابن رشد ، وفى مواجهة وضوح الاعمـــال ، فانهم لم يعد لديهم علاج الا قبول تأثيره وان اضافوا أن الرشدية الوحيدة الحقيقيـــة هى الملحدة ، وفى المقابل ، لا توجد ملامح أساسية تسمح بالكلام عن رشدية تقليديـة حقيقيـــة ·

وبين ايديكم عمل ، قابل للمناقشة ، ولكنى أجرؤ على تقديم برنامج للابحاث يمـكن به اثبات الملامح التى حسب رأيى ــ وقد تشكل التصور لرشدية مؤمنة فى العـــالم اللاتينى ، مع تأكيد ان هذه الملامح نوعية ، ولكن من المحتمل انها ليست المـــلامـح الوحيدة ، حيث قد يمكن وجود ملامح أكثر فى عمل أعظم اتساعا والذى قد أعده ملمحا لنوعية الرشدية اللاتينية هو مـــا يـلى :

عودة الى الاريسطية الخالصة ، وهذا سيحمل معه تصفية او تنقية للافلاطــونيـة الجديدة فى ذلك الذى أسميه المثالية المنفصلة عن التجربة ·

فى نظرية المعرفة اندماج بين العقل والحكمة ومعرفة فعالة ومنفعلة معا ، المعرفة هى التغير فى ماهية الاشياء عن طريق الاضاءة التى تجعلها شفافة فى العقل المادى ، ومركزا فيه على تلك المناطق الكاملة عن طريق ما هو شبيه بها · ولعل ذلك سمة عامة للفلسفة الاسلامية ، ولكن فى شرح أنواع العقل المختلفة وفى التأكيد على اتحاد العقل المـــادى

من أجل ابراز روحانيته فى مواجهة الاسكندر الافروديسى أعتقد اننى وجدت مناطـق خاصـة بابن رشـد ٠

اتحاد الصورة الجوهرية فى التركيب الهيولانى ٠ التفرق عن طريق المادة ٠ اسلوب تجريبى فى العلوم مثلما فى الفلسفة ٠ خلق متصور حسب خطة المادة والصورة ، موسعا هذين المعنيين فى الماهية والوجود من أجل شرح الحادث ٠ وأخيرا كان جرينافى اختراقة لما جاء به الوحى من اجل اكتشاف التوافق بـين الوحى والعقـل ٠

ضمن سياق هذا الملتقى للفكر الاسلامى ، أشعر بكل الرضا ، اذا كنت قد تركت ما يظهر بوضوح : ان الفلسفة المتطورة داخل عالم الاسلام والتى تمضى مؤثرة بعد ذلك فى اوروبا المسيحية ، هى فلسفة اسلامية حقة ، ليس فقط لان مضمونها هو نفس جوهر الاسلام ، بل لان لها علاوة على ذلك الأصالة بأن قدمت فلسفة صالحة لان تكون اساسـا عقليا لمدلولات الوحى القـرآنى ٠

هذه الاسس العقلية للوحى هى التى سوف تجذب اهتمام رجال اللاهوت المسيحيين فى الغرب ، والتى سوف تسبب ثورة حقيقية ، وتحول فى المدرسين المسيحيين للقـرن الثـالث عشـر ٠

وبهذا أعتقد اننا نقدم خدمة عظيمة للاسلام حين ننفى عن فلاسفته تهمة الهرطقة ٠ فابن رشد ليس هو الملحد العقلى كما صوره لنا رينان ، وليس هو الاريسطى الوثـنى الذى سلبنا الابدية الشخصية للنفس الانسانية ، بل هو مسلم أصيل حاول ان يتعمق فى مدلولات الوحى القرآنى من اجل طمأنة أهل دينه فى المعضلات التى يمكن ان يطرحها العقـل او رجـال الديـانات الاخـرى ٠

الملاحظات الخاصة بالمحاضرة

(1) غومث نوغالث : سلفادور

الفلسفة الاسلامية وتأثيرها المحدد فى الفكر الغربى للعصور الوسطى ، (الموقف الحالى للجدل) مدريد ، مطبوعات البيت الاسبانى العربى سنة 1969 م ٠

ابن عربى حلقة ثقافية بين العالم العربى والثقافة الغربية ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ـ العدد 13 (65 1966) ص 25 ـ 42 ٠

الفلسفة الاسلامية والانسانية المتكاملة للقديس توماس الاكوينى ومختارات جامعة الكومياس ـ العدد 47 و 48 (1967) ص 226 ـ 226 ٠

الفنون الحرة والفلسفة الاسلامية «من» الفنون الحرة والفلسفة فى العصور الوسطى، أعمال المؤتمر الدولى الرابع لفلسفة العصور الوسطى ، جامعة مونتريال ، كندا (1969) ص 493 ـ 508 ٠

الدراسات العربية المنشورة فى اسبانيا ، الكتاب ، بغداد ـ العدد الخامس (1970) ص 229 ـ 266 ٠

التأثير الفكرى الاسبانى على الثقافة العربية ، مجلة جامعة « بشاور » فى باكستان العدد 1 (1973) ص 22 ـ 25 ٠

العلوم ، النظرية والمنهج عند ابن خلدون ، Vol. "Arabica Orientalia Hispanica "Islamiqua". Pars Prior مدريد (1974) ص 351 ـ 375 ٠

القديس توماس وجسارته على استيعاب الافكار الملحدة المفروضة فى عصره ، مجلة البرتغال الفلسفة ـ العدد 30 (1974) ص 185 ـ 204 ٠

القديس توماس الاكوينى والعرب ، قائمة مراجع ، مختارات جامعة الكومياس العدد 73 (1975) ص 205 ـ 250 ٠

(2) قنواتى ، شارل جورج : فلسفة العصور الوسطى فى أرض الاسلام ، MIDEO العدد الخامس (1958) ص 175 ـ 236 ٠

(3) الفلسفة الاسلامية وتأثيرها المحدد فى أرض الاسلام . أنظر رقم واحد .

(4) نفس المصدر ص 16 وما بعدها .

(5) نفس المصدر ص 25 وما بعدها .

(6) نفس المصدر ص 27 وما بعدها .

(7) مصير الانسان على ضوء نظرية المعرفة لابن رشد ، من "L'Homme et son destin"

أعمال المؤتمر الاول لفلسفة العصـــور الوسطى فى Louvain (باريس 1970) ص 285 ـ 304 .

المشكلات الميتافيزيقية فى اسبانيا الاسلامية المعاصرة لابن رشد ، من مختارات العصور الوسطى « منشورات معهد القديس توماس فى جامعة Koeln ما بعـد الطبيعة فى العصور الوسطى » مصدرها ومعناها الى برلين (1963) ص 408 ـ 413 .

مشكلات ميتافيزيقية منشورة فى « تهافت التهافت » لابن رشد ، أعمال المؤتمـر الدولى الرابع عشر للفلسفة فى مدينة فيينا Wien (1969) ص 539 ـ 553 .

مشكلات حول تلخيص كتاب النفس لابن رشد ، الاندلس ـ العـــدد 32 (1967) ص 1 ـ 36 . ولكن علاوة على ذلك فان الاكثر أهمية بالنسبة للموضوع هو المحاضرة التى القيت بجامعة لوفان Louvain ببلجيكا بمناسبة مرور سبعمائة عام عـلى وفاة القديس توماس تحت عنوان « ابن رشد والقديس توماس الاكوينى » ولقد صححت تجاربها الاولى وعلى وشك الصدور ضمن كتاب عن أعمال المؤتمر .

(8) خلود النفس على ضوء نظرية المعرفة لابن رشد ، الفكـــر ، العـــدد 15 (1959) ص 155 ـ 176 .

وحدة النفس البشرية فى الفلسفة الاسلامية ، وبخاصة عن ابن عربى ، الفكـــر ، العدد 21 (1965) ص 423 ـ 444 .

(9) الفلسفة الاسلامية والانسانية المتكاملة للقديس توماس ، مختارات جامعـــة الكومياس العدد 47 و 48 (1967) ص 229 ـ 266 .

(10) اسين بلاثيوس « ميجيل » الرشدية اللاهوتية للقديس توماس « آثار الاسلام » مدريد (1941) ص 13 ـ 72 ·

(11) رينان ، ابن رشد والرشدية ، باريس (1932) ط · 9

(12) حول قرار عام 1210 « الثانى » « الاسكندر الافروديسى » ملخص لتاريخ تاثيره فى نظريته المعرفة خاين جيان Jaen 1962 .

(13) ابن رشد ، الشرح الكبير لكتاب النفس ، نيويورك (1953) ، العدد الثالث ، أنظر العدد 1 ص 1 ، العدد 2 ص 2 ، العدد 3 ص 7 ، منشورات ·

دور الفكر الإسلامى فى ميلاد النهضة فى أوروبا

كيف استطاعت الثقافة الإسلامية أن تمارس تأثيرها القوى فى أوروبا بالذات . . ؟

د . سيغريد هونكه
كاتبة فى تاريخ الاديان المقارن
والحضارات ـ بون ـ
(جمهورية ألمانيا الاتحادية)



خليق بالذى يعتقد أن النهضة تولدت فى القرنين 14 و 15 الميلاديين عن اكتشاف الحضارة الاغريقية القديمة ـ كما يلقن ذلك تاريخ الحضارة الاوروبية ـ أن يعيد النظر فى معلوماته .

أن النهضة الاوروبية لترجع فى الواقع الى عهد يسبق هذا الذى يتحدث عنه تاريخ الحضارة الاوروبية ، الى القرن 12 مع اكتشاف العلم الاسلامى الذى منحها انبعاثا جديدا بتحرير الفكر الاوروبى من تاثير اللاهوت المسيحى . هذه القضية هى التى سأثيرها هنا تحت السؤال الآتى : كيف استطاعت الثقافة الاسلامية أن يكون لها مثل هذا التأثير القوى فى أوروبا بالذات ؟

لقد سبق لى أن تعرضت فى كتاب « شمس الله تسطع على الغرب » لهذا المشكل ·

والواقع أن العرب قد أنقذوا التراث الاغريقى من الضياع والنسيان ، ولم يكتف العرب بجمع هذا التراث وترجمته ونقله ، وتنظيمه منهجيا ، بل أنشأوا علوما بالمعنى المعروف لدينا اليوم ، فقد طور العرب ، بالملاحظة والتجربة ، معطيات علمية موروثة عن الاغريق ، وطوروها حسب قانونهم وبنية تفكيرهم ·

وفيما يتميز الفكر الاغريقى بالحدس والنظر العقلى اللذين يسمحان بالكشف عن جوهر الاشياء والكائنات ذاته ـ وهو لذلك ، لانه يرى ان العمل اليدوى الشاق والحقير لا يليق بالانسان ، الحر يسعى الى الانطلاق رأسا الى سماء الافكار العامة ـ يؤثر الفكر العربى السير المتأنى بأقدام حافية للتجربة الحسية ، والملاحظة الدقيقة والمتكررة ، والارتقاء ، فى اناة ، من الخاص الى العام ، وبعبارة أوجز ، يؤثرون المنهج الاستقرائى ·

فهم اذن مبتكرو التجربة بالمعنى الدقيق للكلمة ، وهم المبدعون الحقيقيون للبحث التجريبى ·

فقد أبدعوا علوم البصريات ، والفيزياء ، والكيمياء القائمة على التجربة ، والجبر ، وأريتميتيقا العلوم ، وعلم حساب المثلثات الدائرية ، والجيولوجيا ، وعلم الاجتماع ·

وزيادة على ما لا يحصى عدده من المكتشفات والمبتكرات الثمينة فى مجال العلوم التجريبية ، تركوا للغرب أثمن هدية دون شك ، ألا وهى منهجهم فى البحث العلمى الذى أخصب النمو الحالى الهائل الذى بلغته معرفتنا بالطبيعة ·

ولنتجه بأذهاننا الى أحد كبار رجالات أوروبا : الامبراطور « فريدريك الثانى » امبراطور « هوهنسطوفن» الذى بعد أن مسته نفحات الفكر العربى المنعشة ، اجتذب اليه فطاحل العلماء من العرب المسلمين ، ضاربا بذلك عرض الحائط كل ما صدر عن الكنيسة الرومانية المسيحية من تحريمات وتهجمات · ولم يكن أبدا يخيفه الركون الى الفكر الاسلامى · وهكذا رأينا أن الجرمانى والعربى يتصفان كلاهما بهذه الصفة التى افتقدها كبار علماء الغرب ألا وهى النظرة الواضحة النافذة الى « الطبيعة الحقيقية » للاشياء ··· فهما وحدهما من وعيا الامور الطبيعية كما يقول « فريدريك »

ذاته • وهما وحدهما من عرفا ـ دونما أى حكم مسبق ـ كيف يـــلاحظان ، وكيـف يفحصان ، وكيف يستكشفان الواقع المحسوس •

لكن يا ترى ، ماذا فى الامر من غرابة ؟ أليس من طبيعة كل انسان ان يرى الوقائع على ما هى عليه ؟ ان ذلك ليبدو ـ فى يومنا هذا ـ أمرا بديهيا • بيد أن أهل الفكـر الاوروبى فى القرن 12 الذين تكونوا فى أحضان اللاهوت المسيحى ، واستغرقهم التأمل فى الآخرة ، كانوا فى غفلة عن عالم الوقائع • فهم لا يعيرون أهمية للطبيعة الملموسـة الا من خلال ما يكون لها من صلة بالله وبالروح ، وبقدر ما تكشف عن المتعالى • انهم لا يتخذون منها الا سبيلا لضرب الامثال ، وفى حدود الامكان ، كنقطة انطلاق لحكمـة خلقيـــة •

ولكنهم ما كانوا أبدا ليعيروا أهمية للطبيعة فى حد ذاتها • ويشهد على ذلك ما يورده كتاب « فيزيلوغوس » (علم الفيزياء) الشهير ، نتاج الاسكندرية أو سوريا فى القرن الثانى ، والمحبوب كثيرا فى العصر الوسيط عن طبيعة « النملة ـ الاسد » ، وصورة ذلك أن حيوانا ولد من أسد ونملة ، وهو ما أسمى « بالنملة ـ الاسد » • ولكن ما أن شهد النور حتى لفظ أنفاسه ، لانه عاجز عن تدبير غذائه ، فهو قد مات جوعا • وأنــه للحق الصراح بدليل الكتاب المقدس الذى يقول : « لقد مات (الحيوان) النملة ـ الاســد لان الغذاء يعوزه • » ذلك لان هذا الحيوان نتاج طبيعتين اثنتين • فحين يريد أكـــل اللحم ترفض طبيعة النمل ـ وهى المولعة بالحبوب ـ أكل اللحم • وحين يروم التغذى بالحبوب تكون طبيعة الاسد هى التى تتقزز من ذلك • ولما أصبح الحيوان لا يستطيـع التغذى لا باللحم ولا بالحبوب هلك • وكذلك الامر بالنسبة الى أولئك الذين يريدون أن يخدموا سيدين اثنين : الله والشيطان • فالله يعلمهم ان يكونوا طاهرين أصفياء ، والشيطان يقنعهم بابتغاء الانحلال والفساد الخلقى ••• »

ان كلمات « فريدريك » لتضرب ـ كالصاعقة ـ الوجه الفقير الى مثل هذه الطبيعة التى شوهها بسخرية خيال ساذج وجدلية قاحلة :

« ان ما نقصده هو أن نجعل الاشياء مدركة كما هى عليه ، وكما هى عليه فى واقع الامــــر » •

هذه الكلمات تطبع منعرج النظرة الى العالم فى الغرب فهذا الامبراطور الـــذى استبحر فى المعرفة والثقافة والشغوف بالقراءة والمطالعة لا يركن أبدا الى ما هو مكتوب، وانما يركن فقط الى ما يشاهده • «فنحن لا نحصل على أى يقين كذلك عن طريق السمع» كما يقول : وبفضل حظيرته الخاصة للحيوانات يعمد « أحسن ملاحظ لكل ما يقع فى متناول ادراك البصر » ــ كما يسميه العرب ــ الى ملاحظة شخصية دائمة للانواع ولنمط حياتهـا •

فلملاحظة طيوره المودعة فى أقفاص كبيرة محكمة الترتيب ، يبرهن على نفس الاطراد والمثابرة • وعلى نفس الاناة التى لا تتزعزع التى يبرهن عليها الفلكيون المسلمون لترصد حركة جرم من الاجرام السماوية • ان أوصافه لتكوين الطيور العضوى ، ولاخلاقهـا وعاداتها ، ولطيرانها لتذكرنا فى الوقت ذاته بالوضوح والدقة التشريحية الجديرين بالوضوح والدقة اللذين توحى بهما الى الاطباء المسلمين ملاحظات يقومون بها ، وهـم أمام أسرة المرضى • ذلك لان كل شيء يرتكز على « تجربتنا الخاصة » أو على « تجـربة الآخرين » حين لا يستطيع فريدريك أن يلاحظ بنفسه •

ان كتابه « فى فن الصيد بالباز » (مبحث كامل فى علم الطيور) لا يحتوى من الآراء القاطعة الا ما سبق أن أكده وأثبته فحص « شخصين ، أو ما أثبتته التجربة بصورة لا تقبل التفنيد • انه نفس التحرى ونفس الشعور بالمسؤولية » الذى حدا بعالم النبات المسلم ابن البيطار ــ وهذا نص كلامه ــ الى ان «لا آخذ عن المؤلفين القدامى والمحدثين الا ما أثبتت صحته الملاحظة وتجاربى الخاصة ، وأن أنبذ كل ما لم أستطع تأكيد صحتـه ، وكل ما تثبت مخالفته للواقع » •

يتضح بهذا أن الامبراطور الالمانى يحتل مقام مؤسس نظرة جديدة الى العالم وباعث العلم الاوروبى ، وبهذه الصفة فتح الطريق لاعقاب من المفكرين الذيـــن ــ باستثناء النزعات المدرسية ، والانسانية ونزعة اصلاحية متشبثة فى عناد بالسلطات الحاكمـة ــ ساروا بالنهضة الى أعلى المقامات مثل ألبير الكبير وبطرس ماريكورت» و روجرباكون و ليوناردو دى فنشى .و فرنسيس باكون و ونيكول دى كوكا كوبرنيك و جيوردانو برونو و وغاليلى الذين تلقوا ، بقدر أو بآخر ، التأثير العربى الاسلامى

ولن أذكر الا بصريات ابن الهيثم بصورة أساسية ، وتجاربه عـلى أشعة الضـوء ، والعدسات ، وعلى الكاميرا المعتمة ، ثم عالم النبات ابن البيطار ، والكندى والبيرونى ، وما أتى به جميعهم من حلول للمسائل الفلكية ، ثم معارف العرب فى مجال الجاذبية ، والبوصلة، والمواد المتفجرة دون أن نشير الى مكاسب الطب العربى • واليوم سنتساءل : لماذا وكيف لم تستطع شرارة العلم الطبيعى الصحيح التى أطلقها العرب أن تتقد الا فى أوروبا التى ستفيض منها من جديد على العلوم النظرية والتطبيقية والتقنية للعالـم أجمع ؟ أفيكون هناك ـ بالرغم من كل الخلافات الظاهرة ـ نقاط التقاء جعلت هـذا التوسع ممكنا ؟٠ان الاسلام ، بعكس المسيحية ، قد شجع العلوم التى كانت ضرورية له من أجل ضبط أوقات الصلاة بقصد أداء واجب العبادة ، ولقياس حركة الافـلاك ، ومعالجة المرضى ، واتقاء الاوبئة فى كبريات الامصار الخ •••

ان « طلب العلم عبادة » أو كما جاء فى الاثر • وقد أوجب الرسول نفسه طلـب العلم باعتباره فريضة دينية • ويرى (عليه السلام) أن العلوم تخدم عظمة الله « خذ العلم ولو من فم كافر » كما جاء فى الاثر (معنى الحديث) •

لكن ما ان أقبل عام 800 الميلادى حتى تجلى استقلال الفكر والبحث ازاء المعرفـة الإجنبية فى العبارة القائلة « أول شرط للمعرفة هو الشك » بهذه الجملة الجريئة مهد زعيم المعتزلة ابراهيم النظام فى حوالى العام الثمانمئة الطريق لحركة اسلامية واسعة يسرت الازدهار المبكر للعلوم حتى فى القرن الرابع عشر •

وقد كان يتهدد الاسلام فى الواقع تسلل ثنائى للعقائد الزرادشتية والمانوية من فاس ، مما نتج عنه قيام حركات من ردود الفعل الاسلامية • بما فيها مدرسة الاعتزال النشيطة جدا فى المركز الثقافى الذى كانت تمثله البصرة • وكانت بين هذه المدرسة والخليفة العباسى الثانى « المنصور » روابط من الصداقة الوثيقة ، كما كانت لها نفس الصلات مع كل الخلفاء الذين جاءوا بعده تقريبا باستثناء ابنه هارون الرشيد • وقـد جعل حفيده المأمون الذى بدأ فى ظل حكمه الانبعاث الحقيقى للعلوم من مذهب المعتزلة فى عام 827 مذهبا للدولة : القول بوحدانية الله ، وبالوحدة الجوهرية للعقل الالهى

والبشرى.والقول بتنزيه الاله عن كل شبه بالانسان ، القول بعدم التجسيم ، والقــول بسرمدية وجوده تعالى ٠

فعقل الانسان من طبيعة عقل الله ، وليس هناك من مجال لما يراد أن يتهم بـــه المعتزلة من القول بعقلانية تحررية ، بل كل ما فى الامر أن المعرفة والعلم يجب أن ينيرا طريق الايمان ، وهذا ما دفع بالنبى (ص) الى أن يقول ما معناه « للتعلم قيمة الصيام ، لكن لتعليم العلم قيمة الصلاة » ٠ فهو يرجع دائما الى الطبيعة ٠ الى الارض جميعها التى « أينما تولوا فثم وجه الله » ، الى درجة أن الصوفى ابن عربى قال : نحن لا نرى فى كل ما يقع عليه بصرنا سواه ، ودون أن يغيب عن أنظارنا أبدا » ٠ ومـــن ذلك أن أبا حنيفة فى حوالى منتصف القرن الثامن أجاب معتزليا سأله عن موقع مركز العالم فقال : « هناك حيث أنت جالسا » ٠

لكن لا قيمة حقيقية الا لما تدركه الابصار والآذان ، وما يراه العقل المستقل صحيحا ، كما لم يلبث يكرره على المعتزلة النظام « الذى رسم السبل وفتح الامور » وقد ألهمت هذه الفكرة كثيرا من الباحثين مثل الطبيب ابن نفيس الذى قال فى حديث له بالقاهرة : « على الرغم من احترامنا الاكبر لجالينوس فات ما رأيناه بأعيننا أحـــق بالتصديق » فابن نفيس الذى ـ بدل أن يسلم بما يزعم من وجود فتحات بجدار القلب الداخـلى تسمح ـ بمجرور الدم ـ كان أول من اكتشف ووصف نظام الدورة الدموية . أو عالم النبات الكبير ابن البيطار بالاندلس الذى قال فى مقدمة كتابه الفائق : « لم أكن من حيث المبدأ لآخذ عن المؤلفين القـــدامى والمحدثين الا ما سمحت ملاحظاتى وتجاربى الخاصة بتأكيده . وكل ما لم أقتنع به أن كان مخالفا للواقع أهملته » .

تلك كانت روح ولغة الامبراطور فريديريك الثانى المألوفتين لديه ، والغريبتين تماما على الغرب الخاضع لسلطة التوراة ، ورهبان الكنيسة ، وأرسطو ، وحيث كانت كل محاولة من محاولات البحث المستقل تلاحق ويحكم على صاحبها بالابتداع والمروق ، ويقضى عليه ٠ وهذا الانجليزى ٠ أذلهاردى باث الذى كان من الغضب على ما يحيق من القمع فى وطنه على كل اكتشاف طبيعى ، ما جعله وقد عاد من البلاد العربيـــة ـ يتنسم نسيم الحرية الفكرية ، ويترك لنا هذه السطور ذات المغزى فى هذا الشأن :

« سنقف دون اكتشاف الجمال العجيب والمعقول للكون الذى نعيش فيه ، وسنستحق أن نطرد كما يطرد ضيف ليس أهلا لتشريف الدار التى استقبلته واحتفت به · لقد تعلمت ـ فى الواقع ـ من الاساتذة العرب تسيير الامور عن طريق العقل ، غير أنك ، وانت تسير وراء بريق سلطة ، كمسجون أحاط بعنقه طوق · ان الحيوانات لتكتفى باتباع من يجذبها بالحبل ، دون أن تعرف الى أين ولا لماذا · وكذلك الكثيرون منكم يطيعون طاعة عمياء ، وبسذاجة حيوانية سلطة الكتب المقدسة » ·

فبذرة العلم الطبيعي والتجريبى العربى انما سقطت على وجه التحديد فى الامبراطورية الالمانية ، وبأوروبا الغربية ، وعلى أرض كانت متهيئة لاستقبالها واحتضانها من أجل ان تنتج ثمارا وافرة ما تزال الارض كامل الارض تعيش منها اليوم ·

ان هذه البذرة لم تنتشر لا فى بيزنطة ، وعلى أرض اليونان التى كانت فيما مضى خصبة ، ولا فى أوروبا الشرقية أو فى روسيا ، ولا فى الهند أو الصين ، وانما انتشرت فى الغرب ·

ولماذا فى أوروبا بالذات ؟ الواقع انه ، على الرغم من كل الخلافات ، توجد هناك أوجه شبه سواء فى فن التفكير ـ طريقة التفكير الوحدوية ، أم فيما يجده العرب والاوروبيون على السواء من حاجة الى الدفاع عن أنفسهم ضد سلطة وثنائية أجنبيتين ·

قبل أنتكتشف الكتب العربية بأمد بعيد ، وقبل ان يعود الباحثون الاوروبيون الذين أموا الجامعات العربية الذائعة الصيت ، والتى كانت نماذج لجامعاتنا . وقد اعتنوا بمعرفة المناهج العلمية العربية ، شهد الغرب ثورة كامنة على الوصاية الروحية والثنائية التى كانت ترفض الاعتراف بالطبيعة الحقة لعالم الاشياء · وفيما كان ابراهيم النظام على وجه التقريب « يشق سبلا جديدة » فى امبراطورية المأمون الاعتزالية ، كتب الايكوسى اير وخينا فى بلاط شارل الاصلع بباريس كتابه « فى ترتيب الطبيعة » وهو الكتاب الذى منح فيه حتما ، منذ البداية ، الاولوية المطلقة لحرية العقل على كل سلطة أخرى أيا كانت ، وأوصى أتباعه قائلا : « يجب الا تحولك أو تصرفك أية سلطة عما يهديك اليه العقل القائم على معرفة صارمة » · فهو يعارض ، معارضة مطلقة ،

الثنائية المسيحية والافلاطونية المحدثة ، والتعتيم ، واتهام عالم من المادة الاثمة التى لا تمثل سوى حجر عثرة بين الانسان الحائر القوى والاله الحاكم المتسلط على أعالى وآفاق بعيدة • انه وجود « آخر » و « أجنبى » تماما •

وفى رأى ايريوجينا هذا الذى يعمل بمفرده ـ على عكس النظام ـ وسيسير فى أثره عدد كبير من المتوحدين الآخرين العاقلين معاملة الابتداعيين والمجانين ـ أن الانسان والطبيعة هما من طبيعة الهيئة ، وهما تجليات وتفتحات محدودة فى الزمان والمكـان للربوبية اللامتناهية • لكن هذا الربانى الكلى الوجود يعى ذاته فى الانسان بحيث أن الوجد الالهى يلمس فى العقل الانسانى الذكاء الانسانى فيمنحه المقدرة على « فهـم » الاشياء وفى رأيه أن العقل الربانى والعقل الانسانى عقل واحد • لكن بينما أفكار النظام لا تضطره الى مغادرة التراب الاسلامى ، يعارض « ايريوجينا » معارضة سافرة التزمت السائد على المسيحية مما جعله يتعرض للاحقات معلنة ، واتهامات، وغير ذلك من الاهوال التى تعرض لها هو واتباعه • الا أن الباب مفتوح • فالفكر البشرى واحد فى الطبيعة وفى جوهره وفى جوهر الاشياء مجالا جديداللاكتشاف الربانى•وهى نقطة انطلاق دينية لعلم مبتدىء « ان طبيعة الاشياء هى تفسر لنا كيفية بناء الكون » كما أكد فى مطلع القرن 12 هونوريوس دى راتيسيون احد الاتباع الالمان لايريوجينا • وما من شىء يسلط الضوء الساطع على بداية نظرة جديدة الى العالم من جـــواب النورماندى « غيوم دى كوكشيش » على الآباء الروحيين الذين أمروه بالتماس تفسيرات لاصـــل الانسان فى التوراة • « البحث عن أصل كل شىء وعن القوانين التى حكمت ميلاده ، تلك هى المهمة الكبرى للمؤمنين فى الاتحاد الاخوى لافكارهم «الطليعية».• «وحيث سخط « ابسالون دى سانت فيكتور » على « الفوصلية المتنالية » الباحثة عن تكوين الارض وعن طبيعة العناصر وعن مواقع الافلاك وطبيعة الحيوانات ، وعن قوة الريح وحيـــاة النباتات والديدان » قال « غيوم » الساخط أيضا ، « ان الذين لا يعرفون قوى الطبيعة يريدون أن نظل تابعين لجهلهم لانهم ينكرون علينا حق البحث عن مصادر وأسباب كل شىء ، ويقضون علينا بالضلال والتيه كأناس مساكين فى ايمان غير واضح ، ومـا أن ينتهى الى علمهم أن احدا يتعاطى البحث حتى يعاملوه معاملة المبتدع المارق •

ولم يمض زمن طويل حتى نشأ ذلك « التقارب الاخوى لافكارنا الطلقة » من فطاحل علماء الاسلام ، وهو تقارب غدا ضروريا من جراء ما كانت الكنيسة تعمد اليـــه من انزال أشد ألوان العقاب على كل من يروم « البحث عن مصادر الطبيعـــة وأسبابها وقوانينها » حتى على كوبرنيك و جيوردا فوبرونو و غاليلي ومن جاء بعدهم. وقد تبدى هذا التقارب بعد ذلك مثيرا بصورة خارقة . لكن ترى أفكان ممكنا بناء علم طبيعى أصيل على صخور الثنائية القديمة للايديولوجية سواء ما كان منها اغريقيا أم مسيحيا ؟ أكان من قبيل الامكان تطوير علم طبيعى تجريبى وصحيح فى موطن تتغير فيه القوانين باستمرار كما تتغير الامزجة بدلا من ان تكون لها قيمة عالمية ، وتختلف تبعا باختلاف ما اذا كانت تحكم الافلاك أم هذه الارض البعيدة مثل هذا البعد عن الله ؟

وما كان لعلم طبيعى أصيل ان يكون من قبيل الامكان ـ وهذا صادق أيضا على العلوم العربية ، وقد تحول منها ما كان ينبغى له ان يتحول ، وعلى العلوم التى كانت آنذاك تنشأ لذاتها بأوروبا ـ الا على أرض ذات تصور دينى للطبيعة وللمفهوم الربانى الساطع للمادة التى ليست مشوبة بالخطيئة كما لا يزال عليه الحال عند « طوماس الاكوينى » ، بل مرفوعة الى التفتح المنظور والمدرك من الله الذى تشمل وحدانيته بالتوحيد بين ما كان متناهيا فى الكبر، وما كان متناهيا فى الصغر . ان الوحدة الداخلية لكل وجود، وانتظامه الدائم ، ووجوده الكلى على غرار هذا القانون الذى يجعل مركز العالم موجودا فى كل مكان ، والحركة المحايثة ، هى تلكم الشروط القبلية لكل تقدم فى العلم الطبيعى .

واذا كان عالم فوق طبيعى قد اسدل حتى الآن حجابه المعتم على الاشياء والرجال ، فان هذا الحجاب الصفيق قد أخذ يتمزق اليوم ، وتجلى العالم فى حقيقته الارضية التى تقود الى الله بدلا من ان تصرف عنه . وقد تساءل فـريدريك سونومبورغ بلهجـــة مستفزة قائلا ! « ترى لو لم يوجد العالم ، ماذا عسى ان يكون الله بالنسبة الينا ؟) اننا نكتشف الطبيعة كلا منظما وعالميا « عالما » على مثال عالم هيلدثمارد دى بنجن و ألبير بولستادت ، أو ألبيرتوس ماغنوس لقد كان رعايا من كل البلاد الاوروبية فى ساليرنة بصقلية وفى اسبانية يعكفون بمساعدة من اليهود ، على ترجمة عـدد لا يحصى من الكتب العربية من لغة العرب الى اللغة اللاتينية ، وكانوا يعكفون على نقل

الترجمات العربية للكتب الاغريقية والمؤلفات العلمية العربية • وقد عمد فريدريك الاول الى ايفاد بربروس جيرهارد دي غريمون الى أكاديمية الترجمة فى طليطلة حيث كان يشتغل أيضا اذلارتدى باث و مايكيل سكوتوس علامة بلاط فريديريك الثانى • وقد وصلت المؤلفات العربية الاولى فى الطب من « ساليرنة » عن طريق جبال الالب ، الى جانب منتجات عديدة أخرى مفيدة ومشتهاة من المخترعات التقنية العربية التى يتداولها هيرمانوس كونتراكتوس فى جزيرة ريشدو من ساعات وأدوات قياس من كل نوع ، وآلات رافقة ومولدة للطاقة ، وعدسات ، وغير ذلك من الادوات البصرية والفلكية والطبيعية وأجهزة أخرى للكيمياء التطبيقية •

وهكذا أخذت تتدفق أكثر فأكثر معدات للبحث ذات غنى لا نفاد له ، معدات ستكون أساسا لدراسات منهجية • لكن تقدمها العنيف أحيانا ستعرقلها لمدة قرون أخـــرى المعارضة الكنسية واللاهوتية المدرسية • ولن تمنع هذه المعارضة بعض العلماء الافذاذ من النضال فى سبيل هذه المحاولة ، وسواء كان روجر باكون الذى ذاق مــرارة عشر سنوات من النفى والاغتراب ، وخمسة عشر عاما من السجن جزاء أعماله النظرية والتطبيقية عـــلى فتوحات بصريات ابن الهيثم المدعو « بالهازن » ، وعـــلى الكيميـاء والميكانيكا والعلوم الحربية ، « أم سيجر دى برابادت » الذى استعاض عن التعليـــم الثنائى لمادة أريسطو بالمذهب التوحيدى أو التوفيقى لابن رشد المدعو افيرويس وهو ما كلفه حتفه مخنوقا فى سجون البلاط البابـوى ، أم الاسبانى ارنولـــد دى فيلانويفا الذى ستلاحقه محاكم التفتيش لترجمته وتطبيقاته لمؤلفات الطب العربية ، ومواطنه الشاب ميشال سيرفات الذى أذاع آراء ابن نفيس حول الدورة الدمويـة الصغرى ، والذى سيقتل حرقا بسبب معتقده التوحيدى المستوحى من الاسلام ، ثـــم أخيرا الامبراطور فريديريك الثانى الذى سيقيله البابا بنفسه فى مجمع ليون عام 1245 ، ويجرده من امبراطوريته ومن كل رتبه ومقاماته الشرفية ، ومن يمين الــولاء الذى سبق أن أداه ، وذلك بسبب ميوله الى العرب وايثاره لهم ولغيرهم ممن يوصفون بالمبتدعـــين •

هنا تنبثق اللحظة الحقيقية والاليمة للنهضة الاوروبية ! والفضل الاكبر فى ذلك للعرب ، فبفضل علومهم دفعوا بالفكر الاوروبى الى التحرر من الاستيلاب المسيحى الثنائى ، والى النهوض بوحى من الافكار العربية الجديدة ·

فكيف استطاعت الشرارة العربية اذن ، أن تتقد فى أوروبا بالذات ؟ لقد كان ذلك ، لان بين العرب والاوروبيين فكرا مشتركا كان موجودا من قبل ويسمح بالتفاهـــــم وبالاغتنـــــاء ·

ذلك لان الشعوب ـ ما لم ترغم بالعنف ـ لا تحتفظ الا بما هى قادرة على ادراكـه وتمثله · وهى تلفظ محتجة أو مكافحة جهارا ، عند الاقتضاء ، كل ما لا يليق بها ·

وقبل التقائهم الاول (أى العرب والاوروبيين) بزمن بعيد فى العهد الذى كان ما يزال وثنيا ، كانت هناك بعض السمات المشتركة بين العرب والاوروبيين الذيـــن أظهروا ـ رغم الاختلافات العريقة ـ علاقات فريدة من نوعها لم يكونوا مرتبطين بمثلها مع كثير من الشعوب الاخرى ، وهذه النقاط المشتركة ما تزال قائمة · ودون أن نمحو أو ننكر الخصائص أو البنيات الشخصية لكل جنس ، يمكن أن نلاحظ أن الشعبين قد طورا بنفسيهما ، وبمعزل كل واحد منهما عن الآخر ، بعض القواعد المتماثلة من السلوك، وفهم الامور ، ليست مع ذلك أبدا مما تتميز به كل شعوب أوروبا والشرق ، ولا هى ذات « قيمة انسانية عالمية » · واذا لم يمكن أن يكون للعرب والاوروبيين ـ بسبب أصولهم المختلفة كليا ـ تصور واحد للعالم وللاله ، فانهم يتقاسمون ـ حيثما تم لهم أن يعيشوا بحرية ـ فكرا وحدويا خاصا بهم يوفق فى شؤون الحياة كلها بين ما هـو دنيوى وما هو دينى ·

يضاف الى قاعدة التفاهم المشترك هذه : نظرة واقعية للعالم ، أصبحت فى أجزاء كبرى من أوروبا ، وباستثناء أى مكان آخر من العالم ، مهد العلوم الطبيعية الحديثـــة وصانعتها نظرة وحدوية لا يمكن أن تقع ـ رغم تدخل العقل كله ـ فى خطر العقلانية ولا المادية ـ آفتى الثنائية هاتين ـ ، نظرة تعرف ، بعكس ذلك ، كيف تضم استدلالا واضحا ومنطقيا الى تأمل وصفى يصل الى أعمق أعماق الكائن · فقبالة الصوفيـــين

العربيين الكبيرين : الغزالى وابن عربى نجد هنا السيد ايكهارد وعددا كبيرا من الاعقاب بالمانيا على الخصوص ان تجانسهم وتوافقهم لأمر « يثير الدهشة » أفيكون قد حصل بينهم اتصال مباشر ؟ أفيكون « ايكهارد » مدينا بافكاره وما ألهم اليه من « التوحد والعزلة » الى « اكسير السعادة » للغزالى كما كان معاصره ، دانتى مدينا للصوفى ابن عربى بفكرته عن عروج العاشقة المؤدى الى الربانى ؟ فتدين وصوفية السيد « ايكهارد » وتلميذه « نيكولاى دى كوزا » كانا ـ من ناحية حرية فكرتهما وأصالتهما ـ ممثلى فترة جديدة هى فترة النهضة ۰

واذا انعكست الامور اليوم ، وكنا نحن الذين ، بروح من التعاون المتبادل فى سبيل مستقبل خصب ، أصبحنا الطرف المعطاء ، ونحن الموجودين فى العالم العربى مستفيدين من العلوم الطبيعية العصرية التى عملنا على تقدمها بتطبيقاتها التقنية ، فذلك لان الاسلام ، بعد قرون من الركود التقليدى ، والاستلاب الاستعمارى ، يشهد اليوم تجديدا يطهره من كل الشوائب ، ويعيد اليه شبابه ، وانه يعرف كيف يتلقى بدوره ، وبفطنة طبيعية ، ما أنبتته العبقرية العربية لدينا فى الماضى ، حين كانت المياه العربية تروى حقول ثقافتنا ۰

ازدهار الحضارة الإسلامية فى الغرب الإسلامى ودور هذه البلدان فى النهضة الأوروبية

د. عثمان امين
فيلسوف وأستاذ شرفى
بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ



كتاب « احصاء العلوم » للفيلسوف ابى النصر الفارابى كتاب طريف فى بابه ، ألف فى القرن العاشر الميلادى ، فاشتهر ذكره فى بلاد الاسلام واصاب حسن التقدير عند اهل العلم فى الشرق والغرب ، وامتدحه العارفون وعدوه ضروريا لجميع المثقفين والراغبين فى البحث والاطلاع ، وذاع لدى العلماء والمؤلفين فى العالم الاسلامى وأصبح نواة لغيره من الموسوعات العلمية العربية .

ولقد ظهر أثر « احصاء العلوم » ونظرية الفارابى فى التصنيف فى المؤلفات العربية التى ظهرت من بعده مثل « رسائل اخوان الصفا » و « مفاتيح العلوم » لابى عبد الله محمد ابن أحمد بن يوسف الخوارزمى (المتوفى 387 هـ ـ 997 م) « وكتاب الشفاء » لابن سينا (المتوفى 428 هـ ـ 1037 م) و « ارشاد القاصد الى اسنى المقاصد » لشمس الدين الاكفانى (المتوفى 749 هـ ـ 1348 م) و « المقدمة لابن خلدون » (784 هـ ـ 1382 م) و « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » لطاشكبرى زادة (المتوفى 968 هـ ـ 1560 م) وكشف الظنون

عن أسامى الكتب والفنون » لمصطفى عبد اللــه ، الشهــير بحاجى خليفة وبكاتب حلبى » (المتوفى 1068 هـ 1658 م) و « ابجد العلوم » لصديق حسن خان (المتوفى 1207 هـ 1898 م) و « كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى » · ولاشك أن الفارابى هو السابق الى الكتابة فى تقسيم العلوم وترتيبها ، وهو أيضا واضع الحجر الاساسى لبناء موسوعات العلوم فى اللغة العربية واللغات الشرقية ·

ومن المسلم به الآن لدى الباحثين الغربيين أن الفارابى كان له أثر كبير فى فلسفـــة العصور الوسطى : فقد ترجم كتابه « احصاء العلوم » الى اللغة اللاتينية وكانت لـــه فى المذاهب الفلسفية المسيحية واليهودية منزلة مرموقة · ويظهر ذلك الاثر على الخصوص عند روجر بيكون وريمون لون · وترتيب الفارابى للعلوم هو نفس الترتيب الذى أخذ بـــه الفلاسفة المسيحيون فى القرون الوسطى مع فروق بسيطة ·

وحسبنا لبيان مكانة « احصاء العلوم » عند علماء الغرب فى القرون الوسطى أن نذكر ان الكتاب ترجم الى اللغة اللاتينية غير مرة ابان القرن الثانى عشر الميلادى وأهم هذه الترجمات ترجمتان : احداهما منسوبة الى « دومينكوس غنديسا لينوس » Dominicus Grundissalinus وقد نشرها كاميراريوس Camerarius ولكن هذه الترجمة ليست كاملة ولا وافية ، فقد حذف جنديسالنوس بعض فصول الكتاب وتصرف فى بعض المواضيـــع بالحذف والاختصار · أما الترجمة الثانية فمنسوبة الى « جيرار دى كريمونا Gerard de Cremona وهى ترجمة كاملة دقيقة مطابقة للنص العربى للكتاب ·

على أن « احصاء العلوم » كان معروفا أيضا فى المدارس اليهودية : فقد انتفـــع به موسى بن عزرا (المتوفى سنة 1140 م) · وقد وجدت للكتاب ترجمة عبرية مختصرة بقلم كالونيموس بن كالونيموس Kalonymos ben Kalonymos (المتوفى 1328 م) ·

والظاهر أن الكتاب أصبح فى المدارس المسيحية ، كما كان فى المدارس الاسلامية من المؤلفات التى « لا يستغنى عنها » على الرغم من ذيوع كتاب المستشرق الاسبانى Grundissalinus جند يسولنوس ، (القرن الثانى عشر) فى « تقسيم الفلسفة » de divisione philosophiae ولقد بين باور Baur أثر الاحصاء على الفلاسفة اللاتين عموما وعلى جند يسالنوس على وجه الخصوص ، وذهب الى أن « تقسيم الفلسفة » قد اقتبس « احصاء العلــوم » كلــه ، وذهب « موريس دى فولف » الى أن كتاب يسالنوس منقول عن كتاب الفارابى ، مـــع شيء من التصرف والزيادة من كتب أخرى ·

ويذكر العلامة فارمر أن « احصاء العلوم » و « تقسيم الفلسفة » كانا معروفين فى انجلترا منذ أواخر القرن الثانى عشر الميلادى · وهو يرجع أن الفضل فى ادخال الكتابين بلاد الانجليز راجع الى « دانيل أوف مورلى Daniel of Morlay الذى كان تلميذا لجيراردى كريمونا فى طليطلة سنة 1175 م ولا يبعد أن يكون هو الذى أتى بالكتابين فيما حمله معه من اسبانيا من كتب عربية قيمة ·

ويبين فارمر أيضا أن « فنسان دى بوفيه » Vincent de Beauvais المتوفى 1264 م ، قد عمد الى « احصاء العلوم » ونقل عنه جملا وعبارات بنصها اقتبسها من ترجمة « يوحنا الاشبيلى » للاحصاء وأوردها دى بوفيه فى كتابه Speculum doctrinale الذى نال به ما لم ينله سواه من الصيت البعيد ·

وممن افادوا أكبر الفوائد من كتاب الفارابى العالم المشهور « روجر بيكون » (عاش حوالى 1214 ـ 1280) اذ نجده يذكر الفارابى مع اقليدس وبطليموس والقديس أوغسطين وبويثيوس ، وهو يوجه الانظار فى كتابه Opus Tertium الى احصاء العلوم خاصة · وقد بين بعض الباحثين من الالمان أن للفارابى أثرا بليغا فى مؤلفات « روجر بيكون » وأثر « احصاء العلوم » ظاهر أيضا فى مؤلفات « جيروم دى مورافيا Jérome de Moravie وهو من المشتغلين بالموسيقى النظرية فى النصف الاول من القرن الثالث عشر ـ اذ بين «فارمر» ان هذا المؤلف قد عرض للفارابى فى فصل من رسالته فى الموسيقى Tractatus de Musica فنقل تعريف الفارابى للموسيقى بين تعريفات بويثيوس وايزردور الاشبيلى Isodore de Séville وغيرهما · وعرض له فى فصل خاص عنوانه « تقسيم الموسيقى عند الفارابى »
de divisione musice secundum Alpharabium

وقد قرر فارمر أن جيروم دى مورافيا نقل فى هذا الفصل كل ما كتبه الفارابى عن الموسيقى فى كتابه « احصاء العلوم » ·

ويضاف الى ما ذكرنا أن بعض المؤلفين الاوروبيين فى القرن الثالث عشر كتبوا رسائل فى الموسيقى وكان أكبر اعتمادهم فيها على « احصاء العلوم » بطريق غير مباشر ·

ولا ننسى أن نذكر فى هذا المقام ريمول لول Raymond Lull الذى عاش بين سنتى 1235 و 1315 وكان من المشتغلين بالدراسات العربية والظاهر انه كان واقفا على ما كتبه الفارابى فى « الاحصاء » عن تقسيم الموسيقى وقد أشار فارمر الى باحث آخر اسبانى معاصر لريمون لول واسمه يوحنا ايجيديوس الزامورى Johannes Egidius Zamorensis وذكر انه استعار هو أيضا تعريف الفارابى للموسيقى ، كما أن هناك من الاسباب ما يدعو

الى الاعتقاد بأن باحثين آخرين غير «لول» و «الزاموري» قد امتد اليهم أثر «احصاء العلوم».

وقد ظل هذا الاثر باقيا فى أوروبا حتى بداية القـــرن السادس عشر ويشهد بذلك كتابان ظهرا فى أوائل ذلك القرن ، أحدهما لمؤلف اسمه « رايش » Reisch وعنـــوانه Margarita Philosophica والثانى اسمه « فالاس » Vallas وعنوانه Expectendis et fugiendis rebus

وفى بحث طريف عن « أثر العرب فى نظرية الموسيقى »
The Arabian influence on musical theory
نشر فى لندن سنة 1925 بين فارمر Farmer ان لاحصاء العلوم قيمة كبيرة بالنسبة لى نظار الموسيقى الاوروبية ، كما ذكر أن منفعة الكتاب الحقيقية انما هى فى توجيه الانتباه الى « العلوم » العربية التى أقبل عليها طلاب المعرفة من الاوروبيين ، وجدوا فى تحصيلها والاستزادة منها • ولاشك عند « فارمر » فى أن احصاء العلوم قد ساق الباحثين الـــذين تقاطروا من انحاء الدنيا الى اسبانيا الاسلامية ، لينهلوا من معـــين المؤلفات العربية فى الموسيقى كمؤلفات الكندى (المتوفى سنـــة 874 م) ، وثابت بن قـــرة (المتوفى سنة 901) وقستا بن لوقا (المتوفى سنة 932) والفارابى (المتوفى سنة 950) وابن سينا (المتوفى سنة 1037) وابن رشـــد (المتوفى سنة 1198) وكمؤلفات ارسطـــو وأقليدس ونيوقوفا خوس وبطليموس ، وهى مؤلفات لم تكن معروفة فى اللغة اللاتينية ولكنها كانت معروفة فى العالم العربى •

ولا يبعد أن تكون الفصول الخاصة بعلم الموسيقى من كتاب « الشفاء » و « النجـــاة » لابن سينا قد عرفت باللغة اللاتينية • ولكن من المحقـــق أن كتاب « المدخل فى صنـــاعة الموسيقى » للفارابى كان معروفا فى اللغة العبرية •

واذن فقد كان لاحصاء العلوم فى أوروبا المسيحية أثر عظـــيم ، وخاصة فى نظـــرية الموسيقى ، كمـــا بين العلامـــة « فارمر » وغـــيره مـــن الباحثـــين الاوروبيين والبارون درنيجية • ولقد تأكدت الآن صحة الرأى الذى أبداه فارمر سنة 1930 (وقائع تاريخية عن التأثير العربى فى الموسيقى) من أن الفارابى كان أكبر من كتبوا فى نظرية الموسيقى أثناء القرون الوسطى •

ولابد أخيرا من أن نشير الى فضل الفلسفة الاسلامية على الفلسفة اليهودية • لقد اشتغل اليهود فى القرون الوسطى وسطا فى نقل الثقافة الاسلامية الى الغرب ، كما قال دوبور : « اشتركوا فى كل أطوار الثقافة العقلية عند المسلمين وكان كثير منهم يكتبون باللغـــة

العربية ، وآخرون ترجموا المؤلفات العربية الى اللغة العبرية · ويرجع الفضل فى بقاء الكثير من كتب الفلاسفة الاسلاميين الى هذه الترجمة » ·

وقد بلغت فلسفة اليهود ذروتها ممثلة فى شخص ابن ميمون (1135 ـ 1204) الذى حاول أن يوفق بين مذهب ارسطو وبين العهد القديم متأثرا فى ذلك بالفارابى وابن سينا فى الغالب · وأخذ اليهود يحظ من معالجة العلوم فى الدول الاسلامية أيام ازدهارها وقد تمتعوا من جانب المسلمين بل نالوا حظوة عندهم ولكن مكانتهم تبدلت بعد سقوط تلك الدول وتدهور المدينة (تاريخ الفلسفة فى الاسلام) ·

ويقرر اسرافيل ولفنسون فى كتابه عن موسى بن ميمون أن « مما لا شك فيه أن ظهور التفكير الفلسفى الدينى اليهودى فى القرون الوسطى انما هو نتيجة لاتصال اليهود بالحضارة الاسلامية الفلسفية وكانت الفلسفة اليهودية تتقدم مع الفلسفة الاسلامية عامة . كان أول من اتصل بالفلسفة الاسلامية من اليهود سعاديا الفيومى الذى اعتنق كثيرا من آراء المتكلمين · ويقول ولفنسون أيضا عن كتاب دلالة الحائرين لابن ميمون وكذلك ورد فى هذا الكتاب بحث مفصل فى منزلة المعتزلة والاشعرية والمتكلمين » مما يدل على انه درس المذاهب الاسلامية دراسة واقعة· وعلى العموم كان له المام بالفلسفة العربية ويندر أن يتوفر شخص آخر من احبار اليهود في القرون الوسطى ... وذلك يتضح من نصيحة أداها الى احد تلاميذه (ابن تبّون) مترجم دلالة الحائرين الى العبرية اذ يقول «وعلى العموم ألفت نظرك الى انه لا تجهد نفسك في كتب المنطق ولا تعن الا بما كتبه أبو نصر الفارابى ... لان أبا نصر كان حكيما فيلسوفا كبيرا ومصنفاته صحيحة· يرشد الى سبيل الحق من يبحث عن الحكمة » ·

ويقول ولفنسون عن رسالة فى صناعة المنطق ، كتبها ابن ميمون باللغة العربية ، وقد وضعها لعلماء اليهود ذوى الالمام بالادب العربى الذين يحتاجون الى علم الفلسفة والمنطق الاسلامى · ويذكر فى بداية هذه الرسالة أن المنطق لا يعد علما قائما بذاته بل هو وساطة الى تمرين التلميذ والمعلم على البحث وتنظيم التفكير تنظيما معقولا وهو للعقل كالقواعد للغة : فكما تعين القواعد على فهم اللغة يرشد المنطق الى مسلك الضبط وتنظيم العقل ·

ونلاحظ أن المقارنة التى عقدها ابن ميمون بين المنطق واللغة مقارنة قد وردت من قبل فى كتاب « احصاء العلوم » للفارابى · قال الفارابى : هذه الصناعة (أى صناعة المنطق) تناسب صناعة النحو : ذلك أن نسبة صناعة المنطق الى العقل والمعقولات كنسبة صناعة النحو الى اللسان والالفاظ · فكل ما يعطينا علم النحو من القوانين فى الالفاظ ، فان علم المنطق يعطينا نظائرها فى المعقولات (الاحصاء ص 68) ·

ويبدو لنا أن اطلاق لقب « المعلم الثانى على الفارابى » يمكن تفسيره باشتهار فيلسوف الاسلام بكتاب « احصاء العلوم » الذى خاض فى العلوم المشهورة لعهده ، كما اشتهر أرسطو « المعلم الاول » بالكتابة فى علوم زمانه · ولان مؤلفاته كما يصفها ابن ميمون « مؤلفات ترشد الى سبيل الحق من يبحث عن الحكمة » ·

ضرورة تصنيع العالم الإسلامي واختيار أحسن الطرق لتفادي الأمراض التي تعرفها المجتمعات المصنعة

محمد الهاشمي بوجملين
مدير صناعة الحديد والصلب
والمعادن
وزارة الصناعة والطاقة
- الجزائر -



ان الموضوع الذى يشغل بالنا اليوم يدعونا الى التفكير فى مشكل ذى أهمية عظمى بالنسبة لمصير المجتمع الاسلامى . ومما لاشك فيه ان مثل هذا الموضوع واسع متشعب ، فهو يتناول بالفعل عالما اسلاميا مكونا من حقائق سياسية واقتصادية واجتماعية جد متنوعة ومن مستريات وعوامل انمائية تختلف كثيرا بعضها عن بعض وبطبيعة الحال لا نزعم اننا سنعالج موضوعا كهذا باستفاضة أى اننا لا نأخذ بعين الاعتبار الحقائق الخاصة بكل بلد اسلامى ، بل سنتطرق الى الاعتبارات العامة .

الموضوع ليس غريبا عن اهتمامات العالم الثالث ، وهو وان كان خاصا بالعـــالم الاسلامى ، يمكن أن تندرج فيه كل مشاكل العالم الثالث الخاصة بالتطور الاقتصادى ، الا ان الامر يتعلق بالعالم الاسلامى كمجموعة واسعة ذات صبغة خاصة ٠

وانطلاقا من هذا المفهوم ، سنتعرض أولا لما يبدو لنا كاسباب ودوافع قطعية تبـرر اضطرار البلدان الاسلامية لسلوك سبيل التصنيع بكل عزم فيما اذا كانت مصممة على الخروج من التخلف ، ونقول مرة أخرى اذا كانت مصممة على الخروج من التخلف لان التحرر ، هنا وفى المجالات الاخرى ليس مجرد تمنيات ولا تهريج سياسى .

ثم بعد ذلك سينصب تفكيرنا على ما يبدو لنا انه الوسيلة الكفيلة بابعاد البلـــدان الاسلامية الاخذة فى التصنيع عن الامراض المنتشرة فى المجتمعات المصنعة ٠

ويكتسى المشكل أهمية بالغة لانه يتعلق بمصير قيم حضارتنا ، هذه القيـــم التى تخصص لها كل سنة دراسات قيمة ومناقشات هامـــة تدخل فى اطار الملتقيات التى تنظمها منذ عشر سنوات الوزارة الجزائرية للتعليم الاصلى والشؤون الدينية بطـريقة جديرة بكل تقدير وثنـاء ٠

ان الفكرة التى يدور حولها حديثنا لم يغفل عنها كل الذين فكروا فى الهزات العنيفة التى تعرض لها العالم الاسلامى منذ القرن التاسع عشر عند احتكاكه بالعالم الحديث ٠ وهذه الهزات مهما كانت الاشكال التى ظهرت فيها عسكرية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية ، فانها قد فرضت على الفكر الاسلامى أن يتساءل عن قدرته فى مواجهة تحدى الحضارة الغربية والحضارة المسماة بالصناعية بشكل عـام وبالتالى ان يعطى للمجتمع الاسلامى الاسلحة الضرورية للنضال الذى عليه أن يقوم به فى المستقبل تثبيتا لقيمه العالمية مرة أخرى ٠ وبالفعل ان شعور البلدان الاسلامية بتخلفها المذهل فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية يمكن تأريخه على الوجه الاكمل حسب كل بلد ٠ غير أن مثل هذا الشعور لم يكتس نفس الاهمية فى مختلف البلدان الاسلامية ٠

ومع ذلك فاننا سنلفت انتباه السادة الكرام الى ان مشكل التطور ولو أنه قد طرح بأشكال مماثلة من قبل أجيال متعاقبة من المفكرين والسياسيين المسلمين منذ ما يقرب

من قرن ، فان الحلول المقترحة كانت تختلف اختلافا كبيرا حسب الزمان والمكان • وقد احتفظت بعض المؤتمرات الاسلامية بدون شك بصدى المناقشات التى كانت تـــدور آنذاك حول مثل هذه المواضيع •

ونذكر على سبيل المثال أن تصورات مصطفى كمال أتاتورك لا تتلاءم مع مـــا كان يقترحه قبله مثلا منذ بضعة عقود أئمة اصلاحيون مثل جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده أو مع ما تتصوره الجزائر حاليا فى اطار الميثاق الوطنى الهام الذى أقـرته الجماهـير الجـزائرية •

ولتحديد أهمية ومدى النقاش الذى يقوم به العالم الاسلامى فى مجـال التنمية ، يتحتم علينا أن نضعه من جديد فى اطار التطور التاريخى الذى ظهر فيه والذى يستمر فيه بحدة متزايدة ، أن مثل هذا النقاش لا يمكن أن يكون من النوع التقليدى الخاص بالندوات التى يعقدها بعض المثقفين الذين لا يهتمون بحقائق بلادهم أو ببعض العقول التى تقوم بمضاربات عقيمة وغير مجدية وهى متقوقعة فى بروجها العاجية • بل لابد أن يكون هذا النقاش يدور حول مركز اهتمام واحد هو التطلعات العميقة للجماهـير المسلمة • لماذا ؟ لان هذه الجماهير هى التى تستغل فى حال التخلف ولانها ، بفضــل التضحيات التى تقدمها ، أهم سند لكل مجهود يبذل فى سبيل التنمية •

وهل يجب التذكير بأن بعض القيم الثقافية الاسلامية ، التى كانت تنشر الحضارة فى الماضى ، قد اعتراها الانحطاط لانها قبلت أن تفصل عن الحقائق التى كانت تعيشها الجماهير وان المجتمع الاسلامي كان قوة اجتذاب وتأثير طيلة المدة التى عرف فيها كيف يعمل على تعبئة مجهودات هذه الجماهير وشحذ اخلاصها ؟

ان هذه الملاحظة تهدف بكل بساطة الى التذكير بأهمية الدور الذى لعبته أو لـــم تلعبه الجماهير المسلمة خلال التاريخ •

وعلى هذا ، فان الاهتمام المتزايد الذى يوليه المجتمع الاســـلامى لمشاكل التنمية يكتسى طابعا خاصا اذ انه وليد مجتمع يتناقض ماضيه المجيد بشدة مع حاضره المفعم بالامل رغم ركوده وتخلفه •

بعض المؤشرات ذات الطابع التاريخي :

وبهذا الصدد يجدر بنا التذكير بان الحضارة الاسلامية قد كونت بالنسبة للفكر العالمي منبعا ينهل منه الهامه ومرجعا يباهي به · فقد لعبت دورا بارزا في اثراء تراث الانسانية لانها قد كانت لمدة طويلة مصدر تقدم مادي وثروة روحية ، غير انها وقعت خلال القرنين الاخيرين ضحية الاستعمار الغربي الذى اعتدى عليها فابعدها متعمدا عن التيار العالمي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ·

ولكي ينجو من الابادة فقد نظم المجتمع الاسلامي مقاومته بالانطواء على نفسه · وقد استعملت القوات المعتدية كل براعتها في استغلال هذا الانطواء الدفاعي والمحافظة على استمراره · وقد تحول هذا الانطواء في كثير من الاحوال ، وبفعل تضافر هذه القوات المعتدية مع الرجعية الداخلية ، الى اهتمامات مرضية بل وحتى انتحارية ، كما يشهد على ذلك النيل الذى لحق ببعض القيم الاساسية للحضارة الاسلامية بدليل أن التفسير الجبرى للمصائب التى اثقلت كاهل العالم الاسلامي طيلة هذه المدة ، كان مصدرها الصدمة الناتجة عن هذا الاعتداء ·

لقد أخضع العالم الاسلامي لسيطرة كاملة لم تقتصر على تجميد امكانياته الانمائية فحسب ولكنها تسببت في تأخره في جميع الميادين وخاصة الميدانين الاقتصادى والاجتماعي ·

ان الهدف الاول الذى حددته البلدان الاسلامية هو بحكم الواقع استرجاع سيادتها السياسية وقد جاء الدفع الحاسم من الحركات الوطنية والاصلاحية · الا ان الطريقة المتبعة في استرجاع السيادات الوطنية ، رغم طولها وصعوبتها والمعاناة التى تكبدتها من أجلها الجماهير لم تأت بتغييرات جذرية على حالة تخلفها ·

ولنلاحظ ان هذه المرحلة الاولى رغم ما اكتسته من ضرورة قد اقتصرت في اغلب الحالات على تبني مجموعة من البنيات الاقتصادية والاجتماعية التى كان طابعها الاساسي تنظيم التخلف والابقاء عليه · وفيما يخصنا ، نلاحظ ان هذا الاشراف على البنيات

الموروثة كان يعنى ان الطبقات الحاكمة كانت تتبنى أحيانا وبدون وعى منها المقاصد الاقتصادية للنظام الاستعمارى ، مجمدة بذلك كل امكانية للتطور ٠

ان ما ذكرناه يعتبر سببا من الاسباب التى جعلت عددا كبيرا من البلدان الاسلامية لا تجمع اليوم شروط ما يسمى بـ « الانطلاق » الاقتصادى رغم مرور فترة طويلة على استرجاعها سيادتها السياسية ٠ فالجماهير فى هذه البلدان لا يزال مستواها المعيشى منخفضا ، والفلاحون ما يزالون فى معظمهم على هامش التطور ، والتباينات الاجتماعية تتزايد ، والقليل من التطور الاقتصادى الذى يحقق سرعان ما يزول بسبب التزايد السكانى وتقع الوسائل والعوامل الانمائية الطبيعية تحت مراقبة الاجنبى المباشرة أو غير المباشرة ، واذا كانت تبعية هذه البلدان للدول المصنعة تزداد خطورة ، فليس ذلك من قبيل الصدفة ٠

وبطبيعة الحال فان الذين يستفيدون من مثل هذه الاوضاع يقدمون تفسيرات تهدف أساسا الى تبرير الامر الواقع والى تطويق القوى التقدمية ٠

أما نحن فاننا نفسر ذلك بالتكيف الماكيافيلى للاستعمار الحديث مع الحالات الجديدة المترتبة عن استرجاع السيادات الوطنية فى العالم الاسلامى وبعبارة أخرى فان قبضة الاستعمار الحديث تتم بأشكال جديدة ولكنها ترمى الى نفس الاهداف التى كان يقصدها فى الماضى ٠ ان هذه القبضة تتفنن فى اعاقة العالم المتخلف وهو العالم الاسلامى ، من استرجاع وسائله وعوامله الانمائية والتحكم فيها ٠

اخفاق نماذج التنمية الاقتصادية المستمدة من مدارس الاستعمار الجديد :

بناء على ما تقدم فقد تم اقتراح واحيانا فرضت نماذج انمائية كان هدفها الوحيد ، ابعاد البلدان الاسلامية عن الطرق الكفيلة بدفعها نحو التطور وجعلها تؤمن ايمانا راسخا بأن عجزها عن السيطرة على وسائل هذا التطور ، هو عجز متأصل فيها ٠ ونذكر على سبيل المثال بعروض التصنيع التى قدمتها الدول المصنعة والمبنية على الاكثار من الصناعات الصغيرة أو أعمال التركيب أو التكييف التى تشغل الكثير من اليد العاملة ذات الاجور البسيطة ولا تتطلب استثمار رأسمال كبير ، ويمكننا أن نذكر أيضا

بالاقتراحات الاخرى التى ترمى الى اقامة وحدات انتاجية مختارة يتعمد أن يكون طابع انتاجها الثابت تزويد الصناعات الاساسية والصناعات التحويلية فى البلدان المصنعة ·

ولنفس الهدف فان طريقة التطور الاقتصادى التى عرفها الغرب منذ القرن التاسع عشر استدل بها فئة من داخل البلدان الاسلامية مثلما استدل بها النظام الاقتصادى الدولى الراهن ، لان أولئك وهؤلاء متفقون على مقارنة حالات تاريخية لا تقبل المقارنة وعلى أن يستخرجوا منها مخططات انمائية تعطى صورة هزلية تشوه تطلعات جماهيرنا الشعبية الى التطور والازدهار ·

ولنذكر كذلك وفى نفس الفكرة ، بالدور الاقتصادى الذى منحته نفس هذه الاوساط للتكنولوجيا المسماة « بالمتوسطة » وبمحاولاتها التعسفية الهادفة الى فرضها على البلدان الاسلامية تخصصا اقتصاديا يرمى الى ابقائها فى حالة تخلف · وهكذا تعزى الى بعض بلداننا مؤهلات توصف « بزراعية » أو « حرفية » أو « سياحية » وأخيرا ماذا نقول عن العديد من أشكال المساعدة المالية والاقتصادية وغيرها التى يلوح بها لبعض البلدان الاسلامية لضمان استقرارها فى حين انها مبنية على اختلال مصالح الاطراف ·

ان مثل هذه العلاقات ، عندما توجد ، تتمخض بصفة عامة عن علاقات لا يمكن أن تكون متساوية ، وتتحول فى ظلها المساعدة التى يدعون أنها « مؤمنة » الى مصدر افقار وتوتر اجتماعى بالنسبة للبلد الذى يتلقى المساعدة ، بينما يستحوذ البلد الذى يدعى المساعدة على جميع الارباح ·

وهذه الملاحظة لا تخص طبعا ، أشكال المساعدة أو العلاقات التى تأخذ بعين الاعتبار تطور مصالح الاطراف · ونلفت الانتباه الى ان النماذج الانمائية المستوحاة من مدرسة الاستعمار الحديث لا تعنى سوى التخلى عن القيادة الاقتصادية للخارج · ان تطبيق مثل هذه النماذج فى بعض البلدان الاسلامية قد أدى فى بعض الاحيان الى ظهور نوع من النمو الاقتصادى ، لا تستفيد منه ، نظرا لاقتصار منافعه على فئة معينة ، الا اقليات اجتماعية ، تاركا بذلك الجماهير تتخبط فى البؤس واليأس · ومن جهة أخرى فان مثل هذا النمو غير المحصن نظرا لتبعيته تجاه الاجنبى ، لم يحمل فى طياته ، فى

نظرنا ، تطورا حقيقيا • وليسمح لنا بلفت انتباه السادة الحاضرين الى ان هذا التطور الذى لا تنتج عنه آثار انمائية لا يمثل نظرة حقيقية ولا افتراضا مذهبيا حيث أنه بكل بساطة ، موجود فعلا ، ولسبب وجوده بالضبط صار له أنصار بارعون لا مبدأ لهم ، مستعدون للتغرير ببراهين خادعة ، بأن هذا النوع من الاقتصاد المبنى على ترك أمر القيادة الاقتصادية للخارج يكون نافعا للبلد المعنى على حد قولهم وأنه لا يمثل ، فى جميع الاحوال سوى مرحلة فى طريق التطور ، لابد أن تتبعها مراحل أخرى •••

وعلى هذا فان التوضيح الدفاعى لهذه المخططات يتمثل فى « الضغط العلمى » الذى يشهده العالم الاسلامى منذ عشرات السنين وخاصة خلال العقد الاخير الذى يطلق عليه اسم « عقد التنمية » هذا الضغط العلموى الذى بدأ بصفة منتظمة بناء على تحليلات تعتمد على التضليل الفكرى لدرجة أن الفكر السليم يشوه فى كل مرة دون أى خجل •

وقد لاحظنا أن المرحلة الاولى التى تمثلت فى استرجاع السيادات الوطنية لم تخلق فى عديد من البلدان الاسلامية ظروفا انمائية تستجيب لرغبات الجماهير المحرومة • ان مثل هذا المأزق ناتج أساسا عن ادعاء البرجوازية ، التى تربط مصالح الوطن بمصالحها الخاصة ، انها صاحبة الحق فى تسيير وتطوير الاقتصاد •

عجز البرجوازية فى البلدان الاسلامية عن الاضطلاع بمهام التنمية الاقتصادية والاجتماعية

ان الملاحظة القائمة حاليا تبين انه لا وجود ، فى كثير من البلدان الاسلامية ، للطبقات الاجتماعية التى تسمى عادة بالبرجوازية الوطنية والتى هى جديرة ماديا وتقنيا بأن تأخذ على عاتقها تطورا اقتصاديا واسع النطاق يستطيع أن يضمن للجماهير ، ظروف حياة افضل يتمثل فى اقامة نظام يتسم بالعدالة الاجتماعية ويضمن للبلدان أسس تطور ذاتى الدفع أى استقلالا حقيقيا •

اجل ؟ يمكننا ان نتصور لحظة واحدة سياسة تصنيعية مستمدة من خطط اتبعتها فى الماضى برجوازيات المجتمعات الليبيرالية المصنعة • ان مثل هذه السياسة التصنيعية تفرض ان البرجوازية الوطنية الاسلامية ، تملك الوسائل التى يتطلبها هذا التصنيع

وهي الوسائل المالية والبشرية والتكنولوجية · الا انـه من البديهي ان البرجوازيات الوطنية لعـدد كبير من البلدان الاسلامية لا تملك كـل أو بعض هـذه الوسائل التى لا يمكن ان يوجد بدونها تصنيع بالمعنى الذى نقصده · وحتى ولـو امتلكتها كلهـا ، لخصصتها قبل كل شيء لمصالحها الطبقية وذلك فى اطار تحالف مع مصالح البلـدان المصنعـة ·

ان ما نعرضه هنا ليس مجرد خيال ، اذ ان البحث عن الفائدة ، الذى هو بـدون شك هدف مشروع يراد بلوغه فى اطار مؤسسة خاصة غير مستغلة ، يتحول على مستوى البرجوازيات الوطنية الى تلهف على المزيد من الارباح الطائلة وبذلك يوجه استثماراتها نحو القطاعات ذات المردود المالى الواسع والسهل والسريع · اما تطور باقى القطاعات الاقتصادية التى تلعب دور مدعم ومنشط الدخل البرجوازى فهو متروك بكل بساطة للدولة لكى تتحمله · فالدولة بما انـه لا يمكنها ان تعبىء الا جزءا ضئيلا من الناتج الوطنى ـ اذا ان القسط الاكبر تستهلكه البرجوازية فى المشاريع التى توكل اليهـا ولمصالحها الخاصة ـ سوف لا تقوم الا بأعمال انمائية محدودة · ان البرجوازية لا تستطيع حتى فى القطاعات التى تختارها بنفسها ان تقوم بأى شيء بدون المساعدة الاجنبية ، لا سيما وان هذه المساعدة الاجنبية تستجيب بسهولة لطلبات البرجوازية الوطنية خاصة وان مصالحها هى التى توجه مصالح نفس هذه البرجوازية فى السباق الجنونى نحـو الربـح الاكبـر ·

ان مثل هذا التوافق فى المصالح والاهداف يشكل مجـالا لتشجيع كـل أشكال المضاربة : النقدية والمالية والعقارية··· الخ ، ويشجع الرشوة على جميع المستويات ، ويتمخض فى الامد القريب ، عن استثمارات عشوائية ليس لها اثر بعيد فى تنمية البلاد

حقا ان هذا النوع من الاستثمار يسفر عن عدد من النتائج التى تبدو ايجابية مثل خلق الوظائف وصنع منتجات يطلق عليها اسم « منتجات وطنية » وتكييف اليد العاملة مع أشغال تتطلب مستوى ضعيفا من الكفاءة ··· الخ ، غـير ان هذه النتائج محدودة بالضرورة كما ونـوعا بالطابع الهامشى للقطاعات المتعلقة بها ، وبأهدافها المتمثلة فى تكثيف الاربـاح ·

وهكذا يحول فائض القيمة الناتج عن المجهـــود الجماعى لفائدة المصالح الاجنبية ولفائدة اقليات وطنية ٠

من الواضح ان البرجوازية الوطنية لو أخذت على عاتقها نمو البلاد فانها لا تستطيع أن تحققه لاسباب ترجع لنفس الوقت للوسائل المحدودة التى تمتلكها والى هدفها المتمثل فى الحصول على أقصى حد من الربح ٠

بالاضافة الى ذلك ، فان عدم التكافؤ المفرط الذى تتميز به علاقات هذه البرجوازية مع الطرف الاجنبى يكون فى حد ذاته عامل استغلال لها وبذلك فان هذه الاخيرة تمكن الاجنبى من السيطرة بأقل ثمن ، لا على القطاعات الرئيسية الاقتصادية فحسب بـل وحتى على الدولة كلها ٠

لقد حاولنا بهذه الملاحظات أن نبين الاسباب الرئيسية للعجز الموضوعى الذى تتميز به البرجوازية فى عدد كبير من البلدان الاسلامية فى التغلب على التخلف والقضاء على الظلم الاجتماعى الفاضح وبعبارة أخرى فى وضع حد لنظام استغلال الانسان للانسان ، تلك العاهات وكثير من أمثالها التى تساعد على ابقاء الدول الاسلامية فى حالة ضعف وقلة اعتبار وهو ما يتنافى مع القيم الاسلامية ٠

الاستراتيجية الاشتراكية للتنمية ، وسيلة لتكثيف التنمية وشموليتها :

الواقع انه للتوصل الى استئصال هذه العاهات التى يستنكرها الاسلام ، يتحتـم اختيار استراتيجية انمائية كفيلـة بالقضاء فى فتـــرة معينة على مختلف العـــوامل الاجتماعية والاقتصادية التى تعمل على استمرار التخلف ٠

ان الضخامة والتعقد والاستعجال التى تتميز بها الاعمال الواجب القيام بها فى هذا الميدان يفرض علينا تبنى استراتيجية تتكيف مع كل حالة معينة ٠ واذا كانت وسائل مثل هذه الاستراتيجية تختلف من بلد لآخر ، فان الاسس واحدة ، أى من جهة ، القضا على مراكز نفوذ الاستعمار الجديد وهذا معناه استرجاع وسائل وعوامل التطـور التى اغتصبت منها ٠ ومن جهة أخرى امتلاك الدولة لكل وسائل الانتاج الموجودة ٠ وبعبارة أخرى ، ضرورة تعبئة مجموع الوسائل البشرية والمادية التى يمكن لبلد ان يمتلكها ٠

وطريق التطور الاشتراكى هو الوحيد الذى يسمح يمثل هذه التعبئة للوسائل والامكانيات ٠

واذا ما تم القضاء على مراقبة الاجنبى للاقتصاد واسترجاع الوسائل والعوامل الانمائية ، يصبح بامكان البلد ان يتعهد ببناء مجتمع يستجيب لتطلعات الجماهير للازدهار والرقى لا مجتمع يحمى مصالح الطبقات ٠ ومن البديهى ان الامر يتعلق باختيار سياسى جوهرى يفرض على البلاد التى تلتزم به ان لا تعتمد الا على نفسها ، حيث ان الامبريالية لا يمكنها أن تساند سياسة تهدد مصالحها ومصالح حلفائها الحقيقيين ٠

والواقع ان مثل هذه الاعمال لا يمكن تطبيقها الا اذا دخلت فى اطار استراتيجية انمائية اشتراكية ٠ ولا يوجد لها بديل فى رأينا ، نظرا لخطورة الموقف والعداء الذى يمكن أن يثيره على الصعيدين الداخلى والخارجى ، انتهاج الاشتراكية كسبيل للتنمية ٠

مقتضيات الاسلام الروحية والمادية :

هناك أمر لا يجوز لاحد نكرانه وهو ان المجتمع الاسلامى المعاصر الذى يتالف من حوالى 700 مليون نسمة يواجه ضرورة حتمية تتمثل فى سد الحاجيات الاساسية لجميع أفراده وذلك بأن يضمن لهم مستوى من المعيشة لائقا بهم ٠ ان واجبا مثل هذا لا ينبغى لاى كان ان يجعله يتعارض مع الواجبات الاخرى التى جاء بها الاسلام ٠

ثم ، هل حدث فى التاريخ الاسلامى باستثناء عصور الانحطاط مثل هذا التعارض بين الواجبات ؟ ألم يكن الامر على العكس من ذلك تكاملا وترابطا بين الواجبات ؟

ليس هناك تعارض يستحيل التغلب عليه بين تطبيق أصول العقيدة مثلا والواجبات التقنية والمادية التى يتطلبها التطور ونعنى هنا التصنيع ٠ ولكن اذا كان مثل هذا الموضوع قد بقى يشغل البال فذلك راجع فى راينا الى اصرار البعض على تفسير أصول العقيدة والقيم الاسلامية بصفة عامة تفسيرا سطحيا أو مغرضا وقد يرجع ذلك أيضا لانعدام يؤسف له فى التفكير المنظم على مستوى المجتمع الاسلامى ونقصد بذلك الاجتهاد وينتج عن ذلك نوع من التفكير الشاذ الذى لا ينظر الى الرجل المسلم على انه انسان ٠

وفد أكد على ذلك الرئيس هوارى بومدين فى الجمعية العامة لمؤتمر القمـــة الاسلامى الذى انعقد فى فبراير 1974 بلاهور حيث قال : « ان التجارب الانسانية فى عدد مـن مناطق العالم قد برهنت على ان الروابط الروحية سواء كانت اسلامية أو مسيحية لم تستطع ان تصمد أمام ضربات الفقر والجهل العنيفة ··· فالشعوب الجائعة تحتاج الى الخبز والشعوب الجاهلة فى حاجة الى المعرفة والشعوب المريضة تلزمها المستشفيات » ·

الواقع ان الرجل المسلم ينبغى أن تضمن له حقوقه الاساسية فى الماكل والمسكـن والمعرفة أى مستوى معيشى لائـق · ان عصرا يتزايد فيـه اهتمام جماهيرنا بمصيرها المادى والاجتماعى والثقافى يكون فيه من العبث الاستمرار فى تجاهل احتياجاتها أو التمادى فى الكلام عن الطرق والوسائل التى تؤدى الى تحقيقها · الا يجدر بنا التفكير بان انحطاط الحضارة الاسلامية يعود فى بعض جوانبه الى ان الاقطاع قد عرف كيف يستغل لفائدته القيم الاسلامية فحرم بذلك الجماهير من الوسائل التى تضمن لها الحـد الادنى من الرفاهية المادية ؟

لا يمكن للجماهـير الاسـلامية المعاصرة ان تصـــل الى الرقى والثقافة ، ولا ان تساهم فى تنشيطهما وتنميتهما اذا استمرت فى خمولها فى الميدانين المادى والاجتماعى ، فالتطور الحقيقى للمجتمع الاسلامى يتطلب حتما رفع مستوى الجماهير ·

ان هذه الاعتبارات تهدف الى التأكيد على الاهداف الهامة والمستعجلة التى يجب أن توكل الى الاستراتيجية الانمائية فى العالم الاسلامى ، ذلك أن ميزة الاهمية والاستعجال التى تتميز بها مثل هذه الاهداف تفرض اختيار التصنيع كمحرك للتنمية · ومعنى ذلك ان على هذا التصنيع ان يدمج ، فى مسيرته التحويلية الواسعة ، الرجل المسلم ومحيطه دمجا كاملا · ان تصنيعا يرمى لمثل هذه الغاية لا يشبه المحاولات ، أو البدايات التصنيعية المعروفة فى عدد كبير من البلدان الاسلامية ، بل يجب أن يكون الاداة المفضلة لسياسة انمائية مخططة واسعة النطـاق ·

وانه لمن دواعى الابتهاج ان نلاحظ ان توجيه مجهود التنمية بهذا الشكل بـــدأ يتجسم فى بعض البلدان الاسلامية التى احدثت قطاعا تابعا للـــدولة يشمل الميادين الاستراتيجية والحيوية للنشاط الاقتصادى والاجتماعى ·

٢

إن هذا القطاع الذى يلعب دور القوة المحركة للتنمية لابد ان يعزز حتى لا يتراجع فى وجوده فى يوم من الايام ، أو يصرف عن الاهداف التى انشىء من أجلها اذ انه يمثل بالفعل القاعدة التى يمكن الانطلاق منها للقضاء على هيمنة راس المال الاجنبى وسيطرة الدولة على جميع وسائل الانتاج ٠

التصنيع اداة لاستراتيجية انمائية شاملة :

ان التصنيع المندرج ضمن تنمية اشتراكية هو الذى يضمن للبلاد بكثرة وبسرعة وبصورة دائمة :

- توفير أسباب الثراء بفضل مختلف أنواع الانتاج التى يؤمنها والمدخولات التى يدرها على البلد ، والوفر الوطنى الذى يحدثه ٠
- تكامل وتطوير مختلف القطاعات الاقتصادية للبلاد ولاسيما القطاع الزراعى ٠
- توفير الوظائف المربحة ونشر التدريب الفنى والتكنولوجى ٠
- نشر ثقافة علمية وفنية ٠
- تحويل البيئة ٠

وبالاضافة الى ذلك فان هذا النوع من التصنيع بفضل انسجام المساعى التى يجب القيام بها لابد أن يؤدى أيضا الى القضاء على بعض أشكال التبعية الاقتصادية والتكنولوجية ٠

ولمزيد من التوضيح يبدو لنا من الضرورى ان نشرح النتائج التى ينتظر أن يسفر عنها هذا النوع من التصنيع الذى أشرنا اليه ٠

التصنيع مصدر لتحقيق الثراء :

وعلى صعيد توفير الثراء فمن المعروف ان الصناعة تحقق الثراء الاقتصادى باستخدام مجموعة من التقنيات تستهدف أعداد مخطط شامل يبدأ فى مرحلة استخراج المواد الاولية وينتهى بتصنيعها مرورا بجميع المراحل الوسيطة ٠

ان هذه الملاحظة تمكننا من ادراك الاهمية الاستراتيجية التى تكتسيها عمليات استغلال المواد الاولية المتوفرة فى العالم الاسلامى ولاسيما اذا ما قارنا اسعارها التى تتناقض أكثر فأكثر بالاسعار الفاحشة المتزايدة للمنتوجات المصنوعة والخدمات التي تبيعها البلاد المصنعة ٠

وتمكننا نفس الملاحظة بأن نقصى فورا من مجال الصناعة النشاطات التى وان كانت ضرورية الا انها ترتبط بقطاع الخدمات والتى تريد بعض الاوساط التجارية الدولية ان توهمنا بانها نشاطات صناعية وتوجهنا بالتالى الى استثمار أموالنا فيها ٠ وهكذا فاننا نسمع فى بعض الدول الاسلامية تسميات مثل صناعات التركيب والصناعات السياحية « والصناعات الفندقية » وحتى « الصناعات التقليدية » ٠

ان تقنيات التسيير فى قطاع الصناعة وقطاع الخدمات على الرغم من تشابهها فى الكثير من الحالات فهى تختلف من حيث طبيعة نشاطاتها ٠

وعلى أى حال فان نشاطات قطاع الخدمات يجب أن تعتبر امتدادا ضروريا للتصنيع الحقيقى وليس التصنيع بحد ذاتـــه ٠

وبعبـارة أخرى فان القيمة المضافة التى توفرها الصناعة التى ذكرناها ستكـون مندرجة تماما فى الاقتصاد وبالتالى فان هذا النوع من الصناعة سيشكل مصدرا هاما للوفر المادى والتقنى بالنسبة للبلد الذى يقيمها ، وعاملا حاسما لاعادة تنظيم المبادلات مع الخارج ، وفقا لما يتطلبه التقدم الذى يحققه هذا النوع من التصنيع ٠

وعليه فلا يمكننا أن نعتبر النشاطات المنجمية المألوفة والتى تقتصر عـــلى عمليات اثراء وتركيز الفلزات صناعة كما لا يمكننا أن نعتبر كنشاطات ذات طابع صناعى تلك التى تقتصر على استخراج الفحوم المائية « الهيدروكاربونات » السائلة والغازية ، لان مثل هذه العمليات مهما كان الدخل الذى تحققه تندرج فى اطار النشاط المنجمى الذى تنقصـه امتداداته الصناعيـة ٠

التصنيع عامل للتكامل الاقتصادى :

وعلى صعيد التكامل وتطوير النشاطات الاقتصادية يجب أن تشكل الصناعة وسيلة فعالة لمكافحة تفكك الاقتصاد والاساليب البالية للانتاج والتسيير السائدة فى معظم البلدان الاسلامية ٠

وفيما يتعلق على الخصوص بدور التكامل فان التصنيع الذى يلعب دور الاداة الاستراتيجية الاشتراكية للتنمية هو الوحيد الذى يمكن أن يحقق التكامل على المستوى القطاعى وبين القطاعات لان التصنيع الذى يحصل نتيجة لذلك سيدفع القطاعات الاقتصادية الاخرى الى الامام بفضل ما يوفره لها من مواد الانتاج والتجهيز ومواد البناء ووسائل الدراسة والانجاز ٠

الا انه مهما كان الشكل الذى تتخذه النشاطات الاولى الخاصة باستراتيجية التصنيع كالمجمعات المتكاملة أو غيرها فمن الاهمية بمكان أن يتم أحداث وتنظيم المبادلات بين جميع الفروع الصناعية حتى يشمل التصنيع الاماكن النائية من البلاد ، ان هذا المجهود يرمى الى امتداد الصناعة الى النواحى المحرومة حتى تتمكن الجماهير من مواكبة التقدم ٠

وعلاوة على ذلك فمن المؤكد ان أحداث وتنظيم المبادلات بين الفروع الصناعية هى التى تشكل أحسن وسيلة لدفع عجلة التنمية ونشرها ٠ ومما لاشك فيه ان هذا المجهود ينتج عنه بالضرورة توفير بنيات قاعدية جديدة تتكيف مع أهداف التنمية ومع تطوير البنيات القاعدية للمواصلات الموروثة من العهد البائد ٠

ان هذا النمط من التصنيع الذى يفترض وجود بعض وسائل وعوامل التنمية ليس صعب المنال بالنسبة للبلدان التى لا تتوفر لديها هذه الوسائل أو لا تتوفر على الكفاية منها كما يريد البعض ان يقنعنا ، ذلك ان التخلف الاقتصادى الذى لا يمكن علاجه لا وجود له ٠

وبالفعل فان السبيل الذى اشرنا اليه يفترض لتطبيقه وجود ارادة سياسية وطنية أكثر مما يفترض جمع الوسائل والعوامل المشار اليها فيما تقدم ٠ وفى تقديرنا أن

البلدان الاسلامية مهما كان تخلفها واذا ما استردت كل ما سلب منها باستطاعتها ان ترسى أسسا للبناء الاقتصادى ذى المفعول المتضاعف ، على ان تتحلى بارادة سياسية لا تزعزع وان تبذل جهدا مستمرا ٠

ان ولاية عنابة التى نجتمع فيها اليوم تشكل مثالا معبرا عما يمكن انجازه فى مجال التصنيع فى خدمة التنمية الوطنية ٠ فالجهود المستمرة خلال حوالى عشر سنوات قد مكنت من تغيير معالم هذه المنطقة من الوطن وخلقت امكانيات انطلاق التكامل الاقتصادى للبلد بفضل انشاء صناعات أساسية هامة ونخص منها مركب الحديد والصلب بالحجار الذى ستصل طاقته الانتاجية عما قريب الى مليونى طن من الصلب سنويا٠كما ان هناك بالقرب منه مركبا للفوسفاط طاقته الانتاجية 000 550 طن سنويا من الاسمدة الازوتية وعددا آخر من الوحدات الصناعية المتخصصة فى الانشاءات المعدنية وانتاج مواد البناء والمواد الغذائية وستتاح لكم فرصة زيارة البعض منها ٠

وهناك ضرورة أخرى يجب ان يستجيب لها التصنيع فى البلدان الاسلامية وهى وجوب احداث الوسائل الكفيلة بترقية قطاع فلاحى عصرى مبنى على زيادة الانتاج وتنويعه وموجه اساسا نحو تلبية الاحتياجات الغذائية فى هذه البلدان ٠ ان هذا الهدف لا يستهان به ذلك ان القدرة المالية لاستيراد المواد الغذائية مهما كانت كبيرة لا تعفى البلدان الاسلامية من ضرورة احداث اصلاح زراعى بما يتلاءم مع هذا الهدف الحيوى ٠ ان تغطية الاحتياجات الغذائية واجب اساسى يتحمله كل بلد تتوفر لديه الامكانيات الزراعية ٠ ان الطابع الحاسم لهذا الواجب يبدو واضحا لا سيما وان البلدان الاسلامية تتعرض للمساومات والضغوط التى تسلطها عليها بعض البلدان المصدرة للمواد الغذائية ٠

ومن جهة ثانية فان الزراعة المتطورة باستطاعتها ان تستجيب لاحتياجات الصناعة وهكذا تعطى للسوق الوطنية أبعادها العصرية ٠

التصنيع مصدر لتوفير الوظائف المربحة

وعلى صعيد توفير العمل فان مساهمة التصنيع حاسمة فى عدة مجالات ٠ فقبل كل شىء يساهم بناء القطاع الصناعى مباشرة فى توفير الوظائف ، ليس فقط عند تشغيل

المصانع بل وحتى اثناء المدة التى يستغرقها بناؤها ولا سيما اذا نظرنا للآجال الطويلة لتنفيذ المشروعات فى العالم الاسلامى • ويجدر بنا ان نشير ايضا الى توفر كل وظيفة صناعية ينجر عنه توفير وظائف اخرى فى قطاعات الاقتصاد ويزداد عدد هذه الوظائف بارتفاع مستوى التنمية الاقتصادية •

ونشير من جهة اخرى الى انه فيما يتعلق بمحاربة البطالة الحقيقية او المقنعة ، فان فعالية التصنيع تختلف فيها وجهات النظر • فهناك من يرى ان محاربة البطالة تندرج فى اطار اقامة الصناعات التى تستعمل الايدى العاملة بكثرة ، وهناك من يرى انها تندرج فى اعادة تنظيم الارياف • اما نحن ففى نظرنا ان هذه الآراء على اختلافها تعطى الاسبقية بخصوص التنمية الاقتصادية الى الحد من البطالة فى المدى القصير •

ومن الواضح ان الاسبقية المعطاة للحد من البطالة بهذه الوسائل ، أسبقية زائفة لانها صادرة من المناهج الانمائية التى نددنا بها فيما تقدم • لانه لا يوجد بلد تحمل فيه قطاع اقتصادى بمفرده عبء القضاء على البطالة ولا سيما عند ما يتعلق الامر باقتصاد متخلف •

ان التصنيع الذى ذكرنا بصورة عامة أهم آثاره المنتظرة على صعيد تحويل الاقتصاد يقتضى فى البداية تحمل بعض الحتميات فيما يتعلق بتوفير الوظائف لا سيما وان الايدى العاملة المؤهلة غير متوفرة بالعدد الكافى ، وهى مفقودة تماما فى بعض الحالات •

الا انه ، وبالنظر لكون البطالة متفشية خصوصا فى الارياف ، فيبدو حينئذ وكما اشرنا اليه سابقا ان تنمية الصناعة والزراعة فى آن واحد هى الوحيدة التى من شانها أن تاتى بالحل الدائم لهذا المشكل وذلك بتكثيف المبادلات التى تحدثها بين القطاعين •

التصنيع عامل لنشر الثقافة الفنية

وعلى صعيد تدريب الفرد والتحكم فى فروع التكنولوجيا فان التصنيع يبدو وقبل كل شيء اطارا مناسبا لتأدية هاتين الوظيفتين ، وحذارى من الخطأ ، فاستراتيجية التصنيع هى التى تقع عليها مهمة توجيه الاختيارات التكنولوجية وبالتالى اختيار أنواع

التكوين الذى يلقاه العمال على جميع المستويات • ومن البديهى ان أى خطا فى الاختيار فى هذا المجال من شأنه أن يعرقل تادية الاعمال الانمائية •

وبناء على ذلك فانه بفضل التصنيع سيرتفع مستوى الثقافة الفنية للعمال وتزداد معرفتهم الصناعية ، وستساعد هذه الاعمال على التحكم الحقيقى فى فروع التكنولوجيا ، واذا علمنا ان العالم الاسلامى قد أبعد لمدة طويلة عن التقنيات والثقافة العالمية ، فاننا ندرك ابعاد التخلف الذى تراكم فى هذا المجال وعلى التصنيع ان يسد هذا الفراغ فى وقت محدد غير ان لهذا التخلف التكنولوجى جانبا ايجابيا ، حيث انه يمكن معظم البلدان الاسلامية من تفادى المشاكل الناجمة عن التحول الصناعى أو بمعنى آخر عن حتميات تنظيم واعادة بنيات النشاط الانتاجى واعادة تأهيل العمال فنيا ومهنيا • ان عدم وجود هذه المشاكل يجب ان يمكن من اختيار احدث أنواع التكنولوجيا ، أى الكفيلة منها بان ترفع بدون فترة انتقال ، اقتصاياتنا الاخذة فى التصنيع الى مصاف الاقتصاديات العصرية •

وعلى صعيد تنمية الثقافة الفنية والعلمية ، نشير هنا أيضا الى ان استراتيجية التنمية تحتم بعد مدة معينة على البلدان الاسلامية ان ترسى قواعدها الخاصة للابحاث الاساسية والتطبيقية • وهذه المسيرة سوف تؤدى بها الى تكثيف فاعلية وسائل هذه الاستراتيجية ، وتحد بالتالى من التاثر بضغوط البلدان المصدرة للتكنولوجيا •

ونذكر ان العالم الاسلامى قد سبق ان برهن فى هذا المضمار على طاقته فى الابتكار والابداع فى مجالات كثيرة خصوصا فى الميادين العلمية • وفى عصرنا هذا تنشر الصحافة من حين لآخر اخبارا عن اختراعات ذات طابع علمى وابتكارات تكنولوجية حققها بحاثة مسلمون فى مختلف مختبرات العالم •

ولا يفوتنا ان نشير الى مرض يعترى المجتمعات المصنعة وأخذ يمتد الى البلدان النامية وهو ما يسمى « فرار العقول » • وبالفعل انه ليس من النادر ان نرى اطارا مسلما تحمل بلده نفقات تكوينه باكملها ، يغادر بلده ويضع حصيلة ابحاثه بين يدى مؤسسات اجنبية يشتغل بها وذلك على شكل براءات اختراع وتراخيص وغيرها • وليس

من النادر أيضا ان نرى هذا البلد الاسلامى يشترى بمبالغ باهضة نفس البراءات والتراخيص التى وضعها ابناؤه ، وبذلك يكون فى وضع غريب يحتم عليه ان يدفع مرتين ثمن شىء هو فى الحقيقة ملك له ٠

وعليه يجب على البلدان الاسلامية ان تضع سياسة تكفل لها الوقاية من مثل هـذه الامراض التى تضرها أكثر مما تضر البلدان المصنعة المصابة بهذا المرض ٠ ومعنى ذلك ان التكوين الفنى ينبغى ان يتم فى جميع المجالات بتدابير مناسبة تخلق وتعمق ما من شأنه ان يشجع الاطارات المسلمة على العمل فى أوطانها ، تلك التدابير التى تتبلور فى تحقيق افضل شروط العمل للباحثين ورجال العلم ٠

وعلى أى حال فاملنا كبير ان يصبح العالم الاسلامى فى يوم قريب منتهجا طريـق الاشتراكية فى التنمية الاقتصادية ويبرهن بذلك مرة أخرى عن قدراته وطاقاتـه باسهامه فى الميدان العلمى ٠

التصنيع عامـل لتحويـل البيئـة

وعلى صعيد تحويل البيئة تتمثل مهمة التصنيع فى اعادة تنظيم التراب الوطـنى نظرا لان التنظيم الموروث عن الاستعمار فى معظم البلدان الاسلامية كان يستجيـب للاهداف الاقتصادية التى حددها لفائدته ، وبالاضافة الى ذلك فعلى التصنيع ان يحول البيئة ولا سيما المناطق المحرومة وذلك بفضل منشأته الجديدة ٠

وفى الحقيقة ان هذه المهمة المزدوجة ستسهم فى احداث بنيات قاعدية متكيفة مع اهداف دفع عجلة التنمية ٠

ان التصنيع فى البلدان الاسلامية بصورة خاصة يجب ان يسهم فى اعادة احياء الطبيعة التى عانت الكثير من مختلف اشكال التدمير ٠

ان الافاق الواسعة التى اشرنا اليها تندرج فى اطار تخطيط عام ، وهذا مطلب من مطالب بناء اقتصاد وطنى بعيد عن التبعية ٠ وبهذه الصفة فان التخطيط يشكل وسيلة علمية فى مجال تحديد الاولويات فى الاستثمارات ورفع الانتاج كما وكيفا ، وتحقيق

أهداف التنمية فى الوقت المحدد · ان التخطيط يعطى للبلدان سلاحا فعالا ضد الرشوة والاختلاس ، والتبذير ·

غير ان الاستراتيجيه التى عرضنا أهم مبرراتها قد تزيد لمدة معينة من التبعية للخارج بسبب المستوردات من مواد التجهيز واحدث الخدمات العصرية · ومع ذلك فان هذه التبعية يمكن ان تزال بسرعة ولا سيما فيما يتعلق بالاحتياجات الاساسية ، وذلك بفضل الانسجام الذى يجب ان يتميز به تنظيم عمليات التنمية ، وبفضل الاستفادة التى يجب أن تحصل عليها من المنافسة الدولية ·

ان التذكير والشروح التى عرضناها نقصد من ورائها ان نبين ان العالم الاسلامى فى حاجة الى التصنيع من أجل التنمية الاقتصادية ، الا ان هذه التنمية لا يمكن ان تحقق الا بأنواع خاصة من التصنيع ·

وقد حاولنا بهذا الشأن ان نلفت الانتباه الى ان كل محاولات التصنيع التى شاهدها العالم الاسلامى اثناء العقود المنصرمة باءت بالفشل وتسببت فى تبذير الاموال أكثر مما كانت مصدرا لاكتساب التجربة · وقد حاولنا أيضا ان نذكر باهم أسباب هذا الفشل الناجم أساسا عن كون هذه الاستراتيجيات التى يطلق عليها اسم استراتيجيات التنمية مبنية على عدم استرجاع عوامل ووسائل التنمية التى يسيطر عليها أو يراقبها الاستعمار الجديد وحلفاؤه فى الداخل · ان مثل هذه الاستراتيجيات عاجزة عن تحقيق التنمية ولا تسمح فى أقصى الحالات سوى بتحقيق نوع من الازدهار الاقتصادى بدون تنمية حقيقية ·

وهكذا فقد أردنا أن نبين بأن المهم بالنسبة للعالم الاسلامى هو القيام بتصنيع يشكل الاداة الفعالة لاستراتيجية التنمية ولا يشكل هدفا لسياسة آنية ونتيجة لذلك فان طريق الاشتراكية هى الطريق الاشتراكى للتنمية الصناعية يمثل بالنسبة للبلدان الاسلامية الطريق الوحيد الذى يسمح لها بالدخول فى مسيرة تصنيعية سريعة مكثفة وضرورية لتحقيق الاهداف الرامية الى تعميم التنمية ·

ان هذا الاختيار الذى يهدف الى التحرير الاقتصادى والاجتماعى للجماهير فى أجل محدد لا يشكل النتيجة الحتمية للاستقلال السياسى بل ، ويتطلب تجسيده ارادة وطنية صلبة وحزما جماعيا لان المهام التى يتعين القيام بها متعددة ومتشعبة وقاسية ٠

واذا كان لابد لهذا النوع من التصنيع ان يفرض نفسه فى البلدان الاسلامية للاسباب العديدة التى ذكرناها فهذا لا ينفى أن يكون مندرجا فى مجموعة من القيم المميزة للحضارة الاسلامية ٠

ويجدر بنا أن نلاحظ فورا أن الطريق الاشتراكى للتنمية يشكل فى حد ذاته ، بفضل القيم الاسلامية ، اذا ما فهمت على حقيقتها ، الطريق الذى يمكن العالم الاسلامى من الحصول على الوسائل الضرورية للاسراع باستئصال جميع أنواع الامراض التى ورثها فى عهدى الانحطاط والاستعمار نخص أهمها بالذكر الخرافات والادمان على شرب المسكرات وعقد النقص ٠ز وحقا فان استرداد السيادة السياسية قد ساعد مساعدة فعالة على مكافحة هذه الامراض لا سيما انه كان من السهل كشفها وندد بها طويلا ٠

أمراض المجتمع الرأسمالى الصناعى

وفيما يتعلق بالامراض التى تعترى المجتمعات الليبيرالية المصنعة فسنحاول ابراز بعضها الاكثر انتشارا واخفاء والتى يمكن تفاديها بفضل القيم الاساسية التى تزخر بها ثقافتنا ، وكذلك بفضل الاشتراكية كقاعدة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الاسلامى ٠

الانسان ضحية الضغوط والمغريات

ان العالم الاسلامى يمكن ان تصيبه الامراض الخاصة بالمجتمعات الصناعية الرأسمالية اذا ما اعتمد اساليب التنمية المستوحاة من هذا النوع من المجتمعات وهذه الامراض تتعلق بصفة خاصة بالفرد ، الذى أصبح فى هذه المجتمعات هدفا للاعتداءات التى تشنها مجموعات الضغط الاقتصادية المتنافسة ، تساعدها فى ذلك القوى السياسية المتعارضة ٠

ان هذا التكالب للقوى التى تعمل فى الظاهر وفى الخفاء يستعمل كوسيلة ، تهيئة الفرد بما يتفق وأهداف هذه القوى ، وحيث يوجد الفرد نجده دائما موضع محاولات الاغراء التى تمارس بواسطة تشكيلات مدهشة من المنتجات الكثيرة التنوع ، والتى يشك فى فوائدها الاجتماعية ويستخدم هذا التكالب وسائل الاعلام التى يتزايد اثرها بسبب تركيز نشاطها على الاوساط المتعلمة ويتعلق الامر هنا بالخصوص بظاهرة الاعلان بجميع اشكالها السمعية والبصرية التى تساير الحياة اليومية الى درجة انها أصبحت جزءا لا يتجزأ منها ، على الرغم من طابعها الزائف والسالب .

فليس من الغريب ان نلاحظ والحالة هذه ان القيم الانسانية قد اختفت لصالح القيم الاقتصادية المبنية فى حد ذاتها عن مبدأ تحقيق أقصى الارباح .

استغلال الجماهير الكادحة

ان سلم القيم الذى يشكل قاعدة الاقتصاديات الليبيرالية المصنعة هو ذلك السلم الذى يبرر امتلاك وسائل الانتاج فى مجالات الصناعة والفلاحة والخدمات من قبل طبقة اجتماعية محظوظة ، وان هذا الامتلاك هو السبب فى عدم المساواة الصارخ السائد فى توزيع الدخل فى هذا النوع من المجتمعات وهو ما يؤدى بالتالى الى الفوارق الاجتماعية .

ان مثل هذا النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى تسيطر فيه طبقة اجتماعية محظوظة ، همها الوحيد جلب المزيد من الارباح ، على توزيع الاستثمارات والدخل مبنى فى الحقيقة على استغلال الجماهير الكادحة .

فلا يستغرب ان كانت هذه المجتمعات التى قطعت اشواطا فى طريق التقدم المادى والتى يحكمها هذا النظام تتعرض الى اخطر أنواع التوتر السياسى والاقتصادى ، والاجتماعى ، والاخلاقى . وعلاوة على ذلك فلا يسعنا الا ان نشير الى المسؤولية الخطيرة التى تتحملها هذه المجتمعات للابقاء على النظام الاقتصادى العالمى الحالى ، مع ما ينطوى عليه من أنواع الظلم تجاه البلدان النامية ، وعدم الاستقرار فى نظام النقد ، وتهديد أمن الشعوب المتمثل فى الانتاج المتزايد للاسلحة النووية الفتاكة .

ان هذه الآفات نابعة أصلا من الاسس التى بنيت عليها المجتمعات الليبيرالية المصنعة • ان التناقضات الملازمة لهذه المجتمعات تحتم عليها التعبئة الدائمة لموارد هائلة لايقاف زحف القوى التقدمية المعارضة من أجل حماية جوهر النظام الرأسمالى •

التبذير الاقتصادى وخطر تفشيه

ان هذه التعبئة الدائمة للموارد تشكل بكل تأكيد تبذيرا اقتصاديا كبيرا تتجلى من خلاله النوايا الحقيقية لهذه المجتمعات فيما يتعلق بمشاركتها فى اقامة نظام اقتصادى عالمى جديد يتسم بالعدل والمساواة •

وهنالك مرض آخر يكاد يكون آفة حقيقة نظرا لما له من آثار سيئة على التراث البشرى الا وهو تبذير المواد الاولية المحدودة وغير القابلة للتجديد ، التى تشتمل عليها الكرة الارضية • وهل نحن بحاجة ان نذكر بهذا الصدد أن ضخامة هذا التبذير قد كشفت للعالم بفضل القرارات التى اتخذتها منظمة الدول المصدرة للبترول سنة 1973 ؟ يشكل هذا التبذير فى الحقيقة احدى أسس اقتصاديات البلدان المصنعة ، الرأسمالية ، وهو السيمة المميزة لاسلوب الحياة الذى تبنته المجتمعات المسماة بالمجتمعات الاستهلاكية حيث تعتبر أشكال التبذير بمثابة العلامات الخارجية للثراء ان هذه المجتمعات الاستهلاكية تخصص القسط الاوفر من امكانياتها لاكثار الاحتياجات المادية للفرد ، وذلك لاشباع رغباتها المتزايدة فى الربح •

فمن وجهة نظر اهتمامات الحضارة الاسلامية يجدر بنا أن نتساءل فى مثل هذه الحالات عن مصير القيم الانسانية • الا نرى الانسان تحت تأثير هذا المحيط النفسى يتجه بدوره الى البحث عن المزيد من الارباح فى جميع مساعيه ؟

وعليه يتحتم على البلدان الاسلامية الآخذة فى التصنيع أى التى تحاول أن تتحكم فى التكنولوجيا والمعرفة الصناعية المستوردة ان تقوم الى جانب التكوين الفنى والتكنولوجى للعمال الباهظ التكاليف بنشاطات أخرى تستهدف تعزيز تكوينهم السياسى والاخلاقى والروحى ، ويجب ان يكون هذان النوعان من التكوين متاكملين ،

ذلك ان التكوين الذى يقتصر على الجوانب الفنية والعلمية فقط قد يخلق فى بلداننا انماطا من السلوك تشبه تلك التى نددنا بها فيما سبق .

ومع ذلك فلا يفوتنا أن نشير الى أن هذه الامراض التى تعترى المجتمعات المذكورة لا يجوز أن تشوه لنا بعض الفضائل التى تتمتع بها هذه المجتمعات والتى تفسر جزئيا التقدم الرائع الذى تسجله فى المجال الصناعى ، ونخص بالذكر روح التنظيم والمبادرة التى يجب علينا أن ننميها وفقا لغاياتنا .

أمراض المجتمعات المصنعة بصفة عامة

ليست هذه الامراض وحدها التى تشكل خطرا على المسلم ومحيطه ذلك ان المجتمعات المصنعة بصفة عامة تتقاسم بعض الحتميات الضارة التى يكون فى صالح العالم الاسلامى أن يتفاداها . ومهما بلغت درجة التضارب فى استراتيجيتها الانمائية فان المجتمعات المصنعة الليبرالية والاشتراكية تتميز ببعض الامراض المشتركة ونذكر واحدا من هذه الامراض الذى وان كانَ من النادر أن يندد به الا أنه لا يقل ضررا عن الامراض الاخرى التى سنتعرض لها فيما بعد ، ويتمثل فى المعتقدات السائدة فى المجتمعات المصنعة ، والتى تجعلها تتجاهل بل وتحتقر كل المواقف الثقافية التى تصمد لاستقصاءاتها وتحليلاتها . وقد لاحظت البلدان الاسلامية فى العديد من المناسبات مدى حدة وعقم هذه العقلية .

الافراط فى ضخامة الانجازات الصناعية والعمرانية

ان أول ما يشد انتباه الملاحظ أو المسافر فى البلدان المصنعة هو ضخامة المنجزات العصرية ، كما تشهد بذلك ضخامة المدن والمراكز الصناعية . ان مثل هذه التجمعات السكانية العملاقة التى هى تعبير على التنهيج الصناعى تطرح بضخامتها غير المعقولة، مشاكل مادية ونفسية وثقافية خطيرة على سكانها الى درجة أن بعض الاهتمامات فى البلدان المصنعة بدأت تتجه نحو اعادة النظر فى الاسس التى بررت فى الاصل بناء هذه التجمعات . وهكذا فاننا نسمع فى هذه البلدان ان الحديث يدور حول ضرورة التوزيع الصناعى والعمرانى .

الآثار المنعكسة على الانسان

وتجدر الملاحظة ان هذه المشاكل نابعة عن تصنيع مكثف يبدو لنا أن هذه البلدان لم تتحكم فى نتائجه بما فيه الكفاية • وبالفعل فان التنهيج الصناعى الذى لا يدمج للمرء الا كدولب من دواليب جهاز واسع يؤول فى النهاية الى ظاهرة تفتيت شمل المجموعات البشرية ، وبالتالى لعرض المرء الى جميع أنواع الاستيلاب • ومن المؤكد ان تطبيق هذا التنهيج الصناعى هو الذى حدد للمرء أساليب سكنه وعلاقاته باسرته وبالمجتمع • ان بعض الظواهر كفتور العلاقات العائلية ، والادمان على المسكرات والشعور بالعزلة والهوان والقلق النفسى والنزوع الى فكرة المادية الجديدة التى تبعد المرء عن القيم الروحية ، هى فى نظرنا نتيجة ما يسمى بالحضارة الصناعية •

وفى هذا المجال فان الامة الاسلامية تتمتع بقيم ثقافية تجعلها فى مأمن من هذه الامراض ، نذكر من بينها على سبيل المثال مبدأ التضامن الاسلامى العريق الذى يوفر من خلال بعض المظاهر والواجبات عدة فرص لربط الاواصر العائلية وتعزيز الصلات بين أعضاء الامة والقيام ببعض الاعمال الاخرى التى تجسم التضامن الاجتماعى • ان مثل هذه القيم التى أثبتت فى الماضى فعاليتها تستحق اليوم أكثر من أى وقت مضى أن نحافظ عليها •

ومن الامثلة المتواضعة وذات المغزى المعبر نذكر أعيادنا الدينية التى لا ينبغى أن تصرف عن أهدافها الاساسية وتتحول الى مجرد مناسبات تسود فيها مظاهر الابتهاج الانانى والاجتماعى السطحى •

اضرار البيروقراطية

هنالك أضرار لا نطيل الكلام فيها ، لانها معروفة وقد سبق أن ندد بها فى جميع الاوساط ، وهى البيروقراطية ، التى بطابعها القاسى المغفل تتجاهل المشاكل الحقيقية للانسان وتشكل بالتالى حاجزا يحول دون التكيف مع الاوضاع الجديدة والحاجة الى التجدد •

ان البيروقراطية ليست فى الواقع سوى تحريف للمنهجية التى يحتاج اليها كل تنظيم ، ومظهر التحريف هذا يجعلها ضارة طالما انها تساعد على بروز تصرفـــات سلبية بل وحتى أعمال منبوذة كالرشوة • وخلاصة الامر ان البيروقراطية من شأنها خنق الشعور بالمسؤولية واعاقة التنمية بشكل عام •

التلوث نتيجة وخيمة للتصنيع غير المتحكم فيه

وهناك أيضا مرض آخر بدأنا نحس بأبعاد أخطاره على وجود المجموعة البشرية • ونقصد بذلك الضرر الذى يلحق بالتراث الطبيعى والبيولوجى للبشرية وهو الذى يطلق عليه ، تجاوزا اسم التلوث والذى يشكل موضوعا خطيرا يستحق كل عنايـــة واهتمـــام •

وبالفعل فان الثروات الطبيعية الهامة التى توجد هنا وهناك فى العالم ليست غير قابلة للنفاذ ، وهى من جراء التلوث ، معرضة للتلف بسبب التطبيق الفوضوى بل وحتى الاجرامى للعلم • فنقص المياه الصالحة للشرب وانجراف التربة وتلوث الجو والمحيطات والبحار أصبحت اليوم أحداثا لا يجوز تجاهلها •

ومن المفيد التذكير بأن حجم الغازات التى تلفظهـا المصانـــع فى الاجواء تزداد باستمرار وتقول بعض الاحصاءات أنه يتضاعف كل عشر سنوات • هذا واذا أخذنا بعين الاعتبار أقوال بعض المختصين فان مفعول الضغط الذى ينتج عن تراكم الغاز الطبيعى بكميات متزايدة فى الجو يمكن أن يحدث بعد مدة زيادة فى درجة حرارة الكوكب الارضى الامر الذى ينجم عنه ذوبان الثلوج وربما كتل الجليد فى المناطق القطبية وكذلك ظواهر أخرى مضرة بالحياة البشرية • ان تلوث الانهار المعروف بالتلوث الحرارى والمتأتى من المياه المتفاوتة الحرارة المستعملة فى المصانع يترك آثار ضارة بالحيوانات ، والنباتات المائيـــة •

وهناك عناصر أخرى من محيط الانسان تصبح مهددة مباشرة بسبب الشروع فى عملية التصنيع بشكل غير منهجى يكاد يتم بعدم المسؤولية • ونذكر على سبيـــل الميثال ثروات المحيطات والثروات المعدنية •

وفيما يخص الثروات البيولوجية للبحار والمحيطات فان من الثابت اليوم انهــا معرضة لاخطار مؤكدة بسبب التلوث المتأتى من الفحوم المائية (هيدروكاربونات) والمعادن الثقيلة والفضلات الكيمياوية والمواد المشعة والمواد الاخرى السامة ٠

بعض الآراء الختاميــة

وهكذا فبالامكان سرد المزيد من الامراض المشتركة للمجتمعات المصنعة ٠ غــير اننا اقتصرنا على ذكر البعض فقط من مجموع الامراض التى تمثل فى هذا المجــال بالذات أهمية خاصة ٠

وعليه فان العالم الاسلامى وقد شرع فى عملية التصنيع يمكن ان يواجه بـدوره مثل هذه المشاكل اذا لم يتبنى منذ الآن موقفا انتقاديا تجاه التصورات والمناهج العصرية للانجاز الصناعى التى لا زالت سارية حتى اليوم ٠

وبعبارة أخرى فان طبيعة الامراض التى سبق ذكرها تبين بان البلدان المتقدمــة صناعيا تواجه صعوبات فى سعيها للسيطرة على نتائج تصنيعها ٠ وهى بذلك تعيد الى الاذهان اسطورة ٠ « الساحر الغر الغربية القديمة الذى عجز عن وقف الاحداث بعد ان تسبب فى تحريكها » فغروب التيه التى تعترى حاليا الصناعة الذرية والسباق الى التسلح بين الدول العظمى لا تشبه فى بعض مظاهرها مغامرة « الساحر الغر » السالفة الذكر والا تنذر بمستوى الاختلال الذى يمكن ان تبلغه المجتمعات الصناعية ٠

ان ما يشغل البال فى هذا الصدد ليس وجود هذه الامراض فى تلك المجتمعات بل عدم فعالية الوسائل المستخدمة لازالتها أو لتصحيح نتائجها ٠

وعدم الفعالية هذه ليست سوى عجز المجتمعات الصناعية عن التحكم فى الظواهر الاجتماعية المتمخضة عنها ٠ ان قدرة الوسائل الفنية تمكن هذه المجتمعات من اقامــة انسجام فى الميدان الاقتصادى وفقا لاستراتيجياتها الخاصة ٠ ومهما كانت قدرة تلك الوسائل فهى تبدو عاجزة فى الميدان الاجتماعى أى على مستوى الانسان ٠ وفى مثل هذه الاوضاع فان الانسان قد أعد لخدمة اعتبارات اقتصادية حلت فى نفسه محل كل

القيم الروحية والاخلاقية • والامر يتعلق هنا بانحراف خطير يتحتم على العالم الاسلامى ان يتفادا مهما كان الثمن حفاظا على قيمه الروحية •

فالعالم الاسلامى بفضل العبر التى يجب ان يستخلصها من التجارب المعاصرة عليه اذن ان يتمكن من توجيه ومراقبة مسيرة نموه وفقا لمقوماته الخاصة والا ينقاد لآليـــة التنميـــة •

وفى النهاية فان المنهج الاشتراكى للتنمية هو بكل تأكيد المنهج الوحيد الذى يمكن العالم الاسلامى من تجنب الامراض المميزة للمجتمعات الليبيرالية المصنعة •

وفيما يخص الامراض المشتركة للمجتمعات المصنعة بصفة عامة ، فان المجتمـــع الاسلامى لا يستطيع تجنبها الا اذا احيا قدراته الذاتية المبدعة والخلاقة • اذ ان تلك الامراض التى ثبت بانها نتاج للايديولوجيات المادية تهددنا لاننا كلنا نتفتح وبدرجات متفاوتو وبمحض اختيارنا على الحضارة المسماة بالصناعة • وعليه فاننا نوفر لتلـك الامراض أرضية مناسبة لظهورها وتفشيها • وبطبيعة الحال فان ما يتمخض عن تلك الحضارة من ايجابيات وسلبيات سوف يظل على ما هو عليه ، وليس من المجدى فى شيء والحالة هذه أن نتنبى كل ما هو ايجابى ونترك الباقى • فالمشكلة بالنسبة الينا لا تقتضى فقط فصل الجيد عن الرديء بل تكمن بالاحرى فى الطريقة التى نمارس بها التفتح على تلك الحضارة الصناعية وفى كيفية استخدامها وفى الغايات التى نرغب بلوغهـــا •

وبعبارة أخرى فالامر يتعلق بوضع مفهوم جديد للتنمية يزود الانسان المسلـــم بالوسائل التى تمكنه من بلوغ مطامحه المشروعة فى الميدان المادى وتحفظ له استقامته فى الميدانين الاخلاقى والروحى •

وهل ينبغى التذكير بان المنجزات العظيمة التى حققتها فى الماضى الحضارة الاسلامية عند احتكاكها بالحضارات الاخرى كانت فى اساسها قائمة على التفتح الفكرى للانسان المسلم وعلى الجهد الخلاق الذى بذل فى الميادين النظرية والتطبيقية وتواصل عبـــر الاجيال المتعاقبة ؟

واليوم فان مساهمة المجموعة الاسلامية ضمن العالم الثالث فى اعادة النظر فى النظام الاقتصادى الدولى تبهر الملاحظ بما تتسم به من حيوية واصالة وتعد بكـــل تاكيد تعبيرا عن التضامن القائم بين البلدان الاسلامية وباقى بلدان العالم الثالث ٠

وعليه وبالنظر الى مختلف الحقائق التى تميز العالم الاسلامى وكذلك المتطلبات المادية والاخلاقية والروحية التى ترافق كل عملية انمائية فى بلداننا فانه جد هام بالنسبة لنا ان نتشاور على مختلف المستويات وكلما دعت الضرورة الى ذلك ونتبادل الخبرات التى نكتسبها فى ميدان التنمية ٠

وبهذا الصدد فان الملتقى الهام الذى يجمعنا اليوم فى عنابة وكذلك اللقاءات التى تمت على مستويات عليا مثل اجتماعات رؤساء الدول الاسلامية والمؤتمرات الاسلامية هى علامات دالة على بداية عهد جديد من التضامن والتعاون فى اطار المجموعة الاسلامية ومن ثم ندعو الى التفاؤل فى الدور الطلائعى الذى ينبغى ان يلعبه العالم الاســـلامى سواء فى بنائه الذاتى أو فى اقامة النظام الاقتصادى الدولى الجديد ٠

ومجمل القول فان كل شىء يحمل على الاعتقاد بان الحضارة الاسلامية قد دخلت عهدا جديدا لتاكيد بعدها الدولى وانه لمن دواعى السرور ان نلاحظ بان بلدا اسلاميـا مثل الجزائر بفضل انسجام واتزان تأمله فى قضية التنمية وبحزم واستمرارية عمله الخلاق يساهم فى مجهود اثراء الفكر الاسلامى المتصل بمصير الانسان المسلم ٠

وكما ان ملتاقنا الوطنى الذى جاء بعد 14 سنة من الجهود والتجارب فى ميـــدان النضال الثورى ضد التخلف يأتى بمساهمة مثمرة فى هذا المضمار ٠

ولما كانت الجهود التى تبذلها الجزائر حاليا فى ميدان التنمية لم تعد منفردة بل هناك جهود أخرى تبذل فى اطار المجموعة الاسلامية فاننا نعتقد اعتقادا راسخا بان العـالم الاسلامى سوف يتوصل الى التغلب على كل المشاكل التى تطرحها التنمية وذلـــك خدمة لمستقبل الاجيال القادمة ٠

كيف يمكن للمجتمع الإسلامي أن يتفادى آفات التصنيع!

د . عمر التومي الشيباني
استاذ بكلية التربية
جامعة الفاتح ـ طرابلس ـ ليبيا



المقــدمــة :

ان موضوع التصنيع وما عسى أن يترتب عليه من آفات وعيوب ومساوىء والسبيل الامثل لتجنب هذه الآفات والعيوب والمساوىء أو على الاقل التخفيف من وطأتها فى مجتمعاتنا الاسلامية ـ هو من الموضوعات المعاصرة الهامة التى تشغل بال أولى الامر فى هــذه المجتمعات وتفرض نفسها عــلى المفكريـن والمصلحين المسلمين فى هذا العصر وتتطلب منهم أن يناقشوها بكل صراحة وعمق . وهم اذ يناقشون موضوع التصنيع لابد أن تشمل مناقشاتهم له : مدى ضرورة أهمية التصنيع لمجتمعاتنا الاسلامية الحديثة وما يمكن أن يترتب على التصنيع فى هذه المجتمعات من فوائد ونتائج ايجابية فى شتى

مجالات الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وما عسى أن يصادفه من مشكلات وعقبات ، وما عسى أن ينتج عنه من آفات وعيوب ومضار ، والاسباب التى تكمن وراء الآفات والعيوب والمضار التى ظهرت فى المجتمعات المتقدمة صناعيا ، ومدى امكانية تجنيب المجتمعات الاسلامية لآفات التصنيع وعيوبه وأضراره ، ونقاط الارتكاز للاطار الذى ينبغى أن يتم فى ظل التصنيع فى المجتمعات الاسلامية ·

هذه هى أهم الجوانب التى ينبغى للعلماء والمفكرين المسلمين أن يناقشوها بعمق فى اطار مناقشتهم لموضوع التصنيع ·

وسأحاول من جانبى ، وأنا أساهم فى مناقشة هذا الموضوع ، أن ألقى بعض الضوء على تلك الجوانب من خلال مناقشتى الموجزة والعامة للنقاط التالية :

1 ـ التصنيع كضرورة من ضرورات العصر الحديث ·

2 ـ موقف الاسلام من التصنيع ·

3 ـ الفوائد التى يمكن أن يجنيها المجتمع الاسلامى من التصنيع ·

4 ـ المشكلات التى تصادف المجتمعات الاسلامية فى مسيرتها التصنيعية ·

5 ـ الآفات والعيوب التى ظهرت فى بعض المجتمعات الصناعية ·

6 ـ الاسباب التى تكمن وراء آفات وعيوب التصنيع فى المجتمعات المتقدمة صناعيا·

7 ـ الطريق الامثل لتجنب هذه الآفات والعيوب فى المجتمعات الاسلامية ·

أولا : التصنيع كضرورة من ضرورات العصر الحديث :

فبالنسبة للنقطة الاولى ، فانه لم يعد أمام المفكرين المسلمين أن يناقشوا ما اذا كان التصنيع فى المجتمع الاسلامى ضروريا أم غير ضرورى ، أو ما اذا كان التصنيع ضارا أو نافعا للمجتمع الاسلامى ، لان المناقشات تكاد تكون محسومة فى صالح التصنيع ، ولم يعد أمام المسلمين الا أن يختاروا التصنيع المتقدم والمتنوع فى مستوياته ومظاهره ، اذا أرادوا مسايرة عصرهم واللحاق بركب البلدان المتقدمة اقتصاديا والخروج من ربقة الاعتماد على المجتمعات المصنعة فى سد احتياجاتهم من المواد المصنعة ·

ان التصنيع هو أحد السبل الهامة أمام المسلمين لتحقيق التقدم الثقافى والاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، ولحل كثير من مشكلاتهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ٠

ولهذا ، فان التصنيع ضرورة من ضرورات الحياة الكريمة ، تقتضيه مصلحة المجتمع الاسلامى ومصلحة أفراده ، كما يقتضيه التقدم الثقافى والحضـــــارى والاجتماعى والاقتصادى الذى ينشده المجتمع الاسلامى المعاصر ٠

ثانيــا : الفوائد التى يمكن أن يجنيها المجتمع الاسلامى من التصنيع :

ولنكون أكثر تخصيصا فى بيان كون التصنيع ضرورة من ضرورات المجتمـــــع والحياة الكريمة فى كل العصور وفى العصر الحديث بالذات ، وفى بيان أهمية التصنيع لمجتمعنا الاسلامى بالذات ، فانه يجدر بنا أن نشير فى ايجاز الى بعض الفوائد والنتائج الايجابية التى يمكن أن يجنيها المجتمع الاسلامى من التصنيع فى شتى مجالات حياته ٠

1 ـ فالتصنيع من ناحية يمكن نأ يضيف الى الثقافة والحضارة الاسلامية بعدا تقنيا عمليا ، ويهيىء الفرص العملية أمام أبناء المجتمع الاسلامى أن يطبقوا عمليا ما يدرسون فى مدارسهم ومعاهدهم وكلياتهم من علوم وفنون تطبيقية ، ويضفى على هذه العلـوم والفنون معنى ويجعل لدراستها فائدة ملموسة وقيمة محسوسة ، بدلا من أن تبقى فى الاطار اللفظى والنظرى والتطبيق المحدود داخل المؤسسة الدراسية ٠

ومن شأن التصنيع اذا ازدهر ونجح أن يساعد على زيادة الوعى التقنى والصناعى ، وعلى ازدهار العلوم والفنون التقنية والصناعية ، وعلى زيادة الاقبال على دراستهـــا والتخصص فيها على اختلاف مستويات الدراسة ٠ واذا استمرت الصناعة فى نموهـا وازدهارها واتسع نطاق التعليم الفنى والصناعى ونطاق الثقافة الصناعية العامـــــة فان الصناعة تصبح جزءا بارزا فى ثقافة المجتمع ويصبح الوعى الصناعى والاتجـــــاه الايجابى نحو الصناعة ضمن ما يكتسبه الابناء من آبائهم وبيئتهم التى يعيشون فيها عن طريق التنشئة الاجتماعية والتفاعل مع البيئة ٠ ومما يزيد من فاعلية دور الاب فى بث الوعى الصناعى أن يكون عاملا فى مجال الصناعة وأن يكون ناجحا فى عمله وراضيا عنـــــه ٠

ويوم ينجح المجتمع الاسلامى فى تدعيم التقنية الحديثة وغرسها فى نفوس أبنائه معرفة ومهارة واتجاها فانه يكون قد كرس البعد التقنى والتطبيقي فى ثقافته التى كان من بين المآخذ عليها فى عصورها المتأخرة أنها أصبحت فى مجموعها ثقافة لفظية نظرية تجريدية . وهذا البعد التقنى للثقافة الاسلامية يقتضيه تقدم الحياة وتطورها ويباركه الدين الاسلامى الحنيف الذى يوفق بين الروح والمادة ويلبى كافة حاجات الحياة الروحية والمادية .

2 ـ والتصنيع من ناحية أخرى مرتبط بالنمو الحضرى ، ومظهر من مظاهره ، وميسر له ومساعد على تلبية احتياجاته ومتطلباته المتجددة والمتزايدة باستمرار . ومن النتائج التى توصل اليها الدارسون المحدثون للعلاقة بين التصنيع والتحضر أنه : « لا يوجد معامل ارتباط حتمى بين التصنيع والتحضر ، ولو أنهما يحدثان كثيرا فى آن واحد . ويوجد كثير من الشواهد والادلة على وجود معامل ارتباط مباشر بين تطور التحضر وتطور التصنيع ، حتى يبدو أن أحدهما سبب الآخر ... كما توجد الادلة والبيانات على تأثير التصنيع عندما توجد مجتمعات حضرية ، كما توجد الادلة والبيانات على تأثير التصنيع فى كثير من نواحى التحضر . ويبدو أن التصنيع يؤثر تأثيرا عاما للغاية ليس فى نسبة نمو المناطق الحضرية فحسب ، بل وأيضا فى نمط النمو الحضرى وفى مستوى التنمية الاقتصادية فى المجتمعات الحضرية ... » (1)

وهذا الترابط بين الصناعة والتحضر الذى أكدته الدراسات الاجتماعية الحديثة قد أكده قبل ذلك أحد علماء الاسلام الافذاذ وهو عبد الرحمن بن خلدون ، فقد جعل ابن خلدون الصنائع من النتائج المترتبة على تزايد الحضارة وازدهار العمران ، فتكون « الصنائع فى الامصار الصغيرة ناقصة ، ولا يوجد منها الا البسيط ، فاذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها استعمال الصنائع ، خرجت من القوة الى الفعل » .

ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضارى وكثرته . والسبب فى ذلك أن الناس ، ما لم يستوف العمران الحضرى وتتمدن المدينة ، انما همهم فى الضرورى من المعاش ، وهو تحصيل الاقوات من الحنطة وغيرها .

(1) د. محمد عبد الله أبو على ، الصناعة والمجتمع . القاهرة : دار المعارف بمصر ، 1971 ، ص 111 ـ 113 .

فاذا تمدنت المدينة وتزايد فيها الاعمال ووفت بالضرورى وزادت عليه ، صرف الزائد حينئذ الى الكمالات من المعاش ·

وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ ، استجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعى الترف والثروة ·

واذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات ، كان من جملتها التأنق فى الصنائع واستجادتها ، فكملت بجميع متحماتها وتزايدت صنائع أخرى معها بما تدعو اليه عوائد الترف وأحواله ·

ان رسوخ الصنائع فى الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها ، والسبب فى ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران والوان له · والعوائد انما ترسخ بكثرة التكرار وطول الامد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ فى الاجيال ، واذا استحكمت الصبغة عسر نزعها ، ولذا نجد فى الامصار التى كانت استبحرت فى الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست فى غيرها من الامصار المستحدثة العمران ولو بلغت مبالغها فى الوفور والكثرة ، وما ذاك الا لان أحوال تلك الصنائع القديمة العمران متسحكمة راسخة بطول الاحقاب وتداول الاحوال وتكررها ، وهذه لم تبلغ الغاية بعد » · (2)

3 ـ والتصنيع من ناحية ثالثة له دور كبير فى تحقيق التنمية الاجتماعية المرغوبة وفى الاسراع بعملية التغير الاجتماعى وفى توجيه هذا التغير بما يتمشى مع متطلباته · فهو اذا تحقق بصورته الواسعة المتقدمة فى مجتمعاتنا الاسلامية من شأنه أن يساعد على تحويل كثير من هذه المجتمعات من مجتمعات رعوية أو ريفية الى مجتمعات حضرية وصناعية ، وعلى تغير كثير من عاداتنا وتقاليدنا والعلاقات السائدة بيننا لتصبح أكثر تلاؤما مع متطلبات المجتمع الحضرى والمجتمع الصناعى ، وعلى أن تصبح الاسرة عندنا أصغر مما هى عليه فى بعض مجتمعاتنا التقليدية ، وعلى أن يصبح المركز الاجتماعى

(2) عبد الرحمن محمد بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون (الجزء الثالث ، الطبعة الثانية ، تحقيق : د. على عبد الواحد وافى) القاهرة : لجنة البيان العربى 1967 ، ص 1057 ـ 1062 .

فى المجتمع مكتسبا بدلا من أن يكون موروثا كما هى الحال فى المجتمع الاقطاعى وأن يصبح فى امكان كل فرد ، اذا ما ساعدته ظروف التعليم أو امكانياته وقدراته الخاصة أو جهده وعمله وكفاحه أن يرتقى الى أعلى درجة فى سلم الترتيب الاجتماعى ، وعلى أن تصبح الصلات فى المجتمع قائمة على أساس الكفاءة العلمية والفنية والخلقية والمنزلة الاجتماعية المكتسبة ، وعلى أن نزيد فرص التفاعل والاتصال بين أفراد وجماعات المجتمع ، وعلى أن يصبح المجتمع متميزا بالتنوع والتباين لان من يكونونه يأتون من مختلف المناطق ، وعلى أن تزيد وتتحسن فرص التعليم والخدمات الصحية والاجتماعية والترويحية أمام المواطنين نظرا لتجمع السكان فى تجمعات سكنية كبيرة بدلا من بقائهم متفرقين كما هى الحال فى سكان البادية والريف الى غير ذلك من التغيرات الاجتماعية التى قد يجرها أو يساعد عليها التصنيع والتى هى فى مجموعها فى صالح مجتمعاتنا الاسلامية ولا تتنافى فى مجموعها مع تعاليم الدين الاسلامى .

4 ـ والتصنيع من ناحية رابعة خير أداة للتنمية الاقتصادية حيث انه يساعد البلاد على توسيع نطاق استثمار مدخراتها ومواردها الحالية بغرض النمو وزيادة الانتاج فى المستقبل ، وعلى تحويل مجتمعاتها من مجتمعات زراعية متخلفة وبسيطة فى تركيبها الاقتصادى الى مجتمعات صناعية يكون الانتاج الصناعى فيها الجزء الاكبر من الدخل القومى ، وعلى استغلال مواردها الطبيعية وخاماتها وعلى تصنيعها محليا بدلا من بيعها بأبخس الاثمان ، وعلى زيادة حجم العمالة وتوفير العمل للايدى العاملة بها بأجور وشروط أفضل من العمل فى الزراعة التقليدية ، وعلى رفع مستوى المعيشة وزيادة الدخل القومى والدخول الفردية على السواء ، حيث ان عائدات الدولة من الصناعة أكبر من أى مورد آخر حتى ولو لم تملك هى نفسها المصانع وحيث ان الاجور التى يتقاضاها عمال المصانع ـ عادة ـ أعلى من الاجور التى يتقاضاها عمال الزراعة . كما يساعد التصنيع أيضا على توفير المواد الاستهلاكية المصنعة للاسواق المحلية ، وعلى تحقيق اكتفاء ذاتى فى هذه المواد وعلى زيادة استهلاك الناس وتغيير انماط استهلاكهم ، وعلى تحقيق درجة متزايدة من عدالة التوزيع التى لا تتحقق الا بزيادة

الانتاج ، الى غير ذلك من الامور التى يمكن للصناعة الواسعة الناجحة أن تساعد عليها والتى تعتبر فى مجموعها من مظاهر ومكونات التنمية الاقتصادية ·

5 ــ ومن ناحية خامسة ، فان التصنيع أحد الركائز الهامة للاستقلال السياسى وخير سبيل لتحقيق القوة السياسية · وتأتى مساهمته فى تدعيم الاستقلال السياسى وفى تحقيق القوة السياسية من حيث مساعدته : على تحقيق الاكتفاء الذاتى من المواد الاستهلاكية والمواد المصنعة وعلى تحقيق الاستقرار فى الميزان التجارى وتأمين البلاد من حدوث خلل فى هذا الميزان بسبب انخفاض قيمة صادراتها الزراعية وزيادة قيمة وارداتها ، وعلى تلبية احتياجات البلاد من الاسلحة بالذات وتخليصها من التبعية للدول المتقدمة التى تتخذ فى كثير من الاحيان من بيع السلاح أداة من أدوات الضغط السياسى على البلدان التى تشترى منها ووسيلة من وسائل سوء استغلالها وامتصاص جانب كبير من أموالها · كما يساهم التصنيع أيضا فى زيادة فرص الحرية الشخصية الفكرية وحرية التعبير عن الرأى وفى الحد من النظام القبلى والاعراف القبلية ، وفى نقل الناس من الولاء للقبلية الى الولاء للوطن والامة ، وفى جعلهم يشعرون بالاعتزاز ببلادهم وأمتهم ويحسون بهيبتها وعزتها لما يرونها عليه من قوة اقتصادية وسياسية ·

هذه أهم جوانب الحياة التى يمكن للتصنيع أن يساهم فى تنميتها ، وهذه هى بعض الفوائد والنتائج الايجابية التى يمكن أن تترتب على التصنيع · وهو لهذه الفوائد والنتائج ولتلك المساهمة يصح أن يعتبر ضرورة من ضرورات الحياة المعاصرة وطريقا أمثل للاسراع بعملية التنمية الشاملة ·

ثالثا : موقف الاسلام من التصنيع :

واذا كان للتصنيع ما ذكرنا من الفوائد والنتائج الايجابية ، فان موقف الاسلام تجاهه لن يكون الا موقف المؤيد والمبارك طالما انه تم فى اطار تعاليم الاسلام وقيمه الخلقية الخالدة ، ان الاسلام يقف على الدوام بجانب كل تقدم حقيقى ، سواء كان فى مجال المادة أو فى مجال الروح · انه دين القوة والعزة والكرامة والمصلحة العامة والعدالة والمساواة والجهاد والكفاح فى كافة مجالات الحياة · ولا يرضى الاسلام للامة

الاسلامية أن تكون متخلفة ضعيفة أو عالة على غيرها من الامم أو دون علم غيرها من الامم فى أى علم أو فن أو صنعة من الصناعات النافعة ، ويكفى المسلمين سندا فى ذلك قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » (الانفال) · والقوة التى دعت اليها الآية الكريمة هى عامة تشمل كل ضروب القوة المادية والمعنوية · وسبيل المسلمين الى هذه القوة هو الايمان بالله ، والتمسك بتعاليم الدين ، والمشاركة الفعالة فى العلم والصناعة وفى كل نشاط مشروع يوصل الى القوة · ولا يجوز للمسلمين أن يهملوا علما من شأنه أن يزيد من قوتهم أو يؤمنهم من شر أعدائهم ، والا كانوا مخالفين لهذه الآيـة ·

بالاضافة الى هذه الآية الكريمة هناك العديد من الآيات القرآنية الكريمة الاخرى التى يمكن للمسلم أن يجد فيها بشكل مباشر أو غير مباشر السند القوى للتصنيع وللقيم الصناعية · فمن ذلك قوله تعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ·

وقوله تعالى: « وهو الذى جعلكم خلائف الارض » (الانعام : 165) ·

وقوله تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا » (البقرة : 29) ·

وقوله تعالى : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه ، ان فى فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (الجاثية : 12 ـ 13) ·

وقوله تعالى : « وابتغ فيما أتاك الله دار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » ·

وقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض » (البقـرة : 55) ·

وقوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظم لعلكم تذكرون » (النحل : 90) ·

وقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » (المائـدة : 2) ·

وقد جاءت الاحاديث النبوية الشريفة مدعمة ومفصلة للمعانى التى تضمنتها الآيات الكريمة السالفة الذكر · ومن هذه الاحاديث :

قوله صلى الله عليه وسلم : « المسلم القوى خير وأحب الى الله من المسلم الضعيف » ٠

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » ٠

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ما كسب رجل كسبا أطيب من عمل يده » ٠

وقوله صلى الله عليه وسلم : « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له » ٠

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب العبد المحترف » ٠

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » ٠

وقد ظل علماء المسلمين على الدوام ينظرون الى الحرف والصناعات والعلوم والفنون الصناعية على أنها من مستلزمات التطور الحضارى والعمرانى ومن مستتبعاته أيضا ، وعلى أنها من الامور التى لا تنتظم أمور الدنيا الا بها ٠ فأمر الدنيا ـ كما يقول الامام الغزالى ـ ليس ينتظم « الا بأعمال الآدميين وأعمالهم وحرفهم ٠ وصناعاتهم تنحصر فى ثلاثة أقسام : أصول لا قوام للعالم دونها ، وهى أربعة : الزراعة وهى للمطعم ، والحياكة وهى للملبس ، والبناء وهو للمسكن ٠٠٠ والثانى ما هى مهيئة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها ، كالحدادة فانها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات باعداد آلاتها ، وكالحلاجة والغزل فانها تخدم الحياكة باعداد عملها ٠

الثالث ما هى متممة للاصول ومزينة كالطحن والخبز للزراعة ، وكالقصارة والخياطة للحياكة ، وذلك بالاضافة الى قوام أمر العالم الارضى مثل أجزاء الشخص بالاضافة الى جملته فانها ثلاثة أضرب أيضا : اما وصل كالقلب والكبد والدماغ واما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والاعصاب والاوردة ، واما مكملة لها ومزينة كالاظافر والاصابع والحاجبين » ٠ (3)

(3) أبو حامد الغزالى احياء علوم الدين (الجزء الاول) ، القاهرة مطبعة محمد على صبيح وأولاده ٠ 1956 ، ص 12 ـ 13 ٠

وقد أشار الشيخ الكافى الى أن : « كل حرفة وصنعة فيها مصالح العباد كالتجارة والنجارة والحدادة (وغيرها) لها اعتبار وشأن عظيم (فى الشرع) ، لانها من فروض الكفاية ، والمباشرون لها يثابون ان اتقنوا ولم يغشوا لقيامهم بفروض الكفاية » . (4)

واذا كانت الصناعات التى ذكرها الامام الغزالى وعبد الرحمن بن خلدون (5) والشيخ الكافى من بعده هى الصناعات بمفهومها الواسع الذى به تشمل جميع الحرف والمهن والصناعات التقليدة فانه يدخل فيها بكل تأكيد الاعمال الصناعية الحديثة التى تتم داخل المصانع الآلية الكبيرة والتى نعنيها عادة من كلمة « التصنيع » ، عندما نطلقها فى الوقت الحاضر .

ولكن بالرغم من أن غالب العلماء فى الوقت الحاضر يفضلون استعمال كلمة «صناعة» أو « تصنيع » فى الوقت الحاضر بمعناها الضيق ، وهو العمل الذى يتم داخل المصنع فانه لا يزال هناك من يستعمل الصناعة بمعناها الواسع الذى يشبه المعنى القديم الذى استعملها به علماؤنا الاقدمون . ومن هؤلاء العلماء المحدثين (م. أ. سميث (M.A. Smith) الذى أستعمل كلمة « صناعية» بالمعنى الواسع لها « لتشير الى جميع مجالات العمل فى المصانع والمزارع والمكاتب والمدارس والمستشفيات طالما هى أماكن يتم فيها العمل من صناعة السلع أو توفير الخدمات » .

وقد يكون من مبررات استعمال هذا المعنى الواسع لكلمة « تصنيع » فى البلاد الغربية هو أن التصنيع فيها دخل « كل مجالات العمل ، بما فى ذلك الزراعة والاعمال الكتابية التى تتم داخل الشركات والبنوك والمصالح الحكومية وغيرها » . أما فى البلدان النامية ، ومنها البلاد الاسلامية التى لم يتم فيها بعد تصنيع كل مجالات العمل فانه « من الافضل استخدام الصناعة بمعناها الضيق لتشير الى المصانع فحسب » . (6)

رابعا : المشكلات التى قد تصادف المجتمعات الاسلامية في مسيرتها التصنيعية :

وهكذا نلاحظ مما تقدم أن المجتمعات الاسلامية لم يعد أمامها من خيار فى مسيرتها الانمائية الا اختيار التصنيع الحديث طريقا لتنميتها وللتغلب على كثير من المشكلات

(4) محمد بن يوسف الكافى ، الفصول الكافية . 1939 ، ص 3 .

(5) عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون (الجزء الثالث) ، تحقيق : د. على عبد الواحد وافى ، ص 1057 ــ 1106 .

(6) د. محمد عبد الله أبو على ، الصناعة والمجتمع ، ص 3 ــ 4 .

الاجتماعية والاقتصادية التى يرزخ تحتها بعضها على الاقل ، وذلك مثل : مشكلـــة التزايد المستمر فى عدد السكان ، والهجرة المستمرة من الريف الى المدن ، والنقص فى عدد المهن المتوفرة أمام الراغبين فى العمل ، وانتشار البطالة بجميع صورها الصريحة والمقنعة ، وعدم وجود طبقة أو فئة متميزة تعيش على العمل الصناعى وقلة الـــوعى التقنى والصناعى ونقص الايدى التى تمتلك المهارة والخبرة الصناعية ، والتمسك الضيق بالارتباطات الاسرية أو القبلية أو المحلية أو الاقليمية ، وقلة انتشار الاتجاهات النفسية التى يتطلبها المجتمع الصناعى مثل احترام العمل اليدوى والعمل باجر وتقديس الوقت وتقدير الواجب والمسؤولية واحترام النظام والقانون والطاعة للقيـــادة والمشرفين ، وضيق الرقعة الزراعية أمام ضغط تزايد السكان ، واختلال الميزان التجارى بسبب انخفاض قيمة الصادرات وازدياد قيمة الواردات ، وضيق القاعة الانتاجية وعـــــدم التنوع فى مصادر الدخل القومى الى غير ذلك من المشكلات الكثيرة التى تخضع لهـا البلدان الاسلامية بدرجات متفاوتة والتى يمكن للتصنيع ان يساهم فى حلها أو التغلب عليهـــا ٠

ولكن تلك الفوائد وهذه المساهمة المتوقعة من التصنيع فى حل مشكلات المجتمع الاسلامى ينبغى أن لا تتحول بين المسلمين وبين تكوين النظرة الصحيحة الواقعية اتجاه التصنيع ٠ انه من واجبهم ألا يكونوا متفائلين أكثر من اللازم والا يتصــــوروا أن التصنيع هو البلسم الشافى لكل أمراضهم ومشكلاتهم و أن التصنيع خال من المشاكل والآفات والعيوب أو انه الوحيد القادر على التقدم بهم وانتشالهم من التخلف الذى يعيشون فيه ٠ كما ينبغى ألا تحول تلك الفوائد والمساهمة التى أشرنا اليها بـــــين المسلمين وبين رؤية المشكلات والآفات والعيوب التى ارتبطت بالتصنيع فى البلـدان المتقدمة ، سواء كانت من فعله أو من فعل عوامل خارجية مصاحبة له ، وذلك لدراستها وتحليل أسبابها وخلفياتها وأخذ العبرة منها والعمل على تجنبها أو التخفيف مـــــن آثار بقـــدر الامكان ٠

ومن واجب المسلمين أن يكونوا على وعى بالمشكلات والعقبات التى تقف عادة فى سبيل مسيرة التصنيع ليعدوا العدة لها ويرسموا الخطط القصيرة والطويلة المــــدى لمواجهتها ومن هذه المشكلات أو العقبات يمكن أن نشير فى ايجاز الى ما يلى :

1) عدم توفر الاموال الكافية لاقامة مشروعات صناعية كبيرة وشراء أحدث الآلات ·

2ـ عدم توفر المواد الخام محليا أو عدم وجودها بالكمية المطلوبة لمدة طويلــــة أو بالجودة المطلوبة ·

3 ـ قلة أو عدم كفاءة الامكانيات والوسائل المساعدة للتصنيع ، وذلك مثل مصادر المياه والطاقة وسبل المواصلات ، ووسائل النقل وتوزيع المنتجات على الاسواق، ومرافق التخزين والصرف ، وما الى ذلك ·

4 ـ عدم وجود الايدى العاملة المدربة وقلة الكفاءات الفنية والادارية القادرة على التخطيط والتصميم والتنفيذ والتوجيه والمراقبة والمتابعة والتقويم والقادرة على القيام بالعمليات الاخرى المتداخلة مع عمليات التصنيع مثل عمليات التغليف والتوزيـــع والتسويق والتصدير وما الى ذلك · فالصناعة تحتاج عادة الى أربع فئات من المهارات الفنية ، فئة المهارات المطلوبة للادارة ، أى الكفاءات التى ستكون مسؤولة عن الانشطة الرئيسية فى الصناعة ، وهى الانتاج والبيع والشؤون الادارية ، والشؤون المالية ، والفئة الثانية هى فئة المهندسين والفنيين والكيمياويين والمحاسبين وغيرهم · والفئة الثالثة هى فئة الكتابيين الذين ينجزون الاعمال الكتابية · والفئة الرابعة هى فئـة العمال الذين يؤدون عملا يدويا أو يشرفون على تشغيل الآلات · ومن المشكلات التى تواجهها البلدان النامية بالنسبة لهذه الفئات هى أن الفئة الاولى تكون غير موجودة فيها وأن الفئات الثلاث الباقية منخفضة انتاجيتها ·

5 ـ عدم القدرة على مزاحمة صناعات الدول المتقدمة فى الخارج ، وصغر أسواقها المحلية نسبيا وانقسامها الى شطائر صغيرة بسبب المسافات التى تفصل بينها ·

6 ـ عدم توفر المعلومات الصناعية والبيانات الاحصائية والمواصفات القياسية المرغوبة ، وفقدان الاساليب المتطورة فى التشغيل ، وهى ما يطلق عليها أسرار الصنعة، لانها تمثل ناتج البحوث المستمرة وتجعل الانتاج مميزا عن غيره من السلع ·

7 ـ عدم وجود تقاليد صناعية راسخة ، وعدم وجود ادارة صناعية كفؤة ، وانخفاض فى ساعات العمل حيث أن ساعات العمل المحددة على مدار العام فى البلدان النامية أقل من ساعة العمل المحددة للعامل فى البلدان المتقدمة بسبب الزيادة الواضحة فى عدم أيام الاجازات الرسمية فى البلدان النامية ، وفقدان الانضباط وعدم المحافظة على وقت العمل « فكثيرا ما يبدأ العمل وينتهى فى غير المواعيد المحددة ، كما ان فترات الراحة تطول عادة عن المدة المقدرة لها » · (7)

هذه بعض المشاكل أو العقبات التى قد تعترض سبيل التصنيع فى البلـدان الاسلامية ، ومن واجبها أن تعد العدة لها وتواجهها بالعلم والايمان والصبر والحكمة لتستطيع شق طريقها الصناعى بنجاح ولجعل الصناعة بها محققة للفوائد المرجوة منها ومساهمة فى التنمية بدلا من أن تصبح عبئا على التنمية ·

خامسـا : الآفات والعيوب التى ظهرت فى بعض المجتمعات الصناعية :

أما بالنسبة للآفات والعيوب التى تصاحب التصنيع والتى ظهرت بالفعل فى المجتمعات المتقدمة صناعيا فان هذه الآفات والعيوب كثيرة متنوعة تكاد تغطى كافـة جوانب حياة المجتمع التى أشرنا اليها عند الحديث عن فوائد التصنيع ومساهمتـه الايجابية · فكل فائدة يمكن أن يقابلها آفة أو عيب فى جانب من جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، اذا لم تتخذ الاحتياطات والخطوات اللازمـة لتجنبـه ·

ولعلنا لو نظرنا الى أحوال الدول المتقدمة صناعيا لوجدنا أنه بالرغم ما فيها من محاسن تستحق الاقتباس والاستفادة منها ، فانها تعتريها كثير من الشوائب والمساوىء والعيوب والآفات ، نذكر منها على سبيل المثال ما يلى :

---

(7) د. عاطف محمد عبيد ، التصنيع : مبرراته ومشاكله فى الدول النامية (نظرة ادارية بيروت : جامعة بيروت العربية ، 1973 ، ص 17 ـ 20 ، 33 ـ 34 ـ 41 ·

1 ـ فالدول المتقدمة صناعيا تعانى من الناحية الثقافية : ضعفا فى الوازع الدينى وطغيانا للقيم المادية ، واحساسا بالفـراغ الروحى المفجـــع وتنكرا لتراثها الماضى ولتقاليدها حتى الاصيل منها ، وانتشارا لدعوات الالحاد وموجات الرقص كالهيبيــة وغيرها الى غير ذلك من المساوى الثقافية ٠

2 ـ وهى من الناحية الاجتماعية يغلب على سكان المدن الكبيرة والمدن الصناعية فيها النزعة الفردية وفقدان التراحم والتعاطف فيما بينهم ، وتغلب روح التنافس على روح التعاون فيما بينهم وتحلل أو ضعف فى الروابط الاسرية ، وتحرر فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، وانتشارا للفساد والعبث من كل نوع ،وانتشار للجرائم الخلقية والاجتماعية ، وانحدار نحو الترف والشهوات والمتع الحسية وانعدام للنخوة والحمية والعصبية التى هى ضرورية للدفاع عن الاوطان والاهل والشرف ، وتفنن فى الاغراء من أجل الاغراء ، وفقدان للوحدة والانسجام والتجانس بين شعوبهـــا ، وغلبة الاتجاه النفعى على العلاقات السائدة فيها ، وتفش للامراض النفسية والعصبية بين أفرادها الى غير ذلك ٠

3 ـ ومن الناحية الاقتصادية فان تلك الدول المتقدمة صناعيا بالرغم من كل ما حققته من تقدم اقتصادى كبير فانها لا تخلو من المساوىء والعيوب والمصاعب ذات الطبيعة الاقتصادية أو التى لها صلة بالنواحى الاقتصادية فمع الثورة الصناعية ازدادت متاعب العمال الاقتصادية والصحية والاجتماعية بسبب سوء الثروات والاستغـــلال السىء من قبل أصحاب المصانع ورؤوس الاموال وقلـــة العناية بالاحوال الصحية والسكنية والامنية للعمال ٠ فالاهتمام الاول لاصحاب المصانع هو بزيادة الانتـــاج وبالحصول على أكبر عائد ممكن من العمال ٠ (8)

ومن الثورة الصناعية أيضا « فقدت اجتماعيات العمل البساطة التى كانت تتسم بها على عهد الصناعات اليدوية حين كانت الوحدة الانتاجية صغيرة لا تنفصل فيهـــا صفة صاحبها كرب عمل عن صفته كعامل فهو يتصل بعماله فى الليل والنهـــار ،

---

(8) دكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن وآخرون ، التنمية الاقتصادية والحركة التعاونية فى البلاد العربية مصر ، سرس الليان ، مركز تنمية المجتمع 1962 ص 1 ٠

داخل مقر العمل وخارجه • زميلا يمارس معهم نفس العمل تحت نفس الظروف وصديقا يبادلهم الود ويشاطرهم الآمال والآلام ••• » •

والمجتمعات الصناعية عرضة للتضخم تارة وللانكماش والكساد تـــارة أخرى • والتضخم فى هذه المجتمعات لم يعد قاصرا على أوقات الحروب ، بل أصبح له وجود فى تلك المجتمعات حتى فى أوقات السلم يقلق بال الناس خاصة ذوى الـــدخل المحدود منهم ، ومن بينهم العمال ، لانه يهبط بمستوى معيشتهم ، ويخفض من قيمة العملة التى يستعملونها ، ويسلبهم معظم دخولهم ولا يمكنهم من الادخار ، ويشجع على المضاربة فى الاسواق واذا استمر التضخم وأصبح فاحشا يضر بالانتاج وينقص الاستثمار ويؤخر النمو ، ويهبط بالمستوى المعيشى للشعب (9) •

وقوة روح التنافس فى المجتمعات الصناعية كثيرا ما يضر بمصالح العمال ويـؤدى الى التهاون فى تحسين مستواهم المعيشى وفى حقوقهم ، خاصة ما كان من هذا التنافس فى ميدان التجارة الدولية حيث ان « المنتجين فى مختلف الـــدول يحاولون تـرويج انتاجهم خارج بلادهم ، ويبذلون فى هذا كل ما تسعه جهودهم • ومن أهم ما يعين على رواج سلعة ما انخفاض سعرها بالنسبة لمثيلتها الناتجة عن دولة أخرى • ومن أهـم أسباب انخفاض السعر خفض التكاليف وفى مقدمتها الاجـــور • لذلك كان المنتجون يترددون فى رفع أجور عمالهم وتحسين ظروف العمل لهم • كما كانت الحكومات نفسها تتردد فى رفع الاجور العمالية قسرا والزام أصحاب الاعمال بالتحسينات الملائمة فى ظروف العمل ، حتى لا ترتفع اسعار السلع التى تنتجها الدولة فتنكفى على عقبيها فى ميدان المنافسة التجارية الدولية •

ان تحسين ظروف العمل يستلزم زيادة نفقات الانتاج ، ومن ثم يتعرض المنتج لخطر ارتفاع سعر سلعته ، بحيث لا يمكنه بيعها فى الاسواق العالمية ، حيث منافسة المنتجين فى الدول الاخرى •

---

(9) جون فليب ورينت ، الرخاء بدون تضخم • (ترجمة د. حسين عمر) ، القــاهرة مكتبة القاهرة الحديثة • ص 6 ـ 7 ـ 12 ـ 26 ـ 52 •

4 ـ واما فى المجال السياسى فانه من بين الآفات والعيوب التى جرها التصنيع أو ارتبطت بـه فى الدول المتقدمة هـو ذلك الصراع الحاد بين أصحاب المصانع والعمال ، وزيادة الصراع الطبقى بين طبقة أصحاب رؤوس الاموال التى تملك وسائل الحيـاة وضرورتها وطبقة العمال التى لا تملك شيئا سوى عملها ، وزيادة اضطرابات العمال وكثرة مطالبهم واضراباتهم وعنفهم وتحيزاتهم السياسية التى كثيرا ما تشغل العمـل السياسى وتسبب حالة من عدم الاستقرار فى البلاد ٠

ـ وفى تلك الدول كثيرا ما يصبح أصحاب المصانع أنفسهم وأصحاب الاعمال بصورة عامة من جماعات الضغط السياسى يؤثرون فى سير الانتخابات وفى القرارات السياسية بشتى الوسائل والطرق « وتترسم جماعات الضغط استراتيجية عامة للتأثير فى الهيئات التى تتخذ القرارات التى تمس الصناعة » ٠ ولذلك تحاول التأثير فى الرأى العـام باستخدام وسائل الاعلام المختلفة الى جانب عقد الاجتماعات العامة ٠ وأدركت الحكومات المختلفة أهمية جماعات الضغط ٠٠٠ ، حتى أصبحت قبل أن تصدر قانونا من القوانين تشكل لجانا استشارية لعرض ذلك القانون عليها لابداء الرأى فيه (10) ٠

والحكومة عندما تصبح موالية لاصحاب الاعمال ورجال الصناعة تصدر القوانين التى تحمى مصالحهم ، وتضع السياسة الضريبية المناسبة لهم ، وتتغاضى عن توقيع الجزائات على الشركات التى تخالف قوانـين العمل والقوانين الاقتصادية ، فى الـوقت الـذى لا تتسامح فيه مع نقابات العمال عندما تخالف قوانين العمل ٠ وقد يصل رجـال الصناعة والاعمال فى قوتهم الى الدرجة التى بها يستطيعون تغيير الحكومة أو احتواءها والسيطرة عليها ، متخذين فى سبيل ذلك شتى الوسائل والسبل التى قد تكون من بينها شراء وسائل الاعلام المختلفة ومنح المؤيدين لهم من رجال الدولة عضوية مجالس الادارات الصناعية ومجالس المصارف الكبرى وما الى ذلك ٠

هذه بعض الآفات والعيوب التى يمكن للباحث ان يلاحظها بسهولة بدرجات متفاوتة فى المجتمعات المتقدمة صناعيا ، سواء كانت غربية أم شرقية ٠ وهى أبرز ما تكون فى المجتمعات الغربية الرأسمالية ٠

---

(10) د. محمد عبد الله أبو على ، الصناعة والمجتمع ، ص 164 ـ 165 ـ 169 ٠

5 ـ ولعل أخطر هذه الآفات والعيوب التى يهم مجتماعتنا الاسلامية أن تتعرف عليها وأن تسعى لتجنبها فى مسيرتها الصناعية هى الآفـــات والعيـوب الروحية والخلقيـة والاجتماعية المتمثلة فى : ضعف الوازع الدينى ، وانتشار موجات الالحـــاد والرفض والنزعة السلبية فى الحياة خاصة بين الشباب والتحلل الخلقى وانتشار الفساد والجرائم من كل نوع ، وضعف العلاقات والروابط الاجتماعية ، وتحـــلل العلاقات والروابط الاسرية بالذات وكثرة الازمات الاسرية وضعف السلطة الابوية والرقابة الاسرية وزيادة نسبة الطلاق كاحد المؤثرات المعبرة عن تفكك الاسرة والانسلاخ من العادات والتقاليد الاصيلة فى المجتمع وعن تراث الماضى ، والفروق الشاسعة فى المستويات الاقتصادية والاجتماعية وما ينشأ عنها من شعور بالظلم والحقد قد يهدم وحدة وتماسك المجتمع ويؤدى الى عدم تكامله ، الى غير ذلك من الآفات والعيوب من هذا النوع ٠

ان كل خسارة تهون اذا كانت فى غير الدين والاخلاق والتقاليد الصالحة الاصيلة أما اذا وصلت الآفـات والعيوب والمساوىء الى الجوانب الروحية والخلقية والاجتماعية فانه لا يمكن للمسلم أن يسكت عنها ، ومن واجبه أن يبذل أقصى جهد لتجنبها وتجنب العوامل والاسباب التى تؤدى اليها حتى يستطيع المحافظة على دينـه وخلقـه وهويته الاسـلامية المتميـزة ٠

سادسا : الاسباب التى تكون وراء آفات وعيوب التصنيع فى المجتمعات المتقدمة :

ومن واجب المجتمعات الاسلامية وهى تسلك سبيل التصنيع أن تدرس أسباب تلك الآفات والعيوب التى صاحبت الثورة الصناعية فى البلدان المتقدمة فقد تكون هـذه الاسباب مستقلة عن الصناعة فى حد ذاتها ٠ وفى هذه الحال يمكن فرزها وفصلها ورسم خطة صناعية بدون تلك الآفات والعيوب أو بأقل قدر منها ٠ ومن ملاحظاتنا الشخصية ومن اطلاعنا على نتائج الدراسات التى أجريت فى هذا الخصوص يمكننا تلخيص هـذه الاسباب فيما يـلى :

1 ـ الحرية الاقتصادية الفردية والنزعة الفردية المطلقة اللتان يقوم عليهما النظام الرأسمالى ، خاصة فى شكله التقليدى ٠ والحرية الاقتصادية من شأنها أن تدعوا الى

المنافسة التى قد تصبح ضارة للمجتمع وبالمصلحة العامة • وذلك عندما يعمل كل فرد « لتحقيق مصالحه الخاصة ويهدف للحصول على أكبر الارباح لنفسه ويرمى الى اشباع كل ما يستطيع من حاجات لذاته ، بغض النظر عن مصالح الآخرين » • والحرية الاقتصادية المطلقة تؤدى فى أغلب الاحيان الى ظهور الاحتكارات التى تضر قطعا بجمهور المستهلكين بسبب ما تؤدى اليه من رفع اثمان البيع فهى تتيح لبعض المنتجين التحكم فى مورد أو أكثر من الموارد الاقتصادية كما تسمح لهم لعقد اتفاقات فيما بينهم تتعلق بتحديد كمية الانتاج لكل منهم أو توزيع أسواق الاستهلاك عليها أو تحديد أسعار بيع منتجاتهم (11) •

2 ـ سيادة روح التنافس واتخاذ العمال وقودا لهذا التنافس بدون مراعاة لصالحهم وصحتهم وصحة أسرهم ودون مراعاة لما يعانونه من متاعب صحية وسكنية ومعيشية خاصة أمام التضخم الاقتصادى الفاحش أو الارتفاع الزائد لتكاليف المعيشة ، بحيث أصبحت لا تفى بها دخولهم المحدودة ، حتى على فرض ضمان العمل لهم • على أن العمل غير مضمون لهم على الدوام وكثيرا ما يتعرضون للبطالة لفترة طويلة أو قصيرة

3 ـ انفصال العمال عن مجتمعاتهم المحلية التقليدية بسبب انتقالهم الى مجتمعات صناعية تختلف فى العلاقات السائدة فيها وفى أسلوب الحياة فيها عما هو سائد فى مجتمعاتهم المحلية التقليدية الاصلية • ففى المجتمع الصناعى تفقد البساطة فى البناء الاجتماعى والوحدة والتجانس والانسجام والوحدة والعلاقات الشخصية الدائمة التى يتميز بها المجتمع المحلى ، كما تنقص فيه الرقابة الاجتماعية • ويصبح العمال فيه يعاملون كأدوات للانتاج وتصبح العلاقات التى تربطهم بادارة المصنع علاقات غير شخصية ومؤقتة ومنفعية

4 ـ اكتضاض المناطق الصناعية بالسكان وتلوث جوها بآثار الصناعة •

5 ـ زيادة أوقات الفراغ فى المجتمعات الصناعية وعدم توفر المرافق والمؤسسات الكافية لتقضية أوقات الفراغ فى أنشطة بريئة وبناءة مفيدة مما يضطر الناس لتقضية فراغهم فى الملاهى والحانات وغيرها من الاماكن الضارة أو فى التسكع فى الشوارع •

---

(11) د. محمد حمدى انتشار النظم الاقتصادية (سلسلة الكتب الدراسية رقم 47) • جامعة اسيوط ، 1965 ، ص 49 – 54 •

6 ـ انشغال كل من الاب والام بالعمل الخارجى وقلة فرص اللقاء بين أفـراد الاسرة مما له تأثير فى ضعف العلاقات الاسرية وضعف رقابتها ٠

7 ـ ترك العنان للصحافة ووسائل الاعلام المختلفة لتتملق الغرائز وتلهب الشهوات وتبث ما تشاء من الاغذية السامة وتروج للمبادىء الالحادية والمادية ، وتسلى النـاس على حساب الدين والاخـلاق ٠

8 ـ ولعل أهم هذه الاسباب جميعا التى تهمنا فى هذا الملتقى هو ابعاد الدين عن شؤون الحياة وفصله عن الدولة وطغيان المادة والقيم المادية والمصالح المادية وما ترتب على ذلك من ضعف فى العقيدة وفى الوازع الدينى ومن تحلل خلقى ومن اهمال للحاجات الروحية فى النظـــم الاقتصادية فى تلك البلـدان والمجتمعات الصناعية ٠ فالنشاط الاقتصادى فى هذه البلدان والمجتمعات يكاد يقتصر على تحقيق المصالح المادية ، سـواء كانت هذه المصالح المادية هى تحقيق أكبر قدر من الربح كما هو الشأن فى الاقتصاد الرأسمالى ، أم اشباع الحاجات العامة وتحقيق الرخاء المادى كما هو الشأن فى الاقتصاد الاشتراكى (الشيوعى) ٠ فالنشاط الاقتصادى ذو صبغة ماديـــة ٠٠٠ وان اختلفت صورته باختلاف النظام المطبق رأسماليا أو اشتراكيا (ماديا) ٠ وفى ظل هذه النظم الاقتصادية الوضعية لا يتجاوز النشاط الاقتصادى حدود المادة ٠

وخطأ هذه النظم أنها تصورت الانسان مادة فحسب وان حقيقة العالم تنحصر فى ماديته وان الكسب المادى أو الكفاية المادية هو كل حياة البشر ومن ثم كان هذا الفراغ الروحى أو ذلك الافلاس النفسى الذى تعانيه المجتمعات التى تدين بهذه النظـــم ٠٠٠ (وفى ظل هذه النظم المادية) ، الرقابة فى مباشرة النشاط الاقتصادى هى أسـاسـا رقابة خارجية مناطها القانون وهى رقابة محدودة قاصرة وفى كافـة النظم الاقتصادية الوضعية المصالح المادية : سواء كانت فى صورة تحقيق أكبر قدر من الربح أو تحقيق الكفاية والرخاء المادى ، مقصودة لذاتها (12) ٠

---

(12) د. محمد شوقى الفنجرى ، الجمع بين المصالح المادية والحاجات الروحية ، مجلة الوعى الاسلامى ٠ السنة الحادية عشر العدد (131) ، نوفمبر 1975 ، ص 38 ـ 44 ٠

والطغيان المادى فى المجتمعات المادية لم يعد قاصرا على الجوانب الاقتصادية ، بل تعداه الى كافة جوانب الحياة ، حتى العلاقات التى تربط بين الناس ، والقيم التى تحكم تصرفاتهم والعقائد التى يدينون بها وطرق تفكيرهم وقد ساد من جراء ذلك الفكر المادى والعلمانى وانتشر الالحاد والفوضى الروحية والتحلل الخلقى والاسراف فى التمتع بملذات الحياة ٠

وقد أصبحت هذه المجتمعات المادية مغترة بتقدمها العلمى والتقنى وفاتها آن تقدم العلم أو التكنولوجيا ـ لا يستلزم تقدم الانسانية فى سلوك الانسان ٠ لان التقدم فى السلوك الانسانى يرجع أولا وأخيرا الى تقلص مجال الانانية واتساع المجال الجماعى فى تفكير الانسان وفعله وسلوكه على السواء ٠

تقدم العلم قد يساعد على تحكم الانانية وتقدم التكنولوجيا قد يساعد على الانحراف فى استغلال الطاقات المهنية للانسان ٠ وأحداث العالم اليوم واحتكاك الشعوب بعضها ضد بعض هى احدى نتائج الانانية فى المجتمعات ذات التقدم العلمى والصناعى ٠

هذه المجتمعات المادية فى تقدمها العلمى والتكنولوجى تخدم غرضا واحدا هو غرض الصراع هو غرض الارهاب فالافناء ٠ وفى الوقت نفسه موجات الظلم والفساد والانحلال والسخرية بدين الله التنديد بالضعفاء والاعتزاز بالقوة المادية وحدها تعد من الظواهر الواضحة الاتجاه هذه المجتمعات ٠ (13)

هذه هى ابرز الاسباب التى تكمن وراء مشكلات المجتمع الصناعى الحديث وعيوبه وآفاته ولعل الذى يهمنا من هذه الاسباب هو السبب الاخير المتعلق بالانحراف نحو المادة فى كافة جوانب الحياة وأهمال القيم الروحية لانه فى نظرنا هو السبب الرئيسى فى تلك الآفات والعيوب والمساوىء الروحية والخلقية والاجتماعية التى تعانى منها المجتمعات الصناعية ٠

ولعل المتأمل فى طبيعة تلك الآفات والعيوب وفى الاسباب التى ذكرناها لها يجد أنها فى مجموعها لا تكمن فى طبيعة الصناعة نفسها وانما هى اعراض وعوامل مصاحبة

(13) د. محمد البهى « آثار المادية فى سقوط المجتمع » مجلة الوعى الاسلامى السنة الحادية عشر العدد (132) ، ديسمبر 1975 ، ص 30 ـ 41 ٠

لها · وهذا من شأنه أن يبعث فينا الامل فى أن نتوصل الى نظام اقتصادى وصناعى يخلو بقدر الامكان من تلك العيوب والآفات والمساوىء الروحية والخلقية والاجتماعية وذلك اذا ما استطعنا ان نستمد فلسفة هذا النظام واهداف سياسته واخلاقياته ومعايره من مبادىء وتعاليم ديننا ومن قيمنا وتقاليدنا الاصلية ومن تراثنا الاسلامى وأن نطبقه ونمارس وقائعه فى هذا الاطار ·

سابعا : الطريق الامثل لتجنب هذه الآفات والعيوب فى المجتمعات الاسلامية :

واذا ما حاولنا أن نبحث عن امثل السبل لتجنب تلك الآفات والعيوب فى ضوء الاسباب التى ذكرناها لها وفى اطار قيمنا الدينية فاننا نجد ان من أهم هذه السبل ما يلى :

1 ـ العمل على توجيه الحرية الاقتصادية وعلى التخفيف من حدة التنافس فى المجال الاقتصادى بحيث لا يبقى من ذلك الا ما هو ضرورى للحفز على العمل وبذل الجهد وزيادة الانتاج وعلى تحسين الانتاج واذكاء روح المبادءة والابتكار · ان كثيرا من الافكار الاقتصادية والاجتماعية القديمة التى كانت تسود الاجتماعات الانسانية فى الماضى قبل فكرة الملكية الفردية المطلقة وفكرة الفردية المطلقة ، وفكرة الحرية الاقتصادية التى ليس لها حدود وفكرة التمييز بين الطبقات لم تعد مقبولة من المجتمعات فى الوقت الحاضر وبدأت تحل محلها فى القبول افكار تقابلها قد يكون من بينها فكرة الملكية الفردية وظيفة اجتماعية وفكرة التعاون والتضامن الاجتماعى وفكرة رأس المال فى خدمة المجموع وفكرة تذويب الفوارق بين الطبقات والمساواة فى الفرص بين الجميع وفكرة التوجيه الاقتصادى والتخطيط الاقتصادى والاستخدام الامثل للموارد المتاحة من قبل الدولة · (14)

وفى اطار هذا السبيل لابد ان يعمل على نشر روح التعاون والوعى التعاونى فى كافة ارجاء المجتمع وربط فلسفة التعاون بمبادىء الدين الاسلامى وقيمه وعلى اقامة

(14) د. محمد حمدى انتشار النظم الاقتصادية ، ص 14 ـ 15 ـ 63 ـ 81 ـ 85 ·

شركات المساهمة التى يستطيع أن يساهم فى رأسمالها أكبر عدد ممكن وعلى خوض تجربة مشاركة العمال فى رأس مال الشركات التى يعملون بها وفى أرباح هذه الشركات وعلى التقويم لهذه التجربة ٠

2 ـ بذل الجهد للحيلولة دون حدوث التضخم الفاحش الذى يضر بمعدل الانتاج وبمستوى الكفاية الانتاجية وينقص من مقدار الاذخار والاستثمار ويرهق ذوى الدخل المحدود لان ما يتقاضون من اجر أو دخل يفقد قيمته أو يقلل من قيمته الشرائية وسبل مقاومة التضخم يعرفها الاقتصاديون وليس من اختصاصنا ، ولعل من أهمها : أحداث التوازن بين العرض والطلب وبين تدفق النقود ومعدل الانتاج وتخفيض كمية النقود لتحد من مستوى الطلب الفعلى ، وزيادة الانتاج ورسم وتحقيق سياسة ترمى الى تحقيق الاكتفاء الذاتى بالتدريج ، ورفع الاجور للعمال بما يجعلها تفى بمطالب الحياة وتتمشى مع تكاليف الحياة والتحكم فى الاسعار حتى لا يفقد ارتفاعها أى قيمة لزيادة الدخـل أو الاجر ، ورفع الضرائب على الكماليات وتخفيضها أو ألغائها على ضروريات الحياة مثل الخبز واللبن واللحم وما الى ذلك ، وجعل الطاق ةالانتاجية تسير بالمعدل الذى لا يؤدى الى البطالة ، كما هى الحال عند سرعة الانتاج أكثر من اللازم ، الى غير ذلك من سبل مقاومة التضخم الاقتصادى ٠

ومن واجب الدولة أن تبذل نفس الجهد فى مقاومة الركود الاقتصادى الذى لا يقل فى مضاره عن التضخم ٠

3 ـ العمل المستمر لتحسين أحوال العمال وظروفهم المعيشيـــة والاقتصاديـة والاجتماعية والثقافية والنفسية بما يجعلهم يشعرون بالامن الاقتصادى وبالراحــة فى معيشتهم وبالكرامة الانسانية وبالاستقرار النفسى والثقة بالنفس وبما يرفـع من معتوياتهم ويزيد بالتالى من انتاجهم ويزيد من وعيهم الثقافى الاجتماعى والسياسى ٠ ويتحقق هذا التحسين فى أحوال وظروف العمال عن طريق : التحسين المستمر فى أجورهم وجعلهم يستفيدون من زيادة وتحسين انتاجهم واشراكهم فى رأس مال وأرباح الشركات التى يعملون بها وتحسين ظروفهم السكنية وتوفير الخدمات الصحية الوقائية والعلاجية الصالحة لهم وتوفير الخدمات الاجتماعية لهم بما فى ذلك التامين ضد البطالة

والحوادث والامراض والشيخوخة والعجز ، وتوفير الرعاية النفسية الصالحة لهم ولافراد أسرهم حتى يتحقق لهم التكيف مع أنفسهم ومع المجتمع الذى يعيشون فيه ، وتوفير الاجهزة والوسائل والمرافق والبرامج الصالحة لتقضية أوقات فراغهم فيما ينفعهم وينفع مجتمعهم ويتمشى مع مبادىء وقيم دينهم ، وتقديم الرعاية المناسبة للامومة والطفولة والاحداث فى مجتمعهم وتوفير الخدمات التعليمية والتدريبية الصالحة لهم ولاولادهم ، ورفع مستواهم العلمى والمهنى والثقافى العام باستمرار ، وزيادة قدرتهم على التوافق مع وسائل وعمليات الانتاج المتطورة والمتجددة باستمرار ، وسن القوانين العمالية العادلة التى تعرف العمال بحقوقهم وواجباتهم وتنظم العلاقة بينهم وبين أصحاب العمل ، وتحسين العلاقة بين العمال وبين أصحاب العمل لانه لن يتحقق التقدم الا اذا تحقق التعاون والتفاهم بين الفريقين ، وابراز المكانة الاجتماعية للعامل وابراز قيمة ما يقوم به من عمل ، الى غير ذلك من الامور التى تساعد على تحسين أحوال وظروف العمال وتقلل من المساوىء الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنفسية التى قد يقعون فيها ·

4 ـ الحرص بقدر الامكان على انشاء المصانع داخل المجتمعات المحلية أو قريبا منها على الاقل لتبقى الروابط والعلاقات الاجتماعية السائدة بين العمال هى نفس الروابط والعلاقات فى المجتمعات المحلية القريبة منها وليعيش العمال بين اهلهم واقاربهم وليخضعوا للرقابة الاجتماعية وللتقاليد التى يخضع لها مجتمعهم المحلى ، وفى حال تعذر اقامة العمال فى مناطق سكناهم الاصلية فانه ينبغى الحرص على انشاء قرى نموذجية لهم مكتفية ذاتيا باسواقها ومرافقها ومدارسها ومراكز خدماتها الصحية والاجتماعية والترفيهية والانمائية والاهتمام بالبدائل التى تعوضهم عما فقدوه من روابط قوية فى مجتمعاتهم المحلية · ومن هذه البدائل النقابات العمالية ، والنوادى الرياضية والثقافية والاجتماعية والجمعيات التعاونية ، وما الى ذلك من الوسائل المساعدة على تقوية الروابط الاجتماعية بينهم ·

5 ـ ارساء قواعد الدين وتوطيد اركانه فى حياة المجتمع وربط شؤون الحياة بتعاليمه واحكامه واتخاذ مبادئه وقيمه المنطلق الرئيسى لفلسفات وسياسات مجتمعاتنا

الاسلامية الاقتصادية والصناعية والمصدر الرئيسى للقيم الخلقية فى هذه المجتمعـات والربط بين المصالح المادية والحاجات الروحية للفرد والمجتمع المسلم فى جميع الخطط الانمائية بما فى ذلك خطة التنمية الصناعية وتقوية الوازع الدينى وتأكيد قداسة الدين فى النفوس عن طريق التربية الدينية والخلقية الصحيحة وعن طريق تأكيد احترام السلطة الزمنية واتخاذها الحارس للقيم الدينية والخلقية وللحريات والمصالح الفردية المشروعة ومصالح المجتمع ومكتسباته • انه لابد من الجمع بين هدى الدين ووازع السلطان ورضى الله عن الخليفة الراشد عثمان بن عفان حين قال : « ان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » •

ان الاخذ باسباب التقدم الاقتصادى والصناعى يجب أن لا ينسينا مبادىء وتعاليم وقيم ديننا الاسلامى وأن لا يفقدنا أصالتنا وهويتنا الاسلامية وألا يسلخنا من تراثنا وماضينا المشرق ان التقدم الحقيقى فكرا واقتصادا هو الذى يهضم ماضى الامة ويستوعب مشكلاتها الحضارية وينطلق من تمثل الماضى واستيعاب الحاضر الى مستقبل زاهر كريم ويؤكد الجانب الروحى فى الكيان البشرى ويربط العلم بالايمان والقوة بالرحمة وتكون وجهته وغايته رضا الله وخشيته وتحقيق كرامة الانسان وتقوية الفرد والمجتمع مـن جميع النواحى •

هذه بعض السبل العامة التى ينبغى أن تتبع لتحقيق تقدم اقتصادى وصناعى خال بقدر الامكان من العيوب والمساوىء الموجودة فى المجتمعات الصناعية المتقدمـة والله أعلـم •

الاستاذ المرحوم عثمان الكعاك فى الملتقى العاشر

آخر تعليق للمرحوم عثمان الكعاك فى الملتقى وكان ذلك على محاضرة الدكتور احسان عباس



سيادة الوزير ،

أيها السادة العلماء الافاضل ،

أبنائى الطلبة ، بناتى الطالبات ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

« قيل للارنب أنت ضعيفة وهزيلة وتاكلين دائما العشب ، فلماذا لا تاكلين اللحم ؟ قالت : « هل سلمت بلحمى حتى آكل لحم الناس ؟ ! » وأظننى فى الصباح لم أسلم بلحمى ، ولكن مع ذلك فأنا أندلسى عنيد ، ولست رحيما ، فأنا ما عليش اذا آكل لحمى ، ويقول المثل العربى : « من غربل الناس نخلوه » . أبدأ بشكر الدكتور العظيم العالم المتزن المرتب المنظم المبرمج لاعماله والمبرمج لحياته العلمية أيضا على هاته المحاضرة القيمة التى القاها ، وأبدأ فاقول : لماذا يا سيدى تتهم نفسك ، فأنت تقول : انك لا تعرف صلات الحضارة المغربية بالاوروبيين الى غير ذلك ·· أنا لا أسلم بذلك . ومن ناحية أخرى لا سبيل لاى انسان لم يزر بلدا ولم يطل المقام فى بلد أن يكون محيطا احاطة كلية بجميع ما يوجد فى ذلك البلد · ذكر أستاذنا الكريم ان مصادر انتقال العلوم والآداب والفنون الى أروبا ثلاثة : الاندلس من ناحية ، صقلية من ناحية ثانية ،

(*) هذه الصورة أخذت لفقيدنا ببضع سويعات قبيل وفاته بسكتة قلبية على سريره ·

والحروب الصليبية من ناحية ثالثة ٠ هناك يا سيدى أيضا القيروان ، وهنالك يا سيدى أيضا المهدية ، وهنالك يا سيدى أيضا بجاية ، وهناك ياسيدى أيضا تلمسان ، وهنالك يا سيدى أيضا فاس ! فلنأخذ بجاية مثلا : بجاية كانت مصدرا عظيما وقويا للعلم ، وفى بجاية جاء « فيكاجو نارى بيزانى Ficagonari Pizani وأبوه ، وذهبا الى الشيخ عمر من هو ؟ لا نعرفه ، وهناك تعلم الرياضيات ، أولا الارقام العربية ، وثانيا الحساب والجبر والمثلثات الى غير ذلك ٠٠٠ وهنا نفتح القوس ونقول ان هاته العلوم الرياضية دخلت الى أروبا عن طريقين ؛ عن طريق طليطلة وبواسطة محمد الخوارزمى الذى لا يزال اسمه موجودا فى كلمة algorithme ، وفى كلمة logarithme ، ولكنه نقل الى أروبا الارقام الهندية ، ونقل الى أروبا « ساندهاندا » التى هى كتاب وضعه الهنود فى علم الحساب ، والفرق بين الطريقة العربية المغربية والطريقة العربية الموجودة فى الاندلس فى الاول ، هو أن الفروق بين منازل الآحاد والعشرات والمئات وهلم جرا كانت مفصولة بما يسمى بالآباك ، ويسمى الى اليوم فى المغرب بالحمار ، أى بفصول أو بسطور ، بحيث أن دار الآحاد موجودة لوحدها ، ودار المئات لوحدها وهلم جرا ٠ عندما جاء العلم الى بجاية ، رفعوا هذه الآباك ، هذا الحمار ، نحن لا نحتاج الى الحمير والحمد لله ، فصارت الارقام لها قيمة منزلية ، يعنى لها منزلة قيمية ، الواحد على اليسار واحد ، فاذا صار على اليمين فعشرة فاذا زاد على اليمين فمائة الخ ٠٠٠ وهذا له أهميته الكبرى لان القدماء من يونان ورومان كانوا يكتبون بالحروف Alpha Beta Gamma وهى طريقة الابجد عندنا ، لكن هذه الطريقة لا يمكن أن يقام عليها حساب ، فلما جاءت الارقام العربية ــ ثم أن الارقام الهندية لا يدل الرقم على قيمته من نفسه ــ فلما جاءت الطريقة المغربية ، صار الرقم يدل على قيمته من نفسه ، فأنت اذا رأيت واحدا ، فكم من زاوية فيه ؟ اذا كانت واحدة فهو واحد ، واذا كانت زاويتان حينئذ اثنان ، ثلاث زوايا حينئذ ثلاثة ٠٠٠ الى غاية تسعة ، فلما انتهينا الى تسعة وقفنا فى الآحاد ، فاذا أردنا أن ننتقل الى العشرات وجب أن نستعمل الصفر علامة الخلاء

وجعلوا الصفر علامة الخلا ★ مدور كمثل حلقة جلا

اذن فالصفر لم يعد نكتة السندا حدا ، فالصفر صار مدورا ، هذا هو الانقلاب العربى الكبير ، فلما ذهب الصفر العربى الى أروبا ، أخرجها من صفرها !٠ وذهب فيكاجونارى ــ Ficagonari الى مدينة بيزا ، فجعلها عاصمة رياضيات الى يوم الناس هذا ٠ ثم فى مدينة بجاية أيضا جاء رامون لول Ramon Lull الذى كان انتقاله سهلا لانه كان من جزائر الباليار أو الجزائر الشرقية ، وفى بجاية تعلم ، لانه يريد أن ينصر البجائيين بعد

أن يتعلم لغتهم وفقههم فيقنعهم بنظرياتهم وبعكسها ، لكن عوض ان يستولى على المسلمين استولى المسلمون عليه ، ولله فى خلقه أسرار ! فوضع كتـاب « أرس ماقنـا Ars Magna » الذى أخذ اصوله من عند العرب ، وذهب الى الاوروبيين يقول لهم : « ايها السادة ، يجب أن نفعل مثلهم ، او ان نتخلى عن الميدان » ، وهذا شيء عظيم . اذا رجعنا قليلا الى شـرق المغرب ، ذكر الدكتور حفظه الله ان الترجمة انتقلت مـن ايطاليا بواسطة جـيراردو Girardo الكريمونى الى طليطلة ، لكن مـن علـم جيراردو الكريمونى أيها السادة ؟ الاستاذ الكبير الذى علم جيراردو هو قسطنطين الافريقى ، أى التونسى ، الذى كان تاجرا ثم اختطفه القراصنة البيزنطيون والصقليون ، فأظهر التنصر ، وتعلم اللاتينية جيدا ، وأسس مدرسة ترجمة برباط كاسينو Cassino ، الذى ربما يكون رباط قاسم ، وهناك جاءه جيراردو وغيره ، وتعلموا عنه الترجمة ، ثم لما رأى جيراردو أنه لا سبيل الى أن يبقى مع قسطنطين الافريقى ــ كما رأى زرياب مثلا أنه لا سبيل الى البقاء مع ابراهيم الموصلى ــ انتقل الى بلاط طليطلة ، وهناك أسس مدرسة ترجمة ، وقسطنطين الافـريقى هذا قد ترجم كثيرا ، وتحدثت عن هذا فى هذا الصباح .

ما هو سبب ازدهار العلوم الرياضية هذه فى المغرب والاندلس ؟

لان فى طليطلة كان بيت الحكمة ، وفى قرطبة كان بيت الحكمة ، وفى القيروان كان بيت الحكمة ، فالمسلمون قسموا التعليم الى دينى بحت مع العلوم الآلية ، فجعلوا له الجامع ، والى جانب الجامع ـ وفى جواره على مسافة قليلة منه ـ أسسوا بيت الحكمة ، وبيت الحكمة يشبه ما كان يسمى « ليسيون ــ Lycéon عند اليونان ، يعنى معهدا للترجمة ، ومعهدا للبحوث العلمية ، ومعهدا لتعليم الرياضيات والطب والفلسفة الى غير ذلك ، فكان بيـت حكمة فى القيروان الذى أسسه زيادة الله الثالث ، والذى كان يديره ابراهيم الرياضى البغدادى ، كان مدرسة للطب ، تخرج منها ابن الجزار ، لكن هذه المدرسة للطـب ، فيها أيضا مدرسة للهندسة ومدرسة للفلك ومدرسة للنحو المقارن للغات السامية ، الذى جـاء عن طريق دوناس بن تميم القيروانى الذى ألف كتابا فى النحو المقارن ، فى القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى ، هذا هو الشيء الذى جعل هذه البلدان مركز اشعاع . ثم شيء آخر ، الذى يأتى من الشرق يصل الى القيروان قبل أن يصل الى قرطبة ، لان الى حد القرن الرابع وبداية الخامس ، كانت الحضارة المغربية أرقى من الحضارة الاندلسية بالدليل أن الاندلسيين جاؤوا ليتعلموا فى القيروان وفى سوسة وفى بجاية وفى فاس الى غير ذلك . حينئذ كانت الاشياء الحضارية ، كجهاز أو ما أسميه بالجهاز الثقافى ، وأعنى الكاغد أو

الورق ، فهارون الرشيد عمل غزوة فى الصين وجلب بعض الصناع أسرى ، وقال لهم أنا أطلق سبيلكم وانفق عليكم اذا أنتم علمتم أبناء بغداد ، كل يعلمهم صناعته ، فجـاءهم الكواغدى أو الكاغدى وعلم صناعة الكاغد ، وجاء الغضائرى ــ céramiste وعلـم صناعة الزليج ــ القشانى ــ وجاء صاحب البوصلة وعلم صناعة البوصلة ، وجاء صاحب البارود وعلم صناعة البارود ، وجاء صاحب الطباعة الصينية القديمة الخشبية وعلـم أهل بغداد الطباعة الخشبية وجاء آخر وعلم التجليد ، وهذا دائما فى القـرن الثالث ، والملاحظ أنه فى القرن الثالث نفسه كانت القيروان يصنع فيها الكاغد ، ويصنع فيهـا التجليد ، ويصنع فيها الزليج ، ويطبع فيها ، ولنا أوراق كثيرة وحتى فى دار الكتب المصرية توجد خزانة فيها الكثير من الكتب منها كتاب فى الحديث ، والتى طبعت على الخشب منذ سنة 270 هـ ، فهذه البضاعة الثقافية أو الجهاز الثقافى هو الذى كون ثورة فى الثقافة ، لان وجود الكاغد أيها السادة هو أكبر عامل على انتشار الثقافة ، وقبل ذلك كان الناس يكتبون على جلد الغزال ، مصحف كريم يحتاج الى قتل 500 غزالة فلما جاء الكاغد كانت صناعتـه سهلة لانه يصنع من بقايا الثياب ومن القطن الذى كان يزرع فى تونس الى غير ذلـك ، وأصبحت كل امرأة تحسن طبخ البريك يمكنها أن تصنع الكاغد ، وهكذا اذا كان عندنا كاغد من السهل أن يكون لكل طالب كتابه ليتعلم به .

واذا كان الكاغد صار جائزا أن يكون لنا كراس التمارين ، ولا يمكن أن نتعلم الرياضيات بدون كراس التمارين ، واذا كان الكاغد يمكن لكل مسلم أن يكون له ما شاء من الكتـب بثمن بخس دراهم معدودة هذا مكن أولا من انتشار الكتاب بسرعة البرق ، ومكن ثانيا من أن العلم صار سهل الانتقاء . شىء ثانى عندنا الاربطة ، المرابطون يقسمون وقتهم الى ثلاث ، الثلث للعبادة ، والثلث للحواس الحية أى لمراقبة الحدود ، والقسم الثالث لتعليم الصنعة المدنية التى يشتغل بها فى حياته المدنية احتسابا . فالطبيب يعالج بالمجان، والرباط هو المستشفى ، والكناد يصنع الكاغد بالمجان ، فالرباط هو معمل للكاغد ، والنساخ ينسخ الكتب بالمجان ، فالرباط هو المعمل للنسخ ، والطباع يطبع الكتب بالمجان ، فالرباط هـو المطبعـة للكتاب ، والبريدى ينظم البريد بالمجان الخ ... وهذا مكن وجعل سلسلة ثقافية ، تبتدئ من شمال الاندلس ، وتنتهى فى دمشق ، كما تبتدىء أيضا من مدينة لشبونه فى البرتغال . الى مدينة غانا ، وهناك وسيلة أخرى لنشر الثقافة وهى الحج ، هذا معلوم لدى الناس جميعا ، خصوصا الذى يجب ان نعلمه ان صك السفر travel check يقابله عند المسلمين « المخطوط » حط فى مكتوبك عشر مخطوطات واخترها أن تكون من آخر ما ظهر ،

واذهب الى الحج على بركة الله تعالى تفيد الناس بكتابك تبيعه ، وتشترى كتبـــا أخرى لا توجد فى المغرب ، صارت الكتب تتجول أكثر منمضيفات الهواء ، وهذا ما يفسر أن الكتب تتجول بسهولة تامة ، كما تمشى الدورة الدموية عند السليم ٠ وهناك أمر آخر هو مـــا يسمى ، الذين يسمون الرهادرة ، أو الرهادنه ، وأقـــرب ترجمة لهم ما يسمى بالفرنسية Voyageurs de commerce الانسان الذى يسافر ويطوف بـعربـة يجرها حصان ، يسافر من أقصى الصين ، « وحيدة ، وحيدة !! » الى ان يصل الى نورنبيرغ ، وهو ينقل معه من مدينةكنطون ما يوجد فى الجالية الاسلامية الموجودة فىكنطون من أخبار وما ظهر من كتب ، وما ظهر من أنواع الحرير ، وما ظهر من أنواع الثياب ، فينتقل الى مدينة أخرى الى أن يصل الى البلاد العربية ، ثم الى أن يصل الى الاندلس ثم الى فرنسا ثم الى نورنبيرغ فى ألمانيا هؤلاء كلهم ينقلون الثقافة بسرعة البرق ٠ والعامل الثالث هو وجود الاسواق الكبرى Les grandes foires ، ســـوق فينلندا ، وســـوق هولنـــدا ، وهلـــم جـــرا ، هذه الاســـواق التى يعطى فيهـــا المسلمون ـ لمـــن يريد ان يأتى اليها مـــن النصـــارى ـ رخصا خاصة ، كما كانت تعطى الرخص فى جزيرة العرب أيام الاشهر الحرم ، هذا كان وسيلة كبيرة لنشر العلم والثقافة ٠ بقى بعد هذا أمران : الامر الاول ، الثقافة الادبية ، فالموشح كان له فى الاندلس وفى جنوب فرنسا انتشار كبير ، وكذلك فى ايطاليا وألمانيا ، والموشح فى آخره توجد الخرجة ، وفى نظر غالب الناس أن الخرجة تكون باللغة الاجنبية للاقلية المساكنة للمسلمين ، وباللغة العربية للاقلية المسلمة الساكنة فى بلاد النصارى ، فالموشح فى جنوب الاندلس يكون باللغة الاسبانية ، وفى شمـــال الاندلس تكون الخرجة باللغة العربية ، وفى فـــرنسا كانت الخـــرجة بالعربية ، فالشاعر الفرنسى فى القـــرون الوسطى غيـــوم داكيتان Guillaume d'Aquitaine، عثـــر عـــلى مـــوشح لـــه ، خرجتـــه باللغـــة العربيـــة ، وعند الاتراك فالخرجـــة تكـــون بالعربية ، واذا كان فى البلاد العربية التى فيها أتراك كبغداد ، يكون الموشح بالعربية والخرجة بالتركية ، وكذلك بالاضافة الى الايرانيين وهلم جرا ٠٠٠ هذا لان فى كل بلاد حتى فى دار الحرم هناك تعايش ، فالناس يعيشون (شوى شوى ، شوى لربى وشوى لقلبى) أحيانا مثل سى محمد على يدخلون فى خصومة كبرى انتهت الخصومة صاروا الى العادة الطبيعية ، وبذلك انتشر فن الموشح الذى غزا أوروبا كما غزاها فن الزجل ، وهذا بالاضافة الى شكل القصيد ، وبالاضافة الى وجود الموشح فيها ، ولكن هناك أمر حدث ، الاوروبيون كانوا يحتقرون المرأة ويتساءل فلاسفتهم القدامى هل المرأة انسان أو شيطان ، والسؤال مفتوح ، فجاء ابن حـــزم وكتب كتـــاب

« طوق الحمامة » الذى يمجد فيه المرأة والحب العذرى ، وترجم هذا الكتاب على يدى مسلم الى اللغة الاسبانية وتحافظه الناس ، فاذا بالمغرومين الاوروبيين مثل دانتى اليقرى Dante Alighieri عندما تغنى بحبيبته ، عمل أغانيه عليها بشكل موشح ، وكذلك بترارك Pétrarque كان يحج الى جنوب فرنسا ويتصل بالفرنسيين الذين هم فى جنوب فرنسا ويأخذ عنهم البلاغة وخصوصا طريقة التعبير على الحب العذرى ، واذا قابلنا بين بترارك وابن زيدون نجد أن لبترارك أغانى خاصة ، تقابل كل أغنية منها ما يوجد عند ابن زيدون : تخاصم ابن زيدون وولادة ، فتخاصم أيضا بترارك وحبيبته ، فكان ينشد الاماكن التى كانا يعيشان فيها ، كما دار ابن زيدون فى الاندلس فى الاماكن التى كان يلتقى فيها مع ولادة ، وذهب بترارك الى المقبرة ، وصار ينشد أغانى ، — وقد ترجمت هذه الاغانى من الايطالية الى العربية ، (فى دراسة عن ابن زيدون وبترارك فى مجلة الثقافة المغربية) • حينئذ كانت العلاقات الثقافية كبيرة جدا ، وترجم كتاب كليلة ودمنة وبعد هذه الترجمة ظهر فى فرنسا كتاب اسمه Le Roman de Renart أى قصة الثعلب ، وكليلة ودمنة هما ثعلبان أو ذئبان على الارجح ، فنفس القصص الموجودة هنا ، نجدها هناك ، ثم جاء السيد لافونتين وقال : والله يا سيدى هذى مانسيبها ، وأخذ كليلة ودمنة ، La laitière et le pot au lait ثم قصة Les Animaux malades de la peste الموت والحطاب وهلم جرا ، بحيث تلقى هذا كذاك ، وجاء غيره وهو فيكتور شوفان والف كتابا فى خمس مجلدات كبار ضخام ، لا يستطيع العبد الضعيف أن يرفع واحدا منها ، هاته المجلدات الخمس بعنوان : Livres arabes ou relatifs aux Arabes أى : (كتب عربية أو تتعلق بالعرب) ، فان كان لافونتين أخذ هذه القصص ، فقد أخذها أيضا اثنان من شعراء الخرافات التربوية الاسبانية (سمانييدو أو الياتا) •

واذا كان الغزالى ألف قصة تصف مؤتمرا للانسان والحيوان ، فالحيوانات اجتمعت وأخذت تحاسب الانسان على تصرفه فى الحيوان ، وأكثر من ذلك نشأ الزجل عند المسلمين وهو قصص غرامية قصيرة يكون حوارها أن المرأة اذا كانت مسلمة — فى رواية المسلمين — والذى أحبها نصرانى ، فهى تقول له : « اسلم تسلم أتزوج بك ! » ، واذا كانت نصرانية والذى أحبها هو مسلم ، تقول له : « تنصر وأنا أتزوج بك » • ثم جاءت الملحمة ، الملحمة الاولى هى ملحمة « جيلان دى كاسترو Guillèn de Castro التى هى السيد القامبيادور ،

فأخذها كورناى ، ونسى جيلان دى كاسترو أن يذكر من أين أخذها ، وهو أخذها من نفس القصة التى ألفها ابن كربابوش التوزرى (المرجع (Recherche littéraire et historique en Espagne نفس القصة التى ألفها كربابوش التوزرى هى التى نجدها فى قصة جيلان دى كاسترو ، والاسبانيون مغرمون بالقصص التى يتغنناها المسلمون من الناحية الدينية كقصة المولد النبوى أو كقصة المعراج ، وقصة المعراج ترجمت فى اسبانيا من العربية الى الاسبانية 11 ترجمة ، منها واحدة بقلم رجل مسلم ، وترجمت الى اللغة البروفانسانية 13 ترجمة ، وكان دانتى فى بروفانس (جنوب فرنسا) فعثر على ترجمة منها ، ففكر أن يؤلف كتابه الملهاة الالهية La Divina Comedia ، ففى الملهاة الالهية تجد مكتوبا بالحرف اللاتينى : « سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى » وخاضت ايطاليا من أولها الى آخرها ، لانهم ظنوا أن ذلك شعر ، فما عرفوا أنه قرآن كريم ، الى أن ظهر ذلك بواسطة راهب ، فتبين أن دانتى هو أيضا أخذ هذه القصة ونسج عليها ٠ ومن يسمون بشعراء Pleïade فى فرنسا ، يعنى رونسار Ronsard ، ودوبيلى Dubelly وغيرهما ، كانوا يستعملون البلاغة العربية الى درجة أن أحد النقاد الفرنسيين فورتنيس ستروفسكى ألف كتاب : « البلاغة وكبار البلاغيين » ٠ La rhétorique et les rhéteurs

وذكر منهم رونسار وغيره ، فهؤلاء فى القرن 16 وكانوا كلهم يأتون بالصور البلاغية والاساليب البلاغية حتى فى أشعار دانتى « حبيبتى فياتريتشى » وبيترارك بالنسبة الى حبيبته « لورتى » ٠ هؤلاء الشعراء مثل شعراء بغداد ، وشعراء الجريد فى تونس ، كانوا يصطحبون الربابة ، وكانوا يستعملون نقارات ، وهما طبلتان صغيرتان ، احداهما «تيك» والثانية «دوم» أى واحدة خفيفة والاخرى ثقيلة ، وهاتان الآلتان بقيتا فى فرنسا الى الآن فى جنوب فرنسا ٠

بقيت قضية العود التى تكلم عنها أستاذنا الكريم ، آخر عهد للعود هو على عهد لويس الرابع عشر حينما كان عواده « لولى » ولولى هذا ، هو أول من عدل عن الموسيقى العربية وكون الموسيقى الاوروبية التى لم تبعد كثيرا عن الموسيقى الاوروبية العربية ، ولكن ما ربحه الفرنسيون من ناحية خسروه من ناحية أخرى ، لان الاتراك ارسلوا الى ملك فرنسا فرانسوا الاول طاقما من الموسيقى العسكرية بطمبورها وبالهوى الناى أو سورناى ، فهاته الفرقة جاءت مع ذيل الحصان التركى ، وجاءت مع القبعة التركية المغولية ، وجاءت مع الطمبور الى غير ذلك ٠ (الوقت لا يتسع وأظننى أطلت ، ولا أدرى

هل لى الحق فى الزيادة أم لا ، لان هناك نقطتين ، لكن أرجئهما الى مرة أخرى ، وأشكر مرة أخرى الاستاذ الكبير ، واذا قلت هذا فلاننى لا أستطيع أن أقـول انى أعـرف أكثر منه)
(طلب منه أن يزيد فزاد) ٠

بقى أمران اثنان : انتقال الموسيقى العربية الى أوروبا ، الموسيقى العربية هى أولا التحول ، اى ما يسمى بالنوبة عندنا ، والدور فى الشرق ، يعنى أنـــه مركب موسيقى ، يتركب من ثلاثة أشياء ، يتألف منها الشعر العربى ، القصيدة تبتدىء بأبيات ما تسمى : « رومى الابيات » ، ثم « موشح » ، ثم « زجل » ، هاته الاقسام الثلاث تتكون منها النوبة ، ثم أن النوبة تتكون من مفارقات فى الســرعة : « البطـايحى Modérator » « البرول l'aculérato » ، الهروب Fugue » لست أدرى لماذا يسمونه « فـوجه » بالعربية ، ويسميه ابن سيده ــ الانسياب ــ ، وهذا يسمى النوع من الترتيب الشعرى الذى ينبنى عليه ترتيب موسيقى أيضا ، يسمى بالاسبانية (Brondo) بروندو ويسمى بالفرنسية « Rondo » حينئذ ، هذا التأثير الاول ٠ التأثير الثانى خرجنا بالموسيقى مــن الغراميات السفلى الى الغراميات المترفعة ، يعنى الى طريقة ابن حزم ، ثم بعد ذلك دخلت الآلات العربية العود والرباب والكمان الذى صار فى حقبة ما من تاريخ تطـــوره « المانـدولين » ، ثم الشطحات ــ الرقص ــ حتى رقص الدين ، فالرقص العربى انتشر فى الانــــدلس بنفس الوسائل وبنفس الثياب الراقصة أيضا ، وبنفس الشقشقات الى غير ذلك ، ثم جاء الرقص الدينى،والرقص الدينى جاء على الخصوص عندما انتصرت الشاذلية فى الاندلس ، فجاءت الرقصة الشاذلية الكبرى ، الشاذليون عندما يتوجهون الى الخالق بالابتهالات ، يقولون : « الليه الليه الليه ٠٠٠؟ » لا يقولون « الله » بل يقولون « الليه » ، والاسبانيون يقولون « أولى أولى » بمعنى الاستحسان أو الاستحباب ، ويقولون « أولى » أيضا فى رقصة خاصة تسمى « خورطه » بالاسبانية ، جاءت من كلمة الشطحة ، يشطحون ويقولون « أولى » وكثيرا من الشطحات فى فرنسا ، فى الاندلس هى من هذا النوع ، ثم شىء آخر جاء « ريبيرا » وأراد أن يبـين أن الاغـــانى الكنائسيـة الكبـــرى التى تسـمى بـ «شانط غريغوريا» Le chant grégorien هى ليسـت أغـانى كنائسيـة بـل هى مأخـوذة مــن المدائـح الدينيـة الاسـلامية ، وألـف كتـاب (لاموسيـكا دو لا سكامبيكاس) « موسيقى الاغانى الدينيـة » ويـدأ بألفونس العـاشر المسـمى بالحكيـم أو العـالم وأخـذ الصــور التى جمع لها ألفونس الحكيم العرب واليهود والنصارى لكى يؤلف كتابا فى تطور الموسيقى ولا سيما فى تطور التصوير الموسيقى ، يعنى الترقيم الموسيقى ، فتبين بمقابلة الصفائح

من عصر ألفونس العاشر فى القرن الثالث عشر الى القرن السابع عشر أن الترقيم الموسيقى هو ترقيم عربى ألفا بسيطا(ا)يعنى DO-RE-MI-FA-SO وأن ما يسمى بالقو DO-RE-MI-FA- تسمى القو،لان : 7 وتدخل فى 7 ثانية ألف ـ بسيطا ـ غما DO - RI - MI - FA - SO ترجع DO فى مقام الثانية هذه تسمى بالعربية الجمع فاذا فرضنا أننا نقرأها كالمصريين فصارت « جمع » • فاذا فرضنا أن الاوروبيين يقرأون كلمة جمع فتصير جام gâm لم يقل ذلك عثمان الكعاك بل قال ذلك فارمور Farmer فى دائرة المعارف الاسبانية « وفى دائرة المعارف الاسلامية » فى كلمة Gâm وقع شيء آخر ما يسمى بالمدجنين ، والمدجن • بدأت La Reconquista أى حرب الاسترجاع ، وكلما يسترجع الاسبانيون مدينة ، ابتداء من الشمال ذهابا نحو الجنوب ، الا ويقولون : « برانى على برا ! دام الفرح ، وفى العرس ، وفى المرء ، كل حديث يدبر » الا وعدا وحاشا ، الا الحدادين والنجارين والبنائين والمعماريين والملاحين والموسيقيين والاطباء الى غير ذلك • هذا شبيه بما عندنا فى المغرب الآن ، ونسميهم « المتعاونين « Les coopérants » ، فهؤلاء المدجنون كانوا أولا فى تأليف الشعر الدينى ، يعطى لهم الموضوع ، وهم يؤلفون الشعر الدينى باللغة العربية أو الاسبانية على طريقة الزجل والموشح ، ثم يلحنونه بحيث الى حد القرن 17 ذكر ريبير فى كتابه هذا ، وأعطانا أسماء 150 موسيقى كانوا يؤلفون الشعر للكنائس •

فالدكتور احسان عباس ـ حفظه الله ـ الذى كان يقول انه لا يعرف شيئا من هذه الاشياء ، قد اكتشف لنا فى كتابه « تاريخ الادب الاندلسى » الجزء الثانى ، كيف كان باعة الجوارى المغنيات ، كانوا يبيعونهن الى بلاطات الامراء والملوك من النصارى ، هذا فى كتابه ، ولم أزد شيئا عنه •

والآن عشر دقائق على موضوع آخر ، هو موضوع المعمار فى الاندلس ، المعمار فى الاندلس هو سلسلة انتقالات ، فالمرحلة الاولى هى جامع القيروان الذى لا يمت بنسب الى الكنيسة ، أحب جورج مارسيل Georges Marcel أم كره ، ولا يوجد فى أى جامع أكان جامع القيروان أم جامع قرطبة أية نسبة للنصرانية ، مارسيل يقول : « ان بلاطة المحراب هى أعرض ، وأن مسكبة المحراب التى هى أمام المحراب أعرج » ، هذا لا يوجد الا فى الجوامع الاميرية ، لان السيد الامير يأتى بحشمه ووزرائه وجنوده ، فينبغى أن تكون البلاطة أعرض (البلاطة هى الممشى الموجود بين الباب والمحراب) ، وكذلك عندما يريدون أن يسجدوا فيجب أن يكون المكان رحبا ، فليس هذا شكلا صليبيا ، هذا أدب ، أدت اليه الحاجة

بدليل أنه اذا انتقلنا الى جوامع ليست بأميرية ولا يأتيها الامير ، فجميع البلاطات ، وجميع المساكن هى متساوية ، هذه فرية طرحناها ، ويقولون دائما : « ان المسلمين يسرقون أعمدة الكنائس ، ويسرقون أحجار الكنائس ويبنون بها الجوامع » ، فى جامع القيروان يا سيدى تجد أعمدة للجامع وتجدون رؤوس الاعمدة بصيغ غير الصيــغ الموجودة عند الرومان ، فعند الرومان رأس العمود يكون بورق الأقامبى ، أى بورق الخرشوف ، وعند الاغالبة يكون بورق العنب ، يكون من الداخل مفرغا بحيث يمكن ان نضــع شموعا هناك لتكون الاضاءة المختلفة الالوان ، وينطبع شكل الورق على الجدار بألوان مختلفة ٠

ثم أن المسلمين أدخلوا الى الجامع ـ ولم يكن موجودا فى الكنيسة ـ المحـــراب ، أولا لتمييز الامام ، لان عندنا الامام والمأموم ، المهم أن المأموم يرى الامام حيثما كان ، فجعلناه فى المحراب كما نجعل قائد جيش فوق الحصان يمشى فى الامام ، والمحراب له صفة سماعية، وهو أنه يضاعف كم من مرة ، ويضخم الصوت ، كنا يوم الجمعة فى جامع الباى[1] ، ورفعت رأسى فرأيت فيه قببا كثيرة ، اذا تكلم الامام يكون هناك دوى،تردد أصوات عجيبة ، وكذلك فى الجوامع الاندلسية ، هذا دخل الى الكنيسة ، والشىء الثانى الذى دخل الى الكنيسة هو المنبـــر الذى اذا ذهبنـــا الى مـــدينة رافيلـو باسبـانيا نجـــده قـد صنعـــه المسلمون وكتبـــوا عليـه بالكـــوفى ٠ والشـىء الآخـر هـــو قبـــة المحـــراب ، الرومان واليونان لم يعرفوا القبة ، لم تكن القبة موجودة ، كانت توجد قبة بسيطة فى جنوب الجزائر ـ فى مدينة تبسة ـ فى باب كركلا (2) ، فأخذها المسلمون وزادوا عليها وبنوا قبة ، والقبة بنوها لامرين ؛ الامر الاول تضخيم الصوت ، والامر الثانى ليرسلوا نورا على رأس الامام ، ويبقوا بقية المامومين بدون نور ، عندما تكـــون هناك محاضرة ، يكون الظلام من ناحية والضوء من ناحية ثانية ، تكون هناك رواية ، المسرح يكون فى الضوء وبقية المتفرجين فى الظلام وهلم جرا ، فأخذت الكنيسة قبـــة المحراب ٠ بقيت الجوانب اليمينية واليسارية من الجامع ، قليلة الاضاءة ، فجعلوا لها ما يسمى بالشمسية أو بالقمرية أو بالقوة ، ويسمى بالفرنسية Vitraux أعنى شباكا من الجبس ، نخرمه حتى نبنى فيه أشكالا هندسية أو أشكال زهور أو أشكال بشر ، ونرصعه بألمع الالوان التى يقتضيها الحال ، وتصير تلفزة ملونة ، فترسل نورا لطيفا تأتى عليه الشمس وتطبعه فى الجـــدار فكأنـــة صـــورة تدعو الى التأهـــل ، كـــل هـــذا قد ذهب الى أوروبـــا ، فالفيتـــرو ، هذه القـــوة الموجـــودة فى قبة القـــيروان التى أنشئت فى القـــرن التاســـع نجدها لاول مرة فى كنيسة « نوتردام » دو باريس فى القرن الحادى عشر ، فجامـــع القيروان انتقل

(1) فى عنابة ٠ (2) Caracalla

بحذافيره الى جامع قــرطبة ، وجامع قـــرطبة انتقل بحذافيره الى قبر الحوارى النصرانى « سان جاك دوكوميوستال St Jacques de Compostel » القديس يعقوب كونشتالى فى الشمال الغربى من الاندلس ، وقالوا للبنائين المدجنين المسلمين ، نريد أن تبنوا لنا الكنيسة مثل جامع قرطبة ، فبنوا لهم كنيسة كجامع قرطبة ، هى جامع ، ولكن زادوا عليه الصليب ، وفى جامع سوسه بتونس توجد كتابات بالكوفى فيه السيادة للاسلام ، وللعلم الاسلامى وللبنك العلمى الاسلامى الذى تحدثنا عنه ، لاننا نريد أن نأخذ مكاننا من الشمس ونريد أن نشترك مع أوروبا ، النصارى يقولون"العلم العربى ليس هو علم ! النصارى عندهم علم"! كانوا يتعاونون على الترجمة · السريان والصابئة والنساطرة والمرونيون أنفسهم يتعاونون على الترجمة ، ترجمت الكتب الى العــربية ، وازدهرت الثقــافة ، ومــا قــالوا «فك ثورك من ثورى شبعنى الحرث الا هذا البحث » ، وفى الاندلس مثل الشرق ، يــوم كان الاسبانيون يكتبون بالعربية ، ويشاركون فى العلوم العربية ، ولما كان بلاط ألفونس العاشر يزدهر بالعرب العلماء ، واليهود العلماء ، وبالنصارى ، كانت الامــــور ماشيــة ، (قال ايزى الزاى ، العرب روحوا على ريحاتهم والعلم تأخر شوى) هل نريد من جديد أن تزدهر دولة العلم؟وهذا على هذا الشباب ليس بعزيز وخصوصا اذا تكون فى نفسه أنــــه صاحب عقد مشاركة ، أنه شارك فى دولة العلم بقسط كبير ، حينئذ تشتد همته ويعتــز ويقـــول :

« نبـــنى كما كانت أوائلنــا تبــنى ونفعــل خــيرا مما فعلــوا »

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (I)

(I) كانت هذه الكلمات آخر ما تفوه به فقيدنا الكبير وآخر ما سمعه منه الملتقى من المنصة ، حيث توفى ، رحمه الله ، فى الليلة نفسها ، نحو الثالثة صباحا ، حسب تقديــر الطبيــب ·

ونداؤه هذا الى الشباب أخذ بعد وفاته نغمة وصية · هل تسمع ؟

عثمـــان الكعـــاك

علــم مــن أعــلام الاســلام والانسانيــة الخالديــن

فقدت الامة الاسلامية،والانسانية عامة ، بوفاة المغفور له الاستاذ العلامة عثمان الكعاك، علما من أعلامها المرموقين ، وعبقرية فذة من عبقرياتها التى ساهمت بقسط وافر فى بناء صرحها الثقافى ، وجنديا ثقافيا ملتزما كما كان يقول لنا ـ رحمه الله ـ فى كل مرة نطلب منه القاء محاضرة ، أو كتابة دراسة :

لقد كان الفقيد لا يعرف الراحة ، وقد ذكر لنا الاستاذ الصادق بسيس،أحد الاساتذة التونسيين فى الملتقى،انه بعد الرحلة فى الحافلات الى مدينة القالة وبعد الغداء جاء وقت القيلولة سأله الاستاذ بسيس هل أخذت غرفتك لراحة القيلولة ؟ فأجابه المرحــــوم : «الآن اشتغل ، أما الراحة فلدينا متسع لها من الوقت فى القبر» وان شماره الدائـــم : العلم والبحث المستمر والحوار مع الجماهير بالاتصال المباشر من خلال محاضراته العمومية، أو بالتآليف،أو عن طريق أجهزة الاعلام المختلفة ٠

ولقد كان من اهتماماته غرس روح البحث وحب المعرفة والتفتح على ثقافة الغير فى نفوس الاجيال الجديدة ٠

لقد أحب الفقيد الجزائر وناضل من أجل ابراز أصالتها التاريخية والثقافية والحضارية التى عمل الاستعمار وبعض الجاحدين الحاقدين من أبناء ملتنا على تشويهها وحتى انكارها ٠ فقد ألف عن الجزائر كتابا تاريخيا عنوانه : « موجــز تاريخ الجزائر » ، وكتابا عنوانه : « بلاغة العرب فى الجزائر » ، فضلا عن « تاريخ البربر » الشامل لبلدان المغرب كلها ٠

وتتلمذت على يديه مجموعة كبيرة من الجزائريين لا تزال تذكر بحب وتقدير ما كان يبثه فيهم من حماس وطنى وما كان يكن للجزائر من عواطف تفيض بالحب والاخلاص ٠

وبعد استقلال الجزائر كان الفقيد يحرص ابتداء من الملتقى السادس للفكر الاسلامى سنة 1392 عــلى حضور جميـــع الملتقيات التاليــة التى تنظمهـا وزارة التعليم الاصــلى والشؤون الدينية ، ويساهم فيها مساهمة فعالة ٠ وكان لا يتردد فى قبول الدعوات الكثيرة والملحة من طرف المواطنين والمثقفين فى المناطق الجزائرية الاخرى لزيارتها والقاء محاضرات فيها مهما كانت نائية ٠

ان مناقب فقيدنا الكبير أكثر من ان تعد أو تحصى ٠ انه موسوعة يعز على الدهــر ان يجود بمثله ، خاصة فى عالمنا الاسلامى المقفر ، المدقع ، المفلس !

رحم الله فقيدنا الكبير رحمة واسعة والهم اسرته والاسرة الادبية والعلمية فى مغربنا والعالم الاسلامى الاوسع ، بل والانسانى عموما ، عزاء وسلوى ٠

« الأصـــالـــة »

تأبين المرحوم عثمان الكعاك في قاعة الملتقى

اثر سماع خبر وفاته (1)

خبر مفجع لدينا

ان أحد رجال الثقافة العربية الاسلامية ، بل والثقافة العالمية ، وهو الاستاذ الكبير عثمان الكعاك ، أصبح منذ بضع ساعات فى ذمة الله ! رحمه الله ، وعوضنا جميعا بأمثاله !

انه رحمه الله كان يشارك فى ملتقيات الفكر الاسلامى بانتظام منذ الملتقى السادس سنة 1392 هـ ـ 1972 م حتى الآن ، وكان يبقى كل مرة بعد الملتقى ليجوب مختلف جهات البلاد ، من القالة حتى مغنية ، ومن العاصمة حتى ورقلة ، بدون كلل أو ملل ، يلقى المحاضرات ويدير المناقشات عن تاريخ الجزائر ، وتاريخ الاسلام عموما ! وكان يحرص فى طريقه الى المدن المختلفة على أن يتوقف فى أصغر القرى ليجعلها تنال نصيبها من ذلك النشاط الثقافى الخصب الذى كان يقوم به ، وهو دائرة المعارف المتنقلة والمكتبة الفسيحة الارجاء ، المتنوعة الغنية ، والمعين الذى لا ينضب !

انها لخسارة كبرى لنا جميعا ! رحمه الله !

(وقد تليت هذه النبذة مع الفاتحة ، والملتقون جميعا،أساتذة ، وطلبة ، وصحافيين ، وجمهورا ، واقفون !) .

---

(1) وقد نزل هذا الخبر كالصاعقة فى قاعة الملتقى فى اللحظة بالذات التى كان من المنتظر ان يصعد فيها الفقيد الى المنصة ليلقى محاضرته .



لحظة تلاوة الفاتحة فى قاعة الملتقى على روح الفقيد عند اعلان نبا وفاته · وان الجمع الذى
وقف هنا والمتمثل فى العالم الاسلامى الواسع وفى غير العالم الاسلامى شرقا وغربا ليرمز
الى الطابع العالمى لثقافة الفقيد ·

برقية تعزية من المشاركين فى الملتقى العاشر للفكـر الاسـلامى

الى عائلـة الفقيـد

بكل أسى ينعى اليكم المشاركون فى الملتقى العاشر للفكر الاسلامى المنعقد حاليــا بعنابة الفقيد العزيز عثمان الكعاك أحد رجال الفكر الاسلامى العظام ، وأحد أفذاذ علماء الامة الاسلامية الذى وافاه الاجل المحتوم وهو يؤدى واجبه الثقافى بجانبنا .

اننا اذ نقدم اليكم تعازى جميع المشاركين فى ملتقى الفكر ، نعلن لكم تأثرنا العميق لهذا المصاب الجلل الذى ألم بالامة الاسلامية فى أحد أفذاذها ، ومشاركتنا لكم فى الاسى ، نسأل الله لكم الصبر والسلوان ، وللفقيد فسيح الجنان .

برقيــة تعزيــة من المشاركــين فى الملتقى العاشر للفكــــر الاسلامى

الى السيد وزير الثقافة بتــونس

بكل أسى ينعى اليكم المشاركون فى الملتقى العاشر للفكر الاسلامى المنعقد حاليا بعنابة الفقيد العزيز عثمان الكعاك أحد رجال الفكر الاسلامى العظام ، وأحد أفذاذ علماء الامة الاسلامية الذى وافاه الاجل المحتوم وهو يؤدى واجبه الثقافى بجانبنا .

اننا ـ اذ نقدم اليكم والى الحكومة التونسية والشعب التونسى الشقيق تعازى جميع المشاركين فى ملتقى الفكر ـ نعلن لكم عن تأثرنا العميق لهذا المصاب الجلل الذى ألــم بالامة الاسلامية فى أحد أفذاذها ، ومشاركتنا فى الاسى ، نسأل الله لكم الصبر والسلوان وللفقيــد فسيــح الجنــان .

برقيـة تعزيـة من وزيـر التعليـم الاصـلى والشـؤون الدينية

الى عائلـة الفقيـد

وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ينعى اليكم ـ بكل أسى ـ الفقيـد العـزيز عثمان الكعاك ، أحد رجال ملتقيات الفكر الاسلامى العظام ، وأحد أفذاذ علماء الامـة الاسلامية الذى وافاه الاجل المحتوم وهو يؤدى واجبه الثقافى بجانبنا ·

واننا اذ نقدم اليكـم تعازينا وتعـازى جميع المشاركين فى الملتقى العاشر للفكـر الاسلامى المنعقد حاليا بعنابة ، نعلن لكم عن تأثرنا العميق لهذا المصاب الجلل ومشاركتنا فى الاسى ، ونسأل الله لكم الصبر والسلوان ، وللفقيد فسيح الجنـان ·

مولود قاسم نايت بلقاسم

برقيـة تعزيـة من وزيـر التعليـم الاصـلى والشـؤون الـدينية

الى السيد وزير الثقافة بتونس

وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ينعى اليكم ـ بكل أسى ـ الفقيـد العـزيز عثمان الكعاك ، أحد رجال ملتقيات الفكر الاسلامى العظام ، وأحد أفذاذ علماء الامـة الاسلامية الذى وافاه الاجل المحتوم وهو يؤدى واجبه الثقافى بجانبنا ·

اننا ـ اذ نـقدم اليكم والى الحكومة التونسية والشعب التونسى الشقيق تعازينا وتعازى الحكومة الجزائرية والشعب الجزائرى ـ نعلن لكم عن تأثرنا العميق بهذا المصاب الجلـل الذى الم بالامة الاسلامية جمعاء فى أحد أفذاذها ، وعن مشاركتنا لكم فى الاسى ، نسأل الله لكم الصبر والسلوان وللفقيد فسيح الجنـان ·

مولود قاسم نايت بلقاسم

الأبعاد الروحية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية للعبادات وأهميتها لكل من الأمة والفرد [1]

عثمان الكعاك

مؤرخ ـ تونس



هذه صورة للفقيد اخذت له بساعات معدودة قبيل توقف قلبه ووفاته.

المواطن المسلم أراده الله كاملا : روحيا ، واحساسيا، وبدنيا ، وعلميا ، وفنيا ، وأدبيا ، واجتماعيا .

أولا : البعد الروحى

أ ـ الصلاة :

اذا قال المسلم الله أكبر ، ورفع يديه نثر وراءه الدنيا وما فيها ، ولم يعد يتصور الكبرياء الا لله تعالى، فيحقر كل ما وكل من دون ذلك .

فهذه تربية وعقيدة وتصور يتربى عليها منذ السابعة من عمره الى أن يلاقى وجه الله تعالى .

ثم اذا قرأ الفاتحة ، قال الحمد لله ، فلا شكر الا لله ، لان النعم كلها والخير كله بيده ، فهو المعطى والمنعم والهادى وكل من هو غيره فهو معط باذنه ومنعم باذنه وهاد

(1) هذه المحاضرة لم يلقها فقيدنا الكبير لانه توفى قبيل موعد القائها ببضع ساعات . وعوض القاء الفقيد محاضرته القى رئيس الجلسة خبر وفاته .

باذنه · ربى ان الهدى هداك . ومن اعتصم بغير الله ذل · ذلك لان الله رب العالمين لا رب غيره ، ولا معبود سواه · واذن فقد شفانا من عبادة البشر Anthropolâtrie ومن الاشراك به ومن تعدد الآلهة ومن الاسرار الخفية ، التى لا يسلمها العقل ، الاه له ولد أو بقرة الاهة أو الاه يحب القرابين · قال أبو العلاء المعرى :

عجبت لكسرى وأشياعه ... وغسل الوجوه ببول البقر

وقول اليهود الاه يحب ... أصيص الدماء وريح القتر

وقول النصارى الاه يضام ... ويقتل حيا ولا ينتصر

فواعجبا من مقالتهم ... أيعمى عن الحق كل البشر ؟

هذا الاه ملء بالرحمة ، رؤوف بعباده ، يفيض عليهم سحائب رحمته ، وشآبيب رضوانه ، وهو مالك يوم الدين ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم · فهو الديان الاعظم ، يوم القصاص الاكبر والحساب الاعظم · فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره · لذلك جعل الاسلام المحاسبة Examen de conscience ويفسرها الغزالى بأنها محاسبة يومية كمحاسبة التجارة والمداخيل والمخاريج ، فهو عند المنام ينظر فى ضميره فيحصى ما تم على يديه من حسنات، وما فيه من محاسن ، وما تم من سيآت · وما اكتسبه من مساو ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، فيجعل عمودا ايجابيا وعمودا سلبيا وعمودا تفاضليا ، ثم يرسم السيآت فى رزنامة ليمحوها منها فى اليوم ، وفى الاسبوع ، وفى الشهر ، وفى السنة ، حتى يقضى عليها · ولاجل تقوية نفسه على الطاعة يستعين بالله وبمطالعة القرآن الكريم مع تفهمه ، والاحاديث الشريفة التى هى منبع الخيرات ، وكنز الاخلاق وروح التربية وهى لا ينضب معينها ··· ترسم لنا المحجة فى الحياة فى هذه المعادلة العجيبة الكاملة المغرية : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا · وقال تعالى : ولا تنسى نصيبك من الدنيا · وقال الشاعر :

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا ... وأقبح الكفر والافلاس بالرجل

ـ **اياك نعبـــد** . أى لا نعبد الا الله ولا نشرك به أحدا من الاصنام ، أو الكواكب، أو بنى الانسان . واذن فقد زال عن المواطن مركب الرعب من الطغاة الجبابرة .

ـ **واياك نستعـــين** . أى لا نستعين على مصائبنا ومشاكلنا الا بالله سبحانـــه وتعالى ، فنعتصم به ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، فتذهب ريحكم . ومن اعتز بغير الله ذل . فهو الذى يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم والعياذ بالله ، ولا الضالين . اذا أمعنا النظر فى هذه الســـورة وجدناها أم القرآن حقا ، لذلك جاء وجوب استعمالها فى كل ركعة ، وفى كل مناسبة من مناسبات الحياة ، مثل الزواج ، والصفقات ، والترحم على الموتى وغيرها .

وأما الصوم فهو رياضة روحية كاملة . لا سيما صوم الخصوص ، فهو صـــوم العين عن النظر الى حريم الناس ، والكشف عن أسرارهم ، والتعرض لاحوالهم ، والتطلع الى ما لا يريدون أن يعرفه الناس عنهم فيجب أن يصوم عينه عن زنا العين ، وعن كشف الستر :

فان ستـــروا عنى ستـــرت دونهـم   وان بحثـــوا عنى ففيهـــم مباحـث

وجعل عينه تفطر على قراءة القرآن فى العشايا ، والليالى ؛ وسماع اختام الحديث ، والنظر الى المشمومات ، وجمال الطبيعة ! تصوم أذنه عن سماع الكذب والافتراء والوقوع فى أعراض الناس ، والنميمة ، والتمشى بين الناس بالفتنة . ثم تفطر أذنه عن سماع القرآن ، والحديث ، والقصص الطيبة ، والموسيقى الدينية الرائعة ، وتاريخ الاسلام المدهش ، وعلى بث السلام بين الناس ، والقول الطيب ، والكلمات المعسولة الصادقة . قيل للجمل كيف تأكل « ضلف الهندى وفيه الشوك قال : الرطوبة فى اللسان . ويقول المثل التونسى « الكلام الحلو يندفع فى الدين » واللى معندوش عسل فى أركانو يحطو على طرطوشة لسانو» ويقال فى العراق «الكلام الحلو يخرج الافعى من زاغوريها (غارها)» .

والحـج : هو تطهير لما فى العقل من جهل وأوهام . فالحاج اذا كان طالبا وهذا أكثر ما كان يكون فى السالف ينتقل من مدينة الى مدينة فى طلب العلم من الاندلس ، الى المغرب ، الى الجزائر ، الى تونس ، الى ليبيا ، الى مصر ، الى الحجاز ، الى الشـــام ، الى

فلسطين ، الى العراق ، الى ايران ، الى ما وراء الهند ببيـــع travel check الـذى هـو المخطوط العربى النادر ، الجديد الظهور • ويشترى ما ظهر فى الشرق ويأخذ الاجازات ويحضر الملفات ثم هو يعرف جغرافية العالم الاسلامى ؛ جباله ، وسهوله ، وصحاره ، وبحاره ، وبحيراته ، ومدنه ، وقراه ، وباديته ، وسكانه . من بيض وسمر ، وســود وحمر ، وصفر ، يتكلمون لهجات عربية مختلفة ، أو لغات اسلامية من أعجمية أندلسية أو بربرية أو تركية أو ايرانية أو كردية أو هندونيسية أو سودانية وغير ذلك • فيرجع عالما بعلم المسلمين والعلوم الدخيلة، ويتحول دماغه الى متحف بشرى كامل القوة والعدة. فهذا كسب روحى تزول به الاوهام ، والتصورات الخاطئة ، والاحكام المسبقة • والاسلام وضع علم التصوف من نثر ، وشعر ، وخرجات ، وحلقـات ، ومـدائح ، وجـزيات ، وشطحات . وكلها ترمى الى انصراف القلب الى الله وحضور الحضرة التى تكون فيهـا حضرة الجلالة فلا يراها الا المكاشفون ؛ لكن يتطهر فيها الحاضرون •

والشعر التصوفى كراثية شيخ العشاق عمر بن الفارض .

شربنـــا عـــلى ذكـر الحبيب مدامة سكرنـا بهـا مـن قبل أن يخلق الكرم

هى ملحمة تصوفية رائعة •

وما قرأت بالفرنسية أجمل من : Dermenghem - L'Eloge du vin وهو كتاب صغير وجليل يشمل مقدمة سليمة فى التصوف الاسلامى • ثم ترجمة الرائية مـــع سرح النابلسى عليها ، فاعتقد أن مطالعة ذلك يدعو الى تطهير النفس من أدرانها ، وتطهير العقيدة من المشكوك والارتياب ، والمذاهب المستوردة التى ما أنزل الله بها من سلطان• ولجمال التصوف الاسلامى الذى هو مغذ أحسن تغذية روحى ليست فيه مكروبات الشك ولا السر الذى لا يقبله العقل كالافخارستية التى هى أكل لحم يقرأ عليه القسيس وشرب خمر يقرأ عليها القسيس واعتقاد أنهما لحم عيسى عليه السلام ودمه • وهـذا بهتان وتأويل سيء لقول عيسى : كلوا واشربوا هذا لحمى ودمى فانما أرادها على المعنى المجاز أى أن هذا طعامكم المادى والروحى ، وهذا شرابكم المادى والروحى ، فالله أعطاكما الخبز وهو أجل طعام حتى أننا نسميه فى تونس « نعمة ربى » وهو معنى لطيف جـدا

يدل فى عبارة مختصرة على معنى عظيم · فلا ننسى أن 60 بالمائة من البشر يتضورون جوعا ، فاذا وجدنا نعمة ربى فقد وجدنا خيرا كثيرا · ونسمى العمل فى تونس « الخبز » بحسب ما يؤول اليه « انى أرانى أعصر خمرا » ·

ولما رأى النصارى أن النصرانية التى آلت لديهم الى ما آلت اليه أقبلوا على دراسة التصوف الاسلامى فترجم المنقذ من الضلال للغزالى الى اللاتينية فأخذ منه ديكارت قوله : الشك أولى مراتب اليقين Le doute est le premier pas vers la certitude وأخذ منه منهاجه . وكلمة Discours بمعنى منهاج، الى غير ذلك . وأخذ St François de Salles من احياء علوم الدين كتابه Introduction à la vie dévote الذى كان ترجمة للاحياء ، وأخذ القديس طوماس الاكوينى St Thomas d'Acquin الطريقة الشاذلية بالاندلس التى انتشرت هناك لدى المسلمين ، فأخذها النصارى من الاسبان والبرتغاليين ، حتى أن الرقصة التصوفية لديهم تسمى Holé برنة خاصة ، وهى آلهة الشاذلية التى تنطق « آليه » بتفخيم اللام وجاء Miguel Palacios ألف كتابه العظيم عن تأثير الشاذلية على الطوماسية ، وهو كتاب يجب أن يترجم الى العربية ، ونفس الافلاطونية الجديدة التى ترمى الى التوفيق بين الدين والعقل ؛ فان الاوروبيين لم يأخذوها مباشرة عن أرسطو ، ولكن عن ترجمة أرسطو وشرحه لفيلسوفنا المغربى العظيم ابن رشد وهذا موضوع درس ومفروغ منه ·

والحج هو تطهير دينى ، فالانسان يتغذى من مناهل الاسلام الاول ، ويشاهد الروضة الكريمة ، وينجذب لديها ، وتذرف عيناه ، ويتطهر من ذنوبه ، ويسوى قضاياه ما بينه وبين ربه ، وبينه وبين الناس ، فيروه طاهرا كيوم ولدته أمه ·

والحياة الروحية فى الاسلام لا تتناول الفرد فقط بل تتناول الاسرة ، وهى عالم الانسان الخارجى الصغير ، والخلية الاجتماعية الاولى « وجعلنا بينكم ودادا ورحمة » · والمرأة هى أمنا ، وزوجنا ، وأختنا وبنتنا ؛ فتلتقى فى نفوسنا منها محبة الام ، « وبالوالدين احسانا » ، ومحبة الزوج « وجعلنا بينكم ودادا ورحمة ومحبة الاخت » ·

أخاك أخاك ، ان من لا أخا له كساع الى الهيجاء بغير سلاح

وقول المثل التونسى « خوك خوك لا يغرك صاحبك » لذلك يجب أن نصون هـذا الكائن الضعيف الذى أوصى به النبى (صلى الله عليه وسلم) مع العبد ، « أوصيكم بالضعيفين : المرأة والعبد » وعندنا قصة تونسية نوردها لطرافتها : كان رجل عـلى أبواب الموت فاوصى ولده : « واذا لزم باش تضرب مرتك ما تضربها الا بعد ما تكتفها من الاربعة ، وجب أن يضربها ، فى نظره على الاقل ، فاستشار شيخا كبيرا كان صديق والده كيف أكتفها من الاربع ؟

قال : بأن تلد معك أربعة أولاد ٠ وهذه حكمة كبيرة ٠

ثم ان الروحيات تتناول المجتمع الاسلامى كله ، فالمسلم حر « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » والمسلم متساند متراص مع أخيه المسلم ٠ المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ٠ لذلك جاء الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فالمسلم مسؤول عن المسلم فى دينه ودنياه وهو نصيحه فى الاثنين ، لان النصيحة من الايمان ٠ وعلى هذا المبدا قامت سياسة الدولة الموحدية فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الواجب على كل مسلم ، ليس من خصوصيات الامير وحده ، أو المحتسب فقط ، على أن المحتسب هو عون تنفيذ ، ويحتسب على من جل وعلى من قل ؛ فهو يحتسب على الامير وعلى القاضى ، وعلى الامام ، وعلى الاسواق ، وعلى المكاييل ، والمقاييس ، والموازين ، والغش والسعر ، لذلك سمي فى الاندلس صاحب المدينة ، أى هو البداية والنهايـة من حياة المدينة ، فى بيوتها وأسواقها ، ورحابها ، وحراستها ، ومبيعتها ، ونظافتها المادية ، والادبية ، وسلامة عامة أمورها ٠

وألفوا فى ذلك كتب الحسبة العامة والخاصة ، وكانت الحسبة مدمجة فى كتب الفقه ، فاخرجت منها ، وأفردت بالتآليف كمعالم القربى فى الحسبة لابن الاخوة الاندلسى وكتاب الحسبة للسقطى ، وكتاب الحسبة لابن عبدون ، ثم أخرجت من الحسبة أحكام خاصة ، كاحكام السوق ليحيى بن عمر دفين سوسة ، وترتيب السماسرة للابيانى دفين حمام الانف ، وكتاب المعلمين لمحمد بن سحنون ، وكتاب المعلمـين لابى الحسن القابسى ، وأحكام البناء لابن الراعى الاندلسى ، وآداب القضاة لكثيرين ، وآداب الوكيل

لعيسى بن مسكين ، وهو أول كتاب فى القانون الاساسى للمحاماة ، ألفه عيسى بن مسكين سنة 294 هـ، ثم حتى الملوك لم يطلقوا على عواهنهم، فالف الطرطوشى الاحكام السلطانية، وألف أبو حمو موسى الثانى ملك تلمسان أجل كتاب فى سياسة الملك ، وتولد من ذلك فى أوروبا أدب جديد يسمى بالفرنسية Le Miroir des Princes وهو يعد بالعربية بالمآت (أنظر : كشف الظنون للحاج خليفة) وحتى نصيحة الآباء للبنين صارت بابا جديدا من أبواب التربية والتهذيب (فانظر : كتاب أيها الولد للغزالى) ونصيحة محمد الظريف التونسى لولده ، وقد طبعناه فى آخر تاريخ ابن الشماع للدولة الحفصية وترجمه الى الفرنسية ٠

وحتى آداب الكتاب تالف فيه فى الاولى صفحات رائعة لعبد الحميد الكاتب وتشمل رسالته الجانب التقنى والجانب الروحى من الزمالة والاخوة فى المحنة أو مراعاة شيخوخة الزميل ٠ وهى من أجود ما يوجد وانتهت القضية فى تطورها الى كتاب صبح الاعشى للقلقشندى ٠

ويجب أن نقول ان تربية المسلم فى حياته الدنياوية والاخروية تتلخص فى الحديث الشريف : اذا مات أحدكم انقطع عمله الا من ثلاث : « ولد صالح يدعى له من أجله ، وكتاب علم ينتفع به من بعده ، وصدقة جارية » .

وكتاب علم ينتفع به من بعده ، وصدقة جارية » ٠

فالولد الصالح الذى يدعى له من أجله جعل المسلمين يهتمون بتربية أبنائهم وبناتهم ، وكان اليونان والرومان وغيرهم من الامم القديمة يوكلون ذلك الى العبيد ٠ فأما المسلمون فالفوا الكتب التى فى التربية اقتباسا من القرآن ، والحديث ، وأصول التربية ، وأقوال الفلاسفة ، والمربين ، والقصائد الحكمية ، والقصص التربوية التى على ألسنة الحيوانات كلقمان والقليوبى ، وكليلة ودمنة ، وغيرها ، فتكون من ذلك أدب كامل اقتبس منه الاوروبيون ، كما اقتبس لافونتين من كليلة ودمنة ، وكما اقتبس رونسار كتابه Le Roman de Renart من كليلة ودمنة ، Samaniego Iriarte الاسبانيين من كليلة ودمنة الاسبانى من الغزالى فى قصة الحيوانات التى تالبت على الانسان ،

أنظر : Livres arabes ou relatifs aux Arabes

وجعل الاسلام المساواة بين الناس : لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى ٠

لذلك رأينا القرن الاول لا ينتهى بعد حتى أسلم كل البربر ، وأقبلوا على الجهاد مع المسلمين : كسيلة ، طارق بن زياد فاتح الاندلس ، وصاروا يتزعمون الموسيقى ، فقد كان الغريض البربرى موسيقار السيدة سكينة رضى الله عنها ، وذلك قبل نهاية القرن الاول ٠ وكان المحرر البربرى من أكبر الكتاب والخطاطين ، وصارت مدرسة للنحو مغربية أندلسية (أنظر طبقات النحاة للزبيدى) ومدرسة فقهيـة مالكية ، ومدرسة اباضية (أنظر عياض المدارك والدرجينى طبقات الاباضية) ٠ والحقيقـة هى أن الاسلام امبراطورية ، فيها كل مواطن امبراطورى ذو نصيب كامل فى الحقوق والواجبات ٠ لذلك أقبل كل أعضاء الامبراطورية ، من البربر ، والزنوج والحبشة ، والعرب ، والايرانيين ، والاتراك ، والصينيين ، والهنود ، والهندوسين وغيرهم بأعباء السياسة ، والعلوم ، والآداب ، والفنون ، والمعمار الاسلامية فى تساو بينهم ٠ لذلك ما عاشت الامبراطورية الرومانية الا ستة قرون لظلمها ، وعاشت الامبراطوريـــة الاسلامية أربعة عشر قرنا ٠

وهى حية ، من نهضة بعد كبوة ، وظهور بعد خمول ، وما عاش الاستعمار الا 132 سنة على الاقصى ، وذلك لانه أشد ظلما وحرمانا من الحقوق المشروعة ، مـــن الاستعمار الرومانى ٠ وما عاش الاستعمار الايطالى الا 35 سنة لانه أتعس من الفرنسى، وهكذا تقاس الامور ٠

والسياسة الاسلامية مبنية على دولة الله التى دستورها القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وحكمها الفقه ، وأصول القضاء ، ودينها الشورى « وأمرهم شورى بينهم » فالقاضى له مشاور ، هكذا كان يسمى ببجاية ، وتلمسان ، والاندلس ٠

والوزير له مشاور ٠ وقال تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم « وشاورهم فى الامر » وتسمى دار الدولة بتلمسان المشور من الشورى ٠

ثانيـــا : البعـــد السياسى :

وأما السياسة الاسلامية الخارجية فهى لا اكراه فى الدين ، ونظام الذمة الذى شوه معناه النصارى . واليهود ، والذمى هو الذى تلتزم له الدولة الاسلامية بحفظ أمنه ، وماله ، وحرمه ، ودينه ، ما دفع الجزية التى هى ما يلزم من مال للنفقات التى يوجبها الشرطة ، والامن ، وحفظ الارزاق ، والاموال ، والاعراض ، والاديان فاذا أخلت الدولة بشيء من ذلك لحقها الذم . كما يقول الطرقى : عارى عليك يا سيدى عبد القادر . وهذه العقدة هى التى تسمى بشكل آخر عقدة الولاء Contrat de clientèle
ثم ان المسلم يعتبر خلق الله اخوة له :

مـا للتشاحـــن والبغضـــاء بينكمو وأنتمـــوا يا عبـــاد اللـه اخـوان

حضرت مؤتمرا بسبوليطو Spoleto بايطاليا سنة 1964 فى أفريل ، وكـان موضوعه : هل دخول العرب لاوروبا كان خيرا كله أو شرا كله ، أو بعض خير وبعض شر . وحضرته نواب عن سبعين دولة ، فاتفق الجميع ـ ماعدا ستيرن Stern الاسرائيلى أن دخول المسلمين أوروبا كان خيرا كله فسبحان الله العظيم .

ومليحـــة شهـــدت لها ضراتهـــا والحـــق ما شهـــدت بـه الاعـداء

وذلك ظاهر لان المسلمين أدخلوا لاوروبا نباتات جديدة :

1) أشجار مثمرة لم تكن معروفة كالنارنج ، والليم ، والليمون ، والاترج ، والخروب، والزعرور .

2) ونباتات صناعية كقصب السكر ، والزعفران ، والتوت الخاص بدود القز .

3) وأشجار غابية مثمرة ، كالقسطل ، والجوز ، والفستق ، والبندق ، وأبى فروة ،

4) وأدخلوا زراعة الارز .

5) والنباتات العطرية كالعطرشاه والانيسون ، والشونيز السينـــوج (Nigelle) والبسباس والفودنج (المنتهى) واللويزة والطرنجان والزيزفون (التيلو Tilleul وخضرا مختلفة كالارضى شوكى Artichaud والاسبارج Asperge والسلـــق (بالاسبانية Acelga والتنبث Aneth الخ ...

وأدخلوا أساليب فلاحية جديدة ، وجلبوا أزهارا لم تكن معروفة كالعطرشاه وشب الليل (نوار عشية ، والسوسن ، والليلك Lilas ، والياسمين Jasmin الفل والخيرى (بالاسبانية Acheli Jasmin d'Espagne) وجلبوا علم التقطير ، ومن ذلك بالاسبانية Agna de Azaher أى ماء الزهر • وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم قال : من ذهب منكم الى الجامع فليتعطر ، وليتبخر • فانبرى الفيلسوف الطبيب الكندى يضع تاليفا عظيما فى العطور وصناعتها قد نشره بعض الالمان وترجمه الى اللغة الالمانية مع التعاليق • وأدخلوا الى أوروبا البخورات التى منها الجاوى Benjaoui اللبن الجاوى ومن Benjaoui جاءت كلمة بنزين •

وجلب المسلمون من أمريكا وأدخلوها الى أوروبا الطماطم (مطيش ـ توماطيش ، والبطاطة ، والدخان ، والقطانية (الذرة Maïs) بالايطالية Gambureo أى القمح العربى (التركى هو العربى الامريكى) ومنها الانكليزية Turkey الديك الرومى الذى هو فى الحقيقة الديك الهندانى Dindon سردوك الهند لان كولومبوس عندما وصل أمريكا اعتقد انه الهندانى وصل من الغرب فسمى ساكنها الهندان : Indiens Peaux Rouges والصبر والتين الشوكى « والهندى لنفس السبب . وقرع بوطزينة الذى يسمى فى الجزائر الجريوات وبالمشرق الكوسة Courgettes ونقل المسلمون البيض والسود الى أمريكا القهوة العربية ، والسكر العربى ، والقمح ، والحصان العربى ، والمعمار العربى فى كافة الجمهوريات ماعدا الكاندا •

وأدخل المسلمون الى أوروبا أدويتهم ، ومقطراتهم ، ومواد الزينة النسائية مثل الغالية Crème de beauté التى تسمى بالاسبانية والبرتغالية Algalia ومثل الاكسير Elixir ، ومثل Lozence وهو اللوزينج وهو دواء من لوز مخلوط بعقاقير جلاء للصدر وسكر بشكل لوزى ، ولذلك سمى الشكل اللوزى (المعين) بالفرنسية Lozence, Losange بالانكليزية ، وفيها يطلق على الشكل والدواء معا •

وأدخل المسلمون الى أوروبا أشغال الرى ، من السدود ، وقسمة مياه الانهار على الواحات ، وبناء البرك (بركة الاغالبة بالقيروان) ، والحنايا Acquedus والقنوات،

والسيارات . من ذلك الفوارة والحنايا بصقلية ، وتوزيع المياه ببلنسية ، وقرطبة واشبيلية وطليطلة ، وايجاد محاكم عرفية للمياه Tribunal de Cas Agnas
وقد وقع مؤتمر لدراسة هذه المؤسسة العربية في مدينة بلنسية ، فدعى اليها مسلمون، فكان اعجابهم أشد من اعجاب غيرهم ، ونسوا نظام حماه ، وحمص ، ودمشق الذى منه نظام درنة في ليبيا ، ونظام قابس لابن الفلاح ، ونظام توزر ، ونفطة ، ودقاش في الجريد التونسى لابن الشباط التوزرى ، ونظام سيبوس بعنابة ، ونظام المسيلة ، ونظام بسكرة ، وميزاب وشلف ، ووادى فاس ، وطوحين ووادى الرحا بوهران . ونظام وادى الاوريط بتلمسان الى أن نصل الى بلنسية Valence بالاندلس ، والالفاظ المتعلقة بالرى كثيرة ، في الاسبانية ، والبرتغالية ، من ذلك Zubia زوبية مكان فيه ماء كثير : Zafa الصخنة ، Alj'afaine الجعفينة Adufa الدفة باب الخزان : Ador الدور : الحصة التى تنوب كل مستحق للماء Porte declase, vanne Arcaduz القادوس : قناة الماء Noria الناعورة ـ الرافعة للماء Acênia طاحونة الماء ناعورة Acenero الطواحنى السانى Acequia الساقية ترعة صغيرة الرى Acequiero السقاء ، وهو حارس ترعة السقى .

وبالاضافة الى التجارة ، اختص المسلمون في طريق التوابل من الصين ، الى الهند الى أوروبا ، وافريقيا ، وطريق الزعفران منذ عهد الفاطميين ، تقول أغنية الاطفال :

يا جميل بوك على الفاطمى وين تمشى وين تيجى
تمشى طريق الزعفران

ولهذا عرف الزعفران في أوروبا باسمه العربى بالاسبانية Azafran وبالفرنسية Safran Safrano الخ ...

وكذلك اختصوا بطريق الحرير ، واختصوا بصناعة الشاشية ، وصناعة الملف والطراز وكان الاسطول الفاطمى في البحر المتوسط ، والبحر الاحمر (بحر القلزم) ، وبحر الشمال وبحر نيطلش (البحر الاسود) وبحر مانيطش Mer d'Azov وبحر قزوين ، والخليج العربى ، وبحر القلزم (الاحمر) وبحر الهند والصين ، وحده الموجود.

ووحده الشارى ، ووحده الموزع ، ووحده البائع • فهذه طبعة ثانية لما كان عليه الاسطول البونيقى فى العصور القديمة •

والاسطول الاسلامى مجهز بالدقة Gouvernail والبوصلة Boussole والاسطرلاب لتدقيق خطوط الطول وخطوط العرض ، والراهنامج Porthulan أى الخريطة البحرية ، والمراسى مجهزة بالباب والشبكة ، والمر المخطر كما هو الحال فى مرسى القالى الى الآن ، ومرسى بجاية الحمادى ، ومجهز بالمشرف وهو رئيس المرسى ، والديوان والديوانى ، والمقصود بالديوان ديوان البحر الموجد عند باب البحر ، وبالترجمان ، وبفنادق القناصل الذين هم رؤساء التجار الأجانب (شاهبندر) ، وبالمنادين والسماسرة (بالايطالية Semsare) ومن كلمة المشرق جاءت الاسبانية Almajarife ومن كلمة ديوان جاءت الفرنسية Douane والاسبانية Aduana وكلمة Almoneda الاسبانية من العربية المناداة أى بالبيع بالمزاد العلنى Vente à la criée.

ومن الكلمات المختصة بالتجارة Tarif التعريفة و Tare الطرح فى المكيلات ، وهو طرح وزن المكيال ، أو طرح الحاوى من الجملة لمعرفة المحتوى ، و Alquile للكراء (اسبانية) وهى بطاقة فوق عربة للاعلام على أنها للكراء ، و Risque بمعنى غرر من رزق Hazard زهر أى بخت •

ومن المكيلات Alquez الاسبانية الكأس مكيال للخمر ، والاسبانية Almotaceb من العربية المحتسب لمراقب الموازين ، والمكاييل ، والغش فى البضاعة •

ومن أسماء العقاقير بالاسبانية Ajenuze السينوج Nigelle وعربيته الشونيز • و Ajebe الشب Alum السيناف ، الخردل Ajengibre الزنجفير G ingembre

ومن ألفاظ الديوان Alcabala من العربية القبالة من الفارسية كاباله فرنسية la gabelle وهى مكس على الابواب ، أو الاسواق • ومن المواد النسيجية Algodon القطن و Merinos المرينى أى أغنام بنى مرين ، التى لها صوف حريرية ممتازة • ومن أسماء الاقمشة Mousseline الموصلية •

ولمعرفة كل هذا أنظر Dozy : Dictionnaire des vêtements arabes
وقد ترجم بعضه فى مجلة « اللسان العربى » ٠

وللتجارة أعوان تجارة ، ومسافر تجارة ، يسمون بالعربية راهدان أى صاحب الطريق ، أى الموكل بالطريق ، من أقصى الصين الى أقصى أوروبا ٠ راهدان الموجود بالطريق ، وسوق الرهادرة أو الرهادنة من ضمن الاسواق العربية فى كبريات المدن كبغداد ، والقاهرة ، والقيروان ٠ ولاشك تلمسان ، وفاس ، وقرطبه ، بلا خلاف ٠

والرهدان يبدأ رحلته من أقصى الصين من مدينة زيتون Shantung الى المانيا (نورنبيرغ) والى روسيا (كياف) منتقلا من بلد فيه جالية من بنى جنسه بنـــزل عليها ، ويعطيها الاخبار ٠ وما جد من المبيعات ، وينقل عنها الاخبار وما جد مـــن المبيعات أو آخر ما ظهر من الكتب ؛ وينتقل الى التى ما بعدها الى نورنبيرغ وبولونيا وكياف (الروسيا) وفيلاندا ٠ والذين يتولون ذلك هم يهود من الخز ، وقد أسلموا فى البعض وبقى البعض ٠ والمسلمون أول من سن قانونا تجاريا ، وقانونا بحريا ، وقانونا للاسواق (أحكام السوق ليحيي بن عمر) وأعطوا فى بيان انعقاد الاسواق أكبر رخصة اقامة فى دار الاسلام ٠

أنظر عن كل هذا ميتز Metz حضارة العرب فى القرن الرابع ٠ الاصـــل بالالمانيـــة Die Renaissance des Islam ترجمـــة الدكتـــور عبـــد الهـــادى أبـــو ريـــدة .

ـ والجاحظ : التبصر بالتجارة ٠

ـ وكتب المسالك والممالك : ابن رسته ، اليعقوبى ، ابن حوقل ، والمقدسى ابن جبير وغيرهـــم ٠ و

DE MAS - LATTRIES : Traités de paix et de commerce entre les Républiques européennes et les pays barbaresques.

ـ وجرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ٠

ـ كرد عـلى : خطط الشـــام ٠

ـ المقريــزى : خطط القاهرة ... الخ .

وابتدع المسلمون فى التجارة الصك والحوالة Chèques Billet de change وقرر ابن خلدون أصول التجارة فى مقدمته . فمن ذلك نظرية الغرر وهو أن البضاعة كلما كانت أكثر استهدافا للاخطار كانت أغلى ثمنا . وأعدوا المسالك التجاريــــة البرية ، والبحرية ، وأسسوا لها الفنادقة والاربطة والمسافر خانات . وجعلوا المسافة من الرباط الى الرباط 6 كلم . من طنجة الى الاسكندرية . والرباط هو مكان يسكنه المرابطون لحراسة الثغور ، والعناية بالمسافرين ، وتزويدهم ، وضبط بريدهم ، بحمام الزاجل ... الخ .

فالمسلمون ربطوا تجارة العالم من جزائر واقواق (اليابان) ومن سيبيريا الى أمريكا التى اكتشفوها قبل كولومبوس (وكولومبوس نفسه كان مرفوقا بملاحين مسلمين ، لهم خرائط مضبوطة . وأنظر ما كتبه البكرى فى المسالك والممالك عـن قضية المغاورين الذين كانوا فى أشبونة فيسافرون بحرا الى الغرب ، ويدوم سفرهم عاما ، واقامتهم عاما ، ورجوعهم عاما ثالثا ، ويأتون بأناس حمر الجلود ، سبط الشعور، يتكلمون بلغة يعرفها المغاورون ، ويترجمون عنها 0 ووجدت النقود بشمال أوروبا ، وشمال آسيا ؛ مما يدل مدى تجارتهم . وفوق كل ذى علم عليم . لا شك أن الثروات الطائلة التى جمعها المسلمون من الفلاحة ، والصناعة ، والتجارة التى احتكروها ، لها أثرها الواضح فى مجتمعهم ، فى قصورهم الفخمة ، وأبنيتهم العجيبة (أنظر وصف قصر بلارة ببجاية لابن حمديس) ، وجوامعهم (القيروان ، قرطبة ، جوامـع الجزائر ، والمغرب ، ومصر ، والشام ، والعراق ، والاندلس ، وصقلية) وفخامـــة أسواقهم (القيروان ، سوسة ، سفاقس ، تونس ، عنابـــة ، قسنطينـــة ، بجاية ، وهران ، تلمسان ، الاندلس ، القاهرة ، (خان الخليل) ، دمشـــق حلـــب اصبهان ، طهران ، سمرقند ، بغداد) . وأنظر مبلغ تظرفهم فى كتاب الوشاء : الظرف والظرفاء وهو أبدع كتاب فى الموضوع . وأنظر قصص ألف ليلة وليلة التى تعكس صـــورة واضحة دقيقة عن الترف . وأنظر روعة حفلات المسلمين التقليدية ، والدينية التى هى من الترف والطرافة بمكان . فكان المسلمون يبيعون،ووحدهم يبيعون ولا يشعرون .

فجاء الرحالة البرتغالى Vasco de Gama واصطحب رائدا ملاحا أندلسيا مربه من رأس الرجاء الصالح ثم التحق بالخليج العربى ، وهناك التقى بالملاح الكبير ابن ماجد وصاحبه ابن مهرى وهما أميرا البحر العربى والهندى والصينى فأرياه الهند والصين اى طريق التوابل والاقمشة ٠

(وكم علمته علم القوافى فلما قال قافية هجانى)

ويقول المثل التونسى : علمو الصلاة سبقو للجماعة ٠ ويقول اخواننا المشارقة : علمو الشحاتة سبقو على الابواب العالية ٠ فانتقلت التجارة الخارجية الى البرتغاليين سنة 1537 . ومات الاسطول التجارى العربى ، ثم مات احتكار البيع Monopole ثم ماتت الاسواق التى تولاها اليهود البرتغاليون من أهل ليثورنو ويسمون بالجزائرية قورنة وبالتونسية قرنة وقرانة ، وسوقهم بتونس تعرف بسوق القرانة ٠ فتحولنا الى البيع بالتفصيل مع النسيئة والفوائد الباهضة ، فأفلس المسلمون ، وضعفت حالهم ، وباعوا قصورهم ، وخرجوا من ديارهم ٠

وتحولوا من مصدرين الى مستوردين ، لا يبيعون ، ولكن يشترون بالنفقة الموجعة ، كما يقول الجاحظ ، فصار لهم نزف دموى ، أعدهم للاستعمار ، وللجهالة ، وللمرض ، وللاخلاق السيئة ٠ ويقول المثل التونسى : الى مدخولو خماسى ، ومصروفو سداسى ، ما يموت الا يساسى ٠

وبقى ذلك الى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ولا سيما بعد استقلال الجزائر ٠ فأنعم الله على المسلمين بخامات البترول ، والغاز ، والارصدة الذهبية ، واحتكار المواد الغذائية : فصاروا يبيعون ولا يشترون ، لذلك قلت فى مقال لجريدة « المجاهد » الغراء فى 26 يوليو 1973 « الثلث الاخير من هذا القرن تكون فيه السيادة للمسلمين » وكما يقول المثل : الى عندو الذهب يلعب كيف ما يحب ٠

فالاسلام الذى كان كله تحت الاستعمار ، وكان يورد ولا يصدر « فيبيت رطلا ويصبح أربعة أوراق » قد استقل ـ ما عدا فلسطين الشهيدة ـ وهى فى كل يوم تقترب من استقلالها ٠ فالاسلام يملك اليوم مصيره بيده ، وسياسته فى قبضة كفه ،

واقتصاده رهن اشارته ، وتعليمه وفق ما يسن من برامج ، ومشاكله المتولدة من أزمات النشوء Crise de croissance هو بصدد حلها جماعة في كل يـوم ·

والاسلام اليوم ذاهب الى وحدته ، والى تبوء مقعده من الشمس ، على كرسي من ذهب وهاج ، وترصيع بالعاج ·

بقى أمـر : هل الاسلام الذى رأيناه ، روحيا ، وعقليا ، وسياسيا ، واقتصاديا واجتماعيا ، هو أيضا تقنى ؟

لقد طرقت آذاننا لفظنمات تقنى ، وتكنولوجيا ، وتكنيك ، وما أشبه · فأقول ، معتمدا على الله تعالى : ان الاسلام هو أول ديانة تقنية جامعة فى الدنيا · وعلى البيان :

1 ـ **تقنية الصـلاة** : الصلاة أولا طهارة ـ طهارة بدن ، أوجدوا لها الميضاة ، والحمام العام ، والمنزلى ، والمغطس والمسرب (دوش) · وأوجدوا لها الكاسة التى يحك بها البدن ، والمحكة العاجية التى يحك بها الظهر · واخترعوا من أجلها الصابـون الذى ما كان يعرفه الرومان ، ولا اليونان ، وأوجدوا لها المناشف والبشاكير ودورات الحمام ، أعنى السطل والطاسة والطافلة · وأوجدوا لها التعطير ··· لقول النبى صلى الله عليه وسلم « من ذهب منكم الى المسجد فليتعطر ، وليتبخر » فاستحدثوا آلات التقطير ، وأوجدوا سوق العطارين متكئة على الجامع كسوق وظيفية بالاضافة اليـه · وألفوا الكتب فى ذلك · منها : كتاب العطور للكندى ، وهو كتاب جليل · وكتاب تحفة العروس للتجانى التونسى ، وكتاب جيب العروس وريحان النفوس لمحمد بن أحمد ابن الخليل بن سعيد التميمى المقدسى ·

وأهم مرجع سهل التناول ، هو الجزء الثانى عشر من نهاية الارب للنويرى · وهو فى أصناف الطيب والبخورات والغوالى Crème de beauté والندود والمستقطرات Eau de fleurs distillée كماء الزهر ، وماء الورد ، وماء العطرشاه ، وماء النسرين ، وماء القرنفل ، الى غير ذلك ، وهى ما يرش به ، عادة ، فى البيوت ، والجوامع ، والمحافل، والادهان ، وهى الزيوت المعطرة ، كزيت الياسمين، التى تعالج بها القشرة، والنضوحات،

وهى العطور التى تصب على اليدين والبدن ، ومن طالع هذا الجزء رأى العجب من دقة الحضارة الاسلامية • وكل هذا تقنيات ، لاننا لم نخرج فى ذلك عن الكيمياء أى عن الامبيق والقابلة •

وعانى المسلمون الامرين لجلب البخورات من أقصى الدنيا ، فجلبوا اللبن الجاوى من جاوة ، والقمارى من بلاد القمار Khmers أى كامبوديا • فالصابون والعطور والبخورات والطفل المعطر هى أساس النظافة والتقنية •

ثم ان الصلوات منها ثلاث ليلية ، واثنتان نهارية ، والليلية تحتاج الى استصباح ، فاخترع المسلمون الشمعة التى تسمى بالفرنسية Bougie منسوبة الى مدينة بجاية عاصمة الحماديين بالجزائر ، والشمعة قد تطفؤها الرياح بين البيت والمسجد ، فجعل لها فنارا واقيا لذلك نجد سوقا مقابلة من الشرق لجماعة الزيتونة وسوق الشماعين مقابلة للعطارين ، وسوق الفنارية (ج . فنايرى صانع الفنارات الواقية للشموع) فى الجدار القبلى من جامع الزيتونة • واكتشف المسلمون الاستضاءة بالنفط فى صقلية، واخترعوا الوقيد Allumette بالاسبانية Alguaquedoe بصقلية أيضا ، فانتشرت فى العالم • وذكر دوزى فى ملحق المعاجم العربية الوقيد والوقيدة وترجمها بـ allumette ونحن نحتار فى ترجمة اللفظ اعتقادا منا أنه من أصل أوروبى ، بينما هو عربى فصيح، ومغربى صميم ، أصيل أنيق ، ومن اختراع المغاربة أيضا ، وهو بطبيعة الحال من ضروريات ايقاد النور فى الجوامع ـ فهو من تقنيات الصلاة •

ونصل الى بيت القصيد وهو أن أهم آلة لمعرفة أوقات الصلاة فى الليل ، والنهار ، وهى الساعة التى اخترع لها مخترعها اسما عربيا وهو الميقاتة ، والميقانة ، ومنه المنقالة بالتونسية ، فقد اخترعها العباس بن فرناس التكرنى ، القرطبى ، البربرى • وهى ساعة بالزمبالك ، بعد أن اخترع المسلمون الساعة المائية التى هى الطرجهارة ، ولنا صورة منها فى تلمسان الزيانية • وقد وصفها لنا يحيى بن خلدون فى كتابه بغية الرواد فى تاريخ الملوك من بنى عبد الواد • وأخرى مالطية قد وصفت لنا فى كتاب دمية القصر لحمزة الاصفهانى • ولا تزال توجد هذه الساعات فى بعض جوامع فاس ، ودرسها لنا العلامة المغربى الدكتور عبد الهادى التازى فى مجلة المجمع العلمى العراقى• ثم اخترع المسلمون ساعة النقالة والبندول المسماة بالتكوك ، وهى جدارية ووضعوها

فى الجوامع ، وعندنا مثل منها فى جامع تستور ، عاصمة المدن الاندلسية بتونس ، لا تزال ماثلة ، فى صومعتها ، وأرقامها عربية ، وهى تسير من اليمين الى اليسار : 1/12/11 ، لا من اليسار الى اليمين 11/12/1 • ثم لما فتح الفاطميون جنوب فرنسا الغربى ، ودخلوا وادى الروى ، ووصلوا ليون تركوا بها صناعة الحرير ، ثم سويسرة ، فتركوا بها الساعة • وكتب العباس بن فرناس أبياتا على هذه الساعة التى اخترعها على منها :

الا اننى للدين خير أداة : اذا غاب عنكم وقت كل صلاة • وصومعة الجامع هى أداة للآذان ، ولكنها مرصد مجهز بالآلات الفلكية ، والازياج ، والاسطرلابات لضبط الوقت، والقيام بمعرفة مداخل الشهور ، وسير الاهلة التى نعرف بها مداخل الشهور ، لصيامنا وافطارنا ، وأعيادنا ، وعامة مواسمنا • هكذا كان جامع الزيتونة بتونس ، وهكذا لا يزال بعض جوامع فاس •

ومن تقنيات الصلاة معمار الجوامع الذى نموذجه الاول جامع القيروان (51 هـ) بناه عقبه بن نافع ، كجامع وقلعة لحراسة المدينة ، واعداد فتح الجزائر ، والمغرب الاقصى ؛ فصار جامع الزيتونة نفسه جامعا ، وقلعة ، به أربعة أربطة ؛ فى كل ركن رباط لحراسة ثغر تونس • وحول الجامع أسواق السلاح « السرايرية » « القنداقجية » أى الذين يصنعون القسم الخشبى من البندقية ، و «الزنايدية » الذين يصنعون القسم الحديدى • فعندما يأتى الخبر على طريق الحمام الزاجل بأن أسطول العدو قد لاح فى الآفاق يصعد 12 مؤذنا الى الصومعة يؤذنون فى غير وقت صلاة ، ثم ينزل كل مؤذن الى الباب المختص به فيأتى الناس ويخطب فيهم الامام بالجهاد ، فينزل الى السرائرية ، والزنايدية لتناول السلاح ، ولا يبلغون باب البحر الا وهم مدججون •

فانظروا هذا التخطيط العجيب الذى هو عام فى جوامع العواصم ، أو جوامع المدن الساحلية ناهيك أن جامع الخالصة بمدينة بالرم العربية قد تحول الى كنيسة سانت آنا اتكأت على جداره سوق العطارين ، وكتب عليها فى لافتة البلدية Socco Laharini Grandi سوق العطارين الكبار وهكذا تسمى بتونس •

ثم يأتي معمار الجامع الذى لم يأخذ شيئا من معمار الكنيسة ، وأضاف اليها القبة التى هى لاضاءة الامام المقصود بالذات ، فلهذا أول ما وجدت فى جامع القيروان ، وفيها كوى من الجص ، المفرغ ، المرصع بالزجاج الملون ، حتى لا يكون النور ساطعا ، باهـرا ، وهو ما يسمى بالفرنسية Vitrail وبالانجليزية Glas window فما دخلت الكوة المسماة شمسية الكنيسة مع القبة الا عن طريق جامع القيروان • فالجامع الاموى بقرطبة الذى هو صنو القيروان ، ثم كنيسة القديس يعقوب القمبوشتل Saint Jacques de Compostelle شنت ياقب الحوارى المبنى باسبانيا ، ثم كنيسة نوتر دام بباريس •

واخترع المسلمون المحراب ، لفرز الامام ، واظهاره ، وتصويره حتى يراه المأموم ، ولتضخيم الصوت،لان نصف تكويره يضاعف الصوت عدة مضاعفات•أليست هذه تقنية يا اخوانى ! وشيء آخر اذا نظرنا فى أعمدة الجامع وجدناها متساوية الابعاد عن بعضها En Quincoce بحيث أنها تقابل المحراب فى أى زاوية من الجامع كان المصلى • فهو يرى الامام الذى هو بيت القصيد • ثم فكر الناس فى جلب الماء الى الجامع ، وبالتـــالى الى المدينة ، على الحنايا ، وهذا يحتاج الى تقنية ما عليها من مزيد ، مثلما فعل المستنصر بالله الحفصى فى جلب الماء على الحنايا من زغوان الى تونس (70 كم) وتوزيعه على مدينة تونس وأحوازهـا •

الجهـــاد : كان الجهاد الاسلامى الاول يعتمد على السيف، والقوس ، والرمح والحربة، ولا مزيد • فلما جاء الاسلام استعمل ذلك فى صدر الملة ثم حول الرمح الى بلطة ومنه بالفرنسية Hallebarde وهى رمح فيه زج ، وفاس ، وشاقور ، وهـــو بالاسبانية Alabarda من العربية ، وبالانجليزية Hellebarde من العربية أيضا ، ثم جاؤوا الى القوس، فحولوها الى قوس البندق Arbalète والى قوس الرجل • ثم اخترعوا الاسلحة النارية من القربوص Arquebuse وهى البندقية الاولى ، والمدفع ؛ وكان ذلك بالمهدية ببيت الكيمياء على عهد الصنهاجيين ، عندما هاجم الاسطول النرمانى هذه العاصمة الاسلامية الكبرى فرماه المدفع بالقنابل ، وذلك ظاهر فى شعر ابن حمديس ، وهو كثير الورود فى ديوانه وكان ذلك سنة 505 م : فلا عبرة فيما يقوله الافرنج من أن المدفع اخترع فى معركة كريسى بين الفرنسيين والانكليز فى حرب المائة سنة •

وأما حرب البحر فقد جهز لها المسلمون النفاطات ، أو الحراقات ، وهى سفـــن مجهزة بالنار الفارسية Woepeke : Journal Asiatique, le, feu

ج ـ زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ـ باب العسكرية ـ ٠

ثم جاءت النفاطات وهى سفن ترمى النفافيط ، أى أنابيب مملوءة بالبتـــرول ، والبارود ، فتقنبل الاسطول المقابل ٠ وأهتموا بالحصون فبنوا الاربطة على طـــول السواحل ، من طنجة الى الاسكندرية فهنالك 1000 رباط فى مسافة 6000 كلم ، أى بين الرباط والرباط 6 كلم ٠ وألف يحيى بن عمر كتاب أهمية الحصون والمرابطة فى القـــرن التاســـع قبـــل L'art des forteresses : Vauban فى القـــرن الســابـع عشر وجعلـوا فى القلعـــة المســقط machicoulis وهى جـــذوع فارغـــة ومـلآنـة قاعة قوية فوق المدخل يقف النفاط على جذعين ملآنين ، ويصب الزيت الحامية ، أو النفط الملتهب من الجذع الفارغ على المهاجمين ٠

واخترعوا الحسك Herse وهى سكاكين مركبة فى شكل شبكة فيها خيط ، وعروة ، فاذا جذب الخيط وبالعروة ، انغلقت السكاكين ، فقطعت الارجل والايدى بدون رحمة وقد كتب عن ذلك المهندس Lesme فى كتابه المهدية التى بها ثمانية أبواب من الحسك ، وست مفروشات من الحسك ، فلا سبيل الى اجتيازها ٠ أليس كل هذا فى منتهى التقنية ؟

الحـــج : الحج سفر برى وبحرى ، فالسفر البرى يحتاج الى طرقات معبـــدة ، ومسافر خانات ، وفنادق ، وأدلة من الناس ، ومن الكتب ٠ فأدلة الكتب هى مثـــل Guide bleu فى غاية التقنية تبين المسافات ، والمشاهادات ، والمزارات ، والمكاييل ، والمقاييس ، والنقود ، والمبيعات ، فيتعلم منها سبيله والجغرافيا ، والتاريخ ، وتمصير المدن ، وعلم طبقات البشر وعلم عادات البشر ، الى غير ذلك ٠

ولضبط المسافات بخطوط الطول ، وخطوط العرض ، حررت مقاييس الخطـوط فى تونس ، وليبيــا ، فجاءت محررة بغاية الدقة ، بما لا يخالف ما وصل اليه الحساب المعاصر ، الا بدقائق ؛ وأحيانا بثوان ، وجهز الحاج بالاسطرلابات ، وبوصلات معرفة

القبلة ، حتى يعرف من تقاطع الطول والعرض المكان الذى هو فيه ، بالاضافة الى مكة ، والى مكان انطلاقه • وجعلت المآكل المناسبة للحجاج ، من غليط ، وبشماط ، وقديد ومسلى وبنـــادق ، ومصبرات تحتمل المدة الطويلة ، وصنعت له السحارة ، وهى صندوق خاص ذو أدراج ، كل درج لغاية من الغايات ، وبها مفاتح سرية بالارقــام ، وجعل له أسبوط أو الكمال وهو جلدتان مخيطتان يخيط فيما بينهما نقوده ، فلا يستطيع أحد أخذ شىء منها •

فترى كل هذه التقنيات من أجل طريق البر ونظمت قوافل الابل بالمزازيـــق بالاضافة الى تونس ، فأدلة المزاريق المختصين بتربية الابل للحج ، وقطع الصحراء يجهزون لمن شاء ، قافلة كاملة ، بابلها ، وحدائها ، ومائها ، وغذائها ، وخيامها مقابل مال معلوم • وللقافلة أمير الحج ، ويكون فى الغالب من الاشراف • ثم للحج كتـــاب مناسك ، وكتب المناسك كثيرة وهى تبين له شعائر الحج ، وطرق أدائها ، وأوقاتها ، وما يجب فيها •

فهذه هى تقنية البر • ثم هناك ما يسمى بالتشويق ، وهى حفلات دينية محمسة Mise en condition تتألف من مدائح الرسول ، والحرمين الشريفين ، والكعبة ، وعرفات ، ومنى ، وغيرها من المزارات ، وتلاوة القصائد الواردة فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، كالبردة ، والهمزية ، وراثية ابن الفارض وتائيتيه ، وغير ذلك • وتقع حفلات مبائت (ج • مبيتة وهى سهرة ليلية فى زاوية ، أو جامــع ، أو دار ، لهذا الشأن ولهذا الغرض) •

أما الرحلة البحرية فى الغرب ، فقد اخترع لها المغاربة سفينة خاصة تسمى المكية • ذكرها دوزى فى ملحق المعاجم العربية • ج 2 • ص 606 ؛ وهى لا شك مجهزة بالبوصلة لاجتناب السحل Cabotage حتى تستطيع مخر البحر بالليل والنهار على السواء ، وبالدقة ، حتى تستطيع أن تحمل 3000 حاج بأغراضهم ، مــع المرافق ، وبالاسترلاب لمعرفة مواقع الامكنة ، وبالخريطة البحرية المسماة داهنامـــج Porbulant فأنت ترى أى شوط قطعته البحرية الاسلامية من أجل الحج ، فقد بلغت بالسفينة الغاية القصوى •

الصـــوم : الصوم فيه تقنية ، وهو رؤيا الهلال ، والحساب اللازم لذلك ٠ فحول المسلمون الصوامع الى مراصد ؛ علاوة عن المراصد ذاتها ، مجهزة بآلات المكبـــرة ، والمقربة ، والضابطة لمسالك الكواكب ، حتى لا يقع اختلاف الرصد ٠

وأوجدوا المراصد الكبرى بسمرقند ، وبغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، وتونس ، والجزائر ، وفاس ، والاندلس ٠ وقاموا بعمليات حسابية تسمى أزياجا ، وزايرجات ، والصحيفة الى غير ذلك من الاسماء وعلموا الاسترلابات المختلفة ، والآلات المصورة للسماء ، المرسومة فيها النجوم ، والشمس ، والقمر ، تتحرك تحركا طبيعيا ، حتى يعرفوا منها بدقة أو على سبيل التقريب ، مسالك النجوم ، ومواعيدها ٠ وألفـــوا كتبا فى ذلك ، حتى أن أحدا ألف كتابا سماه التقويم العام لخمسة آلاف عام ٠ فوصلوا الى حسابيات كبرى ، وتحولوا من علم النجوم الاستطلاعى للغيب Astrologie الى علم النجوم الحسابى ، العلمى ، التقنى ، المبنى على المشاهدات ، ودراسة النجوم ، فى مسالكها ، ومحاولة معرفة أجرامها ، وأبعادها ، ومواعيد كسوفاتها ، وخسوفاتها ٠ فتوصلوا بذلك الى معرفة استدارة الارض وحركات دوران حول نفسها Rotation وحركات الانتقال حول الشمس Translation وحركـاته فى جملـة المجموعة الشمسية ، فاكتشفوا المجموعة الشمسية قبل كوبرنيك ، واكتشفوا حركتى الدوران والانتقال قبل غاليلا وغاليلاى ٠

وسنطرق هذا الموضوع بمزيد الاطناب فى حديثنا الآخر ٠

ورمضان احتاج الى « مسحر » أى الى انسان عنده طبيلة صغيرة يطوف عـــلى الازقة ، ويطرق الابواب ، وينادى أرباب الديار : « يا سى فلان ، قوم للسحـــور ، يجعل معاك الله والرسول ٠ ويسمى فى الاندلس الدقاق ، وفى المغرب النفار ، لانه ينفخ فى النفير من الصوامع ، قبل أن يدق على الديار ٠ وفى تونس « بوطبيلة » ، وفى طرابلس سهار الليل ، وفى مصر المسحراتى ، وفى سوريا المسحر ، وقد اخترعوا له نوعا من الشعر ينشده يسمى « القوما » باعتبار أنه موجه للخليفة وزوجـــه ٠ وهو ضرب من الموشح ، فى غاية الجمال ، اخترعه صفى الدين الحلى نجد نماذج منه

فى ديوانه ، وكتابه المعطل الحالى والمرخص الغالى . أما فى تونس فينشد بوطبيلـــة حكميات تسمى العروسيات نسبة لسيدى أحمد بن عروس منها :

الدنيــــا مثلتهــــا دلاعـــــة تتكركـــب مـــن جملـــة الدلاع
مـاذا تغـــروا بيهـــا ناس طماعة رماتهـــم فى بـير مالـــو قـــاع

* * *

أو قـــوال سيـــدى أحمـد سقـــا الـــلى ما يشـــقى مـــا يلـــقى
يوحـــــل فى الديـــن الغـــــارق أمـا خـــــير يقـــولوا يا سقـــا
والا يقولـــــوا يـا ســـــارق ؟

كنشيد بنغمة رقيقة مستحبة ، فى صمت الليل ، فيكون لها تاثير عميق . واخترعوا أطعمة مناسبة لرمضان مثل أنواع الحساء ، وأنواع العصير (عصير الزبيب ، عصير المشمش المجفف ... الخ . واخترعوا البريك الذى هو مع البيضة طعام كامل . فالعصير لرفع الجفاف عن المعدة ، يتناولونه بالمسجد ، عند صلاة المغرب ، ويتناولون اثره تميرات ، ثم يصلون ، ويرجعون الى البيت ، بعد أن انطلقت المعدة من جفافها ، فياكلون البريك . واخترعـــوا للسهرة أنـــواع البوزة التى أبسطها حساء الدرع Crème de Sorgho وكريمة البوفريوة ، أبى فريوة ، وكريم الفستق واخترعوا للسحور « المسفوف » أو السفة . وهو كسكوس ، حلو ، جيد الحبات ، يسقى بالحليب ويخلط بالفواكه الجافة ، المهروسة ، من جوز وأبى فروة ، وفستق ، وبندق ، وسكر ، وتكون فيه الكفاية ، فيصبح الصائم لا يشتكى جوعا ولا عطشا ، ففيه : شبع ورى .

وسخروا المدفع للاعلان عن الافطار ، والامساك . وابتدعوا اختـــام الحديث فى عشايا رمضان فى الجوامع ، والزوايا ، والبيوتات ، يحتفلون بها غاية الاحتفال ، وفوق ذى كل علم عليم .

ومن العلوم الاسلامية علم الفرائض ، وهو القسمة على المستحقين ، وضع لـــه علم الجبر ، ليتحولوا من المجهول الى المعلوم ؛ ولاجل العمليات الحسابية الجبرية ،

او الفلكية اخترعوا الارقام التى نعرف قيمة كل رقم منها بعد الزوايا التى يشتمـــل عليها • فالواحد زاوية ، والتسعة تسع زوايا •

هذه القيمة الخاصة بالعدد ، وهنالك القيمة المقامية ، فهنالك دار الآحاد ، ودار العشرات ، ودار المآت ، ودار الآلاف ، وهلم الى ما لا نهاية له ، فالواحد واحد اذا ما كان فى منتهى اليمين، ثم يصير عشرة اذا تأخر ، ثم مائة اذا زاد تأخرا ، ثم ألفا اذا بالغ ؛ وليقس ما لم يقل •

والارقام هى : 9/8/7/6/5/4/3/2/1 • فاذا كانت منزلة من المنازل خالية من الرقم زادوها (0) وجعلوا الصفر علامة الخلاء مدورا كمثل حلقة • ونقلوا الصفر الى أوروبا فأخرجوها من صفرها •

وابتدعوا المثلثات لمعرفة ارتفاع الجبال ، بقيس الظلال المتولدة عنها • وقدم كل ذلك محمد الخوارزمى الى الاندلس فأخذها الاوروبيون عنه •

ثم قدم كربونارى بيزانى وأبوه الى بجاية الحمادية ، فتعلما الحساب بجامعة بجاية عن الشيخ عمر فبرعا فيها ، ورجعا الى مدينة بيش بمعلومات وافرة فصارت عاصمة الرياضيات بايطاليا •

أردنا نأ نبرهن بكل ذلك على أن الاسلام تقنى فى عامة فروضه ، وهذا هو بيت القصيـــــد •

والسلام عليكم ورحمة الله •

كلمــات تأبــين المرحــوم
الاستــاذ عثمــان الكعاك فى مطار عنابة

كلمة السيد مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية

... ها قد اختفى فيك يا أستاذ عثمان علم من أعلام ، لا تونس ولا المغرب ولا حتى العالم العربى والاسلامى وحدهما ، ولكن علم من أعلام الفكر ، من أعلام الحضارة ، مــن أعلام الانسانية فى مجموعها .

لقد كنت دائما روح الاستعداد نفسه ، كنت الاستعداد نفسه فى كل لحظـة ، كــان هناك أعلام يوجدون اليوم فى العالم وسيوجدون ، ولكن أولئك الذين كانوا يخرجون من سياج البروج العاجية ـ وليسمح لى حضرات الاساتــذة الافاضل الموجودين هنا وغــير الموجودين ـ ان الذين يخرجون من البروج قليلون وكنت من أعلمهم .

كنت ذلك الذى لا يكتفى بالكتــب والمكتبات ، ولا يكتفى بقاعات المحاضرات ، ولا يكتفى بالمجالس العلمية ، ولكنه ذلك الذى يقبل أن يختنق فى سياج محيط به من الشباب ، يزدحمون حوله ، يكادون يخنقونه ، وبصبر وجلد ، بل وابتسامة وفرح وسرور يستمر . كنا نتحير ، كنا نخاف عليك ، ولكنك أنت تهدئنا وتقول : دعوا الشباب ، دعوه يستمر فى أسئلة ، دعوه يستمر حى مناقشته ، وكنت ترضى حاجتهم بكل صبر ، وبكل اناة ، بل وبكل سرور ، وبكل ابتسام ، وبكل تشجيع .

كنت ذلك الذى لا يكتفى بالطلبة فقط ، ولكنه أيضا يجوب القرى والمداشر ، وكــم من مرة كنت فى طريقك الى القاء محاضرات مبرمجة فى هذه المدينة أو تلــك ، كما كان شأنك ، كما كانت تلك عادتك فى جميع الملتقيات التى حضرتها والتى شرفتنا فيها، واثريتنا بها ، منذ الملتقى السادس بالعاصمة ، كنت كل مرة تجوب جهات البلاد فى الجزائر حتى فى



السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، يلقى كلمة
التأبين فى المطار قبل اقلاع الطائرة التى تقل الفقيد الى تونس

حرارة الصيف وأنت الحضرى ، وأنت ابن تونس الحاضرة ، كنت لا تخاف من الغبار ولا من الحرارة ، وكنت تدور ، وتخرج ، وكم من مرة خرجت عن الطريق المعبدة فى طريقك الى المدن الصغيرة والكبيرة •

نعم ، كنت تخرج وتسلك الدروب الوعرة المغبرة فى تلك الحرارة عند ما تلوح لـك قرية على حافة الطريق ، وتقول لا بد ان نعطيهم حظهم ، لا بد ان نقف لديهـم ، ولست من أولئك الذين يحرصون على ان تكون قاعة محاضرات ، وكرسى وثير ••• ، كنت تكتفى بقاعة المسجد ، ورددت للمسجد دوره كما كان فى العهود الزاهرة للحضارة الاسلامية ، تحـول حصيرة المسجد فى لحظة بين عشية وضحاها وبدون سابق انذار وبدون اعداد الى مجلـس علم ، ويحيط بك الشعب فى المسجد فى المداشر ، فى الارياف ، كنت تحاضرهم فى تاريـخ القرية ، فى تاريخ الاسلام ، فى معالم الانسانية،وفى جميع جوانب الفكر •

هذا كان شانك يا استاذ عثمان ، يا فقيدنا الكبير ، يا فقيد لا تـونس وحـدها ، ولا المغرب وحده ، ولا العالم العربى ولا العالم الاسلامى وحديهما ، ولكن فقيد الانسانيـة فى مجموعها ، فقيد الحضارة ، فقيد الفكر ، فقيد القيم يا استاذ عثمان !

كم من انسان ، فى تونس بالدرجة الاولى ، وفى غير تونس أيضا ، اتهمك بالمبالغـة ، وكم منهم الآن ، وقد شاهدت بنفسك وسمعت ، يومين او ثلاثة قبل وفاتك ، أناسا من الذين كانوا يتهمونك بالمبالغة ، اعترفوا بمبالغتهم فى اتهامك بالمبالغة ، ولم تكن مبالغا ، وكان علمك يدفعك الى ذلك ، وكانت فروضك العلمية حتى عند ما كانت لا تتوفر لديك المعلومات الدقيقة لتحكم فى هذا الامر او ذاك ، عند ما كنت تحيط بك الجماهير ، يحيط بك الطلبة ، يحيط بك الشعب ، فى هذه القرية او تلك فى جبال مليانة ، فى المدية ، فى جبال جرجرة ، او الونشريس ، او الاوراس ، فى جبـال بجاية ، وفى جبال تلمسان ، وفى ندرومـة وفى غيرها ، كنت ترتجل ، وتفكر ، وتستخلص بسرعة ، تعطى الفروض العلمية !

وتلك هى شيم العلماء ، عند ما يقدمون الفروض العلمية ، عند ما تعوزهم المعلومات الدقيقة يقدمون فروضا على اساس معلوماتهم ، وعلى اساس تجاربهم ، وعلى اساس احـدث المناهج العلمية • وكنت من الذين يدفعون بالشباب دائما الى الامام ، وكنت تحفزهم الـى المناقشة ، وتشجعهم على الاستمرار ، وكنت تحثهم على ان يتجرأوا عليك يا استاذ عثمان ، ولم تكن ذلك الحساس كما يتهمونك بذلك !

(وهنا اختنق المؤبن متأثرا وتوقف)

والسـلام عليكم

كلمـة الدكتور المنجـي الكعبي

أستاذ بالجامعة التونسية ـ تونس

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسول الله الكريم

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ،

ايها السادة ،

أيها الملتقون الكرام ، ايتها الطالبات ، ايها الطلبة ، مات عثمان الكعاك ، مات مؤرخ تونس العظيم ، مات العلم الشامخ،هو الرجل الكريم الفاضل بعلمه وأخلاقه ، بنكتته وروحه المرحة ، بمحبته للعلم والعلماء ، بتفانيه من اجل أكتساب المعرفة ومن اجل اعطاء ما عنده من المعرفة ومن العلم ، مات وهو فى الملتقى الاسلامي مكافحا من اجل الفكر الاسلامي . من اجل نصرة الدين وترسيخه وتجديده وابقائه بهذه الارض الافريقية المغربية ، فى العالم الاسلامي باجمعه ، كان رجلا عظيما ، علم تونس ، مؤرخ تونس ، عظيم تونس بعد ابن خلدون رحمه الله ٠

أيها السادة ، أيها الطلبة ، أيتها الطالبات ، أيها المسلمون في الجزائر هل تعزونني في والدى الروحي ؟ ام أعزيكم في والدكم الروحي ؟ فقد ولد في تونس وهذا شرف لتونس ، ومات في الجزائر ، في عنابة وهذا شرف له انه ابن تونس وابن الجزائر وابن المغرب وابن العالم الاسلامي بأسره ، لقد رأيتموه او كدتم ترونه بالامس واقفا على المنصة يلقى عليكم في شان العبادات وتأثيرها فى حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، لقد كدتم ترونه امس واقفا طوال ساعة او اكثر وهو يحاضر كالشاب ، كأشد الشاب نشاطا وقوة وألمعية ، رحمه الله ، لكن القدر عاجله وعاجلكم به فاختطفه منكم ، اختطفه في ارض الجزائر ٠ جاء راكبا طائرة وسيعود جثمانا فى الطائرة الى تونس ، لو كان حيا وسألوه أين يدفن لقال ادفنوني في عنابة ، هنا فى عنابة ، انني أحب عنابة ، انني أحب كل أخ جزائرى ولكن هو رجل أعظم من المكان وسيبقى خالدا ، دمتم أيها الاخوان وعزائى عزاؤكم ، صبرا ، صبرا على هذه المصيبة العظيمة التى أجتمعنا كلنا ، كان فيكم ان شاء الله خلفا عظيما لهذا العلامة الذى قد لا يجود الدهر بغيره سماحة خلق وعلم ، وبحثا وتدقيقا من أجل احقاق الحق فى سبيل العلم الاسلامي وفى سبيل الدين الاسلامي ، و فىسبيل الاخلاق الفاضلة ، رحم الله هذا الرجل العظيم ، جزاكم خيرا أيها الاخوة الجزائريون الكرام ، وجزى الاخ الوزير مولود قاسم ، جزاه خيرا عن هذا الرجل العظيم الذى كان يحبه ويقدره ويجله ويقدره كثيرا ، ويتحامل على نفسه رغم الكبر ، رغم السن ، ليكون حاضرا دائما معكم فى الملتقى الاسلامي ، أذكروه بخير فى الملتقى القادم ، اقرأوا تراثه ، اعتنوا به كما كان يعتني بمهجكم وأرواحكم ٠

أيها السادة ، السلام عليكم ورحمة الله ٠



الدكتور المنجي الكعبي يؤبن الفقيد



كلمـة الدكتور محمد المبـارك

أستاذ بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية
مكـة المكـرمة

اخـوانى الكـــرام ،
هذا هو الذى نشعر به تجاه رجل كنا نتمنى أن تتاح لنا الفرص كل عام ، نشـد الرحال هو الموقف الذى نقف فيه محتارين (I) ، أما والله لم أجد فى يوم مـن حياتى نفسى فى موقف ينطبق على فيه ما يقول أبو الطيب المتنبى فى بعض مراثيه كما وجدت فى موقفى هذا اذ يقول :

طـوى الجـزيرة حتى جاءنى نبـأ فجعـت فيـه بـآمـانى الى الكـذب
حتى اذا لـم يـدعنى سلتـه أمـلا شربـت بالدمع حتى كـاد يشرق بى

هذا هو الذى نشعر به تجاه رجل كنا نتمنى أن تتاح لنا الفرصى كل عام ، نشـد الرحال لكى نلقاه ، هذا هو الموقف الذى نودع فيه رجلا ملأ قلوب العالم اعجابا لا قلوبنا فقط ، هذا هو الموقف الذى لا نعرف فيه ماذا نقول ولكنه قضاء الله وقدره ، لقد كان أمة لنفسه ، لقد كان فقيدنا مجمعا علميا قائما بذاته ، لقد كان فقيدنا موسوعة عالمية سيارة ، لقد كان فقيدنا مثلا رائعا لكل من يعشق الحقيقة العلمية ويحب أن يكون له فيها القياد ، لقد كان فقيدنا نموذجا يتحذى ، لقد كان دماغا الكترونيا وحاسبا الكترونيا بلغة العصـــر وأسلوبه ووسائله وأجهزته ، رحمه الله رحمة واسعة وعوض الامة خيرا منه ، لقد قرأت جالسين فى بيت فقال : ليت لى مثل هذا البيت أو ملء هذا البيت من مثل أبى عبيـــدة ابن الجراح ، فقد سمعت رسول الله (ص) يقول : أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الامة ، فيما قرأت من حياتى أن عمر رضى الله تعالى عنه أمير المؤمنين مر بأناس من الصحـابة وهنا أقول ليت لنا مثل الكماك لا ملء بيت ولا ملء مدرسة ليت لنا خلفا يخلفه ويعوضنا عنه ، ويزيح عن قلوبنا وعن أنظارنا قذاذ الظلمة التى نشعر فيها بعده بالفراغ .

اخـوانـى ،
لكان الشريف الرضى ينظر الينا هذه الساعة حين يقول فى رثائه للصابى

أعلمـت مـن حملـوا على الاعـواد أرأيـت كيف خبـا ضيـاء النـادى
جبـل هـوى لـو خـر فى البحـر ابتـدى من وقعـه متتابعا فى الزادى
قالوا أضاع وحيـدا فى شطن الردى أيـدى المنـون ملكـت أى قيـادى

فى ذمة الله فقيدنا العظيم ، فى ذمة الله والتاريخ يا فقيد العالم ـ كما قال السيد الوزير ـ لا فقيد الامة العربية والاسلامية وحدها ، لقد انتفع بك غير المسلمين وغير العرب من سائر علماء العالم كما انتفع المسلمون والعرب ، لقد كنت مثلا فريدا رحمك الله رحمة واسعة ، ستلقى ربك وأنت قد أديت الرسالة وقمت بالامانة ولم تأل جهدا عوض الله الامة منك خيرا وجعل وراثك خلفا يسد الفراغ .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كلمة الدكتور صلاح الصاوى

أستاذ بكلية الآداب ـ جامعة طهران ـ ايران

يا طائرا وقلوبنا تبكى وراك ... هلا كأنك الدقائق من دعاك

لمودع لو كان يدرى ما المصيبة ... حال دونك والمنية وافتداك

قد كنت بهجة ملتقانا ... ما جرى حتى تبدل أمس مجلسنا عزاك

قد كنت حجتنا وفيصل رأينا ... والكل مأمون العواقب فى حماك

النشر فى قلل النهى متجبرا ... بالله كيف تحط لا تهوى سماك

أمحرك الافكار فى آفاقها ... ماذا عراك فلم تعد تدرى حراك

الجمع خلفك واجم لا يستفيق ... مع اليه الالمعية من معاك

ما كاد يركب لحظة فيها يراك محاضرا ... حتى تهافوا من دهاك

عثمان قم فالملتقى ناداك داعيه ... فألف البحث منتظرا هناك

قم للمنصة مثلما عودتها ... اطلق لمنبرها العنان الى السماك

لتكاد تهلك حسرة لغيابكم ... وتلفت الكرسى يبحث عن كماك

قد جئتنا والعلم فى يمناك ... فبعض تباك والافضال يحدوها سناك

واليوم أنت شهيدها فارجع كما تهوى ... لحيث أردت أن تلقى عصاك

أكذاك يا كماك يوم رجاك يوم نواك ... يا رباه كيف يكون ذاك

رباه لا أدرى سوى ان المصيبة ... لا تطاق ومالها أحد سواك



الدكتور صلاح الصاوى يؤبن الفقيد



كلمة الاستاذ سليمان داود بن يوسف

بحاثة فى التاريخ ـ الجزائر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، يقول الله العظيم فى محكم كتابه الكريم فى مثـــل هذه المصيبة « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » . ان الله سبحانه وتعالى يخفف علينا وقع هذه المصيبة بهذه الآية الكريمة فجعل للصابرين بشرى ، اذن بشرى لكـــم أيها المسلمون المصابون ان صبرتم فما علينا الا الصبر ، عرفت الفقيد رحمه الله وأنا لم أبلغ العشرين من عمرى وذلك اننى قدمت الى تونس سنة 1925 فوجدته يقـــوم بالتعليم فى الخلدونية وارشاد الشبيبة وقد جلب الشبيبة كلها الى علمه والى ناحيته ، وكان له محبة غريزية طبيعية فى الجزائر ، ولهذا متعنا الله به مدة ليست بالقصيرة ، ان النبى صلى الله عليه وسلـــم يقول : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الامن ثلاث ولد صالح يدعو له وعمل صالح ينتفع به وعلم صالح ينتفع به » ، اذن ان هذا ترك علما صالحا فائدته لا تنقطع وأجره لا ينقطع ، واننا ربما ننبهكم ان ما كتب فى تاريخه من أنه كان عمره ثلاثة وسبعون سنة ، لا هو أكثر عن ذلك فى ذلك الوقت سنة 1925 وأنا صغير كان يدرس الا بعد ان نال شهادة الليسانس ، اذن عمره أكثر من هذا ، ثم اننى أقول ان الجزائر متشرفة لانه انطلق الى الجنة من هنا ، انه أخذ طريقه الى الجنة وأخذ طريقه الى الخلود من الجزائر رحمه الله ، ولا نقول فى هذا المقام الذى لا يسعنا فيه الاطالة الا أن نقول : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخل جنتى » .

والسـلام عليكـم .

كلمة الدكتور كامـل البوهى

مدير اذاعة القرآن الكريم ـ جمهورية مصر العربية

أيهـا الاخـوة المـؤمنون :

« كل نفس ذائقة الموت » . ونحن انما عزاؤنا فى هذا الحدث الجلل ، فى هذا الفقيـد العظيم ، انما عزاؤنا هو أن الاسلام يبين لنا أن الموت ليس نهاية للحياة ، الموت فى نظـر الاسلام ما هو الا انتقال من حياة فانية الى حياة باقية ، والموت بالنسبة للمؤمن هو انتقال من حياة جهاد وعمل الى حياة كلها نعيم وكلها جنة الخلد ، فان ذلك هو عزاؤنا فى فقيدنا ، وهو الذى يجعل المسلم يصبر فى أحلك الاوقات ، فى الحق ان الموت دائما يهـز النفوس ويملأ القلوب بالحزن ، ولكن حينما يكون الفقيد نجما قد هوى ، حينما يكون الفقيد أمة قائدا عظيما من قواد الفكر الاسلامى ، بل من قواد الفكر الانسانى فان المصيبة فيه جلل ، ولكننا مع ذلك نعرف كما يقول أبو العلاء :

خلـق النـاس للبقـاء فظلـت أمـة يحسبـونهم للنفـاد

ليس الموت نهاية للحياة هو مجرد انتقال من حياة الدنيا الى حياة الآخرة ، وكما نعـرف فى القول المأثور فان اخلاء بنى آدم ثلاثة ، واحد يتبعه الى أن تصعد روحه الى بارئها وهو ماله ، ثم ينصد عنه بعد ذلك ، وواحد يتبعه الى أن يوارى فى قبره وهو أهله ، ثم ينصدون بعد ذلك ، والصديق الثالث يتبعه بعد موته ، يتبعه دائما أبدا وهو عمله . وكلنا يعرف والحمد لله عمل فقيدنا العظيم خير عمل ، لقد اختار لنفسه واختار له الله أن يكون من المجاهدين فى سبيل الدعوة الاسلامية أن يعمل بخير عمل ، وأن يمتهن خير مهنة وهذا وحده دليل على توفيق الله سبحانه ، وعلى رضوان الله سبحانه ، من أجـل ذلك فانا ندعو لـه بالرحمة الى جنة الخلد يا فقيدنا العزيز ، وندعو أخانا الوزير الى الصبـر والسلـوان ، وندعو أنفسنا وندعوكم جميعا الى الصبر ، ليس للحزن مكان فى صفوف المؤمنين ، انـه الصبر ، الصبر دائما من سمات المؤمنين كيف نبكى شهداء أصبحوا فى الخالدين ، لـم يموتوا ، لم يموتوا ، أنهم فى الخالدين ، فالى جنة الخلد يا فقيدنا العزيز ، والى الصبـر والسلوان يا أخى الوزير ، الى الصبر والسلوان يا أهل الجزائر ، ويا أهل تونس ، ويا أهل البلاد الاسلامية ، الى الصبر والسلوان ، والى رحمة الله وجنة الخلد يا فقيدنا .



الدكتور كامل البوهى يؤبن الفقيد

كلمة سليم كـلاشة الغبريني

أستاذ مساعد بجامعة الجزائر

بسم الله والله أكبر « انا لله وانا واليه راجعون » شيخنا الجليل لقد استقبلناك حيا بجثتك ، وها نحن الآن نودعك ولكن فكرك لا يزال حيا ، أقول لك باسم الشباب الجزائرى الذى حاضرتهم ، نم قرير العين فان مجهوداتك وان جهادك لن يذهب سدى ، نم قرير العين والى رحمة الله ورضوانه ، حياكم الله أيها المؤمنون ان تجلوا العلماء ٠

والســـلام عليكــم ٠

كلمـة طالـب تـونسى

باسم الطلبة التونسيين الحاضرين فى الملتقى

بســم اللـه الـرحمن الرحيـم

في هذا اليوم المبارك يوم الجمعة الافضل يودع الطلبة التونسيون أستاذنا الجليـــل الكـريم العـالم العـلامة أستاذنا عثمـــان الكعـــاك رحمـه اللـه وتغمـده برحمتـه وجعلنـا فيه خـــير خلـف لخـــير سلف فى بـلادنا وفى كـل الاقطـار الاســـلامية ، « والذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون » ٠

والســـلام عليكـم ٠



كلمـة التأبـين
التى ألقاها رئيس المجلس الاسلامى الاعلى
عـلى قبـر الفقيـد
عثمـــان الكعـاك رحمـه اللـه
صبيحة يوم السبت 19 رجب هـ 17 يوليو 1976 م

رافق الاستاذ أحمد حمانى ، رئيس المجلس الاسلامى الاعلى ، والاستاذ على شنتير ، **نائب رئيس المجلس الاسلامى الاعلى ، جثمان الفقيد فى طائرة جزائرية خاصة الى تونس · وشاركا فى دفنه وتأبينه وهذا نص كلمة التأبين التى القاها الاستاذ أحمـــد حمانى فى مقبـرة الجـلاز :**

كنت فخـرا لتونس والجزائـر والعروبـة ،

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين ،

الحمد لله الذى استحق الحمد على كل حال ، نحمده فى السراء والضراء هو مولانا واليه المرجع والمآل ، تبارك اسمــه وتعالى بيده الملك وهــو على كل شىء قدير ، خلق المـــوت والحياة ليبلو الناس أيهم أحسن عملا · فطوبى للمحسنين الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، انهم الفائزون فى الامتحان (فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز) ونعوذ بالله من مصير من غرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور · وواها لهذه الحياة ! ما أقصر ايامها ! وأعجب اهوالها ، وأخلب متعها ولذاتها ! كل شىء ــ ما خلا الله ــ باطل ، وكل نعيم ــ عدى نعيم الجنة ــ زائل ·

العيـش نـــوم والمنيـــة يقظـــة ★ والمـــرء بينهمـا خيـال سـار

وها نحن نودع فى رمسه أخا لنا عزيزا علينا ، يودعنا ويرتحل عنا ، ويختار لقاء الله على البقاء معنا (وما عند الله خير وابقى للذين آمنوا) ·

لقد كان عثمان الى آخر لحظة من حياته يمتلىء حيوية ونشاطا ، يعمل لاحياء أمتــه وعزة دينه وارضاء ربه وفاء بما أخذ الله على العلماء من الميثـــاق أن يبينوا للناس ولا يكتموا • وما كان يعيش لاسرته وشعبه فحسب ، ولكنه كان يعيش لامته •

أحب عثمان أرض الجزائر وشعبها ، لان الجزائر جزء من وطنه وطن الاسلام ، وبنى الجزائر بنو أمه ، فعمل للانقاذ ــ يوم المحنة ــ بما وسعه :

الف للجزائريين في تاريخ بلادهم ، وبلاغة العربية فى لسان آبائهم ، فأبطل مزاعم الذين أنكروا ماضى الجزائر ، وعملوا لتحريف ألسنتهم بالعجمى ، والذين اتهموهم بقلة الوفاء الصريح فسبهم • وكان الفقيد من خيرة الرواد لابناء الجزائر وطلابها ضيوف الشعب التونسى النبيل ــ أيام طلبهم ــ ، بما يبثه فيهم من روح اليقظة ويبعثه فيهم من النخوة ، ويزودهم به من المعارف الانسانية • ولقد بقى ــ رغم تقدم سنه ــ وفيا لمهمته ، وفى كل سنة ــ منذ خمس سنوات ــ كان يمنح الجزائر شهرا أو شهرين هى أيام راحته ، يحضــر ملتقى الفكر الاسلامى ويثريه بتدخلاته ، ثم يرتحل بعد انتهائه فى أطراف البلاد يــؤم المدن والقرى فى السهول والجبال والوهاد ، يحاضر ويسامر ، يحدث ويحاور ، ويجيب عن أسئلة الشواب والشبان والرجال والنسوان ، ويرضى الجميع بمعارف واسعة ، ومعلومات دقيقة ، ومواعظ بليغة ، وأنباء صحيحة يفند ما زيفــه المبطلون ، ويصحح ما أفســده المغرضون ، ويقوم ما حرفه الجاهلون ، ويذكر بما نسيه الغافلون • فلا عجب أن يحبــه الجزائريون ويقدروا له ما غرسه فى أنفسهم من ثقة غالية ، وما أشعرهم به من مـــودة صادقة ، ونصيحة خالصة ، من اخوانهم التونسيين الذين مدوا اليهم ايدى التعاون على البر فى كل حين ، وقد كان عثمان ــ رحمه الله ــ نعم السفير الناصح الامين •

لقد كان الفقيد ــ رحمه الله ــ مثال العالم المحقق والباحث المدقق ، والمحدث اللبق ، والاديب اللبيب ، والخطيب البارع ، والمؤمن العامل • وكان فى ملتقياتنا للفكر الاسلامى ــ النجم الساطع والبرهان القاطع على كفاءة رجالنا ، علماء المغرب العربى الباحثين ، وعلى إستحقاقهم مكان الصدارة بين زملائهم فى الشرق والغرب ، وكان للفقيد فى نفوسهم جميعا المكانة السامية ، ولقد وقع عليهم نبأ وفاته وقوع الصاعقة ، فبكاه الجميع وشيعوه بقلوب دامية ، وعيون باكية ، وقال فيه شعراؤهم مما قالوا :

أخـى عثمــــان انـك كنـت فخـــرا	لتـــونس والجـــزائـر والعـــروبـة
ولـلاســـلام بالتـــاريـخ ، لكـــــن	يــراعـــك ليس تـوقفـه صعـوبـة

فنم بجوار ربك مطمئنا ويا هول الفجيعة والمصيبة

* * *

ان عثماننا غداة تولى قد طوانا بالحزن طى الستور
ما درى نعشه ولا حاملوه ما على النعش من جلال ونور
غيب الموت ـ اذ طواك ـ جلالا كان موسوعة جلت عن التصوير

انى هنا باسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى حكومة بلادنا أعلن ان الجزائر تقف بجانب أختها تونس فى هذا المصاب • فليست الرزية فى الفقيد مصيبة عائلته وشعبه فحسب ، ولكنها رزية العلم ، والامة الاسلامية جمعاء واننا ـ اذ نقدم فيه التعزية لعائلته الكريمة ولحكومة بلاده الفخيمة ، ولشعبه النبيل ـ نتقبل فيه التعزية ، لان المصاب فيه مصابنا ، فانا لله وانا اليه راجعون ، اللهم أجرنا فى مصيبتنا ، وعوضنا خيرا مما أخذت منا ، ونسأل الله الكريم الرحمن الرحيم أن يتلقاه بقوله سبحانه :

(يايتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) •

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين •

صور عن توديع الفقيد فى مطار عنابة



التابوت المحمول •• نحو الطائرة

توديع الفقيد فى مطار عنابة



جثمان الفقيد يدخل الى الطائرة



بعد نقل الجثمان الى الطائرة قبل اقلاعها مباشرة من عنابـــة الى تونس ، والناس واجمون ... والتأثر بالغ ، والأسى عميق !

بمناسبة ذكرى يوم الاربعين لوفاة
الاستاذ عثمان الكعاك

كنت عظيما ورحلت كذلك !..

العروسى وادى
المبعوث الخاص لجريدة المجاهد
الاسبوعية الى الملتقى العاشر
للفكر الاسلامى فى عنابة



رحلت عنا فجاة ، وباى رحيل غادرت جمعنا وتركتنا ننهل من واديك الغزير وعقولنا وقلوبنا معلقة برحيلك يوم ناداك لجواره فاستجبت فى سكون وخشوع للقائه ، وما كانت بايدينا وسيلة أو قدرة على ايقاف الحكم ولا باستطاعتنا تضحية أو ارادة للتصدى ، ولو كان التعويض ممكنا والتضحية جائزة لما ترددنا لحظة فى ذلك لكان من الهين تقديم كل غال ونفيس من أجلك !.

مركب الحجار ، ومصنع الفوسفاط ومنجزات أخرى شيدت بسواعد أبناء الثورة كانت فداك ، تعذر كل شيء أمام الفاجعة ووقفنا فى خشوع مثلك تجاه المحنة ، بل واضعف منك ، وتقبلنا العزاء فيك وما كنا لنتقبله لو خيرنا ، لكنه حكم الله لا مفر منه ولا رجعة فيه ..! فضلك عن غيرك فاختار لك الموقع وناداك الى جواره ، وخيرك من بين المشاركين فى الملتقى العاشر للفكر الاسلامى فوهبك وأعز وعظم رحيلك .

كانت جماهير بونة ــ عنابة ــ التى حضرت، للتعريف بهـا وباصالتها التى استقبلتك وامثالك من رجالات العلم والمعرفة من مختلف الاقطار الاسلامية وغيرها الذين جمعتك بهم وحدانية الـدين وقوة الايمان بعظمـة الاسـلام تودعك وهى مكسورة الجوانح ، مختنقة الحناجر ، مبللة الاعين ، مكسوفة الشعور ••• ارادت ان تخرجك من الجثمان ، وان تضمك اليها ، وان تتحدى القدر فى مصابها اياك ••!

شبابها وشيوخها ، فتيانها وفتياتها ، زملاؤك الذين سامرتهم ورحلت فجأة عنهم ، أخوك وصديقك معالى الاخ مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية بجمهورية الجزائر ، سلطات الولاية كلها ، كافة طبقات الشعب الجزائرى المثقفة •••

ليت المنية أمهلتك ومنحتك فرصة الرؤيا لتدرك بحق ، وان كنت لا تشك فى تقـدير واخلاص ابناء الجزائر الثورية للمثقفين ــ لو كنت موجودا فى تلك اللحظة لا ما تأسفت ولا ما ندمت عن طريقة رحيلك ،، عظيما مثلما كنت ••!

ان طريقة رحيلك عن عالمنا فى تونس والجزائر والاقطار الاسلامية جمعاء امنية كـل مثقف .! شيعت جثمانك الجماهير بعيونها وجوارحها الى حيث غابت ناقلتك الخاصة عـــن مطار « الملاحة » وبقيت قلوبها متعلقة بـك وباحاديثك وفصاحتك وشجاعتك ، وودعتها أنت بروحك وجسدك لا بافكارك وصدق مشاعرك ونيـل اخـلاقك ،، وقبل ذلك أبنـك الكثيرون ، طلاب وأساتذة ومشاركين وفى مقدمتهم الاخ الوزير مولود قاسم الذى قاطعته دموع الرثاء والاعتراف والتقدير بعظامتك مرارا ••! وقد قال فيك من بينهم :

أخـــى عثمـــان انـــك كنـــت فخـــرا
لتـــونـــس والجـــزائـــر والعـــروبـة

ولـــلاســـلام بالتـــاريـــخ ، لكـــن
يـــراعـــك ليـــس تـــوقفـــه صعـــوبة

فنـــم بجـــوار ربـــك مطمئنـــا
ويـــا هـــول الفجيعـــة والمصيبـــة

لقد وقع عليهم نبأ رحيلك وقوع الصاعقة فبكاه الجميع وشيعوه بقلوب دامية وعيون بالية .

ومن عنابة الى تونس انسجمت الصور ببعضها وامتزجت الشعـور بالعطف والتقدير ، حيث تهاتف لاستقبالك على أرضية مطـار قرطاج الـدولى والحسرة تقطـع النفوس سامى رجالات العلم من بنى قوميتك وأمتك الاسلامية وكبار موظفى الدولة وفى مقدمتهم السيد

محمود المسعدى وزير الشؤون الثقافية ،، ومن المطار الى بيتك الذى خرجت منه على قديمك وعدت له حسب مشيئة الاقدار لتودع فيه الوداع الاخير ،، هنالك كان لك موعدا مع الاحباب والاقارب والاصدقاء ،، كان المشهد أكثر ارتباطا بالواقع ، وبالمقامة ، والموضمة التى خصت بها من طرف هؤلاء كلهم ، لقد أولوك قيمة عملك اعترافا بما قدمته من أجل انارة الطريق للتعريف بالواقع وبالتاريخ الذى هو اليوم يذكرك بكل فخر واعتزاز ٠

لقد رافقت جثمانك الى جانب الوفد الرسمي وحضرت أعظم حدث مقدس لمدى الاعتراف بتضحيات وخدمات رجل الثقافة فى عصرنا ومكانته بين بنى جنسه وأمته ، لقد تجلى ذلك بكل صدق من خلال الموكب الجنائزى الرهيب الذى خصصت به من الجزائر الى تونس ، ومن المشاعر الخلاقة الصادقة التى أجمعت على ان فى رحيلك خسارة كبرى لا لعائلتك وبلدك فحسب وانما للامة الاسلامية قاطبة بل وحتى للتاريخ الذى كرست من أجله جهودك لجعله مرآة صادقة يخدم مستقبل الاجيال خال من كل لبس أو تزوير ٠٠!

ان الحدث التاريخى الذى شهدته مقبرة الزلاج صباح يوم السبت 19 رجب الموافق الى 17 جويلية 1976 ما هو الا صورة لمدى الاعتراف بتضحياتك الجسام ودعم لمواصلة الطريق الذى سرت فيه من طرف غيرك من المثقفين ٠ لقد كنت الى آخر لحظة فى حياتك تمتلىء حيوية وقدرة ونشاطا ، وتعمل لعزة دينك وارضاء ربك وفاء منك بما أخذ الله على العلماء من الميثاق ٠! احببت أرض الجزائر وشعبها لان الجزائر جزء من وطنك ، وبنى الجزائر بنو أمك ، فعملت للانقاذ أيام المحنة بما فى وسعك ٠!

لقد كنت رحمك الله مثال العالم المحقق ، والباحث المدقق ، والمحدث اللبق ، والاديب الذكى اللبيب ، والخطيب البارع ، والنجم الساطع ، والبرهان القاطع على كفاءة رجالات العلم الباحثين فى المغرب والمشرق ، لقد اختار لك الموقع وناداك فوافتك المنية على أرض المليون ونصف المليون شهيد ، على أرض الجزائر الطاهرة ، على أرض الثوار والمكافحين وقد قال بهذا الصدد من بين من قالوا فيك :

امحــرك الافكــار فى افاقهــا	ماذا عراك فلم تعد تـدرى حـراك ؟!
الجمـع خلفـك واجـم لا يستفيـق	نعـى اليـه الالمعيـة مـن نعـاك
ما كـاد يرقـب لحظـة فيها يراك	محـاضرا ، حتى دهـاه مـا دهـاك
عثمـان قـم فالملتقـى نـاداك دا	عيـه ، فـالق البحث منتظـرا هنـاك
قـم للمنصـة مثلمـا عـودتها	اطلـق لمنبـرها العنـان الى السمـاك
لتكـاد تهلـك حسـرة لغيـابكم	وتلفـت الكـرسى يبحث عن كمـاك

أبـك المنــون ؟ أم الحيـاة عـرفتهـا ... فكففـت زهـدا فى رشـاويها خطـاك

لقـد جئتنـا والعـلم فى يمناك بعض ... نـداك ، والافضال يحـدوها سنـاك

شرف المعلم ان يمـوت عـلى الصحائف ... والمجـاهد ان يمـوت عـلى العـراك

وجمعـت للشـرفين اخـلاق النبـوة ... واصطفـاك المـوت تحـت لـواك

واليـوم أنـت شهيدها فـارجع كمـا ... تهـوى لحيث أردت ان تلقى عصـاك

أكذاك يـا كمـاك يوم رجاك ؟ يـوم ... ، نـواك ؟! يا ربـاه كيف يكـون ذاك

ربـاه لا أدرى سـوى ان المصيبـة ... ،، لا تطاق ، ومالها احـد سـواك .

فى هذا الجو الملىء بالتهليل والتقدير ، وبهذه المشاعر الخلاقة المؤمنة بواقع الرسالـة الثقافية ودعت عالمنـا ،، لقد كنت عظيمـا فعـلا ورحلت كذلك .

مراعاة العبادات هى أسس سعادة الإنسان المسلم

د . داود كاون
أستاذ بقسم الشرق الادنى والاوسط - معهد الدراسات الشرقية والافريقية
- جامعة لندن -



بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم - « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أولئك هم المفلحون) .

بسم الله الرحمن الرحيم « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم

امنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون ـ صدق اللـــه العظيم » ٠

اما بعد فعندما استلمت دعوة معالى الوزير السيد الأخ مولود قاسم للاشتراك فى هذا الملتقى الثقافى العاشر المبارك سررت غاية السرور وذلك انى صرت بعد بضع زيارات أحب هذه الجمهورية الجزائرية الباسلة حب الرجل لوطنه وقد وهبت لها جزءا من قلبى غير أنه قد خالط فرحى لقبول الدعوة الكريمة شيء من التردد ، وذلك بالرغم من تقديرى الفائق لهذا الشرف العظيم ٠ وكان سبب ترددى ، ـ والحق يقال ـ بسببين : اولهما أنى مع زيارات كثيرة جدا لاقطار العالم العربى لمدة اربعين سنة ما حضرت الا نادرا الى قطر عربى حبيب لاعلم بل لاتعلم وأشرب من مناهل العلوم العربيـــة والاسلامية فى أوطانها وعلى أيدى شيوخ وأساتذة متبحرين فى العلوم لكى أقتبس قبسا ضئيلا من نورهم المستفيض ، أما السبب الثانى فهو علمى بأن ما يقوله رجـــل اسكتلندى مثلى قد لا يراه اصدقاؤه واخوانه العرب كافيا من حيث الفصاحة العربية ، غير أن شوقى الى هذه الجمهورية المباركة غلب على ترددى فها أنا الآن أمامكم وبـــين أيديكم ، وارجو اخوانى الاساتذة الكرام أن يعذرونى اذ أوجه كـلامى بالاخص الى شباب هذا الحفل الكريم شباب الجزائر النبيل ـ فقد استمعتم وسوف تستمعـــون أثناء هذا الملتقى الثقافى الى محاضرات علمية قيمة تلقيها عليكم نخبة من علماء العرب وغير العرب ٠ أما ما سوف تستمعونه منى هذا المساء فليس محاضرة علمية بل مجرد حديث بسيط ، سلسلة خطرات نفسى ، أحاول بواسطتها أن أستعرض امامكم السعادة والطمانينة اللتين يجنيهما العبد من عبادة ربه حق عبادته ، كما اريد أن أتداول بعض القيم الاسلامية الخالدة التى دفعت العرب بعون الله تعالى وبارشاد رسوله الكريـــم (صلى الله عليه وسلم) الى مسرح التاريخ العالمى حيث لعبوا دورا جبارا فى خلق مجتمع عادل وفى دفع الانسانية الى مرتفعات من السعادة والهناء والتقدم الحضـارى والخلقى لم تكن لتبلغها لولا هداية القرآن الكريم والرسول الامين ، مرتفعات من السعادة والهناء والتقدم الحضارى يمكن أن تتحقق من جديد على أيدى الشباب العربى الطموح ٠

وذلك اذا حافظ الشباب العامل النشيط على تراثه الدينى والثقافى ، وبذل كل جهوده فى خدمة جاره وأخيه وأسرته وشعبه وأمته بل الانسانية قاطبة .

أرجو من هذا الحديث القصير ، وذلك بعون الله تعالى ، وما توفيقى الا بالله ، أن أبرز بعض فضائل الاسلام وقيمه المثمرة التى من شأنها أن ترفع مستوانا المادى والمعنوى الى ذلك المستوى المرموق الذى كان المسلمون يتمتعون به فى أوج حضارتهم الاسلامية الباهرة التى أضاءت نورا على العالم باسره فى وقت كانت بقية الانسانية منغمسة فيه فى الهمجية والجهل والخرافات ـ ولكن لن يتحقق هذا الا اذا سعينا كلنا نحن المسلمون الى تحقيقه فى مجتمعاتنا ونفوسنا بكل ما أوتينا من قوة وجهد ومثابرة ـ من المسلم به أن الله تعالى أرسل أحدا من رسله أو أنبيائه المباركين لهداية الانسان الى حياة أفضل فى وقت كان العالم غارقا فيه فى الجهل والكفر والشقاق والشقاء ونؤمن نحن المسلمين برسالة جميع أولياء الله هؤلاء ، وقد ذكرت أسماء بعضهم فى كتاب الله عز وجل ، بينما فقدت أسماء بعضهم الآخرين فى رمال الصحراء ما قبل التاريخ ، والاسلام الذى جاء به سيدنا محمد (ص) وعلمه ونشره وتاذى من أجله هو التحقيق الاكمل الافصح لعناية الله بخلقه وعطفه عليه ـ قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » (صدق الله العظيم) ـ هذه الكلمات البسيطة السامية تؤكد لنا أن الاسلام أكمل الاديان وآخرها بل هو الدين عند الله ، ولا يحتاج الله بعده الى ارسال نبى لانقاذ الانسان من براثن الجهل والشقاء ـ ان الطريق واضحة أمامنا هى طريق الاسلام الصراط المستقيم الذى يأمر الانسان بالكد والاجتهاد والسعى الى كل ما هو خير ونافع للمجتمع الانسانى يجب علينا نحن المسلمين أن نعلن بأصوات مرتفعة فى مشارق الارض ومغاربها أن فى كلمات الله تعالى التى يؤكد بها أنه ارتضى لنا الاسلام دينا توكيدا لنا بأن المسلمين هم الذين سوف ينشرون راية السلام والاخاء والحب والرخاء فى العالم بأسره ، وذلك بالرغم من الحالة التعسة التى نرى العالم الاسلامى فيها فى هذه الايام العصيبة ـ هذا كان هدف أجدادكم الاماجد وسعيهم والذى قادهم الى المجد ، فكم أنا مشتاق الى ان أراكم

يا شباب العرب باذلين كل ما فى وسعكم لاسترداد هذا المجد فى جميع ميادين السعى البشرى حتى تكونوا قدوة للعالم ، جديرين بنعم الله الخالدة التى أنعم بها على أسلافكم ـ فلننظر الى بعض الاشياء التى يتألف منها الاسلام الصحيح . سعادة الانسان فى هذه الدنيا الفانية وفى آخرته أيضا . ان ركن الاسلام الرئيسى هو الايمان بأن اللـه تعالى واحد لا شريك له . وأنه دائما وأبدا حريص على الخير للانسان خليفته فى الارض يكافئه لاعماله الصالحة ويعاقبه على سيئاته . فلا ننسى اذا أن الله تعالى يراقبنا وسوف يحاسبنا على كل أعمالنا وأفكارنا ـ فلتدخل مخافة الله قلب كل فرد منا لان الانسـان لا يشعر بمسؤوليته عن أعماله وأفكاره الا اذا دخلت مخافة ربه وخالقه قلبه فانـهـا رأس الحكمة ـ لقد انتبه الشباب العربى الناهض بعد قرون من الركود والتخلف اللذين لم يكن آباؤهم ـ مسؤولين عنهما الا جزئيا ، انتبهوا الى أن الشعور بالواجب هو ما يفرق بين الانسان والحيوان الذى هو الآخر من خلق الله ، وهذا الشعور بالواجب هو الذى يجعل الانسان يدرك أن ما هو موكول به قبل ربه وشعبه وأمته يجب عليه أن يسعى ويجتهد لاتمامه وانجازه بالطريقة المثلى وعلى أحسن حال . هذا معنى جعل الله عـز وجل الانسان خليفته فى الارض . فيجب أن يكون هذا الشعور وهذا الادراك فى قلب كل شخص كبير وصغير ، ذكر وأنثى ، يدعى ويفتخر بأنه ينتمى الى حظيرة الاسلام وجماعة الاخاء الاسلامى . كيف ينتشر الاسلام ويزدهر ويحتل بين شعوب العالـم والمجتمعات البشرية هذا المكان المرموق الشريف الذى اختاره الله تعالى لدينه وعباده اذا لم يكن فى المسلمين فرادى وجماعة القدوة الحسنة ؟ ـ بعد قراءة تاريخ الاسلام وبعد ادراك العلى السامية من الحضارة والرقى التى بلغها المسلمون الاولون وبناة الدولة الاسلامية الباهرة شرقا وغربا . كم أنا أشتاق الى أن أرى الشباب العربى النبيـل يسترد ذلك العصر الذهبى الذى كان المسلمون فيه فى طليعة الحضارة والمدنية والتقدم أو الى أن أموت واثقا بأنه سوف يعاد حتما على أيدى أبطال جدد شعارهم الله اكبر !

لقد استيقظ العالم الاسلامى والعالم العربى بالاخص والحمد لله الى فضيلة العمل المضنى والاجتهاد فى انجاز الواجبات ، تلك الفضيلة التى جعلت السلف الصالح قادة العالم ، فلم يعد المسلمون راضين بانجرار وراء ركب الحضارة الانسانية والمدنية العربية،

مستفيدين هنا وهناك من انجازات هذا الركب ، لا ، انهم يريدون أن يقودوا هذا الركب من جديد • وقد قرر العالم الاسلامي أن يخلق مصيره بعون الله وبأيديه العاملة ـ ولكن لا يعني هذا أن المسلمين معادون للحضارات غير الاسلامية ، بل يدركون أن الشعوب الاخرى غير الاسلامية ، شرقيها وغربيها لها أهميتها ومكانتها في مخطط الله الاكبر ـ ان القادة السياسيين والمفكرين الذين يسعون اليوم لبناء مستقبل اسلامي أفضل يدركون كل الادراك ما هو خير وصالح في الحضارات الاخرى • وقد قرروا ادماج هذا الخير وهذا الخير فقط في ما هم في طريق خلقه ـ وهذا ما حدث تماما في القرون الاولى الزاهرة من الدولة الاسلامية ـ لقد تحرر العالم العربي من اغلال الركود التي عرقلت سيره مدة طويلة جدا فاذا تمشت الفضائل والقيم الاسلامية الخالدة والاحسان والصدق والطاعة وضبط النفوس والاجتهاد والاخاء والمحبة والوفاء ، تلك الفضائل التي يدعو اليها كتاب الله ، أقول اذا تمشت مع روح الانبثاق الجديدة فلا أشك في أن تشاهد العقود الاخيرة من هذا القرن عودة الاسلام نورا مستضيئا يهدي الانسانية الضالة ـ التي زعزعت قيمها حروب ضارية وشكوك مميتة ـ الى الصراط المستقيم صراط الفلاح والسعادة • وفي هذه النهضة الجديدة ليكن شعار كل مسلم ومسلمة لن اضيع لحظة واحدة من الوقت الذي قسمه لي ربي على وجه هذه الارض ـ يتوجب علينا ان ننظر بعين العطف والاحترام الى كل عمل وشغل مفيد مهما كان متواضعا ، فاهمين أن ما يرضى الله الخالق فأجدر به ان يرضى الخلق ، أليس أمامنا القدوة الحسنة في مشخص سيدنا محمد (ص) الذي كان يصلح نعله بيده الكريمة في وقت كان فيه سيد العرب ـ •

اخواني الاعزاء ، أخواتي العزيزات ، اسمحوا لي أن اشير الى بعض المشاكل التي يعانيها المسلمون العائشون أقليات صغيرة أو كبيرة في البلاد غير الاسلامية ـ لقد انصرفت جماهير غفيرة من سكان البلاد غير الاسلامية وبعض البلاد الاسلامية، أيضا للاسف عن الدين مدعين أنه يعرقل سيرهم ويقيد سعيهم يعيشون في حضارة مادية محضة فيها كل المباهج والمسرات المشروعة وغير المشروعة والآلات التي تسهل حياتهم ـ لقد حدث هذا الانصراف عن الدين بالتدريج لاسباب سياسية واقتصادية واجتماعية ليس لي أن أخوض فيها بهذه المناسبة ونتج هذا الجري وراء الملاذ بعد أن خابت آمال

الشعوب فى حياة افضل تحت النظم القديمة • فلذلك نرى هذه الموجة الطاغية من المادية التى تكاد تغمر العالم كله • أما الاقليات الاسلامية التى تعيش فى وسط هذه الموجة فانها تجد نفسها فى خطر ، لان ابناء المسلمين وبناتهم تفتنهم هذه الماديات وهذه المباهج التى توفرها بيئتهم فتمتد اليهم ايدى الاغراء ـ الشباب لا يخاطبه الا الشباب فاذا رأى العالم بدون أى ريب أو شك أو مراء ان الشباب العربى افضل الشباب المثال الاعلى للتضحية والاجتهاد والعمل البناء الخالق والمحافظة على تراثه وقيمه ، أقول اذا اتضح هذا للكل فى الشرق والغرب ، ووسائل الاعلام سريعة فعالة تجعل اخفاء ما يحدث ويتطور فى أى قطر من اقطار العالم الشىء المستحيل ، فلا شك أن شباب الاقليات الاسلامية المعرضة لضغوط وتكاد تقاوم لن ينظر الا الى الشباب العربى النبيل وذلك افتخارا به وحبا لتقليده ومجاراته ـ ان صلاح المسلمين المادى والروحى لا يمكن تحقيقه الى بمساعى كلنا وبالاخص بالقدوة من الاقطار التى المسلمون فيها الاكثرية فاذا كنا مخلصين فى ما ندعيه من الرغبة فى نشر نور الاسلام ومساعدتنا بعضنا بعضا ، ومؤاساة الاخ ومساعدته من مثل الاسلام العليا فانه يتوجب على كل فرد منا ان يضع كل هذا نصب عينيه فى كل لحظة ـ المحافظة على مبادئنا الاسلامية وابراؤها بجميع الوسائل لعيون سائر العالم ، هذا هو جهادنا فى ما بقى من القرن العشرين وفى ما يأتى من القرن الحادى والعشرين فمن أقعده اليأس أو الكسل أو الانحراف عن جادة الحق اصبح عبئا لا يطاق على اخوانه ومجتمعه ـ اذا بذل المسلم كل جهده لاكتساب شعور بالواجب فى نفسه شعور لا يزعزعه شىء ، ولانجاز ما وجب عليه من العمل بالطريقة المثلى فانه لا شك سوف سوف يحقق نهضة قوية للاسلام معنويا وماديا وعندما نسعى الى ذلك اعلاء لكلمة الله عز وجل وحبا للاسلام الذى هو الدين عند الله فان الله سبحانه وتعالى سوف ينجز وعده ويساعدنا على تحقيق صلاح كل مسلم المادى والروحى وعلى كتابة الباب الاعظم فى تاريخ سير الانسانية نحو ذلك العالم الكامل الامثل الذى يريد الله أن نخلقه لنفوسنا بل يحثنا ويأمرنا بخلقه فى كتابه الكريم •

يقول بعض المغرضين ان الاسلام انتشر فى الشرق والغرب بقوة السيف ولكنى أقول لامثال هؤلاء انه لم يكن يأس العرب أو بأس بنى عثمان فى الحرب هو الذى نشر الاسلام

في العالم كلا ، الايمان بالمبادىء الاسلامية والطاعة لله عز وجل هما اللذان جعل من دينك الشعبين قوة لا تقاوم ـ وأيضا لم ينشر الاسلام فى الشرق الاقصى وفى أقطار نائية فى افريقيا وأوروبا والقارة الاميركية بقوة السيف بل انتشر هنالك على أيدى تجار وعلماء وأصحاب مهن ، رجال عاديين خالين من كل سلاح غير سلاح الاسلام والايمان والاعمال الصالحة ـ الشيء الذى ضرب أصول الاسلام فى تلك البلاد البعيدة ، هو قدوتهم وطيبهم واحسانهم وتقواهم وبشاشتهم وعطفهم على اخوانهم المسلمين منهم وغير المسلمين على السواء حتى ان جماهير كبيرة انضمت اليهم واصطفت تحت راية الاسلام ٠
وفى ايامنا عندما ينصرف الكثيرون عن الدين كما كانوا يعرفونه فانهم يشعرون مع ذلك بفراغ ، بحاجة الى شيء يصعب عليهم كل الصعوبة التعبير عنه ـ ان هذا الفراغ يشعر به على الاخص عند الشباب الذين ، كما يقال ، يتمردون فى كل قطر ويثورون على قيم آبائهم ـ انى أعتقد أن هذا الفراغ لا يسده غير الاسلام حتى يصبح الدين لله ويسود الدنيا سكينة الاسلام وهناؤه ـ وهنا أكرر أملى فيكم ايها الشباب العربى النبيل أملى فى أن تكونوا دائما قدوة حسنة لشباب العالم الحائر الباحث عن سبب لوجوده وعن شيء يستطيع ان يحول طموحه ونشاطه الى طريق مثمرة بناءة تخلق فى العالم الرخاء والاخاء والمساواة ، أو بعبارة أخرى ملك الله على الارض ـ كونوا انتم الامة الذين يدعون الى الخير ـ فى ايديكم مستقبل هذه النهضة الجديدة للاسلام وفى أيديكم أيديكم مستقبل الجاليات الاسلامية فى الاقطار غير الاسلامية فاذا وجد شباب أوروبا وشباب أميركا فيكم تلك المثل العليا التى يبحث عنها الكثير منهم كان مستقبل الاسلام فى أوروبا واميركا مضمونا وجنيتم ثمرات ايمانكم وحبكم لله ـ أنتم يا شباب العرب ، انتم تدرسون وتحصلون العلم فى المدارس والجامعات ، تدرسون وتقضون لياليكم فى القراءة والاستقصاء والمطالعة وذلك بغية خدمة وطنكم العزيز وبالتالى لتخدموا مواطنيكم والامة العربية والانسانية قاطبة ـ لا خوف عليكم اذا اتبعتم الطريقة التى رسمها لكم ولاجدادكم الاعاظم النبى المصطفى (ص) ولا أشك لحظة واحدة فى أن هدى الرسول الكريم هو هديكم ، ولذلك أرى لكم ولشعبكم ولامتكم مستقبلا باهرا يثير غبطة ذوى النيات الحسنة وربما حسد الحاسدين ٠

اخوانى الاعزاء ، أخواتى العزيزات ، أرجوا وأؤمل الا تؤخذوا على هذه اللهجة التى خاطبتكم بها وألا تعتبروا ما سمعتموه منى تدخلا فى شؤونكم أو درسا ألقيه عليكم ـ ان شبابى ولى يا للاسف وقد رأيت الظلم والتفكك والبغضاء والحيرة تنشب براثنها فى جسم الانسانية التعسة منذ ولت أحلام شبابى ولكن لم أيأس ولن أيأس باذن الله لان شباب كل قطر هم كنز المستقل وهم الذين سوف يخلقون عالم ـ الغد ـ والشباب السليم لا يمكن أن يخلقوا الا عالما سليما أفضل من العالم الذى نعيشه فى هذه الايام المضطربة ـ فى شبابى اعتنقت الدين الاسلامى الحنيف عن عقيدة وايمان بأن هذا الدين هو الطريق الصحيحة التى رسمها ربنا عز وجل لخلقه الضعيف بقصد هنائه ورخائه وسعادته الابدية ، ومنذ يوم دخولى فى حظيرة الاسلام لم يتزعزع ايمانى ولم أيأس من استرداد الاسلام والمسلمين مجدهم السابق قادة فى جميع ميادين العلم والحضارة والرقى الانسانى . كيف أيأس وقد بنيت الحضارة الاسلامية على أسس سليمة متينة فاذا استطاع المسلمون أن يبنوا فى الماضى صرحا أدهش العالم وملأ جميع الشعوب الاخرى هيبة واجلالا فأجدر بهم والاسس لم تزل سليمة متينة ان يبنوا صرحا من الحضارة أفخم وأروع مما شاهدته القرون الخالية اذ فى أيديهم جميع وسائل الحضارة الحديثة المادية وقد تعلموا كيف يستعملون هذه الوسائل . اذا تمسك المسلم بشخصيته وقيمه الخالدة ولا يمكن أن أتصور غير ذلك . فالمستقبل للعرب والاسلام . ولا أشك فى أنكم أيها الشباب العربى الجزائرى مقبلون على هذه المهمة السامية بقلوب فرحة نشيطة مليئة بحسب ديننا الحنيف وبالتفانى فى التضحية الى أقصى درجة للوطن والامة والانسانية كلها .

بارك الله فيكم وسدد خطاكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حضـــارة ومنـــارة! (*)

للسيد مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية

بســــم الله الرحمن الرحيـــم

حضرات الســادة والسـيدات

نختـــتم اليوم جهود أيام وليال عشر، علها تقينا اليوم وفي الحشر، إذ أزلتم بها عن اللباب الغطاء والقشر.

1- وقد تدارستم دور ما كان للإسلام من فكر وحضـــارة، وأمد به أوروبا والعالم من نور، وحياة، ونضـــارة، ورأيتم أن قد حان الوقت للجمـــع بين الجديد والأصيل، وأن في ذلك وحده الرأي والقول الفصـــل!

2- ونظرتم في ضرورة التعجيل لأمة الإسلام بالصناعة، التي تحقق القوة والمناعة، وقلتم إن التصنيع من الله واجب، إذ هو من الفقر والضعف ستار وحاجب، وفي الحديث الشريف أن "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف"، وأن التجربة تعلمنا أن المتهاون في هذه القوة مهان معيف، على أن القوة المادية وحدها سراب، إذ في ترك الحصانة المعنوية هلاك وخراب!

3- وتأملتم في العبادات وانتهيتم إلى أن لها إلى شكلها معناها،

(*) كلمة اختتام الملتقى العاشر للفكر الاسلامي بعنابة



السيد مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية يلقى كلمة اختتام الملتقى بحضور السلطات المدنية والعسكرية فى الولاية نذكر منهم بالخصوص السادة : العقيد الهاشمى هجرس، رئيس المنطقة العسكرية الخامسة ، وأحمد على غزالى ، والى عنابة ، والمحافظ الوطنى للحزب

وإلى نصها مقصدها ومبناها، وأنها للمسلم والأمة دين ودنى، وبها تحقق في هذه وفي الأخرى الآمال والمنى.

فشكرا لكم سادتي العلماء الأفاضل، إذ كان كل منكم من أجل العلم والحقيقة الجندي، والمسبل، والمناضل!

وشكرا للسلطات في سيبوس[1] على كرم الوفادة، وهنيئا لأهلها بما حرصوا عليه من نيل الإفادة.

ها نحن إخوتي الطلبة في نهاية الشوط، ولم نستعمل معكم العصا ولا السوط، بل ولم نرفع حتى الصوت، مع ما فيها للذهن من انفلاق، ولباب الفوضى من سد وانغلاق!

فإلى اللقاء جميعا ولنودع العنيبة، إلى تلك التي كانت تصل إلى ونيبا[2]، إلى مدينة البتر والحاسي، التي تذكر بماضيها وحاضرها الغافل والناسي، إلى معين النفط والغاز، التي كانت بين الشمال ووسط إفريقيا الصلة والبوغاز، إلى منبع العلم والطاقة، اللذين إذا ما كانا للشعب أزالا عنه الجهل والفاقة، إلى اللقاء في دار الورجلاني، الذي نافس أمثال سحنون، وبطوطة، والورتلاني، إلى الربيع في مدينة النور والدقلة، إلى المجيدة الأثيلة: ورقلة!

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

---

1) سيبوس أحد الأسماء القديمة لعنابة واسم نهرها إلى اليوم.

2) ونيبا هي المدينة الثانية في غانا وكانت تابعة للدولة الرستمية عندما انتقلت إلى صدراتة ورقلة.

توصيات الملتقى العاشر للفكر الإسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم

توصيات اللجنة الاولى

موضوعها : ازدهار الحضارة والفكر الاسلاميين فى الغرب الاسلامى وخاصة فى بلدان المغرب ، وابريا ، وصقلية ، ودورهما فى النهضة الاوروبية .

اجتمع أعضاء اللجنة الاولى ليلتى 18 و 19 رجب 1396 (16 ، 17 يوليو 1976) المؤلفة من ألسادة :

- الاستاذ محمد عبد الله عنان . مؤرخ وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة . — رئيسا
- الاستاذ يحيى بوعزيز، أستاذ بالمعهد التكنولوجى للتربية،وهران. — مقررا
- السيد المهدى البوعبدلى ، مكلف بمهمة بوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية وعضو المجلس الاسلامى الاعلى ، وبحاثة فى التاريخ - الجزائر - — عضوا
- د . جوزيف بيلافسكى ، رئيس قسم الدراسات العربية والاسلامية بجامعة فرصوفيا (بولونيا) . — عضوا

د . هيرمان لاى ، أستاذ بجامعة هومبولدت ـ برلين (الجمهورية الديمقراطية الالمانية) . عضـــوا

ـ د . محمد موفاكو ، أستاذ بجامعة برشتينة (يوغوسلافيا) . عضـــوا

القاضي عبد الله المجاهد الشماحي ، مستشار بوزارة العدل ـ صنعاء ـ (جمهورية اليمن العربية) . عضـــوا

ـ د . سلفادور غوميث نوغاليس ، أستاذ فلسفة بالمعهد الاسبانى العربى للثقافة ـ جامعة مدريد المستقلة ـ (اسبانيا) . عضـــوا

ـ د . عثمان أمين ، فيلسوف وأستاذ شرفى بكلية الآداب ، جامعة القاهرة (مصر) وعضو مجمع اللغة العربية بها . عضـــوا

ـ د . احسان عباس ، استاذ بالجامعة الامريكية ـ بيروت ـ (لبنان) عضـــوا

ـ د . ماريا خيسوس فيغيرا ، بحاثة بالقسم العربى والاسلامى بجامعة مدريد المستقلة ـ (اسبانيا) . عضـــوة

ـ د . محمد الشريف قاهر ، استاذ بمعهد اللغة والادب العربى ـ جامعة الجزائر . عضـــوا

ـ السيد عبد القادر الاخضر السائحى ، عضو المكتب الادارى لاتحاد الكتاب الجزائريين ـ الجزائر. عضـــوا

الاستاذ محمد الشمام ، استاذ مدرس ـ تونس ـ الجمهوريـة التونسيـة . عضـــوا

د . محمد عبد الرحمن بيصار ، وكيل الازهر ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية . عضـــوا

د . وداد القاضى ، استاذة بالجامعة الامريكية ـ بيروت ـ لبنان . عضـــوا

الاستاذ القاضى عبد الله المجاهد الشماحى ، مـؤرخ ووزيـر سابقا صنعـــاء ـ (جمهورية اليمن العربية) . عضـــوا

وتبين لهم بعد الاستماع الى بحوث السادة الاساتذة العلماء الذيـــن تناولـــوا الموضوع : أن العلوم الاسلامية والفكر الاسلامى ، وخواص المدنية الاسلامية قد تركت آثارها العميقة فى كثير من ميادين التفكير والعلوم والحضارة الاوروبية ولا سيما خـلال عصر الاحياء الاوروبى (لا رونيسانس) وذلك منذ القرن الثانى عشر الميلادى وحتى القرن الثامن عشر ٠

وأن معظم هذه المؤثرات كانت ترجع بالاخص الى تراث العلوم الاسلامية المحضة كالطب والكيمياء والعلوم الطبيعية والرياضة والفلك ٠

وان كثيرا من امهات الكتب العربية فى هذه الميادين قد ترجم الى اللاتينية وغيرها منذ القرن الثانى عشر الميلادى ٠

كما أن الاساتذة الذين تحدثوا عن ابن رشد والرشدية قد ابرزوا تأثير تفكير هذا الفيلسوف المسلم فى الفلسفة الاوروبية ٠

وأخيرا فقد تبين من بحوث الاساتذة المحاضرين أن هذا التأثير لم يكن مقتصرا على الحقل العلمى بل تعداه الى الحقل الادبى حيث كان للآداب العربية من النظم ، والنثر ، والقصص أثرها فى كثير من نواحى الادب الاوروبى الحديث ٠

ونظرا لكل هذه الاعتبارات رأى أعضاء اللجنة أن يوصوا المؤتمر بالعمل على تحقيق الامور التالية على صعيد العالم الاسلامى كله :

أولا : الاستزادة من البحوث والدراسات فى مختلف مجالات الحضارة الاسلاميـة والعمل على كشف الحقائق والوثائق التى تقدم جديدا فى هذا الميدان ٠

ثانيـا : حث المجتمعات الاسلامية على اعتماد هذا التراث كأساس لنهضتها وبشكل خاص فيما يساهم فى الانطلاقة الحديثة ٠

ثالثـا : انشاء مجلة دورية للتعريف والتدليل بالمكتشف من المخطوطات والوثائق المجهولة ، على أن يكون لها مراسلون من مختلف انحاء العالم ٠

رابعـا : انشاء معجم أو دليل للتعريف بكل المهتمين والمختصين بالدراسات الاسلامية ومجالات نشاطهم ، وعناوين اقامتهم ، حتى يكونوا أدلاء للعاملين فى الحقل ٠

بسم الله الرحمن الرحيم
توصيات اللجنة الثانية

موضوعها : « ضرورة التصنيع في العالم الاسلامي ووجوب اختيار أحسن الطرق لتجنب أمراض المجتمعات الصناعية » ٠

اعضاؤها :

- السيد محمد الهاشمي بوجملين ، مدير صناعة الحديد والصلب والمعادن بوزارة الصناعة والطاقة ـ الجزائر ٠ — رئيسا
- د ٠ عمر التومي الشيباني ، استاذ في كلية التربية بجامعة الفاتح -طرابلس ـ (ليبيا) ٠ — عضوا
- د٠ اسماعيل راجي الفاروقي ، أستاذ الاسلاميات وتاريخ الاديان المقارن بجامعة تامبل ورئيس جمعية العلماء الاجتماعيين المسلمين (الولايات المتحدة الامريكية) ٠ — عضوا
- السيد اسماعيل العربي ، مستشار لدى الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر -ومؤرخ- — عضوا

د· عبد الحليم عويس ، أستاذ بكلية الشريعة ، جامعة الامـــام
محمد بن سعود بالرياض (المملكة العربية السعودية) ·   عضـــوا

ـ السيد عبد الكريم غزلون نائب مدير بالمرصد الفلكي ـ الجزائر   عضـــوا

ـ د· رشاد الامام أستاذ تاريخ بالجامعة التونسية ـ تونس ·   عضـــوا

ـ د· صفوان قدسي ، رئيس تحرير مجلة المعرفة ـ دمشـــق
(الجمهورية العربية السورية) ·   عضـــوا

ـ الاستاذ محمد أركون ، أستاذ بجامعة السوربون الجـديدة
ـ باريس ـ (فرنسا)   رئيســـا

ـ د· خير الله عصار ، أستاذ بالمعهد التكنولوجي لتكوين أساتذة
التعليم المتوسط ـ بوزريعة ـ (الجزائر العاصمة) ·   مقـــررا

في اطار الملتقى العاشر للفكر الاسلامي المنعقد تحت اشراف وزارة التعليم الاصـلي والشؤون الدينية بمدينة عنابة بالجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، في الفترة الواقعة ما بين 12 ـ 21 رجب 1396 هـ (10 ـ 19 يوليو 1976 م) ، اجتمعت اللجنـــة الثانية المتخصصة في دراسة النقطة الثانية بتاريخ 19 رجب 1396 هـ (17 يوليو 1976م)

انطلاقا من المحاضرات والمناقشات والتعقيبات ذات الصلة بموضوع النقطة الثانية من جدول أعمال الملتقى العاشر للفكر الاسلامي ، وبعد الاستماع الى أراء كافة أعضـاء اللجنة تلاحظ اللجنة ما يلي :

1 ـ أن العالم الاسلامي على اختلاف مستوياته الانمائية يعاني من تخلف في شتى المجالات وبالاخص في المجال الصناعي ·

2 ـ اخفاق النماذج الانمائية المتبعة لدى كثير من البلدان الاسلامية حتى الآن وخاصة تلك النماذج التي يفرضها عليها الاستعمار الجديد ·

3 ـ تزايد ضغوط الاستعمار الجديد على الحركات التحررية الاقتصادية والاجتماعية في كثير من البلدان الاسلامية ·

4 ـ ادعاء القيادات الاقتصادية فى كثير من البلدان الاسلامية بالقيام بمهام التنمية الاقتصادية والاجتماعية المطلوبة رغم اخفاقها الملحوظ فى ذلك ٠

5 ـ ان هذه الاسباب مجتمعة لتشكل عقبات تحول دون تحقيق تنمية تستجيب الى تطلعات الجماهير فى كثير من البلدان الاسلامية ٠

6 ـ وجود امكانيات انمائية غير مستغلة لدى البلدان الاسلامية ٠

وبناء على ما تقدم توصى اللجنة بما يلى :

أولا : الضرورة الملحة على البلدان الاسلامية لتصنيع حقيقى يدرج فى سياسة انمائية شاملة قائمة على التخطيط ترمى الى ازالة العقبات الآنف ذكرها وبناء مجتمع اسـلامى خال من استغلال الانسان لاخيه الانسان ٠

ثانيا : ولبلوغ هذا الهدف يتعين على البلدان الاسلامية أن تصنـع نموذجا للتنمية قادرا على تعبئة جميع القوى البشرية والمادية المتوفرة لديها فى ظل القيم الاسلامية ٠

ثالثا : بعد القيام بزيارة استطلاعية لمـركب (مجمع) الحجـار للحـديد والصلب بالجزائر ، فان اللجنة تلاحظ بروز اهتمام متزايد من قبل الملتقين ببعض المشكلات التى قد تنجم عن دفع عجلة التصنيع وما قد يترتب على ذلك من أثر فى تأدية بعض العبادات٠

رابعا : وعليه فان اللجنة توصى بتنظيم تبادل الرأى فى التجارب الانمائية بـين البلدان الاسلامية حفاظا على القيم الحضارية الاسلامية ٠

خامسا : الاهتمام باليد العاملة الفنية والكفاءات العلمية وتشجيعها كى تساهم فى تطـور الصنـاعة ٠

سادسا : تكييف بناء المنشآت الصناعية فى البلدان الاسلامية وفـق ما يلبى فى الانسان المسلم متطلباته الروحية ٠

سابعا : تدعيم التعاون بين البلدان الاسلامية فى شتى المجالات دون تأثر هـذا التعاون بالانظمة الاقتصادية والاجتماعية القائمة فيها ٠

ثامنا : الاقبال على تدريس العلوم الانسانية الضرورية لتفهم الاسلام فهما صحيحا وللتوفيق بينه وبين الاوضاع الجديدة المترتبة على التطور الصناعى ٠

تاسعا : ضرورة تسخير البلدان الاسلامية نظامها التعليمى لخدمة برامج التنمية ٠

عاشرا : تشجيع علماء الشريعة والدراسات الاسلامية بالتعاون مـــع زملائهم ذوى التخصصات الاخرى ، على اجراء مـــزيد من الدراسة الواعية لمشكلات العصر والتنمية بغية تحديد موقف الشريعة الاسلامية منها ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

توصيات اللجنة الثالثة

موضوعها : « الابعاد الروحية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية للعبادات ، وأهميتها لكل من الامة والفرد » .

ـ د . محمد فاروق النبهان ، أستاذ بكلية الحقوق والشريعة ، جامعة الكويت .	رئيسا
ـ الاستاذ الاكحل بن حواء ، محام ـ الجزائر .	مقررا
ـ د . محمد سعيد رمضان البوطي ، عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق (الجمهورية العربية السورية) .	عضوا
ـ د . مصطفى الزرقاء ، أستاذ الشريعة بالجامعة الاردنية .	عضوا
ـ د . عبد الحليم عويس ، مدرس بكلية الشريعة ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض (السعودية) .	عضوا
ـ د . داود كاون ، أستاذ بقسم الشرق الادنى والاوسط ، معهد الدراسات الشرقية والافريقية ، جامعة لندن (بريطانيا) .	عضوا

ـ د . رشيد مصطفاى ، أستاذ بمعهد اللغـة والادب العـربى ، جامعة الجـزائر . عضـــوا

ـ د . محمد المبارك ، أستاذ بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية مكـة المكرمة (السعودية) . عضـــوا

ـ القاضى عبد الله المجاهد الشماحى ، مستشار بوزارة العـدل صنعاء (جمهورية اليمن العربية) . عضـــوا

ـ د . سعيد شيبان ، أستاذ بكلية الطب ، جامعة الجزائر . عضـــوا

ـ د . حامد الجار ، أستاذ بقسم دراسات الشرق الادنى ، جامعة بركلى ـ كاليفورنيا ـ (الولايات المتحدة الامريكية) . عضـــوا

ـ السيد عبد الرحمن شيبان، مفتش عام بوزارة التعليم الابتدائى والثـانوى ـ الجزائر . عضـــوا

ـ الاستاذ محمد الصادق بسيس ، أستاذ بكلية الشريعة وأصول الدين ـ تونس . عضـــوا

ـ الاستاذ عبد الوهاب حمودة ، أستاذ بكلية الآداب، جامعة الجزائر عضـــوا

ان اللجنة الثالثة المنبثقة عن ملتقى الفكر الاسلامى العاشر المنعقد بعنابة فى الفترة ما بين 12 و 21 رجب 1396 (10 ـ 19 يوليو 1976) ، والمنوط بها دراسة أثر العبادات الاسلامية فى المجتمع اقتصاديا وسياسيا وثقافيا واجتماعية قد باشرت عملها منطلقة من الوعى بالحقائق التالية :

1 ـ ان العبادات الاسلامية لا تنحصر فى اقامة الشعائر الدينية ، وانما تتعداها الى كل عمل فيه خير ونفع للفرد والمجتمع ·

2 ـ ان العبادة فى الاسلام هى الشريان الواصل بين جذور العقيدة وثمار التشريع والاخـــلاق الفاضلـة ·

3 ـ ان العبادة الاسلامية لها أثرها فى الحياة الاجتماعية ، حيث توقظ فى كيـان المسلم مشاعر الرقابة الالهية لكل حركاته وسكناته ·

4 ـ وانها ـ أيضا ـ تسهم فى اقامة البنية الاقتصادية السليمة فى حياة المسلمين ٠ ان من الثابت أن الاقتصاد لا ينهض الا على قاعدة اخلاقية سليمة ٠

5 ـ وان للعبادات دورها فى تحقيق أسباب السياسة الحكيمة الراشدة لانها تربى فى الحاكم والمحكوم خشية الله ومراقبته ، وتدفعه للعمل للصالح العام ٠

أجل ٠٠٠ فى ظل الوعى بهذه المنطلقات الاساسية والادراك لاهميتها ، اجتمعت اللجنة بتاريخ 19 رجب 1396 (17 يوليو 1976) ، وبعد استيعاب ما القى من محاضرات وما دار من تعقيبات ومناقشات أثرت الموضوع ، انتهت الى اتخاذ التوصيات التالية :

أولا : ضرورة تنظيم الحياة اليومية وبخاصة فى الحقل المدرسى ـ بما يتلاءم مع واجبات وأسس التربية الاسلامية ٠

ثانيا : اتخاذ ما يلزم لتوعية الآباء بتعويد أبنائهم على أداء الصلوات منذ الصغر والالتزام بالاخلاق الاسلامية ٠

ثالثا : يوصى الآباء والامهات بأن يكونوا قدوة حسنة لاولادهم فى الالتزام بالسلوك الاسلامى واقامة الشعائر ٠

رابعا : ضرورة وجود مصلى فى كل مدرسة وثانوية وجامعة وأية مؤسسة عامة ، واعتبار ذلك ركنا أساسيا ، فى تأسيسها ، واستكمال المؤسسات القائمة ٠

خامسا : مراعاة الجانب الدينى عند اختيار المسؤولين عن المدرسة أو أية مؤسسة أخرى ، ضمانا لتسيير الامور على النهج الاسلامى والقدوة الحسنة ، وتوعية القائمين حاليا بواجباتهم تجاه القيم الاسلامية ٠

سادسا : صيغ البرامج المدرسية ومناهجها ـ على اختلاف المراحل ـ بروح الاسلام ومبادئه ٠

سابعا : توعية المسؤولين فى كل موقع والموظفين على اختلاف مراتبهم بأهمية التربية الاسلامية والضمير الاسلامى فى مجال الحياة العملية ورقى الامة ٠

ثامنا : تمكين جميع العمال فى المصانع والمعامل من أداء الشعائر الدينية فى أوقاتها، وذلك بتوفير المساجد أو المصليات فى هذه المؤسسات بحيث يكون من حقهـــم اداريا ممارسة الشعائر ، وبحيث يسهل لهم أداؤهـا ٠

تاسعا : توجيه المربين ووسائل الاعلام الى القضاء على مظاهر الانحراف ودواعيه التى تصرف الشباب عن سبيـــل الاستقامة وتعيقه عن أداء الواجبات الاســلامية واسهامه المنشود فى رقى أمتــه ٠

عاشرا : تنشيط دور المسجد والعودة به الى رسالته الاجتماعية والثقافية والدينية المتكاملة ، حتى يؤدى دوره ورسالته التى أداها فى صدر الاسلام وفى عصور ازدهار الحضــارة الاســلامية ٠

حادى عشر : توفير الكتب والمجلات الدينية ، وجعلها فى متناول القراء ، والاسهام فى تخفيض أسعارها ، ونشرها بين أوساط الشباب ٠

ثانى عشر : نشر التــوعية الاســلامية بين أفــراد الجيش والبوليس (الشرطــة) وتخصيص أماكن للصلاة فى الثكنات ومراكز الشرطة

ثالث عشر : تنبيه الافراد ـ بالطرق الممكنة ـ ليؤدوا الــزكاة بأنواعها المختلفة الى مستحقيها ٠ وحبذا أن تشكل لجان لجمع هذه الزكات ، مع مــراقبة صرفهــا لمستحقيها المحددين شـــــرعا ٠

رابع عشر : مطالبة وسائل الاعلام ـ بمختلف أنواعها ـ بأن تؤدى واجبها فى مجال تعميق التربية الاسلامية ، وفى نشر القيم والعبادات بالطرق الجذابة والمواقف العملية القادرة على التأثير ، وأن تتجنب هذه الوسائل تقديم المواد التى تتنافى مع الاخــلاق الاسلامية وجــادة الحياة ٠

خامس عشر : توصى اللجنة بالعمل على تعليم وتعميم اللغـة العربية فى البـــلاد الاسلامية وبين الجاليات الاسلامية فى غير البلدان الاسلامية ، نظرا لضرورة هذه اللغة فى أداء العبـــادات ٠

سادس عشر : واللجنـة ـ فى نهـــاية توصياتها ـ تناشد المسؤولين فى العـالم الاسلامى أن يأخذوا بعين الاعتبار تطبيق هذه التوصيات ، أداء لحق الله ، وتأدية للواجب الملقى على عاتقهم نحو أمـــة الاســـلام ٠

والله الموفق والمعـين ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

فتــــوى

حول ما يرخصه الشرع للعاملين بمصنع «مركب الحديد والصلب بعنابة» فى مواجهة الفرن النارى والحديد المصهور، وكذلك العمال بالمصانع الاجنبية

نظرا للتساؤلات التى وجهت الى أعضاء ملتقى الفكر الاسلامى العاشر بمدينة عنابة (10 ـ 1976/7/19 م) حول رأى الشرع فى إفطار العمال الذين يعملون فى مواجهة الفرن العالى الحرارة والحديد المصهور أو المحمى الى درجة عالية اذا جاء عليهم شهر رمضان، حيث يتعرضون فى الصيام لمشقة كبرى لا تطاق .

وكذلك حال العمال المسلمين عموما الذين يعملون خارج العالم الاسلامى كفرنسا وغيرها فى معامل ومصانع لا تراعى فيها أوضاع العمال المسلمين .

نظرا لهذه التساؤلات، ولما اطلع عليه أعضاء الملتقى مجتمعين حين زاروا المعمل المذكور، ورأوا المشقة المتجاوزة للحدود التى يحتملها العامل اذا هو التزم الصيام .

نظرا لهذا كله اجتمعت لجنة مشكلة من الاساتذة :(1)

1 ـ الدكتور مصطفى الزرقا	رئيسا
2 ـ الدكتور محمد المبارك	عضوا
3 ـ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى	عضوا
4 ـ الدكتور محمد فاروق النبهان	عضوا
5 ـ الدكتور عبد الحليم عويس	مقررا

(1) أنظر تخصصاتهم فى قوائم لجان توصيات الملتقى، ص 182 ـ 190 .

وبعد دراسة وضع العمال السالفى الذكر ـ رأت اللجنة ـ بالنسبة الى صيـــام العمال فى معمل الحديد والصلب خاصة ـ ما يـلى :

أولا : اذا كانت هذه الصناعة تستدعى بقاء الفرن ذى الحرارة العليا مستمرا ليـلا نهارا دون توقف ، وكان العمال فيه يتناوبون على الاوقات كل ثمانى ساعات ، فـان العمال الذين يصادف عملهم فى مواجهة الحديد المحمى أو المصهور ـ وقت النهار ـ يجوز لهم الافطار ، على ان يقضوا الايام التى يفطرونها فى أوقات أخرى ، غير مقيدين بالتتابع فى القضـــاء ·

ثانيا : أما العمال الذين يصادف عملهم ليلا ، واما الاداريون،والذين يكـون عملهم بعيدا عن مواجهة الفرن أو الحديد المصهور أو المحمى ، كعمال التعبئة،والتخريم،والطلاء، وغير ذلك من أنواع العمل المعتاد ـ فلا يجوز لهم الافطار ·

ثالثا : واذا كان من الممكن للمسؤولين ـ وامرهم الى الله فى ذلك ـ توقيف الفـرن نهارا وتشغيله ليلا ، فان عليهم ان ينظموا العمل فى رمضان على هذا الاساس · وحينئذ تندفع الحاجة الى أفطار العامل فى مواجهة الحديد والصلب ·

رابعا : وفيما يتعلق بأولئك العمال الذين يعملون فى أعمال شاقـة خارج البلدان الاسلامية ـ وهم محتاجون الى العمل فيها ولا يستطيعون الاستغناء عنه ، وكان عملهم ذلك يحملهم فى الصيام مشقات تتجاوز المعتاد ، فان عليهم كذلك ان يفطروا ويعوضوا بايام أخرى غير مقيدين بالتتابع ، على ان يحاولوا فى أول فرصة الانتقال الى عمل آخر يستطيعون فيه تحمل الصيام ·

خامسا : على المسؤولين فى كل بلد اسـلامى ترتيب الاعمال بوجه عـام ، والمعامل والمصانع بصفة خاصة ـ على وجه يساعد العاملين فيها على أداء فرائضهم من صلاة فى أوقاتها ومن تحمل للصيام . فذلك خير وابقى · وبالله التوفيق ·

أعضـــاء اللجنـة

عادت الجمعة ، كما عاد كتشاوة والعـود احمد !

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين ، وعلى جميع الانبياء والشهداء والصالحين ، وعلى التابعين المنهاج القويم الى يوم الدين ، واشهد أن لا اله الا الله الملك الحق المبين وان محمدا رسول الله الصادق الامين ۰

اما بعد ـ أيها الناس ـ فان أجل ما نحمد الله عليه أن هدانا للاسلام ، وجعلنا مـن امة خير الانام ، خير أمة أخرجت للناس هادية بهداية الله مهدية ، متبوعة لاتابعة قد شرع الله لها كل ما يصلحها في دنياها ويسعدها فى أخراها ، وما لحق رسول الله بالرفيق الاعلى حتى تركنا على المحجة البيضاء ۰

لقد اختار لنا فيما اختار أعيادا ومواسم ، وسنت لنا فيها عبادات ۰ وأذن لنـــا فى عادات من التوسيع على العيال وتناول الطيبات ، واظهار الزينةَ فى اللباس ۰

ومن هذه الاعياد الاسلامية عيد يتكرر كل أسبوع هو يوم الجمعة ، قد هدانا اللـــه اليه وجعلنا فيه متبوعين غير تابعين ، ونبهنا الى ذلك رسول الله (ص) فيما رواه البخارى أنه قال : « هدانا الله ليوم الجمعة والناس لنا تبع ، اليهود غدا والنصارى بعد غد » ۰ وقد صح عنه أيضا قوله (ص) : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعـــة » ۰ وفيـه فرضت صلاة جامعة يؤم فيها المسلمين الامام الاعظم أو من ينوبه يرشدهم ويربيهم ويعلمهم ما يصلح دينهم ودنياهم ۰

وقد أمر النبىء فيه بالتنظيف والتجمل شأن الناس يوم العيد ۰ فعن أبى سعيـــد الخدرى أن رسول الله (ص) قال : « على كل مسلم الغسل يوم الجمعة ويلبس من صالـــح ثيابه ، وان كان له طيب مس منه » رواه أحمد ۰ وعن أنـــس وابن عبـاس وغيرهما من الصحابة أن رسول الله (ص) قال فى قوله تعـالى : « فاذا قضيت الصـــلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله » قال : ليس يطلب الدنيا ولكن عيادة مريض وحضـــور

(1) خطبة الجمعة المذاعة يوم فاتح رمضان 1396 ــ 27 أوت 1976 ۰ وهو اليوم الذى عادت فيه العطلة الاسبوعية الرسمية فى الجزائر الى يوم الجمعة عوض الاحد الذى كان حل محله منذ 1830 ۰

جنازة ، وزيارة أخ • فدل هذا على أنه يوم راحة • وعلى هذا سـار المسلمون فى حياتهم الاجتماعية واعتبروا الجمعة يوم عيد وعطلوا فيه اعمالهم ، واظهروا فيه زينتهم وبهجتهم .

ومن هذه الامم الاسلامية وشعوبها الجزائريون ، كان عيدهم الاسبوعى ، ومظهر عزة دولتهم حتى نزل الاستعمار الغشوم ، وقرر القضاء على مقوماتنا بعد القضاء على استقلالنا ، فنسخ راحة الجمعة ، وفرض علينا يوم الاحد كما حاول أن يخفت صوت الاذان ، ويعلـن صوت النواقيس •

ولما انتهى عهد الاحتـلال ، واسترجع الاستقلال ، فان المنطـــق ، والتاريخ،والذوق السليم ، والحشمة ، والاحترام لانفسنا ، كل هذا كان يقضى أن يعود يوم العطلة هو يــوم الجمعة ، كما كان الامر فى عهد الدولة الجزائرية قبل 1245 هـ وبالضبط 5 يوليو 1830 م ، حيث كان يوم الجمعة حتى ذلك اليوم المشؤوم هو يوم العطلة الرسمية للامة الجزائرية •

فى اللحظة التى وضع فيها الماريشال دوبورمون فى ذلك اليوم المنحوس العلم الفرنسى مكان العلم الجزائرى على قصر رئيس الدولة الجزائرية ، ووضع فيه الصليب على أعـــلى مرتفع فى عاصمة الجزائر ، وهى صومعة جامع كتشاوة الذى حولوه ابتداء من ذلك اليوم الى كنيسة ، حولوا يوم العطلة الاسبوعية من الجمعة الى الاحد ، كما ذكرت بذلك جـريدة لوموند الفرنسية منذ سنوات مضت •

وكانوا يقصدون بغزو الجزائر ، زيادة عن الاستعمار الاقتصادى والاستيطانى ، مسخ البلاد دينيا ، وهو ما يسمونه بالتمسيح ، كما صرح بذلك شارل العاشر ، ملـك فرنسا ، الذى وقع العدوان الفرنسى على الجزائر فى عهده ، حيث قال يوم احتلال عاصمة الجزائر ، « ان فرنسا ، بغزو الجزائر ، تؤدى رسالة للمسيحية فى مجموعها ! » ومن هنا أيضا وقف الكاردينال لافيجرى الى جانب الماريشالات والجنرالات يردد فى جامع كتشاوة : « ها قــد عـادت رومـا » !

وهكذا كانت عطلة يوم الاحد حلقة فى هذه السلسلة المترابطة المحكمة التى قصـد بها مسخ المعالم الاسلامية للجزائر ، وصبغها بصبغة مسيحية ممسوخة ، بدأوها باستبدال دولة بدولة ، وعلم بعلم ، ولغة بلغة ، وعادات بأخرى ، ومنها الاستعاضة عن الجمعة بالاحد ، وهو موضوع الحديث •

ومن هنا كان الاستمرار فى الجزائر التى استعادت حريتها واستقلالها على هذا الشذوذ خطا ، وكان تحرير يوم الجمعة عليها من ربقة الاستعمار واجبا ، يدخل فى باب التحـرير العام للبلاد والعباد ! وكما عاد جامع كتشاوة الى عزته ، عاد يوم الجمعة الى قدسيته ، عاد الى ما كان عليه وينبغى أن يكون ، وللامم أيامها !

وانها لمناسبة طيبة قد اختيرت لتحرير يوم الجمعة وعودته الى أصله : وذلك بافتتاح رمضان المبارك ، وفي سنة الميثاق الوطني • واننا لنرجو أن تسلك هذا السبيل الـــدول العربية والاسلامية الاخرى من تلك التي لا تزال حتى اليوم ، مثلنا بالامس ، تحتفـــل بالاحد عوض الجمعة •

وعلى كل فان هذا ما قررته قيادتنا الثورية ابتداء من هذا اليوم المبارك • فان شعب الجزائر شعب مسلم أصيل ، والاسلام دين الدولة ، يؤكد ذلك الميثاق الوطني ، وان القيادة التي اتخذت هذا القرار قد توصلت اليه بعد دراسة طويلة عميقة بعناية واهتمام لكـــافة انعكاساته ، وتاكدت من نتائجه الايجابية ، وتحققت أن استراحة يوم الاحد انما تعتبـــر احدى مخلفات التاثير الاجنبي وليس لها علاقة ما بتقاليدنا ، وحضارتنا ، وديننا •

عبـــاد اللــــه ،

اننا في رمضان المبارك شهر زيادة الاحجام عن المعاصي ، وزيادة الاقدام على العبادة والعمل ، وان العمل لعبادة كما يقول الحديث الشريف ، ورمضان الذي يذكرنا باستمرار بفضائل النظام والانضباط ويحثنا على التحلي بمزايا التضحية والتغلب على النفس لا ينبغي أن يزيدنا الا قوة على هذا العمل الذي يزيد من عزة الامة وقوتها،ويحقـــق لها رفاهيتها وازدهارها،ويضمن لها دنياها وأخراها •

واننا لنهيب هذه المرة،وأمتنا بصدد انطلاقة جديدة ، بزيادة الحرص على التمســـك بفضائل هذا الشهر وبالتشدد في احترامه ، هذا الشهر الذي ينبغي أن يجدد شحنتنا المعنوية كل سنة بانتظام ، ويفرض علينا ، بالتالي ، أن نبذل قصارى جهودنا لاعطائه الوجه المشرق الذي يستحقه مخبرا ومظهرا ، أي في السر والعلانية ، وحتى الذين تجيز لهـــم الشريعة الافطار في هذا الشهر في الحدود المعلومة ، كالمرضى ، والمرضعات ، والعجزة ، والمسافرين ، وغيرهم ، وكالذين صدرت في شانهم الفتوى في عنابة ، ممن يقابلون الحديد والنـــار في المصانع أو المزارع ، يرجى منهم التستر ، كما تنص على ذلك حرفيا آداب رمضان •

اتقوا الله عباد الله واخشوا يوما يجعل الولدان شيبا • واستغفروه يغفـــر لكم ، وتوبوا اليه ان ربي غفـــور رحيـــم •

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنـــا عـــذاب النـــار • ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم • غفر الله لنا ولكم ولوالدينا ولوالديكم وللمؤمنين أجمعين •

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين •

عباد الله : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشـــاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » •

منشـــورات

وزارة التعليم الاصــلى والشؤون الدينيــة

صــدر أخيرا كتاب :

الملتقى الثامن للفكر الاسلامى

بالعربية فى ثــلاثة أجزاء

ويشمــل سائــر المحاضرات ، والتعقيبـــات ، والمناقشـــات

كما صدر كتاب :

الملتقى السادس للفكر الاسلامى

بالفرنسية فى خمسة أجزاء

ويشمــل أيضا سائر المحاضرات ، والتعقيبات ، والمناقشــات

CHEMINEE ET MINARET (1)

"Au nom de Dieu, le Clément et le Miséricordieux. Que le Salut et la Bénédiction de Dieu soient sur celui qui a clos la lignée de ses Envoyés.

Permettez-moi, tout d'abord, de souhaiter une sincère bienvenue à Messieurs les distingués hôtes de l'Algérie, professeurs, journalistes et étudiants.

Je voudrais commencer cette allocution d'ouverture de ce X^e^ Séminaire à Annaba par les paroles mêmes avec lesquelles j'ai conclu l'allocution de clôture du IX^e^ Séminaire tenu l'an dernier à Tlemcen et je vous dis donc — et nous dis avec vous — : bienvenue dans "la capitale industrielle, cité d'El-Hadjar qui a combattu dans le passé lointain les conquérants et les dépravés, haut-lieu où s'affrontèrent Donat et les Donatistes avec Saint Augustin et l'aréopage occupant, sanctuaire où repose Abou Merouane, doyen des savants, terre de prédilection du raisin et du jujube : 'Annaba ! "

Mesdames et Messieurs,

Nous aurons à étudier trois points qui peuvent sembler de prime abord éloignés l'un de l'autre, mais qui s'insèrent en réalité dans un même contexte et relèvent d'une même idée, à savoir : comment l'homme peut-il être de son siècle tout en demeurant les pieds sur la terre de son pays, et sans qu'il devienne une copie d'autrui, tirant profit des expériences du passé de sa nation et de l'humanité tout entière, construisant son présent et planifiant son avenir ?

1°) Le premier point s'intitule : " Essor de la civilisation et de la pensée islamiques en Occident musulman, tout particulièrement dans les pays du Maghrib, en Ibérie et en Sicile, et leur rôle dans l'avènement de la Renaissance en Europe ".

Nous aurons à traiter dans ce cadre, et au fil des jours, du niveau auquel ont atteint la pensée et la civilisation islamiques dans leurs siècles d'or et de la portée de leur influence sur l'avènement de ce que l'on désigne communément par la Renaissance en Europe, à l'orée de l'époque moderne, et sur l'élan qui lui à été imprimé.

---

(1) Allocution d'ouverture du X^e^ Séminaire sur la Pensée Islamique à 'Annaba le 12 radjab 1396 (10 juillet 1976) prononcée par M. Mouloud Kassim NAIT BELKACEM, ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses.

Est-il avéré que nos ancêtres ont contribué grandement à l'enrichissement du patrimoine humain et qu'ils ont eu une large part dans l'avènement de la civilisation moderne et de sa pensée, grâce à ce qu'ils ont offert à l'humanité en fait de production authentique ayant eu un rôle majeur dans l'éclosion de la civilisation d'aujourd'hui, ainsi qu'il apparait en toute clarté et que beaucoup avant nous en ont témoigné — en Occident avant l'Orient —, ou bien leur rôle s'est-il limité à la traduction, probe ou improbe, comme l'ont prétendu d'aucuns à la fois en Occident et en Orient ?

L'étude que vous allez entreprendre est d'une signalée importance non seulement pour notre jeunesse et pour la jeunesse du monde islamique, aussi vaste soit-il, mais aussi, pensons-nous, pour l'Europe, l'Amérique et l'humanité dans son ensemble, et ce, de par la consolidation qu'elle est en mesure d'assurer à l'esprit d'impartialité dans la recherche scientifique, et l'incitation à plus de recherche et d'approfondissement, à la coopération et à l'étude, pour l'illustration de la Vérité et pour le bien de l'homme.

2°) Le deuxième point a pour titre : " Nécessité de l'industrialisation dans le monde islamique et l'obligation du choix des meilleures voies pour la prévention des maux des sociétés industrielles ". Il s'agit ici de rechercher la manière de sortir de l'impasse où l'humanité s'était déjà fourvoyée à travers les siècles et les civilisations mais qui revêt aujourd'hui une acuité comme aucune époque de l'Histoire n'en a connu et telle qu'il n'est pas d'exemple que les expériences des nations en ont traversé d'aussi aigüe, à savoir l'inéluctabilité de l'industrialisation, voire son accélération, d'une part, et la nécessité d'éviter ses nocives répercussions, d'autre part.

Que doit faire, en effet, notre monde islamique pour cesser d'être le premier quand il s'agit d'exporter ses énergies humaines et matérielles sous forme de matières premières, tandis que ses peuples continuent à occuper, dans l'échelle de classification mondiale, les dernières places ? Ceci, d'une part. Il importe, d'autre part, de voir comment les pays de ce monde islamique peuvent s'épargner les retombées négatives du progrès strictement matériel et qui ont noms : vacuité des âmes, étiolement des esprits, affaissement des valeurs. Car il est de fait que toute société cultivant dans sa civilisation uniquement le côté matériel et en négligeant les dimensions spirituelles et morales est vouée au relâchement et au désordre, de même que tout système, quelle que soit sa puissance, qui sacrifie avec frénésie au culte de la consommation doit s'attendre à sa propre consommation !

Des savants et des penseurs, singulièrement en Europe, ont eu à souligner ces évidences tirées de l'expérience des peuples et de l'histoire des civilisations. Nous nous limiterons à citer ici deux d'entre eux qui nous sont contemporains : Arnold Toynbee, citoyen de l'Etat industriel le plus ancien d'Europe, et Jose Ortega y Gasset, citoyen de l'Etat qui en est le plus récent.

Ce que l'observateur peut voir et entendre aujourd'hui dans l'Europe de l'Ouest et de l'Est, en ce qui concerne les aspects de ce que l'on a appelé à juste titre " la crise de civilisation ", porte en lui-même l'objurgation la plus

instante pour toute personne douée d'un esprit dont les préoccupations transcendent le présent en faveur de l'avenir et qui ambitionne à sa nation la pérennité !

3°) Le troisième et dernier point concerne " les dimensions spirituelles, politiques, économiques et sociales du culte et leur importance tant pour la Oumma que pour l'individu ". Nous voudrions, à travers son étude, voir par nous-mêmes, selon la méthode d'Abou Hâmid (El Gazzali) et à la lumière du vingtième siècle, si les valeurs des religions — et de la religion islamique en particulier — demeurent encore valables et efficaces pour l'homme, si ce sont des critères solides à même de régir la vie de l'individu depuis sa naissance jusqu'à sa mort, de répondre aux besoins et aux impératifs de son existence ici-bas avant celle de l'au-delà et de déterminer son sort ici et là d'après ses actions positives ou négatives, selon son comportement et les fluctuations de son état, ou si elles sont, tout au contraire, devenues anachroniques et ne représentent plus que des rêves creux dont on drogue les esprits faibles pour masquer l'amère réalité qui est la leur, comme le prétendent certains. Ou bien ces valeurs sont-elles éternelles et constituent-elles, avant celle de l'au-delà, un guide pour l'homme déjà dans les dédales de la vie d'ici-bas, comme le croient certains en toute conscience et en connaissance de cause et non d'une façon péremptoire et par ouï-dire. Ce qui conférerait à ces valeurs à tout le moins la qualité de dimension essentielle dans la vie de n'importe qu elle société d'hier, d'aujourd'hui et de demain et qui ferait des tenants intransigeants de l'opinion contraire des victimes du dogmatisme et de l'utopie, comme l'a écrit plus d'une fois le penseur français contemporain Roger Garaudy, pour l'avoir lui-même expérimenté et parfois à ses dépens.

L'on dit très souvent à la jeunesse d'aujourd'hui que la religion est ennemie de la science, mais cette religion a-t-elle empêché hier Ar Râzi (Razès), Al-Khouwarazmi, Ibn Sina (Avicenne), Ibn Rochd (Averroès), Ibn an Nafis, Ibn al Djazzâr, Al Bairouni, Abou Hamza, de faire leurs découvertes et d'éclairer l'humanité ?

La conviction religieuse a-t-elle, dans le passé récent, entravé l'esprit de recherche et de découverte chez un Pasteur ou un Einstein ? Ne quittaient-ils pas, souvent, leur laboratoire pour le lieu de leur culte, à savoir l'église pour le premier et la synagogue pour le deuxième ?

Quel rôle est dévolu aujourd'hui au culte dans la vie de l'individu et de la nation ? Quelles en sont les dimensions pour le bien de toute société et, partant, de l'humanité ?

C'est ce que nous vous proposons de traiter ici et que nous voudrions que vous nous fassiez connaître.

Il est évident qu'interroger ne signifie pas toujours nier, mais bien au contraire affirmer, et nous ne prétendons pas posséder une foi plus sincère ni plus fervente que celle d'Abou Hâmid. Que Dieu éclaire notre chemin.

RECOMMANDATIONS

DU Xe SEMINAIRE

SUR LA PENSEE ISLAMIQUE

PREMIER POINT

THEME :

Essor de la civilisation et de la pensée islamiques en Occident musulman, tout particulièrement dans les pays du Maghrib, en Ibérie et en Sicile et leur rôle dans l'avènement de la Renaissance en Europe.

COMPOSITION DE LA 1ère COMMISSION

1°)	Professeur Mohamed Abdallah 'Inane, *Historien et membre de l'Académie de langue arabe du Caire* (R.A.E.)	*Président*
2°)	Professeur Yahia Bouaziz, *Professeur à l'Institut Technologique de l'Education - Oran (Algérie)*	*Rapporteur*
3°)	Monsieur El-Mahdi Bouabdelli, *Chargé de mission au Ministère de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses ; Membre du Conseil Supérieur Islamique ; Chercheur en Histoire - Alger (Algérie)*	*Membre*
4°)	Docteur Joseph Bielawski, *Chef du Département des Etudes arabes et islamiques à l'Université de Varsovie* (Pologne) . .	*Membre*
5°)	Docteur Hermann Ley, *Professeur à l'Université Humboldt Berlin* (R.D.A.)	*Membre*
6°)	Monsieur le Cadi Abdallah Al-Moudjahid Chemmahi, *Conseiller au Ministère de la Justice - Sanaâ* (R.A.Y.)	*Membre*
7°)	Docteur Salvador Gomez Nogales, *Professeur de philosophie à l'Institut hispano-arabe de la Culture - Université autonome de Madrid* (Espagne)	*Membre*
8°)	Docteur Osman Amin, *Philosophe et professeur honoraire à la Faculté des Lettres - Université du Caire* (R.A.E.) . . .	*Membre*
9°)	Docteur Maria Jesus Viguera, *Département arabe et islamique Université autonome de Madrid* (Espagne)	*Membre*
10°)	Docteur Mohamed Chérif Kahir, *Professeur à l'Institut de langue et littérature arabes - Université d'Alger* (Algérie) . .	*Membre*
11°)	Monsieur Abdelkader Lakhdar Es-Sayehi, *Membre du Bureau Administratif des Ecrivains Algériens - Alger* (Algérie) . . .	*Membre*

12°) Docteur Muhammad Mufaku, *Professeur à l'Université de Prishtina (Yougoslavie)* . . . . *membre*

13°) Docteur Ihsan Abbas, *Professeur à l'Université américaine de Beyrouth (Liban)* . . . . *membre*

14°) Monsieur Mohamed Chemmam, *Professeur à la Zitouna - Tunis - (Tunisie)* . . . . *membre*

15°) Docteur Mohamed Abderrahmane Beissar, *Vice-recteur d'El-Azhar - Le Caire (R.A.E)* . . . . *membre*

16°) Docteur Widad al Kâdi, *Professeur à l'Université américaine de Beyrouth (Liban)* . . . . *membre*

Au Nom de Dieu, le Clément le Miséricordieux.

RECOMMANDATIONS

La première commission, après l'examen et la discussion du premier point inscrit à l'ordre du jour du X^e^ Séminaire sur la Pensée islamique réuni à Annaba du 12 au 21 radjeb, correspondant au 10 - 19 juillet 1976,

A la lumière des conférences et des débats qui ont traité de ce thème,

— Considérant que les sciences, la pensée et la civilisation islamiques ont exercé une profonde influence sur de nombreux domaines de la pensée, des sciences et de la civilisation en Europe, particulièrement au cours de la Renaissance, depuis le XII^e^ jusqu'au XVIII^e^ siècle de l'ère chrétienne,

— Considérant que cette influence est due, pour une large part, au patrimoine des sciences islamiques exactes, telles que la médecine, la chimie, les sciences naturelles, les mathématiques et l'astronomie,

— Considérant qu'un grand nombre d'ouvrages arabes essentiels traitant de ces disciplines ont été traduits en latin et en d'autres langues à partir du XII^e^ siècle de l'ère chrétienne,

— Considérant que Messieurs les professeurs qui ont abordé l'étude d'Ibn Rochd (Averroès) et de l'averroïsme ont mis en relief l'influence de ce philosophe musulman sur la philosophie européenne,

— Considérant en dernière analyse que cette influence de la pensée et de la civilisation islamiques ne s'est pas limitée au domaine scientifique mais s'est étendue également à la littérature, puisque les Lettres arabes — prose, poésie, — ont eu un impact indéniable sur de nombreux volets de la littérature européenne,

FORMULE LES RECOMMANDATIONS SUIVANTES :

1°) L'accroissement des recherches et des études aux différents plans de la civilisation islamique, en vue de la mise à jour de faits authentiques et de documents susceptibles d'apporter un nouvel éclairage dans ce domaine.

2°) L'incitation des sociétés islamiques à prendre ce patrimoine pour base de leur renaissance, et, de plus, tout ce qui serait de nature à contribuer à leur nouvel essor

3°) La création d'une publication périodique destinée à faire connaître les manuscrits et autres documents inédits, avec la collaboration de correspondants qui seront recherchés et implantés dans toutes les parties du monde.

4°) L'élaboration d'un index biographique mettant à jour l'ensemble des chercheurs qui s'intéressent aux études islamiques ou s'y spécialisent, et comprenant l'adresse de leur résidence ainsi que leur champ d'activité, afin qu'ils servent de guide et de référence pour ceux qui s'adonnent à ces travaux.

DEUXIEME POINT

THEME :

Nécessité de l'industrialisation dans le monde islamique et l'obligation du choix des meilleures voies pour la prévention des maux des sociétés industrielles.

COMPOSITION DE LA 2e COMMISSION

1°)	Monsieur Mohamed Hachemi Boudjemline, *Directeur de la Sidérurgie et de la Métallurgie, Ministère de l'Industrie et de l'Energie - Alger (Algérie)*	*Président*
2°)	Docteur Omar at-Toumi Chibani, *Recteur de l'Université libyenne - Tripoli (Libye)*	*Rapporteur*
3°)	Docteur Ismaïl Radji al-Farouki, *Professeur d'islamologie et de l'histoire comparée des religions à l'Université de Temple. Président de la Ligue des sociologues islamiques* (U.S.A.) ..	*Membre*
4°)	Monsieur Ismaïl al-Arabi, *Conseiller auprès de la Société Nationale d'Edition et de Diffusion - Alger* (*Algérie*)	*Membre*
5°)	Docteur Abdelhalim Aouis, *Professeur à l'Université de la Chari'a, Université de l'Imam Mohamed Ibn Saoud - Ryad* (*Royaume d'Arabie Saoudite*)	*Membre*
6°)	Monsieur Abdelkrim Ghazloun, *Sous-directeur de l'Observatoire - Alger (Algérie)*	*Membre*
7°)	Docteur Rachad al-Imam, *Professeur d'histoire - Université de Tunis (Tunisie)*	*Membre*
8°)	Docteur Safouan Koudsi, *Rédacteur en chef de la revue « Al-Maârifa » - Damas* (*R.A.S.*)	*Membre*
9°)	Professeur Mohamed Arkoun, *Professeur à l'Université de la Nouvelle Sorbonne - Paris (France)*	*Membre*
10°)	Docteur Kheirallah Assar, (Syrie), *Professeur à l'Institut technologique de formation des professeurs de l'enseignement moyen - Bouzaréah - Alger (Algérie)*	*Membre*

RECOMMANDATIONS

La deuxième commission, après l'audition des conférences, débats et commentaires sur le second point de l'ordre du jour du X[e] Séminaire sur la Pensée Islamique réuni à Annaba du 12 au 21 radjeb 1396 (10 au 19 juillet 1976).

— Considérant que le monde islamique, malgré la diversité des niveaux de développement qui le caractérise, souffre encore du sous-développement, particulièrement sur le plan de l'industrialisation,

— Considérant l'échec des modèles de développement suivis jusqu'à maintenant par de nombreux pays islamiques et plus particulièrement des modèles qui leur sont imposés par le néo-colonialisme,

— Considérant l'intensification des pressions exercées par le néo-colonialisme sur les mouvements de libération économique et sociale dans beaucoup de pays islamiques,

— Considérant la prétention des directions économiques dans nombre de pays islamiques d'entreprendre les tâches de développement économique et social requises et leur échec patent dans ce domaine,

— Considérant que la somme de ces causes constitue un obstacle à la concrétisation d'un développement répondant aux aspirations des masses dans de nombreux pays islamiques,

— Considérant l'existence de possibilités de développement non encore exploitées dans les pays islamiques,

FORMULES LES RECOMMANDATIONS SUIVANTES :

1°) La nécessité impérieuse pour les pays islamiques d'une véritable industrialisation, dans le cadre d'une politique de développement intégral basé sur une planification visant à éliminer les obstacles précités et à édifier une société islamique libérée de l'exploitation de l'homme par l'homme.

2°) Pour atteindre cet objectif, les pays islamiques devront adopter un modèle de développement s'inspirant des valeurs islamiques et qui soit capable de mobiliser toutes les énergies humaines et les potentialités matérielles dont ils disposent.

3°) Après la visite d'information effectuée au complexe métallurgique d'El-Hadjar en Algérie, la Commission constate l'émergence d'un intérêt grandissant de la part des séminaristes pour certains problèmes susceptibles d'être engendrés par l'industrialisation, et pour les conséquences pouvant en découler vis-à-vis de l'observance de certaines pratiques religieuses.

4°) C'est la raison pour laquelle la Commission recommande l'organisation d'un échange de points de vue sur les expériences de développement entre les pays islamiques, dans le but de préserver les valeurs de la civilisation islamique.

5°) L'obligation de se préoccuper de la main-d'œuvre technique et des compétences scientifiques, et leur encouragement à participer au développement industriel.

6°) L'adaptation des nouvelles réalisations industrielles dans les pays islamiques aux aspirations et aux besoins spirituels du Musulman.

7°) Le renforcement de la coopération entre les pays islamiques dans les multiples domaines, sans que cette coopération soit influencée par la diversité de leurs systèmes économiques et sociaux...

8°) L'intensification de l'enseignement des sciences humaines nécessaires à la compréhension véritable de l'Islam et à sa conciliation avec les situations nouvelles découlant du développement industriel.

9°) La nécessité pour les pays islamiques d'orienter leur système d'enseignement au service des programmes de développement.

10°) L'encouragement des savants de la Chari'a et des études islamiques, en coopération avec leurs collègues d'autres spécialisations, à intensifier l'étude consciente des problèmes du siècle, et du développement en vue de définir la position de la Chari'a islamique à leur égard.

TROISIEME POINT

THEME :

Dimensions spirituelles, politiques, économiques et sociales du culte et leur importance tant pour la Oumma que pour l'individu.

COMPOSITION DE LA 3e COMMISSION

1°) Docteur Mohamed Farouk an-Nabhân, *Professeur à la Faculté de Droit et de la Chari'a - Université de Koweit* - (*Koweit*) .. *Président*

2°) Professeur Lakhal Ben Haoua, *Avocat - Alger* (*Algérie*) .. .. *Rapporteur*

3°) Docteur Mohamed Saïd Ramadhan el-Bouti, *Professeur à l'Université de Damas* (*Syrie*) .. .. *Membre*

4°) Docteur Mustapha az-Zarka, *Ancien ministre - Professeur à la Faculté de la Chari'a - Université jordanienne - Amman* (*Jordanie*) .. .. *Membre*

5°) Docteur Abdelhalim Aouis, *Professeur à la Faculté de la Chari'a Université islamique de l'Imam Mohammed ibn Saoud - Ryad* (*Royaume d'Arabie Saoudite*) .. .. *Membre*

6°) Docteur David Cowon, *Professeur au département des Proche et Moyen-Orient, Institut des Etudes Orientales et Africaines Université de Londres* (*Grande Bretagne*) .. .. *Membre*

7°) Docteur Rachid Mostefaï, *Professeur à l'Institut de Langue et Littérature Arabes - Université d'Alger* (*Algérie*) .. .. *Membre*

8°) Monsieur Mohamed al-Mubarak, *Professeur à la Faculté de la Chari'a et des Etudes islamiques - Mekka* (*Royaume d'Arabie Saoudite*) .. .. *Membre*

9°) Monsieur le Cadi Abdellah al-Moudjahid Chemmahi, *Conseiller au Ministère de la Justice Sanaâ - (R.A.Y.)* .. .. *Membre*

10°) Docteur Saïd Chibane, *Professeur d'Ophtalmologie à la Faculté de Médecine - Alger* (*Algérie*) .. .. *Membre*

11°) Docteur Hamid Algar, *Professeur au département des Etudes du Proche-Orient - Université de Berkeley - Californie* (*U.S.A.*) .. .. *Membre*

12°) Monsieur Abderrahmane Chibane, *Inspecteur au Ministère des Enseignements primaire et secondaire - Alger* (*Algérie*) .. *Membre*

13°) Professeur Mohamed Sadek Bessyes, *Professeur à la Faculté de la Chari'a et des sources de la religion - Tunis* (*Tunisie*) .. *Membre*

14°) Professeur Abdelwahab Hamouda, *Professeur à la Faculté des Lettres - Université d'Alger* (*Algérie*) .. .. *Membre*

15°) Monsieur Mohamed Mujtahid Chabastari, *Directeur du Centre Islamique de Hambourg (R.F.A)* .. .. *membre*

RECOMMANDATIONS

La troisième commission, après l'étude de l'influence du culte islamique sur la société, aux plans économique, politique, culturel et social.

— Considérant le fait que le culte islamique ne se circonscrit pas aux seules pratiques religieuses, mais concerne également toute action bénéfique et utile pour l'individu et la société,

— Considérant que le culte en Islam constitue l'artère vitale entre les racines du dogme et les fruits de la législation et du code moral,

— Considérant que le culte islamique exerce une influence sur la vie économique puisqu'il éveille dans la conscience du Musulman le sentiment du contrôle divin sur tous ses actes et ses attitudes,

— Considérant que le culte islamique contribue également à une édification économique saine dans la vie des Musulmans,

— Considérant que le culte joue un rôle dans la réalisation d'une politique judicieuse et responsable puisqu'il entretient et développe aussi bien chez le gouvernant que chez le gouverné la crainte de Dieu et de son contrôle et qu'il les incite, par conséquent, à œuvrer pour le bien public,

FORMULE LES RECOMMANDATIONS SUIVANTES :

1°) La nécessité d'organiser la vie quotidienne et plus particulièrement sur le plan scolaire — en fonction des obligations et des fondements de l'éducation islamique.

2°) L'adoption des mesures nécessaires en vue de faire prendre conscience aux parents de la nécessité d'habituer leurs enfants dès leur jeune âge à la pratique de la prière et au respect du code moral islamique.

3°) Conseiller aux pères et aux mères d'être le meilleur guide pour leurs enfants, par le soin qu'ils apporteront à observer les règles de comportement et de conduite islamiques ainsi que les pratiques du culte.

4°) La nécessité de la présence d'un imam pour la prière dans chaque établissement scolaire, primaire ou secondaire, dans chaque université, chaque entreprise ou administration publique, en considérant cette présence comme un rouage essentiel à prévoir dans leur édification future ou à compléter en ce qui concerne les institutions existantes.

5°) La prise en considération du comportement religieux lors du choix des responsables d'un établissement scolaire ou de tout autre entreprise en vue d'assurer la gestion et la bonne marche de ces institutions selon la voie islamique et, en se guidant sur les meilleurs critères, de faire prendre conscience aux responsables actuels de leurs obligations à l'égard des valeurs islamiques.

6°) La nécessité d'imprégner les programmes et les méthodes scolaires, dans leurs différentes phases, de l'esprit de l'Islam et de ses idéaux.

7°) Faire prendre conscience aux responsables à n'importe quel niveau et aux fonctionnaires, quel que soit leur grade, de l'importance qui s'attache à l'éducation et à la conscience islamiques sur les plans de la vie pratique et du progrès de la nation.

8°) Permettre à tous les travailleurs dans les usines et les ateliers d'observer les pratiques du culte au moment qui leur est prescrit et ce, en multipliant les mosquées ou les salles de prière dans les entreprises, et en faisant en sorte que la pratique du culte soit — du point de vue administratif — un droit acquis, ce qui faciliterait son accomplissement.

9°) L'orientation des éducateurs et des mass-media vers l'élimination des déviations morales et de leurs incitations qui éloignent la jeunesse de la voie droite, l'empêchent de remplir ses obligations islamiques et d'apporter la contribution attendue de sa part au progrès de la nation.

10°) Réactivation du rôle dévolu à la mosquée et son retour à la mission sociale, culturelle et religieuse qui est sienne, afin qu'elle assume la tâche qu'elle a accomplie au début de l'Islam et aux siècles d'or de la civilisation islamique.

11°) La diffusion la plus large — en particulier dans les milieux de la jeunesse — des ouvrages et publications à caractère religieux, et leur mise à la disposition et à la portée de tous les lecteurs grâce à une politique judicieuse de baisse des prix.

12°) Eveiller la prise de conscience islamique dans l'armée et la police et faire en sorte que des locaux soient consacrés à la prière dans les casernes et les centres de police.

13°) Attirer l'attention des individus par les moyens adéquats sur l'obligation de verser la zakât à ses ayants droit .

Il serait éminemment souhaitable que des commissions soient chargées de la collecte de la zakât et qu'un contrôle soit institué sur son versement effectif aux seuls ayants droit définis par la Chari'a.

14°) Revendiquer auprès de l'ensemble des mass-media d'assumer leur devoir en ce qui concerne l'approfondissement de l'éducation islamique et la diffusion des valeurs et des pratiques religieuses à l'aide de programmes attrayants et d'applications pratiques. Il leur est demandé également de s'abstenir de présenter des matières contraires à la morale islamique et à la vie saine et sérieuse.

15°) L'enseignement et la généralisation de l'emploi de la langue arabe dans les pays islamiques et au sein des colonies islamiques dans les pays non-musulmans, eu égard à la nécessité de son utilisation pour les besoins du culte.

16°) La commission exhorte, comme dernière recommandation, les responsables dans le monde islamique à prendre en considération l'application de ces recommandations, car ils auront, ce faisant, acquitté un droit de Dieu et assumé le devoir qui leur incombe à l'égard de la Oumma islamique.

FETWA

Concernant la licence accordée par la loi islamique aux travailleurs du haut fourneau et de la coulée de fer du complexe métallurgique de Annaba, ainsi qu'aux travailleurs des usines à l'étranger.

Au Nom de Dieu, le Clément et le Miséricordieux

FETWA

A propos de la licence accordée par la Loi islamique aux travailleurs du complexe métallurgique de Annaba qui sont exposés à la chaleur intense du haut fourneau et de la coulée du fer en fusion, ainsi qu'aux travailleurs musulmans en général employés dans les usines hors du monde musulman.

Considérant les questions qui ont été posées aux participants du X[e] Séminaire sur la Pensée Islamique réuni à Annaba du 12 au 21 radjeb 1396 (10 - 19 juillet 1976), et concernant le point de vue de la Chari'a à propos de la rupture du jeûne par les travailleurs exposés à la chaleur intense des hauts fourneaux et de la coulée du fer en fusion quand intervient le mois de ramadhan, étant donné les souffrances insurmontables endurées de ce fait,

Considérant également le cas des travailleurs musulmans en général travaillant en France et en d'autres pays, dans des usines où ne sont pas prises en considération les situations des travailleurs musulmans, eu égard aux interrogations qui ont été adressées aux participants du séminaire et à la souffrance dépassant les limites de l'endurance humaine, dont ils ont pu se convaincre en ce qui concerne l'observance du jeûne, dans ces conditions, par les travailleurs,

Une commission a été constituée, composée des membres suivants :

1°) Docteur Mustapha az-Zarka .. .. *Président*

2°) Docteur Mohamed al-Mubarak .. .. *Membre*

3°) Docteur Mohamed Saïd Ramadhan al-Bouti .. .. .. *Membre*

4°) Docteur Mohamed Farouk an-Nabhân .. .. *Membre*

5°) Docteur Abdelhalim Aouis .. .. *Rapporteur*

Après avoir mûrement étudié le cas des travailleurs sus-indiqués, la Commission a émis la Fetwa ci-après en ce qui concerne particulièrement les travailleurs du complexe métallurgique :

1°) Si cette industrie requiert le fonctionnement du haut fourneau sans interruption de nuit comme de jour, et si les travailleurs qui y sont affectés se relaient par équipes changeant toutes les huit heures, ceux d'entre eux dont le travail devant le haut fourneau ou la coulée du fer en fusion aura lieu pendant les heures du jour auront la faculté de rompre le jeûne, à charge pour eux de compenser par la suite les journées non-jeûnées, mais sans qu'ils soient tenus de respecter dans cette compensation le principe de la continuité.

2°) Seront exclus du bénéfice de cette licence les travailleurs dont l'activité coincidera avec l'horaire de travail nocturne ainsi que le personnel administratif et les travailleurs dont l'activité s'effectue loin des hauts fourneaux et de la coulée du métal, tels que les manutentionnaires, les tourneurs, les peintres, etc...

3°) S'il s'avère réalisable pour les responsables d'arrêter le haut fourneau pendant la journée et de le faire fonctionner uniquement de nuit — auquel cas il appartiendra à Dieu d'apprécier leur geste à sa juste valeur — ils devront planifier le travail pendant le ramadhan sur cette base, ce qui supprimera le besoin de rupture du jeûne pour le travailleur du haut fourneau et de la coulée.

4°) En ce qui concerne les travailleurs exerçant dans les travaux pénibles à l'extérieur des pays islamiques, par besoin et par nécessité , auxquels leur genre d'activité impose pendant le jeûne de ramadhan des souffrances sortant de l'ordinaire, ils pourront également rompre le jeûne et compenser par la suite, sans être tenus par l'obligation de continuité, à charge pour eux de s'efforcer — à la première occasion qui se présentera — de choisir un genre de travail leur permettant d'observer le jeûne.

Les membres de la Commission

PROSPERITE ET IMMUNITE (1)

Au nom de Dieu, le Clément et le Miséricordieux.

Nous clôturons aujourd'hui une chaîne d'efforts poursuivis sans discontinuer pendant dix jours et dix nuits. Puissent-ils nous êtres utiles tant dans notre présent qu'au jour de la Résurrection, puisqu'ils vous auront permis de libérer la quintescence de sa gangue et de ses scories !

1°) Vous avez examiné sous tous ses angles le rôle assumé par l'Islam dans les domaines de la pensée et de la civilisation, explicité l'apport de lumière, de vie et de splendeur qu'ils ont assuré à l'Europe et au monde, et vous en avez conclu qu'il était temps de faire la liaison entre l'authenticité et l'universalité, car là seulement résident la raison et la solution.

2°) Vous avez étudié la nécessité d'accélérer l'industrialisation de la Oumma islamique, dans le but de lui garantir la puissance et l'invulnérabilité, et vous avez énoncé que l'industrialisation était bel et bien une obligation divine puisqu'elle préserve de la misère et de la faiblesse, ainsi qu'en témoigne, par ailleurs, ce hadith sacré : « Le croyant puissant est préférable et mieux aimé de Dieu que le croyant faible ». Mais vous n'avez pas manqué d'ajouter que la force matérielle seule n'est que mirage si elle ne s'accompagne d'une immunité morale dont la négligence est génératrice d'effondrement et de destruction !

3°) Votre effort de réflexion a porté également sur le culte et vous en avez déduit qu'outre son aspect rituel il était porteur d'une riche signification, qu'à la lettre se juxtaposaient l'esprit et le sens constructif et qu'il était enfin pour le Musulman et la Oumma islamique religion autant que mode de vie, un puissant levier enfin capable de combler ses aspirations et ses espérances dans ce monde et dans l'autre.

Soyez-en remerciés, éminents savants, puisque chacun de vous aura été, au service de la science et de la Vérité, à la fois un djoundi, un moussebbel et un militant !

Nos remerciements vont également aux autorités de la Seybouse (2) pour la générosité de leur accueil, et nos félicitations à ses habitants pour l'émulation constante qu'ils ont manifestée à puiser dans votre Séminaire.

---

(1) Allocution de clôture du X Séminaire sur la Pensée Islamique à 'Annaba le 21 radjab 1396 (19 juillet 1976) prononcée par M. Mouloud Kassim NAIT BELKACEM, ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses.

(2) L'un des noms anciens de 'Annaba et aujourd'hui encore nom de son oued.

Nous voici donc, frères étudiants, au terme de nos travaux dont l'ambiance studieuse aura été maintenue de bout en bout sans que le besoin se soit fait sentir de recourir à la manière forte, ni même d'élever la voix, ces deux méthodes éducatives se justifiant pourtant lorsqu'il s'agit de fouetter les énergies ou de maintenir le calme et la discipline !

Disons-nous donc au revoir et saluons une dernière fois 'Oneiba. Que notre prochaine destination soit celle qui rayonnait jadis jusqu'à Wineba (1), la cité des puits et des forages qui rappelle au distrait et à l'oublieux son passé et son présent, la source du pétrole et du gaz qui fut le trait d'union entre le nord et le centre de l'Afrique, vers le foyer de la science et de l'énergie qui libèrent de l'ignorance et de la misère le peuple qui les détient.

A nous revoir au printemps prochain là où repose Al Ouardjilâni qui rivalisait avec les Sahnoun, Ibn Batouta et Al Ouartilâni, dans la cité de la lumière et de déglet nour, dans l'historique et glorieuse : Ouargla !

---

(1) Deuxième ville du Ghana, qui fit partie pendant quelque temps de l'Etat rostomide de Sedrata-Ouargla après le départ de Tihert (Tiaret).

VOICI QUE VENDREDI EST REVENU COMME REVINT KETCHAWA (1) !

Louange à Dieu, le Maître des Mondes. Que le salut et la bénédiction de Dieu soient sur Mohammad, Seigneur des Envoyés de Dieu, sur tous les Prophètes, les martyrs et les vertueux, sur ceux qui suivent et suivront la voie droite jusqu'au jour du Jugement. J'atteste qu'il n'y a de divinité que Dieu le Tout-Puissant, le Vrai, l'Eclatant, et que Mohammad est son Envoyé sincère et probe.

O gens, le plus grand bienfait pour lequel nous devons louer Dieu est celui de nous avoir guidés vers l'Islam et d'avoir fait de nous une partie intégrante de la nation qui a été confiée au meilleur des hommes, la meilleure des nations qui ait été mise au monde, guidant par la grâce de Dieu et guidée elle-même, suivie et ne suivant point.

Dieu a prescrit à cette nation ce qui lui est utile dans ce monde et qui fera son bonheur dans l'au-delà. Et l'Envoyé de Dieu n'a certes point poussé son dernier soupir avant de nous placer définitivement sur la voie lumineuse. Il avait choisi pour nous, entre autres, des fêtes et solennités religieuses au cours desquelles des rituels ont été prescrit. Il nous a permis de conserver des coutumes telles que consentir des largesses à l'égard des proches, goûter aux douceurs permises de la vie, soigner son physique et son habillement.

Parmi les fêtes islamiques, il en est une qui se renouvelle chaque semaine : le vendredi. Dieu nous a inspiré le choix de ce jour et a fait de nous ceux que l'on accompagne et non des accompagnateurs, comme le rappelle l'Envoyé de Dieu (sur lui le salut et la bénédiction de Dieu) dans ce hadith rapporté par Al Boukhari : « Dieu nous a guidés vers (le choix de) la journée du vendredi et les autres nous suivent, les juifs le lendemain, et les chrétiens les surlendemain ». Un autre hadith authentique déclare : « La meilleure journée sur laquelle luit le soleil levant est le vendredi ».

Au cours de cette journée est prescrite une prière destinée à rassembler tous les croyants et qui est dirigée par leur plus grand imam (dirigeant) ou par son suppléant, dont le rôle consiste à les orienter, à les éduquer, à leur enseigner ce qui leur est bénéfique dans ce monde et dans l'autre.

Le Prophète a recommandé — en cette journée solennelle — d'avoir une tenue et une apparence nettes et décentes, comme il sied un jour de fête. Abou Saïd al Khoudari rapporte en effet que l'Envoyé de Dieu a dit à ce propos : « Le jour du vendredi, tout musulman devra procéder aux grandes ablutions, revêtir ses meilleurs habits et, s'il possède un parfum, en user modérément ». (cité par Ahmed).

---

(1) Prêche du vendredi 1er ramadhan 1396 (27 août 1976) jour où le vendredi redevint le jour du repos hebdomadaire officiel au lieu du dimanche qui l'avait remplacé depuis 1830.

Anas, Ibn Abbas et d'autres Compagnons rapportent que le Prophète (sur lui le salut et la bénédiction de Dieu) a dit à propos du verset (Lorsque la prière aura pris fin, répandez-vous sur la terre à la recherche des bienfaits de Dieu) : « Il ne s'agit pas de rechercher les biens de ce monde, mais de visiter un malade, par exemple, assister à un enterrement, voir des proches ou des amis, etc... ». C'est là une preuve incontestable que le vendredi est bien considéré comme un jour de repos hebdomadaire. C'est d'ailleurs la voie suivie par les musulmans dans leur vie en société, puisqu'ils considèrent le vendredi comme un jour de fête au cours duquel ils interrompent leurs activités, mettent leurs plus beaux vêtements et extériorisent leur joie. Parmi ces nations et ces peuples islamiques, les Algériens avaient coutume de célébrer le vendredi en tant que fête hebdomadaire au cours de laquelle éclataient la grandeur et la majesté de leur Etat. Cette coutume est restée vivace jusqu'à la pénétration du colonialisme sauvage qui inaugura son règne en tentant de liquider les composantes de notre personnalité, après avoir mis un terme à notre indépendance. Et c'est ainsi qu'il s'empressa d'annuler le repos du vendredi pour nous imposer celui du dimanche et qu'il essaya (mais en vain !) de couvrir la voix de l'adhân par le son de ses cloches.

L'époque de l'occupation une fois révolue et l'indépendance recouvrée, la logique, l'histoire, le bont goût, la pudeur, le respect de soi-même, tout nous commandait de rétablir le vendredi comme jour de repos hebdomadaire, ainsi qu'il était de tradition dans l'Etat algérien d'avant 1245 h (5 juillet 1830 pour être plus précis), puisque le vendredi était jusqu'à cette date néfaste le jour de repos officiel de la nation algérienne.

C'est au moment même où le maréchal de Bourmont fit hisser au faîte du palais du chef de l'Etat algérien le drapeau français à la place du drapeau algérien, où il fit poser la croix sur le plus haut édifice de la capitale de l'Algérie, en l'occurence le minaret de la mosquée Ketchawa, déclarée a partir de ce moment-là comme étant transformée en cathédrale, que les colonialistes transférèrent le repos hebdomadaire du vendredi au dimanche, ainsi que l'a d'ailleurs rappelé il y a quelques années le quotidien français " Le Monde ". Car l'objectif visé à travers la conquête de l'Algérie consistait — outre la colonisation économique et de peuplement — à tenter d'éliminer sa religion propre, autrement dit à l' "évangéliser", comme on se plaisait à le dire. C'est ce que déclarait le jour de l'occupation d'Alger le roi Charles X, Souverain de France sous le règne duquel avait été consommée l'agression française contre l'Algérie : « En conquérant l'Algérie, la France remplit une mission à l'égard de toute la chrétienté ». Ce sera la même position qu'adoptera le Cardinal Lavigerie aux côtés de maréchaux et de généraux, lorsqu'il déclarera à son tour, le jour de l'inauguration de Ketchawa après sa transformation architecturale en cathédrale : « Voici que Rome est revenue ! ».

Supplanter le vendredi par le dimanche dans le repos hebdomadaire des Algériens était donc l'un des maillons d'une chaîne de transformations radicales et planifiées visant à estomper les repères islamiques de ce pays, et à lui imposer une coloration chrétienne. Après le remplacement d'un Etat par un autre Etat,, d'un drapeau par un autre drapeau, d'une langue par une autre langue, il s'agissait de couronner le tout en remplaçant des coutumes et des traditions ancestrales par des coutumes et des traditions importées, entre autres l'institution du dimanche comme jour de repos hebdomadaire au lieu du vendredi.

Ayant recouvré sa liberté et son indépendance, il était inconvenant pour l'Algérie de persister dans cette déviation, et il importait donc de libérer à son tour le vendredi du joug colonialiste, en tant que devoir entrant dans le cadre de la libération globale du pays et de ses habitants. De même que la mosquée Ketchaoua est retournée à sa dignité première, de même le vendredi a retrouvé enfin son caractère sacré et la position qui fut sienne jadis et qu'il se devait de reconquérir. Ainsi en est-il des Nations : à chacune ses « jours » propres !

Notons l'heureux choix du moment décidé pour cette opération : on ne pouvait souhaiter mieux que le jour d'ouverture du ramadhan, coincidant avec l'année de la Charte Nationale.

Il nous reste à espérer que cette initiative sera suivie par les quelques autres Etats arabes et islamiques qui continuent de nos jours à célébrer, comme nous jusque la semaine dernière, le dimanche au lieu du vendredi.

Quoiqu'il en soit, pour nous c'est une décision prise par notre direction révolutionnaire qui entre aujourd'hui en application, en ce qui concerne ce jour béni. Le peuple algérien est un peuple authentiquement musulman, l'Islam est la religion de l'Etat et la Charte Nationale le confirme. La direction qui a pris cette décision n'a pas manqué de lui consacrer une étude longue et approfondie tenant compte de toutes ses implications. Elle en est arrivée à la conclusion que l'adoption du dimanche comme jour de repos hebdomadaire ne pouvait être qu'une séquelle de l'influence étrangère, sans aucun rapport avec nos traditions, notre civilisation et notre religion.

Serviteurs de Dieu,

Nous voici en ramadhan béni de Dieu, ce mois au cours duquel doit se renforcer notre volonté de vaincre les tentations, de redoubler de piété, d'accroître notre rendement, car le travail est aussi un acte pieux, faisant partie du culte, ainsi qu'il est dit dans un hadith sacré.

Le ramadhan nous rappelle aux bienfaits de l'ordre et de la discipline, de la maîtrise de soi. Il nous convie à supporter les sacrifices et à transcender nos penchants. Il ne peut donc que nous conférer plus de force pour accomplir notre travail et contribuer à la grandeur de la Nation en lui garantissant la richesse et la prospérité, donc le bien ici-bas et dans l'au-delà.

Nous sommes ainsi conviés — alors que notre nation entreprend un nouvel élan — à intensifier notre volonté et nos efforts pour nous conformer aux vertus de ce mois, pour nous montrer plus résolus dans le respect qui lui est dû. Le jeûne de ramadhan constitue pour nous une véritable recharge morale et c'est pourquoi il nous impose par là-même de tendre de toutes nos forces à lui conserver son caractère de piété rayonnante et sans égale. Cela doit se traduire dans notre apparence extérieure aussi bien que dans le secret de nos intérieurs et c'est la raison pour laquelle il est fait obligation à ceux-là mêmes à qui la religion permet de ne pas jeûner, pour des raisons bien définies, tels les malades, les femmes dans diverses situations, les infirmes, les voyageurs, etc, ou bien les ouvriers d'El-Hadjar et d'ailleurs qui ont bénéficié d'une récente fetwa dans ce sens, ceux qui affrontent le fer et le feu dans les usines et les domaines agricoles, à tous ceux qui ont licence de ne pas observer le jeûne en son temps il est

fait donc obligation de se montrer discrets dans leur rupture du jeûne, ainsi que le proclament les bons usages de ramadhan.

Craignez donc Dieu, ô serviteurs de Dieu, et redoutez le jour où les enfants deviendront des vieillards. Sollicitez Son pardon et Il vous pardonnera. Repentez-vous à Dieu, car Il pardonne et Il est clément.

Notre Dieu, donne-nous la félicité dans ce monde et dans l'autre et protège-nous de la punition de l'Enfer. Pardonne-nous ainsi qu'à nos frères qui nous ont devancés dans la foi et ne laisse point dans nos cœurs de rancune envers ceux qui croient. Notre Dieu Tu es Compatissant et Miséricordieux.

Puisse Dieu nous pardonner ensemble, pardonner à nos parents et aux vôtres, ainsi qu'à tous les croyants.

Que Son salut soit sur Ses Envoyés, et qu'Il soit loué, Lui le Maître des mondes.

Serviteurs de Dieu, « Dieu ordonne de respecter la justice, de faire le bien et d'entretenir les liens de parenté. Il interdit la turpitude, l'acte réprouvé et l'iniquité. Il vous exhorte à bien faire, afin que vous vous souveniez ».

فهـــرس العــــدد

عبد الرزّاق بن حمّادوش الجزائري
ورحلته «لسان المقال»

الدكتور أبو القاسم سعد الله

من المخطوطات النادرة عن الجزائر والمغرب، خلال القرن الثاني عشر الهجري والثامن عشر الميلادي رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة (لسان المقال ، في النبأ عن الحسب والنسب والآل) . وقد رأيت من المناسب أن أقدم عنها وعن مؤلفها خلاصة لهذا المؤتمر الذي خصص لتاريخ المغرب العربي وحضارته (*) . وأقول « خلاصة » لأنني في الواقع قد أنجزت دراسة مطوّلة عن حياة ابن حمادوش ورحلته وأعماله الأخرى قد أنشرها قريباً . ولنبدأ بحياة المؤلف .

١ — حياة ابن حمادوش :

والظاهر أن أول من اكتشف ابن حمادوش هو الدكتور لوسيان ليكايرك الذي ترجم له كتابه (كشف الرموز) إلى الفرنسية[1] . كما

(*) ألقي هذا البحث في المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته الذي انعقد بتونس بين ٢٤ — ٢٩ ديسمبر ١٩٧٤

(١) باريس ، ١٨٧٤ . والكتاب غير كامل ، وبعد اكتشاف الرحلة يظهر أنه القسم الرابع من كتاب (الجوهر المكنون في بحر القانون) الذي ألفه ابن حمادوش . والمراد بالقانون هو كتاب القانون لابن سينا . وقد طبع (كشف الرموز) ناقصاً بالعربية أيضاً عدة طبعات على يد رودسي قدور ، أولها بالجزائر سنة ١٩٠٣ . وقد أشرف على هذه الطبعة السيد عبد الرزاق الأشرف ،

أشار في نهاية الترجمة إلى كتاب آخر لابن حمادوش وهو (تعديل المزاج)[1] ولكن الدكتور ليكليرك لم يطلع على رحلة ابن حمادوش التي نحن بصدد التعريف بها ، ولذلك كان حديثه عن حياة المؤلف مختصراً مبنياً على الظن لا على اليقين .

وفي سنة ١٨٨٦ ذكر المؤلف الاسباني قونز اليز في كتابه (مشاهير مسلمي مدينة الجزائر)[2] حوالي ثلاثة أسطر عن ابن حمادوش ، ضمنها تاريخ ميلاده الصحيح ؛ وهو تاريخ لم يهتد إليه ليكليرك ولم يرد إلا في (لسان المقال) مما جعلنا نرجح أن قونز اليز قد اطلع على الرحلة [3] . أما الدكتور غبريال كولان [4] فقد اعتمد في كتابه على ليكليرك ولم يأت بجديد عن حياة المؤلف . وعندما أصدر أبو القاسم الحفناوي كتابه أورد كلام قونز اليز عن حياة ابن حمادوش دون ذكر اسمه مشيراً إليه فقط

---

(١) كتيب في كراسة أو نحوها وصفه الدكتور ليكليرك وصفاً قصيراً في آخر ترجمته (لكشف الرموز) ص ٣٨٠ . والظاهر أن ابن حمادوش قد ألفه بمدينة رشيد بمصر ، لأن الكتاب يحمل هذه الإشارة ، وكان ذلك سنة ١١٦١ هـ ١٧٤٨ م .

(٢) الجزائر ، ١٨٨٦ . والكتاب عبارة عن رسالة صغيرة ضمنها النص العربي مع ترجمته بالفرنسية . وقد قدمه له بالعربية مفتي الحنفية بالجزائر عندئذ الشيخ أحمد بوقندورة .

(٣) ذكر السيد قونز اليز في بداية كتابه أن ابن حمادوش من مصادره الأساسية ، وأشار إليه باسم « عبد الرزاق » فقط ودون ذكر اسم الكتاب ، ويغلب على الظن أنه نقل من (لسان المقال) . وقد نقل عنه أيضاً أسماء ولاة الجزائر وبعض علمائها .

(٤) كتب رسالة دكتوراه في الطب عن « الطبيب العربي عبد الرزاق الجزائري » وطبعها بالجزائر سنة ١٩٠٥

باسم « مؤلف اورو باوي » [١] . وهكذا يتضح أن حياة ابن حمادوش ظلت مجهولة ، لأن جزءاً كبيراً من ترجمته الشخصية يوجد في رحلته التي لم يطلع عليها – حسبما نعتقد – سوى السيد قونز اليز . أمّا المتأخرون فقد اعتمدوا على هذا مثل السيد نور الدين عبد القادر [٢] ، أو نقلوا عن الرحلة مباشرة دون ترجمة لمؤلفها مثل السيد محمد داود [٣] .

ولد عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش سنة ١١٠٧ هـ ١٦٩٥ م في مدينة الجزائر على الأرجح ومن ثمة نسبته إليها « الجزائري » ، وكانت أسرته من طبقة الحرفيين التي كانت تمارس التجارة ولا تهتم بالسياسة والرياسة إلا قليلاً . وكانت حرفة أسرته هي الدباغة حسبما فهمنا من رحلته ، لأنه ذكر والده وعمّه في بعض العقود موصوفين بكلمة « الدباغ » . وعند زواجه الأول صاهر ابن حمادوش عمّه الذي زوجه ابنته البكر وأسكنه في داره. أما في زواجه الثاني فقد تزوج ثيّباً هي ابنة أمين الصفارين (النحاسين) . وكان لابن حمادوش ولدان على الأقل من زوجه الثانية مات أحدهما صغيراً . ولا ندري ما إذا كان له أطفال من زواجه الأول . ولم يكن ابن حمادوش سعيداً مع زوجه الثانية ولا مع أسرته الباقية كأمه وأخته لانشغاله بالكتب والعلم من جهة ولفقره من جهة أخرى . ولا ندري إلى الآن

---

(١) (تعريف الخلف برجال السلف) ، الجزء ٢ – الجزائر ، ١٩٠٧، ص ٤٧١

(٢) (صفحات من تاريخ مدينة الجزائر) ، الجزائر ، ١٩٦٤ ، ص ١٩٤ ، وقد نقل عبارة قونز اليز حرفياً دون ذكر اسمه .

(٣) (تاريخ تطوان) ، القسم الأول ، المجلد ٣ ، تطوان ، ١٩٦٢، ص ١٤٨ – ١٥٢ ، وقد لخص ما كتبه ابن حمادوش عن المغرب وخصوصاً مدينة تطوان وعلمائها .

متى ولا أين توفي ابن حمادوش ، لكن بعض المراجع تشير ظنياً إلى أنه قد تجاوز التسعين سنة (١) .

عاصر ابن حمادوش أحداثاً وتطورات سياسية واجتماعية وثقافية . فقد دون في رحلته أنه عاصر عهد الباشوات الذين استبدوا بالحكم في الجزائر عن السلطان العثماني ، وكان ما يزال طفلاً عندما استعاد الجزائريون مدينة وهران من يد الاسبان (٢) ، ولكنه كان واعياً لاحتلال اسبانيا لها من جديد (٣) . وذكر في رحلته بعض الثورات الداخلية مثل ثورة أهل زواوة على قائد سباو ، وتحدث عن توقيع الصلح بين الجزائر والدنمارك ، كما سجل فيها حادثة فرار ابن أحمد الريفي المغربي ومحمد باي التونسي إلى الجزائر في وقت واحد واجتماعهما مع داي الجزائر عندئذ ، إبراهيم باشا . أما في المغرب فقد شاهد عياناً ثورة أحمد الريفي ، حاكم إقليم تطوان ، على السلطان مولاي عبد الله ، وروى أحداثها بشيء من التفصيل والتأثر ، ووصف آثار هذه الثورة على الحياة المغربية سياسياً واقتصادياً (٤) . ولا شك أن ابن

---

(١) كولان ، ص ٣٥ ، ضبط هو اسمه (حمادوش) دون أن نعرف ما إذا كانت الميم مخففة أو مشددة .

(٢) كان ذلك على يد الباشا محمد بقطاش (بكداش) ، سنة ١١١٩ هـ ١٧٠٨ م ، وهو الباشا الذي ألف فيه محمد بن ميمون ، أستاذ ابن حمادوش ، كتابه (التحفة المرضية في الدولة البكداشية) تمجيداً له . وقد نشر هذا الكتاب السيد محمد بن عبد الكريم ، الجزائر ١٩٧٢ .

(٣) احتلوها من جديد سنة ١١٤٥ هـ - ١٧٣٢ م ، وظلوا فيها إلى سنة ١٢٠٥ هـ ١٧٩١ م حينما افتتحها الباي محمد الكبير وأعادها للدولة الجزائرية .

(٤) سنفصل القول في هذه المسائل ، وكذلك المسائل الاجتماعية والثقافية في نهاية البحث .

حمادوش قد عاصر أحداثاً أخرى في تونس ومصر وبلدان الشرق الأخرى التي زارها أو أقام فيها أثناء حجه وأسفاره ، ولكنه على كل حال لم يذكرها في الجزء الذي بين أيدينا من الرحلة .

كما عاصر ابن حمادوش تطورات اجتماعية وثقافية لا شك أنها أثرت على مجرى حياته . فحديثه عن عقود الزواج في وقته (وهي عقود كانت تختلف مهورها من طبقة إلى أخرى) ومعاناته في البحث عن موارد للرزق سواء في الجزائر أو في المغرب ، واحتماؤه بالشرف والعلم بدل الجاه والسياسة والمال ، وكثرة تعرضه الأسعار في أسواق الجزائر والمغرب ، كلها تعكس الجو الاجتماعي والاقتصادي الذي كان يعيشه . ومما لا ريب فيه أن أسفاره الأخرى قد أمدته بتجارب أخرى في هذا الميدان ، ولكننا على كل حال لا نملك الآن دليلاً عليها .

وتثقف ابن حمادوش على شيوخ بلاده وعلماء المغرب وتونس والمشرق ، كما قرأ عدداً كبيراً من الكتب في مختلف العلوم والفنون [1] . ولئن كنا لا نجد أثراً لشيوخه الأولين . لفقدان الجزء الأول من رحلته في الوقت الحاضر ، فإننا نعرف من الجزء الثاني منها أنه قرأ في الجزائر على الشيخ محمد بن ميمون [2] ، كما عاصر فيها علماء وأدباء ما تزال أسماؤهم وبعض أعمالهم تشهد لهم بالحذق والمكانة في مجتمع عصرهم ، أمثال أحمد بن عمار صاحب (نحلة اللبيب) ، والمفتي الشاعر ابن علي ، وعبد الرحمن الشارف ،

---

(١) ذكر المؤلف في الجزء الذي ندرسه من الرحلة الكتب التي قرأها واقتناها ، وجميعها تعكس اتجاهه العلمي أكثر من غيره .

(٢) نحيل إلى المقدمة التي كتبناها للقصيدة السياسية — الأدبية التي عثرنا عليها والتي هي من نظم ابن ميمون ، في (الثقافة) الجزائرية ، عدد ١٥ سنة ١٩٧٣ ، ص ٣٧ — ٤٢

وأحمد الزروق البوني ، وعدد آخر من المفتين وأصحاب الجاه كمحمد بن حسين ، والحاج يحيي الدين الزروق ، وعبـــد الرحمٰن المرتضى ، ومحمد المسيـني . وممن قرأ عليهم ابن حمادوش في المغرب وأجازوه محمد بن عبد السلام البناني الفاسي ، وأحمد الورززي التيطواني ، وأحمد السراثري ، وأحمد ابن المبارك (١) .. أما من تونس فلم يذكر فيما بين أيدينا من وثائق سوى الشيخ محمد زيتونة (٢) الذي يسميه « شيخنا » ، والشيخ محمد الشافعي الذي التقى به في الجزائر يوم جاء هارباً من حاشية محمد باي المذكور .

ورغم أن ابن حمادوش قد درس على طريقة عصره فإن اهتمامه كان منصباً خاصة على الكتب العلمية . ولذلك نجده قد درس ابن سينـا ، واقليدس ، والقلصادي ، والانطاكي ، وابن البيطار ، وغيرهم من علماء المسلمين واليونان . وكان لا يقرأ نظرياً بل يحاول أن يطبق ما قرأه ويؤلف فيه ، ويجري التجارب الشخصية عليه . وهكذا وجدناه يجري تجارب على النباتات ويركب المعاجين الطبية ، ويختبر موازين المياه ، ويرسم الرخامة الظلية ، ويضع دائرة لبيان اتجاه الرياح ، وغير ذلك من التجارب التي لم تكن محل اهتمام من علماء عصره عامة ، وعلماء بلاده خاصة . وقد لخص هو اهتمامه عندما قال في رحلته إنه أصبح عشابا وصيدلياً وطبيباً في بعض الأمراض (٣) .

* * *

(١) سنذكر بعض التفاصيل عن علاقته بعلماء المغرب .

(٢) الظاهر أنه قرأ عليه في تونس أو في المشرق . ولعل ذلك كان أثناء حجته الأولى سنة ١١٣٠ هـ — ١٧١٨ م . وقد توفي الشيخ زيتونة بتونس سنة ١١٣٨ هـ — ١٧٢٥ م .

(٣) التجارب المشار إليها مفصلة في الرحلة . ولعل هذا الاهتمام بالتجارب العلمية ، والطب خاصة ، هو الذي جعل الدكتور ليكليرك ينعته بآخر ممثل للطب

وهذا الاهتمام هو الذي جعل مؤلفات ابن حمادوش يغلب عليها الطابع العلمي أكثر من الطابع الفقهي أو الأدبي الذي شاع لدى علماء عصره . ولنذكر الآن بعض مؤلفاته في هذا الميدان (1) :

١ — شرح على قصيدة اربع على كردفو .

٢ — تأليف على الروزنامه .

٣ — تأليف في الأعشاب (لعله هو كشف الرموز المطبوع) .

٤ — تأليف في علم الفلك (ذكر فيه سبعة تواريخ تعلمها جميعاً) .

٥ — تأليف في الاسطرلاب والربع المقنطر .

٦ — تأليف في القوس لرصد الشمس .

٧ — تأليف عن الرخامة الظلية بالحساب .

٨ — تأليف في صورة الكرة الأرضية .

٩ — تأليف في علم البلوط (معرفة الطرق البحرية) .

١٠ — الجوهر المكنون (في الطب) .

١١ — بغية الأديب من علم التكعيب (واسمه أيضاً فتح المجيب في علم التكعيب) .

١٢ — تأليف في علم البونبة .

١٣ — تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج .

١٤ — تأليف في الطاعون .

العربي . انظر كتابه (تاريخ الطب العربي) ج ٢ ، باريس ، ١٨٧٦ ص ٣١٠ وقد اعتبره الدكتور كولان صاحب عقلية بعيدة عن الخرافات في عصر سادت فيه الشعوذة وضعف استخدام العقل ، انظر كولان ، ص ٣٩

(1) هذه الكتب مذكورة كلها في الرحلة ، ما عدا الثالث عشر والرابع عشر . وقد ذكر عناوين بعضها ، ولكنه أهمل عناوين الباقي مشيراً إلى موضوعه فقط ، فيقول مثلاً بعد ذكر الفرع العلمي المقصود « ولي تآليف فيه » .

ولابن حمادوش تآليف أخرى في المنطق مثل (الدرر على المختصر) الذي تحدث فيه على مختصر الشيخ محمد بن يوسف السنوسي ، وهو الكتاب الذي وافقه عليه وأطراه كل من الشيخ أحمد الورززي المغربي (١) والشيخ أحمد بن عمار الجزائري ، وفي النحو مثل (السانح) وهو شرح على ألفية ابن مالك ، وفي الأدب (ديوان) شعر ، قال إنه بنـاه على الغزل والنسيب والمراثي ومدح الرسول ﷺ . كما ترك ابن حمادوش بعض المقامات الأدبية (٢) . وهو في أشعاره وأدبه لا يرقى إلى مصاف أدباء بلاده المعاصرين له كابن ميمون وابن عمار وابن علي . وقد أشرنا إلى أن الجزء الذي سنتحدث عنه من الرحلة هو الجزء الثاني ، ومعنى هذا أن له جزءاً أول لهذه الرحلة التي قد يكون لها جزء ثالث أو أكثر . ونحن لا نشك في أن تآليف ابن حمادوش أغلبها ضائع ، وأن معظمها صغير الحجم، بالإضافة إلى أنها في جملتها كتب علمية . وليس معنى هذا أنه لم يؤلف في الفقه ونحوه ، ولكن غلب عليه الاتجاه الأول كما لاحظنا .

وقد تجول ابن حمادوش في العالم الإسلامي من تطوان إلى الحجاز . وإذا كنا نعرف من الرحلة بعض التفاصيل عن تجواله في المغرب فإننا لا نعرف عن تجواله في الأقطار الأخرى سوى إشارات طفيفة . فقد جاء

---

(١) كان الشيخ الورززي يتردد على الجزائر . وقد صحح عليه ابن حمادوش الكتاب المذكور أثناء زيارته للجزائر سنة ١١٥٩ هـ — ١٧٤٦ م ، ويبدو أنه زارها مرة أخرى على الأقل سنة ١١٦٢ هـ — ١٧٤٩ م ، وخلالها مدحه المفتي الشاعر ابن علي بقصيدة ؛ انظر محمد داود (تاريخ تطوان) القسم الأول ، المجلد ٣ ، تطوان ١٩٦٢ ، ص ٩٠ ، وقد ترجم محمد داود ترجمة وافية للشيخ الورززي في المصدر نفسه ، ص ٨٥ — ٩٢ ، وذكر أنه توفي سنة ١١٧٩ هـ ١٧٦٥ م .

(٢) ذكر منها ثلاثاً في الرحلة ؛ اثنتان منها عن أفكار عرضت له في المغرب أما الثالثة فالظاهر أنه ألفها في الجزائر .

في رحلته أنه كان بتونس حاجاً عام ١١٣٠ هـ - ١٧١٨ م . ووجد بعض الباحثين أن ابن حمادوش كان في مدينة رشيد بمصر سنة ١١٦١ هـ - ١٧٤٨ وأخبر هو في رحلته أيضاً أنه زار بلاد العرب والعجم والترك بدون تحديد . ومما وصل إلينا من آثاره رحلته التي نحن بصدد التعريف بها .

ب — الرحلة :

ويغلب على الظن ، كما أشرنا ، أن أول من نقل عن رحلة ابن حمادوش دون ذكر اسمها هو السيد قونز اليز . فهو أول من أرخ لميلاد المؤلف بالتاريخ الذي ورد في الرحلة ، ونقل عنه قائمة ولاة الجزائر . وفي سنة ١٩٣٥ كتب الشيخ عبد الحي الكتاني عن الرحلات المغربية [١] وذكر اسم رحلة ابن حمادوش ، ثم جاء السيد محمد داود ونقل عنها بعض الفقرات في وصف ثورة الريفي التي كان ابن حمادوش شاهد عيان لها [٢] . وأكد الشيخ الكتاني أهمية رحلة ابن حمادوش في رسالة بعث فيها إلى السيد الحاج صادق أثناء كتابة هذا بحثاً عن المولد النبوي في (نحلة اللبيب) لابن عمار [٣] . ومنذئذ بدأ اهتمامي بهذه الرحلة . فقد كنت أعدّ مادة كتابي (تاريخ الجزائر الثقافي) وأصبحت هذه الرحلة تشكل إحدى المخطوطات الأساسية التي كان عليّ أن أطّلع عليها لمعرفة أحوال القرن الثامن عشر في

---

(١) انظر تقريظه لكتاب (دليل الحج والسياحة) تأليف أحمد بن محمد الهواري ، الرباط ، ١٩٣٥ ص ٢٩٥

(٢) (تاريخ تطوان) القسم الثاني ، المجلد الثاني ، تطوان ، ١٩٦٣ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٦

(٣) (المولد النبوي عند ابن عمار مفتي مدينة الجزائر وشاعرها) مقتطف من (الأبحاث المقدمة إلى لويس ماسينيون) نشر المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٥٧ ، ص ٢٧٠ — ٢٩٢ ، والدراسة بالفرنسية .

الجزائر . وسعيت للحصول على نسخة منها فأسعفني صديق مغربي كريم[1] . بصورة منها . وخلال رحلتي إلى المغرب في صيف ١٩٧٣ اطلعت بنفسي على الأصل في الخزانة العامة بالرباط ، وهي ضمن مكتبة الشيخ الكتاني رقم ٤٦٣ [2] .

وتقع مخطوطة الرحلة في ٣٨٧ صفحة من الحجم المتوسط[3]، ومسطرتها ١٦ × ١٢ وتحتوي كل صفحة على حوالي ٢٢ سطراً . ويبدو لي بعد البحث أن عبارة ابن حمادوش فيها تنتهي عند الصفحة ٢٢٦ ، أما الباقي فلا نقطع الآن بنسبته إليه . وتدل افتتاحية الصفحة الأولى على أن المخطوطة تمثل بداية الجزء الثاني . فهي تبدأ بعد الحمدلة والبسملة والتصلية وذكر اسم المؤلف هكذا : « الجزء الثاني من رحلته ... » ولم يرد اسم الرحلة في المتن وإنما أضيف في الحاشية وكتب هكذا : « لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والآل»[4] . وبداية تاريخ هذا الجزء هو غرة عام ١١٥٦هـ الموافق ١٤ فبراير سنة ١٧٤٣ م ، ويمثل التاريخ المذكور بداية رحلته إلى

---

(١) هو الدكتور عباس الجراري الذي يجب علي أن أسجل هنا اعترافي له بالجميل .

(٢) رغم حرصنا فإننا لم نهتد إلى وجود نسخة أخرى من رحلة ابن حمادوش. وإذا ثبت أن السيد فونتز اليز قد استعمل الرحلة كما أشرنا فمن المحتمل أن يكون قد اطلع على نسخة أخرى منها .

(٣) أرقام الصفحات مضافة بقلم الرصاص ، وهي المعروفة بالأرقام العربية .

(٤) الكلمة الأخيرة غير واضحة في الرسم ، وقد أثبتناها « الآل » لمناسبة معناها إلى ما قبلها . ومن الممكن قراءة رسمها « المال » وبه أخذ محمد داود ، (تاريخ تطوان) القسم الأول ، المجلد ٣ ، تطوان ١٩٦٢ ، ص ١٤٨ ، وقد رأى محمد داود ، كما رأى الكتاني من قبل ، بأن الرحلة مكتوبة بخط مؤلفها الذي وصفه هكذا « الفقيه المدرس المؤلف المشارك التاجر المتجول » . ويمكن قراءة الكلمة أيضاً « الحال » .

المغرب . وآخر تاريخ مذكور فيها (على فرض صحة القسم الذي لم نقطع بنسبته إليه) هو سنة ١١٦٠ هـ - ١٧٤٧ م ، ذلك أننا نجده في السنة الموالية بمصر . وعلى أية حال فإن الرحلة مبتورة الآخر ، ومن ثمة لانعرف بالتدقيق اسم كاتبها أو ناسخها ولا مكان ذلك .

و (لسان المقال) مكتوبة بخط واضح وحبر أسود باستثناء بعض العناوين والأسماء فإنها كتبت بالحبر الأحمر ، وهي مكتوبة بأسلوب بسيط غير مسجوع ، ماعدا المقامات المشار إليها . وقد رتبها المؤلف على السنوات والشهور والأيام . ومن الطبيعي أن تظل بعض الأيام والشهور أحياناً غير واردة في الرحلة ؛ وهي في شكل مذكرات أو يوميات كان المؤلف يسجل فيها الأحداث والمشاهدات بصيغة الماضي في غالب الأحيان . وقد أكثر فيها الحشو والاستطراد والنقول من كتب ووثائق المتقدمين والمعاصرين . والغالب على الظن أن الرحلة ماتزال بخط مؤلفها[1] وأنها كذلك ما تزال في شكل مسودة . ولا ندري إلى الآن متى ولا أين كتب ابن حمادوش هذا الجزء . وتوجد تعاليق على المخطوطة يعود بعضها إلى منتصف القرن الماضي[2] ، ويدل بعض هذه التعاليق على أن المخطوطة كانت عندئذ في في الجزائر قبل انتقالها إلى المغرب . كما يوجد على صفحتها الأولى اسم مالكها الأول ، على مايظهر لنا ، وهو السيد « الحاج علي بن الحاج سعيد » الذي لانعرف الآن من أمره شيئاً .

---

(١) بذلك قطع عبد الحي الكتاني ، انظر (دليل الحج والسياحة) ، ص ٢٩٥

(٢) آخر تاريخ مذكور في التعاليق بالنسبة للجزائر هو سنة ١٢٣٣ هـ ١٨١٧ - ١٨١٨ م عن وفاة الداي علي باشا ، وبالنسبة للدولة العثمانية عند وفاة السلطان محمود الثاني سنة ١٢٥٥ هـ - ١٨٣٩ م ، وتولية ابنه عبد المجيد في العام نفسه ؛ أما بالنسبة لروسيا فقد ذكر المعلق أن نقولا الأول (سماه نكول راى الموسك) قد توفي سنة ١٢٧١ هـ - ١٨٥٥ م .

ويمكن تقسيم المحتوى العام للرحلة إلى ثلاثة أقسام هي :

١ – قسم المغرب وهو من صفحة ٢ – ٧٥ ، وهذا القسم هو الذي يصح أن نسميه « رحلة » .

٢ – قسم عن المؤلف نفسه في الجزائر ، وهذا القسم ترد أخباره مفرقة ضمن قصص واستطرادات ، وهو عبارة عن مذكرات وحوادث يومية عن قراءاته وملاحظاته ونشاطه .

٣ – قسم يتضمن نقـــولاً كثيرة من كتب ووثائق المتقدمين والمعاصرين : مثل الاكتفاء لابن الكردبوس ، وكتاب تاريخ الدول للملطي وأنس الجليل للعليمي ، بالإضافة إلى مجموعة من عقود الزواج على عـادة أهل مدينة الجزائر ، وكذلك مجموعة من الأسانيد والإجازات والقصص العامة كقصة الفيل وقصة العنقاء .

والمنهج الذي سار عليه ابن حادوش يجعل عمـله غير منسجم وغـير متماسك . ذلك أنه لايكاد يربط بين أجزاء الرحلة سوى الترتيب الزمني . وقد لاحظنا أنه قد اتبع طريقة السنوات . وإذا أخذنا بالنص الموجـود عندنا فالرحلة لاتكاد تتجاوز خمس أو ست سنوات من عمر المؤلف الطويل الذي تجاوز بحسب بعض الآراء ، تسعين سنة . وعلى كل حال فإنه كان يحشو كل سنة بأخبار ووقائع تتعلق بشخصه في الغالب ، وإذا ما أفاض في الحديث عن قضايا أخرى فإنه يفعل ذلك إما عن طريق المصادفة كما فعل بذكره أسماء ولاة الجزائر وأسماء سلاطين آل عثمان ، وإما لعلاقتها بشخصه كحديثه عن ثورة أحمد الريفي التي كانت لها عواقب على سير رحلته ، فالمحور إذن هو شخص المؤلف .

وقد اعتاد ابن حمادوش أن يؤرخ بالتاريخين الهجري الذي يسميه العربي ، والميلادي (الشرقي أو الفلاحي) . وكان يؤرخ نادراً بالتاريخ

الاسكندري . ولكن سنوات الانتقال التي تشكل في الواقع أبواب الرحلة أو فصولها ، كانت بالتاريخ العربي . ويجهد المؤلف نفسه في الأمانة والدقة ، وإذا أعوزه ذلك يذكره دون تحرّج ، فإذا نسي حادثة أو تاريخاً عاد إلى كناشه ويكتب بعد ذلك هكذا « وجدته مقيداً » ، وإذا نقل ونسي العبارات المنقولة قال « هذا ماتعلق بذهني وإن كان عبرت بعبارة غير عبارة المؤلف » ، وإذا كان غير متأكد من خبر سمعه عن فلان سجل ذلك بأمانة قائلاً : « ولم أدر كيف كتب ولا ماصنع إنما بلغني » . وحين عجز عن أن يأتي بجواب لإحدى المسائل ترك بياضاً في النص مضيفاً « فمن وجده » يعني الجواب « فليلحقه هنا في هذا البياض ، وما تركته بياضاً إلا لأجله » ومع ذلك فإن ابن حمادوش كان يفتخر أحياناً بمعارفه وشرفه على معاصريه . فكثيراً ما كان يذكر النوازل التي شارك فيها برأيه ، وينتهي فيها بتسجيل انتصاره على مخالفه بشيء من الزهو ، واصفاً مخالفه بادعاء العلم وضعف المعارضة وقصر النظر ، وكان يذكر مناظرته ومناقشته لشيوخ عصره حتى الذين أجازوه منهم . وقد بالغ في الافتخار بشرفه أمام المفتي الحنفي ابن علي ، مخاطباً له بشعر ركيك لايرقى أبداً إلى مكانة شعر خصمه البليغ .

ومصادر ابن حمادوش نوعان : التجربة الشخصية والنقل ، وقد غلب عليه الأول . ذلك أن أكثر ماروى من أحداث في رحلته قد شاهده عياناً أو عاشه . فالتطورات الاجتماعية والسياسية والعلمية التي تحدث عنها في المغرب والجزائر كان مصدرها بالدرجة الأولى التجربة الشخصية . أما النقل فإن ابن حمادوش كان يأخذ بالمشافهة والسماع أو بالاعتماد على الوثائق المكتوبة . فهو كثيراً ما يقول عن أخباره إنها بلغته أو سمعها . وقد أكثر من النقل عن صحيح البخاري ، وتاريخ ابن الكردبوس ، وتاريخ العليمي ، والقانون لابن سينا ، وتاريخ الملطي ، ومقالات اقليدس ، ومنطق السنوسي وغيرها .

كما نقل كثيراً من فهرس البناني المغربي ، ومن أسانيد الصباغ الاسكندري (إذا صحت نسبتها إلى الرحلة) ، ومن عقود النكاح التي كتبها علماء الجزائر .

* * *

وبالإضافة إلى الأضواء التي تلقيها الرحلة على حياة المؤلف فإن الجزائر والمغرب تحتلان فيها مكاناً بارزاً . وقد سبق لنا أن ذكرنا شيئاً منها بخصوص النقطة الأولى (حياة المؤلف) ، وبقي علينا أن نفصل الحديث قليلاً عن النقطة الثانية . ولنبدأ بالجزائر .

أورد ابن حمادوش مجموعة من الأخبار الهامة عنها ، تساعد الباحثين في في أوضاعها السياسية والاجتماعية والثقافية خلال القرن الثامن عشر . من ذلك ما أورده من أن النصارى (دون تحديد ، ولعله يقصد الاسبان) رفضوا قبول فدية المسلمين الذين كانوا أسرى عندهم ، ولا سيما مشاهير الرياس مثل ابن الحاج موسى ، وأدّى هذا الموقف إلى غضب الباشا الذي قرّر غلق كنيستهم وهدّد بهدمها إن لم يقبلوا بالصلح . ولم يخبر ابن حمادوش بما وقع بعد ذلك ، واكتفى بالقول : « وهانحن منتظرون مايقع » . ومما رواه بشأن علاقة باشوات الجزائر بالسلطان العثماني أنّ الأخير قد أرسل مندوباً عنه إلى الجزائر ، فلم يرحب به المسؤولون ولم يستقبلوه فبات ليلته في المرسى ثم دخل المدينة وحده . ورغم أن الباشوات قد استبدوا بالحكم ، كما ذكر ابن حمادوش ، فإنهم ظلوا يهادون السلطان ويسترضونه . وآخر من فعل ذلك هو إبراهيم باشا المعاصر للمؤلف ، فهو الذي أرسل سنة ١١٥٨ هـ (١٧٤٥) إلى السلطان أربعين نصرانياً وثمانية مكا وأشياء حل أخرى ثمينة انتظاراً أن يرسل له السلطان بالفرمان .

وإبراهيم باشا هـو آخر سبعين باشا من الولاة العثمانيين بالجزائر الذين أورد ابن حمادوش قائمة بأسمائهم ، مبتدئاً بإسحاق باشا سنة ٩١٥ م

١٥٠٩ م ومروراً بعبد الله بيلك باش الذي قال عنه إنه أول من استبد بالملك سنة ١٠٦٤ هـ (١٦٥٣) . ومن أخبار هؤلاء الباشوات في الرحلة : رفع الأعلام الخضر على الصوامع عند تولية أحدهم ، وحمل جثمان الميت منهم إلى الجامع الكبير للصلاة عليه وقراءة القرآن ، وشيوع الفساد بينهم حتى إن إبراهيم باشا المذكور كان مع أهله على سفاح قبل التولية ، وبعده نصحه مستشاروه بافشائه مخافة إشاعة الفسوق بين الناس ، واتباعهم قاعدة الحجر الصحي على الحجاج ، وتوقيعهم الصلح مع الدانمارك سنة ١١٥٩(١٧٤٦) ووقوع ثورة ضدهم في بلاد زواوة سنة ١١٥٨ (١٧٤٥) ، وفرار باي معسكر إلى الإسبان بوهران سنة ١١٥٩ (١٧٤٦) بتوريط من أحد أثرياء اليهود بمدينة الجزائر ، ولجوء ابن الثائر أحمد الريفي ومحمد باي ومحمود باي التونسيين إلى الداي إبراهيم باشا .

ويمكن للباحث الاجتماعي أن يجد في الرحلة مادة ثرية أيضاً . فقد ذكر المؤلف صيغة صلوات وأدعية معهودة عند أهل الجزائر عند ختم صحيح البخارى ، يرش أثناءها الخدم ماء الورد على الحاضرين بالجامع الكبير ، كما ذكر عاداتهم ليلة القدر وليلة المولد النبوي . فقد كان متولي الجامع الكبير يفرغ ليلة القدر قنطاراً أو أكثر من الشمع يفرقه على ثلاثين شمعة خضراء ، ثم يطاف بهذه الشموع في اتجاه دار المفتي أو الوكيل ، ومنها إلى دار الإمارة عبر الشوارع المزينة ، وهم يرفعون أصواتهم بالأناشيد الدينية ، ثم يعودون إلى الجامع من طريق أخرى . وكان يقام مثل ذلك في ضريح عبد الرحمن الثعالبي أيضاً . وعقد المؤلف مقارنة بين عادات المولد النبوي في الجزائر والمغرب . ومن العقود التي أوردها نعرف نوع العملة السائدة عندئذ ، ونوع الصداق ، وإمكانيات كل طبقة في ذلك . ويجد دارسو الحياة النسوية والمنزلية ضالتهم في القفاطين الملفية أو الأطلسية وأنواع الجواهر ، وإماء السودان ، وقناطر الصوف ، وغيرها مما كان

يقدم صداقاً للزوج حسب حالها الاجتماعي ، وحسب سنها أيضاً بكراً أو ثيّباً . وهذه الجوانب من الحياة الاجتماعية هي التي ما يزال يفتقدها الباحثون في تاريخ الجزائر .

وقد تكون أخبار ابن حمادوش الثقافية أكثر أهمية من أخباره السياسية والاجتماعية . ومن حسن الحظ أن المؤلف قد أورد طائفة منها حول هذا الموضوع تعتبر نادرة في بابها لأنه المصدر الوحيد الذي يكشف عنها . ومن العلماء الذين أطال ابن حمادوش الجلوس إليهم وأكثر من القراءة عليهم محمد بن ميمون قاضي المواريث في وقته ، وهو الذي كان ، حسب راي تلميذه ، يتقرب إلى السلطة الحاكمة ، ويجعل من داره منتدى يجتمع فيه العلماء والأدباء [1] .

وقد أشرنا إلى الخصومة التي وقعت بين ابن حمادوش والمفتي ابن علي . ولم نذكر أن الأول قد يكون افتخر بشرفه عليه لأن ابن علي كان من أصل كرغلي . وسبب الخصومة على ما يذكر ابن حمادوش غضب ابن علي من عدم قيام ابن حمادوش احتراماً له .

وبينما كانت علاقة ابن حمادوش بابن علي غير حسنة كانت علاقته بالأديب الشاعر أحمد بن عمار جيدة . فهذا هو الذي كتب له تقريظاً ، نثراً وشعراً ، لكتابه (الدرر على المختصر) ؛ كما كانت علاقة ابن حمادوش حسنة مع العالم عبد الرحمن الشارف الذي كتب له (لا بن حمادوش) شهادة على تصحيحه الكتاب المذكور على الشيخ أحمد الورززي

---

(١) ابن ميمون هو الذي أشهر زواج الباشا إبراهيم بعد أن كان سرياً ، وكان عندئذ قاضي المواريث ، فكان الأمر لا يعنيه لأنه ليس من اختصاصه بل من اختصاص قاضي القضاة . وقد أعلن ابن حمادوش بعد هذه القصة بأن شيخه ابن ميمون أراد بذلك التقرب من الباشا . وكانت دار ابن ميمون هي التي وقعت فيها الخصومة بين ابن حمادوش والمفتي ابن علي .

المغربي (١) . ولا نريد هنا أن نطيل في أخبار علماء عصره الذين وردت أسماؤهم في الرحلة ، وحسبنا ذكر بعضهم سريعاً ، فمنهم : المفتي محمد ابن حسين (٢) ، وقاضي قسنطينة محمد الحنفي (٣) ، والمفتي عبد الرحمن المرتضى (٤) ، والمفتي الحـــاج محيي الدين الزروق (٥) ، (وهو آخر المفتين المالكية الذين يرد اسمهم في الرحلة) ، والقاضي ابن المسيسني ، وهناك بالإضافة إلى ذلك عدد آخر من القراء والأدباء الذين لم يكونوا عندئذ أصحاب مناصب ، ولكن كانوا من رجـــال العلم ، نذكر منهم : أحمد العمالي ، ومحمد بن سيدي الهادي ، وأحمـد البوني ، وابنه أحمد الزروق ، ومحمد بن المسيسني (أخو القاضي المذكور) وأبو القاسم بن يوسف الحسني ، وعبد الملك بن إبراهيم ، والحاج أحمد بن مسعود . وكان ابن حمادوش يقرأ مع بعض هؤلاء ، ويتراسل مع آخرين منهم ، وكانوا جميعاً يكونون في الواقع نوعاً من الطبقة المثقفة التي تتعايش وتتصاهر وتتنافس طموحاً إلى السلطة والجاه .

* * *

واحتل المغرب كذلك مكاناً بارزاً في رحلة ابن حمادوش . فقـد

---

(١) صححه عليه أثناء زيارة الورززي الأولى لمدينة الجزائر سنة ١١٥٩ انظر التعليق في هامش ١ ص ٣٢٩ .

(٢) هو الذي كتب لابن حمادوش رسالة تعزية في ولده ، وقد أوردهـا ابن حمادوش حرفياً في الرحلة ، وهي من جيد الرسائل في بابها .

(٣) جـاء مدينة الجزائر وقـرأ على ابن حمادوش شرح المبـــارك في الاسطرلاب للسنوسي .

(٤) كان صهراً للمفتي سعيد قدورة ، وقد أورد ابن حمادوش نص عقد زواجه كنموذج لماكتب الشيخ العالم الأديب محمد بن عبد المؤمن سنة ١٠٨٧هـ - ١٦٧٦م

(٥) من الذين سمعوا (بتشديد الميم) ابن حمادوش صحيـــح البخـاري بالجامع الكبير .

سجل فيها بعض نواحيه السياسية والاجتماعية والثقافية . والظاهر أن المؤلف كان يتردد على المغرب للتجارة وطلب العلم . فقد أشار في رحلته الحالية التي بدأها سنة ١١٥٦ هـ ١٧٤٣ م إلى أنه كان في المغرب سنة ١١٤٥ هـ(١) — ١٧٣٢ م . ونحن هنا تهمنا الرحلة الثانية لأنها هي التي ترك لنا فيها وصفاً حياً لأحوال المغرب . والظاهر أن إقامته هناك لم تكن رغدة هنية ، فقد سجل بعد عودته إلى الجزائر مايلي : « وكنت تعبت ... في المغرب من مرض وخسارة وضيق ، ولم أر قط مارأيت فيه من ضيق العيش والخسارة ، والعياذ بالله ، حتى أيقنت الهلاك » (٢) . ولعل من أسباب ضيقه وخسران تجارته انتظاره أكثر من أربعة أشهر لإحدى السفن التي تقله إلى الجزائر (٣) .

وأهم حادث سياسي طغى على قلم ابن حمادوش في المغرب هو ثورة أحمد الريفي ، باشا تطوان ، على مولاي عبد الله سنة ١١٥٦ هـ ١٧٤٣م ويعود اهتمامه بهذه الثورة إلى سوء معاملة رجال الريفي له عند نزوله بمرسى تطوان . فقد اشتطوا ، في نظره ، في طلب المكوس منه على سلعته التي جاء بها من الجزائر . كما يعود اهتمامه بها إلى أنه عانى من آثارها أثناء مروره في الطريق من تطوان إلى مكناس ، ثم من هذه إلى فاس والعودة . وهناك سبب آخر يعود إلى أن الريفي قد ادعى الشرف ،

---

(١) أشار إلى ذلك أثناء حديثه عن سوء معاملة حرس السلطان مولاي عبد الله له (في ولايته الأولى) عندما أراد أن يتقدم بين يديه بقصيدة مدح ، فعدل عن ذلك .

(٢) الرحلة ٧٦

(٣) في كل مرة تصل السفينة التي ستقلهم تتحطم . وقد ذكر أن ميناء تطوان عندئذ مشهور بحوادث تحطم السفن . ومما يذكر أن ابن حمادوش قد ذهب إلى المغرب وعاد منه في سفينة فرنسية كان قد اكتراها التجار الجزائريون .

وثار على شريف أصيل ، في نظر ابن حمادوش ، وهو السلطان الشرعي ، بينما هو (ابن حمادوش) كان يتمسك كثيراً بالشرف ، كما مرّ بنا .
ولما كان ابن حمادوش شاهد عيان لأحداث ثورة الريفي (أسبابها ، ومراحلها ، ونتائجها ، وآثارها) فقد وصفها وصفاً دقيقاً مفصلا ، وكانت عواطفه في أحكامه ضد أحمد الريفي . فقد وصفه « بالنطفة الفاجرة المفسدة في الأرض » ، واعتبر هزيمته ومقتله من الألطاف (التي حلّت) بهذه البلاد . وقد تضمن وصفه أيضاً الحديث عن جيش مولاي عبد الله وأنصار الفريقين ، والغنائم التي حصل عليها السلطان بعد مقتل الثائر الريفي .

وتحدث ابن حمادوش عن بعض العادات والتقاليد التي شاهدها بالمغرب . من ذلك عادة المكس بميناء تطوان التي اعتبرها عادة قبيحة ، وتحدث عن زيارته لقبر سيدي علي الريفي وأخذه العهد من خادم الضريح ، ووصف الطريق من تطوان إلى فاس عبر مكناس ، وشاهد هناك الطيور التي لا تلد إلا فوق الماء ، وحصاد الشعير في شهر ابريل ، واستعمال قوارب البردي للنقل النهري ، وسجّل إعجابه بنظام توزيع مياه مدينة فاس وجمال بساتينها ودورها ، وقارن بين عادات الفاسيين وعادات الجزائريين في الاحتفال بالمولد النبوي كاستعمال قباب الشمع ، وتحدث عن عادة أهل فاس يوم العنصرة بأكلهم ألية الضأن بالقرفة والكسكي ، وعن لباس النساء والرجال هناك أثناء الاحتفال ، كما وصف لباس السلطان الذي قال إنه كلباس أهل مكة . ولم يخل حديثه من نقد لاذع لبعض العادات التي كانت في نظره غير مستحسنة .

وتضم الرحلة أسماء وأعمال مجموعة من علماء المغرب ، بعضهم التقى بهم وقرأ عليهم وأجازوه ، وبعضهم سمع بهم أو أخذ عنهم بطريق غير مباشر . وفي طليعة هؤلاء محمد بن عبد السلام البناني . فقد حمل إليه

ابن حمادوش أمانة (لم يكشف عنها) من الجزائر وحضـــر دروسه وخاطبه بقصيدة ، وحصل منه على إجازة . ودرس كذلك على الشيخ أحمد الورززي في تطوان والجزائر وأجـــازه هذا في المدينة الأولى . والظاهر أن الشيخ الورززي كان يتردد على الجزائر ، كما كان ابن حمادوش يتردد على المغرب ، وقد أثبت ابن حمادوش أن الورززي كان معتزلياً ، تقليداً لرأي البناني في مواطنه . وقد تدخل الشيخ الورززي لصالح ابن حمادوش لدى سلطات الميناء عند مغادرته تطوان [1] .

وممن أجازوه أيضاً أحمد السرائري [2] الذي نزل ابن حمادوش بفندقه . وأقرأ ابن حمادوش في تطوان الشيخ عبد الله جنان . أمـــا في مكناس فقد التقى بالشيخ عبد السلام القباب والشيخ عبد القادر الفاسي ، لكن خاب ظنه في علم الاثنين فلم يحصل منهما ، حسب رأيه ، على طائل ، غير أنه قد أعجب ببعض علماء فاس ومن هؤلاء الحكيم عبد الوهاب أدراق [3] ، طبيب مولاي إسماعيل وأولاده . وأثنى على الشيخ أحمـد المبارك واستجازه ففعل . وعندما توفي ابن المبـــارك رثاه ابن حمادوش بقصيدة ضعيفة لكن صادقة ، وقد اعتبر نفسه أول من رثاه . وشهد له على إجازة ابن المبارك له الشيخ القاضي عبد القادر بن العربي بوخريص . ولا نشك في أن ابن حمادوش قد التقى بعلماء آخرين من المغرب واستفاد منهم سواء في رحلته التي نحن بصدد الحديث عنها أو رحلاته الأخرى .

* * *

(١) بفضل تدخل الورززي أعفيت سلعة ابن حمادوش من الضرائب .

(٢) وجده ابن حمادوش قد توفي إثر عودته من فاس إلى تطوان .

(٣) حضر ابن حمادوش مجلسه الذي قال عنه إنه يشبه مجالس الملوك ، وقدم له قصيدتين من سخيف الشعر .

وإذا كانت أخبار الرحلة تكاد تقتصر على الجزائر والمغرب وشخص المؤلف فإنها لا تخلو من معلومات أخرى عامة . ومن ذلك نقولـــه عن المتقدمين في تاريخ الإسلام وتاريـخ القدس وتاريخ الأطبـــاء والقصص الطريفة التي جاء بها عرضاً . ومنه أيضاً ماجاء في الرحلة عن فرار محمد باي من ابن عمه صاحب تونس ، وحديثه عن إمام أحد مساجد سوسة وهو يشرح لصاحبه أصل اختراع العود والنغمات الموسيقية [1] . واستطرد أثناء الحديث عن ولاة الجزائر فذكر أيضاً « ملوك آل عثمان » مبتدئاً بعثمان خان سنة ٦٤١ هـ - ١٢٤٣ م ، ومنتهياً بمحمود خان عام ١١٤٣ هـ - ١٧٣٠م مشيراً إلى أنه « باق إلى الآن » ، وهو يعني بذلك سنة ١١٥٨ هـ - ١٧٤٥م .

* * *

إن أهمية رحلة ابن حمادوش لا تحتاج إلى طول نظر . فهي أولاً جزء هام من تراث الجزائر العربي الإسلامي الذي طالما نفاه الدارسون الأجانب أو شككوا في قيمته . وهناك علماء جزائريون آخرون عاصروا ابن حمادوش قد تركوا رحلات ، مثل ابن عمار صاحب (نحلة اللبيب) [2] والورثلاني صاحب (نزهة الأنظار) [3] ، ولكن رحلة ابن حمادوش تمتاز بأنها رحلة مغربية لامشرقية ، وهي خالية من الصنعة الأدبية التي لجأ إليها ابن عمار والخرافة والكرامات التي امتلأت بها رحلة الورثلاني . كما أن ابن حمادوش كتب بأسلوب سهل بسيط يكاد يقترب من أسلوبنا اليوم ، وقلما

(١) بناء عليه أن أصله يعود إلى أن ساقاً لشخص آدمي قد توفي وظـل بالعراء ، فيبست الساق وتلاشى اللحم منها لكن بقيت العروق فهبت نسمـة فحركت العروق فأحدثت نغمات موسيقية .

(٢) طبع في الجـزائر ، سنة ١٩٠٤

(٣) حققها ونشرها محمد بن أبي شنب ، الجزائر ١٩٠٨

التجأ إلى التصنع ، ومع ذلك فهو لم يسف إسفاف ابن المفتي في (تقييداته)(١) ، ولم يبالغ مبالغة ابن سحنون في الثغر الجماني (٢) ولم يتأنق تأنق ابن ميمون في (تحفته) . وكل هؤلاء كانوا معاصرين له .

ورغم ضعف المنهج الذي اتبعه ابن حمادوش وكثرة الحشو والاستطراد في الرحلة ، فإن عمله سيظل مصدراً لاغنى عنه لدراسة الحياة الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية في مجتمع الجزائر والمغرب خلال القرن الثامن عشر . وقد تعرضنا إلى نماذج من هذه النواحي في الرحلة . وتزداد قيمة الرحلة عند الباحثين باعتبارها أيضاً مصدراً من مصادر حياة المؤلف ، بل لعلها المصدر الوحيد المعروف عنه إلى الآن وقد ظلت حياته مجهولة قبل اكتشاف هذه الرحلة . ولو أمكن الاطلاع على الأجزاء المفقودة منها لعرفنا لا الجوانب المجهولة من حياة المؤلف فقط ، ولكن تفاصيل إضافية عن تطورات المغرب العربي والمشرق أيضاً خلال القرن الثامن عشر . وتضم الرحلة بالإضافة إلى ذلك مادة كبيرة من أسماء الأماكن وبعض

(١) صاحب هذه التقييدات مجهول الاسم ، ويعرف فقط بابن المفتي (وكان والده مفتياً وهو حسين بن رجب شاوش) . وهي مكتوبة بلغة هي إلى الدارجة أقرب منها إلى الفصحى حسب الذين اطلعوا على نصها . انظر نور الدين عبد القادر (صفحات) ، ص ٢٧٤ — ٢٨٦ وقد ترجمها إلى الفرنسية السيد ج . ديلفان ونشرها في (المجلة الآسيوية) المجلد ١٩ (أبريل — جوان ١٩٢٢) ، ص ١١٦ — ٢٣٣ . انظر أيضاً السيد ديفوكس (المجلة الأفريقية) (١٨٦٩) ص ٤٥٩ — ٤٦٠

(٢) نشرها الشيخ المهدي البوعبدلي بإشراف وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، الجزائر ، ١٩٧٣

التراكيب العامية ، كما تحفل بأخبار العلماء الذين لانجد عنهم في غيرها سوى النزر اليسير مثل ابن عمار وابن ميمون ، ولعل منهم بعض علمـاء المغرب أيضاً . وستظل النقول والإجازات والعقود والأسانيـد التي أوردهـا ابن حمادوش في الرحلة مصدراً كبير الأهمية لدراسة الأدب والتاريـخ وتراجم الرجال ، كما ستظل مادة المقارنة والدرس .

وهذه الأهمية لرحلة ابن حمادوش هي التي جعلتنا نقدم على دراستها وتحقيقها ، كما جعلتنـــا نسهم بهـذا المختصر عنهـــا وعن حياة صاحبها في هذا المؤتمر .

أبو القاسم سعد الله

كلية الآداب - جامعة الجزائر

غرة ذي القعدة ١٣٩٤

الجزائر في ١٥ نوفمبر ١٩٧٤

وثائق جديدة

عن محيي الدين بن الأمير عبد القادر في ثورة 1871
وعن موقف أبيه والسلطات التونسية

د · يحيى بوعزيز
استاذ بالمعهد التكنولوجي للتربية
وهران ـ الجزائر



كان محي الدين يعيش مع أبيه الامير عبد القادر في منفاه بدمشق ، واشتهر بثقافته الواسعة وحظي بالتقدير في أوساط الدولة العثمانية بالشام تبعا لمركز أبيه · وأنعم عليه السلطان عبد العزيز « بالنيشان » العثماني من الدرجة الثالثة ، وأسند اليه وظيفة « أزمير » القضائية عام 1865 بتزكية واشارة من السيد عمر حسام الدين أفندي حفيد شيخ الاسلام جلال الدين عاطف زاده · (1)

وبقي يمارس نشاطه بصورة عادية حتى عام 1870 ، غير أنه كان يكثر من التبرم والشكوى ، وحسب رواية عادل الصلح عن والده ، فان محيي الدين كان يتوق للعودة الى النضال من أجل تحرير الجزائر (2) · وقد يكون هذا التبرم هو الذي أثر في

(1) عبد الرزاق البيطار : حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (1253 ـ 1335) (مطبوعات المجمع العربي بدمشق 1963) ج · 3 ص 1425 ·
(2) عادل الصلح : سطور من رسالة (بيروت دار العلم للملايين 1966) ص 23 ·

صحته ، أو أنه تمارض حتى يجد الفرصة للابتعاد عن أبيه الذى أذن له فى الذهاب الى الاسكندرية للاستشفاء وتغيير الجو بعد أن أشار عليه بعض الاطباء فى ذلك • وكانت الحرب قد قامت بين فرنسا وبروسيا وظن أنها تطول بينهما فخطر بباله أن « ينتهز الفرصة لتخليص وطنه الجزائر من يد فرنسا ويزيل عنه الكدر والغبن فتوجه بقصد الزيارة فى الديار المقدسة فحينما وصل الى الاسكندرية توجه منها الى تونس ولم يعلم أحد بنيته الخفية » (3) • وذلك فى آخر شهر أكتوبر 1870 • واستقبلته الدوائر الرسمية التونسية بحفاوة ، ومنحه الباى محمد الصادق « نيشان الافتخار » التونسى يوم 18 نوفمبر (4) واعتكف على دراسة المخطوطات العربية والتعرف على الخطوط العربية ، وتجنب الاتصال بالناس حتى لا يعرفوا وجهته ، وكان يريد الذهاب الى الجزائر غير أن الشهرة التى نالها من السلطة التونسية حالت دون ذلك خوفا من أن ينكشف أمره ، فاكتفى كما ذكر صديقه الشيخ عبد الرزاق البيطار بتحرير نحو المائتى رسالة لزعماء الجزائر لكى « يتهيأوا لمحاربة فرنسا عند قدومه المستطاب وأرسلها من تونس مع الرسل الخفية » • (5)

وحسب معلومات القنصل الفرنسى فى تونس الى وزير خارجية بلاده يوم 5 نوفمبر ، فان محيى الدين كان على خلاف مع أبيه حول مشاكل مالية ، وأنه طلب من الوزير التونسى خزندار أن يتوسط له لدى أبيه لحل تلك المشاكل • ولم يكن يظهر أى عداء لفرنسا (6) • وهى نفس النغمة التى رددها تقرير آخر حول اقامته بتونس • (7)

ان قدوم محيى الدين الى تونس يشعر بوجود خلاف بينه وبين أبيه ، ولكن هذا الخلاف قد يكون لمشاكل مادية ، وقد يكون لمشاكل سياسية •ألا يكون قدومه الى

---

(3) البيطار : ص 1426 ـ 1427 •

(4) أ• ح• ت• ملف 929 ، رزمة 78 وثيقة رقم 79 . وقد نشر الدكتور عبد الجليل التميمى نصه فى كتابه : بحوث ووثائق فى التاريخ المغربى 1816 ـ 1871 (الدار التونسية للنشر ـ مارس 1972) ص 116 •

(5) البيطار ، ص 1426 ـ 1427 •

(6) A.O.M. CARTON 25 H 18.

(7) *Séjour à Tunis du fils d'Abdelkader*. ANP CARTON F 80 - 1681.

تونس من أجل البحث على انصار جدد لتجديد حركة التحرير التى تخلى عنها أبوه منذ عدة سنوات ، ألا يكون اتصاله بروهلف البروسى ، ان صح ذلك ، وسيلة لتنفيذ خطته هذه بعد ذلك ؟ ان عودته الى تونس متخفيا بعد مغادرته لها يمكن أن تكون جوابا على السؤالين . وما انقطاعه عن الناس فى المرة الاولى الا محاولة للتعمية ضد مصالح الاستخبارات التى تلاحظه ، خاصة العملاء الفرنسيين المنبثين فى البلاد . وكان من ضمن أهدافه فى المرة الاولى على ما يظهر هو سبرغور التونسيين ، كما يقول التميمى فى مدى ما يقدمونه له من عون وتأييد عندما يشرع فى العمل الجاد . (8)

فبعد اقامة قصيرة بتونس غادرها محيى الدين بحرا الى الشام فى الظاهر يوم 21 نوفمبر ، بعد أن لاحظ أن الدوائر التونسية مشغولة عنه بمشاكلها الداخلية . وعندما وصل الى مالطة حول اتجاهه الى طرابلس الغرب ، ومن هناك الى توزر ، ونفطة، ونفزاوة ، مختفيا فى زى مغربى مع عدد من الرفاق (9) . حتى لا تتفطن اليه أعين المخابرات التونسية التى أخذت تتتبع أخباره وتتعقبه بعد أن غيرت السلطات الرسمية نظرتها نحوه وأعطت تعليمات للشرطة والولاة فى الاقاليم لاعتقاله حيثما وجد ، وقد يكون الاعوان الفرنسيون بتونس هم الذين أثاروا شكوكها ودفعوها الى تغيير موقفها منه بعد التكريم الذى أحاطته به فى المرة الاولى .

وقد يكون من الاسباب التى دفعتها الى ذلك ، الازمة المالية الحادة التى كانت تعانيها داخليا والتنافس الاستعمارى عليها من الخارج ، وتخوفها من أن يتسبب محيى الدين لها فى مشاكل مع فرنسا لا تقوى على مواجهتها . وهو ما عبرت عنه لعاملها بالجريد ، وآخذت عليه عاملها على نفزاوة الذى قصر فى نظرها فى اعتقاله لان :

---

(8) التميمى ، ص 116 .

(9) ادعى رين فى تاريخه أنه كان بانتظاره جيرارد روهلف . بينما نعرف أن روهلف أبعد من تونس الى صقلية فى شهر سبتمبر . والاقرب أن يكون حضر معه من طرابلس انظر ص 87 ـ 90 .

« ما قصده ابن السيد الحاج عبد القادر وهو تحيير بعض أعمال الجزائر يقضى الى وقوع تحييره بالمملكة والغفلة عن ملاحظة ذلك تعود بالضرورة على سكان المملكة » . (10)

وبعد تحريات كثيرة تعرفت الشرطة التونسية عن خبر وصوله الى نفـــزاوة صحبة أربعة أشخاص قادما من طرابلس واتصاله بابن ناصر بن شهرة وابراهيـــم ابن عبد الله ، واتجاهه معهم الى ناحية سوف ، كما علمت من بعض المسافرين القادمين من طرابلس بحرا بنسائهم وأمتعتهم ، بأن كل المغاربة القاطنين بطرابلس سيلتحقون بوطنهم الجزائر الذى سمعوا أنه متحير ، وأن محيى الدين متجه الى هناك . واكتشفت لدى قافلة من أهل سوف المتجهين الى الجزائر كمية من البارود وزنها ثلاثة وستون رطلا صادرتها منهم وأودعتها لدى أحد الاشخاص بتوزر . (11)

وعندما وصل محيى الدين الى منطقة الحدود التف حوله عدد من الجزائريين اللاجئين والمنفيين الى تونس منهم ابن ناصر بن شهرة المذكور الذى كان متمردا ضد السلطات الفرنسية منذ عام 1851 واستقر بنفطة ، وأخذ يقوم بنشاط معاد للفرنسيين مـن هناك وفى نفزاوة والجريد . والشيخ سليمان بن جلاب السلطان السابق لتقرب الذى أبعد الى هناك منذ عام 1854 ، والشيخ ابراهيم بن عبد الله مقدم اخوان عبد القادر الجيلانى بورقلة . والشيخ مصطفى بن عزوز مقدم زاوية نفطة الرحمانية الذى فتح زاويته لكل الجزائريين المنفيين والفارين الى هناك ، ومحمد بن العشابى البسكرى الذى التجأ الى نفزاوة منذ مدة طويلة ، والشيخ الميزونى مقدم زاوية الكاف الـذى وضع تحت تصرف محيى الدين كاتبا يساعده فى تحرير الرسائل والنداآت ، ومحمد ابن أحمد الصغير ابن الخليفة السابق للامير عبد القادر فى الزيبان وسيدى عقبة ، ومحمد بن علاق رئيس أولاد يعقوب . وزيادة على هؤلاء حضر مع محيى الدين مـــن

---

(10) نفس المصدر ، وثيقة رقم 28 بتاريخ 11 شوال 1287 (6 جانفى 1871) وهو عبارة عن تقرير الامير آلاى محمد ناصف خليفة الاعراض الى وزير الحرب التونسى رستم .

(11) نفس المصدر ، وثيقة رقم 28 بتاريخ 11 شوال 1287 (6 جانفى 1871) وهـو عبارة عن رسالة للامير لواء حسن آغا الجريد وعامل الهمامة الى الوزير التونسى خير الدين، وهناك وثيقة أخرى لنفس الشخص تحمل نفس التاريخ ورقم 27 وجهها الى الوزيـــر الاكبر مصطفى خزندار يحيطه فيها علما بنفس الاخبار .

طرابلس الجاسوس البروسى جيرارد روهلف (12) وابن هلال كاتب أبيه ، والشيخ محمد رزوق بن سيدى صالح البسكرى الذى كان قد لعب دورا فى أحداث واحة الزعاطشة عام 1849 والتجأ الى طرابلس • وكل هؤلاء على ما يلاحظ أصحاب ماض تاريخى فى الكفاح ضد الفرنسيين • وتجمهرهم على هذا الشكل حول محيى الدين أواخر عام 1870 يدل على أنه قد أجرى معهم اتصالات سابقة قبل أن يحضر الى هناك • كما يدل على أنه كان عازما على استغلال ظروف حروب فرنسا بأوروبا ليضرب ضربته هو ورفاقه •

وقد كتب محيى الدين عددا كبيرا من الرسائل خلال شهر ديسمبر الى زعماء جزائريين يدعوهم الى الجهاد وتدبير المؤن والذخائر وتجنيد الناس للكفاح • وبعض هذه الرسائل كان بامضائه هو ، والبعض بامضاء ابن ناصر بن شهرة ، والبعض بامضاء آخرين • وكان المقرانى من ضمن الذين راسلهم محيى الدين ، ورغم أننا لم نعثر على هذه الرسائل اليه ، الا ان بومرزاق أشار الى ذلك فى رسالته الى سكان قرية الشرفة التى اخبرهم فيها بوفاة أخيه الباشاغا ، ومما قاله : « وبلغنا جواب من عند ولد الحاج عبد القادر أنه فى تبسة قادم بجنوده الى أقسنطينة ، وولد حمزة فى جبل عمور ، وجميع المغرب والمشرق تزعزع ، والله ينصر عباده » • (13)

وليس لدينا ما يثبت استجابة المقرانى له أو رفضه ، ولكن رين نفى ذلك مدعيا ان المقرانى كان كثير الاعتداد بنفسه ، ولم يكن على استعداد لان يكون تابعا لشخصية ثانوية مثل محيى الدين • (14)

---

(12) ادعى رين فى تاريخه (ص 90) أنه لوحظ فى بسكرة خلال نوفمبر وديسمبر 1870 قيام يهودى اشقر اللون بتقديم المزيد من النقود الى ناصر بن شهرة . وتساءل : « ألا يكون هذا هو جيرارد روهلف » ؟ وأجاب بانه « ألمانى تظاهر فى زى يهودى لان الاوروبى لا يقدر أن يتجول معزولا فى وسط اسلامى دون مضايقة على عكس اليهودى الذى لا يتنازل المسلمون لقتله لكونه يرضى بالحقارة » . وكل هذا محل نظر لان بن ناصر ابن شهرة لا يدخل هكذا الى بسكرة . وروهلف لا يستطيع التوغل حتى بسكرة . وموقف الجزائريين من اليهود مخالف لتفسيره • لانهم لا يحتقرون اليهود الى هذه الدرجة ، بل أن حسن الضيافة هو الذى جعلهم يتجنبون اذايتهم ، ويأوونهم فى بلادهم قرونا عديدة •

(13) A.M.G. CARTON H 191

(14) RINN : *Histoire* pp. 105 -108.

وقد عثرنا على رسالة للمسمى صالح بن محمد وجهها الى الوزير التونسى مصطفى خزندار يثبت فيها وجود رسائل من محيى الدين ، وقال له : « يكون فى شريف علمكم هو خير ان شاء الله كانت طاحت (كذا) بيدى أجوبة من محيى الدين كما تطلع عليها » وشرح كيفية حصوله عليها أثناء اتجاهه الى ناحية أولاد بوغانم النازلين بين أولاد يحيى ، وقلعة سنان ، حينما عثر على رجلين سائرين فى أواخر شهر شعبان وسألهم عن جهة قدومهم : «فقالوا أتينا من جهة الشريف بن محيى الدين قاصدين على بن سالم البوغانمى وابنه الاخضر » . ثم سالهم عن سبب سلوكهم هذا الطريق وحدهم فأجابوه : « أتينا مع قافلة أولاد سيدى عبيد من سوف وعندنا عندهم حاجة أكيدة » . وعندما علم منهم أنهم لا يعرفونه أصلا قال لهم : «أنا هو على بن سالم» فصدقوه « ودفعوا الى الجوابات ... فقالوا نخبرك على سيدى محيى الدين راه (كذا) قاصد بلاد افريقيا فى حشود كثيرة ويتصنت (كذا) على الشرق ما يظهر منه » وعندما سألهم عما اذا هناك اجوبة أخرى قالوا له : « ثم أجوبة غير هاذا ... الى قائد الفرشيشى ومثلهم الى بعض اناس من الهمامه لم تعرف رسم (كذا) وكذلك غرس الله قائد شارق ، وعمارة الهميسى ، وغيرهم فى افريقيا » .

وذكر على لسانهم أن جماعة أخرى مثلهم توجد عند محمد الصغير فى سوف تحمل أيضا رسائل الى اناس آخرين فى افريقيا . واستدرك فى آخر رسالته بأنه اتصل أيضا برسائل أخرى من رجل تونسى يبعثها له ، وان عددا من الناس اتصلوا فعلا برسائلهم من محيى الدين . (15)

ومحتوى هذه الرسائل هو دعوة الناس الى الجهاد ، والتبشير بقدوم جيش تركى بقيادة نائب ملك مصر عباس باشا للسيطرة على تونس وتحرير الجزائر .

وقد أورد رين ثلاثة نماذج من هذه الرسائل : واحدة لمحيى الدين والثانية لابن ناصر بن شهرة ، والثالثة لبوحفص بن منصور بالجريد ، وجهها الى سى الموهوب

(15) أ. ح. ت. صندوق 28 ملف 929 وثيقة رقم 44 ورقم 43 بتاريخ 17 رمضان 1287 (11 ديسمبر 1870) .

ابن شنوف بالزاب الشرقي الذى حولها مع عدد من الرسائل الاخرى التى وقعت بيده الى السلطات الفرنسية · (16)

وقد استعمل محيى الدين خاتم أبيه فى رسائل أخرى للتأثير على الناس مما دفع الامير عبد القادر الى استنكار ذلك وتكذيبه (17) · وفعل مثـــل ذلـــك ابن ناصر ابن شهرة أيضا ·

وبينما كان محيى الدين يقوم بهذا النشاط فى منطقة الحدود اتصلت الحكومـــة الفرنسية بالقائم بأعمال قنصليتها فى دمشق ليطلب من الامير عبد القادر أن يعلن استنكاره لنشاط ابنه ، فحصل لديه رد فعل شديد يثير الدهشة والاستغراب · وقد عزت اليه المصادر الفرنسية تحرير عدد من الرسائل الى جهات مختلفة قبح فيها عمل ابنه ووصمه بالجنون واعتبره عاصيا · ومن هذه الرسائل :

ـ واحدة الى أعضاء حكومة تور ببوردو ، استنكر فيها استغلال اسمه لاثـــارة سكان الصحراء · (18)

ـ والثانية الى قنصل فرنسا بطرابلس الغرب طلب منه العمل على اعادة ابنه ، واحاطه علما بأنه كاتب الوزير التونسى مصطفى خزندار ، والقنصل الفرنسى فلـم يردا عليه · (19)

ـ والثالثة الى القائم بأعمال القنصلية الفرنسية بدمشق جاء فيها : « بان عدو الله وعدوى ، وعدو نفسه ، المجنون محيى الدين ، وصل الى الحدود بين حكومة تونس وحكومة الجزائر » ، وطلب منه الحصول على اذن لتوجيه نداء الى سكـــان الجـزائـر « ليتحقق الناس اننى برىء منه ومن فعله » · (20)

---

(16) RINN : *Histoire* pp. 105 - 108.

(17) المبشر : عدد 736 (2 فيفرى 1871) .

(18) بتاريخ 20 شوال 1287 (3 جانـــفى 1871) انظـــــر : المبشر عـــــدد 736 (2 فيفرى 1871) .

(19) بتاريخ 18 ذو القعدة 1287 (9 فيفرى 1871) أنظر: 2 × A.O.M. Carton **ونشرها** التميمى فى ص 130 .

(20) **بتاريخ منتصف محرم 1288 (9 افريل 1871) . انظـــر: المبشر عـــدد 754** (8 جوان 1871) .

ـ والرابعة الى ابن عمه قاضى معسكر الطيب بن المختار طلب منه ان يحذر الناس من اتباعه « فانه محض عبث » • (21)

ـ والخامسة فى شكل نداء وجهه لسكان الجزائر حذرهم من مغبة ابنه الذى عبر عنه « بالشقى » هو ومن انضم اليه ، وأعلن انه سيتبرأ منه اذا رفض الانصياع الى أوامره ، وطلب منهم أن يطردوه من بينهم • (22)

هكذا أثار عبد القادر ضجة كبيرة بهذه الرسائل ، كانت أكثر انتشارا من عمل ابنه فى منطقة الحدود • وقد يكون لهذه الضجة تأثير فى اضعاف حركة ابنه ومعنوياته، واخفاقه فيما كان يطمح اليه • وقد يكون من اسباب هذه الضجة الموقف السلبى لسكان شرق الجزائر تجاه ثورته فى بداية الاحتلال وبخاصة عائلة المقرانى التى ساعدت الفرنسيين على اختراق مضيق البيبان الذى أدى الى نقض معاهدة تافنة بينه وبين الفرنسيين عام 1839 • وقد يكون خوفه من فشله سببا فى ذلك ، كما ان عاطفة الابوة لها دخل فى ذلك ، غير أن ضغط الفرنسيين سيبقى السبب البارز على ما نعتقد•

وكما اهتم الامير عبد القادر بأمر محيى الدين ، اهتمت الحكومة التونسية به أيضا، وأخذت تسعى جهدها لايقاف نشاطه والقاء القبض عليه • فأصدرت تعليماتها الى كل ولاتها فى منطقة الحدود بتتبع اخباره والعمل على اعتقاله ، كما طلبت من ولاتها فى الناحية الشرقية ان يراقبوا الموانى ويلقوا القبض على كل « الغرباء » الذين يفدون بحرا فى اتجاه الجزائر •

وقد عثرنا على تقرير سجلت فيه عشرة تقارير خلال شهر شوال 1287 وجهت الى ولاة وعمال أقاليم : الاعراض ، والجريد ، والكاف ، وصفاقس ، وجربة ، تلح فيها الحكومة على الجد فى البحث عن محيى الدين واعتقاله ، وعلى ايقاف « الاغراب » القادمين من طرابلس الى الجزائر برا وبحرا ، وتوجيههم الى العاصمة تونس • (23)

---

(21) بتاريخ 20 محرم 1288 (4 افريل 1871) نفس المصدر عدد 753 (1 جوان 1871)

(22) بتاريخ أواخر المحرم 1288 (20 افريل 1871) نفس المصدر عدد 754 (8 جوان 1871) .

(23) أ. ح. ت. صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 29 .

وهناك عدد من الرسائل وجهت من عدة اشخاص الى الحكومة التونسية يحيطونها علما بأخبار محيى الدين ٠

فرسالة رقم 30 أفادت بأنه قدم من طرابلس الى جهة نفزاوة بقصد الدخول الى الجزائر بصحبة ابن ناصر بن شهرة ٠ (24)

ورسالة رقم 31 من طرف أحمد بن صميدة أفادت بانه : « كان نازلا بالرقعة ومعه بالناصر فى أناس قلال (كذا) الى أن أتاه على باى متاع سوف ففر من منزله ونزل بنفزاوة والآن بها » ٠ (25)

ورسالة رقم 32 من الامير الاى محمد الشاذلى الى الوزير خير الدين يفيد بانه اجتهد فى البحث عنه ولم يعثر عليه ٠ (26)

ورغم هذه الضجة التى اثارها الامير عبد القادر والحكومة التونسية ، فان محيى الدين حاول أن يواصل نشاطه أوائل عام 1871 ، فتقدم بمن انضم اليه من الرفاق والانصار الى قرية نقرين أواخر شهر فيفرى ، وسيطر على قرية فركان ، وراسله سكان الصحراء ليتجه اليهم جنوبا ولكنه فضل أن يتجه نحو الشريعة وتبسة ٠ (27)

وفى يوم 9 مارس دخل الى نقرين ، ووفد عليه هناك وفد من أولاد خليفة الثائرين بالشريعة ، فاتجه معهم الى سكرانة ثم الى الشريعة وجبل الدكان ٠ وشعر المعمرون الاوروبيون بالخطر فتحصنوا بمدينة تبسة وأغلقوا أبوابها ٠ والتجأ معمرو حلوفة الاوروبيون الى مسكيانة ٠ (28)

وفى يوم 26 مارس اصطدم محيى الدين بقوات الجنرال بوجى فى واد الحميمة وحصلت بين الطرفين معركة كبيرة تفوق فيها الفرنسيون واضطر محيى الدين ان

(24) نفس المصدر بتاريخ 14 شوال 1287 (7 جانفى 1871) .
(25) نفس المصدر بتاريخ ذو الحجة 1287 (مارس 1871) .
(26) نفس المصدر بتاريخ 23 ربيع الانور 1288 (12 ماى 1871) .
(27) ادعى رين فى تاريخه (ص 138 ــ 139) بأن محيى الدين لم يتجه نحو الشريعة بمحض ارادته وانما بأمر من العملاء البروسيين الذين يمولونه بالمال ٠
(28) نفس المصدر ٠ ص 90 و 105 ــ 108 .

ينسحب الى داخل الحدود التونسية كما أشار الى ذلك محمد قعيد بن سالم فى رسالته الى الوزير التونسى خير الدين • وذكر بأن : « ولد سى الحاج عبد القادر لانه أتا (كذا) من ناحية الصحراء ومعه لفيف كثير من النمامشة وغيرهم من أهل الصحراء ••• فلما حل بقرب بلد تبسة التفا (كذا) هو والمحلة المذكورة وصار بينهم حرب يوم الاحد وماتت بينهم الرقاب ووقع العكس على ولد سى الحاج عبد القادر ورجع فارا الى طرف بلاد النمامشة » • (29)

ومن تونس انسحب محيى الدين الى الشام واستقر بمدينة صيدا قرابة عام ، ورفض أبوه أن يستقبله ، وطرد عائلته من منزله ، وكان مصمما على الا يعيش معه فى مدينة واحدة لولا تدخل عدد من اصدقائه مثل والد عادل الصلح ، والحاج محيى الدين الجوهرى (30) • والقائم بالاعمال الفرنسى بدمشق ، الذى تسلم أمرا من حكومته بطلب العفو عليه من أبيه ، فعفا عنه فى رسالة وجهها الى القائم بالاعمال يوم 15 شعبان 1288 (نوفمبر 1871) كما كتب الى والى الجزائر العام الفرنسى يخبره بوصول ابنه الى دمشق • (31)

وقد أشار فيتال الى بعض احداث محيى الدين فى رسالة 23 مارس الى أوريان(32)، ولكن قارو ادعى ان محيى الدين قدم الى الجزائر بأمر من السنوسيين بسوريا ، الذين لهم ألف من الاتباع فى الجزائر يجوسون البلاد كمخبرين « يدعون الى الجهاد ضد المسيحيين » كما ذكر بأن الشريف محمد بن عبد الله الذى كان يكافح مع بوشوشة يعتبر ممثلا ومقدما للرحمانيين فى نفطة ، والسنوسيين فى البلاد (33) • مع العلم

---

(29) أ. ح. ت. صندوق 212 ملف 240 وثيقة رقم 17 بتاريخ 8 محرم الحرام سنة 1288 (30 مارس 1871) .

(30) الصلح . ص 24 .

(31) انظر نصهما فى المبشر عدد 764 (17 أوت 1871) وعدد 784 (4 جانفى 1827) .
أ. ح. ت. صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 43 و 44 بتاريخ 17 رمضان 1287 الموافق 11 ديسمبر 1870 .

(32) NOUSCHI, pp. 324 - 325.

(33) GARROT ; *Histoire*, pp. 946, 983 - 984.

أنه من غير المعهود أن يكون شخص واحد مقدما لطريقتين دينيتـــين • واكتفى رين بالاشارة الى أخطار السنوسيين ضد الوجود الفرنسي دون أن يشير الى صلتها بأحداث محيي الدين أو غيره من ثوار 1871 • (34)

ان محيي الدين له دور في احداث عام 1871 ، ولكن من بعيد وبصورة غير مباشرة بالنسبة لثورة المقراني والحداد ماعدا محاولة الاتصال بالمقراني كما ذكرنا سابقا • غير أن عمله مع رفاقه في منطقة الحدود الشرقية له صداه وتأثيره في أوساط الجزائريين الذين لم يترددوا في حمل السلاح عندما نادهم الى ذلك المقراني والحداد • كما أن بومرزاق لم يتردد في استغلال نشاط محيي الدين بمنطقة الحدود لحشـــد الناس ودفعهم الى الثورة كما اتضح من رسالته السابقة الى سكان قرية الشرفة • (35)

المـــدخـــل الى الـــوثائـق

وثائقنا في هذه الدراسة مجموعة من الرسائل والتقارير عددها تسعة تدور كلها حول نشاط محيي الدين وتحركاته ، ونشاط السلطات التونسية في البحث عنه وعن اتباعه ، والتعرف على مكانهم من أجل ايقافهم ، وتنشر هنا لاول مرة يضاف اليها خمسة رسائل للامير عبد القادر حول معارضته لابنه ، ونشرت سابقا في المبشر •

الوثيقة الاولى : رسالة المسمى صالح بن محمد الى الوزير التونسي مصطفى خزندار• اخبره فيها بأنه استولى على عدة رسائل من رجلين قرب قلعة سنان موجهة من محي الدين ابن الامير عبد القادر الى أصحابها وعلى رأسهم علي بن سالم البوغانمي مـــن أولاد بوغانم • وأن الرجلين قالاله : « نخبروك (كذا) على سيدى محيي الدين راه قاصد بلاد افريقية في حشود كبيرة ويتصننت على الشرق وما يظهر منه » (35) • وقد أرسل سي صالح هذه الرسائل ، حسبما جاء في رسالته ، الى الوزير ، ولكن لم نعثر عليها ضمن هذه الرسائل في الملف الخاص بها • وهناك نسخة أخرى من هذه الرسالة تحمل رقم 43 ، بنفس التاريخ موجهة الى نفس الشخص •

---

(34) RINN : « Nos Frontières Sahariennes » *Revue Africaine* (mai 1886) pp. 196-170.
(35) A.M.G. CARTON H 191.

الوثيقة الثانية : تقرير الامير ألاى محمد ناصف خليفة الاعراض الى وزير الحربية التونسية رستم حول تنقلات محيى الدين ، وقد أخبره فيه بأن الاخبار التى وصلته تفيد : « أنه ورد خبر بأن فى يوم عيد الفرط (كذا) قـدم ابن السيد عبد القادر ابن محيى الدين الى وطن نفزاوة متنكرا بالباس (كذا) غرابة ومعه أربعة انفار قصدوا محمد بن الناصر الغربى القاطن بوطن نفزاوة أقام عنده يومين ثم توجهوا معا الى ناحية سوف وركب معهم جميع الغرابة القاطنين بالمكان المذكور وأخبـر أنـه أتى مـن طرابلس • (37)

وفى هذا التقرير أفاده بخبرين اثنين آخرين الاول : قدوم خمسة رجال غـرابة وعشر نساء مع أولادهم وامتعتهم وبعض خيامهم مع المسمى : الريس مصلح الاجيمى واخبارهم اياه بان محيى الدين قدم من مالطة الى طرابلس فى طريقه الى الجزائر عبر نفزاوة وأخذ معه ثلاثة رجال ليدلوه على الطريق ، وأن معظم الغرابة الذين يقطنون بطرابلس سيرحلون الى الجزائر التى هى فى حالة مضطربة حسب أقوال محيى الدين الثاني : قدوم شخص جزائرى يدعى محمد بن بلقاسم الجبارى الزيرى بحرا مع تابع له فى شقف من طرابلس الى صفاقس فقبض عليهما الحراس وعلموا أنه كان يعلـم القرآن فى الجبل الاخضر بليبيا ، وطولب منه أن يلتحق بالجزائر عبر صفاقس وقابس كما علموا منه أن معظم الجزائريين القاطنين بطرابلس هم فى طريقهم الى الجزائر التى سمعوا أنها مضطربة ومشوشة •

الوثيقة الثالثة : تقرير آغا الجريد اللواء حسن الى الوزير مصطفى خزندار حول قدوم محيى الدين الى غرب تونس ، أخبره فيها بأن محيى الدين ابن الامير عبد القادر وابراهيم بن عبد الله قدما من الشرق الى ابن ناصر بن شهرة القاطن بنفزاوة ، فاتحة بهم الى النواحى الغربية • وأخبره أن محصل الضرائب بنفطة عثر لدى قافلة من أهالى سوف المتوجهين الى الناحية الغربية على كمية من البارود وزنها بظرفها ثلاثة وستين رطلا ، فصادرها منها ووضعها لدى رجل سماه البينباشى بتوز بعد أن قيـد ذلك بالعدالة ، وسلم أولئك الناس الى كبيرهم المسمى محمد بن رابـح ، واستدرك فى

(37) نفس المصدر . وثيقة رقم 26 بتاريخ 9 شوال 1287 الموافق حوالى 2 جانفى 1871.

الاخير بأن ابن ناصر بن شهرة انتقل الى الغرب وانضم اليه ستة أنفار آخرين غرابه « ومراد الجميع الفساد بنواحي الغرب » (38) . وقد علق الوزير على التقرير طالبا من ولاة الاقاليم وخلفائهم المزيد من اليقظة والتنبه لمثل هذه الحوادث والعمل على ايقاف المذكورين أواحدهما ، وعاتب خليفة نفزاوة على عدم تنبهه لهما وايقافهما منذ البداية .

الوثيقة الرابعة : نفس التقرير من نفس الشخص الى الوزير التونسي المباشر خير الدين . (39)

الوثيقة الخامسة : رسالة من المسمى العربي الى الجناب العالي المحروس أخبره فيها بأنه اتصل بخبر من عامل الكاف يفيد : « أن أحد أبناء سي الحاج عبد القادر قدم من ناحية طرابلس الى جهة نفزاوة قصد الدخول لناحية الجزائر ومعه بن نصر ابن شهرة » (40) . وأخبره بعد ذلك بانه كاتب آغا الجريد ، وعامل الاعراض ، وعامل الكاف ، ليبحثوا في الامر ، ويعملوا على اعتقال أولئك الاشخاص .

الوثيقة السادسة : تقرير ملخص لحوالي تسعة رسائل وأوامر من الحكومة التونسية الى عمالها وولاتها بالاقاليم ، تحثهم فيها على البحث عن محيي الدين ورفاقه وايقافهم ، وعلى البحث عن الغرابة الجزائريين القادمين من طرابلس . ومن ضمن الذين وجهت اليهم هذه الرسائل والاوامر : عامل الاعراض ، وعامل الجريد ، وعامل الكاف ، وعامل صفاقس ، وعامل جربة . (41)

ـ فبالنسبة لعامل الاعراض كتبت له الحكومة التونسية ثلاثة رسائل :

الاولى : بتاريخ 13 شوال 1287 أخبرته فيها بعلمها عن وصول محيي الدين الى تونس وانضمامه الى ناصرين شهرة ، وطلبت منه أن يجتهد في البحث عنهما وايقافهما وارسالهما الى الحاضرة تونس ، وأن يوافيها بكل ما يثبت في أمرهما .

(38) نفس المصدر، وثيقة رقم 27 (30) بتاريخ 11 شوال 1287 الموافق 4 جانفي 1871.
(39) نفس المصدر ، وثيقة رقم 28 (31) بتاريخ 11 شوال 1287 الموافق 4 جانفي 1871
(40) نفس المصدر ، وثيقة رقم 30 بتاريخ 14 شوال 1287 الموافق 7 جانفي 1871 .
(41) نفس المصدر ، وثيقة رقم 29 بتاريخ 13 ـ 25 شوال 1287 الموافق 6 ـ 18 جانفي 1871 .

من يقدم من الناحية المذكورة « فان ذلك من الواجبات التى تترتب عليها المسؤولية فيها فبادر للتمكن على المذكور والبحث عن تحقيق سبب قدومه » .

الوثيقة السابعة : رسالة أحمد بن صميدة حول مكان محيى الدين وفيها أخبر أنه « كان نازلا بالرقعة ومعه بالناصر فى أناس قلال الى أن أتاه على باى متاع سوف ففر من منزله ونزل بنفزاوة والآن بها » . (42)

الوثيقة الثامنة : رسالة محمد قعيد الى الوزير خير الدين حول حروب محيى الدين بتبسة . أخبره فيها عن وجود اضطرابات وتشويش بالناحية الغربية ويعنى بها شرق الجزائر ، كما أخبره بانه : « أتت محلة من ناحية قسنطينة لنصرة بلد تبسة لما حل بها من قلق من ولد سى الحاج عبد القادر لانه أتا (كذا) من ناحية الصحراء ومعه كثير من النمامشة وغيرهم من أهل الصحراء خارج بلد مولانا » ، وأوضح له بانه لما التقى محيى الدين بالمحلة الفرنسية قرب تبسة فى يوم أحد أنهزم وفر الى اطراف بلاد النمامشة فى حين دخلت القوات الفرنسية الى تبسة . ثم ذكر له بأن الكبلوتى الحناشى قد رحل بمن معه من الرفاق الى تراب أولاد أبى غانم قرب حدود تونس ، وأردف ذلك بخبر جديد يفيد أن الكبلوتى نزل بناحية الكاف داخل حدود تونس . (43)

الوثيقة التاسعة : رسالة محمد الشاذلى الى الوزير خير الدين حول البحث عن محيى الدين وذكر له فيها بأنه لم يعثر له على أثر . (44)

الوثيقة العاشرة وما بعدها الى الرابعة عشرة : عبارة عن خمسة رسائل الى الامير عبد القادر حول ابنه محيى الدين استنكر فيها مشاركته فى احداث الثورة بالجزائر .

الاولى : وجهها الى قنصل فرنسا بطرابلس الغرب طلب منه فيها أن يخبره عنه ، وأن يعمل على اعادته الى المشرق، تاريخ الرسالة 18 ذو القعدة 1287 (9 فيفرى 1817) .

---

(42) نفس المصدر ، وثيقة رقم 31 بتاريخ ذى الحجة 1287 الموافق مارس 1871 .

(43) نفس المصدر ، صندوق 212 ملف 240 وثيقة رقم 17 بتاريخ 8 محرم 1288 (30 مارس 1871) .

(44) نفس المصدر ، صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 32 بتاريخ 23 ربيع الانور 1288 (12 مارس 1871) .

الثانية : وجهها الى القائم باعمال القنصل الفرنسى بدمشق طلب منه فيهـــا أن يحصل له على اذن من حكومته ليقوم بمكاتبه سكان الجزائر وحثهم على معارضة ابنه وطرده من بينهم ، تاريخ الرسالة منتصف محرم 1288 (9 أبريل 1871) ٠

الثالثة : وجهها الى ابن عمه قاضى معسكر طلب منه فيها أن يحذر الناس من عمل ابنه الذى لا يؤدى الا الى ما لا تحمد عقبـــاه ، تاريـــخ الرسالة 20 محـــرم 1288 (11 أبريل 1871) ٠

الرابعة : عبارة عن نداء وجهه الى سكان الجزائر يحذرهم فيها من اتباع ابنـــه محيى الدين ، ويطلب منهم أن يطيعوا أوامر الحكومة الفرنسية التى تحترم حسب قوله دينهم وتعمل لراحتهم واطمئنانهم ، تاريـــخ النـــداء أواخـــر محـــرم 1288 (20 أبريل 1871) ٠

الخامسة : وجهها الى القائم باعمال القنصلية الفرنسية بدمشق وأخبره فيهـــا بقبوله العفو على ابنه محيى الدين استنادا لرجاء الحكومة الفرنسية ٠ تاريخ الرسالة 15 شعبان 1288 (نوفمبر 1871) ٠

الوثيقـــة الاولى :

رسالة صالح بن محمد الى الوزير مصطفى خـزندار حول اتصاله برسالة محيى الدين

الحمد لله (52) وصلى الله على سيدنا محمد وسلم وعلى مولانا وآله وصحبه ٠

أسعد الله مقام من علا قدره وضاء بدره وعمر المغارب والمشارق جوده وبره الوزير الافخم والخاقان الاكرم أمير الامراء ووزير الوزراء والمملكة سيدى مصطفى خزندار أيده الله ومن شرالدارين حماه ووقاه آمين أما بعد السلام التام والتحية والاكـرام ورحمة الله تعلى (كذا) وبركاته وأزكى تحياته ورضوانه يليـــه يكون فى شريف علمكم هو خير ان شاء الله كانت طاحت (كذا) بيدنا أجوبة من محيى الدين كمـــا

(45) ا. ح. ت صندوق 78 ملف 929 وثيقا رقم 44 ، ورقم 43 ٠

تطلع عليها وتعرف سيادتكم بوقيعتها (كـــذا) كنت توجهت الى ناحية أولا بوغانم
بقصد كيل الطعام وبلادنا حارة (كذا) من الطعام وهما نازلين بين دير (كذا) أولاد
يحيى وقلعة سنان نحن سائرين مع الطريق فتعرض لنا الزوج رجال من القبل (كذا)
ماشيين مع الطريق فى أواخر سيدى شعبان فوقفت معهم ومشا (كذا) بيننا الكلام
فقلت لهم من أى جهة أتيت من بلاد (كذا) فقالوا أتينا من جهة الشريف بن محيـى
الدين قاصدين على بن سالم البوغانمى وابنه الاخضر فقلت لهم ما سلككم الطـــريق
وحدكم قالوا لى أتينا مع قافلة أولاد سيدى عبيد من سوف وعندنا عندهم حاجـــة
أكيدة فقلت لهم ألم تعرفوه أم لا فقالوا لنا فلا فقلت أنا هو على بن ســـالم وقعدتهم
طايعنا (كذا) فسمعوا كلامى وراضوا (كذا) لى وحدثونى مشافات (كذا) ودفعوا
لى الجوابات فتمكنت عليهم وقمت نبحث فيهم بالكلام فقالوا لى نخبروك (كذا) عـلى
سيدى محيى الدين راه قاصد بلاد افريقية فى حشود كبيرة ويتصنت على الشـرق
وما يظهر منه ثم سألتهم عن غيرها ذا فى الجوابات فقالوا لى ثم أجوبة غير هاذا قلـت
وما اربابهم قالوا لى جواب الى قعيد الفرششى ومثلهم الى بعض أناس من الهامة لــم
نعرف لهم رسم وكذلك غرس الله قايد شارف وعمارة الهميسى وغيرهم فى افريقية
فلما سمعت منهم هذا وأخذت ثمرتهم قمت وجهتهم بحيلة راه محلنا فى الموضع الفلانى
اقدموا له حتى نأتيكم وبهذلتهم (كذا) وكيف اطلعت على الجوابات فبلغاهم نـــدم
فسألتهم عنهم ما سببهم فقالوا لى ماكثين عند سيدى محمد الصغير فى سوف ونرجوا
فى رفيق القافلة فلما وجدنا الرفيق توجهنا نحن هناك ومعنا أناس آخرين (كـذا)
بأجوبتهم مثل هذا وقاصدين بها أربابها فى نوحى (كذا) بلادكم افريقية عمـــالة
تونس فقلت لهم روح (كذا) فى حالكم الى محلنا وانه فى الموضع الفلانى حتى نأتيكم
ونعتهم موضع (كذا) غير موضعنا فساروا فى حالهم فلما بعدوا منى فرجعت أنا عن
كيل الطعام دون الموضع فاطلعت على الجوابات فتخبل عقلى لاننا نحن خدام أولاد حسن
ابن على من الآباء والاجداد والذى يموت يوصى ابنه يا بنى لا تخالف عـلى أسيادتكم
(كذا) لاننا ليس عندنا غيرهم هاكذا متسلسل الكلام الى الآن وحتى الآن ونجـــروا
عليهم بالنصيحة وربنا سبحانه وتعالى يعطفهم علينا ويحننهم ويجعل يومنا قـــدام



الشكل رقم 1 ـ رسالة صادق بن محمد الى الوزير مصطفى خزندار حول رسائل محيي الدين
أ • ح • ت • صندوق 78 • ملف 929 • وثيقة رقم 44

يومهم وربنا يدوم لنا ايامكم بالخير والهناء والسلام من خديمكم ومقبل يدكم صالح ابن محمد بن بنيان (؟) عفا الله عنه آمين فى 17 رمضان 1287 . (46)

ملحق خير لسيادتكم كنت خبرت سيادتكم قبل هذا فى صورة الاجوبة فى آخر شعبان مع رجل تونسى حبيبنا ولما ان يظهر لنا منه شىء فها نحن وجهناهم لسيادتكم كما تطلع عليهم لاجل لم نطيق (كذا) نخليهم عندنا وربنا يبقى لنا جودكم مع وجود سيدنا ومولانا أمير الحضرة العلية أيدها الله آمين .

وان الجوابات كنت خبرت سيادتكم عليهم قبل هذا راه تمكنوا عليهم بعض أناس من التى عالمه السر هو من لاجل فى يدان (كذا) نقدم لسيادتكم ونقروا بسورتهم واما هو الذى تمكنت عليهم والسلام . وان السيارة التى حاملين الجوابات لما ثبت معهم الجبر قالوا جئنا مع قافلة ونحن سبقنا قدامها فقمت بهذلتهم عن خيمتنا كما ما ذكرت سيادتكم والسلام .

الوثيقة الثانية :

تقرير الامير الاى محمد ناصف خليفة (الاعراض) الى وزير الحرب رستم حول نشاط محيى الدين

الحمد لله (47) وصلى الله على سيدنا محمد وسلم .

جناب الهمام المفخم أمير الامراء ووزير الحرب سيدى رستم عامل الاعراض أدام الله اجلاله وحرس كماله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فالواجب به اعلام مجدكم انه ورد خبر بأن فى يوم عيد الفرط (كذا) قدم ابن السيد عبد القادر ابن محيى الدين الى وطن نفزاوة متنكرا بالباس (كذا) غرابة ومعه أربعة انفار قصدوا محمد بن الناصر الغربى القاطن بوطن نفزاوة أقام عنده يومين ثم توجهوا معا الى ناحية سوف وركب معهم جميع الغرابة القاطنين بالمكان المذكور وأخبر أنه أتى من

(46) الموافق 11 ديسمبر 1870 .
(47) أ. د. ت صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 26 .

طرابلس ثم ان فى التاريخ قدم لطرفنا خمسة أنفار غرابة من طرابلس على طريق البحر وصحبتهم عشرة نساء وبعض أثاث وبيوت الشعر وغير ذلك من أثاث العرب صحبة الريس مصلح الاجيمى الجربى فعند ذاك جلبناهم الينا بسياسة لنستفسر أحوالهم فذكروا انهم كانوا قاطنين بنواحى طرابلس وبلغهم ان وطنهم وطن الجزائر متحير وان السيد ابن عبد القادر المذكور قدم من مالطة الى طرابلس فاخبرهم أنه متوجه الى عمالة الجزائر على طريق نفزاوة وأخذ منهم ثلاثة أنفار ليخبروا به الطريق وتوجهوا معه وأبقوا عيالاتهم (كذا) مع المذكورين وأوصوهم بالحقهم (كذا) لهم بجميع اعيالهم (كذا) وهذا سبب مجيئهم من نواحى طرابلس ثم انه فى ساعة الكتب قدم شخص غربى من وطن الجزائر يقال له محمد بن بلقاسم الجبارى الزيرى ومعه تابعه فى شقف من صفاقس فاتوا بهما الينا عساسة العسكر بالمرسى فلما حضر لدينا أجدنا (كذا) عليه أثر الرفاهية فأسلناه (كذا) من أين قدم وأين متوجه فاخبر انه كان يقرىء القرآن فى الجبل الخضر بعمالة طرابلس وامراء (كذا) بالرجوع الى وطنه فسفر من المحل المذكور الى طرابلس ثم الى صفاقس ثم الى قابس ويريد التوجه الى وطنه على طريق الجريد فها نحن مسكنا الجميع تحت أيدينا الى ما يأتى لنا من الاذن من السيادة فى شأنهم ودمتم كما رمتم والسلام من الفقير الى ربه أمير ألاى محمد ناصف خليفة الاعراضى عفى (كذا) الله عنه فى 9 شوال سنة 1287 · صح من أمير الاى محمد ناصف ·

وبلغنا أيضا منهم أن أناس (كذا) كثيرة غرابة من عملة (كذا) الجزائر القاطنين بنواحى طرابلس قادمين فى اثرهم طالبين الرجوع الى وطنهم ليكن فى شريف علمكم فنطلب من السيادة هل نمسكوهم أو نسرحوهم (كذا) يذهبوا (كذا) الى حال سبيلهم والسلام ·

وليكن معلوم سيدى أن الخمسة أنفار المذكورين أولا هم وعيالاتهم (كذا) فى حالة رثة (كذا) من العرى والجوع ولكم النظر الاعم، صح أمير الاى محمد ناصف ·

---

(48) الموافق حوالى 2 جانفى 1871 .



الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

الشكل رقم 2 ــ تقرير خليفة اقليم الاعراض الى وزير الحرب رستم حول نشاط محيى الدين
أ· ح· ت· صندوق 78 · ملف 929 · وثيقة رقم 26

الوثيقـة الثالـثة :

تقرير آغا الجريد اللواء حسن حول قدوم محيى الدين الى ابن ناصر بن شهرة

الحمد لله (49) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم •

حرس الله مقام جناب الصدر الهمام المفخم الفذ الاوحد المعظم مولانا أمير الامراء سيدى مصطفى الاكبر رعا (كذا) الله مقامه السامى المقام المحمول على كاهل المبـرة والاعظام وبعد فالمعروض على جنابكم السامى فانه بلغنا أن ابن الناصر بن شهرة المغربى القاطن بقرب نفزاوة قدم له نفران أحدهما من الشرق سما (كذا) نفسه من أبناء السيد عبد القادر بن محيى الدين والثانى من الغرب يسمى ابراهيم ابن عبد الله وتوجهـا صحبة بن الناصر المذكور الى جهة الغرب وكما تعلم جنابكم السامى أن لزام محصولات نفطة عثر على قفل (كذا) من أهل سوف متوجهين الى نواحى الغرب حاملين جانبا من البارود وزنه بضرفه (كذا) ثلاثة وستون رطلا وقد وضعنا البارود المذكور تحـت يد محبنا البينباشي بتوزر وسلمنا الحاملين لذلك لكبيرهم الوجيه سى محمد بن رابح بعد تقييد البارود المذكور وغيره بالعدالة وها نحن سيدى عرفنا جنابكم والنظـر لمقامكم ودمتم فى أمن الله والسلام من الفقير الى ربه تعالى عبده الامير لواء حسن آغه الجريد وعامل الهمامة وفقه الله وكتب فى 11 شوال المبارك من عام 1287 (50) ، صح من كاتبه حسن •

استدراك مبارك وقد اخبرنا الوجيه سى محمد بن رابح ان ابن الناصر المذكـور انتقل بأهله وخيامه من نواحى نفزاوة ونزل الآن بعمالة الغرب وقد تزايد معـه ستة أنفار غرابة ومراد الجميع الفساد بنواحى الغرب ليكن معلوم مقامكم ذلك والسلام صح من كاتبه حسن •

ملاحظة المسؤول : وعلمناه والمؤكد به عليك ان تعمل حزمك فى التنبه للمذكورين اذاً قدما أو قدم احدهما تتمكن عليه وتوجهه وفى رد البال من الكثرة وكان الواجب

(49) أ. د. ت صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 27 (30) .
(50) الموافق حوالى 4 جانفى 1871 .



الشكل رقم 3 ــ تقرير آغا الجريد حول قدوم محيي الدين
أ٠ ح٠ ت٠ صندوق 78 ٠ ملف 929 ٠ وثيقة رقم 30 (27)

على خليفة نفزاوة ان يتمكن عليهما اذ من الواجبات التى فى عهدته رد البال من أمثال هذه النوازل والمبادرة بفعل ما يلزم فيها قبل فواتها ·

الوثيقـة الـرابعة :

تقرير آغا الجريد الامير لواء حسن الى الوزير خير الدين
حول محيى الدين ابن الامير عبد القادر

الحمد لله (51) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم ·

حفظ الله جناب الهمام المفخم الشهير المقرب أمير الامراء سيدى خير الدين الوزير المباشر حرس الله جنابه السلام التام على رفيع مقامكم وبعد فالمعروض على جنابكم السامى بانه بلغنا أن ابن الناصر بن شهرة المغربى القاطن بقرب نفزاوة قـدم لـه نفران أحدهما من الشرق سما (كذا) نفسه من أبناء السيد عبد القادر بن محيى الدين والثانى من الغرب يسمى ابراهيم بن عبد الله وتوجها صحبة ابن الناصر المذكور الى جهة الغرب وكما نعلم جنابكم السامى أن لزام محصولات نفطة عثر على قفل (كـذا) من أهل سوف متوجهين الى نواحى الغرب حاملين جانبا من البارود وزنه بضرفه (كذا) ثلاثة وستون رطلا وقد وضعنا البارود المذكور تحت يد محبنا البينباشى بتوزر وسلمنا الحاملين لذلك لكبيرهم الوجيه سى محمد ابن رابح بعد تقييد البارود المذكور وغـيره بالعدالة · وها نحن سيدى عرفنا جنابكم والنظر لمقامكم ودمتم فى أمن الله والسلام من فقير ربه تعالى الامير لواء حسن آغه الجريد · صح من كتابه حسن عامل الهمامة وفقه الله وكتب فى 11 شوال المبارك من سنة 1287 (52) ·

استدراك مبارك وقد أخبرنا الوجيه سى محمد بن رابح ان ابن الناصر المذكور انتقل بأهله وخيامه من نواحى نفزاوة ونزل الآن بعمالة الغرب وقد تزايد معه ستـة انفار غرابه ومراد الجميع الفساد بنواحى الغرب ليكن معلوم جنابكم ذلك والسـلام صح من كتابه حسن ·

---

(51) أ. د. ت صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 28 (31) .
(52) الموافق حوالى 4 جانفى 1871 .



الشكل رقم 4 ـ تقرير آغا الجريد الى الوزير خير الدين حول محيي الدين
أ· ح· ت· صندوق 78 · ملف 929 · وثيقة رقم 31 (28)

الوثيقـــة الخامسة :

رسالة حول قدوم محيي الدين بن الامير عبد القادر الى نفزاوة

الحمـد للـه (53)

المعروف على الجناب العلى المحروس أدام الله تعلى (كذا) عزه انه ورد خبر مـــن عامل الكاف يخبر بانه بلغه خبرا (كذا) أحد أبناء سى الحاج عبد القادر قدم من ناحية طرابلس الى جهة نفزاوة بقصد الدخول لناحية الجزائر ومعه بن نصر بن شهرة فكاتبنا فى الحين ءاغة الجريد وعامل الاعراض وعامل الكاف بالبحث عن تحقيق الواقع وبالتمكن عليهما اذا كان الامر كما ذكر وعرضنا ذلك على الجناب العلى ليكن بشريف علم مولانا دام عزه والسلام فى 14 شوال سنة 1287 (54) · صح من العربى (٠) ·

الوثيقـــة السادسة :

مجموعة تقارير للحكومة التونسية فى أمر البحث عن محيى الدين

نسخة مكتوب (55) لعامل الاعراض عدد 18 المكتوب وتاريخه فى 13 شـــوال 1287 (56) وبعد فقد بلغ للحضرة العلية أن واحدا من أولاد السيد الحـاج عبد القادر قدم من جهة طرابلس وقدومه على طريق قابس وانضم اليه بن ناصر بن شهرة بقصد اثارة أهل الناحية الغربية وقد اذنكم مولانا دام عزه وعلاه بالبحث والتمكن عليهـما مهما وقع الظفر بهما فالمراد ان تجتهدوا فى ذلك بجميع الطرق التى يمكن الوصول بها الى تحقيق الواقع والى التمكن بهما عند الظفر بهما وتوجيههما مع من تقع الثقـة به وتبادروا بالتعريف بما يثبت عندكم فى ذلك ولا نزيدكم توكيدا فى المبادرة وانتهاز الفرصة لذلك والسلام ·

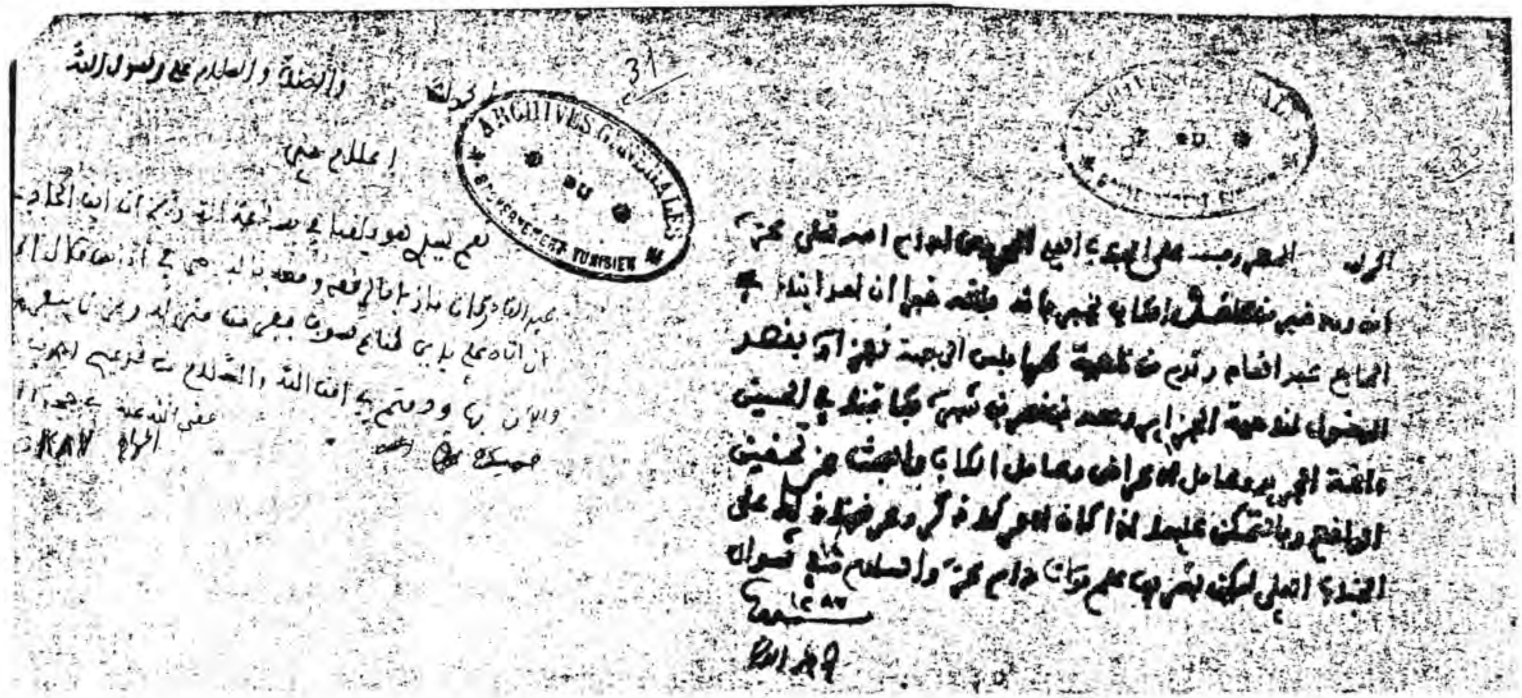
---

(53) أ. ح. ت صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 30 .

(54) الموافق حوالى 7 جانفى 1871 .

(55) أ. ح. ت صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 29 .

(56) الموافق حوالى 6 جانفى 1871 .



الشكل رقم 5 ـ رسالتان حول قدوم محيى الدين الى تونس
أ٠ ح٠ ت٠ صندوق 78 ٠ ملف 929 ٠ وثيقتا رقم 30 و 31

ـ مثله لعامل الجريد فى التاريخ المذكور ·

ـ مثله لعامل الكاف فى التاريخ المذكور ·

ـ نسخة مكتوب لعامل الاعراض عدد 21 :

وبعد فقد عرض على الحضرة العلية المكتوب الذى ورد من خليفتكم المخبر بقدوم انفاز غرابة من طرابلس للمقصد الذى ذكرتموه وهو التوجه الى الجزائر والانضمام لابن السيد الحاج عبد القادر بقصد اثارة الهرج هناك وأن غيرهم لاحق بهم وأنك تمكنت على من قدم وصدر الاذن العلى بأن الانفار الذين تمكنت عليهم فى البحر من قابس ترسلهم لصفاقس مع من تثق به ليسلمهم لعاملها وهو يوجههم للحضرة وتجتهد فى رد البال من قدوم من اخبرتم عنه بانه قادم ولما يقدم توجهوه الينا بصفاقس ولا نزيدكم توكيدا فى التنبه لمثل ذلك والفحص عمن يقدم من المذكورين للغرض المذكور وتوصى من يتوجه بالمذكورين لصفاقس وبمن يتمكن عليه ممن يأتى بعد ذلك بأن لا يمدوا أيديهم لشىء من مكاسبهم أو يضروهم والسلام فى 15 شوال (57) ·

ـ صدر أمر بى تعيين أضه باشى حانبه وصبا يحيى باسم عامل صفاقس للقدوم بالانفار غرابة الذين يوجههم له عامل الاعراض الى الحضرة العلية وأن يكون فى اعانتهم على ذلك فى 15 شوال · (58)

ـ صدر مكتوب لعامل صفاقس فى التعريف بالتعيين الصادر للقدوم بالانفار غرابة الذين يوجههم له عامل الاعراض للحضرة العلية وعدده 23 وتاريخه فى 15 شوال·(59)

صدر مكتوب لعامل جربة تاريخه فى 24 شوال (60) وعدده 23 نصه :

وبعد فقد بلغ للحضرة العلية أن نفرا يسمى محمد كويش ومعه جماعة قدموا من طرابلس بقصد الدخول الى الناحية الغربية واثارة الفساد فيها ونزلوا قريبا من

---

(57) الموافق حوالى 8 جانفى 1871 .
(58) الموافق حوالى 8 جانفى 1871 .
(59) الموافق حوالى 8 جانفى 1871 .
(60) الموافق حوالى 17 جانفى 1871 .

جرجيس وصدر الاذن العلى بأن تبادر بالتمكن على المذكور ومن معه وتفحص عن تحقيق السبب الذى قدموا له وتجتهد فى الوصاية برد البال ممن عسى أن يقدم من الناحية المذكورة للغرض المذكور فان ذلك من الواجبات التى تترتب عليها المسؤولية فيها فبادر للتمكن على المذكور والبحث عن تحقيق سبب قدومه ·

ـ صدر مكتوب لعامل الاعراض : وبعد فقد بلغ للحضرة العلية أن بعض خيالة من طرابلس قدموا الى ناحية جرجيس وحفروا أبيار بقصد محلة ذكر أنها قادمة من طرابلس وصدر الاذن العلى بأن تبادر للتمكن على الخيالة المذكورين وتفحص عن تحقيق قدومهم وسبب حفرهم الابيار وتعرف بما يثبت عندكم فى ذلك والسلام عدده 24 وتاريخه فى 24 شوال · (69)

ـ نسخة مكتوب لعامل الكاف تاريخه فى 25 شوال (62) وعدده 25 :

وبعد فقد بلغنا مكتوبهم المؤرخ فى التاريخ فى التعريف بما بلغكم عن ابن السيد الحاج عبد القادر وعلمناه ونوكد عليكم برد البال من ذلك ومتى بلغكم حضوره للملكة وامكنكم أن تتمكنوا عليه فان مولانا يأذنكم بذلك والسلام ·

ـ نسخة مكتوب لعامل الجريد تاريخه فى 25 شوال (63) وعدد 2151 :

وبعد فقد بلغنا مكتوبكم المؤرخ فى 11 شوال فى التعريف بما بلغكم من قدوم ابن السيد الحاج عبد القادر ومعه الناصر بن شهرة ودخولهما للناحية الغربية من جهة نفزاوة وعلمناه والمؤكد به عليك أن تعمل حزمك فى التمكن على المذكورين أو أحدهما وتسجنهما وقد كان الواجب على خليفة نفزاوة أن يتمكن عليهما حين قدما لنفزاوة اذ من الواجبات التى فى عهدته رد البال من امثال هاته النوازل والمبادرة بفعل ما يلزم فيها قبل فواتها لان ما قصده ابن السيد الحاج عبد القادر وهو تحيير بعض أعمال الجزائر يقضى الى وقوع تحيير بالملكة والغفلة عن ملاحظة ذلك تعود بالضرر على

(61) الموافق حوالى 17 جانفى 1871 .
(62) الموافق حوالى 18 جانفى 1871 .
(63) الموافق حوالى 18 جانفى 1871 .



الشكل رقم 6 ـ الصفحة الاولى من تقرير للحكومة التونسية
أ· ح· ت· صندوق 78 · ملف 929 · وثيقة رقم 29



الشكل رقم 7 ــ الصفحة الثانية من تقرير الحكومة التونسية
أ· ح· ت· صندوق 78 · ملف 929 · وثيقة رقم 29



الشكل رقم 8 ـ رسالة محمد فعيد حول حروب محيي الدين
أ· ح· ت· صندوق 212 · ملف 240 · وثيقة رقم 17

شأن المملكة فالتغافل عن أعماله يعد من القاء النفس للتهلكة فتنبه لمثـــل ذلك فان الواجب التنبه فى كل حال والسلام ٠

الوثيقـة السـابعة :

رسالة أحمد بن صميدة حـول مكان محيى الـدين

الحمد لله (64) والصلاة والسلام على رسول الله ٠

اعـــلام منـــى ٠

نعم سيدى هو بلغنا فى ساعة التاريخ أن ابن الحاج عبد القادر كان نازلا بالرقعة ومعه بالناصر فى أناس قلال الى أن أتاه على باى متاع سوف ففر من منزله ونـــزل بنفزاوة والآن بها ودمتم فى أمن الله والسلام من خديمكم أحمد بن صميدة عفى (كذا) الله عنه فى حجة الحرام 1287 ٠ (65)

الوثيقـة الثـامنة :

رسالة محمد قعيد الى الوزير خير الدين
حول حروب محيى الدين بتبسة

الحمد لله (66) صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم ٠

حفظ الله تعالى ذات العمدة الهمام الارفع قدوة الانام وخلاصة الخاص والعـــام سيدى أمير الامراء الوزير المباشر سيدى خير الدين أدام الله حفظه آمين السلام عليكم سلاما أتم ورضوانا أعم أما بعد تقبيل يدك الكريمة نعم تعلم سيدى وهو الخير كنـــا عرفنا جنابك العلى بما وقع من التشويش بناحية الغرب التى بجوار بلاد مولانا نصره الله التى نحن بها ونحن بالجد والجهد فى نهى من هو لنظرنا وفى الحقيقة ان من كان لنظرنا ليس له عيب داخل العمالة أو خارجها ثم انه الآن أتت محلة من ناحية قسنطينة

(64) أ. ح. ت صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 31 .
(65) الموافق مارس 1781 .
(66) أ. د. ت صندوق 212 ملف 240 وثيقة رقم 17 .

لنصرة بلد تبسة ولحميتها (كذا) لماحل بها من قلق من ولد سى الحاج عبد القادر لانه أتا (كذا) من ناحية الصحراء ومعه لفيف كثير من النمامشة وغيرهم من أهل الصحراء خارج عمالة مولانا نصره الله فلما حل بقرب بلد تبسه التقا (كذا) هو والمحلة المذكورة وصار بينهم حرب يوم الاحد وماتت بينهم الرقاب ووقع العكس على ولد سى الحاج عبد القادر ورجع فارا الى طرف بلاد النمامشة والمحلة المذكورة حلت ببلد تبسة وبهاجم غفير من أعراش الغرب على ما سمعناه وبلغنى أيضا أن الكبلوتى الحناشى قد رحل بما معه من الخاطر ونزل قرب الحد بتراب أولاد أبى غانم متوجه لتلك الناحية والواجب علينا اعلام السيادة بما وقع هنا ونظرك الاعلا (كذا) أصح وبما تأمر نابه يكن عليه العمل من غير خلاف ونطلب الله العظيم رب العرش الكريم ان يديم لنا وجودك فى الهناء والعافية بحق عالم الخافية آمين مع وجود ساداتنا وموالينا هنأهم الله تعالى آمين والسلام من عبدك فقير ربه محمد قعيد بن سالم عفا الله عن أسياده آمين فى 8 محرم الحرام سنة 1288 • (64)

الحاق خير هو ان الكبلوتى المذكور التى كان أتا (كذا) فارا من الغرب ونزل بناحية الكاف ليكون (كذا) ذلك معلوم السيادة •

تعليق من الذى اتصل بالرسالة :

« وعلمناه ومجتهد فى تحذير اخوته من التداخل فى ذلك ويعرف بما يزداد » •

الوثيقة التاسعة :

رسالة محمد الشاذلى الى الوزير خير الدين حول البحث عن محيى الدين

الحمد لله (68) وصلى الله على سيدنا محمد وسلم •

جناب الهمام الثقة المقرب الخلاصة الهمام المفخم أمير الامراء سيدى خير الدين الوزير المباشر ادام الله اجلاله وحرس بمنه كماله أما بعد اهداء السلام التام ورحمة

(67) الموافق 30 مارس 1871 .
(68) أ. ح. ت صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 32 .

الله وبركاته فانه اتصل بنا كتابكم الاعز المؤرخ فى 21 من شهر التاريخ المتضمن صدور الاذن العلى بالاجتهاد فى البحث عن ابن سى الحاج عبد القادر ابن محيى الدين حيث بلغ للحضرة العلية أنه قدم للحاضرة ومعه انفار خفية والتعريف لما يثبت عندى فى شأن ذلك وعلمناه والجواب عن ذلك أنى اجتهدت كل الاجتهاد فى البحث بغاية جهدى ولما يثبت عندى فيما ذكر أدنى خبر نعلم به جنابكم ودمتم فى أمن الله وحفظه والسلام من فقير ربه محمد الشاذلى الدلامى شيخ المدينة فى 23 ربيع الانور سنة 1288 ٠ (69)

الشاذلى الدلامى ٠

الوثيقة العاشرة

رسالة الامير عبد القادر الى قنصل فرنسا بطرابلس الغرب حول ابنه محيى الدين

الحمد لله (70) ذو المزايا الباهرة والسجايا الزاهرة قنصل جنرال الدولة الفرنسوية الفخيمة بطرابلس الغرب بعد السؤال عن أحوالكم السنية نخبر حضرتكم العلية أنه لنا ولد اسمه محيى الدين كان قد اعتراه مرض فى هذه البلاد الشامية قد أعجز الاطباء ثم ان بعضهم أشار عليه أن يغير الهواء فى البلاد المجاورة فاذنت له أن يتوجه الى الاسكندرية ومصر ثم انه بلغنى فى تشرين الثانى أنه توجه الى تونس ولما كان ذلك بغير اذنى ولا أرضى به كتبت الى قنصل جنرال بتونس والى الوزير السيد مصطفى ، واخبرتهم بعدم رضائى لتوجهه الى ذلك القطر وظننت أنهم يردونه حالا الى هذه البلاد فاذا بهم تغافلوا عنه وقد بلغنى الآن أنه جاء الى مالطة ومنها الى طرابلس وأنه توجه منها الى نواحى الصحراء ٠

فالمرجو من جنابكم والمؤكد به عليكم أن تخبرونى عنه وان طالت يدكم الى رده فلا تقصروا وبذلك تصير لكم مزية عظيمة علينا ودمتم كما رمتم ٠

المخلص عبد القادر الجزائرى ٠ 18 ذو القعدة 1287 ٠ (71)

---

(69) الموافق 12 ماى 1871 .

(70) A.O.M. CARTON 10 X 2.

(71) الموافق 9 فيفرى 1871 .

الوثيقة الحادية عشرة :

رسالة الامير عبد القادر الى القائم بأعمال القنصلية الفرنسية بدمشق حول ابنه محيى الدين

الحمد للــه · (72)

سعادة الاخ السيد برتان (73) الاكرم أدام بقاءكم فى النعم ءامين ·

أما بعد فانه وصل البارحة رجل جاء من الجزائر كان سافر اليها من مدة لستة أشهر فاخبر أن عدو الله وعدوى وعدو نفسه المجنون ، محيى الدين وصل الى الحدود بين حكومة تونس وحكومة الجزائر فحصل عندى من الغم والهم من هذا الخبر السوء ما لا أقدر أصفه لكم وتحيرت وبما عرفت ما اصنع ولو جاءنى خبر موته كان أحــب وأشهى الى من أن أسمع أنه يسعى فى الفساد · وحيث أعرف أن كثيرا من الناس البعيدين عنا يتوهمون أن هذا الفعل القبيح بارادتى واذنى وجهت الطريق الــتى تحصل به براءتى من هذا الولد المجنون ومن فعله القبيح · فاذا استحسنتم جنابكم تتخابرون مع الوزير فاذا أحسن عنك مساعدته أكتب مكاتيب خصوصية لكل قبيلة من القبائل الذين مع المفسد بعد أن يعرفونى أين هو وأسماء القبائل الذين هم عندهم ليتحقق الناس أننى برىء منه ومن عمله ·

منتصف محرم 1288 · (74) المخلص عبد القادر

(الختم)

الوثيقة الثانية عشرة :

رسالة الامير عبد القادر الى الطيب بن المختــار قاضى معسكــر حول ابنه محيى الدين

الحمد لله وحده (75) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم ·

ابن عمنا العلامة سيدى الطيب ابن المختار قاضى معسكر حفظكم الله ورعاكم ومن كل مكروه حماكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد : فقد وصلنا مكتوبكم

---

(72) المبشر ، عدد 754 بتاريخ 8 جوان 1871 .

(73) يعنى به السيد برتراند : BERTRAND

(74) الموافق حوالى 9 أبريل 1871 .

(75) المبشر ، عدد 573 بتاريخ 1 جوان 1871 .

المؤرخ بأواخر ذى الحجة وحمدنا الله على عافيتكم وكمال الخصب فى مواطنكم ٠ ثم اعلم انه بلغنى ان محيى الدين ظهر فى نواحى الصحراء الشرقية مع أنى لم آذن له الا فى الاسكندرية ونواحيها بقصد تغيير الهواء لماكان لازمه من أنـــواع الامراض فأحذروا متابعته وحذروا الاحباب منه فانه محض عبث والعاقل من اتعظ بغيره وتثبت فى جميع أموره ، فقد ألقى بنفسه فيما يؤول به الى ما لا خير له فيه ٠ انا لله وانا اليه راجعـــون ٠

يغمى على المرء فى أيـــام محنته حتى يـرى حســـنا ما ليس بالحســـن

والسلام ٠ اخوكم عبد القادر فى 20 محرم الحرام سنة 1288 (76) ٠ بيد المكرم السيد الطيب بن المختار قاضى معسكر ٠ عمالة وهران ٠

الوثيقــة الثالثة عشرة :

نداء الامير عبد القادر الى سكان الجزائر حول ابنه محيى الدين

ان ولدنا (77) التعيس محيى الدين قد تجاسر من مدة وذهب ضـــد ارادتنا الى نواحى المغرب وبمقتضى ما بلغنا أنه أتحد مع بعض الاشقياء وشرعوا فى زرع الفساد وعمل الحركات فى جهات حكومية (كذا) قسنطينة التى من شأنها سلب راحة الاهالى ٠ وبما أن هذا التصرف هو مخالف لرضاء الله تعالى ولارادتنا أيضا فنحكم على ولدنـا المذكور ونأمره بحال اطلاعه على اعلاننا أن يترك البغى وسبل العدوان ويرجع عاجلا واذا ابطأ عن الرجوع لا يستحق أن ندعيه (كذا) ولدنا ويستحق غضب الله وغضبنا وعليكم يا معشر العقلاء أن تطردوه من بينكم لانه يجلب عليكم وعلى عيالكم وأولادكم البلاء العظيم ويكون سبب الخراب فى بلادكم وعليكم أيضا أن ترد عواجها لكم مـن موافقته وعدم المداخلة فى عمل أو فى هيجان وأن تحرضوهم على الخضوع لاوامـــر الحكومة الفرنساوية التى تحسب سيادتها قد وطدت الراحة التامة فى بلادكم وكثرت ثروتكم ورفعتكم الى أعلى درجة من المجد والترقى محترمة شرائعكم الدينية ٠ وعظمة نبيكم وكتابكم ٠ والذين يتجاسرون على المساعدة فى سلب الراحة والقاء البــلاء بــل

(76) الموافق حوالى 11 أبريل 1871 .
(77) المبشر عدد 754 بتاريخ 8 جوان 1871 .

المؤرخ بأواخر ذى الحجة وحمدنا الله على عافيتكم وكمال الخصب فى مواطنكم . ثم اعلم انه بلغنى ان محيى الدين ظهر فى نواحى الصحراء الشرقية مع أنى لم آذن له الا فى الاسكندرية ونواحيها بقصد تغيير الهواء لماكان لازمه من أنـــواع الامراض فأحذروا متابعته وحذروا الاحباب منه فانه محض عبث والعاقل من اتعظ بغيره وتثبت فى جميع أموره ، فقد ألقى بنفسه فيما يؤول به الى ما لا خير له فيه . انا لله وانا اليه راجعـــون .

يغمى على المرء فى أيـــام محنته حتى يـرى حســـنا ما ليس بالحســن

والسلام . اخوكم عبد القادر فى 20 محرم الحرام سنة 1288 (76) . بيد المكرم السيد الطيب بن المختار قاضى معسكر . عمالة وهران .

الوثيقــة الثالثة عشرة :

نداء الامير عبد القادر الى سكان الجزائر حول ابنه محيى الدين

ان ولدنا (77) التعيس محيى الدين قد تجاسر من مدة وذهب ضـــد ارادتنا الى نواحى المغرب وبمقتضى ما بلغنا أنه أتحد مع بعض الاشقياء وشرعوا فى زرع الفساد وعمل الحركات فى جهات حكومية (كذا) قسنطينة التى من شأنها سلب راحة الاهالى . وبما أن هذا التصرف هو مخالف لرضاء الله تعالى ولارادتنا أيضا فنحكم على ولدنـا المذكور ونأمره بحال اطلاعه على اعلاننا أن يترك البغى وسبل العدوان ويرجع عاجلا واذا ابطأ عن الرجوع لا يستحق أن ندعيه (كذا) ولدنا ويستحق غضب الله وغضبنا وعليكم يا معشر العقلاء أن تطردوه من بينكم لانه يجلب عليكم وعلى عيالكم وأولادكم البلاء العظيم ويكون سبب الخراب فى بلادكم وعليكم أيضا أن ترد عواجها لكم مـن موافقته وعدم المداخلة فى عمل أو فى هيجان وأن تحرضوهم على الخضوع لاوامـــر الحكومة الفرنساوية التى تحسب سيادتها قد وطدت الراحة التامة فى بلادكم وكثرت ثروتكم ورفعتكم الى أعلى درجة من المجد والترقى محترمة شرائعكم الدينية . وعظمة نبيكم وكتابكم . والذين يتجاسرون على المساعدة فى سلب الراحة والقاء البـلاء بـل

(76) الموافق حوالى 11 أبريل 1871 .
(77) المبشر عدد 754 بتاريخ 8 جوان 1871 .

يستحقون غضب الله لانه يكره الشر ويحب الخير • هذه نصحيتى وهذا أمرى ومن خالف يندم فلا يلوم الا نفسه •

أواخر المحرم 1288 (78) • عبد القادر بن محيى الدين •

الوثيقة الرابعة عشرة :

رسالة الامير عبد القادر الى وكيل قنصل فرنسا بدمشق حول العفو عن ابنه محيى الدين

الحمد لله وحده (79) •

حضرة سنى الهمم موسيو يوسف برتران وكيل قنصل فرنسا الفخيمة بدمشق الشام انه بناء على المذاكرة الشفاهية التى جرت فيما بيننا منذكم يوم وشرحكم مآل التحرير الوارد لجنابكم من جانب الوزارة بشأن ولدنا محيى الدين التعس فنجيب اتماما لطلبكم خطا عما هنالك • قلتم ان دولة الوزير المعظم أظهر بتحريره لجنابكم الاستعداد للصفح عن المذكور اذا كنا نثبت أن توبته حقيقية ونكفاه فأرجوكم أن تبلغوا وفور احتراماتى لعنايته وأن ترخص لنا أن نعلن استعدادنا الباطن لجهة محيى الدين الشقى فنقول اننا مصممين (كذا) ألا نراه مدة حياتنا قط وذلك ليس فقط فى بيت واحد بل كنا معتمدين على أننا لا نوجد معه فى مدينة واحدة ولذلك أطردنا من دارنا حريمه وأولاده • أما الآن بحيث ان دولة الوزير المعظم مظهرا ارادته فى التوسط لنوال الصفح عنه من جانب حكومته الفخيمة التى هى صاحبة الحق الاول بهذا فالامر راجع لرأيها واستحسانها ولاشك بأن تعاسة النتيجة شاهدها محيى الدين الجاهل من سوء تصرفه الصادر عن حماقته الذاتية والحالة المزعجة الموجود هو بها الآن عرفوه جرم الجنون الذى ارتكبه ونتأمل أن يكون ذلك كفالة له فى المستقبل ، ولا حراعة (كذا) لنا لاطالة الشرح اذ أننا مخجولين (كذا) من تصرف محيى الدين الخبيث الذى صدق به قول القائل الحكيم يفعل الجاهل بنفسه مالا يفعله العاقل بعدوه ولنختم تحريرنا هذا بتكرار الاحترام لدولة الوزير المفخم مؤملين من جنابكم قبول وفور اعتبارنا الودى ودمتم • فى 15 شعبان سنة 1288 (80) • المخلص عبد القادر • (الختم) •

---

(78) الموافق حوالى 20 أبريل 1871 .

(79) المبشر عدد 784 بتاريخ 4 جانفى 1872 .

(80) الموافق نوفمبر 1871 .

تطور مفهوم الثقافة في العالم العربي

د . فولف ديتريش فيشر
أستاذ اللغات السامية والعلوم الاسلامية فى جامعة ارلنجن بجمهورية ألمانيا الاتحادية



كثيرا ما أكد العلماء أن الانسان لا يكون مكتملا عند ولادته ، على عكس الكائنات الحية الاخرى ، وأن قابليته للتطور تحتاج الى أضعاف الوقت الذى تحتاجه الكائنات الحية الاخرى، بل هناك رأى سائد،هو أن الفرق الاساسى بين الانسان والحيوان كامن فى عدم اكتمال الانسان وفى قابليته غير المحدودة على التطور .

ان مما لا شك فيه ، أن التربية والثقافة يلعبان دورا كبيرا جدا بالنسبة للفرد وللمجتمع .

---

(1) محاضرة القيت فى المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة يوم الثلاثاء 1 ربيع الاول 1396 هـ ، الموافق 2 مارس 1976 .

لذلك تعتبر كل الشعوب مبادىء التربية والتثقيف من أهم العوامل الحضارية وتمنحها أرفع مكانة بين ظواهر الحضارة ·

عندما نلقى نظرة على مبادىء التربية عند شعوب ودول الحضارات العليا فى آسيا وأوروبا التى نعرفها منذ اختراع الكتابة ، نجد أن تنمية المواهب الفنية والفكرية عندها تزداد أهميتها تدريجيا الى جانب التربية البدنية ·

لقد بدأت الشعوب فى وقت مبكر تنظر الى الكفاءات مثل القراءة والكتابة ونظم الشعر والرواية نظرة مساوية لنظرتها الى كفاءات المحارب ومهارته القتالية، بل وأولتها احتراما أكبر فى ما بعد · يضاف الى ذلك ان تدريب الكفاءات الفنية والفكرية الذى كان فى العصور القديمة مقصورا على عدد قليل من افراد المجتمع ، أخذ يزداد انتشارا ، حتى اصبحت فى وقتنا الحاضر المطالبة بالتدريب الفكرى لكل أفراد المجتمع هدفا عاما للتربية والتعليم ·

عند الاطلاع على تاريخ الشعوب والحضارات القديمة نلاحظ انها كانت تعتنى ببعض الكفاءات والمعارف التى كان توفرها عند الشخص شرطا لكسب احترام الناس ولاحتلال منصب عال فى المجتمع ·

ومع أن نوعية هذه الكفاءات قد تغيرت وتطورت مع مرور الزمن ، ومع انها تختلف من شعب الى شعب ، فانها تتشابه فى كل زمان ومكان بكونها تتعلق بالشعر والتاريخ والادب والفلسفة وما أشبه ، أى بمعلومات وكفاءات لا تخدم الحاجات العضوية ولا ترفع مستوى المعيشة المادى، وليست كفاءات يمكن ان يقال عنها انها «عملية» بالمعنى العام للكلمة ·

لقد تعدت المبادىء التربوية الكفاءات العملية واتجهت الى العلوم الفكرية التى كانت الغاية منها تدريب المرء على فن الخطابة والشعر والفلسفة وحسن التصرف ·

لم يصل الامر فى كل مكان الى الحد الذى وصل اليه فى الصين ، حيث كان يتوجب على كل من يريد ان يشغل منصبا عاليا أو يلعب دورا فى المجال الحضارى أن يتقدم الى امتحان يظهر خلاله انه يعى محتوى المبادىء الثقافية الكنفوشيوسية ويتقبلها ، وفى الحضارات الاخرى أيضا كانت مجموعة فروع الثقافة التى كانت تميز المثقف عن غير المثقف محددة تماما ·

ومن المعروف ان القيم الفكرية كانت تحتل المكانة الاولى فى مبدا الثقافة فى المجتمع الاسلامى ليس فقط فى القرون الاولى من انتشار الاسلام فى بلدان الشرق الادنى وشمال افريقيا وغرب آسيا كان طلب العلم والمعرفة يعد من الاعمال الراقية المبجلة ، بل احتفظ مبدأ التثقيف الذى كان يحمل صبغة دينية بمكانته فى القرون التالية أيضا • الفارس أو الجندى لم يكن يحظى أبدا بالاحترام الذى كان يحظى به أهل العلم والفقه ، وان كان هو صاحب السلطة السياسية • ان تاريخ كلمة ثقافة التى تعنى اليوم الدراسة العليا بشكل عام يلقى ضوءا ساطعا على هذه الحقيقة ، أى مدى أهمية العلوم الفكرية فى المجتمع الاسلامى •

وتستعمل كلمة ثقافة بالمعنى الدارج اليوم منذ القرن الثالث عشر الميلادى •

وكانت تحمل معنى مختلفا جدا عند العرب قبل الاسلام ، وفى بداية العصر الاسلامى أيضا • لم يكن المثقف فى ذلك الزمان هو المتعلم ، وانما « المسوى » ، أو « المقوم » ، وكان تقصد بذلك قناة الرمح • فيقول مثلا شاعر ما قبل الاسلام المعروف عنترة :

فظلنا نكن المشرفية فيهم وخرصان لدن السمهرى المثقف

اذن كان معنى الثقافة فى ذلك الوقت هو « الاستقامة » ، ولكننا نجد بعد وقت قصير ، فى القرن الثالث الهجرى ان كلمة الثقافة عند ابى عثمان الجاحظ مثلا اكتسبت معنى قريبا جدا من المعنى المصطلح عليه اليوم ، أى الفطنة والذكاء • فتبدل المعنى هذا يعكس تبدل الظروف الاجتماعية الذى جلبه انتصار الاسلام • كانت ثقافة قبل الاسلام مصطلحا يستعمل لاداة المحارب ، أى لرمحه ، اما فى الاسلام فقد اصبحت تستعمل لاداة المفكر ، أى لفطنته وذكائه واخيرا اعتبرت الفطنة كقدرة للعقل أهم قدرة يجب ان تنمى عند الانسان • وهكذا اصبحت الكلمة تعنى التربية الفكرية بشكل عام فى الوقت الحاضر • ولو قدر لعربى من عصور ما قبل الاسلام ان يعود الى الحياة اليوم ويسمع عبارة « وزارة الثقافة » لظن انها تعنى « وزارة الحربية » •

وهناك كلمة أخرى تضيء تاريخ الثقافة فى العالم العربى منذ القرن الثـــانى للهجرة كانت تستعمل كلمة أخرى تعنى ما تعنيه كلمة « ثقافة » اليوم : الادب · اما فى وقتنا الحاضر فتعنى « أدب » فرعا من فروع الثقافة ، فرعا مهما جدا هو la littérature اما معناه السابق « الثقافة » ، أى كل ما هو لازم من المعرفة لحياة رفيعة مهذبة ، فقد فقده اليوم ·

ولكن كلمة أدب هذه أيضا لم تكن تستعمل عند العرب قبل الاسلام بالمعنى الذى كانت تحمله فى عصوره الوسطى ، فى كتاب الفهرست لابن النديم ، الذى يعتبر بحق أهم مرجع لتاريخ الادب العربى فى عصوره الاولى ، نجد موضعا يحدثنا المؤلف فيه عن شخص اسمه ابو بعرة ، كان يحب الكتب ويجمعها · عاش هذا الشخص فى نهاية القرن الثانى للهجرة · ويروى عن مكتبته · تحتوى على قطعة من الكتب العربية فى النحو واللغة والادب ·

هنا تحمل كلمة أدب معنى مختلفا تماما : كان يقصد بها معرفة عادات العـــرب وتقاليدهم · لقد جمعت فى كتب الادب التى ألفت فى القرن الثانى الهجرى حكايات عن شيوخ القبائل واعمالهم ، وكذلك ما كان يروى عن حروب قبائل العرب المسماة بأيام العرب وأقوالهم وتقاليدهم · اما كلمة أدب بهذا المعنى ، أى العرف والعـادة ، فقد كان يقصد بها كل ما كان يعتبره العرب جديرا بان يروى عند السمر ، وهو ما كان كل جيل يأخذه عن الجيل السابق من الاساطير ، ومنها حكايات عن خيولهم وجمالهـم الشهيرة ، والامثال وغير ذلك · وعندما امتد نفوذ العرب الى مصر وسوريا فى عهد الخلفاء الراشدين كانت بيئتهم قد تبدلت تبدلا تاما فى ظرف بضعة عشر سنة ·/كان سكان الخيام فى الصحراء القاحلة قد تحضروا وتعودوا على رخاء ورغد العيش فى ذلك العصر · ولكنهم اعتنوا بتراثهم الثقافى فى البيئة الجديدة أيضا بنفس القدر مـــن الاعجاب بأسرار اللغة العربية وسحرها ، وهكذا كان فى أدبهم العربى ما يقابلون به الثروات الثقافية للشعوب التى أخضعوها ، لكى لا يصحب تلاؤمهم مع البيئة الجديدة تلاؤما فكريا مع الثقافة التى كانوا يعتبرونها زائلة الاوان بنزول القرآن ·

اللغة والشعر والادب مجتمعة كانت الاداة التى بها استطاع العرب المسلمون ان يحفظوا هويتهم خلال المائة وعشرين سنة الاولى من العهد الاسلامى كطبقة حاكمة بين أكثرية غالبة من شعوب غريبة ذات حضارات عالية وأديان غير دينهم . فى أواخر القرن الاول الهجرى بدأ خبراء مطلعون بجمع كل ما كان يسمى أدبا . نذكر بالدرجة الاولى شخصين ، لهما فضل كبير فى هذا المجال وهما محمد الكلبى وابنه هشام . وكان الادب فى ذلك الوقت لا يعنى فقط التراث الحضارى ، وانما كانت تناط به مهمة الحفاظ على الكيان القومى للعرب ، فاقترب الادب مما نعنيه اليوم بالثقافة من حيث المهمة ، أى كان يقصد به حزمة من المعلومات التى كان امتلاكها يعتبر دليلا على انتماء الشخص الى جماعة هى صاحبة السلطة فى دولة الخلفاء أو هى تريد ان تحافظ عليها . عندما عزل الخلفاء الامويون فى دمشق[1] واستولى بنو العباس على الخلافة طرأ تغير جذرى على السلطة السياسية صحبه تغير فى الاهداف الثقافية فى العالم العربى الاسلامى أيضا .

كان العرب يمثلون الطبقة الحاكمة فى عصر الامويين ، وكان كل من يتمتع بنسب عربى أصيل وينحدر من سلالة عربية خالصة له الحق فى شغل مكانة عالية بين الاوساط العربية الحاكمة . ولكن الثورة العباسية أزالت هذه الامتيازات العربية واصبح المسلمون من غير العرب ، خاصة منهم الموالى الايرانيون يطالبون بالمساواة ؛ بل هم نالوها . والآن اصبحت التابعية للدين الاسلامى والاخلاص له وللخليفة الذى يمثله شروطا للوصول الى منصب قيادى فى المجتمع .

يتضح لنا ذلك التغير الجذرى فى المجال الثقافى الذى صحب انتقال السلطة السياسية عندما نركز انظارنا على شخصيتين كانت لهما اليد الطولى فى تغيير وجهة الثقافة فى عهد الخلفاء العباسيين .

لعله لا توجد شخصيتان أجدر بالذكر من ابن المقفع الايرانى وأبى دلامة الآرامى الاصل لتبيان ذلك التغير .

كان كل منهما ذا صلة وثيقة بالبيت الحاكم الجديد رغم اختلاف منشأ كل منهما عن الآخر . فقد كان ابو دلامة المعتوق ، الناشىء فى ابسط الظروف الاجتماعية شاعر

البلاط الذى لا غنى عنه للخلفاء العباسيين · فعلى الرغم من وضاعة اصله وكونه غير عربى ، كانت له صلة وثيقة بالعائلة الحاكمة · كانت بلاغته الشعرية الفائقة التى وضعها فى خدمة العائلة الحاكمة الجديدة وبها رفع من شأنها ، قد جعلته شخصا لا يستغنى عنه لدرجة ان الخلفاء غضوا النظر عن الحياة الخليعة المتنافية مع تعاليم الاسلام التى كان يحياها ·

لقد كان من أوائل الرجال الذين وصلوا الى المجد والشهرة عن طريق الشعر العربى ، مع انه لم يكن ينتمى الى العائلات العربية الرفيعة · لقد حطم احتكار العرب للشعر بل وساهم مساهمة كبيرة فى خلق الاسلوب الجديد المسمى « البديع » الذى أصبح من اساليب الشعر العباسى السائدة ، اذ ان ما جاء فى « قصيدة البغلة » لم يكن ليسمع أو يتصور من قبل ·

ابعد الخيل أركبها كراما   وبعد الفره من خضر البغال
رزقت بغيلة فيها وكال   وليته لم يكن غير الوكال
رأيت عيوبها كثرت وليست   وان أكثرت ثم من المقال
ليحصى منطقى وكلام غيرى   عشير خصالها شر الخصال
فاهون عيبها أنى اذا ما   نزلت وقلت امشى لا تبالى

يقف هذا الرجل فى بداية مفهوم جديد للثقافة فى العالم الاسلامى العربى ، فقد كانت العربية مقصورة على طبقة العرب العليا وكانت تعتبر لغة حضارة قومية فى ظل الامويين ؛ اما فى العهد العباسى فقد اصبحت لغة ثقافة عامة لكل المسلمين ، سواء كان أصلهم عربيا أو أعجميا · ان أهمية ابى دلامة فى مجال الشعر تعادلها أهمية روزبه الايرانى ، أو ابن المقفع كما يسميه العرب فى مجال النثر ·

ان ترجماته لتاريخ الدولة الساسانية ولكتاب كليلة ودمنه الى العربية مهدت الطريق امام نثر عربى يتعدى حدود القومية · وفى مؤلفين من مؤلفاته تظهر كلمة أدب فى العنوان « الادب الصغير والادب الكبير » ، ولكنها مؤلفات فى الخلق السياسى كتبت بروح التراث الثقافى الايرانى ·

وكلمة أدب هنا لا علاقة لها بالتراث العربى مطلقا ، اذ يستعملها ابن المقفع فى معنى جديد هو التثقيف الفكرى والخلقى · وهو يخاطب فى مؤلفه النخبة السائـــدة فى المجتمع الاسلامى اللاقومى · فنحن نقرأ فى هذين المؤلفين عن الفضائل التى يجب ان يتحلى بها الانسان مثل الصدق والصبر وعن العواقب السيئة للغضب ، وعـــن الاستعمال الصحيح للعقل وعن فائدة العلم · وهنا يقترب معنى الادب من المروءة التى يجب ان تتوفر فى الانسان ، ليكون عضوا سائدا فى المجتمع الاسلامى اللاقومى · كانت هذه المؤلفات بادرة من ابن المقفع ساهم بها مساهمة فعالة فى وضع سياسة ثقافية جديدة دعمها العباسيون بالجهد والمال · كان هدفهم صهر الثروات الفكرية للشعوب التى دخلت الاسلام فى بوتقة الحضارة الاسلامية · لكن هذا لم يكن ليتـــم لولا وجود أداة تحول دون تغريب الاسلام أو ابعاده عن قواعده الاساسية · هـذه الاداة هى اللغة العربية ، لغـــة القرآن ولغة العرب الذين بنوا دولة الخلفاء وأدخلوا تراثهم فى الثروة الثقافية للمجتمع الاسلامى ·

وفى تطبيق سياستهم الثقافية الجديدة شجع خلفاء العباسيين عـلى ترجمة مخطوطات علوم اليونان والاغريق الى العربية ، كما ترجمت الكتابات الايرانية الى العربيـــة ، وفى خلال القرن التاسع الميلادى ، الموافق للقرن الثالث الهجرى اصبحت اللغـــة العربية لغة الثقافة فى جميع انحاء العالم الاسلامى ·

وبلغت أهميتها حدا كبيرا جدا ، لم يقتصر استعمالها عنده على المسلمين العرب والاعاجم مثل الفرس والاسبان وغيرهم ، بل تعداه الى المسيحيين واليهـود الذيـن كانوا يعيشون فى دار الاسلام . هذه الاهمية الثقافية التى نالتها اللغة العربية كلغة حضارة وثقافة فى العالم الاسلامى فى عصر الخلفاء ازدادت بسبب ابتعاد اللغة اليومية عن لغة القرآن والشعر والنثر ، فقد كان الناس فى الاســـواق والحقـــول وغـيرها يتحدثون بلهجات عربية تبعد بقليل أو كثير عن اللغة الفصحى كما هو الحال اليـوم · ولم يكن تعلم اللغة العربية الفصحى ممكنا الا بتعلم الكتابة ، ومن لم يتعلم الكتابـة التى كانت المفتاح الى اللغة الفصحى لم يجد طريقا الى الثروات الثقافية لذلك العصر ·

النحو وعلم اللغة كانا العلمين السائدين ، وهما حددا نوعية لغة الثقافة والحضـــارة فى كل العالم الاسلامى ٠

كانت المعرفة الجيدة للغة جوهر المبدأ الثقافى فى العصور الوسطى ٠ كما كان الالمام بالنحو والمعاجم والشعر والعروض والبلاغة شرطا للوصول الى رتبة اجتماعية عالية ٠ كانت معرفة اللغة العربية الفصحى بمثابة حجر الزاوية لكل العلوم الاخرى ، خاصة منها العلوم الدينية ٠

كان الحديث يدور حول هذه النقاط فى المجالس الادبية ، حيث كان ينتظر مـن المثقفين أن يجيبوا على الاسئلة المتعلقة بهذه المسائل بأجوبة سلسلة بليغة ٠

وعند مناقشة مسألة فى مجلس ثقافى ، وان كانت هذه المسألة متعلقة بالطبيعة ، كانت تناقش بالدرجة الاولى من ناحية لغوية وفقهية ٠ وتحوى بيوت الشعر العربى القديم الحجج التى بمعرفتها يحاول المتناقش ان يفحم مناظره لغويا ٠

والحديث النبوى يحوى الحجج الدينية التى بها يثبت الشخص انه متضلع فى هذا المجال الثقافى ٠

أهمية النحو وعلم اللغة جعلت هذين العلمين يزدهران ، كما جعلت التعليم ينتشر بشكل لم تعرفه حضارات ذلك العصر الاخرى ٠

المعرفة الجيدة للغة والقدرة على التعبير الصحيح الجيد باللغة العربية وسرعـــة البديهة لاستعمال العبارة فى الموضع المناسب ، وامتلاك القافية حاضرة فى كل وقت ، هذه الاشياء كانت تعين مكانة الشخص فى الحضارة الفكرية الاسلامية ٠

واذا اطلعنا على تراجم حياة المثقفين ، التى جمعها ياقوت الرومى فى كتابه معجم الادباء ، نجد أن تعلم النحو وعلم اللغة كانا القاعدة الاساسية عند ثقافة كل منهم ٠

وأكبر مدح لثقافة الرجل كان ان يقال عنه انه تعلم النحو عند عالم نحوى كبـير أو أخذ اللغة العربية عن فم عربى أصيل ٠

وعندما نذكر فى هذا المجال مؤلفا كبيرا مثل الجاحظ مثلا نجد انه طبق هذا المبدأ الثقافى بشكل تام . نشأ فى البصرة حيث أتيحت له الفرصة ليسمع العرب يتكلمون اللغة العربية الفصحى القديمة ، تعلم النحو والفقه . كما ان مؤلفاته تتفق مع هـذا المبدأ الثقافى : ولنأخذ مؤلفه « كتاب الحيوان » فنجد ان المسائل اللغوية ومعاملـة الحيوان فى الشعر والبلاغة ، وذكرها فى الحديث وأهميتها لعلم الفقه ، هى المواضيع الحقيقية التى يعالجها ، اما علم الطبيعة فأهميته ثانوية .

ما نحاول ان نظهره هنا هو أن المبدأ الثقافى لعصور الاسلام الوسطى كان فى الدرجة الاولى يتعلق بعلم اللغة ، وبعبارة ادق ، اللغة العربية الفصحى القديمـة ، التى كانت معرفتها المفتاح لباب العالم المثقف .

ولم يكن العالم الاسلامى وحده يعتنى بمبدأ الثقافة اللغوية . اذ نشأ فى نفس الوقت فى دولة الروم البيزنطية المجاورة وفى الغرب الاوروبى مبدأ ثقافى كان يهتم باللغة بالدرجة الاولى أيضا .

ولا نعرف ، هل هذا التشابه بين الشرق والغرب سببه ظروف التطور المتشابهة والتراث الحضارى القديم المشترك بينهما ، ام كان التقارب بين الشرق الاسـلامى والغرب المسيحى فى ذلك العصر كبيرا الى حد يمكن عنده الظن بأنهما اثرا بعضهما على البعـض .

الحقيقة هى على أى حال انه فى القرن التاسع الميلادى ، الذى فيه تكون مبدأ الثقافة اللغوية فى الشرق ، بدأ فى الدولة الرومانية البيزنطية عصر احياء اللغة القديمة ، أى اللغة اليونانية الكلاسيكية . وكانت معرفة اليونانية الكلاسيكية كمبدأ ثقافى تلعب دورا فى ذلك العصر شبيها بمعرفة اللغة العربية الفصحى عند المسلمين . وقد ظهرت فى الغرب اللاتينى فى ذلك الوقت البوادر الاولى لنشأة اللغات الشعبيـة القومية . فيبدأ الفرنسيون والايرلنديون بالكتابة بلغاتهم القومية . اما فى المجال الثقافى ، المرتبط هناك بالدين ، كما هو الحال فى العالم الاسلامى فتحتفظ اللاتينية بأهميتها كمدخل الى الثروات الثقافية الكبرى فى الدين وعلم الحقوق وغيره مـن

العلوم • لقد تقلبت الظروف الاجتماعية ومشاكل الثقافة منذ العصور الوسطى التى أصبحت فيها اللغة العربية قاعدة المبدأ الثقافى فى العالم الاسلامى • وكما كانـت أوروبا ، كذلك عند الشعوب الاسلامية أخذت اللغات القومية تزداد أهمية • ومنذ العصر السلجوقى ظهرت اللغات الفارسية والتركية ، وفيما بعد الهندية كلغات أدب•

وبقيت العربية مقصورة على العرب ولم يستعملها خارج بلاد العرب الا علمـــاء الدين • وفى العصور التالية لفتح المغول أصاب الثقافة العربية بعض جمود بسبـب انتقال مراكز الحكم الى خارج البلاد العربية ففقدت كلمة أدب معنى الثقافة بشكل عام ، وأصبح يفهم منها مجرد قصص تربوية وحكايات ، واكتسبت معنى يمكننا ان نقيسه بمعني الكلمة فى الوقت الحاضر « أى الادب الجميل » •

ولا شك ان العلوم الطبيعية فى عصرنا الحاضر اصبحت عاملا مؤثرا فى كل مجالات الحياة ولذلك لها مكانة مهمة فى اطار المفهوم الثقافى ، وتشكل قسما كبيرا مـــن التدريس فى المدارس وفى الجامعات ، ولكن كل المطلعين على أمور التربية والتعليم متفقون على ان اللغة لا تزال الاداة الوحيدة التى لا تعوض للفكر البشرى ، ولذلـك لابد أن تكون اللغة دائما نواة التربية والتعليم • هذه الحقيقة تحدونا الى ان نقـدر الجهود والاعمال الناجحة للمؤلفين العرب فى القرنين التاسع عشر والعشرين تقديرا وافيـــا • فقد خلقوا باللغة العربية الحديثة أداة كاملة لكل مجالات الحضارة الحديثة، يستطيع بها المتكلم العربى ان يعبر عن أفكاره فى مستوى عصره • ويجوز أن نقول أن تطور هذه الاداة اللغوية كان عاملا فعالا فى التحرر من الاستعمار للامة العربية •

ملاحظات على تحقيق الرسالة المنسوبة لابن سينا في ترتيب الأدوية

د · المنجي الكعبي
استاذ بالجامعة التونسية
ونائب بمجلس الامة ـ تونس

1 ـ داء الزيتونيـــة



هذا مخطوط آخر من التراث يجد طريقه الى النشر في سلسلة المطبوعات التي يصدرها تباعا مركز البحوث والدراسات بالجامعة التونسية · وهو من تحقيق وتعليق الدكتور محمد سويسي · وهـــو أستاذ بكلية الآداب انصبت عنايته منذ سنوات على تدريس تاريخ العلـــوم عند العرب بحكم تخصصه القديم في تدريس مـــادة الرياضيات بالثانوي قبل أن يصبح مجازا ومبرزا ثم دكتورا في الآداب العربية · وهو من صنف المتخرجين بالدكتوراه من جامعة باريس في أواخر الستينات وبداية السبعينات ، في تلـــك السنوات التي كثر اللهث فيها للحصول على دكتوراه الدولة بالنسبـــة لجماعة مـــن

المبرزين فى الآداب العربية ٠ وهم جماعة وقع الحاقهم بالجامعة فى أول تأسيسهـا ، ثم وقعوا أغلبهم فى ضرورة التحصيل على هذه الشهادة لتأمين استقرارهم بالعالى ، فى وقت بشرت فيه طلائع الشبان الجدد المترشحين لهذه الشهادة وأمثالها مـــن الدرجات العلمية العالية بجامعات المشرق العربى وبباريس نفسها ، وبدت كأنهـــا ستزحمهم وتسد الجو الذى كان خاليا لهم ٠

والاستاذ محمد سويسى من هذه الجماعة وليس منها ٠٠٠ منها فى احساسها المفرط بامتيازاتها العلمية على حملة الدكتوراه من الزيتونيين المتأخرين أو أشباه الزيتونيين الذين لم ينتظم تعليمهم كله أو بعضه بانتظام سلك التعليم الاستعمارى الســـابق بتونس ٠ وليس منهم فى أنه أقلهم ابتلاء لهؤلاء الزيتونيين الذين شرقوا وغربـــوا فى سبيل تعلم اللغات الاجنبية والتحصيل على الدكتوراه ثم ضربت المتاريس أمام كلية الآداب التونسية فى وجه دخولهم ٠

وربما الحق أنه ممن يميلون الى ترك القول والموقف فى مشاكل الزيتونيين مـــع غير الزيتونيين ، لانه هو نفسه منى بمعارضة هذه الجماعة حين استظهـــر بشهاداته للتدريس بقسم العربية بكلية الآداب ، وهو الاستـــاذ نصـــف عمـــره فى الجبـــر واللوغارتمات ! أما وقد من الله عليه بالانسلاك فى سلكهم ، فقد يكون ممن وضـــع عن نفسه التعرض بـ « ايه » أو بـ « لا » فى مسائل الانتداب ، خاصة اذا تعلق الامر بواحد من هؤلاء الزيتونيين الدكاترة الذين لم يعمدوا بماء الاستشراق الفرنسى وبالذات بماء التعليم الفرنسى بتونس أيام الحماية ٠

وهذا كلام جئت به فى أول هذه المقالة النقدية لاشير الى أمرين ، الى أن قســـم اللغة العربية وآدابها عندنا لم يقبل به الى حد الآن ـ والرقباء العتيدون على بابه يحمدون ربهم على ذلك ـ لم يقبل به أستاذ واحد من أصل أو من فرع زيتونى علا ما علا شأنه فى العلم والشهادات ٠ والى أن وجود الاستاذ محمد السويسى فى هذا القسم هو أمر فى حد ذاته غريب ونادر ، لانه على رأى سدنة هذا الحرم الجامعى لم يتبـــع المجـــرى الطبيعى للحصول على التبريز فى العربية ، وانما أتبع طريق العصامية ، وهو منكور فى مذهب حفظة التراث الاستشراقى بكلية الآداب عندنا ٠ وقد يكون شفع له كونه سليما من داء الزيتونية ٠

وداء الزيتونية هذا ، وهو من عجائب الامور ، هو فى الحقيقة مصل واق ضد كل ضروب الاستيلاب ، انتفعت به البقية الباقية من نقلة هذه الجرثومة عبر مسيرتها العلمية شرقا وغربا • وأبرز مسالك الاستلاب الثقافى والحضارى مسلك الاستشراق ، وقد أختطه نفر من الاوروبيين ممن نذروا أنفسهم لتكريس استعمار بلدانهم على الشعوب المغلبة أكثر من تكريسها للعلم مجردا •

وقد بقيت آثار من هذه النزعة الاستشراقية فى الدراسة والبحث فى ميدان الحضارة الاسلامية والآداب العربية متغلغلة فى أذهان عديد من الاساتذة والباحثين فى تونس وغير تونس من الجامعات العربية حتى لتحق الدعوة الى حملة عامة لاعادة تدوين تاريخنا الادبى ونقده وكذلك تاريخنا الحضارى عامة على أساس من المفاهيم الاصيلة والمناهج الاصيلة كذلك • وأنا لا أدعى أننى أحد من سلم ذهنه ولسانه من مساوىء الاستشراق غير أننى أعتقد أنى أحد من أخذ بقوة بمحاسن ما أدخله الاستشراق على الدراسات العربية والاسلامية لمعالجة شىء من الاختلاف كانت عليه قواعد العربية وملامح الادب العربى فى ذهنى • وأعتقد اننى فيما آخذ به فى نقدى لبعض الاعمال الجادة لزملائى الباحثين والدارسين فى اللغة العربية وآدابها انما أسعى بالبحث العلمى عندنا الى المرتبة التى وصل اليها على أيدى كبار الاساتذة المستشرقين ، لكن مع توجيهه الوجهة التى لا ينبغى أن تلتبس فيها أعمالنا بأعمال المستشرقين لغة وتعبيرا وانطباعا واختيارا ونقدا • لان لكل أمة خصائصها من جهة هذه المقومات الحضارية ، ونحن فى المرحلة الحاسمة للشعور بأنفسنا بعزة ، وتاكيد شخصيتنا الانسانية من جهتها النوعية •

2 ـ فى عنوان الرسالة

ولما طالعنى صدور كتاب الدكتور سويسى على رسالة ابن سينا تملكنى ذلك الشعور الجميل الذى يملأ نفس الانسان بازدياد مخلوق جديد • وهذه عاطفتى نحو المخطوطات المنشورة •

الاخراج بديع خاصة من جهة تلك الصورة الملونة على غلافه مع شدة سواد الحروف المطبعية ووضوحها على شدة بياض الورق ٠٠٠ الى جانب التنسيق بين أجزاء الكتاب من مقدمة المحقق ونص المخطوط والتعليق عليه بأسفله والمعجم الملحق بآخره ٠ كـل ذلك فى حجم متوسط به 245 صفحة ٠

وليس من ملاحظة على اخراج الغلاف الا من جهة تلك الصورة ، فانه لم يقع مــع الاسف التعريف بها وبمصدرها وعلاقتها بالمخطوط ٠ هل هى منه أم جىء بها لمناسبتها لموضوعه ؟ وهذا السؤال بالخصوص كان من حق القراء على المحقق أن يجيبهم عنــه ويفصل لهم مع ذلك الشكل الذى تمثله الصورة ٠

وبدون شك فان العارفين بالفنون الاسلامية وبالاخص فن التصوير عند الفرس والشعوب الشرقية يستطيعون أن يتبينوا فيها لوحة فارسية قد تعود الى القرن الثامن أو التاسع ٠ وهى لوحة من جنس تلك المنمنمات التى تحفل بها عادة النسخ الخطيــة الممتازة من كتب المقامات والمجالس والمصنفات العلمية فى الحيوان والفلك والطـب ونحو ذلك ٠ وهى لوحات فنية لطيفة التشكيل والتزويق ، ميزتها ، مثلما هى الحـال فى هذه الصورة ، التعبير بالحركة والنظرة عن الغاية من وجود العناصر المتكون منهـا المشهـــد ٠

وفى هذه الصورة ـ ومن هنا مناسبتها لرسالة فى الادوية ـ رسوم أعشاب طبية (ربما كان بامكان الباحث المحقق التعريف باسمائها) وبها ثلاثــة رجــال ، أحدهـم عليه مظهر الطبيب العالم المسن (كأنه تصوير شخصى للشيخ الرئيس ابن سينـــا) وهو مشرف فى جلسته على الرجلين الآخرين ، وهما وقوف بين يديه ناظرين اليــه كالمسائلين له عن دواء ، وهو كالمتدبر فى الامر ينظر الى لا شىء وتحت أقدامه ومن حوله تلك الاعشاب النابتة ٠

وليس من ملاحظة أخرى على اخراج الغلاف الا من ناحية التوزيع الفـــنى لعناصر العنوان عليه ، فان جو الاتساق الشرقى الذى تضفيه عليه الصورة الفارسية والخـط العربى يقطعه ذلك التقديم المعكوس لاسم المؤلف على العنوان ٠ وهذا فيما يبدو مـن

تأثير الاسلوب الغربى وغلبته علينا . لاننا لا نقول فى عناوين كتبنا ، وخاصة اذا كان الامر يتعلق باحياء التراث ، لانقول « الشيخ الرئيس ابن سينا الرسالة الالواحية » ، وانما يقول ذلك الغربيون على عادتهم ومألوف عبقرية لغتهم ، أما نحن فنقول ونكتب : « الرسالة الالواحية للشيخ الرئيس ابن سينا » .

وقد يقول قائل وهل هذه ملاحظات جوهرية يعتنى بها فى مثل هذه المقامات النقدية، فأقول له ان هذه بسائط لا محالة ولكنها احدى نواحى الاخراج الاصيل والجميل الذى عليه مخطوطاتنا وليس من الرأى ولا من التجديد أن نفرط فيه عند طبعها .

ومهما يكن من أمر هذه الملاحظات فقد بقيت ملاحظة أخرى جديرة بالذكر هنا قبل أن ننتقل الى الكلام عن مقدمة المحقق وعن طريقة تحقيقه للنص والتعليق عليه وتذييله . وهذه الملاحظة تخص تصرف المحقق فى تسمية مؤلف الرسالة بأزيد مما وجده على ظهر النسخة التى بين يديه . وظنى أن كلمة « الشيخ الرئيس » ـ وهى الشهرة المعروف بها ابن سينا ـ لم ترد لا فى غلاف الرسالة ولا فى مقدمتها ولا فى موضع آخر منها . وسآتى الى تحقيق هذا الظن بعد قليل ، أما الآن فما هذا العنوان الذى اختاره ـ ان صح ـ ابن سينا لرسالته ؟

هذا العنوان لم يختره ابن سينا على الصحيح لرسالته ، والرسالة نفسها ينبغى أن تكون منسوبة على الظن لا على التحقيق للشيخ الرئيس ابن سينا . وليس الذى اختار العنوان ناسخ المخطوط أيضا انما المحقق . وكدت أعرف ذلك قبل التقدم فى قراءة الكتاب ، لان الثقل واضح فى العنوان المعروض . وعندما تدرك أن غرض المؤلف من رسالته هو ذكر الادوية فيها مرتبة ألواحا ، كل دواء فى لوح مفرد ، تقول لو كان سماها « الرسالة اللوحية » لكان أحسن . وبكل غرابة تجد المحقق فيما بعد بالصفحة 15 وبالصفحة 17 من مقدمته يبين أنه وجد النسبة فى العنوان الى المفرد لا الى الجمع ، أى « اللوحية » . وهنا يأخذنى العجب من هذا التصرف ، غير المبرر مع ذلك ، الذى يعمد اليه « غفلة » أو قصدا بعض المحققين .

وليس فى العربية ـ على حد علمى ـ اسم مفرد منسوب الى اسم مجموع على هذا النحو من التركيب . ولا ندرى اذا كان العنوان « الرسالة اللوحية » هو ـ كما يقول

المحقق فى الصفحة 17 من مقدمته ـ : « العنوان الذى جعله الناسخ لهذه الرسالة » ٠ لا ندرى اذا كان هذا القول من المحقق هو قول على سبيل الظن أم على سبيل التحقيق ؟ فهل أدرانا مثلا أن الخط يختلف بين الغلاف وبين النص ٠ أم تبينت له قرائن أخرى أكدت له أن الناسخ جاهل أو لم ينتبه الى أن الكتاب كان ينبغى أن يسمى « الرسالة الالواحية » لانها متكونة من عدة ألواح لا « الرسالة اللوحية » لانها متكونة من لوح واحد ، حتى جاء هو ـ أى المحقق ـ فصحح غلطته ؟ ولا حاجة لنا بالجواب عن هذا السؤال ، لان قواعد التحقيق العلمى للمخطوطات لا تسمح برمى نساخ المخطوطات بمثل هذا القدر من الجهل بما يفعلون بالكتب ، حتى يتحقق جهلهم فعلا ٠

وهناك غير هذه من قواعد تحقيق المخطوطات غير مرعية فى هذا العمل من ذلك ما يكون عادة من ادراج مصورة بالكتاب من الصفحة الاولى على الاقل من المخطوط للتعريف بحالته من ناحية الخط ودرجة الحفظ ٠ ولو كان فعل ذلك لامكننا التحقق من فهم تلك الكلمة التى يقول (فى ص 17 من مقدمته) انه وجدها فى بداية النص وهى « رسالة فيضية » وأكتفى بالاشارة اليها دون تعليق فى حين أن الباحث العلمى والمحقق لا يقتنع منه بالتسجيل والملاحظة فقط ، فالتساؤل والتعليل هى بعض أدوات البحث العلمى الضرورية ٠

ونقول له أولا ان هذه الكلمة ليست فى بداية النص لانه جاء بعدها « الحمد لله والصلاة والسلام على نبيه ، فهذه رسالة فى ترتيب الادوية المفردة ألواحا بحسب قواها ٠٠٠» والعرب أو والمسلمون لا يبدأون بما قبل « الحمد لله » ، ولذلك فهى ليست من النص ، ويمكن أن نقول فقط انها توجد قبل النص ٠ ولذلك فقد لا تكون سوى تنصيص من الناسخ على أمر من الامور يتعلق بهذه الرسالة ، ويظهر انه يشير الى مصدرها فى ملك بعض المشهورين بجمع المخطوطات واقتنائها وأعتقد ان كثيرا من العارفين بالمخطوطات فى بلادنا يعلمون ما تزخر به خزائن المكتبات فى العالم وخاصة بالآستانة من مخطوطات طبية وغير طبية متأتية من تركة الجماعة الكبير لكتب المرحوم « فيضى » ومن هنا النسبة اليها فى ركن بأولها ٠

3 ـ فى نسبتها الى صاحبها

ولكن نسبة هذه الرسالة لابن سينا هى التى أزعجتنا قليلا • لا لاننا نضن بها على هذا الطبيب العالم ، ولا لاننا نريد أن نقلل من أهميتها فى ذاتها ••• ولكن لامرين آخرين : أولا لان نسبتها لابن سينا المعروف جدا والمعروفة آثاره جدا (حتى المفقود منها عناوينها معروفة) تحتاج الى دليل قاطع خارجا عنها ، كأن نصادف اشارة عنـد كبار المتخصصين فى دراسة ابن سينا الى أن له كتابا أو مصنفا موضوعه يمكن ـ على الاقل ـ أن نطابقه بموضوع هذه الرسالة • وليس من الحكمة أن نجازف بنسبة هـذا التأليف لابن سينا وقائمة أسماء مؤلفاته البالغ عددها كما يقول المحقق « زهاء 276 » تخلو منه • والامر الثانى يتعلق بالناسخ • ليس من ناحية الشك بما يصل الينا من الناسخين ولكن من ناحية قلة الثقة بشأن من يتحفظ منهم عن ذكر اسمه فى آخـــر المخطوط أو من يخل بتعريفنا بالاصل الذى نقل منه (كان فى ملك من ؟ وبخط من ؟) • وليس موجودا بآخر هذا المخطوط غير « تم الكتاب بعون الملك الوهاب فى سلخ شوال المكرم سنة 650» • مع أن أهل العلم بالتراث يعرفون ان فى أبسط آداب الكتابة أو التآليف ذكر أدنى قدر ممكن من المعلومات لتوثيق أعمالهم وحفظها من النحل والانتحـــال •

وعلى ذلك فكل مخطوط غفل من اسم ناسخه معروض للشك فى نسبته لمؤلفـــه اللهم أن تكون نسبته مشهورة أو موثقا بها بخط بعض العلماء فى شكل تعليق بحاشية النـــص •

وكل هذا لا يمنعنا أن نغلب الظن فى مثل هذه الحالة بنسبة الرسالة لابن سينـا كما وجد مكتوبا عليها • لكن من الواجب أن نشير الى هذا التوقف الذى عرض لنا فى نسبة الرسالة بعبارة « منسوبة لابى على بن سينا » • أما أن نلاحظ كما لاحظ المحقق بانه « لم يعثر من بين ما ذكر لنا الجوزانى من كتب أستاذه ابن سينا ولا من بين ما أثبته له ابن أبى أصيبعية وبروكلمان وغيره على أثر لكتاب تعرض فيه ابن سينا الى ذكـر هذه الامور » القائم عليها موضوع الرسالة ، ونستنتج مثله ، فيما بعد ، أن ابن سينا لابد أن يكون ألف الى جانب كتبه العامة فى الطب رسائل جزئية من بينها هذه الرسالة

(ص 16 من المقدمة) • فهذا استنتاج لا يسمح به البحث العلمى لانه استنتاج قائـم أساسا على قياس غير علمى وان كان قياسا منطقيا • وصفة ذلك أن المحقق وجــد القدامى يقولون ان كتاب القانون لابن سينا هو كتاب جامع فى الطب • ثم وجد أنهم يقولون ان ابن رشد تابعه فى تأليف كتاب جامع سماه « الكليات » • ثـم وجــد ان ابن رشد نفسه تقدم الى معاصره ابن زهر ليؤلف كتاب « التيسير » فى «الامور الجزئية» فى الطب فى شكل كناش لكتابه « الكليات » للتيسير على بعض المداوين من جهة تفسير العلاج وتركيبه ، لان كتاب « الكليات » جاء بالقول فى معالجة جميع أصناف الامراض بايجاز • فاستنتج المحقق من كل ذلك النتيجة التالية : ان « العادة جرت وتواترت بين علماء الطب الى القرون المتأخرة بتلخيص أمهات مصنفاتهم النظرية وتخصيص رسائل للعمل التطبيقى قاصدين بذلك تعميم الفائدة » وأصبحت هذه النتيجة مقدمة أولى فأضاف اليها المقدمة الاخرى وهى أن ابن سينا ألف مثله مثل ابن رشد مصنفـا جامعا واستخرج منها نتيجة معناها ان لابن سينا رسالة فى « الامور الجزئية على حـد تعبير ابن رشد » • ثم وهم أو هو يوهمنا كأنه كان يبحث طويلا للعثور على هذه الرسالة، ورغم أنه لم يعثر على تسميتها بين ما ذكر من مؤلفات ابن سينا الـ 276 عنوانا الا أنه على حد قوله « لم ييأس من الوقوف على مثل هذا الاثر ••• » •

وهذا وهم أو ايهام لانه يحدثنا بعد قليل ، بدون ربط معقول مع ما ذكره لنا سابقا من مقدمات واستنتاجات ، يحدثنا عن وقوع هذه المخطوطة بين يديه صدفة ، يقول : « فعرض علينا منذ سنتين الصديق الاستاذ المحامى الطيب العنابى نسخة مخطوطة قادته اليها يد الصدفة اذ أمكنه اقتناؤها يوما من أيام سنة 1954 من صناديق باعــة الكتب القديمة على ضفاف نهر السين بباريس » •

وقد أكون مخطئا فى تقدير الوهم والايهام ولكنى لا أعرف هذه البلهوانيات فى تحقيق المخطوطات لدى أساتذتنا المستشرقين ، وخاصة فى طريقة نسبتها الى أصحابها بمثل هذا الاحتجاج الضعيف •

4 ـ أمـير باريس !

وفى آخر المقدمة يبين المحقق أنه اعتمد فى تحقيق نص الرسالة على كتاب القانون فى الطب للمؤلف نفسه ـ ابن سينا ـ وكتابين آخرين أحدهما : كتاب مفيد العلـوم

لابن الحشاء فى تفسير ألفاظ المنصورى فى الطب للرازى ، والآخر تذكرة داود الانطاكى فى الطب أيضا ٠

وماذا فى نص الرسالة حتى يحققه على هذه الكتب ؟ الامراض والادوية وطريقة الحديث عنها ٠ فانك تقرأ الرسالة كلها (100 صفحة تقريبا) فلا تجد ولو فى هامش صفحة واحدة منها أدنى تعليق أو اشارة الى وجود اسم هذا المرض أو هذه الصيغة فى التعبير عن اسم هذا المرض ولا اسم هذا الدواء أو وصف لجانب من جوانبه ولا مقارنة واحدة بما فى هذه الرسالة من كل ذلك وبما هو موجود مثله أو خلافه فى واحد من هذه الكتب ٠

كل ما هنالك من تعليقات بهامش النص لا تعدو كونها تصحيحات لغوية أو نحوية بسيطة ٠ وحتى هذه التعليقات ــ ان صح ان تسمى كذلك ــ تترى فى النص على غير نسق موحد ٠ فقد تتوالى التصحيحات أحيانا مسبوقة بالحرف « خ » اشارة الى المخطوط وأحيانا بدونه ٠ حتى أن القارىء يمكن أن يميز ثلاث فترات منقطعة فى العمل بهذا الكتاب ٠ فنرى الملحق يغفل تدوين الحرف « خ » فى تعليقاته بعد الصفحة 33 ، ولا يستدرك على نفسه ذلك الا بعد الصفحة 59 ٠ وهذا لا يقع للمستشرقين وهو من عجيب انتباههم ودقة تنظيمهم فى العمل ٠

ولم يكن هناك داع بالمرة الى تكرار ذكر الـ « خ » فى كل تعليق ما دام الامر يتعلق بتحقيق نسخة واحدة ٠ ومجرد الاشارة الى ذلك فى المقدمة كاف ٠ وانما الادعى الى ذكره فى التعليق هى التصحيحات التى يبدو ــ وهى قليلة ــ انه رجع فيها الى الكتب الثلاث المذكورة وليست اجتهادات ٠

وذلك ما كنا فهمناه للوهلة الاولى من قوله : « أما تحقيق نصها فرجعنا الى كتاب القانون فى الطب والى ٠٠٠ والى ٠٠٠ » ٠ فهلا بين لنا مثلا من أى هذه الكتب صحح عبارة الاصل التى تقول : « أصل الرازبانخ يفتح سدد الكبد » فأبدل « الطحال » بـ « الكبد » فى النص (ص 67 ، التعليق رقم 2) ؟ وان كان ذلك اجتهادا منه أو للسياق ، فلماذا لم يبينه أمانة للتحقيق ؟ وهذا مثال أتينا به لندل على أن تحقيق النص يجرى على منهج واضح ومقرر بدقة فى المقدمة ٠

وقوله فى المقدمة (ص 17) انه اعتمد هذه الكتب ، أى القانون فى الطب وتفسير ابن الحشاء وتذكرة الانطاكى « لضبط المفردات ورسمها ومدلولها » ، فلم نر فى حاشية النص ولو اشارة واحدة الى ضبط أو رسم أو مدلول اعتمده لمفردة فى هذه الرسالة من تلك الكتب • وذلك فضلا عن مفردات من الادوية ، رغم تكرر الكثير منها فى العديد من لوحات الرسالة ، نجدها تتخذ من لوحة الى أخرى رسما مختلفا • ومن غريب ما يستوقفك من ذلك هذا الدواء المسمى « أمير باريس » فى ص 23 (اللوح الثانى) • فتستظرف التسمية ويكاد يذهب بك الخيال مذهبه لولا أنك تكتشف فى اللوحات الاخرى التى يجىء فيها ذكر هذا الدواء أنه « الانبر باريس » (مثلا فى ص 56) و « الانبارباريس » (مثلا فى ص 62) وأخيرا « أميراليس » (ص 237 فى فهرس الالفاظ الدخيلة) ولا تعرف فى الآخر ما يكون رسمه على الصحيح •

وقوله فى المقدمة كذلك (ص 17) انه « حرر » تعاريف مفردات الادوية بالاستفادة من « معجم كازمرسكى العربى الفرنسى ومن ملحق دوزى للمعاجم العربية ومما أعده المكتب الدائم للتعريف بالرباط من المشاريع المعجمية المتخصصة ••• » فلا أثر لاشارة واحدة عبر التعليقات الى واحد من هذه المراجع أو المعاجم المتخصصة التى رجع اليها المحقق بل يبقى القارىء على طول الرسالة محتارا حتى فى نطق كثير من مفردات الادوية •

صحيح حرر المحقق تعاريف هذه المفردات فى معجمه بآخر الرسالة ، ولكنه لم يحرر كيفية النطق بها ، وهذا مهم جدا • وهو من المآخذ الهامة على محققى التراث الذين لا يعنون بتحريك حروف الكلمات المستصعبة لفظا أو نحوا •

وليس فى تعليقاته على النص كذلك شرحا لتلك الامراض الكثيرة التى يصعب فهمها على قارىء اليوم ولو من أهل الاختصاص ، واذا لاحظنا أن أسماء هذه الامراض المذكورة بالمعجم الذى وضعه المحقق للمفردات الاصطلاحية أدركنا النقص فى هذا المعجم من هذه الناحية •

وعن هذا المعجم نفسه الذى وضعه المحقق فى آخر الرسالة يقول فى المقدمة موضحا كيفية بنائه وترتيبه : « ووضعنا مقابل كل لفظ فى معجمنا نظيره فى الفرنسية

والانقليزية وأحيانا اللاتينية ··· ورتبنا معجمنا حسب الترتيب الهجائى وخصصنا العمود الثانى لمقابل اللفظ باللغات الغربية والعمود الثالث لتعريف اللفظ حسبما جاء فى القانون فى الطب ذاكرين الصفحة التى وجد فيها اللفظ وفى العمود الرابع ما جاء فى شأنه فى مفيد العلوم لابن الحشاء طبعة الدكتور رينو ذاكرين رقم الفقـــرة المخصصة له فى العمود الخامس والاخير جمعنا الارشادات التى وجدناها فى تذكـرة أولى الالباب لداود الانطاكى » ·

وفى الحق ان أكبر الجهد فى عمل المحقق على هذه الرسالة يتمثل فى وضع هـــذا المعجم ولكن ليته كان معجما مفهرسا أو ليته وضع بجانبه فهرسا مستقلا يبين فيه الصفحات أو اللوحات الواردة فيها تلك الالفاظ الاصطلاحية ، ويعتبر فقـــدان هذا الفهرس نقصا فادحا فى عملية تحقيق هذه الرسالة وستظل بدونه بتراء ·

5 ـ مآخـــذ متعـــددة

وليس من مأخذ على الطريقة التى اتبعها المحقق فى عرض مادة المعجم الا أنهـــا طريقة سببت تشتيت الغرض منه · وهذا الغرض هو أساسا تعريف المفردة الطبية من خلال شروحها فى كل من قانون ابن سينا ومفيد ابن الحشاء وتذكرة الانطاكى ثـــم الاتيان بمقابل لها فى اللغات الاجنبية · فقد وضع المحقق المفردة وساق أمامها أفقيا على مدى أربعة أعمدة موزعة على صفحتين الترجمة ثم الشروح · فيقع فى بعض الاعمدة احيانا بياض وأحيانا ازدحام بالشروح ؛ وفضلا عن مجافاة ذلك للاخراج الفنى فان الاعمدة لا تحمل عناوينها كما فى الصفحة الاولى من المعجم ، مما يجعلها عرضة للالتباس بعضها ببعض فضلا عن وجود رقم بين قوسين فى أول كل شرح لا يعلم سره الا من تنبه فى أول المعجم الى أن ذلك الرقم يشير به المحقق الى موضع الشرح من الكتاب المعتمد عليه · وفى ظنى أن هذا ليس هو التنسيق الافضل للمعاجم من هذا النوع · فالانسب وهو المعتاد فى كتب المحققين أن تذكر المفردة بحرف غليظ أو مسطرا تحتها وتردف بالشروح المخصصة لها مع الاشارة الى رمز كل كتاب استخرج منه ذلك الشرح وبعد الرمز رقم الصفحة منه · ويجعل كل من الرمز والرقم بين قوسين بعد الشرح ·

ومما يلاحظ على هذا المعجم ان المحقق قدم المقابل الاجنبى للمفردة على ذكر شروحها ولو عكس لكان أنسب منه وأنسب كذلك للقارىء العربى · فضلا عن كون المحقـــق اضطر فى بعض المفردات الى ايراد شروح لها باللغات الاجنبية قبل الشروح العربية ·

وصنع المحقق بعد هذا المعجم جدولا عنونه بـ « احصاء الدخيل مـــن الفارسيـة واليونانية والهندية » · وفى الحقيقة ففى هذا الجدول دخيل من تلك اللغات التى ذكرها ومن غيرها كالسريانية ولذلك فقد كان بامكانه الاستغناء عن تعداد ذلك فى العنـوان لهذا الامر ولامر آخر هو أنه ذكر به مفردات لم يبين الاصل الذى انحدرت منه · كما أنه من غريب ما يلاحظ على هذا الجدول وجود مفردات غير دخيلة به كالقطران والعجيب أن المحقق ينقل أمامها من القواميس التى رجع اليها أن العبارة الاجنبية goudron هى أصلا من العربية qatran ، وكذلك كلمة « كرويا » ··· اللهم ان نرجع باللغات كلها الى أصل واحد ، أو تكون كلها أصول بعضها الى بعض ···

وكان من المستحسن من المحقق أن يتبع منهجا موحدا فى الاشارة الى اللغة الاصلية للمفردة الدخيلة ، وذلك بذكر اسم اللغة كاملا أو بالاقتصار على حروفها الاولى رمزا اليها ، وأن يذكر ذلك قبل أو بعد المفردة · لا أن يتداخل ذلك على نحو لا يسمح للباحث أن يستقرىء فى الجدول الالفاظ الدخيلة من الفارسية أو اليونانية أو الهندية أو غيرها من اللغات ·

وكان الاهم من ذلك ، أن يعتنى بوضع فهرس لهذه المفردات حسب وجودها فى صفحات الرسالة أو ألواحها ، لا أن يهتم بوضع هذا الجدول فى المفردات الدخيلة ، لان بيانها بالمعجم كاف فى حد ذاته · فضلا عن كون هـذا الجـدول لم يستقم بالمـرة تنظيمه المطبعى ، وأدخل بذلك على هذه الالفاظ الدخيلة ارتباكا كبيرا · انظر مثـلا لفظة «اسفنج»، تجد أمامها رقم 13 ولا تدرى عما يدل (وهو فى الحقيقة ترتيبه العددى المجرد فى قائمة المعجم) وأمامه ثلاثة أسطر يقطع ثانيهما عن الثالث قوس مغلقـــة وبياض فى بقية السطر ، وكل ذلك كان بالامكان استدراكه عند تصحيحات بروفات المطبعة حتى لا تسقط الكلمة الاخيرة وتكون بالسطر الموالى ·

ويمكن ابداء عدة مآخذ على بناء وتركيب كل من المعجم والجدول ، كما يمكن ملاحظة نقص واضطراب غير قليلين فى المعلومات الموجودة بهما من ذلك :

ـ أدوية غير مذكورة بالمعجم (رومانين ، الزبيب ، سرخس ، البد ٠٠)٠

ـ أدوية ليس لها أرقام فى جدول احصاء الدخيل ، فهى ضائعـــة لانه ليس هناك

ـ أدوية غير مذكور مقابلها باللغة الاجنبية مع وجود هذا المقابل بالجدول الـذى عنونه بـ « احصاء الدخيل » وذكر فيه الاسماء الاجنبية للادوية العربية (بنطفلن٠٠)٠

ـ تضارب أرقام الادوية ، فبعضها يتخذ رقما غير الذى يعطى له فيما بعد بجدول احصاء الدخيل (قلقديقون ، قلقطار ٠٠) ٠

ـ أدوية ليس لها أرقام فى جدول احصاء الدخيل ، فهى ضائعة لانه ليس هنـاك فهرس يرشد الباحث الى موضع وجودها فى النص (دوسنطاريا ، سرخس ، بندق ، حى عالم ، حصف ، اسقلوفندريون ٠٠) ٠

ـ أدوية مذكورة بجدول احصاء الدخيل وغير مذكورة بالمعجم (حى عالم ، حصف، دوسنطاريا ، نيلوفر ٠٠) ٠

ـ أدوية رسمها فى المعجم غير رسمها فى جدول احصاء الدخيل (انبرباريس ، اميراليس ، أمير باريس ، رتة ، رثة ، حندقوقى ٠٠) ٠

ـ أدوية موجودة بجدول الدخيل دون أن يذكر أصلها باللغة الاجنبية (بليلج 63، جوراش 105 ، اسفيداج 14 قلقديون 394 ، موميا 492 ٠٠) ٠

ـ أدوية تذهب شروحها الى غيرها وتقع لها شروح خطأ : اسطوخدوس واسفيداج (قارن بينهما فى المعجم وبينهما فى جدول احصاء الدخيل) ، قراصيا (موجودة فى غير موضعها من المعجم) وضيعت شرحها مع ذلك وهو موجود فى مكان آخر . (أنظر بعد 381 وفى الحقيقة أخذت رقم 369) .

6 ـ مآخـــذ أخـــرى

ولم يشر المحقق الى عدة أمور مهمة منها : ـ اسماء أدوية لم يقف على ذكر أو شرح لها فى الكتب التى اعتمدها مصادر له (بنطفلن ، برسيا ، حشيشــة الكلـــب 125 خشخاش برى 158 ، داحس 173 ، دهن الكافج 190 ٠٠) ٠

ـ مفردات سجل شرحها فى معجمه دون أن يذكرها هى نفسها (انظر الرقم 111 ص 140 من المعجم ، الشرح : « انها شجرة قفرية على قدر الذراع أبيض الورق ثمرته كالفلفل دهنى لبنى » ٠٠) ٠

ـ مفردات لم يحرر تعاريفها ويقدم لها شروحا متناقضة ، فلا يدرى المقصود منها بدقة فى الرسالة ٠

(خز soie 153 ، قدم لها المحقق شرحان ، أحدهما « صنف من الحرير » والآخر « ليس هو الحرير بل هو دابة بحرية ذات قوائم أربع فى حجم السنانير لونها الى الخضرة يعمل من جلدها ملابس نفيسة تتداولها ملوك الصين » ٠

ـ مفردات موضوعة فى غير موضعها من الترتيب الهجائى (جوزبوا فى حرف « ب » ، جدوار بعد حنطيانا ٠٠) ٠

ـ هناك كثير من مستخرجات الحيوانات الحية أو الميتة أو فضلاتها غير مذكـــورة بالمعجم (انظرها فى النص ص 93 مثلا كالثعلب والارنب وابن عرس والحمام ٠٠) ٠

ـ أدوية لم يذكر شروحا لها بالعربية ، وشرح لها بالفرنسية فقط ، مع أن هناك شروحا لها بالعربية (عذبة 320 ٠٠) ٠

ـ أدوية سقط مطبعيا المقابل الاجنبى لها عن السطر الموجودة فيه (غب 337) ٠

ـ مفردات أدوية موجود مقابلها الاعجمى وغير موجودة هى نفسها ولا يستطيع الباحث أن يهتدى اليها فى النص lésion sans fracture 531 ٠٠

ـ لا تجد احالة مفردة على مفردة عندما تختلف الاسماء والمسمى واحد (حب غار ، كرز غار ، تجدهما معا فى عمود واحد ٠٠) ٠

هناك أرقام لمفردات لا هى موجودة بأعيانها ولا موجـــود مقابلها ولا شروحهـــا (الرقم 386 ٠٠) ٠

ومع الاسف أخيرا فحتى عدد مفردات الادوية التى ذكر المحقق فى المقدمة أنـــه أحصاها فى المعجم فكانت 539 ليس هو العدد الكامل لما فى معجمه من مفـردات والعدد الصحيح ربما الاقرب أن يكون 545 اذ هناك عدد تكرر مرتين وعددين تكررا مـــرة واحدة : (376 ، 407 ، 503) ومع ذلك فليس هذا العدد هو العدد الكامل لمفردات الادوية الموجودة بالرسالة ، فهناك كثير سقط ولم يسجله بالمعجم ٠

وليت المحقق يضع للرسالة فهرسا دقيقا يجمع فيه بين تعداد الصفحات والالواح المذكورة بها المفردة الطبية وبين الشروح الموجودة لها بالمصادر يضاف الى ذلك مقابلها فى اللغات الاجنبية كما تنص عليها المعاجم المختصة ، وينشر هذا الفهرس الجامـــع بأحدى المجلات المتخصصة فى الابحاث والدراسات العلمية ٠ فانه يسدى بذلك خدمة كبيرة للباحثين الذين يدينون له بتحقيق هذه الرسالة ويقدرون جهده فى اخراجها ٠

ولم ننته من التعقيب على كلام المحقق فى « المقدمة » فهو بعد أن تحدث عن احصاء الدخيل يقول انه استنتج « أن نسبتها لا تتجاوز الثلث من جملة المصطلحات وأن لغة الطب بقيت قارة على مر العصور » ولا ندرى كيف استخرج هذه النسبة ولا عـــلى أى أساس حكم بأن لغة الطب بقيت قارة على مر العصور ٠ لعله يقصد لغة الطـــب العربية ٠٠ وحتى هذه ٠٠

7 ـ لا يبيض الكتاب حتى يسود

وأنا أعتقد أن المحقق قد يكون له مبرره فى نشر الرسالة قبل أن يتقن تحقيقهـا وفهرستها ٠ ولكنه حين تفطن الى ما فيها من مناقص لم ير بدا من أن يسجل ذلك فى آخر المقدمة ، لا عبثا أو تواضعا على عادة بعض كبار المحققين ولكن اعترافا بالحقيقة ، فهو يقول : « ونحن اذ نقدم هذا العمل نشعر بما يشوبه من نقص وخلل ٠٠ » ثم يقول : « وما كان فى نيتنا الا أن نساهم بقسط متواضع لخدمة العربية لا سيما فى هذا الظرف التاريخى وقد بقى فيه مشكل التعريب معروضا على ضمير الناطقين بالضاد،

فنضيف الى أطروحتنا لغة الرياضيات فى العربية هذه اللمحة فى ميدان ليس ميداننا واختصاص غير اختصاصنا » ٠

وقد قلت فى أول مقالى ان المحقق أستاذ فى الرياضيات أصلا ، ثم أصبح أستاذا بالجامعة يدرس العربية بحكم حصوله على التبرير والدكتوراه فى العربية من باريس ، وانه لذلك اتخذ نحوا أو اتجاها من البحث يجمع فيه بين اختصاصه القديم واختصاص التدريس بكلية الآداب ٠ ولذلك قلنا فى أول هذه الملاحظات انه وهم أو كأنه يوهمنا بأنه كان يبحث عن رسالة فى الادوية المفردة لابن سينا حتى أعثره عليها المحامى الاستاذ الطيب العنابى ٠ وانما قلنا ذلك لاننا شعرنا أنه جازف فى نسبة هذه الرسالة لابن سينا وهو من غير أهل الاختصاص لا فى الطب العربى القديم ولا بعلم المخطوطات وما يقع فيها من انتحال وتشويه ٠

ولم نر كيف خدم « مشكل التعريب » من خلال عمله على هذه الرسالة ٠ فلو خدم تحقيق الكتاب لوجه تحقيقه لكان أفضل لان خدمة التعريب من خلال هذا النص أو غيره كانت تكون احدى النتائج الحتمية فى عملية التحقيق عندما تكون على الوجه العلمى الدقيق ٠ فالتعريب عبارة عن وضع معاجم مفهرسة دقيقة للكتب التى هى مظنة للمصطلحات العلمية ٠ ولم يصنع المحقق من ذلك الا مسخا من معجم ومسخا من احصاء٠

ولو كان التعريب هدفه الوحيد من تحقيق هذه الرسالة لاستعرض ، وهو العالم المتخصص فى تعريب مصطلحات العلوم ، جهود مواطنيه المحدثين والمعاصرين فى ميدان علوم الطب من أمثال الشيخ عمر التونسى الذى كان كبير المترجمين فى عصر النهضة بمصر زمن محمد على (لعمر التونسى هذا قاموس فى المصطلحات الطبية مطبوع ومعروف) وهناك من بين أطبائنا المعاصرين ومن بين علمائنا المعتنين بالكتب الطبية من نشر بعض المصنفات بالعربية ومن يعكف على قاموس فى تعريب المصطلحات الطبية ٠ ولم نر لهم ولا لمؤلفاتهم ذكرا فى عمل الاستاذ المحقق ولا فى مراجعه ٠

وليس خليقا بنا الاحتدام على التعريب لوجه التعريب وهناك علوم صحيحة ينبغى اتقان العلم بها قبل الانصباب صبا على تعريب ما فيها من اصطلاحات ، من ذلك علم

احياء التراث أو تحقيق المخطوطات ، وهو وعلم الآثار سواء فى الاهمية وفى الوسائل والمناهج الدقيقة المحققة للغرض منه ·

ومهما يكن المبرر لدى المحقق فى التعجيل بدفع عمله الى المطبعة فانه مؤاخذ بما فى عمله من نقص وخلل ·

وقد أكون معرضا فى هذه الملاحظات ما سبق منهاو ما لحق ، الى اغضاب الاستاذ المحقق ، وأنا لا أحب اغضاب احد فى غير الحق وفى غير العلم كما لا أحب أن أظهر بمظهر المنتقد على العلماء · ولكنى أعتقد أن كثيرا من طلبتنا المنصرفين الى تحقيق التراث وقراءة النصوص القديمة يستفيدون من هذه الملاحظات فى مستقبل أعمالهم ·

وقد يكون فى النقد أحيانا ما يغضب صاحب العمل المنقود ولكن الكتاب ـ كما يقال ـ « لا يبيض حتى يسود » من التصحيحات والاستدراكات عليه ·

وقد نظرنا الى حد الآن فى تعريف المحقق بهذه الرسالة المنسوبة لابن سينا وتتبعنا عمله عليها كما عرضه فى المقدمة بقى أن نسجل بعض ملاحظاتنا على الجزء الذى خصصه من مقدمته للتعريف بمؤلف الرسالة ويلى ذلك كيفية تحقيقه للنص ·

8 ـ لا للتعريب لوجه التعريب

هناك أمور كان ينبغى على المحقق أن يلاحظها فى المقدمة أو يجيب عنها :

ـ التاريخ المذكور بآخر النسخة وهو 650 ، هل هو تاريخ المخطوطة الام التى نقلت عنها هذه المخطوطة أم تاريخ نسخها هى ؟ وكان عليه أن يتساءل عن ذلك على الاقل ان لم يجد من يستعن به على حل لهذا السؤال (وعندنا بالمعهد القومى للآثار أكثر من متخصص فى تأريخ المخطوطات) ·

ـ هل المخطوط مرقم الصفحات أو الاوراق أم غير مرقم ·· ؟ ومهما يكن من أمر فقد كان من الواجب أن يضع فى النص المطبوع علامة بين كل صفحة وأخرى من صفحات المخطوط ·

ـ هل الالواح ، حتى عندما تكون قصيرة ، تتوالى بعضها اثر بعض فى صفحة واحدة ، أم كل لوح مستقل فى كتابته عن اللوح الآخر ؟ والى أى حد راعى المحقق أو خالف النظام المتبع فى تدوين الرسالة ٠

ـ لم يذكر المحقق مصادره فى ترجمة ابن سينا ولا ذكر فهرسا للكتب والمعاجم التى رجع اليها لتحقيق نص الرسالة ، وكان يستحسن منه عندما عرض لتعداد مصنفات ابن سينا أن يشير الى ما طبع منها ، استنادا ـ على الاقل ـ الى المعلومات الموجودة فى ذلك بدائرة المعارف الاسلامية أو بروكلمان أو سزكين ، ان أمكن ٠

ـ لم يهتم المحقق بشرح مقدمة المؤلف وتحليلها ، والحال انها مدخل مهم لفهم الرسالة من حيث موضوعها ومن حيث الغاية منها ٠ وكان بامكانه أن يقسمها الى فقرات واضحة ويشير بالخصوص الى ارقام الالواح التى ذكرها المؤلف على سبيل الاستشهاد فى مقدمته ٠

ـ الالواح فى الرسالة وردت مرقمة عدديا من واحد الى مائة ثم يتوالى ترقيمها بحساب الجمل بعد المائة (قا ، قب ، قج ، قد ، قه ٠٠ الخ) ولم يبين المحقق السبب فى اختلاف الترقيم بل لم يشر الى ظاهرة الترقيم الجملى ، ويعلل لها ٠

ـ لم يلاحظ المحقق أن المؤلف يرتب الادوية فى كل لوح حسب نظام معين ، وهو لديه وبين ما ينص عليه المؤلف من تقسيم الالواح المذكورة الى عناصر ثلاث : الالواح المتعلقة بـ « الاعضاء » والالواح المتعلقة بـ « الامراض » وأخيرا الالواح المتعلقة بـ « الاخلاط » ٠ وانما يبدو أن المحقق سلم بنهاية المخطوطة ثقة بالناسخ الذى ذكر فى آخرها انها تمت والحال أنه ليس هناك خاتمة بقلم المؤلف بعد اللوح الاخير ٠

ـ لم يلاحظ المحقق أن المؤلف يرتب الادوية فى كل لوح حسب نظام معين ، وهو يعبر عنه فى المقدمة بقوله : « بحسب قواها وأفعالها ومنافعها » ، كما أن الالواح جملة هى فى الرسالة على ثلاثة أنواع ، بحسب ما تتعلق به ، فهى ثلاث مجموعات : « المتعلقة بالاعضاء والامراض والاخلاط » وكانت تساعده هذه الملاحظة على حسن اخراج النص وتسهيل الغاية من الرجوع اليه ٠

ـ وللتعريف بابن سينا فى المقدمة أورد المحقق من أخبار ابن سينا فى كتب التاريخ والطبقات والتراجم شذرات متفرقة لا تعطى الا صورة مهزوزة عن شخصية الرجل • وكان من الممكن أن تكون طريقة عرضها على غير ذلك النحو الكاريكاتورى : فلان كان من الناس من يرفعه الى السماء ، ومنهم من يخفضه الى الارض ، ومنهم من مجده حين مات ، ومنهم من سخر به بعد وفاته ، وكان هو فى ذاته شديد العجب بنفسه سىء الظن بالناس جميعا • فهذا النحو من سياق الاخبار لا يكون فى البحوث والدراسات العلميـــة •

ونحن نسأل المحقق من اين له النسبة لابن سينا بقوله : « المذهب السينى » ؟ هل وجدها للقدامى أم اخترعها • وله الحق فى اختراع ما يشاء فى اللغة ، ولكنه يعلم أن عبقرية العربية قد تسيغ اختراعا دون اختراع • وللقدامى ـ فيما يحضرنى الآن ـ فى ذلك : « البهشمية » نسبة لابى هاشم المعتزلى ، ولكـن ليس « الهشميـــة » أو «الهاشمية» • واذا أخذنا بما ذكره المحقق فى النسبة لابن سينا قلنا أيضا «السينية» • وقد نخشى عند ذلك أن تلتبس الاشعة السينية بالفلسفة السينية ، وخصوصا أن صاحب هذه الفلسفة طبيب ! ومهما يكن من أمر ، فالذى يبدو أن المحقق لم يخترع شيئا من ذلك وانما عرب النسبة لابن سينا فى اللغات الاوروبية • ولكنا نقول له وهو الحفى بالتعريب : انه اذا كان تعريب « الاشعة السينية » موفقا فان تعريب « المذهب السينى » غير موفق ، بل هو تعريب غير مرغوب فيه •

وقد قلت ان هذا «التعريب» الذى قد يكون أنشط المحقق لنشر هذا الكتاب أفسد عليه خطته فى تحقيق الرسالة • وهو أخيرا، فى رأينا، لم يخدم لا التعريب ولا التحقيق•

لم يخدم التعريب ، لان أهم ما يمكن خدمة التعريب به ، من خلال هذا الكتاب ، هو أن يدون المحقق ثبتا خاصا بالمصطلحات التى قد يكون وجدها فى هذا الكتاب ولم يجدها فيما رجع اليه من قواميس التعريب العلمية والمعاجم المتخصصة فى المصطلحات العربية للطب •

ولكنه حتى بالمعجم الذى وضعه لهذه الرسالة لم يخدم التعريب لانه لم يستطع أن يستوعب فيه جميع مصطلحات الكتاب ولا بين مواضعها منه ، ولم يستطع أن يقودك فيه

الى ما شرحه من عباراته والى ما لم يشرحه ، والى ما وجد له مقابلا فى اللغات الاجنبية والى ما لم يجد له مقابلا ، والى ما يعرفه أهل التعريب من المفردات الموجودة فى الرسالة والى ما لا يعرفونه ·

ولم يخدم التحقيق ، لان عملية التعريب كانت تكون أسهل من تهيئة المخطوط لقراءة صحيحة واضحة ·

9 ـ تحقيــق التحقيــق

فلنأخذ فى قراءة النص ونقتصر من ذلك على مقدمة المؤلف ، فهى مثـــال لسوء التحقيق الذى وقع لها ، لا من حيث تراكم عبارات المؤلف وجمله دون فاصلة أو نقطة بينها ، ولا من حيث افتقار الحاشية الى تعليقات (فلا توجد الا فاصلة ونقطة وحيدتين على مدى صفحتين استغرقتهما المقدمة · والمقدمة كلها مقسمة الى فقرتين ، بينما تحتاج الى أن تكون مقسمة بصورة طبيعية الى خمس فقرات · وفى الحاشية لا تجد الا أربع تصحيحات بينما تتطلب المقدمة تعليقات أهم من ذلك ، وتتطلب خاصة عــدة شروح واحالات على أرقام اللوحات التى يشير اليها المؤلف فى الرسالة) ·· لا من حيث ذلك فقط ولكن كذلك من حيث عدم تحليل المحقق لهذه المقدمة التى تعتبر بمثابة مفتاح للرسالة ، اذ فيها بين المؤلف كيفية استعمال تلك الالواح · لكن المحقق ، بما تركه عليها من الاضطراب ، أو بما زاده عليها من الاضطراب، بسبب تلك العبارات التى أقحمها من عنده وهو يعتقد انها تتمم المعنى أو توضحه ولكنها ـ كما سنـرى ـ تحـــرف النص وتصحفه ، لم يساهم فى مساعدة القارىء على اكتشاف مفاتيح هذه الرسالة فى المقدمة التى كتبها المؤلف لذلك ، وكان على المحقق فى الاقل مناولتها القارىء دون زيـــادة تحريف على ما قد يكون فى النسخة من تحريف ·

وفيما يلى صورة المقدمة محققة بعناية المحقق وتعليقه وصورة أخرى أمامها للمقارنة :

لحمد لله (١) والصلاة (٢) على نبيه
.سالة فيضية ،

هذه رسالة فى ترتيب الادوية المفردة
لواحا بحسب قواها وأفعالها ومنافعها
لمتعلقة بالاعضاء والامراض والاخلاط
كل لوح منها يتضمن أدوية كثيرة
ختلفة الذات متشابهة القوى فى
لافعال ليكون للطبيب العارف تذكرة
تى حاول مرضا من الامراض وجد جميع
لادوية النافعة منه مسطورة فى اللوح
لخاص به حاضرة لناظره ممثلة
ين يدى خاطره يتصرف منها ويستخلص
نها ما يكون بمقصده لائقا ولغرضه
وافقا اما لاكثر منفعه أو لاقوى
علا والذى تصحبه منفعة أخرى

(١) خ : لوليه
(٢) خ : الصلوة

الحمد لوليه ، والصلاة على نبيه . (١)

هذه رسالة فى ترتيب الادوية المفردة
ألواحا ، بحسب قواها وأفعالها ومنافعها ،
المتعلقة بالاعضاء والامراض والاخلاط
كل لوح منها يتضمن أدوية كثيرة ،
مختلفة الذات ، متشابهة القوى فى
الافعال ، لتكون للطبيب العارف تذكرة ؛
متى حاول مرضا من الامراض وجد جميع
الادوية النافعة منه مسطورة فى اللوح
الخاص به ، حاضرة لناظرة ، ممثلة
بين يدى خاطره ، يتصرف فيها (٢) ، ويستخلص
منها (٢) ما يكون بمقصده لائقا ولغرضه
موافقا : اما لأكثر منفعة ، أو لأقوى
فعلا من (3) الذى تصحبه منفعة أخرى

(١) أخطأ المحقق فى قراءة الحمدلة . اذ من الواضح هنا أن المؤلف أراد أن تكون
لعبارة فيها مبنية على السجع أو المزاوجة اللفظية ، مثلما ذلك فى القرآن وأن
تبع فيها رسم المصحف (الصلوة) تبركا . وهذه ظاهرة عامة لدى المؤلفين المسلمين
ى بدايات كتبهم .
(٢) للمناسبة بين حرف الجر والفعل . يراجع المخطوط .
(3) المعنى لا يستقيم الا بذلك . يراجع المخطوط .

او (بالاحرى) مضرة فأما المبتاع أو المألوف
المعهود أو السهل الوجود أو غير ذلك
من الاشياء المطلوبة والأغراض المقصودة
فيكون مثلا اذا أراد (ان أحال على)
خلط صفراوى تطلب لوح
الأدوية المسهلة للصفراء فيجد فى جملتها
التمر الهندى فينظر فيه فيجده مخشنا للصدر
ضارا بالسعال لا يصلح لغرضه فيعدل

أو مضرة (4) ، واما (5) للمبتاع أو المألوف
المعهود أو السهل الوجود ، أو غير ذلك
من الاشياء المطلوبة والاغراض المقصودة ٠
فيكون مثلا اذا أراد (**استفراغ أو**
اسهال) (6) خلط صفراوى يطلب (7) لوح
الادوية المسهلة للصفراء (8) ، فيجد فى جملتها
التمر الهندى (9) ، فينظر فيه فيجده مخشنا للصد
ضارا بالسعال (١٠) لا يصلح لغرضه ، فيعدل

(4) الزيادة التى زادها المحقق للنص بين قوسين تخل بالمعنى ٠ ولا تخفى مع ذلك غرابتها عن أسلوب المؤلف ٠ وانما يريد صاحب الرسالة أن يقول : ان للطبيب أن يختار من بين الادوية الموصوفة فى اللوح الدواء الاقوى تأثيرا من غيره المقترن بمنفعة أخرى عارضة أو غيره المقترن بمضرة محتملة ٠ وذلك بطبيعة الحال بالنسبة لحالات مرضية خاصة ٠ وستأتى فى كلام المؤلف عدة أمثلة للدواء الذى منفعته المقصودة ضعيفة ولكن منه منفعة أخرى ، والدواء الذى منفعته حاصلة ولكن منه مضرة من ناحية أخرى ٠

(5) لا يستقيم التعبير الا بهذا التصحيح والا فالعبارة تبقى غامضة ٠ يراجع المخطوط ٠

(6) العبارة التى زادها المحقق للنص غير محققة لمراد المؤلف ولا هى مقتبسة من معهود تعابيره فى سائر المقدمة ٠ مع الملاحظة بأن الكلمة هنا يجب أن تكون مصدرا مثلما هو الاستعمال فى بقية المقدمة بعد كل الافعال المسبوقة باذا الظرفية ٠ واذا صح أن بالنص بياضا فى هذا الموضع ، فالكلمة الانسب لسده هى « استفراغ » أو « اسهال » ٠ ويؤكد ذلك استعمال المؤلف لأحد هذين اللفظين بعد قليل ٠

(7) أخطأ المحقق هنا فى جعل الفعل يعود على المخاطب ، فجميع أفعال المضارعة فى هذا النص تعود كلها على ضمير الغائب ٠

(8) وهو اللوح (قمد = ١٤٤) وعنوانه « فى الادوية المسهلة للصفراء » بالصفحة ١١٣ ـ ١١٤ ٠

(9) وهو بالسطر الرابع من هذا اللوح ٠

(١٠) والدليل على ذلك أن التمر الهندى لا يوجد فى اللوح الخاص بالادوية « التى تلين الصدر والحلق وتنفع من السعال » وهو اللوح الرابع والاربعون ص 50 وما بعدها ٠ ويمكن هنا التساؤل عما اذا كان المؤلف قد وضع فى هذه الرسالة طريقة لتمييز مضار الادوية من منافعها أم يعول على ما للطبيب من معرفة ضرورية بذلك ٠

نه الى الترنجين فيجده أيضا
سعيفا وفعله لا يبلغ قدر الحاجة الى
ستفراغ الخلط فيعدل عنه الى
لهليلج الاصفر فيجد انه لا يجوز
ستعماله قبل النضج لما فيه من التخشين
لأحشاء فيعدل عنه الى الصبر
يجده مضرا بالحبالى فيعدل عنه الى
راب الورد فلا يكون لحاضرا
يعدل عنه الى الخيار شنبر فيجده
وافقا لغرضه فيستعمله وعلى هذا
قياس يجرى نظيره فى جميع آلادوية
لستعملة فى معالجة الامراض ، وأيضا
متى أراد تركيب دواء من الادوية

عنه الى **الترنجين** (11) ، فيجده أيضا
ضعيفا وفعله لا يبلغ قدر الحاجة الى
استفراغ الخلط ، **فيعدل عنه الى**
الهليلج الاصفر (12) ، **فيجد أنه لا يجوز**
استعماله قبل النضج ، لما فيه من التخشين
للأحشاء (13) فيعدل عنه الى **الصبر** (14) ،
فيجده مضرا بالحبالى ، فيعدل عنه الى
شراب الورد (15) ، فلا يكون حاضرا (16) ،
فيعدل عنه الى **الخيار شنبر** (17) ، فيجده
موافقا لغرضه ، فيستعمله • وعلى هذا
القياس يجرى نظيره فى جميع الادوية
المستعملة فى معالجة الامراض •
وأيضا فمتى أراد تركيب (18) دواء من الادوية

---

(11) الترنجين مذكور بعد التمر الهندى ، مما يدل على مشابهته اياه فى القوة •

(12) الهليلج الاصفر فى رتبة أضعف من الترنجين لانه يأتى فى رتبة ثانية بعد تمر الهندى فى هذا اللوح •

(13) يجد ذلك باللوح الخاص بـ « الادوية التى تقوى المعدة وتخشنها وتنفع جعها » وهو اللوح التاسع والاربعون ، ص 57 ، وقد أخطأ المحقق حيث صحح فى النص تخشنها» وهى صحيحة بـ «تسخنها» وهى غلط • لان المقصود تقوية المعدة, أى تخشينها ، الدليل على ذلك عبارة المؤلف فى المقدمة « تخشين الاحشاء » •

(14) الصبر موجود فى رتبة الهليلج الاصفر •

(15) الورد موجود فى الرتبة الثالثة بهذا اللوح ، أى قبل رتبة الصبر وقبل رتبة تمر الهندى والترنجين معا •

(16) أى اذا لم يجده أو لم يمكن استحضاره فانه يعدل عنه الى الخيار شنبر •

(17) الخيار شنبر والتمر الهندى فى رتبة واحدة بهذا اللوح • ويبدو أن هذا المعنى مض على المحقق فترك النص غامضا ودون تعليق •

(18) المقصود هنا ، بتعبيرنا الحديث ، « استعمال » ، ونجد التعبير بـ « تركيب » داولا بهذا المعنى فى العامية •

فينظر الى الغرض المطلوب والمعنى المقصود
ويلتمس لوحه فيجد فيه أدوية كثيرة منها حارة
ومنها باردة ومنها رطبة ومنها يابسة ومنها
معتدلة ومنها قوية ومنها ضعيفة الفعل
ومنها مرة بشعة ومنها سهلة الوجود ومنها
عزيزة الوجود فيتعين اختياره بما يكون
صالحا لقصده موافقا لغرضه من جميع
الجهات فيجده فيكون موافقا ٠ مثلا اذا
أراد تركيب دواء مفرح فيطلب اللوح الثامن
والاربعين (I) وهو لوح الادوية المفرحة
فيجد فيه أدوية كثيرة مختلفة القوى
والأفعال فيقصد منها الباردة ان كانت
مراده فيصادف فيها الصندل والطباشير
والأملح والكافور واللؤلؤ والبد والكهرباء
وغيرها فيجد منها ما يشكل غرضه ويوافق
مقصوده وكذلك يفعل فى غيرها ٠

(I) الأربعـون ٠

فينظر الى الغرض المطلوب والمعنى المقصود ،
ويلتمس لوحه ، فيجد فيه أدوية كثيرة منها : حار
ومنها باردة ، ومنها رطبة ، ومنها يابسة ، ومن
معتدلة ، ومنها قوية ، ومنها ضعيفة الفعل ،
ومنها مرة بشعة ، ومنها سهلة الوجود ، ومنها
عزيزة الوجود ؛ فيتعين اختياره بما يكون
صالحا لقصده موافقا لغرضه من جميع
الجهات ، فيجده فيكون موافقا ٠ مثلا اذا
أراد تركيب دواء مفرح (I9) ، فيطلب اللوح الثا
والاربعون (20) وهو لوح الادوية المفرجة (2I)
فيجد فيه أدوية كثيرة مختلفة القوى
والافعال ، فيقصد منها الباردة ان كانت
مراده ، فيصادف فيها الصندل والطباشير
والأملج والكافور واللؤلؤ والبد (22) والكهربا
وغيرها . فيجد منها ما يشاكل غرضه ويوافق
مقصوده ، وكذلك يفعل فى غيرها ٠

(I9) والصحيح ما أثبتناه ، وقد يكون هكذا بالاصل ٠ لان المقصود ذهاب الوحشة ، وسيتبين ذلك من عبارة المؤلف فيما بعد . ومن عنوان اللوح الخاص بذلك ٠

(20) ما فى الاصل صحيح . والمحقق خطأه لانه لـــم يلتفت الى أن الفعل قبله مبنى للمجهـــول ٠

(2I) وعنوان هذا اللوح : « فى الادوية التى تنفع من الخفقان ويسر النفس وتقوى القلب وتفرجه وتذهب الوحشة » بالصفحة 55 ٠

(22) فى اللوح المشار اليه ، أى اللوح الثامن والاربعون كلمة « البد » ساقطـــة من النص ، ولم ينتبه المحقق اليها ، مثل كثير غيرها ، ولذلك يخلو معجمه منها ٠ وقد ينـــا ذلك سابقا فى موضوعه ٠

وأيضا متى وجد ان دواء من الأدوية
عزيز أو كان متعذرا واحتاج الى دواء يقوم
مقامه ويكون بدلا منه فينظر الى القوة
التى كانت يتبعها فى ذلك الدواء الى
الفعل المقصود منه فيلتمس اللوح الخاص
فيجد فيه أدوية كثيرة شبيهة فى ذلك
الفعل ومشاكلة فى المعنى فيخلق منها
ما يحتاج له والاشبه والاقرب الى فعله
فيكون للقلب فينظر فى لوحه
فيجد فيه المرجان وهو مقارب له فى ذلك الفعل
فيجده بدلا منه عوضا عنه وكذلك ان كان
غرضه منه قطع نفث الدم فيطلب لوحه

وأيضا ، متى وجد أن دواء من الادوية
عزيز ، أو كان متعذرا واحتاج الى دواء يقوم
مقامه ويكون بدلا منه فينظر الى القوة
التى كان يتبعها ذلك الدواء (23) والى
الفعل المقصود منه ، فيلتمس اللوح الخاص ،
فيجد فيه أدوية كثيرة شبيهة فى ذلك
الفعل ومشاكلة في القوى (24) فيستخلص (25) منها
ما ينتج له الاشبه والاقرب الى فعله ؛
فيكون (اللؤلؤ) (26) للقلب ، فينظر في لوحه (27)،
فيجد فيه المرجان ، وهو مقارب له فى ذلك الفعل
فيجده بدلا منه وعوضا عنه ؛ وكذلك ان كان
غرضه منه (28) قطع نفث الدم ، فيطلب لوحه (29)

---

(23) يراجع المخطوط للتأكد من رسم هذه المجلة ، لان العبارة لا تكون صحيحة الا على أحد وجهين ، اما « فينظر الى القوة التى يتبعها ذلك الـــدواء » واما : « ٠٥ التى كان يبتغيها من ذلك الدواء » ٠

(24) أو « القوة » ٠ وما أثبته المحقق لا يتماشى مع المعنى المقصود ، اذ لا معنى لكلمة « المعنى » هنا ٠

(25) لا معنى هنا لعبارة « فيخلق » التى أثبتها المحقق ٠ واذا صح أن النص لا يسمح الا بهذه القراءة فيجب تصحيحها بـ « فيستخلص » لانه المقصود فى هذا السياق ٠ ومع ذلك فهو الفعل المستعمل من قبل المؤلف فى اول المقدمة ٠

(26) ظنى أن السياق هنا يحتمل كلمة ساقطة لوجود الضمير العائد عليها فى قولـه بعد قليل : « ٠٠ وهو المقارب له » ٠ وهذه لكلمة قد لا تكون غير مفردة واحـــدة هى « اللؤلؤ » ٠ وانظر التعليق رقم 31 ٠

(27) اللوح الثامن والاربعون ، ص 55 وما بعدها ٠ واللؤلؤ موجود فى السطـــر الثالث قبل الاخير من اللوح ٠

(28) يقصد اللؤلؤ ٠ راجع التعليق رقم 26 سابقا ٠

(29) اللوح السابع والاربعون ، ص 53 وما بعدها ٠

فيصادف فيه الكهربا وهو مشاكل له فيجده عوضا عنه وكذلك ان كان غرضه ان يجلو بياض العين فيطلب لوحه فيستعين فيه بالعقيق وهو مشابه (2) له فيجده بدلا له وعلى هذا الوجه يصح ابدال الادوية على الحقيقة ·	فيصادف فيه الكهربا وهو مشاكل له ، فيجده عوضا عنه ، وكذلك ان كان غرضه آن يجلو بياض العين ، فيطلب لوحه (30) ، فيستعين فيه بالعقيق وهو مشابه له (31) ، فيجده بدلا له · وعلى هذا الوجه يصح ابدال الادوية ء الحقيقة ·
وهذه هى صفة الالواح المذكورة ·	وهذه هى صفة الالواح المذكورة :

★ ★ ★

والى هنا تنتهى مقدمة المؤلف · وقد مهد فى أولها بالتعريف بموضوع رسالته والغاية منها ثم وضح كيفية الاستفادة منها ·

ولا نحتاج هنا الى شرح عبارته التى تتحدث عن ذلك وانما الى تسطيرها فقط ، فهو يقول انه رتب فى هذه الرسالة « **الادوية المفردة ألواحا** » وكل لوح الادوية فيه مرتبة « **بحسب قواها وأفعالها ومنافعها** » · وهذه الالواح كلها « **متعلقة بالاعضاء والامراض والاخلاط** » · ولذلك فهى مرتبة فى الرسالة بحسب كونها ألواحا متعلقة بالاعضاء كالرأس والعين والأذن (عضوا عضوا من أعلى الجسم الى أسفله بالترتيب) أو بالامراض كالدماميل والسموم والبرص ·· أو بالاخلاق كالبلغم والسوداء ·

والغرض من هذا الترتيب الذى تقوم عليه أصلا هذه الرسالة ، هو أن تخدم الغاية التى صنفت من أجلها ، والغاية من ترتيب الالواح هى أن « تكون للطبيب العارف تذكرة » · وكلمة « تذكرة » كلمة مهمة جدا فى مقدمة المؤلف ، لانها وصف دقيق لهذا النوع من التصنيف فى الطب · فهى عبارة عن « مذكرة » أو كما يقال بالفرنسية Mémento أو Aide mémoire

(2) خ : مشابهه

(30) اللوح السادس عشر ، ص 32 وما بعدها ·

(31) يقصد أن العقيق مشابه للؤلؤ · ومما يؤكد أن الضمير فى « له » يعود الى اللؤلؤ ، وجود اللؤلؤ بعد العقيق مباشرة فى اللوح المذكور · وفى هذا ما يؤكد ملاحظتنا فى التعليق رقم 26 ·

وأورد المؤلف فى كل لوح « **أدوية كثيرة مختلفة الذات متشابهة القوى فى الافعال**» أى متشابهة فى قوة تأثيرها ٠

وبين المؤلف أن الغاية من وجود « أدوية كثيرة مختلفة الذات متشابهة القوى فى الافعال » فى كل لوح خاص بمرض معين ، هو أن يجد الطبيب « **جميع الادوية النافعة منه** » حتى يختار من بينها ما أراد ، اذ « **منها حارة ومنها باردة ، ومنها يابسة ، ومنها معتدلة ، ومنها قوية ، ومنها ضعيفة الفعل ، ومنها مرة بشعة** » و « **منها سهلة الوجود ومنها عزيزة الوجود** » ، أى أن الاختيار يرتكز على ثلاث نواح ، وهى أولا : نوعية الدواء ، ثانيا : درجته فى القوة أو الضعف ، ثالثا : وجوده أو تعذر وجوده ٠ ويضرب المؤلف لكل حالة مثالا من لوح معين ٠

ولكل من هذه النواحى أهميتها فى الاختيار لكن الناحية الاولى ، وهى نوعية الدواء ، أهم ومن هنا تقديمها فى الذكر ٠ ويقوم الاختيار فى هذه الحالة على معادلة صعبة بين الدواء وبين المنفعة المقصودة منه ، اذ هناك الدواء « **الذى تصحبه منفعة أخرى أو مضرة** » ٠ وهذا أمر راجع الى تقدير الطبيب ومعرفته الواسعة بالادوية والامراض ٠

ومن هنا نستطيع أن نخرج بملاحظة أساسية ، وهى أن هذه الرسالة للاستعمال الخاص بالاطباء ، أو اذا استعرنا عبارة المؤلف فى أول المقدمة ، قلنا هى رسالة « **للطبيب العارف** » ٠

وفى ضوء هذه المقدمة كان بامكان المحقق أن يحدد الفهارس التى تحتاج اليها الرسالة ٠ وأقل ما تحتاج اليه من ذلك ثلاثة فهارس : واحد به عناوين الالواح كما وردت فى الرسالة ٠ وثان به أسماء الامراض والاعراض والاخلاط مرتبة هجائيا ، وثالث مرتب هجائيا كذلك فيه أسماء الادوية والعقاقير ٠ يضاف الى ذلك معجم اصطلاحى لمفردات الرسالة مع شرح كل مفردة كلما أمكن وذكر مصدرها اللغوى ان تحقق ومقابلها ان وجد باللغات الاجنبية ٠ ويمكن أن يكون هذا المعجم شاملا لجميع ما فى الرسالة من الالفاظ الاصطلاحية ، أو يقسم ذلك الى ثلاثة معاجم : معجم اصطلاحى للادوية ، ومعجم للامراض ومعجم لتركيب الدواء ٠

وهذا المعجم الاخير لتركيب الادوية ، أى كيفية استعمال الدواء ، يجد له مثل هذه الالفاظ المتكررة بكثرة فى الرسالة : شرابا ، شما ، أكلا ، استنشاقا ، طلاء ، مضغا ، تعليقا ، دهنا ، اكتحالا ، عصارة ، بخورا ، تنطيلا ، نطوعا ، سعوطا ، غرغرة ، ذرورا ... الخ ·

★ ★ ★

وأخيرا ، فهذا الكتاب فى تحقيق الرسالة اللوحية فى الادوية المفردة المنسوبة لابن سينا هو الحلقة الثالثة فى سلسلة منشورات قسم الدراسات الاسلامية بمركز البحوث التابع للجامعة التونسية · وكما نذكر فقد صدر فى احدى حلقات هذه السلسلة كتاب مقامع الصلبان لابن عبد الحق الخزرجى الذى خصصته بمقال نقدى · (1)

ومن نظام هذا القسم ومن تراتيب اعداد البحوث والدراسات به أن يخضع كل عمل من أعمال أعضائه من الاساتذة الجامعيين الذين هم من الباحثين المشاركين فيه الى عملية تقييم قبل أن تأذن اللجنة الاستشارية بالمركز بالموافقة عليه للمكافأة والنشر ·

ولا تخلو عملية التقييم هذه من مشاكل وصعوبات ، ولم يمكن الى حد الآن تجاوزها أو التغلب على مشاكلها وصعوباتها · ويبدو أن ذلك يحتاج الى وقت أطول ريثما تتوطد تقاليد البحث العلمى عندنا وتكون للنقد حرمته ·

---

(1) نشر بـ «الاصالة» عدد 30/29 محرم ـ صفر 1396هـ، جانفى ـ فيفرى 1976 ·

الطريقة العلمية عند ابن طفيل

د. مدنى صالح
استاذ سابق بكلية الآداب
جامعة الجزائر

لقد ترك لنا ابن طفيل المتوفى فى مدينة مراكش عام 1185 م ، وصفا منهجيا دقيقا لطريقة علمية أصيلة من الطراز الاول ، وفريدة منقطعة القرين عبر تاريخ الفلسفة كله حتى بداية طلائع الفكر الفلسفى الحديث واستقامته فتكامل مناهج الاستقراء وطرائق العلم الصحيح عند اساطين منهم دافنشى (1452 ـ 1519) وكوبرنيكس (1473 ـ 1543) وفيفس (1492 ـ 1540) وكبلر (1571 ـ 1630) وفرنسيس بيكون (1561 ـ 1626) وغاليلو (1564 ـ 1642) وآخرون تستظل هذه الحضارة لهم تحت قبة رد الفضل بالشكر وقبة العرفان بالجميل الى يوم الدين ...

لكن هذا الجانب العلمى من فلسفة ابن طفيل ظل مهملا لم يستوقف احدا من العرب ، ولم يقف عنده من المستعربين احد ، رغم أن كتاب « حى بن يقظان » قد نشر

وترجم الى اللغة اللاتينية (1) والى اللغة الانجليزية مرات (2) ، وصار متداولا بين الناس خلال فترة عز تكامل المنهج العلمي ولهفة المنهجيين من علماء وفلاسفـــة الى مزيد مما يضيء درب الطريقة الاستقرائية ومناهج العلم الصحيح ، بعيدا عن دروب الفلسفة وشمولية سلطان مناهجها التأملية .

ولم تكن « الطريقة العلمية » بمفهومها الحديث فرعا من فروع المعرفة مستقـــلا عن الفلسفة وقائما بداته فى زمن ابن طفيل ، وذلك لسبب بسيط معلوم عنـــد

---

1 ـ تحقيق وترجمة بوكوك (ادوارد) Pocock (Edward) بعنوان :

PHILOSOPHUS AUTODIDACTUS, sive epistola Abi Jaafar Ebn Tophail de Hai Ebn Yockdan, in qua ostenditur quomodo ex inferiorum contemplatione ad superéirum notitiam ratio humana ascendere possit, ex Arabica in linguam Latinamversa ab Eduardo Pocockio, Oxford, 1700.

2 ـ ترجمة جورج كيف George Kieth بعنوان : ـ

An account of the Oriental philosophy shewing the wisdom of some renowned men of the East ; and particularly, the profound wisdom of Hai Ebn Yockdan both in natural and devine thigs ; which he attained withohut all converse with nan (while he lived in an island a solitary life, remote from all men from his infancy, till the arrived at such perfections).

Writ in Arabick, by Abi Jaafar Ibn Tophail ; and out of the Arabick translated into Latine by Edward Pocock... ; and now faithfully out of his Latine, translated in o English : For a General Service.

وترجمة جورج اشويل George Ashwell بهذا العنوان :

The History of Hai Ebn Yockdan the Indian prince or the sef taught philosopher, Written originally in the Arabick tongue, by Abi Jaafar Ebn Tophail, a philosopher by profession, and a Mahometan by Religion. Wherein demonstrated, by what steps and dedrees humane Reason, improuved by diligent observation and experience, may arrive at the knoukdge of natural things and from thence to the discouerg of supernaturals ; more especially of God and the concernments of the Word, London 1686.

وترجمة سيمون أوكلى Simon Ockley بهذا العنوان :

The Improuement of Human Reason, exhibited in the life Hai Ebn Yockdan... in which is demonstrated by cuhat methods one may. by mere light of nature attain the knowledge of things natural and supernatural, more particularly the knowledge of God, and affairs of mothes life, London, 1708.

الجميع ، وهو ان العلم ذاته لم يكن فى ذلك الوقت قد استقل عن الفلسفة بمنهج لكى ينفرد طبقا لهذا الاستقلال بطريقة ويختص بموضوع بعيدا عن موضوعات الفلسفة التقليدية ومناهجها التأملية ·· وبناء على هذه الحقيقة لم تكن الطريقة العلمية لتعنى لابن طفيل أكثر من قضية فلسفية ضمن اطار القضايا الفلسفية الاخرى فجاءت متداخلة منصهرة فى نظام فلسفى شامل ، وهذا فى نظرنا أحد الاسباب الكثيرة التى ساهمت فى عدم انتباه أحد من الباحثين الى أهميتها كفقرة خطيرة فى تاريخ مناهج الاستقراء ومناهج البحث العلمى ·

أضف الى هذا ان المصطلح « منهج أو مناهج البحثالعلمى » مثل مصطلح « الطريقة العلمية » لم يكن معروفا عند ابن طفيل ولم يكن متداولا ضمن اللغة الفلسفية عند المسلمين ·· وانه حسب تقديرنا التقريبى لم يدخل اللغة العربية قبل بداية القرن العشرين وانه قد دخلها مترجما من اللغات الاوروبية ومن اللغتين الانجليزية والفرنسية على وجه الخصوص ·· وقد ساهم غياب هذا المصطلح من قاموس مفردات الفلسفة الاسلامية مساهمة لا يستهان بها مع جملة الاسباب التى أدت الى مقابلة الطريقة العلمية عند ابن طفيل باهمال لا نحسب انها جديرة به بحالة من أحوال الاخلاص لتاريخ الفلسفة والعلم على أقل تقدير ·

لكن غياب هذا المصطلح لم يكن ليساهم وحده فى هذا الاهمال لو لم يكن هناك عيب منهجى فى دراسة الفلسفة الاسلامية وهو الحرفية فى الفهم ، والوقوف عند العناوين البارزة ، والحديث عن الفلسفة الاسلامية بالجملة وبأسلوب خطابى جارف لا يمت الى التحليل والمقارنة وحصافة النقد بسبب من الاسباب ·

واعترف ـ كواحد قضى مدة ربع قرن فى دراسة وتدريس الفلسفة ـ اعترافا قد لا يكون من أصول المجاملة والتجمل الحرفى بشىء لكنه الحقيقة الصارخة التى لم تعد سر مهنة مستور بقدر ما هى عاهة مفضوحة لدى الجميع طلبة واساتذة وغرباء عن الفريقين من قراء هذا الكتاب أو ذاك فلا يجدون غير ما يجد الاساتذة والطلبة من حديث مسهب جارف عن شىء غير مفهوم ··· والحقيقة هى اننا لم نحترم

الفلسفة بعد ولم ندرس الفلسفة الاسلامية قط غير دراسة هامشية قل أن يعتز بها مدرس أو يثق بها نفر ـ غير المستسلمين لكل ما يقال ـ من الطلاب ·

ولكل هذا اسباب جلية قد أعود الى تفصيلها فى غير هذا المقال لكنى أريد وقفة تطبيقية عنـــد « الحرفية » كعاهة منهجيـــة فى دراسة محتويات متـــون الفلسفة الاسلامية ·· وذلك لان هذه الحرفية فى الفهم والاستيعاب ساهمت فى اهمـــال الدارسين لكثير من الافكار الخطيرة التى لم ترد الينا بصيغة معاصرة أو تحت عنوان جهير ··· وهذا مما جرد الفلسفة الاسلامية من صفتها الكلاسيكية وعزلها عن تاريخ الفلسفة العام فخسر هذا التاريخ كثيرا من عناصر التكامل الشمولى بهذا العزل الذى جاء نتيجة حتمية لبقاء الفلسفة الاسلامية حبيسة الاحكام الاستشراقية الجارفـــة وحبيسة وقوف العرب عند العناوين الفهرسية بأسلوب خطابى معاد ·

واليك تطبيقا عمليا لاسترداد الطريقة العلمية عند ابن طفيل من ضياع الاهمال تحت راية الحرفية فى الفهم وملاحقة العناوين الجهيرة فى البحث :

لنفرض ان مثل الفكرة هو مثل الجسم وان مثل العبارة التى تنقل الفكرة هـــو مثل الثوب ·

ولنقف بعد هذا الفرض عند حقيقتين :

الاولى : ان الازياء تتبدل من وقت الى وقت وهذا ما لا يحصل للاجسام ·

والثانية : أن الاجسام لا تعرف بثيابها عادة حين اننا نعرف الافكار بعباراتهـا التى دعنا نطلق عليها اسم الثياب الحرفية زيادة فى طلب الوضوح ·

ودعنا اننا نفترض اننا اخفقنا فى معرفة شخص ما بسبب من عرى أو من تنكر فى زى قديم ·

ودعنا نسأل بعد اعتبار هذا الافتراض : هل ان اخفاقنا فى التعرف عـلى هذا الشخص يؤثر حقيقة على وجوده وصفاته وهويته وسائر ما يختص به من صفات ؟ ـ حتما لا ··· يأتيك الجواب وذلك لان وجود هذا الشخص مثل صفاته وســـائر قدراته الفاعلية غير متعلق لا بزى مما يرتدى من ثياب ولا بمدى معرفتنا له ··· وذلك لان وجوده وصفاته وملكاته مستقلة عن ما قد يرتدى من ازياء وعن معرفتنا له ···

وهذه بديهية ۰۰۰۰ لكن وليكن فمثل هذا الشخص سيظل غير معلوم لنا حتى نتعرف على هويته تشخيصا ٠

وهذا هو بالضبط مثل الطريقة العلمية عند ابن طفيل التى ظلت غير مشخصة ومن ثم غير معلومة لدى جميع الذين درسوه بما فيهم جورج سارطول الذى وقف عند وقفه ذات علاقة بالموضوع فى كتابه تاريخ العلم (3) ۰۰۰ وذلك لان ابن طفيل لم يقدم طريقته العلمية الى القراء بحلة لفظية جهيرة وبعنوان « الطريقة العلمية » لكن هذه الحلة اللفظية أو هذه العبارة أو هذا المصطلح لم يكن متداولا فى زمن ابن طفيل وعليه فلم يجد ابن طفيل غير ان يتركها فكرة عارية بلا تسمية وان علينا ان نلقى عليها حلة لفظية تجعلها مشخصة معروفة الهوية فمعلومة وهو السبيل الوحيد لاستبقاء القيمة الكلاسيكية لأى نص يرقى الى المستوى الكلاسيكى ودخول التاريخ العام للحضارة عبر أسوار المحلية ٠

أما الآن فدعنا نرتب هذه الطريقة فى مجموعة قواعد مستلة من التجارب التى أجراها حى بن يقظان منهجيا :

بدأ حى بن يقظان التجربة على الغزالة الميتة وهو فى السابعة من عمره ولم يصل الى نتيجة ايجابية الا عند مابلغ سن الواحدة والعشرين ٠

ونلاحظ أول ما نلاحظ ان حى قد بدأ اجراء التجربة العلمية فى وقت مبكر لا يسمح له باجرائها فى عالم الواقع ۰۰۰ أو قل ان شئت انه قد بدأ اجراء التجربة العلمية فى مرحلة روائية متخيلة لا تطابق مرحلة طبيعية فى عالم الواقع لاجراء مثل هذه التجربة ۰۰۰ وهذه لاشك هفوة فنية فى بناء الرواية ۰۰۰ لكن دعنا نفترض ان ابن طفيل كان عارفا بهذه الهفوة من خلال معرفته ان حى قد بدأ تجاربه العلمية فى مرحلة روائية مبكرة ۰۰۰ وليس من هذا الافتراض بد اذ لا يمكن ان يقصد

3 ـ يذكر جورج سارطون ان كتاب حى بن يقظان قد احتوى على تخطيط لتصنيف العلوم وعلى مناقشة التولد الذاتى وعلى معلومات علمية متفرقة ، ولم ينتبه سارطون الى الطريقة العلمية عند ابن طفيل : انظر
An Introductio to the Histors of science (Boltimore 1927 - 31) , 2. i. p. 354.

ابن طفيل بسن السابعة من العمر سنا واقعية لبداية اجراء تجربة علمية بالغـــة التعقيـــد ٠

وهذا الافتراض يستدرجنا الى أن نسأل : ـ لماذا ، اذن ، دفع المؤلف هذا الطفل الى لجة اجراء هذه التجارب قبل بلوغ السن الملائمة لاجرائها ؟ اما كان قادرا ـ لـو أراد ـ على ان يشغله بكثير من الفعاليات الملائمة لطفل فى السابعة من عمره ومطابقة لما قد يشغل ذهن طفل بمثل هذا العمر فى عالم الحقيقة ؟؟ ٠

أما كان بامكان ابن طفيل ـ لو شاء ـ أن يؤجل بداية اجراء هـــذه التجارب العلمية الى أن يبلغ حى من العمر مبلغا يطابـــق العمر الملائـــم لاجرائها فى عالـم الواقـــع ؟؟ ٠

نعم تأتيك الاجابة واثقة فى الحالين ٠٠٠ وان ابن طفيل قد اشغل حى باجـــراء هذه التجارب العلمية فى هذا العمر الروائى المبكر الغير مطابق للسن الملائمة فى عالم الواقع عامدا وانه اراد تقديم منهجه فى البحث العلمى بصرف النظر عـــن مستلزمات البناء الروائى ومتطلبات كتابة القصة التى لم تكن لتهمه بقدر مستلزمات ومتطلبات البناء الفلسفى وذلك لكى يؤكد ان الفلسفة عندما تبدأ بالملاحظة والتجريب وفق قواعد خاصة ولا تبدأ ضرورة بالمنطق ٠

وبكلمة أخرى نجد ان ابن طفيل قد فتح بداية التفلسف عند حى بسلسلـــة تجارب علمية لكى يوضح نظريته فى المعرفة ٠٠٠ تلك النظرية التى قررت الشكل النهائى لنظامه الفلسفى القائم جوهريا على مبادىء تجريبية مستمدة من منطق تلك الظواهر التى اعتمدها حى موضوعا لاجراء التجارب ٠٠٠ والا فاشغال حى بهـــذه التجارب المعقدة مثل هذه السن المبكرة لم يكن خطأ روائيـــا لا بد منه أو ضربـــة لا زب ٠

وقد ميز ابن طفيل الظاهرة عن الحالة التى تتجلى فيها الظاهرة وميز هتين عـــن الظروف المحيطة بهما ٠

وأول ظاهرة استوقفت حى هى ظاهرة الموت وقد بحث هذه الظاهرة كما حدثـت فى حالة موت مرضعته الغزالة ··· رغم انه قد لاحظ قبل موت أمه المرضعة حالات موت مماثلة لم يقف عند واحدة منها وقفة بحث ·

ولم يعرف حى فى البداية ماذا حصل للغزالة (أمه المرضعـــة) ··· وعليـه فالظاهرة المتجلية فى الحالة قيد الملاحظة · لم تكن مشخصة كظاهرة موت ··· لكنه لاحظ أول ما لاحظ ان الحالة الجديدة (الغزالة ميتة) تختلف عن الحالة السابقـــة (الغزالة حية) ··· وكانت أولى خطوات البحث عنده محاولة معرفـــة الظروف الجديدة التى تختلف وتتشابه بهما حالتى الظاهرة ··· وكان هذا البحث خطوة ملائمة لتطبيق طريقة الموافقة وطريقة الاختلاف وطريقة الجمع بين الطريقتـــين : الطرق التى طبقها حى باحساس منهجى من الطراز الاول : ففى بحثه عن ظروف الحالة التى حدثت فيها الظاهر (الغزالة ميتة) : ـ ناداها ـ أولا ـ بكل الاصوات التى كانت تستجيب لها وتجيب ··· لكنها لم تجب ·

وحور مغيرا صوته ـ ثانيا ـ مستنفدا كل امكانات التحوير ··· لكن كل هذا لم يحرك فيها ساكنا ولم تجب ··· فأخذ يمعن النظر فى عينيها وأذنيها ··· لكنه لم يجد فيهما عطبا منظورا فراح يفحص بنفس الاسلوب جميع أعضائها لكنـــــه لـم يجد فيها عطبا أو نقصا واشتدت به الرغبة الى معرفة الجزء المعطوب عله بعد ان يجده يزيل عنه العطب فتعود الغزالة الى حالتها الاولى ··· لكنه أخفق فتحول بعد هذا الاخفاق الى حالة لم تحدث بها الظاهرة ··· ولكى يفعل مثل هذا بدأ البحث على نفسه فوجد :

1 ـ انه حين يغمض عينيه أو يضع أمامها حاجزا فانه لا يرى شيئا حتى يزيل العائـق ·

2 ـ وانه حين يضع اصابعه فى أذنيه فانه لا يسمع شيئا حتى يخرجهما ·

3 ـ وانه حين يسد منخريه فانه لا يشم شيئا حتى يفتحهما···

واستنتج من كل هذا ان جميع حواسه وملكاته الادراكية عرضة للعطب الـذى بزواله ترجع الى اداء وظفتها حسب المعتاد ·

وبعد ان فحص جميع اعضاء وحواس الغزالة الخارجية فلم يجد بها نقصا أو عطبا مرئيا ادرك حينئذان حالة سكونها العام ليس خاصا بواحد من هذه الاعضاء الظاهرة بل هو يشملها جميعا بسبب عطب عضو غير مرئى خفى داخل الجسم ٠

بهذا تستطيع ان تقول ان حى قد بحث حالتين حدثت الظاهرة فى أولهما والتى هى حالة الغزالة الميتة ولم تحدث فى الثانية والتى هى حالته هو مقارنة بحالة الغزالة وانه قد وجد نتيجة البحث ان الحالتين تشتركان بجميع الظروف غير واحد وهـو الظرف الذى حدث فى الاول لم يحدث فى الثانية ٠٠٠ اذن فيجب ان يكـون هـذا الظرف الذى تختلف به الحالتان سببا للظاهرة ٠٠٠ وهكذا يكون ابن طفيل قـد استبق تطبيق طريقة الاختلاف التى نجد صيغتها عند جون ستيوارت مل على نحـو ما يـلى :

« اذا اشتركت حالة تحدث فيها الظاهرة مع حالة لا تحدث فيها الظاهرة بجميع الظروف غير ظرف واحد يوجد فى الاولى ولا يوجد فى الثانيـة وتختلف به وحـده الحالتان فيجب أن يكون هذا الظرف هو السبب أو جزءا غير نفسك عن سبب وعلـة الظاهرة » (4) ٠٠٠ وهذه واحدة من القواعد الخمس التى تؤلف ما هو معروف لدينا باسم طريقة مل لانه هو الذى اعطاها صيغتها النهائية المتميزة ٠

ولما وصل حى الى هذه النتيجة اشتدت به الرغبة الى أن يجد هذا العضو لكى يزيل العطب منه فيعود الى سيرته الاولى ويعود الجسم كله الى ما كان عليه ٠٠٠ وهذا يرينا الغرض المباشر من تجارب حى فأين يجد هذا العضو ؟ ـ انه قد لاحظ حالات كثيرة مماثلة رغم انه لم يقف عند حالة منها وقفة باحث ٠٠٠ لكنه عرف من هذه الملاحظات انه لا توجد فى أجسام الحيوانات غير ثلاثة تجاويف : فى الجمجمة وفى الصدر وفى البطن ٠٠٠ اذن فيجب ان يكون هذا العضو فى واحد من هذه التجاويف ٠

4 ـ انظـر :
John Stuart Mill, A System of Logic (London, 1843). Book III, chap. VIII.

وعند هذه المرحلة من انهماك حى نلاحظ ان ابن طفيل لو لم يكن مهتما بالدرجة الاولى بعرض طريقته العلمية وطريقة البحث التجريبية لما اقلق حى بكل هذه المتاعب ليحصل على نتائج أولية والتى كان بامكانه لو أراد ان يسردها على هيأة حقـــائق بسيطة دون اللجوء الى وصف الطريقة التى اتبعها حى منهجيا خطوة خطوة ٠

ولو لم يكن ابن طفيل مهتما بعرض طريقته العلمية كجزء لا يتجزأ من فلسفته لأعفى حى من كل هذه المتاعب جملة وتفصيلا واشغله بمغامرات شبيهة بمغامرات روبنصن كروزو أو بتأملات شبيهة بتأملات ادرنيو حول عجائب المخلوقات كما فعل دانيال دوفو فى قصة روبنصن كروزو وكما فعل جراسيان فى قصة الكرتيكون ٠٠٠ لكن ابن طفيل لم يهتم بعناصر الاثارة واحداث المغامرات ٠

اضف الى هذا ان ابن طفيل كان من أكبر اطباء عصره الحقيقة التى تؤهله ان يذكر من الحقائق ما شاء باسلوب التقرير كما كان يفعل غيره دون اللجوء الى وصف الطريقة المتبعة بهذه الدقة ٠

فالطريقة العلمية فى قصة حى بن يقظان لم تكن اذن من وجهة ابن طفيل قضية عرضية عارضة فى رواية أو فقرة عابرة فى كتاب فلسفى وذلك لان استقصاء الطريقة العلمية ليس من مستلزمات الرواية وليس من متطلبات متون الفلسفة فى ذلك الوقت٠

وعليه فلا أرانا الا على أساس وطيد حين نقرر ان ابن طفيل قد عرض طريقتـه العلمية عامدا خلال مرحلة من مراحل شخصية روائية وذلك لاحاطة القارىء علما بالطريقة العلمية التى اتبعها حى فقادته الى منطق مستمد من طبيعة سلوك الظواهر لكى تسيطر على فلسفته من بدايتها حتى النهاية ٠٠٠ وهذا يعنى ان طريقة ابن طفيل العلمية تشكل جزءا لا يتجزأ من نظامه الفلسفى العام ٠٠٠ وانها طريقة علمية بالمفهوم المعاصر وفق قاعدتنا : « ان أية قضية تخص الماضى بمفهوم معاصر فهى حتما تخص ذلك الماضى بذات التعبير المعاصر » ٠

ووفق مقلوب هذه القاعدة : ـ « اذا اخـــــتص مفهوم فى الماضى بذلك الماضى بواسطة تعبير أو تسمية خلاف عبارة أو تسمية أو ترك بلا اسم فهذا المفهوم يختص بالحاضر حال تشخيصه وانطباق الاسم المعاصر عليه » ٠

لكن الطريقة العلمية عند ابن طفيل مرت هملا هملا لم يقف عندها احد رغم انها اختصت بالماضي كمفهوم يستوفي كما رأينا جميع سمات الطريقة العلمية وينطبق عليها هذا المصطلح بمفهومه المعاصر عليه انطباق تسمية وتشخيص ... والا فماذا تسمى طريقة حى التى استعرضنا سمات تشخيصها غير اسم « الطريقة العلميـــة » وفق ابسط قواعد المنطق : اذا كانت ب ، حـ ، د ، هـ عناصر تشخيص وتعريف أ تعريف جمع ومنع فان كل ما تعرفه وتشخصه ب ، حـ ، ر ، هـ ، مثل هذا التعريف هـــو أ ٠

وبصورة بسيطـــة :

اذا كانت ب ، حـ ، د ، هـ = أ ٠

وكانت ب ، حـ ، د ، هـ ، مجموعة صفات تشخيص الطريقة العلمية فحينئذ تكون أ هى الطريقة العلمية ٠

لكن ابن طفيل اعطانا ب ، حـ ، د ، هـ = مفهوم ٠

فهذا المفهوم = أ ، لاشتراكه معها بأدوات التشخيص ٠

والآن ليس بخاف على احد ان الطريقة العلمية ومناهج البحث فى العلـــوم قد قطعت شوطا كبيرا وبلغت مرحلة تجاوزت المرحلة التى كان بامكانها ان تنتفع خلالها بطريقة ابن طفيل وبهذا تنحصر قيمة مناقشة اهمية الطريقة العلمية عند ابن طفيل ضمن حدود تاريخ تطور هذه الفكرة بعيدا عن فاعليتها الصريحة فى مناهج العلـوم وطرائق البحث العلمى المعاصرة اذ لا أحد يعرف ابن طفيل فى جامعات الغـــرب أوروبية وأميركية غير مستشرقين معزولين ضمن حدود دوائرهم الاستشراقية الشبيهة بكنائس مستسلمة أو جوامع متنصرة والبعيدة فى هذا وذاك كل البعد عن الاكاديمية الجامعية المخلصة والروح الجامعى الرصين ... وبهذا صار المستشرقون بحكم اعدادهم وعزلتهم الجامعية والثقافية أتعس من يحمل فكرة من العرب والمسلمين الى الغرب ... وانهم بحكم تعاستهم وعزلتهم الجامعية والثقافية وقلة ثقة الدوائر الاكاديمية بهـم قعدوا عاجزين عن ادخال عناصر الثقافة العربية الاسلامية الى مواقعها الملائمة فى

سجل الحضارة العام فظلت هذه الثقافة معزولة عن روح العصور المتلاحقة ضمن حدود الجوامع المتنصرة أو الكنائس المستسلمة تحت راية المتسترين وراء توزيع الشهادات بطريقة مخزية على الوافدين اليهم طلبا لانوار المعرفة من كل حدب وصوب من بلاد العرب والمسلمين ٠

لكن وليكن ! فلسنا بصدد عاهات المستشرقين الآن رغم أن لدينا قناطير وان شئت مزيدا نزيد فقد ورث عنهم العرب عيوبا منهجية فاضحة لا احسب انهم يخلصون من تبعاتها الا بانقلاب جذري يخرجون به من مناهج واساليب تفكير المستشرقين الى منهج واسلوب تفكير عالم الحضارة القويم ٠٠٠ وكل هذا كلام يطول ! ٠٠ اذن فدعنا نقف بخطورة آراء ابن طفيل في البحث العلمي عند حد اهميتها في فهم فلسفته ٠٠٠ ولكي نوضح هذا دعنا نستأنف المناقشة متابعين حي في تجاربه فانه بعد ان وصل الى فرضية ضرورة ان يكون هذا العضو الذي تحتاج اليه جميع الاعضاء وتعتمد عليه في الصدد طلب مزيدا من دليل للتأكد من صحة هذه الفرضية ملاحظا انه يستطيع اعاقة عمل جميع اعضائه كاليدين والقدمين والاذنين والعينين والانف وانه يستطيع ان يعيش بدونهما ٠٠٠ لكنه لم يستطع تصور امكان العيش بغير العضو الذي في صدره ولو رفة عين ٠٠٠ كما لاحظ مدى حرصه التلقائي على حماية هذا الموطن من صدره حين التعرض لخطر الاشتباك مع الحيوانات المفترسة ٠٠٠ وبهذا ايقن ان العضو المعطوب يستقر في الصدر وقرر ان يجري بحثا لكي يفحصه ٠

وعند هذه المرحلة يجب ان نلاحظ نقطتين الاولى : أن حي لم يقرر مكان العضو المعطوب في الحيوان الميت الا بعد ان قارن الحالة بحالة أخرى هي حالته ٠

والثانية : انه لم يبدأ التجربة على الحيوان الميت قبل ان يطرح فرضية ويتأكد منها بخصوص المكان المحتمل لهذا العضو ٠

لكن حي توخى فرصة الانتفاع من الشك وشك في صحة فرضيته وخاف ان هو اقدم على فتح الجثة بموجبها ان يسيء الى الحالة ٠

وعند هذه النقطة بدأ حي يسترجع الى ذهنه أكثر ما استطاع من الحالات المماثلة فلم يجد حالة رجعت بها الحيوانات الى ما كانت عليه بعد حلول هذه الظاهرة فيها ٠٠٠ فاقبل عند هذا الحد من بحثه على اجراء العملية ومواصلة التجربة وفق طريقة نعرفها الآن باسم الطريقة البيكونية نسبة الى فرنسيس بيكون ٠

خواطر نقدية حول
شعر المناسبات

د . الحبيب الجنحــانى
استاذ فى الجامعة التونسية



هل يعيش الشعـر العربى اليـوم أزمة خانقـة ؟ ما هى رسالته بين التيارات الفكريــة المتباينة التى تعيشها الثقافة المعاصرة ؟ ما هى الاسباب الكامنة وراء سيطرة تقاليد أدبية يرجع عهدها الى العصر الوسيط على زمرة من الشعراء المعاصرين ، وهى تقاليد تخلصت منها فنون الادب الاخرى ؟ ان مظاهر « أدب المعــدة » تكاد تنحصر اليوم فى الشعر وأهله .

ونبادر بالاشارة الى أن الحديث هنا عن فئة معينة من الشعراء كى لا نظلــم فئة أخرى تحمل مشعل رسالة هادفة فى انتاجها الشعرى ، فهى تعبر فى شعــرها عن رؤية كونية شمولية ، أو تعبر - على الاقل - عن معانى انسانية خالدة جعلتهــا تبلغ مستوى الشعراء العالميين ، وتحلق فى سماء أخرى لا تصل اليها شظيا أزمــة الشعــر .

اننا لا نهدف فى هذه الخواطر السريعة الى الاجابة عن هذه الاسئلة ، ولكننا أثرناها لما لها من صلة متينة بشعر المناسبات ، وهو لون من الشعر يموت بمرور المناسبــة

التى نظم من أجلها فى أكثر الاحايين ، واذا اعتبرنا معايير الفكــر العالمى المعاصر ، ورسالة الانتاج الادبى اليوم فانه يعد ـ دون ريب ـ أردأ ألــوان الانتاج الادبى ، واسوأه ، مهما تفنن أصحابه فى صياغته ، وحاولوا أن يبرزوا صدقهم ، لانه لا يمت بسبب الى حياة الناس ومشاغلهم ، فحتى ذلك الادب التجارى الرخيص المنهمك فى موضوعات الجنس والمغامرات البوليسية يفوق شعر المدح قيمة لما له مــن علاقــة بمشاغل عدد كبير من الناس ٠

اننا لا نحمل هذا الضرب من الانتاج الشعرى مسؤولية أزمة الشعر العربى اليوم، فأسبابها أشمل وأعمق ، وهى ـ فى نظرنا ـ مظهر من مظاهر أزمة الثقافة العربيــة المعاصرة عموما ٠ ولكن وفرة هذا اللون من الانتاج الشعرى ، وما يجد المتاجرون به من حظوة فى بعض الاوساط العربية جعل كثيرا من القراء يشعرون أن تبعة أزمة الشعر العربى المعاصر تقع على كاهل هذه الفئة من الشعراء ٠

ولا مناص من الاشارة فى هذا الصدد الى ظاهرة ايجابية تتمثل فى تقلص ظل شعر المناسبات فى كثير من الاقطار العربية ، فهو فى طريقه الى الانقراض ، وقد أصبحت المجلات الثقافية القيمة تربأ بنفسها عن نشر هذا اللون من الشعر ٠

ولكن بالرغم من مظهر التخلف هذا فى الادب العربى المعاصر فاننا لا ننظر الى رسالة الشعر نظرة تشاؤم ، فهنالك وعى عميق بهذا المشكل لدى عدد كبير من المثقفين العرب ، فقد قرأت أخيرا ملاحظات سريعة للاديب المغربى عبد الجبار السحيمى حول الشعر اليوم نورد منها بعض الفقرات لما تعكسه من نظرة الى الشعر والشعراء لدى فئات معينة فى المجتمع العربى ، كتب فى « العلم » المغربية يقول : (تفرس جيــدا « نجوم » المجتمع الذين يأتمرون فى الحياة ويخططون لها ، انهم المساسرة بأشكال شتى من السمسرة ، وهم جميعا يعتبرون الشاعر « منشطا » على أكبر تقدير ، يخدر حواس الناس ٠ ويبعث فيهم هياجا وقتيا ينفع فى الحفلات ومهرجانات العرس والتأبــين وحملات الانتخابات « العشائرية ») ، « شاعر ؟ هل رأيت هذه الصفة تأخذ أهميــة ما فى جواز سفر الا بالتأكيد ، فالشاعر ـ فى رأى مجتمع مدينة السماسرة ـ عاطــل ، أو دجال يتحايل على الكسب بلا جهد ، أو موهوب يستحق الرعاية وتوفير وظيفــة مناسبة يقتات منها ٠٠ » هنالك شعراء يترصدون الفرص للارتماء على فتات مائــدة

زيانية مدينة السماسرة ، وآخرون ينادون مع الاديب المغربى : « دعنى أمزق كل ورقة شعر لم تشتعل نارا تنسف كل جسور السماسرة الذين يتأمرون ، وتحرق كل مراكبهم ، وتتولى صدارة تخطيط مدينة نقية من فساد الوصوليين والانتهازيين والمتجرين بالقيم والانسان وبالشعارات ·· » ·

ونذكر هنا أمرين :

أولا ـ ان هذه الاحكام لا تخلو من التعميم ، ومن تأثير العوامل الذاتية ، فهى آراء تسيطر عليها الحسرة والتألم من حقيقة مرة : كيف لم يحدث مرة واحدة فى كل التاريخ ان جلس متنبى مكان كافور ؟

ثانيا ـ أنه لابد من التمييز فى شعر المناسبات بين المديح ، وهو لو من الشعر لا يهمنا لا من قريب ، ولا من بعيد ، وبين القصائد الشعرية التى تنظم بمناسبة وطنية، أو حدث تاريخى ، أو ثقافى ، فقد تعبر عن محتوى انسانى عميق انطلاقا من الحدث ، ولكن الارتباط به ، وبظروفه التاريخية ، يجعل القصيد فى أكثر الحالات متكلفا بفقدانه الصدق فى التعبير وبالتالى هزال الصورة الشعرية · ومهما تباينت الآراء حول شعر المناسبات فان هنالك فئة من الشعراء قادرة عليه ، مجيدة فيه ، وهنالك شعراء بعيدون كل البعد عن هذا اللون من الانتاج الشعرى ، وحين تجعلهم بعض المغريات ينظمون فى هذا الغرض الشعرى المعين يأتى انتاجهم فجا ركيكا يشكو الهزل فى المحتوى والصورة الشعرية، ولا يصدق القارىء أن القصيد الفلانى من انتاج ذلك الشاعر الذى كان يحلق فى عالم شعرى له مميزاته الخاصة حين كان حرا فى التعبير ، وفى انتقاء الصورة الشعرية ، ولكن لما فرض على نفسه قيودا تهافت ، وسقط شعره .

خطرت لنا هذه الملاحظات حول شعر المناسبات اثر قراءتنا لخبر عدم نجاح أى شاعر فى المسابقة الشعرية التى نظمت بمناسبة الاحتفال بمرور قرن على تأسيس مدرسة الصادقية التى أسسها خير الدين التونسى ، بالرغم من وفرة عدد المشاركين ، وبينهم شعراء أقدامهم راسخة فى الانتاج الشعرى ، لكن يبدو أنهم ليسوا من محترفى المناسبات ، فسقط شعرهم لما تهافتوا · ويا حبذا لو تنشر فى المستقبل القصائد التى لم تحرز على الجوائز خدمة لحركة النقد الشعرى ·

وبعد قراءة هذا الخبر قرأنا قصيد الشاعر المعروف نور الدين صمود « عشرون شمعة » ، وقد أحرز على الجائزة الاولى فى مسابقة الاذاعة والتلفزة التونسية بمناسبة الذكرى العشرين لعيد الاستقلال ، وقد فوجئت شخصيا ؛ لاننى وجدت نفسى أمـام نفس شعرى ، وصورة شعرية لم أعهدهما فى شعر الاستاذ صمود ، فجاء النفس الشعرى قصيرا ، لاهثا ، وجاءت الصورة الشعرية فى بعض الابيات هزيلة مبتذلة ، وهكذا أبت « الشمعات » العشرون الا أن تنير خواطرنا حول شعر المناسبات ولا سيما بالنسبة للشعراء الذين لم يتعودوا بالقيود والحدود ٠

ان هذا القصيد لا يمس أبدا من شاعرية صمود ، ولكنه جاء تأكيد لامرين :

أولا : أن لكل شاعر أصيل منهجه الشعرى الخاص ، فاذا حاول ــ لسبب ما ــ الخروج عليه فان انتاجه يأتى حاملا لسمة الاصطناع والافتعال ٠

ثانيا : ان أدب المناسبات ، وان كانت ذات طابع عام ، يدخل فى باب « الالزام »، وهو بعيد كل البعد عن الالتزام الحر المعبر عن رسالة أدبية معينة ، ورؤية خاصـة لشؤون الحياة ٠

واليك بعض الابيات من قصيد « عشرون شمعة » (1) :

اللوحــة الاولى :

فهتفنا فى الاعــادى لا منــاص — سيفنا فى كبــد الظلماء غــاص

اللوحــة الثانية :

وذا الجنـــس اللطيـــف — لــم يعــد فيــنا ضعيــف
لم تعد فى السوق تشرى وتباع — خلف باب وحجــاب وقنــاع
أخــذت كــل الحقــوق — بعــدما طــال العقــوق
ومضت للفوز فى خير طريــق — مذ غدت للزوج عونا وصديـق
لم تعد بين أثاث البيـت متعــة — لم تعــد مصنع انجاب الصغار

اللوحــة الرابعة :

أيها الفلاح يا من عشت دهرا — خلف محراث وثــور متعــب
سامك القحط مع الاتعاب قهرا — تشتكى فى الحقل طول السغب

(1) راجع القصيد كاملا فى مجلة « الاذاعة والتلفزة » تونس ، العدد 373 : 1/2/76٠

ذهـب الثـــور الضعيـف	ومضى الـدلـو السخيـف
واغتدى الجـرار فى كل المداشر	لبنـود الخـير فى الخضراء ناشر

اللوحـة الخامسة :

عرف الشعب الى الخير طريقـه	فانبرى يسعى على درب الرشاد
ومضى يحيى الصناعات العتيقـة	انها فخـر وذخـر للبـلاد
نحـن احيينـا الصنـاعـة	فغـدت فينـا مشـاعـة
شملت كـل القرى والمـدن	انهـا عنـوان عـز الوطـن

يتحدث الشاعر فى هذه اللوحة عن بؤس الفلاحين فى عهد الاحتلال الاجنبى ، وهو موضوع ثرى يفسح المجال لصور شعرية رائعة ، بالرغم من أن الادب العربى المعاصر هو أدب مدن (2) ، ولكن حين تقييد الشاعر بالمناسبة ، واضطر الى تحديد المحتوى وتوزيعه على موضوعات شتى لم يستطع ان يقدم لنا صورا شعرية حـرة صادقـة .

اننا لا نريد المقارنة هنا . نظرا لوجود فوراق ، ولكن أردنا الاطلاع على صـورة شعرية أخرى تعكس بؤس المعذبين فى الارض وشعورهم قدمها شاعر معاصر دون أن يقيد نفسه ، فوقعت يدى ـ دون بحث وانتقاء ـ على الصورة التالية :

نزرع فى الهجـير ويأكلون فى الظل	هـم يملكـون النوافـذ
أسنانهـم بيضاء كالارز	ونحـن نملـك الريـاح
وأسنانا موحشـة كالغابات	هم يملكـون السفـن
صدورهم ناعمـة كالحرير	ونحـن نملـك الامـواج
وصدورنا غبراء كساحات الاعدام	هم يملكـون الاوسمـة
ومع ذلك فنحن ملوك العالم :	ونحـن نملـك الوحـل
بيوتهم مغمورة بأوراق المصنفات	هم يلمكون الاسوار والشرفات
وبيوتنا مغمورة بأوراق الخريف	ونحن نملك الحبـال والخناجر
فى جيوبهم عناوين الخونة واللصوص	والآن
وفى جيوبنا عناوين الرعد والانهار	هيا لننام على الارصفة يا حبيبتى (3)

(2) راجع دراستنا عن « العلاقة الجدلية بين التطور الاجتماعى والتطور الفنى فى الادب العربى الحديث » ، مجلة « الحياة الثقافية » ، العدد الثانى ، جويلية 1975 .

(3) من ديوان « الفرح ليس مهنتى » لمحمد الماغوط ، دمشق ، 1970 ، ص 48 ـ 49 .

تجربة الجزائر الرائدة

د . يحيى بوعـزيز
استاذ بالمعهد التكنولوجي للتربية
وهران ـ الجزائر

المجلة منبر حر كما هو مكتوب فى غلافها الداخلى ، وهي فى هذا كسائر نشاط الوزارة : مثل الملتقى ، ومثل محاضرات المركز الثقافى الاسلامى المنظمة فى العاصمة وفى خلال البلاد ، منبر حر لجميع الاشخاص ، من محاضرين ، ومناقشين ، ولجميع الآراء ، والاتجاهات ، والاديولوجيات ، بل والاديان والمذاهب المختلفة فى تاريخ هذه الاديـــــان .

ومن هنا فهذه المنابر الحرة للوزارة مفتوحة حتى لمن ينتقدها فى هذا الجانب من نشاطها أو ذاك ، لاننا نرى ان النقد عامل ايجابى فعال ينبهنا الى ما نكون قد غفلنا عنه ، أو ارتكبناه من مبالغة أو تقصير ، أو اقترفناه من خطا بصفة عامة ، لنتدارك ذاك ويتدارك المشاركون فى هذا النقاش لفائدتهم ولخير القراء ولصالح الجميع .

ومن هنا اذ ننشر هذا المقال للاستاذ يحيى بو عزيز الذى شارك فى ملتقيات الفكر الاسلامى منذ سنوات وكتب كثيرا فى اعداد هذه المجلة . ننشره بنصه كاملا كالعادة ، نترك الباب مفتوحا لكل من يود ان يرد عليه . وسنكون نحن فى المقدمة فى الاعـداد القادمة مع العودة فى نفس الرد الى مقال سابق كان قد نشره الاستاذ الفاضل عـــن ملتقـــى تلمســـان .

تحية من الاعماق الى كل الذين اشرفوا على انجاز ملتقى عنابة

ان الملتقى العاشر للفكر الاسلامي الذى انعقد بعنابة فى العشرية الثانية من شهر جويلية عام 1976 ، كان ناجحا الى أبعد حد فى حسن التنظيم ، والاعداد ، والانجاز ، اذا ما قورن بغيره من الملتقيات السابقة ، وكذلك فى الموضوعات المطروقة .

وقد تظافرت على انجاحه عدة ظروف وعوامل أهمها : جهود السيد وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، ومعاونيه ، وموظفى وزارته ، والتعاون الكامل والصادق من طرف السلطات المحلية لمدينة عنابة . ثم الاستفادة من التجارب السابقة طبعا .

فلقد بذل موظفوا وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، وعلى رأسهم السيد الوزير مولود قاسم ، كل ما فى وسعهم وطاقتهم ، وواصلوا الليل بالنهار ، لتتم الاعمال وتنجز فى مواعيدها المحددة والمطلوبة ، والكل يشهد على ذلك ، ويردده بقلبه ولسانه . وأعتقد ان صرامة السيد الوزير التى لاحظناها عليه فى الملتقيات السابقة كانت فى محلها ومكانها ، لانه لو لا تلك الصرامة ما تمتعنا بذلك النظام الرائع حقا فى ملتقى عنابة الاخير .

وبذلت السلطات المحلية الولائية ، والبلدية ، والحزبية ، ومصالح الامن . والدرك كل ما يمكن بذله لتوفير الراحة والامن ، للملتقين سواء فى أماكن اقامتهم ، أو فى قاعة العمل نفسها بالمسرح الوطنى . وكان الوالى نفسه السيد (محمد غزالى) ملازما للملتقى من أول يوم الى آخره ، يدخل ويخرج فى قاعة المسرح البلدى ، وفى فندق الاقامة كأنه أحد الملتقين ، فى تواضع ، ولطف ، نادرين عند غيره . وليس ذلك بالشيء الغريب عنه ، فقد بذل نفس الجهود لانجاح ملتقى تيزى وزو السابع ، وزار بنفسه ملتقى بجاية الثامن لتحيته . فشكرا له ، ولمعاونيه ، وللسيد الوزير مولود قاسم ، وموظفى وزارته ، ورجال الامن والدرك ، ولكل من ساهم بأي قسط كان ، حتى جاء هذا الملتقى العاشر بعنابة روعة فى شكله ، واطاره ، ومضمونه ومحتواه .

وقد شرفت السلطات العسكرية هذا الملتقى فى البدء والنهاية . بحضور رئيس الناحية العسكرية الخامسة ومعاونيه ، وبمتابعه مسؤولى المحافظة السياسية للجيش الوطنى الشعبى ، لمحاضرات الملتقى ، ومناقشاته كلها ، خاصة السيد خليفى خليفى من مركز البليدة الذى لم يغب لحظة واحدة عن نشاط الملتقى .

وكانت قاعة المسرح البلدى بعناية التى اعدت للعمل جـــد ملائمة ، فهي كبيـرة وواسعة ، ومجهزة بكل ما يلزم للعمل براحة ، من مراوح ، ومكبرات للصوت ، واضاءة ومنظمين ، وساد فيها النظام والهدوء طوال أيام الملتقى العشرة .

وأماكن اقامة الملتقى قريبة جدا من قاعة المسرح البلدى ، بحيث يمكن لاي شخص أن يصل اليها فى بضعة دقائق . وفى نفس الوقت مريحة ، وعلى رأسها فندق بــلازا ذو الشهرة العالمية . ما عدا وجبات الاكل التى كان يقدمها . فقد كانت دون المستوى ، ولعل ذلك راجع الى التخفيض الذى قرره لوزارة التعليم الاصلى ، فاراد ان يعوض ذلك بانزال قيمة الوجبات الغذائية . غير ان هذا السلوك وهذا الاسلوب غير سليم على أي حان . وقد ناقشنى كثير من الضيوف الذى جربوا بجاية وتلمسان ، فلم أجد ما أجيبهم بها سوى التأسف معهم .

ولم نسمع من الطلبة هذا العام أي تذمر أو شكوى ، ما عدا طول مدة العمل ، ولكن هذا أمر ضرورى لانجاز الاعمال ، ولا يوجد هناك أى حل بديلا له .

والسلطات المحلية الولائية ، والبلدية ، اكرمت الملتقى والملتقين ، فاستضافهم معمل الحجار بنزل سرايدى السياحى ، واستضافتهم البلدية ، والولاية مرتين : احداهما على شاطىء البحر ، والثانية فى فندق سرايدى ، ليتناولوا أكل الخرفان المشوية على الطريقة العربية ، واستضافتهم بلدية القالة ودائرتها لتناول الغذاء فى فندقها السياحى الضخم فندق المرجان ، على ساحل المرجان بمدينة القالة خلال قيامهم برحلة الى هناك ، والى منطقة خط موريس المكهرب . وفتحت بيوت فندقها لكل من يريد الراحة واداء الصلاة ، وهي بادرة حسنة كان لها صراها ، ولم يغفل السيد الوزير ، زيادة الطلبة فى قلـــب الجبل اين كانوا يتناولون الغذاء لان الفندق لا يأيهم ، وذلك للاطمئنان عليهم وليؤكد لهم انه مهتـم بهم .

ومن السنن الحسنة لملتقى عنابة هذا العام ، تخصيص وقت لاداء صـلاة المـغرب فى وقتها ، وهى الوحيدة التى كان يحل وقت أدائها خلال انشغال الملتقين بأعمالهم . وكان لهذا الاجراء صداه الحسن كذلك والطيب لدى كل الملتقى ، خاصة وانه فى العام الماضى والذى قبله حصل انتقاد حول هذا .

دور الجـــزائر المشـرف :

وأكثر من هذا روعة ، فان الجزائر هذه المرة ، وفى هذا الملتقى بعنابة ، اعطـــت مثلا رائعا لابد من الاشادة به ، لكونه ذا مغزى ومعنى . فلقد شاركت بأربع محاضرات

ومحاضرين ، أولاها فى التعريف بتاريخ عنابة ورجالها . للشيخ المهدى البوعبدلى . والثلاثة الاخريات كل واحدة فى نقطة من نقاط الملتقى الثلاثة . وكانت كلها ، فى المستوى المطلوب ، وكان أحدهم الدكتور سعيد شيبان الغنى عن التعريف ، والثانى السيد الهاشمى بوجملين مدير صناعة الحديد والصلب بوزارة الصناعة والطاقة ، والثالث السيد يحيى بوعزيز وهو تطور لا بأس به اذا ما قورن بالملتقيات السابقة .

وشاركت بمعقبين من فئات متنوعة نذكر منهم بصورة خاصة الاطباء ، والتقنيين الذين كانوا يشرحون ويعقبون باللغة العربية السليمة ، خاصة تيقنيو مركب الحجار للحديد والصب الذين شرحوا للملتقين خلال زيارتهم للمركب ، المصطلحات العلمية والتقنية باللغة العربية السليمة التى ليس فيها أي لبس أو غموض . مما أثار دهشتنا نحن الجزائريين وأثلج صدورنا فضلا عن غيرنا . وهكذا ، لاول مرة ، وفى هذا البلد الشاب ، يدخل الاسلام ، وتدخل معه اللغة العربية الى المصنع وحقول الصناعة الحديثة بأتم معناها ، من أوسع الابواب ، كما أكد ذلك الشيخ الصادق بسيس ، لتخرص كل اشداق المتشدقين ، والشاكين ، والمتشككين ، والمتغربين الذين يحنون دائما الى أفكار الغرب وتعاليمه ، وتقاليده .

ان من لا يعرف ظروف الجزائر غداة استقلالها عام 1962 ، وقبل ذلك ، يعتبر هذا الحدث عاديا ، ولا يدرك له أية أهمية . اما نحن الجزائريين الذين اكتوينا بنار الفرنسة ، والمسخ الاستعمارى ، نقدر أهمية هذا الحدث ، ونجله ، ونباركه ، ونعتبر أصحابه من الرواد فى هذا الميدان .

ومما زاد فى أهمية ملتقى عنابة هذا العام ، هو ضعف نسبة الغياب من المحاضرين بحيث لم يغب الا اربعة من جملة ست وثلاثين محاضرا . وهذا جعل الملتقى يمر كله فى عمل جدى متواصل دون حدوث أية فجوة فيه كما ان مشاركة عدد كبير من رجال الاستشراق الغربى والشرقى ، وعدد كبير من مسلمى أوروبا وأمريكا ، أضفى على الملتقى جوا خاصا من الروعة والحيوية ، فى تلاقح الافكار بفصل التعقيبات والملاحظات المختلفة من طرف الجميع ، كان لها صداها الطيب والحسن .

وحتى التعقيبات والتدخلات هذا العام ، كانت ملائمة على العموم ، اذ قل فيها الحشو الممل ، ولوحظ عدم الاطالة آلا من البعض . وفى هذا المجال أحي بصورة خاصة الشيخ أحمد حمانى الذى شرف الجزائر والملتقى هذا العام بتعليقاته القيمة ، والموجزة ، والهادفة .

بعض سلبيـات الملتقـى :

على أن كل هذا لا يعنى انعدام وجود بعض السلبيات فى الملتقى .

ـ فقد لوحظ انعدام التوازن فى محاضرات نقاط الملتقى الثلاثة . بحيث استأثرت النقطة الاولى بسبع عشرة محاضرة ، والنقطة الثالثة بخمس عشرة محاضرة ، بينما لم يكن من حظ النقطة الثانية سوى أربع محاضرات رغـــم أهميتها . ولم يعوضها الا صدور تلك الفتوى الشرعية التى صدرت لصالح عمال الحجار الذين يواجهون قساوة الحرارة أمام الافران ، والتى أثارت اعجاب الكثير خاصة الدكتــور الايــرانى رئيس المركز الاسلامى بها ممبورغ فى ألمانيا الذى قال لى ، وكرر ، وأعاد القول ، بأن ما يجرى فى الجزائر رائع حقا ، وفريد من نوعه ، وأنه ليس من السهل فى بلـــد اسلامى غير الجزائر ، أن تجرى الامور على هذا الشكل ، وبهذه السهولة واليسر فى مثل هذا المشكل الدينى ونظائره .

ـ ولوحظ نوع من التمطط ، والتفكك ، وعدم الضبط ، فى أفكار محاضرات النقطة الثالثة المتعلقة بالابعاد الروحية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، للعبادات وأهميتها لكل من الامة والفرد . وذلك رغم أهميتها . لقد شعرنا بهزالة الحصيلة التى خرجنا منها . وقد يكون ذلك راجعا لسوء طريقة وأسلوب عرض ومعالجة المواضيع المطروقة . اننا ما زلنا بحاجة الى توضيح أكثر لهذه الابعاد بطريقة العد ، والحصر ، والوضوح الكامل حتى يقتنع الشباب المسلم بأهميتها ، ويزول عنه الشك والتشكك الذى غزاهم فى داخل العالم الاسلامى وخارجه .

ـ ولوحظ كذلك لك قصور . وتقصير ، فى تغطية الملتقى فى مجال الاعلام مـــن صحافة ، وتلفزة ، واذاعة ، دون ان ندرى السبب . ان اللحظات التى تبعث بها وكالة الانباء الجزائرية الى هذه المصالح الاعلامية المختلفة لا تكفى ولا تسمن من جوع فكرى فلابد من اعداد دراسات ، وحصص ، وحلقات ، قبيل الملتقى ، وخلاله . تواكب جـــو الملتقى ، وأهميته ، كجزء من أصالتنا وتفتحنا . وذلك على غـــرار مـــا يحدث فى الملتقيات الاخرى السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية . ان الاســـلام والتـــراث الاسلامى احدى ركائز ، أصالتنا ، وشخصيتنا . ولا عذر لنا اطـلاقا فى أي تقصير . وما دمنا ننفق بسخاء على هذه الملتقيات ، فينبغى ان نعد لها من كل الجوانب .

ـ ولوحظ أيضا عدم استغلال الملتقى للتعريف الحقيقى بنشـــاط البـلاد العام ، ومنجزاتها الهائلة ، وتجربتها الرائدة . ان هذا الملتقى فرصة هامة للقيام بهذا التعريف

وذاك باعــداد النشرات ، والكتيبات ، وتوزيعها على كــل الملتقى ، على أن تكون فى مستوى الملتقى نفسه ، ومستوى التجربة نفسها ، وليس من قبيل نشرات مصالـــح السياحة والاعلام العام التى تستهدف استجلاب السواح . ان ضيوف هذا الملتقى من النخبة . وينبغى ، بل يجب ، أن نقدم اليهم نخبة تجربتنا ، واعمالنا ، ومنجزاتنا . وهذا العمل كفيل بأن يجعل الملتقين كل سنة يعودون الى بلدانهم بنظرة حقيقة عن البلد الذى استضافهم ، فيكونون رسلا لنا أوفياء الى شعوبهم ، ويتجنبون فى نفس الوقت الوقوع فى فخاخ الدعايات المغرضة والمظللة التى يروجها ضد بلادنا خصوم نهضتنا ، وتطورنا وتقـــدمنا .

ان وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية من جانبها تقوم بهذا الواجب ، فتوزع باستمرار على الملتقين الضيوف كتب الملتقيات السابقة ، ومجلة الاصالة ، وتمكنهم من صحافة البلد طوال أيام الملتقى . ولكن هذا وجده فى نظــرنا لا يكفــى ، خـاصة وأن صحافتنا خلال فصل الصيف كثيرا ما تكون هزيلة فى المواضيع ، والدراسات ، لان أغلبية المحررين ، والكتاب يكونون على ما يظهر فى اجازاتهم السنوية .

ـ ولوحظ ، أخيرا ، غياب جمهور عنابة ، من غير الطلبة ، عن الملتقى ، فقد لاحظنا فى تلمسان ، وبجاية كثرة تردد جمهوريهما على قاعة المحاضرات رغم ضيقها ، ولكن فى عنابة لم نلاحظ هذا ، وقد لاحظ الكثير من الاخوان ، ولم استطع أن أعلل حقيقــة قاعة المسرح البلدى عامرة بالمدعويين ، ومن ضمنهم بعض طلبة عنابة ، ولكن عنابــة مليئة ، والحمد لله ، بالجمهور المثقف والواعى ، ونشاط الملتقى ينبغى أن يمتـــد الى هؤلاء بصورة ما . وأعتقد أنه لو حجز الشارعان المحاذيان لقاعـــة المسرح البلدى ، وجهزا باغطية ، ومقاعد ، وحراس ، لكان هذا العمل حسنا ، وعاد على جمهور عنابة بالخير العميم ، خاصة وان مكبرات الصوت مجهزة ومعدة فعلا خارج القاعة هناك وفى كل الملتقيات السابقة ، أن أبواب قاعة المسرح البلدى هذا العام تغلق بمجردان يدخل الملتقون والطلبة ، وبذلك لا يتمكن أحد من جمهور عنابة من الدخول ، ونحن نريد أن يمتد تأثير الملتقى الى غير الملتقين كذلك ، وهم جمهور المدينة التى يعقد بها . وهذا ينبغى أن يقرأ له حسابه فى الملتقيات المقبلة .

أزمة الشيخ سليمان داود بن يوسف :

هذه ملاحظات عامة حول الملتقى العاشر للفكر الاسلامى بعنابة أوردرتها كمقدمة فقط لمعالجة قضية خاصة أثيرت على هامش الملتقى . وليس من غرضى هذه المرة أن

اقوم الملتقى فى صلب موضوعاته ، على غرار ما فعلته بملتقى تلمسان التاسع . وذلك لامـــرين اثنيـــن :

أولهما : أنى لم أحضر اليومين الاولين من الملتقى بسبب سوء تنظيم المشرفين عن سفرى ، بصورة خاصة ، الى عنابة ، رغم حرصى على تفادى ذلك ، وقد تسبب هــذا التأخر بالنسبة الى فى فوات عدد كبير من المحاضرات والتعقيبات التى القيت خــلال ذينك اليومين ، فى المحور الذى أميل اليه بطبعى ، وتفكيرى ، وكان ذلك فجــوة كبيرة تمنعنى من اعطاء تقويم صادق للملتقى

وثانيهما : هو أن تقويم ملتقى تلمسان أثار على حقد وغضب أبينــا ، وشيخنــا سليمان داود بن يوسف ، الذى حاول أن يرمينى ويتهمنى ، على ملا من جمهور ملتقى عنابة الكريم والبهيج ، بالاقليمية ، والجهوية ، والعصبية ، التى يعلم الله أنى لا أمقت شيئا غيرها . ولا تجد سبيلا أبدا ، الى تفكيرى ، علما بأن الكثير من الشباب والمفكرين الميزابيين من رفاقى وأصدقائى الاوفياء منذ أيام الصبا و الدراسة ، وبامكانى أن أعطي له الدليل بالدكتور صالح خرفى ، والدكتور ابراهيم فخار ، والدكتور محمد الصــالح الجون ، والاستاذ بلعديسى بلحاج ، والاستاذ خبابة موسى وعيسى ، والاخ بابانو صالح ، والاستاذ العلوانى ، والشيخ الثمينى رحمه الله ، و.. و.. الى ما لا نهاية .

ان الشيخ سليمان داود بن يوسف الاباضى ، يدافع عن فكرة وقضية اصبحت مــن التاريخ ، ولا أملك أن أكفه أو احوله عنها ، بل وليس من حقى ذلك ، ولكنى أرجـــوه فقط الا يحاول مرة أخرى أن يتصرف ويصنع مثل صنيعه بملتقى عنابة . أولا : لانه لا ينبغى أن يتصور أن كل الناس يعرفون الدقائق عــن التــاريخ والحضارة الاباضية الرستمية . وثانيا : لان تصرفه ذاك سيعود عليه بما لا يرضاه ولا يحبــه ، وسيجنى عليه هو وحده ، ومن على شاكلته فقط ان كانوا ، ولا أعتقد انهم موجودون .

ان على الشيخ سليمان ان يتخلص من هذه الوطنية الضيقة ، العجفاء ، والمحلية ، خاصة فى مثل هذه الملتقيات التى يلتقى فيها اخوان مسلمون من سائر اصقاع الدنيا ، من طوكيو شــرقا الى كاليفورنيا غـــربا ، ليتدارسوا حضارتهم الغابرة ، ومشاكلهم الحاضرة ، وآفاق طموحاتهم المقبلة ، فى جو من الحرية والاخاء ، والتسامح ، والتوادد والتعاطف ، بل والتواضع كذلك .

اننا ياشيخنا سليمان نجلك ، ونحترمك ، ونقدر نشاطك الفكرى وفى مثل ذلـــك السن المتقدم ، ونرجو لك امتداد العمر ، ولكننا ننكر عليك تلك الوطنية الضيقة ، ونرجو

أن تتخلص منها ما أمكن ، ونؤكد لك عن معرفة ، ودراية ان معظم الشباب والكهـــول الميزابيين ، متفتحون ، ويخالفونك . فلقد عاشرناهم ، وجاورناهم ، وتعاملنا معهـــم فلم نلاحظ عليهم ما نلاحظه عليك .

وبعد كل هذا استسمحك عن هذه الملاحظات التى صدرت منى وعن طيب خاطر ، وأننى اعتبرك بمنزلة والدى ، فمعذرة اذا كان فى هذا ما يسيئك ، واستغفر الله .

تجربة الجزائر الرائدة ، كيف ولماذا أثيرت فى الملتقى :

اما النقطة الخاصة التى أريد طرقها ومناقشتها ، بصورة خاصة ، فهي : تجـربة الجزائر الرائدة التى قصرت رؤيا بعض اخواننا العرب المسلمين ، عن ادراك حقيقتها ، وتشخيص أهميتها وأبعادها . ذلك أن هذه النقطة أثيرت فى الملتقى ولكن بشكل خافت ، ومحتشم ، ومبتور ، لضيق الوقت أولا ، وللرغبة فى عدم الاحراج ثانيا ، وحتى لا يقال عنا بأننا نريد الدعاية لبلادنا ، أو ننشد استدرار الشكر والاطراء . ونحن فى غنى عن ذلك قطعا ، لان الاهم عندنا هو أن تشكرنا أعمالنا ومنجزاتنا .

والقصة على حقيقتها بدأت وتمت على الشكل التالى :

لقد اعترضنى صدفة ، فى نهاية الشارع الكبير (شارع الاستقلال على ما اظن) بعنابة ، أحد الاخوان الشرقيين ، وذلك مساء الجمعة ، وهي الامسية الوحيدة التـى كنا فيها أحرارا للتجول ، واستوقفنى ، وحيانى ، وشكرنى على المحاضرة التى القيتها فى الملتقى وقدم لى نفسه على أنه مندوب لجريدة الاهرام القاهرية ، وأنه عمـــل فى الحقل الصحفى طيلة عشرين عاما تقريبا . ثم طلب منى أن نتجول معا اذا لم تكن لـى شواغل وموانع ، فشكرته ، وبادلته نفس الرغبة . وأخذنا طريقنا على طول الشـارع الذى يمتد على حافة ميناء عنابة البحرى ، ذهابا وايابا ، وختمنا جولتنا بالجلوس فى احدى مقاهى ذلك الشارع الكبير الذى التقيا فيه أولا ، وتبادلنا الحديث عن الجزائر والملتقى ، وكان الاخ الكريم (من عائلة هويدى) يسأل عن أشياء كثيرة حول الميثـاق الوطنى ، ومناقشات الشعب الجزائرى له ، وموقفه مــن بعض جوانبه كالاشتراكية والاسلام ، والتعديلات التى ادخلت عليه ، والاشخاص الذين صاغوه ، وحـرروه ، وعدلوه ، واليسار الجزائرى ، وتأثيره ، ومواضيع الملتقى ، وتعدد الملتقيات الاسلامية هذا العام ، وما الى ذلك . وكنت أجيبه بصراحة عن كل ما أعرف ، وفى حدود ما أعرف طبعا . وكان هو يقارن أحيانا بأوضاع مصر ، والعالم العربى بصراحة كذلك يشكـر عليها على أساس أننا من عائلة واحدة ، الشىء الوحيد الذى لم أستطيع أن أجيبـه

عليه لكوني لا أعلم بواطن الامور ، هو عدم حضور المغاربة فى هذا الملتقى هذا العام ، ولكن السيد الوزير مولود قاسم ازال هذا اللبس ، واعلن فى قاعة الملتقى بأنه وجـــه الدعوات لهم ، وعلى الاقل ، المفكر والكاتب المهدى بن عبود ، ولكن لم يتلق أي جواب .

وقد شعرت خلال المناقشة والحوار ، بأن الاخ (هويدى) كان غير راض أو غير مقتنع ببعض الاشياء ، وانه كان متضايقا من بعض المشاكل التى اعترضته فى مقـــر اقامته بالنفدق (بلازا) ، وعلى سبيل المثال لم يمكنوه من الاتصال الهـاتفى بكان فى فرنسا رغم ملازمته لغرفته طوال يوم كامل ، بحيث لم يقولوا له لا ! صراحة ، ولـــم يلبوا رغبته . واعتقد أنه محق فى غضبه فى هذه النقطة ، ولا ينبغى أن ندعى نحـــن الكمال ، وليس من حقنا ذلك ، لان الكمال لله وحده ، ثم أنه لدينا نقص ولدينا عيوب فى ميدان الاستقبال بصورة عامة . وعلينا أن نخلق روح اللياقة التى تليق بكل شخص خاصة فى مثل هذه المناسبات .

ان استغلال التيليفون فى فنادق الملتقيات الاسلامية ، يكاد يكون من المستحيل كما لاحظت أنا شخصيا فى تلمسان العام الماضى ، وعنابة هذا العام . وقد اصطدمت أنا شخصيا العام الماضى مع مسؤول فندق المغرب بتلمسان ، واضطررت هذا العام بعنابة ان أذهب الى مركز البريد المركزى ليلا على الساعة الحادية عشرة للاتصال بأسـرتى والاطمئنان عليها .

وأعتقد ان الوزارة التى تتحمل جميع نفقات الاقامة فى مثل تلك الفنادق الضخمة ، لا تضيرها المكالمات التيليفونية التى يطلبها بعض الملتقين للاطمئنان على عائلاتهم ، وحتى لو طلبت مصالح الفندق مبالغ هذه المكالمات لقدمناها لها • بصدر رحب ، على ان تكفينا الذهاب الى مراكز البريد المكتضة بالرواد ، وفى أوقات غير ملائمة ، ما دام الجميع مشغولا فى متابعة الاعمال بقاعة الملتقى . وقد أكد لى الاخ المصرى بمرارة أنه لو طلب منه دفع مبلغ المكالمة لدفعه . ان الاخ المصرى الصحفى محق فى انتقاده هذا ، ونتمنى أن تتفادى هذا مستقبلا وزارة التعليم الاصلى حتى ولو بالنسبة للضيوف على الاقل ، وأن كنا نتمنى أن يشمل الجميع وفى حدود الامكان .

قلت كنت أجيب الاخ هويدى بصراحة ، وهدوء ، وبشاشة ، عن كل ما أعرف حول استفساراته ، الى أن فاجأنى بفحوى السؤال التالى : سمعنا أن الانســان عندكم فى الجزائر لا يستطيع أن ينتقل بين ولاية وأخرى الا برخصة ، فهل ذلك من أجل الحفاظ على الامن ؟ ام لراحة المواطن ، أو لغاية أخرى ؟ فشعرت بصدمة وخيبة أمل ، وأجبته

بسرعة ، ودون تروى . لا ! ومن قال لكم هذا ، وهل سمعتم هذا من أحد ؟ وكررت ذلك عليه عدة مرات ، فاحس بعنف الصدمة لدى ، وكأنه لم يكن يتوقع ذلك منى ، فأخـــذ يبرر تساؤله ، ويلطف منه ، ولو امكن له سحبه لفعل ذلك ، ولكن الامـــر قد فـــات ، وسرعان ما انتقلنا الى مواضيع أخرى ، غير أنى فى قرارة نفسى كنت احترق من مثل هذا السؤال ، ومن الذين يضعونه ويروجونه ، ظلما وبهتانا ، وكذبا وزورا .

ورغم أنى متأكد من حسن نية الاخ هويدى وبراءته ، لان سؤاله لا شك كان مبنيا على واقع ما من الاشاعات هذه ، الا أن صدمتى من سؤاله كانت شديدة ، وألمى كـــان حادا وبالغا لعدة أسبـــاب :

أولا : أن هذه الاشاعات ، عبارة عن مجرد أكاذيب ، لا أساس لها من الصحـــة اطلاقا ، ولا ينبغى لاخ شقيق ومن بلد شقيق يشتغل مهنة الصحافة أن تنطلى عليه ، أو تخفـــى عنـــه .

ثانيا : ان اخواننا العرب بالمشرق العربى ، للاسف الشديد ، يصدقون بســرعة ، ودون تروى ، هذه الاشاعات المغرضة والمضللة ، التى كان الغرب الاوروبى يشيعها وينشرها ضد بلدان شرق أوروبا الشيوعية ، وأصبح اليوم يحاول عبثا أن ينشرها ضد الجزائر لتشكيكها فيما تقوم به من أعمال خلاقة ، لصالح تنميتها القومية ، ولايقاف وعرقلة مسيرة نهضتها الشابة الفتية .

ثالثا : ان اخواننا فى الشرق العـــربى ، للاســف الشديد ، يسيئون فهم تجربتنا الثورية ، ومدى ابعادها الكبرى داخل الجزائر ، وفى محيط العالم العربى والاسلامى ، ويفسرون اشتراكيتنا على أنها شيوعية مستوردة ، روسية ، أو صينية ، أو كورية .

رابعا : ان الجزائر مفتوحة فى وجه اخواننا عرب الشرق ، وغيرهم ، وليس هناك أي حاجز أو ستار حديدى حال أو يحـــول دون زيارتهم لها ، وتنقلاتهم فى أطرافها وارجائها . والمتعاونون منهم معنا يعدون بالآلاف ، ويعيشون فى كل أطراف الجزائر منذ فجر الاستقلال عام 1962 حتى يومنا هذا . ولا نعتقد أن هناك شيئا قد خفى عليهم من أوضاعها الحقيقية ، لاننا لم نعمل ، ولن نعمل ، على اخفاء أي شىء عنهم ، لانـــه ليس من شيمنا ذلك ، بل على العكس نبذل جهدنا لاطلاعهم على ما لربما لم ينتبهوا اليه .

فأي مجال بعد هذا يبقى لهم ، ليصدقوا أو يغتروا بمثل هذه الاشاعات الباطلـــة ، والزائفة ، التى كانت توصم بها بلدان أخرى . وحتى نوضح أكثر نروى ما سمعناه من بعض المسافرين ، والعهدة عليهم ، من ان الانسان فى روسيا لا يستطيع ان ينتقل خارج

ا
الم
المص
فـ
والمغالط
واشتراكي
اننا لا
وطويل ، ومس

أحكام الدكـ

بقيت هذه المح
وفى الغد حاضرنا ا
يعمل فى احدى الجا
الوطن الام ، جاءت محا
الذى صوره تصويرا مأس
غير أنه كان فى نظرنا مبال
المقارنات التاريخية والحال أ
أية تجربة ناجحة ، ويستثنيها ،
بالجملة فى مشاكل العالم العربي
فى حدود بلدان المشرق العربى وح
وهنا وجدت نفسى اسرع لطلب
مشكلة المحادثة مع الاخ هويدى الص
نظرة اخواننا العرب نحونا ونحو تجرب

وأسئلة الطلبة حول بعض مشاكل فى الطب كالدورة الدموية ، وابن النفيس ، وهارفى ، وسيرفيد ، وكالادب ، والقصة ، فى موضوع تأثير الحضارة العربية الاسلامية فيهما بأوروبا ، وما الى هذا ، فكيف أغامر بالاجابة هكذا .

اننى أومن بالمثل القائل ، عاش من عرف قدره ، ومن قال لا ادرى علمه اللــــه ما لا يدرى . ولا أعتقد أن مثل هذا الاسلوب والسلوك يضر بصاحبه ، بل على العكس يجلب له الاحترام . وقد تلقيت شكرا من الدكتوراه وداد القاضى على هذا التصرف ، وحسن التخلص ممادعته هي : احراجا ، وأسميه أنا طيبة من جل الطلبة ، وسذاجة من القلة فطـــرية .

تدخل السيـد وزير التعليم الاصلى :

وعندما جاء دور الدكتور اسماعيل راجى الفاروقى الفلسطينى ليرد علي ، وعلى غيرى كذلك ، بالغ فى بعض ردوده خاصة فيما دعاه : الوطنية الضيقة ، التى أكـــد بأنه لا يتمناها للجزائر . وهنا طلب السيد الوزير الاستاذ مولود قاسم ، استفسارا منه على هذه الوطنية الضيقة ، وطلب تعقيبا زكى فيه تعقيبى ، وأضاف عليه بأن تجـربة الجزائر مغمرطة الجانب لدى اخواننا العرب فى المشرق العربى ، ومسكوت هنــــا . وأشار بالمناسبة الى أفكار حسنين هيكل المنحرفة والزائفة حول كيان الجزائر التاريخى والى المغالطة الواضحة الراسخة فى أذهان بعض اخواننا العرب بالمشرق العــــربى ، عن اشتراكية الجزائر النابعة فى الحقيقة والواقع من تاريخها وكفاحها ، وطموحاتها الكبرى ، والتى لا تتعارض اطلاقا مع دينها الاسلامى الحنيف الذى هو دين الـــدولة الرسمى ، كما هو دين الشعب طبعا . وهو ما أكده الميثاق الوطنى أخيرا . ولا تتعارض مع تقاليدنا العريقة كمجتمع اسلامى يسعى الى النهضة والتطور بسرعة ، ومن أقصر الطـــرق .

واستشهد السيد الوزير بأقوال وآراء بعض مفكرى الازهــر التى صدرت أخيرا حول مفهوم الاشتراكية الذى لا يتعارض مع الاسلام .

أسس تجربة الجزائر الرائدة :

ذلك هو فحوى وخلاصة النقاش الذى جرى حول هذه النقطة الحيوية ، وتلك هي الاسباب والدواعى لذلك ، وهو نقاش جميل ولطيف ، وهادىء ، ليس فيه أية غرابة ، بل الغرابة فى عدم حصوله لو لم يحصل . والفضل فيه للاخ المصرى هويدى ، والدكتور

الفلسطينى اسماعيل راجى ، اللذين أشكرهما غاية الشكر لتسببهما فى حصوله ، حتى مكننا من توضيح بعض ما غمض فى بعض جوانب حياتنا ، وازالة بعض اللبس فيها فى جو من الحرية الفكرية الرائدة ، والاخوة والصراحة الصادقة ، والثقـــة فى المستقبل المشترك . وتلك هي مزية هذه الملتقيات الفكرية الاسلامية .

وهذا النقاش الحيوى الجميل هو الذى أوحى لى وحفزنى على تحرير هذا الموضوع لايضاح ما لم يسمح الوقت بايضاحه فى الملتقى ، انصافا لبلادى وتجربتها ، وايضاحا لاخواننا العرب بالمشرق العربى حتى يكونوا على بينة وبصيرة منا ، ومن تجربتنا ، واشتراكيتنا . ولا يبقوا أسرى بعد ذلك لمثل هذه الاشاعات .

ان فى الجزائر اليوم ، ومنذ عام 1962 ، وخاصة بعد التصحيح الثورى عام 1965 ، تجربة رائدة يجرى انجازها بارادة قوية ، وعزم لا يقهر ، وثقة لا تتزعزع . وذلك فى مختلف المجالات والميادين التى ترتبط بالثورات الثلاث : الصنـاعية ، والـزراعية ، والثقــافية .

1) تجربة السد الاخضر ، أو غرس غابات السد الاخضر العظيم ، الذى سيضع حدا لزحف رمال الصحراء القاحلة الى الجزائر الشمال الخضراء ، ويحدث تغييرا فى المناخ لصالح توفر الرطوبة ، والاستغلال الفلاحى ، والحيوانى ، ويوفر ثروة الاخشاب للتدفئة والتنمية الصناعية . ويحمى التربة الخصبة من القحولة والجفاف . وهو سد طوله ألف وخمسمائة (1500) كلمتر ، وعرضه بين عشرة وخمسة وعشرين (10 — 25) كلمتر . ويقوم بانجازه جنود الجيش الوطنى الشعبى ، وشبـــاب الخدمة الوطنية ، بسواعدهم المفتولة والفتية . وكان قبل اليوم حلماً من الاحلام ولكنه اليوم حقيقة واقعة .

2) تجربة التشجير الواسعة لمختلف منحدرات البلاد من أجل مقاومة الانجراف ، والحفاظ على التربة الخصبة فى أماكنها ، وتوفير الغابات وثروة الاخشاب ، وتنقية الجو من الرواسب العفنة ، وتنويع الغلال والثمار وتكثيرها . وقد تم حتى الآن غرس مئات الملايين من الاشجار فى طول الجزائر وعرضها ، وبدأت هذه العملية تؤتى أكلها وثمارها .

3) تجربة الثـــورة الزراعيـــة التى احدثت تغييرا جذريا فى أرياف بلادنا ، وفى المعطيات الفلاحية ، وعقلية الفلاحين . وكان من نتائجها البارزة استصلاح عشـرات الآلاف من الهكتارات لاضافتها الى المساحات المزروعة ، وخلق عقلية روح التعـاون لدى الفلاحين مما سمح باقامة عشرات ، بل مآت من التعاونيات الفلاحية ، واقـــامة

عدد لا بأس به من السدود لحجز المياه للري والسقى الفلاحى · واخضاع العمل الفلاحى والزراعى للتطورات العلمية والتقنية الحديثة التى تساعد على تذليل العمل للفلاحين ، ورفع مردود الانتاج الفلاحى وتنويعه ·

4) تجربة بناء ألف قرية فلاحية للفلاحين الذين شردهم الاستعمار فى الصحارى والهضاب العليا القاحلة وقمم الجبال الجرداء ، عشرات السنين · وقد تم حتى الآن بناء عشرات وعشرات منها بكل مرافقها الحيوية من المسجد والمدرسة ، الى المستوسف ومركز البريد ، والبلدية ، والسوق ، والنادى ، والحمام · ويبذل جنود الجيش الوطنى الشعبى ، وشباب الخدمة الوطنية جهودا جبارة فى انجاز هذه القرى التى تعتبر مفخرة الجزائر الجديدة وثورتها الزراعية الرائدة. وأصبح فلاحونا الجزائريون يشعرون اليوم ولاول مرة ، بعد عشرات السنين من التشرد والهوان ، بالاستقرار الحقيقى ، والهدوء ، والاطمئنان ، وبضمان العيش الرغد ، والحياة الكريمة .

5) تجربة انشاء طريق الوحدة الافريقية ، أو عابر الصحراء العملاق ، بسواعد الجنود وشباب الخدمة الوطنية ، الذى لا تقتصر فائدته على الجزائر وحدها ، وانما سيفتح آفاقا واسعة لبلدان ما وراء الصحراء الكبرى ، ويقضى على عزلتها واختناقها ، ويتيح لها الاتصال بشمال القارة وكل عالم البحر المتوسط ، وأوروبا · وتفخر الجزائر بأنها كانت وما تزال البوابة الحقيقية لانفتاح وسط افريقيا على شمالها ، وعلى العالم المتمدن فى النصف الشمالى من الكرة الارضية · ان هذا العابر العظيم عز ويعز على غير الجزائر أن تنشئه وتنجزه ، لان الطريق الذى طوله حوالى الفى كلمتر ، ويخترق صحراء كالصحراء الكبرى بقساوة مناخها ، وشدة حرارتها ، وقحولة ترتبها ، وانعدام المياه وكل مظاهر العمران الاخرى بها ، ليس من السهل انشاؤه وانجازه لا تقنيا ، ولا ماديا ، ولا بشريا ، ولا طبيعيا ·

6) تجربة فرض الخدمة الوطنية على الشباب والطلبة ، وتسخير طاقاتهم الشابة وجهودهم الخلاقة لصالح النهوض بالبلاد ، وتنمية قدراتها الاقتصادية ، وتدعيم مشاريع التنمية القومية فيها خاصة وأن البلاد قد خربها الاستعمار الفرنسى تخريبا فضيعا لا نظير له طيلة وجوده بها مدة قرن واثنين وثلاثين عاما . ولا يمكن لمرتزقة أجانب أن يصلحوها بعد الاستقلال · فكما استشهد مليون ونصف مليون من أجل تحرير هذا البلاد من وطأة الاستعمار ، فان شباب اليوم يقدم بسخاء وعن رضا وطواعية ، ضريبة الدم والجهد والعرق من أجل النهوض به ، ودفعه دفعا للحاق بركب التطور الحضارى ·

ان الخدمة الوطنية لشباب الجزائر اليوم تعتبر مفخرة هذا البلد كذلك ، وأثــارت اعجاب العديد من بلدان العالم الثالث التى ، كما قال الرئيس بومدين ، أصبحـــت تستفسر ، وتستوضح ، عن كيفية تطبيقها ، والنتائج التى عادت بها على البـــلاد · مما يدل على تأثيرها خارج بلادنا ·

7) تجربة الثورة الصناعية التى بدأنا هامن الصفر ، وتستهدف تحطيم الاحتكــار الغربى والشرقى ، لمجال الصناعة ، والتيكنولوجية ، ورفض جعل بلدنا سوقا رائجــا فقط لمنتجات العالم المصنع كما كان قبل الاستقلال ·

وهذه الثورة الصناعية الرائدة هي التى استلزمت تصفية كل الاحتكارات الاجنبية وتأميم الثروات المعدنية ، والطاقة ، لتدعيم هذه التجربة الفتية التى ستعود بالنفع على البلاد ولاشك اقتصاديا ، واجتماعيا ، وسياسيا ·

ولعل اخواننا العرب يذكرون ، ولا يجهلون أن الجزائر هي التى فجرت معركـــة البترول عام 1971 ، وخاضتها حتى النهاية ، وخرج الجميع بعد ذلك منتصرين فى المغرب العربى ، ومنطقة الخليج ، وفى فينيزويلا ·

ولعل اخواننا العرب ، يذكرون ، ولا يجهلون ، أن الجزائر هي التى دعت الى عقد دورة خاصة للامم المتحدة ، من أجل مناقشة موضوع المواد الاولية ككل ، وليس الطاقة وحدهما كما كان الغرب يبغى ذلك ، ونجحت فى معركتها · واضطر الغرب مكرها ان يجلس على طاولة واحدة مع بلدان العالم الثالث للتفاوض والحوار من أجل اقـــامة نظام اقتصادى جديدى عالمى يستجيب للتطورات الجديدة فى العالم · ويأخذ بعيـــن الاعتبار مصالح البلدان النامية فى العالم الثالث ·

وقد شاهد الملتقون بعنابة ، مركب الحــــديد والصلب كنموذج للثورة الصناعية الحديثة التى تخوضها الجزائر بعزم وارادة قويين ، وتقيمها بالاعتماد على ســـواعد شبابها ، وبامكانياتها المادية الاخرى · وهذا المركب الذى يعتبر فجر الصناعة الحديثة بالجزائر له نماذج أخرى كثيرة فى البلاد والحمد لله مثل : مركب الجرارات الميكانيكية بوادى حميمين فى قسنطينة ، ومركب الدراجات فى قالمة ، ومركب الشاحنات بالرويبة ، ومصانع الزجاج والخزف فى وهران وقالمة ، ومركبات الورق فى مستغانم وقالمة وسوق أهراس ، ومركبات النسيج فى ذراع بن خدة ، وتليلات ، والكرمة ، وباتنة ، وقسنطينة ، ومركب عربات السكك الحديدية فى عنابة ، وغيرها ، مما لا يسمح المجال باستعراضه ·

8) تجربة التطوع الرائدة ، والفريدة من نوعها ، التى اصبح الشرق والغرب يقلد الجزائر فيها ، كما فعلت البرتغال بعد ثورتها لتطهير عاصمتها لشبـــونة من الازبال والاقذار ، وكما تفعل كوبا وغيرها .

ان تجربة التطوع بالجزائر ، عظيمة الاهمية والفائدة ، لاننا اصبحنا نحقق بهـا ما كان مستحيلا تحقيقه قبل اليوم ، وفى أقصر وقت كذلك ، كاستصلاح الاراضى ، وبناء القرى الفلاحية ، وشق الطرق المعبدة ، وتنظيف المـــدن والقرى من الاوساخ ، وتوعية الفلاحين باعمالهم الفلاحية ، ومساعدة الاجهزة الادارية فى الارياف والقرى على القيام بواجباتها فى خدمة المواطنين .

ومما يزيد فى روعة حركة التطوع عندنا اقبال عنصر الشباب والطلبة عليها بشكل تلقائى وجماعى بحيث أصبحوا يفضلونها ويفضلون قضاء عطلهم الفصلية فى الحقول والمزارع ، والقرى ، والارياف ، لاداء الواجب الوطنى ، بدلا من التسكع فى الازقـــة والشوارع ، أو التمتع بملذات الشواطى ، والمسابح ، والملاهى . ويكفى ان نذكر انـــه فى صيف هذا العام 1976 بلع عدد الطلبة الذين شاركوا فى حملة التطوع سبعة عشر ألف طالب . انها لمفخرة حقا للجزائر تنبع من لب الاسلام الذى يدعو الى التعاون ويحث عليه فى كل تعاليمه .

9) تجربة الثورة الثقافية التى تستهدف محو الامية على الكبار ، وتعميم التعليم لكل الاطفال ، واحياء التراث الوطنى التاريخى واعادة الشخصية الجزائرية العـربية الاسلامية ، التى حاول الاستعمار الفرنسى مسخها وطمسها بكل ما أوتى من قـــوة ووســـائـــل .

وفى هذا المجال قامت الجزائر بانشاء مآت ومآت من مؤسسات التعليم العام ، والتقنى ، وعشرات من المعاهد التيكنولوجية المختلفة الانواع والاشكال ، وعددا آخر من الجامعات العادية ، والعلمية ، والتقنية ، لتستطيع بها أن تواكب التطورات العلمية الحديثة . وقد أولت الجزائر أهميتها لقطاع التعليم والتكوين ، وخلق الخبرة الوطنية ، وخصصت ميزانية ضخمة لذلك يشهد بها الخاص والعام ، والعدو والصديق ، بدأت تعطـى ثمـارها .

وما معركة التعريب الرائدة ، والناجحة ، الا مثل ونموذج ، لهذه الثورة الثقافية ، التى من نتائجها مشاهدة الملتقين بمركب الحجار للحديد والصلب ، تقنيين جزائريين يشرحون لهم ويوضحون المصطلحات العلمية والتقنية باللغـة العـــربية السليمة ،

ومشاهدتهم بقاعة المسرح البلدى لاطباء جزائريين ، يحاضرون ويناقشون باللغة العربية السليمة التى قد تكون احيانا أفصح من فصحاء رجال اللغة العربية نفسها ·

وكما قلنا سابقا فان من لا يعرف مأساة الفرنسية ، وخطورتها فى بلادنا الجزائر ، لا يدرك أهمية هذا ولا يتصور مداه وأبعاده ، ولكنا نحن الجزائريين الذين اكتـــوينا بنارها ، وابتلينا بويلاتها ، نقدر هذا التطور غاية التقدير ، ونباركه ، ونـدعمه بكـل طاقاتنا ، بل ونفخر به لكونه تحقق فى وقت وجيز جدا .

10) تجربة الطب المجانى ، وتعميم التلفزة ، والاذاعة ، وكل وسائل الاعلام الاخرى وايصالها الى كل المواطنين فى كل جهات البلاد مهما تكن بعيدة ، وأيا كانت الصعوبات والتضحيات · وتطوير وسائل النقل والمواصلات الجــوية ، والبحـرية ، والبـرية ، والحديدية ، والسلكية ، واللاسلكية ، لخــدمة أغراض التنمية الاقتصادية القومية ، وتسهيل سبل العيش والحياة للطبقات الشعبية الكادحة ·

11) تجربة انتخاب المجالس الشعبية البلدية ، والولائية ، والحزبية ، والعمالية ، تمكينا للشعب من المراقبة الذاتية ، ومن ممارسة المسؤوليات بنفسه · ويستعد الشعب الجزائرى فيما بقي من هذا العام 1976 ، أن ينتخب أعضاء المجلس الوطنى التأسيسى ، ورئيس الجمهورية ليستكمل بذلك كل مؤسساته الدستورية التى بدأهـــا من القاعدة وبتـــؤدة ·

12) وآخرا ، وليس أخيرا ، تجربة الملتقيات الفكرية الاسلامية التى تجمع الجزائر فيها حشدا من العلماء الاجلاء شرقا وغربا ، وأفواجا من الطلبة والطالبات ، والشباب والشيوخ ، للمناقشة والحوار ، وتبادل الآراء ، فى جو من الحرية الخلاقة ، والمبدعة ، وفى جو من التسامح واللياقة العلمية والفكرية الرائدة .

ان هذه الملتقيات الفكرية الاسلامية عبارة عن مدرسة تكـوين ، وتعارف تنفـق الجزائر بسخاء من أجل نجاح مهمتها التى تتمثل فى احياء التراث الاسلامى ، والفكر الانسانى ، وفى مناقشة المشاكل التى تعترض مجتمعاتنا الاسلامية ، وايجاد ، واقتراح الحلول المناسبة لها ، وهي دليل قاطـــع على عروبة الجـــزائر واسـلامها بالنسبة للمتشككين فى ذلك ، وبرهان على تفتحها على الغير كذلك دون خوف ، وفى اطـار الحفاظ على مقدساتها الحضارية والاسلامية ·

ومما يثلج الصدر أننا نلاحظ تطورا كبيرا فى هذه الملتقيات كل عام ، سواء من حيث الشكل ، والاطار ، أو المضمون والمحتوى ، أو الفوائد المنجزه عنها .

لماذا يتعامى بعض اخواننا العرب عن التشخص الحقيقى لتجربة الجزائر الرائدة :

هذه هي المحاور الكبرى لتجربة الجزائر الرائدة ، وهي لا تحتاج الى أي دليل أو برهان ، لانها كلها عبارة عن ورش أعمال كبرى يجرى العمل فيها على قدم وساق ، بجد ونشاط وحيوية ، وصمت . والكثير من قادة العالم شاهدوها بأعينهم خلال ترددهم المستمر على الجزائر ، وحتى جماهير الملتقيات الاسلامية يشاهدون كل عام نماذج منها .

ومع ذلك يتعامى عنها « بعض » أقول « بعض » اخواننا العرب فى المشرق العربى ، ويغمطون حقهــا كما قال السيد الوزير مرلود قاســـم ، ويعرضون عنها صفحـــا ، ويتجاهلونها · فما السبب يا ترى ؟!

يبدو ويظهــر أنهم يفهمون اشتراكيتنا فهمــا معكوسا كما ذكــرنا ، ويقرنونها باشتراكية روسيا ، أو الصين ، أو كوبا ، أو غيرها o وهو فهم خاطىء ، ومقارنة غير موفقـــة ·

كما أن البعض منهم يحسدوننا ، على ما يظهر ، على نهضتنا الجادة ، والسريعة ، والهادفة ، كما أوضح ذلك حسنين هيكل فى احـــدى حماقاته ، ومهاتراته بعد هزيمة عام 1967 ، وبعد فك الارتباط وايقاف حرب الاستنزاف ضد اسرائيل عام 1970 ، عندما ذكر بأن الجزائر لا تهتم الا ببناء نفسها ، ناسيا ، ومتناسيا ، أن بناء الجزائر يعنى بناء مصر وكل بلد ان العرب الاخرى ، وان قوتها هي قوة للعرب كلهم ·

وأذكر أن الرئيس بومدين قد رد على مثل هذه الحماقات ، وأعلــن فى استجواب لاحد مندوبى احدى صحف المشرق العربى ، عن استياء الجزائر من تجاهل الاخوان العـــرب بالمشـــرق لتجـــربتهــا الراشـــدة وتحـــداهم أن يثبتـــوا أن أحـــــدا منهم قد مات فى سبيل الجزائر خلال ثورتها المسلحة بميدان المعركة ، فى حين أبنـــاء الجزائر استشهدوا فى جبهة القتال وسينا ، وجبهة الجولان ·

وهذا لا يعنى أبدا أننا ننكر ونجعد المساعدات المادية التى قدمها اخواننا العرب لثورة الجزائر ، ولكن نقول لهم أن مثل هذه المساعدات المادية ، تلقيناها أيضا مـــن المنظمات اليسارية الاوروبية ، وفى داخل فرنسا نفسها ، فضلا عن غيرها ·

كما ان هذا لا يعنى أبدا أننا نمنى عليهم ونتباهى · فاستشهاد أبناء الجزائر فى سينا ، والجولان ، أمر و'جب ومقدس ، يق ضه الواجب الوطنى ، ولا خير لنا فيه ، ولا فضل ، ولا نستحق عليه أي شكر ·

غير اننا مع هذا لا نستأهل أن تتجاهل تجربتنا ، وتتناسى ثورتنا التحررية الرائدة ويغمط أمرها بهذا الشكل ، فعلى الاقل ضعوها ضمن الثورات العربية .

ثورة الجزائر هي التى اعادت للعرب الثقة والاعتبار :

ان ثورة الجزائر هي التى اعادت الاعتبار للعرب ، والثقة بانفسهم بين شعوب العالم وهي التى رفعت رؤوسهم عالية بعد أن انتكست عشرات السنين تحت أقدام المحتلين الغاصبين من أفاقى أوروبا ومرتزقتها · وذلك لان ثورة الجزائر ليست ثورة عـادية ، من نوع الثورات التى عرفها المشرق العربى · وانما هي ثورة مليون ونصف مليـون شهيد ، وثورة سبع سنوات ونصفا من الكفاح المتواصل ليل نهار ، ذاق خلالها الشعب الجزائرى ما لم يذقه أي شعب آخر من الاذلال ، والتشريد ، وجحيم التعذيب · انهـا ثورة أعجزت الحلف الاطلسى بكـل خبراته وامكانياته المادية والعسكرية ، واطاحت لفرنسا سبع حكومات متتالية ، وحطمت لها الجمهورية الرابعة ، وفرضت عليها عزلة دولية فضيعة الى أن انقذها الجنرال دوقول بالاعتراف مرغما باستقلال الجزائر وحريتها انها ثورة كانت السبب فى تحرير معظم بلدان القارة الافريقية · وكانت رائدة لـواء الحرية والاستقلال فى عقدى الخمسينات والستينات من هذا القرن بلا منازع ·

اشتراكية الجزائر لا شرقية ولا غربية :

ان اشتراكية الجزائر التى يتحذر منها « كثير » من اخواننا العرب فى المشـرق وفى المغرب العربى هذه المـرة ، لا هي شـرقية شيوعية ، ولا هي غربية رأسمالية بورجوازية ، وانما هي جزائرية صميمة قلبا وقالبا ، أساسها لب الاسـلام ومبادئه السمحة ، وقوامها خدمة مصالح البلاد العليا وتحقيق العدالة التى يدعو اليها الاسلام بين كل المواطنين ، وهدفها جعل الانسان الجزائرى خاصة ، والعربى عامة ، يؤمـن بتاريخ وحضارة بلاده العربية الاسلامية ، وبالوحدة العربية ، والتضامن الاسلامى ، فى اطار تكافؤ الفرص ، واشاعة الحق والعدل والمساواة بين جميع البلدان العربية والاسـلامية ·

ان اشتراكية الجزائر تعنى بناء الانسان الجزائرى المسلم ، الطاهر ، النظيف ، الخالى من كل عقدة ، والمؤمن بامجاده التاريخية ، وحضارته الاسلامية ، والمعتـز بشخصية بلاده القـومية ·

ان اشتراكية الجزائر تعنى تطهير الاسلام من الخرافات ، والاباطيل والظلالات ، والبدع ، التى أدخلها فيه أدعياء الدين الآثمون . وتعنى بناء المساجد لعبادة اللـه وحده ، والمعاهد الاسلامية ، والجامعات ، وكليات الشريعة وأصول الـدين لتكوين أجيال مسلمة حقا ، ومؤمنة بحقيقة الاسلام وشريعته السمحاء الطاهرة ، والنقية .

وتعنى محاربة التحلل الخلقى ، والميوعة الغربية ، والافكار الاجنبية الدخيلة التى غزت عقول شبابنا فى عالمنا الاسلامى الواسع ·

فأي شيء يضيركم فى هذا يا اخواننا العرب ، وأي شيء يجعلكم حذرين هكذا من اشتراكيتنا وتجربتنا ، علما بأننا لا ننشد أية زعامة ، ولا نؤمن بأية ديماغوجية ، ولا تستهوينا أية أغراض أو طموحات زائفة ·

ان الجزائر تعيش كل أحداث اخوانها العرب :

اننا هنا فى الجزائر نعيش كل أحداث اخواننا العرب فى المشرق والمغرب العربى · ونتأثر لها بصورة تلقائية ، ونتتبعها خطوة خطوة وباهتمام بالغ ، ونستخدم كـــل امكانياتنا المادية والمعنوية لشرحها وايصالها الى كل طبقات شعبنا ، ونعتبر هـــذا واجبــا قــوميا ·

وفى مقابل هذا نلاحظ ان اخواننا العرب فى المشــرق العــربى لا يتكلفون حتى مجرد المتابعة الصحفية لاخبارنا فضلا عن ان يبحثوا عنها ، ويحللوها ، بل انهـــم لربما لا يقرأون حتى ما يهدى اليهم من كتب ، ودراسات ، ونشريات ، من قبلنا الا ما قل منهم طبعـــا ·

فاي تفسير لهذا يا ترى ! ! نترك الجواب لهم ، أما نحن فنعرفه جيدا · بقي أن نقول لهم ان فكرة تقوقع كل بلد عربى ، وانطواءه على نفسه قد اخنى عليها الدهـــر وشرب ، كما أن فكرة : مصر أم الدنيا ، أو سرة الدنيا ، التى توحى بالتعاظم ، قـــد أخنى عليها الدهر وشرب كذلك واذا فلم يبق من سبيل سوى التعاون والتكامل بين كل اجزاء العالم العربى أولا ، والاسلامى ثانيا ، حتى نستطيع أن نقاوم ونواجه بجــزم وقوة ، وصمود ، جملة هذه التحديات الغربية الخطيرة التى تهدد كياننا من أساسه ، لقد آن الاوان لان ينصف بعضنا البعض ، ونضع كل الامـــور فى نصابها وامــاكنها الحقيقية ، ولا مخرج لنا غير هذا ·

نقول هذا لان الجزائر قد اعطتها قضية مأساة شعب وأرض الساقية الحمــراء ووادى الذهب ، تجربة مرة فى علاقاتها مع شقيقاتها البلاد العربية المسلمة ، تلك القضية التى جامل فيها اخواننا العرب ، العرش المغربى الذى يعطيهم أى شىء ، وضحــوا بالجزائر وشعب الجزائر الذى قدم لهم كل شىء ·

نهضة وتوحيد العالم الإسلامى

مقابلة مع
الدكتور مصطفى أحمد الزرقاء
أستاذ الشريعة فى الجامعة
الاردنية – عمان – الاردن –
اجرى الحوار
الدكتور خير الله عصــار



الدكتور مصطفى أحمد الزرقاء ، أستاذ الشريعة الاسلامية فى الجامعة الاردنية ، عمــان (الاردن) ، صاحب أكثر من 12 مؤلفا تتكون من سلسلتين : قانونية وهى تدرس الآن فى دمشق منها « شرح القانون المدنى الســورى » وفقهيــة ، هــدف منها صاحبها الى صياغة الفقه الاسلامى بالطريقة الموضوعية المعروفة فى التأليف المدنى وعنوانها : « الفقــه الاسلامى فى ثوبه الجديد » .

درس الدكتور الزرقاء القانون المدنى والشريعة الاسلامية فى كلية الحقوق فى جامعة دمشق منذ عام 1944 ، وكان فى نفس الوقت رئيسا لقســم القانون المدنى فى

(*) نذكر دائما فى هذا الاطار وغيره ان ما ننشره لا يعبر بالضرورة عن آرائنا ، ونحن نرحب بكل رد أو تعليق فيه تصحيح أو تأييد . (الاصالة)

الجامعة وبعد تقاعده من الجامعة قام بمشروع لكتابة الموسوعة الفقهية فى الكويت لـدة 5 سنـوات ·

لقد جمع أستاذنا فى دراساته بين الثقافتين الشرقية الاصلية والعصرية العامة وذلك فى اطار دراسته الثانوية والجامعية · فقد حصل على ليسانس فى الآداب وتعلم اللغة الفرنسية ، وهكذا أمكن له أن يكون تأليفا فريدا فى شخصه من عطـاء الشرق وعطـاء الغـرب ·

تولى الشيخ الزرقاء وزارة العدل والاوقاف (الشؤون الدينية) فى سـورية لفترات متفاوتة فى أيام الحياة البرلمانية · وشارك فى مؤتمرات علمية واسلامية عديدة فى شتى انحاء العالم : فى أمريكا ، والبلاد العربية والباكستان وفى « أسبوع الفقـه الاسلامى » الذى عقد فى باريس عام 1951 والذى انبثقت عنه فكرة موسوعة الفقـه الاسلامى التى ذكرناها أعلاه .

* * *

أظهرت لى محاضرة الدكتور الزرقاء وتدخلاته فى الملتقى العاشر للفكر الاسلامى عناية أنه فاهم ومتمكن من لـب المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تواجه العرب خاصة والمسلمين عامة · وعليه اعتبرتها فرصة العمر الذهبيـة (بعد الجولة التعليمية التربوية الاسلامية التى قام بها فى الغرب الجزائرى) أن القى عليه أسئلة حول المشكلات الراهنة الكبرى التى تواجه العالم الاسلامى عامة ·

وبما أن المشكلات الكبرى التى تواجه العالم الاسلامى كثيرة كان الاختيار مـن بينها دقيقا للغاية · لقد ارتأيت أن مشكلتين رئيسيتين تشغلان بالنا أكثر من غيرهما وهما : مشكلة النهضة بالفرد العربى المسلم ومشكلة توحيد العرب والمسلمين · فاذا ما تحققتا أمكن لنا أن نشق طريقنا بين الامم فى هذا العالم العصرى الملتهب بالصراع .

* * *

السـؤال الاول :

دكتور مصطفى : هل تعتقدون أن العالم العربى والاسلامى فى طريقه الى نهضـة اسلامية شاملة تعيد تكوين الفرد تكوينا سليما يتوافق مع روح ومتطلبات العصـر الحديث ؟ وما هي الشواهد على ذلك ؟

الجـــواب :

ان العالم العربى والاسلامى هو فى طريق تنوير وكسب فكرى اسلامى شـــامل يعتبر نهضة اسلامية من حيث التوعية والتجلية للمفاهيم الاسلامية الصحية وازاحة كثير من الاوهـام والشبهـات · والدليل على ذلك مـا صـدر ويصـدر من الكتابات والكتب الاسـلامية الحديثـة التى صححت ووضحت المعـالم الاسـلامية بأقـلام كثير من قادة الدعوة والفكر الاسلامى كالاستاذ أبى العلا المودودى ، والشيخ أبـى الحسن الندوى والاستاذ محمد المبارك ومحمد قطب وسيـد قطب وعبد القـادر عودة والشيخ محمد الغزالى ويوسف القرضاوى وكثير غيرهم ·

أما اعادة تكوين الفرد المسلـم تكوينا سليما يتوافق مـع روح العصـر الحديث ومتطلباته فهو أمر آخر يتوقف على أن يكون المسؤولون فى البلاد العربية والاسلامية يشعرون بمسؤوليتهم عن الاسلام وترسيخ مبادئه وروحه فى نفوس الناشئة وجعـل مناهج التعليم تخدم هذه الغاية وتؤدى اليها ، وازالة التناقضات بين المبادىء الاسلامية وواقع الحياة فى البيئات الاسلامية · وهذا ما لا أجد فى الافق بشائر تدل عليه ·

* * *

الســؤال الثـانى :

هل من اقتراح أو فكرة ترتأونها من أجل توحيد العالم الاسلامى حول نظام اسلامى عصرى متكامل وكيف يمكن أن يتم ذلك ؟

الجـــواب :

توحيد العالم الاسلامى حول نظام اسلامى عصرى متكامل لا يتـم الا اذا أدرك المسؤولون فى العالم الاسلامى ضرورته عقيدة وسياسة ، وعرفوا ان مصالحهم ومصالح بلادهم التى هم مسؤولون عنها تستدعى هذا التوحيد وتتوقف عليه · وان الكـوارث التى أصابت العالم الاسلامى بمكر أعدائه وتخطيطاتهم الخبيثة قد نبهت بعض الشيء الى هذا الادراك فوجدت فكرة التضامن على مستوى الـدول وقاداتها بدعـوة الملك فيصل رحمه الله ، فناهضته بعض زعامات عربية وقاومته بعنف وافتراء وضراوة لاسباب ودوافع أنانية ·

اما الطريق الذى أقترحه والصيغة التى تجعل هذا التوحيد مستساغا وغير متعارض مع المصالح الذاتية والاقليمية التى هي من أكبر الحوائل دونه فهو تأليف مجلس قمـة

اسلامى يكون له اجتماع دورى نصف سنوى يكون فيه جميع الرؤساء والملوك على قدم المساواة ، ويكون هذا المجلس قائما على أساس نظام شبه فيدرالى ولا يحول ذلك دون اختلاف النظم وبقائها داخليا كما هي ، على أن يكون لهذا المجلس برأي أكثريته حـق بحث الاوضاع الداخلية لكل دولة من أعضائه وتقرير تعديل ما يتنافى منها مع المبادىء الاسلامية والتضامن والتكامل • وأن يكون الى جانب مجلس القمة هذا مجمع فقهـى من كبار علماء العالم الاسلامى المستنيرين ليكون مرجعا اسلاميا يرجع اليه المجلس فى الاجتهاد الجماعى فيما يتعلق بموقف الاسلام من قضايا العصر والساعة •

* * *

الســـؤال الثــالث :

ما هي انطباعاتكم العامة حول الملتقى العاشر للفكر الاسلامى وحول رحلتكم عبر الغرب الجزائرى ، والجزائر بصورة عامة ؟

الجـــواب :

كان الملتقى العاشر فى نظرى أحسن وأنجح من كل الملتقيات السابقة وكلها ناجح وكان له أثر عظيم على مستوى القطر الجزائرى كلـــه ، كما تبين لى فى رحلتى الى الولايات الغربية والقاء عدد من المحاضرات فى مراكزها ، فقد كنت أجد أخبار الملتقى وبحوثه وآثار مناقشاته على كل شفة لسان عن طريق وسائل الاعــلام المختلفة التى كانت تنقل أو تنشر وقائعه •

واذا كان هذا الاثر الكبير لهذا الملتقى العاشر لدى جمهور الشعب المثقف ، فكيف بالطلاب والطالبات الذين كانوا من حضور الملتقى المسجلين فيه ، وقد بلغ عددهم أكثر من ألف وثلاثمائة من مستوى السنوات العالية فى الدراسة الثانوية والمستوى الجامعى ؟

ولاشك ان هذه الملتقيات التى تقوم بها وتقيمها وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بهمة وزيرها السيد مولود قاسم هى فريدة من نوعها فى البلاد الاسلامية عامة حيث تتيح لهذه المستويات من الناشئة أن يتلقوا البحوث والمعلومات الاسلامية عن أصالتهم وحضارتهم وشريعتهم وتاريخهم وتراثهم ، ومـــا يتبعها من مناقشات وتمحيص وازالة شبهات بأقلام وألسنة كبار رجال العلم والفكر الاسلامى مما لا يتمكنون

من سماعه ومعرفته طوال حياتهم لولا هذه الملتقيات • فالشكر الجزيل لوزارة التعليم الاصلى ولكل من يدعمها فى هذا السبيل من المسؤولين فى الجزائر الحبيبة •

ومن أعظم ما أثار اعجابى فى هذه الرحلة التى قمت بها الى الولايات الغربية لالقاء بعض المحاضرات الاسلامية فى مراكزها ، والتى كان أقصاها ولاية وهران ثلاثة أشياء تركت فى نفسى أجمل الانطباعات ، وأحسن الآثار ، وأثارت تقديرى الكبير ، وهـي :

أولا : هذه المدارس الثانوية الجديدة التى تنشئها وزارة التعليم الاصلى فى مراكز الولايات ، كثانوية وهران ، وثانوية مدينة الاصنام ، وثانوية العاصمة هنا ، وهي لـم تكتمل بعد ، وستكون من الفخامة والتجهيزات والسعة بحيث تتناسب مع مكانة التعليم الاصلى فى بلد اسلامى عظيم كالجزائر • فهذا عمل فريد من نوعه فى البلاد الاسلامية •

ثانيا : تلك النهضة الزراعية الشاملة ، وحملة المتطوعين من الطلاب والشباب فيها لتوعية أهل القرى ومعاونتهم العملية بالعلم والسواعد والارشاد والفوائد •

ثالثا : هذه القرى النموذجية التى يتم تنفيذها فى هذه الخطة الرباعية الثانية فى مشروع (الالف قرية) ، مثل قرية الشهيد بن برناص فى ولاية سيدى بلعباس ، وسواها وفى كل قرية مسجد ، فانها فى هندسة مساكنها ومرافقها ونظامها نموذجية حقـا ، وترفع من مستوى الحياة فى الارياف رفعا يتناسب مع ما يجب أن تكون عليه ، فى بلاد من الله عليها بهذه الطبيعة الفتانة والسخية الخصبة كالجزائر

* * *

الســؤال الـرابع :

علمنا بأنك قد سجلت بعض أبيـات من الشعـر ، بعض الذكريات واللقاءات والانطباعات عن رحلتك الى الولايات الغربية والقائك بعض المحاضرات الاسلامية فى مراكزها ، فهل لك أن تتكرم بها علينا لنشرها فى مجلة « الاصالة » ؟

الجــواب :

لقد كنت كبير الغبطة بما أتيح لى فى هذه المرحلة من مناظر ولقاءات ، فقد صادف ذلك انعقاد بعض الملتقيات الولائية ودعيت اليها والقيت فيها بعض كلمات •

وكان اعجابى كبيرا بمدينة وهران • وحينما جئنا مدينة أرزيو التى أصبحت الآن مرسى هاما لصناعة السفن جمعنا عشاء حافل فى مطعم بحرى أنيق مع عدد كبير من

المديرين ونائب المحافظ فى وهران ، بصحبة الاستاذ الجليل البحاثة الشيخ المهدى بو عبدلى (عضو الملتقى العاشر للفكر الاسلامى) فانه من أهالى أرزيو ، وكذلك فضيلة الاستاذ العامل الشيخ عبد القادر الزبير مدير التعليم الاصلى بوهران ، وقد سجلت فى صبيحة تلك الليلة انطباعاتى عن هذا اللقاء الكريم بالابيات التالية التى ودعت بها مدينة وهران ، وأعتبرها الآن كذلك وداعا للجزائر الحبيبة وأنا أغادرها عائدا هذا اليوم باذن الله تعالى :

مشاعر وانطباعات

عن ليلتنا فى مطعم مدينة أرزيو البحرى وعشائنا الشهي فيه ، بمناسبة المحاضرة التى ألقيتها فى أرزيو فى برنامج جولتى فى الولايات الغربية بالجزائر الحبيبة :

وليلة أنس بالجزائر كان لى	بها مجلس ضم الافارقة الغرا
لقاء بظهر الغيب غير مؤمل	على مطعم فى أرزيو توج البحرا
أفاضوا علينا فى الضيافة جودهم	ومدوا به من حولنا الكرم الغمرا
تلاقى به شرق وغرب كأننا	نعانق فى عليائها الانجم الزهرا
على رأسه المهدى بوعبدلى الذى	سما فضله فى قومه وسما قدرا
وفتية صدق فى الجزائر سادة	رجال جهاد البسوا هامه فخرا
وقد زاننا الشيخ الزبير بلطفه	وكان نظام العقد أكرم به حرا
أصيل باعباء الاصالة ناهض	بوهران أضحى جده الآية الكبرى
همام رؤوب مخلص لرسالة	حباها ووفاها الامانة والصبرا
وداعا أيا وهران من قلب معجب	بسحر مغانيك التى تبعث الشعرا
وراع فتى أبقى من الحب والهوى	على أرضك الغناء مهجته الحرى
اذا درست فى أنفس ذكرياتها	ستخلد فى نفسى لكم هذه الذكرى

وهران 30 من رجب 1396 هـ 1976/7/28 م .

ظلال في الملتقى الثامن
صلاة العصر في قلعة بني حماد

أنــور الجنــدى

كاتب وعضـو المجلس الاعـلى
للشؤون الاسلامية بالقاهرة



مقـــدمــــة

في الفصل الخاص بما نشر عن الملتقى الثامن للفكر الاسلامي الذي أوردنا فيه احــاديث ومقــالات فاتنا ـ لاسباب فنية بحتة ـ مع عميق الاسف ادراج شيئين هامين :

احدهما : هو اســم الصحفى الكبــير ، الصديق الاستاذ صبرى أبو المجد رئيس تحرير مجلة المصور في آخر مقاله المنشور بمجلــة المصــور بتاريخ 12 ابريل 1974 عدد 2583 ، والمنشور فى الصفحة 1539 من المجلد المذكور من كتاب الملتقى الثامن للفكر الاسلامى .

والشيء الثانى : المقال القيم الذى نشره الاستاذ الكاتب الكبير والصحفى المعروف أنور الجندى (مصر) فى العدد الصادر فى شهر رجب 1394 (غشت 1974) من المجلة المغربية (دعوة الحق) ونحن اذ ننشر المقالين القيمين فى هذا العدد مــن الاصالة ، نعتذر للاستاذين الكبيرين وللسادة القراء ، ونعد بتدارك خطئنا وذلك بضم المقالــين الى الطبعة الفرنسية التى ستصدر قريبا ، والى طبعة عربية جديدة ان شاء الله .

كما نأسف عن عدم ادراج اسماء السادة : محمد فارح ، وعبد المجيد أبو حديــد ، وعاطف يونس ، ومحمد بليدى ، وعبد القادر الادريسى ، وبول بالطا ... ونعتــذر اليهم ، ونقوم بنفس التدارك فى المستقبل .

عندما وصلنا الى قلعة بنى حماد كان وقت العصر قد آذن ، فكان لابد ان نحتفظ بهذه الذكرى التى لا نظن انها ستتكرر مرة أخرى لرجل جاء من المشرق ليشارك فى الملتقى الاسلامى الثامن الذى عقد فى ولاية بجاية وكان من اهدافه دراسة مساهمة بجاية الحمادية فى الحضارة والفكر الاسلاميين ، ولذلك فما لبثنا ان اقمنا صلاة العصر على هذه الربى بينما كان زملاؤنا يقتحمون القلعة ويصعدون الى منارتها العالية وكنا قد انطلقنا منذ الصباح الباكر الى هذه الرحلة فوصلناها بعد مشقة شديدة قريبا من الغروب بعد ان مررنا بمدينة سطيف وتناولنا الغداء عند عائلاتها ٠

ومن الحق ان يقال اننا فى كل خطوة كنا نخطوها كنا نجد معالم التاريخ الحافل ونستمع الى خيوط من تراث عزيز طالما قرأنا عنه فى الكتب وها نحن نراه اليوم واقعا حيا ٠

وفى الطريق الى قلعة بنى حماد مررنا بذلك الوادى المخيف الذى يطلقون عليه (وادى الآخرة) وذلك حتى لا ينزعج الناس اذا اطلقوا عليه (وادى الموت) ٠

فقد كانت جباله العالية وخطوط طريقه المتعوجة واغواره العميقة تملأ النفس حقا بالخوف والعجب لهذه المنطقة الحافلة بكل عوامل الخطر وتبارك الله رب العالمين الخالق الذى جمع بين الجبل الاشم والوادى العميق والصخر الاحمر والارض السندسية الخضراء ٠

ولقد كانت هذه الصور غريبة حقا على امثالنا ممن عاشوا فى الوادى الاخضر لا يقتحمون الجبال الا نادرا ، أو اذا مروا بها وجدوها جرداء ، مقفرة لا نبت فيها ولا ماء ، اما هنا فى الجزائر فالامر جد مختلف ، هذه الجبال العالية خضراء جد مزدهرة ، ومن حولها الاودية كالبساط الزاهر ، ومن حول ذلك كله غابات واشجار ومياه وعيون وصدق الله العظيم : «**وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار** » ٠

وفى ظل قلعة بنى حماد يكشف التاريخ الاسلامى صفحة من ازهى صفحاته عندما كان حماد بن بولغين حاكما للمغرب الاوسط باسم دولة بنى زيرى ، منذ عام 398 هـ . ثم بنى هذه القلعة واتخذها عاصمة للمملكة وقد تم هذا فى نهاية القرن الرابع وقد

ظلت هذه المدينة عاصمة للمملكة الحجازية زمنا كانت خلالها أهم مدينة فى المغرب كله واليوم يجرى اصلاح هذا البرج الضخم وترميمه حتى يكون آية من آيات الفن المتجدد الذى يجرى بالنسبة لكل تاريخ هذه البلاد وآثارها ٠

وسواء ذهبنا الى آخر هذا الطرف حتى سطيف أو ذهبنا الى وادى الصومام من الطرف الآخر فان مناظر الازدواج بين الجبال والبحر والوادى الاخضر متفرقة وملتقية متعانقة ومنفصلة هى طابع الرحلة ٠

أى روعة تلك فى هذه المناظر الخلابة فى بطن الوادى وقد تدفقت الامطار فـوق الجبال وأخذت تتسرب من خلال فتحات ومسارب ما تزال تتقاذفها منحدرة الى الوادى حتى تصل الى نهر الصومام فاذا هو بعد قليل يفيض ويمتلىء ، بالمياه الحمراء المتدفقة فى طريقها الى كل مكان وهى تحمل الغرين الاسود ٠

حقا لقد كان يوما حافلا عندما انطلقنا تجاه وادى الصومام بالحافلات الضخمـة ، وأخذت السماء تمطر فى غزارة ، ولكن الجو كان دافئا ، ولقد ظلت الحافلات تصعـد بنا فى طرق ممهده ولكنها حلزونية حتى وصلنا الى ارتفاع ألف متر فوق سطح البحر وما تزال الجبال فوقنا شامخة ٠ ومن الجبل الى السهل فالسهل فى قلب الجبل ، والجبال مخضرة مليئة بالغابات ، وقممها شامخة بيضاء كعمائم العرب وقد كستها الثلـوج ، مجموعة من السلاسل المتداخلة من الجبال بينها الوادى الاخضر ، ومجارى النهر ، ولقد ترى وأنت فى أعلى قمة الجبل واديا منخفضا أمامك ثم ترى الجبال العالية الاخرى من بعدها محيطة بك من كل جانب ٠

ترى وأنت فى أعلى قمة الجبل واديا منخفضا أمامك ثم ترى الجبال العالية الاخرى من
الاسلامى الرحمة ٠

ولقد كان نهر الصومام مرافقا لنا طول الرحلة فهذا هو واديه الواسع ، نراه ثـم يختفى ثم يعود ثانية ، كان فى الصباح ضحلا تبدو صخوره واحجاره ٠ فلما عدنا فى المساء كان قد امتلأ بالماء وازبد وتدافق فى قوة ، لقد تلاقت العيون المتدافقة من أعلى الجبال فى مسارب متعددة ثم اختفت تحت الطريق الذى تمر عليه الحافلات فاذا بها

تتجمع فى رواق أكبر وأكبر جياشة بالمياه الحمراء ، حتى بلغت النهر نفسه الذى دبت فيه الحياة وجاشت وعلا موجه وزبده وهديره فذكرنا قدرة الله القادر ، الذى أحيـا الارض بعد موتها ، وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، وما رأيت كيف تفسر هذه الآية الا فى مثل هذا المنظر الباهر الـذى لا نعرفه نحـن فى المشرق أو فى مصر على الخصوص : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا » لقد جرف السيل أمامه كل شىء وجاء رزق السماء واسعا وفيرا وامتلأت قلوب أهل وادى الصومام بالفرحة التى جاءت مع وفد الملتقى الاسلامى ٠

كانت هذه الصورة خارج الحافلة ، أما فى داخلها فقد كانت حلقة علم وتاريـخ تترامى فيه أسماء الاعلام ووقائع الاحداث كلما مررنا على موقع منها مشخصا اسمـاء يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن على وابن تومرت ، وفى ملاله حين ملتقى عبد المؤمن مع ابن تومرت كان منطلق الدولة الموحدية وفى صدوق مسقط رأس الشيخ الحداد الذى قاوم الاستعمار الفرنسى وفى افرى حيث انعقد مؤتمر الصومام عام 1956 كان هناك أعلام فى تاريخ الجزائر والمغرب كله فى مقدمتهم شيخ المؤرخين ومؤرخ الحضارة الاسلامية على الخصوص : عثمان الكعاك ، ومحمد الفاسى صاحب الابحاث الواسعـة عن احداث المغرب القديم والوسيط وكان المهدى بوعبدلى هذا الرجل الذى كان يتحدث عن هذه البلاد وكان عاش تلك الفترات عارفا برجالها وما ورد فى الكتب عنها وما نشر فى المغرب أو فى المشرق ، والشيخ سليمان داود الذى كان يعرض من الجـوانب ما يكشف عن أعماق التاريخ وكان هناك مولود قاسم نفسه هذا الوزير العلامة حقا ، الذى كان يصحح ويدقق ويستكمل الجوانب من كل ما يعرض وما يقدم وكان الاستاذ مصطفى بعيو الوزير والمؤرخ الليبى ، وكان الشيخ عبد الله الشماحى القاضى اليمنى فكاهة الندوة ومجلاها فى الشعر والادب أما مفدى زكرياء شاعر الثورة الجزائريـة فكان يذكرنا بشعره الرصين دوما بتلك المواقف الحاسمة من جهاد الجزائر ٠ ولقـد حدثنا الوزير مولود قاسم عن ثورة الشيخ الحداد : هذه الثورة التى استمرت الى عام 1910 ، وكان الشيخ الحداد فى الثمانين من عمره وقد جاء اليه محمد المقرانى الذى قاد الثورة المسلحة ووجد فى الشيخ سناده الروحى حيث كان الحـداد شيـخ الطريقة

الصوفية الرحمانية مقيما فى زاويته قال المقرانى : جئناك لنعلن الجهاد على فرنسا . قال الحداد : ان الامر يتطلب اعدادا واستعدادا ... قال المقرانى بل فى الحين ، فوافق الشيخ على مضض وقال : دعوتك هذه مشؤومة ، ولكن سنقوم بها ، وقد كان المقرانى يظن الشيخ الحداد من أولياء النعمة والمطمع على النحو الذى عرف عن بعض رجال الطرق غير انه لما ازاح الشيخ الغطاء عن الطعام الذى قدم لـه لم يكن فيه غير زيت وجبن وشقة خبز ، وكان هذا كل ما يأكله الحداد ، هناك تبين المقرانى ان الحداد ليس رجل دنيا واندلعت الثورة وأعلن الجهاد (8 أبريل 1871) ولما قدم للمحاكمة صدر الحكم عليه بالسجن خمس سنوات فقال : أنتم حكمتم على بخمس سنين وأنا حكمت على نفسى بخمسة أيام ثم مات بعد الايام الخمسة ودفن فى قسنطينة بجوار الامام عبد الحميد بن باديس .

ولقد أشار الوزير مولود قاسم بعد ان استعرضت ندوته الحافلة تاريخ بجاية وسبب سقوط دولتها : الى مضمون هام هو غاية القول فى سقوط الحضارات : قال لقد ذكر ابن خلدون بكل وضوح الاسباب التى مهدت لانهيار دولة بنى حماد وهى نفس الاسباب التى وقعت بالنسبة لدولة المرابطين وبقايا الزيريين فى تونس ونفس اسباب سقوط الموحدين ، وهى نفس الاسباب التى قضت على الدولة الفاطمية والعباسية ، وبابل واشور وقرطاجة وأثينا .

هذه الاسباب هى الانحلال الذى يعقبه الاحتلال مستشريا وكيف كان النساء يتصرفن فى شؤون الدولة وكان الرجال قد تخنثوا ، يخرجون للصيد ويستمعون للموسيقى . غناء وحداء بشعره وخده وما شابه ذلك . هذا هو الوضع الذى كانت فيه دولة الحماديين ، وهذا هو الوضع الذى كان عليه الموحدون بعدهم .

هكذا انقلبت الاوضاع وانعكست وهذا يؤدى الى النتيجة المحتومة . لقد تأنث الرجال واسترجلت الاميرات وكان ما كان ، وان كان ليس من الضرورى أن يعيد التاريخ نفسه تماما ، فعلينا أن نستفيد من ماضينا وماضى الامم ، وان كانت قد بنيت قبل أن تلهو فان خراب بنائها يعقب اللهو مباشرة . وبمثل هذه المناقشات الجادة

المثرية مضت ساعات طويلة بين بجاية ووادى الصومام مرة وبين بجاية وقلعة بنى حماد مرة أخرى واتصل هذا بالنقطة الثالثة من مواد الملتقى الاسلامى الثامن التى ركزت على دور بجاية الحمادية فى الفكر والحضارة الاسلاميين والعالميين وأسباب وآثار انحطاطهما • وتلك سنة طيبة استنها وزير الاسلام فى مختلف المؤتمرات وهو التركيز فى نقطة هامة من النقط على ولاية من ولايات الجزائر : ومن قبل تناولت الابحاث قسنطينة وتيزى وزو ووهران وفى العام القادم تتركز الابحاث على « تلمسان » ومن خلال هذا يثرى البحث العلمى تاريخ الجزائر كله بهذه الدراسات المكثفة وقد وزع علينا هذا الكتاب التاريخى المصور الانيق عن بجاية الذى أثار الانتباه حتى سألنى زميلى الصحفى الاستاذ صبرى أبو المجد عما اذا كان لدينا فى القاهرة متخصصون على هذا النحو !

ولقد كانت هذه هى زيارتى الاولى للجزائر بعد ان عشت معها بالعلم والقلم والقلب سنوات الكفاح الطويلة وسنوات الثورة الظافرة •

ولا ريب كانت دعوتى لزيارة الجزائر مصدر فرحة روحية كبرى وكنت عشت هذه الملتقيات الاسلامية من قبل بالروح والفكر فقد أتيح لى أن أطالع ما نشر من مناقشات ومحاضرات وعرفت كيف تقدم الى الفكر الاسلامى اضافات ذات بال ستكون بعيدة الاثر فى دراساته ومفاهيمه • وقد كان قلبى يخفق وأنا فى الطائرة الى الجزائر بحب عدد من الاعلام الذين عرفتهم وأحببتهم وتعلمت عنهم من أمثال الامام عبد الحميد بن باديس والشيخ البشير الابراهيمى ومالك بن نبى والفضيل الورتلانى وكنت قد درست الحياة الثقافية فى المغرب العربى كله (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) حينما ألفت كتابى (الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال افريقيا) منذ بضعة عشر سنة ودرست جهاد جمعية العلماء وفى مقدمة رجالها ابن باديس والابراهيمى والمدنى والميلى والتبسى وغيرهم من الرواد وان حز فى نفسى ان جريدة الشعب تجاهلت موضوعى الذى قدمته الى رئيس تحريرها بمجرد ان وطئت قدماى أرض الجزائر تحية للجزائر والملتقى ، ولست أدرى لذلك سببا واضحا •

نعم لقد وصلنا الى الجزائر ومنها قصدنا الى بجاية ومن خلال رحلة الطائرة كان البحر الابيض مصاحبا لنا فى نتوئه وشواطئه وجباله على نحو يسعد النفس ويملأ القلب فرحة لامتداد ذلك الشاطىء الاسلامى حيث يلتقى الجبل بالبحر والسهل بالصخر ، وحيث الجبال العالية مكسوة بالخضرة الدائمة والاشجار الباسقة ٠

لقد عشت فى هذه الايام رحلة الفكر وعبرة التاريخ وصورة الحاضر ، ووجدنا الجزئر تبنى حياتها من جديد فى نشاط وعزيمة قوية وتتحرك نحو النهضة والتقدم فى اطار مفهوم الاسلام الصحيح ، وقد تعالت صيحة اللغة العربية فبدت على كل لسان ٠

وأعطانا فندق الحماديين فى بجاية حيث نزلنا صورة التجدد والمحافظة فى اطار واحد ، فهو مبنى على صورة القلاع التاريخية الاسلامية وفى داخله تجد النموذج الجزائرى المغربى الاسلامى القديم : وبالرغم من التقدم العصرى فى كل مجال البناء والهندسة والخدمة ، أجد أمامى هذه (الغازة) الجميلة المصممة على الطراز الجزائرى القديم ، وتحت المادة وعاء من الحوض وهناك الطاقة القديمة والخزنة الخشبية ، ولقد أمضيت ليلتى أمس أستمع الى هدير البحر واصطخاب موجاته وهو يضرب فى جدار الفندق الضخم ٠

ومن خلال هذا الملتقى تعرفنا على العشرات من الاعلام من شرق الارض وغربها ، نماذج متعددة من اليابان واليمن والهند وايران ومن ايطاليا وفرنسا واسبانيا والمانيا ، كلهم جاءوا يتحدثون عن الاسلام ويشاركون فى البحث عن حضارته وفكره ويدلون بدلائلهم من حول الاصالة والمعاصرة ٠ ومجال الحوار مفتوح ، فما تنتهى محاضرة باحث فيهم حتى يفتح باب التعليق والتعقيب ، فتضاء كل المصابيح ، وتتكشف كل الحقائق وهناك رجال فى الجزائر يقظون حذرون لا يتركون خطأ أو انحرافا دون أن ينهوا عنه واذكر فى مقدمتهم : الشاذلى مكى وأحمد حمانى ورشيد ابن عيسى ، هؤلاء ركائز من النواحى التاريخية والفقهية والدراسات الحديثة ، أما الوزير فانه يقظ لا تفوته كلمة ولا يتجاوز عن الحق متحدث أمامه ، بيده الضوابط التى تكفل حماية البحث من الانحراف ، ورده الى الاصالة اذا أعوزه الامر ٠

ولقد تحدث المتحدثون عن حضارة بجاية وقالوا كل ما عندهم عن علوها وسقوطها ، ولكنهم غفلوا عن حقيقة أساسية فلم يلبث الا أن تقدم الى المنبر بعد ان انتهوا ليكشف هذه الحقيقة ويصحح الموقف ويضعه فى الاطار الصحيح ٠

لقد كانت رحلة الملتقى الاسلامى الثامن بعيدة الغور فى آماد التاريخ وفى أعماق الفكر وفى آفاق البحث جميعا وكانت ثروة ضخمة للمفكر والباحث والمؤرخ والصحفى من خلال اثنى عشر يوما من العمل الدائب والنظر المتصل على نحو لم نشهده فى كثير من مؤتمرات البحث أو ندوات الدرس ٠ مما يجعلنا نعتقد بحق ان الملتقى قد أضاف
من مؤتمرات البحث أو ندوات الدرس مما يجعلنا نعتقد بحق ان الملتقى قد أضاف

رسالة جامعية فى فكر المعتزلة

د. أبو عمران الشيخ
جامعة الجزائر



1 ـ موضوع الرسالة :

تتناول الرسالة مشكلة الحرية الانسانية فى فلسفة المعتزلة ·

تساءلت من زمان عن أسباب تأخر مجتمعاتنا العربية الاسلامية منذ عصر ابن خلدون الى القرن التاسع عشر وتراءى لى أن الاسباب هذه تعود الى ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية غير أن مفهوم الحرية الانسانية الذى هو من العوامل الثقافية

(*) ناقش أخيرا الاستاذ أبو عمران الشيخ من جامعة الجزائر رسالة لنيل دكتوراه الدولة كان موضوعها : « مشكلة الحرية الانسانية فى فلسفة المعتزلة » ·
ونال بها شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون (باريس) بدرجة ممتازة جدا · وبهذه المناسبة طلبنا منه أن يلخص بحثه لقراء « الأصالة » وهذا نص التلخيص ·

الاساسية ، ومدى مسؤولية الانسان واجتهاده المبتكر قد استرعى انتباهي بصفة خاصة لكون هذه المسألة لم يولها الباحثون كل عنايتهم ما عدا بعض المقالات الصادرة هنا وهناك فى مجلات قليلة اذ يتعذر على الدارس اليوم العثور على دراسة شاملة لهذا الموضوع مع أنه قد شغل بال مفكرين كثيرين من العصر العباسى الى عصر النهضة الحديثة · وحتى نضمن لدراسة هذه المشكلة ما تستحقه من العناية ركزنا بحثنا على مدرسة فكرية معينة وهى مدرسة المعتزلة وتتبعنا تطور قضية الحرية الانسانية منذ ظهور المعتزلة وانتشار آرائهم فى المشرق والمغرب · وقد اخترنا المعتزلة لانهم سبقوا غيرهم الى وضع مشكلة الحرية فى اطارها الصحيح ·

2 ـ آراء المعتزلة الاساسية فى حرية الانسان :

ان المعتزلة يمتازون بنظرتهم العقلية ومنهجهم النقدى ومن أجل ذلك سماهم بعض الباحثين الغربيين ـ وهم يبالغون نوعا ما فى ذلك ـ « المفكرين المتحررين فى الاسلام »· وقد حاولوا ـ فى الحقيقة ـ أن يجدوا لتفسير قضية الحرية الانسانية حلا وسطا بين نظريتين متناقضتين : نظرية الجبرية الذين ينفون هذه الحرية نفيا مطلقا والنظرية التى تقول بالحرية الشاملة · وأشهر مفكرى الاعتزال أبو الهذيل والنظام والجاحظ ولهم أتباع كثيرون قد توسعوا فى شرح آراء شيوخهم ودعموها بأدلة جديدة ·

وتتلخص هذه الآراء فيما يلى :

ان الانسان حر فى تصرفاته ومسؤول عن أفعاله ، فهو ليس لعبة للقدر كما يدعى بعضهم وليس كذلك أداة مسخرة للارادة الألهية اذ الارادة هذه لا تظلم الانسان فى شىء وانما هى تتصرف بحكمة وعدل ومن الحكمة والعدل أن يجاز الانسان على أعماله ، الامر الذى يقتضى حرية أفعاله وحرية اختياره وتحمل مسؤوليته · وبهذا الموقف عارضت المعتزلة استبداد الامويين الذين زعموا أن سلطتهم مصدرها الارادة الالهية مع أنهم اشتهروا بالظلم والطغيان ، ولا يعقل فى نظر المعتزلة أن تسند هذه السلطة الظالمة الى الارادة الالهية ويتضح من هنا أن المعتزلة اهتموا بنظام الحكم الذى تعرضوا اليه تحت عنوان « الامامة » ·

ومن شروط الامامة ذكروا العدالة والعمل بمبدإ الشورى . فهم لا يعترفون بعصمة الامام ولا بالحكم الوراثى لان الامام فى رأيهم مسؤول عن أفعاله ولا يجوز له أن يتخذ الارادة الالهية ذريعة لتبرير أخطائه . ولذا جعل المعتزلة من حق الامة مراقبة الامام كما أثبتوا لها حق التمرد عليه أو عزله اذا استبد وطغى .

وكان من الطبيعى أن يعارض هذه الآراء الجريئة الجبرية والسلفية من جنابلة وأشاعرة وغيرهم. وتسببت هذه المعارضة فى تشويه آراء المعتزلة واتلاف الكثير من كتبهم ومخطوطاتهم وظلت كتب خصومهم ـ لمدة طويلة ـ المصدر الاساسى لمعرفة الاعتزال ولم ينصفهم الا عدد قليل من المؤرخين واستمر الامر هكذا الى أن اكتشف الباحثون مخطوطات هامة للمعتزلة فى عصرنا هذا ـ ومن أهمها المخطوطات المكتشفة باليمن والتى شرع فى طبعها ونشرها منذ سنة 1962 ـ وأصبح اليوم من اليسير على الباحثين أن يدرسوا كتب المعتزلة دراسة موضوعية تنزل هؤلاء المفكرين منزلتهم الحقيقية .

3 ـ مختصر ما جاء فى الرسالة :

تشتمل الرسالة على خمسة أبواب :

ـ الباب الاول : تناولت فيه أصـــول نظرية المعتزلة فى قضية الحـرية الانسانية وعلاقتها بالفلسفة اليونانية من ناحية وبالفكر العبرى ـ المسيحى والنظرية الهنـــدية الايرانية من ناحية أخرى .

ـ فى الباب الثانى : تعرضت الى نظرية القضاء والقدر عند الجبرية وانتقاد المعتزلة لهـــا .

ـ فى الباب الثالث : بينت أن الانسان حر فى نظر المعتزلة ومخير فى تصرفاته وعليه فانه يتحمل تبعات أعماله .

ـ فى الباب الرابع : حللت علاقة العقل بالحرية الانسانية .

ـ فى الباب الخامس والاخير استعرضت انتشار الاعتزال فى المشرق والمغـــرب وحاولت ابراز تأثيره فى اصلاح مجتمعنا .

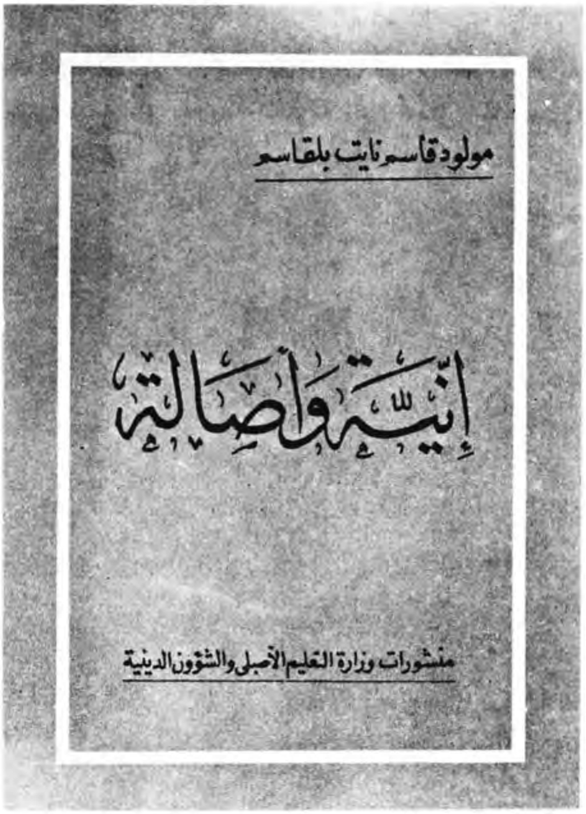
4 ـ أهمية الاعتـزال فى عصرنا الحاضر :

يمكننا القول بأن آراء المعتزلة قد أثرت الى حد كبير فى مدرسة الافغانى وعبده ومحمد اقبال وغيرهم ·

ومما يدل على مكانة المعتزلة أن اهتم اليوم الكثير من الباحثين الشرقيين والغربيين بدراسة الاعتزال مبرزين أهميته فى وقتنا الحاضر ·

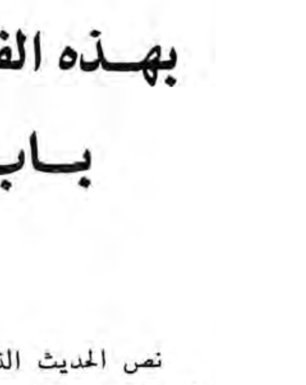
وقد أقرت العلوم الحديثة صحة نظرية المعتزلة التى أثبتت أن الانسان حـــر فى تصرفاته الاختيارية من ناحية ، ومقيد بما يصدر عن القوانين الطبيعية من ناحية أخرى ·

وفى الختام فاننا نأمل أن تتعدد البحوث فى موضوعات الاعتزال المختلفة وذلك بغية التعرف بصورة أوســـع على مدرسة المعتزلة التى تحتل مكانا بارزا فى ثقافتنا قـديما وحـــديثا ·


مولود قاسم نايت بلقاسم
إنية وأصالة
منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية

بهـذه الفتـــوى اقتحـم الاســـلام باب التصنيـع الحـــديث

نص الحديث الذى أدلى به السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، لرئيس التحرير الملحق الثقافى لجريدة « المجاهد » اليومية الصادرة بالفرنسية ، السيد مولود عاشور ، وتولت « الأصالة » ترجمته .



س ـ ما من شك يا سيادة الوزير أن الفتوى التى صدرت لصالح عمال مركب الحديد والصلب بالحجار ، تعد مــن بين الفتاوى التى أثارت كثيرا مــن الجــدال والنقاش فى الملتقى الاخير حول الفكر الاسلامى . فهذه الفتوى قد تعددت حولها الآراء : فالبعض يرون بأنها دليل على ما فى الاسلام من تسامح ويسر ، فى حين أن البعض الآخــر يعتبرونها ثغرة فى الدين تبشر بعهــد تصبح فيه العبادات تدريجيا أكثر مرونة وأقل صرامة ، وهناك من لم يدرك الحكمة البالغة لهذه الفتوى ، ومــا سوف يكون لها من آثار حميدة ، فراحوا يعبرون عــن تخوفهم مما أسموه : «تصفية الدين» بينما نجد أن قوما آخرين ـ ومن بينهم احدى الصحف اليابانية الكبرى ـ قد وصفوا هذه الفتــوى بأنها « أشد صلابة من صلب عنابة وحديدها » ... أمام هذه الآراء المتعددة ، نرجو منكــم

يا سيادة الوزير أن تعطونا بعض الايضاحات حول فحوى هذه الفتوى ، وحول الاسباب الداعية لاصـــدارها .

ج ـ لابد قبل كل شيء من القول بأن هذه المشكلة طرحت علينا عدة مرات بصورة فردية من بعض المواطنين القاطنين بأوربـا ، ممن يشتغل فى معـامل الحديد المصهور وغيرها من المعامل ، فيتعرضون بذلك للاثار السيئة الناتجة عـــن الاحتكاك بالنـار والغبار ... وبالاضافة الى هذا الجحيم الذى يعيشون فيه باستمرار ، فانهم يتعرضون كذلك لزمهرير الشتاء الذى لا يكاد يطاق فى بعض البلدان الاوربية ، كما انهم يعانون من سوء التغذية ، وهكذا فان البرد الشديد ، والمبيت على الطوى ، والعمل المرهـق ، كل ذلك يعرض هؤلاء العمال لاخطار. ورغما عن هذا، فان الكثير منهم يتحملون هذه المشاق بـدلَ الافطار فى رمضان والتعويض فيمـا بعد . ويقول هؤلاء العمـــال بأنهم يفضلون الصوم على الافطار لكي يرتاح ضميرهم بعد أداء هذا الواجب الدينى ، على أن البعض من هؤلاء العمال كانوا دائما يستفتوننا حول هذه المشكلة ، لما يترتب عـلى الصيام من آثار على الصعيد الاجتماعي والمهنى ، فى البلدان الاجنبية ، ومن بين تلك الآثار ، الوهن الجسمى الذى قـد يـؤدى الى وقـوع حوادث ، وانخفاض المـردود ، كنتيجة لهذا الوهن الجسمى ، مما قد يتسبب فى تسريح العامل من عمله .

ويجب على أن أقول بأن العلماء لم يجدوا من جـــواب على هذه الاسئلة المتعددة سوى أن يذكروا بالمبدإ الثابت الذى تقرر منذ أربعة عشر قرنا وشرح شرحا وافيا فى كتب الفقه المختلفة ، وهذا المبدأ يؤكد بأن الاكل والشرب فى رمضان ليس كل منهما حلالا فحسب ـ اذا كانت حياة المرء متوقفة عليهما ـ بل يعد هذا الامر واجبا. وفضلا عن هذا ، توجد حالات أخرى ، غير حالة الافطار فى شهر الصيام . ومن بينها حـالة الانسان المتعرض للهلاك بسبب العطش ، ولا يجد ما يشفى به عطشه ســـوى الخمر . فهذا الانسان يجب عليه أن يتناول من الخمر ، وان كان الخمر محرما فى الاسلام . والاكثر من هذا أنه فى حالة ما اذا مات من العطش خـــوفا من الوقوع فى الحرام ، فكأنه انتحر ، وبالتالى يعد من الكفار الآثمين . وهناك حالة أخرى هي حالة الانسان الجائع الذى قد يعرضه الانقطاع عـن الاكل اما للمرض الشديد أو للموت والهلاك . فمثل هذا الانسان يجب عليه ـ اذا لم يجد ما يتقوت به ـ أن يأكل من غير المذبوح ، أو من لحم الخنزير .

الاسلام دين التسامح

واذا عدنا بعد هذا الى موضوع رمضان ، فان نفس المبدأ السابق ينطبق عليه • واذا استثنينا الحالات التى نصت عليها الشريعة الاسلامية ، فمن واجب كل من بلغ سن التكليف أن يؤدى فريضة الصيام ، وأن يبيت على نية الصوم . فالاسلام لا ينظر الى العمل وحده ، بل ينظر كذلك الى النية . فهما متكاملان وواجبان . بقي علينا بعد هذا أن نقول بأن الانسان ، لو فرضنا انه كان يؤدى عملا يدويا عاديا لا يكلفه جهدا فوق الطاقة ، وأحس هذا الانسان بالعطش الشديد ، أو تعرض لمرض أو لوعكة أو نكسة ما ، فانه مسموح له أن يفطر وأن يقطع الصوم طوال النهار ، على شرط أن يكون ذلك فى الستر ، وأن يعوض عن اليوم الذى أفطر فيه فيما بعد • فاذا أفطر يوما واحدا ، فله أن يعوض عنه بعد انقضاء رمضان ، أما اذا أفطر عدة أيام ، فلا بد حينئذ من مراعاة الاستمرار والتتابع لدى التعويض •

تلك هي بعض المبادىء المتعلقة بالصيام ... على أنه لابد لى ــ بعد أن تحدثت سابقا عن المواطنين الذين يشتغلون فى فرنسا ــ لابد لى كذلك أن أشير الى حالة مماثلة لتلك فى بلادنا ، وكانت قد عرضت قبل أن تدخل بلادنا فى عصر الصناعة : تلك هي حالة الحصادين . فهؤلاء كان مسموحا لهم بحكم الشريعة الاسلامية أن يفطروا فى الايام التى يتعرضون فيها أثناء العمل للشمس المحرقة وللحرارة الشديدة .

وفى عهد الاستقلال طرح علينا نفس هذا السؤال المتعلق بالصناعة ، ولكن العلماء عندنا كانوا دائما مترددين فى اتخاذ موقف واضح حول هذا الموضوع ، خوفا من عواقب التعميم الذى قد ينجر عن اصدار الفتوى . على أننا عندما قمنا بزيارة مركب الحديد والصلب بالحجار ، بمناسبة انعقاد الملتقى فى عنابة ، طرح علينا السؤال بعبارات واضحة ودقيقة ، بل ألقى علينا السؤال بكل صراحة .

وبعد أن قضينا نحن أيضا لحظات فى ذلك الجو المحموم من النار ، أعطينا العمال وعدا بمناقشة هذا الموضوع ، بمجرد رجوعنا الى قاعة الملتقى • وفى انتظار قرار العلماء فى هذه المسألة طلبنا منهم أن يتفادوا من جهتهم الجوانب السلبية الناجمة عن التصنيع ، وذلك من حيث الاخلاق والسلوك (وهو الجزء الثانى من النقطة الثانية المدرجة فى جدول أعمال ملتقى عنابة) • كما وعدناهم من جهتنا أن نتفهم المسألة على ضوء ما يسمى « مقاصد الشريعة الاسلامية » •

وبعد أن أخذنا علما بالبيانات التى قدمت الينا بواسطة اللوحات الايضاحية حول مركب الحجار ، اتجهنا الى الفرن العالى ، وهناك شاهدنا ، وعانينا ، وأحسسنا

احساسا عضويا بما أسماه الاستاذ صلاح الصاوى ، من جامعة طهران بـ « مـــذاق من نار جهنم » . فالنار التى واجهناها ، وان كان من مسافة بعيدة قد تزيد على عشرين مترا (فى حين أن العمال كانوا يؤدون عملهم بجوارها تماما) ، ان تلك النـــار كانت ترسل لهبا وهاجا ، وشرارا وقادا يكاد يصل الى حيث كنا واقفين • وبينما كان الاساتذة مترددين عندما أثار مـدير التصنيع هذا الموضوع اثناء شرحه ، لانهم شعروا بـأن المطلـوب منهم اصـدار فتـــوى اداريـة ، فاذا بنـا نـراهم ، بعـد أن واجهـوا هـذا اللهيـب الذى يمتص المـــاء من بـــدن الانســان ، كـــانوا مستعجلـين فى الخروج من ذلك المكان ، رغم اهتمامهم بالموضوع ، لان الحرارة كانت لا تطاق . ولاشك أن الحرارة كانت أشد بالنسبة للعمال المنهمكين فى تحـريك الآلات لتوجيـه الحـديد المصهور الذى كان يخنق أنفاسهم ، وتجف له أبدانهم . وقد خيل الينا ان الشغل فى ذلك الجو من قبيل المعجزات .

وبعد أن شاهد العلماء المسلمون من مختلف المذاهب هذا الامر فى مركب الحديد والصلب ، أخذوا يفكرون فى هذه المسألة ويدركون أبعادها الحقيقية . ولذلك فما كاد الجمع يأتلف فى قاعة المؤتمر حتى أثار أحدهم هذا الموضوع ، وقد اتخذ الحاضرون بالاجماع موقفا موحدا بشأن اصدار فتوى تنحو منحى اليسر والتسامح مع أمثـــال هؤلاء العمال الذين يؤدون عملا شاقا ومرهقا ، على ضوء مقاصد الشريعة •

ان هذه الفتوى واضحة لا لبس فيها ، ودقيقة • وقد استمع المشاركون فى الملتقى الى كلمات ألقاها عدد من العلماء والاساتذة فى الاصول والفقه ، وبعض هؤلاء عمداء كليات ، مثل الدكتور محمد المبارك ، الاستاذ سابقا بكلية الشريعة بدمشق وعميدها ، والاستاذ حاليا بكلية الشريعة بجدة ••• والاستاذ عبد الرحمن البيصار، وكيل جامعة الازهر ••• والدكتور مصطفى أحمد الزرقاء ، وزير الشؤون الدينية سابقا ، ثم وزير العدل بسوريا ، ويعد من كبار المتخصصين فى الشريعة ، وقد أشرف على وضع موسوعة الفقه الاسلامى ، ويشغل الآن منصب أستاذ لهذه المـادة فى جامعة عمان بالاردن ، والدكتور محمد فاروق النبهان ، الاستاذ بكلية الحقوق والشريعة بجامعة الكويت ... والدكتور عبد الحليم عويس ، الاستاذ بكلية الشريعة بجامعة الامام محمد بن سعود فى الرياض ، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطى ، عميد كليـــة الشريعة بجامعة دمشق ، والشيخ محمد صادق بسيس ، أستاذ الفقه وأصول الفقه بجامعة الزيتونة ، والاستاذ صلاح الصاوى• وبعد الاستماع الى آرائهم ، كلفهم المشاركون فى الملتقى بوضع صيغة الفتوى التى يستفاد منها أن الاسلام هو دين اليسر وليس دين العسر • وقد صادق

المشاركون فى الملتقى بالاجماع على هذه الفتوى التى سوف يكون لها أحسن الاثـر لخدمة الفرد ، ولصالح الامة جمعاء .

ولهذا يمكن القول بأن عمال مركب الحجار ، أو غيره من المعـامل الاخرى حيثما كانت ، وكذلك العمال المسلمين الجزائريين أو غيرهم ممن يوجد فى أوربا أو فى بلـد آخر غير اسلامى ، ويؤدى عمله فى المصانع ، متعرضا للفح النار وزمهرير البرد ، أقول ان جميع هؤلاء الذين يشتغلون فى ظروف متشابهة ، يمكنهم أن يفطروا فى رمضان. ان كل من ليس له الخيار ، ويجـد نفسه مضطرا للعمـل فى ظروف لا يحتملها بـدن الانسان ، ويكد من أجل اعلاء شأن الامة الاسلامية والدفاع عن كيانها ، وخدمة مصلحة الوطن ، بل حتى لو كان من أجل اعالة أسرته ، ان جميع هؤلاء مسموح لهم بالافطار فى رمضان ، على أنهم بالمقابل مطالبون بالتعويض عن الايام التى لم يصوموا فيها ، ويكون التعويض بدون تتابع فى الايام ، كما هو الحكم فى حالات الافطار الاخرى .

وقد أثار البعض فى هذه المناسبة مسألة التعويض المادى ، باطعام مسكين واحد عن كل يوم افطر فيه الصائم المضطر . ولكن هذا الحكم استبعد لان هذه الحالة لا يمكن ان تقاس على المريض المزمن ، أو الشيخ الهرم وغيرهما .

بهذا نكون قد أوضحنا الحكمة من هذه الفتوى .وهنا أجيب على سؤالكم الذى أشرتم فيه الى ما يدعيه البعض من أن هذه الفتوى أحدثت ثغرة فى صرح الاسلام . والحقيقة أن مثل هذا التأويل هو من قبيل الخيال ولا يستحق أي اعتبار . وذلك أن الفتوى صريحة ودقيقة فى نصها : فهي لا تنطبق على من يشتغل فى مكان آخر غير المكان المنصوص عليه ، أي فى مصانع الحديد والصلب ، حيث يواجه العمال الفرن العالى الحرارة ... كما أنها لا تنطبق على من يشتغل بعيدا عن النار ، غير متعرض لها من قريب ، حتى ولو كان يشتغل فى مصنع الحجار ، أو فى غيره من المصانع المماثلة له فى ألمانيا، أو فرنسا، أو بلجيكا أو فى أقطار أخرى من العالم الاسلامى . واسمحوا لى أن ألح وأن أكرر مرة أخرى بأن هذه الفتوى لا تنطبق الا على هذه الفئة من العمال الذين يواجهون النار فى مصانع الحديد والصلب . فالفتوى لا تنطبق بأية حال من الاحوال على فئة أخرى من العمال ، كالموظفين ممن يشتغل فى المكاتب مثلا ، أو كالمهندسين أو الاداريين ، بـل لا تنطبق حتى على الشغالين اليدويين اذا كان هؤلاء يعملون فى ظروف أقـل ارهاقا وتعبا من التى سبق ذكرها . فصرح الاسلام اذن لم يتصدع بهذه الفتـوى كما يدعى البعض ، وليس فى الامر أية مساومة أو تفريط فى الدين أو تصفية له !

بقي أن نتحدث عن جانب آخر من جوانب هذه الفتوى ، وهو أنها نوع من أنـواع الاجتهاد . ولابد من الاشارة هنا الى أن العمال الذين تنطبق عليهم لا يشترط فيهـم النية ، قياسا على المسافر وعلى المرأة التى ترضع وليدها الخ اذ انه معروف مقدما ان أمثال هؤلاء العمال لا يمكنهم ان يتحملوا الحرارة الشديدة المنبعثة من الفرن العالى ، ولا يستطيعون أن يتحملوا البرد الشديد ، وبدون تعريض حياتهم للخطر .

وخلاصة ما يمكن أن يقال فى هذا الموضوع أن باب الافطار غير مفتوح للجميع ، وأن هذه الفتوى لا يجوز أن تتخذ ذريعة للتعميم ، بل هي على العكس تعبر عن اجتهاد العلماء وعملهم لما فيه خير الامة الاسلامية ، وسعيهم لشرح تعاليم الاسلام . وقد تأتى هذا لكون العلماء المسلمين الذين كانوا فى ملتقى عنابة يمثلون كافة المذاهب . لنبـدأ بالاستاذ الصادق بسيس الذى صرح بأن الاسلام ـ بعد صدور هذه الفتوى ـ قـد « دخل عصر الصناعة من بابه الواسع . ومن بينهم أيضا علماء آخرون من شمال افريقيا وأغلبهم ينتمون الى المذهب المالكى . ومن بينهم كذلك علماء من مصر ، وسوريا ، والمملكة العربية السعودية ، وهم ينتمون الى المـذهب الحنفى والشافعى والحنبلى . ولنذكر من بينهم أيضا الشيخ عبد الله الشماحى ، من اليمن (وهو من الزيدية) ، وكان متحمسا لهذه الفتوى أكثر من سواه ، رغم كبر سنه . ومن بينهم أيضا الدكتور الصاوى وهو شيعى جعفرى . وعلى هذا يمكن القول بأن هذه الفتوى منبثقة عن اتفاق تام بين علماء المذاهب الاسلامية الثمانية السائدة . وكما ترون فالاساتذة هم الذين اصدروها جميعا من أقطار أخرى غير القطر الجزائرى ، ويعد كل واحد منهم من العلماء الافذاذ فى الشـريعة .

وأستطيع أن أضيف أمرا قد يكون مهما ، وهو ان جميع العلماء الذين تحدثت عنهم ـ باستثناء وكيل الازهر الذى لا أعرف ماضيه السياسى والعقائدى ، وان كنت عـلى علم بكفاءته التامة فى ميدان الشريعة الاسلامية ، وهذه الكفاءة تشهد بها مؤلفاتـه العديدة ، والمسؤولية التى كان ينهض بها كأمين عام للجنـة البحوث الاسـلامية فى الازهر التى اللجنة تتألف من مندوبين يمثلون عددا من الاقطار الاسلامية ـ أقول ، ان جميع العلماء الذين تحدثت عنهم ، باستثناء وكـيل الازهر ، يعتبرون من جماعة « الاخوان » ، وهم معروفون فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، ولذلك فلا يمكن لأحد أن يتهمهم بأنهم يساريون أو « متسامحون » أو مفرطون فى الدين ، بـل على العكس . ومع ذلك فقد وضعوا هذه الفتوى ، وأيدوها تمام التأييد .

ومما تجدر الاشارة اليه ـ وان كان هذا الامر معروفا ـ أن ملتقى عنابــة ، كغيره مــن بعض الملتقيات الاخرى السابقة ، لم يقتصر على العلماء من مختلف المــذاهب الاسلامية ومن مختلف الاتجاهات السياسية والعقائدية فى العالم الاسلامى بل ضــم كذلك شخصيات أخرى تنتمى ، فى العالم غير الاسلامى ، الى اليمين المتطرف الذى كان يمثله « التاميون » ومن ينحو منحاهم خارج العالم الاسلامى ... كما ضــم أيضا شخصيات أخرى تنتمى ، فى العالم غير الاسلامى ، الى اليســـار المتطرف الذى كان يمثله بعض الشيوعيين من جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، وبولونيا ، ويوغوسلافيا ، وغيرها مــن البلدان الاخرى ... هذا ، فضــلا عن المثلين الكاثوليك من اسبانيا ، وفرنسا ، وايطاليا ... والممثلين للبروتستانت من ألمانيا وغيرها .

س ـ سيادة الوزير ، ان القرار المتعلق باعتبار يوم الجمعة يوم العطلة الاسبوعية عوضا عن يوم الاحد قد بدأ تطبيقه على وجه التحديد فى اليوم الاول من شهر رمضان من هذه السنة، وقد صادف هذا اليوم الاول يوم الجمعة. هل لكم يا سيادة الوزير، أن تتفضلوا بالتعليق على هذا القرار بمناسبة ادلائكم بهذا الحديث الينا ؟

ج ـ الموضوع يتعلق ـ اذا سمحتم ـ لا بأمر جديد ، بل بالعودة الى وضع كان ، لان يوم الجمعة كان دائما يعتبر هو يوم العطلة الاسبوعية فى الجزائر وفى سائر الاقطار الاسلامية ، وذلك من يوم ان انتشر الاسلام . وانما تغيرت الامور ابتداء من 5 يوليو 1830 ، يوم أن غزت جيوش الاستعمار أرض بلادنا ووضع المارشال دى بورمون ، قائد جيوش الاحتلال الفرنسى ، وضع صليبا كبيرا على أعلى مكان فى مدينة الجزائر ، وهو صومعة جامع كتشاوة ، كما قام برفع العلم الفرنسى مكان العلم الجزائرى على قصر الداى ، رئيس الدولة الجزائرية . وعلى هذا، فاتخاذ يوم الاحد يوم عطلة بدلا من يوم الجمعة ان هــو الا اجـــراء من الاجراءات التعسفية الاخرى التى اتخذتها السلطات الاستعمارية ، كرفع العلم الفرنسى ، وتحويل مسجد كتشاوة الى كنيسة ، والقضــاء على اللغــة العـــربية .

وكما تلاحظون فقد علقت السلطات الاستعمارية أهمية على هذا الاجراء المتعلــق بيوم الاحد ، ولا يخفى على أحد ما يتضمنه هذا العمل من مغـــزى دينى . ومـــا على الانسان ، لكي يتأكد من صحة هذا الكلام ، الا أن يراجع قاموس « لاروس » الشهير لكي يجد فيه هذا التعريف ليوم الاحد : « اسم مذكر ، مشتق من أصل لاتينى dies dominica ومعناه يوم اللــه . وهو اليــوم الاول فى الاسبوع ، ويكرس للراحة » . واذا كنت الآن أستشهد بما جاء فى قاموس لاروس فليس قصدى من ذلك هو السخرية أو التهكم مــن

أحد ، بل قصدى هو أن أذكر ببعض الحقائق قـــوما يتمسكون حسب ادعـــائهم ، بل يتشدقون بالفكر الديكارتى ، وبالمنطق ، حتى انك تجدهم أحيانا يزيفون الحقائق المعروفة ويشوهونها فى المحافل او على صفحات الجرائد باسم منطق ديكارت المظلوم ·

ومن ذلك أن احدى الصحف الكبرى التى تصدر فى باريس ، سوغت لنفسها ، على لسان مراسلها فى مدينة الجزائر ، أن تكتب بأسلوب لا يخلو من مغالطة ، أن الجزائر انفردت ، مع ليبيا والعربية السعودية ، باتخاذ هذا القرار ، مع الاشارة بعد ذلك الى ان بقية الاقطار العربية مثل « المغرب وتونس والعراق ولبنان وغيرها » لا تزال تعتبر يوم الاحد هو يوم العطلة الاسبوعية .

ويجب علينا قبل كل شيء أن نصحح ادعاءات هذه الجريدة التى قد يكون من المفيد أن نذكر عرضا بانها نفس الجريدة التى كتبت منذ بضع سنوات بأن يـــوم العطلـــة فى الجزائر كان هو يوم الجمعة الى غاية 1830 . ولنشر بعد هذا الى أننا اذا نظـــرنا الى الدول المنضمة الى الجامعة العربية ، وعددها يزيد على العشرين ، فلا يوجد أي بلد عربى يعطل يوم الاحد، باستثناء الدول التى كانت جزءا من الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية ، ومن بينها المغرب وتونس اللتان ذكرتهما الجريدة ، وينضم اليها لبنان ··· أما بقية الدول الاخرى، فانها تعطل يوم الجمعة· ولنذكر من بينها ليبيا، ومصر ، والسودان،وسوريا،والكويت،والعربية السعودية،وبلادا اليمن ، والامارات العربية،وقطر، والبحرين ، وعمان ، والاردن ، بل حتى العراق الذى ادعى صاحب المقال فى الجريدة خطأ بأنه يعطل يوم الاحد·أما العالم الاسلامى غير العربى فيكفينا أننذكر من بين البلدان التى تعطل يوم الجمعة الدول الآتية : ماليزيا ، أفغانستان ، ايران والباكستان · ان أمثال هذه المزاعم وما أشبهها ليست مجرد أخطاء مطبعية ، بل تدل دلالة واضحة على نوايا سيئة ، ومهما يكن من أمـــر ، فان يوم الاحد قد فرض كيوم عطلة أسبوعية فى الجزائر ابتداء من 5 يوليو 1830 ، ولذا فقد كان من المفروض ان يعاد الحق الى نصابه فى اليوم المشهود ، اي فى 5 يوليو 1962 ، يوم أن استعادت الجزائر استقلالها ، أي ليوم الجمعة الذى هو اليوم الحق لا من الناحية الزمنية فحسب ، بل كذلك من الناحية المنطقية أيضا ، سواء نظـرنا الى المســألة مـــن الزاوية الروحية ، أو التاريخية ، أو السياسية ، أو الثقافية ، أو باختصار : من الزاوية الوطنية ·

أزمة التغذية العالمية

ليستر براون وايريك ايكهولم
ترجمة : د· عبد القادر زبادية

من المعروف أن العالم يمر الآن بأزمة حادة تخص نقص المواد الغذائية فى السنوات الاخيرة ، وأول مظاهر هذه الازمــة يتمثـل فى نقص الانتـاج الفــلاحى وتكاثر السكان على وجـه الكــرة الارضية بشكل لم يسبــق لــه مثيل ، وبالنظر الى ان القليلين فقط هم الذين ظلوا يشعرون بما لهذه القضية من خطورة ، فقد رأينا أن ننقل لقــراء الأصالــة جانبا من الدراسة الهامة التى قــام بها حــول هــذا الموضوع الباحثــان ليستـر بـراون وايريك ايكهولم ونشرتهــا مجلــة (دايلــوق) الاميركية أخيرا ؛ فتحت هذا العنــوان كتب هذان الباحثان ما يلى :

فى بــداية السبعينــات تضخـم الطلب على المــواد الغذائية بتـأثير استمـــرار تــزايد السكـــان وارتفعت الاسعار الى درجــة كبــيرة ، وأدى ذلــك الى أن طـــاقة المزارعين وصيادى الاسمــاك فى الانتاج أصبحت لا تكفى لمجابهة الحاجة · أما النتائج فكان منها تضاؤل الاحتياطى من المواد الغذائية ثم ارتفاع الاسعار بشكل مفزع وأخيرا المنافسة الحــادة بين مختلف البلدان للحصول على الغذاء .

وهذه التغيرات الاساسية فى وضعية العالم الغذائية قــد تركــت الحكومات والمؤسسات والافراد فى كــل مكان فى تحير واضطراب لانها أخذت الجميع على غرة ·

ان تزايد عدم الاطمئنان العالمى فيمــا يتعلق بالتغذية قــد ارتبط مباشرة بالنقص الحــاصــل فيمــا يتعلــق باحتياطات العالم من المــواد الغذائية؛ فمنذ الحرب العالمية الثانية اعتمد سير العالم على حقيقتين أساسيتين : أولاهما تزايد المخزون من الحبوب فى العالم لدى البلدان المصدرة الرئيسيــة ، وثــانيهمــا أن

منـــاطق انتاج الحبـوب فى الولايات المتحدة قد سـارت فى ظروف غير مواتية بتأثير مـــن البـــرامج الحكـومية للمزارعين • وهذان العاملان خلقا ضعفا كبيرا أمام تقلبات المناخ واضطرابات الاسواق.

ففى سنـــة 1961 كانت احتياطات العالم من الحبـوب ترتفع الى 222 مليون طـــن أو مـا يكـفى العـالم فى الاستهلاك لمـــدة 95 يـوما كاملة ، ولكن فى سنة 1974 أصبـــح هـذا الاحتيـاطى لا يكفى لاكثر من 26 يـوما فقط • وبالنتيجة فانـه فى سنة 1974 اضطربت وضعية العـرض والطلب فى المـواد الغذائية بشـــكل مخيـف ، ورافق ذلك موسم سىء فى كل البلـدان المنتجـة للحبـوب بكميات كبـــيرة : الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفييتى، الهند والصين ، فانطلقت من هذه البلدان موجة لا تخص فقط قطاع المواد الغذائية فى العالم ، ولكنها امتدت لتشمل التضخم فى بقية القطاعات كذلك • ان الاختـــلال فى ميـــزان العرض والطلـب الغذائى دفـــع البعض على التفكير فى أن المناخ نفسـه ربما يخلف التلـــوث فى أن يصبـح من اهتمامات العالم حول البيئة أيضا •

سيـاســات النـدرة

وأمـــام هذه الوضعيـة سلكـــت حكومـات عـديدة مختلف الطـــرق لتحصل أو لتتأكد من وجـــود الكميات الضرورية من المواد الغذائية لشعـــوبها ، وأدى ذلك الى ظواهر جديدة يمكن اجمالها فى عبارة (سياسات الندرة الغذائية) ، ففى صيف 1972 استعمـــل الاتحاد السوفييتى طـــرقا سرية تماما ليجمـع معظم مـا فى السوق العالمية من حبوب ، وذلك بشرائـه لمعـــظم صـادرات الولايات المتحدة من القمح • أمـا فى الصيف الموالى فقد عمـــدت الولايات المتحدة ــ وهـــى مصدر 85٪ مما يدخل السوق العالمية من الذرة ــ بصورة مفاجئة الى منع تصدير الذرة وذلك في محاولة منها للقضاء على النقص الحاصل وارتفاع سعر هذه المادة فى السـوق الداخلية • وقد وضع ذلـك تهديدا خطيرا أمام شعـوب شرق آسيـــا الـ‍ى تشـــكل بروتينات هذ المـادة غـذاء أساسيا لها • وتطورت حالة مشابهة بالنسبة لتايلندا فى قضية الرز التى هى احـدى البلدان المصدرة له ، حينما منعت تصديره لعدة أشهـــر وذلك بغرض مجابهة ارتفاع الاسعار في الداخل وما يرافق ذلك من مضاعفات سياسية • كما ان البرازيل هى الاخرى عمـدت وبنفس الغرض الى منع تصدير كل من الـــذرة واللحـوم •

ان التحـــول السريـع للاقتصاد العالى فى خصوص مواد الغذاء من سوق البائعين الى سوق المشترين ، كما دلت على ذلك موجة 1970 ومـــا تمخض عنهـــا من ارتفاع الاسعار ، لم يكـن كل ذلك متوقعا لدى الكثيرين ؛ فبين نهاية 1972 و 1973 تضاعف

سعر القمح ثلاث مرات كما تضاعفت أسعار الرز مرتين وتضاعف سعر الـــذرة فى ظـرف سنتــين • ثـم ان التضاعف الفجـاىء لاسعـار القمح قد تبعه فى ظـــرف أشـــهر فقـط تضاعـــف دراماتيكى معــــادل لـه فى أسعـار البترول (1) ؛ فبين 1960 الى 1972 أصبــــح السعران العالميان لبشل مــن القمح وبرميل مــن البترول متعادلين ، وهمــا يتراوحان بين 1,35 دولار الى أكثر قليلا من دولارين ، وبذلك أصبح يجرى تبادل البرميل الواحد من البتــرول بالبشــل (1) الواحد من القمح فى السوق العالمية • أمــا فى أخريات سنة 1973 فقد ارتفع سعــر القمح الى ما يفــوق خمس دولارات ، وفى ظرف قصير أصبح البشل الواحد مـــن القمـح يتبادل بـــه مقابل برميلين من البترول • وغداة أعياد الميلاد لسنة 1973 رفع سعر البترول من طرف الدول المصدرة لــه ، وبذلك حصل ثانى تضاعف فى سعره خلال سنة واحدة ، ثم ما لبــث سعره أن ارتفع الى أكثر من ذلك فبلغ 8 دولارات للبرميل الواحد •

لقد أثر كل من نقــص المواد الغذائية وما رافقه من ارتفاع كبير فى مواد الطاقة تأثيرا مهيلا فى التبادل العالمى المشترك • ولا يــوجد هناك قطر من أقطار الدنيا لــم يتأثر جزئيا أو كليا بذلك حتى الآن ، فقد تأثرت كــل البلدان فى نظامها التجارى والنقدى • وكان يظــن أن للولايــات المتحــدة الامريكية القدرة على أن تضمن لسكانها المواد الغذائية بسعر مخفض ولكن عندما حلت سنة 1973 اكتشف الامريكيون فجأة بأنهم يشاركون بقية سكان العالم فى نــدرة المـــواد الغذائية لديهـم، واصبحت الولايــات المتحـــدة تشترى البتــرول المرتفع الثمن بالمواد الغذائية التى تصدرها • وفى الحقيقة فان سهم كل العالم من المواد الغذائية وقضيــة استهـلاك مواد الطاقة تخطت الى جميع الحدود فى ارتفاعها باستمرار •

تستورد اليابان أكثر بكثـير من نصف حاجتها من المــواد الغذائية مثــلا ، وتستورد مصر حوالى 40٪ من حاجتها . وتستورد بلــدان المجمــوعة الاقتصادية الاوروبية كـــل حاجياتها من البترول تقريبا كما تستورد حـــوالى أربعة أخمـــاس من المـــواد ذات البروتينات العالية وذلـــك لاطعام المــواشى الصناعية • كما تعتمد الولايات المتحـدة على استيراد ثلث حاجياتها من البترول ، واذا استمر لديها النسق الموجود حاليا فانه من المتوقع أن تستــورد النصف من حاجياتها فى سنة 1985 .

من الكثرة الى القلة

ان هذه الحـــوادث التى ابتدأت منذ 1970 تشـير الى

(1) بهذا يثبت أمامنا ان الارتفاع فى أسعار البترول ، خلافا لمدعيات الغربيين ، لم يكن السبب فى ارتفاع المواد الغذائية ، لانه جاء بعدها •

تغيرات جذرية فى بنية اقتصاد التغذية العالمية . ففى خلال معظم سنوات هذه الفترة منذ الحرب العالمية الثانية رأى اقتصاد التغذية العالمية ازديادا متصاعدا من حيث الحجم ، وتضخم المخزونات وتناقص الاسعار. لكن الظروف الطارئة تشير الى أن هذه الحقبة هى على وشك الانتهاء ، وستخلفها فترة أخرى تتسم بالندرة المستمرة وارتفاع الاسعار مع قلة الانتاج .

ويساهم فى هذا التغيير للوضعية العالمية فيما يتعلق بالغذاء التحول الحاصل فى جانبى العرض والطلب . وفى تاريخ العالم الطويل فان ازدياد الطلب على الغذاء انما ينتج دائما عن التضخم السكانى ؛ فمنذ أيام مالتوس MALTHUS ، كان ينظر دائما لمشكلة التغذية على أنها مشكلة السكان ، ذلك أن التضخم السكانى يزداد أثره بسرعة وباستمرار ، وأدى الآن الى بداية ظهور وضعية أخرى تتمثل فى الضغط الحاصل على مصادر انتاج الغذاء فى العالم بالذات .

أثر التضخم (السكانى)

ان تأثير التضخم السكانى على ازدياد الطلب على المواد الغذائية هو أمر يمكن ملاحظته وفهمه بسهولة . فازدياد السكان بنسبة 3 ٪ يؤدى تلقائيا الى ازدياد الطلب بنسبة 3 ٪ كذلك ، لكن تأثير الازدياد القوى (اللا منتظم) ليس مما يمكن فهمه بيسر . وقد تتمثل احدى الطرق الميسرة لفهمه فى تصورنا لمتطلبات الفرد الواحد من الحبوب ؛ ففى البلدان الاقل تطورا لا يتوفر اكثر من 400 رطل فى العام للفرد الواحد ، وهذا فى المتوسط العام . ويستهلك هذا المقدار بصورة مباشرة تماما وذلك لمواجهة الحد الادنى من حاجيات الفرد من الطاقة الغذائية . والقليل فقط من هذه الكمية قد يتحول الى المنتجات الحيوية الاخرى .

وعلى العكس من هذا فان متوسط استهلاك الفرد الواحد فى أمريكا الشمالية يصل الى الطن الواحد من المواد الغذائية فى السنة ، وهو ما يعادل خمسة أضعاف المتوسط فى البلدان النامية ومن مجموع هذه الكمية يستهلك فقط 200 رطل بصورة مباشرة فى شكل رغيف ، وعجائن مختلفة . اما الكمية الباقية فتستهلك بصورة غير مباشرة فى شكل لحم ولبن وبيض .

ان تأثير كل من التضخم السكانى واستمرار تزايده بشكل غير منتظم يتسيان على ايامنا هذه في اتساع حاجيات العالم المعاصر من المواد الغذائية بشكل لم يسبق له مثيل . ففى بداية هذا القرن كان التضخم السنوى العالمى فيما يخص الطلب على الحبوب حوالى أربعة ملايين طن فى العالم . ولكن فى 1970 أى بعد عشرين سنة فقط بعد ذلك ارتفع معدل الطلب العالمى على المواد

الغذائية الى ثلاثين مليونا من الاطنان ، وهذا يعادل كل المنتوجات السنوية من الحبوب لكل من كندا وأوستراليا والارجنتين مجتمعة • ومثل هذا التضخم فى الطلب غير متوقف البتة ، فهو حاصل سواء فى سنوات المواسم الجيدة أو سنوات الجفاف والاحوال المناخية السيئة •

وفى جانب العرض ، فان هناك ثلاثة عوامل أساسية بدأت تؤثر على المجهودات المبذولة لزيادة الانتاج العالمى من المواد الغذائية بالسرعة التى تقتضيها الحاجة المتزايدة • وأولها يتمثل فى الاندفاع على الميادين التكنولوجية التى حددت بطبيعتها الاندفاع فى نشاطات التوسع الانتاجى الغذائى للعالم وخاصة فيما يتعلق بالحبوب واللحوم • أما العامل الثانى فيتمثل فى أن الاربعة مصادر الاساسية التى تستعمل للانتاج الغذائى ، وهى ـ الارض ، الماء ، الطاقة ـ وهى الآن دون درجة الوفرة اللازمة بكثير . ويتمثل العامل الثالث والاخير فى أن تزايد ضغط الطلب على المواد الغذائية قد بدأ يؤدى الى اضعاف قدرة البيئة نفسها على الانتاج •

وبالنظر الى أن التغلب على الصعوبات المتمثلة فى هذه الجوانب الثلاث المذكورة يشكل احدى الحلول المقترحة لمشكلة الغذاء فى العالم بشكل علمى ، فان دراسة كل منها على حدة وتفصيل هى من الضرورة بمكان هنا وهو ما سنتابعه فيما يلى •

(البقية فى عدد قادم) •

منشـــورات

وزارة التعليم الاصـــلى والشؤون الدينيـــة

صـــدر أخيرا كتاب :

الملتقى الثامن للفكر الاسلامى

بالعربية فى ثـــلاثة أجزاء

ويشمـــل سائـــر المحاضرات ، والتعقيبـــات ، والمناقشـــات

كما صدر كتاب :

الملتقى السادس للفكر الاسلامى

بالفرنسية فى خمسة أجزاء

ويشمـــل أيضا سائر المحاضرات ، والتعقيبات ، والمناقشـــات

« DE PLAIN-PIED DANS L'ERE INDUSTRIELLE » (1)

Entretien avec Monsieur Mouloud Kassim NAIT-BELKACEM
ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses

Monsieur le Ministre, l'un des résultats les plus commentés du dernier séminaire sur la pensée islamique est certainement la fetwa prise en faveur des travailleurs du complexe sidérurgique d'El-Hadjar. Diversement commentée d'ailleurs, car, tandis que certains y voient la preuve d'une grande tolérance en vigueur dans la religion islamique, tandis qu'à l'inverse d'autres se plaisent à y voir une brèche ouverte dans cette même religion et portant l'espoir d'en voir un assouplissement progressif qui aboutirait à terme à l'atténuation de la rigueur culturelle, il en est qui, tout simplement, n'ont pas pleinement compris le sens et la portée d'une telle dérogation et craignent qu'elle ne mène à ce qu'ils appellent « la liquidation de la religion », alors que d'autres, comme tel grand journal japonais, l'ont carrément taxée de « plus dure que l'acier de Annaba ».

Pour les uns comme pour les autres, nous aimerions, Monsieur le Ministre, que vous fournissiez quelques précisions sur le contenu de cette fatwa et sur les raisons qui en ont déterminé l'élaboration

Je tiens à dire tout d'abord que le problème nous a été posé à plusieurs reprises, à titre individuel, par certains de nos citoyens se trouvant en Europe qui travaillent dans les fonderies et autres usines et sont exposés au feu, à la poussière... En plus de cette puissance du feu à laquelle ils sont soumis continuellement, il y a également d'autres souffrances, dues celles-là au froid insupportable régnant dans certains pays d'Europe et la malnutrition. Le froid, la vacuité de l'abdomen, la lourdeur du travail auquel ils sont astreints font encourir à ces travailleurs des risques énormes. Malgré cela, la plupart d'entre eux préfèrent supporter cela que de rompre le jeûne et le compenser par la suite. Ils préfèrent, disent-ils, jeûner et avoir la conscience tranquille, la certitude du devoir accompli. D'autres n'ont cessé de nous poser la question à cause des multiples retombées socio-prefessionnelles du jeûne dans ces pays-là, entre autres, défaillances physiques exposant à des accidents et, bien entendu, du fait souvent de cette faiblesse, des insuffisances au plan du rendement qui entraînent le licenciement.

(1) Propos recueillis par M. Mouloud Achour et publiés par El-Moudjahid Culturel dans sa livraison du 8 septembre 1976.

A ces multiples sollicitations, je dois dire que nos ulémas n'ont jamais apporté de réponse autre que celle qui renvoie purement et simplement au principe intangible proclamé depuis 14 siècles, détaillé dans les divers rites, principe selon lequel il n'est pas seulement licite de boire ou de manger lorsque la survie est à ce prix, mais encore obligatoire. Il existe du reste d'autres cas, en dehors de la rupture du jeûne. Ainsi, celui-là qui, risquant de mourir de soif, ne trouve en fait de boisson, pour l'étancher, que du vin, est mis dans l'obligation d'en boire, même si, par ailleurs, l'absorption de boisson alcoolisée est illicite en Islam. Bien plus, s'il meurt de soif, ayant préféré cela au péché, il est considéré comme suicidaire et par conséquent mécréant. Autre cas, celui de la personne affamée et risquant de tomber gravement malade ou même de mourir de faim. Si la seule possibilité d'assouvir cette faim est de manger du non-égorgé ou encore du porc, eh bien cette personne est dans l'obligation de le faire.

LA PLUS GRANDE TOLERANCE POSSIBLE.

Revenons maintenant au Ramadhan. Le même principe s'applique. A l'exception des cas prévus par la chariâa islamique, toute personne adulte est tenue d'observer le jeûne et de s'endormir, avant l'aube, avec l'intention d'accomplir le Ramadhan. Car en Islam, il n'y a pas que le fait. Il y a aussi l'intention. Les deux sont complémentaires et obligatoires. Il reste maintenant que, concernant la personne qui travaille, si, au cours d'un travail manuel, normal, ne comportant pas des efforts insupportables, cette personne a soif ou est exposée à un cas de maladie ou d'indisposition, il lui est permis du rompre le jeûne et de continuer la journée ainsi, jeûne rompu, pourvu que ce soit dans la discrétion et qu'intervienne la compensation par la suite. S'il s'agit d'une journée, elle est compensée plus tard, mais dans le cas de plusieurs journées, la compensation obéit au principe de la continuité.

Tels sont entre autres les principes de l'observance du jeûne. Mais j'ai mentionné tout à l'heure le cas de nos concitoyens travaillant en Europe dont l'équivalent était connu, même dans notre pays, avant l'avènement de l'industrie. C'est celui des moissonneurs. Ceux-ci étaient autorisés à rompre le jeûne pendant les journées de travail au cours desquelles ils étaient exposés au soleil, à la chaleur. Ceci au terme de la chariâa islamique.

Après le recouvrement de l'indépendance nationale, ce même problème nous a été de nouveau soumis, relatif à l'industrie, mais nos ulémas ont toujours hésité à prendre position là-dessus à cause du caractère de généralisation que comporterait une fetwa éventuelle. Cependant, cette fois, au séminaire de Annaba, lorsque nous avons visité le complexe sidérurgique d'El-Hadjar, la question nous a été posée en termes clairs et précis, de façon vraiment flagrante, si vous permettez le terme.

Nous leur avons promis, avant de nous être nous-mêmes exposés à la puissance du feu, de discuter ce sujet sitôt de retour dans la salle des conférences. En attendant la décision des ulémas là-dessus, nous leur avons demandé de veiller de leur côté à éviter les aspects négatifs de l'industrialisation, sur le plan moral, éthique, sur le plan des mœurs (c'est là d'ailleurs le second volet du deuxième

grand thème inscrit à l'ordre du jour du séminaire de Annaba). De notre côte, nous leur avons promis de faire un effort dans le sens de la chariâa islamique, dans le sens de ce que l'on appelle « maqaçid ach-chariâa » (les intentions suprêmes du Législateur de la Loi islamique).

A l'issue des explications qui nous ont été fournies sur tableaux synoptiques concernant le complexe d'El-Hadjar, nous nous sommes rendus devant le haut-fourneau et là, nous avons vu, éprouvé, senti dans notre chair, ce que le professeur Salah Es-Saoui, de l'Université de Téhéran, devait qualifier d' « avant-goût de l'enfer ». Le feu auquel nous avons été exposés, de loin du reste, à quelques dizaines de mètres (alors que des ouvriers étaient tout à fait à proximité) devant ces colonnes fumantes, lançant non seulement un rayonnement brûlant, mais aussi de grosses étincelles rouges qui parvenaient jusqu'à nous. A ce moment-là, tous les professeurs qui, en entendant la question posée précédemment de façon discrète par le directeur de l'industrialisation, avaient marqué une sorte de malaise, d'hésitation, ayant visiblement l'impression qu'on allait leur demander de faire une sorte de fetwa administrative, tous ces professeurs donc, face à cette fournaise déshydradante, étaient pressés de regagner l'extérieur, en dépit de l'intérêt qu'ils portaient pour la chose. Ils étaient, dis-je, pressés de sortir car la sensation de chaleur était intolérable. Elle l'était certainement bien davantage pour les ouvriers qui manipulaient leurs outils devant la coulée qu'ils dirigeaient et qui les étouffait, les desséchait. Il faut croire d'ailleurs qu'ils tenaient debout par miracle.

Les ulémas de tous les rites musulmans, à la suite de cela, sont ressortis du complexe sidérurgique plus que pensifs, mesurant à ce moment-là seulement la portée réelle de la question. Aussi, une fois dans la salle de conférence, le problème a été immédiatement soulevé par l'un d'entre eux et la position a été, je dois dire, unanime. La fetwa devenait nécessaire, et devait être prise nécessairement dans le sens de la plus grande tolérance possible, en faveur de ceux qui pratiquent ce genre de tâche particulièrement éprouvante.

Cette fetwa est claire et précise. Après avoir écouté plusieurs ulémas, des professeurs de théologie, de droit musulman, dont certains sont ou furent des doyens de facultés, tels le docteur Mohamed Moubarek, ancien professeur et doyen de la faculté de droit musulman à Damas, et actuellement professeur à la faculté de la chariâa de Djeddah ; le professeur Abderrahmane Bissar, vice-recteur d'El-Azhar ; le docteur Moustapha Mohammed Ezzerqa, ancien ministre des Affaires religieuses, puis de la Justice en Syrie, éminent spécialiste de la chariâa, qui supervisa l'élaboration de l'encyclopédie de la législation islamique et actuellement professeur de la même matière à l'Université de Amman (Jordanie) ; du docteur Mohamed Farouk En-Nabhan, professeur à la faculté de droit et de chariâa à l'Université de Koweit ; le docteur Abdelhalim Aouiès, professeur à la faculté de chariâa de l'Université de l'imam Mohamed Ibn Séoud à Riadh ; le docteur Mohamed Saïd Ramadhane El-Bouty, doyen de la faculté de la chariâa de l'Université de Damas ; le cheikh Mohamed Sadek Bessyès, professeur à la faculté Zitouna de Tunis (droit musulman et sources de la religion islamique) ; le professeur Salah Es-Saoui. Le séminaire confia aux personnalités citées plus haut l'élaboration de la fetwa. Tous ces savants ont expliqué que l'Islam est la religion d' « el-yousr » et non d' « el-'ousr ». Les participants au séminaire ont adopté à l'unanimité

la fetwa, laquelle s'inscrit non seulement dans l'intérêt de l'individu mais aussi, plus largement, de la oumma.

DANS L'INTERET DE L'INDIVIDU ET DE LA « OUMMA ».

On peut dire, par conséquent, que les travailleurs du complexe d'El-Hadjar, comme de toutes les usines analogues où qu'elles se situent, les ouvriers musulmans algériens ou autres se trouvant en Europe et en dehors du monde musulman en général, à accomplir leur travail dans des usines, exposés au feu, au froid, tous ceux qui se trouvent dans des conditions analogues, sont autorisés à rompre le jeûne pendant le mois de Ramadhan. Tous ceux qui ne peuvent pas faire autrement, qui sont tenus de travailler dans des conditions physiquement insupportables, pour la cause de la puissance de la nation islamique, pour sa défense, son intégrité, donc dans l'intérêt de la nation, ou même seulement par nécessité pour leurs familles, tous ceux-là sont autorisés à rompre le jeûne. Ils sont tenus, cependant, en contrepartie, de compenser les jours où ils n'ont pu observer le Ramadhan, plus tard, mais non d'une façon consécutive comme dans d'autres cas de rupture.

Certains ont soulevé à cette occasion la question de la simple compensation matérielle, versement de la nourriture journalière d'une personne, pour chaque journée de jeûne non observée, mais l'hypothèse a été écartée du fait que cette catégorie de dérogataires ne peut être assimilée à celle, connue, du malade inapte en permanence, du vieillard, etc...

Voilà donc précisé le sens de la fetwa et c'est précisément là que je réponds à votre question selon laquelle il s'agit, pour certains, de l'ouverture d'une brèche dans l'Islam. En fait, une telle interprétation relève de la plus pure fantaisie et ne saurait en aucun cas être prise au sérieux. En effet, la fetwa — et cela y est stipulé de façon claire et précise, en termes extrêmement évidents — n'est pas valable pour ceux dont le travail ne se situe pas dans le cas particulier, dans des postes affectés au métal et au feu. Elle ne s'étend nullement aux ouvriers qui n'approchent pas le feu, qui en sont éloignés, même au sein de l'usine d'El-Hadjar ou d'une quelconque usine de même nature en Allemagne, en France, en Belgique ou dans d'autres pays musulmans. Valable donc exclusivement, je le répète avec insistance, pour cette catégorie d'ouvriers de l'industrie travaillant au métal et au feu et cas similaires. La fetwa ne peut s'appliquer à aucune autre catégorie de travailleurs, à ceux par exemple qui travaillent dans les bureaux, aux ingénieurs, aux directeurs et même aux manœuvres si ceux-ci travaillent dans des ateliers ne comportant pas les mêmes inconvénients que les premiers. Cela n'a donc rien à voir avec une quelconque brèche, solde, braderie ou autre liquidation !

Reste l'aspect de cette fetwa sur le plan de l'effort d'interprétation, c'est-à-dire de l'ijtihad. Je précise que cette catégorie d'ouvriers auxquels s'applique cette fetwa est, à l'instar du voyageur, de la femme qui allaite, etc..., dispensée du facteur intention. Car il est clair, à l'avance, que cet ouvrier ne peut pas affronter la puissance du feu, ou, dans d'autres cas, du froid, sans préjudice grave pour sa santé.

J'aimerais donc résumer cela en disant qu'il ne s'agit nullement là d'une porte ouverte à tout le monde, prétexte à généralisation, mais bien de l'expression

d'un effort fait dans le sens de l'intérêt de la oumma, dans le sens aussi d'un Islam bien compris, grâce surtout aux explications des savants musulmans qui représentaient, à Annaba, l'ensemble des rites. Commençons par le professeur Sadek Bessyès, qui a dit que « grâce à cette fetwa, l'Islam est entré de plain-pied dans l'ère industrielle », et d'autres savants nord-africains, généralement de rite malékite, ou tel autre savant d'Egypte, de Syrie ou autres, qui sont hanéfites, chafi'ites, saoudien (hanbalite), le cheikh Abdellah Chemahi du Yémen (zaidite), ce dernier ayant été plus enthousiaste que d'autres quoique d'un âge assez avancé ; le docteur Es-Saoui (chi'ite-dja'farite). Cette fetwa est le résultat d'un accord complet entre les savants de l'ensemble des huit rites musulmans encore en vigueur, et les éminents ulémas qui l'ont élaborée sont tous de pays en dehors de l'Algérie et tous sont des sommités en matière de chariâa.

Je peux même ajouter une petite précision, dans le même ordre d'idées : à l'exception du vice-recteur d'El-Azhar, dont je ne connais pas les antécédents politiques et doctrinaires, en dehors de sa compétence en chariâa islamique, attestée par les nombreux ouvrages qu'il a publiés jusqu'ici, de sa fonction précédente de secrétaire général du Comité de la recherche islamique d'El-Azhar qui se compose de délégués de plusieurs pays islamiques, à l'exception donc de ce professeur, tous les autres cités sont ce que l'on appelle des « intégristes », très bien connus dans l'ensemble du monde musulman, que l'on ne peut donc accuser d'être plus ou moins gauchisants, « tolérants » ou libertaires, au contraire. Et pourtant ils ont élaboré cette fetwa et l'ont approuvée à fond.

Du reste, et ceci est connu, le séminaire de Annaba, comme certains autres de ceux qui l'ont précédé, a réuni des professeurs appartenant aussi bien à diverses doctrines islamiques qu'à diverses tendances politiques et idéologiques dans le monde de l'Islam, mais aussi d'autres personnalités appartenant au monde extra-islamique, de l'extrême-droite, représentées pour certains par les intégristes et d'autres équivalents en dehors du monde de l'Islam, à l'extrême-gauche, représentée par des communistes de la RDA, de la Pologne, de la Yougoslavie et d'ailleurs, en passant par les catholiques d'Espagne, de France, d'Italie... et les protestants d'Allemagne et d'ailleurs.

Monsieur le Ministre, l'institution du vendredi comme journée de repos hebdomadaire, à la place du dimanche, est entrée en vigueur très exactement le premier jour du Ramadhan de cette année, qui se trouve être un vendredi. Pourriez-vous, à la faveur de cet entretien, nous dire deux mots sur cette mesure ?

Au lieu d'institution, je voudrais parler, si vous êtes d'accord, de restitution, puisque le vendredi a toujours été le jour férié hebdomadaire en Algérie comme dans l'ensemble des pays du monde musulman, et ce, depuis le début de l'ère islamique. Ce n'est qu'à dater du 5 juillet 1830, jour de l'invasion coloniale, le jour où le maréchal de Bourmont, commandant des troupes françaises d'occupation, a mis une grande croix sur l'endroit le plus élevé de la ville d'Alger, en l'occurrence le minaret de la mosquée Ketchaoua, au même moment où il installait le drapeau français à la place du drapeau algérien sur le palais du dey, chef de l'Etat algérien,

que cela changea. Ce fut le point de départ de beaucoup d'autres modifications. Donc, en plus du drapeau de la mosquée Ketchaoua devenant cathédrale, de la langue, l'on remplaça le vendredi par le dimanche comme jour férié hebdomadaire.

Comme vous le voyez, le dimanche avait place d'honneur dans le cortège colonial, avec son aspect religieux qui n'est pas du tout à négliger. Du reste, le brave Larousse le précise très bien pour quiconque n'est pas convaincu, en disant textuellement, au mot dimanche, ce qui suit : « Nom masculin, lat. *dies dominica,* jour du Seigneur ;. premier jour de la semaine consacré au repos ».

Ce n'est point pour faire de l'esprit ou un humour qui pourrait sonner lourd dans les oreilles de qui vous savez que je tiens à cette citation, mais pour rappeler quelques évidences à certains qui, du reste, s'entichent volontiers, et s'en gargarisent, de cartésianisme et de logique cartésienne et vont même jusqu'à fausser dans les salons ou dans tel ou tel journal des données universellement connues.

Ainsi, un grand quotidien parisien, sous la plume de son correspondant à Alger, s'est permis, en une acrobatie stylistique, d'écrire, parlant de cette mesure, toute une série d'inexactitudes et d'à peu près, pour laisser entendre que l'Algérie se trouve seule avec la Libye et l'Arabie Saoudite... à avoir pris cette mesure. Et, en les différenciant du reste des pays arabes qui, eux, selon lui, continuent d'observer le repos du dimanche, et de citer le « Maroc, la Tunisie, l'Irak, le Liban, etc... ».

Corrigeons tout d'abord les allégations de ce journal qui, il est bon de le rappeler au passage, est le même qui, il y a quelques années, écrivait que le jour férié en Algérie était le vendredi jusqu'en 1830. Précisons que, si l'on parle seulement des Etats de la Ligue Arabe qui sont au nombre de plus d'une vingtaine, à l'exception des Etats ayant fait partie de l'empire colonial français, dont le Maroc et la Tunisie, qu'il a cités à juste titre, et le Liban — apparenté —, aucun autre pays arabe n'a conservé le dimanche comme jour férié hebdomadaire. Tous célébrant le vendredi. On peut alors citer la Libye, l'Egypte, le Soudan, la Syrie, le Koweit, l'Arabie Saoudite, les deux Yémen, les Emirats, Qatar, Bahrein, Oman, la Jordanie et même l'Irak que l'auteur de l'article a compté à tort parmi les pays à jour férié dominical. Pour le monde islamique, en dehors du monde arabe, il nous suffit de citer parmi les pays ayant comme repos hebdomadaire le vendredi : la Malaisie, l'Afghanistan, l'Iran, le Pakistan.

De telles insinuations et d'autres, du même acabit, ne sont pas de simples coquilles et sont profondément empreintes de mauvaise foi. Quoi qu'il en soit, le dimanche ayant été imposé en Algérie comme journée de repos hebdomadaire le 5 juillet 1830, ce dernier aurait dû être restitué au jour légitime, dès le recouvrement de l'indépendance le 5 juillet 1962 : c'est-à-dire au vendredi, auquel revient la place non seulement du point de vue chronologique, mais aussi logique tout court, et ce, sur le multiple plan spirituel, historique, politique, culturel, bref : sur le plan national.

فهـــرس العــــدد

الأحـــداث الـــديـنيـــة والـوطنيـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد النبىء الكريم

الله اكبر ، الله اكبر ، الله اكبر ، الله اكبر ، الله اكبر ، الله اكبر ولله الحمد ، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه .

الله اكبر ــ سبح له ما فى السماوات وما فى الارض ، وعنت الوجوه له خاشعة خاضعة ــ راجية طامعة ، متقربة بالنوافل والفرض . فسبحان الله والحمد لله ، ولا اله الا الله والله أكبر ، الله اكبر ، الله أكبر ولله الحمد .

نحمده ونستعينه ونستغفره . ونشهد أن لا اله غيره . ونشهد ان محمدا عبده ورسوله. فاللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحابته ، وعلى جميع الانبياء والمرسلين والاولياء والمؤمنين أجمعين الى يوم الدين .

أما بعد ــ أيها المسلمون ــ فان هذا اليوم عيد عظيم لامة الاسلام . ففيه يتم الحجاج مناسكهم ، ويتحللون من احرامهم ، بعد أن عظموا شعائر الله ، وناجوا ربهم بعرفات ،

خطبة عيد الاضحى الاولى ليوم 10 ذى الحجة 1396 هـ ، الموافق لـ 02 ديسمبر 1976 م .

وذكروا الله عند المشعر الحرام كذكرهم آباءهم ، واطوفوا بالصفا والمروة من شعائر الله ، بعد أن اطوفوا بالبيت العتيق استجابة لامر ربهم ، راجين العتق من الاسر ، والوضع للاصر •

وفيه يتذكرون ــ أن الله قد أتم عليهم النعمة باكمال الدين يوم الجمعة التاسع من ذى الحجة حجة الوداع بجبل عرفات من السنة العاشرة من الهجرة حيث نزل قوله تعالى : «اليوم أكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » يتذكرون كل سنة هذه النعمة العظمى ، ويحتفلون بها ، ويتدبرون القرآن فيها •

لقد رضى لنا ربنا الاسلام دينا قيما ملة أبينا ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين نعبد الله مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون • وجعلنا بالاسلام أمة وسطا جنبت الافراط والتفريط ، وجمعت بين سمو الروح ، وطهارة القلوب ، وتزكية النفوس ، وبين ارضاء الجسم وتمتيعه بكل حلال طيب من الملذات والمشتهيات • قال تعالى فى الواجب للنفس ، « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » وقال فى حق الجسم : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » •

ان الله قد جعل أمة الاسلام خير أمة اخرجت للناس يتآمرون بالمعروف ، ويتناهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويجاهدون فى الله حق جهاده ؛ الجهاد الاكبر فى ميادين الحياة ، والجهاد الاصغر فى ميادين الحرب، ويعيشون أقوياء مهتدين بالعلم متعاونين على الحق والبر وضد الاثم والعدوان والفواحش ما ظهر منها وما بطن متسمين بالعدل والاحسان ، أشداء على الكفار المعتدين الظالمين ، رحماء بينهم ، اذلة على المؤمنين •

حق على المسلمين أن يجتمعوا ــ هذه الايام ــ بمنزل الوحى يذكرون ، آتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله ، ملبين النداء الى الحج • وحق على جميع المسلمين أن يجتمعوا فى صلاة العيد ليجعلوا يومه اليوم السعيد ، متحابين متآخين ، متناسين كل الاحن والاحقاد ، كاظمين الغيظ ، عافين عن الناس ، والله يحب المحسنين •

اتقوا الله ، عباد الله ، وتوبوا اليه يتب عليكم و « استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا» •

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين •

بسم الله الرحمن الرحيم (1)

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد ·

الله اكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ·

الحمد لله ولى النعم ، والصلاة والسلام على رسول الله سيد العرب والعجم · ونشهد ان لا اله الا الله الملك الحق المبين ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الامين ·

أما بعد ـ أيها المسلمون ـ فان عيدكم هذا يذكركم بقصة أبيكم ابراهيم ، واستعداده للتضحية بابنه تلبية لامر ربه العظيم ·

وقد سن فيه تقديم القرابين من الذبائح احياء لذكرى هذه التضحية الغالية من أبى المسلمين ، ورمزا لاستعداد المؤمن لمثل هذه التضحية فى كل حين ، بحيث لا يعز عليه شىء من التضحية بالنفس والمال والاهل أجمعين ، فى سبيل الحق والمصلحة وارضاء رب العالمين ·

ان هذه الاضحية ذكرى وسنة ـ وليست واجبا ـ على القادرين ، شاة من الغنم ، أو بدنة من الابل ، أو راس من البقر حسب قدرة القادرين ، ياكل منها ويتصدق على الفقراء والمساكين ، ويهدى لذوى الرحم والاصدقاء الحميمين · ويحرم عليه التباهى بها والتفاخر كما يصنع بعض الجاهلين ، فانها قربة لله ، وانما يتقبل الله القربان من المتقين ·

أيها المسلمون : ان أمتنا العريقة فى الاسلام المتمسكة به ، الوفية لشريعته ، رباها وتغلل فى نفوس أبنائها ، فاكتسبت منه الفضائل ، وتطهرت من الرذائل ، واستعدت للكمالات ، قد أعطت أروع الامثلة فى التضحية فى سائر الميادين ·

ان أمتنا قد ضحت فى سبيل حريتها ، وتمكين دينها ، ونيل استقلالها ، وتطهير وطنها من رواسب الاستعمار ، بالشىء الكثير من الاموال والانفس · وسمحت بفناء العشر ونصف العشر من أبنائها ، ولو بلغ العدد الى الثلث لبقاء الثلثين وصلاحهما لرضيت !

انها بهذه التضحية الغالية أسست دولتها وهدمت صروح الاستعمار فى بلادها ، وأصبحت تتمتع بشخصيتها الكاملة التى لا ينازعها فيها منازع ، لان الوطن قد استكمل استقلاله من كل جانب من الجوانب الاساسية لتشييد دولة قوية الاركان ، لا تزول بزوال الرجال ، ولتتويج ما أنجز من المراحل ، وما حققه الشعب من انتصارات تكاد تكون من

---

(1) الخطبة الثانية لعيد الاضحى المبارك (1396 هـ) ·

المعجزات ، فى طريق الحضارات ، فاننا اليوم على وشك نهاية البناء ، بالمصادقة على رئيس الدولة بطريقة الشورى والاختيار .

ان دستورنا ينص بوضوح وجلاء على أن الاسلام هو دين الدولة ، وان اللغة العربية ستسود فى البلاد ، واليمين الدستورى يسجل احترام الاسلام وتمجيده ، بطريقة الزامية لا تقبل أى تاويل ، ولا مراجعة فيه ولا تسمح باى تعديل ولا تبديل ، وما ذلك الا نتيجة الشورى فى الاسلام ، وقد صادق الشعب بعد أن اتفق عليه ذوو الرأى المسؤولون .

فلنسر قدما الى الامام لخدمة الوطن مخلصين راشدين ، ولنؤد باخلاص ونزاهة امانة شهدائنا مطمئنين ، ولنكن أقوياء بعقيدتنا متسلحين بايماننا مستقيمين ، لنرضى ربنا ونحمى شعبنا من غوائل الكائديـن والماكريـن ، والمتآمرين والمستغلين ، من أعدائه فى الدنيا والدين .

يجب أن نعتمد على انفسنا ونتوكل على الله ، معتصمين بالاسلام الذى هو دين دولتنا الرسمى ، وأن نحيى ما احياه ، ونميت ما اماته ، وانه لحبل الله المتين الذى أمـرنا أن نعتصم به « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » فلنكن يدا واحدة صفوفا متراصة كالبنيان يشد بعضه بعضا ، ولنحذر كل خلل من الصفوف فان هذا طريق الوهن والفشل والله يحمينا ويعصمنا وسدد خطانا .

اللهم انصر الاسلام واهد المسلمين ، والف بين قلوبهم ، وأصلح بالهم ، ويسر أمورهم ، ووحد صفوفهم . اللهم انصر المجاهدين واحمهم من كيد الكائدين ، واخذل الصهاينة وكل المستعمرين وذوى الهيمنة الماكرين . اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا ، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، واغفر لنا،وارحمنا ، أنت مولانا،فانصرنا على القـوم الكافريـن .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آلـه وصحابته أجمعـين .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

المعادلة الحرجة في حياة الأمة الإسلامية وتشريعها اليوم (1)

للدكتور محمد عبده يماني

وكيل جامعة الملك عبد العزيز - جدة - المملكة العربية السعودية
ووزير الإعلام والثقافة - حاليا -



أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

معالى وزير التعليم الاصلى ، أيها الاخوة والاخوات .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

يسرنى ان اتقدم بخالص الشكر والتقدير الى وزارة التعليم الاصلى وعلى رأسها وزيرها الشاب معالى الاستاذ مولود قاسم الذى يسهر على رعاية الشؤون الاسلامية ، والاخذ بيد هذه البلاد المسلمة نحو مستوى تعليم أصيل أفضل للشباب المسلم .

نستأنف نشر هذه المحاضرات طبقا لمبدا نشر كل محاضرات الملتقيات الذى اعلنا عنه فى العدد الاول من الأصالة تعميما للفائدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم الأصالة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

(1) القاها فى الملتقى السابع للفكر الاسلامى فى تيزى وزو .

واني احمل لكم تحيات عطرة من المملكة العربية السعودية مـــن جوار الكعبـة المشرفة ، وحول مسجـد الرسول صلى اللـه عليـــه وعلى آله وصحبه وسلم ٠

واني اذ اشترك في هذا الملتقى السابع ، يسرني ان اقول كلمة حق لا بد منها ، وهي ان هذه اللقاءات قد بدأت تؤتي أكلها ٠ وقد لاحظنا اهتماما طيبا بين الشباب المسلم لحضور هذا الملتقى السنوى الكبير ٠ وقد لوحظ ان النقاش الحر والفكر النير والافكار الهادفـة التي دارت في الملتقيات السابقة كانت محورا طيبا لبعث كثير مـن الخطط التعليمية والثقافية الهادفة في الاوساط الاسلامية بصورة عامـــة ٠

وانني اشعر بتفاؤل كبير لنجاح مؤتمرنا هـــذا ، وأسأل الله سبحانه وتعالى ان يكلل اعمالنا بالنجاح ، وان يوفقنا الى افكـــار هادفة بناءة ، وحوار صادق ينشد من خلفه خير الانسانية جمعاء ٠

ولقد اخترت لموضوع الليلة « المعادلة الحرجة في حياة الامـــة الاسلامية » واعني بذلك منطقة التوازن التي يجب ان تعيشها الامة الاسلامية بين المثل القيمة الكريمة لهذا الدين الاسلامي ، وبـــين الواقع المرير لهؤلاء المسلمين اليوم ٠ بين الدين الذي جاء ليجعـــل هذه الامة أمة وسطا ، وبين الواقع الذي أخذ بهذه الامة الى منحدرات الجهل والضياع والتخلف الذي تعيشه ٠

وقد رأيت أن أتحدث أول الامر عن معنى المنطقة الحرجة ، وهي تدور حول مفهوم الآية الكريمة :

« وكذلك جعلناكم امة وسطا * لتكونوا شهداء على الناس * ويكون الرسول عليكم شهيدا * »

فوضع الامة الاسلامية كأمة وسط بين المسيحية المفرطة واليهودية المفرطة جاء ليجعل من هذه الامة أمة مثالية ٠

ثم أتحدث بعد ذلك عن واقع الامة الاسلامية ، وكيف ان العودة تتطلب العودة الى هذا الوسط الذي اختاره لنا الاسلام ، بمعنى انى سأتدرج للحديث عن واقع الامة من ناحية ، وعن العوامل التي أدت

بها الى ما سارت اليه من ناحية أخرى ، ثم سأنتقل فى آخر حديثى لذكر العوامل والخطوات التى أعتقد انه يجب ان نبدأ بها للاخذ بيد هذه الامة نحو مستوى افضل ان شاء الله ·

أولا ـ لا بد اننا نوافق جميعا على ان الامة الاسلامية تعيش اليوم فترة هامة جدا ، لان هذه الفترة تتميز بوعى ثقافى ، وتتميز بما يمكن أن نسميه بفترة الصحو الاسلامى (اليقظة) ، أى اننا بدأنا نشعر بواقعنا ، بدأنا نشعر باننا أمة متخلفة ، وهذا هو بداية الوعى لاننا بدانا نشخص الداء ، وانتقلنا من فترة التخلف المركب الى التخلف البسيط ، الذى يسهل علاجه ، لان هناك تخلفا مركبا لامة متخلفة وهى تجهل انها متخلفة فذلك تخلف مركب · اما ان تكون أمة متخلفة ثم تدرك واقعها ، فيكون ذلك من مسببات ايجاد العلاج اللازم ، ومن مسببات يقظة الفكر وشحذه فى سبيل الوصول بهذه الامة الى علاج مواطن الضعف ومواطن التخلف ومواطن التقهقر فيها ·

والحمد لله اننا نعيش هذه الفترة من الصحو ، وهذا يبشر بخير كثير ·

والحقيقة اننا بحثنا فى واقعنا عن اسباب هذا التخلف فانتهى بنا البحث الى ان الامر ينقسم الى قسمين :

القسم الاول : تخلف بسبب أمور فينا ، وهذا هو الاخطر ·

والقسم الثانى : تخلف بسبب أمور تقع علينا ·

أما عن القسم الاول ، وهو الامور التى تقع فينا ·

أى ان التخلف كان بسبب أمور من واقع الامة الاسلامية نفسها ، ومن ابرز المشاكل التى وقعت فينا هى :

فقدان الحيوية فى الامة والركود الفكرى والعلمى الذى اصابنا والاقبال على الدنيا اقبالا بدون ضوابط ، ونظرتنا الى الاسلام على أساس انه عبادة فقط فهدمنا بذلك الاسس الاساسية التى ارتكز عليها الاسلام وجاء بها كنظام كامل للحياة ·

وانقسمت الامة الى : فريق مفرط كل التفريط · وفريق متزمت كل التزمت ·

وضاعت تلك الميزة للامة الوسط التى ارادها الله سبحانه وتعالى تجمع بين الدنيا بماديتهـــا ، والتى تعيش فى الحيـاة كأنها تعيش أبدا لتعمر وتبنى ، وقيمها التى تعدها اعدادا قويما لسعادة آخـرة لا حدود لنهايتها ٠

وبدل ان يستمر البحث العلمى واليقظة الاسلامية فى الاتجـاه العلمى الصحيح انتقلنا الى الحديث عن الاشخاص وعـــن الافـراد والاختلافات التى وقعت فيهم ووقعت بينهم ، مع ان الاسلام أمرنـا بالسكوت عما شجر بينهم ٠ ثم انتقلنا الى الحديث فى الامور المختلف عليها وفى المتشابهات ، وبددنا الطاقات ، فانقطعنا بذلك عن روح البحث العلمى الصحيح ، وبالتالى تفرقنا الى شيع ومذاهب مختلفة، واصبحت كل فرقة تنظر الى الفرقة الاخرى نظرة مستقلة كـــل الاستقلال ، وانتشرت فينا مذاهب لم تكن من الاســـلام فى شيء ، فاستوجب الامر علاج هذه الامراض التى انتشرت فى المجتمع وصدعته وضاع مفهوم الاسلام والقدوة الحسنة فى نفوس الشبـاب المسلـم الذى سعينا الى بنائه بناء اسلاميا صحيحا ، فضاع بـين التـرمت والجمود ، وبين الانحراف والانحلال ٠ وفقد القدوة الحسنة أو الامة الوسط التى ارادها الله سبحانه وتعالى ٠

واما عن القسم الثانى : الامور التى تقع من الغير :

من خصوم الاسلام كالغزو الفكرى وهم معذورون لان حياتهـــم بواقع التاريخ لا تقوم الا على انقاض الاسلام٠٠٠وفى واقع التـاريخ ما يؤيد فكرتهم وتخوفهم من عودة الاسلام الىسابق قوته حين اكتسح حضاراتهم واقام ثقافته الطموح على انقاض ثقافتهم ، وايقظ شعوبهم واذاقهم لونا حلوا من العدالة الحقة والمساواة التامة ، ولذلك كانت الصليبية للوقوف امام هذا التيار السماوى الجارف ٠٠٠ ومن يومها فكروا أو خططوا لاضعاف هذه القوة وتفتيت هذا التكتل بما انتهوا اليه اليـــوم ٠

ولكننا غير معذورين لاننا لو كانت عندنا المناعة الاسلامية وفـــق منهج الله لما استطاعوا ان ينالوا منا ، لان الفاعل شيء ٠٠٠ والقابل شيء آخر ٠٠٠ ووجدت عندنا القابلية للتخلف ولاستقبال غزوهم ٠٠٠ فاذا عرفنا ان المسائل فى تخلفنا مردها الينـا :

١ ـ انعدام مناعة .

٢ ـ رضانا بهواننا .

وعلى مقدار تشخيصنا لدائنا ولاسبابه ، فيجب ان يكون العلاج. اذاً فلنبدأ بذواتنا ، لأن سنة الله فى خلقه : **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم .**

اذاً،فان اردنا بعثا جديدا فلنتبع الخطوات الاساسية التى خطاها هذا الدين فى أوله بما يشير اليه الاثر القائل « **لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به اولها** » .

اذا فاساس الامر ان نبدأ بذواتنا ، وان يحكم منهج الله سلوك الفرد فيما ولايته فيه على نفسه وعلى أولى الامر ان ينفذوا منهج الله فيما جعلت لهم الولاية فيه .

وأول شيء فى تقويم ذواتنا ان نصحح مفهوم الاسلام للعقول المعاصرة فان فترات الضعف التى مرت بالمسلمين جعلتهم يتصورون مفهوم الاسلام على انه سلوك تعبدى فقط يشبه الرهبنة أو الكهانة ... وحين يصحح مفهوم الاسلام على انه نظام كامل للحياة نستطيع ان نوجد للطموحين فى ماديات الحياة ... كنوز دينهم فى هذه الناحية ، ونعطيهم القيم التى يجب ان تحوط ذلك الطموح المادى ... وحينئذ تصح المعادلة ... ونعرف جيدا موقع الاسلام بما سبقه من خلل فى المعادلات الانسانية الدينية . فقد جاء الاسلام وفى العالم يهودية انحرفت عن منهج الله الى عالم المادة الصرفة ، حتى غالوا فى المادية غلوا جعلهم يطلبون ان يروا الله جهرة .. ومسيحية قابلت ذلك بروحانية صرفة لترد هذا الجمود المادى ... حتى يمتزج العنصران .

ولكن النزاع بين الدينين جعل كل دين يستقل بمنطلقه ... وانفصلت اليهودية عن المسيحية ... والمسيحية عن اليهودية ... فاختلت المعادلة ... وجاء الاسلام ليصحح للانسانية المعادلة الضرورية ... مادية بقيم وروحانية بحركة . وهذا الذى يعنيه الحق .

« وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكـون الرسول عليكم شهيدا » ٠

ولذلك نرى القرآن يعرض المؤمنين بالاسلام عرضا يجمع الاتجاهين وقد علم سبحانه ان اليهود سيصرون على ماديتهم ، وان المسيحيين سينعزلون بروحانيتهم ، فبين الله فى كتابه العزيز ما ضربه مـثلا لليهود فى التوراة مبينا فى هذا المثل الكامل الاسلامى الذى يقابل النقص اليهودى ، فقال سبحانه :

« محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم * تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا * سيمـــاهم فى وجوههم من اثر السجود * ذلك مثلهم فى التوراة » ٠

فكانه سبحانه ضرب المثل لامة محمد فى التوراة مما يجعـــلهم متمسكين بالمنهج الروحى الذى فقدته اليهودية ، وهو المعنى التعبدى فى كونهم ركعا سجدا سيمـــاهم فى وجوههم من أثر السجود ٠

وحين قال سبحانه « **ومثلهم فى الانجيل** » ، جعل المثل للمسلمين انهم منطلقون فى مادية الحياة بقيمها الروحية السابقة ، لان ذلـك العنصر هو الذى تفقده المسيحية الآخذة من الانجيل ، فقال سبحانه :

« ومثلهم فى الانجيل كزرع اخرج شطاه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » ٠

اذا ، فالوسطية فى الاسلام هى التى تجمع طرفى المعادلة بـدون افراط ولا تفريط ، وبذلك يكون الاسلام هو التشريع الالهى الـذى غطى كل متطلبات الملكات النفسية ، ولم يشرع لملكة واحدة عـــلى حساب ملكات أخرى ، وبذلك يكون الانسان سوى التركيب منسق الطاقات ، غير متدافع الميول ٠

ويجب ان لا يغيب عن بال الباحث ان منهج اليهودية ٠ الـــذى انحاز بدينه الى عنصر واحد من عناصر الحياة ليس هو المنهج الالـهى لهذه اليهودية ، لانه لو ظل المنهج الالهى منهجا لما احتاجت الى ان تعدلها السماء بمنهج مسيحى ، وكذلك المسيحية لم تبق كما أنزلها الله ، بل طرأ على الديانتين تحريف وتبديل وكتمان ، فكان ولا بد

ان تصحح السماء أخطاء انحراف أهل الارض فجاء الاسلام ليجمع منهجه قانون النفس الانسانية كما قلنا سابقا . مادية بقيم، وروحانية بحركة .

ولذلك كان الاسلام منهجا متكاملا ، ختمت به رسالات الله الى الارض :

« اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » .

وتحقيقا لبقاء الاسلام كما هو دون نسيان أو كتمان أو تحريف أو زيادة مما منيت به الديانتان العظيمتان اللتان سبقتا الاسلام ، فقد تكفل الحق سبحانه وتعالى بحفظ كتابه :

« انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » .

ولم يجعله سبحانه وتعالى منوط الحفظ بالمكلفين ، كما كان بالنسبة للكتب السابقة التى يقول الحق فيها ...

« انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور * يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله » .

وفرق بين استحفاظ يطلب الله الحفظ فيه من البشر وبين حفظ يتكفل به هو جل شأنه .

وبهذا تهيأ للاسلام ما لم يتهيأ لغيره من الديانات الاخرى حفظ منهج ، واكتمال تشريع ، وشمول مبادىء ... فليس أمام المسلم اذا الا ان يصب سلوكه فى قالب هذا التشريع الخالد الباقى التام .

واذا اردنا ان نستقرىء واقع الحياة فى تاريخ مباشرة الاديان لمهمتها فى الارض وجدنا واقعا يستلفت النظر . فالاسلام حين باشر مهمته فى تنظيم حركة الحياة البشرية أخرج للعالم حضارة زاهية زاهرة استوعبت كل مجالات الحياة بلا غرور ولا تحكم ولا طغيان ولا جبروت ، لان القيم كانت تحرس هذه الحضارة ، والروحانية تشف فيها انسانية واخاء ومساواة ، فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا المسيحية تغط فى سبات عميق من الجهل ، وتظل فى ظلماتها

فتخلفت أوروبا تخلفا نعتوه انفسهم بالقرون المظلمة ، وذلك حين كانت تحكم الكنيسة كل انطلاقات العقول وطموح المواهب ... فكم من علماء قتلوا : وكم من مصلحين طوردوا ، وحين تخلصت أوروبا من سلطان الكنيسة وقداسة البابا ... أى حينما عزلت حياتها عن دينها الذى تمثله الكنيسة ، درجت فى سبيل الرقى وارتفعت معارج النهضة التى نرى آثارها اليوم . ولما تخلى المسلمون عن اسلامهم اصابهم من التخلف ما نرى آثاره اليوم .

والنتيجة التى نحب ان ننتهى اليها بهذا العرض ، هو ان الاسلام حينما قاد حياة المسلمين وساس كل أمورهم ، أخذوا حظهم من الرقى والحضارة ، فلما عزل الاسلام عن سياسة أمورهم اصابهم ذلك التخلف .

والمسيحية حينما حكمت بسلطان الكنيسة ، انحط أهلها وتأخروا وحينما عزلت الكنيسة عن حركة حياتهم تقدموا !

فلننظر الى دين اذا تمسك به أهله نهضوا...وحينما تخلوا عنه انحطوا ... والى مسيحية كنيسية حينما تحكمت ، أخرست أهلها وحينما تخلوا عنه ارتقوا .

فلا شك ان هذه المقارنة تعطينا صحة الدين الاول . وفساد المبدأ الثانى ، على اننا اطلقنا فى كلمة الحضارة التى نالها الغرب نتيجة لتخلصه من سلطان الكنيسة ، لانها حضارة لا تمثل الحضارة المرجوة على يد الاسلام ، لانها حضارة عامرة الشكل ، خربة الموضوع ، لها زخرف الظاهر وقبح الباطن . اما الحضارة التى ننشدها بدفع الاسلام وعلى هدى مبادئه ، فانها حضارة لها روح من قيم وموضوع من خلق واهداف من انسانية .

ويجب ان لا ننسى ان عملية عزل الدين المسيحى عن الحياة ، جاء كنتيجة لتكشف احوال الكنيسة ، وبدأ الناس يدركون ان طبيعة الدين لا تفى باغراض حياتهم التى يعيشونها. وان التشريع المسيحى اصبح يتغير من وقت لآخر تبعا لهؤلاء الرهبان والاحبار . فنزعت الثقة من الكنيسة ، ثم تلا ذلك تكشف احوال رجال الكنيسة انفسهم وثبوت انحرافاتهم الاجتماعية ، بما لا يتفق مع ما كانوا يوصون به

فى عبادتهم ، ففقدت الناس الثقة ، وانحط رجال الكنيسة فى نظر الناس ، وادى ذلك الى فهم حقيقة الدين المسيحى فهما مشوها.فليس هذا هو الذى نزل به قانون السماء ، بل بدلوه وغيروه تبعا لاهوائهم وجاءت النتيجة بالصورة التى افزعت المجتمع وادت الى انحرافه . ولعل اهمها على الاطلاق هو عدم ثبات المبادىء وفقدان الثقة فى الفئة المشرعـــة :

الاسلام والفكر حول الاسلام

ندرك تماما كأمة مسلمة ان الاسلام نظام متكامل للحياة . وهذا أمر لا خلاف فيه حتى بالنسبة للمستشرقين الذين درسوا الاســلام واعترفوا بهذه الحقيقة الثابتة . فما دام الاسلام نظاما متكاملا وثابتا وقوانينه ثابتة ، ولم يطرأ عليه فى نصوصه الاصلية ما يحرف أصل العقيدة . فمثلا : كل التشويهات التى دخلت على الاسلام فى الفترات التى تميزت بالتقهقر والتخلف فى الامة الاسلامية ثبت ان القرآن لم يدخل عليه بالاجماع أى تغيير أو تبديل ، وقد اظهرت تحقيقـات علمية من جانب المستشرقين انفسهم ان القرآن بقى محفوظا بالصيغة التى نزل بها على الرسول صلى الله عليه وسلم . فلا مجال اذن للطعن فى نصوص القرآن الكريم .

ولما يئس اعداء الاسلام وخصومهم من النيل مـن النص القرآنى باثبات تحريف فيه عمدوا الى المسلمين انفسهم ، فاحتالوا لابعادهم عن ذلك النص المدقق المحفوظ ، فقامت دعوات ، ومن الاسف انها على السنة قوم من المسلمين انفسهم تدعوا الى رسم الكتابة العربية باحرف لاتينية ، ولكن يقظة المسلمين الغيورينوقفت امام هذه الدعوة بصمود وايمان حتى كشفت نوايا هؤلاء ومراداتهم السيئة فى ابعادنا عن لغة القرآن فاحتالوا مـرة أخرى بدعـوة الى التدوين والتأليف بالعـامية ، وبذلك نبعـد عن النص الفصيح ... فيستغلـق مفهوم النصوص القرآنية ، وذلك هو المراد الاساسى فى عزل المسلمين عن لغة قرآنهم .

ولكن الله الذى تكفل بحفظ الكتاب شاء ايضا ابطال هذهالدعوات المسمومة لتظل على صلة بلغة قرآننا ، صلة تيسر فهمنا له وفهمـا

عنه واستنباطنا منه ، وبذلك تبقى لنا مقومات اسلامنا فلا تتطلب الا ان نطبق منهجه ، ونحكم حياتنا بنصوصه واصوله ، وذلك هـو لب ما ندعو اليه فى كل لقاء اسلامى ٠

وكذلك الامر بالنسبة للاحاديث النبوية ،فقدتم تحقيقها تحقيقـا علميا ، واستبعد كل ما هو مشكوك فيه ، وميزت الى طبقاتها المختلفة: الصحيح أو الحسن أو الضعيف أو الغريب أو المكذوب ٠

وهذا التمحيص والتدقيق العلمى جعل المسلمـين يتفقـون فى المذاهب الاربعة الى اخراج أحاديث ثابتة عن الرسول صلى الله وسلم فما دام القرآن ثابتا ونصوصه صحيحة ، والحـديث المتـوارد عن الرسول صلى الله عليه وسلم ايضا ثابتا ومحققا،وفى الاسلام رجال ما يزالون على مستوى كبير من البحث والتدقيق فى أصول الشريعة وممن يعتمد عليهم عند التشريع ، وكذلك يعتبرون قدوة حسنـة ، اذا الاسلام ثابت وقوانينه ثابتة ، وبقى للفكر من حول الاسلام ان يتطور ، لان الفكر بطبيعة الحال تؤثر فيه الظروف المتباينة من عصر لعصر والثقافات المختلفة والاختلاط بالامم ، وغير ذلك ٠

واذا كان الاسلام ثابتا وصالحا لكل زمان ومكان ، فانما يكـون ذلك بحركة الفكر الاسلامى حوله ، وتجددها وحيويتها ٠ وبـهذا تتضح لنا حقيقة هامة نفرق فيها بين الاسلام كنظام ، وبين الفـكر حول الاسلام ، ولا بد ان ننتبه الى انه يجب ان لا نطلب من الاسلام ان يخضع لواقع الحياة ، بل ننظر الى الواقع على ضوء الاسلام ، فما كان منسجما مع قانون الاسلام وتشريعه يكـون للفـكر دوره فى التطبيق والتجديد والبحث فيه ، وما كان متعارضا مع الاسلام أصلا فلا مجال للفكر الاسلامى للبحث فيه او تفنينه أو تطويره لاننا يجب ان لا نهبط بمنهج السماء الى رغبات أهل الارض ، فتصبح الارض هى المشرعة ، ثم ننطلق من ذلك الى القول بانـه قد عمت البلـوى واضطررنا الى ذلك ٠ وما بدأت فطرة الانحطاط فى العالم الاسـلامى بامور كبيرة أبدا ، وانما بدأت بأمور بسيطة وتشويه لا يكاد يذكر ، ثم تدرج الامر وتدرج الانحراف حتى وصلت الامة الى التفريط الذى ادى بها الى الهاوية ٠

وما دمنا قد انتهينا الى ان الاسلام هو الدين الذى تتجلى فـــيه حقيقة التوازن بين ملكات النفس المختلفة لانه منهج الله الذى خلق هذه النفس ، فان أول ما يجب على المصلح العناية به هو ان يجلـى مفهوم الاسلام هذا للعقول الناشئة تجلية تدفع عنه الجمود المتهم به . وترد عنه الانطلاق الذى ينحرف عنه ... ويجب ان يلاحظ المصلح الظروف العصرية التى لا يمكن اغفالها ، وذلـــك لان المؤثرات فى النفس المعاصرة تعددت وسائلها ، وتنوعت اساليبها ، فلم يعد البيت وحده قادرا على صياغة روح اسلامى فى نفوس ناشئته ولم تـــعد المدرسة وحدها هى صائغة المفاهيم والانطباعات لان وسائل الاعلام الاخرى بلطف مداخلها وزخارف عرضها ، وفتنة مشوقاتها تهدم كل ما يبنيه البيت وما تصنعه المدرسة .

اذا ، فلا بد من مساندة كل وسائل الاعلام ... حتى تتوحـــد الانطباعات ولا تتذبذب المفاهيم ، وبذلك نضمن تضـــامن وســـائل العلاج ، ويجب ايضا ان لا يغيب عن بالنا أهمية القضاء على ازدواجية المفاهيم التعليمية ، فلا نسمح مثلا بتشويه التاريخ الاسلامى ، حيث توضع أزهى عصوره ضمن العصور المظلمة فى أوروبا ... وكذلك لا يصلح ان يدرس التلميذ المسلم النظريات التى لم تصل الى حقائق علمية كنظرية النشوء مثلا ، الا ومعها من الردود الاسلامية ما يضمن له ثبات العقيدة حتى لا يتشكك فى اصول دينه ولا مسلمات عقائده .

مناهج الدراسات الاسلامية

لعله من الافضل هنا ان ننوه عن حقيقة هامة تتعلق بمفهوم التربية الاسلامية ، هذه الحقيقة هى ان معظم المناهج الوضعية ان لم أقل كلها تتفق على تعريف التربية بانها (اعداد المواطن الصالح) ثم تختلف هذه المناهج بعد ذلك بحسب ثقافة واضعيها وأهدافهم فى تحديـــد صفة هذا المواطن الصالح ، وفكرة المواطنة هنا فكرة ضيقة لانهـــا تحصر صاحبها فى حدود ضيقة من الارض ، لكل شخص وطنـــه ، ولكل وطن حدوده .

اما التربية الاسلامية ، فانها تسعى لتحقيق هدف اكبر وغاية أعم وهى (اعداد الانسان الصالح) ... الانسان من حيث هو انسان

فى كل زمان ومكان ، لا من حيث هو مواطن فى هذه البقعة من الارض أو تلك وهى بذلك تتناول الانسان من جميع جوانبه الفكرية والجسمية والعاطفية ، ولا تبنى جانبا على حساب الآخر ، بل تعنى بجميع جوانبه لتجعل منه الانسان الصالح فى كل زمان ومكان ٠

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن ٠٠٠ ما هو الدور الذى حققته مناهج التربية الاسلامية فى سبيل تحقيق هذه الغاية ؟

ان الناظر الى أحوال العالم الاسلامى عامة ، والى الدراسات الدينية لابناء المسلمين فى المدارس ، يلمس ان هناك فرقا كبيرا بين جوهرها الذى يبعث على الاشراق والامل ، وبين واقعها الممل الجاف فى المدارس ، والذى يشعر ابناؤنا من خلاله انهم يدرسون موادا بعيدة كل البعد عن واقع حياتهم المتحرك ٠

والحقيقة ان نظم مواد الدراسة ومناهج التدريس ، وطريقة اعداد المدرس الذى يدرس المواد الدينية تحتاج كلها الى اصلاح ٠ ان عيبا رئيسيا من عيوب دراساتنا الدينية انها لا تزال تدرس بنفس الطريقة التى كانت تدرس بها منذ قرون طويلة ، وهذا لا يعنى اننا نعيب طريقة السلف ٠٠٠ ولكن متطلبات الحياة ومفاهيم وطرق التدريس تختلف من جيل الى جيل ٠ فمفاهيم طالب الامس تختلف عن مفاهيم طالب اليوم ٠ والشرك الذى كان بالامس : شرك الجهمية والمعطلة وما اليها ، أصبح اليوم أنظمة اجتماعية وسياسية واقتصادية تحكم بغير ما انزل الله ، وصار نظريات علمية مزيفة ، تتحدث عن أصل الانسان والكون والحياة ، فتنسبها الى غير ارادة الله لانها لا تدخل الله فى حسابها (سبحانه وتعالى) ٠

اننا مع الاسف نسىء تنظيم المواد الدينية ومناهجها فى بعض مدارسنا حين نحشو اذهان الطلاب بالكثير من المواد بقصد افادتهم متجاهلين فى ذلك تركيبهم السيكولوجى وقدراتهم العقلية ٠٠٠ كما ان كثيرا من المواد التى يدرسونها مع الاسف تكون بعيدة عن حاجاتهم المباشرة وواقع حياتهم ، وهذا ما يسبب لهم الحيرة وكراهية المادة ويحملهم على الاستظهار غير المصحوب بالفهم ٠

ولا شك ان تعميق حب المادة فى نفس الطـالب اهم بكثـير مـن تكديسها ، لانه متى احبها فهمها وتابعها - ولن يحبها الا اذا وجد فيها ملامسة لحياته ، وتجاوبا مع واقعه ٠ وعليه يجب علينا ان نعرفه بموقف الاســلام من قضايا الحيـاة الـكبرى وان نكشف أمـامه انحرافات الفكر الجاهلى المعاصر ، وبذلك يمكن ان تحيا دراسة الدين وتتحرك ٠

وان تحقيق هذا المنهج لا يتحقق الا بوجود المدرس المسلم الناجح الذى يجعل من نفسه قدوة حسنة لأبنـائه ومن معلوماته مادة حيـة متصلة بمشاعر التلاميذ ووجداناتهم وافكارهم،كما لا يتحقق ايضا الا بوجود البيت الاسلامى الصحيح الذى يحقق تعاليم الاسلام فى ذاتية أفراده ، وفى اخلاقهم وتعاملهم مع الآخرين ٠

وبعد ، فان خلاصة القول ان الواجب يحتم علينا العمل على اعادة هذه الامة الاسلامية الكريمة الى مسارها الصحيح ، وان نتنبه الى الهوة العميقة بين حقيقة الاسلام كتشريع،وبين واقع المسلمين اليوم٠

ولعل أهم المنطلقات التى اراها هى هذه المؤتمرات الاســلامية الفعالة ، وفى ملتقانا هذا دليل واضح على بوادر النهضة وابعـاد الاهتمام الكبير بواقع الامة الاسلامية ، غير انه من المهم جدا ان تكون اهداف هذه المؤتمرات واضحة تمام الوضوح فى أذهاننا ، ونتائج هذه المؤتمرات محل اهتمامنا ، وان تؤخذ مأخذا جادا ، يكفل اتخاذ خطوات فعالة فى سبيل وضع توصياتها موضع التنفيذ ، ولا بد من اتخاذ خطوات فعالة تهيب بالشباب ، وتخطط للنهضة ، وتعمل عملا صادقا ، يستهدف الخير لهذه الامة الاسلامية ، كما يجب ألا يكـون الهدف الاساسى هو التالم على ما وصلت اليه الامة مـن تاخر فى المجالات الاقتصادية والمادية البحتة فقط ، فان تركيزنا على ذلك ، قد يقودنا مع مرور الزمن الى نهضة اقتصـادية ، أو نهضـة مادية ٠ ولكنها بعيدة كل البعد عن روح الاسلام كنظام متكامل للحيـاة ، وبذلك نبتعد عن طبيعة الوضع الذى اختاره لنا الله سبحانه وتعالى، حيث أراد سبحانه أن يجعلنا خير أمة أخرجت للناس ، وسوف يكون لفعالية هذه المؤتمرات الاثر الطيب فى نفوس الشباب ، وكلما كانت

هذه المؤتمرات جادة عاملة ذات نتائج ايجابية كسبنا أمورا هامة منها :

اولا : ثقة المسلمين فى جدية هذه اللقاءات برؤية وتحسس آثارها، حملا على منهج ، وتطبيقا لسلوك ٠

ثانيا : تشجيع كثير من مفكرى الاسلام على الاشتراك فى هذه اللقاءات،عندما يدركون انها لم تعد مجرد ندب حظ،وبكاء على فائت ، ولا عظامية لمجد ، كما كان فى الماضى ، مما جعل أمثال هؤلاء المفكرين ينقطعون عن هذه اللقاءات لعدم ثقتهم فى جديتها ، وفعاليتها ٠ أما اذا أعطيناهم المثل على جدية الشباب الذى يخطط لمثل هذه المؤتمرات ، وعلى نظرته الواسعة الى ابعاد مستقبل كريم للامة الاسلامية ، فاننا سنكسب ثقة هؤلاء الناس ، وسينخرطون فى مؤتمراتنا كعوامل فعالة فى سبيل نهضة هذه الامة ان شاء الله ٠

ثالثا : ان فى جدية هذه المؤتمرات ردعا لخصوم الاسلام يدفعهم الى أن يدركوا أن حركة الفكر الاسلامى لم تعد فكرا مجردا وفلسفات جوفاء ، وجعجعة ، لا طحن خلفها ، بل أصبحت سلوكا وتطبيقا عمليا . وفى ذلك ما يبعث اليأس فى نفوسهم من النيل من الاسلام والمسلمين ، لأنهم عندما يرون يقظة الاسلام ، يستشعرون هيبة الفتح الاسلامى ورهبة معارك الحق ، وأبعاد نصر مؤكد من الله تعالى لمن ينصرون رسالته ٠

رابعا : ان فى جدية هذه المؤتمرات الفرصة الكبرى لاعطاء الشباب المسلم فكرة واضحة عن صلاحية دينهم كنظام كامل للحياة ، وكعامل للنهوض بحياة الامة كلها ٠ وبذلك لا يفتنون بالمبادىء المستوردة او المذاهب الهدامة ، لانهم سيجدون فى هذه اللقاءات ما يشفى غليلهم، وهنا تاتى أهمية فتح باب الحوار الحر مع الشباب المسلم واتاحة الفرصة له ليناقش ويتعلم ٠٠٠ وفى لقائنا هذا فرصة ذهبية للون كريم من التربية الفكرية الاسلامية الكريمة ٠

كما انه مما يثلج الصدر أن كثيرا من التوصيات التى اتخذت فى لقائنا السابق ، وفى بعض المؤتمرات الاسلامية التى عقدت فى العالم الاسلامى ، أصبحت تؤخذ بعين الاعتبار فى بعض البلاد الاسلامية،

ما جعل بعض المناهج التعليمية يطرأ عليها تغيير وتبديل ومحاولة لجمع المفكرين الاسلاميين فى سبيل النهوض بالانظمة التعليمية .

وان لنا أملا كبيرا ان شاء الله فى هـذا الشبـاب المسلم المتوقد المتحفز فى العالم الاســلامى ، ولنا أمل كبـير فى أولئك المفكرين الاسلاميين الذين يعملون فى صمت وصـدق وصبر وايمـان ، ولنا أولا وأخيرا أمل كبـير فى نصر الله سبحانه وتعالى ، انه على كـل شىء قـدير .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مصادر التشريع (1)

و
وسائل تطبيقه مع واقع التشريع و واجب المسلمين حيال ذلك

للدكتور عبد الرحمن الصابوني

عميد كلية الشريعة ورئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق
- الجمهورية العربية السورية -



بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وبعد :

يعيش شبابنا المعاصر اليوم بين مفترق طرق الافكار والمبادىء فيقف حائرا مترددا الى أين يسير وكيف يتجه وماذا يفعل ؟٠٠ الامر الذى يحمل رجال الفكر مسؤولية هامة فى توضيح المفاهيم وتحديد المنطلقات ، ورسم الوسائل المؤدية الى القضاء على هذا الاضطراب بشجاعة وصراحة ٠

ولما كان التشريع والنظام لدى كل أمة عنوان تقدمها ومعيار تفكيرها واتجاهاتها ورائد نهضتها ومنظار رؤيتها الى الكون والحياة،

(1) ألقاها فى الملتقى السابع للفكر الاسلامى فى تيزى وزو ٠

فقد احسن القائمون على هذا الملتقى الاسلامى حسنا حين اختاروا موضوع التشريع الاسلامى أول المواضيع الرئيسية فى هذا المؤتمر ·

وقد اخترت الكتابة فى هذا البحث محاولا ـ وقدر المستطاع ـ بيان مصادر التشريع وواقع وواجب المسلمين حيال ذلك ، على الا أتوسع فى فروع المصادر وشروطها واركانها وآراء المذاهب الفقهية فيها لضيق الوقت ولانى أردت أيضا بيان مدى ما تتمتع به هذه المصادر من حيوية ومرونة وتطور وقابلية للتطبيق اكثر ما أردت من شرح قواعدها الاصولية ·

البحث الأول

مصادر التشريع الاسلامى

تقسم مصادر التشريع الاسلامى باعتبارات مختلفة الى عدة اقسام منها مصادر اصلية ومنها مصادر تبعية ، ومنها مصادر متفق عليها ، ومصادر مختلف فى بعضها ·

وقد اخترت التقسيم الذى يتناسب مع موضوعى فقسمت المصادر الى قسمين :

1 ـ مصادر نقلية تعتمد على النص وهى القرآن والسنة ·

2 ـ مصادر اجتهادية تعتمد على الرأى والعقل وهى الاجماع والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة والعرف وقول الصحابى وسد الذرائع والاستصحاب ·

على ان كلا من النوعين لا غنى له عن الآخر لان فهم النص يحتاج الى نظر ورأى وتدبر واجتهاد ، كما ان الاجتهاد سواء كان اجتهاد فرد أم اجتهاد جماعة لا يجوز له الخروج عن دائرة النص بمبادئه وقواعده العامة ، فالنقل والعقل يشتركان معا فى تكوين الفقه الاسلامى ·

البحث الاول

مصادر التشريع الاسلامى النقلية

القرآن الكريم :

كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم المدون فى المصاحف المنقول الينا نقلا متواترا وهو المصدر الاول للتشريع الاسلامى

والاصل الجامع لجميع الادلة الاخـــرى نزلت أول آية منه هى قوله تعالى : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقـرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلـم**[1] . . » وفى اليوم السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والاربعين من هجـرته عليه السلام وكانت آخر آية نزلت هى قوله تعالى : « **واتقـوا يومـا ترجعون فيه الى الله**[2] » وقد عاش النبى صـلى الله عليه وسلـم بعـد نزولها تسع ليالى فقط ويرى بعض العلماء ان آخـــر آية نزلت هى قوله تعالى : « **اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » .[3]

ولقد نزل القرآن الكريم منجما ولم ينزل دفعة واحدة وفى مـكة والمدينة وذلك ليثبت قلب النبى صلى الله عليه وسلم وليبقى دائما على صلة بالسماء ينزل عليه الوحى فى كل مناسبة وليتمكن ايضـا صحابة رسول الله من حفظ القرآن اذا نزل عليهم بحسب الظروف المختلفة خـلال فترة طويلـة من الزمن وليتناسب مع التـــدرج فى التشريع انه من الصعب ان تنزل أحكام الحلال والحرام مرة واحـدة على نفوس المؤمنين به .

وقد استغرق نزول القرآن الكريم فى مكة اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشرة يوما من 7 رمضان سنة 41 الى ربيع الاول سـنة 54 من مولده عليه السلام . وما نزل بعد الهجرة الى وقت وفاته وهى تسع سنوات وتسعة اشهر وتسعة أيام من أول ربيع الاول سنة 54 الى تاسع ذى الحجة سنة 63 من ميلاده عليه السلام فى المدينة ،ويشكل القسم المكى $\frac{19}{30}$ من القرآن والمدنى $\frac{11}{30}$ من القرآن.[4]

ومجموع سور القرآن 114 سورة أولها الفاتحة وآخرها ســـورة الناس

---

1 ـ سورة العلـق
2 ـ سورة البقـرة
3 ـ سورة المائـدة
4 ـ علوم القرآن للزرقانى ج 1 ص 60

ميزات التشريع القرآني :

ان آيات القرآن الكريم لم تقتصر على العبادات كما فعلت بعض الشرائع المسيحية بل تناول القرآن مجموع الاحكام التى يحتاج اليها الفرد والمجتمع والدولة ولم تأت للقوم فقط كما فعلت اليهودية بل جاءت عامة شاملة : **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين**(1) فالشريعة الاسلامية جاءت شاملة لجميع ما يحتاج اليه الفرد والجماعة جاءت عامة أيضا لجميع الناس منها أحكام مدنية وجنائية ودستورية وعقائدية

1 ـ تمجيد العقل والدعوة الى التفكير السليم ٠

يلاحظ الباحث ان القرآن الكريم خاطب العقل بأكثر من ستين آية فى مختلف المناسبات وشتى المواضيع من تعليل لآيات الاحكام الى العبرة بقصص الامم السالفة الى التحذير من عواقب الانحراف الى طلب العلم الى التأمل فى الكون والحياة تأمل العابد العالم ٠

من ذلك قوله تعالى : « **ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابّة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون** » ٠ (2)

ويقول تعالى : « **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون**»(3)٠
ويقول تعالى : « **ولكم فى القصاص حياة يا اولى الالباب لعلكم تتقون** »
ويقول تعالى : « **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب** » ٠(4)

والقرآن اذ يمجد العقل فانما يخاطب العقل الذى يدرك الحقائق ويهذب الضمير ويقاوم الاعوجاج لا العقل المتعصب المتأخر الاعمى لأن من أهم خصائص العقل التأمل والادراك والمعرفة والتجربة ٠

---

1) سورة الانبياء آية 107 ٠
2) سورة البقرة آية 164 ٠
3) سورة الانعام آية 151 ٠
4) سورة يوسف آية 111 ٠

يقول الله تعالى : « **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وانتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** » ٠(1)

ومن أهم ثمرات نضج العقل وتكوينه هو العلم ولذا خاطب القرآن الانسان ذا الفهم والوعى لا الانسان الذى يأكل ويشرب فقط » ٠

وفى هذا يقول تعالى : « **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير**[2] » ويقول تعالى « **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون**[3] » ويقول تعالى : « **قل هل يستوى الاعمى والبصير أفلا تتفكرون** »[4]٠

أنواع الأحكام التى وردت فى القرآن الكريم ٠

وردت أحكام القرآن الكريم على ثلاث أنواع :

1 ـ أحكام اعتقادية تتعلق بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله **واليوم الأخر**

2 ـ أحكام خلقية تتعلق بما يجب على المكلف ان يقوم به من مكارم **الاخلاق ٠**

3 ـ وأحكام عملية تتعلق بالاوامر والنواهى وهى الاحكام التشريعية والعبادات وتشمل :

أ) أحكام الاحوال الشخصية وهى التى تتعلق بانظمة الاسرة من زواج وطلاق ونسب ورضاع وحضانة ووصية وميراث وعدد آياتها (70) سبعون آية منها قوله تعالى : « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف**[5] » وقوله تعالى : « **وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا** » ٠(6)

ب) أحكام المعاملات وعدد آياتها 70 آية تتعلق بالعقود والتصرفات المالية منها قوله تعالى : « **وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة** » وقوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم** » ٠(7)

1) سورة البقرة آية 44 ٠ 2) سورة المجادلة آية 11 ٠
3) سورة الزمر آية 9 ٠ 4) سورة الانعام آية 50 ٠
5) سورة البقرة آية 228 ٠ 6) سورة الاسراء آية 23 ٠
7) سورة النساء آية 29 ٠

جـ) والاحكام الجنائية وعدد آياتها (30) ثلاثون آية وهي التي تتعلق بالعقوبات والجرائم وذلك حفظا لحياة الافراد وسلامة المجتمع وأمن الدولة منها قوله تعالى : « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**[1] » وقوله تعالى : « **ولكم في القصـاص حيـاة يا أولي الالبـاب** » ·(2)

د) أحكام المرافعات وهي تتعلق باصول التقاضي والشـهادة والاقرار وجميع الاجراءات التي تتعلق بسـلامة القضاء وتحقيق العدالة بين الناس ورد الحقوق لاصحابها وعدد آياتها (12) كقـوله تعالى : « **خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين** »[3] وقوله تعالى : « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعـدل** » · (4)

هـ) أحكام دستورية وعدد آياتها (10) آيات تتعلق بنظام الحكم وتحدد العلاقة بين الفرد والمواطن والحاكم وتبين ما للافراد والجماعات من حقوق وواجبات عامة منها قوله تعالى : « **والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم** » ·(5)

و) احكام دولية تتعلق بعلاقات الدولة الاسلامية مع غـيرها من الدول وتنظيم شؤون الحـرب والمعاهدات والاسرى والغنائم وتبلغ آياتها (25) آية كقوله تعالى : « **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم** »[6]· وقوله تعالى : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيـل ترهبون به عدو الله وعدوكم** »[7]·

ز) أحكام مالية تتعلق بشؤون الاقتصاد وتنظيم واردات الدولة وطرق صرفها وتنظيم علاقات الافـراد مع الدولة في الامور المالية وعدد آياتها (10) آيات منها قوله تعالى : « **خـذ من أموالهم صـدقة**

1) سورة البقرة آية 194 ·   2) سورة البقرة آية 179 ·
3) سورة الاعراف آية 199 ·   4) سورة النساء آية 58 ·
5) سورة الشورى آية 38 ·   6) سورة البقرة آية 216 ·
7) سورة الانفال آية 60 ·

تطهرهم وتزكيهم بها » وقوله تعالى : « **واعلمـوا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسـول ولذى القربى واليتامى والمسـاكين وابن السبيل**[1] » وقوله تعالى : « **ليس البر أن تولوا وجوهـكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليـوم الآخر والملائكة والكتـاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهـدوا** » ·(2)

2 ـ ان احكام القرآن جاءت على نوعين ، نوع مجمل يحتـــاج الى تأويل وشرح وتفسير ونوع جاء مفصلا فالاول ثابت بأهدافه متحرك متطور بوسائله والثانى ثابت بهدفه ووسائله وهى الامور التى من شأنها الثبات وعدم التغيير ·

فالأحكام المفصلة هى الاحكام التى تناولت الامور التى لا تتغير ولا تتبدل كأمور العقيدة واحكام الاسرة ويلحق بها العبادات وان كانت السنة فصلت مجملها ·

وأما النوع الثانى وهو أكثر أنواع الاحكام فقد وردت بمبـادىء عامة وقواعد كلية دون التعرض للجزئيات وهذا فى الامور التى من شأنها ان تتغير وتتبدل وتتطور حسب كل عصر كأكثر أحكام العقود والمعاملات

ولعل اهم أسباب ورود أكثر الاحكام فى القـــرآن الكريم مجملة تحتاج الى تفسير هو حاجة التشريع الى المرونة والتطور ومســـايرة الزمن ولتعمل الامة على استنباط الاحـــكام ومد التشريع بالحلول العملية للوقائع الجديدة وفى ذلك يشترك الفكر الانسانى ويســاهم مع القرآن فى بناء هذا التشريع الخالد فى مختلف العصور ·

ولهذا اقتصرت احكام القرآن فى الامور المتغيرة المتبدلة على مبادىء عامة وقواعد كلية توضح الهدف دون الوسيلة فمن الامثلة على ذلك :

أ ـ نظام المعاملات

نلاحظ ان أحكام العقود وردت مجملة فى القـــرآن الكريم بحيث يترك للفقهاء فى مختلف العصور وضع الاحكام والمسائل الفرعيـة ضمن الاسس التى وضعت لهذه العقود ويمكن اجمال هذه الاسس بثلاث :

---

1) سورة الانفال آية 41 ·

2) سورة البقرة آيه 177

١ ـ الحرية فى التعاقد أى ان كل عقد ســـواء أكان من العقود الشائعة كلها المعروفة التى صنف لها الفقهاء احـكاما خاصة بها أم كان من العقود الجـديدة التى لم يعرفها الفقهاء فى عصرهم ، تعتبر كلها عقودا صحيحة اذا توافرت فيها شروط أركان العقد الصحيح ، وقد أكد الرسول عليه السلام ذلك بقوله : « **المسلمون عند شروطهم الا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا** »

٢ ـ قوة الالتزام فى أثار العقود : ما دامت العقود لا تشتمل على أمر منهى عنه فالوفاء بها واجب لقوله تعـالى : « **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** »[1] ولقوله تعـالى : « **وأوفـوا بالعهد ان العهــد كان مســؤولا** » .[2]

3 ـ صحة محل العقد : وقد حرم القرآن كل عقد كان محله غـير مشروع وقد نص القرآن صراحة عن ذلك بقوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم** » .[3]

فكل ما يؤدى الى النزاع والجهالة فى التعاقد فهو محرم وقد اعتبر الاسلام من أكل مال الغير ظلما الربا لانه ربح دون مقابل ولهذا حرمه القرآن بنصوص قطعية لا تحتمل التأويل بقوله : « **وأحل الله البيع وحرم الربا** » .[4]

وفى التشريع الجنائى نلاحظ أن أحكاما وردت على نوعين :

أ ـ نوع جاءت أحكامه بنصوص صريحة قطعية وهى القصاص والحدود وهى الجرائم التى فيها معنى الاعتداء على المجتمــع فى أمنه ونسله وماله .

وأول شرط لاقامة الحدود ألا توجد شبهة لأن المتهم برىء حتى يدان ، وقد أخذ النبى صلى الله عليـــه وسلم هـــذا المعنى بقوله : « **ادرأوا الحدود بالشبهات** » .

ب ـ ونوع ترك أمر تقدير عقوبة لولى الامر ويسمى بالتعزير وهو كل جريمة لم ينص عقوبتها ، أى ما عدا خمس جرائم جاءت بالقرآن

---

١) سورة المائدة آية ١ . ٢) سورة الاسراء آية 34 .
3) سورة النساء آية 29 . 4) سورة البقرة آية 275 .

الكريم فان لولى الامر وللامة الممثلة بفقهائها المجتهدين ان يشرعوا بما يتفق مع عصرهم من الاحكام الزاجرة فى التشريع الجزائى ·

ج ـ وفى مجال النظام الدستورى نرى ان نظام الحكم يقوم على ثلاثة أسس فى القرآن الكريم :

1 ـ **العدالة** · بقوله تعالى : «**ان الله يأمر بالعدل والاحسان**» (1) وقوله.. « **واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** » (2) ·

2 ـ **الشورى :** لقوله تعالى : « **وشاورهم فى الامر** » وقد ذكر المفسر الامام الرازى فى قوله تعالى : **وشاورهم فى الامر** انها نزلت اثر موقعة احد ورغم ان ما وقع فى تلك الموقعة كان نتيجة رأى بعض الصحابة بالخروج ولم يكن صوابا الا ان الله سبحانه وتعالى : قد انزل الامر بالعفو عنهم ومشاورتهم أيضا رغم ما ظهر من خطأ رأيهم وهذا دليل على تأكيد وتقديس مبدأ الشورى فى الاسلام ومقدار عناية الدين الاسلامى بها ·

3 ـ **الرحمة** · وكذلك فان من خلق الحاكم فى الاسلام ان يكون رحيما ليكون قدوة لغيره فى الاخلاق الفاضلة والتى عمودها القلب الرحيم . وقد خاطب الله رسوله الكريم بقوله : « **ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** »

وقوله : « **فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر** » ·

ويؤكد هذه المبادىء الرسول الكريم بقوله : « **لا تنزع الرحمة الا من شقى** » وقوله عليه السلام : « **الراحمون يرحمهم الرحمان ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء** » · ويقول : « **أحب الخلق الى الله امام عادل وأبغضهم اليه امام جائر** » ·

وفى علاقات القانون الدولى يعتبر القرآن اول تشريع نادى بالمساواة بين الانسان بقوله تعالى : « **ولقد كرمنا بنى آدم** » وأمر بالمعاملة بالمثل بقوله تعالى : « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** » وأمر القرآن بحسن معاملة الاسرى والعطف عليهم والاحسان اليهم ·

---

1) سورة النحل آية 90 ·

2) سورة النساء آية 58 ·

3 ـ الدعوة الى العمل لقوله تعالى : « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** » وقوله تعالى : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله** » ٠

٤) السنة النبوية :

السنة النبوية المصدر الثانى بعد القرآن الكريم هى كل ما اثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ولهذا قسم علماء اصول الفقه السنة من حيث المتن الى ثلاثة اقسام : سنة قولية وسنة فعلية وسنة تقريرية كما تقسم من حيث الاسناد الى سنةمتواترة وسنة مشهورة وسنة آحاد ٠

وقد وردت حجية السنة بالقرآن الكريم بعدة آيات منها قوله تعالى : « **من يطع الرسول فقد أطاع الله** » وقوله تعالى : « **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم** » وقوله تعالى : « **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالاته**»٠

وقد اعتبر الرسول عليه السلام السنة دليلا من الادلة الشرعية أيضا بعد القرآن الكريم وذلك حين بعث معاذ بن جبل قاضيا على اليمن وسأله بماذا تقضى ؟ فأجابه بكتاب الله ٠ فقال له فان لم تجد فقال أحكم بسنة رسول الله ، فقال له فان لم تجد فقال أجتهد برأى فقال له عليه السلام الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى الله ورسوله ، فكان هذا الامر من رسول الله لقول معاذ سنة تقريرية دلت على حجية السنة ومكانتها فى التشريع بعد القرآن الكريم ٠

أما نسبة السنة الى القرآن الكريم فقد وردت احكامها على ثلاثة أنواع :

جـ ـ وفى نظرة القرآن للمال ثلاثة أسس وان المالك الحقيقى للمال هو الله سبحانه وتعالى وان الناس مستخلفون فيه لقوله تعالى: « **لله ما فى السموات وما فى الارض** » وقوله تعالى : « **وما بكم من نعمة فمن الله** » ان الملك وظيفة اجتماعية لقوله تعالى : « **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا** »٠

فالانفاق يجب انيكون فى حدود الاعتدالوضمن المصلحة العامة٠

1 ـ سنة مقررة ومؤكدة لما جاء فى القرآن الكريم من احكام كقوله عليه السلام : **لا يحل مال امرىء مسلم الا بطيب من نفسه** فانه يوافق قوله تعالى : «**ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل**» ويكون للحكم هنا دليلان من القرآن ومن السنة أيضا .

2 ـ سنة شارحة مبينة ومفصلة ما فى القرآن : فمن ذلك تفصيل المجمل فقد وردت آيات الصلاة والزكاة مجملة فجاءت السنة تبين أركان وشروط الصلاة والزكاة وقد تخصص السنة عموم القرآن لقوله تعالى فى آيات المواريث : « **يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين** »[1] فالنص ورد عاما جاءت السنة تقول : « **لا يرث القاتل** » وعلى هذا يخرج من عموم الاولاد الورثة كل ولد قاتل فلا يرث،وقد تفيد السنة مطلق القرآن كقوله تعالى : «**السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**»[2] فهذا نص مطلق يوجب قطع يد السارق جاءت السنة النبوية توضح من هو السارق وتقيد الحالات التى تقطع فيها اليد والحالات التى لا تقطع ، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه تنفيذا للنص القرآنى والنص النبوى حين لم تتوفر شروط وأركان جريمة السرقة فى عام المجاعة فلم يقطع لان الله ورسوله لم يأمرا بالقطع الا بعد توافر اركان وشروط السرقة .

كما ان الرسول عليه السلام بين وجوب مراعاة ودراسة احوال المجرم وبيئته والدوافع التى دفعته لارتكاب الجريمة فقال عليه السلام : « ادرأوا الحدود بالشبهات » .

3 ـ سنة جاءت باحكام لم ترد فى القرآن وذلك كميراث الجدة ، فقد قضى لها رسول الله بالسدس فى الميراث لأنه لم يجد لها نصيبا فى القرآن اذ ورد فيه اعطاء الام السدس أو الثلث بالنظر لبقية الورثة كما هو مدون فى آيات وعلم المواريث .

وكذلك قوله عليه السلام : **يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب** .

1) سورة النساء آية 11 .
2) سورة المائدة آية 38 .

البحث الثـاني
المصادر الاجتهادية

١ ـ الاجماع :

الاجماع هو اتفاق المجتهدين من المسلمين فى عصر من العصـور بعد وفاة الرسول على حكم شرعى لا نص فيه فى القرآن والسنة ويمثل الاجماع اجتهاد الجماعة فى التشريع الاسلامى ٠

يروى عن عمر بن الخطاب انه قال للسـيد الذى جاء يطلب قطع يد عبـده الذى سرقه بعد أن عرف أنه سرق ليأكل قال عمر للسيد والله لو عاد عبدك للسرقة لقطعت يدك أنت ٠ (1)

هناك تعريفات أخرى للاجماع اقتصرنا على رأى جمهور الفقهاء فى هذا فقد ذكر به أن الاجماع لديهم اجماع الصحابة فقط وقال المالكية يكفى فى الاجماع اجماع أهل المدينة وقال الجعفرية الاجماع اجماع أهـل البيت وقال بعض المعتـزلة ينعقد الاجماع باجماع أكثـر المجتهدين ٠

ويقسم علماء أصول الفقه الاجماع الى نوعين

1 ـ اجماع صريح ويتوفر هذا اذا اجتمع جميـع المجتهدين فى مكان ما كمجمع أو مؤتمر واتفقوا على حكم مسـألة جديدة لا نص فيها ٠ (2)

2 ـ واجماع سكوتى وذلك كما لو افتى احد المجتهدين فتـوى بواقعة لا نص فيها وعلم جميع الفقهاء المختصين بهذه الفتوى وسكتوا فان سكوتهم هذا يعتبر اقرارا وموافقة لمضـمون الفتـوى فكان اجماعا (3)

وخشية ان لا يطلع بعض الفقهاء على هذا الحكم الجديد فقد وضـع الذين قالوا بحجية الاجماع السكوتى شروطا منها وجوب انقراض

(1) الباعث الحثيث شرح مختصر علوم الحديث ص 187 ٠
(2) راجع شرح المنار لابن مالك ص 741
(3) التلويح على التوضيح ج 1 ص 28

العصر الذى قبلت فيه هذه الفتوى ليغلب على الظن ان جميع المهتمين بهذه الدراسات من علماء المسلمين قد اطلعوا عليها (1)

·وقد وردت حجية الاجماع بقوله تعالى : « **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا**»(2) ووجه الاستدلال بهذه الآية ان الله توعد من يخالف سبيل المؤمنين فكان ذلك دليلا على أن سبيل غير المؤمنين باطل · وكذلك قوله عليه السلام : « **لا تجتمع أمتى على خطأ** » (3)

كما يؤيد الاجماع العقل اذ ليس من المعقول ان يجمع جميع علماء الامة على أمر دون معارض بما يخالف الشريعة الاسلامية ·

ولابد للاجماع فى شريعتنا من مستند من قرآن أو سنة (4) — ولا نريد التوسع فيما ذهب اليه علماء الاصول من شروح — وحسبنا أن نقول ان الاجتهاد لدى علمائنا جماعيا كان او فرديا لا بد له من مستند شرعى يرجع اليه ، اذ لا غيبية عندنا فى الاجتهاد ولا وحى ولا الهام فى التشريع بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ·

ء — **القياس** : هو الحاق أمر لم ينص على حكمه فى الكتاب أو السنة أو الاجماع بأمر نص عليه فى احدهما لاشتراكها فى علة الحكم ·

وذلك ان الاحكام التشريعية لم تأت عبثا بل لكل حكم علة ومصلحة بنى الشارع عليها هذا الحكم — فيما عدا العبادات لا تعليل فيها لانه لا سبيل للعقل الى ادراك المصالح التفصيلية التى شرعت لتحقيقها ·

فعلى المجتهد أو الفقيه ان يعرف المصلحة التى قصدها الشارع والعلة التى ربط بها الحكم ·

ومن الامثلة على ذلك قوله عليه السلام : « لا يرث القاتل » · فحكم هذا الحديث يدل على منع كل قاتل وارث من ميراث مورثه . هذا الحكم لا بد له من علة جعلت الرسول يشرع له قاعدة معينة اذ ليس من المعقول الا يكون فى هذا المنع مصلحة للمجتمع والفرد أى لابد من وجود علة لهذا المنع هذه العلة هو ان القاتل استعجل بجريمته الميراث قبل أوانه ومن استعجل الشىء قبل أوانه بطريق

---

1) الاحكام للآمدى ج 1 ص 322 · 2) سورة النساء آية 115 ·
3) كشف الاسرار ج 3 ص 264
4) تيسير التحرير لابن الهمام ج 3 ص 254

غير شرعي عوقب بحرمانه لان الجريمة لا يجوز ان تكون وسيلةللنعمة وهي الميراث ٠

ويقاس على هذا الحكم منع الموصى له القاتل من الموصى به لان العلة وهي القتل واستعجال الحصول على المال عن طريق الجريمة عمل واحد فيجب ان يأخذ حكما واحدا أيضا ٠

وقد وضع علماء أصول الفقه شروطا واركانا لهذا المصدر القياسي فقالوا لابد في كل قياس من تحقق أربعة أركان ٠ وهي : 1 ـ الاصل أو المقيس عليه ٠ 2 ـ حكم الاصل ٠ 3 ـ الفرع أو المقيس ٠ 4 ـ العلة ٠

وحجة القياس قوله تعالى : **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تاويلا** » ٠(1)

ووجه الاستدلال في هذه الآية ان الله أمر المؤمنين ان اختلفوا في حكم شيء ولم يجدوه في الكتاب أو السنة ان يردوه الى نظائره في القرآن والسنة وهذا هو القياس ٠ (2)

وكذلك من ناحية العقل اذ ليس من المعقول ان تتحد حادثتان في علة واحدة دون ان تتحدا في حكم واحد كتحريم الخمر لعلة الاسكار وتحريم كل شراب فيه سكر لعلة واحدة مشتركة ، قد تكون العلة قاصرة غير متعدية فلا قياس في مثل هذه الحالة لانعدام العلة في الفرع المراد معرفة حكمه وذلك كعلة المشقة في قصر صلاة المسافر فانها علة خاصة قاصرة على السفر ولا يجوز القياس عليها لامر آخر ولو وجدت فيه مشقة أكثر من السفر فلا تقصر الصلاة به ٠

وقد تكون العلة منصوصا عليها كما في قوله عليه السلام : لا يتناجى اثنان دون ثالث فان ذلك يحزنه ٠ فان العلة هي الخشية من ان ينفرد اثنان بالحديث سرا مع وجود آخرين فيحدث هذا الما

1) سورة النساء آية 59 ٠

2) أصول الفقه للشيخ محمد الخضرى ص 286

وحزنا لدى غيرهما من الحاضرين فيعكر صفوهما فهذه علة منصوص على حكمتها بنص الحديث ·

وهناك علة تستنتج عن طريق الاجتهاد والتأمل والتـدبر كقوله عليه السلام : « **لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه** » · فالعلة هنا ايضا هي الحيلولة دون حـدوث ما يعكر صـــفو الناس ومودتهم وصلاتهم بعضهم مع بعض مما يؤدى الى الخصومة والعداوة ·

ويقول استاذنا الجليل الشيخ محمد ابو زهرة (1) والقياس فى حقيقته معناه ليس الا اعمالا للنصوص بأوسع مدى للاستعمال فليس تزيدا عليها ولكنه تفسير لها ·

3 ـ **الاستحسان** : هو العدول بحكم المسألة عن نظائرها لدليـل شرعى خاص · (2) وعرفه ابن رشد من المالكية : هو طرح القياس الذى يؤدى الى غلو فى الحكم ومبالغة فيه الى حكم آخر فى موضـــع يقتضى ان يستثنى من ذلك القياس ·

ويقسم علماء أصول الفقه الذين اخذوا بالاستحسان كدليل شرعى من حيث السند الى الاقسام الآتية :

1 ـ استحسان سنده القياس الحقى · كترجيح احد القياســين على الآخر عند اختلافهما فى المسألة الواحدة لان أحد القياسين اقوى حجة من الآخر · فمثلا وقف الاراضى الزراعية هل يدخل فيه وقف حقوق الارتفاق المخصصة لهذه الارض كحق الشرب وحق المرور اذا لم يكن فى صك الوقف نص صريح بذلك ، امامنا قياس على البيع أو قياس على الاجارة ·

اذا أردنا قياس الوقف على البيع فلا تدخل حقوق الشرب والمرور مع المبيع دون نص صريح فى العقد ·

واذا أردنا قياس الوقف على الاجارة فان هذه الحقوق تدخل مع الوقف دون نص ·

---

1) اصول الفقه للشيخ محمد ابوزهرة ص 241

2) مصادر التشريع وطرق استنباط الاحكام للدكتور عبد الرحمن الصابونى ص 398

الذى يبدو من القياس الظـاهر هو القيـاس على البيـع لان فيها خروج الرقبة من ملك البائع ولكننا نقيسها على الاجارة لانه قياس أدق اذ ان كلا من الوقف والاجارة فيه عليك المنفعة دون الرقبة فلا يملك الموقوف عليه التعرف فيها كالبيع ولهذا كان قياس الوقف على الاجارة استحسانا ٠

2 ـ استحسان سنده الضرورة وهو العدول عن القياس لضرورة أو مصلحة تقتضى هذا العدول فمن ذلك ما ذكره الاحناف فى عقـد المزارعة انه ينتهى بموت احد العاقدين ولكنهم اسـتثنوا اذا مات المستأجر والزرع لم يدرك بعد فقالوا يستمر العقد استحسانا خلافا للقياس الذى يقضى بفسخ العقد دفعا للضرر حتى يثمر الزرع وذلك بأجر المثل ٠

3 ـ استحسان سنده العرفواستحسان سنده النصواستحسان سنده الاجماع وهذه أنواع ذكرها الحنفية ولكنها محل نظـر لاننا نرجع للنص او العرف او الاجماع دون حاجة الى الاستحسان ٠

4 ـ المصالح المرسلة :

المصلحة المرسلة هو تشريع الحكم فى واقعة لا نص فيها ولا اجماع بناء على مراعاة مصلحة مطلقة لم يرد عن الشارع دليل لاعتبارها او لالغائها ٠

والمصلحة بمعناها العام هى عبارة عن جلب المنافع ودفع الضرر ، ونعنى بها فى هذا المجال كما يقول الامام الغزالى فى المستصفى « ان المصلحة هى ما تحفظ مقصود الشرع ومقصـود الشرع من الخلق خمسة أمور وهى أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسـلهم ومالهم ، فكل ما يفوت هذه الاحوال هو مفسدة ودفعها مصلحة » ٠

وعلى هذا قسم علماء المالكية المصالح الى ثلاثة أنواع :

1 ـ مصلحة معتبرة ورد النص باعتبارها ٠

2 ـ ومصلحة ملغاة ورد النص بالنهى عنها ٠

3 ـ مصلحة لم يرد نص باعتبارها ولا بالغائها وهى المصـلحة المرسلة أى المطلقة ٠

وقد ذكر الشاطبى فى الاعتصـــــام ثلاثة شروط للتشريع وفق المصلحة • (1)

1 ـ الملاءمة بين المصلحة التى تعتبرأُصلا قائما بذاته وبين مقاصد الشارع فلا تنـافى أصلا من اصـــوله ولا تعارض دليلا من ادلته القطعية •

2 ـ ان تكون المصلحة معقولة فى ذاتها بحيث لو عرضت على أهل العقول لتلقتها بالقبول •

3 ـ ان يكون فى الاخذ بها رفع حرج لازم بحيث لو لم يؤخـــذ بالمصلحة المعقولة فى موضعها لكان الناس فى حرج والله تعالى يقول: « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » •

وخلاصة ذلك ان تشريع الحـكم فى واقعة لا نص فيها بنــاء على المصلحة المرسلة وفق الشروط التى وصـــفها العلماء ـ فيما عدا العبادات ـ تحفظ وتضمن بقاء التشريع حيا مستمرا متطورا على ان لا يخالف النص بل يقوم بحفظ الضروريات الخمس ويدفع عنـــها الضرر والاذى لان هذه الضرورات منها ما ورد النص بحفظها ومنها ما ورد بالدفاع عنها وما سكت عنـــه هو موضع التشريع : فالقتل محرم لانه يؤدى الى عدم حفظ النفس ، والزنا محرم لانه يؤدى الى عدم حرمة النسل والسرقة محرمة لانها تؤدى الى عـــدم حرمة المال والعلم واجب لانه يؤدى الى تنمية العقل واقامة العبـادات وتطبيق التشريعات الاسلامية امر واجبلان فيه حفظا للدينولذا كانت الردة محرمة لانها تؤدى الى الخروج على نظام الدولة ودينها •

فكل تشريع يتعلق بحفظ الدين وتشجيع النسل وحـرمة الاسرة والدفاع عن العقل واحترام مكانته وحفظ كرامة الانسان وعقيدته من الامور التى لا نص فيها يمكن لعلمائنا فى كل عصر ان يشرعوا لها الاحكام التى يريدونها دون مخالفة للنص •

العرف : وهو ما اعتاده الناس وألفوه من فعل شاع بينهم أو لفظ تعارضوا اطلاقه علىمعنى خاص اذا ذكر تبادر الذهن اليه لا الى معنى سواه • (2)

---

1) الاعتصام ج 2 ص 98   2) رسائل ابن عابدين ج 2 ص114

ويقسم العرف الى عرف عملي وعرف قولي وكل منهما يكون عاما أو خاصا .

فالعرف العملي هو ما اعتـــاده الناس وجرى التعامل به كبيع التعاطي مثلا وهو شراء سلعة كتب عليها ثمنها دون اجراء صـــيغة الايجاب والقبول والتي تعتبر ركنا في العقد ، وكعقد الاستصناع الذي جرى تعارف الناس على العمل به خلافا للاصل .

والعرف العملي ان كان معروفا لدى الجميع سمي عرفا عمليا عاما واما أن يكون خاصا ببلد معين أو فئة معينة .

أما العرف القولي فسواء أكان عاما أو خاصا هو اتفاق الناس على استعمال لفظ معين يخالف معناه اللغوي لانه شاع وعرف بين الناس.

ومن تتبع آراء الفقهاء القدامى منهم والمحدثين يرى انهم راعوا في كثير من أحكامهم الفقهية العرف والعادة ولذلك وضـــعوا اكثر من قاعدة فقهية في هذا الموضـــــوع ، فمن ذلك قالوا : المعروف عرفا كالمشروط شرطا ، وقالوا الثابت بالعرف كالثابت بالنص .

يقول ابن العربي المالكي في تفسير قوله تعالى : « **لينفق ذو سعة من سعته** » ، ان العادة دليل أصولي بنى الله عليه الاحكام وربط به الحلال والحرام .

ويقول ابن نجيم الحنفي في كتابه الاشباه والنظائر : ان اعتبار العادة والعرف يرجع اليه في الفقه في مسائل كثيرة حتى جعلوا ذلك أصلا .

وقد وضع الاصوليون شروط الاخذ بالعرف كدليل شرعي فقالوا لابد ان يتوفر اربعة شروط :

1 ـ ان يكون العرف مقررا أو غالبا بين الناس . اما العرف غير الغالب فلا عبرة به .

2 ـ ان لا يخالف العرف النص . لان دليل العرف متأخر عن دليل النص فلا يجوز مخالفته قال الرضي في اصـــوله : وكل عرف ورد النص بخلافه فهو عرف غير معتبر .

3 ـ ا نلا يخالف العرف شرط احد المتعاقدين ٠ لان ارادة العاق أقوى دليلا واصدق وضوحا من العرف ٠

4 ـ ان يكون العرف سابقا أو مقارنا للعقـد أو التصرف ٠ اذ لا عبرة للاعراف الطارئة المتجددة بعد انشاء التصرفات التى حصلـت ونمت فى ظل اعراف مغايرة للعرف الجديد ٠

أما حجية العرف فقد ذكر الفقيه ابن عابدين ان العلماء **استدلوا** على حجية العرف بقوله تعالى : « **خذ العفو وأمر بالعرف** » ٠

ويبنى على الاخذ بالعرف ان الاحـكام التشريعية التى **تعتمد على** العرف تتغير اذا تغير العرف ومن هنا قال الفقهاء تتغير الاحكام بتغير الازمان ، وكثيرا ما اختلفالفقهاء فى الفروع والمسائل نتيجة**اختلاف** العرف من زمن لآخر ومن بيئة لأخرى ٠ فهذه الاحكام التى تبنى على العرف هى وحدها التى تتغير بتغير العرف والزمان والمكان **على خلاف** الاحكام المبنية على النص التى لا يجوز للعرف ان يخالفها النص لانه اضعف منها والقوى لا ينسخ **بالضعيف** ٠

ومن هذا ما ذكره الامام ابو حنيفة انه لا يجـــوز اخذ أجرة على اقامة الشعائر الدينية لانها عبادة لا أجر عليها الا من الله ثم تغـير العرف فأصبح اخذ الاجر جائزا لانه يتعذر ايجاد اشخاص يقومون بهذه الشعائر دون أجر ٠

قول الصحابى : الصحابى هو كل شخص لقى النبى صـلى الله عليه وسلم وآمن به ولازمه زمنا طويلا حتى صار يطلق عليـه اسم الصاحب ٠ وقد اختلف الفقهاء فى حجية قول الصحابى هل يعتبر دليلا شرعيا يؤخذ به أم لا ٠

فاذا نقل الينا قول لصحابى فى حكم شرعى فاما ان يسند هـذا الحكم الى عصر الرسول عليه السلام أم لا ٠

أ ـ فان اسند الصحابى الحكم الى عصر الرسول كما لو قال كنا نفعل كذا فى عصر الرسول فهذا الحكم يعتبر حجة شرعية لا خلاف فيه لانه يعتبر من قبيل السنة ٠

ب ـ اما اذا لم يسند الصحابى الحكم الى عصر الرسول فهذا امام عدة حالات :

أ - ان المسائل والوقائع التى يرويها الصحابى بناء على السماع لا على الرأى والاجتهاد تعتبر حجة لدى الفقهاء أى ان كل فتوى من صحابى لا مجال للعقل فيها تعتبر ملزمة لنا لانه لا اجتهاد فى نقلها بل تحمل على انه سمعها من الرسول عليه السلام ، قال الامام الكرخى : لا يجب تقليد الصحابى الا فيما لا يدرك بالقياس • (1)

ب - وكذلك اذا نقل الصحابى حكم مسألة ولم ينقل الينا مخالف له بالرأى فى هذه المسألة تعتبر حجة أيضا لانها تعتبر من قبيل الاجماع •

ج - أما فيما عدا ذلك أى اذا اصدر الصحابى فتوى بناء على رأى واجتهاد فهذا محل خلاف بين الفقهاء فمنهم من يعتبر قوله حجة ومنهم من لم يعتبره كذلك والجمهور على حجية رأى الصحابى فى هذه المسألة (2) •

نظرات عامة فى مصادر التشريع الاسلامى

تتجلى لنا خصائص التشريع الاسلامى الذى نؤمن به دينا سماويا عالميا والذى يوجب علينا العمل على تطبيقه واعادته ليحكم سلوك الفرد والمجتمع من جديد فى الامور التالية :

1 - الصفة الدينية :

ان مصادر التشريع الاسلامى منها وحى من السماء ومنها اجتهاد من البشر فهى تجمع بين النقل والعقل بحيث لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، هذه الصفة الدينيةوالعقلية للتشريع تكسبه قدسية واحتراما لدى المؤمنين به من أفراد الشعب ، لان الوازع الدينى المبنى على العقل لا التقليد أعظم وازع يضمن للقوانين حسن التطبيق وسرعة التنفيذ على الوجه الاكمل دون نقص أو تهرب أو احتيال •

فاذا استطاع الفرد المكلف التهرب من القانون الوضعى فلن يستطيع الهرب من ضميره الذى يحاسبه بأن الله يعاقبه ان آجلا أو عاجلا ، وان نجا من عقاب الدنيا فان عقاب الآخرة لا محالة آت والله

1) منح الغفار شرح المنار لابن نجيم ج 3 ص 140
2) ارشاد الفحول للشوكانى ص 265

تعالى يقول : « **حتى اذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون** » ويوم يحاسب الله تعالى كل فرد على كل عمل : « **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** » ٠

ومن هنا كان لكل حكم في الشريعة الاسلامية مظهران : مظهر دياني ومظهر قضائي فيقال الحكم الدياني للمسألة كذا والحكم القضائي كذا ٠٠ فمن كان له دين على آخر وعجز عن اثبات هذا الدين لدى القاضي حكم القاضي ببراءة خصمه.فالحكم الدنيوى البراءة وأما الحكم الدينى هو الادانة لانه مدين والحق ثابت فى ذمته ٠

ومن هنا أيضا كان الرجل يأتي الى الرسول عليه السلام ويقول له يا رسول الله انني زنيت فعاقبني وهو يعلم تماما ماذا يترتب عن اقراره هذا من عقوبة ، ولكنه الى جانب ذلك يعلم ان عقوبة الدنيا كفارة يسيرة أمام عقاب الآخرة وانه ان نجا من عقوبة دنيوية بسبطة فلن ينجو أمام الله يوم لا ينفع مال ولا بنون ٠

قد يقال اذا كان لصلة القوانين بالدين الاثر القوى من حيث الاحترام وقوة التطبيق وعدم التهرب منها ، هذا بالنسبة لمن يؤمن بالدين مصدر القانون ، أما من لم يؤمن به فكيف نطبق عليه تلك القوانين ؟٠٠

والجواب على هذا يتألف من شارعين :

1 ـ من حيث التطبيق وعدمه فالجواب انه لا توجد دولة في العالم تدين بدين واحد او مذهب واحد فرأي الاكثرية هو الغالب ٠

2 ـ من حيث الاحترام والقدسية ، فاننا لم نقل ان الوازع الدينى هو الوازع الوحيد لتطبيق القانون ، بل الى جانبه توجد دوافع أخرى قومية ووطنية تحتم على كل مواطن احترام نظام وطنه وقوانينه ٠ فالذى لا يؤمن بالتشريع الاسلامى فى الدولة المسلمة دينا ، يلتزم به قانونا ، فالفرد الذى لا يؤمن بتشريع مستمد من الفقه الاسلامى كدين سماوى ، يؤمن به كقانون لدولته التي يعيش فيها والتى تضمن له تشريعا ينبعث من عادات وتقاليد الوطن الذى يعيش فيه ومن ايمان المواطنين المؤمنين بهذا الدين ٠

هذا من جهة ومن جهة أخرى يطمئن غير المسلم الى ان بقية المواطنين يطبقون هذا التشريع وما يمسه منه من حقوق وواجبات على أتم وجه

وأكمله في سائر المعاملات والتصرفات ، فان أحسنوا كان الاحسان خيرا له وان أساءوا كانت الاساءة شرا عليه كمواطن فيهذه الدولة.

ان الوازع الديني يساعد صاحب الحق للوصول الى حقه ممن عليه هذا الحق ، ويساعد القاضي للتوصل الى معرفة الحقائق ، ويساعد الدولة لتأمين وارداتها وحقوقها وتأمين هيبتها وكرامتها اذا رأت أفراد الشعب كل الشعب ينفذون أوامرها على أنها من عند الله تضحية وفداء وبذل وأمانة واخلاص ووفاء حين يؤدي كل فرد ما عليه من واجب على أنه واجب ديني ووطني معا .

2 ـ صلة القواعد الآمرة بالقواعد الاخلاقية :

ان أحكام التشريع الاسلامي على اختلاف أنواعها لها صلة وثقى بالاخلاق ، ولهذا حثت على مراعاة الفضائل من الصدق والعدل والوفاء بالعهود والعقود والرحمة والاحسان وترك الرذائل من الظلم والغدر والغبن والكذب والفسق وأكل أموال الناس بالباطل ، فيقول الله تعالى : « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان** » ويقول : « **لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل** » .

ولهذا كانت دائرة الفقه الاسلامي أوسع من دائرة القانون لان الاخلاق أشمل وأعم من النظام الوضعي .

3 ـ استقلال التشريع الاسلامي :

ونظرا للصفة الدينية للتشريع الاسلامي يبررلنا استقلال الفقه الاسلامي عن غيره من التشريعات ، فتشريعنا مستقل بمصادره ومناهجه وفروعه واحكامه لم يتأثر كما يتوهم بعض المستشرقين بالقانون الروماني اذ ان بينهما من الفروق ما يجعل المنصف يحكم بكل اطمئنان ببطلان هذه الدعوى المفتراة .

فالفقه الاسلامي يقوم على اساس العدالة والمساواة بين جميع الناس ، هذا هو محمد عليه السلام يقول : **يا معشر قريش لا ياتيني الناس بالاعمال وتأتوني بالانساب** ، بينما نجد التشريع الروماني يميز بين الحاكم والمحكوم وبين الشريف والضعيف ، لقد اعلن الاسلام المساواة بقوله : « **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » ، وقوله عليه السلام **الناس سواسية كاسنان المشط** بينما ذهب التشريع الروماني الى

حرمان المرأة من اهليتها والى منح الاب السلطة المطلقة على أولاده والى معاملة المدين معاملة لا تتفق مع الانسانية بشيء فى الوقت الذى اعلن الاسلام قوله بصراحة ووضوح امهال المدين ان عجز عن وفاء دينه **وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة .**

والخلاصة اذا كانت القوانين تهدف الى تأمين الحرية والمساواة ورفع النظام فان الشريعة الاسلامية فضلا عن ذلك تسعى الى تهذيب الفرد على اسس من الاخلاق والوعى السليم لتضمن تطبيق تلك المبادىء والنظم التى يسهر القضاء على تنفيذها بين الناس وتسد نقص القانون الذى يعجز احيانا عن الاحاطة بكل ما يحتاج اليه المجتمع من تعاون ومحبة واخاء وعدالة وشعور عميق بالمسؤولية . كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته .

4 ـ تلبية التشريع الاسلامى لحاجات كل عصر :

ومعنى ذلك أن يمكننا اقامة تشريعات تستمد اصولها من الفقه الاسلامى لكل بلد وفى كل عصر تتلاءم مع المصلحة الزمنية وحاجات الناس وما يتطلبه المجتمع الحى المتطور من نظم وقوانين .

وتتضح لنا هذه الفكرة اذا ذكرنا الامور التالية :

أ ـ ان المبادىء العامة والقواعد الكلية التى جاءت فى القرآن الكريم المصدر الاول للتشريع الاسلامى تتيح لنا ايجاد تشريع متطور يستمد هذه المبادىء وأصوله ويتفرع ضمن هذه الدائرة الواسعة ، لان القرآن الكريم جاءت احكامه الثابتة باهدافها ووسائلها مفصلة كالعقائد والعبادات والاسرة واما الاحكام التى طبيعتها التغيير والتطور فقد وردت بقواعد عامة مجملة تحتاج الى تفسير وتأويل وتطوير وذلك لعدم احراج الناس فى مختلف الازمنة بالزامهم التقيد بقوانين ثابتة والمصلحة تقضى بتطويرها كأكثر احكام المعاملات ونظام المال ونظام الحكم وغير ذلك .

ب ـ ان المصادر التشريعية جمعت بين الثبات والتطور فالقرآن الكريم والسنة النبوية مصادر ثابتة والاجتهاد ، وما يتفرع عنه مصادره متطورة مرنة .

بل اننا نجد المرونة أيضا فى فهم النصوص الثابتة وخاصة المجملة التى تحتاج الى شرح وتفسير وتأويل ·

ج ـ مراعاة التشريع الاسلامى مصلحة الجماعة ومصلحة الفرد دون طغيان لاحداهما عن الاخرى ·

د ـ مراعاة التقاليد والاعراف التى تعبر عن تطوير المجتمعات وذلك فى حدود التشريع الاسلامى فيما لا نص فيه ·

من هذه الميزات يتضح لنا كيف يستطيع التشريع الاسلامى اذا آمن أفراده به ووجدت لديه الرغبة الصادقة بتطبيقه ان يضعوا احدث الانظمة المستمدة من هذه الاصول ، وبهذا نرد على من يتوهم قائلا ان التشريع الاسلامى طالما يعتمد فى مصادره على النصوص والنصوص ثابتة بالقرآن والسنة فهى محددة بينما الوقائع وحاجات الناس غير محدودة بل هى مجددة متغيرة متطورة فكيف تحكم نصوص ثابتة وقائع غير ثابتة ، بل كيف تحكم قوانين جاءت لامة فى زمن معين ظروف امة فى زمن آخر يختلف عنه كل الاختلاف ·

والجواب على هذا اضافة لما ذكرناه من خصائص مصادر التشريع وقابليتها للتطور والمرونة والحياة ونقول :

1) ان الوقائع التى وردت بأحكامها نصوص فى القرآن والسنة تطبق فى كل عصر دون تغيير او تبديل لان هذه الاحكام روعى فيها عدم التغيير و لتطور اذ ليس فى تطبيقها أى جمود أو مصادمة لمصالح الناس ·

2) وان الوقائع التى لم يرد بأحكامها نصوص القرآن والسنة فيجب اخذ رأى المجتهدين من علماء المسلمين فان أجمعوا كان الحكم قطعيا بالنسبة لجميع المسلمين ·

3) وان الوقائع التى لا نص فيها ولم يجمع عليها المجتهدون فيجب حملها على القياس فان أدى القياس الى الحرج أو الضرر عدلنا عن القياس الى الاستحسان ·

4) وان الوقائع التى لا نص فيها ولا اجماع ولا قياس ولا استحسان فيجب بناء الحكم لها عن اساس المصلحة المرسلة على ألا تصادم نصا شرعيا وعلى ان يراعى فى هذا الحكم المصلحة العامة لا المصلحة الفردية وان تكون المصلحة تؤكده ·

5) اما الوقائع التي لا نص فيها ولا احماع ولا قياس ولا استحسان ولا مصلحة مرسلة فحكمها حكم الاصل وهو الاباحة لان الاصل في الاشياء الاباحة (I) ٠

القسم الثاني واقع التشريع في العالم الاسلامي اليوم

ان واقع التشريع في العالم الاسلامي اليـــوم واقع مؤلم مرير أوجده الاستعمار وساعد على بقائه جمود وضعف المسلمين ، فمنذ منتصف القرن التاسع عشر حين بدأ ضعف الدولة العثمانية وقــوى تدخل النفوذ الاجنبي فيها بدأت التشريعات الاجنبية تغزو هذا البلد المسلم لتمهد لغزو الجيوش الاجنبية فيما بعد ٠

كان أول قانون وضع في الدولة العثمانية غير التشريع الاسلامي هو قانون التجارة الفرنسي عام 1850 ويلاحظ أن أكثر احكام هـذا القانون كان بحاجة ماسة الى اجتهادات جديدة تتناســب مع العصر فلما لم يلب العلماء هذه الرغبة ولم يسدوا هذا النقص سهل على الدولة ان تعطل جزءا كبيرا من دين هـــذه الامة بالعدول عن تشريع اسلامي يستمد أصوله ومبادئه وقواعده من الشريعة الاسلامية الى تشريع أجنبي دخيل ، حتى ان بعض احكامهذا القانون كان يستحيل تطبيقها لاختلاف واضح بين بقية النظم التشريعية وهذا القانون فمثلا جاء فيه نص يتعلق بحقوق الزوجة حين افلاس زوجها بما يتنافى مع استقلال أموال كل من الزوجين الامر الذى يختلف عن قراننا حيث يقوم نظام الاشتراك بين الزوجين فتفقد الزوجة أهليتها الكاملة في التصرف في أموالها بعد ان تتزوج ٠

ثم صدر قانون المحاكم التجارية عام 1858 ثم قانون الانتقال في الاراضي الاميرية حيث اخـــذ هـــذا القانون عن القانون الالماني والسويسري وفيه مخالفة صريحة لاحـــكام الميراث التي وردت في القرآن الكريم ، فقد سوى هـــذا القانون بين الزوج والزوجة في الميراث كما جعل ميراث الذكر مثل ميراث الانثى ٠

ثم تهافتت بقيـــة القوانين الاجنبية على الدولة العثمانية كقانون

I) مصادر التشريع الاسلامي فيما لا نص فيه للاستاذ عبدالوهاب خـلاف ص 65

العقوبات وقانون التجارة البحرية وقانون أصول المحاكمات وغير ذلك من القوانين ..

وكان من جملة القوانين التى اصدرتها الدولة العثمانية الوثيقة الدستورية المعروفة بخط كونحانه حين أعلنت المساواة بين جميع رعايا الدولة امام القانون دون تمييز .

وأمام ضغط غير المسلمين فى الدولة العثمانية وخارجها اصدرت الدولة العثمانية الخط الهمايونى الذى يقر ويعترف للمحاكم الطائفية باستقلالها وحق القضاء بالاحوال الشخصية .

على انه لابد ان نذكر للدولة العثمانية عملا قامت به وانتصرت عليه هو محاولة لتدوين احكام الفقه الاسلامى من المذهب الحنفى فى مدونتين :

1) مجلة الاحكام العدلية عام 1876

2) قانون حقوق العائلة العثمانى عام 1917 .

1 ـ اما مجلة احكام العدلية فقد قننت نظام المعاملات أى ما يسمى اليوم بالقانون المدنى من الفقه الحنفى بأسلوب حديث ففتحت بذلك الباب امام رجال القانون وغير المختصين من الاطلاع على الفقه الحنفى الامر الذى جعل هذه المجلة تترجم وتشرح حتى باقلام غير المسلمين .

2 ـ أما قانون حقوق العائلة العثمانى فقد اقتصر على احكام الزواج والطلاق وقد اخذ بعض الاحكام عن غير المذهب الحنفى .

وكانت قد صدرت ارادتان سنيتان قبل ذلك بقليل وذلك عام 1915 فى موضوعين من غير المذهب الحنفى .

1) التفريق للاعسار وعدم الانفاق اخذا من المذهب المالكى والحنبلى .

2) التفريق للمرض والعلل ما يتفق مع رأى الامام محمد بن الحسن الشيبانى .

وبعد استقلال الدول العربية عن الدولة العثمانية ، وجد رجال الدولة في جميع البلاد العربية أنفسهم امام فراغ هائل فى الانظمة والتشريع ، فضلا عن ان الرجال الذين استلموا الحكم غالبا كانوا بعيدين عن الثقافة الاسلامية ، ومع ذلك لو ان رجال الفقه الاسلامى كانت لديهم المدونات والحلول العملية بشكل حديث يستمد من الشريعة الاسلامية أصوله ومن التطور ومسايرة الزمن فروعه لتغير وجه واقع التشريع على الاقل فى بعض البلدان العربية التى استقلت عن الدولة العثمانية ·

وهكذا ألزمت الدول العربية بتطبيق التشريعات التى تتناسب مع الدولة التى استعمرتها فالقانون المدنى الفرنسى فى بلد عربى والقانون الانجليزى الهندى فى بلد عربى آخر ولم يقتصر بطبيعة الحال الامر على قانون أو عدة قوانين بل راحت الدول العربية تصطبغ بمناهجها ونظمها بتلك الدولة التى فرضت عليها أرادتها السياسية والفكرية والاجتماعية الامر الذى باعد بين الدول العربية تباعدا قويا على انه يمكننا تلخيص واقع التشريع فى الوطن العربى او فى بعض اجزائه · واترك بقية الموضوع لاخوانى المحاضرين من بقية انحاء العالم الاسلامى ·

1 ـ بلدان تطبق الشريعة الاسلامية فى جميع تشريعاتها ·

2 ـ اما أكثر البلدان العربية فلا تطبق من الشريعة الاسلامية الا الاحوال الشخصية أى نظام الاسرة ، وبعض البلدان كالاردن والكويت ما يزال العمل وفق مجلة الاحكام العدلية مع تعديلات عليها ··

ونلاحظ فى هذا الموضوع أمرين :

1 ـ ان البلاد التى تطبق الشريعة الاسلامية دون تقنين حديث لها بدأ يتسرب اليها عن طريق الانظمة التشريعات الاجنبية الامر الذى يوجب الاهتمام والاسراع بتدوين احكام الفقه الاسلامى من مختلف المذاهب تقنينا حديثا ويلزم الحاكم برواية واحدة أو بحكم دون غيره ويجعل الخصم مطمئنا الى الحكم الذى سوف يطبق عليه ·

2 ـ كما نلاحظ هجوما عنيفا على نظام الاسرة لانه القلعة الواحدة التى بقيت من التشريع الاسلامى مع الاسف الشـديد ، الامر الذى يجعلنا أكثر يقظة للدفاع عن هذا النظام وذلك برد الشبه حول ما يثار حول الطلاق وتعدد الزوجات والميراث والولاية والحضـانة الى غير ذلك ردا علميا يستند أولا الى الاحصاءات الرسمية لنبين للناس انه لا مشكلة لدينا فى نظام الاسرة كما يتضمن مناقشة هادئة ومقـارنة علمية بين نظام اسرتنا وبقية انظمة الاسرة فى العالم الاجنبى اليوم ٠

وحبذا لو بدأنا الخطوة الاولى فى طريق توحيد التشريع بتوحيد قوانين الاحوال الشخصية فى العالم الاسلامى ليكون قانونا واحدا على ان تترك المادة الاخيرة توجب على القاضى الرجوع فيما لا نص فيه من الاحكام التى لم ترد فى القانون الى المذهب الحنفى فى بلد ما والى المالكى فى بلد آخر والى الجعفرى فى بلد آخر وهكذا كما عليه العمل بين القانون السورى الذى نص على الرجوع للمذهب الحنفى اذا لم يجد حكما للواقعة المعروضة عليه والقانون المغـربى الذى اوجب الرجوع للمذهب المالكى فيما لا نص به فى القانون ٠

واذا تركنا نظام الاسرة جانبا نرى بقية القوانين اجنبية المصـدر الامر الذى يجعل شبابنا يتجهون الى تلك اللغة التى منها اخذ المشرع القانون والى مؤلفات فقهائها والى نظريات عن الاوضاع فيها والى غير ذلك مما يجعل قبلته تلك الثقافة والحضارة فيبتعد كثـيرا عن لغة آبائه وفقههم وحضارتهم وتراثهم ٠

ويمكننا ان نذكر على سبيل المثال القانون المدنى السورى المصرى الليبى ففى هذه البلدان قانون مدنى مشابه الى حد كبير فهو اجنبى المصدر وقد أخذ بعض نظريات عن الفقه الاسـلامى كنظرية حرص المرء ونظرية مسؤولية عدم التمييز ونظرية الظروف الطارئة ونظرية النقض فى استعمال ونظرية لا تركة الا بعد سداد الدين ٠

كما وردت فيه احكام تتفق مع الشريعة الاسلامية كأحكام الهبـة والبيوع فى بعض الفروع ٠

القسم الثالث

واجب المسلمين حيال تشريعهم

أما واجبنا أيها السادة نحو هـــــذا التشريع فيتلخص فى رأيى بعملين أثنين يسيران بخطين متوازيين لا يتقدم أحدهما على الآخر ·

١ ــ خلق ارادة التغيير لدى حكامنا وعلمائنا تنفيذا لقوله تعالى : **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ·**

ان الخطوة الاولى هي ايجاد توعية عامة شاملة تعيد للمســـــلمين ثقتهم بدينهم لأن أى تشريع اذا لم تهيأ له الارض الطيبة الخصــــبة سرعان ما يذبل ويموت ، هذه التوعية التى تجعل من شبابنا قادة موجهين لا تلاميذ مقلدين وفى ذلك خطوة كبيرة فى طريق الوحــدة المنشودة أمل كل مسلم وعربى لأن وحدة التشريع والنظام أقـــوى أساس فى بناء الوحدة ·

ولذلك فانى أرى ان توضح امام شبابنا صور مبهمة وضعت امام وجوههم لصدهم عن متابعة الطريق فى هذه الامور ·

١ ــ توضيح أحكام الاقليات غير المســـلمةوكيف يطبق التشريع الاسلامى عليها فى ظل نظام اسلامى ·

2 ــ توضيح نظرة الاسلام الى المرأة ومكانتها وتصحيح ما يـــرد من تهم باطلة حول نظام الاسرة ·

3 ــ توضيح رأى الاسلام الصريح فى الملكيـــة والمصاريف وأهم مفصلات الاقتصاد ·

4 ــ شرح فكرة الحقوق الجنائية فى الاسلام وما يثيره اعداؤنا حول تطبيق الحدود ·

5 ــ توضيح مفهوم الاسلام كدين ودولة وانه غير قاصر على العبادة بل وتعميق مفهوم العبادة وانهاغير قاصرة على الصلاة والحج بل ان الكون كل الكون محراب واسع يتعبد فيه المرء بكل عمل يتقرب فيه الى الله ، ومن أهم العبادات وأقربها الى الله العمل بجميع الوسائل الممكنة لاعادة التشريع الاسلامى ونظام الاسلام الى الحياة من جديد ·

وذلك لأن تغيير التشريع يعنى بالنســـــبة الينا التخلى عن ديننا وتاريخنا ولغتنا الامر الذى يختلف كل الاختلاف عن بقية الدول التى تستبدل قانونا بقانون ، ان التشريع الاســـلامى دين وعقيدة يمتزج كل حرف من حروفه بقطرة من قطرات دماء اجدادنا وآبائنا ، فالتخلى عنه نكران وردة وجمود وعدم وفاء وطريق للتفرقة بين اجزاء الامة الواحدة ٠

2 ـ أما العمل الثانى الموازى للاول فيتلخص فى الامور التالية :

1 العمل على تقنين الشريعة الاســـلامية تقنينا حديثا من مختلف المذاهب الفقهية بما يتناسب مع روح العصر ومكان التطبيق بحيث تترك احكام جزئية يطبق فيها العرف المحلى ٠

2ـ العمل على دراسة الفقه الاسلامى دراسة مقارنة بايجاد مجمع للبحث والبحوث يقوم على اعـــداد الباحث وتكوينه ليتفرغ للانتاج المثمر الطيب الامر الذى لم يتوافر لدينا حتى الآن لضعف الامكانيات وعدم وجود مثل هذا المركز ٠

3 ـ وضع موســـوعة فقهية على اســـاس الالفاظ تمهد الطريق لموسوعة أخرى ترتب على حسب أبواب الفقه والمواضيع ، لأنه لابد من ايجاد فهرسة للالفاظ تكون بين يدى الباحث قبل كتابة مواضيع الموسوعة بشكل مفصل ٠

4 العمل على زيادة حصص الشريعة الاسلامية فى كليات الحقـوق وادخال بعض مواد القانون فى كليات الشريعة وذلك ليطلع كل من الاتجاهين على دراسة الآخـــــر ولئلا يكون لدينا جيلان فى الثقافة والتفكير وليستطيع رجل الفقه ان يرد الى رجل القانون للتعاون على ايجاد التشريع الاسلامى من جديد بأسلوب حديث وفى الختام لابد من القول بان مثل هذا العمل لا يمكن لفرد ان يقوم به كما يصعب على دولة واحدة ان تحمل عبئه فلابد من التعاون بين عدد من الدول على الامر لأعادة القيادة الى المسلمين منجديد وما ذلك علىالله بعزيز ، « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** » ٠

روح الشريعة الاسلامية
وواقع التشريع اليوم في العالم الإسلامي (1)

لفضيلة الإمام موسى الصدر
رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى - لبنان



بسم الله الرحمن الرحيم

1 ـ فى حدود معلوماتنا المتواضعة وبعد الدراسات المضنية وجدنا : ان واقع التشريع فى العالم الاسلامى فى هذا الوقت بعيد كل البعد عن روح الشريعة الاسلامية فى الاساس وفى المصادر وفى المبادىء العامة وحتى فى كثير من التفاصيل ٠

واذا كان بينهما من لقاء فهو محصور فى بعض الفروع وفى كثير من المظاهر ، وهذا التشابه قائم بنفس المقدار أو أكثر بين تشريعاتنا وبين مختلف التشريعات المدنية المعاصرة والسالفة ٠

(1) القاها فى الملتقى السابع للفكر الاسلامى فى تيزى وزو ٠

ومن المحزن ان نعترف بهذا الواقع ونحن نتذكر الآيات القرآنية الكريمة فى سورة الحجر « **لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين وقل انى انا النذير المبين ، كما أنزلنا على المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، انا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون** » .

ان بعض الانتباه الى هذه الآيات مع ترتيبها ثم وقفة تامل امام الكلمات : **تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا** و **الذين جعلوا القرآن عضين** و **وأعرض عن المشركين** والوعد بكفاية المستهزئين **الذين يجعلون مع الله الها آخر** .

ان الدقة فى هذه الامور توضح المفهوم القرآنى عن الشرك (فى مصطلح الاحاديث الشرك الخفى) وان التوحيد الكامل هو فى التسليم لجميع ما أمر به وان تجزئة القرآن نوع من الشرك وجعل مع الله آلها آخر هو المطاع فى بعض المواقف وان المظاهر التى يعيشها الآخرون الذين لا يؤمنون بالله او بعبارة أخرى النجاح الظاهرى الذى يكتسبه الملتزمون بقوانين غير القوانين الالهية ان هذه المظاهر رغم اغرائها لا يمكن ان تشكل طموح الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين الذين يلتزمون باحكام الله جميعا رغم اتهامهم « **بالرجعية وغيرها** » ورغم تعرضهم للاستهزاء .

والحقيقة ان المفهوم القرآنى للشرك أو للكفر بالله لا ينحصر فى العبادة لغير الله والا فما معنى الآية المباركة « **لرايت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم** » هل هناك من يصلى ويسجد لهواه ؟ بل الاله فى المصطلح القرآنى هو قدس اقداس الانسان الذى يدفعه فى حركاته ونشاطه بصورة مباشرة او غير مباشرة وهو الذى يجعل الانسان من نفسه ، وفكره وعواطفه وحركاته ، وسيلة لكسب رضاه ولتلبية رغباته .

وهذا المعنى هو المعنى الذى يقرب بل يوحد بين معنى التوحيد ومعنى الاسلام اذ الاسلام هو التسليم الكامل عقلا وقلبا وجسما

لله ، فالتسليم فى مقام العمل أى اسلام الجوارح هو جزء من مفهـوم التوحيــد ٠

والآيات القادمة تلقى أضواءا على هـذا المفهوم العميق فلنتلـها بتـأمل :

سورة النسـاء الآيات 150 « **ان الذين يكفـرون بالله ورسلـه ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفـر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ٠ اولئك هم الـكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا** » ٠

فلنكرر « **ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بـين ذلك سبيلا** » ألا يعنى الكفـر ببعض الاحكام ، عـدم اعتـراف بصلاحيتها والاقتباس من المصادر الاخرى ؟

ثم نتل أيضا « **ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله** » هـؤلاء هـم عينا « **الذين يكفرون بالله ورسله** » فالايمان بالله بالعقـل وبالقلب « أى العقيدة والاخلاق » دون الايمان بالجسد أى الالتزام بالاحـكام « كفر بالرسل وفى مقياس القرآن كفر بالله والرسل » ٠

وهنا يظهر بوضوح ما سنقرأه فى سورة المائدة وفى الآيات 43 ، 50 حيث ان الحكم بغير ما نزل الله حول القيود والقصاص يعتبر فى منطق القرآن ظلما وكفرا وفسقا وكذلك اتباع اهواء الآخرين وعدم الخضوع لاحكام الله فى الانجيل وفى القرآن مرفوض وفسق ٠

الآيات سورة المائدة 43 الى 50 « **انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبـار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهـداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون ، وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعـين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون ، وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لمـا بين يديـه من**

التوراة وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون ، وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ، وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » ٠

ومجمل القول ان الاحكام فى الشريعة الاسلامية « مثل جميع الشرائع السماوية جزء لا يتجزأ من الوحدة المتكاملة التى نسميها « بالاسلام » والاسلام رغم تقسيم تعاليمه فى الدراسات والكتب الى الثقافة والعقيدة والفقه والاخلاق ، رغم ذلك وحدة متماسكة مترابطة الحقول متفاعلة الاجزاء ، فالثقافة او ما نسميه الرؤية الاسلامية للوجود قاعدة لعقيدته وكلتاهما اساس للشريعة فى فقهها واخلاقها ٠ ومن جانب آخر فالشريعة تصون العقيدة وتوضح الرؤية وكل قسم من الشريعة ذو تأثير عميق على القسم الآخر ٠

واليكم بعض الصور لهذا الترابط :

القرآن الكريم يعطى مفهوما عن الله هو أوسع واشمل من كافة المفاهيم التى قدمت من قبل الاديان السابقة « ملك الملوك » « الاب » ومن قبل المفكرين والفلاسفة « واجب الوجود » « الوجود المطلق » ٠

هذا المفهوم الذى له الاسماء الحسنى وهو منتهى كل كمال والاول والآخر والظاهر والباطن والسموات مطويات بيمنه وهو أقرب من حبل الوريد ويحول بين المرء وقلبه وغير ذلك ، هذا الذى نعده ركن الثقافة الاسلامية اساس العقيدة على المسلم ان يدرك هذا ويؤمن به عن دليل ويعيشه بكل وجوده ولا يقبل الاسلام بغير هذا أبدا ولا يعد

الذى فطر وامن بغيره مسلما وهكذا يقدم الاسلام مفاهيم عن الكون والحياة والموت والانسان والمجتمع رغيره وهذه المفاهيم اسس التفكير والايمان والعمل فى الشريعة الاسلامية ٠

والايمان بالله الواحد الاحد الذى لم يلد ولم يولد بدوره ينعكس على موقف المسلم من اخيه المسلم ومن الانســـان كل انسان ومن مجتمعه ٠

والعبادات بما لها من شروط وفى مقدمتها الاخلاص لله فى النية ٠نتيجة طبيعية لهذا الايمان وفى نفس الوقت تصون الايمان وتنميه فى النفس وتقلص النزعات الدافعة للتحرك فى نفس الانسان المسلم٠

وتأثر الاخلاق الاسلامية بهذا وذاك ظاهر ، حيث ان الكبر مرفوض والثقة بالله ، لا بالنفس ،والتواضع وحسن الظن والتسامح والطموح الكبير والامل الدائم والكرم والشجاعة ، هذه الاوصاف تستقى من الايمان الاسلامى ومن الرؤية الاســـلامية ومن العبادات والاعمال المرغوبة فى الفقة الاسلامى وهى بدورها تؤثر فيها ٠

ان الصورة الحقيقية للاسلام هى فى كونها لوحة مترابطة الاجزاء لكل حكم مكانه ولكل تعليم أثره البـالغ ٠ وتجـزئة هذه الصـورة للدراسة لا يمكن ان تفصل بين حقولها ولا تمكن المسلم من الاحتفاظ الكامل ببعض مع ترك البعض الآخر ٠

2 ــ التفاوت فى الاساس :

يصرح القرآن الكريم فى أول سورة البقرة ان الاســـاس الاول للتقوى هو الايمان بالغيب ويأتى من بعده متسلسلا اقامة الصـــلاة والانفاق مما رزق الله وهذا التسلسل يتضح فى مختلف التعاليم الاسلامية ويؤكد ان الحكم الاســـلامى ينطلق من اساس الايمان بالغيب ٠

والحقيقة ان الفارق المميز بين الحكم الدينى وبين الحكم الوضعى هو الايمان بالغيب بل هذا هو الفرق بين التعاليم الدينية وبين العلوم المختلفة وبينها وبين آراء الفلاسفة وبينها وبين علم الاخلاق وغيره ٠

والغيبية فى أساس الحكم الدينى هى سبب القداســـة والخلود والاطلاق · والحاجة الملحة فى نفس الانسان الى الغيب والى الاطمئنان والاستقرار فى كافة شؤونه الحياتية ، تلبى بواسطة هذه الصفة ·

ان هذه الحاجة تنبع من الاحساس الطبيعى بضرورة المعايشة مع المطلق والا فهو يعيش مضطربا فى ذاته مترددا فى سلوكه ضعيفا فى عزماته ومواقفه ·

اما العلوم ، والفلسفة والتكنولوجيا والقوانين الوضعية وكل ما هو من صنع الانسان فهو متزلزل ، حيث انه متكامل ومتغير لذلك فهو لا يغنى الانسان عن شعوره بالحاجة الى المطلق ، يحس بصحبته الدائمة فى ساعات الحرج وعند انهيار الاسباب والتردد فى بداية السلوك ·

ويشير القرآن الكريم الى هذه الزاوية من حاجات الانسان بقوله « **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** » ·

ومن المؤكد ان هذا الاحساس بالمعايشة لابد من التكريس عنـــد ممارسة الحياة العادية والعبادات فى الاسلام بتوقيفيتها وعدم تقبلها للتطوير اثر حتمى لخلق هذه المعايشة ، وهى بدورها تصونها وتنميها بل الثابت فى جميع الاحكام الشرعية حتى المعاملات والاعمال العادية امكان اقترانها بقصد القربة ، بل الافضـــل من ذلك كما ورد فى وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا بدوره يؤكد حتمية استناد الاحكام الى الغيب حيث ان لا قربة دون الغيب ، ومن جهة أخرى فانها تتفاعل مع المعايشة المطلوبة ، حتى لو كان ذلك ضمن اطار عام فيكون الانسان عند اتخاذ مواقف يحس بانه ينفذ بصورة مباشرة او غـير مباشرة فعل ايمانه بالله وتسليمه لامره ونهيه ·

ان الغيبية وما وراءها من صفات لا تتنافى على صعيد التطبيق مع التطوير والاهتمام الكامل بالضرورات الاجتماعية المتغيرة وبكلمة فان سماوية الحكم لا تتناقض مع أرضية التطبيق عند حاجة الانسان له ·

وهنا يتضح مفهوم الاجتــــــهاد فى الشريعة والفرق بينه وبين التشريع المتعارف فى المؤسسات المخصصة للتشريع ·

ان الاجتهاد هو فى المصطلح استفراغ الوسع لاستنباط الحكم الشرعى منْ مصادره . وهذا يعنى ان المجتهد يبذل قصارى جهده فى المصادر والنصوص لكى يكشف الحكم للواقعة التى يحتاج الى معرفة حكمها فهو يضم الى الحكم الدينى فهمه واستنباطه النابع من خبرته وممارسته وملكته النفسية به ، يدخل كلهذا فى استنباط المجتهد .

ان الإجتهاد تحرك وتطور ونظرة الى الارض ضمن الاطار الغيبى المطلق السماوى للحكم ، فالاطلاق والغيبية لا يفقدان الحكم تطوره وانطباقه على حاجات الانسان كما ان التطور والاهتمام بالحاجات لا يفقدان الحكم قدسيته وغيبيته .

اما التشريع فهو دراسة الموضوع وابعاده والظروف المحيطة به ووضع حكم له مستند الى مصلحة عامة أو خاصة .

والتشريع على هذا يضم جزءا من فهم المشرع الى المصالح المتوافرة فى الموضوع وهو أى التشريع نظرة الى الارض بينما الاجتهاد انتباه الى السماء ويشتركان فى انضمام جزء من ذات المجتهد والمشرع ومن فهمه واستنباطه .

3 ـ التطور فى الشريعة :

وقد وضع الاسلام ضمن شريعته مبادى تمكن الانسان من تطوير الحكم الشرعى حسب مقتضيات الزمان والمكان وغيرهما دون ان يفتقد الحكم **قداسته وغيبيته** .

وبذور التطور هذه على أنواع :

النوع الاول : موضوعات الاحكام واجزائها وشروطها التى تقبل التطوير فى مدلولاتها عند مختلف الظروف والاحوال ذلك مثل موضوع حكم تعدد الزوجات فى القرآن الكريم « **وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى** » وهذا الشرط قابل للتعميم فى الحالات الاجتماعية المتنوعة كظروف ما بعد الحرب وفى بعض المجتمعات الخاصة والمفهوم من الآية ان هذا الحكم ليس حكما مطلقا فى جميع الحالات .

واذا فسرنا الآيه الكريمة بانها في صدد بيان حل لمشكلة الخوف من عدم القسط في شؤون الايتام وليست في مقام تقييد الحكم الا لمنع الزيادة عن أربع ، اذا فهمنا الآية بهذا المعنى نقول : ان القرآن لم يذكر اذا أى نص يبيح التعدد المطلق والسيرة المطهرة وسلوك الاصحاب والائمة سيرة عملية لا اطلاق لها مثل الادلة اللبية في مصطلح الاصوليين ، يمكن اختصاصها باسباب خاصة وبشروط معينة :

ومثل شرط العدالة في العشرة فهي تختلف باختلاف حقوق المرأة التي تحدد امكانية قيام الزوج بمسؤولياته امام أكثر من زوجة ·

نقول هذا حتى ولو كانت الروايات فسرت العدل في العشرة فان شأن المرأة في الطعام والكساء والسكن يختلف أيضا ويتطور ·

ومثل موضوع الفقر في الزكاة حيث انه يتطور حسب الحاجات المتزايدة ومتوسط الدخل الفردى · فكلما تحسنت أوضاع المعيشة، وارتفع المستوى المتوسط توسع مفهوم الفقر وهذا يعنى ان الزكاة تدارك مستمر لنقص الاوضاع المعيشية لدى الفقراء وتقريب دائم لمستوى دخل الطبقات المختلفة ·

ومثل موضوع الرشد في آية البلوغ والذى يجعل عمر البلوغ المدني يختلف عن السن الذى يبلغ الشاب درجة المسؤولية الجزائية·

ان الآية الكريمة تقول : « **وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم** » واستئناس الرشد بعد البلوغ الجزائي ضرورى للتأكد من وصول الشاب درجة البلوغ المدني وهنا يدخل تقدير الحاكم المسلم عندما يريد وضع القانون لتحديد سن المسؤولية المدنية وبالتالي يدخل امكان التطوير ·

والامثلة على هذا كثيرة جدا اكتفينا بالقليل منها · وابرزها مبدأ تطبيق الزكاة فبامكاننا اليوم ان نرفع مستوى حياة الفقراء بواسطة تأمين العلاج والعلم والضمان الاجتماعي لهم وهذا اقرب للكرامة وأدق في هذا العصر ·

النوع الثانى : مبادىء موضوعة لاجل التطوير بالذات مثل قاعدة « المؤمنون عند شروطهم » وقانون « أوفوا بالعهود » وغيرهما ومن خلال هذه القواعد يمكن تطوير صور الزواج وشروط الطلاق وادخال تعديلات واسعة فى قانون الاحوال الشخصية ·

فالزواج بالصورة العادية هى الصورة المتناسبة مع بعض العصور اقترح الاسلام له صورة اصلية هى المتعارفة لدى المسلمين ويمكن وضع صور جديدة للزواج من خلال وضع شروط ضمن العقد تحدد استرسال الرجل فى الطلاق وعند الامتناع عن الطلاق وتحدد أيضا المكان والمال المكتسب خلال العمل والاموال الموجودة فى البيت ويمكن وضع شروط يستصعب على الزواج معها من تحديد الزوج كما يمكن تحديد وضع الاولاد عند الطلاق ·

ان هذه الشروط يمكن ان توضع ضمن استمارات تعرض على الزوجين حال الزواج لاجل التمسك بها أو التخلى عنها · فاذا ذكر فى عداد الشروط ان الزوج اذا أراد ان يطلق دون مبرر صحيح فعليه ان ينفق على المطلقة ما دامت غير مزوجة او عليه ان يدفع مبلغا كبيرا · ان هذا الشرط من طبعه تحويل كل طلاق الى المحكمة لمعرفة الموضوع ووجود المبرر الصحيح ، ثم انه يحول دون استرسال الزوج فى الطلاق ، ومن جهة ثانية اذا وضعنا ضمن العقد وكالة الحكمين أو المحكمة عن الزوج فى الطلاق فى حالات معنية فان تعنت الزوج فى امتناعه عن الطلاق يخف بل يتعالج نهائيا··

النوع الثالث : مراعاة العناوين الثانوية فانها من أهم شؤون الاكتشاف وتطوير الاحكام الشرعية ، فالتأميم مثلا لا يمكن قبوله كمبدأ فى الشريعة الاسلامية حيث انه يقوم على اساس عدم الاعتراف بالملكية الشخصية ولكن الشريعة عند ما تلاحظ ان مصالح الامة تعرضت للخطر مثلا تقف لحظة واحدة لحفظ مصالح الفرد فتحكم عندئذ بالتأميم أو حتى المصادرة ، وهنا ينفتح باب واسع آخر لأجل تلبية الحالات الحادة والمستعجلة وغيرها ضمن الاطار الشرعى المتحفظ ·

ان هذه التطورات ضمن الاطار العام للحكم الديني تمكن المسلم من معايشة التطورات الحديثة ومعالجة الحاجات والمشكلات الاجتماعية المتزايدة دون ان يشعر بانه ينفذ حكما غير حكم الله ومع احتفاظ الحكم بقداسته الكاملة ·

وهنا يتضح الفرق في الاساس بين الحكم الشرعي وبين الحكم الوضعي وما عليه عالمنا الاسلامي اليوم،حيث ان الاحكام والتشريعات فقدت قداستها لانها لم تستند الى اساس غيبي ·

4 ـ الفرق في المصادر :

ان مصادر الاحكام الاسلامية تختلف كليا عن المصادر المعتمدة لتشريع القوانين في العالم الاسلامي في هذا الوقت رغم ما يوجد في كافة الدساتير والقوانين الاساسية ، ان دين الدولة الاسلام ، وان الاسلام مصدر رئيسي من مصادر التشريع · ان هذا كله لا يغير حقيقة الامر ·

فالحكم الاسلامي يبحث عنه وعن تفاصيله في القرآن والسنة المطهرة ثم في اجماع الامة وهذه المصادر لا تراجع من قبل الباحثين عن وضع القوانين بل البحث يتجه في المبادىء الدولية الحقوقية وفي تجارب الامم الاخرى وفي الدستور وفي بلاغات الثورة وتضع المجالس التشريعية تفاصيلها · ثم تصدر مراسيم لاجل تنفيذها ولا يصلح اى قانون للتنفيذ ما لم يصدر المرسوم بشأنه ومع رعاية شروط معينة ·

والمصادر تقتبس على ضوء المصالح والحاجات من الاحكام الاسلامية كما تقتبس من سواها · يقال ان نابليون في رحلته الى مصر حمل معه الفقه الاسلامي في القضايا المدنية واعتمد عليها في قوانينه الشهيرة · ان هذا الاقتباس لم يجعل القوانين النابوليونية احكاما شرعية ·

ان الفقيه المعاصر عليه ان يرجع الى المصادر القانونية المعاصرة أيضا لكي يصدر الفتوى ولكن الرجوع هذا محاولات لاكتشاف الموضوع وادراك ابعاده على العكس من الحكم الوضعي ·

وهناك فرق آخر فى هذا المجال وهو ان اختيار الحكم الشرعى من مصادره الزامى على العكس من اقتباس الحكم الوضعى ·

ان الذى يجعل القانون المقتبس بارادة السلطات المشرعة دون الزامها على اصداره · يبقى المصدر الاخير من مصادر الشريعة الذى هو مصدر القوانين الوضعية فى نفس الوقت وهو العقل ولكن العقل فى الشريعة اساس العقيدة والمسائل العقائدية فى الغالب ، ثم انه يعتمد لاكتشاف الحكم الالهى استنادا الى مبدأ كل ما حكم به العقل حكم به الشرع ، أما الاحكام الوضعية فمن اوسع مصادرها حكم العقل وآراء العقلاء على انها تلبية لحاجات الانسان وبالتالى فهى احكام موضوعة من قبل الانسان ·

5 ـ المبادىء العامة :

عند مقارنة التشريعات المعاصرة مع روح الشريعة نجد فارقا فى المبادىء العامة أيضا رغم ان هذا الفارق هو نتيجة طبيعية للتفاوت فى الاساس ·

فالفقه الاسلامى يعتمد فى عباداته ومعاملاته على النية الى حد كبير اعتمادا مطلقا بينما التشريعات الحديثة تقلص من دور النية بشكل ملموس · والنية فى الاسلام هدف وروح للعمل والنتيجة الباقية منه يحاسب الانسان بحسابها ولا يقبل أى عمل من دونها ولها فى المعاملات من عقود وايقاعات دورها الاساسى نكتفى بتذكير المستمعين الى الفرق بين الاضطرار والاكراه وصحة العقد مع الاول دون الثانى نكتفى بهذا اختصارا ثم نعيد الى افكارنا اهتمامات الاسلام بالمسائل النفسية والدوافع ومسائل الاخلاق ·

ب ـ تضع الشريعة الاسلامية حدودا لمفهوم الملكية وتلغى الملكية عن بعض الاشياء والمالية عن بعض الاشياء وعلى هذا الاساس تتأثر المعاملات تأثرا بالغا فى هذا المجال ·

فالخمر وآلات اللهو وما لا يستعمل الا فى المعاصى ولا يتمتع به فى الحلال لا تعد فى الاسلام مالا فلا يجوز بيعها وشراؤها واستئجارها ·

كما وان الملكية تحتاج الى سبب ثابت فلا يكفى التسجيل للارض فى تملكها بل الحيازة أيضا لا تملك · انما الاحيـــــاء سبب لملكية الارض ثم المبادلة والميراث ·

ج ـ والانســـــان فى المعاملات يقوم بدور كبير وفى التشريعات الحديثة تقوم المؤسسة مقام الانسان تدريجيا · أما الاســـــلام فعلى الرغم من اقراره بل اكتشافه لاول مرة الشخص المعنوى فانه يعلق على الشخص الحقيقى فى المعاملات والايقاعات والشـــــهادة والقضاء أهمية كبرى تجعل منه الركن الاساسى ·

د ـ والعمل الذى هو اساس لبناء العلاقات الاجتماعيـــة مفهومه لدى الشرع غير مفهومه فى القوانين الوضعية وهـــــذا التفاوت فى المفهوم يدخل فرقا اساسيا فى القوانين والانظمة ·

ان العمل فىالمفهوم الدينى رسالة ووظيفة ، لذلك فهو حى مطلق يربط اعضاء المجتمع بعضها ببعض ويربط الاجيال المتلاحقة ربطـا عضـــــويا ·

ان العمل ليس بضاعة تباع وتشترى كالامتعة والاشياء الخارجية بل هو واجب · يقدم المجتمع الاسلامى لعامله الواجب لحفظه وحفظ عائلته وشؤونه حسب ظروف المجتمع والمرحلة الاقتصادية التى يمر فيها وهذا البحث من كنوز الفكر الاسلامى وهو مفتاح توزيع الثروة العادلة فى نظام الاسلام الاقتصادى توزيعا عادلا موجها مطورا يشد الافراد والاجيال فى رباط مقدس ·

والعمل فى مفهومه القانونى كمية من الطاقة المجسدة تقدم مقابل أجر معين والتقابل يقتضى المساواة فى القدرة والجودة أو الرداءة · والعمل فى هذا المفهوم بضاعة بحتة تبحث الانظمة الشـــــيوعية والرأسمالية عن تقييمها ووضعوا على نتائج التقييم جميع قوانينهم الاقتصادية وغيرها ·

و ـ والكمال فى المفهوم الدينى كمية مقترن مع الحق وليس المهم ان نكتسب القدر الاكثر من المكاسب بل المهم عدم مفارقة الحق مع العلم ان المبدأ فى المفهوم القانونى الوضعى هو تأمين الوصول الى

الدرجة الاعلى من المطالب حتى على حساب الآخرين ٠ وما نسميه اليوم بالتربية فى الانسان والتنمية فى الاشياء هو ما عبرنا عنه بالكمال فى المصطلح الدينى والواجب على المسلم من المهد الى اللحد ٠

وهذا مصدر الطغيان والظلم والثروات والصراع الاجتماعى المرير والقانون الوضعى المنبثق من الواقع البشرى يكرس هذا ٠

أما الدين فساحة كمال الانسان فيه فسيحة لا يصطدم تحقيق طموح الفرد مهما بعد بطموح الآخرين ولا لصالح الجماعة بمصالح جماعات أخرى فرضى الله لا حد له ولا يشغله شأن عن شأن ٠

ز ـ والربا فرع من هذا المبدأ ، ناهيك عن تحكم قانون العرض والطلب بصورة مطلقة فى التشريعات القانونية ٠ حتى فى الانظمة الشيوعية ولكنه يتحول الى ميادين أوسع ٠

ح ـ وهناك مبدأ الجزاف واعتماد الحظ وجهالة العوضين أو الغرر فهو بفروعه مرفوض فى المعاملات الاسلامية دون التشريعات القانونية التى تكرس فى العالم الاسلامى أنواعا كثيرة من هذه المعاملات كما نجد أنواعا من اليانصيب ، هذه المقامرة التى تسلب الانسان المسلم جميع أنواع العطاء حتى فى الصدقات الصغيرة فتحولها الى تجارة ٠

أما التفاصيل فى الفروع فوجود احكام وقوانين غير موافقة مع الشريعة بل مناقضة معها اكثر من ان تحصى وهذا اثر طبيعى للفرق فى الاساس والمصادر والمبادىء العامة ٠

6 ـ هنا احب ان أقف امام مثال واضح يلقى الاضواء الكاشفة على الواقع الاسلامى وهو مثل الربا ٠

ان أكثر الدول الاسلامية بعد ما وجدت الحاجة الملحة الى القرض لاجل الانماء وبعد ما وجدت ان حرمان صاحب المال من الربح غير ممكن أقرت الربا بصورة صريحة او فى اطار من استحياء ٠

فمن محاولة لاصدار فتاوى بالسماح للربا فى الانتاج لا فى الاستهلاك الى حلية الربا مع فائدة قليلة او ابراز معاملات ربوية فى صور غير صريحة مثل أوراق الاستثمار فى بعض الدول الاسلامية ٠

هذه المساعي تكشف بوضوح سير القوانين في العالم الاسلامي مع العلم ان المحاولة لاكتشاف بديل عن الربا كالمضاربة من المصادر الاسلامية لم تجر والدراسات التي وضعت لها أو لاقتراح بنك لا ربوي ما جربت من قبل المعنيين في العالم الاسلامي أبدا رغم الاموال الطائلة التي تصرف في مختلف الشؤون الدينية وفي مجالات الدعوة والثقافة وغيرها .

7 – وفي نهاية المطاف لابد من طرح السؤال المطلوب طرحه في هذه الدراسة وهو اننا رغم الواقع ورغم الظروف المحلية والعالمية المعاشة . كيف يمكننا ان نختصر الطريق ونقرب البعيد ونسلك خطا يوصل التشريع المعاصر في يوم ما الى روح الشريعة الاسلامية ؟

وفي الجواب ، علينا ان نعترف بصعوبة المسلك وضرورة توفير النية الحازمة ومن ثم يصار الى تكليف هيئة من علماء الدين تضع الهيكل التشريعي العام ثم تلتقي مع الخبراء في القانون ومع المعنيين بالشؤون العامة لكي تبحث معهم ويدرسون جميعا تطبيق المبادىء العمة ووضع التفاصيل على ضوء الواقع والظروف المحيطة به واستنباط الاحكام الاولية للامور واصدار الاحكام المرحلية لدى الحاجة .

ان هناك أمورا لا يمكن قبولها من الناحية الشرعية ولكن يمكن تبني الشريعة لها على ضوء الظروف الحرجة للامة ومن أوضح الامثلة على ذلك مبدأ التأميم ثم السعي الى تطبيق هذه النتائج في اطارات محدودة لاكتشاف النواقص واختيار الافكار على الارض في هذا القرن ومراقبة هذه التجارب ومن ثم تحويلها الى قوانين وتقديمها للمجتمعات الاسلامية مع الاحتفاظ بالاساس وبالمصادر والمبادىء دون التفريط باحدها مهما صغر في تقييم الناس له .

وبعد فان الطريق رغم وعورتها سالكة ، والمشكلة رغم صعوبتها لا تستعصى على الحل .

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » .

روح الشريعة الإسلامية

وواقع التشريع اليوم في العالم الإسلامي (1)

للأستاذ مصطفى الزرقاء
أستاذ بكلية الشريعة
الجامعة الأردنية



اخوانى واخواتى فى الاسلام من الحاضرين والحاضرات :

لم اكتب هذه الاسطر التى كونت منها محاضرتى اليوم عن (روح الشريعة الاسلامية ، وواقع التشريع فى العالم الاسلامى اليوم) لأفيد بها أحدا من علماء الشريعة الاقطاب ، الوافدين الى هـــذا الملتقى الاسلامى الميمون من سائر الاقطار ، فهم أعلم منى بما أنتقيه وألقيه فى هذا الملتقى وهذا الموضوع ٠

ولكنى كتبت ما كتبت لأسمع من يحتـــاج الى معرفته من رواد المعرفة الاسلامية المتطلعين الى هذه المعلومات التى سألقيها لاجلهم ، وان كانت ، بالنسبة الى العلماء الاقطاب ، تعتبر من أوليات العـلم أو من خلاصاته المعروفة ٠

(1) ألقاها فى الملتقى السابع للفكر الاسلامى فى تيزى وزو ٠

فمن سمع ما ليس بجديد عليه فليعذر ، لأنه موجـــه الى من هو جديد عليه ومحتاج اليه من طلاب وشباب ومســـؤولين عن شريعة الاسلام • وان علماء الاسلام ما جاؤوا الى هذا الملتقى ليعلم بعضـــهم بعضا ، وانما جاؤوا بما عندهم من علم ليطرحوه مبســـطا موطأ الى غيرهم ممن هو فى أول الطريق الى المعرفة الاسلامية ، أو على الساحل منها ، أو هو فى وسط الطريق ، أو هو خارج الجادة ليدلوه عليها ، وينيروا له السبيل •

ولذا لجأت الى التبسيط فى بسط الموضوع ، لأنى لا أوجه كلامى الى العارفين ، بل الى السادة المحتاجين ، وكثير ما هم ، وفوق كل ذى علم عليم •

لموضوعنا هذا ـ كما يتضح من عنوانه ـ جانبان :

الجانب الاول ـ يتعلق بالشريعة الاسلامية فى ذاتها بقطع النظر عن حظها من التطبيق فى واقع حياة المسلمين اليوم عمليا •

الجانب الثانى ـ ما يسود الحياة فعلا فى البلاد الاسلامية من الوان التشريع القائم النافذ فيها ومدى علاقته بشريعتهم الاسلامية •

هذا وسأضيف أنا الى الموضوع جانبا ثالثا يتممه وهو :

ـ الاتجاه الجديد فى البلاد الاسلامية اليوم نحو التشريع الاسلامى وفقهه ، والطريق الواجبة فيه •

وسأتكلم بهذا الترتيب نفسه فى جوانب الموضوع الثلاثة :

الجانب الاول ـ **روح الشريعة الاسلامية :**

لا نتناول فى هذا الجانب بالبحث الا ما يمكن دخوله تحت تعبير (روح الشريعة الاسلامية) تقيدا منا بحدود الموضوع المطلوب ، كيلا يشرد بنا البحث الى ما لم يطلب الينا الكلام فيه من الجوانب الاخرى المتعلقة بالشريعة •

فلكى يتجلى لنا (روح الشريعة الاسلامية) بوضوح ويستبين لنا مدلول هذا العنوان بكلماته الثلاث هذه يجب ان ننطلق من تحديد مفهوم الاسلام أولا ، ثم مفهوم الشريعة الاســـلامية ثانيا ، ثم بعد

تحديد هذين المفهومين نتلمس الدلائل على روح الشريعة الاسلامية من النظر فى مقاصدها العامة ، ومنهجها فى تطبيق المبادىء والاحكام العملية • ذلك لان كل موضوع ذى مفهوم مركب لابد لاجل معرفته بوضوح من معرفة اجزائه ، والا كان تصورنا له يكتنفه الغموض •

١) ــ فأولا نتساءل : ما الاسلام ؟

وجوابا على هذا التساؤل نقول : أن الاسلام نظام الهى لاصلاح الحياة البشرية شامل لجميع نواحيها ، وناظم لوجوه نشاطها كلها ، فكريا وعمليا ، فرديا واجتماعيا ، ويقوم هذا النظام المسمى بالاسلام على ثلاثة أسس :

الاساس الاول : تحرير العقل البشرى من رق التقليد والخرافات، وذلك عن طريق العقيدة العقلية الحرة القائمة على النظر والاستنتاج من دلائل الواقع المشهود • ولذا كافح الاسلام الوثنية فى شتى صورها ، لانها انحطاط فى العقل ، وقصور فى البصيرة •

الاساس الثانى : اصلاح الفرد روحيا ونفسيا وخلقيا ، وتوجيهه نحو الخير والاحسان والواجب ، كيلا تطغى شهواته وأطماعه على عقله وارادته ، فيصبح لديه الشعور بالواجب مفلوجا •

والوسيلة التى يعتمدها الاسلام لتحقيق هذا الاساس أمران :

١ ــ الايمان بالثواب والعقاب فى الآخرة ذلك الايمان المتفرع من الاساس الاول ، أساس العقيدة •

٢ ــ ممارسة العبادة المتكررة ، وأداء فروضها العينية كما شرعها الله ، كى يبقى الانسان متذكرا لخالقه ولاوامره باستمرار ، فكلما أغراه مطمع فاسد ، أو حدثت له غفلة عن ربه أحدثت له العبادة تذكيرا ، فلا تجره الغفلة الى حيث يغرق فى محيط الاهواء والاطماع والشهوات •

الاساس الثالث : صيانة الامن والحقوق ، واقامة العدل فى المجتمع •

ومن ذلك صيانة الحريات المعقولة ، والكرامة الانسانية •

ولتحقيق هذا الاساس الثالث الاخير جاء الاســلام بنظام قانونى حقوقى يتضمن شريعة كاملة ، شاملة لجميع الاسس القانونية اللازمة لاقامة حياة اجتماعية فى دولة مثالية نموذجية ، شريعة كافية تتكفل بتنظيم علائق الناس بعضهم مع بعض وعلاقاتهم بالسلطة الحاكمة ، وعلاقات الدولةالاسلامية بسائر الدول بأحكمطريقة وافضل صورة.

وهكذا قام الاسلام على ثلاث دعائم : عقيـــدة عقلية متحررة من التقليد والخرافات ، وعبادة روحية تطهر نفس الانســـان ، وتضبط سلوكه ، وتضمن استمرار رقابته على نفسه ، ومحاسبته لها ، ثم نظام قانونى قضائى يصون الحقوق الخاصة للافراد ، والحقوق العامة للجماعة .

وهذا هو المعنى المراد عندما يقال اليوم : ان الاسلام دين ودولة .

2) ـ ثم نتساءل ثانيا : ما الشريعة الاسلامية ؟

للشريعة الاسلامية بين قديم وحديث مدلولان :

ـ فمدلولها فى الاستعمال القديم مرادف لمدلول الاسلام بمعنــاه العام الشامل للنظام كله من عقيدة وعبادة وقانون . وهـــذا هو مفهومها الاصلى الحقيقى .

ـوأما مدلولها فى الاستعمال العصرى الحـــديث فهو ذلك النظام القانونى الذى سبقت الاشارة اليه آنفا من أسس الاسلام وهو شرع ينظم العلاقات والحقوق المالية والاجتماعية والسياسية والادارية ، ويقيم العدل بين الناس ، وتؤيده وتحميه سلطات الدولة الاسلامية وقضاؤها .

وهذا المدلول الثانى القانونى للشريعة الاسلامية هو المقصود فى عنوان موضوعنا هذا (روح الشريعة الاســـلامية) ، بدليل مقابلته بواقع التشريع فى العالم الاسلامى اليوم .

وفى ظل هذا المدلول أعنى النظام القانونى من الاسلام سنسير فى معالجة موضوعنا هذا .

والشريعة الاســـلامية بهذا المعنى ، أعنى النظـــام القانونى من الاسلام ، وما قام حوله فى مراحل تطبيقه التاريخية من فقه جليـــل

جزيل لم يعرف له مثيل ، هى الجبهة الرئيسية الكبـــرى فى معركة الغزو الفكرى التى يخوضها الاسلام مع خصومه فى الداخل والخارج، حيث ان ملاحدة المســــلمين ، والانحلاليين اللا أباليين منهم وذوى العقائديات المســـتوردة الذين نجح تلقيحهم فى خطة الغزو الفكرى الاجنبى ـ كل هؤلاء من أكبر همهم ان يستبدلوا بهذا النظام القانونى العملى من الاسلام ، أعنى شريعته الحقوقية الالهية المصدر ، نظاما آخر وضعيا مستوردا من عند الغزاة الذين قاموا بعملية الغزو الفكرى ، وأولوها مزيد العناية والتركيز عليها من بداية هذا القرن العشرين . **كيلا يبقى للاسلام رسم أو معالم سوى العبادة الشخصية فى المعابد** حيث يختنق فيها الاسلام خنقا بين جدرانها ، فلا يخرج الى ميـادين الحياة العملية العامة ، ولا ينفتح على دنيا المسلمين ، ولا ينبسـط له عليها سلطان وسيادة ٠

ويمهد لهذه النتيجة ويســـاعد على تقبلها دون اكتراث جهل المسلمين بما عندهم من تراث حضارى عظيم القيمة منقطع النظير ٠ والمرء ـ كما يقول المثل ـ عدو لما جهل ٠ ومن ثم قامت فى كثير من البلاد العربية ، وفى معظم البلاد الاسلامية ، قوانين اجنبية مستوردة من الخارج ولا صلة لها بالشريعة الاسلامية فى الحقوق المدنية والجنائية وسواها من فروع القانون ، حتى الاحوال الشخصية المنظمة لحيـاة الاسرة ووثيقة الارتباط بعقيدة الحلال والحرام كما فى تركيا الحديثة فى تشريع الاحوال الشخصية كاملا من الـزواج الى الميراث ، حيث أخذت بالقانون السويسرى فى عهد حـــكم مصطفى كمال أتاتورك ، وكما فى بعض البلاد العربية نفســـها فى بعض جوانب من نظام الاحوال الشخصية ٠

كل هذا نتيجة للغزو الفكرى فى عهود الاستعمار الاجنبى للبـلاد العربية والاسلامية وفى عهود الاســـتقلال على السواء ٠ فقد كان الاستعماريون على جانب عظيم من الدهاء والذكاء فانشأوا فى البلاد الاســـلامية (التى احتلوها وحكموها دهرا طويلا) جيلا من ابنائها استعمروه فكريا ونفسيا من الحكام والمثقفين وخلفوه وراءهم بعـــد الاستقلال أحرص منهم على ابعاد شريعة الاسلام عن الحياة العملية ،

وعلى استيراد النظم والتشريع من عند الغزاة النازحين كما تستورد المصنوعات التى يفتقرون اليها ، رغم ان البلاد الاسلامية اذا كانت متخلفة فى ميدان الصناعة هى أغنى أمم الارض فى التراث التشريعى بما فى شريعتها الاسلامية من أسس حقوقية خالدة القيم ، وبما فى الفقه العظيم الذى قام من حولها على مدى الاجيال الطويلة من كنوز ونظريات ثمينة ٠

والآن بعد أن رسمنا الاطار الذى يحدد مدلول (الاسلام) ثم مدلول (الشريعة الاسلامية) لكى نسير فى موضوعنا على بصيرة فى الخط المطلوب كما يحدده عنوان الموضوع نتساءل :

3) ـ ما المراد بروح الشريعة الاسلامية ؟

ان لكلمة الروح فى هذا المقام ايحاء خاصا فى تحديد المقصود فهناك فرق واضح ملحوظ فى لغة العصر بين التعبيرين التاليين :
(نص القانون) و (روح القانون) ٠

فنص القانون يراد به حرفيته ، اى الفاظه ومعانيها فى حدودها الوضعية ٠ أما روح القانون فهى الغاية المصلحية التى يهدف اليها الشارع واضع القانون ٠

وهذا نظير تمييز فقهاء الشريعة الاسلامية فى باب الوقف الحبيس من كتب الفقه بين شرط الواقف ، وغرض الواقف ٠ ففى الوقف الموقوف على مدارس العلم شرط الواقف فيه هو ذلك الترتيب الذى عينه الواقف للدراسة والتدريس فى المدرسة التى وقفها واوجب على ناظر الوقف والطلبة والمدرسين اتباعه لاستحقاق ما خصص لهم من نفقة ٠

أما غرض هذا الواقف فهو نشر العلم وتخريج علماء بأحسن الوسائل تطبيقا ونتاجا ٠

ومثل ذلك يلحظ فى قول القرآن العظيم فى قضية الجهاد : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** » فغرض الشارع تحقيق القوة الجهادية الرادعة للعدو ، والقاطعة لامله فى اقتحام حوزة الاسلام، بدليل قوله تعالى بعد ذلك فى تعليل الامر : « **ترهبون**

به عدو الله وعدوكم » • هذا غرض الشارع فى هذه الآية الكريمة• وأما نصه الحرفى الآمر فقد خص بالذكر نوعا من آلة الجهاد هو رباط الخيل التى كانت أعظم وسائل الانتقال والكر والفر • فاعداد رباط الدروع الآلية اليوم من الدبابات والمصفحات ، وكذا المدافع الثقيلة والطائرات المقاتلة من الجو ، هو تحقيق أكمل لروح النص الآمر وغرض الشارع بعد وجود وسائل وآلات أفضل وأقوى من الخيل وأبطش من السيف والرمح ، بل يعتبر اليوم الاقتصار على رباط الخيل الذى ورد به النص تقصيرا أو اهمالا لواجب الاستعداد للجهاد • وهذا ايضا ما تدل عليه جملة « **ما استطعتم من قوة** » وما تتناوله من تطور فى الوسائل •

فعلى هذا الاساس من التمييز بين نصوص الشرع وروح الشرع اذا أردنا أن نتعرف على روح الشريعة الاسلامية ونرسم ملامحها ينبغى ان نتتبع النصوص التوجيهية والآمرة فى الكتاب والسنة ، لنطالع فيها المقاصد الغائية من تلك النصوص ، ثم نستعرض الخطوط العريضة لاحكام الشريعة والمبادىء القانونية العامة التأسيسية لكى نرسم مما يتراءى لنا من خلالها صورة حقيقية واضحة لروح الشريعة •

ونظرا لان هذا الاستعراض قد يطول مداه وكل قارىء أو سامع يرغب عادة فى سرعة الوصول الى النتيجة ، لذلك سأقدم سلفا الصورة التى يستخلصها العالم البصير لروح الشريعة من تتبع نصوصها الدالة وأحكامها التأسيسية ثم أعرض باجمال تلك النصوص والاحكام لمن يريد أن يرى الدلائل والبراهين على تلك الصورة التى نعطيها سلفا عن روح الشريعة •

الصورة التى يمكن رسمها لروح الشريعة الاسلامية من معالمها :

فمن تتبع النصوص الاصلية فى الكتاب والسنة (وهما المصدر الذى يعطينا الصورة الحقيقية لما نريد) يتبين :

ان روح الشريعة الاسلامية وغرض الشارع منها : هو اقامةالنظام الاكمل والسلوك الامثل فى حياة الانسان فردا وجماعة مع مراعاة

قدرته وظـــروفه كلها من غرائز وحاجات ودوافع وموانع وأعراف وعوامل نفسية اجتماعية وبيئية ، وكل ما يحيط بالتكليف من أمور جديرة بالرعاية والاعتبار ، وفى طليعتها المبادىء والمثل الانســانية والاخلاقية .

فتحقيق النظام والسلوك الامثل فى حياة المسلم بأى وسيلة من الوســائل المتطورة والمتغيرة مع مراعاة كل تلك الظروف والعوامل والحاجات والاعراف هو مما يتفق وروح الشريعة دون تقيد بحرفية أو شكلية لا يتعلق بها غرض شرعي صحيح .

ان هذه الصورة لروح الشريعة يدل عليها كثـــير من النصوص والاحكام فى الكتاب والسنة ، منها ما يلى :

1 ـ قول الله تعالى : « **لا يكلف الله نفسا الا وسعها** » (البقرة)

2 ـ وقوله : « **لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانســان الا ما ســعى** » .

3 ـ وقوله : « **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** » .

4 ـ وقوله : « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانــات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** » .

5 ـ وقوله تعالى فى محكم كتابه : « **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** » ـ الحج 78 ـ

6 ـ وقوله بعد تعـــداد طائفــة من المحرمــات القطعية : « **الا ما اضطررتم** » .

7 ـ وقوله تعالى : « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهــداء على الناس** » ـ البقرة 143 ـ

8 ـ وقوله تعالى : **والله يعلم المفســد من المصلح ولو شــاء اللــه لأعنتكم ان الله عزيز حــكيم** » ـ البقرة 220 ـ

9 ـ « **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لمــا يحييكم** » ـ الانفال 24 ـ

10 ـ ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صحيح حديثه لمن تشدد من اصحابه وارهق نفسه بالعبادة فقال له :

« **الدين يسر ، ولن يشاد هذا الدين أحد الا غلبه ، فسددوا وقاربوا** » .

11 ــ وقال ايضا : « **يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا** »

12 ــ وقال ايضا : « **ان الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه** » .

ومعنى وضع الله عن الامة هذه الاشياء فى شريعة الاسلام ان الله جلت حكمته ورحمته قد أعفاهم من المؤاخذة اذا خالفوا أحكام الشريعة وأوامرها بطريق الخطأ (دون تعمد) أو نسيانا أو بتأثير الاكراه من ظالم دون رضا منهم أو اختيار ، فانحصرت بذلك المؤاخذة والاثم فى حالات التعمد أو التقصير .

13 ــ وقال عليه الصلاة والسلام ايضا : **ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فاتوا منه ما استطعتم** » .

وبهذا الحديث الشريف وضع النبى عليه السلام أساسا عظيم الشأن لموقف يتجلى فيه روح الشريعة الاسلامية ويطل علينا بوجه سافر وضاح . ذلك هو ان المحرمات التى نهى الشارع عنها يجب اجتنابها كليا وبتاتا الا ما استثنته نصوص عامةمن حالات الاضطرار أو الاكراه . وأما المطلوبات من الفرائض فما دونها فان المكلف انما يطلب منه ان يفعلمنها ما يستطيع دون ارهاق ، يستوى فى ذلك التكاليف البدنية من العبادة الى الجهاد والتكاليف المالية من الزكاة ، الى النفقات الواجبة فصدقات التطوع وسائر التمويلات لحاجات الامة والمصالح العامة على المقتدرين ماليا ، كما يستوى فى ذلك الفروض العينية والواجبات الكفائية على السواء .

فدل هذا الاساس الذى أرساه النبى (ص) بهذا الحديث الجليل على وجهة نظر الشريعة الاسلامية فى أن المحرمات ليس شىء منها بحاجة لازمة من حاجات الحياة الانسانية .

فالخمر والقمار والزنى والغش ، والخيانة ، والكذب والغدر ، والنفاق وقتل الابرياء ، والسطو على الاموال سرقة أو غصبا ،والظلم الى غير ذلك من سائر المحرمات ليس شىء منها فى الحياة العامة

والحالات العادية حاجة حيوية فى حياة مثلى ، بل كل ذلك آفات تفسد الحياة الانسانية وتنحرف بها عن خطها الصحيح الذى يليق بكرامة الانسان البناء النافع العاقل

وما يكون من أمور تدعو اليها الغرائز أو حاجات البقاء ككسب المال لوفاء الحاجات ، وكالصلة الجنسية بين الرجال والنساء فما حرمت الشريعة فيها طريقا من طرق السطو والفوضوية التى تتنافى مع الحياة النظامية الامينة الا وفتحت الى جانبه طريقا نظامية تحقق الحاجة بأكمل وجه ، وتنفى الفساد والفوضوية والخيانة وسوء العواقب ٠

14 ـ ومن تلك النصوص المصورة لروح الشريعة الاسلامية أيضا قول الرسول (ص) فيما رواه البخارى ومسلم وغيرهما : « **انما انا بشر ، وانكم لتختصمون الى وعسى أن يكون بعضكم الحن بحجته من الآخر فاقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشىء من حق اخيه فانما أقضى له بقطعة من النار فلياخذها أو ليتركها** » رواه البخاري ومسلم وغيرهما ٠

فبهذا الحديث الشريف أقام النبى (ص) جدار الاستناد بين الشريعة والناس والحقوق والقضاء ، ووضع أساس اعتبار الحقوق فى نظر الشريعة : فهناك قضاء يجرى على الظاهر من وسائل الاثبات، وهناك واقع قد يكون امره خفيا ، وقد يخطىء القاضى هذا الواقع لالتباس او لتزوير فى الاثبات ، او لكذب فى انكار الخصم مع فقدان البينة ، فالقاضى غير معصوم من الخطأ ، وكل ما يجب عليه هو أن يتحرى الحق والصواب ما استطاع ٠ فأعلن الرسول (ص) ان العبرة فى تعلق الحقوق انما هى للحقائق فالقضاء يجرى على الظاهر ضرورة ولكنه لا يحل حراما ولا يحرم حلالا ، فلا يبيح لانسان محتال أو كاذب ما ليس له بحق ولو قضى له ٠

ومن ثم نشأ فى الشريعة لكل تصرف حكمان : حكم فى القضاء ، وحكم فى نظر الديانة ٠ وهذان الحكمان يتفقان اذا كان الواقع والقضاء متوازيين ٠ واما اذا اختلفا فجاء القضاء مخالفا للحق بحسب الواقع ، لخفاء ذلك الواقع ، او لتزوير او كذب الخصم ، او لتحيز

القاضى نفسه ، فان حكم القضاء عندئذ يفترق عن حكم الديانة . ففى الديانة يحرم على المقضى له بغير حقه أن يتناوله ، وان كان القضاء قد أمكنه وأباح له جريا على الظاهر .

هذا من روح الشريعة الاسلامية التى تهدف الى احقاق الحقوق ، وتقيم من العقيدة بالله تعالى واليوم الآخر والحساب والثواب والعقاب وازعا داخليا يضمن احترام أحكامها ضمانا لا تتمتع بمثله القوانين الوضعية التى لا سيطرة لها على العقيدة ، ولا علاقة لها بفكرة الحلال والحرام

ومن ثم ايضا كان التقادم فى نظر الشريعة الاسلامية غير مسقط للحق ولا مكسب (كما فى حكم القوانين الوضعية) وانما هو تدبير قضائى استصلاحى يرفع حماية القضاء للحق فقط عند فقهاء الشريعة ، وتبقى الحقوق المتقادمة عالقة بالذمة لا حماية لها الا بالعقيدة الآمرة بوجوب الوفاء تحت طائلة الحساب الاخروى «**يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم**» فاكتساب الحقوق وسقوطها انما يخضعان فى نظر الشريعة الاسلامية لتحقق اسبابهما الشرعية فى الواقع .

15 ـ ومن اهم ما يتمثل فيه روح الشريعة الاسلامية انها فى الغالب انما تناولت بالنص والتحديد الاحكام الاساسية التى تمثل الخطوط القانونية العريضة والمبادىء العامة ، كوجوب قيام كل عقد على ركن التراضى الحر فى وضوح وبيان دون اكراه أو خديعة أو جهالة ، واحترام الشروط العقدية فى تحديد الحقوق والالتزامات بين المتعاقدين الا شرطا يحل حراما أو يحرم حلالا فيتجاوز على النظام العام فى الاسلام ، وأن لا ضرر ولا ضرار ، وانه ليس لعرق ظالم حق فى البقاء اذا غصب احد ارضا فغرس فيها ، بل يجب قلع كل عرق غرس فيها ظلما وعدوانا ، والتمييز بين حسن النية وسوءها فى التصرفات وفقا لقول الرسول (ص) : « **انما الاعمال بالنيات** » الى غير ذلك من كثير القواعد الممثلة للخطوط العريضة فى نظام الشريعة القانونى والتى غطت جميع آفاق الحقوق وشعبها النوعية وأوضحت روح الشريعة فى نظرها الى طريق العدالة واحقاق الحق ومنع الظلم

والتجاوز ، وتركت جزئيات الامور وتفاصيلها وتفاريعها للاجتهاد ، واعتبرت للاعراف مركزا رئيسيا واعتبارا حاسما فى تحديد الحقوق والالتزامات فى كل ما سـكت عنه المتعاقدان ٠ بل للعرف الموقع الاعتبارى الاول أيضا فى غير العقود ، فنفقة الزوجة والاقارب مثلا حين وجـوبها انما تجب بحسب عرف الناس وعاداتهم فى الكفاية قدرا ونوعا ٠

هذا ، وأن اقتصار الشريعة فى نصوصها الاصلية على الكليات دون الجزئيات غالبا ، وتركها الجزئيات والتفاصيل الفرعية الى الاجتهاد هو من أهم النواحى التى تتجلى فيها السماحة فى روح الشريعة لان هذا فتح فيها باب استفادة الامة من اختلاف آراء علمائها فى تفاصيل القضايا ، ومنحها سعة ويسرا ٠

وهذا المعنى يوضحه ما ثبت عن النبى (ص) من قوله لاصحابه : « **ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتـدوها ، وحرم أشيا، فلا تنتهكوها ، وسكت عن اشياء رحمة لكم غير نسيـان فلا تبحثوا عنها** » رواه النووى فى الاربعين ٠

فمعنى ذلك ان الله تعالى انما سكت عما سكت عنه من الاحـكام ليترك ذلك الى الاجتهاد رحمة وتوسعة ٠ وبذلك فتح للشريعة باب الخلود على ممر العصور وتغير الازمان فى تغطية كل ما يستجد من أمور واحداث وحاجات بالاحكام المناسبة والمتفقة مع قواعد الشريعة ومقاصدها ٠

فقوله عليه الصلاة والسلام : « **فلا تبحثوا عنها** » معناه : لا تسألونى عنه فانه متروك لاجتهادكم واجتـهاد من يأتى بعدكم من علماء أمتى وليس المراد عدم البحث فى حكمه مطلقا اذا جدت حاجة الى معرفة حكم ما سكتت عنه نصوص الشريعة فى الكتاب والسنة ، فان من المقرر المسلم به عند علماء الشريعة انه اذا وقعت حوادث لا نص على حكمها وجب الاجتهاد فى استنباط حكم شرعى لها بالطرق التى فتحتها الشريعة لذلك

وآخر ما نرسمه من هذه الخطوط العجلى التى تصـور لنا روح الشريعة الاسلامية استيحاء من أصولها واحكامها ومنهجها التطبيقى

ثلاثة خطوط تلقى الظلال والالوان على الصورة فتكسبها وضوحا وبروزا ، تلك الخطوط الثلاثة هي :

ـ قاعدة الاستحسان والمصالح المرسلة بناء الاحكام على وفق المقاصد العامة لنشريعة في جلب المصالح ودرء المفاسد .

ـ المبادىء الانسانية التى تتبناها الشريعة وتلتزمها فى جميع احكامها وفروع قانونها (منها نفقات الاقارب والزكاة من المؤونة الاجتماعية التى لم يعرف لها اثر فى التشريعات الاجنبية .

التمسك بالحفاظ على الغايات والمقاصد الجوهرية والتسامح فى الوسائل المتطورة والمتغيرة فيقبل من هذه الوسائل كل ما يحقق المقصود والغاية الشرعية .

وسنلقى ضوءا على كل من هذه الخطوط الثلاثة بالقدر الذى يظهر معالمها اجمالا :

ا (قاعدة الاستحسان والمصالح المرسلة :

فأما قاعدة الاستحسان والمصالح المرسلة فهى طريق اجتهادى من مصادر الفقه الاسلامى لتأسيس الاحكام الاجتهادية فى كل ما يستحد من حاجات لم تتناولها النصوص على وفق مقاصد الشريعة فيتحقيق المصالح ودرء المفاسد والمضار ، ولو خالف ذلك القواعد القياسية اذا كان تطبيق تلك القواعد القياسية فى قضية معينة يؤدى الى مشكلة أو ضرر ظاهر . وفى هذه الحال (اعنى حال المخالفة للقياس المستفاد (من النصوص) تأخذ القاعدة اسم الاستحسان ، اما اذا لم يكن فى الموضوع قياس مخالف فهو استصلاح أى بناء للحكم فى الامر الجديد على قاعدة المصالح المرسلة .

ـ فمن الاستحسان قضاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى زوجة المفقود:فقد كانت القواعد القياسية توجبان تبقىزوجة المفقود معلقة حتى يثبت موته ببينة أو بدلالة الحال بأن تموت جميع أقرانه فى بلده ، كالحكم فى أمواله من حيث انها لا توزع بين ورثته الا اذا ثبتت وفاته ببينة أو بدلالة موت الاقران .

ولكن عمر رضى الله عنه خالف مقتضى هذا القياس فى حق الزوجة فقضى لها بانحلال عصمة الزوجية بينها وبين زوجها المفقود بمضى

اربع سنوات على فقدانه لان بقاءها مقيدة على عصمته كامـواله وهي انسان غير جماد يؤدى بها الى مشكلة وحرج ، وقد قال الله تعالى : « **وما جعل عليكم في الدين من حرج** » ·

ـ ومن الاستصلاح انشاء عمر رضى الله عنه أيضا للديوان اقتباسا لهـــذا التنظيم الديوانى من الامم التى عرفته لضـــبط الوقوعات والوظائف والحقوق والتواريخ التى تترتب عليـــها نتائج وحقوق وواجبات للدولة أو عليها ·

ومن قبيل الاستصلاح فى عصرنا اليوم نظام السير الذى أوجب وضعه اختراع السيارة · ولولا نظام السير فى عصر السيارة اليوم لاصبحت السيارات بلاء ووباء يحصد الارواح حصدا ، بدلا من أن تكون نعمة وارتفاقا عظيما طويت به أبعاد الزمن والمكان ·

فهذا التنظيم للســـير بما يوجبه من التزامات وما يفرضه من مؤيدات جزائية على المخالفات هو مصلحة تطبق على المقاصـد العامة فى الشريعة التى منها صيانة الضروريات الحيـــوية الخمس (وهى الدين والنفس والنسل والعقل والمال) وليس هناك نص يوجبه او يمنعه ، لا قياس يخالفه ، وهذا معنى المصلحة المرســـلة فى فقه الشريعة فيكون سن مثل هذا النظام استصلاحا ·

ب) المبادىء الانسانية :

وأما المبادىء الانسانية التى يتجلى فيها روح الشريعة الاســلامية بأروع صورة فهى منبثة فى أحكامها فى كل موقف يستدعى النظرة الانسانية النبيلة الرفيقة فى الحكم وانى أشير على ســبيل المثال الى ما يلى : (مما سوى الزكاة ونفقات الاقارب الفقراء ، وهما النظامان الانسانيان العظيمان الاجتماعيان اللذان حققت فيهما الشريعة تكفيل الغنى بالفقير ، ولم تترك الغنى لجشعــه ، والفقير لبؤســه ، فهذان النظامان مشـــهوران فى الشريعة فاكتفى اليهما ، واقتصر هنا على الامور التالية) :

١ ـ تحريم الربا ذلك التحريم القاطع الذى يخلص به الاســـلام الناس عيـــال الله من طفيليـــات البشرية ومن شرها وشرهها الى امتصاص الدماء ·

2 ـ المدين المعسر أوجبت الشريعة له النظرة الى ميسرة بصراحة القرآن العظيم ، بل ندبت الى مسامحته بالدين لكن النظرة اجبارية يتقيد بها القاضى ، اما المسامحة بتاتا فاختيارية ، وذلك بقوله تعالى : « **وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون** » ـ البقرة 280 ـ وتتجلى قيمة هذا الروح الانسانى الخير الذى يبرز فيه تطعيم القانون بمكارم الاخلاق اذا قورن بما كان قبل ذلك فى الشرع الرومانى الذى كان يجيز للدائن استرقاق المدين ولو معسرا ، أو قتله ، وفى حالة تعدد الدائنين يجوز لهم تقطيعه ويأخذ كل منهم بعض أعضائه ، وكان استرقاق المدين المعسر أيضا عرفا سائدا فى جاهلية العرب ·

3 ـ لم تجز الشريعة الاسلامية فى أحكام الحرب من قانونها الدولى التمثيل بالقتلى من العدو انتقاما منهم اذا مثلوا هم بقتلى المسلمين ، لان التمثيل بالقتلى ينافى الكرامة الانسانية التى احترمتها الشريعة الاسلامية فى كل انسان ولو كان كافرا محاربا ، وذلك بمقتضى قوله تعالى فى محكم قرآنه العظيم : « **ولقد كرمنا بنى آدم** » الآية · فمعظم المذاهب الاجتهادية فى فقه الشريعة الاسلامية على ان العدو الكافر اذا ارتكب فى الحرب ما ينافى الكرامة الانسانية لا يجوز لنا الانتقام منه بالمثل ، لان المسلم لا يجوز له ان يهبط فى سلوكه الى مستوى غير انسانى ، ورحم الله الشاعر القائل : « ومن يعض الكلب ان عضه » ؟؟

4 ـ وانطلاقا من هذا المبدأ افتى الامام الاوزاعى بعدم جواز قتل الرهائن البشرية التى اخذها المسلمون من الروم ضمانا لعدم الغدر والخيانة ، حين غدروا بالمسلمين ونقضوا العهود والمواثيق ، وقد كان المعتاد بين العرب وغيرهم قتل الرهائن اذا نقض قومهم الميثاق والعهد غدرا · وحجة الامام الاوزاعى فى عدم جواز قتلهمقوله تعالى فى محكم قرآنه : « **ولا تزر وازرة وزر اخرى** » ـ الاسراء 15 ـ

(تنظر مقدمة الامير شكيب ارسلان لرسالة « **محاسن المساعى فى ترجمة الامام الاوزاعى** » نقلا عن تاريخ البلاذرى) ·

5 ــ ورعاية لهذا الروح الانسانى الخير الكريم ندب النبى (ص) كل متعاقد الى اقالة صاحبه المتعاقد معه اذا ندم هذا على صفقته ورغب فى أن يقيله رفيقه منها • فقد ورد فى الحديث النبوى : « **من أقال نادما صفقته اقال الله عثرته يوم القيامة** » •

ومن أجل وأكمل ما يلحظ فى هذا المقام هذا التمييز الحكيم فى رعاية المبادىء الانسانية بين مختلف الحالات ، فبعضها الزامى ونصوصه آمرة يطبقها القضاء اجبارا ولا تجوز مخالفتها كانظار المدين المعسر ، وعدم جواز قتل الرهائن البشرية اذا غدر قومهم ، وبعضها تخييرى لا الزام فيه بل يندب اليه ندبا لانه من فضائل الاعمال ، كمسامحة المدين المعسر وابرائه من الدين نهائيا ، اقالة النادم من صفقته ، لان الحكم يجب ان يكون الزاميا فى كل ما تكون مخالفته منافية للمبادىء الانسانية وانحطاطا عن مستواها الادنى • أما فيما هو من فضائل الاعمال فلا يسوغ فى منطق التشريع الالزام فيه وهذا اللون من التمييز فى الاحكام بين التوجيه والالزام تخلو منه الشرائع الوضعية لانها لا علاقة لها بالفضائل المرتبطة بعقيدة الثواب فى الآخرة ، وانما مجالها فقط مقاطع الحقوق الالزامية ، كما تقدمت الاشارة اليه •

6 ــ هذا ، ومن أهم ما يبرز المعانى الانسانية فى روح الشريعة الاسلامية انها فى أحكامها التى تنظم قواعد السلوك والحقوق فى المجتمع لا تفرق بين البشر من حيث الجنس أو اللون أو اللغة أو الاقليم أو فارق مميز آخر ، ولا بين قائد عسكرى ومدنى ، ولا بين أمير وصعلوك ، ونبيل ووضيع • فالكل أمام قانون الشريعة سواء • ذلك لان الاسلام رسالة عالمية لا تعترف بحدود فاصلة فى الزمان أو المكان أو الاجناس للتمييز بين الناس فى المعاملة ، انطلاقا من قول الرسول (ص) : « **الناس سواسية كاسنان المشط** » ، وقوله : (لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى) ,بناء على قول الله تعالى فى القرآن العظيم : « **ان أكرمكم عند الله أتقاكم**» • وقد سجل التاريخ الاسلامى قضايا من أعظم المآثر الاسلامية فى محاكمة خلفاء أو ملوك مع بعض الرعايا العاديين امام فريق من

القضاة الذين لمعت اســــماؤهم ، كشريح القاضى الذى حاكم امير المؤمنين عليا رضى الله عنه مع يهودى ، وكمحمد بن عمران الطلحى قاضى المدينة الذى حاكم الخليفة المنصور العباسى فى أوج ســلطانه وعظمته وجبروته مع المكارين والحمالين فى المدينة المنورة ٠

وهذا لم يكن معهودا فى شرائع الامم المحيطة بالاسلام : فالرومان الذين تعتز أوروبا الى اليــوم بقانونهم وتعتبره أبا للشرائع كان عندهم قانونان : قانون للرومانيين يعطيهم امتيازا فى الاحــكام والحقوق ، وقانون آخر لرعايا الامبراطورية من غير الرومان يسمى : Jus Gensium (جوس جانسيوم) وفى الولايات المتحــدة الامريكية أعظم دول العالم وأرقاها اليوم وأكثــرها ازدهاء وتبجحا وافتخارا بالحرية والديموقراطية فى هذا العصر الذى يسمونه كذبا : عصر النور ، يوجد القانون الاسود BlackLaw الذى يعامل الرعايا السود من الامريكيين انفسهم ، ويحدد حقوقهم ويحــرمهم مما يتمتع به البيض بصورة تعتبر لطخة عار سوداء فى وجه حقوق الانسان المعلنة دوليا ٠

وحادثة جبلة ابن الايهم الزعيم العربى الغســانى الذى كان أميرا من قبل الرومان معروفة مشهورة فى عهد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه حين اسلم جبلة ثم ضرب رجلا من السوقة فاشتكى الى عمر فاراد عمر أن يقتص له منه فصعب على جبلة ان يعاقب فى اعتدائه على رجل عادى ، فعاد الى الروم متنصرا ، ثم ندم وأثرت عنه أبيات مشهورة قالها معربا عن ندامته ولكنه كان قد انساق فى طريق الباطل وصعب عليه الرجوع الى الاسلام ٠

ومثل ذلك حادثة ـ القبطى الذى ضربه ابن فاتح مصر عمرو بن العاص وأميرها الحاكم لان القبطى سبقه فى حلبة سباق عامة ، فعاقب عمر الولد الضارب وأباه الامير الحــاكم باعتبار انه انما فعل ذلك استنادا الى نفوذ ابيه ، وأطلق عمر فى سمع التاريخ كلمته الخالدة التى خاطب بها الامير وابنه بقوله : « منذ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا ؟! » ٠

ج) التمسك بالمقاصد الثابتة والتساهل فى الوسائل المتطورة :

وأما قضية المقاصد الاساسية والوسـائل المتغيرة المتطورة فان موقف الشريعة الاسلامية فيها واضح كل الوضـوح يدل على روح التسامح فى قبول التغير والتبدل فى الوسائل دون المقاصـد التى تعتبرها الشريعة ركنا فى تنظيم الحياة المثلى ، وجلب المصالح ودرء الفسـاد . فكما توجـد فى الطبيعة نواميس وقوانين كونية ثابتة كعوامل الحر والبرد والرياح والعواصف والاعاصـير ونمو النبات وذبوله والجاذبية الارضية وسقوط الاجسام وتوازن السوائل وغير ذلك ، توجد كذلك فى الحياة البشرية الاجتماعية قيم ثابتة خالدة لا يعتريها تغيير ويتوقف عليها صلاح الحياة وخلوها من الآفات .

فمن المقاصد الثابتة فى نظر الشريعة لصلاح الحياة : الشورى فى الحـكم والعدل فيه ، **واعتباره تكليفا لخـدمة الامة بامانة لا مغنما** ، واحقاق الحق وابطال الباطل ، ورد الامانات ، ووجوب التوازن بين الحقوق والالتزامات التي يفرضها التشريع ، والالزام بالعقود الصادرة عن حرية واختيار ، وتفاوت التكليف للمكلفين بحسب طاقاتهم ماليـا وعمليا ، ووجوب التنمية الاقتصادية العامة باستمرار لان الفقـر لا يمكن ان يكون خيرا فى الحياة ، ومنع المفاسد بمختلف انواعها (وان اختلفت انظار الامم فى تحديد هـذه الانواع) ، واقامة الزواجر الرادعة بالقدر الكافى للتاديب ، وتعميم التعليم ، والعناية بالفـرد وتوجيهه وتربيته وكرامته كالعناية بالجماعة دون المزيد فى احداهما على حساب الاخرى ، لان الجماعة الصالحة لا يمكن ان تتكون من افراد فاسدين او مهملين أو مكبوتين ، وتوفير مرافق العيش الكريم والعمل والامان والثقة بقدر الامكان للمواطنين ، الى غير ذلك مما لا يحصى من القيم الثابتة فى الحياة الاجتماعية .

ونريد بالمقاصد فى هـذا المقـام معناها الاجتماعى اى كل ما هو ضرورى فى اقامة الحياة الصالحة ولو كان هو فى ذاته وسيلة لغيره . فالشورى فى الحكم من المقاصـد وان كانت فى ذاتها بالمعنى المنطقى وسيلة لعدم الاستبداد الذى يكون فيه الخطأ والضرر العام اكثـر

احتمالا ووقوعا · اما الوسائل فنريد منها هنا طرق التطبيق واساليبه المحققة للمقاصد ، والتى يمكن ان تقوم فيها طريقة مقام اخرى ، واسلوب مقام آخر ·

وعلى هذا الاساس كانت الشورى فى الحكم قاعدة اساسية من المقاصد لا تقبل الشريعة الاسلامية بها بديلا ·

اما وسيلة تحقيقها فلم تحددها الشريعة فتقبل فيها انطرق والاساليب المتطورة نتيجة للتجارب المتعاقبة فى اختيار الافضل · فيقبل فى هذا السبيل النظام النيابى البرلمانى او النظام الرئاسى ، او الملكية الدستورية وتقبل طريقة جمع السلطات الثلاث او تفريقها مادام كل ذلك يؤدى الى الشورى الصحيحة واشتراك الراعىوالرعية فى الرأى دون استبداد فردى أو ميراث الحكم ، ويحقق اختيار الشخص الاصلح الاقدر فى كل موضوع بحسبه ·

والمبدأ الثابت الذى لا يقبل التطور فى تولية العمل هو ما نبه اليه الرسول (ص) وأنذر فى صحيح أحاديثه الشريفة ثبوتا من أن تولية انسان عملا عاما من أعمال الدولة مع وجود من هو أصلح لهذا العمل وأولى به منه يعتبر خيانة لله ولرسوله وجماعة المسلمين · فالمهم تحقيق هذا المبدأ العام ولا يهم بعد ذلك نوع النظام الذى يؤدى الى تحقيقه بصورة أفضل ورقابة اكمل ·

ومثال آخر : أن الشريعة قد أمرت باقامة القضاء العادل عن علم وبينة ، ولكنها تركت طريق تحقيق هذه الغاية دون تحديد لوسائلها وأساليبها · فيقبل فيها طريقة القاضى الفرد ومحكمة الجماعة ، وكون القضاء على درجة واحدة أو درجات وهكذا فى بعض القضايا الصغرى او المدنية ، وهكذا فى القضايا الكبرى أو الجنائية · فكل ذلك من الوسائل والاساليب تتركه الشريعة لقاعدة المصالح المرسلة تختار فيه الامة والسلطات المسؤولة ما هو الاصلح بحسب الزمان والمكان مادام يحقق الغاية المقصودة ·

هذا هو الوجه الاجمالى لروح الشريعة الاسلامية بملامحه وخطوطه الرئيسية نكتفى بهذه الصورة العاجلة له والتى تدل على اصالةوثبات

واستجابة لحاجات الزمن وعمق فى الجذور ، ومتانة فى الجذوع . وقد قام من حوله فقه ملأ أقطار العالم سعة وشمولا ، وبهر المتأملين دقة واحكاما . ولكن ضيعه وعزله عن الحياة اليوم فى معظم اجزاء العالم الاسلامى أبناء عققة جهلوا تراثهم - والمرء عدو لما جهل - وتطلعوا الى الاستيراد والاستجداء فيما هم فيه أغنى الامم .

الجانب الثانى - واقع التشريع فى العالم الاسلامى اليوم :

بمجرد انتشار الاسلام فى أعقاب الفتح الاسلامى أصبحت الشريعة الاسلامية هى القانون والنظام السائد فى البلاد التى خضعت لحكم الاسلام عربية أو غير عربية ، وظلت مطبقة فيها دون منافس فى تنظيم العلاقات الحقوقية ، وفى سائر وجوه النشاط فى الحياة ، فى العصر الاسلامى الاول ، ثم فى عهد الدولة الاموية ثم الدولة العباسية حتى بعد ظهور النزعات الاستقلالية لدى حكام وامراء الاقاليم ، وانقسام الدولة الاسلامية فعليا الى دول ودويلات عديدة يحكمها حكام عرب أو غير عرب ، الى أواخر عهد الخلافة العثمانية . ولكن كانت المذاهب الفقهية الاربعة (الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى) موزعة فى العمل بها بين الاقطار . فبعض الاقطار الاسلامية يعتمد مذهب أحد الائمة ، وبعضها يعتمد مذهبا آخر . وكانت عمدة القضاء فى كل ذلك على الرأى الارجح فى كتب المذهب السائد فى كل قطر . وكان المذهب الحنفى هو السائد فى رقعة الدولة العثمانية على اتساعها . لكن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كان لاول مرة فى البلاد الاسلامية أن عمدت الدولة العثمانية الى تقنين الشريعة من المذهب الحنفى . ثم عمدت ايضا الى اصدار عدة تشريعات استمدت أحكام بعضها (كقانون الاراضى) من الشريعة الاسلامية ، واستمدت بعضا آخر من القوانين الاوروبية ولا سيما الفرنسية منها ، كقانون التجارة والقانون الجنائي .

وبعد احتلال الشمال الافريقى من قبل فرنسا واسبانيا وايطاليا واحتلال بريطانيا لمصر ولعدن والجنوب العربى والخليج العربى ، ثم تجزئة الدولة العثمانية فى أعقاب الحرب العالمية الاولى ، حيث توزعت بريطانيا وفرنسا العراق وفلسطين وشرق الاردن ، أصبحت البلاد العربية كلها تقريبا (سوى المملكة العربية السعودية واليمن) تحت

الحكم الاجنبى بمختلف الاسماء من حمايه ووصايه وانتداب واستعمار ، وقامت كل دولة من الدول الاوروبية المحتلة المستعمرة بفرض قوانينها تدريجيا على البلاد التى تحتلها سوى مصر فانها كانت أخذت القانون المدنى الفرنسى قبل ذلك وتأثرت بالتشريعات الفرنسية فى مجالات أخرى واستمرت على ذلك بعد الاحتلال الانكليزى ٠

وفى جميع تلك البلاد العربية التى خضعت للاحتلال الاجنبى انحسر وانجزر تطبيق الشريعة الاسلامية ، وغزاها المد التشريعى الاجنبى ، الا فى نطاق الاحوال الشخصية ، ونشأ فى تلك البلاد ثلاثة أنواع من القضاء :

- القضاء الشرعى للاحوال الشخصية وما يتصل بها
- والقضاء الوطنى فى كل ما سوى ذلك
- والقضاء الاجنبى فى بعض البلاد ، أو القضاء المختلط من قضاة وطنيين وأجانب فى بعض آخر بحسب كون البلد محكوما حكما مباشرا أجنبيا أو باسم انتداب من عصبة الامم كالوصاية على القاصرين بزعم ايصال البلاد الى الرشد السياسى !!

ومثل ذلك يلحظ فى جميع البلاد الاسلامية غير العربية مما احتلته القوى الاجنبية المستعمرة فى آسيا وقلب افريقية وفرضت تشريعها وقضاءها على أهله المسلمين ٠ بل منها ما أخضع فيه المسلمون فى أحوالهم الشخصية أيضا للقانون الاجنبى الذى فرضه المحتل كما فى البلاد الاسلامية التى وقعت تحت احتلاد الاتحاد السوفييتى الشيوعى ٠

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل ان لغة القوانين والقضاء ايضا أصبحت فى كثير من البلاد العربية لغة أجنبية هى لغة الدولةالمحتلة، وتعددت المصطلحات القانونية والقضائية وتباينت مدلولاتها حتى ما ترجم منها الى العربية ٠

واستمر الحال كذلك الى ما بعد الحرب العالمية الثانية حيث استقلت بعض البلاد الاسلامية والعربية ، وتلاحق استقلال سواها ، وتفشت موجة من الالحاد ومن النزعات القومية ولجأت معظم البلاد العربية الى

اصدار تقنينات حديثة فى مختلف فروع القانون من مدنى وتجارى وجنائى وسواها ، مستمدة اياها من القوانين الاجنبية ، سوى احكام الاحوال الشخصية فانها قننت فى كثير من البلاد العربية من الشريعة الاسلامية بمعناها الواسع دون تقيد بمذهب فقهى معين ، وبعض البلاد العربية التى استقلت ظل محافظا على قوانينه التى حكم بها فى عهد الاحتلال • ومعظم هذه التشريعات الحديثة صدر بعد انشاء جامعة الدول العربية •

والبلد الوحيد العربى الذى ظل حتى اليوم محافظا على التمسك بالشريعة الاسلامية عمليا فى القضاء ولو مع التقيد الضيق بمذهب معين هو المملكة العربية السعودية •

وفى معظم التقنينات المدنية الحديثة فى البلاد العربية استرضى الشعور الاسلامى (أو جرت محاولة استرضاء) للفئات المثقفةاسلاميا والمنادية بضرورة استمداد التقنين الحديث من الشريعة الاسلامية وفقهها العظيم فى عهد الاستقلال والتحرر من التبعية • وهذه المحاولة الاسترضائية كانت عن طريق النص فى هذه القوانينالمدنية الحديثة على اعتبار الفقه الاسلامى المصدر الرئيسى (أو مصدرا رئيسيا) فى كل ما سكت عنه القانون ولم يتناوله لا بلفظه ولا بفحواه ، (وأنى يفلت شيء من نص القانون ومن فحواه) • كما ذكر فى المذكرات الايضاحية ان بعضا من أحكام القانون استمد من الفقه الاسلامى ، ولكن بقيت نصوصه فى صياغاتها تمد أيديها الى المراجع الاجنبية التى ارتبط بها القضاء والدراسة والتعليم الجامعى والبحوث ، وأصبح الفقه الاسلامى يمس مسا جانبيا للمقارنة عند الاقتضاء ، حتى فيما يمكن تخريجه من نصوص القوانين المدنية الحديثة على أحكام الشريعة وتنزيله على فقهها ، ذلك لان المصدر الاجنبى هو الملحوظ فى الدرجة الاولى فهو الذى يستقطب انظار الباحثين والدارسين •

على ان المملكة الاردنية لا يزال منذ العهد العثمانى تقنينها المدنى هو مجلة الاحكام العدلية التى قننت الدولة العثمانية بها المذهب الحنفى وان كانت قد اخترقتها بالاستثناءات الكثيرة قوانين عديدة مستمدة من مصادر اجنبية •

وبعد هذا العرض الاجمالى يمكن تلخيص واقع التشريع فى البلاد الاسلامية كما يلى :

أ) فى الاحوال الشخصية تعمل معظم البلاد الاسلامية بأحكام الشريعة الاسلامية اما مقننة من مختلف المذاهب كما فى مصر وسورية والعراق والاردن والمغرب او غير مقننة مع التقيد بمذهب معين كالمذهب الحنبلى فى المملكة السعودية ، والمذهب المالكى فى الكويت ، والمذهب الحنفى فى باكستان والمذهب الشافعى فى اندونيسيا والصومال .

ب) اما الحقوق المدنية (المعاملات) فالبلاد العربية تنقسم بالنسبة لها الى المجموعات التالية :

1 ـ مجموعة تعمل بقانون مدنى اجنبى المصدر،وهى جمهورية مصر العربية ، وسورية ، ودول المغرب العربى الثلاث وليبيا والسودان .

2 ـ ومجموعة تعمل بالفقه الاسلامى مقننا ، وهى المملكة الاردنية والكويت اذ تطبقان مجلة الاحكام العدلية المستمدة كليا من المذهب الحنفى منذ العهد العثمانى مع اختلاف بين هذين البلدين فى مدى الاستثناءات التى انتزعت بها موضوعات من المجلة واخضعت لتقنينات حديثة أجنبية المصدر .

3 ـ ومجموعة تعمل بالفقه الاسلامى غير مقنن ومن مذهب معين ، وهى المملكة العربية السعودية والجمهورية اليمنية .

4 ـ وبلد يعمل بقانون مدنى أجنبى المصدر لكنه مطعم الى حد ما تطعيما بالفقه الاسلامى وهو العراق .

أما البلاد الاسلامية غير العربية فمعظمها يسوده التقنين المدنى الاجنبى الذى كان فيه من عهد الاستعمار ، وبعضها يسوده تقنين مستحدث اجنبى المصدر .

الجانب الثالث) ـ اتجاه جديد فى البلاد العربية نحو التشريع الاسلامى وفقهه ، والطريق الواجبة فيه :

يظهر اليوم فى البلاد العربية تحرك باتجاه الشريعة الاسلامية وفقهها وشعور بالتفريط السابق ، وبوجوب الرجوع الى الخط الاسلامى الذى لا ينفع المسلمين سواه ولا يصلح لهم ، ولا ينجيهم من تالب الدول عليهم . وقد ازداد هذا الشعور بعد الكارثة الكبرى

التى حاقت بالبلاد العربية سنة 1967 التى انهزمت فيها الدول العربية فى حرب الايام الستة مع اسرائيل واقتطعت هذه من جسم البلاد العربية أجزاء ثمينة جدا ذات قيمة عسكرية واقتصادية · على ان هذا الشعور بلزوم الرجوع الى الله وشريعته ، حتى بعد تلك الكارثة الكبرى ، لم يكن عاما فى البلاد العربية بسبب مختلف التيارات الفكرية والعقائدية التى تسود نظم الحكم المختلفة فيها ·

وهذا التحرك اليوم نحو الشريعة الاسلامية وفقهها هو فى معظم البلاد شعبى ، وفى بعضها حكومى رسمى ·

– ففى مصر تالفت لجان غير رسمية فى مجمع البحوث الاسلامية فى الازهر من فقهاء المذاهب ورجال القانون لتقنين الفقه الاسلامى من كل مذهب من المذاهب الاربعة على حدة ، تمهيدا لصياغة قانون مدنى مستمد من مجموع هذه المذاهب ولا يزال هذا المشروع الشعبى ماشيا وقد طبع من نتاجه تقنين عقد البيع فى المذاهب الاربعة وهو عمل حميد مفيد مشكور وان كان طويل المدى جدا ·

– وفى ليبيا تعلن قيادتها الثورية الحاكمة بلسان العقيد القذافى رئيس مجلس قيادة الثورة فيها خطة تغيير شامل فى التشريع القائم فيها وجعله مستمدا من الشريعة الاسلامية وفقهها ، وينفذ هذا فعلا فى تقنين جباية الزكاة وفى اعلان بعض الحدود من العقوبات الاسلامية ، وتدعى له علماء الشريعة من مختلف البلدان للاجتماع فى ندوات علمية تبحث فيها موضوعات شتى من الشريعة الاسلامية وفقهها ، امدادا لخطة العمل الرسمية فى تغيير التشريع القائم باتجاه الاحكام الاسلامية ·

وفى المملكة الاردنية اليوم ألفت لجنة رسمية من مجلس النواب والاعيان (الشيوخ) وبعض الخبراء من غير المجلسين لوضع مشروع قانون مدنى مستمد من الفقه الاسلامى العظيم بمعناه العام من مختلف المذاهب مطعما بما تدعو اليه الحاجة الزمنية من نظم واحكام جديدة كالتأمين والتسجيل العقارى وعقود التوريد والنشر وغيرها من الحاجات الحديثة ·

ويسعدني أن أكون فيهذه اللجنة أعمل جاهدا في خدمة هـــذا المشروع الجليل الذي اذا يسر الله تعالى تمامه باتقان فسيكون ريادة ميمونة تشق الطريق للبلاد العربية والاسلامية كلها ٠

والواقع انهاذا كانتوحيد التشريع في البلاد العربية كلها مصلحة أساسية وواجبا محتما ـ وهو كذلك ـ فانه لا يمكن بحال من الاحوال ان تجتمع هذه البلاد على قانون موحد اجنبي المصادر ، وانما تجتمع على شيء مســـتنبت من أرومتها الخالدة ، ونابع من أعماق شريعتها الغراء السمحة وفقهها الغزير الفياض الذي لا ينضب معينه ، وهو من أنفس وأثمن ما عرف تاريخ الامم من شرع وفقه ٠

ويرى بعض الباحثين من رجـــال الفكر اليوم ان مشروع القانون المدني الموحد المنشود المستمد من الشريعة الاســـلامية وفقهها العام افضل طريق لتخطيطه وتنفيذه هو جامعة الدول العربية ، بوساطة خبراء تندبهم لهذا العمل (انظر محاضرات في الفقه الاســـلامي ومشروع القانون المدني الموحد في البلاد العربية للاســـتاذ محمد شفيق العاني ص/143ـ145) ٠

حقق الله تعالى لهذه الامة مزيدا من الرشد ، شـــعوبا وحكاما ، وأزاح عن بصائرها كل غشـــاوة لترى الحقائق ، وتجتنب المهاوي والمزالق ٠

« **وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين** » ـ النحل /9 ٠

« **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم** » ـ الرعد 11 ـ ٠

مــن آثــــار ابــن العنــــابى

د . أبو القاسم سعد الله
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر

سبق ان عالجنا كتاب (1) السعى المحمود فى نظام الجنود) الذى يعتبر من أهم آثار ابن العنابى العلمية .

وبالاضافة الى (السعى المحمود) ترك ابن العنابى آثارا أخرى كثيرة منها الرسائل والفتاوى والاجازات والكتب والاشعار . وهى جميعا ثروة ضخمة لو جمعت، أو جمع منها البعض لعرفنا صورة صادقة عن شخصية ابن العنابى وعصره وثقافة علماء عصره . ولكن يد البحث ما زالت لم تمتــد الى هــذا التراث بالجمع والفحص والتصنيف والنقد . والى ان يحين هذا نكتفى هنا بوقفات قصيرة فيما قد عثرنا عليــه من انتاج ، تاركين البقية للباحثين الآخرين .

(1) أنظر الاصالة ، عدد 31 ، مارس 1976 .

1) الفتـــــاوى :

وأول ما يلفت النظر كثرة فتاوى ابن العنابى · وقد نقل عنه هذه الفتاوى علـــماء الجزائر وعلمـــاء تونس وعلـــماء مصر وغـيرهم · ولا غـرابة فى ذلـــك فالرجـل كان متمكنا من علوم الدين ، حافظا ، عميق المعرفة وله بعض الآراء المنسجمة مع روح العصر ، وكان كثير الاسفار ، مقربا من السلطة السياسية ، ويبدو انه كان يتمتع بجرأة كبيرة أيضا · ثم انه تولى مناصب دينية عديدة تجعله عرضة لابداء الرأى فى كثير من القضايا التى ترد عليه سواء من رجال الدولة أو من رجال العلم أو من العامة فقد عرفنا انه تولى منصب الفتيا والقضاء والتدريس والاوقاف ونحو ذلك ولا شك ان له ثروة طائلة من الفتاوى بعضها ضاع وبعضها ما زال موجودا ·

وقد اطلعنا له على مجموعة من هذه الفتاوى ، منها اجوبته على ستة اسئلة وجهها اليه بعضهم من بلاد الروم ، ويغلب على الظن انه من النصارى ، وهو الذى تشير اليه الوثائق باسم (الرومى)· وقد وجدنا نسختين من هذه الاجوبة : نسخة مكتوبة بخط جيد لكن مليئة بالاخطاء وليس لها عنوان خاص ، وهى تقع ضمن مجموع (1) · اما النسخة الاخرى فهى مكتوبة بخط تونسى جيد ، ولعله خط الشيخ محمد بيرم الرابع ، وتكاد تخلو من الاخطاء (2) وليس فى النسختين أية اشارة الى تاريخ نسخها أو كتبها · غير أن فى النص ما يدل على أن ابن العنابى قد كتب أجوبته قبل الاحتلال الفرنسى للجزائر · ذلك انه ذكر فى جوابه على السؤال الثانى قوله فى نهايته : « وعلى هذا كان العلماء الورعون من حنفية بلادنا دار الجهاد والعلم ، الجزائر حرسها الله تعالى » (3) وعبـارة « دار الجهاد » كانت تستعمل للجزائر فى العهد العثمانى وليس فى العهد الفرنسى · ولكن تاريخ الاجابة يبقى ، مع ذلك ، غير محدد · اما مكانها فهو أيضا غير مذكور ، ولكن

(1) رقم 194 ، المكتبة الوطنية ــ تونس · ورقات 18 ــ 24 ·

(2) رقم 9732 المكتبة الوطنية ــ تونس · ورقات 70 ــ 75 ، ضمن مجموع أيضا ·

(3) نفس المصدر · ورقة 72 ، كذلك ذكر فى جوابه على السؤال السادس عندما نقل عن جده انه كان مفتى الجزائر « حرسها الله » وهى عبارة تدل على انها كانت غير محتلة من الفرنسيين ، انظر ورقة 74 ·

يغلب على الظن انه كتبها خارج الجزائر ، بدليل العبارة السابقة ، لان ابن العنابى لو كان فى الجزائر لما قال عبارة وعلى ذلك « حنفية بلادنا » لانها عبارة يستعملها العلماء عادة عندما يكونون خارج بلادهم ·

ومما يلاحظ اننا لا نعرف بالضبط من توجه بهذه الاسئلة الى ابن العنابى غير ان هناك ما يدل على ان السائل كان شخصا «روميا» أو من بلاد الروم· فعنوان نسخة الشيخ محمد بيرم هو « الفتح القيومى بجواب اسئلة الرومى » كذلك ورد فى ثلاثة اماكن على الاقل من النص اشارة الى بلاد الروم.ففى مقدمة الاسئلة هذه العبارة « وهل اذا مات الميت وطلع شخص من الجن فى صورة ذلك الميت وغيره ويجامع زوجته يجوز حرق ذلك الميت كما فى بعض بلاد الروم أولا ··· » وفى الجواب على هذا السؤال اشار ابن العنابى الى هذه البلاد (بلاد الروم) بقوله : «على ما ذكر السائل وغيره ممن جال فى تلك البلاد» وقد جاء فى نهاية الاجوبة « فلا يبعد ان يكون ما اصاب بعض أهل البلاد الرومية من واقعة السؤال الخ ··· » وهكذا يتضح ان السائل من بلاد الروم وان هناك بعض الامور التى كانت تجرى فى هذه البلاد دون غيرها فاستحقت استفتاء ابن العنابى عليها · والمهم ان الاسئلة عبارة عن استفتاءات وجهت الى ابن العنابى ، ولعلها قد وجهت الى غيره أيضا فاجاب عنها كل عالم بما يرى ، ومن ذلك رأى ابن العنابى خاصة ·

ومهما كان مصدر وتاريخ ومكان هذه الاسئلة فانها تتعلق بمسائل جديرة بالدرس اليوم ، ولا سيما بعضها كما سنوضح · وجملة الاسئلة ستة · وهى كما يلى :

1) هل يجوز تقليد مذهب الغير فى صلاة الجمعة والعيدين فى القرى أولا ؟

2) وهل يجوز صيد الطير بالرصاص أو الرش أولا ؟

3) وهل اذا اتخذت المرأة رجلا اجنبيا أخا لها فى الله يجوز لها ان تكشف عليه وينظر منها ما عدا بين السرة والركبة او لا ؟

4) وهل يجوز للمسلم ان يؤاخى الذمى كما يؤاخى المسلم أولا ؟

5) وهل اذا مات الميت وطلع شخص من الجن فى صورة ذلك الميت وغيره ويجامع زوجته يجوز حرق ذلك الميت كما فى بعض بلاد الروم أولا ؟

6) وما السبب في ذلك ؟

وهكذا وردت الاسئلة بالجملة اما الاجوبة عليها فكانت بالتفصيل ، فقد اجــاب ابن العنابي على كل سؤال اجابة طويلة محللة ومعللة ، كعادته ، فبالنسبة للسؤال الاول كان رأيه الجواز ذلك انه يجوز للعامي في القرى تقليد من يرى جواز اقامة تلك الصلوات • وقد عزز ابن العنابي رأيه بمواقف لعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وعدد آخر من الصحابة والتابعين ، وبموقف الظاهرية وغيرهم • وقد أكد ان « التزام المذهب المعين ••• غير ملزم ولا واجب ، مستدلا على ذلك بعدد كبير من أقوال الفقهاء والاصوليين • ومما يلفت النظر قول ابن العنابي في هذه المسألة ان « الواجب على العامي تقليد عالم لا بعينه كما يفيده قوله تعالى « فاسئلوا أهل الذكر ان كنتـــم لا تعلمون ـ فمتى فعل ذلك فقد اتى بواجب عليه فصار خارجا من العهدة » •

وفي جوابه على السؤال الثاني أكد ابن العنابي بان القدماء لم يتعرضوا لمشكلة الصيد بالرش والرصاص لان « الرمي البارودي مما حدث بعد المسألة السابقة فلا ذكر لاحكام الصيد المصاب به في كتب الاقدمين • » كما ان المتاخرين لم يتعرضوا له » (4) • وقد استعرض ما جاء في كتب « اصحابنا » عن الرمي بالبندقية والحجر والمعراض ، مؤكدين ان صيدها غير حلال لانها تقتل بالرمي والكسر ونحوها ولا تجرح فيكون الميت بها « في حكم الموقوذة » وبناء على جواب ابن العنابي فان نتيجة هذا الصيد لا تنطبق على صيد « بنادق الرصاص ورشه المرمية بنار البارود » لان الرمية بها تنفذ نفاذا أقوى من نفاذ السهام « كما يعرفه كل من تعاطى الرماية البارودية » وقد انتهى الى تلخيص رأيه في الموضوع وهو ان كل رماية نافذة قاتلة بجرح لا بكسر أو رض يعتبر صيدها حلالا وهذا نص عبارته « فالذي يتعين ان يقال به في مرميه (الرمي البارودي) انه متى تحقق جرحه وسيلان دمه بحيث يغلب على الظن ان موته من الجرح لا من رض أو كسر

(4) علق الشيخ محمد بيرم على قول ابن العنابي انه لم ير من تعرض للمسألة مـــن المتأخرين فقال انه اطلع على من علق على اجابة ابن العنابي كاتبا ان هذه المسألة قد « عرج عليها من المتأخرين صاحب البحر وصاحب المنح واتفقا فيها على عدم الحل » وأورد محمد بيرم نص ذلك • أنظر الورقة 75 من الاجوبة •

فانه يحل أكله • وبعد ان استشهد لرأيه بنقول كثيرة من « أئمة المذهب » والاحاديث حكم بان الرصاص والرش من أقوى وسائل الصيد سيلانا للدم « كما هو معلـــوم بالمشاهدة الفاشية » لذلك فان صيدها حلال • وكان هذا هو المعمول به حسب رأيه لدى علماء الحنفية بالجزائر •

ويتبين من هذا الجواب ان ابن العنابى يستعمل القياس وانه لا يتردد فى البحث عن أقوال الأقدمين والمتأخرين فيما عرض لهم ، فان وجده أخذ به أو ناقشه والا اعتمد على التجربة « والمشاهدة الفاشية » وهذا الموقف يجعله يسير فى نفس النهج الذى سلكه فى كتابه (السعى المحمود) عندما دعا الى التجديد والتطور فى المسائل التى لم تعرض للقدماء والتى يحتاجها المجتمع الاسلامى الجديد •

ولابن العنابى رأى جدير بالتأمل نجده فى اجابته على السؤال الثالث • ذلك انه يرى انه لا يجوز للمرأة الشابة ان تكشف وجهها للاجنبى كما لا يجوز لها ان تكشف له أكثر من باطن كفيها وما تحت الكعبين من قدميها • واذا كان هذا رأيه فى حكـم النظر فاحرى ان يكون اشد محافظة فى حكم المس وهذا نص عبارته « لا يجوز للمرأة ان تكشف للاجنبى سوى باطن كفيها وما تحت الكعبين من قدميها • وأما الوجه فانه وان لم يكن عورة فى حق الصلاة وحق النظر اليه ، ان أمن الشهوة ، فانه تمنع المرأة الشابة من كشفه بين الاجانب دفعا للفتنة وحسما لمادة الفساد والشر • وحكم المس فى ذلك اغلظ » • وبعد ان استدل لرأيه السابق من بعض الكتب السابقة زاد رأيه مبالغة فقال انه لا يجوز للمرأة « وان كانت عجوزا فانية » ان تكشف للاجنبى عـــن عضديها وذراعيها وما اشبه ذلك » •

أما المؤاخاة بين المرأة والرجل الاجنبى فى الله فقد وقف منها ابن العنابى موقفا صارما ، ولم يعد فى ذلك لاى موقف سابق للاقدمين بل اندفع يبدى رأيه الشخصى فى الموضوع قائلا انها : « من كبائر المعاصى » وفصل الرأى فى فاعلها فقال ان آخـى الرجل المرأة معتقدا ان ذلك قربة « كما يقع من كثير من الدراويش المتقشفة » فهو كافر لان هذا الرجل قد استحل حراما قطعيا ، مستدلا بالآية الكريمة « ولا يبديـــن زينتهن » ومعللا بان اجماع المسلمين منعقد على ذلك • هذا اذا كان فاعله واعيا عاقلا •

أما اذا كان فاعل الحرام القطعى (مؤاخاة المرأة) جاهلا أو غبيا فانه يزجر ويشهر بعمله، فاذا تمادى في عمله فقد طالب ابن العنابى « امراء الاسلام » بقتله لانه فى نظره زنديق ظاهر الزندقة . « والزنديق اذا اخذ قبل التوبة قتل ولا تقبل له توبة » .

وقد خرج ابن العنابى عن موضوعه الأصلى ليحمل حملة كبيرة على من يسميهم تارة « بالزنادقة » وتارة بالدراويش المتقشفين . فقد اعتبر عمل هؤلاء من اعظم ما اصاب الاسلام واهله من الفساد والشر وقال ان الضرب على ايدى هؤلاء « من اعظم ما يتقرب به الى الله » بل هو الجهاد الحقيقى . وحكم على ما يبدونه من الورع والصلاح بانه محض مكر وخداع . ودعا الله ان يكشفهم ويلعنهم ويسحقهم عن طريق « ملوك الاسلام الذابين عن حمى شريعة سيد المرسلين » .

وهذه الحملة من ابن العنابى فى ذلك الوقت لها أكثر من مبرر . فقد عرفنا أنه قد يكون كتب هذه الاجوبة خارج الجزائر (مثلا فى اسطانبول أو مصر) وانه كتبها قبل 1830 ، وهى الفترة التى تحدثنا عن اهميتها فى تطور المجتمع الاسلامى . ذلك ان هؤلاء الدراويش أو الزنادقة الذين يتحدث عنهم كانوا حملا يشكلون حجر عثرة فى طريق تقدم الاسلام وأهله وقد عانت منهم الدولة العثمانية أشد المعاناة عندما وقفوا فى طريق الغاء نظام الانكشارية ونحوه من النظم البالية ، وعندما عارضوا كل تقدم كانت الدولة ستأخذ به من أجل تطوير المجتمع . وقد تحدث ابن العنابى عن هؤلاء القوم فى كتابه (السعى المحمود) بطرق أخرى ، تعرضنا اليها . وكان خروجه عن الموضوع الاصلى (المؤاخاة فى الله بين الرجل الاجنبى والمرأة) طفرة أخرى من الطفرات التى يدفعه اليها حبه للتجديد وثورته على التقاليد العقيمة التى تشكل الطائفة التى يشير اليها عقبة فى طريق تحطيمها .

ولنورد فقرة صغيرة من هذا النص ، وهى جديرة بالتامل والوقوف . فهو يقول : « ورفع فساد هؤلاء الزنادقة ، الذين ادخلوا على الاسلام وأهله اعظم الفساد والشر ، من اعظم ما يتقرب به الى الله تعالى ، فهو من اعظم الجهاد . ولا يعتبر بما يظهرونه من الصلاح والنسك فانه من مكر الزندقة وخداعها ، اخزاهم الله وابعدهم وسلط عليهم من ملوك الاسلام الذابين عن حمى شريعة سيد المرسلين ، من يشتت شملهم ويحسم مادة

فتنتهم وشرهم » . وانظر انه كرر عبارة «من اعظم» ثلاث مرات ، وقد كرر عبارة «ملوك الاسلام » مع عبارته السابقة : «امراء الاسلام» ولكنه قيد العبارة الاولى بهذا الوصف المهم وهو « الذابين عن حمى شريعة سيد المرسلين » ذلك ان ملوك الاسلام ليسوا جميعا في هذا المستوى الذى يطالب به ، فمنهم من كان يتغاضى عمن اعتبرهم ابن العنابى زنادقة، مشجعين لهم على افعالهم، ومنهم من كان هو نفسه زنديقا بمقتضى المقياس الذى ذكره ابن العنابى .

ومن المهم ان نقارن ما أثاره هنا من قضايا بما أثاره فى كتابه (السعى المحمود) وخاصة حديثه الموجه الى السلطان محمود الثانى العثمانى . ولا نستغرب ان يكون ابن العنابى يعنى بهؤلاء الزنادقة طائفة المتصوفة وأهل الطرق الذين كانت لهم مواقف من النوع الذى يشير اليه كاظهار النسك واخفاء المحرمات. وهو فى هذا يعد من الثوار على أهل الخرافة والشعوذة والطرقية والمتاجرة بالدين فى وقت مبكر نسبيا . ولعله من الافضل مقارنة رأيه هذا فيهم برأى عبد الكريم بن الفكون فيهم أيضا، وهو الرأى الذى عبر عنه فى كتابه « منشور الهداية فى حال من ادعى العلم والولاية » الذى الفه قبل كلام ابن العنابى باكثر من قرن .

وفى جوابه على السؤال الرابع « مؤاخاة المسلم للذمى » اباح ابن العنابى مؤاخاة المسلم للذمى بشرطين الاول الضرورة الى ذلك والثانى عدم ميل القلب . وقد فسر الضرورة بانها « مصلحة معاشية يبيحها الشرع » فاذا اقتضى الحال الاجتماعى ذلك وكان قلب المسلم خاليا من حب الكافر «فلا بأس بذلك» اما اذا آخى المسلم الذمى مع ميل القلب وتعظيم الكافر فى الباطن فالامر فى نظره يختلف ، فهو من أكبر الكبائر ، بل اعتبر ذلك منافيا للايمان الذى يشترط فيه « الحب فى الله الشامل لجميع ما يحبه الله ورسوله والبغض فى الله الشامل لجميع ما يبغضه الله ورسوله » وقد استدل ابن العنابى على رأيه هذا بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » . ونصح بأن يروض المسلم نفسه على كراهة الكفار بقلبه وعلى تجنبهم فى المعاشرة وعدم مخاطبتهم « الا لضرورة لابد منها » على ان يحترز المسلم من ميل القلب اليهم لان ميل القلب اليهم يؤدى الى سلب الايمان من قلب المسلم .

ويلاحظ المرء على جوابه فى هذه المسالة شدة حرصه على مراعاة المسائل الدنيوية الضرورية والمسائل الدينية · فهو بقدر ما كان متعصبا فى شؤون الدين كميل القلب والاعجاب بآثار اهل الذمة ونحو ذلك بقدر ما هو متساهل فى الاخذ باسباب الحياة منهم ، وهو الموضوع الذى طرحه بشكل أوسع فى كتابه (السعى المحمود) ·

وقد افتى ابن العنابى فى السؤال الخامس بجواز حرق صورة الميت الذى يظهر بالطريقة التىأثارها السائل · ولكنه تحفظ كثيرا حول هذه النقطة ذلك انه عالجها بطريقة فرضية لا قطعية فكانه لا يؤمن فى الواقع بمثل هذه الحوادث ولكنه اجاب مع ذلك بانه ادا وقعت يقطع دابرها بالحرق · ومن ثمة نجده يكثر فى جوابه من مثل « اذا شهدت التجربة الصادقة المستمرة » « وان لم نطلع على حقيقة السر فى ذلك » وقد قاس هذه المسألة كعادته ، على مسألة أخرى وهى تقوم على ان حرمة الحى مقدمة على حرمة الميت · كشق بطن المرأة الميتة اذا ثبت ان فى بطنها طفلا حيا ، رغم أنه من « المعلوم ان شق البطن فيه هتك حرمة الميت» · كما قاسها على القاعدة التى تنص على انه اذا تعارض ضرران يرتكب اخفهما قائلا : « اذا تعارضت بليتان وجب ارتكاب اقلهما ضررا » · وقد استدل لهذه النقط ونحوها فى الجواب بآراء أئمة المذهب الحنفى ، وبالسنة النبوية ·

وآخر سؤال اجاب عنه هو قول السائل « وما السبب فى ذلك ؟ » ولكن ابن العنابى كان غير مطمئن لذلك أيضا فاجاب بأنه لا يكاد يجزم به · وهذه هى عبارته « ان هذا أمر مغيب لا نقطع فيه بشىء » ولكنه استنتج من الحادثة « سوء عاقبة » صاحبها ذلك ان المؤمن الحقيقى لا يواجه مثل ذلك وقد استدل ابن العنابى على شقاء من وقعت له هذه الحوادث بآيات واحاديث وآراء فى التفسير · ومن هذه النقول التى اعتمد عليها نقله عن جده الاكبر فى تفسيره متى تكون البشرى للمؤمن فقال : انها فى ثلاثة مواضع « عند الموت وفى القبر وعند البعث » ·

كذلك نقل عن جده الاكبر أيضا تفسيره معنى قوله تعالى : « نحن أولياؤكم » حيث فسرها « أى تقول لهم الملائكة عند نزولهم للبشر نحن أولياؤكم أى انصاركم وأحباؤكم فى الحياة الدنيا فنلهمكم الحق ونحملكم على الخير وفى الآخرة بالشفاعة والكرامة لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة » ·

واستنتج ابن العنابى بان ما قد حدث لهذا الميت من تصور الشيطان بصورته يدل على ان الميت كان بعيدا عن مصاحبة الملائكة له · واضاف بانه قد « لا يبعد ان يكون هذا نوعا من المسخ الواقع فى آخر الزمان » مستدلا بحديث مروى عن امارات الساعة التى قد تكون منها ما حدث عنه السائل · ويهمنا ان نعرف ان ابن العنابى كان يؤمن بان هناك أمورا قد بدأت تحدث فى « آخر الزمان » وان هذه الامة اذا تظاهرت وتجاهرت بفضائح المنكرات ابتلاها الله تعالى بنوع من المسخ لبعض اشقيائها » · وهو استنتاج لا شك مستوحى من واقع الحياة عندئذ · ففيه تعريض بأن هناك أمورا كانت تجرى فى المجتمع الاسلامى فى عصره تعتبر من « امارات الساعة » ·

وتوضح اجابات ابن العنابى على هذه الاسئلة قدرته على معالجة عدد من القضايا التى كانت تواجه المجتمع سواء كانت دينية أو اجتماعية أو سياسية أو حتى خرافية · ومن جهة أخرى تبرهن على عمق ثقافته فهو يستدل لكل قضية بالعديد من الآيات والاحاديث والآثار والوقائع فى صبر واناة ، وفى منطق واستدلال ، وفى توسع وتعمق ، لا تكاد تظفر به الا عند امثاله ·

ونلاحظ ان اجابته وان كانت فى ظاهرها تتناول قضايا تجريدية أو فرضية فانه كان دائما يربطها بواقع الحياة ··· وقد فعل ذلك فى جوابه على جواز تقليد العامى للعالم ، وعلى حلية الصيد بالرصاص والرش ، وعلى منع المرأة من مؤاخاة الاجنبى عنها ، وعلى تجويز ربط العلاقة بين المسلم والذمى ، واخيرا معالجته لقضية الميت المتطور فى فى شكل شيطان فى بعض البلاد · ويحس الدارس له انه كان يعيش مشاكل المجتمع الاسلامى وانه كان يبث افكاره لاصلاحه عن طريق هذه الفتاوى التى ذكرنا بعضها والتى ذكر بعض الباحثين ان له من امثالها الكثير ·

2) اجوبته على آداب مجلس قراءة القرآن :

وضع احدهم مجموعة من الاسئلة والملاحظات التى تتعلق بآداب مجلس القرآن · ومن ذلك السؤال عن حكم قراءة القرآن جماعة حيث « يبنى بعضهم على قراءة بعض ويراعون فى القراءة الطرق والاهوية وحسن الصوت ··· هل ذلك حرام يجب النهى

عنه شرعا ، ومن ذلك السؤال عن حكم شرب الدخان بمجلس قراءة القرآن ، وحكم التلفظ أثناء ذلك أيضا ، وحكم من يقرأ القرآن ، ويشتغل فى أثناء قراءته بالقيام لمن يستحقه اذا قدم عليه ، أو بحديث دينى أو دنيوى ثم يعود لقراءته ، وكذلك حكم من يقرأ القرآن وحده ولكنه يخل فى قراءته بترك المد أو الغنة ، ومن بين هذه الاسئلة هل ما ينطبق فى ذلك على القرآن ينطبق أيضا على الاحاديث النبوية ؟

وقد وجدنا اجابة لبعض العلماء ، على هذه الاسئلة ، منها جواب للشيخ حسن الابطحى المالكى ، وجواب حسن القويسنى الشافعى وجواب ثعليب النمشنى ، ومنها جواب ابن العنابى الحنفى . ويهمنا هنا جواب الاخير . (5)

بدأ ابن العنابى فى جوابه معلنا ان له كتابا فى علم التجويد (6) تناول فيه قضية اللحن فى القرآن . وذكر انه قد قسم اللحن هناك الى نوعين نوع خفى ونوع جلى ، وأوضح ان اللحن الجلى هو خطأ فى الحركة أو السكون فى المبنى . اما اللحن الخفى فهو خطأ فى صفات الحروف . وقسم الخفى الى ما يعرفه عامة القراء كالقلب والادغام والغنة والى ما يعرفه الا المهرة منهم كتكرير الراء وتطنين النون وتغليظ اللام فى غير محله ، وحكم بان تجريد القرآن عن القسم الاول من اللحن الخفى واجب وتجريده عن الثانى مستحب وقد استدل لقوله بالآية الكريمة : « الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا » . والآية الاخرى « قرآنا عربيا غير ذى عوج » مبينا ان اللحن المعروف للجميع « فيه عوج » ومن ثمة فهو محرم . وقد استنتج ابن العنابى من ذلك ان الذى « يقرأ القرآن بالالحان الموسيقية ... لاحن لحنا محرما بالدليل القطعى » وان فاعله يكون تاركا أمر الله ومتبعا لما قرره بطليموس ومرجحا لصناعة هذا على أمر الله ورسوله « فهو عاص آثم من وجوه شتى » فان كان جاهلا بالحرمة فعليه ان يستغفر الله

---

(5) الاسئلة واجوبة بدار الكتب الوطنية ـ تونس ، رقم 18002 ، ويبدأ جواب ابن العنابى على صفحة رقم 28 ـ 33 ، وهي من نسخ الشيخ محمد بن مصطفى ابن الشيخ أحمد ضيف المصرى القليوبى الشافعى سنة 1288 يوم 6 رجب .

(6) لم يحدد له عنوانا بالضبط وانما قال «قد ذكرنا فى كتابنا ... فى علم التجويد» نفس المصدر ، ص 29 انظر سابقا . وكذلك عثمان الكعاك . (الاصالة) عدد 34 ـ 35 ، ص 64 ـ 65 .

وان كان عالما بها مصرا عليها فانه يعتبر في نظر ابن العنابي متعمدا تحريف كلام الله ومن ثمة فهو كافر ٠

ولم يطل ابن العنابي في الخوض في مسالة قراءة القرآن جماعة ، مكتفيا بايراد الخلاف المذهبي ، قائلا : ان رجال المذهب الحنفي قد اختلفوا في ذلك فمنهم من جوزها ومنهم من منعها ٠ وقد رجح هو الرأي الاخير استنادا على الحديث الشريف « ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن » ٠

بينما فصل الكلام في مسالة شرب الدخان في مجلس قراءة القرآن ٠ فقال : انه اذا كانت هناك تلاوة جهرية فيجب منع تعاطي الدخان « لما فيه من سوء الادب المؤدي الى الاستخفاف بالقرآن لمكان العادة بالكف عن شربه بحضرة من يتأدب (كذا) معه فالقرآن أولى » اما ان كان متناول الدخان أثناء قـــراءة صامتة أو سرية « فـــلا باس بتعاطيه » كذلك حكم ابن العنابي بمنع التلفظ عند التلاوة الجهرية ، لانه يجب الاستماع اليها لقوله تعالى : « واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا » ومن جهة أخرى حكم بجواز قطع التلاوة واشتغال القارئ بالقيام للداخل عليه والاقبال على المتحدث معه بشرط ان يراعي القارئ كيفية القطع ، كأن يقطع عند رأس آية ، وعدم الوقف في مكان يوهم كفرا ٠ وقال ان الاسراع المخل بالحروف عند قراءة القرآن مكروه كراهة تحريم ٠

والحق ابن العنابي الاحاديث النبوية بالقرآن في وجوب مراعاة الادب وليس في وجوب الاستماع اليها ٠ لان وجوب الاستماع خاص بالقرآن والخطب ٠ وأوضح ان مذهب الحنفية يوجب الاستماع للخطبة ولو كانت خطبة نكاح وعلى هذا فان على السامع للحديث الشريف في خطبة وجوب الانصات له ٠ (7)

---

(7) ختم الاجابة بهذه العبارة « كتبه الفقير اليه سبحانه محمد بن محمود بن محمد ابن حسين الجزائري الحنفي عفا الله عنهم اجمعين » ٠ ولاحظ انه لم يستعمل عبـــارة « ابن العنابي » نفس المصدر ، ص 33 ٠



احمـد حمـانى
رئيس المجلس الاسلامى الاعـلى
ـ الجـزائر ـ

بسـم اللـه الـرحمن الـرحيم
صلى الله على محمد النبىء الكريم

التـذكـير بالقـرآن

مـدخــل :

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان الا على الظالمـين ٠

وبعد فان تذكير الناس ودعوتهم الى الحق ، وارشادهم الى ما ينفعهم ، وتحذيرهم مما يضرهم وظيفة الدعاة وواجبهم ، ففى ذلك تعليم للجاهل ، وتنبيه للغافل ، واستنهاض للخامل وانذار للمبطل ٠ وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتذكر ، واخبر ان الذكرى تنفـع المؤمنين ٠ قال تعالى : « وذكر فان الـذكرى تنفع المؤمنين » ٠ وما أمر به رسول الله صلى اللـه عليه وسلم فى التبليغ يؤمر به علماء أمته فى الدعوة والارشاد ٠

واجل ما يذكر به ويوعظ كتاب الله ، وبذلك جاء الامر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيدى » ٠ ففى كلام الله موعظة من ربنا وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ٠ وان آياته ـ تتلى على المؤمنين وتتدارس بينهم ـ لتنير لهم السبيل وتهديهم الصراط المستقيم فانه النور المبين ٠

ولقد أدى هذه الوظيفة علماء المسلمين فى مختلف أوطانهم واطوار تاريخهم فنفع الله بهم ، وكان مـن أجل ما انتفع به قومنا « مجالس التذكير » التى عقدها أستاذنا العظيم عبد الحميد بن باديس رحمه اللـه ٠ ونحن لا نرى أنفسنا فى مستوى هذه المهمة ، ولكنا سنفتح هذا الباب ليلج منه علماؤنا الافذاذ عسى الله ان ينفع بهم وباقلامهم ، والله المستعان ٠

تقــوى اللــه
والثبات على الاسلام

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وأنتم مسلمون (102)

« من سورة آل عمران »

هذه الآية الكريمة ضمن آيات ـ سبقتها ولحقتها ـ واردة فى تربية المسلمين وتعليمهم ووعظهم ـ باحداث الحياة وأخلاق الناس ـ وارشادهم ، واشتملت هذه الآيات على أوامر ونواهى مما يجب عليهم أن يأتمروا به وينتهوا عنه ، وبينت لهم سلوك المهتدين المفلحين وحذرتهم من غواية الغاوين وسبيل الكافرين ·

العنـاد والحـرص على الفســاد :

ففى الآيات قبلها عاب المولى سبحانه أهل الكتاب ـ من اليهود ـ باصرارهم عـلى الكفر عنادا فقال : « قل يأهـل الكتاب لـم تكفرون بآيات اللـه واللـه شهيد على مـا تعملون (98) » · ثم عابهم بالسعى ـ مع كفرهم ـ فى تكفير غيرهم واضلالهم والحـرص على فتنتهم فى دينهم فقال : « قل يأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمـــن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون (99) » · ثم حذر المؤمنين من الوقوع فريسة فى فخاخ مكر فريق منهم وكيدهم بالركون اليهم وموالاتهم واستمـاع قولهم وطاعتهم ، وانهم ان يطيعوهم يردوهم ـ بعد ايمانهم ـ كافرين ، وكيف يكفرون بعد النعمة عليهم بالايمان وبالالفة بعد النفرة ، وبوجود رسول الله بينهم يتلو عليهم

آيات ربهم ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويخرجهم من الظلمات الى النور ، ان من تمسك بحبل الله المتين ، وكتابه المبين ـ اهتدى الى الصراط المستقيم فقال تعـالى : « يأيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتـوا الكتاب يردوكم بعد ايمانـكم كافرين (100) وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم (101) » ٠

الاوامـر والنـواهى :

بعد هذه الآيات الثلاث المشتملة على حال اهل الكتاب وسقم ما هم عليه من الكفـر عنادا ، والسعى فى الارض فسادا ـ جاءت هذه الآية « يا ايها الذين ءامنوا اتقوا اللـه ٠٠٠ » وما بعدها تدعو المؤمنين لما يحييهم ويصلح بالهم ، ويضمن لهم الحسنى وزيادة ، دنيا واخرى ، أوامر ونواهى ان اطاعوها كانوا خير أمة اخرجت للناس ٠ وان عصوها حـق عليهم العقـاب ٠

فقد أمرهم بتقوى الله ومخافته ، ـ وذلك رأس الحكمة ـ بقوله « يا ايها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته » ٠ وامرهم بالاعتصام بحبل الله فى قوله « واعتصموا بحبل اللـه جميعا » ٠ وامرهم بذكر نعم الله عليهم بقوله « واذكروا نعمة الله عليكم » ثم امرهم ان تكون منهم أمة الدعوة والمراقبة « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ٠٠٠ » ٠ ونهاهم عن الكفر بعد الايمان والردة بعد الاسلام بقوله : « ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » كما نهاهم عن التفرق ففيه الخذلان بقوله : «ولا تفرقوا» وعن سلوك سبيل أهل الكتاب والتشبـه بهم فى التفرق والاختلاف بعـدما جاءتهـم البينات بقوله : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم (105) » ٠

ان فى هذه الآيات البينات خير ضمان لقوة المسلمين وفلاحهم ، واستمرار يقظتهم وانتباههم ، وصلاح امرهم فى شؤونهم الخاصة والعامة لو عملوا بمقتضاها وطبقـوا ما فيها من أمر ونهى واعتبروا بما فيها من عبر ٠

المؤمنـون يتقـون اللـــه :

ان هذه الآية صدرت بنداء المؤمنين ، ثم بخطابهم للتكليف · واذا كان الخطاب قد وجه الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ اذ هم الذين كادهم اليهود وأوشكوا ان يفتنوهم عن دينهم ، وكان الرسول فيهم ـ فان عموم الخطاب يشمل جميع المؤمنـين في كل زمان ومكان ، لان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فمن الواجب على كل المؤمنين ان يمتثلوا لما جاء فيها وفيما بعدها، فان مقتضى الايمان الامتثال والاذعان ؛ فالايمان هو التصديق الجازم بالقلب المقترن باذعان النفس واستسلامها ، وآيته العمل بما يقتضيه · فالذين آمنوا هم الذين نطقت ألسنتهم بكلمة التوحيد ، وصدقت قلوبهم وجزمت بصحة ما جاء في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من انباء الغيب عـن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وأذعنت نفوسهم واستسلمت وعملت بما جاء من التكاليف الشرعية ·

التقـــوى :

وأول أمر أمروا به تقوى الله حق تقاته « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » والتقوى هي حفظ النفس ووقايتها من الضر بالابتعاد عنه أو بالمدافعة ، وأصل المادة من وقى يقى وقاية · والوقاية البعد أو التباعد عن الضر أو مدافعته ·

ومن آمن بالله عرفه فأحبه وسعى لمرضاته ، وخشى سخطه واتقى عذابه · فتقوى الله تكون بترك أسباب سخطه واجتناب عقابه ، وانما تحصل بفعل المأمورات والقيام بالواجبات والمسارعة الى الخيرات ، وبتـــرك المحرمات ، واجتناب المنهيات ، فحاصل التقوى اجتناب وامتثـال ·

تقـوى اللـه حـق تقـاته :

لقد أمر الله المؤمنين ان يتقوه حق تقاته · وحـق تقواه المبالغة في التقوى حتى لا يترك المؤمن شيئا مما في وسعه واستطاعته ، وقد فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أورده القرطبي في كتابه : « الجامع لاحكـــام القرآن » قال : « روى البخاري عن مرة عن عبد الله قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (حق تقاته

أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر » (1) • وقال ابن عباس « هو أن لا يعصى طرفة عين » وقال القاضي البيضاوى : « حق تقاته : حق تقواه وما يجب منها ، وهو استفراغ الوسع فى القيام بالواجب ، والاجتناب عن المحارم ، كقوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » (2) • وعلى هذا التفسير تكون الآية الثانية بيانا للاولى كما نقله القرطبى (1) ، ولا تعارض بينهما يوجب نسخا كما ذهب اليه جماعة من المفسرين منهم قتادة والربيع بن أنس ، وابن زيد والسدى ومقاتل ، اذ قالوا : ان الآية الثانية نسخت الاولى وانه لما نزلت هذه الآية « اتقوا الله حق تقاته » قالوا يا رسول الله من يقوى على هذا ؟ وشق عليهم فانزل الله عز وجل : « اتقوا الله ما استطعتم » فنسخت هذه الآية (1) •

وعن سعيد بن جبير قال : « انها لما نزلت اشتد على القوم العمل فقاموا (فى صلاة الليل) حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فانزل الله تخفيفا عليهم (فاتقوا الله ما استطعتم) فنسخت الآية الاولى » (3) •

ومذهب جمهور المفسرين من المتأخرين والمتقدمين ــ ومنهم حبر الامة عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما ــ أنه لا نسخ ولا تعارض بين الآيتين ، لامكان الجمع •

قال ابن عباس : « قول الله : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » لم ينسخ ولكن حق تقاته أن يجاهد فى الله حق جهاده ، ولا تأخذكم فى الله لومة لائم ، وتقوموا بالقسط ولو على أنفسكم وابنائكم (4) » • وكل ما ذكره ابن عباس محكم غير منسوخ، وهو صميم التقوى • ودعم مذهب عدم النسخ الامام فخر الدين الرازى فى تفسيره « مفاتيح الغيب » بادلة عقلية نقلية وقال : « جمهور المحققين أن القول بهذا النسخ باطل واحتج لذلك بالمنقول والمعقول » وقال : (اتقوا الله حق تقاته) اى كما يحق أن يتقى ، وذلك بأن يجتنب جميع معاصيه ، ومثل هذا لا يجوز أن ينسخ لانه اباحة لبعض

(1) جزء 4 صفحة 157 مطبعة دار الكتب المصرية ــ القاهرة 1376 هـ •
(2) انظر تفسيره لهذه الآية •
(3) تفسير المنار ج ج 4 ص 19 •
(4) القرطبى ج 4 ص 157 ــ 158 •

المعاصى ، واذا كان هذا صار معنى هذا ومعنى قوله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) واحدا ، لان من اتقى الله ما استطاع فقد اتقاه حق تقاته ··· ونظير هذه الآيــة فى قوله : « (وجاهدوا فى الله حق جهاده) (5) ·

ومن هذا يتبين أن الجمع بين الآيتين ممكن ، بل هو واضح بين ، وان الثانية بيــان للاولى كما هو مذهب جماعة · قال القرطبى : « والمعنى فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم وهذا أصوب لان النسخ انما يكون عند عدم الجمع ، والجمع ممكن فهو أولى » (6) ·

وقال فى تفسير المنار « أقول : اذا كانت الرواية بالنسخ ضعيفة بحسب الصناعة فهى فى اعتقادى موضوعة ممن لم يفهم الآية 7 » ثم نسب الى الشيخ عبده القول بعدم النســـخ ·

العبرة من القول بالنسخ أو عدم النسخ :

ان طاعة الله ورسوله فى المنشط والمكره والعسر واليسر واجب أكيد على كــل مؤمن ، قد التزمه بكلمة التوحيد ، وانما يكون العمل بقدر الاستطاعة ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها · وان التقصير فى القيام بالواجبات ، والجرأة على الله بفعل المحرمات خيس بالعهد وعصيان ، وكل ذلك مما يسخط الله ويعرض لعقابه ·

فمن بذل جهده ، وعمل وسعه فى فعل ما أمر به ، واجتنب كل ما نهي عنه فقـــد اتقى الله حق تقاته ، ومن فرط فى واجباته كلها أو بعضها ، ومن اقتحم المهالك ولم يجتنب كبائر الاثم والفواحش فما اتقى الله ولا أطاعه ·

وربما يفهم القول بالنسخ جواز التفريط فى السعى ، أو التقصير فى بذل الوسع أو الترخيص فى ارتكاب بعض الاثم ، وهذا فهم سقيم ، ولهذا حرص العلماء على بيان فساد القول بالتعارض بين الآيتين الموجب للنسخ ، وانما كانت الثانية مبينة للاولى بنفى الحرج فى الدين على المؤمنين كما فهمه من قاموا بالليل حتى ورمــت عراقيبهم ،

---

(5) مفاتيح الغيب ج 3 ص 16 ــ المطبعة الحسنية بالقاهرة (طبعة قديمة بدون تاريخ)
(6) المصدر المذكور 1585 ·
(7) تفسير المنار ج 4 ــ 195 ·

وتقرحت جباههم ، والله سبحانه يقول : « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » · ويقول « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » · والمتقى الله يعمل جهـــده ويحتاط ، ويستبرىء لدينه وعرضه ، فمن تقوى الله حق تقاته التحـــرى والاجتهاد ، حتى ان المسلم ليتقى الشبهات خوفا من الوقوع فى الحرام ، ويبادر الى الاستغفار والتوبة بالندم والاقلاع عند ارتكاب الهفوات أو الهم بها وقد قالت العلماء : لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع اصرار ·

ما يتقى من عقاب اللــه :

بين الاستاذ الامام محمد عبده رحمه الله أن ما يجب ان يتقيه الناس من عقاب الله قسمان : عقاب دنيوى ، وعقاب أخروى ، وان كلا منهما يتقى باتقاء أسبابه ، وهـــى نوعان مخالفة دين الله وشرعه ، ومخالفة سننه فى نظام خلقه ·

ويتقى عقاب الآخرة بالايمان الصحيح ، والتوحيد الخالص ، والعمـل الصالـــح واجتناب ما ينافى ذلك من الشرك والكفر والمعاصى والرذائل · وأما عقاب الدنيا فيجب أن يستعان على اتقائه بالعلم بسنن الله تعالى فى هذا العالم ، وسنن الاجتماع البشرى فاتقاء الفشل والخذلان فى القتال يتوقف على معرفة نظام الحرب وفنونها واتقان آلاتها ، وقد أمر المسلمون بالاعداد لها (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) كما يتوقف عـــلى أسباب القوة المعنوية من اجتماع الكلمة ، واتحاد الامة والصبر ، والثبات ، والتوكل على الله ، واحتساب الاجر عنده ، وانتفاء الرياء والبطر ، والعدوان والصد عن سبيل الله ، كل ذلك مما اشارت اليه الآية « يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله » (8) · فمن خالف سنة من سنن الله فى الاجتماع البشرى فقد خالف أمرا من أوامر الله وارتكب محظورا مما نهى عنه فاستحق العقاب الدنيوى بالخذلان والخسران ولعذاب الآخرة أشد وابقى ·

(8) انظر تفسير المنار ج 1 ص 125 ·

وان ما نبه اليه الاستاذ الامام من وجوب تقوى الله وخوف عقابه الدنيوى ـ عقابا يلحق الافراد والجماعات ـ لما تشهد له نصوص الشريعة وتصدقه أحـــداث التاريخ قديما وحديثا ، فقد نهى الله المسلمين عن التنازع وأخبر انـــه سبب الفشل وذهاب الريح ، وقد ثبت ـ منذ غزوة أحد حتى اليـــوم ـ أن المسلمين كلما تنازعوا فشلوا وأصيبوا ٠ وان أشد ما يصيب أمة ان يتغلب عليها العدو فى معركة ٠ أو يحتل أرضها ويذل شعوبها ، ويصيبها فى الاموال والانفس والثمرات ، ويسبب لها المسخ والفساد والانحـــلال ٠

العـاقبة للمتقـــين :

من أطاع الله ورسوله ، وأسلم وجهه لله وهو محسن خشيه واتقاه ، ونال محبته ورضاه ، وكان وليا من أولياء الله (ان أولياؤه الا المتقون) واستحق منه النصـــر ، وحسن العاقبة والظفر ٠ بذلك نطق كتاب الله فى العشرات من الآيات ٠ وعـــد الله لا يخلف الله وعده ٠ من ذلك قوله تعالى : « واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » وقوله : « ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » وقوله : « بـلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين» وقوله : «وان للمتقين لحسن مآب» وقوله : « وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين » وقوله : « ان للمتقين عند ربهـــم جنات النعيم » ٠

فهذه الآيات ـ وأمثالها كثير ـ ناطقة بوعد الله المتقين ان ينيلهم الفوز فى الدنيا والنعيم فى الآخرة ، (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) ٠

الثبـــات عـلى الاســـلام :

ثم قال تعالى : « ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » الخطاب للذين آمنوا ، ولما كان أهل الكتاب حريصين على الصد عن سبيل الله ، ساعين فى رد المؤمنين الى الكفـــر بعد أن انقذهم الله منه ، فان الله أمر المؤمنين بتقوى الله حق تقاته ، ونهاهم نهيا مؤكدا عن أن يغفلوا عن ايمانهم ، أو يفرطوا فى اسلامهم ولو لزمن قصير كلمح البصر ، خشية ان يموت الغافل المرتد فى تلك اللحظة فيكون من الخاسرين ، فان من تنكر لدينه ولو لحظة

وارتد على عقبيه تعرض لغضب الله وسخطه وعقابه ، ولم يأمن ان يمكر به ، ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ، فمن يضمن له الا يموت فى لحظة الارتداد ، فيكتب له الشقاء الابدى بالموت على الكفر ؟ . لقد قال علماء التفسير ان الآية امر بالثبات على الاسلام والدوام عليه حتى الموت .

قال القرطبى عند تفسير آية سورة البقرة « ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » ايجاز بليغ ، والمعنى ألزموا الاسلام ودوموا عليه ولا تفارقوه حتى تموتوا . فاتى بلفظ موجز يتضمن المقصود ، ويتضمن وعظا وتذكيرا بالموت . وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدرى متى ، فاذا أمر أن لا ياتيه الموت الا وهو عليه فقد توجه الخطاب من وقت الامر دائبا لازما » (9) . وقال فخر الدين الرازى :

« لفظ النهى واقع على الموت ، ولكن المقصود الامر بالاقامة على الاسلام . وذلك لانه لما كان يمكنهم الثبات على الاسلام حتى اذا اتاهم الموت أتاهم وهم على الاسلام صار الموت على الاسلام بمنزلة ما قد دخل فى امكانهم » (10) .

الاسلام دين جميع الانبياء :

وقد أمر المؤمنون بالثبات على الاسلام ، وأن لا يموتوا الا وهم مسلمون ، لان الاسلام دين الحق لا يقبل الله من الاديان غيره « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » . وليس الاسلام دين محمد وأمته فحسب ، ولكنه دين جميع من قبلهم من الانبياء والمؤمنين « اذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين . وأوصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » .

والاسلام لغة مصدر أسلم ، ويأتى بمعنى خضع واستسلم وبمعنى أدى وأعطى ، وبمعنى دخل فى السلم بكسر السين وفتحها : بمعنى الصلح والسلامة وبفتح السلام بمعنى الخالص من كل شىء . والاسلام بمعنى الدين يناسب كل هذه المعانى وأظهرها الدخول فى السلامة والنجاة والخلاص .

---

(9) الاحكام ج 2 ص 125 .

(10) مفاتيح الغيب .

الايمـــان والاســـلام :

والمسلم الحقيقى ـ فى حكم القرآن ـ من كان فى اعتقاده وعلمه خالصا من شوائب الشرك بالله ، مخلصا فى أعماله ، مؤمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ولا يختص ذلك بأى زمان ، أو مكان ٠ وهو ـ بهذا المعنى ـ مطابق للمؤمن ، كـلاهما مصدق جازم مذعن خالص من شوائب الشرك ، مخلص فى أعماله ، مؤمن بالغيب ٠ فالمؤمن والمسلم واحد كما فى قوله تعالى : « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » ٠ قال الرازى : « والدلالة على أن المسلم بمعنى المـــؤمن ظاهرة » ٠ والحق ان المسلم أعم من المؤمن ، واطلاق العام على الخاص لا مانع منه (11) » . وهذا العموم والخصوص بين الاسلام والايمان هو مذهب أهل الكلام ٠ قال القرطبى : « ليس كل اسلام ايمانا ، وكل ايمان اسلام لان من آمن بالله فقد انقاد واستسلم لله ، وليس كل من أسلم آمن بالله » (12) ٠ ثم ذكر خلاف الخوارج والقدرية حيث قالوا : « ان الاسلام هو الايمان فكل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن » لقوله تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام» فدل على ان الاسلام هو الدين ، وأن من ليس بمسلم فليس بمؤمن (12) وقد استدل القائلون بالعموم والخصوص بقوله تعالى : « قالت الاعراب آمنا قل لـــم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » ٠ فأخبر اللـه تعـالى انه ليس كل من اسلم مؤمنا ٠ وفى صحيح مسلم أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنـه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعط فلانا فانه مؤمن » فقال صلى الله عليه وسلم : « أو مسلم » فدل على أن الايمان ليس الاسلام فان الايمان باطن والاسلام ظاهر وهذا بين ٠ وقد يطلق بمعنى الاسلام ، والاســلام ويـراد به الايمان للـزوم أحدهما لـــلآخر (12) » ٠

اما صاحب تفسير المنار فقد صوب القول بتباين المفهـــوم اللغوى لمعنى الايمـان والاسلام ، اذ الاسلام معناه اللغوى الدخول فى السلم ضد الحرب أو فى الســـلامة والخلوص والانقياد ٠ واما الايمان فمعناه التصديق بالقول كقوله لمن اخبره صدقت ،

(11) راجع تفسير المنار ج 3 ص 356 ٠

(12) عن القرطبى بتصرف ج 2 ص 123 ٠

أو بالقلب باعتقاده صدقه · وقد أطلق القرآن الكريم الاسلام والايمان كلا منهما على معنى خاص ، فالايمان فى القرآن « هو التصديق بوحدانية الله وكماله وبالوحى والرسل وباليوم الآخر ، بحيث يكون له السلطان على الارادة والوجدان فيترتب عليه العمل الصالح (13) » · وأما الاسلام « فهو الاخلاص لله تعالى فى التوحيد والعبادة والانقياد لما هدى الله اليه على ألسنة رسله » · وهو بهذا المعنى دين جميع الانبياء الذين ارسلهم لهداية عباده · فالايمان والاسلام على هذا يتواردان على حقيقة واحدة يتناولها كل منهما باعتبار ··· فهذا هو الايمان الصادق والاسلام الصحيح (13) · ولتواردهما أمثلة كما فى قوله تعالى : « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » ، وقوله : « ان الدين عند الله الاسلام » وقوله : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » · ومثل هذه الآيات كثير فى النصوص الشرعية التى يطلق فيها كلمة المسلم على المؤمن والمؤمن على المسلم · ويفهم معناه بداهة ولا يخفى ، ويعرف ولا ينكر ·

تذكير وتحذير ، واشمئزاز :

ان هذه الآية ــ كما فسرها العلماء صريحة ــ بامرها ونهيها ــ فى وجوب استقامة المؤمنين ، وثباتهم على الاسلام ، وحرمة غفلة المسلم عن دينه ولو لحظة واحدة خشية الهلاك فى تلك اللحظة فيكون من الخاسرين ·

واننا لنرى كثيرا من الغافلين يتهاونون ، فينطقون باقوال ، أو يرتكبون من الافعال ــ جهلا واستهتارا ــ ما يعتبر ردة وكفرا صريحا ، ولو نبهت أحدهم لسدر فى غوايته أو اعلن عن استهتاره ، أو أعرب عن استهانته ·

ويوجد عدد كثير من المحسوبين ــ جغرافيا ــ على الاسلام يبدون كفرهم صراحة · ويبرأون من الايمان ، ويسخرون من المؤمنين ، ويعلنون الحرب على الاديان ويحاولون جهدهم ــ كما فعل أسلافهم من اليهود ــ صد المؤمنين عن سبيل الله ، وفتنتهم عن دينهم ، يبغونها عوجا ، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون ·

(13) عن تفسير المنار ج 3 ص 359 ــ 360 بتصرف ·

اننا نذكر الاولين ـ والذكرى تنفع المؤمنين ـ ونحذرهم ، وننصحهم ان يحتاطوا لانفسهم ، ولخلقهم ودينهم ، وأن يحترموا ـ على الاقل ـ شعور اخوانهم من المسلمين ٠

واما الأخيرون فاننا لا نخفى اشمئزازنا من موقفهم ، واحتقارنا لجهل الجاهلين منهم وسعيهم بافساد دين غيرهم ، ونعلن لهم أنهم فى الحادهم متبعون لا مبتدعون ، ومقلدون لا مجتهدون ٠ ولم يعذر علماؤنا التقليد فى الايمان فكيف نعذر المقلدين فى الكفر ؟ انهم ـ حقا ـ لهم الجامدون المتحجرون وان رددت ألسنتهم أو اقلامهم كثيرا تهمة الجامدين أو الرجعين وصفا للمؤمنين سخرية بهم ، ولسان حال المسلمين يقول : « ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون ٠٠٠ » ٠ وسيحبط الله كيدهم ضد الدين ويغنى عنهم كما أغنى عن اخوانهم المرتدين قال سبحانه : « يأيها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يوتيه من يشاء والله واسع عليم » ٠

عبـــرة وذكـــرى :

قديما ارتد عن الاسلام مسيلمة والاسود وسجاح فأتى الله بخالد ، وعمرو والمثنى وعدى بن حاتم ، وحديثا قـــرأت فى أسبوع واحد ـ منذ سنوات ـ نبـأ ارتداد ثريا ـ امبراطورة سابقة ـ عن الاسلام لتتزوج بنصرانى ، واعتناق محمد على الملاكم الشهير للاسلام ٠ فاعتبروا يأولى الابصار ٠ فاى قذارة تخلص الاسلام منها ، وأى انتصـار أدركـــه ! وصدق الله العظيم ٠

المـــرأة فى الاســـلام

عائشـة لمـو
استاذة فى نيجـيريا
ترجمة : د. سامى سلطان



فى خلال السنوات الخمس عشرة الاخيرة ، أى منذ أن اعتنقت الاسلام ، وجه الى من أصدقاء ومعارف لى غير مسلمين أسئلة عديدة عن أسلوب الاســـلام فى الحياة . وتدل هذه الاسئلة على أن الانسان الغربى المتعلم العادى يجهل فى الغالب كل شىء عن الاسلام ، كما تدل على أنه زود بمعلومات خاطئة فيما يتعلق بدور المرأة فى الاسلام . ولعل من الامثلة التى توضح ذلك سؤالهم : « هل تعتقدون فى الاسلام بأن النساء لهن ارواح) » وسؤالهم : « هل النساء المسلمات يصلين أو يحججن الى مكة ؟ » ثم سؤالهم « اليست الجنة للرجال فقط فى الاسلام ؟ » .

(I) محاضرة القتها فى المؤتمر الاسلامى الاول بلندن . وبالمناسبة نعتذر عن عـــدم الاشارة الى محاضرة الاستاذة فاطمة هيرين المنشورة فى عدد 36 من الأصالة ، أنها ألقيت فى المؤتمر المذكور . والاستاذة عائشـة انجليزية اسلمت مثلما أن الاستاذة فاطمـة ألمـانية أسلمت وتعيش فى ألمـانيا .

ان المرأة المسلمة ، بمقتضى هذه الادعاءات ، دينيا ليست انسانا ، وتعيش مضطهدة ومكبوتة فى عالم من الاشباح سوف تنتقل منه بالموت الى حيث تنتقل الاشياء التافهة عديمة الانفس · وكثيرا ما لقى هذا الانطباع فى الماضى التشجيع من المبشرين المسيحيين الذين كان عدد كبير منهم يؤمن به على أنه حقيقة واقعة · وجنبا الى جنب مع هـــذه الصورة تكونت فى العقل الغربى صورة أخرى ـ أبرزتها وسائل التسلية ـ للنســاء المسلمات قوامها أن هؤلاء النساء لا يخرجن عن كونهن أفرادا فى حريم شبيه بذلك الحريم الذى رسمت معالمه ترجمات هوليوود لرواية ألف ليلة وليلة · فهنا تشكـــل المرأة المسلمة وحدة فى سرب من النساء الصغيرات خفيفات الظـــل كالطيور وهـــن مضطجعات شبه عاريات هنا وهناك فى القصور انتظارا لفرصة يراهن فيها سيدهن السلطـان ·

وهكذا يمكن القول بأن الانسان الغربى رسم للمرأة المسلمة صورتين تروق كـــل منهما ولا شك لخياله · وأولى هاتين الصورتين صورة المرأة المحجبة الغامضة العفيفة التى تعيش فى خوف من زوجها الغيور القاسى ، وهى صورة تماثل عنده صورة العذراء التقليدية التى تعيش فى خوف من التنين وتنتظر أن يأتى القديس جـــورج ليقتلـه وينقذها منه ، وثانيهما صورة الأمة المتألقة بجواهرها وفى ثيابها الحريرية متطلعة الى متعة سيدها · فأى رجل غربى لم يطلق لنفسه العنان ، فى وقت أو آخر ، للتخيل بأنه لعب دورا من هذه الادوار ؟ وأية امرأة غربية لم تنزلق الى مثل هذا التخيل ؟ نحن نريد أن نصدق بأن أولئك النسوة يعشن حتى يمكننا أن ننسج هذه الاحلام اليومية عنهن ، بالرغم من أننا فى العلن يجب أن نشجب وصفا مثل هذا يتناقض بجلاء مـــع مبادىء تحرير النساء ·

هذا اذن هو التخيل ، وطالما نعترف به على هذا النحو فهو شكل من أشكال الهرب ممتع · غير أننا هنا لمناقشة موضوع « النساء فى الاسلام » ورسم خطوط الدور المنتظر أن تقوم به المرأة الاسلامية ، وبطبيعة الحال فان أفضل مصدر للمعلومات عن ذلك لا يجب أن تكون قصص الخيال وعروض هوليوود المختارة ، بل القرآن الكريم ، وهـــو مصدر الاسلام ، وكذا الحديث ، وهى الاقوال المأثورة عن نبى الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم ·

ان هدفى هنا أن أضع أمام ناظريك بعض الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التى تتعلق بالنساء ، مع محاولة استنتاج المعانى التى تتضمنها ، أو ما يجب أن تتضمنها ، هذه الآيات والاحاديث عند الممارسة العملية بالنسبة لحياة امرأة • ومن ناحية أخرى فليس فى نيتى أن أصف وضع النساء فى كل قطر على حدة فى الماضى أو فى الحاضر ، طالما أنه يختلف الى حد بعيد من عصر الى عصر ، ومن مكان الى مكان ، تحت تأثير العادات الاقليمية المحلية المتكونة نتيجة عوامل ثقافية تعود الى عصور ما قبل الاسلام أو حديثة •

دعنى أبدأ بتقديم دليل واضح لتصحيح الاعتقادات الخاطئة فيما يتعلق بالوضع الدينى للنساء ، وما اذا كان لهن ، أم لا ، أرواح يمكن أن تنعم بالجنة • ان القرآن الكريم يقرر صراحة بان الرجال والنساء الذين يطبقون مبادىء الاسلام ينالون أجرا متماثلا على مساعيهم ، فهو يقول فى الآية رقم 35 من السورة رقم 33 :

« ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » ، صدق الله العظيم ومرة أخرى فى سورة 16 آية 97 يقول الله :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » صدق الله العظيم •

ومن ناحية أخرى فان كل ركن من أركان الاسلام الخمسة ــ وهى الايمان والصلاة والصوم والزكاة والحج ــ له للنساء نفس الاهمية التى للرجال ، كما لا يوجد تمييز فى الجزاء عنه بين الفئتين ، أى بين الرجال والنساء ، حيث يقول الله فى سورة 49 آية 13 :

« ان أكرمكم عند الله أتقاكم » صدق الله العظيم •

هذا ويمكن أن نذكر أيضا أن من بين أكثر المتصوفين شهرة فى الاسلام كان امرأة هى رابعة العدوية ٠

والآن ، بعد أن أثبتنا بما لا يدع مجالا للشك المساواة الدينية بين الرجال والنساء فى الاسلام ، ماذا عن أمور الذكاء والعلم والتعلم عند الفئتين ؟ قال النبى محمد صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ٠

وقال أيضا :

« أطلبوا العلم من المهد الى اللحد » ٠

ان العلم للمسلم لا ينقسم الى علم دينى وعلم دنيوى ٠ والمعنى المتضمن لهذين الحديثين النبويين الشريفين ، فى العصور الحديثة ، هو أن على كل مسلم ومسلمة مواصلة التعليم الى أقصى ما فى الاستطاعة ، واضعين نصب أعينهم وأعينهن كلمات الله فى القرآن الكريم سورة 35 آية 28 حيث يقول تعالى :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » ٠ صدق الله العظيم ٠

فى الاسلام اذن أعطى الرجال والنساء ، على حد سواء ، القدرة على التعلم والفهم والتعليم ، كما أن من أهداف تحصيل العلم أن يصبح المسلم والمسلمة أكثر وعيا بالله ٠ ومن ناحية أخرى فان من الامور المرعية فى الاسلام أن الانسان ، ذكرا كان أم أنثى ، كلما ازداد تعمقا فى دراسة الكون وفى ملاحظة ظواهره ، كلما ازداد وعيا بالخالق ، القوة التى أوجدت الكون وترعاه ٠

ان من أشهر النساء فى تاريخ الاسلام عائشة زوجة النبى صلى الله عليه وسلم ٠ وقد اشتهرت عائشة قبل كل شىء بذكائها وذاكرتها القوية الرائعة ٠ وهى تعتبر بفضل هذه المواهب من أكثر المصادر ثقة للحديث الشريف ٠ وقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ٠ أنه نصح المسلمين بأن فى استطاعتهم الاعتماد على عائشة فى نصف تعاليمهم الدينية ٠

وعلى العموم فانه يمكن القول بأنه لم يكن يوجد فى العالم الاسلامى فى العصور الوسطى ، المبكرة منها أو المتأخرة ، أى عائق أو خطر بالنسبة للنساء الراغبات فى

مواصلة الدراسة ، بل على العكس شجعهن الدين على ذلك · ونتيجة لهذا غدا كثير من النساء مشهورات كعالمات في الدين وكاتبات وشاعرات وناظمات للاغاني وطبيبات ومعلمات ، وذلك مثل نفيسة سليلة على التي برعت في رواية الحديث النبوي الشريف حتى أن الامام الشافعي جلس في حلقتها في الفسطاط وهو في أوج شهرته ، ومثل الشيخة شهدة التي حاضرت علنا في أحد الجوامع الرئيسية ببغداد لعدد كبير من المستمعين في الادب وعلم البيان والشعر ، وكانت واحدة من أوائل علماء الاسلام·(1).

وهناك أمثلة أخرى عديدة لنساء مسلمات متعلمات ، وكن مدرسات وكاتبات وشاعرات ، احتفظن بأعلى مراتب الاحترام في المجتمع الاسلامي · وهكذا وجدت المسلمات كل التشجيع لمواصلة دراستهن في أي حقل من حقول العلم ليس فقط لما تناله من وراء ذلك من منفعة فكرية خاصة ، ولكن أيضا للاستفادة بما قامت به من تدريب وما توصلت اليه من علم في المجال « الاكاديمي » النظري أو المجال المهني العملي لخير الجماعة ، علما بأن هذا التشجيع كان يخضع لبعض المبادىء الأخلاقية التي سوف نعالجها فيما بعد في هذا المبحث ·

والآن اذ أوضحت وضع النساء المستقل دينيا وفكريا في الاسلام ، أتحول لدراسة وضعهن بالنسبة للرجال وعلاقتهن مع الرجال · وهنا نحن ننظر الى علاقة بين طرفين يعتمد كل طرف منهما على الطرف الآخر · يقول القرآن الكريم في سورة 30 آية 21 :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ·

هذا تحديد هام جدا للعلاقة بين الرجل وزوجته · فمن المتوقع ان يجد كل منهما الطمأنينة في صحبة الآخر ، ويرتبط معه ليس فقط برباط العلاقة الجنسية ولكن أيضا برباط الحب والرحمة · كذلك يتضمن هذا الوصف تبادل الرعاية ومراعاة المشاعر والاحترام والحنان بين الطرفين ·

---

(1) د · أحمد شلبي تاريخ التعليم الاسلامي ، ص ، 193 ·

وهناك احاديث نبوية شريفة كثيرة ، وبخاصة تلك التى روتها عائشه ، تعطى فكرة واضحة عن طريقة معاملة النبى صلى الله عليه وسلم لزوجاته ، وطريقة معاملة زوجاته له • والشيء الذى يلفت النظر أكثر من غيره فى هذه الاحاديث القدسية أنها تشهد على ما فى هذه العلاقة الزوجية من رعاية واحترام متبادلين بين الطرفين • فلا توجد ذلة أو عبودية من جانب الزوجات ، ولكن يوجد من الاشارات الى ما كان يقوم به النبى (ص) لارضاء زوجاته الشيء الكثير ، ربما يمثل الكثرة التى توجد بها الاشارات الى ما كان يقوم به الزوجات لارضاء النبى (ص) •

ويشير القرآن الكريم الى الزوجات بوجه عام فى سورة 2 آية 187 بقوله تعالى :

« هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » • صدق الله العظيم •

وبكلمات أخرى ، فكما أن اللباس يعطى الدفء والحماية والاحتشام كذلك الزوج والزوجة يمنح كل منهما الآخر المودة والسلوى والحماية من اقتراف الزنا وآثام أخرى•

ويمكن الاستنتاج مما تم الاستشهاد به من الآيات القرآنية بأن أحد الاهداف الهامة للتنظيمات الاسلامية التى تتحكم فى سلوك الانسان والعلاقات الانسانية وقاية العائلة بطريقة تمكن جو الطمأنينة والحب والرحمة والوعى بالله من النمو والازدهار لنفع الزوج والزوجة وكذا الاطفال ثمرة زواجهما •

ولذلك فعندما نعالج مسألة السلوك المتوقع للرجال نحو النساء ، وللنساء نحو الرجال ، فى داخل وخارج الزواج ، يجب أن نضع نصب أعيننا هذه الاهداف ، ونزن فوائدها للفرد والمجتمع • كذلك يجب أن نضع نصب أعيننا أن للاسلام رؤية متماسكة مترابطة عن الحياة ، وأن جوانبه المختلفة لا يجب أن ينظر اليها كل على حدة بمعزل عن الآخر • انه يشتمل على طريقة شاملة كلية للحياة ، وكل قسم منه فى حاجة لان ينظر اليه فى اطار المضمون الكلى وليس كقسم قائم بذاته •

فلكى نفهم دور امرأة فى مجتمع اسلامى ، علينا اذن أن نفحص ما عليها من واجبات وما لها من حقوق ، وكذلك السلوك المتوقع منها تجاه الرجال والسلوك الذى من حقها على الرجال •

دعنا أولا نعالج ما هو حق لها على الرجال • يقول القـــرآن الكريـــم في سورة 4 آيـة 34 •

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا مـــن أموالهم » • صدق الله العظيم •

في مجتمع اسلامى اذن يقع بالكامل على كاهل الرجل مسؤولية اعالة أسرته • هذا واجب شرعى • ومن ثم فان كل ما تكسبه الزوجة فهو ملك خاص لها ، ولها مطلق الحرية فى أن تنفقه بنفسها على نفسها أو أن تساهم به فى ميزانية الاسرة •

والزوجة نفسها مسؤولة عن العناية ببيتها وسعادة الاسرة • ان فى استطاعتها أن تعبر عن آرائها وتقدم اقتراحاتها فى جميع الامور ، ولكن الدور الافضل الذى يمكن لها أن تلعبه للمحافظة على الرابطة الزوجية سليمة قوية هو أن تعترف بزوجها على أنـه الشخص المسؤول عن ادارة شؤون الاسرة وبالتالى أن تطيعه حتى ولو كان حكمه غير مقبول لديها شريطة أن لا يتجاوز حدود الاسلام • هذا هو معنى الطاعة فيما ورد من نصوص عن الزواج فى الاسلام • انه اعتراف بدور الزوج كرأس للعائلة •

ولقد روى عن الرسول (ص) أنه قال :

« خير النساء من تسرك اذا أبصرت ، وتطيعك اذا أمرت ، وتحفظ غيبتك فى نفسها ومالـك » •

ومن ناحية أخرى فمن المتوقع أن يرعى الرجل زوجته ، ويقيم اعتبارا لها ولسائر النساء باعتبار أنهن الجنس الاضعف • ان فكرة الفروسية لها أصولها فى العـــالـم الاسلامى المبكر ، ويؤمن الكثير من العلماء بأنها انتقلت من المسلمين الى أوروبا فى عصر « التروبادوريين » (troubadours) ، وهم فئة الشعراء الغنائيين الجائلين الذين اشتهروا فى جنوبى فرنسا وشمال ايطاليا فى القرن الحادى عشر الى نهاية القـــرن الثالث عشر الميلادى •

غير أن مفهوم الفروسية تعرض فى السنوات الخمس الاخيرة ، أو نحـــو ذلك ، الى عواصف شديدة على أساس أنه يتعارض مع ما هو سائد اليوم من ميل لان تعمل النساء

وتناضل ، شأنهم شأن الرجال ، فى عالم قاسى ، من أجل لقمة العيش وأسباب الحياة . ومع ذلك فالاسلام يرى ضرورة أن تعفى النساء من هذه المعارك والمتاعب حتى تتمكن من أن تعطى جل اهتمامها متفرغة لشؤون بيتها .

ان دور المرأة المسلمة في البيت دور مهم وحيوى بالنسبة لسعادة الزوج ، وللنمو الجسمانى والروحى لاطفالهما . ومن ثم يجب أن يكون جهدها كله مدخرا لان تجعل من حياة أسرتها حياة حلوة وبهيجة ، وأن تجعل بيتها مكانا للطمأنينة والوئام . هذا ويجب أن نضع فى الاعتبار بأن ما تقوم به المرأة من تربية خلقية لاطفالها منذ حداثتهم له تأثير دائم على سلوك ومواقف الجيل التالى عندما يبلغ هؤلاء الاطفال سن المراهقة والبلوغ . وهناك مثل عربى مأثور ، هو « الام مدرسة » ، يدل أبلغ الدلالة على أهمية دور المرأة فى هذا المجال .

ونعود الآن الى اجراءات الزواج فى الاسلام . فمن المألوف أنه عندما تبلغ الفتاة سن الزواج يلعب والداها المسلمان دورا كبيرا فى اختيار الزوج المناسب لها ، ولكن بعد أخذ رأيها . وروى أنه عندما جاءت فتاة الى الرسول (ص) تشتكى من أنها زوجت من غير أن يؤخذ رأيها ، أمر الرسول (ص) بأن لها مطلق الحرية فى فسخ زواجها اذا شاءت .

وفى هذه الايام فان الفتيات المسلمات المتعلمات يملكن الكلمة العليا فى اختيار الزوج ، ولكن لا يزال من الامور المرعية أن رأى الوالدين فى الزوج له أهمية كبرى ، ومن النادر أن يتزوج فتى أو فتاة ضد رغبة والديه أو والديها . وزيادة على ذلك فمن المستحيل أن يتم زواج أى منهما من غير موافقة والديها أو الوصاة عليهما .

ومع ذلك فان الارملة أو المطلقة يمكنها أن تتزوج بمن ترغب على فرض أنها تملك من النضج والخبرة ما يكفى لان يجعلها قادرة على أن تقرر هذا الامر لنفسها .

وعندما تتزوج فتاة أو امرأة فان من الامور الواجبة على الزوج أن يقدم لها مهرا متفقا على قيمته . ان هذا المهر لا يشبه البائنة الاوروبية القديمة التى يقدمها الاب لابنته عند زواجها ثم تصبح ملكا للزوج . كما أن المهر الاسلامى لا يماثل « ثمن

العروس » الافريقي الذى يدفعه العريس لوالد العروس كشكل من أشكال الســداد أو التعويض · ان المهر الاسلامى هدية من العريس للعروس تظل ملكا خالصا لها حتى ولو طلقت فيما بعد ، الا اذا وقع الطلاق بطلب منها ، ففى هذه الحالة ربما يطلب منها أن ترد كل أو جزء من المهــر ·

ان المعاملة المنتظرة من الزوج ، سواء كان على علاقات طيبة أو سيئة مع زوجته ، بسطت فى القرآن الكريم سورة 4 آية 19 حيث يقول الله تعالى :

« وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خـيرا كثيرا » · صدق الله العظيم

والى جانب ذلك فهناك مغنم مهم آخر للزوجات فى الاســلام هو عدم ازدواج أو ثنائية المعيار الاخلاقى الذى على أساسه تقيم أعمال الرجال والنساء · فمن المعروف أن من عادة الرجال فى العالم برمته توجيه اللوم الى النساء على أفعال يبيحونها لانفسهم ولكن بمقتضى القرآن الكريم وتعاليم الاسلام فان الله يطلب من الرجال والنساء عـلى حد سواء نفس المستوى العالى من السلوك الاخلاقى ، كما أنه فـرض نفس الجزاءات الشرعية على الرجال والنساء بدون تفريق اذا انتهك أحدهم أو احداهن قوانين الاخلاق وسوف نوضح ذلك بأمثلة فيما بعد فى هذا المبحث ·

ومن ناحية أخرى فانه حتى اذا تقرر الطلاق ، فان المعاملة الطيبة المشار اليها قبلا تظل مطلوبة · يقول القرآن الكريم فى سورة 2 آية 229 :

« الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ولا يحل لكم أن تأخــذوا مما آتيتموهن شيئا » · صدق الله العظيم

وهكذا فان المهر أو أى هدايا أخرى يمكن أن يكون الــزوج قد أعطاها لزوجته لا يجــوز ردهــا ·

ويقول القرآن أيضا فى سورة 2 آية 231 :

« واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعـروف أو سرحوهن بمعـروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا » · صدق الله العظيم

ان المعاملة الكريمة الواجبة للزوجات والعائلات جزء من العقيدة فى الاسلام · وقد روى أن النبى (ص) قال :

« خيركم خيركم لاهله » ·

والطلاق فى الاسلام لا ينبغى اللجوء اليه الا كسهم أخير فى الجعبة · قال النبى محمد صلى الله عليه وسلم :

« أبغض الحلال الى الله الطلاق » ·

يضاف الى ذلك أن هناك اجراء يتعلق بالطلاق فى الاسلام من شأنه تشجيع المصالحة والتوفيق بين الزوجين حيثما كان الامر ممكنا · فبعد أن يتم الطـــلاق من اللازم أن تبقى الزوجة ثلاثة أشهر يظل زوجها خلالها مسؤولا عن سعادتها واعالتها · ومن غير المباح له أن يطردها خارج المنزل أثناء هذه الفترة ولكن يمكن لها أن تبرحه اذا شاءت هى ذلك · ان الهدف الرئيسى من وراء فترة الانتظار هذه التحقق مما اذا كانت الزوجة تنتظر ، أو لا تنتظر ، مولودا من مطلقها · والهدف الثانى أنها كفترة تهدئة يستطيع الاهل والاقارب أن يسعوا خلالها بنجاح أكبر نحو ايجاد مصالحة وتفاهم أفضل بـين الشريكين · يقول القرآن الكريم فى سورة 4 آية 35 :

« وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما » · صدق الله العظيم

فاذا اصطلحا يمكنهما أن يستانفا حياتهما الزوجية فى أية لحظة خلال فترة الانتظار ومن ثم يكون الطلاق قد ألغى بطريقة تلقائية (أوتوماتيكية) · واذا ثارت مشكلة أخرى نتج عنها وقوع الطلاق للمرة الثانية ، يتبع نفس الاجراء السابق · ولكن اذا وقـــع الطلاق للمرة الثالثة ، فان هذا الطلاق يكون طلاقا نهائيا ، بحيث تصبح الزوجة ، بعد مرور ثلاثة شهور على وقوعه ، حرة فى أن تتزوج من رجل آخر اذا شاءت ، ولا يكون مسموحا للزوج الاول أن يستعيدها الى عصمته ـ حتى فى خلال فترة الشهور الثلاثة ـ الا اذا كانت قد تزوجت من رجل غيره ثم طلقت من هذا الرجل ·

هذا هو الاجراء المتبع عادة اذا وقع الطلاق بطلب من الزوج أو بموافقة مشتركة بين الزوج والزوجة · ولكن اذا نشدت الزوجة الطلاق ضـــد رغبـــة زوجها فان فى استطاعتها أن تقيم دعواها أمام المحكمة وتحصل على الطلاق ·

وقد روى أن امرأة جاءت الى الرسول (ص) تقول له بأنها متزوجة من رجل طيب وليس عندها شكوى ضد معاملته لها ولكنها مع ذلك تكرهه بدرجة كبيرة ولا تستطيع العيش معه ، فحكم الرسول (ص) بضرورة أن ترد للزوج حديقة كان قد قدمها مهـرا لها كشرط لطلاقها منه · ولقد أقر القرآن الكريم هذا الاجراء فى سورة 2 آية 229 حيث يقـول تعـالى :

« فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به » · صدق الله العظيم

ومن الملاحظ أن التطورات الحديثة فى قانون الزواج فى انجلترا ودول غربية أخرى تميل نحو النموذج الاسلامى ، ولو عن غير قصد ، فى نواحى كثيرة ، منها التأكيد على ضرورة تقديم النصح والارشاد قبل الطلاق ، وسرية اجراءات الطـلاق ، والسرعة فى اتمام عملية الطلاق حالما يثبت أن الزواج قد انهار ومن المتعذر انقاذه ·

ان قانون الاسلام اذن لا يجبر زوجين غير سعيدين على العيش معا ، ولكن اجراءاته تساعدهما على ايجاد أساس يستطيعان أن يصطلحا عليه · فاذا كانت المصالحة متعذرة فان القانون لا يفرض أى تأخير أو عقبة غير ضروريتين فى طريق أى من الطـــرفين لان يتزوج ثانية من غير الطرف الآخر ·

ومن الحقوق الاخرى للمرأة المسلمة ــ وهو جزء من القانون الاسلامى ــ حق وراثة الاملاك · ان طريقة توزيع الميراث معروضة بوضوح فى القرآن الكريم ، والقاعدة العامة أن النساء لهن الحق فى وراثة نصف ما يرثه الرجال · ويمكن أن يبدو هذا التشريع ، اذا أخذ بمعزل عن التشريعات الاسلامية الاخرى ، وكأنه غير عـادل · ولكن يجب أن نتذكر بأنه وفقا للآية القرآنية الكريمة التى سبق واستشهدنا بها فى مكان آخر فى هذا المبحث ــ وهى آية 34 سورة 4 ــ فان الرجال مكلفون بتحمل نفقات جميع النساء والاطفال فى الاسرة ، ومن ثم فان التزاماتهم المالية أكثر بكثير من التزامات النساء ،

وبالتالى فان النصيب المعادل لنصف نصيب الرجل الذى ترثه نصيب عادل وكـــريم طالما انه لها لوحدها • ان كل مال ، أو عقار ، أو غير ذلك من ألوان الثـــروة • تملكه الزوجة ، وكذلك أى عمل مربح تديره ، فهو ملك خالص لها ، وليس لزوجها الحق فى نصيب منه •

والى جانب دورها كزوجة ، فان للمرأة المسلمة دورا هاما جدا كأم • وفى الحقيقة فان الوالدين فى العالم الاسلامى يتمتعان بمنزلة رفيعة وقيمة سامية للغاية • يقول القرآن الكريم سورة 17 آية 23 ـ 24 :

« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » • صدق الله العظيم

ومرة أخرى فى سورة 31 آية 14 يقول الله تعالى :

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير » • صدق الله العظيم

وروى أن رجلا جاء الى الرسول (ص) وساله :

« يا رسول الله من أحق الناس بحسن رعايتى أو صحابتى ؟ » فأجابـه الرسول صلى الله عليه وسلم : « أمك (التى كررها ثلاث مرات) ثم أبوك » •

وفى حديث شريف آخر أثر عن الرسول (ص) أنه قال :

« الجنة تحت أقدام الامهات » •

وبكلمات أخرى : الجنة تنتظر أولئك الذين يكرمون ويحترمون أمهاتهم •

وهكذا فان الام المسلمة يتملكها شعور بالطمأنينة عظيم فيما يتعلق بنوع الرعاية والاعتبار الذى يمكن أن تتوقعه من أولادها عندما تبلغ سن الكهولة • وكما تظهر الآية القرآنية (آية 14 من سورة 31) التى سبق واستشهدنا بها فان شكر الوالدين مقترن بشكر الله ، وأن التخلف عن أداء أى منهما ، هو فى الحقيقة تخلف كبير عن أداء واجبات الشخص الدينية •

ان مبادىء الاسلام المظهرة بوضوح فى القرآن والحديث هى الايمـــان والسلوك الحسن ، ويبدأ السلوك الحسن فى البيت مع أقرب الاقرباء ٠ ان الانسان الغربى الذى تربطه صلة ما بأحد المجتمعات الاســــلامية سوف لا يمضى عليه كثيرا حتى يسترعى انتباهه ويؤثر فى نفسه الحب والاجلال الممنوحين للوالدين ، والاحترام الذى يحاط به كبار السن عموما ، رجالا ونساء ، كتطبيق مباشر لمبادىء الاسلام هذه ٠

لقد ناقشنا وضع المرأة المسلمة بالنسبة لزوجها وأطفالها ، فماذا عن علاقاتها مع الرجال الآخرين غير زوجها وأقربائها الاقربين ؟ هنا يوجد اختلاف هام بين التطبيقات الاسلامية والعادات السائدة حاليا فى العالم الغربى ٠ ففى الغرب العلاقات الجنسية خارج الزواج لا تزال من الناحية النظرية تعتبر اثما ، أو على الاقل غير مرغوب فيها ، ولكن من الناحية العملية لم تتخذ البتة أية خطوات من شأنها الحد من الانتشار الواسع للعلاقات الجنسية التى تنشأ قبل الزواج وخلاله ، بالرغم من المعدلات المرتفعة للنغوله ـ أى الابناء غير الشرعيين ـ والامراض التناسلية نتيجة هذه العلاقات ٠ وبالعكس ، فانه فى أشرطة الخيالة والمذياع المرئى ، وكذا فى قطاعات معينة من الصحافة ، يوجد تشجيع كبير لاعتبار تجربة قبل الزواج من الامور المرغوب فيها ، والعلاقات أثناء الزواج من الاشياء العادية جدا ٠ وسوف يكون الاجهاض ملائما للتخلص من أى آثـار جانبية لهذا الاسلوب من الحياة ٠

وعلى خلاف ذلك ، فان الاسلام يؤيد عددا من الاجراءات الفعالة للتقليل من الغوايات نحو الجنس خارج الزواج ٠

فأولا ، نصح النبى (ص) كل الناس بأن يتزوجوا اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا ، حتى تجد رغباتهم الطبيعية اشباعا صحيحا وشرعيا ٠

وثانيا ، انتفت بفضل السماح بنظام تعدد الزوجات المحدود الحاجة الى اضــــافة نساء أخريات غير مرتبطات برباط الزوجية للاسرة ٠

وثالثا ، أمر القرآن النساء بأن عندما يظهرن علانية للملأ يغطـين أنفسهن بنوع متواضع من اللباس حتى لا يفتن الرجال ٠

ورابعا ، لا يوافق الاسلوب الاسلامى للحياة على أن يتخذ الشاب له صديقة وأن تتخذ الفتاة لها صديقا ، كذلك لا يقر حفلات السمر التى يختلط فيها الجنسان ، والرقص بين الرجال والنساء ، وتعاطى المسكرات والمخدرات ، وغير ذلك من مظاهر الأسلوب الغربى للحياة المعروف بأنه يهيىء الاوضاع التى تنشأ فيها العلاقات المرذولة قبل الزواج وأثناء قيامه . ان التسلية الاجتماعية فى الاسلام تتم عادة اما داخل نطاق أفراد الاسرة وأقرب الاصدقاء اليها أو بين جماعات منفصلة من الرجال وأخرى من النساء لا اختلاط بين الجنسين فيها .

وخامسا ، لا يعتبر الجنس خارج الزواج ، فى الشريعة الاسلامية ، اثما فحسب ولكن أيضا جريمة يدخل مرتكبها تحت طائلة القانون كجريمة السرقة أو القتل أو غيرهما . ويوقع العقاب المشرع لها على الرجال والنساء على حد سواء ، وهو عقاب صارم وفعال .

دعنى الآن أعود الى بعض هذه النقاط بتفصيل أكبر طالما أنها تتصل اتصالا كبيرا بأسلوب حياة المرأة المسلمة .

أولا : مسألة اللباس : تستطيع المرأة المسلمة أن تلبس ما يحلو لها أمام زوجها والعائلة ، وفى وسط صديقاتها . ولكن عندما تخرج خارج البيت ، أو عندما يتواجد داخل البيت رجال آخرون غير زوجها وأقرب الاقرباء فى الاسرة ، فالمنتظر منها أن تلبس رداء يغطى كل أجزاء جسمها ولا يظهر شكلها . ما أعظمه من تباين مع الازياء الغربية التى تركز عامدة فى كل عام على كشف مفاتن جديدة فى جسم المرأة للنظرات العامة ! لقد رأينا فى السنوات القليلة الماضية ظهور واختفاء أنواع عديدة من الملابس الفاضحة التى تحمل أسماء مختلفة (المينى mini أى القصير حتى الحد الادنى ، والميكرو micro أى المجهرى ، والويت لوك Wet Look أى النظرة التى يندى لها الجبين ، والهوتبانتس Hot Pants أى « السروال الساخن » ، والتوبلس topless أى الصدر العارى (للنساء) ، السيثرو See through الشفاف ، أو « أنظر خلاله » أى أنظر خلاله « الى ما تحته » أو الشفاف ، ولا هدف لها سوى ابراز أو الكشف عن الاجزاء العورات فى جسم المرأة . ويمكن للمرء أن يلحظ مؤخرا نزعة مماثلة فى ملابس الرجال التى

اصبحت ضيقة لدرجة بـدت معها وكانها جلد الرجل نفسه ، بالرغم من أن مصممى أزياء الرجال قد وصلوا فيما يبدو الى وقفة مؤقتة الى أن يتحرر الرجال بما فيه الكفاية لان يقبلوا سراويل ضيقة تظهر عوراتهم كما يظرها لدى النساء « الصـدر العـارى » أو « توبلس » topless أى المكشوف أو من نوع « سيثرو See through » أى أنظـر خلاله الى ما تحته ، وهى سراويل لم تصبح بعد لحسن الحظ حقيقة واقعة ٠

ان هدف الرداء الغربى أن يكشف أو يعرى جسم الانسان ، فى حين أن هـدف الرداء الاسلامى اخفاء أو تغطية هذا الجسم ، على الاقل فى العلن ٠ والآيـة القرآنيـة المناسبة المتعلقة بالموضوع هى الآية رقم 59 فى السورة رقم 33 حيث يقول تعالى :

« يا أيها النبى قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » ٠ صدق الله العظيم ٠

وعلى ذلك فقد فرض على المرأة الاسلامية أن تلبس عندما تخرج خارج المنـزل رداء يغطيها من الرأس حتى القدمين ولا يظهر شكلها ٠ وبمقتضى أقوال بعض العلماء فـان اليدين والرأس فقط ما يلزم تغطيته ، فى حين قال علماء آخرون بضرورة تغطية الوجه أيضا ، ومن ثم أصبح هناك رأيان فى الموضوع ٠

على أن فرض السلوك المحتشم لا يقع على النساء فقط ٠ ان وصايا القـرآن الكريم موجهة للرجال والنساء على حد سواء ٠ يقول الله فى سورة 24 آية 30 ــ 31 ٠

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن » (وتلا ذلك قائمة بالاقارب وغيرهم الذين سمح للنساء بابداء زينتهن أمامهم ، ويصبحن فى غير حاجة لان يتخذن الاحتياطات الواردة فى الآية فى حضورهم) ٠

ان أحد الاجراءات التى تهدف الى تقوية دعائم الاسرة ، والتقليل حتى الحد الادنى من الاختلاط بين الجنسين ، حجب النساء ٠ ويعتمد الذين يمارسون هذا الاجراء عـلى الآيتن القرآنيتين رقم 32 ــ 33 فى سورة رقم 33 حيث يقول الله تعالى :

« يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا وقرن فى بيوتكم ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى واقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » · صدق الله العظيم ·

وحرفيا ، هاتان الآيتان موجهتان فقط لنساء النبى (ص) ، وتؤكد بعض المراجع عدم انطباقهما الا عليهن وحدهن · غير أن هناك من العلماء فى الدين من يفسر الآيتين بالقول بأن ما جاء فيهما ينطبق على جميع النساء المسلمات بلا استثناء · ويلقى هذا الرأى قبولا واستحسانا كبيرين فى عدد من الاقطار الاسلامية حيث لا تخرج النساء خارج بيوتهن الا فى حالات الضرورة القصوى ·

على أن بعض الذين يتفقون مع هذا المذهب الاخير يضعون أيضا فى الاعتبار الآيات القرآنية الاخرى التى تحض النساء على تغطية أنفسهن عند خروجهن من بيوتهن ، وتحث الرجال والنساء على الغض من أبصارهم وأبصارهن والسلوك بالاحتشام الواجب كل أمام الجنس الآخر ، ومن ثم فهم يرون بأن تلك الآيتين القرآنيتين تقضيان ضمنا بأن المسلمات يستطعن أن يخرجن لقضاء أعمالهن المشروعة · ويمكن لهم أن يضعوا فى الاعتبار أيضا اضطرار بعض المسلمات للخروج بقصد الدراسة وممارسة بعض المهن كالطب والتمريض والتدريس على كل المستويات ، وهى مهن من اللازم بالنسبة للنساء والبنات المسلمات أن يقوم بها لهن نساء مثلهن ·

وعلى أى حال فان فى استطاعة المرء أن يلاحظ فى الحياة العملية بأن الرأيين موجودان ، وأن هناك درجات للاحتجاب بين النساء فى أنحاء العالم الاسلامى المختلفة ·

وثانيا : مسألة الاجتماعات : تتم الاجتماعات بين المسلمين فى معظم أنحاء العالم اما على شكل لقاءات عائلية لامور تخص العائلة ، أو احتفالات يشترك فيها الاصدقاء والصديقات من غير اختلاط بين الجنسين · وقد يبدو ذلك للانسان الغربى ، المعتاد على الحفلات المختلفة مع الرقص وشرب المسكر ، حياة اجتماعية لا اثارة فيها أو بهجة · ولكن يجب أن يوضع فى الاعتبار أن دائرة العائلة فى العالم الاسلامى عادة متسعة ،

والشعور بالاخوة لدى المسلمين قوى ، وحسن الضيافة عندهم قلبى ومقرون بترحاب حماسي متقد ، ومن ثم يغدو تعاطي الخمور وحضور الجنس الآخر والرقص مقومات غير ضرورية للمتعة ٠

وثالثا : مسألة تعدد الزوجات : ربما كانت مسألة تعدد الزوجات الوجه الـذى يحتل مركز الصدارة بين أوجه الاسلام الأخرى المتعلقة بالنساء فى العقل الغربى ٠ ولكن دعنى أولا أوضح أن الاسلام لا يفرض نظام تعدد الزوجات كمبدأ عـام ٠ ان الرسول (ص) ، نفسه كان يعيش مع زوجة واحدة الجانب الاكبر من حياته الزوجية ، منذ أن كان فى الخامسة والعشرين من عمره عندما تزوج من خديجة الى أن بلغ سـن الخمسين عندما توفيت ٠

يجب على المرء اذن أن ينظر الى الزواج من واحدة على أنه القاعدة ، والى تعـدد الزوجات على أنه الاستثناء ٠

ومع ذلك فمن الممكن ملاحظة أنه ، بالرغم من أن نظام تعدد الزوجات قـد أسىء استعماله فى بعض الاوقات وفى بعض الاماكن ، الا أنه تحت ظروف معينة نظام لـه قيمته ٠ فهو فى بعض الحالات قد يعتبر بأنه أهون شرين ، وفى حالات أخرى قد يكون ترتيبا نفعه أكيد ٠

ان المثل الاكثر وضوحا على ذلك يظهر فى أوقات الحرب حيث يوجد حتما عـدد كبير من الارامل والبنات اللاتى قتل أزواجهن أو خطابهن فى المعارك ٠ وما على المرء الا أن يتذكر أعداد الموتى فى الحربين العالميتين الاولى والثانية ليدرك أن الملايين من النساء والبنات فقدن أزواجهن وخطابهن وتركن وحيدات من غير دخل أو رعايـة أو حماية لهن وأطفالهن ٠ واذا استمر الادعاء بأن من الممكن تحت هذه الظروف أن يتزوج الرجل من زوجة واحدة ، فما هى اذن الاختيارات التى تترك للملايين من النساء الاخريات اللاتى لا أمل عندهن فى الحصول على أزواج ؟ فى هذه الحالة يكون قد حدد بفظاظة لكل منهن أن تختار بين أن تعيش عانسا عفيفة محرومة من الاطفال ، أو أن تصبح خليلة لشخص ما ، أى زوجة ثانية غير شرعيـة ومن غير حقوق قانونيـة لها ولأطفالها ٠ ان معظم النساء فى الواقع لا يرحبن بأى من هذين الاختيارين طالما أن غالبية

النساء كانت وما زالت تتطلـع الى طمأنينـة العيش فى كنف زوج شرعى وعائلـة .

والحقيقة التى تواجه كل انسان أنه اذا أعطى النساء اللاتى تعشن تحـت هــذه الظروف حرية الاختيار فان كثيرات منهن تفضلن أن تشاركن غـــيرهن فى أزواجهن كزوجات شرعيات مثلهن بدلا من ألا يكون لهن أى شىء بالمرة . وليس من شك فى أنه من الايسر على المرأة تكييف نفسها على العيش كشريكة مع غيرها فى زوج واحد ، اذا كانت هذه المشاركة معترف بها فى العلن ومشروعة قانونا ، عنها اذا كانت مستمرة فى السر ومصحوبة بمحاولات لخداع الزوجة الاولى .

وليس سرا أن نظام تعدد الزوجات يمارس بشكل ما فى أوروبا وأمريكا عـــلى نطاق واسع . والاختلاف هو أنه بينما الرجل الغربى ليس عليه أية التزامات شرعية نحو خليلته الثانية أو الثالثة أو الرابعة ، أو نحو أطفالهن منه ، فان الزوج المسلـم عليه التزامات شرعية كاملة نحو زوجته الثانية أو الثالثة أو الرابعة ، ونحو أطفالـه منهـــن .

وتوجد ظروف أخرى لا تتعلق بالحرب ، ظروف شخصية ، قد يكون الزواج بأكثر من واحدة فيها مفضلا على غيره من الاختيارات الاخرى المتاحة . وكمثل لذلك عندما تكون الزوجة الاولى مصابة بمرض أو عجز مزمن . ويوجد بطبيعة الحال بعض الازواج الذين يمكنهم تحمل هذا الوضع ، ولكن لا أحد ينكر مخاطراته المحتملة . ان الزواج الثانى فى بعض الحالات يمكن أن يكون حلا مقبولا لدى الاطراف الثلاثة .

كذلك توجد حالات تكون فيها الزوجة غير قادرة على الانجاب فى حين يكون الزوج متلهفا على أطفال من صلبه . فى ظل القانون الغربى يجب على الرجل أن يقبل عقـم الزوجة اذا استطاع ، فاذا لم يستطع يجب عليه أن يجد وسيلة للطلاق والزواج من أخرى . ان هذا يمكن تفاديه فى بعض الاحيان اذا وافقت الزوجة على أن يتزوج بعلها من امرأة أو فتاة أخرى تقبل أن تشاركها فيه .

ثم ان هناك حالات أخرى حيث لا يكون الزواج ناجحا كل النجاح ، والزوج يحب امرأة أخرى . ان هذا الوضع مألوف الى درجة أن أطلق عليه اسم المثلث الابدى . وفى

ظل القوانين الغربية فان الرجل لا يستطيع أن يتزوج من المرأة الاخرى من غير أن يطلق زوجته . غير أن الزوجة قد لا تكون راغبة فى الطلاق ، حقيقة انها لم تعد تحب زوجها ، ولكنها قد لا تزال تحترمه وترغب فى دوام الزواج أمانا لها ولاولادها . وبالمثل قد لا تكون المرأة الثانية راغبة فى تدمير أسرة الرجل الاولى . ان فى مثل هذه الحالات قد توافق المرأتان على الزواج المشترك فى كنف نفس الزوج باعتبار أنه أفضل لهما من مواجهة الطلاق بالنسبة للزوجة الاولى والعيش كخليلة بالنسبة للمرأة الثانية .

لقد ذكرت بعض هذه الامثلة لان أغلبية الغربيين لا يفكرون فى تعدد الزوجات الا على أنه حريم من النساء الصغيرات الفاتنات ، وليس كحل ممكن لبعض مشكلات المجتمع الغربى نفسه . واذا كنت قد أفسحت مجالا أكبر من الوقت للحديث عن تعدد الزوجات فليس ذلك رغبة منى فى الدفاع بلا تمييز عن فائدته ، ولكن فى بذل محاولة للتوضيح بأنه اجراء لا يجب ادانته من غير تفكير فى ضروراته وفوائده المحتملة فى أى جماعة .

ولتلخيص ما سبق أن ذكرنا أحب أن أقول بأن دور النساء فى الاسلام أسىء فهمه فى الغرب بسبب الجهل العام بالنظام الاسلامى وأسلوب الحياة الاسلامى ككل ، وبسبب تحريفات الناقلين .

ان المرأة المسلمة منحت مساواة روحية وفكرية كاملة مع الرجل ، وتنال التشجيع، كل التشجيع ، لممارسة دينها وتنمية ملكاتها الذهنية حتى نهاية عمرها . وفى علاقاتها مع الرجال يجب أن يراعى الطرفان حشمة المسلك والملبس ، ويخضعا لدستور أخلاقى صارم لا يشجع الاختلاط غير الضرورى بين الجنسين . أما علاقاتها مع زوجها فيجب أن تؤسس على الحب والرحمة المتبادلين . انه مسؤول عن اعالة الزوجة والاطفال ، وهى مسؤولة عن أن تهبه الاحترام الواجب أن يعطى له كرب الاسرة ، كذلك مسؤولة عن رعاية البيت والتربية المبكرة للاطفال . يضاف الى ذلك أن المرأة المسلمة تستطيع أن تحتفظ بأملاكها ملكية خالصة لها ، ولها الحق فى أن تدير عملها الخاص وأن ترث .

وعلى صعيد آخر لا يمكن شرعا ارغام المرأة المسلمة على الزواج بدون ارادتها ، وفى استطاعتها أن تحصل على الطلاق . أما نظام تعدد الزوجات المحدود فيمكن أن ينظر

اليه على أن له ضروراته التى قد تكون لخير وصالح النساء كما هى لخير وصالح الرجال ٠ وأخيرا تستطيع المرأة المسلمة أن تتطلع الى شيخوخة تحاط فيها بكـــل الاحتـــرام والرعاية من جانب أولادها والمجتمع كله ٠

وهكذا يتضح أن النظام الاسلامى حقق المزج المناسب بين الحرية والطمأنينة الذى تبحث عنه المرأة ويفيد المجتمع كله ٠ وكما سبق وذكرت فى مستهل هذا البحث فقد استشهدت مباشرة بما جاء فى القرآن والحديث طالما أنهما المصدران الحقيقيان للاسلام ٠ فاذا كانت المبادىء والاحكام المتعلقة بالمرأة قد اهملت أو استهزىء بها فى أوقـــات مختلفة وفى أماكن مختلفة فان الخطأ ليس خطأ هذه المبادىء والاحكام ولكنه خطـــأ الرجـــال ، والرجـــال هم الرجـــال ســـواء فى الاسلام أو فى الديانات الاخـــرى ومـــا يسمى بالمـــذاهب ٠

مناقشات

عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات

لزكرياء القزوينى

توضيح حول ما نشرته جريدة « لوموند » الصادرة بتاريخ 1976/10/13 م ، بخصوص حجز بعض منشورات « النساء الفرنسيات » التى عرضت فى الجناح الافريقى بمعرض الجزائر الدولى الثالث عشر ٠

نشرت جريدة « لوموند » الفرنسية الصادرة بتاريخ **1976/10/13** مقالا بامضاء مراسلها فى الجزائر السيد بول بالطه مفاده أن أناسا من وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية قد تدخلوا لحجز بعض منشورات النساء الفرنسيات التى عرضت فى الجناح الافريقى بمعرض الجزائر الدولى الثالث عشر « بحجة أنها غير مطابقة للتعاليم الاسلامية » ٠ (1)

(أنظر الصورة الكاملة لاصل المقال بالفرنسية طيه) ٠

والوزارة من جهتها اذ تعترف هنا صراحة بجهلها الكلى بوجود مثل تلك المجلات

---

(1) وقد اعطيت لهن رخصة من جديد ، كما أكدت لنا ذلك جريدة لوموند نفسها بتاريخ 15 أكتوبر 1976 ، ص 40 ٠

والكتب المتفسخة المنحلة فى المعرض ، وبالتالى بعدم تدخلها مع الاسف ، اذ لو علمت بذلك لتدخلت فعلا ، وتشكر من تدخل لدى ادارة المعرض وأزال هذه المنشورات ، لاعتقادها أن مثل هذه المظاهر ليست جزءا من التقدم والحضارة ، ولا علاقة لها اطلاقا بمعرض **التنمية** الافريقية ، لتستغرب من ادارة المعرض السماح بمثل هذه المشاركة وبمثل هذه المنشورات فى معرض مخصص **للتنمية** ! مسكينة افريقيا اذا كانت تحتاج الى مثل هذا « البعد » فى طموحها الى التنمية !

هل تعتبر مجلات التحلل الجنسى والتفسخ الاخلاقى من عوامل أو مظاهر التنمية ؟ وهل تعتبر المسائل التى تحث على التمرد على الاسرة ، وتساعد على التفكك العائلى ، ونشر الانحلال الاخلاقى ، مفهوما جديدا للتنمية ؟ !

ان جريدة لوموند تبدو وكأنها تريد أن تسخر من الدرك الوطنى ، ومن وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، بل من الجزائر كلها ، بل ومن جميع قرائها ، عندما تذكر العناوين التاليين : « لا تصرخى كثيرا ، فقد يسمع الجيران ! » و «oh, maman, baise-moi encore !» كمثال للمنشورات المحجوزة ، وتحاول مستغربة استغرابا تهكميا أن توهم القراء بأن العنوان الاول « يهم النساء المضروبات » ، وان الثانى « يطرق العلاقات بين الطفل وأمه » !

وكما يلاحظ ، فان العنوان الاول عنوان صارخ ، ولا نظن انه يحتاج الى تفسير ! أما كلمة «oh, maman, baise-moi encore !» فى العنوان الثانى فانها لا تقال الا بين الزوجين، أو العشيقين ، فى فرنسا ، حسب ما نعرف من أسرار اللغة الفرنسية ومن الاستعمال الجارى فى فرنسا ، ويعرف كل انسان له أدنى المام بالفرنسية وبهذا الاستعمال الجارى فى فرنسا ، حيث انه لا يوجد طفل فى فرنسا ونفارا ولا فى أية جهة « فرنكوفونية » يقول لأمه «baise-moi» بمعنى قبلينى ، بل يقول : «embrasse-moi» ، لان كلمة baiser عندما تستعمل فى المطلق ولا يرتبط استعمالها بعضو من أعضاء الانسان كاليد مثلا ، أو الرجلين ، لا تفهم الا بالمعنى المتعارف عليه فى العالم كله ... الذى لا نحتاج هنا الى ترجمته ... !

مقال جريدة لوموند :

حظر « منشورات النساء » بمعرض الجزائر الدولى (1)

من مراسلنا الخاص

« الجزائر : كانت « منشورات النساء » الفرنسيات قد اكترت زاوية فى الجناح الافريقى من معرض الجزائر الدولى واستقرت به يوم الجمعة الماضى عارضة منشوراتها وقائمة المنشورات وكذلك صحيفتها « يومية النساء » ، » .

« ولكنها فوجئت يوم السبت عند افتتاح المعرض بوجود زاويتها وقد افرغت تماما . وبعد الاستعلام تبين أن « أناسا من وزارة الاوقاف » (الشؤون الدينية) قد اعتبروا بعض عناوين الكتب المنشورة غير مطابقة للتعليم الاسلامى . ويبدو ان بعض العناوين مثل « لا تصرخى كثيرا ، فقد يسمع الجيران ! » «crie moins fort, les voisins vont entendre !» الذى يهم النساء المضروبات ، و « أماه ! ... » « oh, maman, baise-moi encore ! » وهو يطرق العلاقات بين الطفل وأمه ، قد حملت على معنى مجونى » .

« وتتعجب ممثلات « منشورات النساء » قائلات : « اننا لا نفهم ماذا حدث ؟ لقد اطلعنا على الميثاق ، واعجبنا بالاختيارات الاشتراكية للجزائر وبالفقرات المتعلقة بالمرأة ، وكنا نظن اننا نخوض نفس الكفاح ! » .

« هذا ويلاحظ منظمو المعرض ـ وهم مرتبكون أمام هجوم الشؤون الدينية ـ ان بعض المنشورات تنافى الاختيارات الجزائرية ، والحال ان العديد من هذه المنشورات تباع بكيفية جد رسمية عبر البلاد . وكانت ممثلات « منشورات النساء » على استعداد لعرض عناوين هذه المنشورات فقط . وتواصلت المساومات طيلة أيام عديدة ، وفى النهاية وجدت منشوراتها نفسها فى مركز الدرك الوطنى بالمعرض ، وأغلق جناحها الذى سلم لمجلة الثورة والعمل » .

ب. ب

(1) « منشورات النساء » 2 نهج لاروكات ، باريس ـ الدائرة 11 .

Algérie

Les « ÉDITIONS DES FEMMES » INTERDITES A LA FOIRE INTERNATIONALE D'ALGER

(De notre correspondant.)

Alger. — Les Editions des femmes avaient loué un stand au pavillon panafricain de la Foire internationale d'Alger. Elles s'y étaient installées vendredi dernier avec leurs publications, leur catalogue et leur journal, *le Quotidien des femmes*.

A leur grande surprise, samedi, à la réouverture de la Foire, le stand avait été vidé ; renseignements pris, « des personnes du ministère des Habous » (Affaires religieuses) avaient jugé certains titres des ouvrages publiés non conformes à l'enseignement islamique. Il semble que quelques titres, dont « *Crie moins fort, les voisins vont entendre* », qui concerne les femmes battues, et « *Oh, maman baise-moi encore !* », qui traite des rapports de l'enfant et de la mère, aient été pris dans un sens égrillard.

Les représentantes des Editions des femmes s'étonnent : « *Nous ne comprenons pas ce qui arrive. Nous avions lu la charte nationale ; nous avions été frappées par les options socialistes de l'Algérie et par les passages concernant la femme. Nous pensions mener le même combat.* »

Les organisateurs de la Foire, embarrassés par l'offensive des Affaires religieuses, font remarquer que certains ouvrages ne correspondent pas aux options de l'Algérie. Pourtant, plusieurs d'entre eux sont très officiellement en vente dans le pays. Les représentantes des Editions des femmes étaient prêtes à n'exposer que ces derniers titres. Les tractations se sont poursuivies pendant plusieurs jours, mais, finalement, leurs ouvrages se sont retrouvés au poste de gendarmerie de la Foire, et leur stand a été fermé, puis attribué à la revue *Révolution et Travail*.

P. B.

★ Editions des femmes, 2, rue de la Roquette, Paris (11 F).

(Le Monde, 13 octobre 1976)

LES « EDITIONS DES FEMMES » SONT FINALEMENT AUTORISÉES A EXPOSER A LA FOIRE D'ALGER

(De notre correspondant.)

Alger. — Après une longue négociation, les Editions des femmes, organisation du M.L.F., se sont vu attribuer un nouveau stand à la Foire internationale d'Alger (« le Monde » du 13 octobre). Elles ont été autorisées à exposer des affiches représentant cinq de leurs livres en vente en Algérie et des panneaux expliquant leurs activités. Elles peuvent également distribuer leur catalogue. Elles espéraient obtenir, ce jeudi 14 octobre, l'autorisation d'exposer une partie des ouvrages contenus dans le stock que la police leur a rendu. Les représentantes des Editions des femmes se déclarent satisfaites de la solution intervenue, leur stand, au pavillon panafricain, connaissant un succès certain. — P. B.

(Le Monde, 15 octobre 1976)

ملاحظـــات وانطبــاعــات حـــول ثــورة المقــرانى والشيــخ الحــداد

الشيخ سليمان داود بن يوسف
مؤرخ ـ الجزائر

دعانى لكتابة هذه الملاحظات ما نشره الاستاذ يحيى بوعزيز عن هذه الثورة العارمة ونقل أكثر اخبارها ومواقعها واسباب اندلاعها عن مصادر أجنبية لا يوثق بها وأرجو من الاستاذ ان لا يواخذنى عن هذه الملاحظة المتواضعة ولا يعتبرها انتقادا أو نيلا من بحثه القيم فهو صاحب المنهجية العصرية الصحيحة والدراية الواسعة ٠ وكيف ابيح لنفسى انتقاده وأنا اعلم ان من غربل الناس نخلوه ومن ألف فقد استهدف ٠ وانما الذى دعانى لابداء هذه الملاحظة هو ما أراه من الواجب علينا ونحن بصدد احياء تراثنا وتقييم تاريخنا ان نقول كلمة حق تصحيحا لتاريخنا الذى اعتمد فيه الاستاذ عن الكتـــاب الفرنسويين الذين كان أكثرهم يقصد بما كتب تزييف تاريخنا وتشويهه وكنت اكبر الاستاذ ان تنطلى عليه ترهات هؤلاء مع اننى اعرف ان الذى يتناول الحديث عن الثورات الجزائرية يجد امامه الفراغ الكامل لنقصان المصادر وانما عليه مواصلـــة البحـث والتمحيص والاستخلاص مما كتبه بعض الفرنسويين بالمقارنة مع ما يجده من بعض الوثائق المنبثة هنا وهناك ، وان كانت ضئيلة جدا ، ما يستفيد منه ويفيد ، كما فعـل بعض مؤرخينا الاساتذة الافاضل مثل المدنى وامحمد بن عبد الكريم ، والجيلالى ، وعبد الحميد بن أشنهو ، والدكتور سعد الله ، ومن سار فى طريقهم وحذا حذوهم ٠

ويجب على من يريد ان يبحث عن الثورات بالجزائر واسبابها ان يبذل جهودا كبيرة فى البحث والتنقيب ، اما ان يعتمد على ما نشره الكتاب الفرنسويون وينقله الينا فان عمله هذا من قبيل القاء القضية فى متاهات لا حد لها ، وأرجو ممن يتصفح مقالنا هذا ان لا يغفل عن الخاتمة ففيها موضوع شيق ·

ولا بأس ان نورد هنا نبذة يسيرة فى موضوع ثورة المقرانى والشيخ الحداد ليتضح طريق البحث لمن أراد ان يسلكها وتظهر المعالم للعيان حتى لا نحيد عن المنهج العلمى فى ابحاثنا ·

انى بمناسبة الاحتفال المئوى لذكرى ثورة الشيخ الحداد والمقرانى دعانى الاخ الوزير مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ومعه الاخ الوزير بوعلام بن حمودة وزير العدل للمشاركة فى هذا الاحتفال الرائع وكلفت بالقاء محاضرة فى الشأن امام دار ومسكن الباشاغا المقرانى فى مجانة كما قام الوزيران بمحاضرات قيمة فى قلعة بنى عباس حيث دفن المقرانى وكنت والحمد لله مولعا منذ نعومة اظفارى بالبحث والتنقيب عن تاريخنا ولذلك وجدت نفسى مزودا بنصيب لا بأس به من الحقائق التاريخية استفاد منها الحاضرون ·

واقدم للقراء نموذجا من البحث الطويل الذى قمت به فى القضية وذلك اننى لما كنت بقسنطينة لاحظت ان بنى عباس التجار بقسنطينة يواظبون على حضور دروس الشيخ عبد الحميد بن باديس بالجامع الاخضر مع انهم يقطنون بعيدين عن الجامع الاخضر فقلت للشيخ اننى اتعجب من هؤلاء القوم ومواظبتهم على حضور الدرس والعامة تكيل لهم من أوصاف التنقيص والازدراء الشيء الكثير فقال لى يا ولدى تلك آثار ما زرعه الاستعمار من بذور الشقاق والفتنة بين فئات الشعب وهم مقصودون بالذات لانهم من قوم المقرانى الثائر · ولهذا خصهم الشيخ ابن باديس بفتح أول مدرسة اصلاحية خارج قسنطينة ، فان أول مدرسة قام الشيخ عبد الحميد بن باديس بتشييدها واسناد التدريس فيها للممتازين من تلاميذه مثل الشيخ ابن جلواح، هى مدرسة قلعة بنى عباس وكنت من رفقاء الشيخ ابن باديس الى قلعة بنى عباس اذ ذاك فقابلونا بحفاوة عظيمة فى وقت كان اكثر المجتمع الجزائرى ضد حركة الاصلاح ·

واذ ذاك دب فى دماغى التفكير فى الثورة وقررت ان أواصل البحث والتنقيب عن هذه الثورة واسبابها خصوصا وان بنى مزاب شاركوا فيها مشاركة قوية وكان لهم فى الميدان جولات وشهداء وقد سقط فى ميدان الشرف بولنعاش احمد بن صالح امام دار المقرانى فى مجانة ، وقد اسندت اليه قيادة المقاومة فى المركز الرئيسى للثورة وما كاد

يسقط من حصانه برصاص العدو حتى احتضنته عائلة ابن بيبى وذهبت به الى حيث مقرها بناحية سطيف وطمنت ولده بولنعاش يوسف عليه حيا او ميتا وأخذ ولـــده يوسف بولنعاش القيادة بتلك الناحية وواصل الكفاح حتى نهاية الثورة فالتجا الى تونس ، ومنها أبحر الى تركيا فاستقر هناك الى الممات ، وصادرت الحكومة الفرنسوية جميع املاكهم ، وثرواتهم ، وهى الابقار والاغنام والخيول والبغال وآلات الفلاحة وضيعة كبيرة تعد بمئات الهيكتارات بناحية سطيف ارجعتها فرنسا الى بناته وقد تجـاوزن التسعين عاما من عمرهن وذلك سنة 1930 بمناسبة الاحتفال المئوى ٠

وكانت أول مناسبة حظيت بها هو حضورى فى حفلة تكريم اقامها الشيخ مصطفى القاسمى على شرف الشيخ الونوغى بن بومزراق شقيق المقرانى وهو وليد المنفى أو السجن كما شئت ، انه ولد فى جزيرة كاليدونى ، وأخذت صورة للحفلة اذ ذاك فكنت بجانبه ، ولازلت احتفظ بهذه الصورة الى الآن ، كما تشاهدون وقد ضمت اعيـــان الجـزائر من حدود تونس الى حدود المغرب ، وقد استفدت منه كثيرا مما لقنه له ابوه من أسباب الثورة والداعى لها وكيف انتشرت فى كامل القطر من حدود تونس الى حدود المغرب وتأججت بالجنوب كما تأججت بالشمال ، ثم اننى قدمت لفرنسا ميممـا باريس سنة 1964 بعد مبارحة الاستعمار الفرنسى للجزائر وكنت دائما افتش عـن تراثنا وتاريخنا وأواصل البحث بدون ان يعتريتى كلل أو ملل فان من يعرف المطلوب يحقر ما بذل ، وكان النظام بالمكتبة الوطنية الفرنسية ان يمنع جناح المخطوطات ولا يباح الاطلاع عليها الا برخصة خاصة من وزارة التعليم الفرنسى تجعل له ملفا يخوله البحث والتنقيب فى المخطوطات وبحكم اتصالى بالمشرفين على المخطوطات وفقنى الله وارشدنى حتى اهتديت للمدرسة الوطنية للالسن الشرقية بنهج ليل رقم 2 ، فوجدت بالطابق الرابع مجموعة من الصناديق مملوءة بالمخطوطات والآثار أتى بها الجيش الفرنسوى الى هناك بعد استقلال الجزائر ، ولا تزال محجوزة لم تفتح ٠ اذ ذاك اشتد شوقى وحرصى لمعرفة ما فيها ، ويعلم الله كم كان مقدار فرحتى حيث اكتشفت كنزا عظيما من تراثنا، به تمكنت ان اسدد ضربة قاسية لاكاذيب مؤرخى فرنسا التى تحيكها اجهزة الاعـــلام لتشويه تاريخنا المجيد والنيل من كرامة اسلافنا والتنقيص من تفكيرهم وأصالتهم ٠

وذلك انه بعد ان القى القبض على الشيخ الحداد فمات بسجن الكدية بقسنطينة هجم الجيش الفرنسى على داره وزاويته باوصدوق فسرقها ثم هدمها حتى لم يبق لها

أثر فانطلقت ابواقها بالدعاية على انه جاهل ورث من أبيه رياسة الزاوية (التمربيط) ولا علم له مطلقا ، وما قيامه بالثورة الا تعصبا مع الباشاغا المقرانى لما بينهما من أواصر القرابة ، وليس له مبدأ روحى يعتمد عليه ، وكنا نرتاب فى هذه الدعاية بدون ان نهتدى للحقيقة، حتى هدانا الله بما سنذكره · اتدرى أيها القارىء الكريم ماذا وجدت فى تلك الصناديق ؟ وجدت فيها جميع ملفات الشيخ الحداد وفيها خزانة كتبه · وباطلاعنا على ذلك الكنز ـ الذى لا يقدر بقيمة ـ تبين لنا انه عالم جليل عكس ما تذيعه الابواق الفرنسوية وتلوكه ألسنتها بانه جاهل · فيها فتاو ورسائل مما لا يدع المجال للشك فى نبوغه وتضلعه فى العلم ·

وكانت خزانته علاوة على ملفاته ورسائله تضم ألفا واثنين وسبعين مجلـــدا كلها مخطوطات · وقد شرع نظام المكتبة فى وضع فهرسة لها ·

وقد قدمت تقريرا فى الشأن لحكومتنا فاسرعت بالمطالبة باسترجاعها ولا تـزال فرنسا تماطل فى ذلك ، وقلت انى مستعد لاخـــذ ما احتـــوت عليه مـــن النفائس (بالميكروفيلم) ·

وارجو ممن يبحث عن تاريخنا ان يتأمل جيدا فيما يكتبه ولا يثق ابدا بما يكتبه دعاة الاستعمار · وربما أزيد بعض التوضيحات وأورد بعض الامثلة فى الموضوع حتى يتيقن القارىء المنصف ، ويعذرنى ان لاحظت على كاتب كبير مثل يحيى بوعزيز ·

يركز الاستعمار دعايته فى التنقيص من قيمة الثورة واسبابها على انها لم ترتكز على مبادىء عقائدية ذات قيمة أو أهمية كبيرة ·

ومن أراد ان يتضح له الطريق وان يصل فى بحثه الى الحقيقة فانه من الواجب عليه فى حالة البحث فى مثل هذا الموضوع ان يمعن النظر فى جوانب متعددة فيرجع للوراء قليلا ويستعرض الحوادث التى سبقت الثورة · ومن أهمها :

أولا : ما قام به الكاردينال (لافيجرى) ، مما هو مشهور ، فانه عندما اصيبت الجزائر بالمجاعة والوباء قام بجولة فى ناحية القبائل ومعه الادوية والاغذية يقدمها لمن اعتنـق النصرانية وسجد للصليب ، ومن امتنع تركه للوباء والمجاعة ·

ثانيا : يتتبع باهتمام الحوادث التى وقعت بالعاصمة الجزائرية عندما اعلن محمد البدوى الثورة بساحة الشهداء وذلك قبل ثورة المقرانى بقليل والاسباب التى أدت الى اندلاع هذه الثورة ٠

ثالثا : يفكر بامعان فى الوضعية التى آل اليها المرحوم امحمد بن الشيخ الحداد عندما تمكن من الفرار من السجن بجزيرة (كاليدونى) ، فانه استقر بمكة حتى مات مع ما نعرفه من الحرارة الشديدة بمكة وانعدام وسائل الترفيه مـــع انه فى وسعـه ان يستقر فى الشام كما فعل كثير ممن هاجر من الجزائر ، ولكن تلك العقيدة الراسخة والايمان القوى يستسيغ المسلم كل صعب ويصبر لكل تعب امام ما يعتقده ويؤمن به ٠

رابعا : يتأمل الباحث فى ان الشيخ بومزراق عندما حكم عليه بالسجن مدى الحياة فى جزيرة « كاليدونى) وتزوج بها ورزق بولد سماه الونوغى كما اسلفنا فانه يخشى ان يموت قبل ان يكبر ولده ، فانه لابد ان يسأل عن معنى الونوغى فيهتدى الى ان ونوغة قبيلة بالجزائر فيعرف أصله ومن حسن الحظ ان الله اطال عمره فانشاه نشأة اسلامية ولقنه مبادىء الدين واللغة العربية فجاء لوطنه بعد موت ابيه وقد حصل على مبادىء الدين واللغة فواصل الطريق حتى صار من العلماء الاجلاء وعين مفتيا بالاصنام ٠

خامسا : وهو أكبرها عبرة ما الذى حفز الشيخ الحداد ان يدعو للثورة وقد جاوز الثمانين من عمره ويقودها بنفسه لا بالقول فقط ، وانما هو بالعمل والمشاركة الفعالة ٠

سادسا : انما زاد الطين بلة هو : ديكرى كريميو الذى اعطى الحقـــوق الكاملـة والمساواة التامة لليهود مع الفرنسويين فى جميع الميادين وحرمان المسلمين من حقوقهم المشروعة ٠

سابعا : الفرصة المواتية لمسلمى الجزائر للانتقاض عندما هزمت فرنسا فى الحرب الطاحنة مع ألمانيا وغزو الجيوش الالمانية لفرانسا واستيلاؤها على أكثر أراضيها ٠

ثامنا : اقبال الجزائريين على الثورة ومساندة الجميع لها من حدود تونس الى حدود المغرب ومن الشمال الى الجنوب ، مما لم يتوصل اليه الامير عبد القادر فى ثورته ٠

والخلاصة كل من امعن النظر فيما تقدم يتيقن بان الداعى الاكبر للقيام بهذه الثورة العارمة هو الدفاع عن الدين الاسلامى الذى يحاول الاستعمار الفرنسوى تجريـــد الشعب الجزائرى منه ولا يمكن فصل موقفها هذا من الغزو الصليبى ، فما هو الا نوع من الغزو الصليبى ، وكل تفسير مخالف لهذا أو محاولة تبرير لموقف فرنسا من هذه الثورة انما هو من قبيل التضليل والتغطية ٠



الشيخ الونوغي بن بومزراق الرابع على اليمين · وأخذت هذه الصورة في حفل تكريم بزاوية الهامل تحت رياسة الشيخ مصطفى القاسمي حضره اعيان الجزائر من جميع النواحي

وأرجو من كل من أراد أن يبحث فى تاريخنا ان يولى اهتماما كبيرا ، لكل ما احاط بالقضية يحققها من جميع جوانبها حتى لا تقع فى فخ دعاية الاستعمار المغرضة والاكاذيب المختلفة فيشوه تاريخنا ويسىء اليه عوض ان يقوم بالواجب فى تنقيته واظهاره بالمظهر الابيض الناصع الخالى من كل تشويه والبعيد عن كل دعاية مغرضة كاذبة فبذلك يؤدى حقا واجبا نحو تاريخنا . ان من دواعى الغبطة والاطمئنان ان نسير فى البحث والتنقيب عن مآثرنا وتاريخنا بهذه المنهجية التى تؤدى بنا الى اداء بعض ما يجب نحو تاريخ اسلافنا المجيد .

ومن المؤسف له اننى لما اشرفت على نهاية هذه الملاحظة فاجأتنى الصحف بفقرة من محاضرة للاستاذ يحيى بوعزيز القاها فى المهرجان الثقافى ببجاية ذكر فيها ان السبب فى انتقال بنى حماد من القلعة الى بجاية هم زناتة كما ذكر أيضا ان من أسباب انقراض دولة بنى حماد هم الهلاليون ، وهذا مخالف تماما للواقع وللتاريخ فان زناتة بنى برزال سكان الزاب ما بين مسيلة وطبنة هاجروا جميعا الى الاندلس للجهاد فى سبيل الله سنة 365 هـ ، وتركوا الناحية خالية حتى جاءها الهلاليون فاستوطنوها . وكان انتقال الحماديين الى بجاية سنة 457 هـ، وكان بين هجرة بنى برزال للاندلس وانتقال الحماديين لبجاية قرابة قرن من الزمن ، على ان بنى برزال قد أسسوا دولتهم بالاندلس فى ذلك الوقت وكانت عاصمتهم قرمونية وكانت علاقتهم مع بنى باديس اخوة بنى حماد ملوك غرناطة طيبة للغاية والسبب فى انتقال الحماديين من القلعة الى بجاية معروف ومتفق عليه من جميع المؤرخين وهو ان محمد بن البعبع وزير تميم بن المعز صاحب افريقيا وفد الى الناصر بن علناس فى مهمة فشكا الناصر افساد الهلاليين واخلالهم بالامن وعيثهم ، فأشار عليه بالانتقال الى بجاية تخلصا من شر الهلاليين لانهم أصحاب أبل ومن الصعب عليهم أن يقتحموا الجبال بابلهم، واما انقراض دولتهم فلا علاقة لذلك بالهلاليين كما ذكره الاستاذ يحيىّ بوعزيز ، وانما المتفق عليه من جميع المؤرخين هو استيلاء عبد المؤمن بن على على مملكتهم وتنازل آخر ملوكهم يحيى بن العزيز له . وما كان يخطر ببالى ان الاستاذ بوعزيز يقع فى اخطاء مثل هذه ، ولا اجد له عذرا ، اللهم الا ان كانت الصحف ، لم تنقل ما قاله فالمسؤولية على الصحافة وامانتها فى النقل وقد سمعت للاستاذ بوعزيز محاضرة عن ثورة أولاد سيدى الشيخ وعندى بعض وثائق فى الموضوع لا أشح بها عليه إن طلبها منى .

حول مشروب "مالطا"

نص جواب الاستاذ رئيس المجلس الاسلامى الاعلى على رسالة للشركة الوطنية للمياه المعدنية حول حكم الشريعة الاسلامية فى مشروب كانت تنوى انجازه •

وها هو نص الجواب الذى ارسله الى الشركة المذكورة :

«راى الشريعة الاسلامية فى الشراب المتضمن مادة الاسكار (الكحول)

ان شراب « مالطا » المنوى انتاجه نوع من انواع « الجعة » وهى خمر

ان هذا النوع من الجعة الذى ينوى انتاجه وترويجه بين المسلمين تحت اسم « مالطا » — حسبما جاء وصفه فى الرسالة المشار اليها — ، انما هو نوع من الخمر والجعة الاصلية ، فلا يجوز — شرعا — صنعه ولا بيعه ولا ترويجه، ولا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر شربه ، ويصدق على من فعل شيئا من ذلك ما يصدق على من صنع وروج أو شرب الخمر .

وذلك لانه يتضمن مادة الاسكار وهى الكحول ، ولو بنسبة منخفضة ، لانها بهذه النسبة لو ارتفعت لاسكرت ،ولو تناول الشارب كمية كبيرة منها لتناول نسبة مضاعفة من الكحول .

ان انخفاض النسبة المئوية من الكحول فى هذا النوع من الجعة لا يبرر — شرعا — صنعه ، ولا يحل شربه لأن علماء المسلمين وفقهاءهم اجمعوا على أن ما اسكر كثيره فقليله حرام نجس ، وهذا نص حديث شريف اخرجه الترمذى والنسائى وابو داود عن جابر بن عبد الله ان رسول الله (ص) قال : « ما اسكر كثيره فقليله حرام » . قال الزرقانى فى شرح الموطا ، نقلا عن المازرى ، ما نصه : « علة التحريم الاسكار ، فاقتضى ذلك ان كل شراب وجد به الاسكار حرم تناول قليله وكثيره » .

ومن المعلوم ان الخمر المحرمة لا تقتصر على عصير العنب فحسب ، بل تشمل كل شراب يتضمن مادة الاسكار ويؤدى الى مغيب العقل ، وان لم يسم باسم الخمر ، بل حتى لو كان عسلا !

وكان العرب فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يتخذون شرابهم المسكر من العنب ، والزبيب ، والتمر ، والشعير ، والقمح ، والعسل ، فلما نزل تحريم الخمر فى القرآن اهرقوا كل هذه الاشربة لانها تناولها اسم الخمر ، والخمر رجس بنص القرآن .

ولا يخرج شىء من الاشربة عن حقيقة الخمر وحكمها اذا تضمن مادة الاسكار ، ولو سمى بغير اسمها ، ووصف بغير صفتها ، وقد جاء فى الحديث الشريف ما نصه : « ستشرب امتى من بعدى الخمر يسمونها بغير اسمها يكون عونهم على شربها امراؤهم» رواه نافع بن كيسان الثقفى . ولعل العدول عن اسم « الجعة » الى اسم « مالطا » من هذا النوع الذى اخبر عنه الحديث .

والكتابة التى ينوى وضعها فوق العلامة الخاصة وهى — كما جاء فى رسالتكم — كلمة « مشروب بدون كحول » لا تخبر عن الحقيقة اذ يوجد فى هذا المشروب نسبة مئوية من الكحول اعترفت بها رسالتكم ، مهما كانت النسبة ضئيلة كما ذكرنا .

ففى وضع هذه الكتابة فوق المشروب تغرير بالمسلمين ، وتضليل لهم ، واغراء للمؤمنين بشرب مادة فيها الكحول ، مع انكم صرحتم فى الرسالة انكم تريدون تفادى المغالطة .

وما جاء فى رسالتكم من ان تأثير هذا المشروب وصفاته مطابق لصفات الخل واللبن لا يبرر صنعه ولا يحل ترويجه ، لان الخل لا يكون خلا حلالا الا اذا تجرد من مادة الاسكار وخرج من صفة الخمر، ثم ان الخل ليس معروضا للشراب تستهلك منه الكمية الضخمة التى تستهلك من الجعة .

واما اللبن فانه اذا تغيرت صفته ، وصار حامضا ، ونشأت فيه مادة الاسكار بحيث يسكر كثيره لحق بالخمر وحرم تناوله ، وهكذا بالنسبة لاية مادة اخرى ، حسب القاعدة الشاملة .

وانا لنرجو — مخلصين — حماية جمهور المسلمين من كل شبهة فى طعامهم وشرابهم مما يضعف فيهم الوازع الدينى، ويهدد اجسامهم واخلاقهم بخطر جسمى او نفسى ، وبالتالى يعرض الامة كلها للخطر .

ونشكركم على اهتمامكم بمعرفة راى الشريعة قبل الاقدام على تنفيذ مشروعكم .

والسلام »

رئيس المجلس الاسلامى الأعلى

احمد حمانى

حـــول مشـــروب « مـــالـــطـــا »

عـــلى شنتـير
نائب رئيس المجلس الاسلامى
الاعلى ـ الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم ـ وصلى الله على محمد النبى الكريم

لقد سألنا أناس كثيرون : سألوا الاستاذ أحمد حمانى فى قسنطينة وفى وهران ، وعنابة والجزائر ، وسألونى أنا شخصيا فى قسنطينة أيضـا ، وفى الجـزائر ، وفى البليدة • وجاء آخرون الى مقر المجلس الاسلامى ، وكلمونا ، وآخرون كلموا الوزارة • كما سألنا الكثير تلفونيا وشفاهيا • وجاءتنا رسائل عدة من مواطنين منهم :

من قسنطينة : صالح بوقريسة ـ صالح قطـاف •

من سطيف : رابـح زعبوب ـ محمد سـديرة •

من تيزى وزو : ن • ح •

من البويرة : ولعيـد حـازى •

من بئر الخادم : عبد الحفيظ بوغرارو •

من فوكـة : علـى ملاس •

من أولاد موسى : محمد محمـو

من الجزائر : حميد دريغم • ع• ع صندوق البريد رقم 637 •

من الجزائر : ع• ز• محمد شبـاح •

من بوزريعة : عبد القـادر خضـراوى •

وكنا نجيب السائلين فى كل مرة بما يلى :

1 ـ كانت الشركة الوطنية للمياه المعدنية بعثت لنا رسالـة بانها تنوى انتـاج مشروب تسميـه مالطـا لا يحتوى الا على نسبـة مئوية من الكحول لا تتعدى ـ 0،50 درجة ـ طالبة منا بيان حكم الشريعة الاسلامية فى جواز هذا المشروب •

2 ـ فكان الجواب من الاخ الاستاذ أحمد حماني رئيس المجلس الاسلامي الاعلى : **ما فحواه :** ان هذا المشروب «مالطا» ـ حسبما جاء وصفه في الرسالة المشار اليها ـ هو نوع من الخمر والجعة الاصلية (البيرة) فلا يجوز شرعا صنعه ولا شربه ولا ترويجه ، وذلك لانه يتضمن مادة الاسكار وهي الكحول ولو بنسبة منخفضة ، فعلماء المسلمين وفقهاؤهم اجمعوا أن ما أسكر كثيره فقليله حرام نجس ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (ما أسكر كثيره فقليله حرام) ٠٠٠ الخ ٠

3 ـ ثم بعد أيام سمعنا بل شاهدنا هذا المشروب الجديد (مالطا) في المقاهي مكتوبا عليه : **بدون كحول** ٠ والناس ما زالوا يسألوننا ٠

وعليه فاليكم الجواب النهائي :

ـ اذا كانت الشركة الوطنية للمياه المعدنية التي سألتنا وأجبناها بالحكم الشرعي قد عملت بالفتوى ، وكان هذا المشروب « مالطا » حقا خاليا من مادة الاسكار ، وهي الكحول ، كما كتبوا عليها ـ فانه جائز ٠

ـ اما اذا كان هذا المشروب (مالطا) فيه ولو أقل القليل من الكحول ، يعني ولو أقل من 0،50 درجة ، فانه حرام وحرام ، ونجس ٠

ومع ذلك فاننا نشك في خلو هذا المشروب من الكحول ، فقد جرب الرائج منه بتناول كمية كبيرة فاسكر ، كما اشتهر في الاوساط الشعبية وتواتر ٠

هذا ما ندين به الله تعالى ، وهذا ما نجيب به نحن شرعيا عملا بالاثر المشهور : «أمرت أن أحكم بالظواهر ، والله يتولى السرائر» ٠ فالكمياء للشركة ، أما نحن فلسنا من علماء الكمياء ٠

والســـلام

ش : حديث : ما أسكر ٠٠٠ موجود في كتب الحديث كالترمذي ، وابن حبان وابن حجر ، والذهبي في المهذب ، كما ذكره ابن عرفة ، اهـ من فيض القدير شرح الجامع الصغير ٠ ج 5 ـ ص 420 ٠

توضيـــح

حول برقيتى رابطة العالم الاسلامى بمكة المكـرمة
الى وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية
فيما يخص ثبوت هلال شهر ذى الحجة

وصلتنا صباح يوم السبت 05 ذى الحجة 1396 هـ ، الموافق لـ 1976/11/27 م ، برقية من الشيخ محمد على الحركان ، الامين العام الجديد لرابطة العالم الاسلامى فى مكة المكرمة ، يقول فيها ان شهر ذى الحجة قـد ثبت دخوله شرعا يـوم الثلاثاء 1976/11/23م، وأن الوقوف بعرفات سيكون يوم الاربعاء الموافق لـ 1976/12/01م، وأن عيد الاضحى ، بالتالى ، سيحتفل به فى المملكة العربية السعودية يوم الخميس الموافق لـ 1976/12/02 م ·

وفى مساء نفس اليوم ، جاءتنا برقية ثانية منه أيضا تلغى البرقية الاولى ، وتقول انه ثبت شرعا أن الوقوف بعرفات سيكون يوم الثلاثاء 1976/11/30 م، وعيد الاضحى سيحتفل به يوم الاربعاء 1976/12/01 م ·

ومعلوم أن بلادنا احتفلت بعيد الاضحى المبارك يوم الخميس 1976/12/02 م ، بناء على حساب مرصد جامعة الجزائر ، كما سبق أن أعلنا عن ذلك منذ بداية العام الهجرى على أساس التقويم القمرى الذى تعمل به بلادنا والذى يعتمد فى نفس الوقت الحساب العلمى الذى يحثنا عليه القرآن وامكانية الرؤية حسب مقاصد الشريعـة الاسلامية من الرؤية الشرعية للهلال ، بناء على الفتوى الشهيرة للشيخ محمد رشيد رضا وتوصيات مؤتمرى ماليزيا سنة 1969 م ، والكويت سنة 1973 م ، والفتـوى الصادرة عن المجلس الاسلامى الاعلى فى بلادنا سنة 1972 م · (1)

ان هذا التضارب فى شهادات الرؤية ، كما يتضح ذلك من البرقيتين المذكورتين أعلاه والمتعارضتين تبعا لتعارض الشهود فى شهاداتهم ، كما عرفنـا ذلك سابقا فى بلادنا قبل اقرار التقويم القمرى الموحد ، ليحثنا اليوم على مستوى العالم الاسلامى أكثر من أى وقت مضى على التعجيل بتنفيذ مشروع التقويم القمرى الموحد الملزم للبلـدان الاسلامية كلها حسبما تقرر فى مؤتمر الكويت ·

---

(1) انظر الملف الكامل عن التقويم القمرى فى العدد 21 ، أشهر ، جمادى 2 ـ رجب شعبان 1394 هـ ـ جويلية ـ أوت سبتمبر 1974 م ، من مجلة الاصالة ·

السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية فى المغرب

مرمول محمد الصالح
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة قسنطينة

يسرنى أن أقدم هذا المجهود العلمى المتواضع اليوم فى رحاب جامعة الجزائر ليناقش من طرف أعضاء لجنة التحكيم المحترمين وبحضور هذه النخبة المختارة من مثقفينا ، وانها لمناسبة سعيدة حقا . تلك التى يقيم فيها الانسان حصاد مجهوده مع لجنة مختصة فى الموضوع . وخاصة اذا كان ذلك المجهود فى الحقل العلمى الذى نحن فى أشد الحاجة اليه باعتبارنا بلدا ناشئا يعمل جادا من أجل استرجاع أصالته . ومعرفة ماضيه معرفة علمية موضوعية ، ينشد الحقيقة العلمية ويسعى جاهدا لتطبيقها والعمل بها فى مختلف المجالات.

أ ـ أعضاء لجنة المناقشة :

1 ـ الدكتور رشيد بورويبة (رئيسا)   2 ـ الدكتور لقبال موسى (مقررا)
3 ـ الدكتور رعد سعيد (عضوا)   4 ـ الدكتور سامى سلطان (عضوا)

ب ـ قدم الموضوع للحصول على دكتوراه الدرجة الثالثة فى التاريخ الاسلامى ، وقبل بدرجة جيد جدا .

(1) المقصود هنا ، هو المغرب الاسلامى ، من برقة شرقا ، الى طنجة غربا .

ان اهتماماتى بدراسة أكاديمية فى التاريخ الاسلامى تعود الى عدة سنوات خلت ، حيث تمتد جذورها الى مرحلة التعليم العالى فى جامعة بغداد • اذ بدا لى بأن كثيرا من موضوعات هذا التاريخ لا تزال فى حاجة الى دراسة علمية هادفة ، لا تقتصر على الرواية وجمع المعلومات فقط بل تستند اساسا على التحليل والتعليل ، واستغلال مختلف أنواع المصادر بالاضافة الى عدم اهمال الدراسة الميدانية.وقد اتسعت آفاق هذه الرغبة وشجعها بعض اساتذتى الافاضل • ولكن هذه الامنية الغالية تأخر تحقيقها عدة سنوات وذلك نظرا لانشغالى بمشاكل عدة لكنها وان شغلتنى الى حين فانها لم تثن عزيمتى فى هذا المجال ، وبقيت الفكرة حية نامية الى ان قيض الله الفرصة المناسبة •

لقد تراءت لى أول الامر موضوعات تاريخية كثيرة جديرة بالعناية ، ولكن بعد فرزها وفحصها وقع اختيارى على هذا الموضوع بالرغم من انه صعب وشائك ومع ذلك فضلته على غيره من الموضوعات الاخرى لانه يتناول جانبا اساسيا من تاريخ الفاطميين فى المرحلة المغربية كان فى حاجة الى من يكشف القناع عنه ، ويزيل الغموض المحيط به • فبالرغم من أهميته العلمية فان الدراسات التاريخية الحديثة كانت تلمح اليه دون ان تدرسه وتقف على أبوابه ولا تدخله ، ولذا توكلت على الله وعزمت على بحثه لابرز حقائقه العلمية بقصد معرفة مدى آثاره السلبية والايجابية على بلاد المغرب الاسلامى بالدرجة الاولى • وهو فى مجموعه يتضمن ما يأتى :

أ ـ مقدمة : وهى تشتمل بدورها على عنصرين ، فالاول منهما بنيت فيه أهمية الموضوع ، ومدى قيمته العلمية على اعتبار انه موضوع اساسى ، جدير بأن يفرد بالبحث والدراسة ، لان هذا العمل من شأنه ان يسد ثغرة لا يستهان بها فى تاريخ المغرب الاسلامى عامة ، وفى تاريخ الفاطميين خاصة • أما العنصر الثانى فقد تعرضت فيه الى ذكر أنواع المصادر والمراجع التى اعتمدت عليها ، وتقييم البعض منها • وهى أنواع فمنها كتب التاريخ العام والخاص ، وكتب التراجم والانساب ، وكتب الجغرافيا والرحلات، وكتب العقائد والموسوعات . فبعضها مطبوع ، وبعضها مخطوط، مع الاشارة الى وجود تضارب فى وجهات نظر أصاحبها بين مؤيد للفاطميين ومعارض لهم ، ومحايد•

ب ـ اما المحاور الرئيسية فتتمثل فى خمسة فصول ، اختلفت من حيث أهميتها ، وحجمها . ولكنها تكون فى مجموعها وحدة مترابطة الاجزاء يكمل بعضها البعض وهى التاليـــة :

1 ـ فالاول من هذه الفصول عالجت فيه ظهور الدعوة الاسماعيلية بالمغرب وقيام الخلافة الفاطمية ودور أبى عبد الله الشيعى فيها ، معتمدا فى ذلك على قبيلة كتامة ، ثم عهد عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين الذى وضعت فيه الخطوط العريضة لسياسة الخلافة فى الداخل والخارج ، وظهور الثورات الداخلية وموقف الفاطميين منها ومعاملتهم القاسية لبعض رجال دولتهم .

2 ـ اما الفصل الثانى فهو خاص بسياسة الفاطميين المذهبية ، والتى تتمثـل فى أسلوب المذهب الاسماعيلى بمختلف الطرق من جهة ، ومقاومة غيره من المذاهب التى كانت سائدة بالمغرب من جهة أخرى وما نتج عن تلك السياسة من رد فعل عنيف من طرف معظم السكان .

3 ـ وقد خصصت الفصل الثالث للحديث عن علاقة الفاطميين ببعض القبائل البربرية والمتمثلة خاصة فى كل من كتامة وصنهاجة حليفتى الفاطميين ، وزناتـة خصمهم اللدود ، والسياسة التى سلكوها فى ضرب المغاربة ببعضهم البعض .

4 ـ اما الفصل الرابع ، فيتعلق بنظم الفاطميين من سياسية وادارية ، ومـالية ، وحـربية ، وقضائية باعتبارها أركانا لسياستهم الداخلية ، ومـدى ما أضـافوه من جهد فى هذا المجال الى النظم التى كانت موجودة قبلهم بالمنطقة .

5 ـ اما الفصل الخامس فقد خصصته للحديث عن نتائج السياسة الداخلية ، وما بذله الفاطميون من جهد فى ميدان الثقافة والعمران من جهة وآفاق هذه السياسة التى تتمثل فى اطماعهم التوسعية فى الخارج من جهة أخرى . ثم تأتى بعد هـــذه الفصول خاتمة لخصت فيها الخطوط العريضة للبحث واشرت فيها الى بعض النقاط الجديدة التى حفل بها الموضوع .

ج ـ ويلي هذه المحاور الرئيسية ملاحق وهي على نوعين : مكتـوبة ، ومصـورة ، وتتمثل هذه الاخيرة في ثماني عشرة لوحة لدور الهجرة الاسماعيلية في كل من ايكجان والمهدية ، والمنصورية ، وتمثل جوانب لعدة مؤسسات دينية ، وادارية ، وعسكرية وقد جاءت نتيجة لدراسة ميدانية داخل الجزائر وخارجها • ثم خارطتان احداهما خاصة ببلاد كتامة وتبين أهم المراكز الحضارية في هذه المنطقة • كما توضح اتجـــاه فتوحات الشيعي بها • اما الثانية فانها تبين امتداد النفوذ الفاطمي في المغرب ، وتحدد المراكز الحساسة من ادارية وحضارية ، وأهم الطرق التجارية فهذه الملاحـــق في مجموعها ترتبط ارتباطا عضويا بالبحث •

ان هذا الموضوع ـ أي السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في المغرب ـ من أهم الموضوعات التاريخية لان ظهور خلافة الفاطميين بهذه المنطقة ترتبت عليه عدة نتائج سياسية ومذهبية داخلية وخارجية حيث قضى رجالها على الدويلات التي كانت موجودة ببلاد المغرب ، وابتلعت دولتهم كلا من الاغالبة في رقادة والرستميين في تاهرت ، وبني مدرار بسجلماسة ، ثم الادارسة بفاس ، وعملت على محاربة المذاهب التي كانت موجودة ، واحـلال مـذهبها الاسماعيلي محلها • كمـا عملت على فـرض ايديولوجية سياسية معينة • كل هذا تم في وقت قصير • وبذلك اخضعت البلاد كلها تحـت نفوذها بحد السيف بالرغم من قيام عدة ثورات ضدها من حين الى آخر •

كما أن مطامع الفاطميين التوسعية لم تكن مقتصرة على بلاد المغرب وحدها ، بل وجهوا انظارهم خارجها أيضا الى الاندلس وغيرها • ومن ثم وقع احتكاك حاد بينهم وبين الامـويين في هذه المنطقة ، وبقي الصراع محتدا ما بين الدولتين ، ومثل حـربا سياسية وعسكرية فترة من الزمن الى ان رحل الفاطميون الى مصر وعند ذلك ركـزوا اهتمامهم على المشرق فخف الصراع بينهم وبين الامويين وقل اهتمامهم بالمغرب حتى انفصل عنهم في نهاية النصف الاول من القرن الخامس الهجري •

ومن جهة أخرى فان الحرب كانت سجالا بينهم وبين الـروم في الحـوض الغربي للبحر المتوسط وقد ساعد الفاطميين على شن حروب بحرية ناجحة في هذه الجبهـة

اسطولهم القوى الذى ورثوه عن الاغالبة حيث ألقى الرعب فى أوساط الاساطيل الاوروبية ، ومن ثم ورثوا من جهة أخرى عن الاغالبة صراعهم ضد الروم ، والذى دخل فى طور حاسم منذ أن فتح المسلمون صقلية بقيادة أسد بن الفرات سنة 212هـ/827م ومن ذلك الحين زاد الاحتكاك بين المسلمين والروم · وأخذ طابع الصراع الدينى ، ولما جاء الفاطميون ضاعفوا نشاطهم فى هذا المجال ، وتمكنوا من فتح عدة جزر تابعة للروم فى هذه الجبهة ·

كما أهتم الفاطميون منذ مطلع القرن الرابع الهجرى بتجريد حملات عسكرية على مصر بقصد فتحها لانهم رأوها مركزا استراتيجيا هاما يتوسط العالم الاسلامى بالاضافة الى رصيدها الحضارى ، فبالسيطرة عليها يتمكنون من تعميم دعوتهم ، وبسط نفوذهم على الامصار الاسلامية الاخرى فى بلاد المشرق ثم قصد بغداد للقضاء على الخلافة العباسية أخيرا · غير أنهم نجحوا فى فتح مصر · ومدوا نفوذهم على الشام والحجاز بعد ذلك ، بالاضافة الى بلاد اليمن من قبل ، وفشلوا فى السيطرة الفعلية على بغداد والقضاء على الخلافة العباسية وزعامة العالم الاسلامى ·

ان صراعهم مع الاوروبيين تسبب فى قيام عدة ثورات داخلية ضدهم بتحريض من هؤلاء الخصوم اخمدوها بكل عنف وقسوة · وخوفهم من الروم ، وحرصهم على تقوية جبهتهم الداخلية ضدهم جعلهم يسلكون فى معظم الاحيان سياسة قاسية مع سكان صقلية خاصة باعتبارها نقطة الاحتكاك الاولى مع الروم الامر الذى أدى الى قيام عدة ثورات بها نتيجة ضغط ولاتها وتعسفهم ، أو بتحريض من الروم · وحرصهم الشديد على فتح مصر جعلهم يولون اهتماما كبيرا بالناحية العسكرية · وهذا كلفهم نفقات مالية كبيرة وتجنيد جيوش جرارة · ولهذه الامور كلها تأثير مباشر على مالية المغرب وسكانه فالجنود من المغاربة والاموال اللازمة للمجهود العسكرى وغيره كانوا يجبونها منهم أيضا بطرق مختلفة ، وبالتالى فهم الذين مولوا حروب الفاطميين الداخلية والخارجية بالمال والرجال ·

ومما تقدم يتجلى لنا أن هذا الموضوع على غاية من الاهمية ولا نكون مبالغين اذا ما قلنا بأن الباحث فى أى موضوع من تاريخ الفاطميين لا يمكنه بأى حال من الاحوال

ان يتجاهل موضوع السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية فى المرحلة المغربية التى هى الاساس فى نشأتها وتطورها ، واتساع نفوذها • وان ما أضافته من عناصر ايجابية الى الحضارة العربية الاسلامية انما يعود الفضل فيه الى هذه المرحلة التى توفر فيها للفاطميين عنصر المال والرجال • وبفضلها شقوا طريقهم الى اكتساب مزيد مـــن الانتصارات • وحتى القاهرة عاصمتهم الجديدة التى استأثرت باهتمام الباحثين قديما وحديثا فان الفضل فى بنائها يعود الى المرحلة المغربية •

وبناء على ما سبق فاننا نعتقد بأن هذا البحث جديد فى معظم جوانبه وخاصة طريقة معالجته وجميع عناصره حديثة وطريفة وهادفة • وهى فى نفس الوقت تكون فيما بينها وحدة متماسكة ، حيث ان كل عنصر فيه له صلـة تأثـير وتـأثر بغيره • فمثلا قيام الثورات الداخلية كان فى حقيقة أمره رجعا ورد فعل لسياسة القوة والتسلط • ونظام الادارة له صلة وثقى بنظام الخلافة اذ كان الغرض منه تمكين سلطة الخليفـة بالدرجة الاولى ، والنظام القضائى انما وضع فى حقيقة أمره ليقوى نفـــوذ الخليفة • وكذلك النظام المالى فالقصد منه تلبية متطلبات مصاريف الدولة وتأمين حاجياتها • وهو فى نفس الوقت مرتبط ارتباطا مباشرا بالنظام الحربى • وهكذا فهذه النقط وغيرها التى حفل بها البحث كلها حديثة تم اكتشافها لاول مرة • ويمكن تلخيص أبرز النتائج التى توصلنا اليها فيما يأتى :

1 ـ لقد عمل الفاطميون بجد على بعثرة صفوف المغاربة وبذر الشقاق والفرقة بينهم كى يبقوا مشغولين ببعضهم ، وينسوا مشاكلهم الداخلية ، ونجحوا فعلا فى هذه السياسة الى أبعد حد وسيطروا على الاوضاع بواسطة الدس والكيد فى غالـب الاحيان ، وحققوا أهدافهم السياسية والمذهبية •

2 ـ وبما أنهم اتخذوا من المرحلة المغربية ، وسيطة لتحقيق مطامح توسعيـــة خارجها فانهم لم يهتموا بحل المشاكل الداخلية واصلاح الفاسد منها ، وتحقيـــق مشاريع اقتصادية وحضارية ذات قيمة وأهمية تعود فائدتها على الرعية • ولكنهم اهتموا اهتماما زائدا بتنشيط بعض المؤسسات التى تخدم مصالحهم ، وتمكن نفوذهم، وذلك مثل بيت المال الذى نوعوا من موارده وتعسفوا فى فرض الضرائب وجمعهـا

فتوفرت لديهم الاموال الطائلة رغم قساوة ظروف المغرب وتدهور أوضاعه فى عهدهم. واستعملوا المال سلاحا من الاسلحة لتحقيق أهدافهم السياسية والعسكرية ، كما اهتموا بعنصر الجيش واستغلوه الى ابعد حد لبسط نفوذهم ، واغدقوا المال والهبات الكثيرة على رجاله ليكونوا طوع ارادتهم .

3 ـ ومن جهة أخرى فانهم حينما انتقلوا الى مصر أخذوا معهم اموالهم ، وأهم الاطارات الادارية والعسكرية . كما أخذوا معهم قسما هاما من اسطول المغرب واهتموا بعد ذلك بأمور المشرق ولا يخفى ما لهذه السياسة الخرقاء من آثار سلبية على المغرب الاسلامى . فبالاضافة الى أنهم تركوا السكان مشتتين يعادى بعضهم بعضا أكثر من السابق فانهم استفرغوا المنطقة من عناصر قوتها المادية والبشرية . ومن هنا يمكن القول بأن أوضاع المغرب السيئة ساعدت على نجاح دعوتهم وقيام خلافتهم . ولكنهم حينما رحلوا الى مصر تركوه على حالة أسوأ من التى وجدوه عليها .

4 ـ ولم تكن لقيام الخلافة الفاطمية آثار وانعكاسات سيئة على بلاد المغرب الاسلامى فقط بل له آثار سلبية على العالم الاسلامى أيضا ، حيث أدى الى زيادة تشتيت شمل المسلمين وتفرق كلمتهم . وذلك انه بمجرد قيام خلافتهم فى رقادة ادعوا بأنهم الخلفاء الحقيقيون دون سواهم ، وفى نفس الوقت اعلنوا الحرب على كل دولة اسلامية لا تعترف لهم بهذا الحق ، وحذا حذوهم فى هذا المجال بعض المنشقين : وفى مقدمتهم عبد الرحمن الناصر بالاندلس ومن ثم تصدعت الوحدة الدينية للعالم الاسلامى وتعدد خلفاؤه . ومسؤولية هذا التصدع يتحملها الفاطميون وحدهم لان قيام خلافتهم زاد من تشتت شمل المسلمين فى وقت كانوا فى أشد الحاجة الى تضامن وتعاون أكثر من السابق . وانغمس الحكام المسلمون بعد ذلك فى خلافات داخلية ، سياسية ومذهبية ، واهتموا بتجريد الحملات العسكرية ضد بعضهم البعض بدل أن يوجهوها ضد أعدائهم فى الخارج . مما أدى الى زيادة ضعفهم وتفكك وحدتهم وانشغالهم عن القيام بانجازات داخلية تعود فائدتها على الرعية .

ويتضح لنا مما سبق ان قيام الخلافة الفاطمية كانت له آثار سلبية على منطقة المغرب وعلى العالم الاسلامى كما ذكرنا ولكن منطقة المغرب كانت أكثر حساسية بهذا الحدث

التاريخي وذلك نظرا لما امتاز به عهد هذه الخلافة من اضطرابات وفتن أدت في غالب الاحيان الى كثرة الثورات والحروب • وسقوط العديد من الضحايا في الميدان واختلال الامن • وتدمير المؤسسات واتلاف المحصولات الزراعية ، وتعطل الاعمال •

5 ـ ولكن بالرغم مما تقدم فللفاطميين بعض الاعمال الايجابية والمواقف الحميدة في المرحلة المغربية وذلك مثل وقوفهم بكل حزم وجدية في مقاومة الروم في الحوض الغربي للبحر المتوسط حتى أجبروهم على تقديم الخضوع والطاعة كما قاموا ببعض الانجازات العمرانية وان أنشئت لاغراض عسكرية بالدرجة الاولى الا انها لعبت دورا ايجابيا في عهدهم وما بعده • وتعتبر من المراكز الحضارية للمغرب الاسلامي • كما اهتموا بأسباب الثقافة وان انحصر ذلك في الثقافة المذهبية ومع هذا فانهم ساهموا في تنشيط وسائل العلم والمعرفة • ولم يهملوا هذا الجانب رغم ظروفهم السياسية الصعبة • ونبغ في عهدهم شخصيات علمية لها مكانتها في كثير من فروع العلم ، ونشطت حركة التأليف والتصنيف ونافسهم خصومهم في هذا المجال فنشأت مناظرات وجدل ساعدت جميعها على بقاء جذوة العلم حية نامية •

وهناك موضوعات أخرى من تاريخ الفاطميين في المرحلة المغربية لها قيمتها العلمية وهي جديرة بأن تكون أبحاثا مستقلة عسانا أن نوفق في المستقبل ان شاء الله الى بحثها بتوسع أو يوفق غيرنا الى دراستها • وذلك مثل سياستهم الخارجية • ونشاط الاسطول المغربي في عهدهم وعلاقتهم بالروم • فبالرغم من أننا تطرقنا الى هذا الموضوع الاخير الا أننا أشرنا اليه اشارة عابرة • وذلك بقدر ما له من صلة تاثير وتأثر بسياستهم الداخلية التي هي موضوع بحثنا •

ولا ندعي أن هذا البحث كامل من جميع جوانبه وخاصة ما يتعلق بالطباعة فأعمال الانسان مهما كانت لا تخلو من نقص • ويعلم الله مدى الصعوبات التي عانيناها من أجله وفي مقدمتها قلة المصادر والمراجع الكافية وصعوبة الحصول عليها •

واننا لمدينون بالشكر والتقدير لكل من مد لنا يد العون والمساعدة داخل الجزائر وخارجها من أجل انجاز هذا البحث ، وفي مقدمة الجميع الاستاذ المشرف الدكتور

لقبال موسى ، الذى بذل معنا جهودا مضنية وضحى بوقت ثمين من أجلنا فله فضل كبير فى هذا المجال وجزاه الله على ذلك خير الجزاء ٠

ولا ننسى أيضا ـ بصفة خاصة ـ فضل المسؤولين على مكتبات جامعة قسنطينة ، وجامعة الجزائر ، والمكتبة الوطنية على ما قدموه لنا من عون ومساعدة حيث أمدونا بكل ما احتجنا اليه من مصادر ومراجع ٠

وللمشرفين على المعهد القومى للآثار ، ودار الكتب القومية بتونس جزيل الشكر على مساعدتهم السخية ٠

وأخيرا نرجو أن نكون قد قمنا ، ولو ببعض الواجب العلمى ، وأضفنا بذرة صالحة الى مكتبة تاريخ المغرب الاسلامى ، فتلك أغلى أمانينا من هذا العمل العلمى المتواضع وعلى الله قصد السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل ٠ وشكرا للجميع على الاستماع وحسن الانتباه ٠

حول الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى

تعلن وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية أن الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى سينعقد من السابع عشر الى السادس والعشرين من صفر 1397 هـ الموافق لـ : السادس الى الخامس عشر (06 ــ 15) فبراير 1977 ، فى العاصمة الرستمية الثانية ، وعروس الواحات : ورجلان صدراته (ورقلة) .

وهو لطلبة وطالبات الجامعات وتلاميذ وتلميذات السنتين النهائيتين من التعليم الثانوى ، وسيسمح لغير الطلبة ممن هم فى المستوى المذكور بالمشاركة فى حدود الامكان .

وقد دعيت الى هذا الملتقى شخصيات جامعية ورجال بحث ومن المتزعمات والمناصرات وأيضا من المعارضات لما يسمى بحركة تحرر المرأة ، ومن المهتمين والمهتمات بموضوع المرأة عموما من العالم الاسلامى وغيره .

وتتحمل الوزارة ، فى اطار الملتقى ، نفقات الاقامة والتنقل داخل التراب الوطنى .

ويطلب من المشاركين اسهام رمزى قدره خمسون دينارا جزائريا ، ويعفى منه الطلبة الآتون من خارج الجزائر ، جزائريين كانوا أو غيرهم ، والساكنون والساكنات فى ورقلة .

وترسل طلبات المشاركة الى ادارة البحوث الاسلامية والملتقيات ، المديرية الفرعية للملتقيات ، وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، 4 ، نهج تيمقاد ، حيدرة ــ الجزائر ، مع ذكر كلمة « الملتقى » على زاوية الغلاف .

وعلى كل مترشح أن يبعث مع طلبة شهادتين : دراسية وطبية ، وظرفا (ذا مقياس 16×21) يحمل عنوانه وطابع بريد .

وآخر أجل لقبول طلبات المشاركة هو 18 ذى الحجة 1396 هـ ، (10 ديسمبر 1976 م) عند الارسال ، ويكون ختم البريد شاهدا على ذلك .

هذا وسيكون جدول الاعمال كالآتى :

1) مساهمة الرستميين فى حضارة الاسلام وفكره ،
2) الاسلام فى افريقيا اليوم ،
3) المرأة بعد عام المرأة ...
4) هل بطون الارض نعمة أو نقمة ؟

CURIEUSES CREATURES ET ETRES ETRANGES

par Zakarya El-Qazouini

Mise au point à propos d'un article publié par « Le Monde » du 13-10-1976 sur la saisie de certaines publications des « Editions des Femmes » françaises exposées au pavillon panafricain de la 13^{me} Foire Internationale d'Alger.

Le journal français « Le Monde » du 13-10-1976 a publié, sous la signature de son correspondant à Alger, Monsieur Paul Balta, un article selon lequel des personnes du Ministère de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses seraient intervenues pour saisir certaines publications des « Editions des Femmes » françaises qui étaient exposées au pavillon panafricain de la treizième Foire Internationale d'Alger, sous prétexte qu'elle « ne sont pas conformes à l'enseignement islamique ». (1) (*voir photocopie texte article*).

Le Ministère, tout en avouant franchement son ignorance totale de l'existence de tels ouvrages et revues de dépravation et de dissolution des mœurs à la foire et, partant, sa non-intervention qu'il regrette — car s'il l'avait appris, il serait effectivement intervenu — et tout en remerciant ceux qui l'ont fait auprès de la direction de la foire et ont enlevé ces publications, car persuadé qu'un tel spectacle ne fait pas partie du progrès et de la civilisation et n'a absolument rien à voir avec la Foire Panafricaine de développement, s'étonne que la Direction de la foire ait autorisé une telle participation, avec des publications de ce genre, à une foire consacrée au développement. Pauvre Afrique si elle a besoin de cette « dimension » dans son aspiration au développement !

Les revues spécialisées dans la perversion sexuelle et la dissolution des mœurs sont-elles considérées comme des facteurs ou des aspects de développement ? Les choses qui incitent à la rébellion contre la famille et favorisent la dislocation familiale et l'expansion de la dissolution des mœurs seraient-elles devenues un nouveau concept de développement ?

(1) Elles ont été autorisées de nouveau à exposer leurs publications dans leur stand, comme le confirme le même quotidien dans sa livraison du 15 octobre 1976.

Le journal « Le Monde » donne l'impression de vouloir se moquer du Darak-Al-Watani (Gendarmerie Nationale), du Ministère de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses et de l'Algérie toute entière, ainsi que de ses propres lecteurs, lorsqu'il donne les deux titres suivants : « Crie moins fort, les voisins vont entendre ! » et « Oh, maman, baise-moi encore ! » comme exemples des publications saisies, et tente, sur un ton de surprise ironique, de faire croire aux lecteurs que le premier titre « concerne les femmes battues » et que le second « traite des rapports de l'enfant et de la mère » !

Or, comme on le voit, le premier titre est criant, et nous ne pensons pas qu'il ait besoin d'être expliqué !

Quant à l'expression *baise-moi,* dans le deuxième titre, elle ne se dit qu'entre des époux ou des amants, en France, d'après ce que nous savons des subtilités de la langue française, de l'usage courant en France et de ce que sait quiconque a la moindre connaissance du français et de l'usage courant en France ; car aucun enfant en France ni de Navarre ni de la très vaste « Francophonie » ne dit à sa mère « baise-moi » pour « embrasse-moi ». Il emploie cette dernière expression. Le mot « baiser », en effet, lorsqu'il est employé d'une manière absolue, sans y adjoindre de nom d'un organe donné tels la main, la joue ou les pieds, par exemple, n'est compris que dans le sens qui lui est donné et connu dans le monde entier...

LES « EDITIONS DES FEMMES » SONT FINALEMENT AUTORISÉES A EXPOSER A LA FOIRE D'ALGER

(De notre correspondant.)

Alger. — Après une longue négociation, les Editions des femmes, organisation du M.L.F., se sont vu attribuer un nouveau stand à la Foire internationale d'Alger (« le Monde » du 13 octobre). Elles ont été autorisées à exposer des affiches représentant cinq de leurs livres en vente en Algérie et des panneaux expliquant leurs activités. Elles peuvent également distribuer leur catalogue. Elles espéraient obtenir, ce jeudi 14 octobre, l'autorisation d'exposer une partie des ouvrages contenus dans le stock que la police leur a rendu. Les représentantes des Editions des femmes se déclarent satisfaites de la solution intervenue, leur stand, au pavillon panafricain, connaissant un succès certain. — P. B.

(Le Monde, 15 octobre 1976)

Algérie

Les « ÉDITIONS DES FEMMES » INTERDITES A LA FOIRE INTERNATIONALE D'ALGER

(De notre correspondant.)

Alger. — Les Editions des femmes avaient loué un stand au pavillon panafricain de la Foire internationale d'Alger. Elles s'y étaient installées vendredi dernier avec leurs publications, leur catalogue et leur journal, *le Quotidien des femmes.*

A leur grande surprise, samedi, à la réouverture de la Foire, le stand avait été vidé ; renseignements pris, « des personnes du ministère des Habous » (Affaires religieuses) avaient jugé certains titres des ouvrages publiés non conformes à l'enseignement islamique. Il semble que quelques titres, dont « *Crie moins fort, les voisins vont entendre* », qui concerne les femmes battues, et « *Oh, maman baise-moi encore !* », qui traite des rapports de l'enfant et de la mère, aient été pris dans un sens égrillard.

Les représentantes des Editions des femmes s'étonnent : *Nous ne comprenons pas ce qui arrive. Nous avions lu la charte nationale ; nous avions été frappées par les options socialistes de l'Algérie et par les passages concernant la femme. Nous pensions mener le même combat.* »

Les organisateurs de la Foire, embarrassés par l'offensive des Affaires religieuses, font remarquer que certains ouvrages ne correspondent pas aux options de l'Algérie. Pourtant, plusieurs d'entre eux sont très officiellement en vente dans le pays. Les représentantes des Editions des femmes étaient prêtes à n'exposer que ces derniers titres. Les tractations se sont poursuivies pendant plusieurs jours, mais, finalement, leurs ouvrages se sont retrouvés au poste de gendarmerie de la Foire, et leur stand a été fermé, puis attribué à la revue *Révolution et Travail.*

P. B.

★ Editions des femmes, 2, rue de la Roquette, Paris (11 F).

(Le Monde, 13 octobre 1976)